[illegible]

[illegible]

خاتم النبيين

صلى الله عليه وسلم

القسم الأول (العهد المكي)

تأليف

صاحب الفضيلة الأستاذ الشيخ محمد أبو زهرة

تغمده الله برحمته

عني بطبعه خادم العلم الشريف

عبد الله بن إبراهيم الأنصاري

طبع على نفقة صاحب السمو

الشيخ خليفة بن حمد آل ثاني

أمير دولة قطر

المؤتمر العالمي الثالث للسيرة والسنة النبوية

الدوحة - محرم ١٤٠٠ هـ

خاتم النبيين

صلى الله عليه وسلم

القسم الأول (العهد المكي)

تأليف

صاحب الفضيلة الأستاذ الشيخ محمد أبو زهرة

تغمده الله برحمته

عني بهذه الطبعة خادم العلم الشريف

عبد الله بن إبراهيم الأنصاري

طبع على نفقة صاحب السمو

الشيخ خليفة بن حمد آل ثاني

أمير دولة قطر

بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم

اللهم لك الحمد، أسبغت علينا نعمك ظاهرة وباطنة . نحمدك إذ هديتنا للإسلام، وجعلتنا من أمة سيد الأنام محمد عليه أفضل الصلاة وأزكى السلام، لك الحمد يا من لا نحصي نعمه . رضينا بك رباً، وبالإسلام ديناً ؛ وبنبيك محمد صلى الله عليه وسلم نبياً ورسولا ، وبالقرآن إماماً وقدوة ومعلماً، فسبحانك تباركت وتعاليت، ونصلي ونسلم على رسول الإسلام ، ومتلقى الوحي القرآني من الملك العلام ؛ أدبه ربه فأحسن تأديبه، وعلمه فأحسن تعليمه . وفوّقه على البرية بالخلق الكامل، ورضي الله عن آله الكرام وأصحابه الأئمة الأعلام، وعلى التابعين لهم بالعمل الصالح . والقدوة المثلى برسول البشرية .

وبعد :

فقد أرسل الله الرسل مبشرين ومنذرين ، لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل ؛ وختم الله هذه السلسلة المباركة من الأنبياء والمرسلين بنبيه ومصطفاه محمد صلى الله عليه وسلم ، جعل دينه خاتم الرسالات السماوية، وكلمةَ الله الأخيرة للبشرية .

وهذه الميزة التي ميز الله بها نبيه محمداً صلى الله عليه وسلم على سائر الأنبياء ، ودينَه على سائر الأديان ، إنما اقتضاها أمران هامان ، أحدهما يتعلق بشخص النبي محمد صلى الله عليه وسلم ، والآخر بدعوته ورسالته، وهي الإسلام .

أما الأمر الأول ، فهو أن محمداً رسول الله صلوات الله وسلامه عليه ، جمع الفضائل كلها ، والمكارم جميعها ، والمحامد بأكملها . إليه انتهى الخير ، وفيه تأصل البر ، وعلى يديه فاض النور وأشرقت الهداية ، وبه أنقذ الله البشرية من هلاك محقق ، وأخرجها من عبادة العباد إلى عبادة الله ، ومن ضيق الدنيا إلى سعتها ، ومن جور الطواغيت إلى عدل الإسلام .

ومن أجل ذلك كانت سيرته أجملَ السيَر ، وصفاته أنبل الصفات ، وأخلاقه أعظم الأخلاق ، وحياته أروع حياة وأوفاها وأشملها .

إن التاريخ الإنساني على وجه الأرض ، لم يعرف نبياً من الأنبياء ، ولا عظيماً من العظماء ، ولا زعيماً من الزعماء ، ولا مصلحاً من المصلحين ، استوعب في صفاته الذاتية ، والعقلية ، والنفسية ، والخلقية ، والدينية ، والروحية والاجتماعية ، والإدارية ، والعسكرية ، والتربوية ما استوعبته شخصية النبي محمد صلى الله عليه وسلم ، وما اختصه الله به من الكمالات التي تشرق في كل جانب من جوانبها ، وتضيء في كل لمحة من لمحاتها . حتى استحق أن يصفه الله عز وجل بالنور في مثل قوله تعالى :

﴿ قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين ﴾(1) .

ولا عجب في ذلك ، فقد أرسله الله للناس كافة ، وقدوة صالحة لهم . ورحمة للعالمين . وهو القائل عن نفسه ﴿ إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق ﴾.

ولو جاز لنا أن نسأل : ما الذي جعل محمداً صلى الله عليه وسلم على هذا النحو من الكمال ، الذي لم يتيسر لغيره ؟

لقادنا الجواب إلى الأمر الثاني الذي سبقت الإشارة إليه ، من أن دينه خاتم الأديان السماوية ، ودعانا أن نتحدث بإيجاز عن السبب في أن الله ختم النبوات بنبوته ، ووحي السماء برسالته صلى الله عليه وسلم .

---

(1) المائدة / 15 .

لقد أكمل الله دينه بالإسلام ، وأتم به نعمته على الناس ، فاستغنوا به عما سواه ، ولم يعودوا بعده بحاجة إلى دين جديد ، أو شريعة جديدة . فقد اشتمل الإسلام على كل ما يحتاج إليه الناس من تعاليمَ وتشريعات في جوانب الحياة جميعاً ، في العقائد والعبادات والأخلاق والمعاملات ، وغير ذلك من رقائق ومواعظ وقِصَص للأنبياء مع أممهم ، ودعوة إلى النظر والتفكير والاعتبار . والاستدلال على وجود الله ووحدانيته والاستفادة من كل ذلك في صلاح الحياة، وعمران الكون، وتزكية النفوس، والتوجه إلى عبادة الله، وإفراده بالطاعة والدعاء والإنابة . بحيث يكتفي الناس بالإسلام ، ولا يتطلعون إلى دين آخر يلتمسون منه الهداية ، أو يبحثون عن مبدأ غريب، وفكر مستورد، وقانون دخيل ، بدعوى استكمال نقص ، أو استدراك على حكم ، أونحو ذلك من مزاعمَ باطلة ، لا تصدر إلاعن جاهل أو كافر أومُغْرِض خبيث النية ، أو مسيء لفهم هذا الدين العظيم ؛ واقرأ معي قوله سبحانه وتعالى :

﴿ اليوم أكملت لكم دينكم، وأتممت عليكم نعمتي، ورضيت لكم الإسلام ديناً ﴾ (١).

وقوله تعالى :

﴿ما فرطنا في الكتاب من شيء﴾(٢).

ولما كان الإسلام بهذه المثابة ، فقد تكفل الله بحفظه ، وضمن بقاءه وسلامته من التحريف والتبديل الذي أصاب الأديان قبله ، وصدق الله العظيم حيث يقول :

﴿ إنا نحن نزلنا الذكر، وإنا له لحافظون ﴾ (٣).

وذلك ، لأنه دين البشرية الخالد ، الصالح لكل زمان ومكان ، يهدي به الله من اتبع رضوانه سبل السلام ، ويخرجهم من الظلمات إلى النور بإذنه ، ويهديهم إلى صراط مستقيم . (ومن يبتغ غير الإسلام ديناً فلن يقبل منه) (٤).

---

(١) المائدة / ٥ ، (٢) الحجر / ٩ ، (٣) الانعام /٣٨ (٤) آل عمران / ٨٤ .

وهنا نعود فنقول :

إن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، منذ أن بعثه الله عز وجل للناس نبياً ورسولا ، كانت حياته صورة صادقة للدين الذي جاء به من عند الله ، وما أجمل ما وصفته به السيدة عائشة رضي الله عنها، حينما سئلت عنه ، فقالت : ﴿ كان خلقه القرآن ﴾.

أي أنه كان قرآناً حياً متحركاً . ملتزماً بأحكامه ، عاملا بتوجيهاته ، متبعاً لهديه ، ومنتهياً عند نهيه . يحل حلاله ويحرم حرامه ، يقف عند حدوده ، ويحتكم إلى شريعته ويحكم بها ، يدعو إلى نوره ، ويجاهد لإعلاء كلمته ، وإرساء قواعده ، وتثبيت أركانه : ومن أجل ذلك ، قال الله فيه :

﴿لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر ، وذكر الله كثيراً﴾(١) .

فهو القدوة إلى الخير والأسوة بين الناس إلى رضوان الله .

وأيما دعوة من الدعوات ، لا يتأتى لها النجاح والإنتشار ، ما لم يكن لها من صاحبها والداعين إليها قدوات صالحة في التطبيق العملي لتلك الدعوة في أخلاقهم وسلوكهم ومواقفهم في الحياة .

ولقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم المثل الأعلى في ذلك . فقد صنعه الله على عينه ، وأدبه فأحسن تأديبه، وأعده لحمل رسالته ، وتبليغ دعوته ، والجهاد في سبيل الدين ، وإخلاص العبودية لرب العالمين .

وحسبه من الثناء والتكريم ما قال فيه العزيز الحكيم :

﴿وإنك لعلى خلق عظيم﴾(٢) .

وقوله :

﴿وإنك لتهدي إلى صراط مستقيم﴾(٣) .

---

(١) الاحزاب / ٢١ ، (٢) القلم / ٤ ، (٣) الشورى /٥٣

أجل ... فقد أرسله الله للناس بشيراً ونذيراً ، وداعيــاً إلى الله بإذنه وسراجاً منيراً .

ومن أجل ذلك ، فقد جعل الله طاعة الرسول صلى الله عليه وسلم طاعة له سبحانه ، فقال :

﴿ ومن يطع الرسول فقد أطاع الله ﴾ للتحذير (١) .

وربط بين محبته تعالى وصحة اتباع رسوله صلى الله عليه وسلم فقال :

﴿ قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله ﴾(٢) .

وأناط الفوز والفلاح بطاعته وطاعة رسوله فقال :

﴿ ومن يطع الله ورسوله فقد فاز فوزاً عظيماً ﴾ (٣) .

وأعلن أنه خاتم الأنبياء والمرسلين ، فقال :

﴿ ما كان محمد أبا أحد من رجالكم ، ولكن رسول الله وخاتم النبيين ﴾(٤).

إن سيرة النبي صلى الله عليه وسلم العطِرة ، سِجلٌ حافل بالمآثر ، مليء بالمكرمات ، مفعم بالفضائل ؛ إنه كنز المواعظ والعِبَر ، ومدخَر الدروس التي تنبض بالنور ، ترشد إلى الخير ، وتوقظ الهمم ، وتشحذ العزائم ، وتُذكي الإيمان ، وترسم الطريق إلى مرضاة الله ، وتضع المعالم أمام الدعاة والمصلحين . وتُجسِّم القيم العليا والمبادىء الرفيعة في شخص النبي صلى الله عليه وسلم واقعاً محسوساً ، وحياةً كريمة فاضلة . سار على هديها الصحابة الأجلاء ، ومن اتبعهم بإحسان . فاستنارت العقول ، وصلحت القلوب ، وزكت النفوس ، واستقامت الأخلاق ، وكانوا بحق (خير أمة أخرجت للناس).

ولقد كان السلف الصالح يعلمون أبناءهم سيرة المصطفى صلى الله عليه وسلم كما يعلمونهم السورة من القرآن ، لكي ينشأوا على الفضائل ، وينهضوا إلى المكارم ، ويطمحوا إلى معالي الأمور ، ويتخذوا من الرسول

---

(١) النساء / ٨٠ (٢) آل عمران / ٣١ (٣) الاحزاب / ٧١
(٤) الاحزاب / ٤٠

صلى الله عليه وسلم مثلا أعلى، ومناراً شامخاً، وقدوة صالحة . ينالون باتباعه واقتفاء أثره والعمل بسنته خيرَ الدنيا وسعادة الآخرة .

ولعل هذا الكتاب (خاتم النبيين) الذي بين أيدينا، من خير ما يعرفنا بسيرة النبي صلوات الله وسلامه عليه ، بطريقة جمعت بين الرواية والدراية ، وبين السرد والتحليل ، وإبراز ما ينبغي أن يقف عليه القارىء، وينتفع منه بأسلوب رصين جذاب ، ونظرات عميقة، نفاذة إلى اللباب . تكشف مواطن العظمة في شخصيته صلى الله عليه وسلم ، وتذب عن مقامه ، وترد التهمة المغرضة عنه إلى صدور أعدائه ، وتحيط سيرته بسياج من المحبة والغيرة والفهم العميق والدعوة الصادقة إلى التأسي والاقتداء .

وقد عُرِف مؤلف هذا الكتاب وهو المرحوم الشيخ محمد أبو زهرة ـ بعلمه الغزير ، وعقله المستنير ، وتمسكه بالحق ، وثباته عليه ، وتحريه الدقة فيما يقول ويكتب .

ومؤلفاته الإسلامية الكثيرة تشهد على ذلك ـ وحسبه تراجم الأئمة الكبار الذين أفرد لكل واحد منهم كتاباً ـ ليرتفع بها إلى مصاف العلماء الأفذاذ والجهابذة الأعلام ، الذين أعدهم الله عز وجل لينفوا عن الدين تحريف الغالين، وانتحال المبطلين ، وتأويل الجاهلين ، فيكون الواحد منهم أمة وحده .

لقد تخرج على يديه الآلاف من طلبة العلم في كل مكان ، وكان مدرسة لها صبغتها وملامحها الخاصة . وكان في مواقفه المأثورة عنه مثالا يحتذى في الشجاعة ، وإقامة الحجة ، ومناصرة الحق ، والثبات أمام خصوم الدين ، لا يخشى في الله لومة لائم .

فرحم الله الشيخ الإمام محمد أبو زهرة ، وأجزل له المثوبة ، وأنزله في عليين ، كفاء ما قدم للإسلام من خدمات جلى ، وجزاء ما انتفع الناس بعلمه ، الذي بقي له بعد رحيله عن الدنيا صدقة جارية ، يصل إليه ثوابها إن شاء الله ، والله لا يضيع أجر المحسنين .

والحق ، إن إعادة طبع هذا الكتاب مأثرة كريمة وثمرة طيبة من ثمار مؤتمر السيرة والسنة النبوية المنعقد في الدوحة ، في أوائل المحرم لعام ١٤٠٠ هـ بإذن الله تعالى لهجرة النبي صلى الله عليه وسلم وقد كان المؤيد لإعادة طبعه صاحب السمو الشيخ خليفة بن حمد آل ثاني أمير دولة قطر حفظه الله وأيده بصالح الأعمال .

وقد أقدمنا على طبعه ـ مستعينين بالله ـ من أجل تعميم فائدته ، بتوزيعه على المستحقين ، والحث على قراءته والإحاطة بسيرة المصطفى وتوطيد العزم على إحياء سنته ، وتحكيم شريعته ، والعودة إلى منهجه القويم وصراطه المستقيم . لكي تسترجع هذه الأمة مجدها ، ويمكن الله لها دينها ، ويهديها رشدها . وهو سبحانه نعم المولى ونعم النصير .

ولا يسعنا في الختام إلا أن ندعو الله أن يوحد هذه الأمة تحت راية محمد ابن عبد الله صلوات الله وسلامه عليه ، وأن يوفق ولاتها إلى الحكم بكتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم وتحكيم شريعته ليكون لهم النصر المبين

وأن يحشرنا يوم القيامة في زمرة الحبيب المصطفى صلوات الله وسلامه عليه ﴿يوم لا يخزي الله النبي والذين آمنوا معه ، نورهم يسعى بين أيديهم وبأيمانهم ، يقولون : ربنا أتمم لنا نورنا واغفر لنا إنك على كل شيء قدير﴾(١) .

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه ـ وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين .

١ /٤/١٣٩٩ هـ
١٩٧٩/٣/٢٧ م

عبد الله بن إبراهيم الأنصاري
مدير الشئون الدينية

---

(١) التحريم / ٨ .

بسم الله الرحمن الرحيم

محمد رسول الله وخاتم النبيين

لله الحمد على ما أنعم ، وله الفضل فيما أكرم ، اذ أكمل الدين ، وأتم الرسالة الالهية ، بارسال محمد صلى الله تعالى عليه وسلم بالهدى ودين الحق ، ليظهره على الدين كله ؛ فأكمل الهداية ،وأبلغ الغاية ، وكشف المحجة ، وبين الجادة ، ورفع راية الاسلام القوي العزيز المكين ، وحمّل الحواريين من أصحابه ما حمّلهم الله ، فقاموا بواجب التبليغ ، وأدوا الأمانة التى حَمَلوها ، فكانوا مناراً مقتبساً من نوره ؛ فرضي عنهم ، ورحم الانسانية بما اقتبسوا من معاني الرسالة المحمدية ٠

يا رسول الله:

ان الله خلقك بشراً سوياً ، ولكنك فوق سائر البشر ؛ وآثارُك التى حملتْها الأجيال من بعدك فوق القدر ، ونحن معشر المتبعين لك ان كان فينا شرف هذا الاتباع انما ندرك بالتصوير أمثالَنا ٠ فمن خواطرنا ومنازع نفوسنا نتعرف نفوس غيرنا ٠ ونحكم على أحوالهم ،وان حاولنا أن ندرك من هو أعلى منا ، فانه يجب أن يكون علوه على مرأى أنظارنا ،وفى مطالع آفاقنا ، فعندئذ نحاول، وقد نصل ، ولكنك يا رسول الله فى علو لا نصل اليه ، وفى سِماك لا نراه ، وليس منا من يضاهئك حتى نتمثله ونتخيله ،فأنى لأمثالنا أن يكتب فى شأنك ، وأن يعلو الى شأوك ، ان ذلك أمر فوق المنال، ويعلو على مدارك الخيال ٠

ومن أجل هذا نضرع الى الله أن ينالنا بغفرانه ، ان تسامينا محاولين الوصول الى الكتابة فيك ، فالمعذرة قائمة ، والقصور ثابت ، ولا يكلف الله نفساً الا وسعها ٠

يارسول الله:

قد كتبنا فى أئمة أعلام ، قد قبسوامن نورك قبسة أو قبسات ، فأدركنا نورهم ، ووفقنا الله تعالى الى ما نحسِب أننا وصلنا فيه الى ما يفيد ، وبمقدار ما قبسوا كنا ندرك مابه شرفوا ، وما بهأصابوا ، واهتدوا .

فلما جئنا الى ساحتك ، وحاولنا أن ندخل اليها ، غمرنا النور ، وكف أبصارَنا الضوءُ المنير ، فأنى ندرك ،وأنى نرى ، وقد صرنا كذي رَمَدٍ غمره ضوء الشمس، أو ما هو أعلى ، فأصابتناالحيرة ، ولا هادي لنا يخرجنا منها ، الا أن تكون الهداية من الله تعالى كما أمر اذ قال سبحانه : « قل ان الهدى هدى الله(١) »فليس لنا الا أن نلجأ اليهضارعين أن يهدينا لتصوير شخصك الطاهر المطهر ، أو لتقريبه اذا كان التصوير فوق طاقتنا ، وأعلى من أن نصل اليه ، فان التقريب يحل عندالعجز محل التسديد ، والعجز مغفور ، والقاصر معذور ، والله عفو غفور .

يارسول الله:

اننا نكتب فى العظماء لنصور نواحي عظمتهم ، ولكل عظيم ناحية واحدة من نواحي العظمة ، فالاتجاه الى تلك الناحية هو مفتاح عظمته ، فتسهل معرفته ؛ ولكنك يارسول الله فوق عظمة الأشخاص ، لأن وجوه عظمتك تعددت، حتى يعجِز المحصي عن الاحصاء ،والمستقري عن الاستقراء ، واذا نفِدت الطاقة أقر مطمئناً بعجزه ، ومؤمناً بأن وجودك في هذا الوجود معجزة البشر ، فاذا كنت من البشر ، ولست فى كونك الا بشراً ، فلست الَهاً ، ولست ملكا من الملائكة ،فانك فى مقامٍ أعلى من سائر البشر ومن الملائكة ؛ صانك ربك ، وحفظك ورباك على عينه . حتى كنت وحيداً بين الغلمان ، بما كلأك الله به وحماك ، وصبياً فريداً بين الصبيان ،وكنت الشاب الأمين البعيد عن رجس الجاهلية بين الشباب ، فكل شيء فى حياتك الأولى كان من الخوارق التي علت عن الأسباب والمسببات ، فلم تكن أثرَ تربية موجهة ، ولا أثر بيئة حاملة ، ولا أثر شرف رفيع ، وان كان محققاً ،ولكنك كنت صنيع الله ، فكنت معجزة بشخصك ،وكونك ،ووجودك ، ففيك البشرية ، وفيك المعجزة الالَهية « الله أعلم حيث يجعل رسالته » (٢) .

---

(١) البقرة ــ ١٢٠ (٢) الانعام ــ ١٢٤

يارسول الله ياخير البشر :

كنت ذا الخلق القوي ، والسياسي الحكيم ، والقائد العظيم ، والحاكم الرفيق ، والمربي لأمتك بالشورى ،والوحي ينزل اليك ، وكنت الرؤوف بأمتك ، والمحارب الرحيم ، وحامل لواءالسلام فى مرحمة النبي ، وعزة القوي، أنشأتَ جماعة مؤمنة ابتدأت بها بذرأصالحاً ، وأخذ ينمو فى بيئتك الطاهرة، مختفياً فى خلايا الايمان ، حتى أخرج شطأه ، فظهر متعرضاً لمقاومة الحدثان ، قوياً فى تكوينه ، حتى استغلظ واستوىعلى سوقه ، وصار قوة الحق فى الأرض، وكنت كما قال الله تعالى : « محمد رسول‌الله والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم ، تراهم ركعاً سجداً ، يبتغون‌فضلا من الله ورضوانا ، سيماهم فى وجوههم من أثر السجود ، ذلك مثلهم‌فى التوراة ، ومثلهم فى الانجيل كزرع أخرج شطأه ، فآزره ، فاستغلظ فاستوىعلى سوقه يعجب الزراع ليغيظ بهم الكفار(١)» وكل ذلك بتوجيه ربك ،والهام نفسك ، وعلو فكرك ، وقوة قلبك ، فمن أى ناحية يدرس حياتَك‌الدارس ، وقد كان كل شيء فيك قوياً عظيما ، كما قال فيك ربك :

﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴿٤﴾ ﴾ (٢)

اللهم ربي ، ولا خالق سواك ، ولااله غيرك ، وليس كمثلك شيء ، وأنت السميع البصير ، خلقت محمداً من‌البشر ، وجعلته سيد البشر ، وأرسلته رحمة للعالمين ، واذا كان وجوده وماأحاط به خارقا للأسباب والمسببات فقد أرسلته بمعجزة لا تزال تتحدى الخليقةالى يوم الدين •

ربي العظيم :

لقد تطاولتُ فاعتزمتُ أن أكتب فى‌سيرة نبيك وخاتم أنبيائك محمد صلى الله تعالى عليه وسلم ، فاغفر لي يارب‌ذلك التطاول،انك أنت الغفور الرحيم، وأمدني بعونك وتوفيقك فى هذا المقام‌الذى يعلو عن طاقتي ، وتعجز فيه قدرتي ان لم يكن منك العون •

---

(١) الفتح ـ ٣٠ (٢) القلم

رب لا تخزني ، فانه لا قدرة لي الا بتوفيقك ، ولك الفضل ، والمن ، وما توفيقي الا بالله عليه توكلت واليه أنيب .

واني قد اتجهت الى القصد فى القول ، فمهما يكن الاطناب ، فانه لا يصل الى الغاية ولا يبلغ الشأو ، ولذلك اجتهدنا فيما هو تحت سلطان قدرتنا ، ومع ذلك استطال بنا القول ، وان لم ندرك النهاية ، فهي فوق قدرة عاجز مثلي ، ولقد قسمت الكتاب الى ثلاثة أقسام :

أولها — ذكر حياة النبي صلى الله تعالى عليه وسلم من ولادته التى حاطتها الخوارق ، وحياته التى كانت كلها ارهاصات بالنبوة ، حتى بعثه الله تعالى بشراً رسولا ، وأوذي هو وحواريوه فى الله ، وصبر وصابر ، حتى كانت الهجرة التى أُنشئت بها مدينة الاسلام ، ودولة الايمان .

والثانى — فى جهاده ، وقمع الشرك ، وفتح الطريق للدعوة المحمدية ، وازالة المحاجزات من طغيان الظالمين ، وفتنة المؤمنين ، حتى تسير الدعوة فى طريقها من غير عوج ، وفي طريق معبد لا يحاجزه الشر ، ولا يُدُعْثره الايذاء ، وان هذا القسم ينتهي بصلح الحديبية ، حيث يئس الشرك من أن ينال من أهل الايمان ، وعجز عن أن يغزو المؤمنين ، وصارت الكلمة العليا فى الجزيرة العربية للايمان ، وسارت الدعوة فى كل مسار .

والقسم الثالث من بعد الحديبية ، وفيه تجرد النبي عليه الصلاة والسلام لليهود الذين كانوا شوكة فى جنب العرب ، وأخذ الاسلام يعم جزيرة العرب ، ويخرج الى أقطار الأرض فكانت مؤتة ، وكان الفتح العظيم الذي يئس فيه الشيطان أن يعبد فى هذه الأرض ، وأخذ الاسلام يغزو ما حول العرب بكُتُب النبي ورسله ، وبالسرايا يبثها ، وبالخروج الى الروم الذين قتلوا المؤمنين من أهل الشام فى أرضهم ، فكان لابد من تأمين الدعوة ، وازالة الفتنة ، وهذا القسم ينتهي برحلة النبي صلى الله تعالى عليه وسلم من هذه الدنيا بروحه الى السموات العلا .

اللهم انفعنا بهديه ، واهدنا سبله ، انك تهدي من تشاء ، وانك على كل شيء قدير ؟

ربيع الأول سنة ١٣٩٢ هـ

ابريل سنة ١٩٧٢ م — محمد أبو زهرة

تمهيد

الاضطراب الفكري:

١ ـ في القرن الخامس الميلادي ومايليه، كان العالم الانساني يموج بالشر، وتضطرب النفوس ، واستحكمت الأهواء ، وتفرق بنو الانسان ، حتى صار القانون السائد المسيطر ، الحقُ هوالقوة ، والقوةُ هي الحق ، فشاهت الأفكار ، وتقطعت الأسباب • وصار ابن آدم ينقض ما أبرمته الفطرة، ويحل الرابطة الانسانية الجامعة ، وعجز العقل عن أن يحكم ما بين الناس ، بل انه اتُخِذ العقل مطية لتبرير الباطل، وتزييف الحق ، والعبث بالميراث الانساني للنبيين من بعد ابراهيم وموسى وعيسى ، وشوهت المفاسد تعاليمَ موسى وعيسى ، وغيرهم من الأنبياء المرسلين ، فالنصارى قد استسلموا لحكم الامبراطورية، وزكوه، بل أيدوه ، وتفرقوا ، وصار بأسهم بينهم شديدا ، وأغرى الله سبحانه وتعالى بينهم العداوة والبغضاء الى يوم القيامة• فالملكنيون تحكموا في اليعقوبيين ، حتى نفروا منهم •

واليهود شوهوا تعاليم موسى عليه السلام ، فضُربت عليهم الذلة والمسكنة، وصاروا مع فساد قلوبهم ، لا وجود لهم الا بمعونة قوي يريد أن يكون غالبا لهم ولغيرهم، وتسربلوا سربال العداوة لبني الانسان جميعاً ، اذ يعطون لأنفسهم من الصفات العقلية، والمزايا الدينية ماليس فيهم، وينكرونه في غيرهم ، حتى زعموا أنهم أبناء الله وأحباؤه ، وأنهم شَعب الله المختار ، وزعموا لغيرهم المنزلة الدون ، وكانوا يقولون عن العرب الذين نكبوا بمعاشرتهم

﴿ قَالُواْ لَيْسَ عَلَيْنَا فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ سَبِيلٌ ﴾ (١)

فهم يأخذون منهم بالحق والباطل، ولا يعطونهم شيئا، لانه لا سبيل لهم بحق ، ولا بغيره •

---

(١) المائدة ـ ٧٥

٢ ـ وكان الأقربون والأبعدون ،والقاصون والدانون فى اضطراب فكري ، وعجز العقل البشري عن أن يحل مشاكل هذا الوجود • فتاه العقل في معرفة أصل الوجود ، ولم تستطع الفلسفة الأيونية أن تحل مشكلة أصل الوجود ، ولا أن تصل الى منشئه ، مما أثبت أن العقل مهما يؤت لايستطيع أن يفسر سر الظواهر؛ فهو يعرف مظاهر الأشياء ، ولا يعرف الأسرار المستكنة الباعثة ، يعرف مظاهر الحرارة والكهرباء؛ ولا يمكن أن يعرف مايحركها، الا اذا اتجه الى معرفة المؤثر من الأثر ،والمنشىء مما أنشأ ، ولكنه قد غُمر بالمحسوسات ، ومظاهر القوى ، دون أن يعرف مصدرها ، عَمِيَ عن الاصل ، وشُغل بالفرع ، فتاه في هذه السماء ،وصار فى عمياء ، لا يعرف المبتدأ ، وان عرف مظاهره •

ومع ظهور الأديان السماوية ،واختتامها بالاسلام لا يزال العقل ، وهو مأسور بما يحس ، لا يعرف ما وراء المحسوس ، وكل ما تراه من سيطرة العقل ونفاذه لا يتجاوز المظاهر واستخدامها؛ وهو يجهل باعثها، ولا يعرف منشئها الا اذا كان ينفذ من المظهر الى المنشىء المكون •

وانه لا يمكن معرفة الكون على حقيقته الا بالايمان بمن أنشأه ، وان الأديان السماوية تدعو الى معرفة المنشىء مما أنشأه ، ومعرفة الخالق من المخلوق ، فهي تدعو الى دراسة الخلق لمعرفة من أنشأه؛ تدعو الى دراسة الكون ، وتعرُّف مظاهره لمعرفة من وراء هذه المظاهر ،ولم يكن ذلك شأن الدارسين للكون في الماضي، ولا من يدرسون مظاهره المجردة فى الحاضر •

وانما يُهمنا الماضي الذى كان قبل محمد صلى الله تعالى عليه وسلم • وما كان عليه الوجود •

٣ ـ تلك كانت حال العقيدة فى الفلسفة الأيونية ، والفلسفة اليونانية التى ورثتها ، ولما جاء سقراط زعيم هذه المدرسة وكبيرها ، أراد أن ينزل بالفلسفة من السماء الى الانسان ، ودعا الى ترك البحث عما وراء الطبيعة ومظاهرها ، الى الانسان ، وأراد أن يعمل ما يجدي وما ينفع فى السلوك الانساني ، بدل أن يهيم فيما وراء الطبيعة من غير هاد يهدي ، ولا رشد يرشد •

أخذ يدرس نظام التعامل الانساني،ومقيـــاس الفضيلة الذى يميزها عن الرذيلة ، ليميز به الحق من الباطل ،وخطأ السلوك واستقامته ، ليعرف ماهو فاسد وما هو صالح ·

ودعا الى ذلك واختلف هو وتلاميذه ،فمن قائل ان القياس هو المعرفة وهـو ما اختاره سقراط ، ومن قائل انه الحكمةوالعدالة والشجاعة والعفة ، والفضائل كلها ترجع الى هذه العناصر · وقد اختارذلك أفلاطون ، ومن قائل انه اللذة أو المنفعة . فما هو نافع ، ولو نفعاً شخصياًخير ، وما لا نفع فيه فهو شر ، ومن قائل ان الخير وسط بين رذيلتين ·

وهكذا كانت المتاهات العقليـــة فىادراك أسس التعامل الانساني ، كالحيرة فى معرفة العقيدة الصحيحة ، فالعقــللم يستطع أن يصل الى قانون التعامــل المستقيم ، كمـا لم يصل الى ادراك سرالوجود ، بل كان يهيم فى نظريات من غير أن يصل الى حقائق ثابتة ·

وفى وسط ذلك الديجور ظهـــرتالسوفسطائية التي تشكك فى حقائـق الوجود . فمنهم من أنكرها ، ومنهم منشك فى كل شىء ، ومنهم من قال ان الحق فى الأشياء هو مايعتقده كل امرىء فىذات نفسه ، وتسمى العندية ، فليس للأشياء حقيقة . وانمـا الأمـر فيها الىاعتقاد وجودها ·

وهــكذا كان الضلال المبين بسببالاعتماد على العقل المجــرد فى وسط تلك الفلسفة التى لا تهدي ، بل يضلفيها الفكر ، كما يضـل السـاري فى ظلمات الليل ·

المجـُوسِــيّة:

٤ ــ ولو غادرنا اليونان ومن سبقوهم الى الفرس ومَن وراءهم فانا واجدون عجباً ، فانا نجد بجوار الفلسفة اليونانيةالتى سرت اليهم فلسفة أخرى ، أرادت أن تنظم التعامل الانسانى،وتحل مشكلةأصل الوجود بأوهام توهموها ، وأساطير اكتسبوهـــا، فكانت الزرادشتيــه التىتفرض أن الوجود له آلهان:آله الخير،واله الشر ، وأن كليهمـــا يتنـازع النفسالانسانية والكون وما فيه ·

وان هذا بلا ريب باطل لا أصل له من دين ، ولكن قد يقال انه تحريف لدين سماوي ، كان يدعو لعبادة الله تعالى وحده ولا مانع من ذلك عقلا ، وقد وجد فى بعض كتب ذلك بقايا تبشر بمحمد عليه السلام ، وقد قال تعالى :

﴿وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ ﴿٢٤﴾﴾ (١)

ولكن نجد بجوار ذلك مذهبا اجتماعياً خطيراً يدعو الى القوة ، وانه لاعبرة بالضعفاء وانهم لا يصلحون للبقاء ،فالحق مع القوي دائماً ، والباطل مع الضعيف دائماً ، فقانون الحياة يعمل للأقوياء على الضعفاء ، ويجب أن يبقى الأقوياء ، وأن يفنى الضعفاء ، فلا ايمان بالعدل ، وانما الايمان بالقوة وحده •

المانوية :

٥ ـ ثم كان بفارس أيضاً مذهب يحسب أن الوجود الانساني كله شر يجب ألا يبقى ، بل يجب العمل على افناء الانسان ، وهو مذهب (ماني) وعقيدته تسمى المانوية ، فهو مذهب يدعو الى الفناء ، ولذلك يمنع الزواج ، حتى لا يكون تناسل ، وينتهي ذلك الانسان الذي اعتبر وجوده لعنة في الأرض ،وما دام الانسال فى الانسال مستمراً فان اللعنة الانسانية مستمرة ، وكأنه يحسب أنه نزل الى الأرض بخطأ ارتكبه أبوه ،فالخطيئة باقية بوجوده •

المزدكية :

٦ ـ وبعد ذلك جاء المذهب المخرب،كان مذهب آخر يحل الوحدة الانسانية ، والعلاقة الفاضلة ، وهو مذهب مزدك الذى انتشر فى فارس ، وأساسه اباحة النساء فلا زواج ولا ارتباط ، بل يسافد الانسان كما يسافد الحيوان من غير أي قيد من رابطة حافظة للأنساب ، وراعية للطفولة المقبلة ، كما أباح الأموال ، فلا ملكية تحمي انسانا من انسان ، بل كل الأموال مباحة للجميع من غير أي نظام ، فهو يمنع القيود فيها كما يمنع القيود فى النساء •

---

(١) فاطر

وجملة هذا المذهب أنه يبيح الانطلاق من كل قيد ، كما أن الحيوان فى البادية أو الغابة منطلق ، لا يقيد الا بقـــوةغير التي ترسم له حدأ لا يتعداه ·

والوهم الذى قام عليه ذلك المذهبأنه زعم أن الشحناء والبغضاء تتولدان من احتياز النساء بالزواج أو نحـوه ،واحتياز المال بالملكية ، ويحسب أنه اذا زالت روابط الزوجية ، وزالت الملكيةللأموال يـكون الناس فى ســـلام دون خصام ، وياليته اعتبر الانسان كالحيوانلأنه مع زوال الملكية والعقود الرابطـــة للعلاقة بين الذكر والأنثى فى الحيوان لم تزل القـــوة الغالبـة والافتراس بين الحيوانات المتحدة فى الجنس والأرومـــةالمختلفة ·

ومهما يكن فقد انتشر ذلك المـذهبفى فارس ، وضاعت الأنساب واعتنقـه بعض الأكاسرة ، وساد وسار مدة حـكمهذا الكسرى ·

ولكن زال ملكه ، قبيل مبعث النبىصلى الله تعالى عليه وسلم ، فانظر كيف تأذى بهم ما سموه حكم العقل ·

البَـــرَهَـــمَة :

٧ ــ ولو أننا تجـــاوزنا فارس الىما وراءهـــا من أرض المشرق ، فـــانا واجدون الهند ، وما فيها ، وهنالك نجدديانة تقوم على التفرقة الانســـانية بين طبقات ، فالناس ليســـوا ســواء ، فىالحقـــوق والواجبات ، بل يقـــرر دين البراهمـــة التفرقة بين الناس من حيثالعبادة والزلفى لبراهما الٓههم الأكبر' فقد انقســـم النـــاس من حيث مهنهم التيتتوارث ، والتى تصير المهنة عندهم أصلا نسبياً ينتقل من الأصول الى الفروع ،ومن الفروع الى فروعهم ، فقسموا الى أربع طبقات ·

فالطبقة الأولى : هى أعلاها ، وهىطبقة البراهمة ، وهم رجال الدين الذين يبينون أحكامه'ويزعمون أنهم خلقوا منرأس الٓههم (براهما) ولذلك كانوا أعلى الناس ، لأنهم خلقوا من أعلى الإلٓه ، وهمفي زعمهم خلاصة الجنس البشري،وعقله المتفكر ، ورأســـه المدبر ، لأن الرأس عنوان ذلك كله ، فهم علاوة الجسم ·

والطبقة الثانية : طبقة الجند ، ويزعمون أنهم خلقوا من مناكب آلههم براهما • ويديه ، وهم لهذا ، الحُماةوالغزاة وموطن القوة • ومرتبتهم دون مرتبة البراهمة ، وهى تليهم مباشرة •

والطبقة الثالثة : طبقة الزراع والتجار ، وهم مخلوقون من ركبتى الههم• والمسافةُ بينهم وبين الطبقة السابقة لهاكبيرةٌ ، وهى قريبة من الطبقة التى تليها مباشرة لتقاربهما فى التكوين والخلق •

والطبقة الرابعة : طبقة الخدم والرقيق ، وهؤلاء خلقوا فيما يزعمون من قدمي الههم فهم أحط الطبقات ، وأبعدها ، لأنها البعيدة عن رأس (براهما)

وهناك دون هذه الطبقات طبقة أبناء الزنى والمحرومين أو المنبوذين ، والذين يتناولون الأعمال الحقيرة فيالمدن ، ويسمون من ليسوا من الهنود (ابليج) ومعناها أنجاس ، فكل منليس هندياً نجس ، ويلحق بتلك الطبقة من المنبوذين •

ونجاسة أولئك ليست نجاسة معنويةفقط ، بل هي نجاسة حسية في زعمهم، حتى ان الأجنبي لو شرب من كوب ماءحطموه ، وألقوا بحطامه فى الأرض •

ويلاحظ فى هذه الطبقات أنها تتوارث ، فلا يرتقي ابن طبقة الى أعلى منها، ولا ينحدر من هو فى الأعلى الى الأدنى •

والفضائل تتفاوت بتفاوت الطبقات،ففضائل البرهمي أن يكون وافر العقل ساكن القلب صادق اللهجة ظاهر الاحتمالضابطاً لنفسه ، مقيما للعدل بادي النظافة ، مقبلا على العبادة ، مصروفالهمة الى التدين •

ويجب أن يكون الجندي مهيباً شجاعاً،ذلق اللسان ، سمح اليد ، غير مبال بالشدائد ، حريصاً على لقاء الخطوب ،وتيسيرها •

ويجب أن يكون الزراع والتجار عاكفين عليها يرعى الزراع شئون السوائم وتربيتها ويقوم التجار بشئونالتجارة ، ومعرفة الأسواق ، وما تتقاضا الخبرة من صفق فى البياعات والتمرس بشئونها وتعرف أحوالها •

ويجب أن يكون الخدم والأسارى والأنجاس مجتهدين فى الخدمة ، والتحبب الى الناس ، لأن ذلك أليق بما ينبغي أن يكونوا عليه من آداب ، وهذا الذى يتفق مع أعمالهم فى الجماعات ٠

ويقول أبو الريحان البيروني في كتابه (ما للهند من مقولة مقبولة في العقل أو مرذولة) بعد بيان الطبقات مانصه: « وكل من هؤلاء اذا ثبت على رسمه وعادته نال الخير فى ارادته اذا كان غير مقصر في عبادته غير ناس في جل أعماله، واذا انتقل عما عهد اليه الى ما عهد الى طبقة أخرى ـ كان آثما بالتعدي » ٠

هذه نظم وعبادة فيها وثنية ، واذا ضربنا صفحاً عن الوثنية فيها واتجهنا الى النظم العملية ، فعجب كيف يقبل شعب مهما تكن درجة التفكير فيه تلك الطبقية المقيتة ، ويسير عليها على دين واجب الطاعة ، ومن أجل هذا الطبقية كان التأخر النفسي والاجتماعي ٠

هل للبرهمة أصل سماوي :

٨ ـ لاشك أنه لا يوجد فى دين سماوي التفرقة الطبقية التي يعتبرها البراهمة فى القديم فى ضمن دينهم الذى انتشر بها قبل المسيح ولا تزال بقاياها قائمة ، وان خفت حدتها بفعل الزمان ، وبطبيعة الاتصالات الانسانية العامة ، وشيوع فكرة المساواة بين الناس علماً ، وان كان العمل لايزال يتخاذل عن تعميم المساواة بين الناس بحكم الخضوع المزعوم لقضايا العقل الذي يحسبون أنهم يطبقونه ٠

ولكن يفيد كلام أبي الريحان البيروني أن الاحتمال أن يكون لأصل البرهمية رسالة سماوية ، ويرجح هذا الاحتمال بدليلين ينشأ عنهما ، وبهما يكون احتمالا ناشئا عن دليل ، ولمثل هذا الاحتمال قوة فى الاستدلال ٠

أولهما : أن الرسل المذكورين فى التوراة والقرآن ليسوا هم الرسل وحدهم ، بل يوجد غيرهم ، فقد قال تعالى :

﴿ مِنْهُم مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُم مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ ﴾ (١)

---

(١) غافر

ويقول سبحانه وتعالى :

﴿ وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ ﴿٢٤﴾ ﴾ (١)

فوجود ديانة سماوية بين الهند الذين كانت فيها ثقافة وادراك أمر راجح ، بل أمر يقارب المقطوع به بمقتضى النصوص القرآنية ٠

ثانيهما : ما يذكره أبو الريحان البيروني فى كتابه «ما للهند من مقولة مقبولة فى العقل أو مرذولة » من أن خواص الهنود موحدون ، وأن عوامهم هم الذين دخلت الوثنية فى مزاعمهم ، فهو يقول في هذا المقام :

« اعتقاد الهند فى الله سبحانه وتعالى أنه الواحد الأزلي ، من غير ابتداء ولا انتهاء ، المختار فى فعله القادر الحكيم المحيي المدبر المنفرد في ملكوته عن الأضداد ، لا يشبه شيئا ولا يشبهه شيء ، ولنورد لك شيئا من كتبهم لئلا تكون حكايتنا كالشيء المسموع فقط : « قال السائل فى كتاب ياتنجل : من هذا المعبود القوي ؟ قال المجيب: هو المستعلي بأزليته ووحدانيته عن فعل لمكافأة عليه براحة تؤمل وترتجى ، أو شدة تخاف وتتقى ، والبريء من الأفكار ، لتعاليه عن الأضداد المكروهة ، والأنداد المحبوبة ، والعالم بذاته سرمدا ، اذ العلم الطارىء يكون لما لم يكن بمعلوم ، وليس الجهل بحجة عليه فى وقت ما أو حال » ٠

ثم يقول السائل بعد ذلك ، فهل له من صفات غير ما ذكرت ، فيقول المجيب : العلو التام فى القدر لا فى المكان ، فانه يجل عن التمكن ، وهو الخير المحض التام ، وهو العلم الخالص عن دنس الهوى والجهل ، قال السائل ٠٠ أفتصفه بالكلام أم لا ٠٠ قال المجيب : اذا كان عالما ، فهو لا محالة متكلم ٠٠ قال السائل : فاذا كان متكلما لأجل علمه ، فما الفرق بينه وبين العلماء الذين تكلموا من أجل علومهم ٠ قال المجيب : الفرق بينهم وبينه هو الزمان ، فانهم تعلموا فيه وتكلموا بعد أن لم يكونوا عالمين ولا متكلمين ، ونقلوا بالكلام علومهم الى غيرهم ، فكلامهم وافادتهم فى زمان ، اذ ليس للأمور الأزلية بالزمان اتصال ، فالله سبحانه وتعالى عالم متكلم في الأزل ، وهو الذي كلم ابراهم ، وغيره من الأوائل على أشكال شتى ، فمنهم من ألقى اليه كتابا ، ومنهم من

(١) فاطر ٠

فتح الواسطة بابا ومنهم من أوحى اليه، فقال بالفكر ما أفاض عليه قال السائل: فمن أين هذا العلم : قال المجيب علمه على حاله فى الأزل ، واذ لم يجهل قط فذاته عالمة ، لم تكتب علما لم يكن له ،كما قال في بيذ الذي أنزل على براهما: احمدوا وامدحوا من تكلم ببيذ ، وكان قبل بيذ • قال السائل كيف نعبد من لم يلحقه الاحساس ؟ قال المجيب تسميته تثبت آنيته ، فالخبر لا يكون الا عن شيء والاسم لا يكون الا لمسمى ، وهو وان غاب عن الحواس فلم تدركه ، فقد عقلته النفس ، وأحاطت بصفاته الفكرة وهذه هى عبادته الخالصة » •

هذه نقول البيروني في كتابه عن الكتب المقدسة الهندية • وهو يدل على ثلاثة أمور :

أولهما : أن هذه الكتب تدل على وحدانية الله سبحانه وتعالى ، وتنزهه عن مشابهة الحوادث ، فهو ليس كمثله شيء ، وهو السميع البصير العالم المتكلم، والمتصف بكل كمال ، لا يتلاقى فيه مع صفات أحد من البشر ، فوحدانيته سبحانه فى الخلق والتكوين ، وصفاته العلية ، وخلوصه سبحانه بالعبودية لا ريب فيها فى كتب البرهمية الأصيلة•

الأمر الثانى : أن الرسل جاءت اليهم، وقد ذكر أن النصوص الدينية في التوراة والانجيل والقرآن ، لا تمنع ذلك بل انها تؤيده ، كما تكون من الآيات الكريمات •

وان براهما ـ لم يكن الها ، ولا شيء فيه من الألوهية الا أنه كان رسولا من عند الله تعالى • والعبارات التى نقلها لنا البيروني من كتبهم صريحة في ذلك صراحة مطلقة •

الأمر الثالث : أن هناك كتابا منزلا تلقاه براهما من ربه ، من غير نظر الى كون ذلك الكتاب حرف فيه الكلم عن مواضعه كما حدث للتوراة والانجيل ، أم لم يحرف ، والراجح أنه حرف لتقادم العهد ، بدليل أنه وجد عندهم تشبيه ونحل لبراهما وصف فيها بالاله ، ولاوصف بالرسول عند عامتهم •

كتبهم:

٩ ـ للبراهمة كتب كما دلت على ذلك عبارات البيروني ، وأقدم ما عرف من كتبهم الفيدا ، ولم يعرف المؤرخون عصره على وجه التحقيق والضبط ، وأقصى ما تأكد لديهم أن الفيدا كانت موجودة قبل القرن الخامس عشر قبل ميلاد المسيح عليه السلام ، فقد كانت مع الفاتحين الآريين على أنها من أصول ديانتهم ٠

والفيدا مجموعة من الأشعار ليس في كلام الناس ما يماثلها في نظرهم ، وتقول جماهيرهم : « ان البشر يعجزون عن أن يأتوا بمثلها » ويقول البيروني « ان خاصتهم يقولون ان في مقدورهم أن يأتوا بمثلها ولكنهم ممنوعون من ذلك احتراما لها » ولم يبين البيروني وجه المنع : أهو منع بمعنى التحريم ؟ بمعنى أن في استطاعتهم أن يأتوا بمثلها ويتجهوا الى ذلك ، ولكنهم كلفوا ألا يأتوا ، أم أن هذا المنع انما هو صرف لهم عن أن يأتوا بمثلها ، فهم قادرون على أن يأتوا ، ولكنهم صرفوا عن ذلك ،كما يقول بعض الجهلاء في اعجاز القرآن منحرفين في دينهم ، لم يبين لنا البيروني أى الوجهين أراد بالمنع ؟ لئن أراد الأول، وهو منع بالتحريم وذلك لا يقتضي الامتناع ، فقد يكون من بعض المكلفين من يعصي ، فيأتي بمثلها ٠ أو يزيد عليها ، لأن الناس ليسوا معصومين عن المخالفة ولا أحد من البراهمة يعتقد جواز وجود أمثالها ، ولذلك نرجح أن يكون الامتناع في زعمهم يصرفه ،ونكتفي من الاشارة الى كتبهم بهذا القدر ٠

١٠ ـ بعد أن حرفت البرهمية وجعل الناس في عقيدتها طبقات كان لابد أن يكون من بينهم من يغير ، ولا يرضى بهذه الطبقات ٠ ولذلك ظهر من بينهم من لا يرضى ، وهو من رجال الطبقة الأولى ، وبلغ أقصى الغاية فيها ، وهو بوذا الذى ولد سنة ٥٦٠ قبل المسيح عليه السلام وكانت دعاية بوذا تخفيف ويلات الانسانية التى أرهقها نظام الطبقات ٠

ولقد اتجه فى سبيل تخفيف ويلات الانسانية الى الدعوة لتخفيف الحاجات وكف النفس عن الشهوات ، وهذه الشهوات هي التي تشقي فاذا كانت ويلات الناس تجيء اليهم من ناحية أهوائهم وشهواتهم ، واتساع مطالبهم ، والرغبة

فى المزيد منها فان تخفيف ويلات الحياة يكون بتربية النفس على الاستغناء عن أكثر مطالبها ، والاكتفاء بالقليل ومجانبة الأهواء والشهوات ، فانها هي التي تجعل النفس طلعة ، تحب اللذائذ وان كانت عاقبتها سيئة ، فكان من الواجب السيطرة على الأهواء ٠

وقد وضع منهاجا للتربية النفسية ،الخط الأول منه يبدأ باجتناب الأهواء والاتجاه الى الأمور بقلب سليم منها ،فان النفس تشرق ، ويكون ادراكها سليما ، ثم يكون من بعد ذلك الاعتقاد سليما ، ومن بعد الادراك يكون النطق الصادق ، ثم العمل القويم ، ثم السلوك الحسن ، ثم الجماعة التى تقوم على الأخلاق ٠

ويقرر مبادىء خلقية ، فهو يقول فى النهي عن أمور عشرة ٠

١ ـ لا تقتل أحداً ٠

٢ ـ لا تسرق ولا تغضب ، ولا تأخذ مالا لم يقدم اليك ٠

٣ ـ لا تكذب ، ولا تقل قولا غير صحيح ٠

٤ ـ لا تشرب خمرا ، ولا تتناول مخدرا ٠

٥ ـ لا تزن ولا تأت بأي أمر يتصل بالحياة الجنسية يكون محرما ٠

٦ ـ لا تأكل طعاما لم ينضج ٠

٧ ـ لا تتخذ طيباً ، ولا تكلل رأسك بالزهر ٠

٨ ـ لا ترقص ، ولا تحضر مرقصا،ولا حفل غناء ٠

٩ ـ لا تقتن فراشا وثيرا ، فلا تقتن أرائك وطنافس ، ولا وسائد ولا حشايا رافهة ٠

١٠ ـ لا تأخذ ذهبا ولا فضة ٠

وان هذه المبادىء البوذية فيها عيب،وهى ناقصة ٠

أما عيبها ، فانها لا تعتمد على عقيدة موجهة ، بل يروج عن بوذا أنه أنكر أن يكون ثمة اله منشىء للوجود ، ولهذا شاعت عبادة الأوثان فيمن جاءوا بعد ، فلم تنق قلوبهم ، لأنه لم تسلم عقيدتهم،وكانت وهما من الأوهام ضل فيها العقل ، ولم يهتد الى سواء السبيل ٠

ويضاف الى هذا عيب آخر ، وهى أنها تزهد فى الحياة ، وتمنع الانتفاع بخيراتها ، فكأنما مباهج هذه الحياة ،انما خلقت لكي ترى وتشتاق النفوس لها ، ثم تحرم على الانسان ٠

وأما النقص فلأن فضائلها سلبية ،هي نهي لا طلب ، ومنع لا التزام ، فالخير فيها لا يطالب فيها ، ولكن يتجنب الشر ٠

ان الفضائل الانسانية تتكون من عنصرين ، عنصر ايجابي ، وهو تقديم النفع الانساني والقيام بحق الانسان على أخيه الانسان ، والاتصال بالتعاون بين الناس بعضهم مع بعض ، وذلك هو العنصر القوي فى الفضيلة ، والعنصر الثانى الامتناع عن الايذاء وهذا هو العنصر السلبي ، وهو الأدنى ، والأول هو اللباب ، وهو الخير الحقيقي ، بل انه يمنع غيره، فان النفع يمنع بعض الأذى٠ فاذا اقتصرت البوذية على السلب نقص معنى الكمال فيها ٠

وان تكاليف البوذية قد يستطيع تنفيذها الخواص ، ولا يمكن أن يكون تنفيذها عاما ، والمذاهب لا يلاحظ فى تطبيقها الخاصة ، بل لابد أن يكون تطبيقها عاما ، وهي كالمذاهب الصوفية يطبقها الشيوخ ، ويقاربهم المريدون ، ولا يمكن أن تكون نظاما عاما يطبقه الجميع ٠

ولهذا لم يطبقها الجميع ، بل انقسم البوذيون أنفسهم الى قسمين :

(أحدهما) البوذيون الذين أخذوا أنفسهم بالتعاليم السابقة لا يحيدون عنها ، وقيدوا أنفسهم بأنواع من الأطعمة ، وحرموا غيرها ، ولا يختارون للباسهم الا الخشن من الثياب لما راضوا أنفسهم عليه من ترك لذات الحياة لتكون الحياة تحت سيطرتهم ، ولا يخضعوا لسلطانها ٠

(ثانيهما) البوذيون المدنيون . وأولئك لم يطبقوا المنهاج الشاق ، فاختاروا لأنفسهم طريقاً وسطاً ليس فيه افراط فى اللذائذ ، ولا شدة فى تركها ٠

أخذوا ببعض الأخلاق البوذية من تواضع وصدق وأمانة ، ونالوا بعض الملاذ التى لا تعقب ألما ، ولم يندفعوا فى اجتراع الشهوات ، حتى لا يصابوا بآلام الحرمان ان لم يستطيعوا ٠

وخلاصة القول أنهم أخذوا من المبادىء السلبية المبادىء الخمسة الأولى ،وهى ألا يقتلوا ، ولا يسكروا ، ولا يسرقوا، ولا يكذبوا ، ولا يزنوا ، وتركوا الباقيات من المنهيات ، فلم يحرموها عليهم •

ولقد كان ذلك الانقسام سبيلا لأن يكثر المدنيون ، ولأن يوجد فريق لا يأخذون بشيء من هذه المبادىء ، بل يتركونها وراءهم ظهريا ، وبذلك ضعف العقل وحده عن أن ينشىء ديناً آمراً وناهياً •

الكونفوشيوسية :

١١ ــ وان البوذية التى ولدت فى الهند كان أكثر تابعيها فى الصين لا فى الهند ، وقد انتقلت اليها وثنية ، كما كانت فى الهند ، واقترن بها ما ليس منها ، وانحرفت العقول •

ولكنها اذ انتقلت الى الصين قد احتضنتها بيئة امتازت من بين البيئات بالوثنية ، والتمسك بكثير من المبادىء العملية التى تتفق مع قانون الأخلاق الى حد كبير ، ولكن لعدم اعتمادها على عقيدة قوية كانت فى قلوب شاغرة ، واذا سكنت المبادىء فى قلوب شاغرة عن الايمان جف عودها ، ولم يقو على البقاء •

كان فى الصين فيلسوف يسمى فى لغة الفرنجة كونفوشيوس ، وهى تحريف لاسمه الاصلي في الصين وهو « كونغ فوتس » وقد أخذ ذلك الفيلسوف بالمذهب البوذي ، ولكنه أخذ بمبدأ البوذيين المدنيين ، وكان مذهبه ليس ديناً يتبعه ، ولكنه اصلاح يدعو اليه •

ومع وجود المنهج العلمي في اصلاح كونغ فوتس نجد بجواره فيلسوفا كان أسن من كونغ فوتس اذ أن هذا ولد سنة ٥٥١ قبل الميلاد ، أى أنه يعاصر بوذا ، والفيلسوف الآخر واسمه لوتس ، كان يكبر الأول بنحو خمسين عاما ،ومذهبه هو الاعتزال أو أن ينجو بنفسه ومن يتابعه من المفاسد •

وقد التقى الفيلسوف الشاب كونفشيوس الذى يرى أن مبادىء الأخلاق يكون أساسها النفع الايجابى ، لا الاعتزال السلبى بالشيخ لوتس الذى لا يرى الا الاعتزال السلبي ، فتحاورا •

قال الشيخ للشاب : « ان الخير ليس في محاولة اصلاح المجتمع الفاسد بالعمل والاختلاط اذ أن الاختلاط يفسده ، بل الخير كل الخير في الزهادة والقناعة والاعتزال ، والتسامح ، ومقابلة السيئة بالحسنة ، وهي العفو » .

قال الشاب للشيخ : « اذا كان واجب كل شخص من آحاد الأمة أن يعتزل في كهف من الكهوف فمن الذى يبقى في المدن يعتمرها ، وفي الأرض يفلحها ويزرعها ، وفي الصنائع يمهر فيها ، ومن الذى ينسل ويعمل ، ليبقى الكون عامرأ ببني الانسان ، واذا كان الاعتزال مقصوراً على الحكماء ، والفضلاء فمن الذى يربي الانسان ويؤدبه ، أم يترك الناس حائرين باترين ، لا هادي ولا مرشد .

عقيدة الصين القديمة :

١٢ ـ ومهما تكن آراء كونغ فوتس من الحكمة والصواب فقد اختلط بها ما ليس سائغا ، فقد كان يعتقد بآلهة ، وبأن السماء مرتبطة بالأرض فيصلح الكون اذا صلح الانسان ، ويفسد بفساده ، لقد كان كونغ فوتس يعتقد ما يعتقده الصينيون القدماء .

وأساس هذا الاعتقاد أنهم يعبدون ثلاثة أشياء : السماء ، والأرواح المسيطرة على ظواهر الأشياء ، (الملائكة) وأرواح الآباء .

والسماء التى يعبدونها لا يقصدون بها تلك القبة الزرقاء ، بل يقصدون الأفلاك ومداراتها ، والقوى المسيطرة التى تسيطر عليها وتسيرها في مداراتها، وباتصالها بالأرض والرياح والأمطار تنبت الأرض ، وكانت عبادتهم للسماء لاعتقادهم أنها عالم حي يتحرك حسب نظام دقيق محكم ، وللسماء السلطان الأكبر على العالم ، اذ أن كل ما فيه من قوى مسيرة خاضع لسلطان السماء .

وظاهر كلامهم أنهم لا يفرضون للكون سمائه وأرضه قوة منشئة مغايرة هي المدبرة والتى تحفظ العالم ، وتحول قواه ، فهم بذلك يعدون منكرين لله الواحد الأحد الفرد الصمد ، وعلى ذلك يكون الأساس الذى بنيت عليه عقيدتهم باطلا .

وهم يعتبرون التحول والتغير فى الكون على حسب مداركهم ، وعلى أساس عقيدتهم السقيمة فهم يرون أن العالم قسمان مادي وروحي وأن الروحي هو الذى يسير المادي ، فهم بهذا يرون أن المنشىء من ذات الكون لا من قوة فوقهم، وبذلك يتقاربون من الفلسفة الأيونية ·

ومع أنهم لا يؤمنون بالواحد الاحد المنفرد بذاته عن المشابهة يؤمنون بالقضاء والقدر ، ويرون أن السماء هي التي تقدر وتقضي ، فلا مفر من حكمها فى زعمهم ، ولا خلاص من سلطانها فى اعتقادهم ·

ويؤمنون بأن الأحكام القدرية مرتبطة هي والأمور الكونية ، بالأخلاق الانسانية ، فاذا كانت الأخلاق مستقيمة استقام الكون ، واذا فسدت اضطرب ، فكلما كان الاعتدال والانسجام والعدالة بين الناس استقام الكون ولا يضطرب · وما الزلازل وما خسف الأرض وكسوف الشمس وخسوف القمر الا من فساد الأخلاق ، وعدم استقامتها · وهي أمارات على ذلك ، واذا كان السلوك غير القويم يحدث الاضطراب ، فالسلوك القويم يجلب الخير ، والبركات · ويجعل كل ما في الكون يجيء على ما يحبه الانسان ويرضاه ·

وعلى ذلك يكون المؤثر فى الكون ثلاثة :

أولها : السماء بسلطانها ، والأرض بقبولها لحكم السماء ، والانسان بارادته الخلقية ، فان اختار خير الأخلاق وأفضلها واتجه اليها · فان مظاهر الكون تكون لخير الانسان · فالجو يمتلىء بالنسيم العليل ، والحرارة المنعشة غير اللافحة ، والغيث المحيي لموات الأرض من غير أن يخرب العمران ويصير غيثاً ، وتكون الشمس المشرقة ، والنهار المبصر والليل الساجي ·

١٣ ــ وبذلك نجد أن العقيدة الصينية فاسدة ، والخلق الصيني قوي ، والارادة الصينية قويمة ولكنها قائمة على عقائد فاسدة ، وما يقوم على الفاسد لابد أن ينهار ، اذ هو قائم على شفا جرف هار ، غير مستقر ، ولا ثابت الدعائم ·

واذا كانت الفلسفة اليونانية ووليدتها الرومانية قد عجزت عن تكوين حكم خلقي له مقياس ثابت لا يتغير بتغير الأعراف ولا بتغير الأماكن والازمان ،

فان الصين قد وصلت الى حكم عملي حسن فى جملته يتجه الى الخير فى غايته • ولكنه لم يقم على دعائم ثابتة من ايمان خال من الأوهام ، وعقيدة بعيدة عن الأخيلة غير المحققة ولا الثابتة •

ان العقيدة الصالحة هي التي توجد الأخلاق الثابتة ، وهي التي توجد المجتمع الفاضل الذى يريد الخير بدافع من ايمان به ثابت الدعائم قوي الأركان •

١٤ ــ وننتهي من هذا السياق الذي انتقلت فيه من اليونان والرومان سائرين الى الشرق الأدنى فالشرق الأقصى ــ الى أن العالم كله فى الفترة التي كانت قبل المسيح ومحمد ، كان يموج فى مضطرب فسيح من الآراء والمنازع المتناحرة •

وأنه فى الوقت ذاته كانت الوثنية تضيق ذرعا بالوحدانية التى جاء بها موسى وخلائفه ، وجاء بها عيسى وحملها حواريوه ــ كان الشرق الأقصى بعيدا عن هذه الدعوات الى الوحدانية ، فكانت فيه مجوسية الفرس ، ووثنية الهندوس ، وظلم الطبقات ، ثم كان من وراء ذلك عبادة الأفلاك والنجوم والأرواح فى الصين •

كان العالم اذن يموج بفساد الفكر ، وفساد العمل ، واضطراب الحكم ، وانقطاع الصلة بين الحاكم والمحكوم ، وسيطرة الأقوياء على الضعفاء ، وقد اشتد الطغيان •

وثنيّة اليونان والرّومان :

١٥ ــ وبجوار تلك كانت أوروبا تعيش فى ظلمات الوثنية ، وكان غربها من الوندال والسكسون قبل المسيح يعيشون فى جاهلية عمياء ، لم يكن فيها هاد ولا مرشد ، كما تعيش بعض القبائل فى مجاهل أفريقية ولا فرق بينهم الا فى اللون ، فأولئك بيض ، وهؤلاء سود ، ولكن الفعل واحد ، والوحشية متقاربة ولعل البيض أغلظ أكبادا ، وأقسى قلوبا •

١٦ ــ ولما جاءت المسيحية جاءت اليهم بعد أن شاهت ، واعتراها التغيير والتبديل ، وذلك لأن الفلسفة اليونانية والرومانية من بعدها عجزت عن اصلاح

الأخلاق ، وبث الاطمئنان فى القلوب ،والرضا فى النفوس ، فكان لابد من دين يقود العقل الى ما فيه خير العباد •

وقد فقدت الأوثان قوة تأثيرها فى الجماعات ، اذ أن الفلسفة قد أيقظت العقول ، وان لم تهدها ، وحركت الأفهام ودفعتها الى التفكير ، وان لم تهدها الى الصراط السوي الذي يسلكه من يستضىء بنورها وحدها ، فكان لابد من دين بجوارها ، وخصوصاً أن المدائن الرومانية لم يكن فيها التناسق الاجتماعي الذي يجعل كل انسان يرضى بما قسم له من حظ •

ان التاريخ يحكي أن توزيع الثروة فى الدولة الرومانية لم يتحقق فيه العدل الاجتماعي ، فبينما ترف فيمن أفاءت عليهم الدولة بالغنائم والأسلاب من الفتوح الرومانية ترى ألوف الألوف من الناس قد حرموا ما يتبلغون به في حياتهم ،فاستولى عليهم الاحساس بالظلم،والناس لا يشقون بآلام ذاتية وحرمان ذاتي بمقدار ما يشقون لسعادة غيرهم التى امتنعت عليهم ، وكذلك كانت الآلام فى سواد الرومان ، ولولا بقايا من الصبر عندهم لانفجروا فى ثورات ماحقة لاتبقي ولا تذر •

مَزجُ الفلسَفة بالدِّين:

١٧ ــ وفى هذا الوقت أرادوا أن يمزجوا الفلسفة بالدين أو يحلوا الفلسفة محل الدين ، اذ أخذت التماثيل تفقد قوتها ، ولم يعد لها سلطان فى التأثير فى نفوس الشعوب ، وفقدت معابد الأوثان ما كان لها من روعة ، ولقد كان يعتور النفس الرومانية حينئذ عاملان قويان كلاهما فيه شدة وبأس ، فشعورهم بالبأساء والآلام يجعلهم فى حاجة الى عزاء من الدين ، وسلوى بالجزاء فى يوم آخر غير يوم الشقاء الذين يعيشون فيه ، والعامل الثاني الذى أضعف هذه السلوى هو أن الآلهة التي تمثلوها في الأوثان في زعمهم قد فقدت قوة تأثيرها •

وقد أرادت الفلسفة أن تحل محل الأديان ، ولكنها لم يكن لها تأثيرها ، فاتصلت بالأديان والتقت بها التقاء تعاون ، وليس التقاء تخاصم وتناحر ، كما كان الشأن بينهما •

جاء فى كتاب المبادىء الفلسفية « ان الفلسفة استخدمت نظريات علوم اليونان لتهذيب الآراء الدينية ، وترتيبها والتقدم بها الى الشعور الديني اللجرج بفكرة فى العالم قد تقنعه ،فأوجدت نظماً دينية تتفق مع الأديان فى النظر فيما وراء المادة اتفاقا يختلف قلة » ٠

وهنا نجد الفلسفة اليونانية التى تسمى الأفلاطونية الحديثة تحاول الالتقاء بالديانتين اللتين كانتا بارزتين فى ذلك الابان ، وقد تخاذلت وثنية اليونان والرومان عن أن تقف وحدها في الميدان ، فأتي بآراء في خلق العالم تقرر أن منشىء الكون الجديد بالعبادة فى نظرها يشتمل على ثلاثة أمور :

أولها ــ أن الكون صدر عن منشىء أزلي دائم لا تدركه الأبصار ولا تحده الأفكار ولا تصل الى معرفة كنهه الأفهام٠

ثانيها ــ أن جميع الأرواح شعب لروح واحدة ، وتتصل بالمنشيء الأول بواسطة العقل الذي صدر عن المنشيء صدور المعلول عن ثلثه ، فهما متلاقيان في القدم ، ويصح التعبير عن المنشيء الأول بالآب وعن العقل بالابن ، وان كان أحدهما ليس متخلفا عن الآخر فى الزمان ٠

ثالثها ــ أن العالم فى تدبيره وتكوينه خاضع لهذه الثلاثة ٠

التثليثُ في الفلسَفَة :

١٨ ــ وخلاصة القول أن الشيء الأول هو مصدر كل شيء ، واليه معاده لا يتصف بوصف من أوصاف الحوادث ،فليس بجوهر ، ولا بعرض ، فليس بفكر كفكرنا ، ولا ارادة كارادتنا ،ولا وصف له الا أنه واجب الوجود ، يتصف بكل ما يليق به يفيض على كل الأشياء بنعمة الوجود ، ولا يحتاج هو الى موجود له ٠

وأول شيء صدر عن هذا المنشىء في نظر صاحب تلك المدرسة وهو أفلوطين هو العقل ، صدر عنه كأنه متولد منه ، ولهذا العقل قوة الانتاج ، ولكن ليس كمن تولد عنه ٠

ومن العقل انبثقت الروح التي هي وحدة الأرواح ، وعن هذا الثالوث يصدر كل شيء ، ومنه يكون التدبير والخلق ٠

ويلاحظ أمران :

أولهما ــ أنه التقت الأفلاطونية الحديثة مع الدين « وصارا يضربان على نغمة واحدة هى نغمة ذلك التثليث ،وهو ما اشتملت عليه النصرانية التى حالت اليها المسيحية التي تزعمها من تركوا ما دعا اليه المسيح عليه السلام .

وبها تلتقي الفلسفة مع ذلك الدين،وتلتقي الوثنية التى تتعدد فيها الآلهة وتكون منهما تلفيق متناسق أو غيرمتناسق ، من غير نظر الى كون هذا الامتزاج مزيجا ، قد اختفت فيه ظواهر العناصر الممتزجة فى مزاج واحد ، أم لم تختف .

الأمر الثانى ــ أن شيخ هذه المدرسة هو أمنيوس المتوفى سنة ٢٤٢ ميلادية اعتنق الديانة المسيحية الأولى التى جاءبها أتباع المسيح عليه السلام فيما نظن ، ثم ارتد عنها الى وثنية اليونان الأقدمين .

وجاء من بعده أفلوطين المتوفى سنة ٢٧٠ م ، وقد تعلم فى مدرسة الاسكندرية أولا ــ ثم رحل الى فارس والهند ، وهناك استقى ينابيع الصوفية الهندية واطلع على آراء بوذا ومذهبه ، وبراهمة الهند وديانتهم ، وعرف آراء البوذيين فى بوذا ، وقد رفعوه الى مرتبة الاله ،والبراهمة فى كرشنة ، وقد رفعوه أيضا الى مرتبة الاله ، وقد عاد من بعد هذه الرحلة التى تزود منها بالزاد البرهمي والبوذي الى الاسكندرية التي كانت مهد مدرسته المثلثة على النحو الذى بيناه .

١٩ ــ فى هذه الموجة الفكرية كان يعيش العالم في القرن الثالث من مولد المسيح عليه السلام وقد استمر ذلك الاضطراب الفكري أمدأ بعده ، حتى جاء القرن السادس ، وقد زادت المنازع وتخالفت المناهج ، وانحل الفكر انحلالا شديدأ فيما يتعلق بالاعتقاد .

وانشقت النصرانية التي انحرفت عن تعاليم المسيح عيسى بن مريم على نفسها ، فكان منها الملكانية وكان منها اليعقوبية ، واشتد الخلاف بينهم ، حتى انتقل الخلاف الى عداوة فكرية ثم الى عداوة تشبه العداوة الجنسية ، وأغرى

الله تعالى بينهم بالعـــداوة والبغضاء ،وتفرقت النفـــوس والأفكار ، وضعف الاعتقاد ، وانحل الايمان ، فانه كلمـــا انتقلت العقائد الى أن تكون موضـــع مجادلات تضعف ، ويعرض لها الشك ،وينتهي اليقين ، وكذلك كان الأمر في الأرض التي كانت تعتنق النصرانيـــةفي القرن السادس ، في البلاد التي كانت تجاور الجزيرة العربية وفي الجـــزيرةنفسها ٠

٢٠ ـ فالمسيحية ابان القرن السادس الميلادي قد ضعف الايمان بهـــا ، لكثرة الجدل فيها ، ولم تكن قد استقرت الأفكار حولها ، واقتصرت على اتجـــاه معين من اتجاهاتها ٠

فابتدأت أولا باضطهاد الوثنية لها ،وتجسس اليهود على النصارى ، واختفى المسيحيون في أكنان من أرض الروم وفلسطين مستسرين بعقائدهم ، وكلمـــا ظهر فريق منهم قوبل بالاضطهـــاد ،والأذى المرير ، وتبارى فى ذلك مـــلوك الرومان ، وقد جعلوا عمل أمرائهـــم الذين يرسلونهم هو ذلك الأذى ليئـــدوا ذلك الدين الجديد في مهده ، ويقبروهفي حجر ولادته ٠

وقد تكاثرت المصادر الدالة على ذلكالاضطهاد ، وقـــد جاء في كتاب تاريـــخ الحضارة ما نصه « قد كتب بلين وكانواليا فى آسيا الى الامبراطور تراجـــان كتاباً يدل على الطريقة التى كان يعامل بها المسيحيون قال : « جريت مـــع من اتهموا بأنهم نصارى على الطريقة الآتية،وهو أني أسألهم اذا كانوا مسيحيين ، فاذا أقروا أعيد عليهم الســـؤال ثانيةوثالثة مهددا بالقتل ، فان أصروا أنفذ فيهم عقوبة الاعدام مقتنعاً بأن غلطهـــم الشنيع ، وعنادهم الشديد يستحقـــان بهما هذه العقوبة ، وقد وجهت التهم الىالكثيرين بكتب لم تذيـــل بأسمـــاء من كتبوها ، فانكر المتهمون أنهم نصارى ،وكـــرروا الصـــلاة على الأديان الذين ذكرت أسماءهم أمامهم وقدموا الخمـــوروالبخور لتمثال أتيت به عمدأ مع تماثيل الأديان ، بل انهم شتموا المسيح ، ويقالانه من الصعب اكراه النصراني الحقيقي على شتم المسيح ، ومنهـــم من اعترفوابأنهم نصارى وكانوا يقـــرون بأنهـــم يجتمعون فى بعض الأيام قبل طـــلوعالشمس على العبـــادة ، وعلى انشـــاد الأناشيد اكراما للمسيح ، وتعاهـــدوابينهم لا على ارتكـــاب جرم بل عـــلى ألا يسرقوا ولا يقتلوا ولا يزنوا وأن يوفوا بعهدهم ، ورأيت من الضرورى أن أعذب

امرأتين ذكرتا أنهما خادمتا الكنيسة ،بيد أني لم أقف على شيء سوى خرافة سخيفة ٠

وقد كثر الاضطهاد ، وكان نيرون يجعل من النصارى مشاعل تسير في موكبه ، اذ يطليهم بالقار ، ويشعل فيه النار ، وتصير تلك الشعلة في احتفاله بنفسه ٠

وأوقع دقلديانوس بنصارى مصر أشد الاضطهاد ، وأنزل بهم العذاب وقتل فى مصر المسيحية التقتيل الذريع الماحق ، حتى انه اعتبر تاريخ ذلك العذاب هو ابتداء التاريخ القبطي ٠

٢١ ـ وبعد زوال الاضطهاد ظهرت الخلافات على أشدها ، فكانت بقايا الوحدانية تظهر على لسان أريوس ،ومعه أكثر كنائس الشرق ، وأكثر الكنائس في فلسطين ، وكثير من كنائس مصر ٠

ولما أراد قسطنطين أن يدخل في النصرانية جمع مجمع نيقية سنة ٣٢٥ م وأعلن ثمانية عشرة وثلاثمائة من المجتمعين ألوهية المسيح ، فأخذ بقولهم مع أن المجتمعين ابتداء فى المجمع كانوا يبلغون ٢٠٤٨ أو يزيدون ، ولكنه أراد أن تتغير المسيحية الى ما يقرب من الفلسفة والوثنية على أن يبقى اسم المسيحية ، وان خلت من لبها ، وهى الوحدانية التى تحارب الوثنية ٠

ثم توالت بعد ذلك المجمع الذى مال بالمسيحية عن معناها ، مجامع أخرى ، وأول مجمع عام انعقد بعد ذلك كان المجتمع القسطنطيني الأول سنة ٣٨١ ميلادية وفيه أضيفت الى مناصب الألوهية روح القدس لتتم عناصر الأفلاطونية الحديثة التى أشرنا اليها آنفاً ٠

ولكن يظهر أن ألوهية المسيح التي قررها مجمع نيقية لم تكن قد استقرت فى الأذهان ، فقد جاء من بعد ذلك نسطورس ، واعتقد أن المسيح ليس ابناً للآله بالحقيقة ، انما البنوة مجازية، اذ هو ابن بالنعمة والمحبة ، لا بالألوهية، فاجتمع مجمع أفسس الأول سنة ٤٣١م، ليبطل قوله ، ويكفروه كشأنهم فى كل من يجهر برأى ٠

توالت من بعد ذلك الخلافات المفرقة، فمنهم من قرر أن مريم ولدت المسيح الانسان ثم فاضت عليه البنوة الالهية التي هي اللاهوت ، فيقولون ان في

المسيح صفتين اللاهوت والناسوت ، أو الانسان والاله ، والابن هو مجموع الاثنين ، وهو الأقنوم ٠

والآخرون يقولون انه طبيعة واحدة تجسد فيها العنصر اللاهوتى ومريم ولدت الناسوت واللاهوت معاً ، فقد ولدت الانسان والاله ٠

وقد اعتنقت الكنيسة المصرية وحدة الطبيعة وولادة مريم لهما معاً ٠

وكان الخلاف الشديد بينهما ، وكان النزاع وكان الجدل ، وكل جدل يحل الاعتقاد ، ويضعف قوته ، ويخضد شوكته ، ولا يجعل له قوة دافعة مانعة ٠

وقد أشتد ذلك كله فى القرن الخامس والسادس ٠

وبذلك نقول مقررين أمرين :

أولهما ــ أن القرن السادس كانت العقائد فيه غير قارة في النفوس ، والآراء تخلق وتعتنق ثم يتعصب لها ،وليس التعصب دليلا على قوة الاعتقاد ، بل التعصب دليل على الانحراف النفسي،والنظر الجانبي ، وكذلك كان تعصب الملكانيين ضد اليعقوبيين ، اذ كان فى جملته ادراكا جانبياً منحرفاً ٠ العصبية هي المسيطرة فيه ، وليست قوة اليقين هي المسيطرة ٠

ثانيهما ــ أن النفوس في القرن السادس كانت مهيأة للعقيدة الصحيحة تعتنقها اذا ظهرت بيناتها ، وقام الاستدلال المنطقي عليه ، وخصوصاً أن الأفكار المرددة كانت أوهاماً ، أو أقوالا غير متميزة تمييزاً عقلياً ، ولم تكن قد استقرت استقراراً يجعل التعصب لها يشبه الطائفية ، كما حدث من بعد بين النصارى ، وبين اليهود ٠

وهكذا نرى المسيحية التي خلفت المسيحية الحقيقية التي جاء بها المسيح رسول الله عليه الصلاة والسلام ، جاءت الى النفوس قلقة غير مستقرة ، بل انها مضطربة غير ثابتة ٠

فاذا كانت أوثان الرومان قد فقدت قوة تأثيرها ، وحل في ربوع الوثنية ديانة تأخذ من اليهودية طرفاً يأخذها بأحكام التوراة الا ما خالف الأناجيل ، وتأخذ من الوثنية بأطراف ، ولا تكاد تأخذ من الدين الحقيقي شيئا ــ فان ذلك المزيج الجديد لم يستقر ، بل جاء مضطرباً واهناً حتى نهاية القرن السادس الهجري ، فكانت النفوس مهيأة لدين جديد هو الدين الحق ٠

العـــرب

٢٢ ـ طفنا بتفكيرنا حول العالم من غربه القريب والبعيد ، الى شرقه الأدنى والأوسط والاقصى ، ولم نعرج على البلاد العربية ، ونحسب أنها القلب ، وأنها ذؤابة الفكر الأدبي ،فاليها تأرز الحقائق الدينية قديماً وحديثا ، ومنها خرجت أصوات الأنبياء،خرجت ابتداء من أطرافها ، ثم ختمت الرسالة الالهية في قلبها ، ولقد هاجرابراهيم أبو الأنبياء الى بلاد العرب ، وولد فيها ولده اسماعيل الذي كان أول البشرى وحمد الله على ولادته ومن بعده اسحاق ، والأول من جاريته هاجر ،والثاني من زوجه سارة ، وقال من بعدهما

﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى وَهَبَ لِى عَلَى ٱلْكِبَرِ إِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ ۚ إِنَّ رَبِّى لَسَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ﴿٣٩﴾ ﴾ (١)

وقد كان من ولده قريش الذين كانوا ذؤابة العرب ، ولهم مكانة الزعامة فيهم ، كما سنبين عند الكلام عن الكعبة،فاليهم يأرزون ، والى تلك البنية يحجون •

وكانت قريش ومن يتبعونها على الدين الذى جاء به أبو الأنبياء ابراهيم عليه الصلاة والسلام ، فكانوا فى أصلهم موحدين لا يعبدون غير الله تعالى ، فلا يعبدون صنماً ، ولا حجراً ، ولا حيواناً،وليس من ألوهية لمخلوق الا ما كان ممن وفدوا اليهم من النصارى كنصارى نجران ونصارى تغلب وغيرهم ، وقد كان يقوي توحيدهم صلتهم بابراهيم عليه السلام ، وشرفهم في الانتساب اليه عن طريق ولده اسماعيل عليه السلام ، ولكن طرأ عليهم ما حالت به أحوالهم ، وتغيرت بسببه عقائدهم وذلك لتقادم الزمن بينهم وبين اسماعيل عليه السلام ، حتى نسوا ما عرفوا •

---

(١) ابراهيم

دُخول الوثنيّة أرضَ العَرب:

٢٣ ـ توردت عبادة الأوثان على النفس العربية ، والتفكير العربى من نواح ثلاث :

أولاها ـ أن بقايا من الديانات القديمة كانت فيها وثنية ، وان لم تكن سائدة في البلاد ، فقوم نوح كان فيهم وثنية ، وقيل انه كان عربياً ، أو خاطب العرب ، وقد قص الله خبر أوثانهم فقال تعالى :

﴿ وَقَالُواْ لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمۡ وَلَا تَذَرُنَّ وَدّٗا وَلَا سُوَاعٗا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسۡرٗا ﴿٢٣﴾ وَقَدۡ أَضَلُّواْ كَثِيرٗاۖ ﴾ (١)

ولا شك أن هذه الأثارة من بقايا الوثنية تبقى ، وان لم تكن سائدة مسيطرة، وانك لترى أن بعض المتدينين بديانات سماوية يبقى فى نفوسهم بعد اعتناقها بقايا أشربت بها نفوسهم ، وتجري آثارها فى بعض آرائهم ، واذا لم تصل الى أن تكون رأياً يقنع ، فانها قد تكون تقليداً يتبع ٠

الثانية : من جيرانهم الرومان ، فان الوثنية الرومانية كانت على مقربة من العرب من قبل المسيح ومن بعده فعدوى العقائد تسرى كعدوى الأمراض ، ومن الاختلاط الذى كان بين بعض العرب والرومان في الاتجار كانت العقائد الدينية تجيء اليهم ، وخصوصا أن دولة الرومان كانت أقوى سلطاناً من الجماعات العربية ، وأن بعض القبائل العربية كانت تخضع لسلطان الروم، كالغساسنة، فانهم كانوا تحت سلطان الرومان وكانت له تبعية للرومان ، ووراء هذه التبعية الاختلاط ، ووراء الاختلاط العدوى ٠

والناحية الثالثة : ذكرها ابن اسحق صاحب السيرة فقال :

« يزعمون أن أول ما كانت عبادة الأحجار في بني اسماعيل أنه كان لا يظعن من مكة ظاعن منهم حين ضاقت والتمسوا الفسيح في البلاد الا حمل معه حجراً من

---

(١) نوح ٠

حجارة الحرم تعظيما للحرم ، فحيثما نزلوا وضعوه وطافوا به كطوافهم بالكعبة ، حتى أدى ذلك الى أن كانوا يعبدون ما استحسنوه من الحجارة وأعجبهم ، حتى خلفت من بعدهم خلوف، ونسوا ما كانوا عليه واستبدلوا بدين ابراهيم واسماعيل غيره ، فعبدوا الأوثان ، وصاروا الى ما كانت عليه الأمم قبلهم من الضلالات » .

ويذكر الحافظ ابن كثير في تاريخه أن ابن هشام قال : « حدثني أهل العلم أن عمرو بن لحي خرج من مكة الى الشام، فلما قدم مآب من أرض البلقاء وبها يومئذ العماليق رآهم يعبدون الأصنام فقال لهم ما هذه الأصنام التى أراكم تعبدون ، قالوا له هذه أصنام نعبدها ، فتمطرنا ، ونستنصر بها فتنصرنا ، فقال لهم ألا تعطون منها صنما ، فأسير به الى أرض العرب فيعبدونه ، فأعطوه صنما يقال له هبل ، فقدم به مكة ونصبه وأمر الناس بعبادته » .

وعمرو بن لحي هذا كان سيد خزاعة ، وكانت لخزاعة سدانة البيت الحرام، فكان له بهذا سلطان في التوجيه، يعظمون ما تعظمه .

وان هذا يدل على مقدار العدوى التي جاءت من الرومان ، فما كان في الشام انما هو من أثر وثنية الرومان ، وان ذلك يؤكد أن وثنية العرب كان للعدوى أثر فيها وان كان ثمة أسباب قوتها .

ومهما تكن الأسباب فقد توافرت ، حتى دخلت الوثنية الأرض العربية ، وبين ذرية ابراهيم حاطم الأوثان الذى جعلها جذاذا .

وقد سيطرت الوثنية على أعمالهم حتى لقد ورد عن أبي رجاء العطاردي أنه قال : « كنا في الجاهلية اذا لم نجد حجراً جمعنا حثية من التراب فحلبنا عليها ثم طفنا بها » .

لم ينسوا الله في وثنيتهم :

٢٤ ــ لقد أُغرم العرب بعبادةِ الأوثان اغراما شديداً ، حتى صارت جزءاً من مداركهم وعقولهم وأصبحوا يَستنصرون بالأحجارِ ، ويظنُّون أنها تجيب سؤلهم ، ولكنهم مع ذلك لم ينسوا الله تعالى خالق هذا الوجود ومنشئه ، وكانوا

كما قال تعالى عنهم :

﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ﴾ (١)

وهنا تفترق الوثنية الرومانية واليونانية عن وثنية العرب اذ أن وثنية العرب فيها ايمان بالله ، وان لم يكن وحدانية ، بل كانوا يشركون مع الله تعالى غيره ، أما الآخرون فقد كانت نظرية الحلول تسري فيهم ، ولا يجيء في وثنيتهم ذكر الله تعالى قط .

والسبب الجوهري في هذه التفرقة أن الأصل عندهم هو التوحيد ، كما تلقوه عن اسماعيل وابراهيم عليهما السلام ، فكان بقية مما وصى به ابراهيم بنيه ويعقوب ، كما قال تعالى في كتابه الكريم :

﴿ وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبْرَٰهِـۧمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَٰبَنِىَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٣٢﴾ ﴾ (٢)

الأمر الثاني ــ هو احترام الكعبة والبيت الحرام ، وهو ما ورثوه عن ابراهيم عليه السلام فقد كانوا مع وثنيتهم فيهم بقايا من عهد ابراهيم من تعظيم البيت والطواف والحج والعمرة والوقوف على عرفات والمزدلفة وهدي البُدن، والاهلال بالحج والعمرة مع ادخالهم فيه ما ليس منه ، ويقول ابن اسحاق في سيرته : « كانت كنانة وقريش اذا أهلوا قالوا لبيك اللهم لبيك لا شريك لك الا شريكا هو لك تملكه وما ملك ، فيوحدونه بالتلبية ، ثم يدخلون معه أصنامهم ، ويجعلون ملكها بيده » ، ويقول تعالى لمحمد :

﴿ وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ ﴿١٠٦﴾ ﴾ (٣)

ومن أجل أن العرب كانوا يحاولون الجمع بين ايمانهم بالله تعالى وايمانهم بالأوثان نقول ان ايمانهم بالأوثان لم يكن قويا مستغرقا ، كما آل اليه أمرها

---

(١) لقمان ــ ٢٥ (٢) البقرة (٣) يوسف

عند الرومان ، وخصوصا قبل البعـث المحمدي ، كما أن ايمانهم بالله تعالى لم يكن صحيحا، لأن الايمان بالله لا يتحقق الا اذا كان المـؤمن يؤمن بوحـدانيته لا يشرك فيه أحداً في ذاته ولا في الخلق والتكوين ، ولا في العبادة ، فـلا عبادة الا لله تعالى وحده •

ولكن الذى يدل عليه الجمع بين الايمان بالله تعالى ، والايمان بالأوثان هو أن اعتقادهم فى الأوثان لم يكن قويامكينا ، بل هو اضطراب في الاعتقاد ، ولا استقرار فيه ، بحيث تستقر النفس وتطمئن ، وكيف يستقر عقل ، يجمع قبضة من التراب أو يقتطع قطعـة من الحجر يجعله معبوده ، ويعبده أطـراف النهار وزلفاً من الليل ، وهو مـع ذلك يجزم بأنه ليس بخالق ، ولكنه مخلوق •

واذا كانت الوثنية قد ضعفت في آخر أمرها قـوة الأوثان ، فان أوثان العرب خلقت فكرتهـا ضعيفة يوجـدما ينازعها ، أو يجعلها قلقة غير مستقرة اذ هي في نفسها تحمل عوامل ضعفهـا وردها ، ولكنه التقليد الأعمى ، الذي يسد مسالك الادراك على العقل •

القلوبُ فارغـة مِن إيـمَان:

٢٥ ــ ان الذى ذكرناه أن القلوب والعقـول كانت فارغة تحتـاج الى ما يملؤها ، ويسد فراغها ، ولا يتركها شاغرة فى شرق الأرض وغربها يستوي فى ذلك قاصي الأرض ودانيها فالشرق الأقصى كما يعبر رجال السياسة لم يكن فيه ايمان بشيء ، وقد كانت الأوهام هي التي تسيطـر ، والأوهـام وان استمكنت فى نفوس من تسيطر عليهـم غير صالحة للبقاء ، انما الذى يصـلح للبقاء مما يسيطـر على النفوس هـو ما يكون متفقا مع حكم العقل ، والتفكير السليم ، والأوهام وان قويت لا تستطيع مقاومة العقل ، ومثل الأوهام كمثـل الضباب يبدده ضوء الشمس ، فكـذلك العقل يبدد ضباب الأوهام ، ويكشف عن المدارك غمتها •

والهنود تسيطر عليهم أوهام أشد وظلم اجتماعى غير صالح للبقاء ،والفرس ظهرت عندهم مذاهب هـدامة تهـدم الانسانية ، فتجتثها من جذورها أو تهدم أخلاقها التى يتماسك بها آحادها •

والرومان وما كان تحت ظلهم قد فقدوا الايمان ، فاستبدلوا بالوثنية النصرانية التى ابتدعوها ، ولكن لم يثبت بها ايمان الى القرن السادس ٠

وليس فقد الايمان كان خاصا بالعقيدة فيما وراء الطبيعة ، بل كان مفقودا فى القيم الانسانية الخلقية كما هو مفقود في العبادة والألوهية ، فلم يكن ثمة خلق انساني سليم ، بل كان كل شعب ينظر الى الآخر ، نظرة العدو، وأصبح التفكير الخلقي مقصورا على معاملة أبناء الوطن الواحد ، لا أبناء الانسانية عامة وعم ذلك ولم يخص ،حتى كان الفلاسفة لا يؤمنون بحق الشعوب ، فأفلاطون قد كان يعتبر ماعدا اليونان من الناس برابرة ، وكل من يبعد عن وطنه فرسخا أو دونه يسترقه من يلقفه من غيره ، وقد وقع الرق على أفلاطون نفسه ، حتى افتدى ، وهكذا قد فقد الايمان بالقيم الانسانية كما فقد الايمان بالألوهية ٠

فكانت أماكن الايمان شاغرة من القلوب ، فلا بد من أن يكون من يملؤها، لابد من محمد رسول الله رب العالمين ،ولابد أن يقوم فى وسط الأرض يدعو أهل الأرض فى أرض النبوة الأولى ٠

أرضُ النُّبُوّة الأولى

٢٦ ـ قرأت لبعض كتاب الفرنجة كلاما يتحــدث فيه عن أروشليم وبيت المقدس يقول فيه ان أروشليم وما حولها من البقعة المباركة كانت مدرسة الأنبياء، ففي وسطهـا تربى الأنبياء ، وعلت أصواتهم بالرسالة ، وأنه لا مدرسـة للنبوة غير هذه المدرسة ، ففيها ظهر داود، وسليمان ، وعيسى ،وهي التي أرادها موسى ، ودعا بنى اسرائيل لأن يدخلوها،فقالوا ان فيها قوما جبـارين وانا لن ندخلها حتى يخرجوا منها •

وذلك القول فيه حق ، وفيه باطل ،أما الحق فهو ما ينبىء عنه من مـكانة أورشليم التى بها المسجد الأقصى مسرى النبي ، وثالث المساجد التي تشد اليها الرحال ، والتي كان منها المعراج ، والقبلة الأولى للاسلام، وهي بهذا وبغيره سميت في القرآن ، والمصادر الديينية السماوية ، الأرض المقدسة •

أما الباطل فى كلام ذلك الكـاتب فهو :

أولا ــ فى قصره النبوة على أورشليم وما حولها ، فان القصر ليس بسليم ، فانه ما من أمة الا خلا فيها نذير ، وبعد أن قص الله تعالى قصص عدد من الأنبياء قال تعالى فى كتابه الكريم :

﴿مِنْهُم مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُم مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ﴾ (١)

واننا لا نذهب بعيداً عن أورشليم فانه بجوارها الجزيرة العربية وأطرافها كما فيها الأنبياء أصحاب الرسالات التى جاءت بها كتب سماوية وذكرتها التوراة والقرآن ، مما سنذكره فى هذا الموضوع قريبا ان شاء الله •

---

(١) غافر ــ ٧٨

ثانيا ــ لأنه فهم أن للنبوة مدرسة يتربى فيها الأنبياء وذلك باطل لأن النبوة رسالة من الله تعالى لخلقه ، لا تكون بمدرسة يتخرج فيها الأنبياء ، ولكن تكون بوحى من الله تعالى ، وتكليف منه سبحانه وتعالى ، سواء أكان ذلك الوحي بخطاب أوحي به اليه ، أو بكلام الله تعالى من وراء حجاب كما كان الشأن بالنسبة لموسى عليه السلام ، أو برسول من الملائكة ينقل عن الله تعالى لمن اصطفاه من خلقه نبيا أو رسولا ، فاعتبار أورشليم مدرسة للنبوة ، كلام ليس دينيا وليس علميا ، ولا يتفق مع تاريخ الأنبياء المرسلين عليهم الصلاة والسلام ·

٢٧ ــ واذا سأل سائل لماذا بعث محمد فى الجزيرة العربية وفى الحجاز منها ؟ ولم يبعث فى أورشليم كما بعث داود وسليمان وعيسى عليهم الصلاة والسلام ·

ونقول فى الجواب عن ذلك « ان أكثر الأنبياء خصوصا أصحاب الرسالات كموسى وابراهيم ونوح واسماعيل واسحاق لم ينشؤا بأورشليم كما توهم ذلك الكاتب الفرنجي الذى لم يعرف معنى الرسالة والرسل ، ولم تكن الجزيرة العربية خالية ، بل هى كانت منبعث الأنبياء أصحاب الرسالات من القديم ، والذين كانوا فى أورشليم ان استثنينا عيسى عليه السلام وداود وسليمان لم يكونوا أصحاب كتب يعمل بها أقوامهم وانما كان يعمل أكثرهم بكتب نزلت على غيرهم ، وأكثرهم كان يعمل على اقامة توراة موسى ·

أما الرسل الذين جاؤا فى الجزيرة العربية فقد كانوا أصحاب رسالات ، ينفذونها بأنفسهم ، ولم يكن عملهم مقصوراً على بيان الرسالات لمن سبقوهم ولقد بين الله وحده الرسالة الالهية التى اختلفت كتبها ، ولم يختلف معناها ، فذكرها فى قوله تعالى

﴿ شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ كَبُرَ عَلَى ٱلْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ ٱللَّهُ يَجْتَبِىٓ إِلَيْهِ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ ﴿١٣﴾ ﴾ (١)

---

(١) الشورى ·

وأولئك هم أولو العزم من الرسل ،ولم ينشأ فى أورشليم منهم الا عيسى عليه السلام ، والآخرون كانوا تابعين من البلاد العربية ، أو مما حولها من أرض كنعان ، أو من أطراف الجزيرة كأرض سينا •

فالبلاد العربية هى موطن الرسالات الأولى ، بها ابتدأت الرسائل الالهية ، وبها ختمت ، فلم يكن غريباً أن يبعث محمد صلى الله تعالى عليه وسلم فى البلاد ، وينبثق نوره فى الآفاق من أهل المدر ، وأهل الوبر فيها •

هذا اجمال نعرج اليه ببعض التفصيل :

إدريس عربى :

٢٨ ــ ان الحقيقة أن البلاد العربية كانت مهد النبوة فادريس عليه السلام الذى رفعه الله تعالى مكانا عليا ،والذى تقول الأخبار ، انه كان فى البطن الثالث لآدم أبى الخليقة ، قالوا انه كان عربياً وفى أرض العرب ، وليس لدينا دليل يجعلنا نؤمن بأنه البطن الثالث لآدم ، ولذلك نطرح القول فى ذلك غير مكذبين ولا مصدقين ، ولا نحسب أنه من أساطير الأولين •

وانما الذى نتمسك به هو أنه صديق من الأنبياء الذين وصفهم الله تعالى بذلك الوصف الكريم • فقد قال تعالى :

﴿ وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِدْرِيسَ ۚ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا ﴿٥٧﴾ ﴾ (١)

فهو صديق،وهو رفيع المكانة عند الله تعالى ، لأنه سبحانه رفعه مكانا عليا •

ويغلب على الظن أنه لم تكن نشأته بأورشليم ، لأن أورشليم أنشأها يعقوب بن اسحاق عليهما الصلاة وأتم التسليم•

ولقد جاء فى كتاب قصص الأنبياء لأبى الفداء أن ادريس فى سلسلة نسب النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ، فقدجاء فيه ما نصه •

« ادريس عليه السلام قد أثنى الله تعالى عليه بالنبوة والصديقية ، وهو فى عمود نسب النبى صلى الله تعالى عليه وسلم » •

---

(١) مريم

وما دام فى عمود نسب النبى صلى الله تعالى عليه وسلم يعد عربياً ، ولا يعد من أورشليم ، ولا شك أن الحكم فى هذه المسألة الموغلة فى التاريخ لا يعد حكما قاطعا ، ولكنه حكم راجح ، وأكثر مسائل التاريخ الحكم فيها ظني لا قطعي .

نوح عربى :

٢٩ ـ تضاربت الروايات عن منشأ نوح عليه السلام أكان ببابل أم كان بالجزيرة العربية ، ولكن الثابت أنه مر بالبلاد العربية ، وذكروا أن سفينته مرت فى مقابل الكعبة أربعين مرة ،ولقد أكد ابن كثير أنه دفن فى البلاد العربية ، فقد قال ابن كثير فى قبره :« وأما قبره عليه السلام ، فروى ابن جرير والأزرق عن عبد الرحمن بن ساط مرسلا أن قبر نوح بالمسجد الحرام ، أى بالموضع الذى بنى فيه المسجد الحرام ».

ويقول ابن كثير : « وهذا أقوى وأثبت من الذى يذكره كثير من المؤرخين من أنه ببلدة بالبقاع تعرف اليوم (أى فى القرن الثامن الهجرى) بكرك نوح ، وهناك جامع قد بنى بسبب ذلك .

والحق أنا نميل الى أنه طوف بالآفاق، فاذا كان منشؤه ببابل ، فهو قد آوى الى بلاد العرب حصن الديانات الأولى ،ومنابع النبوة .

هود نبى الله كان عربيًّا :

٣٠ ـ هود أقدم من ابراهيم عليه السلام ، كان من قوم عاد ، وكانوا عربا يسكنون بالأحقاف ، وكثيرا ما كانوا يسكنون الخيام ذوات الأعمدة الضخام .

ويذكر ابن كثير أنه يقال ان هوداً أول من تكلم بالعربية ، ويقول ابن كثير : « وزعم وهب بن منه أن أباه (أى أبا هود) أول من تكلم بها ، وقال غيره أول من تكلم بها نوح عليه السلام ، ويقال للعرب الذين كانوا قبل اسماعيل العرب العاربة ، وهم قبائل كثيرة منهم عاد ،وثمود ، وجرهم وغيرهم وأما ولد اسماعيل ، فيسمون العرب المستعربة».

وقد قالوا ان هوداً كان أول نبى بعد نوح عليه السلام ، وربما يومىء الى ما حكاه الله فى خطابه لقومه :

﴿ وَاذْكُرُوٓاْ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِى ٱلْخَلْقِ بَصْۜطَةً فَٱذْكُرُوٓاْ ءَالَآءَ ٱللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٦٩﴾ قَالُوٓاْ أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ ٱللَّهَ وَحْدَهُۥ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا ۖ فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٧٠﴾ ﴾ (١)

ونرى من هذا النص أنه يومىء الى أن هوداً جاء من بعد نوح ، وأن قومه كانوا خلفاء من بعد نوح ثم يؤتي بالاشارة من جهة أخرى الى أن قوم نوح كانوا فى أرض العرب ، كما كان خلفاؤهم ، والله أعلم .

وان عاداً كانوا من أقوى قبائل العرب منعة ، وأقواها شكيمة ، ولكن كانوا أشدها غرورا ، كما قال الله تعالى عنهم :

﴿ فَأَمَّا عَادٌ فَٱسْتَكْبَرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَقَالُواْ مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً ۖ أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً ۖ وَكَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَجْحَدُونَ ﴿١٥﴾ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِىٓ أَيَّامٍ نَّحِسَاتٍ لِّنُذِيقَهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْىِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَعَذَابُ ٱلْـَٔاخِرَةِ أَخْزَىٰ ۖ وَهُمْ لَا يُنصَرُونَ ﴿١٦﴾ ﴾ (٢)

وهكذا نرى هوداً عليه السلام يجادل قومه بالحسنى أو التى هى أحسن ، وهم يجادلونه بالعنف أو الطغيان حتى أهلكهم الله تعالى بريح صرصر عاتية .

صالح عربى :

٣١ ــ صالح عليه السلام هو نبي ثمود ، وكانوا عربا من العاربة يسكنون الحجر الذى بين الحجاز وتبوك ، وقد مر بديار ثمود رسول الله محمد صلى الله تعالى عليه وسلم وهو ذاهب الى تبوك فى الغزوة التى قد غزاها .

(١) الأعراف (٢) فصلت

كان يدعوهم نبيهم الى التوحيد ، وكانت بينته ناقة لا يمسوها بسوء ، والا كانوا خاسرين كما قال تعالى حكاية عن سيدنا صالح وقومه :

﴿ وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِىٓ أَرْضِ ٱللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٧٣) ﴾ (١)

ولقد كان قوم صالح من بعد عاد وقوم هود ، اذ كانوا خلفاءهم ، وكانوا أقوى قوة وأكثر عددا كما قال تعالى :

﴿ وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ ٱلْجِبَالَ بُيُوتًا فَٱذْكُرُوٓا۟ ءَالَآءَ ٱللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ (٧٤) ﴾ (٢)

ولكن ثمود بعدت عن أمر ربها ، واعتدوا على صالح ، فنزل عليهم عذاب واصب وأبادهم ، ويروى أن المسلمين رأوا البئر التى كانت تشرب منها ، وذلك في غزوة تبوك ، فقد روي عن ابن عمر قال : لما نزل رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم بالناس على تبوك نزل بهم الحجر عند بيوت ثمود ، فاستقى الناس من الآبار التى كانت تشرب منها ثمود ، فعجنوا منها وملئوا القدور ، ثم ارتحل بهم حتى نزل بهم على البئر التى كانت تشرب منها الناقة .

إبراهيم أبو العرب المستعربة وإسماعيل :

٣٢ ـ لقد ولد ابراهيم فى أرض الكلدانيين يعنون أرض بابل .

وقيل ان ابراهيم ولد بغوطة دمشق فى قرية يقال لها برزة فى جبل يقال له جبل قايسيون ولكن ابن عساكر راوي الخبر يقول « والصحيح أنه ولد ببابل » .

---

(١) الأعراف (٢) الأعراف .

ولكن ابراهيم لم يستقر فى بابل ، بل كان يتنقل فى الأقاليم ، فارتحل الى كنعان حيث أرض فلسطين ثم ارتحل الى حران ، والجزيرة والشام .

وكانت عبادة الكواكب سائدة فى البلاد التى نزل بها ، وكان هو يدعو الى عبادة الله تعالى الواحد القهار ، ولقد حطم الأوثان وجعلها جذاذاً ، وقد حاول المشركون أن يحرقوه بالنار لما فعل بآلهتهم ، فألقوه فى النار ، وهو لايعتمد الا على الله تعالى ، وقال حسبنا الله ونعم الوكيل ، فاستجاب الله لدعائه ، وجعل النار برداً وسلاماً عليه ، فقال سبحانه :

﴿ قُلْنَا يَٰنَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴿٦٩﴾ وَأَرَادُواْ بِهِۦ كَيْدًا فَجَعَلْنَٰهُمُ ٱلْأَخْسَرِينَ ﴿٧٠﴾ ﴾ (١)

أرادوا أن ينتصروا فخذلوا ، وأرادوا أن يرتفعوا فاتضعوا ، وأرادوا أن يغلبوا فغلبوا ، فهم أرادوا الأذى لابراهيم ، وأراد الله الخير له ، فكان كيدهم شراً ، وأراد احباط ما صنعوا وكانوا الأخسرين ، لأنه لم يتم لهم مأرب ، وحقق لابراهيم الغاية .

ولم يجد ابراهيم مهاجرا الا فى بلاد العرب ، هاجر اليه بعد أن طوف ما طوف ، اذ أن أم ولده اسماعيل هاجرت بولدها الى مكة فرارا به ، وطمأنينة عليه ، وكان معها ابراهيم ، أو هو الذى أخذها اليه .

هربت بابنها اسماعيل الى موضع مكة ، ومعها أبوه خليل الله .

وقد أصابها العطش ، فأخذت تسعى الى الماء بين الصفا والمروة حتى رأت عينا ثرة ، فملأت سقاءها وشربت هى وولدها .

ولقد شب اسماعيل عن الطوق ، وتعلم العربية ، ورزقه الله هو وأمه رزقا حسنا ، كان يأتيهما من غير حساب ، وكان الخليل يزورهم الوقت بعد الآخر .

---

(١) الأنبياء .

بناء الكعبة :

٣٣ ـ وفى احدى الزورات التقى الشاب بأبيه ، فصنع كل منهما ما يصنع الولد بالوالد ، والوالد بالولد ، على شوق بعد طول غياب ، فقال الأب لولده الشاب : يا اسماعيل ان الله تعالى أمرني بأمر ٠

قال الشاب : اصنع ما أمرك به ربك ٠

قال الشيخ : وتعينني عليه ؟

قال اسماعيل : وأعينك عليه ٠

قال الشيخ لابنه : فان الله أمرني أن أبني هاهنا بيتاً ، وأشار الى أكمة مرتفعة على ما حولها ٠

فعندئذ رفعا القواعد من البيت ،فجعل اسماعيل يأتى بالحجارة ، وابراهيم يبنى ، حتى اذا ارتفع البناء جاء بالحجر الأسود فوضعه ، ليكون علامة ابتداء الطواف وانتهائه فى مراته ٠

وهذا ما بينه الله تعالى فى قوله تعالى تعالت كلماته :

﴿ وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَـٰعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٢٨﴾ رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٢٩﴾ ﴾ (١)

استقر بابراهيم المطاف بأن بنى ذلك البيت أول بيت وضع للناس ، فشرفت البلاد العربية به ، وشرفت بابراهيم الذى جعلها تختار بناءه بأمر الله تعالى ٠

---

(١) البقرة ٠

فابراهيم اذا كان مولوداً ببابل ، وان بيته أول بيت لله تعالى بناه بالبلاد العربية ، فليست البلاد شريفة به وبابنه فقط، بل هى شريفة بأن ابنه أبو العربية المستعربة ·

واذا كان ابراهيم أبا الأنبياء حقاً صدقا ، فانه لم يبن بيتاً بأمر الله تعالى الا في البلاد العربية ، ولم يبن ذلك البيت بكنعان ولا ببابل ، ولا بغيرهما ، فكانت الجزيرة العربية أرض النبوة الأولى حقا وصدقا ، ولا غرابة فى أن يكون مبعث محمد عليه الصلاة والسلام فيها ، انما تكون الغرابة ان خرج نبته الطاهر من غيرها ·

شعيب ومدين :

٣٤ ـ جاء شعيب بعد ابراهيم وبعد لوط ، وقيل انه كان بعد يوسف عليهم السلام ، ومن المؤكد أنه جاء بعد لوط لأنه جعل من انذاره لقومه أن يصيبهم مثل ما أصاب قوم لوط ، فقد قال الله تعالى عنه :

﴿ وَيَٰقَوْمِ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِيٓ أَن يُصِيبَكُم مِّثْلُ مَآ أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَٰلِحٍ وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِّنكُم بِبَعِيدٍ ﴿٨٩﴾ ﴾ (١)

وان هذا النص القرآنى السامى يدل على أمرين :

أولهما : أن مبعث شعيب عليه السلام كان بعد مبعث هود وصالح ولوط فقد جعل في بيانه ما حدث لأقوام هؤلاء من عذاب دنيوى ماحق كان موضع انذار لهم ·

ثانيهما : أنه يدل على أن قوم لوط كانوا فى العرب ، ولذلك قال :

﴿ وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِّنكُم بِبَعِيدٍ ﴿٨٩﴾ ﴾ (٢)

فهم كانوا على مقربة منهم ، فهم كانوا مثلهم في أطراف أرض العرب من ناحية الشام ، اذ قد اختار لوط محلة غير المحلة التى كان بها

---

(١) (٢) هود ·

عمه ابراهيم عليهم جميعاً الصلاة والسلام ، فهم من صفوة خلق الله الذين اصطفاهم على عباده ، وكانوا رسلا مبشرين ومنذرين ، وتركوا رسالات خالدة ، خلدها القرآن الكريم •

ولا نترك الكلام فى شعيب من غير أن نذكر كلمتين :

احداهما : أنه بعث لمدين ، وأهل مدين هم أهل الأيكة ، اذ كانوا يعبدون شجرة عظيمة هى الأيكة وهم أصحاب يوم الظلة ، وقد ذكر علماء تاريخ الأنبياء أن يوم الظلة يوم فيه حر شديد أصابهم ، وأسكن الله تعالى هبوب الهواء عليهم سبعة أيام ، فكان لا ينفعهم مع ذلك ظل ولا ماء ، ولا دخول فى الأسراب فهربوا من محنتهم الى البرية ، فأظلتهم سحابة ، فاجتمعوا تحتها ، ليستظلوا بظلها ، فلما تكاملوا أرسلها الله تعالى عليهم ترميهم بشرر وشهب ، ورجفت بهم الأرض ، وجاءتهم صيحة من السماء فأزهقت الأرواح ، وخرت الأشباح » •

هذا ما ذكره ابن كثير فى معنى الظلة والصيحة التى أصيب بها قوم شعيب ، وقد ذكر سبحانه وتعالى الرجفة والصيحة ، فقد قال سبحانه وتعالى فى قصتهم فى سورة الأعراف :

﴿ فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ ﴿٧٨﴾ ﴾ (١)

وجاء فى سورة هود :

﴿ وَأَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ ﴿٩٤﴾ ﴾ (٢)

وهى عقوبات متتالية أرهقتهم الذلة ، حتى ضاقت عليهم الأرض بما رحبت ، وضاقت عليهم أنفسهم ، حتى فروا من أماكنهم ، فجاءتهم الغمامة فرجوا أن يستظلوا ، أو أن يجدوا فيها الرحمة ، فكانت الصيحة العنيفة وكانت الرجفة التى أصابتهم •

وقد قال فى ذلك ابن كثير « جمع الله تعالى عليهم أنواعا من العقوبات وصنوفاً من المثلات ، وأشكالا من البليات ، وذلك لما اتصفوا به من قبيح

---

(١) الأعراف (٢) هود

الصفات ، سلط الله عليهم رجفة شديدة أسكنت الحركات ، وصيحة عنيفة أخمدت الأصوات ، وظلة أرسل منها شرر النار من سائر أرجائها والجهات » .

الكلمة الثانية أن أهل مدين امتازوا من بين عبدة الأوثان بأنهم جمعوا مع عبادة الشجرة فساد الأخلاق وسوء المعاملات بعضهم مع بعض ، كانوا يطففون فى الكيل والميزان ، وكانوا قطاع طريق ، يقطعون السبيل ويخيفون المارة ، يأخذون الفائدة الزائدة ، ويدفعون الناقص ، فان استدانوا نقصوا من الدين ، فكانوا بذلك أشد فسادا ، ولذلك كان نهي نبيهم لهم عن الفساد فقال لهم: ولا تعثوا فى الأرض مفسدين ، فلا يفسد الجماعات الا التعامل الفاسد ، وهو مبيد جمعها ، لقد كانوا قليلا ، فكثرهم الله ، ولكنهم أضعفوا نخوتهم ، وأماتوا عزتهم ، فانصرفوا الى الفساد .

ولقد كان أوضح ما دعاهم اليه شعيب عليه السلام هو الوفاء والمعاملة الطيبة ، والتعاون على البر والوفاء بالحقوق ، بدل التعاون على الاثم .

وكان شعيب فصيح العبارة قوى البيان والتأثير ، حتى لقد روى فى بعض الآثار أنه خطيب الأنبياء ، ومدين من بلاد العرب على أطراف الشام ، جاء فى قصص الأنبياء لأبى الفداء فى أرض مدين ما نصه :

« كان أهل مدين قوماً عرباً يسكنون مدينتهم مدين التى هى قريبة من أرض معان من أطراف الشام مما يلى ناحية الحجاز قريباً من بحيرة قوم لوط ، وكانوا بعدهم بمدة قريبة ، ومدين قبيلة عرفت بهم ، وهم من بني مدين بن مديان » (١) .

موسى كُلِّف الرسالة فى أرض العرب:

٣٥ ـ لقد نشأ موسى بمصر حيث ولد بها ، وتربى فى دار فرعون ، وترعرع فى هذا ، وكان فى رعاية الله تعالى ، لا فى رعاية فرعون ، اذ كان يتوجس منه خيفة ، ولكن صنعه الله تعالى على عينه ، فحماه وأعطاه سبحانه وتعالى النبوة ، فكان كليم الله تعالى .

---

(١) قصص الأنبياء ص ٢٧٥ جـ ١ .

ولكنه لم تبلغ اليه رسالة ربه فى أرض مصر منبته ، ومرباه ، بل كلمه ربه من وراء الشجرة خارج مصر حيث البلاد العربية ٠

ذلك أن موسى عندما قتل من المصريين رجلا ، اعتدى على آخر من بنى اسرائيل قوم موسى ، وحرض على أن يقتل آخر لولا أنه أدرك أن هذه فتنة ، وقال لمن حرضه من قومه انك لغوي مبين ، ولما أخبر أن الملأ يأتمرون به ليقتلوه خرج من مصر ، واتجه تلقاء مدين ، وهو يحس بالحاجة الى الغوث والمعونة ، وهو يقول :

﴿ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ ﴿٢٤﴾ ﴾ (١)

وهو يقول أيضاً راجياً الهداية من ربه يقول :

﴿ عَسَىٰ رَبِّيٓ أَن يَهْدِيَنِي سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴿٢٢﴾ ﴾ (٢)

حتى اذا ورد ماء مدين ، وجد أمة من الناس يسقون ، ووجد من دونهم امرأتين تذودان : أى تكفكفان غنمهما أن تختلط بغنم غيرهما،وكانتا لاتسقيان غنمهما الا من فضل الماء الذى يبقى بعد سقي الرجال ، وانهم كانوا بعد سقيهم يضعون صخرة على العين ، فلا تتمكن الفتاتان الا من سقي غنمهما من فضل الرجال ، فقال موسى الفقير الى رحمة الله ٠ للفتاتين الضعيفتين في بدنهما كما هو ضعيف النفس لفقره ،والضعيف يحنو على الضعيف ما خطبكما :

﴿ قَالَتَا لَا نَسْقِي حَتَّىٰ يُصْدِرَ ٱلرِّعَآءُ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ ﴿٢٣﴾ ﴾(٣)

فجاء موسى الى الصخرة فرفعها بعد أن صدر الرعاء وسقى لهما٠

بعد ذلك قصت الفتاتان على أبيهما قصة القوي الأمين ، فاستأجره ثماني حجج أو عشرا ، حتى انقضت المدة ،عشر سنين لأنه قضى الأجلين ، أي أتمها عشراً ٠

---

(١) (٢) (٣) قصص ٠

﴿ فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى ٱلْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِۦٓ ءَانَسَ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ نَارًا قَالَ لِأَهْلِهِ
ٱمْكُثُوٓا۟ إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا لَّعَلِّىٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ
(٢٩) فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِىَ مِن شَٰطِئِ ٱلْوَادِ ٱلْأَيْمَنِ فِى ٱلْبُقْعَةِ ٱلْمُبَٰرَكَةِ مِنَ ٱلشَّجَرَةِ أَن يَٰمُوسَىٰٓ
إِنِّىٓ أَنَا ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ (٣٠) ﴾ (١)

ومدين كما جاء فى قصص الأنبياء لأبي الفداء « هى المدينة التى أهلك الله فيها أصحاب الأيكة » وهم قوم شعيب عليه السلام ، وقد كان هلاكهم قبل زمن موسى عليه السلام ٠

فمدين كما ترى من بلاد العرب ،وهي التي جاءت فيها الرسالة ٠ بعد أن أقام موسى عليه السلام فيها عشر سنين، بعد فيها عن بيئة فرعون فصفت نفسه ٠

وقد يقال أن النص يفيد أنه كان بجانب الطور أي في أرض سيناء ، ونحن نقول ان ذلك حق ، ولكن بعد أن صفت نفسه من فرعون وآثاره وطغيانه، وتربيته قومه على الذلة والخنوع ، حتى كان فى مصر الرخاء والخصب والذلة مجتمعات ٠

وكيف يوفق بين كون مدين ببلاد العرب على أطراف الشام ٠ وكون موسى كلف الرسالة بجانب الطور ٠ يجيب عن ذلك السؤال أبو الفداء في قصص الأنبياء فيقول : « وسار بأهله » أي من عند صهره ذاهباً فيما ذكره غير واحد من المفسرين وغيرهم أنه اشتاق الى أهله فقصد زيارتهم ببلاد مصر فى صورة مختف ، فلما سار بأهله ، ومعهم ولدان وغنم قد استفادها مدة اقامته بمدين ، ومهما يكن من الأمر ، فان الله اصطفى موسى كليما له ورسولا الى فرعون ،

---

(١) قصص

وشعيب استنقذه من أرض مصر • مدة عشر سنين ، بعد فيها عن جو فرعون المعتم ، ليتلقى أمر ربه بتبليغ رسالته الى فرعون الذى طغى

﴿ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ ﴿٧﴾ ﴾ (١)

أرض العرب مأوى الفارين بدينهم :

٣٦ ـ كانت أرض العرب مأوى لأصحاب الديانات الذين فروا من الاضطهاد ، فاتخذوها مستقراً فهي أرض النبيين أصحاب الرسالات العامة وهى أيضاً مأوى الديانات التى نبتت في غير أرض العرب عندما اضطهدوا في ديارهم ، ونزل بهم البلاء من التتار الذين جاسوا خلال ديار بني اسرائيل ومزقوهم كل ممزق ، وهم أولو البأس الذين بعثهم الله تعالى ، ثم من بعد ذلك الرومان الذين ضربوا عليهم الذلة والمسكنة ، وكانوا لايعترفون لهم بحقوق الرومان ، ولم يدخلوهم في الجنسية الرومانية مع أنهم في حكمهم وتحت سلطانهم ، ورعاياهم ، ولكنهم الرعايا الأدنون ، وهم من فوقهم ، ولذلك لم يجد كثيرون منهم مأوى يأوون اليه الا البلاد العربية التى كانت حصن الذين يفرون بدينهم، ولا يجدون ملجأ الا أرض النبيين الأولين التى لم يتغلب عليها •

وقد وجدوا الملاذ ابتداء في أرض اليمن فاستظلوا بظل قوم تبع ، ومع أنهم كانوا وثنيين وجدوا في حكمهم ظلا ظليلا ، استظلوا به ، وأخذوا حريتهم فيه ، وقد اعتنق اليهودية بعض اليمنيين ، ولكن اليهود لا يعتبرون اليهودية دينا فيه اصلاح البشر وصلاحه، ولكنهم يعتبرونه جنسية ، ويقولون مقالهم المزعوم الفاسد ، نحن أبناء الله وأحباؤه ولذلك لم يضموا اليمنيين الذين دخلوا في اليهودية اليهم ، ولم يضموهم في جماعتهم ويسمونهم السامرة ، ولقد عاشروا الأوس والخزرج في موطنهم الأصلي باليمن •

ولما هاجر أولئك الوثنيون الى يثرب حيث الجناب الخصيب ، وحيث المنجع المربع ، هاجر اليهود أيضا ، الى ما حول يثرب فهاجر بنو النضير ، وبنو قريظة، وبنو قينقاع ، وخيبر •

---

(١) العلق •

ولم يندمجوا في الشعب العربى ، بل اتخـــذوا حصوناً تحتويهم حينمـا أقاموا ، وانتجعوا الخصيب من الأرض ، فكان لهـم النخيـل والتمر في يثرب ، امتلكه الذين أقاموا فيها من بني قينقاع والنضير ، وقـــريظة ، وامتلك أهل خيبر مثلها ٠

وكانوا كشـــأنهم أثرين يحبون أنفسهم ، ولا يتعاونون مع أهل البلاد ، فكانوا لا يتعاملون مع العرب ، وان تعاملوا معهـــم يبخســـونهم ، وخانوهم عهودهم ، كما قال تعالى:

﴿ وَمِنْهُم مَّنْ إِن تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لَّا يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَائِمًا ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾ بَلَىٰ مَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِ وَاتَّقَىٰ فَإِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ ﴿٧٦﴾ ﴾ (١)

فالعرب الذين آووهم وأنزلوهم أرضهم ، أبوا هم عليهـم المعاملة الطيبة ، ونظروا اليهم على أنهم دونهم وأنهم أميون ، والأمي يؤكل حقه فى زعمهـم الباطل ، ومنطقهم الأثيم ، وجانبوهم ، وتحيزوا في حيز دونهـم وعاشـوا بجوارهم يأخذون ولا يعطون ٠

النصـــرانيـــة :

٣٧ ـ كما أوت اليهودية الى أرض الحرية أرض العرب ، أوت النصرانية اليها عندما كانت مضطهدة من الرومان، وكان اليهود يغرونهم بهم كما روي عن محاولتهم اغراء الرومان بالسيد المسيح عليه السلام نفسه ٠

وقد لجأت النصرانية الى أرض نجران ، ويظهر أنهم كانوا من النصـــارى الذين فروا من حكم القياصرة الذين اضطهدوهم، ويظهر أنهم كانوا فى ابتداء أمرهم موحدين حتى غشيت الوثنية تلك الديانة السمـــاوية بالتثليث وادعـاء الألوهية لعيسى بن مريم ، وأمه والروح القدس ٠

---

(١) آل عمران ٠

فقد جاء في كتاب الاكتفاء ما نصه :« كان بنجران بقايا من أهل دين عيسى بن مريم على الانجيل ، أهل فضل واستقامة من أهل دينهم ، لهم رأس يقال له عبد الله التامر ، وكان موضع أصل ذلك الدين بنجران ، وهي بأوسط أرض العرب في ذلك الزمان .

وأن استقامة أهل نجران على أصل دين المسيح عليه السلام كانت قائمة فيهم . حتى عصر النبي صلى الله عليه وسلم حتى ذكرهم القرآن الكريم بالثناء عليهم فقال تبارك وتعالى :

﴿ لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِّلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا ۖ وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَىٰ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٨٢﴾ وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَىٰ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ ۖ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ ﴿٨٣﴾ وَمَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا جَاءَنَا مِنَ الْحَقِّ وَنَطْمَعُ أَن يُدْخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ الْقَوْمِ الصَّالِحِينَ ﴿٨٤﴾ فَأَثَابَهُمُ اللَّهُ بِمَا قَالُوا جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ ﴿٨٥﴾ ﴾ (١)

وقد قالوا في أخبار نجران أنه مع مكانة عبد الله ، كان رجل صالح من نصارى الشام ، ويظهر من سياق الأخبار أنه كان ممن فر بدينه هاربا من أرض الرومان ، اما لاضطهادهم النصارى ،واما لأنه رأى بعد زوال الاضطهاد أن الرومان وجهوها وجهة وثنية، وانحرفوا بها عن التوحيد الذى هو لبها وأصلها .

وذلك الرجل اسمه « فيميون » كان رجلا زاهداً صالحاً مجتهداً عاملا لا يأكل الا من كسب يده ، كان حريصاً على أن يعيش مستخفياً ، لا يريد أن يعرفه الناس ، فما أن يعرف في قرية ، حتى يخرج منها الى غيرها ، ولكن فضله كان يكشفه .

(١) المائدة .

ولعل السر في استخفائه أنه كـان مضطهداً فأراد ألا يعرف ، وأن يذهب الى أماكن متفرقة يحتقب عقيدته الخاصة ، حتى لا يكون اضطهاد يقع به ·

ولقد تبعه في ذهوبه وجيئته شـاب اسمه صالح ، اتبعه اتباع المريد للشيخ فكان ينزل معه حيث نزل ، ويرحل من حيث ارتحل ·

وبينما هما يسيران اختطفتهما سيارة ، واسترقهما من فيها ، وباعوهما ، وقد رأى من ابتاع «فيميون» في عبده المزعوم خيراً كثيراً ، اذ كان يقوم من الليل ويصلي ، غير آبه لرق الجسد ، ما كانت له حرية العبادة ·

وكان أهل نجـران يعبدون نخلة ، كما كان يعبد من قبل أهل مدين أيكة ، وقد أخذ ذلك الزاهد الطيب يدعو لله وحـده ، ويسيطـر بدينـه على من استرق بدنه ·

قال لهم : انما أنتم في باطل ، ان هـذه النخلة لا تضر ولا تنفع ، ولو دعوت عليها الله الذي أعبده وحده لا شريك له لأهلكها ·

قال الرجل فافعل ، فانك ان فعلت دخلنا فى دينك ، وتركنا ما نحن عليه ، فقام «فيميون» وتطهر وصلى ، ثم دعا الله تعالى عليها ، فأرسل الله تعالى عليها ريحاً فاقتلعها فاتبعه عنـد ذلك الكثيرون ، وذاعت حاله ودعاؤه ، وما كان للشجرة بعد الدعاء ·

وبذلك دخلت نجران في دين (فيميون) فحملهم على الشريعة الحق من دين عيسى عليه السلام ·

ولا شك أن هذا الخبر لا يخلو من الأساطـير ، وخصوصا أن فيـه بعض الأوهام وقد ضربنا عن ذكرها صفحاً ، واكتفينا منها بما يقبل التصديق ، ولا يوجد ما يدل على الكذب ، أو يوهم بأنه غير معقول في ذاته ·

وانه مهمـا يكن فيه من مبالغات لا ينفي العقل وجودها فانه لا شـك أن النصرانية دخلت نجران ، وفي أول دخـولها كانت مسيحيـة المسيـح ، لا النصرانية التي دخلها الانحراف من بعدها ، واذا كانت قد غشيتها غواشي التحريف في أهل نجران من بعد ، فان بقية من الاستقامة النفسيـة كانت فيهم عندما التقوا بالنبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، ولقد كان مع أهل نجران من

العرب من دخل في النصرانية غيرهم كنصارى بني تغلب الذين كانوا مع المسلمين ، واستمروا حتى عصر الراشدين ، ومع انتشار النصرانية في أهل نجران بدعاة المسيحيين الأصليين كان ملكها باقيا على ، وثنيته ، وقد رأى الشعب يخرج منه الدعاة الذين يدعون الى توحيد المسيحية الأولى مخلصين ، فشدد في ايذاء هؤلاء الدعاة ونكل بهم ، وأوجد فيهم صنوفا من العذاب ابتدعها ، ولم يسبق بها .

أصحاب الأخدود:

٣٨ ـ وان أهل نجران أخلصوا في المسيحية وقبلوا في سبيلها العذاب الشديد ، ورضوا به عن أن يغيروا دينهم غير مطمئنين الى عقيدة سواه ، وابتلوا فى ذلك ، فأبلوا بلاء حسنا ، وصبروا.

وذلك أن ذا نواس سار اليهم ، وأراد حملهم على اليهودية ، أو أن يعودوا الى الوثنية ، فأبى أهل نجران أن يخالفوا ، وأن يرتضوا بالعذاب بدل أن يغيروا ويبدلوا فحفر لهم أخدوداً ، أى شق لهم في الأرض شقاً طويلا امتد ، وألقي بهم في النار التى أثارها في هذا الأخدود ، وحرقهم ، فما غيروا وما بدلوا ، حتى قالوا انه ألقى فيها نحو عشرين ألفا أبادهم ، وهؤلاء هم الذين جاء ذكرهم فى القرآن الكريم فقال تعالى :

﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلْبُرُوجِ ﴿١﴾ وَٱلْيَوْمِ ٱلْمَوْعُودِ ﴿٢﴾ وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ ﴿٣﴾ قُتِلَ أَصْحَٰبُ ٱلْأُخْدُودِ ﴿٤﴾ ٱلنَّارِ ذَاتِ ٱلْوَقُودِ ﴿٥﴾ إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ ﴿٦﴾ وَهُمْ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ ﴿٧﴾ وَمَا نَقَمُوا۟ مِنْهُمْ إِلَّآ أَن يُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ﴿٨﴾ ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿٩﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ فَتَنُوا۟ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا۟ فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ ٱلْحَرِيقِ ﴿١٠﴾﴾ (١)

وهكذا نرى أن الذين عذبوا ذلك العذاب سماهم القرآن الكريم

(١) البروج .

مؤمنين ، مما يدل على سلامة اعتقادهم وحسن ايمانهم ، وأنهم يؤمنون بالعزيز الحميد، لا يؤمنون بشيء سواه فلا تثليث ولا شرك • واذا كان هؤلاء هم نصارى نجران ، فهو دليل على أنه لم يصل اليهم التحريف النصرانى ، أو لم يكن قد دخل التحريف بعد الى ذلك الدين المتين •

وكأنه قد نزل بأولئك المؤمنين الصادقين ما نزل بهم من القياصرة قبل قسطنطين أمثال (قلديانوس ومن قبله نيرون وغيرهما ممن أذاقوا النصارى الخسف والهوان) •

اختصاص الجزيرة العربية :

٣٩ ـ ولماذا اختصت الجزيرة العربية بالرسالات الأولى ، رسالة ادريس ، ونوح ، وهود ، وصالح ، وكان لابراهيم الفضل فى انشاء البيت ، وكان شعيب قد بعث في مدين بها ، وانبعثت نور رسالة موسى عليه السلام منها •

ثم لماذا كانت مهجر اليهود عندما نزل بهم الأذى ، ونزل بهم سوء العذاب ولماذا وجد المسيحيون الأول فيها مأوى ؟ •

ونجيب عن هذه الأسئلة بأمور ثلاثة :

أولها : أن البلاد العربية ليست بلاداً متوحشة ، كما يتوهم الذين يحكمون بغير بينات ، أو الذين يرمون الكلام على عواهنه ، أو الذين يتجنون على الحقائق مغرضين غير منصفين ، انما هى بلاد فيها ذكاء ونفوس صافية كصفاء سمائها ، وقوة الاستجابة فيها متكافئة مع قوة المقاومة • وليس لأحد أن يدعي أن بلاداً في العصور القديمة كانت أكثر منها تحضراً ، فأوربا كانت في غربها تعيش كالوحوش ، فالواندال أو السكسون وغيرهم ، لم تصل اليهم حضارات قبل أن تصل المسيحية ، وما وصلت اليهم الا بعد أن شاهت ، وانحرفت عن أصلها، بينما كان الشرق في القديم مهد الحضارات ، ومهد الديانات ، ومهد الرسل واختصت الجزيرة العربية بأنها كانت أصفى الشرق ، ففيها انبعثت رسالات الله تعالى ، ومن حولها كأرض كنعان وأرض بابل ، وغيرهما مما يحوطها، أو من يدخل في دائرتها كاليمن والبحرين وما وراءهما •

الأمر الثاني : أن الجزيرة العــربيةمع ذكاء أهلها واستقامة نفوسهم • وان انحرفت أحيانا عقولهم معتصم حصين ،فبيداؤها، وقراها، وبرها ، فيها حصون لمنــــع الاعتداء الوحشي من الأمم التياشتدت اغارتها في الماضي ، فاذا كــان النبيون قد قوموا في اقناعهم ابتداء ،فانهــم اذا كانت الديانة في حصـــنين منيعين ، حصن من الأرض المانعة لـكلأجنبي من أن يقتطعها ، وحصـــن من النفوس التي اذا آمنت قاومت واعتزت بايمانها ، وان استقامة النفوس وقوتها هي التي بها تتميز أخلاق الأمم ، فانالعقول اذا انحرفت تقــوم وتستقيم ، والقلوب اذا غشيتها غاشيات الضــلالفي نفوس ملتوية غير مستقيمة الحــق لا يصل اليها الا من رحم الله •

واعتبر بحال العرب بين دولتين قــويتين من الدول التي صاقبتها فانهمـــا لم يتجاوزا في سلطانهما أطرافها ، ولمتتمكن احداهما أن تنتقل من الأطــراف الى داخلها فانهما عندئذ تجــدان قلوبأصلدة قواها ضوء الشمس الســـاطع ، وقوة الحياة فيها • والتعــرض لأوابدالحيوان ليلا ونهارا •

الأمر الثالث : قوة الشكيمة وقوة الخلق العربى ، وما امتاز به العربى من جود ، وسماحة ، وحسن تأت اذا وجدتالقيادة الحكيمة ، فان العربى أنف الا اذا رأى القائد الحكيم الذى يقوده ،ولعل أحسن تصوير للنفس العـــربية ما قاله الامام الحكيم عمر بن الخطــابعندما تولى امرة المؤمنين ، فقد قال رضى الله عنه « مثل العرب كمثل جمل أنففليعلم قائده أين يقوده » •

وبذلك يلتقي في العرب عناصر ثلاثة تجعلهم في موطن الدعاة الى الحق في المكان الأول •

العنصر الأول : قوة فى النفس تقاوم ، ولا تستسلم ، واعتبــر ذلك في النصارى المؤمنين الذين لم يغيروا ولميبدلوا ، ولما حـــاول تبع أن يغـيرهم ووضعهم في الأخدود ، ما نال مأربا ،ولا وصل الى مبتغى •

العنصر الثانى : صفاء نفسي وقوة مدارك ، احتفظـــوا بهـــا حتى في جاهليتهم ، وصدق النفس ، والصدق فيالقول ، والعمل الذى يوجهون اليه •

العنصر الثالث : الأنفة وألا يطيعوا في ذلة ، بل يتبعــون في هداية ورشد مختارين ، غير مجبرين ، ولقــد جاءتبعثة النبي صلى الله تعالى عليه وســلم فيهم ، فبدت هذه السجايا، وشقت طريقالنور في وسط الظلمات •

اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ:

٤٠ ــ نعم ــ الله وحده هو الذي يختار مكان الرسالة ، والذين يحملون الرسالة والذين ينزل عليهم الوحي ،والذي يبلغ رسالة الله تعالى الى خلقه ٠

فاختار الله تعالى أرض العرب ، لأنها أرض الرسالات العامة التي جاء بها النبيون الذين أرسلوا مبشرين ومنذرين ، وأوتوا الكتاب الالهي بقوة ٠

وفيها العبر وفيها المثلات ، وفيها الآثار التي تدعو الى الاعتبار ، وهي لامطمع فيها لتحكم أو تسيطر ، وهى التي لم تغلب عليهم قوى الشر ، وان كانت فيهم عيوب ، فهي التي تتعلق بالعلم ، ولا تتعلق بالنفس وهي التي لم يجر فيها الذل الذى يفرضه الملوك الذين يفسدون النفوس ، ويجعلون أعزة أهلها أذلة كما قال الله تعالى حكاية عن بلقيس :

﴿ قَالَتْ إِنَّ ٱلْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا۟ قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوٓا۟ أَعِزَّةَ أَهْلِهَآ أَذِلَّةً ۖ وَكَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ ﴿٣٤﴾ ﴾ (١)

ولقد كانت نفوس أولئك الذين لم يتمرسوا بظلم الملوك هي التي حملت رسالة العزة الى بقاع الأرض ، واذا كانوا قد أبوا حكم الملوك في جاهليتهم ، فقد قوضوا عروشهم بعد اسلامهم ، هم أعداء التحكم الفردي ، وهم الذين قوضوا قصورهم انتهاء ، بعد أن أشربوا حب الاسلام ، وحملوا لواءه شرقاً وغرباً ٠

وانه لو كان لنا اختيار في أرض غير العرب ، لأعيانا الاختيار ، لأنها أرض العزة ، فلا ذلة فيها ، وأرض الحرية ،وهي أرض الشجاعة ، ولا ينقل دين العزة والاقدام ، والعمل الصالح الا الأحرار الذين يتأبون الدنية ، ويرضون بالبذل ، ويتحملون الشدائد ، وليس ذلك الا في العرب ، وأرض العرب ، ولذلك ما ان انطلقوا بالاسلام الا خرجوا من ديارهم يدعون الى الحق ، ويهدون اليه من غير مواناة ، ولا فرار ،ولا يأس، ولا يتركون اليأس الى الرخاء، لأنهم تحملوا آلام الصحراء ٠

---

(١) النمل ٠

وترى لو تصورنا أرضاً للنبوة في غير أرض العـــرب ، أتكون في أرض القياصرة حيث تطامن العامـة لحكـم القيصر ، وديثوا بالصغار له نفوسهم ، حتى حسبوه من طينة غير طينتهـم ،وحيث يختلفون في كـل شيء ، وحيث لا يحكم بينهم الا الهوى ، وحيث العنصرية الجـاثمة على الرؤوس ، وحيث رق النفوس لهوى الحكام ، والخروج على كل منطق للمساواة الانسانية ٠

واذا لم يكن الرومان ، أفتكون أرض الفرس هي أرض النبوة ، وكسراهم فرض عليهم المذلة والهوان ، وتوزعتهم سيادة الأشراف ، حتى اذا بعدوا عن ذل الملك ، وجدوا ذل الحاشية ، ووجدوا أنهم يتنقلون فى الذل والهوان ، وقـد لانت نفوسهم ، وخنعوا وهانوا أمـام الملوك ، وهل هؤلاء في ذلتهم هم الذين يحملون دعوة الاسلام الى العزة ، وهل هم في رقهم النفسي هم الذين يدعون الى الكرامة الانسانية التى سجلهـا الله تعالى في قوله تعالت كلماته :

﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴿٧٠﴾ ﴾ (١)

لا يمكن أن تكون دعوة الحق ممن تمرسوا بالظلم ، حتى أمات نخـوتهم ، أو ممن ألفوا الخضوع ، حتى لا يستطيعوا التنصي عنه ، والخروج منه ، ولا ممن قنعوا بالحياة الدون ، ورضوا بالهون ،انما لا يدعو الى العزة ولا الى الحـرية الا الأحرار ٠

وهل تتصور أن تكون أرض الفراعنة هى التى تدعو الى اسقاط حـكم الفراعنة ، واعلان أن الناس قد ولدتهم أمهاتهم أحراراً ، وما انتقلوا من حـكم الفراعنة الا لمن هو أطغى ، وأشد بغياً ،وأكثر عتواً وفساداً ، فهم يسارعون في الذل والهوان ، وينتقلون فيه من قطاع الى قطاع ، ومن جـانب الى جـانب ، لا يتململون ، ولا يضجون ولا يثورون لقهر قاهر ، أو ظلم ظالم ، بل انهـم يألفون الخضوع حتى يحسـب الدارس لهم أنهم يستطيبونه ، ويستمـرئونه ، ويعاونون من يذلهم، وينغضون رؤوسهم على من يحاول أن يبث فيهم روح العزة

---

(١) الاسراء ٠

والكرامة ، بل يحسب أنهم يجدون العزة عبئاً لا يمكن احتماله ، وحملا لا يمكن حمله ، ووزرا يرزحون تحته ·

قال لهم فرعون أنا ربكم الأعلى فصدقوه ، وقال لهم أليس لى ملك مصر ، وهذه الأنهار تجري من تحتي ، فلم يكذبوه وقال لهم أليس لكم من اله غيري ، فقالوا أنت الاله ·

لقد تضعضعت نفوسهم ، حتى ألفوا الذلة فصعبت عليهم ، وقبلوا أن يكونوا قوما بورا ·

وان الذلة كانت تجري في دمائهم ،حتى انه اذا جاءهم من يريد لهم العزة استنكروا ما يدعو اليه ، وان صدقوه جعلوه معبوداً أو كالمعبود ، وأطاعوه في الخير والشر ، وتصوروا فيه ما ألفه آباؤهم من تقديس لقوله ، واطاعة لعمله ، يذوقون الجوع والعرى ،ويرضون ، لأنهم كانوا مع فرعون ، فلا يتصورون الطاعة ، الا لمن يشبهه ·

ان موسى عليه السلام عندما بعثه الله تعالى بعثه في غير مصر ، وفي غير أرض فرعون ، ولما دعا فرعون بدعوة الحق لم يجد مستجيباً الا من السحرة ، وعدد من الشعب ليس بالكثير ، فما آمن من قوم فرعون الا قليل ، وخرج ببني اسرائيل ناجياً بهم ، وأطبق البحر على فرعون ، خرج الى سينا ليدعو بدعاية الحق ، ولكنهم لم يصلحوا لتمرسهم بما كان عليه المصريون ، حتى انهم أرادوا أن يتخذوا من عجل صنعوه لأنفسهم الها ، كما كان المصريون يعبدون العجل، وهانت نفوسهم كشأن المصريين ، حتى ان موسى عندما طلب منهم أن يدخلوا الأرض التي كتب الله تعالى لهم أن يدخلوها ، غلبت عليهم شقوتهم ، وغلب عليهم الذل الذي أزاقهم فرعون كؤوسه ·

واقرأ ما حكاه القرآن الكريم عنهم فقد قال موسى :

﴿ يَٰقَوۡمِ ٱدۡخُلُواْ ٱلۡأَرۡضَ ٱلۡمُقَدَّسَةَ ٱلَّتِي كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمۡ وَلَا تَرۡتَدُّواْ عَلَىٰٓ أَدۡبَارِكُمۡ فَتَنقَلِبُواْ خَٰسِرِينَ ﴿٢١﴾ قَالُواْ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ فِيهَا قَوۡمٗا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَن نَّدۡخُلَهَا حَتَّىٰ يَخۡرُجُواْ مِنۡهَا فَإِن يَخۡرُجُواْ مِنۡهَا فَإِنَّا دَٰخِلُونَ ﴿٢٢﴾ قَالَ رَجُلَانِ مِنَ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمَا ٱدۡخُلُواْ عَلَيۡهِمُ ٱلۡبَابَ فَإِذَا دَخَلۡتُمُوهُ فَإِنَّكُمۡ غَٰلِبُونَۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ﴿٢٣﴾ قَالُواْ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّا لَن نَّدۡخُلَهَآ أَبَدٗا مَّا دَامُواْ فِيهَا فَٱذۡهَبۡ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ ﴿٢٤﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّي لَآ أَمۡلِكُ إِلَّا نَفۡسِي وَأَخِيۖ فَٱفۡرُقۡ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡفَٰسِقِينَ ﴿٢٥﴾ قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيۡهِمۡۛ أَرۡبَعِينَ سَنَةٗۛ يَتِيهُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِۚ فَلَا تَأۡسَ عَلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡفَٰسِقِينَ ﴿٢٦﴾ ﴾(١)

كان ذلك من تأثير اذلال فرعـون ،فكتب عليهم التيه أربعين سـنة ، حتى يتربوا على البأس والقوة ، ويجيء جيل يغالب ، ولو تركنا الشرق الأدنى الى الهند لوجدنا الطبقات قد قتلت فيهـا النخوة ، ودفعت شعبها الى الاستسـلام للذل ، اذن فليس لدعوة الحق والعزةوالحرية الا العرب ·

---

(١) المائدة ·

مكة المكرمة

٤١ ـ اذ كانت الجزيرة العربية موطن النبوة الأولى ، وقد ثبت أن ابراهيم خليل الله تعالى أوى الى بلاد العرب بعد تطوافه بين العراق وأرض كنعان ،وبنى بيت الله تعالى ، وقد وجد في الدعوة الى الوحدانية فيها مستجيباً ، وأنشأ فيها بيت الله الذي قال الله تعالى فيه :

﴿ إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٦﴾ فِيهِ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ مَّقَامُ إِبْرَٰهِيمَ ۖ وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنًا ۗ ﴾ (١)

كانت مكة المدينة الممتازة بين العرب ، وقد تضافرت أسباب كثيرة في العرب جعلتها مناط عزتهم ، وملتقى اجتماعهم وجماع لغتهم ، وكان من أهم هذه الأسباب ، وأبرزها .

(أ) أن أبا الأنبياء هو الذى ابتدأ بانشائها ، وكانت من بعده مدينة العرب العظيمة وقطبها الذى تدور حوله قواها ، وهي وسكانها أولاد ابراهيم ، وهم ذووا المكانة العظمى عند العرب استجابة لدعاء ابراهيم اذ قال عليه السلام ، كما حكى الله سبحانه وتعالى :

﴿ رَّبَّنَآ إِنِّىٓ أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِى بِوَادٍ غَيْرِ ذِى زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ ٱلْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجْعَلْ أَفْـِٔدَةً مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهْوِىٓ إِلَيْهِمْ وَٱرْزُقْهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ ﴿٣٧﴾ رَبَّنَآ إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِى وَمَا نُعْلِنُ ۗ وَمَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ ﴿٣٨﴾ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى وَهَبَ لِى عَلَى ٱلْكِبَرِ إِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ ۚ إِنَّ رَبِّى لَسَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ﴿٣٩﴾ رَبِّ ٱجْعَلْنِى مُقِيمَ ٱلصَّلَوٰةِ وَمِن ذُرِّيَّتِى ۚ رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَآءِ ﴿٤٠﴾ ﴾ (٢)

---

(١) آل عمران (٢) ابراهيم .

فكانت الاستجابة لدعـوة ابراهيم عليه السلام ، أن كان العـرب يفدون اليها من كل فج ، من وقت أن أنشـأ ابراهيم البيت الحرام ، وصـار مثابة للناس وأمناً ، وملتقى العرب أجمعين ، مع اختلاف قبائلهم ، وتباين منازعهم .

(ب) وكان سكان مكة هم قريشا الذين كانوا أعلى العـرب فكراً ان كان العلو بالفكر ، وأشرفهم نسبا ، ان كان التفاخر بالنسب ، ولسانهم كان أقـوم الألسنة أداء ، وأفصحها لفظا ، وأشرقها أسلوبا ، ولذلك كان العرب يجتهـدون في أن تكون آثارهم الأدبية بلغة قريش، فكان الشعراء حريصين أشد الحرص على أن يكون شعرهم بلغة قريش ، ويعتزون بأن يكون على نهج اللسان القرشي .

ولقد ذكر رواة الأدب أن من ينال قصب السبق يعلق شعره على أسـتار الكعبة ، كأنما يسجل بين العرب مآثره الشعرية ، ومكانته بين الناس .

(جـ) وجود البيت الحرام بها ، وهو أعلى الأسباب، اذ أنه صار بيت العرب الديني ، ومستقر شرفهم ، اليه يحجون وبه يأمنون ، كمـا قال تعالى :

﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا ءَامِنًا وَيُتَخَطَّفُ ٱلنَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ ۚ أَفَبِٱلْبَٰطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ ٱللَّهِ يَكْفُرُونَ ﴿٦٧﴾ ﴾ (١)

لقد كانوا لتقديسهم لمكانة البيت ، كانوا يحرمون على أنفسهـم أن يقتلوا أو أن يقتتلوا داخل الحرم ، حتى انهـم مع تشديدهم في الأخـذ بالثأر مما فرق جمعهم كانوا يحرمونه على أنفسهم في الحـرم المكي ، زاده الله تعـالى تشريفا وتكريما ، وان الرجل كان يلقى قاتل ابنه أو أخيه فلا يمسه بسوء لمكـان التقديس النفسي بل انهم لا يحترمون المكان فقط ، بل يحترمون أيضا الزمان الذى يكـون فيـه الحج الى بيت الله الحرام ، فكانوا لا يتقاتلون في أشهـر الحج ، ولا شهر العمرة ، وهو ما يسمى بالاشهر الحـرم ، وهي ذو القعـدة ، وذو الحجة ، والمحرم ، ورجب الذى بين جمادى وشعبان ، اذ كانت فيه عمـرة مضر ، ولذلك سمى رجب مضر .

---

(١) العنكبوت .

وقد أقر الاسلام من بعد حرمة البيت ، ومنع القتال في الأشهر الحرم الا اذا كان فيها اعتداء ، فانه يكون من ظلم النفس ألا يدافع المعتدى عليه عن نفسه ·

(د) انه كانت الصحراء العربية موضع تنازع بين القبائل ، ولم يكن في القبائل من تقرر لها نظام ، الا مكة وان لم تكن فيه صفة الدولة ، بيد أنه كان سلطانا ناشئا من تعاونهم ، وتضافرهم ، وتلاقيهم ، فهو نظام حر ناشىء ومنفذ بين قوم أحرار ، وان لم تكن دولة ابتداء ، فانه يجوز اذا اتسع السلطان ، ووجدت المقدرة الثابتة يصلح أن تكون فيه دولة العرب من بعد ، لأنهم يجدون فيها الرياسة المختارة من الشعب ، بمقتضى الارادة العربية التي تتلاقى فيها القبائل ، وبمقتضى الانتخاب الطبيعي في البلاد العربية ·

(هـ) وكانت قريش بمكة ذات اتصال تجاري بين الروم والفرس ، فكانت فيها المتاجر تغدو وتروح ذاهبة الى اليمن حاملة بضائع الروم اليها ، ومن اليمن تنفذ الى ما وراءها في أرض الفرس ، وكانت بضائع الفرس التي تؤخذ من اليمن تذهب الى الشام لتصل الى وراءه من الرومان ·

والسبب في أن مكة كانت لها تلك الميزة الاقتصادية أنها كانت في وسط البلاد العربية بين اليمن والشام ، وأن المواصلات ابان ذلك كانت عن طريق البر بالصحراء العربية ، وفوق ذلك النزوع التجاري في أهل قريش ، احترفوا التجارة ، واتخذوها مرتزقا لهم ، اذ لم يكن في مكة زرع يغنيهم ·

وكان العرب يتخذون موسم الحج سبيلا للصفق في الأسواق التي تعقد في أيام الحج ، ومن هذه الأسواق : عكاظ ، وغيره ، وكان هو أكبرها ·

ولرغبة العرب البيانية قد اتخذ الشعراء من هذه الأسواق سوقا لترويج شعرهم فكانت الأسواق فيها الزاد المادي ، وفيها الزاد البياني ·

وقد قال الله تعالى في روح قريش التجارية

﴿ لِإِيلَٰفِ قُرَيْشٍ ۝١ إِۦلَٰفِهِمْ رِحْلَةَ ٱلشِّتَآءِ وَٱلصَّيْفِ ۝٢ فَلْيَعْبُدُوا۟ رَبَّ هَٰذَا ٱلْبَيْتِ ۝٣ ٱلَّذِىٓ أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَءَامَنَهُم مِّنْ خَوْفٍۭ ۝٤ ﴾ (١)

---

(١) قريش ·

(و) ويجب أن يذكر في هذا المقام أن الوثنية سادت العرب ، فنسوا دين ابراهيم ، ودين هود وصالح وغيرهـم وسرت فيهم الوثنية سريان النجاسات في الماء الطاهر القراح ، ولعل قريشا في مكة كانت آخر من دخـل في الوثنية ، كما تحدث أخبار العرب ، فالوثنية سرت اليهم من غيرهم ، ولم تنبعث من أرضهم ولكنها موجة من الموجات التي كثرت في ذلك العصر ، وما سبقـه ، حتى لقد حسب بعض الناس أنها موجة من التفكـير الديني سرت في العـرب ، ووفدت اليهم من حولهم ، وجاءت اليهم من أرض غير أرضهم •

وقد أشرنا من قبل الى أن العرب وخاصة قريشا لم يكن ايمانهـم بالأوثان ايمانا متغلغلا في النفس ، اذ أنه كان مع الاعتقاد في الأوثان اعتقاد بأن الله سبحانه وتعالى هو خالق الكون ، وبقيه من تعاليم ابراهيم عليـه السـلام ، فمناسك الحج كانوا يقـومون بها على اختلاف أو انحراف ، وألفاظه الموروثة كانت تردد على تحـريف يقـرب من وثنيتهم •

وكون بقايا من ديانة ابراهيم فيهم كان يجعلها موضع الرسالة ، واذا كانت الوثنية قد قاومت التوحيد الذي جاء به محمد صلى الله تعالى عليه وسلم ، فما كانت كلها من أجل الاعتقاد ، بل من تسلط العصبية الجاهلية ، والمنافسة في الشرف بين بطون قـريش وأفخاذها ،كما سنبين ان شاء الله تعالى عندما نتحدث في مقاومة الشرك للوحـدانية ، وذلك بمقاومة زعماء مكة للنبي صلى الله تعالى عليه وسلم •

كانت مكة جماع العرب ، فكـانت بها دار الندوة التي تجمع أقيال العرب وكبراء القبائل ، من شتى الجزيرة من اليمن جنوبا الى الغساسنة بالشمـال ، فاذا أهم العرب أمر واحتاجوا الى أمر جامع لا يجدون مثابة تجمعهـم الا دار الندوة في أرض مكة المكرمة ، وكانت الرياسة فيها لقريش ، وأقربهم كان من جدود النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ،وكان عليه السلام يحضر ندوة قريش في صدر حياته ، وكان مع هدوء طبعه،واطمئنان نفسه يلفت الأنظار ، وتتطلع اليه الأبصار ، يروى أنه كما جاء في كتاب (زهر الآداب) حضر الندوة قيل من أقيال اليمن ، فرأى الرسول ، كلما عرض ما يراه خيراً اطمأن الى القـول اطمئنان المؤمن ، واذا كان ما يرى فيه غير الخير أحد البصر في هـوادة ، من

غير هوان ، فقال ذلك القيل « مالي أرى هذا الغلام ينظر اليكم تارة بعيني لبؤة وتارة بعيني عذراء خضرة ، والله لو أن نظرته الآولى كانت سهاماً لانتظمت أفئدتكم فؤاداً فؤاداً ، ولو أن نظرته الثانية كانت نسيما لأنشرت أمواتكم ».

ومكة فوق ذلك لها المكانة في التاريخ الديني القديم ، فقد ذكرت في الديانات القديمة ، واليهودية والنصرانية . وقبل أن نخوض في ذلك نتكلم في ناحية حول حال مكة .

أوّل بناءٍ في مكّة وبلوغها هذه المنزلة:

٤٢ ــ وان مكة قد صارت مطمع آمال العرب ، لما ذكرنا من معان دينية وقومية وثقافية وتجارية ، ولكن لابد من معرفة وقت قدسيتها ، ونيلها هذه المكانة بين العرب ، وان ذلك أمر لابد منه في دراستنا عن النبي الذي ظهر في هذه المدينة ، واتصالها بماضيها القريب والبعيد .

كان مكان مكة وسط البلاد العربية ، وقد ذكر ياقوت الحموي وضعها في كتابه « معجم البلدان » فذكر أنها بقعة من الأرض تحيط بها الجبال الجرداء من كل جوانبها ، وينفذ من بين هذه الجبال المحيطة ثلاثة مسالك ، أحدها سلك بها الى طريق اليمن ، ويصلها الثانى بطريق جدة حيث سيف البحر ، ويكون مرفأ جدة ، ويصلها الثالث بطريق الشام ، حيث يمر بيثرب ، وبذلك يتضح اتصالها منذ القدم ، وان كانت الشقة بعيدة .

وقد كانت البقعة التي أنشئت فيها تلك المدينة التي تتوسط البلاد العربية . ملتقى القوافل ، ومنتجعها في السفر ، حيث تأوي وتستريح بين جبالها حيث كانت في الوادي حول هذه البقعة ماء العيون ، وكان بجوارها أو على قرب منها ، أماكن منثورة ، كان يلوذ بها التجار بقوافلهم .

وان ابراهيم عندما أوت الى هذه البقعة هاجر جاريته وولدها اسماعيل ، وألهمه الله تعالى بناء الكعبة ، الذى كان أول بيت للعبادة ، كما تلونا من قبل ، وان انشاء ذلك البيت المقدس هو الذي أدى الى تكوين المدينة ، وان هذا تصوير للوقائع التي حدثت ، والتي ذكرها القرآن الكريم في محكم التنزيل .

وان في التاريخ ما يدلنا دلالة راجحة على ابتداء بناء المدينة ، وان معرفة ابتداء المدن في ذلك الماضي السحيق لا يمكن أن يكون على وجه جازم أو راجح ، فان المدن لا توجد مساكنها في أمثال هذه العصور البعيدة التي تنشأ في الصحراء ، ولم تكن في أرض لها حكومة ثابتة قائمة ، تنشىء وتخطط ، وتبني وتهندس انما الذي يتصور أنها ابتدأت ببناء المسجد ، ثم تدرجت ، ثم أخذ الزمان يزيدها بناء ، والعمران يدخل اليها شيئا فشيئا ، وان تصورها على أساس التصور الذي أومأت اليه المصادر الدينية ، فانه يكون انشاؤها قبل ميلاد المسيح بنحو تسعة عشر قرنا.

ويستفاد من هذا أن الكعبة قد بنيت، أو على الأقل بناها ابراهيم عليه السلام قبل دخول القبائل الآرية الهند، لأنها دخلت فيما نظن قبل ميلاد المسيح عليه السلام بنحو خمسة عشر قرنا ، وعلى ذلك لا تكون ثمة غرابة في أن يجيء ذكر مكة والكعبة ، والتبشير بمحمد صلى الله تعالى عليه وسلم في كتب الفيدا المقدسة عند الهنود كما سنبين ان شاء الله تعالى .

ومهما يكن فان الذي بنى الكعبة ابراهيم ، والتف من بعدها حوله البناء ، سواء أكان ذلك قبل تجمع الأبنية لتكون مدينة مكة أم كان بعد التجمع ، وفصل القرآن الكريم ذلك في نصوص كثيرة .

ولكن الذين يحاولون مهاجمة القرآن الكريم من ناحية التشكيك في الوقائع التاريخية التي يشتمل عليها ،ينكرون أو يفترون ، أو يثيرون الشك المجرد .

فيثير الريب قائل ، ان قصة ابراهيم واسماعيل من صنع اليهود ، قالوها ليربطوا بينهم وبين العرب برابطة من قربى النسب ، حتى يكونوا أولاد عمومتهم ، ليحسنوا ايواءهم ، اذ يؤوون اليهم ذوي قرابتهم لرابطة الرحم بينهم ، ويسوق شاهداً لكلامه التباعد بين الوثنية العربية ، وبين دين ابراهيم عليه السلام الذي كان موحداً ، وكان هادم الأوثان .

وفي الحق ان ذلك الكاتب أو المؤرخ غلبت عليه شهوة التشكيك في القرآن فساق كلاما لا يبنى على أي أساس علمي من وقائع ثابتة ، لأنه كان يجب أن يبنى الطعن على وقائع ثابتة ،أنه يحاول هدم أمر معروف مقرر،

ذكره التاريخ قرنا بعد قرن ، حتى جاءالى هذه العصور ، وقد تطابقت عليه الكتب السماوية حتى المحرفة، منها فقدجاء ذكر ابراهيم واسماعيل في التوراة ، أى كتب العهد القديم التي يؤمن بها المسيحيون ، وأنهم جاؤوا الى بلاد العرب •

فقد جاء فى التوراة (أي كتب العهدالقديم عند المسيحيين) •

قد جاء في الاصحاح السادس خبرهاجر الجارية وحملها ، وذهابها بابنها في البرية (أي الصحراء) « هو ذا الرب قد أسكنني عن الولادة ، ما دخل الى جاريتي لعلي أرزق منها بنين » فلمارأت هاجر أنها حملت صغرت في عينها ، فقالت ساراي لابراهيم ظلمي عليك ، وقعت جاريتي الى حضنك فلما رأت أنها حبلت صغرت في عينيها ،يقضى الرب بيني وبينك،فقال ابراهيم لساراي هو ذا جاريتك في يدك افعلي بها ما يحسن في عينيك، فأذلتها ساراي، فهربت من وجهها ، فوجدها ملاك الرب على عين الماء في البرية على العين التي فيها طريق شور وقال يا هاجر جارية ساراي، من أين أتيت؟ والى أين تذهبين، فقالت أنا هاربة من وجه مولاتي ساراي فقال لها ملاك الرب : ارجعي الى مولاتك ، واخضعي تحت يديها ، وقال لها ملاك الرب تكثير أكثر نسلك فلا يحصى ، وقال لها ملاك الرب ها أنت حبلى وتلدين وتدعينه اسماعيل ، لأن الرب قد سمع لضراعتك ، وانه يكون انسانا وحشيا ، يده على كل واحد ، ويد كل واحد عليه ، وأمام جميع اخوته يسكن » •

وجاء في الأصحاح الحادي والعشرين « مضت وتاهت في برية بير سبع ، ولما فرغ الماء من القربة طرحت الولد تحت احدى الأشجار ، ومضت وجلست مقابله بعيداً على مرمى القوس ، لأنهاقالت : لا أنظر موت الولد ، فسمع الله صوت الغلام ونادى ملاك الرب هاجر من السماء ، لا تخافي ، لأن الله قد سمع صوت الغلام حيث هو ، قومي احملي الغلام ، وشدي يدك به ، لأني سأجعله أمة عظيمة ، وفتح الله عينها ، فأبصرت بئر ماء ، فذهبت وملأت القربة ماء ، وسقت الغلام ، وكان الله تعالى مع الغلام، فكبر ، وكان ، وسكن في برية فاران ، وأخذت له أمه زوجة من أرض مصر » •

إسماعيل بن إبراهيم وأمه هاجر:

٤٣ ـ (أ) ـ هذه نصوص صريحة في التوراة تدل على أن اسماعيل ولد من هاجر جارية سارة ، وأنه ولد في برية فاران وهي قد كانت حول

الكعبة ، وان هذا حجة على منكر أن يكون اسماعيل من ولد ابراهيم أو أنه جاء الى أرض الحجاز ، وأن اليهود قد قالوا هذا ليتقربوا الى العرب ، بحسبان أنهم أولاد عمومة •

(ب) وان على هذا التشكك أمر مثير ، من غير بينة ، ولا دليل وكأنه يشك في التوراة أيضا ، وما كانت اصحاحات التوراة مقارنة لتقريب اليهودي من العرب ، بل انها سابقة على ذلك •

وان الشك الذى أثاره تدل الأمور الثابتة على مناقضة ما أثاره ، وذلك لأن الطبع اليهودي في ماضيهم وحاضرهم أنهم لا يعترفون لأحد بدين غير دينهم ، وأنهم كانوا يقولون : نحن أبناء الله وأحباؤه ، ويقولون وهم بين ظهراني العرب ، ما علينا في الأميين سبيل ، وأن المعروف أنهم كانوا في البلاد العربية يستعلون على العرب ويظنون أنهم الأعلون بما أوتوا من كتاب •

(جـ) وفوق ذلك فان العمومية المدعاة من اليهود لا أصل لها في زعم ذلك الكاتب النحرير ، فكانت للعرب العدنانية التي تنتهي الى اسماعيل عليه السلام ، وهم الذين يسمون العرب المستعربة ، واليهود ، عندما آووا الى العرب فارين بدينهم من عنت التتار ، ومن بعدهم الرومان ، ومن أذاقوهم العذاب أبؤسا ، انما آووا الى أرض عرب قحطان ، فهل يعقل أن يتملقوا القحطانيين بادعاء النسب الى العدنانيين، والارتباط بينهم برباط القرابة بالعمومة ونحوها ، انما المعقول الذى لم يدركه الكاتب النحرير أن يكون الادعاء عند القحطانيين ، لا عند العدنانية ، ولا يصدق كلام ذلك الا أن يكون تصرفهم مخالفا كل معقول ويأتون عكس ما يريدون ، كعقل ذلك الكاتب •

(د) وان تاريخ العرب المحفوظ أن العرب العدنانية لهم تاريخ ثابت موصول ، تلقاه أهل العقول بالقبول ، وما يتلقاه العلماء بالقبول لا ينقض بمجرد الشك ، بل لا يرفض الا بدليل يناهضه ، وبينات تقاومه ، ولا يقاوم بمجرد الشك والا ضاعت الحقائق ، وضلت الأفهام ، وظواهر الأحوال شاهد يؤخذ به ، حتى يقوم الدليل على خلافه •

(هـ) وان الزعم بأن أولاد اسماعيل وثنيون ، وابراهيم عليه السلام كان موحداً ، فكيف يلتقيان ، أو القول بأن العرب وثنيون ، والموحد لا يمكن

أن يكون أبا للوثنيين ، منطق فاسد ،لأن مؤداه أن من يكون موحداً يجب أن تكون سلالته كلها من الأولاد الصلبيين الى آخر الذرية ، ولو كانوا في الطبقة المتممة للمائة موحدين ، وذلك كلام باطل ، فانه قد ينحرف الأبناء عن وصايا الآباء ، واذا كان ذلك غريبا في الطبقة الأولى ، أو ما يكون قريبا منها ، فانه لا يكون غريبا في الطبقات البعيدة من الذرية .

وان ابراهيم عليه السلام قد طوف في الآفاق داعياً الى التوحيد محاربا للوثنية ، وترك أثره واضحا في العرب خصوصا ذريته ، فقد كانت ذريته موحدة ، سالكة سبيل الحق في عبادتها، ولكن القلوب اذا تقادم العهد قد تنحرف شيئا فشيئا حتى تصل الى الوثنية ، فالوثنية عارضة على العقل العربي ، وخصوصا ذرية ابراهيم عليه السلام ، فان الوثنية لم تكن أصيلة فيهم ، ومع ذلك كان في وثنيتهم بقايا من تعاليم ابراهيم عليه السلام ، وما كانوا يؤمنون بأن أوثانهم لها قوة الخلق ، والانشاء كما كان عند المصريين القدماء ، وكما كان عند اليونان والرومان ، بل كانوا يقرون بأن الخلق والتكوين لله تعالى ، وحده ،

﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۚ قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٥﴾ ﴾ (١)

وقوله تعالى :

﴿ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ ﴾ (٢)

وان تفكير ذلك الكاتب المستشرق فيه غرابة من حيث المنهاج العلمي المستقيم من ناحية أمرين .

أولهما : أنه من الاستهانة بأى منهاج عقلى أن يثير عالم الشك من غير أي مسوغ للريب من أمور تقترن بالأمر الجازم المقطوع به،فان ذلك اثارة لطريقة

---

(١) لقمان (٢) الزمر

السوفسطائيين الذين يشكون في حقائق الأشياء شكا مجرداً من غير أي باعث علمي ، أو من غير أي بينة تسوغ الشك، حتى يحارب اليقين ، ولكن هذه الأمور البدهية نسيها ذلك الباحث ان صح هذا الوصف له ، وما أنساه الا شيطان التعصب المردي الذي ينزل الناس من علياء العلم الى منهوى العمى ٠

﴿ فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَٰكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ ﴿٤٦﴾ ﴾ (١)

ثانيهما : أن من الحقائق الاجتماعية النفسية ، أن العقائد في الناس تتحول وتتغير ، ويجرى عليها نظام التغير ، ويستمر في طريقه ، مالم يكن هناك كتاب ثابت يهدى الى الحق ، ويرشد الضال فيهتدي ، ويكون ميزانا يمنع الانحراف ٠

مكة موطن تقديس لأجل الكعبة :

٤٤ ـ وان التاريخ الانساني العام جاء فيه ذكر مكة والكعبة ، وقد ورد اسمها في مصادر التاريخ اليونانية واسمها في كتاب بطليموس الاسكندرى ماكورابا (٢) ٠ وانها أقدم من ذلك ،فانها تمتد في القدم الى تسعة عشر قرنا قبل الميلاد ، وذكره لها فى القرن الثانى بعد الميلاد ، لا يومىء من قرب أو بعد ، الى أنها كانت غير موجودة قبل ذلك العصر ، وليس انشاؤها فيه اذ هو اخبار عن الموجود ، وليس بيانا لوقت الوجود ٠

والمؤرخون بشكل عام ذكروا أنه كان في غرب الجزيرة العربية أماكن كانت مقدسة عند العرب ، وان ذلك الحي الغربي من الجزيرة كانت فيه مكة ، وما حولها من الصفا والمروة ،وعرفات ، والمزدلفة ، ومنى كانت بالقرب منها،فاذا كان المؤرخون يذكرون أماكن للعبادة في غرب الجزيرة العربية فهي هذه الأرض ٠

---

(١) الحج ٠

(٢) حياة محمد للمرحوم الدكتور محمد حسين هيكل ص ٨٤ ٠

وقد جاء في كتاب تاريخ الاسلام لجواد على : « قد ذهب أوغست ميل الى أن المعبد الذى قال عنه ديودور الصقلى انه معبد مشهور هو مكة » (١) ٠

ويستفاد من هذا أمران :

أولهما : أن مكة كانت قائمة بشهادة التاريخ العام ٠

وثانيهما : أن الكعبة كانت بها ، وكانت معبداً يفد اليه الحجيج من كل مكان من بلاد العرب ، يقصدها القاصى والدانى من تلك البلاد ٠

٤٥ ــ هذه شهادات المؤرخين بتقديس الكعبة في القديم ، وبمنزلتها عند العرب ، واجتماعهم حولها مع تفرقهم منازع ، وقبائل ، وعصبيات أحدثت حروبا مدمرة ، ودماء مهراقة ، ومع ذلك يلتفون متحابين أو غير متحابين ، ولا آخذين بثاراتهم احتراما للبيت ، وتقديسا لهذه البنية التى زادها الله تعالى تكريما وتشريفا ٠

(١) جواد على ص ٤ ، ٥٠٤ ٠

المكان والزمان

٤٦ ـ كانت مكة هي المكان المختار للرسالة ، وقد أشرنا الى ما كانت تمتاز به من البلاد العربية ، فأشرنا الى مكانتها الثقافية ، فهي ملتقى العرب ، ولغتهم أفصح اللغات وشعراؤهم يعملون على أن تسجل أشعارهم بلغة قريش ، فكأنها التي تختص بوصف الفصحى واللغات الأخرى بجوارها كاللغات العامية بجوار الفصحى في عصرنا الحاضر ، وهي ملتقاهم الديني ، فاليها يحجون ، وينسلون من كل أرضها ، ويلتقون في أسواقها ونجوعها بها تروج بضائعهم ، ويروج أدبهم وفيها يتفاخرون من غير ملاحاة ويتجادلون من غير مجافاة • وفيها تحقن الدماء ، وتغمد السيوف في أجفانها ، يلتقون على التدين ، والمحبة، ولا يلتقون على العداوة والبغضاء فآلامهم يطرحونها ، وأحقادهم يستدبرونها ، ولا يرون أمامهم الاالنسك على قدر مداركهم وتبادل المنافع، والقول الطيب ، ومع أن كل قبيلة لها صنمها في الكعبة على ظاهرها ، كانوا يجتمعون في العبادة على تقديس البيت الحرام مطرحين ما عداه •

وكانت مكة مع هذه المنزلة الثقافية والدينية والاجتماعية ملتقى القوافل التي تجيء من اليمن ومن أقصى الشرق، والقوافل التي تجيء من أقصى غرب الجزيرة ، فيلتقى فيها المتاجر ، وتلتقي فيها العقول الناقلة للحضارات ، ولو نقلا سطحيا ، ولا يصل الى أعماق القلوب ،ولكنه يمس المدارك ، وأنه فى مكة ويثرب تلتقى البداوة ببعض الحضارة، فيكون مزج بين رقة الحضارة ، مع خشونة البادية ، فيكون مزيج غير متميع، وقوة نفس في غير جفوة ، وتلتقى صفاء البداوة والحضارة الغريبة منها ، فينتفى الخبث ، ويبقى اللب الكريم •

وان أكثر الرسالة الالهية التي كانت على مقربة من الرسالة المحمدية كانت في أرض تكون على مقربة من البوادي ، أو هي في البوادي ومثلها كالواحات في وسط الصحراء ، لأن أولئك تكون نفوسهم قابلة للجديد من الرسالة ، وغير متخلفة في مداركها :

(أ) اذ يكون فيها الصفاء الصالح لتلقى تكليفات الوحي الالهي ، وفيها المدارك المتقبلة التي تزن وتفكر وتربط حاضرها بماضيها، وتستخرج من ماضيه ما ينير لها حاضرها ، من غير اعنات فكري ولا اجهاد نفسي ، والمقاومات للرسالة تكون أعراضا ظاهرة ، يمحوها الزمان القصير ، اذ ليست مستكنة في أغوار النفوس ، وخبايا القلوب ، بل انها على سطحها ، والتغيير يعرو السطوح ، ولا يتجه الى عميق القلوب ٠

(ب) وان المدائن ذوات الحضارات تكون فيها عادات راسخة ، وتقاليد ثابتة ، وأفكار سائدة ، فلكي تدخل العقيدة الجديدة يجب تفريغ الأذهان مما امتلأت ، حتى يكون ثمة حيز للتفكير الجديد ، اذ أن العلوم وما يتصل بها من فلسفات سواء أكانت حقا أم كانت باطلة تملؤها ، واذا جاء الدين الجديد كانت المصارعة بين ما ألفوا ، وما جدّ لهم ، وأقل أبواب المصادمات المجادلة والمجادلة مع المتعصبين تضيع فيه الحقائق، ولا يبدو جوهرها نقيا صافيا٠

وان الأفكار العلمية ولو خطأً تركزت في النفس ، والتقاليد المستحكمة المسيطرة تشتد حتى تصل الى أغوارها فلا يسهل الوصول الى اقتلاعها ٠

وقد يقال ان أهل البادية لهم عادات وتقاليد ، كما أن أهل الحضارات لهم ذلك ونقول في الجواب عن ذلك ان تقاليد البدو لا ترتكز على عناصر فكرية تتغلغل في الأذهان، وتسيطر على القلوب كالأفكار والآراء في بلاد الحضارات ، وما يكون في دائرة العمل من غير تغلغل في النفس لا يكون راكزاً ثابتا ، كالذي يكون منشؤه التفكير العميق ٠

(ج) وان التجارب قد أيدت ذلك ،فان الدين الجديد يسهل دخوله في البادية الصافية نفوس أهلها ٠

(د) وان أي دين لا بد له من ناس يحملونه ، ويسيرون به ، وأهل البادية الذين يكون عندهم نوع من التفكير والرقي النفسي يكونون أقوى نفسا ، وأشد جلاداً ، وأكثر احتمالا ، ولقد قرر الاجتماعيون أنهم هم الذين يحملون أعباء الجهاد في سبيل مايعتقدون ما دامت أوضار الحضارة لم تصب قلوبهم بل فيهم بأس وقوة احتمال ٠

وان الشواهد قائمة ، فاننا نجد الأديان التي جاءت برسل أوحي اليهم من السماء كان بعثهم في الأرض التي تكون بين الحضارة والبداوة ، وكان التابعون دائماً من أهل البأس والقوة الذين عاشوا في الصحراء ، وقاوموا لأواءها، ولم يكونوا من أهل المدن التي أصيبت بطراوة التحضر •

واعتبر ذلك بموسى عليه السلام ،فقد أرسل الى قوم فرعون ، ولكن ما نزلت عليه الرسالة الا في أرض مدين المتاخمة لحدود الشام ، وما وجد الذين يستجيبون له من أهل مصر ، وما كانوا هم الذين حملوا عبء التبليغ من بعده ، وحمله غيرهم •

ولقد كان بنو اسرائيل أضعف في نفوسهم من أن يحملوا عبئها من بعده وذلك لأنهم مردوا على أخلاق المصريين ،وان لم يكونوا منهم ، فكان لابد من أن يتربوا على البأس في البادية، ليستطيعوا حملها ، ولذلك قال تعالى لموسى عليه السلام ، اذ أمرهم نبيهم موسى عليه السلام أن يدخلوا الأرض المقدسة التي كتب لهم أن يدخلوها ، وان لم يقيموا فيها :

﴿ قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي الْأَرْضِ فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ ﴿٢٦﴾ ﴾ (١)

ولقد فهم بعض الكتاب أن الموحدين كانوا في الساميين فقط ، وجاء بعض الأوربيين ، وعلل ذلك بأن العقل السامي عقل سطحي ، لا يفهم من العقيدة الا التوحيد ، ولا يتصور المعنى الفلسفي في التثليث ، وهذا الكلام يأتي على عقيدته بالنقض ، لأن عقيدته المسيحية جاء بها سامي • فلا بد أن يكون ما أتى به ، وما دعا اليه يتفق مع السامية التي لا تهضم فلسفة التثليث وأن يكون التثليث الذي نسب اليه لا تشتمل عليه رسالته ، ولا تدعو اليه رسالته ، وليس ما اشتملت عليه عقيدته •

على أن العقل الآري قد اعتنق الوحدانية في أصل الديانة البرهمية • التي جاءت بها القبائل الآرية ، فدعوى الاقتصار في الوحدانية على العقل

---

(١) المائدة

السامي يأتي على أصل التثليث بالنقض، وينتهي بأن التثليث من أوهام الفلاسفة، وليس من عقائد الرسل ٠

ولعل ما ذكرنا من أن القبائل الآرية التي جاءت تحمل الديانة البرهمية من بوادي آسيا ، قرينة على أن الرسائل الالهية ، انما تنزل في الأرض التي تكون بادية قريبة من المدائن ، أو تكون في طريق القوافل ، فقد جاءت الى الهند التي كانت مملوءة بالأنهار والأحراش ،وفيها تحضر نوعا ما ، ولم يكن فيها صفاء البادية ، وبأسها ، وقوتها وسذاجتها ، وسلامة فطرتها ولذلك سرعان ما حرفت العقيدة الى الصورة التي جاءت بعد ذلك من نظام الطبقات الظالم ٠

وقد أشرنا من قبل الى أن الرسائل الالهية غير محصورة ، وأن الله تعالى ذكر أنه لم يقص في القرآن أخبار كل النبيين ، فقد قال تعالت كلماته :

﴿ مِنْهُم مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُم مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ ﴾ (١)

وسيتبين عند الكلام في البشارات التي بشرت بالنبي صلى الله تعالى عليه وسلم أن من البشارات ما جاء في كتاب الفيدا الذي هو أعلى مصادر الديانة البرهمية ، وبينا في وضوح أنها في أصلها ديانة توحيد ، كما جاءت بالفيدا النصوص الدالة على ذلك مما يدل على أنها ديانة منزلة ابتداء ، وان انحرف عنها القوامون عليها ، وشاهت الى الحال التي آلت اليها من عصور سابقة ولا تزال قائمة الى الآن ٠

الجزيرة العربية موطن النبوة :

٤٧ ـ من هذا البيان الموجز يتبين أن البيئة الطبيعية بمكة وما حولها ، وما لها من مزايا امتازت بها كانت من المرشحات لأن تكون موطن النبوة وموطن خاتم النبيين ، فاذا كانت النبوة قد ابتدأت بابراهيم أبي الأنبياء واسماعيل ابنه ، فان ختام النبوة في العالمين كانت بها أيضا ، برجل من ولد اسماعيل ٠

---

(١) غافر ٠

فهي أصلح مكان لأن ينبعث منها الدين الجديد الخالد الى يوم القيامة حيث يلتقي العرب جميعا فيها ، وحيث الأمن والسلام فيها ، وحيث القدسية التي تملأ النفوس تنبعث من أرضها ،وحيث دار الندوة التي يتشاور فيها العرب أجمعون ٠

وكان المكان أصلح الأرض ، لأن تغرس فيه أغراس الدين الجديد وأن يؤتي أكله ٠

والعرب أصلح الجماعات لأن يحملوا عبء الدعوة اليه ، والدفاع عنه ، وحمايته من سطوة الملوك ، وطغيان الجبارين حول العرب ، ومن وراءهم فهم أهل البأس والنجدة ٠

ولغة قريش في مكة أصلح اللغات لأن ينزل بها القرآن الكريم الذي أعجز العالمين عن أن يأتي أحد بمثله فالمكان صالح لأن يبعث رسول الله طهراً ، وثقافة ، وقوة بأس وجلاد ، ولغة ،

﴿ ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ ﴾ (١)

شرف الزمان

٤٨ ـ اذا كان المكان الذي اختاره الله تعالى لخاتم النبوة أصلح مكان يدرك العقل البشرى صلاحيته ، ويعلم بالاختيار مكانته ، فان الزمان قد تهيأت فيه الأسباب لدين يجمع الانسانية ،ويهديها ، والقلوب قد فرغت وأصبح العالم في حاجة الى هداية من السماء ،اذ قد صار الناس على فترة من الرسل ، فالديانة السماوية حرفت ، وانحرف تابعوها ، وغيروا وبدلوا وحولوها عن غايتها ، وبعدوا عن الحق فيها ٠

والأوثان قد تزايلت قوتها وضعفت مكانتها ، وأدركت العقول موضع الوهم فيها ، فآلهة اليونان قد زالت الأوهام التي تحيطها ، والأوثان الرومانية تكشف للناس أنها أحجار لا تنفع ولا تضر ، وأنها ليس فيها سر

(١) الانعام ٠

يمنع أو يمنح ، يضر أو ينفع ، يشفي أو يسقم ، وعلى فرض أنها لم تذهب الأوهام حولها ، فهي خرافات يجب ازالتها ، وفساد في العقول يجب اصلاحه ٠

وكانت الامبراطورية الرومانية تعبث برعاياها ، وتفرض عليهم طاغوتها وهم لا حق لهم يستطيعون به تقويمهم ، والنفوس قد ضلت وزلت ، ولكنها لم ترض وتطمئن ، فهى هالعة جازعة ، لأنها كانت تفرض على الشعب دينها وان كان لا يرتضيه ، وتفرض عليه عقائد لا يؤمن ولا يرضا ، كما كانت الحال في الشعب المصري الذي فرض عليه دينها ، أو عقيدتها ، كما فرض عليه سلطانها ، وجعلتهم عبيداً أو كالعبيد ٠

والرومانيون في داخل أرضهم ، وفي الشعوب التي منيت بحكمهم كانت التفرقة بين الناس واضحة جلية ٠

كانت التفرقة أولا ، من حيث تحكم رجال السلطان في الرعية ،واختصاصهم بالمال يجيء اليهم من الغنائم التي يغنمونها في الحروب ، وحرمان بقية الرعية من المال والسلطان معا ، والناس لا يشقون لآلام ذاتية فقط وان كان الحرمان في ذاته يحدث ألماً نفسياً ،ولكنهم يألمون من ذلك ، ومن رؤية النعمة في يد غيرهم يرتعون ويلعبون ،ويعبثون ، ولا حق لأحد في أن يعترض عليهم أو يلومهم ، أو يوجه اليهم نقدا ٠

والتفرقة من الناحية الثانية في أن الشرف كل الشرف لطبقة الأشراف والمهانة كلها في الطبقة المحكومة ،والشريف الروماني يعلو على كل آحاد الرعية من الضعفاء ٠

والرق في أرض الرومان كانت تتكاثر أسبابه ، حتى انه يسوغ لأي انسان يرى شخصا من أي شعب أن يسترقه والحكم للقوي في العلاقات الانسانية كلها ، وكأن أرض تلك الدولة أجمة يفترس قويها ضعيفها ٠

والأحكام بين الناس تسير على مقتضى تلك النظم المقيتة التي تفرض التفرقة، بين الناس ٠

والمرأة عندهم أمة لأبيها قبل الزواج ، وأمة لزوجها في بيت زوجها ولو قتلها لا عقوبة عليه ٠

وهكذا ترى نظاما اجتماعيا أهدرت فيه الحقوق الانسانية الأساسية التي تثبت للانسان بمقتضى أنه انسان ،وشاع الفساد ، وظهر في البر والبحر بما كسبت أيدي الناس ٠

كان لابد من تغيير لهذه الحال ، ومن اصلاح لهذا الفساد ، لأن الله لا يحب الفساد ، والله لايريد ظلما للعباد ، فلابد من أن يكون من يغير هذه النظم ، وليس في الناس من يغير ، ويبدل بالفساد صلاحا ، وبالضلالة هدى ، ولا يكون من الانسان لأن ابن الأرض ترك لاخيه الانسان فأكله أو أذله ، أو أهدر انسانيته ، لابد من رسالة السماء تكون في أرض تصاقب الرومان ، وهم ذووا بأس وقوة ٠

هداية السماء في أرض العرب

٤٩ ــ واذا تركنا غرب الجزيرة العربية وشمالها ، واتجهنا الى شرقها وجنوبها ، فانا نجد أرض فارس ، وما كان فيها من انحلال سياسي وظلم ، وانحلال اجتماعي ، وانحلال في الأسرة ، وظلم في الحكم ، نجد كسرى يعتبر الشعب كله عبيداً أو كالعبيد ،ومن حوله من رؤساء ودهاقين يسوغون، ذلك للناس ، ولا يكادون يسيغونه ،وان العقائد المختلفة التي توردت على العقل الفارسي جعلته في متاهات فكرية يضل فيها الساري ، وتظلم النفس ، والطبقية التي سرت اليها من الهنود الذين على مقربة منها حلتها اجتماعيا وان كانت لم تصل الى مثل ما كان عليه الهنود والأسرة كانت غير قائمة على أسس قوية وسليمة ، فقد كان الولد يتزوج أمه وأخته ، ويتزوج الرجل ابنته ، وغير ذلك مما يضعف النفس في العلاقة الزوجية ، وينحدر به الانسان الى أحط من الحيوان ، وكان مذهب مزدك الذي جاء في آخر الحكم الفارسي الذي حل المجتمع الفارسي ، وضاعت فيه الأنساب واستبيحت الأموال حتى وهنت الحقوق ، وضعف تثمير الأموال،واختلط الحابل بالنابل وما كان في المستطاع أن يغير النظام بنظام من فارس، فان التجارب في المذاهب السابقة من زرادشتيه الى مانوية الى مزدكية ،لم تنجح في اصلاح ، بل كانت كالأدوية التي تزيد الداء العضال استشراء في الجسم ، فتكون هي أسباباً لتقوية

الانحلال ، فالزرادشتية دعت الى القوي، فتحكم القوي في الضعيف ، والمانوية دعت الى انهاء ابن الانسان من هذه الأرض مما اضطر كسرى لقتله ، وجاء من بعد ذلك مزدك ، فنشر الفساد وانهار به المجتمع الفارسي انهياراً ٠

اذن لابد من هداية السماء ، لتستقيم الأمور ، فكانت في أرض العرب التي تجاورهم ، كانت من أرض العرب للرسول الأمين صلى الله عليه وسلم ٠

ديانة الهند والصين:

٥٠ ــ واذا تجاوزنا فارس وخراسان وما وراءهما ، نجد الهند والصين ، وعندئذ نجد حيرة العقول واضطرابها ، نجد مجتمعا مضطرب التفكير ، قد حرفت البرهمية ، حتى صارت وثنية بعد أن كانت ديانة موحدة ، وصار براهما الها مجسما ، في أعينهم ، مع أنه في حقيقته رسول أرسله الله تعالى ، قد جسموه ، وجعلوا بعضه يخلق ، منه خلق من أعلاه، وخلق من سواعده ، وخلق من ركبتيه ، وخلق من قدمه ، وحالوا بين الخلق والحق ثم فرقتهم الفرقة والطبقية، ورضوا بالتنافر بينهم بدل التحاب والتواد ، وتقطع بينهم أمرهم ، حتى صاروا هدفا يراد ، ومقصداً يقصد ٠

وصارت الأوهام تسيطر عليهم ، حتى توهموا في أحد رجال الدين عندهم أنه اله أو ابن اله ونحلوه من الصفات مالا يكون لبشر عادي ، وذكروا أن النصارى تبعوه الى آخر ما قيل مما أخذه عنهم النصارى من بعدهم ٠

ولما اتجهت بعض النفوس الى اصلاحهم كانوا فى حيرة من أي الأبواب تدخل في الاصلاح ، لأن معرفة المداخل والمخارج في باب التهذيب الديني لايكون الا بدين ، ولم يكن ثمة دين مرشد ، ولا نبي مبعوث يدعو الى الحكمة والى صراط مستقيم ٠

فاقتصروا على ما يومىء اليه الاحساس ، فجاء بوذا ، وأتى بعقيدة هي الى الحرمان أقرب منها الى الاصلاح ، والايجاب ، ورفع الانسان ، وتكوين الارادة المتجهة الى الفضيلة الايجابية والعمل النافع المثمر ، وعمارة هذه الأرض ، واقامة المصالح على أساس خلقي مكين ٠

وان الحرمان لا ينتج ولا يثمر ، ولايطيقه العامة ، وان ادعاه الخاصة ، ولذلك لم يكتب لهذا المذهب الأخذ به أخذاً كاملا ، أو قريباً منه ، أو حتى

ارادته الا عند بعض الآحاد الذين سموافي الماضي والحاضر الفقــراء ، وقد راضــوا أنفسهم على الحــرمان غيرالمنتج ٠

ولما انتقل المذهب الى الصين أثمــرفيه ثمرات غير ايجابية ، وكان كلهــا يتجه الى الحرمان ، وقد أراد بعض المصلحين أن يحول الشعب الى الناحيــة الايجابية ، ولكن ضــلال الفكر ، حال بينهم وبين ادراك الحقــائق ، وقــد ضلوا في تفكيرهم ضلالا بعيداً على النحوالذي ذكرناه في صــور كلامنا ، وان الاشارة فيه تغني عن العبارة ،والايجازيقوم في ذلك مقام الاطناب ٠

فكانت حالهم تقتضي هاديا مرشــدألا يكون من بينهم ، ولا يكون ممن عــلى شاكلتهم ، بل يكون من الله تعالى ، واذاكانوا قد عبدوا السماء ، فهدايتهــم تجيء من خالق الأرض والسماء ٠

وقد يقول قائل انه بلا ريب العالم كان يحتاج الى رسالة من السماء،والى رسالة محمد عليه الصلاة والسلام خاصة التي دعت الى تهذيب النفس وتقوية الجسم ، وأن يكون الانسان ربانياً نافعاً ، فهــل سد الفراغ في أوروبا وآسيا في مجاهل العالم ، ومعالمه ؟ والجواب عن ذلك أن الشريعة لا تزال قائمة ثابتة وما جاء به محمد لا يزال يدعو الى الحق ، ويوجــهويهدي ، وأتباع محمد هم الذين قصروا في العبء الذى حملوه ولم يقــوموا بحق الأمانة التي ائتمنهم محمد عليــه الصلاة والسلام عليها بأمر ربه ، والله بكل شيء محيط ٠

البشارات

٥١ ـ اذا كانت الدنيا كلها تتطلع الى وجود النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ليصلح الناس ، وليعلمهم الكتاب والحكمة ، وليهدي من تبلغه الدعوة ، وهم ممن يؤمنون بالغيب ويهدون الى صراط مستقيم فان البشارات كانت تجيء اليهم برسول قدقدر الله زمانه ، وسيدركهم ابانه ، ولم تكن البشرى من الكتب السماوية التي كانت على مقربة من النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، وهي اليهودية والنصرانية، بل كانت البشرى مما وراء ذلك مما دل على أن هذه الكتب جاء بها رسول ،وكانت هذه الكتب مما اشتمل عليه ما يدعو اليه من توحيد الله تعالى العليم العزيز ، الذى جاءت النذر والبشرى بما يدعو أهل الايمان اليه .

وأقدم الكتب التي اشتملت على هذه البشارة بمحمد صلى الله تعالى عليه وسلم كتب الهنود القدماء ، فان كتابهم (فيدا) الذى أشرنا اليه قال بعض المطلعين من المسلمين ان في (فيدا) ما يدل على التبشير بوجود الرسول محمد خاتم النبيين ، واليك ما قال ذلك الكاتب ننقله مما نقله عنه الأستاذ المرحوم عباس محمود العقاد في كتابه (معالم النور) جاء في هذا الكتاب القيم ما نصه :

يقول الأستاذ عبد الحق ان اسم الرسول العربى أحمد مكتوب بلفظه العربى في السامافيدا من كتب البراهمة وقد ورد في الفقرة السادسة والفقرة الثامنة من الجزء الثانى ونصها : « أن أحمد تلقى الشريعة من ربه ، وهى مملوءة بالحكمة ، وقد قبست منه النور ، كما يقبس من الشمس » .

ولا يخفي المؤلف وجوه الاعتراضات التي قد تأتي من جانب المفسرين البرهميين ، بل ينقل عن بعضهم أنه وقف عند كلمة أحمد ، فالتمس لها معنى هنديا . وحاول أن يجعلها تفيد أنني وحدي تلقيت الحكمة من ربى ..

قال الأستاذ عبد الحق ، ما فحـــواه أن العبارة منسوبة الى البرهمي ، (فانزا كانفا) من أسرة كنفا ، ولا يصدق عليه أنه وحده ملتقى الحكمة من أبيه (١)٠

ويستفاد من هذا الكلام أمران :

أولهما : أنه ورد ذكر أحمد في كتاب (الفيدا) كما ورد ذكر هذا الاسـم الكريم في التوراة والانجيل ٠

ثانيهما : أن البراهمة الذين حرفوا تعاليم هـــذه الديانة ، التي كانت في الأصل ديانة توحيد ، حاولوا أن يحرفوا الكلم عن مواضعه ، ويغـــيروا المعنى بتفسيرها بغير مجراها ٠

ولا شك أن التفسير التحريفي لهم يخالف ما يدل عليه الأصـل كما قـرر الأســـتاذ عبد الحق ، وفوق ذلك فان العبارة تفيد بنصها « أن أحمد تلقى الشريعة من ربه » ويخالفه التفســـير المنحرف ، فان الذى تلقاه بالنص أحمد هو الشريعة وأنه تلقاها من ربه لا من ابنه ، والفرق واضح بين الأب والرب الا اذا كانوا يجعلون الرب أبا كما قال النصارى من بعدهم ٠

وقد يقول قائل ان البرهمية لم يأت بها رسول نزل عليه أمر من الله ، وان الجواب عن ذلك أن نصوص كتبهم تفيد كما ذكر البيروني ، أن براهمـــا كان مرسلا ولم يكن الهاً ، ولم يكن ابن اله ،وقـــد نقلنا لك ما ذكـــره البيروني فارجع اليه ٠

لقد جاء فى كتب الهنود كما قررنا تبشير بمحمد صلى الله تعالى عليه وسلم، كما جاءت بكتب (فيدا) التي اعتبرها الهنود أصلا لعبادتهم ، ولقد ذكر الأستاذ عبد الحق أن وصف الكعبة ثابت في كتب الآثار (فافيدا) ، ويسميهـــا الـكتاب بيت الملائكة ، ويذكر من أوصافها أنها ذات ثمانية جوانب ، وأبواب تسعـــة والأستاذ عبد الحق يعبر عن الأبـــواب بالأبواب المؤدية الى الكعبة ، وهي باب ابراهيم ، وباب الوداع ، وباب الصفا ،وباب علي ، وباب عباس ، وباب النبي ، وباب الزيارة ، وباب الحرم ، ويفســر الجوانب الثمانية ، كما فسر الأبواب ٠

---

(١) معالم النور للاستاذ المرحوم عباس محمود العقاد ص ١٢ ٠

فيذكر أنها جبال تكتنف البيت الحرام ، وهي جبال خليج ، وقيعقيان ،وجبل هندي ، وجبل لعلع ، وجبل كدا ، وجبل أبي حديد ، وجبل أبي قبيس ٠

ولا يلتفت الكاتب الى ما قاله البراهمة المحرفون من أن البيت هو هيكل الانسان وجسمه ، وذلك لأنه قول لا اعتبار له ، اذ أنه يتنافى مع وصف القدسية المذكورة وصفاً للبيت ، ولا الى أنه بيت الملائكة ، فلا يوصف الانسان بأنه بيت الملائكة ٠

ويسترسل الكاتب في بيان أن كتب البراهمة قد اشتملت على اشارة الى ما يلاقيه النبي صلى الله تعالى عليه وسلم من عداوات ، ويشير الى عدد الذين حاربوا النبي صلى الله تعالى عليه وسلم في موقعة بدر وانتصاره عليه (١) ٠

وقد تشكك بعض النصوص في الكاتب الهندي ، ولكن الكاتب لم يعتمد على أوهام توهمها ، لم يعتمد على وهمه، أو خياله ، انما اعتمد على المنقول ، وفسره تفسيراً تحتمله الألفاظ ، ولا يجافي العقول والذين خالفوه فسروها تفسيراً لا تقبلها العبارات٠ بل تناقضها،وهى مخالفة للمعقول ، كتفسيرهم بيت الملائكة والقداسة بأنه جسم الانسان ،وكتفسير الرب بالأب ، وغير ذلك ٠

محمد رحمة للعالمين :

٥٢ ـ ولقد ذكر الكاتب الأستاذ عبد الحق اشارة تبشر بالنبي محمد صلى الله تعالى عليه وسلم من كتاب(زندافستا)، انه وصف في هذا الكتاب ببعض الأوصاف التي جاءت في القرآن الكريم،فقد وصف بأنه رحمة للعالمين ، والله تعالى يقول في الكتاب المبين « وما أرسلناك الا رحمة للعالمين » وذكر أنه يدعو الى الواحد الأحد الذي ليس له كفء ، وليس له أول ولا آخر ، ولا ضريع ولا قريع ، ولا صاحب ولا أب ولا أم ، ولا صاحبة ولا ولد ، ولا مسكن ولا جسد ، ولا شكل ، ولا لون ولا رائحة ٠

ولا شك أن هذه أوصاف للذات العلية ، وهي من الوحدانية في الذات والصفات ، ووحدة الخلق والتكوين ثابتة واضحة ونتيجة لهذا وحدة العبادة فلا يعبد الا الله تعالى ٠

ويقول الأستاذ العقاد « ويشفع(رأى الأستاذ عبد الحق) ذلك بمقتبسات كثيرة من كتب الزرادشتية تنبىء عن دعوة الحق التي يجيء بها

---

(١) كتاب معالم النور للاستاذ المرحوم العقاد ص١٣ بتصرف قليل ٠

النبي الموعود ، وفيها اشارات الى البادية العربية ، ويترجم نبذة منها الى اللغة الانجليزية معناها بغير تصرف « ان أمة زرادشت حين ينبذون دينهم ، يتضعضعون، وينهض رجل في بلاد العرب يهزم أتباعه فارس ويخضع الفرس المتكبرين، وبعد عبادة النار في هياكلهم يولون نحو كعبة ابراهيم التي تطهرت من الأصنام، ويومئذ يصبحون وهم أتباع للنبي رحمة للعالمين وسادة لفارس ومديان ، وطوس وبلخ، وهى الأماكن المقدسة للزرادشتين ومن جاورهم ، وان نبيهم ليكون فصيحا يتحدث بالمعجزات » (١) ٠

وهنا نقف وقفة قصيرة فان هذا الكلام يدل على أن زرادشت كان نبيا ، وان ديانته ديانة سماوية ، والا ما اشتملت على هذه البشارات ، وما كان لها عندنا اعتبار ، لولا أصلها السماوي،وكيف يتفق هذا مع ما يقال في كتب الفرنجة من أن زرادشت كان يدعو الى القوة ، والى معاضدة الأقوياء ، وافناء الضعفاء ، حتى وجدت فلسفة في أوربا تدعو الى افناء الضعفاء ، وألا يكون لهم مكان في الوجود ، وذلك يتنافى كل المنافاة مع أخلاق النبوة السماوية ، وما تدعو اليه الأخلاق الانسانية الكاملة ،فان حق الحياة كانت لكل الأحياء ، والضعيف لا يموت أو يبخع بحق قانون الأخلاق وقانون السماء ، ولكن يعاون ويعيش ، حتى يبلغ أجله ٠

والجواب عن ذلك أن هذه النصوص موجودة فعلا في كتب الزرادشتية ، وهى تؤدي بمنطقها الى أنها جاءت على لسان رسول في كتاب سماوي فقد وقعت الحوادث ، كما ذكرت فقد تضعضع الشعب الفارسي فعلا ، وأدخل أرضه العرب فعلا ، وكان الفارسيون حملة العلم الاسلامى الذي كان رحمة للعالمين ٠ وذلك لا يكون الا من وحي السماء ٠ فليس لنا الا أن نقول ان هنا رسولا ورسالة ، وكتابا ينطق بوحي الله تعالى ٠

أما ما ينحل الى زرادشت من أنه كان يدعو الى القوة فان كان يراد بها أن يكون المؤمن برسالته قويا في خلقه وعقله وجسمه ، فان ذلك حق ، وهو يتفق مع مبادىء الأخلاق ، ووسائل الرسل ، وقد أثر عن محمد صلى الله تعالى عليه وسلم أنه قال : « المؤمن القوي خير من المؤمن الضعيف ، وفي كل خير » وليس في هذا ما يمنع أن يكون نبيا مرسلا ، داعيا الى التوحيد ؟

(١) الكتاب المذكور ص ١٤ ٠

وان كان يراد أنه يغلب القوة على الحق فذلك باطل ، وتقوله أوهام الأوربين وهو جدير بساستهم ، ولا نظن الا أن فلاسفتهم الذين زعموا هذا قد حرفوا القول عن مواضعه ، كما حرفوا دعوة المسيح عليه السلام ، وادعوا له الألوهية وهو منها براء ، وما قال لهم الا ما أمر الله تعالى به ٠

وكذلك ما يزعمون من أنه أوجب افناء الضعفاء ، انه فيما نرى دعا أهل الايمان الى أن يدرعوا بالقوة ، وأن يعالجوا الضعف ، لا أن يفنوا الضعفاء ٠

وخلاصة القول في هذا المقام أن البشارات جاءت في هذه الكتب ، وهي صادقة فيما قالت ، وتنتج اثبات النبوة لمن وجدت في كتبه ، وليس لنا أن نطعن فى صدق ما تنتجه ، لمجرد أوهام توهمها ناس ينكرون الوحدانية ، وادعوا على عيسى أنه اله ، أو أنه ابن الله ، فليس غريبا أن يدعوا على غيره ما دونها ٠

وقد يقول قائل ان القرآن الكريم عندما ذكر الذين بشروا بالنبي صلى الله تعالى عليه وسلم لم يذكر هؤلاء ، بل ذكر أن الانجيل فيه أن المسيح عليه السلام بشر برسول من بعده اسمه احمد ، وذكر أن التوراة فيها محمد عليه السلام مكتوب ، كما قال تعالى :

﴿ وَٱكْتُبْ لَنَا فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْآخِرَةِ إِنَّا هُدْنَآ إِلَيْكَ ۚ قَالَ عَذَابِىٓ أُصِيبُ بِهِۦ مَنْ أَشَآءُ ۖ وَرَحْمَتِى وَسِعَتْ كُلَّ شَىْءٍ ۚ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِنَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٦﴾ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِىَّ ٱلْأُمِّىَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ ۚ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلنُّورَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٥٧﴾ ﴾ (١)

---

(١) الاعراف ٠

والجواب عن ذلك أن أهل الكتاب كانوا يجادلون النبي صلى الله تعالى عليه وسلم اذ كانوا على مقربة من دعوته ،فكان يحاجهم بما عندهم ، وكانوا هم يعرفون هذا النبي ، ويستفتحون على المشركين عندما كانوا ينازلونهم بالنبي عليه السلام قبل أن يبعث ، فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به ٠

على أن رسالة النبى عليه الصلاة والسلام ما كانت تستمد من شهادة السابقين ، انما كانت قوتها تستمد من ذاتها ، وتحمل في نفسها الشهادة بصدقها ، والبينات الناطقة بأنها حق ،وأنها من الله العزيز الحكيم ٠

محمد في التوراة ٠

٥٣ ـ جاء ذكر محمد عليه الصلاة والسلام في التوراة بالاشارة الواضحة ، ومع أنه جرى فيها التغيير والتبديل لم يمح ذلك ما فيها من اشارات بينات واضحات الى رسالته عليه السلام مما جعل اليهود يعرفونه على وجه اليقين ، كما يعرفون أبناءهم ، واستفتاحهم على المشركين به قبل أن يبعث ، فلما بعث كفروا ٠

وقد عني الأستاذ عبد الحق ببيان النصوص العبرية التي فيها البشارة الى النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ،وكانت ترجمتها هي « ان الرب جاء من سيناء ونهض من سعير لهم ، وسطع من جبل فاران ، وجاء مع عشرة آلاف قديس وخرج من يمينه نار شريعة لهم » ٠

وجبل فاران انما هو بمكة ، وقد قال عبد الحق فى ذلك : « ان الشواهد القديمة جميعا تنبي عن وجود فاران في مكة ، وقد قال المؤرخ جيرون ، واللاهوتي يوسبيوس : ان فاران عند بلاد العرب على مسيرة ثلاثة أيام الى الشرق من ايلة ، ولا يكتفي بالنقل العبرى وترجمته ، بل ينقل عن النص العربى المترجم أن اسماعيل سكن برية فاران بالحجاز ثم يقرر أن سفر العدد من العهد القديم جاء فيه أن بني اسرائيل ارتحلوا من برية سيناء فحلت السحابة في برية فاران ، ويستنبط من ذكر عشرة الآلاف الذين ذكروا على أنهم محمد وأصحابه عندما خرجوا في غزواتهم الى مكة ، والى الشام ، فقد بلغوا هذا العدد ، وكانوا من الصحابة الأطهار ، ويسوق من جاء في التوراة من أن موسى كليم الله تعالى بشر بمحمد عليه السلام بقوله : « ان نبياً مثلي سيقيم الرب الهكم من اخوانكم أبناء ابراهيم » ٠

ويسترسل الكاتب المحقق في بيان ما جاء بالتوراة من اشارات فيذكر عبارات نبي من أبناء ابراهيم مثلي تثبت أنه محمد عليه الصلاة والسلام ، اذا لم يجيء أي نبي بعد موسى عليه السلام بشريعة كاملة تبين كل الأحكام غير القرآن الذي نسخ بعض الأحكام التي جاءت في التوراة (١) ٠

وهكذا تجد التوراة قد بشرت بالنبي ، واشارات التبليغ قائمة فيها ، حتى بعد أن عراها التغيير والتبديل ٠

وان هذا الكلام لا يبشر فقط بالنبي عليه السلام ، بل يبين مكان الرسالة ،ومنبعثها الذى تعم منه مشارق الأرض ومغاربها ، ففاران كما جاء في أخبار المؤرخين ، والمحققين من الكتاب الأقدمين ، كان بينها وبين أيلة مسيرة ثلاثة أيام ، وكما جاء في كثير من أقوال المؤرخين كانت حول مكة أو بمكة ٠

وقد ذكر الأحمديون الذين عنوا بترجمة معاني القرآن الكريم ، وان كنا نخالفهم في أصل ترجمة القرآن ،كما نرى الرأى المبطل لاعتقادهم مع ذلك نأخذ كلامهم في التبشير بالنبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، فان اللؤلوة الفائقة لا تهون لهوان غائصها الذى استخرجها ، والحكمة ضالة المؤمن يلقفها أنى وجدها ٠

ذكر الأستاذ المرحوم العقاد ما قاله الأحمديون ، فقال :

«ومن الجماعات التي عنيت عناية خاصة بهذه النبوءات جماعة الأحمدية الهندية التي ترجمت القرآن (أي معانيه) الى اللغة الانجليزية ، فانها أفردت للنبوءات والطوالع عن ظهور محمد عليه الصلاة والسلام بحثا مستفيضا في مقدمة الترجمة ٠٠ قالت فيه أن نبوءة موسى الكليم تشتمل على ثلاثة أجزاء ، وهي التجلى في سيناء ، وقد حصل في زمانه، والتجلى من سعير ، أو جبل أشقر ، وقد تجلى في زمن السيد المسيح ، لأن هذا الجبل ، على قول الجماعة الأحمدية واقع حيث يقيم أولاد يعقوب الذين اشتهروا بعد ذلك بأبناء أشقر ، وأما التجلي الثالث فمن أرض فاران ، وهي أرض التلال التي بين المدينة ومكة ، وقد

---

(١) الكتاب المذكور ص ١٥٠ ٠

جاء في كتاب فصل الخطاب أن الأطفال يحيون الحجاج في تلك الأراضي بالرياض من برية فاران ·· وقد أصبح أبناء اسماعيل أمة كبيرة ، كما جاء في وعد ابراهيم ، فلا يسعهم شريط من الأرض على تخوم كنعان ولا وجه لاقامتهم ، حيث أقام العرب المنتسبون الى اسماعيل ، ولا باعث لهم على انتحال هذا النسب ، والرجوع به الى جارية مطرودة من بيت سيدها ، وقد جاء في التوراة أسماء ذرية اسماعيل الذين عاشوا في بلاد العرب·

ومن نبوءة أشعيا التي سبقت مولد السيد المسيح بسبعمائة سنة أن أبناء اسماعيل كانوا يقيمون بارض الحجاز، ففي هذه النبوءة يقول النبي أشعيا في الأصحاح الحادى والعشرين تبيتين بقوافل الدادانيين ، هاتوا ماء لملاقاة العطشان ، باسكان أرض تيماء وأونوا الهارب بخبره ، فانهم من أمام السيوف قد هربوا ، من أمام السيف المسلول ،ومن أمام القوس المشدودة ، ومن أمام شدة الحرب ، فانه هكذا قال الى السير في مدة سنة كسنة الأجير يغني كل مجد فيدا ويقول المترجمون من الجماعة الأحمدية فيفسرون هزيمة فيدا بهزيمة المكيين في وقعة بدر ، وهي الهزيمة التي نزلت بهم في وقعة بدر بعد هجرة النبي صلى الله تعالى عليه وسلم الى المدينة بنحو سنة كسنة الأجير » (١) وهذا النص يشير ، وكل تبشيرات الكتب بالأخبار المستقبلة يكون بالاشارة التي لا تخفى على المتأمل .وربما لا يفهمها من يأخذ بظواهر الألفاظ ، لا بمراميها وغاياتها ، وان التفسير بالظواهر لا يجدي ولا يؤدي معاني ، والاتجاه الى المرامي التبشيرية يجعل للألفاظ معاني قائمة بذاتها وواضحة ·

ويسوق جماعة الأحمدية في مقدمة تفسيرهم بالانجليزية ، فينقلون عن الاصحاح في سفر أشعيا ، وهو يرفع راية للأمم من بعيد ، ويصف لهم من أقصى الأرض ، فاذا هم بالعجلة يأتون ، وليس فيهم وازع ولا عاثر ، لا ينعسون ولا ينامون ، ولا تنحل حزم حقائبهم ، ولا تنحل سيور أحذيتهم سهامهم مملوءة ، وجميع قسيهم ممدودة حوافر خيلهم ، كأنها الصوان » ·

---

(١) الكتاب المذكور ص ١٧

وان هذا النص يدل على الدعوة إلى الحج ، وهي قد تدل على بعض قوله تعالى :

﴿ وَأَذِّن فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ﴿٢٧﴾ لِّيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَّعْلُومَاتٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّن بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْبَائِسَ الْفَقِيرَ ﴿٢٨﴾ ﴾ (١)

وجاء في سفر أشعيا في الاصحاح الثامن : « ولا تقولوا فتنة لكل ما يقول هذا الشعب فتنة ولا تخافوا خوفة ولازهوا ، قدسوا رب الجنود فهو خوفكم وهو رهبتكم ، ويكون مقدساً ، وحجر كل صدمة ، وصخرة عثرة » وكماً وشركاً لسكان أورشليم ، فيعثر بها كثيرون ، ويسقطون فيتكسرون ، ويعلقون فيلفظون ، صدا شهادة ، اختتم الشريعة بتلاميذي ، فاصطبر للأب السائر وجهه في بيت يعقوب .

واننا نرى أن الاشارة بعيدة ، أو أن الدلالة يعسر ادراكها على وجه يقيني ، وحسبنا ما مضى من نقول ففيها مايكفي .

في الإنجيل

٥٤ — جاءت البشارة بمحمد صلى الله تعالى عليه وسلم في الأناجيل أوضح اشارة منها في التوراة ، ولنضرب لذلك بعض الأمثال .

(أ) جاء في الاصحاح الثالث والعشرين من انجيل متى على لسان المسيح يخاطب بني اسرائيل : « هوذا بينكم يترك لكم خرابا ، لأني أقول لكم . انكم لا تروننى من الآن حتى تقولوا مبارك الآتي باسم الرب » فهو يدل على أن هناك من يأتي بعده مباركا باسم الرب ، ولم يأت بعده الا محمد عليه الصلاة والسلام .

وفي الاصحاح الحادى والعشرين من هذا الانجيل على لسان السيد المسيح

(١) الحج .

ما نصه : « لذلك أقول لكم ، ان ملكوت الله ينزع منكم ، ويعطى لأمة تعمل اثماره ، ومن سقط على هذا الحجر يترخص ، ومن سقط هو عليه يسحقه ٠

(ب) وجاء في انجيل يوحنا في الاصحاح الأول حديث يوحنا مع الكهنة في اللاوين ، اذ سألوه : من أنت ، فاعترف ولم ينكر ، وقال اني لست أنا المسيح ، اذا ماذا ! أأنت ايليا ، فقال لا ٠ قالوا أأنت النبي ! فأجاب لا ٠ فقالوا له من أنت لنعطي جوابا لمن أرسلونا ، ماذا تقول عن نفسك ؟ قال أنا صوت صارخ في البرية ٠

ولا شك أنه كان تنبؤ عن نبي ليس هو المسيح ولا هو نبيا ، فمن يكون هو غير محمد رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ٠

(ج) وجاء في الاصحاح السادس من انجيل يوحنا الذي صرح بألوهية المسيح فيما يزعمون جاء فيه على لسان المسيح ، انه خير لكم أن أنطلق لأني ان لم أنطلق لا يأتيكم المعزي ، ولكن ان ذهبت أرسله اليكم ، ومتى جاء اليكم يبكت العالم على خطيئته ، وعلى بره ، وعلى دينونته فأما على خطيئته فلأنهم لا يؤمنون بي ، وأما على بره فلأني ذاهب الى أبي ولا ترونني أيضاً ، وأما على دينونة الله ، فلأن رئيس هذا العالم قددين ، وأن لدي أمورا كثيرة أقولها لكم ، ولكن لا تستطيعون أن تتحملوها الآن ، وانما متى جاء ذاك روح الحق ، فهو يرشدكم الى الحق جميعه ، لأنه لا يتكلم عن نفسه بل كل ما يسمع يتكلم به ، ويخبركم بأمور آتية ، وذاك يمجدني لأنه يأخذ مما لي ويخبركم ، وبعد قليل لا تبصرونني » ٠

وان هذا الكلام اذا طرحنا عبارات الآب ، والألوهية المدعاة ، يتبين أنه ينبىء عن المعزي الذي يجيء بعده ٠ وانه ينطلق ليخلي له الطريق وانه يبكت على خطيئته ، وهو انكار نبوة المسيح ، ويبكت على بر بالمسيح في زعمهم ، لأنه يبكتهم على ادعائهم ألوهية المسيح لله سبحانه وتعالى المنزه عن الصاحبة والولد ٠

ثم انه يصرح الى أنه يدعو الى الحق جميعه ، لأنه أتى بالشريعة كاملة غير منقوصة ، خالدة صالحة لكل زمان ومكان ولكمالها كانت هي الخالدة فمن غير محمد يكون ؟ وان المعزي للخليقة الذي ينكر الخطايا ، وينكر غلو أهل الكتاب في دينهم انه محمد رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ٠

وقد جاءت نصوص الأناجيل الحاضرة بأن المسيح يبشر بالفار قليط ، والفار قليط هو أحمد اذ أن ذلك هـو المعنى اللفظي للفار قليط (١) ٠

على فترة من الرّسُل

٥٥ ـ ان نظرت الى العالم شرقا في أقصاه ، أو غربا في أقصاه ، أو القريب الداني ، أو البعيد النائي ، فانك واجد أن العالم في حاجة الى من يهـديه من ضلاله ، فالفلسفة لا تصلح الناس ،ولو استقامت على الطريقة لأنها ان أقنعت الخاصة لا تملأ نفوس العامة، ولا تهديها الى سواء السبيل ، وهى ما استقامت فما أصلحت أحداً ٠

والعقائد قد اعتراها التحريف ، فاليهود حرفوا التوراة عن معناها ، ونسوا حظا كثيرا مما ذكروا به ، ونظروا الى الناس جميعا ، على أنهم دونهم ، وأنهم ليسوا عباد الله مثلهم ، وأن الله تعـالى خالقهم كما خلق غيرهم بل زعموا أنهم المختارون وأن كل الناس دونهم ،وبذلك عاثوا في الأرض فساداً ، ولما ذلوا وهم على الاعتقاد بأنهـم شعب الله المختار ،حقـدوا على الخليقة ، وعملوا بـكل الوسائل للكيد لغيرهم غير متحرجين ولا متأثمين بل انهم يغرون بالعـداوة بين الناس وينشرون الفساد في غير تحفظ،ولا مراعاة لأى جوار في أي مـكان فكان لابد من نبي يأتي بدين قـوي يكفكف غرورهم وينهنه من غلوائهم ٠

والنصرانية انحرفت ، وخرجت عن مبادىء المسيح وغلوا فيه ، واستبدلوا بأدب المسيح وسماحته استعلاء واستكباراً في الأرض وعتوا وفسـاداً فكان لابد من رسول بشير ونذير ، يهدي الى الحق والى صراط مستقيم ٠

﴿ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ قَدۡ جَآءَكُمۡ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمۡ عَلَىٰ فَتۡرَةٖ مِّنَ ٱلرُّسُلِ أَن تَقُولُواْ مَا جَآءَنَا مِنۢ بَشِيرٖ وَلَا نَذِيرٖۖ فَقَدۡ جَآءَكُم بَشِيرٞ وَنَذِيرٞۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ١٩ ﴾ (١)

---

(١) قد كتب بعض تلاميذنا المسيحيين كتاباقيمـا يبين فيه نصـوص الأناجيل المبشرة بنبوة المسيح عليه السلام وقد طبع ٠

(٢) المائدة ٠

الرسول صلى الله عليه وسلم

مُحمّد مِن أوسَط قريش نسبًا

٥٦ ـ التقى أبو سفيان بن حرب بهرقل بعد أن ظهر أمر نبوة النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، وشاعت دعوته ،وسمع الرومان برسالته ، فسأله عن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم أسئلةكان من بينها السؤال عن نسب النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، فقال أبوسفيان ، وهو خصم شديد اللدد قوي الخصومة عندما سئل في ذلك ، فقال غير كاذب : « انه من أوسط قريش » أي أعلاهم لأن الأوسط هو الاعلى والأشرف • فقال هرقل هكذا يبعث الأنبياء من أشرف الناس نسباً •

وأخبار القرآن عن الأنبياء السابقين تثبت أنهم كانوا من أعلى الناس في قبائلهم من حيث مكانة أسرهم ، ولنضرب لذلك مثلا بشعيب عليه الصلاة والسلام ، فقد كان من رهط شريف ،وكان نسيبا فيهم ، ولقد قال الله تعالى في مجادلته لقومه :

﴿ قَالُواْ يَـٰشُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِّمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَىٰكَ فِينَا ضَعِيفًا وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَـٰكَ وَمَآ أَنتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ ﴿٩١﴾ قَالَ يَـٰقَوْمِ أَرَهْطِىٓ أَعَزُّ عَلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَٱتَّخَذْتُمُوهُ وَرَآءَكُمْ ظِهْرِيًّا إِنَّ رَبِّى بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿٩٢﴾ ﴾ (١)

وان هذا النص الكريم يدل على أن شعيبا عليه السلام كان من قبيل فيهم شرف ، وفيهم عزة ومنعة ، وبذلك كان من أوسط العشائر وأعلاها في مدين •

---

(١) هود •

ومحمد صلى الله تعالى عليه وسلم كان من أسرة فيها سمو وعلو في قومه ، وقد روى ابن عباس أن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم قال : « لم يزل الله عز وجل ينقلني من الأصلاب الطيبة الى الأرحام الطاهرة صفياً مهذباً ، لا تتشعب شعبتان الا كنت في خيرهما » .

وفي الصحيح من حديث وائلة بن الأسقع أن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم قال : « ان الله اصطفى من ولد ابراهيم اسماعيل ، واصطفى من ولد اسماعيل بني كنانة ، واصطفى من بني كنانة قريشا ، واصطفى من قريش بني هاشم واصطفاني من بني هاشم » .

وبذلك يتقرر أن محمداً عليه السلام كان رفيع النسب ، وليس المراد بشرف النسب أن تكون عشيرته ذات مال كثير ، وأن يكون قد نال منهم تركة مثرية كبيرة ، فان المال لا يكون نسباً ، وقد كان عمه أبو طالب كبير البطحاء وشريفها ، وكان مع ذلك في المال قلا ، والنبي صلى الله تعالى عليه وسلم مع علو نسبه بين العرب كان فقيراً ، وكان يتيما ، وكان يرعى الغنم ، فليس علو النسب والشرف ملازما لكثرة المال ، أو قوة البطش ، أو عظمة السلطان ، انما شرف النسب أن يكون من كورة يعلو آحادها عن النقائص ، ويخشون العار من أن يقعوا في رذيلة يستنكرها العرف ، ويستهجنها ذووا العقول السليمة ، وأن يكون لهم شرف نفسي ، ولم يجعل النبي عليه السلام شرفه في العرب بالمال ، أو السطوة ، بل جعل شرفه بأنه من خيرهم نفساً وبيتاً ، وقد قال عليه السلام : « جعلني في خيرهم بيتاً وخيرهم نفساً » .

وانظر الى أبي سفيان الذي كان من أعلى قريش عندما سأله هرقل أجاب بالصدق والأمانة ، وان كان صدقه حجة عليه ، ومعطياً للنبي صلى الله تعالى عليه وسلم قوة ، واستعلاء بدعوته ورسالته ، ويقول أبو سفيان وهو على الشرك : « لولا أني أخشى أن تحفظ عني كذبة في العرب لكذبت »

٥٧ ـ ولماذا كان الأنبياء لا يكونون الا من كورة عرفت بشرف النفس وعلو المحتد ، وان تولدت الرفعة من غير كبرياء ، واحترام النفس من غير استعلاء . ذلك ، لأن الرسالة تحتاج الى دعوة قوية لا يرنقها كدرة التعييب ، أو عدم الثقة ، أو نقص في شرف النفس أو رمية بالرذيلة ابتداء وان كان هو في ذاته كاملا .

ان النسب الذي ليس فيه رفعة ، ولم يعرف بأنه من عشيرة ذات تقاليد فاضلة ، كان أول ما يبادر به هو الرد ،لعدم شرف أسرته ، وانما نجد النبيين كانوا يعيرون بأن أتباعهم من أراذل القوم ، لا من أشرافهم ، ولا من ذوي النسب ، ويتخذون ذلك ذريعة لردالدعوة ، وان كانوا في ذلك ظالمين ، وان رد قوم نوح أبي الانسانية الثاني ليبين هذا ، فقد قال تعالى عنه وعن قومه الذين ردوه

﴿ فَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِىَ ٱلرَّأْىِ وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍۭ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَٰذِبِينَ ﴿٢٧﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَءَاتَىٰنِى رَحْمَةً مِّنْ عِندِهِۦ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنتُمْ لَهَا كَٰرِهُونَ ﴿٢٨﴾ وَيَٰقَوْمِ لَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مَالًا ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ ۚ وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ ۚ إِنَّهُم مُّلَٰقُوا۟ رَبِّهِمْ وَلَٰكِنِّىٓ أَرَىٰكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ ﴿٢٩﴾ وَيَٰقَوْمِ مَن يَنصُرُنِى مِنَ ٱللَّهِ إِن طَرَدتُّهُمْ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٣٠﴾ وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ وَلَآ أَقُولُ إِنِّى مَلَكٌ وَلَآ أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِىٓ أَعْيُنُكُمْ لَن يُؤْتِيَهُمُ ٱللَّهُ خَيْرًا ۖ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِىٓ أَنفُسِهِمْ ۖ إِنِّىٓ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ (١)

ان اعتراضهم على أن الذين اتبعوا نوحا عليه السلام هم آراذلهم اعتراض ظالم ، ولكن الله تعالى أرحم بعباده من أن يأتيهم بنبي مغمور في أسرته ، منكوب في أمر أمته ، مرذول ابتداء عند قومه ، فيبادرون بعدم تصديقه ، ويجاهرون ابتداء بمخالفته ،ويصرون،ويأخذون حجتهم من حال عشيرته وما يألفون ، وان التأثير في الأقوام لا يكون باكراه النفوس على عكس ما يبدو لها ، وما تبادر برده ، لأن المبادرة بادي الرأي بالرد تجعل النفس تبتدىء

(١) هود .

بالانحــراف عن الخط المستقيم الذىتدركه العقــول ، واذا انحرفت زاوية التفكير بأمــر منفر بادي الرأي ، فانه يستمر في خط الانحراف ، ولا يرجــع الى الحق ، الا بعسر ، وانه كلما استطال خط الانحــراف انفــرجت الزاوية ، ويصعب التلاقي من بعــد ، ورضي الله تعالى عن على كرم الله وجهه اذ يقول : « ان للقلوب شهوات ، واقبالا وادبارا ،فان القلب اذا أكره عمي » ودعــوات الرسل للهداية ودعوات الرسالة للهداية،وليست للعماية ٠

٥٨ ـ ولا شك أنه يجب أن يكون للرسول صلى الله تعالى عليه وسلم منعة من قومه ، لأنه يبادر الناس بالمجاهرة بغــير ما يعلمون ، وما يعتقــدون ، ويصدع مفاجئا بما لا يريدون ،وانهم بلا ريب يجدون أنه لا يدفع ما يجيء على غير رغبتهم بالحسنى ، بل بالمقاومة الحقيقية القوية ، واذا لم يكن له منعة من قومه يقتلونه في فجر الدعوة قبل أن يصبح صباحا ، ويكون لها ضوء في المجتمع ، ولو كان ضئيلا ، فانه من بعد يكون نورا ، ولو أطفىء النور عــاش الناس في ظلام لا يضيء أبدا ، وانظر الى قصة قوم شعيب ، اذ أنه لم يمنعهم من أن يقتلوه الا رهطه ، فقــد قالوا فيما حكاه القرآن الكريم عنهــم مما تلونا :

﴿ وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ ﴾ (١)

فلو كان الرسول في غير رهــط يمنعه ، وفي غير منعة تدفع أعــداءه لماتت دعوته في مهدها ٠

وما لنا نغوص في الماضي قريباً كان أو بعيداً ، ونحن بين يدي حضــرة الرسول عليه السلام ، اذ أن قــريشا عند ما صدع بأمــر ربه ، عارضته ، ولجت في المعارضة ، ولما لجت في المعارضة ساورتها نزعة الشر لقتله ، وما كان يمنعها الا أسرته ، وشرف هــذه الأسرة ، ومكانتها عند العرب ،وخوفها من أن تبادر بالثأر ، ودفع العار ، حتى تمكن النبي صلى الله تعالى عليه وســلم من أن يخرج بدعوة الحق من الفجــر الذى يشق الظــلام الى الصباح المشرق المنــير ، بل الى الضحى الذى يمــلأ الوجود ضياء ، عندئذ قيض الله تعالى من يمنعه ، وقد وقفت الدعوة تناضل عن نفسها ، وترد كيد الكائدين ٠

---

(١) هود ٠

٥٩ ـ وقد يقول قائل انهم ان لم يستطيعوا النيل من شخصه ، فقد نالوا ممن يتبعونه ، ووقفوا محاجزين دون أن تصل دعوته الى الضعفاء ، فلم يمنعهم مكانه في أسرته من أن ينالوا من صحابته ، ويعوقوا رسالته ، وقد مات فعلا بعض الضعفاء من الصحابة تحت حر العذاب ·

ونقول ان هذا دليل على أنه لو كان صاحب الدعوة كأولئك الضعفاء لم يوجد من يمنعه لقتلوه ، وقالوا انه أصلها فلو قتلناه لزالت فيستكلبون عليه وتموت الدعوة في مهدها ، فيعجلون بوقفها ·

وانه يلاحظ أن الأذى الذى كان ينزله المشركون من قريش بالمؤمنين كان يتفاوت مقداره بمقدار قوة أسرهم ، ومكانتهم في النسب الذي كان موضع فخارهم ، فكان لأبي بكر وعثمان ، لون ما كان لآل ياسر ، وآل خباب ابن الأرت ، وكان لهؤلاء الذين لا ناصر لهم أشد ما يلاقي الانسان من أخيه الانسان ، حتى كانوا كالذين عذبوا بالأخدود كما نوهنا من قبل ، وكما جاء في القرآن تعالت كلماته ، وسمت عن القيل عباراته ·

والنبي صلى الله تعالى عليه وسلم ناله الأذى ، وأصابه العنت من أولئك ، ولكن دون أن يفكروا في قتله الا بعد أن يئسوا من أن يوقفوا الدعوة وبعد أن وجدوه يعمل على توجيه دعوته الى خارج مكة ، وقد أخذ نورها يتجه الى القبائل العربية ، فحاولوا أن يقتلوه ، ولكن قد آن له عليه السلام أن ينشىء دولة الايمان ، وقد تكاملت عناصر تكوينها ، ولكن في غير أرض مكة ·

وهكذا اختبر الله أهل الايمان بالشدائد ، حتى هاجروا فرارا بدينهم ، لأن الشدائد تملأ القلوب صرامة ، وتعطي الارادة عزيمة ، فلا تهن ولا تضعف ، ولا تحزن ولا تيأس من روح الله ، ومن أن تكون كلمة الله تعالى هى العليا ، وهكذا يربي الرجال الذين يكونون دعائم الحق ، قال تعالت كلماته .

﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِكُم ۖ مَّسَّتْهُمُ ٱلْبَأْسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ وَزُلْزِلُوا۟ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصْرُ ٱللَّهِ ۗ أَلَآ إِنَّ نَصْرَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ (٢١٤) ﴾ (١)

(١) البقرة ·

٦٠ ـ كان لابد لنبي الرحمة أن يكون في كل حياته رحيما ، فيربى على الرحمة بالضعفاء صغيراً ، يكون بينهم ضعيفاً ليحس بآلام الضعفاء والمساكين، فليس رحيما من لم يذق مثل ما فيه حال الضعفاء ٠

وان النبى صلى الله تعالى عليه وسلم مع أنه كان نسيبا من أعلى نسب في قومه قد كان في المال قلا ، وابتدأ حياته يتيما ، ثم كان أجيرا في رعي الغنم ، فالتقى فيه مهذبان : أحدهما ـ النسب الرفيع الذى يجعله لا يتجه الى سفساف الأمور ، بل يتجه الى معاليها ، ليتكافأ نزوعه مع شرفه ، فيتلاقيا ، ويتوافرا على اعلائه ، وبذلك حفظ محمد شرف النسب ، فكان الصادق الأمين ، الذى لم يكن فيه ما ينقص نسبه ، ويضعف شرفه العظيم ، فكان النبيل حقا وصدقا ، وكان الكامل بين ذوي الأنساب ، والمتبع من غيرهم ٠

المهذب الثانى اليتم وقلة المال ، وان هذا المهذب من شأنه أن يجعله موطأ الكنف للضعفاء من العبيد ، والعاملين والفقراء ٠ فلا يستكبر ، ولا يستعلي، بل يكون قريبا منهم ، أليفا معهم من غير أن يناله ذل الفقر ، وضعف الحاجة واستخذاء المسكين ، فهو العالي الرفيع،وهو الذى ينبع معين الرحمة من بين جنبيه ، فان الرحمة تنبع من بين الشدائد ، والرحيم هو الذي يذوق الشديدة من غير أن تذله ، ليرحم غيره،ولا يعترى نفسه حقد على من هو أعلى منه ، بل هو ينظر دائما الى من دونه ليعليه ، وليحميه ، ويعينه ٠

ان هذين التهذيبين قد توافرا في النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، فاتجه منذ صباه الى معالي الأخلاق التي تليق بذوي الشرف والرياسة ، ولم يتخذ الشرف سبيلا للاستطالة على غيره ٠

وان يتمه وفقره ، وعمله في ميدان الأجراء الضعفاء جعله قريباً مألوفا غير متعال ، يحس أنه من الضعفاء في اخلاصهم ، ومع الأشراف في امتناعهم عن الدنية في أعمالهم ، وفي كل أحوالهم كان العطوف الأليف ٠

وانه يلاحظ في استقراء أحوال الناس أن الضعفاء دائما اذا لم ترنق قلوبهم بحقد ، ولا حسد للناس على ما آتاهم الله من فضله ، يكون في قلوبهم اخلاص ، ومع الاخلاص اشراق النفوس الذي ينزع بها الى الحق ، والى صراط مستقيم ، ذلك لأن قلوبهم لم تصبها كدرة الهوى،والشهوات واللذات

التي يدفع اليها المال ، أو يسهل سبيلها،واستغراق النفس بها ، فيكون الانسان قريباً من الايمان سرعان ما يدخل قلبه الايمان ، ولذلك كان أول من يجيب دعوة الأنبياء ويؤمن بها ، وأول من يجيب دعوة أي حق ويؤمن بها الضعفاء • والفقراء بهذا القيد الذي ذكرناه ، وهو ألا يدنس قلوبهم حقد ، ولا حب انتقام ولا حسد يطفىء موضع الايمان في قلوبهم •

لقد أوتي النبي عليه السلام الرحمة بالضعفاء ، لأنه أحس بأنه منهم ، من غير أن يناله ما عساه يكمن في نفوس الضعفاء من استكانة ، ورضا بالدون من السجايا المرهقة المذلة ، لأن الضعيف اذا لم يصب بالحقد أصيب بنوع من الرضا بالقليل ، وعدم المطالبة بحقه الهضيم،وان ذلك قد يجر الى الاستخذاء والنبي عليه الصلاة والسلام أوتي مزايا الفقر من أخلاص واتجاه الى الطريق المستقيم ، من غير أن يتدلى تدلي الضعفاء الى هوان ، أو اذلال ،لأن علو النسب منعه ، وأبعده عن ذلك ،فالتقت فيه الحسنيان ، حسنى النسب ، والاخلاص لله سبحانه وتعالى ، فكان ذلك تهيئة للرسالة الالهية الرافعة للانسانية •

النسب الطاهر

٦١ - يذكر المؤرخون للسيرة الطاهرة ، سيرة خير الأنام محمد صلى الله تعالى عليه وسلم أنه من ولد اسماعيل بن ابراهيم ، ولكن لا تعرف سلسلة النسب كاملة اليه ، بل ان التاريخ لا يحفظ الا عشرين منها ، فهو محمد بن عبد الله ، بن عبد المطلب ، واسمه شيبة الحمد ، بن هاشم واسمه عمرو ، بن عبد مناف ، واسمه المغيرة ، بن قصي واسمه زيد بن كلاب بن مرة ، بن كعب بن لؤى بن غالب بن فهر ، بن مالك ، بن النضر ، بن كنانة ، بن خزيمة ، بن مدركة بن الياس بن مضر، بن نزار ، بن معد ، بن عدنان .

وهذا التعريف بنسبه الكريم ، هو المجمع عليه بين كتاب السيرة ، ولقد كان ذلك التعريف كما تدل الرواية عن بن عباس رضى الله تعالى عنهما ، فقد كان يقول : « كان النبي صلى الله تعالى عليه وسلم اذا انتهى الى عدنان أمسك ثم يقول كذب النسابون » ، قال الله تعالى :

﴿ وَقُرُونًا بَيْنَ ذَٰلِكَ كَثِيرًا ﴿٣٨﴾ ﴾ (١)

وان هذا الخبر المنسوب للنبي عليه السلام يدل على صدق تلك السلسلة الكريمة أبا عن جد الى أن ينتهي الى عدنان ، وان حفظ النبي لهؤلاء فقط يدل على أمرين :

أولهما - الشك فيمن فوقهم ، وأنه لم يصل اليه عن طريق صحيح ، وأنه وصل الى الناس عن طريق النسابين ، وأن النسابين قد يدفعهم الفخر الى الكذب والافتراء .

ثانيهما - أنه يدل على صدق هذا النسب ، فما كان النبي صلى الله عليه وسلم ليقول الا حقاً ، فهو الصادق الأمين ، ويظهر أن ذلك القدر من النسب

(١) الفرقان .

الرفيع هو الذى كان معلوماً في حكم المتواتر ، أو المشهور عند العرب ، وغيره موضع شك ، والقول فيه رجم بالغيب ، وأخذ بالتوهم أو الظن ،وان الظن لا يغنى من الحق شيئاً .

وما كان أولئك معروفين الا لأنهم أثرت عنهم مآثر ، صارت مفاخر لذرياتهم ، وان كان النبي عليه السلام لم يفخر قط بنسبه ، ومع ذلك هو من خيار الأقوام ، فقد قال عليه السلام : « ولدت من خيار من خيار من خيار » فهو يذكر الخير فيهم ، ومكان الشرف في أسلافه ويمتنع من أن يستعلى بهم ، والتفاخر استعلاء واستطالة بالنسب ،وقد يكون فيه شحناء ، والشحناء ليست من شأنه صلى الله تعالى عليه وسلم .

٦٢ ـ وان الظاهر أن أولاد عدنان قد أقاموا بمكة منهم من هو في سلسلة نسبة النبي عليه الصلاة والسلام ، وذلك لأن اسماعيل عليه السلام ، كانت اقامته قرب مكة ، وهو باني الكعبة ، ولأن النسابين ذكروا أنه كان أولئك العشرون بها ، ولأنهم كانوا معروفين فيها كابراً عن كابر ، وما يعرفون الا لاقامتهم بمكة التي قام بها الأخلاف من بعدهم ، ولتقديس الكعبة ومكة ، ووفود الناس اليها من كل فج عميق .

ولقد ذكروا أن بعض ذرية عدنان أقام باليمن ، وأنسل فيها نسلا ، وذلك لأن عدنان ولد له ولدان أحدهما معد ، والثانى عك ، فتزوج هذا من الأشعريين ، وهم بنو أشعر الذين يقيمون باليمن ، فانتقل الى موطن زوجته باليمن ، ثم كان من بعض منهم من كان بعض ولده يخرج من مكة ، وينفرد بالبقاء فيها من يدخل في سلسلة النسب ، كما رأيت في معد ، وأخيه عك ، فهذا هاجر الى اليمن مع أسرة زوجه ، وبقى معد فيها .

وجاء معد ، فكان مثل أبيه فكان من أولاده قضاعة الذى تنسب اليه هذه القبيلة ، وكان نزار هو الذى استمر بمكة ، حتى كان منه ولده من بعده من يدخلون في نسبه عليه السلام .

وكان من أولاده ربيعة الذي ينسب الربعيون اليه ، وانمار ، واياد ،وهذان كانا أبوين لقبيلتين وكان ابنه مضر الذى كان جد النبي عليه الصلاة والسلام ، وهو الذي أقام بمكة .

وكان لمضر ولدان هما الياس ، وغيلان ، ومضر خيرهما ، هو الذي يدخل في نسب النبي عليه السلام ، ويظهر أنه في عهد الياس أخذ بنو اسماعيل يغيرون ما ورثوا من شريعة ابراهيم واسماعيل عليهما السلام فأنكر عليهم ما غيروا من سنن آبائهم وسيرتهم ، ويقول في ذلك صاحب كتاب «الاكتفاء»: « بأن فضله عليهم ، ولان جانبه لهم ، جمعهم رأيه ، ورضوا به رضاء لم يرضوه لأحد من ولد اسماعيل ، فردهم الى سنن آبائهم ، حتى رجعت سنتهم قائمة على أولها ٠

وجاء من بعد الياس ابنه مدركة ، واسمه عامر ، وله ابنان آخران ، لكن هذا كان المختار منهم ، وسماه مدركة لأن ابلا كانت قد نفرت منهم ، فتقاصر الولدان الآخران عن تتبعها ، ونهض عامر ، لردها من نفارها ، وقد بعدت ، فأدركها فردها ، فسمي مدركة وصفاً لهذا العمل وكان لمدركة خزيمة وهذيل، فكان خزيمة المختار ليكون جداً للنبي عليه الصلاة والسلام ، كان جداً لهما ، وولد لخزيمة ـ كنانة وأشد وأشدة والهون ، وكان كنانة هو المختار ليكون النبي عليه الصلاة والسلام من صلبه ٠

وكان لكنانة عدة أولاد ، ولكن الذي اختار الله تعالى ، ليجري في صلبه محمد صلى الله تعالى عليه وسلم هو النضر المختار من بينهم ، ويقال ان النضر هذا هو الذي جمع قريشا ، ولكن الأكثرين على أنه فهر حفيده الذي هو جد النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ٠

والنضر كان له أولاد كان أنجبهم فهر جد النبي عليه الصلاة والسلام ٠

وكان فهر هو مجمع قريش ، وكان يسمى قريشا ، وقد كان فيه حكمة ، وخلق سوي ، وقد قال في وصيته التي قالها لولده غالب الذي أعقبه في الزعامة وهو المختار ليكون النبي صلى الله تعالى عليه وسلم من صلبه ، فقد قال لابنه غالب عندما حضرته الوفاة ٠

« يا بني ان في الحزن قبل المصائب اقلاق النفوس ، فاذا وقعت المصيبة برد حرها ، وانما القلق في غليانها ، فاذا أنامت فبرد حر مصيبتك بما ترى من وقع المنية أمامك وخلفك ، وعن يمينك ، وعن شمالك ، وبما ترى من

آثارها في محبي الحياة ، ثم اقتصر على قليلك ، وان قلت منفعته ، فقليل ما في يدك ، كان خيراً لك من كثير ما أخلق وجهك » ٠

ولقد كان غالب له أولاد وقد خلفه في زعامة قريش لؤي ، وقد كان لؤي هذا فيه حكمة كأبيه وجده ، بدت وهو غلام حديث ، فقد جرت مناقشة بينه وبين أبيه غالب دلت على حكمة قلبهما ٠

قال الغلام لأبيه : يا أبت من ربى معروفا قل اخلافه ، ونضر ماؤه ، ومن أخلفه أهمله واذا أهمل الشيء لم يذكر ، وعلى المولى تكبير صغيره ونشره ،وعلى المولى تصغير كبيره وستره ٠

فقال الأب الحكيم : « انى لأستدل بما أسمع من قولك على فضلك ، واستدعى لك به الطول على قومك ، فان ظفرت بطول ، فعد به على قومك ، وكف غرب جهلهم بحلمك ، ولم شعثهم برفقك ، فانما تفضل الرجال الرجال بأفعالها ، ومن قايسها على أوزانها أسقط الفضل ، ولم تعل به على أحد ، وللعليا فضل أبدا على السفلى ٠

خلف الغلام بعد أن اكتمل رجلا أباه ، وقد ولد له أولاد ، كان كعب أعقلهم ، وأفضلهم ، وهو جد النبي ،وقد كان حكيما كأبيه وجده ، ويذكر رواة السيرة أنه قال هذه الخطبة :

« أيها الناس اسمعوا وعوا ، وافهموا وتعلموا ، ليل ساج ونهار وضاح، والسماء بناء والأرض مهاد والنجوم أعلام ، لم تخلق عبثاً ، لتضربوا عن أمرها صفحا ، الآخرون كالأولين ،والدار أمامكم ، واليقين غير ظنكم ، صلوا أرحامكم ، واحفظوا أصهاركم ،وأوفوا بعهدكم وثمروا أموالكم ،فانها قوام مروآتكم ، ولا تصونوها عما يجب عليكم ، وعظموا هذا الحرم ، وتمسكوا به ، فسيكون له نبأ عظيم ، وسيخرج نبي كريم » ٠

هذا ما يقوله كتاب السيرة في نسبة الخطبة اليه ، وليس لنا أن نحكم بصدق النسبة أو تكذيبها ، ولكن نحملهم مغبة ذلك ، ان صدقا وان كذبا ٠

وقد كان لكعب بن لؤي أولاد خيرهم مرة جد النبي عليه الصلاة والسلام ، وقد كان أحد الرجال الذين تفاخر بهم قريش ٠

وقد جاء من بعد مرة كلاب ، وهوجد النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ٠

ثم جاء من بعده ولده قصي وهو خير أولاده ، وأظهرهم ، وأبينهم أثرا في قريش فهو الذي جمع الله به قريشا،وكان اسمه زيداً ، فسمي مجمعا ، لما جمع من أمرها ، ويسمى قصيا لتقصيه أمورها ، وان قصياً على هذا جد قريب، وليس من الأجداد الذين يبعد عهدهم به عليه السلام ، وله شأن خاص فيما يتعلق بسدانة الكعبة ، ورياسة الندوة وغيرها فلابد أن نخصه بكلمة ٠

قُصَيّ :

٦٣ ـ قد ترك أبوه كلاب ولدين أحدهما قصي، والثاني زهرة ،وكلاهما جد للنبي صلى الله تعالى عليه وسلم ،فقصي جده عليه السلام ، وهو الجد العصبة ، وأما زهرة فهو جده لأمه .فهوالجد الرحمي ، وكأن كلابا بهذا قد جمع الله تعالى له شرفين ، فهو جد النبي عليه السلام لأبيه ولأمه ، فالتقى فيه الشرفان ٠

وقد طوف قصي في بلاد العرب ،فهو في أول حياته لحق بأمه في قضاعة ، فأقام معها ، وقد كان فتى أيدا قويا كريما أبيا يأبى الضيم والعار ، ناضل يوما شابا من قضاعة فنضله قصي ،فغضب المنضول ، وحزت في نفسه حرارة السهام ، وسبة الهزيمة ،فتنازعا في القول ، فقال المهزوم : ألا تلحق بأهلك فلست منا ، ويظهر أنه الى هذا الوقت ما كان يعرف أباه وشرفه ، فقد عاد الى أمه وشكا لها من مرارة القول الذى سمعه ، فقالت له « أنت والله يا بني اكرم منه نفسا ووالدا ، ونسبا،وأشرف منزلا ، أنت بن كلاب بن مرة بن كعب بن لؤي بن غالب بن فهر بن مالك بن النضر بن كنانة القرشي ، وقومك بمكة عند البيت الحرام ، وفيما حوله ، تفد العرب الى ذلك البيت » ٠

أجمع قصي من بعد ذلك الخروج ،واللحوق ، وضاق ذرعا بالبقاء غريباً ، فقالت له أمه لا تعجل ، حتى يدخل عليك الشهر الحرام ، فتخرج في حاج العرب ، فانى أخشى عليك أن يصيبك بعض الناس (١) ٠

---

(١) الاكتفاء ص ٧٣ جـ ١ ٠

انتقل قصي الى أسرة أبيه في مكة بعد أن جاءت الأشهر الحرم ، وخـــرج حاجاً ، وكان جلداً بهذا نسيباً • ولم يلبث أن نال سدانة البيت الحرام ، ولم تكن من قبله لقريش بل كانت لخزاعه ،وكان له الأمر في اجازة الحج للناس ، وكان ذلك لغير قريش ، فانتزع تــلك الولاية بحيلــة الداهيـــة ، وقـــوة ذي البأس •

ولي بهذا قصي سدانة البيت ، وامرة مكة ، وجمع قومه من منازلهـم ، واجتمعت في يده بمقتضى الولاية سدانة البيت وامرة مكة والحجابة والرفادة والسقــاية والندوة واللواء ، ومعنى الحجابة أن يملك مفاتيح البيت ، فـلا يفتح الا بأمره ، ومعنى السقاية تولى سقاية الحج ، والرفادة كانت خــرجا تخرجه قريش في كل موسم من أموالها وتعطيه قصياً ، فتصنع به طعاماً للحجاج فيأكله من لم يكن له سعة ولا زاد وقد سن هذه السنة الكريمة ، ودعا اليهـا قريشاً ، وقال في خطابه لهم بذلك •

« يا معشر قريش انكم جيران الله وأهل بيته ، وأهل الحرم ، وان الحجاج ضيف الله وزوار بيته ، وهــم أحق الضيف بالكرامة ، فاجعلوا لهم طعـاماً وشراباً أيام الحج حتى يصدروا عنكم »•

ومعنى اللواء ألا يعقد لقريش لواء الا بيد قصي هذا ، ومعنى النـدوة دار الشورى لقريش ، ثم كانت من بعد ذلك للعـــرب ، فــكانت تعقـــد في دار قصي •

وقد أعطي كل هذه الحقوق التي نالها بهمته لابنه عبد الدار ، ليعزه بها ، وأراد أن يرفع خسيسته وينال الشرف على بنى عمه من قـــريش ، ولذلك قال له أبوه عندما أعطاه اياها : « أنا والله يا بني لألحقنك بالقوم ، وان كــانوا قد شرفوا عليك » •

وكان عبد الدار هذا ولده البكر ،وله ولد آخر هو عبد مناف ، وقـــد شرف في مكة بذاته ، ونبل أمره وقد ذهب كل مذهب ، وأبوه حي •

وقد أراد أبوه باعطائه عبد الدار ما أعطى أن يتعادل الأخوان في الشرف الذى وصـــل اليه الأول بذائه ونبله وتخلف الثاني ، فأعطـاه ما يعـــوض تخلفه •

وعبد مناف هذا هو الجد الرابع للنبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، وقد أعطى الله لعبد مناف أولاداً أربعة هم عبد شمس جد الأمويين ، والمطلب الذى ربى عبد المطلب الذى يعد اسمه الأصلي شيبة الحمد ، وقوفل ، جد جبير بن مطعم ٠

٦٤ ـ وكان أولئك الأربعة فيهم شرف ذاتي كشرف أبيهم ونبله ، فلم يتركوا لعبد الدار وأولاده ما أعطاه جدهم قصي ، ورأوا أنهم أولى بذلك منهم لفضلهم في قومهم ، وقد انقسمت قريش في تمكين بني عبد مناف من نزع ما بأيدى أولاد عمهم ، فرأى بعضهم أنهم أولى لمكان فضلهم ، وليس امرة مكة وزعامتها عطاء يعطى ، من لا يستأهله ، بل يوسد الأمر لمن هو له أهل ، ورأى آخرون أن بني عبد الدار أولى ،لأن قصياً صاحب الحق هو الذى أعطى أباهم ، ولأنه بأيديهم ، ولا ينزع من يد صاحبه لغيره ، ومن قريش طائفة التزمت الحياد ٠

وقد كان خلف شديد انتهى الى صلح سديد ، لأن المختلفين أزمعوا الحرب ، وحيث بلغ الخلاف أقصاه تنبه المختلفون اذ نبهتهم العاقبة المرتقبة الى أن يكفوا ، أو يكف كل فريق عن غلوائه ، فتداعوا الى الصلح ٠

اصطلحوا على أن يكون في بني عبدمناف السقاية والرفادة ، وأن تكون الحجابة واللواء ، والندوة في بني عبدالدار تبقى كما هى ٠

وكان هاشم أصبح بني عبد مناف ،وأنقبهم صحيفة ، ولذلك كان له الشرف على اخوته ، ونال مما أخذه بنو عبدمناف ، وكان ينفس عليه أخوة عبد شمس ما كان له من شرف ذاتي ،ومكانة عند العرب عامة ، وعند قريش خاصة، وقد أعقبه في شرفه مربي النبي عليه الصلاة والسلام عبد المطلب ، وهنا نقف وقفة عند عبد المطلب ٠

عبد المطّلب :

٦٥ ـ نقف عنده وقفة قصيرة ، لأنه هو الذى حضن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، وهو في سن الحضانة ، وعبد المطلب أمه من يثرب مهاجر النبي صلى الله تعالى عليه وسلم وهي من بني النجار بها ، وقد شب في حياته الأولى

فيها ، وقد تربى بينهم في دار الغربة ،حتى أتى به عمه المطلب ، ودخل مكة ، ولزم صحبته ، فقيل له عبد المطلب ٠

وقد أعطته قريش رياستها، واستحق ذلك بقوة نفسه وقوة خلقه ، وشجاعته وسماحته ، فهو لشبابها أب ولكهولها أخ ، في طلعته يمن ، وفي خلقه عزمة قوية ، ولكن في هدوء ، وسمت طيب راض ، وطيب ، ولكن في غير هوان ٠

هو الذى حفر زمزم بعد أن طمرتها جرهم عندما سيطروا على مكة ، وكانت لهم قوة فيها واستمرت مطمورة عبر السنين ، حتى حفرها عبد المطلب ،فسقوا من مائها ، وأثار ذكريات اسماعيل عليه السلام بحفرها ، وملأهم عزة وكرامة باستعادة بئر كانت ببركة أم اسماعيل الذى كان هو وأبوه فخر العرب ، وزاده ذلك شرفا فيهم ، وعلوا وما كان لطيبة نفسه بالذى يستعلي على أحد بمناقبه وما أعطاه الله من حسن النقيبة ويمن الطالع ، بل يحمد الله تعالى على ما وفقه وهداه ٠

ويذكر كتاب السير أنه حفرها برؤيا صادقة مكررة ، وكأنها الهام من الله تعالى ، ألهمه سبحانه وتعالى اياه لصفاء نفسه ، واشراق روحه ٠

يروي على بن أبي طالب عن أبيه عبد المطلب أنه قال : انى لنائم في الحجر (بجوار الكعبة) اذ أتاني آت ،فقال : « احفر طيبة ، قلت وما طيبة ، ثم ذهب عني ٠ فلما كان الغد رجعت الى مضجعي ، فنمت فيه ، فجاء فقال احفر برة ، قلت وما برة ؟ ثم ذهب عني » ٠

فلما كان الغد رجعت الى مضجعي فنمت فيه ، فقال احفر المضمونة قلت : وما المضمونة ، ثم ذهب عني ٠

فلما كان الغد رجعت الى مضجعي ،فنمت فيه فجاءني فقال احفر زمزم قلت وما زمزم ؟ فقال : لاتنزف أبدا ،ولا تذم ، وتسقى الحجيج الأعظم ، وهى بين الفرث والدم ، عند نقرة الغراب الأعصم عند قرية النمل ، ومعنى بين الفرث والدم،أي عند المذبح الذى كانت قريش تذبح ذبائحها فيه ، ومعنى قرية أي المكان الذى كان فيه نمل ٠ ووجد الغراب ينقر عندها ، وكأن هذين كانا علامة حد المكان ،والآية التي تدل على صدق الأتي في تبشيره ٠

فلما بدأ لعبد المطلب الماء كبر الله تعالى ، وقد كانت قريش تلاحظ عمله ، وكأنها غير مصدقة لنتائج ما يحفر ،فلما كبر علموا أنه أدرك ما يريد ٠

ولكنهم جاءوا يشاحونه في أن تكون العين تحت سلطانهم جميعا ، لا تحت سلطانه وحده،وقالوا:انها بئر اسماعيل،وان لنا فيها حقاً ، فأشركنا معك في السلطان عليها ٠

ولكنه لم يسلم لهم ، بل رأى أن تكون تحت سلطانه ، لأنه هو الذى حفرها ، وقد نازعوه هذا الحق ، ثم لما رأوا من طيبته ، وراجعوا حسن نقيبته ، تركوا الأمر ، وما هو بمانعهم من مائها ،ولكنه يسقيهم ويسقى الحجاج منها في غير منة ولا أذى ، ولكن في عدل وحسن توزيع على أن يكون له حق السقاية فيها٠

وان وصف زمزم بأنها لا تنزف ، وفيها سقاية الحجيج خبر حققه الزمن الى اليوم ، فلا يزال الحجاج يشربون منها ، وهي تفيض عليهم في سخاء ، وهي عين ثرة ، ومعين لا ينضب ، ولا تزال فيها بركة اسماعيل ، ونقيبة عبد المطلب ٠ والدلالة على أن بيت الله تحوطه البركة كما قال تعالى في وصفه:

﴿ إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٦﴾ ﴾ (١)

٦٦ ــ ان الناظر في تاريخ عبد المطلب ينتهي بأنه كان متصفا بثلاث صفات كريمات ٠

الأولى ــ الطيبة والسماحة ، فكان موطأ الكنف قريباً من الناس أليفاً محبوباً ، لا يستغلظ على أحد ، ولا يستكبر ولا يستعلي ، يطمئن أهل مكة اليه ، ويثقون به ، ويرضونه حكما ،ولو على نفسه ٠

الثانية ــ أنه كان مباركا ، لا يضع يده في عمل الا بارك الله تعالى ، حمل المعول ، فحفر بئر زمزم واذا لم يكن ذا مال في قومه ، فقد كان موفوراً في كرمه ، ومباركا له في رزقه ، وأكثر قريش فضلا عليهم وعائدة بالخير على جمهورهم ، لا يضن بخير ، ولا يستأثر به ، وقد وقاه الله تعالى شح نفسه ٠

---

(١) آل عمران ٠

الثالثة ـ عزمته ، واصراره على مايقوم به من خير مهما يصادف في ذلك من عقبات ، وما يحتاج اليه العمل من خير له وللناس ٠

فكان قوي الارادة ماضي العزيمة ،متحملا أثر ما يقول ٠

ذكر علماء السيرة أنه ما كان له عندحفر زمزم الا ولد واحد ، وهو الحارث بن عبد المطلب ، وكان العرب يعتزون بكثرة المال ، وكثرة البنين ، فكان يجرى على ألسنتهم في مقام الفخر ٠

﴿ أَنَا۠ أَكْثَرُ مِنكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا ﴿٣٤﴾ ﴾ (١)

واذا كان عبدالمطلب قد قنع بما أعطاه الله تعالى من مال ، وان لم يكن كثيراً كغيره من أثرياء قريش وثقيف ، فقد قنع به ، لأنه كان يكفي لحفظ مروءته ، وما كان حريصاً على أن يجمع ، بل كان حريصاً على ألا يمنع ،وحسبه ذلك شرفاً ٠

ولقد كان له شوق الى البنين ليكون أعز نفراً ، والمال والبنون زينة الحياة الدنيا ٠

ولقد نذر نذرا فيه بقية من بقايا الجاهلية ، وهو أنه اذا عاش له عشرة من البنين ، قدم أحدهم فداء عند الكعبة ، وكأنه يريد أن تكون فيه قوة التقرب الى الكعبة ، كما تقرب جده ابراهيم بولده البكر الى الله تعالى ، ولكنه فعله نذرا من نفسه ، ولم يفعله بأمر ربه ، ولذلك كان استعداد ابراهيم قوة عبادة ، ونذر عبد المطلب لا يخلو من جاهلية ، وهذا فرق ما بين أبي الأنبياء وخليل الله تعالى ، وصفيه، ومن عاش في جاهلية الوثنية ، غير مستنكر لها ، والله هو الذى يهب من يشاء الذكور ، ويهب لمن يشاء الاناث ، ويهب لمن يشاء الذكور والاناث ٠

اتجه الرجل القوى في نفسه وعزمته الى الوفاء بنذره ، وقد بلغ ولده عشرة رجال ، ولكن من يختاره لهذا الفداء ، فأراد القرعة ، فجمعهم ، ودخل بهم في جوف الكعبة ، وأمرهم أن يأخذ كل واحد منهم ورقة ، ويكتب

---

(١) الكهف ٠

فيها اسمه ، وقد أخبرهم من قبل بنذره،فارتضوا طائعين غير منافرين ، وبعد أن كتبوا أسماءهم وضع اسم كل واحدفي قدح ، وأمر خبيرأ في القداح أن يسهم بينهم ، فساهم ، فكان القدح على عبد الله ابنه وأبي محمد صلى الله تعالى عليه وسلم ·

ومع أن عبد الله كان أحب بنيه اليه، أخذ الشفرة يحدها ليذبح أحب ولده اليه ، ولكن ترامى الخبر في أندية قريش من أن عبد المطلب يحمل شفرته ليذبح ابنه ، فجاءوا سراعاً اليه ، ورأوه حاملا شفرته ليذبح ولده الحبيب غير وان ولا مقصر ، فصاحوا فيه ماذا تريديا عبد المطلب ، قال : اني أذبحه ، فهال الأمر قريشا ، وفزع اخوته ، وقد أضعفت عزمتهم وطاعتهم الأولى ، ومحبة أخيهم ، ولكن لم تضعف عزمة الشيخ الفادي ، الوفي بنذره وان كان الفداء أحب اليه منهم جميعاً ، ولكنها قوة الارادة والعزيمة · والايمان بما يعتقد ، وان كان باطلا ·

أقسم الأبناء والأقربون وقريش على ألا يذبحه ، وبنوا ذلك على أنه ستكون مغبة سوء على قريش خاصة ، وعلى العرب عامة ، قالوا له لا تذبحه أبداً حتى تعذر فيه ، لئن فعلت هذا لا يزال الرجل يأتي بابنه ليذبحه ، فما بقاء الناس على هذا ؟!

وقالت ابنة أخته والله لا تذبحه حتى تعذر فيه (أي تبدي العذر عن النذر) فان كان فداؤه فديناه بأموالنا ·

ذهبوا الى عرافة في أرض الحجاز · فأشارت عليهم بأن يقدموا الدية وهى عشرة من الابل ويقرع بينها وبين الذبيح ، فان كانت القرعة عليه زادوا في الابل ، حتى تكون القرعة عليها ·

أصاخوا الى صوتها ، وأجمعوا الأمر ، ثم قربوا عشرا من الابل وعبد الله الذبيح ، فقرعوا بينها ، فكان السهم على عبد الله ، ثم زادوا حتى صارت عشرين ، فكان القدح أيضاً على عبد الله فزادوا حتى صارت ثلاثين ، ولكن خرج القدح على عبد الله أيضا ، واستمرت الزيادة عشرة بعد عشرة حتى وصل العدد مائة من الابل ، ثم ضربوا القدح فخرج القدح على الابل ·

فقالت قريش قد انتهى الأمر ، ورضي ربك بالفداء يا عبد المطلب ٠

ولكن عبد المطلب يريد أن يستوثق من الرضا بالفداء ، فزعم الرواة أنه ضرب مرة ثانية وثالثة ، والقدح يخرج على الابل ، فنحرت الابل ، وتركت للناس لا يصد ولا يمنع انسان ٠

٦٧ ـ وان دل هذا على صفة من صفات عبد المطلب ، فهي تدل على صفة الرجل المريد لما يفعل ، القوي في عزمه الصادق في نفسه واختياره وهو يدل على قوته في البلاء ، وتحمل الصبر على ما يكره ، وان تقاضاه الصبر ذبح أحب أولاده اليه ، فاختبر ، وابتلي فأحسن البلاء ٠

والرجل القوي ليس هو الذى يخضع ارادته لهواه ، أو عزمته لشفقته ، انما القوي حقاً وصدقاً هو الذي يجعل الايمان والارادة يغلب الهوى والمحبة ، وقد كان عبد المطلب القوي ، ولا يمنع ذلك أن يكون شفيقاً محباً ، فاذا آمن بفكرة نفذها بقلب قوي صابر ٠ وبنفس مطمئنة راضية ، ولو كان مصدر ايمانه باطلا ٠

وكان قوي الجنان ثابت الجأش لا يضطرب ، ولا يهن ولا يضعف عند المفاجأة ، ولا تذهب نفسه شعاعا ، عندما يكون الأمر المخوف ٠

جاءت الحبشة بملكها ، وأفيالها ، وأقبل على مكة جيش لجب قوي مستعد بأقوى العدد ، وبأكثر العدد ، فانخلعت القلوب واضطربت الا قلب عبد المطلب كبير قريش ، وسيد البطحاء ، وكان يحسن القول ، ويرهب بقوله في هدأة من غير هوادة في الحق ٠

جاء الجيش الحبشي ، واستاق ابلا لأهل مكة ، ومن بينها ابل لعبد المطلب، فذهب الى لقاء أبرهة ملك الحبش وقائد جيشهم ، ومعه الرهبة والطغيان ، فما اضطرب قلب كبير البطحاء ، بل ذهب اليه ، وكانت فيه هيبة ، وله سمت كريم ، يهابه من يلقاه ، ويطمئن الى سماحته فعند اللقاء وقع في قلب أبرهة هيبته فسأله عما جاء اليه ، فسأله أن يرد الابل ، فقال انه حسبه جاء يسأل عن الكعبة ، وقال مستنكراً « أراك تسأل عن ابلك ولا تسأل عن الكعبة »

فأجابه في قوة أوقــع الرعب في قلبه باجابته ، « أما الابل فأنا ربها ، وأما البيت فله رب يحميه » والجواب فيــه ارهاب وتخويف ، اذ أنه يقــول له · لا تظن أنــك منتصر ، أو غالب ، أومقتلع البيت الذى جئت لهدمه ، فــان ذلك فوق قدرتك ، بــل فوق طاقتك ،لأنه بيت الله والله يحمى بيتــه ، ولن تنتصر ، فالله خاذلك ، جواب مـــرهب مفزع ، ولكن في هدوء الحكيم ، ورفق الذى يزن القول ، ويعرف موقعه ·

ولذلك كلام مفصــل في موضعه انشاء الله تعالى ·

عَبدالله

٦٨ ـ ذلك هو الجد القريب الذي تربى النبى عليه الصلاة والسلام في حضنه ، والذى رأى فيه أول ما رأىعزة الرجال ، وحكمة الشيوخ ، وعطف الأبوة التي عوضه بها عن أبيه الذى لم تكتحل عيناه برؤيته ولابد أن نذكر كلمة عن الرجل الذى افتدته قريش كلها ، وهو عبد الله أعز أولاد أبيه اليه، وأقربهم منه ، لقد كان أحب أولادعبد المطلب العشرة (١) ، وقد اتسم بالجمال فكان أجمل قريش ، وأحب الشباب اليها ٠

وكان في خلقه طيبة نفس ، واطمئنان قلب ، ورضا بما يجري به القدر مع استعداد للفداء ، ان كان مايقتضيه لم يتردد أن يقدم نفسه لأبيه ليوفي بنذره ، فاستعد لأن يذبح ، فكان الذبيح الثانى بعد جده العظيم اسماعيل ، واذا كان فداء اسماعيل بذبح عظيم كان من أمر الله تعالى ، لأن الله تعالى اختبر ابراهيم بما رأى في المنام ، وما دام الاختبار ، فالفداء يكون بأمر الله تعالى ونهيه ٠ أما ذبح عبد الله،فكان بنذر من عبد المطلب ، فكان الفداء برأي أهل مكة ، فما كان من البشريكون منهم ، وما كان من الله تعالى ، فالأمر اليه وكان لجمال وجهه ، ولطيب نفسه ، موضع اجتذاب الناس ، ومحبتهم ، فلم يسلموه لأبيه ، وقد أرادقتله ، ونجوه من يد أبيه الشفيق الحازم المريد القوي فيما يريد ، وان كان شديداً عليه ٠

وكان موضع اجتذاب النساء لوسامته وجاذبيته ، ولكنه كان العفيف الذى لا يريد الا الحلال ، ولا يبتعد عنه ،وكأنه يبتعد عن الحرام مروءة وكرامة نفس ، لا لتنفيذ أوامر الهية ، بل أمرمروءته واحتفاظ كرامته يستجيب لهما ، كأوامر المصادر الدينية ٠

---

(١) العشرة هم الحارث ، والزبير ، وحمزة، وضرار ، وأبو طالب ، واسمه عبد مناف ، وأبو لهب واسمه عبد العزى (عبد الكعبه) ،والمغيرة ، ونوفل ، وعبد الله ، والعباس ٠

تعرضت له امرأة ، راقتها وسامته ،وجذبتها طيبته، فأرادته لنفسها، وربما راودته عن نفسه ، ولكنه العيوف الذى لا يشتار الا عسلا يملكه حلالا نكاحا ، ولا يريده نزوة أو سفاحا ، فيردها الشاب القوي الذى لا يستهويه الهوى قائلا :

أما الحرام فالممات دونه ... والحل لا حل فأستبينه
فكيف بالأمر الذي تبغينه ... يحمى الكريم عرضه ودينه

صان الشاب نفسه ، وصان أمانته ،وصان خلقه وكرامته ، فلم يتدل كما تدلى الشباب من قومه ، لأنه أراد أن يعيش طاهراً كريماً محبوباً ، لينقل وديعة الله تعالى للانسانية الذى ينقل رسالته سبحانه وتعالى الى خلقه وذلك بزواج طاهر حلال •

الأمر :

٦٩ ــ كل فتاة في قريش كانت تتمنى أن يكون الشاب عبد الله بن عبد المطلب شيبة الحق ــ أن يكون لهازوجاً ، وأن يكون لأولادها أباً ، وقد قارب العشرين أو يزيد من عمره ،عفيفاً ، لم يزن بريبة ، ولم يعرف عنه نزوع الى شر ، بل كان ينزع الى الخير ولا يزيد ، ولأبيه عليه حق الطاعة في غير معصية ، اذ كان له ملازما ، ولا يستطيع له فراقاً ، ولا خلافاً ، لأنه حب أبيه ، وصفيه المختار •

وقد اختار أبوه له زوجاً آمنة بنت وهب بن عبد مناف بن زهرة أخي قصي ، وابن كلاب ، وكان أبوها سيد بني زهرة ، كما كان عبد المطلب سيد بني قصي ، ثم سيد مكة جميعها غير منازع ، لأنه محمود النقيبة حكيما بين قريش لا يطيش ، ولا يحين ، ولا يرهق أحداً ، فكان السيد المطاع في غير جبر ، ولا اعنات ، ولا تضييق ولقد التقى الشاب مع أبيه في الاصهار الى بني وهب بن زهرة ، اذ أن عبد المطلب كان قد تزوج هالة بنت وهب بنت عم آمنة ، واختار لابنه آمنة • وهى بنت عم لزوجته التي أنجب منها حمزة بن عبد المطلب (١) الذي صار في جهاده للاسلام سيد الشهداء ، وصفية أم

(١) ابن كثير الجزء الثانى ص ٢٥٢ •

الزبير بن العوام حواري رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وبذلك التقت في حمزة بن عبد المطلب ثلاث صلات بالنبى ، أولها أنه عمه ، وثانيها أنه بن بنت عم أمه ، وثالثها أنه أخوه في الرضاعة ، وفوق ذلك أنه ثاني عميه اللذين تصديا للدفاع عن النبى عليه السلام في مواجهة قريش في مكة ، ولكنه الثانى الذي دافع عنه لا بمقتضى حكم القرابة القريبة الوثيقة ، بل بذلك وبحكم الايمان بالرسالة المحمدية ، والجهاد في سبيل الله ، فكان سيد الشهداء ٠

وكذلك كانت صفية بنت عبد المطلب لها بالرسول قرابتان : قرابة العصب ، وقرابة الرحم ، فهي عمته أخت أبيه ، وهي ابنة هالة بنت عم أمه وكانت معه في الرخاء وفي الكريهة ، وفيها شجاعة آل عبد المطلب ٠

وبنو زهرة مع التقائهم في نسب النبي في جده كلاب كما سماه العرب ، وحكيم كما سماه التاريخ لما فيه من حكمة ، لم يكونوا مع بنى هاشم في خلاف ، ولا منافسة جرت الى عداوة في جاهلية أو اسلام ، بل كانوا لهم معاونين ومناصرين وموادين ، لا بقضاء يسيطر على نفوسهم ، ولكن مودة تربط على قلوبهم ٠

ولقد قالوا في الأخبار ان كلابا كان ممن يؤمن بأنه سيكون نبي من قريش ، وكان يخطب قومه كل جمعة ينبههم بذلك (١) وان صح ذلك الخبر فمؤداه أن كلابا هذا كان من أشد المتمسكين بابراهيم ، ونبي من بني اسماعيل ، ولا يمنعنا ذلك من أن نقول انه تأشب ايمانه بالله تعالى بعض آثاره من الوثنية الجاهلية ، فنحن لا ننفى هذا عن عقلاء العرب ، وذوي الأخلاق والهمة فيهم كعبد المطلب ، ومن بعده ابنه أبو طالب سيد مكة ، وحامي الرسول ، ومانعه من الأذى ٠

وآمنة تلتقي مع النبي صلى الله تعالى عليه وسلم من جهة أمها برة بنت عبد العزيز بن عثمان بن عبد الدار بن قصي جد النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ٠

---

(١) البداية والنهاية لابن كثير جـ ٢ص٥٤ ٠

٧٠ ـ وهنا يثور كلام يجيء في أخبار عن عبد الله أبي رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم أكانت له زوج غير آمنة تزوجها قبلها أو بعدها وان آمنة احدى اثنتين كانتا زوجين لعبد الله ٠

قال ابن اسحق صاحب السيرة « فقد ذكر أن عبد الله انما دخل على امرأة كانت له مع آمنة بنت وهب وقد عمل في طين له وبه آثار من طين ، فدعاها الى نفسه ، فأبطأت عليه لما رأت به من أثر الطين فخرج من عندها فتوضأ ، وغسل ما كان به من ذلك الطين ، ثم خرج عامداً الى آمنة فمر بالمرأة ، فدعته الى نفسها ، فأبى عليها ، وعمد الى آمنة فدخل عليها وأصابها ، فحملت بمحمد (صلى الله تعالى عليه وسلم) ثم مر بامرأته تلك ٠ فقال لها هل لك ؟ قالت لا ، مررت بي ، وبين عينيك غرة بيضاء فدعوتك فأبيت علي ، ودخلت على آمنة ، فذهبت بها » (١) ٠

وانا نرد ذلك الخبر ، ونؤمن بأن عبد الله ما تزوج الا آمنة أم محمد خير الخلق والنور المنبثق في هذا الوجود ، وانا نقرر ذلك ٠

أولا : لأنه خبر انفرد بذكره ابن اسحق ، ولم ينقله ، ولم يأت في كتب السنة الصحاح ، ولو كان عبد الله له زوج أخرى لاشتهر ذلك ، ولذكر في الأخبار ، كما ذكر خبر زواج عبد المطلب المتعدد ، وأولاده من كل زوجة تزوجها ، وبيان نسبها ، ومن تنتمي اليهم ، وما كان عبد الله أبو سيد الخلق بأقل شأناً من أن يعرف زواجه الأول ، والثاني من عبد المطلب ان كان قد عدد الأزواج ، وقد علا شرف عبد الله بأبوته لمحمد ، فليس بأقل من أبيه الكريم ، والسيد العظيم اليه ٠

وثانيا : أن هذه الزوج المزعومة لم تذكر متى كان زواجها منه ، وما أحوال ذلك الزواج لو كان حقاً ، وما الذي انتهى اليه ، ولماذا تزوج أخرى في هذه السن المبكرة ؟؟

ان عدم ذكر شيء من هذا في ذلك الخبر يجعله غير قابل للتصديق ، وهو غريب في ذاته ٠

---

(١) السيرة لابن هشام جـ ١ ص ١٥٧ طبع الحلبى ٠

وثالثا : أن المذكور في السير أن المرأة المشار اليها في السير كانت قد طلبت أن يصيبها ، ولم تذكر زواجا ،وأنه أجابها بالاستنكار ، وقال البيتين المشهورين عنه اللذين يفيدان أنه لا يقبل الا الحلال الذى يسوغه له عرضه وكرامته ، وشرف أسرته ، وقد أشرنا الى ذلك من قبل ٠

ورابعا : أن الخبر يحمل في نفسه دليل بطلانه ، لأنه يذكر أنها طلبته وهو مغبر بطين ، فلم ترض ، وكان المعقول وقد طلبها طلب الرجل لامرأته وأنها مانعته حتى يغتسل ، وأنه اغتسل أن يذهب اليها ، واذا عاد اليه بعد آمنة وهي احدى زوجتيه ، فانه ليس لها أن تمتنع عليه لأنها زوجه ، فكيف يقال من بعد انه رضيت به لغرة نور في جبينه ، ولو كان ذلك هو السبب ، ما منعها عند اجابته وعلى ثيابه طين ،لأن الأساس في نظرها أن تصل الى أن يكون النور في رحمها لا يمنعها غبار طين أو نحوه ٠

فالخبر مضطرب في مبناه متناقض مع العقل في معناه ، فيرد جملة وتفصيلا ٠

صفات سامية في آمنة :

٧١ ــ اتسمت آمنة كما يبدو من أخبارها ، أنها كانت صبوراً ، وكانت تشبه البتول في سموها ، وفي اصطفاء الله تعالى لها في أن تكون أماً لسيد البشر محمد صلى الله عليه وسلم كما اصطفى مريم البتول لتكون أما للمسيح عليه السلام ، ولكن آمنة ، ولدت محمداً وحملت به كسائر البشر ٠

وكانت شبهها بالبتول في الصبر ،وفي خلاصها من فتن الزواج ، وكونها حملت صاحب أكبر رسالة في هذا الوجود ٠

انها منحت زوجاً مرموقاً محبوبا تتمناه كل فتيات عصره ، ولكنه سرعان ما غادرها بعد الزواج بمدة قصيرة ،قدرها بعض الاخباريين بأنها ثلاثة أيام أو ثلاثة أشهر ، سافر ليمتار لأهله من قريش تمراً ، فذهب لأخوال أبيه بنى النجار ، ومات هناك ٠

فهذه الأم الصبور على فراق زوجها الشاب ، ولم تشتر عسل الزواج ورضيت الحرمان في سبيل نفع قومها، اذ ذهب ليجلب لهم رزقا ، والمرأة

الفاضلة ترضى باغتراب من تحب اذا كان الاغتراب لنفع قـــومه ، واصـــلاح حالهم ، وارتضت صـــابرة ، أن يولدولدها الحبيب في غيبة زوجها الحبيب التي لم تلبث أن نالته حتى بعد عنها ،فكان الرضا بالانتســـاب اليه يغنى عن المتعة بقربه ، واكتفت من متعة هـــذاالزواج الطاهر بمتعة قرة عينها ولدها الحبيب محمد صلى الله تعالى عليه وسلم،وعاشت مطمئنة الى أمل اللقاء ، وأن يجمع الله تعالى الشمل المتفرق كما أرادرب العالمين ، ولكن الله جلت قدرته أراد اختبارها فأفقدها زوجها في غـــربته ،فكانت الصابرة الكريمة القائمـــة على تربية ولدها ، الراضية بأمر ربها منغير أن يعرف عنهـــا تململ بحياتهـــا وعيشها •

ولما استغنى ولدها عن المراضـــعشدت رحالهـــا مـــع وليدها ، وقطعت الفيافي والقفار في مشقة لا يقـــدرعليها الا الصابرون ، وذهبت الى يثرب لترى قبر زوجها الذي اختيرت له ، وهومـــرمى الأنظار والحبيب في مـــكة ، وأبى القدر الحكيم الا أن ترى بعـــدذلك رمسه المدفون فيه ، وهى في كل هذا الصبور المطمئنة الى قدر الله تعالى العادل :

﴿ لَا يُسْئَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْئَلُونَ ﴿٢٣﴾ ﴾ (١)

ومكثت هناك بجواره مدة لا تقـــل عن ثلاث سنين ، كان فيها متاع حســـن بالنسبة لها ، اذ كانت قريبة من زوجهاالحبيب ، وقد ارتضت ذلك ، واطمأنت نفسها به ، فهي الصـــابرة الأمينة كاسمها ، الشريفة كقومها ، الـــكريمة كمحتدها •

ويظهر أنها لم ترد أن يبعد ابنهـــاعن قومه ، وهم أشراف مكة ، ولم تكن التي تضن به على جده ، فهي التي تؤثره على نفسها دائما وقد احتملت المشقة وأخذت تقطع الفيافي والقفار ، وليس معها الا جارية تعينها على مشقة الطريق، وتكون لها رفيقة مع بعد الشقة ، وتعاونها في حضانة الغلام النوراني •

ولكن هذه المجاهدة في سبيل الوفاء،والاخلاص للولد ولجـــده أجهدتهـــا الرحلة فماتت ، وهي عائدة الى مـــكةودفنت بالأبواء بين مكة والمدينة ، وهي

---

(١) الأنبياء •

اذ أسلمت روحها ، ودعت الدنيا تاركة عزيزها ، كما ودعت أباه من قبله ، ولكن وداعها الأول كان لعزيز الى طريق الأبدية ، أما وداعها من بعد ، فكان لولدها العزيز ، وتركه الى طريق الحياة والجهاد فيها ، ولكنها تركته الى رعاية الله تعالى مع الجارية التي صحبتها ،فرعاه الله تعالى وصنعه تعالى على عينه ، حتى وصل الى جده العظيم في قومه فاحتضنه ٠

وهنا نقف وقفة قصيرة ، لننظر الى تلك المجاهدة الهادئة الصبور ، فاذا قلنا انها عاشت كالعذراء اذ لم يكن الا أنها حملت سر هذا الوجود ، وكأنها أودعت أمانة النبوة لتحتفظ بها ،وكأنها كالبتول العذراء ، بيد أن هذه لم تصطفها الملائكة ، عزاء من رب العالمين اذ اختارها وتعهدها نبي وآقامها في المحراب وكانت في رعاية ظاهرة ،وأما آمنة بنت وهب فقد خوطبت بلسان الفطرة المستقيمة ، وعلمت بحكم الباعث في نفس طاهرة أنها حملت أمانة ، واستمرت الأمانة معها في رعاية الله تعالى وهي حاملة ما حملت غير وانية ولا مقصرة ، ولا هادي يهديها الا ما انبعث في نفسها من نور الفطرة، والاحساس بعبء الأمانة ٠

٧٢ ـ ان أحداث هذا الوجود تسير على مقتضى ناموس كوني ثابت عند رب العالمين قد أراده الله تعالى بحكمته وتخيره بارادته، وأقامه بقدرته، وليس للمصادفة حكم عند الله، وانما حكمها لا يتجاوز ما عند الناس، لأنهم يربطون الأسباب بمسببات بحكم العادة، ويطبقون عليها نظام قانونهم المحسوس المعلوم، فاذا خالفه قالوا انه مصادفة، وهذا نظر الذين يدركون الماديات، ولا يدركون ما وراءها، ويحكمون بالمحسوسات، ولا يحكمون بأن ثمة سلطانا قاهراً لخالق الأسباب والمسببات، وأنها لا تقيد ارادته، بل هو الذى يقدرها بحكمته.

وقد صرح سبحانه بأن أهل القرى لو آمنو واتقوا لأنزل لهم الرزق مدراراً، فقال تعالت كلماته:

﴿ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (٩٦) ﴾ (١)

وصرح سبحانه بأنه أنزل الرجز على الذين ظلموا من آل فرعون، وقد ربط الله تعالى ذلك بعصيانهم، فقال تعالت كلماته في قصصهم:

﴿ وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَوْنَ بِالسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِّنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ (١٣٠) فَإِذَا جَاءَتْهُمُ الْحَسَنَةُ قَالُوا لَنَا هَٰذِهِ ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُ ۗ أَلَا إِنَّمَا طَائِرُهُمْ عِندَ اللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (١٣١) وَقَالُوا مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِ مِنْ آيَةٍ لِّتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ (١٣٢) فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَالدَّمَ آيَاتٍ مُّفَصَّلَاتٍ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُّجْرِمِينَ (١٣٣) وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ الرِّجْزُ قَالُوا يَا مُوسَى ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ ۖ لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا الرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِي إِسْرَائِيلَ (١٣٤) فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ الرِّجْزَ إِلَىٰ أَجَلٍ هُم بَالِغُوهُ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ (١٣٥)

(١) (٢) الأعراف.

﴿ فَٱنتَقَمۡنَا مِنۡهُمۡ فَأَغۡرَقۡنَٰهُمۡ فِي ٱلۡيَمِّ بِأَنَّهُمۡ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُواْ عَنۡهَا غَٰفِلِينَ ﴿١٣٦﴾ ﴾

وان هذه النصوص الكريمة تدلنادلالة قاطعة على أن الله ينزل البركات لمن استقاموا على الطريقة ، ان سلكواطريق الوصول الى الخير وتوكلوا عليه سبحانه حق التوكل ، وأنه يصيب الأقوام بالرجز والحرمان والبلايا ان هم طغوا وبغوا في ترتيب محكم سنه الله سبحانه وتعالى وأراده،وان خالف مانعلم من الأسباب والمسببات ٠

لسنا نقول مقالة قدماء الصين من أن الكون يضطرب ، وما في السماء يختلف اذا عصى ابن الأرض وأفسد ولم يصلح ، فان ذلك كلام قوم وثنيين يؤمنون بالمحسوس ، ولكنا نقول مقالة المؤمنين ، ان مدبر الكون يجري الأمور على مقاديرها بما قدره سبحانه وأراده،وعلى ما ارتضاه من نظام

﴿ لَا يُسۡـَٔلُ عَمَّا يَفۡعَلُ وَهُمۡ يُسۡـَٔلُونَ ﴿٢٣﴾ ﴾ (١)

٧٣ ــ سقنا هذا الكلام لتوضيح أن محمد بن عبد الله قد كان وجوده بركة على قومه من وقت أن علقت به أمه الى أن قبضه الله تعالى اليه ، وأن البركة التي آتاه الله تعالى لقومه مباشرة من وقت العلوق به في بطن أمه ، كانت خيراً على الانسانية كلها ، لأنها حمت البيت الذى كان أول بيت للناس ، وهي كعبة المسلمين ، وهو المكان المقدس الذى قدسته الأديان كلها كما أسلفنا من قبل ٠

وقد كان انقاذ البيت ، وهو في بطن أمه ، اذ أن أبرهة ملك الحبشة واليمن أراد اقتلاع البيت من مكة وهدمه ، وأن يبني بدله في اليمن ليكون ذلك البيت الجديد هو مزار العرب ، ومثابتهم وأمنهم كما كان البيت ، وفي ذلك مصادمة لدعوة ابراهيم عليه السلام ،اذ يقول :

﴿ رَّبَّنَآ إِنِّيٓ أَسۡكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيۡرِ ذِي زَرۡعٍ عِندَ بَيۡتِكَ ٱلۡمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجۡعَلۡ أَفۡـِٔدَةً مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهۡوِيٓ إِلَيۡهِمۡ وَٱرۡزُقۡهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمۡ يَشۡكُرُونَ ﴿٣٧﴾ ﴾ (٢)

وقد استعد بخيله ورجله من قبل الحمل بالنبي ، وساور مكة وأمه حامل

---

(١) الأنبياء (٢) ابراهيم ٠

به ، وقد ردهم الله مدحورين ببركة الجنين الذى بعثه الله تعالى برسالة تشرف البيت الحرام وتحميه ، ولنعرج على ذلك بكلمة موضحة موجزة ٠

٧٤ ـ آل أمر اليمن الى رجل من الحبشة اسمه أبرهة ، وصار لها حاكما بأمره ، وبنى بها كنيسة فخمة بصنعاء سماها القُلَّيْس ، وأراد أن يحج اليها العرب ، وخاصة النصارى منهم ، فلم يؤثروها على البيت الحرام ولم يستبدلوها به ، وبعد بنائها بعث الى النجاشي بالحبشة ، وهو لا يزال يَعتبر نفسه تابعا ، وجاء في هذا الكتاب «اني بنيت لك أيها الملك كنيسة لم يبن مثلها لملِك قبلك ، ولست بمنته حتى أصرف اليك حج العرب » ٠

ولكن رجلا من العرب أدرك هذا المراد ، فأراد تحقيرها ، وأحدث فيها شيئا استهانة وسخرية ٠

فلما رأى أبرهة احتقار العرب لها ،واستمرارهم على الذهاب الى البيت الحرام من غير وَناء ولا تقصير لم يجد بدأ لتنفيذ ارادته الا أن يهدم البيت الحرام بجيش يسيره مجهزا بأعظم عُدة ، وخرج بالفيل الذي يستخدمونه في الحرب مع الابل والخيل ٠

أفزع ذلك العرب وأعظموه ، ورأوا مدافعته حقاً عليهم فنفر منهم نفر بقيادة بعضهم وهاجموا أبرهة ، ولكنه هزمهم ، ومضى قاصدا البيت الحرام ، لا يقاومه أحد من العرب الا هزمه ،واستمر سائرا لا يلوي على أحد من العرب الا أخضعه ٠

وصل الى الطائف ، وقد رأوا ما حل بغيرهم فمالؤه ، وخصوصا أنهم كانوا ينفسون على قريش ما كسبوه من شرف لقيامهم على سِدانة البيت ، وحاولوا أن يجعلوا مكان تقديسهم بيتا بنوه للات الههم المزعوم ٠

أهم الأمرُ من بمكة من قريش وكنانة وهذيل ، وسائر من كان بها وعلموا أنه لا قِبَل لهم بمقاومته لما عنده من قوة ، ولأن الانتصارات المتتالية في

طول طريقه الى مكة زادته قوة ، وزادهم خوفا ، فسكتوا حتى ينكشف المخبوء في قدر الله تعالى ٠

ولعل الفزع قد غلب عليه مما علم من منزلة للبيت في الكتب المقدسة ، ومنها كتب النصارى التي أشارت الى ذلك ، فلم يرد أن يستمكن من البيت عَنوة ، بل أراد أن يسلمه له أهله ، لا ليزيد بناءه ، بل ليهدمه ، فان فعلوا كان ذلك مبرراً في زعمه ٠

ومهما يكن فانه قد تردد في القتال، أو أراد أخذه بسلام ، فأرسل رسولا الى مكة ، وقال له سل من سيد أهل هذا البلد وشريفهم ثم قل له « ان الملك يقول لكم اني لم آت لحربكم ، انما جئت لهدم هذا البيت ، فان لم تعرضوا له بحرب ، فلا حاجة لي بدمائكم، فان هو لم يرض الا حربي فأتني به » ٠

ذهب الرسول الى مكة ، وعلم أن سيد البلد وشريف مكة هو عبد المطلب ابن هاشم، فبلّغه الرسول ، فأجابه عبد المطلب اجابة سلمية ، ولكن في طيها ايمان بالله رب البيت ، وذلك لا يخلو من ارهاب بقوة الله ٠

قال عبد المطلب للرسول : « والله ما نريد حربه ، وما لنا بذلك منه طاقة ، هذا بيت الله الحرام، وبيت خليله ابراهيم ، فان يمنعه منه فهو بيته وحرمته ، وان يخل بينه وبينه فوالله ما عندنا دفع عنه » ٠

كان هذا الكلام السهل اللين يخفي في نفسه انذاراً شديداً لرجل كتابي نصراني ، لأنه بهذا الكلم اللين ينبهه الى أنه لا يحارب أحداً من أهل مكة انما يحارب الله ، ويهدم بيتا بناه بأمر الله أبو الأنبياء ابراهيم عليه السلام ، فهو مع هذا اللين يتضمن تهديدا يُرَوِّع من كان عنده اعتقاد بالله ، وايمان برسالته ٠

وقد كان بلا ريب لذلك الكلام وقعه، ومن الكلام الهادىء ما يفعل في النفوس ما لا تفعله المقاومة بالسيوف ،وخصوصا اذا كان الكلام لمن تعود الانتصار في الحروب ، وهزيمة من يدافعه ، اذ في هذا الكلام تهديد بحرب لم يألفها ولم يعرفها ، وهي حرب الله ،وحرب أبي الأنبياء ٠

ردّ عبد المطلب على أبرهة

٧٥ ـ استاق جيش أبرهة ابلا لعبد المطلب ، وقد طلب هو لقاءه فلقيه ليؤكد ما قاله لرسوله بالقول المتضمن فعلا، اذ قرر أن يطالبه برد الابل التي استاقها جيشه بعلمه ، أو بغير علمه ٠

التقى عبد المطلب المهيب غير المرهوب بعد أن علم أبرهة قوله ٠

ولقد كان عبد المطلب من أوسم الناس وأجملهم وأشدهم هيبة ، فلما رآه أبرهة أجله وأكرمه ، فنزل عن سرير ملكه وجلس بجواره ، ثم قال له بلسان الترجمان ٠

قل حاجتك ٠ فقال للترجمان : قل له : حاجتي أن ترد لي ابلي مائة بعير أصابها ، فقال أبرهة كنتَ أعجبْتني حين رأيتك ، ثم زهدت فيك حين كلمتني ٠ أتكلمنى في مائة بعير أصبتها لك ، وتتركَ بيتا هو دينك ودين آبائك قد جئت لهدمه لا تكلمني فيه ٠

فقال عبد المطلب يضع أبرهة أمام الله تعالى وجبروته الذي فوق كل جبروت ، أنا رب الابل ، وان للبيت ربا سيمنعه ٠ قال أبرهة ، وقد غلب عليه الفزع : ما كان ليمتنع مني ٠ قال عبد المطلب أنت وذاك ، لا شك أن عبد المطلب يهدده بالله ، أولا بتأكيد أن الله مانع البيت ، وثانياً بأن قال له أنت وذاك ، كان التهديد واضحا ، وان كان هادئا ، ولعل الذي قَوّى وقعَه هدوءه ، فالهدوء يخاطب النفس فتعتبر خصوصا لمن تعود الانتصار المادي الذي يكون فيه ايمان في الجملة بالغيب ، وأبرهة نصراني ٠

عندئذ تحقق رجاء عبد المطلب في ربه ، وتحقق أمر الله ببركة الجنين الذي حل في بطن أمه ، وهو سيد الخلق محمد صلى الله تعالى عليه وسلم ٠

أرادوا بالفيل أن يسير متجهاً الى البيت الحرام ، فوقف ولم يسر اليه وحبسه الله تعالى عنه ، فوجهوه الى اليمن، فاتجه، فوجهوه إلى الشام فاتجه، ثم أرادوا أن يوجهوه الى البيت ، فامتنع (١) ولهذا كانت ارادة الله أن ينجو البيت ببركة ~~البيت~~ ، بركة الجنين المستكن في الغيب المستور ٠

---

(١) الاكتفاء جـ ١ ص ١٣٢ ، ١٣٣ ، ١٣٤ ومن تاريخ البداية والنهاية لابن كثير ٠

ولو أن أبرهة اعتبر واعتزم العودة الى اليمن لرجع من الغنيمة بالاياب ، ولكنه اعتزم تنفيذ نيته ، فلم يبق الا أن يأخذه الله تعالى أخذ عزيز مقتدر ، فأرسل الله تعالى طيراً أبابيل ترميهم بحجارة من سجيل ، كما قال سبحانه وتعالى في سورة الفيل :

﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ ۝ أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ ۝ وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ ۝ تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ ۝ فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ ۝ ﴾ (١)

أتتهم رياح عاصفة ، ومعها طير جاء جماعة بعد جماعة ، ترميهم بحجارة صلبة شديدة قوية تنفذ في الجسم ،لا تبقى في ظاهره ، بل تدخل في باطنه ، وراء جلده ، وقد جعلتهم كعصف مأكول ، أي كبقل أكل لبه ، وبقي قشره ، وقد قال علماء الاخبار ان تلك الحجارة الصلبة التي أرسلها الله تعالى بريح عاصف كانت صغيرة تشبه حب العدس ، وأن الطير كان يحملها في منقاره ، وفي رجليه ٠

ولقد قال بعض الكتاب انهم أصيبوا بالجُدري قرح أجسامهم ، ولعل جرثومة ذلك الداء الوبيل كانت في الأحجار التي رمتها الطيور التي جاءتهم وباء وبلاء ، واهلاكا ، وقد كادوا من الشر كيدهم ، ودبروا بالفساد أمرهم، وتحدوا بيت الله وهو أول بيت وضع للعبادة ، والذى كرمه الله وباركه ٠

وليس عندي ما يمنع أن يكونوا قدأصيبوا بالجُدري بما رماهم الله تعالى به ، فقد قال ابن اسحاق في سيرته(حدثني يعقوب بن عتبة أنه أول مارميت الحصبة والجُدَري بأرض العرب كان في ذلك العام)

هذا كلام مقبول اذا قلنا ان الحجارة كان تحمل معها جرثومة هذه الأمراض الفتاكة ، ولكن مالا يقبل هو القول بأن الطير هي جراثيم ذلك المرض ، لأن هذا يكون مخالفاً لنص الآية الكريمة ، اذأن نص الآية الكريمة يفيد أن الطير رمتهم بحجارة قوية شديدة ٠

---

(١) الفيل ٠

٧٦ ـ ان ذلك العذاب الأليم الذي أصابهم في الدنيا ، بعد أن أرسل الله تعالى عليهم الطير الذي جاء جماعة بعد جماعة ، ورماهم بالحجارة الجامدة التي كانت تنفذ الى جسمهم ، وتضع فيه جراثيم الأمراض الوبيلة كالحصبة والجدري ، صاروا يتساقطون في الطرق ويهلكون كل مهلك ، وقد وصف حالهم ابن اسحاق فقال : (خرجوا يتساقطون بكل طريق ، ويهلكون بكل مهلك على كل منهل ، وأصيب أبرهة في جسده ، وخرجوا به معهم يسقط أنملة بعد أنملة ، كلما سقطت أنملة أتبعتها منها ، مِدة (صديد) تمت قيحاً ودماً ، حتى قدموا به صنعاء ، وهو مثل فرخ الطائر ، فما مات حتى انصدع صدره عن قلبه فيما يزعمون) .

عاد من حيث خرج ، ولكن فرق ما بين الخروج ، أنه في الخروج كان قوياً في بدنه ، مغروراً في نفسه ، يصحبه جيش لجب ، يحسب أن لن يغلبه أحد ، وقد غلب من قاومه حتى اذا جاء الى رحاب الله يتحدى الله تعالى في بيته ، ويريد هدمه ، وقد جعله الله تعالى مباركا ، عاد مذموما مدحوراً ، مقصوص الجناح ، لا مجازاً ولكن حقيقة ، فقد تقرح جلده ، وتساقط ، وذهب تدبيره وكيده في ضلال كأنه العماء .

وقد استجاب الله تعالى لعبد المطلب ، وهو آخذ بحلقة باب الكعبة يقول :

لا هم ان العبد يمنع حِلّه رحله فامنع رحالك
لا يغلبن صليبهم ومحالُهم غدوا مِحالك

كانت واقعة الفيل هذه وآمنة الطاهرة كالبتول حاملة قد أودعها الله تعالى خير الخلق محمداً صلى الله تعالى عليه وسلم ، فكان مباركا على العرب ، وعلى الناس أجمعين من يوم أن حملت به أمه .

وما حملت به كرها ، وما كان فصاله كرها ، فما كانت تحس بشدة في حمله ، وما أحست بشدة في فصاله ، ولقد قالت آمنة الطاهرة (لقد علقت به ، فما وجدت له مشقة حتى وضعته ، فلما فَصل مني خرج معه نور ، ثم وقع على الأرض معتمدا على يديه) .

وُلِدَ الهُدَى

٧٧ ـ سبقت محمداً في الوجود بركاتُه ، فقد ولد كما يقول أكثر الرواة بعد خمسين يوماً من مغادرة الفيل وأصحابه مدحورين ، بعد أن أباد الله تعالى أكثرهم ، وقد ابتلعتهم الأرض ، بعد أن غرهم الغرور .

وقبل أن نخوض بالقول في مولده صلى الله عليه وسلم ، نقول انه ولد وأبوه غائب ، ذلك أننا ألمحنا في القول أنه ترك زوجه وقد ذهب في عير ليمتار لأهله ، وليتجر فيكسب رزقه ، فسافر في عير لقريش ، وكان الوفيّ الأمين فانتهز فرصة ذهابه الى يثرب ، وزار قبر جده هاشم الذى كان يهشم الثريد ، الذى يأكل منه الحجيج ، ولكنه لم يعد من غربته ، بل أصابه المرض في بيت بني النجار ، وعاد العير الذي كان معه ، وتركوه حزانى على تركه مدنفاً بمرض عضال في بيت بنى النجار أخوال أبيه ، وأصهار جده الكريم ، وعادوا الى مكة ، وأخبروا أباه الذى حدب عليه ، وزوجه الصبور التي صبرت على غيبته ، وجمّل لها الصبر لأنها كانت ترجو لقاءه ، ولكن حرمت من هذا ، ففظع الأمر عليها ، ولكنها الصبور مع رقة صباها .

وان عبد المطلب أرسل الى ابنه الحبيب كبير أولاده الحارث ، فذهب اليه ، وقد رأى فراق نفسه ، وقيل ان الموت سرى اليه ، ولم يجده أخوه الا ميتاً .

فاذا كان الأب قد ثكل ابنه الحبيب فتجلد ، فقد فقدت الأم الزوج الحبيب فكان منها الصبر المرير ، ولكنه مع ذلك كان الصبر الجميل ، وهو الصبر الحبيس الخالي من الضجر والأنين .

ولادته بعد وفاة أبيه صلى الله عليه وسلم :

٧٨ ـ أكثر الرواة على أنه ولد صلى الله عليه وسلم بعد وفاة أبيه عبد الله . وقد روي أنه توفي قبل أن تضع آمنة حملها ، ومنهم من أقصر المدة

ومنهم من أطالها ، حتى أوصلها الى نحوثلاث سنين ، فقد قال ابن حزم الظاهري ما نصه :

ولد صلى الله تعالى عليه وسلم بمكة، اذ مات أبوه ، وهو لم يستكمل ثلاث سنين ، وماتت أمه ، وهو لم يستكمل سبع سنين ٠

وان هذا القول يتقارب مع من يقول ان أباه عليه السلام مات بعد ولادته عليه السلام بنحو ثمان وعشرين شهراً ولكن كلام ابن حزم يومىء الى مدة أطول ، لأن الثمانية والعشرين شهراً هي سنتان وثلث ، ولا يقرب من ثلاث سنين ٠

فقد روي عن عوانة بن الحكم أنه قال « هو وأبوه ان عبد الله توفي بعد ما أتى على رسول الله ثمانية وعشرون شهرا » وقد قيل توفي بعد ولادته بسبعة أشهر ٠

واننا نستبعد كل الاستبعاد أنه توفي والنبي عنده نحو ثلاث سنين ، كما نستبعد أنه ولد من بعده ، لاجماع الرواة على أنه عليه السلام استرضع في بني سعد ، وهو يتيم ، ومن كان أبوه حيا لا يعد يتيما ، واذا كانت الرضاعة أقصى مدتها في الغالب حولان كاملان لمن يريد أن يتم الرضاعة ،وقد أرسل الى المراضع في أولها أو بعد مضي وقت قصير من الولادة ، فلا يمكن أن يسمى عند أخذه وأبوه حي يتيما ،واجماع الرواة على وصفه باليتم عندما أخذته حليمة التي أرضعته ٠

وان الذى رجحه الرواة ، وعليه الكثرة الكاثرة أن أباه توفي وأمه حامل به ٠ وقد قال ابن كثير في تاريخه (والمقصود أن أمه حين حملت به توفي أبوه عبد الله وهو حَمْل في بطن أمه على المشهور) ٠

وقد روى ابن سعد عن عبد الرحمن بن أبي صعصعة ،قال:«خرج عبد الله بن عبد المطلب الى الشام في عِير من عِيرات قريش ، ففرغوا من تجارتهم ، ثم انصرفوا فمروا بالمدينة ، وعبد الله بن عبد المطلب يومئذ مريض ، فقال أتخلف عند أخوالى بنى عدي بن النجار ،فأقام عندهم مريضا شهرا ٠٠٠ فبعث

اليه عبد المطلب أكبر ولده الحارث ،فوجده قد توفي ، ودفن ··· فوجد عليه عبد المطلب واخوته وجدأشديداً ، ورسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم حَمْل ، ولعبد الله يوم توفي خمس وعشرون سنة » ·

ويؤخذ من هذا الكلام أن رحلة عبدالله الى التجارة كانت فور زواجه أو بعده بقليل كما تومىء عبارة ابن كثير· وأن عمره يوم الوفاة كان خمسا وعشرين ، وكانت رحلته بعد الزواج بقليل ، ويستفاد من هذا أنه كان الزواج بعد العشرين وقرب الخامسة والعشرين ·

ولقد قال الواقدي في وفاة عبد الله وكونه قبل ولادة ابنه الكريم : (هذا هو أثبت الأقاويل في وفاة عبد الله عندنا)؛وهو المشهور ، كما نقل الحافظ بن كثير رضي الله تبارك وتعالى عنه (١)·

(١) البداية والنهاية جـ ٢ ص ٢٦٢ ·

٧٩ ـ تكريم الله تعالى له ظهر وهو جنين كما رأيت ، وظهر وأمه حامل به ، وكأن وجوده على ظاهر الأرض كان أمراً خارقاً للعادة ، في بركته على قومه برد أصحاب الفيل وكيدهم في تضليل ، وفي الحمل به ، اذ لم يصبها شيء من أعراض الحمل الشاقة، وكأنه مر في قلبها مرور الماء في الميزاب ، وان طال حتى مدة الحمل •

ثم كانت الأمور تسير سيراً يدل على أمور ربانية أكنها الغيب لذلك المولود الجديد ، فأبوه يلقي وديعة الله في آمنة الصبور المطمئنة ، وما كان الزواج الا ليلقي هذه الوديعة ، ويعزب عنها سافرا مغتربا ، وقبضه الله تعالى بعد أن ألقى هذه الوديعة ، وكأنه خلق بما يشبه كلمة الله تعالى « كن فيكون » (١) •

وينزل من بطن أمه مكتملا ، كأنه تجاوز السنة ، وهو قد نزل في المهد ، لم يتناوله حجر النساء فأمه الصادقة تقول أنه وقع على الأرض معتمداً على يديه كما نقلنا ، وهو فى هذا شبه الساجد ، وقال بعضهم انه نزل جاثياً على ركبتيه •

وعند ما ولد أرسلت أمه الكريمة الى جده عبد المطلب تبشره بولد وقد رزقه ، فقالت في رسالتها : (قد ولدلك غلام فأت فانظر اليه) • وقد أضافته اليه مسرية له عن حزنه لموت ولده عبد الله الذى وجد عليه وجدا شديدا ، فلما جاءها أخبرته بالولادة ، وبرؤية صادقة تعددت رواياتها مما يدل على مكانته ، وبذلك سرت عن نفس حميها ، وهى الحزينة ولكنها الصبور التي تواسي غيرها في مصاب أبيه ، ومصابها ، وان كان أعظم وأشق احتمالا ، وجد ما يسهل احتماله أوجدما يعوض ، وهو المولود الذى يسمو على كل الخليقة ، وهو سيدها ، وهو محمود الوجود ، وهو حمد الكون

---

(١) ياسين •

وتسبيحه واذا كان الله تعالى قد أعطى به البركة على قومه ، فقد كانت أرهاصات التكريم تبدو وهو جنين أيضا في بطن أمه ، لقد رأت أمه فيما يرى النائم رؤيا صادقة ، والرؤيا الهام من الله تعالى ، أو توجيه منه سبحانه يشعر بها من تصفو نفسه ، وله اتجاه روحي ، ورأت حين حملت به كأنه خرج منها نور أضاءت له قصور الشام، « وقد ورد ذلك في حديث عن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم صحيح النسبة » .

قد ذكر ابن اسحاق أن كانت تحدث أنها أتيت حين حملت به فقيل لها : « انك حملت بسيد هذه الأمة » ، فاذا وقع الى الأرض فقولي :

أعيذه بالواحد من شر كل حاسد (١)

ثم سميه محمدا .

وقد يقول قائل ، وكيف تثبت التكريم بالرؤيا وقد تكون أضغاث أحلام ، وهي لا تثبت شيئاً . فنقول في الاجابة عن هذا السؤال العارض : ان الرؤيا الصادقة تشبه الالهام أو كأنها وحي ، أو هي جزء من الوحي كما روي عن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم أنه قال : (الرؤيا الصادقة جزء من أربعة وأربعين جزءاً من النبوة) وثبت في الصحاح أن أول ما جاءت به ارهاصات الوحي كانت الرؤيا الصادقة، فما كان يرى رؤية الا جاءت مثل : « فلق الصبح » .

هذا ما تقوله الحقائق الدينية في الرؤيا الصادقة ، ويقول الذين يتكلمون في الارواح في هذا الزمان ان الرؤيا الصادقة سبحات روحية في الملكوت الأعلى .

وانه بلا ريب هناك فرق ثابت بين الرؤيا الصادقة وأخلاط الأحلام التي تكون صورة لحال مادية أو عصبية للنائم ، كتخمة تصيبه من كثرة الطعام، أو أن يكون مخموراً ، أو أن يكون مضطرب الأعصاب أو مضطرب النفس، أو مشغولا بأمر من أمور المادة أو الشهوة ، فان هذا يكون أخلاطا لا تخبر عن شيء ، ولا تصدق في شيء ، وهي التي تسمى أضغاث أحلام ، والتي لا يكون لها تأويل ، ولا يعبرها خبير .

---

(١) البداية والنهاية جـ ٢ ص ٢٩٣ .

واذا كان من الناس من ينكر الرؤيا الصادقة ، ويكذب الأحلام باطلاق ، ويقول انها صورة للعقل الباطن فذلك لأنه لا يمكن أن يدرك معنى الرؤيا الصادقة ، اذ لم يجربها ، لأن الله تعالى لم يؤته قوة روحية ولم يؤته طاقة نفسية يستطيع أن يتغلب بها على خواطر اللذات والشهوات ، وهو لا ينام الا مخموراً ، أو مبطوناً ، أو تكون نفسه واقعة في الأهواء والشهوات ، فيكون ليله كنهاره ، ونومه كصحوه ، وحياته كلها صورة للمادة في النوم واليقظة على سواء .

بشارات بمولد محمد صلى الله عليه وسلم:

٨٠ — وترى من هذا الكلام الذي سقناه من بشارات التكريم في منام أمه البتول الطاهرة الصبور أن تسميته (محمداً) صلى الله تعالى عليه وسلم ، كان بأمر من الآتي التي أتاها في هذه .

وقد توافقت مع رؤيا أخرى رآها سيد قريش (عبد المطلب) الذي كان قد اشتهر بالنسك في قومه ، وان لم يكن نسكا فيه حرمان ، بل كان نسكا فيه ما يجمل بالمروءة ، وقد كان صادق الرؤيا ، قيل (لعبد المطلب) لم سميته محمداً فقال شيخ قريش الطيب : (انه رأى في منامه كأن سلسلة من فضة خرجت من ظهره لها طرف في السماء ، وطرف في الأرض ، وطرف في المشرق ، وطرف في المغرب ، ثم عادت كأنها شجرة على كل ورقة منها نور ، واذا أهل المشرق والمغرب يتعلقون بها) .

وأراد (عبد المطلب) أن يعرف مدى هذه الرؤيا التي رآها ، فسأل من يعبر له رؤيا ، فقيل له انه يكون مولود من صلبه يتبعه أهل المشرق والمغرب ، ويحمده أهل السماء والأرض (١) ، أجتمعت رؤياه ، ورؤيا الأم الرؤوم التي قصتها على الجد الكريم عندما بلغت بالمولود الذي بلغته بأنه مولود فارتضى الاسم الذي أفهمت به رؤيا الأم وهو (محمد) .

ولم يكن هذا الاسم معروفا عند العرب ، ولقد ذكر علماء السيرة أنه لم يسم به أحد في الجاهلية الا ثلاثة تسموا بهذا الاسم في عصر ولادة النبي عليه الصلاة والسلام .

---

(١) الاكتفاء ص ١٦٨ من الجزء الاول .

وقد قال صاحب كتاب الروض الأنف في ذلك : « لا يعرف من تسمى بهذا الاسم قبله صلى الله تعالى عليه وسلم الا ثلاثة طمع آباؤهم حين سمعوا بذكر محمد صلى الله تعالى عليه وسلم وقرب زمانه ، وأنه يبعث في الحجاز أن يكون ولداً لهم ، ذكرهم ابن فورك في كتاب الفصول ، وهم (محمد بن سليمان بن مجاشع) جد الفرزدق الشاعر ، والآخر (محمد بن أحيحة الجلاح)، والآخر (محمد بن حمران بن ربيعة) ،وكان آباء هؤلاء قد وفدوا على بعض الملوك ، وكان عنده علم من الكتاب الأول ، فأخبرهم بمبعث النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، وكان كل واحد منهم قد خلف امرأته حاملا ، فنذر كل واحد منهم ان ولد له ولد سماه محمداً » .

وسقنا هذه القصة لنثبت منها ندرة الذين سموا ولداً لهم محمداً ، اذ لم يكن معروفاً ذلك الاسم عند العرب ،ونكاد نوافق على حصر العدد في ثلاثة، واذا فرض وكان أكثر فانه لا يتجاوزه بكثير ، سواء أصح السبب الباعث على التسمية أم لم يصح ، فان تلك التسمية لم تعرف الا قرب مولد النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، وانا نميل الى صدق هذا الباعث لأن التبشير برسول اسمه (أحمد) ، كان معروفا فى أوساط أهل الكتاب اليهود والنصارى ، وان أنكر أكثر اليهود رسالة محمد صلى الله تعالى عليه وسلم ودعوته لهم :

﴿ فَلَمَّا جَاءَهُم مَّا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ ۚ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴿٨٩﴾ ﴾ (١)

وقوله تعالى :

﴿ وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا ۚ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ ﴿١٤﴾ ﴾ (٢)

وقد اختيرت هذه التسمية من الله تعالى ، ولنذكر اشارة الى ما في هذه التسمية من معنى يفهم بمقتضى قراءة اللغة ، ذلك أن صيغة التفعيل تدل على تجدد الفعل وحدوثه وقتاً بعد آخر بشكل مستمر متجدداً آنا بعد آن فيقال اذا تكرر ذلك الفعل . وعلى ذلك يكون محمد ، أي يتجدد حمده آنا بعد آن

---

(١) البقرة (٢) النمل .

بشكل مستمر حتى يقبضه الله تعالى اليه ، وذلك لأنه تكون منه فعال الخير المتجددة وقتا بعد آخر ، فهو لا يني عن فعل الخير الذى يقتضي ثناء وحمداً ، ولا عن قول الصدق الذى يقتضيه ، ولا عن الجهاد في الحق الذى يستمر عليه الى أن ينشر الحق وهو شرع الله تعالى ، ويخلد الى يوم القيامة ٠

وكان من أسماء النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ــ أحمد ــ وهو الاسم الذى بشر به في الانجيل ، وبشر به موسى عليه السلام ، وهو أفعل تفضيل من الحمد والثناء ، فهو كثير الحمد ، وكثير الثناء والذكر لله تعالى ٠

ولعله لم يكن التبشير في الانجيل وعلى لسان موسى عليه السلام الا بأحمد، الا لأنه اشتهر بذلك في حياته وخصوصاً بعد أن بعث ، وكثرت دعوته ، ولأنه اسم لا يشاركه فيه أحد ، ولو نادراً ، فيكون التبشير متجهاً اليه ٠

تاريخ مولده صلى الله عليه وسلم

٨١ ــ الجمهرة العظمى من علماء الرواية على أن مولده عليه الصلاة والسلام في ربيع الأول من عام الفيل في ليلة الثاني عشر منه ، وذلك لأن الفيل وجيشه ساوروا مكة في المحرم ، وولد النبي صلى الله تعالى عليه وسلم بعد مقدم الفيل بخمسين يوما ، وبذلك أجمع الأكثرون على أنه ولد بعد مساورة جيش أبرهة بخمسين يوما ٠

وقد وافق ميلاده بالسنة الشمسية نيسان ابريل ، فقد ولد فى العشرين منه ، وقد جاء ذلك في الروض الأنف فقد قال : ذكر أن مولده عليه السلام كان في ربيع الأول وهو المعروف ، وقال الزبير كان مولده في رمضان ، وهذا موافق لمن قال ان أمه حملت به في أيام التشريق والله أعلم ، وذكروا أن الفيل جاء مكة في المحرم ، وأنه صلى الله تعالى عليه وسلم ولد بعد مجيء الفيل بخمسين يوما ، وهو الأكثر والأشهر ٠٠ وأهل الحساب يقولون وافق مولده من الشهور الشمسية نيسان (أي ابريل) فكانت لعشرين مضت(١)٠

ويلاحظ هنا أمران :

أولهما : أن هناك رواية تقول انه ولد في رمضان ، وانه على مقتضى هذه تكون البعثة في رمضان ، وأول نزول القرآن ، وأول نور الاسلام ظهر على

(١) الروض الأنف جـ ١ ص ١٠٧ طبع المغرب ٠

وجه الأرض فيه بمولد محمد صلى الله تعالى عليه وسلم ، وفيه يوم الفرقان اذ جعل الله تعالى كلمة الشرك السفلى وكلمة التوحيد هي العليا ، وفيه زوال دولة الأوثان ويأس الشيطان من أن يعبد في هذه الأرض بفتح مكة المكرمة ، وطرح الأوثان من فوق ظهرها ، وحطمها .

ولولا أن هذه الرواية ليست هي المشهورة لأخذنا بها ، ولكن علم الرواية لا يدخل الترجيح فيه بالعقل .

ثانيهما : أن صاحب الروض يذكر فيما نقلنا أن الأشهر أنه ولد بعد خمسين يوما من قدوم جيش أبرهة ، ولكن هناك قول آخر مشهور وهو أنه ولد بعد خمس وخمسين ، كما في رواية أبي جعفر محمد الباقر ، اذ يذكر أن الفيل قدم في النصف من المحرم ، فيكون المناسب لليلة الثانية عشرة هو أن يكون قد مضى ٥٥ ليلة(١) .

وان ذلك يتفق مع التقدير الشمسي بعشرين من نيسان ، ولذلك نختار هذا اذا كانت روايته وثيقة ، وان ذلك الاختلاف اليسير في ليلة مولده عليه الصلاة والسلام لا يضير ، لأنه عليه الصلاة والسلام وجد وشاهد الوجود الانساني وكان شهيداً على أمته حفيظاً على شرعها يشهد للمؤمنين بشرعه ، ويشهد على العصاة الخارجين وأمته شاهدة على الناس بالحق ، تبين للمنحرفين ، وتهدي السالكين .

وروايات الميلاد جاءت على ألسنة من عاصروها ، وما يعتمد على المشاهدة أو المعاصرة قد يختلف فيها العلم ، فيذكر كل انسان ما يعلم ، وان كانت الحقيقة لا تختلف ، والمؤرخ يتعرفها من وراء الاختلاف اليسير ، والله سبحانه وتعالى هو العليم .

إرهاصات النبوة يوم مولده :

٨٢ ــ وضعت آمنة الطاهرة حملها الطاهر الذي لم يثقل فأضاء الوجود ببزوغ شمس هذا الوجود ، وقد ذكرت الروايات في كتب السيرة أمورا كثيرة ظهرت غب ولادته ، أو قارنت الولادة :

(أ) فقد قالوا انه خرت الأصنام ، وتزايلت عن أماكنها ، وتمايلت على

(١) البداية والنهاية لابن كثير جـ ٢ ص ٢٦٢ .

وجوهها ، لأنه جاء هادمها ، وليس ذلك منها بارادة ، ولكنها بارادة القاهر الحاكمة على كل شيء .

(ب) ظهر النور حتى أضاء قصور الشام .

(ج) جاء في سيرة ابن اسحق «كان هشام بن عروة يحدث عن أبيه عن عائشة قالت كان يهودي قد سكن مكة يتجر فيها ، فلما كانت الليلة التي ولد فيها رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، قال في مجلس قريش يا معشر قريش هل ولد فيكم الليلة مولود ،فقال القوم والله ما نعلمه ، فقال الله أكبر ، أما اذا أخطاتم فانظروا واحفظوا ما أقول لكم ، ولد هذه الليلة نبي هذه الأمة الاخير بين كتفيه علامة فيها شعرات متواترات » .

روى ابن اسحق عن حسان بن ثابت« قال اني لغلام تبعه ابن سبع سنين أو ثماني سنين ، أعقل ما رأيت وسمعت ، اذا بيهودي في يثرب يصرخ ذات غداة يا معشر يهود فاجتمعوا اليه وأنا أسمع ، قالوا ويلك مالك ، قال قد طلع نجم أحمد الذي يولد الليلة » .

وحسان بن ثابت قد ولد قبل النبي عليه السلام بسبع سنين فانه كانت سنه عند هجرة النبي عليه السلام الى يثرب ٦٠ سنة والنبي صلى الله تعالى عليه وسلم كانت سنه ثلاثا وخمسين .

وهكذا، تواردت أخبار من جهات مختلفة عن اليهود بأنهم أدركوا مطلع ولادة النبي عليه الصلاة والسلام، ونحن نؤمن بأن اليهود كان عندهم من علم التوراة ما يجعلهم يعلمون أن النبي الأمي سيبعث من العرب ، وكانوا يستفتحون به على المشركين الذين كانوا يجاورونهم في المدينة ، فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به ، فلعنة الله على الكافرين .

(د) ذكر مخزوم بن هانىء المخزومي أن ايوان كسرى ارتجس ليلة مولد النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ،وسقطت منه أربع عشرة غرفة ،وخمدت نيران فارس التي يعبدها المجوس ،ولم تخمد قبل ذلك بألف سنة .

ورأى أحد رجال كسرى في منامه أن ابلا صعابا تقود خيلا عرابا قد قطعت دجلة والفرات في بلاده فلما قص الرؤيا على كسرى أفزعه ، فتصبر

وان لم يصبر فجمع كبار دولته وقال لهم : اتدرون فيم بعثت اليكم ؟ قالوا : لا الا أن يخبرنا الملك ، فبينما هم كذلك اذ ورد اليهم كتاب بخمود النار ، ثم أخبرهم بما رأى أحد رجاله وبما هاله وقد تأولوا هذه الرؤيا ، وخمود النيران بأن حدثا يكون من بلاد العرب .

٨٣ ـ ونقف وقفة قصيرة أمام هذه الروايات التي تواردت من مزايلة الأصنام عن أماكنها وتمايل وجوهها ،واضاءة الضوء ساعة مولده ، وارتكاس ايوان كسرى ، وخمود نار فارس التي لم تخمد منذ ألف سنة ، فنقرر أن العبرة فيها بصدق الرواية لا بكون هذه الأخبار مقبولة في العقل فان حكم مؤرخ بعدم صدق الرواية رددناها .

ونقول في الرواية ان المحققين في علم الرواية لم يجدوا مساغا لتكذيبها فان الحافظ ابن كثير يروي في هذا روايات كثيرة يعلن شكه في صدق بعضها، ويسكت عن سائرها ، وقد نقلنا ما لم يشك فيه ، فحق علينا أن نقبل منها ما قبل ، ونرد منها ما ذكر أن فيه ريباً، وخبر الصادق يقبل ، ما دام لم يعرف عليه كذب ، والأحكام تبنى على أخبار الصادقين ، ولو كان فيها احتمال الكذب لأنه احتمال غير مبني على دليل ، ومجرد الاحتمال لا يمكن أن يكون سبباً لرد أقوال الصادقين ، والا ما حكم قضاء ،ولا أدين متهم ، ولا ثبت حق ، ولا دفع باطل ، ولذلك لا يسعنا الا أن نقبل مالم يجر فيه طعن .

وأما من ناحية قبول العقل ، فانا قد بينا أن خوارق العادات تجيء . بتقدير الله تعالى الذي لا يتقيد بالعادات ولا بما يجري بين الناس من اسباب ومسببات ، فانه خالق الأسباب والمسببات فقد يكون الرجز والمحق والخرف ، والزلزال لفساد قام به بعض الخلق ، وذكرنا الآيات الدالة على أن الله تعالى يلقي بالنعم على من يتقي ويعمل صالحا وقد تلونا من قبل قوله تعالى :

﴿ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٩٦﴾ ﴾ (١)

---

(١) الأعراف .

[illegible] الأخبار والقصص [illegible] بعض الأمور ، كما [illegible] من الرجس [illegible] وعلائة ، بما كانوا يتحدثون في [illegible] .

على أننا [illegible] أن هذه الأخبار غير معقولة في العقل ، انما يتطلب [illegible] أو [illegible] الخارقة للعادة التي تجري في أحوال بني الانســـان ، ولو [illegible] في الأخبار من [illegible] من معجزات [illegible] الا أن ننسب ارادة الحكيم العليم القادر فوق كل شيء الذي لا يسأل عما يفعـل ، وأنه [illegible] ما يشاء لحكم يريدها ، ومصالح يقدرها ، وقد ربطها بأمور يعلمهـا ، وهو [illegible] وهو الخبير العليم الخبير .

واذا كان الله تعالى قد أراد الكرامة لمحمد صلى الله تعالى عليه وسلم ، وأراد أن يعلن [illegible] ومما كرمه الله تعالى به ، وهـــو سينادي بالحق [illegible] ، لأنه مخالف لما قـــدره الله تعالى لهذا الانسان الذي سيعلم الانسانية كلها .

٨٤ — ولا يسع العاقل أن يقول ان هذه أوهام سيطـــرت ، وخيالات [illegible] خارقة للعادات ، وما ألف الناس في كل مولود ، فليس كأي مولود .

ومع ذلك فنحن نرجح صحتها ، ولا نلزم الناس بالايمـــان بها ، فليس من الايمان أن نؤمن بأن ايوان كسرى ارتجس ، ولا أن النار خمدت ، ولا أن الوجود قد استنار عند أن شرف هذا الوجـــود ، لأن هذه الأمور ليست جزءا مما دعـــا النبي صلى الله تعالى عليه وسلم الى الايمان به ، اذ أن ما يجب الايمـــان [illegible] ، ومما تكلم به عن الله ، وما نطق به القرآن ، وحـــكم به [illegible] .

ونجد أن ما كتبته الأناجيل المتواترة في مولد عيسى عليـــه الســـلام [illegible] النصارى الذين يؤمنون بهذه الأناجيل التي يزعمـــون [illegible] ما تذكره السيرة النبوية لا يعد شيئا كثيرا بالنسبة لما ذكرته الأناجيل [illegible] الايمان به ، ونذكر [illegible] يسيرة مما جاء في هذه الأناجيل [illegible] بالنسبة لولادة المسيح عليه السلام .

(أ) جاء في انجيل متى في الاصحاح الثاني أنه لما ولد يسوع المسيح ظهر نجمه في المشرق ، وبواسطة ظهور نجمه عرف الناس محل ولادته .

(ب) وجاء في انجيل لوقا في الاصحاح الثاني : انه لما ولد يسوع المسيح رتل الملائكة فرحا وسرورا ، وظهر من السحاب أنغام مطربة .

(جـ) وجاء في ولادة المسيح أيضا في احد الاناجيل ، انه لما ولد عيسى أضيء الغار بنور عظيم أعيا بلمعـــانه عيني القابلة ، وعيني خطيب أمه يوسف النجار .

(د) وجاء في انجيل لوقا الاصحاح الثاني « وحضر الرعاة عنده وسجدوا له » .

(هـ) وجاء في انجيل متى الاصحاح الثاني أيضا « ولما ولد يسوع في بيت لحم اليهودية في أيام هيرودس الملك ، اذ المجوس من المشرق قد جاءوا الى أورشليم قائلين : « أين هو المولود ملك اليهود » .

هذه قبضة مما عند النصارى في أناجيلهم ولا شك أن ما يذكر عند ولادة الرسول من أخبار صادقة هي دون ما يذكره هؤلاء عن مولد عيسى عليه السلام .

وانه من الحق أن نقرر أن الفارق بين ما يقولون في مولد عيسى عليه السلام وما يقوله الرواة الصادقون من ناحيتين :

الاولى : أن ما يذكر في الأناجيل عن حال عيسى عليه السلام أكثر غرابة ، وما يذكر لنبينا عليه السلام أقل غرابة بكثير .

الناحية الثانية : أننا لا يجب علينا دينا وايمانا أن نذعن لهذه الأخبار وان كانت صادقة ، ولكن المسيحيين يعتقدون صدق ما في أناجيلهم ، ومن لم يصدقها يكون كافرا بها .

واذا كان ذلك هو الحق الذي لا ريب فيه ، فليس لأحد من أتباع النصرانية في النبي عليه السلام أن يثيروا غبارا حول ما ذكر عند ولادته عليه السلام ، والا فعليهم ان يثيروا عثيرا بل أكواما من التراب حول ما قيل عند ولادة السيد المسيح عليه السلام ، ولكن رضي الله عن عبد الله بن عباس اذ كان يقول : ان الانســـان يرى القطيـــة في عين أخيه ولا يرى الجذع في عينـــه هـو ، وما ذلك الا لعـــدم الانصاف .

أسباب رضاعته صلى الله عليه وسلم

٨٥ ــ الغذاء الأول للجنين بعد ولادته هو الرضاعة ، والرضاعة تكون من الأم ، لأن لبنها يسير مع نموه سيرا مطردا ، فكلما كبر الغلام في المهد كبرت دسامة اللبن ، حتى يستغنى بالغذاء ، ولذلك كانت الرضاعة من الأم أولى المطلوبات من الأمومة ، فقد قال تعالى فيما شرع من أحكام :

﴿ وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَن يُتِمَّ الرَّضَاعَةَ ﴾ (١)

فكان بمقتضى الفطرة أن تكون آمنة الأم الرؤوم هي تتولى ارضاعه ، ولكن كان لابد من يعينها بلبنه، فقد أرضعته معها ثويبة وهى جارية لأبي لهب عم النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، وقد ناوأه العداوة لما بعث رسولا ورحمة للعالمين ، ولكن قد كان محبا لأخيه عبد الله ، ولابنه النبي الكريم محمد ، وكانت ثويبة أول من أعلم أبا لهب بولادة ابن أخيه محمد، فأعتقها لهذه البشرى الكريمة ، وكان هذا له خيراً يحتسب ، ولكن أخفاه كفره ، وانضمامه الى المخالفين المؤذين للنبي عليه الصلاة والسلام ، وضعفاء المؤمنين ٠

أعانت ثويبة آمنة في ارضاعه ، وقد أرضعت أيضاً حمزة بن عبد المطلب ، وقد كان هذا سبباً من الأسباب التي طلب عبد المطلب ، لمحمد المراضع ٠

وعلى ذلك نقول ان طلب المرضع للنبي عليه الصلاة والسلام من مراضع البادية له أسباب ثلاثة :

أولها ــ عدم كفاية لبنه لتغذيته ،ولعل من بعض أسباب ذلك ما نالها من حزن دفين عميق صبرت عليه من غير تصبر ، وهو موت زوجها الحبيب الطيب ، ولم يزله ألم قريش كلها لوفاته وألم أبيه ، وألم اخوته ، وان خففته فان المشاركة في الأسى تخففه ولا تزيله ٠

---

(١) البقرة ٠

ثانيها ـ أنه كان من عادة أشراف قريش أن يعطوا أولادهم للمراضع في البادية ، ولا ترضع نساؤهم ، كما هو ظاهر الآن في كبراء الحضر أو ذووا اليسار فيهم ، فانه لا ترضع نساؤهم الأولاد ، وان كانوا لا يرسلونهم الى الريف ..

ثالثها ـ أن الغلمان اذا رضعوا في البادية اكتسبوا غذاء طيبا ، وهواء ليس معكرا بما في جو المدن ، فأهل الوبر أقرب الى الهواء النقي النظيف من أهل المدر .

ولقد قال في هذا صاحب الروض الأنف ، وأما دفع قريش وغيرهم من أشراف العرب أولادهم الى المراضع ، فقد يكون ذلك لوجوه أحدهما تفريغ النساء الى الأزواج .. وقد يكون ذلك منهم لينشأ الطفل في الأعراب ، فيكون أفصح للسانه ، واجلد لجسمه .. وقد قال عليه السلام لأبي بكر حين قال له : ما رأيت أفصح منك يا رسول الله ، فقال : وما يمنعني وأنا من قريش ، وأرضعت في بني سعد فهذا ونحوه كان يحملهم على دفع الرضعاء الى المراضع الأعرابيات ، ليتربوا على تحمل الأجواء ، ويتنسموا نسيم البادية ، ويعرفوا عاداتها ، ويخشوشنوا بخشونتها ، ولا ينشئوا في حلية المدينة ، غير متعرضين لما تقتضيه الحياة . من تحمل الأعباء ، وما تفرضه مقتضياتها من شدائد ليكون منها الأشداء .

إرضاعه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم :

٨٦ ـ جاءت المراضع الى مكة من بني سعد بن بكر يردن الرضعاء يرضعنهن . وكان من عادة العرب ألا تأخذ المرضع أجراً على الرضاعة ، وان كن يقبلن من آل الطفل الهدايا والرعاية ، فتسد بعض حاجاتهن ، ويرين من العار أن يكون لهن أجر منتظم ، وسرى بينهم المثل السائر تموت الحرة ، ولا تأكل من ثديها .

ومنهم كما جاء في الروض الأنف من كن يقبلن الأجرة ، اذا لحت بهن الحاجة .

ولقد كان محمد يتيما لم يترك أبوه شيئا يعد ثروة ، فقد ترك خمسة جمال ، وبعض الشاة ، وأمة اسمها أم أيمن التي حضنته بعد وفاة أمه الكريمة ، فكان يتيما فقيراً .

وقد حضرت المراضع ترجو أن يعهد اليهن بمن يرضعنه راجيات من سنة الرضاعة الهدايا أو رضخاً من المال ،لا أجرة يؤجرن بها أثداءهن ، فاذا كن يرجون ما يرجون ، فانهن لا يرضعن الا أولاد ذوي اليسار ، ولذلك أعرضن عن اليتيم الفقير ، وبذلك خرج كل المرضعات بطفل من ذوي اليسار ، الا حليمة بنت أبي ذؤيب ، واسمه عبد الله بن الحارث بن كبشة ، وكان زوجها معها ، واسمه الحارث بن عبد العزى بن رفاعة وكان المرضعات كما قال الواقدي عشراً كلهن عاد بالأولاد الا حليمة فلما رأتهن جميعا أخذن أطفالا ، ولم يبق الا اليتيم الطاهر محمد بن عبد الله ،أخذته راجية الخير ، وان لم ترج العطاء ، ولنتركها تحدثنا كيف قبلته ،فانها تصور لنا طيب نفسها ، وما أفاضه الله تعالى عليها من خير بسبب بركة اليتيم الكريم ، فهي تقول :

٨٧ ــ « في سنة شهباء لم تبق لنا شيئا خرجت على أتان لي قمراء معها شارف (١) ، كانت والله ما تبض (٢) بقطرة ، ولا ننام ليلتنا أجمع من صبينا الذي معنا من بكائه من الجوع ، ما في ثديي ما يغنيه ، وما في شارفنا ما يغذيه ، ولكنا نرجو الغيث والفرج فخرجت على أتاني تلك ، فلقد أذمت(٣) بالركب ، حتى شق ذلك عليهم ٠

حتى قدمنا مكة نلتمس الرضعاء فما معنا امرأة الا وقد عرض عليها رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، فتأباه اذا قيل لها انه يتيم ، وذلك أنا انما كنا نرجو المعروف من أبي الصبي ، فكنا نقول ما عسى أن تصنع أمه وجده !!

فما بقيت امرأة قدمت معي الا أخذت رضيعاً غيري ٠

فلما أجمعنا الانطلاق قلت لصاحبي ٠ والله اني لأكره أن أرجع من بين صواحبي ولم آخذ رضيعاً ، والله لأذهبن الى ذلك اليتيم ، فلآخذنه ٠

قال : لا عليك أن تفعلي ، عسى الله أن يجعل لنا فيه بركة ٠

قالت : فذهبت اليه فأخذته ، وما حملني على أخذه الا أني لم أجد غيره ٠

---

(١) الأتان القمراء هي التى يميل لونها الى الخضرة والشارف الناقة العجوز ٠

(٢) اى ترشح الناقة لنا بقطرة من اللبن نتغذى به لكبر سنها ٠

(٣) أى صارت مذمومة فى الركب ٠

فلما أخذته رجعت الى رحلي ، فلما وضعته في حجري أقبل عليه ثدياي بما شاء من لبن ، فشرب حتى روي ، وشرب معه أخوه حتى روي ، حتى ناما ، وما كنا ننام معه قبل ذلك ٠

وقام زوجي الى شارفنا فاذا أنها لحافل ٠

فبتنا بخير ليلة يقول صاحبي حين أصبحنا : تعلمي والله يا حليمة لقد أخذت قسمة مباركة ، قلت والله اني لأرجو ذلك ثم خرجنا ، وركبت أتاني وحملته عليها معي ، فوالله لقطعت بالركب ما يقدر على شيء من حميرهم ، حتى ان صواحبي ليقلن يا بنت أبي ذؤيب ويحك ، اربعي علينا ، أليست هذه أتانك التي كنت خرجت عليها ، فأقول لهن بلى والله انها لهي ٠

قالت ثم قدمنا منازلنا من بني سعد ، ولا أعلم أرضاً من أرض الله أجدب منها ، فكانت والله ، غنمي تروح علي حين قدمنا به معنا ـ شباعا لبنا ـ فنحلب ونشرب منها ٠٠ حتى كان الحاضرون من قومنا يقولون لرعيانهم ، ويلكم اسرحوا حيث يسرح راعي بنت أبي ذؤيب ، فتروح أغنامهم جياعا ما تبض بقطرة لبن ، وتروح غنمي شباعا لبنا ، فلم نزل نتعرف من الله الزيادة والخير ٠

٨٨ ـ اذا كان محمد قد أقدم باليمن والبركات على أهل مكة ، برد أبرهة وفيله ، وجيش اليمن مدحورين ، وعادوا ، فبركته بعد ولادته تسير معه حيث سار ٠

لقد رضيت باليتيم ، وصاحبها قبله ، وكلاهما طيب النفس مطمئن قانع مستعين بالله تعالى قانع بما يعطيه ، فجزاها الله تعالى جزاء حسناً ، فأطعمهم من جوع ، ودر عليهم الأثداء الجافة ، فأضاف الى لبنها لبناً كفاه هو وصبيها ، وأخصب كلؤهم بعد اجداب ، وامتلأت أضراع غنمها ، فكان الخير العميم والفضل العظيم ٠

وقد يسأل سائل لم كان هذا ، ويستغرب ، ولكن لا غرابة لمن يؤمن بالله تعالى فان له تقديراً فوق تقدير العباد ونظاما فوق نظامهم ، وانما يستغرب من لا يؤمن الا بالمحسوس ، ويربط بين الأسباب العادية ومسبباتها ٠

وان الذي نقف عنده هو أن هذا الغلام الذي صنعه الله على عينه ولد يتيما ، ولكن لم يذق قهر اليتامى ، ولا ذل اليتيم ، بل كان بين أحضان من

يحبونه ، فأول حواضنه أم رؤوم لم ترفي الوجود نوراً الا نوره ، وغمرهـا حبه ، وغمرته بعاطفتها ، فكان كـل حبها له ، لم يشركه فيها زوج اذ فقدته، فآل حبه اليه ، فكان له صفواً خالصاً ،لم يرنق بشركه ، والتقى في عاطفتها حب لزوج كريم لم تنعم برفقته ، وابن حبيب محبب فيه كل ما فيه ، وكانت الحاضنة الثانية أم أيمن التي كـانت ميراثه من أبيه أحبته كما تحب الأم ولدها ، وكانت له بعـد أمه رفيقة به أضافت اليه من حنانها ما عوضه ، وان لم يكن العوض كالأصـل ، ولا البديل كالبدل ·

ثم كانت الحاضنة الغريبة التي صارت برضاعه أما كأمه ، خلق فيها رب العالمين محبته ، وجعله يمناً وبركة لترى في محبته حب الله ، ولترى في عاطفتها عليه رزق الله تعالى ·

والحواضن الطيبات الطاهرات هن اللائي يدر منهن العطف الانسـاني ، فمنهن يتلقى العـواطف الاجتماعيـة والأنس الانساني ، ولذلك نشأ محمد عليه السـلام انسـاناً محباً يألفه كـل من يعرفه ·

واذا كان فقد الأب ، فقد قيض له الجـد ، واذا كان قـد فقـد الأم في باكورته ، فقد تغذى من عطف أم أيمن، واستقى منها أكرم العواطف ، وهـذا كله فوق ما أودعه الله اياه من خـلق كريم عظيم ·

٨٩ ـ أخذت حليمة ترضعه حولين كاملين ، وهو في حضنها مع ولدهـا لا يفترقان ، لا تضن عليـه بعطف ولامحبة ، ولا تخص ابنها بفضل منهما ، بل هما على سواء ·

فما بلغ الحولين ، حتى استغنى عن اللبن وأخذ في الغذاء حتى كان غلاما جفلا ، أي قويا ممتلئا يستغني بالطعام، ولم يذكر التاريـخ أكانت تلتقي به أمه ، أم تركته الى البادية مطمئنة عليه!! ، ولكن اذا كان التاريخ لم يذكـر أنها رأته ، فلنفرض أنها كانت تراه من وقت بعد آخر ، فاذا كان التاريخ لم يذكر الرؤية ، فان أقصى ذلك أنه لم يثبتها ، ولم ينفها ، فالفطرة والحنان يوجبانها ، وهما أصدق خبرا ، ولذلك نقرر أنها لابد كانت تراه من حـين لآخر (١) ·

---

(١) الاكتفاء ص ١٧١ جـ ١ وسيرة ابن هشام ·

وانه بعد أن استغنى عن الرضاعة ،وبلغ فيها حولين كاملين ، يـكون من الحق على المرضع أن ترده الى أهله ،واذا كانوا يرون أن يبقى عندها ، فانه يكون برجاء منها ، ورضا منهم ، وهـذاما فعلته ، فقد قالت :

قدمنا به على أمه ، ونحن أضن شيء به مما رأينا فيه من البركة ، فلما رأته أمه ، قلت لها دعينا نرجع بابننا هـذه السنة الأخرى ، فاننا نخشى عليـه وباء مكة ، فوالله ما زلنا بها ، حتى قـالت نعم ٠

رأت الخـير بين يديه ، فأرادت أن تبقيه ليبقى الخـير ، ولأنه قد نال محبتها ، وأصبحت لا تستطيع فراقه كأنها التي حملته ، ولم ترض الأم التي حملت به أن تتركه لشـوقها اليه ، ولتضمه أحضانها ، فلم تسلمها ولدهـا لأول طلب ، بل ما زالت بها حتى قبلت،ولعل قبولها سببه ما ذكرته من أنهـا تخشى عليه وباء مكة ، وتريده أن يكون مستمتعا بجو الصحراء الصافي من حمل الأسقام والأوباء ، فهي قـد رضيت ايثارا ومحبة ٠

أخبار شق صدره صلى الله عليه وسلم :

٩٠ ـ عادت حليمة فرحة ببقاء الخير والبركة ببقاء محمد في حضانتها، واذا كانت من قبل مرضعا وحاضنـةفهي الآن حاضنة ، وان ذلك يُحَمِّلهـا عبئاً آخر ، وهو صيانته وحفظه ، اذكان من قبل يلازم حجرها ، أو يكاد ، أما الآن فانه لا يلازم حجرها ، بـل يغادره ليلعب ، وليروح ويغدو هنـا وهناك ، وان ذلك يحتاج الى صيانة ،وكانت تتبعه ٠

وقد خرجت مرة لتبحث عنه مـع أخته من الرضاعة ، وكان الحر شديداً، فتقيل كلاهمـا ، (أي استرخى في القيلولة) فقـالت الفتاة ، انه لا يُحَسّ بحر ، لأن غمامة تسـير حيث يسير ،وتقف حيث لا تتركه ٠

ونقف وقفة قصيرة عند الأخبار الواردة في شق صدره عليه السـلام ، فقد رويت في ذلك أخبـار بعضها فيخبر قصير ، وبعضها في خبر طـويل ، ولا تخلو من زيادة في بعض ، ونقص في آخر وان كان المعنى الأصلى متفقاً في الجميع ٠

ولنذكر واحدا منها ، وهو ما روي وثبت في صحيح مسلم عن طريق حماد وابن سلمة عن ثابت عن آنس بن مالك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أتاه

جبريل عليه السلام ، وهو يلعب مع الغلمان ، فأخذه وصرعه ، فشق عن قلبه ، فاستخرج القلب ، واستخرج منه علقة سوداء ، فقال هذا حظ الشيطان، ثم غسله في طست من ذهب بماء زمزم، ثم لأمه ، ثم أعاده في مكانه ، وجاء الغلمان يسعون الى أمه يعنى ظئرَه ،فقالوا ان محمداً قد قتل ، فاستقبلوه، وهو منتقع اللون قال أنس ، وقد كنت أرى ذلك الخيط في صدره ؛ واننا نلاحظ في ذلك الخبر أمرين :

أولهما ــ أن الخبر فيه أنه غسله بماء من زمزم ، ويلاحظ أن الواقعة ان صحت كانت في البادية في مكان ناء عن زمزم ، واذا كان من ماء مع جبريل ، فمن أين علم أنه من زمزم ٠

ثانيهما ــ أنه ذكر أنه كان يرى أثر المخيط في صدره عليه السلام ، واذا صحت الواقعة فان المعقول أنه عمل ملك ، والملك لا يكون لعمله أثر محسوس ٠

ونحن نرى أن الأخبار بالنسبة للشق لا تخلو من اضطراب ٠

وعلى فرض أنها صحيحة ، لا نقول انها غير مقبولة ، بل انا نقبلها ان صحت ، ولكن الاضطراب في خبرها ،يجعلنا نقف غير رادين ، ولا مصدقين٠

ومهما يكن الأمر في قصة شق البطن ، فان الغلام الطاهر كانت تحوطه أمور خارقة للعادة لم تكن لتحدث للغلمان في سنه عادة ٠

ولقد جاء في الروض الأنف أن محمداً صلى الله تعالى عليه وسلم عندما عادت به حليمة بعد أن حملت أمه على الرضا ببقائه عندها سنة أخرى أعادته بعد شهر أو ثلاثة خوفا عليه مما يجري، ولقد ذكر الرواة حديث شق البطن ، وأنها لما بلغها خافت على الغلام فردته أمه ٠

وقال ابن اسحاق انها رأت أن بعض النصارى رأوه ٠ ورأوا ما به من علامات النبوة فطلبوا الى حليمة أن يأخذوه عندهم ، فارتابت في ذلك حليمة ، فردته الى أمه خائفة عليه ، ولتخلي نفسها من التبعة ، وسنزيد من بعد الخبر بياناً ٠

٩١ ـ هذا الكلام يدل على أنه آل الى أمه بعد شهرين أو ثلاثة أشهر من السنة الثالثة ، وهو معقول لأنه لا رضاعة من بعد ذلك ، والأحوال كانت توجب هذا ، لما كان يصيب أمه الرضاعية من خوف عليه بسبب الارهاصات التي كانت تحوم حوله مما أفزعها .

ولكن جاء في الروض الأنف مانصه :

« وكان رد حليمة اياه الى أمه ، وهو ابن خمس سنين وشهر فيما ذكر أبو عمرو ، ثم لم تره بعد ذلك الا مرتين احداهما بعد تزوجه خديجة رضي الله تعالى عنها ، جاءت اليه تشكو السَنة، وان قومها قد استنوا ، فكلم لها خديجة، فأعطتها عشرين رأسا من غنم وبكرات، والمرة الثانية يوم حنين » .

وان هذين بلا شك خبران متناقضان : أحدهما يفيد أن أمه تسلمته عند بلوغه سنتين وشهرين أو ثلاثا ،والثاني يقرر أنها تسلمته بعد خمس سنين وأشهر .

ولكن التوفيق بينهما ممكن بأن أخذها الأول كان لتضمه اليها ، ويكون في كنفها ، ولا يمنع ذلك من أن تجيء حليمة اليه تأخذه عندها الفينة بعد الفينة ، يستروح بنسيم الصحراء ،وتتيمن به ظئره المخلصة العطوف ، أما حد التسليم بخمس سنين ، فهو عندما أخذته نهائيا أمه ، ولم يذهب بعد الى بنى سعد ، ولذلك قرروا أنها لم تره بعد ذلك الا بعد أن اكتملت رجولته بتزوجه ، وبعد أن أبلغ رسالته ، وتذاكرت الركبان بنصرته في يوم حنين ، فقد دامت من بعد اقامته عندأمه ، ورحلت به الى يثرب لتريه قبر أبيه ، ولتزور وهي وفاء لرجلها الطاهر الأمين .

لقد سلمته حليمة الى أهله ، وكان يتردد عليها برغبتها ، وأجازه أهلها ، وقد ذكر ابن اسحق خبرين قد نوهنا الى أحدهما ، ولم نذكر الآخر ، وقد كان السبب في ألا يقيم عندها اقامة ممتدة، ولكن تأخذه الوقت بعد الآخر أولهما ـ أن ابن اسحق قدر أنه زعم الناس فيما يتحدثون أن حليمة ظئره لما قدمت مكة به ضلت وهي مقبلة به نحو أهله ،فالتمسته فلم تجده ، فأمت جده ، فقالت له اني قدمت بمحمد هذه الليلة ، فلماكنت بأعلى مكة أضلني الناس فوالله

ما أدري أين هو ؟ ، فقام عبد المطلب يدعو الله أن يرده ، فوجده ورقة بن نوفل بن أسد ، ورجل آخر من قريش فأتيا به عبد المطلب ، فقالا له هذا ابنك وجدناه بأعلى مكة ، فأخذه عبد المطلب ،فجعله على عنقه ، وهو يطوف بالكعبة يعوذه ويدعو له ، ثم أرسل به الى أمه آمنة ٠

وقد ذكر هذا الخبر ابن اسحاق ، وصدره بكلمة زعموا مما يدل على شكه، ولكن لا موضع للشك فيه ، فالخبر في ذاته مقبول ، وهو يدل على عظيم حدب جده عليه ، وحرص حليمة ، ومحبة قريش له ٠

ولكن هل هذا كان في تسليمها الأول ، أو في تسليمه في المرات التي كان يتردد عندها ، تيمنا لجواره وقربه منها ، وقبول أمه لذلك ليستروح هواء البادية ، وتتقى أسقامه بها ٠

الخبر الثاني ، وهو ما أشرنا اليه من قبل ، ورجحنا أنه السبب في اعادته بعد شهرين من بلوغه حولين كاملين ،وهذا نص كلام ابن اسحاق :

« حدثنى بعض أهل العلم : أن مما هاج أمه السعدية على رده الى أمه مع ما ذكرت لأمه مما أخبرتها عنه أن نفرا من الحبشة نصارى رأوه حين رجعت به بعد فطامه ، فنظروا اليه وسألوها عنه ، وقلبوه ثم قالوا لها لنأخذن هذا الغلام ، فلنذهبن به الى ملكنا وبلدنا ،فان هذا غلام كائن له شأن ، نحن نعرف أمره فزعم الذي حدثنى أنها لم تكد تنفلت منهم حتى أرسلته الى أمه ٠

سفر أمه به إلى يثرب :

٩٢ ــ كانت آمنة مثالا للمرأة الكاملة ، وهي بعد لم تتجاوز العشرين الا بقليل ، فقد رأت أن تزور يثرب وهو معها هو وأم أيمن حاضنته بعد أمه الكريمة ، وذلك لأمرين :

أولهما ــ أن تزور مع ولدها قبر أبيه ، وفى ذلك أجل الوفاء ، وأكرمه ، وكأنها ترى زوجها وديعته التي أودعها اياها ٠

وثانيهما ــ أن تعرفه بقرابته من ذوي الارحام ، وهم بنو النجار ، اذ تزوج منهم جده هاشم ، تزوج سلمى بنت زيد بن عمرو الذي ينتهي بنسبه الى عدي من بني النجار ، وكان بالمدينة ذا شرف ومال ٠

وقد تحقق لها ما أرادت ، ولعل هناك باعثاً آخر ، وهو أنها كانت تخشى على وليدها العزيز جو مكة ، ووباءه فأرادت أن تخرج به من ذلك الجو المزدحم الآهل بالسكان ، لقد كانت حليمة تأخذه من وقت لآخر ، فينقى جسمه من جو مكة المتكاثف ، وينال من جو البادية ما ينعش جسمه ونفسه ، ويكون ارادته ويكون فيه متصلا بالكون لا يحجبه عنه حاجب ، ولا يحول دونه باب ، بل هو متصل بالسماء وزرقتها ، والنجوم ومدارجها ، والقمر وانبلاجه ، فيرى الشمس سراج الوجود ، والقمر منيره من غير استتار يمنعه ، أو حاجز ، يرى الشمس في مشرقها ، وضحاها ، وأصيلها وغروبها ، وشفق القمر اذ يضيء ، فيشق نور الظلام وينبلج نوره ، ويتغنى به الشعر ، وفي ظله يتسامر المدركون لجمال منظره ، ودلالته على الخلاق العليم •

سافرت به أمه لتزور قبر أبيه ، وأخواله ، ولتخرج به من مزاحم مكة ، ومحاجزها ، وهي أحب أرض الله اليها ، ولكنه الوفاء ، ورعاية الوليد الطاهر في جسمه ونفسه ، وأهله ، ولتريه ذوي رحمه كما رأى عصبته •

والظاهر أنها خرجت بعد أن أخذته من حاضنته ووضعته بعد أن بلغ خمس سنين وأشهراً كما ذكرنا من قبل أي أنه كان قد ابتدأ السادسة وسار فيها أشهراً •

وقد زار ، أولئك الصفوة من الأخيار قبر عبد الله أبيه ، والزوج الحبيب زوج آمنة فعبرت العيون وسكنت الأصوات ، وتناجت الأرواح على مشهد من الغلام المحس المدرك ، فعرف أباه ، وقد ارمس في التراب ، ورأى رمسه بنظره وأدرك محبته من عبرات أمه ، فكان منظراً مطبوعاً في نفسه ، وهمساً مس قلبه ومشاعره ، ولعله أول حزن مس قلبه الغض البريء •

أقام وأمه في أطم بني عدي بن النجار ، وهو قصر بني في أكمة عالية كأنه الحصن ، وقد كانت الأطم معروفة في المدينة •

ويظهر أن الاقامة لم تكن قصيرة ، وربما كانت طويلة نسبياً ، ومهما يكن فقد رسمت في ذهن الغلام صوراً وضحها الخيال ووسعها من غير مبالغة ولا اغراق عند ذكرها •

فيروى أنه قال ، وقد رآها بعد أن حمل أعباء الرسالة : « كنت مع غلمان من أخوالي نطير طائراً يقع عليه (أي على أطم بني النجار) وقال في الدار التي نزل بها هو وأمه : « ها هنا نزلت بي أمي ، وفي هذه الدار قبر أبي عبدالله بن عبد المطلب » .

موت الطهور آمنة :

٩٣ ـ أقامت آمنة بدار بني النجار ما طابت لها الاقامة ، ولم ترد الاستمرار بعيدة عن بني هاشم وعن الجد الطيب عبد المطلب كافله ، فكان لابد من العودة ، فأخذت في السير الى مكة ، ولكنها وهي عائدة اليها أدركها الموت بمكان اسمه (الأبواء) وهو بين مكة والمدينة وهو الى المدينة أقرب ، كما يقول صاحب الروض الأنف (١) وبذلك صار محمد صلى الله عليه وسلم يتيما من أبويه الذي أدخره الله تعالى للانسانية هادياً بالحق ، داعياً الى الرحمة ، فكان نبي الرحمة ، لأن الرحمة بالناس تنبع من الآلام الذاتية التي تعترض في أثناء الحياة ، فانه لا تنبعث الرحمة بالضعفاء الا ممن ذاق مرارة الضعف ، وأي ضعف أشد من اليتم ، وان القسوة في كثير من الأحيان تكون من الذين ينشئون في الحلية فاكهين في نعيم الحياة .

ولقد ماتت الأم الطاهرة ، وهو يدرك الحياة ، وقد ذاق حلاوة حنانها ، ولطف عطفها ، وهي التي كان هو لها كل الوجود ، واستبشرت به ، واتخذت حبه عوضاً عن الحب الزوجي الذي فقدته في باكورة زواجها ، واذا كان قد فقد أباه من قبل فقد كان ذلك ، وهو في غيب الله المكنون ، وقد عوضه جده عطف الأب فلم يحس بألم الفقد ، لأنه لم يعلمه واستقبل الحياة بهذه الحال ، ولم يجعله جده عبد المطلب يحس بالفقد الذي لم يعه ، أما الأم ، فقد فقدها ، وهو في وعي ، وبعد أن ذاق حلاوة حنان الأم ، وانه لا شيء يعوض عطف الأم الرؤوم ، وهو حرمان من شيء موجود شعر به ، وأصابت به لوعة ، علمته الصبر وعوده أخضر .

وزادت اللوعة ، وزاد معها الصبر أن الموت ، وهما غريبان ، وليس لهما الا الصحراء ، وطريق مدعثر ، وشقة بعيدة ، لابد من قطعها ، فاجتمع ألم

---

(١) يقول فيه صاحب الروض الأنف ، وقيل سمي الأبواء ، لأن السيل كان يبوء فيه .

الغربة ، وألم الفقد ، وألم الانقطاع ،وصار الركب في رعاية الله تعالى الذى صنعه على عينه ، وذلك ليحس مع الصبر واحتمال الآلام كريم الرعاية الالهية ، والعناية الربانية ، ويكون له من هذا زاد نفسي يذكره عندما يلاقي الشدائد في الدعوة الى الحق ، ومناوأة الشرك وتكاثف المشركين عليه ، وتعرضه للأذى والتجائه الى الله اذا أحس بالضعف ٠

وان الذى حمله ، وحل محل أمه في حضانته جارية حبشية ، واذا كانت لم تعطه حنان الأم ، وعزة العطف ، فقد كلأته وحمته ٠

وان ارتباط حياته الطاهرة بأمة حبشية تزويد من الله تعالى له بزاد انساني ، ليشعره بأن الناس سواسية ،وأن كل الفضل فيمن يحسن في عمله ، لا فيمن يفاخر بنسبه ، وانها لحكمة عالية أن تكون الحاضنة التي لا يستغنى عنها محمد صلى الله عليه وسلم أمة حبشية ، لأنه تربية ربانية على المساواة الانسانية ، وأنه لا شرف الا بالنفع ،والعاطفة ، لذلك لم يكن غريباً من الذي حضنته جارية حبشية أذاقته حب الأمومة ،وان كان دون حبها ، وأوصلته الى جده محوطا بعناية الله وعطفها ـ أن يكون نصير الأرقاء ، والمانع للرق الانسانى ، فليس غريبا أن يغضب أشد الغضب ، عندما يسمع بعض صحابته يعير آخر بقوله «يابن السوداء»،ويقول في قوة : لقد طفح الكيل ، لقد طفح الكيل ، لقد طفح الكيل ، ليس لابن البيضاء على ابن السوداء فضل الا بالتقوى ، فمحمد ابن البيضاء حضنته السوداء فكان ابنا لهما معا ٠

٩٤ ـ ذاق حب الأم ، وذاق لوعة فراقها ، ولذلك زار قبرها ، بعد أن بلغ أشده ، وصار رجلا مكتملا سويا ورسولا نبيا ، جاء في الروض الأنف « وفي الحديث أن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم زار قبر أمه بالأبواء ، فبكى وأبكى » ، وهذا حديث صحيح ،وفي الصحيح أيضا أنه قال استأذنت ربي في زيارة قبر أمي فأذن لي ، واستأذنته أن أستغفر لها فلم يأذن لي وفي سند البزاز من حديث بريدة أنه صلى الله تعالى عليه وسلم حين أراد أن يستغفر لأمه ضرب جبريل عليه السلام في صدره ، وقال له : لا تستغفر لمن كان مشركا ، فرجع وهو حزين ، وفي حديث آخر ما يصححه ، وهو أن رجلا قال له يا رسول الله أين أبي فقال في النار ، فلما ولى الرجل قال عليه السلام ان أبي وأباك في النار»وليس لنا أن نقول نحن هذا في

أبويه صلى الله تعالى عليه وسلم ، لقوله عليه السلام « لا تؤذوا الأحياء بسبب الأموات » وانما قال النبي عليه السلام لذلك الرجل ما قال ، لأنه وجد في نفسه ، وقد قيل انه قال أين أبوك أنت ، فحينئذ قال ، وقد رواه معمر بن راشد بغير هذا اللفظ ، فلم يذكر أنه قال ان أبي وأباك في النار ٠

ولا شك أن الخبر الذى يقول ان أبا محمد عليه السلام في النار خبر غريب في معناه ، كما هو غريب في سنده ، لأن الله تعالى يقول : « وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا » وقد كان أبو محمد عليه السلام ، وأمه على فترة من الرسل ، فكيف يعذبون ؟!! ان هذا مخالف للحقائق الدينية ، لقد مات أحدهما قبل أن يبرز الرسول الى الوجود ، وماتت الأخرى وهو غلام لم يبعث رسولا ، ولذلك كان الخبر الذي يقول انهما في النار مردودا لغرابة سنده ، أولا ، ولبعد معناه عن الحقيقة ثانيا ، ولعل نهي النبي عليه السلام عن الاستغفار ، لأن الاستغفار لا موضع له ، اذ أنه لم يكن خطاب بالتكليف من نبي مبعوث ، وليس كاستغفار ابراهيم لأبيه الذي نهى عنه ، لأن أبا ابراهيم قد خوطب برسالة ابراهيم فعلا ، فهو مكلف أن يؤمن بالله ، ويكفر بالأوثان٠

وفي الحق اني ضرست في سمعي وفهمي عندما تصورت أن عبد الله وآمنة يتصور أن يدخلا النار ، لأنه عبد الله الشاب الصبور الذي رضي بأن يذبح لنذر أبيه ، وتقدم راضيا ، ولما افتدته قريش استقبل الفداء راضيا ، وهو الذي كان عيوفا عن اللهو والعبث .وهو الذي برزت اليه المرأة تقول هيت لك ، فيقول لها أما الحرام فالممات دونه ،ولماذا يعاقب بالنار ، وهو لم تبلغه دعوة رسول ، ونفى الله تعالى العذاب الا بعد أن يرسل رسولا ، ولما تكن الرسالة قد وجدت ، ولم يكن الرسول قد بعث ٠

وأما الأم الرؤوم الصبور التي لاقت الحرمان من زوجها فصبرت ، ورأت ولدها يتيما فقيرا ، فصبرت ، وحملته صابرة راضية في الذهاب الى أخواله ، أيتصور عاقل أن تدخل هذه النار من غير أن يكون ثمة رسالة الهية تهديها ، ودعوة الى الوحدانية توجهها ٠

اني ضرست لا لمحبتي للنبي فقط وان كانت كافية ، ولكن لأن قصة آمنة جعلتني لا أستطيع أن أتصور هذه الصبور معذبة بالنار ، وقد شبهتها بالبتول مريم العذراء لولا أن الملائكة لم تخاطبها ٠

٩٥ ـ ويظهر أن النبي صلى الله عليه وسلم كان كلما مر بقبر أمه غلبت عبراته ، ولا غيب في ذلك ، فقد قال عليه السلام البكاء من الرحمن والصراخ من الشيطان ، ولقد ذكر الرواة أنه بكى عندما مر بالأبواء ، بكى ، وبكى من معه لتذكر أمه . ولقد قال القرطبى في تذكرته « جزم أبو بكر الخطيب في كتاب السابق واللاحق ،والناسخ والمنسوخ ، وأبو حفص عمر بن شاهين باسناديهما عن عائشة رضى الله عنها ، قالت حج بنا رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم حجة الوداع فمر على قبر أمه ، وهو باك حزين مغتم ، فبكيت لبكائه صلى الله تعالى عليه وسلم، ثم انه نزل ، فقال يا حميراء استمسكي فاستندت الى بيت البعير ، فمكث عني طويلا ، ثم عاد إليّ وهو فرح مبتسم ، فقلت بأبي أنت وأمي يا رسول الله نزلت من عندي وأنت باك حزين مغتم ، فبكيت لبكائك ، ثم عدت وأنت فرح مبتسم ، فيم ذا يا رسول الله ، فقال ذهبت لقبر آمنة أمي ، فسألت أن يحييها الله تعالى ، فأحياها فآمنت بي ».

وروى في احياء أمه وأبيه خبر مثل ذلك بسند فيه مجهولون .

ونحن نرى أن توافر السند الصحيح في هذه الأخبار غير ثابت ، ولكن نقول ما قاله صاحب الروض الأنف « الله قادر على كل شىء ، ولا تعجز رحمته وقدرته عن أى شىء ، ونبيه عليه السلام أهل أن يخصه بما شاء من فضله، وينعم عليه بما شاء من كرامته صلوات الله تعالى ، وسلامه عليه .

ولقد روى الحافظ بن كثير أحاديث كثيرة في هذا الباب ، وذكر أن فيها غرابة ، وذكر الخبر الذى سقناه عن عائشة رضي الله تبارك وتعالى عنها « أن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم، سأل ربه أن يحيي أبويه فأحياهما وآمنا به » ثم قال فيه : « انه حديث منكر جدا ، وان كان ممكنا بالنظر الى قدرة الله تعالى لكن الذي ثبت في الصحيح يعارضه » (١) .

وخلاصة القول وهو ما انتهينا اليه بعد مراجعة الأخبار في هذه المسألة أن أبوي محمد صلى الله تعالى عليه وسلم في فترة، وأنهما كانا قريبين الى الهدى، والى الأخلاق الكريمة التي جاء به شرع ابنهما من بعد ، وأنهما كانا على

---

(١) البداية والنهاية جـ ٢ ص ٢٨١ .

فترة من الرسل ، ونعتقد أنه بمراجعة النصوص القرآنية والأحاديث الصحيحة لا يمكن أن يكونا في النار ، فأمه المجاهدة الصبور ، الحفية بولدها ، لاتمسها النار • لأنه لا دليل على استحقاقها ، بل الدليل قام على وجوب الثناء عليها هي وزوجها الذبيح الطاهر •

وما انتهينا الى هذا بحكم محبتنا لرسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، وان كنا نرجوها ونتمناها ، ولكن بحكم العقل والمنطق والقانون الخلقي المستقيم ، والأدلة الشرعية القويمة ،ومقاصد الشريعة وغاياتها •

في حضن عبد المطلب

٩٦ ـ عادت أم أيمن بركة الحبشية الى مكة وسلمت الغلام الطاهر الى جده عبد المطلب ، وقد بلغ السادسة من عمره الكريم العامر بالخير ، وعمل الصالحات ، فأدناه اليه ، وقربه •

وفي البيت كان الصبية من أولاد عبد المطلب ، والشباب من الرجال والنساء ، كان فيه حمزة وكان فيه العباس ، وكانت فيه هالة زوج عبد المطلب ، وابنة عم أمه ، فهي ذات رحم ، وما كان يمكن أن تنظر اليه ، كما تنظر أزواج الآباء ، الى ذرية أزواجها ، بل كانت تعد كخالته ، لأنها ابنة عم أمه ، وهي ربة البيت الراعية لبيت زوجها الكريم ، ولذريته الأطهار، فما كانت تنظر اليه شزرا ، بل كانت تحبوه من عطفها ، ما تحبوه لولدها ، فكان وَسَطًا مملوءا بالعطف ،والصلاح فما قهره يتمه ، ولا أرهقه فقد أبويه، وان لم يكن عزه كمثل عزهما ، ولا عطفه كمثل عطفهما ، ولكن من حواليه، لم يبقوا عطفا يستطيعونه الا قدموه •

وكان جده عبد المطلب يرى فيه أعلى صورة للغلمان ، والتقت فيه محبتان من عبد المطلب ، احداهما محبة أبيه الذي اهتصره الموت ، وعوده أخضر ، ومحبة الغلام الطاهر في ذاته ، فكان يدنيه اليه ، واذا كان اليتم بطبيعته يوجد انفرادا نفسيا ، واعتزالا فان الجد العظيم خشي أن يكون لذلك أثره في قلب هذا الغلام الحبيب ، فكان يبالغ في تقريبه منه حتى يأنس به دائما ، جاء في السيرة لابن اسحاق :« كان يوضع لعبد المطلب فراش في ظل الكعبة ، وكان بنوه يجلسون حول فراشه ذلك حتى يخرج اليه لا يجلس عليه أحد من بنيه اجلالا له ، فكان رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم يأتي وهو غلام جفر حتى يجلس عليه ،فيأخذه أعمامه ليؤخروه عنه ، فيقول عبد المطلب اذا رأى ذلك منهم :« دعوا ابني فوالله ان له لشأنا ، ثم يجلسه معه على فراشه ، ويمسح ظهره بيده ،ويسره ما يراه يصنع » •

حباه عبد المطلب بالعطف الأبوي ،فكان ينسبه اليه مباشرة ٠ فلا يقول ابن عبد الله ، ولكن يقول ابني ، ليأتنس به ويؤنسه ، ويمنع عنه الاحساس بغربته بين أولاده ، ولكيلا يحس بأنه دونهم ، ويفضله عليهم في المجلس ، ليمنع قهر اليتم ، فألقى الله سبحانه محبة منه عليه ٠

ان أخشى ما يخشاه القوامون على اليتامى أن يحسوا بانفراد ، فلا يألفوا الناس ، فكان عبد المطلب الحكيم العطوف الكريم يبث روح الائتلاف في هذا اليتيم ٠

وكأن فطرة عبد المطلب السليمة ،وفراسته كانا يلهمانه أنه سيكون له شأن ، وبدت ارهاصات ذلك في منامه الذي ارتآه ، ثم في أحواله التي شاهدها ، ثم في الأخبار التي جاءت عنه وهو في البادية عند حليمة وزوجها، ولذلك كان يبدو على لسانه ما يدل على أنه يتوقع له خيرا عظيما ، كما جاء في الخبر الذي سقناه ، وقد قال أيضا ابن اسحاق ٠ مرويا يسنده « لما توفيت آمنة قبضه اليه جده عبد المطلب ، وضمه ورق عليه رقة لم يرقها على ولده ،وكان يقربه منه ، ويدنيه ، ويدخل عليه اذا خلا ، واذا نام ، وكان يجلس على فراشه ، فيقول عبد المطلب اذا رأى ذلك : « دعوا ابنى انه يؤسس ملكا » (١) ٠

وكان في ذلك البيت قلب آخر منحه محبة الأم ، ورأت فيه وجودها ، تحنو عليه كأمه ، وهي التي حضنته كأمه ،وآوت به من غربته وهي أم أيمن،وكان عبد المطلب يعتمد عليها اذا غاب عنه في رعايته فكان يحثها على أن تبلغ أقصى الغاية في العناية به ، فيقول :لها « يا بركة لا تغفلي عن ابني فاني وجدته في غلمان قريب من السدرة ،وان أهل الكتاب يزعمون أن ابني نبي هذه الأمة » ٠

ولكمال عطفه ، وايناسه ، وتأليفه بكمال حنوه كان لا يأكل طعاما الا يقول علي بابني ، فيؤتى به ، ولكن الله تعالى يختبر نفس الغلام بحرمان ثالث ، فقد اختطف الموت أباه ، ولم تكتحل عيناه برؤيته ، واختبره ثانياً

(١) البداية والنهاية جـ ٢ ص ٢٨٢ ٠

بأن اهتصر الموت عود أمه ، وقد أدرك معنى حنو الأمهات ، ورآها كالعــود الاخضر ، يذبل ، ويذوي • ثم اختبره ثالثة ، وقد رأى جده الكريم يتركــه ، فقـــد فقـد الأبوة القريبة ، والأبوة البعيدة ، وقد أحس بعظم ما فقد عند سماع المراثي فيه ، وهي تعلن مكانته ،ومحبته وانه قد ابتدأت ، وهو لا يزال حياً ، ولكن الموت يدنو منه •

وكانت الأشعار تجيء بالرثاء من بناته ، ويقـــول ابن اسحق انه لما أحس بذلك الموت أمر بناته أن يرثينه فـكن يرثينه ، وهو يسمع •

وهذا الرثاء هو أبلغ النواح ، وان ذلك الخبر يدل على أنه كان في وعي كامل ، ولم يصبه خرف الشيخوخة •

في كنف أبي طالب

٩٧ – كان اليتيم الكريم يعيش في عزة وعطف ، ورفق في أحضان أمه الطاهرة ، وحاضنته البرة أم أيمن بركة هذا البيت ، وكنف الشريف في قومه السيد في قبيله ، لم يحس بالمهانة أو القهر ، بل أحس بالشرف والكرم والرفق والعطف ، واستمرت هذه حاله الى أن بلغ الثمانية •

وقد مات جده ، وتركه في الثامنة من عمره ، ولكنه لم يفقد عطفه وهو يعالج سكرات الموت ، بل استمر قائما بحقه عليه ، ولذلك عندما أحس بالموت يدب في جسمه دبيبا ، أوصى أبا طالب بحفظ رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم وحياطته ، وقد اختصه بهذه الوصية ، لأنه كان في قريش له مقام المطلب بعد أبيه ، ولأنه أقرب كل بنيه اليه ، لأنه ابن شقيقه ، اذ أمهما واحدة ، وهي فاطمة بنت عمرو بن عائذ من بني مخزوم •

وقد قام أبو طالب بحق الوصية ، فكان يرعاه حق الرعاية ، فكان يصاحبه في غدوه ورواحه ما أمكنت الصحبة • لأنه ابتدأ يتعود عادات الشباب ، ولا يغنى عنه في هذا الدور من حياته الا الصحبة الموجهة ، فكان يصحبه لهذا ، ولمحبته الشديدة له ، فكان يختصه بمحبة لا يحب أولاده بمثلها ، فكان لا ينام الا بجواره في منامه ، وقد لاحظ فيه يمنا لم يلاحظه من قبل ، وكان مثله كمثل حليمة وأولادهم ، اذ حل فيهم فشبعوا بعد جوع ، ودرت عليهم أخلاف ناقتهم بعد أن جفت •

كان أبو طالب في بعض الأزمة المادية ، فكان عياله اذا أكلوا لم يشبعوا ، واذا أكل معهم محمد الميمون شبعوا فكان أبو طالب اذا أراد أن يغذيهم • قال لهم كونوا كما أنتم حتى يجيء ولدي وهو محمد عليه السلام ، فاذا جاء أكلوا معه ، فكان الطعام يفضل منهم ، واذا لم يكن معهم لم يشبعوا ،

فيقول أبو طالب : « انك لبار » هـذاما قصه ابن اسحاق في سيرته (١) ٠

وليس عندنا ما يسوغ لنا أن ننقض ذلك الكلام فهي قـدرة الله تعالى على كل شيء ، واذا اختص الله بها محمداً صلى الله تعالى عليه وسلم ، فهي ارهاصـات الرسالة ، وقد جـرى على يديه وفي أحواله خوارق عادات أخرى ، أوضح وأظهر وأبين ، فالضوء الذي صـاحب ولادته ، وارتجـاس ايـوان كسرى ، وتهدم غرفاته ، وخمود نيران المجوس، والبركة التي حلت على حليمة وذريتها بقدومه ، كلها أحوال خارقة للعـادة هذا دونها في الارهاص ٠

ولكن جاء عن الحسن بن عرفة ما قد يومىء بالتعارض الظاهري ، فانه روى عن ابن عباس أنه قال : كان أبو طالب يقرب الى الصبيان صفحتهم ،فيجلسون وينتهبون ، ويكف رسـول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، فلا ينتهب معهم فلما رأى ذلك عمه عزل له طعامه على حدة ٠

وهذا قد يوهم التعارض ، وبفحص الخبرين يتبين أنه لا تعـارض ، لأن الأول يتبين منه أن الشبع وفضـول الطعام يكونان اذا كان بينهم ، وليس معنى ذلك أن ينتهب كما ينهبون ، انما معناه أن يأكل وقد عزل له طعام خاص، حتى لا يتسابق معهم في الالتهام ، اذ نفسه العفوف تأبى عليه أن يزاحم في مد الأيدي الى الطعام ، فذلك من تأديب الله تعالى له ، وما منحه من عفة وابتعاد عن الجشع في الطعام وغيره ، كما يبدو من صفحة حياته ٠

وانه يكفى أن يكون معهم في الطعام لتكون البركة ، ولعل البركة تزداد بهذا التخصيص الذي اختصـه به أبو طالب فان الله تعالى قابل ذلك التخصيص من عبده الـكريم بفيض من فيضه العميم ٠

(١) البداية والنهاية جـ ٣ ص ٢٨٢ ٠

عمله صلى الله عليه وسلم

٩٨ ـ اتجه محمد الى العمل ، وقد شب عن الطوق ، وان كان لم يبلغ سن المراهقة ، واتجه الى العمل الذي يستدعي رفقا منه ورعاية ، وفيه حنو على الضعفاء ، اتجه الى رعي الأغنام ،وهو عمل فيه ثلاث مزايا :

احداها : أن فيه سياسة لحيوان ضعيف يقتضي عطفاً ورفقاً في سياسته٠

والثانية : أنه يعاشر فيه الضعفاء من الغلمان الذين ليس فيهم استعلاء أهل الجاهلية الأولى الذين كانوا يستعلون بشرفهم ٠

والثالثة : أن فيه كسباً مادياً من عمل اليد ، وأفضل الكسب ما كان من عمل اليد ٠

وانه قد كان يرعى الغنم في بني سعد ، مع اخوته من الرضاعة أولاد حليمة ، فكان يلهو معهم بذلك الرعي في آخر أيام رضاعته ، وأولى سني حضانته ، فكان لهوه مفيدا ، وخير اللهو ما كان فيه مصلحة ، وفائدة ، وكان بلا شك ذلك النوع أجره فيه ،اذ أنه لهو ، وأجرته هو متعة اللهو الحلال المفيد ٠

وثبت أنه رعي الغنم في مكة ، وقد كان في سن شبَّ فيها عن الطوق كما أشرنا ، وقد اتجه اليه غير لاه به ،ولكنه عامل فيه ليكتسب حلالا ، ويأكل طيباً ٠

ولقد ثبت في الصحاح أنه كان يرعى الغنم في مكة على قراريط ، يأخذها من أهلها ، والقراريط ، هي حصته من اللبن فيما يظهر ، فهو يرعاها على أن يكون له حصته من لبنها يناله ،ولعله كان يتغذى بها مع أولاد أبى طالب ، أو يأكل منها ، ويتصدق فينال خيرين : خير الكفاية ، وخير الصدقة أو المودة ٠

ويظهر أن رعاية الغنم من تربية الله للنبيين ، اذ تعودهم على الرفق ، والعطف على الضعفاء ، وحسن قيادة النافر ، وتأليفه وتقريبه ، وادنائه من قطيعه ٠

ولقد قال صلى الله تعالى عليه وسلم فيما ذكره ابن اسحاق بسنده ما من نبي الا وقد رعى الغنم ، قيل وأنت يا رسول ! فقال نبي الرحمة : وأنا ٠

وقد روى في بعض الأخبار أن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم قال : « بعث موسى صلى الله تعالى عليه وهو راعي غنم ، وبعث داوود عليه السلام وهو راعي غنم ، وبعثت وأنا راعي غنم » ٠

وجاء في الروض الأنف في تعليل ذلك : « وانما جعل الله تعالى هذا في الأنبياء تقدمة لهم ليكونوا رعاة الخلق ، ولتكون أمتهم رعايا لهم ، وقد رأى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم أنه ينزع عن قليب ، وحوله غنم سود ، وغنم عفر ، قال ثم جاء أبو بكر رضي الله تعالى عنه فنزع نزعا ضعيفاً ، والله يغفر له ، ثم جاء عمر ، فاستحالت غربا يعني الدلو ، فلم أر عبقريا يفري فريه » فأولها الناس بالخلافة لأبى بكر وعمر رضي الله عنهما ، ولولا ذكر الغنم السود والعفر لبعدت الرؤيا عنهما (١) ٠

وان هذه الرؤيا الصادقة أومأت الى الرعية ، بأنها كالغنم العفر ، للاشارة الى أن الرعية يسوسهما حاكمها بالرفق والعطف ، والتوجيه من طلب الغذاء لها من غير اعنات ، ينقلها من الخير الى الخير من غير ارهاق ولا اكراه ، ولا ايذاء ، كما ينقل الراعى قطيعه من كلأ ، ومن ماء الى ماء بالترغيب والتحبيب لا بالايذاء والترهيب ٠

حماية الله تعالى للنبي صلى الله عليه وسلم :

٩٩ ــ حمى الله تعالى محمداً في نشأته ، فكفله محبوه ، فلم ترهق أعصابه ، ولم يرهق في يتمه ، فنبت نبتاً حسناً محبوبا أليفا مألوفا ، وحمى نفسه من أن تتردى في مهاوي الانحراف ٠

---

(١) الروض الأنف ص ١١٢ طبع المغرب ٠

لقد كانت طبيعة العمل الذي اختاره ، الرسول ، لأنه أسهل الأعمال اليه أن يختلط بصبيان من طبقات مختلفة أكثرهم من طبقات الفقراء والخدم والعبيد ، فأولئك الذين كانوا يؤجرون لهذا العمل الذي لا يعد من معالى الأعمال بل يعد من صغارها ، ومع أنه كان مع الخدم والعبيد والغلمان ، لم تنزل نفسه عن عزتها من غير استعلاء ، فكان يجذبه الى العلا شرف نسبه ، وطيبة محتده ، وما يراه في أسرته من سمو وعلو وسيادة ، وما يكمن في طبعه الكريم من حب لمكارم الأخلاق من غير غطرسة ، ولا كبرياء ، ولا استهانة أو استصغار للضعفاء ، ويجذبه الى التطامن والرضا بالقليل صغر العمل في ذاته من غير نظر الى ثمراته وأثره في تربية النفس على حسن المعاملة ، والرفق بالناس .

وكان الأحداث منهم خصوصا الذين انغمس ذووهم أو أولياؤهم في الشهوات يستولى على قلوبهم حب اللهو البريء وغير البريء ، ومنهم من ينزع الى الشر من بعد ، ويكون عنصر فساد في المجتمع اذا شدا وترعرع وبلغ أشده واذا كان الضعف يثير الرحمة ، ويدفع الى الحب الخالص البرىء ، فهؤلاء يدفعون الى المجون ، والمجون يهدي الى سيطرة الهوى وسيطرة الهوى تهدي الى الفساد ، والصحبة تجعل السقيم يعدي البرىء ، وقد تعدي الصحاح مبارك الجرب ، كما يقول الشاعر العربى الحكيم .

فكان أشد ما يخشى على محمد عليه السلام في صباه هو عدوى المجون ، اذ هو محبب الى نفوس الغلمان في سن المراهقة ، ومحمد عليه السلام كان مراهقا في هذه السن ، ولكنه تربية الله فجنبه ذلك ، وأبعده ، ويحكي عن نفسه عليه السلام والمجون يساوره ، فيعصمه الله تعالى ، فيقول ، وهو الصادق الأمين ما روى البخاري عنه ، أنه قال : « ما هممت بشيء من أمر الجاهلية الا مرتين » وقد ذكر ابن اسحق أن احدى المرتين كان في غنم يرعاها هو وغلام من قريش ، فقال لصاحبه اكفني أمر الغنم حتى آتي مكة، وكان بها عرس فيه لهو وزمر ، فلما دنا من الدار ليحضر ذلك ألقي عليه النوم ، فنام حتى ضربته الشمس عصمة من الله تعالى .

وفي المرة الأخرى قال لصاحبه مثل ذلك ، وألقى عليه النوم كما القى في المرة الأولى ، وترى من هذا حماية الله تعالى له من الاسترسال في الهوى ، فهو في الخطوة الأولى سد الطريق ، لا بمجاهدة نفسية ، لأن سنه لم تكن تقــوى على المجاهدة النفسية ، بل بأمر خارج عن ارادته ، وهو النوم الغامر ، وكان له نعمة ، وتوالى ذلك النوم ، حتى قويت ارادته ، وكانت له عــزيمة تمنع ، وقوة ارادة ، وبمقتضى النظام الفكري، أنه لو لم يعصمه الله تعالى بالنعاس الذى منعه ، ربما كان يسترسل في اتباع الهوى ، وبذلك تسيطر الشهوات، فكانت العصمة المانعة في أول الخطوة ،وأول الدفعة ، وانمــا الصبر عنــد الصدمة الأولى كما قال عليه السلام من بعد أن منحه الله تعالى الرسالة .

إلى التجـــارة

١٠٠ ـ اشتهرت قريش بين العرب بالتجارة ، فكان سراتها تجـاراً ، ذلك أنها لم تكن بلد زرع ، بل كانت بواد غير ذي زرع ولم يكن في العرب صناعة تكون مورداً اقتصادياً ، لأنها كانت مثابة أمن الناس بوجود البيت الحـرام ، فكان حجاج ذلك البيت يجيئون من كل فج عميق ، وكانت الأسواق تقـام في الحج ، كان فيها الاتجار ، وفيها تعقد ندوات الشعر ، والمسابقات البيانية ، فكان مع تبادل البضـــائع تروج بضاعة البيان ٠

وكان كسب أغنياء قريش من التجارة ، وأوساطهم في المال كانوا يتجرون كل على حسب طاقته ، وعلى حسب ما عنده من المال ، وكبار التجار منهـم كالعباس بن عبد المطلب ، والوليد بن المغيرة وأبي بكر كانوا يتجـــرون في الجلب من اليمن والشام ٠

وكانوا ينقلون بضائع الفرس الى الرومان عن طريق اليمن ، وبضـــائع الرومان الى الفرس عن طريق الشام ،فكانت لهـم رحلتان : احـــداهما في الصيف يذهبون فيها الى الشام يجلبون اليها بضائع الفرس ، ويحملون فيهـــا بضائع الرومان والأخرى في الشـــتاء يحملون منها بضـــائع الفرس ويحملون اليها بضائع الرومان فكانت التجـــارة الخارجية سبيل ثروة كبارهم ،والتجارة الداخلية مرتزق أوساطهم ، وأما فقراؤهم فكان مرتزقهم من النعـــم الابل والبقر والغنم ٠

ولذلك كان من مقتضى هذه الحياة التجارية أن يتجه محمد الى التجـارة ، عمل الأغنياء ومرتزق الأوساط ، وماكان من المعقول أن يستمر راعى أغنام، فانها تناسبه وهو صغير السن ، أما اذا كبر ، فانه لابد أن يتجه الى التجـارة الداخلية والخارجية ، وأن يعرف الاسواق التي يكون منها الاستيراد ، ويكون عن طريقها التصـدير ، ولابد حينئـذ من أن يسافر ، وقد ألهمه الله تعالى أن يطلب السفر مع قافلة قـــريش التي تحمل البضائع الى الشام، وتجلب منها٠

شغفه بالتجارة صلى الله عليه وسلم

١٠١ ـ عندما بلغ سن المراهقة وشب عن الطوق كان لابد أن يتجه الى مرتزق قومه وهو التجارة وكما نوهنا من قبل ، وجد القافلة وفيها كافله ، وولي نفسه ، عمه أبو طالب ، فابتغى أن يكون مع هذه القافلة ، يسير بسيرها ، ويجرب الحياة عن طريقها ،ويدرس شئون التجارة التي يمارسها كبار التجارة بمكة ويتعرف الأحوال ،ويكون على خبرة بالحياة وما يجري فيها ٠

ويظهر أن عمه كان يستصغر سنه ،ويرى أن تلك الرحلة الشاقة فوق طاقته ، فوق أنه لا منفعة له فيها ، اذليس في القافلة مال له ، حتى يتعرف حاله ٠

ولكن شدة رغبة النبي عليه السلام في السفر جعلته يستجيب لطلبه ، ولقد عبرت كتب السيرة عن رغبة محمد عليه السلام بقولها « صب به رسول الله تعالى : أي تعلق بالسفر ، وأحب الصحبة ، فرق له أبو طالب وقال لأخرجن به معي ، ولا يفارقني ،ولا أفارقه أبداً » ٠

ونقف هنا وقفة قصيرة ، لماذا كان التعلق الشديد بذلك السفر ؟ قد بينا ما فيه الجواب عن ذلك ، وهو تعرفه التجارة وشئونها معرفة عيان لا معرفة أخبار ، وأن يمهد لنفسه ممارستها ،والاتجاه اليها بدل الاقتصار على رعي الغنم

أما امتناع أبى طالب ابتداء كما يوهم القول ، فسببه الخشية عليه من وعثاء الطريق ، ولخشية الضيعة ولذا عند ما نزل على ارادته « لا يفارقني ولا أفارقه » ٠

خرج محمد صلى الله تعالى عليه وسلم مع عمه للتجارة بالشام ، فحلت القافلة بأرض مدينة بصرى ، وبصرى كانت موطناً لصوامع الرهبان ، يقيمون بها ، منصرفين الى عبادتهم ، وتعرف الانجيل والتوراة ، وما يحتويان ، فكان لهم مع الرهبنة والزهادة علم بالكتاب واشارته ، وتبشيراته ٠

إرهاص بالنبوّة في رحلته الأولى:

١٠٢ ـ قامت هذه الرحلة مشتملة على ارهاص كبير معلم بنبوة النبي صلى الله تعالى عليه وسلم وفيها اعلان عن البشارة بهذه النبوة والاعلام بأماراتها٠

ولقد كان ببصرى راهب في صومعة ، اسمه بحيرا ، وكان على علم بالكتاب ، وكان نزلاء هذه الصومعة ذوى علم بالتوراة والانجيل ، يتوارثون ذلك العلم كابراً عن كابر ٠

وكان من طبيعة بحيرا كما هو طبيعة كل الرهبان ألا يخرجوا للقاء القوافل ، ولا تعرف أحوالها ، ولا استضافة من فيها ،لأن الرهبنة تتقاضاهم العزلة وهم لا يخرجون عن سنتها ،ولا ينحرفون بأنفسهم عن أحكامها ، ويظهر أن قوافل العرب تعودت هذا وتعودوها من هذا الراهب خاصة ألا يلقاهم ، ولا يلقوه ٠

ولكنه في هذه المرة خرج من صومعته ، اذ رأى من البينات ما يتفق ما عنده من التبشير برسول يأتي من بعد عيسى اسمه أحمد ٠ فخرج من الصومعة ليلتقى بتلك القبيلة ، ويعرف من تنطبق عليه تلك الأمارات ،ويتحقق فيه التبشير ٠ ذلك أنهم نزلوا قريبا من صومعته ، ذلك أنه رأى غمامة تظلهم تسير حيث يسيرون وتقف حيث يقفون، وأنهم اذا آووا الى فيء شجرة رأى أغصانها تتهصر ، وتميل حتى تظل واحدا منهم هو رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، وجد هذه العلامات ،ويظهر أنه لم يتبين ذلك الصبي ، أو تبينه ، وأراد أن يعرف أحواله ، وبقية الأمارات الدالة على أنه المذكور في الانجيل ٠

ولذلك أراد أن يزيد تعرفه بالقوم، فاتجه الى اكرامهم ، فأقام لهم وليمة عامة لهم تشمل صغيرهم وكبيرهم ، لا يتخلف منهم أحد وأرسل اليهم يدعوهم،

وقال في رسالته لهم : « اني صنعت لكم طعاما يا معشر قريش ، فأنا أحب أن تحضروا كلكم ، كبيركم وصغيركم ،وعبيدكم وحرمكم » ٠

لم يكن العجب من الدعوة الى الطعام ، انما كان العجب من أنه ترك صومعته وخرج اليهم ، ولذا قال رجل من قريش « والله ان لك يابحيرى لشأنا اليوم ، ما كنت تصنع هذا بنا ، وقد كنا نمر بك كثيرا ، فما شأنك اليوم » :

قال بحيرا « صدقت قد كان ماتقول،ولكنكم ضيف ، وأحببت أن أكرمكم ، وأصنع لكم طعاما تأكلون منه كلكم ٠ فاجتمع القوم اليه ، ولم يتخلف الا محمد بن عبد الله رسول الله لحداثة سنه ، وبقى تحت الشجرة يرعى ابلهم ويحرسها ، فلما رآهم لم ير الصفة التي عرف بها الرسول المنتظر في كتبهم ، فذكر لهم أنه طلب ألا يتخلف أحد منهم عن طعامه ، فقالوا يا بحيرى ما تخلف أحد ينبغي له أن يأتي ، الا غلام وهو أحدثنا سناً ، فتخلف في رحالنا قال لا تفعلوا ادعوه ، فليحضر هذا الطعام » ٠

فقال رجل من قريش مع القافلة :« واللات والعزى ان كان للؤم منا أن يتخلف محمد بن عبد الله بن عبد المطلب عن طعام من بيننا » حضر محمد الوليمة ، واختصه الرجل بفضل من العناية فاحتضنه ، وأجلسه ٠

أخذ بحيرا يلحظه لحظاً شديداً ، وينظر الى الأشياء من جسده ، قد كان يجدها عنده من صفته ٠

حتى اذا فرغ القوم من طعامهم ، وتفرقوا قال له يا غلام : أسألك بحق اللات والعزى الا أخبرتنى عما أسألك،وانما قال بحيرى ذلك ، لأنه سمع قومه يحلفون بهما ٠

فقال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، وهو غلام لم يبعث : لا تسألنى باللات والعزى شيئا ، فوالله ما أبغضت شيئا قط بغضهما ٠ عدل بحيرى عن استقسامه بهما ،وقال والله الا ما أخبرتني عما أسألك عنه ، فقال عليه السلام سلني عما بدا لك ٠

جعل بحيرا يسأله عن رحلته وهيئته وأموره ، ورسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم يخبره ٠ ويقول ابن اسحق فوافق ذلك ما عند بحيرا من صفته ٠

ثم نظر الى ظهره ، فرأى خاتم النبوة بين كتفيه ، في موضعه من صفته التي عنده ·

فلما فرغ أقبل على عمه أبى طالب ،فقال ما هذا الغلام منك ، قال : ابني !! قال بحيرا ما هو بابنك ، وما ينبغى لهذا الغلام أن يكون أبوه حياً ، قال أبو طالب فانه ابن أخي · قال فما فعل أبوه · قال مات وأمه حبلى به ، قال صدقت ، ارجع بابن أخيك الى بلده ، واحذر من اليهود ، فوالله لئن رأوه ، وعرفوا منه ما عرفت ليبغنه شراً ، فانه كائن لابن أخيك شأن عظيم، فأسرع به الى بلاده ·

فخرج به عمه أبو طالب سريعاً ،حتى أقدمه مكة ، وأنجز تجارته (١)·

١٠٣ — ان هذه رواية من الروايات التي رويت في هذه الرحلة ، والتقاء بحيرا الراهب ، وليس فيما ذكره بحيرى ، ولا في أصل القصة غرابة ، لأن التبشير بالنبي صلى الله تعالى عليه وسلم ثابت عند أهل الكتاب ، وقد أشرنا الى ذلك في مقدمة كتابنا ، وليس في القصة أمر يستحيل تصديقه ، أو يتعذر تصديقه ، بل انه خبر يتفق مع ابتداء نشأة النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، واظلال الغمامة له عليه السلام ، ليس فيه غرابة أو ما يظن أنه غريب في زعم الذين يجحدون ، ومن طبيعتهم جحود ما ليس ماديا ولا محسوسا ، ولكن يرد عليهم جحودهم بأن شواهد الصدق في الخبر قائمة ، فخاتم النبوة كان أمرا ظاهرا في جسم النبي صلى الله تعالى عليه وسلم رآه الراءون ووصفه الواصفون فاذا كانوا لا يؤمنون الا بالمادي ، فهذا أمر مادي ظاهر ، وقد وجد فيه ، ولم يوجد في أحد من غيره، فكيف يمترون ، وهناك شاهد آخر بالصدق ، وهو وجود هذه الأوصاف المعروفة في التوراة والانجيل حتى بعد أن أصابها التحريف ، واذا كانوا قد نسوا حظا مما ذكروا به ، وأفسدوا الباقي ، فالبشارات تلوح معلنة وجودها ، رغم أنف الجاحدين المستكبرين ، فلا مجال لارتياب مرتاب·

بقي أن في كلام بحيرا أنه يخوف أبا طالب الكافل الكريم من اليهود ، وفي بعض الروايات أنه يخوفه من الرومان لأنه يعرضه للأذى ، والتخويف

(١) البداية والنهاية لابن كثير ، السيرة لابن هشام، الاكتفاء ·

منهما معا جائز ، وذلك لان الرومان كانت الملكانية في الطوائف المسيحية حريصة على معاداة العرب ، وكل مذهب ديني غير الملكانية ، ولذلك كانت العداوة شديدة اللدد بينهم وبين اليعقوبيين بمصر ، وكان بينهما ما بين النصارى واليهود ، بل كانوا أشد ايذاء ، وحينما قربت العقيدة بين طائفتين كانت العداوة ، أحد ، اذ كل حريص على أن يدمج الآخر فيه ٠

وأما اليهود فمع أنهم كانوا في البلاد العربية يستفتحون في يثرب على الذين كفروا بالنبي الذي آن أوانه ، كانوا يكرهون أن يكون من بني اسماعيل، لأن حسدهم يجعلهم يستكثرون أن يكون نبي من غير ذرية اسحق عليه الصلاة والسلام ٠

وخاتم النبوة الذي كان في النبي صلى الله تعالى عليه وسلم هو لحم ناتىء بين كتفي النبي صلى الله تعالى عليه وسلم في نسق ليس فيه تشويه للمنظر، قيل انه كتفاحة ، وقيل انه كرقبة العنزة ، وان كثرة التشبيهات ممن رأوه في جسم النبي ليست اختلافا في أصله ، ولكنه اختلاف في عبارة الذين رأوا ، والتشبيه من حيث حجمه ، ونظر الذى وصفه ٠ والرواية التي ذكرناها ، هي أقصر الروايات عبارات ٠

وقد روى الترمذي رواية أخرى أطول ، وقد جاء فيها أن بحيرا قال عندما أخذ بيد النبي صلى الله تعالى عليه وسلم :

« هذا سيد العالمين ، هذا رسول رب العالمين ، يبعثه الله رحمة للعالمين ٠ فقال أشياخ قريش من أين علمك ؟ قال انكم حين أشرفتم لم يبق شجر ، ولا حجر الا خر ساجداً ، ولا تسجد الا لنبي ، واني أعرفه بخاتم النبوة أسفل من غضروف كتفه ، ثم رجع فصنع لهم طعاما »(١) ٠

ابتداء بشارات النبوّة :

١٠٤ ـ عاد محمد مع عمه من تلك الرحلة التي يبدو من ثناياها أن محمداً (عليه السلام) أراد فيها أن يعرف الشام وأحواله ٠ والتجارة ، والصفق في الأسواق ، وبدت فيه تلك البشائر النبوية ، وعلم الأشياخ من قريش مكانة ذلك الصبي ، وهو المحبوب بينهم كأبيه، حتى انه لما نبههم بحيرا الى أنه لم

---

(١) الروض الأنف جـ ١ ص ١١٩ ٠

يكن بينهم ويجب أن يكون بينهـــم ، تنبهوا ، وقال قائلهم ، انه للؤم اذ لم يكن بيننا ، وناداه واحتضنه ، شعوراً بالمحبة الشديدة المخلصة ، واشعـــارا بالندم على ما كان ، رأوا هذه الحال •

وأخذ عمه أبو طالب بنصيحة الراهب ، وقفل به راجعاً مسرعاً ، خشية عليه ، مما خشي الراهب ، من أن يغتاله اليهود ، أو الرومان ، فعاد به الى قومه•

وانه في هذه الرحلة التجارية التي رغب فيها محمد صـلى الله تعالى عليـه وسلم واستجـاب له أبو طالب شفقـةورقة وملاطفة ، وهو يحسب أنهـا من رغبات الصبيان ، وأجابه محبة وتدليلا يحسب أنه لا جد فيها ، ولا غاية ولكن الصبى يظهر أنه كان يريد منها الجد ،فيريد منها الاستعداد لعمل يعتمد فيـه على نفسه ، ولا يكون كلا على عمـــه المحدود في الرزق ، فهـو يريد الكسب من عمل يده •

واذا كان اليتم لم يقهر محمداً في نفسه ، اذ أعزه الله تعالى ، وأكرمه ، ولم يمكن أحداً من قهره فكان اليتيـم العزيز المحبوب ، فان محمداً استفاد من اليتم ، الجد في طلب الرزق غير معتمد على أحـــد غير ربه ، فنـال من اليتم محاسنه ، ولم ينل اليتم منه بمساوئه •

ذلك أن الثابت أن النبي صـــلى الله تعالى عليه وسلم ابتدأ الاعتمـــاد على نفسه من بعد وقد رأينا أنه ابتدأ يرعى الغنم صبياً ، فلما تجـاوز الصبا الى المراهقة اتجه الى صناعة أشراف مكة ،وهي التجارة ولم يذكر التاريخ في أي سن ابتدأ التجارة ، ولكن الأمارات تصور لنا أنه ابتدأ في سن مبكرة •

أولا ـ لأنه رغب رغبة شديدة في أن يسافر الى قافلة التجارة ، ولا تفرض أنه طلب ذلك لمجرد متعة السفر ، فانه كان صبياً جاداً ، ولم يكن ممن يميلون الى المتع •

وثانياً ـ لأنه كـــان لا يمكنه أن يعتمد على ثراء أحد ، اذ كان كـــافله الذي كفله ، وهو أبو طالب فقيرا •

تجارته صلى الله عليه وسلم

١٠٥ ـ اتجه محمد الى التجارة منذ بلغ البلوغ الطبيعي ، وقد ثبت في المصادر التاريخية أنه زاولها مع شريك أو شركاء وقد ثبت أنه كان شريكا للسائب بن أبى السائب ، واستراح الى شركته ، ورأى فيه ما يمازج أخلاقه ، وان لم يسم اليها ، ولكنه على أى حال رأى الشريك الأمين السمح في معاملته ، فكان لا يماري الذي لا يجادل في الشراء ، ولا يخفي الخبيث من البضائع ، ويظهر الطيب مماراة في تجارته ٠

وقد التقى به النبي عليه السلام عند فتح مكة ، فرحب به ، ووفى له بحق الرفقة القديمة في الاتجار ، وتلقاه مستبشراً مرحباً ، وقال له مذكرا بماضيه ليؤنسه في حاضره : « مرحباً بأخي وشريكي ، كان لا يشاري ولا يماري » ٠

ولم يذكر في التاريخ ما كان يتجر فيه ٠ لأن كتّاب السيرة لا يعنون في حياة النبي بحياته الانسانية بمقدار عنايتهم فيما يتعلق بالرسالة، وارهاصات النبوة ، وخوارق العادة الصادقة التي أحاطت بحياته في حله وترحاله ووجهتهم في ذلك أنهم يجعلون موضع الاهتمام في دراستهم هو ما امتاز به من يدرسون حياته ، ومثلهم في ذلك أن من يكتب في حياة رجل من النبغاء يعني بجهة نبوغه ، وموضع النبوغ ، ولا يعنى بالنواحي الأخرى الا لتصوير شخصه ٠

وكذلك الأمر بالنسبة لمحمد رسول الله تعالى ، صلى الله تعالى عليه وسلم ، وله عليه السلام المثل الأعلى للانسانية كانت عناية كتاب سيرته الشريفة ، بما يتصل بالرسالة مما سبقها ولحقها ، وقليل منهم ما يكون اتجاهه الى نواحيه المتصلة به كانسان الا أن يكون لذلك اتصال بموضوع الرسالة ٠

وقد كان محمد في حياته الأولى راعياً للغنم ، أو تاجراً مثالا للأمانة والصدق ، وكان مرموقا من مكة ، وأخص ما امتاز به في حياته كلها الصدق والأمانة والوفاء بالعهد ، ولطف العشرة ، وأنه موطأ الكنف يألف ويؤلف ، يفتح قلبه لكل عمل كريم ، ولا يضن على أحد بالمعونة ان لزمت ٠

كذلك كان في كل أعماله في الحياة ، وكذلك كان في تجارته ، حتى سمي الأمين ، وصار هذا اللقب علماً له مع اسمه ، فاذا أطلقت كلمة الأمين لا تنصرف الا اليه ، اذ هي لا تطلق الا عليه ، وان كل من يعمل بأمانة ،ويقول بصدق دونه في الأمانة والصدق ، وكان لذلك في مكان يعلو به على كل من في مكة من غير استعلاء ولا استكبار ٠

ولكن ما الذى كان يتجر فيه ؟ لا زال هذا السؤال يلح علينا ما دمنا لم نذكر مادة تجارته فيما ذكرنا ، ولكن يصح أن نسد الفراغ في هذا الجزء من تاريخه ، عليه السلام فانه يتجر في البضائع التي تتبادل داخل مكة ، ولا تذهب الى خارجها ، لأنه لم يعرف أنه خرج من مكة مع قافلة التجارة الى اليمن أو الشام ، فكانت تجارته عليه السلام مع شريكه مقصورة على ذلك النطاق في داخل المدينة ، وما يفد اليها ، وقد كانت فيها أسواق تمتلىء بالتجار في موسم الحج ، وكون الحجيج يفدون من أقصى أرض العرب الى أدناها لابد أن يجعل فيها بضائع ترداليها مع الحجيج ، ويأخذ الحجيج من بضائع في مكة يعودون بها الى ديارهم ٠

واذا كانت رحلة الشتاء والصيف لقريش فيها التجارة الخارجية التي ينقلون فيها بضائع الروم الى الفرس وبضائع الفرس الى الروم ، فمكة كان فيها الاتجار في داخل البلاد العربية في موسم الحج ، ومنها بضائع الروم والفرس في البلاد العربية ، فكانت فيها الأسواق رائجة ٠

مشاركته في الأمور الجامعة

١٠٦ - لم ينقطع محمد صلى الله تعالى عليه وسلم ، عن قومه في أعمالهم الجماعية ، اذا كانت تتعلق بالتعاون على خير يقومون به ، فاذا كانوا على أمر جامع ذهب اليه ، وشارك فيه ما وسعته المشاركة ، من غير أن يرضى بباطل ، أو لا يبشر بحق ، بل كان دائما مع الحق يستبشر به ، وضد الباطل ، ينغض رأسه به ، من غير صخب ، ولا شحناء ، فما كانت الشحناء من شأنه ، ولا المباغضة من خلقه ، بل هو في كل أحواله الودود الحليم ، وصاحب النفس الطيبة وكان يحضر دار الندوة اذا انعقدت،ويستمع الى كبراء العرب،فما يرضيه من قول الحق يستشرف اليه ، ويستبشر به ، وما لا يكون حقاً ، يبدو نفوره منه ، ولا يرتضيه ·

جاء في كتاب زهر الآداب أن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم في صباه حضر ندوة قريش ، وقد حضر من اليمن كبارهم فنظر اليه قيل من أقيالهم ، ورأى فيه نظرات قوية أحيانا ، وهادئة مستبشرة أحيانا أخرى ، فقال :

مالى أرى هذا الغلام تارة ينظر اليكم بعيني لبؤة ، وأخرى بعيني عذراء خفرة ، والله لو أن نظرته الأولى كانت سهاما لانتظمت أفئدتكم ، فؤادا فؤادا، ولو أن نظرته الثانية كانت نسيما لأنشرت أمواتكم ·

لم يكن منقطعاً عن الحياة الجماعية، اذ أنه رسول الرحمة والمحبة ، وتأليف الجماعات ، فلابد أن يكون بينهم في الكريهة ، والرخاء ، لا يفترق عنهم الا اذا كان الاثم ، فانه يجانبه من غير مباغضة لأهله ، بل يهديهم الى الحق واجتناب الآثام ، فمحمد ليس من طبعه الاعتزال ، بل من طبعه الاتصال بالناس ، ليعرف مواطن الصحة ومواطن المرض ، فاعتزال الحياة والأحياء ليس من الطبع القوي ، بل هو من الضعف العصبي ، الا أن يكون لعبادة ، فانه ان اعتزل الناس استأنس بالله ، فيقدم من بعد ذلك على الناس ، وقد ادخر ·

حرب الفجار

١٠٧ ـ الفجار مصدر فاجر ،فمصدر فاعل فعالا أو مفاعلة ، كقتال أو مقاتلة ، ونقاش ومناقشة ، والفجار معناه تبادل الفجور ، أي وقع كل من المتحاربين ، وكان الفجور الذي تبادله الفريقان ، هو أنهما أقدما على القتال في الشهر الحرام ، وابتداء القتال فيه كان حراما في الجاهلية ، ولعله بقية من بقايا ابراهيم عليه السلام ،ولذلك جاء الاسلام بتحريم ابتداء القتال فيه أو السير بالقتال فيه الا لضرورة ، ولقد قال الله تعالى :

﴿ إِنَّ عِدَّةَ ٱلشُّهُورِ عِندَ ٱللَّهِ ٱثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ مِنْهَآ أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ ۚ فَلَا تَظْلِمُوا۟ فِيهِنَّ أَنفُسَكُمْ ۚ وَقَٰتِلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ كَآفَّةً كَمَا يُقَٰتِلُونَكُمْ كَآفَّةً ۚ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٣٦﴾ ﴾ (١)

والاشهر الحرم هي كما روي عن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم وهي ذو القعدة وذو الحجة ، والمحرم، ورجب الذي بين جمادى وشعبان وكان القتال فيها حراما ليكون الأمن والاطمئنان في الحج الى البيت ، والعودة منه ، وكان رجب حرم فيه القتال ، لأنه شهر عمرة ٠

وقصة هذه الحرب ، التي انتهك فيها شهر الحرام كما جاءت في كتب السيرة ، أن رجلا من بني هوازن اسمه عروة الرجال أجار عيراً للنعمان ابن المنذر فيها تجارة وطيب وحرير ،ومعنى إجارتها منع أي أحد من أن يعتدي عليها ، ويقال انها في جواره ،وتسمى هذه العير اللطيمة ٠

---

(١) التوبة ٠

فلما كانت هذه الاجارة كبر على بعض رجال كنانة أن يمنعها من كنانة ، وهو البراض بن قيس ، فقال غاضباً أتجيرها على كنانة ، فقال عروة نعم وعلى الخلق كله ٠

فسار الرجلان ، وقد غافل البراض الكناني عروة ، وقتله ، فقامت الحرب بين القبيلتين وانضمت الى كنانة ، والتقت كنانة وقريش ، مع هوازان ، واقتتلوا أربعة أيام ، حضر النبي عليه السلام رابعها ٠ وكان اليوم الذي حضره النبي صلى الله تعالى عليه وسلم هو أشدها ٠

وقد توادع الفريقان على أن يستأنف القتال بينهما من العام القادم في عكاظ ٠

فلما توافوا في الميعاد ركب عتبة بن ربيعة جمله ، ونادى :

« يا معشر مضر علام تقاتلون ، فقالت هوازن ما تدعو اليه ؟ قال الصلح ، قالوا كيف ؟ قال فدى قتلاكم (أي ندفع الدية عليها) ونرهنكم رهائن عليها ، ونعفو عن دياتنا ، قالوا ومن لنا بذلك ، قالوا ومن أنت ؟ قال أنا ابن عتبة بن ربيعة ، فدفع الصلح على ذلك ، وبعثوا اليهم أربعين رجلا ، فيهم حكيم بن حزام ، فلما رأوا الرهائن من الرجال بين أيديهم عفوا عن دياتهم ، وانقضت حرب الفجار بصلح كريم » ٠

١٠٨ ـ وهنا نسأل ماذا كانت سن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم في هذه الحرب ؟ وماذا كان عمله فيها ؟ وما الذي حمله على الذهاب اليها :

أما من ناحية سنه ، فنقول : ان ابن هشام يقول في سيرته : « ان سنه كانت بين الرابعة عشرة ، والخامسة عشرة ، ويقول ابن اسحاق : انه كان في العشرين من عمره الكريم ٠

ولا تجد لاحدى الروايتين ترجيحا على الأخرى ، الا أن يكون سند ابن اسحق أقوى ، فلقد قال الشافعي رضي الله عنه « الناس في السيرة عيال على ابن اسحق » ولعله يكون مما يقوي خبر ابن هشام من السيرة أن أعمام النبي صلى الله تعالى عليه وسلم أخذوه في هذا اليوم ، فهذا يدل على أنه لا يزال حدثاً ، ومن بلغ العشرين يكون رجلا ٠

ومهما يكن فاننا نرى أنه كان ابن عشرين ، كما يدل على ذلك ما يجيء في حلف الفضول ٠

ومع أنه بلغ العشرين لم يقدم على القتال ، لأنها ليست حرباً عادلة ، وفطرة محمد السليمة ما كانت لتسمح له بأن يقاتل في حرب فاجرة انتهكت فيها الحرمات من الجانبين : فكلاهما آثم ، فكيف يشترك الطاهر المطهر الذي رباه الله تعالى على عينه ، في حرب خالطها الاثم في سببها وفي زمانها ، وفي وقائعها ؟

لم يكن للنبي في هذه الحرب الا أنه شهدها بعد أن حمي وطيسها ، وكان ذلك بسبب أعمامه الذين اشتركوا فيها ، ولعله كان يود مشاهدتها ، لأن له قلباً طاهراً ، لا يسكن والناس في كرب ، فكان يشاهد ، وان لم يقم بعمل فيه حرب ، ولقد قال عليه السلام في عمله الدافع للأذى ، وليس فيه أحداث: « كنت أنبل على أعمامي ، أي أمنع النبل عن أعمامي ، فهو كان درعا واقية لأعمامه ، فلم يغمس يده في حرب الا أن يكون واقياً لذوي رحمه كالئيه الذين رعوه حق الرعاية ٠

ومهما يكن الأمر في شهوده تلك الحرب الآثمة ، حتى في نظر الذين أشعلوها ، فقد كان من النظّارة ، ولم يشترك الا أن يكون وقاية لذوي رحمه٠

حلف الفضول

١٠٩ ــ عاش النبي صلى الله تعالى عليه وسلم في مطلع حياته مع قومه يشاركهم وجدانهم اذ كان يتجه الى الخير ، ويتجنب الشر ولا ينغمس فيه، فهو يفعل ما يتفق مع الفطرة المستقيمة التي فطره الله تعالى عليها ، والمنهاج القويم الذي هداه الله تعالى اليه ، وأدبه بأدبه ·

ومن ذلك حلف الفضول الذي قال فيه ابن كثير انه كان أكرم حلف وأشرفه في العرب ·

وقد كان ذلك الحلف ، والنبي عليه السلام قد بلغ العشرين ، وقد أجمع الرواة على ذلك ، وقالوا انه كان بعد حرب الفجار كان حلف الفضول في شهر ذي القعدة ، وكان الفجار قبله بأربعة أشهر ، أي أن الفجار كان في شهر رجب وهو من الأشهر الحرم ، ولم يذكروا أن حرب الفجار كان ، والحج قائم ، وشهر رجب ليس من أشهر الحج ، وان كان من الأشهر الحرم ·

وقالوا ان سببه أن رجلا من زبيدة قدم مكة ببضاعة ، فاشتراها منه العاص بن وائل ، فحبس عنه حقه ، فاستعدى عليه بني عبد الدار ، ومخزوما وجمحا ، وغيرهم ، فلما رأى الرجل أن حقه ضائع ، وبدا القعود فيمن استعان بهم علا جبل أبي قبيس عند طلوع الشمس ، وقريش في أنديتهم حول الكعبة فنادى بأعلى صوته منشدا ·

يا آل فهر لمظلوم بضاعته ببطن مكة نائي الدار والنفر
ومحرم أشعث لم يقض عمرته يا للرجال ، وبين الحجر والحجر
ان الحرام لمن تمت كرامته ولا حرام لثوب الفاجر الغدر

فالرجل يثير فيهم الحمية بذكر الظلم الواقع عليه ، وأنه واقع ببطن أرض الله ، وبجوار البيت المقدس الذي لا تخطف فيه الأموال ولا تضيع الحقوق، وأن الظلم بين الحجر ، وبين الحجر الاسود الذى يقدسونه ، ويشير الى أنه محرم للعمرة ·

كان أول من استجاب لنداء الله ، وتقدم لاغاثته بنو عبد المطلب ، فقام في ذلك الزبير بن عبد المطلب ، وقال‌ما لهذا مترك ، أي لا يصح أن يترك •

اجتمعت لهذا بطون بنى هاشم ، وزهرة ، وتيم بن مرة في دار عبد الله ابن جدعان ، وكان جوادا ، فصنع لهم‌طعاما ، وكان ذلك في ذي القعدة الشهر الحرام •

تعاقدوا وتحالفوا ليكونن على الظالم ، حتى يؤدى اليه حقه ، ما بل بحر صوفة وما رسا حراء وثبير مكانهما وعلى‌التأسي في المعاش ، فسمت قريش ذلك الحلف حلف الفضول (١) •

وقد نفذ ذلك الحلف فور انعقاده ،فقد مشى المتعاهدون الى العاص بن وائل فانتزعوا من سلعة الزبيدى فدفعوها اليه ، وقد قال الزبير بن عبد المطلب معتزا به :

ان الفضول تعاقدوا وتحالفوا ألا يقيم ببطن مكة ظالم
أمر عليه تعاقدوا وتوافقوا فالجار والمعتر فيهم سالم

ولقد سر النبي عليه السلام لشهوده ذلك الحلف ، وأعلن أنه ينفذه في الاسلام : « لقد شهدت في دار عبد الله بن جدعان حلفا ولو دعي به في الاسلام لأجبت ، تحالفوا على أن يردوا الفضول‌الى أهلها » •

وروي أنه عليه السلام قال : «ولقدشهدت في دار عبد الله بن جدعان حلفا ما أحب أن لي به حمر النعم ،ولو دعي به في الاسلام لأجبت » •

ولقد نفذ الحلف قبل بعثة النبي‌صلى الله تعالى عليه وسلم ، فيروى أن رجلا من خثعم قدم حاجا أو معتمرا ومعه ابنته من أوضأ الناس جمالا ، فأخذها عنوة منه نبيه بن الحجاج وغيبها ، فقال الخثعمي : من يعديني

---

(١) قيل انما سمى حلف الفضول لانه أشبه حلفاتحالفته،جرهم على مثل هذا من نصر المظلوم على ظلمه وكان الداعى اليه ثلاثة من أشرافهم اسم كل‌واحد منهم فضل وهم فضل بن فضاله والفضل بن الحارث والفضل بن وداعه ذكره ابن قتيبة،وقيل سمّي حلف الفضول لان أصحابه دخلوا فى فضل من الامر التزموا به وقيل ان الفضول معناها‌الحقوق وتحالفوا على ردها •

على هذا الرجل ، فقيل له عليك بحلف الفضول ، فوقف عند الكعبة ، ونادى يا آل حلف الفضول ، فاذا هم يفيضون اليه من كل جانب ، وقد انتضوا أسيافهم يقولون جاءك الغوث ، مالك ،فقال ان نبيها ظلمنى في بنتي ، وانتزعها مني قسرا ، فساروا معه ،حتى وقفوا على باب داره فخرج اليهم ، وما زالوا به حتى عادت الفتاة الى أبيها ٠

وان ذلك الحلف كان لازما ، لأن مكة كانت بلد العرب ، وثمرات العرب تجيء اليها ، فلا بد أن يستقر فيها الأمن ، ويكون بلد الاطمئنان والمحافظة على الحقوق ، ولا يكون فيها اعتداء حتى يجيء الناس اليها ٠

ولأنها يحج اليها الناس من كل فج عميق ، فلا بد أن يتعاون أهلها على جعلها مكانا تقدس فيه الحقوق كما يقدس البيت ، ولأنها أرض البيت الذى جعله الله تعالى مثابة للناس ، فلا يكون الأمن للأرواح فقط ، بل يكون للأرواح ، وللأموال ، ولكل ما يحتاج اليه اطمئنان النفس ٠

زواجه صلى الله عليه وسلم

١١٠ – بلغ محمد سن الزواج ،ولكنه لم يتزوج في سن مبكرة ، كغيره من الشباب ، بل استمر لا يتجه الى الزواج أو لا يفكر فيه ، حتى بلغ الخامسة والعشرين ، كما سنبين ·

ولماذا لم يعرف أنه فكر في الزواج من قبل هذه السن،لقد كان عفا كريما، لم يقع منه في طفولته ما يشين الكرام وقد عصمه الله تعالى يوم هم ، وهو طفل أن يلهو بالوقوف عند عرس لا يغشى حراما ، ولكن ربما يرى فيه حراما ، فصانه الله تعالى بأن ضربه بالنوم ، فنام الليلة كلها ، حتى أيقظته الشمس في ضحاها ·

وهو ليس حصورا ، كما دلت على ذلك حياته من بعد ، وما كان خاملا في قومه ، بل هو الذي اذا خطب لا تردخطبته ، وكان فيه خلق قويم يجعل القلوب تهفو اليه ، وفيه جمال يجعل الأنظار تتعلق به ، وتشرئب الأعناق اليه ، وقريش كلها يحبه · ويرضاه صهرا ·

أكان فقيرا لا يجد ما يبوء به على أهله ؟ نعم انه لم يكن غنياً ، ولكنه تعود منذ نعومة أظفاره أن يكون عاملا، فرعى الغنم ، ثم اتجر ، واذا كان الاتجار لم يأته بمال موفور يرفعه الى الثراء ، فقد كان فيه الاكتفاء ، فلماذا اذن تأخر في الزواج ·

ان الذي نلمسه من تاريخ حياته في ابتدائها ، حتى صار شابا ممتلىء الشباب أنه ما كان يعير شهوات البدن اهتماما فليس للنساء موضع في تفكيره ، انما يشغل النساء والطعام ،القلب الفارغ ، وما كان محمد في أي دور من أدوار حياته مما يشغل قلبه لذات الجسم ، وشهوات النفس ، لا عن ضعف في النفس ، ولكن عن قوة فيها ،وهمة عالية تتجه الى معالي الأمور ،

وعزيمة صادقة ، وارادة قوية ، لاتجعل للهوى سلطانا عليها ، بل تجعل كل العواطف تحت سلطانها ، والغايات العليا ، هي التي تجذبها ، فلا تجذبه امرأة مهما يكن فيها من جمال ، ولاتستولي على نفسه غاية يتغياها تتعلق بالبدن ، ولا مطلب من مطالب الجسد ،وان لم يتجه الى الحرمان في ذاته ·

وكأنه لا يعيش الا في حياة روحية من غير حرمان ، فليست نفسه مثقلة بهموم الجسد ، وان شئت تقول انه الملك المريد المكلف الذي لا يعصى الله ، لأنه يريد ألا يعصي ، فهو لا يعصي لامتناع المعصية عليه بل لأنه يكف النفس عنها ، فله في الكف فضل ،وليس كالملك يمتنع عليه العصيان ·

خديجة تشرف بسيد الخلق:

١١١ ـ لم يعرف أن محمداً يتكلم في صغره ، ولا في باكورة شبابه في أمر الزواج الا بعد أن نُبّه اليه ، وصار مطلوباً ، ولم يكن طالباً · ولنذكر الأخبار كما جاءت في كتب السيرة فيما يتعلق بزواجه من سيدة قريش ، كيف ابتدأت بالمشاركة في التجارة ،ثم بالمشاركة في الحياة ، اشتهر محمد صلى الله تعالى عليه بالأمانة والخلق الكريم ، وتحدثت بأمانته الجماعات المكية في سمَرها وفي مجالسها ، وكان قد مارس التجارة في دائرة محدودة في داخل مكة على قدر طاقته ، وما يملك ،وانه لقليل ·

وكان لخديجة مال كثير ، حتى ان عِيرها الذى يحمل بضائعها ، كان يعادل عِير قريش كلها في حجمه ، ونفاسة ما اشتمل عليه من بضائع التجار ·

وكانت حكيمة شريفة في قومها ،تحتفظ بجمال ، وشباب ، وكانت أرملةً : زوجا لرجلين قد ماتا ، وما كانت تتولى تجارتها بنفسها ، لأن ذلك لم يكن شأنا من شئون النساء ، بل السفرُ والترحال للاتجار كان من شئون الرجال ، لصعوبة السفر في هذا الإبّان ، وكما وصف السفر عبد الله بن عباس لولا الأثر لقلت ان العذاب قطعة من السفر، وليس هو قطعة من العذاب ·

كانت خديجة مع قوة شخصيتها لهذه الاعتبارات لا تذهب بتجارتها الى الشام ، وكانت تسلك احدى طريقتين ـ احداهما ـ أن تؤجر ناسا يكونون وكلاء عنها في التجارة على أجر معلوم تعطيهم اياه ، على مقدار ما يبذلون من

جهد في الرحلة ، يبيعون ويشترون باسمها،ولا شأن لهم في كسب التجارة، وانما لهم أجر معلوم يأخذونه كسدت التجارة أو ربحت ، وأجرهم مقدر بالأمن أو بالعمل أو بهما معا .

الثانية : طريقة المضاربة الشرعية، وذلك بأن يتجروا في المال بعقد بينها وبينهم على أن يكون الربح بينها وبينهم ، مقسوما بحصص شائعة كالربع أو الثمن أو السدس ، أو نحو ذلك ،وملكيتها قائمة ، واذا خسرت التجارة تكون الخسارة عليها وحدها ، لأن المال باق على ملكيتها ، وسمى هذا العقد المضاربة أو القراض .

ولا شك أن الطريقتين كانتا تحتاجان الى أمانة كاملة ، فكانت تتحرى في أولئك العاملين لها الأمانةَ ، لأنهم في عملهم ينوبون عنها ، لا تلقاهم الا في ذهابهم ومجيئهم ، وكانت مع ذلك ترسل من قِبَلها من يكون معهم كميسرة مولاها .

ولما كان محمد يعمل في تجارة محدودة، وقد بلغها أمانته، وشرفه ، وعفته واستقامة نفسه اتجهت اليه ، وكان هوفي مطارح أنظارها ، والظاهر أنه بمجرد أن خطر على خاطرها ، لم ترض غيره بديلا ، لأنه لم يكن له نظير بين العرب، في أمانته وعفته وشرف نفسه، وخلقه الكريم ، وبعده عن التدلي الى مهوى الرذيلة .

تجارة محمّد في مال خديجة

١١٢ ــ بينما هي تفكر في اختياره وكيلا عنها في رحلة القافلة التي تحمل عِيرها مع غيرها كان أبو طالب عم النبي عليه السلام يفكر في أن يَعْرض محمدا عليها للعمل في تجارتها وكيلا ، ليُبعد عن محمد جُهْدَ السنين الشديدة التي كانت في الأُسْرة .

ويظهر أنها كانت تبحث عمن تراه كفئا لحمل العبء ، ويتهافت عليها الطالبون ، فأشار أبو طالب على محمد القوي الأمين ، بأن يعرض نفسه مسارعا الى ذلك خشية أن يسبقه غيره، ولكن محمداً يرى في العرض ذلة لا يرضاها الكريم ، ومثار اتهام لا يرضاه الأمين ، فهو يريد عزة المطلوب ، لا ذلة الطالب ، ولننقل للقارىء الكريم المجاوبة التي كانت بين العم وابن الأخ:

قال أبو طالب : يابن أخى أنا رجل لا مال لي ، وقد اشتد الزمان علينا ، وألحت علينا سنون منكرة ، وليس لنا مادة ولا تجارة ، وهذه عير قومك قد حضر خروجها الى الشام ، وخديجة بنت خويلد تبعث رجالا من قومك ، يتجرون في مالها ، ويصيبون منافع ، فلو جئتها لفضلتك على غيرك ، لما يبلغها عنك من طهارتك ، وان كنت أكره أن تأتي الى الشام ، وأخاف عليك من يهود ، ولكن لا نجد بدأ من ذلك ٠

فيقول محمد الأمين لعلها ترسل اليّ في ذلك ٠

فقال أبو طالب أخاف أن تولي غيرك (١) ٠

ونرى من تلك المناقشة كيف لا يعرض شرفه وأمانته ، وتكونان محل قبول أو رفض ، لأن الأمين حقا وصدقا ــ لا يجعل الأمانة ولا الشرف متجرا يتجر به ، ولكن الشرف في ذاته مطلوب ، والأمانة سجية ، لا يتخذها سبيلا للكسب ، وليس هو غايتها ، لا تطلب الا له ، ولكن تكون ثمرة طيبة ، كما تثمر الأرض الطيبة ، والشجرة اليانعة ٠

قيل انها بلغتها هذه المحاورة بين العم وابن الأخ ، فطلبته ، وانها كانت تعرف صدقه وأمانته وكرم أخلاقه ٠ وأنها ما كانت تعلم أنه يريد هذا ٠

وعندى أنها كانت تفكر فيه ، وأن رغبتها تلاقت مع رغبة عمه سواء أعَلِمت بالمحاورة أم لم تعلم ، واذا أراد الله تعالى أمرا تهيأت أسبابه ، وكان التوفيق بنجاحه ٠

أرسلت خديجة الى محمد تطلبه ، وقالت له :

« دعاني الى البعثة اليك ما بلغني من صدق حديثك ، وعظم أمانتك ، وكرم أخلاقك ، وأنا أعطيك ضعف ما أعطي رجلا من قومك » ٠

اننا نلمح من ثنايا السطور أنها كانت راغبة في أن تعهد اليه بتجارتها من ذات نفسها ، وأنها لرغبتها أعطته ضعف ما كانت تعطي غيره ، ولماذا ضاعفت الأجر ؟ الجواب عن ذلك أنها وقع في نفسها أن التجارة ستكون

---

(١) المناقشة فى شرح المواهب اللدنية ٠

رابحة بفضل الأمانة ، ولتشجعه على الحرص ، وربما تكون رغبةٌ خفية ، جعلتها تعامله بما لم تعامل به غيره ،وأخفت مالا تبديه مما جرى من خير بعد ذلك ٠

ولقد سارع محمد عليه السلام ، الى عمه الحبيب يخبره بما جرى ، لأنه طلبته ، فسر عمه ، وقال له « ان هذارزق ساقه الله تعالى اليك » ٠

بحيرا يصف رسول الله صلى الله عليه وسلم :

١١٣ ـ فصلت العير ، وفيها خير خلق الله تعالى ، تكلؤها عنايته سبحانه وتعالى ، ولم تكن سفراً قاصداً بل كان فيها مشقة ، وان لم يكن فيها عَنَت فوق الطاقة ، وكانت عير خديجة وحدها ،تبلغ عير قريش كما أشرنا حتى بلغت سوق بصرى التي بلغتها القافلة الاولى التي كان فيها محمد (عليه السلام) مع عمه أبي طالب ، وهو في الثانية عشرة من عمره ٠

وروى أنه وصل الى سوق « حباشة » وهى أرض بتهامة ، ولكن الرواية الأولى هي المشهورة وهي أقرب الى التصديق ، أو هي الصادقة ، لأن تهامة من أرض العرب ، والرحلة كانت الى الشام ، اذ كانت العير حاملة البضائع الى الشام ، لا الى العرب ٠

وكان معه ميسرة مولى خديجة ، لاليرقبه ، فما كان يتصور منها ذلك بالنسبة للنبي عليه السلام ، ولكن ليخدمه وليعينه في حله وترحاله ٠

وكان خروج العير أو وصولها لأربع عشرة بقيت من ذى الحجة (١) ، وله عليه السلام خمس وعشرون سنة ٠

وكأن هذه العير خرجت بعد قيام الأسواق التي تقام في مكة أيام الحج : عكاظ ، وذي المجاز ، ومجنة ، وهذا يومىء الى أنها حملت من بضائع هذه الأسواق التى تجىء من اليمن ، وسائر نواحي العرب ، قاصيها ودانيها ، وذهبت الى الشام محملة بها ، وكانت البضائع تباع في مكة ، لتنقل من بعد الى الشام ، أو الى اليمن ٠

---

(١) المواهب اللدنية للقسطلانى وشرحها جـ ١ص ١٩٨ ٠

ولما وصلت العير الى بصرى كان السير قد بلغ منه الجهد، فآوى الى شجرة قريبة من صومعة راهب هو نسطورا ، وهو غير راهب الرحلة التي كانت مع عمه ، اذ الأول اسمه بحيرا ، وهذا اسمه نسطورا وقد مضى على الأولى نحو ثلاث عشرة سنة ربما يكون الأول قدمات ، أو غير صومعته ·

التقى الراهب بميسرة غلام خديجة، والذى كان في معونة محمد عليه السلام وخدمته ، وقال له : من هذا الرجل الذي نزل تحت هذه الشجرة ؟ قال هذا رجل من قريش من أهل الحرم، قال الراهب ما نزل تحت هذه الشجرة الا نبي ، وكأن هذه الشجرة منذ القدم هي منزل الأنبياء ينزلون في ظلها وغيرهم ينصرفون ، ولا يلوون عليها · وقد استبعد بعض كتاب السيرة هذا المعنى ، لبعد العهد بين محمد عليه السلام ، وعيسى عليه السلام ، والشجرة في نظر هؤلاء المستبعِدين لا تعمر في العادة هذا العمر الطويل ، وليس من المعقول أن تخلو شجرة من أن ينزل فيها السيارة في الطريق الطويل وفيه الظل والحَرور ، اللهم الا أن يقال ان هذه خصوصية للأنبياء ، ينصرف عن الايواء اليها غيرهم، ويجيء اليها النبيون كأنهم مأمورون بالايواء » ·

ولهذا الاستبعاد فسر الأكثرون كلام الراهب بأنه ما نزل الآن في هذه الساعة تحت هذه الشجرة الا نبي فهو يخص محمدا بوصف النبوة باعتبار أنه هو الذي نزل الآن ، لأمارات عنده ·

وربما نميل الى ذلك التفسير ، لأنه لا دليل على تخصيص الأنبياء بشجر أو منزل أو نحو ذلك ، وانما التخصص في الاكرام الشخصي · والأمارات الظاهرة فيه (١) ·

وقد قيل في هذه الرحلة انه كان كلما اشتد الحر ، كان يرى ميسرة ملكين يظلانه من الشمس ، وبعيره يحمله ·

وليس لنا أن ننفى ذلك الخارق للعادة اذا روى بسند صحيح ، لا مجال للريب فيه ، ولكن في رواية ذلك كلام ·

---

(١) يروى أن الراهب لما رآه دنا اليه وقبل راسه وقدميه، وقال له :آمنت بك وأشهد أنك الذى ذكره الله تعالى فى التوراة، فلما رأى الخاتم قبله ، وقال أشهد أنك رسول الله تعالى النبى الأمى الذى بشر بك عيسى الى آخر ما قال، ويروى أنه فى أثناء تجارته اختلف على بعض معامليه، فقال الرجل احلف باللات والعزى، فقال ما حلفت بهما، قال القول قولك ·

أقام محمد عليه السلام في الشام حتى باع أحمال العير الخاص بخديجة ، ثم بثمن ما باع اشترى بضائع من الشام ، وقفل راجعاً بها الى مكة ·

والربح يتعرف بمقدار الثمن الذى تبيع به لينقله التجار في قافلة تذهب الى اليمن ، وقد باع كل البضائع التي اشتراها في مكة ، فكان الثمن ضعف رأس المال الذى كانت المتاجر التي ذهب بها محمد (عليه السلام) فكأن الكسب كان مثل رأس المال ·

وان ذلك بفضل أمانة محمد عليه السلام ، وحرصه في التجارة ، وبفضل ماهو أعظم من ذلك وهو البركة التي فاضت على محمد (عليه السلام) فيما يعمل ·

الإملاك :

١١٤ ـ ان ميسرة مولى السيدة خديجة أخبرها بما رأى من طيب نفسه ، ومن لطف عشرته ، ومن حسن معاملته ومن سماحته · ومن أنه موطأ الكنف يألف ، ويؤلف ، مع شرف محتده ، ومكارم أخلاقه العامة والخاصة ، ولعله أخبرها أيضا بما كان من لقاء الراهب به ، ومن اكرام الله تعالى في الحر ، وما حسِبه ملكين يظلانه في الحرور اذا اشتد ، وغير ذلك من ارهاصات ·

ثم ما كانت ترى من مكانة له في قريش ، ومحبة غامرة له من كل من يلقاه ، فهو المحبوب المألوف ·

كل هذا أوجد فيها طموحا لأن تكون زوجا له ، وأن تكون أما لأطهر الاولاد من أطهر الرجال ، ورغبت في ذلك أشد الرغبة ، وهي التي بعد هلاك زوجيها الأولين اللذين كانت لها منهما الولد ـ كثر طلاب يدها من أشراف مكة ، ولكنها العَزوف العَيوف التي ردت كل طلب مع كثرة من طلب ، وعلو أقدارهم المادية في نظر الناس ، والنَسَبية في نظر ذوي الأنساب ·

ولكنها وجدت في الشاب الهاشمي محمد (عليه السلام) ما ليس في الرجال شيبا وشبانا ـ فرغبت في الإملاك منه في غير عشق ولا هيام ، ولا رعونة وطيش ، ولكن في ارادة مقدرة ، وتفكير في الماضى والحاضر والقابل ، فقد علت خديجة عن حال العشاق ، ولم يكن سنها ، ولا شرفها ،

ولا مكانتها في قريش لتسمح أن يغريها من الصفات ما يغــرى الغريرات من النساء ٠

ولكن محمداً (عليه السلام) هـل طمع في الزواج منها أو من غيرها ؟ أو هل حدثته نفسه بمعنى من المعانى ،أو هاجسة من هذه الهواجس ؟ انه لم يثبت شيء من ذلك ، لأن محمداً (عليه السلام) ما خلب كبده أمر من أمور اللذائذ والشهوات وما يتصــل بها ،ولــكنه اذا نبه يتنبــه ، فكان لابد من منبه ٠

١١٥ ـ أدركت بفطنتها وغريزتهاأنه لابد من أن ينبه ، فتولت هي ذلك الأمر ، وللنساء فيه قدرة ، وان كانت من مثل خديجة فيه مواجهة واحتشــام من غير اسفاف ٠

أرسلت نفيسة بنت منية لتنبه محمداً (عليه السلام) ولتجس نبضه ، وقد فعلت ، ولنترك الكلمة لها :

قالت كانت خــديجة امرأة حازمة جلدة شريفة مع ما أراد الله بهــا من الــكرامة والخير ، وهي أوسط قريش نسباً ٠ وأعظمهم شرفا ، وأكثرهــم مالا ، وكل قومها كان حريصاً على نكاحهـــا ، لو قدر على ذلك ، طلبوها ، وبذلوا لها الأمـــوال ٠٠ فأرسلتنى دسيسا الى محمد (صلى الله تعالى عليــه وسلم) بعد أن رجع في عــيرها من الشام ، فقلت يا محمد (عليه السلام) ما يمنعك أن تتزوج ٠٠ قال : « ما بيدى ما أتزوج به ، قلت : فان كفيت ذلك ودعيت الى المـــال والجمـــال والشرف والكفاءة ، ألا تجيب ٠ قال فمن هي ؟ قلت خديجــة قال وكيف لي بذلك ،فذهبت فأخبرتها فأرسلت اليه أن ائت لساعة كذا » ذهب محمد (عليه السلام) للقائها ، فواجهت الأمر ، وخاطبته بعد أن استوثقت من أنه لا يردها ، فقــالت« يا بن عم انى قد رغبت فيك لقرابتك وسطتك (١) فى قــومك ، وأمانتك ،وحسن خلقك ، وصدق حديثك » وعند هذا العرض الكريم أعلن القبول ، وان لم يكن ذلك القبول في عقــد ، بــل هو خِطبة ٠

---

(١) اى بوسطك ، وكونك من أوسط قدرك اى أعلاهم نسبا ٠

والسيدة الكريمة الحازمة لم تترك الأمر بينهما، بل لابد من تلاقي الأسرتين بعد ، وتلاقي الارادتين ، وتوافق الرغبتين • لأن الزواج اتصال أسرتين ، لا مجرد اتصال فردين •

ولذا قالت لمحمد (عليه السلام) اذهب الى عمك ، فقل له : « عجل الينا بالغداة » •

جاء اليها أبو طالب ، فقالت له يا أبا طالب اذهب الى عمي ، فقل له يزوجني من ابن أخيك ، فوافق أبو طالب على أصل الزواج ، وعلى أن يقوم من جانبه ، وقال : « هذا صنع الله » •

١١٦ ــ تمت الخِطبة ، وتراضت الأسرة ، وكان يوم الزواج ، وكان الصداق اثنتى عشرة أوقية من ذهب ونصف أوقية •

اجتمع رؤساء مضر ، وكبراء مكة وأشرافها لاتمام العقد ، وكان وكيل الزوج عمها ، وأبو طالب كان المتكلم باسم محمد (عليه السلام) وقف أبو طالب خطيباً ، وقال :

الحمد لله الذى جعلنا من ذرية ابراهيم ، وزرع اسماعيل ، وضئضىء معد (١) وعنصر مضر ، وجعلنا حضنة بيته ، وسواس حرمه ، وجعل لنا بيتا محجوجا ، وحرما آمنا ، وجعلنا الحكام على الناس ، ثم ان ابن أخى هذا محمد ابن عبد الله (صلى الله عليه وسلم) لا يوزن برجل الا رجح به ، وان كان في المال قُلّ فان المال ظل زائل ، وأمر حائل ، ومحمد (صلى الله عليه وسلم) من قد عرفتم قرابته ، وقد خطب خديجة بنت خويلد ، وقد بذل لها من الصداق ما آجله وعاجله اثنتا عشرة أوقية ذهبا ونشا (٢) وهو والله بعد هذا له نبأ عظيم ، وخطر جليل ، وقد وقف بعد ذلك ورقة بن نوفل ، ويظهر أنه كان له ما يسوغ أن يعقد (٣) ، من قِبَلها وخطب قائلا فقال :

الحمد لله الذي جعلنا كما ذكرت ، وفضلنا على ما عددت ، فنحن سادة العرب وقادتها ، وأنتم أهل ذلك كله لا تنكر العشيرة فضلكم ، ولا يرد أحد من الناس

---

(١) ضئضىء معناها أصل •
(٢) نشا أى نصف أوقية •
(٣) كان ابن عمها •

قُلّ : قلة

فخركم ، ولا شرفكم ، وقد رغبنا في الاتصـــال بحبلكم ، وشرفكم، فاشهدوا يا معاشر قريش بأني قد زوجت خديجة بنت خويلد من محمد بن عبد الله (صلى الله عليه وسلم) .

ولكن أبا طالب أراد أن يتكلم عمها بالقبول ، لأنه أقـرب اليها من ورقـة فقال : « قد أحببت أن يشركك عمهـا ، فقال عمها : اشهدوا على يا معـــاشر قريش أني قد أنكحت محمد بن عبد الله (صلى الله عليه وسلم) خـــديجة بنت خويلد ، وشهد على ذلك صناديد قريش» ومن هـــذا كله يتبين أن الذي تـولى تزويجها عمها عمرو بن أسد ، وشركه ابن عمها ورقة بن نوفل (١) .

والمشهور بين العلماء وأصحاب السير والتاريخ أن سنه عليه السلام في وقت الزواج كانت خمسـاً وعشرين سنة ، وكانت هي في الأربعين من عمرها .

ولقد كانت أقوال أخرى في سنهما عند الزواج ، ولم يبلغ واحـد منهـا مرتبة الشهرة ، فقيل ان سنه عليـــه السلام كانت الحادية والعشرين ، وقيل كانت التاسعة والعشرين ، وقيل كانت الثلاثين، وقال ابن جريح كانت السابعة والثلاثين .

---

(١) ننبه هنا الى أمرين – أولهما – أننا اعتمدنا في تقدير المهر على ما جاء فى خطبة أبى طالب ، وجاء فى بعض كتب السيرة أنه أمهـــرها عشرين بَكْرًا ، اى انه ذكر أن المهر كان بالنوق ، وقد جمعوا بين التقديرين بأن الثانى كان قـــد زاده النبى عليه السلام ، لان الكرام يزيدون على ما هو مفروض ، وقد يقال ان المذكور من الذهب هو تقدير القيمة .

الامر الثانى – أن المشهور المعروف أن الذى زوجها هو عمها عمرو ، وهو المشهور ، وقيل أخوها عمرو بن خورلد ، والاول هو الذى عليه المعول ، ولا التفات لغيره .

وما ذكره ابن اسحاق من أن الذى زوجها أبوها خويلد غير صحيح ، لان خويلدا قد مات قبل حرب الفجار ، وذلك ثابت مشهور ، ولان الخبر بان الذى يقول أن الذى زوجها هو أبوها، تضمن ما يدل على كذبه ، فقد قال رواته أن أباها كان سكران من الخمر ، ركله وهو سكران ، فألقت عليه حلة وضمخته بالطيب فلما استفلق ، قال ما هذه الحلة والطيب ، فقالت قد انكحت منى محمدا ، فانكر ثم لما راى النبى صلى الله عليـــه وسلم وافق .

وان احتمال أن يعقد رجل من أشراف العرب عقد زواج وهو سكران يستنكره العـــرف والعقل ، ولا يمكن أن يقدم عليه أبو طالب ، وهو كبير ومسن ، ووكيل النبى صلى الله عليـــه وسلم فى الزواج .

وهذه أقوال ليس لها سند ، والمشهور هو المعتمد ، حتى يقوم الدليل على خلافه ، وذلك فوق أن بعضها لا يتلاقى مع النسق التاريخي ، ذلك أن المتفق عليه أن الزواج لم يكن فور حرب الفجار ، بل كان بعده بمدة ، ولو كان في الحادية والعشرين ، لكان فوره ، والتقدير بالسابعة والثلاثين بعيد التصديق اذ مؤداه أن محمداً عليه السلام عاش راهباً الى أن بلغ السابعة والثلاثين ، وان بناته غير فاطمة تزوجن قبل الهجرة ، وبعضهن تزوجت وطلقت، ثم تزوجت، ولو كان زواجه في السابعة والثلاثين ما كن بلغن سن الزواج قبل الهجرة ، وخصوصاً أنه ما كان أول أولاده من أم المؤمنين خديجة أنثى ، بل ولده القاسم الذى كان يكنى به ثم ابنه الطيب ثم الطاهر، وهكذا ، نرى أن السياق التاريخي لا يتسق الا مع المشهور ، وهو ذو السند ، ولا سند لغيره ·

وأما سنها ، فقد كان المشهور أربعين ، وقيل كانت في الخامسة والثلاثين ، وقيل كانت في الخامسة والعشرين ، ولا سند لهذه الأقوال ، ولكن التاريخ يعتمد دائماً على المشهور الذي له سند يعتمد عليه ، ولا خلاف بين كتاب السير في أن سنها رضي الله تعالى عنها ، وجزاها عن الاسلام خيراً كانت أربعين ، وغيرها أقوال منثورة لم يؤيدها كتاب السيرة والمحققين ·

ولسنا من الذين يتجهون الى الاغراب ، لأن الاغراب ان كان سائغاً في بعض العلوم ، فهو لا يسوغ قط في التاريخ ، لأن تتبع الاغراب في التاريخ انكار لما اشتهر ، وارتضاء بما لم يشتهر من غير سند ، ان الحقائق هي الأمور المشهورة ، ويرد ما عداها، الا اذا قام الدليل المكذب للمشهور بما لا يقل عنه قوة ، والله تعالى أعلم ·

أغناه الله وواساه:

١١٧ ـ ولد محمد يتيما ، وعاش يتيما ، ثم آتاه الله تعالى اليسر العامل، وكفاه العيش الكادح ، رعى الغنم ودبر التجارة ، ثم بسط الله تعالى له الرزق ، وآتاه الزوج الوفية الرضية ،فأكمل الله بها انسانيته ، وأكمل لها أمومتها ، وتوافقا في قطع فيافي هذا الوجود ، وكمّل كل منهما ما ينقصه بما عند الآخر ، هي امرأة شريفة ،ذات ثراء ، وهو رجل مكتمل عامل قوي أمين ، فأغناها بأمانته ، وكفلها برجولته ، ووجه مالها الى الخير ، بحسن نيته وطيب طويته ٠

وقد كان يعمل لها في المال من قبل بأجر مضاعف ، تطيب به نفسها ، ويكسب مالُها على يديه أضعاف ماينتج غيره ، وكان عبداً شكوراً ، ولو استمر في هذه الطريق يعمل في مالها ومال غيرها ، لأدر الله تعالى عليه أخلاف الرزق ، ولو كان يبتغى المال وأعراض هذه الدنيا ، لنال الشباب والمال معاً ٠

ولكنه رأى أن يعمل في مالها بغير أجر ، وأن يضاعفه بغير ثمن ، وأن تكون أم ولده ، لطيب عرفها وشرف نفسها ، وقد تخير لنطفته ، فاختار أكمل امرأة في قريش ، وأعلاها في المكرمات كعباً ، وقد اختارها الله تعالى له لتكون له ردءا في شدائده ، تواسيه بالكلمة والعطف والحنان ، في وقت قد اشتد فيه البلاء ، وعظم الابتلاء ،فأعنَتَه المخالفون ، وكان عزيزاً عليه أن يُعْنِتهم ، فكان في حاجة الى من يأوي اليه كما هو في حاجة الى من يذود عنه٠

واذا كانت امرأة نوح وامرأة لوط قد تخاذلتا عن معاونة النبيين الصالحين، فامرأة محمد عليه السلام أعلت شأن النساء قاطبة ، فكانت الزوج الملهمة المواسية ، الودود العطوف الولود ،يَلقى قريشا وصدودها ، وعداوتها وجفوتها ، فاذا آوى الى بيته وجد برداً وسلاماً ٠

واذا كان قد فقد عطف الأم الرؤوم في صدر حياته في وقت الحاجة ، فقد عوضه الله تعالى في خديجة زوجا وأما ورفيقة الحياة ٠

١١٨ ـ أغنى الله اليتيم :

﴿ وَوَجَدَكَ عَآئِلًا فَأَغْنَىٰ ﴿٨﴾ ﴾ (١)

فهل طغى واستعلى ، هل عبث وتلهى ، هل اتخذ الحياة لهواً ولعبا ، هل أخذ في التكاثر ، والمكاثرة! لاشيء من ذلك، انما يفعل ذلك من اتخذ المال غاية ، ولم يتخذه سبيلا للخير، وعون الانسان لأخيه الانسان •

ومحمد (عليه السلام) ما اتخذ المال بغية يبتغيها ، ولا غاية يتطلع اليها ، فما أراد التكاثر ، وما عرفه في أي دور من أدوار حياته •

انما اتخذه وسيلة للمكرمات يقوم بها ، وللخير يسديه ، فكان يطعم الكَل ، ويعين على نوائب الدهر ، ولا يجد ذا حاجة الى العون الا أعانه ، ولا ذا خصاصة الا سدها ، ولا ذا مسغبة الا أشبعه ، ولا ذا متربة الا رفعه، كان يبحث عن مواضع الحاجة ، فيرأب ثلمتها •

تلفت فيمن حوله ، فرأى كافله وحبيبه أبا طالب في ضيق ، وعيلة ، فجاء الى عمه العباس وكان ذا ثراء ،وقال له هلا أخذنا بعض ولد أبي طالب ليتخفف من ضيق ، فعرضا عليه الأمر، فقال اتركا لي عقيلا ، وخذا من شئتما، فأخذ محمد علياً ، وأخذ العباس جعفراً، فكان علي ولده الذي تربى في مهد النبوة •

وكل من حول محمد كانوا ممدودين بعونه وفضله ، وخلقه ، فكأنه استولى على مال خديجة ليوزع في الخير ثمراته، وليكون خيره عميماً ، وفضله كثيراً •

وبينما كانت قريش تكسِب بالربا والبيع الحلال ، وتشبه أحدهما بالآخر، فتقول البيع مثل الربا ، كان محمد يتجر في الحلال ، ولا يكسِب من اثم ، ويعين ويغيث به الملهوف ، والكسب مع ذلك وفير •

---

(١) الضحى •

وهنا يُسأل سؤال لماذا ابتدأ بالقُل، وانتهى بالكثر ! والجواب ان حياة محمد صلى الله تعالى عليه وسلم فيها قبل البعثة البشرية الكاملة في كل أحوالها في سرائها وضرائها ، في كريهتها ، ومنشطها ، في ضيقها ورخائها، فلم يُتْربه الفقر، ولم يذله القل ، بل صبر عزيزاً ، وقنِع كريماً ، وجَدَّ ليكسِب قوته ، وحاول أن يخرج من ضيق الفقر بقوة العمل ، ومن ضنك العيش ببحبوحة النفس ، وغناها ،فكان الفقير العزيز الكريم العامل المكتسب المتين ، فلم يقل في فقره ربي أهانن ،وعاش مع الضعفاء شاعراً بضعفهم وباحساسهم ، لا يسير وراء الأماني والأحلام ٠

ثم اختبره الله تعالى بالمال ، فكان الشاكر ، الذي يفيض بالخير على غيره ، ويعلم حق المال ، في مورده ، ومصرفه معاً ، فلا يكسِب الا من طيب ، ولا ينفقه الا في طيب ، وهو في كسبه وانفاقه لا يكون الا نافعاً ، فكسبه طيب ، وصرفه طيب ٠

وثبت من النظر الاجتماعي أن الكسب الطيب هو الذي يكون بطريق فيها نفع عام ، فالزراعة كسب طيب ،لأن فيها تقديم الغذاء والكساء مما تخرج الأرض من زروع وأثمار ،والعمل باليد فيه كسب طيب ، لأن فيه نفعاً عاماً بالصناعات النافعة ، والاتجار كسب طيب ، لأن فيه الجلب للناس من أماكن لا يخرجون اليها، وفيه توزيع خيرات الأرض على أهل الأرض لا يحرم منها اقليم ، ولا يستطيل بالقوة المادية فيها طاغ ٠

وأخيرا محمد بن عبد الله (صلى الله عليه وسلم) ضرب للناس في بشريته قبل البعثة للناس أعلى مثل للفقير الصابر العامل في فقره ، والغني الشاكر الذي عاش كالضعفاء في غناه ، فكان غنيَّ النفس في الحالين ٠

١١٩ ـ وان محمداً صلى الله عليه وسلم ، بعد أن استقامت لديه أسباب الرزق لم يتجه الى اللذات، يشتار عسلها، ويكرع منها، بل كان الزاهد في غير الحلال المعروف الذى لا يتنافى مع المروءة ومكارم الأخلاق ، بل كان زاهدا غير محروم ، وطالباً للطيبات غير مبتغيها ، لأن الابتغاء قد يدفع الى اشتهائها ٠

وهناك أمر آخر ، كان يجعل المال غير ذي شأن الا بالقدر الذى يعين على مكارم الأخلاق ، والنفع لبنى الانسان وهو ابتعاده عن كل أوهام الجاهلية ، وأحقادها ، ومنازعاتها .

وفي وسَط بحبوحة العيش ، ومن غير ترفه ، قد أخذ يدرس الكون وما فيه ، ومن فيه ، وما وراء الكون من أسرار الوجود ، مبتعداً عن الوثنية، وما حولها ، مستنكرا عبادتها ، غير مستسلم لتوهم أن فيها تأثيراً في الانسان .

فما سجد لصنم قط ، وما أغواه شر قط ، بل كان الطيب الوادع الأمين .

وكان قوياً في بدنه ، غير مسترخ في عضله ، فهو يصارع ركانة أقوى أهل مكة فيصرعه من غير اعتداء ، ماعرف عنه قبل البعثة أنه اعتدى على انسان ، وما تناول بيده مخلوقا قط ، فما عرف أنه دخل في شحناء ، لأنها لم تكن من شأنه ، وما أشِر ، وما تكبر ، وما طغى .

واذا كان موسى القوي قد أُثِر أنه وكز مصرياً اضطهد اسرائيلياً فقتله ، لاعتدائه على أحد من شيعته ، ولم يكن ظالماً ، فما عرف عن محمد أنه تناول انساناً عدواً أو ولياً بأذى قط ، ولكلٍ فضل ، وقد فضل الله تعالى بعض النبيين على بعض ، فما كانت قوة محمدٍ صلى الله تعالى عليه وسلم على أحد ، بل كانت قوته لله تعالى ، وللانسانية ثم لقومه من غير اعتداء .

إعادة بناء الكعبة :

١٢٠ ـ ما من أمر جامع فيه خير في ذاته ، وللناس كافة ، الا اشترك فيه النبي صلى الله تعالى عليه وسلم بفضل من المال والعمل ، وان قريشاً ، بل العرب أجمعون كان يربطهم رباط لا يهي ولا ينقطع ، لأنه يتجدد آنا بعد آن ، وهو يتكون من عنصرين أحدهما الكعبة التي بناها ابراهيم ، وهي بيت وضع للناس ، والحج اليها ، واقامة المناسك فيها ·

ثانيهما ـ اعتقادهم أن الله تعالى خالق السموات والأرض ، وقد كانوا حريصين على تلك الرابطة ، لا يتركونها ، ولا يقطعونها وخصوصاً قريشاً ، اذ وجدوا فيه عزهم الذي يعتزون ، وشرفهم الذي يتنافرون به أمام العرب جميعاً ، ويجعل لهم سيادة وحكما ، وحسبهم أن العرب يتقاتلون الا في أرضهم ، فاذا جاءوا اليهم كانوا في حرم آمن كما من الله سبحانه وتعالى عليهم ، فقال تعالت كلماته :

﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا آمِنًا وَيُتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ ۚ أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَكْفُرُونَ ﴿٦٧﴾ ﴾ (١)

وقد أصاب وهن بناء الكعبة ، فأرادت قريش أن تجدد بناءها ، وكان ذلك بعد عشر سنين من تزوج محمد بن عبد الله (صلى الله تعالى عليه وسلم) من أم المؤمنين خديجة وكان النبي قد بلغ الخامسة والثلاثين رجلا سويا ·

ولم يكن قبل تزوجه كما توهم بعض الرواة من غير سند صحيح ·

وبذلك كان بناء الكعبة قبل مبعث رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم

---

(١) العنكبوت

بخمس سنين اذ أن البعث كان فى الأربعين وتجديد البناء كان في الخامسة والثلاثين من عمره الشريف ·

وكان التجديد ليكون على ما بناه ابراهيم عليه السلام ، وان قريشاً أخذت لهذا البناء أهبته ، واتفقت على ألا يكون البناء الا من مال طيب لا خبث فيه ، وأن يكون العمل بنية طيبة خالصة ·

وقد قال في ذلك ابن كثير : « كانت الكعبة حرزهم ومنعتهم من الناس ، وشرفا لهم » لذلك أرادوا بناءها لما خشوا عليها من التهدم ، وقد قال أحد كبراء بني مخزوم ، عندما هموا ببنائها :

« يا معشر قريش لا تدخلوا في بنائها من كسبكم الا طيبا ، لا يدخل فيها مهر بغي ، ولا بيع ربا ، ولا مظلمة أحد من الناس » (١) ·

١٢١ – هذا السياق يدل على مدى تأثرهم بالكعبة وتعظيمهم لها ، ومكانتها عندهم ويدل أيضا على أن الكعبة الشريفة واتصالها بابراهيم جعلت حبلهم موصولا به ، وأوجد ذلك فيهم نوعا من الوجدان الحي ، كان هو النبت الذي صار زرع الايمان والتوحيد من بعد ذلك ·

وان ذلك يستدعينا أن نرجع الى ابراهيم لنرى كيف كان البناء الأول للبيت ، ثم ننزل من بعد ذلك الى ماكان من بعد ·

ان ابراهيم أول من بنى البيت ، ولا يذكر التاريخ الراجح الصدق مايشير الى أنها قد بنيت من قبل ابراهيم عليه السلام ، وقد قال في ذلك ابن كثير رضي الله عنه :

« لم يجىء في خبر صحيح عن معصوم أن البيت كان مبنيا قبل الخليل ، عليه السلام ، ومن تمسك بهذا بقوله تعالى مكان البيت ، فليس بناهض ولا ظاهر ، لأن المراد مكانه المقدر له في علم الله المقرر في قدر المعظم عند الأنبياء موضعه من لدن آدم الى زمان ابراهيم » ·

---

(١) البداية والنهاية لابن كثير ·

ثم يقول عما قيل من أن آدم عندما نزل الى الأرض نصب قبته فيها ، وأن الملائكة قد قالوا طفنا قبلك بهذا البيت ، وأن سفينة نوح طافت به أربعين يوما : « ولكن كل هذه الأخبار عن بني اسرائيل ، وقد قررنا أنها لا تصدق ، ولا تكذب » وينتهي من هذا ابن كثير الى أن التاريخ الاسلامى لا يعرف بانيا للكعبة قبل ابراهيم عليه السلام ، واننا نقف حيث وقف ولا نسير وراء أوهام أو أساطير لم يوجد من التاريخ الصادق ما يوثقها ، ولا من الكتب الدينية الثابتة الصحيحة ما يؤيدها فلا نهيم في ظنون ، وان الظن لا يغني من الحق شيئا .

وقد بينا أن البقعة في ذاتها قبل البناء عليها كانت معروفة في التواريخ القديمة ، وقد أكد هذا المعنى ابن كثير ، فقال ان بقعة البيت الحرام كانت معظمة من قبل بناء ابراهيم ، فقال : « وكانت بقعته معظمة قبل ذلك معتنى بها مشرقة في سائر الأعصار والأوقات » .

وان ذلك كلام حق اذ أن نص القرآن الكريم يومىء الى أن البيت كان له مكان مقدر قبل أن يبنيه خليل الله تعالى عليه وعلى نبينا أفضل الصلاة وأتم السلام ، وقد قال تعالى :

﴿ وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ أَن لَّا تُشْرِكْ بِي شَيْئًا وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ ﴿٢٦﴾ ﴾ (١)

فكلمة بوأنا تومىء الى أن الله تعالى قدر لهذا البيت مكانا من قبل وهدى اليه ابراهيم عليه السلام .

واننا اذا انتهينا الى ما قرره ابن كثير وغيره من أن مكان البيت كان معتنى به ، وكان معظما ومشرفا ، قبل ابراهيم عليه السلام ، فانا قد نحسب أن تكون بناية قد أقيمت حوله للعناية به ، ولحفظه من أن يضيع في غيره ، ولكن من هم الذين بنوه ، وما مدى ما فعلوا ؟ ان ذلك هو المسكوت عنه ، والبحث عنه من غير وسائل معرفة من كتاب معصوم ، أو تاريخ وثيق رجم بالغيب وتظنن في غير مظنة .

---

(١) الحج .

ولعل فضول العلم تجعلنا نتساءل أيهما بني أولا ، البيت الحرام أم المسجد الأقصى ، فنجيب انه من المؤكـــد أن البيت الحرام الذى بناه هو ابراهيـم ، وقيل ان الذى بنى بيت المقدس هـــو يعقوب حفيد ابراهيم ، وقيل بني من بعد ذلك ، وقد ثبت في الصحيحين عن أبى ذر : قلت يا رسول الله « أي مسجد وضع أول : قال المسجد الحرام ، قلت ثم أي ؟ قال المسجد الأقصى » ٠

ولابد أن نتصور أنه بعد أن بناه ابراهيم خليل الله تعالى ، قد جرت فيه اصلاحات كثيرة ، فما كان بناء ابراهيم عليه السلام ليستمر قائماً ، غير قابل للتهدم أكثر من ألفي سنة ، فلم يـكن كالأهرام بناه فرعون الذي اغتصب كل القوى في بنائه ولـكن بناه ابراهيم الخليل هو وابنه الذبيح من غـــير أن يجرى فيه غصب حجر أو مدر أو وبر، أو قوة أي انسان ٠

بنـــاء قـــُرَيش :

١٢٢ ـ اتجهت قريش بعزمة ماضية ، وان شئت فقل مخلصة طاهـرة الى بناء البيت بجهود أبنائها ، وأموالهم الطيبة التي لا خبث فيها ، فليس ثمن دم مغصوب ، ولا ربا ، ولا مهر بغي ،ودخلوا غير متنازعين ، ولا متخاصمين ، ولا متخاذلين أعدوا لذلك العمل الخطير في معناه ، وان لم يكن البناء كبيراً في ذاته بين الأبنية التي كانت تجري في ارم ذات العماد ، وفرعون ذي الأوتاد، ولكنها أقدس ما بنى البشر ، وما أقام أهل الحضر والمدر والوبر لأنها الكعبة أول بيت وضع للناس مباركاً •

تقدموا للهدم ثم البناء ، ويظهر أن قدم العهد بالبناء والأحجار ، قـد جعل بعض الهوام يعيش على مقـربة منه ، فقد زعموا أنهم قد رأوا حية قد أحاطت بالبيت رأسها عند ذنبهـا ، فأشفقوا منها اشفاقاً شديداً وخشـوا أن يكونوا قد وقعوا منها في هلكة ،ووقفوا حيارى لا يقـدمون ، فلما سقط في أيديهم ، والتبس عليهم الأمر ، حسبوا أن يكون ذلك لتأثمهم عند البناء بإثم ، أو ليس في مالهم طهر ، أو في العمل الذى أعدوه خبث ، أو أن في النفوس شيئاً ، عندئذ وقف المغيرة المخزومى ، ينصح لهم بعدم التحاسد والتشـاجر ، وأن يقتسموا ، ثم جـددوا العزيمة ،« وقد جاء في تاريخ الحافظ ابن كثير أنهم لما عـزموا ذهبت الحية ، وتغيبت عنهم ، ورأوا أن ذلك من الله عز وجل•

وان خبر الحية ان صح نقول اما أن تكون قد ركنت الى بعض أحجـار الكعبة ويصح أن المولى جل جلاله سيرها اليهم لا من السماء ، ولكن من مكان آخر ، ليفزعوا ، ولتتطهر قلوبهم من رجس الجاهلية عند بنائها ، فهي بيت الله الذى بناه بأمره نبيه ابراهيم عليه السلام ، فلابد أن يبنى بأطهـار على الأقل في ساعة بنائه ، وقـد قامـوا بتطهير أنفسهم ، وتطهير أموالهـم ، وتولوا بأنفسهم اقامة البناء •

اقتسموا البناء أرباعا ، فكان الربع الأول الذى فيه شق الباب لبني عبد مناف وزهرة ، وبنو مخزوم لهم ما بين الركن الأسود ، والركن اليمانى ومعهم بطون من قريش انضموا اليهم ، وظهر الكعبة لبني جمح وسهم ، وكان شق الحجر لبني عبد الدار بن قصي وبني أسد بن عبد العزى وبني عدي ، وهو الحطيم (١) ٠

وبعد أن قسموا هذا التقسيم ، وارتضته القلوب كان يجب أن يبتدىء العمل بالهدم أولا ، ثم البناء ثانيا ، ولكن لهيبة الكعبة في نفوسهم ولعجزهم عن أن يعرفوا أهذه ارادة الله رب البيت وحاميه ، أم هي أهواؤهم الدافعة الى أن يفعلوا ـ هابوا أن يهدموا ٠

عند هذا التردد والتلكؤ تقدم الوليد المخزومي ، وحمل المعول ، وقال أتقدمكم ، وهو يقول : اللهم انا لا نريد الا الخير ، ثم هدم ناحية من الركنين (الركن الأسود والركن اليماني) وهما حصة بني مخزوم ، ومع ذلك لم يتقدم كل ذي حصة من حصته ليهدمها ٠

صبح الوليد معتزما من غداته متمماً ما بدأ بمعوله ، فأخذ يهدم الناس معه ، كل يهدم ما في حصته وأخذوا يهدمون ، حتى رأوا أساس البناء الذى وضعه خليل الله عليه السلام ٠

ومن مقتضى الفطرة التي لم يأت بها رسول أن تجري أوهام كثيرة ، وأن تروى أخبار حول هذه الأوهام ، وانا نضرب عن كل ذلك صفحا ٠

١٢٣ ـ وانهم قد أخذوا من بعد ذلك في اقامته ، ويظهر أنه قد عاونهم في الرسم والبناء رجل قبطي اسمه (باقوم) ، فهو الذى وضع هندسة البناء ، وكان مولى لبني أمية ٠

وقد قام كل فريق بحصته في البناء ، وقد اشترك النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، وكان زميلا في العمل لعمه العباس بن عبد المطلب ، وقد روى الشيخان (البخارى ومسلم) في ذلك عن جابر أنه « لما بنيت ذهب النبي

---

(١) البداية والنهاية جـ ٣ ص ٣٠٣ ٠

صلى الله تعالى عليه وسلم ، والعباس ينقلان الحجارة ، فقال العباس للنبي صلى الله تعالى عليه وسلم : اجعل ازارك على رقبتك يقيك من الحجارة ففعل فخر الى الأرض ، وطمحت عينه الى السماء ، ثم أفاق ، فقال ازاري ازاري ، فشد عليه ازاره ، فما رؤي بعد ذلك عريانا » .

هذا حديث صحيح ، روي عن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم سقناه لبيان أن محمداً عليه الصلاة والسلام اشترك في أشرف عمل قامت به قريش، وهو في شرح الشباب ، وحمل الحجارة ، وأنه لم يأخذه الترف قط ، وأنه لم يفكه في نعيم المال ، فكانت حياته حياة الأقوياء وان الخبر يدل على أن الله تعالى كان يرعاه ، وقد رباه على عينه ، فلما أخذ بنصيحة عمه العباس ، ووضع بعض ثوبه على رقبته ، انكشف بعض عورته، فطمحت عينه الى السماء ، وأصابته غشية اتصال بالملأ الأعلى ، وسترت عورته ، فقد كان في حراسة الله سبحانه وتعالى ، وحياطته .

ولا نرد الخبر لما فيه من غرابة ، فقد رواه الشيخان البخارى ومسلم بسند صحيح ، وما يروى بسند صحيح لا يرد لمجرد غرابته على الحس والأسباب المسببات ، انما يرد لوجود دليل يثبت أن ذلك مستحيل ، والأمر في قدرة الله تعالى خالق الأسباب والمسببات ، ومانح كل من في الوجود نعمة الوجود.

لقد أتموا بناء البيت الحرام ، وكان ارتفاعه الذى بنوه ثمانية عشر ذراعا وأخرجوا منه الحجر ، وهو ستة أذرع، أو سبعة من ناحية الشام ، لأنهم قد قصرت نفقتهم ، فلم يتمكنوا أن يبنوه على قواعد ابراهيم .

وقد يسأل سائل ، ان المفروض أن قريشاً كانوا من أغنياء العرب ، وبجوارهم ثقيف ، وهم أغنياء ، وكان ممكن أن يعلنوا اكتتاباً عاماً يجمعون به ما يريدون ، فكيف تقصر بهم النفقة عن البناء .

والجواب عن ذلك أنهم لم يشركوا العرب في بنائهم ليبقى لهم الاختصاص بسدانته وبشرفه ، وبانشائه ، وفوق ذلك هم أرادوا ألا ينفقوا منه الا بمال مكسوب من طيب حلال ، وليس بمكسوب مما جرى فيه كسب خبيث أو فيه ، شبهة خبث قط ، ويظهر أن الطيب من المال عندهم لم يكن كثيراً ، اذ كثر فيهم الربا والميسر ، ومن الصعب اخراج الطيب ، من بين هذا كله .

ولقد جعلوا للكعبة باباً واحداً من ناحية الشرق ، ويقول ابن كثير : « جعلوه مرتفعاً لئلا يدخل اليها كل أحد ، فيدخلوا من شاؤوا ، ويمنعوا من شاؤوا » ·

وان النبي عليه السلام كان يريد أن يعيد البيت الى ما كان على بناء ابراهيم ، لولا أنه يخشى عليه كثرة الهدم والبناء ، فقد ثبت في الصحيحين عن عائشة رضى الله تبارك وتعالى عنها أن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم قال لها : « ألم تري أن قومك قصرت بهم النفقة ، ولولا حدثان قومك بكفر لنقضت الكعبة ، وجعلت لها باباً شرقياً، وباباً غربياً وأدخلت فيها الحجر » ·

١٢٤ ــ تم بناء البيت الحرام ، ولم يختلفوا في شيء عند اقامته ، لأن كل قسم منه اختصت به بطن من بطون قريش ولكن أمرا لا يقبل القسمة اختلفوا فيه ، وهو الحجر الأسود ، اختلفوا فيمن الذى يضعه في موضعه من هذه البنية ·

تجادلوا فيمن يضعه ، وتخالفوا ، وكان الخلاف شديدا وكادت الدماء تسيل لتلغ فيها السيوف ، أراد بنوا عبد الدار أن يضعوه ، بما أعطاهم من قبل قصي من سدانة البيت ، وقربوا جفنة مملوءة دماً ، ثم تعاقدوا هم وبنو عدي ابن كعب بن لؤي على الموت ، وأدخلوا أيديهم في الدم المملوءة به الجفنة ·

ومكثت قريش على تلك الحال التي تأزمت حلقاتها أربع ليال سوياً ·

ثم اجتمعوا بعدها في المسجد الحرام ، وتشاوروا في هدأة ، وأخفيت جفان الدم أو جفان الموت ، وتناصفوا في القول ، وأخفوا نوازع الشر ، أو استلوها من الأضغان ، وان القصد الطيب يكف في كثير من الأحيان نوازع الشر ، فيفتح في وسط الخصام ، نورا من نور الوئام ، وقد كانت الجلسة الهادئة سبيل ذلك ، ببركة بيت الله الحرام ·

لقد وقف أسن قريش يدعوهم الى السلام وانهاء الخصام ، فقال :

« يا معشر قريش اجعلوا بينكم فيما تختلفون فيه أول من يدخل من باب هذا المسجد يقضي بينكم : فارتضوا ذلك ، وعلموا أنه توفيق الله تعالى

عندما ظهر أول داخل ، فاذا هو محمدبن عبد الله صلى الله تعالى عليه وسلم فقال كبيرهم : هذا الأمين رضينا بهحكما » •

وكان محمد صلى الله تعالى عليهوسلم يسمى الأمين ، وقد اختص بهذا الاسم ، بحيث اذا أطلق لا ينصرفالا اليه وقد أشرنا الى ذلك ، وكلما مضى في عمره الكريم زادوا استيثاقامن أمانته وصدقه وحكمته وعدالته •

لذلك طابت نفوسهم جميعا عندماعلموا أنه سيكون الحكم بينهم الذي يرد القضب الى أجفانها •

انتهى اليهم وأخبروه الخبر ، فطابت نفسه وقرت عينه ، اذ قرت به القلوب المضطربة وقال : هلم الي ثوبافأتى به ، فأخذ الحجر فوضعه فيه بيده ، ثم قال : « لتأخذ كل قبيلة بناحية من الثوب ، ثم ارفعوه جميعا ففعلوا ،حتى اذا بلغوا موضعه ، وضعهبيده ، ثم بنى عليه » (١) •

هذه حكمة بالغة ، انحل بها الخلاف ، وانتهى الى وفاق من أن تمتشق السيوف ، ويستعدوا للحتوف ، وهكذاكانت النفحة المباركة من محمد بن عبد الله عليه الصلاة والسلام وقد بدتبوادر النبوة ، وظهرت ارهاصاتها •

١٢٥ ـ قامت الكعبة متجهة الى السماء ، واستمرت على ذلك في عهد النبي صلى الله عليه وسلم ، وكان يود أن يعيدها عليه السلام الى ما كانت عليه في عهد ابراهيم عليه السلام ، ولكنهقدر أن قريشا قريبو عهد بكفر ، فلم يزعجهم •

وبعد عصر الراشدين ، ثم عهد معاوية ، ثم جاء عهد (يزيد بن معاوية)، وخرج عليه الخارجون من أهل الايمانوكان ممن خرج عليه عبد الله بن الزبير ، وقد قوي أمره بعد أن قتل الامام الحسين بن على ، تلك القتلة الفاجرة ، وقد بايع الكثيرون ابن الزبير •

ثم تجرد له عبد الملك بن مروان ،وكانت المغالية ، وحوصرت مكة التي كان بها بن الزبير ، ورميت الكعبة بالمنجنيق ، وتهدمت ، فاتجه ابن الزبير الى اقامتها على قواعد ابراهيم ، فأعادطولها ، وأدخل من الحجر الأذرع التي

---

(١) سيرة بن هشام •

كانت قد نقصت منها لضيق المال الحلال الذى كان بيد قريش ، وجعل لها باباً آخر ، وكان قد سمع عن طريق خالته أم المؤمنين التي روت حديث النبي عليه السلام الذي ذكرناه آنفاً .

لم يستمر الأمر لابن الزبير ، بل قتل ، واستمكن الأمر للحجاج بن يوسف الثقفى المسلط من قبل عبد الملك ،فشاور عبد الملك في الأمر الذي غيره عبد الله بن الزبير في بناء الكعبة ،واعادتها الى قواعد ابراهيم ، فكتب اليه : « أما ما زاده طولا ، فأقره وأماما زاده في الحجر ، فرده الى بنائه ، وسد بابه الذى فتحه ، ففعل ذلك ،ويروى أن عبد الملك ندم على ما أذن ، ولعن الحجاج » .

ولقد فكر المهدي في أن يعيد البناءعلى قواعد ابراهيم ، فناشده الامام مالك ، وقال أخشى أن يصير ملعبة للملوك ، فترك الأمر .

الحمس:

١٢٦ ـ ومن هذا ترى أن قريشاًكانت حريصة على البيت الحرام ، تعليه ، لأنها ترى فيه علوها وشرفهاوشددت في القيام عليه ، وابتدعوا في ذلك بدعة تخالف ما كان عليه ابراهيمفي قيامه بمناسك الحج ، وعظموا الحرم تعظيما زائداً ، حتى لفرط تحمسهم له التزموا ألا يخرجوا من جواره ليلة عرفة ولذلك سموا الحمس ..

كانوا يقولون : نحن أبناء الحرم ،وقطان بيت الله ، فكانوا لا يقفون بعرفات ، مع علمهم أنها من مشاعر ابراهيم عليه السلام ويقول في ذلك الحافظ ابن كثير في تعليل فعلهم ، وتكميل الكلام فيه :

« حتى انهم لا يخرجون عن نظام ماكانوا قرروه من البدعة الفاسدة ، وكانوا لا يدخرون من اللبن أقطا ولا سمنا ، ولا يسلون شحما وهم حرم ، ولا يدخلون بيتا من شعر ، ولا يستظلون ان استظلوا الا بيت من أدم ،وكانوا يمنعون الحجيج والعمار ما داموا محرمين ـ أن يأكلوا الا من طعام قريش ، ولا يطوفون الا في ثياب قريش ، فانلم يجد أحد منهم ثوب أحد من الحمس وهم قريش ، وما ولدوا .. ومن دخلمعهم من كنانة وخزاعة طاف عريانا ،

ولو كانت امرأة ؟؟ ولهذا كانت المرأة اذا اتفق طوافها لذلك وضعت يدها على فرجها ، وتقول : « اليوم يبدو بعضه أو كله ، وبعد هذا اليوم لا أحله » .

فان تكرم أحد ممن يجد ثوب أحمسي ، فطاف في ثياب نفسه ، فعليه اذا فرغ من الطواف أن يلقيها فلا ينتفع بها بعد ذلك ، وليس له ولا لغيره أن يمسها ، وكانت العرب تسمي تلك الثياب « اللقى » (١) .

١٢٧ ـ هذا بعض مما كان يجري من قريش تعصباً للبيت ، فهم اعتبروا الحج عندهم هو زيارة البيت الحرام ، وهذا من التعصب له ، حتى نسوا شريعة ابراهيم في الحج ، وهو اعتبار الحج عرفة ، والطواف ركناً من الأركان ، وليس له وقت محدود طول السنة .

وانه لمن ارهاصات النبوة أن محمد بن عبد الله عليه الصلاة والسلام قبل أن يبعث رسولا نبياً ، كان لا يتمسك بتقاليد قريش وأعمالها ، بل كان يقف بعرفة ، وان ذلك بلا ريب توفيق من الله تعالى ، والهام الله تعالى له بأن يقيم الحج على ما كان يقيمه ابراهيم .

ولم يسر على ما سار عليه العرب ، بل كان يطوف بالبيت كما يطوف .

ويلاحظ أن الناحية التجارية في قريش قد بدت واضحة في أمرين :

أحدهما ـ أن الحجيج لا يأكلون من الطعام الا ما يكون من قريش ، فهو ترويج لتجارة قريش ، وكذلك الأمر في الثياب .

وثانيهما ـ ما كان يقام من المتاجر في الأسواق التي كانت تجاور مكة .

وانه بلا ريب كانت تلك التقاليد فيها فحش في العمل ، اذ كان بعض القبائل ، اذا لم يجدوا ثيابا من ثياب الحمس ، يطوفون عراة ، وفيهم النساء ، حتى انهن كن يسترن عوراتهن الغليظة بأيديهن .

وان هذه الأحكام يحسبون أنهم مأمورون بها ، ولقد أنكرها الاسلام ،

---

(١) البداية والنهاية ص ٣٠٥ .

وقال الله تعالى فيها:

﴿ وَإِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا ءَابَاءَنَا وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا قُلْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢٨﴾ قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ ﴿٢٩﴾ فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلَالَةُ إِنَّهُمُ اتَّخَذُوا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ اللَّهِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٣٠﴾ ۞ يَا بَنِي ءَادَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ ﴿٣١﴾ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٣٢﴾ قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَن تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾ (١)

وأن محمداً عليه الصلاة والسلام من قبل أن ينزل جبريل عليه السلام ، كان ينفر من كل أرجاس الجاهلية ، ولو كانوا يدعون أن الله تعالى أمر بها ٠

لم يسجد لصنم قط ، ولم يرتكب فحشاء ولا لهوا ، ولم يترد فيما كان يتردى فيه شباب الجاهلية ٠ ولم يتناول خمراً قط ولم يلعب ميسراً ٠

ولقد يستنكر في صمت المؤمن بالحق ، كل ما كانت تقع فيه قريش ٠

وقبل أن تتقدم للمبعث المحمدي ، وقد جاء ابانه ، وحان حينه ، اذ أنه عليه السلام كان قد بلغ الخامسة والثلاثين ، وقارب البعث ، فقارب الأربعين، وهي السن التي بعث فيها رحمة للعالمين ٠

---

(١) الأعراف ٠

وقبل أن تتقدم لمقام الرسالة المقدس ، والمبعث النبوي الأقــدس ، يجب أن نتكلم في أمرين :

أولهما ـ تكامل صفات الرسول ، و بيان ما كان عليه من خلق كامل ، هو مثال للأخلاق الانسانية العالية ، فهـوقبل أن يكون رســـولا مبعوثاً من الله سبحـــانه وتعالى ، كان كالمـلائكة فيأخلاقه بيد أنه كانت له ارادة ، وكـان مكتمل الجسم الانساني ، والحياة الانسانية وقد رباه الله تعالى ليكـــون النبي المختار الذي ولد في الأميين ، وكـــان منهم •

ثانيهما ـ أحواله في تأملاته ، وعبادته قبل الرسالة ، والله أعــلم حيث يجعل رسالته •

التكامل الإنساني في محمد صلى الله عليه وسلم

التكامل الإنساني في محمد

١٢٨ ـ نتقدم بهذا الباب من القول بين يدى المبعث المحمدي ، لنتعرف من اختاره الله تعالى من بين خلقه رسولا للعالمين ، وكيف قد أدبه الله تعالى بتأديبه الكريم ، وخلقه كاملا ، لأن رسالته دعوة الى الكمال ، فهو الكمال المطلق في التكوين البشري ، ونحن نريد أن نقدم ما كان من خلق فطري ، لم يكسبه من الوحي الالهي ، وان كان متطابقاً مع ما جاء به الوحي، وما أدبه به القرآن ، حتى كان خلقه المتين وكان كما قالت عائشة رضي الله تعالى عنها « خلقه القرآن » ، وما كان خلقياً بمقتضى التكوين كان متفقاً مع ما جاء به الوحي ، وما دعا الى خلقه ، وقاربوا فيه ، ولم يصلوا الى ما وصل اليه النبي صلى الله تعالى عليه وسلم .

جاء في كتاب الشفاء للقاضي عياض في مقدمة كلامه في أوصاف محمد ابن عبد الله صلى الله تعالى عليه وسلم : ان خصال الجمال والكمال في البشر نوعان : ضروري دنيوي اقتضته الجبلة ، وضرورة الحياة الدنيا ، ومكتسب ديني ، وهو ما يحمد فاعله ، ويقرب الى الله تعالى زلفى ، ثم هي على فئتين أيضا ، منها ما يتخلص لأحد الوصفين ، وما يتمازج ويتداخل .. فأما الضروري المحض ، فما ليس للمرء فيه اختيار ، ولا اكتساب ، مثل ما كان في جبلته عليه الصلاة والسلام من كمال خلقته ، وجمال صورته ، وقوة عقله ، وصحة فهمه ، وفصاحة لسانه ، وقوة حواسه وأعضائه ، واعتدال حركاته ، وشرف نسبه ، وعزة قومه ، وكرم أرضه ، ويلحق به ما تدعوه ضرورة حياته اليه من غذائه ونومه وملبسه ومسكنه ومنكحه وماله وجاهه .

وأما المكتسبة الأخروية ، فسائر الأخلاق العلية والفضائل الشرعية من الدين ، والعلم ، والحلم ، والصبر والشكر ، والعدل ، والزهد ، والصمت والتؤدة والوقار والرحمة وحسن الخلق ، والمعاشرة وأخواتها ، وهي التي جماعها حسن الخلق .

ونرى من هذا أن القاضي عياض قدقسم الأوصاف التي تحلى بها النبي عليه الصلاة والسلام قسمين : أحدهما ـ كان بالفطرة الانسانية وهي كمال الفطرة ، ويلحق بها أوصافه الجسمية صلى الله تعالى عليه وسلم وثانيهما ـ ما اكتسبه بمقتضى التعاليم الشرعية وذكر منها التواضع والحلم ، والصبر والشكر ، وحسن المعاملة ، وبشكل عام ما يتعلق بحسن الأخلاق الذي هو جماع الفضائل الانسانية ، ويذكر أن من هذه الصفات المكتسبة بحكم الشرع الشريف والوحي اليه مما تلتقى فيه الفطرة المستقيمة مع الوحي فالجود والتواضع والصبر والفصاحة ،والتأني ، وحسن التأني للأمور ، والرفق في القول والعمل ، ولين الجانب من غير ضعف ، والقول الحق من غير عنف ، كل هذه الصفات كانت في محمد بن عبد الله صلى الله تعالى عليه وسلم كانت فيه بفطرته المستقيمة ، وبتهيئة الله تعالى ، قبل الرسالة ، اعداداً لهذا المنصب الخطير ، وهو رسالة الله تعالى الى خلقه •

وانا لنذكر في هذا الباب من الكتاب ، ما كان فيه بمقتضى الطبع الانساني السامي الذي فطره الله تعالى عليه وماكان من صفات تتعلق بالمعاملات ، والعلاقات الانسانية والمودة والرحمة والرفق ، والفصاحة ، وغيرها مما كانت مهيئة للرسالة ، وتحمل الأعباء ، والقيام بحق هذه الرسالة والدعوة اليها بما يزكيها وينميها ، واذا كانت قد استمرت فيه بعد البعثة ، فانها ثمرة الله في غرسه ، وتناول الناس أكله ،واذا كنا سنشهده على هذه الصفات بما جاء من أقوال أصحابه من بعد البعثة ، فليس ذلك لأن البعثة هي التي أوجدتها ، بل لأنها الأقوال الناطقة المؤيدة لذلك ، فقد أوجدها فيه العلي القدير •

وقدمنا على الرسالة لأن الله تعالى أعدها فيه ليكون كاملا ، وليقوم بأعبائها •

١ - وفور عقله

١٢٩ ـ لم يتوافر العقل في انسان كما توافر في محمد بن عبد الله عليه الصلاة والسلام ولو لم ينزل عليه الوحي ويخاطب من السماء لكان عقله وحده كافيا لأن ينشىء دولة ، ويقيم مجتمعاً طيباً فاضلا • ولكن أتم الله عليه نعمته ، فجعله نبياً مرسلا ،فاجتمع له الكسب الذاتي بالادراك بالفطرة الانسانية العالية المكتملة بالتكوين الانساني والرسالة الالهية الهادية المرشدة ، وكانت الأولى مقدمة للثانية ، وما كانت احداهما لتغني عن الأخرى فما كانت الرسالة تجيء لغير عقل كامل ، وفكر مدرك ، وشخصية كريمة اختارها الله تعالى لموضع رسالته وحمل أمانته • وما كانت الكفاية العقلية في أسمى علوها بمغنية عن الرسالة ، لأن العقل لا يمكن أن يكون وحده كافيا في تدبير الحاضر والقابل الى يوم الدين ، انما العقل يدبر ما يحيط به وهو من غير هداية الوحي لا يفكر الا فيما بين يديه ، ولا يخترق الحجب والأستار الى ما وراء ما لديه ،فلابد من علم الله يمده بعلم القابل ، وهو عالم الغيب والشهادة ، فمهما تكن قوة العقل ، فانه لا يستطيع أن يصلح غير زمانه ، وكل شيء عند ربك بمقدار •

منذ نشأ محمد بن عبد الله صلى الله تعالى عليه وسلم والعقل المكتمل حليته العليا التي سما بها على الغلمان أترابه ، فمنذ استوى غلاما ، والعقل يزينه ، ولقد بدا ذلك لجده عبد المطلب الذي أخذه ليعوده أخلاق الرجال المكتملين •

ولما ذهب الى بيت عمه أبي طالب بعد وفاة جده القريب ، كان الغلام الرزين المكتمل وسط أولاد أبي طالب، لا يسبق الأيدي الى الطعام ،ولا يدخل في زحمة الاغتراف ، بل يتريث غيرنهم ولا جشع ولا طامع ، بل الهادىء الرزين الذي قد يكتفي بالقليل أو مادونه ، حتى يتنبه اليه عمه الشفيق فيقرب اليه ما يبعد ، ويخصه بما يكفيه مئونة المزاحمة حتى اذا بلغ

قدراً يستطيع فيه الاكتساب • عمل على رعي الأغنام ليأكل من عمل يده، ولينال من خير الدنيا بمقدار ما قدم فيهـــا من نفع غير مؤثل ولا مقصر •

وعقله المدرك لمصـيره بقابل حياته في قابل عمره ، فهو يعد نفسه للتجارة عمل قومه ، ومكتسب أرزاقهم ومنشط قواهم ، فألح على عمــه أبي طالب أن يأخذه معه الى الشام في قافلة تجـــارة قريش ، ليكون على خبرة بالصفق في الأسواق ، وليتعلم المصـــادر والموارد ،وذلك وهو في الثانية عشرة من عمره حتى اذا عاد من هذه الرحلة المباركـــة عاد وقد امتلأ عقله تجربة ، فيمارس التجارة صغرت بضاعته أو كبرت ،وهو على بينة من أمرها ، عليم بأسواقهـــا ، والرائج منها والكاسد •

ولكمال عقله كان الشـــاب التاجر يحضر مجتمعات قريش ، فهـــو يحضر ندوتها فاحصا ما يقال فيها من حق يرضاه ، وباطل يجفوه ، ولا يقـــره ، ويحضر حلف الفضول ، ويرى لعقله الكامل المـــدرك أنه لا يسره به حمـر النعم ، ولا يرى نصرة للحق أقـــوى منه ، ولو دعي به في الاسلام بعد أن عم الحق ، لأجـــاب تكريما له واعلاء لقدره •

وهكذا نراه قد أوتي عقلا مدركا ،وعمل على تغذيته بالتجـارب والاتصال بالمجتمع ليعرف خيره وشره ، ويعمـلُ على علاج أدوائه ، ان واتاه الله تعالى بفضل من عنده •

واننا ونحن نتكلم على قوته العقلية النافذة الى الحقائق ، لا الى المظاهــر نتعرض لنفوره من التقليد من غـير دليل ، فهو قد نفر من عادات الجاهليـة التي كانت تحرم وتحلل من غير بينـة ولا علم قائـم على الحقائق المقـــررة الثابتة • فلم تره يسجد لصنم قط ،لأن حكم العقل يتقاضاه ألا يسجد لمن لا يملك لنفسه نفعاً ولا ضراً ، ويكره ذكر الأصنام ، وعبادتهـا • فيستحلفه الراهب باللات والعزى فيقول الغـلام ما كرهت شيئاً كما كرهتهما •

ويختلف مع تاجر ، فيستحلفه التاجر باللات والعزى ، فيمتنع ، فيسلم له التاجر وبحقه من غير حلف لأمانته •

وأي عقل أكمل من أن يرى قـومه ينحرفون عن ابراهيم في حجه ،ويذهب فرط حرصهم واعتزازهـم بالبيت ألا يقفوا بعرفات فيجيء الرجل العاقـل

المكتمل محمد بن عبد الله (عليه السلام) ويتعـرف مناسـك ابراهيم ، فيقف بعرفات في ميقاته ، ان ذلك كله لا يكون الا من رجل عاقـل يعمل عقله في هدأة من غير مجادلة ، لأن المجادلة تحدث المنازعة ، وحيث كانت المنازعة كان الريب ، وتبددت الحقائق بين المتنـازعين ٠

لقد علمت قريش كلها بكمال عقله، وقوة ادراكه ، فرضيت به حكما ، ساعة ان احتدم الجدل ، وكادت السيوف أن تمتشق ، والمعارك أن تنصـب ، فلما نادته القرعة أن أقدم ، وافصـل بين الناس بالحق ، رضـوا بحكمـه ، لأنه سيكون حكم العقل والحق ، وأي شخص غير عاقل وحكيم كان يهتدي الى الحكم الذى يرضيهم جميعا ، فيشركهم جميعا في فضل حمل الحجر الأسود الى موضعه من غير مشاحة ولا خصومة ولا تفاضل بينهم ، ويحمله هو بيده ابتداء فلا ينازعونه لفضل عقله ، ثم يحمله هو وحده انتهاء ويضعه في موضعـه بيديه الكريمتين ، فيرضون ما يفعل ٠

ولكمال عقله لم يخض مع الخائضين في العصبية الجاهلية ، فلم ينطق بها ، ولم يجادل حولها ، وكان يحب الوئام والسلام ، ولا يحب الحرب والخصـام ، ولذلك لم يشارك في حرب الفجار ، الا بتفضيل السهام عن أعمامه حمـاية لهم ورحمة بهم ، بمـوجب الرحم الوصيلة ، لا بمـوجب الحـرب ، التي أحلت فيهـا الحـرمات والأشهـر الحرم ٠

وانه من المؤكد أن محمد بن عبد الله عليه الصلاة والسلام كبح جماح هواه طول حياته قبل البعثة ، فلم يفعل مايفعله الغلمان وهو غلام ، ولا ما يفعله الشبان في باكورة شبابه ، ولا بعد أن صار رجلا سويا اكتملت أخـلاقه كما اكتمل جسمه ، فكان القوي الذي يسيطر على أهوائه ، فلا ينحرف مـع هوى ، ولا تجمح به شهوة ، وانه اذا ضعف سلطان الهوى قوي سلطان الحق، واذا فلت حدة الشهوة ، استقام حـكم العقل ، فالعقل حكمه يناقض حـكم الهوى والشهوة ، والعاقل السيد هـو الذي يسيطر على أهـوائه وشهـواته ويكون عقله هو المسيطر ، وما تضـل العقول الا اذا داخلت النفوس الأهواء، وعكرت صفاءه ، فمحمـد بن عبد الله صـلى الله عليـه وسلم كان أعقـل قريش ، لأنه هو الذي لم يسيطر عليه هوى كسائر سادات مكة ٠

وقد قال القاضي عياض في فضل عقله عليه الصلاة والسلام ، وآثاره في الاسلام :

« وأما وفور عقله ، وذكاء لبه ، وقوة حواسه، وفصاحة لسانه ، واعتدال حركاته ، وحسن شمائله ، فلا مرية أنه كان أعقل الناس وأذكاهم ، ومن تأمل تدبيره أمر بواطن الخلق وظواهرهم ، وسياسة العامة والخاصة ، مع عجيب شمائله ، وبديع سيره ، فضلا عما أفاضه من العلم وقرره من الشرع، دون تعلم سابق ، ولا ممارسة تقدمت ، ولا مطالعة للكتب منه لم يمتر في رجحان عقله ، وثقوب فهمه ، لأول بديهة ، وهذا مما لا يحتاج الى تقريره لتحققه ·· ولقد قال وهب بن منبه ، قرأت في أحد وسبعين كتابا ، فوجدت في جميعها أن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم أرجح الناس عقلا ، وأفضلهم رأيا ، وفي رواية أخرى ، فوجدت في جميعها أن الله لم يعط جميع الناس من بدء الدنيا الى انقضائها من العقل في جنب عقله صلى الله تعالى عليه وسلم الا كحبة رمل من بين رمال الدنيا » (١) ·

ويقول ابن كثير : (معلوم لكل ذي لب أن محمداً صلى الله تعالى عليه وسلم من أعقل خلق الله تعالى ، بل أعقلهم وأكملهم على الاطلاق في نفس الأمر) (٢) ·

وان مظاهر عقله بدت واضحة بعد البعثة في سياسة رعيته ، فقد كان الله يوحي اليه بالأحكام الشرعية ، ومايجب من الرفق بالرعية ، والأخذ على يد الظالم ، وحماية الحق من الباطل ، ويترك الرسول عليه الصلاة والسلام أن ينفذ الحق في رعيته ، بالمسلك الذى يسلكه مختاراً ، مسدداً ، فان تبين خطأ نبهه سبحانه وتعالى عليه اذا كان أمراً متصلا ببيان الشريعة وأحكامها ·

وانه في الأمر الذى تركه سبحانه وتعالى له بدا عقل النبي عليه السلام في احكام التدبير وكياسة الحكيم ·

---

(١) الشفاء الجزء الاول ص ٤٣ طبع الحلبى

(٢) البداية والنهاية جـ ٦ ص ٦٥ ·

اشتد أمر النفاق والمنافقين ، وكثرت أضرارهم ، فطلب عمـر رضي الله تعالى عنه من محمد بن عبد الله صـلى الله تعالى عليه وسلم أن يقتلهم ، فقـال عليه السلام:(لا يتحدث الناس أن محمداً يقتل أصحابه) ثم اشتد النفاق ، حتى هم أهل كل بيت فيه منافق أن يقتله ،فقال عليه السلام أين عمر لو قتلتهم حين قتلهم لأرعدت لهم أنوف هي اليوم تريد قتلهم ٠

فبهذا العقل الحكيم استقبل رسالة ربه ، وبهذا العقل الحكيم ، أدار المدنية الفاضلة التي قامت على حكم الله تعالى وأمره ونهيه ، ونفذت فيهـا النظـم الاسلامية ٠

٢ - بلاغته صلى الله عليه وسلم

١٣٠ - كان رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم قرشيا قد نشأ في قريش ، وهي أفصح اللهجات العربية ،وكان يحضر أسواق مكة في موسم الحج ، ويتذوق ما ينشد فيها من شعر ،وقد تفصح في بني سعد بهوازن ، وهوازن من أفصح العرب ، فالتقى في بيانه لغة العقل والحضارة النسبية في مكة ، وسذاجة البداوة مع حلاوة اللفظ وسهولته في لهجة أفصح أهل البادية ·

ولذلك كان النبي محمد بن عبد الله صلى الله تعالى عليه وسلم أفصح الناس منطقا ، ينطق بالحكمة وفصل الخطاب ، فهو اذا أرشد كانت ألفاظه كالجوهر تنتثر بين الناس من غير بهرجة،وفيها جوامع الكلم وفصل الخطاب ·

واذا تحدث في معاملات الناس وفي سمرهم الذي لا مجون فيه كان كلامه النمير العذب يسرى في النفوس سريان النسيم العليل ، والماء العذب ينعش القلوب ، ويروي ظمأ النفوس ·

وقد وصفت حديثه أم معبد بعد البعثة : فقالت : « اذا صمت فعليه الوقار ، واذا تكلم سما وعلاه البهاء ،حلو المنطق ، فصل لا نزر ولا هذر ، وكان منطقه خرزات نظم يتحدرن » ·

هذا وصف لكلام النبي صلى الله تعالى عليه وسلم بعد أن بعثه الله تعالى ، وهو غاية ما كان منه قبل البعثة ، فحال ما قبل البعثة ابتداء ، وما بعدها هو الانتهاء ، وهو اصطفاء الله تعالى ليكون موضع رسالته ، ومبلغ وحيه كان يجمع بين الايجاز والوضوح ، فألفاظه قليلة ، ومعانيه كثيرة من غير تعقيد ولا اعضال ، بل هو السهل الذى لا توعر فيه ، ترى في كلامه عليه السلام جمال الألفاظ من غير تكلف ، وحلاوة اللفظ من غير تحسين ولا تزيين ، فهو الجمال الطبعي الذي لا طراوة فيه ، ولا جفوة ، ولا خشونة ·

وكان فيه معاني الالهام ، وجمله الله تعالى بالصفاء ، لأنه خرج من نفس صافية ، وقلب منعم بالايمان والصدق، فكان صافياً كنفسه ، خالياً من الشوائب خلو نفسه منها .

وقد وصفه الجاحظ ، فقال : « الكلام الذي قل عدد حروفه ، وكثر عدد معانيه ، وجل عن الصنعة ، ونزه عن التكلف ، استعمل المبسوط في موضع البسط ، والمقصور في موضع القصر، وهجر الغريب الوحشي ، ورغب عن الهجين السوقي ، فلم ينطق الا عن ميراث حكمة ، ولم يتكلم الا بكلام حف بالعصمة ، وشد بالتأييد ، ويسر بالتوفيق ، وهذا الكلام الذى ألقى الله تعالى المحبة عليه ، وغشاه بالقبول ، وجمع له بين المهابة والحلاوة ، وبين حسن الالهام ، وقلة عدد الكلام ، وهو مع استغنائه عن اعادته ، وقلة حاجة السامع الى معاودته ، لم تسقط له كلمة، ولا زلت له قدم ، ولا بارت له حجة ولم يقم له خصم ، ولا أفحمه خطيب ، بل يبدأ الخطب الطوال بالكلام القصير ، ولا يلتمس اسكات الخصم الا بما يعرفه الخصم ، ولا يحتج الا بالصدق ، ولا يطلب الفلج الا بالحق ، ولا يستعين بالخلابة ، ولا يستعمل المواربة ، ولا يهمز ولا يلمز ولا يبطىء ، ولا يعجل ،ولا يسهب ، ولا يحصر ، ثم لم يسمع الناس بكلام قط أتم نفعا ، ولا أصدق لفظا ، ولا أعدل وزنا ، ولا أجمل مذهبا ، ولا أكرم مطلبا ، ولا أحسن موقعا ، ولا أسهل مخرجا ، ولا أفصح في معناه ، ولا أبين عن فحواه من كلامه صلى الله تعالى عليه وسلم » .

وانه قد اجتمع له عليه السلام مع سلامة المعاني حسن اختيار الألفاظ المناسبة في الحال المناسبة من غير أن يقرع الأسماع ، بكلام له رنين ، بل بكلام يدخل على القلوب في أناة ورفق فينساب فيها انسياب النمير العذب ويكون ثمة تناسق بين المعنى الكريم ،واللفظ الجميل من غير اعنات للأفهام ، ولا ارهاق للأسماع .

وكان في منطقه حلاوة ، فيخرج اللفظ من لسان واضح بين ، تخرج الحروف من مخارجها ، وتقع في مواضعها ، والسامع مشدوه من حلاوة الكلمة ، وحلاوة اللفظ ، والمعاني الأبكار ، في أسلوب مترسل لا توعر فيه، ولا تكلف ، ولقد قالت عائشة رضي الله تعالى عنها في وصف كلامه (ما كان

رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم يسردالكلام كسردكم هذا (١) • ولكن كان يتكلم بكلام بين فصل يحفظه من جلس اليه) •

فكان كلامه صلى الله تعالى عليه وسلم يكون بأناة • غير مندفع في القول، ولا متابع له في استعجال ، حتى ان عائشة رضي الله عنها تروي أن حديثه لو عد السامع حروفه عداً لأحصاها •

وان ذلك هو أفصح النطق ، وأبلغ الالقاء ، ذلك لأن الامهال في القول يجعل السامع يتذوق جمال الألفاظ ،ويتأمل المعاني ، ويستحفظ ما قال القائل ، ويتابعه في أفكاره من غير اعنات لنفسه ، ولا ملال ، وان الملال يعترى السامع ، اذا فاته تتبع المعاني ،وادراك المرامي والغايات •

١٣١ ـ ومنطق النبي صلى الله تعالى عليه وسلم كان خالياً من الفأفأة والتمتمة ، وكل عيوب الكلام ، في صوت هادىء عميق ، يجمله الصدق ويدخله في مداخل النفس ، ويوجه الرشيد الى الحق • ونغمات صوته هادئة قوية في صوت غير أجش ، ولا جفوة ، ولكن التقى فيه عمق النغم الفطري ، بجمال الصوت ، وجهارته في غير ضجيج ،ولا صخب •

ولقد روي أن الحسن بن علي أحد السبطين الكريمين قد سأل هند ابن أبي هالة ربيب النبي عليه السلام من خديجة أم المؤمنين وكان هند رجلا وصافا، سأله حب رسول الله تعالى عليه وسلم فقال : قلت صف لي منطقه • قال : « كان رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم » متواصل الأحزان ، دائم الفكر ليس له راحة ، ولا يتكلم في غير حاجة ، طويل السكوت يفتتح الكلام ويختتمه بأشداقه (٢) ، ويتكلم بجوامع الكلم ، فصلا ، لا فضول فيه ، ولا تقصير ، دمثاً ليس بالجافى ولا المهين يعظم النعمة وان دقت ، لا يذم شيئاً ، لم يكن يذم ، ولا يمدحه ، ولا يقام لغضبه ، اذا تعرض أحد للحق بشىء ، حتى ينتصر له ، اذا أشار أشار بكفه كلها ، واذا تعجب قلبها ، واذا تحدث

---

(١) السرد هو متابعة الكلام من غير تمهل، بل على الولاء والاستعجال فلا يعطى السامع فرصة تذوق الالفاظ والمعانى •

(٢) أى يستعمل جميع فمه عند الكلام فلايتكلم بطرف اللسان بل يقبل على القول اقبال المهتم به •

اتصل بها فضرب بابهامه اليمنى راحته اليسرى ، واذا غضب أعرض وأشاح ، واذا فرح غض طرفه ، جل ضحكه التبسم ، ويفتر عن مثل حب الغمام».

وانه مهما يقل الرواة في بلاغة كلمه ، وفصاحة لفظه وجمال نطقه لا نصل الى حقيقة بلاغته ، فان المأثور الذي نقرؤه ، نجد فيه العلم المجتمع ، والعبارات التي يستطيبها كل مستمع ، يجد فيها نفاذ الالهام، وتناسق الألفاظ، وترى فيه الحكم ، وحسن المأخذ ، والجمع بين الأطراف في لين ويسر من لفظ جاف ، ولا معنى مستخف ، بل كل الكلام في معناه وخواطره ، ومآخذ، يدخل الى القلوب ، فيجد مساكنه ، وان المستشهد بقوله يردده أمام العامة ، فيلقفونه ، وأمام الخاصة فيضمونه ، يفهمه كل انسان مهما تكن طاقته ، لا يتخير غريباً لغرابته ولا لفظا لحلاوته ، ولكن كل ذلك يجيء في رفق ، بل هي السليقة الكاملة تنطق ، والفصاحة الفطرية تتكلم ، وليس ذلك قولنا للمحبة فقط ، ولكن الحقيقة .

وحق علينا أن نقول مقالة الجاحظ بعد وصف كلامه ، وخشي على نفسه أن يقال انه انبعث من المحبة ، فقد قال : (ولعل من لم يتسع في العلم ، ولم يعرف مقادير الكلام يظن أننا تكلفنا له من الامتداح والتشريف ومن التزيين والتجويد ما ليس عنده ، ولا يبلغه قدره ، كلا والذي حرم التزيد عند العلماء ، وقبح التكلف عند الحكماء ، وبهرج الكذابين عند الفقهاء ، لا يظن هذا الا من ضل سعيه) .

كبرت كلمة من يقول اننا تجاوزنا الحد في وصفنا لبلاغة خطاب النبي صلى الله تعالى عليه وسلم وكمال تحديثه ، وبلوغه من البيان الانساني أعلى مراتبه الذي لا يبلغ شأوه أحد ، بل هو الحق الذي لا امتراء فيه ، أننا لم نتجاوز الحد ، ولكن لم نبلغه ولم نصل اليه .

١٣٢ ـ وأنه من الحق علينا أن ننقل الى القارىء ما قاله القاضى عياض في وصف فصاحة محمد عليه السلام وبلاغته ، فقد قال رضي الله تعالى عنه : (وأما فصاحة اللسان وبلاغة القول ، فقد كان صلى الله تعالى عليه وسلم من ذلك بالمحل الأفضل ، والموضع الذي لا يجهل ، سلامة طبع ، وبراعة منزع ، وايجاز مقطع ، ونصاعة لفظ ، وجزالة قول ، وصحة معان ، وقلة تكلف ، أوتي

جوامع الكلم ، وخص ببدائع الحكم ،وعلم ألسنة العرب ، فكان يخاطب كل أمة بلسانها ، ويحاورها بلغتها ، ويباريها في منزع بلاغتها ، حتى كان كثير من أصحابه يسألونه في موطن عن شرح كلامه وتفسير قوله ٠٠ ومن تأمل حديثه وسيره علم ذلك وتحققه ، وليس مع قريش والأنصار وأهل الحجاز ، ونجد كلامه مع وطيفة الهندى وقطن بن حارثة العليمي والأشعث بن قيس، ووائل بن حجر الكندي وغيرهم من أقيال حمير ، وملوك اليمن) (١) ٠

وان هذا يدل على أنه عليه السلام كان يعلم كل لهجات العرب ، وقد أتاه ذلك من اقامته بمكة التي كان يلتقي فيها بقبائل العرب ، في موسم الحج ، مع حرص على تعرفها ، وذكاء مدرك لها ، وتحصيل واع لكل ما يسمع ، وحفظ لكل ما يجري حوله ٠

ولقد ذكر بعض الرواة أنه كان يعرف ألفاظاً كثيرة من الفارسية ، والرومانية ، وان لذلك شاهداً من كتبه للرومان ، فقد جاء في ذلك الكتاب : « وأسلم تسلم ، والا فعليك اثم الأرمسيين » ، وهذا لفظ روماني استعمل في معناه الدقيق ، وهم العامة والزراع وغيرهم من الدهماء ٠

وان تعلمه لهجات العرب وفوارق لغاتهم يدل على أن الله تعالى ، كان يعده لهذه الرسالة الالهية العامة ، ولقد ساق القاضي عياض شواهد من كتبه عليه السلام الى همذان ، ووائل بن حجر ،ووازنها بكلام قريش في الصدقات ٠

ثم يقول القاضي عياض في الشفاء :

وأما كلامه المعتاد وفصاحته المعلومة ، وحكمه المأثورة ، فقد ألفت فيها الكتب ، ومنها ما لا يوازي فصاحة ،ولا يبارى بلاغة كقوله : « المسلمون تتكافأ دماؤهم ، ويسعى بذمتهم أدناهم، وهم يد على من سواهم » ٠ وقوله : (الناس كأسنان المشط) ٠ (والمرء مع من أحب) ٠ (ولا خير في صحبة من لا يرى لك ما ترى له) ، (الناس معادن)(وما هلك امرؤ عرف قدره) ٠ (والمستشار مؤتمن) ٠ (ورحم الله عبداً قال خيراً فغنم أو سكت فسلم) وقوله (أسلم تسلم يؤتك الله أجرك مرتين) وقوله : (ان أحبكم الي

---

(١) الشفاء ص ٤٤١ ٠

وأقربكم مني مجالس يوم القيامة أحسنكم أخلاقا ، الموطئون أكنافا الذين يألفون ويؤلفون) • وقوله :(ولعله كان لا يتكلم بما لا يعنيه ، ولا يبخل بما لا يغنيه) وقوله : (ذو الوجهين لا يكون عند الله وجيهاً) ، (ونهيه عن قيل وقال ، وكثرة السؤال ، واضاعة المال ، ومنع هات وهات ، وعقوق الأمهات ووأد البنات)وقوله : (اتق الله حيثما كنت ، وأتبع السيئة الحسنة تمحها ، وخالق الناس بخلق حسن) ، (وخير الأمور أوسطها)، وقوله : (أحبب حبيبك هوناً ما عسى أن يكون بغيضك يوما ما) وقوله : (الظلم ظلمات يوم القيامة) ، وقوله في بعض دعائه : (اللهم اني أسألك رحمة من عندك تهدي بها قلبي وتجمع بها أمري ، وتلم بها شعثي ، وتصلح بها غائبي ، وترفع بها شاهدي ، وتزكي بها عملي ، وتلهمني بها رشدي ، وترد بها ألفتي ، وتعصمني بها من كل سوء ،اللهم اني أسألك الفوز عند القضاء ، ونزل الشهداء ، وعيش السعداء ،والنصر على الأعداء) • هذا ما روته الكافة عن الكافة من مقاماته ومحاضراته، وخطبه ، وأدعيته ، ومخاطباته (١)•

ولقد ذكر من بعد ذلك القاضي عهوده عليه الصلاة والسلام التي كان يعاهد بها القبائل ، والهدنات التي يهادن بها ،فانها بلغت من أحكام المواثيق ، ودقة الشروط مالا يصل اليها تحرير كاتب ،ولا توثيق معاقد ، فانها بلغت مرتبة لا يقاس عليها ، ولا تحاكى ، وسبق فيها سبقاً بعيداً لا يقدر قدره •

وذكر أن لمحمد بن عبد الله عليه الصلاة والسلام عبارات لم يسبق بها ، فقال رضي الله تعالى عنه •

(وقد جمعت من كلماته التي لم يسبق اليها ، ولا قدر أحد أن يفرغ في قالبة عليها ، كقوله : حمي الوطيس ،ومات حتف أنفه ، ولا يلدغ المؤمن من جحر مرتين • السعيد من وعظ بغيره) (٢) •

وهكذا يثبت القاضي عياض فصاحة الكلم النبوي ، والبلاغة المحمدية بما ساق من عبارات جامعة ، ومعان رائعة وألفاظ ينبثق منها النور ، وتضبط بها حقائق هذا الوجود •

---

(١) الشفاء ج ١ ص ٤٦ •
(٢) الكتاب المذكور ص ٤٦ •

١٣٣ ـ وأننا ان تركنا أقوال الذين شاهدوا وعاينوا من صحابته والذين رووا المنقول في سيرته ، وعمدنا الى الأحاديث المدونة الصادقة النسبة ،والتي رواها العدول طبقة بعدطبقة ، وأردنا أن نتعرف نسق بيانه من عباراتها ، ومحكم معانيها من ألفاظها ، لوجدنا من بعض ما يتبين في ذلك النسق :

(أ) أن اللفظ يجيء سهلا ، نجدفيه الجمال الطبيعى ، نجد الألفاظ متناسقة يأخذ بعضها بعجز بعض ، مع الايجاز ، واحكام المعنى ، والاتجاه الى مقصد القول ، وتصوره ، أحيانا بالحقيقة ، ويكون لها جمال كجمال الطبيعة ، اقرأ ان شئت قوله عليه السلام ، في الدعوة الى القناعة ،والرضا بالقليل ، وعدم اللجاجة التي تؤذي ٠ « ليس الغنى عن كثرة العرض ، ولكن الغنى غنى النفس » وقوله في الدعوة الى ضبط النفس : « ليس الشديد بالصرعة انما الشديد من يملك نفسه عند الغضب » وهكذا التعبير السهل العميق في معناه يسري في كلام رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم فى كل توجيهاته ، ولذلك سرعان ما تحفظ ،فهو كلام يقال ليحفظ ٠

(ب) وان من خصائص البلاغة النبوية أنها لا تعلو على العقول الفطرية، فهي تدركها في أيسر كلفة مع جلال المعنى وعمقه وقوة نفوذه في النفوس، والخاصة يجدون فيه علم مالم يعلموا ،انظر الى قوله عليه السلام في بيان وحدة الأمة الاسلامية وما ينبغي لتعاونها : « المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضا » وقوله : « مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم ، كمثل الجسد اذا اشتكى عضو منه تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى » واقرأ قوله عليه السلام في المعاهدات التي تعهد ، والنفوس على أحقادها ولا تستل منها سخائمها : « هدنة على دخن » فان كل انسان يفهم أن القلوب فاسدة ، وأن الصلح الظاهري ، لا يصيب الأحقاد التي طويت عليها القلوب ، ومثل قوله عليه السلام في فضل العمل،وأن يكفى كل انسان مئونة نفسه ، ويستعد لمعونة غيره للاستعانة به « اليد العليا خير من اليد السفلى » وقوله في الأمر لا يختلف فيه : « ولا ينتطح فيه عنزان»وقوله عليه السلام في توزيع خيرات الله تعالى في أرض الله ، كل أرض بحصتها من الرزق « كل أرض بسماتها » وقوله في الرفق بالنساء وقد سار السائق يسوق رجالهن بعنف: « رويدك رفقا بالقوارير » ٠

وان هذه التعابير جلها جديد في العربية لم يسبق بها في قول قائل ، وهي واضحة المعنى بينة المقصد، لاتعلو على العامة ، ولا تجفو عنها آذان الخاصة بل كل الناس يجد فيها علما لم يكونوا به عالمين ٠

(ج) أن كلامه عليه السلام من جوامع الكلم ، فيه حكمة ، وفيه ألفاظ قليلة ومعان جديدة لم تكن معروفة ٠ انظر الى قوله عليه السلام ، وقد سئل : أنحاسب على ما تنطق به ألسنتنا ٠ فقد قال عليه السلام مجيبا ، « وهل يكب الناس على مناخرهم الا حصائد ألسنتهم » وقوله في صلة الرحم عند المنابذة والقطيعة : « ليس الواصل بالمكافىء ، انما الواصل من يصل رحمه عند القطيعة » ومثل قوله : « رحم الله عبداً قال فغنم أو سكت فسلم » ٠

(د) وانه من الظواهر العامة في كلامه عليه السلام أنه يخاطب العقل والوجدان من غير استكراه للالفاظ أو تكلف في المعاني ، بل كل ذلك يجري سهلا طيبا قيما ، فيه ارشاد وتوجيه ، اقرأ قوله عليه الصلاة والسلام يدعو المؤمنين الى أن يكونوا ايجابيين في أقوالهم وأفعالهم ، لا يتبعون من غير تفكير : « لا يكن أحدكم امعة يقول ان أحسن الناس أحسنت وان أساؤوا أسأت ، ولكن وطنوا أنفسكم ان أحسن الناس تحسنوا ، وان أساؤوا فتجنبوا الاساءة » ٠

(هـ) خلو كلامه عليه السلام من الصناعة البديعية ، فهو بديع في ذاته من غير صناعة ، وقد يجيء أحيانا في كلام الرسول بعض السجع ، ولكنه سجع غير مقصود ، بل هو من احكام القول ، فمثلا قوله عليه السلام : « رحم الله عبداً قال فغنم أو سكت فسلم » لا شك أن فيه سجعاً، أو ما يقرب منه ، ولكن التكلف غير موجود ، وان كل لفظ منه موضوع في معناه ، لو أردت أن تغيره ما طاوعك المعنى ، فهل يمكن تغيير كلمة غنم مع ما فيها من ثروة في المعاني بغيرها يؤدي مؤداها ، ويكون في ايجازها ، ونسقها ، وكذلك الأمر اذا أردت استبدال سلم مع ما يرمى اليه من سلامة العرض واللسان عن لغوه ، وتوفير العقل ، والابتعاد عن لجاجة القول ، فهو عليه السلام ، لا يقول الا حكما ، ولا ينطق الا فضلا ، وتلك غاية قوله ، فان كانت حلية ، فهي الحلية التي لا تكلف فيها ، ولا استكراه في نسقها ،

أو محاولة الصناعة التي تغطي الكلام الفطري ، وتغشاه بغواش من ضجيج الأوزان .

وان الجمال الفطري في القول ، والحسن اللفظي من غير تحسين ، بل السجع الذى يكون كسجع الحمام . يأتى من غير اعمال ولا قصد اليه ، حتى في بيان الحقائق الشرعية ، ودقيق المعاني الفقهية ، ففي بيان الشروط الباطلة المقترنة بالعقود ، وأساس البطلان فيها يقول عليه السلام : «ما بال أقوام يشترطون شروطاً ليست في كتاب الله . ما كان من شرط ليس في كتاب الله تعالى فهو باطل ، وان كان مائة شرط ، قضاء الله حق ، وشرط الله تعالى أوثق ، وانما الولاء لمن أعتق » .

ألا ترى أنه كلام جميل جاء في نسق محكم، والحسن فيه باد من غير تحسين، والجمال فيه بارز من غير تجميل ، وهو مع كل هذا فقه عميق ، يدرك مغزاه الفقهاء ، ويعرف معناه من لم يبلغوا في الفقه شأوا .

وانه لواضح كل الوضوح أنه جاء عفو الخاطر ، ولم يكن باجهاد فكر ، وتجميع ألفاظ ، وتنسيق كلمات ، انما كان المعنى الجيد القاصد في اللفظ المحكم المصور الواضح .

(و) وانه أحيانا يجيء كلامه القصصي الذي يحكي قصة في أسلوب تصويري ، تنطق فيه حقائق القصة وأبواب العبرة في كلام مرسل سهل ، يمكن القارىء أو السامع من أن يصل الى غايتها، ويدرك معاني هدفها الصادق من غير اسراف في اللفظ ، ولا نقص في الأداء ، ولكن وفاء وكمال في غير حشو ، ولا لغو ، واليك قصة أصحاب النار ، كما روى البخارى ، وغيره «بينما ثلاثة نفر يمشون فأخذهم المطر ،فآووا الى غار في جبل ، فانحطت على فم غارهم صخرة من الجبل ، فانطبقت عليهم فقال بعضهم لبعض : انظروا أعمالا عملتموها صالحة لله ، فادعوا الله تعالى بها لعل الله يفرجها عنكم ، فقال أحدهم . اللهم انه كان لي والدان شيخان كبيران ، وامرأتي ، ولي صبية صغار أرعى عليهم ، فاذا رحت عليهم حلبت فبدأت بوالدتى فسقيتها قبل بني ، وانه نأى بي ذات يوم الشجر ،فلم آت حتى أمسيت فوجدتهما قد ناما، فحلبت كما كنت أحلب فجئت بالحلاب،فقمت عند رءوسهما ، أكره أن أوقظهما

من نومهما ، وأكره أن أسقي الصبية قبلهما والصبية يتضاغون عند قدمي ، فلم يزل ذلك دأبي ودأبهم حتى طلع الفجر ، فان كنت تعلم أني فعلت ذلك ابتغاء وجهك ، فأخرج لنا منها فرجة نرى منها السماء •

ففرج الله منها فرجة ، فرأوا منها السماء •

وقال الآخر اللهم انه كانت لي ابنة عم أحببتها كأشد ما يحب الرجال النساء ، وطلبت فأبت ، حتى آتيها بمائة دينار فتعبت حتى جمعت لها مائة دينار فجئتها بها •

فلما وقعت بين رجليها قالت يا عبد الله اتق الله ، ولا تفتح الخاتم الا بحقه، فقمت عنها ، فان كنت تعلم أني فعلت ذلك ابتغاء وجهك ، فأخرج لنا منها فرجة ، ففرج لهم •

وقال الثالث : اللهم اني كنت استأجرت أجيرا بفرق أرز (١) ، فلما قضى • قال أعطني حقي ، فعرضت عليه ، فرقه فرغب عنه ، فلم أزل أزرعه ، حتى جمعت منه بقراً ورعاءها • فقال اتق الله تعالى ، ولا تظلمني حقي • قلت اذهب الى تلك البقر ورعائها ، فخذها ، فقال : أتهزأ بي ، اتق الله ولا تستهزىء بي ، فقلت اني لا أستهزىء بك خذ لك البقر ورعاءها ، فأخذه فذهب •

فان كنت تعلم أني فعلت ذلك ابتغاء وجهك ، فرج لنا ما بقي ، ففرج الله ما بقي •

واننا نقف عند القصة الصادقة ، فانا نجد العبارات السهلة المستقيمة ، وبجوارها التصوير للأفعال التي تنبعث من القلوب ، ويقصد بها فاعلها وجه الله تعالى ، والحديث واضح فيه مع صدق القصة العبر والمعاني التي ذكرها الرسول صلى الله تعالى عليه وسلم • ومنها يبرز :

أولا : أن الأعمال بالنيات ، وأن الله تعالى لا يقبل الا الطيب من الأعمال، ولا يكون العمل طيباً الا اذا قصد به وجه الله ، وابتغاء ما عنده لا يريد جاها،

---

(١) جاء فى القاموس المحيط الفرق بسكون الراء وفتحها وفتح الفاء مكيال بالمدينة ثلاثة أوسق أو ستة عشر رطلا • وجمعه فرقان والخلاصة أنه وعاء لكيل الحب من أرز وغيره •

ولا شرفاً ولا مالا ، انما يريد الله تعالى، كما قال عليه السلام : « ولا يؤمن أحدكم ، حتى يحب الشيء ، لا يحبه الا الله » ٠

وثانيا : أن قدر الله تعالى يسير على نظام محكم في علمه ، وبحكمة بالغة يقدرها ، وأنه سبحانه ينزل الفرج ، لمن يتجه اليه ، وأنه يجيب دعوة المكروب ، لخير قدمه ، ولاخلاص قلبه، وابتغاء ما عند ربه ، كما قال تعالى :

﴿ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَـٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ وَلَـٰكِن كَذَّبُوا۟ فَأَخَذْنَـٰهُم بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٩٦﴾ ﴾ (١)

ويدل ثالثا : على أن الله تعالى يجازي المؤمن الفعال الذي يتجه فيها الى العمل الايجابي الذي ينفع الناس ، وخصوصا الأقربين ، كما رأيت في الخير الذي قدمه الرجل الأول ، من احسان الى أبويه ، وتقديمهما على أولاده الصبية الصغار ، وتركهم يتضاغون ، ولا يزعج أبويه ، وان ذلك هو الايثار ، لأن الأولاد قطعة منه ، فتقديمهما تقديم لنفسه ، فتقديمهم أثرة ، وتقديم أبويه ايثار ، فهو ممن ينطبق عليه قول الله تعالى

﴿ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ۚ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٩﴾ ﴾ (٢)

ويدل رابعاً : على أن الكف عن الشر بعد أن تتوافر دواعيه وتهجم أسبابه هو من الأعمال الايجابية التي يثاب عليها المرء ، فالفضيلة ايجابية ، وليست سلبية ٠

ويدل خامسا : على أن الوفاء بالحق فضيلة الاسلام ، وأنه ليس بقريب من الله من أكل حقوق غيره ، وأقرب الناس من أعطى كل ذي حق حقه ، وتدل القصة في ضمن ذلك على أن أجر العامل يجب أن يوفى ، وأن يعطى العامل أجره قبل أن يجف عرقه ، فان الله لا يضيع أجر من أحسن عملا ٠

---

(١) الاعراف ٠ (٢) الحشر

(ز) هذا وان احكام القول ليبلغ في الأخلاق والمعاهــدات التي عقــدها النبي عليه الصلاة والسلام أعلى البلاغة ، فهو يعقد المعاهــدات ، لا يترك فيها حقاً له الا سجله في عبارات واضحة مانعة من الجهالة التي تفضي الى نزاع في فهمها ، ولا يترك فيها واجباً عليه الا دونه في عبارات صريحة لا التواء فيها ولا تحيف فيها ، بل هي صريحــة كاملة الشروط ، لأن مقاطع الحقــوق عند الشروط .

ولو أن ساسة هذا العصر درســوا مخلصين وثائق المعاهدات التي أمــلاها النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، وأرادوا متجهــين الى الحق أن يحــرروا معاهدات خالصة لوجه الحق ، لا يجدون ثروة يأخذون منها الا معاهدات النبي الأمي ، وسيكون لذلك فضل من الكلام عند التعرض لسياسته ان شاء الله تعالى

الخلق الكامل

(أ) الرفق :

١٣٤ ـ قال الله تعالى لنبيه الكريم صلى الله عليه وسلم ٠

﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ۝٤﴾ (١)

ولقد قال صلى الله تعالى عليه وسلم فيما رواه الامام أحمد في مسنده : « انما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق » ولقد قال عليه السلام : « أدبني ربي فأحسن تأديبي » ٠

وكمال الخلق لفظ قصير يتناول في معناه كثيرا ، فهو يشمل حب الفضيلة والتمسك بها والقيام بحقها ، ويشمل حسن العشرة ولطف المودة ، ويشمل صلة الرحم والاحسان الى الجار القريب والبعيد ، ويشمل حب الناس والرفق بهم ، ويشمل التواضع ، وتوطىء الكنف لهم ، ويشمل البشر ، ولقاء الناس به ، ويشمل الأناة والحلم ، ومنع الجفوة ، ويشمل كظم النفس واجتناب الغيظ ، ويشمل الحياء واقراء السلام على من عرف ومن لم يعرف ، ويشمل الجود بما عنده ، والزهد فيما ليس عنده ، ويمنع الغلظ والفظاظة ، ويشمل العفو عن المسيء ، واقالة عثرته ، ويشمل الرد على المسيء بالاحسان ، ويشمل تخليص القلب من الاحن ، ويشمل الاعراض عن الجاهلية ، وترك المهاترة ، والمماراة والمجادلة ، ويشمل التيسير ، وترك التعسير ، والتبشير ، دون التنفير ٠

---

(١) القلم ٠

وفي الجملة الخلق الحسن يشمل تهذيب النفس ، وتربية الوجدان ، والتآلف مع الناس ، والقرب اليهم ،وتوطيء الكنف لهم ، والتواضع والرفق بالضعفاء ، والقرب منهم ، والألم لآلامهم ، والسرور لسرورهم ، والاندماج فيهم من غير تأثر ، ولا تجانف لاثم ٠

وان الخلق الحسن يؤثر في الدعوة الى الحق ، بما لا يؤثر البرهان وضروب الأقيسة ٠

وانه من أوصاف النبوة ، ولقد قال الله تعالى في ثمرات الخلق المحمدي

﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ ۖ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ ۖ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ ﴿١٥٩﴾ ﴾ (١)

(ب) العفو :

١٣٥ ــ ولقد هيأ الله تعالى محمدا صلى الله تعالى عليه وسلم ليكون الهادي الى الحق ، والى صراط مستقيم،فوهبه الخلق الكامل ، الذي يؤلف القلوب ، ويجمع النفوس ، الا من طغى واستكبر ، وآثر الهوى على الحق ،وكان قبل البعثة يحب العشير ، ويقرب الصديق ، ولا يعنت أحدا بعداوة ، بل كان الملاك الطاهر بينهم يعف عن قول الخنا وفعله ، ويبتعد عن الهوى وجموحه ، لا يعادي ، ولا يصخب ، ولا يفحش في قول أو عمل ، وهو الصادق، وهو الأمين ، وهو الذي يعين الكل ،ويغيث الضعيف ، ويعين على نوائب الدهر ، يعفو عمن ظلمه الا أن يكون في ذلك انتهاك لحرمة من حرمات الله ، أو اعتداء على فضيلة ٠

اذا كان المسيح عيسى بن مريم قد كان خلقه السماحة يعفو عن المسيء كذلك خلق النبيين عامة ، وخلق محمد بن عبد الله خاصة ، وكان ذلك ايجابيا،

---

(١) آل عمران ٠

وليس سلبيا ، يفعل الخير ويجتنب الشر ، وكان التاجر السمح الصبور ، حتى انه يروي بعض القرشيين أنه بايع النبي صلى الله تعالى عليه وسلم بياعة قبل البعثة ، وبقي شيء لم يأخذه من محمد ، فانتظره النبي عليه السلام ثلاث ليال ، وكان يذهب فيقيم في مكانه الذي غادره فيه ، حتى لا يضل فلا يهتدي اليه ، فيضيع حقه الثابت له ٠

ولقد امتدت هذه الأخلاق الى ما بعد النبوة ، فكانت دعامة الدعوة فسار بسنة العفو عن الاساءة والاعراض عن الجاهلية استجابة لقوله تعالى :

﴿ خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿١٩٩﴾ ﴾ (١)

وقد كان ذلك الخلق يجذب الناس الى الايمان من غير دليل ولا برهان ، وان كان الحق واضحا في ذاته ، وزاده وضوحا خلق النبي الكريم ، ولنذكر واقعة كان العفو فيها داعية الاسلام ٠

تصدى غورث بن الحارث ليفتك برسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم وهو نائم تحت شجرة قائلا ، والناس قائلون ، فلم ينتبه رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم الا وهو قائم ، والسيف مصلت على رأسه في يد الرجل ، وهو يقول : من يمنعك مني ؟ ، فقال عليه السلام بقلب مؤمن ولسان صادق : « الله » ، فسقط السيف من يد الرجل ، فأخذه النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، وقال : « من يمنعك مني » ، قال : كن خيرا آخذ ، فتركه وعفا عنه ٠ فدنا قلب الرجل بعد نفور ، وصار داعية لمحمد صلى الله تعالى عليه وسلم بعد أن كان يريد قتله فقد ذهب الرجل الى قومه يحببهم في محمد عليه السلام ودينه ، يقول : « جئتكم من عند خير الله » ، ولقد قال في مجمل أخواله هند بن أبى هالة ، وهو ابن أم المؤمنين خديجة من غير النبي ٠

كان رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم : يخزن لسانه ٠ الا بما يعنيهم ويؤلفهم ولا ينفرهم ، ويكرم كريم كل قوم ويوليه عليهم ، ويحذر الناس ويحترس منهم ، من غير أن يطوي عن أحد منهم بشره ، ويتفقد أصحابه ،

---

(١) الاعراف ٠

ويسأل الناس عما في الناس ، ويحسن الحسن ويقويه ، ويقبح القبح ويوهيه، معتدل الأمر غير مختلف ، لا يغفل مخافة أن يغفلوا أو يميلوا ، لكل حال عنده عتاد ، لا يقصر عن الحق ، ولا يجوزه • الذين يلونه من الناس خيارهم ، أفضلهم عنده ، أعمهم نصيحة، وأعظمهم عنده منزلة أحسنهم مواساة (١) •

وقال هند هذا في مجلسه : كان اذا انتهى الى قوم جلس حيث ينتهى به المجلس ، ويأمر بذلك ، ويعطي كل جلسائه نصيبه ، لا يحسب جليسه أن أحدا أكرم عليه ، من جالسه ، أو قاوله في حاجة ، صابره ، حتى يكون هو المنصرف ، ومن سأله حاجة لم يرد الا بها أو بميسور القول ، وقد وسع الناس بسطه وخلقه ، وصاروا عنده في الحق سواء •

مجلسه مجلس حكم وحياء وصبر وأمانة ، لا ترفع فيه الأصوات ، ولا تؤبن فيه الحرم ، ولا تغشى فيه فلتاته، متعادلين يتفاضلون بالتقوى متواضعين يوقرون فيه الكبير ، ويرحمون الصغير يؤثرون ذا الحاجة ويحفظون الغريب (٢) •

ويقول : « كان رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، دائم البشر سهل الخلق لين الجانب ليس بفظ ولا غليظ، ولا صخاب ولا فحاش ولا عياب ولا مزاح ، يتغافل عما لا نشتهي ، ولا يوءس منه راجيه ولا يخيب فيه • قد ترك نفسه من ثلاث : المراء والاكثار ومالا يعنيه ، وترك الناس من ثلاث • كان لا يذم أحدا ، ولا يعيره ، ولا يطلب عورته ، ولا يتكلم الا فيما يرجو ثوابه• اذا تكلم أطرق جلساؤه ، كأنما على رءوسهم الطير ، فاذا سكت تكلموا ، ولا يتنازعون عنده ، يضحك مما يضحكون منه ، ويتعجب مما يتعجبون منه ، ويصبر للغريب على الجفوة في منطقه ومسألته ، حتى ان أصحابه يستحملونه في المنطق (٣) اذا رأيتم طالب حاجة ، فارفدوه • ولا يقبل الثناء الا من مكافيء ولا يقطع على أحد حديثه ، حتى يجوز ، فيقطعه بانتهاء

---

(١) البداية والنهاية جـ ٦ ص ٣٣ •

(٢) البداية والنهاية جـ ٦ ص ٣٣ •

(٣) الكتاب المذكور وابن الحرم معناها المامه بها ، ولا يفشى فلتاته لا تستر •

أو قيام ٠٠ ويقول كان سكوته على أربع : الحلم ، والحذر ، والتقدير ، والتفكر ، فأما تقديره ، ففي تسويته للنظر والاستماع بين الناس ، وأما تفكره ، ففيما يبقى ويغني ، وجمع له الحلم والصبر ، فكان لا يغضبه شيء ولا يستفزه ٠

(ج) أخلاقه خارقة للعادة:

١٣٦ ـ ولنقف وقفة في تجزئة ذلك القول البليغ ، ودلالته على ما وراءه مما ينبغي أن تكون عليه أخلاق الداعي الى الحق ، وصاحب الرسالة التي حملها الله تعالى ، وأثر هذه في الاجابة ٠

لقد قال بعض الكتاب معدداً الخوارق التي صاحبت الدعوى المحمدية ، قال ان من أعظم الخوارق التي كانت لمحمد صلى الله تعالى عليه وسلم أخلاقه، فكانت في ذاتها أمراً خارقا للعادة بين بني الانسان، فهي أعلى من أخلاق الملائكة ، لأن الملائكة حسنت أخلاقهم بمقتضى كونهم :

﴿ لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ۝٦ ﴾ (١)

وليس فيه روحانية عيسى عليه السلام المجردة ٠

بل كانت فيه الروحانية الانسانية ، بما في الانسان من مطالب الجسم ،وتجرد الروح فمحمد بين الناس الانسان الذي تتجلى فيه الانسانية الكاملة ، وفي طبعه روحانية ارادية ، فكل ما فيه من أخلاق للتربية والارادة ، دخل في تكوينه ، فهو ليس حصوراً ، ولكنه عفيف لم يتدل الى خنا قط ، ففضيلته كف للشر ، وتجنب له ، والعفة من حصور ، ليست كالعفة ممن له شهوات تغالبه ، وأهواء تعاوده ، وبمعركة بين القوتين تكون النصرة للعفة ، والغلب للفضيلة ، وما يكون الوصول اليه بغلاب يكون أعلى وأنفس ، مما يجيء رخيصاً سهلا ٠

١ ـ وان من أول صفات محمد بن عبد الله الذي ذكره ربيبه هند ، أنه يخزن لسانه ، أي يكون لسانه كأنه في خزانة قد ستر لا يظهر الا لخير يرتجيه، فلا يشجع على نفرة ، بل انه لا ينطق الا فيما يعني الذين يخاطبهم ،ويفيدهم، ويكون فيه تأليف لقلوبهم وتقريب لنفوسهم ، وتأنيس غريبهم ، ويأمر

---

(١) التحريم ٠

باعطاء ذي الحق ، ولا يتكلم في مراء ،ولا يذم أحداً ولا يكثر في قول ، خشية سقط اللسان ، لا يعيب الحرمات ، ولا يقطع على أحد حديثه حتى يشبع نهمة القول ، فاذا تكلم هو كان كلامه فصلا،وكان قوله حكما ٠

وجملة القول في ذلك أنه قد استولى على لسانه ، فلا يتكلم الا اذا لزم الكلام لرفع حق ، أو خفض باطل ، أو تأليف ، أو زرع مودة ، أو اسداء معروف ، فلسانه ليس خارجا على ارادته ، ولكنه مكملها ، ويسير تحت سلطانها ، وارادته للحق ٠

٢ ـ والصفة الثانية من أخلاقه أنه يأتلف مع أصحابه ،ويمتزج احساسه الفاضل باحساسهم لينساب الى نفوسهم،يكرم كريمهم،ويرفع خسيسة صغيرهم، حتى يحس بأنه منه ، ويوزع محبته بينهم ، ويعطي نفسه لكل واحد منهم حتى انه يظن كل واحد منهم أنه موضع الرعاية منه ، واذا رأى أمراً حسناً أعلن حسنه ، وان رأى قبيحاً نبه اليه في رفق الهادي الأمين الذي يؤلف ، ولا ينفر ، ويقرب ،ولا يبعد، لا يسكت عن باطل٠

وهو بينهم اليقظ الذي لا يغفل مخافة أن يغفلوا أو يميلوا ، لا يطوي نفسه لأحد على شر ، وينقذهم ، وكان حريصاً يحذر من يتوهم منه شرا ، ويحترس منه من غير تقطيب وجه ، أو غلظة في قول ، بل هو في كل أحواله ، الأليف المألوف ٠ يفتح قلبه لهم ، ليقول خيارهم ما تنطوي عليه نفوسهم ، ويستحي غيرهم من أن يظهر خبيئة نفسه ، بل يبقى حبيساً لا يظهر وربما خبا فيزول ، ويستقيم أمره فان بعد الرذيلة عن النور والماء يذبلها ، بل يذهبها ٠

٣ ـ والصفة الثالثة التواضع الكريم الذي لا ضعة فيه ولا ذلة ، فهو اذا دخل على جماعة جلس حيث ينتهي المجلس وحث أصحابه على ذلك ، ويتطامن لهم في المجلس ، ويمسهم بجناح الرحمة ، ويسوي بينهم ، وبشره مستمر ، يلين جانبه لهم ، ويغض الطرف عما لا يحسن،الا أن يكون في السكوت ترك لواجب الارشاد ، وان أرشد ففي رفق يكتفي بالاشارة ٠ فان لم تكف كان التعريض فان لم يكف كان التنبيه في تعميم ، فاذا رأى بعض الناس يسيء ، لا يواجهه بالاساءة ، بل يقول ما بال أقوام يفعلون كذا وكذا ، ولا شك أنه

اذا كان التوبيخ فيه معنى العموم كان ألطف ، وكان مع ذلك أفعل ، وأبلغ أثرا ·

ولا يمزح الا قليلا ، وان مزح فبعبارة فيها حكمة ، ولا تخلو من بيان كقوله لعمته صفية : « لا يدخل الجنة عجوز » فبكت ، فقال عليه الصلاة والسلام « تسكن كواعب أترابا » ألا ترى في هذا مداعبة لطيفة تخبر عن حال من أحوال الآخرة ·

٤ ـ الصفة الرابعة بعده عن الغلظة والجفوة ، ليس بفظ ولا غليظ، ولا عياب ، ولا متتبع للعورات ولا صخاب ولا فحاش ، فلا يفحش في القول ، وان كان صدقا ، فان النطق بهجر القول ، ولو كان وصفاً صادقاً لمن يرمي به ، فانه لا يصح النطق به الا اذا ترتب عليه ضياع حق أو نصر باطل ، فانه يذكر موضوعه ، ومن غير تخير للفاحش ·

٥ ـ الصفة الخامسة : الامتناع عن الذم امتناعا مطلقا ، الا أن يضطره الحق اضطرارا ، فانه يتكلم بالكناية ،ولا يرتضي العبارة ستراً ، وابعاداً عن الفحش ، فلا يتكلم الا فيما يرجو ثوابه ، وما يجلب خيراً للناس ·

٦ ـ والصفة السادسة : التي يدل عليها هذا الكلام من ذكر أخلاقه ، أنه عليه السلام كان يلتزم السكوت كما أشرنا ، ولكن ليس سكوت العي الحصر ، بل سكوت من يفكر في القول قبل أن ينطق ، ومن يحذر من أن يشيع عنه مالا يليق بمثله ، وهو يقدر ، وقد يكون سكوته حلما وعقلا ، واغضاء ، واعفاء عمن يكون في قوله سوء ·

٧ ـ والصفة السابعة : أنه لا يغضب لشيء يتصل بذاته ، ولا يستفزه شيء يتعلق به ، بل لا يغضب الا لله أن تنتهك حرماته ، فاذا كان ذلك لا يسكت حتى يقام حد الله ·

ما وصفه به الواصفون :

١٣٧ ـ هذا ما وصفه به هند بن أبي هالة ، وقد كان رجلا وصافا للرجال ، لا تفوته اللمحات ، ولا تختفي عليه النظرات ، وتنكشف دخائل النفوس من العبارات ، وقد لخصنا لك بعض ما تنبىء عنه الكلمات ·

ولننقل بعضا من قول من عاشروه وخالطوه ، لتعرف كيف كان عشيراً وفيا، وذا خلق هنيء لا جفوة ، ولا جفاء ·

لقد روى عروة بن الزبير عن خالته أم المؤمنين عائشة ، وهي التي عاشرته، وهو يحمل أعباء الانسانية كلها ويخوض الحروب ويتنقل بين ميادينها ـ أنها قالت في أخلاق محمد صلى الله تعالى عليه وسلم : « ماضرب رسول الله تعالى بيده خادما قط ولا امرأة ولا ضرب بيده شيئا الا أن يجاهد في سبيل الله ، وما خير بين شيئين الا كان أحبهما اليه أيسرهما الا أن يكون اثماً ، ولا انتقم لنفسه من شيء يؤتى اليه ، حتى تنتهك حرمات الله ، فينتقم لله عز وجل » .

ولقد وصف أبو هريرة صاحبه ، فقال :

كان يقبل جميعا ، ويدبر جميعا بأبي وأمي ، لم يكن فاحشا ولا متفحشا، ولا صخابا في الأسواق .

وان هذا الوصف لذلك الصحابى الجليل ، ينبىء عما كان عليه السلام من معاملة للناس ، وقد وصفه في هذا بثلاث صفات :

أولا : أنه في لقائه يقبل بنفسه كلها على من يلقاه ، فلا يلقاه لقاء جانبيا أو يكلمه بطرف من لسانه ، أو يستقبل استقبال المستهين ، بل هو واضح في اقباله ، كما هو واضح في ادباره ، فان تركه لا يتركه الا بعد أن يتم حديثه ، وعندئذ يتركه ، فلا يبقي حديثاً لم يستمع اليه ، ولم يستمع اليه وهو يولي مدبرا .

والصفة الثانية : أنه لم يكن يجبه الناس بفحش ، أو بخروج القول عن جادته ، وقد أشرنا الى هذا في وصف ربيبه هند بن أبي هالة .

الصفة الثالثة : أنه لا يصخب ، ولا يغاضب ، ولا يجادل في الأسواق ، بل كان كل شيء فيه على سمت حسن وجلال .

وقد أشرنا الى أنه عليه السلام كان كما يستفاد من وصف ربيبه له متواضعا أبلغ ما يكون التواضع ، ولقد خير عليه السلام بين أن يكون نبياً ملكا ، أو نبياً عبداً ، فاختار أن يكون نبياً عبداً .

هذا هو النبي الذي بعثه الله تعالى رحمة للعالمين، وقد بعثه في قوم شمس، فيهم عنجهية جاهلية وغطرسة نسبية ،يخير نبيهم المبعوث لهم بين جبروت

الملك ، ورق العبد ، فيختار رق العبد ،لأنه يريد أن يقرب من النفوس ، لا أن يعلو عليها ، فالرشاد يجيء من القريب منهم ، ويبتعد عمن يستعلي عليهم ·

روى أبو أمامة رضي الله تعالى عنه قال : « خرج علينا رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم متوكئاً على عصا فقمناله ، فقال : لا تقوموا كما يقوم الأعاجم يعظم بعضهم بعضا ، وقال : انما أنا عبد آكل ، كما يأكل العبد وأجلس كما يجلس العبد » ·

وقد جاء في كتاب الشفاء للقاضي عياض : « وفي حديث عمر رضي الله تعالى عنه أن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم قال : « لا تطروني كما أطرت النصارى ابن مريم ، انما أنا عبد ، فقولوا عبد الله ورسوله » وعن أنس رضي الله عنه أن امرأة كان في عقلها شيء ، جاءته ، فقالت : ان لي اليك حاجة « قال اجلسي يا أم فلان في أي طرق المدينة شئت اجلس اليك ، حتى أقضي حاجتك » (١) ·

ولقد كان رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم في أهله موطأ الكنف ، يعين أهله في مهنة البيت ، ولا يستنكف ،يغسل ثوبه ويحلب شاته ، ويرقع ثوبه، ويخصف نعله ، ويخدم نفسه ، ويعقل البعير ويعلف ناضحه ، ويأكل مع الخادم ، ويحمل بضاعته ·

وكانت الأمة من اماء المدينة اذا احتاجت الى من يعينها من الرجال ، ولقيت رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم أعانها في حاجتها ، حتى تقضيها، ثم انصرف عنها موفوراً غير منقوص ·

هيبته صلى الله عليه وسلم :

١٣٨ ـ ومع هذا التواضع الكريم غير الذليل ، كانت هيبته في القلوب أشد ما تكون هيبة الرجل الذي اختاره الله تعالى رسولا للعالمين ، وما كان تواضعه الا لما يعلمه من فرط هيبته ،فيلطفها بذلك التواضع ، بل انهما نبعا من هيئة واحدة فهما متآخيتان ، بل انه لا يتواضع هذا التواضع من غير أن

---

(١) الشفاء ج ١ ص ٧٦ ·

يتضع ، الا من يكون قوياً في نفسه ، لايحس بأنه ينزل الى المهانة فيما يفعل ، وفيما يدع ·

ولقد وصف الواصفون مجلس النبي عليه السلام بين صحابته بما يدل على عظيم مهابته ، وقوة وقاره ،وسمته ، فقد كان مجلسه عليه السلام يحفه الوقار لا يتكلمون الا اذا أذن في القول ، فاذا صمت صمتوا ، لا يخرجون عن قوله ، ولا يبعدون عن ارادته ، ولكن في تواضع ، واطمئنان ·

وقد كان أحياناً يحرص على أن ينزل ثم ينزل ليقرب منه الذين يحدثهم ، ويريد هدايتهم ، وأحياناً كان النساء يسترسلن في القول في مجلسه من غير أن يكون منه جفاف القول ، وهو قادر على اسكاتهن بنظراته ، ولكنه لا يرمضهن ، ولا يمنعهن ·

وقد كان يرشد بعض النسوة يوماً ،فكن يتسابقن في سؤاله ، فتصايحن عليه ، فدخل عمر رضي الله تبارك وتعالى عنه ، وهن يتصايحن في تسابق الى السؤال ، فسكتن : فابتسم رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم حتى بدت سنه ، فقال عمر رضى الله عنه : أضحك الله سنك يا رسول الله ، ما الذي أضحكك؟ فقال الرسول الكريم الرءوف الرحيم : هؤلاء النسوة كن يتصايحن علي ، فلما رأينك سكتن ، فقال عمر : أي عدوات أنفسهن أتهبنني ولا تهبن رسول الله · فقالت احداهن : « ولكنك أفظ وأغلظ » فأسكتها الرسول ، وقال القوي المهيب ، نافيا الغلظة عن صاحبه : « لا ، ان الشيطان لا يسير في فج يسير فيه عمر » ·

ولم يكن عمر أشد هيبة من النبي بل النبي المهيب المحبوب ، ولكنه يتطامن ليصل الى القلوب ، وهو لا يترك هيبته ترهب ، ولكنها هيبته ما كانت الا لترشد ، فالارشاد غايته في حاليه مهيباً ومتواضعاً ·

وان أخبار هيبته في مبدأ البعث لها صور ووقائع ، ولكن ما كان عليه السلام يسلط هذه الهيبة التي تفرض صاحبها الا نادراً ، لتكون استجابة الدعوة عن الاقتناع المجرد الذي لا يدخله رهبة ولا ترغيب الا ما يكون من رضا الله تعالى يوم القيامة ·

ولكن ان كانت المواجهة بينه وبين زعماء الشرك وجها لوجه ، ورأى فيهم استهزاء مقيتا ، وانفرد بهم ، بين بأس الله تعالى عليهم ، وقوته وما وهبه الله تعالى من هيبة ربانية ، ولنذكر من ذلك واقعتين ٠

احداهما ـ أنه يروي عمرو بن العاص أن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم كان يطوف بالبيت ، والملأ من قريش جالسون في فنائه ، فكلما مر النبي صلى الله تعالى عليه وسلم غمزوا بالقول ، فيبدو ذلك في وجهه ، وكرروا ذلك حتى أتم الطواف سبعا ، ثم التفت اليهم ، ووقف وقال لهم في قوة المؤمن، وعزمة الصادق ، وهيبة القائل : يامعشر قريش شاهت الوجوه ، وأرغم الله هذه المعاطس ، لقد جئتكم بالذبح ،أو كما قال عليه الصلاة والسلام ، فراعهم قوله وأفزعهم ، فما كان منهم أحد الا كان يرفوه بأحسن القول ، ويقول اذهب أبا القاسم موفورا ٠ ماعلمنا عليك شرأ قط ٠

ولا شك أن الهيبة الانسانية التي منحها اياه رب العالمين كانت هي الفاصلة في هذا ، وما كان للتهديد الذي ساقه عليه السلام له الأثر النفسي ، الا لصدوره عن مهيب قوي ٠

الثانية ـ أن أشد الناس طغيانا على النبي صلى الله تعالى عليه وسلم عمرو ابن هشام الذي سماه التاريخ الاسلامي بحق أبا جهل فقد كان فاجراً ، لا شرف في القول يقيده ، ولا خلق كريم يمنعه، بل كان الحقد الدفين يدفعه ، وكان النبي عليه السلام يصابره ليثير عطف الناس على الدعوة المحمدية ، يترك هذا الطاغوت في اندفاعه الى الشر وصبره له ، ولقد كان لبعض العرب دين عليه، فماطله ، ثم امتنع عن السداد فأراد أن يستعين ببعض زعماء مكة ممن هم على شاكلته ليستأدوه دينه ، فأحالوه تهكما على محمد بن عبد الله ، فذهب اليه الرجل يستعين به ، فذهب النبي عليه السلام الى بيت أبي جهل الطاغية ، وطرق الباب ، فخرج اليه ، وفرائصه ترتعد ، من هول العزمة المحمدية ، فقال له النبي عليه السلام أد للرجل دينه ، فذل كبرياؤه كبرياء الجاهلية ، وأحضر المال وسدد الدين صاغراً ،وصار هو أضحوكة الجاهليين أشباهه ٠

وكان عليه الصلاة والسلام يخفف من جأش من تناله هيبته عليه السلام،دخل، عليه رجل ، فأصابته من هيبته عليه السلام رعدة فقال عليه السلام : هون عليك ، فاني لست بملك ، أنا ابن امرأة من قريش تأكل القديد ٠

وروى أبو هريرة : دخلت السوق مع النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، فاشترى سراويل ، وقال للوزان زن وارجح أى (أوف الميزان) ، فيثب التاجر الى يد النبي صلى الله تعالى عليه وسلم يقبلها ، فجذب يده ، وقال هذا ما يفعله الأعاجم بملوكها ، ولست بملك ، انما أنا رجل منكم ، ثم أخذ السراويل • فذهبت لأحملها ، فقال صلى الله عليه وسلم : « صاحب الشيء أحق بشيئه أن يحمله » •

وقليل من الناس من يلتقي فيه التواضع والهيبة ، وان محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم قد وصل الى أسمي درجات الهيبة ، ونزل من التواضع الى درجة يقرب فيها من كل ذي حاجة وذي ضعف ، يأنس به الضعيف ويرجوه ذو الحاجة في حاجته •

ان أكثر الذين يستكبرون • ممن يحسون بضعف في نفوسهم، ولا يجدون في أنفسهم قدرة شخصية تفرض هيبتهم فيستعينون بالكبرياء وغمط الناس والتسامي عليهم ، ليعوضوا النقص ، ويخفوا الضعف ، او يخلقوا هيبة صناعية : مصدرها مال ، ان ذهب فقد ذهبوا ، أو منصب يتعالون به اذا ألقوا عنه أصيبوا بالصغار والضياع ، أما ذو الشخصية المهيبة بتكوين الله تعالى ، وبما منحها الله تعالى من علم وفضيلة وقوة نفس • فانها لا تحتاج الى المهابة الصناعية والغطرسة والاستعلاء بها على الناس ، والاستهانة بهم ، واستصغار أمورهم •

والمهابة الفطرية التكوينية المستمدة من العلم والخلق والفضيلة هي والتواضع صنوان ينبعان من معين واحد ، فهما لا يفترقان ، لأن المهابة الفطرية ليست في حاجة الى غذاء صناعي ، بل ان المهابة توجب التواضع ليكون التآلف والتكامل الجماعي •

العفو والتسامح :

١٣٩ ـ ينبعان من قلب سليم وخلق كريم ، ولقد قالت عائشة رضي الله تبارك وتعالى عنها وعن أبيها في خلق النبي صلى الله عليه وسلم : كان خلقه القرآن ، فهو يأخذ بهديه ، ويتبع منهاجه من غير عوج ، ولا التواء ، والله

تعالى يأمره بقوله :

﴿ خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿١٩٩﴾ ﴾ (١)

ويستمع الى قوله تعالى :

﴿ وَلَا تَسْتَوِى ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ ۚ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾ ﴾ (٢)

وقد هيأه الله تعالى قبل البعثة ،ليكون العفو عن هفوات الناس ، المتجاوز عن أخطائهم ، وان العفو والسماحة لا يسكنان الا قلبا خاليا من الأحقاد والأضغان ، ومن يعمل ليقود الخلق الى الحق لابد أن يكون نظره الى ما هو أمامه ولا ينظر الى الوراء ، والأحقاد والأضغان ، ومحاسبة كل امرىء على ما كان منه ، انما هي تشد صاحبها الى الوراء ، فلا يكون تفكيره الى ما يجب عليه القيام به في المستقبل ، بل يكون تفكيره في شفاء غيظ من أسقامه التي كانت في الماضي ، ومن يأتي برسالة داعيا الى الحق ، لا يكون دبري النفس يشغله الماضي عن الحاضر ، بل يكون عاملا للمستقبل .

ومحمد بن عبد الله عليه الصلاة والسلام الذي أدبه ربه فأحسن تأديبه ، والذي خلقه ليحمل أقوى رسالة ، وأعظم هداية رباه ربه على الصفح الجميل ، ليكون قلبه متجها دائما الى ما هيأه الله تعالى له ، من حمل الدعوة الى الحق ، متفرغا لها ، فما كان من احن يضعها دبر أذنه ، وما كان من واجب تفرغ له ليبلغ الرسالة على أكمل وجه ،فلا يشغل نفسه حقد ، ولا تملؤها احن، فحسك الصدور يشغل عن العمل ، ويفسد الصلات ، ويغري بالعداوة ونبي الله تعالى فوق أن يشغله ضغن .

ولقد كان النبي عليه السلام كذلك قبل أن يبعثه الله تعالى ، فلم يعلم في تاريخ حياته أنه شغل نفسه بأحقاد الجاهلية وما كانت تبثه من عداوات ،

---

(١) الأعراف (٢) فصلت

بل انه في آخر الرسالة يعلن الصفح الكامل ، فيقول في قوة ذي العزم من الرسل ، (ألا ان دم الجاهلية موضوع ،وأول دم أبدأ به دم عمي الحارث بن عبد المطلب) ٠

ولقد كان بعد البعثة حريصا على سد كل مسام الأحقاد والأضغان ،وذلك بمنع النميمة ، ولو كان ما ينقل صدقا ، فقد ثبت في الحديث الصحيح أن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم قال« لا يبلغني أحد ، عن أحد شيئا ، اني أحب أن أخرج اليكم وأنا سليم الصدر » (١) ٠

ولمحبته العفو الكريم والصفح الكريم ما كان يوجه لوما على عمل عمل ما دام يخص نفسه ، يقول أنس بن مالك خادم رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم:«والله ماقال لي لشيء صنعته لم صنعت هكذا ولا لشيء لم أصنعه ، لم لم تصنع » ٠

ويقول ذلك العشير الذى خدمه في السفر والحضر : كان رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم من أحسن الناس خلقا ، أرسلني لحاجة ، فقلت : لا أذهب وفي نفسي أن أذهب لما أمرني به رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم، فخرجت حتى أمر على صبيان ، وهم يلعبون في السوق : فاذا رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، قد قبض بقفاي من ورائي قال : فنظرت اليه وهو يضحك ، فقال يا أنيس ، ذهبت حيث أمرتك ٠ فقلت نعم أنا أذهب يا رسول الله ، ومضى أنس خادم رسول الله صلى الله عليه وسلم الى حيث أمره أو طلب اليه من حاجة (٢) ٠

هذا خبر يبدو صغيرا في مقام أخبار النبوة المحمدية ، ولكنه كبير في مغزاه ، وفي معناه ، وقد بدت السماحة وسماحة الأخلاق ٠ أولا ــ في أنه عفا وسامح خادمه وهو يعانده ، ويردقوله ظاهرأ ، فما لامه ، ولا عتب عليه، ولا احتسبها عليه ، ولكنه تركه لتقديره ، وقبل ألا يذهب الا مختارا غير مأمور ٠

---

(١) البداية والنهاية ص٦ ، ٣٨ ٠
(٢) الكتاب المذكور ٠

وثانيا : تتبعه ليعرف ماذا أجدى الصفح الجميل ، وعلاج شماس النفوس بالتسامح والتساهل ، والاخاء من غير اعنات ولا استكراه في اغلاق واغضاب، أو مغاضبة ٠

وثالثا : لم يكتف بألا يغضب ، بل أنه يداعبه مع ذلك ، فيقبض عليه من قفاه ، ثم يناديه مداعبا ضاحكا يا أنيس ، يدلله بتصغيره ، وهو الذى عانده ، ورد ارادته ٠

ثم يقول معلنا انتصار السماحة والعفو ، وعدم المؤاخذة على ظواهر الأفعال « ذهبت حيث أمرتك » هذا كمال النبوة وخلق النبي الذى يدعو النفوس الشاردة فيروضها على الحق ،ويؤنسها في عفو وسماحة ، وصفح جميل ، بل ان الاشارة لا تعلو قط ،حتى تكون أمر ٠

وقال أنس هذا « كنت أمشى مع النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، وعليه برد غليظ الحاشية ، فأدركه أعرابي فجبذ بردائه جبذا شديدا ، حتى نظرت الى صفحة عاتق رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، فاذا قد أثرت فيه حاشية البرد من شدة جبذته ، ثم قال :« يا محمد مر لي من مال الله تعالى الذي عندك ، فالتفت اليه رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، فضحك ، ثم أمر له بعطاء » ٠

وان هذه السماحة ، وذلك العفو خلقه قبل البعثة ، وكان خلقه عند ما اشتد الأذى ، فهو يعالج عنف قريش بالرفق في القول ويعالج الايذاء بالصفح الجميل ، الذي لا يمن به ، ولكنه يهدي به من شاء الله تعالى ولو لم يكن العفو أساسا ، لطلب من الله تعالى كما قال تعالى عن نبيه نوح :

﴿ وَقَالَ نُوحٌ رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا ﴿٢٦﴾ ﴾ (١)

ولكن الله فضل بعض النبيين على بعض،ولكل أمة رسول تكون أخلاقه على ما يكون سبيلا لهدايتها ولارشادها ٠

---

(١) نوح

روى أنه لما كذبت قريش النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، وبالغت في الأذى ، ولما لجأ الى ثقيف في الطائف أغروا سفهاءهم • أتاه جبريل عليه السلام فقال له : « ان الله تعالى قد سمع تحول قومك لك ، وما ردوا به عليك ، وقد أمر ملك الجبال لتأمره بما شئت فيهم ـ فناداه ملك الجبال وسلم عليه • وقال مرني بما شئت ، ان شئت أن أطبق عليهم الأخشبين » « الجبلين اللذين يحيطان بمكة » قال النبي السمح الكريم قال: «اللهم اغفر لقومى فانهم لا يعلمون » •

وذكر ابن المنكدر أن جبريل عليه السلام قال للنبي صلى الله تعالى عليه وسلم : « ان الله تعالى أمر السماء والأرض والجبال أن تطيعك ، قال أؤخر عن أمتي • لعل الله تعالى أن يتوب عليهم » •

وان سماحته عليه الصلاة والسلام وعفوه ليبدوان في عفوه عمن عادوه وآذوه وقاتلوا، ولم يتركوا بابا من أبواب الأذى والقتل والقتال الا سلكوه ، وما تركوا كيدا الا كادوه له ثم آل الامر الى أن ينتصر عليهم نصراً مؤزراً •

عندما فتح الله تعالى له مكة ، نادى الملأ من قريش ، ولم يفكر فيما كانوا يصنعون به وبأهل الايمان ان كان لهم النصر ، ولكنه فكر فيما ينبغى لمثله معهم ، وتطبيب قلوبهم ، وازالة الأحقاد من نفوسهم ، فقد قال لهم في ود رآه في موضعه • ما تظنون أني فاعل بكم، قالوا أخ كريم وابن أخ كريم ، ما نظن الا خيراً ، قال أقول لكم ما قاله أخي يوسف لأخوته

﴿ قَالَ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ يَغْفِرُ ٱللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٩٢﴾ ﴾ (١)

اذهبوا فأنتم الطلقاء ، وبذلك أنهى الأحقاد ، ووضعها دبر أذنه ليستقبلوا عهداً جديداً في الاسلام •

ان الداعي بدعاية الحق ، يجب عليه أن يطهر نفسه من أمرين :

أحدهما أدران التألم من الناس لأذى سبقوا به ، أو لحسك الصدور ، أو لفحش كان منهم ، فانه جاء لهدايتهم ، لا لمقابلة اساءة بمثلها ، ولا ليشغل

---

(١) يوسف •

نفسه بالنقمة بهم ، وان كانت حقا أو أخذ حق ، ولا علاج لذلك الا بأن يجعل نسيان الماضى ، والتسامح هو السبيل لهذا النسيان ، والعفو عما سلف من سيئات هو الذي يمكن الداعي من الخلاص الا من الحق ·

ثانيهما : أن يبعد الأثرة عن نفسه، فلا يفكر في العمل لنفسه ، وذلك يقتضي الايثار ، والفناء في دعوته التي يدعو اليها ، وان تطهير النفس من الأثرة ، انما يكون بتغليب ترك الحقوق اذا لم يكن في تركها اقامة لباطل ، أو خفض لحق ، أو سكوت عن حق عام،فالداعي ينسى حقوقه الشخصية ، بل يهملها من غير تهاون ، ولا يترك حقاً عاماً ، ولا أمراً من موجبات دعايته ، فان تساهل في حقوقه ، فلكي يتفرغ بكله للحقوق العامة ·

واذا كان ذلك ما ينبغي أن يكون عليه دعاة الحق ، والناصرين له من الناس ، فكيف يكون الشأن ممن هو رسول لرب العالمين ، انه ينسى حقوق نفسه ، فيعفو عنها ، ويذكر حقوق الناس ، فلا يفرط في أي جزء منها ·

ولقد قالت عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها في وصف النبي صلى الله تعالى عليه وسلم « لم يكن فاحشاً ، ولا متفحشا ، ولا صخابا في الأسواق ، ولا يجزي بالسيئة السيئة ، ولكن يعفو ويصفح » ·

وفي الجملة ما كان يحمل الا الخير ، وينفي عن نفسه كل ما يثيرها على أحد ،فلا يكون منه الا النفع ، ولا يحمل نفسه عناء البغض والكراهة الا أن يكون لله ·

حياؤه صلى الله عليه وسلم :

١٤٠ ـ الحياء صفة نفسية يظهر أثرها في العمل على ألا يفاجىء الشخص الناس بما ينفرهم ، أو بما لا يألفون ، لا يظهر منه ما يخالف الفضيلة ، فلا يعلن رذيلة ، ولا أمرا لا يتلقاه الناس بالقبول ، ويعمل على ارضاء النفس الجماعية ما لم يكن اثما ، وهناك صفات تلتبس مع الحياة ، أو يبدو بادي الرأي أنها تعارضه ·

فقد ظن بعض الناس أن الحياء ضعف نفسي ، وأنه قد يكون السكوت فيه نوع من الرياء ، وذلك باطل ، لأن الحياء الحقيقى ليس ضعفا ، ولا ينشأ عن ضعف ، انما ينشأ عن الكمال، لأن من عنده الحياء لا يحب أن يظهر

منه الا ما هو كامل في ذاته ، وألا يظهرمنه ما هو مرذول في ذاته أو يعـده الناس مرذولا ، وذلك ليس ضعفا ،ولكنه نقاء وصفاء للمجتمـع من أن ترفقه مظاهر الانخلاع من القيود الاجتماعيـة ، والتحلل من الروابـط الانسانية التي تربط الآحـاد ربطـا نفسيا •

والشجاعة والحياء يتلاقيان ، بل ان تلاقيهما هو ذروة الكمال ، فان قول الحق في موضعه ، وفي وقته المناسب يتلاءم مع الحياء ، والسكوت عن النطق بالحق في وقت الحاجة اليه ، لا يعـد حياء ، بل انه استخذاء ، والحياء حماية للفضيلة ، وتضييق على الرذيلة من أن تظهر ، واذا كان للحياء أثر في شجاعة قول الحق ، فانه يحمل القائـل على الدعوة اليه في رفق من غير عنف فيكون أجدى ، وأشد تثبيتا ، وأهدى سبيلا ،وان اقتضى الحق مجاهرة به تأخذ وصف القوة ، لا يمنعها الحياء •

ولا يظن أحد أن في الحياء رياء ،انما الحياء ألا تنطق الا بالحق ، أو لا تغمطه ، أو تغمض العين على الباطل ،انما الحياء يمكن صاحبه من أن يسوس الحق سياسة المستمسك من غير هـوادة الا أن تكون رفقاً •

ولقد ذكر القاضي عياض في الشفاء في بيـان الحيـاء : وأما الحيـاء والاغضاء ، فالحياء رقة تعترى وجـه الانسان ، عند فعل يتوقع كراهيته ، أو ما يكون تركه خيراً من فعله ، والاغضاء التغافل عما يكـره الانسـان بطبيعته ، وكان النبي صلى الله تعـالى عليه وسلم أشد الناس حياء ، وأكثرهم عن العورات اغضاء • قال الله تعـالى :

﴿ إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ يُؤْذِي النَّبِيَّ فَيَسْتَحْيِي مِنكُمْ ﴾ (١)

عن أبي سعيـد الخـدرى رضي الله تعالى عنه كان رسـول الله صلى الله تعالى عليه وسلم أشـد حياء من العذراء في خدرها » (٢) •

وان مظاهر حياء النبي صلى الله تعالى عليه وسلم تبدو في عامة أحـواله ، نذكر بعضا منها يدل على سائرها •

---

(١) الأحزاب (٢)الشفاء جـ ١ ص ٦٨

(أ) أن بعض أصحابه كانوا لفرط كرمه يتناولون الطعام ، ثم يأخذون في الحديث ، فكان هذا يؤذي النبي صلى الله عليه وسلم وقد يكون منه اضطراب في بيته ، واقلاق لراحة أهله، وضيق في ذات نفسه ، ولكن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم كان يستحي من أن يأمرهم بالخروج ، أو يطلبه اليهم ، أو يشير به بأي نوع من أنواع الاشارة ، حتى تولى الله تعالى ، تعليم المؤمنين الأدب في هذا المقام ، وأعفى رسوله من أن يخالف قانون حياته ،فقال تعالى :

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَدْخُلُواْ بُيُوتَ ٱلنَّبِىِّ إِلَّآ أَن يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَىٰ طَعَامٍ غَيْرَ نَـٰظِرِينَ إِنَىٰهُ وَلَـٰكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَٱدْخُلُواْ فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَٱنتَشِرُواْ وَلَا مُسْتَـْٔنِسِينَ لِحَدِيثٍ ۚ إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ يُؤْذِى ٱلنَّبِىَّ فَيَسْتَحْىِۦ مِنكُمْ ۖ وَٱللَّهُ لَا يَسْتَحْىِۦ مِنَ ٱلْحَقِّ ۚ وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَـٰعًا فَسْـَٔلُوهُنَّ مِن وَرَآءِ حِجَابٍ ۚ ذَٰلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ ۚ وَمَا كَانَ لَكُمْ أَن تُؤْذُواْ رَسُولَ ٱللَّهِ وَلَآ أَن تَنكِحُوٓاْ أَزْوَٰجَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦٓ أَبَدًا ۚ إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمًا ﴿٥٣﴾ ﴾ (١)

(ب) ومن مظاهر حياته ، وعدم المجابهة من غير ضياع للحق ، أنه اذا كان قد بلغه عن أحد ما يكرهه ، لا يجابهه بأنه فعل ما يكره في الشرع ، ولا يحبه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، بل كان يقول : « ما بال أقوام يصنعون كذا أو يقولون كذا .. فينهى عن العمل ويستنكره ولا يسمي فاعله .

وان ذلك فوق أنه مظهر من مظاهر الحياء ، فانه أولا يجعل النهي عاما ، والاستنكار شاملا لكل من يحتمل أن يقع منه هذا الفعل ، وفوق ذلك ان ذلك التعميم على قبح الفعل في ذاته من غير تعلقه بشخص بعينه ، فالاستنكار للفعل من غير نظر الى فاعله ، ومع كل هذا فان ذلك هو الحكمة ، لأن المجابهة للفعل فيه خزيه ، وقد يجر تكرار اللوم الى المجاهرة والاستمرار وان تكرار الخزي اعانة للشيطان ، كما قال النبي صلى الله تعالى عليه وسلم

(١) الأحزاب

لقوم قالوا لمحدود في شرب خمر ، آخزاك الله ، فقال لهم النبي صلى الله تعالى عليه وسلم لا تعينوا عليه الشيطان •

(جـ) ومن مظاهر حياته صلى الله تعالى عليه وسلم ، أن الفعل اذا كان يندر وقوعه ، فاذا وقع لا يجابه صاحبه بالنهي ، بل يحث أصحابه على أن ينبهوه ، دخل عليه مرة رجل عليه ثياب معصفرة زاهية تبهر الأنظار مما رأى أنه لا يليق أن يكون لبسة الكاملين ، فلم ينبهه النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، بل بعد أن خرج أمر بعض صحابته أن ينبهه ، وقد دفع الى ذلك حياء النبي عليه السلام أولا ـ والرفق بالرجل من مرارة الاعلان ثانيا ، ومنعه من أن يقع عليه خزي ثالثا •

(د) ومن مظاهر حياته ، ولطف مودته عليه السلام أنه كان اذا لقي الرجل بوجه لا يتجه بصفحة وجهه الى جانب آخر ، حتى يكون محدثه هو الذي ينصرف عنه •

روى أنس خادم رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم انه كان اذا استقبل أحدا بوجه لا يصرفه عنه حتى يكون الرجل ينصرف عنه •

وروى أنس أيضا أنه كان اذا صافح الرجل أو صافحه لا ينزع يده منه، حتى يكون الرجل هو الذى ينزع يده ، واذا أراد رجل أن يسر اليه حديثا في أذنه ، فيحني رأسه له ، ويستمر حانيا رأسه ، حتى يكون الرجل هو الذي ينحيه •

وقد يقول قائل ما للأحياء ، والشمائل النبوية التي من شأنها أن تسهل دعوة الرسول عليه السلام ، أنه أدب شخصي ليس له صلة بالدعاية أو تبليغ الرسالة ؟!

ونقول ان خلق الداعي يجذب الى موضوع الدعوة ، فلو كان الداعي فحاشا ، أو صخابا أو يغلب عليه أن يلوم وتقرع عباراته لنفر منه الناس ، وما استجاب له الا أهل الحق الصرف الذين لا يهمهم لون الدعوة ، بمقدار ما يهمهم لبها •

واذا كان الخلق الطيب يجذب النفوس، ويوجهها نحو الحق ، فان الحياء أشد الأخلاق اجتذابا للنفوس ، فان الحياء ، يجعل صاحبه لا يفجأ الناس

بما لا يسرهم ، بل يجيء اليهم من جانب ما يألفون ، فلا تنفر النفوس ، ولا تنشعب عن الحق ، وان عنف الداعي ،وتفحش قوله يعوق دعوته ، ويكـــون استثقاله مؤديا الى رده ٠

واذا كان مع الحياء لين في الطبع من غير ضعف ، وقوة في الحق وصل اليه في مداخل سهلة لينة ولقد قال في وصفه على بن أبي طالب كان أوســـع الناس صدرا ، وأصدق الناس لهجة ،وألينهم عريكة ، وأكرمهم عشرة ٠

ولقـد كان لالتقاء الخلق الحسن اللطيف المعشر مع الحياء ، والاستمساك بالحق مزيجاً من أخلاق كريمة ، جعله لا يترك التنبيـــه الى الحق في رفق ، وجعله يصل الى ما يريد من ايغاله في القلوب ٠

ذكر بعض الذين أدركوه قصة تدل على جمع النبي عليه الســلام بين لطف العشرة ، والحياء ، والتأديب اللطيف٠

قال ذلك العربي ، وهو ابن جبير !نزلت مع رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم مر الظهر ، فخرجت من جناني ،فاذا نسوة يتحدثن ، فأعجبني ،فرجعت، فأخرجت حلة حبرة فلبستها ، ثم جلست اليهن ، وخرج رسول الله صلى الله تعالى

عليه وسلم من قبته ، فقال يا أبا عبد الله ما يجلسك اليهن ، فهبت رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، فقلت يا رســول الله ، جمـــل لي شرود أبتغي له قيداً ، قال فمضى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، وتبعته ، فألقى رداءه ٠٠ ودخل الأراك فقضى حاجته وتوضأ ، ثم جاء فقال يا أبا عبد الله ، ما فعـــل شراد جملك ، ثم ارتحلنا ، فجعل لا يلحقني في منزل الا قال لي الســلام عليك يا عبد الله : ما فعل شراد جملك ٠

فتعجلت الى المـــدينة ، فاجتنبت المسجد ، ومجالسة رسول الله صـــلى الله تعالى عليه وسلم ، فلما طال ذلك تحينت ساعة خلو المسجد ، فجعلت أصـــلي ، فخرج رسول الله صلى الله تعالى عليـــه وسلم من بعض حجره ، فجاء صـــلى الله تعالى عليـــه وسلم ، فصـــلى ركعتين خفيفتين ، ثم جاء فجلس ، فطولت رجاء أن يذهب ، ويدعني ، فقال النبي صلى الله تعالى عليـــه وسلم : طـــول يا أبا عبد الله ما شئت فلست بقائـــم حتى تنصرف ٠

فقلت والله لأعتذرن الى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، ولابردن صدره ، قال فانصرفت ، فقال السلام عليك يا أبا عبد الله ، ما فعل شراد جملك ، فقلت يا رسول الله والذي بعثك بالحق ما شرد ذلك منذ أسلمت ، فقال عليه السلام رحمك الله مرتين أو ثلاثاً، ثم أمسك عني فلم يعد (١) ٠

أنظر أيها القارىء الكريم للتأديب النبوى لأصحابه من غير أن يكون فحشاً، وفي حياء المؤمن ، وأدب الهدي المحمدي لقد لاحظ رجلا يرى جمعاً من النسوة يعجبنه ، فيلبس أحسن ثيابه ، ويجلس اليهن ، فيسأله فيكذب ، فيراه يخطىء خطأين ــ أولهما ــ أن يخرق حجاب الحياء فيجلس في مجلس النساء ، وذلك خدش لحيائهن ، وتهجم عليهن ،واختراق لحجاب الحياء في ذات نفسه ، ثم يكذب على رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، ويلح النبي عليه ، ويلومه على ما كان منه ٠ بل انه يوهمه ابتداءأنه صدقه في كذبه ، ويومىء من طرف خفي الى أنه لم يقل الحقيقة ٠ فيكرر له ما اعتذر به وقتاً بعد آخر بأناة ، وذلك ليحمله على التوبة ، والاستغفار انه يريده على التوبة عن أصل ما ارتكب ثم عن الكذب ، فأخذ يكرر السؤال في شبه مداعبة ، وهو يقصد اللوم ، انه ما انتهى من تكرار القول ، وهو يعرف مداه من القلب ، حتى أقر بما ارتكب ، وبأنه قد كذب على الرسول صلوات الله تعالى وسلامه عليه،والاقرار بالذنب أول أبواب التوبة ، وقد ندم على ما فعل بدليل تهربه من مواجهة النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ٠

جـوده صلى الله عليه وسلم :

١٤١ ــ الجود اذا لم يقصد به التفاخر ، كان بابا من أبواب الخير الذي يكون بالعطاء لذي الحاجة الذي لا يمنن فيه ولا يستكثر ، بل يبذل سدأ لحاجة محتاج ، أو لاعانة مستعين أو ليتصدق يرجو ما عند الله تعالى ، لا يرجو من الناس جزاء ولا شكورا ، وهو بهذا خلق جماعي يربط المودة بين آحاد الجماعة ٠ ولقد عد الحكماء أن الفضائل أربعة جعلوا منها الحكمة والشجاعة ، والعفة والسخاء ، فهو فضيلة عامة ،لا تصدر الا عمن يحس بحق الجماعة عليه ٠

---

(١) الوفا باخبار المصطفى لابن الجوزى جـ٢ص ٤٤٩ ٠

ولقد كان النبي صلى الله تعالى عليه وسلم جواد يعطي ما في يده ولو كان في حاجة اليه ، فهو علم المؤمنين أن يؤثروا على أنفسهم ، ولو كان بهم خصاصة ٠

ولقد ذكر ابن عباس فقال « كان أجود الناس بالخير ، وأجود ما يكون في شهر رمضان ، وكان اذا لقيه جبريل أجود بالخير من الريح المرسلة » ٠

فالجود صفة ملازمة له تعلو ولا تنزل ، تعلو في رمضان ، ويسمو علوها في العشر الأخيرة من رمضان عند ما يذاكره جبريل القرآن ٠

وقد كان الجود خلقه قبل البعث ،كما استمر من بعد البعث ، اذ كل شيء فيه قد ازداد خيراً ، ولقد قالت له(خديجة) رضي الله تعالى عنها : «انك تحمل الكل ، وتكسب المعدوم » ٠

وقد جاء في كتاب الشفاء رد على هوازن سباياها ، وكانت ستة آلاف ، وأعطى اليه العباس من الذهب ما لم يطق حمله ، وحمل اليه تسعون ألف درهم ، فوضعت على حصير ، ثم قام اليها فقسمها ٠

فكان من كرمه صلى الله عليه وسلم أن يوزع كل ما يجيء اليه من غنائم ، ولا يبقي منها لنفسه شيئا ، الا مايكفيه ٠

وما كان يرد طالب حاجة قط ، حتى كان يبلغ به الجود (أن يجود بالموجود كله) بل انه اذا لم يكن الموجود حمل عبء الدين ليسد الحاجات ٠ جاءه رجل يسأله حاجة ، فقال ما عندي شيء ،ولكن ابتع علي ، فاذا جاءنا شيء قضيناه ، ولقد قال عمر رضى الله تعالى عنه ، وقد رأى محمد بن عبد الله يتحمل ثمن البياعات ، ليؤديه اذا لم يكن معه قال له : « ما كلفك الله تعالى ما لا تقدر عليه ، فكره النبي صلى الله تعالى عليه وسلم من صاحبه ووزيره عمر الفاروق ذلك ، لأنه لا يريد أن يحول أحد بينه ، وبين سجيته التي فطره الله تعالى عليها ، والتي جعلته فوق الكرماء والأجواد » ٠

ولقد لاحظ ذلك أنصاري كان في حضرة الرسول وصاحبه فقال : يارسول الله ، أنفق ولا تخش من ذي العرش اقلالا ، فتبسم رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم بعد اذ كره ، وعرف البشر في وجهه ، وقال بهذا أمرت وذكر الخبر الترمذي ٠

ولقد كان جوده من فرط اعتماده على الله تعالى مع اتخاذ الأسباب ، ولأنه يؤثر على نفسه ، ولأنه حمل نفسه سد حاجة أي محتاج ، فهو جود من قبيل تحمل الأعباء ، لا من قبيل السخاء المجرد ، لقد قال عليه السلام ، وصدق فعله قوله « من ترك مالا فلورثته ، ومن ترك عيالا فالي وعلي » ٠

فمال الناس لأنفسهم الا ما يفرض من زكوات عليهم ، وأما الذين لا يستطيعون أن يعولوا أنفسهم ، فهم يكونون في عياله ، وعليه وحده تحمل أعبائهم ، ذلك أن الفقراء عيال الله ، ويحملهم رسول الله ٠

يقول أنس بن مالك خادم رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ٠ « كان رسول الله لا يدخر شيئاً » ٠

وعن أبي هريرة أن رجلا جاء يسأل النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، ولم يكن مع الرسول مال فاستلف رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ٠

وان جود رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ليزيد ، حتى انه يخلع ثيابه لمن يطلبها فقد روى الطبراني عن ابن عمر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم رأى صاحب بز فاشترى منه قميصا بأربعة دراهم ، فخرج وهو عليه ، فاذا رجل من الأنصار ، يقول يا رسول الله أكسني قميصاً ، كساك الله تعالى من ثياب الجنة ، فنزع القميص فكساه اياه ، ثم رجع الى صاحب الحانوت ، فاشترى منه قميصاً بأربعة دراهم ، وبقي معه درهمان ، فاذا بجارية في الطريق تبكي ، فقال ما يبكيك فقالت يا رسول الله دفع الي أهلي درهمين أشتري بهما دقيقاً فهلكا ، فدفع اليها رسول الله الدرهمين الباقيين ثم انقلب ، فاذا هي تبكي ، فدعاها ، فقال لها ما يبكيك ، وقد أخذت الدرهمين ٠ فقالت أخاف أن يضربوني فمشى معها الى أهلها ، فسلم فعرفوا صوته ٠٠ ثم قالوا ما أشخصك ، بأبينا وأمنا ، فقال أشفقت هذه الجارية أن تضربوها ، فقال صاحبها هي حرة لوجه الله تعالى لممشاك معها ، فبشرهم رسول الله بالخير والجنة ٠

ولقد كانت عشرة دراهم مباركة ذكر النبي صلى الله تعالى عليه وسلم بركتها فقال : « لقد بارك الله تعالى في العشرة كسا الله نبيه قميصاً ، ورجلا

من الأنصار قميصاً ، وأعتق الله تعالىمنهـــا رقبـة ، وأحمـد الله هو الذى رزقنا بقدرته » (١) ٠

وكان عليه السـلام ينفق ماله ، ويحرض الناس على الانفاق ، وكان في كرمه كثير الاعتمـاد على الله تعالى فيرزقه ، فهو يقول لبلال أنفق بـلالا ، « ولا تخش من ذي العـــرش اقلالا »ويقول عليه السلام « ما من يوم يصبح الا وملكان يقول أحـدهما اللهم أعط منفقا خلفا ، ويقول الآخر اللهم أعط ممسكا تلفاً » ٠

وان ذلك الكرم لم يكن بعد البعثة المحمدية ، بل كان قبلها ٠ ويقول في ذلك ابن كثير :

« ثم كان قبل البعثة ، وبعدها ، وقبل هجرته ملجأ للفقـــراء والأيتام ، والضعفاء والمساكين » ٠

وهنا نقول ان جود محمد بن عبد الله ليس جود من يعرض عن المال فـلا يطلبه ، أو جود من يجرد نفســـه منأسباب الحياة ، فلا يترك المال اذا جاء ، بل يطلبه من أسبابه الحلال ، الطيبـةالتي لا خبث فيه قط ، ولكن ليمر على يده مرورا ، ليصل الى الضعفاء واليتامى والأرامل والمساكين ، فهو يعبر من يده الطاهرة الأمينة اليهم ٠

لقد كان تاجراً يكسب من التجارةلنفسه ، ولزوجه الطاهـــرة الأمينـة خديجة وتدر عليه الدر الوفير ، وكانيستخـــدم كل خبرته التجـارية التي أفادها من بيئة مكة التجارية ، ولـكنهما كان يفعل ذلك لنفسه ولا لزوجه ، ولكن ليعطي هو وهي الفقراء والضعفاء كسبهما الطيب الذى لا خبث فيه ٠

لقد ذكر عن عيسى عليه السلام الزهادة في المال ، وأنه لم يعمل على كسبه، بل تجـرد منه ، ومحمد بن عبد اللهصـلى الله تعـالى عليه وسلم فقـد كان يعيش ويكسب ويتجر في صدر حياتهليحصل على المال ، وينفق ما حصل عليه على الضعفاء ، فهو قـد سخر نفسه عاملا ٠

---

(١) راجع البداية والنهاية جـ ٦ ص ٦٥ ،وقد ذ كر أن فى بعض رواته من يصقفه بعض الرواة ٠

وفي كل فضل ، ولكن زهادة محمد ايجابية ، اذ أنها تكسب المال من الكسب الطيب ، وذلك الكسب فيه نفع عام ، لأنه اما زرع يأكل منه الانسان ، واما عمل وكدح ينمى ثروة الجماعة ، واما نقل خيرات الأرض التي يفيض من اقليم الى اقليم آخر بالتجارة ، وفي ذلك نفع عميم ، ثم ان الكسب لا يبقى في يد الجواد ، بل يفيض به على غيره ، فهي زهادة ايجابية كادحة عاملة ·

شفقة النبي صلى الله عليه وسلم وهو الرؤوف الرحيم :

١٤٢ — وصف رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم بأنه رؤوف رحيم ، والرأفة والشفقة متقاربتان في المؤدى ، وقد قال تعالى في ذلك الوصف :

﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٨﴾﴾ (١)

وقال تعالى :

﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴿١٠٧﴾﴾ (٢)

ونحن فيما كتبنا من بحوث تتصل بهذا المقام قررنا أن الرحمة تكون آثارها عامة ، وقد أشار الى ذلك النبي صلى الله تعالى عليه وسلم فقد كان صلى الله تعالى عليه وسلم يكثر من الحث على الرحمة، فقال بعض أصحابه، يا رسول الله أكثرت من ذكر الرحمة ونحن نرحم أزواجنا وذريتنا · فقال عليه السلام « ما هذا أريد ، انما أريد الرحمة بالكافة » ·

والشفقة وأختها الرأفة تكون في النواحي الخاصة ، والنبي عليه الصلاة والسلام كان فيه الرحمة بالكافة ، وكان فيه الرأفة للخاصة ما لم تتعارض الرحمة بالكافة ، وذلك يكون في الرأفة بالآثمين الظالمين الذين يرتكبون ما يوجب حدا من حدود الله ، ولذلك يقول سبحانه وتعالى :

﴿الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ ۖ وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ۖ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَائِفَةٌ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٢﴾﴾ (٣)

---

(١) التوبة (٢) الأنبياء (٣) النور

وانه عليه السلام كان يعالج النفوس الشاردة بالرأفة التي تؤنس هذه النفوس ، فتقرب بعدها ، وتستأنس بعد جفوتها •

ويروى في ذلك أن أعرابياً جاء يطلب منه شيئا ، فأعطاه ، ثم قال له أأحسنت اليك ، قال الأعرابي ولا أجملت فغضب الحاضرون من المسلمين ، وقاموا اليه ، فأشار الرسول صلى الله تعالى عليه وسلم اليهم أن كفوا ، ثم قام عليه السلام ودخل منزله ، وأرسل صلى الله تعالى عليه وسلم الى الرجل ، وزاده شيئاً ثم قال أأحسنت اليك ، قال نعم فجزاك الله تعالى من أهل وعشيرة خيراً ، فقال عليه السلام : انك قلت ماقلت ، وفي نفس أصحابي من ذلك شيء فان أحببت • فقل ما قلت بين يدي ،حتى يذهب ما في صدورهم عليك ، قال نعم ، فلما كان الغد أو العشي جاء فقال صلى الله تعالى عليه وسلم : « ان هذا الأعرابي قال ما قال فزدناه ، فزعم أنه رضي بذلك » • قال الأعرابي ، نعم فجزاك الله تعالى من أهل وعشيرة خيراً• فقال النبي صلى الله تعالى عليه وسلم « مثلي ومثل هذا ، مثل رجل له ناقة شردت عليه ، فاتبعها الناس ، فلم يزيدوها الا نفوراً ، فناداهم صاحبها ،خلوا بيني وبين ناقتي ، فاني أرفق بها منكم وأعلم ، فتوجه لها بين يديها ،فأخذ لها من قمام الأرض ، فردها حتى جاءت اليه ، واستناخت ، وشد عليها رحلها ، واستوى عليهم ، واني لو تركتكم ، حيث قال الرجل ما قال ،فقتلتموه دخل النار » (١) •

ان ذلك الحديث ، ينبيء عن حكمة الدعوة والارشاد والهداية الى الحق يقرب الشارد ، ولا يعاقبه ، يدنيه الى الحق ، ولا يهلكه ، وانه يسوس النفوس ، ويتجه بها الى الجادة من غير عنف •

وفيه الشفقة الكاملة ، وأنها علاج النفوس ، وليس العنف علاجا ، ولكنه قمع في غلظة ، وقد يؤدي الى الاصرار على الشر ، والامتناع عن الخروج عن دائرته •

وفي ذلك كمال التبليغ للرسالة الالهية ، وتعليم الراعي كيف يسوس الرعية ، ويأخذها الى مواطن الحق ،وحمايته •

---

(١) الشفاء جـ ١ ص ٧٢

وان شفقته الشخصية على المتصلين به لتبدو في معاملته لأهله من أزواج وأقارب سواء أكانوا أقربين أم كانـواغير ذلك ممن لهم رحم موصولة ٠

ولقد امتنع عليه النـوم عندما أسرعمه العباس بن عبد المطلب في غـزوة بدر ، فكان يبكي لأنينه ، وهنا في هذهالقضيـــة ، يبدو أمـــران يظهـران متناقضين ـ أولهما ـ ألمه لأن عمـــهوحبيبه العباس قد أسر ، ويذوق مرارة الأسر بشفق عليه ، ويشتد الأسى عليهـ وثانيهما ـ العدالة المقـررة الثابتة التي تسوى بين الناس في النتائج ، اذاتساووا في الأسباب المـوجبة لهـذه النتائج المؤدية اليها ، وان الجمـع بيندواعي الشفقة ، وموجبات العدل عسير على غير محمد عليه السلام ٠

وان الشفقة ودواعيها ، والحـرص على الواجب والعدل ، ليتجلى في أمـر زوج ابنته ، فانه كان أسيرا في غزوة ،فلم يعفه من واجب الفداء ، ورفض أن يفك اساره الا بفداء ، فأرسلت زوجهزينب بنت محمد عليه الســلام ، الى أبيها تفدي زوجها بحلية عندها كانتأهدتها اليها في عرسها أمها خديجـة أعز النساء على محمد بن عبد الله عليهالسلام ، عندئذ التقت أمور كلها تؤثر في القلب الشفيق في الرجل العادل ،ففيه الشفقة على ابنته ، وفيه الذكرى، لأوفى النساء له وأبرهن به ، وأحناهنعليه ، وأعزهن عنده ، وفيه ما يجب عليه من عدل غير مفرق بين أسير وأسير،فهنا التكليف الشاق،والاحساس القوي، فمحمد القوي يبكي من فرط ما جاشفي نفسه من ذكرى، وما يدعوه الواجب فيجمع أصحاب الحق في الفداء ، وهمالغزاة المجاهدون ، ويعرض عليهـم النظر في واجبه ، والرفق باحساسه ،وما هو بالذي يفرض عليهم الرأي ٠

فيكون الرأي من أصحاب الحق فيهأن يعيدوا الحلية الى صاحبتها ٠

وهنا نجد محمداً عليه السلام يجمع بين شفقـــة الأبوة ، وذكـرى الزوج البارة ، الحانية العطـوف ، والواجبالعادل الذي عليه أن يؤديه ٠

وان شفقته الأبوية التي لا تتعارضمع الواجب ، أو لا يعارضها واجب من العدالة ، والتسوية بين الناس لتبـدوفي شفقته ، على ابن زينب ، وهـــو يحتضر ، فقد أرسلت الى أبيهـــا نبيهذه الامة ، ولكن الرجل الشفيق خشي من ضعف الشفقـــة أن يرى حفيـدهيحتضر ، فأرسل اليهـا عليه الســلام

يقول لها « ان لله ما أخذ وما أعطى ،وكل شيء عنـــده مسمى ، فلنحتسب لنعتبر » ، ولكنها تصر على أن يحضر ،وتقسم عليه ، فقام اليها النبي ، وقام معه من بحضرته من صحابته ، فوضعه عليه السلام في حجره ، ونفسه تخرج، ففاضت عين محمد بن عبد الله عليـــه السـلام فقال له سعد بن أبي وقاص : « ما هذا يا رسول الله » ، قال الرسول« هذه رحمة وضعهـا الله في قلوب من شاء من عباده ، ولا يرحم الله من عباده الا الرحماء » ·

ولقد كانت الشفقة مع القيـام بالواجب ، تتجلى في موت ولده ابراهيم الذي وهبـــه الله تعالى على الكبر ، ثم استرد الوديعة ، فما رؤي رســول الله في حزن الأبوة ، كمـــا رؤي في وفاة ابراهيم ، اذ بـكى من عبء ما أصيب به ، وكان ثقيلا ، ولما رأى أسامة بن زيد محمداً يبكى صرخ ، فنهاه صـلى الله عليه وسلم وقال له يا أســامة :« البكـــاء من الرحمن ، والصراخ من الشيطان » ·

ولقد كان وهو يبكي يقول : « الموت حق ، وان القلب ليحزن ، والعـــين لتدمع ، وانا لفراقك يا ابراهيم لمحزونون » وفي هذا اليوم كسفت الشمس ، فقال المحبون ، ان الشمس كسفت لابراهيم ، ولكن نبي العقيدة الصحيحـة البعيدة عن الأوهام ، نسي حزنه ، أوغلب واجبه على حزنه ، كمـا هو شأنه دائما ، فوقف خطيباً ·

ان الشمس والقمر آيتان من آيات الله لا تكسفـــان لمـــوت أحـــد ، ولا لحياة أحد ·

وأم الناس ، وصلى بهم صلاة الكسوف ·

وهـــكذا كان محمد بن عبد الله الشفيق الرقيق الودود المحب دائمـاً ، ولكن عاطفته الانسانية لا تتغلب عـلى واجبه ، بل الواجب أولى ، وأحرى بأن يؤثره على غيره ·

وان شفقته تعم ، فتكون رحمة ، لاتختص بالآحاد ، بل هو أحيانا يغضب ولا يغضب الا للحق ، ولكن قلبه التقي الخالي · من كل سوء بالناس ، تغلب عليه الرحمة العامة دائماً ، فيقول في ضراعة لربه الرحيم :

« اللهم اني بشر من البشر ، أغضب كما يغضب البشر ، فأيما رجل دعوت عليه ، فاجعل ذلك له زكاة ورحمة ، وصلاة وطهورا ، وقربة تقربه اليك ، يوم القيامة » .

وان مظاهر حياته كلها شفقة ، فامرأة في عقلها شيء يقف معها في جانب من الطريق يستمع الى حاجتها ، ويلقي في قلبها الطمأنينة .

وجارية يضيع منها ثمن دقيق ، فيدفعه لها ، وتبكي خشية أن يضربها مالكوها ، فيسير معها اليهم ليمنعهم من ضربها وأحد السبطين يركب على ظهره ، وهو ساجد ، فيطيل السجود ، حتى لا يزعجه ، ويستمر مرتحلا ظهر جده الرؤوف الرحيم ، حتى يتركه .

وكان يسمع بكاء الطفل وهو يصلي فيخفف في صلاته ، ليكون بجوار الطفل ، من يرحم بكاءه ، وهكذا . وقد يقول قائل : ان شفقة النبي عليه السلام أمر ثابت ، وهل لهذه الشفقة صلة بالرسالة ، وولايته لامر المؤمنين .

ان شفقة المسيح عليه السلام كانت لروحانيته ، وأنه لم يكن منشيء دولة .

ونقول في الاجابة عن ذلك : ان عيسى عليه السلام كان صاحب رسالة ، وكان من مقتضى هذه الرسالة أن يكون بالذين يدعوهم رؤوفا ، فالشفقة من مقتضيات الرسالة والدعوة فان الدعوة من الشفيق الرفيق تكون مستجابة من القلوب الطيبة المؤمنة المطمئنة ان الرحمة هي التي تجذب الناس الى الداعي ، وليست القسوة ، ان النفوس التي تدعى الى الحق منها ما يفتح الله قلبه للحق بقوة ايمان الداعي وشفقته ، واجتذابه اليه بالحق ، ومنهم من يحتاج الى البينات والأدلة وهؤلاء هم أهل البرهان والدليل ، ومع الأنبياء معجزاتهم ، ومنهم من يكون على قلوبهم غشاوة ، وهؤلاء يدعون بالبرهان والحق ، وتكرر الدعوة اليهم فان اعتدوا رد كيدهم في نحرهم .

وان من مقتضى الولاية الشفقة ، ولقد دعا رسول الله صلى الله عليه وسلم الولاة الرفق بالرعية ، ودعا لهم ان رفقوا بها ، وأشفقوا ولم يرمضوهم بقسوة أو ظلم أو استكراه ، أو اضعاف للنفوس ، ولقد قال عليه السلام في ذلك : « اللهم من ولي من أمر أمتي شيئا فرفق بهم ، فارفق به ، ومن ولي من أمر أمتي شيئا فشق عليهم فأشقق عليه » .

ولقد أدرك هذا أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه بهدي النبي صلى الله تعالى عليه وسلم واتخاذه له قدوة فكان لا يولي الا من يشعر منه بأنه يكون في ولايته شفيقا رحيما الا اذا وجب حد ، فانه لا شفقة ، والرحمة بالكافة تقتضي اقامته •

ولقد دخل على عمر رضى الله عنه رجل ، وكان عمر قد اعتزم أن يوليه ولاية ، فرأى عمر يقبل بعض ولده ، فقال الرجل أو تقبل ولدك يا أمير المؤمنين ، قال نعم ، وأنت ألا تقبل ولدك ، قال : لا ، فقال الفاروق وأنا لا أوليك من لم يرحم ولده لا يرحم رعيته •

صدقه وأمانته وعفته صلى الله عليه وسلم :

١٤٣ ـ ان حديث صدق الرسول عليه السلام يعد من نافلة القول في هذا المقام وكذلك أمانته ، وعفته فهو الصادق الذي عرف بالصدق منذ أن وعى الى أن قبضه الله تعالى اليه ، فما عرفت عليه كذبة قط في حياته كلها صلى الله تعالى عليه وسلم •

وان الكذب لم يكن من أخلاق كبراء العرب ، فان الحرية التي كانت لهم بمقتضى قيامهم في بلاد لا يسيطر فيها طاغ يتحكم في عقولهم ونفوسهم ، وألسنتهم وتفكيرهم ، ولم يكن عندهم الملق الذي يجعلهم يدهنون في القول رجاء خير يبتغونه ، وانه حيث يحكم الملك العضوض ـ وتسيطر أهواء الحكام توجد صفتان متلازمتان ، احداهما النفاق ، وثانيتهما الكذب ، لأن النفاق في ذاته كذب ، والكذب لازمة من لوازمه ، ولذا أثر عن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم أنه قال : « آية المنافق ثلاث اذا حدث كذب ، واذا وعد أخلف ، واذا اؤتمن خان » ولم يظهر في العرب نفاق أو كذب الا ما كان يصاقب حواضر البلاد التي يحكمها ملوك أو أمراء كالملوك أو حكام مستبدون بشكل عام ، كأراضي العرب التي كانت تجاور النعمان ، أو الغساسنة في الشام ، فانه يجوز أن يكون فيها النفاق والكذب والملق ، ووراءهما خيانة الأمانات •

وان التاريخ ليروي أن أبا سفيان ، وقد كان زعيم الشرك في الوقت الذي جرى فيه حديث بينه وبين هرقل ملك الروم عن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، وقد سأله عن نسبه الكريم ، فقال انه من أوسطنا نسباً ، وعمن

يتبعـــونه ، وعن أسئلة كثيرة تتعلق بأخلاق النبي عليه السلام ، أجـابه بالصدق غير مائن فيما يقول ،ولقدقال،وهو محنق من أثر الحقائق التي ذكرها لهرقل : « لولا أني أخشى أن يحفظ عني كذبة في العرب لكذبت » ·

فعرب مكة والمدينة ووسط الصحراء لم يكن الكذب سائغا بينهم ·

وكذلك النفاق ، ولم يعرف النفاق في أوساط المسلمين الذين استجابوا الا من اليهود ، ومن يجـاورونهم من مشركي المدينة ، فقد ظهر فيهم النفاق مقترنه بقوة المسلمين ·

اذن لم يكن غريباً أن يكون محمـد صادقا بين الصادقين ·

ولكن صدق محمد صلى الله تعـالى عليه وسلم ليس كصدق غيره من أهـل مكة ومن حولها ، ولكنه صدق من أعده الله تعالى ليكـون رسـولا للعالمين ، فأخلاقه صلى الله تعالى عليه وسلم كانت من ارهاصات النبوة ، فلم يكن صلى الله تعالى عليه وسلم صادق القول فقط ،بل كان صادقا للقول ، وصـادق الحس ، وصادق النفس ونقصد بصـدق الحس بأن يكون نظره الى الأشياء والأشخاص صادقا في وصفها ، مستبطنا من وراء الظاهر ، ما يعرف حقائق استبطنتها ، ثم صادق في النظر الى نفسه ، فيعرف مواضع الخير ، فيفعلها، ويعرف مواضع الشر فيجتنبها، وهو صادق في مقاصده،وصادق في غاياته ، يخلص في ادراك الحقائق، والاتجاه اليها اتجاها مستقيما لا عوج فيه ، فيستقيم ادراكه ، ويصدق في كل أمر يتصل بالقلب والضمير ·

ولأن الايمان أساسه الاخلاص في العمل والقول والاذعان ، لا يتصـور ايمان مع كذب ، ولقد سئل من بعـد نبوته ، أيكون المؤمن جبانا ، فقـال عليه السلام يجوز ، وسئل أيكون بخيلا قال يكون بخيلا ، وسئل أيكون المؤمن كذابا : قال لا يكون المؤمن كذابا ، اذ الكذب والاخلاص في الاتجاه والقـول والعمل نقيضان لا يجتمعان ·

وأما الأمانة فحسبنا أن نعلم أن ذلك أمر رأته قريش كلها ، وآمنت به، حتى سمي بالأمين ، كان يعرف بالأمانة،وينادى بالأمين ، وان الأمانة والصدق صنوان متلازمان ، فلا أمانة من غـير صدق ، والصدق يقتضي كل الفضائل، والكذب عش الرذائل ·

وعفة محمد بن عبد الله عليه السلام كانت صيانة من الله تعالى صانه عن أن يلهو ، ولا يمكن أن تكون الشهوات وانحرافها، الا ومعها اللهو بكل ضروبه، وقد صانه الله لا عن الأهواء والشهوات المنحرفة ، بل صانه عن مقدماتها ، وعن أخذ أسبابها ، فصانه عن اللهو ولو كان بريئا •

وقد ذكرنا من قبل كيف انساق وهو غلام الى الرغبة في أن يحضر عرسا فيه لهو ، فانه عندما ذهب اليه ضرب الله سبحانه وتعالى على ذاته بنعاس أصابه من غير غم ، وما استيقظ من نعاسه حتى أيقظته الشمس في ضحاها ، وكذلك كان الأمر في ليلة أخرى ، حين استوى عوده ، وكانت له ارادة مسيطرة على نفسه ، كان عزوفه عن اللهو بارادة مهدية مدركة ، ولم يكن بنوم يصيبه الله تعالى به ولذلك استعصم ولم يحدث منه قط ما يكون انسياقا وراء هوى جامح ، أو شهوة مسيطرة • حتى كان الزواج ، فكان الحلال الذي لا مرية فيه •

وفاؤه صلى الله عليه وسلم :

١٤٤ ـ انه يستدل على سجايا الرجل بمقدار رعايته لمن كان لهم به صلة وممن كانوا معه على عشرة طيبة ،فيوفي بحق هذه العشرة ، يرعاها حق رعايتها ، يصلها ولا يقطعها ، يذكرها ولا ينكرها ، فالوفاء خلة الرجل الكريم ، وبمقدار وفائه يكون مقدار ما آتاه الله تعالى من خلق سمح ، ونفس مؤمنة بالخير ، معترفة به لأهله •

وان وفاء النبي صلى الله تعالى عليه وسلم لمن مضى من معاشريه يسترعي أنظار من قرؤوا سيرته الطاهرة •

(أ) وأوضح مثل ، وفاؤه لأم المؤمنين خديجة ، يود صديقاتها ، ويصل صلاتها يذكرها بالخير والاعتراف بالجميل ، حيث جاء ذكرها ، حتى ان أم المؤمنين عائشة حب رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم تقول : « ما غرت على امرأة ما غرت على خديجة ، لما كنت أسمعه صلى الله تعالى عليه وسلم يذكرها وان كان ليذبح الشاة ، فيهديها الى خلائلها • استأذنت ، عليه أختها فارتاح اليها ودخلت عليه امرأة ، فبش لها وأحسن السؤال عنها فلما خرجت قال انها كانت تأتينا أيام خديجة » •

وان الوفاء لحسن العهد من الايمان، وناهيك بأعظم من في الوجود ، فلابد أنه كان أوفاهم ، ومما يتصل بوفائه لزوجه البارة خديجة أن عائشة من كثرة ثنائه عليها قالت له مرة : هل كانت الا عجوزا بدلك الله خيرا منها ، فقال عليه السلام : « ألا والله ما أبدلني خيرا منها ٠٠ آمنت بي اذ كفر الناس، وصدقتني اذ كذبني الناس ، وواستني بمالها اذ حرمني الناس ، ورزقني الله منها الولد دون غيرها من النساء » ٠

وكان لفرط وفائه كان اذا رأى أحدا من أولادها من غيره فاض عليه بالعطف والحنان ، اذ قد سمع صوت ابنها هالة قد جاء اليه ، فخرج اليه مناديا في لهفة فرح : هالة ، هالة ٠٠ وأكرمه ، وبالغ في اكرامه ٠

(ب) ومن أوضح وفائه عليه السلام وعرفانه للجميل ما روي عن أبي قتادة أنه لما جاء وفد النجاشي ملك الحبشة الذي آوى أهل الهجرة الى الحبشة وأكرمهم قام النبي صلى الله تعالى عليه وسلم يخدمهم بنفسه ، فقال له أصحابه نكفيك يا رسول الله خدمتهم فقال محمد الوفي العارف للجميل : « انهم كانوا لأصحابنا مكرمين ، وأحب أن أكافئهم » ٠

نعم ان محمداً عليه السلام يجازي الاحسان بمثله ، والا ضاع العرف بين الناس ، وهو أسوتهم ٠

(ج) ومن كريم وفائه ، ولطف مودته وعدم نسيان من ارتبط معهم برباط من مودة وعشرة ، مهما يتباعد زمانها ، فان الكريم لا ينسى عشرة من عاشرهم ، ضعفوا ، أو علوا ، قدم عهدهم ، أو قرب ، وقد وجد أختا له من الرضاع اسمها الشيماء من سبايا هوازن ، فتعرفت له ، فلما عرفها بسط لها رداءه ، وقال لها ان أحببت أقمت عندي مكرمة محببة ، أو متعتك ورجعت الى قومك فاختارت قومها ، فأرسلها ٠

وعن عمرو بن السائب أن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم كان جالسا يوما ، فأقبل أبوه من الرضاعة فوضع له بعض ثوبه ، فقعد عليه ثم أقبلت أمه ، فوضع لها شق ثوبه من الجانب الآخر فجلست عليه ، ثم أقبل أخوه من الرضاعة فقام صلى الله تعالى عليه وسلم فأجلسه بين يديه ٠

(د) وانه ليوفي حتى لمن فرح بولادته ، فقد كانت جارية لأبي لهب قد أرضعت النبي عليه السلام في أول ولادته ، وخرجت فبشرت أبا لهب بالولادة ، وأعتقها أبو لهب ، لهذه البشارة فكان محمد صلى الله تعالى عليه وسلم ، يبعث اليها بصلة مستمرة موصولة ما كانت حية ، فلما ماتت سأل عمن بقي من ذوي قرابتها ، فقيل لا أحد ·

ولقد كان في جملة أخلاقه أنه يصل رحمه ، ولو لم يكونوا له نصراء وأولياء ، فهو لا يصل رحمه مكافئا ،ولكن يصلهم راحماً ، وقد روي أنه عليه السلام قال عن بعض ذوي رحمه:« ليسوا لي بأولياء غير أن لهم رحما سأبلها ببلالها » (١) ·

---

(١) الشفاء جـ ١٨ ص ٧٤ ، ٧٥

العـابـد

عبادته قبل البعثة :

١٤٤ – تحير ابراهيم عليه الصلاة والسلام في تعرف ربه الذي يستحق العبادة وحده ، ولا يشركه في العبادة وثن ، ولا شجر ، ولا شيء من المخلوقات، وحكى الله تعالى حيرته في كتابه الكريم ، اذ حكى عنه أنه ابتداء أنكر أن تكون الاصنام آلهة ، واستنكر على أبيه عبادتها وقال تعالى في قصته :

﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ ءَازَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا ءَالِهَةً ۖ إِنِّىٓ أَرَىٰكَ وَقَوْمَكَ فِى ضَلَٰلٍ
مُّبِينٍ ﴿٧٤﴾ وَكَذَٰلِكَ نُرِىٓ إِبْرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلْمُوقِنِينَ
﴿٧٥﴾ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ ٱلَّيْلُ رَءَا كَوْكَبًا ۖ قَالَ هَٰذَا رَبِّى ۖ فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَآ أُحِبُّ ٱلْـَٔافِلِينَ ﴿٧٦﴾
فَلَمَّا رَءَا ٱلْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَٰذَا رَبِّى ۖ فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِى رَبِّى لَأَكُونَنَّ مِنَ ٱلْقَوْمِ
ٱلضَّآلِّينَ ﴿٧٧﴾ فَلَمَّا رَءَا ٱلشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَٰذَا رَبِّى هَٰذَآ أَكْبَرُ ۖ فَلَمَّآ أَفَلَتْ قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّى
بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٧٨﴾ إِنِّى وَجَّهْتُ وَجْهِىَ لِلَّذِى فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ حَنِيفًا ۖ وَمَآ أَنَا۠
مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٧٩﴾﴾ (١)

ونرى من هذا أن الخليل عليه السلام ابتدأ في الخروج من الضلال الذي كان في قومه ، فبين أن الوثن لا يصلح ربا لأنه لا يضر ولا ينفع ، وقام لديه الدليل بازالة ما يعلق بها من أوهام فحطمها ، وتأكد بتحطيمها أنها لم تضره ، وأنها لا قوة فيها ، لا ظاهرة ،ولا باطنة .

---

(١) الانعام

ثم أخذ يختبر الآلهة التي كانت شائعة بين أقوامه ، فجاء الى النجـوم ، وكان من سكان العراق الذين عرفهم ممن كان يعبد النجـوم ، فاتجـه الى النجوم يعرف سر كنهها عساه يجد قوة فيها تسوغ تألهها ، فوجـدها تأفل ، فليس لها بقاء ذاتي مستمر ، ومثلهـا لا تصلح للألوهية ، ثم اتجه الى القمر باعتباره كوكبا كبيرا ، فوجـده مثـل سائر الكواكب ، ثم اتجه الى الشمس وكان المصريون يزعمـون أن فيهـا آلهتهم ، وقد زار مصر ، ولكن وجـدها لا تصلح للألوهية ، لأنها أفلت ،وهكذا نراه متحيرا ، حتى هداه ربه ، فكان أبا الأنبياء ، فمن ذريته الأنبيـاء الذين جاءوا بعده ، وذكرهم القرآن الكريم، ثم كانت الهداية بعد الحيرة،والاطمئنان واليقين ، بعد الشك المحير ٠

ونبينا محمد بن عبد الله صـلى الله تعالى عليه وسلم خطا خطـوة ابراهيم الأولى ، وهي انكار عبادة الأوثان فقد أنكرها ابتداء ، ولم يعترف لها بوجود، فما سجد لصنم قط ، وما قدس صنما قط ، واذا استقسمه أحد ، لا يقسـم بها ، ولما أراد بحـيرى الراهـب أن يستحلفه باللات رده ، وقال انه يكـره ذكرها ، وما كره ذكر شيء كما كـره ذكرها ، فأدرك محمد (عليه الصـلاة والسلام) حفيد ابراهيم ما أدركـه ابراهيم ، وعلم بالعقل السليم ، وفطرة الله تعالى ما علمـه جـده الأكبر ابراهيم ٠

ولكن الخطوات الأخرى التي خطاها ابراهيم في معرفة ربه لم يخطها ، فلم يخط خطوة تعرف الله في النجـوم ولا في الشمس ، بل وقف عند عبادة الله ، وادراك عظيم قدرة الله سبحـانه ، واستحقاقه وحده للعبادة ٠

والسبب في أن محمدا صـلى الله عليـه وسلم لم يخط الخطـوات التي خطاها خليل الله ابراهيم ، أن ابراهيم رأى فعلا من عبد مع الأوثان الكواكب، وعبد الشمس ، ولم يكن في الأقـوام الذين بعث فيهم من يذكرون الله كثيرا، ولو على انحراف في الاعتقـاد ، أما العرب ، فكانوا يعرفون الله تعالى ببقايا ديانة ابراهيم ، وكانوا يذكرون الله في الحج بغية ابراهيم في العبادة ، فهـم يعرفون الله على انحراف ، ولم يكـونوا يجهلونه ، بل كانوا في مناسـك الحج يذكرون الله كثيرا، في تلبيتهم ووقوفهم في مناسكه ، والضلال في اشراكهـم بالله ، بينما الظاهر من تاريخ الكلدان،والمصريين ، أنهم ما كانوا يذكرون الله تعالى في عبادة قط ، فلما نشأ محمد عليه الصلاة والسـلام في قوم يعرفون

الله ويشركون معه في العبادة أوثانهم ،ترك ما ابتدعوه ، وأنكره ، وبالغ في انكاره ، وأبقى من بقايا ابراهيم الاعتراف بالله ، ثم كان ايمانه بربوبيته وحده ، واستحقاقه وحده للعبادة والألوهية ٠

وقد يقول قائل : « ان الله تعالى وصفه بأنه كان ضالا فهدى ، اذ قال تعالى :

﴿ أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَىٰ ﴿٦﴾ وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَىٰ ﴿٧﴾ ﴾ (١)

فان هذا يدل على أنه كان ضالا في العبادة،ومن يعرف الله تعالى لايضل في عبادته ونقول في الجواب عن ذلك: ان محمد بن عبد الله عليه الصلاة والسلام كان يعرف الله تعالى ، ويؤمن به ، ويكفر بالأوثان،وينكر أن تكون مستحقة لأى نوع من التقديس لها ، كما رأى جده الأكبر ابراهيم أنها لا تضر ولا تنفع ٠ ولكنه كان حائرا في الطريقة التي يعبد الله تعالى بها ، فهو متجه باستقامة نفسه وقلبه الى الله تعالى ، وعبادته وحده ،ويريد أن يقوم بحق الله ، وكانت ديانة ابراهيم قد جهلت ، ولا يعرف من طريقتها الا قليلا ، فكان لابد من أن تصيبه حيرة ، حتى يهديه الله تعالى الى شيء مما بقي من دين ابراهيم ، وهذا هو مؤدى قوله تعالى :

﴿ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَٰكِن جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَن نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا ۚ وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٢﴾ ﴾ (٢)

١٤٥ ــ وان محمدا نشأ عابدا منذ أدرك سن التمييز ، فكان عقله في الله تعالى يفكر كيف يعبده ، ثم يجد في التفكير في خلق الله تعالى عباده ، واذا كان ابراهيم عليه السلام قد أراه الله تعالى ملكوت السموات والأرض ليصل الى ادراك ربه ، فقد كان محمد بن عبد الله منذ كان غلاما زكيا يرى في خلق السموات والأرض والشمس والقمر ، والنجوم المسخرات بين السماء

---

(١) الضحى (٢) الشورى

والأرض عبادة ، لا ينظر الى السماء وأبراجها وزينتها ، والشمس وضحاها، والليل اذا يغشاها ، لا ينظر الى كل ذلك على أنها مناظر جميلة ، وزينات باهرة ، بل ينظر في دلالتها على الخالق، ولا ينظر اليها متعرفا سر الاضاءة في الشمس ، وانما يتعرف منها سر الدلالة على المنشيء ، والأرض والماء والزرع ، والشجر والثمار كل ذلك كان يستغرق تفكيره لا ليعلم كيف خلق ، ولكن ليعلم من الذي خلق ، وكلما أمعن بفكره تعرفا للخالق ، واستدلالا عليه ازداد ايمانا به ، وطلبا لرضوانه ، واطمئنانا لنفسه ·

اتجه الى معرفة الخالق ، وما يرضيه عاكفا على ذلك عكوف العابد في صومعته ، لا يطلب الا ارضاء ربه ، ولكنه لم يعلم ما يرضيه ، ولا ما يكون نسكا له الا ما توارثه العرب من حج البيت ومناسكه التي بقيت من عصر ابراهيم عليه السلام ونزهت نفسه وقلبه ولسانه ، حتى صار ربانيا بفطرته المستقيمة وقلبه السليم ·

وكانت كل أعماله لارضاء الله تعالى فهو يخالق الناس بخلق حسن ، لا يكذب ويتصدق ويقدم للناس الخير ، لأنهم عيال الله ، وقد صار كل شيء فيه لله تعالى ، وقد صار قلبه المعلق بالله تعالى الخاضع الخانع ، لا يرى في الوجود الا الله تعالى ، ولا يحسب أنه الا القانت له ، الخاضع ، ولكنه يجهل الشكل الذي يرتضيه لعبادته ، فصار كله لعبادته ، قلبا ولسانا وعملا وخلقا ·

وزهده في الاختلاط كان يريه من الناس افكا من عبادة للأوثان ، ومن خمر يعاقرونها ، وميسر يلعبونه ، وخصومات يفجرون فيها ، وشحناء ليست من شأنه ، ومجادلات ليست من غايته ، وشعر يتبعه الغاوون ، والكبر الأثيم الذي لا اثم فوقه ، تقديسهم للأحجار، واتجاههم الى تقديسها بدل تقديس الديان ، كل هذا زهده في الاختلاط ·

ولذلك كان محمد بن عبدالله عليه الصلاة والسلام قبل أن يبعث عزوفا عن أن يغشى مجالس قريش في سمرها ، أو مايزجون به فراغهم ، الا أن يكون جدا يوجب الخلق الكريم مشاركتهم فيه ، كما شاركهم في بناء الكعبة ، وكما كان يحضر في ندوتهم اذا جد الجد ، وكما حضر حلف الفضول ·

والسبب في عزوفه عنهم أنه يبتعد عن مواضع يعزب فيها عن ذكر الله ويبتعد عن التفكير في ذاته تعالت عن الشبيه ، وتنزهت عن المثيل ، وأنه يريد أن ينصرف الفكر فيه ، والتفكر في ذاته وارضائه خير من عبادة الحركات والمظاهر ، فكانت حياته كلها لله تعالى ٠

ما كان يخرج من خلوته الا لاسداء معروف ، أو اطعام مسكين ، أو اغاثة ملهوف ، أو لاقراء ضيف عز عليه اقراء وان ذلك كله عبادة ، لأنه ما يقصد الا وجه الله تعالى ، وارضاء الله تعالى وأي عبادة أعلى من ذلك شأنا ٠

كل شيء في الوجود يذكره بالله ،فكلما رأى الخلق كان منه ما يدل على الخالق ٠ كلما رأى النعم في الوجود تذكر الخالق ٠

ولقد دعا بعد بعثته الى التفكر في الله تعالى ، فكان يقول « تفكروا في آلاء الله أى في نعمه » وحكى عن ربه أنه قال : « كنت كنزا مخفيا ، فأحببت أن أعرف ، فخلقت الخلق ، فبي عرفوني » ٠

ولقد كان محمد بن عبد الله عليه الصلاة والسلام يعلن أن التفكر في الله وآلائه وخلقه أساس العبادة ، وأنه لا عبادة من غير معرفة الله سبحانه وتعالى ، ولقد قال علي بن أبي طالب صفي رسول الله ، وحبيبه المجتبى : « سألت رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم عن سنته (أي طريقته) فقال المعرفة رأس مالي ، والحب أساسي ،والشوق مركبي ، وذكر الله أنيسي ، والثقة بالله كنزي ، والحزن رفيقي ،والعلم سلاحي، والصبر ردائي ،والرضا غنيمتي ، والعجز فخري ، والزهد حرفتي ، واليقين قوتي ، والصدق شفيعي ، والطاعة حسبي ، والجهاد خلتي ، وقرة عيني في الصلاة ، ورويت زيادة وهي ثمرة فؤادي في ذكره ، وعملي لأجل أمتي ، وشوقي الى ربي عز وجل » (١) ٠

حبه للاعتزال :

١٤٦ ــ قد كان من أحوال محمد بن عبد الله صلى الله تعالى عليه وسلم الاعتزال الا في مكرمة تؤثر ، أو صلة رحم ، أو اغاثة ملهوف ، أو تحمل

---

(١) الشفاء جـ ١ ص ٨٦

للكل ، فعندئذ يتصل بالناس لينفعهم ،ويتقرب منهم ولا ينقطع حتى وهو في عزلته ، لأنه ما جاء لخيرهم فهي عزلة يسكن فيها الى الله تعالى خالق الناس ٠

وكلما كانت تتقدم به السن تزداد عزلته ، ويزداد تفكيره في ارضاء الله تعالى ، وتعرف صفاته ، والوصول الى عمل ما يرضيه ، ويرى فيه ما تقربه عينه ، وتطمئن اليه نفسه ، ولا يريد غير الله ٠

وقد صارت العزلة خلوة يخلو فيها للعبادة ، فقد ذكر الرواة أنه كان يتحنث (أي يتعبد) في غار حراء ، الليالي ذوات العدد ، واستمر يزداد في الخلوة والعبادة ، وقال الرواة كان يتعبد شهرا كل عام ، حتى كانت البعثة، وهو في خلوته في غار حراء ٠

وكان عليه السلام يتزود لذلك ،ويمكث فيه الشهر للعبادة ، وذكر الله تعالى ٠

وقد تكلم العلماء في المنهاج الذي كان عليه السلام يتبعه في عبادته ، أكان على شريعة من الشرائع السماوية السابقة ٠

جاء في كتاب البداية والنهاية لابن كثير ما نصه :

اختلف العلماء في تعبده عليه الصلاة والسلام قبل البعثة ، هل كان على شرع أم لا ، وما ذلك الشرع ، فقيل شرع نوح ، وقيل شرع ابراهيم ، وهو الأقوى ، وقيل موسى ، وقيل كل ما ثبت أنه شرع عنده أتبعه وعمل به (١) ٠

هذا ما قاله ابن كثير ، وقبل أن نأخذه مأخذ التسليم مع تردد الأقوال بين نوح وابراهيم وموسى ننبه الى أمرين من الضروري التنبيه اليهما في هذا المقام :

أولهما ــ أن الثابت من سيرة النبي عليه الصلاة والسلام ومن تقرير القرآن أن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم كان أميا لا يقرأ ولا يكتب ، وأنه لم يكن على علم بكتب الديانات القديمة ، فلم يعرف التوراة ، ولا الانجيل ، وان كانت فيهما بشارات برسول يأتي من بعدهما اسمه أحمد ، ولم يكن بمكة التي كانت محل اقامته مدارس للاهوت الموسوي أو المسيحي ٠

---

(١) البداية والنهاية جـ ٣ ص ٦

ولما ذكر القرآن أخبار اليهود والأنبياء السابقين قالوا يعلمه بشر هو شخص رومي ، فرد الله تعالى عليهم بقوله تعالى

﴿ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌ لِّسَانُ ٱلَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِىٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُّبِينٌ ﴿١٠٣﴾ ﴾ (١)

وبذلك يثبت أنه عليه السلام لم يكن على علم بالشرائع السابقة ، وذلك هو الحق ، وهو يتفق مع اعجاز القرآن في أنه أتى بالصادق من أخبار السابقين بوحي من الله تعالى ، اذ لم يكن عنده علم بها ٠

ثانيهما ـ أنه كان بمكة نفر قليل أنكروا عبادة الأوثان ، ولم يعبدوها ، وسموا حنفاء ، وقالوا انهم كانوا يتعبدون على بقايا من ديانة ابراهيم عليه السلام ، ولذلك سموا حنفاء ٠ وروى أن النبي كان يتحنف في غار حراء ـ بدل يتحنث ـ وانا نسوق ذلك ، لبيان أنه كانت هناك بقايا من ديانة ابراهيم عليه السلام ، فقد بقي منها بقية في الحج وبقاء جزء ، قد ينبىء عن امكان تعرف ما جهل ٠

وانا لذلك نقرر أنه عرفت عقيدة ابراهيم عليه السلام ، وربما تعرفت بعض الشرائع التفصيلية عنده من أركان الصلاة ونحوها ٠ وانا مع تقديرنا لهذا نرجح أن عبادة النبي عليه السلام كانت بالهام من الله تعالى من غير وحي ، وقد كان دائم التفكير دائم الخشوع دائم التأمل في الكون ، فهو ابتدأ بالعبادة الفكرية ، وربما عرف بعضا من صلاة ابراهيم ، كما عرفت بعض مناسكه ٠

هذا وان محمدا عليه السلام كانت رؤياه صادقة كل الصدق ، فقد قال عليه الصلاة والسلام ان أول الوحي كان بالرؤيا الصادقة ، فكان اذا رأى رؤيا جاءت مثل فلق الصبح ، أي أنها تكون واضحة ، فلعله في وسط تعرفه لصلاة ابراهيم جاءته رؤيا بها مثل فلق الصبح ٠

---

(١) النحل

ومهما يكن من الروايات ، فان الثابت المؤكد ، أنه كان يتحنف في غار حراء الليالي ذوات العدد ، وكان يتزود بالزاد لخلوته ، هذه ، وكانت الالهامات تفيض عليه في المدة التي كانت قبل البعثة ، وأنه كان يرى الرؤيا مثل فلق الصبح ، وأنه منذ بلغ سن ادراك المعانى الدينية كان دائم التفكير والتدبر لمعرفة الله تعالى ومحاولة رضائه ، ونرجح بهذا أنه كان يتعبد على ديانة ابراهيم ، وأنه وصل الى بعض أجزائها بالالهام وبالرؤيا الصادقة وبالتعرف ، وانا نستبعد كل الاستبعاد أنه أخذ من التوراة والانجيل ، فما كان له علم بهما ٠

عبادته بعد البعثة:

١٤٧ ــ هذه صورة صادقة أو مقربة من عبادته عليه السلام قبل البعثة ، وهي تدل على أنه كان قواما لله تعالى طالبا مرضاته ، واذا كان لم يعرف شريعة ابراهيم على وجه الكمال ، فقد عرف ما يكفيه لان يكون عابدا يطلب رضا الله تعالى ، وقد صفت نفسه فأدركت ، وخلص قلبه فألهم ، وعلم أن ملة ابراهيم كانت الفطرة المستقيمة والحنيفية السمحة ، فاختارها ، وسلك سبيلها ٠

فالعبادة المتجهة الى الله تعالى كانت في قلبه ونفسه ، وكيانه وخلقه ، قبل أن ينزل عليه كتاب هاد ، قد أذهب حيرته ، ووجد الكتاب ينير له السبيل ، ويفصل الأحكام ، ولا شك أنها تكون أهدى بعد هذا التنزيل ، وأن العبادة في الجاهلية قبل البعثة كانت في قلبه بذرة صالحة نمت لأنها كانت في أرض طاهرة خصبة ، ولم يكن لها سقي ولارعي ، ومع ذلك آتت أكلها ، فبعد البعثة المحمدية جاءها السقي والرعي فأربت ونمت ، وازدهرت في قلب مخلص مدرك ، وصار قريبا من الله تعالى بقلبه الطيب المخلص ، وبمعرفة شرعه تعالى ، وباتصال الوحي به دوما من غير انقطاع ، فكان بذلك أعبد خلق الله تعالى ، وكلما ازداد علما بالله وشرعه ، ازداد عبادة ، وخوفا من الله وارضاء له ، ولقد روى أبو ذر عن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم أنه قال: اني أرى مالا ترون وأسمع مالاتسمعون، أطت السماء ، وحق لها أن تئط ، ما فيها موضع أربعة أصابع الا وملك واضع جبهته ساجدا لله ، والله لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلا ،ولبكيتم كثيرا ٠ رواه الترمذى ٠

ولقد سئلت أم المؤمنين عائشة رضي الله تبارك وتعالى عنها عن عبادة رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم، فقالت الصديقة بنت الصديق « كان رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم يصوم، حتى نقول: لا يفطر، ويفطر حتى نقول لا يصوم، وكان لا تشاء تراه من الليل نائما الا رأيته، ولا تشاء تراه قائماً الا رأيته، وقد روي في الصحيحين البخاري ومسلم أن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم قام حتى تورمت قدماه فقيل له: أليس الله قد غفر لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر؟ قال عليه الصلاة والسلام: أفلا أكون عبدا شكورا. ولقد ثبت في الصحيحين عن أبي الدرداء أنه قال: خرجنا مع رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم، في شهر رمضان في حر شديد، وما فينا صائم الا رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم وعبد الله بن رواحة، وفي الصحيحين أيضا عن علقمة قال: سألت عائشة هل كان رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم يخص شيئا من الأيام، قالت: لا، وكان عمله ديمة وأيكم يستطيع ما كان رسول الله عليه الصلاة والسلام يستطيعه.

ومعنى الديمة في الحديث أنه يحب الدوام على العبادة، ولا يحب الانقطاع عنها، وكان هو يستديم العبادة، ولو كان فيها ما يشق، ولكنه لا يطلب من المؤمنين الا الاستدامة في العبادة، وان قلت، ولذا يقول عليه الصلاة والسلام: « أحب الأعمال الى الله أدومها وان قل».

وذلك لأن استدامة العبادة ولو قليلة يجعل المؤمن في ذكر دائم لله تعالى، لا يغيب عنه سبحانه، فهو في قلبه دائما، ويتحقق فيه قوله صلى الله تعالى عليه وسلم: « اعبد الله كأنك تراه، فان لم تكن تراه فانه يراك » ومن ذلك قوله عليه الصلاة والسلام: « ان الله تعالى يحب الديمة من الأعمال ».

ولقد كان رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم يدعو المؤمنين الى التخفيف من الصلاة، والقراءة، وأن يصلوا بصلاة أضعفهم، حتى لا يكون في الصلاة ارهاق، ورأى بعض أصحابه يصلي بالناس فأطال للقراءة، مما شق على الناس، فقال: « فتان أنت » لأن التطويل يؤدي الى فتنة من لا طاقة لهم على الاطالة.

ولكنه عليه الصلاة والسلام في قيامه الليل كان يختار لنفسه الأشق لأنه عليه الصلاة والسلام يطيق مالا يطيقه عامة المؤمنين، فيختار لهم ما لا يشق

عليهم ، ولقد قال عوف بن مالك : «كنت مع رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم، فاستاك ، ثم توضأ ، ثم قام يصلي ،فقمت معه ، فاستفتح بالبقرة ، فلا يمر بآية رحمة ، الا وقف فسأل ، ولايمر بآية عذاب الا وقف فتعوذ ، ثم ركع ، فمكث بقدر قيامه ، يقول :سبحان ذي الجبروت والملكوت ،والكبرياء والعظمة ، ثم سجد ، وقال مثل ذلك » (١) ٠

وهكذا نرى عبادته عليه الصلاة والسلام فيها ذكر دائم ، وتلاوة للقرآن دائمة ، وكان يحرض أصحابه على أن يقرؤوا وهو يسمع ، فاذا ذكروه بأن القرآن نزل على قلبه ، قال لهم انه يحب أن يسمعه من غيره ٠

ومع دوامه على العبادة التي وصفها القرآن ، ودعا اليها ، وبينها عليه الصلاة والسلام ، كان اذا سكت عن القيام بصلاة ، أو ارشاد عام ، دائم التفكير في آلاء الله ، والتأمل في خلقه، ليدرك عظمته ، وكمال سلطانه ، فلم ينقطع عن عبادة التفكير التي ابتدأ بها قبل أن يوحى اليه ، ولقد قال هند بن أبي هالة ابن خديجة : « كان رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم متواصل الأحزان دائم الفكرة ليست له راحة »وكان كثير الاستغفار ، لأن الاستغفار عبادة في ذاته ، لأنه احساس بوجوب الالتجاء الى الله ، وفيه احساس بقصور ما يؤدي العابد من العبادة ، واستصغار العمل احساس بالحاجة الى الله والقرب منه ، وعظمته ، وجلاله ، وشعور بأن عمله مهما يكن كبيرا صغير بالنسبة لله تعالى ، ومن يستكثر حسناته ، كأنه يمن على الله تعالى في هذه العبادة ، وان الشعور بالاستغفار والالتجاء اليه بعد عن المن ، وان الصوفية يمقتون الاستكثار ولو من الطائعين ، ومنهم من يفضل المعصية التي تحدث ذلا وطلبا للاستغفار على الطاعة التي يصحبها الاستكثار ، ويقول حكيمهم : « ان معصية أورثت ذلا خير من طاعة أورثت دلا » ويقول أيضا في هذا المعنى : « ان معصية أورثت ذلا وانكسارا خير من طاعة أورثت دلا وافتخارا » ٠

ولقد كان سيد العابدين يحصن عبادته بالاستغفار ، حتى لا يكون منه من الاستكثار ، صلى الله تعالى عليه وسلم ٠

---

(١) الشفاء جـ ١ ص ٨٥

زهده صلى الله عليه وسلم قبل البعثة

١٤٨ ـ نشأ محمد بن عبد الله عليه الصلاة والسلام يتيما فقيرا،واجه الحياة بيتمه وفقره ، ماتت أمه بالأبواء ، بعدأن ولد يتيما من أبيه فأودع جده عبد المطلب فكفله بالرعاية ، ولم يكن في سن من يتحمل التبعة ، ويقدر لمستقبله وان كان يحس بالفقر ، واذاكان جده قد كلأه ، وكفاه حاجته ، وأغدق عليه بما يستطيع من خير ،وأفاض عليه بمحبته التي تغذي عاطفته ، ويجعله يعيش موادا غير مباغض ، ولكنه عاش معه أمدا قصيرا ، اذ توفي بعد سنتين من كفالته .

وبعد ذلك أخذ يواجه الحياة مع ضعف الصغر ، ومع الفقر المعجز ، ذلك أن عمه أبا طالب الذي آلت اليه كفالته كان ذا عيال ، وكان مقترا عليه في رزقه ، وان هذا الغلام الذي يعلو عقله على سنه ، واحساسه قوي يدرك ما حوله قد أدرك ما عليه حال عمه كافله ورفيقه وحبيبه ، الذي أفاض عليه بمحبة غذت نفسه ، فكان لا بد أن يعمل عملا ان لم يغنه عن عمه ، فانه يعينه الى حد .

اتجه ابتداء الى رعي الغنم الذى تعوده ورآه وهو في بني سعد ، فرعى الغنم لبعض أهل مكة على أجرة يأخذها من لبنها ، قراريط معلومة كخمس ما قدر أو نحو ذلك ، وبها يستغين ويعين .

ثم كان من بعد ذلك يتجر في قليل من المال ، أو في مال غيره حتى اشتهرت أمانته ، ثم اتجر في مال خديجة ،وضاعفت له الاجر لما اشتهر به من أمانة وصدق ، ولان الربح تضاعف على يديه .

ثم كان الزواج ، وكان المال الوفير،ولكنه لم يكن جماعا للمال كانزا له ، فلم يعرف أنه تكونت له ثروة قط تقدر رأس مال ، بل كان ينفق ما يدخر

في أوجه الخير ، من صلة رحم ،واعانة محتاج ، واغاثة ملهوف ، ومشاركة لذوي الحاجات في شدائدهم ومعاونتهم على نوائب الدهر .

وبذلك يضرب محمد بن عبد الله عليه السلام الأمثال في الزهد الايجابي ، وليس الزهد السلبي الذي هو زهد المحرومين بل زهده هو زهد القادرين الذين يتخذون أسباب الكسب الطيب ، ثم يزهدون في ادخار المال الا لحاجة بعد جمعه ، وبذلك سار قبل البعثة ، على ما بعثه الله تعالى من بعد ذلك بالنسبة للمال .

وبذلك نرى محمد بن عبد الله صلى الله تعالى عليه وسلم لا ينسى العمل الصالح في طلب الرزق الحلال وفيرا ، ولكنه لا يلهو به ولا يلعب ، ولا يكنز الذهب والفضة ، ولا يتفاخر بالخيل المسومة والأنعام والحرث ، ولكنه ينفقها في مصارفها من غير عبث ولا استعلاء ، ولا تكاثر .

واذا قيل انه لم تعرف له أبواب النفقات في حياته قبل البعثة نجيب عن ذلك بأن الكريم ينفق سرا ، ولا ينفق علنا ، وان ذلك القدر المجمل عرف من ناحيتين : ـ احداهما ـ قول خديجة أم المؤمنين في خطابها له مطمئنة : « انك تحمل الكل وتقري الضيف ،وتعين على نوائب الدهر ، وتغيث الملهوف ، وحسبنا ذلك لبيان هذا الاجمال .

الثانية ـ أنه لم يعرف له مدخر قط مع الاستقامة ، والبعد عن الزخارف ، مع كثرة الكسب ، وما يدر عليه من مال خديجة أجرا له على استغلاله في التجارة .

وانه بهذا يتبين أن زهده قبل البعثة هو زهده من بعدها ، طلب الكسب الحلال ، لا ليدخر ويستكثر ، بل لينفق منه فى مكارم الأخلاق ، واعانة الضعفاء ، فهو يصب ليعطى ، ويكثر ليطعم غيره ، وهو لا ينفق على نفسه وعلى أهله الا القليل بالمعروف من غير خصاصة واضحة ، ولا حرمان ظاهر ، بل يتناول الحلال ويكتفي بأقله ، ولا يحرم مما هو طيب حلال ، وكذلك كانت الحال بعد أن بعثه الله تعالى نبيا .

١٤٩ ـ ان زهد محمد بن عبد الله عليه السلام الذي وصل اليه بفطرته السليمة في وسط الجاهلية هو أعلى درجات الزهد ، ولنستعرض بعض كلام الصوفية في الزهد الصوفي لنتعرف مقام زهد الصوفيين من زهد محمد بن عبد الله عليه السلام قبل أن ينزل كتاب يرشده ويهديه ، لقد قال ابن عطاء الله السكندرى في حكمه: « للزاهد في الدنيا علامتان علامة في فقدها (أى أسباب الشهوات) وعلامة في وجودها ، فالعلامة التي في وجودها الانصراف عنها والعلامة التي في فقدها وجود الراحة منها ، فالايثار شكر لنعمة الوجدان ، ووجود الراحة منها شكر لنعمة الفقدان » ٠

وزهد محمد قبل البعثة ، كان أعلى من ايثار غيره بها عند وجودها ، والراحة من فقدها ، لأنه كان زهد العامل للحصول على أسباب اللذائذ ، فاذا حصل عليها لا يختص بها ، بل يؤثر غيره بها ، ولا يتأتى زهد فقدانها ، لأنه لا ينتظرها وجودا وفقدا ، ولكن يعمل لوجودها لينفق على الفقراء وليمتع غيره ، فهو زهد ايجابي عامل ٠ كما نوهنا ، فليس زهد الحرمان الذى جاء من فلسفة الهنود ، ولكنه زهد الكاسب الذي يكسب لغيره ، ويبقى لنفسه القليل الذي يقيم أوده ، ويمكنه من استمرار الكسب لغيره ٠

ولقد رتب الامام أحمد رضي الله تبارك وتعالى عنه مراتب الزهد أدنى مراتبه ترك الحرام ، والمرتبة الثانية ترك فضول الحلال ، بل يفطم نفسه عن بعضه ، فهو يمنع عن نفسه بعض الحلال من غير تحريم ، ولكن ليعودها احتمال الحرمان ان لم يجد بعض الحلال ، فهو تهذيب وتربية ٠ والمرتبة الثالثة وهي العليا ألا يشغل نفسه عن ذكر الله تعالى بالاشتغال بالدنيا ، واستغراقها لنفسه ، وهو زهد العارفين ٠

ومحمد بن عبد الله عليه السلام قبل البعثة كان زهده أعلى من ذلك ، لأنه كان مشغولا بذكره دائما في كل عمل يعمله ، وكل عبادة يؤديها ، وكل فكرة يتفكر بها ، وما كان يعمل لتعود ثمرة عمله على نفسه ، بل لتعود على نفع غيره ، فهو العابد في كل حياته ، ولا يعمل الا لله ، واذا كان شغل النفس بذكر الله تعالى هو زهد العارفين ، فزهد محمد أعلى منه ٠

زهده صلى الله عليه وسلم بعد البعثة :

١٥٠ ـ كان زهد محمد بن عبد الله صلى الله تعالى عليه وسلم امتدادا لزهده قبل البعثة ، ولكنه بعد البعثة أخذ صورة أجل وأعظم ، لأنه حمل أعباء الرسالة ، فكان زهدا في الاستعلاء بالسلطان ، وزهدا معروفا عند كافة المؤمنين ، ليكون أسوة حسنة فيما يطيقونه من زهده عليه السلام ، وكان زهد العامل الذي يعمل في كل ميادين الحياة ، لا زهد من يعكف في الصوامع ، وكان يبث ذلك في المؤمنين ويدعو اليه .

ولعل أظهر مظهر للزهد رفضه أن يكون ملكا كداود وسليمان وبعض الأنبياء ، فقد روى ابن عباس أن الله تعالى أرسل الى نبيه ملكا من الملائكة معه جبريل ، فقال الملك لرسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم : « ان الله يخيرك بين أن تكون عبدا نبيا ، وبين أن تكون ملكا نبيا ، فقال رسول الله عليه السلام ، بل أكون عبدا نبيا (رواه البخاري) .

وكانت أوامر القرآن تدعوه الى الزهد في الحرام ومنعه عن أمته ، كلها ، ولكن الخطاب كان موجها ابتداء اليه عليه الصلاة والسلام ولقد جاء في كتاب البداية والنهاية لابن كثير :

« قال الله تعالى :

﴿ وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ۚ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ﴿١٣١﴾ ﴾ (١)

وقال تعالى :

﴿ وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ۖ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا ﴿٢٨﴾ ﴾ (٢)

---

(١) طه (٢) الكهف

وقال تعالى :

﴿ فَأَعْرِضْ عَن مَّن تَوَلَّىٰ عَن ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿٢٩﴾ ذَٰلِكَ مَبْلَغُهُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ ۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱهْتَدَىٰ ﴿٣٠﴾ ﴾ (١)

وقال تعالى :

﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِى وَٱلْقُرْءَانَ ٱلْعَظِيمَ ﴿٨٧﴾ لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٨﴾ ﴾ (٢)

والآيات كثيرة (٣) .

وان هذه النصوص كلها الخطاب فيها للنبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، ولكنه موجه الى كل المؤمنين ، ولا يختص به وحده ، وهو يدل على أمرين : أولهما - الامتناع عن الحرام ، وهذا زهد العوام ولذلك طولب به الناس جميعا . وثانيهما - أن الامتناع عن الحرام لا يكون بمجرد الامتناع المادي الواقعي ، بل انه لابد من البعد النفسي وتجنب أسبابه ، ولذلك كان النهى متجها الى الاسباب النفسية ، فقال تعالت كلماته ،

وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ۚ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ﴿١٣١﴾ (٤)

وكأن الدعوة الى ملازمة الذين ينصرفون عن الشهوات الى الله سبحانه وتعالى والاتجاه اليه ، وألا يخالط الذين يجترعون الشهوات فقال تعالى :

وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِىِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ۖ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا ﴿٢٨﴾ (٥)

---

(١) النجم (٢) الحجر (٣) البداية والنهاية جـ ٦ ص ٤٨ (٤) طه (٥) الكهف

فعشرة الذين يتجهون الى الله تعالى في غدوهم ورواحهم ، وفي غدوتهم وعشيتهم تربى في النفس معنى الاستبعاد عن الحرام والاتجاه اليه سبحانه وتعالى .

واننا نجد زهد محمد عليه السلام يشتد كلما تمكن من المال ، وكلما اتسع سلطانه ـ وكلما كثرت تكليفاته، وكلما أقدم على الشدائد ، لأنه يرى أن تحمل مصائب الحرب وشدائدها ، انمايكون ابتداء بتربية للنفس وحملها على ترك اللذائذ ، أو القدرة على تركها ، وما كان يدعو أمته بذلك بلسان القول، بل كان يدعو بلسان الفعل ولسان الفعل في هذه الحال أجدى فانه لايصح أن تكون الدعوة الى التقشف آتية ممن يرفل في الدمقس والحرير ، اذ تكون حاله مناقضة لمقاله ، فلا يسمع له قول، ولا يقبل منه كلام .

١٥١ ـ ان النبي عليه الصلاة والسلام قبل الهجرة كان يحمل كل ضعفاء المؤمنين ، فما يكون له من كسب من تجارته في مال أم المؤمنين خديجة ، ينفقه على الضعفاء من المؤمنين ، وهم أول من اتبع النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، وقد امتنع المشركون عن اطعام الضعفاء ، وخصوصا الذين يؤمنون ، بل أرهقوهم عذابا وعسفا وهوانا ، وكان يواسيهم بالعطاء وطلب الصبر ، والفرج القريب ان شاء الله تعالى لا يألوجهدا الا بذله ، وهو يكتفى بالقليل من العيش الذى يقيم أوده ، ليتحمل عبء الدعوة ، والقيام بحقها .

ولما هاجر الى المدينة ، وانشغل بالاسلام عن التجارة التي كانت المرتزق له ، ويظهر من مجرى التاريخ أنه قد أنهاها قبل الهجرة ، وربما يكون قد صفاها بعد وفاة أم المؤمنين خديجة رضي الله تبارك وتعالى عنها ، وصار رزقه من بيت المال الذي يعمل فيه ، اذ هو العامل الاول ، وله الاستيلاء على خمس الغنائم بمقتضى الولاية العامة الاسلامية كما قال تعالى :

﴿ وَاعْلَمُوٓاْ أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ ٱلْفُرْقَانِ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤١﴾ ﴾ (١)

(١) التحريم

عندما صارت نفقته من بيت المال ، أو من الغنائم ، وانها لتكون بأشق جهد يبذله وأعظمه علا زهده عليه السلام في المال والعيش الرغيد ، ولولا قيام الأود وأنه لابد من لقيمات يقمن صلبه، لزهد حتى في اللقمة القفار ٠

كان عليه السلام ينام على الحصير، حتى يؤثر في بدنه الكريم ، ويروى عن ابن مسعود انه قال : « انه عليه السلام نام على حصير ، فأثر الحصير بجلده فجعلت أمسحه ، وأقول ألا آذنتنا فنبسط لك شيئا يقيك تنام عليه، فقال عليه السلام : « مالي والدنيا ، ما أنا والدنيا الا كراكب استظل تحت ظل شجرة ، ثم راح وتركها » ٠

وكان رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم يتوسد بحشية من ليف ، ورآه عمر بن الخطاب ، وهو على مثل هذه الحال ، فبكى فقال له النبي الزاهد ، وما يبكيك ؟ فقال عمر : ومالي لا أبكي ، وكسرى وقيصر يعيشان فيما يعيشان فيه من الدنيا ، وأنت على هذه الحال التي أرى ، فقال محمد صلى الله تعالى عليه وسلم : يا عمر ، أما ترضى أن تكون لهم الدنيا ، ولنا الآخرة ؟ قال بلى ، قال هو كذلك ٠

قوت الزاهد :

١٥٢ ــ في الصحيحين البخاري ومسلم أن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم قال : « اللهم اجعل رزق آل محمد قوتا» هذه دعوة محمد عليه السلام الى ربه ، ولا ندرى أهي دعوة الاستجابة لها توفير القوت لآل محمد عليه السلام ، أم هي دعوة للاقتصار على القوت الضروري ، وتحمل آل محمد عليه السلام ذلك ، والصبر عليه والرضا به ، والقناعة الراضية الكافية التي لا يطلب معها غيرها ؟ أجيب أن الاستجابة تكون بهما، أي بتوفير القوت الضروري وأن يلقى الله تعالى في قلوب آل محمد عليه السلام من الأزواج الطاهرات ، ومن يلوذ به من أسرته الرضا به ، والصبر عليه وأن تكون الأسرة كلها في زهد ربها ، تحتمل ما يحتمل ، وتصبر على ما يصبر ، لتكون أسوة لغيرها ، ولكيلا يكون من بعضهن من يطمع في المال الذى يساق ، ويكون تصرف رب هذه الأسرة الزاهد كذلك ٠

ولقد كان كذلك ، فقد روى الامام أحمد أن أبا هريرة يقول : « ما شبع نبي الله صلى الله تعالى عليه وسلم وأهله ثلاثة أيام تباعا من خبز حنطة ، حتى

فارق الدنيا » أى أن محمداً كان يرى أن من التنعم أن يأكل من خبز القمح ثلاثة أيام متتابعة ، بل كان الشعير غالب طعامه عليه السلام ، وقد يكون معه التمر ·

ولقد قالت أم المؤمنين عائشة :« ما شبع آل محمد من خبز،حتى قبض، وما رفع من مائدته كسرة قط ·· ومن هذا الخبز يستفاد أنه ما كان يقدم له على مائدته الا ما يكفى بلا زيادة تفضل عنه ·

ولقد كان لا ينفي عن الخبز نخالته ، بل كان يأكله من غير نخل ، فقد قالت الصديقة بنت الصديق : « والذى بعث محمدا بالحق : ما رأى منخلا ، ولا أكل خبزا منخولا قط منذ بعثه الله تعالى عز وجل ، الى أن قبضه»·

وما كانوا يأدمون الطعام دائما ، بل كانوا يأكلون في كثير من الأحيان الخبز قفارا غير مأدوم ، وقد قالت أم المؤمنين عائشة : فيما رواه الصحيحان البخاري ومسلم عن عروة بن الزبير أنها قالت : ان كنا آل محمد ليمر بنا الهلال ما نوقد نارا ، انما هما الأسودان التمر والماء ، الا أنه كان حولنا أهل دور من الأنصار يبعثون الى رسول الله بلبن منائحهم ، فيشرب ، ويسقينا من ذلك اللبن ·

وهكذا نجد استجابة الله تعالى لرسوله الكريم محمد صلى الله تعالى عليه وسلم فجعل رزقه وآله قوتا ، ولكنه من أدنى القوت ليكون قدوة المسلمين ، وليكون غذاء لفقرائهم ، ولكيلا ترمض نفس بحرمان ، ولكيلا يأسوا على ما يفوتهم من وفرة الرزق ، وأسباب النعيم والعيش الرافغ ، في هذه الحياة·

ولكن يلاحظ أنه لم يحرم على نفسه صنفا من فاكهة ، أو طعاما من أطعمة أهل الترفه والنعيم ، بل يقبل كل الحلال ، ولكنه يكتفي بالأدنى دائما فاطما النفس عن أهوائها وملاذها ، تقويه لها ، ولتكون الارادة الحاكمة بسلطان العقل هي المسيطرة ، ولا تكون النفس أمة ذلولا للأهواء والشهوات بل تكون سيدة مطاعة ، حاكمة عليها غير محكومة بها ·

ومع هذه الزهادة التي التزمها ، وأخذ نفسه بها ما كان يدعو الناس اليها ، لأنهم لا يطيقونها ، ولأنه الذى أمر المؤمنين بألا يفعلوا الا ما يطيقون غير مسرفين على أنفسهم ، اذ يقول : « ان هذا الدين لن يشاده أحد

الا غلبه ولكن سددوا وقاربوا » فهو عليه السلام يأخذ نفسه بزهد لا يأخذ به غيره لكيلا يرمض فقير بفقر ، ولاذو قل بقله ٠

ولقد روى أبو داوود في سننه أن سائلا سأل بلالا مؤذن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم قائلا حدثني كيف كانت نفقة رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، فقال ما كان له شيء من ذلك الا أنا الذي كنت ألي ذلك منه منذ بعثة الله تعالى الى أن توفي ، فكان اذا أتاه المسلم فرآه عائلا يأمرني فأنطلق ، فأشتري له البردة ، والشيء فأكسوه وأطعمه ، حتى اعترضني رجل من المشركين ، فقال لي : « ان عندي سعة ، فلا تقترض الا مني ففعلت ، فلما كان ذات يوم توضأت ثم قمت لأؤذن بالصلاة ، فاذا المشرك في عصابة من التجار ، فلما رآني قال لي :« يا حبشي » قلت يا لبيه ، فتجهمني ، وقال قولا عظيما غليظا ، وقال أتدري كم بينك وبين الشهر ! قلت قريب ٠ قال ان بينك وبينه أربع ليال ،فآخذك بالذي لي عليك ، فاني لم أعطك الذي أعطيتك من كرامتك ، ولا من كرامة صاحبك ، وانما أعطيتك لتصير لي عبدا ، فأذرك ترعى في الغنم كما كنت قبل ذلك ٠ قال بلال فأخذني في نفسي ما يأخذ أنفس الناس ، فانطلقت ، فناديت بالصلاة حتى اذا صليت العتمة، ورجع رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم الى أهله ، فاستأذنت عليه فأذن لي فقلت يا رسول الله بأبي أنت وأمي، ان المشرك الذي ذكرت لك أني كنت أتدين منه قال كذا وكذا ، وليس ما يقضي عني ولا عندي وهو فاضحي فأذن لي أن آتي بعض هؤلاء الأحياء الذين قد أسلموا حتى يرزق الله تعالى رسوله صلى الله تعالى عليه وسلم ما يقضي به عني ، فخرجت حتى أتيت منزلي ، فجعلت سيفي وحرابي ورمحي ونعلي عند رأسي ، فاستقبلت وجهي الأفق ، فكلما نمت انتبهت ، فاذا رأيت رجلا نمت حتى اتسق عمود الصبح الأول ، فأردت أن أنطلق ، فاذا انسان يدعوني ، يا بلال أجب رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، فانطلقت حتى آتيه ، فاذا أربع ركائب عليهن أحمالهن، فأتيت رسول الله عليه السلام فاستأذنت، فقال لي رسول الله : أبشر فقد جاءك الله بقضاء دينك فحمدت الله وقال : ألم تمر على الركائب المناخات الأربع قلت بلى ، قال : قل ، فان لك رقابهن وما عليهن فاذا عليها كسوة وطعام أهداهن اليه صاحب فدك ، فاقبضهن اليك ، ثم اقض دينك ، ففعلت فحططت أحمالهن ،

ثم علقتهن ثم عمدت الى تأدية صلاة الصبح ، حتى اذا صلى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم خرجت الى البقيع ،فجعلت أصبعي في أذني فقلت : من كان يطلب من رسول الله عليه السلام دينا ،فليحضر فما زلت أبيع وأفضي،وأعرض حتى لم يبق على رسول الله تعالى دين في الأرض حتى فضل عندي أوقيتان،أو أوقية ونصف ، ثم انطلقت الى المسجد ، وقدذهب عامة النهار ، فاذا رسول الله عليه السلام قاعد في المسجد وحده ، فسلمت عليه فقال لي : ما فعل الله قبلك : قلت: قد قضى الله كل شيء كان على رسول الله عليه السلام ، فلم يبق شيء · قال فضل شيء قلت نعم ديناران ، قال : انظر أن تريحني منهما ، فلست بداخل على أحد من أهلي حتى تريحني منهما ، فلم يأتنا أحد ، وظل في المسجد حتى اليوم التالى، حتى اذا كان آخر النهار جاء راكبان ،فانطلقت بهما فكسوتهما ، وأطعمتهما· حتى اذا صلى العتمة دعاني ، فقال :ما فعل الله تعالى قبلك ، قلت قد أراحك الله تعالى منهما ــ فكبر وحمد الله تعالى شفقا من أن يدركه الموت · وعنده ذلك، ثم اتبعته حتى جاء أزواجه فسلم على امرأة امرأة حتى أتى مبيته » (١) ·

١٥٣ ــ سقنا هذا الخبر مع طوله،لأنه يدل أولا : على زهادة محمد بن عبد الله المطلقة التي لا يدخر فيها في بيته · ويدل ثانيا : على أن محمداً عليه السلام كان يحمل أعباء العائلين من صحابته ، يعينهم حتى يبعد عنهم ذل الحاجة ، ويحميهم من رق الدين ، ويدل ثالثا على أنه اذا لم يستطع أن يعطي أمرهم بأن يستدينوا عليه ·

ويروي في ذلك الترمذي بسنده أن رجلا جاء الى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم فسأله أن يعطيه · فقال :ما عندي ما أعطيك ، ولكن اذهب فابتع علي شيئا ، فاذا جاءني شيء قضيته ،فقال عمر بن الخطاب ، يا رسول الله ما كلفك الله تعالى مالا تقدر عليه فكره النبي عليه السلام قول عمر · فقال رجل من الأنصار يا رسول الله أنفق ،ولا تخش من ذي العرش اقلالا ، فتبسم رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم وعرف التبسم في وجهه لقول الأنصاري ·

---

(١) تاريخ الحافظ لابن كثير نقلا عن الشمائل لأبي داود جـ ٦ ص ٥٦

١٥٤ ــ ولقد كان ما يجري على النبي عليه السلام يجري على نسـائه ، فيتحملن راضـيات في أكثر الاحيـان ٠

ويروى أن امرأة من الأنصـار دخلت على أم المؤمنين عائشـة رضي الله عنها ــ فرأت على فراش رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم عباءة ، فانطلقت ، لتبعث الي بفراش حشوه الصوف،فدخل عليها رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم فقال ما هذا يا عائشة قلت يا رسـول الله فلانة الانصارية دخلت علي فـرأت فراشك ، فذهبت ، وبعثت بهذا ، فقال رديه ، فلم أرده ، وأعجبني أن يكون في بيتي ، حتى قال ذلك ثلاث مرات قالت فقال رديه يا عائشـة فوالله لو شئت لأجرى الله معي جبال الذهب والفضة ٠

ولم يكن عليه السلام يدخر لغـده شيئا يسارع اليه الفساد ، وقد روى الامام أحمد أنه أهديت لرسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم هدية فأطعم خادمه طائرا ، والظاهر أنه أكل هو طائرا ،وبقي طائر فلما جاء الغـد أتى به ، فقال لأنس خادمه : « ألم أنهك أن تبقي شيئا لغد » ٠

ولما أفاء الله على رسوله نخيـل بني النضير ، كان يدخر لأهله منها فـكان يعزل لأهله من تمرها ، ما يكفي سنة ،ثم يكون الباقى مما ينفق في الخيـل والجمال مما يعد للحرب ، وفي السلاح الباقي ، صلى الله تعالى عليه وسلم ٠

وكان عليه السلام لا يدخر ذهبا ولا فضة ، حتى انه كان وهـو مـريض مرض الموت عنده سبعة دنانير أو ستة ،فما زال بأهله حتى تخلص منها ٠وروى أنه كان له في مرض موته قطعة ذهب صغيرة عبروا عنها بأنها ذهبية فتصدق بها رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم،حتى يخرج من الدنيا ، وليس له شيء، ولا عليه شيء ، ولذا قال عليه الصلاة والسـلام : « نحن معشر الأنبيـاء لا نورث » ٠

١٥٥ ــ كان آل رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم من أزواجه يحملهن ما يحتمل ، لأنهن آله ، والسعة عليهن قد تعود بالسعة عليه ، فسـدا للذريعة كن يتحملن ما يتحمل ٠

ولكن يظهر أنهن طالبنه مرة بمـــاليس عنده ، وضـــاق بهن ذرعا ، فآلى عليهن بأن حلف ألا يدخل عليهن شهراواعتزل عنهن ، وسكن علية من داره ، فدخل عليه عمر ، واذا هو مضطجع على حصير ، قد أثر في جسمه عليه الصلاة والسلام ، فهملت عينا عمر ، فقـــال عليه الصلاة والسلام مالك ، فقـــال أنت صفوة الله تعالى من خلقه وكسرى وقيصر فيما هما عليه ، فجلس عليـــه الصلاة والسلام محمرا وجهه فقـــال :« أو في شك أنت ، يا ابن الخطـــاب ، أولئك قوم عجلت لهم طيباتهم في حياتهم الدنيا ، أما ترضى أن تكـــون لهـــم الدنيا ، ولنا الآخرة » .

وقد عتب الله تعالى على نبيه أن حرم عليه أزواجه شهرا ، فقـــال تعـــالى :

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَ ۖ تَبْتَغِى مَرْضَاتَ أَزْوَٰجِكَ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١﴾ قَدْ فَرَضَ ٱللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَـٰنِكُمْ ۚ وَٱللَّهُ مَوْلَىٰكُمْ ۖ وَهُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢﴾ وَإِذْ أَسَرَّ ٱلنَّبِيُّ إِلَىٰ بَعْضِ أَزْوَٰجِهِۦ حَدِيثًا فَلَمَّا نَبَّأَتْ بِهِۦ وَأَظْهَرَهُ ٱللَّهُ عَلَيْهِ عَرَّفَ بَعْضَهُۥ وَأَعْرَضَ عَنۢ بَعْضٍ ۖ فَلَمَّا نَبَّأَهَا بِهِۦ قَالَتْ مَنْ أَنۢبَأَكَ هَـٰذَا ۖ قَالَ نَبَّأَنِىَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْخَبِيرُ ﴿٣﴾ إِن تَتُوبَآ إِلَى ٱللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا ۖ وَإِن تَظَـٰهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ مَوْلَىٰهُ وَجِبْرِيلُ وَصَـٰلِحُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ بَعْدَ ذَٰلِكَ ظَهِيرٌ ﴿٤﴾ عَسَىٰ رَبُّهُۥٓ إِن طَلَّقَكُنَّ أَن يُبْدِلَهُۥٓ أَزْوَٰجًا خَيْرًا مِّنكُنَّ مُسْلِمَـٰتٍ مُّؤْمِنَـٰتٍ قَـٰنِتَـٰتٍ تَـٰٓئِبَـٰتٍ عَـٰبِدَٰتٍ سَـٰٓئِحَـٰتٍ ثَيِّبَـٰتٍ وَأَبْكَارًا ﴿٥﴾ ﴾ (١)

ولقد كانت شكواهن من أن محمدا رسول الله صـــلى الله تعالى عليـــه وسـلم قد أخذهن بما أخذ به نفسه ، وان كان أخف ولكنه في كلتا الحالتين دعا ربه أن يكون رزق آل محمد قوتا ، لا يتجاوزه الى رافغ الحياة وفاكهها ، ولذلك حلف بما حلف تأديبا وتجربة ، ومحبة أيضا ، وبعد أن مضى الشهـــر الذي حلف ألا يقربهن فيه ، لم يعد اليهن الا بعـــد تخيير صريح يقبلن فيه أن يكون رزقهن

(١) التحريم

قوتا لا نعيم فيه ، الا بالحلال ، وبين أن يسرحهن بالمعروف ، وذلك بأمر صريح من الله سبحانه وتعالى اذ قال سبحانه :

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا ﴿٢٨﴾ وَإِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلدَّارَ ٱلْـَٔاخِرَةَ فَإِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَٰتِ مِنكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٢٩﴾ يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ مَن يَأْتِ مِنكُنَّ بِفَٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ يُضَٰعَفْ لَهَا ٱلْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا ﴿٣٠﴾ ۞ وَمَن يَقْنُتْ مِنكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتَعْمَلْ صَٰلِحًا نُّؤْتِهَآ أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ وَأَعْتَدْنَا لَهَا رِزْقًا كَرِيمًا ﴿٣١﴾ يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ ٱلنِّسَآءِ ۚ إِنِ ٱتَّقَيْتُنَّ فَلَا تَخْضَعْنَ بِٱلْقَوْلِ فَيَطْمَعَ ٱلَّذِى فِى قَلْبِهِۦ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ﴿٣٢﴾ وَقَرْنَ فِى بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ٱلْأُولَىٰ ۖ وَأَقِمْنَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتِينَ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِعْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا ﴿٣٣﴾ وَٱذْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ فِى بُيُوتِكُنَّ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱلْحِكْمَةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا ﴿٣٤﴾﴾ (١)

نفذ محمد رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم أمر ربه بالتخيير ليخترن ، وابتدأ بأحب نسائه اليه ابنة صديقه وصفيه أبي بكر الصديق رضي الله عنه، عائشة ، فقال لها اني ذاكر أمرا ، فلا عليك أن تعجلي حتى تستأمري أبويك ، وتلا عليها هذه الآيات ، فقالت أفي هذا أستأمر أبوي ، فاني أختار الله ورسوله والدار الآخرة ، وكذلك قال سائر أزواجه عليه الصلاة والسلام ، وبذلك اخترن عيشة النبي عليه الصلاة والسلام الزاهدة ، فكن جديرات بمحمد خاتم النبيين ، وسيد الزاهدين .

---

(١) الأحزاب

الصابر المصابر

١٥٦ ـ ان نشأة محمد بن عبد الله عليه الصلاة والسلام الأولى من شأنها أن تربي فيه خصلة الصبر ، وحاله في شبابه الباكر تربي فيه الصبر ، واستمساكه بالفضائل في وسط الرذائل التي كانت تكثر فى قومه لا يقوى عليه الا بالصبر وضبط النفس ، واجتنابه للأهواء والشهوات التي كانت تسيطر في مكة . لا يقوى عليه الا الصابر الذي يقمع دواعي الشهوات بين جنبيه ، ويقدعها عن متابعة الاهواء ومنازع الشيطان ، ان ضبط النفس أقوى مظاهر الصبر والناظر الى حياة محمد بن عبد الله عليه الصلاة والسلام يراه منذ نشأته الى بلوغه سن الشباب ، الى اكتمال رجولته يرى فيه اصرارا على خلق واحد ، وعقيدة واحدة ، يتزلزل كل شيء حوله ، ولا يتزلزل ، ولا يكون ذلك الا من صبور .

لا تغريه جدة ، ولا يجزعه فقر ، لا يدفعه التكاثر حول تقديس الأوثان الى الميل نحوها ، ولا يحرضه التقليد للأقوياء على أن يخضع لصنم أو يقوله بسلطان ، بل يدافع الاعتقاد في الأصنام ، يدافعه في نفسه ، ويدافعه في مجتمعه ويدافعه في كل مظاهر حياته ، غير متجانف لاثم ، ولا راض عمن يخضعون به .

ان كل ذلك يحتاج الى ضبط نفس ، وضبط فكر ، واستقامة نظر ، وصبر عميق يتغلغل في أطواء النفس ، وثنايا الفؤاد وكل هذا لا يكون الا من صابر مصابر ، يغالب الاحداث بالصبر ، ويغالب الأعداء بعدم الفزع ، أن الصبر أقسام يختلف كل قسم باختلاف موضوعه ، والصدمات التي يلقاها الصبور .

أولها ـ الصبر على النوازل تنزل به ، ومن نوازله نازلة الفقر ، لاترمض نفسه به ، ولا يذل ، ولا يخنع لذل الحاجة ، بل يرضى بالقليل صابرا

ساعيا جادا في جلد ، ودأب • حتى يمنعه الفقر من أن يتسرب لنفسه بالاحساس بالذل ، أو بأن تذهب قوى النفس شعاعا من الاحتياج ، وان ذلك النوع من الصبر كان في النبي ، فما ظهر منه ذل الاحتياج ، بل كان حتى عندما تمد موائد الطعام ، لا يكون أول من يمد ولا أكثر الغلمان تزاحما فيه ، ولا تسابقا اليه ، بل كان حريصا على ألا يفعل ، ولو فاته الطعام •

القسم الثانى الصبر على الحرمان من الأهواء والشهوات وقمعها ، وعلى دفع الخواطر الفاسدة ، وعلى مقاومة ما تدعو اليه أحوال عبدة الأوثان لتحريم أمور حلال كتحريم السائبة والوصيلة والحام وكاستباحة المنخنقة والموقوذة والنطيحة ، وما كان منه شرب للخمر ،وملاعبة بالميسر ، واستقسام بالأزلام ، فكل ذلك امتنع عنه محمد بن عبد الله عليه السلام ، قبل أن يبعثه الله تعالى ، وذلك من تحصين نفسه بالصبر،وما منحه الله تعالى من قوة احتمال •

القسم الثالث من الصبر هو على ما ينزل من نوازل ، وقد جاء محمد في الحياة ليكون صبورا وشكورا •

أول ما أدرك الحياة مميزا ماتت أمه وحملته حاضنته الحبشية الى جده ، ثم لم يلبث أن فقد الجد ، وقد بلغ سن التمييز الذى يعرف الحامي ، وانتقل الى بيت عمه ، وكان محدود الرزق كثير العيال ، فتعلم كيف يكون الصبر حيث التزاحم ، فما كان يمد يده في زحمة الغلمان على الطعام •

ثم كان الصابر في رعي الغنم ، ثم كان الصابر في كسب القوت ، وهكذا كان الصبر عدته التي يعدها لنوائب الدهر ، وملمات الزمان ، وأخذ يحمل وحده أعباء حياته جلدا صبورا •

واذا كان قد صابر النوازل والقل، واحتمل فقد احتمل نعمة الكثر من المال كما احتمل القل ، فلم يطغ اذ جاءه المال الموفور عندما اتجر في مال خديجة التي صارت من بعد زوجه وأم المؤمنين، فاحتمل النعمة كما احتمل النقمة ، وضبط نفسه في نعمته ، كما ضبطها في نقمته ، فلم يكن في الاولى جازعا ، ولم يكن في الثانية فرحا فخورا ، وقد بين الله تعالى في كتابه أن الذي لا ييئس

في الحرمان ، ولا يطغى عند الجدة هو المؤمن الصابر ، فقد قال سبحـــانه :

﴿ وَلَئِنْ أَذَقْنَٰهُ نَعْمَآءَ بَعْدَ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ ٱلسَّيِّـَٔاتُ عَنِّىٓ ۚ إِنَّهُۥ لَفَرِحٌ فَخُورٌ ﴿١٠﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿١١﴾ ﴾ (١)

والصبر في هذا المقام أجل أنواع الصبر ، لأنه هو الذي يكون في أعاظم الرجال الذين أوتوا القدرة على تحمـل الأعباء،لا يأشرون ويبطرون في سرائهم فيكونوا صابرين ، ولا يجزعون ويهلعون في شدائدهم فيذلوا .

وكذلك كان محمد بن عبد الله عليه الصلاة والسلام قبل أن يبعثه الله تعالى نبيا ، فكان مهيئا لأعظم رسالة في الوجود .

١٥٧ ـ بهذا الخلق الصابر يختار الله تعالى محمـد بن عبد الله عليـه السلام ليكون رسـوله الذي يدعو الناس الى التوحيد في وسط قوم صلاب شداد غلاظ ، فالدعوة فيهم تحتاج الى عزم الأمور ، والصبر من عزم الأمور، بل ان عزم الأمور يحتاج الى صبر شاق مرير ، لا يتحمله الا أولو العـزم من الرجال ، وأولو العزم من الرسـل ،كما قال تعالى مخاطبا محمداً الصبور ، والمكاره تحيط به احاطة الدائرة بقطر

﴿ فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِل لَّهُمْ ۚ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوٓا۟ إِلَّا سَاعَةً مِّن نَّهَارٍۭ ۚ بَلَٰغٌ ۚ فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٣٥﴾ ﴾ (٢)

كان لابد بعد البعثة من أن يكون علاج الأمور كلها بالصبر ، صـبر على المشركين في أوهامهم ، وصبر عليهـم في دعوتهم منه الى الحق ، وقد أصروا على الباطل ، وصبر على سفهائهم ، وصبر على أذاهم المستمر ، الذى أقـدم

---

(١) هود (٢) الأحقاف

عليه ذوو الحقد والعصبية، ولم يستنكره كبراؤهم ، وصبر في الدعوة الى الاسلام ، وما يكاد طريقها ، ويعرقل سيرها ، ولذلك جعل الله تعالى أقوى أوصاف المؤمنين الصبر ، فقال تعالى :

﴿وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٥٥﴾ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتۡهُم مُّصِيبَةٞ قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيۡهِ رَٰجِعُونَ ﴿١٥٦﴾﴾ (١)

ولقد كان النبي عليه السلام الصابر حقا وصدقا ودعا الى الصبر ، فقد أثر عنه أنه قال « ما من أحد تصيبه مصيبة، فيقول انا لله وانا اليه راجعون ، أولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة، وأولئك هم المهتدون ، اللهم أجرني في مصيبتي واخلف لي خيرا منها الا أجاره الله تعالى في مصيبته وأخلف له خيرا منها » .

وان فضيلة الصبر الجميل ، وهو الصبر من غير تململ بل في ثبات جأش واطمئنان قلب وتحمل ، هي قوة لصاحبه فوق أن فيها تفويضا لله تعالى مع العمل من غير تخاذل ، فالمفوض الصابر يؤمن بقدرة الله تعالى حق الايمان ، وأنه المغير ، ولذلك طلب الرسول الصابر صلى الله تعالى عليه وسلم ممن يصاب أن يدعو الله تعالى ، ويفوض اليه أمره فان ذلك يعطيه جلدا واحتمالا ، ولقد قال ابن القيم في علاج النفس يحملها على الصبر بالتفويض .

«وهذه الكلمة أي التي قالها محمد عليه الصلاة والسلام في العلاج بالصبر ، وهذه الكلمة من أبلغ علاج المصاب وأنفعه في عاجلته وآجلته فانها تتضمن أمرين عظيمين اذا تحقق العبد بمعرفتهما تسلى عن مصيبته (أحدهما) أن العبد وأهله وماله ملك لله عز وجل حقيقة وقد جعله عند العبد عارية ، فاذا أخذه منه ، فهو كالمعير يأخذ متاعه من المستعير ، وأيضا فانه محفوف بعدمين : عدم قبله ، وعدم بعده ، وملك العبد له منحة معارة في زمن يسير ، وأيضا فانه أليس أوجده عن عدمه حتى يكون ملكه حقيقة ، وألا هو الذي يحفظه من الآفات بعد وجوده ، وألا يبقى عليه وجوده ، أفليس له فيه تأثير ، ولا ملك حقيقي ، وأيضا فانه متصرف فيه بالأمر تصرف العبد

---

(١) البقرة

المأمور المنهي ، وتصرف الملاك ، ولهذالا يباح له من التصرفات فيه الا ما وافق أمر مالكه الحقيقي » .

والثاني أن مصير العبد ومرجعه الى الله تعالى مولاه الحق ، ولابد أن يخلف الدنيا وراء ظهره ، ويجيء ربه فردا ،كما خلقه أول مرة بلا أهل ولا مال ولا عشيرة ، ولكن بالحسنات والسيئات ،فاذا كانت هذه بداية العبد وما خوله ونهايته ، فكيف يفرح بموجود أو يأسى على مفقود ، ففكره في مبدئه ومعاده من أعظم علاج هذا الداء ، ومن علاجه أن يعلم علم اليقين أن ما أصابه لم يكن ليخطئه ، وما أخطأه لم يكن ليصيبه ،قال تعالى :

﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٢٢﴾ لِّكَيْلَا تَأْسَوْا۟ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا۟ بِمَآ ءَاتَىٰكُمْ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴿٢٣﴾﴾ (١)

الصَّابِرُ فِى الدَّعْوَةِ إِلَىٰ رَبِّهِ

١٥٨ ـ كان محمد بن عبد الله عليه الصلاة والسلام صبورا ، أبلغ ما يكون الصبور ، فقد كان قبل البعثة الصابر في المنشط والمكره ، والصابر في الفقر والغنى ، والصابر في العجز والمقدرة ، ثم كان بعد البعثة الصابر في أداء الرسالة ، وتبليغها والدعوة اليها،صابر المشركين عند الدعوة ، صابر قومه الذين جفوه ، ونكروه وهم يعرفونه ، وكذبوه ، وهو الصادق الأمين ورموه بالسحر كذبا ، والجنون افتراء ،وقالوا ما قالوا فيه وفي رسالته ، وقد وسع صبره كل افترائهم ، فما وهن في دعوته ، ولا يئس من اجابته ، وكان يرضى في أن يصدع بأمر ربه وهو يصبر على انكارهم من غير أن ييئس من ايمانهم ، ويدعو عليهم ، فلم يقل كما قال نوح رب لا تذر على الأرض من الكافرين ديارا ، انك ان تذرهم يضلوا عبادك ، ولا يلدوا الا فاجرا كفارا بل قال: « ان قومي لا يعلمون » « وقال اني أرجو أن يخرج من أصلابهم من يعبد الله ، ولكل نبي من أنبياء الله تعالى فضل وقد فضل بعض النبيين على بعض»

---

(١) الحديد

ولقد آذوه ، وآذوا أصحابه ، وهو القادر على أن يقمعهم ، أو يدعو عليهم، بالمقت ويسخط عليهم ، وانزال غضب الله تعالى عليهم ، بل انه كان يتلقى كل ذلك بالرجاء والاطمئنان الى أنه مبلغ رسالة ربه ، غير وان ولا مقصر مدركا أن الله تعالى بالغ أمره ، وأن العاقبة للمتقين ·

كان طاغيتهم يلقى عليه فرث الجزور ، وهو يصلي ، فما يغضب ، ولا يثور، لأن الغضب يفقد الحق قوته والثورة تطيش حولها أحلام من يدعوهم ، وهو حريص على أن يترك لهم حرية الاختيار، وتقدير الأمر في أناة ، وهدأة مدركة والغضب يدفع الى الملاحاة والمنازعة ، وهو يريد أن ينزع من قلوبهم سخيمة الحقد الملاحى ، بل يضع في قلوبهم قوة الحقيقة تسري في قلوبهم ، وتنساب في نفوسهم ، وهم مطمئنون من جانبه غير منزعجين ·

يصبر عليه السلام صبر الطبيب يعالج المريض ، وقد هاج هياجه ، وأرغى زبده ، فيأخذ في حكمة ، عالما أن المقاومة من المرض ذاته ، وان غايته معافاة المريض ، فليصبر ، حتى يصل الى هذه الغاية غير منزعج ، ولا مخاصم ولا معاند ·

ولقد صبر عليه السلام على استهزائهم وعلى سخريتهم ، وهو آخذ نفسه بأنهم كلما سخروا منه زادت عنايته بالدعوة ، وزادت قوته في الاحتمال ورغبته في المصابرة ، غير متحمل ولا يائس ، فان الصبر يبعد اليأس ويقرب الرجاء ، ويهدى للتي هي أقوم ، ويوقظ الضمائر ان كانت فيها قوة الحياة، وان الصبر للذي تشمس نفسه، يكون كالسقي والرعي يحيي ولا يميت، والملاحاة تشغل النفس عن الحق ، وتوجب انحياز كل الى جانبه ، فلا يرى ، الا ما عنده ، ويعمى عما في الجانب الآخر، فتكون النظرة الجانبية ، والنظرة الجانبية لا يصيب صاحبها ·

وصبر عليه الصلاة والسلام على الأذى ينزل بجسمه، وبأهله، ألم تره صبر على الحرمان هو وبنو هاشم عند ما قاطعتهم قريش ثلاث سنين دأبا · لاقوا فيها العنف من قومهم ، فما أسلموا محمدا عليه السلام لأعدائه ·

فكان صبر محمد عليه السلام صبرين ، صبر الداعي الى الحق يحمل في أثنائه ما يلاقى من جفوة قاطعة لما أمر الله تعالى به أن يوصل ، وصبرا على

أذى القريب الواصل الذي يرى أنه كان سببا في أنه ذاق آله وأحبابه مرارة الحرمان والقطيعة ·

وصبر عليه السلام يوم ذهب الى ثقيف يطلب منهم الايمان ، فآذوه ، وأغروا به سفهاءهم وغلمانهم يقذفونه بالحجارة حتى أسالوا دمه الكريم ، وكان الصابر الكريم عندما عرض عليه جبريل أو ملك الجبال أن يطبق الأخشبين عليهم فطلب من ربه أن يستأنى بهم ،ويقرر في اطمئنان الصابر أنه لا يبغى الا رضاه ، فيقول لربه : ان لم يكن بك غضب علي فلا أبالي ·

١٥٩ ــ ولما رأى الأذى الشديد ينزل ببعض من أسلموا ، أذن لهم في الهجرة الى الحبشة ، وهو المقيم الصابر، لا يتخلى عن دعوته ، ولا يفر ممن يدعوهم ، بل يصابرهم ، ويلقاهم بالرفق ، ولطف المعاملة ، وان لم يقابلوه بمثلها ، بل يجافونه ويعادونه ·

واذا كان قد خرج من مكة مهاجرا ،فليس ذلك لأجل الخوف ، أو نفاد، الصبر ، بل لان الدعوة استوجبت الهجرة بعد أن استمكن لها في يثرب وهو اذ يخرج كان صابرا ، اذ أنه يخرج من مكة ، وهى أحب أرض الله اليه ، ولولا أن أهلها لم يستجيبوا وآذوه ما خرج منها ، فكان الصابر في خروجه ، ولم يكن خروجه جزعا وفرارا ·

ولما هاجر كان المجاهد الصبور ، ولقد صابر وصبر في ثلاثة ميادين من الجهاد ·

صابر في محاربة الأهواء والشهوات ، وسمى ذلك الجهاد الأكبر ، ودعا المؤمنين الى متابعته فيه ·

وصابر في ميدان الحرب ، فكان المجاهد الثابت الذي لا تزلزله قوة ، ولا يذهب تفكيره شعاعا ولو تألب عليه العرب جميعا ، كما في غزوة الاحزاب، وقد جاء المشركون من الخارج واليهود من الداخل ،

﴿ إِذْ جَآءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا ﴿١٠﴾ هُنَالِكَ ٱبْتُلِىَ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا۟ زِلْزَالًا شَدِيدًا ﴿١١﴾ ﴾ (١)

---

(١) الأحزاب

ونجـد النبي عليه السلام كان في هذه المعركة ، الصابر ، المصابر الذي لم يذهب ساعة من نهار الرجاء منه ، وان كانت الشديدة قد بلغت أقصاها ·

وصابر صلى الله تعالى عليه وسلم في الداخل طوائف ثلاثا فأخذ بالرفق الضعفاء ، فكان يبث فيهم روح الايمان، وكان الضعف يبدو أحيانا منهم في وقت يحتاج فيه الى الجلد وقوة العزيمة، والثبات في البأساء والضراء ، وحين البأس ·

وصابر المنافقين الذين كانوا يظهرون الايمان ، ويبطنون الكفر ، ويلقون باليأس والهزيمة ، ويدعون الى الترددفي صفوف المؤمنين ، ويستجيب لهم بعض الضعفاء من المؤمنين ، ويصبر عليه السلام على ما يثيرونه حول شخصه وآله ، كما خبوا ووضعوا في الحديث الذي أشاعوه عن أم المؤمنين عائشة · ويشير عمر بقتل كبيرهم ، فيرده محمد عليه السلام بأنه لا يريد أن يتحدث الناس أن محمدا يقتل أصحابه ،ويستمر صابرا حتى ينهي الشر نفسه، كما تموت بعض الحشرات بسمها ·

وكان اليهود في المدينة ، فكان يصابرهم حتى ينكشف فسادهم ، فاذا انكشف أخذهم ببعض ذنوبهم صابرا مصابرا ، وان الصبر في الشدائد ، هو صبر العافي المدرك بأن غايات الأمور لا تدرك الا بالصبر المرير ، وكان اذا أدلهم الأمر لا يجزع ، ولا يفزع بل يتأنى للأمور ويصطبر لها معالجا أمرها في أناة وحكمة ، ويقول عليه الصلاة والسلام: «انما الصبر عند الصدمة الأولى » ، فاذا دهمه الأمر لا ينزعج ولا يضطرب ، ولا يذهب لبه وتفكيره ، بل يسيطر على نفسه ، ويدبر الأمر من غير هلع ولا جزع وكان يرى أن الصبر من الايمان ·

وان الشدائد النفسية تحتاج الى الصبر أكثر من الشدائد المادية ،وانظر الى موقفه الصابر ، عندما أشاعوا قالة السوء عن حبه أم المؤمنين عائشة، فقد تلقى الخبر ، وساوره الظن ،وبدا في بعض عمله ، وفي ملامح وجهه ، ولكنه كان المثل الكامل في الثبات ،وتقدير الأمر ، ودعا بعض خاصته للاستشارة في هذا الافك ، وليتعرف مقدار الحق فيه ، فمنهم من نفى الوقوع وأكد النفي كعمر رضي الله عنه ، ومنهم من دعا الى التحري بسؤال

جاريتها ، وهو علي ، وقد رأى النبي في هدأة الصابر أن ذلك هو الأسلم والأحزم ، فسلكه ، فانتهى الى البراءة، وما كان ذلك ليكون الا من صبور حكيم متدبر يغلب العقل والفكر في وقت تطيش فيه الأفهام ، وتجيش فيه العواطف ، ولكن النفس نفس محمد رسول الله تسيطر عليها الحكمة دائما٠

وان صبر النبي في البأساء والضراء وحين البأس ، كان صبر من يتوقع البلاء قبل أن يقع ، فبعد نفسه لقوة الاحتمال ، وقد أخبره الله تعالى بما سينزل به وبالمؤمنين ليصبروا فقال تعالى :

﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ ٱلْخَوْفِ وَٱلْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٥٥﴾ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴿١٥٦﴾ ﴾ (١)

ولقد قال تعالى :

﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُواْ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلِكُم ۖ مَّسَّتْهُمُ ٱلْبَأْسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ وَزُلْزِلُواْ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصْرُ ٱللَّهِ ۗ أَلَآ إِنَّ نَصْرَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ ﴿٢١٤﴾ ﴾ (٢)

وقال تعالى :

﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُواْ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ مِنكُمْ وَيَعْلَمَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٤٢﴾ ﴾ (٣)

وقال سبحانه :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱصْبِرُواْ وَصَابِرُواْ وَرَابِطُواْ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٢٠٠﴾ ﴾ (٤)

فكان الصبر الاختياري من غير شكوى ولا أنين عدته في تبليغ رسالة ربه ، وقد تربى عليها قبل البعثة ، وكان قوته بعدها ٠

---

(١) ، (٢) البقرة (٣) ، (٤) آل عمران

العادل الأمين

١٦٠ ـ الأمانة والعدل صنوان متلازمان ، فلا يمكن أن يكون الأمين غير عادل ، ولا أن يكون العادل غير أمين ، لأن الأمانة مراعاة الانسان لحق غيره ، لا ينكره ولا يجحده ، والعدالة تبتدىء من انتصاف الانسان من نفسه ، ولذلك قرن الله سبحانه وتعالى طلب أداء الأمانات بالعدالة في الحكم ، فقال تعالى :

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا۟ ٱلْأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحْكُمُوا۟ بِٱلْعَدْلِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ﴿٥٨﴾ ﴾ (١)

ولقد اشتهر محمد بن عبد الله بالأمانة ، حتى صار اسمه « الأمين » ولما حكّموا أول من يدخل البيت في أمر الحجر الاسود ، وكان هو الداخل الأول ارتضوه حكما ، وفرحوا به ، وقالوا انه الأمين ، وكان في معاملاته كلها عدلا ، لا يغبن ، ولا يخدع ، وكان ينتصف من نفسه في كل ما يتعلق به ، كان ذلك قبل البعثة .

أهدت اليه أم المؤمنين خديجة قبل البعثة زيد بن حارثة ، فكان مولى له ، ولما عرفه أهله ، وجاؤوا اليه يريدون أن يفتدوه بثمنه ، أعطاهم الرجل العدل ، الحق في أخذه ، ولم يمارهم في حقهم ، بل انه زاد في العدل الاحسان ، فقال خذوه من غير ثمن اذا أراد الذهاب معكم ، ولكن زيدا رفض أن يترك محمد بن عبد الله ، وقبل أن يبقى في قربه مولى ، ولم يقبل الذهاب مع أسرته ، وهنا يتحرك العدل مرة أخرى في قلب محمد بن عبد الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، فيتخذه له ولدا ، وقد كان ذلك سائغا عند العرب ، كما كان سائغا عند الرومان ، ويلحق المتبنى بنسب من تبناه ، فكان يقال له

---

(١) النساء

زيد بن محمد ، وكان مقتضى هذا الالحاق قرشيا ، وتزوج على أنه قرشي، حتى نزل من بعد البعثة تحريم التبني، وعدم الحاق الدعي بنسب من تبناه وكان أراد محمد بن عبد الله العادل عليه السلام أن يعوضه عن ترك أسرته بذلك التعويض الكريم ٠

ولقد كان الخصماء يتحاكمون اليه عليه السلام قبل بعثته ، فقد روي أن الربيع بن خيثم كان يتحاكم الى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم في الجاهلية قبل الاسلام ، وذلك لما عرف به من الصدق والأمانة والاستقامة وكونه لا ينطق الا بالحق ، ولا يتجه الى غيره ، ولا يرضى بالباطل أبدا ٠

من عدله بعد البعثة

١٦١ ـ لقد كان عليه السلام يوزع الغنائم ، فيعطي كل ذي حق حقه ، لا يلتفت الى ما وراء ذلك ، فلا غاية يطلبها الا تحقيق العدل وارادته ، يعطي الرجل من الغنيمة بمقدار جهاده، وقد يعطي من يريد تأليف قلبه ، وقد أسلم على حرف ، فهو يعطي لما معه من المال لمن يريد أن يتألفه ، كما كان يعطي بعض القرشيين الذين أسلموا عند الفتح تأليفا لقلوبهم وليستمروا على دينهم الذين دخلوه طوعا من غير اكراه ، ولكن لكثرة معاندتهم من قبل تألفهم النبي ببعض من الصدقات ٠

ولقد حدث أن قال بعض الذين في قلوبهم ضعف ايمان للرسول عليه السلام : اعدل ، فرد عليه النبي عليه الصلاة والسلام ويلك فمن ذا الذي يعدل عليك بعدي ، ولنذكر الخبر ، كما في كتب الحديث ، فقد روى قتادة أن رجلا من أهل البادية حديث عهد بالاسلام أتى النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، وهو يقسم الغنائم ، فقال : « يا محمد، والله لئن أمرك الله أن تعدل ما عدلت ، فقال النبي عليه السلام ويلك ، فمن ذا الذي يعدل عليك بعدي ، ثم قال نبي الله احذروا هذا وأشباهه ، فان في أمتي أشباه هذا يقرؤون القرآن لا يتجاوز حناجرهم ، فان خرجوا فاقتلوهم ، ثم اذا خرجوا فاقتلوهم » وروي مثل هذا في الصحيحين مسلم والبخارى ٠

وان هذا الكلام يدل على عدالة النبي عليه الصلاة والسلام المطلقة، فقد سمع القول من المعترض من غير أن يمنعه من الاعتراض، ولكن بين له أنه العادل، وأنه سيكون ارهاق من بعده ، فمن عدل كعدله نجا ، ومن لم يعدل فقد انحرف الى الهاوية •

ويدل ثانيا على أن أمثال هذا ممن يرون العدل غير عدل ويحكمون بهوائهم ، أو بنظرهم بادي الرأي سيكونون شوكة في جنب الحكم الاسلامي ، وأن سلامة الحكم في ردعهم ولو بالقتل وتكراره ، وذلك عقابهم اذا خرجوا على الحاكم العدل والا لا يقتلوا ، كما قال علي « من طلب الحق فأخطأه ليس كمن طلب الباطل فأصابه » •

ثم ان النبي عليه السلام أردف في هذه الواقعة ما يؤكد عدله المطلق القائم على أمانته ، فقال : « والذي نفسي بيده ما أعطيكم شيئا ، ولا أمنعكم ، انما أنا خازن » •

وان النبي العادل كان ينفذ الحق في نفسه ، ان ظن أنه اعتدى ، كان يقسم الغنائم مرة ، وبعض أعراب المسلمين يلاحيه ، فرده بعود في يده ، فشكا الألم ، فأعطاه الرسول الأمين العادل ، ليقتص منه ، فعفا الرجل ، واستحيا ، أن يفعل •

ولقد كان يخشى لفرط احساسه بالعدالة ، وألا يلقى الله خالصا من حقوق العباد ، فقام ، وهو مريض مرض الموت ، وقد بلغ به الاعياء أشده وقال : « أيها الناس من كنت جلدت له ظهرا ، فهذا ظهري فليستقد منه ، ومن كنت شتمت له عرضا ، فهذا عرضي فليستقد منه ، ومن أخذت منه مالا فهذا مالي ، فليأخذ منه ، ولا يخش الشحناء فانها ليست من شأني ، ألا وان أحبكم الي من أخذ مني حقا ، ان كان له ، أو حللني ، فلقيت ربي وأنا طيب النفس •

ولقد كان محمد عليه السلام ينهى عن الظلم بكل ضروبه ، وأكل أموال الناس ، وينهى عن معاونة الظالمين بكل أسباب المعاونة وانه يشدد في ذلك ، فهو يقول : « اتقوا دعوة المظلوم، فانه ليس بينها وبين الله حجاب » وقال عليه السلام من مشى مع ظالم فقد سعى الى النار، أو كما قال عليه السلام،

ونهى المحكومين عن أن يسكتوا عن ظلم الحاكمين ، لانه معاونة فقال عليه السلام: «لا يأخذ الله تعالى العامة بظلم الخاصة الا اذا رأوا ولم ينكروا» وأوجب حمل الظالم على العدل ، وحث على ذلك في قوة ، فقال عليه الصلاة والسلام : « والله لتأمرن بالمعروف ، ولتنهون عن المنكر ، ولتأخذن على يدي الظالم ، ولتأطرنه على الحق أطرا ، أو ليضربن الله قلوب بعضكم ببعض، ثم تدعون فلا يستجاب لكم » .

وان هذه الأحاديث تدل على أمرين عظيمين : ـ أولهما ـ شدة تمسك النبي عليه السلام بالعدل والدعوة اليه والتشدد فيه ، والاستمساك به ، لأنه كمال في ذاته ، ويدل على استقامة النفس ، حاكما كان أو محكوما ، فهو الكمال المطلق ان كان ـ وثانيهما ـ أنه يدعو الى العدل الجماعي ، لأنه هو الذي يستقيم به أمر الجماعة ، فلا يظلم الرجل أهله ، ولا يظلم الزوج زوجه ، ولا القريب قريبه ، ولا الرئيس مرؤوسه ، ولا الحاكم محكومه ، ولا المولى مولاه ، وانه عليه السلام يقول في حديث قدسي عن ربه : « يا عبادي اني كتبت العدل على نفسي فلا تظالموا » .

المساواة في العدالة

١٦٢ ـ ولقد كان عليه الصلاة والسلام يتولى الفصل في خصومات المسلمين في خاصها وعامها ، ويأتي في فصله بحكم الله تعالى الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، فكانت أقضيته تقصد القضاء بحكم الله تعالى ، وتنفيذ ما أمر الله تعالى به من أمر وما نهى عنه ، وكانت أحكامه عادلة ، لا يحابي قويا ، ولا يهضم حق ضعيف .

ولما سرقت فاطمة المخزومية ، وأهم قريشا أن يقطع محمد يدها ، ذهب اليه حبه أسامة بن زيد فتشفع له في ألا يقيم الحد عليها بقطع يدها ، فنهره عليه الصلاة والسلام قائلا له مستنكرا : أتشفع في حد من حدود الله ، ثم وقف خطيبا يقول :

« ما بال أناس يشفعون في حد من حدود الله ، انما أهلك الذين من قبلكم أنهم كانوا اذا سرق الشريف تركوه ، واذا سرق الضعيف قطعوه ، وأيم الله لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها » .

فكان العدل الذي لا يماري ولا يحابي في حكم من أحكام الله تعالى ٠

وكان عليه السلام ينظر في الأمر عند الاختصام الى لب القضية ، فيتعرف المعتدي ، فيحكم عليه ، ولا ينظر فقط الى المظهر « ويروى في الصحيحين « البخاري ومسلم » أن رجلا عض يد رجل آخر ، فنزع المعضوض يده من فم الآخر ، فوقعت ثناياه ، فاختصموا الى النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، ويظهر أن الذي رفع الأمر من عض أخاه ، فقال النبي عليه السلام » منحيا باللائمة على العاض مهدرا دية أسنانه : « يعض أحدكم أخاه كما يعض الفحل لا دية لك » ٠

وهو بهذا ينظر نظر الأريب الى موضوع القضية ، ليتعرف موضوع الاعتداء ، ومن الذي كان السبب ، ثم فيه اشارة الى من دفع عن نفسه الظلم ، وتعين عليه ألا يدفع الظلم الا بأذى ينزل بالآخر ، فهو بريء مما يترتب على فعله ، والمتسبب هو الذي يبوء بالاثم ولو كان هو الذي نزل به الأذى٠

وكان عليه الصلاة والسلام يلاحظ في قضائه ثلاثة أمور :

أولها ــ العدل بين الناس والمساواة بينهم في تنفيذ أحكام الله تعالى لا فرق بين أمير وسوقة ، ولا بين شريف وضعيف ، بل الجميع أمام القانون سواء وفي المأثور « الناس سواسية كأسنان المشط » ٠

ثانيها ــ أنه يلاحظ الأثر الاجتماعى لحكمه ، فهو يغلظ العقاب على من يكثر فساده ، حماية للجماعة المسلمة من شره ٠

ثالثها ــ أنه لفرط ايمانه بالعدل يخشى أن يقع منه ظلم لأحد ، بسبب من يدلون بالحجة في فصاحة منهم وعجز غيرهم ، فقد قال عليه الصلاة والسلام، وهو العدل الأمين « انكم تختصمون اليّ ، ولعل بعضكم ألحن بحجته من الآخر ، فمن قضيت له بحق أخيه ،فانما اقتطع له قطعة من النار » ٠

وفي الحق ان النبي عليه الصلاة والسلام كان عدلا في ذات نفسه،و عدلا في كل ما يقوم به ، وعدلا في أحكامه ،ويغلب المساواة في كل شيء حتى في الهدايا يهدي اليه باعتباره كبير المؤمنين ، ويقول في ذلك ابن القيم في زاد المعاد

في هدي خير العباد،وقد جاء في صحيح البخاري أن النبي عليه الصلاة والسلام أهديت اليه أقبيـــة من ديباج مزررة بالذهب ، فقسمها في ناس من أصحابه، وعزل منها واحدا لمخرمة بن نوفـل ،فجاء ومعه المســور ابنه ، فاستقبله ، وقال يا أبا المسور خبأت لك هذا ٠

وهكذا نرى العدل يعم ولا يخص ،وانه كما ثبت من تاريخه قبل البعثـة وبعدها لم يظلم ، ولم يضيع حقا لأحد، بـــل كان الحـريص على حق غـــيره الحفيظ عليه ٠

وكان يعوض من يهدي من أصحابه ان تمكن من التعويض ، ويهــادي من يهاديه،لأن الهدية محبة،وهوعليه الصلاةوالسلام يبادل المحبة بالمحبة فهو عــادل حتى فيما تبعثه العاطفة ، ويدعو اليه الود ٠

المثل الكامل في الشجاعة

١٦٣ — يذكر بعض العلماء الشجاعة بأنها منبعثة من القوة الغضبية، ولكنها خاضعة لحكم العقل ، وللحكمة ،وللمعرفة ، وهي السبيل الى دفع الأذى والنفع للجماعة ، وليست مرادفة للتهور ، وان كان منبعثهما واحدا ، وهي القوة الغضبية الدافعة عن النفس في موقف التعرض للأذى ، بيد أن التهور اندفاع غير محكوم بالعقل والحكمة ،ولا خاضع للمعرفة ، أما الشجاعة فانها لا تصدر الا عن تفكير سليم ، ودواعي الحكمة المستقيمة ٠

وليست الشجاعة منافية للحذر ، بل انه مسيطر عليها ، فهو يدفعها ، وهو يحكمها ، وقد يكون الخوف مع الشجاعة ، لأن الشجاع يتردد قبل أن يقدم فيوازن بين العمل ونتائجه ،والاقدام وغاياته ، وهل يتعين الضرب بالسيف ، وان ذلك كله قد يصحبه ،فليس الشجاع هو الذي لا يخاف قط ، انما الشجاع من يتغلب على بواعث ،ويتقدم في تدبير محكم ، وصبر وقوة احتمال ، ولا تتصور الشجاعة الا مع التدبير والصبر والاحكام وتعرف الغايات والمقاصد ٠

والشجاعة قد تكون معنوية ، وليس لها مظهر حسي ، وقد تكون حسية بدافع معنوي ، ورغبة في رفع حق ،وخفض باطل والنبي عليه الصلاة والسلام قبل البعثة كان المثل الكامل للشجاعة المعنوية ،التي لا تهاب المخالفة في الحق ، فقريش كلها كانت تسجد للصنم ، ومحمد عليه الصلاة والسلام لم يسجد لصنم قط ، وكان يجابه بذلك قريشا ، ولا يبالي ، وكانوا يحلفون باللات والعزى ومناة الثالثة الى آخر الاسماء التي سموها ، وما أنزل الله تعالى بها من سلطان ، وكان هو يرد من يطلب منه الحلف بها ، فيقول انه يكرهها ، وما يكون ذلك الا من شجاع قوي الايمان بما يعتقد ويؤمن ، فيختلف مع بائع في الثمن ، فيطلب منه الحلف باللات والعزى ، فيرد محمد بن عبد الله عليه

الصلاة والسلام ردا قويا، بأنه يكره هذه الأسماء ، فيقبل الرجل قوله من غير يمين لروعة ايمانه وشجاعته في هذا الايمان ·

وانه في رحلته الى الشام وهو في الخامسة والعشرين كان شجاعا في نفسه وفكره وقلبه عندما منع رجال القافلة التي أعطته زمامها من أن يسابقوا رجال قافلة أخرى ، واجه من معه بذلك المنع غير هياب ولا وجل ، ثم خالف طريق الاخرى ، وسار في طريق أخرى ليمر بقبر أمه بالأبواء ، ويستعبر عليه العبرات ، اذ كان لأول مرة زاره ، وكان في وعي عند موتها ، اذ كان في السادسة من عمره ، ومع ذلك وصل قبل القافلة ، وكان قد اختار الطريق الذي ظنه من معه وعرا ، وظنه هو مسلوكا ، وكان مستقيما ، لأنه وصل قبل القافلة المسرعة من غير مسابقة ·

وان هذا الخبر في ذاته يدل على قدرة تدبير للأمور ، وتعرف لأقرب الوصول الى الهدف ، ويدل على رفق بمن معه ، والابتعاد عن المسابقات غير المثمرة الا التعب ، وعلى كمال الرفق بمن في صحبته ، كما يدل على شجاعة نادرة ، وقوة احتمال كاملة ·

ولقد كان شجاعا في أقصى درجات الشجاعة عند ما قبل أن يكون الحكم بين قبائل العرب في وضع الحجر الأسود ، فقد تقدم وهو يعلم أن الحاكم لا يرضي كل من يحكمونه ، ولكنه بتوفيق الله تعالى أرضاهم جميعا ·

وهكذا كان محمد عليه الصلاة والسلام شجاعا قبل البعثة يقول الحق، ولا يخشى لومة لائم ، يجاهر به غير مستهين بمن يقاومه ، بل راض بأن ينطق بالحق ، وحسبه ذلك وكفى ·

شجاعته صلى الله عليه وسلم بعد البعثة

١٦٤ ــ بعد أن بعثه الله تعالى بدت شجاعته كاملة ، والبعثة من أول أدوارها ، وفي أثنائها ، وفي نهايتها تحتاج الى شجاعة ، وعندما التقى عليه السلام بورقة بن نوفل ابن عم خديجة، قال له : « ما أتى أحد بمثل ما أتيت به الى عودي » ولقاء أعداء الفكرة يحتاج الى شجاعة وثبات جأش ، وقوة احتمال ، والله أعلم حيث يجعل رسالته، فما يختار رسولا خوارا ، ولا رسولا

ضجرا ، ولا رسولا يعتريه اليأس في أول الصدمة ، بل يستمر صابرا مستعدا للصدمات ، واحدة بعد أخرى، وأحيانا تجيء متكاثفة غير متفرقة ، بل مجتمعة صلبة غير متكسرة ، فكان لايتلقاها الا شجاع النفس ذو العزمة الصادقة في هدأة المؤمن والقلب ·

لقد كان أبو جهل يرعد ويبرق ، ويعمل في ايذاء مستمر ، عسى أن يجبن محمد وأصحابه عن دعوة الحق المستمرة غير الوانية ، بل كلما اشتدت وسائل الايذاء وتعددت وتجمعت ، ازداد عليه السلام عملا ، ما هاب وما مل ، بل كان يصدع بالحق في اطمئنان وشجاعة ·

ولقد كان من أعدائه ذو البطش الشديد فما هابه ولا خافه ، وان رفق اليه في القول ، فذلك شأنه والواجب عليه ، ليقرب من القلوب ولكيلا يكون فظا غليظ القلب ، فينفض الناس من حوله ·

وعندما أقبل على المسلمين عمر بن الخطاب وكان جبارا مرهوبا في دار الأرقم بن أبي الأرقم ، وهو لا يزال على الشرك فزع المسلمون الا رجلين ـ أحدهما ـ حمل سيفه ليقتله به ان أراد شرا وهو أسد الله تعالى وسيد الشهداء حمزة بن عبد المطلب ، ومحمد بن عبد الله رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم فما فزع ، بل رجا ، وما اضطرب بل اطمأن ، فقال أدخلوه ، فدخل والنبي الأمين ثابت مطمئن هادىء ، هدوء المؤمن الشجاع ، فلبب عمر، بقوة ، حتى استكان ثم دعاه الى الاسلام ، فأسلم ·

ومحمد بن عبد الله كان شجاعا يستمر في دعوته ، وهو يعلم أن الملأ يأتمرون به ليقتلوه ، فما وهن لائتمارهم والأذى ينزل به ، وبضعفاء صحابته ·

وكان الشجاع الثبت ، وهو مهاجر، وقد أوى الى غار ثور ، والقوم قد أحاطوا به حاملين سيوفهم ، بل كان الشجاع الثبت ، وهو يقول لصاحبه الخائف على النبي لما عساه يصيبه :«لاتحزن ان الله معنا » ·

وعندما لاقى اليهود في يثرب ، وهو يعلم مكايد اليهود وايذاءهم ، ومكرهم الخبيث الذي لا يمتنعون فيه عن الغدر ، وقد هموا به ، وأرادوا

قتله غيلة برمي حجر عليه من عل ،وبدس السم في طعامه ، وما جبن ، ولا سكت عن الدعوة ، بل استمر يدعوهم الى الحق ،

﴿وَمَكَرُوا وَمَكَرَ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ ﴿٥٤﴾﴾ (١)

وان الشجاعة المعنوية بين المنافقين كانت سياسته ، فهو يصدع بالحق بينهم ، كما صدع به بين أصحابه ، فهو في معاملة المنافقين يسوسهم يريد عمر أن يقتل عبد الله بن أبي ، فيمنعه في قوة غير آبه لاعتراضه ومكانة عمر في أهل الايمان ، ويقول له مرشدا ، لاأقتلهم حتى لا يتحدث العرب أن محمدا يقتل أصحابه • وكان أبعد نظرا من عمر ، لأنه بعد ذلك برم أهل كل منافق به واستأذنوا النبي في قتل من فيه من أهل النفاق ، حتى طلب ابن عبد الله بن أبي من النبي عليه السلام أن يأذن له بقتله ، فلم يأذن ، وقال : « وأين عمر، لو قتلتهم يوم طلب عمر أن أقتلهم ،لأرعدت لهم أنوف تريد اليوم قتلهم »•

وكان عليه السلام شجاعا كريما ،عندما قبل أن يكتب صلح الحديبية ، كما أملى المشركون ، وقد اشتد الأمر على المؤمنين ، لما قالوا من يخرج من المشركين مسلما بغير رضا وليه ردوه ،ومن خرج من عند محمد مرتدا الى مكة لا يردوه ، وغضب عمر وكثرة من المؤمنين ، وقال قائلهم ، لماذا نقبل الدنية في ديننا،واشتد غضبهم عندما جاء أحد المسلمين من قريش مكبلا بالحديد فرده•

كان شجاعا وهو يعلم أنهم على خطا المخلصين ، وردهم ، ثم تبين بعد ذلك ما كان عليه النبي عليه السلام من حكمة ، عندما طلبوا هم عدم التمسك بهذا الشرط ، والغاءه لأنه لم يرتد أحد من المسلمين ، ومن خرجوا مسلمين من قريش ، ولم يقبلهم، ترصدوا المشركين في متاجرهم ، فأذاقوهم الويل والثبور ، وقتلوا منهم ، واستولوا على غنائم كثيرة من أموالهم على ما سنبين ان شاء الله تعالى •

شجاعته صلى الله عليه وسلم في ميدان القتال

١٦٥ ـ كتب القتال على محمد عليه الصلاة والسلام ومن معه،وهو كره لهم، لأن الدعوة الاسلامية لا بد أن تأخذ طريقها ، وأن ترد الاعتداء حتى يكون

(١) آل عمران

الدين لله ، وتستقيم القلوب ، ولا تكون الفتنة ، والاكراه على ترك الهداية، والوقوع في الغواية ، بعد أن من الله تعالى عليهم بالحق ، والايمان ، وما كان أهـل الايمان ليستخـذوا ويستكينوا و يهنوا عن نصرته ، ولذلك أذن لهم في القتال ، كما قال تعالى :

﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَـٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا۟ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَـٰرِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّآ أَن يَقُولُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ۗ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَٰتٌ وَمَسَـٰجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا ٱسْمُ ٱللَّهِ كَثِيرًا ۗ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿٤٠﴾﴾ (١)

كان لابد من القتال جهادا في سبيل الله ، ولنصرة الحـق ، وكان لابد أن يكون محمد عليه السلام الموجه له في كل ميادينه ، والموجه له في كل نواحيه وضروبه ، وما كان محمد عليه السلام القائد الذي يحارب بغيره ، فيوجه الى الميدان ، ولا يتوجه هو اليه ، بل كان يتجه هو اليه ليكون القدوة الحسنة في كل أمر يدعو اليه ، لا يضن بنفسـه ،ولا يستأثر بالراحة ، ويترك غـيره يعمـل ، بـل يـكون في أول العاملين المتقين ٠

وكان على رأس المجاهدين ، جاء في كتاب الشفاء للقاضي عياض ما نصه :

« قد حضر عليه السلام المواقف الصعبة ، وفر الكماة الأبطال عنـه غير مرة ، وهو ثابت لا يبرح ، ومقبل لا يدبر ، ولا يتزحزح ، وما من شجاع الا وقد أحصيت له فرة ، وحفظت عنه جولة سواه عليه الصلاة والسلام » (٢) ٠

ولقد فهم بعض الناس من قوله تعالى :

﴿فَقَـٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفْسَكَ ۚ وَحَرِّضِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَكُفَّ بَأْسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ وَٱللَّهُ أَشَدُّ بَأْسًا وَأَشَدُّ تَنكِيلًا ﴿٨٤﴾﴾ (٣)

---

(١) الحج ٣٩/٤٠ (٢) الشفاء جـ ١ ص ٦٦ (٣) من الآية ٨٤ سورة النساء

أن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم مأمور بأن يقاتل المشركين اذا واجهوه ولو كان وحده ، وذلك الأمر الخاص به الذى كلفه وقد فهمه أولئك المفسرون من قوله تعالى : « لا تكلف الا نفسك » ·

ومهما تكن دلالة ذلك النص فان النبي صلى الله تعالى عليه وسلم حمل عبء الجهاد ودخول الميدان بنفسه من غير ضن بها وكان أصبر أصحابه في الجهاد ، فما فر قط من صفوف القتال ، وما يختاره في موضع أمن ، ولو تولى عنه كل من حوله ·

ولقد روي عن فارس الاسلام علي بن أبي طالب كرم الله وجهه أنه قال : « انا كنا اذا حمي البأس ، واحمرت الحدق اتقينا برسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، فما يكون أحد أقرب الى العدو منه ، ولقد رأيتني يوم بدر، ونحن نلوذ بالنبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، وهو أقربنا الى العدو ، وكان من أشد الناس بأسا » ·

فكان عليه الصلاة والسلام هو العلم الذي يهتدى به في الميدان أشجع المجاهدين وأصبرهم صلى الله تعالى عليه وسلم ·

ويقول عبد الله بن عمر الذي شاهد الحرب ، ما رأيت أشجع ولا أنجد ولا أجود ولا أرضى من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فهو الشجاع الرضي الكريم الصبور ، الذي يقف في الهيجاء ، ويحمل سيفه ، ليجيب كل هيعة ·

وانه عليه الصلاة والسلام كان قوي الاحتمال مع شجاعة، ورباطة جأشه، لقد جرح في يوم أحد ، واشتدت جراحه ، وأنزفت دمه ومع ذلك داوم على الحرب، ولم يهن ولم يستكن ·

ولقد أريد قتله عليه الصلاة والسلام في هيجاء أحد ، واضطرابها، فجاء أبي ابن خلف يريد قتله ، وقد أعد لذلك عدته منذ بدر الكبرى ، اذ كان في الأسرى ، فلما كان يوم أحد ، ولم يكن للمسلمين جاء وقد ادرع بالحديد ، لا يرى منه الا عينه ، حتى لا يصيبه سيف أو رمح ، وهو يقول أين محمد ، لا نجوت ان نجا محمد ، فاعترضه رجال من المسلمين ، فقال محمد الجريح

الذي أنزف من دمه ما أنزف ، خلوا طريقه وتناول الحربة من الحارث بن الصمة، وحملها، وانتفض بها انتفاضة تطايروا تطاير الشعراء عن ظهر البعير اذا انتفض ، فطعنه عليه السلام في عنقه طعنة تدأدأ منها عن فرسه مرارا ، وقيل بل كسر ضلعا من أضلاعه ،فرجع الى قريش يقول : قتلني محمد ، وهم يقولون لا بأس عليك • فقال لو كان يجمع الناس لقتلهم ، أليس قد قال أنا أقتلك ، والله لو بصق عليّ لقتلني ، فمات في سرف في قفولهم الى مكة (١) • وانه في حرب هوازن ثبت وحده ، وذلك كاف لبيان مدى شجاعته وصبره •

الشجاع في كل أحواله

١٦٦ ـ هذه شجاعته عليه الصلاة والسلام في الجهاد بالسيف ، وقد ذكرنا شجاعته المعنوية في السلم،وكيف كان لايخشى في الحق لومة لائم،ولا يلاحظ في أفعاله البيئة وتقاليدها ، ولو كانت مستنكرة ، ولو كان منشأ هذه التقاليد أنهم لا يعقلون شيئا ، ولا يهتدون ، بل ما يكون معروفا يعرفه ، وما يكون نكرا ينكره ، وهو في ذلك قبل البعثة وبعدها على حال واحدة ، ولا يهاب الرجال ، بل يهاب الله تعالى وحده ،ويرفق بالرجال ما كان الرفق سبيلا للهداية ، فهو الهادي المرشد الداعي الى الحق في كل أحواله •

وهو يستجيب لداعي النجدة ، حيث تكون الاستجابة واجبة، والنجدة لازمة، وحيث يكون ملهوف يغاث ، لقد فزع أهل المدينة ، وتصايحوا لمخوف ألم ، فانطلق ناس قِبل الصوت • يتعرفون مكان الاستغاثة ، وكل يعتقد أنه الذي سبق ، ولكنهم وجدوا رسول الله صلى الله عليه وسلم قد سبقهم الى الصوت ، ولقوه قافلا وقد سبقهم ، وقد سارع الى الصوت على فرس لأبي طلحة ركبه النبي الشجاع القوي الأمين ، والفرس عار ، لا سرج عليه ، وقد سبق عليه السلام والسيف في عنقه ، وقال لهم ،وهو راجع : « لن تراعوا » •

وهكذا كانت شجاعة رسول الله صلى الله عليه وسلم كاملة في كل ضروب الشجاعة •

---

(١) الشفاء جـ ١ ص ٦٨

واذا كان الحق يتكلم ، ولا يجمجم ،وفي الميدان يتقدم كل الصفوف ، ولا يحجم ، وفي النجدة هــو السباق الى مواطن الاغاثة فهو في كل أحـــواله الشجاع ، ولكن في غـــير خيلاء ، ولامفاخرة ، ولا استعـــلاء ، بل هــو في هـــذه الداعي الى الحق ، والى صراط مستقيم ٠

وقد روي عن أنس بن مالك خـادم رسول الله صلى الله تعالى عليه وســلم أنه قال : « فضلت الناس بشدة البطش » والمراد البطش بالظالم ، وأخـــذه بالقوة بعد ألا تجدي الموعظة ، ويخرج من طور الجاحد المجرد الى طور المعتدي الاثيم ، الذي يحاول أن يفتن النـاس في دينهم والفتنة أشد من القتل ٠

رجولة المرسلين

١٦٧ ـ ان سمات الرجال الخلقية والعقلية ينبىء عنها أو تومىء اليها صفاتهم الجسمية ، فأولئك الشواذ في تكوينهم النفسي أو العقلي يبوء شذوذهم في أجسامهم بضمور واضح مثلا في عضلات الوجوه ، أو اعوجاج في بعض أجزاء جسومهم ، أو اضطراب في عيونهم ، أو انحراف في بعض الملامح ، وان ذلك يتضح كاملا ، لأهل العلم والاعصاب ، والنفوس والمتتبعين من الشواذ .

وان اعتدال الجسم ، وتناسب أجزائه يدل في الجملة على استقامة العقول والنفوس ، وان المزاج النفسي يصحبه غالبا مزاج جسمي كامل ، متناسق في تركيبه الظاهر والداخل ، فالعناصر المؤثرة كلها متناسقة منسجمة انسجاما لا شذوذ فيه ، ويكون معه ، انسجام نفسي كامل وعقل كامل وخلق كامل .

ولقد وصف النبي صلى الله تعالى عليه وسلم النبيين في حديث المعراج بما يدل على كمالهم الجسمي ، وهو كمال فيه جمال ، لا يكون ما يسوغ النفرة منهم أبدا . فقد روى سعيد بن المسيب . أن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم وصف لأصحابه ابراهيم وموسى . وعيسى . فقال: « أما ابراهيم فلم أر رجلا قط أشبه بصاحبكم . ولا صاحبكم أشبه به منه ، وأما موسى فرجل آدم طويل ضرب جعد أقنى كأنه من رجال شنودة (١) ، وأما عيسى بن مريم فرجل أحمر بين القصير والطويل سبط الشعر . كثير خيلان الوجه . كأنه خرج من ديماس . تخال رأسه نقطة ماء . وليس به ماء أشبه رجالكم به عروة بن مسعود » .

وان هذه الأوصاف لأولئك الانبياء الثلاثة . وهم من أولي العزم من الرسل ، تدل على كمال التناسق الجسمي فيهم مع اختلاف في الأوصاف الجزئية .

---

(١) المضرب الخفيف اللحم ، والجعد المتكسر الشعر ، والأقنى المرتفع قصبة الأنف وشنودة قبيلة من الأزد والآدم ذو الحمرة المشرب بسمرة .

واتفاقهم في أصل التنسيق ، وقد روى الدارقطني من حديث أنس بن مالك خادم رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم أن النبي عليه الصلاة والسلام قال : « ما بعث الله تعالى نبيا الا حسن الوجه حسن الصوت ، وكان نبيكم أحسنهم وجها وأحسنهم صوتا صلى الله تعالى عليه وسلم » .

لم يكن بدعا من الأنبياء أن يكون كل ما عليه محمد من الخلق والتكوين مسترعيا للأنظار ، هو جميل في جسمه، كما هو جميل في خلقه ، وانه عندما تحدى قريشا بالقرآن الكريم ، وعاب آلهتهم ، وبين بطلان عبادتها ورأوا أبا طالب عمه فكلموه ، وهو يحميه دونهم، أتوا بفتى نهد هو أجمل قريش في زعمهم ، ليكون ولدا لأبي طالب ،ويسلم لهم محمد بن عبد الله (عليه الصلاة والسلام) ليقتلوه فرفض تلك المساومة على ابن أخيه ، وقال في تهكم لاذع « تعطوني ولدكم آغذوه لكم ،وأعطيكم ولدى تقتلونه » وهذا الخبر يدل على أن محمد بن عبد الله قد بلغ الكمال الجسمي ، اذ سواه الله تعالى فاحسن خلقه .

ولا شك أن ذلك التناسق الجسمي له أثره في الدعوة ، والاستجابة لها اذا كان مصحوبا باشراق روحي ، وانه مما يروى في ذلك أنه بعد أن تجاوبت الدعوة المحمدية في الاصداء ، وعرفت في أرجاء الجزيرة العربية ، وشاع خبر المكذبين وهم الكثرة ، كالشأن في كل دعوة جديدة تجيء على لسان رجل يأتيهم بجديد لم يألفوه ، في هذه الاثناء قابل أعرابي محمد بن عبد الله عليه الصلاة والسلام فراعه منظره، واشراق وجهه، وتلألؤ النور في جبينه ،فسأله من أنت ؟ فقال محمد بن عبد الله ،فقال الرجل في ايمان مدرك : أأنت الذي تقول عنه قريش انه كذاب !!فقال الرسول الكريم : نعم فقال الرجل ليس هذا بوجه كذاب ، ما الذى تدعو اليه ؟ فذكر النبي صلى الله تعالى عليه وسلم حقيقة الاسلام ، فأعلن الأعرابي ايمانه .

ولقد أكثر الواصفون لتكوين النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، وجاء من طرق أنه كان فيه جمال يتلألأ وجهه اشراقا ، ونختار من هذه الروايات وصفين جامعين : أحدهما وصف هند بن خديجة رضي الله تعالى عنه ، وكان رجلا وصافا فيه دقة ملاحظة ، وادراك للصفات ، ـ وثانيهما ـ لأم معبد ، ولنختر هذين الخبرين ففيهما الغناء .

حِلْيَة رَسُول الله صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّم :

١٦٨ ـ حديث هند بن أبي هالة ربيب النبي صلى الله تعالى عليه وسلم رواه الحسن بن علي رضي الله عنهما ،فقد قال الحسن أول سيدي شباب أهل الجنة ٠

سألت خالي هند بن أبي هالة عن حلية رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، وكان وصافا ، وأنا أرجو أن يصف لي شيئا منه أتعلق به ، فقال : « كان رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم فخما مفخما يتلألأ وجهه تلألؤ القمر ليلة البدر أطول من الربوع(١) وأقصر من الشذب (٢) ، عظيم الهامة ، رجل (٣) الشعر ، ان انفرقت عقيصته(٤) فرق ، والا لا يجاوز شعره شحمة أذنه ، ذا وفرة ، أزهر (٥) اللون ، واسع الجبين ، أزج الحواجب سوابغ في غير قرن بينهما عرق يدره الغضب، أقنى (٦) العرنين ، له نور يعلوه يحسبه من لم يتأمله أشم ، كث اللحية ، سهل الخدين ضليع (٧) الفم أشنب ، مفلج الاسنان ، دقيق المسربة ، كأن عنقه جيد دمية في صفاء الفضة معتدل الخلق باديا متماسكا ، سواء البطن ،والصدر، فسيح الصدر ، بعيد ما بين المنكبين ضخم الكراويس أنور المتجرد، موصول ما بين اللبة والسرة بشعر يجرى كالخط ، عاري الثديين والبطن مما سوى ذلك أشعر الذراعين والمنكبين وأعالى الصدر ، طويل الزندين ، رحب الراحة شثن الكفين (٨) والقدمين ، سائل الاطراف سبط العضب خمصان(٩) الاخصمين ، مسيح القدمين ، ينبو عنهما الماء٠اذا زال زال تقلعا(١٠)، ويخطو تكفؤا،ويمشى هونا ذريع المشية،اذا مشى كأنما ينحط من صبب ،واذا التفت التفت جميعا ، خافض الطرف ، نظره

---

(١) أى أنه ربعة من الرجال أقرب الى الطويل منه الى القصير ٠

(٢) الشذب البائن الطول (٣) الشعر الرجل المرسل أنه مشط

(٤) العقيصة : شعر مقدمة الرأس (٥) الازهر النير (٦) الأقنى السائل الأنف (٧) الضليع الواسع والشنب روق الأسنان ، والمسربة ، خيط الشعر بين الصدر والسرة ، وسواء معناه سوى ٠

(٨) شثن الكفين والقدمين ، أى أنهما ذواتالحم ، فليسا معروقين ٠ والزندان عظما الذراعين، سائل الأطراف ، أن أن أطرافه عليه الصلاةوالسلام فخمة لا تعرج ، بل انها مستقيمة ورحب الراحة أى واسع اليد ٠

(٩) خمصان الأخمصين ، الأخمص وسطالقدم الذى ينزل الى الأرض ، ولا تمسه ، وخمصانهما أنه طويل ، أى أنهما متباعدان ٠

(١٠) التقلع ، رفع الرجل بقوة ، والتكفؤ، التزام طريقة الشيء ، والقصد فيه ، والهون والرفق ٠

الى الأرض أطول من نظره الى السماء ،جل نظره الملاحظة ، يسوق أصحابه ، ويبدأ من لقيه بالسلام » ٠

وان هذا يدل على الجمال والكمال،جمال الرجولة ، وكمال الانسان ، فكل ما فيه يسترعي الانظار ، ولا تنصرف عنه ولذلك من لقيه ممن هو خالي الذهن ، لا يتجه اليه بحقد أو حسد ،أو ضغن يلتفت اليه ، ويجد فيه مثلا كاملا للرجل ، ومكانة عالية في الخلق،والاشعار بالمودة ، فهو لا يتقدم مباهيا، ولا يسبق معتزا ، ولكن يسير وراءه متواضعا ، متطامنا ، ويلقي السلام على كل من يلقاه اشعارا له بالمودة والمحبة،حتى لا تسبق الجهامة ، والمنافرة ، فهو جميل التكوين والتنسيق في جسمه مرضي اللقاء ، بل محبوب اللقاء في خلقه ، وما قام بينه وبين أحد في الجاهلية عداء ، ولا كانت شحناء بينه وبين أحد منهم ، ولا ملاحاة في عصبية أو ما يشبهها من المشادات الجاهلية ، بل كان الأليف المألوف ، القريب الى النفوس خصوصا النفوس المستقيمة التي لا التواء فيها ، ولا منافرة ٠

وذلك فوق ما خصه الله تعالى به من جاذبية شديدة تعلن الطيبة ، وتكشف عن خبيئة نفسه الطاهرة المسالمة التي لا تنافر ولا تغاضب ، ولا تصخب ، ولنقرأ وصفا ، لامرأة مر عليها عابرا في هجرته من مكة الى المدينة ، فقد قالت واصفة له وقد سئلت عنه أم معبد :

لقد مر محمد بن عبد الله صلى الله تعالى عليه وسلم ومعه أبو بكر الصديق رضي الله تعالى عنه ، ومولاه عامر بن فهيرة ودليلهم عبد الله بن أريقط الديلمي ، فسألوها هل عندها لبن أو لحم يشترونه منها ، فلم يجدوا عندها شيئا ، وقالت : « لو كان عندنا شيء ما أعوزكم القرى ، وكانوا ممحلين ، فنظر عليه السلام الى شاة في كسر خيمتها ، فقال ما هذه الشاة يا أم معبد، فقالت : نحلها (١) الجهد ، فقال عليه السلام أتأذنين لي أن أحلبها ، فقالت ان كان بها حلب فاحلبها فدعا بالشاة فمسحها ، وذكر اسم الله ، فكان في حلبة منها ما كفاهم أجمعين ، ثم حلبها،وترك عندها اناءها ملآن ٠٠ فلما جاء بعلها استنكر اللبن ، وقال : من أين لك هذا يا أم معبد ، ولا حلوبة في البيت والشاة عازب !

---

(١) اضعفها المحل اى الجذب

فقالت : لا والله ، مر بنا رجل مبارك كان من حديثه كيت وكيت ، فقال صفيه ، فوالله اني لأراه صاحب قريش الذى تطلبه !!

فقالت : رأيت رجلا ، ظاهر الوضاءة (١) حسن الخلق ، مليح الوجه ، لم تعبه ثلجة ، ولم تزر به صلعة ، قسيم وسيم ، في عينيه دعج ، وفي أشفاره وطف ، وفي صوته صحل ، أحور أكحل ، أزج أقرن في عنقه سطع ، وفي لحيته كثافة اذا صمت فعليه الوقار ، واذا تكلم سما ، وعلاه البهاء ، حلو المنطق ، فصل لا نزر ولا هذر ، كأن منطقه خرزات نظم يتحدرن أبهى الناس وأجملهم من بعيد ، وأحلاهم وأحسنهم من قريب ، ربعة لا تشنوه عين من طول ، ولا تقتحمه عين من قصر ، غصن بين غصنين (٢) ، فهو أنضر الثلاثة منظرا ، وأحسنهم قدا ، له رفقاء يحفون به ، وان قال استمعوا لقوله ، وان أمر تباروا الى أمره محفود ، محشود ، لا عابس ولا مفند (٣) ·

جمال تكوينه صلى الله عليه وسلم :

١٦٩ ـ هذا وصف من رأوه ، وهو يدل على ثلاثة أمور :

أولهما : جمال تكوينه الجثمانى ، وكمال التنسيق بين أعضائه ، حتى انه لو أراد مصور أن يضع صورة لرجل مكتمل الجسم ، منسق الخلق ، ما وجد خيرا من هذه الصورة التي يصورها من رأوها ، وكان لها روعة عند كل من رأوها ، يستوى في ذلك من خالفه وعانده ، ومن أطاعه وصدقه ، فهي صفات لها أثرها عند الناظر اليه ، وهي تزيد الموافق تصديقا ، وتثير الحقد والحسد ، ومحبة الأذى عند من يعانده استكبارا ، فان المكابر يزداد اعناتا ، كلما رأى عوامل التأييد لنقيض رأيه تزداد وضوحا واعلاما ، وخصوصا اذا كان صدقا ثابتا بالمعاينة ، وليست خبرا يقبل الانكار ·

وان قريشا كانت تعلم فيه ذلك التكوين ، ولذلك لما أرادت أن تعوض أبا طالب عن ابن أخيه قدمت له أنهد فتى في قريش ، ولكن أنى يكون من محمد بن عبد الله صلى الله تعالى عليه وسلم نور الانسانية ورسولها ·

---

(١) الوضاءة الجمال ، وأبلج الوجه معناه مشرق ، والثلجة كبر البطن ، والصعلة صغر الرأس ، والقسيم والوسيم من سلامة التكوين والدعج شدة سواد حبة العين ، والوطف طول رمش العينين ، والصحل بحة يسيرة تجعل للصوت تأثيرا ·

(٢) الغصنان هما الاثنان اللذان يحيطان به أبو بكر ، والدليل ·

(٣) محفود أى مخدوم ، ومحشود معناه أن من معه يحيطون به ، ومعنى غير مفند لا يجابه غيره بالتخطئة أو المخالفة ·

الأمر الثاني ــ أن قلبه الطاهر كان يشع على وجهه بالنور ، فهو اذ يمشي يحف به النور الذي أضفاه الله تعالى عليه بتطهير قلبه، وتنوير نفسه بالخير، فكان كما قالت أم معبد وضاء الجبين متلألئا بالنور ، من غير استكبار ولا استعلاء ، بل كان بين الناس متطامن النفس، وان اليهم، وهو فيهم كأحدهم، لولا فضل الرسالة ، وما جعله الله تعالى له من مكان ليصل القول الطيب الى أمته ·

الأمر الثالث ــ شدة جاذبيته صلى الله تعالى عليه وسلم مع الهيبة التي تفرض قولها على الناس ، ومع كمال المحبة واستشراف النفس المحبة اليه ، أو النفس الخالية من ضغن أو حقد ، أو اعنات في المخالفة ، فان النفس التي تكون على هذه الشاكلة توجد فيها مقاومة التأثير النفسي الذي يتجه الى البراءة ، وانها تكون مدنسة بالشرقد سكنها الشيطان وغلبت عليها وساوسه ، فالقلب لا يصدق ، ويكون ممن جحدوا بها ، واستيقنتها أنفسهم، ولقد كان المشركون يعرفون قوة تأثيره بشخصه ، فوق ما معه من حق وبينات تثبت صدق ما يأتي ، ولذلك كانوا يسبقون الى قبائل العرب ينفرونهم ، لكيلا يؤثر فيهم بشخصه وقوله ،وبينات الله تعالى التي أجراها على يديه ، ونزل بها الوحي الالهي ·

ومع كبر ما صنعوا ، لم ينفر الناس من الاستماع اليه ، والانعطاف ، لأن الحق بين ، والحجة قائمة ، والداعي تنجذب اليه النفوس ، وتصغي اليه أفئدة طلاب الحق الذي لا يمتارون فيه ان وجه اليهم ودعوا اليه ·

ماحبّب إليه من الدنيا :

١٧٠ ــ وكان كل شيء في رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم يعلن قوته وجماله وكماله ، فكان في شكله الشاب وقد تجاوز الستين من عمره .لم يكن فيه شيب · بل كان أسود الشعر ،حتى عد الذين خالطوه من صحب ، وخدم شعرات شيبة فذكروا أنه لم يشب في لحيته ورأسه الا عشرون شعرة وعدها خادمه أنس رضي الله عنه بأنها احدى عشرة ، حتى انه كان يوصف بالشاب ، وقد تجاوز الستين في أصح الروايات عن سنه ، واذا كان تغير في بعض شعره ظن خضابا فانه لم يكن خضابا ، وانما كان من كثرة ما يضمخ به شعره من مسك ، فقد كان يحب الطيب ، وقد روي عنه عليه الصلاة

والسلام أنه قال : « حبب الي من دنياكم ثلاثة (١) : النســـاء ، والطيب ، وجعلت قرة عيني في الصلاة » ٠

ونرى أنه عليه السلام جعل الصلاة من الدنيا ، اذ وصفها مما حبب اليه من شئون الدنيا ، لأن الصلاة مع جانبها الروحاني ، ومع أن فيها ذكر الله تعالى ، هي تصلح الدنيا ، لأن الصلاة تربي الضمير وترهف الوجدان ، فتنهى عن الفحشاء والمنكر ، وبذلك تصلح شئون الدنيا والآخرة معا ٠

وانه صلى الله تعالى عليه وسلم كان حريصا على الطيب يتطيب به دائمـا ، حتى انه كان ينبعث عرف الطيب في مجلسه ، ولقائه ، وفي مظاهـر حسه ، وكان اذا مس رأس طفل استمر العرف الطيب في رأسه ، وأنه ليعـرف أن الرسول مر فلمس طفلا بالريح الطيب٠

ولا شك أن العرف الطيب تستروح به النفس ، ويقبل معهـا الجليس ، وتنجذب اليها النفوس ، وان الرائحة الكريهة تنفر ، وتبعد ٠

وكان عليه السلام يعنى بالنظافة في المظهر ، كما عني بتطهير المخبر ، كان يعنى بنظافة الحس ، كمـا عني بنظافة النفس ، ولنترك الكلمة للقاضى عياض يبين ذلك ٠٠ فقد قال :

« وأما نظافة جسمه وطيب ريحه وعرفه ، ونزاهته عن الأقذار ، وعورات الجسد ، فقد خصه الله تعالى بخصائص لم توجد في غيره ، ثم تممها بنظافة البشرة وخصال الفطرة وقال : « بني الدين على النظافة ٠٠ عن أنس (خادم رسول الله) ما شممت عنبرا قط ، ولامسكا ولا شيئا أطيب من ريح رسـول الله صلى الله تعالى عليـه وسلم ، وعن جابر بن سمرة أنه صلى الله تعالى عليه وسلم مسح خده قال فوجدت ليده بردا وريحا ، كأنما أخرجها من جونة عطار قال غيره مسها بطيب ، أو لم يمسها ٠٠ يصافح المصافح فيظل يومه يجد ريحها، ويضع يده على رأس الصبي ، فيعـرف من بين الصبيان بريحها ، ونام رسول الله صلى الله عليه وسلم في دار أنس ،فعرق ، فجاءت أمه بقارورة تجمع فيها عرقه ، فسألها رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم عن ذلك ، فقالت نجعله في طيبنا ، وهو من أطيب الطيب ، وذكر البخارى في تاريخه الكبير عن جابر :

---

(١) الصحيح عدم ذكر ثلاث فى الروايات الواردة

لم يكن النبي عليه الصلاة والسلام يمرفي طريق ، فيتبعه أحد ، الا عرف أنه سلكه من طيبه ، وذكر اسحق بنراهويه أن تلك كانت رائحته بلا طيب، صلى الله تعالى عليه وسلم ، وروى المزني عن جابر : أردفني رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم خلفه ،فالتقمت خاتم النبوة بفمي ، فكان ينم علي مسكا » (١) •

وهنا ننظر نظرة فيما رواه اسحق بن راهويه ، أو ذكره من غير رواية ، وهو أن رائحته عليه الصلاة والسلام التي كانت طيبة كانت من غير تطييب، وان ذلك بلا ريب جائز وممكن ،فليست أمرا مستحيلا في العقل ولا في الشرع، فقد اختصه الله تعالى بخواص ليست في كل الناس ، والله أعلم حيث يجعل رسالته •

ولكن ثبت بالرواية الصحيحة أنه عليه الصلاة والسلام كان يتضمخ بالطيب ، وليس ذلك مما يعيبه ، بل هو من المستحسن ، وثبت أنه عليه الصلاة والسلام كان يقول : أنه فيما حبب اليه من شئون الدنيا الطيب •

ومهما يكن فان محمدا عليه الصلاة والسلام كان حريصا على أن يكون ريحه طيبا ، لكيلا يكون منه ما ينفر جليسه، بل يجذبه ويحببه •

خَاتم النّبُوّة :

١٧١ ـ هذه الصفات الجسدية كلها صفات كمال وجمال ، وقد يشاركه بعض الناس في بعضها ، ولكن لا يشاركونه في كلها ، فلديه صلى الله تعالى عليه وسلم صفة جسمية لا يشاركه فيها أحد ، وهو جزء بارز بين كتفيه ، وهو من نوع جسمه ، وان كان بارزا فيه ، ويظهر من مجموع الروايات أنه كان صغيرا بحيث لا يظهر من وراء الثوب ناتئا نتوءا واضحا ، فقيل انه كبيضة الحمام ، وقيل انه كالتفاحة ،ولابد أن يكون كالتفاحة الصغيرة ،وقد قال سلمان الفارسي ، أتيت النبي صلى الله تعالى عليه وسلم فرأيت الخاتم بين كتفيه مثل بيضة الحمامة ، وقد تكاثرت الروايات في ذلك ، حتى بلغ الخبر في ذلك حد المشهور المستفيض ، وكأنه وصف جسدي معلم للرسالة ، لا يماري فيه من رآه ، ولله تعالى آيات في خلقه •

---

(١) الشفاء جـ ١ ص ٤٠

صفات النبي صلى الله عليه وسلم

١٧٢ ـ المنهاج الذي يسلكه الكتاب في السيرة العطرة ، سيرة الرسول صلى الله تعالى عليه وسلم أن يكتبوا صفاته صلى الله تعالى عليه وسلم في آخر سيرته الطاهرة ، فلا يكتبوها قبل البعثة المباركة ، ولكن يكتبونها بعد أن بلغ الرسالة ، ومضى الى لقائه الكريم ٠

ونحن قد اخترنا أن نكتب تلك الصفات قبل تكليفه أداء الرسالة ، لأنا رأينا ـ ونرجو من الله التوفيق ـ أن نكتبها قبل البعثة ، ليعلم القارىء من الذي كلفه الله أداء الرسالة ، ومن الذي اختاره ليكون بشيرا ونذيرا للناس كافة عربهم وعجمهم ، وليعلم الناس أنه لم يكن في مجموع صفاته وكمالاته كسائر الناس ، وان كان من الناس ، وانه ليس ككل واحد من البشر مجموع أخلاقه وتكوينه ، وان كان منهم ، فهو من الناس ، ولكنه فى أعلى كمال الناس ، واذا كان ليس من الملائكة ، فهو أعلى من الملائكة ، وأليق بالرسالة ، وأجدر بها من الخلق أجمعين ٠

وانه بعد معرفة هذه الصفات وتعرفها ، وانفراده بها من بين جيله ، بل من بين الأجيال كلها ، لا يستطيع أحد أن يقول : لماذا اختاره ربه دون عمرو بن هشام (أبى جهل) أو دون عمر بن الخطاب وهو من الأبرار ، أو دون الصديق ، وهو من الأطهار ، أو دون علي ، وهو من الأشداء الأبدال ، لا يستطيع أحد أن يسأل لم اختير دون هؤلاء أو غيرهم ، لأن هذه الصفات الخلقية والجسمية لم تكن لأحد من هؤلاء ، ولا من غيرهم ، ولم يكن ذلك الاشراق المتلألىء الوضاء في واحد منهم ولا من غيرهم ، ولم يعرف لأحد من الناس الا لأكمل الأخلاق محمد بن عبد الله صلى الله تعالى عليه وسلم ٠

واذا كانت تلك الصفات ، وما آتاه الله تعالى من فضل ، وما اختصه من رحمة هي التي جعلته مستأهلا لأن يحمل أمانة الرسالة دون غيره ، فانها تكون مقدمة للرسالة ، ولا تكون نتيجة لها ، والمقدمة بمقتضى المنطق والعقل

تسبق النتيجة ، وتمهد لها ، والتمهيد لا يكون بعد المقصد ، بل انه يرشح له ، وينيره ، ويهدي اليه ٠

وقد يقول قائل : انك في سبيل بيان صفاته الكريمة قد أتيت بأخبار عنها من بعد بعثه ، واستشهدت له بعد ارساله رحمة للعالمين ، وبذلك تقع فيما خالفته ، وهو أنك ذكرت الصفات بعد البعثة ،وموضعها قبلها على ماذكرت من منطق !!

ونقول في الاجابة عن ذلك : « اننا استعنا بالأخبار التي وردت عن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم بعد الرسالة ،لأنها وضحت صفاته قبل الرسالة ولأنها ذكرها من شاهد وعاين من بعد الرسالة ، وهذه الصفات التي عاينها الذين آمنوا بمحمد صلوات الله وسلامه عليه ،صفات ذاتية ،لم تجيء بالرسالة ، ولكنها كانت قائمة بذاته الطاهرة من قبلها ، فما وصفه الجسدي حادثا بعد الرسالة ، ولكنه كان من قبلها ، واستمر بعدها ، وما كان ما اتصف به من الأمانة والصدق ، والعفة ، والحلم ، والعفو ، بأخلاق عرضت له ، ولكنها كانت ككل الملكات الذاتية لا تكون عارضة ، ولكن تكون مستكنة تامة ، وان أخبار النبي عليه السلام ما كانت لتقوم عليها البينات النيرة الواضحة قبل الرسالة ، وهو لم يكن له أصحاب يتبعون سيرته ،ويدونون خليقته ، ويهتمون بما كان عليه ، وما كان من الممكن أن يتكشف للناس أمر هذه السجايا الا بعد أن يختلط بهم ، ويتقدم للدعوة لربه ،ويلتقي بالقبائل ، ويقرب المرافقين ويدنيهم ، ويوجههم ويهديهم ويصبر للمخالفين ، ولا يلاحيهم ، ويجادلهم بالتي هي أحسن ، ويوطيء أكنافه لهم ،وهو ليس فظا ولا غليظ القلب ، فالأخبار التي استشهدنا بها لاثبات صفاته ، وما كان عليه من خلق ذاتي، ما كانت الرسالة منشئة لها ، ولكنها كاشفة الغطاء عنها معرفة لها ، وهي ذاتية قد هيأته لأن يكون المبعوث رحمة للعالمين :

﴿ وَٱللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿١٠٥﴾ ﴾ (١)

---

(١) البقرة

١٧٣ ـ كان العالم يموج بفتن مادية ، فالحرب كانت قائمة على قدم وساق بين الفرس والرومان ، ومن قبل عصر نبوة عيسى انسابت الجيوش اليونانية بقيادة الاسكندر المقدوني وراء فارس ، حتى وصلت الى الصين ، وقد كان العصر من بعد عيسى عصر الاضطهاد الديني ، اضطهد النصارى ابتداء ، ومكث اضطهادهم زهاء ثلاثة قرون لقوا فيها من الرومان واليهود أشد ما يلاقي ذو اعتقاد في اعتقاده ،وذو ايمان في ايمانه ، حتى ان نيرون أحد أباطرة الرومان كان يطليهم بالقار ، ويشعل النار فيهم ، ويسير في موكبه تحيط به تلك المشاعل الانسانية لهؤلاء المؤمنين الصادقين في ايمانهم الذين لم يغيروا ولم يبدلوا ، وقبلوا العذاب الهون ، وتوقعوه ، ورفضوا أن يغيروا في سبيل دنيا يصيبونها ، أو دفع عذاب ليتقوه •

وكانت مصر من أول البلاد التي دخلت في النصرانية الأولى ، ولم يغيروا ولم يبدلوا ، ولذلك كانوا أشد البلاد تعرضا لأذى الرومان الذي كان سلطانهم مفروضا عليها وعلى الشام ،وجاء اليهم العذاب الشديد في عهد دقلدياتوس امبراطور ، وذبحت فيهم مذابح سجلها التاريخ • وأرخ بها التاريخ القطبي مسجلا تلك المذابح ،يذكر الرومان بما يعود عليهم بالخزي والعار ، ويذكر المصريين الأولين بالافتخار ، ويذكر المتأخرين من الأقباط بالاعتبار •

ولما دخل قسطنطين امبراطور رومافي النصرانية في الثلث الأول من القرن الرابع كان ذلك سبيلا لسيطرة الانحراف فيها ، وانتقل الاضطهاد من النصارى الى اليهود ، فأذيقوا من العذاب أكؤسا ، وشربوا منه ثم جاء من بعد ذلك لون آخر من الاضطهاد ، ذلك أن كنيسة روما خالفت كنيسة مصر في بعض جزئيات عقائد النصرانية بعد أن انحرفت من الوحدانية الى التثليث انقلب الاضطهاد الى داخل النصارى أنفسهم، فكان منهم الملكانيون

الذين تتمثل فيهم عقيدة روما ،واليعقوبيون الذين تتمثل فيهم عقيدة المصريين ٠

وكان ذلك الاضطراب في العقيدة النصرانية التي حرقت ، ثم انتهاؤه الى أمر غير معقول في ذاته ، من قبل ان المسيح ابن الله ، وأنه نزل الى السموات العلا حيث الله أبوه ، وتجسد الى الأرض لتغفر خطيئة آدم لعصيانه ربه وأكله من الشجرة ، فكان غريبا أن يكون تكفيرا لمعصيته الأولى بالأكل بمعصية أشد وأوغل ، وهو قتلهم ولد الله في زعمهم ، والعقل لا يعلم ولا يدرك أن معصية أشد في حق الله تكون تكفيرا لمعصية أقل، بل لخطأ جاء تضليلا من عدو أثيم ٠

ومن غرائب تلك العقيدة أنها تحاول الجمع بين الوحدانية والتثليث فيصعب التصوير ، ولكن مع ذلك يصدقون على ريب من مفكريهم ، وتسليم من عوامهم ٠

آثار البشارات برسول الله صلى الله عليه وسلم :

١٧٤ ــ والعرب كانوا في حيرة أشد ، وان كانت حياتهم لا تمكنهم من التأملات في العقائد ، ولعلهم لو تأملوا، ولم يغلب الاتباع وقولهم « انا وجدنا آباءنا على أمة ، وانا على آثارهم مقتدون » لكانوا قادرين على الوصول الى الصواب أو على الأقل منهم من يصل،كما فعل الحنفاء ، وانهم كانوا قبل البعث عددا محدودا ٠

لقد كانت حياتهم مضطربة بين توحيد جزئي ، ووثنية جانبية ، لقد كانوا يتبعون ابراهيم ، ويعتقدون أن الله وحده هو خالق الكون ومنشئه ومدبره فاعترفوا بذلك بوحدانية الخلق والتكون ، ولكن مع ذلك أشركوا معه في العبادة أحجارا لا تنفع ولا تضر ، يزعمون أن العبادة لها تجعل منها شفعاء يشفعون ٠

ثم كانت البشائر بأن نبيا سيبعث كان يتردد في البلاد العربية ، كان يجري على ألسنة بعض العرب ، كما يروى عن قس بن ساعدة الايادي أنه ذكر في احدى خطبه أن نبيا قد أدركهم زمانه ، وآن أوانه ٠

وان البلاد العربية ، وخصوصا الحجاز كانت يتجاوب فيها ذكر احتمال رسول مبعوث ، تذاكره كثيرون ممن كانت لهم دراسات للديانات ، مثل ما جاء

على لسان قس بن ساعدة الآنف الذكر ،ولعله يوميء الى أن له صلة بالنصرانية وخصوصا أنه ثبت في القـــرآن ، أن التبشير بالنبي محمد الأمي عليه السلام مذكور في التوراة ، والانجيل ، كمـا قال الله تعالى :

﴿ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلْأُمِّيَّ ٱلَّذِي يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ ﴾ (١)

وقال تعالى :

﴿ مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ۖ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا ۖ سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ ۚ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِي ٱلتَّوْرَىٰةِ ۚ وَمَثَلُهُمْ فِي ٱلْإِنجِيلِ ﴾ (٢)

وقال تعالى :

﴿ وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَـٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَـٰبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ ۚ قَالَ ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِي ۖ قَالُوٓا۟ أَقْرَرْنَا ۚ قَالَ فَٱشْهَدُوا۟ وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّـٰهِدِينَ ﴿٨١﴾ ﴾ (٣)

وقال تعالى : في بشارة عيسى عليه السلام بمحمد النبي الأمين :

﴿ وَإِذْ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ يَـٰبَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنۢ بَعْدِي ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ ۖ فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلْبَيِّنَـٰتِ قَالُوا۟ هَـٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٦﴾ ﴾ (٤)

وهكذا نجد النصوص القـرآنية الكثيرة التي جاء فيها أن محمدا عليـه السلام ذكر في التوراة والانجيل ، وقد أشرنا الى ذكره في كل الديانات القديمة قبل تحريفها ، البراهمة والزرادشيـة قبل التغيير والتبديل فيها ٠

---

(١) الأعراف (٢) الفتح (٣) آل عمران (٤) الصف

ويهمنا أن نعرف ذكر التوراة لمحمد عليه السلام •

١٧٥ ـ وقد وجدنا النصوص في التوراة حتى بعد تحريفها ، وبعد أن نسوا حظا مما ذكروا به تومىء أو تشير باشارة واضحة تكاد تكون عبارة لا اشارة ـ مبشرة بنبي الله تعالى محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم ،واليك ذلك النص الذي يكاد يكون صريحا ،ولكنه نص في دلالته ، سواء أكان بالاشارة أم العبارة :

« جاء الله من سينا ، وأشرق من ساعير ، واستعلن من فاران (أي مكة) وقد فسر ابن ظفر من كتاب المسلمين في السيرة الطاهرة ، معنى النص فقال مجيئه من سينا تكليمه لموسى ، واشراقه من ساعير ـ وهى جبال فلسطين انزاله الانجيل على عيسى ، وبالقرب من هذه الجبال قرية الناصرة ، حيث ولد عيسى عليه السلام ، واستعلن من جبال فاران وهي جبال مكة ، انزال القرآن »(١)•

ونرى من هذا أن الرموز كانت للأماكن ، وبتبيين الأماكن يتبين الرسل الذين بعثوا فيها ، ومجيء الرب بالبداهة هو مجيء رسالاته ، فان الله تعالى لا ينزل بذاته انما تنزل هدايته ،ويجيء أمره ونهيه على ألسنة رسله ، وقد ذكرت أماكن ثلاثة هي سينا ، وقد جاء من طريقها كليم الله تعالى موسى عليه السلام ، ومجيء رسالة الله تعالى الى فلسطين حيث ولد سيدنا عيسى عليه السلام بالناصرة ، ومن فلسطين انبعث نور رسالته عليه السلام، ومجيء رسالة الله من فاران حيث مكة المكرمة زاد الله تعالى نبيها تشريفا وتعظيما ، كانت هي ما نزل على محمد بن عبد الله صلى الله تعالى عليه وسلم •

ويقول صاحب كتاب خير البشر في بيان تبشيره التوراة بالنبي محمد عليه السلام :

قرأت في ترجمة للتوراة لموسى عليه السلام ، جاء فيه ، والله ربك مقيم نبيا من أخوتك ، فاستمع له كالذي سمعت ربك في حوريب يوم الاجتماع حين قلت : « لا أعود أسمع صوت الله ربي لئلا أموت ، فقال الله تعالى لي •

(١) خبر البشر لابن ظفر ٩

نعم ما قالوا ، وسألتم لهم نبيا من أخوتهم ، واجعل كلامي في فمه ، فيقول لكم كل شيء ، آمره به وأيما رجل لم يطع من تكلم باسمي فاني أنتقم منه ».

ونلاحظ هنا أنه ذكر أن الرسول سيكون من أخوة بني اسرائيل ، لا منهم ، ولا تكون هذه الأخوة الا من بني اسماعيل ، أخي اسحاق الأكبر ، فان هؤلاء هم الذين يقال لهم أخوة .وعيسى ومن قبله داود ، وسليمان وغيرهما ، لا يقال لهم أخوة بني اسرائيل انما يقال عنهم أبناء اسرائيل ، لأنهم من يعقوب بن اسحاق ، ويقول صاحب كتاب ، خير البشر « قوله اجعل كلامي في فمه ، واضح في أن المقصود به محمد صلى الله تعالى عليه وسلم ، لأن معناه أن الله تعالى يوحي اليه بكلامه (أي الله) فينطق به ، أي يوحي اليه بالقرآن فينطق به ».

إثبات الرسالة المحمدية بالإنجيل :

١٧٦ ـ واذا كانت هذه الاشارات الواضحة في التوراة ، فان في الانجيل مثلها ، بل هو أكثر وضوحا منها ، فقدورد التبشير ، البار قليط في الانجيل، وان الترجمة الحرفية لهذه الكلمة العبرية هي أحمد ، فهو مطابقة من حيث المعنى التبشير بأحمد ، وقد جاء القرآن الكريم بالذي بشر به عيسى عليه السلام اسمه أحمد ، اذ قال سبحانه ﴿ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ ﴾ (١) وقد جاء في الأناجيل على لسان عيسى عليه السلام : « ان أجبتمونى فاحفظوا وصيتي ، وأنا أطلب الى أبي فيعطيكم بارقليط آخر يكون معكم الدهر كله ».

فهذا النص يبين أن الله تعالى سيبعث من بعده رسولا هو أحمد ، يقوم بتبليغ رسالة ربه ، كما يقوم عيسى عليه السلام ، وأن شريعته باقية مع الدهر، أي أنها خالدة لا شريعة بعدها ، وأن صاحبها هو خاتم النبيين .

والتعبير بالأب من تحريف النصارى لمعنى الله بعد أن غيروا وبدلوا فهو مأخوذ من الانجيل بعد أن حرفت الديانة عن موضعها ، ومع ذلك فان كثيرين كانوا يفسرون البنوة بأنها بنوة النعمة والمحبة ، كما يقول اليهود نحن أبناء الله وأحباؤه .

وقد جاء في الأناجيل بعد تحريف الديانة النصرانية « ان هذا القول

---

(١) الصف / ٦

الذي سمعتموه ليس هو لي بل للآب الذي أرسلني لكم بهذا ، وأنا معكم ، فأما البارقليط روح القدس الذي يرسل أبي باسمي ، فهو يعلمكم كل شيء ، ويذكركم جميع ما أقول لكم .

ولعل الغرابة في أن تسمى رسالة محمد بن عبد الله عليه السلام أنها باسم المسيح ، وأنها محرفة بلا ريب ، ومهما يكن فليس المراد بالاسمية أن تكون دعوة محمد صورة كاملة لدعوة المسيح ، انما المراد الموافقة فيما يكون دعوة المسيح بالوحدانية ، وأن دعوة محمد عليه السلام ، هي ما كان يدعو اليه وما يتفق مع قوله ، كما قال تعالى:

﴿ شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ ۖ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ ۚ كَبُرَ عَلَى ٱلْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ ۚ ٱللَّهُ يَجْتَبِىٓ إِلَيْهِ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ ﴿١٣﴾ ﴾ (١)

وروى أن عيسى عليه السلام قال في الانجيل اذا قال البارقليط الذي أرسل اليكم من عند أبي روح الحق الذي يخرج من الأب فهو يشهد لي ، وأنتم تشهدون لي أيضا لكينونتكم معي من أول أمري ، وهذا صريح في أن محمدا عليه السلام يشهد الكتاب الذي أنزل عليه وهو القرآن بأنه مصدق لما بين يديه من التوراة والانجيل ، وقد سمي القرآن بحق روح الحق ، وقد سمي كذلك (٢) كما قال تعالى :

﴿ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ ﴾ (٢)

وجاء في الأناجيل أيضا: «البارقليط لا يجيئكم مالم أذهب ، فاذا جاء وبخ العالم على الخطيئة ، ولا يقول من تلقاء نفسه ، ولكنه يسمع ما يكلمهم به ، ويسوسهم بالحق ، ويخبرهم بالحوادث والغيوب » (٤) .

---

(١) و (٣) الشورى(٢) راجع السيرة العطرة ونهاية الأرب جـ ١٦ ص ١١٠ وخير البشر
(٤) نهاية الأرب والسيرة العطرة

وان في هـذا النص وصفا للنبي عليه السلام بعينه من بين الرسل ، وذلك الوصف هو قوله : « ويسوسهم بالحق ، ولا شك أن رسالة محمد عليه السلام ، لم تقتصر على بيان الحقائق الالهية التى بعث بها عليه السلام ، بل ساس الناس لتطبيقها ، فأنشأوا دولة ، وطبق النظم القرآنية تطبيقا دقيقا سليما ، وان هذه صفة كاملة لرسالة محمد عليه السلام ، وعمله .

وان كلمة البارقليط التي جاءت في هذه النصوص قال علماء العبرية ان ترجمتها الحرفية كما أسلفنا أحمد ، وهي في معناها الذي يعرف السر ، والحكمة ، وهو قد بلغ أقصى الحمد لهذا .

ماجاء في الكتب السابقة :

١٧٧ ــ ولقد نقل بعض الكتاب الفضلاء (١) عبارات من كتب العهد القديم ، عن الزبور ، الذي جاء به داوود عليه السلام ، وأشعياء ، وشمعون ، وحزقيل .

ومما جاء في مزامير داوود « اللهم اجعل جاعل السنة يحيا » .

وجاء فيه ، « انه اذا جاءت الرحمة على شفتيك من أجل ذلك أبارك عليك الى الابد ، فتقلد السيف ، فان بهاءك وحمدك الغالب ، واركب كلمة الحق ، فان شرائعك مقرونة بهيبة يمينك ، والأمم يخرون تحتك » .

ولا شك أن دلالة هذه النصوص على التبشير بمحمد عليه السلام وليست هذه الاشارة بينة ، كبيانها في النقول السابقة عن توراة موسى ، وانجيل عيسى عليهما السلام ، ولكنها قد تدل بالاقتضاء ، لا بالاشارة المجردة ، لأن الذي أحيا السنة وهي عبادة الله تعالى وحده ، اذ هي الطريقة القويمة هو محمد عليه الصلاة والسلام ، بعد أن حرفت النصرانية ، الى انحراف التثليث .

وفي النص كانت الدلالة بالتضمين أيضا ، اذ وصف فيه من يباركه الله تعالى بأن شريعته تقرن بهيبة يمينه ، وان شريعة محمد عليه السلام تأمر بدفع الباطل بما تحمله اليمين وهو السيف ، ولم تكن شريعة عيسى عليه السلام كذلك انما كان يغلب التسامح ، ولم يحمل سيفا ، ولم يدع الحواريين الى حمل السيف ، بل الذي حمل السيف نبي الله داوود ، ووضع الباطل تحت

---

(١) هو ابن ظفر فى كتابه خير البشر ص١٤ ، ٩٦

الأقدام ، وخر الجبابرة تحت الشريعة الاسلامية في عهده ، وعهد الحواريين من أصحابه هو محمد عليه الصلاة والسلام .

ولقد جاء في الزبور عبارة لعلها أصرح من هذه العبارة في سلطان شريعة محمد عليه الصلاة والسلام ، وهذا نصها « فاذا جاز من البحر الى البحر ، ومن عند الأنهار الى منقطع البر ، وخر أهل الجزائر على وجوههم كبهم ولحس أعداؤه التراب ، وجاءته الملوك بالقرابين ، ودانت له الأمم بالطاعة ، لأنه يخلص الضعيف المغلوب البائس ، ويقوي الضعيف الذي لا ناصر له ، ويرحم المساكين ، ويصلي ، ويبارك عليه في كل وقت ويدوم ذكره الى الأبد » .

وقد كان ذلك الكلام عن رجل يجيء في المستقبل ولا شك أن هذه الأعمال لم يعملها داوود وسليمان الا محمد سيد البشر عليه الصلاة والسلام ، فهو ذكر هنا عليه الصلاة والسلام بالوصف ، لا بالاسم كما جاء في الانجيل .

من البشائر بمحمد صلى الله عليه وسلم في الكتب السالفة :

١٧٨ ـ وجاء في كتاب أشعياء عليه السلام قوله : « عبدي الذي سرت به في نفسي أنزل عليه وحي ، فيظهر في الأمم عدلي ، ويوصيهم بالوصايا ، لا يضحك ، ولا يسمع صوته في الأسواق ، يفتح العيون العور ، والآذان الصم ، ويحي القلوب الغلف ، وما أعطيه لا أعطي أحدا مشقح (١) يحمد الله حمدا جديدا ، يأتي من أقصى الأرض تفرح البرية وسكانها ، يهللون الله على كل شرف ، ويكررونه على كل رابية ، لا يضعف ولا يغلب ، ولا يميل الى الهوى ، ولا يذل الصالحين الذين هم كالقصبة الضعيفة ، بل يقوي الصديقين ، وهو نور الله الذي لا يطفأ ، على كتفيه علامة النبوة » .

ويلاحظ على هذه البشارة أن الوصف فيها يكاد يكون عينيا ، لا في شريعته فقط بل في أخلاقه وسيرته عليه الصلاة والسلام ، فهو يذكر أعمال النبي عليه السلام ، وسجاياه ، كأنه رآها ، ثم يصف جسمه فيذكر علامة النبوة بين كتفيه ، وهو خاتم النبوة الذي ذكرناه آنفا .

ثم هو يذكر الاسم النبوي بما يقرب من البارقليط ، فهو يقول مشقح ، ومعناها محمد ، كما أن معنى البارقليط أحمد وكلاهما من أسمائه عليه الصلاة والسلام .

---

(١) المشقح فى بنية العبرانيين الحمد

وجاء في كتاب شمعون « جاء الله تعالى بالبينات من جبال فاران ، وامتلأت السموات والأرض من تسبيحه وتسبيح أمته » .

وهنا تعيين له بالمكان فجبال فاران هي جبال مكة ، ولم يكن بعد ابراهيم في مكة المكرمة وبين جبالها سوى محمد رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، وهو تعريف ليس بالاسم ولا بالوصف ،ولكن بتعريف المكان . « ما كان يروج بين العرب من أخبار نبي يرسل » .

١٧٩ ـ راجت في البلاد العربية ،وخصوصا حول مكة والمدينة أقـــوال تذكر أن نبيا يبعث في هذا الزمان ،وروج ذلك النصارى الذين كانوا منبثين في الجزيرة العـــربية ، ويقيم كثيرون منها في أطرافها ، وكانوا يتناقلونهـــا من الشام في رحلتهم اليها تجارا ، اذ يرون الرهبـــان منبثين في الأديرة ، ويلتقون بهم الفينة بعد الفينة .

واليهود في المدينة كانوا يذكرون ذلك متحـــدين به الـــوثنيين الـــذين يجاورونهم ، وكانوا يستفتحـــون به المشركين ، زاعمين أنه سينصره عليهم ، ويؤيد دينهم الذي يذكرون ذلك آخذيه من اشارات كتبهم ، التي كانت مفسرة عندهم ، حتى صارت علما توارثوه عن أسلافهم ، وهو في مطوى التركة التي أخذوها عنهم ، ومع أن اليهود عـرفوا بأنهم يكتمون ما أنزل الله تعالى عليهم، ليكون العلم حكرا عليهم ، ويمكنهم من أن يكذبوا على الناس مدعين أنهم أبناء الله تعالى وأحباؤه ، مع هذا يتناثر من أقوالهم ما يدل على أن نبيا من أبناء عمهم اسماعيل عليه السلام سيبعث .

واذا كانت الأثرة هي التي حملتهم على كتمان ما أنزل الله تعالى عن غيرهم، فالأثرة أيضا هي التي حملتهـــم عـــلى التحـدث بخبر النبي المنتظـر المكتوب عندهم في التوراة ، لأنهـــم كانوا في حـــرب مـــع الأوس والخزرج الذين يجاورونهم فكانوا يذكـرون أمر النبي لهم ، لا ليعلنوا الحقائق ، ولكن ليتغلبوا عليهم بما يسمى في عصرنا الحـــرب النفسية التي تقارن الحرب المـــادية ، لينالوا الفوز والغلب ، وليتم لهم التعالي عليهم،واعلان الاستهانة بهم ولانذارهم بأن المستقبل معهم ، وفي ذلك ابقـاء بالرعب .

وقد حكى القرآن عنهم ذكرهم لمن كانوا يجاورونهم أمر النبي المنتظر ، فقال تعالى :

﴿ وَكَانُواْ مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُواْ كَفَرُواْ بِهِۦ ۚ فَلَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿٨٩﴾ بِئْسَمَا ٱشْتَرَوْاْ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمْ أَن يَكْفُرُواْ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بَغْيًا أَن يُنَزِّلَ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ فَبَآءُو بِغَضَبٍ عَلَىٰ غَضَبٍ ۚ وَلِلْكَـٰفِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٩٠﴾ ﴾ (١)

ولقد كانت نجران مملوءة بالنصارى ، ويظهر أنهم لم يكونوا كنصارى أوربا في الماضى أو الحاضر ، بل كانت فيهم بقية من نصرانية المسيح ، ولقد كانوا بعد البعث المحمدي أقرب الى المسلمين من اليهود والمشركين ، فقد قال تعالى فيهم :

﴿ لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ ٱلنَّاسِ عَدَٰوَةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلْيَهُودَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُواْ ۖ وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّا نَصَـٰرَىٰ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٨٢﴾ وَإِذَا سَمِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ تَرَىٰٓ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُواْ مِنَ ٱلْحَقِّ ۖ يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّـٰهِدِينَ ﴿٨٣﴾ وَمَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَمَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْحَقِّ وَنَطْمَعُ أَن يُدْخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلصَّـٰلِحِينَ ﴿٨٤﴾ ﴾ (٢)

كان ينبعث من بين هؤلاء صوت قوي يخبر بأن نبيا قد آن أوانه ، والناس يعيشون في زمانه ، ويظهر أنهم كانوا من بقايا الموحدين الذين لم يثلثوا ، فانه على تعاقب الأزمان كان ثمة موحدون ، وان كانوا قرنا بعد قرن ، أن عبارات القرآن الكريم تنبيء عن ذلك في قصة النصارى الذين حكم سبحانه بأنهم أقرب الناس مودة للذين آمنوا بجوار العداوة المستحكمة التي أعلنها المشركون ، واليهود الذين كانوا أعداء للناس جميعا .

---

(١) البقرة (٢) المائدة

وانه ليروى التاريخ في أخباره المتضافرة ، والسيرة الطيبة الطاهرة ، أنه لما كان اضطهاد المشركين للمؤمنين عقب مجاهرة النبي عليه السلام بدعوة الحق كانت الهجرة الى الحبشة ، وقد لقي المسلمون ترحابا ، واكراما من ملكهم .

ولقد ثبت أن النجاشي ملكهم كان موحدا ، وأنه يرى في عيسى ابن مريم وأمه ، ما نص عليه القرآن الكريم : « وأنهما لم يكونا الهين من دون الله ».

الحائر يرجع إلى الحق :

١٨٠ – ولقد سرت فكرة التنبؤ برسول قريب زمانه الى قريش وما حول مكة ، ولقد وجد أربعة من قريش أنكروا تأثير الأوثان بالنفع والضرر ، واستنكروا عبادتها وثبت أن هؤلاء الأربعة ، منهم ورقة بن نوفل وعبد الله بن جحش ، وعثمان بن الحويرث ، وزيد بن عمرو بن نوفل .

وقد خلصوا نجيا من عبادة الأوثان ، وقد قال بعضهم لبعض : « تعلموا والله ، ما قومكم على شيء لقد أخطئوا دين ابراهيم ، ما حجر نطيف به ، لا يسمع ولا يبصر ، ولا يضر ولا ينفع ، يا قوم التمسوا لأنفسكم دينا ، فانكم والله ما أنتم على شيء .

وقد دخل المسيحية اثنان منهم هما ورقة بن نوفل ، وعثمان بن الحويرث وقد قصد الى قيصر فتنصر ، وكانت له منزلة حسنة عنده .

وأما عبد الله بن جحش ، فقد بقي محيرا ملتبسا عليه ، حتى جاء الاسلام .

وزيد بن عمرو بن نقيل برم بمكة وأهلها ، وأخذ يتنقل في بلاد العرب متعرفا دين ابراهيم ، وأخيرا أخذ ينتظر النبي كما أخبره بعض النصارى ، وفي سيرة ابن هشام ما نصه :

خرج (أي زيد بن عمرو) يطلب دين ابراهيم عليه السلام ، ويسأل الرهبان والأحبار حتى بلغ الموصل والجزيرة كلها ، ثم أقبل فجال الشام كله ، حتى انتهى الى راهب بميفعة من أرض البلقاء (١) كان ينتهي اليه علم أهل النصرانية فيما يزعمون ، فسأل عن الحنيفية ، دين ابراهيم ، فقال انك

---

(١) الميفعة المرتفع من الأرض ، والبلقاء كورة بجوار دمشق

لتطلب دينا ما أنت بواجد من يحملك عليه اليوم ، ولكن قد أظل زمان نبي يخرج من بلادك التي خرجت منها يبعث بدين ابراهيم الحنيفية ، فالحق بها ، فانه مبعوث الآن ، هذا زمانه ، وقد كان شام اليهودية والنصرانية ، فلم يرض شيئا منهما ، فخرج سريعا حين قال له الراهب ما قال يريد مكة ، حتى اذا توسط بلاد لخم عدوا عليه فقتلوه .

وقد رثاه رفيقه ورقة بن نوفل (١) بقصيدة جاء فيها :

رشدت وأنعمت ابن عمرو انما — تجنبت تنورا من النار حاميا
يدنيك ربا ليس ربا كمثله — وتركك أوثان الطواغي كما هيا
وادراكك الدين طلبت — ولم تك عن توحيد ربك ساهيا
فأصبحت في دار كريم مقامها — تعلل فيها بالكرامة لاهيا

هذا بعض رثاء ورقة بن نوفل في القصيدة المنسوبة اليه في أصح الروايات وهي تدل على أن ورقة وصاحبه كانا مع انكارهما للوثنية يؤمنان بالبعث ويوم القيامة .

علم ورقة بن نوفل عن رسول الله صلى الله عليه وسلم :

١٨١ ـ وان ورقة بعد أن دخل في النصرانية ، وعلم علمها ، وأسرار كتبها ، ودرس الأديان ، ووازن بين حقائقها كان يعرف أن الزمان الذي كان يعيش فيه هو زمن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، بل انه حكم بأن محمدا هو النبي المنتظر ، واستبطأ ظهوره .

وقد روى في ذلك ابن اسحاق أن خديجة بنت خويلد ذكرت لورقة بن نوفل الذي كان نصرانيا وكان قد تتبع الكتب ، وعلم من علم الناس ما ذكر لها غلامها ميسرة من قول الراهب نسطور الذى ذكر أن أوصاف النبي عليه السلام تبين أنه النبي المنتظر ،فقال لها ورقة لئن كان هذا حقا يا خديجة ان محمدا لنبي هذه الأمة ،قد عرفت أنه كان لهذه الأمة نبي ينتظر هذا زمانه ، فجعل ورقة يستبطيء الأمر ، ويقول : حتى متى .

---

(١) سيرة ابن هشام جـ ١ ص ٢٣٢ .

وقد قال في ذلك قصيدة جاء فيها :

لججت وكنت في الذكرى لجوجا ... لهم طالما ما بعث النشيجا
ووصف من خديجة بعد وصف ... فقد طال انتظاري يا خديجا
ببطن المكتين على رجائي ... حديثك أن أرى منه خروجا
ويظهر في البلاد ضياء نور ... يقيم به البرية أن تموجا
فيلقى من يحاربه خسارا ... ويلقى من يسالمه فلوجا
فياليتنى اذا ما كان ذاكم ... شهدت وكنت أولهم ولوجا (١)

هذا كلام ورقة عندما خبرته ابنة عمه خديجة عن حال محمد بن عبد الله صلى الله تعالى عليه وسلم، وكان ذلك عقب أخبار ميسرة غلامها عندما صاحبه في رحلته الى الشام في التجارة في مال خديجة ، وكان ذلك قبل أن يتم الزواج بينهما ، بل كان والزواج يساور فكرتها ، ولم يمتد الى تفكيره هو الا من بعد ذلك .

علم النبوة عند سلمان الفارسي :

١٨٢ ـ وان ما تضافرت الصحاح عليه في قصة اسلام سلمان الفارسي ، وكيف علم بأمر بعث النبي عليه السلام قبل أن يلقاه ، وكان أن لقيه لا غاية له الا أن يعرفه بالأوصاف التي ذكرت له قبل أن يلقاه ، بل قبل أن يبعث صلى الله تعالى عليه وسلم ، وخلاصة القصة كما جاءت في الصحاح أن سلمان رضي الله تبارك وتعالى عنه كان فارسيا من أهالي أصبهان ، وكان أبوه دهقان القرية ، وكان أثيرا عند أبيه حريصا عليه ، وقد درس المجوسية حتى كان خادم نارها الذي يوقدها ، ولا يتركها، وكان أبوه ذا ضيعة عظيمة .. ويقول رضي الله عنه : « فخرجت أريد ضيعته التي بعثني اليها ، فمررت بكنيسة من كنائس النصارى ، فسمعت أصواتهم فيها وهم يصلون ، وكنت لا أدرى ما أمر الناس ، فلما سمعت أصواتهم دخلت عليهم أنظر ماذا يصنعون ، فلما رأيتهم أعجبتني صلاتهم ، ورغبت في أمرهم، وقلت هذا والله خير من الدين الذي نحن فيه ، فوالله ما برحتهم حتى غربت الشمس ، وتركت ضيعة أبي فلم ،

---

(١) البداية والنهاية جـ ٢ ص ٢٩٦ ، ٢٩٧

أذهب اليها ثم قلت لهم أين أصل هذاالدين ؟ قالوا بالشام ، فرجعت الى أبي وقد بعث في طلبي ، وشغلته عن عمله كله ، فلما جئته قال أي بني أين كنت فقلت له يا أبت مررت بأناس يصلون في كنيسة لهم ، فأعجبني ما رأيت من دينهم فوالله مازلت عندهم حتى غربت الشمس • قال • يا بني ، ليس في ذلك الدين خير ، ودينك ودين آبائك خير منه ، قلت له كلا والله انه لخير من ديننا • قال فخافني فجعل في رجلي قيدا • ثم حبسني في بيته ، ويظهر أن سلمان استطاع أن يخلص نجيا من قيده، فقد قال : « بعثت الى النصارى ، فقلت لهم اذا قدم عليكم ركب من الشام تجار من النصارى فأخبروني بهم اذا قضوا حوائجهم ،وأرادوا الرجعة الى بلادهم فآذنوني بهم ، فلما أرادوا الرجعة ألقيت الحديد من رجلي ، ثم خرجت معهم ، حتى قدمت الشام ، فلما قدمتها قلت من أفضل أهل الدين علماً ؟ قالوا الأسقف في الكنيسة • فجئت اليه فقلت له اني قدرغبت في هذا الدين فأحببت أن أكون معك ، أخدمك في كنيستك وأتعلم منك وأصلي معك فدخلت ويذكر سلمان أنه كان رجل سوء يأمر بالصدقة ويرغب فيها ، ثم يكتنز ما يجمعه لنفسه ولا يعطيه المساكين ، حتى جمع سبع قلال من الذهب ، وأنه يبغضه بغضا شديدا لصنعه ، ولما مات واجتمع النصارى ليدفنوه ذكر لهم سلمان ما صنع ،ودلهم على مكان كنزه ، فصلبوه ، ورموه بالحجارة •

انتقل من بعد ذلك سلمان الى خدمة أسقف صالح ، كان يدأب على العبادة ليلا ونهارا ، فأقام معه زمنا طويلا ، ولما حضرته الوفاة استوصاه سلمان وقال له : « الى من توصي بي ، وبم تأمرني ؟قال بني والله ما أعلم أحدا على ما كنت عليه فقد هلك الناس وبدلوا ، وتركوا أكثر ما كانوا عليه الا رجلا بالموصل فالحق به •

لحق سلمان بصاحبه بالموصل ، فوجده على خير عظيم ، ولما حضرته الوفاة قال له :« الى من توصي بي وبم تأمرني: قال : يا بني والله ما أعلم رجلا على ما كنا عليه الا رجلا بنصيبين » (١) •

---

(١) مدينة فى طريق القوافل من الموصل الى الشام

ولما ذهب الى رجل نصيبين وحضرته الوفاة دله على رجل بعمورية سافر اليه، ووجده خير رجل وأقام عنده خير اقامة، واتجه الى الاكتساب فاكتسب بقرات وغنما ، ولما حضرته الوفاة قال له بمن توصي بي وبم تأمرني • « فقال أي بني ، والله ما أعلم أحدا أصلح على مثل ما كنا عليه من الناس آمرك أن تأمنه ولكنه أظل زمان نبي ، وهو مبعوث بدين ابراهيم عليه السلام ، يخرج بأرض العرب ، مهاجر الى أرض بين حرتين (١) بينهما نخل به علامات لا تخفى يأكل الهدية ، ولا يأكل الصدقة ، وبين كتفيه خاتم النبوة ، فان استطعت أن تلحق به بتلك البلاد فافعل»

وقد شد سلمان رحيله الى وادي القرى ، ثم الى المدينة ، اذ مر به نفر من تجار كلب ، فقال لهم احملوني الى أرض العرب ، وأعطيكم بقراتي وغنيمتي هذه ، فرضوا بهذه الصفقة ،ولكنهم مكروا به وغدروا فما ان بلغوا به وادي القرى حتى ظلموه ، وباعوه على أنه عبد من رجل يهودي ، ولكنه أسلم نفسه لربه الذي طوف في الآفاق يبتغي الدين الحق الذي يريد أن يعبد الله تعالى على مقتضى شريعته ، وترك العيش الواقع في ظل أبيه ، وسار في المهامه والقفار طالبا الهداية •

رأى النخلات التى وصفها له أسقف عمورية ، وفرح اذ بيع من اليهودي الذي اشتراه الى عم له من بني قريظة ،فحمله الى المدينة •

وفي هذه الأثناء حيث كان يقيم هو بالمدينة كان محمد بن عبد الله صلى الله تعالى عليه وسلم قد بعثه الله تعالى نبيا ، وما كان يعلم سلمان رضي الله تعالى عنه من أمر ذلك شيئا ، لأنه شغله الرق عن أن يتتبع أخبار من بشرت به الكتب ، ونقله الأساقفة ، وتحدث به الرهبان •

وقد هاجر محمد بن عبد الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، وبينا هو في رأس عذق (٢) لمالكه يعمل به بعض العمل ، اذ أقبل ابن عم لهذا المالك ، فوقف عليه يسب أهل المدينة من الأوس والخزرج ، ويقول : « والله انهم الآن لمجتمعون بقباء على رجل قدم عليهم من مكة اليوم ، يزعمون أنه نبي » (٣) •

---

(١) الحرة أرض ذات حجارة سود من أثر احتراق بركاني
(٢) العذق هو النخلة (٣) سيرة ابن هشام جـ ١ ص ٢١٩

ويستمر سلمان في قصته ، فيذكر أنه أصابته رعدة حماسة للذهاب الى قباء حيث سمع أن المجتمعين بقباء فيهم من يقول انه نبي ، وقد بين له أسقف عمورية أن مهاجر النبي المنتظر سيكون بهذه الأرض ، فأخذ الأهبة ، وذهب الى قباء ومعه مال قليل وهنا يلتقي العيان بالخبر ، لقد أخبر في غيبة محمد بن عبد الله عليه السلام أنه نبي وسلك الفيافي والقفار ليلقاه وهو يعلم بنبئه ، وجرى الحديث بينهما يختبر به حاله ، لقد رأى المكان ، كما أخبر الاسقف ، ولم يبق الا أن يختبر، لقد قيل انه يقبل الهدية ولا يقبل الصدقة ، وان بين كتفيه خاتما ٠

عند اللقاء قال سلمان : « انه قد بلغني أنك رجل صالح ، ومعك أصحاب لك غرباء ذوو حاجة ، وهذا شيء كان عندي للصدقة ، فرأيتكم أحق بها من غيركم » ٠

لم يأكل منها النبي صلى الله عليه وسلم ، وقال لأصحابه كلوا وأمسك يده « وبهذا تبين الوصف الذي علمه من قبل ، وقال سلمان في نفسه : هذه واحدة » فأراد أن يختبر أيقبل الهدية ليتكامل الوصف ٠

جمع شيئا مما يهدى ، وتحول الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فى المدينة ، وجاءه ، وقال له : « اني قد رأيتك لا تأكل الصدقة ، وهذه هدية أكرمتك بها » فأكل منها رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، وأكل معه أصحابه ٠

قال سلمان في نفسه هذه الثانية :

وسلمان علم من وصف أسقف عمورية ، أن بين كتفي رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم خاتم النبوة ، فأراد أن يعرفه ولم يبق الا ذلك ليستوثق من تحقق الخبر من الخبر ٠

يقول رضي الله عنه : « سلمت عليه (أي على الرسول صلى الله تعالى عليه وسلم) ثم استدرت أنظر الى ظهره ، هل أرى الخاتم الذى وصف لي صاحبي، فلما رآني رسول الله عليه السلام استدبرته عرف أني أستثبت من شيء، وصف لي ، فألقى رداءه عن ظهره ٠ فنظرت الى الخاتم فعرفته فأقبلت عليه

أقبله ، وأبكي ، فقال رسول الله صلى تعالى عليه وسلم : تحول ، فتحولت ، فجلست بين يديه » (١) ٠

كان سلمان في الرق ، فشغله عن أن يلازم النبي عليه السلام ، حتى انه لم يستطع أن يحضر غزوة بدر ، وأشار عليه النبي من بعد بأن يعقد عقد مكاتبة مع مالك رقبته ، أي يتعهد له بمال أو منفعة يقدمها في نظير عتقه ، ففعل ، وعاونه الصحابة في تنفيذ عقده ، وصار من بعد حرا ٠

١٨٣ ــ سقنا ذلك الخبر بعد اختصاره ، وهو مع الاختصار طويل ، سقناه لأمرين :

أولهما ــ كيف يرضى طالب الحق بالتعب في سبيل طلبه ، هذا شاب صغير يكاد يكون غلاما ، يعيش في ظل أبيه في عيش رافغ ، وهناءة من الرزق يرى كنيسة فيها عباد لا يعبدون النار الذى كان سادنا لها ، فتستهويه عبادتهم ، فيتقدم لأبيه برغبته في أن يكون نصرانياً فيكبله أبوه بالحديد ، فلا ينثني ، ويجتهد في أن يفك أغلاله ،ويلحق بهم فيكون له ما يريد ، ثم يحمل نفسه عناء الانتقال من اقليم الى اقليم حتى يصل الى الحق الذي يريده ويصاب بالرق فيصبر ، ولا ينثني عن غايته ، ويقبل أن يعيش مظلوما في قيد الرق صابرا محتسبا ، حتى يصل الى غايته ، وهو التقاؤه بمن يطلبه حتى وجده ، وكان العون من الله في فك رقبته ، انه العابد الصابر حقا ، من يوم فك قيود أبيه ، فقد فك معها قيود عقله ، ونفسه ، وصار ديانا لله سبحانه وتعالى ، لا يبغي الا رضاه ، واذا كان غادر أباه فقد انتهى الى حضن رسول الحق ، فأحتضنه هو ، وقال عليه السلام : سلمان منا آل البيت ٠

الامر الثانى : وهو الجوهري في القضية أن أمر نبي منتظر كان معروفا بين العرب في عصر النبي عليه السلام، وهو المقصد الأصلي من سوق القصة مع طولها ، فالعرب كانت أسباب العلم برسالة النبي معلومة عندهم علمها طلابها ، والذين صفت نفوسهم وجهلها الأكثرون لعدم الاتجاه الى تعرفها ،ولم يكن عندهم الاتجاه الدينى ليعرفوا مالم يعرفوا من شئون الدين في قابل

---

(١) الكتاب المذكور ص ٢٢٠

حياتهم ، حتى جاءهم البشير النذير يقرع بالحجة القاطعة مسامعهم ، ليكون من بعد ذلك العقاب أو الثواب ،

﴿ وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ ﴾ (١)

يهود تخبر عن النبي صلى الله عليه وسلم :

١٨٤ ـ قد ذكرنا فيما مضى اشارة الى أن اليهود كانوا يستفتحون على الذين كفروا من الوثنيين بنبي مرسل يكون لهم ، ويكون على الوثنيين ، ينصر اليهود ، ذكرنا بالاشارة ، ولكن في هذا المقام لا تغني الاشارة عن العبارة ، فلا بد من أن نذكر بعض الايضاح ليتبين الباحثون من معرفة أن العصر كانت فيه البيانات الكافية التي تبين أن رسولا من قبل الله تعالى وشيك أن يظهره الله تعالى بينهم مصحوبا بحجته ، مبينا بآياته ودعوته ٠

ولم يكن ذكر النبي عليه السلام لمن عاصروه من الأوس والخزرج فقط، بل كان من قبل أن تقع الحروب بين اليهود وبينهم ٠

فقد ثبت في التاريخ أن تبعا أبا كريب اليمني جاء الى يثرب وأحنقه أن بعض أهلها قتل رجلا من رجاله ، فقاتلهم وبينا تبع على ذلك من قتالهم اذ جاءه حبران من أحبار اليهود من بني قريظة ، وهما عالمان بأصول الديانة اليهودية ومصادرها ، والمخبوء من وثائقها ، وقالوا له :

« أيها الملك لا تفعل ، فانك ان أبيت الا ما تريد ، حيل بينك وبينها ، ولم تأمن عليك العقوبة » فقال لهما : ولم ذلك : قالا : « هي مهاجر نبي يخرج من هذا الحرم من قريش تكون داره وقراره » (٢) ٠

ولقد كانت أخبار اليهود بنبي يجيء يشيع في يثرب ، وينتقل الى أهلها طبقة بعد طبقة ، وكان من أسباب مسارعة الأنصار للاستجابة للنبي عليه الصلاة والسلام ، وكان لهم بذلك علم بالكتاب أتى اليهم من اليهود ، وقد ذكر قتادة عن رجال قومه ، والسبب في مسارعتهم الى اجابة النبي عليه السلام الى النصرة والايمان فقال :

---

(١) فاطر

(٢) البداية والنهاية جـ ٢ ص ١٦٤

« ان مما دعانا الى الاسلام مع رحمة الله ، وهداه لنا لما كنا نسمع عن رجال يهود ، وكنا أهل شرك وأوثان،وما كان عندهم ليس لنا ، وكانت لا تزال بيننا وبينهم شرور ، فاذا نلنا منهم بعض ما يكرهون ، قالوا لنا انه قد تقارب زمان نبي يبعث الآن نقاتلكم معه قتل عاد وارم ، فكنا كثيرا ما نسمع ذلك منهم ، فلما بعث الله رسوله صلى الله تعالى عليه وسلم أجبناه حين دعانا الى الله تعالى ، وعرفنا مما كانوا يتوعدوننا به ، فبادرناهم اليه ، فآمنا به وكفروا » (١) .

ولم يكن اليهود يذكرون خبر النبي عليه السلام مقتصرين على الخبر ، بل يذكر مع ذلك الايمان باليوم الآخر ،والجزاء بالنعيم المقيم ، أو بالجحيم ، ويظهر أنهم لم يكونوا من الذين ينكرون البعث ، ففيهم من يصدقه ، ومنهم من يكفر به .

ولقد ذكر ذلك بعض من الأنصار ،وهو سلمة بن سلام ، فقال :

كان لنا جار من يهود بني عبد الأشهل ، فخرج علينا من بيته ، حتى وقف على بني عبد الأشهل ، فذكر القيامة والبعث والحساب والميزان .والجنة والنار ، فقالوا له ويحك ، أو ترى هذا كائنا : أن الناس يبعثون بعد موتهم الى دار فيها جنة ونار ، يجزون فيها بأعمالهم !! قال نعم ، والذي يحلف به فقالوا له : ويحك ، فما آية ذلك ! قال نبي مبعوث نحو هذه البلاد ، وأشار بيده الى مكة واليمن ، فقالوا ومتى نراه قال سلمة فنظر الي وأنا من أحدثهم سنا فقال : « ان يستنفد هذا الغلام عمره يدركه » .

قال سلمة : « فوالله ما ذهب الليل والنهار ، حتى بعث الله محمدا رسول الله وهو حي بين أظهرنا ، فآمنا به وكفروا به بغيا وحسدا » .

ولقد عرف بعض اليهود وصف ،لنبي عليه السلام وفيه انه يسبق حلمه جهله ، فهو لا يحمق .

ولقد روي عن عبد الله بن سلام الصحابي أنه قال : لما أراد الله تعالى هدى زيد بن سمية ، قال لم يبق شيء من علامات النبوة الا عرفتها في وجهه

(١) سيرة ابن هشام جـ ١ ص ٢١١

صلى الله تعالى عليه وسلم حين نظرت اليه الا اثنتين ، لم أخبرهما منه ،يسبق حلمه جهله ، ولا تزيد شدة الجهل عليه الا حلما ، فكنت أتلطف له ،لأن أخالطه، فأعرف حلمه وجهله ، فذكر قصة اسلافه النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ما لا في ثمرة • قال فلما حل الأجل أتيته ، فأخذت بمجامع قميصه وردائه، وهو في جنازة مع أصحابه ، ونظرت اليه بوجه غليظ ، وقلت يا محمد :ألا تقضيني حقي ، فوالله علمتكم يا بني عبد المطلب لمطل ، فنظر الى عمر،وعيناه تدوران في وجهه كالفلك المستدير ،ثم قال : يا عدو الله أتقول لرسول الله عليه السلام ما أسمع ، وتفعل ما أرى،فوالذي بعثه بالحق لولا ما أحاذر لومه لضربت بسيفي رأسك ، ورسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ينظر الى عمر في سكون وتؤدة ، وتبسم ثم قال أنا وهو كنا أحوج الى غير هذا منك ياعمر: أن تأمرني بحسن الأداء ، وتأمره بحسن اتباعه ، اذهب به يا عمر ، فاقضه حقه وزد عشرين صاعا من تمر ، فأسلم » •

تواتر الأدلة برسالة محمد صلى الله عليه وسلم :

١٨٥ ــ هذه نقول تاريخية ثابتة تبين أن العصر الذى بعث فيه عليه السلام كان عصرا يدور فيه حول نبي يرسل ، وقد كان لهذا الكلام مصدران :

أولهما ــ ما كان يحاوله الذين أرادوا احياء دين ابراهيم عليه السلام ، فقد كان بعض من أهل مكة يؤمنون بضرورة احياء ملة ابراهيم الحنيفية السمحة ، وقد وجدوا بفطرتهم أن الله لا يدع ذرية ابراهيم بورا لا هادي يهديهم ، ولا مرشد يرشدهم ، وقد رأيت من خرجوا على أقوامهم ،واطمأن بعضهم الى النصرانية فدخلوها ،وبعضهم أخذ يطوف في الأرض حيث يبحث عن عقائد سليمة لا تدخلها الوثنية،ومات شهيدا في طلب الحقيقة، وذكر محمد من بعد بعثته أن الله تعالى سيبعثه أمة وحده ، فرضي الله تعالى عنه •

ثانيهما ــ الكتب السابقة ، وأقوال الأحبار والرهبان ، وعلماء الأخبار من اليهود والنصارى ، فبحيرا الراهب كان قد لقي محمدا غلاما ، وطبق الأوصاف التي لديه ، ونسطورا الراهب قد لقيه وهو شاب ، وكانت أخبار اللقاءين تذيع وتشيع عند العرب ، وفوق ذلك كان نصارى نجران وغيرهم يذكرون الناس ترقبهم لنبي منتظر ، كانت أوصافه لديهم وكان أكثر ذكرا ،

لا لأنهم يريدون اعـــلان حقيقة ، أو ابتغاء هداية ، بل شفاء غيظهم ،واطفاء نار حقدهم أو التمادي فيه ، فقد كانوا يعلنون ذلك عندما تحز في أجسامهـــم سيوف الوثنيين ، فيذكـــرون خبره ،ويقـــولون سنقتلكم معــه ، كما قتل عاد وارم ٠

بهذا انتشر خبر مجيء النبي عليه السلام ، وتوقع المفكرون مجيئه وأن زمانه قد كان ، فجاء مصدقا لما بين يديه من الكتب التي لم تحرف ، ورحمـــة للعالمين ، وهاديا للحق ، ونصيرا له ،وقد أيده الله تعالى بالحجة الباهـرة ٠

مـاجاء من أخبار الكهّـان :

١٨٦ ـ تذكر كتب السيرة أن الكهان قد بشروا بالنبي صلى الله تعالى ، عليه وسلم وقد كان في نيتنا أن نعرض عن ذلك الكلام ، لأنه فتح لبـــاب الأوهام في ســـيرة سيد الأنام ، نبي الحق والعقل وبعث المـــدارك نحـــو الحقيقة ، من غير أن يسيطر عليها وهم ، أو يتغلغل فيها خرافة ليست قائمـة على حكم العقل ، أو الخبر الصـــادق المنقول بأسناد صحيحة ٠

ولأن هذه الأخبار عن الكهان ليست ثابتة بسند صحيح يطمأن اليه ، ولأنه لم يثبت أن النبي عليه السـلام قبل البعثة كان يلجأ الى الكهان ، أو يطمئن الى أقوالهم ، ولأنه اذا كان الكهان قد قالوا شيئا في البشارة بالنبي صلى الله تعالى عليه وسلم وكانت صادقة ، فان ذلك قد يكونون علمـوه من الـــكتب السابقة أو أصحابها ، وقد كانوا قبل البعثة علماء العرب ، وربمـا يكونون قد أخذوا يبثون ما عندهم في شـكل الكهانة ، وفي سجع الكهان الذى نهى عنه النبي صلى الله تعالى عليه وسـلم بعد بعثته ٠

كنا نوبنا ترك الكلام في الكهـانة، لأن الضرر في ذكرها أكبر من نفعها٠

ولكنا حملنا على الكتابة فيها ٠٠ أولا ـ لأن بعض كتـاب الســيرة من المحدثين تعرضوا لها مصدقين ، وأن المستشرقين قد اتخـذوها ذريعة لربط الدعوة المحمدية بالكهان ، والربط بين القرآن المنزل رحمة للعالمين وسجعهـم ، ولأن بعض الكاتبين توهم تبعا لهم أن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم كـان يديم السماع للكهان قبل البعثة فوجب التصدي ٠

١٨٧ ـ ونبتدىء من الكلام في أخبار الكهان بخبر نسب الى سيف بن ذى يزن الحميري ، وقيل انه من هواتف الجان فقد جاء في كتاب هواتف الجان ، واليها تنسب كهانة الكهان ،جاء في هذا الكتاب ما نصه بعد أن التقى بعبد المطلب : « أيهم المتكلم ؟ قال أنا عبد المطلب بن هاشم (١) ؟ قال نعم : قال ادنُ مني ، فأدناه ثم أقبل عليه وعلى القوم : قال « مرحبا وأهلا ، وناقة ورحلا ، ومستناما سهلا ، وملكا مرتجلا » يعطي عطاء جزلا قد سمع الملك مقالتكم ، وعرف قرابتكم ، قبل وسيلتكم ، فأنتم أهل الليل والنهار ، ولكم الكرامة ما أقمتم ، والحباء اذا ظعنتم » .

بعد هذا مكثوا شهرا لا يصلون اليه ، ولا يأذن لهم بالانصراف ، ثم انتبه انتباهه ، فأرسل الى عبد المطلب فأدنى مجلسه وأخلاه ثم قال : « يا عبد الله اني مفض اليك من سر علي ما لو يكون غيرك لم أبح به ، ولكني رأيتك معدنه، فأطلعتك طليعه ، فليكن عندك مطويا ،حتى يأذن الله تعالى فيه ، فان الله تعالى بالغ أمره اني أجد في الكتاب المكنون،والعلم المخزون الذي اخترناه لأنفسنا، واحتجناه ، دون غيرنا خبرا عظيما ،وخطرا جسيما ، فيه شرف الحياة ، وفضيلة الوفاة للناس عامة ، ورهطك كافة ولك خاصة » .

فقال عبد المطلب مثلك سروبر ،فما هو فداؤك أهل الوبر زمرا بعد زمر .

قال سيف بن ذي يزن ساجعا سجع الكهان : « اذا ولد بتهامة غلام به علامة بين كتفيه شامه ، كانت له الامامة وله به الزعامة الى يوم القيامة » .

قال عبد المطلب ـ أبيت اللعن ـ لقد أتيت بخير ما آب به وافد ، ولولا هيبة الملك واجلاله واعظامه لسألته من بشارته اياي ما ازداد به سرورا .

قال ابن ذي يزن : هذا حينه الذي يولد فيه ، أو قد ولد اسمه محمد ، يموت أبوه وأمه ، ويكفله جده وعمه ،وقد تاه مرارا ، والله باعثه جهارا ، وجاعل منا أنصارا يعزيهم أولياءه ،ويذل بهم أعداءه ، ويضرب بهم الناس من عرض ، ويستبح بهم كرائم الأرض ، يكسر الأوثان ويخمد النيران ،

---

(١) لأن أم عبد المطلب من بن النجار وأصلهم من اليمن ـ المرتجل كثير العطاء .

يعبد الرحمن ، ويدحر الشيطان ، قوله فصل ، وحكمه عدل ، يأمر بالمعروف ويفعله ، وينهى عن المنكر ويبطله ·

قال عبد المطلب عز جدك وعلا كعبك ، ودام ملكك ، وطال عمرك ، فهذا بخاري ، فهل الملك سار لي بافصاح ، فقد أوضح لي بعض الايضاح ·

قال ابن ذي يزن والبيت ذي الحجب، والعلامات على النقب ، انك يا عبد المطلب لجده غير كذب ·

فخر عبد المطلب ساجدا ، فقال ارفع رأسك ثلج صدرك ، وعلا أمرك ، فهل أحسست شيئا مما ذكرت لك ·

قال عبد المطلب : كان لي ابن ، وكنت به معجبا ، وعليه رفيقا ،فزوجته كريمة من كرائم قومه ، آمنة بنت وهب ·

فجاءت بغلام سميته محمدا ، فمات أبوه وأمه ، وكفلته أنا وعمه ·

قال ابن ذي يزن : « ان الذي قلت لك كما قلت ، فاحتفظ بابنك ، واحذر عليه اليهود ، فانهم له أعداء ،ولن يجعل الله لهم عليه سبيلا ، واطو ما ذكرت لك دون هؤلاء الرهط الذين معك ، فاني لست آمن أن تدخل عليهم النفاسة من أن تكون لكم الرياسة ،فيطلبون الغوائل ، وينصبون له الحبائل ، فهم فاعلون أو أبناؤهم ، ولولا أني أعلم أن الموت مجتاحي قبل مبعثه ، لسرت بخيلي ورجلي ، حتى أصير بيثرب دار مملكته ، فاني أجد في الكتاب الناطق ، والعلم السابق أن يثرب استحكام أمره ، وأهل نصرته ، وموضع قبره ، ولولا أني أقيه الآفات ، وأحذر عليه العاهات لأعلنت على حداثة سنه أمره ، ولأوطأت أسنان العرب عقبه ، ولكني صارف ذلك اليك عن غير تقصير لمن معك » (١) ·

تحقيق البشارة برسول الإسلام صلى الله عليه وسلم :

١٨٨ ـ هذا كتاب ما فيه بلا ريب حق من حيث البشارة بالنبي صلى الله تعالى عليه وسلم ولعله ان صدقت النسبة الى سيف بن ذي يزن يكون مصدره ما وصل اليه من علم ، فقد كان نصرانيا متعرفا ، ولم يكن وثنيا

(١) البداية والنهاية لابن كثير ج ٢ ص ٣٣٠

أميا ولا يمكننا أن نقول ان ابن ذي يزن من الكهان ، وان وجد الموضوع في كتاب هواتف الجان ، ويقال ان الكهان كانوا يخاطبون بهواتف الجان ، ونقول ان فيه سجع الكهان ، وان لم يستغرقه ، بل كان فيه بعضه ، ولعل هذا من صنيع الكهان ، وقد أرادوا أن يجعلوه من الكهان بعبارات السجع فيه أولا ، وجعله في كتاب هواتف الجان ثانيا •

وفي الواقع ان الحديث كما ذكر ممن له علم بالكتاب وكان مستفيضا مشهورا •

ومن ذلك ما روي بالأسانيد الصحيحة عن بعض المضريين قال :

شارفنا الشام ، ونزلنا على غدير به شجرات ، فسمع كلامنا راهب ، فأشرف علينا فقال : « ان هذه لغة ما هي بلغة هذه البلاد ، فقلنا نعم : نحن قوم من مضر ، قال من أي مضر ؟ قلنا من خندف • قال أما انه سيبعث وشيكا نبي خاتم النبيين فسارعوا اليه ، وخذوا بحظكم منه ترشدوا ، فقلنا ما اسمه ؟ قال اسمه محمد (١) » •

وانه بلا ريب نرى هذا الخبر الذي سقناه يتلاقى مع خبر ابن ذي يزن ، بيد انه لا سجع فيه ، ولا ينسب الى هواتف الجان بل ينسب لراهب من الرهبان نسبه الى ما عندهم من كتب ، لا الى هواتف من الجان •

جاء الحق وزهق الباطل :

١٨٩ ـ فنحن اذا وجدنا في عبارات الكهان ما يومىء الى ذكر النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، فليس ذلك من هواتف الجان ، أو من علم الكهان وليس مصدره الكهانة ، ولكنهم علموه مما يجري على ألسنة الرهبان ، وما تنطق به كتبهم ؟ « وما عرف من علم » •

ومن ذلك مثلا قول سطيح الكاهن : « اذا كثرت التلاوة ، وغاضت بحيرة ساوة ، وجاء صاحب الهراوة » مع غيره •

وقال ابن كثير انه يعني النبي عليه السلام ، ونرى أولا ـ أن النبي ما جاء بالهراوة بل جاء يرد اعتداء الباطل على الحق بالسيف لا بالهراوة ، وثانيا ـ

(١) الكتاب المذكور ص ٣٣١

أنه على فرض أن المراد النبي عليه السلام فذلك مما شاع بين العرب من أنه سيكون نبي منتظر ، وأن أهل الكتاب يذكرونه بينهم خاصة ، ويعلنونه عند الاقتضاء للعامة ؟ سواء في ذلك اليهود والنصارى وان كان اعلان النصر أوضح وأبين ، واليهود يعلنونه عند الشديدة تنزل بهم في حروبهم مع الوثنيين ، يعلنون مجيء النبي عليه السلام كما جاء في كتبهم تثبيتا لأنفسهم وتخذيلا لخصومهم وتعلقا بالرجاء ، وتشفيا من الأعداء بالمستقبل فكان السبق لأعدائهم ، والتخلف ، لهم فكان به المآل لغيرهم والحال عليهم ، وهم الأخسرون دائما ان شاء الله .

موطنه صلى الله عليه وسلم مكة الأمية :

١٩٠ ــ ان محمدا عليه السلام كان يعيش في مكة وهي مدينة أمية لا تقرأ كتابا ، ولا تتدارس علما ،وكان كأهلها ، لا يجلس الى درس ولا الى معلم ، واذا كان بعض أهله يعلم القراءة والكتابة ، فما كان محمد يعلمها ، وما يمتاز به على أهل مكة هو خلقه وقوة ادراكه وابتعاده عن عبادة الأوثان واستنكارها ، وكراهية الأوثان والحلف بها ، من غير أن يكاره قومه ، ويعلن بغضهم ، بل ما كان يبغض غير قومه ،بل كان الودود الألوف ، وان كان لا يسايرهم فيما يفعلون ، بل كان ينكر ويستنكر ، ولا يلاحي ولا يغاضب ، ولا ينافر .

وان أقصى ما كان يريد معرفته من الديانات هو ديانة ابراهيم ، لأن آثاره قائمة بينة ، وبعض الديانة كان يتبع مع انحراف في بعضها ، وهو الحج ، وكانوا يتفاخرون بانتسابهم الى ابراهيم ، وهو يعلم أنه جدهم ونبي مرسل، ويريد محمد مع تركه الأوثان أن يعرف ما كان يأمر به ابراهيم عن ربه ، وقد علم هو أنه الواحد الأحد الفرد الصمد الذي ليس بوالد ، ولا ولد .

أما غيره من الأنبياء كموسى وعيسى وداوود وسليمان ، وخصوصا ما كان من دقائق علمهم كالنص على رسول يجيء من بعد موسى وعيسى ، وكونه من جبال فاران أي جبال مكة ، كما تعبر كتبهم ، أو تشير اليه من غير ايضاح واضح ، وخصوصا عندما عراها التحريف ، ونسوا حظاً مما ذكروا به .

وان النبي عليه السلام كان يتحدث عنه ، ولا يتحدث هو معهم ، وانه عندما التقى ببحيرا الراهب صغيرا كان قومه يتحدثون عنه ، ولم يعرف التاريخ أنهم ذكروا له ما حدث به الراهب ·

وكذلك الأمر في رحلته الثانية بعد أن سار شابا سويا ، كان الحديث عنه ، ولم يثبت أن الحديث كان معه ·

وهكذا اذا كان يتلقى الكلام في نبي منتظر ، فانه يتلقاه كما يتلقى قومه ، ولم يعرف أنه كانت له عناية خاصة بتاريخ النصارى ، ولا بأخبار اليهود ، ولا بشيء من ذلك ، بل عنايته في مطلع حياته بكسب الرزق ، وفي شبابه الأول بالتجارة ، ثم بعد أن توافر له الرزق انصرف الى العبادة والتحنف الليالي والشهور ، وفي كل أحواله كان كثير التأمل ، يدرس الخالق من خلقه ، والمنشيء مما أنشأ ·

ولكن كتاب الفرنجة يدعون أن محمدا عليه السلام كان قبل البعثة يتتبع أخبار اليهود ، ويستمع الى مايتحدث به أحبار اليهود ، ورهبان النصارى ، وانهم يرمون بهذا الى أمرين :

ـ أحدهما ـ اثبات أن محمدا عليه السلام ما وصل الى ترك الأوثان الا بتعاليم اليهود والنصارى ، وانه ما وصل اليها بمنطقه وفطرته ، وبقايا ديانة ابراهيم عليه السلام ، وكأنهم يريدون أن يصوروا ما كان دون زيد ابن نفيل وورقة بن نوفل ، وقد ثبت أنه كان يكره اللات والعزى وهو في الثانية عشرة من عمره ، وقد ثبت ذلك في أخبار بحيرا الراهب ·

ـ وثانيهما ـ ادعاء أن القرآن أخذ أخبار النبيين وقصصهم من التوراة والانجيل ، وأن العلم بهذا علم تلق ،وليس بوحي من الله تعالى ، مع أنه من الثابت أن قصص الأنبياء في القرآن هو الصادق الذي لا يمترى فيه ، وغيره فيه الفساد والضلال كخبر سكر لوط ،ومواقعته ابنتيه وكزنى داوود بامرأة قائد جيشه فهي أكاذيب ليست في القرآن ·

وقد تبعهم بعض المغترين بهم من الكتاب عن نية حسنة ، ولم يدركوا خبيثة نفوسهم ، وخبث تفكيرهم ·

ألا فليتركوهم ، واستنباطهم ، وليتتبعوا أخبار النبي عليه السلام من كتب السيرة الدقيقة البعيدة عن الأوهام ، وليتركوا أتباع الاستنباط الفاسد، من غير خبر تاريخي يؤيده ، ولا سند صادق يزكيه ·

وليعلموا أن النبي عليه السلام كان بعيدا عن الأحبار والرهبان ، وما كان يصدق كهانة الكهان ، ونهى بعد البعثة عن الاستماع الى الكهان ، وكان يستنكر سجع الكهان ، ويستنكر تصرف من يحاكيهم ·

البَعْثة المحمّديّة

التجلي الأعظم

١٩١ – كان محمد صلى الله عليه وسلم قبل أن يبعثه الله رحمة للعالمين ملتزما أمرين :

أولهما – أنه لم يكن صاحب لهو ولا عبث ، كان كذلك غلاما ، ثم شاديا ، ثم من بعد ذلك عاكفا زاهدا ، منصرفا عن الناس الا ما يوجبه حق المجتمع عليه ، من عطاء يقدمه لمحتاج ، أو معاونة لمستعين ، أو اغاثة لملهوف ، أو حمل لكل ، أو قرى للضيف ، أو صلة لرحم ، وغير ذلك . فكان المحتمل للواجبات ، المعتزل ، الذي يؤثر العزلة عن الاندماج في غمار الناس ، حتى لا يصيبه شيء مما يخبثون به ، لأنه الطاهر الذي أدبه ربه فأحسن تأديبه ، فكانت حياته الأولى مرشحة لحياته الثانية ، وآية على أنه ذلك الرجل الذي يستنكر المنكر ، ولا يفاحش أو يخاصم أو يجادل آية على أنه الرسول المنتظر ، والنبي المرتقب ، وهو في أحواله في اختلائه واجتماعه – الأليف المحبوب ، الذي قدرته قريش كلها حق قدره .

الأمر الثاني – أنه قد اتخذ منسكا ينسك فيه وهو غار حراء ، بعد أن أكثر من العبادة ، والعكوف على عبادة الله ، وقد رأى قريشا يعكفون على أصنام لهم .

وان الظاهر من حال قريش الذين استمرءوا عبادة الأوثان أنه لم يكن فيهم غير الحنفاء – من يتفكرون في عبادة ، أو يختلون ليعبدوا أوثانهم ، فان ذلك لم يثبت تاريخيا ، ولم تذكر واقعة له تنبىء عن ذلك ، وان ما يحيط بهم ، وما يثبت من حالهم يدل على أنهم لم يعملوا التفكير في أمر عبادة ، بل كانوا يتبعون ما وجدوا عليه آباءهم من غير تفكير ولا تدبر ، ولو أن بعضهم كان يعمد الى الاختلاء والاعتزال لكان كثيرون منهم يخرجون عن عبادة الأوثان الى عبادة الديان ، اذ أن تأملا يسيرا كان يخرجهم من الظلمات الى النور ومن

ضلال الوثنية الى هداية الوحدانية ولكنهم قوم ماديون ، يقولون « ان هي الا حياتنا الدنيا وما نحن بمبعوثين »، ويقولون : « ما يهلكنا الا الدهر ، وما نحن بمبعوثين » .

واذا كان قد جرى على بعض الأقلام أن الاختلاء للعبادة كان نسكا عندهم يعبدون فيه الأوثان وينفردون لذلك ، فانما هو كلام من قوم لا يريدون بالاسلام الا خبالا ، ولا يريدون بمحمد صلى الله تعالى عليه وسلم علوا ، ولا يذكرون فيه قول الحق خالصا ، بل يموهون فيه ويلبسون الحق بالباطل .

نسكه وخلوته صلى الله عليه وسلم :

١٩٢ ـ كان محمد بن عبد الله يجتهد في العبادة ، ومن وقت أن اطمأن الى رزقه ، ونظم تجارته في مال خديجة بأن يعمل غيره تحت اشرافه ، ولم يكن ثمة حاجة الى خروجه بنفسه للتجارة ، فلم يذكر أنه خرج بنفسه ، بعد خروجه وهو في الخامسة والعشرين من عمره .

وكلما تقدمت به سن الشباب ازداد نسكا واختلاء وانصرافا عن الملاذ والشهوات في غير تحريم الحلال ، أو ابعاد لطيب من طيبات ، بل كان يأكل ويشرب في غير سرف ولا مخيلة ، كما بين في شريعته التي أرسل بها رحمة للعالمين .

وقد اتخذ لنفسه شهرا من أشهر السنة يختلي فيه بغار حراء ، وكان حراء نسكا للعرب في جاهليتهم ، كما جاء في البداية والنهاية لابن كثير ، فقد قال : « وكان رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم يخرج الى حراء في كل عام شهرا ينسك فيه ، وكان من نسك قريش في الجاهلية (١) أي أنه كان من الأماكن التي تعتبرها قريش من النسك في الجاهلية ، ولعلهم كانوا يضيفونها الى نسك الحج ، وقد رأى محمد أن هذا خير مكان لعبادته ، لأنه لا يطرق طول العام ، ولم يكن كالبيت الحرام ، اذ يطاف بالكعبة فيه كل يوم ، ويظهر أنه بمضي الزمان قد هجر اتخاذه نسكا ، ولعله كان مما أضيف الى مناسك من غير شريعة ابراهيم عليه السلام ، وليس بحث هذا ذا جداء في موضوعنا .

---

(١) البداية والنهاية ج ٣ ص ٥

جاءت الصحاح بأنه كان عليه السلام يتحنث (أي يتعبد على الحنيفية السمحة) الليالى ذوات العدد ، وكان يتخذ دائما شهر رمضان من كل عام يتزود لذلك ، ويبتدىء بالذهاب الى البيت الحرام يطوف به ، ويتصدق بالصدقات العظيمة ويطعم الطعام ، ثم يذهب الى غار في جبل حراء ، لم يكن في سفحه ، بل كان أعلى من ذلك ، ولا يصل اليه قاصده الا بمرتقى صعب ، وليس بالسهل ، والناظر اليه الآن لا يجد الوصول اليه بغير شق النفس مما يدل على أن الله تعالى قد أعطى محمد بن عبد الله عليه السلام بسطة في الجسم ، وقوة احتمال ، ورغبة صادقة في العبادة لا يقوى عليها الا أولو العزم من العباد ·

حتى اذا أتم الشهر وهو رمضان عاد الى بيته ، وقبل أن يأوى اليه يمر بالبيت الحرام ، فيطوف ، ويتصدق بما بقى معه من زاد ويطعم للطعام مما بقي له ثم يأوي الى خديجة زوجته الطاهرة ·

وان السياق في كل الصحاح من أخبار السيرة يستفاد منها أنه كان يتزود بالزاد ، ويذهب منفردا ليتم له الاعتكاف بعيدا عن الأهل والصحاب، ولا يكون الا في حضرة الحبيب الذي لا شريك له وهو الله سبحانه وتعالى ·

هذا هو المستفاد من معنى الاختلاء والاعتكاف ، ولأنه كان يصرح بأنه يغدو صادرا عن أهله في الشهر ،ويعود دائما الى أهله بعد أن ينقضي الشهر ·

ولكن روي عن ابن اسحاق في سيرته عبارة تفيد أنه كان يذهب الى الغار بأهله ، واليك عبارة ابن اسحاق «كان رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم يجاور ذلك الشهر من كل سنة ، يطعم من جاءه من المساكين ، فاذا قضى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم جواره من شهره ذلك كان أول ما يبدأ به اذا انصرف من جواره الكعبة قبل أن يدخل بيته ، فيطوف بها سبعا أو ما شاء الله تعالى من ذلك ، ثم يرجع الى بيته ، حتى اذا كان الشهر الذي أراد الله تعالى به ما أراد من كرامته،من السنة التى بعثه الله تعالى فيها،وذلك الشهر شهر رمضان خرج رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم الى حراء كما كان يخرج لجواره

ومعه أهله (١) ، وان هذا الكلام يدل على أن الايحاء ، وهو أن الليلة التي كانت فيها البعثة النبوية لم يكن أهله معه، وفيما قبل ذلك كان يكون أهله معه ، اذ أنه يصرح بأنه كان يخرج لجواره • ومعه أهله ، ولكن لا تجد هذه العبارة في غير ما نقله ابن اسحاق بل أن معنى الاختلاء والاعتكاف ربما لا يكون متناسقا مع وجود أهله معه ، اذ أن الاعتكاف للعبادة يقتضي الابتعاد عن الأهل ، والاتجاه الى الله تعالى وحده •

ولهذا نحن نميل الى رد ما قاله ابن اسحاق ، وان لم يكن ثمة ما يسوغ لنا أن نقول انه ربما كان يذهب مع أهله ولا يبقون معه ، بل يذهبون في صحبته ، ثم يتركونه من بعد في وحدته وعبادته •

روايات في خلوته صلى الله عليه وسلم :

١٩٣ ـ والآن نسوق الخبر ، كما جاء في صحيح البخاري وغيره من صحاح السنة •

يروي البخاري عن عروة بن الزبير عن خالته أم المؤمنين عائشة رضى الله تبارك وتعالى عنها أنها قالت : « أول ما بدىء به الوحي الرؤيا الصادقة في النوم ، وكان لا يرى رؤيا الا جاءت مثل فلق الصبح ، ثم حبب اليه الخلاء، فكان يخلو بغار حراء ، فيتحنث فيه الليالي ذوات العدد قبل أن ينزع الى أهله ، ويتزود لذلك ، ثم يرجع الى خديجة ، فيتزود لمثلها ، حتى جاء الحق ، وهو في غار حراء » (١) •

وهذه الرواية التي ساقها البخاري عن حب رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم أقرب الروايات ، وهي أرجحها وأصدقها ، وهى تدل على أمور ثلاثة :

أولها ـ أن الوحي جاء اليه وهو في حراء ، ولم يكن معه أهله ، وأنه كان يتزود ، ولم تذكر أنه كان يصاحبه أهله •

وثانيها ـ أنه كانت تصفو نفسه وروحه ، وتتخلص لله •

وثالثها ـ أن صفاء النفس أدى الى صدق رؤياه •

---

(١) سيرة ابن هشام نقلا عن ابن اسحاق جـ١ ص ٢٣٦

(١) البداية والنهاية جـ ٣ ص ٢

وهنا يثار أمران :

أولهما ـ من أي وقت ابتدأت ملازمة الخلوة شهرا من كل عام ٠

ثانيهما ـ بأي شيء ابتدأ الوحي ، ونزول الروح القدس عليه صلى الله تعالى عليه وسلم ، أكانت مواجهته له صلى الله تعالى عليه وسلم بالرؤيا الصادقة أم المشاهدة في الصحو ، لا في المنام ، لذلك موضع من البيان ، نوجزه ولا نفصله ٠ أما أولهما ـ وهو من أي وقت ابتدأت خلوته صلى الله تعالى عليه وسلم ٠ فانا نقول في ذلك انه من المتفق عليه أنه صلى الله تعالى عليه وسلم نشأ وهو متجه الى ربه لا يعبد سواه ، وأنه التزم أن يكون عابدا من وقت أن بلغ سنا يدرك فيها معنى العبادة ، ويعرف فيها حق الخالق على المخلوق ، وقد كان يعبد الله تعالى بالتأمل في خلقه ، والتدبر في ملكوته واهتدى اليه ، وان لم يهتد ابتداء الى طريق عبادته ، فان ذلك فوق طاقة العقول ، ولابد فيه من المنقول ، وقد أشرنا الى أنه كان يحاول معرفة ديانة ابراهيم التي كانت بقاياها في البلاد العربية ، وخصوصا في مكة ، حيث بيت الله الحرام الذي هو أول بيت وضع للناس ، وبناه ابراهيم :

﴿ إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٦﴾ فِيهِ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ مَّقَامُ إِبْرَٰهِيمَ ۖ وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنًا ۗ ﴾ (١)

ورجحنا في صدر كلامنا أن يكون قد وصل بالصفاء النفسي ، وربما بالرؤيا الصادقة الى صلاة ابراهيم ، فلا عبادة من غير صلاة ، فما دامت هناك عبادة لمحمد عليه السلام ، صارت رتيبة له ، فلابد أن يكون قد اهتدى لصلاة ابراهيم ٠

وانه اذا كان قد سار في طريق التأمل والعبادة ، وفي وسط ذلك الديجور المظلم من عبادة الأوثان ، لابد أن يختلي محمد عنهم لينصرف الى ربه ، ولكيلا يكون في قلبه غيره ، ولكي يعبده ، كأنه يراه ، وقد وصل بقلبه المشرق الى درجة الاحسان ، فالاختلاء اذن كان أمرا لابد منه ، ليكون لله وحده ٠

---

(١) آل عمران

ولكن ذلك النظام الرتيب الذي التزمه ، بأن يعبد الله منفردا بعبادته طول العام ، ثم يختلي خلوة العابد شهرا من كل عام ، هو شهر رمضان ، في أي وقت ابتدأ ؟ الظاهر من عبارات الصحاح من الاخبار أن ذلك لم يكن فقط عام البعث المحمدي ، بل ذلك العام اختتم بأن الحق نزل عليه ، وجاءه روح القدس رسولا من عند ربه ، فلا بد أن يكون قبل ذلك النظام ، الرتيب ونحسب أنه قبله بأعوام ، لا نستطيع أن نحدس بها ، وان كان يتسابق الى عقولنا ، أنها مدة لا تقل عن خمس سنين ، من وقت تمام بناء البيت الحرام، ووضعه الحجر الأسود بيده الكريمة« ، وان نظن الا ظنا وما نحن بمستيقنين » •

ابتداء الوحي عليه صلى الله عليه وسلم :

١٩٤ — بقي أن ننظر في الأمر الثاني ، وهو بأي شيء ابتدأ الوحي ، لقد قالت أم المؤمنين عائشة رضي الله تبارك وتعالى عنها « ان الوحي ابتدأ بالرؤيا الصادقة ، فكان لا يرى رؤيا الا جاءت مثل فلق الصبح ، وان ذلك لا يدل على أن ابتداء انباء الله تعالى لمحمد صلى الله تعالى عليه وسلم كان بالرؤيا الصادقة ، ولكنه يدل على أن ابتداء الاشراق الالهي ، والاتصال الرباني كان بالرؤيا الصادقة ، والرؤيا الصادقة وان كانت جزءا من الالهام الالهي ، ليست هي الوحي الذي يقام عليه التكليف بالنسبة للنبي صلى الله تعالى عليه وسلم فقد قال عليه السلام: « الرؤيا الصادقة جزء من ستة وأربعين جزءا من الوحي » فليست هي بالنسبة للنبي عليه السلام هي الوحي ، وان كانت بالنسبة لابراهيم عليه السلام كانت وحيا كاملا ، وبالبناء عليها هم بأن يذبح ولده اسماعيل عليه السلام ،حتى فداه رب العالمين ، كما قال تعالى : « وفديناه بذبح عظيم » فكانت الرؤيا انباء •

ان المقرر لدى المؤرخين للسيرة الطاهرة أن الوحي ابتدأ بخطاب روح القدس جبريل عليه السلام ، ولكن جاء في سيرة ابن اسحاق أن أول خطاب لجبريل لمحمد عليه السلام كان برؤيا صادقة في المنام ، ثم صحا يحفظها عليه السلام • فقد جاء في سيرة ابن هشام « وجاء جبريل عليه السلام بأمر الله تعالى : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فجاءني وأنا نائم بنمط (١) من ديباج فيه كتاب ، فقال اقرأ • قلت ما أقرأ • قال : ففتنى به،

---

(١) النمط وعاء

حتى ظننت أنه المـوت • ثم أرسلني فقال : اقرأ قلت ماذا أقرأ ، ففتني به ، حتى ظننت أنه المـوت ، ثم أرسلني ،فقال اقرأ قال فقلت ماذا أقرأ ما أقول ذلك الا اقتداء لي أن يعـود لي بمثل ما صنع بي • فقال :

﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ﴿١﴾ خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ ﴿٢﴾ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ ﴿٣﴾ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ﴿٤﴾ عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴿٥﴾ ﴾ (١)

قال فقـرأتها ، ثم انتهى فانصرف عني وهببت من نومي ، فكأنمـا كتبت في قلبي كتابا ، فخرجت حتى اذا كنت في وسط الجبل ، سمعت صوتا من السماء يقول : يا محمد ، أنت رسول الله ،وأنا جبريل ، فرفعت رأسي الى السماء أنظر فاذا جبريل في صورة رجل صاف قدميه في أفق السماء يقـول : يا محمد أنت رسول الله ، وأنا جبريل ، قال فوقفت أنظر اليه ، وما أتقدم وما أتأخـر ، وجعلت أصرف عنـه وجهي في آفاق السماء فلا أنظر في ناحية فيهـا الا رأيته كذلك ، فما زلت واقفا ما أتقدم أمامي ، وما أرجع ورائي ، حتى بعثت خديجة رسلها في طلبي ، فبلغوا أعـلى مكان ، ورجعوا اليها وأنا في مـكاني ذلك ، ثم انصرف عني » •

وانه لا شك ثمة فرق جوهري في الخبرين :

١٩٥ ـ فالخبر الذي جاءت به الصحاح يفيد بأن الالتقاء بالأمين جبريل عليه السلام كان في صحو لا في منام،والثاني يفيد أن الالتقاء كان في المنام، لا في الصحو ، وان كانت رؤيا كأنهـا الصحو ، لأنه بعد أن استفاق من نومه تذكر كل ما قال،لم ينس منه حـرفا واحدا، فكان وحيا بلا ريب ،والاختلاف بين الخبرين في الرواية لا في أصـل المعنى ، فهما متلاقيان غير متخالفين •

ومع هذا التلاقي في المعنى فان هناك ثمة اختلافا في الواقعة ، أكانت في نوم ، أم كانت في يقظة ، وان الكثيرين من العلماء قالوا ما دام المعنى واحدا في الروايتين وليستا متعارضتين ،فان التوفيق يكون بتكرار الواقعة ، وقعت في النوم ، ووقعت في اليقظـة ، فهي قد ابتدأت اللقاءات بين محمد وروح

(١) العلق

القدس في المنام ، ثم كانت في اليقظة، والمنام كان تمهيد للمجاهرة في اليقظة ٠

وقد وفق ذلك التوفيق ابن كثير في البداية والنهاية وبناه على أن قول أم المؤمنين في رواية البخاري أول ما بدىء به الوحي الرؤيا الصادقة ، فقد قال :

فقول أم المؤمنين عائشة أول ما بدىء به الوحي الرؤيا الصادقة ، فكان لا يرى رؤيا الا جاءت مثل فلق الصبح، يقوي ما ذكره ابن اسحاق بن يسار عن عبيد بن عمر الليثي أن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم قال : « فجاءني جبريل وأنا نائم بنمط من ديباج فيه كتاب ، فقال اقرأ ، فقلت ما أقرأ ، ففتني حتى ظننت أنه الموت،ثم أرسلني وذكر ، نحو حديث عائشة سواء فكان هذا كالتوطئة ، لما يأتي بعده من اليقظة، وقد جاء مصرحا بهذا في مغازي موسى بن عقبة عن الزهري أنه رأى ذلك في المنام ، ثم جاءه الملك في اليقظة ٠

وقد جاء في كتاب دلائل النبوة لأبي نعيم الأصبهاني أن ذلك شأن الأنبياء جميعا يأتيهم الوحي ابتداء في المنام ،حتى اذا تهيؤوا للقاء الوحي عيانا ،جاء اليهم ٠ فقد نقل عن علقمة بن قيس أنه قال : ان أول ما يؤتى به الأنبياء في المنام ، حتى تهدأ قلوبهم ، ثم ينزل الوحي (١) ٠

وهكذا ننتهي الى حقيقة ثابتة متفقة مع مجموع النقول ، وتتلاقى مع العقول ، وهو أن الالتقاء بالروح القدس ابتداء في المنام، ثم لما ألف محمد عليه السلام الرؤيا المنامية الصادقة، ويظهر أنها في وضوحها وجلائها تشبه رؤية اليقظة اذ كانت تجيء مثل فلق الصبح كما أخبرت أم المؤمنين عائشة ، حتى اذا كان الأنس بروح القدس ، وامتلاء النفس بالروحانية كانت المشاهدة في اليقظة ، لأن ذلك مقام خطير عظيم ، لا تقوى عليه النفوس الا بعد أن تصقل صقلا روحيا ٠

وقد يقول قائل ان كلام أم المؤمنين عائشة يستفاد منه أن الميل الى الاختلاء للعبادة كان بعد الرؤيا الصادقة ، وقد يوهم ما قلنا ، بأن الصفاء النفسي بالعبادة قد سبق الرؤيا الصادقة ٠

---

(١) سيرة ابن هشام ج ١ ص ٢٣٨

ونقول في الاجابة عن ذلك بأن الصفاء الروحي كان في قلب النبي عليه السلام من يوم مولده ، وهو في المهد صبي ، فاذا كان عيسى عليه السلام تكلم في المهد صبيا ، فان محمدا عليه السلام قد أدرك في المهد صبيا ، وان الصفاء الروحي قد لازمه طول حياته ،فقد كان في صفاء ولابد أن يستمر الى شبابه الباكر ، ثم الى ما بعده ، فالرؤيا الصادقة كانت من ارهاصات الرسالة ، وكانت من الوحي ، ثم كانت في المرحلة الاخيرة منها ، وحيا بما يراه من خطاب الوحي بالأمين جبريل ، وهي ما ذكره ابن اسحق .

واذا كان لنا أن نستفيد من تقديم الرؤيا الصادقة على الخلاء اليه ، فكان تحبيب الخلاء له ثمرة لرؤيا صادقة تكررت حتى كان منه الاختلاء بنفسه .

ولقد قلنا من قبل انه كان يتعرف البقية من ديانة ابراهيم ليصلي ،ونحن في هذا الموضع من بحثنا عثرنا على الضوء الذي نهتدي به في تعرفه للصلاة على ديانة ابراهيم ، وظننا من قبل احتمال أن يكون ذلك بالرؤيا الصادقة، وظننا ذلك ظنا ، والآن ندركه الآن راجحا رجحانا يقرب من اليقين ، فصلى الله تعالى على محمد العابد صبيا وكهلا،ومن الصالحين .

تأييده صلى الله عليه وسلم بروح القدس :

١٩٦ ـ روح القدس هو جبريل عليه السلام ، كما قال تعالى : وأيدناه بروح القدس ، وكما قال تعالى :

﴿ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ ﴾ (١)

لقد جاء اليه عليه السلام ، وهو في غار حراء (٢) يتعبد الله تعالى ،

---

(١) الشعراء

(٢) غار حراء كهف صغير بأعلى حراء ، وحراء جبل صغير فى الشمال الشرقى من مكة، يبعد عنها بما يقرب من ثلاثة أميال ، وهذا ليس بذىزرع ولا غرس ، بل هو مملوء بالصخور لا عمران فيه ولا يأوى الناس اليه ، ولا يستأنسون به ،يمشى الماشى فى طريق مدعثر ، لا يصل اليه الا فى مقدار من الزمن قد يسير فى طريق غير معبد الى نحو الساعتين ، فاذا وصل الى سفح الجبل بعد هذه المدة لا يرتفع الى الغار الا فيما يقرب من ساعة ، واذا ارتفع اليه وجده موحشا يحس فيه الداخل برهبة، وهو أعلى الجبل ، فيزداد المقبل عليه عزلة عن الناس ، بل عن الأرض وما فيها ، ويكون الغار من وراء صخرتين كبيرتين تعترضان داخله ، قد ضيق الله ما بينهما ، واذا تجاوزهما ، ودخل الغار أحس بأنه قد صار معزولا عن العالم عزلة كاملة .

وان اختيار محمد بن عبد الله ذلك المكان ،لأن فيه العزلة الكاملة عن الناس ، والوحشة من كل شىء الا الأنس بالله وحده ، وكان اختياره بالهام الله تعالى ليكون مقدمة جهاده ، ويعيش فيه حياتين ، أولاهما ـ رهبة ، والثانية صعبة ، وان كانت نهايتهما سعيدة .

حيث علا قلبه الى المقام القدسي ، فارتفع من الأرض ، الى ملكوت الله تعالى ، فصارت نفسه صالحة لتلقي نور السماء، فنزل رسول أمين من رب العالمين ، الى رسول الخلق أجمعين ليحمل رسالةربه ، ويبلغها للعالمين ، من رب غفور ، وقد توالى النزول •

ولكن متى ابتدأ قالوا انه ابتدأ في الأربعين من عمر محمد بن عبد الله ، وهي أشد العمر ، وهي سن النضج في الروح ، وفي البدن ، وفي العقل ، فهي سن القدرة على الاحتمال ، وقدقال تعالى في هذه السن

﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِىٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَىَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَصْلِحْ لِى فِى ذُرِّيَّتِىٓ إِنِّى تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿١٥﴾ ﴾ (١)

واذ قد بلغ محمد بن عبد الله هذه السن، فقد أوزعه الله سبحانه وتعالى اليه ، وجعله له خالصا ، وقد تهيأ لذلك ،وأنشأ صفوة خلقه ، وجعله نبيا رسولا، صلى الله عليه وسلم ـ كان الالتقاء بالروح القدس على مرتين أولاهما تمهيد لأخراهما ، كانت الاولى ، وهي كاملة ، وان كانت في منام هو كالصحو، اذ لا يقل عنه وضوحا ، وقد تلقى فيه أول القرآن فوعى ما وعى ، وحفظ آيات ربه الاولى ولما ذهب عنه النوم الصافي كان يحفظ كل ما حفظ ، لا ينسى منه شيئا •

ولما رأى الوجود ببصره ، كما كان فيه ببصيرته التقى بالذي رآه في منامه، رآه وهو شهيد ، وقد استأنس بالرؤيا التي صدقها ، وخاطبه مرة أخرى في عالم الشهادة ، ولولا أنه قد استأنس به ابتداء في الرؤيا الصادقة ، لعظمت المشقة عليه ، وهنا في المرة أدرك أنه ينادي بالرسالة من قبل الله ، وانه شرفه بها ، وكان عليه السلام في هذين اللقاءين محفوفاً بالنور القدسي ، وان كان شديدا على النفس البشرية التي عاشت في الأرض ، ولو كانت بصفائها متطلعة الى النور الرباني الذي يملأ أطوارها ويحيط بثناياها •

---

(١) الأحقاف

وفي هذا اللقاء النوراني نزل أول القرآن ، وكانت ليلته ليلة القدر الذي فرق فيها الأمر وأبرم برسالة محمد بن عبد الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، كما قال سبحانه وتعالى :

﴿ إِنَّا أَنزَلْنَٰهُ فِي لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ ۝١ وَمَا أَدْرَىٰكَ مَا لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ ۝٢ لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ ۝٣ تَنَزَّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمْرٍ ۝٤ سَلَٰمٌ هِيَ حَتَّىٰ مَطْلَعِ ٱلْفَجْرِ ۝٥ ﴾ (١)

على كلام في ذلك سنتصدى لبيانه .

ويقول الرواة ان ذلك كان في الليلة السابعة والعشرين من رمضان بعد أربعين سنة من عام الفيل ، وقيل انها كانت الرابعة والعشرين من ذلك الشهر المبارك ومهما يكن اختلاف الرواة في تعيينها فانها كانت في رمضان كما قال تعالى :

﴿ شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْهُدَىٰ وَٱلْفُرْقَانِ ﴾ (٢)

على كلام في ذلك أيضا .

قلق الزوجة الصالحة :

١٩٧ — بالهام المرأة الصالحة الذكية القلب ، الطاهرة النفس أحست خديجة زوج محمد بن عبد الله بما فيه زوجها من مشقة ، فانزعجت عليه على غير عادة ، وقد ألفت منه الغيبة في شهر رمضان ، وكانت هي التي تزوده بزاد المادة ، والله تعالى يزوده بزاد التقوى ، انزعجت ، فأخذت تسأل عنه ، وهي تعلم أنه في غار حراء ، لأنها أحست أنه في جهاد روحي ، جهاد من ينزع من الأرض ، ليتصل بالسماء .

(١) القدر (٢) البقرة

وبينا هي قلقة مضطربة لغيبته على غير عادة اذ هو مقبل قد تغير لونه ، يرجف فؤاده ، فزال قلقها ، وان استغربت حالة ـ وقالت :

يا أبا القاسم ، أين كنت ، فوالله لقد بعثت رسلي في طلبك حتى بلغوا مكة ، ورجعوا لي .

وقد حدثها بما رأى في رؤياه ، وما شاهد في عيانه ، وفؤاده يرجف وهو يقول : « زملوني زملوني فزملوه حتى ذهب منه الروع ، وهو يقول خشيت على نفسي » .

وعندئذ جاء دور الزوجة الرفيقة الصالحة في القول ، فقالت بمنطق الفطرة ، وهو أن من أحسن لا يجازى الا احسانا ، كلا ، والله لا يخزيك الله أبدا ، انك لتصل الرحم ، وتصدق الحديث وتقري الضيف ، وتحمل الكل وتكسب المعدوم ، وتعين على نوائب الدهر ، رأت في زوجها الأمين الطاهر كل هذا ، وباحساس الفطرة ، رأت أنه لا يمكن أن يكون ثمر الطيب الا طيبا . ويقول ابن اسحاق ، انها قالت بعد أن علمت الخبر ، وقالت ما قالت : أبشر يابن عم ، واثبت فوالذي نفس خديجة بيده ، اني لأرجو أن تكون نبي هذه الأمة وما قالت ذلك الا وقد تواردت الأخبار بأن نبيا سيبعث في هذا الزمان .

إلى وَرَقَة بْن نَوْفَل :

١٩٨ ـ لا أدرى أهي فرحة بما توقعته من خير عظيم يجيء لزوجها ونور عميم ينبثق من بيتها ، أم هي فرحة اللقاء دائما يدفع الى الحركة ، ومهما يكن فقد وجدت منها رغبة الى العمل في الموضوع الذي طرأ ، وتوقعت منه أن يغير مجرى حياتها ، قامت فجمعت ثيابها ، ثم انطلقت مع محمد بن عبدالله عليه أفضل الصلاة وأتم السلام الى ورقة بن نوفل ، وكان من الحنفاء الذين هجروا عبادة الأوثان واختاروا أن يعبدوا الله .

واختار النصرانية ، اذ كان يعرف العبرانية ، فدرسها منها ، ودرس التوراة ، فعلم الديانتين من الينابيع الأصلية ، ويظهر أنه علمها ديانة وحدانية لا ديانة تثليث لأنه دخيل عليها ، ولأن نصرانية الشرق التي كانت في العراق وأطراف الجزيرة العربية كانت تتبع نسطورس الذي

أنكر أن يكون المسيح الها أو ابن الله ،اذ كان يعتقد أن عبارة الابن التي وردت في بعض كتبهم أضلتهم ، وان ماضي حياته ما كانت تسمح لنا أن نقول انه مثلث ، لأنه ترك عبادة أحجار لا تضر ولا تنفع ، فكيف يعتنق تثليثا غير متصور في العقل •

لقد بلغ علم الرجل بالعبرية أنه كان يكتب بها ويقرأ ويدرس ، فكان على علم بالبشارات التي جاءت في التوراة والانجيل بالنبي عليه السلام ، وهي تبشر برسول اسمه أحمد •

وقد بلغ الشيخوخة فنضج فكره ، وقد جاءت اليه ابنة عمه خديجة بنت خويلد ، وكان بصره قد كف قالت خديجة في هذا اللقاء يابن عم اسمع من ابن أخيك فأخبر النبي عليه السلام ورقة بما رأى وعاين : قال ورقة : هذا الناموس الذي كان ينزل على موسى ،يا ليتني كنت فيها جذعا ، ليتني أكون حيا ، اذ يخرجك قومك ، قال محمد بن عبد الله متعجبا ، كيف ينطق بالحق ، ويخرجوه ؟ قال : « أو مخرجي هم »وتلك هي براءة الفطرة ، قبل أن يمرسه الله تعالى بشدائد الدعوة ، وقبل أن يلقى الباطل في طغوائه بالحق في نوره •

قال ورقة الذي علم أخبار النبيين ،وما لقوا من بأساء وضراء وشدائد : « نعم (أي هم مخرجوك) لم يأت أحد بمثل ما جئت به الا عودي ، وان يدركني يومك هذا أنصرك نصرا مؤزرا » •

ان هذه كلمة ورقة ، وهي ثمرة الدراسة المبينة لتجارب الأنبياء •

وهنا قد يسأل سائل لماذا ذكرنا مانزل على موسى عليه السلام،وهو التوراة ، ولم يذكر الانجيل الذي نزل على عيسى عليه السلام ، والجواب عن ذلك أن التوراة كانت فيها شريعة قائمة عمل بها النبيون من بعد موسى عليه السلام ، وجاء عيسى لاحيائها بعد أن أهمل اليهود تعاليمها ، ولم يطبقوها لغلظ رقابهم، فجاء عيسى لاعلان حقائقها ، وروي عنه أنه قال : « جئت لاحياء الناموس ،ولقد جاء النص في كتب النصارى أنه يؤخذ بشريعة التوراة ، ما لم يجيء نص في الانجيل يخالفها » •

ولم يكتب الله للشيخ ورقة بن نوفل أن يحضر المعركة التي قامت بين الحق والباطل ، فلم يلبث أن توفي ولم يحضر الدعوة المحمدية ، اذ أنه قد مكث مدة، حتى أمر محمد بتبليغ رسالة ، وأن يصدع بما يؤمر •

فترة غياب روح القدس :

١٩٩ ـ علم النبي عليه السلام أنه يحمل تكليفا كبيرا ، وأنها منزلة كبيرة يعلو فيها بانسانيته ، فأصبح المرهوب محبوبا مرغوبا ، بعد أن خشي من لقاء روح القدس ، جبريل عليه السلام ، صار يتمنى أن يلقاه ، ليلقى أمر الله تعالى ، ويستجيب له ، ويحمل الأمانة التي اختاره الله تعالى لها •

لقد كان يتوقع أنه سيراه بعد أن يعود الى الغار ، لكنه لم يجيء اليه وفتر عنه ، فظن في نفسه الظنون ، ولعله ظن أن ما اعتراه من خوف في اللقاء الأول نحى تكليفه القيام برسالة، ولقد كان حريصا على الاستجابة للدعوة الى الحق ، والحريص على القيام بأمر يستعجله ، ويستبطىء غيابه ، ولعله خشي أن يكون ما أخبره به العالم الخبير ورقة بن نوفل لم يصادف الحق ولعله تكون الرؤيا التي رآها ، والمشاهدة التي عاينها تشبه ما يدعى للكهان ، وهي أمر يبغضه ، ويستنكره • لعل هذه الخواطر وغيرها أقلقته ، فاستبطأ الوحي ، وتمناه ، وعلم أنه لا يستقر مرة الا اذا عاد الوحي اليه ، شق ذلك الانقطاع على النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، خشية على النعمة التي توقع أن ينعم الله تعالى بها عليه •

ويقول في ذلك ابن اسحاق « ثم فتر الوحي فترة من ذلك ، حتى شق عليه صلى الله تعالى عليه وسلم فأحزنه » •

ذكر البخاري في صحيحه أنه كان يذهب الى غار حراء ينتظر حيث ينزل عليه الروح القدس (جبريل) ويقول في ذلك « ثم فتر الوحي ، حتى حزن النبي عليه السلام فيما بلغنا حزنا غدا منه مرارا كي يتردى من رؤوس شواهق الجبال فكلما أوفى بذروة جبل لكي يلقي نفسه تبدى له جبريل ، فقال يا محمد ، انك رسول الله حقا ، فيسكن جأشه ، وتقر نفسه فيرجع ، فاذا طالت عليه فترة الوحي غدا لمثل ذلك ، فاذا أوفى بذروة جبل ، تبدى له جبريل ، فقال مثل ذلك « وهكذا حتى انتهت فترة الانقطاع » •

وقد جاء في الصحيحين عن جابر بن عبد الله « سمعت رسول الله يقول : بينما أنا أمشي سمعت صوتا من السماء فرفعت بصري ، فاذا الملك الذي جاءني بحراء قاعد على كرسي بين السماء والأرض فجئيت منه فرقا حتى هويت الى الأرض ، فجئت أهلي فقلت زملوني » فأنزل الله تعالى :

﴿ يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ ۝١ قُمْ فَأَنذِرْ ۝٢ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ۝٣ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ۝٤ وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ ۝٥ ﴾ (١)

ثم حمي الوحي وتتابع (٢) .

وان هذا يدل على أن الفترة التي انقطع فيها جبريل عن محمد بن عبد الله عليه الصلاة والسلام شوقا لأن يعود الوحي، وان شوقه الى تلقي الوحي بعد هذه الفترة جعله محبوبا مرهوبا ، أو على الأقل لا يكون فزعه منه ، كفزعه الاول الذي كان عقب الرؤيا بالمعاينة لجبريل عليه السلام .

مدة الفترة :

٢٠٠ ـ لقد اختلفت الروايات في مدة الفترة التي انقطع فيها ، ما بين رواية تذكرها طويلة ، وأخرى تذكرها قصيرة . فقد جاء في المواهب اللدنية بلغت ثلاث سنين ، ولا شك أن هذه مدة طويلة نستبعدها ، وان كانت قد ذكرت في كتب من كتب السيرة ، والسبب في استبعادنا لها ـ أنها لا تتفق مع كون النبي صلى الله تعالى عليه وسلم كان في مشقة شديدة من تلك الغيبة حتى انه كان يرتفع الى شواهق الجبال ليتردى من أعلاها ، وكان يتكرر ذلك ، وان الله تعالى أجل من أن يلقي بمن اختاره رحمة للعالمين يعيش في ذلك القلق والاضطراب تلك المدة الطويلة من غير أن يعرف له غاية ينتهي عندها ، وفوق ذلك فان الاستعداد لأمر خطير لا يستمر تلك المدة الطويلة ، بل هي قد تحمل على النسيان بين اللقاءين ، وان المصادر الأصلية ، والأحاديث لم تذكرها ، فلم يذكرها ابن اسحاق ، ولم يروها البخاري .

---

(١) المدثر (٢) البداية والنهاية لابن كثير جـ ٣ ص ١٦

ولقد قال السهيلي ان المدة سنتان و نصف ، وقيل انها سنتان ، وقيل فيها مدد مختلفة أقلها ثلاثة أيام وأكثرها أربعون ، وقد روي أن ابن اسحاق جزم بأن الذين قالوا ثلاث سنين أوسنتين قولهم وهم .

وان الذين قالوا انها ثلاث سنين استندوا الى ما جاء في تاريخ الامام أحمد ، ويعقوب بن سفيان عن الشعبي أنه قال : « الفترة وهو ابن أربعين سنة ، فقرن بنبوته اسرافيل ثلاث سنين، وكان يعلمه الكلمة » .

وهذه رواية لا نحسب أنها عالية مما يوجب الريب ، فأولا أنها تذكر أن اسرافيل هو الذي كان يعلمه في مدة ثلاث السنين ، ولم يثبت ذلك ، بل الثابت أنه من أول تلقي نور السماء اتصل به جبريل الأمين روح القدس ، وثانيا أن الشعبي تابعي ولم يذكر من الذي نقل له هذا من الصحابة ، وقد أنكره كثير من الرواة ، فقد قال الواقدي انه لم يكن من الملائكة من قام بالاتصال بالنبي عليه السلام الا جبريل عليه السلام .

وفي الجملة أنه بعد ذلك البيان نرى أن تقدير مدة الفترة بالسنين أيا كان مقدارها غير معقول ولا مقبول ، وليس له سند صحيح حتى يكون منقولا ، حجته النقل . وانما الذي نعتقد أن المدة لا بد أن تكون في دائرة الأشهر ، ولعلها خمسة أشهر وبعض ، على مانشير من بعد .

٢٠١ ـ الى هنا ذكرنا اللقاء الأول للوحي النبوي ، الذي أفاض الله به تعالى على محمد بن عبد الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، ولكن لا ننتهي من هذا الجزء ، وننتقل الى ابتداء التبليغ ، والقيام بعبء الدعوة ، والجهاد في سبيلها ، من وقت أن صدع بأمرها ،قبل أن نحقق الأمر في ثلاثة أمور تحدث العلماء في أمرها .

أولها ـ الشهر الذي نزل فيه الوحي، أهو رمضان ، وهو ما ذكرته كتب السيرة وما رجحناه وانتهينا اليه ، وسقنا سيرة الرسول الطاهرة عليه، وكان يصح ألا نذكر سواه ، ولكن لم نرد أن نترك أمرا اختلف فيه العلماء من غير تمحيص ، وبيان الصادق منها ، وقد قيل انه ربيع الأول ، وقيل انه رجب ، فلابد من ازالة الشبه من حول الحق الصريح .

ثانيها – أول نزول القرآن، أهي آية :

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ﴿١﴾ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ ﴿٢﴾ ﴾ (١)

أم هي قوله تعالى :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ﴿١﴾ قُمْ فَأَنذِرْ ﴿٢﴾ ﴾ (٢)

وسننتهي ان شاء الله تعالى بالتوفيق .

ثالثها – أنواع الوحي الذي خوطب به النبي صلى الله تعالى عليه وسلم .

الشهر الذي نزل فيه الوحي :

٢٠٢ – جاء في كتاب (زاد المعاد في هدي خير العباد) للامام ابن القيم ما نصه :

« لما كمل له أربعون أشرقت عليه أنوار النبوة، وأكرمه الله تعالى برسالته، وبعثه الى خلقه ، واختصه بكرامته ، وجعله أمينه بينه وبين عباده ، ولا خلاف أن مبعثه صلى الله تعالى عليه وسلم كان يوم الاثنين ، واختلف في شهر المبعث ، فقيل لثمان مضين من ربيع الاول سنة احدى وأربعين من عام الفيل ، هذا قول الأكثرين ، وقيل بل كان ذلك في رمضان ، واحتج هؤلاء بقوله تعالى :

﴿ شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْهُدَىٰ وَٱلْفُرْقَانِ ﴾ (٣)

قالوا أول ما أكرمه الله تعالى بنبوته وأنزل عليه القرآن في رمضان جملة واحدة في ليلة القدر الى بيت العزة ، ثم أنزل منجما بحسب الوقائع في ثلاث وعشرين سنة » .

---

(١) العلق (٢) المدثر (٣) البقرة

وان هذا الكلام يستفاد منه بصريح اللفظ أن النبي عليه الصلاة والسلام بعث في سنة (٤١) من عام الفيل عند الأكثرين ، واذا كان النبي عليه السلام قد ولد باتفاق المؤرخين في عام الفيل ، فيكون النبي عليه السلام قد بعث بعد أن بلغ الأربعين وتجاوزها بسنة ، ولكن يظهر أن أنوار النبوة كما قال ابن القيم أشرقت عليه قبل أن يبلغ الحادية والأربعين ، وتكون أنوار النبوة سابقة على البعث ، ببضعة أشهر ، اذ أن كلامه يفيد بصريحة أن أنوار النبوة جاءت في الأربعين ، لا بعد مرور سنة الأربعين كاملة ٠

والمشهور الذي عليه الجمهور هو أنه بعث في سنة الأربعين في رمضان في اليوم السابع والعشرين من رمضان ، وهذا هو المشهور ، وهو الراجح ، وقيل في السابع ، وقيل في الرابعة والعشرين ٠

واننا نستطيع التوفيق بين هذه الروايات ، فنقول :

ان أول مجيء الوحي كان في السابعة والعشرين من رمضان سنة (٤٠) ، ولكن التكليف بالتبليغ كان في شهر ربيع في الثامن من ربيع ، ويكون الفارق الزمني بين الأمرين هو خمسة أشهر (شوال وذو القعدة وذو الحجة ، والمحرم ، وسبعة أيام من ربيع ، أي خمسة أشهر وبعض الشهر ، وان ذلك يهدينا الى مدة الفترة التي انقطع فيها الوحي النبوي ، والتي كانت شاقة ، وقد جاء هذا بالاشارة لا بالعبارة في شرح المواهب اللدنية ، فقد جاء فيها ما نصه: « وجمع بين النقلين (أي النقل بأنه بعث في رمضان) ، والنقل الذي يقول انه في ربيع ، بما مافي ذلك حديث عائشة أول ما بديء به الوحي الرؤيا الصادقة ، فيكون نبيء في الربيع بالرؤيا الصادقة ، ثم أتاه جبريل في رمضان » (١) ٠

ونرى أن صاحب المواهب نقل عن ابن حجر في فتح الباري ذلك التوفيق ، ولكنا نوافقه في أصل التوفيق ، ونخالفه في استنباطه أن النزول بالرؤيا الصادقة كان في ربيع سنة (٤١) ونزول جبريل كان في رمضان سنة (٤١) أيضا ، وذلك لان الذين قالوا ان النزول كان في رمضان ، قالوا وقد بلغ النبي صلى الله تعالى عليه وسلم الأربعين لا الحادية والأربعين ، وللتوفيق الكامل نقول انه

---

(١) شرح اللدنية جـ ١ ص ٢٠٧ م

كان في رمضان سنة (٤٠) كانت الرؤيا الصادقة ، التي أعقبها لقاء جبريل ، وقد ذكره بما رأى وكان تصديقه بالمعاينة فتر الوحي من بعد ذلك فترة شقت على النبي صلى الله تعالى عليه وسلم كان نزول القرآن وتتابعه ، وهذا يعطينا بيان مدة الفترة الذي ذكرناه ظنا ، ونراه الآن رواية صادقة ، وأنه ملتقى الروايات التي يبدو فيها تضارب، ولكنه يتكشف بهذا أنه لا تضارب ، بل تلاق بين النصوص .

أول ما نزل من القرآن :

٢٠٣ ـ ان السياق الذي ذكرناه آنفا وهو الذي أجمع عليه رواة السيرة أن جبريل روح القدس عليه السلام خاطب محمد بن عبد الله صلى الله تعالى عليه وسلم بعد رؤياه الصادقة بما جاء في وحي الرؤية تماما ، فقال له اقرأ ، فقال لا أقرأ الى آخر المذاكرة الروحية بينهما ، التي انتهت بأن نقل عن ربه قوله تعالى :

﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ۝ خَلَقَ الْإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ ۝ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ ۝ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ۝ عَلَّمَ الْإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ۝ ﴾ (١)

واذا كانت هذه من القرآن ، ومن ينكر ذلك فعليه أن يتوب ، فانها بلا ريب أول القرآن نزولا ، واذا كنا قد انتهينا الى أن أول القرآن نزولا كان في رمضان ، وأن أول الوحي كان في رمضان ، فرمضان شهر القرآن ، كما هو شهر الوحي ، وكما قال الله تعالى

﴿ شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ الْهُدَىٰ وَالْفُرْقَانِ ﴾ (٢)

هذه حقائق سائغة ، لا ريب فيها ، ولا اختلاف ، ولا تثير ريبا ولا خلافا .

ولكن الروايات تجيء بما يفيد ظاهرها المعارضة بينها وبين ذلك الحق الصادق الذي لا ريب فيه ، ولا مجال للريب فيه ولنذكر بعض هذه الروايات لنبين أنه لا تعارض في حقيقة الأمر .

---

(١) العلق . (٢) البقرة .

لقد ثبت في الصحيحين البخاري ومسلم عن يحي بن أبي كثير قال سألت أبا سلمة بن عبد الرحمن أي القرآن أنزل قبل غيره فقال : « يا أيها المدثر » فقلت : و « اقرأ باسم ربك » ، فقال : قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم: «اني جاورت بحراء شهرا فلما قضيت جواري نزلت ، فاستبطنت الوادي ، فنوديت فنظرت من بين يدي وخلفي وعن يميني وعن وشمالى ، فلم أر شيئا، ثم نظرت الى السماء ، فاذا هو على العرش في الهواء ، فأخذتني رعدة ، أو قال وحشة ، فأتيت خديجة ، فأمرتهم فدثروني فأنزل :

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ۝١ قُمْ فَأَنذِرْ ۝٢ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ۝٣ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ۝٤ ﴾ (١)

وفي رواية أخرى ما يشير بأن هذه الآية ليست الاولى ، وليس ما فيها أن رؤية جبريل روح القدس الاولى ، فقد قالت: فاذا الملك الذي جاءني بحراء جالس على كرسي بين السماء والأرض (٢) فجئيت منه فرقا .. الخ ، وهو ذكر لما تضمنه الضمير في الرواية الاولى التي تقول : « فاذا هو على العرش في الهواء » .

وان هذا يفيد بلا ريب أن الوحي جاء ابتداء في غار حراء ، وفيها نزل :

﴿ ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ۝١ ﴾ (٣)

ثم جاء ثانيا وليس أولا كما توهم أبو سلمة ، في نزول الوحي «يأيها المدثر».

وان نظرة فاحصة تبين لنا أن أول القرآن نزولا هو اقرأ ، كما هو الأصل الذي لا مراء فيه ، ولكن فتر الوحي فترة هي خمسة أشهر وبعض الشهر ، ثم جاء فيها الوحي :

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ۝١ قُمْ فَأَنذِرْ ۝٢ ﴾ (٤)

وقد انتهينا الى أن الفترة ابتدأت بعد ان نزل قوله تعالى « اقرأ » في رمضان من سنة ٤٠ هـ ، وانتهت الفترة في ربيع سنة (٤١ هـ) من عام الفيل

---

(١) المدثر (٢) البداية والنهاية جـ ٣ ص ١٧ (٣) العلق (٤) المدثر

والحق أن الروايات غير متضاربة للمتأمل البصير ، فان أول ما نزل بالقرآن لم يكن فيه الأمر بالتبليغ ،بل كان فيه اللقاء بروح القدس ، والاعلام بالقرآن ، وبمغزاه الأول ، وهو تعليم الخلق ، وبيان الحق ، وأنه كتاب الله تعالى يقرأ باسمه ويعرف به ذكره ،أما تكليف القيام بالتبليغ ، فقد جاء في قوله تعالى :

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ۝١ قُمْ فَأَنذِرْ ۝٢ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ۝٣ ﴾ (١)

والى هذا أشار ابن كثير ، فقال في الرواية التي جاءت في البخاري عن عبد الرحمن بن أبي سلمة : « لا ينفي هذا تقدم ايحاء جبريل اليه أولا : « اقرأ باسم ربك الذي خلق » ثم التقى به جبريل بعد نزول قوله تعالى:

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ۝١ قُمْ فَأَنذِرْ ۝٢ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ۝٣ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ۝٤ وَٱلرُّجْزَ فَٱهْجُرْ ۝٥ ﴾ (٢)

ثم حمي الوحي وتتابع ـ أي تدارك شيئا بعد شيء ـ وقام حينئذ رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم في أداء الرسالة أتم القيام ، وشمر عن ساق العزم ، ودعا الى الله القريب والبعيد ،والأحرار والعبيد ، فآمن به حينئذ كل لبيب نجيب سعيد ، واستمر على مخالفته وعصيانه كل جبار عنيد .

مراتب الوحي وشكله :

٢٠٤ ـ نتكلم في هذا الجزء عن البحث عن الوحي الذي كان ينزل على النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ،والذي ابتدأ بالرؤيا الصادقة وتتابع ، وجاء شيئا فشيئا ، حتى تم القرآن الكريم نزولا ، في مدى ثلاث وعشرين سنة كاملة .

لقد جاء النص القرآني بطرق خطاب الله تعالى لأنبيائه ، فقال تعالى :

﴿ وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآئِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا ﴾ (٣)

---

(١) ، (٢) المدثر (٣) الشورى

ولا شك أن هذه طرق لحصر خطاب الله تعالى لمن يختارهم من خلقه لخطابه ، فمن أي كان الخطاب لمحمد بن عبد الله ورسوله صلى الله تعالى عليه وسلم ، ونجيب في هذا المكان ، لأننا في مقام أول نزول الوحي ، فلنسر في مداه الى نهايته • يذكر ابن القيم في كتابه زاد المعاد أن للوحي سبع مراتب ، فلنعرج على كل واحدة بكلمة موضحة في ايجاز، وربما نجد المقسم لا يشمل ذلك العدد، لأن بعضها يدخل في بعضه ، فالحدود في الأقسام غير فاصلة •

المرتبة الأولى الرؤيا الصادقة : وقد كانت تلك المرتبة قائمة عند النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، حتى اذا كان البعث المحمدي كانت الرؤيا الصادقة هي أول ما نزل به القرآن ، كما جاء في سيرة ابن اسحاق ، ثم تأكدت الرؤيا بمخاطبة روح القدس جبريل عليه السلام ، فكانت مصدقة بالخطاب •

وقد كانت هذه الرؤيا توجب التكليف أحيانا ، كما جاء في قصة خليل الله تعالى ابراهيم عليه السلام في قصة الفداء ، اذ قال تعالى حكاية عن قول ابراهيم :

﴿ رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ (١٠٠) فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ (١٠١) فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَىٰ فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانظُرْ مَاذَا تَرَىٰ ۚ قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ ۖ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ (١٠٢) فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ (١٠٣) وَنَادَيْنَاهُ أَن يَا إِبْرَاهِيمُ (١٠٤) قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا ۚ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (١٠٥) إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ الْبَلَاءُ الْمُبِينُ (١٠٦) وَفَدَيْنَاهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ (١٠٧) ﴾ (١)

ونرى من هذا أن خليل الله تعالى ابراهيم عليه السلام ، فهم من هذه الرؤيا تكليفه ذبح ابنه ، فقبل التكليف صابرا ، محتملا وهو ابنه البكر ، واستجابة دعوته عليه السلام ، وكان ذلك البلاء المبين حقا ، فقد استجاب للطلب ابراهيم ، وقبل الاستجابة اسماعيل صابرا ، فكانا من المحسنين ، ونعم الصابرون •

---

(١) الصافات

والمرتبة الثانية : عبر عنها ابن القيم بأنها (ما كان يلقيه الملك في روعه وقلبه ، وهذا التعبير يستفاد منه أن الملك هو الوسط بين الله ورسوله ، فهو ينفث في روح الرسول ، بأمر الله تعالى، فكان بذلك وحيا ، وكان بطريق الملك، ولقد مثل له ابن القيم بقوله عليه السلام : « ان روح القدس نفث في روعي لن تموت نفس حتى تستكمل رزقها فاتقوا الله وأجملوا في الطلب »، والفرق بين الوحي بهذا المعنى والوحي بلقاء جبريل روح القدس ، أن لقاء جبريل عيانا في حال المخاطبة ، انما في هذه الحال فاللقاء في النفس وفي القلب والعقل ، وربما نعد حينئذ أن يكون هذا من ارسال رسول ، ولو كان بالهام الله تعالى المجرد ، وهو ما نميل اليه اذا استيقن الرسول أن ذلك الهام من الله تعالى، فانه كلام الله تعالى بالوحي المجرد من غير توسط رسول .

المرتبة الثالثة : مخاطبة الملك ، حتى كان يتمثل رجلا ، فيخاطبه حتى يعي عنه ما يقول له ، فقد كان يأتيه متمثلا في رجل يظنه النبي من الانس لا من الملائكة فقد كان يأتيه في صورة دحية الكلبي ، كما روى ذلك النسائي بسند صحيح من حديث ابن عمر ، ولقد قيل ان مجيء جبريل على صورة لدحية الكلبي كان بعد بدر ، ويقول ابن القيم وكان دحية رجلا وسيما ، اذا قدم لتجارة خرجت الظعن (١) لتراه وان مجيء جبريل في صورة رجل ، ليس معناه أن جبريل الأمين نزع من روحانيته ، أو ذهبت الروحانية ، انما هو لا يزال روحا ، والذى ظهر به ، هو ظهور الروح في صورة جسدية، ومعاني الملك لا تزال ثابتة قائمة ، ولا يوجد ما يمنع عقلا أن تظهر الروح في صورة انسان له جسد .

ودحية لا شأن له في هذا التغير الصوري ، بل هو حي في جسده يأكل ويشرب ، ويمارس الحياة الانسانية كاملة .

وكون روح القدس جبريل يظهر في جسد لا يقتضى أن يتحول الجسد الى ملك ، ولا أن يتحول الملك اليه ، وهي روح ليست حيوانية ، ولا ثمرة للحيوية الانسانية ، حتى اذا تركت الجسد لا تفارقه الحياة ، لأنها ليست أمرا

---

(١) الظعن بضم الظاء والعين جمع ظعينة وهى المرأة الجميلة .

عضويا ولكنها روح ملك تفيض في جسم يخلقه ، أو تظهر في جسم يخلقه الله تعالى ، وهو الخلاق العليم ، فاذا غاب الملك غاب معه الجسد الانساني ٠

المرتبة الرابعة : أنه كان روح القدس جبريل يأتيه مخاطبا له مثل صلصلة الجرس ويقول ابن القيم كان أشده عليه ، ويقول في وصفه ابن القيم : « فيلتبس به الملك ، حتى ان جبينه ليتفصد عرقا في اليوم الشديد البرد ، وحتى ان راحلته لتبرك به الى الأرض ، اذا كان راكبها ، ولقد جاء الوحي مرة كذلك ، وفخذه على فخذ زيد بن ثابت ، فثقلت عليه ، حتى كادت ترضها » ٠

وقد روى البخاري عن زيد : أرسل الله على رسوله ، وفخذه على فخذي ، فثقلت علي ، حتى خفت أن ترض فخذي ، وقد جاء في الصحيحين والموطأ عن عائشة أن الحارث بن هشام سأل رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم كيف يأتيك الوحي ، قال أحيانا يأتينى مثل صلصلة الجرس ، وهو أشدها على ، فيفصم عنى وقد وعيت عنه ما قال ، وأحيانا يتمثل لي الملك رجلا ، ليكلمني ، فأعي ما يقول ٠ قالت عائشة : ولقد رأيته ينزل عليه الملك في اليوم الشديد البرد ، فسيفصم عنه ، وان جبينه ليتفصد عرقا (١) ٠

ولا نريد أن نحاول توضيح هذه المرتبة ، فان تلك مراتب روحية لا تسمو الى ادراك حقيقتها ، ولكن نحاول أن نتصورها فقط ، من غير تعرفها كاملا ، فلا يعرفها الا من عالجها ، ولم يعالجها الا المصطفون الأخيار الأبرار ٠

ان الذي فهمناه من ذكر في هذه الحال أن روح القدس الطاهر يختلط بالنبي عليه الصلاة والسلام ويمازج روحه وجسده ، ويخاطبه بصوت قوي صارخ ، فيه عنف كعنف صلصلة الجرس ، يسمعه عليه السلام ، ولا يسمعه غيره ، ويحس في نفسه ، ولا يحس غيره ، يكلمه بكلام مفهوم ، وان كان في صوت قوي ، وكل ما فيه من خطاب قوي ، ويكون باختلاطه بروح النبي ، وبممازجته جسمه محدثا ثقلا جسميا ضاغطا على ما يكون رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم جالسا عليه ، وان الرسول ليعرف ما يقول ، ويحفظه ويعيه ولا يجهله ، حتى ان انفصل عنه لا ينفصل الا وقد وعى كل ما أراد أن يبلغه عن الله تعالت قدرته ، وعظمت منته ٠

---

(١) شرح المواهب اللدنية جـ ١ ص ٢٩

وقد روى العسقلاني في المواهب أحاديث موضحة وشاهدة لهذه المرتبة من الوحي ·

ومنها روى الطبراني عن زيد بن ثابت قال كنت أكتب الوحي لرسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم وكان اذا نزل عليه أخذته برحاء شديدة ، وعرق عرقا شديدا مثل الجمان ، (١) ثم سرى عنه وكنت أكتب ، وهو يملي علي وربما وضع فخذه على فخذي حال الكتابة ،فما أفرغ حتى تكاد رجلي تنكسر ، حتى أقول لا أمشي على رجلي ، ولما نزلت عليه سورة المائدة كاد أن ينكسر عضد ناقته (٢) ·

وذكرت الناقة هنا لأن النبي عليه الصلاة والسلام ، خطب خطبة الوداع في عرفة وهو واقف ، ونزلت آية :

﴿ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا ﴾ (٣)

في هذا اليوم،وكان راكبا على الناقة ·

المرتبة الخامسة : قال فيها ابن القيم « أنه يرى الملك في صورته التي خلق عليها ، فيوحي اليه ما شاء أن يوحيه وهذا وقع له مرتين كما ذكر الله تعالى في سورة النجم ·

يشير الى قوله تعالى :

﴿ وَٱلنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ۝١ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ۝٢ وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ۝٤ عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ ۝٥ ذُو مِرَّةٍ فَٱسْتَوَىٰ ۝٦ وَهُوَ بِٱلْأُفُقِ ٱلْأَعْلَىٰ ۝٧ ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ۝٨ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ ۝٩ فَأَوْحَىٰٓ إِلَىٰ عَبْدِهِۦ مَآ أَوْحَىٰ ۝١٠ مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ ۝١١ أَفَتُمَٰرُونَهُۥ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ ۝١٢ وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ۝١٣ ﴾ (٤)

فيفسر ابن القيم تلك الرؤية الروحية بأنها رؤية جبريل بحقيقته ، وهي فيما أحسب رؤية بنور البصيرة ،وبقوة الروح ، لا بنور البصر ، ولا

---

(١) الجمان : صغار اللؤلؤ والبرحاء : الحمى

(٢) كان الكلام فى نزول آية : اليوم أكملت لكم دينكم لا فى سورة المائدة كلها

(٣) المائدة (٤) النجم

بشكل جسمي ، لأن جبريل روح فكيف يراه الا أن يكون محسوسا ، وبذلك لا تفترق هذه الحال عن الرؤية المشخصة مع أنها غيرها ٠

ولقد قال عبد الله بن مسعود أنه قال : لم ير الرسول صلى الله تعالى عليه وسلم جبريل على صورته التي خلق عليها الا مرتين ، أما واحدة فأنه سأله أن يريه نفسه ، فسد الأفق ، وأما الأخرى فليلة الاسراء عند سدرة المنتهى٠

المرتبة السادسة : ما أوحاه الله تعالى اليه وهو فوق السموات ليلة المعراج من فرض الصلاة وغيرها ٠ ومؤدى كلام ابن القيم أن هذه المرتبة من الوحي هي التلقى عن الله سبحانه وتعالى مباشرة ،لا بطريق الرؤيا الصادقة في المنام ، ولا بطريق ملك على أي حال من الاحوال كان الملك ، بل عن الله تعالى ، ولا يقتضي ذلك رؤية ، لانه قد يكون الله يكلم العبد المختار للرسالة من عباده من وراء حجاب ، ليكون الكلام مع الله تعالى من غير رؤية لذاته العلية ، فقد سئل عليه السلام : هل رأيت ربك فقال : انه نور ، فأنى أراه ، وان هذا التفسير الذي اخترناه يتلاقى مع المرتبة السابعة التي سنذكرها ، واذا أردنا التمييز فاننا نقول ان هذه هي من الله مباشرة من غير توسط ، وهو ما كان ليلة المعراج ، فالذي نتصور على مقدار ما يقرر ابن القيم ، أنه ليس بكلام تكلمه رب العالمين ، ولكن وحي مباشر٠

المرتبة السابعة : هي الكلام من وراء حجاب ، وقد قال فيها ابن القيم : « كلام الله اليه (أي الى الرسول) بلا واسطة ملك ، فكلم الله تعالى موسى بن عمران ، وهذه المرتبة ثابتة لموسى قطعا بنص القرآن ، وثبوتها لنبينا صلى الله تعالى عليه وسلم في حديث الاسراء ،وبهذا التفسير يتبين أن السابعة داخلة في السادسة ، وليست كل واحدة منهما مرتبة قائمة بذاتها (١) ٠

وفي الحق ان هذه المراتب متداخلة، والمراتب كلها مذكورة في القرآن في قوله تعالى :

﴿ وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآيِٕ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِۦ مَا يَشَآءُ ۚ إِنَّهُۥ عَلِيٌّ حَكِيمٌ ﴿٥١﴾ ﴾ (٢)

---

(١) المراتب مذكورة فى زاد المعاد ج ١ ص٢٥ ، وفى المواهب اللدنية وشرحها ج ١ ص ٢٢٥ وما بعدها ٠

(٢) الشورى

دعـوة الحـق

٢٠٥ ـ بعد أن فتر الوحي نحـوستة أشهر أو دون ذلك ، قليـلا جاء التكليف بالتبليغ ، وتحمل عبء الرسالةالالهية الى الخلق أجمعـين ناداه ربه بالأمر بأن يرفع من ثيابه ما كان يجر،ولا يكتفي بالتعبد في غار حراء وان كان ذلك كافيا لتهذيب نفسه ، وتصفيةروحه ، وأن يكون متصلا بربه خيفة وتضرعا ، فانه لا يكفي لرسول أمـين ،بل لابد أن يتكلم عن ربه أمام العالمين ، وتكون معه العبادتان · العبادة الفردية بتهذيب ذاته وتقوية روحه ، وتوجيـه نفسه الى الله وحده الذي لا يغيب عنـه شيء في السمـاء ولا في الارض ، والعبادة الجماعية بأن يتقدم لدعـوةالحق ، ودعـوة الناس الى الانصراف لعبادة الله وحده ، واصـلاح الخلق ،والسير بهم في المحجة الواضحـة التي ليلها كنهارها ، وهذه غاية الرسـالةالكبرى التي حملها خاتم النبيين محمد بن عبد الله عليه الصلاة والسلام ·

أمره الله بعد أن ناداه النداء المؤكد:

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ۝١ قُمْ فَأَنذِرْ ۝٢ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ۝٣ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ۝٤ وَٱلرُّجْزَ فَٱهْجُرْ ۝٥ وَلَا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ ۝٦ وَلِرَبِّكَ فَٱصْبِرْ ۝٧ ﴾ (١)

تضمنت هذه الآيات الكريمات ، الانذار بالعذاب الشديد ان استمـروا ، وبالدعوة الى عبادة الله تعالى ، وتطهـير الثياب ظاهرا وباطنا ، وبترك الفساد ، وهجر الشر ، وعبـادة الله تعالى هي السبيل لدفع الشر ، ومنع الأذى ، وفي الجملة هذه الآيات التي تعد أول طلب لتبليغ الدعوة تشتمـل على ثلاثة أمور هي خلاصة الدعوة المحمدية ، أو ترمز لكل نواحيها التكليفية أولها ـ الايمان بالعقاب والحساب ، وقد أشار اليـه سبحانه وتعالى بالأمر بالانذار ففيـه

---

(١) المدثر

اشارة الى اليوم الآخر وما يكون فيه من حساب وجزاء ان خيرا فخير ، وان شرا فشر .

والامر الثاني تربية النفس الانسانية بالعبادة والصبر ، وتطهير القلوب بالخلوص لله سبحانه وتعالى ، وتكبيره وحده لا شريك له ، له الملك وله الحمد ، وقد أشار الى ذلك بقوله تعالى :(وربك فكبر ، وثيابك فطهر).

والامر الثالث اماطة الأذى عن الجماعة التي يعيش فيها ، ونفعها ، وقد أشار سبحانه الى ذلك بقوله : « والرجز فاهجر ، ولا تمنن تستكثر » ·

وبذلك يتبين أن الآيات الكريمات رمزت الى خلاصة الحقائق الاسلامية التي يقام عليها الاسلام ، وهي الوحدانية والايمان باليوم الآخر وتطهير النفوس ودفع الفساد ، وجلب النفع ·

مراتب الدعوة :

٢٠٦ ـ ذكر ابن القيم في زاد المعاد أن مراتب الدعوة خمس مراتب : الاولى النبوة : فلا يدعو الى الحق الذي نزل من عند الله تعالى الا نبي ، وقد اعتبرها ابن القيم المرتبة الاولى ، ونحن لا نعتبرها كذلك ، انما نعتبرها كيان الدعوة ، فلا دعوة الى الايمان برسالة الا من نبي مرسل ، فهي دعامة ، وليست مرتبة يبتدأ بها ، بل هي الاصل ولب الدعوة ·

المرتبة الثانية : انذار العشيرة الأقربين ، وقد أمر الله تعالى بذلك فقال سبحانه :

﴿ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴿٢١٤﴾ وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢١٥﴾ ﴾ (١)

وقد بدأ النبي عليه السلام دعوة عشيرته ، فدعا بني عبد مناف وقال لهم، أرأيتم لو أخبرتكم أن خيلا بالوادي تريد أن تغير عليكم أكنتم مصدقي قالوا ما علمنا منك كذبا ، فقال عليه السلام:« اني رسول الله اليكم بين يدي عذاب شديد، وانها للجنة أبدا أو النار أبدا أو كما قال صلى الله تعالى عليه وسلم » ·

---

(١) الشعراء

والمرتبة الثالثة : انذار قومه ، وقدسلك محمد عليه السلام ، ذلك المنهاج الذي انتقل فيه من الحيز الضيق الى ماهو أوسع ، ثم الى ما هو أعم ، فانتقل من انذار عشيرته الأقربين الى قومه من قريش قريبهم وبعيدهم ٠

وقد أنذر عليه الصلاة والسلام في هذه المرتبة سكان مكة وما حولها ٠

المرتبة الرابعة : عبر عنها ابن القيم بقوله ، انذار قوم ما أتاهم من نذير من قبله الا كانوا به مؤمنين ، وهؤلاء هم العرب في الجزيرة العربية قاصيهم ودانيهم ، سكان المدر منهم وسكان الوبر ، وبذا عمت دعوة كل من ينطق بالعربية ، من غير تفرقة بين قريب وبعيد ٠

والمرتبة الخامسة : تبليغ الدعوة الى غير العرب من الرومان والفرس والشام ومصر والحبشة برسل أرسلهم وبكتب كتبها ، ثم بث الدعاة ، وجهز الجيوش التي تدافع من هجموا أو حاولوا الهجوم ، أو حاجزوا بين الاسلام ودعوته ، وحالوا بين الشعوب ومعرفته، فكان الجهاد ليثبت الرشد من الغي ، والهدى من الضلال ، ومن بعد ذلك يختارون عن بينة ، فقد قال تعالى :

﴿ لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّۚ فَمَن يَكۡفُرۡ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤۡمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسۡتَمۡسَكَ بِٱلۡعُرۡوَةِ ٱلۡوُثۡقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَاۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٥٦﴾ ﴾ (١)

وقد سلك النبي عليه الصلاة والسلام تلك المراتب ، وان كانت التفرقة بين المرتبة الثانية والثالثة دقيقة اذ لاتكادان تنفصلان ، والمرتبة الأولى لاتعد مرتبة للدعوة ، ولكنها مرتبة التهيئة لها ، ولعله يريد منها ما كان من نزول قوله تعالى : اقرأ باسم ربك الذي خلق الى آخر الآيات الكريمات ، التي نزلت في أول لقاء النبي صلى الله تعالى عليه وسلم بروح القدس جبريل عليه الصلاة والسلام ، الى نهاية الفترة التي قدرناها بما دون ستة أشهر وتنتهي عند نزول قوله تعالى :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُدَّثِّرُ ﴿١﴾ قُمۡ فَأَنذِرۡ ﴿٢﴾ وَرَبَّكَ فَكَبِّرۡ ﴿٣﴾ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرۡ ﴿٤﴾ ﴾ (٢)

---

(١) البقرة (٢) المدثر

الدعوة خفية :

٢٠٧ ــ وقد كانت الدعوة من بعد ذلك خفية ، يلتقي بالأولياء والأصدقاء المقربين ، والصفوة المختارة من الصحب الأبرار ، وهذه هي المرتبة الثانية ·

وانما كانت الدعوة ابتداء خفية لتتكون خلية الاسلام ، وان الخلايا يكون بذر البذور فيها بالكتمان لأن الجهر يبددها قبل أن تتكون حتى ينمو عودها ويتكون سوقها ·

فكل فكرة جديدة لابد أن يلتقي حولها قلوب مؤمنة بها ويتولى من بعد ذلك اعلانها والمجاهرة بها ، ثم لابد من تكوين من يتقدمون للدعوة ، ومثل الدعوة الخفية ، كمثل تكون الجنين في بطن أمه ، فانه لا يظهر للوجود حيا حياة كاملة، صالحا لان يقاوم دواعي الفناء، والاخذ من عناصر البقاء والتغذي بكل أسباب القوة ، فكذلك الدعوة الى كل فكرة ، تقتضي التدبير الخفي ، ثم الاعلان الجلي ·

ولذلك كانت الدعوة الأولى ، ثم كانت المراتب التي تليها ·

ولقد يقول الرواة ان الاستخفاء كان نحو ثلاث ، كانوا يستخفون بها في العبادة ، والمذاكرة ، وقالوا انها كانت في دار الأرقم بن أبي الأرقم ·

ولكن يجب أن نعلم أن الاستخفاء في هذه الفترة ليس الاستخفاء بالدعوة ، فقد كان النبي يعلن ما جاء به من نذير ، وما في جعبته من تبشير، ولكن الذي يستخفي به هو اقامة العبادة التي دعا اليها رب العالمين ، ولذلك كان اضطهاد المؤمنين من الضعفاء واضطهاد النبي عليه السلام قبل أن يسلم حمزة وعمر ، وخروج المسلمين صفوفا معلنين الاسلام مجابهين المشركين متحدين قوة الشرك بقوة الله تعالى وقوة الحق ، والصبر المستعذب وان كان مريرا ·

ثم بعد ذلك كانت المجاهرة الكاملة التي تشق الصفوف المشركة بنور الحق ، واشراق الاخلاص ، اذ أمر الله تعالى أمرا جازما قاطعا اذ قال تعالت كلماته :

﴿ فَٱصۡدَعۡ بِمَا تُؤۡمَرُ وَأَعۡرِضۡ عَنِ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ﴿٩٤﴾ ﴾ (١)

---

(١) الحجر

وقد أخذ عليه السلام من بعد نزول هذه الآية يجاهر المشركين ،ويجادلهم بالقرآن ، ويصابرهم في اطمئنان المؤمن بالحق فيما يدعو اليه ، يجادلهم بالقرآن يتلوه عليهم ، ويتحداهم أن يأتوا بمثله ، وهم يتهددون وينذرونه وأهله ، ويقاطعون بني هاشم ، الى آخر ما سنقرر من بعد ٠

وبنو هاشم ما عدا أبا لهب ومعهم بنو المطلب يسيرون معه صفا واحدا ابتداء للقرابة عند الأكثرين منهم ولأجل الحق عند غيرهم ٠

حتى اذا مات أبو طالب الذي كان عالي الصوت باسم القرابة والمحبة ، أخذ محمد يدعو القبائل في مواسم الحج ،وفي وفودها ، حتى اذا صار للاسلام الكلمة العليا في الجزيرة العربية فاضت الوحدانية بالنور على من وراء البلاد العربية الى الأقاليم التي تصاقبها اقليما بعد اقليم ٠

أول من أسلم

٢٠٨ ـ اتجه محمد الى تكوين الخلية الاولى للاسلام ، فاتجه الى الذين يعاشرونه ابتداء ، وكان يعاشره ثلاثة أولهم أم المؤمنين خديجة ، السكن ، والمواسية ، والحانية ، والرقيقة ، وأم أولاده ، والرفيقة الرؤوم ، والثاني علي بن أبي طالب ، وقد كان في كلاءة النبي عليه وكفالته ، وهو له المؤدب والمربي ، ذلك أن أبا طالب كان كثير العيال قليل المال ، وعند ابن أخيه محمد عليه السلام فضل يسار ومال من عمله في التجارة في مال خديجة ، وعند العباس عمه مال وفير ، اذ كان من أثرياء قريش .

ولقوة احساس محمد صلى الله عليه وسلم وصلة رحمه وما عنده من مودة في القربى ذكر حال عمه للعباس واقترح أن يأخذ كل منهما ولدا من أولاد أبي طالب يكفله ، فكان من نصيب محمد رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم علي كرم الله وجهه ، وعندما جاءت الدعوة الاسلامية ، ونزل الوحي الالهي كان علي في العاشرة .

وثالث الثلاثة زيد بن حارثة بن شراحبيل ، وكان عربيا من بني كلب .

كان الرق قد جرى عليه بالطريقة الجاهلية ، اذ قد أخذته جماعة من الفرسان وهو ابن ثماني سنوات ، وباعوه في سوق من الاسواق ، وآل أمره الى خديجة أم المؤمنين ، ثم وهبته لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، فكان عبدا له على مقتضى ما كان عليه الناس ابان ذاك .

وقد جزع أبوه عليه جزعا شديدا ، وبكى لفقده ، وقد قال في ذلك شعرا جاء فيه :

بيكت على زيد ولم أدر ما فعل
أحي فيرجى أم أتى دونه الأجل
فوالله ما أدري واني لسائل
أغالك بعدي السهل أم غالك الجبل

ويا ليت شعري هل لك الدهر أوبة
فحسبي من الدنيا رجوعك لي بحل (١)
تذكرنيه الشمس عند طلوعها
وتعرض ذكراه اذا غربها أفل
وان هبت الأرواح هيجن ذكره
فياطول ما حزني عليه وما وجل (٢)
سأعمل نص العيش في الأرض جاهدا
ولا أسأم التطواف أو تسأم الابل (٣)
حياتي أو تأتي علي منيتي
فكل امرىء فان وإن غره الأمل (٤)

أخذ يبحث عنه في طول بلاد العرب ، حتى عثر عليه عند رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم قبل البعثة ،ومحمد بن عبد الله عدو الرق بفطرته لم يرد أن يحتجنه عنده غير مختار ، فخيره بين أبيه والمقام عنده ، وقال : ان شئت فأقم عندي ، وان شئت فانطلق مع أبيك .

ولكن الشاب قد اختار له ، فاختار أن يقيم مع محمد وهو يلمح نور النبوة عن الحرية مع أبيه وآله ، ولكن أباه أخذ يلومه ، فقال له : « يا زيد تختار العبودية على أبيك وأمك وقومك » ،فقال ابن الكريم : « اني قد رأيت من هذا الرجل شيئا ، وما أنا بالذي أفارقه أبدا » .

عند ذلك الوفاء أخذ رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم بيده ، وقام الى الملأ من قريش ، فقال : اشهدوا أن هذا ابني وارثا وموروثا .

رأى أبوه ذلك فطابت نفسه ، وكان يدعى زيد بن محمد ، الى أن اختفى التبني بقوله تعالى في المتبنين :

﴿ٱدْعُوهُمْ لِآبَآئِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ ٱللَّهِ ۚ فَإِن لَّمْ تَعْلَمُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ فَإِخْوَٰنُكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَمَوَٰلِيكُمْ ۚ﴾ (٥)

(١) بحل بمعنى حسم أى حسم الشعر وأنهاه
(٢) الأرواح جمع ريح والوجل الخوف
(٣) النص السير الكثير الشديد
(٤) الشعر فى سيرة بن هشام ج ١ ص ٢٤٨
(٥) الأحزاب

الإسلام في بيت النبوة:

٢٠٩ ـ كان أول الاسلام في بيت النبوة ، وأول الدعوة كانت في بيت محمد عليه السلام ، وقد كان الذين يكونونه ، وبلغوا حد الادراك المميز للحقائق الدينية في الجملة ، هم هؤلاء الثلاثة خديجة بنت خويلد الزوجة الطاهرة الوفية الامينة الحانية على زوجها وثانيهم على بن أبي طالب الذي كان غلاما ، وهو الذي رباه النبي عليه السلام ، وثالثهم المولى المخلص الذى أزال محمد بن عبد الله عنه الرق ، ورفعه الى شرفه من ذؤابة قريش ، حتى كان يقال زيد بن محمد حتى ألغى الله تعالى التبني ، ولكنه ألغاه وزيد شريف بالاسلام والايمان ، وشريف بحريته واحترام نسبه الأصلي ، الذي لم يرنق برق ٠

لقد آمنت خديجة منذ أن التقى محمد بن عبد الله بروح القدس ، جبريل عليه السلام ، وعاد اليها يرجف فؤاده، وأخبرها ورقة بن نوفل بمكانة محمد عليه السلام ، وأنه رسول هذا الزمان ،وأنه لا نبي بعده ٠

آمنت به منذ الابتداء ، وكان ايمانها أمنا وسلاما ، فقد كانت هي السكن الذي يأوي الى ما فيه من رحمة وسط عنف المعارضة ، وشدة المقاومة ، وكما قال ابن هشام في سيرته : « وآزرته على أمره ، وكانت أول من آمن بالله وبرسوله ، وصدق بما جاء به ، فخفف الله تعالى بذلك عن نبيه صلى الله تعالى عليه وسلم ، لا يسمع شيئا مما يكرهه من رد عليه وتكذيب له ، فيحزنه ذلك ، الا فرج الله تعالى عنه بها اذا رجع اليها ، تثبته وتخفف عليه ، وتصدقه وتهون عليه أمر الناس ، رضي الله تبارك وتعالى عنها » ٠

وانها بذلك صارت لها منزلة فوق منزلة نساء الأنبياء أجمعين ، بل صارت لها منزلة في الذروة بين نساء العالمين حتى صارت ثالثة بين فضليات النساء في الخليقة ، وهن مريم العذراء التي خاطبتها الملائكة من السماء ، وبضعة رسول الله صلى الله عليه وسلم وبضعتها، فاطمة الزهراء ٠

وقد أرسل الله تعالى لها تحية طيبة مباركة من السماء ، فقد أمر الله تعالى نبيه أن يخبرها على لسان جبريل بأن الله تعالى يقرئها السلام ، وروى عبد الله

ابن جعفر بن أبي طالب أن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم أمر بأن يبشر خديجة ببيت من قصب (والقصب هو اللؤلؤ المجوف) لا صخب فيها ولا نصب.

انها أقامت بيتا للنبي عليه السلام فيه الهدوء والبركة والأمن والسلام يلقى في خارجه غبار الصخب ، وعناء النصب ، فكتب الله تعالى لها بيتا فيه الراحة التامة ، وفيه الرونق ، وفيه الجمال ، فيلتقي فيه جمال المنظر ، بلطف الهدوء بعد اللغوب.

ولقد أحست بمنزلتها عند الله تعالى ، وخصوصا عندما أقرأها السلام بذاته الكريمة فقد ردت التحية فقالت مقالة المؤمنة : « الله السلام ، ومنه السلام ، وعلى جبريل السلام » فالتقى الايمان الصادق ، بالتنزيه لله ، فجعلت الرد على جبريل ، أما الله فهو السلام ، وهو واهب السلام ، فتعالت ذاته ، ويقول في التعليق على ردها شارح المواهب اللدنية « هذا من وفور فقهها ، حيث جعلت مكان رد السلام على الله تعالى الثناء عليه ، ثم غايرت بين ما يليق ، وما لا يليق ومع كون هذا ادراكا سليما أقول انه احساس عميق وايمان صادق بالله.

إسلام علي كرم الله وجهه :

٢١٠ ــ كان علي رضي الله تعالى عنه في العاشرة من عمره ، وقد تجاوز سن التمييز الاولى ، وصار له ادراك في المعاني الدينية ، وذلك هو نظر علماء الاسلام من بعد ، اذ أنهم اتفقوا على صحة اسلام الصبي المميز ، واعتبار اسلامه وان إختلفوا في اعتبار ردته اذا تقرر اسلامه ابتداء ، أو بوراثته للاسلام.

كان علي رضي الله تعالى عنه وكرم الله وجهه في سن التمييز عند بعثة النبي عليه الصلاة والسلام ، وفيه ذكاء يسبق به أقرانه ومن في سنه ، وهو فوق ذلك في مهبط الوحي ، ومنزل النبوة ، وما لا يصل اليه بالادراك يصل اليه بالمحاكاة والقدوة الصالحة ، وقبس النبوة يهديه، ونورها يسطع فيما حوله.

ولقد قالوا انه ابتدأ نور الهداية باتخاذه النبي صلى الله تعالى عليه وسلم أسوة حسنة يقلدها ويحاكيها ، ويتبع آثارها ، ويتقفي مسالكه صلى الله تعالى عليه وسلم.

قال ابن اسحق : « ذكر بعض أهل العلم أن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم كان اذا حضرت الصلاة خرج الى شعاب مكة ، وخرج معه علي ابن أبي طالب مستخفيا من أبيه أبي طالب ،ومن جميع أعمامه ، وسائر قومه فيصليان الصلوات فيها ، فاذا أمسيا رجعا ، فمكثا كذلك ما شاء الله تعالى أن يمكثا .

ولكن عين أبي طالب كانت تتلفت حول ابنه وابن أخيه وحبيبه محمد صلى الله تعالى عليه وسلم ، ولذلك رمقتهما ـ وهما يصليان ، فاتجه الى محمد عليه السلام ، فقال له : يا بن أخي ما هذا الدين الذي أراك تدين به، فقال : أي عم هذا دين الله ودين ملائكته، ودين رسله ، ودين أبينا ابراهيم بعثني الله به رسولا الى العباد ، وأنت أي عم : أحق من بذلت له النصيحة ، ودعوته الى الهدى ، وأحق من أجابني اليه وأعانني عليه .

دعاه محمد عليه السلام الى أمرين الايمان بهذا الدين . وثانيهما اعانة النبي صلى الله تعالى عليه وسلم . وقد أجابه في الثانية ولم يجبه في الاولى فقد قال له :((أي ابن أخي . اني لا أستطيع أن أفارق دين آبائي ، وما كانوا عليه ولكن والله لا يخلص اليك شيء تكرهه)).

هذا ما كان بينه وبين ابن أخيه .وهو ينبيء عن نخوة كريمة . وتعصب لما كان عليه آباؤه تعصبا غير حسن في ذاته . ولا من مثله في كبر عقله ، وقوة نفسه . ولكن ذلك ما أراد الله تعالى لحكمة ، ليرى الناس مثلا من أقوياء الرجال ، يكون عظيما في ذاته ، ويكون مع ذلك مشركا ، فهو عال في نفسه ، ليس كبيرا في اعتقاده .

أما ما كان من أمره مع ابنه ، فقد اتجه اليه يقول له : « أي بني ما هذا الدين الذي أنت عليه . فقال له يا أبت،آمنت بالله وبرسول الله ، وصدقت بما جاء به ، وصليت معه لله واتبعته » .

وهنا نجد أبا طالب الحر الكبير في نفسه في معاملة ابنه ، كما رأيناه مع ابن أخيه ، فقد قال غير مضيق ولا متزمت ، ولا ضائق الصدر ، أما انه لم يدعك الا الى خير فالزمه .

وروى ابن اسحاق مع ما ذكر روايةفيها زيادة اذ قال :

« ان علي بن أبي طالب رضي اللهتبارك وتعالى عنه جاء بعد ذلك بيوم أو يومين وهما يصليان أي خديجة والرسول فقال أيا محمد ما هذا ! قال النبي عليه الصلاة والسلام دين الله تعالى الذي اصطفى لنفسه بعث به رسله، فأدعوك الى الله تعالى وحده لا شريك له ،والى عبادته ، وأن تكفر باللات والعزى، فقال علي : هذا أمر لم أسمع به قبل اليوم ، فلست بقاصد أمرا حتى أحدث به أبا طالب ، فكره رسول الله صلى اللهتعالى عليه وسلم أن يفشي عليه سره قبل أن يستعلن أمره،فقال عليه الصلاةوالسلام له : « يا علي اذا لم تسلم ، فاكتم » . فمكث علي تلك الليلة ، ثم ان الله أوقعفي قلب علي الاسلام ، فأصبح غاديا الى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ،حتى جاءه ، فقال : ماذا عرضت عليّ يا محمد فقال رسول الله صلى الله تعالىعليه وسلم « تشهد أن لا اله الا الله وحده لا شريك له وتكفر باللات والعزىوتبرأ من الأنداد»ففعل علي ذلك وأسلم، ويروى أنه كتم ايمانه عن أبي طالب ،ولكنه لما علم قال له : « وآزر ابن عمك وانصره » .

هذه زيادة ذكرها ابن اسحاق في رواية أخرى ، وهي لا تتعارض مع الرواية الأولى ، ولكن تزيد عليها ،فمؤداها أن على بن أبي طالب ، كشأن من يكون في سنه رأى أن يعرض الأمرعلى أبيه كالشأن في كل أمر ذي شأن يعرضه الصبي على أبويه قبل أن يقدمعليه ، ثم وقع في قلبه الايمان بما جاء به ابن عمه ، طيب النفس رضيا ،وكان أن تبعه في صلاته في شعاب مكة.

أول أسرة في الإسلام :

٢١١ ـ أسلم من بعد ذلك أو مقارنا لذلك مقارنة زمنية«زيد بن حارثة» وهو اختار محمد بن عبد الله عليه السلامعلى أبيه واختار أن يعيش في كنف محمد رقيقا ، على أن يعيش في أسرته حراطليقا ، فلا بد أن يكون من أول الناس اسلاما ، فانضم الى الاسرة النبوية غيرمتلكيء ، ولا متلعثم ، ولا مضطرب ، بل دخل مسرعا ، غير متلوم .

اجتمع شمل الاسرة الكريمة على الايمان ، ولازم محمدا في صلاته أم المؤمنين خديجة ، وصفيه المجتبى عليبن أبي طالب ، ولقد جاء تاجر زائرا مكة ، ولنترك له الكلمة يقص ما رأى :

عن يحي بن عفيف قال : « جئت زمن الجاهلية الى مكة ، فنزلت على العباس بن عبد المطلب • فلما طلعت الشمس وحلقت في السماء وأنا أنظر الى الكعبة، أقبل شاب ، فرمى ببصره الى السماء ،ثم استقبل الكعبة • فقام يستقبلها • فلم يلبث حتى جاءغلام فقام عن يمينه• فلم يلبث حتى جاءت امرأة • فقامت خلفهما • فركع الشاب • وركع الغلام والمرأة • فرفع الشاب فرفع الغلام والمرأة ، فخر الشاب ساجدا • فسجدامعه • فقلت • يا عباس • أمر عظيم • فقال أتدري من هذا ! فقلت لا • فقال هذا محمد بن عبد الله بن عبد المطلب ابن أخي • أتدرى من هذا الغلام ؟قلت:لا• قال هذا علي بن أبي طالب •أتدري من هذه المرأة التي خلفهما ؟ قلت لاأدرى ! قال هذه خديجة زوج ابن أخي• وهذا حدثني أن ربك رب السموات والارض أمر بهذا الذي تراهم عليه • وايم الله • ما أعلم على ظهر الارض كلها أحدا على هذا الدين غير هؤلاء الثلاثة » وكانوا الثلاثة المطهرين السابقين الى الاسلام • ومعهم زيد بن حارثة فكان الرابع •

ويلاحظ في هذه الاخبار الصادقة أن أولئك أسلموا من غير أن يطالبوا بدليل ، بل كانوا المصدقين لما عرفوا من الحق في ذاته • فأي قلب خال من شوائب الهوى والغرض • يسوي بين الايمان بحجر لا ينفع ولا يضر • والايمان بالواحد الأحد الفرد الصمد ،الذي ليس بوالد ولا ولد ، ثم مع ذلك الحق الذي يدرك بأدنى تأمل من قلب سليم ـ ما عرف به الداعى من خلق صادق • وفضل كبير ، وعقل مدرك سليم ، ثم لا يكون في كلامه ارتياب مرتاب •

فالذي دفع الى ايمان تلك الاسرة الطيبة ادراك للحق في ذاته ، وايمان بصدق ربها ، ومن بعد ذلك صفاء في نفوس أهلها ، وأنى يكون قلب أصفى من قلب أم المؤمنين خديجة ، وعلي بن أبي طالب •

النور يشرق من بيت النبوة

٢١٢ - فاض النور من بيت محمد صلى الله تعالى عليه وسلم ، وانبثق البثق الكبير خارج البيت ، ولكنه لم يكن بعيدا عن محمد عليه السلام ، فقد ذهب يضيء قلوب أصدقائه ، والذين وصلت نفوسهم بنفسه وان لم يكونوا له أقرباء قرابة بعيدة أو قريبة، ولكنهم كانوا من قبيله وقومه ، ثم كانت آية الله الكبرى أن عارضه أقرباؤه الأدنون ، كأبي لهب ، ولم يتبع دينه أو لم يظهره حتى أحباؤه من ذوي قرباه كأبي طالب الذي رباه ، وكان حبيبا الى نفسه ، وعمه العباس وغيره ·

وكانت تلك آية كبيرة تدل على نزاهة الاسلام من أن تقيمه عصبية ، أو يتبع العصبية ، انما هو دين الله جاء لمحو العصبية الجاهلية ، ولم تكن عموم دعوته فيها أي استجابة لعصبية ، أو موالاة قبلية كما سيتبين ذلك في القصص النبوي ، فلا يقال ان أسرة كانت تطمع في السلطان · فاستعانت بسلطانها لنبوة كانت فيها · وخصوصا أن بني هاشم كانت فيهم رياسات بالكعبة توارثوها كابرا عن كابر ، وكان آخرهم أبو طالب الذي عاصر النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ·

واذا كان بنو هاشم لم يكونوا أول الناس اسلاما ، فقد كانوا بلا ريب أولهم نصرة ، وكانوا نصراء النبي عليه السلام عصبية لا اسلاما ، اذ كان ذلك عادة العرب يعيش كل شخص في حماية عصبية · لا يسلمونه ، ويعدون تسليمه ذلا ، والتهاون في نصرته قهرا وهوانا ، وخصوصا أن محمدا عليه السلام كان معتدى عليه · وليس معتديا · والايذاء ينصب عليه انصبابا ·

ومن أجل ثبوت أن معاونتهم له في شدته كانت عصبية ، أنهم لم يؤازروه بعد أن صار قويا ، بل ان العباس عمه ، وهو الذي كان يعد كبير بني هاشم بعد أبي طالب خرج مقاتلا في جيش المشركين في بدر لجيش محمد عليه السلام ابن أخيه ، وأسر من بين من أسر من المشركين ، ولم يخرجه محمد عليه السلام ، الا بفدية افتدى بها نفسه ·

إسلام أبي بكر :

٢١٣ ـ لا نريد أن نخوض في أوليته ، وسبقه في الإسلام علي بن أبي طالب رضي الله عنه أو سبق علي عليه . فتلك مسألة طائفية يثيرها الطائفيون في الإسلام . فالشيعة يعدون عليا أسبق والأمويون والناصبيون(١) يخالفون وما لنا أن نخوض في ذلك . وكل فريق يذكر أن معه من الصحابة فريقا .

وانما الذي نقرره أن كليهما أسبق الذكور إلى الإسلام . أبو بكر وهو رجل مكتمل يقارب الأربعين . وعلي في العاشرة من عمره . لم يبلغ حد المراهقة ، ولكنه كان مميزا فاهما ، أسلم متنكرا متدبرا مدركا ، وقد ذكرنا أن فقهاء المسلمين يعتبرون إسلام الصبي المميز صحيحا وإن اختلفوا في اعتبار ردته مستحقة العقاب .

بادر أبو بكر بالإسلام عندما علم بالبعثة المحمدية ، واسمه عتيق ، أو عبد الكعبة ، وسماه النبي عليه السلام عبد الله . وقالوا إن أمه كان لا يعيش لها أولاد ذكور ، فلما رزقته وعاش سمته عتيقا لأنه عتق من الموت ، وقيل سمته عبد الكعبة لأنها نذرت أن تسميه عبد الكعبة . ثم أختار له صديقه محمد عليه الصلاة والسلام أن يكون عبد الله .

وكان يمتاز من بين قريش ، بأنه عالم بالأنساب ، فكان نسابة العرب ، وكان له علم بأخبار الأولين ، وكان تاجرا معروفا بالأمانة والصدق ، وإن لم يكن كمعرفة محمد عليه الصلاة والسلام بذلك ولعل الأمانة قد سرت من صديقه محمد عليه السلام فقد كانا صديقين وتربين لتوافق مشاربهما في الجملة ، وإن كان أبو بكر لم تكن عنده نزاهة محمد حبيبه وخليله في البعد عن الأوثان فالفرق بينهما كالفرق بين من يصنعه الله تعالى على عينه ليكون رسولا نبيا ، وبين من خلقه الله تعالى صاحبا برا تقيا .

كانت الصحبة تجعلهما كالمتعاشرين في كمال الخلق ، حتى إنه عندما بدت إرهاصات النبوة ، وابتدأ البعث ، كانت تسأله خديجة عن صاحبه اذا غاب وهو يحضر إليها عندما تقلق عليه ، وتقول له : « يا عتيق أين ذهب » .

---

(١) الناصبية والناصبيون : الذين يناصبون عليا وأولاده العداوة

يقول الرواة ان أبا بكر أسلم قبل أن يطلب اليه النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، اذ أنه قد كان يتوقع ظهور نبوة صديقه محمد عليه السلام ، لأنه قد سمع كلام ورقة ، وعلم من خديجة حديثه لها ، وكان يوما عند حكيم ابن حزام ، إذ جاءت مولاة له ، فقالت إن عمتك خديجة تقول في هذا اليوم إن زوجها نبي مرسل مثل موسى ، عندئذ أدرك أبو بكر أن ما توقعه قد وقع ، وأن النور أشع ، ولم يبق إلا أن يستضيء به ويعشو اليه ، فانسل إلى النبي عليه الصلاة والسلام ، فأسلم اذ طلب إليه النبي عليه السلام ، وما كان طلبا لجاهل . بل كان طلبا ممن عرف ولم ينكر واستسلم وأذعن لله تعالى (١) .

ولذلك روى ابن إسحق في سيرته أنه بلغه أن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم قال : « ما دعوت أحدا الى الإسلام ، الا كانت عنده كبوة ، ونظر وتردد إلا ما كان من أبي بكر ماعكم (٢) عنه حين ذكرت .

فنفس أبي بكر كانت سائغة إلى الإسلام قبل دعوته ، لما رأى من إرهاصات النبوة ، ولما علم من كلام ورقة ، ولأنه كان الصديق الوفي والحبيب الولي لمحمد عليه السلام .

ولقد كان لإشراق نفسه ، ولصفو فؤاده إلى الحق ، والاتجاه إليه أنه كان يرى الرؤى التي يكون تأويلها تبشيره بالإيمان .

جاء في الروض الأنف « من أسباب توفيق الله له (أي لأبي بكر) أنه رأى القمر نزل مكة ، ثم تفرق على جميع منازلها وبيوتها ، فدخل في كل بيت منه شعبة ، ثم كان جمعه في حجره ، فقصها على بعض الكتابيين ، فعبرها له بأن النبي المنتظر الذي قد أظل زمانه يتبعه فيكون أسعد الناس به ، فلما دعاه صلى الله تعالى عليه وسلم أجاب » .

دخل أبو بكر في الإسلام فاستأنس به النبي عليه السلام بأبلغ مما كان واشتدت بينهما الصحبة ، فبعد أن كانت الصحبة مبنية على مجرد الاستئناس النفسي ، والخلقي صارت الأنسة بالإيمان بالله وحده ، وبالمؤازرة في شدائد الحياة ، واتخذ محمد بن عبد الله عليه الصلاة والسلام من مكانة أبي بكر ، وأنس الناس ومكانته عندهم قوة لدعوة الحق يدعو بها ، فوق ما كان له هو عليه السلام من قوة نفس ، ومكانة عند الله وعند الناس .

---

(١) شرح المواهب اللدنية جـ ١ ص ٣٤٠ (٢) عكم عنه : أى تردد وفكر وانتظر .

تتابع المخلصين :

٢١٤ ـ بإسلام أبي بكر تجاوز الإسلام حجرات بيته ، لقد كان فيها مقصورا على إسلام الثلاثة الذين يعاشرون النبي عليه السلام وهم زوجه الكريمة ، وربيبه الأمين علي ، وعشيره الوفي زيد ، ولسنا نذكر في ذلك ترتيبا ، وإن كنا نؤكد في غير تلبث ولا مواربة أن أولهم بإجماع المسلمين الطاهرة التي آزرت النبي عليه الصلاة والسلام قبل البعثة ، ووقت انبلاج فجر البعثة ، وبعد الأمر بالتبليغ ، وكان فضلها عند الله عظيما ٠

بعد إسلام أبي بكر تتابع الإسلام في نفر ممن لهم بالنبي عليه السلام مودة سابقة ، أولهم بالصديق صداقة ، وكان فيهم استعداد ، كان أول من أسلم بعد بيت النبوة ، وأبي بكر ، عثمان بن عفان ، وقد كانت له بالصديق صداقة ، وله بالنبي محبة ، ويريد أن يتصل به بسبب ، كان يريد أن يكون له صهر ، فانه عندما بلغه أن محمدا أنكح ابنته رقية عتبة أصابته حسرة ، ولنترك له الكلمة ٠ فهو يقول :

كنت بفناء الكعبة فقيل إن محمدا أنكح عتبة ابنته رقية فدخلتني حسرة ألا أكون قد سبقته إليها فانصرفت إلى منزلي ، لأجد سعدى بنت كريز ، فأخبرتني أن الله أرسل محمدا ٠٠ وقال انها حثته على إتباعه ، وإن لم تكن قد ذكرت لمحمد اسلامها ٠ ثم قال :« وكان لي مجلس من الصديق ،فأصبته فيه وحده » (فحثه الصديق على الإيمان) قال ومر النبي عليه الصلاة والسلام ومعه علي ، فقام أبو بكر فسار ، فقعد النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ٠ ثم أقبل علي ، فقال أجب الله تعالى إلى جنته ، فإني رسول الله تعالى إليك وإلى جميع خلقه ، فوالله ما تمالكت حين سمعته أن أسلمت ، ثم لم ألبث أن تزوجت رقية ٠

وكان زواجه برقية الأمنية التي كان يتمناها من قبل ، وأصابته حسرة لسبق عتبة بن أبي لهب إليها ، وذلك لأن أبا لهب بلغت به الجاهلية العمياء أن حمل ابنه على تطليق رقية عندما دعا محمد عشيرته للاسلام فوجد عثمان طلبته قد هيأها الله تعالى له ، فاجتمع عنده الخير العظيم بالإسلام ، ثم بالصهر ، ثم برقية فكان ذلك خيرا عظيما ٠

ثم أسلم من بعد ذلك الزبير بن العوام ، وعبد الرحمن بن عوف ، وطلحة بن عبيد الله بدعوة أبي بكر • إذ كان ذا قرابة به ، ويظهر أن أولئك جميعا كانوا بدعاء أبي بكر ، لأنه كان محببا في قومه ، وقد ذهبوا جميعا إلى النبي عليه السلام ، وأعلنوا اسلامهم ومؤازرتهم •

وأسلم من بعد هؤلاء أبو عبيدة عامر بن الجراح ، وأبو سلمة عبد الله بن عبد الأسد ، وهو زوج أم سلمة التي تزوجها النبي عليه السلام بعد موته والأرقم بن أبي الأرقم ، وعثمان بن مظعون وأخواه قدامه وعبد الله ، وعبيد ابن الحارث بن المطلب وسعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل الذى كان أبوه من الحنفيين الذين نفروا من عبادة الأوثان ، وزوجه فاطمة ابنة الخطاب ،وهكذا أخذ الجمع يكثر واحدا بعد آخر •

وكانوا يستخفون في صلاتهم ، وقبل أن نسير في بقية درجات الدعوة والاستجابة نسارع إلى الصلاة نبين وقت فرضيتها •

فرضية الصلاة

٢١٥ ـ عندما نزل قوله تعالى :

﴿ يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ (١) قُمْ فَأَنذِرْ (٢) وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ (٣) وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ (٤) وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ (٥) ﴾ (١)

كان التكليف لتبليغ الرسالة والدعوة الى أمر الله ودينه ، ولا دين بغير صلاة ، بل لابد لكل دين من صلاة ، لأنه لا بد لكل دين من عبادة ، ولا عبادة من غير الصلاة ، فهي عمود الدين ، وركنه الركين ·

ولذلك اقترن التبليغ بفرضية الصلاة اقترانا زمنيا ، لأن الصلاة مقترنة بكل دين اقترانا عمليا ·

ولقد قال الرواة أن الصلاة فرضت ركعتين بمجرد البعثة المحمدية ، وكانت تصلى مرتين ، أولاهما في الصباح ، والثانية في المساء ، وفرضت ركعتين في كل منهما ، ولقد قال في ذلك المزني من أصحاب الشافعي رضي الله عنه ، ان الصلاة كانت مفروضة قبل الاسراء ، كانت صلاة قبل غروب الشمس وصلاة قبل طلوعها ، ويشهد لهذا قول الله تعالى :

﴿ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَارِ (٥٥) ﴾ (٢)

ولقد قالت عائشة رضي الله تبارك وتعالى عنها فيما رواه ابن أختها عروة بن الزبير ، فرضت الصلاة ركعتين ، ركعتين ، ثم أيد الله تعالى أنها في الحضر أربعا وأقرها على فرضها في السفر ركعتين ، وبهذا يتبين أن الصلاة كانت مفروضة من أول الاسلام ، وظاهر المروي أنها فرضت ركعتين ، وفي وقتين اثنين وهما في العشي والابكار ، قبل طلوع الشمس وقبل غروبها ·

---

(١) المدثر (٢) غافر

هذا هو المفروض على الكافة ممن يسلمون ، أما التطوع فبابه مفتوح والنبي مأمور بكثرة الصلاة ، وقد قال تعالى مشيرا الى طلب الصلاة الكثيرة من النبي صلى الله تعالى عليه وسلم :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ ۝١ قُمِ ٱلَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا ۝٢ نِّصْفَهُۥٓ أَوِ ٱنقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا ۝٣ أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ ٱلْقُرْءَانَ تَرْتِيلًا ۝٤ إِنَّا سَنُلْقِى عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا ۝٥ إِنَّ نَاشِئَةَ ٱلَّيْلِ هِىَ أَشَدُّ وَطْـًٔا وَأَقْوَمُ قِيلًا ۝٦ إِنَّ لَكَ فِى ٱلنَّهَارِ سَبْحًا طَوِيلًا ۝٧ ﴾ (١)

وذكر الرواة أن جبريل روح القدس هو الذي علم النبي عليه السلام الوضوء ، فقد ذكروا أن جبريل عليه السلام نزل عليه ، وهو بأعلى مكة فهمز له بعقبه في ناحية الوادي ، فنبع الماء ، فتوضأ جبريل ، وعلم النبي عليه الصلاة والسلام بذلك الوضوء قبل الصلاة .

وقد روى كتّاب السيرة ذلك الخبر بسند غير متصل ، ولكن روي متصلا عن زيد بن حارثة رضي الله تعالى عنه .

وبهذا يتبين أن الوضوء فرض لكل صلاة ، وكانت فرضيته وهو عليه السلام في مكة ، وقد استمر من بعد ذلك ، وكان والصلاة ركعتان مرتين واستمر وقد صارت أربعا في الظهر والعصر والعشاء ، وثلاثا في المغرب وركعتان في الصبح ، وذلك غير السنن على ما هو مبين في فقه العبادات .

ولكن ذكر العلماء أمرا لا جدوى فيه من حيث العمل ، وهو أن فرضية الصلوات المكتوبة والتي فرضت في المعراج قبل الهجرة بسنة على ما سنحقق ان شاء الله تعالى ، فقالوا أن الصلوات المكتوبة قد نسخت الاكتفاء بصلاتين ، وأن ذلك ثابت بعمل النبي عليه السلام عملا متواترا ، وانعقد عليه الاجماع ، وصار معلوما من الدين بالضرورة بحيث من ينكره يكون كافرا .

---

(١) المزمل

وقد أشار القرآن الكريم الى مواقيت هذه الصلوات الخمس ، فقد قال تعالى :

﴿ حَٰفِظُواْ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلْوُسْطَىٰ وَقُومُواْ لِلَّهِ قَٰنِتِينَ ﴿٢٣٨﴾ ﴾ (١)

وقد قالوا ان الصلاة الوسطى هي صلاة العصر ، ولا يمنع أن يراد الصلاة المثلى .

وقال تعالى مشيرا الى أوقات الصلوات كلها :

﴿ فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ ﴿١٧﴾ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ ﴿١٨﴾ ﴾ (٢)

فقد أتى بصلاة الصبح مشيرا بقوله تعالى : « حين تصبحون » وبصلاة العصر مشيرا بقوله تعالى : « وحين تمسون » وبصلاة المغرب والعشاء مشيرا بقوله تعالى : « وعشيا » فهما العشاءان ، حتى قال بعض الفقهاء ان وقت المغرب والعشاء واحد ، يصلي أسبقهما أولا ، وثانيهما آخرا ، وأتى بصلاة الظهر بعبارة تكاد تكون صريحة وهي قوله تعالى : « وحين تظهرون » .

(١) البقرة (٢) الروم

وأنذر عشيرتك الأقربين
واخفض جناحك لمن اتبعك من المؤمنين

٢١٦ ـ دخل عدد من كبار قريش، وان كان قليلا ، ولكن تسامع الناس بالدعوة المحمدية التي جاءت برسالة الهية ، حتى كان علمها قد سرى سريان النور الى داخل البيوت ، حتى قيل ما من بيت من بيوت قريش الا علم بالاسلام ودعوة محمد وأنه يخاطب من السماء ،فالاخبار في خفاء وقد تعلم ، وان لم يكن ، دعا اليها ، ولم يحرك ذلك عنادا،ولا خصاما ونزالا ، لأنها ما أصابت اهتماما الا ممن كان لهم صفاء نفسي لم يعكره تعصب ، أو لجاجة في عناد ، فكان الأمر بين متبع وان كان عدده قليلا ، وغير مهتم ، وان كان كانوا الأكثرين •

وفي هذه الاثناء دخل الضعفاء ، وهم دائما نفوسهم أصفى واكثر انصافا، وادراكا ، لانهم يحسون بالظلم ، ويرجون التغيير ، فاذا جاء نور يكونون أول من يعشو اليه ، ويذهب في استجابة ضارعة ، مع رجاء الانقاذ ولو في المال ، فما كانت حالهم صالحة لأن تبقى، ولا يمكن أن يرضي الحق بقاؤها ، لان حالهم شقاء ولا يزيدهم شقاء ايذاءاذا كان الخير مرجوا ، وتغيير الباطل مأمولا ، فصادق بفتح باب الامل ويغلق باب اليأس ، يكون في رجاء التغيير سلوان وان كانت الحال مؤلمة أسيفة •

لذلك دخل الضعفاء والعبيد فى الاسلام أمثال عمار بن ياسر وأبيه وأمه وخباب بن الأرت ، وبلال الحبشي وغيرهم كثير ، والدعوة بينهم ، يستطيبون سماعها ، ويصدقون الاستجابة لها ويستعذبون كل عذاب في سبيلها •

وكانت الاستجابة للدعوة لا تعتمدعلى معجزة ولا دليل يتحدى به ، بل يرون الحق سائغا ، وهو يدعو الى نفسه ومانزل من القرآن يستجيبون له ، لانهم

---

(١) الشعراء

يرونه الحق الواضح ، وفي الداعي وهو محمد الصادق الامين ، وانما يقدم الدليل للمرتاب ، ويوضح اذا كان الحق يحتاج الى مقدمات ونتائج ، فان النبي هو الأمين ، وان الذى يسمعون هـو القـرآن ، وان الذين استجـابوا من الكبراء هم فضلاء الجماعة وأمناؤها ٠

والدعوة تسري سريان الماء العذب في خفاء العشب الأخضر ، والزهـر الأنضر ، ولكن لابد أن تستعلن ليعلمها القريب ، وتكشف في وضح النهـار المشرق ، ويسري علمها ، فالخفاء مهما يكن لا يخلو من ابهام ٠

ولذلك لما سرت الدعوة المختفية المتربية في خلية نمائها ، طلب الله تعالى الى رسـوله أن يعلنهـا ، فقـال لنبيه آمرا له :

﴿ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ ﴿٢١٤﴾ وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٢١٥﴾ فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢١٦﴾ وَتَوَكَّلْ عَلَى الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ ﴿٢١٧﴾ ﴾ (١)

تقدم النبي محمد عليه الصلاة والسلام وجمع بني هاشم وبني عبد مناف، وغيرهم من بطون قريش ، جمعهم في الصفاء ، وقال لهم : « أرأيتم لو أخبركم أن خيلا بالوادي تريد أن تغير عليكـم أكنتم مصدقي ، قالوا نعم ما جـربنا عليك كذبا » ، ثم ساق لهم ما يدعـوهم اليه ، ولنترك الكلمة لرواية البخاري في صحيحـه عن ابن عباس رضي الله عنهما ، فقد قال لما نزلت الآيات وأنذر عشيريك الأقربين ، واخفض جناحك لمن اتبعك من المؤمنين ـ صعد النبي صلى الله تعالى عليه وسلم على الصفا ، فجعل ينادي ، يا بنى فهر ، يا بني عدي لبطون قريش ـ حتى اجتمعوا فجعل الذي لم يستطع أن يخرج يرسل رسولا ، لينظر ما هو ، فجاء أبو لهب وقريش ، فقـال النبي صلى الله تعالى عليه وسلم : أرأيتم لو أخبرتكم أن خيلا بالوادي تريد أن تغير عليكم أكنتم مصدقي ، قالوا ماجربنا عليك كذبا ، قال فاني نذير لكـم بين يدي عذاب شديد ، فقال أبو لهب تبا لك سائر اليوم ألهذا جمعتنا ، فنـزل قوله تعالى « تبت يدا أبي لهب » ، وهذا يدل على أن كبير المعارضة فى تـلك الدعوة المباركة هو أبو لهب عم النبي

---

(١) الشعراء

عليه السلام ، لكيلا يعلم الناس أنها عصبية أسرة أو بطن من قبيلة ، انما هي رسالة الله تعالى الى خلقه ٠

وروى مسلم عن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم حين نزل عليه قوله تعالى : « وأنذر عشيرتك الأقربين » الآيات وقف وقال يا معشر قريش ، اشتروا أنفسكم ، لا أغني عنكم من الله شيئا يا بني عبد المطلب لا أغني عنكم من الله شيئا ، يا صفية عمة رسول الله لا أغني عنك من الله شيئا ، يا فاطمة بنت رسول الله سليني ما شئت من مال ، لا أغني عنك من الله شيئا ٠ وهذا الحديث مخرج على شرط البخاري ، وروى مثله الامام أحمد في مسنده ٠

دعوته صلى الله عليه وسلم للأقربين :

٢١٧ ـ ولقد جاء في التاريخ الكبير لابن الأثير : « لما أنزل الله تعالى على رسوله « وأنذر عشيرتك الأقربين » اشتد ذلك على النبي صلى الله تعالى عليه وسلم وضاق ذرعا ، فجلس في بيته كالمريض ، فأتته عماته يعدنه ٠ فقال ما اشتكيت شيئا ، ولكن الله أمرني أن أنذر عشيرتي ٠ فقلن له فادعهم ولا تدع أبا لهب فيهم ، فانه غير مجيبك ٠

فدعاهم ومعهم نفر من بني المطلب بن عبد مناف ، فكانوا خمسة وأربعين٠

فبادرهم أبو لهب فقال : هؤلاء عمومتك ، وبنو عمك ، فتكلم ودع الصباة، واعلم أنه ليس لقومك بالعرب قاطبة طاقة ، وأنا أحق من أخذك فحبسك ، وان أقمت على ما أنت عليه فهو أيسر عليهم من أن يثب بك بطون قريش وتمدهم العرب ، فما رأيت أحدا جاء على بني أبيه بشر مما جئتهم به ٠

فسكت رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ولم يتكلم في هذا المجلس ، وان هذا من حكمة البيان ، فقد بادر أبو لهب بخلق جو عنيف من الاعتراض الشديد، والانذار والوعيد ، وبذلك يشجع كل معارض ، ولو كان في الاصل مترددا ، فزال التردد الى حال معترضة ، ولذا أجل قوله الى مجلس آخر ، حتى يزول غبار الاعتراض الذي أثاره أبو لهب ٠

ويقول ابن الأثير دعاهم مرة ثانية ،ووقف فقال :

« الحمد لله أحمده وأستعينه ، وأثق به ، وأتوكل عليه ، وأشهد أن لا اله الا الله وحده لا شريك له »، ثم قال : « ان الرائد لا يكذب أهله ، والله الذي لا اله الا هو اني لرسول الله اليكم خاصة ،والى الناس كافة والله لتموتن ، كما تنامون ، ولتبعثن كما تستيقظون ،ولتحاسبن بما تعملون ، وانها للجنة أبدا ، أو النار أبدا » .

وفي هذه المرة لم يبادر أبو لهب ، بل بادر أبو طالب حبيب رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم وان لم يتبع ، فقال غير موافق ، ولكن يعاون ، وغير متبع ولكن من غير معاداة .

قال أبو طالب : « ما أحب الينا معاونتك ، وأقبلنا لنصيحتك وأشد تصديقا لحديثك !! ، وهؤلاء بنو أبيك مجتمعون، وانما أنا أحدهم ، غير أني أسرعهم الى ما تحب فامض لما أمرت به فوالله لاأزال أحوطك وأنفعك ، غير أن نفسي لا تطاوعني على فراق دين عبد المطلب » .

ولم يسكت أبو لهب والباطل لجوج دائما بل قال هذه والله السوءة خذوا على يديه قبل أن يأخذه غيركم .

فقال أبو طالب (مصرا) والله لنمنعنه ما بقينا .

بين أبي طالب وأبي لهب :

٢١٨ ـ ان موقف أبي طالب لايحتاج الى تعليل : لأنه موقف الشفيق على من كفله ومن رباه ، فقد كان كافله بعد جده عبد المطلب واختاره عبدالمطلب دون بقية بنيه ، ولم يكن أسنهم ، فكان يمنع النبي مستجيبا لداعي الشفقة والمحبة ، ومستجيبا لوصية أبيه بأن يحفظه ويحوطه ، فقام بحقها ، حتى بعد أن صار محمد شابا سويا قويا ، ووجدأن الحياطة تكبر بكبر الموصى به فتكون معاونة بعد أن كانت وصاية ، وتكون مدافعة بعد أن كانت رعاية .

انما الذى يحتاج الى تعليل هو موقف أبي لهب فما أعلن ما توجبه القرابة بل ما توجبه العصبية التي تجعله مع محمد عصبته وقريبه القريب ، وأن

عليه أن يحميه ، لم يفعل ذلك ، ولم يسكت مفوضا الأمر الى أبي طالب أخيه ، كما سكت حمزة والعباس ، ولم يكونا قد دخلا في الاسلام ، لم يفعل ذلك أبو لهب ٠

ولعلنا لو أشرنا قليلا الى طبيعته ،وما أحيط به لسهل علينا تفسير موقفه، أو أدركنا تعلة لهذا الموقف الذي عادى محمدا عليه السلام وخالف قرابته مسلمهم وكافرهم على سواء ٠

لقد كان عبد العزى (أبو لهب) طبيعة غير طبيعة اخوته، فاخوته يطلبون السيادة والشرف والعزة بالخلق العربي الصميم ، وهو يطلب المال والدنيا ،وفيه أثرة ، وحب الذات ، ومن يكون كذلك يميل دائما الى الابتعاد عما يثير المتاعب، ويؤثر في المال ويوجد اضطرابا ،وبذكائه الشديد أدرك أن دعوة محمد عليه السلام تقدمة لمتاعب لمن يعتنقها أو يحميها، فقاومها، وشدد في المقاومة، وطبيعته المادية جعلته لا يفكر في أي أمر معنوي ، ولا في رجاء لنصرتها ، وطبيعة الأثرة فيه جعلته لا يفكر في احساس غيره ، ولا في معاونته من يحتاج الى معاونة طويلة مديدة من أسرته ٠

وتلك الطبيعة التي لا تريد الا استقرارا لأجل المال ، وما يتصل به من منع تكره تغيير ما كان عليه الآباء ، بل ترغب في أن تسير الحياة نمطية ،لاتغيير فيها ولا اضطراب ٠

ولعل هذه الطبيعة هي التي جعلته لايخرج مع قريش في غزوة بدر الكبرى، وخرج العباس وان كان كارها محرجا ،وهناك عامل ثان ، فوق ذلك العامل النفسي ، وهو زوجه أم جميل الأموية أخت أبي سفيان ، فقد كانت عاملا مذكيا لتلك الطبيعة المعاندة ، كانت تكره رسول الله تعالى محمدا صلى الله تعالى عليه وسلم ، وتكره زوجه أم المؤمنين خديجة ، والتقى كرههما في قرن واحد من يوم زواجهما الميمون الطاهر ، ولا ندرى أكان الزواج هو السبب أم كان غيره ٠

وبهذه الكراهة كانت تحرضه ، وتؤجه اذا تصورت أن نيران العداوة قد تطفئها القرابة ، وعلو شأن محمد في دعوته وجهاده ، وذكر اسمه في كل بلدان العرب ، وتجاوز ذلك الى البلدان المصاقبة ، كالرومان والشام ومصر ٠

ولقد كانت لا تتردد أخت أبي سفيان في أن تقرض الشعر ذما للنبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، وتسميه مذمما ولا تسميه محمدا ، فقد قالت في ذلك :

مذمما قلينا ، ودينه أبينا ، وأمره عصينا

ولقد تلقى شعرها هذا بالاستضحاك، وعد ذلك ليس شتما له ، لأنها لم تذكر اسمه في شتمها ، فقال عليه السلام : « انظروا كيف يصرف الله تعالى عني شتمهم ولعنهم يشتمون مذمما ، ويلعنون مذمما ، وأنا محمد » ، وكان فيها مع ذلك صفة السفيهات من النساء، انها كانت تمشى بالنميمة ، فتوقد نيران العداوة ، وقد قال الله تبارك وتعالى فيها :

﴿ تَبَّتْ يَدَآ أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ۝١ مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُۥ وَمَا كَسَبَ ۝٢ سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ۝٣ وَٱمْرَأَتُهُۥ حَمَّالَةَ ٱلْحَطَبِ ۝٤ فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍۭ ۝٥ ﴾ (١)

هذا هو أبو لهب ، وهذا هو السر في عداوته للحق ، ولمحمد عليه السلام مع قرب رحمه ومع أنه سر لولادته وقت أن ولد .

أبو لهب وموقفه من الدعوة والدعاية :

٢١٩ ـ هذا أبو لهب ، وذلك موقفه من دعوة النبي صلى الله تعالى عليه وسلم التي كرهته فيه بعد ود أو ان شئت فقل محبته له في صباه حتى بدا ما يتخالف فيه الطبعان طبع العم المادي، وطبع ابن أخيه الروحي الذي لا يحرص على المال .

أما أبو طالب ، فلم يكن عدوا لدعوة محمد عليه السلام ، وعباراته تومىء بأنه لا يعاندها ، وما عند أبي لهب من صفات تناقضها ، صفات أبي طالب توافقها في أصلها ، فأبو طالب لم يكن أثرا يحب المال ، بل كان فيما يبدو من خلق يجعله يميل الى الايثار بالمحبة ، فآثر التعب على الراحة في مناصرة النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، وبينما أبو لهب يؤثر الدعة والاستقرار على أي صورة كانت ، كان أبو طالب شيخ البطحاء لا يؤثر الدعة والاستقرار مع الضيم ، بل يقاوم الضيم راضيا بملاقاة أسباب الارغام بقلب صابر قوي .

---

(١) المسد

وبينما كان أبو لهب محبا للمال مؤثرا له على كل شيء من أسباب الحياة الكريمة كان أبو طالب يكتفي من المال بالقليل من غير أن يبذل مروءته في سبيل طلبه ، فالمروءة عنده أولى بالطلب من الاستكثار من المال ، ولذلك كان محدودا ، ولم يكن مجدودا ، لكل هذا قبل أبو طالب أن يكون لمحمد نصيرا ، لان الشفقة والمروءة، والمناصرة العربية الكريمة تقاضته ، فاستجاب لسجيته له، وما وهن ولا استكان ، ولا ولى ، بل استمر مناصرا في كل الشدائد ، حتى قبضه الله تعالى ٠

وليست الغرابة في نصرته للنبي عليه السلام ، انما الغرابة في أنه لم يدخل فيما يدعو اليه !! ذلك تقدير العزيز العليم ، وقد ذكرنا من قبل أن ذلك دفع لوهم يقوله بعض الواهمين ،أن دعوة محمد كانت عصبية جاهلية ٠

ولقد ذكر ابن كثير أنه لو أسلم كما كان يظهر من لحن قوله أنه يميل الى الاسلام ، اذ يقول :

لولا الملامة أو حذار سبة   لوجدتني سمحا بذاك مبينا

لو أسلم لكان المشركون له أعداء كما عادوا محمدا ، وقد كان عندهم من قبل ذلك الأمين المحبوب الذي يسمع قوله ويطمأن الى حكمه ، ولكن أراد الله تعالى أن يبقى على دين قومه ، لكي يكون ردءا للنبي وعضدا في وسط المدلهمات ، وقال ابن كثير في ذلك :« وكان رسول الله تعالى أحب خلق الله تعالى اليه » (أي الى أبي طالب) ،وكان يحنو عليه ، ويحسن اليه ، ويدافع عنه ، ويحامي ، ويخالف قومه في ذلك مع أنه على دينهم ، وعلى خلتهم ، الا أن الله تعالى قد امتحن قلبه بحبه حبا طبيعيا لا شرعيا ، وكان استمراره على دين قومه من حكمة الله تعالى ، ومما صنعه لرسوله من الحماية ، اذ لو أسلم أبو طالب ، لما كان له عند مشركي قريش وجاهة ، ولا كلمه ، ولا كانوا يهابونه ويحترمونه ، ولاجترؤوا عليه ، ولمدوا ايديهم والسنتهم بالسوء اليه ، «وربك يخلق ما يشاء ويختار ، وقد قسم خلقه أنواعا وأجناسا » (١) ٠

---

(١) البداية والنهاية جـ ٣ ص ٤١

٢٢٠ ـ كانت دعوة محمد ابتداء سرية يدعو اليها من يعرف من أصدقاء وأوليائه الذين كانوا كنفسه ، ثم يدعو كل من ذاق بشاشة الاسلام وخالطت نفسه من أصدقائه وأحبابه ، فكانت تصغي اليه الأفئدة طالبة الحق ، بقوة المحبة للخل الوفي ، وللحق البدي ، من دعوة علنية ، ولكن الامر النوراني لا يخفى طويلا ، فعلم وان كان في أضيق دائرة •

دعوته صلى الله عليه وسلم للأقربين :

٢٢١ ـ وكان لابد أن يتولى النبي عليه الصلاة والسلام الاعلان ،والجهر، وكما بدأ بدعوة أهل بيت النبوة ، الذين أشرق الوحي عليهم ،وهو بينهم ، فقد أخذ بأمر الله تعالى يعلنه بين ذوي قرابته يؤمن من يؤمن ، ويكفر من يكفر •

ولعله يبدو بادي الرأي واضحا جليا أن أكثرهم قد رد من عشيرته ، ولم يستجب الا بعض نساء العشيرة الطاهرة كصفية ، وفاطمة امرأة أبي طالب ، وكان من هذه العشيرة أول من جاهر بالعداوة ، وهو قريبه القريب عمه أبو لهب ، وفي هذا دليل مادي على أن الدعوة ما كانت من انبعاث قبلي ، بل كانت استجابة لدعاء رباني •

كان اعلان الدعوة للعشيرة الأقربين، اعلانا للعرب أجمعين ، فقد كانت بأعلى الصفا ، وتسامع بها الناس ، واذا كان الخطاب للعشيرة خاصة ، فقد كان الاعلام لقريش ، ثم اظهارا لنبي بعث رحمة للعالمين ، تسامعت به الركبان ، وتذاكر فى دعوته الذين يغشون مكة من غير أهلها ، وبذلك انتشرت الدعوة المحمدية بتبليغ رسالة ربه الذي كلف رسالة ربه في غير معاندة للمشركين ، ولا مجابهة لهم ولا تحد لملتهم •

ولقد كانت تسير في استخفاء ، كما يسري الماء العذب في أرض مغطاة بالأعشاب ، ولكنه يثمر ، وينبت ، وينمي ولو كان مستخفيا ، وكان الذين ارتضوا الاسلام دينا يستخفون بعبادتهم ولا يظهرونها ، ويذهبون الى شعاب مكة يصلون فيها ، وما عرف أنهم كانوا يذهبون الى الكعبة مجاهرين متحدين ، ولكن كانوا يستخفون بهذه العبادة •

ولقد روي اسلام كثيرين في ذلك وهم غلبة الصحابة الذين بنيت دعوة الاسلام عليهم ، وكانوا الدعامة الاولى في قواعد البلاغ المحمدي •

فاصدع بما تؤمر

٢٢٢ ـ نزل في تدرج الدعوة قوله تعالى :

﴿ فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ ﴿٩٤﴾ إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ
﴿٩٥﴾ الَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٩٦﴾ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ
بِمَا يَقُولُونَ ﴿٩٧﴾ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ السَّاجِدِينَ ﴿٩٨﴾ وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ
الْيَقِينُ ﴿٩٩﴾ ﴾ (١)

فكانت هذه الآيات الكريمة دعوة الى أن تبلغ الدعوة أقصى مراتبها ، وأبعد تكليفاتها أثرا في التكليف ، وتأثيرا في النفوس ·

ومن كتّاب السيرة من يرى أن التكليف الكامل بدعوة الناس أجمعين قد ابتدأ من نزول قوله تعالى : « وأنذر عشيرتك الأقربين » ومن هؤلاء ابن كثير ، فقد قال في نزول هذه الآيات الكريمات ما نصه : « بعنوان أمر الله رسوله عليه الصلاة والسلام بابلاغ الرسالة · قال الله تعالى :

﴿ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ ﴿٢١٤﴾ وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ
﴿٢١٥﴾ فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢١٦﴾ وَتَوَكَّلْ عَلَى الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ ﴿٢١٧﴾
الَّذِي يَرَاكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٢١٨﴾ وَتَقَلُّبَكَ فِي السَّاجِدِينَ ﴿٢١٩﴾ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٢٢٠﴾ ﴾ (٢)

وقال تعالى :

﴿ وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ ﴿٤٤﴾ ﴾ (٣)

---

(١) الحجر (٢) الشعراء (٣) الزخرف

وقال تعالى :

﴿ إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْءَانَ لَرَادُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ قُل رَّبِّي أَعْلَمُ مَن جَاءَ بِالْهُدَىٰ وَمَنْ هُوَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٨٥﴾ ﴾ (١)

أي ان الذي فرض عليك ،وأوجب عليك تبليغ القرآن لرادك الى دار الآخرة ليسألك عن ذلك ،كما قال تعالى :

﴿ فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٢﴾ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾ ﴾ (٢)

والآيات والأحاديث في هذا كثيرة جدا (٣) ٠

ونرى من هذا التقرير ان الامام الحافظ ابن كثير لا يرى أن ثمة تدرجا في الدعوة ، وأنه من وقت أن أمر النبي صلى الله تعالى عليه وسلم بانذار عشيرته الأقربين كانت الدعوة عامة ، وأن الاقتصار في الآية على ذكر العشيرة الأقربين لا يفيد قصر الدعوة في هذه الآية عليهم ، بل يفيد الابتداء بهم ، أو مواجهتهم ، مع مخاطبة غيرهم ، ولا يفيد قصر الدعوة عليهم ، لأن الرسالة المحمدية يخاطب بها الأحمر والأبيض والأسود والعبيد والأحرار ٠

ونحن نوافق على عموم الرسالة المحمدية ، وأنها ليست بمقصورة على قرابة قريبة أو بعيدة ، ولكن هذا تدرج في الدعوة والخطاب ، وان ذلك يتضمن دعوة غيره من المكلفين ، بلا فرق بين قريب وبعيد ، فالجميع مكلفون بالاستجابة من غير تفريق ، ونحسب أن قوله تعالى : « وأنذر عشيرتك » الخطاب فيها مقصور على العشيرة ، ولذلك لم يدع محمد عليه الصلاة والسلام الى الاجتماع بهم الذي كان في الصفا غيرهم ، وليس من المعقول أن يكلف العامة بخطاب طائفة من الخاصة ، بل لابد من توجيه الخطاب اليه ، فجاء في قوله تعالى :

﴿ فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ ﴿٩٤﴾ ﴾ (٤)

الى آخر الآيات ٠

---

(١) القصص (٢) الحجر (٣) البداية والنهاية جـ ٣ ص ٣٨
(٤) الحجر

ويزكى هذا ما جاء عن ابن اسحاق، فلقد جاء ما نصه : ثم أمر الله تعالى رسوله صلى الله تعالى عليه وسلم بعد ثلاث سنين من البعثة أن يصدع بما أمر ، وأن يصبر على أذى المشركين ،وكان أصحاب رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم اذا صلوا ذهبوا في الشعاب، واستخفوا بصلاتهم من قومهم ، فبينما سعد بن أبي وقاص في نفر يصلون في شعاب مكة ، اذ ظهر عليهم بعض المشركين ، فناكروهم ، وعابوا عليهم ما يصنعون ، حتى قاتلوهم ، فضرب سعد رجلا من المشركين بلحي جمل فشجه ، فكان أول دم أريق في الاسلام (١) ٠

وقد قال ابن اسحاق في موضع قبل هذا :

دخل الناس في الاسلام أرسالا من الرجال والنساء ، حتى فشا ذكر الاسلام بمكة ، وتحدث به ، ثم ان الله عز وجل أمر رسوله صلى الله تعالى عليه وسلم أن يصدع بما جاء به ، وأن يبادي الناس بأمره ، وكانت المدة بين ما أخفى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم واستتر به الى أن أمره الله تعالى باظهار دينه ــ ثلاث سنين فيما بلغني من مبعثه ، ثم قال تعالى :

﴿ فَٱصۡدَعۡ بِمَا تُؤۡمَرُ وَأَعۡرِضۡ عَنِ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ﴿٩٤﴾ ﴾ (٢)

ومن ذلك نستطيع أن نقول ان الدعوة المحمدية في مدة ثلاث السنين تدرجت في ثلاث مراحل ، أشار اليها من قبل الامام ابن القيم في زاد المعاد اذ ابتدأت الدعوة من النبي عليه الصلاة والسلام ، ومن بيت النبوة سرت الى من يتصل بهم من أصدقاء وخلان ، فكان من النبي عليه السلام الى صديقه الاول أبي بكر عتيق بن أبي قحافة ومن عتيق سرت الى أصدقائه كعثمان بن عفان وطلحة بن عبيد الله ، ومن بيت النبوة سرت الى صفية والزبير ، وغيرهم من

---

(١) سيرة ابن هشام طبع الحلبى ج ١ ص ٢٦٣ (٢) الحجر

عشيرة النبي عليه الصلاة والسلام وأقربائه الأدنين ، وهذه هي مرتبة الدعوة الاولى التي أشار اليها ابن القيم في ترتيب مراتب الدعوة ٠

ثم كانت المرتبة الثالثة من بعد ذلك ، وهي مرتبة الدعوة العامة في قريش ومجابهتهم بدعوة الحق ، من غير أن تكون مقصورة على بيت النبوة ، أو على أقرباء النبي عليه السلام ٠

وهي في كل مرتبة لا تقف عند الحدود التي ابتدأت فيها ، بل تسرى الى غيرها ، سريان النور الى الظلام ، وفي مرتبة العشيرة الاقربين خرجت الى قريش كلها ، فما كان يدعو عشيرته من آل عبد المطلب وبني هاشم في كن مستور من الارض ، بل كان يدعوهم جهرة في غير مواربة ٠

فضل القرآن :

٢٢٣ ــ وقد يسأل سائل ، ما الدليل الذي كان يسوقه النبي في هذه الدعوة ، فقد كان الذي نزل من القرآن قليلا ، وتوالى نزوله بعد ذلك ، ولم يذكر أن أحدا جادل حول القرآن ، أو طلب دليلا واستدل به ، فما الذي كان يهديهم الى الاتباع من غير أن يتعرفوا دليلا قدم ، وبرهانا أقيم ٠

والجواب عن ذلك أن الاستجابة كانت للحق في ذاته ، ولما عرف من تاريخ النبي صلى الله تعالى عليه وسلم اذ كان الصادق الذي لم يعرف كذبه قط ، والأمين الذي لم يقترن عمل له بريبة قط ، والصفي في نفسه ، والمحبوب لمكارمه ، والعاقل الذي لم يعرف فيه انحراف فكري ، بل هو المدرك المستقيم الادراك في كل معاملاته ، وكل ما اتصل به من أعماله ٠

ثم كان هذا القرآن الذي ابتدأ يتلوه عليهم ببيانه الذي فاق كل بيان ، وعلا عن أن يتسامى اليه أي انسان ،وان اشراق نفوس هؤلاء ، وحيرتهم في الأوثان ، اذ يرون الأوثان تفقد قوتها في نفوسهم ، وتنهار مكانتها في قلوبهم ، وبقايا الأديان السماوية تتورد على عقولهم ، وبعض سنن ابراهيم ومآثره يزاولونها في حجهم ، وبنسبته اليهم يعتزون ويفاخرون ولم تسبق الى نفوسهم نزعة حسد ، أو حقد ، أو منافسة مقيتة ، مما عوق غيرهم ٠

كانت نفوس الذين اتبعوا الرسول والذين آمنوا معه نفوسا صافية ، وما علاها من غبار الوثنية زال وشيكا ،فكان الحق وحده هو الذي لمع نوره وجذبه اليهم ، فوق ما كان ، مع محمد صلى الله تعالى عليه وسلم من بينات ، ولقد قسم الباحثون في أخلاق الناس القلوب عند تلقي الحق ، الى ثلاثة أقسام :

القسم الاول: القريب الى الهداية وهو من يقتنع بالحق بمجرد بيانه ، فبيانه وحده يهديهم الى سواء الصراط ، ولا يحتاجون الى دليل غير سراج الحق المزهر ، وأولئك هم الذين ينظرون الى الحق ، وقد خلت قلوبهم من هوى اللذات والشهوات ، فأشرقت بالحكمة وصفت ، فدخل نور الهدى فنطقوا به ، وعملوا به ، وساروا على منهاجه ،وأولئك لا يطالبون حامل الحق الداعي اليه ببرهان يقدمه ، فالحق وحده يحمل في نفسه دليل صدقه ، اذ اشرأبت اليه النفوس ، ومن هذا القسم أولئك الذين اتبعوا محمدا في أول الدعوة ٠

القسم الثاني : قوم امتلأت عقولهم بمعلومات سابقة ، أو اختلطت فى نفوسهم نوازع الحق ، ونوازع الباطل ، وفيهم ادراك يميزون به بين الحق والباطل ، وأولئك يحتاجون الى دليل ،لينفوا به خبث الفكر الذي خالط قلوبهم ، وأثر في نفوسهم ، فالبرهان يعينهم ، وينير السبيل لهم ، وذات الحق لا يكفي بيانه لكي يستولي عليهم ، ويسيرهم الى الهدى ، فلا بد من دليل يرجح نوازع الهداية على غيره ٠

والقسم الثالث : قسم غلبت عليه الضلالة ، وغلبت عليه شقوته ، فلا يتبع الحق لذات الحق ، ولا يزهر في قلبه ،وليس له بصيرة مخلصة في طلب الحق، وفي الوقت ذاته قد طمس على بصيرته،فختم على قلبه ، وكان على ادراكه غشاوة ، وهؤلاء هم المعاندون المكابرون الذين جعلهم الله أعداء للحق ،وهؤلاء يكون موقفهم معاداة أصحابه ، وموقف أصحابه مدافعته ، فلا تكون العلاقة الا ممانعة ، يمنعون الحق من أن ينتشر ،ويمانعهم هؤلاء ليدفعوا الاذى ،ولذلك لا يكون بينهم الا السيف ٠

ولقـد قال الغزالي ان قوله تعالى :

﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ (٢٥) ﴾ (١)

وكان المؤمنون الأولون خديجة وأبو بكر وعلي وزيد ، وعثمان والزبير ومن معهم من السابقين الأولين من الصنف الأول ، ثم جاء من بعدهم ، من خاطبهم القرآن بالاعجاز وتحداهم فمنهم من اهتدى ، وأبصر ، ومنهم من ضل وغوى فكان المعتدي الأثيم ، وكان الجهاد ، فكانوا أهل السيف ، وما كان لصاحب دعوة خالدة أن يترك الشر يسيطر ، والحق يستخذي .

(١) الحديد

استجابة محمد صلى الله عليه وسلم لأمر ربه

٢٢٤ ـ استجاب محمد لأمر ربه ،وبعد أن كان يدعــو من يدعــوه في مناجاة ، ثم اقتصرت الدعوة العلنية على عشيرته الأقربين بعدئذ أخذ يدعو كل من يلقاه ، وأخذ يغشى الأسواق التي حول مكة يدعو الى دينه ، وتبليغ رسالة ربه ، غير مدخر جهدا في الدعوة الى الحق والوحـدانية بعبادة الله تعـالى وحده ، لا شريك له ، ويقـول في ذلك ابن كثير :

« المقصود أن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم استمر يدعو الى الله تعالى ليلا ونهارا ، وسرا وجهارا ، لا يصرفه عن ذلك صارف ولا يرده عن ذلك راد ، ولا يصده عن ذلك صاد ، يتبع الناس في أنديتهم ، ومجامعهم ومحافلهـم ، وفي المواسم ومواقف الحج ، يدعـو من لقيه من حر وعبد ، وضعيف وقوي ، وغني وفقير ، جميـع الخلق في ذلك شرع سواء ، وتسلط عليـه وعلى من اتبعه من آحـاد الناس من ضعفائهـم الأشداء الأقوياء » (١) ٠

وكان أشدهم اغلاظا عليه عمه عبدالعزى أبو لهب ، وثانيهم عمـرو بن هشام الذي لقبه التاريخ الاسلامى بحق بلقب أبي جهل ، أما الأول فلم يكن منه أذى بدني أو قولي للنبي عليه الصلاة والسلام ، ولكن مبالغة في مقـاومة دعوته ، ولا يكتفي بالقعود عن حمايته، وأما ثانيهما فقد كان فاجـرا فـكانت معاندته للنبي عليه الصلاة والسـلام فجورا في القـول والعمل ، وللضعفاء اعناتا وبغيا ، وسنخصه بالقول في حركة الاضطهـاد ، والبواعث التي دفعته الى هذا الموقف الذي جـره الى ذلك البغي المرذول الذي لا يقع من كريم ٠

وأبو لهب كان موقفه موقف محاربة الدعوة ، فكان يتبع محمدا عليـه الصـلاة والسلام في التقائه بالقبائـل العربية في موسم الحج ، فكلما ذهـب الى محفل أو نادي يدعـو فيه ناكره ،ودعا السامعين الى ألا يستجيبوا ٠

---

(١) البداية والنهاية لابن كثير جـ ٣ ص ٤٠

روى الامام أحمد عن أبي الزناد عن أبيه ، قال أخبر رجل يقال له ربيعة بن عباد قال : « رأيت رسول الله في سوق ذي المجاز ، وهو يقول : « يأيها الناس قولوا لا اله الا الله تفلحوا » والناس مجتمعون عليه ، ووراءه رجل وضيء الوجه يقول : انه صابيء كاذب يتبعه حيث ذهب ، فسألت عنه ، فقالوا هذا عمه أبو لهب » .

وروى البيهقي مثل ذلك مع بعض الزيادة عن ربيعة هذا الذي ذكرناه أنه قال : « رأيت رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم بذي المجاز وهو يتبع الناس في منازلهم يدعوهم الى الله ، ووراءه رجل أحول تقد وجنتاه ، وهو يقول : « أيها الناس لا يغرنكم هذا عن دينكم ودين آبائكم ، قلت من هذا قيل أبو لهب عمه » .

ونرى من هذا أن أبا لهب قبل أن يكون هو المثبط ، ولعله اختار ذلك لنفسه أو اختاره المعارضون للدعوة المحمدية ، فيكون ادعى الى تصديقه ، اذ هو قريبه القريب ، فمع أنه أقرب رحما كذبه ، فهذا ترشيح لصدقه عليه السلام ، وأنساه الحقد ، والضلال أن الحق ذاته له نور ساطع ، لا يحاجز دونه هذا وأشباهه ، ولكنه الأفن يتولد من ضيق العطن ، وغلبة الهوى ، وسيطرة المآرب المادية .

ومهما يكن فقد حمل محمد عليه الصلاة والسلام عبء الجهاد من حين نزل قوله تعالى :

﴿ فَٱصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٩٤﴾ ﴾ (١)

وتقدم بمن هداهم الله تعالى به من صحب كرام اشتروا الهدى بالضلال ، والحق بالباطل ، واشترى منهم أنفسهم ، فكانوا السابقين ولنشر بكلمة الى من سبقوا ، وان كانوا عددا قليلا .

---

(١) الحجر

السابقون السابقون

٢٢٥ ـ أشرنا الى سبق الأربعة الكرام خديجة أم المؤمنين ، سكن الرسول التي جعلت بيته روضة الاطمئنان ،ويسكن اليها بعد معاناة عداوة الأعداء، والمناضلة في سبيل الله تعالى ، فيجد المواساة ، ويجد القلب الحبيب الودود ، وما أكرم الوداد ، اذ يذهب ببرحاء العداء ، ويجعل الروح والريحان ،بعد ملاقاة الكذب والبهتان ٠

ثم ذكرنا أبا بكر الصديق الولي الوفي ، والصديق الذي خلص قلبه لله تعالى ، واذا كان ابراهيم أبو الأنبياء خليل الله ، فالصديق كبير المصدقين خليل محمد رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، وقد أشرنا الى أنه ما علم أن أسلم ، بل انه سعى الى الايمان بمحمد عندما علم من حكيم بن حزام بأمر ما جرى بين النبي عليه السلام وورقة بن نوفل وزوجه خديجة من مذاكرة في أمر الرسالة المحمدية ٠

وذكرنا اسلام علي بن أبي طالب الذي صدق ابن عمه بعد تفكير وهو ابن عشر سنين ، وكان قد هم باستشارة أبيه ، ولكنه فكر وقدر وحده ، فعاد الى ابن عمه يعلمه بايمانه ، فكان المؤمن باقتناع مع الصغر وغضاضة الاهاب ٠

وذكرنا ايمان زيد بن حارثة الذي آثر جوار محمد عليه السلام قبل أن يبعث على أن يعود الى أبيه وأمه حرا ،فاختار الرق مع محمد بن عبد الله على الحرية مع أبويه ، فجعله محمد الكريم ابنا له وحرا ، فكان وارثا وموروثا ٠

ثم ان اسلام أبي بكر جعل بعض أصدقائه ومن يألفونه يستأنسون بالاسلام ، فقد كان ألوفا محبوبا ، قال فيه محمد بن اسحاق : « كان أبو بكر مألفاً لقومه ، محببا سهلا ، وكان أنسب قريش لقريش ، وأعلم قريش بما كان فيها من خير وشر ، وكان رجلا تاجرا ذا خلق ومعروف ، وكان رجال قومه يأتونه ويألفونه لغير واحد من الامر ٠ لعلمه وتجارته وحسن مجالسته،

فجعل يدعو الى الاسلام من وثق به من قومه ممن يغشاه ويجلس اليه ، فأسلم على يديه فيما بلغني الزبير بن العوام ،وعثمان بن عفان ، وطلحة بن عبيد الله، وسعد بن أبي وقاص وعبد الرحمن بن عوف رضي الله تعالى عنهم أجمعين»(١) .

وقد قدم هؤلاء للنبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، وأخذ أبو بكر يبث الدعوة لاصدقائه وخلانه ، وعارفيه ، ثم ذهب بطائفة أخرى الى النبي عليه الصلاة والسلام منهم عثمان بن مظعون ، وأبو عبيدة عامر بن الجراح ، وأبو سلم بن عبد الأسد ، والأرقم بن أبي الارقم .

أخذ العدد ينمو بفضل الله ، واخلاص صفوة مختارة ممن صفت نفوسهم ، واستقامت قلوبهم حتى بلغ العدد ثمانية وثلاثين ، ومنهم نساء دخل الاسلام قلوبهن ، ومنهن أم جميل أخت عمر بن الخطاب ، وزوجها زيد بن نفيل كان من السابقين الأولين .

وقد أراد أبو بكر أن يخرج المسلمون مجاهدين بالدعوة الى الاسلام قبل أن يتكاثر الجمع ، ولكن محمدا عليه السلام صاحب الدعوة والتبليغ رأى التريث ، حتى يكون الجمع أوفر وأكثر عددا ،لانه مع العدد عزة الكثرة النسبية ،وان كانوا في الحقيقة عددا قليلا ، ولكن الصديق ما زال بمحمد عليه السلام حتى قبل أن يخرجوا من الاستخفاء الى الاعلان ، ويظهر أن الدعوة قد أعلنت بانذار العشيرة الأقربين ، وتذاكر الناس أمرها ، ولكن يندر فيهم من يتقبلها ، ويكثر فيهم من يعارضها ، ومنهم من لم يعرف لهم موافقة ولا مناوأة .

ومهما يكن فقد خرج أبو بكر ، ومحمد عليه الصلاة والسلام قام بعمل جليل قبل ذلك الخروج فقد انبعث كل رجل الى عشيرته يدعو الى الاسلام فيها ، وخرج محمد صلى الله تعالى عليه وسلم ومعه أبو بكر الى المسجد الحرام ، ثم قام أبو بكر خطيبا ، ورسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم جالس . وقال ابن كثير في روايته ما نصه : كان أول خطيب دعا الى الله والى رسوله (أي بعد النبي) ، وثار المشركون على أبي بكر وعلى المسلمين فضربوه في نواحي المسجد ضربا شديدا ، ووطىء أبو بكر، وضرب ضربا شديدا (٢) .

---

(١) سيرة ابن هشام والبداية والنهاية جـ ٣ص ٢٩

(٢) البداية والنهاية لابن كثير جـ ٣ ص ٣٠١

٢٢٦ ـ بعد ذلك ، وخصوصا بعد اعلان الاسلام في مخاطبة بني هاشم وبني عبد المطلب عند الصفا ، أخذ الاسلام ينتشر انتشارا الضوء في الظلام ، فأسلم بنو مظعون من أولاد كعب بن لؤي ، وأسلم عبيدة بن الحارث بن المطلب وسعيد بن زيد بن نوفل ، وامرأته فاطمة ، أخت عمر بن الخطاب ، وعمير بن أبي وقاص ، وعبد الله بن مسعود الهذلي وأسماء بنت أبي بكر ، وهكذا غيرهم من أهل مكة الاحرار ، وان لم يكونوا ذوي مال وذوي رياسة .

ومن الضعفاء ، وقد كانوا أسبق الى الاسلام عامر بن فهيرة مولى أبي بكر الصديق ، وهو مولد الأسد اشتراه أبو بكر رضي الله عنه .

ومنهم صهيب بن سنان ، ويقال انه مولى عبد الله بن جدعان ، ويقال انه رومي ، ونسب الى الروم ، لانه كان أسيرا في أرض الروم .

ومنهم بلال الحبشي ، وكان مولى لبعض المشركين عذبوه ، حتى اشتراه أبو بكر وأعتقه .

ومنهم ياسر وعمار ابنه ، وأمه ، وقد كان ياسر من عرب قحطان من مذحج ، وعمار ابنه كان مولى لبني مخزوم ، لان أمه سمية كانت مولاة لهم ، فولدته على الرق ، والمولود على الرق يتبع أمه في رقها ، ولا يتبع أباه في حريته ، وكذلك كان نظام الرومان في الرق الذي سرى الى العرب .

ومنهم خباب بن الأرت ، وغيره من الضعفاء الذين سارعوا الى الاسلام .

وقد سارعوا الى خير الدنيا وخير الآخرة ، واذا كانوا قد أوذوا ابتداء ، فقد نالوا الخير انتهاء ، وكما قال تعالى:

﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُواْ فِى ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ ۝﴾ (١)

وقد دخل الاسلام بيوتا كثيرة فما من بيت الا علم بأمر دعوة محمد صلى الله تعالى عليه وسلم ، واذا كان العدد قليلا في ذاته ، فانه ما خلا بيت من بيوت مكة من مسلم ، أو من قلب مال اليه ، وأحس أهل الشرك بأن دولة الأوثان تؤتى من

---

(١) القصص

قواعدها ، وأن الاحجار أخذت تفقد سيطرتها ، ومن استمر متمسكا فعن أرب يريده باسمها ، لا عن ايمان بهافانه كان يكفي أن يدعو محمد الى الحي القيوم الذي لا شريك له ، حتى تزايلت الأوثان عن مكانتها ، وما هو الا تفكير يسير حتى زالت الأوهام ، وصارت أحجارا لا تتجاوز أنها أحجار ، ومن تمسك بها فهو غير مؤمن أو سادر في غلوائه .

الإسلام يخرج إلى القبائل :

٢٢٧ ـ من وقت أن أمر الله نبيه بأن يصدع بأمر ربه ، وقد أخذ يلتقي بالجموع ، فيغشى الاسواق داعيا ، ويدخل النوادي صادعا ، بأمر ربه ، ويقف في مناسك الحج داعيا القبائل عندما يجد سميعا ، والآحاد يذاكرهم ، يسألونه فيجيبهم بما يوحي به الله تعالى في سماحة صاحب الدعوة ، وباشراق نور النبوة حتى أصبح حديث القبائل التي تفد الى بيت الله تعالى حجيجا أو معتمرين ، أو تجارا مضاربين ، ووجد من بين القبائل من صفت أفئدتهم الى الاسلام ، يستمعون دعوته ، ويؤمنون بوحدانيته مذعنين ولعل من أدلة وصول الدعوة الى القبائل اسلام أبي ذر الغفاري ، واسلام ضماد من أزدشنوءة .

روى البيهقي في اسلام أبي ذر الغفاري أنه قال (أي أبو ذر أتيت رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم فقلت السلام عليك يا رسول الله أشهد أن لا اله الا الله وأن محمدا رسوله) فرأيت الاستبشار في وجه رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم .

ويظهر أن ذلك نتيجة لوقائع سابقة من مقتضاها أن خبر الاسلام سرى الى بني غفار ، وأن دعوة النبي عليه الصلاة والسلام قومه قد وصلت اليهم فبعثت أباذر على البحث عنها ، حتى عرف صدق النبي عليه الصلاة والسلام قبل أن يجيء اليه .

قد روى البخاري باسناده عن ابن عباس قال : « لما بلغ أبا ذر مبعث رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم قال لأخيه اركب الى هذا الوادي فاعلم لي علم هذا الرجل الذي يزعم أنه نبي يأتيه الخبر من السماء ، فاسمع من قوله ، ثم أتني ، فانطلق الآخر حتى قدمه وسمع من كلامه ، ثم رجع الى أبي ذر ، فقال رأيته

يأمر بمكارم الاخلاق ، وكلاما ما هـو بالشعر ، فقال ما شفيتني فأتى المسجد، والتمس رسول الله صلى الله تعالى عليـه وسلم وهو لا يعرفه ، وكره أن يسأل عنه ، حتى أدركـــه بعض الليــــل ،فاضطجع فعرف أنه غريب ، فلما رآه تبعه ، ولم يسأل واحدا منهما صاحبه عن شيء حتى أصبح ، ثم احتمل قربته وزاده الى المسجد وظـــل ذلك اليوم ،ولا يراه النبي حتى أمسى ، فعـاد الى مضجعه ، فمر به علي فقـال : أما آن للرجل أن يعلم منزله فأقامه فذهب به معه لايسأل واحد منهما صاحبه عن شيء،حتى اذا كان اليوم الثالث ، فعاد عـلى مثل ذلك فأقام معه ، فقال ألا تحدثني بالذي أقدمك ، قال ان أعطيتني عهـدا وميثاقا لترشدني قلت فأخبره ٠٠ قال فانه حق ، وأنه رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، فاذا أصبحت فأتبعني ،فاني ان رأيت شيئا أخاف عليك قمت كأني أريق الماء ، وان مضيت فاتبعني،حتى تدخـــل مـدخلي ، ففعل فانطلق يقفوه ، حتى دخل على النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، ودخل معه ، وسمع من قوله وأسلم مكانه فقال له النبي صلى الله تعالى عليه وسلم : « ارجع الى قومك فأخبرهم حتى يأتيك أمري » فقــال والذي بعثك بالحق لأصرخن بهـا بين ظهرانيهم ، فخرج حتى أتى المسجـــد فنادى بأعلى صوته : أشهد أن لا اله الا الله وأن محمدا رسول الله ٠ فضربوه ،حتى أضجعوه (١) ٠

فأتى العباس ، فأكب عليه ، فقال :ويلكم ألستم تعلمون أنه من غفـار ، وأنها طريق تجارتكم الى الشام ، فأنقذه منهم ثم عاد من الغد بمثلها فضربوه ، وأثاروا عليه فأكب العباس ثانيا ٠

ومن هذا نرى أن الاسلام قد أخـذ يذيع نبؤه خارج مكة ، ويقول الرواة ان غفارا أسلمت تابعة أبا ذر ، ولم يكن أمر الاسلام ليصل فقط الى من هم على مقربة من مكة ، بل وصـــل خبره الى أزدشنوءة فأسلم رجل منهم اسمه ضماد كما أشرنا ٠

وضماد هذا كان رجلا يقول للعرب أنه يرقي من به مس من جنون أو سحر ، فيشفى ، فأراد سفهاء مكة أن يحسنوا النكاية بمحمد رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، فجاءه سفهاء من مـكة ،ودعوه ليعرضوا عليه النبي صـلى الله تعالى عليـــه وســـلم ، وقالوا له انه مجنون ٠

---

(١) البداية والنهاية لابن كثير جـ ٣ ص٣٤

جاء ضماد فقال أين هذا الرجل الذي تقولون عنه انه مجنون لعل الله تعالى أن يشفيه على يدي ٠

لقي محمدا فقال له اني أرقي من هذه الرياح ، وان الله يشفي على يدي من شاء فهلم الي ٠

فقال محمد : « ان الحمد لله نحمده ونستعينه ، من يهد الله فلا مضل له ، ومن يضلل فلا هادي له ، أشهد أن لا اله الا الله وحده لا شريك له ثلاث مرات »٠

قال ضماد متأثرا وقد فتح الله قلبه للايمان « والله لقد سمعت قول الكهنة ، وقول السحرة ، وقول الشعراء ، فما سمعت مثل هؤلاء الكلمات ، فهلم يدك أبايعك على الاسلام فبايعه على الاسلام »ويروى أنه عندما سمع كلام النبي صلى الله تعالى عليه وسلم قال له أعد علي كلماتك هؤلاء فقد بلغن السحر ٠

تلك كانت أحوال من يدخلون في الاسلام كانوا فرادى ولم يكونوا جماعات الا ما قيل عن بني غفار ، وكانوا قليلا ولكنهم كانوا يزيدون ولا ينقصون ، وكانوا من بيوت مختلفة ، وشعب متفرقة ، وتجاوزوا حجزات مكة فماذا تصنع قريش ؟

المنـــاوأة

٢٢٨ ـ توقع ورقة بن نوفل معركة تقوم بين محمد بن عبد الله وقـومه بسبب ما أوحى الله تعالى والقيام بأداء الرسالة التي كلفه ربه أن يقوم بها ، لانه ما من أحد جاء قومه بمثل ما جاء الا عودي ، وقد كان محمد كريما عند قومه ، حبيبا اليهم يألفونه ، ويثقون به الثقة المطلقة ، حتى خاطبهم بما آتاه الله تعالى ، فانقلب أكثر من بمكة مخالفين، ثم مناوئين لدعوته ، مستنكرين لها ابتداء ، ومقاومين ومعادين ، ومضطهدين في الجملة لمن اتبعوه ٠

وذلك لانهم فوجئوا بهذه الدعوة الى الحق ، ولم يكونوا متوقعين لها ، ومن محمد بن عبد الله عليه الصلاة والسلام، والمفاجأة بتغيير أمر مألوف تولد الانكار ما لم يكن ثمة أمر متوقع يقع ٠

وان أمر رسول الله يجيء في بني ابراهيم وكان ذكره خارج مكة ، ولم يكن يتردد كثيرا بين أهلها ، وأهلها قوم ماديون ، لا يعنيهم الا أمر التجارة ، وأمر الحج ، ولعل الحج لا يعنيهم الا لما يعلون به من شرف بين العرب، واستعلاء عليهم ، وشعور بأن العرب لهم تبع ،وهم السادة في بلاد تصعب السيادة فيها ، وبين أقوام لا يعترفون برياسة الا ما يكون من قبل ذلك البيت المعظم ، الذي كرمه الله تعالى ، وجعله حرما آمنا تجبى اليه ثمرات كل شيء ٠

ولا يهمهم من جوار البيت الا ذلك الشرف الذي يكتسبونه من الجوار وأنه محل تجارة العرب ، كما هو محل نسكهم ، وأمنهم ، اذ الناس في خوف وتقاتل ، فكانوا بالاقامة في البيت آمنين من ناحية المال اذ هو سبيل تجارتهم ، وهو مأمنهم ، كما قال تعالى :

﴿ لِإِيلَٰفِ قُرَيۡشٍ ۝١ إِۦلَٰفِهِمۡ رِحۡلَةَ ٱلشِّتَآءِ وَٱلصَّيۡفِ ۝٢ فَلۡيَعۡبُدُواْ رَبَّ هَٰذَا ٱلۡبَيۡتِ ۝٣ ٱلَّذِيٓ أَطۡعَمَهُم مِّن جُوعٖ وَءَامَنَهُم مِّنۡ خَوۡفِۭ ۝٤ ﴾ (١)

(١) قريش

واذا كانت المفاجأة التي لم يكونوامتوقعين لها قـــد دفعتهـم الى المبادرة بالانكار ، فقد ساروا في طريقه ، وانتقلوا من الانكار الى الاستنكار ، وهو مرتبة أعلى من الانكار المجرد ، لأن الانكار المجرد أمر سلبي ، وقد يجيء من بعده الايمان اذا جاء الدليل ، أما الاستنكار فهو عمل ايجابي معناه أنه ينكر الحق ، ويستنكر الدعـــوة اليه ، ثماندفعوا من بعد الاستنكار الى المناوأة ، وكل ذلك من المفاجأة ، وقـــد تدفع المناوأة الى الجحـود ، ويدفع الجحود الى الكفر ثم الايذاء ٠

٢٢٩ ـ والدعوة المحمدية التي فوجئوا بها هي تغيير لما هـم عليه ، ألفوا عبادة الأوثان من غير ايمان قوي بها ،ولكن كانت عباراتهم تتلوى بتقديسها يتوهمون فيها أوهاما ، وبسيطرة هذهالاوهام يشركونها في عبادة الله تعالى ، وهم يعلمون أن الله تعالى خالق السموات والأرض ٠

والذين يميلون الى المال ، ومجرد الاستعلاء بين الناس لا يحبون التغيير بـل يحبون الحياة الرتيبة السهلة التي لا تبديل فيها ، ولا انقـــلاب ولا تقلب في المذاهب والأفكار ، وليس فيهم شاغـل بهذا ، ولذلك كان جـوابهم عنـــدما يدعوهم النبي صلى الله تعالى عليه وسلم:

﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُواْ بَلْ نَتَّبِعُ مَآ أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴿١٧٠﴾ ﴾ (١)

ويحكي سبحانه وتعالى عنهم فيقول تعالت كلماته :

﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُواْ بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ أَوَلَوْ كَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ يَدْعُوهُمْ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ﴿٢١﴾ ﴾ (٢)

ألفوا الشرك، ولم يألفوا التوحيد ،ولو كان الحق ساطعا ، والبرهان قائما، واستمسكوا بالاصنام ، وهم لا يؤمنون بها ، يحطمونها ويعبدونها ، ويغـيرون

---

(١) البقرة (٢) لقمان

حجرا بحجر ، وان كانت الأسمـــاء لاتتغير ، ولكنهم لا يتركونها الى غـــير ما يألفون ، ولقد توقعوا ما عـــرفوامن أخلاق محمد بن عبد الله عليه الصلاة والسلام ، ومن معاملاته أنه سيدعوهم الى تحريم الخمر ، وهم يعاقـرونها ، لانه لم يذقها في الجاهلية ، وقـد جاء القرآن الكريم بأنها ليست رزقا حسنا

﴿ وَمِن ثَمَرَٰتِ ٱلنَّخِيلِ وَٱلْأَعْنَٰبِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾ ﴾ (١)

فجعل الرزق الحسن مقابلا للسكر ، فكانت اشـارة الى قبحه ، والربا كان جزءا من تجارتهم، وعلموا من تجارة محمد أنه لا يزاوله ولا يرتضيه ، والقرآن الكريم يتلى بينهم بالاشارة الى تحريمه ، اذ يقول سبحانه:

﴿ وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن رِّبًا لِّيَرْبُوَا۟ فِىٓ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ فَلَا يَرْبُوا۟ عِندَ ٱللَّهِ ۖ وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن زَكَوٰةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ ٱللَّهِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُضْعِفُونَ ﴿٣٩﴾ ﴾ (٢)

فدل هذا بصريح العبارة أن هـذا الدين الجديد الذي جاء به محمد عليـه السلام عليهم سيزعـج الربويين الذين يستغلون أموالهم بالربا ، يدفعونه دينا ويأكلون من ثمرات تجارة غيرهم ربا ،وكان فيهم كبراء أثروا من هذا الباب، وحسبوه كالبيع ، وقالوا :

﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوٓا۟ إِنَّمَا ٱلْبَيْعُ مِثْلُ ٱلرِّبَوٰا۟ ۗ وَأَحَلَّ ٱللَّهُ ٱلْبَيْعَ وَحَرَّمَ ٱلرِّبَوٰا۟ ۚ ﴾ (٣)

وهكذا حسبوا أن ذلك الدين سيقلب عامة أمورهم ، فعاجلوه بالانكار ،ولقد صور هذا الحال جعفر بن أبي طالب فيحديثه مع النجاشي ، واليك القصـة ، كما جاءت في الصحاح في المجاوبة بينمهاجرة الحبشة،ولسانهم الناطق جعفر. قال النجاشي :

« ما دينكم ؟ أنصارى أنتم ؟ قالوا :لا . قال : أفيهود أنتم ؟ قالوا لا ، فعلى دين قومكم ؟ قالوا : لا ، قال : فمـــادينكم ؟ قالوا الاسلام . قال . فمـــا

---

(١) النحل (٢) ، (٣) البقرة

الاسلام ؟ قالوا : نعبد الله لا نشرك به شيئا • قال من جاءكم بهذا ؟ قالوا جاءنا به رجل من أنفسنا ، قد عرفنا وجهه ونسبه ، بعثه الله تعالى الينا كما بعث الرسل الى من قبلنا ، فأمرنا بالبر والصدقة والوفاء وأداء الأمانة ، ونهانا أن نعبد الأوثان ، وأمرنا بعبادة الله تعالى وحده ، لا شريك له ، فصدقناه وعرفنا كلام الله تعالى ، وعلمنا أن الذي جاء به هو من عند الله ، فلما فعلنا ذلك عادانا قومنا ، وعادوا النبي الصادق وكذبوه ، وأرادوا قتله ، وأرادونا على عبادات الاوثان ، ففررنا اليك بديننا ودمائنا من قومنا » •

هذا الكلام يصور بعض التصوير التغيير الذي رأوه في عاداتهم ، فتجردوا لمناوأته ، وأخذ الطريق عليه ان استطاعوا •

إنكارُ المشرِكينَ لليومِ الآخرِ :

٢٣٠ ـ ومما دفع الى مبادرتهم بالانكار غرابة الامر في ذاته عليهم ، ما كانوا يؤمنون بأن هناك يوما آخر يحاسب فيه المحسن على احسانه والمسيء على اساءته ، وأنها الجنة أبدا أو النار أبدا ، ولقد أكد ذلك النبي صلى الله تعالى عليه وسلم عندما وقف لينذر قومه بعد أن أمره ربه ، فقد جاء في تلك الخطبة تأكيداً لليوم الآخر ، لانه عليه السلام يعلم أنهم عنه غافلون « والله لتموتن كما تنامون ولتبعثن كما تستيقظون ولتجزون بالاحسان احسانا وبالشر شراً وانها للجنة أبداً أو النار أبداً وانكم لأول من أنذر بين يدي عذاب شديد » •

ان المشركين من العرب كانوا قوما ماديين لا يؤمنون الا بالحس يعرفون الله ، ولكن يصورون حجارة ليعبدوها فلا يعبدونه سبحانه ، وهو غيب عنهم ، فكان كل هذا غريبا ، ومن يستغرب من غير دليل ، ينكر ثم يستنكر من غير دليل أيضا ، ولقد حكى الله تعالى عنهم في انكار اليوم الآخر وما يكون :

﴿ وَإِن تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا أَءِنَّا لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ ٱلْأَغْلَٰلُ فِىٓ أَعْنَاقِهِمْ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٥﴾ ﴾ (١)

---

(١) الرعد

ويقول سبحانه وتعالى في استغرابهم الخلق من جديد :

﴿ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُۥ قَالَ مَن يُحْيِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِيَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾ قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴿٧٩﴾ ﴾ (١)

ولجهلهم بالنبوات أثار عجبهم ، والغرابة في نفوسهم أن جاءهم بالرسالة عن الله تعالى رجل منهم يدعو الى الله سبحانه ، ولو كانوا يعلمون أن الرسول لا يكون الا رجلا يمشي بين الناس ما ثار عجبهم لكونه رجلا ، ولقد قال قائلهم في الدعوى الى التمسك بالحجارة :

﴿ وَٱنطَلَقَ ٱلْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنِ ٱمْشُوا۟ وَٱصْبِرُوا۟ عَلَىٰٓ ءَالِهَتِكُمْ ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ يُرَادُ ﴿٦﴾ مَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِى ٱلْمِلَّةِ ٱلْءَاخِرَةِ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا ٱخْتِلَٰقٌ ﴿٧﴾ أَءُنزِلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ مِنۢ بَيْنِنَا ۚ بَلْ هُمْ فِى شَكٍّ مِّن ذِكْرِى ۖ بَل لَّمَّا يَذُوقُوا۟ عَذَابِ ﴿٨﴾ ﴾ (٢)

وهكذا كانت من أسباب غرابتهم بشرية الرسول ، لانهم أميون لم يعرفوا الرسالة ، ولم يدركوها من قبل .

ولقد قال الله عنهم :

﴿ وَقَالُوا۟ مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأْكُلُ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشِى فِى ٱلْأَسْوَاقِ ۙ لَوْلَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُۥ نَذِيرًا ﴿٧﴾ أَوْ يُلْقَىٰٓ إِلَيْهِ كَنزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُۥ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا ۚ وَقَالَ ٱلظَّٰلِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا ﴿٨﴾ ﴾ (٣)

فجهلهم بالنبوات والرسائل ، وعدم وجود أنبياء بينهم علموا منهم رسالات الله تعالى الى خلقه ، وأن الرسل قوم من البشر ، جعلهم يستغربون أن يكون الرسول بشرا سويا يأكل مما يأكلون ، ويشرب مما يشربون ، واذا كان الامر غريبا عليهم ، فقد كان حقا عليهم أن يتعرفوا الحقائق لتزول الغرابة عنهم ،

---

(١) يس (٢) ص (٣) الفرقان

ويستأنسوا بنور النبوة ، ولكنهم عاندوا فلج بهم العناد ، فكان منهم الجحود والكفران •

أثر دعوته صلى الله عليه وسلم :

٢٣١ ـ وان محمدا صلى الله تعالى عليه وسلم بهذه الدعوة التي تسوي بين الغني والفقير ، وتوجب حقا للفقير في مال الغني ـ قد مس كبرياءهم وهز مراكزهم هزا عنيفا ، وأحسوا بالارض تميد من تحتهم اذ أن ذوي الانساب منهم يستعلون بأنسابهم ، ويحسبون أنهم الأشراف وحدهم،والناس دونهم وهم الأعلون وغيرهم الأدنى ،فكان لابد أن يقاوموا ذلك الداعي الجديد الذي يقول بلسان المقال وبلسان الفعال لا فضل لعربي على أعجمي الا بالتقوى ، وأن الجنة لمن أطاع ، ولو كان عبدا حبشيا ، والنار لمن عصى ، ولو كان شريفا قرشيا • فهو يأخذ بنواصي الأقوياء ليضعها بجوار رؤوس الضعفاء، وقد لمحوا ذلك في أتباعه فقد رأوا أبابكر نسابة العرب ، ومألف قريش يكون بجوار بلال وعبيد أبي بكر نفسه ،لا يفرق بينهما الا فضل الايمان ، فهو مقياس الشرف والضعف ، والاكبار والاصغار •

بلا شك هذه مبادىء اجتماعية لايقبلها شرفاء مكة ورؤساؤها ، ومحمد عليه السلام لابد منفذها ، لانه كان ينفذها قبل أن يكون نبيا رسولا ، فكيف لا ينفذها ، وقد نزل الوحي عليه، وجعلها هو نظاما واجب الاتباع ، من لم ينفذه ان لم يعاقب اليوم ، فالنار الموقدة تلقاه يوم القيامة ، ويلقى به في السعير •

وقد قوى هذا أن الضعفاء أقبلوا على ما يدعو اليه محمد غير نافرين منه ، بل كانوا مستجيبين أشد الاستجابة ،وابتدأ الاقوياء الذين دخلوا في الاسلام يعاملون الرقيق ، كما يعاملون الاحرار •

اذن لابد من مقاومة ذلك التيار الذي جاء مع الدعوة ، ولا يتركونه ، حتى ينمو ، ويستغلظ سوقه ، ويكون قوة تقوض ما تحت أيدي قريش من شرف وهمي وسلطان استمدوه من ذلك الشرف الواهن في بنيانه •

ثم انهم كانوا الرؤساء الأعلون ، ولهم شبه سلطان ، وانه اذا ذاع دين محمد عليه السلام ، وصار السلطان للحق وحده ، وحكمت المساواة ،وذهبت

المنازعات القبلية ، فمحمد ذو السلطان،ويسلب كل ما لهم من سلطان ، وما بنوه من مجد طريف وتالد ينهدم بين أيديهم ، لانهم يبنون سلطانهم على أنهم ذرية اسماعيل وضئضيء ابراهيم وهاهو ذا يدعو الى ديانة ابراهيم ، ويقول في غير عوجاء ولا لوجاء ، هذه ملة ابراهيم حنيفا ، وما كان من المشركين، فأنى يكون لهم من بعد ذلك ، لابد اذن من اقتلاع دعوة محمد من جذورها ، والقضاء عليها في مهدها •

ثم ان بعض الكبراء منهم كانوا ينفسون على محمد بن عبد الله عليه الصلاة والسلام ، ويتساءلون لماذا كانت له تلك المنزلة علينا ، ونحن أولى بها منه •

وقد ذكر ذلك الوليد بن المغيرة ، وادعى أنه أولى بالنبوة وأنه أكثر مالا وأعز نفرا ، ومثل ذلك عروة بن مسعود الثقفي ونزل فيهما قوله تعالى :

﴿ وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴿٣١﴾ أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ ۚ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ۚ وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا ۗ وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٣٢﴾ وَلَوْلَا أَن يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِالرَّحْمَٰنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِّن فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ ﴿٣٣﴾ وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَابًا وَسُرُرًا عَلَيْهَا يَتَّكِئُونَ ﴿٣٤﴾ وَزُخْرُفًا ۚ وَإِن كُلُّ ذَٰلِكَ لَمَّا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ۚ وَالْآخِرَةُ عِندَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٣٥﴾ ﴾ (١)

منافسة العرب لقصي :

٢٣٢ ــ وفوق ما ذكرنا كله ــ العصبية العربية الجاهلية التي كانت مستمكنة في النفس العربية يتوارثونها جيلا بعد جيل ، فالعرب تنفس على قريش مكانتها ، وقريش تنفس على بني قصي ما لهم من مكانة • وبنو قصي وغيرهم ينفسون على بني عبد مناف وبنو أمية ينفسون على بني هاشم رياستهم للعرب ، وكونهم في المكانة العليا من سدانة البيت والقيام عليه ،

(١) الزخرف

فهاشم ورث الرياسة من عبد مناف ،وعبد المطلب أخذها عن هاشم وأبو طالب ورثها عن عبد المطلب ·

فالدعوة الاسلامية تعرضت لعداوةمن عادوا قصيا ، وتعرضت لمن عادوا عبد مناف ، ثم تعرضت لمن كانوا أعداء لبني هاشم ، ومن كل هؤلاء تكونت المقاومة ، ولعل أمثل صورة لهذه العداوات مجتمعة هو عمرو بن هشام الذي اشتهر في الاسلام باسم أبي جهل ، وهو به جدير · فقد كان فرعون هذه الامة ، وان لم يكن فرعون في مثل سفهه وحنقه ورعونته ·

لعن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم أبا جهل فناداه بكنيته أبا الحكم قائلا له : « هلم الى الله والى رسوله أدعوك الي ، فقال أبو جهل : يا محمد ، هل انت منته عن سب آلهتنا ، هل تريد الا أن نشهد أنك قد بلغت ، فنحن نشهد أنك قد بلغت ، فوالله لو أني أعلم أنما تقوله حق لاتبعتك » ·

مناقشة هادئة ، كلها حكمة من محمدعليه السلام ، اذ أنه يناديه بكنيته يا أبا الحكم ، وهي عجرفة من جانب عمرو بن هشام (أبي جهل) فبينما النبي عليه السلام يناديه بكنيته ، لا يناديه بمثلها، بل يقول في جفوة يا محمد ·

وليس هذا هو المهم ، انما المهم أنه قال لمحدثه بعد انصراف النبي صلى الله تعالى عليه وسلم :

« والله انى لأعلم أن ما يقول حق ،ولكن يمنعني شيء ، ان بني قصي قالوا: فينا الحجابة ، فقلنا : نعم ، ثم قالوا :فينا السقاية : فقلنا نعم ، ثم قالوا : فينا الندوة ، فقلنا نعم ، ثم قالوا : فيناااللواء ،فقلنا نعم ، ثم أطعموا وأطعمنا، حتى اذا تحاكت الركب قالوا منا نبي ،والله لا أقبل » (١) ·

كانت قبائل قريش تأخذ على بني قصي أنهم جمعوا في أيديهم الحجابة للبيت الحرام ، وللقيام على شئونه ، وذلك شرف ليس فوقه شرف ، وسقاية الحجيج ، وذلك يذيع ذكرهم ويعلن اسمهم ، والندوة ، وهي شورى العرب ، فكانوا بذلك رؤساءهم وهم الذين يحملون لواء قريش ، وهذا كله إثارة العرب

---

(١) البداية جـ ٣ ص ٦٥

عليهم ، ثم انحدرت هذه المنافسة الى معاداة الحق الذي يأتي به أولاد قصي ، وبنو هاشم على رأسهم ، وقد ورثوا عنه بعض ما أخذه من قريش .

واذا كانت قريش كلها تنفس على بني قصي ما أخذوا أو يحسدونهم فبنو عبد مناف ، كانوا من بينهم يختصمون بالحقد عليهم لانهم الذين ورثوا شرف قصي ، وما كان معه ، ولقد ظهر ذلك على لسان فرعون هذه الامة أبي جهل .

لقد سمعوا القرآن الكريم سرا ، وكانوا هم الأعداء الذين قد أصيبوا بلدد الخصومة ، ثم تذاكروا بعد السماع وقد تأثروا ، وقد قال أحدهم لأبي جهل : يا أبا الحكم ، ما رأيك فيما سمعت من محمد ، فقال حانقا : « ماذا سمعت ، تنازعنا نحن وبنو عبد مناف الشرف ، أطعموا فأطعمنا ، وحملوا فحملنا ، وأعطوا فأعطينا ، حتى تجاذبنا على الركب ، وكنا كفرسي رهان ، قالوا منا نبي يأتيه الوحي من السماء، فمتى ندرك مثل هذه ، والله لا نؤمن به أبدا ولا نصدقه » (١) .

واذا كان أبو جهل يمثل أعنف وأحمق معارضة للنبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، فهو في معارضته أوضح صورة للعصبية الجاهلية ، التي تضع على البصائر غشاوة ، فتعمى عن الحق ، ولا تدركه ، بل تدركه ، ولا تذعن له ، وترضى بالرديء الوبيء عن الحق الصادق المريء .

٢٣٣ ـ نسوق هذه الامور ، لا لنبرر بها ذلك الموقف الجاهلي الذي وقفه أعداء النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، أو ان شئت فقل خصومه الذين حاربوه وأعنتوه في الخصومة والمعاندة ، ثم عادوه ، وكانوا شياطين الانس الذين ذكروا في القرآن الكريم على أن الله تعالى له ثواب الجهاد والمصابرة .

ولكن سقناه لنعلل الوقائع بأقرب اسبابها ، ولكي تزول كل غرابة في معاداتهم للحق وقد بدا وضحه ، وليعرف الباحث البواعث الحقيقية لتلك اللجاجة في العداوة التي ذهبت بهم الى الايذاء ، وأسرفوا بها في القول ، وأثاروا نيران البغضاء ، والواقع أن البغضاء للدين كانت مستكنة في نفوسهم ، واستيقظت بقوة دعوة محمد بن عبد الله عليه الصلاة والسلام .

---

(١) سيرة ابن هشام جـ ١ ص ٣١٦ طبعة الحلبى

وان اسناد الأمور لأسبابها لا يعد تبريرا لها ، ولكن يكون تبيينا للوقائع ، وان الأسباب في ذاتها اثم ، والاثم لا يولد الا اثما ، واللجاجة لا تولد الا فجورا وآثاما .

لقد يعجب الناس كيف يماري أولئك وفيهم عقل في الوحدانية ، ويجادلون في الله تعالى وهم يعلمونه ،وهو شديد المحال ، كيف يقف أمثال الوليد بن المغيرة وهو من أذكياء العرب،والنضير بن الحارث موقف المعارضة ، وفيهم ادراك سليم ولكن عميت عليهم الأمور بسبب ما ذكرنا فكانوا في حيرة بين ماض ألفوه ،وألفوا معه الدعة والمال والجاه والسيطرة ، وحاضر قد أدركوه ، ورأوا نور الحق الذي ساروا فيه ، ولكن ما ان يبرق عليهم نوره ويمشوا فيه ، حتى تكون غاشية المال ،وغاشية الجاه ، وغاشية الاستعلاء ، وغاشية التعصب القبلى المردي .

ومنهم من كان يرد النور الى قلبه رويدا رويدا ، فكان في وسط ذلك الأتون من العداوة نور يهدي الى التي هي أحسن والله عليم بذات الصدور .

تلقى الناس للدعوة

٢٣٤ ـ تلقى الناس في مكة دعوة النبي عليه الصلاة والسلام بعد أن أعلنها على الصفا ، مخاطبا عشيرته الأقربين أولا ، ثم مخاطبا العرب أجمعين ثانيا ، حين صدع بأمر ربه ، تلقوها مشدوهين لغرابة الجديد ، فقسم صفى قلبه اليها ، وأولئك السابقون الأولون الذين اصطفاهم الله تعالى لحمل دعوته ، ومعاونة النبي عليه الصلاة والسلام في تبليغ رسالته ، ونشرها في الأرض ومجاوزتها الاقطار من بعده .

وكان من هؤلاء الضعفاء الذين حرموا السلطان ومتعة الحياة ، ورأوا في دعوة محمد أملا مرجى في الآخرة واذ لم يكونوا في حال مرضية البقاء ، بل هي مرجوة الانهاء ، فأوجد فيها الاسلام الامل في انهائها ، فسارعوا اليها ، وذاقوا العذاب في سبيلها ، فصبروا من غير انزعاج أو ارتداد ، بل مضوا في الطريق حاملين البؤس واليأس ، في جلد وصبر وايمان ، وقد مكن الله تعالى لهم ، ووقاهم جزاء صبرهم :

﴿ إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿١٠﴾ ﴾ (١)

والقسم الثاني: أعلن العداوة للنبي منذ ابتدائها ، وشنوا غارة على الذين يؤمنون وعلى رأس هؤلاء أبو لهب عم النبي عليه الصلاة والسلام ، ومن هؤلاء من ذهبت غلواؤهم في العداوة ، ولجاجتهم في الخصومة الى ايذاء المؤمنين ، وتعذيب الضعفاء من العبيد والفقراء ، ومن لا حول لهم ولا طول من عشيرة تحميهم ، وعزة من النفر يدافعون عنهم ، وكثير ممن دخلوا في الاسلام كانوا على ذلك النحو ، اذا لم يجدوا جوارا من أحد يدفع عنهم الأذى وعلى رأس المؤذين أبو جهل .

---

(١) الزمر

والقسم الثالث: وسط بين هؤلاء، فلم يعتنق الاسلام، ولم يكن من السابقين الأولين، بل وقف وقفة المنتظر، أو وقفة من رد الدعوة من غير معاداة، ولا مناوأة، وكان من هؤلاء أكثر بني هاشم، وبعض بني أمية، وبعض القرشيين وكان في كل عشيرة بعض من هؤلاء، كما كان في كل عشيرة بعض ممن أسلم .

ومن هذا القسم من كان يشرح الله تعالى صدره للاسلام، فيدخل في صفوف المسلمين مجاهدا صابرا متحملا الأذى، وأقله السخرية والاستهزاء، فقد كان الاسلام ينمو من هؤلاء، بل انه كان ينمو أيضا من المعذبين المؤذين، وحسبنا عمر بن الخطاب، كان من المؤذين، حتى همّ فيما يقول الرواة بقتل النبي صلى الله تعالى عليه وسلم، ولكن تداركته رحمة الله تعالى، فشرح الله تعالى صدره للاسلام فكان له عزا، وكتب الله تعالى الحق على قلبه ولسانه .

أخذ النبي عليه السلام يدعو، ولا يني عن دعوته، ولا يلين ولا يخفف من دعوته الاعراض مهما يكن مقدار المعرضين ولا الأذى ينزل به وبكبراء صحابته، ولا الاضطهاد يشتد على ضعفاء أتباعه، ولكنه يأسى ويحزن على ما ينزل بهم ويواسيهم ويدعوهم الى الصبر، ويصبر هو ليتأسوا به، ويعينهم بالمال ان احتاجوا، ويعينهم كبار الذين آمنوا على فك رقابهم .

وكلما ازداد عدد المؤمنين، ازداد الأذى وازدادت المعارضة، فانه كلما قوى الحق ونما أهله، يئس المخالفون من أن يطفئوا نور الله تعالى الذي انبثق في مكة، ولكن بوادر اليأس كانت تزيده حجة ولجاجة في الباطل، وكل يسير في طريق التمسك بالباطل، ففريق الذين ارتضوا لأنفسهم أن يكون سوط عذاب يستمرون في غيهم يعمهون والذين ارتضوا المعارضة من غير ايذاء، والمقاومة من غير اعنات لمن جاءوا بالدين الجديد، ساروا في طريقهم ومنهاجهم، يدعون النبي عليه السلام لأن يكف عن دعوته، ويجادلونه، ويعرضون عليه ما يرونه مغريا بالاعراض عن دعوته، على حسب تفكيرهم، وعلى مقتضى ما يسول لهم شيطان المادة .

موقف قومه صلى الله عليه وسلم من الدعوة :

٢٣٥ ـ ويذكر الأكثرون من الرواة أن النبي عليه الصلاة والسلام كان يلقى منهم مسالمة، ودفاعا عن عقائدهم بالتي هي

أحسن، أو عدم اهتمام بعضهم بمقاومته عندما كان يدعو من غير أن يذكر آلهتهم بسوء ، أو يسفه أحلامهم ، وأحلام آبائهم ، فلما أخذ يسب آلهتهم ، ويسفه أحلامهم ، انتقلوا الى مقاومة عنيفة ،أخذت صورة الايذاء في بعضهم والاستنكار المرير من بعض آخر ، ثم تطورت الأمور الى العداوة والاغراء بالبغضاء وقطع الأرحام الموصولة ٠

وفي الحق اننا لا نرى فارقا زمنيا ،بل نجد أن دعوة التوحيد ، وتحريم عبادة الأوثان ، والاشراك بالله ابتدأت منذ جاء عليه السلام ومنذ أعلن عشيرته باستنكار عبادة الأصنام ، فقال عقب الانذار بالبراءة منهم إن عصوا ، فقال تعالى :

﴿ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴿٢١٤﴾ وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢١٥﴾ فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢١٦﴾ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٢١٧﴾ ﴾ (١)

وجاء مثل ذلك عند الامر بالجهر بالدعوة ، واعلان قريش خاصة والعرب عامة ، اذ قال :

﴿ فَٱصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٩٤﴾ إِنَّا كَفَيْنَٰكَ ٱلْمُسْتَهْزِءِينَ ﴿٩٥﴾ ٱلَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٩٦﴾ ﴾ (٢)

واذا كنا لا نجد فارقا زمنيا يحد ما بين الدعوتين ، واذا كانت الآيات التي نزلت في أول الدعوة بمكة تتشابه في معانيها من ناحية الأوثان مع الآيات التي نزلت في آخر مقامه عليه السلام بمكة ، فان من الحق علينا أن نقول اننا لا نجد تفريقا بين حال لم تذكر فيها أوثانهم بسوء ، وحال قد ذكرت فيها بسوء ٠

وان الذي نجده أو نظنه ظنا أن مقاومتهم ابتدأت بحال دهشة مما فوجئوا به ، وتساؤل فيما بينهم ، ما شأن هذا الذي جاء به محمد عليه الصلاة والسلام ، وهم بين من علم أن محمدا عليه الصلاة والسلام دعاه الى هذه الدعوة ، وبين متشكك في نسبة القول اليه ، وبينما هم يتساءلون كانت الدعوة تسري في الأوساط ، وتجد لها من بينهم مصدقين ما بين سادة وعبيد ، وأشراف وضعاف ، فتنبهوا حينئذ للمقاومة ،لامر وجدوه جدا لا هزل فيه ، وقويا

---

(١) الشعراء (٢) الحجر

لا ضعف يعتريه ، واذا كان الذين يتبعونه قليلا ، فهم يزيدون وسيكونون كثيرا ، ولابد أن يأخذوا الأهبة لمدافعة هذا الواقع ، وهو لا يزال نبتا ، قبل أن يستغلظ سوقه .

صور اعتراضهم على الدعوة :

٢٣٦ ـ وعلى ذلك نقرر أن المقاومة كانت تتزايد في الشدة كلما تزايدت الدعوة عموما ، وتكاثر المستجيبون لها ، فهم كلما رأوها تنمي ولو قليلا يحسون بالخطر شديدا ، وكلما أحسوا بالخطر ازدادوا لجاجة وعنفا ، لانهم يرون الخطر على سيادتهم، ونظمهم الاجتماعية ، والارض تنهار من تحتهم شيئا فشيئا ، فتزداد المقاومة بصورها المختلفة ، وكل يعمل على شاكلته ، وعلى الطريقة التي يرضاها خلقه ، ففريق بالايذاء ، وفريق بالاستهزاء ، وفريق بالشكوى لأبي طالب حاميه ، ويتلاقى الجميع على أمر يكون متلاقيا مع كل طبائعهم .. وهكذا .

وان اعتراضهم أخذ ثلاث صور ، الصورة الاولى : محاولة حمل النبي عليه الصلاة والسلام على ترك الدعوة التي يقوم بها ، وينشر الاسلام عن طريقها ويحارب الوثنية بكل ضروبها .

الصورة الثانية : المجادلة ومحاولة احراج النبي عليه الصلاة والسلام بمطالب هي غير معقولة في ذاتها ، بقصد تعجيزه ، واظهار عجزه أمام الناس أجمعين عسى أن يكون في ذلك صد الناس عنه .

الصورة الثالثة : الايذاء في صوره المختلفة ، بالايذاء الفعلي الآحادي للنبي عليه السلام خاصة ، وللذين يؤمنون من الناس ، ولم يخلص منهم كبراؤهم ، ووقع شديدة على ضعفائهم، ثم كان من ذلك ايذاء جماعي ، أنزل من قريش كلها على بني هاشم كلهم واخوانهم بني المطلب ، وقد تلقوا جميعا مقاطعة قريش لهم ، ولم يقبل دنية الافتراق عن أسرته الا أبو لهب ، أما الباقون فتحملوه صابرين مشاركين معاونين ، واستوى في ذلك مؤمنو بني هاشم وبني المطلب على سواء .

وقد لوحظ أن الايذاء كان يجعل الايمان يذيع وينمو ، لان الناس تنفطر نفوسهم لالم المتألمين ، ويدفع حمية الذين لهم صلة بمن يؤذون ، فتدفع

المروءة الى مشاركتهم في سبب الايذاء تحديا ومقاومة ذلك الشر ، فقد دفع الايذاء للنبي عليه السلام حمزة بن عبد المطلب لان يعلن اسلامه ، ثم يعلن ايمانه ، كما سنبين ان شاء الله تعالى في اسلام حمزة ٠

وقد يكون اندفاع المؤذي في ايذائه مفرطا فيه دافعا لأن ينفطر قلبه ، فيجد سبيلا للايمان ، كما كان الشأن في ايمان عمر بن الخطاب ، فقد كان الدم الذي انبثق من شج أخته ايذاء لها على ايمانها سببا في أن فتح الله قلبه لأنه استمع الى الآيات التي تتلى ، فرحمه الله تعالت كلماته بأن فتح صدره للايمان فآمن ٠

وكان الايذاء سببا في الهجرة الى الحبشة ، وفي الهجرة اليها شاع اسم الاسلام في ربوعها وان لم يتبعه الاملكها ٠ وسنذكر بعون الله تعالى تلك الصور المختلفة للمقاومة بعد أن نتكلم في درجات الدعوة ، والجهر بها ٠

الذين استجابوا لله وللرسول

٢٣٧ ـ سرى الاسلام الى النفوس من أول نزوله ،واذا كان الذين سارعوا الى الدخول فيه عددا قليلا ، فذلك شأن كل دعوة تعتمد على الحق المجرد ، فانها تدخل في قلوب الجماعات في ريث من غير تعجل ، ولا انسياق من غير تفكر وتدبر،ولكنها ان كانت صارت كالجبال.

وقد يقول قائل ان دعوة محمد عليه الصلاة والسلام كانت ثورة فكرية واعتقادية واجتماعية واقتصادية وانسانية بشكل عام ، ومن شأن الثورات أن تجتذب الجماهير فتندفع في نصرتها والاخذ بها ، ونقول في الاجابة عن ذلك ان ما أتي محمد عليه الصلاة والسلام كان في نتيجته وغايته أعظم ثورة انسانية رآها التاريخ الانساني ، في نتيجتها وثمراتها وغاياتها ، لا في وقائعها وأشكالها ، فان الثورات الجامحة انفعالات للجماهير ، تكون كانفعال الاشخاص لا تلبث أن تنطفىء ، اذ ذلك شأن الانفعالات دائما ، لا فرق بين أن تكون في الآحاد وأن تكون في الجماعات،واعتبر ذلك بالثورات الاوربية ،فأعظمها مظهر الثورة الفرنسية ، انفعلت بها فرنسا انفعالة شديدة ، ثم لم تلبث حتى أخذت تأكل نفسها ، وكثرت ثورات زعمائها على أنفسهم جماعة بعد جماعة حتى رسبت في آخر الامر في حكم يشبه حكم القياصرة ، كما كان في عهد نابليون الذي نال الكمثرى فيها بعد أن نضجت .

أما دعوة محمد عليه الصلاة والسلام ، فقد كانت نابعة من أحكام المنطق وأحكام العقل ، والامداد الالهي بروح القدس ، وما كانت انفعالة ، بل كانت نفوسا مطمئنة راضية مرضية آمنت بالحق وأخذت به ، دخلها الايمان ولم يخرج منها . وهكذا يكون من شأنه الدوام والاستقرار في النفوس التي يدخلها ، فاذا أشرق فيها فهو اشراق لا ينطفىء ، فلا يشبه نار الهش من الاحطاب الذي ينطفىء بأقل الرياح ، بل يشبه الماء العميق البعيد الغور الذي لا تهزه الرياح ، فلا تعبث به الاهواء .

لذلك كان الذين يدخلون قليلا قليلا من غير طفرة ، وانتقال انفعالي ٠

المؤمنون والجهر بالدعوة :

٢٣٨ ـ ولقد اختبرت قلوبهم من أول دخولهم ـ لقد ابتدأ الاسلام يسري كالنور في الظلام ، فأشرقت به قلوب مؤمنة ، فدخلها واستقر بها في وسط لجاجة الشرك وعوجاء أهله ، أسلم قوم مؤمنون ، ولكن منعوا من أن يقيموا شعائر دينهم ، فكانوا ابتداء لا يصلون في المسجد الحرام ، بل كانوا يذهبون للصلاة في شعاب مكة مستخفين بدينهم، لا يجهرون بقراءة القرآن بين ظهرانيهم، ولقد كان النبي صلى الله تعالى عليه وسلم يفعل ذلك ، ومكانته بين قريش مكانته، وجاء أبو جهل الذي اشتهر بذلك الاسم في الاسلام واستحقه بعمله ، وقال في تبجح ظاهر للنبي عليه السلام : « ألم أنهك يا محمد عن الصلاة هنا ، فلم يلتفت اليه النبي عليه الصلاة والسلام، لانه يعلم أن أدب الاسلام أنه اذا مر باللغو مر كريما ، ولم يلتفت ٠

وكان المسلمون الأولون لا يستطيعون أن يجتمعوا ليتعلموا من الرسول دينهم ، بل كانوا يجتمعون خفية في دار الأرقم بن أبي الأرقم ، قالو انه يجتمع في هذا البيت الطاهر نحو تسعة وثلاثين كانوا هم المجتمعين عندما أسلم عمر رضي الله تبارك وتعالى عليه وليس معنى ذلك أن الذين أسلموا كانوا هذا العدد فقط ، فقد كان ثمة عبيد آمنوا ، وكانوا في مهنة مالكي رقابهم ، ومنهم من كان يعذب العذاب الأليم ليفتن عن دينه ، ويكره على الخروج منه ٠

ومن المؤمنين من كان يؤمن ، ويخفي ايمانه عن أهله : أبيه وأمه وأخيه فرارا بدينه من أن يفتن بملام أو تعذيب فقد كان أهل كل بيت كان فيه من دخل في الاسلام ، يأخذ ذلك المسلم بالتأنيب واللوم الزاجر ، ثم ينتقل الامر من اللوم الى التعذيب ، ان استرسلوا في غوايتهم ، ولم يكن ما يمنعهم من رحم شفيقة ، أو قوة عزيمة ممن منحه الله تعالى الايمان ، واعتصم ببرد اليقين ٠

ولم يكن المسلمون يجهرون بقراءة القرآن خوف الأذى الا رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، فقد كانت دعوته وتبليغ رسالة ربه توجبان عليه أن يجهر مهما يكن الأذى الذي ينزل به ٠ فان الله تعالى عاصمه من الناس ، وما كانت قريش تستطيع دفعه ، بل انهم كانوا يتناهون فيما بينهم ألا يسمعوه ،ولكنهم

يذهبون خفية ليسمعوه ، يذهب كل واحد مختفيا عن جماعته ، ثم يلتقون في الاستماع اليه ، وقد تناهوا ، ولكن كل واحد خالف ما اتفق عليه معهم ، ويحسب أنه المخالف وحده ، واذا هم جميعا مختلفون ، واذا هم جميعا ناقضون لما اتفقوا ٠

ويذكر الرواة أن أول من جهر بالقرآن بعد النبي عليه الصلاة والسلام، فيما يروي ابن اسحاق عن عروة بن الزبير عن أبيه الزبير بن العوام أنه قال : كان أول من جهر بالقرآن بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم بمكة عبد الله ابن مسعود رضي الله تعالى عنه قال : اجتمع يوما أصحاب رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، فقالوا والله ما سمعت قريش هذا القرآن يجهر لها به قط ، فمن رجل يسمعونه ؟ قال عبد الله بن مسعود : أنا أسمعهم ، قالوا انا نخشاهم عليك ، انما نريد رجلا له عشيرة يمنعونه من العدم اذا أرادوه ٠ فقال دعوني ، فان الله تعالى سيمنعني ، فغدا ابن مسعود حتى أتى المقام في الضحى وقريش في أنديتها ، حتى قام عند المقام ثم قرأ رافعا صوته :

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ الرَّحْمَٰنُ ۝١ عَلَّمَ الْقُرْآنَ ۝٢ خَلَقَ الْإِنسَانَ ۝٣ عَلَّمَهُ الْبَيَانَ ۝٤ ﴾(١)

ثم استقبلها يقرؤها ٠ قال فتأملوه فجعلوا يقولون ماذا قال ابن أم عبد ، ثم قالوا انه ليتلو بعض ما جاء به محمد٠ فقاموا اليه ، فجعلوا يضربونه في وجهه ، وجعل يقرأ ، حتى بلغ منها ما شاء الله تعالى أن يبلغ ، ثم انصرف الى أصحابه ، وقد أثروا في وجهه ، فقالوا له هذا الذي خشينا عليك ، فقال ما كان أعداء الله أهون عليّ منهم الآن ، ولئن شئتم لأعاودنهم بمثلها غدا ، قالوا حسبك حسبك قد أسمعتهم ما يكرهون ٠

خلاصة قول :

٢٣٩ ـ وان هذا كله يدل على ثلاثة أمور :

أولها : الاستخفاء بالعبادة الا ما كان من أمر النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، فقد كان حريصا على أن يجهر بصلاته ما استطاع الى ذلك سبيلا ،وأن

---

(١) الرحمن

يجهر بالقرآن ما وسعه ذلك ، غـــير ممتنع ، ولا متردد ، لان الامر جاء اليه بذلك ، وهو يبلغ الرسالة ، ويظهـر أن المشركين ، وان كانوا يتضايقـون من ذلك ، لم يكونوا يمنعونه ، وان حاولوا المنع لم يجدوا مستجيبا لما يدعـــون ، فكانوا يعمدون الى الاستهــزاء به آناوايذائه آنا ، والاعراض عنه دائمـا ، وفي كل وقت ، لانهـم قـد جعلوا فيقلوبهم وقرا ، فلا يستمعون وقد كـان المشركون يشتدون فى أذاهم •

الامر الثاني : أن الاذى الذي كانوا ينزلونه بالمؤمنين لم ينهنه من عزمهم ، ولم يضعف أنفسهم ، فهذا عبد الله بن مسعود يضربونه ، فيستمر في قراءته، وهم يستمرون في ضربه حتى يبلغ ماشاء الله تعالى أن يبلغه ، غير ملق اهتماما الى ضربهم •

وان حال الايذاء في أثناء قراءته يصور حال المؤمنين مع ايذاء الكافرين، ومع الايمان استمــروا في الايذاء ،واستمر الاسلام في ازدياد •

الامر الثالث:أن المشركين كانوا يسمعون القرآن من النبي ويتميز غيظهـم ، وان كان الغيظ ثابتا ، اذ يتبعه ايذاءأحيانا ، ولكنهم يتميزون غيظا عنـدما يسمعونه من غيره ، لأنهم بذلك يعلمون سريان الدعوة ، وزيادة الأتباع حينـا بعد حين ، فليس غيظهم فقط من سماع القرآن ، بل انه منه ، ومن نمـو عدد المستجيبين ، فالأمر اذا كان يزيد ولو بقدر ضئيل يبشر أصحابه ببلوغ الغاية، وينذر أعداءه بالعاقبة المريرة •

إسلام حمزة

٢٤٠ ــ ويلاحظ أن الأذى لم يمنع الاستجابة للدعوة ، بل زيادتها ، ومن المؤمنين الذي كان لهم في الاسلام قدم ثابتة من كان الايذاء هو السبب الواضح في اسلامهم ٠

ولنذكر في هذا المقام اسلام حمزة بن عبد المطلب ، ولنذكر قصته كاملة كما رواها ابن اسحاق :

قال ابن اسحاق : « حدثني رجل من أسلم كان واعية أن أباجهل مر برسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم عند الصفا فآذاه وشتمه ، ونال منه ما يكره من العيب لدينه ، والتضعيف لأمره ، فلم يكلمه رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ومولاة لعبد الله بن جدعان في مسكن تسمع ذلك ٠٠ فلم يلبث أن أقبل حمزة متوشحا قوسه ، راجعا من قنص له ، وكان صاحب قنص يرميه ، ويخرج له ، وكان اذا رجع من قنصه لم يصل الى أهله حتى يطوف بالبيت ، وكان اذا فعل ذلك لم يمر على ناد من قريش الاوقف ، وتحدث معهم ، وكان أعز فتى في قريش ، وأشد شكيمة ، فلما مر بالمولاة (التي سمعت سب أبي جهل) قالت له يا أبا عمارة ، لو رأيت ما لقي ابن أخيك محمد آنفا من أبي الحكم بن هشام ، وجده ها هنا جالسا ، فآذاه وسبه ، وبلغ منه ما يكره ، ثم انصرف عنه ، ولم يكلمه محمد صلى الله تعالى عليه وسلم ، فاحتمل حمزة الغضب لما أراد الله به من كرامة ٠ فخرج يسعى ، ولم يقف على أحد عامدا لأبي جهل اذا لقيه أن يوقع به ، فلما دخل المسجد نظر اليه جالسا في القوم ، فأقبل نحوه ، حتى اذا قام على رأسه رفع القوس فضربه بها فشجه شجة منكرة ، ثم قال أتشتمه وأنا على دينه ، أقول ما يقول ، فرد ذلك عليّ ان استطعت ، فقام رجال من بني مخزوم الى حمزة لينصروا أباجهل ، فقال أبو جهل : دعوا أبا عمارة ، فاني والله قد سببت ابن أخيه سبا قبيحا ، وتم حمزة على اسلامه ، وعلى ما تابع عليه رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم » (١) ٠

---

(١) سيرة ابن هشام جـ ١ ص ٢٩٢

وفيما ذكره ابن اسحاق هنا ما يوهم بأنه أعلن اسلامه،وكان ذلك الاعلان هو دخوله في الايمان ، ولكن ذكر في البداية عن ابن اسحاق أيضا أن حمزة اذا أعلن ذلك أنه اتبع محمد بن عبد الله عليه السلام ما كان ينطق بها الا عن حمية العصبية ، ولكنه فكر بعد ذلك في مخرج منها ، أو سير في طريق الايمان ، ولننقل لك حديثه في نفسه كما جاء على لسانه ، وكما نقل ابن اسحاق :

« أقبل حمزة على نفسه ، وقال ماصنعت ، اللهم ان كان خيرا ، فاجعل تصديقه في قلبي ، والا فاجعل لي مماوقعت فيه مخرجا • فبات بليلة لم يبت بمثلها من وسوسة الشيطان ، حتى أصبح ، فغدا على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال يا ابن أخي ، اني قد وقعت في أمر ولا أعرف المخرج منه ، واقامة مثلي على مالا أدري ما هو !!أرشد أم هو غي شديدا ، فحدثني حديثا ، فقد اشتهيت يا بن أخي أن تحدثني ، فأقبل رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فذكره ووعظه ، وخوفه وبشره،فألقى الله تعالى في قلبه الايمان بما قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ،فقال : أشهد أنك الصادق ، فأظهر يا بن أخي دينك ، فوالك ما أحب أن لي ماأظلته السماء واني على ديني الاول ، فكان حمزة ممن أعز به الدين • وروى البيهقي مثل ذلك » (١) •

ويظهر من هذا الكلام ، وما قبله أن حمزة رضي الله تبارك وتعالى عنه كانت له نزعة دينية كانت على الباطل ، ثم كانت على الحق • كان في الجاهلية ، اذا جاء من صيده وقنصه لا يغشى ناديا الا اذا طاف بالبيت ، والمتدين في طبعه اذ رأى وضح الحق سار فيه ولصدق ادراكه عندما أعلن الاسلام في غضبة عنيفة قوية ، أراد أن يمعن النظر فيما عرض له من حال ؟ أيخرج منها ، وما السبيل أم يمضي ، فاعترته حيرة،كانت هادية موجهة ، اذ هداه الله تعالى الى الاسلام •

---

(١) البداية جـ ٣ ص ٣٣

إسلام عمر

٢٤١ ـ كان الاسلام ينمو ويزيد، واذا كان قد ابتدأ بالضعفاء ، وقل فيه الكبراء فقد أخذ عدد الأقوياء يكبر، وان كان العدد في ذاته ، لا يزال قليلا ، قد دخل أقوياء ، يرفعون العبء قليلا عن الضعفاء ٠

دخل أولا حمزة ، ولاول مرة في تاريخ الاسلام يضرب أبو جهل فوق رأسه حتى يشج ، ويثور له بعض قبيله ،فيتصدى لهم رجل قوي الشكيمة عزيز الجانب ، حتى يتعلم أبو جهل الحكمة ساعة من زمان ، فيدعوهم الى أن يتركوا حمزة ، ولعله دعاهم الى أن يقوا أنفسهم شر ضربات حمزة ٠

لم يذكر كتّاب السيرة تاريخ اسلام حمزة ، وان ادعى بعضهم أنه كان قريبا من اسلام عمر أي أن اسلام عمر كان بعده بقليل ، واسلام عمر كان في السنة السادسة من البعثة لانه كان بعد الهجرة الى الحبشة ٠ وان كتّاب السيرة كانوا يعنون بذكر الوقائع بروايات صحيحة ، وان كانوا لا يذكرون تاريخها الا اذا اقترنت بواقعة مشهورة،كما اقترنت واقعة خروج المؤمنين هاربين بدينهم الى الحبشة بايمان عمر بن الخطاب ٠

كان عمر فاروق الاسلام شديدا على المسلمين قبل اسلامه ، لا يجد سبيلا لايذائهم الا سلكه ، ولكنه في طبيعته ادراك صحيح ان ضل يرشده ، وفيه طبع رحيم ، ان قسا فظهر الالم يؤذيه ذلك كما يؤذي من نزل به ٠

ولعل أقوى حادثة هزته ، أنه رأى المؤمنين يهاجرون فرارا بدينهم من ايذائه هو وأشباهه ، فلفتته هذه الهجرة عما كان فيه من غي ، وما عليه المؤمنون من رشاد ٠

روى ابن اسحاق عن بعض اللاتي أخذن الأهبة للهجرة وهي أم عبد الله ابن خثعمة أنه رآها عمر بن الخطاب ،فسألها عن مخرجها ٠ فقال آسفا : « انه للانطلاق يا أم عبد الله ٠ قالت : نعم والله لنخرجن في أرض الله ، آذيتمونا ،

وقهرتمونا ، حتى يجعل الله لنا مخرجا . فقال صحبكم الله » قالت ورأيت والله فيه رقة لم أكن أراها ، ثم انصرف وقد أخذنا فيما رأى خروجنا ، فجاء عامر ابنها ، فقالت له : لو رأيت عمرا آنفا ورقته ، وحزنه علينا ، قال أطمعت في اسلامه قلت نعم ، قال لا يسلم الا اذا أسلم حمار الخطاب ، وما قال ذلك الا يأسا لما كان يرى من غلظته .

ومن هذا يستفاد أن عمر رضي الله عنه كلما رأى فريقا من قومه يخرج فارا بدينه من ظلمهم يناله ألم ، والعدالة في طبعه ، وان كان التعصب لما عليه آباؤه وأجداده في جنب منه .

ويظهر أن ذلك الألم من خروج بعض قومه مقهورين لم يمنعه من انزال بعض الأذى لمن يعلم اسلامه من أهل بيته وذوي قرابته ، ولقد هزته أخرى ففتحت قلبه للاسلام ؟

وخلاصته أن فاطمة بنت الخطاب أخته قد أسلمت هي وزوجها ، وأخفيا اسلامهما خشية بطشه ، وبطش ذوي قرباهما ، وقد أسلم أيضا نعيم بن عبد الله ، وكان ثلاثتهم يستخفون ،ويتلون القرآن في منزل سعيد بن زيد زوج فاطمة ، وكان خباب بن الأرت يجيء اليها ويقرئها القرآن ، فخرج عمر متوشحا سيفه يريد رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، ورهطا من أصحابه ، وهم قريب من أربعين ما بين رجال ونساء ، فلقيه بعض قريش ، فقال له أين تريد يا عمر ، فقال له : أريد محمدا هذا الصابىء الذي فرق أمر قريش ، وسفه أحلامها ، وعاب دينها ،وسب آلهتها فأقتله ، فقال له والله لقد غرتك نفسك من نفسك يا عمر ، أترى بني عبد مناف تاركيك تمشي على الارض وقد قتلت محمدا ؟ أفلا ترجع الى أهل بيتك فتقيم أمرهم . قال وأي أهل بيتي ، ختنك وابن عمك سعيد بن زيد بن عمرو ، وأختك فاطمة بنت الخطاب، فقد والله تابعا محمدا على دينه ،فعليك بهما .

ولا تناقض بين هذين خبر أم عبد الله ، لانه عندما رق للذين يهاجرون لم يكن رقه رغبة للاسلام ، ولكن كان ألما لفراق قومه ، وسولت له نفسه غير المؤمنة ، بأن محمدا سبب ذلك الفراق ،وكان يتنازعه حال من الايمان ، ووسوسة من الكفر .

ذهب عمر الى أخته ، وكان يستخفي في بيتها ثلاثة صاحبها الذي آمن زوجها ، وخباب يعلم الجميع القرآن ،ومعه صحيفة فيها سورة طه ، فلما سمعوا صوت عمر ، تغيب خباب في مخدع لهم ، أو في بعض البيت ، وأخذت فاطمة بنت الخطاب الصحيفة ، فجعلتها تحت فخذها ، وقد سمع عمر حين دنا الى البيت قراءة خباب عليهما ، فلما دخل قال ما هذه الهيمنة التي سمعت ؟ قالا له ما سمعت شيئا ، قال بلى والله لقد أخبرت أنكما اتبعتما محمدا على دينه ، وبطش بختنه سعيد بن زيد ، فقامت اليه أخته فاطمة بنت الخطاب لتكفه عن زوجها • فضربها ، فشجها ، فلما فعل ذلك قالت له أخته وختنه نعم قد أسلمنا، وآمنا بالله ورسوله ، فاصنع ما بدالك ،فلما رأى عمر ما بأخته من الدم ندم على ما صنع ، فارعوى وقال لاخته أعطيني هذه الصحيفة التي سمعتكم تقرءونها آنفا أنظر ما هذا الذي جاء به محمدوكان عمر كاتبا • فلما قال ذلك قالت له أخته : انا نخشاك عليها !! قال لا تخافي ، وحلف بآلهته ليردنها اذا قرأها • فلما قال ذلك طمعت أخته في اسلامه ، فقالت له يا أخي انك نجس على شركك ، وانه لا يمسها الا الطاهر ،فقام عمر فاغتسل فأعطته الصحيفة فقرأها ، فلما قرأ منها صدرا قال ما أحسن هذا الكلام وأكرمه ، فلما سمع ذلك خباب خرج اليه ، فقال له يا عمر،والله اني لأرجو أن يكون الله قد خصك بدعوة نبيه صلى الله تعالى عليه وسلم ، فاني سمعته أمس ، وهو يقول : اللهم أيد الاسلام بأبي الحكم بن هشام،أو بعمر بن الخطاب ، فالله الله يا عمر• فقال عمر عند ذلك : فدلني يا خباب على محمد حتى آتيه فأسلم • فقال له خباب هو في بيت عند الصفا في نفر من أصحابه •

فأخذ عمر سيفه فتوشحه ، ثم ذهب عمر الى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم وأصحابه معه فضرب عليهم الباب ، فلما سمعوا صوته قام رجل من أصحاب رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، فنظر من خلل الباب ، فرآه متوشحا سيفه ، فرجع الى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، وهو فزع • فقال يا رسول الله هذا عمر بن الخطاب متوشحا السيف •

فقال حمزة بن عبد المطلب : فأذن له ، فان كان يريد خيرا بذلناه له وان كان يريد شرا قتلناه بسيفه ، فقال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ائذن له ، فأذن له الرجل ، ونهض اليه رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ،

حتى لقيه في الحجرة ، فأخذ حجزته أو بمجمع ردائه ، ثم جبذه جبذة شديدة ، وقال ما جاء بك يا بن الخطاب، فوالله ما أرى حتى ينزل الله بك قارعة .

فقال عمر يا رسول الله جئتك لأومن بالله وبرسوله ، وبما جاء من عند الله . فكبر رسول الله تكبيرة عرف أهل البيت من أصحاب رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم أن عمر قد أسلم .

وانك لترى أن عمر بن الخطاب جاء اسلامه من نبع قلب يؤمن بالعدل ، ويؤمن بالرحم ، وان كان قد غشاهما غشاء من مألوف الجاهلية وما كان عليه قومه ، دفعته عصبيته قبل أن يدرك الاسلام لان يناوىء محمد بن عبد الله ، اذ أنه توهم أن ذلك يفرق كلمتهم ، ويذهب بمكانتهم عند العرب ، وهو في هذا مخطىء ، فتفرق بسبب نور الحق بين مؤمن وكافر خير من اجماع على باطل ، وذلك ما خفي على عمر ابتداء ، وأشفق على الذين يخرجون من أرضهم من قومه ، ثم كان التنبيه للقارع عندما رأى الدم يسيل من أخته ، فزالت عنه الغشاوة ، فكان عمر الشفيق العادل المدرك اذ أزال الله تعالى عنه غشاوة الباطل .

بين عهدين

٢٤٢ ـ كان اسلام حمزة ، ومن بعده عمر ابتداء عهد جديد للاسلام كان المسلمون في الاول مستضعفين يرامون بالسوء ، ولا يدفعون للسيئة بمثلها ولا يستطيعون أن يدفعوا عن أنفسهم ،ولا يرقب فيهم أعداؤهم ذماما ، ولا مراعاة لحسن جوار ، أو لمودة ، أو لقربى ، بل يسومونهم العذاب ، ويريدونهم على الهوان من غير أن يتوقعوا دفعا ،وذووا المروءات من المشركين ان تابوا عن الأذى فلأنهم لا يريدون أن يرتكبوا نذالة في ايذاء عبد أو ضعيف ، أو من لا يملك ردا ٠

ولما أسلم حمزة ابتدأ كبير الأنذال فيهم أبو جهل يحس بالضربات تقمع رأسه ، وبالدم يسيل منه ، فان تخفف له نصراء من قومه خشي من المعركة ، وأن يكون ابتداؤها هذا وهو يخاف نهايتها ، كشأن كل من يكون ناقص المروءة ، يستعدي على الضعفاء ، ويخاف الاقوياء ٠

فلما أسلم عمر ، كانت الكارثة على الشرك ، وتكامل كيان العهد الجديد عهد الاعتزاز بالاسلام ٠ واستعلانه بعد استخفائه ، ووقوف المسلمين صفوفا مجتمعين ، بعد أن كانوا فرادى متفرقين ٠

التقى عمر عند اسلامه في بيت الأرقم بن أبي الأرقم في الصفا ، وعدة المسلمين تقارب الأربعين ، فقام عمر رضي الله عنه ، فقال يا رسول الله علام تخفي ديننا ونحن على الحق ، ويظهروا دينهم ، وهم على الباطل ٠

قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم انا قليل قد رأيت ما لقينا ٠

قال عمر ، والذي بعثك بالحق لا يبقى مجلس جلست فيه أنادي بالكفر، الا أظهرت فيه الايمان ، ثم خرج فطاف بالبيت ، ثم مر بقريش ، وهي تنتظره، وقد تسامعوا باسلامه ، فقال أبو جهل: يزعم فلان أنك صبوت ، فقال جاهرا ، أشهد أن لا اله الا الله وحده لا شريك له وأن محمدا عبده ورسوله ، فوثب

المشركون اليه يريدون أن يصرعوه ،وكان على رأسهم عتبة بن ربيعة الذي كان البا على المسلمين ، وكان قد صرع أبا بكر وضربه ، حتى أثخنه ، فكأنه كان طلبة عمر ، فوثب عمر عليه ،وصرعه ، وبرك عليه كما يبرك البكر الراغي ، وجعل يضربه ، وأدخل اصبعه في عينيه ، فجعل عتبة يصيح ، فتنحى الناس ، فقام عمر عنه ، فاشتفى للمسلمين عامة ولأبي بكر خاصة ٠

وكان عمر رضي الله تعالى عنه حفيا بألا يضرب الا أشراف قريش ليعرفوا حرارة الضربات فصك وجوههم صك الجندل ، فما كان في هذه المعركة التي أثارها يدنو منه شريف الا أخذه بالضرب الشديد حتى أعجز الناس ، ثم أتبع المجالس التي كان يجلس فيها ، فيظهر الايمان (١) ، فيلاقونه ، ويذيقهم من اساءاتهم كؤوسا ٠

عاد الى النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ومعه المسلمون يدعوهم الى أن يظهروا مجتمعين ، وألا يبقوا متفرقين، فتجمعوا وخرجوا ليصلوا في الكعبة مجتمعين ، وساروا على صفين على رأس أحدهما حمزة أسد الله وسيد الشهداء ، وعلى الثاني عمر رضي الله تبارك وتعالى عنهم ٠

وتحدوا بجموعهم قريشا أن تمنعهم،ولم يجدوا جوابا لهذا التحدي العملي، لأن أبا جهل داعية الشر تذكر قوس حمزة تقمع رأسه ، وتذكر عتبة بن ربيعة صرع عمر ، ووضع أصابعه في عينيه ٠

ظهر الاسلام ، فظهر النور ، وسارت الركبان ، بما اعتز به الاسلام ، وانخذل الشرك ، وتحول الاضطهاد من الآحاد الى الجماعات على ما سنبين في الاضطهاد ، الذي نؤجل الكلام فيه ،لانه استمر طول الدعوة في مكة ، وانتهى بالهجرة ٠

وأخذ المشركون أن يسلكوا ثلاثة مسالك مع الاضطهاد :

أولها : محاولة استمالة النبي ليمنعوه من الجهر بدعوته ٠

وثانيها : مجادلته لاعجازه أو اظهار ضعفه في زعمه ٠

وثالثها : الشكوى منه لعمه أبي طالب ٠

---

(١) البداية جـ ٣ ص ٣١ ، ٧٩

محاولة كفه عنهم لاستمالته

٢٤٣ ـ يئس الكفار من النبي عليه السلام ، آذوا أنصاره فثبتوا ، وآذوه وتهكموا به فما نالوا ، وكلما ازدادوا ايذاءه سرى الايمان في القلوب، فبايذائهم للنبي هدى الله حمزة للايمان فكان البا عليهم ، وبسبب ايذاء عمر لختنه ولاخته ، ولرؤيته المؤمنين يهاجرون رق قلبه ، فآمن ، وكان ايمانه كارثة كرث الله تعالى بها الشرك وأهله، فكان القوة الفارقة بين استخفاء المسلمين ، واعلان الاسلام ، والمجاهرة بالعبادة ، واظهار صوت الحق يرن في جوف المسجد الحرام ٠

واذا كانوا هم يؤذون فالنبي صلى الله تعالى عليه وسلم يسالم ويدعو بالحكمة والموعظة الحسنة ، لا يقطع ،ولا يكف عن الدعوة ، بل انه يألم لالمهم، ويواسيهم في أزماتهم ٠

حتى انه نزل بأهل مكة قحط ، فدعا صلى الله تعالى عليه وسلم لهم بانزال المطر ، فنزل ويظهر أن ذلك كان في الفترة التي عاشها النبي عليه الصلاة والسلام بين أهل مكة بعد وفاة أبي طالب الى أن هاجر ، ولذلك روى أن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم بعد أن استجابت دعوته ود لو كان أبو طالب حيا ، رجاء ايمانه ، ورجاء أن يعلم أن دينه أي محمدا خير لقومه ، ويروى أن هذا الاستسقاء كان ومحمد عليه السلام بالمدينة ، فقال لو أدرك أبو طالب هذا الاستسقاء ونصره (١) ٠

ولقد كان من المشركين من يعتريهم ما يفيد قبول ما جاء به محمد ، أو على

---

(١) المذكور فى رؤية ابى طالب لاستسقاء النبى صلى الله تعالى عليه وسلم أنه رآه فى حياة عبد المطلب ، روى أن رقية بنت ابى أصفى بن هاشم قالت : « تتابعت على قريش سنون جدب، قد أفحلت الظلف ، وأرقت العظم ، فبينا أنا راقدة للهم ٠٠ اذا أنا بهاتف يصرخ بصوت صحل : يا معشر قريش ان هذا النبى المبعوث منكم ، هذا ابان نجومه فجهلا بالحيا والخصب ، ألا فانظروا منكم رجلا طويلا أبيض أشم العرنين ٠٠ الافليحضر هو وولده ، وليدلف اليه من كل بطن رجل ٠٠ وليمسوا من الطيب ، وليطوفوا بالبيت سبعا ، وفيهم الطيب الطاهر لذاته ، فليدع الرجل وليؤمن القوم ٠٠ قالت فأضحت مذعورة قد قفجلدى ووله عقلى واقتصصت رؤياى ٠٠ فقالوا =

الاقل عدم المبادرة بتكذيبه والتريث في ذلك ، حتى ينظر أتمم دعوته ، وتستجاب ، أم تضعف وترد ٠

قال النضر بن الحارث : « يا معشر قريش ، انه والله قد نزل بكم أمر ما أتيتم له بحيلة بعد ، قد كان محمد فيكم غلاما حدثا ــ أرضاكم فيكم ، وأصدقكم حديثا ، وأعظمكم أمانة ،حتى اذا رأيتم في صدغه الشيب وجاءكم بما جاءكم به ، قلتم ساحر ، والله ما هو بساحر ، لقد رأينا السحرة ونفثهم وعقدهم ، وقلتم كاهن ، والله ما هو بكاهن ، لقد رأينا الكهنة وتخالجهم وسمعنا سجعهم ٠ وقلتم شاعر : لا والله ما هو بشاعر ، لقد رأينا الشعر ، وسمعنا أصنافه كلها ، هزجه ورجزه ،وقلتم مجنون ما هو بمجنون ، فما هو بخنقه ، ولا وسوسته ، ولا تخليطه يا معشر قريش ، فانظروا في شأنكم ، فانه والله لقد نزل بكم أمر عظيم»(١)٠

لقاء أهل مكة به صلى الله عليه وسلم لاستمالته :

٢٤٤ ــ عن جابر بن عبد الله فقالوا انظروا أعلمكم بالسحر والكهانة والشعر ، فليأت هذا الرجل الذي فرق جماعتنا ، وشتت أمرنا ، وعاب ديننا ، فليكلمه ولينظر ماذا يرد عليه ، فقالوا فيما بينهم ما نعلم أحدا غير عتبة بن ربيعة ، فندبوه لذلك ، وقالوا له أنت يا أبا الوليد ، وكان بينهم سيدا حليما، ويروى أنه هو الذي عرض عليهم أن يذهب للقاء النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، فقال لهم : يا معشر قريش : الا أقوم الى هذا الرجل ، فأعرض عليه أمورا لعله يقبل بعضها ، ويكف عنا :

قالوا : بلى يا أبا الوليد ٠

وسواء أكان هو الذي انتدب لهذا أم ندبوه فقد ذهب الى النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، وعرض عليه ما يظنه كافا له عن متابعة الدعوة الى الحق ٠

= هو شيبه الحمد : وعبد المطلب ، فتتابعت عنده قريش ، وانفض اليه الناس من كل بطن رجل فمسوا واستلموا وطوفوا ، ثم ارتقوا أبا قبيس ،وطفق القوم يدقون حوله ما ان يدرك سعيهم مهلة ، حتى قروا بذروة الجبل ، واستكفوا جنابيه فقام عبد المطلب ، فاعتضد ابن ابنه محمدا صلى الله تعالى عليه وسلم فرفعه على عاتقه وهو يومئذ غلام قد أيفع ، ثم قال : « اللهم ساد الخلة ، وكاشف الكربة ، أنت عالم غير معلم ، ومسؤول غير مبخل وهذه عبادك واماؤك ٠٠ يشكون اليك سنتهم ، فاسمعن اللهم وأمطرن عليهم غيثا مغدقا ، فما راموا حتى انفجرت السماء بمائها وكظ الوادى بشجيجه » هذا ما جاء في الروض والأنف ، والله أعلم بصدق الرواية ٠

(١) سيرة ابن هشام جـ ١ ص ٢٨٩

قال عتبة : يا بن أخي ، انك منـاحيث قد علمت من الشطر في العشيرة، والمكان في النسب ، وانك قد أتيت قومك بأمر عظيم : فرقت جماعتهـم ، وسفهت به أحلامهم ، وعبت به آلهتهم ودينهم ، وكفرت به من مضى من آبائهم، فاسمع مني حتى أعرض عليك أمـورا تنظر فيها ، لعلك تقبل منها بعضها ٠

فقال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم : قل يا أبا الوليد أسمع ٠

قال ربيعة :يا بن أخي ، ان كنت انما تريد بما جئت به من هذا الامـر مالا جمعنا لك من أموالنا ، حتى تكون أكثرنا مالا ٠

وان كنت تريد شرفا سودناك علينا، حتى لانقطع أمرا دونك ٠

وان كنت تريد ملكا ملكناك علينا ٠

وان كان هذا الذي يأتيك رئيا تراه، لا نستطيع رده عن نفسك طلبنا لك الطب ، وبذلنا فيه أموالنا ، حتى نبرئك منه ، فانه ربما غلب التابع على الرجل ، حتى يتداوى منه ٠

فقال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم بعد أن فرغ عتبة : « أفرغت يا أبا الوليد ، قال نعم » ٠

قال رسول الله صلى الله تعالى عليـه وسلم «اسمع مني» ٠ قال أفعل ، فتـلا رسول الله صـلى الله تعالى عليه وسلم :

﴿ حمٓ ۝١ تَنزِيلٌ مِّنَ ٱلرَّحۡمَـٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٢ كِتَـٰبٌ فُصِّلَتۡ ءَايَـٰتُهُۥ قُرۡءَانًا عَرَبِيًّا لِّقَوۡمٍ يَعۡلَمُونَ ۝٣ ﴾ (١)

ومضى رسول الله صلى الله تعالى عليـه وسلم يقرؤها مرتلا تاليا ٠

لما سمع عتبة أنصت لها ، وألقى بيديه خلف ظهره معتمدا عليها ليسمـع منها ، حتى انتهى رسول الله صـلى الله تعالى عليه وسلم الى آية السجـدة في السورة ، فسجدها ، ثم قال : سمعت يا أبا الوليد ؟ قال سمعت ٠ قال الرسول فأنت وذاك ٠

ثم قام عتبة الى أصحابه فقال بعضهم لبعض : لقد جاءكم أبو الوليد بغـير الوجه الذي ذهب به ، فلما جلسوا اليه قالوا : ما وراءك يا أبا الوليد ٠

---

(١) فصلت

قال عتبة : ورائي أني والله قد سمعت قولا ما سمعت مثله قط ، والله : ما هو بالشعر ولا بالكهانة : يا معشر قريش أطيعوني ، واجعلوها لي : خلوا بين هذا الرجل وما هو فيه واعتزلوه ،فوالله ليكونن لقوله الذي سمعت نبأ فان تصبه العرب ، فقد كفيتموه بغيركم ،وان يظهر على العرب ، فملكه ملككم ، وعزه عزكم • وكنتم أسعد الناس به •

قالوا غير مجيبين نصيحته : سحرك والله يا أبا الوليد بلسانه •

قال الناصح ، وكان في ذلك الوقت أمينا في نصحه : « هذا رأيي ، فاصنعوا ما بدالكم » (١) •

محاولاتهم مع رسول الله صلى الله عليه وسلم :

٢٤٥ ـ أعجزهم الايذاء المستمر عن أن يحولوا محمدا وأصحابه عن الايمان ، بل ان التعذيب الشديد ، والايلام المستمر كان يزيد المؤمنين ايمانا، واستمساكا بما يعتقدون ، وترتب على الايذاء أن آمن مثل حمزة وعمر كما ذكرنا ، وأخذ المؤمنون يردون الايذاء بمثله ، فعرف أبو جهل كيف يكون شج الرأس من القوي العادل لمثله الفاجر ،وأعلمهم عمر رضي الله عنه القوي ، كيف يكون الضرب للشرير العصي •

أخذوا يجربون من ذلك طريق العلاج باللين ، وعرض ما يحسبون أنه يقرب النبي اليهم من غير أن يتقربوا هم من الايمان عرضوا عليهم ما يلين أمثالهم ، وما هو منطقهم ، عرضوا عليه الشرف فيهم ليكون السيد المطاع ، وعرضوا عليه الملك ليكون ملكهم ،وعرضوا عليه الاموال ليكون أكثرهم مالا ، فلما رفض كل هذا ، ولا يحسبون أن يرفضه الا من يكون قد انف عقله ، وذلك بمنطقهم المادي الذي لا يحسبون العلو فيه الا بالمال والسيادة والملك ، عرضوا عليه أن يعرضوه على نطس الاطباء ليعالجوه ولكنه بدل أن يجيب بلا أو نعم ، تلا عليهم القرآن ليعلموا أن ما عنده خير مما يقدمون ، بل لا يعد ما يقدمونه شيئا مذكورا بجوار ما عنده وهو خير أبقى •

ضاقوا ذرعا بمحمد وأتباعه ، وزيادتهم آنا بعد آن ، عالجوه بالاضطهاد فما أجدى ، وعالجوه برشوة المال والسيادة فما أجدى فماذا هم صانعون ، لم يبق الا أن يدخلوا معه في جدل ليبين عجزه أمام الناس ، فلا يزيد أتباعه •

---

(١) البداية والنهاية ابن كثير جـ ٣ ص ٦٤

جدلهم مع الرسول صلى الله عليه وسلم

٢٤٦ ــ أعادوا على النبي صلى الله تعالى عليه وسلم عرض ما عرضه عتبة، ولكنهم في هذه المرة يعرضونه مجتمعين توثيقا لارادتهم ، ورغبة فى الاعذار ثم يجادلونه بعض الرفض ٠

اجتمع الملأ من المعاندين له عليه السلام من بطون مختلفة ، فكلما تكامل جمع منهم قال بعضهم لبعض ابعثوا الى محمد فكلموه ، وخاصموه حتى تعذروا فيه ٠

فبعثوا اليه ان أشراف قومك قد اجتمعوا لك ليكلموك ٠

فجاءهم رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم سريعا ، وهو يظن أنه قد بدا لهم في أمره بدء ، وكان عليهم حريصا يحب رشدهم ، ويعز عليه عنتهم ، حتى جلس اليهم ٠

قالوا يا محمد انا قد بعثنا اليك لنعذر فيك ، وانا والله ما نعلم رجلا من العرب أدخل على قومه ما أدخلت على قومك لقد شتمت الآباء ، وعبت الدين ، وسفهت الاحلام ، وشتمت الآلهة ،وفرقت الجماعة ، فما بقي من قبيح الا وقد جئته فيما بيننا وبينك ، فان كنت، انما جئت بهذا الحديث تطلب مالا جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالاوان كنت انما تطلب الشرف فينا سودناك علينا ، وان كنت تريد ملكا ملكناك علينا ، وان كان هذا الذي يأتيك رئيا من الجن ، فربما كان ذلك،بذلنا أموالنا في طلب الطب ، حتى نبرئك منه أو نعذر فيك ٠

قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم : « مابي ما تقولون ، ما جئتكم بما جئت أطلب أموالكم ، والشرف فيكم ، ولا الملك عليكم ، ولكن بعثني الله اليكم رسولا ، وأنزل علي كتابا ،وأمرني أن أكون لكم بشيرا ، ونذيرا ، فبلغتكم رسالات ربي ، ونصحت لكم ،فان تقبلوا مني ما جئتكم به ، فهو

حظلكم في الدنيا والآخرة ، وان تردوا علي،أصبر لامر الله ، حتى يحكم الله بيني وبينكم ·

قالوا يا محمد ، فان كنت غير قابل ما عرضنا عليك ، فقد علمت أنه ليس أحد من الناس أضيق منا بلادا ، ولا أقل مالا ولا أشد عيشا ، فأسأل لنا ربك الذي بعثك بما بعثك به ، فليسير عنا هذه الجبال التي قد ضيقت علينا ، وليبسط لنا بلادنا ، وليفجر فيها أنهارا كأنهار الشام والعراق ، وليبعث لنا من مضى من آبائنا ، وليكن فيمن يبعث منهم قصي بن كلاب فانه كان شيخا صدوقا ، فنسألهم عما تقول أحق هو أم باطل ،فان فعلت ما سألناك وصدقوك صدقناك، وعرفنا منزلتك عند الله ، وأنه بعثك رسولا ، كما تقول ·

مؤدى هذا الكلام أنهم يطلبون آيات أخرى ، والله عليم بالقلوب فقد جاء عيسى لأمثالهم بما هو أشد من ذلك ، من احياء الموتى وابراء الأكمه ، والله سبحانه هو الذي يختار بيناته وهو أعلم بما يؤيد رسالته ·

قال لهم رسول الله رادا عليهم قولهم، وما بهذا بعثت ، انما جئتكم من عند الله بما بعثني به ، فقد بلغتكم ما أرسلت به اليكم ، فان تقبلوه فهو حظكم في الدنيا والآخرة ، وان تردوه علي أصبر حتى يحكم الله بيني وبينكم ·

قالوا فان لم تفعل هذا فخذ لنفسك ،فسل ربك أن يبعث لنا ملكا يصدقك بما تقول ، ويراجعنا عنك ، وتسأله فيجعل لنا جنانا وكنوزا وقصورا من ذهب وفضة ، ويغنيك عما نراك تبتغي، فانك تقوم في الاسواق ، وتلتمس المعايش ، كما نلتمس ، حتى نعرف فضل منزلتك من ربك ان كنت رسولا كما تزعم ·

قال لهم الرسول صلى الله تعالى عليه وسلم : ما أنا بفاعل ، وما أنا بالذي يسأل ربه هذا ، وما بعثت اليكم بهذا ،ولكن الله تعالى بعثني بشيرا ونذيرا ، فان تقبلوا ما جئتكم فهو حظكم في الدنيا والآخرة ، وان تردوه علي أصبر حتى يحكم الله بيننا ·

قالوا فأسقط علينا كسفا من السماء ، كما زعمت أن ربك ان شاء فعل ، فانا لا نؤمن بك الا أن تفعل ·

قال لهم الرسول الصادق الأمين صلى الله تعالى عليه وسلم : ذلك الى ربي أن شاء فعل بكم ذلك .

قالوا يا محمد ما علم ربك أننا سنجلس معك ونسألك عما سألناك ونطلب منك ما نطلب ، فيقدم اليك ،ويعلمك ما تراجعنا به ، ويخبرك ما هو صانع في ذلك بنا اذا لم نقبل ما جئتنا به ، فقد بلغنا انه انما يعلمك هذا رجل باليمامة يقال له الرحمن ، وانا والله لا نؤمن بالرحمن أبدا ، فقد أعذرنا اليك يا محمد ، أما والله لا نتركك وما فعلت بنا ، حتى نهلكك أو تهلكنا .

وقال قائل منهم نحن نعبد الملائكة، وهي بنات الله ، وقال قائل منهم : « لن نؤمن لك حتى تأتينا بالله والملائكة قبيلا » .

تقاولوا طالبين آيات حسية ، ومستعجلين العذاب ، ثم قال عبد الله بن أبي أمية بن المغيرة بن عمة عاتكة بنت عبد المطلب « يا محمد عرض عليك قومك ما عرضوا ، فلم تقبله ، ثم سألوك أمورا ليعرفوا بها منزلتك من الله فلم تفعل ، ثم سألوك أن تعجل ما تخوفهم من العذاب ، فوالله لا أومن لك أبدا ، حتى تتخذ الى السماء سلما ثم ترقى منه وأنا أنظر ، حتى تأتيها وتأتي معك بنسخة منشورة ، ومعك أربعة من الملائكة يشهدون أنك كما تقول : وايم الله لو فعلت ذلك لظننت أني لا أصدقك » (١) .

خلاصة مطالبهم منه صلى الله عليه وسلم :

٢٤٧ ـ طلبوا ما طلبوا لا ليؤمنوا ، ولكن ليحرجوا النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، وليعلنوا قوة جدالهم ، وهم قوم خصمون كما قال الله تعالى ولعل الذي يفضح حقيقة نياتهم قول الهاشمي ابن عاتكة بنت عبد المطلب : « وايم الله لو فعلت ذلك لظننت أني لا أصدقك »فكأنه يصرح بأن التكذيب سابق للدليل، وانه راكز في النفوس لا يخرج منها ،حتى بعد تلك الآيات التي طلبوها ،فلو

---

(١) راجع ابن جرير فى تفسير سورة الاسراء وابن كثير كذلك وراجع سيرة ابن هشام والبداية والنهاية لابن كثير

استجيبت ما زادوا الا اعناتا ، وكانوا كما حكى الله سبحانه وتعالى عنهم :

﴿ وَأَقْسَمُواْ بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَئِن جَآءَتْهُمْ ءَايَةٌ لَّيُؤْمِنُنَّ بِهَا ۚ قُلْ إِنَّمَا ٱلْءَايَٰتُ عِندَ ٱللَّهِ ۖ وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَآ إِذَا جَآءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠٩﴾ وَنُقَلِّبُ أَفْـِٔدَتَهُمْ وَأَبْصَٰرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُواْ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١١٠﴾ ۞ وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ ٱلْمَوْتَىٰ وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَىْءٍ قُبُلًا مَّا كَانُواْ لِيُؤْمِنُوٓاْ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ ﴿١١١﴾ ﴾ (١)

ومطالبهم التي قدمت كانت للتعنت لا طلبا للدليل ، فان ما جاء به محمد حق واضح في ذاته ، تبعه مؤمنون لما فيه من الحق ، وقد صحبه الدليل الذي يثبت أنه من عند الله قرآنا غير ذي عوج يهدي الضال ، ويرشد الساري في الظلام ، وهو المصباح المزهر ، الذي يعجز العرب وغير العرب عن أن يأتوا بمثله :

﴿ قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُواْ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴿٨٨﴾ ﴾ (٢) .

وخلاصة هذه المطالب أنهم :

١ ــ يطلبون أدلة مادية ، طلبوا منه أن يوسع عليهم أرضهم ، وأن يبعث أمواتهم .

٢ ــ وطلبوا أن يبعث لهم ملكا يشهد لنبوته .

٣ ــ وطلبوا منه أن يجعل أرضهم القاحلة جنات ، وفيها كنوز ، وفيها قصور من ذهب وفضة ، واتهموه كذبا بأنه يعلمه رجل من اليمامة .

٤ ــ وطلبوا أن يسقط عليهم من السماء كسفا .

٥ ــ وطلبوا منه أن يحضر سلما يرقى فيه الى السماء ، وأن ينزل ومعه كتاب في قرطاس .

طلبوا ذلك لا ليؤمنوا ولكن ليحرجوه عليه الصلاة والسلام ، ولو كانوا طلاب ايمان ما طلبوا أن ينزل عليهم كسفا من السماء ، لان ذلك يبيدهم ، ولا ايمان بعد هذا الانزال .

---

(١) الانعام (٢) الاسراء

ولقد كان صادقا عبد الله بن أبي أمية بن المغيرة بن عمته عاتكة بعد أن طلب ما طلب أنه لم يعد بالايمان انجاء بما طلب ، بل ختم القول بأنه لا يظن أنه سيصدق ان جاء .

وان النبي عليه الصلاة والسلام لم يطلب الى الله تعالى أن يجيبهم فيما طلبوا ، بل رد طلبهم لأنه سبحانه وتعالى يعلم أنهم ان أجيبوا ولم يؤمنوا ، فالهلاك كما هلكت عاد وثمود ، والنبي عليه الصلاة والسلام يعلم أن شريعته باقية خالدة ، وأن لها معجزة خالدة باقية بخلودها ، فلا تناسبها معجزة تحدث ثم تنتهي .

وقد حدثوا أنهم لما سألوا النبي عليه الصلاة والسلام تلك الاسئلة وطلبوا تلك المطالب أوحي « ان شئت أن تستأني بهم وان شئت أن تؤتيهم الذي سألوا ، فان كذبوا هلكوا كما أهلكنا من قبلهم ، فقال النبي صلى الله تعالى عليه وسلم :«بل أستأني بهم » .

ولقد روي أنهم قالوا للنبي عليه الصلاة والسلام ، ادع ربك أن يجعل لنا الصفا ذهبا ونؤمن لك ، قال عليه الصلاة والسلام وتفعلون ذلك ، قالوا نعم ، فدعا ، فأتى جبريل فقال :« ان ربك يقرأ عليك السلام ، ويقول لك ان شئت أصبح الصفا لهم ذهبا ،فمن كفر منهم بعد ذلك أعذبه عذابا لا أعذبه أحدا من العالمين ، وان شئت فتحت لهم باب الرحمة والتوبة قال الرؤوف الرحيم صلوات الله وسلامه عليه بل التوبة والرحمة » .

وان مطالبهم والرد عليها قد سجلها القرآن الكريم فقد قال تعالى وهو أصدق القائلين :

﴿ وَقَالُوا لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنبُوعًا ﴿٩٠﴾ أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الْأَنْهَارَ خِلَالَهَا تَفْجِيرًا ﴿٩١﴾ أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ قَبِيلًا ﴿٩٢﴾ أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِي السَّمَاءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَّقْرَؤُهُ ۗ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا ﴿٩٣﴾ وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَن يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَىٰ إِلَّا أَن قَالُوا أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا ﴿٩٤﴾ ﴾ (١)

(١) الاسراء

وقد أشار سبحانه وتعالى الى هذه المطالب في آيات أخر ، وبين أنهم لو جاءتهم لا يؤمنون ، فقال تعالت كلماته:

﴿وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ مِّنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا۟ عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴿٤﴾ فَقَدْ كَذَّبُوا۟ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ ۖ فَسَوْفَ يَأْتِيهِمْ أَنۢبَٰٓؤُا۟ مَا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٥﴾ أَلَمْ يَرَوْا۟ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّن لَّكُمْ وَأَرْسَلْنَا ٱلسَّمَآءَ عَلَيْهِم مِّدْرَارًا وَجَعَلْنَا ٱلْأَنْهَٰرَ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنَٰهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَنشَأْنَا مِنۢ بَعْدِهِمْ قَرْنًا ءَاخَرِينَ ﴿٦﴾ وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَٰبًا فِى قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٧﴾ وَقَالُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ ۖ وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكًا لَّقُضِىَ ٱلْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنظَرُونَ ﴿٨﴾ * وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَٰهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ ﴿٩﴾﴾ (١)

طلبوا كل هذا لا ليؤمنوا ، فقد سبق القول بالكفر ، واذا سبق الاعتقاد الباطل في أمر ، فان كل الاتجاهات لاثبات هذا البطلان ، بالسلب اذا لم يأت لهم الدليل الذي يريدونه ، وبالايجاب بالانكار وعدم الاقرار ، فان التعنت لا تزيده قوة الدليل الا اصرارا ،وكثرة الأدلة الا لجاجة في الانكار .

وان الله تعالى قد اختار لهم القرآن دليلا ، ليعطيهم فرصة للتفكير ، وهو يخاطبهم في آن الدعوة ، وقد تتولد التوبة والغفران . أما الأدلة الحسية ، فانها تجيء دفعة ، فاما العقاب واما الايمان ، وفي الماضي عبرة فما جاءت آية من نوع ما يطلبون الا كانت النتيجة هلاكا ولم تكن اذعانا ، لانهم ما كانوا ليذعنوا بالحق ، بل قد سبق الكذب ،وقد قال تعالى يشير الى ذلك :

﴿وَمَا مَنَعَنَآ أَن نُّرْسِلَ بِٱلْءَايَٰتِ إِلَّآ أَن كَذَّبَ بِهَا ٱلْأَوَّلُونَ ۚ وَءَاتَيْنَا ثَمُودَ ٱلنَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا۟ بِهَا ۚ وَمَا نُرْسِلُ بِٱلْءَايَٰتِ إِلَّا تَخْوِيفًا ﴿٥٩﴾﴾ (٢)

---

(١) الأنعام . (٢) الاسراء

بغيتهم وفشلهم :

٢٤٨ ـ ما كانت هذه الاسئلة ، الا لاظهار النبي عليه الصلاة والسلام بمظهر العاجز ، واذا ظهر عجزه في زعمهم اتخذوا من ذلك ذريعة لمنع الناس عن اتباعه ، وللوقوف ضد ينبوع الايمان الذي يسري ، ولا ينقطع ، ولكن هل تحقق ما أرادوا ، لقد ثبت بذلك صدقه ، وأنه لا يريد الا الحق ، والاتباع يزيدون ولا ينقصون ولا يرتد أحد ، بل يزدادون ايمانا ، وانهم يحيلون موضع الجدل آيات ، والقضية توحيد أو تعدد ، فهل يجادلون في الله ، وهو شديد المحال .

الاستعانة بأهل الكتاب

٢٤٩ ـ سبق المشركون الى الانكار ، فكذبوا بالحق لما جاءهم ، وسدوا مداخل الايمان الى قلوبهم ، والناس رجلان رجل يدرك الحق بعقله وقلبه فيدركه بمجرد سماعه ، وهذا يطلب الدليل ليطمئن قلبه ، وليزداد ايمانا ، فالدليل لا ينشيء الايمان في قلبه ولكنه يزيده تثبيتا « هؤلاء هم الذين قال الله تعالى فيهم :

﴿ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَزَادَتْهُمْ إِيمَـٰنًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿١٢٤﴾ ﴾ (١)

وآخر يسارع الى الكفر ، ويسابق بالانكار ، فيكون قلبه أغلف قد سدت مداخل الايمان ، وهم الذين قال الله تعالى فيهم :

﴿ خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ ۖ وَعَلَىٰٓ أَبْصَـٰرِهِمْ غِشَـٰوَةٌ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٧﴾ ﴾ (٢)

وأولئك لا يطلبون الدليل ليسيروا في نوره ، بل يطلبونه ليعجزوا من يخاصمهم ، وينحرف بهم القول ، وانظر ما قاله تعالى في شأن عناة المشركين الذين كانوا يقاومون النبي عليه الصلاة والسلام ، فهو يقول تعالت كلماته :

﴿ وَإِذْ قَالُوا۟ ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَـٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٢﴾ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾ (٣)

أحس المشركون بعد المطالب التي قدموها أن أحدا لم يفقد الثقة بمحمد ، بل كانت دليلا على حمقهم ، وانهوائهم في هاوية من التفكير ليس معها رشاد اذ كيف الدليل الذي لو نفذ لماتوا قبل أن يستجيبوا ، كانزال مطر من حجارة أو عذاب أليم .

(١) التوبة (٢) البقرة (٣) الانفال

عجزوا عن الاستدلال الذي كشف جهالتهم ، تعمدوا الى الاستدلال الاضافي بالاستعانة بأهل الكتاب عساهم أن يعينوهم ، على وقف التيار العذب الذي يدخل به الناس في الايمان ·

بعث قريش لأحبار اليهود:

٢٥٠ ـ روي عن ابن عباس رضي الله عنهما ـ أن قريشا بعثت النضر بن الحارث وعقبة بن أبي معيط الى أحبار يهود بالمدينة فقالوا سلوهم عن محمد ، بعد ان وصفا لهم صفته ، وأخبراهم بقوله : انهم أهل الكتاب الأول وعندهم ما ليس عندنا من علم الأنبياء ·

خرجا حتى قدما المدينة ، فسألا أحبار يهود عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ووصفا لهم أمره ، وبعض قوله ، وقالا انكم أهل التوراة ، وقد جئناكم لتخبرونا عن صاحبنا هذا ·

فقالت لهم أحبار يهود : سلوه عن ثلاث نأمركم بهن ، فان أخبركم بهن فهو نبي مرسل ، وان لم يفعل فهو رجل متقول · فروا فيه رأيكم :

(أ) سلوه عن فتية ذهبوا في الدهر الاول ما كان أمرهم ، فانه قد كان لهم حديث عجيب ·

(ب) وسلوه عن رجل طواف : طاف مشارق الارض ومغاربها ما كان نبؤه ·

(ج) وسلوه عن الروح ما هي ·

فان أخبركم بذلك فاتبعوه ، وان لم يخبركم ، فانه رجل متقول ، فاصنعوا في أمره ما بدا لكم ·

فأقبل النضر وعقبة حتى قدما على قريش فقالا :

يامعشر قريش قد جئناكم بما يفصل ما بينكم وبين محمد : قد أمرنا أحبار يهود أن نسأله عن أمور فأخبراهم بها فجاءوا رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم فسألوه عما أمر أحبار يهود ·

ويظهر أنهم ظنوا أن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم سيردهم بتكرار دعوة الحق لهم كما فعل أول الامر · ولكن خاب ظنهم · فقد أمهلهم ، ولم يردهم ، لان ذلك مما يمكن أن تشمل معجزته الكبرى ، وهي القرآن ، ولذا

وعدهم بالاجابة ان أجلوه ، لانه يتكلم من عند الله ، فلا علم له الا من عند الله العلي القدير • فقال لهم : أخبركم غدا بما سألتم عنه ، ولم يستثن أي لم يعلق الاجابة على مشيئة الله تعالى •

انصرفوا عنه ومكث رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم خمس عشرة ليلة ، لا يحدث له في ذلك وحي ، ولا يأتيه جبريل ، حتى أرجف أهل مكة وقالوا وعدنا محمد غدا ، واليوم خمسة عشر قد أصبحنا فيها لا يخبرنا فيها بشيء مما سألناه ، وحتى أحزن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم مكث الوحي عنه ، وشق عليه ما يتكلم به أهل مكة • ثم جاء جبريل •

لماذا تأخر الوحي هذه المدة ، ونجيب عن ذلك بجوابين :

أولهما ـ أنه لم يستثن عندما قرر أنه سيجيب غدا ، فلم يقل ان شاء الله تعالى :

﴿ وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْىْءٍ إِنِّى فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا ﴿٢٣﴾ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ﴾ (١)

وثانيهما ـ أن مجيء الاجابة بعد طول انتظارها ، وارجافهم نحوها ، واشاعتهم عجز محمد عليه الصلاة والسلام عن الاجابة ، تكون للاجابة فائدة أنها تكون أوقع ، اذ تكون فى وقت الحاجة اليها ، فيكون فيها فضل تمكين في النفس ، ويكون التحدي أشد تثبيتا في النفس وأقوى لتكذيبهم ورد كيدهم في نحرهم ، اذ يكونون قد تقاولوا في ذلك ، فيكون ردهم قد علمه كل من أشاعوا بين يديه عجز محمد صلى الله تعالى عليه وسلم ، فيكون دعوة لتصديق النبي عليه الصلاة والسلام •

وفوق ما تقدم في الامرين ان التأخير يدل على أن محمدا عليه الصلاة والسلام لا يأتي بهذا الكتاب من عنده ، انما يأتيه عن الله تعالى علام الغيوب الذي يعلم ما خلق وهو السميع البصير •

٢٥١ ـ أجيبوا عن الاسئلة الثلاثة ـ أجيبوا عن السؤال الاول بأن أولئك الفتية هم أهل الكهف الذين ذكروا في السورة التي سميت بأسمائهم ـ

---

(١) الكهف

ولنقل جزءا من هذه السورة ، فقد قال تعالت كلماته :

﴿أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَٰبَ ٱلْكَهْفِ وَٱلرَّقِيمِ كَانُوا۟ مِنْ ءَايَٰتِنَا عَجَبًا ﴿٩﴾ إِذْ أَوَى
ٱلْفِتْيَةُ إِلَى ٱلْكَهْفِ فَقَالُوا۟ رَبَّنَآ ءَاتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا ﴿١٠﴾ فَضَرَبْنَا
عَلَىٰٓ ءَاذَانِهِمْ فِى ٱلْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا ﴿١١﴾ ثُمَّ بَعَثْنَٰهُمْ لِنَعْلَمَ أَىُّ ٱلْحِزْبَيْنِ أَحْصَىٰ لِمَا لَبِثُوٓا۟ أَمَدًا
﴿١٢﴾ نَّحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِٱلْحَقِّ ۚ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ ءَامَنُوا۟ بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَٰهُمْ هُدًى ﴿١٣﴾ وَرَبَطْنَا
عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا۟ فَقَالُوا۟ رَبُّنَا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَن نَّدْعُوَا۟ مِن دُونِهِۦٓ إِلَٰهًا ۖ لَّقَدْ
قُلْنَآ إِذًا شَطَطًا ﴿١٤﴾ هَٰٓؤُلَآءِ قَوْمُنَا ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً ۖ لَّوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِم بِسُلْطَٰنٍۭ بَيِّنٍ ۖ
فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ﴿١٥﴾ وَإِذِ ٱعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ فَأْوُۥٓا۟ إِلَى ٱلْكَهْفِ
يَنشُرْ لَكُمْ رَبُّكُم مِّن رَّحْمَتِهِۦ وَيُهَيِّئْ لَكُم مِّنْ أَمْرِكُم مِّرْفَقًا ﴿١٦﴾ وَتَرَى ٱلشَّمْسَ إِذَا طَلَعَت
تَّزَٰوَرُ عَن كَهْفِهِمْ ذَاتَ ٱلْيَمِينِ وَإِذَا غَرَبَت تَّقْرِضُهُمْ ذَاتَ ٱلشِّمَالِ وَهُمْ فِى فَجْوَةٍ مِّنْهُ ۚ
ذَٰلِكَ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ ۗ مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ ۖ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ وَلِيًّا مُّرْشِدًا ﴿١٧﴾﴾ (١)

الى آخر القصة التى تختم بقوله تعالى :

﴿وَٱتْلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِن كِتَابِ رَبِّكَ ۖ لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ وَلَن تَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلْتَحَدًا ﴿٢٧﴾﴾ (٢)

هذه اجابة السؤال الاول ، وهو شطر من سورة الكهف ، وتلاوته تسمعهم القرآن ، واسماعهم القرآن في ذاته دعوة الى الحق ، والى صراط مستقيم ، وبتلاوته يدركون معنى الاعجاز .

---

(١) ، (٢) الكهف

وأما الاجابة عن السؤال الثاني ، وهو الرجل الطواف ، فقد جاءت في آخر سورة الكهف ، اذ يقول تعالت كلماته :

﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَن ذِى ٱلْقَرْنَيْنِ ۖ قُلْ سَأَتْلُوا۟ عَلَيْكُم مِّنْهُ ذِكْرًا ﴿٨٣﴾ إِنَّا مَكَّنَّا لَهُۥ فِى ٱلْأَرْضِ وَءَاتَيْنَٰهُ مِن كُلِّ شَىْءٍ سَبَبًا ﴿٨٤﴾ فَأَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٨٥﴾ * حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ ٱلشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِى عَيْنٍ حَمِئَةٍ وَوَجَدَ عِندَهَا قَوْمًا ۗ قُلْنَا يَٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِمَّآ أَن تُعَذِّبَ وَإِمَّآ أَن تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا ﴿٨٦﴾ قَالَ أَمَّا مَن ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُۥ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِۦ فَيُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا نُّكْرًا ﴿٨٧﴾ وَأَمَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُۥ جَزَآءً ٱلْحُسْنَىٰ ۖ وَسَنَقُولُ لَهُۥ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا ﴿٨٨﴾ ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٨٩﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ ٱلشَّمْسِ وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَىٰ قَوْمٍ لَّمْ نَجْعَل لَّهُم مِّن دُونِهَا سِتْرًا ﴿٩٠﴾ كَذَٰلِكَ وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ خُبْرًا ﴿٩١﴾ ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٩٢﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ بَيْنَ ٱلسَّدَّيْنِ وَجَدَ مِن دُونِهِمَا قَوْمًا لَّا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا ﴿٩٣﴾ ﴾ (١)

الى آخر القصة التي تختم بقوله تعالى :

﴿ وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِى بَعْضٍ ۖ وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَجَمَعْنَٰهُمْ جَمْعًا ﴿٩٩﴾ ﴾ (٢)

وكانت الاجابة عن السؤال الثالث في سورة الاسراء بقوله تعالى :

﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ ۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٨٥﴾ ﴾ (٣)

جاءت الردود آيات تتلى ويسمعها كل الذين أرجفوا بعجز محمد في تحديهم ، فقرؤوها ، أو سمعوها ، فكانت تتلى فيهم في ضمن ما يتلوه النبي عليهم ، ولا شك أن لذلك أثرا قويا فيهم • وفيمن علم أمر المحاجة بينهم وبين الرسول صلى الله عليه وسلم ، وفي مقدمه ما سرى فيهم من روح القرآن ودلائل اعجازه ، فهل آمنوا ؟ من المؤكد أن المؤمنين زادوا ايمانا من بعد ذلك •

---

(١) ، (٢) الكهف (٣) الاسراء

إسماعهم القرآن

٢٥٢ ـ عندما ذهب عتبة بن ربيعة يتودد للنبي باسم قريش ، وعرض عليه السيادة فيهم ، أو الملك ، أو المال الوفير ، أو أن يحضروا له طبيبا يعالجه من الرئي ان كان عنده رئي ، فقرأ عليه النبي عليه السلام بعد مجاوبة ترد ما يعرضون قوله تعالى :

﴿ حم ۝١ تَنزِيلٌ مِّنَ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ۝٢ ﴾ (١)

الى آخر الآيات ، فأتى أصحابه ،فقال لهم « يا قوم أطيعون في هذا الامر اليوم ، واعصوني فيما بعد،فوالله لقد سمعت من هذا الرجل كلاما، ما سمعت أذناي كلاما مثله ، وما دريت ما أرد عليه » ٠

كان المشركون حريصين على أن يستمعوا للقرآن بعد أن عرفوا تأثيره ، لا ليؤمنوا ، ولكن ليعرفوه ، وليعدوا العدة ، ولان بعضهم مع عناده ،وجحوده واصراره كان يخاف تهديده وانذاره ،بل كان يخاف مجرد تهديد من النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، يروى أن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم قال لأبي جهل (يا أبا الحكم) « فوالله لتضحكن قليلا ولتبكين كثيرا » فأخذ التهديد قلبه المتحجر وألانه لحظة من الزمان ، فقال متلطفا مع النبي صلى الله عليه وسلم : « بئسما تعدني يابن أخي من نبوتك » ٠

ونراه أحسن الخطاب بذكر رابطة وثيقة من القرب في القبيلة ، وذلك مالم يؤلف من قبل ٠

كان كبراء قريش يجذبهم القرآن لاستماعه ، وان لم يؤمنوا ، لقد سمعه الوليد بن المغيرة ، فقال « لقريش في وصفه ان له لحلاوة ، وان عليه لطلاوة، وان أعلاه لمثمر ٠ وان أسفله لمغدق ،وانه ليعلو ، ولا يعلى عليه ما يقول هذا

---

(١) فصلت

بشر » ، ولقد نفى أن يكون شعرا ،ودفعته لجاجته في الانكار الى أن يقول انه سحر ، وان لم يرض بذلك الوصف للقرآن ابتداء •

واذا كان المؤمنون قد جذبهم القرآن ومحبة النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، واخلاصهم ، واشراق قلوبهم بالايمان ، فالمشركون لعلمهم ببليغ القول ، وشغفهم به ، قد شغفهم القرآن،ولكن حالت بينهم وبين الايمان ظلمات اعترت قلوبهم :

﴿ خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ ۖ وَعَلَىٰٓ أَبْصَٰرِهِمْ غِشَٰوَةٌ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٧﴾ ﴾ (١)

ولقد شغفوا بسماع القرآن ، لا فرق بين صغير وكبير ، والصغير يؤمن والمتعنت لا يزيده السماع الا كفرا واعناتا ، فان قوة الدليل تملأ قلب المخلص ايمانا ، وقلب الحقود الحسود كفرانا ،ولجاجة ، وكلما لج في عناده زاد بغضا لمحمد رسول الله صلى الله عليه وسلم ودعوته ، والمستجيبين لها •

استماع المشركين للقرآن من رسول الله صلى الله عليه وسلم :

٢٥٣ ـ ولقد روى ابن اسحاق عن ابن شهاب الزهري أنه حدث أن أبا سفيان بن حرب وأبا جهل عمرو بن هشام والاخنس بن شريق ابن وهب الثقفي حليف بني زهرة خرجوا ليلة ليستمعوا من رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، وهو يصلي من الليل في بيته ، فأخذ كل رجل منهم مجلسا يستمع فيه ، وكل لا يعلم بمكان صاحبه ،فباتوا يستمعون له ،حتى اذا طلع الفجر تفرقوا فجمعهم الطريق فتلاوموا ،وقال بعضهم لبعض لا تعودوا ، فلو رآكم بعض سفهائكم ، لاوقعتم في نفسه شيئا ، ثم انصرفوا حتى اذا كانت الليلة الثانية ، عاد كل رجل منهم الى مجلسه فباتوا يستمعون له ، حتى اذا طلع الفجر تفرقوا فجمعهم الطريق ، فقال بعضهم لبعض مثل ما قالوا أول مرة ثم انصرفوا ، حتى اذا كانت الليلة الثالثة أخذ كل رجل مجلسه ، فباتوا يستمعون له ، حتى اذا كان الفجر تفرقوا فجمعهم الطريق ، فقال بعضهم لا نبرح حتى نتعاهد ألا نعود •

---

(١) البقرة

وقد تعاهدوا على ذلك ، وقد قال الله فيهم :

﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَسۡمَعُواْ لِهَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ وَٱلۡغَوۡاْ فِيهِ لَعَلَّكُمۡ تَغۡلِبُونَ ﴿٢٦﴾ ﴾ (١)

وكانوا بعد سماع القرآن يتذاكرون فيما بينهم ما سمعوا ، فقد سأل الأخنس ابن شريق الثقفي أبا سفيان عن رأيه فيما سمع ، فقال : أخبرني يا أبا حنظلة عن رأيك فيما سمعت من محمد ؟ فقال يا أبا ثعلبة ، والله لقد سمعت أشياء أعرفها ، وأعرف ما يراد بها ، وسمعت أشياء ما عرفت معناها ، ولا ما يراد بها • وقال الأخنس ، وأنا كذلك وذهب الأخنس من عند أبي سفيان ، وأتى أبا جهل فقال يا أبا الحكم ، ما رأيك فيما سمعت من محمد ، فقال ماذا سمعت ؟ : تنازعنا نحن وبنو عبد مناف الشرف ، أطعموا ، فأطعمنا ، وحملوا فحملنا ، وأعطوا فأعطينا ، حتى تجاذبنا على الركب وكنا كفرسي رهان قالوا منا نبي يأتيه الوحي من السماء فمن ندرك مثل هذا ؟ والله لا نؤمن أبدا ، ولا نصدقه وقد نقلنا ذلك الجزء من قول أبي جهل •

٢٥٤ ــ والمقصود من ذلك الخبر أنهم كانوا ينجذبون نحو سماع القرآن ، كما يتجه الى السماع والتلاوة المؤمنون بيد أن الفرق بينهما ، كالفرق بين من يستمع طالبا الحق مذعنا له ، ومن يطلب غير الحق ، ولكن يجذبه اليه حلاوته وطلاوته •

ولذلك ما كانوا يؤمنون ، وكأن الله تعالى مقلب القلوب جذبهم اليه ليعرفوا البينات ، والأدلة القائمة ، ليهتدوا فان كفروا من بعد ذلك فعن بينة وسماع ، ومعرفة بالدليل ، ثم الاعراض •

وقد كان الاعراض شأن من كتب عليهم الضلال ، ولا معذرة لهم لانهم اشتروا الضلالة • ورغبوا عن الهداية ، ومع أنهم كانوا يتهافتون على سماعه في جنح الليل البهيم ، وكلما تواعدوا ألا يفعلوا نكثوا في عهودهم كان النبي عليه الصلاة والسلام اذا تلا عليهم القرآن جهارا ، نهارا ، استهزؤوا ، ولم ينصتوا خشية أن يكثر أتباع النبي عليه الصلاة والسلام ، وكانت دعوته شجا في عيونهم ، وغصة في حلوقهم •

---

(١) فصلت

قال ابن اسحاق كان رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم اذا تلا عليهم القرآن ودعاهم اليه ، قالوا : يهزؤون قلوبنا في أكنة مما تدعونا اليه ، وفي آذاننا وقر، ومن بيننا وبينك حجاب ، فاعمل اننا عاملون ٠

فحكى الله تعالى عنهم قولهم :

﴿ وَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا ﴿٤٥﴾ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا ۚ وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِى ٱلْقُرْءَانِ وَحْدَهُۥ وَلَّوْا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَـٰرِهِمْ نُفُورًا ﴿٤٦﴾ نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَسْتَمِعُونَ بِهِۦٓ إِذْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ وَإِذْ هُمْ نَجْوَىٰٓ إِذْ يَقُولُ ٱلظَّـٰلِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا ﴿٤٧﴾ ٱنظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا۟ لَكَ ٱلْأَمْثَالَ فَضَلُّوا۟ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا ﴿٤٨﴾ وَقَالُوٓا۟ أَءِذَا كُنَّا عِظَـٰمًا وَرُفَـٰتًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا ﴿٤٩﴾ ۞ قُلْ كُونُوا۟ حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا ﴿٥٠﴾ أَوْ خَلْقًا مِّمَّا يَكْبُرُ فِى صُدُورِكُمْ ۚ فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَا ۖ قُلِ ٱلَّذِى فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۚ فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هُوَ ۖ قُلْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَرِيبًا ﴿٥١﴾ ﴾ (١)

وهذه الآيات الكريمة مع ما ذكر من حرص عتاة الكفار على سماع القرآن تدل على ثلاثة أمور :

أولها : أن القرآن كان يجذبهم الى الاستماع اليه ، لما فيه من بلاغة تجذب أهل البيان لاستماعه وتعرف منزلته ،وبهذا يدركون الفرق بين كلامهم وكلامه ، ويذكرون الفرق بين البيان البشري ، وكلام رب العالمين حجة الله تعالى البالغة الى يوم الدين ، واذا كانت الآيات الحسية تبهرهم وتقرع أسماعهم، فيراها أكثرهم بينة ، فكذلك تلك الآية المعنوية تجذب قلوبهم وتسترعي أسماعهم ، فيعلم بها الذين لم يدخل الايمان قلوبهم ، وبذلك تقوم الحجة ، وتقوم البينة ، ولا حجة لهم في الجهل ،ولا في الاعتذار ٠

---

(١) الاسراء

ثانيها : أنهم مع عدم المطالبة بأن يأتوا بمثله قد أحسوا بالعجـــز عن أن يأتوا بمثله ، كمـــا رأوا فيه من بيان لا يصلون اليه ، وروعـــة بـلاغة لم يستمعوا اليها ، حتى يقـــول قائلهم ،وقد استمر على كفره وضـلاله : « انه يعلو ولا يعلو عليه ، ما يقول هذا بشر،فهـــم أذعنوا لبلاغته ، ولم يذعنـــوا لدعوته ، فاستحبوا الكفر على الايمان،مع قيام الدلائل » •

ثالثها : أن انكارهم سبق الرغبة في طلب الحقيقة ، ومن كان كذلك لايهديه دليل ، ولا تقنعه حجة ، لانه حينئـــذ لا يطلب حقا ، فلا يحاول أن يتعـــرف الطريق الذي يتأدى به الى الايمـــان ،لان من سلك طريقا معوجا غير موصـــل الى المطلوب للحق ، لا يصل اليه ، وكلما أمعن فيه بعد عن الهداية وكلما أوغل ازداد نكرا ، ومهما يناده رائد الحـــق لا يستمع اليه ، لانه بعيد عنه ، وان يسمع لا يكون جواب من قلبه •

ومن سلك الطريق المستقيم وصل الى الحق ، لان الامارات والظواهر هادية قائمة ، والطريق المستقيم هو الاخلاص في طلب الحق غير مربد قلبه بهـــوى أو شهوة ، أو أثرة ماحقة للخير مغلقة على النفس أبوابه •

الإيذاء والفتنة

٢٥٥ ــ منذ جاءت الدعوة المحمدية ، وقد حاول أهل العصبية الجاهلية الذين ينفسون على البيت الهاشمي مكانته ، والذين من دأبهم أن يحسدوا الناس على ما آتاهم الله ، والذين ألفوا رجس الجاهلية من عبادات ، وتحريم الطيبات من الرزق ، وقد حاول كل أولئك مجتمعين ومنفردين الوقوف في وجهها،وهي تنمو وتزيد،تسعى قدما ،ولا تتأخر ٠ واذا كان السير بطيئا ، فهو متواصل من غير وناء ولا قصور ،وكلماانبلج نوره واتسعت دائرته ، ظنوا أنها دعوة قابلة للانطفاء ، فحاولوااطفاءها ، بالحيلة والعرض الذي يشبه الرشوة ، فما أجدى ذلك فتيلا ،وحاولواالاعجاز بالجدل فارتدوا على أدبارهم خاسئين وقامت الحجة عليهم ، حاولواأن يهوشوا على القرآن وهو يتلى ، وتعاهدوا أن يلغوا في القرآن والنبي يتلو ٠

حاولوا كل هذا ، ولم يجد شيء منه، والاسلام سائر في طريقه ، وان كانت العقبات ، فهي لا تعوق السير ،وان أبطأته ، ولم يجدوا سبيلا الا الى أمرين :

أحدهما : الايذاء المستمر لمن لا حول له ولا قوة ، ولمن آثر السلام والعافية، وهذب قلبه الايمان فاعتقد أن الايمان يوجب عليه الصبر على البلاء ، وألا يقاوم السيئة بمثلها ولو قدر عليها ،وعلى رأس هذا الفريق صاحب الرسالة محمد صلى الله تعالى عليه وسلم ، ومعه صديقه أبو بكر ، ومع هؤلاء العبيد والفقراء الذين لا يملكون سطوة ولاعشيرة لهم ٠

ثانيهما : الاستعانة بمن يحسبون أن له سلطانا أدبيا على محمد عليه الصلاة والسلام وهو أبو طالب ، لانه عمه الذي كفله صغيرا وهو رأس بني هاشم وهو الذي يحميه كبيرا ٠

فلما لم يجد واحد من الامرين زادوا في الايذاء وجعلوه جماعيا ، ولم يجعلوه آحاديا فقط ، ووجدوا بني هاشم مؤمنهم وكافرهم مع محمد عليه

السلام يحميه بأنفة العشيرة ، الا من كتب الله تعالى عليه أن يكون لهبا في جهنم وهو أبو لهب ، فقد كفر بالله ، وكفر بالقرابة ، وكفر بالحمية حمية العشيرة والنصرة ، وأسلم ابن أخيه ، فضل ضلالا بعيدا ·

إيذاء المستضعفاء :

٢٥٦ ــ قال ابن اسحاق : انهم عدوا على من أسلم ، واتبع رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم من أصحابه فوثبت كل قبيلة على من فيها من المسلمين ، فجعلوا يحبسونهم ، ويعذبونهم بالضرب ، وبرمضاء مكة اذا اشتد الحر ، ممن استضعفوا منهم يفتنونهم عن دينهم ، فمنهم من يفتن من شدة البلاء الذي يصيبه ، ومنهم من يثبت ويعصمه الله تعالى منهم ·

وقد كان المؤمنون الصادقون يعينون العبيد من المؤمنين الذين سارعوا الى الايمان في أول الدعوة ، ويعينون الفقراء ليصابروا الذين يؤذونهم ، والنبي صلى الله تعالى عليه وسلم قد جعل كل ما كان يملكه من مال هو وزوجه خديجة لهؤلاء الضعفاء ، وابتدأ محمد عليه السلام يخرج من المال والنشب ، لكيلا يحاجزه عن الدعوة حاجز ، وليكون ما عنده عون لأهل الايمان المستضعفين منهم ·

اذن لقي العبيد أشد العنت عندما اعتنقوا دين الحرية ·

بلال وإخوانه :

٢٥٧ ــ كان من أول الناس اسلاما بلال بن رباح ، كان رقيقا عند أمية بن خلف ، كان يخرجه عند الظهيرة في الحر الشديدة فيطرحه على ظهره في بطحاء مكة · ثم يأمر بالصخرة العظيمة فتوضع على صدره ، ثم يقول له لاتزال على ذلك حتى تموت أو تكفر محمد ، وتعبد اللات والعزى ، فيحتمل البلاء على أن يكفر بمحمد ، وأن يعود الى الشرك ، فيقول ملهوفا : أحد ــ أحد ، وتأويلها الله أحد · يلفظها في عجلة لشدة البلاء ، وللمسارعة باثبات الصبر ، وعدم الاستجابة لما يطلبونه ، ولو لاقى أشق البلاء ·

ولكن ذا المروءة المؤمن مر عليه وهو في هذا العذاب ، فكان له غوثا وهو أبو بكر الصديق ، عتيق النار ومعتق أهل الايمان · فقال لأمية : ألا تتقي الله تعالى في هذا المسكين ، حتى متى ؟

قال أمية : أنت الذي أفسدته فأنقذه مما ترى ·

قال الرجل الكريم أبو بكر : أفعل عندي غلام أسود أجلد منه وأقوى على دينك أعطيكه به ·

قال أمية : قد قبلت ، وحسب أن صفقته رابحة ، لانه أخذ عبدا قويا هو أملك لعنانه ·

وأخذ أبو بكر بلالا فرحا بما أعطاه الله تعالى وأعتقه ، وكان مؤذن الاسلام من بعد ·

وقد أعتق أبو بكر مع بلال ستة آخرين · فكانت العدة سبعة ·

وهؤلاء الذين من الله تعالى عليهم بالحرية فداء لهم من العذاب على يد أبي بكر صديق هذه الأمة ·

عامر بن فهيرة الذي كان في الجهاد في غزوة بدر وغزوة أحد ، وأم عبيس ، وزنيره والنهدية وبنتها ، وكانتا لامرأة من بني عبد الدار فمر بهما وقد بعثتهما سيدتهما بطحين لهما وهي تقول : والله لا أعتقكما أبدا · فقال أبو بكر رضي الله عنه حلي (أي تحللي من يمينك) ·

فقالت له حل أنت ، أفسدتهما فأعتقهما ·

قال : فبكم هما ؟

قالت بكذا وكذا · قال أبو بكر قد أخذتهما ، وهما حرتان ارجعا اليها طحينها ·

قالتا رضي الله عنهما : أو نفرغ منه يا أبا بكر ، ثم نرده اليها ؟ قال الصديق : وذلك لكما ان شئتما ·

ومر بجارية وكان عمر في أيام شركه يعذبها لتترك الاسلام ، فيضربها حتى يمل · فيتركها ملالة لا شفقة · فابتاعها أبو بكر وأعتقها (١) ·

---

(١) أخبار عتق هؤلاء بعمل الصديق أخذناه من سيرة ابن هشام جـ ١ ص ٣١٧ ، ٣١٨ ، ٣١٩

ولما كثر عتقاؤه ومعاونته للضعفاء · قال له أبو قحافة أبوه،وكان لايزال على الشرك يا بني : اني أراك تعتق رقابا ضعافا ، فلو أنك اذ فعلت ما فعلت أعتقت رجالا جلدا يمنعونك ، ويقومون دونك ·

قال أبو بكر رضي الله عنه : يا أبت انما أريد ما أريد لله عز وجل ·

ويروى أنه نزلت فيه هذه الآيات :

﴿ فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ (٥) وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ (٦) فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَىٰ (٧) وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَىٰ (٨) وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَىٰ (٩) فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَىٰ (١٠) وَمَا يُغْنِي عَنْهُ مَالُهُ إِذَا تَرَدَّىٰ (١١) إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَىٰ (١٢) * وَإِنَّ لَنَا لَلْآخِرَةَ وَالْأُولَىٰ (١٣) فَأَنْذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّىٰ (١٤) لَا يَصْلَاهَا إِلَّا الْأَشْقَى (١٥) الَّذِي كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ (١٦) وَسَيُجَنَّبُهَا الْأَتْقَى (١٧) الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّىٰ (١٨) وَمَا لِأَحَدٍ عِنْدَهُ مِنْ نِعْمَةٍ تُجْزَىٰ (١٩) إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَىٰ (٢٠) وَلَسَوْفَ يَرْضَىٰ (٢١) ﴾ (١)

آل ياسر وغيرهم :

٢٥٨ ــ هو بيت أسلم كله ، وآمن بالله تعالى وفيه ضعف من المال والجاه وناله ضعف الرق · فرأس الأسرة ياسر، وهو أبو عمار عذب ، وأمه سمية عذبت ، وذهب الفجور بأبي جهل الى أن يضربها برمح في بطنها فماتت · فكانت أول شهيد في الاسلام مات فداء لدينه ·

وحمل عمار أشد العذاب ، وقلبه طيبا راضيا ، ولقد مر به النبي عليه الصلاة والسلام وهو يعذب ، فقال صبرا أبا اليقطان · ثم قال اللهم لا تعذب أحدا من آل عمار بن ياسر ·

وكان آل مخزوم يعذبونهم اذا حميت الظهيرة يعذبونهم برمضاء مكة ، وقد مر النبي عليه السلام بهم ، وهم يعذبون · فقال عليه السلام صبرا آل ياسر ، فان موعدكم الجنة ·

---

(١) الليل

ولقد كانوا أحيانا ينالون منهم حتى يفتنوهم عن دينهم ، فينطقون بكلمة الكفر تحت ضغط العذاب ، ولقد شددوا العذاب على عمار ، وما تركوه حتى نال من رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، وذكر ذلك لرسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، فبين له عليه أن لامؤاخذة على من أكره وقلبه مطمئن بالايمان ٠

ولقد ذكر سعيد بن جبير أنه سأل عبد الله بن عباس : أكان المشركون يبلغون من أصحاب رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ما يعذرون به في ترك دينهم قال : نعم انهم كانوا يضربون أحدهم ويجيعونه ويعطشونه حتى مايقدر أن يستوي جالسا من شدة الضرب الذي نزل به حتى يعطيهم ما سألوه من الفتنة ٠ وحتى يقولوا له اللات والعزى الهان من دون الله ٠ فيقول نعم افتداء منهم بما يبلغون من جهدهم ٠

ويقول ابن كثير : وفي مثل هذا أنزل الله تعالى :

﴿ مَن كَفَرَ بِاللَّهِ مِنۢ بَعْدِ إِيمَـٰنِهِۦٓ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُۥ مُطْمَئِنٌّۢ بِٱلْإِيمَـٰنِ وَلَـٰكِن مَّن شَرَحَ بِٱلْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠٦﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا عَلَى ٱلْـَٔاخِرَةِ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿١٠٧﴾ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَسَمْعِهِمْ وَأَبْصَـٰرِهِمْ ۖ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَـٰفِلُونَ ﴿١٠٨﴾ لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ هُمُ ٱلْخَـٰسِرُونَ ﴿١٠٩﴾ ﴾

فهؤلاء كانوا معذورين بما حصل لهم من الاهانة والعذاب البليغ ، أجارنا الله تعالى من ذلك بحوله وقوته (٢) ٠

التهديد بالتشنيع :

٢٥٩ ــ تفننوا في الايذاء ، فمن لم يكن له من يحميه من أهل وعشيرة يؤذونه بالتعذيب ، والضرب الشديد ،ولقد بلغت النذالة بأبي جهل اللعين

---

(١) النحل (٢) ابن كثير جـ ٣ ص ٥٩

أن يضرب امرأة بالرمح في موضع عفتها ، حتى ماتت ، من غير أي تحرج من أدب انساني ، أو عروبة نبيلة ، هذا شأن من لم تكن له عشيرة تذود عنه ، أو تمنعه .

ومن كان له عشيرة أخذوه بالتشنيع عليه ، وكان يتولى ذلك أبو جهل سفيههم ، وشيخ أراذلهم ، وقد حكى ابن اسحاق في سيرته ذلك ، فقال :«كان أبو جهل الفاسق الذي يغري بهم في رجال قريش اذا سمع بالرجل قد أسلم له شرف ومنعة أنبه وأخزاه ، وقال له تركت دين أبيك ، وهو خير منك ، لنسفهن حلمك ، ولنفلين رأيك ، ولنضعن شرفك ، وان كان تاجرا قال ، والله لتكسدن تجارتك ، ولنهلكن مالك ، وان كان ضعيفا ضربه وأغرى به »(١) .

ولقد كان الكافرون من كبرائهم اذا أسلم واحد منهم ، لم يمنعوا أمثال أبي جهل من لومهم . وان كانوا يمنعونه وأشباهه من قتلهم ، حتى لا تأخذهم معرة عصبية جاهلية .

لقد أسلم رجال ، فأراد بنو مخزوم قبيل أبي جهل ، أن يلوموهم على الطريقة التي أشرنا اليها من تسفيه أحلامهم ولكنهم خشوا شر قومهم فاستأذنوهم وأذنوا ، قالوا انا أردنا أن نعاتب هؤلاء الفتية على هذا الدين الذي أحدثوا ، فانا نأمن بذلك غيرهم .

قالوا ذلك لهشام بن الوليد حين أسلم أخوه في النفر الذين أشرنا اليهم ، فقال لهم : هذا لكم فعليكم به فعاتبوه ، واياكم ونفسا ، احذروا على نفسه ، فاقسم بالله لئن قتلتموه لأقتلن به أشرفكم رجلا ، فقالوا في أنفسهم اللهم اللعنة . فوالله لو أصيب في أيدينا لقتل أشرفنا رجلا ، فتركوه ، ونزعوا عنه (٢) .

ومن كان له دين لا يعطونه ، ويمطلونه اذا أسلم ، بل لا يؤدون الدين ومن هؤلاء خباب بن الأرت ، كانوا يعذبونه ، وينزلون به الأذى لانه لم يكن ذا عشيرة تحميه ، ومع ذلك كانوا يحاربونه في صناعته ، فلا يعطونه أجر ما صنع .

---

(١) سيرة ابن هشام جـ ١ ص ٣٢١
(٢) الكتاب المذكور

روى البخاري عن خباب بن الأرت قال : « كنت رجلا قينا (١) فعملت للعاص بن وائل سيفا فجئت أتقاضاه ، فقال لا والله أقضيك حتى تكفر بمحمد ، فقلت لا والله لا أكفر بمحمد ، حتى تموت ثم تبعث قال فاني اذا مت ثم بعثت جئتني ولي ثم مال وولد ٠ فأعطيك ، فأنزل الله تعالى :

﴿ أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِى كَفَرَ بِـَٔايَـٰتِنَا وَقَالَ لَأُوتَيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا ﴿٧٧﴾ أَطَّلَعَ ٱلْغَيْبَ أَمِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحْمَـٰنِ عَهْدًا ﴿٧٨﴾ كَلَّا ۚ سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ وَنَمُدُّ لَهُۥ مِنَ ٱلْعَذَابِ مَدًّا ﴿٧٩﴾ وَنَرِثُهُۥ مَا يَقُولُ وَيَأْتِينَا فَرْدًا ﴿٨٠﴾ ﴾ (٢)

مصابرة النبيّ صلى الله عليه وسلم :

٢٦٠ ـ كان النبي عليه السلام يلقي في قلوبهم ببيان أن الايمان يوجب تحمل المشاق ، وأن ثواب الآخرة ثمنه من تحمل ما يقتضيه الحق في الدنيا ، وببيان أن الله تعالى ناصر عباده المؤمنين بعد أن يبلو ايمانهم ويظهر صبرهم ٠

روى البخاري عن خباب بن الأرت أنه قال : « أتيت النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، وهو متوسد ببردة وهو في ظل الكعبة ، وقد لقينا من المشركين شدة ، فقلت ألا تدعو الله ، فقعد ، وهو محمر وجهه ٠ فقال » : « قد كان من قبلكم ليمشط بأمشاط الحديد مادون عظامه من لحم وعصب ، ما يصرفه ذلك عن دينه ، ويوضع المنشار على مفرق رأسه ، فيشق باثنتين ما يصرفه ذلك عن دينه ، وليتمن الله هذا الامر ، حتى يسير الراكب من صنعاء الى حضرموت ، ما يخاف الا الله عز وجل ٠٠ ولكنكم تستعجلون » ٠

شكا المؤمنون الى النبي عليه السلام من حر الرمضاء ، واستنصروا فطالبهم النبي صلى الله عليه وسلم بالصبر ، فلا ايمان من غير صبر ، وكأنه ينبئهم بما

---

(١) القين الحداد (٢) مريم

أنبأ القرآن من بعد ، وهو أن الجنة جزاء الصبر ، وأنه لابد من الابتلاء

﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِكُم مَّسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّىٰ يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَىٰ نَصْرُ اللَّهِ ۗ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ (٢١٤) ﴾ (١)

هذا ولان النبي لو دعا عليهم لاجتثهم الله تعالى من فوق الارض ، وما وجدت للاسلام أحد تحمل دعوة الرسول من بعدهم ، ولذلك كانت اجابة النبي عليه الصلاة والسلام لما أخبره بأن الله يطبق عليهم الأخشبين (جبلى مكة) قال خاتم النبيين عليه الصلاة والسلام : « اني لارجو أن يخرج الله من أصلابهم من يعبد الله تعالى » وقد حقق الله تعالى رجاءه ، فكان منهم من يعبد الله تعالى بل كان منهم من حمل السيف مجاهدا في سبيل الله ، وكان من أصلابهم من حملوا النور ، الى مشارق الارض ومغاربها .

الأذى ينزل بشخص النبي صلى الله عليه وسلم :

٢٦١ ـ لقد كان لاذى الضعفاء أنين ، وشكوى ، وسمع النبي عليه السلام أنينهم ، فكان له ألما ممضا ، وشكوا اليه فأشكاهم بالصبر وبشرهم بالجنة ، وما كان ليكون نبي الرحمة اذا لم يذق من الكأس الدهاق من الآلام التي يتجرعونها ، وما كان ليدعو الى المساواة في السراء والضراء ، اذا لم يشاركهم فيهما .

كان بنو هاشم يمنعونه من أن يقتل ، ولكنهم ما كانوا ليمنعوه من أن يسفه ويستهزأ به ويؤذى بغير القتل ، بل كان يتجرأ على ذلك سفهاؤهم من أمثال أبي جهل ، بل من أمثال عمه أبي لهب الذي سلط ابنه اللعين ابن اللعين من أن يتفل في وجه النبي عليه السلام في حضرة كبير البطحاء أبي طالب الكريم ابن الكريم .

وانه يروي البخاري بسنده عن عروة بن الزبير عن عمرو بن العاص ، قال : بينما النبي صلى الله تعالى عليه وسلم يصلى في حجر الكعبة ، اذ أقبل

---

(١) البقرة

عقبة بن أبي معيط فوضع ثوبه على عنقه فخنقه خنقا شديدا ، فأقبل أبو بكر رضى الله عنه ، حتى أخذ بمنكبيه ودفعه عن الرسول صلى الله تعالى عليه وسلم ، وقال أتقتلون رجلا أن يقول ربي الله ، وقد جاءكم بالبينات من ربكم ، وان يك كاذبا فعليه كذبه ، وان يك صادقا يصبكم بعض الذي يعدكم ، ان الله لا يهدي من هو مسرف كذاب ·

بل ان أبا جهل لعنه الله ليرمي فرث الجذور عليه ، وهو يصلي صلوات الله تعالى وسلامه عليه، والنبي ساجد فتجيء فاطمة الزهراء وهي صغيرة ، فتلقيه عن ظهر أبيها وهي تلعنهم ·

وان الفجر ليصل بأبي جهل اللعين الى أن يهم بقتل النبي عليه السلام غير عابىء بأن يتحرك بنو هاشم للاخذ بثأره ، وأنه لن ينجو من يد أبي طالب وسيف الله حمزة ، فيجتمعوا في ثأره ،وان تفرقوا في اتباعه في دينه ،ولكنه الحقد الدفين يعمي ويصم ، فلا يفكر الاحمق في مغبة عمله ، ولكن يفكر فقط في شفاء غيظ نفسه الذي لايكظمه ·

حدث ابن اسحاق بسنده أن أبا جهل شيخ السفهاء من قريش وقف بينهم يقول :

يا معشر قريش ، ان محمدا قد أبى الا ما ترون من عيب ديننا ، وشتم آبائنا، وتسفيه أحلامنا ، وسب آلهتنا ، واني أعاهد الله لأجلس له غدا بحجر ، فاذا سجد في صلاته فضخت به رأسه ،فليصنع بعد ذلك بنو عبد مناف ما بدا لهم ، فلما أصبح أبو جهل لعنه الله أخذ حجرا ثم جلس لرسول الله ينتظره ، وغدا رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ·· فقام يصلي ، وقد غدت قريش فجلسوا في أنديتهم · فلما سجد رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم احتمل أبو جهل الحجر ، ثم أقبل نحوه ، حتى اذا دنا منه رجع منبهتا منتقعا لونه مرعوبا قد يبست يداه على حجره ، حتى قذف الحجر من يده ·· وقام اليه رجال من قريش فقالوا ما بك يا أبا الحكم قال : قمت لافعل ما قلت لكم البارحة ، فلما دنوت منه عرض لي دونه فحل من الابل، والله ما رأيت مثل هامته ، ولا قصرته ولا أنيابه لفحل قط،فهم أن يأكلني(١)·

---

(١) الهامة الرأس والقصرة الرقبة ـ راجع الخبر فى البداية والنهاية لابن كثير جـ ٣ ص ٤٣

وقد روى مثل ذلك البيهقي والامام أحمد ، وان كان ما روي عن أحمد موجزا عن ذلك .

مهابة محمد عليه الصلاة والسلام :

٢٦٢ ــ هذا بعض ايذاء النبي صلى الله تعالى عليه وسلم من المشركين دع استهزاءهم اذا سار أو تكلم ، ودع رميهم له بأنه ساحر ومجنون ، ودع معاندتهم له ، وهو يدعو القبائل الى الاسلام ، فهل كان كل ذلك سببه أن محمدا صلى الله تعالى عليه وسلم لم يكن المهيب ، وانه كان الهزيل الذي يجترأ عليه ؟

والجواب عن ذلك أن محمدا عليه السلام كان المهيب في شخصه ، والقوي في ذات نفسه ، والذي آتاه الله تعالى القوة الانسانية الكاملة ، فهو المهوب المحبوب الذي لم يرد أن يكون مرهوبا ، وان أراد الرهبة كانت ، والله تعالى يعصمه من الناس ، ولكن الحمقى والسفهاء يغرون بالكرماء ، وكان محمد كريما ، ولم يرد أن يكون مخوفا مفزعا ، بل أراد أن يكون أليفا قريبا دانيا ، ليستطيع أن يتألف الناس ولا يرهبهم .

وقد كان عليه السلام يفرض الرهبة في قلوب المشركين ان كان لذلك موضع ، ولنذكر موضعين كانت فيهما مهابة الرسول فاصلة ، قاطعة حاسمة :

أولهما ــ ما روي عن عبد الله بن عمرو بن العاص ، أنه قال : « رأيتهم وقد اجتمع أشرافهم يوما في الحجر ، فذكروا رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، فقالوا : ما رأينا مثل ما صبرنا عليه من هذا الرجل قط ، سفه أحلامنا ، وشتم آباءنا ، وعاب ديننا ، وفرق جماعتنا ، وسب آلهتنا ، وصرنا منه على أمر عظيم ، فبينما هم في ذلك ، اذ طلع رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، فأقبل يمشي ، حتى استلم الركن ، ثم مر بهم طائفا بالبيت فغمزوه ببعض القول فعرفت ذلك في وجه رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، فمضى ، فلما مر بهم الثانية غمزوه بمثلها ، فعرفتها في وجهه ، فمر بهم الثالثة ، فغمزوه بمثلها فقال لهم : أتسمعون ، معشر قريش ، أما والذي نفسي بيده لقد جئتكم بالذبح ، فأخذت القوم كلمته ، حتى ما منهم من رجل الا وكأنما على

رأسه طائر وقع ، حتى ان أشدهم فيهقبل ذلك ليرقوه ، حتى انه ليقـــول : انصرف يا أبا القاسم راشدا فما كنت بجهول ٠

ان هذا الذي أفزعهم عزمة محمد ،وقد أخذتهم الدهشة ، وأرعبتهم الهيبة، واذا كانوا بعد ذلك تكاتفوا واعتزموا أن يؤذوه في مكانه هذا ، فان هـــذا لا يمنع تأثير مهابته فيهم ، وما استطاعوالها ردا الا بعد طول مؤامرة ومجاوبة ، واصرار على مقاومة الهيبة ، ولو أرادهافي الثانية لكان أفزع لهم ، وأروع ، ولكنه كان يميل الى اللين دائما ٠

الثاني ــ ما كان في قصة الاراشي، فقد قدم رجل من اراش بابل له الى مكة ، فابتاعها منه أبو جهـــل فمطله بأثمانها ، فأقبل الاراشي ، حتى وقف ينادي في قريش ، ورسول الله صلى الله تعالى عليـــه وسلم جالس في ناحيـــة المسجد ، فقال الاراشي : « يا معشـــرقريش من رجل يعديني على أبي الحكم ابن هشام ، فاني غريب وابن سبيل ،وقد غلبني على حقي » ٠

فقال من بالمجلس من قريش مستهزئين بالنبي صلى الله تعالى عليــه وسلم : ترى ذلك الجالس مشيرين الى النبي صلى الله تعالى عليه وسلم لما يعلمـــون من عداوة أبي جهل للنبي صـــلى الله تعالى عليه وسلم : « اذهب اليه فهو يعديك عليه » ٠

أقبل الاراشي حتى وقف على رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم : فذكـــر له ذلك ، فقـــام محمد العظيم معتزما انصاف الغريب ، ولا سلطان معـــه الا شخصه ، وعون الله تعالى ٠

فلما رأى المجلس القرشي المشرك قالوا لرجل ممن معهم اتبعه فانظر ماذا يصنع ٠

خرج رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم حتى جاء الى دار أبي جهل ،فطرق الباب طرقة من اعتزم أن يملي ارادته على هذا الطاغوت الفاجر ٠

قال من هذا ؟ قال محمد ، فاخـــرج ٠

خرج اليه وما في وجهه قطرة دم ،وقد انتقع لونه ٠

قال له رسول الله صلى الله عليه وسلم بعزمة مرهبة لمثل أبي جهل : أعط هذا الرجل حقه ٠

قال الطاغوت المتخاذل : لا تبرح حتى أعطيه الذي له ، فدخل فخرج اليه بحقه ، فدفعه اليه ٠

انصرف رسول الله ، وقد أحق الله الحق ، بهيبة محمد رسول الله عليه الصلاة والسلام ، وقال للاراشي الحق لشأنك ، أقبل الاراشي على المجلس الذي وقف يدعو ناديه لينصروه ، فقال عن النبي عليه السلام جزاه الله خيرا فقد أخذت الذي لي ٠

وقال الرجل الذي أرسلوه مراقبا للواقعة : « رأيت عجبا ، والله ما هو الا أن ضرب عليه بابه فخرج وما معه روحه » ٠

جاء أبو جهل فقالوا له : « ويلك مالك ، فوالله ما رأينا مثل ما صنعت ، فقال ويحكم ، والله ما ان طرق على بابي ، وسمعت صوته ، فملئت رعبا ، ثم خرجت اليه ، وان فوق رأسه لفحلا من الابل ما رأيت مثل هامته ، ولا قصرته وأنيابه لفحل قط ، فوالله لو أبيت لأكلني ٠

لماذا لم يرهبهم بهيبته صلى الله عليه وسلم :

٢٦٣ ــ لقد كان المشركون يريدون بأذاهم المؤمنين ، ويختصون من لهم حلم ومروءة ، ولا عنف فيهم ، ولا يتوقعون مقاومة كأبي بكر وعثمان وجعفر ابن أبي طالب ، وعلى رأس هؤلاء محمد رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، وينالون الضعفاء الذين لا حول لهم ولا قوة يقاومون بها ٠

ولكن لم يعرف أنهم نالوا من عنده قوة بطش ، ويذيقهم الكأس أكؤسا ، فلم يعرف أنهم نالوا بالأذى حمزة بن عبد المطلب، لانهم يتوقعون منه المقاومة، ولا يأمنون مغبتها ، فقد علم ذلك أبوجهل اللئيم بموضعها من رأسه ، ولم ينالوا بالاذى عمر بن الخطاب الذي شوه وجوههم ، وأرغم معاطسهم ، وطاح بهم مجتمعين ، ولم ينالوه بالاذى لذلك، فقد كانوا يخافونه ويرهبونه ٠

وما كان محمد عليه السلام دون عمر مهابة ، بل أعلى من ذلك كثيرا ، ولا دون حمزة قوة نفس ، ولا قوة بدن ولكنهم نالوا منه ، فلماذا لم يستخدم مهابته وقوة نفسه وشخصه ، مثل ما أجازه لعمر وعمه حمزة ، اذن لا رعوى مثل أبي جهل في نذالته ، ولكنه لم يفعل ،وتحمل الاذى في سبيل الدعوة ولم يرهب ولم يفزع ، بل رضي بالبلاء ينزل به وبأصحابه الضعفاء ٠

وان ذلك هو عمل النبوة ، انه عليه السلام ما جاء مسيطرا ، ولكن جاء مبلغا ، وما جاء متحكما • ولكن جاء داعيا مقنعا ، فلو استخدم هيبته وأظهر الرهبة لتبعه الناس خائفين غير مقتنعين بذات الحجة ، ولبدا النفاق في الذين يجيبون دعوته ، وليس الدين بقائم على المنافقين غير المؤمنين •

ان الرسول الامين يريد مؤمنين يدخلون في الاسلام رغبا لا رهبا ، ولا يكون عن خوف أيا كانت صورة الخوف، ان الاسلام الذي جاء به محمد صلى الله تعالى عليه وسلم جاء ليحمله الذين شاهدوا وعاينوا الى الاخلاف من بعده ، لانه دين الخليقة كلها لا دين جيل من أجيالها ، فلا بد أن يحمله مؤمنون لا مجرد تابعين ، ولا يكون ذلك الا اذا كان الايمان القوي الذي يصبر صاحبه ويصابر في حضرة النبي عليه السلام ، وينزل به البلاء في حضرته فيحس عليه السلام بقوة احتمالهم ، ليطمئن من بعده بقوة التبليغ بالرسالة في مشارق الارض ومغاربها •

ان الذين يدخلون في الاسلام بهيبة النبي عليه الصلاة والسلام سرعان ما يتركونه اذا غاب عنهم ، واعتبر ذلك بحال المؤمنين في المدينة فانه لم يكن فيهم نفاق ، حتى صار لاهل الايمان قوة يسيطرون بها ، فكان النفاق ، والذين دخلوا في الاسلام تابعين غير مؤمنين ايمان الصابر المصابرين •

وكان من المسلمين بالاتباع بالايمان المجاهد الصابر ، وكان منهم الاعراب الذين ساروا مع القوي ، وقال فيهم الله تعالى :

﴿ ٱلْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا۟ حُدُودَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٩٧﴾ ﴾ (١)

وهم الذين ارتدوا بعد موت محمد ، ان الله تعالى أمر رسوله بالدعوة بالحكمة ، فقال تعالى :

﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴿١٢٥﴾ ﴾ (٢)

---

(١) التوبة (٢) النحل

وان ذلك يقتضى أن يكون موطأ الكنف وديعا في دعوته متطامنا لمن يخاطبهم ، ليس فظا ولا غليظ القلب ، ولا مرهبا ولا مفزعا ٠

وان تطامن النبي عليه السلام كما جرأ عليه الاقوياء الذين يؤذون الحق اذا بدا وضحه المبين ، قد قرب اليه الضعفاء وبهم كانت الدعوة الاولى وقوة الحق من غير سيطرة ولا تحكم ٠

وان تطامن النبي عليه السلام والاعتداء عليه قرب بعض الاقوياء ولم يبعدهم ٠ ألم تر أن كثيرين كانوا يسلمون لانهم يرون أن محمدا بماضيه الكريم ، وحاضره العظيم ما كان ليسمح لاحد أن يؤذيه الا لطيب نفسه ، فيكون الايذاء جاذبا للانظار مسترعيا الذين يعرفون ما ينبغى أن يعامل به الاحرار، فيدعوهم ذلك الى التفكير في الذي يدعو اليه من غير تمييز لهم ، ويكفي ذلك للدخول في الاسلام مناصرا غير محارب ولا مجامل ٠

من أجل ذلك ولان الله أعلم حيث يجعل رسالته ، وحيث يثبتها وينشرها ويذيعها اختار لنبيه عليه السلام أن يتأنى للامور بيسر وبرفق من غير عنف أو رهبة ، ولو كان بقوة النفس لا بقوة السيف ٠

الهجرة إلى الحبشة

٢٦٤ ـ عدد الذين اتبعوا محمدا ،وتابعوه في الصبر على الاذى يزيد ويكثر ، ولم يقتصر على الضعفاء • بل دخل فيهم أشراف من مكة ، وبتزايد العدد يتزايد الاضطهاد ويكثر ويتنوع• فمن ايذاء بالايدى والسياط ، والالقاء في الرمضاء في الحرور ، ومن أفعال لا تصدر الا عن السفهاء الانذال• كما فعل أبو جهل مع النبي عليه السلام وغيره ، ومن استهزاء وسخرية ، ومن منع من العبادة • ويجدون في ذوي الكرامات مرتعا خصيبا للنيل من كراماتهم •

أصبح الايذاء عاما ولا مناص من التخلص منه ، وهم بمكة وما حولها فلابد من الهجرة :

﴿ وَمَن يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ يَجِدْ فِي ٱلْأَرْضِ مُرَٰغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً ﴾ (١)

والى أي أرض يهاجرون •

لابد من أرض تتوافر فيها الحرية ،وتكون بعيدة عن سطوة مكة ومن فيها من قريش ، ولهم مكانة في القبائل ،وتكون تحت سلطان حاكم فيه طيبة لا يؤذي ولا يمكن أحدا من الايذاء •حتى يكونوا في بعد عن الاضطهاد واحتماله •

وذلك في أرض الحبشة • فهي بعيدة عن سطوة قريش ، وهي لا تدين لقريش بالاتباع كغيرها من قبائل ، وفيها حاكم طيب عرف بذلك واشتهر فأشار النبي عليه الصلاة والسلام بالهجرة اليه ، وقال عليه السلام لاصحابه وقد رأى البلاء ينزل بهم ، وهو لا يقدرعلى منعه عنهم : « لو خرجتم الى أرض الحبشة فان بها ملكا لا يظلم عنده أحدوهي أرض صدق ، حتى يجعل الله لكم فرجا مما أنتم فيه » •

---

(١) النساء

كانت أول زمرة من الهجرة الى الحبشة في السنة الخامسة من مبعث النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ٠

ولا شك أن الهجرة لها ثمرة أخرى غير دفع الاذى ، والاعتصام منه ومنع الفتنة التي أرهقوا بها عسرا ، وهذه الثمرة هي التعريف بالاسلام ،وبالمبادىء الاسلامية ، فقد وقف جعفر بن أبي طالب المتحدث باسم المهاجرين أمام النجاشي يبين الحقائق الاسلامية ، ومايدعو اليه دين الوحدانية من صلة الارحام ، والحث على مكارم الاخلاق ،وما يمنعه من فساد الجاهلية والعصبية المفرقة ، وقد نقلنا ذلك من قبل ٠

وهناك ثمرة أخرى أن الهجرة الى الحبشة تعرف النصارى بالاسلام ، وما قاله في عيسى عليه السلام ٠ فهي تزرع الاسلام في أرض غير أرض مكة وتباينها ، كما أن الهجرة من بعد ذلك الى المدينة كان فيها تعريف اليهود بالاسلام ودعوتهم اليه ٠ فأسلم من أسلم وكفر وقاوم وعاند من كفر :

﴿ مَّنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ۚ ﴾ (١)

وقد هاجروا زمرا ، وكان في أول زمرة عثمان بن عفان ومعه رقية بنت محمد صلى الله تعالى عليه وسلم ،والتي تزوجها ذو النورين عثمان بن عفان بعد أن تركها وأختها ابنا أبي لهب اللعين ، وكانت عدة الزمرة الاولى نحو عشرة من الرجال والنساء ، ثم توالت الهجرة بعد ذلك ٠

ويقول ابن اسحاق « كان جميع من لحق بأرض الحبشة وهاجر اليها من المسلمين سوى أبنائهم الذين خرجوا بهم صغارا ، أو ولدوا بها ثلاثة وثمانين »٠

وقد ناقش هذا الرقم ابن كثير ، وانتهى الى أن الشك في كون الزائد عن الثمانين ثلاثة ، وروي عن الامام أحمد عن ابن مسعود أنه قال : « بعثنا رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ونحن نبلغ نحوا من ثمانين » (٢) ٠

---

(١) الاسراء

(٢) البداية والنهاية جـ ٣ ص ٦٩

٢٦٥ ـ وأبو بكر لم يكن من الذين هاجروا ، ولكن قدر الله تعالى شرف الهجرة في صحبة أكرم خلق الله محمد بن عبد الله ، وذلك أنه كما روى ابن اسحاق والبخاري عن عروة بن الزبير عن عائشة قالت « حين ضاقت عليه (أبي بكر) مكة ، وأصابه فيها الاذى ، ورأى تظاهر قريش على رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم وأصحابه ما رأى استأذن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم في الهجرة فأذن له ، فخرج رضي الله تعالى عنه مهاجرا الى الحبشة ، حتى اذا سار من مكة يوما ـ أو يومين ـ لقيه ابن الدغنة أخو بني الحارث بن أبي بكر ، وهو سيد الاحابيش ، فقال الى أين يا أبا بكر ؟ قال أخرجني قومي ، وآذوني وضيقوا علي . قال ولم ؟ فوالله انك لتزين العشيرة ، وتعين على النوائب ، وتفعل المعروف وتكسب المعدوم ، أرجع فانك في جواري . فرجع معه ، حتى اذا دخل مكة قام معه ابن الدغنة ، فقال : يا معشر قريش اني قد أجرت ابن أبي قحافة ، فلا يعرض له أحد الا بخير ، فكفوا عنه .

أقام أبو بكر في منزله ، وكان له مسجد عند باب داره فكان يصلي فيه . وكان رقيقا اذا قرأ القرآن استبكى ، فيقف عليه الصبيان ، والعبيد والنساء يعجبون لما يرون من هيئته ، فيمشي رجال قريش الى ابن الدغنة ، فقالوا يابن الدغنة : انك لم تجر هذا الرجل ليؤذينا ، انه رجل اذا صلى وقرأ ما جاء به محمد يرق ، وله هيئة ، ونحن نتخوف منه على صبياننا ونسائنا وضعفائنا أن يفتنهم ، فأته فمره بأن يدخل بيته فليصنع ما شاء .

فمشى ابن الدغنة اليه ، فقال يا أبا بكر اني لم أجرك لتؤذي قومك ، وقد كرهوا مكانك الذي أنت به وتأذوا بذلك منك فادخل بيتك فاصنع فيه ما أحببت . قال أبو بكر أو أرد عليك جوارك وأرضى بجوار الله . قال فاردد على جواري . قال : قد رددته عليك . فقام ابن الدغنة . فقال يا معشر قريش : « ان ابن أبي قحافة قد رد علي جواري ، فشأنكم بصاحبكم » (١) .

رضي أبو بكر بالبقاء في العذاب أو الايذاء ، وهو يصلي مجاهرا بصلاته أمام داره ، أو في فنائها غير معتمد الا على الله تعالى ، ورضي بأن يكون قريبا من النبي متعرضا لما يتعرض له عليه السلام ، مطمئنا الى الاذى راضيا بذلك الجوار الكريم .

---

(١) روى هذا الخبر البخارى فى صحيحه

متابعة الأولياء ومتابعة الأعداء :

٢٦٦ ـ سافر أولئك المهاجرون الى أرض الحبشة فرارا بدينهم من أن يفتنوا فيه ، وفرارا بأنفسهم من المهانة والاستهزاء والسخرية ، فوجدوا حاكما طيبا ، أكرم مثواهم ، وتركهم في أرضه أحرارا مطمئنين ، ولقد رق أبو طالب لفراق ابنه جعفر ، وما نزل بالمسلمين من أبناء مكة حتى فروا ، فأرسل الى النجاشي يوصيه بهم .

والنبي صلى الله تعالى عليه وسلم أرسل اليه كتابا يشير فيه الى البر بهم ويأمر بالاسلام معا ، وهذا نص كتابه عليه السلام كما جاء في رواية البيهقي:

« بسم الله الرحمن الرحيم من محمد رسول الله الى النجاشي الاصحم ملك الحبشة » :

سلام عليك ، فاني أحمد اليك الله الملك القدوس المؤمن المهيمن ، وأشهد أن عيسى روح (١) الله وكلمته ألقاها الى مريم البتول الطاهرة الطيبة الحصينة ، فحملت بعيسى ، فخلقه الله من روحه ونفخته ، كما خلق آدم بيده ونفخه .

واني أدعوك الى الله وحده لا شريك له ، والموالاة على طاعته ، وأن تتبعني فتؤمن بي وبالذي جاءني ، فاني رسول الله ، وقد بعثت اليك ابن عمي جعفرا ، ومعه نفر من المسلمين ، فاذا جاؤوك فأقرهم ، ودع التجبر ، واني أدعوك وجنودك الى الله عز وجل ، وقد بلغت ونصحت ، فاقبلوا نصيحتي والسلام على من اتبع الهدى .

هذا كتاب فيه متابعة لامرين :

أولهما ـ أنه يدعو الى الاسلام ،فهو يتابع دعوته حيث تجد المناسبة والرجل المناسب ، وقد وجد فيه قلبا مفتوحا يدخل فيه الحق مزدلفا ، لان العادل يستمع الى الحق ، وهو يكون ممن يستمعون الى الحق فيتبعون أحسنه ، وقد استجاب لدعائه ، وآمن بمحمد ورسالته ، وقد أجاب دعوة النبي عليه السلام الى الاسلام وكتب اليه عليه السلام يقول :

---

(١) كان خلقه بنفخة من روح القدس جبريل وولد بلكمته

« بسم الله الرحمن الرحيم الى محمد رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم من النجاشي الأصحم بن أبجر سلام عليك يا نبي الله من الله ، ورحمة الله وبركاته، لا اله الا هو الذي هداني الى الاسلام فقد بلغني كتابك يا رسول الله ، فيما ذكرت فيه من أمر عيسى ، فورب السماء والارض ان عيسى (عليه السلام) ما يزيد على ما ذكرت ، وقد عرفنا ما بعثت به الينا ، وقربنا ابن عمك وأصحابه ، فأشهد أنك رسول الله صادقا ومصدقا ، وقد بايعتك ، وبايعت ابن عمك ، وأسلمت على يديه لله رب العالمين وارسلت اليك بأريحا بن الأصحم بن أبجر ، فاني لا أملك الا نفسي ، وان شئت أن آتيك فعلت يا رسول الله ، فاني أشهد أن ما تقول حق » .

ونرى من هذا أنه أرسل ابنه في وفد من الحبشة للالتقاء بالنبي عليه الصلاة والسلام ، وبيان الخضوع لطاعة الله ورسوله .

الامر الثاني ـ هو متابعته العطف على الذين هاجروا ، فقد دعاه عليه الصلاة والسلام الى الاحسان اليهم في اقامتهم وألا يرهقهم بتجبر ذوي السلطان .

وانه لفرط محبته عليه الصلاة والسلام للذين هاجروا ، ولاحساسه بوجوب الوفاء ، وشكر من يستحق الثناء ، ولمقابلة الحسنة بمثلها على الاقل فان النبي عليه السلام عندما جاء الوفد الذي بعثه ، كان عليه الصلاة والسلام يقوم بخدمته بنفسه ، فقد روى البيهقي بسنده عن أبي أمامة قال: « قدم وفد النجاشي على رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، فقام يخدمهم عليه الصلاة والسلام ، فقال أصحابه : نحن نكفيك يا رسول الله ، فقال انهم كانوا لاصحابي مكرمين ، واني أحب أن أكافئهم » .

رسل قريش للنجاشي في المهاجرين :

٢٦٧ ـ هذه متابعة لاصحابه الذين هاجروا الى النجاشي ، وهي متابعة الرحيم الحاني الذي يريد الاطمئنان على أصحابه الذين هاجروا الى تلك الارض النائية ، وما زال بملكهم حتى صار في صفهم ، وطابت اقامتهم ، وكرمهم تكريم الاخوة ، لا تكريم العادل فقط .

هذه متابعة الاولياء ، أما متابعة الاعداء ، فقد كانت على النقيض من ذلك ، لم يكتفوا بأن أخرجوهم من ديارهم وأموالهم ، بل أرادوا النكاية بهم ،

وأن يجعلوا المهجر يلفظهم ، كما لفظوهم لانهم رأوهم ينشرون الاسلام ويمدون ظلاله الوارفة ، فدفعتهم العصبية الجاهلية لان يفسدوا عليهم طيب الاقامة ، والقرار ، واستقامة أمورهم ، فأرسلوا من يحاول افساد النجاشي عليهم .

قال ابن اسحاق : لما رأت قريش أن أصحاب رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم قد استقروا واطمأنوا بأرض الحبشة ، وأنهم قد أصابوا بها دارا وقرارا ائتمروا بينهم أن يبعثوا فيهم منهم رجلين من قريش جلدين الى النجاشي فيردهم عليهم ، ليفتنوهم في دينهم ، ويخرجوهم من الارض التي اطمأنوا بها ، وآمنوا فيها ، فأرسلوا عبد الله بن أبي ربيعة وعمرو بن العاص ، (١) وأرسلوا معهم هدايا يدفعونها للنجاشي ليغروه بها .

ولقد أزعج ذلك المهاجرين الابرار . روي عن أم سلمة أنها قالت : « لما نزلنا أرض الحبشة ، جاورنا بها خير جار النجاشي أمينا على ديننا ، وعبدنا الله تعالى ، ولا نسمع شيئا نكرهه ، فلما بلغ ذلك قريشا ائتمروا بينهم أن يبعثوا الى النجاشي فينا رجلين منهم جلدين ، وأن يهدوا النجاشي هدايا مما يستطرف من متاع مكة .. فجمعوا أدما كثيرا ، ولم يتركوا من بطارقته بطريقا الا أهدوا له هدية ، ثم بعثوا بذلك عبد الله بن ربيعة وعمرو بن العاص ، أمروهما بأمرهم ، وقالوا لهما ادفعا الى كل بطريق هديته ، قبل أن تكلما النجاشي فيهم ، ثم قدما الى النجاشي هداياه ، ثم سلاه أن يسلمهم اليكما قبل أن يكلمهم .. فخرجا حتى قدما على النجاشي ونحن عنده بخير دار ، عند خير جار » (٢) .

لقد نفذ الرسولان ما أوصاهما به قومهم ، وقدموا لكل بطريق هديته وذكروا عند اعطاء كل واحد هديته ، أنه جاء اليهم غلمان من سفهائهم في زعمهم ، فارقوا دين قومهم ، ولم يدخلوا في دينكم ، وجاءوا بدين مبتدع لا نعرفه نحن ولا أنتم ، وقد بعثنا الى الملك فيهم أشراف قومهم ليردوهم ، فاذا تكلم الملك فيهم فأشيروا عليه بأن يسلمهم الينا ولا يكلمهم ، فان قومهم أعلى بهم عينا ، وأعلم بما عابوا عليهم، فوعدهم البطارقة بما طلبوا .

مهدوا للقاء الملك ذلك التمهيد القائم على رشوة البطارقة ، ثم التقوا بالنجاشي ، وقدموا هداياهم قبل أن يتكلموا ، ثم تكلموا في غيبة المهاجرين، فقالوا :

---

(١) ، (٢) سيرة ابن هشام جـ ١ ص ٣٣٤

« أيها الملك انه قد ضوى (١) الى بلدك منا سفهاء ، فارقوا دين قومهم ، ولم يدخلوا في دينك ، وجاءوا بدين ابتدعوه ، لا نعرفه نحن ولا أنت ، وقد بعثنا اليك فيهم أشراف قومهم من آبائهم وأعمامهم وعشائرهم لتردهم اليهم ، فهم أعلى (٢) بهم عينا ، وأعلم بما عابوا عليهم ، وعاتبوهم فيه ·

عندئذ تكلم البطارقة ، وحركت الهدايا لهواتهم ، فقالوا : صدقا ، أيها الملك قومهم أعلى بهم عينا وأعلم بما عابوا عليهم ، فأسلمهم اليهما ، ليرداهم الى بلادهم ·

أحس النجاشي بالحملة الباطلة ، فرد الكيد ردا حاسما : لا أسلمهم اليهم ولا يكاد قوم جاوروني ، ونزلوا بلادي، واختاروني على من سواي ، حتى أدعوهم فأسألهم عما يقول هذا في أمرهم ، فان كانوا كما يقولون أسلمتهم اليهما ورددتهم الى قومهم ، وان كانوا على غير ذلك منعتهم منهما ، وأحسنت جوارهم ما جاوروني ·

ذلك هو القول الحق من حاكم عادل ، أرسل الى أصحاب رسول الله ليواجههم الرجلان جاءوا ، ودعا الاساقفة ·

قال لهم : ما هذا الدين الذي فارقتم به فيه قومكم ، ولم تدخلوا به في ديني (وكان لا يزال نصرانيا) ولا فى دين أحد من هذه الملل ؟

فرد عليه جعفر بن أبي طالب قائلا: أيها الملك كنا قوما أهل جاهلية نعبد الاصنام ، ونأتي الفواحش ونقطع الارحام ، ونسيء الجوار ، ويأكل القوي منا الضعيف ، فكنا على ذلك ، حتى بعث الله الينا رسولا نعرف نسبه وصدقه ، وأمانته ، وعفافه ، فدعانا الى الله لنوحده ونعبده ، ونخلع ما كنا نعبد نحن وآباؤنا من دونه من الحجارة والاوثان، وأمرنا بصدق الحديث ، وأداء الامانة وصلة الرحم ، وحسن الجوار ، والكف عن المحارم والدماء ، ونهانا عن الفواحش وقول الزور ·· فعدد عليه أمور الاسلام · ثم قال : فصدقناه وآمنا به ، واتبعناه على ما جاء به من الله ،فعبدنا الله وحده ، فلم نشرك به شيئا ، وحرمنا ما حرم علينا ، وأحللنا ما أحل لنا ، فعدا علينا قومنا ، فعذبونا

---

(١) لجأ معنى ضوى (٢) اى أبصرهم

وفتنونا عن ديننا ، ليردونا الى عبادة الاوثان ٠٠ وأن نستحل ما كنا نستحل من الخبائث ، فلما قهرونا وظلمونا وضيقوا علينا ، وحالوا بيننا وبين ديننا خرجنا الى بلادك واخترناك على من سواك ، ورغبنا في جوارك ، ورجونا ألا نظلم عندك ٠

قال النجاشي ـ متعرفا دارسا ـ : هل معك مما جاء به عن الله شيء (١)٠

قال له جعفر نعم ٠ فقال له النجاشي ٠ فقرأ عليه صدرا من كهيعص ٠

تأثر النجاشي من وضوح الحقائق بين يديه ، وكان فيما قرأه خبر زكريا وما وهبه الله تعالى من يحيى ، ثم جاء في حمل مريم اذ جاء الملك ، وقال لها اني رسول ربك لاهب لك غلاما زكيا ٠٠ ثم ولادة عيسى عليه السلام ٠٠ ان النجاشي كان مؤمنا يدرك الحق اذا ألقي عليه ،وكان عدلا ، وكان صادق النظر لايمانه وعدله ٠ فبكى من فرط تأثره ،وادراكه الحق حتى اخضلت لحيته ، وقالوا ان أساقفته وافقته ابتداء حين سمعوا ما تلي عليهم ٠

قال النجاشي : انه والذي جاء به عيسى ليخرج من مشكاة واحدة ٠

ثم قالا للاثنين اللذين بعثهما القرشيون ، أنطلقا ، فوالله لا أسلمهم اليكما ولا يكادون ٠

متابعة الكيد بالمهاجرين :

٢٦٨ ـ هذه هي الجولة الاولى في الكيد الذي يكيده الباطل لاهل الحق ، وقد كانت النتيجة احقاق الحق ، ولكن عمرو بن العاص لا يقف عند الهزيمة الاولى في الكيد ، فهو واسع الباع فيه ،فكانت المجاوبة بينه وبين صاحبه الذي هو أنقى نفسا ٠

قال عمرو لصاحبه : والله لآتينه غدا بما أستأصل به خضراءهم ٠

فقال له صاحبه : لا تفعل ، فان لهم أرحاما ، وان كانوا قد خالفونا ٠

قال عمرو الماكر : والله لأخبرنه أنهم يزعمون أن عيسى بن مريم عبد ٠

جاء الغد ، والتقى عمرو بالنجاشي ، ومعه صاحبه عبد الله بن ربيعة ٠

---

(١) الخبر بطوله روته أم المؤمنين أم سلمة، وقد تصرفنا فى بعض الكلمات تصرفا لا يخرج الخبر عن ألفاظه ٠

قال عمرو : أيها الملك ، انهم يقولون في عيسى بن مريم قـــولا عظيما ، فأرسل اليهم ، فسلهم عما يقولون فيه • فأرسل اليهم وقد وقعوا في حيرة وخوف، فقال بعضهم ما تقولون في عيسى بن مريم ، ولكن الذين تحملوا أذى قومهم على استعداد لان يتحملوا غيره ، ولذا قالوا مصممين : نقول والله ما قال نبينا كائنا في ذلك ما هو كائن ، فلما دخلوا على النجاشي قال لهم : ماذا تقولون في عيسى بن مريم ؟

قال جعفر : نقول فيه الذي جاءنا به نبينا صلى الله تعالى عليه وسلم يقـــول هو عبد الله ورسوله وروحه وكلمتـه ألقاها الى مريم العذراء البتول •

النجاشي عندما سمع هذا ضرب بيده على الارض ، فأخذ منها عودا ، ثم قال : والله ما عدا عيسى بن مريم مماقلت هذا العود •

والبطارقة حاضرون فتنافروا حوله حين قال ما قال : فقال وان نخرتم والله•

ثم التفت الى المسلمين من أصحـاب محمد بن عبد الله صلى الله تعالى عليـه وسلم فقـــال ما معناه : اذهبوا فأنتم الآمنون، من سبكم غرم، من سبكم غرم، من سبكم غرم ، ما أحب أن لي جبلا من ذهب وأني آذيت رجلا منكم •

انتصر النجاشي الهمام للحق وأهله ـ ودخل في الاسلام ـ كما تدل على ذلك مكاتبته للنبي صلى الله تعالى عليه وسلم التي نقلناها من قبل ، وقـــد رد على قريش هديتها ، كمـــا رد مكيدتها في قومها وعشيرتها •

ولكن الهدية فعلت فعلها في البطارقة ، ويظهر أنهم بعد اسلامه تآمروا مع بعض رجال الحبشة ، فخرج عليه رجل منهم فكان المسلمون في فزع ، وتقول السيدة أم المؤمنين أم سلمة : « فوالله ما علمنا حزنا أحزننا قط كان أشد علينا من حزن حزناه عند ذلك تخوفا أن يظهر ذلك الرجل على النجاشي ، فيأتي رجل لا يعرف من حقنا ما كان النجـــاشي يعرفه » •

وقد أخرجت أم سلمة والزبير بن العوام الذي كان من المهاجرين ، وقد عاد الزبير يحمل البشرى بانتصار النجاشي على خصمه ، ففرح المهاجـــرون فرحة ما فرحوا مثلها •

هدوء المهاجرين في الحبشة :

٢٦٩ ــ استقام الامر للمهاجرين في الحبشة ، ولم يذكر التاريخ أكانوا يتولون عملا فيها أم كانوا في ضيافة النجاشي ، لم يذكر التاريخ شيئا من ذلك ، لان مؤرخي السيرة النبوية الطاهرة ما كانوا يعنون الا بحال المسلمين. وحال الاسلام ، وتحمل المسلمين للاذى في سبيل عقيدتهم ، يفصلون في ذلك ما يشاء طالب الحقيقة أن يعرفه ، ولكنهم ما كانوا يعنون بالاعمال المادية من صناعة ومكاسب ! ولكن أردنا أن نعرف ما طواه التاريخ ولم يذكره نتعرفه من صور الرجال الذين هاجروا ، فلابد أن نتصور من صورهم أحوالهم .

لقد كان من بينهم ذو النورين عثمان التقي الطاهر ، وهو مع ذلك التاجر الماهر ، وقد خرج ومعه بعض ماله غالبا ، وما كان ليترك عمله في التجارة حتى تأكل النفقة ماله . ولم يثبت في التاريخ أنهم كانوا في ضيافة النجاشي ، لانهم كانوا يتزايدون في الهجرة ولا ينقصون ، واذا كان لابد من فرض في هذا ، فهو أننا نتصور أنه كان يعينهم ليتمكنوا من أعمالهم الكاسبة التي تدر عليهم ما يكفيهم بالمعروف من غير اسراف ، ولا تقتير .

ونتصور حينئذ أمرين نفرضهما فرضا :

أولهما ــ أن يكونوا قد قاموا بمايكسبهم القوت ، ولا يعيشون كلا على غيرهم فليس ذلك من مكارم الاخلاق في الاسلام .

ثانيهما ــ أن نفرض التعاون الكامل بينهم ، يعين غنيهم فقيرهم والقادر منهم العاجز ، واذا كانت المؤاخاة قد نظمت العلاقات بين المهاجرين والانصار ، وبين الأوس والخزرج بما فعله النبي صلى الله تعالى عليه وسلم . فان التعاون أو المؤاخاة الطبيعية فرضت نفسها في أرض الحبشة بحكم الاغتراب أولا ، وبحكم الحاجة اليه ثانيا ، وبحكم الخلق الاسلامى الذي يوجب التراحم والتعاطف ثالثا ، وقد كان التعاطف امتدادا لما كان في مكة من حماية ضعفاء المسلمين من أقويائهم ، كما كان يفعل أبو بكر من شراء العبيد المسلمين واعتاقهم من غير من ولا أذى .

خديعة :

٢٧٠ ــ خديعة أو انخداع على حسب تقدير الاسباب .

لقد فشل الرسولان اللذان ذهبا الى النجاشي ليحرضاه بالهدية الراشية ،

وبالقول المعسول ، وبالايقاع المفسد في أن يحملاه على اخراج من حلوا في داره ، واستظلوا بعدالته ، وخرجا مذمومين مدحورين .

ولكن أحدهما عمرو بن العاص داهية قريش وماكرها ، فأشاع الشائعات بأن قريشا آمنت بمحمد صلى الله تعالى عليه وسلم ، وأن هذه الشائعات تجاوبت أصداؤها ، حتى وصلت الى المؤمنين في هجرتهم بالحبشة ، فاطمأن الى صدقها بعض المهاجرين ، وطاهر القلب ينخدع ، وقد خدع ابليس من قبل أبانا آدم الطاهر .

عاد من عاد منهم حاسبين صدق الاشاعة ،وكانت عدتهم نحو ثلاثة وثلاثين، ولكنهم ما ان شارفوا مكة حتى وجدوا الاذى والاستهزاء والسخرية تستقبلهم، فمنهم من دخل في جوار بعض كبراء المشركين ، ومنهم من استقبل الاذى صابرا ، ومنهم من حبسه ذووا قرابته .

واستطاع الماكرون بذلك أن يعيدوا بعض المهاجرين اليهم ليتحكموا فيهم ، ولكن لم تتم بغيتهم ، لانه بقيت الكثرة في أرض الحبشة لم تغتر بهذه الاشاعة الكاذبة التي دفعتها فرية خبيثة ما كرة .

وقد يقول قائل : هل لك من سند يؤيد فرض الاشاعة ، وخصوصا أنه تذكر أسباب لهذه الاشاعة غير ما ذكرت وبينت ، وهي قصة المشركين مع النبي صلى الله تعالى عليه وسلم عندما مجد اللات والعزى كما يزعمون وكما جاء في صحيح البخاري .

ونحن نجيب عن ذلك بما تقتضيه الفروض التاريخية من تعليل الاسباب الفروض التاريخية من تعليل لاسباب الوقائع باقترانها بالوقائع الزمنية التي قارنتها ، لقد كانت تلك الشائعة الغريبة وكانت في أعقاب واقعة حقيقية ثبتت ، وهي طرد النجاشي الرسولين اللذين جاءا ليحملاه على الايقاع بالمؤمنين ليخرجهم ، ويستمكنوا من رقابهم ، وحرياتهم ،وليفتنوهم عن دينهم « ويفسدوا رجال محمد صلى الله تعالى عليه وسلم ،والعقل بلا ريب يربط بروابط منطقية بين الامرين ، كما اقترنا في الزمن .

ولا يمكننا أن نفرض السبب الذي يذكره مؤرخو السيرة ، وهو سجود النبي عليه الصلاة والسلام للات والعزى ومناة الثالثة الاخرى ، ولابد أن نعرج عليه بالقول ، ولو كانت الرواية في كتب الحديث ، ونبين استحالة قبوله .

جاء في كتاب البداية والنهاية لابن كثير ما نصه في بيان سبب الاشاعة :

« كان له سبب ، وهو ما ثبت في الصحيح وغيره أن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم حبس يوما مع المشركين ، وأنزل الله تعالى عليه :

﴿ وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ﴿١﴾ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ﴿٢﴾ ﴾ (١)

يقرؤها عليهم ، حتى ختمها وسجد ، وسجد من هناك من المسلمين والمشركين والجن والانس ، وكان لذلك سبب ذكره المفسرون عند قوله تعالى :

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّىٰ أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ فَيَنسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ آيَاتِهِ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٥٢﴾ ﴾ (٢)

وذكروا قصة الغرانيق ، وقد أحببنا الاضراب عن ذكرها صفحا ، لئلا يسمعها من لا يضعها في مواضعها . الا أن أصل القصة في الصحيح . قال البخاري : « حدثنا أبو معمر ، حدثنا عبد الوارث، حدثنا أيوب عن عكرمة عن ابن عباس قال : سجد النبي صلى الله تعالى عليه وسلم بالنجم ، وسجد معه المسلمون والمشركون والجن والانس » . انفرد به البخاري دون مسلم ، وقال البخاري حدثنا محمد بن بشار حدثنا غندر . حدثنا شعبه عن أبي اسحاق سمعت الاسود عن عبد الله قال : قرأ النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، قرأ والنجم بمكة، فسجد فيها وسجد من معه غير شيخ أخذ كفا من حصى أو تراب فرفعه الى جبهته، وقال يكفيني هذا .. ورواه مسلم ، وأبو داود ، والنسائي ، وروى مثله أحمد في سنده » (٣) .

اننا نقرر أن تلك القصة مكذوبة على رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، وذلك لما يأتي :

أولا : أن مقتضاه أن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، وهو يقرأ قوله تعالى:

﴿ أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّىٰ ﴿١٩﴾ وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الْأُخْرَىٰ ﴿٢٠﴾ ﴾ (٤)

---

(١) ، (٤) النجم (٢) الحج (٣) البداية والنهاية ، جـ ٣ ص ٩٠

زاد بتأثير الشيطان تلك الغرانيق العلا، وان شفاعتهن لترتجى ، فلما أتم السورة تلاوة ووصل الى قوله تعالى :

﴿ أَفَمِنْ هَٰذَا ٱلْحَدِيثِ تَعْجَبُونَ ﴿٥٩﴾ وَتَضْحَكُونَ وَلَا تَبْكُونَ ﴿٦٠﴾ وَأَنتُمْ سَٰمِدُونَ ﴿٦١﴾ فَٱسْجُدُوا۟ لِلَّهِ وَٱعْبُدُوا۟ ﴿٦٢﴾ ﴾ (١)

سجد سجدة التلاوة فسجدوا معه ·

وذلك باطل بلا ريب ومستحيل أن يقع لان الشيطان لا يتسلط على النبي صلى الله تعالى عليه وسلم وفي شأن التنزيل والقرآن الكريم ، والا جاء الشك الباطل في شأن القرآن الكريم ،وجوز الفاسقون على مقتضاه أن يكون القرآن قد اعتراه التغيير والتبديل ،والزيادة ، وتجويز أن يكون النبي وهو مبلغ الرسالة قد اعتراه خوف ، وابتعادعن مؤداه ، وذلك باطل فما يؤدى اليه باطل بلا ريب ·

وثانيا : أن هذه الاخبار لم يسند فيها القول الى النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، ولكن كلها مرسلات ، فلا يلتفت اليها ·

وثالثا : أن الذين يقولون هذا القول يسندونه الى تفسير قوله تعالى :

﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِىٍّ إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ أَلْقَى ٱلشَّيْطَٰنُ فِىٓ أُمْنِيَّتِهِۦ فَيَنسَخُ ٱللَّهُ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَٰنُ ثُمَّ يُحْكِمُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٥٢﴾ ﴾ (٢)

فزعموا أنه ألقى في أمنيته صلى الله تعالى عليه وسلم زيادة تلك الغرانيق العلا ، وان شفاعتهن لترتجى ، ثم نسخت تلك الزيادة التي ألقاها الشيطان في أمنيته وأحكم الآيات ، وذلك من شأنه أن يشكك في أصل القرآن ، ويبني عليه المفترون قولهم ان في القرآن زيادة ونقصا ، وذلك قول قائله كافر ، لانه ينكر ما جاء به القرآن من أنه محفوظ الى يوم القيامة تصديقا لقوله تعالى :

﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴿٩﴾ ﴾ (٣)

---

(١) النجم (٢) الحج (٣) الحجر

وقد يقول قائل ، وكيف نفسر قوله تعالى :

﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٖ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ أَلۡقَى ٱلشَّيۡطَٰنُ فِيٓ أُمۡنِيَّتِهِۦ فَيَنسَخُ ٱللَّهُ مَا يُلۡقِي ٱلشَّيۡطَٰنُ ثُمَّ يُحۡكِمُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ ۝٥٢ ﴾(١)

نقول ان التمني هو ما يتعلق بما يتمناه الانسان بمقتضى غريزته ، فالانبياء ليسوا معصومين بمجرد غريزتهم من التمني ، ولكن الشيطان يجيء من جهة الاماني ، ويزين الاهواء ويحسنها ،فينسخ الله تعالى أى يزيله من قلب النبي عليه السلام ويحكم سبحانه وتعالى آياته الظاهرة والباطنة على النبوة والرسالة والحق ، وبذلك تتنزه قلوبهم •

وقد يقال وماذا نصنع في الروايات التي قد رويت عن البخاري كما ذكر ابن الاثير ، ونحن نقول انها رواية أمر يستحيل على الله وعلى رسوله الامين ، ومثل هذه الرواية ترد مهما يكن الراوي ، أنقول ان النبى صلى الله تعالى عليه وسلم سحر ، وزاد فى القرآن ما يكون شركا ، والرواية مهما تكن رواية آحاد، ولو طبقنا قاعدة الشافعي الذى يقرر فيها أن من ينكر حديث خبر الآحاد ، أو خبر الخاصة لا يقال له تب أي لا يكفر ، فكان المؤدى أن نكون بين أمرين أحدهما أن ننكره ولا نكفر ،والثاني أن نقول ما يشكك في الرسالة والقرآن فنكفر ! ان الاحتياط لديننا ،ولقرآن ربنا ، وعصمة نبينا أن ننكر نسبة تلك الاخبار لرسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم وصحتها ، ونؤمن بالقرآن والنبي عليه السلام بل أن نؤمن بالله تعالى •

واننا ننتهي من هذا الى أن نقرر أن سبب اشاعة اسلام أهل مكة ، ليس هو تلك الرواية غير الصادقة التي تفتن الناس عن دينهم ، وتشككهم في القرآن والنبي •

انما السبب مما استنبطناه من سياق التاريخ وارتباط وقائعه واقترانها ، وهو اشاعة اسلام أهل مكة ليعود الذين فروا بدينهم ، فينالهم المشركون بأيديهم وألسنتهم •

---

(١) الحج

النبيّ صلى الله عليه وسلم يناضل ويصابر في مكة

٢٧١ ـ نعود الى النبي صلى الله تعالى عليه وسلم لنرى جهاده بالمصابرة ولنرى ما تفعله قريش معه ، ومع بني هاشم الذين أبت مروءتهم أن يسلموا محمدا لقريش يؤذونه أو يقتلونه أو يحبسونه ، وأبو طالب كبيرهم واقف كالطود يحمي محمدا ، ويأبى أن يتركه ، وخديجة في البيت تواسيه ، فيعود اليها مكدودا من قومه ، ويخرج من عندها مجددا عزمه ، وقد خلع وعثاء النضال ليجدد النضال ، ويتقدم ثابت القدم قوي الارادة ، وقد تزود منها ومن عمه بزاد الايناس بالتأييد ، ومن الله تعالى بالنصرة .

وقريش قد بالغت في الايذاء ولكنها تحس بأن الارض تميد من تحتها وقد ازداد عنادها وازدادت لجاجتها وعنفوانها كلما رأوا دعوة محمد صلى الله تعالى عليه وسلم تجد مستجيبا ، وخصوصا أن بعض الاقوياء ذوي الشكيمة قد دخلوا في الدين الجديد ، فقد دخل عمر في السنة التي كانت فيها الهجرة الى الحبشة .

وهم في هذه الشديدة التي وضعوا أنفسهم فيها عدوانا وظلما أرادوا أن يسكتوا محمدا عليه الصلاة والسلام عن طريق عمه الذي لا يزال على دينهم وهو شيخ البطحاء ، ولهم عليه حق الرعاية ، كما لابن أخيه عليه حق الحماية .

لقاؤهم بأبي طالب :

٢٧٢ ـ دبروا أمرهم ، وجمعوا من لهم مكانة فيهم وفدا ذهب الى أبي طالب بعد أن رأوا أنه لا يجيبهم فرادى فأرادوا أن يذهبوا اليه جماعة ، والرسول سائر في طريقه ، لا يعوقه عائق من أذى أو استهزاء أو سفاهة حمقاهم ، فهو ماض في الطريق الذي رسمه الله تعالى له يدعو بالتي هي أحسن، من غير أن ينكص على عقبيه ، لذلك تركوه مليا فلم يجادلوه ، وان كان الاذى مستمرا ؟

ذهب وفدهم الى أبي طالب ، فقال قائلهم :

يا أبا طالب ، ان ابن أخيك قد سب آلهتنا ، وعاب ديننا ، وسفه وضلل أحلامنا ، فاما أن تكفه عنا ، واما أن تخلي بيننا وبينه ، فانك على مثل مانحن عليه من خلافه ، فنكفيكه .

فقال لهم أبو طالب الكيس قولا رقيقا ، وردهم ردا جميلا ، فانصرفوا عنه .

ورسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ماض على ما هو عليه ، يظهر دين الله تعالى من غير مواناة ولا تقصير ، والمسلمون يزيدون ، ولا يقلون والامر قد خرج الى القبائل والى الحبشة .

ازداد غيظهم ، واشتد الامر عليهم بسبب حقدهم ، وتضاغنوا فيما بينهم ، وتذامروا ، وتحاضوا على وجوب ايذائهم ، ورأى أهل الروية منهم أن يذهبوا الى أبي طالب مرة أخرى ، ولكن بوجه أعنف ، وبلسان أجف .

اجتمعوا فقال قائلهم : « يا أبا طالب ان لك سنا وشرفا ومنزلة فينا ، وانا قد استأنيناك من ابن أخيك فلم تنهه عنا ، وانا والله لا نصبر على هذا من شتم آبائنا وتسفيه أحلامنا ، وعيب آلهتنا حتى تكفه عنا أو ننازله واياك في ذلك ، حتى يهلك أحد الفريقين .

في هذه المرة كان التهديد لابي طالب باعلان عداوتهم ، وقد أزالوا كل المحجز في القول ، ولم يراعوا سنا ولا شيخوخة ، ولا شرف منزلة كما ذكروا في الاولى ، ولا شك أن تغير لهجة القول كان له أثر في نفس أبي طالب ، وأحس بضيق في الامر ، وان لم يتبرم من حماية حبيبه ابن أخيه محمد صلى الله تعالى عليه وسلم ، ولكنه أراد أن يعرض عليه ما أصابه من ضيق ، ويشركه في أمر قومه الذي تفاقم ، فقال له :

يابن أخي ان قومك قد جاؤوني ، فقالوا كذا وكذا فأبق علي وعلى نفسك ، ولا تحملني من الامر مالا أطيق .

لم تضعف عزيمة محمد المؤيد من الله والذي لا يرجو النصرة الا منه ، وان كان يرغب في أن يشعر بأنه في عزة من أهله ، تألم ، لا خوفا من الاذى ،

ولكن لظنه تخلف عمه الحبيب عن نصرته ، وهو في ميدان الجهاد والمناضلة اذ ظن أنه خاذله ومسلمه ، وعلم أنه ضعف عن نصرته ٠

عندئذ قال مقالة أولي العزم من الرسل : « يا عم والله لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في يساري على أن أترك هذا الامر حتى يظهره الله تعالى أو أهلك فيه ما تركته » ثم استعبر فبكى ثم قام ، وما كان استعباره ضعفا، ولكن لانه يرجو من عمه وحبيبه ألا يسلمه ولا يخذله ٠

أدرك أبو طالب الكريم أنه أسرف على ابن أخيه في ذكر ما كان من قول وفد قريش ، وأنه كرثه بذلك ٠ فلما ولى ناداه : أقبل يابن أخي ، فأقبل عليه رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ،فقال أبو طالب العظيم«اذهب يابن أخي، فقل ما أحببت ، فوالله لا أسلمك لشيء أبدا » ٠

تواردت الاخبار على قريش ، وعلموا أنه لا سبيل لان يصلوا الى محمد عليه السلام ليقتلوه أو يحبسوه أو يخرجوه وأبو طالب مانعه ، ولكن حيلهم لم تنته ، والرغبة ولو آثمة لا تسكت عند الصدام ، ففكروا ، وانتهوا الى أمر غريب ، وان لم يكن ظاهر الغرابة عند العرب في جاهليتهم ٠

ذلك أن التبني بكل ضروبه كان أمرا معروفا عند العرب ، أخذوه من جيرانهم الرومان ، فكان من الممكن تبادل الابناء ، ويمكن تبادل الاخوة ، وابناء الاخوة في نظرهم ٠

ذهبوا الى أبي طالب يعرضون عليه أن يسلمهم ابن أخيه في نظير أن يعطوه فتى من قريش يكون ابن أخيه بدل محمد عليه الصلاة والسلام ، وكأن المحبة سلعة تقبل المبادلة ، والانتقال من شخص ليحل محله شخص آخر ٠

قال قائلهم لابي طالب الجليل : يا أباطالب ، هذا عمارة بن الوليد أنهد فتى في قريش ، وأجمله ، فخذه ، فلك عقله ونصره (١) ، واتخذه ولدا فهو لك ، وأسلم الينا ابن أخيك هذا الذي قد خالف دينك ودين آبائك ، وفرق جماعة قومك ، وسفه أحلامنا ، ونقتله ،فانما هو رجل برجل ٠

لا شك أنها فكرة سخيفة يعطيهم ابن أخيه ليقتلوه ، ويأخذ ولدهم ليحميه ، ولقد سارع اليهم الرجل العظيم ليبدي سخفها ٠

---

(١) العقل دفع الدية أى يدفع عنك الدية ،وتدفع عنه ، وينصرك وتنصره ٠

قال لهم أبو طالب : والله لبئس ماتسومونني • أتعطون ابنكم أغذوه لكم ، وأعطيكم ابن أخي لتقتلوه ، هذاوالله مالا يكون أبدا •

قال المطعم بن عدي من بني عبد مناف : والله يا أبا طالب لقد أنصفك قومك ، وجهدوا على التخلص • فقال أبو طالب للمطعم لائما أو عاتبا : يامطعم : والله ما أنصفوني ، ولكنك قدأجمعت خذلاني ، ومظاهرة القوم علي فاصنع ما بدالك •

وان القوم قد اشتدوا في ذلك ، وكما قال ابن كثير : حقب الامر ،وحميت الحرب ، وتنابذ القوم ، ونادى بعضهم بعضا (١) •

حماية شيخ مكة لرسول الله صلى الله عليه وسلم :

٢٧٣ ـ لقد صار أبو طالب في أمر مرير ، وشدة من قومه ، وهو لا يريد أن يتخلى عن ابن أخيه مهما تكن الاحوال ، ومهما تكن الشديدة ، فشيخ البطحاء ابن عبد المطلب يتحمل كل شيء في سبيل مروءته وهمته ، وعزمته الهاشمية ، ولقد أدنى ذلك مؤقتا أبا لهب الى أخيه رحمة به وشفقة عليه ، فغضب على قريش لانها أحرجت شيخها ، وجعلته من الامر في عسر ، وخصوصا أنه أراد أن يجعل ابن أخته أبا سلمة في جواره ، كما أن محمدا في حمايته ، فقالوا يا با طالب : أنت منعت ابن أخيك محمدا عليه السلام فما لك ولصاحبك (أي أبي سلمة) تمنعه ، فقال : انه استجار بي ، وهو ابن أختي ، وان أنا ان لم أمنع ابن أختي لا أمنع ابن أخي •

أخذت الحمية أبا لهب من طول المضايقة لاخيه فقال مهددا :

يا معشر قريش ، أكثرتم على هذا الشيخ ، ما تزالون تتواثبون عليه في جواره من بين قومه ، والله لتنتهن أو لنقومن معه في كل ما قام فيه ، حتى يبلغ ما أراد •

كان أبو لهب في صفهم ، وخشوا أن ينحاز الى محمد (صلى الله تعالى عليه وسلم) كما انحاز أخ له من قبل فدخل في الاسلام وهو حمزة بسبب ما فعله أبو جهل مع محمد عليه الصلاة والسلام •

---

(١) البداية والنهاية لابن كثير جـ ٣ ص ٤٨

ولذا سارعوا الى ارضائه فقــالوا : بل ننصرف عما تكره يا أبا عتبة ،وكان لهم وليا وناصرا ٠

بهذه الوقفة القوية طمع أبو طالب أن يكون معه في نصرته لمحمد ،لتكون الاسرة كلها في حماية أفضلها وأكرمها،ولكن هذه الوثبة كانت ومضة برق لم تزل أن انطفأت ، أو كانت كقــدر من الماء لا يكفي لانطفاء الحقد والغيظ ، واستمر أبو لهب في لهب ، فقد استمر في عداوته للنبي عليه الصلاة والسلام، وموالاته لاعدائه يشترك في فتنهـــم وايذائهم ، لا تحـــركه مـــروءة ، ولا شفقة على ابن أخيه ، ولا أخيه الشيخ ٠

المقاطعة

٢٧٤ ـ برمت قريش بالنبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، وبرمت ببني هاشم الذين يحمونه ، ويدافعونهم عن نفسه أن ينالوا منها ، وخصوصا أبا طالب الذي ضاعت عنده الحيل والتهديدات ، وهو مرتفع شامخ كالطود تنسال عنده التهديدات ، ولا تقف عنده ، لا يضعف ولا يهن ، ولا يصيبه خور في عزمته •

ولما وصل بهم الامر الى هذا الحد ، اعتزموا الشطط ، وأن يركبوا مركبا صعبا ، وهو قتل النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، ولا يبالون أبا طالب ، وبني هاشم معه •

علم أبو طالب بما بيتوا وما دبروا فنادى بني عبد مناف أن يناصروه في منع النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، ولم يجبه من بني عبد مناف الا بنو المطلب ، الذين كانوا مع بني هاشم جاهلية واسلاما ، وبنو هاشم مع أبي طالب الا أبا لهب الذي أبى الا أن يكون مع قريش في غلوائها وفيما أرادت بابن أخيه ، ولنترك الكلمة لما روي عن الزهري :

« ان المشركين اشتدوا على المسلمين أشد ما كانوا ، حتى بلغ المسلمين الجهد ، واشتد عليهم البلاء ، وجمعت قريش في مكرها أن يقتلوا رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم علانية • فلما رأى أبو طالب جمع بني المطلب وهاشم ، وأمرهم أن يدخلوا رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم شعبهم ، وأن يمنعوه ممن أرادوا قتله • فاجتمع على ذلك مسلمهم وكافرهم ، فمنهم من فعله حمية ، ومنهم من فعله ايمانا ويقينا • فلما عرفت قريش أن القوم قد منعوا رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم وأجمعوا على ذلك اجتمع المشركون من قريش • فأجمعوا ألا يجالسوهم ، ولا يبايعوهم ، ولا يدخلوا بيوتهم حتى يسلموا رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم •• وكتبوا في مكرهم صحيفة ، وعهودا ومواثيق ،

ألا يقبلوا من بني هاشم صلحا أبدا ،ولا يأخذهم بهم رأفة حتى يسلموه للقتل » .

« فلبث بنو هاشم في شعبهم ثلاث سنين واشتد عليهم البلاء والجهد ، وقطعوا عنهم الاسواق ، فلا يتركوالهم طعاما يقدم مكة ، ولا بيعا الا بادروهم اليه فاشتروه ، يريدون بذلك أن يدركوا سفك دم رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم » .

« وكان أبو طالب اذا أخذ الناس مضاجعهم ـ أمر رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم فاضطجع على فراشه ، حتى يرى ذلك من أراد به مكرا واغتيالا له» .

« وكان أحيانا يأمر أحد بنيه أو اخوته أو بني عمه ، فاضطجعوا على فراش رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم أن يأتي بعض فرشهم فينام عليه » .

وهكذا كان العم العظيم يحتاط للغيلة أن يصيبوا بها محمدا صلى الله تعالى عليه وسلم فينيمه في منامته ،متعرضا للغيلة بدله وهو الشيخ الفاني، ويغير مكان الرسول من وقت لآخر ،فيجعل مكانه بعض بنيه هو أو اخوته أو بني عمه من بني المطلب أو غيره ،وبدون ذلك كان يفي للعصبية ،ولكنها الشفقة والمحبة والرأفة التي ألقاها الله تعالى في قلب أبي طالب العظيم .

اشتد البلاء على المؤمنين ، وبني هاشم وبني المطلب ، حتى كان الاطفال يتضاغون من شدة الجوع ، وقد كانت المقاطعة كما روى ابن اسحاق كاملة ، فقد كانت تشمل المناكحة ، لا ينكحونهم، ولا ينكحون منهم .

الأرضة تمنع اسم الله من مواثيقهم :

٢٧٥ ـ مكث بنو هاشم وبنو المطلب وعلى رأسهم أبو طالب ، والنبي عليه الصلاة والسلام معهم في هذه القطيعة ثلاث سنين دأبا ، وهم يرون صبيانهم يعضهم الجوع ، ولكن الكبار لا يذهب بهم الفزع ، فيستجيروا لانفسهم أو أن يسلموا محمدا ليقتلوه فألقى الله تعالى بالصبر في قلب المؤمن والكافر معا .

ولقـــد أظهـر الله تعالى آياته في أمرين :

أولهما : أن الارضة جاءت وأكلت كل كلمة فيها اسم الله تعالى أو صفاته التي عاهدوا الله تعالى عليه أن تكـون القطيعة دائمة ، وكأن الله تعـالى ألهم الارضة أن تعلمهم أن اسم الله تعالى لا يصح أن يكون في وثيقة ظلم وفسق عن أمر ربهم ، وقد أطلع الله تعالى صلى الله عليه وسلم الصادق المصـدق على ما فعلته الارضة بالهام من رب العالمين ، تعالت قدرته ، وعظمت منته ٠

الامر الثانى : أنه تشققت الرحمة من قلوب هؤلاء الذين تعاهـدوا عـلى الظلم والعدوان ، كما تتفجر الانهـار من بعض الاحجـار ، فانه عـلى رأس السنين الثلاث التي مرت ببني هاشم تلاوم رجال من بطون قريش ، من بني عبد مناف ، وقصي ، ورجال من قريش ، قد ولدوا من نساء من بني هاشم ، رأوا أنهم قد قطعوا الرحـم ، واستخفوا بالحق ، واجتمع أمرهـم عـلى نقض الصحيفة ، والبراءة مما جاء فيهـا ، وقيل انها كانت معلقة بسقف البيت ٠

بينا هذا التفكير قد سيطر على الملأ من قريش قد ذهب أبو طالب اليهـم يخبرهم بأن الارضة أخلت من صحيفتهم اسم الله ، وأبقت فيها الظلم والفسـق الذي دونوه ، وتعاهدوا عليه ٠

انطلق الرجل العظيم أبو طالب ، ومعه العصبة من بني عبد المطلب ، فقال في جمع حافل من قريش :

قد حدثت أمور بينكم نذكرها لكم ، فأتوا بصحيفتكم التي تعاهدتم عليها ، فعله أن يكون بيننا وبينكم صلح ٠

فطمعوا أن يسلم بنو هاشم محمدا صلى الله تعـالى عليـه وسلم ، فأتوا بالصحيفة معجبين بها ، لا يشكون أن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم سيدفع اليهم ، فوضعوها بين أيديهـم ، وقال قائلهم ٠

قد آن لكم أن تقبلوا وترجعوا الى أمر يجمع قومكم ، فانمـا قطـع بيننا وبينكم رجل واحد ، جعلتموه خطـر الهلكة قومكم ٠

فقال أبو طالب انما أتيتكم لاعطيكم أمرا لكـم فيه نصف ، ان ابن أخي أخبرني ، ولم يكذبني أن الله برىء من هذه الصحيفة ، ومحا كل اسم هـو له

فيها ، وترك غدركم ، وقطيعتكم ايانا ،وتظاهركـــم علينا بالظلم ، فان كان الحديث الذي قال ابن أخي كما قال ،فأفيقوا ، فوالله لا نسلمه أبدا ، حتى يموت من عندنا آخرنا ، وان كان الذيقاله باطلا رفعناه اليكم ، فقتلتمـــوه أو استحييتم ٠

قالوا رضينا بالذي تقول ، وكأنهمفهموا أن النتيجة أن يسلمهم لوثوقهـــم من صحيفتهم ٠

فتحوا الصحيفة فوجدوها كما قـــالالصادق المصدق،وسنبين بعض الصحيفة من البيان ، ومن دعا اليه ولم يذعنـــوالللحق اذ جاءتهم بيناته ، بل أصروا على الكفر والعناد ، وقالوا مقالة الكفر ،وقالوا ان هذا الا سحر من صاحبكـــم وارتكسوا ، وعادوا بشر مما كـــانواعليه من كفرهم والشدة على رســـول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، فزادتهمالآية كفرا ٠

فقال قائل النفر من بني عبد المطلبالذين كانوا في صحبة أبي طالب : ان غيرنا أولى بالكذب والسحر ، فكيف ترون ، فانا نعلم أن الذي اجتمعتم عليه من قطيعتنا أقرب الى الجبت والسحر ،ولولا أنكم اجتمعتم على السحر لم تفسد صحيفتكم ، وهي في أيديكـــم ، طمسما كان فيها من الحنث ، وما كان فيهـــا من اســـم الله ، أفنحن السحـــرة أمأنتم ؟

كانت كلمات أبي طالب ومن معـــهمن أسرته ان لم تكن قد شقت قلوبهم لقبول الحق ، فقد شقت صفوفهم التيكانت مجمعة على الباطل ٠ فظهر النفر من بني قصي وبني عبد مناف ، وغيرهماوكانوا قد تلاوموا من قبل على الصحيفة وأمرها ، وفيهم من كانت الصحيفة عنده، وجاهروا بما في نفوسهم ، وقـــالوا حاسمين قاطعين ، غير مترددين ، ولا ناكصين ٠ قالوا في حزم ، نحن براء مما في هذه الصحيفة ٠

وقال أبو جهل الخبيث في ذات نفسه، والضلل في فكره وعقله ، وهذا أمر قضى بليل (١) ٠

---

(١) أخذ ملخص القصة من كتاب سيرة ابنهشام ، جـ ١ ومن كتاب البداية والنهاية جـ ٣ ص ٨٤ ، ٨٥ وما فيها ٠

نتيجة المقاطعة :

٢٧٦ ـ وان النتيجة التي تستخلص من هذه القصة أن قريشا بلغت بهم لجاجة الكفر أن يحاولوا قتل محمد صلى الله تعالى عليه وسلم ، وأن يندفعوا في ذلك ، لا ينظرون فيه الى عاقبة من تصدي بني هاشم لهم ، للاخذ بثأره منهم ، ولعله كان قد ابتدأ التفكير عندهم في تفرق دمه في القبائل ، بحيث يضربونه ضربة رجل واحد ،فلا يكون لبني هاشم قبل بالثأر فيقبلوا وتتم الراحة لهم في زعمهم ، اذ يستأصلون الدعوة من جذورها ، اذ يقتلون صاحبها ، ومحمد يستقبل ذلك التدبير اللئيم استقبال من يستعين بالله ، ولا يستعين بغيره .

ولكن عمه العظيم يحمل العبء ، ويتحمل الاذى ، ويحاول وقاء محمد بكل الاسباب ، حتى انه ينيمه في مضجعه متحملا ما وراء ذلك ويستعد لفدائه بنفسه ، وهو لا يزال على دينهم . ولم يخرج الى الدين الجديد ، وان كان يظهر أنه في دخيلة نفسه كان يعتقد صحته وقد بدا ذلك في بعض شعره .

وانه يبدو من نهاية القصة أنه كان في قريش من تألم من الامر الذي نزل باخوانهم ، ولعله كان فيهم ميل لتصديق محمد ، ولذلك دخل الاكثرون منهم من بعد في الاسلام .

وان نهاية الخبر تدل على أن بعض قريش ، وان دخلوا في الحلف طائعين كانوا لنتائجه كارهين ، فلم يستطيعوا تحمل نتائج ما عقدوا عليه حلفهم بعد أن رأوه واقعا ، وأنهم كانوا يرونه تهديدا ، ولا يرونه أمرا ، صالحا للنفاذ ، وقد عظم عليهم عندما رأوه نافذا .

ولقد كان منهم من يرسل الطعام سرا ، ومن يعلم ذلك من ذوي الصلة منهم لا يستنكره .

يروى في ذلك أن حكيم بن حزام بن خويلد ، ابن أخي خديجة ذهب ومعه غلام يحمل قمحا يريد عمته خديجة بنت خويلد وهي عند رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم في الشعب ، فتعلق به أبو جهل ، وقال أتذهب الى بني هاشم ، والله لا تذهب أنت وطعامك ، حتى أفضحك بمكة .

عند ما قال أبو جهل ذلك تعرض لهأبو البختري بن هشام بن الحارث بن أسد وقال له مالك وله فقال يحمل الطعام الى بني هاشم • فقال له أبو البختري منكرا عليه فعله : طعام كان لعمته عنده بعثت به اليه أتمنعه رجل يأتيها بطعامها ، خل سبيل الرجل •

أبى أبو جهل أن يخلي سبيل حكيمبن حزام ، وتلاعنا ، ونال كل من صاحبه •

لم يكن لابي جهل أن يعامل الا بالضرب فأخذ أبو البختري لحى بعير ، فضربه وشجه ، ووطئه وطئا شديدا •

وحمزة بن عبد المطلب يرى ، وهم يكرهون أن يبلغ ذلك رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم وبني هاشم فيشمتون بهم وهكذا كانت الاطعمة تذهب اليهم وكان من كتاب الصحيفة من لم يرض بتنفيذها وكان يرجو انهاءها ، ولكن ذلك لم يمنع المشقة الشديدة التي لقيها بنو هاشم وبنو المطلب من قومهم ، والرسول أشدهم مشقة واحتمالا •

الرسول مستمر في دعوته

٢٧٧ ـ اذا كانت المقاطعة قد ضيقت على الرسول وأسرته أسباب العيش السهل ، وضيقت عليهم السبل في الرزق ، فانها لم تمنعه من دعوته ، فهو قائم بالليل والاقامة في ضيق الرزق ، ولكنه ليس برما ولا متململا ، مادام يستجيب لامر الله تعالى :

﴿ فَٱصۡدَعۡ بِمَا تُؤۡمَرُ وَأَعۡرِضۡ عَنِ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ﴿٩٤﴾ ﴾ (١)

فأعرض عنهم واستمر في دعايته ، والله تعالى يمده بالعون والتأييد بنصره ، فهو في أنس من ربه ، وان كان في وحشة من قومه ، ولكن شعاره دائما : « اللهم اغفر لقومي ، فانهم لا يعلمون » واني أرجو أن يخرج من أصلابهم من يعبد الله ، والجدل مستمر بينه وبين آحادهم يدعوهم الى الحق ، فيصدون بالباطل .

ولقد وصل التهافت بأبي جهل أن يكفر بملته كلها ، فيسب الله ، وفي ديانتهم أن الله هو خالق السموات والارض وان كانوا يشركون الانداد معه لقد قالوا للنبي صلى الله تعالى عليه وسلم « لتتركن سب آلهتنا أو لنسبن الهك » ولان أبا جهل ومن على شاكلته لا دين لهم الا العصبية الجاهلية ، ولا يؤمنون بشيء لا يتوقع منه أن يسب الله تعالى ولكنه سبه فنزل النهي عن سب الاحجار والاوثان ، وتكون الدعوة الى التوحيد المجرد ، وبطلان عبادة الاوثان ، فقال تعالى :

﴿ وَلَا تَسُبُّواْ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَسُبُّواْ ٱللَّهَ عَدۡوَۢا بِغَيۡرِ عِلۡمٖۗ كَذَٰلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمۡ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِم مَّرۡجِعُهُمۡ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴿١٠٨﴾ ﴾ (٢)

ولقد كان منهم من يحسب أنه يحاكي القرآن ، فيأتي بقصص من أخبار الفرس وحروبهم يسلي الناس عن القرآن ويبعدهم ، ثم يقول النبي صلى الله

---

(١) الحجر (٢) الأنعام

تعالى عليه وسلم : يا قوم والله ما محمد بأحسن حديثا مني ، وما حديثه الا أساطير الأولين أكتبها ، كما اكتتبها فيحكي عنهم رب العالمين قولهم ، ويرده عليهم بالقرآن يتلى ، فيقول تعالى :

﴿ وَقَالُوٓاْ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ٱكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ۝ قُلْ أَنزَلَهُ ٱلَّذِي يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِنَّهُۥ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ۝ وَقَالُواْ مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأْكُلُ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي ٱلْأَسْوَاقِ لَوْلَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُۥ نَذِيرًا ۝ ﴾ (١)

هم يكذبون القرآن ، ويعبثون بحقائقه ، وهم الذين يفرون من سماعه ، فاذا تهكموا عليه انتظروا ما يقال في تهكمهم فيهجم القرآن على مسامعهم ، ولا يستطيعون منه فرارا ، ولا ينفكون عن سماعه .

ومنهم من كان يحسب أنه يناقض معاني القرآن بحقائق من الاديان السابقة أو بما حسبه كذلك . ورسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم يجلس بينهم ، ويتلقى مجادلتهم ، ويدعوهم بالتي هي أحسن ، غير مدخر بابا من أبواب الاقناع بالحق الا سلكه ، يروي ابن اسحاق في السيرة ما يأتي :

جلس رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم فيما بلغنا يوما مع الوليد بن المغيرة في المسجد ، فجاء النضر بن الحارث ، حتى جلس معهم ، وفي المجلس غير واحد من رجال قريش ، فتكلم رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم فعرض له النضر بن الحارث ، فكلمه رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم حتى أفحمه ، ثم تلا قوله تعالى :

﴿ إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَٰرِدُونَ ۝ لَوْ كَانَ هَٰٓؤُلَآءِ ءَالِهَةً مَّا وَرَدُوهَا وَكُلٌّ فِيهَا خَٰلِدُونَ ۝ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَهُمْ فِيهَا لَا يَسْمَعُونَ ۝ ﴾ (٢)

ثم قام رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، وأقبل عبد الله بن الزبعري السهمي حتى جلس ، فقال الوليد بن المغيرة : والله ما قام النضر بن الحارث وما قعد ، وقد زعم محمد أنا وما نعبد من آلهتنا هذه حصب جهنم . فقال

---

(١) الفرقان (٢) الأنبياء

عبد الله بن الزبعري : أما والله لو وجدته فخصمته ، فسلوا محمدا أكل من نعبد من دون الله حصب جهنم مع من عبده ، فنحن نعبد الملائكة ، واليهود تعبد عزيرا ، والنصارى تعبد عيسى ،فعجب الوليد ومن كان معه في المجلس من قول ابن الزبعري ، ورأوا أنه قداحتج وخصم ، فذكر ذلك لرسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، فقال النبي الحكيم : كل من أحب أن يعبد من دون الله فهو مع من عبده في النار ·· فنزل قوله تعالى :

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتۡ لَهُم مِّنَّا ٱلۡحُسۡنَىٰٓ أُوْلَٰٓئِكَ عَنۡهَا مُبۡعَدُونَ ﴿١٠١﴾ لَا يَسۡمَعُونَ حَسِيسَهَاۖ وَهُمۡ فِي مَا ٱشۡتَهَتۡ أَنفُسُهُمۡ خَٰلِدُونَ ﴿١٠٢﴾ ﴾ (١)

أى عيسى وعزير ومن عبد من الاحبار والرهبان الذين مضوا على طاعة الله تعالى ، ونزل فيما يذكرون أنهم يعبدون الملائكة · وأنها بنات الله تعالى :

﴿ وَقَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحۡمَٰنُ وَلَدٗاۗ سُبۡحَٰنَهُۥۚ بَلۡ عِبَادٞ مُّكۡرَمُونَ ﴿٢٦﴾ لَا يَسۡبِقُونَهُۥ بِٱلۡقَوۡلِ وَهُم بِأَمۡرِهِۦ يَعۡمَلُونَ ﴿٢٧﴾ يَعۡلَمُ مَا بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَمَا خَلۡفَهُمۡ وَلَا يَشۡفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرۡتَضَىٰ وَهُم مِّنۡ خَشۡيَتِهِۦ مُشۡفِقُونَ ﴿٢٨﴾ ۞ وَمَن يَقُلۡ مِنۡهُمۡ إِنِّيٓ إِلَٰهٞ مِّن دُونِهِۦ فَذَٰلِكَ نَجۡزِيهِ جَهَنَّمَۚ كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٩﴾ ﴾ (٢)

وقال تعالى في اعجاب المشركين بقول ابن الزبعري :

﴿ وَلَمَّا ضُرِبَ ٱبۡنُ مَرۡيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوۡمُكَ مِنۡهُ يَصِدُّونَ ﴿٥٧﴾ وَقَالُوٓاْ ءَأَٰلِهَتُنَا خَيۡرٌ أَمۡ هُوَۚ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلَۢاۚ بَلۡ هُمۡ قَوۡمٌ خَصِمُونَ ﴿٥٨﴾ ﴾ (٣)

٢٧٨ ــ ان هذه الاخبار التي كان في القرآن الكريم رد عليها ، تدل على أمور ثلاثة :

أولها : أن هؤلاء كانوا يجادلون النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، وأنهم كانوا يستعينون بما عند غيرهم من علوم ، كانوا يذهبون الى اليهود يستعينون

(١) ، (٢) الأنبياء (٣) الزخرف

بهم يسألونهم أن يدلوا بشيء يحتجون به على النبي صلى الله تعالى عليه وسلم وقد لقنوهم الاسئلة عن أهل الكهف وعن الروح ، وعن ذي القرنين ، ونزل القرآن بما فيه اشباع النفوس طالبة الحق المريدة له ، ولكنهم لم يؤمنوا ، بل أصروا اصرارا ، وأنغضوا رؤوسهم علوا واستكبارا ·

وهاهم أولاء الآن يدرسون أخبارا من الديانات ، مع أنهم أميون ، لم يكن لهم كتاب يقرؤونه ، ولا علم دونوه ، ومع ذلك حاولوا أن يعرفوا شيئا مما عند اليهود والنصارى ، لا ليؤمنوا به ، أو ليستعينوا به لمعرفة الحق والوصول اليه ، بل ليجادلوا ويختصموا النبي عليه الصلاة والسلام ، ولذلك كشف الله تعالى حالهم ، يقول تعالت كلماته مبينا أنهم لا يريدون ايمانا بل يريدون اعناتا فقال تعالى :

﴿ وَقَالُوٓاْ ءَأَٰلِهَتُنَا خَيۡرٌ أَمۡ هُوَۚ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلَۢاۚ بَلۡ هُمۡ قَوۡمٌ خَصِمُونَ ﴿٥٨﴾ ﴾ (١)

أي يريدون أن يلتمسوا الحجة من أي ناحية ·

ثانيها : أنهم كانوا يعتقدون في ذات أنفسهم أن محمدا على الحق ، وأن القرآن هو الذي لا يحاكى ، ولكنهم يمارون في الحق بعد ظهوره ، ولذلك ما كانوا يسكتون ، عند افحامهم ، أو افحام بعضهم ، بل انهم اذا أفحموا بحثوا عما هو أشد لجاجة ، وأقوى محاجة في الظاهر ، ولذلك لما أفحم النضر بن الحارث بين أيديهم لم يسلموا بالحق ، وقد بدت بيناته ، بل قالوا معاندين وما قام وما قعد ، حتى جاء ابن الزبعري ، فأتى بما يظنه مفحما لمحمد عليه الصلاة والسلام ، بل كان سبيلا لمعرفة الحق ، ان أرادوا رشادا ، ولكن ما أرادوه ·

ثالثها : أنه في أثناء الحصار والمقاطعة والقطيعة ، ما ونى محمد عن دعوته حتى يئسوا هم ، ولم ييئس هو ومن معه من المؤمنين الاشداء الاقوياء ، ولو كانوا المعذبين المضطهدين ·

وانه في أثناء ذلك ما ونى ، وما ضعف ، ولا استكان ، ولا وهنت نفسه ·

---

(١) الزخرف

وان ابن اسحق قد أتى بأخبار كثيرة عن النبي عليه الصلاة والسلام مع قومه ، وقد أفرغوا من الاذى كل ما في جعبتهم من سهام مريشة، ممزقة جارحة، ولقد قال ابن كثير في تاريخه بعد ذكر أخبار المجادلة :

كل هذه القصص ذكرها ابن اسحاق معترضا بها بين تعاقد قريش على بني هاشم • وبني المطلب ، وكتابتهم عليهم الصحيفة الظالمة ، وحصرهم اياهم في الشعب ، وبين نقض الصحيفة ،وماكان من أمرها وهي أمور مناسبة لهذا الوقت ، ولهذا قال الشافعي رحمه الله تعالى : « من أراد المغازي فهو عيال على ابن اسحاق » •

اذن ، فالنبي مواصل دعوته ، صادع بأمر ربه لا يني ولا يقصر ، فما نهنهت من عزمته المقاطعة ، ولا ارادة الجوع ، والعري ، بل استمر ، وهو يقول في قوة وعزم : « أنا النذير العريان » •

واذا كانت قريش قد بلغت أقصى الايذاء ، وانتقلت من الايذاء الآحادي الى الايذاء الجماعي ، ومن ايذاء المؤمنين وحدهم ، الى ايذائهم مع من يوالونهم من أقارب ، وأولياء ونصراء ، اذا كانت قد بلغت ذلك ، فمحمد لم يعبأ ، لانه مؤيد من رب العالمين •

سعي في نقض الصحيفة

٢٧٩ ـ أقصى درجات الشدة قد يفضي الى نوع من الشفقة ، فان المظلوم الصابر الداعي الى الحق الذي لا يوجد سبب لانزال الظلم الصارخ به قد يفتح ينابيع من الشفقة ، وقد تنفتح هذه الينابيع من نفس الظالم أو من باشر الظلم .

لقد ظلمت قريش أبناء عمومتها من بني هاشم وبني المطلب الذين ارتضوا أن يقاسموا بني عمومتهم من ذرية هاشم ضراءهم ، لانه كان ينالهم شرفهم ، فألزموا أنفسهم بمقاسمتهم الضر ، كما انتفعوا من شرف هذه العمومة .

واننا لا نفرض أن قريشا كلها قد أجمعت على القطيعة من مداخل شعورها ، فما انقطعت كل المودات ، وما زالت كل الصلات ، واذا كان قد دعا داع في وقت المباغضة ، والمخالفة والحفاظ المخطىء على ما كان عليه الآباء ، فاستجابوا أو جلهم تحت تأثير الحمية الوثنية حمية الجاهلية ، فليس معنى ذلك أنهم صفت قلوبهم جميعا الى الداعي الاثيم ، بل ربما أجاب من أجاب بظاهر من القول ، أو تحت تأثير فورة قد تتبدد ، ويبقى الصافي بعدها أو في حال نسيان الاصل المودة الموصولة ، والمحبة الرابطة ، وان اختلفت النحلة ، وتباعد الاعتقاد ، فالصلات تقرب البعيد ، وتمنع الجفوة المستمرة .

وان تلك القطيعة فطرت قلوبا مشفقة نحو الاسلام ، وأوضحت ظلم الباطل لاهل الحق ، وأنهم اذا أعياهم البرهان ، بالغوا في الاعنات ، وان الناس في البلاد العربية اذ يتسامعون بهذه القطيعة سيتعرفون سببها ، ويتذاكرون أمرها ، ويحكمون بالشطط على مرتكبيها ، فتشيع حقيقة الاسلام ، ويفشو بين الناس ، والنبي عليه الصلاة والسلام لا يني عن بيان ، وتلاوة القرآن المشرق بنوره وحججه ، وشرف نسبته الى الله تعالى الذي يخاطب به الخليقة وينادي به الفطرة المستقيمة .

لذلك لابد من نقض الصحيفة ، لانها لم تؤد الى غرض مقصود ، ولو كان مثل غرض أبي جهل ، ولم تمنع الدعوة من أن تذيع بين العرب الادنين منهم والبعيدين عنهم ، فكلما كانت محاولة كتم الدعوة ، كان بزوغها وظهورها ، وانبثاق معينها ، واشراق نورها .

٢٨٠ ـ أشرنا الى أنه يبدو من حقائق الامور ، ودخائل النفوس ، وبعض مظاهرها أنه لم تكن الموافقة على القطيعة الجماعية كاملة ، واذا كانت بظاهر من العمل ، فالقلوب لا تؤيدها ، ولا تعاضدها .

وقد قصصنا عليك أيها القارىء الكريم قصة حكيم بن حزام الذي كان يذهب بالبر الى عمته خديجة وزوجها الطاهر ومن معه من بني هاشم ، واعتراض أبي جهل عليه ، وتصدي أبي البختري ، لابي جهل يلومه على أن منع حكيما من أن يوصل القمح لعمته ، فتلاحيا ، وأخذ أبو البختري لحا بعير وأعمله في رأس أبي جهل حتى شجه .

ويظهر أنه كان يقع ذلك من القرشيين ، انعطافا على المظلومين ، واكراما للقرابة ، ويقول في ذلك ابن اسحاق :ولم يبل أحد أحسن من بلاء هشام بن عمرو بن الحارث .. وكان ذا شرف في قومه ، فكان فيما بلغني يأتي بالبعير ، وبنو هاشم وبنو المطلب في الشعب ـ ليلا قد أوقره طعاما ، حتى اذا بلغ فم الشعب خلع خطامه من رأسه ، ثم ضربه على جنبيه فدخل الشعب ، ثم يأتي به قد أوقره ، فيفعل مثل ذلك .

وهكذا يتكرر منه العمل ، ويتكرر منه التزويد ، وهذا لا يدل على خيانة عهد ، فليس للآثمين عهد يراعى ، ولكنه كان استجابة لصلة القرابة ، واحساسا بظلم تلك الفعلة التي فعلها قومه .

واذا كان لهشام هذا ذلك الشرف الذي كان يعاون به المحاصرين من قومه ، فانه صاحب الفضل الاول في ترتيب نقض الصحيفة ، من جانب المشركين ، وقد ذكرنا من قبل كيف أخبر النبي صلى الله تعالى عليه وسلم بأن الارضة أكلت ما فيه اسم الله وعهده ، وأبقت لهم اثمهم البغيض ، وكيف انتهت بنقضها ، ولكن الآن نبين كيف ابتدأ الانتقاض في جموعهم .

تولى هذا العمل ابتداء هشام بن عمرو بن الحارث ، ولنذكر ترتيبه الحكيم ، كما جاء في البداية والنهاية ٠

مشى هشام الى زهير بن أمية بن المغيرة،وكانت أمه عاتكة بنت عبدالمطلب، فقال له : أقد رضيت أن تأكل الطعام ،وتلبس الثياب، وتنكح النساء، واخوالك حيث علمت لا يبتاعون ، ولا يبتاع منهم،ولا ينكحون ولا ينكح اليهم ، اما اني أحلف بالله لو كانوا أخوال أبي الحكم بن هشام (أي أبي جهل) ثم دعوته الى مثل ما دعاك اليه ، منهم ما أجابك اليه أبدا٠

قال زهير : ويحك يا هشام فماذا أصنع ؟ انما أنا رجل واحد ، والله لو كان معي رجل آخر لقمت في نقضها ٠

قال هشام : لقد وجدت رجلا ٠ قال من هو ؟ قال أنا ، قال هشام : ابغنا ثالثا ٠

ذهب هشام الكريم الى المطعم بن عدي ، فقال يامطعم أقد رضيت أن يهلك بطنان من بني عبد مناف ، وأنت شاهد على ذلك موافق لقريش فيه ، أما والله لئن أمكنتموهم من هذا لتجدنهم اليها منكم سراعا ٠ قال : ويحك فماذا أصنع انما أنا رجل واحد ٠ قال قد وجدت ثانيا ، قال فمن هو ؟ قال أنا ، قال ابغنا ثالثا ٠ قال قد فعلت ٠ قال من هو ؟ قال زهير بن أبي أمية ، قال ابغنا رابعا ٠ فذهب هشام الى أبي البختري (صاحب اللحا التي ضرب بها أبا جهل) ابن هشام ، فقال نحو ما قال للمطعم بن عدي ، فقال وهل تجد أحدا يعين على هذا ؟ قال نعم ٠ قال من هو ؟ قال زهير بن أبي أمية ، والمطعم بن عدي وأنا معك ٠ قال ابغنا خامسا ٠

ذهب هشام الى زمعة بن الاسود ،فكلمه وذكر له قرابتهم وحقهم ، فقال له : وهل على هذا الامر الذي تدعو اليه من أحد ٠ قال نعم ٠

اجتمع أولئك الخمسة الكرام ، واتعدوا بأعلى مكة ٠ وتعاقدوا على الدعوة لنقض الصحيفة ، ووقف زهير ، فكان أول المتكلمين كما كان أول الداعين ٠

طاف بالبيت سبعا ثم قال وقد أقبل على الناس : يأهل مكة أنأكل الطعام ونلبس الثياب ، وبنو هاشم هلكى لايبتاعون ولا يبتاع منهم ، والله لا أقعد حتى تشق هذه الصحيفة القاطعة الظالمة ٠

قال أبو جهل : والله لا تشق ٠

قال زمعة بن الاسود : أنت والله أكذب ، ما رضينا كتابتها ، حين كتبت ٠

قال أبو البختري : صدق زمعة ما نرضى ما كتب فيها ولا نقر به ٠

قال المطعم بن عدي : صدقتما وكذب من قال غير ذلك ، نبرأ الى الله منها ، ومما كتب فيها ٠

قال أبو جهل : هذا أمر قد قضي بليل تشاوروا فيه بغير هذا المكان ٠

٢٨١ ـ من هذا الكلام يستفاد أن كبار الذين لا ضغن عندهم على بني هاشم ، وان لم يذعنوا لدعوة النبي صلى الله تعالى عليه وسلم لم يكونوا راضين بهذه القطيعة ، التي لم يكن لها جدوى الا اثارة العطف على محمد وعشيرته ودعوته وانما كانوا مورطين ٠

ولقد جرت هذه المناقشة وأبو طالب العظيم مستمع وجالس في ناحية من المسجد ، كأن القول لا يهمه ، وكأنه المعني بالاذى هو وعشير من أمثال اللئيم أبي جهل ، والمعني بالمودة من كرام قومه ٠

ولكنه عندما وجد القوم قد اعتزم خيارهم الامر ، وأرادوا قطعها ، قال لهم مقالة الحق التي أخبره بها النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ٠

يا معشر قريش ان ابن أخي قد أخبرني بأن الارضة أكلت الظلم والقطيعة والبهتان ، ولم تدع فيها اسما لله الا أثبتته فهلم الى صحيفتكم ، فان كانت كما قال ، فانتهوا عن قطيعتنا ،وانزلوا عندها ، وان كان كاذبا دفعت اليكم ابن أخي ٠

عندئذ نقضت قريش الصحيفة رغم أنف أبي جهل وأشباهه ٠

نقض الصحيفة فعلاً

٢٨٢ ـ نقضت الصحيفة المشؤومة، ولا شك أنه في وسط الجاهلية العمياء، وجد ذووا بصر رجح عندهم داعي المروءة ، وصلة الرحم ، وأكثرهم كانوا ذوي نسب أو صهر بني هاشم أو قرب نسب من البطون ، أو سبب الانكحة ، ومنهم من حركتهم المروءة والنخوة ، واحترام الارومة ، وترجيح الشرف مع اختلاف الدين على الضعف بسببه، وقاوموا نذالة أبي جهل ، ودقوا أنفه ، وقال قائلهم لو كان فيهم ذو رحم بأبي جهل ما ارتضى تلك القطيعة .

وقد قدر النبي صلى الله تعالى عليه وسلم لذوي المروءات مروءتهم ،وأكثرهم دخل في الاسلام وحسن اسلامه ، وكان خيرا في جاهليته وخيرا في اسلامه فاجتمعت له الحسنيان ، ونال الشرفين شرف الهمة والمروءة وشرف الايمان .

ومنهم من لم يدخل في الاسلام ، ولكن محمدا عليه الصلاة والسلام عرف له مروءته ، وقدرها له ، حق قدرها .

ومن هؤلاء أبو البختري فهو الذي ضرب أبا جهل بلحا البعير ووطئه وطأ شديدا عندما منع حكيم بن حزم من توصيل القمح لخديجة وزوجها خاصة وبني هاشم عامة .

وأبو البختري هذا كان أحد الخمسة الذين نادوا حول الكعبة بوجوب خرق الصحيفة ونقض ما فيها ، وأصر على ذلك اصرارا جعل أبا جهل وأشباهه يخرجون مذمومين مدحورين .

عرف النبي صلى الله تعالى عليه وسلم تلك السابقة المكرمة ، ومحمد عليه السلام لا ينسى السابقات المكرمات ،واعتزم أن يجزيه على موقفه الجزاء الموفور ، فالوفاء خلق محمد عليه السلام، وخلق الاسلام .

ولقد كان يتمنى عليه السلام أن يسلم ، ليكون كاخوانه الذين أسلموا ، ونالوا الحسنيين ولكنه لم يسلم ، بل استمر على شركه ، وبلغه عليه السلام

أنه خرج مقاتلا في صفوف المشركين في غزوة بدر الكبرى ، فأوصى المسلمين ألا يقتله أحد منهم اذا لقيه وتمكن منه . فلقيه أحد المجاهدين ومعه صاحب له من المشركين ، فذكر له وصية النبي عليه الصلاة والسلام ، فدفعته مروءته أيضا الى ألا ينفرد بالنجاة ، ويقتل صاحبه ، فقال اما ان نقتل معا ، واما أن ننجو معا ، فالمجاهد قتلهما معا ، وليته لم يفعل .

انى أحسب أنه خالف وصية النبي صلى الله عليه وسلم ، فهو أمر ألا يتعرض له وألا يقتله وما كان ثمة من مانع من أن ينجيهما ، بل اني أحسب أنه كان من المستحسن أن ينجيهما ، لان الاسلام ينهى عن القتل الا للضرورة وقد كانت مندوحة ، ونحسب أنه لو عاش لكان من المؤمنين ، فخيار قريش في الجاهلية خيارهم في الاسلام ان آمنوا وان في نفسي حسكة تشك قلبي اذا تذكرت أن أبا البختري قتلته السيوف الاسلامية بغير ارادة النبي صلى الله تعالى عليه وسلم .

انطلاق الدعوة الإسلامية :

٢٨٣ ـ كانت تلك القطيعة التي أحدثتها النفس الوثنية الحانقة سببا في ذيوع الاسلام ، وأمر دعوة محمد صلى الله تعالى عليه وسلم .

فقد رأى العرب مقاطعة قريش لذؤابتها من بني هاشم ، وهم يجيئون الى مكة حاجين ومعتمرين ومتجرين يغشون الاسواق ويجدون سادة العرب ممنوعين من غشيانها ، والدعوة الى مقاطعتهم قائمة على قدم وساق ، فلا بد أن يسألوا لم كان هذا ، وأن يتعرفوا دعوة الحق ، وما ينادي به محمد عليه السلام ، فتصل الى أسماعهم ، فمنهم من يؤمن ، ومنهم من يستمر في ضلاله .

ولذلك كانت هذه المقاطعة سببا في أن تسامع العرب بالاسلام ودعوته وأن تصل الدعوة المحمدية الى القبائل في أماكنهم ، فمن اهتدى فقد اهتدى لنفسه ، ودعا غيره بالهداية ، ومن لم يؤمن تحدث مع غيره بما كفر به ، فتكون الدعوة قد علم بها من ارتضاها ، ومن لم يرتضها ، لقد حملها جميعهم ، ورب حامل فقه لا فقه له ، ورب حامل فقه الى من هو أفقه .

جاء الناس الى مكة يستمعون الى النبي ممن صفت قلوبهم للايمان ،

وقريش لهم بالمرصاد يحاولون أن يصدوهم عن سبيل الله تعالى ، ما استطاعوا الى ذلك سبيلا ٠

وأولئك الذين وضع الله في قلوبهم الميل الى الاسلام يسيرون الى الحق لا يعوقهم عائق ، ولا يردهم راد ،ولنذكر لك قصة رجل حاول أن يدخل في الاسلام بناء على ما سمع في القبائل من أخبار محمد عليه الصلاة والسلام ودعوته الى الوحدانية ، وما معه من كتاب أوحي به يتلوه عليهم ، ويرونه عجبا لم يكونوا قد سمعوا مثله ، ولاقريبا منه ، وقريش تترصد الرجل وأمثاله الذين يجيئون الى الرسول يستمعون اليه ، وتحاول تنفيرهم منه ، فلا ينفرون ، بل يزيدون رغبة وامعانافي الطلب ٠

وهذا الرجل الطفيل بن عمرو الدوسي ، وكان سيدا مطاعا شريفا في قبيلة دوس ، وكان قدم مكة ، فاجتمع به كبراء المشركين من قريش ، وحذروه من النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، ونهوه أن يجتمع به ويستمع اليه ٠

وما زالوا به حتى اقتنع بألا يستمع، وحشا أذنه قطنا لكيلا يسمع ، ولكنه غدا الى الكعبة ، فرأى على البغتة رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، وحاول لما أوصاه رجال قريش ألا يسمع ،ولكنه بما وهب الله تعالى رسوله الامين من طيبة طاهرة تجذب اليه القلوب الصافية أبى الا أن يسمع بعض ما يقرأ به عليه الصلاة والسلام ، ولنترك الكلمة للرجل ليخبر عن نفسه،فالقول قوله في شأنها، والاخبار عنها قال رضي الله عنه : قال :قلت في نفسي ، واثكل أمي ، والله اني لرجل لبيب شاعر ، ما يخفى علي الحسن من القبيح ، فما يمنعني أن أسمع من هذا الرجل ما يقول ، فان كان الذي يأتي به حسنا قبلته ، وان كان قبيحا تركته ، فمكثت حتى انصرف رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم الى بيته ، فدخلت عليه، فقلت يا محمد ان قومك قالوا لي كذاوكذا ٠ فوالله ما برحوا يخوفونني أمرك حتى سدوا أذني بكرسف (قطن) لئلاأسمع قولك ، ثم أبى الله الا أن يسمعني قولك فسمعت قولا حسنا ، فاعرض علي أمرك ٠ فعرض علي رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم الاسلام ، وتلا عليّ القرآن ، فلا والله ما سمعت قولا أحسن منه ، ولا أمرا أعدل ، فأسلمت وشهدت شهادة الحق ٠

وكان الطفيل هذا رجلا مسموع الكلمة في قومه شريفا بينهم لم يعرف بقول الزور ولا الباطل فدعاهم الى الاسلام ، فأسلموا طائعين ، وكانت دوس

على الاسلام الى أن جاء عصر الجهـــادبالسيف ، فجاهدت مع المجاهدين حاربت المشركين في عصر النبي صلى الله تعالىعليه وسلم ، وحاربت المـــرتدين من بعده ، وكان لهـا قـــدم ثابتة في الاسلام .

ولم يجد منع قريش ، فالنور لا يقعفي قبضة أحد ، بل انه يسري شعاعا مضيئا هاديا مهما تكن الظلمات المتكاثفة هذا الرجل الاول الذي جعلناه مثلا لشيوع أمر الرســـالة المحمدية بعـدالقطيعة وفي أثنائها ، فكان كل ما عمل ضد محمد عليه الســلام ، وما قام بهيكون في نتيجته خيرا لدعوة التوحيد ، ونداء الحق المبين .

ومن هذه القصة وأشباهها ، وانهالكثيرة تجد أن الاسلام أخـذ يسري الى الجزيرة العربية قاصيهـا ودانيها ، والنبي عليه السلام قطب دعوة التوحيـد مقيم في مكة مثوى العرب أجمعين ، لايسكت ، ولا يني بل يستمر في دعـوة الحق ، يستمع اليه الضعفاء ، وبعض الاقوياء ويقوم بينهم بصلواته يجهر بها ولا يخافت ، والمشركون يستهزئون ظاهرا ، وهم مأخوذون بهـا باطنا ، يقدر حملتها على الشرك الذي يستمسكون بهويلاحون عنه بظاهر من عصبية ،وحقدا وحسدا ، لا ايمانا ويقينا ، ولكنهمقـــوم في ذات أنفسهـــم مترددون ، والمترددون يثير حنقهـــم وغضبهـــم المستيقنون المؤمنون ، وكـذلك كانت المعركة بين حق لائح مبين ، وباطـــلمتردد في ذاته .

عام الحزن

٢٨٤ ـ هذه تسمية رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم للعام الذي توفي فيه شيخ البطحاء أبو طالب بن عبد المطلب ، وأم المؤمنين خديجة رضي الله تعالى عنها ، وقد كانت أبر زوج لاكرم زوج ، فسمى النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ذلك العام عام الحزن ، لانه فقد فيه حبيبين ، ولم يَرَ بعد موتهما من يعوضه عنهما من ذوي قرابته وصهره •

فقد كانا يواسيانه ، ويشدان أزره ، ويمنعان عنه الاذى أن يؤثر في نفسه ، ويرى فيهما المثابة الى الاطمئنان والسكن ، فأبو طالب ينصره ، ويذود عنه ، ويتحمل الاذى في سبيل مرضاته ، ويعمل على أن تَقَر عينه دائما ، وقريش تضايق العم الشيخ فيتحمل ضيق قومه على أن لا يكون منه ما يجعل ابن أخيه في ضيق ، ويتحمل الملامة هو على أن لا توجه ملامة لابن أخيه ، وأشهد ويشهد كل قارىء لسيرة الرسول صلى الله تعالى عليه وسلم أنه ما وُجد أب أحنى على ولده من أبي طالب على ابن أخيه ، وهو يخالفه فيما يدعو اليه ، ولا يستجيب لما ينادي به ، كما يقولون خشية سبة قريش ، وان ذلك لامر يعلمه الله تعالى ، وهو في جملته يتعلق بالدعوة المحمدية الموحدة ، وتخفيف الاذى عن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، ومن آمن معه •

ونحسِب أن أبا طالب لو آمن بالدعوة المحمدية كما آمن حمزة ، وعلي وعثمان ، وغيرهم من بني عبد مناف ما استطاع أن يذود عن محمد وصحبه ، كما ذاد عنهم ، ولا أن يصد قريشا كما صدهم ، اذ أنهم يُدخلونه في ضمن من يناوئون ، وحينئذ يفقد سلطانه الكامل على البطحاء ، اذ ينكرون سيادته ، فلا يستطيع أن يكفكف حدتهم ، ولا أن يكون الدرع الواقية ، كما كان الامر في ذلك ، وهو على دينهم ظاهرا ، أما الباطن فعلمه عند الله تعالى •

ولو أن لنا أن نأخذ بالقرائن أو بالامارات على ما يستكن في القلوب ، لقلنا انه مؤمن ، وليس بكافر ، ولكن يعارض هذه الظواهر أنه دعي الى

الايمان بالقول فلم يستجب ، ومهما يكن فهو في الحالين عظيم حتى في شركه .

هذه اشارات الى ما كان من أبي طالب في حمايته للنبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، حتى انه عليه السلام ليقول : ان قريشا ما نالت مني في حياة أبي طالب ما نالته من بعده .

وأما خديجة أم المؤمنين ، والزوجة الحانية كالأم أو أشد ، فقد كانت السَكَن اذا ادلهمت الامور ، ولقي من مناوأة قومه أشد ما يلاقي داع الى الحق، يشتد الكفر وتشتد العداوة ، ثم يعود الى بيته مجهودا مشنوءا ، فيلاقي الزوج البرة ، ولسان حالها يقول له ، كما قالت أولا : « والله لا يخزيك الله أبدا ، انك لتصل الرحم، وتحمل الكَل ، وتعين على نوائب الدهر ، فيطمئن فؤاده وتسكن جوارحه ، وتقَر نفسه الجائشة .

وان عاطفة الزوج المخلصة تلهمها بأطيب القول وأحكمه ، في أشد الاوقات التي تتضافر فيها أسباب الضيق النفسي والقلق ، وهي بحق التي تسمى السكن ، وكما قال تعالى :

﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾ ﴾ (١)

هذا العام كان قبل الهجرة بثلاث سنين ، كما يحقق الرواة ، وهو قبل فرض الصلوات الخمس ، كما يقول المحققون ، وهو بناء على ذلك قبل الاسراء والمعراج ، ولذلك ذكرنا عام الحزن قبلهما ، للترتيب الزمني أولا — ولان الاسراء والمعراج ، كانا لمواساة النبي صلى الله تعالى عليه وسلم وأنسه بربه ، ولانهما فيما يظهر لنا فيهما اذهاب الوحشة التي نالت قلب الرسول الكريم بفقد حبيبين . فبين الله تعالى بهذا الاسراء أن الله هو الحبيب الاعظم ، وهو الحامي وحده ولا حماية لاحد تقارب أو تداني حمايته .

---

(١) الروم

وان الاكثرين ممن كتبوا في السيرة يقدسون الكلام في الاسراء والمعراج ، لان فيهما تكميلا لبيان الفرائض الاسلامية التي تتعلق بالتوحيد وهي الصلاة.

ويقول في ذلك ابن كثير في تاريخه الكبير : « قال البيهقي ، وزعم الواقدي أن خديجة وأبا طالب ماتا قبل الهجرة بثلاث سنين ، عام خرجوا من الشعب ، وأن خديجة توفيت قبل أبي طالب بخمس وثلاثين ليلة : وروي عن الزهري أنه قال : توفيت خديجة بمكة قبل خروج رسول الله صلى الله عليه وسلم الى المدينة وقيل قبل أن تفرض الصلاة قلت مرادهم قبل أن تفرض الصلوات الخمس ليلة الاسراء ، وكان الانسب أن تذكر وفاة أبي طالب وخديجة قبل الاسراء كما ذكر البيهقي وغير واحد.

أبو طالب وإيمانه

٢٨٥ ـ مما لا شك فيه ، ولا يماري فيه مؤمن أن أبا طالب كان له موقف في الدعوة الاسلامية ، وهو موقف من يحمي الحق ويدافع عنه ، ويتحمل الضيق في سبيله ، وقد رضي أن يعيش ممنوعا ، هو وبنو هاشم وبنو المطلب ، مضيقا عليهم في الرزق ، وكل أسباب الحياة ، وذلك عندما قاطعه قومه هو وبنو هاشم ، ومن انضم اليهم من بني عبد مناف ، واستوى في ذلك مؤمنهم وكافرهم ، وعلى رأسهم كبيرهم أبو طالب ، وقد كان المحرك لهم .

وكما كان منه هذا الموقف المشرف الرافع للحق لم يدخل في دين الله ، أو على الاقل لم يدخل في دين الله ظاهرا ، واستمر على ذلك ، لا يدخل فيما يدعو اليه محمد ، ولا يمتنع عن الدفاع .

والقارىء لسيرته أن يعتقد أن ذلك لمجرد العصبية الجاهلية ، ولفرط محبته لمحمد صلى الله تعالى عليه وسلم ، وأن المحبة كانت هي الدافع لا العصبية وحدها .

فما كان ليرضى أن يغضب النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، ولا أن يكون منه ما لا تقر به عين حبيبه وابن أخيه محمد صلى الله تعالى عليه وسلم .

وهنا يرد سؤال ، وهو أمات أبو طالب بعد هذا البلاء في حماية الدعوة الاسلامية على الشرك ، ولم يخالط الايمان بشاشة قلبه ؟

يقول اخواننا الشيعة انه مات مؤمنا ، وأن الله تعالى أجرى على لسانه كلمة الحق ، لا اله الا الله محمد رسول الله .. ولهم في ذلك روايات أسندت الى النبي صلى الله تعالى عليه وسلم .

ويقول جماعة أهل السنة ، ومعهم الكثرة الكاثرة من علماء الفقه والحديث انه مات على الشرك ، وأنه من أهل النار ، وأن الله تعالى يخفف عنه عذاب جهنم ، فيكون في ضحضاح من النار .

ويردون كلام الاولين بأنه من فرط التشيع لعلي ، فقد جرهم هذا التشيع لعلي الى أن يحكموا بايمان أبيه أبي طالب ، ثم يذكرون ضعفا في اسناد الاخبار التي روت اسلامه ، ونطقه بالشهادتين ، ويذكرون أن الاخبار الصحاح ذكرت أنه ما نطق بشهادة أن لا اله الا الله وأن محمدا رسول الله ، ويذكرون أنه في الخبر الذي صح عندهم عن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ذكر أنه يكون في ضحضاح من النار ، وأن ذلك استجابة لدعوة النبي صلى الله تعالى عليه وسلم بالتخفيف عنه. لما كان له من مناصرة له عليه السلام .

وانه من الحق علينا أن نذكر أمره عندما حضرته الوفاة .

٢٨٦ — ونقول ان كتب الصحاح من السنة كما تذكر أن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم كان في خوف من نتيجة مرضه ، كان مشركو قريش في فزع من موته ، لانه كما كان حاميا للنبي صلى الله تعالى عليه وسلم كان كهفا لقريش يشكون أمر النبي صلى الله تعالى عليه وسلم اليه ، ليرجو أن يخفف عنهم ، ولنترك كلمة للمؤرخ المحدث الحافظ بن كثير في كتابه البداية والنهاية (١) .

« قال ابن اسحاق : ولما اشتكى أبو طالب ، وبلغ قريشا ثقله قالت قريش بعضها لبعض : ان حمزة وعمر قد أسلما وقد فشا أمر محمد في القبائل فانطلقوا بنا الى أبي طالب ، فليأخذ لنا على ابن أخيه ، وليعطه ، فانا والله لا نأمن أن يبتزونا أمرنا . قال ابن اسحاق ، وحدثنا العباس عبد الله ابن معبد ، عن بعض أهله عن ابن عباس قال : لما مشوا الى أبي طالب وكلموه ، وهم أشراف قومه : عتبة بن ربيعة ، وشيبة بن ربيعة ، وعمرو بن هشام (أبو جهل) وأمية بن خلف ، وأبو سفيان بن حرب ، في رجال من أشرافهم فقالوا » :

يا أبا طالب ، انك منا حيث قد علمت ، وقد حضرك ما ترى ، وتخوفنا عليك ، وقد علمت الذي بيننا وبين ابن أخيك فادعه ، فخذ لنا ، وخذ له منا ، ليكف عنا ، ولنكف عنه ، وليدعنا وديننا ، ولندعه ودينه .

---

(١) البداية والنهاية جـ ٣ ص ١٢٧ — بتصرف قليل فيه تقديم وتأخير مناسب ليتسق المنقول .

فبعث اليه أبو طالب فجاءه ، فقال يا بن أخي ، هؤلاء أشراف قومك قد اجتمعوا اليك ، ليعطوك وليأخذوا • فقال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم : يا عم ، كلمة واحدة تعطونها تملكون بها العرب ، وتدين لكم بها العجم • فقال عمرو بن هشام (أبو جهل) : نعم وأبيك وعشر كلمات • ثم قال : تقولون لا اله الا الله ، وتخلعون ما تعبدون من دونه • فصفقوا بأيديهم، ثم قالوا يا محمد ، تريد أن تجعل الآلهة الهاً واحدا • • ان أمرك لعجب ، ثم قال بعضهم لبعض ، انه والله ما هذا الرجل بمعطيكم شيئا مما تريدون ، فانطلقوا وامضوا على دين آبائكم ، حتى يحكم الله بينكم وبينه ثم تفرقوا •

فقال أبو طالب : والله يابن أخي مارأيتك سألتهم شططا ، فطمع رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم فيه ، فجعل يقول له : « أي عم ، فقلها أستحل لك بها الشفاعة يوم القيامة » فلما رأى حرص رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم قال يابن أخي ، والله لولا مخافة السبة عليك ، وعلى بني أبيك من بعدي وأن تظن قريش أني قلتها جزعا من الموت لقلتها ، لا أقولها الا لاسرك بها ، فلما تقارب من أبي طالب الموت • نظر العباس اليه يحرك شفتيه ، فأصغى اليه بأذنه •

قال العباس : يابن أخي ، لقد قال أخي الكلمة التي أمرته أن يقولها •
فقال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم : « لم أسمع » (١) •
هذا الخبر ، يدل على ثلاثة أمور :

أولها : أن قريشا ترى في بقاء أبي طالب ضمانا لامنهم ، واتصالهم بالنبي للتأثير فيه بعمه شيخ مكة •

ثانيها : عظم محبة أبي طالب للنبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، اذ أنه ينطق بها محبة للنبي صلى الله تعالى عليه وسلم •

ثالثها : أن الرواية تدل على أنه يصدق دعوة النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، وذلك من ناحيتين :

أولاهما : أنه قال : « ما رأيتك سألتهم شططا » أي أنه سألهم معقولا ، وهو: لا اله الا الله •

---

(١) جـ ٣ ص ١٢٣

والثانية : أنها تدل على أن أبا طالب نطق بكلمة الايمان ، كما قال العباس ، وقد رد الذين أنكروا ايمان أبي طالب:

أولا : بأن السند فيه تجهيل ، لانه قال عن بعض أهله ، فلم يعرف من الراوي ، وما حاله ٠

وثانيا : بأن الامام أحمد روى هذا السياق ، ولم يذكر كلمة العباس ، وكذلك الترمذي والنسائي وابن جرير ٠

وروى البخاري في سياق هذا الخبر أن عمرو بن هشام (أبا جهل) وعبد الله بن أمية ، عندما سأل النبي صلى الله تعالى عليه وسلم عمه أن يقول لا اله الا الله ، قالا له : يا أبا طالب أترغب عن ملة :عبد المطلب ، فلم يزالا يكلمانه ، حتى قال آخر ما تكلم به : « على ملة عبد المطلب » ٠

وهكذا غيرها من روايات الصحاح تدل على أنه لم يقبلها ، وأن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم قال : « لاستغفرن لك مالم أنه عنك » ٠

٢٨٧ ــ وان الذي ننتهي اليه أن هناك أمورا ثلاثة تحققت منها اثنتان ، والثالثة موضع نظر :

الاولى : أن أبا طالب حامى على الاسلام ، بالدفاع عن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، وبالدفاع عن المسلمين ، وما قاله من المدح لدعوة النبي صلى الله عليه وسلم والثناء عليها ، وما أظهره له ولاصحابه من المودة والمحبة والشفقة في أشعاره ، وما تضمنه كلامه من العيب والتنقيص لمن خالف وكذبه بتلك العبارات الفصيحة البليغة الهاشمية المطلبية التي لا تدانى ولا تسامى ، ولا يمكن عربيا مقاربتها ولا معارضتها ، وهو في ذلك كله يعلم أن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم صادق راشد »(١)٠

الثانية ــ أنه ثبت أنه عندما حضرته الوفاة كان يزكي مطالب النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، وأنه ما عرف عنه بعد الدعوة المحمدية أن زكى الاوثان قط ، ولا فضل تقديسهم عن دعوة النبي صلى الله تعالى عليه وسلم وأنه تحمل الاذى مع النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ٠

---

(١) البداية والنهاية لابن كثير جـ ٣ ص ١٢٦

ويضاف الى ذلك هذه المحبة الظاهرة ، والشفقة الظاهرة التي كانت للنبي صلى الله تعالى عليه وسلم ·

الثالثة ـ النطق بكلمة لا اله الا الله محمد رسول الله ، فقد جاءت رواية بأنه نطق بها ، وقالها ، وهذه رويت عن العباس ، وتطاول بعضهم على مقامه، فقال انه قالها قبل أن يسلم ، وكأن القائل يرمي العباس بالكذب ، قبل الاسلام ، ومعاذ الله أن يكذب العباس بن عبد المطلب ، ولو قبل اسلامه ، لانه من ذؤابة قريش وأشرافهم ، والعربي لا يكذب وانظر الى ما رواه البخاري عن محادثة هرقل ملك الروم مع أبي سفيان ، فقد صدقه القول عن النبي وبينهما عداوة قال : « لولا أني أخشى أن تحفظ عني كذبة في العرب لكذبت، فهل يعد العباس أقل من أبي سفيان شرفا وهمة ؟ كلا انه القرشي الهاشمي، وعم النبي قبل الاسلام وبعده » ·

٢٨٨ ـ واننا ننتهي من هذا العرض الذي تحرينا فيه صدق التلخيص أن أبا طالب لم يكن مكذبا للنبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، ولم يكن مقاوما معاندا ، فهل كان من المسلمين ؟ ·

ويقول ابن كثير في هذا : « وهو في هذا كله يعلم أن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم صادق راشد ، ولكن مع هذا لم يؤمن قلبه ، وفرق بين علم القلب وتصديقه » (١) ·

وكأنه بهذا يشبهه بعلم اليهود بالنبي صلى الله عليه وسلم اذ كانوا كما قال الله تبارك وتعالى عنهم :

﴿ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْ ۖ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٤٦﴾ ﴾ (٢)

ولكنهم لم يذعنوا لما يقتضي علمهم فهم يعلمون ولا يذعنون

وأني أسمح لنفسي أن أخالف الحافظ بن كثير في قوله هذا ، أو انطباقه على أبي طالب ، وأحسبه هو قد وجد فارقا بين معرفته لله ولدعوة الرسول واليهود ، وأقول ان علم أبي طالب قد صحبه ما يدل على التصديق والاذعان ،

---

(١) الكتاب المذكور (٢) البقرة

فهو علم مقترن باليقين والاذعان ، كمادلت عباراته ، وكما دافع عن الاسلام فاذا كان ثمة نقص بالنسبة لابي طالب، فهو أنه لم ينطق بموجب التصديق والاذعان ، واني لذلك أقول انه لايمكن أن يكون مشركا قط .

أولا : لانه استنكر أقوال قريش وأيد دعوة التوحيد .

وثانيا : لانه دافع عن التوحيد وأهله ، وتلقى الاذى كما تلقى المؤمنون الصادقون .

وثالثا : لانه صرح بأن محمدا صادق راشد .

وان وجد من يتردد في ادخاله في زمرة المسلمين ، ولو كانوا ضعافا ، فاننا لا نتردد في اخراجه من زمرة المشركين، واذا كان قد نسب اليه ، أنه قال وهو في سكرات الموت : على ملة عبد المطلب استجابة لاحد الاشياخ من قريش، فانا لا نحسب أن هذه الكلمة تعارض كل ما كان منه من دفاع عن الاسلام ، وتصريحات كثيرة له بأن دعوة محمد صادقة راشدة ، قالها وهو صحيح معافى. ونختم كلامنا في هذا بما قاله الحافظ بن كثير في أبي طالب فقد قال رضي الله عنه :

« أبو طالب كان يصد الناس عن أذية رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، وعن أصحابه بكل ما يقدر عليه من فعال ومقال ، ونفس ومال ، ولكن مع هذا لم يقدر الله تعالى له الايمان ، لما له تعالى في ذلك من الحكمة العظيمة ، والحجة القاطعة البالغة الدافعة التي يجب الايمان بها والتسليم لها ، ولولا ما نهانا الله تعالى عنه من الاستغفار للمشركين ، لاستغفرنا لابي طالب وترحمنا عليه » (١) .

ونحن نقول فيما استنبطنا ، انه ليس بمشرك قط ، لان المشرك من يعبد الاصنام ، ويشركها مع الله تعالى ، وأفعاله وأقواله ، ومواقفه تدل على أنه يرى عبادة الاصنام ويراها أمرا باطلا ،ولذلك أميل الى أن أستغفر له ، ان كنت مع أهل هذا المقام ، وأرى أنه ليس بكافر أصلا ، والله سبحانه وتعالى هو العليم بذات الصدور ، وما تخفى الانفس .

---

(١) البداية والنهاية جـ ٣ ص ١٢٦ ـ الكتاب المذكور ص ١٢٧ .

خديجة

٢٨٩ ـ كانت خديجة هي الفقيدة الثانية التي أدخل موتها الحزن في قلب النبي صلى الله تعالى عليه وسلم وكان قطعة من نفسها، وهي التي أذهبت عنه الرعب يوم جاءها يرجف فؤاده من أول لقاء بالوحي الالهي، وهي التي كانت تأسو جراح قلبه، كلما لقي من قومه صدودا وأذى، وهي التي شاركته في حمل ضرائه، وكانت لها المنزلة الاولى بين نسائه .

ولمكانتها في نفسه لم يتزوج في حياتها غيرها قط معها، ولكن تزوج من بعدها، وعدد الازواج، وكان الحل لمقاصد، ليس منها الشهوة، بل ليؤلف بينه وبين قبائل العرب وليولي أصحابه المحبة ويدنيهم منه وليؤوي أزواج من يموتون من أصحابه، أو يقتلون، ويتركون أزواجهم من غير عائل يعولهم، ليتحقق بالعمل قوله عليه السلام: «من ترك مالا فلورثته، ومن ترك ضياعا، فالي وعلي» .

وانها لعظم منزلتها من النبي، وفي الاسلام، بشرت ببيت في الجنة من قصب:

روى البخاري بسنده عن أبي هريرة قال «أتى جبريل الى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم، فقال يا رسول الله، هذه خديجة قد أتت باناء، فيه ادام ـ أو طعام أو شراب ـ فاذا هي أتتك فاقرأ عليها السلام من ربها، ومني، وبشرها ببيت في الجنة من قصب، لا صخب فيه ولا نصب والقصب المراد به اللؤلؤ .

وقد قال السهيلي «انما بشرها ببيت في الجنة من قصب يعني قصب اللؤلؤ، لانها حازت قصب السبق الى الايمان، ولا صخب فيه ولا نصب، لانها لم ترفع صوتها على النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ولم تتعبه في الدهر، فلم تصخب عليه يوما، ولا آذته أبدا» .

ولقد كان يذكرها دائما بالخير ،يحب من كانت تحبه ، ويواد من كانت توده ، حتى كان ذكرها الدائم يثير غيرة بعض نسائه ، حتى لقد قالت أم المؤمنين عائشة : « ما غرت من امرأة للنبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، ما غرت من خديجة ، لما كنت أسمعه يذكرها ،وأمره الله تعالى أن يبشرها ببيت في الجنة من قصب ، وان كان ليذبح الشاة فيهدي في خلائلها منها ما يسعهن » (١) ٠

وكان مع ذكرها يكرم ذكراها ، ومن يذكره بها ، ولقد استأذنت عليه هالة بنت خويلد أختها ، فعرف استئذان خديجة ، فارتاح ، فقال : «اللهم هالة»٠

وروى الامام أحمد عن عائشة رضي الله تعالى عنها قالت : « كان النبي صلى الله تعالى عليه وسلم اذا ذكر خديجة أثنى عليها بأحسن الثناء فغرت يوما ، فقلت : ما أكثر ما تذكرها حمراء الشدقين ، قد أبدلك الله خيرا منها ، قال ما أبدلني خيرا منها ، وقد آمنت بي اذ كفر بي الناس ، وصدقتني اذ كذبني الناس ، وآستني بمالها ، اذحرمني الناس ، ورزقني الله ولدها اذ حرمني أولاد النساء » ٠

وواضح أن ذلك قبل أن يهب الله تعالى له ابراهيم من مارية القبطية ٠

واننا نرى من هذا الكلام كله مكانة أم المؤمنين خديجة في نفس النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، وكيف كانت المواسي ، اذا ادلهمت الامور ، واشتد البلاء ، وكيف كانت المؤنس اذا استوحش من الناس ، وكيف كانت الهدأة والسكن اذا ارتاع من هول ما يفعل الناس ، فكان حقا عليه أن يسمي عام وفاتها ووفاة عمه الكريم عام الحزن ،وقد فقد فيه الحبيبين ، الحامي ، المكافح والمؤنس المواسي ٠

وقد مات أبو طالب قبل خديجة على أصح الروايات ، وقيل كانت وفاته قبلها بثلاث ليال ، ويذكر بعض الرواة أن وفاتها كانت قبل وفاته بنحو من خمس وثلاثين ليلة ، وان الراجح أن وفاته كانت قبل وفاتها ومهما يكن الامر في المقدم والمؤخر ، فان وفاتهما معا أورثت حزنا شديدا للنبي صلى الله تعالى عليه وسلم ٠

---

(١) البخارى البداية والنهاية ص ١٨ جـ ٣

ماكان بعد موت أبي طالب

٢٩٠ ـ قال النبي صلى الله تعالى عليه وسلم « ما نالت مني قريش ، شيئا أكرهه ، حتى مات أبو طالب » ولقد لزم محمد صلى الله تعالى عليه وسلم بيته بعد موت عمه الشفيق ، وأقل الخروج ٠

ثم لما خرج ، وباشر الدعوة وبلغ رسالة ربه كلبت عليه قريش حتى كانوا يؤذونه في بيته فكان جيرانه جيران سوء ، ومنهم أبو جهل ، والحكم بن أبي العاص بن أمية ، وعقبة بن معيط وعدي بن الحمراء وابن الاصداء الهزلي ، وكان أحدهم يطرح عليه رحم الشاة وهو يصلي ٠

وقد روى مسلم عن ابن مسعود قال : « بينما رسول الله يصلي عند البيت ، وأبو جهل وأصحابه جلوس ، وقد نحرت جزور بالامس ، فقال أبو جهل : أيكم يقوم الى سلا (١) جزور بني فلان ، فيأخذه فيضعه في كتفي محمد اذا سجد ، فانبعث أشقى للقوم ٠ فأخذه ، فلما سجد النبي صلى الله تعالى عليه وسلم وضعه بين كتفيه فاستضحكوا ، وجعل بعضهم يميل على بعض ، وأنا نائم أنظر والنبي صلى الله تعالى عليه وسلم ساجدما يرفع رأسه ٠٠ حتى ذهب انسان فأخبر فاطمة ، فجاءت ، وهي جويرية فطرحته عنه ، ثم أقبلت عليهم تشتمهم ، فلما قضى النبي صلى الله تعالى عليه وسلم صلاته ، رفع رأسه ، ثم دعا عليهم ، وكان اذا دعا ، دعا ثلاثا واذا سأل ، سأل ثلاثا ، ثم قال ٠ اللهم عليك بقريش ثلاث مرات ، فلما سمعوا صوته ذهب عنهم الضحك ، وخافوا دعوته ، ثم قال : اللهم عليك بأبي جهل ابن هشام ، وعتبة بن ربيعة وشيبة بن ربيعة ، والوليد بن عقبة ، وأمية بن خلف ، وعقبة بن أبي معيط ، فوالذي بعث محمدا بالحق ، لقد رأيت الذين سمى صرعى يوم بدر »٠

اشتد أذى قريش للنبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، ويظهر أن أكثر الاذى الذي نال شخص النبي صلى الله تعالى عليه وسلم كان بعد وفاة أبي طالب ٠

---

(١) السلا : الغشاء الذى يحيط بمولود الناقة بعد خلاصها٠

ولقد قال ابن كثير في ذلك :

« وعندي أن غالب ما روي مما تقدم من طرحهم سلا الجزور بين كتفيه ، وهو يصلي كما رواه ابن مسعود ٠٠ وكذلك ما أخبر به عبد الله ابن عمرو بن العاص من خنقهم له صلى الله تعالى عليه وسلم خنقا شديدا ، وكذلك عزم أبي جهل ٠٠ لعنه الله على أن يطأ عنقه ، وهو يصلي فحيل بينه وبين ذلك ، وما أشبه ذلك ـ ذلك كله كان بعد وفاة أبي طالب والله أعلم ، فذكره هاهنا أشبه وأنسب » ٠

وان هذا الكلام له وجاهته ، وعلى ذلك نذكر أن أذى المشركين أخذ دورين:
الدور الاول : « ما كان قبل وفاة أبي طالب ، وقد كان أذى النبي صلى الله تعالى عليه وسلم كان بالاستهزاء والسخرية والسب ، ولا ينالون منه بغير ألسنتهم ، ويقوم بذلك سفهاؤهم كأبي الحكم بن هشام (أبي جهل) وعقبة بن أبي معيط ، وغيرهما من سفهاء القوم ٠

وكان مع ذلك التعذيب والايذاء البدني للضعفاء ، وغير النبي صلى الله تعالى عليه وسلم مما أدى الى الهجرة الى الحبشة مرتين ، وكان فيهم كبراء كجعفر بن أبي طالب ، وعثمان بن عفان ، ولعل هجرتهم كانت لاذى القول والسخرية والاستهزاء ٠

الدور الثاني كان بعد وفاة أبي طالب ، وهنا اشتد الاذى ، وكان الاعتداء بالقول والفعل حتى اضطر النبي صلى الله تعالى عليه وسلم الى أن يطلب الجوار ليدخل مكة ، فأجاره مطعم بن عدي ٠

واذا كان قد فقد حماية أبي طالب ، فقد عوضه الله تعالى بحمايته ٠

حماية الله للنبي صلى الله عليه وسلم

٢٩١ ـ روى البخاري بسنده عن ابن عباس ، قال : مر أبو جهل بالنبي صلى الله تعالى عليه وسلم وهو يصلي ، فقال ألم أنهك أن تصلي يا محمد لقد علمت ما بها أحد أكثر ناديا مني ، فانتهره النبي صلى الله عليه وسلم ، فنزل قوله تعالى : « فليدع ناديه سندعو الزبانية » ، والله لو دعا ناديه لاخذته زبانية العذاب •

وروى ابن جرير الطبري بسنده عن أبي هريرة : هل يعفر محمد وجهه بين أظهركم ؟ قالوا نعم : قال فواللات والعزى عندما رأيته يصلي كذلك لاطأن على رقبته ، ولاعفرن وجهه بالتراب • فأتى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يصلي ليطأ على رقبته • فما فجئهم منه الا وهو ينكص على عقبيه ، ويتقي بيديه فقيل له : مالك !! قال ان بيني وبينه خندقا من نار وهولا وأجنحة فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لو دنا مني لا ختطفته الملائكة » •

ولقد حدث عكرمة عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما أنه جرت بين النبي صلى الله عليه وسلم ومشركي مكة ، والرسول عليه السلام يدعوهم الى الله ، ويبين لهم أن الاحجار لا تنفع ولا تضر ، وأنها لا تغني عن الله تعالى شيئا ، ثم غادر مكانهم • فقام أبو جهل بن هشام فقال :

يا معشر قريش ، ان قد أبى الا ما ترون من عيب ديننا ، وشتم آبائنا ، وتسفيه أحلامنا وسب آلهتنا ، واني أعاهد الله لاجلسن له غدا بحجر ، فاذا سجد في صلاته ، فضخت به رأسه فليصنع بعد ذلك بنو عبد مناف ما بدا لهم •

فلما أصبح أبو جهل أخذ حجرا ، ثم جلس لرسول الله صلى الله عليه وسلم ينتظر ، وغدا رسول الله صلى الله عليه وسلم وكانت قبلته للشام ، فكان اذا صلى ، صلى بين الركنين الاسود واليماني ، فجعل الكعبة بينه وبين الشام فقام يصلي •

وقد غدت قريش فجلسوا في أنديتهم ينتظرون ، فلما سجد رسول الله صلى الله عليه وسلم احتمل ، ثم أقبل نحوه ، حتى اذا دنا منه رجع منبهتا ممتقعا له ، مرعوبا قد يبست يداه على حجره ، حتى قذف الحجر من يديه ·

رأى رجال قريش الذين غدوا ليروا ما يفعل وما كان به ، فقالوا له ما بك يا أبا الحكم !! فقال : قمت اليه لافعل ما قلت لكم البارحة ، فلما دنوت منه عرض لي دونه فحل من الابل ، والله ما رأيت مثل هامته ولا قصرته ولا أنيابه لفحل قط ، فهم أن يأكلني ·

هذه أخبار رواة ثقات بأسناد صحيحة قوية ، واذا كان في بعض أسنادها ضعف فالقوي يرفع الضعيف وحسبنا رواية القوي ·

ونحن نرجع ما رآه ابن كثير من أن ذلك بعد وفاة أبي طالب ، وان كتب السيرة ، والاحاديث التي رويت بأسناد صحيحة لا تذكر زمان الوقائع ولكن تعنى بصدق الوقائع بروايتها عن ثقات أثبات · واذا كان الزمان غير ثابت ، فمن حق المؤرخ الفاحص أن يذكر الأحداث مرتبطة مما يناسبها ، وهو الوقت الذي خلا فيه النبي صلى الله عليه وسلم من نصرة النسيب القريب الذي ألهمه الله تعالى المحبة والذود عن نبيه ، ولو كان في أكثر حياته لم يعلن أتباع النبي صلى الله عليه وسلم ، حتى اذا قبضه الله تعالى اليه ، كانت النصرة لله تعالى وحده الذي لم يضيع عبده ورسوله ساعة من زمان ·

المهابة مع المحبة

٢٩٢ ـ كانت حماية الله تعالى لرسالته التي بلغها محمد صلى الله تعالى عليه وسلم قد اقترنت بما أفاض الله عليه من مهابة كانت تظهر في أوقاتها حيث كان الاذى يشتد ، والاستهزاء يكثر ، فيذكرهم الله تعالى بأنه لم يترك نبيه لسخريتهم واستهزائهم ، فتظهر المهابة الرادعة القاطعة في وسط سخريتهم ، وتطاولهم على مقام النبوة ٠

ولنذكر في ذلك واقعتين تبينت فيهما مهابة محمد صلى الله تعالى عليه وسلم التي ألقاها الله تعالى عليه مع محبته ورحمته ٠

الاولى : قصة الاراشي ، وخلاصتها كما روى محمد بن اسحاق بسنده عن عبد الملك بن أبي سفيان الثقفي قال : قدم رجل من اراش بابل له الى مكة ، فابتاعها منه أبو جهل بن هشام فمطله بأثمانها ، فأقبل الاراشي حتى وقف على نادي قريش ، ورسول الله جالس في ناحية المسجد فقال :

يا معشر قريش من رجل يعديني على أبي الحكم بن هشام ، فاني غريب وابن سبيل ، وقد غلبني على حقي ؟

فقال أهل المجلس ترى ذلك ويشيرون الى رسول الله ، يهزءون به لما يعلمون ما بينه وبين أبي جهل من العداوة ، اذهب اليه فهو يعديك عليه ٠

فأقبل الاراشي ، حتى وقف على النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، فذكر ذلك له ٠ فقام معه ، فلما رأوه قام معه قالوا لرجل ممن معهم : اتبعه فانظر ماذا يصنع ٠ فخرج رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم حتى جاءه فضرب عليه بابه ٠ فقال من هذا ؟ قال محمد فاخرج ، فخرج اليه ، وما في وجهه قطرة دم ، وقد امتقع لونه ، فقال له عليه السلام : اعط الرجل حقه ٠ قال لا تبرح حتى أعطيه الذي له ، فدخل ، فخرج اليه بحقه فدفعه اليه ، ثم انصرف رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، وقال للرجل : ارحل لشأنك ، فأقبل الاراشي حتى وقف على ذلك المجلس ، فقال : جزاه الله خيرا ، قد أخذت الذي لي ٠

جاؤوا الى الرجل الذي بعثوه معه فقالوا ويحك ماذا رأيت ؟ قال عجبا من العجب ، والله ما هو أن ضرب عليه بابه ، فخرج وما معه روحه ، فقال اعط هذا الرجل حقه ، فقال نعم لا تبرح حتى أخرج اليه حقه ، فدخل فأخرج اليه حقه .

لم يلبث أن جاء أبو جهل الى المجلس، فقالوا : ويلك ، والله ما رأينا مثل ما صنعت . فقال ويحكم ، والله ما هو أن ضرب على بابي ، وسمعت صوته ، فملئت رعبا ، فخرجت اليه ، وان فوق رأسه لفحلا من الابل ما رأيت مثل هامته ولا قصرته ، ولا أنيابه لفحل قط ، فوالله لئن أبيت لاكلني .

وان هذه الواقعة تدل أولا على هيبة النبي صلى الله تعالى عليه وسلم يستعين بها اذا أراد في اقامة حق وخفض باطل، ولا يستعين بها في الدعوة الى الله تعالى دائما ، حتى يكون دائما رؤوفا رحيما ، والرأفة تلين القلوب ، والهيبة اذا استخدمت باستمرار أرهقتها ، وأرهبتها، والرسالة تستدعي تأليف القلوب دائما واللين دائما ، ولقد قال تعالى :

﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ ۖ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ ۖ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ ﴿١٥٩﴾ ﴾ (١)

وتدل ثانيا على أن أشد الناس سفها، وتهجما على الناس ، واستهانة بحقوقهم ، وهو في وسط الجموع هو أشدهم خوفا ، وهلعا وفزعا اذا انفرد فهو جبان رعديد ، اذا لاقى خصمه وجها لوجه ، وانك لترى الذين يبالغون في الايذاء من الحكام وغيرهم أشدهم فزعا، اذا أحسوا بأنهم مرام مقصود ، وانفردوا . فالتهجم من فرط الاندفاع، وهو لا يتنافى مع الجبن ، بل انه يلازمه اذا لاقى الاقوياء .

هذه هي الواقعة الاولى التي أردناها. أما الواقعة الثانية : فهي ما رواه البيهقي بسنده عن عروة بن الزبير قال: قلت لعبد الله بن عمرو بن العاص : ما أكثر ما رأيت من قريش قريشا أصابت النبي صلى الله تعالى عليه وسلم فيما كانت تظهره من عداوة ؟ فقال رأيتهم، وقد اجتمع أشرافهم يوما في الحجر،

---

(١) آل عمران

فذكروا رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، فقالوا : ما رأينا مثل ما صبرنا عليه من هذا الرجل قط : سفه أحلامنا، وشتم آباءنا ، وعاب ديننا ، وفرق جماعتنا ، وسب آلهتنا ، وصرنا معه على أمر عظيم .

قال : فبينما هم في ذلك طلع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأقبل يمشي حتى استلم الركن . ثم مر بهم طائفا بالبيت ، فغمزوه ببعض القول ، فعرفت ذلك في وجه رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، فمضى ، فلما مر بهم الثانية غمزوه بمثلها ، فعرفتها في وجهه صلى الله تعالى عليه وسلم ، فمضى فمر بهم الثالثة فغمزوه بمثلها . فقال: « أتستمعون يا معشر قريش ، أما والذي نفسي بيده ، لقد جئتكم بالذبح » .

فأخذت القوم كلمته ، حتى ما منهم من رجل الا وكأنه على رأسه طائر وقع ، حتى ان أشدهم فيه قبل ذلك ليرفؤه ، حتى انه ليقول : « انصرف أبا القاسم راشدا فما كنت بجهول » .

انصرف رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، حتى اذا كان الغد اجتمعوا في الحجر ، وأنا معهم (أي عبد الله بن عمرو) قال بعضهم لبعض : ذكرتم ما بلغ منكم ، وما بلغكم عنه ، حتى اذا بدأكم بما تكرهون تركتموه .

فبينما هم على ذلك طلع رسول الله صلى الله عليه وسلم فوثبوا اليه وثبة رجل واحد ، فأحاطوا به يقولون : أنت الذي تقول : كذا ، وكذا ، لما كان يبلغهم من عيب آلهتهم ودينهم ، فيقول رسول الله صلى الله عليه وسلم : « نعم أنا الذي أقول ذلك » ولقد رأيت رجلا منهم أخذ بمجامع ردائه ، وقام أبو بكر دونه ويقول : ويلكم أتقتلون رجلا أن يقول « ربي الله » ثم انصرفوا عنه ، فان ذلك لاكبر ما رأيت قريشا بلغت منه قط (١) .

وان هذه الواقعة تدل أيضا على هيبة النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، وطاقته النفسية ، ولا ينافي هذه الهيبة ما ارتكبوه بعد ذلك من اثم ، فان الهيبة تفرض نفسها عند أول الصدمة ، ولا تتنافى مع التدبير لمقاومتها ، فقد لقوه في المرة الاولى ، وواجههم بما يكف ألسنتهم عن الغمز والاستهزاء ، ويلقي

---

(١) البداية والنهاية لابن كثير ج ٣ ص٤٦

في قلوبهم الرعب فأثمر ذلك في نفوسهم ،ولما استرجعوا أنفاسهم، واستردوا تفكيرهم الآثم بعد الصدمة التي أوجدتها الهيبة دبروا أمرهم ، ثم كانت تلك الحركة التي أخذ فيها بعضهم بمجامع ردائه ، وان ذلك لا ينافي الهيبة التي كانت للنبي صلى الله عليه وسلم عندما يعتزم القول والقاء المجابهة في القلب.

ولننزل عن مقام النبي صلى الله عليه وسلم الى من دونه .

فقد كان عمر رضي الله عنه من ذوي الهيبة ، ولم تمنع هيبته تدبير اغتياله ، وعلي كان على قدر من الهيبة عظيم ، بل كان المهوب المرهوب ،ولذلك لما دبروا قتله . انتدب له اثنان أنفسهما، وغذي السيف بالسم شهرا ومع ذلك لم تمنع هذه الهيبة ، وتلك الرهبة ،التدبير والاقدام .

وهكذا نرى أن النبي صلى الله عليه وسلم قد حماه ربه من قريش بما منع به شر الاشرار ، وبما منحه الله تعالى من قوة نفس ، وعزم صدق .

محمد عليه الصلاة والسلام في الطائف

٢٩٣ ـ ذاق محمد صلى الله عليه وسلم ما ذاق من أهل مكة من صد عن سبيل الله ومقاومة ، وايذاء له ولاصحابه ، وقد بلغ الدعوة فيهم ، وكلبوا عليه ، ولكن دعوته عامة ، وليست لقريش وحدهم بل هي للناس أجمعين ، وقد علمها أهل مكة ، وقاوموها ما استطاعوا الى ذلك سبيلا ، ولله في ذلك حكمة ، ولو كانوا أول من يطيعه لقيل انهم يريدون بذلك السلطان على الناس ٠

لقد اتجه النبي صلى الله عليه وسلم في سبيل توسيع نطاق الدعوة الى الطائف التي تقرب من مكة ، ولها من القوة والسلطان والثروة من الثمار والتجارة ما لمكة ، وربما يرى فيهم نصرة لم يرها من قريش ٠

وله في الطائف نوع رحم ، لانه رضع في بني سعد ، وهم قريبون من الطائف ، ففيهم مراضعه ، وحواضنه ، وذلك فوق القرب النسبي ، فقد كان بينها وبين مكة نحو ١٢٠ (عشرين ومائة) ، ميل ، وذلك ليس ببعيد في الشقة في عرف أهل البلاد الصحراوية ٠

ذهب الى الطائف في أخريات شوال من السنة العاشرة ، ذهب الى الطائف ليس لمجرد اشتداد قربه منه كما تذكر كتب السيرة ٠ ولكن ذلك قد يكون بعض الاسباب ، وليس أقواها ، وانما لذلك ، ولانه اعتراه ما يشبه اليأس من ايمان قريش ، أو من بقي منهم ، وما كان له أن يضرب في حديد بارد ، أو أن يقصر دعوته عليهم ، وقد غلب عليهم الجدل بالباطل من غير أن يتجهوا الى الاقتناع ، فلا يشغل نفسه بهم ، واتجه الى بلد غير بعيد ، وهو الطائف ، يرجو منهم الاتباع ، ومن وراء الاتباع النصرة ٠

ذهب صلى الله عليه وسلم الى الطائف سعيا على قدمه مع أن المسافة كما قلنا تبلغ نحو عشرين ومائة ميل ، ولم يكن معه الا مولاه زيد بن حارثة الذى أعتقه

من قبل ، وقد صار له حبيبا ودودا ،فلم يكن له خادما ، بل كان معينا ، وقد ذهب راجلا كما ذكر قيل لانه لم يردأن يعلم أحد بذهابه ، وقد يكون ذلك بعض السبب ، ولكن نقـــول انه كان يجاهد في سبيل الدعوة ، ويبلغ به الجهد والجهاد أقصاهما •

قال ابن اسحاق في سيرته بسنده لماانتهى رسول الله صلى الله عليه وسـلم الى الطائف عمد الى نفر من ثقيف هم يومئذ سادة ثقيف وأشرافهم ، وهم أخوة ثلاثة • عبد ياليل بن عمرو بن عمير ،ومسعود بن عمرو بن عمير وحبيب بن عمرو بن عمير ، وابن عوف بن عقـدة بن عوف بن ثقيف (١) •

التقى بهؤلاء الذين كانوا يعـدون من أشرافهم ، لمكانة أبيهم في ثقيف •

وقد كانت هذه الرحلة النبوية الى ثقيف غير محققة الاستجابة ، ولكنهـا كانت جهادا في سبيل الدعوة من صاحبها •• ولنذكر لك المجاوبة التي كانت بين النبي ومن تحدث عليهم من أولاد عمرو بن عمير ، جلس رسول الله صلى الله عليه وسلم الى أولاد عمرو بن عمير، فدعاهم الى الله ، وبما جاءهم له ، من نصرته عليه السلام ، والقيام معه على من خالفه من قـومه ، فأجابوه بنكـــر من القول •

قال أحدهم : وهـو يمرط ثياب الكعبة ، (أي انه ينزع كساء الكعبة) ان كان الله تعالى أرسل النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ينزع ثياب الكعبــة وكأنه يسخر بالرسول ، ويعلق على ارسال النبي صلى الله عليه وسلم من الله أن ينزع هـــو ثياب الكعبــة ، وذلك مستحيل لقدسيتها •

وقال الثاني : أما وجد الله أحدا يرسله غيرك !! وكأنه يستنكر أن يكـون هو الرسول •

وقال ثالثهم : لئن كنت رسولا من الله ، كما تقول لانت أعظم خطرا من أن أرد عليك ، وان كنت تكذب على الله ماينبغي لي أن أكلمك •

كان الرد كله تهكما واستهزاء ، فرأى النبي صلى الله تعالى عليه وسلم أنه لا استجابة منهم ، ويئس منهم وأنهم اشتروا الضلالة بالهدى •

---

(١) سيرة ابن هشام جـ ١ ، ٢ ص ٤١٩

واذا كانوا غير مستجيبين لدعوة الله ، فانه قد يكون فيهم مروءة ، فرأى عليه السلام أن يخفوا مجيئه اليهم ، وكره أن يبلغ قومه فيدثرهم أى يثيرهم ، ولكنهم للؤمهم لم يخفوا أمـره ، بل أعلنوه ، بل أغروا بالنبي صلى الله تعالى عليه وسلم سفهاءهم ، وعبيدهم ، يسبونه ويتصيحـون به ، حتى اجتمـع الناس عليه ٠

وقد روى موسى بن عقبة أنه قعد له أهل الطائف صفين على طريقه ، فلما مر جعلوا لا يرفع رجليه ولا يضعهما الارضخوهما بالحجارة ، حتى أدمـوه ، فمضى ، وهما يسيلان دما (١) ٠

عاد النبي صلى الله تعالى عليه وسلم من تلك الرحلة الشاقة لقوم لئام ، لم يذوقوا معنى المروءة ، ولم يعرفوا الكرامة الانسانية في أي صـورة من الصور الآدمية ٠

أشد البلاء ما يثير عطف العدو اللدود ، وقد أثار ما فعـل أولئك اللئام عطف ابني ربيعة عتبة وشيبة اللذين اشتركا من قبل في ايذاء النبي صـلى الله تعالى عليه وسلم ٠ فقد كان لهمـا بستان قريب من الطائف ، قـد آوى النبي صلى الله تعالى عليه وسلم الى ظل شجرة من أشجاره ٠

لقد تحركت الرحم في ابني ربيعة ،فبعثا غلاما لهما يقال له عداس بقطف من العنب للنبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، ليتبلغ به ، وذلك من الكـرم القرشي ٠

عداس والنبي صلى الله عليه وسلم :

٢٩٤ ــ كان عداس نصرانيا ، فذهب بالقطف الذي كان في طبق ، وقدمه للنبي صلى الله تعالى عليه وسلم فابتدأ صلى الله تعالى عليه وسلم أكله بقوله : « باسم الله » فنظر اليه عداس ، وتفحص في وجهه ثم قال : والله ان هذا الكلام ما يقوله أهل هذه البلاد ٠ فقال له النبي صلى الله تعالى عليه وسلم : ومن أي البلاد أنت عداس وما دينك ؟ قـال نصراني ، ومن أهل نينوى ، فقال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم : من قرية الرجل الصالح يونس بن متى ٠ فقال

(١) البداية والنهاية جـ ٣ ص ١٣٦

عداس : وما يدريك ما يونس بن متى!؟فقال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم : ذلك أخي ، كان نبيا وأنا نبي ٠

أكب عداس بن مالك على رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم يقبل رأسه ويديه وقدميه ٠

رأى ابنا ربيعة ما كان من الفتى النصراني ٠ فلم يلن ذلك قلبهما للاسلام، فقال أحدهما لصاحبه أما غلامك فقد أفسده عليك ٠

لما عاد اليهما عداس قالا له : ويلك يا عداس ، مالك تقبل رأس هذا الرجل ويديه وقدميه ؟!

قال : يا سيدي ، ما في الارض شيء خير من هذا ، لقد أخبرني بأمر لايعلمه الا نبي ٠

قالا له : ويحك يا عداس لا يصرفنك عن دينك ، فدينك خير من دينه ٠

كانت العاطفة الكريمة ، ومعها ذلك الضلال المبين ، وان كان الحق واضحا ، جحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ، فكان الطغيان ، وكان الكفران وكان الضلال٠

دعاء، وعفو، وإجارة:

٢٩٥ ـ أحس الرسول صلى الله تعالى عليه وسلم بالجفوة ، ومرارة الاذى من هؤلاء اللؤماء ، وبما أرادوا له من مهانة ، فلم يجد مثابة الا في أن يلجأ الى ربه ضارعا ، فقال دعاءه لربه وكان بعد أن غادر ابني ربيعة ، ورأى ما رأى من عداس بن مالك ، واطمأن قال :

« اللهم اليك أشكو ضعف قوتي ، وقلة حيلتي ، وهواني على الناس يا أرحم الراحمين ، أنت رب المستضعفين ، وأنت ربي ، الى من تكلني ، الى بعيد يتجهمني ، أم الى عدو ملكته أمري ، ان لم يكن بك غضب عليّ فلا أبالي ، ولكن عافيتك هي أوسع لي ، أعوذ بنور وجهك الذي أشرقت له الظلمات ، وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة من أن تنزل بي غضبك ، أو يحل علي سخطك، لك العتبى حتى ترضى ، ولا حول ولاقوة الا بك » ٠

دعاء منبعث من نفس مكلومة ولكنها راضية ، لانها تقوم بأعظم دعوة في الوجود ، فيهون في سبيلها كل أمر مهما يكن عنيفا ، وكل شديدة مهما

تكن بالغة ، فهو يقبل ما قدره الله ومايرضاه ، ولا يهمه الا غضب الله عليه وما دونه يهون ٠

استجاب الله تعالى لدعائه عليه السلام ، وبين له أنه معه ، وقد ثبت في الصحيحين أن أم المؤمنين عائشة حدثت أنها قالت لرسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم : هل أتى عليك يوم كان أشد عليك من يوم أحد ؟ قال ما لقيت من قومك ٠٠ اذ عرضت نفسي على ابن عبد ياليل ٠٠ فلم يجبني الى ما أردت ، فانطلقت ، وأنا مهموم ، فلم أستفق الا وأنا بقرن الثعالب ، فرفعت رأسي ، فاذا أنا بسحابة قد أظلتني ، فنظرت ،فاذا فيها جبريل عليه السلام فناداني فقال ٠ « ان الله قد سمع قول قومك لك وما ردوا به عليك ، وقد بعث الك ملك الجبال لتأمره بما شئت فيهم ، ثم ناداني ملك الجبال ، فسلم عليّ ، ثم قال يا محمد ، قد بعثني الله ، ان الله قد سمع قول قومك لك ، وأنا ملك الجبال قد بعثني اليك ربك لتأمرني ما شئت،ان شئت فأطبق عليهم الاخشبين (جبلين بمكة) فقال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم « أرجو أن يخرج الله من أصلابهم من يعبد الله » (١) ٠

استجاب الله تعالى لدعاء نبيه ، وقد ذكر في دعائه ضعف قوته ، فبين الله تعالى بأنه يضع في يده كل القوى ، وأنه لا يمكن أن يهون عند الناس ، والله تعالى معه ، وانه لم يتركه لعدو ، ولا ولي ، بل ان أمره عليه السلام الى الله سبحانه ، وهو القاهر فوق عباده ، فمن كان مع الله تعالى لا يهون أبدا ٠

سماع الحق له :

٢٩٦ ـ كان النبي صلى الله تعالى عليه وسلم حفيا بأن يتبع الناس دعوة الحق ، ويؤمنوا بالله ورسوله ويتركوا عبادة الاوثان ، وكما قال الله تعالى مخاطبا نبيه الكريم :

﴿لَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴿٣﴾﴾ (٢)

شكا أن قومه لا يتبعون ، وأن غيرهم كمثلهم ، فبين الله تعالى أنه اذا كان

---

(١) البداية والنهاية جـ ٣ ص ١٣٧ (٢) الشعراء

الذين اتبعوه من قومه عددا قليلا ، فان له أتباعا من الحق ، فبين الله تعالى أن بعض الجن قد استمعوا ، واستجابوا ولم يكفروا فقال تعالى مخبرا عن سماعهم، وكان سماعهم فيما يروى الرواة بعد خروجه من الطائف ، وما نزل به ، قال سبحانه :

﴿ وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْءَانَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنصِتُوا فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ (٢٩) قَالُوا يَٰقَوْمَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَٰبًا أُنزِلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ (٣٠) * يَٰقَوْمَنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ وَءَامِنُوا بِهِۦ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ (٣١) وَمَن لَّا يُجِبْ دَاعِيَ اللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي الْأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُۥ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءُ أُولَٰٓئِكَ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ (٣٢) ﴾ (١)

وقال تعالى في سورة الجن :

﴿ قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا (١) يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَـَٔامَنَّا بِهِۦ وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَآ أَحَدًا (٢) وَأَنَّهُۥ تَعَٰلَىٰ جَدُّ رَبِّنَا مَا اتَّخَذَ صَٰحِبَةً وَلَا وَلَدًا (٣) وَأَنَّهُۥ كَانَ يَقُولُ سَفِيهُنَا عَلَى اللَّهِ شَطَطًا (٤) وَأَنَّا ظَنَنَّآ أَن لَّن تَقُولَ الْإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا (٥) وَأَنَّهُۥ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ الْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا (٦) ﴾ (٢)

والجن كما تدل ظواهر القرآن الكريم وما روي من أخبار عن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم جنس يقابل الانسان ،فليس الجن من الاناسي ، ولا يتفق مع القرآن قول من يقول انهم طائفة من الناس غيبوا في الارض ، أو بعدوا فيها • ولقد أخطأ وجانب الصواب من يقول انهم الانصار ، فذلك كلام باطل بالبداهة ، ولكن تبع الغربيين بعض الذين ليس لهم استقلال فكري أمام ما يقوله الغربيون ، وليست عندهم طاقة يستطيعون بها تمييز ما هو حق وما هو باطل ، وما هو خطأ وما هو صواب •

---

(١) الاحقاف (٢) الجن

ان كل عبارات القرآن تصرح بأنهم جنس مقابل للانس ، وآيات الكتاب لكريم في ذلك كثيرة ، من ذلك قوله تعالى :

﴿ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ قَدِ ٱسْتَكْثَرْتُم مِّنَ ٱلْإِنسِ ۖ وَقَالَ أَوْلِيَآؤُهُم مِّنَ ٱلْإِنسِ رَبَّنَا ٱسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ وَبَلَغْنَآ أَجَلَنَا ٱلَّذِىٓ أَجَّلْتَ لَنَا ۚ قَالَ ٱلنَّارُ مَثْوَىٰكُمْ خَٰلِدِينَ فِيهَآ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ (١٢٨) وَكَذَٰلِكَ نُوَلِّى بَعْضَ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعْضًۢا بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ (١٢٩) يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِى وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا ۚ قَالُوا۟ شَهِدْنَا عَلَىٰٓ أَنفُسِنَا ۖ وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَشَهِدُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا۟ كَٰفِرِينَ (١٣٠) ﴾ (١)

وان هذه الآيات الكريمات تدل بصريحها على أن الجن جنس ، والانس جنس آخر •

ويقول تعالى :

﴿ قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا (٨٨) ﴾ (٢)

واقرأ قوله تعالى :

﴿ يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ إِنِ ٱسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُوا۟ مِنْ أَقْطَارِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ فَٱنفُذُوا۟ ۚ لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَٰنٍ (٣٣) ﴾ (٣)

وأننا نأخذ من صريح هذه النصوص اختلاف الجنسين ، فليس الانس من الجن ، ولا الجن من الانس ، وان الواجب أن نأخذ بظواهر الالفاظ الا اذا قام الدليل على أن الكلام على ظاهره مناقض لحقيقة شرعية قد علمت من الدين بالضرورة ، أو أمر عقلي مستحيل مخالفته •

---

(١) الانعام (٢) الاسراء (٣) الرحمن

وأولئك الذين يريدون أن يخرجوا لفظ الجن عن ظاهره ، في القرآن هم من أولئك الذين لا يفكرون في غير المحسوس ، فلا يؤمنون الا بالمادة ، ولا يؤمنون بالغيب ، وهو الركن الاول للايمان ، ولذلك كان أول وصف للمؤمنين هو الايمان بالغيب ، اذ يقول سبحانه :

﴿ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣﴾﴾ (١)

وفيصل للتفرقة بين الايمان والزندقة الايمان بالغيب .

وبعد ذلك نتساءل ما حقيقة الجن ؟ والجواب عن ذلك أننا نميل الى ما يقرره العلماء المسلمون . وهو أن الجن من نار ، واعتمدوا في ذلك على نص القرآن ، لا على الاوهام ، وذلك لان الله تعالى قال عن ابليس اللعين

﴿كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ ۗ أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِى وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّۢ ۚ بِئْسَ لِلظَّٰلِمِينَ بَدَلًا ﴿٥٠﴾﴾ (٢)

ولما أبى واستكبر ولم يسجد لآدم ، قال فيما حكى الله سبحانه وتعالى عنه :

﴿قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ ۖ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ ﴿٧٦﴾﴾ (٣)

وبالتقاء النصين الكريمين يثبت أن ابليس بصريح اللفظ كان من الجن ، وأن الجن خلق من نار .

هذا ما يدل عليه صريح القرآن .

وان سماع الجن وايمان بعضهم تسلية للنبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، اذ فيه بيان أنه اذا كان قد بطؤت الاجابة في الانس فقد سارعت الجن الى الاجابة :

﴿قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ ۛ أَرْبَعِينَ سَنَةً ۛ يَتِيهُونَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ فَلَا تَأْسَ عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٢٦﴾﴾ ( )

---

(١) البقرة (٢) الكهف (٣) ص (٤) المائدة

في جوار المطعم بن عدي

٢٩٧ ـ كان لابد أن يعود النبي صلى الله تعالى عليه وسلم الى مكة مهبط الوحي ، ومجتمع العرب في موسم الحج ، لان الخطة التى رسمها وابتدأ بها في الطائف تقتضي العودة الى مكة ، وتلك الخطة أن يتصل بالقبائل العربية في أثناء اجتماع وفود القبائل في الحج الى بيت الله الحرام .

همّ رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم بالرجوع الى مكة ، وهو عند حراء ، وكان معه زيد بن حارثة الذي صحبه في هذه السفرة فخشي على النبي صلى الله تعالى عليه وسلم وطلب بألا يرجع الا في جوار أحد من سادة مكة المشركين ، حتى لا يضار .

فنزل رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم عند مشورته ، فأرسل الى الاخنس بن شريق أن يجيره بمكة . فقال انه حليف قريش لا يجير على صحيحها .

ثم بعث الرسول الى سهيل بن عمرو ليجيره ، فقال : ان بني عامر بن لؤي لا تجير على بني كعب بن لؤي .

ثم بعث الرسول الى المطعم بن عدي ليجيره ، فقال للرسول نعم ، قل له فليأت ، فذهب اليه رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، فبات عنده تلك الليلة .

ثم لما أصبح الصبح خرج معه وبنوه ستة ـ أو سبعة ـ على اختلاف الرواية ـ متقلدو السيوف جميعا ، فدخلوا المسجد فقال لرسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم : طف . واحتبى هو وأولاده بحبائل سيوفهم في المطاف .

كان ذلك اعلانا قويا بهذا الجوار الكريم ، فجاء أبو سفيان بن أمية بن عبد مناف ، وأقبل على مطعم بن عدي فقال أمجير أم تابع ؟ قال : بل مجير ، فقال اذن لا تخف .

وكأن أبا سفيان بهذا السؤال يشيرالى أنه ان كان تابعا فهو حرب مع النبي يناله ما ينال أتباع النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، وان كان مجيرا فانه تحفظ ذمته ، لانه منهم ، ولا يفرضون فيه العداوة أو الخصومة ٠

ومن هذا تعرف حكمة الله تعالى في أن أبا طالب لم يعلن اسلامه مع حمايته للنبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، اذ أنه لو أعلن الاسلام لحاربوه مع من آذوا من أتباع النبي صلى الله تعالى عليه وسلم الذين لم يرعوا فيهم الاً ولا ذمة ٠

انشقاق القمر

٢٩٨ ــ قلنا ان الامور التي كانت بعد الدعاء المحمدي كانت استجابة لهذا الدعاء وابعادا للوحشة عن قلبه الطاهر ، فمجيء تلك الجبال كان لاشعاره عليه السلام بالقوة ، وقد شكا ضعف قوته ، وسماع الجن للقرآن وايمان بعضهم كان لا يناسبه عليه السلام بكثرة الاتباع ، ثم كان تسهيل الجوار ليدخل الى مكة ويكمل دعوته ، فيه اثبات سعة الحيلة للنبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، هداه الله تعالى اليها لكي يذهب بقلة حيلته التي شكاها رسول الله تعالى عليه الصلاة والسلام .

وكانت من بعد ذلك الآيات الحسية ، التي كان منها انشقاق القمر ، والاسراء والمعراج . لبيان أن الله تعالى لم يتركه :

﴿ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ۝ ﴾ (١)

وقد ذكرنا أن كتّاب السيرة لم يذكروا الاخبار مرتبة بترتيب الوقائع وقد ذكروا انشقاق القمر بعد الاسراء والمعراج ، ونحن قد رجحنا كما رجح ابن كثير أن الاسراء كان بعد وفاة أبي طالب وخديجة أم المؤمنين رضي الله عنهما ، اذ أنها توفيت قبل أن تفرض الصلوات الخمس ، والصلوات لم تفرض خمسا الا في المعراج .

وقد ذكر بعد المعراج انشقاق القمر ، وان المناسبة تزكي ذلك الترتيب فان ذلك تقوية للاستدلال على صحة الرسالة ، وان كان القرآن الكريم هو المعجزة الكبرى التي تحدى بها النبي صلى الله تعالى عليه وسلم وعده عليه السلام المعجزة .

ولندخل من بعد للموضوع ، وهو انشقاق القمر . لقد قال تعالى :

﴿ ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ ۝ ﴾ (٢)

---

(١) الضحى (٢) القمر

ويقول في ذلك ابن كثير : وقد أجمع المسلمون على وقوع ذلك في زمنه عليه الصلاة والسلام ، وجاءت بذلك الاحاديث المتواترة من طرق متعددة تفيد القطع عند من أحاط بها ونظر فيها ، ونحن نذكر من ذلك ما تيسر ان شاء الله تعالى . وبه الثقة وعليه التكلان ويذكر من بعد ذلك الحافظ الحجة ابن كثير الاخبار الصحاح الواردة في ذلك .

وقبل أن نختار من هذه الصحاح ما نراه أوضح من غيره دلالة ، نقول ان انشقاق القمر ثبت بلفظ الماضي مما يدل على حكاية الواقع ، لا ذكر المتوقع، فان اللفظ القرآني يؤخذ بظاهره مالم توجد قرينة من حقيقة ثبتت بالاجماع والعلم الضروري ، أو من قضايا العقل المبثوثة التى لا مجال للريب فيها ، أما تأويل القرآن ، واخراجه عن ظاهره باستبعاد بعض ذوي العقول المأفونة أو المتأثرة بالمألوف بين الناس ، وتنكر ما عداه ، ولا تعلم أن هناك قوة مغيرة محدثة منشئة هي قدرة الله تعالى وارادته التي توجب الايمان بأن الله تعالى فعال لما يريد ، مختار فيما يفعل ، وأنه وحده خالق كل شيء ، خلق الاسباب والمسببات لا توجب ارادته أسبابا عادية:

﴿ لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ ﴿٢٣﴾ ﴾ (١)

وعلى ذلك نقرر أنه وقع في الماضي في عصر النبي صلى الله تعالى عليه وسلم، لان قوله تعالى :

﴿ ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ ﴿١﴾ ﴾ (٢)

وقد عبر عن انشقاق القمر بلفظ الماضي الدال على الوقوع في زمن مضى ، وتخريجها على أن الماضي أريد به المضارع ، وأنه سينشق ، تخريج للفظ بغير ظاهره الذي دل عليه القرآن بظاهره لابد له من مسوغ يوجب ذلك التخريج، ويكون قرينة دالة على أن اللفظ أريد به غير ظاهره .

٢٩٩ ــ هذا ما يدل عليه ظاهر القرآن ، وهو في ذاته حجة دالة على الوقوع لا يحتاج الى حجة أخرى تؤيده فهو يؤيد غيره ، ولا يستمد التأييد من

---

(١) (الأنبياء) (٢) القمر

غيره ، ولكن السنة تبين لنا كيف وقع لا أصل الوقوع ، فنحن نرجع الى السنة لبيان شكل الوقوع .

لقد ذكر الحافظ ابن كثير أن الوقوع ، أو شكل الوقوع يثبت بعدة طرق عن كثيرين من الصحابة ، فروي عن أنس بن مالك خادم رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، وجبير بن مطعم ، وحذيفة ، وعبد الله بن عمر وعبد الله بن مسعود ، وعبد الله بن عباس رضي الله تعالى عنهم أجمعين .

روى البخاري ومسلم أن أهل مكة سألوا النبي صلى الله تعالى عليه وسلم آية ، فانشق القمر بمكة مرتين ، وفي رواية لمسلم عن قتادة عن أنس بن مالك أن أهل مكة سألوا رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم أن يريهم آية فأراهم القمر شقتين ، رواه البخاري ، وزادت روايته حتى رأوا حراء بينهما .

وبذلك تفسر كلمة مرتين بأنه صار فرقتين .

وروى الامام أحمد عن جبير بن مطعم : قال انشق القمر على عهد رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، فصار فرقتين فرقة على هذا الجبل ، وفرقة على هذا الجبل ، فقالوا سحرنا محمد ، وقالوا ان كان سحرنا ، فانه لا يستطيع أن يسحر الناس كلهم .

وروى البخاري عن ابن عباس ، قال ان القمر انشق في زمان النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، وقد قال البخاري قد مضى ذلك كان قبل الهجرة ، انشق القمر ، حتى رأوا شقيه .

ويقول ابن عباس فيما روى عنه أبو نعيم بسنده ، « اجتمع المشركون الى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم منهم الوليد بن المغيرة وأبو جهل ابن هشام ، والعاص بن وائل ، والعاص بن هشام ، ونظراؤهم فقالوا للنبي صلى الله تعالى عليه وسلم ان كنت صادقا فشق لنا القمر فرقتين ، نصفا على أبي قبيس ، ونصفا على قيقعان ، فقال لهم النبي صلى الله عليه وسلم تؤمنون ؟ قالوا نعم ، فسأل الله عز وجل أن يعطيه ما سألوا وكانت ليلة بدر ، فأمسى القمر قد شق نصفا على أبي قبيس ، ونصفا على قيقعان » .

وهكذا تضافرت الروايات ، وهـذا بعضها يدل على أن القمر شق ، وكان شقين ، وكان القمر بدرا ، وعينت بعض الروايات أنه كـان في الليلة الرابعة عشرة ، وليس لاحد أن يشك في هذه الروايات التي يسند بعضها بعضا ، حتى ادعى ابن كثير أن أخبار انشقاق القمر في عصر النبي صلى الله تعالى عليه وسلم بلغت حد التواتر ، وانه لم يعد ثمة مساغ لمستريب ، ولا مجال للتكذيب ، وخصوصا أن الاصل ثابت بظاهر القرآن ، والاحاديث مبينة لشكل الوقوع ، لا لاصل الانشقاق ، فانه ثابت بالقرآن الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، ولكن الذين ينكرون يستغربون ثم يؤولون ، ان كان للايمان بالقرآن بقية في قلوبهم ٠

٣٠٠ ـ ان الذين يستغربون ، ثم ينكرون ، ويؤولون ان كانوا مسلمين يردون أن ذلك لو حصل وهو أمر كوني لكان مرئيا في كل بقاع العالم ٠ ولم يختص العرب برؤيته ، بل تعم ولا تخص ، وقد ردد ذلك النصارى من كتّاب المشرقيات ونقله عنهم الذين يتعرفون أمور الاسلام من هؤلاء ٠

ونقول لعلماء الغرب الذين يشككون في القرآن ٠ لقد صدقتم ما هو أشد من ذلك غرابة ، فان الاناجيل التي يصدقونها ، ويؤمنون بكل ما فيها يقولون في ميلاد المسيح عليه السلام انه علم ميلاده عند المجوس بنجم أعلمه ، وأنهم جاءوا من بلادهم ، والنجم يسير أمامهم ، حتى علموا مكانه عن طريق النجوم ، فهل كان الناس قدروا ذلك . كما تطالبون المسلمين بأن يثبتوا أن الناس جميعا قد رأوا انشقاق القمر ، والا فهم في حل من أن يكذبوا القرآن الكريم :

﴿ مَّا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ وَلَا لِآبَآئِهِمْ ۚ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ ۚ إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا ۝٥ ﴾ (١)

ومع ذلك فاننا نقبل الاعتراض ، وان كانوا غير مخلصين ، ولا مؤمنين بما يقولون ، ونقول في رده أن العرب المشركين عندما رأوا القمر قد انشق ،

---

(١) الكهف

لم يؤمنوا وقالوا سحرنا محمد ــ وحكى الله تعالى عنهم ذلك ، فقد قال تعالى في واقعة انشقاق القمر :

﴿ اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانشَقَّ الْقَمَرُ ۝ وَإِن يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ ۝ ﴾ (١)

وبعضهم أراد أن يتعرف ، وانتهى تعرفه بأن الناس الذين علموا أمره من غير المقيمين قد رأوه منشقا • فقد روى الامام أحمد ، والشيخان البخاري ومسلم عن ابن مسعود : « قال انشق القمر على عهد رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، فقالت قريش : هذا سحر ابن أبي كبشة ، فقالوا انظروا ما يأتيكم به السفار ، فان محمدا لا يستطيع أن يسحر الناس كلهم •

وروى البيهقي مثل ذلك عن عبد الله بن مسعود أيضا ، فقد قال : انشق القمر بمكة حتى صار فرقتين ، فقال كفار قريش لاهل مكة : هذا سحر سحركم به ابن أبي كبشة ، انظروا السفار ، ان كانوا رأوا ما رأيتم فقد صدق وان كانوا لم يروا مثل ما رأيتم، فهو سحر سحركم به قال فسئل السفار ومن قدموا من كل وجهة ، فقالوا رأينا •

من هذه الصحاح يتبين أن الرؤية كانت عامة ، ولم تكن مختصة باقليم ولا ببلد ، وقد تحرى أهل الفحص والنظر فرأوا أن قد رؤي في كل الاماكن التي كانت تجاورهم ، أو أتى فيهم السفر بخبره ، فدل هذا على أن الرؤية كانت عامة ، والقرآن صادق وأخبار النبي صلى الله تعالى عليه وسلم صادقة من كل الوجوه ولا سبيل لانكارهم بتوهم متوهم ، أو استغراب مستغرب ، فأمارات الصدق قائمة بينة ، ولا يرد الامر البين بتوهم واهم ، أو استغراب مستغرب ، أو انكار كافر جحود •

وفوق ذلك ، فانه جاءت الاخبار بأن انشقاق القمر قد رؤي في الهند ، قال المؤرخ ابن كثير :

« ومع ذلك فقد شوهد ذلك في كثير من بقاع الأرض • ويقال : انه أرخ بذلك في بعض بلاد الهند • وبني بناء في تلك الليلة ، وأرخ بليلة انشقاق القمر » (٢) •

---

(١) القمر (٢) البداية والنهاية لابن كثير جـ ٣ ص ١٢٠

الإســراء والمعــراج

٣٠١ ـ كان الاسراء في السنة التي كانت قبل الهجرة ، وروى البيهقي عن ابن شهاب الزهري أنه كان في السنة التي قبل الهجرة ، وروى الحـاكم أن الاسراء كان قبل الهجـرة بستة عشر شهرا ٠

واختلف على ذلك في الشهر الذي أسرى به فيه ، فالسـدي قال انه في ذي القعدة ، والزهري قال في ربيع الاول ٠

وروي عن جابر وابن عباس أنهما قالا : ولد رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم في الاثنين للثاني عشر من شهر ربيع الاول ، وفيه بعث ، وفيه عـرج الى السمـاء ، وفيه هاجـر ، وفيـه مات ٠

وفي رواية أن الاسراء كان في ليلة السابعة والعشرين من شهـر رجب ، ويقول ابن كثير : « وقد اختاره الحافظ بن سرور المقدسي ، وقد أورد حـديثا لا يصح سنده كما ذكرناه في فضـائل شهر رجب ، وأن الاسراء كان في ليلة السابعة والعشرين من رجب والله أعلم، ومن الناس من يزعم أن الاسراء كان في أول ليلة جمعة من شهـر رجب ، وهي ليلة الرغائب التي أحدثت فيهـا الصلاة المشهورة ، ولا أصـل لذلك ، والله أعلم ٠

وقد جاء في نهاية الأرب أن الاسراء كان في ليلة السبت ، ليلة سبع عشرة من رمضان ، قبل الهجرة بثمانية عشر شهرا ، وقد أسري صلى الله عليه وسلم به وسنه احدى وخمسون سنة وتسعة أشهرا !!

وننتهي من هذا الى أن علماء السيرة النبوية مختلفون في تعيين اليوم الذي كان فيه الاسراء ، ولكن الواقعة ثابتة ،وقد اتفقوا على أنها كانت بعد ذهـاب النبي صلى الله تعالى عليه وسلم الى الطائف ، وردهم له الرد المنكر ، وأن كونها في ليلة السـابع والعشرين من رجب ثبتت بخبر لم يصـح سنده في نظـر الحافظ المحدث ابن كثير ، وقال من بعد ذكره : والله سبحانه وتعالى أعلم ٠

وقد وجدنا الناس قبلوا ذلك التاريخ ، أو تلقوه بالقبول ، وما يتلقاه الناس بالقبول ليس لنا أن نرده ، بل نقبله ولكن من غير قطع ومن غير جزم ويقين .

واتفقت الروايات أيضا على أن الاسراء كان قبل الهجرة بسنة على الاقل ، ويظهر أنها كانت في السنة التي قبل الهجرة في ثلثها الاول أو الاخير والله سبحانه وتعالى أعلم .

ومن سياق التاريخ ومناسبات الحوادث نرى أن الاسراء كان بعد انشقاق القمر .

٣٠٢ ـ وهنا قد يسأل السائل ماالمناسبة لمسألة الاسراء والمعراج ،وتعيين الله تعالى لزمانها ، والله سبحانه وتعالى حكيم عليم ، يضع الأمور بموازينها وفي أوقاتها ، وأجلها المعلوم ، ولنا أن نتعرف حكمة الله تعالى من غير أن نقطع بأن هذا هو مراد الله تعالى ، فهو العليم الخبير الذي لا تخفى عليه صغيرة أو كبيرة في السماء أو في الأرض .

ونجيب عن هذا التساؤل بما قررنا ، وهو أن الله سبحانه وتعالى استجاب لنبيه صلى الله تعالى عليه وسلم في ضراعته بالدعاء الذي دعا ربه غب خروجه من الطائف ، شكا ضعف قوته فأمده الله تعالى بالقوة ، وقلة الحيلة فأمده بحسن التدبير لدخول مكة آمنا مطمئنا ، وأيده بآية حسية من نوع ما يطلبون ، واذا كانوا لم يستجيبوا لداعي الله تعالى ،فلأن المعاند لا يقنعه الدليل ، ولو كان حسيا ، فقالوا سحرنا ، مع أن انشقاق القمر رأته الركبان في أسفارها ، ثم كان من بعد ذلك الأنس بلقاء الله تعالى في المعراج ، سواء أقلنا ان لقاءه بالله تعالى ، كان بالروح في الرؤيا ، أم كان بما هو أكثر من الرؤيا (١) ؟

لقد أحس النبي صلى الله تعالى عليه وسلم بالوحشة بعد وفاة الحبيبين ، خديجة العطوف ، وأبو طالب الشفيق . فقال الله تعالى له بالفعل أنس الله أكبر ، ورحمته أعظم ، وحياطته أكرم ، وان عنايته بك وبرسالتك هي التي ستبلغك

---

(١) السيرة العطرة للاستاذ عبد العزيز خير الدين ، ونهاية الأرب جـ ١٦ ص ٢٨٣ ، ٢٨٤

أمرك ، وتحقق لك شأوك ، وتصل بك الى غايتك ، وهو المهيمن الرؤوف الرحيم ، لذلك كان الاسراء ، ومن بعده عروجه الى السماء .

٣٠٣ ـ والآن ننتقل الى الآيات الكريمات التي صرحت بالاسراء ، ثم كانت الاشارة الواضحة الى المعراج قال الله تعالى :

﴿ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَٰتِنَآ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿١﴾ ﴾ (١)

ففي هذا النص الاسراء صريحا ، وكانت الاشارة الى المعراج بقوله تعالى :

﴿ لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَٰتِنَآ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿١﴾ ﴾ (٢)

وقال تعالى :

﴿ وَإِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِٱلنَّاسِ ۚ وَمَا جَعَلْنَا ٱلرُّءْيَا ٱلَّتِىٓ أَرَيْنَٰكَ إِلَّا فِتْنَةً لِّلنَّاسِ وَٱلشَّجَرَةَ ٱلْمَلْعُونَةَ فِى ٱلْقُرْءَانِ ۚ وَنُخَوِّفُهُمْ فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا طُغْيَٰنًا كَبِيرًا ﴿٦٠﴾ ﴾ (٣)

فقد ذكر المفسرون أن الرؤيا هي المعراج .

وقال تعالى في سورة النجم :

﴿ وَٱلنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ﴿١﴾ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ﴿٢﴾ وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ﴿٣﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ﴿٤﴾ عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ ﴿٥﴾ ذُو مِرَّةٍ فَٱسْتَوَىٰ ﴿٦﴾ وَهُوَ بِٱلْأُفُقِ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٧﴾ ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ﴿٨﴾ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ ﴿٩﴾ فَأَوْحَىٰٓ إِلَىٰ عَبْدِهِۦ مَآ أَوْحَىٰ ﴿١٠﴾ مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ ﴿١١﴾ أَفَتُمَٰرُونَهُۥ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ ﴿١٢﴾ وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ﴿١٣﴾ عِندَ سِدْرَةِ ٱلْمُنتَهَىٰ ﴿١٤﴾ عِندَهَا جَنَّةُ ٱلْمَأْوَىٰٓ ﴿١٥﴾ إِذْ يَغْشَى ٱلسِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ ﴿١٦﴾ مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ ﴿١٧﴾ لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِ ٱلْكُبْرَىٰٓ ﴿١٨﴾ ﴾ (٤)

(١) الاسراء (٢) طه (٣) الاسراء (٤) النجم

ولقد قرر المفسرون أن هذه الآيات نزلت في المعراج ، وان ذلك لواضح ، واذا كانت العبارات السابقة لم تصرح بالعروج الى السموات العلا فان الاشارات واضحة تكاد تكون تصريحا ، والاشارات الواضحة في قوة الدلالة تكون كالالفاظ الصريحة ٠

وقد قال بعض علماء السيرة ان الاسراء بالنبي صلى الله تعالى عليه وسلم ابتدأ من شعب أبي طالب ، وان كان السند في ذلك صحيحا ، فانه يشير الى أن أبا طالب قد مات ، وأن مهمته قد انتهت ، وأن الله تعالى وهو الباقي الدائم ، الاول والآخر والظاهر والباطن به تكون النصرة الدائمة المتجددة في الشدائد ــ ولكن الثابت في البخاري أنه ابتدأ من الحطيم بالمسجد الحرام ٠

الإسراء بالجسم :

٣٠٤ ــ ان ظاهر الآية القرآنية التي أثبتت الاسراء وهي قوله تعالى :

﴿ سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَا الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ ﴾ (١)

أن الاسراء كان بالجسد والروح ، وذلك لانه سبحانه وتعالى قال أسرى بعبده ، والعبد هو الروح والجسد ، وما دام الظاهر لا دليل يناقضه من عقل أو نقل ، فانه يجب الاخذ به ، فانه من المقررات أن الالفاظ تفسر بظاهرها الا اذا لم يمكن حملها على الظاهر لمعارض ، ولامعارض ٠

وفوق ذلك فان النبي صلى الله تعالى عليه وسلم عندما أعلن خبر الاسراء بين قريش ففتن بعض الذين أسلموا وارتد من ارتد ، ويقول في ذلك ابن كثير فيما رواه عن قتادة « انصرف رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم الى مكة ، فأصبح يخبر قريشا بذلك ، فذكر أنه كذبه أكثر الناس ، وارتدت طائفة بعد اسلامها ، وبادر الصديق الى التصديق ، وذكر أن الصديق سأله عن صفة بيت المقدس ، وقال اني لاصدقه في خبر السماء بكرة وعشيا ، أفلا أصدقه في بيت المقدس ، فيومئذ سمي أبو بكر الصديق ٠

---

(١) الاسراء

وانه روي أنه عند مروره صلى الله تعالى عليه وسلم على عير لقريش فند بعير لهم نافرا ، فأرشدهم النبي صلى الله تعالى عليه وسلم الى مكانه ، وقد أخبروا أهل مكة بذلك (١) ٠

وانه روى أن أهل مكة الذين ردوا القول استوصفوه عيرا لهم فوصفها ، وقد قال صلى الله تعالى عليه وسلم في اخبارهم ، والاستدلال على صدقه : « وآية ذلك أني مررت بعير بني فلان بوادي كذا وكذا ، فأنفرهم حسن الدابة (٢) فند لهم بعير ،فدللتهم عليه ،وأنا متوجه الى الشام ، ثم أقبلت ،حتى اذا كنت بصحنان مررت بعير بني فلان ٠ فوجدت القوم نياما ، ولهم اناء فيه ماء ، قد غطوا عليه بشيء ،فكشفت غطاءه ،وشربت ما فيه ، ثم غطيت عليه كما كان ، وآية ذلك أن عيرهم تصوب الآن من ثنية التنعيم (٣) البيضاء يقدمهم جبل أورق عليه غرارتان ، احداهما سوداء والاخرى برقاء ، فابتدر القوم الثنية ٠٠ وسألوهم عن الاناء وعن العير فأخبروهم كما ذكر رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ٠

وان هذا كله يدل على أن الاسراء كان بالروح والجسد ، فانه تلاقى مع المارين بين مكة والشام وأخبر عن التلاقي ، وصدق خبره عليه السلام ، واذا كانت بعض هذه الروايات في اسنادها كلام ، فان بعضها يقوي الآخر ، ونص القرآن ظاهر في تأييد الدعوى ، بل لا يدل على غيرها حتى يقوم الدليل ٠

ولو كان الاسراء بالروح أو الرؤيا الصادقة ما كانت ثمة غرابة تمنع التصديق ، ولبادر النبي صلى الله تعالى عليه وسلم باخبارهم الى أن ذلك رؤيا في المنام ، أو هذا وحي أوحي به اليه ٠

ولقد كان بجوار هذا القول الذي تنطق به الآية الكريمة قول آخر ، روي عن أم المؤمنين عائشة رضي الله تبارك وتعالى عنها وعن أبيها الصديق ،وروي أيضا عن معاوية بن أبي سفيان ، وقد كان ابان ذلك هو وأبوه من المكذبين الذين يناوئون الدعوة ، ولكن لعله نقل عن غيره ممن شاهدوا ، وعاينوا ، كما نقلت عائشة عن غيرها ، وما كانت في ذلك الابان قد زفت الى النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ٠

---

(١) الروض الأنف جـ ١ ص ٢٤٤

(٢) هى البراق الذى سنذكر الروايات عنه من بعد (٣) هو مكان

وقد كان معاوية مسلما من بعد أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها وعن أبيها الصديق ، واحتج بقول عائشة هذا ،وقدأثر عن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم أنه أمر بأن يؤخذ الدين عن عائشة ٠

ولكن الخبر عنها يحمل في نفسه مايوهم عدم صدقه عنها ، ففيه : أنهـــا قالت : « لم تفقد بدنه » وان ذلك يوهمأنها كانت معه في مبيت واحد ، مـــع اجماع المؤرخين والمحـدثين على أنه لم يبن بها الا في المدينة ٠

وقد استدل أصحاب هذا القول بماروى الحسن البصري عن أن قوله تعالى :

﴿ وَمَا جَعَلْنَا ٱلرُّءْيَا ٱلَّتِىٓ أَرَيْنَٰكَ إِلَّا فِتْنَةً لِّلنَّاسِ وَٱلشَّجَرَةَ ٱلْمَلْعُونَةَ فِى ٱلْقُرْءَانِ ۚ وَنُخَوِّفُهُمْ فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا طُغْيَٰنًا كَبِيرًا ﴿٦٠﴾ ﴾ (١)

وقالوا ان الرؤيا هي ما كان في ليلـة المعراج ، والرؤيا هي ما يكون في المنام، كما حكي عن سيدنا يعقوب : أنه قـال لابنه يوسف بعد أن قص عليه ما رآه في المنـــام : « لا تقصص رؤياك عـلى اخوتك » ٠

وجاء في كتاب البصائر للفيروزبادي : « الرؤيا ما رأيته في منامـــك ، والجمع رؤى كهدى ، وقد تخفف الهمزةمن الرؤيا ، فيقال بالواو » (٢) وهـذا وغيره نصـــوص صريحة في أن الرؤيامنامية ٠

ولكن أهي كانت في الاسراء أم كانت في المعراج ؟ ان رواية الحسن رضي الله عنه تقول : هي ما كان في ليلة المعراج ، نعم ان الليلة كانت واحدة ،ولكن النص على ليلة المعراج يدل على أن كلام الحسن ومن معه في المعـــراج لا في الاسراء ٠

ويستدل أصحاب هذا القول ، وهوأن الاسراء كان بالروح بحديث البخاري عن أنس بن مالك قال : ليلة أسرى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم من مسجد الكعبة جاءه ثـــلاثة نفر قبل أن يوحى اليه ، وهو نائم في المسجد الحرام ،فقال أولهم أيهم هو ، قال أوسطهم هذا ،وهوخيرهم ، فقال آخرهم : خذوا خيرهم ٠٠

---

(١) الاسراء

(٢) بصائر ذوى التمييز فى لطائف الكتاب العزيز جـ ٣ ص ١٧٧

فلم يرهم حتى أتوه ليلة أخرى فيما يرى قلبه ، وتنام عينه ولا ينام قلبه ، وكذلك الانبياء تنام أعينهم ، ولا تنام قلوبهم ،ولم يكلموه حتى احتملوه فوضعوه عند زمزم ، فتولاه منهم جبريل •• والحديث طويل وقال في آخره واستيقظ وهو في المسجد الحرام ، ويرى صاحب الروض الأنف أنه نص لا اشكال فيه •

ونرى أن فيه اشكالا ، لأنه نص فيه على أنه كان قبل أن يوحى اليه ، ونرى أنه لم يتعرض لذكر الاسراء والمعراج ،ولعلها كانت اذا صحت الرواية في موضوع آخر •

ويرى صاحب الروض الأنف أن الأدلة قد تعارضت بالنسبة للاسراء ،وأنه يوفق بينها بأن الاسراء كان مرتين :احداهما بالروح والاخرى بالجسد والروح •

ونحن نرى أن الأدلة لم تتعارض، بل الأدلة على أن الاسراء كان بالجسد والروح هي التي لا ريب فيها ، ولا يمكن أن يعارض الضعيف القوي •

ولذا نرى أن الاسراء كان بالجسد والروح ، ولا نجد فيما استدل به ما يدل على أنه كان بالروح فقط ، وان الآية :

﴿ وَمَا جَعَلْنَا ٱلرُّءْيَا ٱلَّتِىٓ أَرَيْنَـٰكَ إِلَّا فِتْنَةً لِّلنَّاسِ ﴾ (١)

لا نرى أن موضوعها هو الاسراء ، بل ان موضوعها هو المعراج •

ولا غرابة في أن ينقل الله تعالى نبيه من مكة الى بيت المقدس وأن يعود به في ليلة واحدة ، فان هذا ليس ببعيد على الله تعالى ، لان المسافات في الزمان والمكان ، انما هي بالنسبة للعبيد ، ولا تكون قط بالنسبة لله سبحانه وهو القادر على كل شيء ، وهو خالق الاماكن والازمان •

المعراج بالروح :

٣٠٥ ـ ان الاكثرين من العلماء على أن المعراج كالاسراء كان بالجسد والروح ، وأخذوا ذلك من ظواهر الاحاديث الصحيحة التي روتها السنة ،

---

(١) الاسراء

ففيها التصريح بأنه لقي آدم في سماء ،وابراهيم في مثلها وادريس ، وعيسى ويحي وموسى ، وهذه الظواهر آثروا الاخذ بها •

ولكن أولئك الأكثرين وقفوا عند رؤية الله تعالى ، فقال فريق منهم انه رأى ربه وخاطبه ، وكان ذلك تكريما لهلمخاطبة الله تعالى اختص به محمدا صلى الله تعالى عليه وسلم تعظيما وتقريباله ، وهو فوق المذكور في قوله تعالى :

﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآيِٕ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِۦ مَا يَشَآءُ ۚ إِنَّهُۥ عَلِيٌّ حَكِيمٌ ﴿٥١﴾﴾ (١)

وليس من هذه الثلاثة رؤية الله تعالى ،وتلقي الرسول منه مباشرة من غير حجاب •

وقد رأى ذلك الرأي الامام أحمد بنحنبل وقاله أيضا أبو الحسن الاشعري وقالت طائفة أخرى لم يقع ذلك لحديثمسلم عن أبي ذر رضي الله تبارك وتعالى عنه : « قلت يا رسول الله هلرأيت ربك فقال عليه الصلاة والسلام انه نور أنى أراه ، وفي رواية رأيتنورا •

والذين قالوا ان الاسراء كان بالروح وفي رؤيا صادقة قالوا ذلك في المعراج ، بل هو أولى ، فالرحلة كلهاكانت رؤيا صادقة ، وقد بينا القول في أدلة هذا الرأي بالنسبة للاسراء منقول •

وقد انضم اليهم غيرهم ممن يرون أن الاسراء كان بالجسد والروح ، فمنهم من قال ان المعراج كان بالروح وليسفي الموضوع نص قرآني يدل بظاهره على أنه كان بالجسد والروح ، حتى لايكون مناص من أتباعه أو تأويله ، بل نجد الالفاظ تقبل أن يكون المعراج بالروح ، وبالظاهر المتبادر ، لا بالتأويل المنتزع انتزاعا •

ولننظر في الآيات الكريمات الدالةعلى المعراج :

دلالة آية الاسراء على المعراج بالاشارة لا بالعبارة ، وذلك فى قوله تعالى :

﴿لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَٰتِنَآ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿١﴾﴾ (٢)

---

(١) الشورى (٢) الاسراء

فتلك الآيات التي أراها الله عبده هي المعراج ، وامامة الانبياء السابقين ٠

والآيات الاخرى التي دلت على المعراج ، كانت ألفاظها لا تدل على المعراج الا بالاشارات البيانية ، ولننظر فيها عبارة عبارة ، وكلها من السمو البياني في المكان الاعز الذي لا يصل اليه بيان قط ٠

﴿ عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ ۝٥ ذُو مِرَّةٍ فَٱسْتَوَىٰ ۝٦ ﴾ (١)

فقد قالوا انه جبريل عليه السلام ،واذا كان الله تعالى ، فتعليمه لا يكون بالتلقين بل يكون بالارشاد والايحاء ٠

وقوله تعالى :

﴿ وَهُوَ بِٱلْأُفُقِ ٱلْأَعْلَىٰ ۝٧ ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ۝٨ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ ۝٩ فَأَوْحَىٰٓ إِلَىٰ عَبْدِهِۦ مَآ أَوْحَىٰ ۝١٠ مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ ۝١١ أَفَتُمَٰرُونَهُۥ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ ۝١٢ * وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ۝١٣ ﴾ (٢)

« وهو بالافق الأعلى » يراد جبريل عليه السلام ، « ثم دنا فتدلى » أي نزل وقرب من النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، «فأوحى الى عبده ما أوحى» عن طريق جبريل ،«ولقد رآه نزلة أخرى»وهو جبريل أيضا وقوله تعالى : « ما كذب الفؤاد ما رأى » تومىء الى أن الآيات الكبرى التى رآها كانت بفؤاده لا ببصره ، وقوله تعالى : « مازاغ البصر وما طغى » أي ما كلّ وما تجاوز حده ، والنفي فيه ما قد يكون لانه لم تكن رؤية بالبصر ٠ حتى يكل المبصر أو يتجاوز حده ، وقد يكون لبيان أن البصر لم يتجاوز حده ليطغى ، ويحاول أن يرى ما لا يمكن أن يراه ، ويزيغ بأن يكل ويمل ، ويلقي في النفس ما لم ير ٠

واننا عند هذا النظر الفاحص ننتهي الى أن الاسراء اذا كان بالجسد والروح، فان المعراج كان بالروح فقط ، وأنه كان رؤيا صادقة ، وقد اتجهنا الى ترجيح ذلك لما يأتى :

---

(١) ، (٢) النجم

(أ) أنه ذكر في المعراج أنه التقى بالانبياء آدم وابراهيم وموسى ويحي ، وغيرهم ، والباقي منهم هو أرواحهم ،وأجسامهم سيبعثها الله تعالى يوم البعث والنشور ، وفرض أنه بعثها ثم أفناهافرض بعيد لم يذكر في حديث من الاحاديث ، ولا خبر من الاخبار ، ولوضعيفا ، وكل فرض في أمر غيبي لادليل عليه من المنقول فهو رد على قائله الا أنيكون أمرا يؤدي اليه البرهان العقلي ، ولا يوجد شيء لا من المنقول ولا المعقول يقرر اعادة أجسام الانبياء الكرام أحياء ، ثم اعادتها الى الفناء .

(ب) ان العبارات القرآنية الواردة في المعراج تومىء بل تصرح بأن الأمر في هذه الرحلة السماوية كان روحيا وأن الادراك لم يكن بالحس ، بل كان بالقلب والفؤاد ، فالله تعالى يقول :

﴿ مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ مَا رَأَىٰ ﴿١١﴾ أَفَتُمَٰرُونَهُۥ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ ﴿١٢﴾ وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ﴿١٣﴾ ﴾(١)

فالحديث القرآني كله كان في اثبات رؤية الفؤاد ، وأنه لا تجوز المماراة فيما رأى الفؤاد الذي لا يكذب ، وذلك لا يتحقق الا بأن تكون الرؤية روحية ، لان رؤية القلب لا تكون الا روحية ،وانه عندما ذكرت حاسة البصر ذكرت بالنفي ، لا بالايجاب ، وقد بينا مؤدى النفي في هذا .

(جـ) أن أخبار المعراج تصرح بأنه رأى ربه ، والرؤية القلبية ممكنة باستحضار عظمته ، وبالسبحات الروحية المتجهة الى الله سبحانه وتعالى وان النبي صلى الله تعالى عليه وسلم قد قرر أنه لم ير ربه في حديث أبي ذر الغفاري ، فقد قال عليه الصلاة والسلام في اجابة سؤال الصحابي الجليل أبي ذر : « انه نور ، فأنى أراه » .

واننا لا نتعرض في ذلك لكون رؤية الله تعالى يوم القيامة ممكنة ، أو غير ممكنة ، فذلك يوم القيامة بعد البعث والنشور ، وذهاب أهل الجنة اليها ، وابقاء أهل النار فيها ، فان الكلام فيها غير الكلام في الدنيا ، ونحن نحس ونرى ، فان كانت رؤية الله الآن فهي بالعين الفانية ، ورؤية أهل الجنة عند من يثبتونها تكون بالعين الباقية ، والله أعلم كيف يرى .

---

(١) النجم

وننتهي من هذا الى تقـرير حقيقتين نراهما :

الاولى : أن الاسراء كان بالجسد والروح بظـواهر النصـوص المثبتة ، ولا معارض لها ٠

الثانية : أن المعـراج كان بالروح فقط لعدم وجود الادلة المثبتة أنه كان بالجسد والروح من القرآن ، ولوجود المعارض من النقل والفعل ٠

والآن نعود الى قصة الاسراء والمعراج كما هي في الصحاح على أن نفسـر الالفاظ على ضـوء هاتين الحقيقتين اللتين قررناهما ٠

الإسراء والمعراج في صحاح السنة

٣٠٦ ـ كان من الممكن أن نقف بالنسبة للاسراء والمعراج عند هذا الذي قررناه ، ولكن يجب أن نستأنس بالمنقول عن الرسول صلى الله تعالى عليه وسلم على أساس أن كل ما ذكر في المعراج أنه بالروح ٠

وقد رويت روايات مختلفة تتعلق بواقعة الاسراء ثم العروج ، نختار منها رواية البخاري ٠

روى البخاري بسنده عن أنس بن مالك ، عن مالك بن صعصعة ، أن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم حدثهم عن ليلة أسري به قال :

« بينا أنا في الحطيم ، وربما قال في الحجر ـ مضجعا اذ أتاني آت ، وسمعته يقول : فشق ما بين هذه الى هذه ، فقلت (أي الراوي) للجارود وهو الى جنبي ماذا يعني به ، قال من نقرة شعره الى شعرته ، وسمعته يقول من قصه الى شعرته فاستخرج قلبي ، ثم أتيت بطشت من ذهب مملوء ايمانا فغسل قلبي ، ثم حشي ، ثم أعيد ٠٠ ثم أتيت بدابة دون البغل وفوق الحمار أبيض ، فقال الجارود ، وهو البراق :قال أنس نعم ٠ يضع خطوه عند أقصى طرفه ، فحملت عليه ، فانطلق بي جبرائيل ، حتى أتى السماء الدنيا ، فاستفتح قيل من هذا ؟ قال جبرائيل قال ومن معك ! قال محمد قيل وقد أرسل اليه ؟ قال نعم ، قيل مرحبا به ،فنعم المجيء جاء ٠ ففتح ، فلما خلصت فاذا ، آدم ، فقال هذا أبوك آدم ، فسلم عليه ، فسلمت عليه فرد السلام فقال مرحبا بالابن الصالح ، والنبي الصالح، ثم صعد بي الى السماء الثانية ، فاستفتح ، قيل من هذا قال جبرائيل ،قيل ومن معك ؟ قال محمد ، قيل وقد أرسل اليه قال نعم قيل مرحبا به فنعم المجيء جاء ففتح ، فلما خلصت ، اذا بيحيى وعيسى وهما ابنا خالة ، قال هذا يحيى وعيسى فسلم عليهما فسلمت عليهم فردا ثم قالا : مرحبا بالاخ الصالح والنبي الصالح ٠

ثم صعـــد بي الى السماء الثالثة • فاستفتح جبرائيل ، قيل من هذا ؟ قال جبرائيل • قال ومن معك ؟ قال محمـــدقيل وقد أرسل اليه قال نعم قيل مرحبا به فنعم المجيء جاء ، ففتح ، فلما خلصت اذا يوسف • قال هذا يوسف فسلم عليه، فسلمت عليه فرد ، ثم قال مرحبا بالاخ الصالح والنبي الصالح •

ثم صعـــد بي الى السمـــاء الرابعةفاستفتح ، قيل من هذا ؟ قال جبرائيل قـــال ومن معـــك ؟ قـــال محمـــد ،قيل وقد أرسل اليه قال نعم قيل مرحبا به فنعم المجيء جاء ، فلما خلصت اذاادريس ، قيـــل فسلـــم عليـــــه ، فسلمت عليه فرد ، ثم قال مرحبا بالاخ الصالح والنبي الصالح •

ثم صعد بي حتى أتى السماء الخامسةفاستفتح ، قيـــل من هـــذا ؟ قـــال جبرائيل ، قيل ومن معك ؟ قال محمد ،قيل وقد أرسل اليه قال نعم قيل مرحبا به ، فنعم المجيء جاء ، فلما خلصت اذابهارون ، قال هـذا هارون فسلم عليه فسلمت عليه فرد ، ثم قال مرحبا بالاخ الصالح والنبي الصالح •

ثم صعد بي حتى أتى السماء السادسة، فاستفتح ، فقيـــل من هذا ؟ قـــال جبرائيل ، قيل ومن معك ؟ قال محمد • قيل وقد أرسل اليه قال نعم قيل مرحبا به ، فنعم المجيء جاء ، فلما خلصت اذاموسى ، قال هـــذا موسى فسلم عليـــه فسلمت عليه فرد ، ثم قال مرحبا بالاخ الصالح والنبي الصالح ، فلما تجاوزت بكى ، فقيل له : ما يبكيك ؟ قال ابكي ،لان غلاما بعث بعدي يدخـل الجنة من أمته أكثر ممن دخلها من أمتي •

ثم صعد بي الى السمـــاء السابعة ،فاستفتح جبرائيل ، قيل من هذا ؟ قال جبرائيل • قال ومن معك ؟ قال محمـــدقيل وقد بعث اليه ؟ قال نعم • قيـــل مرحبا به فنعم المجيء جاء ، فلما خلصت، اذا ابراهيم قال هذا أبوك ابراهيم فسلم عليه ، فسلمت عليه ، فرد ، ثمقال : مرحبا بالابن الصـــالح والنبي الصالح •

ثم رفعت الى سـدرة المنتهى ، واذاأربعة أنهار ، نهران ظاهران ، ونهران باطنان ، فقلت ما هذا يا جبرائيل ؟قالأما الباطنان فنهـــران في الجنة ، وأما الظاهران ، فالنيل والفرات ، ثم رفع لي البيت المعمـــور ، يدخله كل يوم

سبعـــون ألف ملك ، ثم أتيت باناء من خمر ، واناء من لبن ، واناء من عسل ، فأخذت اللبن قال هي الفطرة التي أتيت عليها وأمتك .

ثم فرض علي الصلوات خمســون صلاة كل يوم ، فرجعت فمـــررت على موسى ، فقال بم أمرت ؟ قلت أمـــرت بخمسين صلاة كل يوم قال ان أمتـــك لا تستطيع خمسين صلاة كل يوم ،واني والله قد جربت الناس قبلك ، وعالجت بني اسرائيل أشد المعالجة ، فارجع الى ربك ، فسله التخفيف لامتك فرجعت ، فوضـــع عني عشرا ، فرجعت الى موسى فقال مثله ، فرجعت فوضع عني عشرا ، فرجعت الى موسى ، فقال مثله ، فرجعت ،فوضـــع عني عشرا ، فرجعت الى موسى فقال مثله ،فرجعت فأمرت بعشر صلوات كل يوم ، فقال مثله ، فرجعت فأمـــرت بخمس صـــلوات كل يوم ، وبعث الى موسى ، فقال بم أمرت ، فقلت بخمس صلوات كل يوم . قال أمتك لا تستطيع خمس صلوات كل يوم ، واني قد جربت الناس قبلك ، وعالجت بني اسرائيل أشد المعالجة ، فارجع الى ربك فسله التخفيف لامتك ، قال سألت ربي حتى أستحييت ،ولكني أرضى وأسلم ، قال فلما جاوزت ناداني مناد : أمضيت فريضتي وخففت عن عبادي .

وفي رواية البخاري في كتاب التوحيد أنه بعد أن راجع ربه بمشـــورة موسى عليه السلام ، وجاء في مراجعـــة الخامسة أنه قال لربه : « يا رب ان أمتي ضعفاء وأجسادهم وقلوبهم وأسماعهـــم وأبصارهم وآذانهم ، فخفف عنا ،فقال الجبار تبارك وتعالى : يا محمد ، قـــال لبيك وسعديك . قال انه لا يبدل القول لدي ، كما فرضت عليك في أم الكتاب قال لكل حسنـــــة بعشر أمثالها . فهي خمســـــون في أم الـــكتاب هي خمس عليك (١) .

وانه من المتفق عليه بين العلماء أن النبي صلى الله تعـــالى عليـــه وسلم أم الانبياء أجمعين ، وعـــلى مقتضى الذين قالوا ان الاسراء كان بالروح تكـــون الامامة روحية ثبتت بالرؤيا الصالحة ،وكذلك يرى الذين قالوا ان المعـــراج كان روحيا .

ولكن من الرواة ما يدل سياق روايته على أن صلاة النبي صلى الله تعالى عليـــه وسلم بالانبياء اما ما كان عند مقـــدمه الى المسجد الاقصى ، ومن الرواة ما يدل سياق الرواية على أن الامامة كانت وهو يعرج الى السموات العلا .

---

(١) البداية والنهاية جـ ٣ والتفسير لابن كثير أول سورة الاسراء

واختار ابن كثير في تاريخه أن امامته للانبياء كانت بعد أن نزل من العروج ، ويقول في ذلك :

« وهبط رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم الى بيت المقدس ، والظاهر أن الانبياء هبطوا معه تكريما له وتعظيما ، عند رجوعه من الحضرة الالهية العظيمة ، كما هي عادة الوافدين ، لا يجتمعون بأحد قبل الذين طلبوه اليه ، ولهذا كان كلما سأل على واحد منهم يقول له جبريل : هذا فلان فسلم عليه ، فلو كان قد اجتمع بهم قبل صعوده ما احتاج الى تعرفه بهم مرة ثانية ، ومما يدل على ذلك أنه قال عليه الصلاة والسلام « فلما حانت الصلاة أممتهم ، ولم يجىء وقت اذ ذاك الا صلاة الفجر ، فتقدمهم اماما بهم عن أمر جبريل فيما يرويه عن ربه عز وجل » (١) .

وان هذا الكلام يدل على أن امامة النبي صلى الله تعالى عليه وسلم للانبياء كانت بعد أن تنزل من الافق الاعلى ، وان المعراج كما انتهينا كان بالروح ، وكانا رؤيا صادقة .

هذه قصة الاسراء والمعراج ، كما نص عليها في القرآن ، وكما جاءت بها السنة الصحيحة ، وقد ذكرناها بشيء من الاطناب ، لكثرة الكلام حولها ، ولاختلاف الروايات ، فكان لابد من أن نصفي القول فيها . وخصوصا أنها وانشقاق القمر أعظم خوارق العادات الحسية التي كانت في حياة النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ومع ذلك لم يتحد بها كما تحدى بالقرآن الكريم لان النبي صلى الله تعالى عليه وسلم انما تحدى بما يتناسب خلود شريعته ، ودوام رسالته وهو ما يبقى مخاطبا الاجيال كلها الى يوم الدين ، وهو القرآن الكريم .

---

(١) البداية والنهاية جـ ٣ ص ١٣

انتشار الإسلام في البلاد العربية

٣٠٧ ـ اختار الله سبحانه وتعالى أن تكون مكة مهبط الوحي ، ومنزل الدعوة الاسلامية الاولى ، لانها مطمع أنظار العرب ، ولانها مثابة الناس وأمنهم ، فهي تعد مصدر المعرفة العربية على قدر ما عند العرب ، وبها حج بيت الله الحرام ، وبها ملتقى العرب في موسمه ، وبها أسواق الادب ، والمتاع ، ففي موسم الحج يلتقي العرب من كل فج عميق ، وفي الاسواق التي تقام في الموسم يتبارى الشعراء والخطباء في عكاظ ، وذي مجاز ومجنة ٠

واذا كانت مكة لها تلك المكانة في بلاد العرب ، فان كل ما يكون فيها من أحداث تنتقل أخباره الى بلاد العرب فاذا كانت الاحداث منها ، رسالة رسول يدعو الى هدم الاوثان وعبادة الله سبحانه وتعالى وحده ، فانه لابد أن يسير بخبرها الركبان ٠

ومن العرب من لا يعيرها اهتماما ،ومنهم من يلتفت اليها ، ويهتم لها ، معاندا مع المعاندين أو طالبا للحق ،فيبتغيه ٠

وكذلك كان الامر ، فان أخبار النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ودعوته الى الحق،والى صراط مستقيم كانت تتجاوب أصداؤها في البلاد العربية ، ومن العرب من كان يجيء الى مكة متعرفا أمر ذلك الرسول الكريم ، ومنهم من يرسل اليه من يتعرف دعوته ، ويدرسها، كما فعل أكثم بن صيفي حكيم العرب، اذ أرسل بنيه الى النبي صلى الله تعالى عليه وسلم يتعرف ما يدعو اليه ، فلما حضروا وسألوا النبي صلى الله عليه وسلم : تلا عليهم قوله تعالى :

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْىِ ۚ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ۝٩٠ ﴾ (١)

---

(١) النحل

فلما بلغه ما تلا عليهم الرسول صلى الله تعالى عليه وسلم • قال : انه ان لم يكن دينا فهو خلق الناس وأمر حسن ،يابني كونوا في هذا الامر أولا ، ولا تكونوا آخرا •

وقد أسلم سيدنا أبو ذر الغفاري بهذا العلم العام الذي شهرت به دعوة محمد صلى الله تعالى عليه وسلم •

وكذلك أسلم على هذا النحو الطفيل بن عمرو ، فقد أسلم اذ جاءه الخبر بدعوة النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ،وكان رجلا شريفا شاكرا ، وقد حضر الى مكة ليتعرف خبره وما يدعو اليه ،ولنتركه يقص علينا قصة ايمانه ، اذ يحدث أنه قدم مكة ، فمشي اليه رجال من قريش فقالوا : يا طفيل انك قدمت بلادنا ، وهذا الرجل بين أظهرنا قد أعضل بنا (أي ظلمنا) وقد فرق جماعتنا وشتت أمرنا ، وانما قوله سحر، يفرق بين الرجل وبين بنيه ، وبين الرجل وبين أخيه ، وبين الرجل وبين زوجه ، وانما يخشى عليك وعلى قومك ما قد دخل علينا ، فلا تكلمنه ولا تسمعن منه شيئا •

ويقول طفيل : « فوالله ما زالوا حتى أجمعت ألا أسمع منه شيئاً ولا أكلمه حتى حشوت في أذني حين غدوت الى المسجد كرسفا خوفا من أن يبلغني شيء من قوله ، وأنا لا أريد أن أسمعه ،فغدوت الى المسجد ، فاذا رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم قائم يصلي عند الكعبة ، فقمت منه قريبا ، فأبى الله تعالى الا أن يسمعني بعض قوله،فسمعت كلاما حسنا ، فقلت في نفسي : واثكل أمي ، والله انى لرجل لبيب شاعر ،ما يخفى عليّ الحسن من القبيح ، فما يمنعني أن أسمع من هذا الرجل ما يقول ، فان كان الذي يأتي به حسنا قبلته ، وان كان قبيحا تركته •

لما انصرف النبي من صلاته الى بيته تبعه الطفيل ، وقد مال الى الاسلام فدخل على النبي وقال له :

« يا محمد ، ان قومك قد قالوا كذاوكذا ، فوالله ما برحوا يخوفونني أمرك حتى سددت أذني بكرسف لئلا أسمع قولك ، ثم أبى الله تعالى الا أن يسمعني قولك ، فسمعته قولا حسنا فأعرض علي أمرك • قال فعرض علي رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، وتلا علي القرآن ، فوالله ما سمعت قولا قط أحسن

مته ، ولا أمرا أعـدل منه ، فأسلمت وشهدت شهادة الحق ، وقلت يا رسـول الله : اني امرؤ مطاع في قومي ، وأنا راجع اليهم داعيهم الى الاسلام ، فادع الله أن يجعل لي آية تكون لي عونا عليهم فيما أدعوهم اليه •

عاد طفيل الى قومه يدعوهم الى الاسلام الذي انبعث نوره من مكة المكرمة ، وزاد الله البيت الحـرام تكـريما وتعظيما •

وفد نصـارى نجـران :

٣٠٨ ـ وممن أسلموا عندما علموا دعوة النبي صلى الله تعالى عليه وسلم بنجران عشرون رجلا ، أو قريب من ذلك من النصـارى ، عندما بلغهم أمر الرسول صلى الله تعالى عليه وسلم من الحبشة ، ولنترك الكلمة لابن اسحـاق فهو يقول :

قدم على رسول الله صلى الله تعـالى عليه وسلم ، وهو بمكة عشرون رجلا أو قريب من ذلك من النصـارى حين بلغهم خبره من الحبشة ، فوجـدوه في المسجد فجلسوا اليه وكلموه وسألوه ، ورجال من قريش في أنديتهم حـول الكعبة • فلما فرغوا من مساءلة رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم عما أرادوا دعاهم رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم الى الله عز وجل ، وتـلا عليهم القرآن ، فلما سمعوا القـرآن فاضت أعينهم من الدمع ، ثم استجـابوا لله وآمنوا به وصدقوه ، وعرفوا منه ما كان يوصف لهم في كتابهم من أمره •

ولما قاموا عنه مؤمنين اعترضهم أبو جهل في نفر من قـريش فقالوا قولا مفترى ، قالوا لهم : خيبكم الله من ركب ، بعثكم من وراءكم من أهل دينكم ترتدون لهم لتأتوهم بخبر الرجل ، فلم تطمئن مجالسكم عنده ، حتى فارقتم دينكـم ، وصدقتموه فيما قال ، ما نعلم ركبـا أحمق منكم ، أو كما قالوا « فقـالوا لهم سلام عليكم لانجاهلكم ، لنا ما نحن عليه ، ولـكم ما أنتم عليه ، لم نأل نفسنا خيرا » •

وقد ذكر الله سبحانه وتعالى خبر هؤلاء في القرآن مبينا له بالاشـارة في

وصف عام لبعض أهل الكتاب ،فقال تعالى :

﴿ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِهِۦ هُم بِهِۦ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾ وَإِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ قَالُوٓا۟
ءَامَنَّا بِهِۦٓ إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّنَآ إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِۦ مُسْلِمِينَ ﴿٥٣﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ
بِمَا صَبَرُوا۟ وَيَدْرَءُونَ بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٥٤﴾ * وَإِذَا سَمِعُوا۟ ٱللَّغْوَ
أَعْرَضُوا۟ عَنْهُ وَقَالُوا۟ لَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِى ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٥٥﴾ إِنَّكَ
لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ ۚ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴿٥٦﴾ ﴾ (١)

وقد رجح الاكثرون أن هذه الآيات نزلت في نصارى نجران الذين ذكرنا لك الخبر عنهم ، ولم تكن الآيات في النجاشي وأتباعه ، ويقول ابن اسحاق ان الذى نزل في النجاشي وأصحابه من النصارى هو ما جاء في سورة المائدة ، اذ يقول الله سبحانه وتعالى :

﴿ وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّا نَصَٰرَىٰ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا
وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٨٢﴾ * وَإِذَا سَمِعُوا۟ مَآ أُنزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ تَرَىٰٓ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ مِمَّا
عَرَفُوا۟ مِنَ ٱلْحَقِّ ۖ يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٨٣﴾ وَمَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَمَا
جَآءَنَا مِنَ ٱلْحَقِّ وَنَطْمَعُ أَن يُدْخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٤﴾ فَأَثَٰبَهُمُ ٱللَّهُ بِمَا قَالُوا۟
جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٨٥﴾ ﴾ (٢)

(١) القصص (٢) المائدة

عرض الرسول نفسه على القبائل

٣٠٩ ــ يئس الرسول صلى الله تعالى عليه وسلم من أن يؤمن قومه في هذا الوقت ، ورحمة الله تعالى قد تحملهم على الايمان ، ولكن بعد أدوار من الزمان والاحوال ، فاذا كان قد يئس من ايمانهم في ذلك الايمان ، فهو لم ييأس من ايمانهم بعد تعاقب الاحداث ، لان الله تعالى لم يقل له ، كما قال لنوح عليه السلام :

﴿ وَأُوحِيَ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُۥ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ ءَامَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾ ﴾ (١)

واذا كان محمد صلى الله تعالى عليه وسلم لم يجد من قومه الا الاذى في هذه الجولة ، فانه وجد في بعض الذين يفدون الى الحج ، أو يفدون اليه ، من يجد قول الحق الى قلوبهم سبيلا ، وقد رأينا كيف كان نور الاسلام ينبعث خارج مكة فيجيء آحاد من القبائل العربية ، ويستمعون القرآن ، وهم ممن يستمعون القول ، فيتبعون أحسنه ، فاذا تلي عليهم القرآن خروا لله ساجدين ، ثم يدعون من بعد أقوامهم .

وقد رأى النبي صلى الله تعالى عليه وسلم أن يتقدم الى القبائل في موسم الحج يدعوهم في منازلهم التي ينزلونها في منى يذهب اليهم ، قبيلة قبيلة ، يدعوهم الى الحق ، ويتلو عليهم القرآن ، وقد أحست قريش بذلك ، فانبرى الذين يلجون في عداوة الحق ليصدوا عن سبيل الله ، وعلى رأسهم أبو جهل ، وأبو لهب ، فكانا يتحريان أن يتبعاها ، واذ يدعو النبي صلى الله تعالى عليه وسلم الى الله تعالى بقوله : « يا أيها الناس قولوا لا اله الا الله تفلحوا » .

يتصدى أبو جهل أو أبو لهب ، وهما يتناوبان ، فيقول : « يابني فلان ، ان هذا انما يدعوكم الى أن تسلخوا اللات والعزى من أعناقكم ، الى ما جاء من البدعة والضلالة ، فلا تطيعوه ، ولا تسمعوا منه » .

---

(١) هود

وهكذا كانت الدعوة المحمدية تأخذ طريقها ، والذين يصدون عن سبيل الله يدعثرونها ، ولكن نور الحق لا تطفئه الضلالة ، ولا تعمى عنه الابصار ، والنبي صلى الله تعالى عليه وسلم دائب على الدعوة ، اتبعوه أو فارقوه ، وربما وجد غفلة عن أتباعه ، فانتهزها ، ومهما يكن مقدار الاستجابة ، فان اعلام الناس بعقيدة التوحيد ينبه الاذهان الى التفكير في الاوثان ، ومجرد التفكير فيها يحبطها .

ولقد روي عن ابن شهاب الزهري أنه قال : « كان رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم يعرض نفسه على قبائل العرب في كل موسم ، ويخاطب ، أشرافهم ، ويكلم كل شريف قوم ، لا يسألهم مع ذلك الا أن يؤووه ويمنعوه ، ويقول « لا أكره أحدا على شيء من رضي منكم بالذي أدعوا اليه ، فذلك ، ومن كره ، لم أكرهه ، انما أريد أن تحرزوني (أي تمنعوني) فيما يراد لي من القتل ، حتى أبلغ رسالة ربي ، وحتى يقضي الله تعالى لي ، ولمن صحبني بما شاء » .

ونرى من هذا أن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم يدعوهم بالحكمة ، فهو يأتيهم من قبل ما شهر عن العرب بحبهم للنجدة ، ولا يأتيهم ابتداء بمحاربة تدينهم ، كما قال الله تعالى :

﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ ۖ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴿١٢٥﴾ ﴾ (١)

وكان أكثر الجماعات لا يحبون دعوة الحق ، ومنهم من يحسن الرد ، ومنهم من كان يقول : الحق بقومك ولكن بعض الآحاد كانت تصغي أفئدتهم ، وان لم يستطع الكثيرون أن يخرجوا من ربقة ما هم عليه دفعة واحدة .

جماعات تقبل دعوة الرسول صلى الله عليه وسلم :

٣١٠ ـ ومع الصدود من الجماعات ، والصد من بعض الآحاد ، والميل من آخر ، كان النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ماشيا في الاتجاه الى القبائل في موسم

---

(١) النحل

الحج ، وهو يتوسم الناس ، ويتعرف الوجوه والاشراف ومعه أبو بكر الصديق ، وهو من أعلم الناس بأحوال العرب .

وكان بجوار القبائل التي أعرضت ،كانت جماعات قد أقبلت على الاستماع ، وبدت منها الاستجابة ، حتى كانت قبيلتا الاوس والخزرج ، على ما سنبين، ولنذكر لك خبرا عن بعض الجماعات التي مالت ابتداء ، قبل اللقاء : بأهل يثرب ، وسنجد في كلامهم مجاوبة تدل على قدرتهم على المتعة ، وقوة تفكيرهم .

روى أبو نعيم أن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم صحب في احدى مرات عرضه نفسه الكريمة على القبائل علي بن أبي طالب وأبا بكر رضي الله تعالى عنهما ، وكان بين أبي بكر ، وبين قبيلة من شيبان بن ثعلبة صلة ومودة ثم جرى بينهم وبين النبي صلى الله تعالى عليه وسلم حديث طويل :

قال أبو بكر مخاطبا القوم : ممن القوم : قالوا من بني شيبان بن ثعلبة .

فالتفت الى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم وقال بأبي أنت وأمي ليس بعد هؤلاء من عز في قومهم ، وهؤلاء غرر في قومهم ، وغرر الناس ، وكان في القوم مفروق بن عمرو ، وهانيء بن قبيصة ، والمثنى بن حارثة ،والنعمان بن شريك ، وكان أقرب الناس الى أبي بكر مجلسا مفروق بن عمرو وكان قد غلب عليهم بيانا ولسانا فقال له أبو بكر كيف العدد فيكم .

فقال له مفروق بن عمرو ، انا لنزيد على ألف ، ولن نغلب من قلة .

فقال له أبو بكر : فكيف المنعة فيكم .

فقال مفروق : علينا الجهد ، ولكل قوم جد .

فقال أبو بكر : فكيف الحرب بينكم وبين عدوكم .

فقال مفروق : انا أشد ما نكون لقاء حين نغضب ، وانا لنؤثر الجياد على الاولاد ، والسلاح على اللقاح ، والنصر من عند الله يديلنا مرة ويديل علينا ، لعلك أخو قريش (أي النبي) مخاطبا له .

فقال أبو بكر ان كان قد بلغكم أنه رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم فهاهو ذا .

فقال مفروق بلغنا أنه يقول ذلك ،ثم التفت الى رسول الله صلى لله تعالى عليه وسلم ، فجلس ، وقام أبو بكر يظله بثوبه • فقال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم •

أدعوكم الى شهادة أن لا اله الا الله وحده لا شريك له ، وأني رسول الله وأن تؤووني وتنصروني حتى أؤدي في الله تعالى الذي أمرني به ، فان قريشا تظاهرت على أمر الله ، وكذبت رسوله ،واستغنت بالباطل عن الحق ، والله هو الغني الحميد •

فقال مفروق : والى ما تدعو أيضا ياأخا قريش •

فتلا رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم قوله تعالى :

﴿ قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُم مِّنْ إِمْلَاقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (١٥١) ﴾ (١)

فقال مفروق : والى من تدعو أيضا ياأخا قريش ؟ فوالله ما هذا من كلام أهل الارض ، ولو كان كلامهم لعرفناه •

فتلا رسول الله صلى الله عليه وسلم :

﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ (٩٠) ﴾ (٢)

فقال مفروق : دعوت والله يا أخا قريش الى مكارم الاخلاق ، ومحاسن الاعمال ، ولقد أساء قوم كذبوك ،وظاهروا عليك وكأنه أحب أن يشركه في الكلام هانيء بن قبيصة ، فقال :وهذا هانيء بن قبيصة شيخنا وصاحب ديننا •

---

(١) الانعام (٢) النحل

فقال هانىء : قد سمعت مقـالتك ياأخا قريش ، وصدقت قولك ، واني أرى أن تركنا ديننا ، وأتبعناك على دينـك لمجلس جلسته الينا ٠٠ لم نتفكـر في أمرك ، وننظر في عاقبة ما تدعوا اليه ــ زلة في الرأي ، وطيشة في العقل وقلة نظر في العاقبة ، وانما تكون الذلة في العجلة ، وان من ورائنا قوما نكره ، أن نعقد عليهم عقدا ، ولكن نرجع وترجع، وننظر وتنظر ، وكأنه أحب أن يشركه في الكلام المثنى بن حارثة ، فقال : وهذا المثنى شيخنا وصاحب حربنا ٠

فقال المثنى : قد سمعت مقـالتك ،واستحسنت قـولك يا أخا قـريش ، وأعجبني ما تكلمت به ، والجواب هـوجواب هانىء بن قبيصـة وتركنا ديننا واتباعنا اياك لمجلس جلسته الينا ، وانانما نزلنا بين حيزين: أحدهما اليمامة، والآخر السماوة ٠

فقال رسول الله صلى الله تعالى عليـهوسلم ، وما هذان الحيزان ٠

فقال له المثنى : أما أحدهما فطفوف للبر ، وأرض العرب ، وأما الآخـر فأرض فارس وأنهار كسرى ، وانمـانزلنا على عهد أخـذه علينا كسرى : لا تحدث صوتا ولا تؤوي محدثا ،ولعل الامر الذي تدعونا اليه مما يكرهـه الملوك ٠ فأما ما كان مما يلي العرب ،فذنب صاحبه ، مغفور ، وعذره مقبول، وأما ما كان يلي بـلاد فارس ، فذنب صاحبه غير مغفور ، وعذره غير مقبول ، فان أردت أن تنصرف ونمنعك مما يلي العرب فعلنا ٠

فقال رسول الله صلى الله تعالى عليهوسلم : ما أسـأتم الرد ، اذ أفصحتم بالصدق ، انه لا يقوم بدين الله الا من حاطه من جميع جوانبه ٠

ثم قال رسول الله صلى الله تعالى عليهوسلم : مخاطبا لهم : « أرأيتم ، ان لم تلبثوا ، الا يسيرا ، حتى يمنحكـم الله بلادهم وأموالهم ، ويغريكـم بنابهـم أتسبحون الله وتقدسونه ؟

فقال النعمان بن شريك : « اللهم انذلك لك يا أخا قريش » ٠

فتلا رسول الله صلى الله تعالى عليـهوسلم :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ شَٰهِدٗا وَمُبَشِّرٗا وَنَذِيرٗا ﴿٤٥﴾ وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذۡنِهِۦ وَسِرَاجٗا مُّنِيرٗا ﴿٤٦﴾ ﴾ (١)

---

(١) الأحزاب

ثم نهض رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم قابضا على يدي أبي بكر ٠

ويقول ابن كثير في البداية والنهاية بعد أن ساق الخبر ، هذا حديث غريب جدا ، كتبناه لما فيه من دلائل النبوة ، ومحاسن الاخلاق ومكارم الشيم ، وفصاحة العرب (١) ٠

وفي الخبر أن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم تنبأ لهم أنهم سينتصرون على فارس قريبا ، وقد انتصروا فعلا ، وأعلن ذلك النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، فقد قال لاصحابه : « احمدوا الله كثيرا ، فقد ظفر أبناء ربيعة بأهل فارس » وان هذا الخبر الطويل يدل على أمور :

(أ) منها أن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم كان دائبا على بث الدعوة بين القبائل في موسم الحج ، سواء أكانوا من القبائل المتاخمة لفارس ، أم المتاخمة للروم في الشام ، وأنه كان يلقى تأييدا على حسب البعد ٠

(ب) ومنها ـ أنه كما كان يلقى صدودا ، كان يلقى أيضا حسن تفهم ، وان كان ثمة تمرد ، ومنشؤه أنهم لا يريدون أن يتركوا ما هم عليه ليغيروا بمجرد مجلس ٠

ومنها ـ أن المنافسة ، وحب السيطرة بالشرف هي التي أضلت قريشا وحيث لا تكون منافسة يكون التدبر والتفكر ٠

ومنها تنبؤ النبي صلى الله تعالى عليه وسلم بما يكون باذن الله تعالى وعلمه ٠

ما بين الروم والفرس :

٣٤١ ـ ولمناسبة ما تنبأ به النبي صلى الله تعالى عليه وسلم من هزيمة الفرس في جوار البلاد العربية ، ووقوع الامر كالنبأ ، تذكر تنبأ القرآن الكريم المنزل من رب العالمين من غلبة الفرس للروم ، وأن الفرس سيغلبون من بعد

---

(١) البداية والنهاية لابن كثير جـ ٣ ص ١٤٤ ، ١٤٥

في قوله تعالى :

﴿ الٓمٓ ۝ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ۝ فِيٓ أَدْنَى ٱلْأَرْضِ وَهُم مِّنۢ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ ۝ فِي بِضْعِ سِنِينَ لِلَّهِ ٱلْأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِنۢ بَعْدُ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۝ بِنَصْرِ ٱللَّهِ يَنصُرُ مَن يَشَآءُ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ۝ ﴾ (١)

ولقد ذكر علماء السيرة والمؤرخون أن كسرى قاد الفرس الى قتال الروم ، فانتصروا عليهم ، وهم من عبدة النار ،فهم كعبدة الأوثان ، ويصدران عن ضلال واحد ، فكان المشركون يعتزون بهذا النصر ، أنهم لا محالة سينتصرون على المسلمين ، لانهم أميون ، وليسوا أهل كتاب ، والمسلمون أهل كتاب ، والنصارى أهل كتاب فكانت المفاخرة ممن يقاربونهم ، ويستطيلون بهم للايهام بأنهم سينتصرون على المسلمين ،فنزل قوله تعالى : « ألم غلبت الروم في أدنى الأرض » ، وهم محمد بعد غلبهم٠٠ الى آخر الآيات الكريمات » ٠

وقد قال بعض المشركين ان الروم لن يغلبوا ، وقال له أبو بكر الصديق سيغلبون في بضع سنين فتراهنا على عدد من الابل ، في تسع سنين ، ان انتصر الروم فيها خسر الشرك الرهان ، وان لم ينتصر الروم فيما كان أبو بكر عليه أن يدفع ما تراهنا عليه ٠

وقد انتصر الروم في هذه المدة ،فكان الرهان لابي بكر ، ويظهر أن ذلك النصر كان بعد أن هاجر النبي صلى الله تعالى عليه وسلم الى المدينة ٠

والحافظ ابن كثير يذكر في هذه ذلك الخبر ، فيقول :

« المشهور أن كسرى غزاه (أى هرقل) بنفسه في بلاده ، فنهره ، وكسره، حتى لم يبق معه (أي هرقل الا مدينة القسطنطينية ، فحاصرها كسرى مدة طويلة ، حتى ضاقت عليه ٠٠ ولم يقدر على فتح البلد ٠ لحصانتها ، لان نصفها من ناحية البر ونصفها الآخر من ناحية البحر ، فكانت تأتيهم أي الروم الميرة من هنالك ٠٠ فلما طال الامر ، دبر قيصر مكيدة فطلب من كسرى أن يقلع من بلاده ، على مال يصالحه عليه ،ويشترط ما شاء فأجابه الى ذلك وطلب

(١) الروم

منه أموالا عظيمة لا يقدر عليها أحد من ملوك الدنيا ، من ذهب ، وجواهر ، وأقمشة ، وجوار ، وخدام ، وأصناف كثيرة ، فطاوعه قيصر ، ووهمه أن عنده جميع ما طلب ، وسأل كسرى أن يمكنه من الخروج الى بلاد الشام ، وأقاليم مملكته ، ليسعى في تحصيل ذلك من ذخائره وحواصله .

فخرج من القسطنطينية في جيش متوسط ،وكسرى مخيم على القسطنطينية ينتظره ليرجع ، فذهب قيصر من فوره وسار مسرعا ، حتى انتهى الى بلاد فارس فعاث فيها فسادا وقتلا في رجالها ،ومن كان بها من المقاتلة وقد كان أكثرهم مع كسرى ، ولم يزل يقتل ،حتى انتهى الى المدائن ، وفيها كرسي مملكة كسرى ، فقتل من بها ، وأخذ جميع حواصله وأمواله ، وأسر نساءه ، وحلق رأس ولده ، وأركبه على حمار ،وبعث من الاساورة من قومه في غاية الهوان ، والذلة وكتب الى كسرى يقول: هذا ما طلبت فخذه .

أصاب العمى كسرى ، واشتد حنقه على البلد (القسطنطينية) فجد في حصارها فلم يقدر على شيء .

عاد كسرى الى بلده بعد أن حزب بمكيدة قيصر مكيدة بعد مكيدة ،وبذلك غلب الفرس في أدنى الارض كما غلبوا الروم من قبل ، ولله الامر من قبل ومن بعد (١) .

وقد ذكر ذلك الخبر في هذا المقام،لان ذكره امتداد لما انتصر به بنو شيبان على كسرى ، كما تنبأ النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، ولسنا مقحمين له في غير موضعه ، لان وقائعه كانت قبل الهجرة ، وامتدت الى ما بعدها ، ولانه ايذان بنصر الاسلام في فارس من بعد .

ولنعد بعد ذلك الى التقاء النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، وما كان قبل الهجرة من تمهيد لها .

---

(١) تفسير ابن كثير جـ ٣ ص ٤٢٤ ، ٤٢٥ .

عرض الإسلام على القبائل

٣١٢ ـ أخذ النبي صلى الله تعالى عليه وسلم يعرض نفسه على القبائل كما أسلفنا من القول ، وما علم في موسم الحج أن ملأ من قبيل قد جاء الى مكة الا عرض عليه الدعوة الاسلامية الى التوحيد ، والايمان بالله ، وبأنه صلى الله تعالى عليه وسلم ما علم بوجود كبير في قومه يقول فيتبع الا عرض الاسلام عليه .

وقد التقى بكثيرين من شمال البلاد العربية وجنوبها ممن جاوروا الروم ، وممن جاوروا الفرس، وعقب أن لقي من ربيعة التي تجاور فارس من رأى فيهم من أشراف العرب من كان فيهم نخوة ، ومعرفة وادراك للواجب التقى ببعض رجال من يثرب ، التقى أولا بجماعات منهم ، ثم كان الاتفاق على التأييد والنصرة بعد الاتباع على الايمان ، وهدى من الله .

وكانت يثرب بأحوالها ، وما فيها الارض التى تقبل الدعوة المحمدية ، ذلك لان أهلها كان اليهود يحاربونهم ولم يكونوا معهم على وفاق ، كشأن اليهود ، حيثما كانوا ، وأينما ثقفوا ، وكان أهل المدينة وثنيين ، واليهود أهل كتاب ، فكانوا يذكرون لهم أنه الآن نبي مبعوث بنصر اليهود على الوثنيين ، وكما قال الله تعالى :

﴿ وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَٰبٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا۟ مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُوا۟ كَفَرُوا۟ بِهِۦ ۚ فَلَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٨٩﴾ ﴾ (١)

وبذلك كانت بين أيديهم معرفة النبوة ، وادراك للبعثة المحمدية .

وفوق ذلك كان أهل يثرب ينتمون الى قبيلة الاوس والخزرج ، وكان الخلاف بينهم شديدا وكانوا يتقاتلون ، وربماكان خلافهم بعمل يهودي ، كشأنهم في

---

(١) البقرة

تفريق الجماعات ، والقاء بذور الفتن في أي مجتمع يعيشون في ظله . فكان التنافر بين الأوس والخزرج قبيلتي يثرب مستمرة ، والحرب تقع من وقت لآخر ، وفيهم من يهم بالاستنصار بقريش على الآخرين ، فكانوا في حاجة أو نصرة من الخارج ، ولتوالي التناحر ،وكانوا يرحبون بمن يؤلف بينهم ، فكان محمد صلى الله تعالى عليه وسلم هو الجامع بينهم ، والله تعالى المؤلف بين قلوبهم ، كما قال تعالى :

﴿ وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنْتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٠٣﴾ ﴾ (١)

ابتداء الاتصال بأهل يثرب :

٣١٣ ـ ابتدأ الاتصال بأهل يثرب من الاوس والخزرج بالآحاد ، ثم سار في طريق النمو ، حتى صار الاتصال بالجماعات ، ثم كانت البيعة ، وتكررت مرتين .

يروي ابن اسحاق أنه قدم سويد بن الصامت وهو من بني عوف مكة حاجا ، وكان رجلا شريفا ، ونسبه رفيعا يسمى في قومه الكامل لجلده ، وشرفه ، وكان شاعرا وله صوت مسموع في قومه .

فتصدى له النبي صلى الله تعالى عليه وسلم حين سمع به ، فالتقى به ودعاه الى الاسلام . فكانت بينهما مجاوبة لانه لم يكن أعرابيا ليس على علم ، بل كان على علم يمهد له العلم بالنبوءات .

دعاه النبي صلى الله تعالى عليه وسلم، فقال سويد : فلعل الذي معك مثل الذي معي . فقال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم : وما الذي معك ؟ قال مجلة لقمان ـ يعني حكمة لقمان ـ فقال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم :

---

(١) آل عمران

اعرضها عليّ ، فعرضها عليه ، فقال النبي صلى الله تعالى عليه وسلم : « ان هذا الكلام حسن : والذي معي أفضل منه ، هذا قرآن أنزله الله تعالى علي هدى ونور » ثم تلا صلى الله تعالى عليه وسلم القرآن ، ودعاه الى الاسلام ، فلم يبعد منه وقال : ان هذا القول حسن ، ثم انصرف عنه الى المدينة ، وقدم على قومه فلم يلبث أن قتله الخزرج . وكان قتله قبل واقعة بعاث التي كانت بين الاوس والخزرج .

ولقد كان رجال من قومه يقولون انا لنراه قتل مسلما ، وان مقدمات الاسلام كانت منه في لقائه بالنبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، اذ قال في القرآن: « ان هذا القول حسن » وهذا يدل على أن قلبه قد فتح للايمان ، وان كان وصف القرآن أعلى من ذلك ، ولقد جاء من بعد ذلك جماعات من الاوس على رأسهم أنس بن رافع ، يلتمسون الحلف من قريش على قومهم من الخزرج ، أي ليعقدوا حلفا مع قريش لينصروهم من الخزرج .

سمع بهم رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم فأتاهم ، فجلس اليهم ، فقال : هل لكم في خير مما جئتم له ؟ قالوا : وما ذاك ؟ فقال لهم : « أنا رسول الله تعالى الى العباد ، أدعوهم الى أن يعبدوا الله ، ولا يشركوا به شيئا ، وأنزل علي الكتاب » ثم ذكر لهم الاسلام ، وتلا عليهم القرآن .

وكان فيهم شاب حدث مدرك وهو اياس بن معاذ ، فقال لهم : يا قوم هذا والله خير مما جئتم له . فنهره رئيس الجماعة وقال له : دعنا عنك ، فلعمري لقد جئنا لغير هذا . فصمت اياس بن معاذ ، وعادوا الى المدينة ، ثم مات اياس ، وقد قال من حضر موته من قومه انهم لم يزالوا يسمعونه يهلل الله ويكبره ويسبحه ويحمده ، فما كانوا يشكون في أنه مات مسلما ، وان الله تعالى قد أنار بصيرته ، وأعطاه الله نفسا طيبة تدرك الحق عند أول سماعه ، وتؤمن به اذ خلصت لله تعالى :

يوم بُعاث :

٣١٤ ـ بعاث موضع بالمدينة ، تقاتل فيه الأوس والخزرج ، وكانت بينهم مقتلة عظيمة ، قتل فيها خلق كثير من أشراف الأوس والخزرج ، وكبرائهم ، ولم يبق كما يقول ابن كثير من شيوخهم الا القليل ، فعضتهم الحرب عضا شديدا

بنابها ، وكان ذلك غب عودة الأوس من مكة ، وعرض النبي صلى الله تعالى عليه وسلم نفسه عليهم ، واجابه شاب منهم ،ونفره رئيس الوفد ٠

وان الشدة في كثير من الاحيان توجد في القلب نورا ، وكأن الاحياء في تناحرهم يحدث من التحامهم نور يضيءكالنور الذي يحدث من احتكاك شيئين أحدهما موجب والآخر سالب ٠

فقد كانت واقعة بعاث هذه بعد دعوة النبي صلى الله تعالى عليه وسلم داعية أهل يثرب للتفكير فيما جاء به عليـــه السلام ، وعندهم معرفة عارضة بمبعثه صلى الله تعالى عليه وسلم،فانه كان ابتداء لدخول الناس من يثرب فيه جماعات، بعد أن كانوا يدخلون آحادا ٠

وقد روى البخاري في صحيحه بسنده عن عائشة أم المؤمنين رضي الله تعالى عنها ، أنها قالت : « كان يوم بعـــاث يوما قدمه الله تعالى لرسوله ٠ قدم رسول الله تعالى عليه وسلم الى المدينة ، وقدافترق ملؤهم ، وقتل سراتهم ٠

لقد اكتووا بنار الحرب ، ومن اكتوى بها ،طلب برد السلام والاطمئنان ، وفتح قلبه لنعمة الله تعالى ٠

بدء إسلام الأنصار

٣١٥ ـ قلنا ان دخول الاسلام يثرب بالآحاد ، يدخلون فيه فرادى ثم جاء من بعد ذلك من يدخلون في دين الله تعالى أفواجا أفواجا ٠

وان أولئك الآحاد كانوا يذكرون نعمة الاسلام في عشائرهم ،فيستأنسون به ، ولم تكن لهم بأسرة النبي عداوة ،حجبتها المنافسة ، أو الحسد ، أو آثارها الحقد على بيته الكريم صلى الله تعالى عليه وسلم ، فوجدت بينهم معرفة الحق، وموجبات أتباعه ، من غير أن تكون المواقع التي تصد عن سبيل الله تعالى ، والتي تغلف القلوب بغلاف من العداوة والبغضاء ، فتمنع نور الحق من أن يدخل اليها ، فينيرها ٠

في الموسم الذي كان عقب بعاث والنبي يعرض الاسلام على القبائل بمنى، يذهب الى منازلهم بها ، في هذا الموسم التقى برهط من الخزرج ، قال ابن اسحاق في سيرته : فقال لهم من أنتم ٠ قالوا نفر من الخزرج ٠ قال أمن موالي يهود ؟ قالوا لا قال أفلا تجلسون أكلمكم؟ قالوا بلى ، فجلسوا فدعاهم الى الله تعالى، وعرض عليهم الاسلام ، وتلا عليهم ،القرآن ، وكان مما صنع الله تعالى بهم في الاسلام أن يهود كانت معهم في بلادهم ، وكانوا أهل كتاب وعلم ، وكانوا هم أهل شرك أصحاب أوثان ،وكانوا غزوهم ببلادهم فكانوا اذا كان بينهم شيء قالوا ان نبينا مبعوثا الآن ،قد أظل زمانه ، نتبعه ، فنقتلكم مثل قتل عاد ، وارم وكان عندهم علم بذلك كما قرر القرآن الكريم ٠

وان النفر الذين جاؤوا من قبل ، وذاقوا بشاشة الاسلام ، قد أوجدوا بينهم الفكرة الاسلامية ، فلما كلم النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ذلك الرهط ودعاهم الى الله ، تذاكروا فيما بينهم كلام اليهود ٠

قال بعضهم لبعض : « يا قوم تعلمون والله أنه النبي الذي توعدكم به يهود فلا يسبقنكم اليه » ٠

لذلك أجابوا رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم فيما دعاهم اليه ، وصدقوا به ، وأرادوا أن يسود الاسلام بينهم ،وأن يستبن الحق قومهم ، وأن يكـون الاسلام طريق الخير لهم ، فقالوا للنبي صلى الله تعالى عليه وسلم ·

« انا تركنا قومنا ، ولا قوم ، بينهم من العداوة والشر ما بينهم ، لعـل أن يجمعهم الله تعالى عليك ، فلا رجـل أعزمنك ، وهكذا أجابوا داعي الله ، وقد ذكرت كتب السيرة أسماء هـذا الرهط من الخزرج » (١) ·

واختلفت الروايات أكانوا ستة أم كانوا ثمانية ، وكلهم من الخـــزرج ، ولكن من الروايات ما ذكر فيها أنه كان من الاوس أبو الهيثم ·

ومهما يكن ، فقد كان أولئك وفد الخير والحق ، والصدق ، فما ان انصرفوا عائدين الى يثرب ، حتى أخذوا يذكرون رسول الله صلى الله تعالى عليـــه وسلم ويدعون بدعوته ، حتى عمت وفشت ،وتذاكر بها أهـل يثرب ، ومنهـــم من استجاب لدعوة الحق ، لمجرد ذكرها ،ولم يطلبوا برهانا ، لانها دعـــوة الى التوحيد ، وهي في ذاتها صادقة ، وكانوا يعلمون بهـــا ، اذ يؤمنون بأن الله تعالى خالق السموات والارض وحده ،وما كانوا جاهلين بالله تعالى بل كان فيهم بقية من ملة ابراهيم ، واليهود بينهـم يذكرون لهم أن رسولا في مـكة قـــد بعث ، فكانت الدعـــوة الى الله تعـالى مستجابة لا مراء فيها ·

فشا الاســـلام في المدينة ، قبل أن يقدم اليها النبي صلى الله تعالى عليـــه وسلم ، وقبل أن يرسل مبعوثا ، يعلمهم الاسلام ، ويتلو عليهم القرآن ، حتى ان ابن اسحق يقول بسنده المتصــــل ، لم يبق دار من دور الانصار الا وفيهـــا ذكر لرسول الله صلى الله تعالى عليـــه وسلم ، فعلموه جميعا ، وعلموا دعوته اجمالا ، وتهيئوا البيعة ·

---

(١) راجع هذا السياق التاريخى فى السيرة لابن هشام والبداية والنهاية لابن كثير والسهيلى وابن نعيم وصحاح السنة ·

العقبة الأولى والبيعة الأولى

٣١٦ ـ تجاوبت أصداء الدعوة المحمدية في ربوع يثرب، وتذاكروها مذاكرة من لا يتنازعون في شرف تمسه أو عصبية جاهلية ينصرونها، ولكن تجاوب من يطلبون الحق، ومن صغت أفئدتهم اليه، ومن يرجون من الاستجابة زوال الفرقة التي تقسمهم، وتجعلهم في حرب مستمر، وفوق كل ذلك يريدون أن يستعلوا بها على اليهود الذي كانوا يستفتحون عليهم بأن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم سيكون مع أهل الكتاب عليهم، فهم يسارعون اليه، لانهم يسارعون في الحق، ولا يبغون سواه ٠

فلما كان موسم الحج الذي أعقب موسم اللقاء الاول للتفاهم الذي رجوا فيه الخير والأمن والسلام في حضرة النبي صلى الله تعالى عليه وسلم في هذا الموسم جاء اثنا عشر نقيبا من الاوس والخزرج، لا لاداء الحج فقط بل لهذا، وللقاء محمد صلى الله تعالى عليه وسلم، مستجيبين له، لما قد عاقدوا العهد على لقائه، واعطائه به المواثيق، عن أنفسهم ومن وراءهم ممن بعثوهم نقباء، يتحدثون باسمهم، ويقدمون العهود والمواثيق عنهم ٠

وقد روي عن عبادة بن الصامت أنه قال: « كنت فيمن حضر العقبة الاولى، وكنا اثني عشر رجلا ليبايعنا رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم » ٠

وكان هذه البيعة بيانا للشرع الاسلامي في العلاقات الاجتماعية، والاسرية، وأخذ العهد عليهم أن يقوموا بحقها، وهي جزء من الاسلام على عقيدة التوحيد، والعبادات على أساس هذه العقيدة ٠

وقد ذكر عبادة بن الصامت نص هذه المبايعة، فقال: بايعنا رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ليلة العقبة الاولى ألا نشرك بالله شيئا، ولا نسرق ولا نزني، ولا نقتل أولادنا، ولا نأتي ببهتان نفتريه بين أيدينا وأرجلنا، ولا نعصيه في معروف، قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم: فان وفيتم فلكم

الجنة ، وان غشيتم شيئا فأخذتم بحده في الدنيا فهو كفارة له ، وان سترتم عليه الى يوم القيامة ، فأمركم الى الله تعالى ، ان شاء عذب وان شاء غفر ولقد قال الحافظ ابن كثير ، ان هذا الحديث مخرج فى الصحيحين وغيرهما من طرق عن ابن شهاب الزهري ونرى أن هذه المبايعة كانت لبيان بعض التكليفات الاسلامية التي لا اختلاف فيها ، وماكانت للايواء والنصرة ، لان النبي صلى الله تعالى عليه وسلم لم يكن قد قرر الهجرة اليهم ، ولم يكن قد جاءه الامر بذلك ، أو الايحاء به ، ولانه لا يأخذ بعهد النصرة ، قبل عهد الايمان ، فما كان عهدهم عهد جوار ولكن عهد تأييد، ومحاربة دون الاسلام ، ولا تكون الا بعد توثيق كلمة الايمان ، وحقها ٠

وقد سمى كثيرون من كتّاب السيرة هذه البيعة بيعة النساء ، وما كانت هذه التسمية فيما نحسب في وقت البيعة ، انما كانت بعد ذلك لمشابهتها لما ذكره القرآن الكريم من مبايعة النبي صلى الله تعالى عليه وسلم للنساء في أحكامها ، وان اختلف وقتها ، واختلف موضوعها، فتلك كانت مع النساء أما هذه فكانت مع الرجال ، وهي للرجال والنساء على سواء ٠ وهذا نص بيعة النساء كما جاء بها القرآن الكريم فقد قال تعالى : فى سورة الممتحنة :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُؤْمِنَٰتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَىٰٓ أَن لَّا يُشْرِكْنَ بِٱللَّهِ شَيْـًٔا وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَٰنٍ يَفْتَرِينَهُۥ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ وَلَا يَعْصِينَكَ فِى مَعْرُوفٍ فَبَايِعْهُنَّ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُنَّ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢﴾ ﴾ (١)

بيعة النساء بعد الهجرة ٠

إرسال مُصعب بن عُمير إلى المدينة :

٣١٧ ـ انصرف القوم الى يثرب تحفهم بركة الله ، ونعمة الايمان ، فبعث معهم مصعب بن عمير الذي يلتقي في النسب مع النبي صلى الله تعالى عليه وسلم

---

(١) الممتحنة

في قصي بن حكيم ، فهو كما جاء في نسبه مصعب بن عمير بن هاشم بن عبد مناف بن عبد الدار بن قصي .

وقد أرسله اليهم ، ليدعوا الى الله تعالى من لم يؤمن ، وليعلمهم ، ويفقههم في الدين ، ويقرأ عليهم القرآن .

ويذكر البيهقي بسنده عن عمرو بن قتادة أن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، انما بعث اليهم مصعبا حين كتبوا اليه أن يبعثه اليهم ، وهو الذي ذكره موسى بن عقبة (١) .

وانا نرجح أن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم هو الذي اختار لهم مصعبا ، وأنه قرر أن يبعثه اليهم ليعلمهم الاسلام ويتلو عليهم ، فما كان من المعقول أن يتركهم صاحب الرسالة ، وقد استجابوا لله وللرسول من غير أن يرسل اليهم من يعلمهم ، ولعلهم قد كتبوا الى الرسول أيضا ، فالتقت رغبتهم مع ما قرره النبي صلى الله تعالى عليه وسلم .

ذهب اليهم مصعب بن عمير ، ومعه علم الاسلام ، وعلم القرآن ، فأخذ يعلمهم مبادىء الاسلام ، وعباداته ويقرئهم القرآن ، ولذلك سمي في المدينة (المقرىء) .

وقد نزل عندما قدم المدينة عند أسعد بن زرارة .

وكان يؤم المسلمين بالمدينة فى الصلاة ، لانه أعلمهم بالقرآن وبالاسلام ، اذ جاء ليعلمهم ، فهم منه بمقام التلميذ من الاستاذ ، ولانه رسول رسول الله صاحب الرسالة ، فهو نائبه ، والنائب يستمد ممن أنابه السلطان ، ويضيف الرواة سببا آخر مستمدا من العصبية الاولى ، وهو أن الأوس كرهوا أن يؤمهم خزرجي ، والخزرج كرهوا أن يؤمهم أوسي ، فكان الوفاق على أن يؤمهم مصعب ، ونرى أن السببين الاولين كافيان ، وهما الاليق برسول رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، وروي أنه يتبادل الامامة مع مصعب ، ابن زرارة .

---

(١) البداية والنهاية لابن كثير جـ ٣ ص ١٥١

أول جمعة أقيمت بالمدينة المنورة:

٣١٨ ـ هذا عنوان أخذناه من سيرة ابن هشام ، رواه ابن اسحاق ، ونقول فيه : ان هذه البيعة والاتصال بقبائل يثرب كان بعد الاسراء والمعراج، حيث فرضت الصلوات الخمس، والجمعة قائمة مقام صلاة الظهر ، وهي احدى الخمس . وكان لابد أن تقام الجمعة في المدينة بعد أن فشا الاسلام ،وسارت في الطريق لتكون مدينة اسلامية ،يأمن فيها المسلم على نفسه وعلى دينه ، والجمعة تقوم حيث الأمن ، واستقرار الامور على الوجه الاسلامي الذي يبتغيه محمد صلى الله تعالى عليه وسلم وأصحابه .

لقد أخذ أسعد بن زرارة الذي نزل عنده مصعب بن عمير رضي الله عنهما وذهبا الى جبل هزم النبيت من حرة بني بياضة في بقيع يقال له بقيع الخضمات وكانت عدتهم يومئذ أربعين رجلا .

روى ابن اسحاق بسنده عن أبي أمامة عن عبد الرحمن بن كعب بن مالك حين ذهب بصره قال : كنت اذا خرجت به الى الجمعة ، فسمع الآذان صلى على أبي أمامة ، أسعد بن زرارة ، فمكثت حينا على ذلك لا يسمع الأذان لجمعة الا صلى عليه واستغفر له ، فقلت في نفسي ، والله ان هذا بي لعجز ، ألا أسأله ماله اذا سمع أذان الجمعة صلى على أبي أمامة أسعد بن زرارة ، فخرجت به في يوم جمعة ، كما كنت أخرج ،فلما سمع الأذان للجمعة صلى عليه ، واستغفر له ، فقلت : « يا أبت مالك اذا سمعت الجمعة صليت على أبي امامة، فقال : أي بني كان أول من جمع بنا في المدينة في هزم النبيت من حرى بني بياضة في مكان يقال له بقيع الخضمات قلت : وكم أنتم يومئذ ؟ قال أربعون رجلا » (١) .

ولم يكن عمل مصعب وأسعد بن زرارة من بني النجار مقصورا على اقامة الصلوات ، بل أخذا يدعوان الى الاسلام في يثرب .

فقد جاء في السيرة لابن اسحاق وفي البداية والنهاية لابن كثير . أنهما أخذا يدعوان الى الاسلام بني عبد الاشهل ، وبني ظفر ، وهما من أقوى

---

(١) سيرة ابن هشام جـ ٢١ ص ٤١٥ البداية والنهاية لابن كثير جـ ٣ ص ١٥١

الانصار صوتا ، وأبعدهم ذكرا ٠واليك ما جاء في البداية والنهاية : كان سعد بن معاذ بن خالة أسعد بن زرارة ، فدخل به حائطا من حوائط بني ظفر فجلسا في الحائط (البستان) واجتمع اليهما رجال ممن أسلموا ، وسعد بن معاذ ، وأسيد بن الحضير يومئذ من بني عبدالاشهل ، وكلاهما مشرك على دين قومه، فقال سعد لاسيد ، لا أبالك انطلق الى هذين الرجلين اللذين قد أتيا دارنا ليسفها ضعفاءنا فازجرهما ، وانههما أن يأتينا ديارنا ٠٠ فأخذ أسيد بن خضير حربته ، ثم أقبل اليهما ٠ فلما رآه أسعد بن زرارة قال لمصعب : هذا سيد قومه ، قد جاءك ، فاصدق الله فيه ٠٠فوقف عليهما أسيد متشتما ، ثم قال : ما جاء بكما الينا ، تسفهان ضعفاءنا ؟اعتزلاني ، ان كان لكما بأنفسكما حاجة ، وقال غلام : أتيتنا في دارنا رعديد الغريب لتسفه ضعفاءنا بالباطل، وتدعوهم اليه ٠

فقال مصعب لاسيد : « أو تجلس فتسمع ، فان رضيت أمرا قبلته ، وان كرهته كف عنك ما تكره » قال أنصت، ثم ركز حربته وجلس ، فكلمه مصعب بالاسلام ، وقرأ عليه القرآن ٠

فقال مصعب وأسيد ، والله لعرفنا الاسلام في وجهه ، في اشراقه وتسهله، قبل أن يتكلم ٠

فقال : ما أحسن هذا الكلام وأجمله، كيف تصنعون اذا أردتم أن تدخلو في هذا الدين ، قالا له تغتسل فتطهر ،وتطهر ثوبيك ، ثم تشهد شهادة الحق ، ثم تصلي ٠٠ ففعل ما طلبا اليه ، ثم قال لهما : ان ورائي رجلا ان اتبعكما لم يتخلف أحد من قومه ، وسأرسله اليكما سعد بن معاذ ٠

ثم أخذ حربته وانصرف الى سعد وقومه وهم جلوس في ناديهم ، فلما نظر اليه سعد بن معاذ مقبلا قال أحلف بالله ،لقد جاءكم أسيد بغير الوجه الذي ذهب به من عندكم ٠

فلما وقف على النادي ، قال سعد مافعلت ٠ قال كلمت الرجلين ، فوالله ما رأيت بهما بأسا ، وقد نهيتهما فقالا نفعل ما أحببت ، وقد حدثت أن بني حارثة خرجوا الى أسعد بن زرارة ليقتلوه ، وذلك أنهم عرفوا أنه ابن خالتك ، ليحقروك ٠

فقام سعد مغضبا مبادرا ، مخوفا للذي ذكر له من بني حارثة ، وأخذ الحربة في يده ، ثم قال : والله ما أراك أغنيت شيئا .

ثم خرج اليهما سعد ، فلما رآهما مطمئنين عرف أن أسيدا ، انما أراد أن يسمع منهما فوقف متشتما ، ثم قال لاسعد بن زرارة والله يا أبا أمامة لولا ما بيني وبينك من القرابة ، ما رمت هذا مني ، أتغشانا في دارنا بما نكره .

قال أسعد لمصعب : جاءك والله سيد من ورائه قومه ان يتبعك لا يتخلف منهم اثنان .

قال مصعب : أو تقعد فتسمع ، فان رضيت أمرا رغبت فيه قبلته ، وان كرهته عزلنا عنك ما تكره .

قال سعد ، أنصفت ، ثم ركز الحربة وجلس ، وعرض عليه الاسلام ، وقرأ عليه القرآن ، وذكر موسى بن عقبة أنه قرأ عليه أول سورة الزخرف

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ حمٓ ﴿١﴾ وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ ﴿٢﴾ إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٣﴾ وَإِنَّهُ فِي أُمِّ الْكِتَابِ لَدَيْنَا لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ ﴿٤﴾ أَفَنَضْرِبُ عَنكُمُ الذِّكْرَ صَفْحًا أَن كُنتُمْ قَوْمًا مُّسْرِفِينَ ﴿٥﴾ وَكَمْ أَرْسَلْنَا مِن نَّبِيٍّ فِي الْأَوَّلِينَ ﴿٦﴾ ﴾ (١)

فعرفنا في وجهه الاسلام قبل أن يتكلم في اشراقه وتسهله .

ثم قال سعد لهما : كيف تصنعون اذا أنتم دخلتم في هذا الدين ، قالا تغتسل فتطهر ، وتطهر ثوبيك ثم كانت شهادة الحق .. وقد أخذ حربته بعد أن فعل ما أشار به ، فأقبل عائدا الى نادي قومه فلما رآه قومه مقبلا ، قالوا نحلف بالله لقد عاد اليكم سعد بغير الوجه الذي ذهب به من عندكم ، فلما وقف عليهم ، وقف داعيا للاسلام ، ويقول :

يا بني عبد الاشهل ، كيف تعلمون أمري فيكم ؟ قالوا سيدنا وأفضلنا رأيا ، وأيمننا نقيبة قال فان كلام رجالكم ونسائكم علي حرام ، حتى تؤمنوا بالله ورسله (٢) .

---

(١) الزخرف

(٢) البداية والنهاية جـ ٣ ص ١٥٢ ، ١٥٣

اجتمع مصعب وأسعد بن زرارة وسعد بن معاذ في منزل أسعد ، وأخذوا يدعون الى الاسلام ، حتى فشا في يثرب فأسلم بنو عبد الاشهل رجالا ونساء ٠

وقد فصلنا القول في دعاية مصعب بن عمير ، وأسعد بن زرارة ، ونقلنا لك المجاوبة التي جرت بين الزعماء والكبراء، فان الاستماع الى كلمات الرجال، كما جرت على أفواههم تصور حالهم ونفوسهم ٠

لقد كانوا ينتهون من المجاوبة الى الاصغاء الى دعوة الحق واتباعها من غير تلكؤ ، وان هذا يدل على صفاء نفوسهم، وحيث خلت النفوس من المنازعة بالشرف ، والمنافسة ، في الفخر ، فانها تتجه الى الحق بقلب سليم ، فتسارع الى الدخول فيها ، وقد أحسوا أن في الاتباع منجاة لهم من التفرق والنزاع الذي أداهم الى الحرب ، وعضتهم بنابها، وفوق ذلك كانت وصلتهم ارهاصات بذكر النبوة المحمدية كان يستفتح بها اليهود عليهم ٠

العقبة الثانية

٣١٩ ـ جاءت العقبة الاولى بعد اللقاء الاول بين النبي صلى الله تعالى عليه وسلم والخزرج وبهم انتقل خبر الاسلام الى يثرب التي أعدها الله تعالى لتكون المدينة الفاضلة ، مدينة الرسول صلى الله تعالى عليه وسلم ، ثم كان في العقبة الاولى التعريف بمبادىء الاسلام ، والبيعة بها ، على أن تكون هذه البيعة الميثاق الذى أخذه النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، وكانت البيعة الثانية في العقبة بعد أن فشا الاسلام ، وكانت تمهيدا للانتقال الى المدينة والهجرة ، ويظهر أنها كانت في آخر موسم حضره النبي صلى الله تعالى عليه وسلم بالمدينة ، والعقبة الاولى كانت في الموسم الذي قبله ، ولذلك كانت البيعة فيها بالايواء والنصرة ، كما يتبين ذلك ٠

ويظهر أن خبر اتصال النبي صلى الله تعالى عليه وسلم كان يتسرب الى قريش ، ويحاولون أن يأخذوا حذرهم، اذ رأوا أن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم كان يعرض نفسه على القبائل ،وهم يتوجسون خيفة من أن تخرج الدعوة الى التوحيد من بين ظهرانيهم الى العرب ، وانهم يتوقعون منهم الاستجابة ، ليستعين بهم ، ويتخذ منهم قوة عليهم ٠

وقد رأينا كيف يتعقبه أبو جهل وأبو لهب ، ويتناوبان ٠

لذلك عندما جاء مصعب من يثرب هو وأسعد بن زرارة ، ومعهم جماعات من الاوس والخزرج ، وقد أسلموا وقد كان معهم من سكان يثرب من كانوا لا يزالون على وثنيتهم ، ولم يذوقوا بعد بشاشة الاسلام ، ومنهم من تتجافى قلوبهم دونه مثل عبد الله بن أبي سلول الذي أكله بغض الاسلام والمسلمين ، حتى صار رأس النفاق في المدينة من بعد ، وكان يضع الفتنة ويبنيها ، ويثيرها ، حيثما وجد الى ذلك سبيلا ٠

ولقد أخذ النبي صلى الله تعالى عليه وسلم حذره من ناحيتين ، من ناحية قريش الذين احتسبوا بأن أمرا يدبر من ورائهم ، ولقد كان يرى عيونهم

تبث من حوله ، حتى ان الرسول صلى الله تعالى عليه وسلم ليقول لوفد الأوس والخزرج عندما التقى بهم في العقبة :« ليتكلم متكلمكم ، ولا يطل الخطبة ، فان عليكم من المشركين عينا، وان يعلموا بكم يفضحوكم » ٠

والناحية الثانية من أولئك المشركين الذين صحبوا المسلمين من الأوس والخزرج ، ولعله صلى الله تعالى عليه وسلم فيما حذر من عيون المشركين ، كان كلامه يعم الفريقين ، فريق قريش، وفريق المشركين الذين صحبوا وفد الايمان ٠

ولهذا لم يلتق بهم في أول حضورهم، بل ضرب لهم موعدا في أيام منى ، فلم يأخذ عليهم البيعة في أول لقاء ٠

فروى ابن اسحاق بسنده عن كعب بن مالك ٠ قال : « خرجنا الى الحج وواعدنا رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم بالعقبة من أواسط أيام التشريق فلما فرغنا من الحج، وكانت الليلة التي واعدنا رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ٠٠ وكنا نكتم من معنا من قومنا من المشركين » ٠

ويقول كعب في هذه الرواية :فنمنا تلك الليلة في قومنا في رحالنا ، حتى اذا مضى ثلث الليل خرجنا من رحالنا لميعاد رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم نتسلل تسلل القطا مستخفين، حتى اجتمعنا عند العقبة ونحن ثلاث وسبعون رجلا ، ومعنا امرأتان ٠

هذه رواية كعب بن مالك ، وروى أنهم كانوا سبعين ، ومعهم امرأتان ٠

التقى النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، في الميقات المحدود ، والمكان المعين ، وقد صحبه في هذا اللقاء عمه العباس بن المطلب ، وهو على دين قومه، وانما صحبه ليتوثق له ، ويطمئن على نصرته ، وقد قال في هذا اللقاء : « يا معشر الخزرج (١) ، ان محمدا منا، حيث قد علمتم ، وقد منعناه من قومنا، ممن هم على مثل رأينا فيه فهو في عز من قومه ، ومنعة في بلده ، وانه قد أبى الا الانحياز اليكم ، واللحوق بكم ، فان كنتم ترون أنكم وافون له بما دعوتموه اليه ، ومانعوه ممن خالفه ،فأنتم وما تحملتم من ذلك ، وان كنتم

---

(١) قال ابن هشام كانت العرب يسمون هذا الحي الخزرج ، خزرجها وأوسها ، ولعل ذلك لانهم كانوا أكثر أو أظهر عند قريش ٠

ترون أنكم مسلموه وخاذلوه بعد الخروج اليكم ، فمن الآن فدعوه ، فانه في عزة ومنعة من قومه وبلده ·

عندئذ قال قائل الاوس والخزرج ،قد سمعنا ما قلت ، فتكلم يا رسول الله ، فخذ لنفسك ولربك ما أحببت ·

فتكلم رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، ودعا الى الله ، ورغب في الاسلام ·

وقد طلب رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم أن يختاروا من بينهم اثني عشر نقيبا ففعلوا ·

البيعة الثانية :

٣٢٠ ــ هذه هي البيعة الثانية ،كما جاءت بذلك الروايات المتضافرة وقد انقسمت البيعة الى قسمين :

أحدهما ــ لتوثيق مبادىء الاسلام ،وقد روي الامام أحمد في هذا القسم : أن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم قال فيه : « تبايعون على السمع والطاعة في النشاط والكسل ، والنفقة في العسر واليسر ، وعلى الامر بالمعروف ، والنهي عن المنكر · وأن تقولوا في الله لا تخافون لومة لائم » ·

والقسم الثاني ــ خاص بنصرته صلى الله تعالى عليه وسلم · وأن يمنعوه ·

ويروي ابن اسحاق عن أبي أمامة أسعد بن زرارة أنه قال للنبي صلى الله تعالى عليه وسلم :

سل يا محمد لربك ما شئت ، ثم سل لنفسك ما شئت ، ثم أخبرنا مالنا من الثواب على الله وعليكم اذا فعلنا قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم : « أسألكم لربي أن تعبدوه ، ولا تشركوا به شيئا ، وأسألكم لنفسي وأصحابي أن تؤوونا وتنصرونا وتمنعونا مما تمنعون منه أنفسكم ·

وروى الامام أحمد أيضا عن عبادة بن الصامت أنه قال : انا بايعنا رسول الله على السمع والطاعة في النشاط والكسل ، والنفقة في العسر واليسر ، وعلى الامر بالمعروف والنهي عن المنكر ،وعلى أن نقول في الله ، لا تأخذنا فيه

لومة لائم ، وعلى أن ننصر رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم اذا قدم علينا يثرب ، مما نمنع به أنفسنا وأزواجنا وأبناءنا ، ولنا الجنة •

هذه روايات متعددة في ألفاظ البيعة ومعانيها ، ولا تخالف بينها ، بل يكمل بعضها بعضا ، واذا كانت نقصت بعض العبارات من رواية، فان الرواية الاخرى تكملها •

ولقد قال النبي صلى الله تعالى عليه وسلم في نتيجة البيعة «أخذت وأعطيت» أخذ عليهم العهد لله بالتوحيد والطاعة والامر بالمعروف والنهي عن المنكر وأعطاهم الوعد بالجنة •

ولقد أعطوا الوعد بالنصر والايواء عن بينة من ربهم ، فقد بين بعضهم لبعض ما في الوعد بالنصرة من تبعات، سيتحملونها ، ولنذكر لك بعض ماتذاكروه قبل أن يصفقوا بالبيعة ، أو في عنفها •

قال العباس بن عبادة بن فضلة الانصاري أحد بني سالم بن عوف :

هل تدرون على ما تبايعون هذا الرجل • قالوا نعم •

قال انكم تبايعونه على حرب الاحمر والاسود من الناس ، فان كنتم ترون أنكم اذا انهكت أموالكم مصيبة وأشرافكم فئلا أسلمتموه فمن الآن ، فهو والله ان فعلتم خزي الدنيا والآخرة ، وان كنتم ترون أنكم وافون له بما دعوتموه اليه ، على نهكة المال وقتل الاشراف فخذوه ، فهو والله خير الدنيا والآخرة ، قالوا فانا نأخذه على مصيبة الاموال ،وقتل الاشراف •

ولقد قال البراء بن معرور أحد النقباء مجيبا قول النبي صلى الله تعالى عليه وسلم عندما طلب أن يمنعوه ممايمنعون منه نساءهم وأبناءهم• قال رضي الله تعالى عنه •

نعم ، فوالذي بعثك بالحق لنمنعك مما نمنع ، أزرنا ، فبايعنا يا رسول الله فنحن والله أبناء الحروب ورثناها كابرا من كابر •

واعترض أبو الهيثم بن التيهان فقال : « يا رسول الله ان بيننا وبين الرجال حبالا ــ وانا قاطعوها ، يعنى اليهود ــ فهل عسيت ان قبلنا ذلك ، ثم أظهرك الله أن ترجع الى قومك وتدعنا » •

فتبسم رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، ثم قال : بل الدم الدم ، والهدم الهدم ، أنا منكم ، وأنتم مني ، أحارب من حاربتم ، وأسالم من سالمتم ·

ولقد قال ابن هشام الهدم الهدم « يعني الحرمة » أي ذمتي ذمتكم ، وحربي حربكم ·

ولقد قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم بعد أن تمت البيعة : « أنتم بما فيهم كفلاء ككفالة الحواريين بعيسى بن مريم وأنا كفيل على مدتي ·

بهذا تمت البيعة الثانية ، وكانت ايذانا بالهجرة ، وكان أساس قيامها ما يكون من حماية النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ·

وقد كانت حماسة الانصار لهذه البيعة شديدة ، وبعضهم أراد تنفيذها ، ومحاربة قريش في عقر دارهم لقد قال العباس بن فضلة الذي نقلنا كلامه آنفا : يا رسول الله ، والذي بعثك بالحق ، ان شئت لنميلن على أهل منى غدا بأسيافنا ، فقال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، لم نؤمر بذلك ، ولكن أرجعوا الى رحالكم ·

علم قريش بالبيعة :

٣٢١ ـ كان حذر النبي صلى الله تعالى عليه وسلم من أن يعلم المشركون بالبيعة قبل أن تتم في موضعه ، لانهم كانوا يبثون العيون لمعرفة أخبار الخزرج والاوس ، اذ كانوا يتوجسون منهم خيفة ·

لقد رجع أهل البيعة الى منازلهم فلما أضحوا غدا عليهم ناس من جلة قريش ، حتى جاؤوا الى منازلهم ·

فقالوا يا معشر الخزرج ، انه قد بلغنا أنكم جئتم الى صاحبنا تستخرجونه من بين أظهرنا وتبايعونه على حربنا وانه والله ما من حي من العرب أبغض الينا من أن تنشب الحرب بيننا وبينهم منكم ·

وقد كان من بين أهل يثرب مشركون مثلهم ، وقد اجتهد الذين مال قلبهم للايمان وأسلموا أن يخفوا عنهم أمر البيعة وما يتصل بها ، لذلك انبعث من أولئك المشركين من يحلفون ما كان من هذا شيء وما علمنا ، فصدق القرشيون مقالتهم ·

وقد روى ابن اسحاق أن القرشيين أتوا عبد الله بن أبي بن سلول الذي صار من بعد رأس المنافقين ، وكان من المشركين ، فسألوه عند أمر البيعة ، فقال لهم ، ان هذا الامر جسيم ، ما كان قومي ليتفرقوا على مثل هذا ، وما علمته • كان الامر بالنسبة لقريش أول الامر ظنا ظنوه ، ولم يكونوا قد استوثقوا من صدقه ، فكان التكذيب كافيا ، لازالة الظنة ، ولكن لم يطمئنوا •

لذلك أخذوا يتحرون صدق الخبر ، ليطمئنوا ، فلما نفر الناس عن منى ، وجدوا أن البيعة قد تمت ، أو أن ماظنوه ظنا قد وقع •

راعهم ذلك ، فخرجوا في طلب القوم الذين بايعوا ، فلم يلحقوا بهم ، ولكن أدركوا منهم سعد بن عبادة والمنذر بن عمرو ، وكان كلاهما من النقباء ، وقد استطاع المنذر ألا يمكنهم منه ، فأعجزهم اتباعه •

وأما سعد بن عبادة فأخذوه فربطوا يديه الى عنقه ، ثم أقبلوا به حتى أدخلوه مكة يضربونه ، ويجذبونه بجمته (١)، وكان ذا شعر كثيف •

ولقد حكى سعد حاله ، فقال : «فوالله اني لفي أيديهم ، اذ طلع عليّ نفر من قريش فيهم رجل وضيء الوجه شعشاع حلو من الرجال ، فقلت في نفسي ان يك عند أحد من القوم خير ، فعند هذا ، فلما دنا مني كلمني كلمة شديدة، فقلت في نفسي : لا والله ، ما عندهم بعد هذا من خير ، فوالله اني لفي أيديهم ، اذ أدلى لي رجل ممن معهم ، فقال ويحك أما بينك وبين أحد من قريش جوار ، ولا عهد • قلت : بلى والله ، لقد كنت أجير لجبير بن مطعم • تجارة ، وأمنعهم ممن أراد ظلمهم ببلادي ، وللحارث بن حرب بن أمية • قال ويحك • وخرج ذلك الرجل اليهما فوجدهما في المسجد عند الكعبة ، فقال لهما ان رجلا من الخزرج يضرب بالابطح ويذكر أن بينكما وبينه جوارا ، قالا ومن هو • قال سعد بن عباد قالا صدق والله انه كان ليجبر تجارنا ، ويمنعهم من أن يظلموا ببلده ، فجاءا فخلصا سعدا •

---

(١) جمته مجتمع شعر الرأس من مقدمه

ذكرنا هذه القصة بطولها • ليتبين أن قريشا أحنقهم ، أن استجيب طلب محمد أن يجد المأوى لدعوته في يثرب وظهر غضبهم في تتبع القوم وفي الاذى الذى أنزلوه بسعد بن عبادة ،وهو الذي أدركوه ، وغيره قد اجتازوا الطريق ، ورحلوا ، قبل أن يصلوا ،ولو أدركوهم فوق السبعين لا يعلم الا الله كيف تكون المعاقبة • ولعلها تكون أول موقعة بين المشركين والمسلمين ، بل لعل هذه المطاردة ذاتها أول معركة بين قوة الاسلام ولو قليلة وقوة الشرك ، وان كانت كثيرة ، ولعل المشركين أدركوا بأن عهد الاستضعاف أوشك على نهايته ، والله ولي الصابرين •

ابتداء الهجرة

٣٢٢ ـ وجد المسلمون أنه صار لهم مأوى ينتقلون اليه، وشعر المشركون أن الاسلام خرج نقيا طاهرا ظاهرا قويا من أرضهم ليكيل لهم الضربة بمثلها ، والايذاء يدفعه ، وأن محمدا صلى الله تعالى عليه وسلم قد صار له قوة تناوئهم ان أرادوا به كيدا ، وأنه قد تلتف عليه قبائل العرب قبيلة قبيلة، وما شعروا بالندم على أن حاربوه ،ولم يمكنوه من الدعوة ، بل لاقوه هو وصحبه بالاذى والاستهزاء ، ولكن الندم لم يعرهم ، لانهم سادرون في غيهم • وقد استولت عليهم العداوة ،ومن استولى عليه العداء ، وسيطرت البغضاء ، لا يرعوي ، ولا يتجه الى الرجوع عما هو فيه ، وكلما ازداد قوة ازدادة حدة ، ولا ندم مع الحدة ، لان الندم شعور بسلطان الحق • وليس للحق سلطان في قلوب المشركين الذين استمكن الشرك والتعصب في قلوبهم ، فلا تزيدهم مظاهر القوة في الحق الا عتوا واستكبارا ، ولا ننسى أن المنافسة بين العشائر والتنازع بين الشرف هي الأصل في الاعراض ، وتثبيت الكفر في القلوب ، وكلما ازدادت قوة الدعوة حسبوا أن ذلك زيادة لشرف بني هاشم أهل الرسول صلوات الله تعالى وسلامه عليه •

ولذلك اشتد كلبهم على المسلمين الذين بين ظهرانيهم ، لما رأوهم يخرجون الى قوة يتجمعون بها ، ولم يخرجوا فارين بدينهم ، كما خرجوا في هجرة الحبشة مرتين ، بل هم في هذه المرة يخرجون ليجمعوا قوة يستعصمون بها بتوفيق الله تعالى ، وهدايته •

وذلك هو الفرق الواضح بين هجرتي الحبشة ، وهجرة النبي صلى الله تعالى عليه وسلم الى يثرب ، ولذلك لم ترعهم هجرتا الحبشة ، بل أثارت اشفاق بعض قريش كعمر بن الخطاب ، كما ذكرنا ،أما الهجرة الى يثرب ، فلقد ازعجتهم وأثارت غضبهم ، وان كان ثمة اشفاق،فعلى أنفسهم لا على غيرهم •

هذا شعور المشركين من قريش عندما بايع أهل يثرب النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، أما شعور المؤمنين الصابرين فقد ابتدؤوا يحسون بنصر الله تعالى لهم ، وأنهم صار لهم قوة ، تدفع عنهم وبهم ذل الاستضعاف والاستهزاء ، كما قال تعالى :

﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴿٥﴾﴾ (١)

النبي صلى الله عليه وسلم يحرض المؤمنين على الهجرة :

٣٢٣ ـ أخذ رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم من بعد البيعة الثانية ـ يحرض المؤمنين على الهجرة الى يثرب ،وأهل يثرب من الاوس والخزرج يدعون الى دين الله تعالى ، وينشرونه بين أهليهم واخوانهم حتى صاروا كثرة كاثرة في المدينة ، وصاروا هم أنصار رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، وأصبحوا كالحواريين لعيسى عليه السلام بيد أن الحواريين لم يكونوا عددا كثيرا ، وكان الانصار عددا كثيرا من بعد .

روى البخاري ومسلم بطرق مختلفة عن رسول الله قال : « رأيت في المنام اني أهاجر الى أرض بها نخل ، وذهب وهمي الى أنها اليمامة أو هجر ، فاذا هي يثرب » وروى الزهري عن عروة بن الزبير عن أم المؤمنين عائشة أنها قالت قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم وهو يومئذ بمكة للمسلمين « قد رأيت دار هجرتكم ، أريت سبخة ذات نخل بين لا بتين ، فهاجر من هاجر قبل المدينة حين ذكر ذلك رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، ورجع الى المدينة من كان هاجر الى الحبشة من المسلمين .

ويذكر ابن اسحاق في سيرة النبي صلى الله تعالى عليه وسلم برواياته أن الاذن بالهجرة أو الامر بها ذكره الله سبحانه وتعالى في قوله تعالت كلماته :

﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا۟ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّآ أَن يَقُولُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ۗ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ

(١) القصص

صَوَٰمِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَٰتٌ وَمَسَٰجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا ٱسْمُ ٱللَّهِ كَثِيرًا وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ
إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿٤٠﴾ ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ
وَأَمَرُوا۟ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا۟ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۗ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ ﴿٤١﴾ ﴾ (١)

ونرى أن هذه الآيات الكريمات نزلت بالمدينة ، لان سورة الحج مدنية ، ولأن الآيات تنبيء عن أنهم أخرجوا بالهجرة من ديارهم ، وان الاذن من الله بالخروج والاخراج قبل الهجرة ،والسبب مقدم على المسبب وان الامر فيها اذن بالقتال ، وهو بعد الهجرة ، بعد أن صارت قوة متجمعة في يثرب التي صارت مدينة الرسول صلى الله تعالى عليه وسلم .

الإذن للمؤمنين بالهجرة :

٣٢٤ ـ أذن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم للمؤمنين بالهجرة ، ويبين لهم أن في يثرب الايواء والنصرة ،وقال صلى الله تعالى عليه وسلم : « ان الله تعالى قد جعل لكم اخوانا ودارا تأمنون بها ».

بعد هذا الاذن الصريح الذي يكاد يكون أمرا، خرج المسلمون مهاجرين أرسالا ، آحادا وجماعات ، ولم يجد المهاجرون السبيل ذللا سهلا ، بل كانوا يجدون معوقين من قريش ، لان هؤلاء بعد أن علموا ببيعة الانصار أدركوا أن المسلمين بمكة يتجمعون باخوانهم في يثرب التي صارت مدينة رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، فأخذوا يترصدون كل من هاجر ، فان استطاعوا منعه منعوه.، فحاولوا أن يمنعوا أم سلمة وزوجها ، وتركوه يهاجر دونها ، وهي بارادة مؤمنة صبرت وهاجرت وحدها ، حتى وجدت من أهل المروءة من عاونها على هجرتها :

وأحيانا كانوا يتحايلون على المهاجرين بالكذب حتى يردوهم ثم يعذبونهم غير موفين بعهد أو ذمة ، ولنضرب لذلك مثلا ، بأحد المهاجرين وهو عياش بن أبي ربيعة .

---

(١) الحج

يروى أن عياشا هذا عندما هم بالهجرة اخرج اليه أبو جهل بن هشام والحارث بن هشام ، وكان ابن عمهما وأخاهما لامهما ، فتبعاه ، حتى قدم المدينة ، والنبي صلى الله تعالى عليه وسلم لم يكن قد هاجر بعد ، بل كان لا يزال بمكة وقالا له : ان أمك قد نذرت ألا يمس رأسها مشط حتى تراك ولا تستظل من شمس حتى تراك ، فرق لها ، فقال له عمر وكان معه : « يا عياش انه والله ، ان يريدك القوم الا ليفتنوك عن دينك فاحذرهم ، فوالله لو آذى أمك القمل لامتشطت ، ولو اشتد عليها حر مكة لاستظلت، فقال وهو مخدوع : أبر أمي، ولي هناك مال فآخذه • قال له عمر :والله انك لتعلم أني لمن أكثر قريش مالا، فلك نصف مالي ولا تذهب معهما • فلما أبى ذلك قال عمر الرفيق الشفيق ، أما اذ فعلت ما فعلت ، فخذ ناقتي هذه ،فانها ناقة نجيبة ذلول ، فالزم ظهرها ، فان رابك من أمر القوم ريب ، فانج عليها ، فخرج عليها معهما ، حتى اذا كانوا ببعض الطريق قال له أبو جهل :يا أخي ، والله لقد استغلظت بعيري هذا ، أفلا تعقبني على ناقتك هذه • قال بلى فأناخ وأناخها ليتحولا عليها ، فلما استووا بالارض عدوا عليه ، فأوثقاه رباطا ، ثم دخلا به مكة ، ففتناه فافتتن، وخرج من الاسلام مكرها ، وقلبه مطمئن بالايمان •

وكان صاحب عمر في الهجرة ، ومعهما صاحب ثالث ، وهو هشام بن العاص أدركه أهله قبل أن يصل الى المدينة ففتنوه عن دينه ففتن •

قال عمر صاحب الرواية كلها ، وكان قد صحبهما في الهجرة ، « كنا نقول لا يقبل الله ممن افتتن ، وفي رواية عبد الله ابن عمر عن أبيه قوله ما الله بقابل ممن افتتن صدقا ولا عدلا ، ولا توبة ، قوم عرفوا الله ، ثم رجعوا الى الكفر لبلاء أصابهم ، وكانوا يقولون هم لانفسهم ذلك •

ولعل هذا الاعتقاد الذي سكن قلب عمر الفاروق ، وسكن قلوب أولئك المؤمنين الاولين ، انما هو لكي يتحملوا أقصى ما يمكن من البلاء ، وليكون صبرهم تحريضا لغيرهم ، فقوة الايمان تسري من أقوياء النفوس الى ضعفائها، وان الماء العالي يهبط الى السافل ،لتتوازن النفوس كالسوائل •

لما قدم رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم الى المدينة أنزل الله تعالى :

﴿ قُلْ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُواْ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًاۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥٣﴾ وَأَنِيبُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُواْ لَهُۥ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴿٥٤﴾ وَٱتَّبِعُوٓاْ أَحْسَنَ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴿٥٥﴾ ﴾ (١)

لما نزلت هذه الآية لم ينس عمر الكريم صاحبيه اللذين كانا على نية مرافقته ، ورافقه أحدهما ، ثم افتتن في دينه وافتتن الآخر قبل أن يسافرا ، ولانه لم ينسهما أرسل اليهما في صحيفة هذه الآية الكريمة ، أرسلها الى هشام بن العاص الذي افتتن أولا ـ فلما قرأها فهمها بعد أن استعصى عليه فهم ما يقصد عمر من كتابتها اليه ، وعرف أنها أنزلت فيه وفي أمثاله ، ممن كانوا قد قنطوا من رحمة الله تعالى .

وهنا رواية أخرى تقول : إن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، وهو بالمدينة قال : من لي بعياش بن أبي ربيعة ، وهشام بن العاص ، فقال الوليد بن الوليد بن المغيرة : أنا لك يا رسول الله بهما ، فخرج الى مكة مستخفيا فلقي امرأة تحمل طعاما ، فقال لها أين تريدين يا أمة الله : قالت أريد هذين المحبوسين (تعنيهما) فتبعها ، حتى عرف موضعهما ، وكانا محبوسين في بيت لاسقف له ، فلما أمسى تسور عليهما ، ثم أخذ ردة (أي خنجرا) فوضعها تحت قيديهما ، ثم ضربهما بسيفه ، فحل القيدان ، ثم حملهما على بعيره .

استخفاء المؤمنين بالهجرة :

٣٢٥ ـ من أجل هذا التتبع الشديد من المشركين ، كان المؤمنون يتسللون في هجرتهم لواذا استخفاء من ظلم قريش ، الذي انبعث من خوف تجمع المؤمنين بيثرب لينقضوا عليهم ، ويمنعوهم من فتنة الناس في دينهم ، وكان

---

(١) الزمر

الاقوياء منهم يختارون التستر، ليظفروا بالهجرة في أمان من الاذى ، الا عمر بن الخطاب الذي أبى الا أن يجهر بالايمان في كل موطن من مواطن مكة ، وأبى الاستخفاء ، فهو في الهجرة أيضا أبى الاستخفاء ، وخرج مجاهرا بالهجرة متحديا من يقف في سبيله ٠

روي عن علي بن أبي طالب كرم الله تعالى وجهه في الهجرة أنه قال: «ما علمت أحدا من المهاجرين هاجر الا مختفيا الاعمر بن الخطاب (رضي الله تعالى عنه) فانه لما هم بالهجرة تقلد سيفه ، وتنكب قوسه ، وانتضى في يديه أسهما ، واختصر عنزته ، ومضى قبل الكعبة ، والملأ من قريش بفنائها ، فطاف بالبيت سبعا ، ثم أتى المقام ، فصلى ركعتين ، ثم وقف على الحلق واحدة، واحدة فقال: شاهت الوجوه ، لا يرغم الله الا هذه المعاطس ، من أراد أن تثكله أمه ، أو ييتم ولده ، أو ترمل امرأته ، فليلقني وراء هذا الوادي » (١) ٠

وقد يسأل سائل أن المشهور أن عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه صحب في رحلته عياش بن أبي ربيعة ٠ وكان في عزمته أن يصحبهما هشام بن العاص، فكيف نوفق بين هذه الرواية المشهورة ورواية علي كرم الله وجهه ، ونقول في الجواب عن ذلك ، ان الجمع بين الروايتين ممكن ، ومتى أمكن الجمع يتعين تصديق الروايتين ، اذ لا ترد احداهما الا اذا تعذر التوفيق بينهما ٠

والتوفيق ممكن وظاهر ، اذ أن الصحبة كانت فى السفر ، وواضح أن السفر يكون بعد اعتزام النية والاصرار ، وقد كان متفقا معهما على أن يلتقيا معه في مكان يقال له التناضب من أضاة بني غفار ٠

والواقعة التي رواها علي كرم الله وجهه كانت وهو لا يزال بمكة ، وقد أعلن الهجرة ، فهو قد قال ما قال معلنا هجرته ، متحديا قريشا ، ثم أخذ طريقه الى المكان الذي اتعدوا فيه ، فوجد عياشا ، وتخلف عنهما هشام ، اذ افتتن في دينه ، واستجاب لهم وقلبه مطمئن بالايمان ٠

كانت هجرة المهاجرين سرا ، أو على استخفاء من قريش ٠

---

(١) راجع فى هذا أشهر مشاهير الاسلام للمرحوم رفيق العظيم ، طبعة ١٩٧٢ (دار الفكر العربى) ٠

وكانوا ينزلون في مهجرهم على الانصار ، فينزلون معهم في بيوتهم فعمر بن الخطاب حين انتقل الى المدينة ولحق به أهله وأخوه زيد بن الخطاب ،وعمرو بن سراقه وغيرهم ، نزلوا على رفاعة بن عبد المنذور بن زهير في بني عمرو بن عوف في قباء ٠

ونزل طلحة بن عبيد ، وصهيب بن سنان ، على ضبيب بن اصاف ، وهكذا غيرهم نزل في منازل الذين آووا ونصروا ، وكانوا ، يرحبون بهم ، وكأنهم بين أهليهم وذويهم ، لان الايمان الصادق جمعهم ، ومحبة الله ورسوله فاضت عليهم ، فجعلتهم أحبابا على مائدة الرحمن ، وقد علموا فضل اخوانهم المهاجرين الذين صبروا عند الصدمة الاولى ، وأوذوا في أنفسهم وأخرجوا من ديارهم ، وأموالهم ، فجعل الله تعالى من خوفهم أمنا ، ومن ذل ضعفائهم عزة اذا اعتزوا بعزة الله تعالى ، وكان بهم بتوفيق الله أن صارت كلمة الله تعالى هي العليا ، وقد قال تعالى في المهاجرين والانصار :

﴿ لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا وَيَنصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ ۚ أُولَٰئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ ﴿٨﴾ وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ۚ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٩﴾ ﴾ (١)

ويقول سبحانه تعالت كلماته :

﴿ وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُم بِإِحْسَانٍ رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ۚ ذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿١٠٠﴾ ﴾ (٢)

فالسابقون الاولون هم الذين هاجروا فارين بدينهم ، مجتمعين في ظل الله تعالى ، ولا ظل غيره ، والانصار الذين ولوهم في السبق ، وفتحوا لهم

---

(١) الحشر (٢) التوبة

ديارهم ، اذ فتحوا لهم قلوبهم ، وآثروهم على أنفسهم ، أولئك لهم الفضل الاول في السبق الى اتباع الرسول ،والذين دونهم اتبعوهم باحسان ،فهؤلاء لهم فضل السبق ، والآخرون لهم فضل الاتباع ٠

هجرة النبيّ صَلى الله عليه وسَلم :

٣٢٦ ـ أخذ المسلمون يهاجرون زَرافات ووحدانا مستخْفين ، وقليل منهم من هاجر معلنا ، كما فعل عمر رضي الله تعالى عنه ، فقد أعلن هجرته وتحداهم أن يمنعوه ، وعلي كرم الله وجهه يخص عمر بأنه الذي أعلن وتحدى ، ولعل ما انفرد به عمر رضي الله عنه هو هذا التحدي ، ولا شك أن من الاقوياء من يعلن ولا يختفي ، كسيد الشهداء حمزة بن المطلب ، فما كان لمثل حمزة في قوته وبأسه وايمانه أن يختفي ، وفوق ذلك فان عشيرته من بني هاشم وعلى رأسهم العباس بن عبدالمطلب ليرضوا أن يرهقوا حمزة في ارادته ، أو لا يوافقوه على هجرته ،وقد رضي العباس بهجرة الرسول صلى الله تعالى عليه وسلم ، كما تدل على ذلك خطبته في العقبة الثانية ، حيث كانت البيعة الثانية على الايواء والنصرة ، بل لو سايرنا التصور العقلي المنطقي لقلنا ان العباس كان يرحب بهجرة حمزة ليكون بجوار ابن أخيه ، ينصره مع الناصرين ٠

ما بقي من المؤمنين من يثبت أنهم لم يهاجروا قبل النبي صلى الله تعالى عليه وسلم الا علي وأبو بكر ، فأما علي فهو مع النبي وقد ثبت أنه هاجر بعد النبي بأمر منه صلى الله تعالى عليه وسلم بأن يبقى من بعده ليرد الودائع ، أما أبو بكر رضي الله تعالى عنه فقد كان يَهُم بالهجرة ، والنبي صلى الله تعالى عليه وسلم يستبقيه ، ويشير اليه بمعاريض القول بأنه قد يكون صاحبه ، ثاني اثنين ٠

لقد قال ابن اسحاق في السيرة :«أقام رسول الله بمكة بعد أصحابه من المهاجرين ينتظر أن يؤذن له في الهجرة ولم يتخلف معه بمكة أحد من المهاجرين، الا من حُبس أو فُتن الا علي بن أبي طالب ، وأبو بكر بن قحافة الصديق رضي الله عنهما ، وكان أبو بكر كثيرا ما استأذن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم في الهجرة ، فيقول له رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، لا تَعْجَل لعل الله تعالى يجعل لك صاحبا ، فيطمع أبو بكر أن يكونه ٠

كان النبي صلى الله تعالى عليه وسلم يستعد للهجرة من منذ البيعة الاولى عندما التقى بالأوس والخزرج ، بدليل هذه المبايعة ، ثم كانت البيعة الثانية بيعة الايواء والنصرة دليلا على أنه اعتزم الهجرة وأرادها ، ثم من بعدها أذن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم، أو أمرهم بأن يهاجروا ، فهاجروا زرافات ووحدانا • مستخفين في الاكثر، معلنين في الاقل ، فكانت الهجرة ترتيبا للدعوة ، وخروجا من موطن لاقوة للاسلام فيه الى بلد يكون للاسلام فيه قوة ، ويكون له فيها السلطان لانشاء دولة اسلامية، فما كان من المعقول أن ينفذ النبي صلى الله تعالى عليه وسلم مباديء الاسلام في مكة ، وهي في ظل الوثنية ، ويحكمها مشركون ، فالزكاة لا يمكن جمعها الا في ظل سلطان عادل يجمعها من الاغنياء ، ويردها على الفقراء ، وتنفيذ مبادىء المساواة والاخاء ، ودعوة المسلمين الى التراحم ليكونون أشداء على الكفار رحماء بينهم، وما كان يمكن أن يقيم الحدود الزاجرة لبناء دولة فاضلة ، ولا القصاص العادل، ولا لينظم المعاملات بين الناس على أساس من الرضا والعدل ، وما كان ليحارب الربا الجاهلي ، ما كان يمكن شيء من ذلك الا في ظل الله تعالى ، وبدولة اسلامية تنفذ أوامر الله تعالى ، وتبعد الناس عن نواهيه ، وما كان يمكنه عليه السلام أن يقيم رأيا عاما فاصلا ، يُقوّم المنحرف ، ويرشد المسترشد ، ويكافيء المحسن الا فى ظل دولة اسلامية، وعلى ذلك فالهجرة كانت أمرا مقررا ، ولابد منه لتقام دعائم الاسلام ، ولتثبت أركانه ، وتعم في الوجود الانساني دعوته ، وليست الهجرة جاءت بسبب حادث وقع ، أو خوف لامر متوقع •

ما اقترن بالهجرة المحمّديّة:

٣٢٧ ـ اقترنت الهجرة بواقعة وقعت من قريش ، فظنها كثير من كتاب السيرة أن هذه الواقعة هي سبب الهجرة، وأن الهجرة كانت أمرا مسببا لها ، ولكن الهجرة كانت أمرا مقررا ، وتنظيما محكما •

يقول الله تعالى :

﴿ وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ ۚ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ ۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ ﴿٣٠﴾ ﴾ (١)

---

(١) الانفال

فهم يدبرون من جانبهم أم الله تعالى يدبر أمرا ، قد وجه النبي صلى الله تعالى عليه وسلم اليه ، وهو الهجرة ،والامر الذي مكروا به وتآمروا عليه خلاصته ما ذكرته الآية ·

رأى المشركون أن مكة قد خرج الذين اتبعوا محمدا منها،ليتجمعوا،وليكونوا مع أهل يثرب قوة تقاوم الشرك وتنقضّ على المشركين ، وأنهم بلا ريب أشد أعداء محمد وأتباعه ، فلابد أن تكون تلك القوة عليهم ، وأن عليهم أن يتداركوا الامر قبل أن يستفحل ، وأن تتحقق المآرب ·

واذا كان الأتْباع قد هاجروا ، ولم يبق الا ضعيف أو عبد ، فان محمدا لا يزال بين ظهرانيهم وهو الرأس وغيره أتباع ، فاذا نالوا منه ، فقد تحقق مأربهم ·

قال ابن اسحاق في سيرته : « لما رأت قريش أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قد صار له شيعة وأصحاب من غيرهم ، وغير بلدهم ، ورأوا خروج أصحابه من المهاجرين اليهم عرفوا أنهم أصابوا دارا وأصابوا منهم منَعة ، فحذروا خروج رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم اليهم ، وعرفوا أنه قد أجمع لحربهم » ·

اجتمعوا في دار الندوة ، وهي دار قصي بن كلاب ، وكانت مجتمع أمر قريش ، لا يقضون أمرا ذا بال الا فيها ، اجتمع في الندوة كبراء قريش ، ودلَف عليهم رجل من نجد ، حضر جمعهم ، قيل انه ابليس ، وان لم يكن هو فهو مثله خبثا ·

تشاوروا في أمر محمد صلى الله تعالى عليه وسلم ، وقال بعضهم لبعض ان هذا الرجل قد كان من أمره ما قد رأيتم ، فانا والله ما نأمنه على الوثوب علينا فيمن قد اتبعه من غيرنا ، فأجمِعوا فيه رأيا ·

فقال قائل منهم احبسوه في الحديد ، وأغلقوا عليه بابا ، ثم تربصوا به ما أصاب أشباهه من الشعراء الذي كانوا قبله ، ومن مضى منهم : من هذا الموت ·

قال الشيخ النجدي : ما هذا لكم برأى ، ولئن حبستموه كما تقولون ليخرجن أمره من وراء الباب الذي أغلقتم دونه الى أصحابه ، فلأوشكوا

أن يثبوا اليكم ، لينزعوه من أيديكم ،ثم يكاثروكم به ، حتى يغلبوكم على أمركم ، ما هذا لكم برأى،فانظروافي غيره ٠

فقال قائل منهم نخرجه من بين أظهرنا ، فننفيه من بلادنا ، فاذا أخرج عنا ، فوالله ما نبالي أين ذهب،ولا حيث وقع،ان غاب عنا ، وفرغنا منه ، فأصلحنا أمرنا وألفتنا كما كانت ٠

فقال الشيخ النجدي : لا والله ما هذا لكم برأى،ألم تروا حسن حديثه وحلاوة منطقه ، وغلبته على قلوب الرجال بما يأتي به ، فوالله لو فعلتم ماأمنتم أن يحل على حي من العرب ، فيغلب عليهم بذلك من قوله وحديثه حتى يتابعوه عليه ، ثم يسير بهم اليكم ،حتى يطأكم بهم بلادكم ، فيأخذ أمركم من أيديكم ، ثم يفعل بكم ما أراد ،فرّوْا فيه رأيا غير هذا ٠

فقال أبو جهل بن هشام ، والله اني لي فيه لرأيا ما أُراكم وقعتم عليه بعد ، قالوا وما هو يا أبا الحكم ؟ قال أرى أن نأخذ من كل قبيلة فتى شابا نسيبا وسيطا فتيا ، ثم نعطى كل واحدمنهم سيفا صارما ، ثم يعمِدوا اليه ، فيضربوه ضربة رجلٍ واحد ، فيقتلوه ،فنستريحَ منه ، فانهم اذا فعلوا ذلك تفرق دمه في القبائل جميعا ، فلم يقدر بنو عبد مناف على حرب قومهم ، جميعا، فيرضَوْا منه بالعقل (أي الدية)فعقلناه لهم ٠

قال الشيخ النجدي:القول ما قال هذاالرجل ، هذا الرأى الذي لا رأي غيره ٠

انتهَوْا الى ذلك،فاعلم الله تعالى نبيه بما دبروا ، وأمره ألا ينام الليلة على فراشه ٠

تنفيذ المؤامرة :

٣٢٨ ـ ان القوم ائتمروا بالنبي صلى الله تعالى عليه وسلم ليقتلوه ،ولكن الله تعالى أعلم النبيّ صلى الله تعالى عليه وسلم ، ويمكرون ويمكر الله،والله خير الماكرين ، ولقد روى الامام أحمد بن حنبل بسنده عن ابن عباس أن أمر رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم بالهجرة كان في ذلك الوقت ، ونزل قوله تعالى :

﴿ وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ وَٱجْعَل لِّي مِن لَّدُنكَ سُلْطَٰنًا نَّصِيرًا ﴿٨٠﴾ ﴾ (١)

(١) الاسراء

وأن دخول الصدق كان بدخول المدينة ،والخروج مخرج صدق كان بالهجرة من مكة المكرمة ، كما فسر قتادة ، وهكذاكان خروجه من مكة وهي أحب أرض الله تعالى اليه، لدعوة الحق ولنصرته واعزازه ، وكان دخوله المدينة صدقا ، لانه بسبب ارادة نصرة الحق ، واعلاءشأنه ، فخروجه صدق ، ودخوله صدق، وكلاهما حق ·

ان قريشا في عتمة الليل الذي بيتوافيه تنفيذ مؤامرتهم بقتل محمد رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم قد أحاطوا بداره ، ليقتلوه اذ يخرج اليهم ، ولم يحاولوا أن يدخلوا الى منامه ، وقال السهيلي فى تعليل ذلك : « ذكر بعض أهل التفسير السبب المانع لهم من التقحم عليه في الدار ، مع قصر الجدار وأنهم انما جاؤوا لقتله ، فذكر في الخبر أنهم هموا بالولوج عليه، فصاحت امرأة من الدار ، فقال بعضهم لبعض :والله أنها السبة في العرب أن يُتَحدث عنا أننا تسورنا الحيطان على بنات العم ، وهتكنا ستر حرمتنا ، فهذا هو الذي أقامهم بالباب ، وأصبحوا ينتظرون خروجه » ·

عندما أعلم الله نبيه بأمرهم كان محمَّلا أماناتٍ من القوم ، فكانت عنده ودائع للناس ، وليس بمكة أحد عنده شيء يخشى عليه الا وضعه عند النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، لما يعلم من صدقه وأمانته ، وكان ذلك مع شدة العداوة والمناوأة من أكبر المشركين ·

ولذلك خلف عليا رضي الله تعالى عنه ، وكرم الله تعالى وجهه في الجنة ، وجعله ينام في مكان نومه صلى الله تعالى عليه وسلم ، وقال لعلي كرم الله وجهه : نم على فراشي ، وتَسَجَّ ببُردي هذا الحضرمي ، فنم فيه ، فانه لن يخلص اليك شيء تكرهه منهم، فنام علي المؤمن المصدق لرسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، وهو الشجاع الجلد القوي الذي لا يهاب الموت في سبيل الله ، وكان اذ ذاك في نحو الثالثة والعشرين ، أو الثانية والعشرين ·

اجتماع المشركين في العتمة :

٣٢٩ روى ابن اسحاق · بسنده عن كعب القُرظي أنهم لما اجتمعوا له عليه السلام ، وفيهم أبو جهل قال أبو جهل ، وهم على بابه : ان محمدا يزعم أنكم ان تابعتموه على أمره كنتم ملوك العرب والعجم ، ثم بعثتم من بعد نومكم، فجعلت لكم جنان كجنان الأرْدُنِ ، وان لم تفعلوا كان فيكم

ذبح ، ثم بعثتم بعد موتكم ، ثم جعلكم ناراً تحرقون فيها . فخرج رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، فأخذ حفنة من تراب ، ثم قال نعم أقول ذلك وأنت أحدهم ، وأخذ الله تعالى على أبصارهم عنه ، فجعل ينثر ذلك التراب على رؤوسهم ، وهو يتلو :

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿يسٓ ﴿١﴾ وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ ﴿٢﴾ إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿٣﴾ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٤﴾ تَنزِيلَ الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ ﴿٥﴾ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّا أُنذِرَ آبَاؤُهُمْ فَهُمْ غَافِلُونَ ﴿٦﴾ لَقَدْ حَقَّ الْقَوْلُ عَلَىٰ أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٧﴾ إِنَّا جَعَلْنَا فِي أَعْنَاقِهِمْ أَغْلَالًا فَهِيَ إِلَى الْأَذْقَانِ فَهُم مُّقْمَحُونَ ﴿٨﴾ وَجَعَلْنَا مِن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴿٩﴾﴾ (١)

مر بهم رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، وهم لم يروه ، وقرأ عليهم هذه الآيات ، وسواء أصحت الرواية التي تقول ، انه خاطبهم أم لم تصح ، فانها لم تغير من اللب شيئا ، بل الحقيقة أنه مر عليهم ، وتلا عليهم تلك الآيات البينات ، وحثا التراب في وجوههم ، وانصرف النبي صلى الله تعالى عليه وسلم الى حيث كان على موعد مع صاحبه الصديق .

أما المشركون المؤتمرون الذين كانوا يريدون قتل الرسول صلى الله تعالى عليه وسلم ، فانهم استمروا في موقفهم منتظرين النبي صلى الله تعالى عليه وسلم أن يخرج ليقتلوه ، حتى أتاهم آت ممن لم يكن معهم . ويظهر أنه قد رأى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم قد خرج ، فقال لهم ، ما تنتظرون هاهنا ؟ فقالوا محمدا : فقال : خيبكم الله ، قد والله خرج محمد عليكم ثم ما ترك منكم رجلا الا وقد وضع على رأسه ترابا ، ثم مضى لحاجته ، أما ترون ما بكم ، فوضع كل رجل منهم يده على رأسه ، فاذا عليه تراب ، ولكنهم مع ذلك لم يصدقوا هذا الرجل الذي أتاهم ، فجعلوا يتطلعون ، فيرون عليا في الفراش ، متسجيا ببرد

---

(١) يس

رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ،فيقولون ، والله ان هذا لمحمد نائما عليه برده ، فلم يبرحوا كذلك ، حتى أصبحوافقام علي من الفراش ، فقالوا والله لقد صدقنا الذي حدثنا ٠

النبيّ مع صاحبه إلى الهجرة وطريقهما :

٣٣٠ ـ كان أبو بكر يريد الهجرة ، كما هاجر أصحاب النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، فكلما هم بالهجرة ،قال له النبي صلى الله تعالى عليه وسلم لا تعجل ، ويقول ابن اسحاق استأذن أبوبكر رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم في الهجرة ، فقال له : « لا تعجل لعل الله أن يجعل لك صاحبا ، وقد طمع أبو بكر أن يكون رسولُ الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، انما يعني نفسه ، ولقد عظم ذلك الظن في نفسه ، فابتاع راحلتين ، فحبسهما في داره ، يعلفهما اعداداً لذلك ، وكان رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم يأتي كل يوم الى بيت أبي بكر في طرفي النهار اما بكرة ،واما عشية، كما تروي عائشة رضي الله تعالى عنها ، وتقول حتى اذا كان اليوم الذي أذن فيه للنبي بالهجرة ، والخروج الى مكة من بين ظهري قومه أتانا رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم بالهاجرة في ساعة كان لا يأتي فيها فلما رآه أبوبكر ، قال : ما جاء رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم في هذه الساعة الا لامرحدث ٠٠ قال الرسول لابي بكر ان الله قد أذن لي في الخروج والهجرة ، فقال أبو بكر : الصحبةَ يا رسول الله ، قال رسول الله الصحبة » ٠

قالت راوية الخبر فوالله ما شعرت قط قبل ذلك اليوم أن أحدا يبكي من الفرح ، حتى رأيت أبا بكر يومئذ يبكي، ثم قال يا نبي الله ، ان هاتين راحلتان كنت أعددتهما لهذا ٠

كان هذا في الليلة التي أعلم الله نبيه صلى الله تعالى عليه وسلم بما يأتمر به القوم ، وأذن لرسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، فلما خرج ، وقد غشىّ الله تعالى على أبصارهم كانت الرحلةُ الشاقة ، وكانت الهجرة المباركة ، وقد أُخذت لها الاهبة ، وأُعدت لها العُدة ٠

عندما أخبر الرسول صلى الله تعالى عليه وسلم أبا بكر باذن ربه له بالهجرة، وأخبره عليه السلام بالصحبة تجمعهما، قال الصديق « يا نبي الله ان هاتين راحلتان كنت أعددتهما لهذا » ٠

وقد استأجر أبو بكر عبد الله بن أريقط ،وكان لا يزال على الشرك ، وأبوه من بني بكر ، وأمه من بني سهـــم بن عمرو ، قد استأجره أبو بكر ليكــــون دليلهما في الرحلة ، وقد دفع اليه أبوبكر الراحلتين ، فكانتا عنده يُعدهما ، ويرعاهما حتى يحل ميعـــادِ الخـــروج عليهما ، ويروى أنه أَهدى أفضلاهما لرسول الله صلى الله تعالى عليه وســلم، فسأله الرسول عن ثمنه ، فذكره ، وقال هي لك ٠

وكان الميعاد بينهما ُوخرج رســول الله صلى الله تعالى عليه وسلم هــو وأبو بكر خرج من خوخة لابي بكر في ظهــر بيته ، وذلك للامعان في الاستخفاء حتى لاتتبعهما قريش ، وتمنعهما من تــلك الرحلة المباركة ، وقد اتعـــدا مـــع الدليل على أن يلقاهما في غار ثور بعد ثلاث ليال ٠

وقد دعا النبي صلى الله تعالى عليـــه وسلم فيما روى ابن نعيم قائلا : «الحمد لله الذي خلقني ، ولم أك شيئا اللهم أعني على هول الدنيا ، وبوائق الدهر ، ومصائب الليالى والايام ، اللهم اصحبني في سفري ، واخلُفنى فى أهلي ،وبارك لي فيما رزقتني ، ولك فأذلني ، وعلى صالح خُلُقي فقـــومني ، واليك ربي فحببني ، والى الناس فلا تكلني ، انت رب المستضعفين ، وأنت ربي ، أعـــوذ بوجهك الكريم الذي أشرقت له السموات والارض ، وكُشفت به الظلمات ُوصلح عليه أمر الاولين والآخرين أن تُحـــل علي غضبك ، وتُنزل بي سخطك ،أعوذ بك من زوال نعمتك ، وفجأه نقمتك ،وتحول عافيتك ُلك العتبى عندي خـير ما استطعت ، ولا حول ولا قوة الا بك»٠

ومن قوله عليه السلام حين خــرج من مكة ، ونظر الى البيت « انكِ لاحب أرض الله الى الله ، ولولا أن أهلكِ اخرجوني منك ما خرجت » واخراجهم كان بالاذى ومنع الدعوة ٠

بهذا الدعاء الضارع ابتدأ رسول الله صلى الله تعالى عليـــه وسلم رحلته المباركة التي آتت أكلَها للانسانية كلها، لانها كانت ابتداء عموم الدعوة ٠

وقد كانت فكرة الهجرة بعد العقبة الثانية وفي عامها ، فقد انتهى الحج ، وابتدأ التفكير في الهجرة النبوية ، وقـــد هاجر المؤمنون قبله ، وقالوا ان هجرته عليه السلام لم تكن في المحرم ولا في صفر ، ولكن قد بدأت ، ولعلها

ابتدأت مع ابتدائه ، وقد وصلوا الى المدينة في الثاني عشر من ربيع الاول على أصح الروايات ، وكانت فى يوم الاثنين •

ولقد روى الامام أحمد عن ابن عباس : « ولد نبيكم يوم الاثنين ، ونبىء يوم الاثنين ، وخرج من مكة يوم الاثنين، ودخل المدينة يوم الاثنين ، وتوفي يوم الاثنين •

الرسول وصاحبه في غار ثور :

٣٣١ ـ كانت الهجرة هي النصر الاول ، بل هي أعظم النصر ، لان النصر الذي جاء من بعدها كان ثمرة لها ،فهي باب للفتح ، ولقد عدها الله سبحانه وتعالى النصر الاول ، وذكر محمدا صلى الله تعالى عليه وسلم وصاحبه في غار ثور هذا ، اذ قال تعالت كلماته :

﴿ إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ثَانِىَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِى ٱلْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا ۖ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلسُّفْلَىٰ ۗ وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِىَ ٱلْعُلْيَا ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٤٠) ﴾ (١)

خرج النبي صلى الله تعالى عليه وسلم الى غار ثور ، وهو على مسافة أربعة أميال من مكة بأسفله ، وسار هو وصاحبه الصديق، فجعل أبو بكر يمشي أمام النبي صلى الله تعالى عليه وسلم مرة ، وخلفه مرة ، فسأله النبي صلى الله تعالى عليه وسلم عن ذلك ، فقال اذا كنت خلفك خشيت أن تؤتى من أمامك، واذا كنت أمامك خشيت أن تؤتى من خلفك ، ويروى أنه قال اذا كنت أمامك خشيت الطلب ،واذا كنت خلفك خشيت الرصد •

وروى البيهقي عن عمر بن الخطاب: « لقد خرج رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ليلة انطلق الى الغار ، ومعه أبو بكر ، فجعل يمشي ساعة بين يديه وساعة خلفه ، حتى فطن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، فقال : يا أبا بكر مالك تمشي ساعة خلفي ، وساعة بين يدي ، فقال يا رسول الله أذكر الطلب ،

---

(١) التوبة

فأمشي خلفك ، ثم أذكر الرصد ،فأمشي بين يديك ، فقال النبي صلى الله تعالى عليه وسلم : يا أبا بكر ، لو كان شيء لاحببتَ أن يكون بك دوني؟ قال نعم ، والذي بعثك بالحق ، فلما انتهيا الى الغار ، قال أبو بكر مكانك يا رسول الله حتى أستبرىء لك الغار ، فدخل حتى اذا كان ذكر أنه لم يستبرىء الجحر ، فقال: مكانك يا رسول الله حتى أستبرىء ، فدخل فأستبرأ ، ثم قال أنزل يا رسول الله ، فنزل ، ثم قال عمر : والذي نفسي بيده ، لتلك الليلة خير من آل عمر»(١).

مكث رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم مطمئنا الى وعد الله ، راضيا بالمشقة في سبيل الدعوة ، وتبليغ الرسالة ، وقد رضي أن يفارق مكة ، وهي أحب بلاد الله في سبيل اقامة الدولة الاسلامية ، التي لم يمكنه أهلها من الدعوة ، وحاولوا قتله ، وكانت هذه المحاولة مع عنادهم ، وكفرهم ، وجحودهم بالآيات سببا في أن يَخرج يريد أرضا لدولة الاسلام في غيرها .

علم المشركون ، أو العتاة منهم أن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم خرج ، وأن الذي نام مكانه علي ، وأنهم ترصدوا عليا ، وهم يحسبون أنهم يترصدون النبي ليقتلوه ، حاولوا أن يعرفوا مِن علي أين ذهب النبي ، فلم يجدوا عنده ما يطلبون ، فأخذوا يتقصّوْن أثره ، ويتأثرون خُطاه ليعرفوا أين يكون ، وأطلقوا في الاسواق والاماكن من يأتي به حيا أو ميتا وقد اقتفوا أثره ، وتتبعوه ، حتى وصل بهم الامر الى جبل ثور الذي بغاره الصاحبان ولكن آية الله تعالى أن جعلت العنكبوت ينسج نسيجه ، وكأنه من سنين ، وأن حمامتين عششتا على بابه ، فكانت آية حسية من خوارق العادات ، ولكن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم لم يتحدث لاثبات نبوته الا بالقرآن ، لانه المعجزة الكبرى الباقية الى يوم الدين ، وهو حجة على الخليقة في كل الاجيال ، ولكل الاجناس .

جاء رجال قريش يطلبون النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، وقد انتهى بهم الاثر الى الغار ، ولكنهم وجدوا ما وجدوا ، وقالوا اذ رأوا نسج العنكبوت لم يدخل أحد ، وهم لو ألقوا بأنظارهم الى داخله لرأوا الرسول وصاحبه ، ولكن صرف الله تعالى أنظارهم ، والنبي صلى الله تعالى عليه وسلم آمن مطمئن ، ولذا

---

(١) البداية والنهاية لابن كثير جـ (٣) ص ١٨٠

كان قائما يصلي ، وأبو بكر يرتقب ،فلما أتم النبي صلى الله تعالى عليه وسلم صلاته ، قال أبو بكر خائفا على النبي عليه الصلاة والسلام ان قومك يطلبونك أما والله أني لأئِلُ (١) على نفسي ،ولكن مخافة أن أرى فيك ما أكره ، فقال له النبي صلى الله تعالى عليه وسلم« لا تخف ان الله معنا » .

هذا ما كان من القوم ، وما كان يجري داخل الغار ، وكان أبو بكر قد دبر الامر بالنسبة للرسول صلى الله تعالى عليه وسلم ، لقد كلف ابنه عبد الله أن يأتيهما وهما في الغار بأخبار قريش ،وما تدبر من أمرها ، وهو غلام شاب ثقِف مدرك لَقِن ، فيُدلج من عندهما فيصبح مع قريش بمكة ، ولا يسمع أمرا يكيدون به لرسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم وصاحبه ، حتى يأتيهما بخبر ذلك حين يختلط الظلام ، وأمر مولاه عامر بن فهيرة أن يرعى غنمه ،فيريحها عليهما وهما في الغار ، وذلك في ساعة العِشاء ، فيبيتان وآرسال لبن الغنم تصل اليهما ، حتى اذا جاء الغلس ،أخذ عامر بن فهيرة الغنم ، وعاد الى مكة ، فيكون من اللبن غذاء ، ويذهب سير الغنم بآثار من يجيئون الى الغار ،حاملين أخبارا ، أو حاملين طعاما .

وكانت أسماء بنت أبي بكر تُعد لهما سفرة من الطعام في جِراب ، ولما لم تجد ما تربط به قطعت نطاقها ،فربطت بقطعة منه على فم الجِراب، ولذلك سميت ذات النطاقين ، وكانت تذهب بالطعام لرسول الله صلى الله عليه وسلم وصاحبه كل يوم ، أو كلما أمكنتها الفرصة .

سُراقة والسَير إلى المدينة :

٣٣٢ ـ مكث النبي صلى الله تعالى عليه وسلم في الغار ثلاث ليال ، حتى يسكن طلب قريش ، وييئسوا من أن يصلوا اليه ، صلى الله تعالى عليه وسلم ، وبعدها خرجا قاصدَين الى المدينة ، ومعهما دليلهما المشرك ، ولكنه كان أمينا عليهما ، غير مدلس ولا ممالىء ، فسلك بهم طريق الساحل ، حتى لا يتبعهم أحد من قريش ، لانهم لا يتصورون أنه يسلك هذا الطريق وهم يتتبعونه ، ويقتفون طريقه ، وقد جعلوا لمن يعود به حيا أو ميتا مائة ناقة كما أشرنا من قبل .

---

(١) هى من أل المريض أو الحزين بمعنى رفع صوته وصرخ عند نازلة تنزل به .

وقد طمع سراقة بن مالك بن جعشم في أن ينالها ، وقد روى ابن اسحاق عنه أنه قال :

لما خرج رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم من مكة مهاجرا، جعلت قريش فيه مائة ناقة لمن رده عليهم • فبينما أنا جالس في نادي قومي ، اذ أقبل رجل منا ، فقال : والله لقد رأيت رَكَبة ثلاثة مروا علي آنفا ، اني لأُراهم محمدا وأصحابه، فأومأت اليه بعيني أن اسكت، ثم مكثت قليلا •• ثم أمرت بفرسي •• وأمرت بسلاحي •• ثم أخذت قداحي أستقسم بها ، ثم انطلقت فلبست لأْمتي (١) ، فاستقسمت ، فخرج السهم الذي أكره ، وكنت أرجو أن أرده على قريش ، فآخذَ مائة الناقة ، فركبت على أثره ، فبينما فرسي يشتد عثر بي ، فسقطت عنه ، فقلت ما هذا، ثم أخرجت القداح، فاستقسمت بها ، فخرج السهم الذي أكره ، فأبيت الا أن أتبعه ،فركبت في أثره، فبينما فرسي يشتد بي فعثر بي، فسقطت عنه، فقلت ما هذا، ثم أخرجت قداحي فاستقسمت بها ، فركبت في أثره ، فلما بدا القوم ورأيتهم عثر بي فرسي ، فذهبت يداه في الارض ، وسقطت عنه، ثم انتزع يداه من الارض، وتبعهما دخان كالإعصار ، فعرفت حين رأيت ذلك أنه قد مُنع عني، وأنه ظاهر، فناديت القوم ، فقلت أنا سراقة بن جعشم ، آنْظِروني أكلمكم ، فوالله لاأَريبكم ، ولا يأتيكم مني شيء تكرهونه، فقال رسول الله قوله ، وماذا تبغي منا ؟قلت تكتب كتابا يكون بيني وبينك •

يلاحظ أنه ذكر له ما كان يسعى اليه ، ولكنه عندما رأى ما رأى ، وعلم اليقين في الرسالة ، استوثق من أن محمدا صلى الله تعالى عليه وسلم منصور بأمر الله تعالى •

فكتب رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم كتابا ، ثم ألقاه اليه •

وقد استمر سراقة حافظا لهذا الكتاب ، حتى جاء الفتح المبين بفتح مكة ، ثم فرغ رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم من حنين والطائف ذهب سراقة الى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم بالكتاب ، ويقول في ذلك « دنوت من رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ،فرفعت يدي بالكتاب ، وقلت يا رسول الله،هذا كتابك لي،أنا سراقة بن جعشم،فقال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم : « هذا يوم وفاء » •

---

(١) الدرع

أعلن سراقة اسلامه ، ويظهر أنه كان مؤمنا بصدق النبي صلى الله تعالى عليه وسلم من يوم أن رأى ما رأى ، ولذلك أراد أن يأخذ هذا الكتاب .

وقد سأل النبي صلى الله تعالى عليه وسلم عن سقي الابل الضالة قائلا : الضالة من الابل تغشى حياضي ، وقد ملأتها لابلي هل لي من أجر في أن أسقيها ؟ قال الرسول الرحيم : نعم في كل ذات كبد حَرَّى أجر .

ولقد حسن اسلامه فرجع الى قومه ، وساق الى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم صدقته .

الركب يسير في طريق الصحراء :

٣٣٣ ــ لم تكن الرحلة المباركة سهلة ، لان الطريق في الصحراء ، ليس سهلا في ذاته ، بل هو طريق وعث تُجتاز فيه الرمال والوهاد والآكام ، وقد اختار الدليل طريقا هو أشد طرق الصحراء وعورة ، وذلك لكيلا تتبعهم قريش اذا سار في الطريق الذي ألفوا السير فيه ، وقد يكون معبّدا الى حد مناسب للصحراء .

لقد سلك بهم طريق الساحل ، ولم يكن مألوفا في الوصول الى يثرب منه ، ولنترك الكلمة لابن اسحاق في سيرته يذكر الاماكن التي مر بها فهو يقول :

لما خرج بهما دليلهما عبد الله بن (أريقط) سلك بهما أسفل مكة ، ثم مضى بهما (النبي وأبي بكر) على الساحل حتى عارض الطريق أسفل من عُسْفان ، ثم سلك بهم على أسفل أَمَج ، ثم استجار بهما حتى عارض بهما الطريق ، بعد أن أجاز قُديدا ، ثم أجاز بهما من مكانه ذلك ، فسلك بهم الخَرّار ، ثم سلك بهما ثنية المَرَة ، ثم سلك بهما لِقْفا ، ثم أجاز بهما مَدْلَجة لِقْف ، ثم استبطن بهم مدلجة مَحَاج (١) ، ويقال له مِجَاج ، ثم سلك بهم مرجِح مَحاج ، ثم تبطن بهما مرجح ذي الغَضوين ، ثم بطن ذي كَشْر ثم أخذ بهما على الجَداجِد ، ثم على الاجرد ، ثم سلك بهما سَلَم ، من بطن أعداد مدلجة تِعْهِن (وزن فِعْلِل) اسم عين ماء ، ثم على العبابيد .. ثم أجاز بهما الفاحة .

---

(١) فى معجم البلدان لياقوت (مجاج)

قال ابن هشام : ثم هبط بهم العَــرْج ، وقد أبطأ عليهما بعض ظهــرهم ، فحمل رسولَ الله صلى الله تعالى عليـــهوسلم ، رجل من أسلم يقال له أوس بن حجر ، على جمل له يقال له ابن الرداءالى المدينة ، وبعث معه غلاما له يقال له مسعود بن هنيدة ، ثم خرج بهما دليلهمامن العَرْج فسلك بهم ثنية العائر يمين رَكوبة ، حتى هبط بهما بطن رِئْم ، ثمقدم بهما قباء لاثنتي عشرة ليلة خـلت من شهر ربيع الأول يوم الاثنين ، حيناشـــتد الضحـــاء ، وكـادت الشمس تعتدل (١) .

هذا هو البيان الذي ذكرت فيه أسماء الاماكن التي مــر بهـــا ذلك الركب المبارك ، فما ذكر كلُه أسماءُ أماكنَ فيالصحراء العربية ، وهي مجاهل فيها ، ما كان ليعلمها الا خبير بها ، وهــو ذلكالدليل الذي كان عليما بها ، وكان أمينا على من معه مع بقائه على الشرك .

وهذا البيان يدل على مقدار صعــوبة الرحلة ، حتى أجهـــدت الرواحل ، واضطر النبي صلى الله تعالى عليه وسلمالى تغيير الراحلة .

أمّ معبدٍ والشاة العجاف :

٣٣٤ ــ هذا خبر عن امرأة نقيةطاهرة مخلصة ، التقى بها النبي صـلى الله تعالى عليه وسلم في القُديد في أثناءرحلته ، وقد ظهر في لقائه بها عليـه السلام من خوارق العادات ، مما يضافالى خارقة خروجه عليه السلام ، وقـد وضع الله تعالى على بصرهم غشاوة ، فلميروه ، ويضـــاف نسج العنكبوت في الغـــار ، والى تعشيش الحمام عليه ،والى غوص قوائم فرس سراقة ، وعثرته عدة مرات .

فان كل هذه خوارق عادات حسيةٌ ،لا تقــل عن معجـزات موسى وعيسى الحسية ، ولكن النبي صلى الله تعــالىعليه وسلم لم يتحد قـــريشا بها ، ولم يتحد الوجود الانساني بها ، بل تحداهبالقرآن المعجزة الكبرى .

والخارق الذي بدا في المرور على أممعبد ، هو أن اللبن در من شاة عجفاء حائل لا لبن فيها ، وسقى جميع الركب،وتكرر السقي ، وشاركهم أهل المنـزل

---

(١) سيرة ابن هشام جـ ١ ، ٢ ص ٤٩١ ، ٤٩٢ .

الذي نزل فيه النبي صلى الله تعالى عليه وسلم، واليك القصة كما رواها البيهقي بسنده عن أبي معبد الخزاعي :

ان رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم خرج ليلة هاجر من مكة الى المدينة هو وأبو بكر ، وعامر بن فهيرة مولى أبي بكر ، ودليلهم عبد الله ابن أريقط الليثي ، فمروا بخيمتي أم معبد الخزاعية ، وكانت أم معبد امرأة برزة جلدة، تحتبي ، وتجلس بفِناء الخيمة • فسألوها هل عندها لحم أو لبن ، يشترونه منها ، فلم يجدوا عندها شيئا من ذلك ،وقالت لو كان عندنا شيء ما أعوزكم القِرى ، واذ القوم مُرْمِلون مُسْنِتون(أي في سنة جدب) •

فنظر رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم فاذا شاة في كسر خيمتها ، فقال عليه السلام : ما هذه الشاة يا أم معبد؟فقالت شاة خلفها الجَهد عن الغنم،قال عليه السلام : فهل بها من لبن ؟ فقالت هي أجهد من ذلك • قال عليه السلام : تأذنين لي أن أحلبها ؟ قالت : ان كان بها حلَب فاحلبها ، فدعا رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم بالشاة،فمسح ضرعها ،وذكر اسم الله تعالى ، ودعا باناء لها يريض الرهط (١) ، فتفاجت واجترت،فحلب منها ثجا حتى ملأه ، وأرسله اليها، فسقاها ، وسقى أصحابه ، فشربوا عللا بعد نهل (٢) ، حتى اذا أرووا شرب (أي عليه السلام) آخرهم ، وقال ساقي القوم آخرهم ، ثم حلب فيه ثانيا عودا على بدء ، فغادروه عندها ،ثم ارتحلوا •

فما لبث أن جاء زوجها أبو معبد يسوق أعنزا عجافا يتساوكن هزلا،لا نِقْيَ بهن،فلما رأى اللبن عجب ، وقال من أين هذا اللبن يا أم معبد ، ولا حلوبة في البيت ، والشاة عازب ؟ فقالت : لا ،والله انه مر بنا رجل مبارك ، كان من حديثه كيت ، وكيت • فقال صفيه ،فوالله اني لاراه صاحب قريش الذي تطلبه • فقالت : رأيت رجلا ظاهر الوضاءة ، حسن الخَلْق ، مليح الوجه ، لم تعبه ثُجْلة(٣)،ولم تُزْرِ به صُعْلة(٤)، قسيم وسيم ، في عينيه دعج ، وفي أشفاره وَطَف، وفي صوته صَحَل، أكحل،أزج ، أقرن (أى سيد) في عنقه سَطَع، وفي لحيته كثافة ، اذا صمت فعليه الوقار،واذا تكلم سما ، وعلاه البهاء ،

---

(١) أى يشبع الجماعة ، وتفاجت ممناها فرجت بين رجليها
(٢) النهل الشرب الأول ، والعلل الشرب الثانى ــ النِقْيُ المخ
(٣) الثجلة : ضخامة البطن (٤) الصُعلة : صغر الرأس

حلو المنطق ، فصل لانزر ، ولا هذر ٠كان منطقه خرزات نظم يتحدرن ، أبهى الناس وأجملهم من بعيد ، وأحسنهم من قريب ، ربعة ، لا تشنؤه عين من طول ، ولا تقتحمه عين من قصر ، غصن بين غصنين ، فهو أنضر الثلاثة منظرا ، وأحسنهم قدا ، له رفقاء يحفون به ، ان قال استمعوا لقوله ، وان أمر تبادروا لامره محفود ، محسود ، لا عابس ولا مُفَنِّد ٠

فقال بعلها : هذا والله صاحب قريش الذي تطلب ، ولو صادفته لالتمسن أن أصحبه ، ولاجهدن ان وجدت الى ذلك سبيلا ٠

هذه قصة أم معبد ، وهذه أقوالها ،وقد أشرنا الى ذلك في صفات النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، واسمها كما جاء في كتب السيرة عاتكة بنت خلف بن معد بن ربيعة بن أضرم ٠٠ وأبو معبد زوجها ـ اسمه أكثم بن عبد العزى بن معبد بن ربيعة بن أضرم ، فهو من أبناء عمومتها ، وقيل انه أسلم ، وهاجر ٠

خوارق أخرى من معجزاته ﷺ :

٣٣٥ ـ سار الرائد الذي سلك بالنبي وصاحبه غير الطريق الجاد ، وسار فى طريق غير مطروق ، مر بأماكن كثيرة ، وقد حدثت في هذه الطريق خوارق للنبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، كلها يتعلق بمسير السائر في الصحراء وحاجته الى الزاد والماء ، فكانت الخوارق تجيء مناسبة لذلك ٠

وقد روى البيهقي بسند عن قيس بن النعمان قال : « لما انطلق رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، وأبو بكر رضي الله تعالى عنه مُسْتَخْفِيَن ، مروا بعبد يرعى غنما ، فاستسقياه اللبن فقال ما عندي شاة تُحْلب ، غير أن هناك عَناقا حملت أول الشتاء وقد أخدجت (١) ، وما بقي لها من لبن ، فقال عليه السلام ادع بها ، فدعا بها ، فاعتقلها النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، ومسح ضرعها ، ودعا حتى أنزلت ، وجاء أبو بكر بوعاء فحلب ، فسقى عليه السلام أبا بكر ، ثم حلب ، فسقى الراعي ، ثم حلب ، فشرب صلى الله تعالى عليه وسلم ، أخذ العجبُ الراعيَ ، فقال من أنت ،فوالله ما رأيت مثلك قط ، قال عليه الصلاة والسلام : « وتراك تكتم علي حتى أخبرك ؟ قال نعم ، قال النبي صلى

---

(١) أى القت ولدها بعد أن صار تام الخلق ، ولكن نزل قبل أوانه ، ويقال أيضا اذا ولدته قبل تمام الحمل ناقص الخلق

الله تعالى عليه وسلم فاني محمد رسول الله · فقال الراعي المخلص أنت الذي تزعم قريش أنه صابيء !! قال انهم ليقولون ذلك ، قال فاني أشهد أنك نبي، وأشهد أن ما جئت به حق ، وأنه لايفعل ما فعلت الا نبي ، وأنا متبعك ، قال النبي صلى الله تعالى عليه وسلم : انك لا تستطيع ذلك يومك هذا، فاذا بلغك أني قد ظهرت فأتنا » ·

وقد روى هذا أيضا أبو يعلى :

وروى أبو نعيم بسنده عن عبد الله بن مسعود أنه قال : « كنت غلاما يافعا، أرعى غنما لعقبة بن أبي معيط بمكة ،فأتى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، وأبو بكر ، وقد فرا من المشركين ، فقال يا غلام عندك لبن تسقينا » فقلت اني مؤتمن ،ولست مساقيكما، فقال : هل عندك من جذعة لم ينز عليها الفحل بعد ؟ قلت نعم ، فأتيتهما بها ، وأخذ رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم الضرع ،فدعا،فحفل الضرع ، وجاء أبو بكر بصخرة منقعرة ، فحلب فيها ، ثم شرب هو وأبو بكر ، وسقياني ، ثم قال للضرع أقلص فقلص · فلما كان بعد أتيت رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، فقلت علمني من هذا القول الطيب : يعني القرآن ، فقال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم : انك غلام معلم ، فأخذت من فيه سبعين سورة ما ينازعني فيها أحد » ·

وهذه القصة لعلماء السيرة فيها كلام ، ذلك أن ابن مسعود رضي الله عنه كان من المسلمين الذين أسلموا قبل الهجرة ، وأوذوا في سبيل الله ، وهاجر الى الحبشة ، والقصة توهم أنه كان اسلامه في أثناء رحلة النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ·

وكلام علماء السيرة ، لا يمنع أصل القصة ، ولب الخوارق للعادة ، فان ذلك ثابت في الصحاح ، وربما كان الكلام منصبا على السياق ، لا على أصل الواقعة وغيره ثابت بلا ريب ·

وقد سقنا ذلك الكلام ، وليس فيه تطويل ، لانه صدق ، ولا تطويل في نقل الصادق من الاخبار ·

وان هذا كله يدل على أن سيدنا رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم قد جاء على يديه من الخوارق الحسية ما يزيدعلى التسع التي اختص بها موسى عليه السلام ، وليست فى دلالتهـا الروحيةأقل من معجزات عيسى عليه السـلام ، اذ آحيا الموتى باذن الله ، واذ آخرجهـامن قبورها باذن الله واختلاف النـوع لا يدل على ضعف الروحانية في خوارقمحمد صلى اللهتعالى عليه وسلم ،فالاسراء والمعراج خـارق للعادة مادي روحي ،وغوص فرس سراقة ، ونبع اللبن بين أصابعه وتكرره يدل على قوة روحيـةلا تقل عن احياء الموتى ، ومع ذلك لم يتحد النبي صلى الله تعالى عليـه وسلمالا بالقرآن الذي أنزله على عبده ليكون للعالمين نذيرا .

وصول النبي صلى الله عليه وسلم إلى قباء

٣٣٦ ـ استمر الركب المبارك محمد وصاحبه سائرا في طريق وعر في وعثاء الصحراء . وقد استطال فرارا من الطلب، وآيات الله تتبعها آية آية وكثرت في الطريق ، وتوالت ، ليعلم النبي صلى الله تعالى عليه وسلم بالواقع أنه تعالى معه ، حيث حل ، وحيث ارتحل ، كما علم من قبل بعين الايمان ، اذ قال لصاحبه وهو بالغار لا تحزن ان الله معنا . فأراه الله تعالى الآيات في رحلته، كما أراه الآيات في نبوته .

وقد انتهت شدة الرحلة بالوصول الى قباء ، حيث المنعة والنصرة ، وحيث لقاء أهل الايمان الذين كانوا يترقبون شخصه ، ويستشرفون لحلوله بينهم ،

يقرر ابن اسحاق بسنده في هذا عن عبد الرحمن بن عويمر بن ساعدة ، قال : حدثني رجال من قومي من أصحاب رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم، قالوا : لما سمعنا بمخرج رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم من مكة وتوقعنا قدومه ، كنا نخرج اذا صلينا الصبح الى ظاهر حرتنا ننظر رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، فوالله ما نبرح حتى تعلينا الشمس على الظلال ، فاذا لم نجد ظلا دخلنا ، وذلك في أيام حارة، حتى اذا كان اليوم الذي قدم فيه رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، جلسنا كما كنا نجلس حتى اذا لم يبق ظل دخلنا بيوتنا .. وقدم رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم حين دخلنا البيوت ، فكان أول من رآه رجل يهودي ، وقد رأى ما كنا نصنع ، وأن ننظر قدوم رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ـ علينا ، فصرخ بأعلى صوته يا بني قيلة (الانصار) هذا جدكم قد جاء فخرجنا الى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم، وهو في ظل نخلة ، ومعه أبو بكر رضي الله عنه في مثل سنه ، وأكثرنا لم يكن رأى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم، وركبه الناس (أي) ازدحموا عليه وما يعرفونه من أبي بكر ، حتى زال الظل عن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم، فقام أبو بكر ، فأظله بردائه ، فعرفناه عند ذلك .

نزل رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، فيما يذكر علماء السيرة الطاهرة على كلثوم بن هندم ، وبعض العلماء يقول انه نزل عند سعد ابن

خيثمة ، وقد وفق ابن اسحاق وغيره بين الخبرين ، فقال انه صلى الله تعالى عليه وسلم نزل عند كلثوم ، ولكنه كان اذا خرج الناس وجلسوا اليه ، كان ذلك في بيت سعد .

ولقد جاءت عبارات تفيد أنه كان يختار الجلوس في بيت سعد ، لانه كان عزبا لا أهل له ، وكان منزله منزل الاعزاب من المهاجرين .

ونزل صاحب رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم أبو بكر على خبيب ابن أساف .

وفي قباء التقى علي بن أبي طالب برسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم اذ أنه مكث ثلاث ليال وأيامها بمكة بعد رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم لرد الودائع ، ثم أخذ سمته الى يثرب ،وكأنه أقام في مكة بعد الرسول عليه السلام المدة التي مكثها النبي وصاحبه في الغار ، اذ أنهما مكثا في الغار ثلاث ليال .

ونزل علي كرم الله وجهه في المنزل الذي نزل فيه النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، وهو منزل كلثوم بن هند ،ويظهر أن حضوره الى قباء كان بعد حضور النبي صلى الله تعالى عليه وسلم بليلة على الاقل ، لانه أقام بقباء ليلة أو ليلتين ، وقد ذكر ابن اسحاق أنه أقام في قباء أربعة أيام بلياليها ، فذكر أنه أقام يوم الاثنين والثلاثاء والاربعاء والخميس ، وفي هذه المدة التي أقامها بقباء أنشأ مسجدها ، وهو الذي أشار الله تعالى اليه في قوله :

﴿ لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا ۚ لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى ٱلتَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ ۚ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُوا۟ ۚ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُطَّهِّرِينَ ﴿١٠٨﴾ ﴾ (١)

فهو مسجد أسس على التقوى من أول يوم أقام فيه النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، وهو جدير بأن يسمى مسجد الهجرة ، وأنه مسجد الذين يحبون أن يتطهروا في عبادتهم غير مرائين ولا منافقين .

ولقد كان رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم وصل في اليوم الثاني عشر من شهر ربيع الاول ، وكان يوم الاثنين، وقيل في اليوم التالي ، والاول هو الذي يرجحه الرواة .

---

(١) التوبة

دخوله المدينة صلى الله عليه وسلم

٣٣٧ ـ كان دخول رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم المدينة يوما مباركا على أهل المدينة ، وعلى الاخلاف ، وعلى الخليقة كلها ، لانه اليوم الذي انتقل فيه الاسلام من الدعوة في مكة وماحولها ، غير معلمة بنظام ثابت مقرر عام بل كانت الدعوة في دائرة العقيدة ،وبيانها ، وبيان ما يتعلق بها ، من غير أن تكون نظاما مفروضا يتبع وينفذ ،انتقل الاسلام من ذلك الحيز الى عموم الدعوة فعلا ، للبلاد العربية ، في كل صقع من أصقاعها ، ثم تجاوز حيز العرب ، الى الدول المجاورة ، ومنها انساب الى ما وراءها من اقليم الى اقليم .

ولقد أحس أهل المدينة بما حباهم الله به من فضل ، وبما اختص المدينة من شرف ، اذ صارت موطن الايواء والنصرة أولا ، وموطن النظام الاسلامي ثانيا ، والمكان الذي يأرز اليه الاسلام ثالثا ،وأحست بأن الوثنية آذنت بأفول ، وأن اليهود فيها صاروا لا يتطاولون بعلم علموه ، أو كتاب سبقوهم به .

ولذا خرج الناس مهللين مكبرين بمقدم النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، يستقبلون من يرون فيه الهداية فرحين واجدين في مقدمه العزة والكرامة ، والاحلاس والطهر من الوثنية .

روى الشيخان البخاري ومسلم بالسند المتصل عن أبي بكر رضي الله تعالى عنه أنه قال : « خرج الناس حين قدمنا المدينة في الطريق ، وعلى البيوت ، والغلمان والخدم يقولون : الله أكبر جاء رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، الله أكبر جاء محمد ، الله أكبر جاء محمد ، الله أكبر جاء رسول الله ، فلما أصبح انطلق ، وذهب حيث أمر » .

وروى البيهقي في دلائل النبوة ، وأبو بكر المقري في الشمائل ، والطبري في الرياض ، عن ابن عائشة ، واسمه عبيد الله بن محمد بن حفص ، وأمه عائشة بنت طلحة ، أنه صعدت ذوات الخدور تعلن تهنئة له حال دخوله :

طلع البدر علينا من ثنيات الوداع

وجب الشكر علينا ما دعا لله داع
أيها المبعوث فينا جئت بالامر المطاع(١)

روى هذا الخبر أيضا في سنن الترمذي والنسائي عن السائب بن يزيد ٠

هذا استقبال رائع ـ صحبه تكبير أهل المدينة لمقدم النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، فقد كان هناك استقبال عملي أروع في معناه ، وهو تزاحم أهل كل بطن من بطون الاوس والخزرج ،في أن يأخذ بناقة رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، لتكون اقامته بينهم ٠

جاء رجال من بني سالم ، فقالوا يا رسول الله أقم عندنا فينا العدد والعدة والمنعة ، وأخذوا بزمام الناقة ، فقال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم « خلوا سبيلها فانها مأمورة » ٠

وجاء رجال من بني بياضة ، فقالوا يا رسول الله : هلم الينا الى العدد والعدة والمنعة ، قال عليه السلام خلوا سبيلها فانها مأمورة ، فخلوا سبيلها ، فانطلقت حتى اذا مرت بدار بني ساعدة ، اعترضه سعد بن عبادة والمنذر بن عمرو في رجال من بني ساعدة ، فقالوا : يارسول الله هلم الينا في العدد والمنعة ، فقال عليه السلام خلوا سبيلها ، فانها مأمورة فخلوا سبيلها ، فانطلقت حتى اذا وازت دار بني الحارث بن الخزرج اعترضه معاذ بن ربيعة ، وخارجة بن زيد ، وعبد الله بن رواحة ، في رجال من بني الحارث بن الخزرج ، فقالوا يا رسول الله هلم الينا الى العدد والعدة ، والمنعة ، فقال : عليه السلام خلوا سبيلها ، فانها مأمورة فخلوا سبيلها ، فانطلقت ، حتى اذا مرت بدار عدي بن النجار اعترض

---

(١) يقول ابن القيم ان هذا الدعاء قيل عند عودة النبى صلى الله تعالى عليه وسلم من غزوة تبوك ، ويحذف البيت الأخير من الأبيات الثلاثة ،والسبب فى قوله أنه أرجف المرجفون فى المدينة عن النبى فى غزوة تبوك مما جعل المؤمنين يستبشرون ويفرحون بمجيئه ، فخرج الغلمان والنساء يقولون ، وان ثنية الوداع فى مدخل المدينة من قبل الشام ، لا من قبل مكة ، ويقول فى ذلك ابن القيم : لما دنا رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم من المدينة ، خرج الناس لتلقيه ، وخرج النساء والصبيان والولائد تعلن طلع البدر علينا من ثنيات الوداع ، وجب الشكر علينا ٠ ما دعا لله داع ، وبعض الرواة يقول : انما كان ذلك عند مقدمة من مكة الى المدينة وهو وهم ظاهر لأن ثنيات الوداع ، انما هى من ناحية الشام ، ولا يراها القادم من مكة الى المدينة ولا يمر بها الا اذا توجه الى الشام ٠

رجال منهم ، فقالوا يا رسول الله هلم الىاخوانك ، ومعهم أم عبد المطلب جـــد النبي صلى الله تعالى عليه وسلم قالوا هلمالى العدد والعدة ، والمنعة ، فقال عليــه السلام خلوا سبيلها ، فانها مأمــورة ،فخلوا سبيلها •

فانطلقت حتى اذا أتت دار بني مالك بن النجار بركت ، وكان ذلك عنـــد دار أبي أيوب الانصارى ، ويقــول ابناسحاق لما بركت لم ينزل رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم عنها ، حتى وثبت ،فسارت غير بعيد ، ورسول الله ، واضع لها زمامها لايثنيها به ، ثم التفت خلفها،فرجعت الى مبركها أول مرة فبركت فيه ثم نزل عنها رسول الله صـــلى الله تعالىعليه وسلم ، فاحتمل أبو أيوب خالد بن زيد رحله فوضعه في بيته ، ونزل عليهرسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم حتى بنى المسجد ، وبنى له دارا •

من خطب رسول الله صلى الله عليه وسلم

٣٣٨ ـ تدل هذه الاخبار التيسقناها ، على أن الانصار الذين دخلوا في الاسلام كانوا يرحبون بالنبي صلىالله عليه وسلم في بيوتهم فرادى ، وجماعات ، وأنهم بيوتا وبطونا كانوايستعدون بعددهم ، ويعطون العهد ، على المنعة والحرب معه ، من غير تحفظولا شرط ٠

ويظهر أن ذلك كان يثير غضب المشركين فيهم ، وخصوصا الذين صاروا من بعد منافقين ، يبطنون مالا يظهرون أويخفون ما لا يبدون ، ولقد روي أنه مامر بأهل بيت الا أعلنوا التأييد وأبدوا الترحيب الا عبد الله ابن أبي الذي صار من بعد زعيم النفاق في المدينة الطاهرة ٠

ولقد ذكر موسى بن عقبة أن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، مر فى طريقه بعبد الله بن أبي بن سلول ،ينتظر أن يدعوه الى المنزل ، وهو يومئذ سيد الخزرج فى أنفسهم ، فقال عبد اللهانظر الى الذين دعوك فانزل عليهم ، فذكر ذلك رسول الله صلى الله تعالى عليهوسلم لنفر من الانصار ، فقال سعد بن عبادة يعتذر عنه : لقد منّ الله تعالىعلينا بك يا رسول الله ، وانا نريد أن نعقد على رأسه التاج ، ونملكه علينا ٠

اتجه رسول الله صلى الله تعالى عليهوسلم من بعد نزوله في دار أبي أيوب الانصاري الى ثلاثة أمور :

أولها : صلاة الجمعة ، فقد صلاها فيبني سالم بن عمرو بن عوف ، ويظهر أنه صلاها في أرض فضاء ، لانه لم يكنقد بنى مسجده فيها ، وما دام النبي صلى الله تعالى عليه وسلم قد اختارها لاقامةالجمعة ، فهي مسجد تقام فيه الصلوات، وخصوصا أنه ولي أمر المسلمين ٠

الأمر الثاني الخطبة ، وقد قالوا انرسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم خطب الجمعة ، وقد روي في نصها روايتان : احداهما ـ رواية بن جرير الطبري ، والخطبة في هذه الرواية طويلة نسبيا ، ورواها البيهقي ، وروايته

أقصر ، ولم ينص على أنها خطبة واحدة، بل روى أخرى بعدها على أنها خطبة أخرى ، ولنذكر الخطب الثلاث، وان كان في بعض رواتها كلام ، ولكنها أشبه بكلام رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ومواعظه الخطبة التي رواها ابن جرير ٠

« الحمد لله أحمده وأستعينه ، وأستغفره ، وأستهديه ، وأومن به ولا أكفره ، وأعادي من يكفره ، أشهد أن لا اله الا الله وحده لا شريك له ، وأن محمدا عبده ورسوله ، أرسله بالهدى ودين الحق ، والنور والموعظة على فترة من الرسل ، وقلة من العلم ، وضلالة من الناس ، وانقطاع من الزمان ، ودنو من الساعة وقرب من الاجل ، من يطع الله ورسوله فقد رشد ، ومن يعصهما فقد غوى وفرط ، وضل ضلالا بعيدا ، وأوصيكم بتقوى الله ، فانه خير ما أوصي به المسلم أن يحضه على الآخرة ، وأن يأمره بتقوى الله تعالى فاحذروا ما حذركم الله من نفسه ، ولا أفضل من ذلك نصيحة ، ولا أفضل من ذلك ذكرى وان تقوى الله تعالى لمن عمل على وجل ومخافة ، وعون صدق على ما تبتغون من أمر الآخرة ، ومن يصلح الذى بينه وبين الله من أمر السر والعلانية ، لا ينوي بذلك الا وجه الله تعالى يكن له ذكرا في عاجل أمره ، وذخرا فيما بعد الموت حين يفتقر المرء الى ما قدم ، وما سوى ذلك يود لو أن بينه وبينه أمدا بعيدا ويحذركم الله نفسه والله رؤوف بالعباد ، والذي صدق قوله ، وأنجز وعده ، لا خلف لذلك ، فانه يقول تعالى :

﴿مَا يُبَدَّلُ ٱلْقَوْلُ لَدَىَّ وَمَآ أَنَا۠ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٢٩﴾﴾ (١)

واتقوا الله في عاجل أمركم وآجله في السر والعلانية فانه من يتق الله يكفر عنه سيئاته ويعظم له أجرا ومن يتق الله فقد فاز فوزا عظيما ٠

وان تقوى الله تعالى توقي مقته وتوقي سخطه، وان تقوى الله تبيض الوجه، وترضي الرب ، وترفع الدرجة ، خذوا بحظكم ولا تفرطوا في جنب الله ، قد علمكم الله كتابه ، ونهج لكم سبيله ، ليعلم الذين صدقوا ، وليعلم الكاذبين، فأحسنوا كما أحسن الله تعالى اليكم ، وعادوا أعداءه ، وجاهدوا في الله حق جهاده هو اجتباكم ، وسماكم المسلمين ، ليهلك من هلك عن بينة ، ويحيي من

---

(١) ق

حيي عن بينة،ولا قوة الا بالله ، فأكثروامن ذكر الله ، واعملوا لما بعد الموت فانه من أصلح ما بينه وبين الله يكفيه ما بينه وبين الناس ، ذلك بأن الله يقضي على الناس ، ولا يقضون عليه ، ويملك من الناس ، ولا يملكون منه ، الله أكبر، ولا قوة الا بالله العلي العظيم ٠

هذه الخطبة كما رواها ابن جرير ،ولولا أن الحافظ ابن كثير رواها ما أقدمنا على نقلها ، ولكن قال الحافظ: هكذا أورد ابن جرير ، وفي السند ارسال ٠

ونحن نقرر ما قررنا أن ما اشتملت عليه أشبه بمواعظ النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، ولكن نلاحظ أنها أطول من أكثر خطب النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، ونلاحظ أن فيها تكرارا لم يعهد في خطب النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، وأن فيها آيات قرآنية من الآيات المدنية ، مما يدل على أنها أنزلت بعد هذه الخطبة ، والله أعلم ٠

هذا ما نراه بالنسبة للخطبة التي رواها ابن جرير ، وقد روى البيهقي خطبتين ٠

أولاهما ما رواه عن عبد الرحمن بن عوف قال : « كانت أول خطبة خطبها النبي صلى الله تعالى عليه وسلم في المدينة أن قام فيهم فحمد الله تعالى ،وأثنى عليه بما هو أهله ، ثم قال » :

« أيها الناس قدموا لانفسكم ،تعلمن ، والله ليصعقن أحدكم ثم ليدعن غنمه ليس لهما راع ثم ليقولن له ربه وليس له ترجمان ولا حاجب يحجبه دونه : ألم يأتك رسولي فبلغك ،وآتيتك مالا فأفضلت عليك ، فما قدمت لنفسك ، فينظر يمينا وشمالا ، فلا يرى شيئا ، ثم ينظر قدامه ، فلا يرى غير جهنم ، فمن استطاع أن يقي وجهه من النار ، ولو بشق تمرة ، فليفعل ، ومن لم يجد فبكلمة طيبة ، فان بها تجزى الحسنة عشر أمثالها الى سبعمائة ضعف ، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته » ٠

والثانية أنه صلى الله تعالى عليه وسلم قال : « ان الحمد لله أحمده ، وأستعينه ، نعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا من يهد الله ، فلا مضل له ، ومن يضلل فلا هادي له ، وأشهد أن لا اله الا الله وحده لا شريك له ، ان

أحسن الحديث كتاب الله ، قد أفلح من زينه الله في قلبه ، واختاره على ماسواه من أحاديث الناس ، انه أحسن الحديث وأبلغه ، أحبوا من أحب الله ، أحبوا الله من كل قلوبكم ، فانه من يختاره الله ويصطفيه فقد سماه خيرته من الاعمال ، وخيرته من العباد ، والصالح من الحديث ، ومن كل ما أوتي الناس من الحلال والحرام ، فاعبدوا الله ولاتشركوا به شيئا ، واتقوه حق تقاته ، وأصدقوا الله صالح ما تقولون بأفواهكم ، وتحابوا بروح الله بينكم ، ان الله يغضب أن ينكث في عهده ، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته ٠

وقد قال ابن كثير في رواية هذه الخطبة ان طريقها مرسلة الا أنها مقوية لما قبلها ، وان اختلفت الالفاظ ٠

كانت هذه الخطب على ما هي متن أولاها من نقد ، وعلى أنها مرسلة بيد أنها في جملتها على منهاج النبي صلى الله تعالى عليه وسلم في دعوة المؤمنين لتقوية ايمانهم ، وتغذيته بتقوى الله تعالى ، كما دلت أقوال النبي قبل الهجرة على منهاجه في دعوة المشركين الى التوحيد ٠

بناء مسجده صلى الله عليه وسلم

٣٣٩ ـ هذا هو الامر الثالث الذي ابتدأ به النبي صلى الله تعالى عليه وسلم اقامته في المدينة .

لقد ابتدأ الرسول صلى الله عليه وسلم ببناء مسجد في قباء ، وهو المسجد ، الذي ذكره الله سبحانه وقال فيه :

﴿لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ﴾ ﴿١٠٨﴾ (١)

ولما نزل في بيت أبي أيوب اتجه تفكيره الى انشاء مسجد بالمدينة الذي هو أحد المساجد الثلاثة التى تشد اليها الرحال وهي المسجد الحرام ، ومسجد بيت المقدس (المسجد الاقصى) ، وهذا المسجد ، أو كما قال عليه الصلاة والسلام (مسجدي هذا) .

روي عن ابن شهاب الزهري أنه قال : بركت ناقة رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم في موضع مسجده ، وهو يصلي فيه رجال من المسلمين ، فكان مصلى لهم قبل أن يبني صلى الله تعالى عليه وسلم فيه مسجده .

ولقد كان ذلك الموضع الذي بركت فيه الناقة مربدا لغلامين يتيمين في المدينة من أولاد الانصار ، وكان اليتيمان في كفالة أسعد بن زرارة الذي كان أول داع للاسلام في المدينة قبل هجرة النبي صلى الله تعالى عليه وسلم اليها .

ساوم رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم الغلامين ، أو وصيهما ، أو هما بحضرة وصيهما ، فقالا : بل نهبه لك يا رسول الله ، ولكن الرسول أبى الا أن يكون بالثمن ، فابتاعه منهما بعشرة دنانير .

---

(١) التوبة

وكان قبل شراء رسول الله جدارا لاسقف له ، وكان يصلي فيه ، ويقيم الجماعة والجمعة أسعد بن زرارة ، قبل مقدم رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، وكانت قبلته الى بيت المقدس ،التي كانت قبلة النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، وهو بمكة ٠

وقد جاء رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، فجعل ذلك المصلى مسجده كما أشرنا ٠

وقد جعله صلى الله تعالى عليه وسلم بناء مربعا ، طول كل بعد من أبعاده مائة ذراع ، وقد قال ابن القيم رضي الله عنه ، جعل أساسه قريبا من ثلاثة أذرع ، وتم بناؤه باللبن ،وبعضهم قال ان بعضه كان بالحجر المرصوص ٠

وقد اشترك في بنائه كل من حضر البناء من المهاجرين والانصار ،والنبي صلى الله تعالى عليه وسلم كان يعمل في بنائه ، وكان ينقل اللبن والحجارة بنفسه ، ويقول راجزا :

اللهم لا عيش الا عيش الآخرة فاغفر للانصار والمهاجرة

ولقد جعلوا يرتجزون ، وينقلون اللبن ويقول بعضهم في رجزه مستحثا الهمم :

لئن قعدنا والرسول يعمل لذاك منا العمل المضلل

وجعل عليه السلام قبلته الى بيت المقدس ، وجعل له ثلاثة أبواب ، بابا في مؤخره ، وبابا يقال له باب الرحمة والباب الذي يدخل منه رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، وجعل عمده بالجذوع ، وذكر السهيلي أنها جذوع نخل ، وسقف بالجريد ، وجعلت قبلته من اللبن ، وقيل من الحجارة منضودة بعضها على بعض ؟

وقد نخرت عمده في خلافة الامام عمر فجردها ، واستبدل بها ، ولما كانت خلافة عثمان ذي النورين رضي الله عنه بناها بالحجارة المنقوشة ، وسقفه بالساج ، وجعل قبلته من الحجارة ،وهذه رواية واحدة ، وفي عهد عبد الملك بن مروان أضيفت حجرات نسائه ، وكانت تسعا ٠

ولما كانت أيام بني العباس ، بناه المهدي ثالث ملوكهم ، ووسعه وزاد فيه، وذلك في سنة ستين ومائة ، ثم زاد فيه عبد الله المأمون ، وأتقن بنيانه ٠

ونخلص من هذا الى أن سنة النبي صلى الله تعالى عليه وسلم في بناء مسجده ، ومسجد قباء كانت بأقل كلفة لتشجيع بناء المساجد ٠

وكما كان مسجده الطاهر الذي هو أحد المساجد التي تشد اليها الرحال كان أيضا مسكنه ، وكانت بيوته عليه السلام تسعا ، بعضها من جريد مطين بالطين ، وسقفها جريد ، وبعضها من حجارة مرصوصة بعضها فوق بعض ، وسقف أيضا بالجريد ، ولم يكن سقفه عاليا ٠

وكان سريره عليه السلام خشبات مشدودة بالليف ، فهل من معتبر ،فذلك نبي الخليقة ، فهل من الناس من يتسامى الى حياة كحياته !!

إنشاؤه صلى الله عليه وسلم دولة الإسلام

٣٤٠ ـ هاجر النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، وخرج من مكة ، وهي أحب أرض الله تعالى اليه ، لان بها البيت الحرام ، ولانها منزل الوحي ولان بها الاهل والاقربين ، ولان بها مآثر ابراهيم ، ولكنه انتقل مع كل هذا الى المدينة ، وما كان ذلك الا لانه بأمر ربه أنشأ دولة ، ولانه ما جاء لرهبانية أو روحانية مجردة ، أو لتهذيب النفوس فقط ، بل بعث رحمة للعالمين ، ولابد من أن تقوم دولة تقيم الحق ، وتخفض الباطل ، وتمنع الظلم ، وتجمع الانسانية ، وتنشر التعاون بين الناس، وتمحو كل الفوارق التي تجعل بعض بني الانسان يتحكم في الآخر ، وتمنع الفساد في الارض ·

ولذلك هاجر حيث يستطيع اقامة الدولة المؤمنة التي تتناهى عن الشر ، وتتعاون على الخير ، وكذلك كل رسول يأتي بشريعة تقوم عليها دولة ، كما فعل موسى ، اذ خرج من أرض فرعون، لينشىء من قومه قوة ترفع الحق ، وحاول ذلك مع بني اسرائيل ، وحاول أن يربي فيهم روح العزة والكرامة ، وهما لا يسكنان في قلب الا اذا سكن معهما حب الانصاف ، وحب الرحمة والمؤاخاة ، والرفق ، فالعزيز الكريم هو الذي ينصف ويرحم ، ويرفق ، واللئيم هو الذى يظلم ، ويشق على الناس ، ولا ينزل بهم رحمة ، بل عداوة وبغضاء ، حاول موسى عليه السلام أن يبث فيهم البأس بعد البؤس والخنوع ، فقالوا له ، وهو يريد بهم العزة والدفاع عن أنفسهم ، فقالوا اذهب أنت وربك فقاتلا ، انا ها هنا قاعدون ·

وعيسى عليه السلام الذي أثر عنه قوله « دع ما لقيصر لقيصر ، وما لله لله ، لم يشن حربا ، ولم يقم دولة ،وان دعا الى الفضيلة والمحبة ، والروحانية فى وسط الغلظة المادية التي آل اليها اليهود ، فكانوا متنابذين مع الانسانية، ولكن خاضعون خانعون للدولة الرومانية ، لا يتمردون ، ولا يلاحون ،ولكن

يرضون بالمنزل الهون»، كما قال تعالى:

﴿ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ أَيْنَ مَا ثُقِفُوٓاْ إِلَّا بِحَبْلٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَحَبْلٍ مِّنَ ٱلنَّاسِ وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْمَسْكَنَةُ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُواْ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ ۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعْتَدُونَ ﴿١١٢﴾﴾ (١)

فعيسى لم يحاول أن يكوّن دولة ، ولكن كان داعي رحمة ومحبة، ورفق ومؤاخاة في قوم غلاظ الرقاب يثيرون العداوة والبغضاء، مع من لا قوة لهم ،ويخضعون في ذلك للقوي ، ويعيشون بالسعاية والافساد ٠

جاء محمد على فترة من الرسل لاقامة الدولة الفاضلة ، لانه خاتم النبيين، ولانه آخر صرح في بناء النبوة الالهية،فكان لابد من أن تودع رحمته تعالى في جماعة مؤمنة ، وأن تكون هي حاملة تبليغ الرسالة من بعده تقاوم في سبيلها، وتسالم في الدعوة اليها ومد مبادئها ،وتنتقل الرسالة في الاجيال مع هذه الامة التي حملت الامانة ، ومع دولة تحميها ٠

وان قيام الدولة الفاضلة ، بعمل النبي صلى الله تعالى عليه وسلم في حياته والحواريين من بعده فيه تطبيق عملي للفضيلة والعدالة والمساواة ، واذهاب روح التفاوت والعنصرية وبث الايمان، والفداء ورجاء ما عند الله ويكون ذلك حجة في الارض على الذين يدعون أن قيام دولة فاضلة على مبادىء الاخلاق ليس حلما لا يتأتى تطبيقه ، ولكنه عمل ثبت تحقيقه ، وقامت في الوجود أعلامه ، وأن الذين يفرطون في حقوق الانسانية ، ويسرفون على الناس في ظلمهم زاعمين أن الفضيلة والاخلاق علاقات شخصية ، ولا تصلح أن تكون أساسا للعلاقات الاجتماعية والانسانية عامة ٠

وان قيام الدولة الاسلامية حجة قائمة على الذين يزعمون أن الدين علاقة بين العبد وربه ، وأنه مقصور على المساجد والكنائس والصوامع لانه لو كان الدين كذلك ما هاجر النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، ولا رتضى البقاء في مكة ، واكتفى أن يطلب من المشركين أن يتركوه وما يعبد ، وأن يتركهم

---

(١) آل عمران

وما يعبدون ، ولعلهم كانوا يرتضون بذلك ، وخصوصا أنهم كانوا يعلمون فيه الاخلاق الفاضلة والصدق وشرف المحتد ، والنسب الرفيع ·

ولكن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم كانت رسالته أبعد من ذلك أثرا ، وأعم من ذلك عملا ، وانا نقول مقالة الذين يقولون: الدين العلاقة بين العبد وربه، ولكنا نعمم العلاقة بين العبد وربه ،فنجعلها عامة شاملة ، وليست خاصة بالصلاة والصوم ، انما علاقة العبد بربه تقتضي الرحمة بعباده ، والعدل بينهم أيا كان جنسهم ، وأيا كان لونهم،كما قال صلى الله تعالى عليه وسلم « لا يؤمن أحدكم ، حتى يحب الشيء لا يحبه الا لله » وان كل عمل خير فيه صلاح الجماعة من عدل يقام ، وظلم يخفض ، واعلان مساواة ورفق بالناس ، كل هذا عبادة اذا قصد به وجه الله ، ولا يمكن أن يكون مصلح قادرا على الاصلاح ، الا اذا أخلص النية لله تعالى ، وأراد نفع الناس مرضاة لله تعالى العلي القدير،فالذين يفصلون بين عبادة الله تعالى وحده ، وحسن المعاملة وتنظيم المعاملات بين الناس يفصلون بين الدين ولازمه ، والحقيقة وما يترتب عليها ، والمقدمة والنتيجة ·

التشريعات الإسلامية :

٣٤١ ـ ان العرب كانوا أصلح الناس لتجربة الدولة الفاضلة التي وضع الله تعالى في الكتاب الكريم وعلى لسان رسوله الامين ، دعائمها ، وأسس اقامتهم ، وقد سن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم السنن العملية لتطبيق أحكام الله تعالى،فبين العبادات المفروضة من صلاة وصوم ، وحج وزكاة ، وان كانت الصلاة قد ابتدأت في آخر أيامه صلى الله تعالى عليه وسلم في مكة ، عند الاسراء والمعراج ·

ووضع سبحانه وتعالى لهذه الدولة أسس تكوين المجتمع من الاسرة الى الجماعة الى العلاقات الانسانية في السلم والحرب ، ويصح لنا في هذا المقام أن نشير الى الاهداف الاجتماعية والدولية للدولة الاسلامية بكلمات موجزات لا تغني الاشارة فيها عن العبارة ، ولا الاجمال عن التفصيل ·

أول الاهداف الاجتماعية تهذيب الآحاد ليكون منهم وحدات متلائمة يتكون منها مجتمع ، ولهذا شرعت العبادات ونفذت أحكامها ، تطهيرا للمجتمع من

آثامه ، وتوقيا للاخيار من شرور الاشرار ، فكانت الصلاة التي قال تعالى في بيان غايتها وثمرتها :

﴿ اتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ ۗ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ ۗ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ (٤٥) ﴾ (١)

وشرع الصوم لتطهر النفس وتسيطر عليها الروح ، وتقوى الارادة ،ولا يكون الواحد من المؤمنين خاضعا للهوى بل يسيطر عقله على شهوته ، فتكون له أمة ذلولا ، ولا تكون سيدا مطاعا .

وشرع الحج للتعارف الانساني ، وتهذيب الوجدان بالاقامة في ضيافة الرحمن ، وشرعت الزكاة ليعين الغني الفقير وليعيش الناس في وئام ، فكان تطهير المجتمع ايجابيا بتزكية الروح وتطهيرها ، وتنمية العلاقات الاجتماعية ، وبث روح الرحمة في القلوب ، والتعاون بين الناس .

وقد شرعت الكفارات تطهيرا للنفوس اذا أثمت ، وفتحا لباب التوبة عمليا ونفسيا ، وجعل الصدقة تطهيرا من كل اثم كما قال صلى الله تعالى عليه وسلم : « الصدقة تطفىء المعصية ، كما يطفىء الماء النار » اذ كل معصية مهما تضؤل فيها اعتداء على الناس ، فكان تكفيرها بمعاونة الناس .

(ب) واتجه الاسلام الى تكوين الاسرة الفاضلة ، لان الاسرة نواة البناء الاجتماعي ، وهي الوحدة الاولى في اقامة دعائمه ، ولذلك عني القرآن الكريم ببيان أحكامها ، وشرح الواجبات والحقوق فيها بين الزوجين ، وبين الآباء والابناء ، وان كل الاحكام الشرعية الخاصة بالعبادات والتعامل جاءت مجملة ، وبين النبي صلى الله تعالى عليه وسلم تفصيلها بالعمل ، لا بالقول فقط، الا أحكام الاسرة ، فقد تولى الله سبحانه وتعالى بيانها تفصيلا فى كتابه الكريم ، بين التزامات الزوجية ، والعلاقات الاسرية ، وعلاجها اذا أصابتها آفة ، وبين أحكام الميراث تفصيلا لا اجمال فيه ، وأحوال الطلاق وما يتصل به .

وان ذلك كله حجة قائمة على الذين يريدون أن يحرفوا الشرع عن مواضعه، ويجعلوا للاسرة نظاما ، لم يأت به كتاب الله تعالى ، وهو عند الله منكر ، لانه تقليد للذين لا يعرفون مكانة الاسرة ،ولا حريتها .

---

(١) العنكبوت

تكوين رأي عام بين المسلمين

٣٤٢ ـ قامت الدولة الاسلامية التي أقامها النبي صلى الله تعالى عليه وسلم تنفيذا لحكم الله على تكوين رأى عام فاضل ، ولذلك حث الاسلام على الامر بالمعروف والنهي عن المنكر ، واعتبرهما عنوانا للامة الفاضلة ، واذا كان الرأي العام الذي قام في مكة كان وثنيا ، ولذلك حارب الوحدانية ، وأباح الخبائث ، فالنبي صلى الله تعالى عليه وسلم بهداية القرآن والوصايا الالهية اتجه الى تكوين رأى عام فاضل يقوم المعوج ، ويمنع الخبائث ، ولقد قال تعالى :

﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم مِّنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ (١١٠) ﴾ (١)

وبين أن اللعنة تكون على الذين يفسدون الرأي العام فيها فقال تعالى :

﴿ لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُودَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا وَّكَانُوا يَعْتَدُونَ (٧٨) كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ (٧٩) ﴾ (٢)

وفي سبيل تكوين رأي عام فاضل ، أوجب على كل مؤمن أن يستنكر الشر ، ويستهجنه ، ولا يقره ، ويستحسنه ، والا اضطربت أمور الجماعة ، وهوت سفينة الحياة .

ولذا قال صلى الله تعالى عليه وسلم : « مثل المدهن في حدود مثل قوم استهموا في سفينة ، فصار بعضهم في أسفلها ، وبعضهم في أعلاها فكان الذي في أسفلها يمر بالماء على الذي في أعلاها ، فتأذوا به ، فأخذ فأسا ينقر به أسفل السفينة ، فأتوه ، فقالوا مالك ؟ قال تأذيتم ولا بد لي من الماء ، فان أخذوا على يديه أنجوه ، ونجوا بأنفسهم ، وان تركوه أهلكوه ، وأهلكوا أنفسهم » .

---

(١) آل عمران (٢) المائدة

وان الرأي العام الفاضل الذي أرادالاسلام أن يتكون،هو الذي يمنع الظلم، ويقيم العدل ، ولذلك يقول النبي صلى الله تعالى عليه وسلم : « لتأمرن بالمعروف ولتنهون عن المنكر ، ولتأخذن على يدي الظالم ، ولتأطرنه على الحق أطرا ، أو ليضربن بقلوب بعضكم على بعض ، ثم تدعون ، فلا يستجاب لكم » .

وان الرأي العام الفاضل تسوده الفضيلة ، وتقتل فيه الرذيلة ، فلا تظهر ولذلك يحث النبي صلى الله تعالى عليه وسلم على الحياء الذي يجعل صاحبه لا يظهر أمام الناس الا بالخير ، فيقول عليه السلام « الحياء خير كله » ويقول عليه السلام « لكل دين خلق ، وخلق الاسلام الحياء » .

وان الجماعات الانسانية التي انحرفت ، وسادتها الرذيلة ، أول مظاهرها فقدان الحياء ، وكذلك يدعو المسرفون على أنفسهم ، وعلى أقوامهم الى هجر الحياء واظهار الرذيلة ، ويسمون ذلك بأسماء ما أنزل الله بها من سلطان .

كرامة الإنسان

٣٤٣ ـ ان دولة الاسلام التي ألفها النبي صلى الله تعالى عليه وسلم في المدينة تدعو الى تكريم الانسان ، لانه انسان لا لكونه شريفا نسيبا ، ولا لكونه أبيض أو أسود ، ولا لكونه مسلما ، بل للانسانية فيه ، ولقد قال الله تعالى فى ذلك :

﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴿٧٠﴾ ﴾ (١)

وكرم الله تعالى الرقيق ، ودعا القرآن الكريم الى عتقهم ، ومنع النبي صلى الله تعالى عليه وسلم أن يذل المالك من يملكه ، أو يرهقه بأن يكلفه مالا يطيق ، وروى الامام أحمد ان النبي صلى الله تعالى عليه وسلم قال : « من لطم عبده ، فكفارته عتقه » ، وقد سوى النبي صلى الله تعالى عليه وسلم بين نفس الحر ، ونفس العبد ، بل سوى بين نفس العبد ، ونفس مالكه ، فقال عليه السلام : «من جوع عبده جوعناه ، ومن قتله قتلناه» .

(١) الاسراء

العدالة في الإسلام

٣٤٤ ـ أوجب القرآن الكريم العدالة بكل ضروبها ، وعدها عنوان الاسلام ، ويروى في ذلك أن أكثم بن صيفي لما بلغته دعوة النبي صلى الله تعالى عليه وسلم أرسل بنيه ليعرفوا دعوته عليه السلام ، فتلا عليهم قوله تعالى :

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْىِ ۚ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٩٠﴾ ﴾ (١)

وان العدالة مطلوبة على الولي والعدو على سواء ، ولذلك قال تعالى :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُونُوا۟ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلْقِسْطِ ۖ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُوا۟ ۚ ٱعْدِلُوا۟ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿٨﴾ ﴾ (٢)

فالعدل حتى مع العدو المشنوء أقرب للتقوى .

والعدالة في مضمونها تشمل مايسمى العدالة القانونية ، وهي أن يكون القانون الذي تحكم به الناس واحدا ، وأن يكون تطبيقه على الجميع واحدا ، فلا يضار الفقير في تطبيقه ، ولا يحابى الغني في معاملته ، وأساسه المساواة في التطبيق ولذا قال صلى الله تعالى عليه وسلم : « كلكم لآدم وآدم من تراب ، لا فضل لعربي على أعجمي الا بالتقوى » ولقد تأسى بهدي النبي صلى تعالى عليه وسلم ، أبو بكر اذ قال : « القوي منكم ضعيف ، حتى آخذ الحق منه ، والضعيف منكم قوي حتى آخذ الحق له » .

وتشمل العدالة في مضمونها العدالة الاجتماعية بأن يمكن كل انسان من أن يعيش عيشة كريمة غير مقطوع ولاممنوع ، وأن يمكن من استغلال مواهبه

---

(١) النحل (٢) المائدة

فيما يفيد شخصه ، وجماعته ، وأن تهيأ الفرص لكل انسان أن يعمل بطـــاقته جسمية كانت أو عقلية ٠

وليس معنى العدالة الاجتماعية محو الفقر واذابته ، فان الفقـــر والغنى حقيقتان ثابتتان في الوجود ، لا يمكن محو أحدهما ، أو اذابته ، كمـــا جاء التعبير على لسان بعض الناس ، انمــــا العدالة الاجتماعية، تقتضي محو التفرقة بين الطبقات ، وأن يسيطر ناس بحكـم الطبقية ، وأن يستطيل غني على فقـير بحكم غناه ، ولا نسيب على ضعيف بحكم نسبه ، انما الجميع سواء أمام القانون الاسلامي السامي في معناه ، وتطبيقه٠

ولابد أن تتوافر العيشة الـكريمة لكل مؤمن ، والدولة الاسلامية المباركة تتكفل بالعاجزين ، عملا بقوله صـلى الله تعالى عليــه وسلم « من ترك مالا فلورثته ، ومن ترك ضيــاعا ، فاليّ وعليّ » ٠

ويشمل مضمون العدالة، العدالة الدولية ، وهي تقـــوم على ثلاثة مبادىء متقررة في حكم القرآن ، وبعمل النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، وهي الوفاء بالعهد، والمعاملة بالمثل من غير أن يجاري الاعداء في انتهاكهم لحرمة الفضيلة ، فاذا قتلوا النساء والذرية لا نجاريهم، واذا انتهكوا حرمات الفضيلة لاننتهكها، لان دين العدل والفضيلة لا يجـــاري الناس في مآثمهم ، وثالث الامور في العدالة الدولية أن الاساس في عــلاقة المسلمين بغيرهم هو السلم ، حتى يكون اعتداء أو استعداد للاعتداء، أو محاربة لحرية الاعتقاد ووقوف ضد الدعـــوة الاسلامية التي تدعو الى أن يكون الدين كله لله تعالى ، بحيث لايفتن مؤمن ، ولا يعتدى على اعتقاد ٠

التعاون على البر والتقوى

٣٤٥ ـ قامت الدولة الاسلامية على أساس التعاون ، فقال تعالى :

﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ۝﴾ (١)

وأن كل جماعة نظمها الاسلام تقوم على أساس من التعاون ، فالتعاون في الاسرة هو قوامها ، فالمرأة هي السكن ،وهو الحمى ، والآباء والابناء يتعاونون في شدائد الحياة ، ويشتركون في سرائها ٠

وإذا تجاوزنا الاسرة الى المجتمع الصغير المكون من الجيران وأهل الحي وأهل القرية ، وجدنا التعاون قوام الترابط بينهم ، وقد أوصى صلى الله تعالى عليه وسلم بالجيران ، وأمر القرآن الكريم بالاحسان الى الجار ذي القربى ، والجار الجنب ، والجار في العمل ، أو الجار في السفر ٠

وإذا تجاوزنا المجتمع الصغير من الجيران وأهل الحي أو القرية واتجهنا الى مجتمع الامة أو الشعب ، وجدنا التعاون دعامة بنيانه تتعاون كل طوائفها في جهودها المختلفة في رفع شأنها ، وكأن تلك الجهود أنهار مختلفة تلتقي عند مصب واحد ، لا يذهب فيه الماء هدرا ، بل ينتج الخصب وأطيب الثمار ٠

فكل طائفة قوة في ذاتها ، فمهرة الصناع قوة ، ومهرة الزراع قوة ، متعاونة ، والعلماء يمدون الجميع بالمعارف ، فتعمل كل القوى متعاونة متضافرة ٠

والنبي صلى الله تعالى عليه وسلم أقام الدولة الاسلامية بالتعاون والتآزر ، وجاء القرآن مقررا ذلك المبدأ الكريم بأدق معانيه ، وكانت الدولة الاسلامية التي أوصى بها القرآن ، ونفذها رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم قد أتت

---

(١) المائدة

يمبدأ لم يسبق اليه سابق ، ولم يلحقهافيه لاحق ، وهو سداد دين المـــدينين الذين استدانوا في غير فساد أو سرف، وعجزوا عن سداد الدين ، فان ذلك مصرف من مصارف الزكاة ، وبينمـــاكان القانون الروماني في بعض أدواره أجاز للدائن أن يسترق المدين ، كانتالدولة الاسلامية التي أنشـــأها محمد صلى الله تعالى عليه وسلم باذن الله تعالىتعمل على سد الدين عن المدينين .

ولئن انتقلنا من الامة الى الجماعة الانسانية نجد أن القـــرآن والســـنة المحمدية يوجبان أن يكون التعاون أساسالعلاقات الانسانية عامة ، ويعمل النبي صـــلى الله تعالى عليه وسلم في الدولةالتي أقامها على التعاون الانساني العام استجابة لقوله تعالى :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿١٣﴾ ﴾ (١)

وان القـــرآن الـــكريم في سبيل دعمالتعاون يقرر أن الانسانية أمة واحدة، وتنتهي في نسبها الى نفس واحدة ، فقدقال تعالى :

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴿١﴾ ﴾ (٢)

---

(١) الحجرات (٢) النساء

المعاهدة مع اليهود

٣٤٦ ــ لقد نفذ النبي صلى الله تعالى عليه وسلم في أول اقامته بالمدينة مبدأ الاتحــاد الدولي والتعايش السلمي ،فعقد المعاهدة مع اليهود ومع كثير من القبائل العربية ٠

وقد يقول قائل ألا يتعارض مبدأ التعاون مع الحرب ؟ ونحن نقول لو كان الناس جميعا أخيارا ، ولم يكن قانون الغابة مسيطرا على بعض الدول لكانت الحرب مناقضة لمبدأ التعاون ، ولــكن في الدول أشرار ، كمــا في الآحــاد أشرار ، واذا كان الاشرار يمنعون من الشر بالعقوبات الرادعة،فأشرار الدول يمنعون من شرهم بالحرب المانعة ،ولذلك قال سبحانه :

﴿وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿٢٥١﴾﴾ (١)

فكانت حرب الاشرار من قبيل التعاون على الخير ، ودفع الاثم والعــدوان ، وكذلك كانت حروب النبي صــلى الله تعالى عليه وسلم لدفع الاشرار ، ومنع الملوك الغاشمين من أن يرهقوا شعوبهم بمنع حرياتهم ٠

---

(١) البقرة

الرحمة والمودة

٣٤٧ - قيام دولة الاسلام على أساس الرحمة الشاملة والمودة المقربة ، ومنع البغضاء المنفرة ، ولقد قامت الدولة الاسلامية على أساس الرحمة والمودة ، أما الرحمة فأساسها الرحمة بالاخيار ، لا بالاشرار ، فليست الرحمة في الاسلام مجرد انفعال نفسي ، بل هي الرحمة بالكافة ، ولقد قال بعض الصحابة للنبي صلى الله تعالى عليه وسلم: «يارسول الله أكثرت من ذكر الرحمة ونحن نرحم أزواجنا وذرياتنا ،فقال عليه الصلاة والسلام ماهذا أريد ، انما أريد الرحمة بالكافة » ، ولذلك شرعت العقوبات الزاجرة رحمة بالكافة ، فقد قال عليه الصلاة والسلام « من لا يرحم لا يرحم» وان بعض أنواع الرأفة يشمل في أطوائه أشد أنواع القسوة، وهي الرأفة بالمجرم ولذلك نهى النبي صلى الله تعالى عليه وسلم عن الرأفة بالزناة فقال تعالى:

﴿ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِي فَٱجْلِدُواْ كُلَّ وَٰحِدٖ مِّنْهُمَا مِاْئَةَ جَلْدَةٖۖ وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٞ فِي دِينِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأٓخِرِۖ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَآئِفَةٞ مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۝٢﴾ (١)

فكان من قانون الرحمة العادل أن يعاقب المذنبون .

وان الرحمة العادلة التي تكون للآحاد، انما تكون على الضعفاء من العبيد، والفقراء واليتامى ، كما قال صلى الله تعالى عليه وسلم : « ابقوني في ضعفائكم ، انما تنصرون ، وترزقون بضعفائكم » ولذلك أوصى النبي صلى الله تعالى عليه وسلم برحمة المرأة الضعيفة ، واوصى بالرحمة للعبيد ، وأوصى برحمة اليتامى باصلاح أحوالهم ، ورعاية أموالهم .

وهذه اشارات الى مبادىء الرحمة في الدولة الاسلامية التي كونها النبي صلى الله تعالى عليه وسلم بأمر القرآن.

---

(١) النور

أما المودة فهي قوام الروابط الانسانية دعا اليها الآحاد والجماعات ،ولذلك عد النبي صلى الله تعالى عليه وسلم افشاء السلام الذي هو مظهر المودة ، واطعام الطعام الذي هو ادامها عدهما أحسن الاسلام ، فقال عليه السلام : « أحسن الاسلام أن تطعم الطعام ، وأن تقرأ السلام على من عرفت ، ومن لم تعرف » .

نعم كان الامر بالمودة ، وجعلها قوام الاسرة ، كما قال تعالى :

﴿ وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾ ﴾ (١)

وأوجب صلة الرحم لمودة في القربى ، فقال صلى الله تعالى عليه وسلم : « من أراد منكم أن يبارك له في رزقه ، وينسأ له فى أثره فليصل رحمه » ، ويقول عليه الصلاة والسلام : « ليس الواصل بالمكافيء ، انما الواصل من يصل رحمه عند القطيعة » .

وان المودة ليست واجبة بالنسبة لابناء الامة الاسلامية وحدهم ، بل هي واجبة حتى للمخالفين في الدين ماداموا لم يعادوا المسلمين أو لم يعتدوا عليهم، ولقد بين الله سبحانه وتعالى تلك الحقيقة ، وهي القانون الشامل في معاملة المسلمين لغيرهم ، فقال تعالى :

﴿ لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَـٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَـٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓا۟ إِلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴿٨﴾ إِنَّمَا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ قَـٰتَلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَـٰرِكُمْ وَظَـٰهَرُوا۟ عَلَىٰٓ إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّـٰلِمُونَ ﴿٩﴾ ﴾ (٢)

---

(١) الروم (٢) الممتحنة

وقال تعالى :

﴿ لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ﴾ (١)

ويروى أنه في مدة الحديبية بلغ النبي صلى الله تعالى عليه وسلم أن قريشا نزلت بهم جائحة فأرسل مع حاطب بن أبي بلتعة خمسمائة دينار ليشتري بها برا ، ويوزعها على فقراء قريش .

بل انه في أثناء الحرب ، لا تنقطع المودة مع شعوب الدولة المحاربة من غير المقاتلين ، ولا تنقطع المودة الا مع المقاتلين أو من يشتركون في القتال بالعقل والتدبير ، والترتيب والتنظيم ،فأولئك هم الذين يحادون الله ورسوله .

والخلاصة أن الاسلام لا يقطع المودة ، بل يصلها دائما ، ويعد القاطعين لها في غير الدائرة المذكورة يقطعون ما أمر الله به أن يوصل .

المصلحة ودفع الفساد : وقد قامت الدولة الاسلامية التي بينت أسسها في القرآن الكريم ، وطبقها النبي صلى الله تعالى عليه وسلم وأرسى قواعدها عملياً محمد صلى الله تعالى عليه وسلم ، قامت على رعاية مصالح العباد في الدنيا والآخرة على القاعدة التي ذكرت في القرآن الكريم:

﴿ وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْـَٔاخِرَةَ ۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا ۖ وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ۖ وَلَا تَبْغِ ٱلْفَسَادَ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٧٧﴾ ﴾ (٢)

وهكذا كانت المصلحة الجماعية هي من غايات الاسلام ، على أنه يجب ملاحظة أمرين :

أولهما : أن الاعتبار في المنفعة منفعة المجموع أولا ، وبأوفر حظ ، وأن مصلحة الآحاد غير مسلوبة ، بل هي تكون في مصلحة المجموع ، وتنفرد عن مصلحة المجموع ، ان لم يترتب عليها ضرر عام ، فان الضرر يزال ، ومنفعة العامة مقدمة على منفعة الخاصة ان لم يمكن الجمع بينهما . ولذلك شرع الجهاد، وحث النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ،ولو كان فيه ضرر ، لآلام تنزل بالمجاهدين ، ولكن تركه يؤدي الى تهلكة الجماعة ، وغلبة الشر على الخير .

---

(١) المجادلة / ٢٢ (٢) القصص

الأمر الثاني : أن المصلحة المعنوية بأداء الواجب والتزام الحقوق ، وتهذيب النفس ـ مطلوبة كالمصلحة المادية بل هي أشد طلبا ، وأكثر رعاية في الاسلام ، والمصلحة الاصلية تلاحظ قبل المصلحة العاجلة ، ولذلك كانت ملاحظة العبادة قبل ملاحظة المعاش ، ان الدنيا سبيل الخير في الآخرة ، وان النظر الى الآخرة خير مآلا وغاية :

﴿ وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿٦٤﴾ ﴾ (١)

وان الاسلام لا يدعو الى الزهد في الحياة ، ولكن يدعو الى أن يطلب المؤمن الحياة من حلالها ، ويجتنب محرماتها ، وما كانت المحرمات الا لأن تناولها يفوت المصالح الحقيقية التي عدها الاسلام مصالح ، وما من مصلحة مضيعة ، الا ومعها تناول محرم حرمه الله تعالى لان المحرم اعتداء على غيره .

وان النبي صلى الله تعالى عليه وسلم كان يتناول المباحات ، وينهى عن تحريم ما أحل الله تعالى من طيبات في هذه الدنيا ، ولقد استنكر الله تعالى على الذين يحرمون الطيبات ما يصنعون ، فقال تعالى:

﴿ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ ۚ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ ۗ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٣٢﴾ قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾ (٢)

ويقول الله تعالى :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُحَرِّمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا ۚ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ ﴿٨٧﴾ وَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلَالًا طَيِّبًا ۚ وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي أَنْتُمْ بِهِ مُؤْمِنُونَ ﴿٨٨﴾ ﴾ (٣)

وهكذا نجد أن دولة الفضيلة لا تقوم على الحرمان ، بل الحرمان المجرد

---

(١) العنكبوت (٢) الاعراف (٣) المائدة

نقيضها ، وقد منع النبي صلى الله تعالى عليه وسلم بأمر الله أن يحرم مؤمن على نفسه ما أحل الله ، ولقد روى الامام أحمد رضي الله تعالى عنه أن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم قال : « كلوا واشربوا والبسوا في غير سرف ولا مخيلة » .

ولقد روي أن الامام أحمد رضي الله عنه سئل عن الورع ، فقال رضي الله تعالى عنه : « الورع طلب الحلال » فليس في الدولة الاسلامية الفاضلة زهادة لمجرد الحرمان ، واذا كان زهد ، فهو لتعويد النفس القدرة على فطمها عن الشهوات عند ما يلج داعيها .

وان المصلحة في دولة الاسلام تقوم على المحافظة على النفس والدين ، والعقل ، والنسل ، والمال ، ولذلك أوجب الله العقوبات على من يعتدي على مصلحة من هذه المصالح بمقدار اعتدائه ، فان كان الاعتداء على أمر لا تتحقق الحياة الا به ، فان العقوبة تكون بقدر الاعتداء ، وان كان الاعتداء على أمر تتحقق الحياة مع الاعتداء ولكن بمشقة ، فان العقوبة تكون دون السابقة ، وان كان الاعتداء على أمر ترفيهي أو كمالي ، فالعقوبة دون العقوبة فيما سبق .

وهكذا كانت العقوبات من حدود وقصاص ، لاجل مصلحة العباد ، وهي كما ذكرنا رحمة بهم .

وهكذا كانت الدولة الاسلامية رحمة للعباد ، ومصلحة لهم ، ويتحقق فيها قوله تعالى :

﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَـٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَـٰلَمِينَ ﴿١٠٧﴾ ﴾ (١)

أول أعمال النبي صلى الله عليه وسلم في المدينة :

٣٤٨ ـ استطردنا الى الكلام في الدولة المحمدية التي أقامها رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم بأمر ربه ، مشيرين الى دعائم هذه الدولة ، غير مفصلين النظم ، ولا الاحكام ، ولكن نبين مقاصدها وغاياتها بالاشارة الموجزة المبينة ، لا بالعبارة المفصلة الموضحة ، ليعلم الناس أمرين :

---

(١) الأنبياء

أولهما : أن المبادىء التي تقوم هذه الدولة عليها مبادىء تقبلها العقول السليمة التي لم تسيطر عليها الاهواء،ولم تتحكم فيها منازع التقليد من غير تفكير ، ولا اتباع للهوى في ذاته ، وانجعلها مستمدة من أحكام القرآن والسنة المحمدية بوحي من الله تعالى لا يجعلهامضطربة ، ولا مزلزلة بأهواء الناس ، وهي متفقة مع مصالح الناس ، ولقدسئل أعرابي لماذا آمنت بمحمد فقال الاعرابي المستقيم الفكر والنفس : «ما رأيت محمدا يقول في أمر افعل ، والعقل يقول لا تفعل ، وما رأيت محمدا يقول في أمر لا تفعل ، والعقل يقول افعل » .

الامر الثاني : الذي جعلنا نشير الىهذه الدولة لرد أقوال الذين يقولون على الله تعالى بغير الحق ، أن الدين للعبادة ، أما الدنيا ، فان الناس ينظمون أمرها ، فبينا أن العبادة لله تعم كل طاعاته ، ومن طاعاته اتباع كل ما أحل وما حرم ، وما نظم .

ولقد كانت التجارب الانسانية تؤيداقامة دولة اسلامية تمنع الظلم وتقيم الحق والعدل بين الناس ، ولقد رأينا منأقدم العصور دولا تقوم ، وأخرى تهبط ، والرعايا ضائعون بين الحكامالمتغالبين ، وبمقدار استعلاء الحكام يكون الظلم المستمر الذي يعم ولا يخص، فمن عهد الرومان والرعايا هم فرائس لمغالبة المتحكمين .

وان القرآن الكريم الذي نظم الحكمفي الاسلام يدعو الى أن تحكم الشعوب نفسها بنفسها ،وأن الحاكم مسؤول أمامالله تعالى ينفذ أحكامه أولا ـ وأمام الشعوب لا يرهقهم ولا يظلمهم ، ولايشق عليهم ثانيا الا أن يكون في المشقة تنفيذ حكم الله تعالى .

الإخاء والتآلف

٣٤٩ ـ وقد ابتدأ عمله في المدينة بايجاد الروابط التي تربط آحاد الجماعة الاسلامية ، وتكون وحدة تضم بها العناصر المختلفة الانساب ، والاماكن ، وأن يجعل من ذلك المجتمع المختلف أنسابا وقبائل مجتمعا مؤتلفا في شعوره ، تمحى فيه الفوارق ، والامور التي تفرق ولا تجمع ٠

وجد النبي صلى الله تعالى عليه وسلم مهاجرين من بطون مختلفة ، ووجد أنصارا آووا ونصروا ، ولكن الدماء لم تكن قد جفت بينهم فجاء الى ذلك الجمع الذي كان متنافرا ، ليؤلف بين قلوبهم ،والامم انما تتكون بتأليف القلوب المتنافرة ، وجمعها على الحق ، وأشد ما يجمع توثيقا ـ الايمان بالله والخضوع لاحكامه ، في ظل أطهر من في الوجود وهو محمد صلى الله تعالى عليه وسلم ٠

قال السهيلي في كتابه الروض الانف : « آخى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم بين أصحابه حين نزلوا بالمدينة ، ليذهب عنهم وحشة الغربة ، ويؤنسهم من مفارقة الاهل والعشيرة ويشد أزر بعضهم ببعض » ٠

وعندي أن ذلك أحد أغراض المؤاخاة ، ولكن المؤاخاة أولا وبالذات تتجه الى تكوين وحدة الجماعة المؤمنة ،ولذلك كانت المؤاخاة بين المهاجرين والانصار أولا ، وكانت بين المهاجرين بعضهم مع بعض ثانيا ، وبين الانصار بعضهم مع بعض ثالثا ، أوسهم مع خزرجهم ليقضي الرسول على الثغرة السابقة بالالفة التي تجمع القلوب ، وتزيل نفارها ٠

فالمؤاخاة كانت لتكون الأخوة هي العلاقة بين النسيب الشريف ، والمولى الضعيف ، ولذلك كانت المؤاخاة جاعلة حمزة بن عبد المطلب أخا لزيد بن حارثة مولى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ٠

فالمؤاخاة كانت لتكوين الجماعة كما ذكرنا ولوضع مبدأ المساواة عمليا ، ولنترك الكلمة لابن اسحاق يشرح ما كان فيه ٠

يقول ابن اسحاق في سيرته بسنده« آخى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم بين أصحابه من المهاجرين والانصار ، فقال فيما بلغنا ، ونعوذ بالله تعالى أن نقول عليه ما لم يقل » • تآخوا في الله أخوين ، ثم أخذ بيد علي بن أبي طالب ، فقال هذا أخي ، فكان رسول الله سيد المرسلين ، وامام المتقين ، ورسول رب العالمين الذي ليس له خطير ولا نظير من العباد ، وعلي بن أبي طالب رضي الله تعالى عنه أخوين ، وكان حمزة بن عبد المطلب أسد الله تعالى ، وأسد رسوله صلى الله تعالى عليه وسلم ، وزيد بن حارثة مولى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم أخوين ، واليه أوصى حمزة يوم أحد حين حضروا القتال اذا حدث به حادث الموت ، وجعفر بن أبي طالب ذو الجناحين ، الطيار في الجنة ، ومعاذ بن جبل أخو بني سلمة أخوين(وكان جعفر بن أبي طالب يومئذ غائبا بأرض الحبشة) •

وكان أبو بكر الصديق رضي الله تعالى عنه ، وخارجة بن زهير أخوين •

وهكذا أخذ يحصي الاخوة بهذا التآخي بين المهاجرين والانصار ، فذكر المؤاخاة بين بلال مؤذن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم مع أبي رويحة •• وقد استمرت الاخوة بينهما لا تنقطع ،كالشأن في كل من آخى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم بينهم •

ولما دون أمير المؤمنين عمر الدواوين بالشام ، وكان بلال قد خرج الى الشام ، وأقام بها مجاهدا ، قال له عمر الى من تجعل ديوانك ، فقال مع أبي رويحة ، لا أفارقه أبدا ، للاخوة التي كان رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم قد عقدها بينه وبيني ، فضم اليه •

وقد أنكر ابن القيم مؤاخاة النبي صلى الله تعالى عليه وسلم لعلي بن أبي طالب كرم الله تعالى وجهه ، وقال في ذلك « وقد آخى النبي صلى الله تعالى عليه وسلم بين المهاجرين والانصار »وذكر ما نقلناه عن محمد ابن اسحاق ، ثم قال :

وقد قيل ان نبيه آخى بين المهاجرين بعضهم مع بعض مؤاخاة ثانية ، واتخذ فيها عليا أخا لنفسه • والثابت الاول« أن المؤاخاة بين المهاجرين والانصار فقط» والمهاجرون كانوا مستغنين بأخوة الاسلام وأخوة الدار وقرابة النسب عن

عقد مؤاخاة بخلاف المهاجرين مع الأنصار ، ولو آخى بين المهاجرين ، كان أحق الناس بأخوته أحب الخلق اليه ، ورفيقه في الهجرة ، وأنيسه في الغار ، وأفضل الصحابة ، وأكرمهم عليه ، أبو بكر الصديق ، وقد قال صلى الله تعالى عليه وسلم : « لو كنت متخذا من أهل الارض خليلا ، لاتخذت أبا بكر خليلا » .

وهكذا نرى الامام ابن القيم ينكر الرواية لمجرد الاستبعاد ، ولم يتعرض للطعن في الرواية ، ويقصر المؤاخاة والباعث عليها على ما كان بين المهاجرين والانصار ، لاجل توثيق الايواء ، وحاجة المهاجرين اليه ، ولا يحتاج اليه المهاجرون بعضهم لبعض ، ولا الأنصار بعضهم لبعض .

ولقد وافق ابن القيم في هذا ابن كثير فقال فيما نقله ابن اسحاق : « وفي بعض ما ذكره نظر ، أما مؤاخاة النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، فمن العلماء من ينكر ذلك ، ويمنع صحته ، ومستنده في ذلك أن هذه المؤاخاة ، انما شرعت لاجل ارتفاق بعضهم من بعض ، لتتألف قلوب بعضهم على بعض . فلا معنى لمؤاخاة النبي صلى الله تعالى عليه وسلم لاحد منهم ، ولا لمهاجري آخر ، كما ذكره من مؤاخاه حمزة وزيد بن حارثة اللهم الا أن يكون النبي صلى الله تعالى عليه وسلم لم يجعل مصلحة علي الى غيره ، فانه كان ممن ينفق عليه رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم من صغره في حياة أبيه أبي طالب ، وكذلك يكون حمزة قد التزم بمصالح مولاه زيد بن حارثة فآخاه بهذا الاعتبار ، والله تعالى أعلم » (١) .

وما ينكره ابن القيم نحن نثبته ، ونرجح أن المؤاخاة بين المهاجرين بعضهم مع بعض والانصار بعضهم مع بعض نقررها ، وذلك لان ابن كثير الحافظ لم يتكلم في صحة هذه الرواية المثبتة ، ولان قصر الباعث في المؤاخاة على مجرد تمكين المهاجرين من الارتفاق من اخوانهم الانصار قصر لا دليل عليه ، بل هو أخذ من ظاهر الهجرة ، والايواء والنصرة ، كما صرح بذلك القرآن الكريم .

ان المؤاخاة ليس المقصود منها فيما نحسب هذا الارتفاق فقط ، ولكن آثارا غير ذلك منها :

---

(١) البداية والنهاية للحافظ ابن كثير جـ٢ ص ٢٣٧

أولا : عقد الالفة بين الضعيف والقوي ، وتمكين الصحبة بين المؤمنين وألا يتعالى مؤمن على مؤمن وناهيك بمؤاخاة حمزة الشريف النسيب مع زيد بن حارثة المولى الذي كان عبدا ، ومنَّ عليه صلى الله تعالى عليه وسلم بالعتق ،وكان قد أعلاه ، وجعله ابنا له ، حتى حرم الله تعالى الادعياء وقال سبحانه :

﴿ وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَاءَكُمْ أَبْنَاءَكُمْ ذَٰلِكُمْ قَوْلُكُم بِأَفْوَاهِكُمْ وَاللَّهُ يَقُولُ الْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ ﴿٤﴾ ﴾ (١)

فكان من حكمة النبي صلى الله تعالى عليه وسلم أن جعله أخا لابن عبد المطلب ٠

وثانيا : أن المهاجرين كانوا من قبائل مختلفة ، والقرشيون منهم كانوا من بيوت متنافسة ، فكان لابد من محو العصبية والدمج بينهم بحكم أخوة الاسلام ٠

وثالثا : أن الانصار لم يكونوا متآلفين فيما بينهم ، فكانت على مقربة من هدايتهم العداوة المستعرة الاوار بينهم، بين الاوس والخزرج ، فكان لابد من العمل على نسيانها ، وذلك بالمؤاخاة المحمدية ٠

رابعا : أن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم عندما عقد عقد المؤاخاة ، كان يشرع للامة من بعده هذا النظام الذي يجمع المسلمين ، ولم يكن حكما لحادثة واقعة ، ولا علاجا مقصورا ، على ما بين المهاجرين والانصار بل هو تأليف للمؤمنين ونظام متبع ، وربما تكون الحاجة اليه من بعد أشد وأكبر ، ولذلك كان ولاء الموالاة الذي تقرر أنه لم ينسخ ، وأنه بين العرب وغيرهم من الاعاجم الذين يدخلون في الاسلام من بعد ٠

وقد أثمرت المؤاخاة ثمرتها، وربطت بالمودة على قلوب المؤمنين ، روى البخاري ومسلم والامام أحمد عن أنس أن عبد الرحمن بن عوف قدم المدينة ، فآخى النبي صلى الله تعالى عليه وسلم بينه وبين سعد بن الربيع الانصاري فقال له سعد أنت أخي ، أنا أكثر أهل المدينة مالا ، فانظر شطر مالي ، فخذه وتحتي امرأتان ، فأنظر أيهما أعجب لك حتى أطلقها ، فقال عبد الرحمن : « بارك الله في أهلك ومالك ، دلوني على السوق ، فدلوه ،

---

(١) الأحزاب

فذهب ، فاشترى وباع ، فربح ، فجاء بشيء من أقط وسمن ، ثم لبث ما شاء الله تعالى أن يلبث فجاء وعليه ودك من زعفران ، فقال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم مهيم (١) ، فقال يا رسول تزوجت امرأة ، فقال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ما أصدقتها ، قال وزن نواة من ذهب قال عليه الصلاة والسلام : « أولم ولو بشاة » ٠

وقد كان المهاجرون غير طامعين في غير الايواء والكفاف ، يروي البخاري عن أبي هريرة « قالت الانصار للنبي صلى الله تعالى عليه وسلم اقسم بيننا وبين اخواننا النخيل قال عليه السلام : لا ، ويشركوكم في التمرة ، قالوا سمعنا وأطعنا ٠٠ ولقد كان المهاجرون رضي الله تعالى عنهم يستكثرون ما من به اخوانهم الانصار عليهم من أموال ، فروى الامام أحمد عن أنس أن المهاجرين قالوا يا رسول الله ما رأينا مثل قوم قدمنا عليهم أحسن مواساة في قليل ، ولا أحسن بذلا من كثير ، لقد كفونا المؤونة ، وأشركونا في المهنأ ، حتى لقد خشينا أن يذهبوا بالاجر كله قال عليه الصلاة والسلام : لا ما أثنيتم عليهم ودعوتم الله تعالى لهم » ٠

وان النبي صلى الله تعالى عليه وسلم قد جعل المهاجرين يعملون ليستفيد الانصار منهم كما آووهم ونصروهم ، فانه يروى أن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم قال : مخاطبا الانصار « ان اخوانكم قد تركوا لكم الاموال والاولاد ، وخرجوا اليكم ، فقال الانصار أموالنا بيننا قطائع ، فقال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم : أو غير ذلك ، قالوا وما زال رسول الله يثني عليهم حتى قال هم قوم لا يعرفون العمل ، فتكفونهم ٠ وتقاسمونهم الثمر » ٠

فالنبي صلى الله تعالى عليه وسلم : « أبى الا أن يعمل المهاجرون مع الانصار ، ويكون الثمر بينهم قسمة عادلة للارض حصتها ، وللعمل حصته » ٠

---

(١) الودك : الدهن ولعل دهن الزعفران عطر ، ومهيم : استفهام عن الحال أى ما هذه الحال التي أنت عليها ٠

الألفة بين سكان المدينة من المهاجرين والأنصار

٣٥٠ - كانت المؤاخاة بين المهاجرين والانصار ، والمهاجرين بعضهم مع بعض ، والانصار بعضهم مع بعض تأليفا من الاحاد ، وتعاونا بينهم ، وهو عقد أواصر المودة الشخصية ، وهي أساس للالفة الاجتماعية ، والروابط الجماعية ولكن كان لابد أن يكون بجوار تنظيم العلاقات القبلية أو الأسرية ، والتعاون بين البطون والقبائل ، بعد التعاون بين الآحاد بالاخاء ، أن يكون الاتصال بينها على أساس التعاون على الخير ، ودفع الاثم بينهم ، وأن يكونوا جميعا فيما بينهم متماسكين في دفعة الخير ، ودفع الشر ٠

ولذلك اتجه النبي صلى الله تعالى عليه وسلم الى تأليف الجماعات التي كانت تسكن المدينة من مهاجرين وأنصار ويهود بل مشركين ممن بقوا على وثنيتهم ٠

وقد قال الحافظ بن كثير فى تاريخه (البداية والنهاية) : « كان بها أي يثرب » من أحياء اليهود بنو قينقاع ،وبنو النضير ،وبنو قريظة، وكان نزولهم بالحجاز قبل الأوس والخزرج ، وقد نزلوا به أيام بختنصر حين دوخ بلاد المقدس فيما ذكره الطبري ٠

ثم لما كان سيل العرم ، وتفرقت اليمن شذر مذر نزل الأوس والخزرج بالمدينة عند اليهود ، فحالفوهم ، وصاروا يتشبهون بهم لما يرون لهم عليهم من فضل العلم بالمأثور عن الانبياء ٠

وبعد الهجرة قد صار اليهود حانقين على المؤمنين الذين آمنوا ، وعلى النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، لانه مبعوث من بين أولاد اسماعيل، لا أولاد اسحاق، مع أنهم كانوا يستفتحون على الذين أشركوا به ، ويرجون النصرة في بعثه، فلما جاء ما عرفوا كفروا به فلعنة الله على الظالمين ٠

ويقول ابن القيم انه بعد الهجرة صارت المـــدينة بها أنواع من النفوس ، فكان فيها المؤمنون من المهاجـرين والانصار وكان فيها اليهود من بني قينقاع، وبني النضير ، وبني قريظة ، وفيهـــاالمشركـــون ، وكان من خارجهـــا من يناصبونه العداء ، وقد قال رضي الله تعالى عنه في ذلك :

« لما قدم النبي صلى الله تعالى عليه وسلم المدينة ـ صار الكفار معه ثـلاثة أقسام ، قسم صالحهم وواعدهم على ألايحاربوه ولا يظاهروا عليه ، ولا يوالوا عليه عدوه ، وهم على كفرهم آمنون علىدمائهم وأموالهم ، وقســـم حاربوه ، ونصبوا له العداوة ، وقسم تركوه ،فلم‌يصالحوه ، ولم يحاربوه ، بل انتظروا ما يؤول اليه أمره ، وأمر أعوانه ، ثم‌من هـــؤلاء من كـــان يحب ظهـــوره وانتصاره في الباطن ، ومنهـم من كان‌يحب ظهور عدوه عليه ، وانتصـــارهم ومنهم من دخل معه في الظاهر ، وهـومع عدوه في الباطن ليأمن الفريقين ، وهؤلاء المنافقون ، فعامل كل طائفة من‌هـــذه الطـــوائف بمـــا أمـــره ربه تبارك وتعالى » •

كان قدوم النبي صلى الله تعالى عليه‌وسلم المدينة في هذه الطوائف ، ولكن لم تظهر هذه الاقسام في وقت واحـد ،فالنفاق فيما أحسب ، وكما تدل الوقائع التاريخية لم يظهر الا بعـد النصر في‌غـزوة بدر الكبرى ، وكما سنبين ، ولما شرق بنو قينقاع بهذا النصر ، وأبدواالعداوة ، واعتزموا الشر ، فقـــوتلوا حتى أخلوا، عندئذ ظهر النفاق ،واعلان‌الاسلام من بعض أعداء النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، ومهما يكن من أمـر تاريخ ظهور بعض الطوائف ، فانه من المؤكد أنه كان أمام النبي صلى الله تعالى‌عليه وسلم مشركو قريش الذين ناصبوه العداء ، وأخرجوه من داره ، وان كان‌الاخراج أمرا مقدورا ، وأن الهجـــرة كانت أمرا لابد منه كما أشرنا ، وكان‌أمامه اليهود ، وهم يساكنون أهل يثرب ولهم المقام معهـــم ، يدنيهم المكـــان‌والجوار ، ويبعدهم الاعتقـــاد ، وأمامه الذين اعتزلوا المؤمنين ، فلم يقاتلوه ،ولم يمالئوا عليه أعداءه •

وما كان النبي صلى الله تعالى عليـه‌وسلم يتكشـــف القلوب ممن يريدون ظهوره على أعدائه ، ومن يريدون ظهورأعدائه عليه ، فالنبي صلى الله تعالى عليه وسلم ينفذ شريعة تحكـــم بما ظهـــر ،وتترك لله ما بطن ، وان كـــانت تأمـــر

بالاحتياط والحذر فالله تعالى منزل هذه الشريعة ، يقول في كتابه العزيز :

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ خُذُواْ حِذۡرَكُمۡ فَٱنفِرُواْ ثُبَاتٍ أَوِ ٱنفِرُواْ جَمِيعٗا ٧١﴾ (١)

التأليف الاجتماعيّ والاقتصاديّ والسّياسيّ والحربيّ :

٣٥١ ـ كتب النبي صلى الله تعالى عليه وسلم كتابا هو بالنسبة للمؤمنين أمر من الله تعالى بتنظيم مجتمعهم ، وتعاونهم الاجتماعى والاقتصادى وتنظيم لشئون السياسة بينهم ، وتأليف بين بطونهم ، وقبائلهم ، وتعاون على اقامة الخير ، ودفع الشر ، وبيان حكم الاسلام في العمل على منع الظلم ، والتظالم بينهم آحادا وجماعات ٠

وجعل ما يسري على المؤمنين في شعوبهم وقبائلهم يسري على اليهود ، وغيرهم على أن يكون لهم ما للمؤمنين ، وعليهم ما عليهم ، لا يضارون في دينهم ، ولا يعتدى عليهم في اعتقادهم ، وعلى أن تكون الرياسة الكبرى للنبي صلى الله تعالى عليه وسلم ٠

ولذلك كان هذا الكتاب بالنسبة لليهود عهدا عاهدهم النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، وقد آن لنا أن ننشر الكتاب كما رواه ابن اسحاق ، وكما روته صحاح السنة ، واليك الكتاب الشريف ٠

بسم الله الرحمن الرحيم : هذا كتاب من محمد النبي « صلى الله تعالى عليه وسلم » بين المؤمنين والمسلمين من قريش ويثرب ، ومن تبعهم فلحق بهم ، وجاهد معهم :

بأنهم أمة واحدة من دون الناس ٠

المهاجرون من قريش على ربعتهم (الحال التي هم عليها يتعاقلون بينهم (٢)) وهم يفدون عانيهم (٣) بالمعروف ، والقسط بين المؤمنين ٠

---

(١) النساء

(٢) أى يدفعون دياتهم بعضهم مع بعض

(٣) العانى الأسير

وبنو عوف على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الاولى ، كل طائفة تفدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين ٠

وبنو ساعدة على ربعتهم ، يتعاقلون معاقلهم الأولى ، وكل طائفة منهم تفدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين ٠

وبنو الحارث على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى ، وكل طائفة تفدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين ٠

وبنو جشم على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى ، وكل طائفة منهم تفدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين ٠

وبنو النجار على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى ، وكل طائفة منهم تفدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين ٠

وبنو عمرو بن عوف على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى ، وكل طائفة منهم تفدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين ٠

وبنو النبيت على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى ، وكل طائفة تفدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين ٠

وبنو الأوس على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى وكل طائفة منهم تفدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين٠

وان المؤمنين لا يتركون مفرجا(١) بينهم أن يعطوه بالمعروف في فداء أو عقل ٠

وألا يحالف مؤمن مولى مؤمن دونه (٢) ٠

وان المؤمنين المتقين على من بغى منهم، أو ابتغى دسيعة (٣) ظلم أو اثم أو عدوان أو افساد بين المؤمنين ، وان أيديهم عليه جميعا ولو كان ولد أحدهم ٠

ولا يقتل مؤمن في كافر ، ولا ينصر كافر على مسلم ٠

---

(١) المفرج المثقل بالدين والكثير العيال

(٢) معناه أن لا يكون بين مؤمن وآخر ولاءفيجيء مؤمن ويأخذ الولاء لأنه لحمة كلحمة النسب

(٣) الدسيعة : العطية

وان ذمة الله تعالى واحدة يجير عليهم أدناهم .

وان المؤمنين بعضهم موالي بعض دون الناس .

وان من تبعنا من يهود ، فان له النصر والاسوة ، غير مظلومين ، ولا متناصرين عليهم .

وان سلم المؤمنين واحدة ، لا يسالم مؤمن دون مؤمن في قتال في سبيل الله ، الا على سواء وعدل بينهم وان كل غازية غزت معنا يعقب بعضها بعضا .

وان المؤمنين يبيء بعضهم على بعض بما نال دماءهم في سبيل الله تعالى .

وان المؤمنين المتقين على أحسن هدى وأقومه .

وانه لا يجير مشرك مالا لقريش ، ولا نفسا ، ولا يحول دونه على مؤمن .

وانه من اعتبط (١) مؤمنا قتلا عن بينة فانه قود الا أن يرضى ولي المقتول ، وان المؤمنين عليه كافة ، ولا يحل لهم الا قيام عليه .

وانه لا يحل لمؤمن أقر بما في هذه الصحيفة ، وآمن بالله واليوم الآخر أن ينصر محدثا ، ولا يؤويه ، وأن من نصره أو آواه فان عليه لعنة الله وغضبه يوم القيامة ، ولا يؤخذ منه صرف ولا عدل .

وانكم مهما اختلفتم فيه في شيء ، فان رده الى الله عز وجل ، والى محمد صلى الله تعالى عليه وسلم .

هذا كله بالنسبة للمؤمنين ، وقد عاهدهم النبي صلى الله تعالى عليه وسلم على كل مافيها ، أما ماجاء بالصحيفة خاصا باليهود فقد كان عهدا عاهدهم عليه ، على طرفيه الوفاء به ، وقد جاء في الصحيفة بهذا النص .

---

(١) اعتبط معناها : قتله من غير أى مبرر

٣٥٢ ــ ان اليهود يتفقون مع المؤمنين ماداموا محاربين ، وان يهود بني عوف أمة مع المؤمنين لليهود دينهم ، وللمسلمين دينهم ، مواليهم وأنفسهم الا من ظلم وأثم ، فانه لا يوقع الا نفسه وأهل بيته ٠

وان ليهود بني النجار مثل ماليهودبني عوف ، وان ليهود بني الحارث ، مثل ماليهود بني عوف ، وان ليهود بني ساعدة مثل ماليهود بني عوف ، وان ليهود بني جشم مثل ماليهود بني عوف ،وان ليهود بني الأوس مثل ماليهود بني عوف ، وان ليهود بني ثعلبة مثل ماليهود بني عوف الا من ظلم وأثم ، فانه لا يوقع الا نفسه وأهل بيته ٠

وان جفنة بطن من ثعلبة كأنفسهم ٠

وان ليهود الشطيبة مثل ماليهود بني عوف ، وان البر دون الاثم ٠

وان موالي ثعلبة كأنفسهم ، وان بطانة يهود كأنفسهم ٠

وانه لا يخرج منهم أحد الا باذن محمد صلى الله تعالى عليه وسلم ، وانه لا ينحجز على ثار جرح ، وان من فتك ،فبنفسه فتك وبأهل بيته الا من ظلم ، وان الله على أيد هذا (أي على الرضا به) ٠

وان على اليهود نفقتهم ، وعلى المسلمين نفقتهم ٠

وان بينهم النصر على من حارب أهل هذه الصحيفة ، وان بينهم النصح والنصيحة ، والبر دون الاثم ، وانه لايأثم امرؤ بحليفه ، وان النصر للمظلوم ، وان اليهود يتفقون مع المؤمنين ما داموا محاربين ٠

وان يثرب حرام صد لأهل هذه الصحيفة ٠

وان الجار كالنفس غير مضار وآثم ،وانه لا تجار حرمة الا باذن أهلها ٠

وانه ما كان من أهل هذه الصحيفة من حدث أو اشتجار يخاف فساده فان مرده الى الله عز وجل ، والى محمد رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ·

وان الله تعالى على أتقى ما في هذه الصحيفة وأبره ·

وانه لا تجار قريش ، ولا من نصرها ·

وان بينهم النصر على من دهم يثرب، واذا دعوا الى صلح يصالحونه ويلبسونه ، وانهم اذا دعوا مثل ذلك فانه منهم على المؤمنين الا من حارب في الدين ·

على كل أناس حصتهم من جانبهم الذي قبلهم ·

وان يهود الأوس مواليهم وأنفسهم على مثل ما لأهل هذه الصحيفة مع البر المحض من أهل هذه الصحيفة ، وان البر دون الاثم لا يكسب كاسب الا على نفسه، وان الله تعالى على أصدق ما في هذه الصحيفة وأبره ، وانه لا يحول هذا الكتاب دون ظالم وآثم ، وانه من خرج آمن ، ومن قعد آمن الا من ظلم أو أثم ، وان الله جار لمن بر واتقى ومحمد رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ·

نظرة في هذه الوثيقة :

٣٥٣ ـ هذه وثيقة النبي صلى الله تعالى عليه وسلم التي نظم بها النبي صلى الله تعالى عليه وسلم المجتمع الجديد لسكان المدينة لا فرق بين مهاجرين وأنصار ، ولا فرق بين مؤمنين ويهود ،ويلاحظ فيها :

(أ) أن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم بحكم النظام الجديد الذي أنشأه في المدينة صار هو الرئيس الأول لتنفيذ ما اشتملت عليه الوثيقة ،ولذلك لم يبح لطائفة من اليهود أن تخرج في حرب الا باذنه ، حتى لا تتورط في أمر يضطرب به أمر هذا المجتمع الذي أريد له أن يقوم على أساس التعاون في جلب الخير ، ودفع الشر ، يتصادقون ويتوادون ولا يتعاونون على اثم أو عدوان ·

(ب) انه بمقتضى هذه الوثيقة يصير اليهود الذين يقيمون بيثرب رعية واحدة ، فلا تكون لهم أحكام خاصة بهم لا تسري على غيرهم ، ولا يختصون بنظم لا تنطبق على غيرهم ، وذلك مع الاحتفاظ بدينهم ، تراعى فيه حرمة العقيدة ،

وألا يكون لأحد عليهم سبيل فيها ، وأن عليهم حكم الله تعالى ، وللنبي ألا يحكم بينهم اذا وجد مصلحة ، ويبين هـذا قوله تعالى في شأنهم :

﴿سَمَّٰعُونَ لِلْكَذِبِ أَكَّٰلُونَ لِلسُّحْتِ ۚ فَإِن جَآءُوكَ فَٱحْكُم بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ ۖ وَإِن تُعْرِضْ عَنْهُمْ فَلَن يَضُرُّوكَ شَيْـًٔا ۖ وَإِنْ حَكَمْتَ فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴿٤٢﴾﴾ (١)

وان هذا يدل على أنهم كانوا خاضعين فيما يتعلق بالنظام العام كحرمة الدماء ، والظلم ، ولكن شئونهم الخاصة لا يحكم النبي صلى الله تعالى عليه وسلم فيها بينهم الا اذا جاؤوا اليه ، فله أن يحكم ، وله أن يعرض ٠

ولذا لا نستطيع أن نقول انهم كالذميين تماما في الأحكام ، ولكنهم من جهة كالذميين ، ومن جهة ثانية جيران ، يستمتعون بحقهم في المعاملات الخاصة من غير اثم ٠

(جـ) ان العهد كان أساسه التعاون بين العشائر بحيث تحمي كل عشيرة ضعيفها ، وتعلي الفضيلة بينها وتفك أسر أسيرها ، وتدفع ديات قتلاها ، وذلك يشير الى حرمة كل شخص على أهله في دائرة البر لا في دائرة الاعتداء أو الانتقام ٠

(د) أنه مع التعاون بين العشيرة ، هناك تعاون عام بحيث يتضافر المؤمنون جميعا بل الجماعة في عون المظلوم ، ولذلك عندما كان النص على القود أوجب على المؤمنين جميعاً معاونة أولياء المقتول في القصاص ، وتتعاون الجماعة كلها في دفع أذى كل من يحدث حدثا أو اشتجارا ، أو ما يثير العداوة والبغضاء ، وانه بهذا التعاون الفاضل تستقر الأمور على خير الجماعة ، وما يجلب لها النفع ، ويدفع عنها الضر ، وانه لو نفذ هذا العهد بكل ما فيه لتكونت من المؤمنين وجيرانهم مدينة فاضلة ٠

وان الحلف يوجب أن يكون عدو النبي صلى الله تعالى عليه وسلم عدواً لليهود ، فلا يجار قرشي ، ولا من يناصر قريشاً ، فعلى اليهود ألا يوالوا المشركين،

---

(١) المائدة

لأنهم أعداء الله تعالى ، وأعداؤهم ،وذلك لأن الميثاق يجعل أهل المدينة مسلمين ويهوداً أهل ولاء واحد ، عدوهم واحد ، ومناصرتهم واحدة ، وذلك ليكون أمن الجميع واحداً ، فمن هاجم فريقا من أهل المدينة فقد هاجم المدينة كلها ، وذلك بلا ريب يلزم اليهود ، لأن الوثيقة أعطتهم حقوقا ، وأوجبت عليهم واجبات ، فاذا أخلوا بما يجب عليهم ،فقد أسقطوا ما لهم من حقوق ، لأن الحقوق والواجبات متقابلة ٠

وما دام الولاء واحداً ، فانه لا يصح أن يتعاون اليهود وأعداء محمد صلى الله تعالى عليه وسلم على شيء دون مانص عليه وقد وفى النبي صلى الله تعالى عليه وسلم بهذا العهد ٠

فهل وفى به اليهود !! ، ان الأمور التي تجري كفيلة بالجواب ، مع ملاحظة أن الأمر يوجب الوفاء من الجانبين ،وان أخل أحدهما ذهبت الحقوق التي تضمنتها الوثيقة له ، واذا كان الاخلال فيما يتعلق بالأمور الخارجية ، وهي موالاة اليهود للمشركين على المؤمنين ،فانه في هذه الحالة تزول صفة الجوار ، ويكون من الواجب على من ينكث أن يترك الجوار ، ويتخلى عن الاقامة في المدينة ، وحل للطرف الآخر أن يخرجه طوعا أو كرها ، فان لم يفعل كان يحل له أن يحمي ظهره ، ولو بقتله ، لأنه صار عدوا له ، وأصبح كالثعبان يكون في بطانة الرجل ، فيجب أن يبعده ،ولو بقتله ، لأن الأمر اما سلم فيها الأمن ، واما حرب فيها الخوف ٠

كيف شرع الأذان

٣٥٤ ـ تكونت جماعة الاسلام ،ووضع صلى الله تعالى عليه وسلم نظم هذا الاجتماع ، وألف القلوب فيه ، بالاخاء بين المؤمنين • ووضع النظم للتأليف بين من يدخلون في الاسلام من بعد •

ثم كان عقد الوثيقة التي ألفت بين الجماعات في المدينة كما ألفت الاخاء بين الآحاد ، وبين الواجب على كل جماعة ثم عقد العهد مع اليهود على أن يكون لهم ما للمؤمنين في الشئون العامة ،ولهم شئونهم الخاصة ، يتحاكمون فيها فيما بينهم ، وان احتكموا الى النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، فله أن يحكم بينهم بما أنزل الله تعالى في القرآن •

وبعد هذا التأليف وذاك التكوين بين ما يربط جماعة المؤمنين قلبياً ، بعد أن سن ما ألف بين قلوبهم اجتماعيا ،وذلك بتنظيم الجماعات في الصلاة والتنبيه العام بمواقيتها ، والدعوة اليها ، لتؤدى جماعة في أوقاتها ، وذلك بالأذان ، فكان شرعه في هذا الإبّان •

يقول في ذلك ابن اسحاق : « فلما اطمأن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم بالمدينة ، واجتمع اليه اخوانه من المهاجرين ، واجتمع اليه أمر الأنصار ، استحكم أمر الاسلام فقامت الصلاة وفرضت الزكاة والصوم وقامت الحدود ، وفرض الحلال والحرام ، وتبوأ الاسلام بين أظهرهم ، وكان هذا الحي من الأنصار هم الذين تبوؤوا الدار والايمان •• وقد كان رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم حين قدمها ، انما يجتمع الناس اليه للصلاة لحين مواقيتها ، بغير دعوة ، فهم رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم أن يجعل بوقا كبوق يهود الذي يدعون به لصلاتهم ، ثم كرهه ، ثم أمر بالناقوس ،فنحت ليضرب به للمسلمين» •

ويلاحظ على هذا الكلام أمران :

أولهما ـ أن ما ذكره من قيام الصلاة وفرضية الزكاة والصوم ، واقامة الحدود وفرض الحلال والحرام انما كان في أوقات مختلفة من بعد ذلك ،وبعضها كان قبل الهجرة ، وهو فرض الصلاة ،فقد فرضت في الاسراء والمعراج ، كما

هو مذكور في موضعه ، ولعل الذي جدفي المدينة هو قيامهـــا جماعة في أمن واطمئنان ، وعبارة ابن اسحاق قـــدتومىء لذلك ٠

الأمر الثاني ـ أن كلام ابن اسحاقفيه أن خاطر البوق اليهودي خطر للنبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، وكذلك ناقوس النصارى ٠

ولكن روى ابن ماجه عن ســالم بنعبد الله عن أبيه أن رسول الله صـــلى الله تعالى عليه وسلم استشار النــاس لمايهمهم من الصـــلاة ، فذكروا البوق ، فكرهه من أجل اليهود ، ثم ذكروا الناقوس فكرهه من أجل النصارى ٠

وهذا الخبر يخالف ما قاله ابن اسحاق في روايته من جهتين :

أولاهما : في أن رسول الله صلى اللهعليـــه وســلم هو الذي هــم بالبوق ، والرسول في الرواية الثانية قد استشار ، وكره عليه الصـــلاة والســـلام ما أشاروا به ٠

الثانية : أن رواية ابن اسحاق فيهاما يفيد أنه أخـــذ في تنفيذ فكـــرة الناقوس ، مع أن الرواية الأولى تقــولانه كرهه ، ونحن نرى أن هذه الرواية الأخيرة هي الأليق بمقام الرسول صلى الله تعالى عليـــه وسلم ، وهي الأنسب ، فهي عندي أصح ، والله أعلم ٠

ويسترسل ابن اسحاق في أمر الأذان ، فيقول : « فبينما هم على ذلك اذ رأى عبد الله بن زيد بن ثعلبة بن عبد ربه «النداء ، فأتى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، فقال : يا رسول الله : انهطاف بي هذه الليلة طائف : مر بي رجل عليه ثوبان أخضران يحمــل ناقوسا فييده ، فقلت له يا عبد الله أتبيع هـــذا الناقوس ؟ قال : وما تصنع به ! قلتندعو به الى الصلاة ٠ قال أفلا أدلك على خـــير من ذلك ! قلت ومـــا هـــو ؟قال : تقـــول : الله أكبر ، الله أكبر ، الله أكبر ، الله أكبر ، أشهد أن لا اله الاالله أشهد أن لا اله الا الله ، أشهــد أن محمداً رسول الله،أشهد أن محمداً رسولالله ، حي على الصلاة ، حي على الصلاة ، حي على الفلاح ، حي على الفـــلاح،اللهأكبر الله أكبر ، لا اله الا الله ، فلمـــا أخبر بها رسول الله صلى الله تعالى عليـــهوسلم قال انها لرؤيا حق ان شاء الله ، فقم على بلال فألقها عليـــه ، فانه أندىصوتا منك فلما أذن بلال سمعها عمر بن الخطاب ، وهو في بيته ، فخـــرج الىرسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، وهو يجر رداءه ، ويقول يا نبي الله ،والذي بعثك بالحق ، لقد رأيت مثـــل

الذي رأى ، فقال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم : فلله الحمد على ذلك .

هذا سياق ابن اسحاق في هذا الاهتداء الى صيغة الأذان . وأن ذلك كان برؤيا رآها بنصه اثنان من أصحاب رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، وان هذا نتيجة لرواية الشورى التي استشاربها النبي صلى الله تعالى عليه وسلم أصحابه .

وان النبي صلى الله تعالى عليه وسلم أقر الرؤيا فكان الأذان على ذلك شرعا باقرار النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ،وذلك على أن اقرار النبي صلى الله تعالى عليه وسلم هو الذي شرع الأذان لا الرؤى والأحلام .

ولكن علق ابن هشام في سيرته على رواية ابن اسحاق بأن الوحي قد نزل بالأذان ، وصيغته ، فقال : ذكر ابن جريج قال : قال لي عطاء : سمعت عبيد الله بن عمير الليثي يقول : ائتمر النبي صلى الله تعالى عليه وسلم وأصحابه بالناقوس للاجتماع للصلاة ، فبينما عمر بن الخطاب يريد أن يشتري خشبتين للناقوس اذ رأى في المنام : لا تجعلوا الناقوس ، بل أذنوا للصلاة ، فذهب عمر الى النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ليخبره بالذي رأى ، وقد جاء النبي صلى الله تعالى عليه وسلم الوحي بذلك ، فماراع عمر الا بلال يؤذن ، فقال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم حين أخبره بذلك ، قد سبقك بذلك الوحي .

وان هذه الرواية تصرح بأن الوحي نزل على النبي عليه الصلاة والسلام وفيه تفصيل الآذان بأركانه وهي ليست رؤيا عبد الله بن ثعلبة بن ربيعة .

وانا نميل الى هذه الرواية ، وذلك لأن الأذان شعار من شعائر الاسلام ، وأنه تعرف به الجماعات الاسلامية ، وما يكون كذلك من العبادات لا يكون من الأمور التي تكون بشورى الناس ،وقد تكون الشورى ابتداء لمعرفة طريق الاعلام ، فجاء الوحي بهذا الطريق الذي يعتبر سنة ، وما كانت السنة تعرف بطريق رؤى الآحاد ، انما تكون بوحي من الله تعالى ، وان الأذان لكل صلاة سنة مؤكدة ، وكثيرون من العلماء يقولون انه بالنسبة للجماعات فرض كفاية تأثم الجماعة كلها اذا تركته .

وان تفصيل الأذان وبيان أجزائه التي لا يمكن أن يجزي الأذان الا بها لا تكون الا بأمر من الله تعالى ، لأن الأذان عبادة ، ولا تعرف أجزاء العبادة الا بوحي من الله تعالى لنبيه ، لا برؤيا لغيره مهما تكن مكانته في الاسلام .

الإذن بالقتال

٣٥٥ ـ بعد أن استقر النبي صلى الله تعالى عليه وسلم اتجه الى تعميم الدعوة وحماية الضعفاء من المؤمنين الذين كانوا يفتنون في دينهم ، ويؤذون في اعتقادهم ، وكان لابد أن يكون ذلك بقتال المشركين للذين يؤذون المؤمنين ، ولابد من استنقاذ البيت الحرام من عبادة الأوثان ، وأن تحطم الأوثان التي تحيط به ·

ولذلك شرع الله تعالى القتال ، فقال تعالت كلماته :

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُدَٰفِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٖ كَفُورٍ (٣٨) أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمۡ ظُلِمُواْ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصۡرِهِمۡ لَقَدِيرٌ (٣٩) ٱلَّذِينَ أُخۡرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِم بِغَيۡرِ حَقٍّ إِلَّآ أَن يَقُولُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُۗ وَلَوۡلَا دَفۡعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعۡضَهُم بِبَعۡضٖ لَّهُدِّمَتۡ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٞ وَصَلَوَٰتٞ وَمَسَٰجِدُ يُذۡكَرُ فِيهَا ٱسۡمُ ٱللَّهِ كَثِيرٗاۗ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ (٤٠) ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ أَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُواْ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَنَهَوۡاْ عَنِ ٱلۡمُنكَرِۗ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلۡأُمُورِ (٤١) ﴾ (١)

كان الاذن بالقتال ، وفتح باب الجهاد ، وفي هذا النص الكريم بيان الباعث عليه ، والنتيجة التي ينتهي اليها ، وانه الخير ، ووسائل الخير تكون خيراً ولو كانت أمراً كريهاً ، مادام قد تعين هو الطريق ، وانه اذا تعين كان خيراً ولذلك قال تعالى :

﴿ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡقِتَالُ وَهُوَ كُرۡهٞ لَّكُمۡۖ وَعَسَىٰٓ أَن تَكۡرَهُواْ شَيۡـٔٗا وَهُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّواْ شَيۡـٔٗا وَهُوَ شَرّٞ لَّكُمۡۗ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ (٢١٦) ﴾ (٢)

---

(١) الحج (٢) البقرة

والآية التي كان فيها الاذن بالقتال فيها اشارات بيانية تليق بالقرآن أبلغ كلام في هذا الوجود الانساني .

أولها ـ أن فيها الاذن بالقتال ، ولكنه لم يصرح بها ، اذ أنه صرح بأشد ما يبعث عليه ، وهو أن القتال من جانب الأعداء قد وقع فعلا ، لأنه سبحانه وتعالى عبر بقوله « يقاتلون » بالبناء للمجهول ، أي أن المشركين قاتلوا المؤمنين فعلا ، فقد آذوهم وحاولوا أن يفتنوهم عن دينهم ، والفتنة أشد من القتل كما قال الله تعالى ، وحاولوا قتل النبي صلى الله تعالى عليه وسلم وحاولوا أن يقتلوا المبايعين في بيعة العقبة الثانية ، فكان التعبير بالبناء للمفعول دليلا على أن قتال المؤمنين في مقابل أنهم ابتدؤوا ، وهو دفع للأذى ، وللفساد في الأرض ، كما قال تعالى :

وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٥١﴾ (١)

الاشارة البيانية الثانية أن الله تعالى صرح بأن القتال دفع للظلم أو منع لاستمراره .

الثالثة ـ أن أهل الايمان هم أهل الحق ، فان قاتلوا فهو دفاع عنه ، وعن التوحيد ، والايمان به فهو قتال يحمل في باعثه ، وفي ذاته الدعوة الى الله تعالى .

الرابعة ـ أن القتال الذي يكون جهاداً في سبيله هو دفع الباطل ، والا كان الفساد في الأرض ، وألا يعبد الله تعالى فتهدم بيع وصلوات ، ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيراً ، فالقتال نصرة لله تعالى ، وحماية للحق ، ولينصرن الله من ينصره ، ان الله لقوي عزيز .

الخامسة ـ أن القتال فيه تمكين للحقائق الاسلامية ، فنتيجة القتال تمكين للذين يقيمون الصلاة ، ويؤتون الزكاة ، فالقتال من نتيجته أنه يمكن أهل الحق ، من الدعوة اليه بالقول وبالعمل ، وبذلك تقوم شريعة الله .

---

(١) البقرة

وفي هذا اشارة الى أن غاية القتال، دفع الاعتداء ومنع الظلم ، هو التمكين للدعوة الاسلامية ، وأن يدخل الناس في دين الله تعالى مختارين من غير فتنة ، ومن غير ارهاق لهم في عقائدهم.

وبذلك نأخذ من الآية الكريمة أن الباعث على الجهاد في الاسلام أمران :

أولهما : دفع الظلم ومنع الفتنة ـ كما قال تعالى :

﴿ وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ لِلَّهِ ۖ فَإِنِ ٱنتَهَوْا۟ فَلَا عُدْوَٰنَ إِلَّا عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٩٣﴾ ﴾ (١)

وأن الاعتداء يرد بمثله ، فمحمد صلى الله تعالى عليه وسلم الذي جاء بالحق لا يدفع ارادة الأذى بالسكوت عليه واستمراره ، بل يدفع الاعتداء بمثله ، كما قال تعالى :

﴿ وَقَٰتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿١٩٠﴾ ﴾ (٢)

الأمر الثاني : هو التمكين للدعوة الاسلامية ، بأن تزال الحاجزات التي يقيمها الملوك والحكام الظالمون بين دعوة الاسلام ، والاستجابة لدين الحق أو أن يعوقوه ، وليس معنى ذلك حمل الشعوب على الدخول في الاسلام كرها بقوة السيف ، بل ان مؤداه أن يعرفوا الاسلام ، ويتمكنوا من تلقي الدعوة الاسلامية ، فاذا عرفوها فقد تبين الرشد من الغي ، والحق من الباطل فمن شاء فليؤمن ، ومن شاء فليكفر ، ولذلك قال تعالى :

﴿ لَآ إِكْرَاهَ فِى ٱلدِّينِ ۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَىِّ ۚ فَمَن يَكْفُرْ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَا ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٥٦﴾ ﴾ (٣)

---

(١) ، (٢) ، (٣) البقرة

أول القتال

٣٥٦ ـ أخرج المشركون من قريش المؤمنين من مكة ، وجردوهم من أموالهم ، وفتنوهم في دينهم ، فكان لابد من أن يضايقوهم كما ضايقوا المؤمنين ويردوهم عن غيهم ، ويعلموهم أن الباطل لا بقاء له ، بل ان للحق قوة ، وانه أبلج ، ابتدأ النبي صلى الله تعالى عليه وسلم بارسال السرايا ، وهي طوائف صغيرة من الجيش على رأسها قائد من القواد ، فهي تشبه كتيبة يرسلها القائد الأكبر ، لتحارب ، أو لتمنع الطريق عن قوم من الأعداء ، أو كسرية الجيوش في هذه الأيام وقد فهم بعض الكتّاب من أن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ابتدأ بالسرايا تصادر عير قريش ، أو طائفة من تجار المشركين أي أن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ابتدأ بالحصار الاقتصادي ، ونحن نفهم من الحصار الاقتصادي الحصار الذي يفرض على موارد الجماعة كلها من رزق ، أي أن الحصار يفرض على قريش كلها •

ونحسب أن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ما كان يريد أن تصاب قريش كلها بمجاعة ، فما كانت قريش كلها على طريقة أبي جهل وأبي سفيان ومن على شاكلتهما من الذين ناوؤوا الدعوة ابتداء ، واستمروا على غيهم الى أن كان الفتح المبين ، وكان منهم الساكتون الذين لم يعادوا ، ولم يناوئوا ، وان لم يؤمنوا ، وليس من شأن المبادىء الاسلامية أن يؤخذ المطيع بظلم العاص أو المعتزل بظلم الذي يرتكب الشر ، وفي قريش من كان مكرها غير مختار ومظلوماً مأسوراً ، ومنهم من كان يربطه بالمؤمنين مودة وصلة ، بل بالنبي صلى الله تعالى عليه وسلم •

والحصار الاقتصادي يعم ولا يخص، اذ يعم من بلغوا أقصى غايات الشر ، ومن سكتوا ، ومن توادوا :

﴿ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴾ (١)

ولكن هذه السرايا كانت لمناهضة زعماء قريش ، اذ كانوا أصحاب المتاجر التي تحملها العير وقتاً لآخر ، ولأن أولئك الزعماء ، أخرجوا المؤمنين من ديارهم وأموالهم ، فكان حقاً على هؤلاء أن يضايقوا من الذين أخرجوهم من أموالهم معاملة بالمثل ، وليأخذوا مقابلا لبعض ما أخذ منهم ، وليذيقوا أولئك الزعماء وبال ما صنعوا .

(١) فاطر

أول السّرايا

سَرِيّة حَمزة :

٣٥٧ ـ في السنة الأولى من الهجرة ، ابتدأت السرايا ، وهي عدد ليس بكثيف من المجاهدين يعترضون رجالامن قريش يتجهون الى الشام بأموال لهم ، ليمنعوهم من الذهاب الى الشام ،ويستولوا على ما معهم من المال أو يقاتلوهم •

ويلاحظ أن السرايا في تلك الأيام كان يختار النبي صلى الله تعالى عليه وسلم رجالها من قريش ،وليس معهم من الأنصار أحد ، وأول سرية كان قد عقدها لحمزة بن عبد المطلب ، وخرج في رمضان على رأس سبعة أشهر من الهجرة على سيف البحر وكانت عدة هذه السرية ثلاثين رجلا من المهاجرين وكذلك كانت سرايا هذه السنة ، وكان لواؤها أبيض وقد اعترضوا طريقا لعير قريش ، وكانت لكبرائهم ، وكانت عدة من تعرض لهم حمزة ثلاثمائة على رأسهم عمرو بن هشام (أبوجهل) •

تقابل الفريقان المؤمنون بقيادة أسد الاسلام حمزة والثانية بقيادة لئيم قريش وخبيثها أبي جهل ، ولكن تحاجز الفريقان عن القتال ، وذلك لتوسط رجل من العرب كان موادعا الفريقين اسمه ابن عمرو الجهني ولذلك لم يحدث قتال •

سَرِيّة عُبَيدة بن الحارث بن عبد المطلب :

٣٥٨ ـ وفي شوال من هذه السنة عقد رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم لعبيدة بن الحارث لواء أبيض ،وأمره بالسير الى بطن رابغ ، في ستين من المهاجرين ليس فيهم أنصاري •

التقت هذه السرية بمشركي قريش وكانت عدتهم مائتين ، عليهم أبو سفيان صخر بن حرب •

وقد كان اللقاء عند ماء يقال له الاحياء حيث كان المشركون ، والمؤمنون قد بلغوا ثنية المرة ولم يكن بينهم قتال، ولكن كان بينهم رمى بالسهام .

ولقد رمى سعد بن أبي وقاص الذي كان في هذه السرية وان لم يكن قائدها قد رمي بسهم ، فكان أول سهم رمي به في الاسلام .

هذا هو الترتيب الذي ذكره الواقدي في ترتيب السرايا ، فذكر أن سرية حمزة كانت أولا ، وأنها كانت أول سرية وتليها سرية عبيدة بن الحارث .

ولكن ابن اسحاق يذكر أن أول سرية كانت سرية عبيدة بن الحارث ، لا سرية حمزة ويقول في ذلك :(وبعض الناس يقول راية حمزة أول راية عقدها رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم لأحد من المسلمين وذلك أن بعثه حمزة وبعث عبيدة كانا معاً فشبه ذلك على الناس) .

هذا ما ذكره ابن اسحاق ، ولكن الواقدي لا يذكر أنهما كانا معاً ، بل يذكر أن واحدة كانت في الشهر السابع بعد الهجرة ، وهي سرية حمزة ، والثانية كانت في الشهر الثامن بعدها وهي بعثة عبيدة .

وهناك اختلاف آخر بين رواية الواقدي ورواية ابن اسحق ، فالواقدي يقول ان حمزة التقى بأبي جهل ، وابن اسحق يقول انه التقى بعكرمة بن أبي جهل .

وابن كثير يظهر من لحن قوله أنه يرى رواية الواقدي أثبت على ما سنبين ان شاء الله تعالى .

سرية سعد بن أبي وقاص :

٣٥٩ ــ وفي ذي القعدة من سنة الهجرة أتى على رأس عشرة شهور من الهجرة أرسل النبي صلى الله تعالى عليه وسلم سعد بن أبي وقاص في سرية ، لأنه علم عليه الصلاة والسلام أن عير لقريش ستمر بها ، فأرسل سعداً في عشرين من المهاجرين ساروا الى مكان اسمه الخزار ، وقد عينه النبي صلى الله تعالى عليه وسلم على ألا يتجاوزوه ، ويقول سعد رضي الله تعالى عنه : « خرجت في عشرين رجلا على أقدامنا »فكنا نكمن النهار ونسير الليل حتى صبحنا الخزار صبح خامسة ، وكان رسول الله وقد عهد الي ألا أجاوز الخزار

وكانت العير قد سبقتنا قبل ذلك اليوم وعلى ذلك لم يلق سعد أحداً من قريش ، ولم يأمره النبي صلى الله تعالى عليه وسلم بمتابعتهم ، لأنه يظهر أنه عليه الصلاة والسلام كان يريد مباغتتهم في الطريق والمفاجأة تفزع العدو فينال منه ، والملاحقة لا تكون فيها هذه المفاجأة ، ولأنهم كانوا راجلين ، فلا يوغلون في الصحراء حيث لا مركب لهم ·

والواقدي يذكر في روايته أن سرية سعد كانت عدتها عشرين أو احدى وعشرين ، كما نقل عن سعد رضي الله عنه ، ولكن ابن اسحاق يقول انه خرج ومعه ستمائة من المهاجرين ·

ولعل رواية الواقدي أوضح وأقرب الى العقول ، لأنه ثبت أن العير كان بها نحو ستين رجلا ويناسبهم عشرون وانهم راجلون ·

بيان عن السّرايا:

٣٦٠ ـ والسرايا الثلاث على كلام الواقدي كانت في السنة الأولى ، وقد حدد مواقيتها ، فالأولى كانت في رمضان والثانية كانت في شوال ، والثالثة كانت في ذي القعدة ·

ولكن قال أبو جعفر بن جرير رضي الله عنه في تاريخه وعند ابن اسحق أن هذه السرايا الثلاث كانت في السنة الثانية من الهجرة ·

ونلاحظ أن ابن اسحق لم يعين أكان في السنة الثانية أم كان في الأولى ، ولكن قد يفهم ذلك لأنه ذكرها بعد غزوة النبي صلى الله تعالى عليه وسلم أولى غزواته ، وكانت في ودان ، وهي كانت في صفر من السنة الثانية ، وقد صرح بذلك ابن اسحاق ، وذكر بعدها الغزوات الثلاث ، واذا كانت الأحداث ترتب في الذكر بترتيب زمنها ، فانه تكون هذه السرايا في السنة الثانية ، ولكن نلاحظ أن ابن اسحاق في سيرته يتكلم في بعض الوقائع في غير وقت وقوعها ، لمناسبة اقتضت ذكرها في غير أوانها ·

وعلى فرض أن ابن اسحاق يعد هذه السرايا في السنة الثانية ، فان الحافظ ابن كثير رجح ما قاله الواقدي ، ويقول والواقدي رحمه الله عنده زيادات حسنة ، وتاريخ محرر غالبا · فانه من أئمة هذا الشأن الكبار ، وهو صدوق في نفسه ، كما بسطنا القول في عدالته وجرحه في كتابنا الموسوم بالتكميل في معرفة الثقات والضعفاء والمجاهل ، ولله الحمد والمنة ·

مقدار استمساك قريش باعتقادها :

٣٦١ ــ وهناك ملاحظة أخرى غير ملاحظة الزمن ، والروايات فيه ، وهي تتعلق بقريش ، ومقدار استمساكها في اعتقادها ٠

ذلك أن الذين كانوا يخرجون لحماية غيرهم كان منهم من هو مؤمن ، ولكن يكتم ايمانه ، وكانوا يخرجون في متاجر قريش عساهم يجدون سبيلا لأن يلحقوا بالمؤمنين اذا كانت الهجرة قد فاتتهم عند خروج النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، فانها لن تفوتهم من بعد ،فانه قد حدث عند التقاء سرية عبيدة ابن الحارث بن عبد المطلب بعير قريش،التي انصرف الفريقان فيها ، ولم يتقاتلا فر من القرشيين الى المسلمين المقداد بن عمرو البهراني حليف بني زهرة ،وعتبة بن غزوان بن جابر المازني حليف بني نوفل بن عبد مناف ، وكانا مسلمين ولكنهما توصلا بالكفار الى المسلمين ،فوصلا الى المسلمين بطريق المشركين ليأمنا الايذاء والشر ٠

خروج النبي صلى الله عليه وسلم للجهاد

٣٦٢ ـ أُذن للنبي صلى الله تعالى عليه وسلم بالقتال كما تلونا في الآية الصريحة بالإذن وهي قوله تعالى :

﴿ أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَـٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا۟ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ ﴾ (١)

الى آخر هذه الآيات التي تلوناها من قبل ٠

وعندئذ أخذ النبي صلى الله تعالى عليه وسلم الأهبة ، وأخذ يرسل السرايا سرية بعد سرية ، ثم كانت الغزوات ،ونرى في اصطلاح مؤرخي السيرة أنهم يطلقون السرية على كل بعث يبعثه النبي صلى الله تعالى عليه وسلم بعدد من المؤمنين قل أو كثر ، (وفي الغالب لايكون كثيرا) الى لقاء المشركين ، ولم يخرج عليه الصلاة والسلام مع ذلك الجيش ، أما الغزوة فانه صلى الله تعالى عليه وسلم يخرج فيها مجاهدا بنفسه ،سواء أقاتل بالفعل أم لم يقاتل ٠

وان النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ابتدأ الجهاد بالسرايا الثلاث التي بعثها في رمضان وشوال وذي القعدة ، وهي سرية حمزة بن عبد المطلب ، وسرية عبيدة بن الحارث ، وسرية سعد بن أبي وقاص ٠

ثم ابتدأت الغزوات في السنة الثانية ٠

وقد اختلف المؤرخون في عدد غزوات النبي صلى الله تعالى عليه وسلم وما كان اختلافهم في أصل الوقائع أو عددها ، انما كان سبب الاختلاف هو اختلافهم في خروج النبي صلى الله تعالى عليه وسلم مع الجيش أو عدم خروجه أيعد غزوة أو سرية ٠

وعند التحقيق نجدهم متفقين على العدد ، واختلفوا قليلا في وصف الخروج ، وكلمة مغازي رسول الله تعالى عليه وسلم عامة تشتمل على الغزوات والسرايا ٠

---

(١) الحج

وعدتهم كما روى الامام أحمد في مسنده ثلاث وأربعون ، فقد روي عن قتادة أن مغازي رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ثلاث وأربعون أربع وعشرون بعثا ، وتسع عشرة غزوة ، خرج في ثمان منها بنفسه : الأبواء ، بدر وأحد والأحزاب ، والمريسيع ، وخيبر وفتح مكة ، وحنين ٠

وروي عن الزهري في هذه الغزوات الثماني أنه قال : هذه مغازي رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، قاتل فيها يوم بدر في رمضان سنة ثنتين ، ثم قاتل يوم أحد في شوال سنة ثلاث ، ثم قاتل بني المصطلق وبني لحيان في شعبان سنة خمس ، ثم قاتل يوم خيبر سنة ست ، ثم قاتل يوم الفتح في رمضان سنة ثمان ، ثم قاتل يوم حنين ، وحاصر أهل الطائف في شوال سنة ثمان ، ثم حج أبو بكر سنة تسع ، ثم حج رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم حجة الوداع سنة عشر ٠

ومن هذا السياق التاريخي يتبين أن الغزوات تسع عشرة ، والبعوث أربع وعشرون ، وأن الغزوات منها ما كان فيه قتال بين المؤمنين والمشركين ، ومنها مالم يكن فيه قتال ، أو جاء شبه الانهزام لخطأ كان من المقاتلين ، وقد يكون انتصار المؤمنين بغير قتال ، بل كان برعب وريح ، كما كان في الخندق فانه لا يعد فيها قتال ، ولو كانت الهزيمة للمشركين ، وانما كان القتل والقتال في بني قريظة ، وقد كانت هناك غزوات لا قتال فيها ، وأول غزوات النبي صلى الله تعالى عليه وسلم لم يكن فيها قتال ، ومنها الابواء والعشيرة ، وغطفان وبدر الأولى ، ومن أعظم الغزوات التي لم يقاتل النبي صلى الله تعالى عليه وسلم الحديبية فقد كانت فتحا لابتداء سلام بين النبي صلى الله تعالى عليه وسلم وقريش ، ولذلك قال الله تعالى فيها :

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ﴿١﴾ لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿٢﴾ وَيَنصُرَكَ ٱللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا ﴿٣﴾ ﴾ (١)

(١) الفتح

الحرب الفاضلة أو حرب النبوة

٣٦٣ – لم يكن في السرايا التي بعث بها النبي صلى الله تعالى عليه وسلم قتال ، بل كانت نتيجتها سلما وما كان الفريقان يلتقيان الا ليفترقا في سلام ، وان لم يكن ذلك دائماً ، الا ما كان من رمية رماها سعد بن أبي وقاص في سرية عبيدة بن الحارث ، ومع أنه لم يكن في هذه السرايا قتل ولا قتال كانت ذات فائدة ، لأنها أعلمت قريشاً أن الاسلام صارت له قوة فاما أن يسارعوا اليه ، ولا يكونوا آخر الناس، واما أن يسارع القصاص ، والرد على ما سبقوا به من الاعتداء ٠ او من جهة أخرى يشعرون بأن قوة الاسلام ستنقذ المؤمنين الذين لا يزالون يفتنونهم عن دينهم الذي ارتضوه والفتنة أشد من القتل ، كما ذكر الله سبحانه وتعالى في كتابه الكريم ، ومن جهة ثالثة يحسون بأن محمدا صلى الله تعالى عليه وسلم سيضايقهم بالحق ، كما ضايقوه بباطلهم ٠

وكما يضايقون أصحابه من المستضعفين في ديارهم، وذلك بمصادرة أموالهم كفاء لما أخرجوا المسلمين من ديارهم وأموالهم ٠

فكانت هذه السرايا الأولى في السنة الأولى من الهجرة اشعاراً لهم بأن الاسلام قد أمده الله تعالى بالقوة ، ليرهبوه ما داموا لم يسالموه ، بل انهم لم يرغبوه٠

وكانت كذلك غزوات النبي صلى الله تعالى عليه وسلم الأولى في الابواء والعشيرة ، وغطفان وبدر الأولى ، فقد كانت خالية من القتل والقتال ، بل كانت لهذا الإشعار ٠

حتى اذا شعرت قريش بهذه القوة المؤمنة ، وكونوا جيشاً كثيفاً ، وساروا به ولم يسبق عيراً ، وبدا أنهم يرومون الحرب ، اذ استعدوا لها ، وأرادوا الاعتداء بها ، كان القتال ، لأنهم كانوا المهاجمين ، وما كان محمد لينظر حتى يغزوا المدينة بجيشهم ، بل لا بد أن يلقاهم ، لأنه ما غزي قوم في عقر

دارهم الا ذلوا ، كما قال بطل الجهاد علي كرم الله وجهه الذي رباه محمد صلى الله تعالى عليه وسلم ، وعلمه الحكمة وفصل الخطاب ٠

ولكن قد يسأل سائل لماذا كان النبي صلى الله تعالى عليه وسلم محاربا ؟ ونقول في الجواب عن ذلك انه لم يكن بدعاً من الرسل في ذلك ، لأن موسى وهو من أولي العزم من الرسل حارب ،ودعا بني اسرائيل الى الحرب ولكنهم ارتدوا على أدبارهم فانقلبوا خاسرين ،وقالوا وحال الذلة والجبن تدفعهم :

﴿ قَالُوا يَـٰمُوسَىٰٓ إِنَّا لَن نَّدْخُلَهَآ أَبَدًا مَّا دَامُوا فِيهَا فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَـٰتِلَآ إِنَّا هَـٰهُنَا قَـٰعِدُونَ ﴿٢٤﴾ ﴾ (١)

والمذكور في التوراة التي بأيديهم أن موسى عليه السلام حارب ملوكا ، واخترق بجيشه ديارهم ٠ وداود عليه السلام حارب وقاتل ٠ وكذلك ابنه سليمان ٠

واذا كان عيسى لم يقاتل ، فلأنه ما شرع له القتال ، وكأنه كان تمهيداً للبعث المحمدي اذ أن بينهما مدة ليست كبيرة ، تبلغ نحو ستمائة سنة أو تزيد٠

وان رسالة محمد صلى الله تعالى عليه وسلم كانت للناس كافة ، للأحمر والأسود والأبيض ، فكانت لا بد أن تجتاز الأقطار ، وتصل الدعوة قوية الى الأمصار، وان ذلك لا يكون الا بالاستعداد للقتال ، اذ أن العالم كان محكوماً بالملوك الغاشمين ، والرؤساء الظالمين ٠

وان شريعة محمد صلى الله تعالى عليه وسلم جاءت بمبادىء هي ضد الحكام ، وقد قاتلوه عليها ، فكان لابد أن تكون قوة مانعة من الظلم دافعة بالحق ، فكان لابد من الحرب أو الاستعداد لها ٠

وان الناس لا يستقيم أمرهم اذا لم تكن للمبادىء العادلة قوة تحميها بالحق من غير اعتداء ، وفضيلة الاسلام ليست فضيلة خانعة ضعيفة مستسلمة ،ولكنها

---

(١) المائدة

فضيلة قوية دافعة للشر ، حاملة على الخير ، فليس فيه من ضربك على خدك الأيمن فأدر له الأيسر ، وانما فيه :

﴿ فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱعْتَدُواْ عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ ۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿١٩٤﴾ ﴾ (١)

وفيه العفو والصبر ، اذ يقول سبحانه وتعالى :

﴿ فَٱعْفُواْ وَٱصْفَحُواْ حَتَّىٰ يَأْتِيَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٠٩﴾ ﴾ (٢)

والعفو لا يكون الا بعد أن يكون الأمر للاسلام فلا عفو الا عن مقدرة ، ويكون عزاً ولا يكون استسلاماً ، وقد قال عليه الصلاة والسلام : (ما زاد عبد بعفو الا عزا) وأمر سبحانه وتعالى بالصبر ، فقال سبحانه :

﴿ وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُواْ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِۦ ۖ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّٰبِرِينَ ﴿١٢٦﴾ ﴾ (٣)

وان الصبر يوجب ألا يندفع الجيش الى القتال ، بل يصابر ، عسى أن يكون الصلح ، وألا تخرج السيوف من أغمادها كما كان يفعل النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، وكان يوصي جيوشه بذلك ٠

وان الصفح الجميل عمن آذوا أهل الايمان يحتاج الى صبر وقوة نفس ، فليس الصبر فقط في لقاء الأعداء ، انما يكون في ذلك ، وفي عظم النفس عن شهوة الانتقام ٠

وان حرب النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، كما سنرى حرب فاضلة فيها الرفق وفيها الفضيلة ، وان اشتجرت السيوف ، وتلاقى الناس بالحتوف ٠ فهي تعلم الناس كيف تكون الفضيلة ، والسيوف تقطر دما ، وكيف تكون

---

(١) ، (٢) البقرة

(٣) النحل

المرحمة في الحرب ، وهي في أصلها أمر مكروه في ذاته ، فاذا دخلتها الرحمة ، فانها تكون كالنسيم العليل في الحر اللافح ، وكالظل في الحرور ، وقبل أن نتكلم في غزوات النبي صلى الله تعالى عليه وسلم نتكلم في بيان الفضيلة فيها ، وانا نأخذ ذلك من أوامر القرآن الكريم للمجاهدين وعمل النبي صلى الله تعالى عليه وسلم في سيرها وفي انتهائها ، وفي وصاياه عليه الصلاة والسلام لجيوشه . وقد كان أصحابه من بعده يتبعونها ويحكمونها غير منحرفين عنها .

الفضيلة في الحرب

٣٦٤ ـ ان الرحمة من الفضائل الانسانية العالية، ورحمة الاسلام ليست انفعالا نفسياً وقتياً ، ولا شفقة أو رأفة شخصية تكون على الفاضل والآثم، والبر والفاجر ، بل ان رحمة الاسلام هي الرحمة بالعامة ، وقد تكون الحرب رحمة بالعامة ، بل انها يجب أن تكون كذلك ما دامت حربا فاضلة ، كما تلونا من قبل قوله تعالى :

﴿ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٥١﴾ ﴾ (١)

فالشفقة على الظالم والامتناع عن الاقتصاص منه ليست من الرحمة في شيء ، لأنها تخفي في ثناياها قسوة على المظلوم ، ولذلك قال النبي صلى الله تعالى عليه وسلم : « من لا يرحم لا يرحم » .

فالحرب الاسلامية شرعتها الرحمة ،وأظلتها الرحمة ، وأنهتها الرحمة واذا كان من الرحمة بجسم الانسان أن تقطع بعض الأجزاء المؤفة ، حتى لا نفسد الجسم، فان من الرحمة بالناس أن تقطع عناصر الفساد ، لأنها تؤف الجماعة ، وأن يرد الاعتداء بقطع عناصره لسلامة الناس ، وأن يعيشوا آمنين ، وكلمة الحق تسري بينهم ولا محاجزات تحول دون النطق بها .

ولنتكلم في حرب النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، معتمدين على كتاب الله تعالى ، وعلى السنة النبوية .

فالباعث عليها ، كما نص القرآن الكريم رد الاعتداء على المسلمين ، فقد قال تعالى :

﴿ وَقَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿١٩٠﴾ ﴾ (٢)

---

(١) ، (٢) البقرة

وقال تعالى :

﴿ وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ لِلَّهِ ۖ فَإِنِ ٱنتَهَوْا۟ فَلَا عُدْوَٰنَ إِلَّا عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٩٣﴾ ﴾ (١)

وبين سبحانه أنه يعامل المعتدون بمثل اعتدائهم وقال تعالى :

﴿ فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱعْتَدُوا۟ عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿١٩٤﴾ ﴾ (٢)

وذلك بعد قوله تعالى :

﴿ ٱلشَّهْرُ ٱلْحَرَامُ بِٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ وَٱلْحُرُمَٰتُ قِصَاصٌ ۚ ﴾ (٣)

ونجد من هذه النصوص أن ابتداء الاعتداء كان من المشركين ، وأنه كان لاعتداء المشركين على الحرية الدينية وفتنة المؤمنين في عقائدهم ليحملوهم على تركها ، واننا اذا أمرنا برد الاعتداء بمثله ، طلب منا مع ذلك طلبان جليان آخران وهما النهي عن الاعتداء، فنهينا عن الاعتداء ، والاعتداء بأن نقاتل من لم يبدأنا بالقتال ، ولم يمنع الدعوة الاسلامية من السير في طريقها، والطلب الثاني أمرنا بالتقوى ، وهو التزام الفضيلة ، فان كانوا يعتدون على الأعراض لا نجاريهم ، وان كانوا يمثلون بالقتلى لا نمثل بقتلاهم كما سنبين ان شاء الله تعالى .

لقد علمنا مما قصصنا من السيرة الطاهرة أن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم مكث يدعو الى الاسلام ثلاث عشرة سنة توالى فيها الأذى على المؤمنين ، وخصوصاً ضعفاءهم ، ولم يسلم من أذاهم الا من يكون ذا بطش يخشى بطشه كعمر بن الخطاب وحمزة بن عبدالمطلب، ومع ذلك لم يسلموا من الأذى تماما، بل كانت سلامتهم نسبية .

---

(١) ، (٢) ، (٣) البقرة

ورسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم لم يسلم من أذاهم ، حتى رموا عليه وهو ساجد فرث جزور ، وحتى لقد هموا بقتله عليه الصلاة والسلام ، ليلة الهجرة ، وقد هاجر النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، وهاجر من كان عنده قدرة على الهجرة ٠

ترك المهاجرون ديارهم وأموالهم فرارا بدينهم الذي ارتضوا ، والمشركون سادرون في غيهم ، وترك النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ضعفاء ، لا قدرة عندهم على الهجرة ، وهم يعذبون أشد العذاب ، فهل من مقتضى الرحمة أن يترك هؤلاء يعذبون ، ويلقي بهم في المحابس ، انه لابد من أن يذوق الذين يؤذونهم وبال أمرهم ٠

وننتهي من هذا ومن النصوص السابقة الى أن الباعث على الحرب دفع الاعتداء ، ومنع الأذى المستمر وعقوبة الظالمين وتأمين الدعوة الاسلامية حتى لا تكون فتنة في الدين ، ويتبع الناس الدليل ، ولا يتبعوا الحكام الذين يرهقونهم ويسومونهم الخسف والهوان ٠

هذا هو أمر القتال في شبه الجزيرة العربية ، الذي ابتدأ في قريش ، ثم عم أجزاءها عندما اجتمعت القبائل على حربه في غزوة الأحزاب ، أو غزوة الخندق ، وأرادوا اقتلاع الاسلام من قصبته في المدينة الظاهرة ، فنزل قوله تعالى :

﴿ وَقَـٰتِلُواْ ٱلْمُشْرِكِينَ كَآفَّةً كَمَا يُقَـٰتِلُونَكُمْ كَآفَّةً وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٣٦﴾ ﴾ (١)

أما بالنسبة لغير من كانوا في الجزيرة العربية ، فقد أرسل الى الملوك والرؤساء الكتب على أيدي رسل من حكماء أصحابه أرسل الى هرقل ، والى عظيم مصر ، والى كسرى وغيرهم من الملوك ٠ وبعض أمراء البلاد النائية من البلاد العربية ٠

ولكن لم يجب الى الاسلام من غير العرب أحد ، ومنهم من أساء الرد، ومنهم من أحسن في الاجابة ، ولكن لم يجب داعي الله تعالى الى الاسلام ، ومنهم من لم يرد بالقول ، ورد بالعمل ، وأعلن برده العداء كالمشركين فكسرى همّ بأن

---

(١) التوبة

يرسل الى النبي صلى الله تعالى عليه وسلممن يقتله ، وهرقل قتل واليه على الشام من أسلم من أهل الشام ، ولذلك اتجهالنبي صلى الله تعالى عليه وسلم الى الشام ، فكانت غزوة مؤتة ، ثم غزوةتبوك ، ثم وصيته بانفاذ جيش أسامة بن زيد الى الشام ٠

وبهذا نرى أن الباعث لحرب النبيصلى الله تعالى عليه وسلم هو دفع الأذى ، وتمكين الدعوة ، ولم يكن ثمةاكراه على الدين ، لأن الله تعالى يقول :

﴿ لَآ إِكْرَاهَ فِي ٱلدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَيِّ فَمَن يَكْفُرْ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَا وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٥٦﴾ ﴾ (١)

ولم يثبت أن النبي صلى الله تعالى عليهوسلم أكره أحداً على الدين ، بل ثبت أنه أراد بعض الأنصار أن يكره ولدهعلى الاسلام ، فنهاه النبي صلى الله تعالى عليه وسلم عن ذلك ٠

الأهبة قبل المعركة:

٣٦٥ ــ وكانت تتجلى الفضيلة فيحرب النبي صلى الله تعالى عليه وسلم عندما أخذ يرسل الجيوش الى الجهاتالنائية ، فقد كان عليه السلام يأمر جيشه بالتأني قبل أن يتقدم للقتال ،وكان يدعو المؤمنين الى ألا يتمنوا القتال ، لأنه امتحان القلوب وهدم الأجسام ، فكان عليه الصلاة والسلام يقول (لا تتمنوا لقاء العدو ، واذا لقيتموهمفاصبروا) ٠

واذا تعين القتال ،خيرهم بين الاسلام، أو أن يعاهدوه ، ليأمن الاعتداء من جانبهم ، وذلك ما يشبه في العصر الحاضر ميثاق عدم الاعتداء ، أو أن يكون القتال ، وأنهم اذا قبلوا العهد أمنجانبهم ، وأمن أن تسير الدعوة في طريقها ، وأن يخلو له وجه الناس ،ويقنعهم بالحق فمن اهتدى فلنفسه ، ومن أساء فعليها ٠

---

(١) البقرة

وإننا إذ نتجه الى ذلك الوادي المقدس يسترعي انتباهنا دعاء النبي صلى الله تعالى عليه وسلم عند القتال الذي يدل على شعوره صلى الله تعالى عليه وسلم بوحدة الانسانية ووحدة الخالق،فهو يقول في دعائه عليه السلام (اللهم إنّا عبادك وهم عبادك ، نواصينا ونواصيهم بيدك ، اللهم اهزمهم ، وانصرنا عليهم) ، وما كان ذلك الجزء الأخير الا لأنهم معتدون على الحق ، وعلى الحرية الدينية بفتنتهم الناس عن دينهم وجحود بالحق ، ولقد كان صلى الله تعالى عليه وسلم حريصا على منع القتال حتى عند أخذ الأهبة ، فهو يقول لمعاذ ابن جبل وقد أرسله الى اليمن قائدا ٠

« لا تقاتلوهم حتى تدعوهم ، فان أبوا فلا تقاتلوهم ، حتى يبدؤوكم ،فان بدؤوكم ، فلا تقاتلوهم ، حتى يقتلوا منكم قتيلا ثم أروهم ذلك ، وقولوا لهم هل الى خير من هذا سبيل ، فلأن يهدي الله على يديك رجلا واحداً خير مما طلعت عليه الشمس وغربت » ٠

ونجد من هذه الوصية أن نية السلم قائمة والجيشان قد تلاقيا ، فالقائد المسلم لا يقاتلهم الا بعد أن يدعوهم الى العهد الذي يكون فيه تأمين حرية الدعوة ، ثم هو لا يبدأ القتال ، بل يتركهم يبدؤون القتال ، وحتى بعد هذا البدء لا يقاتلهم حتى يقتلوا فعلا ثم يبين لهم العبرة في ذلك الدم الذي أراقوه ظلما وعدوانا ، فان لم يعتبروا لم يبق الا السيف ليحكم بأمر الله بينه وبينهم والله خير الفاصلين ٠

الرحمة في المعركة:

٣٦٦ ـ والرفق ملازم المعركة ذاتها ، كما كان في ابتدائها ، ذلك أنها حرب نبوة ، وليست مغالبة ولا تناحراً،ولقد قال صلى الله تعالى عليه وسلم في وصف دعوته وحربه:(أنا نبي المرحمة،وأنا نبي الملحمة) ، وفي الحق ان المرحمة والملحمة متلاقيتان فما كانت الملحمة الا لأجل المرحمة ، اذ الرحمة الحقيقية في هذا العالم هي في قطع الفساد ومنع الشر ، واذا كانت الملحمة فقد تعينت سبيلا للمرحمة ٠

وانه كان يصاحب حرب النبي صلى الله تعالى عليه وسلم عند ابتداء المعركة العمل على تأليف القلوب حتى وقد اشتجرت السيوف ، ولذلك يوصي عليه

السلام جنده وقد أرسلهم للقتال بقوله: « تألفوا الناس وتأنوا بهم ولا تغيروا عليهم حتى تدعوهم فما على الأرض من أهل مدر أو وبر أن تأتوني بهم مسلمين أحب اليّ من أن تأتوني بأبنائهم ونسائهم وتقتلوا رجالهم » .

هي حرب رفيقة تتسم بالتأليف ، لا بالتقتيل ، وبالمحافظة على الأنفس والرجال الا أن تكون ضرورة ملجئة ، فقد كان النبي صلى الله تعالى عليه وسلم يوصي بألا يقوم الجيش باتلاف زرع أو قطع شجر أو قتل الضعاف من الذرية والنساء ، والرجال الذين ليس لهم رأي في الحرب، ولم يشتركوا فيه بأى نوع، ومن ذلك قوله في احدي وصاياه :

« انطلقوا باسم الله وعلى بركة رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، لا تقتلوا شيخاً فانياً ولا طفلا ، ولا امرأة ، ولا تغلوا ، وضموا غنائمكم ، وأصلحوا وأحسنوا ان الله تعالى يحب المحسنين » .

وفي معنى هذه الوصية وصية أخرى، وهو قوله عليه الصلاة والسلام : سيروا باسم الله في سبيل الله تعالى، وقاتلوا أعداء الله ولا تغلوا (تخونوا) ولا تغدروا، ولا تمثلوا ولا تقتلوا وليداً .

ويقول عليه السلام لخالد بن الوليد : « لا تقتل ذرية ولا عسيفاً (أي عاملا) » .

وبهذه الوصايا يتبين أن الحرب النبوية الفاضلة لا يصح أن تكون اتلافاً وافساداً ، وتحللا من القيود الانسانية، ولذلك لا يباح في القتال كل شيء ، ولا يفعل ما يفعله القواد في هذه الأيام من اهلاك الحرث ، والنسل ، وافساد الزرع والقاء السم فيه ، ليتسمم الاحياء .

وان النبي صلى الله تعالى عليه وسلم شدد في منع قتل الأطفال والشيوخ الذين لا يحاربون وليس لهم رأي في الحرب ، والنساء ، لأن القتال الذي كان من المسلمين انما كان لدفع الاعتداء والقصاص من المعتدين ماداموا مستمرين أو على نية الاعتداء ، وأولئك ما كانوا يقاتلون ولا يعتدون، وليس في طاقتهم أن يقفوا محاربين الدعوة الاسلامية أن تسير في طريقها .

وقد مر النبي صلى الله تعالى عليه وسلم على القتلى فرأى امرأة مقتولة ، فقال عليه السلام ما كانت هذه لتقاتل ،وأرسل الى خالد بن الوليد يأمره بألا يقتل عسيفاً ولا ذرية .

ولقد كان عليه الصلاة والسلام يغضب اذا بلغه أن جنده قتلوا صبيانا ، ولقد بلغه أن بعض الأطفال قتلهم جند المسلمين ، فوقف عليه السلام يقول لجنده : « ما بال أقوام تجاوز بهم القتل حتى قتلوا الذرية ألا لا تقتلوا الذرية ، ألا لا تقتلوا الذرية ».

وكان عليه السلام يمنع قتل العمال، وكرر منع قتل العسفاء وهم العمال الذين يستأجرون للعمل ، لأن حربه عليه السلام لم تكن لقتل الأقوياء القادرين ، انما كانت لمنع اعتداء الذين يحملون السلاح ، أو يدبرون الاعتداء، والعمال ليسوا كذلك ، اذا لم يكن عملهم لتهيئة أسباب القتال .

وكان عليه السلام ينهى عن التخريب ، فكان يمنع قطع الشجر ، لأنه لا ضرورة توجب قطعه الا أن يتخذه العدو مستتراً له ، ليجعل منه كميناً ، يكمن فيه لجيش المسلمين ، فما كانت حرب النبي صلى الله تعالى عليه وسلم تسمح بالتخريب .

الفضيلة في حربه صلى الله عليه وسلم :

٣٦٧ ـ ليست حرب النبي صلى الله تعالى عليه وسلم كحرب الأنذال اللؤماء الذين يضعون السيف في موضع البرء وموضع السقم ، انما هي حرب الخلق القوي الذي لا يضع السيف الا حيث يكمن الداء ، ويستقر ، ليقتلع الشر من مكمنه ، فلا يقتل الا من اعتدى وحمل السيف ، أو دبر الأمر لمن يحمله .

ولذلك كانت الفضيلة هي المسيطرة في كل أدوارها في ابتدائها وسيرها ، وانتهائها ، وانها اذ كانت لرد الاعتداء بمثله ، فهي مقيدة بالفضيلة لما ذكرنا من أن الله تعالى أمرنا بالتقوى عند رد الاعتداء ، فالمعاملة بالمثل مع التقيد بالتقوى توجب على جيش الايمان ألا ينتهك حرمات الفضيلة لأجل المعاملة

بالمثل ، فاذا تعارضت الفضيلة مع المعاملة بالمثل كان الواجب مراعاة الفضيلة ، لأنها المبدأ الذي لا يقبل التخلف كيفما كانت الحال ·

وقد يعجب بعض الناس من الفضيلة تحكم في وسط السيوف ، وحيث تستباح النفوس ، فانها حيث استبيحت لا يبقى شيء يحترم ، ولكنا نقول انها حرب النبوة المقيدة بقانون السماء ،قام بها النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ليعلمها للناس ، فانه ما دامت الحرب في نظام الوجود الانساني ، فانه لابد من أن تقيد بالفضيلة ، وأن يتولى تعليمها خاتم النبيين محمد صلى الله تعالى عليه وسلم ، وهو آخر صرح في نبوة السماء ، وان حرب النبوة هي حرب الفضيلة التي تدفع الرذيلة دفعا،وليس من المعقول أن يكون الباعث عليها الدفاع عن الحق والفضيلة ،وتنتهك الحرمات من أهلها في الميدان مجاراة الأراذل المعتدين ، فاذا كان العدو منطلقا من كل القيود الخلقية فجيش الفضيلة مقيد بالفضيلة ، فاذاكان العدو يهتك الأعراض ان استمكن، أو يقتل النساء والولدان والشيوخ الذين لا يستطيعون حيلة ، فان جيش الاسلام المؤمن لا يجاريهم لأنه مقيد بالفضيلة والخلق القوي ·

واذا كان العدو يمثل بالقتلى، ويشوه أجسامهم بعد القتل ، فان جيش الفضيلة لا يفعل لقول القائد الأعظم المعلم الأول للحروب الفاضلة : « اياكم والمثلة » ·

ولقد قتل المشركون في غزوة أحد حمزة بن عبد المطلب عم النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، وحبيبه ، أدنى قرابته اليه ، وسيد الشهداء كما سماه النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ،ومثلوا بجسمه الطاهر ، ومع منزلته منه عليه السلام لم يفكر في أن يمثل بأحد من قتلاهم فيما جد من بعد ذلك ·

واذا كان الأعداء يجيعون الأسرى ،أو يقتلونهم بالعطش ، فان جيش المسلمين يعد من أقرب القربات اطعام الأسير ، تحقيقا لقوله تعالى في وصف المؤمنين الصادقين في ايمانهم :

﴿ وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ﴿٨﴾ ﴾ (١)

---

(١) الانسان

احترام الكرامة الإنسانية :

٣٦٨ ـ واذا كانت الفضيلة لا بد من احترامها في أثناء الحرب ، للأمر بتقوى الله تعالى عند رد الاعتداء بمثله فمن الفضيلة المحافظة على الكرامة ، بقوله تعالى :

﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴿٧٠﴾ ﴾ (١)

فكرامة العدو محترمة ككرامة الولي على سواء وقد يعد بعض الناس ذلك أمراً غريباً ، حيث كانت السيوف متشابكة ،

اذ أن هذا ليس وقت التكريم ، بل هو وقت التقتيل ، ولكن لا غرابة ، فهي ليست حرب انتقام ، ولكنها قمع للشر ، ومنع لاستمراره ، ولا استمرار يتصور من مقتول .

ولذلك أمر النبي صلى الله تعالى عليه وسلم بدفن قتلى قريش ، لم يترك جثثهم نهباً لوحوش الأرض وسباع الطير ، أمر عليه السلام بوضع جثث القتلى من قريش في القليب وهو بئر جافة .

ولقد نهى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم عن الاجهاز على جريح ، كما نهى عن تعذيب القتلى ، اذ ضعفت قوة الجريح عن أن يقاوم ، وذلك كله لاحترام الانسانية ، ولأن القتال ليس القصد منه الا اضعاف قوة الطغاة ، ودفع الاعتداء وليس منها الانتقام .

وان المعاملة بالمثل التي تفرضها قوانين الحرب ، والتي تفرض بحكم رد الاعتداء به لا يسير به المسلم الى أقصى مداه ولو انتهكت الفضيلة والكرامة الانسانية ، بل ان المسلم بأمر الله تعالى مأمور بالتقوى عند رد الاعتداء ، وكانت حرب النبي هي المثل السامي في تنفيذ ، ذلك لأنه الذي يتعلم منه الانسان ان حارب أخاه الانسان ، فعندئذ يكون قانون الأخلاق هو الذي يحكم لا قانون الغابة .

---

(١) الاسراء

نهاية حرب النبي صلى الله عليه وسلم

٣٦٩ ـ كانت نهاية حرب النبي صلى الله تعالى عليه وسلم تنتهي بأحد أمور ثلاثة :

أولها ـ الموادعة ـ وقد كانت عهود الموادعة التي كان يبرمها النبي صلى الله تعالى عليه وسلم مرغوبا فيها منه صلى الله تعالى عليه وسلم استجابة لقوله تعالى :

﴿ وَإِن جَنَحُواْ لِلسَّلْمِ فَٱجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٦١﴾ ﴾ (١)

ولقوله تعالى :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱدْخُلُواْ فِى ٱلسِّلْمِ كَآفَّةً وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٢٠٨﴾ ﴾ (٢)

ولأن الأصل في العلاقة هو السلم ، والحرب لا تكون الا اذا دفعت اليها ضرورة رد الاعتداء بمثله مع التزام الفضيلة كما ذكرنا ، واذا كانت الموادعة فقد زالت ضرورة الحرب ، والضرورة تقدر بقدرها .

وقد عقد النبي صلى الله تعالى عليه وسلم موادعات ، كما عقد صلحا ، وعقد من بعده صاحباه أبو بكر وعمر رضي الله تعالى عنهما معاهدات صلح آخذين بهديه ، مقتبسين من نوره ، وكلها كانت تبدو فيها الرغبة في الصلح من جانب النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، وما كان النبي صلى الله تعالى عليه وسلم يدخل في الحرب الا بعد عرض الصلح ، حتى تتحقق ضرورة الحرب .

وان الموادعة لا يفرضها النبي صلى الله تعالى عليه وسلم بحكم القوة ، ان كان هو الغالب ، بل يفرضها بالسماحة وادناء القلوب النافرة .

---

(١) الانفال (٢) البقرة

ولعل أوضح الأمثال في الدلالة علىذلك صلح الحديبية ، فقد ذهب الى مكة ومعه جيش كثيف في عدده ، قويفى رجاله ، مستعد في عدته ، ليحج بيت الله الحرام ، ولكن ما ان عرضتفكرة المهادنة ، حتى سارع اليها وقبل من الشروط ما لا يقبله الا السمح الكريم ، وفيها كما يدل ظاهرها من الاجحاف بالمسلمين ما كان لغير نبي انيقبله ، ولكنه قبله راضيا ، ولنذكر الخبر فيها ، كما روته الصحاح فيالسنة ٠

روى البخاري أن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم خرج في ذي القعدة من العام السادس ليحج الى بيت الله الحرام ، على ألا يقاتل الا اذا منع ،فلما بلغ قريشا عزمه عليه السلام ، ومجيئهمع أصحابه ، جمعوا له الجموع ليصدوه ، ومن معه ، فلما علم النبيصلى الله تعالى عليه وسلم بذلك ، وقد لبس لباس الحج ونواه ومعه الجيشالكبير ـ جمع أصحابه ، وقال :«أشيروا عليّ ، فقال أبو بكر : « يا رسول اللهخرجت قاصداً البيت ، لا تريد قتل أحد ، ولا حرب أحد ، فمن صدنا عنهقاتلناه فقال الرسول الأمين امضوا على بركة الله »حتى اذا أشرف على مكة قال :والله لا يسألونني خطة يعظمون فيها حرمات الله الا أعطيتهم اياها » ٠

ولما جاءت رسلهم اليه صلى الله تعالى عليه وسلم قال لهم : « إنّا لم نجىء لقتال ، ولكنا جئنا معتمرين ، وانقريشا قد نهكتهم الحرب ، وأخذت بهم فان شاؤوا ما ردلهم ، وأخلوا بيني وبينه » ٠

عرض عليه السلام الموادعة ، وهوالقوي بجيشه ، وبنصر الله الذي فوق كل شيء فقبلوا المهادنة بشروط كانجلها كما يرغبون : أولها ـ أن يعود ولا يحج في عامه هذا ، وأن توضعالحرب عشر سنين يأمن فيها الناس ويكف بعضهم عن بعض ، وأن يعتمرالرسول وأصحابه في العام القابل ٠

وثانيها ـ أن من قدم المدينة من قريش مجتازاً الى الشام فهو آمن على دمه وماله ٠

وثالثها ـ أن من أتى محمداً من مكةمسلماً بغير اذن وليه رده عليهم ٠

ورابعها ـ أن من جاء ممن مع محمدمرتدا عن دينه لم يردد اليه ٠

هذه كلها شروط كلها كتبت برغبة قريش ·

وهناك شرط واحد لمصلحة الدعوة الاسلامية ، وهي غاية الغايات ، وذلك الشرط أن من قدم مكة من أصحاب محمد حاجا أو يبتغي الرزق فهو آمن على دمه وماله ·

وهناك شرط سياسي لمصلحة الطرفين ، وهو أن من أراد أن يدخل في عقد مع محمد دخل ، ومن أراد أن يدخل في عقد قريش دخل ·

وربما تكلمنا عن تفصيل لهذا الكلام عليها في موضعها ·

الأمر الثاني الذي تنتهي به الحرب ـ هو الصلح بانهاء القتال ،لا بالموادعة المجردة فيه ، والصلح حينئذ يكون على أساس العدالة والوفاء بكل ما يلتزم كلا الطرفين فيه من حقوق ، ويكون ذلك عهداً يجب الوفاء فيه بكل الشروط الجائزة شرعا ، وأن العهد الذي لا يكون فيه الدخول في الاسلام تكون قبل الحرب عند التخيير بين الاسلام أو العهد أو الحرب ، فيكون للحرب من أن تقع ، لا أن يكون منهياً لها بعد وقوعها·

أما الصلح المنهي للحرب بعد وقوعها ، فيكون باعلان الاسلام في ربوع الديار التي كان النصر فيها للمؤمنين ·

والأمر الثالث الذي ينهي الحرب هو الانتصار للمؤمنين ، والاستسلام من الكافرين ، وهو النوع الثالث من الصلح الذي ذكرناه آنفاً ·

مُعامَلة المهزومين

٣٧٠ ـ تبدو السماحة المحمدية ،والرفق على أهله في الحرب النبوية عند هزيمة العدو واستسلامه ، ويلاحظ أنه في حرب محمد صلى الله تعالى عليه وسلم ، لم يهزم المؤمنون هزيمة فيها استسلام قط ، اذ أنه لم ينتصر خصوم الاسلام انتصاراً ساحقاً قط في عصر النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، والراشدين من بعده ٠

وانه لما هزم المسلمون في غزوة أحد لم يستسلموا ، لأن الاستسلام فيه ذلة ، والاسلام دين العزة والكرامة ، فلا يمكن أن يستسلم المؤمنون بقيادة محمد صلى الله تعالى عليه وسلم ، بل انه عليه السلام جمع متفرق الجيش ، وأراد أن يتبع به المشركين ، فلما علموا هم بذلك مضوا في طريقهم قافلين ، ورضوا من الغنيمة بالاياب ، اذ علموا أنه مؤيد من عند الله ، وأنه يجاهد في سبيله ٠

واذا كانت الحرب تنتهي باستسلام العدو فمحمد في حرب النبوة لا يقول مقالة الغاشمين ، ويل للمغلوب بل تكون العدالة ، وتكون السماحة ، والرفق المحمدي ٠

كانت آخر حرب للنبي صلى الله تعالى عليه وسلم مع قريش هي التي انتهت بفتح مكة للاسلام والمسلمين ، وهنا يلتقي النبي صلى الله تعالى عليه وسلم مع من آذوه ، وأعنتوا أصحابه ، وساموهم سوء العذاب ، ومنهم من مات من شدة التعذيب ، وقد هموا بقتله صلى الله تعالى عليه وسلم، ولكنهم كانوا يمكرون ويمكر الله والله خير الماكرين ٠

التقى النبي صلى الله تعالى عليه وسلم بهم ، وبكبير حرب الشرك أبي سفيان ، فنشر عليه السلام ، وهو الغالب والمسيطر راية الأمان عليهم ، فنادى مناديه عليه السلام : « من دخل دار أبي سفيان فهو آمن ، ومن دخل المسجد الحرام فهو آمن ، ومن دخل داره فهو آمن » ٠

وهكذا كان انتصار النبي الرفيق الرؤوف الرحيم نشراً للأمان في ربوع مكة حول بيت الله تعالى الحرام ، ولما التقى بالملأ من قريش ، قال لهم : « ما تظنون أني فاعل بكم ؟! قالوا أخ كريم وابن أخ كريم ، قال لهم أقول ما قاله أخي يوسف : لا تثريب عليكم :اليوم يغفر الله لكم وهو أرحم الراحمين، اذهبوا فأنتم الطلقاء» . أي حرب تنتهي بهذه السماحة وذلك الرفق غير حرب النبوة التي قام بها محمد صلى الله تعالى عليه وسلم ، وللناس في رسول الله صلى الله عليه وسلم أسوة حسنة .

معاملة الأسرى في الإسلام

٣٧١ ـ لعل أبلغ ما يدل على أن الحرب النبوية التي دافع بها صلى الله تعالى عليه وسلم عن المؤمنين الذين أخرجوا من ديارهم وأموالهم بغير حق الا أن يقولوا ربنا الله هي حرب لتعليم الناس أن الخلق الكريم يلازمها ، وأن الفضيلة تظلها في كل أدوارها ـ هو معاملة النبي صلى الله تعالى عليه وسلم للأسرى، لقد كان رفيقاً بالأسرى لا يهدر آدميتهم، ولا يعرف تاريخ الانسانية محاربا كان رفيقا بأسراه كمحمد صلى الله تعالى عليه وسلم ، فقد كان صلى الله تعالى عليه وسلم يوصي بالأسرى ، ولما أسر من أسر في غزوة بدر ، فقد نزلوا في بيوت الأنصار ، وكأنهم في ضيافة لا في أسر ، وذلك لقول النبي صلى الله تعالى عليه وسلم : « استوصوا بالأسرى خيرا » ولماذا كان النبي صلى الله تعالى عليه وسلم يوصي بالأسرى ، ويبالغ في الايصاء بهم ؟ والجواب عن ذلك أنهم يؤسرون ونيران الحرب مستعرة ، وربما كان بعضهم من قتل الكثير من جيش المسلمين فيكون الاعتداء عليه متوقعا وغليظا لشدة الغيظ ، وانبعاث الرغبة في الانتقام، كما فعل الأوربيون والأمريكان فيمن سموهم مجرمي الحرب ، فالنبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، وهو يضرب الأمثال السامية في تلك الحرب النبوية منع ايذاء الأسرى وأمر باكرامهم منعاً لتلك الروح الانتقامية الغليظة ٠

وقد أخذ المسلمون في أسرى بدر بتلك الوصية الكريمة ، حتى ان الذين قد نزلوا في ديارهم كانوا يؤثرونهم على أنفسهم وأولادهم بالطعام ٠

وان أولئك الكرام كانوا في جهادين : أولهما جهاد السيف ونيران الحرب ملتهبة ، حتى اذا انطفأت كان الجهاد الثاني ، وهو ضبط النفس لتكظم الغيظ ، فيكون منها ما لا يرضاه الله تعالى بالنسبة للمغلوبين ، وخصوصا الأسرى ٠

لقد تلونا فيما مضى من قولنا قوله تعالى :

﴿ وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ﴿٨﴾ ﴾ (١)

---

(١) الانسان

وان الاسلام يوجب بالنسبة للأسير أمرين :

أولهما : أنه ليس لجيش الاسلام أن يأسر حتى يثخن في الأرض بأن يثقل جيش العدو بالجراح ، ولا تكون له قدرة على مواصلة القتال ، وقد قال الله تعالى :

﴿ مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنْيَا وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلْـَٔاخِرَةَ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٦٧﴾ ﴾ (١)

الأمر الثاني : أن القرآن الكريم الذي كان ينفذه النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ويبينه كما قال تعالى :

﴿ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٤٤﴾ ﴾ (٢)

ان هذا القرآن يذكر بالنسبة للأسرى أمرين لا ثالث لهما ، وهما اما المن عليهم باطلاق سراحهم ، واما الفداء بالمال أو الرجال ، فقد قال تعالى :

﴿ فَإِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَضَرْبَ ٱلرِّقَابِ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَثْخَنتُمُوهُمْ فَشُدُّوا۟ ٱلْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنًّۢا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَآءً حَتَّىٰ تَضَعَ ٱلْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ﴾ (٣)

وكما أشرنا : ان الفداء قد يكون بالرؤوس، فيطلق من أسارى المسلمين في نظير أن يطلق المسلمون من أسرى الأعداء ، وقد يكون بالمال .

واذا كان الأسير فقيراً ولا مال له ،فانه يتعين تسريحه ، ويكون ذلك من الصفح الجميل الذي أمر الله تعالى نبيه به بقوله : « فاصفح الصفح الجميل » ، ومن أخذ الأمور بالعفو ، كما قال تعالى:

﴿ خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿١٩٩﴾ ﴾ (٤)

---

(١) الانفال (٢) النحل

(٣) محمد (٤) الاعراف .

الجهاد رهبانية الإسلام

٣٧٢ ـ أعظم العبادات الجهاد في سبيل الله تعالى ، واذا كان النبي صلى الله تعالى عليه وسلم قد علم المؤمنين الصلاة ، وقال : « صلوا كما رأيتموني أصلي » فقد علمهم الحرب الفاضلة أيضاً ، بل علم الانسانية كلها الحرب الفاضلة ، ولسان حاله عليه السلام يقول : « حاربوا في سبيل الفضيلة وبالفضيلة كما رأيتموني أحارب » فحرب النبي صلى الله تعالى عليه وسلم قد أدت مقصدها ، وهو جعل كلمة الله تعالى هي العليا وكلمة الذين كفروا السفلى ، ولا تزال المثل السامية التي صورتها الحرب المحمدية قائمة تهدي وترشد العالمين ، ولقد عد النبي صلى الله تعالى عليه وسلم أعلى درجات الزهادة والعبادة ، الجهاد ، ولذلك قال صلى الله تعالى عليه وسلم « الجهاد سنام الدين » .

وقد منع رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم الرهبانية ، وقال لا رهبانية في الاسلام ، وبين أن رهبانية الاسلام هي الجهاد ، فقد قال صلى الله تعالى عليه وسلم :« في كل أمة رهبانية ، ورهبانية هذه الأمة الجهاد » ، وقد علل ذلك الامام السرخسي بأن فيه العشرة مع الناس ، والتفرغ عن عمل الدنيا والاشتغال بما فيه سنام الدين » وفيه أمر بالمعروف ، ونهي عن المنكر ، وهو صفة هذه الأمة .

وانه يتشابه المجاهد مع الراهب في ثلاثة أمور ، ويختلفان في أمر .
أما الأمور المتشابهة فهي :

أولا ـ اعتزال الناس جملة ، والخروج عن الحياة التي يحياها الناس لأنفسهم آكلين شاربين متمتعين بحلاوة الحياة وما فيها .

وثانياً ـ أن الراهب يعتزل النساء، والمجاهد التقي الذي نال شرف الجهاد ومعناه يعتزل النساء وينقطع عن الأولاد في مدة الجهاد ، وهم فلذات كبده .

وثالثاً ـ أن كليهما قد قدم نفسه لله تعالى ـ الراهب بالعبادة ليسمو في نظره الى الروحانية التي تقربه من الله تعالى في زعمه ، والمجاهد قد قدم نفسه فعلا لله تعالى ليحمي الحق الذي أمر الله بنصرته ، ونرى أن المشابهة قائمة ، وان اختلف القصد في كليهما ٠

ومن هنا كان موضع الافتراق ، فالراهب يعتزل الناس لأجل نفسه وعبادته الانفرادية ، أما المجاهد ،فيعتزل الناس ، ليحمي الناس ، وينفذ أمر ربه ، فالأول عبادته في دائرة وجوده الشخصي لا تعدوه ، والثاني عبادته في دائرة النفع العام ، والأول لا تخلو عبادته من أثره ، والثاني عبادته كلها ايثار ٠

وان الاسلام منع الرهبنة ، لأنها فرار من الحياة ومتاعبها ، ولذلك تعتبر القوانين الأوروبية الرهبان في حكم الأموات، والرهبنة موتاً اختيارياً، والاسلام لا يريد للمتعبد هذا الموت ولا ذلك الفرار ، ولكنه يريد المؤمن نافعاً للناس ، حياً في وسط الأحياء ، حامياً لهم من المضار ، جالباً لهم المنافع ، اذ ليست العبادات الاسلامية سلبية ، بل هي ايجابية ـ هي المشاركة في رفعة النوع الانساني ، ولذلك يعد كل نفع للأحياء صدقة ، فقد قال عليه السلام : « ما من مسلم يغرس غرساً ، أو يزرع زرعاً ،فيأكل منه انسان أو دابة الاكتب له به صدقة » وانه ليس معنى ذلك أن الروحانية في الاسلام لا وجود لها ، بل ان لها المقام الأول،ففي الصوم والصلاة والحج ، روحانية بل كلها روحاني ، وفي الاعتكاف روحانية، ولكن روحانية الاسلام ليست انقطاعاً عن الحياة والأحياء ، بل هي مع ما فيها من سمو نفسي ، وتجرد من الجسم وأهوائه وشهواته ، هي لتحسين العلاقات الانسانية ، وأن يكون المؤمن مألفاً يألف الناس ، ويألفونه ٠

الخلاصة في حرب النبي صلى الله عليه وسلم

٣٧٣ ـ هذه كلمة تقدمنا بها عندالكلام في حرب النبي صلى الله تعالى عليه وسلم لنرد بها قول الذين يتقولون الأقاويل في حرب محمد صلى الله تعالى عليه وسلم ، ويزعمون أن الحروب والدمار ليست من أعمال النبيين ، وهي فرية افتروها ، فانه ما دام الانسان ابن الانسان ، فانه لابد من مغالبة .

ومن وقت أن امتنع ابليس عن السجود لآدم استكباراً أو استعلاء ، والمعركة بين الخير والشر قائمة ، والعداوة مستحكمة بين الرذيلة تعتدي ، والفضيلة تدفع ، ومن وقت أن نزل آدم وذريته الى الأرض ، وابليس الذي قال لأغوينهم أجمعين الا عبادك منهم المخلصين ، من هذا الوقت وقد تحقق قوله تعالى :

﴿ قَالَ اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴿١٢٣﴾ ﴾ (١)

والنزاع بين الخير والشر قائم . وليس من الفضيلة أن يترك الشر يرتع ، ولا يدفع ، ولذلك قال تعالى :

﴿ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿٢٥١﴾ ﴾ (٢)

وان أولئك الذين يعترضون على قتال النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، لا يتصورون الحرب الا مغالبة بشرية كما تتغالب الوحوش على فريسة تأكلها ، أو على غابة تحتلها ، ولا يتصورون لفرط ماديتهم أن الحرب تكون لاعلاء الحق وخفض الباطل ، وكذلك كانت حروب النبيين موسى وداود ، وسليمان ،

---

(١) الاعراف (٢) البقرة

وغيرهم من الأنبياء ، وما كان قتالهم شرها الى الدماء ، فمعاذ الله وتنزهت ذاته الكريمة فلا يرسل الا ملكا كريماً ٠

وننتهي من هذا الى تقرير هذه الحقائق التي بدت من البحث واضحة نيرة٠

الحقيقة الأولى : أن حرب محمد صلى الله تعالى عليه وسلم ، كانت أمراً لابد منه ، ليقيم الحق ويخفض الباطل، وما كانت رسالته تدعو الى استخذاء الخير أمام الشر ، وما كانت دعوتهم لتسير في مسارها الا اذا أزالت الحواجز التي كانت تحاجز دونها ، ليتم التبليغ، والناس بعد ذلك يختارون الهداية أو يستمرون على الغواية :

﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ لِلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ ۖ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ ﴿٤١﴾ ﴾ (١)

الحقيقة الثانية : أن حرب النبي صلى الله تعالى عليه وسلم كانت حرباً فاضلة مثالية تعلم الانسان أنه قد يكون محارباً وهو فاضل، وأن الانسانية تحترم ، والسيوف مشتجرة ٠

الحقيقة الثالثة : أن حرب النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ومن يتبعونه في هديه ، ويتخذونه أسوة في حربه وفي سلمه هي عبادة ، لأن رفع الحق والحرب لرفعه هو في ذاته عبادة ،فليست عبادة الاسلام عكوفاً في الصوامع من غير عمل نافع ، بل كل عمل نافع فيه عبادة اذا نواها المؤمن « انما الأعمال بالنيات ، وانما لكل امرىء ما نوى » ٠

---

(١) الزمر

أدوار الحرب المحمدية

٣٧٤ ـ كان لابد قبل أن نخوض في حروب النبي صلى الله تعالى عليه وسلم وأدوارها ، والمعارك التى خاضها ـ من أن نسبق بالقول في أوصاف حرب النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ،فان ذكر الحرب قد يفزع ، ويرهب ، فكان من الضروري أن نعرف القارئين بأنها ليست كحرب الناس تستمد أحكامها من الغلب بالظفر ، والناب ،وأنها حرب نبوة تدفع اليها الفضائل الانسانية ، ويظلها الحق والخلق الكريم في الباعث عليها ، وفي ابتدائها ، وفي سيرها ، وفي الانتهاء منها ، وفي معاملة المغلوبين ، ليتميز الخبيث من الطيب ، ولكيلا يتطاول ملحد في دين الله على مقام الرسالة ، ومكان الهداية ، ويقع في القول بغير حق ويفتري بالباطل ، فنضع الحقائق بين يديه ، فان شاء استنار بها ، وان طمس الله تعالى على بصيرته فما له من هاد ، ويكون كما قال الشاعر :

كناطح صخرة يوماً ليوهنها   فلم يضرها وأوهى قرنه الوعل

وبعد هذه التقدمة نقول ان حرب النبي صلى الله تعالى عليه وسلم قد أخذت أدوارا ثلاثة :

الدور الأول: توجه عليه الصلاة والسلام للتصدي لمتاجر قريش ليشعرهم بقوة الحق ، وليحملهم على منع الفتنة في الدين ، وليدركوا نور الحق ، بعد أن تبين نوره قوياً وهاجاً ، وليعلموا أنه لاملجأ لهم من الله الا اليه •

والدور الثاني : تلقيه لمن يهاجمون المدينة لينالوا من رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ومن معه • ظانين أنهم بذلك يقتلعون الاسلام من جذوره ولينالوا منه نيلا ، قد ابتدؤوه في مكة ، وحاولوا أن يقطعوا شجرته في المدينة ، حاسبين أنه قد استغلظ سوقها •

وفي هذا الدور كانت بدر الكبرى، وأحد ، والخندق أو الأحزاب ،ومعها كان اجلاء بني قينقاع وبني النضير ،وبني قريظة •

الدور الثالث : كان في الخروج الى العرب الذين قاتلوه كافة ، فكان حقاً عليه أن يقاتلهم كافة ، كما أمره الله تعالى بقوله :

﴿وَقَٰتِلُواْ ٱلْمُشْرِكِينَ كَآفَّةً كَمَا يُقَٰتِلُونَكُمْ كَآفَّةً وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٣٦﴾﴾ (١)

وفي تلك الغزوات كان النبي يعمم الدعوة الى الاسلام ، لأنه عليه السلام كان يخيرهم بين الاسلام ، ويبين حقيقته وأركانه ، وبين القتال ، واذا اختاروا السلم كان ، وان اختاروا الحرب ، وهزموا ، وجدوا في رفق المعاملة ولين القوي وعطفه مالم يحتسبوا ، فيألفونه ، ويدخل الايمان في قلوبهم ٠

وانه في هذا الدور قد أخذت الحرب تنتقل من جزيرة العرب الى خارجها ، لأن الرسول صلى الله تعالى عليه وسلم أخذ يدعو الملوك ورؤساء الدول الى الاسلام ، أو أن يفتحوا الطريق أمام الدعوة الاسلامية ، فما آمن منهم الا النجاشي ملك الحبشة ، ومنهم من لم يجب ، ومنهم من أساء في الرد ، ومنهم من أجاب جواباً رقيقاً ولكنه لم يؤمن ٠

وحدث أن ملك الروم قد قتلت جيوشه من أسلم من أهل الشام ، فتعرض المسلمون لفتنة دينية كالتي كانت في مكة ، وأمر الله تعالى بالقتال لأجلها ، فقال تعالى :

﴿وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ لِلَّهِ فَإِنِ ٱنتَهَوْاْ فَلَا عُدْوَٰنَ إِلَّا عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٩٣﴾﴾ (٢)

ولذلك كانت غزوة مؤتة ، وغزوة تبوك من بعدها ٠

وقد تجمع اليهود الذين أجلاهم من المدينة في خيبر ، لينقضوا على المدينة ، فكان لابد أن يساورهم ، قبل أن يساوروا المدينة ، وهكذا ٠

---

(١) التوبة (٢) البقرة

الدور الأول

٣٧٥ ـ وان هذا الدور يصح أن نقسمه الى قسمين : أحدهما لم يلق فيه حرباً ، ولا قتالا ، بل كان اللقاء ينتهي بالمسالمة ، وكان فيه تأليف للقلوب النافرة ، وتقريب الاسلام من العقول والنفوس ، وفيه بيان لقريش أن الاسلام قد أعزه الله تعالى ،وأن المسلمين صاروا فوق منالهم،والناس يستقبلونه، وقد أرادوا أن يحولوا بين النبي صلى الله عليه وسلم وبينهم .

والقسم الثاني كان فيه قتل وقتال .

وفي القسم الأول كانت غزوات أربع خرج فيها النبي صلى الله تعالى عليه وسلم قبل غزوة بدر الكبرى التي هي ابتداء القسم الثاني من هذا الدور .

وتلك الغزوات التي لم يكن فيها قتال هي غزوة الأبواء ، وتسمى الودان وغزوة بواط ، وغزوة العشيرة ،وغزوة بدر الأولى ، وكانت بينهما سرية عبد الله بن جحش والغزوات الثلاث الأولى كانت في الطريق بين المدينة ومكة ، وأما بدر فكانت قرب المدينة ،وان كانت على هذا الطريق وغزوة أبواء ، أو ودان كانت في صفر في السنة الثانية ، وودان قرية كبيرة من أمهات القرى ، وقريب منها الأبواء ،وكانت الغزوة بينهما ، ولذا صح أن تسمى بكل واحدة منهما ، وهما على مقربة من الجحفة ، وبين المدينة ،وتبعد عن المدينة بنحو ثلاثة وعشرين فرسخاً .

وقد كان خروج النبي صلى الله تعالى عليه وسلم في جمع من المهاجرين ليس فيهم أنصاري وسبب الخروج أنه علم أن عيراً لقريش قد خرجت ، فترصد لها النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ،لكن وصل بعد فصل العير عنها ، ولقي بني ضمرة ، فتوادع معهم على أن ينصروا المسلمين اذا دعوهم الى النصرة وأنهم آمنون على أموالهم وأنفسهم ، وأن على المسلمين نصرهم على من يعتدي عليهم .

وكان الذي تولى العقد عن بني ضمرة مخشي بن عمر الضمري ، وكان سيدا في قومه في زمانه ، وقد خلف النبي صلى الله تعالى عليه وسلم سعد بن عبادة على المدينة .

وقد أقام رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم بقية صفر ، وكانت غيبته عن المدينة خمس عشرة ليلة (١) .

غزوة بواط :

٣٧٦ ـ في ربيع الأول بلغ النبي صلى الله تعالى عليه وسلم أن عيرا لقريش مقبلة من الشام ، أميرها أمية بن خلف فيها مائة رجل ، ومعها ألفا بعير وخمسمائة ، فخرج اليهم رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم في جمع مائة من المهاجرين وخلف عنه في المدينة سعد بن معاذ ، وحمل لواءه سعد بن أبي وقاص ، وبواط ـ بفتح الواو ـ جبل من جبال جهينة من ناحية رضوى .

ولكن الرسول صلى الله تعالى عليه وسلم عند ما وصل الى هذا المكان لم يلق كيدا .

غزوة العشيرة : (٢)

٣٧٧ ـ في جمادى الأولى من هذه (السنة) علم النبي صلى الله تعالى عليه وسلم أن عيرا لقريش ذاهبة الى الشام ،فخرج عليه السلام لملاقاتها ، فنزل تحت شجرة ببطحاء ابن أزهر يقال لها ذات الساق ، فصلى عندها ، فكانت مسجده ، وصنع للرسول طعام فأكل وأكل أصحابه ، ثم استقى له من ماء يقال له المشيرب ، وأخذ يتابع البحث عن تلك الشعاب المتعرجة ، ثم اعتدل في الطريق حتى نزل العشيرة من بطن ينبع فأقام بها ، جمادى الأولى ، وليالي من جمادى الآخرة .

ولكن العير قد سبقت ولم يدركها ،فلم يلق حربا،ولكنه عاد بتألف القلوب، فوادع بني مدلج ومن معهم من حلفائهم ، فاذا كان لم يدرك العير ، ولم

---

(١) نهاية الارب للنويرى جـ ١٧ ص ٤

(٢) يقال عنها العسيرة والعشيرة بالمهملة ، وتحذف التاء فيها .

يكسب منها مالا ، فقد كسب قلوباً ،وألفها ، وذلك هو أول أعمال الرسالة المحمدية ٠

وقد خلف رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم على المدينة أبا سلمة الأسدي، وحمل لواءه حمزة بن عبد المطلب ،ويذكر ابن اسحاق أنه في هذه الخرجة، كنى النبي صلى الله تعالى عليه وسلم علي بن أبي طالب كرم الله وجهه بكنية (أبو تراب) فيقول « ويومئذ قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، قال : فحدثني يزيد بن خيثم ٠٠ عن عمار بن ياسر ، قال كنت أنا وعلي بن أبي طالب رفيقين في غزوة العشيرة من بطن ينبع ، فلما نزل رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم أقام بها شهرا ، فصالح بني مدلج وحلفاءهم من بني ضمرة ، فوادعهم فقال لي علي بن أبي طالب رضي الله عنه : هل لك يا أبا اليقظان أن هؤلاء النفر من بني مدلج يعملون في عين لهم ، ننظر كيف يعملون ، فأتيناهم ، فنظر اليهم ساعة ، فغشينا النوم ، فعمدنا الى صور من النخل في دقعاء من الأرض ، فنمنا فيه ، فوالله ما أهبنا الا ورسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم يحركنا بقدمه ، فجلسنا ،وقد تتربنا من تلك الدقعاء ، فيومئذ قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم لعلي يا أبا تراب لما عليه من التراب ، فأخبرنا بما كان من أمرنا ، فقال :ألا أخبركم بأشقى رجلين قلنا بلى يا رسول الله ، فقال عليه الصلاة والسلام أحيمر ثمود الذي عقر الناقة ، والذي يضربك يا علي ، على هذه ، ووضع رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ـ حتى بل منها هذه ووضع يده على لحيته » ٠

وقد علق على ذلك الخبر ابن كثير ،فقال : « وهذا حديث غريب من هذا الوجه، له شاهد من وجه آخر في تسمية علي أبا تراب ، كما في صحيح البخاري أن عليا خرج مغاضبا فاطمة ، فجاء المسجد ، فنام فيه فدخل رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم فسأل عنه،فقالت خرج مغاضبا ، فجاء عليه الصلاة والسلام الى المسجد فأيقظه،وجعل يمسح التراب عنه ، ويقول : « قم يا أبا تراب » ٠

ونستطرد في ذكر هذه الكنية النبوية الشريفة ، فنقول انها كانت أحب كنية الى علي كرم الله تعالى وجهه في الجنة ،لأنها تسمية من حبيبه وكافله محمد صلى الله تعالى عليه وسلم ، ولأنها اقترنت بمسحه بيده الكريمة التي أزال

بها التراب عن بدنه ، كما أزال الغبارعن الحقائق الانســانية بالشرع الذي حمله وبلغه للخلق ٠

والخبران متلاقيان كما ذكر الحافظ ابن كثير ٠ فانهما يدلان على أن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ناداه بذلك النداء الحبيب اليه في عدة مواطن ٠

ولقد فسق ناس عن أمر ربهم ، فأذاعوا بين من تبعوهم على غيهم أن هـذه الكنية تدل على الحط من مكانة علي عند النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، فساء قولهم كما ساء فعلهم ٠

وفي هذه الغزوة كمـا أشرنا وادع بني مدلج وحلفاءهم بني ضمرة ، وقد ذكر السهيلي في الروض كتاب الموادعة بين النبي صلى الله تعالى عليـه وسلم ، وبني ضمرة ، وهذا نصه كما جاء فيه« كانت نسخة الموادعة فيما ذكر غير ابن اسحـاق بسم الله الرحمن الرحيم من محمد رسول الله لبني ضمرة ، فانهـم آمنون على أموالهم وأنفسهم ، وأن لهم النصر على من رامهم الا أن يحاربوا في دين الله ما بل بحر صوفه ــ وان النبي صلى الله تعالى عليه وسلم اذا دعاهـم لنصرة أجابوه ، عليهم بذلك طاعة الله تعالى وذمة رسوله ، ولهم النصر على من بر منهم واتقى

بدر الأولى :

٣٧٨ ــ أقام رسول الله صـلى الله تعالى عليه وسلم في العشـيرة ليالي من جمادى الأولى وبعض ليال من جمـادى الآخرة ، كما ذكرنا ثم عاد الى المدينة ، ولكنه لم يقم فيها الا ليالي قلائل حتى أحس بشبه غارة أزمعتها قـريش على المدينة لتوهم النبي صلى الله تعالى عليه وسلم أنه لا تزال عندهم همة للقتال ولم تكفكف عزيمتهم تـلك الانذارات التي قام النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ،ومن أرسله ، فقد أغار كرز بن فهر القرشي على سرح المدينة أي على فنائها فخـرج رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم اليه واستعمل عـلى المدينة زيد بن حارثة ، وسار رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم حتى بلغ واد يقال له صفوان من ناحية بدر ،ولكن كرزا ومن معه نجوا بأنفسهم، فلم يدركهم جيش الايمان والفضيلة ثم رجع رسول الله صلى الله تعالى عليـه وسلم الى المدينة فأقام بها بقية جمادى ورجب وشعبان ، وتسمى هذه الغزوة التي لم يلق رسول الله صـلى الله تعالى

عليه وسلم قتالا فيها . بغزوة بدر الأولى ، وهي في مقابل غزوة بدر الكبرى التي سماها الله سبحانه وتعالى في كتابه الكريم يوم الفرقان ، اذ جعل الله تعالى فيه الكلمة العليا لله ، والحق والايمان والكلمة السفلى للشيطان والكفر ، ولقد كان حامل لوائه في بدر الأولى سيف الله علي بن أبي طالب .

سرية عبد الله بن جحش :

٣٧٩ ـ قد علمت أن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم عندما جاء الى المدينة سالم الذين يقيمون فيها ، وعقد معهم الأحلاف البرة من جانبه عليه السلام ، وقد رأيت أن غزواته صلى الله تعالى عليه وسلم الأولى لم يكن فيها قتال ولكن كان فيها سلم ومواثيق تؤخذ ، وتأليف بين القلوب النافرة . ولو استمرت على كفرها ، اذ أن وراء التأليف أن تخلص النفوس بطلب الحق ، فتشرق من غير أن يدخلها ظلام النفرة .

ومن القبائل من كانت تجيء الى النبي صلى الله تعالى عليه وسلم تلقي بالمودة من غير نفاق ولا ريبة ومنهم قبيلة جهينة فقد روى الامام أحمد بمسنده عن سعد بن أبي وقاص ، أنه قال : « لما قدم رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم المدينة جاءت جهينة ، فقالوا انك قد نزلت بين أظهرنا ، فأوثق حتى نأتيك وقومنا ، فأوثق لهم فأسلموا فبعثنا رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم في رجب ، وكنا مائة ، وأمرنا أن نغير على حي من بني كنانة الى جنب جهينة فأغرنا عليهم وكانوا كثيرا ، فلجأنا الى جهينة ، فمنعونا وقالوا لم تقاتلون في الشهر الحرام ، فقال بعضنا لبعض ما ترون ، فقال بعضنا : نأتي نبي الله فنخبره ، وقال قوم : بل نقيم ها هنا ، وقلت أنا آتي عبد الله بن جحش في أناس معي ، لا بل نأتي عير قريش ، فنقتطعها ، وكان الفيء اذ ذاك من أخذ شيئا فهو له ، فانطلقنا الى العير ، وانطلق أصحابنا الى النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، وأخبروه ، فقام غضبان محمر الوجه ، فقال أذهبتم من عندي جميعا ، ورجعتم متفرقين ، انما أهلك من كان قبلكم الفرقة ، لأبعثن عليكم رجلا ليس بخيركم أصبركم على الجوع والعطش » .

هذه رواية عند الامام أحمد ، وليس في سنده من عرف الطعن فيه ، وقد روى مثله مع بعض زيادة في السند البيهقي في دلائل النبوة ، وزاد في متن الحديث أن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم استنكر القتال في الشهر الحرام .

والحديث برواية الامامين أحمد والبيهقي يدل على ثلاثة أمور :

أولها ـ ما جاء من أن جهينة آمنت اذبدت البينات ، واستعدت لنصرة النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ٠

وثانياً ـ أن المسلمين لم يقاتلوا فعلا، وان هموا بالقتال ، وترددوا عندما نبهوا الى الشهر الحرام ٠

والأمر الثالث ـ أنه كانت ثمة عيرلقريش على أهبة القدوم ، ولعل هذا هو الباعث على السرية ومهما يكن منأمر هذه الرواية التي اتفق عليها امامان من أئمة الحديث ، فان الأمر الذي أشارت اليه تلك الرواية هو أن السرية سارت بامرة عبد الله بن جحش بن ربابالأسدي ، ولكن الذين كانوا في هذا على رواية ابن اسحاق كانوا ثمانية ولميكونوا مائة ، وقد عدهم عدأ بأسمائهم، وكانوا من المهاجرين ، ولم يكن أحد منالأنصار ، كشأن كل البعوث والغزوات التي سبق ذكرها ولعل هذا العدد المحدود ، قد قرره النبي صلى الله تعالى عليه وسلم بعد أن رأى الاختلاف ولعل عددالمائة كان من أسبابه ، وكلما قل العدد بعد الاختلاف ، وفي الفرقة الهلاك كماقرر النبي صلى الله تعالى عليه وسلم على أن النص لا يدل على قصر العدد علىثمانية ، انما يدل على أن فيهم هؤلاء المذكورين مع عدد ليس بالقليل وقدذكر ابن اسحاق أن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم كتب كتابا لعبد الله بن جحشأمير السرية وأمره ألا ينظر فيه حتى يسير يومين ، ثم ينظر فيه ، فلما ساربهم يومين فتح الكتاب ، فاذا فيه اذا نظرت في كتابي ٠ فامض حتى تنزلنخلة بين مكة والطائف فترصد بها قريشاً ، وتعلم من الناس أخبارهم فلمانظر في الكتاب ، قال : سمعا وطاعة ،

وأخبر أصحابه بما في الكتاب ، وقالقد نهاني رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم أن استكره أحداً منكم ، فمن كانمنكم يريد الشهادة ويرغب فيها فلينطلق معي ، ومن كره ذلك فليرجع ،فأما أنا فماض ٠

وان هذا التخيير يدل على أن العددلم يكن ثمانية، والا ما كان ذلك التخيير، فانه لا يكون الا في عدد كبير ولو نسبياً، ولا يمكن في العادة أن يكون في ثمانية ٠

ولعل ذلك التخيير ، ما كان من قبل الافتراق ، اذ قد يكون سببه وهنا في بعض القلوب ، فأراد النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ألا يسير الا من اعتزم وأراد ، واستولى على قلبه ، وذهب عنه الوهن أو احتماله ، سارت السرية بامرة أميرها ، سالكة طريق الحجاز .

ولكن ضل عنهم سعد بن أبي وقاص وعتبة بن غزوان وكانا من الثمانية المقدمين ، وكان معهما بعير يعتقبان في ركوبه .

ولكن القافلة سارت ، وكان رجاء في أن يهتديا اليها .

مضى عبد الله مع من بقي من أصحابه ، حتى وجدا عيراً فيها من قريش وحواليهم الحضرمي بن عبد الله بن عباد ، وعثمان بن عبد الله بن المغيرة المخزومي ، وأخوه نوفل ، والحكم بن كيسان مولى المغيرة بن شعبة .

لما رأى السرية أصحاب العير ، هابوا لقاءهم ، ولكنهم رأوا عكاشة بن محصن من سرية النبوة قد علق فقالوا آمنوا وقالوا عمار « أي ناوون العمرة ، لا بأس عليكم منهم » .

تشاور الصحابة من أهل السرية ، وقد كانوا في آخر رجب ، وهو رابع الأشهر الحرم الذي بينها النبي صلى الله تعالى عليه وسلم بأنها ذو القعدة وذو الحجة ، والمحرم ، ورجب الذي بين جمادى وشعبان ، ترددوا أيقاتلون في الشهر الحرام ، أم يتركونهم ، هذه الليلة ، وحينئذ يدخلون الحرم ، فيمتنعون عليهم ، ولا يمكن انتظارهم هذه الليلة الباقية ، من رجب الحرام .

وانتهت الشورى بالاجماع على القتال ، فرمى أحد السرية عمرو بن الحضرمي فقتله ، وأسروا عثمان بن عبد الله بن المغيرة والحكم بن كيسان ، وأفلت من القوم ، نوفل بن عبد الله .

وعادت السرية بالعير ، والأسيرين حتى قدموا رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم .

القتال في الشهر الحرام :

٣٨٠ ـ قدمت السرية الى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم بالعير والأسيرين ، ولكن مع ذلك كان قتال في الشهر الحرام ورسول الله الحريص

على احترام الحرمات قد تأثم من ذلك ،فقال لهم عليه الصلاة والسلام : « ما أمرتكم بالقتال في الشهر الحرام».ووقف توزيع العير ، وحبس الأسيرين ، فسقط في أيدى القوم ، وظنوا أنهم قد هلكوا ، وكان الكلام اللائم من اخوانهم الذين لميشتركوا في القتال ،ولم يبلوا بلاءهم.

أما الأسيران فوقف عليه الصلاةوالسلام اطلاقهما حتى يعود سعد بن أبي وقاص وصاحبه ، فلما عادا أطلقهما .

وقد قامت قائمة من التشنيع على محمد صلى الله عليه وسلم وأصحابه ، جاهر بها المشركون من قريش ، وما حركهم احترام الحرمات ، والمناسك ،وانما حركهم العير التي أخذت في مقابل ما أخذوا من أموال المهاجرين ، وحركهم الغيظ من أن يكون لمحمد قوة تتولى تأديبهم والقصاص منهم ، وأنه قد ابتدأ أمر جديد قد انبلج فجره ، فظهروا بمظهر المدافعين عن الحرمات ، وأن محمدا ينتهكها ، وهم يصونونها ، ونسوا أنهم هم الذين فتنوا المسلمين عن دينهم ، وانتهكوا حرمات البيت الحرام ، ونسوا أنه حرم الله تعالى الآمن غير مفرقين في هذا الايذاء بين شهر حرام وشهر حلال .

واليهود قد وجدوها فرصة لائحة تشفي غيظهم ، فأخذوا ينثرون من أفواههم ما تنفر به قلوبهم من احن ، وعداوة للاسلام أخفوها ابتداء ، ولكن بدت من أفواههم رغم أنوفهم . وماتخفي صدورهم أكبر .

حدث هذا ، والمجاهدون الأطهار تكاد نفوسهم تذهب حسرات ، حتى نزل قوله تعالى :

﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ ۖ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ ۖ وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَكُفْرٌ بِهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِندَ اللَّهِ ۚ وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ ۗ وَلَا يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُوا ﴾ (١)

---

(١) البقرة

كانت هذه الآيات الكريمات برداً وسلاماً للمؤمنين ، ورداً قاطعاً حاسماً للكافرين ، وانه ليس لأولئك الذين انتهكوا الحرمات، من كفر بالله وبالمسجد الحرام وصد عن سبيل الله تعالى ، وقتل في البيت الحرام أن يتكلموا في انتهاك الأشهر الحرام .

على أنه يجب أن يعلم أن الذين ابتدؤوا بالقتال هم المشركون ،فقد أغاروا ابتداء على فناء المدينة ، نعم انهم لم ينالوا مأرباً ، وفروا فراراً ، فهل كان لأهل الايمان أن يتركوهم ليعيدوا الكرة عليهم ، لا يمكن أن يتركوهم ليغزوهم في عقر دارهم .

ومهما يكن من الأمر ، فقد كانت هذه الغزوة ارهاصاً لبدر الكبرى ، فقد كانت العير هي التي استولى عليها المؤمنون .

لماذا كانت هذه الغزوات :

٣٨١ ـ قد خرجت غزوات للنبي صلى الله تعالى عليه وسلم ثلاث مرات ، وخرجت أربع سريات لم يحصل قتال في السرايا ، ولا في الغزوات الا سهما أرسله سعد بن أبي وقاص في سرية عبيدة بن الحارث بن عبد المطلب ، وسهما قتل ابن الحضرمي في سرية عبدالله بن جحش ، وكانت سهماً عائرة ، لأخذ العير ، ولا يمكن أن يسمى ذلك قتالا ، انما يسمى محاولة لأخذ مال هو من بين ما اغتصبه المشركون من المؤمنين ، اذ أخرجوا من ديارهم وأموالهم بغير حق الا أن يقولوا ربنا الله .

اذاً لم يكن قتال بمعنى كلمة قتال التي تكون مفاعلة من الجانبين ، فلماذا كلف النبي صلى الله تعالى عليه وسلم نفسه ورجاله مؤونة هذا الخروج ، ونقول في الاجابة عن ذلك :

١ ـ ان النبي صلى الله تعالى عليه وسلم خرج من مكة ، وهو هضيم ، أو شبه مطرود في ظاهر الأمر ، وما هو الا ليجمع قوة الحق ، فكان لا بد أن يعمل على اظهار ما أيده الله تعالى به من قوة ،تستطيع أن تشعر الظالمين بأن للحق شوكة ، وأنهم اذا لم يتركوا الدعوة في طريقها رغبا ، فانهم لابد أن يتركوها رهباً ، ولابد للحق في هذه من صولة تكف أذى الباطل ، أو على الأقل تجعل الباطل يتردد عند انزال أذاه ، وأنه ان لم يخش صوت الضمير ، فانه يخشى

صلصلة السيوف • فكانت هذه السراياوتلك الغزوات مظاهر من صولة الحق ليتركوا الدعــوة الى الحق تسـير في سبيلها،ولتستيقظ ضمائر كانت نائمة، فمن الضمائر ما لا يستمع لصوت الحق الوادع الرفيق ، ولكنه يستيقظ • اذا رأى جلجلة القوة ، فيخفف من حــدةالأذى ، ويتبع ذلك أن يسير في طريق الهــداية ان لم يكن الضــلال قــدكتب عليه •

٢ ـ وانه اذا لم يكن قتال ، فقــدكان هنا دراسـة للمؤمنين في البـلاد العربية يتعرفون وهادها ، وجبالهـا •ويدرسون مجاهلها ، فيعرفها من لم يكن يعرفها ، ويلتقون فيها بالأعــراب فيأخبيتهم ، ومساكنهم ، وفي ذلك اعلان الدعوة لمن لم يكن يعلمها ، وتوجيــهالعقول اليها وتوضيحها وبيانها •

٣ ـ وان في هذه الجولات التي كانيجولها أولئك المؤمنون في السرايا التي بعث بها النبي صلى الله تعالى عليه وسلمتعرفا لمساير عير قريش ، وما كــانت الا للتجار الأغنياء فيهــم ، فمــا كانللشعب فيها الا النزر اليسير ، وما كانت تلك البعوث التي تتبع عــير قــريشلأخــذها ، الا ليكــون هــذا بدل ما اغتصبوا ، وقد قلت من قبل ، انذلك لم يكن حصارا اقتصاديا ، كمــا يجري في عبارات الكاتبين والمحــاربينوالسياسيين في هذا الحصــار كالذي تجري كلماتها في عصرنا يقصــد بهالتضييق على الأمة التي يعــادونها في موارد رزقها ، فلا يرسل اليها طعام ،ولا المواد الضرورية للحياة والعمران ، بحيث يعم الضيق الشعب كله ، وما كانذلك في سرايا النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ولا في غزواته انما كان الاتجاهالى محاربة التجار الذين كانوا يقومون بالتجارة ، وجلهم أو كلهم ممن حاربواالنبي صــلى الله تعــالى عليــه وسلم واشتركوا في ايذاء أصحابه،واخراجهممن أموالهم وديارهم ، فمــا كان فعله عليه السلام حربا اقتصاديا أو حصارااقتصاديا يعم البريء والسقيم ، بـل هو مصادرة لمال ظالم اغتصب أمــوالالمهاجرين الذين أخرجوا من ديارهــم وأموالهم بغير حق الا أن يقــولوا ربناالله ، كما تلونا من الآيات من قبل ذلك•

٤ ـ وان غزوات النبي صــلى اللهتعالى عليه وسلم مع ما فيهــا من نشر الدعــوة الى الله بالحكمة والمــوعظة الحسنة كان فيها تأليف للقلوب ، ففيهــا عقدت اتفاقات على النصرة والايواء ،ففي غزوة بوان اتفق عليه السلام مع بني ضمرة على أن ينصروه اذا دعاهم الى النصرة ، وينصرهم اذا دعوه •

وفي غزوة العشيرة عقد مع بني مدلج ، وحلفائهم من بني ضمرة اتفاقا على المناصرة بينه عليه الصلاة والسلام وبينهم ووثقه بكتاب كتب ، كما نقلناه من قبل من الروض الأنف للسهيلي •

واذا كان النبي صلى الله تعالى عليه وسلم لم يغز لحرب ، فقد غزا قلوبا ، وألفها لتكون قوة لأهل الحق ، وليدخل الايمان الى قلوبهم ، لأن تآلف القلوب السبيل الى دخول الحق اليها لكيلا تنفر، فتعمى •

ويلاحظ أن هذه البعوث كلها كان جنودها من المهاجرين ، فأمراؤها من المهاجرين ، وغزوات النبي صلى الله تعالى عليه وسلم كان الجنود فيها من المهاجرين ، ولم يكن فيهم من الانصار أحد ، فلم يندب النبي صلى الله تعالى عليه وسلم أحداً من الأنصار الا في بدر ، ولماذا كان ذلك ! ولابد أنه كان مقصودا منه صلى الله تعالى عليه وسلم ،ولم يجيء اذا اتفاقيا من غير قصد له بالذات •

والجواب عن ذلك :

أولا : أن المهاجرين هم الذين أوذوا في أبدانهم وكراماتهم من أولئك المشركين ، فهم أشد الناس رغبة في القصاص ممن آذوهم والقصاص شريعة لحكمهم ، فكانوا أولى بلقاء قريش من غيرهم ، ولأنهم هم الذين استضعفوا وأراد المشركون اذلالهم ، فكانوا في لقائهم بالمشركين وفرارهم منهم أشد تبيينا لبيان أن الحق قد علا ، وأنهم مكن لهم في الأرض وان ذلك يكون أروع وأوقع ، وماذا تكون حال الصناديد من قريش اذا رأوا عمار بن ياسر وقد أوذي هو وأبوه وماتت أمه تحت حر العذاب ، حتى قال لهم رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم : «اصبروا آل ياسر فان موعدكم الجنة ، فماذا يكون وقع ذلك في نفوس الغلاظ اذا رأوا عماراً العملاق واقفاً لهم بتمكين الله تعالى » •

ثانياً : أن الذين أخرجوا من أموالهم وديارهم هم المهاجرون ، فكانوا أحق الناس بأن يطالبوا بمالهم الذي اغتصب، وديارهم التي خربت ، وأن يكفوا عن أهليهم وضعفائهم الذين لم يهاجروا شر أولئك العتاة أو يعطوهم وبال أمرهم جزاء بما اكتسبوا •

ثالثاً : وهو عمدة الأسباب وقوتها ــ أن عهد النبي صلى الله تعالى عليه وسلم كان على الايواء والنصرة وأن يمنعوه مما يمنعون منه أنفسهم ونساءهم وذرياتهم ، ولم يكن في ذلك النص على أن يخرجوا معه في حرب ، وان فهم ضمنا أنهم يكونون معه في الحرب والسلم ، فلم يرد النبي صلى الله تعالى عليه وسلم أن يخرجوا معه في غير مانص عليه العقد نصاً صريحا لا تأويل فيه ، ولذا لم يدعهم الى الخروج معه في هذه الغزوات وتلك السرايا ، وكان في المهاجرين غناء بالنسبة لهذا الغزو المحدود •

ولذلك لما جد الجد ، وجاء جيش كثيف من المشركين عدته تجاوزت الألف ، استشارهم ، لتكون الاجابة رضا بأن يشتركوا في الحرب ، وتلك الاستشارة كانت عند الاقدام من قريش برجلها وعتادها وفرسها ، فكانوا عند رجاء النبي صلى الله تعالى عليه وسلم فيهم ، وعلى ما دفعهم اليه ايمانهم ، وهو أوثق العهود •

تحويل القبلة وفرض الصوم

٣٨٢ ـ لم يكن عمل النبي صلى الله تعالى عليه وسلم الحرب وارسال البعوث ، وعقد المعاهدات ، وتنظيم شئون المدينة وما حولها ، لم يكن ذلك عمل النبي صلى الله تعالى عليه وسلم فقط ، بل كان عمل النبي عليه السلام مع ذلك تنظيم الدولة بوحي من الله تعالى ، فما كان ينطق عن الهوى ، ان هو الا وحي يوحى ، فأصل الجهاد بوحي من الله ، ولكن الترتيبات الجزئية والترتيبات التنفيذية ، وكل ذلك الى النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، ليقوم بمثله من بعده عند انقطاع الوحي ، وله في رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم أسوة حسنة ، ولم يكن تنظيم الدولة فقط ، بل كانت التكليفات التي يتلقاها عن الله سبحانه وتعالى من العبادات ، والتكليفات الاجتماعية التي من شأنها أن تربي روحا قوية لتجعل من اتباع النبي صلى الله تعالى عليه وسلم قوة متحدة ، في نظام اجتماعي متماسك قوي تربطه أشد عناصر الترابط الاجتماعي الذي يكون مجتمعا متكافلا ٠

ولذلك كانت الفترة ما بين جمادى الآخرة ، أو بالأحرى ما بين رجب ورمضان ، أو الشطر الأكبر منه كانت تلك الفترة زمان شرعية أمور من العبادة ، تتصل بتقوية النفس وتقوية المجتمع ٠

وفي هذه الفترة شرع تحويل القبلة من بيت المقدس الى الكعبة ، وفي هذه الفترة فرض صوم رمضان ، وفرض مع صوم رمضان صدقة الفطر ، وهما فرضان اجتماعيان كما سنبين ٠

وتحويل القبلة إيذان من الله تعالى بإزالة الأصنام ، أو الأخذ في أسباب هذه الإزالة ٠

تحويل القبلة إلى الكعبة المشرفة

٣٨٣ ـ عندما فرضت الصلاة بعدالاسراء والمعراج على أنها خمس صلوات ، وان كان لها ثواب خمسين صلاة ، ان أقيمت على وجهها ، كانت قبلة المسلمين الى الشام ، الى بيت المقدس ، ولكن تتوسط الكعبة ، فيكون الاتجاه الى الكعبة على ناحية بيت المقدس ، فكان المصلي يجمع في صلاته بين القبلتين بأمر ربه ·

ولما هاجر الى المدينة لم يكن الجمع ممكناً ، بل لابد من استدبار احدى القبلتين ، وقد ترك النبي صلى الله تعالى عليه وسلم مكة ، والكعبة تحيط بها الأوثان ، ولم يكن ثمة ما يؤذن من الأمور بزوالها ، فكان استقبالها لا يخلو من استقبال الأوثان المحيطة بها ، والنبي صلى الله تعالى عليه وسلم كان حريصاً على أن تكون الكعبة هي القبلة ، وحريصا على أن تزول الأصنام عنها ·

وقد أمره الله تعالى بأن تكون القبلة الى بيت المقدس مؤقتا ، لأن الله تعالى لم يؤذن بأن تخرج الكعبة عما هي ،ولعل النبي صلى الله تعالى عليه وسلم علم بأمر ربه أن استقبال بيت المقدس،واستدبار الكعبة أمر مؤقت وأن النهاية الى الكعبة،وأن الاتجاه اليها ايذان بذهاب دولة الأوثان،وطهارة البيت الحرام·

ولذلك كان النبي صلى الله تعالى عليه وسلم يضرع الى الله تعالى أن يقرب الوقت الموعود بالعودة الى الكعبة ، لأن العودة الى الكعبة عودة الى كعبة ابراهيم أبي الأنبياء ، ولأن الاتجاه اليها ،ايذان بنصر الله تعالى ، وايذان بازالة الأوثان بعد زمن طال أو قصر ، وان كان في عمر السنين والحساب ليس كثيراً ·

وفي هذا الوقت كان النبي صلى الله تعالى عليه وسلم يضرع الى الله تعالى أن يقرب البعيد ، وكان اليهود يتوهمون أن جعل القبلة الى بيت المقدس معناه أن محمداً صلى الله تعالى عليه وسلم لا يكون خارجا عن أنبياء بني اسرائيل، وهو وهم باطل سكن في نفوسهم التي تتخيل ثم تخال ثم تعتقد ،كشأن أصحاب

الديانات الذين لا يؤمنون بالديانة الاعلى أن تكون أماني لهم أو تتفق مع أمانيهم .

قبيل بدر كان الايذان بزوال دولة الأوثان التي كان يومها يوم الفرقان ، قد أذن الله تعالى بتحويل القبلة الى الكعبة ، أو بالأحرى اعادة القبلة الى الكعبة ، اذ نزل قوله تعالى :

﴿ سَيَقُولُ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَ ٱلنَّاسِ مَا وَلَّىٰهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ ٱلَّتِى كَانُوا۟ عَلَيْهَا ۚ قُل لِّلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ ۚ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ (١٤٢) وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ۗ وَمَا جَعَلْنَا ٱلْقِبْلَةَ ٱلَّتِى كُنتَ عَلَيْهَآ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ ٱلرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ ۚ وَإِن كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ ۗ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ (١٤٣) قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِى ٱلسَّمَآءِ ۖ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَىٰهَا ۚ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۚ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ ۗ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ (١٤٤) وَلَئِنْ أَتَيْتَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ بِكُلِّ ءَايَةٍ مَّا تَبِعُوا۟ قِبْلَتَكَ ۚ وَمَآ أَنتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ ۚ وَمَا بَعْضُهُم بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ ۚ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ ۙ إِنَّكَ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ (١٤٥) ﴾ (١)

كان تحويل القبلة الى الكعبة ، بهذا النص وهو يدل على أمرين :

أحدهما : أن أهل الكتاب هم الذين كانوا يقولون ما ولاهم عن قبلتهم التي كانوا عليها ، وأنهم كانوا فرحين، اذ أن المؤمنين كانوا يتبعون قبلة بيت المقدس .

ثانيهما : أن نص الآية يشير الى أن جعل القبلة الى بيت المقدس كان حكما مؤقتا يزول بزوال سببه ، ولذلك لا نعتقد أنه نسخ ، ولكنه انتهاء حكم مؤقت بانتهاء وقته المعلوم ، وقد بين الله تعالى ذلك .

---

(١) البقرة

بقي أن نعرف الميقات الذي كان فيه التحويل !! لقد رويت في هذا روايات ظاهرها الاختلاف ، ولكن الاتفاق على أنها كانت بعد جمادى الآخرة ، والاختلاف أكان ذلك التحويل في رجب أم كان في شعبان فروي عن قتادة وزيد بن أسلم وعبد الله بن عباس أن ذلك كان في رجب ، وروي أنه كان في شعبان ، وكلام ابن اسحاق يومىء الى ذلك ، اذ يقول أنها كانت بعد سرية عبد الله بن جحش ، وما كانت في آخر رجب ويقول في هذا المقام :

« قال ابن اسحاق كانت بعد غزوة عبد الله بن جحش ،ويقال صرفت القبلة في شعبان على رأس ثمانية عشر شهراً من مقدم رسول الله » وحكى هذا القول ابن جرير عن ابن عباس ، وناس من الصحابة .. قال الجمهور الأعظم انما حولت في النصف من شعبان ، على رأس ثمانية عشر شهراً من الهجرة .. وعن محمد بن سعد الواقدي أنها حولت يوم الثلاثاء في النصف من شعبان .

ومهما يكن فقد ذكر الحافظ بن كثير ، أنه يميل الى هذه الرواية التي تقول انها في النصف من شعبان وذلك لأنه رأي الجمهور الأعظم ، كما يقرر ابن كثير ، وما كان الجمهور ، ليتجه الى رواية الا اذا ثبتت لديه صحتها ، ورأينا دائما أن ما يتلقاه الناس وفيهم العلماء بالقبول لا يرد الا اذا ثبت بدليل قاطع أو راجح بطلانه .

واننا قد رأينا أن نصف شعبان يحتفل به المسلمون على أساس أنه يوم مبارك ، والاحتفال به يتفق مع كونه اليوم الذي تحولت فيه القبلة من بيت المقدس الى الكعبة ، وكلاهما مقدس ،اذ هو فرحة النبي صلى الله تعالى عليه وسلم .

على أننا نلاحظ أن ابن كثير قدر المدة بين الهجرة ، أو مقدم النبي صلى الله تعالى عليه وسلم بثمانية عشر شهراً ، وانه باستقراء عدد الأشهر من وقت مقدم النبي صلى الله تعالى عليه وسلم الى منتصف شعبان لا يكون قد مضى ثمانية عشر شهراً ، ذلك أن الهجرة كانت في ليلة الثاني عشر من ربيع الأول ، فاذا احتسبنا ربيع الثاني وجمادى الأولى والآخرة ، ورجباً يكون سبعة عشر شهرا وأياما .

صوم رمضان

٣٨٤ ـ هذا ما يتعلق بالقبلة ، أما فرضية صوم رمضان ، فقد روى ابن جرير أن ذلك كان في شعبان كما كان فيه تحويل القبلة الى الكعبة ، فهو شهر مبارك ٠

وقد روي أن فرضية الصوم أخذت ثلاثة أدوار :

الدور الأول : كانت عندما قدم النبي صلى الله تعالى عليه وسلم المدينة فقد ، وجد اليهود يصومون يوم عاشوراء ، فسألهم عنه ، فقالوا هذا يوم نجى الله تعالى فيه موسى ، فقال عليه السلام نحن أحق بموسى منكم ، فصامه ، وأمر الناس بصيامه هذا هو الدور الأول ، وقد يفهم منه أن ذلك كان باجتهاد النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، ونحن لابد أن نقدر مع ذلك وحي الله ، والا ما كان النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ليأمر الناس بعبادة ان لم يكن قد نزل وحي الله تعالى بذلك ٠

الدور الثاني: عندما نزل قوله تعالى:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ﴿١٨٣﴾ أَيَّامٗا مَّعۡدُودَٰتٖۚ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوۡ عَلَىٰ سَفَرٖ فَعِدَّةٞ مِّنۡ أَيَّامٍ أُخَرَۚ وَعَلَى ٱلَّذِينَ يُطِيقُونَهُۥ فِدۡيَةٞ طَعَامُ مِسۡكِينٖۖ فَمَن تَطَوَّعَ خَيۡرٗا فَهُوَ خَيۡرٞ لَّهُۥۚ وَأَن تَصُومُواْ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴿١٨٤﴾﴾ (١)

(١) البقرة

وقد قال ابن كثير في هذا الدور انه كان المؤمن بخيار بين أن يصوم ، وبين أن يفطر ، وهذا نص قوله في هذا الدور ، فكان من شاء صام ، ومن شاء أطعم مسكينا ، فأجزأ عنه ، وفي ذلك نظر سنبديه ، ان شاء الله تعالى بعد ذكر الدور الثالث .

الدور الثالث : هو فرضية الصوم في شهر رمضان ، فقد قال تعالى :

﴿ شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْهُدَىٰ وَٱلْفُرْقَانِ ۚ فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ ۖ وَمَن كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ ۗ يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُوا۟ ٱلْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا۟ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٨٥﴾ ﴾ (١)

ويذكر ابن كثير في هذا الدور حالين :

احداهما : أنهم كانوا يأكلون ويشربون حتى يناموا ، فاذا ناموا امتنعوا .

والحال الثانية : وهي الأخيرة أن الله تعالى أباح لهم الرفث الى نسائهم وأن يأكلوا ويشربوا حتى يتبين لهم الخيط الأبيض من الخيط الأسود من الفجر ، وقد بين الله هذه الحال الأخيرة بقوله تعالى :

﴿ أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ ٱلصِّيَامِ ٱلرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَآئِكُمْ ۚ هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ ۗ عَلِمَ ٱللَّهُ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَخْتَانُونَ أَنفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنكُمْ ۖ فَٱلْـَٰٔنَ بَٰشِرُوهُنَّ وَٱبْتَغُوا۟ مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ ۚ وَكُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ ٱلْخَيْطُ ٱلْأَبْيَضُ مِنَ ٱلْخَيْطِ ٱلْأَسْوَدِ مِنَ ٱلْفَجْرِ ۖ ثُمَّ أَتِمُّوا۟ ٱلصِّيَامَ إِلَى ٱلَّيْلِ ۚ وَلَا تُبَٰشِرُوهُنَّ وَأَنتُمْ عَٰكِفُونَ فِى ٱلْمَسَٰجِدِ ۗ تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَقْرَبُوهَا ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿١٨٧﴾ ﴾ (٢)

ولنا أن ننظر في كلام الحافظ بن كثير من ناحيتين :

---

(١) ، (٢) البقرة

الأولى ـ أنه ذكر أنه عند فرضية الصوم كان المؤمن مخيرا بين أن يصوم ، وأن يفطر ، ويقدم فدية طعام مسكين، ولعله فهم هذا من قوله تعالى :

﴿ وَعَلَى ٱلَّذِينَ يُطِيقُونَهُۥ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ فَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُۥ وَأَن تَصُومُوا۟ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٨٤﴾ ﴾ (١)

ونحن نرى متبعين للسلف أو على الأقل لبعضهم أنه لم يكن تخيير بين الصوم والافطار ـ أولا ، لأن ذلك ينافي الفرضية ، وقد ثبتت الفرضية مؤكدة في قوله تعالى :

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٨٣﴾ أَيَّامًا مَّعْدُودَٰتٍ ﴾ (٢)

فقد تأكدت الفرضية بالتعبير عنها بكتب ،وبيان أن فرضية الصيام شريعة أزلية ، دائمة كتبت على المؤمنين ، كما كتبت على غيرهم ، ثم أفاد كلام الله تعالى أنها ذريعة الى تقوى الله ، وتقوى الله مطلوبة في كل الأحوال ·

الثانية ـ أن الله تعالى فرض على المترخص بالسفر أو المرض أن يصوم في أيام أخر ، فدل على أن الأيام محدودة معلوم وقتها ، وعلى أنها لا تفوت وتترك اذا كانت أعذار ، بل يجب أن تقضى ، ولو كان ثمة تخيير لذكر التخيير هنا وما وجب القضاء في أيام أخر ، ويكون ذلك للمسافر أو المريض المقيم ·

والثالثة ـ أن آية كتب عليكم الصيام ، في سياقها

﴿ شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ ﴾ (٣)

فلا يعقل أن تكون آيتان في نص واحد احداهما ناسخة والأخرى منسوخة ، بل المعنى المنسق هو أن يكون قوله تعالى شهر رمضان بيان للأيام المعدودة ·

---

(١) ، (٢) ، (٣) البقرة

والرابعة ـ أن قوله تعالى : « يطيقونه » معناها الذين يبلغون أقصى الطاقة في الصوم ، ولا قبل لهم بالاعادة من بعد ، فان عليهم الفدية ، وقد روي أن هذا النص ينطبق على الشيخ والشيخة اللذين يبلغان أقصى الطاقة في الصيام، وقد روي ذلك عن ابن عباس ، ومثلهما الزمن والمريض بمرض ، لا رجاء في البرء منه .

والخامسة ـ أن قوله تعالى :

﴿وَأَن تَصُومُوا۟ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ١٨٤﴾ (١)

لا تدل على التخيير ، لأن الواضح منهـا هو صوم التطوع ، لا صوم الفريضة .

بقي أن ننظر نظرة فاحصة فيما ذكره من أنه بعد الفرضية ، كان الفرض أن يمنع الأكل والشرب ، والرفث الى أزواجهم بعد النوم ، وأنه من بعد ذلك أبيح الى الفجر ، ونقول في ذلك أنه لم يثبت من نص قرآني ، ولا من حديث نبوي أنه بمجرد النوم تنتهي اباحـة الأكل والشرب ، وغيرهما ، بل الثابت أنهم فعلوا ذلك ، أو أن بعضهـم على التحقيق فعل ذلك ، أكان هذا من فهم فهموه ، أم من نص أدركوه ، واذا كنا نبحث عن النص المـروي في ذلك عن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم فلا نجده فان الراجح أن يكون ذلك من فهمهم لفرط تورعهم ، ويرشح لهـذا المعنى قوله تعالى :

﴿عَلِمَ ٱللَّهُ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَخْتَانُونَ أَنفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنكُمْ ۖ﴾ (٢)

والمعنى أنكم تريدون صيانة أنفسكم ،وقد فسر الراغب الأصفهـاني الاختيان بأنه مرارة الخيـانة ، واني أرى أن خيانة النفس بتكليفها مالا تطيق .

ولهذا أرى أن ذلك فهم فهمـوه ،فصحح القرآن الأمر ووضحه وبينه ، فكم تكن هذه حالا جديدة .

واني أعتقد مؤمنا أن الآيات الكريمة من أول فرضية الصيام الى آخـر الآيات الكريمة المتعلقة به نسق واحد ،ليس فيها ناسخ ومنسوخ ، والله أعلم .

---

(١) ، (٢) البقرة

فرضية زكاة الفطر

٣٨٥ ـ وفي هذه السنة فرض الله تعالى زكاة الفطر ، ويبدو من سياق الحوادث أنها كانت تابعة لفرضية الصوم ، ولذلك روي أن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم خطب بفرض صدقة الفطر ، قبل الافطار في رمضان هذه السنة بيوم أو يومين ، وقال الحافظ بن كثير ، وفيها أي في السنة الثانية صلى النبي عليه الصلاة والسلام صلاة العيد، وخرج بالناس فصلى بالناس الى المصلى ، فكانت أول صلاة عيد ، وخرج بالناس الى المصلى وصلاها ، وخرجوا بين يديه بالحربة ، وكانت للزبير وهبها له النجاشي ، فكانت تحمل بين يدي رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم في الأعياد ·

وكان حملها بين يدي رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم في مجتمع الأعياد الجامع ، اشعارا بالوحدة الجماعية التي تقوم بالعبادة ، وأنها قوية عزيزة بعون الله تعالى لا ذلة فيها ، بل فيها العزة والكرامة ·

وان زكاة الفطر يبدو من السياق التاريخي أنها شرعت بعد واقعة بدر الكبرى ، لأن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم خطب بها قبل عيد الفطر بيوم أو يومين ·

أما الصوم ، فمن المؤكد أنه فرض قبل يوم الفرقان في شعبان على الأرجح، وان من الرواة المتأخرين من يقول ان الزكاة التي تفرض في المال ، وتسمى زكاة المال قد فرضت في هذه السنة ، فيقول · وفي هذه السنة · أي السنة الثانية فرضت الزكاة ذات النصب كما ذكر غير واحد من المتأخرين ·

وقبل أن ننهي الكلام في رمضان وصدقة الفطر نذكر أمرين جديرين بالنظر ·

أولهما : أن صريح الأحاديث الواردة في صدقة الفطر يفيد بأنها فرض ، ليست سنة مؤكدة ، ولا واجبة وجوبا دون الفرض ، كما يقرر الحنفية ،

ولقد روى الترمذي بسـنده أن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم بعث مناديا في حجاج مكة ألا إن صدقة الفطر واجبة على كل مسلم ذكر وأنثى ، حر ، وعبد صغير أو كبير ، أى أنه يجب على الغني أن يدفع زكاة كل واحد من هـؤلاء لأنه يمونهم ·

ولقد قال ابن القيم · « وكان من هديه صلى الله تعالى عليه وسلم تخصيص المساكين بصـدقة الفطـر ، ولم يكن يقسمها على الأصناف الثمـانية (أى المذكورة في قوله تعالى) :

﴿ إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلْفُقَرَآءِ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱلْعَٰمِلِينَ عَلَيْهَا وَٱلْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي ٱلرِّقَابِ وَٱلْغَٰرِمِينَ وَفِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ فَرِيضَةً مِّنَ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٦٠﴾ ﴾ (١)

ولا أمـر بذلك ، ولا فعله أحـد من أصحابه ، ولا من بعدهم ، بل أحـد القـولين عندنا (أي الحنابلة) أنه لا يجوز اخراجهـا الا على المسـاكين عامة ، وهذا القول أرجح » ·

وان هذه الصدقة فيها معنى اشراك المساكين في أفراح العيد بأن يغنوهـم عن السؤال في هذا اليوم ، كما ورد عن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ·

ثاني الأمرين اللذين يجب التنبيه اليهما أن الصيام فرض قبل غزوة بدر يوم الفرقان ، لأن الصوم ، يربي ضبط النفس وينمي روح الصـبر ، ويعلي الارادة ، وهـذه هي أدوات الجهـاد النفسية ، فان عدة الجهاد هو الصبر ·

فكان فرضه تمهيداً لما يجيء من بعد ، وهو يوم الفرقان ·

---

(١) التوبة

يوم الفرقان

بدر العظمى

٣٨٦ ـ كانت الغزوات التي قام بها النبي صلى الله تعالى عليه وسلم في أول العام الثاني من الهجرة ، والسرايا التي قام بها أصحابه بأمر منه ، لاشعار قريش بأن الاسلام صارت له قوة تناوىء من آذوا أهله • وحاولوا فتنة الضعفاء عن دينهم ، فأرهقوهم ليحولوهم عن اعتقادهم ، فلم ينالوا خيراً •

وكانت ليتعرف النبي صلى الله تعالى عليه وسلم داخل البلاد العربية ، ويشعرهم بوجود الاسلام ، ويتألف قلوبهم ليجمعهم من بعد على كلمة الحق، وقد عقد مع بعضهم مواثيق عدم اعتداء، والنصرة لهم وبهم •

وكان من بعد ذلك أن يلاقي صلى الله تعالى عليه وسلم قريشا لا بسرية يرسلها ، ولكن بغزوة يغزوها بنفسه ،وقد مهدت الأسباب ، وعلم المشركون أنه صار للمسلمين قوة يقدرون معها عواقب أمرهم •

وانه عليه السلام قاطع عليهم طريق تجارتهم ، فقد صارت الحرب قائمة بعد أن أخرج المؤمنون من ديارهم ، وبعد أن هموا بقتله ، وأخذوا العدة ، فما ان علم بتجارة لهم ذاهبة الى الشام أو عائدة ، حتى يبادر اليها •

ولما قتل عبد الله بن جحش في سريته ابن الحضرمي كما أسلفنا ، وأسر المسلمون من أسروا أحس المشركون من قريش فكانوا يحصنون تجارتهم بحراس •

خرجت قريش بتجارة عليها نحو أربعين مقاتلا ، وسارع النبي صلى الله تعالى عليه وسلم قبل سرية ابن جحش ليدركها ، ولكنها أفلتت ، وكانت فيها أموال ذوي المال من قريش ، فأخذ رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم يترصدها عند عودتها من الشام ،وتتبع أخبار قريش وأخبارها •

عير قريش راجعة من الشام :

٣٨٧ ــ علم النبي صلى الله تعالى عليه وسلم أن عير قريش قافلة راجعة من الشام ، وفيها ثلاثون أو أربعون رجلا ، فندب المسلمين اليهم وقال عليه السلام :

هذه عير قريش فيها أموالهم ، فاخرجوا اليها ، لعل الله تعالى ينفلكموها ·

فخف بعضهم استجابة لنداء النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، وثقل بعضهم ، وان كان على استعداد ، لأنهم لم يتوقعوا قتالا ، كما كان في السرايا والغزوات السابقة ، فانهم لم يلتقوا بالمشركين ، ولم يكن قتال ·

وان أبا سفيان الذي كان على رأس العير التي حمولتها ألف بعير ، كان يتخوف من أن يلقاه المسلمون فيأخذوه، كما أخذوا عير ابن الحضرمي وقتلوه، ولذلك كان يتحسس أخبار النبي صلى الله تعالى عليه وسلم وأصحابه ،ويتعرف حركاتهم ·

فكان يسأل من يلقى من الركبان ،حتى أصاب خبراً ، بأن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم استنفر أصحابه للقاء أبي سفيان ، وعيره ، وتأكد أن المصير الذي سيلقاه هو والعير هو ما لقيه ابن الحضرمي وعيره ·

وقد دفع به الحرص على عير قريش الى أمرين :

أحدهما ــ أنه مال عن طريق بدر ،ونجا بعيره ، وجاء محمد صلى الله تعالى عليه وسلم ومن معه من المهاجرين فوجدوا العير قد أفلتت منهم ، ولم ينالوا منها ، وعلموا أن وراءها القتال ·

الأمر الثاني : أنه أرسل الى قريش يستغيث بها لتحمي عيرها التي معه ، وليعمل على أمن الطريق من محمد وأصحابه وليجهز جيشا يقضي على محمد صلى الله تعالى عليه وسلم وعلى أصحابه·

أرسل ضمضم بن عمرو الغفاري يبين ما تتعرض له العير ، وأن محمداً وصحبه يتعرضون لها ، فذهب ضمضم يصرخ ببطن الوادي ، واقفاً على بعيره وقد جدعه وحول رحله ، وشق قميصه ليستدعي الناس ، وينبههم الى ما يقول،

ثم قال : « يا معشر قريش اللطيمة اللطيمة (١) أموالكم مع أبي سفيان ، قد عرض لها محمد في أصحابه ، لا أرى أن تدركوها ، الغوث ، الغوث » .

كانت تلك الكلمات الحارة مع المظهر الذي ظهر به دافعة القوم الى أن يندفعوا معتزمين الدفاع عن أموالهم ، وانقاذها، فكانت قريش ما بين رجلين ، رجل اعتزم أن يخرج بنفسه ، وآخر ينيب عنه من يدافع عن ماله ، ومال قريش كلهم ، وبينما هم قد تجهزوا وأعدوا العدة بلغهم أن العير قد نجا بها أبو سفيان اذ غير الطريق كما أشرنا ،فأرسل الى قريش يبشرهم بنجاة العير ، اذ قال لهم : « انكم انما خرجتم لتمنعوا عيركم ، ورجالكم وأموالكم فقد نجاها الله ، فارجعوا » .

وبذلك ذهب السبب الذي كان من أجله الخروج ، ولكن لأجل الحقد والعنف في قلوب بعض المشركين ، وعلى رأسه أبو جهل أبى الا المضي الى بدر ، فقال: « والله لا نرجع حتى نرد بدراً » .

فرد كلامه بعض حلفاء بني زهرة ،وقال وهم بالجحفة .

« يا بني زهرة قد نجى الله أموالكم ،وخلص لكم صاحبكم مخرمة بن نوفل (وكان في حماة العير) وانما نفرتم لتمنعوه وماله فارجعوا فانه لا حاجة لكم أن تخرجوا في غير منفعة ، لا مايقول هذا الرجل (أي أبو جهل) فلم يشهدها زهري واحد .

ولم يكن بقي من قريش بطن الا وقد نفر منهم ناس ، وبنو عدي بن كعب لم يخرج منهم .

وكانت محاورات في صفوف الذين خرجوا للقتال من شأنها أن توجد ترددا في الخروج ، وقد قال بعضهم في محاورة لطالب بن أبي طالب ، وقد استعد للخروج « لقد عرفنا يا بني هاشم ،وان خرجتم معنا . ان هواكم لمع محمد . فغضب لذلك طالب . ورجع مع من رجع » .

كان هذا التردد والرجوع من بعضهم بعد أن خرجت رجالات قريش للدفاع عن العير ، ولا شك أن من بقي مصراً على القتال قد نهنه من عزمته ذلك الخلاف ، مع رجوع بعضهم ،وخصوصاً أن سبب الخروج قد زال .

---

(١) اللطيمة ، الابل التى تحمل الحرير والطيب وغيرها .

ومهما يكن من أمر ذلك التردد فقدخرجت قريش على الصعب والذلول في خمسين وتسعمائة مقاتل معهم مائتا فرس يقودونها، وأعداد من الابل تجاوزت الحسبة،ومعهم القيان يضربن بالدفوف، ويتغنين بهجاء المسلمين ٠

خروج رسول الله صلى الله عليه وسلم لبدر وجيشه :

٣٨٨ ـ لنترك هؤلاء وغيرهم وجيشهم وقيادتهم ، ولنذكر العطر من أخبار رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم لقد خرج رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم بنحو تسعة وثلثمائة أو حول هذا العدد ، وكان في هذه المرة من المهاجرين والأنصار قاصدين بدراً ،ليلقوا العير هنالك ، فلم يدركوها ،وفر بها أبو سفيان مخالفاً طريق بدر جاعلا بدراً على يساره ، وبذلك نجا العير ومن معه ٠

وعلم النبي صلى الله تعالى عليه وسلم مما تحسس من أخبار أن قريشاً قد خرجت في هذا العدد بجيش لجب فيه الأفراس والابل ، وأنه اذ فر منه العير فقد لقي النفير ، وانها الحرب لا محالة ٠

ولذلك أخذ يجمع قلوب جنده ، بعدجمعه عددا وان قليلا في عدده هو قوي في ايمانه ، انه واثق من المهاجرين والأنصار ، ولكن خشي أن يفهم الأنصار أن العهد لا يلزمهم أن يخرجوا معه ،بل يلزمهم العهد ان دهم في المدينة وأن ليس عليهم أن يسيروا معه لقتال عدو لم يجيء الى بلدهم ذلك أن صيغة العهد أنهم قالوا : يا رسول الله انا براء من ذمامك حتى تصل الى ديارنا ، فاذا وصلت الينا فأنت في ذمتنا نمنعك مما نمنع به أبناءنا ونساءنا ٠

وربما توهم بعضهم أن هذا العهد لا يلزمهم بالخروج ولا بد من اليقين عند الحروب ، لذلك أراد أن يتعرف مافي قلوب أولئك الذين آووا اينصرونه في هذا الموطن ، وقد خرجوا للعير ، لا للنفير ٠

استشار رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم أصحابه ليظفر بمشورة رجل حسن المشورة ، وليتعرف حال جنده مهاجرين وأنصاراً بصفة خاصة ٠

استشار رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم : فقال أبو بكر وأحسن القول ، وقال عمر بن الخطاب فأحسن القول ، وما كان يريد قول عمر وأبي بكر ، فهو مستيقن بايمانهما واقدامهما، ولكنه يريد من وراءهم ٠

فقام المقداد بن عمرو واقفاً وقال :

يا رسـول الله امض لما أراك الله ،فنحن ، والله لا نقول لك . كما قالت بنو اسرائيل لموسى : ﴿ فَاذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ ﴿٢٤﴾ ﴾[1] ولكن اذهب أنت وربك فقاتلا ، انا معكما مقاتلون، فوالذي بعثك بالحق لو سرت بنا الى برك الغماد لجالدنا معك ، من دونه ،حتى نبلغه » ·

فقال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم خيراً ، ودعا له ·

وهنا استيقن من المهاجرين ،وبقي أن يطمئن الى الأنصار الذين قد يتوهمون أن العهد الأول لا يلزمهم بالخروج ، فقال أشيروا علي أيها الناس (يريد الأنصار) ·

قال سعد بن معاذ : « والله لكأنك تريدنا يا رسول الله ؟ قال عليه السلام : أجل » ·

قال سعد : « لقد آمنا بك وصدقناك ، وشهدنا أن ما جئت به هو الحق ، وأعطيناك على ذلك عهودنا ومواثيقنا على السمع والطاعة ، فامض يا رسول الله لما أردت ، فنحن معك ، فوالذي بعثك بالحق ، لو استعرضت بنا هذا البحر ، فخضته لخضناه معك ، ما تخلف منا رجل واحد ، وما نكره أن تلقى بنا عدونا ، انا لصبر في الحرب ، صدق عند اللقاء ، لعل الله يريك منا ما تقر به عينك ، فسر بنا على بركة الله ·

عندئذ آمن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم أن الله قد صدق وعده ، وأن معه جيشاً يؤمن بالله وبالحق ، وأنه لا يتردد ، ولذلك سر عليه السلام بقول سعد ، ونشطه قوله ، فقال عليه السلام : « سيروا وأبشروا ، فان الله قد وعدني احدى الطائفتين ، والله لكأني أنظر الى مصارع القوم » ·

هذا هو جيش النبي صلى الله تعالى عليه وسلم عقد العزم وتؤيده قوة الله تعالى ·

(١) المائدة

الجيشان

٣٨٩ ـ رأيت الجيش النبوي قد ربط نفسه وقلبه بالحق ، ولكن عدده قليل ، وعدته ناقصة ، فلم يكن فيه الا فرسان وأربعون بعيرا لأكثر من ثلاثمائة مجاهد ، فكانوا يعتقبون البعير ، يتبادله أكثر من أربعة ، والنبي صلى الله تعالى عليه وسلم يعتقب معهم ، حتى اذاكان سيره أرادوا اعفاء النبي ، فقال عليه السلام : لست أقل منكم قوة . ولا أقل منكم طلبا للأجر .

وجيش الشر كان خمسين وتسعمائةكما ذكرنا ، وكان معهم سبعون فرسا ، وكان معهم العدد الكثير الذي يركبونه والذي يذبحونه في مأكلتهم ، ولكنه تنقصه العزيمة والايمان ، بل الرغبةالقاطعة في القتال فالتردد فيه قد كان من كثيرين منهم ، ومنهم من تورط فيالقتال ، ولم يكن له فيه ارادة .

(أ) انهم خرجوا من أجل حمايةعيرهم ، ودفعتهم الرغبة في حماية حماها ، الى أن يتقدموا على الصعب والذلول لحمايتها ، وانهم ان لم يفعلوا فقدوا المال ومعه النعمة ، ونالتهم المهانة في العرب ، وقد أرسل اليهم أبو سفيان يذكر لهم أنه نجا بالعير ،وقال : « انما خرجتم لتمنعوا عيركم ورجالكم وأموالكم ، فقد نجاها اللهفارجعوا » .

واذا زال السبب ، فليس لهم مايبعث حميتهم لقتال ، ولكن الحقد الدفين ، والحسد لبني هاشم حرك أباجهل ، فدفعهم الى المضي في القتال حقداً وحسداً ، واندفع معه من هو علىشاكلته .

(ب)وجاء بنو زهرة فتخلفوا جميعاًلهذا السبب ، وقال قائلهم ، لا حاجة لكم بأن تخرجوا في غير ضيعة ، ورمواأبا جهل بالحمق والجهل .

(ج) ان بعض القرشيين الأقوياء الذين لهم مكانة في قومهم ترددوا في الخروج كأمية بن خلف ، فانه امتنع عنالخروج ، جاء في سيرة ابن اسحاق أن أمية بن خلف ، كان قد أجمع القعود ،وكان شيخا جليلا جسيما فأتاه عقبة بن أبي معيط وهو جالس في المسجد بينظهراني قومه بمجمرة يحملها ناراً ومجمر (أي بخور) حتى وضعها بينيديه . ثم قال يا أبا علي استجمر فانما أنت من النساء .

قال أمية قبحك الله ، وقبح ما جئت به ، وتجهز ذلك الرجل ذو المكانة من غير حماسة ، ولكن خشية الملامة وأبولهب الذي كان يخذل الوفود العربية في الحج عن متابعة النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، امتنع عن أن يذهب الى القتال بنفسه وأناب عنه العاصي بن هشام بن المغيرة في نظير تركه دينا له كان قد أفلس به ، فجعله في نظير خروجه •

ولم يذهب طالب بن أبي طالب ، لأنه كما قال بعض القرشيين كان هوى بني هاشم مع محمد الهاشمي صلى الله تعالى عليه وسلم •

وكان خروج العباس ، وهو الهاشمي الأول غريبا ، لأنه كان يذهب مع النبي صلى الله تعالى عليه وسلم عند لقائه مع الأوس والخزرج في العقبة الثانية ، ويطمئن على حمايتهم للنبي صلى الله تعالى عليه وسلم، ويبين لهم أنه في منعة من قومه ، وأنهم ان لم يمنعوه ، فليتركوه في حماية قومه ، فما كان ليخرج ويقاتل جيش ابن أخيه ، وهو يريد هزيمته ، بل خرج ليدرأ عن نفسه ملامة قريش الذي يعد من كبرائها ،وليكون له دائماً السلطان فيهم ، ولا يكون فردا ما بينهم •

وانا نحسب أن أبا سفيان نفسه لم يكن مؤمناً بضرورة هذه الحرب بدليل رسالته التي أرسلها الى قريش •

(د) وان قريشاً في جملتها خافت من الحرب ذلك أنهم بعد أن فرغوا من جهازهم وأجمعوا المسير ، ذكروا ما كان بينهم وبين بني بكر بن عبد مناة ابن كنانة من الحرب ، فخشوا أن يأتوهم من ورائهم ، وقال قائلهم انا نخشى أن يأتونا من خلفنا ، ونراهم قد فزعوا من الحرب ، وظنوا أن ما وراءهم من عورات أكثر مما يستقبلهم من حروب ، فما كانوا مؤمنين بالحرب ، ولا معتزمين لها الا ما كان ممن أعماهم الحقد والجهل والحسد ـ وهم أيضا كانوا يرهبون المؤمنين ، ويخافونهم ،وكان من بعضهم عندما التقى الجمعان أو أوشكا على اللقاء في وقت يثبط عن القتال ، وقد صار قاب قوسين أو أدنى ولعله كان يثبط لحقن الدماء ، وقد بدا من كلامه ما يدل على أنه يريد الرحم لا الحرب مع الاختلاف في العقيدة •

روى ابن اسحاق بسنده ، أنه لما اطمأن القوم (أي المشركون) بعثوا عمير بن وهب الجمحي فقالوا احرزوالنا أصحاب محمد · فاستجال بفرسه حول العسكر ، ثم رجع اليهم ، فقال :ثلاثمائة رجل يزيدون قليلا ، أو ينقصون ، ولكن أمهلوني حتى أنظر للقوم كمين أو مدد فضرب في الوادي حتى أبعد ، فلم ير شيئا ، فقال ما وجدت شيئا ولكنه بين رهبة الموقف وأن العبرة ليست بالعدد ، ولكن بقوةالنفس وارادة الموت ، فقال مخاطباً الجيش ، وهو على أهبة القتال :

« يا معشر قريش ، البلايا تحمل المنايا ، نواضح (١) يثرب تحمل الموت الناقع ، قوم ليس لهم متعة ولا ملجأ الا سيوفهم ، والله ما أرى أن يقتل رجل منهم ، حتى يقتل رجلا منكم ، فان أصابوا منكم أعدادهم فما خير العيش بعد ذلك ، فروا رأيكم » ·

سمع حكيم بن حزام ذلك القول ،ومشى في الناس ، فذهب الى عتبة ابن ربيعة فقال له يا أبا الوليد انك كبير قريش وسيدها والمطاع فيها ، هل الى أمر لا تزال تذكر فيها بخير الى آخر الدهر ، قال : وما ذاك يا حكيم ، ترجع بالناس وتحمل أمر حليفك عمرو بن الحضرمي (أي الذي قتل في سرية عبد الله بن جحش قال : قد فعلت أنت علي بذلك · انما هو حليفي ، فعلي عقله ·

بعد ذلك مباشرة قام عتبة بن ربيعة خطيباً ، وقال :

يا معشر قريش ، انكم والله ماتصنعون بأن تلقوا محمدا وأصحابه شيئا ، والله لئن أصبتموه لا يزال الرجل ينظر في وجه رجل يكره النظر اليه ،قتل ابن عمه ، أو ابن خاله أو رجلا من عشيرته ، فأرجعوا وخلوا بين محمد وبين سائر العرب ، فان أصابوه فذلك الذي أردتم ، وان كان غير ذلك ألفاكم ، ولم تتعرضوا منه ما يريدون ·

تسامع الجيش بذلك ، ولكن كان أبو جهل حامل الحطب يريدها ويدفعه الحسد ، فحرض عامر بن الحضرمي أخا عمرو الذي قتله أصحاب النبي صلى

---

(١) النواضح : الابل التى تستقى بها الماء أوتحمله ·

الله تعالى عليه وسلم على المناداة بثأره فصرخ واعمراه • فحميت النفوس واشتد الناس واجتمعوا على ما هم عليه من الشر •

وننتهي من هذا الى أن ارادة الحرب كانت ضعيفة مترددة عند قريش وفي جيشها ، اذ زال باعثها وداعيها وتردد ذوو الرأي فيهم ، ومنهم من تنادى بالرحم ، ومنهم من أفزعه حال أصحاب محمد وارادتهم الموت في سبيل الله تعالى •

وفوق ذلك كان الجيش القرشي يخشى ما وراءه •

فكانت ارادة القتال غير ثابتة ، وقوة الجيش تبتدىء بالعزمة والارادة ، وما كان من بعضهم الا انفعالة الحقد ،وهي ان أجدت في الابتداء والتحريض لا تستمر عند اللقاء ، وعندما تعض الحرب بنابها ، هذه حال جيش الباطل يبدو التخاذل في صفوفه ، ووراء التخاذل والتردد الهزيمة لا محالة •

وانا نقول ان رحمة الله بأهل الايمان أن جعل جيش الباطل يحمل في نفسه ذرائع انهزامه ، وعوامل خذلانه •

جيش رسول الله صلى الله عليه وسلم :

٣٩٠ ــ ولننتقل الى الجانب الفاضل ، وهو جيش محمد صلى الله تعالى عليه وسلم فقد أجمع القتال ،ولم يكن الباعث عليه ما لا يبتغونه ، ولا عرضا من أعراض الدنيا يريدونه، ولكنه عدو الله قد جاء اليهم ، فلا بد لهم من أن يخوضوا استجابة لله ولرسوله ، وان لهم احدى الحسنيين ، اما الغنم واما الشهادة وكلاهما غنيمة في ذات نفسه •

عندما رأى المشركون المؤمنين بعين المتحسس منهم هالهم حالهم ، فاسترهبوهم ، وهم القلة الذين بلغوا نحو ثلاثمائة وازدادوا تسعة ، وقال ابن كثير : انهم كانوا ثلاثة عشر وثلثمائة عدا •

وعلى ذلك أرى الله المؤمنين المشركين قلة يستهان بها ، ولا تهولهم حالها ،وقد رأى النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ذلك بالرؤيا الصادقة ، ورأوهم كذلك رأى العين ، وقد قال الله تعالى في ذلك:

﴿ إِذْ يُرِيكَهُمُ ٱللَّهُ فِى مَنَامِكَ قَلِيلًا وَلَوْ أَرَىٰكَهُمْ كَثِيرًا لَّفَشِلْتُمْ وَلَتَنَٰزَعْتُمْ فِى ٱلْأَمْرِ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ سَلَّمَ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٤٣﴾ وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ ٱلْتَقَيْتُمْ فِىٓ أَعْيُنِكُمْ قَلِيلًا وَيُقَلِّلُكُمْ فِىٓ أَعْيُنِهِمْ لِيَقْضِىَ ٱللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴿٤٤﴾ ﴾ (١)

ونرى من هذا أن المشركين كانوايهلعون من اللقاء ، ويترددون ساعته الا من ركبت الحماقة رؤوسهم ، بينما المؤمنون في بشرى من الله ، يستصغرون شأنهم ، ويتقدمون غير راهبين ، ولا يستغيثون الا بالله ، والله تعالى يلقي في نفوسهم الطمأنينة ، والروحانية تظلهم والله يعينهم ، ويمدهم في ذات أنفسهم بالملائكة في قلوبهم بالأمن والدعة ، وهم ينامون مطمئنين واثقين بالنصر راجين ما عند الله ، ولا يستعينون الا بذاته الكريمة ، ولقد قال الله تعالى في حالهم ، وهم مقبلون على المعركة :

﴿ إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَٱسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّى مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُرْدِفِينَ ﴿٩﴾ وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِۦ قُلُوبُكُمْ وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿١٠﴾ إِذْ يُغَشِّيكُمُ ٱلنُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِۦ وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ ٱلشَّيْطَٰنِ وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ ٱلْأَقْدَامَ ﴿١١﴾ إِذْ يُوحِى رَبُّكَ إِلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ أَنِّى مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ سَأُلْقِى فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلرُّعْبَ فَٱضْرِبُوا۟ فَوْقَ ٱلْأَعْنَاقِ وَٱضْرِبُوا۟ مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ ﴿١٢﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ شَآقُّوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَمَن يُشَاقِقِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿١٣﴾ ﴾ (٢)

---

(١) ، (٢) الأنفال

ثم يقول سبحانه :

﴿ ذَٰلِكُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ مُوهِنُ كَيْدِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٨﴾ ﴾ (١)

جيشان قد تلاقيا أحدهما كثير العدد ، والعدة ، ولكنه فاقد الايمان ، حتى بالحرب التي أقدم عليها ، فقد أوهن الله تعالى كيده وتدبيره ، أوهنه بازالة الباعث على القتال ، وأوهنه بالتردد في بعض كبرائهم ، وأوهنه بانفصال بعض بطونهم ، وأوهنهم باثارة الأرحام التي قطعوها ، وألقى الله تعالى في قلوبهم الرعب عندما التقى الجمعان ٠

هذه حالهم أما حال المؤمنين فارادة مؤمنة مجمعة ، وبشرى من الله بالملائكة وايحاء الى الملائكة بتثبيت المسلمين والقاء الطمأنينة في قلوبهم ، حتى غشاهم النعاس أمنة ، وأرسل لهم المطر خفيفا لتثبت الأرض تحت أقدامهم ،واستبدلوا بطلب العير طلب العزة ، فقد أرادوا المال ابتداء ٠ ثم أرادوا اعلاء كلمة الله انتهاء ، كانوا يودون المال « وبعزة الله أرادوا القوة والعلياء ، كما قال تعالى » :

﴿ وَإِذْ يَعِدُكُمُ ٱللَّهُ إِحْدَى ٱلطَّآئِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ ٱلشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُحِقَّ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَيَقْطَعَ دَابِرَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧﴾ ﴾ (٢)

جيشان ادرع أحدهما بالعدد والعدة مع الوهن النفسي ، والثاني ادرع بالعزيمة والايمان والصبر ، والرغبة في الشهادة وهما غير متكافئين ، ذلك أن قواد الحروب في القرنين الحاضر والسابق قدروا أثر القوة الحربية المادية بالنسبة للقوة المعنوية بواحد الى ثلاثة ٠

وان تقدير النسبة بين قوة المادية الى قوة الروح بواحد الى ثلاثة هو تقدير أهل الخبرة ، وهم يخطئون ويصيبون ،أما تقدير الله تعالى فهو أعلى من ذلك اذ قدر الواحد من أهل الايمان في حال القوة التي لا ضعف معها ، بعشرة من أهل الكفر ، فقال تعالى :

---

(١) ، (٢) الأنفال

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَرِّضِ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَى ٱلْقِتَالِ ۚ إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَٰبِرُونَ يَغْلِبُوا۟ مِاْئَتَيْنِ ۚ وَإِن يَكُن مِّنكُم مِّاْئَةٌ يَغْلِبُوٓا۟ أَلْفًا مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴿٦٥﴾ ٱلْـَٔـٰنَ خَفَّفَ ٱللَّهُ عَنكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا ۚ فَإِن يَكُن مِّنكُم مِّاْئَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا۟ مِاْئَتَيْنِ ۚ وَإِن يَكُن مِّنكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوٓا۟ أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٦٦﴾ ﴾ (١)

ونرى من هذا النص أن القوة المعنوية عشرة أمثال القوة المادية اذا لم يكن في أوساط المؤمنين ضعاف الايمان ، الذين يخالطون المؤمنين الصادقين ، خصوصا عندما كان في المسلمين منافقون ، لا يريدون بأهل الايمان الا خبالا كما قال تعالى فيهم :

﴿ لَوْ خَرَجُوا۟ فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَأَوْضَعُوا۟ خِلَٰلَكُمْ يَبْغُونَكُمُ ٱلْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّٰعُونَ لَهُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٧﴾ لَقَدِ ٱبْتَغَوُا۟ ٱلْفِتْنَةَ مِن قَبْلُ وَقَلَّبُوا۟ لَكَ ٱلْأُمُورَ حَتَّىٰ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَظَهَرَ أَمْرُ ٱللَّهِ وَهُمْ كَٰرِهُونَ ﴿٤٨﴾ ﴾ (٢)

هذا هو الضعف في الصفوف وقد ظهر في غزوة أحد والنبي صلى الله تعالى عليه وسلم يسوى الصفوف للقتال،كما قال تعالى :

﴿ وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ ٱلْمُؤْمِنِينَ مَقَٰعِدَ لِلْقِتَالِ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٢١﴾ إِذْ هَمَّت طَّآئِفَتَانِ مِنكُمْ أَن تَفْشَلَا وَٱللَّهُ وَلِيُّهُمَا ۗ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١٢٢﴾ ﴾ (٣)

---

(١) الأنفال (٢) التوبة (٣) آل عمران

هذه هي النسبة في حال قوة الايمان ، وألا يخالط المؤمنين نفاق قط ، وهي قوة الواحد بعشرة ٠

فاذا خالط المؤمنين منافقون مع مرضى القلوب كان هناك ضعف ، فيكون الواحد من المؤمنين يقابل اثنين من المنافقين ، فالنسبة الكبرى في حال قوة الايمان الخالص ، والنسبة الثانية اذاكان مرضى القلوب في صفوف المؤمنين ، فلا ناسخ ولا منسوخ ، كما يقال ان الثانية نسخت الأولى ٠

التقاء الجمعين يوم الفرقان :

٣٩١ ــ ذهب رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم الى بدر ليدرك العير ، فلم يدركها ، وأدركه النفير فلم يكن من القتال بد ، وقد أقبلت قريش بخيلائها وفخرها ، فتعرف النبي صلى الله تعالى عليه وسلم العدو ، فقدره بين تسعمائة وألف ، مما كانوا يعقرون من ابل ، فقد قيل له وقد سأل عن عددهم فقال المسئول انهم كثير لا يحصون فسألهم عما ينحرون من ابل ، فقال يوم تسع ، ويوم عشر ، فقال هم بين تسعمائة وألف ، فكانوا خمسين وتسعمائة وسأل عن أشراف رجالاتهم ، فذكروا عتبة ابن ربيعة وأخاه شيبة ، وغيرهم من أشرافها ، فقال عليه الصلاة والسلام : لمن معه من جند المسلمين ليحثهم على القتال ويحرضهم ، « هذه قريش قد ألقت اليكم أفلاذ أكبادها »٠

وقد نزلوا من بدر بالعدوة القصوى ، وهي كثيب من الرمل مرتفع ، بعيد عن بدر ، ونزل أهل الايمان بالعدوة الدنيا من بدر ، وهذا ما ذكره الله تعالى بقوله :

﴿ وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ ٱلْفُرْقَانِ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤١﴾ إِذْ أَنتُم بِٱلْعُدْوَةِ ٱلدُّنْيَا وَهُم بِٱلْعُدْوَةِ ٱلْقُصْوَىٰ وَٱلرَّكْبُ أَسْفَلَ مِنكُمْ ۚ وَلَوْ تَوَاعَدتُّمْ لَٱخْتَلَفْتُمْ فِى ٱلْمِيعَـٰدِ ۙ وَلَـٰكِن لِّيَقْضِىَ ٱللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنۢ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَىَّ عَنۢ بَيِّنَةٍ ۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٤٢﴾ ﴾ (١)

---

(١) الأنفال

كان اختيار المكان بتوفيق الله تعالى، لا بارادة أحد ، ولو كان بارادتهم وأمرهم لاختلفوا في المكان والزمان ،ولكن الله تعالى دبر الميقات ، فجعله في هذا الزمان ، ودبر المكان فكان هـذاالمكان ، وكان منزل المؤمنين دهسأ رمالا يعوق السير ، فأنزل الله مطراً خفيفاً ٠لبد الأرض ، وجعلها معبدة يسهل السير فيها ، وأنزل أمامهم على قريش مطرأكثيراً عوق سيرهم ٠

روى النسائي عن مجاهد أنزل الله تعالى عليهم المطر ، فأطفأ الغبار ، وتلبدت به الأرض ، وطابت به أنفسهم، جاء رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، بجيش الايمان ، فنزل على أقرب ماء من بدر ، وعرض الأمر على الصحابة فجاء اليه الحباب بن منذر بن الجموح وقال :

يا رسول الله أرأيت هذا المنزل ، أمنزلا أنزلكه تعالى ، ليس لنا أن نتقدمه ولا نتأخره أم هو الرأي والحرب والمكيدة ٠

قال رسول الله صلى الله تعالى عليهوسلم : بل هو الرأي والحرب والمكيدة٠

قال يا رسول الله هذا ليس بمنزل ،فامض بالناس ، حتى تأتي أدنى ماء من القوم ، فتنزله ثم تغور (١) ما وراءهمن القلب ، ثم تبني عليه حوضا ، فتملؤه ماء ، ثم تقاتل القوم ، فنشربولا يشربون ٠

اختار النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، ذلك المنزل ، وأخذ برأي الحباب ابن منذر كاملا ، وبنى الحوض على البئر التي اختارها ، وامتلأت ماء لأنه آل اليها كل ماء الآبار التي غورت رأىالمشركون ذلك فأحسوا بأنها المكيدة التي تحرمهم من الماء ٠

وقد تواجهت الفئتان وتقابل الفريقان ، وحضر الخصمان ، واستغاث برب العالمين سيد الأنبياء ٠ وقد ابتدأت المناوشات بأن رجلا شرسا من بني مخزوم أحس بمكيدة الماء ، وظن أنهيستطيع أن يهدم على المؤمنين الحوض الذي بنوه ، فقال : لأشربن من حوضهم، أو لأهدمنه ، أو لأموتن دونه ، فخرج اليه وانقض حمزة بن عبد المطلب أسدالله فانقض عليه ، فلما التقيا قطع حمزة بسيفه رجله الى نصف ساقه ،ولكنه لحرصه على أن ينفذ ما أقسم عليه حبا الى الحوض ، فضربه حمزةحتى قتله ٠

---

(١) رويت في هذه الكلمة بحرف الغين المعجمةومعناها تغوير ما حولها ليذهب ماؤها ورويت بالعين ومعنى تعويرها افسادها بما يشبه ردمهافينحصر الماء في القليب المختار ٠

كان رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم في الجيش كسائر جنده ، ولكنه رأى أن يكون في مكان مرتفع ليشرف على حركة جنده ، فاتخذ له عريشاً على مرتفع من الأرض ، ويروى أن معاذ بن جبل هو الذي أشار به على رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم . يروي ابن اسحاق بسنده أن سعد بن معاذ قال يا نبي الله ، ألا نبني لك عريشاً تكون فيه ونعد عندك ركائبك ، ثم تلقى عدونا ، فان أعزنا الله تعالى وأظهرنا على عدونا كان ذلك ما أحببنا ، وان كانت الأخرى جلست على ركائبك ،فلحقت بمن وراءنا ، فقد تخلف عنك أقوام يا رسول الله ، ما نحن بأشد حباً لك منهم ، ولو ظنوا أنك تلقى حربا ، ما تخلفوا عنك ، يمنعك الله بهم يناصحونك ويجاهدون معك ، فأثنى عليه رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ودعا له بخير .

بني له عليه الصلاة والسلام العريش ، وكان فيه فائدة ، وهو الرقابة على حركة الجند وعمله ، وليكون مع الجند كله ببصره ، لا مع فريق منه ، فهو يراقبهم ، ويعرف أعمالهم .

ولا شك أن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم كان بوجدانه وشعور العطف والرحمة بجيشه يغلب عليه الاشفاق ، فعندما رأى جيش قريش ضرع الى ربه داعياً قائلا :

« اللهم هذه قريش قد أقبلت بخيلائها وفخرها ، تحادك وتكذب رسولك ، اللهم فنصرك الذي وعدتني ، اللهم أحنهم (١) الغداة » .

وكان أبو بكر مع رسول الله في الغار ، ومعاذ بن جبل في نفر من الأنصار يطوفون حوله ، والرسول دائم الدعاء والضراعة الى ربه يقول فوق ما روينا ما رواه على بن أبي طالب رضي الله عنه ، « كان رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم يكثر الابتهال والتضرع والدعاء ، ويقول فيما يدعو « اللهم ان تهلك هذه العصابة لا تعبد بعدها في الأرض ، وجعل يهتف بربه عز وجل ويقول » : « اللهم أنجز لي ما وعدتني، اللهم نصرك ، ويرفع يديه الى السماء حتى سقط الرداء عن منكبيه ، وجعل أبو بكر يلتزمه من ورائه ، ويسوي عليه رداءه ، ويقول مشفقاً عليه من كثرة الابتهال ، يا رسول الله : بعض

---

(١) أحنهم من الحين والهلاك .

مناشدتك ربك ، فانه سينجز لك ماوعدك ، وهكذا كان القائد الرشيد الحكيم لمحبته لجيشه ، ولكل رجل من رجاله ، ولحرصه على الأمر الباعث على الجهاد ، وهو حماية الوحدانية ،والقضاء على الوثنية ، كان يشتد في الابتهال الى الله تعالى • وبجوار ذلك كان يجتهد في بث العزيمة على القتال في جيشه الحبيب اليه ، فهو يلجأ الى جنده ليأخذ الأهبة ، ويعمل على النصر، ثم يضرع الى ربه متوكلا عليه مستغيثاً،لتجتمع له ولجيشه قوة العمل ، وقوة الاعتماد على الله تعالى الذي لا يغير أمرالا بأمره •

ولقد أخذ صلى الله تعالى عليه وسلم يحرض على القتال استجابة لقوله تعالى :

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَرِّضِ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَى ٱلْقِتَالِ ﴾ (١)

فقال عليه الصلاة والسلام :

والذي نفس محمد بيده ، لا يقاتلهم اليوم رجل فيقتل صابراً محتسباً غير مدبر الا دخل الجنة ، هذا بعض تحريض رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، وتحريض الله تعالى كان أقوى من ناحية التحذير فقد قال تعالى :

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ زَحْفًا فَلَا تُوَلُّوهُمُ ٱلْأَدْبَارَ ﴿١٥﴾ وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُۥٓ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٍ فَقَدْ بَآءَ بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَمَأْوَىٰهُ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٦﴾ ﴾ (٢)

واذا كان تحريض النبي صلى الله تعالى عليه وسلم تبشيرا ، فتحريض الله تعالى كان تحذيراً ، فالأول يبين عاقبة الخير ان أقدموا ، وكلام الله تعالى يبين العاقبة السوء اذا فروا أو أحجموا •

---

(١) ، (٢) الأنفال

القيادة والتنظيم :

٣٩٢ ـ كانت القيادة حكيمة ، وكانت رحيمة ، وكانت حازمة ، وكانت قوية ، فكان عليه الصلاة والسلام أسوة حسنة • لقائد الحرب العادلة ، كما هو أسوة حسنة للمؤمنين في عمله وخلقه وسننه قد قال تعالى :

﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُواْ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْآخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴿٢١﴾ ﴾ (١)

١ ـ وأول مظاهر قيادته الحكيمة المرشدة ، أنه كان وسط الجند في القتال ، فلم يكن بعيداً عنهم ، بل كان يشرف عليهم ويوجههم ، ويشترك في شدائد الحرب ، كما يشترك في ثمراتها ، سواء أكانت حلوة أم كانت مرة •

روي عن علي رضي الله تبارك وتعالى عنه أنه قال : « كنا اذا اشتد الخطب، وحمي الوطيس واحمرت الحدق أتقينا برسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، فما يكون أحد أقرب الى العدو منه ،ولقد رأيتني يوم بدر ، ونحن نلوذ برسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ،وهو أقرب الى العدو » ، فالنبي القائد كان في المعركة ولم يكن بمنأى عنها ،بنى له أصحابه عريشاً ، ويظهر أنه لم يستقر فيه الا بالقدر الذي أشرف به على الجيش ، وحرك الجند ، ليتبعوا نظامه •

ولقد رأينا من بعد قوادا مسلمين اتبعوا هديه ، كصلاح الدين الأيوبي ، الذي كان يعيش في جيشه وقطز الذي كان جنديا مع الجنود • فكان النصر •

وخالف طريقه ناس سموا أنفسهم قواداً كانوا يديرون دفة الحرب ، وهم في قصور مشيدة ، فكانت الهزيمة ،وذهب جند الله باهمالهم •

وثاني مظاهر قيادة النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، المساواة بينه ، وبين جنده ، فقد كان يشعر كل جندي أن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم بجواره،

---

(١) الأحزاب

ويتساوى معه في الحقوق والواجبات الجندية وليس أدل على ذلك من أنه كان يتعاقب مع علي بن أبي طالب ومرثد في جمل واحد ، فلما جاءت نوبته في السير أرادا أن يعفياه ، فرفض ، وقال لستم أقوى مني ، ولا أنا أغنى عن الأجر منكم ، وازن بين هذا ، وبين جيوش المسلمين ، وخصوصا المصريين في العصر الأخير ، والأمور المفرقة التي تجعل فريقاً يكتوي بنيران الحرب ، والآخر ينعم بالخيرات ، وينال الفخر ان كان انتصار ، ولا شرف يناله الذين اكتووا بنارها ، ولذلك كانت الهزيمة تتلوها أختها ·

وثالث مظاهر القيادة النبوية ، اشعار الجند بأنهم يعملون مختارين ، ولا يعملون مسخرين ، وأنهم يطلبون الثواب بحربهم ، وأنهم ان انتصروا بهدي الله تعالى نالوا نصراً لأنفسهم ، وللحق الذي يدافعون عنه ، وان قتلوا نالوا شرف الشهادة وجنة الرضوان ، وما بينهم وبين دخول الجنة الا أن يقاتلوا ويقتلوا ، فهم ينالون احدى الحسنيين ، فهم يقاتلون مختارين لله وللحق ، ولأنفسهم ، فهم في صفقة رابحة ، اختاروها ولم يسخروا لها ، كما قال تعالى :

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ ۚ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ ۖ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ وَٱلْقُرْءَانِ ۚ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِ ۚ فَٱسْتَبْشِرُوا۟ بِبَيْعِكُمُ ٱلَّذِى بَايَعْتُم بِهِۦ ۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١١١﴾ ﴾ (١)

فالنبي صلى الله تعالى عليه وسلم أودع قلب كل مؤمن من الجند بأنه يقاتل مختاراً لنفسه ، لا لدنيا يصيبها ، ولكن لله وللحق في ذات الحق ، فلم يكن أي واحد من جند الله بهداية الايمان ، وقيادة النبي مسخراً أو مجنداً ، ولكن كان جندياً مختاراً ·

ورابع الأمور التي لوحظت في قيادة النبي صلى الله تعالى عليه وسلم أنها كانت لينة مع حزمه وقوة تنظيمه ، فقد كان رفيقاً سهلا ليناً في قيادته ،

---

(١) التوبة

لا سيطرة ، ولكن قيادة رفيقة هـادئة هادية مرشدة من غير اعنات ولا غلظة ، فكانت القلوب مستجيبة ، والأجسام لها تبع ، فالتفوا حول القائد الحكيم ، يفدونه ، ويفدون معه الحق طوعا واختيارا ، لا كرها واضطرارا ، ولقد كان ذلك من رحمة النبوة ، ولذلك قال الله تعالى في قيادة رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم :

﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ ۖ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ ۖ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ ﴿١٥٩﴾ ﴾ (١)

والأمر الخامس : الذي لوحظ في قيادة النبي صلى الله تعالى عليه وسلم حرصه على جنده ، واشفاقه عليهم ، واعظامه لأمر آحادهم وجماعتهم ، كما ثبت في ضراعته لربه ، وخوفه عليهم ، فلم يكن الجند معه الا الأحباب والأولياء ، ودعاة الحق وهداته ، وأنهم عصابة الله ان هلكوا لا يعبد الله في الأرض فتتربى فيهم عزة ، ويحسون بأنهم موضع المحبة .

واذا أحسوا بذلك باعوا أنفسهم لله ، فلم ينظر اليهم القائد الحكيم ، كما ينظر بعض قواد المسلمين اليوم ، على أنهم أدوات الحرب ، كآلاتها .

وسادس الأمور التي لوحظت في قيادة النبي صلى الله تعالى عليه وسلم اشراكهم معه في تحمل التبعة بالشورى يقيمها فيهم ، كأمر الله تعالى بقوله فيما تلونا « وشاورهم في الأمر » وان الشورى مع الجند ، تجعل الجندي يحس بتحمل التبعة ، وأنه ذو رأي في توجيهاته ، وذلك يوجد فيه عزة الجندي المتحمل للتبعة وليس كالآلة المتحركة ، وفوق ذلك يشارك في تدبير القتال ، فيزداد قوة نفس ، ومن قوة النفس تكون الارادة الحازمة الراغبة غير المترددة .

بهذه القيادة الحكيمة اللينة الحازمة الرقيقة الرحيمة ، تربى جند الله .
فكان النصر والغلب .

---

(١) آل عمران

التنظـيم :

٣٩٣ ـ أول ما اتجه رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم في تنظيم جيشه جعله صفوفا متتالية أمام العدو، وذلك كقوله تعالى :

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَـٰتِلُونَ فِى سَبِيلِهِۦ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَـٰنٌ مَّرْصُوصٌ ﴿٤﴾ ﴾ (١)

فهذا توجيه من الله تعالى في القيادة الى أن يصف الجنود صفوفا ، وان النبي صلى الله تعالى عليه وسلم هو الذي يبين القرآن الكريم بعمله ، وقوله ، ان احتاج القرآن الى بيان ٠

وأول معركة في الحرب النبوية كانت بدرأ الكبرى ، فطبق نظام الصف الذي يحبه الله تعالى :

روى ابن اسحق بسنده أن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم عدل صفوف أصحابه ، وفي يده قدح يعدل به القوم، فمر بسواد بن غزبة ، وهو مستنتل (٢) من الصف ، فطعن عليه الصلاة والسلام في بطنه بالقدح ،استو يا سواد فقال : يا رسول الله أوجعتني ،وقد بعثك الله تعالى بالحق والعدل ٠ فأقدني (٣) فكشف رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم عن بطنه ٠ وقال استقد قال فاعتنقه فقبل بطنه !! فقال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ما حملك على هذا يا سواد ! قال يا رسول الله ٠ حضر ما ترى ٠ فأردت أن يكون آخر العهد بك أن يمس جلدي جلدك فدعا رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم له بخير ٠

٢ ـ وأصدر أمره الى جيشه جيش الايمان ألا يحمل على العدو الا عند ما يصدر اليهم الأمر بذلك ٠

---

(١) الصف

(٢) مستنتل ومعناها متقدم فى الصف ، وفى رواية مستنصل ومعناها خارج من الصف ٠

(٣) اى مكني من القصاص ٠

٣ ـ وأمرهم أن ينضحوهم ، فلايقاتلون مهاجمين حتى يصدر أمره عليه الصلاة والسلام ، لكي يهجموا هجمة رجل واحد غير متفرقين، ولا مانع من أن يكون النبل ، فرادى ، ومع ذلك كانت أوامره ألا يسرفوا في النبل ،بل يتخيرون من يرمونه ، ليكون ذلك أنكى للعدو ، وأبقى للعدة ٠

روى ابن اسحاق بسنده أن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم أمر أصحابه ألا يحملوا حتى يأمرهم ، وقال ان اكتنفكم القوم،فانضحوهم عنكم بالنبل٠

وفي صحيح البخاري عن أبي أسيدقال لنا رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم يوم بدر اذا أكثبوكم فارموهم واستبقوا نبلكم ، وأمر رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم أن تقطع الأجراس من أعناق الأبل لئلا يشغل الناس بها ٠

٤ ـ وقد جعل شعار الصحابة في هذه الحرب العادلة « أحد أحد ٠ وشعار المهاجرين يا بني عبد الرحمن ، وشعار الخزرج يا بني عبد الله ، وشعار الأوس يا بني عبد الله » ٠

وكانت عدة المؤمنين كما ذكرنا ٣١٣ ثلاثة عشر وثلاثمائة ، وكانت عدة المهاجرين نيفاً وستين على رواية البخاري ، وعند الامام أحمد ستة وسبعين ٠

٥ ـ وقد أعطى صلى الله تعالى عليه وسلم اللواء لمصعب بن عمير ، وكان أبيض ، وأعطى راية المهاجرين وكانت سوداء لعلي بن أبي طالب ، وراية الأنصار وكانت سوداء أيضاً لسعد بن معاذ ، وروي أن راية الأنصار كانت مع الحباب بن المنذر ٠

وجعل رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم قيس بن أبي صعصعة معه ٠

هذا تنظيم رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، جعل على المهاجرين رجلا منهم ، وهو من صناديد الاسلام ،وجعل على الأنصار رجلا منهم ، لا للتفريق بين المهاجر والأنصارى ، ولكن ليأنس كل فريق بصاحبه ، وليكون الجهاد الذي يراه الله ورسوله والناس ، وفي ذلك فليتنافس المتنافسون ٠

المعـــركـة :

٣٩٤ ـ بعد ذلك التنظيم الذي لم يكن للعرب عهد به كان لابد من اللقاء، بين جيشين أحدهما قوى الايمان وقـد عقد العزم ، والثاني غير مؤمن بالله ، ولا عزيمة عنده كمـا بينا في حـــال الفريقين ، وينطبق عليهما قوله تعالى :

﴿ * هَٰذَانِ خَصْمَانِ ٱخْتَصَمُوا۟ فِى رَبِّهِمْ ۖ فَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِّن نَّارٍ يُصَبُّ مِن فَوْقِ رُءُوسِهِمُ ٱلْحَمِيمُ ﴿١٩﴾ يُصْهَرُ بِهِۦ مَا فِى بُطُونِهِمْ وَٱلْجُلُودُ ﴿٢٠﴾ وَلَهُم مَّقَٰمِعُ مِنْ حَدِيدٍ ﴿٢١﴾ ﴾ (١)

الى آخر الآيات الكريمات •

وانها اذا كانت الآية فيمـا يلقاه الكـــافرون يوم القيامـــة ففي لفظها ما يومىء الى حالهم في المعركة • ابتدأ القتال بالمبارزة ، طلبهـا بعض كبـار المشركين ، فأجيبوا اليهـــا ، وجندلوا بسيفي أســد الله ورسوله حمزة بن عبد المطلب ، وفارس الاسلام علي بن أبي طالب •

خرج عتبة بن ربيعة ، ومعه أخوه شيبة بن ربيعة ، وابنه الوليد يطلبون المبارزة فخرج اليهم ثلاثة من الأنصار، فقالوا مالنا بكم من حاجة ، ولكن نريد أكفاءنا من قومنا ، ثم نادى مناديهم : يا محمد أخرج الينا أكفاءنا من قومنا، فاختار لهم الأكفاء من ذوي قـــرابته الأقربين عمه وابني عمه ، وقد آثرهم بالجهاد والعمل ، ولم يرض لهم القعود•

أخرج عبيدة بن الحارث بن عبد المطلب ، وحمزة ، وعليا ، فلما رأوهم سألوهم عن أنفسهم ، ويظهر أنهم قـد تقنعـوا بالســلاح ، فلم يعرفوهـم فعرفوهم بأنفسهم ، فقالوا أكفاء كرام ، فبارز عبيدة عتبة ، وبارز حمـزة شيبة ، وبارز علي الوليد ، فقتـل كل من حمزة وعلي صاحبه ، أما عبيـدة وعتبة ، فاختلفا ضربتين كلاهما أصاب صاحبه • فكر حمزة وعلي بأسيافهمـا على عتبة فأجهزا عليه •

بعد ذلك أخـذ النبل يرمي من الجانبين ، وأصـــيب به بعض المسلمين ، وأرمى الجيش المحمدي نبلهم بمهـارة متخيرا كبارهم ، متصيدا زعماءهـم ،

---

(١) الحج

والرمي يمكن التصيد فيه ، أما الملاقاة بالسيف ، فلا تحيز فيها ، ولكن اللقاء هو الذي يحدها ٠

عند ما رأى المشركون ذلك هجموا ،فكان لابد من ملاقاتهم ٠

وعندئذ تقدم رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم يأمر جيشه بأن يحمل على المشركين حملة رجل واحد ،وأخذحفنة من تراب ، فاستقبل بها قريشا ، وقال شاهت الوجوه ، وتفحم بها فلم يكن منهم الا أصيب منها ، ثم قال لأصحابه : شدوا ٠

فالتحم الجيشان والنبي ينظر من فوق العريش ، وهو يحس بأن الله تعالى أنجز وعده ، وهزم قريشا وحده :

﴿ فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ قَتَلَهُمْ ۚ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ ۚ ﴾ (١)

وسعد بن معاذ قائم على باب العريش ، متوشح السيف في نفر من الأنصار يحرسون رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، يخافون كرة العدو ٠

وقد أخذ الجيش المحمدي في تقتيل صناديد قريش وزعماء الشرك الذين كانوا يفتنون الناس ٠ عن دينهم ، ويأسرون فريقا ٠ وقد اشتدت النازلة بالمشركين ، وعلموا أن كلمة الله تعالى العليا ٠

أمران هامان في القتال :

٣٩٥ ـ هذا ويجب أن نلاحظ أمرين جديرين بالنظر ٠

أولهما ـ أن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم لم ينس رحمه وواجب الوفاء وأن يكون جزاء الاحسان لبني هاشم الذين ذاقوا مع النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ما ذاقوا ، وقريش تقاطعهم في شعبهم ، وهم على مثل قومهم من الشرك ، فما كان من الوفاء بالعهد ، وجزاء المعروف بمعروف مثله أن يقتلهم في الميدان وقد خرجوا للحرب كارهين وكان من بعض رجالات قريش من لم يؤذ النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ٠ بل من سعى سعيه في منع

(١) الانفال

حصار بني هاشم وبني المطلب ، فكان النبي صلى الله تعالى عليه وسلم الوفي الأمين ، لن ينسى احسان محسن والله تعالى يقول :

﴿هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ ﴿٦٠﴾﴾ (١)

وهذا العباس بن عبد المطلب الذي كان يذهب مع النبي صلى الله تعالى عليه وسلم في بيعة الأوس والخزرج ليستوثق من منعة يثرب للنبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، فهل يتركه تعتوره السيوف !!

ولذلك قال لجيشه في رواية ابن عباس :

« اني عرفت أن رجالا من بني هاشم وغيرهم قد أخرجوا كرها ، لا حاجة لنا بقتالهم ، فمن لقي منكم أحدا من بني هاشم ، فلا يقتله ، ومن لقي البختري فلا يقتله ، ومن لقي العباس بن عبد المطلب عم رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، فلا يقتله ٠

فقال بعض من قتل ذووه ، وهو أبوحذيفة ، (ويظهر أن قوله لم يكن في حضرة النبي صلى الله تعالى عليه وسلم) ، أنقتل آباءنا وأبناءنا واخواننا ، ونترك العباس ، والله لئن لقيته لألجمنه السيف فبلغت هذه القالة رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، فأثرت في نفسه ، فقال لعمر بن الخطاب آسياً : يا أبا حفص : أيضرب وجه عم رسول الله بالسيف ، وفي ذلك اشارة الى موقف العباس في العطف على رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، والفرق بينه وبين أبي لهب ٠

ولقد ندم أبو حذيفة (ولعله قالها لقتل أبيه) أشد الندم ، فكان يقول ما أنا بآمن من تلك الكلمة التي قلت يومئذ ، ولا أزال منها خائفاً الا أن تكفرها عني الشهادة ، فقتل يوم اليمامة شهيداً ٠

هذا وان الذين حضروا الموقعة من بني هاشم لم تمسهم السيوف استجابة لطلب النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، لرحمه ، ولحدبهم عليه ، ولمشاركتهم له في الضراء ٠ وما كان القتال لأجل الكفر ، بل كان للاعتداء ٠

---

(١) الرحمن

أما أبو البختري وله مقام مشهود في نقض الصحيفة ، وقد عرفها النبي صلى الله تعالى عليه وسلم له في شديدته كما كانت منه المعونة في الشديدة ، فقد لقيه المجذر بن زياد البلوي حليف الأنصار ، فقال لأبي البختري : ان رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم قد نهانا عن قتلك .

وكان أبو البختري له زميل قد خرج معه من مكة ، فجمعتهما رفقة السفر ولعله كانت بينهما مودة موصولة ، فطلب ألا يقتل صاحبه ، فقال المجذر : « والله ما نحن بتاركي زميلك ، ما أمرنا رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم الا بك وحدك » .

فقال أبو البختري ، لا والله : اذن لأموتن أنا وهو جميعا ، ولا تتحدث عني نساء مكة أني تركت زميلي حرصاً على الحياة .

فتنازلا ، ولم يسلم أبو البختري سيفه الا أن يكون مقتولا ، وقال في ذلك :

لن يسلم ابن حرة زميله حتى يموت أو يرى سبيله

هذا وفاء محمد في ميدان القتال ، والبلاء بلاء .

الملاحظة الثانية : أن الشرك وان فرق النفوس ، قد كانت المودة بين بعض الرجال ما زالت موصولة ، لقد كان أمية بن خلف صديقاً ودودا لعبدالرحمن بن عوف ، فلقيه في بدر فلم يرد أن يقتله بل أراد أن ينقذه ، لقد رآه وابنه علياً ، وانه ليقودهما بدل أن يقتلهما – اذ رآه بلال الذي كان عبداً لأمية ، وكان يعذبه ليترك الاسلام ، فيخرجه الى رمضاء مكة اذا حميت فيضجعه على ظهره ، ثم يأتي بالصخرة العظيمة ، فتوضع على صدره ، ثم يقول : لاتزال هكذا أو تفارق دين محمد فيقول بلال ، أحد أحد .

وجدها بلال الفرصة التي يقتص فيها منه جزاء ما فتنه في دينه ، فقال رضي الله تعالى عنه : رأس الكفر أمية بن خلف لانجوت ان نجا ، ثم صرخ بأعلى صوته يا أنصار الله رأس الكفر أمية بن خلف ، لانجوت ان نجا ، فأحاطوا به ، وعبد الرحمن بن عوف يذب عنه ، ولكنه قتل هو وابنه .

القتل والأسر :

٣٩٦ ـ كان الجيش الاسلامي يقتل ويأسر ، لأنه في حال حرب ، ولكن معاذ بن جبل الذي كان يحوط عريش رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، كان يكره الأسر ، ولا يريد الا القتل ، وأن يثخن فيهم ٠

يقول ابن اسحاق « رأى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم في وجه سعد بن معاذ الكراهية لما يصنع الناس ،فقال له رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم :» « والله لكأنك يا سعد تكره ما يصنع القوم !! قال أجل والله يا رسول الله كانت أول واقعة أوقعها الله تعالى بأهل الشرك ، فكان الاثخان في القتل بأهل الشرك أحب الي من استبقاء أحد » ٠

ونرى من هذا أن القرآن نزل بموافقة سعد اذ قال الله تعالى :

﴿ مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنْيَا وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلْـَٔاخِرَةَ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٦٧﴾ ﴾ (١)

نتائج المعركة وأعقابها :

٣٩٧ ـ هذه المعركة اكتفينا في ذكرها بالاجمال لضيق ، فلم تمكث الا يوما واحدا من صبيحة الليلة السابعة عشرة من رمضان في السنة الثانية ، وكان شهراً مباركا ، وهو يوم بدر ،وفيه آخر فتح بازالة الأوثان وتطهير بيت الله الحرام ٠

واذا كنا ذكرنا المعركة بايجاز ، لأنها كانت في وقت قصير ، فقد كانت نتائجها بعيدة الأثر في حياة المسلمين ،ذلك أن زعماء الشرك الذين ما كان يرجى فيهم خير ، قد قتلوا ، ومنهم كان يؤذي النبي والمؤمنين ، ولا يألو في ذلك ولا يقصر ، ومنهم أشد مشعليها ،ومؤججيها ٠

---

(١) الأنفال

وكان عدة من قتل من المشركين سبعين ، وأسر منهم سبعون ، وكان ممن أسر النضر بن الحارث الذي كان شريك أبي جهل في ايذاء المسلمين والمبالغة في الأذى ، وعقبة بن أبي معيط الذي كان يقف ضد كل داعية للسلام ، حتى أشعلت الحرب ، فوقف ضد ابنه ، وعيره بأنه رضي أن يعيش كالنساء، والحرب قد قامت أسبابها ، فقتل النضر علي بن أبي طالب ، وروي أنه هو أيضا الذي قتل الثاني .

وفي غب المعركة كان النبي صلى الله تعالى عليه وسلم حريصاً على أن يعرف مآل أبي جهل الذي سمي فرعون هذه الأمة ، فادا أدال الله تعالى منه ، فقد أدال من فرعون .

يروي ابن اسحاق أنه لما فرغ رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم من عدوه أمر بأبي جهل أن يلتمس في القتلى، وقد كان هو مقصوداً في القتال، لأنه رأس الفتنة ، ولقد أحيط بمن يدفعون عنه ان أريد قتله . فكان معه عكرمة وبعض سفهاء القوم ، وكان أول من لقيه بضربة معاذ بن عمرو بن الجموح أخو بني سلمة ، فقال رأيته كالحرجة (أى كالشجرة الكبيرة) وهم يقولون لا يخلص اليه أحد ، فضربته ضربة أطنت قدمه الى نصف ساقه (أي قطعتها) وضربني عكرمة على عاتقي فطرح يدي . لم يستطع معاذ الاجهاز عليه ، حتى جاء معوذ بن عفراء ،فأثبته ، ولكن لم يقض عليه أيضاً ،وان منعه الحركة حتى جاء عبد الله بن مسعود ، وبه رمق فوضع رجله على عنقه ، وكان قد آذاه ، ثم قلت له أخزاك الله يا عدو الله ، ثم حز رأسه ، وذهب به الى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم .

انتهى أمر زعماء الشرك ، والذين بقوا منهم كانوا أقل عداء وايذاء ،وان كان قتل ذويهم قد أرث قلوبهم بالأحقاد .

وانه في هذه المعركة لم يستشهد من المؤمنين الا أربعة عشر ، أي نحو خمس من قتل من المشركين ، واذا أضيف المأسورون ، يكون ما أصيب من

المسلمين عشر من أصيب من المشركين، ولقد كانت هذه المعركة شفاء لغيظ المؤمنين الذين أوذوا في الحق وأخرجوا من ديارهم كما قال تعالى :

﴿ قَٰتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ ﴿١٤﴾ وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ ۗ وَيَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٥﴾ ﴾ (١)

وان الأمور الأربعة التي ذكرها الله تعالى قد كانت ، فقد عذبهم الله تعالى بأيدي الذين عذبوهم ، وأخزاهم الله بالهزيمة ، وشفى الله قلوب المؤمنين وذهب غيظهم وكانت المعركة سبيلا لأن يذهب غرور بعض الناس ، ويفكروا من جديد في دعوة محمد صلى الله تعالى عليه وسلم، وهي دعوة الحق .

ويقول ابن كثير في تاريخه في قتل أبي جهل : « كان قتل أبي جهل على يد شاب من الأنصار ، ثم بعد ذلك وقف عليه عبد الله بن مسعود وأمسك بلحيته، وصعد على صدره ، حتى قال له لقد رقيت مرتقى صعباً يارويعي الغنم ثم بعد هذا حز رأسه وحمله حتى وضعه بين يدي رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، فشفى الله به قلوب المؤمنين ،وكان هذا أبلغ من أن تأتيه صاعقة ، أو أن يسقط عليه سقف منزله أو يموت حتف أنفه ــ والله أعلم .

وقد ذكر مؤرخو السيرة أنه فيمن خرج يوم بدر بعض المسلمين الذين شهدوا أن لا اله الا الله وأن محمدا رسول الله ، ولكنهم بقوا في مكة ، وهم مؤمنون فخرجوا مع المشركين تقية ،كما خرج بعض بني هاشم ، وهواهم مع النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، وان لم يكونوا قد آمنوا من بعد .

ومن هذه الجماعة المسلمة الحارث بن زمعة بن الأسود ، وأبو قيس بن الفاكه، وأبو قيس بن الوليد بن المغيرة ، وعلي بن أمية بن خلف ، والعاص بن منبه بن الحجاج .

وقد قتل هؤلاء يوم بدر .

---

(١) التوبة

قال ابن اسحق ، وفي هؤلاء نزل قوله تعالى :

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ قَالُوا۟ فِيمَ كُنتُمْ ۖ قَالُوا۟ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ قَالُوٓا۟ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةً فَتُهَاجِرُوا۟ فِيهَا ۚ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴿٩٧﴾ إِلَّا ٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا ﴿٩٨﴾ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَعْفُوَ عَنْهُمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَفُوًّا غَفُورًا ﴿٩٩﴾ ﴾ (١)

وسواء أصح أن تكون حال هؤلاء هي سبب النزول أم لم يصح ، فان الآية توجب على كل مؤمن يقيم في أرض الكفر أن يخرج مهاجراً الى حيث يكون قوة للاسلام ، ولا يتخذ قوة الكفر ،وان ثبت أن النزول كان لذلك السبب، فان الآية عامة ، وكما يقول علماء الأصول اذ العبرة بعموم اللفظ ، لا بخصوص السبب ٠

الكرامة الانسانية في أعقاب المعركة :

٣٩٨ ــ قلنا ان حرب الاسلام هي حرب الفضيلة ــ لا يستباح فيها الا الدماء ، ولا تباح فيها المثلة تكريما للانسان ولا يترك فيها أشلاء الانسان تنهشها الذئاب والغربان ، بل انها تدفن تكريما للانسان ، وذلك لقوله تعالى :

﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِىٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَـٰهُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَـٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَـٰتِ وَفَضَّلْنَـٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴿٧٠﴾ ﴾ (٢)

وان النبي صلى الله تعالى عليه وسلم كرم الانسان حياً وميتاً ، والقتل في الميدان عند الاعتداء ، لا يتنافى مع تكريم الانسان ، لأنه العدل ، والعدل فيه تكريم الانسانية دائماً ،.ففيه تكريم الانسان الفاضل بأخذ الحق له ،وتقويم الفاسد بأخذ العدل منه ٠

---

(١) النساء (٢) الاسراء

ومن هذا المبدأ السامي لم يترك النبي صلى الله تعالى عليه وسلم قتلى بدر من المشركين تنوش جثثهم سباع الحيوان ، ولا تنقرها الغربان جيفاً ملقاة في الأرض ، كما فعلت جيوش في قتلاها أنفسهم ، لا في قتلى أعدائهم فقط .

بل ان النبي صلى الله تعالى عليه وسلم قد جاء الى حيث القتلى من قريش في هذه المعركة المباركة فدفنهم في القليب ، وهو بئر جافة ، وتقول عائشة فيما رواه عنها ابن اسحاق : « أمر رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم بالقليب فطرحوا فيه ، الا ما كان من أمية بن خلف ، فانه انتفخ في درعه ، فملأها ، فذهبوا ليخرجوه فتزايل لحمه . فأقره ، وألقوا عليه ما غيبه من التراب والحجارة » .

وهكذا ، فعل ليواري سوءاتهم، وليحمي أجسامهم من سباع البهائم ، وسباع الطير .

قال ابن اسحق : حدثني بعض أهل العلم أن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم قال مخاطبا جثث القتلى : يأهل القليب ، بئس عشيرة كنتم لنبيكم كذبتموني ، وصدقني الناس ، وأخرجتموني ، وآواني الناس وقاتلتموني ونصرني الناس ، هل وجدتم ما وعدربكم حقاً ، فاني قد وجدت ما وعدني ربي حقاً .

ويروى أنه نادى طائفة من زعماء الشر فيهم ، أو كبرائهم ، فقد روى أنه كان يقول : « يا عتبة بن ربيعة ، وياشيبة بن ربيعة ، ويا أمية بن خلف ، ويا أبا جهل بن هشام ، فعدد من كان منهم بالقليب ، هل وجدتم ما وعدكم ربكم حقاً ، فاني قد وجدت ما وعدني ربي حقاً ، ويظهر أن الواقعة قد تعددت .

فقال الحاضرون : يا رسول الله ، أتنادي قوما قد جيفوا فقال صلى الله تعالى عليه وسلم : « ما أنتم بأسمع لما أقول منهم ، ولكنهم لا يستطيعون أن يجيبوا » .

ومعنى أسمع أعلم بحقيقة ما أقول لهم ، لأن السمع الحقيقي يحتاج الى جارحة السمع ، وقد فقدوها بالقتل ولأن الله تعالى يقول :« وما أنت بمسمع من في القبور » وفي رواية عن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم أنه قال : « لقد علموا ما أقول » .

والعبرة في هذه المسألة أن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم قد عمل على كرامة الانسان بمواراة سوءات هؤلاء، وليبين للأحياء المسلمين الاعتبار في هذه المعركة ، وهو أن الله صدق وعده، ونصر عبده ، وهزم عدو الله تعالى وعدوهم .

الأسرى :

٣٩٩ - أسر من المشركين سبعون ، وقد علمت أن سعد بن معاذ رضي الله تعالى عنه كان يكره الأسر ، ويريد القتل ، حتى يثخن المشركين ، وذكر للنبي صلى الله تعالى عليه وسلم رأيه ، وأنه كره الأسر ، ولكن سياسة النبي صلى الله تعالى عليه وسلم كانت تتجه الى الاستبقاء بدل القتل ، عسى أن يسلموا ، ويكونوا قوة للاسلام ولأن يكونوا مؤمنين ، ولو مآلا خير من أن يقتلوا كفاراً في عجلة الحرب .

والنبي صلى الله تعالى عليه وسلم لايعمل عملا الا بمشورة أصحابه ، مادام الوحي لم ينزل بأمر ، فهو يجتهد فيما يفعل ، لا فيما يشرع ، واذا اجتهد في عمل ، فالشورى روح العمل ، وقوة الجماعة .

قال الامام أحمد في سنده بروايته: قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم : ما تقولون في هؤلاء الأسرى ، فقال أبو بكر : يا رسول الله قومك وأهلك ، استبقهم ، واستأنهم ، لعل الله أن يتوب عليهم .

وقال عمر : يا رسول الله ، أخرجوك وكذبوك ، قربهم فاضرب أعناقهم ؟

وقال عبد الله بن رواحة : يا رسول الله انظر واديا كثير الحطب ، فأدخلهم ثم أضرمه عليهم نارا ، استمع اليهم رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم وقد ابتدأ الرأي رفيقا ثم اشتد حتى صار حريقا ، فدخل رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، وتركهم مليا ، ليتدبروا مغبة كل قول ، ثم خرج عليهم .

فقال عليه الصلاة والسلام : « ان الله ليلين قلوب رجال ، حتى تكون ألين من اللبن ، وان الله تعالى ليشد قلوب رجال ، حتى تكون أشد من الحجارة ،

وان مثلك أبا بكر كمثل ابراهيم ، قال«فمن تبعني ، فانه مني ، ومن عصاني ، فانك غفور رحيم ، ومثلك يا أبا بكر كمثل عيسى ، قال :

﴿ إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١١٨﴾ ﴾ (١)

وان مثلك يا عمر كمثل نوح ، قال« رب لاتذر على الأرض من الكافرين ديارا » وان مثلك ياعمر ، كمثل موسى،قال « ربنا اطمس على أموالهم ، واشدد على قلوبهم ، فلا يؤمنوا حتى يروا العذاب الأليم » .

انتهت الاستشارة بأن أبدى رأيان أحدهما رفيق مؤلف ، لا جفوة فيه وهو رأي الصديق رضي الله تعالى عنه ، والثاني رأي مخيف ، وهو رأي الفاروق عمر بن الخطاب ، رضي الله تبارك وتعالى عنه ، ويتبع ذلك في عنفه أشد في طريقته ، وهو رأي عبد الله بن رواحة ، اذ كان رأيه القتل بالحرق .

وقد رأى النبي صلى الله تعالى عليه وسلم أن يأخذ بمبدأ الفداء ، اذ فيه رفق أبي بكر ، ونفع لجماعة المسلمين ،وقد كانوا في غير غنى ، ورخص في غير ذلك ، فرخص لنفسه في القتل ،ورخص لنفسه في المن من غير فداء ، وان كان الأكثر كان الفداء، وكان يسير في الفداء على مقدار الثروة للأسير ، وفي العفو بالمن على مبدأ من كان يظن أنه أسلم ، وخرج تقية ، ويمن أيضاً على من يرى في المن عليه كسبا للمسلمين .

وانه يلاحظ أنه لم يمن على أحد من بني هاشم مع أنه نهى عن قتلهم ، وأنه يعلم أنهم خرجوا مستكرهين ولم يخرجوا محاربين .

وكيفما كانت حالهم من من أو فداء قد أوصى بهم خيراً ، وقد نزلوا عند الأنصار ، وكأنهم في ضيافة ، لا في أسر ، حتى ان الأنصاري كان يفضل الأسير في الطعام على أهله وعياله،وكان يرى الأسير ذلك ، فتعفف فيشدد عليه الأنصاري . فكانوا يؤثرون على أنفسهم . ولو كان بهم خصاصة .

مقتل عقبة بن أبي معيط والنضر بن الحارث :

٤٠٠ ـ لقد أمر رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم بقتل عقبة بن أبي معيط ، والنضر بن الحارث . لأنهما كانا قائدي الشرك في المعركة ، ولأن عقبة هو الذي كان يحرض على القتال بعد أن نجت العير ، وأراد بعض كبراء

---
(١) المائدة

قريش أن يكتفوا بذلك ، ولا يقاتلوا حفظاً للرحم ، كأمية بن خلف ، وعتبة ابن ربيعة .

وروى الشعبي أنه لما أمر النبي صلى الله تعالى عليه وسلم بقتل عقبة قال : أتقتلني يا محمد من بين قريش ،قال نعم ، ثم التفت النبي صلى الله تعالى عليه وسلم الى أصحابه، وقال: أتدرون ما فعل هذا بي !! جاء وأنا ساجد خلف المقام فوضع رجله على عنقي ، وغمزها فما دفعها حتى ظننت أن عيني تدوران، وجاء مرة أخرى بسلا شاة فألقاه على رأسي وأنا ساجد ، فجاءت فاطمة ، فنسلت عن رأسي .

وكان مثل ذلك النضر بن الحارث ،وكان حامل لواء المشركين ، فكان قتله لما قدم من أذى ، ولما فيه من اذلال الشرك وأهلة .

وقد أخذ رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم الفداء من ذوي الثراء من بني هاشم ، بل شدد في الأخذ منهم ولم يقبل منهم الا الفداء .

ولعل أدل شيء على شدته في أخذ الفداء من بني هاشم مجاوبته مع عمه العباس بن عبد المطلب الذي كان يحبه ،وكان يألم لأسره ، والشد عليه بالوثاق.

ادعى العباس أنه أسلم من قبل ، ومعنى ذلك أنه ليس عليه فداء ، لأنه جاء مكرها لا محاربا .

فقال له النبي صلى الله تعالى عليه وسلم : أما ظاهرك فكان علينا ، والله أعلم باسلامك ، وسيجزيك خيراً فادعى أنه لا مال عنده يفدي به نفسه ، ومن معه من بني هاشم عقيل ونوفل ولدى أخيه فقال له رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم : فأين المال الذي أودعت أنت وأم الفضل ، وقلت لو أصبت في سفري هذا فهذا لبني الفضل وعبد الله فقال العباس رضي الله عنه والله اني لأعلم أنك رسول الله : ان هذا شيء ما علمه الا أنا وأم الفضل .

وقد أخذ رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم مائة أوقية من ذهب فداء له ولابني أخيه عقيل ونوفل ، وعن حليف له هو عتبة بن عمرو أحد بني الحارث ابن فهر .

وهكذا أخذ رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم الفداء ، لايني عن ثري ، ولا يعفوا الا عمن يرجى منه خير للاسلام ، أو من يمن عليه في نظير أن يمن على

مسلم أخذوه عنوة من غير حرب ، كما فعل أبو سفيان في معتمر من أصحاب الرسول صلى الله تعالى عليه وسلم أخذه،حتى يفك اسار ابن له ،ففك النبي صلى الله تعالى عليه وسلم اساره لذلك ٠

وكان صلى الله تعالى عليه وسلم يقبل من الفداء نوعا معنوياً ، وهو تعليم الأميين من أصحاب رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، فاذا كان الأسير ليس له مال يفدي به نفسه ، ولكن له علم بالقراءة ، فانه يكون فداءه أن يعلم بعض الأميين من أصحاب رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم القراءة ٠

وقد من النبي صلى الله تعالى عليه وسلم على ناس من الأسرى ، منهم من كان يظن فيه الاسلام ، وقد شهد عبد الله بن مسعود لسهيل بن بيضاء بالاسلام فقد قال سمعته يذكر الاسلام٠

فقبل النبي صلى الله تعالى عليه وسلم شهادته ، ومن عليه ٠

وممن من عليه رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم أبو العاص بن الربيع الأموي زوج زينب بنت الرسول صلى الله تعالى عليه وسلم ، فكان زوجاً باراً مكرماً لزوجه غير مضار لها ٠ وقد أرادت قريش أن تحمله على طلاقها كما طلق ابن أبي لهب ابنة النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ٠ فتأبى عن ذلك ٠

ولقد كانت زينب رضي الله تعالى عنها بمكة فأرسلت فداء لزوجها البار الطيب ، وبعثت في ضمن الفداء قلادة لها ٠ كانت أم المؤمنين خديجة قد أدخلتها بها على أبي العاص حين بنى بها ، فلما رآها رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، أثارت ذكريات الزوج الرفيقة الشقيقة ، والرحم ، فرق لذلك رقة شديدة ٠

وكان للرسول الأمين أن يطلق سراحه ، كما أطلق سراح غيره من بني مخزوم وغيرهم ، ولكن لكيلا يكون في نفس أحد ضيق أو حديث نفس ، ولتطيب النفوس كلها جعل اطلاق سراحه للصحابة ، فقال : « ان رأيتم أن تطلقوا أسيرها ، وتردوا عليها الذي لها ، ففعلوا » ٠

ويجب أن ننبه هنا لأمرين :

أولهما — أن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم رأى ألا تبقى من بعد في مكة ، وألا تكون في فراش العاص من بعد ، فأخذ عليه عهداً أن يخلي سبيلها رضي الله عنها ، بأن تهاجر الى المدينة ،فوفى أبو العاص بذلك ٠

ثانيهما – أنه لم يكن قد نزل التفريق بين المسلم وغير المسلم ، لأنها لا تحل له ، اذ أن ذلك نزل عند الحديبية في سورة الممتحنة ، فقد قال تعالى :

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا جَآءَكُمُ ٱلْمُؤْمِنَـٰتُ مُهَـٰجِرَٰتٍ فَٱمْتَحِنُوهُنَّ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَـٰنِهِنَّ فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَـٰتٍ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى ٱلْكُفَّارِ لَا هُنَّ حِلٌّ لَّهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ وَءَاتُوهُم مَّآ أَنفَقُوا۟ وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ أَن تَنكِحُوهُنَّ إِذَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ وَلَا تُمْسِكُوا۟ بِعِصَمِ ٱلْكَوَافِرِ وَسْـَٔلُوا۟ مَآ أَنفَقْتُمْ وَلْيَسْـَٔلُوا۟ مَآ أَنفَقُوا۟ ذَٰلِكُمْ حُكْمُ ٱللَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٠﴾ ﴾ (١)

ويلاحظ هنا أن الله تعالى أشار الى سبب التحريم وهو الكفر ، اذ قال تعالى:

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا جَآءَكُمُ ٱلْمُؤْمِنَـٰتُ مُهَـٰجِرَٰتٍ فَٱمْتَحِنُوهُنَّ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَـٰنِهِنَّ فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَـٰتٍ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى ٱلْكُفَّارِ ﴾ (٢)

ولم يقل الى المشركين ، والكفر يشمل الشرك وما عليه النصارى واليهود الذين كفروا بمحمد ، وآمنوا بالتثليث ، وألوهية المسيح ، كما قال تعالى :

﴿ لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا إِنْ أَرَادَ أَن يُهْلِكَ ٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُۥ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ﴾ (٣)

وقال تعالى :

﴿ لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَـٰثَةٍ وَمَا مِنْ إِلَـٰهٍ إِلَّآ إِلَـٰهٌ وَٰحِدٌ ﴿٧٣﴾ ﴾ (٤)

---

(١) ، (٢) الممتحنة (٣) ، (٤) المائدة

وهكذا من رسول الله تعالى على أناس كان يرى خيراً في المن عليهم ، أو يرى فيهم عجزاً عن أن يقدموا فداء ٠

فمن على المطلب بن حنطب بن الحارث من بني مخزوم ، ومن على صيفي ابن رفاعه بن عائذ من بني مخــزوم وممن من عليه أبو عزة عمرو بن عبدالله ابن عثمان ، وكان محتاجاً ذا عيال فمن عليه رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم وأخذ عليه عهداً ألا يظاهر عليه أحداً، وكان شاعراً ، ولكنه نقض ما عاهد عليه الرسول صلى الله تعالى عليه وسلم ،ولعب المشركون بعقله ، فرجع اليهم بعد أن قرب من الاسلام أو دخل فيه ،فقد قال مادحاً النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، اذ من عليه من غــير فداء في قصيدة :

من مبلغ عني الرســول محمداً   فانــك حــق والمليك حميد

فلما كان يوم أحد أسر أيضاً ، فطلب أن يمن عليه النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، فقــال له النبي صــلى الله تعالى عليه وسلم :«لا أدعك تمسح عارضيك، وتقول خدعت محمداً مرتين ، ويرى أن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم قال فيه: لا يلدغ المؤمن من جحر مرتين » ٠

وهكذا فوض النبي صــلى الله تعالى عليه وسلم أن يتصرف في الأسرى بما يكون خيراً في ذاته وللمؤمنين ، فقتــل من قتل منهــم ، وفدى كثيرين ، ومن على بعضهم ٠

بيان الله تعالى لخطأ الأسر :

٤٠١ ــ نزل القرآن الكريم من بعد القيام بما اتجهت اليه الشورى بالنسبة للأسرى ــ ببيان الخطأ في أن المسلمــين أَسروا قبل أن يُثخنوا ، وهو ما كــان يميل اليه سعد بن معاذ الأنصاري رضي الله تبارك وتعالى عنه ، ولقد ذكر الخبر كما رواه ابن اسحاق أنه لما وضع القوم أيديهم يأسِرون رأى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم في وجه سعد بن معاذ ،فقال له كأني بك يا سعد تكره ما يصنع القوم ٠ قال أجل والله يا رســول الله كانت أول وقعة أوقعها الله تعالى بأهــل

الشرك ، فكان الأثخان في القتل أحب اليّ من استبقاء الرجال » ولقد قال الله تعالى بعد انهاء ما أشار اليه الشورى :

﴿ مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِي ٱلْأَرْضِ ۚ تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنْيَا وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلْـَٔاخِرَةَ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٦٧﴾ لَّوْلَا كِتَٰبٌ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَآ أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٦٨﴾ فَكُلُوا۟ مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَٰلًا طَيِّبًا ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٦٩﴾ ﴾ (١)

اذن كان الخطأ ، لا في أنهم فَدَوْهم، ولا في أنهم منوا عليهم ، ولكن في أنهم أخذوا الأسرى قبل الاثخان أي قبل أن يثقلوهم بالجراح ، حتى لا يستطيعوا أن يثيروا عليهم معركة أخرى، أو تكون صعبة عليهم لكثرة القتلى ، ومن بعد ذلك يكون الأسر ، ويكون المن أو الفداء كما قال تعالى :

﴿ فَإِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَضَرْبَ ٱلرِّقَابِ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَثْخَنتُمُوهُمْ فَشُدُّوا۟ ٱلْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنًّۢا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَآءً حَتَّىٰ تَضَعَ ٱلْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ﴾ (٢)

ويجب أن نذكر هنا ثلاثة أمور :

أولها ــ في معنى قوله تعالى :

﴿ لَّوْلَا كِتَٰبٌ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَآ أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٦٨﴾ ﴾ (٣)

فان الكتاب الذي قرره الله تعالى ،هو أنه لا عقوبة الا بنص على المنع ، ولم يكن ثمة نص على منع أخذ الأسر ،قبل الاثخان ، وان ما فعله النبي صلى الله تعالى عليه وسلم اجتهاد ، ولا عقوبة على الاجتهاد في الخطأ .

ثانياً ــ أن كثيرين ممن كتبوا في الماضي ، وتبعهم أهل الحاضر أن القرآن نزل موافقاً لرأي الامام الفاروق عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه ، في

---

(١) الأنفال (٢) محمد (٣) الانفال

الأسرى ، ونحن نرى أن ما جاء به القرآن لا يوافق رأي الفاروق ، لأن ما جاء به القرآن الكريم ، انما كان معارضة لأصل الأسر قبل الاثخان ، ولم يعترض الفاروق على الأسر قبل الاثخان ·

انما الذي كره الأسر قبل الاثخان في القتل سعد بن معاذ رضي الله تبارك وتعالى عنه ، فاذا كان ثمة فضل في نزول القرآن موافقاً لما كره سعد ، فله في هذا الفضل ، « يختص الله بفضله من يشاء » ·

ثالثاً ــ وهو الأمر الجدير بالاعتبار عند أهل الاعتبار ، وهو أن الله تعالى وحده يعلم الغيب ، ويعلم السر وأخفى وهو سبحانه وتعالى يعلم أن أخذ الأسرى قبل اثخان العدو ، خطأ ، فلماذا ترك النبيّ رسوله وحبيبه ، ومعه صحابته يخطئون ، وقد كان وحده هو الذي يعلم الصواب ·

والجواب عن ذلك أن هذا فيه عظة وعبرة ، ذلك أن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم الذي يوحى اليه ، والذي علّمه ربه ، وأدّبه فأحسن تأديبه اذا ترك يتصرف باجتهاده فقد يخطيء ،ولا ينزه عن الخطأ أحد ولو كان نبياً ، الا أن يعلمه الله تعالى · فهو وحده العليم الحكيم الذي يعلم المستقبل كالحاضر والماضي ، وفي ذلك توجيه للذين يستبدون ،وبيان أنهم يخطئون ، وليس لهم أن يدفعهم الغرور ،فيحسَبوا أن آراءهم منزهة عن الخطأ فيتردون بأممهم في أفسد النتائج ·

ان ترك محمد صلى الله تعالى عليه وسلم ، وهو الذي يوحى اليه ، ثم هو في ذاته أعقل الرجال ، اذ كانوا قبل البعثة يهتدون برأيه ــ يخطيء في رأيه ، ثم ينبه الى الصواب ، فيه عبرتان لأولي الأبصار ·

أولاهما ــ أنه لا يصح لأحد أن يغتر برأيه ، فيحسبه الصواب الذي لا يقبل الخطأ ، ويعتقد في نفسه العلم،وفي غيره الجهل ·

الثانية ــ أنه ليس لأحد أن يستبد في تفكيره الذي يعمل فيه للجماعة ، فلا يقول ما قاله فرعون « ما أريكم الا ما أرى ، وما أهديكم الا سبيل الرشاد » ·

فعلينا معشر المؤمنين أن نتأدب بأدب الله ، وهو ألا ندلي أنفسنا وجماعتنا بالغرور ، فتكون السوءى ، في حاضر الأمة ومستقبلها ، وعلينا أن يكون لنا

في رسول الله أسوة حسنة ، ولا يكون لنامن فرعون ، متبوع يتبع ، فالحق أحق أن يتبع .

ولقد رأينا في عصرنا اخوان فرعون يطلبون أن يتلى ما يكتب لهم كأنه تنزيل من التنزيل وقد بَوَّءُوا بهذا الغرور عنهم ، والخنوع من غيرهم أمتهم سوء الدار ، وبئس القرار ، ولا حول ولا قوة الا بالله ، ان في ذلك لذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع ،وهو شهيد .

الأنفال :

٤٠٢ ـ كان المشركون يحاربون في غير ديارهم وأرضهم ، وكان المؤمنون كذلك ، ولكن كانوا على مقربة من ديارهم ، وكانت الهزيمة قد نزلت بالمشركين ، فكانوا شبه فارين بعد المعركة لا يلوون على شيء الا ما يمكنهم من أن يعودوا الى ديارهم راضين بالإياب بعضهم سالمين .

فكان لابد أن يغنم المسلمون منهم غنائم ،وكانت هذه الغنائم أول ما غنمه المسلمون في الحروب ، لأنها كانت أول حرب كان الاتجاه فيها الى المنازلة ، وأخذ الغنم نتيجة لهذه المنازلة ، ولم تكن عيرا مصادرة بل كانت حرباً شعواء .

ولذلك اختلف المقاتلون في الأنفال، وهي الغنائم التي تكون قبل القسمة ، ولم يكونوا على علم بقسمتها، والمقسطون منهم سألوا عما يفعلون بشأنها ، وبعض القاسطين ظنوها لمن أخذها .

وذلك أن المجاهدين كانوا ثلاثة أقسام ، قسم واجه العدو كعلي وحمزة وغيرهم ، وقسم كان من ورائهم ، وأولئك جمعو الغنائم،وقسم حاط العريش الذي كان به الرسول صلى الله تعالى عليه وسلم .

ويقول في ذلك عبادة بن الصامت وهو من البدريين « خرجنا مع النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، فشهدت معه بدراً ، فالتقى الناس ، فهزم الله تعالى العدو ، فانطلقت طائفة وراءهم يهزمون ويقتلون ، وأكبت طائفة على المغنم يحوزونه ويجمعونه ، وأحدقت طائفة برسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم حتى لا يصيب أحد منه غرة ، حتى اذا كان الليل ، وفاء الناس بعضهم الى بعض ، قال الذين جمعوا الغنائم نحن حويناه وليس لأحد فيها نصيب .

وقال الذين خرجوا في طلب العدو لستم بأحق بها منا ، فنحن نفينا منها العدو ، وهزمناهم .

وقال الذين أحدقوا برسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم خفنا أن يصيب العدو منه غرة ، فاشتغلنا به ، كان هذا الخلاف ، وكان معه تساؤل لمن تكون الغنائم ، فنزل قوله تعالى :

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَنفَالِ ۖ قُلِ ٱلْأَنفَالُ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَصْلِحُوا۟ ذَاتَ بَيْنِكُمْ ۖ وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١﴾ ﴾ (١)

كانت هذه المناقشة في الغنائم قبل أن ترفع الى النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، فذكر الله سبحانه وتعالى . مايحسم الخلاف ، ويقطع مادة النزاع ، وهو أن يكون أمرها الى الله تعالى ، ومايحكم به سبحانه وتعالى والى الرسول الذي ينفذ حكم الله تعالى ، فليس لهم أن يقتسموا بأنفسهم ، بل الأمر لغيرهم فليصلحوا ذات بينهم ، ولا يصح أن تكون المادة مفرقة بينهم ، وقد جمعهم الحق وجمعهم الجهاد في سبيله .

وما الذي اتبعه النبي صلى الله تعالى عليه وسلم في قسمة الأنفال ، فقال بعض الرواة ، انه قسمها بين المجاهدين بالسوية ، اذ لم يكن حكم تخميس الغنائم قد نزل في قوله تعالى :

﴿ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَىْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَـٰمَىٰ وَٱلْمَسَـٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ ٱلْفُرْقَانِ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤١﴾ ﴾ (٢)

---

(١) الأنفال (٢) الأنفال

فالنبي على رواية هؤلاء وزع بالسوية بين كل المجاهدين ، لأنه لم يكن ما يوجب التفاوت ، ولا دليل يرجح طائفة على أخرى ·

ويرى ابن كثير أن التوزيع كان حسب التخميس الذي نص عليه قوله تعالى : « واعلموا أنما غنمتم » الآية لأنها متصلة الواقعة، فالأمر في التوزيع كان الى الله والى رسوله على حسب هذا الحكم الذي شرعه الله تعالى، فآية الغنائم متصلة بأول السورة التي أشارت الى التوزيع ، وفوق ذلك فان الآية تشير الى أن ذلك ما أنزله تعالى يوم التقى الجمعان يوم الفرقان ·

ولقد روى أن علياً ذكر أن الناقتين اللتين نحرهما عمه حمزة ، وهو شارب كانتا من خمسه في الغنائم ، ونحن نميل الى ما اختاره الحافظ ابن كثير ·

آثار معركة بدر في المدينة وغيرها :

٤٠٣ ـ كان أثر المعركة في العرب عامة بعيد المدى ، فقد سارت الركبان في الصحراء العربية بهزيمة قريش على يد طريدها الذي أخرجته وأصحابه من ديارهم وأموالهم ، لأنه ينكر الوثنية ، ويدعو الى الوحدانية ويقول انه يوحى اليه من عند الله تعالى ، فكان ذلك النصر منبهاً للعرب بحقيقة الدعوة المحمدية وسلامتها وقوتها ، فوهنت العقيدة الوثنية بين العرب ، وأخذت عقول تدرك الحقائق وتطرح الأوهام التي نسجها الخيال الضال حول الأحجار ، وبذلك صارت كلمة الله تعالى هي العليا، وكلمة الشرك هي السفلى ، وكان يوم الغزوة بحق يوم الفرقان ، اذ فرق فيه الناس وانتقل المسلمون من مستضعفين في الأرض الى أقوياء يكاثرون الناس بقوتهم، كما قال تعالى:

﴿ وَاذْكُرُوا إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ مُّسْتَضْعَفُونَ فِي الْأَرْضِ تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ النَّاسُ فَآوَاكُمْ وَأَيَّدَكُم بِنَصْرِهِ وَرَزَقَكُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٢٦﴾ ﴾ (١)

---

(١) الأنفال

هذه اشارة الى أثر ذلك النصر المبين في البلاد العربية ، لقد نظر اليه العرب على أن الاسلام هو القوة الحقيقية في البلاد العربية ، وكان من ذلك أن أخذ الناس يفكرون .

هذا أثره بشكل عام في الجزيرة العربية ، أما أثره في المدينة وما حولها، فقد صار القوة المرهوبة فيها ، وكان فيها اخلاط من الوثنيين الذين بقوا على وثنيتهم من الأوس والخزرج ، وكانوا يظهرون عقائدهم ولا يخفونها ، وكان فيهم يهود ، قد أكل الحقد قلوبهم، وان أخفوه ، وان كانوا يعرفون في لحن القول وفي استهزائهم بالمؤمنين أحيانا .

فلما ظهرت قوة المسلمين في بدر ،وجد في الفريقين منافقون يظهرون الاسلام بألسنتهم ، ويخفون الكفر ، ويقولون مالا يفعلون ، وينطقون بما لا يعتقدون ، ولقد نزل فيهم سورة كاملة ، وأولها قوله تعالى :

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ (١) اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ ۚ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٢) ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا فَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ (٣) ﴾ (١)

فالقوة الاسلامية التي ظهرت في بدر ، هي التي جعلت هؤلاء من المشركين واليهود ، يتخذون مظهرهم الاسلامي جنة يتقون بها قوة أهل الاسلام ، ويشيعون الخبال في صفوف المسلمين ،ويخدعون الذين في قلوبهم ضعف .

ان قوة المسلمين جعلت من لا يؤمن بالله ورسوله يخضع ببدنه ، ولا يؤمن بقلبه .

كان ذلك في السنة الثانية التي كانت فيها غزوة بدر قال ابن كثير «وفيها خضع المشركون من أهل المدينة واليهود الذين هم بها من بني قينقاع ، وبني النضير ، وبني قريظة ، ويهود بني حارثة ، وصانعوا المسلمين ، وأظهر الاسلام طائفة كثيرة من المشركين واليهود ،وهم في الباطن منافقون ، منهم من هو على

(١) المنافقون

ما كان عليه ، ومنهم من انحل بالكليةفبقي مذبذبا ، لا الى هـؤلاء ولا الى هؤلاء كما وصفهم الله تعالى في كتابه •

وهو بهذا يشير الى قوله تعالى :

﴿ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوٓاْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُواْ كُسَالَىٰ يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٤٢﴾ مُّذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَٰلِكَ لَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ وَلَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ سَبِيلًا ﴿١٤٣﴾ ﴾ (١)

وانه يتبين من هذا الكلام أنه بعدأن أظهر الله تعالى قوة المسلمين وأعلى كلمة الدين ، صار الذين يخالفونه ، ويعاشرون المؤمنين بالجوار على ثلاثة أقسام :

أولهم الذين نطقوا بكلمة الاسلاموالكفر يسكن قلوبهم، ويستولي عليها، وهؤلاء هم الذين قال تعالى فيهم :

﴿ وَإِذَا لَقُواْ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْاْ إِلَىٰ شَيَٰطِينِهِمْ قَالُوٓاْ إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ ﴿١٤﴾ ٱللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١٥﴾ ﴾ (٢)

فهؤلاء بقوا على كفرهم ، وأمد اللهفي طغيانهم ، لأن مظهرهم كان غير مخبرهم ، وقد استمرؤوا ذلك حتىزادوا عتواً وفساداً •

والقسم الثاني قوم ضعفت نفوسهم، وانحل تفكيرهم ، فهم منافقون ، في اظهارهم الاسلام ، ولا عقيدة لهم يؤمنون بها ، وان كانوا الى عقيدتهم الأولى أميل ، ولكن قد انحلت بالتعارض ، بين ما يظهرون وما يبطنون ، فقد خدعوا المؤمنين وأوغلوا في الخديعة ،حتى خدعوا أنفسهم ، وهم الذين قال فيهم النبي صلى الله تعالى عليه وسلم :« مذبذبين بين ذلك ، لا الى هؤلاء ولا الى

---

(١) النساء (٢) البقرة

هؤلاء » ، وقد وصف النبي صلى الله تعالى عليه وسلم هذا النوع من المنافقين بقوله عليه الصلاة والسلام : « مثل المنافق كمثل الشاة العائرة بين غنمين لا تدري الى أيهما تذهب » ٠

والقسم الثالث وهم أكثر اليهود الذين ثبتوا على دينهم من بني قينقاع ، وبني النضير ، وبني قريظة وبني الحارث، وأولئك ثبت أكثرهم على اعتقادهم وجاهدوا بالبقاء عليه ، والاعتراض الديني على النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، ولكنهم نافقوا في أنهم لم يخلصوا في العهد الذين عاهدهم عليه النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، بل يخفون الخيانة ، ويتربصون بالمسلمين الدوائر ، ويكاتبون أعداء النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، ويحرضونهم عليه ، ويسرفون على أنفسهم ، فينافقون المشركين ، ويقولون ان ماهم عليه من شرك خير مما يدعو اليه النبي صلى الله تعالى عليه وسلم من توحيد ٠

وفي الجملة ظهر النفاق بعد النصر المحمدي من أعداء هذا الدين ٠

ولنخص اليهود ، ومن والاهم بكلمة موجزة موضحة :

النبيّ صَلىٰ الله عليه وسَلم وحِلف اليهود :

٤٠٤ ــ عقد النبي صلى الله تعالى عليه وسلم حلفاً مع اليهود ، جعل فيه له ما لهم ، وعليه ما عليهم ، وتعاهد معهم على البر والتقوى ، لا على التعاون على الاثم ، وأنهم في أحيائهم متعاونون على دفع الاثم وعقل الجاني الذي يجب عليه الدية ، وفي الجملة أعطاهم الحرية والحماية ، وعقد معهم جماعة ، وأحياء متفرقة عقدا ملزما ، ولكن الحسد كان يسكن قلوبهم من أن الرسول الذي بعث كانوا يتمنون أن يكون من ولد اسحق لا من ولد اسماعيل، وقد كانوا يعرفون أن نبياً سيبعث ، فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به حسداً من عند أنفسهم ، وكلما استيقنوا أنه النبي المبشر به في التوراة ازدادوا ضيقا وغضبا وكفرا ، وكلما وجدوا آيات النبوة زادتهم طغيانا وضلالا ، وعتوا وفسادا في الأرض ، وكأنهم وحدهم سلالة قابيل الذي قتل أخاه ، لأنهما قربا قربانا فتقبل من أحدهما ، ولم يتقبل من الآخر (قابيل) ٠

ولننقل شهادة أم المؤمنين صفية بنت حيي بن أخطب ، قالت رضي الله تبارك وتعالى عنها •

عندما قدم رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم المدينة ، ونزل قباء في بني عمرو بن عوف ، غدا عليه أبي حيي بن أخطب ، وعمي أبو ياسر بن أخطب مغلسين (أي في غلس) قالت فلم يرجعا حتى كانا مع غروب الشمس ، فأتيا ساقطين يمشيان الهوينى ، قالت فهششت اليهما كما كنت أصنع ، فوالله ما التفت الي واحد منهما ، مع ما بهما من الغم ، وسمعت عمي أبا ياسر ، وهو يقول لأبي حيي بن أخطب أهو هو •• ؟ قال نعم والله أتعرفه وتثبته ؟ قال نعم ، قال ما في نفسك منه ؟ قال : عداوته والله ما بقيت ؟

تلك شهادة صادقة من سيدة برة على أبيها ، فما جعلته الآية المثبتة لرسالة محمد صلى الله تعالى عليه وسلم مؤمنا مصدقا بل جعلته عدوا لجوجا في عداوته ، وذلك فعل الحسد الذي كان من قابيل على أخيه هابيل اذ تقبل منه الايمان وحده ، والله يختص برحمته من يشاء •

وحيي بن أخطب وأخوه صورة نفسية لكل يهودي ممن كان بجوار المسلمين بالمدينة ، وبهذه العداوة كانوا يتحركون ، وطويت قلوبهم على الضغينة المستكنة •

فلما انتصر النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ازدادوا ضيقا ، وظنوا أن الدائرة من بعد ستدور عليهم ، فأرادوا بغريزة حب البقاء أن يعملوا عملا يظنون فيه بقاءهم ، لكيلا يجد المسلمون السبيل لاخراجهم ، واتحدوا مع المشركين ممن بقوا في المدينة ، وحملوا أولئك على أن يظهروا الايمان ، ويخفوا الكفران اذ أوعزوا اليهم بخلقهم ، الذي اشتهروا به في ماضي أمرهم ونفذوه في حاضرهم •

ولقد انضاف بذلك الى اليهود باغرائهم من كانوا قد بقوا على الوثنية من الأوس والخزرج ، وان لم يكونوا الكثرة ، ولكنهم كانوا بما أظهروا من ايمان يبثون الوهن في قلوب المؤمنين ، ويلقون بأسباب الفشل ، وقد ظهرت رؤوسهم فيما ظهر بعد بدر من الغزوات •

وقد ذكر ابن اسحاق كثيرين ممن نافقوا من اليهود الذين أظهروا الاسلام ، وأخفوا عقيدتهم ، وأكنوا الأذى للمسلمين . والكيد للنبي صلى الله تعالى عليه وسلم .

كما ذكر من الأوس والخزرج من لف لف اليهود ، وأظهر الاسلام ، وكان كثيرون منهم من الخزرج ، وعلى رأسهم عبد الله بن أبي بن سلول ، واليه كانوا يجتمعون ، وهو الذي قال : « لئن رجعنا الى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل » في غزوة بني المصطلق .

والنفر من منافقي الخزرج ، وعلى رأسهم عبد الله بن أبي بن سلول هم يمالئون بني النضير ويدسون اليهم أنهم معهم عندما خافوا النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، فنكثوا في أيمانهم وعهدهم الذي عاهدوه، وأرادوا معاونة المشركين فقد أرسل اليهم ابن سلول وشيعته أنهم ان خرجوا يخرجون معهم ، عندما حاصرهم النبي صلى الله تعالى عليه وسلم في حصونهم ، وأخذوا يخربون بيوتهم بأيديهم وأيدي المؤمنين، لقد قال ابن أبي والنفر معه ، « اثبتوا لئن أخرجتم لنخرجن معكم ،ولا نطيع فيكم أحدا أبدا ، وان قوتلتم لننصرنكم » وقد أنزل الله تعالى فيهم :

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا يَقُولُونَ لِإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِنْ قُوتِلْتُمْ لَنَنْصُرَنَّكُمْ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿١١﴾ لَئِنْ أُخْرِجُوا لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَئِنْ قُوتِلُوا لَا يَنْصُرُونَهُمْ وَلَئِنْ نَصَرُوهُمْ لَيُوَلُّنَّ الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يُنْصَرُونَ ﴿١٢﴾ لَأَنْتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِي صُدُورِهِمْ مِنَ اللَّهِ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ ﴿١٣﴾ لَا يُقَاتِلُونَكُمْ جَمِيعًا إِلَّا فِي قُرًى مُحَصَّنَةٍ أَوْ مِنْ وَرَاءِ جُدُرٍ بَأْسُهُمْ بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٤﴾ كَمَثَلِ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ قَرِيبًا ذَاقُوا وَبَالَ أَمْرِهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٥﴾ كَمَثَلِ الشَّيْطَانِ إِذْ قَالَ لِلْإِنْسَانِ اكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦﴾ ﴾ (١)

(١) الحشر

وكان المنافقون من بقية الأوس والخزرج واليهود يحضرون مسجد رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم فيستمعون أحاديث المسلمين ويسخرون ويستهزئون ، ويبثون الشك في قلوب المؤمنين بأوهام يذكرونها ، وبأسئلة مشككة يستجوبون بها .

إخراج المنافقين من مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم :

٤٠٥ ـ يقول ابن اسحاق اجتمع يوماً بالمسجد من المنافقين أناس ، فرآهم رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم يتحدثون بينهم خافضي صوتهم ، قد لصق بعضهم ببعض ، فأمر بهم رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، فأخرجوا من المسجد اخراجا عنيفا .

فكان المؤمن يأخذ برجل المنافق ،فيسحبه سحباً ، وأحيانا يجذب المؤمن المنافق ، وينتره نتراً شديداً ويلطم وجهه وهو يشيعه باللعنات قائلا له : « أف لك منافقاً خبيثاً ، أدراجك يا منافق من مسجد رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم » .

وأحيانا يجيء المؤمن الى ذي اللحية الطويلة منهم ، فيأخذ بلحيته ، ويقوده منها قوداً ، حتى يخرجه من المسجد ،وأحيانا يأخذ المؤمن المنافق ويأخذ بجمة المنافق ذي الجمة « فيسحبه منها سحبا عنيفاً » .

وذلك العنف في الفعل يصحبه عنف في القول ، من مثل « لا تقربن مسجد رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ،فانك نجس ، وقول بعضهم ، غلب عليك الشيطان وأمره » .

وذلك غير الذين كانوا يدفعون من أقفيتهم .

وكانوا هم والذين بقوا على يهوديتهم من يهود أشد الناس أذى للنبي وأصحابه ، فالمنافقون كانوا يبثون في المسلمين روح التردد والهزيمة وفي المسلمين سماعون لهم ، كما قال تعالى :

﴿ وَلَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا لَهُ عُدَّةً وَلَٰكِن كَرِهَ اللَّهُ انبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ اقْعُدُوا مَعَ الْقَاعِدِينَ ﴿٤٦﴾ لَوْ خَرَجُوا فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَأَوْضَعُوا خِلَالَكُمْ يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّاعُونَ لَهُمْ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ﴿٤٧﴾ لَقَدِ ابْتَغَوُا الْفِتْنَةَ مِن قَبْلُ وَقَلَّبُوا لَكَ الْأُمُورَ حَتَّىٰ جَاءَ الْحَقُّ وَظَهَرَ أَمْرُ اللَّهِ وَهُمْ كَارِهُونَ ﴿٤٨﴾ ﴾ (١)

واليهود من وراء المنافقين يتعاونون معهم ، ويكيدون معهم ، ويمكرون ، ويمكر الله تعالى بافساد تدبيرهم ، وكاد اليهود ليلقوا الشك في قلوب المؤمنين يظهرون الايمان ، ثم يعلنون الردة ليشجعوا المسلمين على الردة وليكونوا لهم مثلا لمن يخرج من الاسلام بعد الدخول فيه ، وهؤلاء الذين قال الله تعالى فيهم :

﴿ وَقَالَت طَّائِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ آمِنُوا بِالَّذِي أُنزِلَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَجْهَ النَّهَارِ وَاكْفُرُوا آخِرَهُ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٧٢﴾ وَلَا تُؤْمِنُوا إِلَّا لِمَن تَبِعَ دِينَكُمْ قُلْ إِنَّ الْهُدَىٰ هُدَى اللَّهِ أَن يُؤْتَىٰ أَحَدٌ مِّثْلَ مَا أُوتِيتُمْ أَوْ يُحَاجُّوكُمْ عِندَ رَبِّكُمْ ۗ قُلْ إِنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ ۗ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٧٣﴾ ﴾ (٢)

وهكذا كان الافساد اليهودي ، ينافقون ، ويدعون الوثنيين الى النفاق ، ويبثون بنفاقهم روح الفرقة بين المسلمين ، ويستهزئون ويسخرون من أهل الايمان ، ويجعلون من أنفسهم مثلا لمن يخرج عن الاسلام ، فيظهرون الاسلام ثم يخرجون ليكونوا مثلا سيئاً للمسلمين لعلهم يرجعون ، كما عبر القرآن الكريم عنهم .

---

(١) التوبة (٢) آل عمران

إفساد اليهود بين المسلمين :

٤٠٦ ـ كانت الحرب بين الأوس والخزرج قائمة بين الفريقين ، حتى جمع الله تعالى بينهما بالاسلام ، وألف بين قلوبهم ، فكانت القوة ، ولكن اليهود كانوا يعلمون بأنباء العداوة السابقة ،فكانوا يبثون فيهم ما يحيي نار العداوة بعد موتها ، ويثيرون نارها بعد اطفائها ، وفي كل فريق من يسمع لضعف في ايمانه ، أو لبقايا العصبية ،أو لتراث بقيت بعد الحرب ٠

لقد كان رجل من شيوخ اليهود ، وذوي الضغن والحسد اسمه شماس بن قيس ، قد هاله أمر محمد صلى الله تعالى عليه وسلم ، وما أكرمه الله تعالى به من نصر في بدر ، وهاله أن الأوس والخزرج اجتمعوا وقد يعيشون على الفرقة بينهم ، فيوالون فريقاً على فريق ، ويتخذون ممن يوالونهم قوة يثبتون بها أقدامهم ، فلما رأوا اجتماعهم بالاسلام ، فقال شماس هكذا اجتمع بنو قيلة بهذه البلاد والله ما لنامعهم اذا اجتمع ملؤهم من قرار ٠

قدر ذلك الشيخ الخبيث ودبر ، فوجد أن يثير الخلاف القديم جذعا ، فأثار ما كان يوم بعاث ، وهو الذي كان بين الأوس والخزرج ، وانتصر فيه الأوس ، وكانت عقبه البيعة الأولى ،ثم الثانية ٠

أثار الأمر في هذا اليوم بين الأنصار رضي الله تبارك وتعالى عنهم ، وفيهم ضعاف العقول يستطارون فتكلم هؤلاء وتنازعوا ، وتفاخروا ، واشتدت المجاوبة فتواثب رجلان من الحيين ،واحد من الأوس والآخر من الخزرج ، وقال أحدهما لصاحبه ، ان شئتم رددناها الآن جذعة ، فغضب الحاضرون من الفريقين ، واتفقوا على مكان يكون فيه اللقاء ، وقالوا موعدكم الظاهرة ٠

بلغ ذلك رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، فعلم أنها فتنة يهودية ، وخرج اليهم فيمن معه من أصحابه المهاجرين حتى جاءهم ، فقال :

« يا معشر المسلمين ، الله ، الله ، أبدعوى الجاهلية ، وأنا بين أظهركم ، بعد أن هداكم الله تعالى للاسلام ، وأكرمكم به ، وقطع عنكم به أمر الجاهلية ، واستنقذكم به من الكفر ، وألف بين قلوبكم » ٠

أدرك أنصار الله ورسوله أنها نزعة من الشيطان ، وكيد من عدوهم ، فبكوا ، وعانق بعضهم بعضا ـ ثم انصرفوا مع رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم سامعين مطيعين موفورين .

ورد الله تعالى كيد الكافرين من اليهود في نحورهم .

وأنزل الله تعالى في اليهود قوله تعالى :

﴿ قُلْ يَـٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَـٰبِ لِمَ تَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ تَبْغُونَهَا عِوَجًا وَأَنتُمْ شُهَدَآءُ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَـٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٩٩﴾ ﴾ (١)

وأنزل الله تعالى في المسلمين الذين انساقوا وراء شر اليهود :

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن تُطِيعُوا۟ فَرِيقًا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَـٰنِكُمْ كَـٰفِرِينَ ﴿١٠٠﴾ وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنتُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ءَايَـٰتُ ٱللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُۥ ۗ وَمَن يَعْتَصِم بِٱللَّهِ فَقَدْ هُدِىَ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٠١﴾ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٠٢﴾ وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا۟ ۚ وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَـٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٠٣﴾ وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۚ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٤﴾ وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُوا۟ وَٱخْتَلَفُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَـٰتُ ۚ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠٥﴾ ﴾ (٢)

ففي هذا النص الكريم تحذير للمؤمنين من اليهود الذين يفرقون جمعهم ، وتذكير بما كانت عليه حالهم من قبل ، وبيان الطريق لأن يمنعوا الأشرار من الدخول بينهم ، وذلك بالتواصي بالخير بينهم ، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر « فمن يقع في الغواية منهم يرشده ذو العقل والحكمة فيهم وان التفرق بعد البينات اثم كبير ، وله عذاب عظيم » .

---

(١) آل عمران (٢) آل عمران

لـيسوا سـواء :

٤٠٧ ـ اذا كان ما ذكرناه صادقا على اليهود الذين كانوا بالمدينة عندما هاجر النبي صلى الله تعالى عليه وسلم اليها،فالحكم فيه بني على الغالب الكثير، لا على الجميع ، فمنهم ناس اختاروا الاسلام دينأ ، وآمنوا بالله تعالى ورسوله حق الايمان ، كما قال الله تعالى :

﴿ لَيْسُواْ سَوَآءً مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ أُمَّةٌ قَآئِمَةٌ يَتْلُونَ ءَايَـٰتِ ٱللَّهِ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ ﴿١١٣﴾ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُسَـٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ مِنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ ﴿١١٤﴾ وَمَا يَفْعَلُواْ مِنْ خَيْرٍ فَلَن يُكْفَرُوهُ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلْمُتَّقِينَ ﴿١١٥﴾ ﴾ (١)

فهؤلاء من أهل الكتاب ، وأهل الايمان بمحمد صلى الله تعالى عليه وسلم وسيجزون أجرهم مرتين ٠

ونذكر من هؤلاء اثنين كان كلاهما من أحبار اليهود :

وهما عبد الله بن سلام ، ومخيرق ٠

وجاء من أخبار السيرة في اسلام عبد الله أنه قال :

لما سمعت برسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم عرفت صفته واسمه وزمانه الذي كنا نتوكف له أي نترقبه فكنت أسر ذلك صامتاً له ، حتى قدم رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم المدينة ٠

فهو قد عرف النبي صلى الله تعالى عليه وسلم قبل قدومه المدينة ،وتعرف صفات النبوة فيه التي بشر فيها في التوراة ، وخاطب بذلك بعض أهل بيته ، اذ كان فرحا بقدومه ، ولم يوافقه ابتداء من عرف من أهل بيته ، حتى قالت له عمته في فرحته : « والله لو كنت سمعت بموسى بن عمران قادماً مازدت ، فقال لها المؤمن المخلص الذي لم يشب اخلاصه تعصب لنحلة سابقة : « أي عمة هو والله أخو موسى بن عمران،وعلى دينه بعث ولم تلبث أن وافقته »٠

(١) آل عمران

واذا كان عبد الله بن سلام الحبر اليهودي المخلص قد عرف الحق وأدرك فقد عرف قومه من اليهود وأدرك انحرافهم ، وأنهم أتخذوا آلهتهم هواهم ، وهواهم هو شهوة التحيز ، حتى جعلواالدين عنصراً ، وليس اعتقاداً خالصاً ، فأراد أن يكشف حالهم ٠

ذهب الى رسول الله صلى الله تعالىعليه وسلم بعد اذ آمن ، ولم يعلن ايمانه ، فقال له :

يا رسول الله ان يهود قوم بهت (أي يبهتون ويكذبون بالباطل) ، واني أحب أن تدخلني في بعض بيوتك ، وتغيبني عنهم ، ثم تسألهم عني ، حتى يخبروك كيف أنا فيهم قبل أن يعلمواباسلامي فانهم ان علموا بهتوني ، وعابوني ٠

وأدخلني الرسول صلى الله تعالىعليه وسلم في بعض بيوته ، فدخلوا عليه وكلموه ، وسألوه ثم سألهم أينالحصين (١) بن سلام ، فقالوا سيدنا وابن سيدنا ، وخيرنا وعالمنا ٠

فلما فرغوا من قولهم خرج عليهم ،فقال لهم : « يا معشر يهود ، اتقوا الله ، واقبلوا ما جاءكم به ، والله ، انكم لتعلمون أنه لرسول الله تجدونه مكتوباً عندكم في التوراة باسمه وصفته فاني أشهد أنه رسول الله ، وأومن به وأصدقه ، وأعرفه ، فقالوا كذبت » ٠

فقلت لرسول الله صلى الله تعالىعليه وسلم : ألم أخبرك أنهم قوم بهت، أهل غدر وكذب ، وفجور ، فأظهرت اسلامي واسلام أهل بيتي جميعاً ٠

ولقد كانوا يكثرون من الطعن فيه، ويقولون انه من الأشرار عندنا ، وهو الذي ذكروا أنه من خيرهم وأعلمهم وأعدلهم ، ولكنهم يكفرون بما يعلمون ، ويكتمون ما عندهم ٠

وأما الثاني وهو مخيرق ، فقد كانعلماً من أعلامهم ، وحبراً من أحبارهم٠

وكان رجلا ذا مال أعطاه الله بسطةمن العلم والمال ، وكان يعرف رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم بصفتهفي التوراة ٠

---

(١) وكان اسمه هذا قبل الاسلام

ولم يكن ممن يجعلون الاعتقـادعنصرية ، بل كان ممن يؤمنون بالحق، ويعلمون أن الحق أحق أن يتبع ، ويقول ابن اسحاق « غلب عليه الف دينه ، حتى اذا كان يوم أحد ، قال : يا معشريهود ، والله انكم لتعلمـون أن نصر محمد عليكم لحق » ·

ثم أخذ سلاحه ، فخرج حتى أتى رسول الله صـلى الله تعالى عليـه وسلم بأحد ، ودخل في جنده وعهد الى من وراءه من أهله ، فقال ان قتلت هـذا اليوم ، فأموالي لمحمد صلى الله تعـالى عليه وسلم يصنع فيها ما أراه الله تعالى·

فقاتل حتى قتل ، فكان رسول الله صـلى الله تعالى عليه وسلم يقـول : مخيرق خير يهود ·

وقد أسلم في ساعته الشديدة ، يوم جاءت قريش تريد أن تغزو المـدينة ثأراً وانتقاماً ، فأبى الا أن يكون مـع المؤمنين ، فاستشهد في سبيل الله ،فكان خيراً في ذاته ، وكان خير من في اليهود ·

إثارة الغيرة :

٤٠٨ ـ صدق الله تعالى اذ يقـول في شأن أهل الكتاب عامة ، واليهـود خاصـة ، منهم أمة مقتصدة ، وكثيرمنهم ساء ما يعلمون ، ولـكن الكثرة هي التي كان لها لجب وصخب ، وهي التي ظهـرت بلجاجتها ، وعنفها في الكراهية وحسد الناس ، وهؤلاء هم الذين ظهروا ، وهم الذين ظهر زبدهم، واستمر ظاهراً ، فهم يكرهون الناس ،أينما كانوا ، وحينما ثقفوا ·
وقد ذكرنا حالهم بعد غزوة بدر ، وأعمالهم التي كانت أثراً لانتصار أهـل الايمان ، فان الخير يجيء الى المحسود ،فيزيد الحاسد بغضاً وضراوة ·

لقد سكتوا في السـنة الأولى عن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم على أثر المعاهدة ، التي عقدها ، والموالاة التي أولاهم بها ، ليكون منهم جماعة مندمجة معه ، وهي على دينها ، ولسان حاله ،يقول لهم « لكم دينكم ولي دين » وليس بيننا وبينكـم من بعـد الا التواد ،والتعاون على البر والتقوى ، والتناصر على أعداء المدينة التي يهاجمونها ·

كان ذلك ، والحسد للنبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، وللذين آمنوا يملأ قلوبهم ، والضغن يأكل صدورهم فاذاكان المؤمنون قد أخلصوا في ولائهم ، فأولئك قد أضمروا البغض ·

ولما كان الانتصار ، كان أول ثمرات الانتصار في قلوبهم المدنفة بالحسد، أن تحركوا لافساد أهل الايمان وتعاونوا في ذلك مع المشركين ·

اجتذبوهم الى النفاق ، فانجذبوا اليه ، وكان منهم منافقون ، والنفاق يسكن القلوب الحاقدة الحاسدة الضعيفة المستكينة ، فكان أول أثر مرير من آثار تلك الغزوة المباركة أن ظهر النفاق ناتئاً برأسه ، ويفت في جماعات المسلمين ، ويعملون على تفريق صفوفهم ويشتد أثر النفاق في مدة الحروب ، حيث تشتجر السيوف ،وتلتحم الأجسام ·

ففي غزوة أحد التي كانت في السنة الثالثة ، كانوا يبثون في جيش المسلمين روح التمرد والهزيمة ، ويأخذون قلوب الضعفاء من المؤمنين يبثون فيها الذعر ، والخوف ، حتى همت طائفتان من جيش الاسلام أن تفشلا ، كما قال تعالى :

﴿ وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ مَقَاعِدَ لِلْقِتَالِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٢١﴾ إِذْ هَمَّت طَّائِفَتَانِ مِنكُمْ أَن تَفْشَلَا وَاللَّهُ وَلِيُّهُمَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١٢٢﴾ وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢٣﴾ ﴾ (١)

وهاتان الطائفتان كانتا من المنافقين، وضعاف الايمان ، فاذا كان المؤمنون في غزوة بدر قد دخلوا وقلوبهم مستبشرة ، فقد دخلوا في غزوة أحد، والمنافقون يبثون فيهم روح التردد والعجز ، ولكن الله سبحانه وتعالى عليه ناصر المؤمنون ان لم يأخذوا في أسباب الهزيمة ، وان استقاموا على الطريقة، ولم يخالفوا ، وأنه اذا كان النبي صلى الله تعالى عليه وسلم يعيش في المدينة والمؤمنون من أصحابه يحيط بهم أولئك المنافقون والمفتونون والحاسدون ،فانه

---

(١) آل عمران

يجب عليه الحذر منهم ، وقد نفذ النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ذلك بأمر ربه ، ولذلك قال تعالى :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُّواْ مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ ٱلْبَغْضَآءُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ وَمَا تُخْفِى صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ ۚ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١١٨﴾ هَٰٓأَنتُمْ أُوْلَآءِ تُحِبُّونَهُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ وَتُؤْمِنُونَ بِٱلْكِتَٰبِ كُلِّهِۦ وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْاْ عَضُّواْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَنَامِلَ مِنَ ٱلْغَيْظِ ۚ قُلْ مُوتُواْ بِغَيْظِكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿١١٩﴾ إِن تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُواْ بِهَا ۖ وَإِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْـًٔا ۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿١٢٠﴾ ﴾ (١)

وهكذا نجد حقد اليهود وصدهم قد أفسد النفوس ، وفرق ما بينهم وبين أهل الايمان .

ولم يقفوا عند حد العمل على افساد العلاقات الاجتماعية بين الناس ، ومحاولة اضعاف الايمان ، واغراء غير المؤمنين بالنفاق ، حتى شاركوهم بل كانوا يحاولون التشكيك في قلوب المؤمنين ، لأنهم يودون أن يكفروا حسداً من عند أنفسهم .

وكانوا في سبيل ذلك يسألون النبي صلى الله تعالى عليه وسلم أسئلة معنتة لا لتتبين نبوته صلى الله تعالى عليه وسلم ، بل يرجون من توجيه هذه الأسئلة ألا يجيب النبي صلى الله تعالى عليه وسلم عن بعضها ، فيتخذوا ذلك ذريعة للتشكيك ، والقاء الريب في قلوب المؤمنين ، ولنذكر شيئا من هذه المحاولة :

---

(١) آل عمران

وَلَا تُجَادِلُوٓا أَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ :

٤٠٩ ـ جادلهم النبي صلى الله تعالى عليه وسلم بالتي هي أحسن ، وهو يعلم أنهم يريدون الكيد بالمسلمين والقاء الريب في قلوبهم ، رجاء أن يجدوا ثغرة في الرسالة يطيرون بها فرحاً ، ولكن الله تعالى أمر النبي صلى الله تعالى عليه وسلم بأن يجادلهم ، فقال تعالى :

﴿ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ ۖ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴿١٢٥﴾ ﴾ (١)

لأن ذلك سبيل من سبل الدعوة الى سبيل الله بالحكمة والموعظة الحسنة ٠

كانوا يسألون ، والنبي صلى الله تعالى عليه وسلم يجيبهم بما آتاه الله تعالى من علم القرآن والحكمة ، فيرتد كيدهم في نحرهم ، وتثبت الرسالة المحمدية ، ويذهب ريب كل مرتاب ٠

لقد سألوه متى تقوم الساعة ، وهم يعلمون من علم الكتاب أن الساعة لا يعلمها الا الله تعالى ، ولكنهم سألوا السؤال ، وهم يعلمون الاجابة ، فيشككون في أمر البعث الذي يجادل فيه المشركون ، وقد حكى الله تعالى السؤال والجواب الحكيم الصادق ،فقال تعالى :

﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى ۖ لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَآ إِلَّا هُوَ ۚ ثَقُلَتْ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً ۗ يَسْـَٔلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِىٌّ عَنْهَا ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨٧﴾ ﴾ (٢)

---

(١) النحل

(٢) الاعراف

ولقد كان صيغة السؤال من بعضهم تومىء بالتشكيك في الرسالة ، فقد قال قائلهم : أخبرنا متى تقوم الساعة ،ان كنت نبياً كما تقول ٠

فأمره الله تعالى بأن يجيب ذلك الجواب الصادق ، ولو كان السؤال ممن لا يؤمن لأن ذلك هو الحق ، والحق أحق أن يتبع ٠

وسألوه عن الروح ، ليعنتوه أيضاً ،وليلقوا بالريب في نفوس المؤمنين فأمره الله تعالى بأن يقول انها من أسرار هذا الوجود الذي لا يعلمه الا الله تعالى ، فقال تعالى في السؤال والجواب:

﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ ۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٨٥﴾ ﴾ (١)

وان حقيقة الروح لا تزال سراً من أمر الله لا يعلمها أحد سواه ، نرى مظاهر وجودها ، ولا نعرف حقيقة أمرها ، لقد عرف ابن الانسان الكون وظواهره ، وأدرك بالاستقراء الأفلاك وأبراجها وارتفع ابن الأرض الى السماء ، ووصل الى القمر ، بأسباب المادة ، لكنه الى الآن لا يعرف حقيقة الروح ولا كنهها ، وان كان يعرف بعض ظواهرها ، وأعراضها ٠

ذي القرنين :

٤١٠ ـ وسألوه عن ذي القرنين ماهو وما كان أمره ، وما فعله ، فذكر الله تعالى السؤال ، واعلام النبي صلى الله تعالى عليه وسلم بالجواب في قوله تعالى :

---

(١) الاسراء

﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَن ذِى ٱلْقَرْنَيْنِ ۖ قُلْ سَأَتْلُوا۟ عَلَيْكُم مِّنْهُ ذِكْرًا ﴿٨٣﴾ إِنَّا مَكَّنَّا لَهُۥ فِى ٱلْأَرْضِ
وَءَاتَيْنَـٰهُ مِن كُلِّ شَىْءٍ سَبَبًا ﴿٨٤﴾ فَأَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٨٥﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ ٱلشَّمْسِ وَجَدَهَا
تَغْرُبُ فِى عَيْنٍ حَمِئَةٍ وَوَجَدَ عِندَهَا قَوْمًا ۗ قُلْنَا يَـٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِمَّآ أَن تُعَذِّبَ وَإِمَّآ أَن تَتَّخِذَ *
فِيهِمْ حُسْنًا ﴿٨٦﴾ قَالَ أَمَّا مَن ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُۥ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِۦ فَيُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا نُّكْرًا ﴿٨٧﴾
وَأَمَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَـٰلِحًا فَلَهُۥ جَزَآءً ٱلْحُسْنَىٰ ۖ وَسَنَقُولُ لَهُۥ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا ﴿٨٨﴾ ثُمَّ أَتْبَعَ
سَبَبًا ﴿٨٩﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ ٱلشَّمْسِ وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَىٰ قَوْمٍ لَّمْ نَجْعَل لَّهُم مِّن دُونِهَا
سِتْرًا ﴿٩٠﴾ كَذَٰلِكَ وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ خُبْرًا ﴿٩١﴾ ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٩٢﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ بَيْنَ
ٱلسَّدَّيْنِ وَجَدَ مِن دُونِهِمَا قَوْمًا لَّا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا ﴿٩٣﴾ قَالُوا۟ يَـٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِنَّ
يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَىٰٓ أَن تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ
سَدًّا ﴿٩٤﴾ قَالَ مَا مَكَّنِّى فِيهِ رَبِّى خَيْرٌ فَأَعِينُونِى بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا ﴿٩٥﴾
ءَاتُونِى زُبَرَ ٱلْحَدِيدِ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا سَاوَىٰ بَيْنَ ٱلصَّدَفَيْنِ قَالَ ٱنفُخُوا۟ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَعَلَهُۥ نَارًا قَالَ
ءَاتُونِىٓ أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا ﴿٩٦﴾ فَمَا ٱسْطَـٰعُوٓا۟ أَن يَظْهَرُوهُ وَمَا ٱسْتَطَـٰعُوا۟ لَهُۥ نَقْبًا ﴿٩٧﴾ قَالَ هَـٰذَا
رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّى ۖ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ رَبِّى جَعَلَهُۥ دَكَّآءَ ۖ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّى حَقًّا ﴿٩٨﴾ ﴾ (١)

هذا سؤال قصد به الاعجاز ، واذاعجز محمد عن الاجابة طاروا فرحا ، وألقوا بالريب في النفوس ، وذلك مايقصدون ، واليه يهدفون .

ولكن الاجابة كانت علماً غزيراً ،وتتبعاً دقيقاً لسيرة ذي القرنين ، وما كان له من أعمال لها أثر وذكر ولسان صدق ، وكان ذلك البيان العجيب

---

(١) الكهف

الصادق مسترعياً لعقول وقلوب الذين يستمعون اليه ، فكان أثر الاجابة حجة لأهل الايمان مثبتاً لدينهم الذي ارتضوا .

وقد سألوا سؤالا آخر يتعلق بالقرآن ليشككوا في أمره ، وهو حجة الرسالة المحمدية ، ودليلها الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه.

قالوا أحق يا محمد ، أن هذا الذي جئت به الحق من عند الله ، فانا لا نراه منسقاً ، كما تنسق التوراة .

فقال لهم رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم : « انكم لتعرفون أنه من عند الله ، تجدونه مكتوباً عندكم في التوراة ، ولو اجتمعت الانس والجن على أن يأتوا بمثله ما جاءوا به .

فوجهوا السؤال الى ناحية أخرى ، لأن اعتراضهم واهن ، اذ أن نسق القرآن لا يمكن أن يوزن به نسق التوراة ، ولو كانت هي الألواح العشر التي نزلت على موسى ، فلكل نبي معجزته وآياته .

حولوا السؤال الى ناحية أخرى قد توجد شكا . قالوا : يا محمد . أما يعلمك هذا انس ولا جن ؟ قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم : « والله انكم لتعلمون أنه من عند الله ، واني لرسول الله تجدون ذلك مكتوباً عندكم في التوراة » .

قالوا في لجاجة ، يا محمد ، فان الله يصنع لرسوله اذا بعثه ما يشاء ، ويقدر منه على ما أراد ، فأنزل علينا كتاباً نقرؤه ، والا جئناك بمثله .

يذكرون بهذا أنهم يستطيعون أن يأتوا بمثله ، فيقول الله تعالى على لسان نبيه :

﴿ قُل لَّئِنِ ٱجۡتَمَعَتِ ٱلۡإِنسُ وَٱلۡجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأۡتُواْ بِمِثۡلِ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ لَا يَأۡتُونَ بِمِثۡلِهِۦ وَلَوۡ كَانَ بَعۡضُهُمۡ لِبَعۡضٖ ظَهِيرٗا ﴿٨٨﴾ ﴾ (١)

ولسان الحال يقول : ائتوا ان استطعتم ، ولكنكم لا تستطيعون ، وفيصل الأمر أن تأتوا ، ليتبين أمركم ، وينكشف خبيء مكركم وضلالكم ، اذ تسفهون في أنفسكم بما لم يسفه به المشركون .

---

(١) الاسراء

ويسألون سؤالا آخر يدل على عقليتهم المادية ، وعلى عدم معرفتهم الله سبحانه وتعالى ، وصفاته العلية الذي ليس كمثله شيء وهو العزيز الحكيم ·

وذلك أنهم كانوا متأثرين بالفلسفة الأيونية التي كانت تؤمن بالأسباب والمسببات ، ولا تؤمن بغيرها · فالأسباب العادية جعلوها قانون الوجود ، فكل شيء نشأ بالعلية ، فالوجود الانساني والخلق كله معلول لعلة ، والعلة سبب عن آخر ، وبهذا أخذت الفلسفة اليونانية ، فيحسبون أن العالم كله نشأ بقانون العلية ، عن الأول ، وهو علة لما قبله ، وبذلك يكون التسلسل لما لا نهاية ·

أرادوا أن يظهر عجز النبي صلى الله تعالى عليه وسلم بسؤال من هذا النوع ، وتناسوا أن الله تعالى هو الفاعل المختار ، الفعال لما يريد ، وأن انشاءه للكون ، ليس بالسببية أو العلية ، بل أنشأه بارادته المختارة ، وهذا سؤالهم الذي دل على كفرهم ·

قالوا للنبي صلى الله تعالى عليه وسلم : « يا محمد ، هذا الله خلق الخلق، فمن خلق الله ؟ فغضب النبي صلى الله تعالى عليه وسلم حتى انتقع لونه ، ثم ساورهم غضباً لربه »·

ولقد كان غضب الرسول صلى الله تعالى عليه وسلم ، لأن هذا السؤال كان من اليهود ، وهم أهل كتاب مفروض أنهم يعرفون الله ويعرفون صفاته ، وأنه الأول والآخر والظاهر والباطن ،وأنه الفاعل المختار ، القادر على كل شيء ، وليس فوقه شيء ، وهو مبدع الوجود ، بديع السموات والأرض ·

ولم يقع من العرب مثل هذا السؤال ، فهم كانوا يعرفون أن الله وحده خالق الوجود ، وأنه ليس فوقه أحد ،وانما شركهم في أنهم كانوا يعبدون مع الله الأوثان التي ابتدعوها ، وما أنزل الله تعالى بها من سلطان ، فغضب رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، لأن اليهود أهل الكتاب أسفوا في تفكير الى ما لم ينزل اليه المشركون أهل الأوثان،وهكذا تذهب اللجاجة في التعصب الى أن قالوا ما لا يعقلون ·

ويقول راوي هذا الخبر ، وهو سعيد بن جبير ، فجاءه جبريل عليه

السلام ، وهو غضبان أسفا ، فسكنه وقال له : خفض عليك يا محمد ، وجاءه بجواب ما سألوه عنه :

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ﴿١﴾ اللَّهُ الصَّمَدُ ﴿٢﴾ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ﴿٣﴾ وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ ﴿٤﴾ ﴾ (١)

كان هذا تنبيهاً لهم الى ما أسفوا فيه ، ولكنهم نزلوا مرة ثانية عن مرتبة الوثنيين من العرب ، وظنوا الله مادة كالأحياء ، وتلك بقية من نزعتهم المادية.

قالوا : فصف يا محمد ، كيف خلقه؟ كيف ذراعه ، كيف عضده .

فغضب رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم كغضبته الأولى ، وساورهم ، فأتاه جبريل الأمين وجاءه بجواب من الله تعالى عما سألوه ، وهو قوله تعالى :

وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٧﴾ (٢)

هذه بعض مجاوبات بين اليهود الذين لا يتقيدون بفكر ولا منطق ، ولا علم بكتاب ، ولا ايمان بالله الواحد الأحد ، الفرد الصمد الذي ليس كمثله شيء ، وهو السميع البصير ، والنبي صلى الله تعالى عليه وسلم يجادلهم ، بالتي هي أحسن ، مع سوء قصدهم ، اطاعة لقوله تعالى :

﴿ وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ﴾ (٣)

نترك الآن اليهود وأثر الانتصار المحمدي النبوي عليهم ، وكيف نافقوا واتجهوا الى الايذاء النفسي بكل ضروبه ، والنبي والمؤمنون الذين صابروا

---

(١) الاخلاص (٢) الزمر (٣) العنكبوت

في ميدان القتال ، صابروا اليهود وعلموا شرهم في ميدان الدس ، والنميمة والخيانة ، والفت في العضد، أو ما يسمى بلغة عصرنا الحرب الباردة ، فصبروا وانتصروا في الحالين ، وكان النصر مؤزراً له ما بعده في تاريخ الاسلام .

في الفترة بين بدر وأحد :

٤١١ ـ كانت فيما بين الغزوتين اللتين كان فيهما تعليم للمسلمين في الحروب ، فالأولى علمتهم أسباب النصر، والثانية أرتهم أسباب الهزيمة ، وأن طاعة القائد الحكيم فيها النصر ، والتقاء القلوب ، وكان الظفر المؤزر من بعد ذلك ، واذا لم يكن انتصار حاسم في بعض المواقع كحنين في ابتدائها ، وكبعض الغزوات مع الروم ، فلم يكن انهزام ، ولم يكن خذلان .

وانه في هذه الفترة بعد الانتهاء من الأولى ، والابتداء في الثانية قد كانت شرائع الاصلاح الاجتماعي بتنظيم التعامل بين الناس ، والاصلاح الاجتماعي ، هو الذي يقيم الجماعة الاسلامية على التعاون الجماعي فوق التعاون الآحادي .

اذا كان الاخاء الذي كونه النبي صلى الله تعالى عليه وسلم تأليفاً آحاديا ، فقد شرع الله تعالى بعد غزوة بدر الزكاة ، وهي التعاون الاجتماعي .

لقد شرع الله تعالى قبيل غزوة بدر صدقة الفطر ، وهي معاونة من الغني للفقير والمسكين ، ولا يتجاوز المصرف فيها الفقراء والمساكين ، على ما حققه الأكثرون من الفقهاء ، ومنهم ابن القيم ، كما ذكرنا ، وانه لا تصرف في كل مصارف الزكاة على ما سنشير من بعد ، ولأنه ورد في الأثر أن الواجب في صدقة الفطر ، هو اغناء المساكين عن الحاجة في ذلك اليوم الذي هو فرحة المسلمين جميعاً ، وهو فرحة عيد الفطر ، فيعم الفرح بهذه الصدقة المفروضة على رأي الأكثرين .

وأما الزكاة ، فانها تعاون اجتماعي عام يشمل الفقير والمسكين ذوي الخصاصة، ويشمل غيرهما ممن يكونون في حاجة اجتماعية وان لم تكن خصاصة .

ولقد بين الله تعالى المصارف بقوله تعالى :

﴿ إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلْفُقَرَآءِ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱلْعَٰمِلِينَ عَلَيْهَا وَٱلْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَٱلْغَٰرِمِينَ وَفِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ فَرِيضَةً مِّنَ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٦٠﴾ ﴾ (١)

فهنا نجد أصنافا ثمانية تصرف لهاالزكاة التي يجمعها ولي الأمر في كل اقليم من الأقاليم ، كما قال عليه الصلاة والسلام « خذها من أغنيائهم ،وردها على فقرائهم » •

والمصرفان الأولان الفقراء والمساكين ، وخلاصة ما انتهى اليه الفقهاء من التفرقة بين الفقير والمسكين ، أن الفقير المحتاج ، ولو كان له كسب ، ولكن لا يتكافأ مع حاجاته ، أما المسكين فهو العاجز عن الكسب لعاهة أو لشيخوخة أو لمرض مزمن أو نحو ذلك من الأسباب التي تعجز صاحبها عن الكسب قليلا كان أو كثيراً ، فكلاهما يستحق ، وان كان المسكين أشد استحقاقاً ، فان ضاق بيت المال عن الانفاق عليهما معا كان المقدم المسكين •

والصنف الثالث من الأصناف الثمانية العاملون عليها ، أي الجامعون لها من الأغنياء الذين يجب عليهم أداؤها ،والذين ينفقونها على مستحقيها ، من بقية الأصناف الثمانية ، وان ذكر العاملين لجمع الزكاة وصرفها في ضمن المصارف يدل على أن الزكاة تكون لها حصيلة مالية قائمة بذاتها توزن فيها مواردها بمصارفها ، وتكون جزءا منفصلا عن ميزانية الدولة ، ولذلك جعل لها المنظمون لبيوت المال بيت مال للزكاة قائماً بذاته ، والصنف الرابع المؤلفة قلوبهم ، وهم الذين يدخلون في الاسلام ، وتؤلف قلوبهم بقدر من المال تثبيتاً لايمانهم ، وليدعوا الى الاسلام قبائلهم ، ويدنوهم الى الاسلام •

وهذا مبدأ لم يلغ ، وكذب ما ادعاه بعض الناس من أن عمر رضي الله عنه قد ألغاه ، انما كان عمل الفاروق أنه لم يعطه لناس كان النبي صلى الله تعالى عليه وسلم قد أعطاهم ، وفعل أبو بكر ما فعل الرسول صلى الله تعالى عليه وسلم ، فجاء عمر رضي الله تعالى عنه ومنعهم ، لكيلا يكون حقا مكتسبا ، وليس عطاء لمقصد ، وأجمع الفقهاء على أنه اذ وجد ما يوجبه وجب صرفه•

---

(١) التوبة

ويصح أن يصرف فى الدعوة الى الاسلام ، كما يصح الصرف من حصة المؤلفة قلوبهم على الذين يدخلون في الاسلام فيقطعون من ذويهم ، ويضيق عليهم في أسباب رزقهم ، فيجب أن يعطوا تأليفاً لقلوبهم، وتثبيتاً لايمانهم، ومعاونة لمن يستحق المعاونة ٠

والصنف الخامس ـ اعتاق الرقيق، وذلك لأن الاسلام دين الحرية ودين الكرامة والانسانية ودين العدالة الحقيقية ، ودين الاخاء ، فلا يمكن أن يرضى عن أن يكون انسان مملوكاً لغيره ، واذا كانت المدينة في عهد النبي والراشدين من بعده هي الصورة الاجتماعية العالية التي تنفذ فيها أحكام الاسلام كاملة موفورة ، فان الزكاة قد بينت أحكامها في السنة الثانية ، وأخذ النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ينفذ في المجتمع الأحكام الاجتماعية العادلة التي تحمي المجتمع من آفاته ، وان اعتاق العبيد يكون بمعاونة المكاتبين وهم الذين عقدوا مع مالكيهم عقداً على أن يسددوا لهم قيمتهم المالية في سبيل أن تحرر رقابهم، فهؤلاء يعانون من الزكاة بما يمكنهم من سداد ما عليهم من المال ، وقد قال الله تعالى :

﴿ وَٱلَّذِينَ يَبْتَغُونَ ٱلْكِتَٰبَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا ۖ وَءَاتُوهُم مِّن مَّالِ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ ءَاتَىٰكُمْ ﴾ (١)

ويكون منه اعتاق من في الرقاب بشرائهم وعتقهم ، وقد كان السلف الصالح يفعلون ذلك ، يروي أنه في عهد الحاكم العادل عمر بن عبد العزيز كتب اليه والي الصدقات في افريقية يشكو من أن بيت المال قد اكتظ ، ولا يجد فقيراً يعطيه ٠ فأرسل اليه الحاكم العادل أن سدد الدين عن المدينين ٠ فسددها ، وأرسل اليه يشكو من اكتظاظ بيت مال الصدقات ، فارسل اليه اشتر عبيداً من عبيد المسلمين وأعتقهم ، وبهذا تلاقى الأحرار على نصرة الاسلام ، في عهد سيد الأنام محمد عليه الصلاة والسلام٠

---

(١) النور

والمصرف السادس ـ الغارمون ، وهم الذين أثقلتهم الديون ، وكانوا قد استدانوا في غير معصية وأنفقوا في غير سرف اذا عجزوا عن سداد الدين ، فان بيت مال الصدقات يسدد الدين عنهم ، رفعا لخسيسهم ، وكذلك يسدد الدين عمن استدانوا لأمر اجتماعي كالاصلاح بين متخاصمين ، أو تحملوا ديات بين المتنازعين في الدماء ، فان بيت المال يعاونهم على سداد ما عليهم من ديون ، ولو لم يكونوا عاجزين ،لكي يتقدم أهل المروءة لاصلاح ذات البين ، ولتخفف عنهم المغارم ، في هذا السبيل ٠

وانه يجب المقارنة في هذا بين شريعة الله التي نزلت على رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، وقانون الرومان الذي كان يعاصر نزولها فانه بينما كان ذلك القانون يبيح في بعض عصوره أن يسترق الدائن المدين اذا عجز عن السداد ، جاءت الشريعة بمعاونة المدين في سداد دينه ، وذلك فرق ما بين شريعة الله وشريعة الانسان ٠

والمصرف السابع ، هو معاونة ابن السبيل ، وهو من كان غريباً لا مال في يده ، وان كان له مال في بلده ، فانه يعان من بيت مال الصدقات ، حتى يثوب ، ويصح لبيت المال أن يعينه بالمال ، دينا عليه ، حتى يعود الى أهله اذا كان ذا مال يستطيع السداد منه من غير ارهاق ولا مشقة ، والأصل أن تكون المعونة تمليكا لا أن تكون ديناً ٠

والمصرف الثامن هو الانفاق في سبيل الله ، وهو الانفاق في الجهاد ، فللجهاد قدر في مال الزكاة يعادل الثمن أو أكثر على حسب حاجة الجند في عتادهم والانفاق عليهم ٠

وبعض العلماء يقول ان كلمة في سبيل الله تشمل كل ما يكون من المنافع العامة ، مثل انشاء الجسور وتعبيد الطرق ، وقد قال ذلك القفال الشاسي ، على أن يدخل ذلك في المصرف الثامن ،لا أن تدخل فيه كل المصارف السابقة ، كما فهم بعض الذين يحاولون تعطيل تلك الفريضة الشرعية وهي فريضة الزكاة ٠

المعاقل والديات:

٤١٢ ـ ذكرنا أنه في الفترة بين الغزوتين الكبيرتين كان اصلاح اجتماعي عملي واسع النطاق فانه قبل غزوة بدركان الاصلاح النفسي بالصلاة، والصوم ،والاجتماعي المحدود ،بصدقةالفطر ، وما كان الاصلاح النفسي الا لتتآلف النفوس بالقرب من الله تعالى ، والشعور بجلاله وعظمته ، فمن قرب من الله رحم عباد الله ، ومن رحم عباد الله ائتلف معهم ، وكان معهم قوة مصلحة ، رافعة دعائم الحق والخير ·

وكانت الزكاة من بعد ذلك اصلاحا عمليا يؤخذ بقوة الحاكم الذي يستمد السلطان من الله تعالى لا بمجرد الرغبة والاختيار ،وان الثواب على مقدارهما·

وكانت هذه الفريضة من دعائم المدنية الفاضلة ·

ولكن المدنية الفاضلة يجب أن تكون فيها الزواجر الاجتماعية التي تحمي الفضيلة ، لأن فضيلة الاسلام ايجابية،فيجب أن يكون لها من القوة ما تدفع به الرذائل ·

وكما أن القوة الحربية في الدولة لحمايتها من الاعتداء ، فالزواجر الاجتماعية من الحدود والقصاص هي القوة التي تحارب بها الرذائل ·

ولقد ذكر ابن جرير الطبري أنه في السنة الثانية من الهجرة شرعت المعاقل أي الديات ، واذا كانت الديات والمعاقل قد شرعت ، فانه قد شرع القصاص في النفس وفي الأطراف ،وذلك لأن الديات قصاص معنوي ،عند عدم استيفاء القصاص صورة ومعنى بالقتل قصاصاً أو قطع الأطراف ·

فالقصاص قد شرع وجوبه في السنة الثانية ، اذ نزل قوله تعالى :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡقِصَاصُ فِي ٱلۡقَتۡلَىۖ ٱلۡحُرُّ بِٱلۡحُرِّ وَٱلۡعَبۡدُ بِٱلۡعَبۡدِ وَٱلۡأُنثَىٰ بِٱلۡأُنثَىٰۚ فَمَنۡ عُفِيَ لَهُۥ مِنۡ أَخِيهِ شَيۡءٞ فَٱتِّبَاعُۢ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَأَدَآءٌ إِلَيۡهِ بِإِحۡسَٰنٖۗ ذَٰلِكَ تَخۡفِيفٞ مِّن رَّبِّكُمۡ وَرَحۡمَةٞۗ فَمَنِ ٱعۡتَدَىٰ بَعۡدَ ذَٰلِكَ فَلَهُۥ عَذَابٌ أَلِيمٞ ١٧٨ وَلَكُمۡ فِي ٱلۡقِصَاصِ حَيَوٰةٞ يَٰٓأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ١٧٩ ﴾ (١)

(١) البقرة

وان ذلك بلا ريب اصلاح اجتماعي خطير ، لأنه يحمي الانسان من أخيه الانسان ولأنه بقيام القصاص تكون حياة كريمة آمنة لا اعتداء فيها ولا افساد ، ولأن ذلك ابطال للعادات الجاهلية التي كان فيها الألف بالواحد ولا يقتل قاتل الكبير ، بل يقتل من يرى أهله أو قبيله قتله ممن يحسبون أن يكون له كفئا ، ولا يرضون أن تكون النفس بالنفس •

ولقد كان في القصاص قتل لروح الحسد والحقد في النفس ، أو تخفيف لآثار الحسد ، أو حمل للحسود على أن يضبط نفسه، اذ يرى العقاب يترصده، ولقد قال تعالى أثر الحسد الذي حمل قابيل على أن يقتل هابيل أخاه التقي الذي تقبل الله تعالى قربانه :

﴿مِنْ أَجْلِ ذَٰلِكَ كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَنَّهُۥ مَن قَتَلَ نَفْسًۢا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِى ٱلْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَآ أَحْيَا ٱلنَّاسَ جَمِيعًا ﴿٣٢﴾﴾ (١)

وان أحكام الديات بأنواعها كما ذكرنا تابعة لأصل الحكم بالقصاص في هذه الآية ، وقد بينت آية القصاص في التوراة أن شريعة النبيين في التوراة القصاص واستمرت في الاسلام فقال تعالى في سورة المائدة :

﴿وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَآ أَنَّ ٱلنَّفْسَ بِٱلنَّفْسِ وَٱلْعَيْنَ بِٱلْعَيْنِ وَٱلْأَنفَ بِٱلْأَنفِ وَٱلْأُذُنَ بِٱلْأُذُنِ وَٱلسِّنَّ بِٱلسِّنِّ وَٱلْجُرُوحَ قِصَاصٌ ۚ فَمَن تَصَدَّقَ بِهِۦ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَّهُۥ ۚ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٤٥﴾﴾ (٢)

وبهذا يتبين أنه في الفترة بين الغزوتين كان الاصلاح الاجتماعي باقامة العدل بين الناس ، وسن سنة القصاص، وبيان الديات، حيث لا تتوافر شروط القصاص ، أو حيث لا يمكن ، والله سبحانه وتعالى أعلم •

---

(١) المائدة

(٢) المائدة

بناء علي بن أبي طالب بفاطمة رضي الله عنها :

٤١٣ ـ في هذه السنة بعد غزوة بدر بنى علي بن أبي طالب كرم الله وجهه بفاطمة رضي الله عنها وصلى الله وسلم على أبيها سيد الخلق أجمعين ٠

وقد روى البخاري بسنده في ذلك عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه : قال : كان لي شارف من نصيبي من المغنم يوم بدر ، اذ كان النبي صلى الله تعالى عليه وسلم قد أعطاني شارفين مما أفاء الله من الخمس يومئذ ـ فلما أردت أن أبني بفاطمة بنت النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، وأعدت رجلا صواغاً من بني قينقاع أن يرتحل معي فنأتي بأذخر (نبات نفيس بالصحراء) فأردت أن أبيعه من الصواغين ، فأستعين به في وليمة عرسي ، فبينا أنا أجمع لشارفي من الأقتاب والغرائر والحبال ، وشارفاي مناخان الى جنب حجرة رجل من الأنصار ، حتى جمعت ما جمعت فاذا بشارفي قد أخبت (أي قطعت) أسنمتها ، وبقرت خواصرهما وأخذ من أكبادهما فلم أملك عيني حين رأت المنظر ، فقلت من فعل هذا ، قالوا فعله حمزة بن عبد المطلب ، وهو في هذا البيت في شرب من الأنصار ، وعند قينته وهي تغنيه ، وجاء في غنائها : « ألا ياخمر للشرف النواء ٠٠ فانطلقت حتى دخلت على رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، وعنده زيد بن حارثة ٠٠ فقلت يا رسول الله ما رأيت كاليوم ، عدا حمزة على ناقتي فأجب اسنمتها ، وبقر خواصرها ، وها هو ذا في البيت مع شرب (أي ندامى يشربون الخمر) ، فدعا الى ردائه ، فارتداه ، ثم انطلق يمشي ، واتبعته أنا وزيد بن حارثة حتى جاء البيت الذي فيه حمزة، فاستأذن ، فأذن له ، فطفق النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، يلوم حمزة فيما فعل ، فاذا حمزة ثمل محمرة عينه فنظر الى النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ثم صعد النظر فنظر الى ركبتيه ، ثم صعد النظر ، فنظر الى وجهه ، ثم قال: وهل أنتم الا عبيد لأبي ، فعرف النبي صلى الله تعالى عليه وسلم أنه ثمل فنكص على عقبيه القهقرى ، فخرج وخرجنا معه ٠ هذا لفظ البخاري في روايته ٠

سقنا هذا الخبر لأن فيه خبراً عن زواج فارس الاسلام علي بن أبي طالب وقد كان يناهز الرابعة والعشرين من عمره ، وانا نتيمن دائماً بذكر النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، وآله الأبرار ٠

والخبر يدل فوق ذلك على أمور :

أولها : أن علياً المجاهد العظيم ، ماكان عنده مال لعرسه ، فخرج يجمع المال من جوف الصحراء ليستعين بجهده على ذلك ، وهو ابن عمه ، وربيبه الذي رباه ٠

ثانيا : أنه يصرح بأن الناقتين من نصيبه في الخمس الذي كان للنبي وآله فدل هذا على أن أنفال بدر خمست ولم توزع بالتساوى ، كما ادعى أبو عبيد في كتابة الأموال ٠

وثالثها : أن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم في هذا الوقت المثير ، لم ينس الاستئذان ، فاستأذن على الشرب٠

ورابعها : ما تفعله الخمر في النفوس ،فمحال أن يصدر عن أسد الله حمزة في صحوه ما صدر عنه ٠

وخامسها : أن الخمر لم تكن حرمت تحريماً قاطعاً ، ولم يكن قد تبين حكمها بيانا شافيا ٠

وانها تغري بالعداوة والبغضاء ،وكادت توجد العداوة بين علي وحمزة ، والنبي صلى الله تعالى عليه وسلم وحمزة ، لولا أنهم الحكماء الأبراء ٠

حروب في الفترة بين الغزوتين الكبيرتين :

٤١٤ ـ بعد غزوة بدر الكبرى كان الرسول صلى الله تعالى عليه وسلم يتعرف ما حوله من القبائل ، ويسير اليهم ، فبعد سبع ليال من قفوله الى المدينة كما قال ابن اسحاق اتجه الى بني سليم ، فذهب اليهم ، وبلغ ماء من مياههم اسمه الكدر ، فأقام ثلاث ليال متعرفا أحوالهم ، وبيئتهم ، ثم عاد ، ولم يلق كيداً وأقام بالمدينة ، وكان ذلك في شوال من السنة الثانية للهجرة، وتسمى غزوة الكدر ٠

وقد كانت من جولات النبي صلى الله تعالى عليه وسلم في القبائل يتعرف أحوالهم ، ويعرف من يلقاه بالدعوة الاسلامية ، فهذه تسميتها بالغزوة هي وأشباهها ، لا يعني الحرب ، ولكن هي نشر الدعوة ، والاستعداد لما يكون من بعد ٠

وكان كلما خرج خرجة من هذا النوع وغيره ، أقام في المدينة من يخلفه عليها ، لا يختص أحداً دون غيره ٠

غـزوة السَّـوَيْق :

٤١٥ ـ في ذي الحجة كانت غزوة السويق :

وسببها أن رجوع فلول جيش قريش المهزوم قد أرث حقد كبراء قريش الذين بقوا من معاندي النبوة، ومحاربي الدعوة المحمدية الى التوحيد، وهجر الأوثان ، وعبادة الرحمن وحده

وأخص من تألم منهم أبو سفيان الذي آلت اليه زعامة الشرك بعد أبي جهل ، وعقبة بن أبي معيط ، وقد كان أظهر قواد المشركين في بدر ٠

نذر أبو سفيان ألا يمس الماء رأسه من جنابة حتى يغزو محمداً ، وقد كانت رهبة من المسلمين شديدة اثر الهزيمة المنكرة التي مني بها قومه ،وقتل الأشياخ منهم ، فأورثهم ذلك فزعا وخوفا مع الرغبة الشديدة في الانتقام ٠

ومع هذه الحال أراد التحلة من يمينه ، فخرج في مائتي راكب من قريش ، فسلك الطرق النجدية ، فنزل بصدر قناة الى جبل يقال « يثب ،يقرب من المدينة ثلاثة فراسخ ، أو نحو ذلك» ولكنه لم يتجه الى أحد من المسلمين حتى يتصل بيهود بني النضير الذين كانوا يجاورون النبي صلى الله تعالى عليه وسلم في المدينة ، وقد علم ما كان يسكن نفوسهم من احن وبغض للمسلمين مع العقد الذي بينهم ،ويظهر أنهم كانوا معهم على مودة كونتها عداوة المسلمين عامة ،وعداوة النبي صلى الله تعالى عليه وسلم خاصة٠

التقى أبو سفيان ببني النضير ،تحت الليل،فأتى حيي بن أخطب فضرب عليه بابه ، فلم يفتح له ، ودفعه الحرص ، ألا يعاونه ، فانصرف الى سلام ابن يشكم ، وكان السيد على بني النضير في زمانه ، وصاحب كنزهم الذي اكتنزوه ، فقرى أبا سفيان ،وأخبره ما كان خفياً عليه من أخبار المؤمنين ٠

خرج أبو سفيان من المدينة بعد أن عرف من أسرار المسلمين ما كان يعلمه بنو النضير ، فأرسل رجالا ممن معه حتى أتوا ناحية من المدينة يقال لها العريض ، فحرقوا النخيل ، وخربوا ،ثم وجدوا بها رجلا من الأنصار ،

وجليفاً في حرث يزرعونه ، فقتلوهما، وانصرفوا راجعين هاربين ، غير مقاتلين ، وتخففوا مما يحملون ، حتى يسهل الهرب ، وتركوا أزواداً مما تزودوا بها ٠

علم النبي صلى الله تعالى عليه وسلم، وكان أشد حرصاً وسبقاً الى الفزع والهيعة اذا تنادوا بها ، فخرج رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، وأقام على المدينة أبا لبابة ٠

فسار حتى بلغ المكدر ، ولكن كان أبو سفيان ومن معه قد أمعنوا في الهرب فلم يدركوه ، ولكن وجدوا زاد جيشه الذي كان يبلغ نحو المائتين ٠

وكان أكثر مما تركوا سويقاً من أزوادهم ، فأخذ المسلمون سويقاً كثيراً، وجدوا فيه غذاء طيباً ٠

ولذا سميت الغزوة ذات السويق ٠

وقد كانت نتيجة هذه الغزوة ارهاباً شديداً للمشركين ، واشعار أولئك الأعداء باليقظة من جانب أهل الايمان، والحذر من ألا يؤخذوا على غرة ٠

وكان من نتيجتها أيضاً أن علم المشركون أن الطريق لهم ولما لهم غير مأمون ، وأنه يتربص بهم الدوائر ،فازدادوا خوفا على الخوف الذي ولدته الهزيمة ، وأحسوا بذلك أن الاسلام صار قوة للحق لا ينال منه بغرة ، واذا كانوا قد قتلوا اثنين في حرثهما ، فما كان ذلك منالا لأبطال ٠

غزوة ذي أمر :

٤١٦ ـ أقام النبي صلى الله تعالى عليه وسلم بعد غزوة السويق بالمدينة بقية شهر ذي الحجة يدبر أمر المسلمين وينفذ أحكام القرآن الكريم ٠

ولم يلبث الا قليلا حتى اتجه الى تعرف أحوال البلاد العربية ، واتجه الى نجد التي كان قد أتى من طريقها٠ جيش أبي سفيان الذي فاز بقتلى الحرث ، ولم يظفر بمقاتل ، فكان مخربا لا محاربا ، ثم فر هاربا ٠

غزا رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم نجداً يريد غطفان ، وخلف على المدينة عثمان بن عفان رضي الله تعالى عنه ٠

ولقد ذكر الواقـدي في تاريخه ،فقال : « بلغ رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم أن جمعا من غطفان من بني ثعلبة تجمعوا بذي أمر يريدون حربه، فخرج اليهم من المـدينة يوم الخميس لثنتي عشرة ليلة خلت من ربيع الأول من العام الثالث ، واستعمل على المدينة ابن عفان ٠

وكان معه أربعمائة وخمسون رجلا وهربت الأعراب ، في رؤوس الجبـال حتى بلغ ماء يقال له ذو أمر فعسكر به، ولم يمكث في هذه الغزوة أكثر من أحد عشر يوما وعاد ٠

ويذكر الواقدي في هذه الغزوة أن المسلمين أصابهم مطر كثير ، ابتلت منه أثواب النبي صلى الله تعالى عليه وسلم، فنزل تحت شجـــرة نشر عليها ثيابه لتجفف على مرأى من المشركـين الذين شغلهم خوفهم وهربهم ٠

ولكن رجلا مندفعا منهم يقـال له غورث بن الحارث أغروه بأن يقتـــل النبي صلى الله تعالى عليه وسلم وهو في أمنه ، فيأخذه على غرة ٠

فذهب ذلك الرجل الى النبي صـلى الله تعالى عليه وسلم ، ومعـــه سـيف صقيل ، حتى قام على رسول الله شاهرا السيف عليه ، وقال : « يا محمد من يمنعك مني ؟ قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم : الله ، فوقع السـيف من يده ، فأخذه رسول الله صـــلى الله تعالى عليه وسلم ، وقال : من يمنعـك مني ؟ قال : لا أحد ، وأنا أشهد أن لا اله الا الله وأن محمداً رســول الله صلى الله تعالى عليــه وسلم ، والله لا أكثر عليك جمعا أبدا » ٠

ذكر هذه القصة الواقدي في تلك الغزوة وهي غزوة ذي أمر ، ولـــكن البيهقي ذكر في غزوة ذات الرقــاع قصة تشبه هذه ، وحمل السيف منسوب الى غورث ٠

وبعضهم يقــول انهما قصتان ، ولكن يلاحظ ابن كثير أن غورث المنسوب اليه حمل السيف واحد ، في الروايتين، فلا يمكن أن تكون ثمة واقعتان الا اذا فرضنا أن غورث هذا لم يسلم ، ولم يعط عهداً للنبي صلى الله تعالى عليـــه وسلم بأن لا يكثر عليه جمعا أبدا ٠

والله أعلم بالحق في الأمر ٠

غـزوة الفـزع من بحـران :

٤١٧ ـ كانت قريش لا تريد أن يعيش محمد صلى الله تعالى عليه وسلم ومن معه من المؤمنين في أمن ، وما كان يمنعهم من الاغارة على المـدينة الا أنهم في غب هزيمة ، وهي توجد الفزع ، فكان الخوف يردهم عن غاياتهم ·

والنبي صلى الله تعالى عليه وسـلم يعمل على تتبع أحـوالهم ، وتقصي أخبارهم ، ونقص الأرض عليهم من أطرافها ، وهو يريد بهذا مع تخويفهم أن يتعرف أحوال قبائل العرب ، وينشر نور الاسلام متنقلا في أحياء العـرب وقبائلهم في منتجعاتهم ، ومتعـرفا أرضهم ·

لذلك خرج من المدينة تاركا عليها ابن أم مكتوم ، وسـار يريد قريشا ، حتى بلغ بحران ، وهو معدن من ناحية مكان يقال الفروع ·

ذهب الى ذلك المكان فأقام به شهـر ربيع الآخر ، وجمـادى الأولى ، وهو في هذه المدة يدرس حال القبائـل ويتعرف حالها ، ويدعو الى الاسـلام في ربوعها ، غير وانٍ ولا مقصر ، فذلك عمله الذي بعث له ·

فما كان مبعوثا لأجل الحرب ، وانما كان مبعوثا لأجل الهداية ، والحرب كانت لحماية الدعوة من الأذى ، ولمنع الفتنة في الدين ، ولفتح الطريق لها ·

ولذلك لا يصح لأحـد أن يعترض فيقول اذا كان لم يلق كيدا ، ولا حربا ولا عيرا ولا فقيرا فلماذا يترك المدينة تلك المدة التي ليست قصـيرة ، لأن الغاية نشر الاسلام ، لا مكيدة حرب ولا مصادرة مال، فالغاية هي نشر دعوة التوحيد ·

تكشف الوجه اليهودي في بني قينقاع

٤١٨ – ذكرنا بايجاز ما كان يقوم به اليهود ، من اثارة للريب في قلوب المسلمين ، وما كانوا يحاولون به أن يثيروا روح التردد والهزيمة في المجاهدين ، وما ملأ قلوبهم من غيظ بعد غزوة بدر الكبرى ، وكيف علموا الوثنيين الحقد وسبقوهم اليه ، وكيف أخرج النبي صلى الله تعالى عليه وسلم المنافقين من المسجد ، عندما رآهم يهمزون ويلمزون ذكرنا ذلك ، ولكن طائفة منهم تكشف غيظها ، ولم تخف أمرها ، لأنها كانت تعيش في وسط المدينة مع المسلمين ، ولم تكن في أطرافها ، وأولئك هم بنو قينقاع ٠

ولقد كان النبي صلى الله تعالى عليه وسلم حريصاً على أن يدعوهم الى الحق بالحكمة والموعظة الحسنة ، تاركاً مايعرف من أن قلوبهم تنضح بالحقد يبدو على ألسنتهم ، فالداعي الى الحق لا يني عن الدعوة اليه ، ولو كان من يدعوه يهودياً لا يؤمن بشيء ، ولا يرضى الا بالخبال للمؤمنين ٠

التقى بهم رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم بسوق قينقاع فحدثهم حديث الجار لجاره الذي عاهده يدعوه الى الرشد ، قال لهم : « يا معشر يهود ، احذروا من الله مثل ما نزل بقريش من النقمة ، وأسلموا فانكم ، قد عرفتم أني نبي مرسل ، تجدون ذلك في كتابكم ، وعهد الله تعالى اليكم ، فأجابوا هذا الحديث الرشيد الودود بكلام فيه جفوة وحدة قائلين :

يا محمد ، انك ترى أنا قومك ، لا يغرنك أنك لقيت قوماً لا علم لهم بالحرب ، فأصبت منها فرصة ، انا والله لئن حاربناك لتعلمن أننا الناس ٠

لقي النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ذلك الجواب المرعد المنذر بالاغضاء ، فما كان يحارب المعتدي بالقول ، ولكن كان يحارب الفعال ٠

وذكر ابن اسحاق أن الله تعالى قد أجاب عنه بقوله تعالى :

﴿ قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمِهَادُ ﴿١٢﴾ قَدْ كَانَ لَكُمْ ءَايَةٌ فِي فِئَتَيْنِ الْتَقَتَا فِئَةٌ تُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأُخْرَىٰ كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِمْ رَأْيَ الْعَيْنِ وَاللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِ مَن يَشَاءُ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُولِي الْأَبْصَارِ ﴿١٣﴾ ﴾ (١)

وهذه الرؤية المضاعفة كانت حال اللقاء في الحرب ، اذ كانوا يرون أنفسهم رأي أعينهم مثلي المؤمنين ، والله تعالى هو الذي يؤيد بنصره من يشاء قلة كانوا أو كثرة ، وكم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة باذن الله ٠

ولكن بني قينقاع لم يقفوا عند حد القول ، في بث روح التفرقة والشك في أنفسهم ، بل انتقلوا من الاساءة بالقول الى الاساءة بالفعل ، وهم على كثب من المسلمين ، وكانوا يجاهرون بنقض العهد وأنهم لا يحترمونه ، ويتناولون النبي والمؤمنين بالذم ، والأذى ٠

ولقد قال ابن اسحاق : ان امرأة من المسلمين قدمت تبيع في سوق بني قينقاع ، وجلست الى صائغ ، فجعلوا يريدونها على كشف وجهها فأبت ، فعمد الصائغ الى طرف ثوبها فعقده الى ظهرها ، فلما قامت انكشفت سوءتها ، فضحكوا بها ، فصاحت ٠ فوثب رجل من المسلمين على الصائغ ، الماجن فقتله ، وكان يهوديا ، وشدت اليهود على المسلم فقتلوه ، فاستصرخ أهل المسلم المسلمين على اليهود فغضب المسلمون ، فكان الشر بينهم وبين بني قينقاع ٠

عندئذ كان لابد من الحرب دفاعا عن الفضيلة وعفة النفس ، وقد نقضوا العهد بأقبح طريقة ٠

---

(١) آل عمران

موقعة بني قينقاع

٤١٩ ـ أخذ بنو قينقاع من قبل ما حدث مع المرأة ، وما كان من تهديد ـ يتطاولون على المسلمين بالسب ،والأذى، والتحامل ، وعدم صون لسانهم عن المسلمين والاسلام ، والنبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، يصابرهم ويوفي بعهدهم ، حتى كان منهم القتل .

حاصرهم النبي صلى الله تعالى عليه وسلم في ديارهم ، وأقام على المدينة في أثناء محاصرته لهم التي دامت خمس عشرة ليلة بشير بن عبد المنذر وهو أبو لبابة .

ولما اشتد الحصار عليهم واستطال، نزلوا على حكم النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، فأجلاهم ، ولم يقتلهم ، وقد كانوا حلفاء الخزرج الذين منهم رأس المنافقين عبد الله بن أبي ، كما كان منهم عبادة بن الصامت ، وقد ناصرهم ابن أبي ، وتعرض للنبي صلى الله تعالى عليه وسلم فقال رأس النفاق :

يا محمد أحسن في موالي ، فأبطأ عليه رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، فقال : يا محمد أحسن في موالي فأبطأ عليه رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، فقال يا محمد أحسن في موالي ، ومع تبجحه في نداء النبي صلى الله تعالى عليه وسلم من غير وصف الرسالة ، اذ غلبه النفاق في النداء ، فبدا في لحن قولهم ، كما قال تعالى :

﴿ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَالَكُمْ ﴿٣٠﴾ ﴾ (١)

مع هذا التبجح تجرأ فوضع يده في جيب درع النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، فقال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم أرسلني ، وغضب حتى رأوا لوجهه ظللا ، ثم قال ويحك أرسلني ، قال المنافق : والله لا أرسلك حتى تحسن في موالي أربعمائة حاسر (١) ، وثلاثمائة دارع (٢) قد

---

(١) محمد

(٢) الحاسر : الذى لا درع له .

(٣) الدارع : لابس الدرع

منعوني من الأحمر والأسود ،تحصدهم في غداة واحدة ، اني والله امرؤ أخشى الدوائر ، وكأنه حسب أن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم سيقتلهم ، والنبي أراد اجلاءهم ، ولم يرد قتلهم ، فقال له : هم لك ، أي أنه يجليهم ، ولا يقتلهم ، لأن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم دفع شرهم بأقل ضرر ينزله بهم.

هذا موقف رأس النفاق ، أما موقف المؤمن عبادة بن الصامت ، وهو حليفهم مثله ، فانه قال : « أتولى الله ورسوله والمؤمنين ، وأبرأ من حلف هؤلاء الكفار وولايتهم ».

ذاتكم رجلان مؤمن ومنافق.

ويقول ابن اسحاق ان في ابن أبي وعبادة نزل قوله تعالى :

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَـٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَ ۘ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٥١﴾ فَتَرَى ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يُسَـٰرِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَىٰٓ أَن تُصِيبَنَا دَآئِرَةٌ ۚ فَعَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِىَ بِٱلْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِندِهِۦ فَيُصْبِحُوا۟ عَلَىٰ مَآ أَسَرُّوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ نَـٰدِمِينَ ﴿٥٢﴾ وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَهَـٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَـٰنِهِمْ ۙ إِنَّهُمْ لَمَعَكُمْ ۚ حَبِطَتْ أَعْمَـٰلُهُمْ فَأَصْبَحُوا۟ خَـٰسِرِينَ ﴿٥٣﴾ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَـٰفِرِينَ يُجَـٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَآئِمٍ ۚ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٥٤﴾ إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُمْ رَٰكِعُونَ ﴿٥٥﴾ وَمَن يَتَوَلَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَإِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْغَـٰلِبُونَ ﴿٥٦﴾ ﴾ (١)

---

(١) المائدة

واذا صح أن الآيات الكريمات نزلت لمناسبة موقف رئيس المنافقين ، ورجل مؤمن من المؤمنين ، فان الآيات فيها وصف عام ، لمن يكون ولاؤهم ، لله ومن يكون ولاؤهم لغيره ٠

وان أمر بني قينقاع قد انتهى باجلائهم ، وطهرت المدينة من أرجاسهم ، وما كان ذلك اعتداء من النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، بل كان ذلك لرد اعتدائهم ، ولنقضهم للعهد ، ولأنهم صاروا جيران سوء ، يحق اجلاؤهم ليسلم الناس من فسادهم ٠

سَرِيّة زيد بن حارثة :

٤٢٠ ــ بعد غزوة بدر . وما أصاب قريشاً فيها ، خافوا طريق المدينة في وصولهم بمتاجرهم الى الشام فاختاروا طريقا حسبوه أسلم من هذا الطريق وان كان أطول ، فاختاروا طريق العراق وهو طريق مع بعده لم يكونوا من قبل يسلكونه ، فلم يعرفوا مسالكه؟فاستأجروا رجلا من بني بكر بن وائل حليف بني سهم ليكون لهم دليلا ،وليستمدوا من حلفه أمناً لهم ٠

ولكن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم الذي كان يتعرف الصحراء وطرائقها علم بمسلكهم ، فبعث رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم اليهم زيد بن حارثة ، يتتبع مسالكهم ، فلم يفلتوا منه ، ولقيهم على ماء يقال له ماء القردة ، وهم يستسقون ، فأصاب العير ، فأحضرها الى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، وقسمت غنائم ،ولكن الرجال الذين كانوا يصحبون العير قد نجوا بأنفسهم فارين ٠

ويقول الواقدي في تاريخ هذه السرية ، والعلم بالعير « كان خروج زيد بن حارثة في هذه السرية في مستهل جمادى الأولى على رأس ثمانية وعشرين شهرا من الهجرة (في السنة الثالثة) وكان رئيس العير صفوان بن أمية ، وكان سبب بعثة زيد بن حارثة أن نعيم بن مسعود قدم المدينة ومعه خبر هذه العير ، وهو على دين قومه ،واجتمع بكنانة بن أبي الحقيق في بني النضير ، ومعهم سليط بن النعمان ،فشربوا فتحدثوا بشأن العير ٠٠ فخرج سليط من ساعته ، فأعلم رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، فبعث من

وقته زيد بن حارثة ، فلقوهم فأخذوا الأموال ، وأعجزهم الرجال وانما أسروا رجلا أو رجلين ، وقدموا بالعير، فخمسها ، فبلغ خمسها عشرين ألفاً ، وقسم أربعة أخماسها على السرية . وكان فيمن أسر الدليل فرات بن حيان ، فأسلم رضي الله عنه ، وان هذا الخبر ، يعين الوقت ، ويذكر طريق العلم بهذه العير » .

واني أرى أن خبر نعيم الذي وصل الى النبي صلى الله تعالى عليه وسلم في حينه كان من أحد طرق المعرفة ، والنبي صلى الله تعالى عليه وسلم كان يقظا عالما بما يفعل قريش من أوقات متاجرهم وخروجها الى الشام ، وميقاته ، وخروجها الى اليمن وميقاته ، فقد كانوا يألفون مواعيد معلومة يعدون فيها المتاجر ، والله تعالى قد أعلم بما يألف قريش ، فقال تعالى :

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ لِإِيلَافِ قُرَيْشٍ (١) إِيلَافِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ (٢) فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَٰذَا الْبَيْتِ (٣) الَّذِي أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَآمَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ (٤) ﴾ (١)

فالنبي لابد أن يكون بفراسة المؤمن يعلم أنهم سيخرجون في ذلك الوقت ، وانهم اذا لم يمروا به ، فانهم لابد أن يمروا بطريق آخر ، وهو طريق العراق فجاء الخبر ، متفقا مع ما نحسب أن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، وقد حسبه والله أعلم .

(١) قريش

كعب الأشرف اليهودى

٤٢١ ـ هذه حال فردية ولكنها ذات صلة بسير الحروب ، بين أهل مكة المشركين والنبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، وما كان يقوم به اليهود في هذه المعارك آحاداً وجماعات من تحريض للمشركين وتخذيل للمؤمنين ، وبث روح التردد والهزيمة في أهل المدينة ، واثارة الحروب في مكة ، وكلما أوقدوا ناراً للحرب أطفأها الله تعالى ٠

وكان كعب بن الأشرف يقوم في ذلك بأعمال خطيرة ، تؤجج النيران ضد المؤمنين ، وذلك كعباً من طيء ، وأمه من بني النضير ، وظاهر حاله أنه لم يدخل في عهد النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ولم يقف من النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ولا المؤمنين موقف المسالمة أو يعتزل ، فلم يكن مع هؤلاء وأولئك، بل أظهر العداوة ، وعمل تحت سلطانها، وبدا ذلك فيما يأتي :

(أ) أنه لما علم بمقتل المشركين من أهل بدر ، أعلن غضبه على المؤمنين قال : « لئن كان محمد أصاب هؤلاء القوم لبطن الأرض خير من ظهرها ، وبذلك أعلن العداوة المكنونة في نفسه، وماذا يصنع النبي صلى الله تعالى عليه وسلم مع عدو أظهر عداوته ، ولم يكن له عهد مع النبي صلى الله تعالى عليه وسلم » ٠

(ب) أنه كان يهجو النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ويشدد في الهجاء ، غير ملاحظ كرامة ، ولا حرمة ، بل كان منخلعاً من كل عهد ، ومن كل فضيلة ، وكان كالذين آذوا موسى من اخوانه اليهود ، وهو متحلل من كل مروءة ٠

(ج) أنه قدم المدينة يعلن عداوته للنبي صلى الله تعالى عليه وسلم ويجاهر بها ، ويحرض اليهود على المؤمنين ،ويلقي بالشر والفتنة بين المؤمنين من غير حريجة من خلق أو دين أو عهد ، وجعل يشبب بنساء المؤمنين ، ويشيع قالة السوء عن فضليات هؤلاء النساء ٠

(د) وكان يحرض يهود على أن تنقض عهدها مع النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، وأنه كان بأفعاله يجرىء كل من لم يؤمن بمحمد على الخروج

عليه ، وشن الحرب ، ولم يترك بابا من أبواب الكيد ، الا دخل اليه ، وليس له أهل يرد عليهم فيمنعوه ، بل هو منفرد بأعماله مقيم في حصن ، لا ينتمي الى بني النضير الا من جهة أمه ، ولا تسري عليه عهودهم ·

(هـ) انه لم يقف عمله عند العداوة والبغضاء ، واشاعة الفساد ، وتحريض يهود ، بل انه تجاوز ذلك ،اذ ذهب الى مكة ، واستعدى قريشا ، فنزل على الذين أوذوا في غزوة بدر ،وأخذ يحرضهم على قتال النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، وربط حباله بحبالهم، ونفسه بنفوسهم ، حتى لقد قال له أبو سفيان من فرط ما امتزجت نفوسهم به : « أناشدك أديننا أحب الى الله أم دين محمد وأصحابه ، وأينا أهدى في رأيك ، وأقرب الى الحق اننا نطعم الجزور الكوماء ، ونسقي اللبن على الماء ، ونطعم ما هبت الشمال فقال له كعب اليهودي الكتابي أنتم أهدى سبيلا ، وقال الله تعالى في كتابه » :

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَٰؤُلَاءِ أَهْدَىٰ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلًا ﴿٥١﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ ۖ وَمَن يَلْعَنِ اللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُ نَصِيرًا ﴿٥٢﴾ أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّنَ الْمُلْكِ فَإِذًا لَّا يُؤْتُونَ النَّاسَ نَقِيرًا ﴿٥٣﴾ أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَىٰ مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ ۖ فَقَدْ آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَآتَيْنَاهُم مُّلْكًا عَظِيمًا ﴿٥٤﴾ ﴾ (١)

وهكذا قد بدت العداوة من أفواههم، والتحريض من أعمالهم ، وارادة الفساد ، واشاعة الفاحشة بين المؤمنين من تصرفاتهم ، وكان كعب المثل الواضح في ذلك ، وكان يقول القصائد محرضا المشركين على المؤمنين، ويقول في شعره محرضا قريشا :

طحنت رحى بدر لمهلك أهله ولمثل بدر تستهل وتدمع

---

(١) النساء

ويقول في التحريض من هذه القصيدة :

ويقـــول أقـوام أسر بسخطهـــم	ان ابن أشرف قـــل كعبا يفـزع
ويقول : نبئت أن بني المغيرة كلهم	خشعــوا لقتل أبي الحكم وجدعوا
وابنـــا ربيعـــة عنـــده ومنبه	ما نال مثـــل المهلكـــين وتبـــع
نبئت أن الحـــارث بن هشـــامهم	في الناس يبني الصالحات ويجمع
ليزور يثرب بالجمـــوع وانمـــا	نحمي على الحسب الـــكريم الأروع

وهكذا يحرض على القتال ، ويرثي القتلى بعبارات تؤجج نيران الحقـــد ليدفعها الى الثأر ٠

النبيّ صَلّى اللّه عليه وسَلم لايعلن الحَرْب إلاعلى مَن أعلنها :

٤٢٢ ـ هذا مايفعله الرجل اليهودي المنطلق من كل العهود والمواثيق ، أيسكت النبي صلى الله تعالى عليه وسلم وهو المحارب الحذر الذي يهجـــم على مداخل الأذى قبل أن يلج منه العدو ،أم يعلنها على قومه أو من ينتمي اليهم من بني النضير ، وأكثرهـم لم ينالوا المؤمنين بمثل ما نال ، ولا تزر وازرة وزر أخرى والنبي عليه الصلاة والسلام لا يعلن الحرب الا على من أعلنها ، ولما يعلنوها ٠

أم يسكت ويترك الشر يستشري ،ويحاكيه في أفعاله بقية يهود ، لا شك أن آخر الدواء الـــكي ، انه لابد أن يجتث الداء في موضعه ، ولا يتركه حتى يفسد الجسم كله ، ولا منجاة حينئذ ،لم يبق الا أن يقتـــل كعبا حسمـــا لمادة الفساد ، وما السبيل لدفع شره غــير القتل ، انه لا سبيل الا هو ، وأن يقضي على الداء ، آن أن يعلن عليـــه النبي الحرب ، وهل تعلن الحرب على واحد ، لقد قلنا ان من ينتمي اليهم لم يكن منهم مثل ما فعل ٠

فلم يبق الا أن يقتل ، وأن يدعـــو النبي صلى الله تعالى عليه وسلم من يتولى قتله في مأمنه ، وقد اتخذ حصناً يأوي اليه ، فحرض عليه الصلاة والسلام من يقتله من غير ضجة ، ولا ازعاج لأحـــد من الآمنين ، ولقد انتدب لذلك من رأى في نفسه القدرة من الصحابة،واستأذنوا الرسول في أن يخدعوه بالقول فأذن ٠

ولقد وجدنا من الغـــربيين الذين يكتبون في تاريخ الاسـلام من أثاروا زوبعة حول النبي صلى الله تعالى عليه وسلم • وكيف يأمر بالقتل غيلة ، وهو نبي مرسل ، قالوا ذلك ، ونسوا أنه نبي محارب لا يدعـو الى الاستســـلام للشر ، بل يقاومه ، ويحتاج لحمـاية ،الناس من الدماء ، وانه بمقتضى حكمة النبوة يجب أن يدفـع الضرر الكثير بالضرر القليل ، وانه في سبيل أن تحقن الدماء في القتال يجب منع أسبابهـا ،وان الذي كان يثير الحرب جذعا هـو واحد وقتل واحد شرير خير من قتـل جماعة في ميدان الحـرب ، فهـو كان يحرض على الحرب •

قالوا ان القتـل كان غيلة ، ونحن نقـول في ذلك ان الرجــل جاهـر بالعداوة ، وشبب بنساء المسلمين ، وحرض اليهـود على الانقضـاض على المؤمنين ونكث العهـود ، ولم يكتف بذلك ، بل ذهب الى مكة ، وأثار الأحقاد ودعا الى أن يقاتلوا محمداً •

فعل كل ذلك جهاراً نهاراً ، فاذا لم يتوقع من محمد صلى الله تعـالى عليـه وسلم أنه يتربص به الدوائر الدائرة ،وأنه يريد أن يقضي عليه ، لأنه مادة الشر ولسانه ، اذا لم يقدر ذلك فهـوأبله ولم يكن كذلك فمحمد عليه الصلاة والسلام أمر بقتله في وقت كان هـو يتوقع ذلك ، أو ينبغي أن يتوقع ذلك ولا يعد القتل غيلة لمن يتوقع القتل ،ان قتل النبي صلى الله تعالى عليه وسلم يشـبه من يعلن عن شرير بأنه ارتكب آثاما كثيرة ، وأن من أحضره حيـاً أو ميتاً ، فله جزاء •

اننا فرضنا أن الحكمة والعـدالة والأخلاق توجب التخلص منه ، واذا لم يجز التخلص منه بالطريقة التي حدثت وهي الخـديعة ، فكيف كـان يمكن التخلص ، أيحضره من ينتمي اليهـم فيقدموه للنبي صلى الله تعالى عليه وسلم، انهم لا يفعلون ذلك ، ولم يوجـد من يتحمل تبعة عمله وما يفعل ، واذا لم يكن ذلك أيأمر النبي صلى الله تعـالى عليه وسلم باحضاره بين يديه والحكـم عليه بالقتل ويتولى قتله ، وما الفرق بين هذا ، وبين ما كان من حيث المعنى•

ان قتله كان أمراً لابد منه لما قـام به ، ويقوم به رئيس الدولة العـادلة التي يحكمها ذلك الحاكم العادل ، فانه لا سبيل لدفع فساده وافساده الا بقتله، بأي طـريق كان القتل ، وكل ما فعله النبي صلى الله تعالى عليه وسلم أنه أباح

دمه ، جزاء ما ارتكب ، ومنعاً لاستمراره في غيه ، فقد كان يقوم بجريمة مستمرة غير متحرج ، فالنبي صلى الله تعالى عليه وسلم كان مخيراً بين أمرين اما أن يقتله واما أن يتركه يرتع اللذين لا مناص من اختيار أحدهما •

وان أولئك الذين يثيرون الشك حول أعمال محمد صلى الله تعالى عليه وسلم ، وحول رسالته السماوية التي كانت رحمة للعالمين ـ يقولون ان الرسالة الالهية تتنافى مع القتل غيلة ، بل تتنافى مع أصل القتل ، كما كان من عيسى عليه السلام الذي يروون عنه أنه قال : « من ضربك على خدك الأيمن فأدر له الأيسر »

ونقول في الجواب عن ذلك ، ان قمع أعداء الدعوة الدينية لا يتنافى مع الرسالة ، فموسى عليه السلام وهو من أولي العزم من الرسل ، قد قتل بيده ، وقاتل ، ودعا بني اسرائيل الى القتال ، وما تنافى ذلك مع رسالته الالهية التي نزلت بها التوراة ، وهي كتب العهد القديم المقدسة عند اليهود والنصارى معاً •

ويحسبون أن الرحمة النبوية تمنع القتل والقتال ، ونقول في ذلك ان القتل المشروع يكون بباعث من الرحمة ، فليست رحمة النبوة انفعالة رعناء تكون على موضع البرء والسقم ، انما رحمة النبوة تكون بالكافة ، ومن الرحمة بالكافة أخذ المذنب بذنبه ، ومنع الفساد في الأرض ، قال تعالى :

﴿ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٥١﴾ ﴾ (١)

والنبي صلى الله تعالى عليه وسلم يقول : « أنا نبي المرحمة ، وأنا نبي الملحمة وملحمته نابعة من مرحمته ، وكثير من العفو يكون مشتملا على أقسى العذاب ، وهو العفو عن الجاني الذي لا رجاء في صلاحه » •

---

(١) البقرة

والنبي صلى الله تعالى عليه وسلم قد اشتملت شريعته على العفو في الأمور التى لا يعود العفو فيها بالشر على الجماعة ، كما قال تعالى :

﴿ وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا۟ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِۦ ۖ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّٰبِرِينَ ﴿١٢٦﴾ ﴾ (١)

فالصبر عن أخذ الجاني بجريمته انما يكون في الاعتداء على الآحاد الذي لا يتعدى الأمر فيه الى الجماعة وقوله تعالى :

﴿ ﴿١٩٨﴾ خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿١٩٩﴾ ﴾ (٢)

انما هو في الأمور الشخصية التي لا يعود ضررها على الكافة ، ويقول تعالى:

﴿ وَلَا تَسْتَوِى ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ ۚ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٣٥﴾ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٦﴾ ﴾ (٣)

وهذا واضح أنه في الأمور التي تمس الشخص ولا تصل الى الجماعة ، وكلام النصارى الذي ينسبونه الى المسيح عليه السلام انما هو في الأمور التي لا تمس الا الشخص ، واذا فهموه على أوسع من ذلك ، فلكل شرعة ومنهاج ، والله ولي الرشاد .

---

(١) النحل
(٢) الأعراف
(٣) فصلت

غـــزوة أحـــد

٤٢٣ ـ أهمت قريشا هزيمة بدر الكبرى ، اذ كانت حقاً يوم الفرقان بين الحق والباطل ، وقوة المؤمنين وضعفهم، وكانت أول هزيمة تنالهم من جيش محمد صلى الله تعالى عليه وسلم ، فكانت مرارة الهزيمة شـديدة ، لأنها نالت أشياخهم ، والزعماء فيهم الذين كانوا يجعلونهم بحكم الجاهلية لا يعـدلهم بل تعدلهم قبائل، وما من بيت من بيوت كبرائهم الا كان فيه جرح كبير قد ولد ترة شديدة ٠

وفوق ذلك قـد أحسوا بأن دولة الشرك التي كانوا يستمسكون بها قـد أخذت تنهار ، وقـد كانوا يعتبرونها عقيدة آبائهم ، وكانوا يقولون ان نتبع الا ما ألفينا عليه آبائنا ، أولو كـان آباؤهم لا يعقلون شيئاً ولا يهتدون ٠

وقد وجدوا من بعد ذلك مكانتهم في العرب ، وشرفهم أخذ ينهار ، ولو توالت هذه الحال لزال شرفهم ولزالت مكانتهم ، وظنوا أن الأعـراب الذين كانوا يخضعون لشرفهم سيخرجـون من بعد عن نفوذهم ، وأن القبائل العربية، تتسنم مكانهم ان استطاعوا ٠

ورأوا متاجرهم تسـاق الى محمد صلى الله تعالى عليه وسلم غنائم تقسم بين أصحابه ، وأنهم لا قبل لهـم بأن ينفذوا بمتاجرهم الى الشـام ليتوردوا ويسـتوردوا وتستقيم لهـم رحـلة الشتاء والصيف ٠

رأوا كل هذا وحاولوا أن ينالوا من محمد صلى الله تعالى عليه وسلم نيلا ، فلم ينالوا ، فأغاروا غارة السـويق ،فمـا استفادوا كثيرا ، بل لم يستفيدوا قليلا ٠

رأوا كل هذه الدنايا ، فهل يسكتون ، وان سكتوا عن متاجـرهم ، فلن يسكتوا عن شرفهـم الذي ثلم ، ولن يسكتوا عن الثارات التي ولدتها المقتلة في أشياخهـم ، ومن كانوا في موطن الزعامة فيهم ٠

القوة بدل العير :

٤٢٤ ـ مشى عبد الله بن أبي ربيعة، وعكرمة بن أبي جهل ، وصفوان بن أمية في رجال من قريش ممن أصيب آباؤهم وأبناؤهم يوم بدر فكلموا أبا سفيان بن حرب ليقودهم الى المعركة الجديدة ، وكانت قيادة المعركة التي هزموا فيها بين أبي جهل ، وعقبة بن أبي معيط ، فأرادوا توحيد القيادة هذه المرة ، وأبو سفيان بقية رجالهم ،أو من هو في مكان الزعامة منهم ،وأبو سفيان هو الذي نجا بعيرهم ، ويريدون أن تكون العير الناجية فداء لثأرهم ٠

قال هذا الوفد الذي ذهب الى أبي سفيان ، وخاطب أصحاب العير قائلا :

يا معشر قريش : « ان محمداً قد وتركم ، وقتل خياركم ، فأعينونا بهذا المال على حربه ، لعلنا ندرك منه ثأراً » ٠

فنزلوا عن المال ، ليكون مادة القتال ، وأخذوا الأهبة من الرجال ،وأدوات الحرب ، لأنهم علموا أنها الذلة والخزي والعار ، ان لم يستردوا مكانتهم ٠

اجتمعت كل بيوتات قريش وبطونهم ، ولم يبق أحد منهم الا أخذ الأهبة، واستعد للقتال ، وأن يضربوا المدينة ضربة قاصمة ، ان لم يقتلعوا الاسلام منها ، فانهم ينالون مأرباً وثأراً ،ويستردون شرفاً ويدفعون عاراً ٠

وضموا اليهم كنانة وتهامة ، وأحباشاً كثيرة ممن لهم دربة في القتال بالرماح ، وكان منهم وحشي قاتل أسد الله حمزة الذي مني بالعتق اذا قتل حمزة الذي كان سيفه البتار يهد قريشاً هداً ، فما ذهب ليقاتل ، ولكن ذهب ليترصد حمزة ، لا ليواجه الجيش ،فكأنه ذهب للاغتيال ، لا للقتال ٠

ولم يكتفوا بمن استعانوا بهم من قبائل حول مكة وأحباش ، بل استعانوا ببعض المشركين من الأوس في يثرب لأن لهم أحقاداً كأحقادهم ، ولم يرضوا النفاق أو لم يظهروا به ، فقد روى قتادة أن أبا عامر بن صيفي أخذ بني تعلبة ، وكان قد خرج من مكة مباعداً لرسول الله ، ومعه خمسون من غلمان الأوس ، وكان قبل قدوم النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، وتوهمت قريش أو أوهمها أنه ان لقي قومه ، لم يختلف عليه أحد ٠

وقد اجتمع بذلك نحو ثلاثة آلاف ،ومعهم مائتا فرس عليها مائتا فارس ، وكان خالد بن الوليد على مائة جعلهـا يمين الخيل ، وعكرمة بن أبي جهل على مائة جعلها على ميسرة الخيل ، وانهم رأوا أن محمدا صلى الله تعالى عليه وسلم ، انما يقاتل مزوداً بحمية الدين،ومؤيدا بروح معنوية تفوق قوة العدد والعدة وتتغلب على الصعاب ، فرأوا أن يكون معهم المحرض المعنوي ، وهو أن يكون نساؤهم معهم ، بحيث يستحـون أن يفروا أمامهن ، وأن يؤخذن سبايا .

فخرج أبو سفيان بن حرب ، وهـو القائد بزوجه هند بنت عتبة ، وكـان لها ثارات ، قتل ابنها وأخوها وأبوها ،وخرج عكرمة بن أبي جهل ومعه زوجه أم حكيم بنت الحارث بن هشـام بن المغيرة .. وهكذا كثيرات من عقائـل القوم ، وذوات الشرف في قـريش ،ليكون خروجهن محرضاً على الجـلاد ، ومانعاً من الفرار ، وجملة القـول في ذلك أنهم تزودوا بالعدد ، وبالسلاح والكراع ، وبالمحرضات كلها ، لأنهـم يعلمون أنهم أمام خصم مزود بكل قوي النفس والايمان الذي فقدوه .

وجاءوا معهم بالشعـراء والخطباء ليحرضوا ، وليدفعـوا في الجند روح البأس والقوة ، وحب النضـال ، ولم يتركـوا باباً من أبـواب الاعـداد الا دخلوا منه .

وكان ممن اشترك في التحـريض على القتـال أبو عزة عمرو بن عبد الله الجمحي ، وكان قد أسر فيمن أسر ببدر الكبرى ، فمن عليه النبي صلى الله تعالى عليه وسلم بغير فداء ، لأنه فقـير كثير العيال ، على ألا يظاهر عليه ، وبالتالي لا يكون لسانه للتحريض على قتـال النبي صلى الله تعالى عليه وسلم .

ولكن المشركين ما زالوا به حتى أخرجوه عن عهده للنبي صلى الله تعـالى عليه وسلم ، فقد قال له صفـوان بن أمية يا أبا عزة انك امرؤ شاعر ، فأعنا بلسانك ، فاخرج معنا ، فقـال : ان محمدا قد من علي ، فلا أريد أن أظاهر عليه ، قال بلى ، فأعنا بنفسك ، فلك عهد الله علي ان رجعت أن أعينك في بناتك وان أصبت أن أجعل بناتك مع بنـاتي ، يصيبهن ما أصـابهن من عسر ويسر .

خرج أبو عزة وأخذ يحـرض بني كنانة هو وغيره على أن ينضمـوا الى جيش قريش ومن معهم في قتال النبي صلى الله تعالى عليه وسلم .

ويظهر أن النبي صلى الله تعالى عليهوسلم قد علم بمخرجهم ، وفي كثير من الروايات أن العباس بن عبد المطلب الذي لم يشترك في هذه الحملة أرسل الى النبي صلى الله تعالى عليهوسلم بخبره ٠

وان النبي صلى الله تعالى عليه وسلمكان له فوق ذلك العيون يبثها ويتعرف أخبارهم ، فيعرف عيرهم وبالأولى يعرف نفيرهم ، ولكنه انتظر حتى يقع ما توقع ، ويكون أمامهم وجهاً لوجه ،وما كان له أن يلقاهم قبل ذلك في غير مأمنه ، وحيث مستقره ٠

وقد سار جيش قريش سيرته ، حتىوصل الى المدينة ،وانساب في مزارعها، تأكل وتعبث أفراس المشركين وابلهم ،متحدين مهاجمين ٠

لقاء النبيّ لهم صَلّى الله عليه وسَلم :

٤٢٥ ـ كان قدوم ذلك الجيش اللجب الى المدينة في أول شوال من السنة الثالثة ، وكانت الغزوة في منتصفه ،وروي أنها كانت في الحادى عشر منه ٠

وقد أخذ النبي صلى الله تعالى عليهوسلم الأهبة للقاء لا بكثرة العدد والعدة ولكن بقوة الايمان والحق وقوة الشورى وبث روح التعاون والاندماج النفسي بالشورى فان الشورى بين المخلصين تجعل نفوسهم تندمج وتحس كل نفس بأنها جزء من الأنفس ٠

وتحس كل نفس بأنها جزء من الأنفس ٠

وقف بعد الصلاة بين المسلمين ، وقد عاينوا وأحس المؤمنون منهم بأن الأمر خطر : أخذ رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم يستشير المسلمين قبل المعركة ٠

وكان محور الشورى يدور على أمرين أيخرج النبي صلى الله تعالى عليه وسلم بجيش الايمان ، ويقاتلهم حيثيكون خير مكان للقتال ، أم أنه يبقى في المدينة ، فان أقاموا أقاموا في أسوأمقام ، وقد ينفد منهم الزاد والراحلة ، وان دخلوا الى المدينة ولها مسلكها المبنية بالحجارة والآجر ، وكأنها حصن وهم لا يعرفون مداخله ٠

كانت الشورى في أي الأمرين أنكى للعدو ، وأقرب الى النصر ، لقد كان رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم يكره الخروج ، وروي أن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم قال : « امكثوا واجعلوا الذراري في الآطام فان دخل علينا القوم في الأزقة قاتلناهم ، ورموا من فوق البيوت » ، وروى ابن اسحاق أنه عليه السلام قال : « ان رأيتم أن تقيموا بالمدينة ، وتدعوهم حيث نزلوا، فان أقاموا أقاموا بشر مقام ، وان هم دخلوا علينا قاتلناهم فيها » •

وانه مما يسترعي الأنظار أن عبد الله بن أبي بن سلول كان على هذا الرأي، ولعله جبن اللقاء منه ، ولكيلا ينكشف النفاق ، أو لأنه يرى أن بعض مواليه اليهود قد يجدها فرصة للانقضاض •

ومهما يكن من مقصده ، والله أعلم بذات الصدور ، فانه قد قال :

يا رسول الله ، أقم بالمدينة لا تخرج اليهم ، فوالله ما خرجنا منها الى عدو لنا قط الا أصاب منا ، ولا دخلها علينا الا أصبنا منه ، فدعهم يا رسول الله ، فان أقاموا أقاموا بشر محبس ، وان دخلوا قاتلهم الرجال في وجههم ، ورماهم النساء والصبيان بالحجارة من فوقهم ، وان رجعوا رجعوا خائبين كما جاءوا •

وقد خالف ذلك الرأي مع أنه رأي النبي صلى الله تعالى عليه وسلم كثيرون من المجاهدين ، وكانوا صنفين ، صنف من أهل النجدة والبأس والقوة لم يجدوا في الانتظار ما يتفق مع ما عندهم من اقدام ، وأنه لا بد أن يلاقوهم ولا ينتظروهم ومن هؤلاء حمزة بن عبد المطلب أسد الله ، فقد قال في قوة : «والذي أنزل عليك الكتاب لنجادلنهم» •

وقال رجل من الأنصار الأشداء : ومتى تقاتلهم يا رسول الله اذا لم تقاتلهم عند شعبنا •

والصنف الثاني من الذين لم يحضروا بدراً ، وأرادوا أن يكون لهم في هذه الموقعة شرف مثل شرفها ، وقالوا كنا نتمنى مثل هذا اليوم ، وندعو الله فقد ساقه الينا ، وقرب المسير •

وبذلك انتهى الرأي بالخروج ، لتكاثر الذين أرادوه ، وكثرة الذين أرادوا أن يستعيضوا عن شرف الجهاد في بدر بشرف الجهاد في أحد •

وما كان لمحمد الذي جاء بالشورى،وأمر بها الا أن يستجيب لحكم الكثرة ، ولا يفرض فيه الخطأ ، كما يفعل ويروج المستبدون في هذا العصر ، اذ يفرضون في أنفسهم الصواب الذي لايحتمل الخطأ ، وفي تفكير غيرهم الخطأ الذي لا يحتمل الصواب ، وتردت بهم الجماعات في منهوى سحيق ٠

النبيّ صلى الله عليه وسلم يعد المؤمنين للقتال :

٤٢٦ ـ أخذ النبي صلى الله تعالى عليه وسلم يتعرف خبر الأماكن التي يلقى فيها العدو المكاثر المكابر ، وأنه لكي يختار لجيشه لابد أن يعرف أماكن جيش العدو ويمر في غير ممرهم ٠

قال النبي كما روي في الصحيحين هل من رجل يخرج بنا على القوم من كثب ، من طريق لا يمر بنا عليهم ،فقال أبو خيثمة أنا يا رسول الله ،فأخذ يسير ، فنفذ في حرة بني حارثة ، وبين أموالهم ، حتى سلك بهم في مال لمربع ابن قيظي ، وكان رجلا منافقاً ضريراً،فلما سمع حس رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ومن معه من المسلمين ،فقام يحثي في وجوههم التراب ، ويقول : ان كنت رسول الله فاني لا أحل لك أن تدخل في حائطي ، وأخذ حفنة من التراب في يده ، ثم قال : والله لو أني أعلم أني لا أصيب بها غيرك يا محمد لضربت بها وجهك ، فابتدره القوم ليقتلوه فقال النبي صلى الله تعالى عليه وسلم : لا تقتلوه ، فهذا الأعمى أعمى القلب ، أعمى البصر ٠

ولكن قبل هذا النهي ضربه بعض القوم بالقوس فشج رأسه ٠

كان هذا الاتجاه من النبي صلى الله تعالى عليه وسلم بعد أن نزل على رأي الكثرة ممن استشارهم من المؤمنين ٠

وقبل أن يخوض بهم المعركة نبههم الى أنه نزل على آرائهم ، فلبس لأمة الحرب ، واتخذ درعه استعداداً للميدان ، وأخذ يضع الجيش مواضعه ٠

أحس بعض المؤمنين أنهم استكرهوا الرسول ، وقالوا أمرنا رسول الله أن نمكث بالمدينة ، وهو أعلم بالله تعالى وما يريد ، ويأتيه الوحي من السماء ٠

حسبوا أن الأمر من النبي صلى الله تعالى عليه وسلم بالبقاء يتصل بالوحي

وأمر الله فيه ، وظنوا ذلك لفرط ايمانهم ولو كان الأمر كذلك ما أخذ فيه رأي أحد ، فلا رأي في أمر الله تعالى ونهيه ، ولكن كان من الرسول الرأي في الحرب والمكيدة ، ولهذا عرض الأمر عليهم ، واختار رأي الكثرة ، لأنه الشورى .

ويظهر أنهم رجعوا عن رأيهم على حسب الزعم الذي زعموه ، ولكن ليس معناها التردد ، فان مع التردد الهزيمة ، اذ التردد يترتب عليه عدم العزيمة ، والعزيمة من قوة الجيش .

ولقد نبههم النبي صلى الله تعالى عليه وسلم الى منع التردد ، وقال في حكمة النبوة « ما ينبغي لنبي لبس لأمة الحرب وأذن بالخروج الى العدو أن يرجع ، حتى يقاتل ، وقد دعوتكم الى البقاء ، فأبيتم الا الخروج فعليكم بتقوى الله تعالى ، والصبر عند البأس ، اذا لقيتم العدو ، وانظروا ماذا أمركم الله » .

مضى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم بجيشه من المؤمنين ، وكان عدة المشركين نحو ثلاثة آلاف كما ذكرنا ، بينما كان عدة المسلمين ، وفيهم مرضى القلوب ألفاً ، وأراد بعض الأنصار أن يستعينوا بحلفاء لهم من اليهود ، فقد ذكر الزهري أن الأنصار استأذنوا الرسول في الاستعانة بحلفائهم من المدينة ، فقال صلى الله تعالى عليه وسلم لا حاجة لنا فيهم ، لأن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم أراد أن يكون جيشه ممن يريدون القتال دفاعا عن عقيدتهم ، ولأن الله تعالى يقول :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُّواْ مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ ٱلْبَغْضَآءُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ ۚ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلْـَٔايَٰتِ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١١٨﴾ ﴾ (١)

وما كان له أن يستعين باليهود في نصرته ، وقد كان بينه وبين بني قينقاع ما كان مما اضطره لأن يخرجهم ، وكتب الله عليهم الجلاء .

---

(١) آل عمران

المنـــافقـــون :

٤٢٧ ـ نقى الله تعالى الجيش الاسلامي من المنافقين فخـــرج من الألف نحو ثلث الجيش من أتباع عبد الله بن أبي ، وأظهر أنه خرج مغاضباً ، لأن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم لم يأخذ برأيه ، وكذلك كـل مستبد يريد أن يفرض رأيه على غيره ، فهو لا يخلو من نفاق ، وقد يبلغ في نفاقه ما بلغه منه عبد الله بن أبي رأس النفاق بين المسلمين، وكان خروجه ومن معه اعلاماً لأهل الايمـــان بنفاقهـم ، ولقـد قال أطاعهم وعصاني •

ولقد كان من أثر دعوته الى الخروج أن لامه بعض المخلصين ، وهم باتباعه بعض المؤمنين فكان ممن لامه ومن معه عمرو بن حزام ، وهو يقـــول له ولمن معه : يا قوم أذكركم الله ألا تخـــذلوا قومكم ونبيكـــم ، عند من حضر من عدوكم » فكان من نفاقهـــم أن قالوا والعدو يساور المدينة لو نعلم أنكـــم تقاتلون ما أسلمنا لكم ولكنا لا نرى أن يكون قتال فقال الرجـــل المؤمن عند ما استعصوا عليه أبعدكم الله أعـداء الله ، فسيغني الله تعالى عنكم نبيه •

وقد كان رجوعه سبباً في اضطراب بعض المسلمين من المترددين ، وان لم يكونوا من المنافقين ، فقد همت طائفتان من المسلمين أن تفشلا والله وليهما •

وهم بنو سلمة ، وبنو حارثة أن يعودوا مع من عاد مع عبد الله بن أبي ، وكان ذلك من فرط جزعهم من لقـــاء عدد يفوقهم أضعافا ، وهو مزود بزاد الضغن والعدة ، وقـــد أثر النفاق في نفوسهم وان لم يكونوا منافقين •

وهؤلاء هم الذين قال الله تعالى فيهم:

﴿ وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ مَقَاعِدَ لِلْقِتَالِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (١٢١) إِذْ هَمَّت طَّائِفَتَانِ مِنكُمْ أَن تَفْشَلَا وَاللَّهُ وَلِيُّهُمَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ (١٢٢) ﴾ (١)

---

(٢) آل عمران

وقد فرح رجال هاتين الطائفتين لقوله تعالى : « والله وليهما » اذ اطمأنوا الى أنهم لم يكونوا منافقين وان كانوامترددين ، لأن الله ولي المـــؤمنين ، والمنافقون وليهم الشيطان ٠

وانه اذ خرج هؤلاء كان النبي صلىالله تعالى عليه وسلم يعرض عليه صغار المؤمنين الذين لم يبلغوا الخامسة عشرة ، ولم تكن فيهم مهـــارة في الرماية ولا قوة بدنية تغني غناء الرجال ، فقدثبت في الصحيحين أن عبد الله بن عمر عرض على النبي صلى الله تعالى عليـــهوسلم في أحد فرده ، وكذلك رد يومئذ أسامة بن زيد ، وزيد بنُ ثابت ، والبراء بن عازب ٠٠ وغيرهم ٠

وقد هم برد رافع بن خديج وكانفي مثل هذه السن ، فقيل له انه يحسن الرماية ، فأجازه ، لأنها لا تحتاج الى قوة في البدن ، ولـــكن الى مهـــارة في اصابة الهدف ٠

وكان سمرة بن جندب قد تقـدم أيضاً في قريب من هذه السنة فهم النبي صـــلى الله تعالى عليه وسلم أن يرده ،فقيل انه يصرع الراعي ، ويظهـر أنه رآه قوي المنة ، فأجازه ٠

مقاعــد القتــال

٤٢٨ ـ أخذ النبي صلى الله تعالى عليه وسلم يبوىء المؤمنين مقاعد للقتال ، وقد صفى الله تعالى الجيش من المنافقين ، وثبت المترددين ، فقد قال النبي صلى الله تعالى عليه وسلم داعياً الى التقوى والصبر، وأن الله تعالى ناصرهم، كما نصرهم ببدر وهم أذلة ، ومبشرهم به ان صبروا ، فقال تعالى حاكياً عن نبيه عليه الصلاة والسلام في تثبيتهم في ذلك اليوم :

﴿ وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢٣﴾ إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَن يَكْفِيَكُمْ أَن يُمِدَّكُمْ رَبُّكُم بِثَلَٰثَةِ ءَالَٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُنزَلِينَ ﴿١٢٤﴾ بَلَىٰٓ إِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَٰذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ ءَالَٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُسَوِّمِينَ ﴿١٢٥﴾ وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِۦ وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ﴿١٢٦﴾ لِيَقْطَعَ طَرَفًا مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَوْ يَكْبِتَهُمْ فَيَنقَلِبُوا۟ خَآئِبِينَ ﴿١٢٧﴾ ﴾

ثبت الله تعالى قلب المؤمنين بهذه البشرى ، وهي الامداد الروحي بالملائكة، ان صبروا في الميدان وثبتوا، وذكروا الله تعالى ، وأنه فوق كل القوى، وصبرت نفوسهم ، فلم تنحرف عن القتال والايغال وراء العدو ، ولم تشغل بالغنيمة عن النصر ، وان صبروا فلم يخالفوا القائد المدرك الذي يدعوهم الى الرشاد ، والى أن يتعاونوا جميعاً في الميدان ، وعلموا أنهم يؤلفون جيشا متعاونا وليسوا فرقا متفرقة ، تتنافس في الغنائم ، ولا تتنافس في النصر •

تقدم رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، ومضى حتى نزل الشعب من أحد في عدوة الوادي الى الجبل ، فجعل ظهر عسكره عنده لكيلا يتمكن المشركون •

---

(١) آل عمران

وصف الصفوف ، كما فعل في بدر، وقلده المشركون في هـــذا فصـــفوا الصفوف أيضاً وجعل الرماة وعددهـم خمسون رامياً ، وراء ظهـــر الجيش ، وجعل عليهم عبد الله بن جبير أمـــيراوأوصاه ، بأن ينضـــح عن المسلمـين الخيل ، وقال له : « انضح الخيـــل عنابالنبـــل ، لا يأتـــونا من خلفنا فاثبت مكانك لا تؤتين من قبلك» ·

ولبس رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم لأمته ، وشدد الوصية للرماة ، وذلك ليمنع التفاف جيش المشركين حول جيش المسلمين ، وعدد المشركـــين كبير ، وجيشهم كثيف ·

وبعد أن صف النبي صلى الله تعالى عليه وسلم جيشه أمره بألا يقاتل ، حتى يأمره بالقتال ، ليتقدم الجيش على قلب رجل واحد ، وظهـــورهم في حمـــاية الرماة ·

وذلك تنظيم حربي لم يعرفوه ، ولو أن الرماة أطاعوا ما اضطـــرب جيش المسلمين ، ولا أصابهم قرح في هـــذه الغزوة ، وقد كان أمام جيش الايمـــان جيش الشرك يفاخر بكثرته وعدته ، وقد اتخذت الأفراس التي تجـــاوزت مائتين ، والابل مزارع المدينة مستراداً ومذهباً ، وذلك مما أثار حميـــة أهل المدينة للقتال ، حتى قد قال قائلهـــم ، والنبي يشـــاورهم في الخـــروج الى المشركـــين أترعى زروع بني قبيلـــة الأوس والخزرج ولما تضار ·

الجيشان

٤٢٩ ـ التقى الجيشان ، ولكن لم تبدأ المعركة ، ولا بد أن نذكر الأوصاف الظاهرة والنفسية للجيشين قبل أن يخوضا المعركة ، لأن الحال لهما تنبيء عن المآل ، والله ولي المؤمنين ٠

كان جيش المشركين مزوداً بكل أسباب القوة المادية فعددهم أضعاف مضاعفة لعدد المؤمنين ، ومن ناحية الدوافع النفسية كان يدفعهم الى القتال أولاً الثأر ، ومحاولة استرداد مكانتهم في العرب ، والخشية على تجارتهم التي كانت مصدر ثروتهم ، وقد تهددتها قوة المسلمين ٠ وقد أخذوا عليهم كل مرصد ، فوجد الدافع الى القتال والاستماتة فيه من النفس والنفيس ، وأدركوا أن الأمر بينهم وبين النبي صلى الله تعالى عليه وسلم أمر حياة عزيزة كريمة يتفاخرون فيها ، أو موت ذليل فيه العار والثبور ٠

ولقد أخذوا يعدون العدة الحربية في التنظيم آخذين مما صنع النبي صلى الله تعالى عليه وسلم وهو تنظيم الصفوف ، فالمحارب مأخوذ بنظام محاربه، تسري اليه بالمحاكاة والمدافعة نظمه ومسالكه ٠

ولقد أخذوا نساءهم معهم ، وكلهن موتورات محنقات ، فأرادوا أن يثبتوا بهن ، وألا يرتكبوا عار الفرار أمامهن، ويسلمونهن للسبي ٠

وكل ذلك لتقوى الروح المعنوية ،ولا يفرون يوم الزحف ، وقد رأوا محمداً وصحبه يثبتون عند الحرب ولا يفرون يوم الزحف ٠

ولقد روي أنه لما التقى الناس ودنا بعضهم من بعض قامت هند بنت عتبة في النسوة اللائي معها ، وأخذن يضربن بالدفوف ويحرضن على القتال ، وكان اللواء في بني عبد الدار فقالت محرضة لهن :

ويها بني عبد الدار ، ويها حماة الأدبار ، ضربا بكل بتار ٠

وتقول هند الموتورة في أبيها وأخيها وابنها :

ان تقبلوا نعانق ونفرش النمارق
أو تدبروا نفارق فراق غير وامق

ولقد كان أبو سفيان حريصا على بث الروح الدافعة الى القتال في جنوده الى آخر لحظة قبل القتال ، لقد كان اللواء لبني عبد الدار ، وروى أبو اسحاق ان أبا سفيان قال لهم يحرضهم على القتال : يا بني عبد الدار ، قد وليتم لواء يوم بدر ، فأصابنا ما قد رأيتم ، وانما يؤتى الناس من قبل راياتهم ، اذا زالت زالوا ، فاما أن تكفونا لواءنا ، واما أن تخلوا بيننا وبينه فنكفيكموه فهموا به وتواعدوه وقالوا نحن نسلم اليك لواءنا ستعلم غدا اذا التقينا ، كيف نصنع !!

جيش المؤمنين :

٤٣٠ ــ هذا جيش قوي بالعدد ، وقوي بالعدة ، وبثوا فيه روح القوة وأثاروا فيه الحمية ، فكانوا المجتمعين على باطلهم ، جمعهم الشر والحقد والثأر ٠

ولنتجه الى جيش المؤمنين ، ولا يمكن أن نقول انه في ايمانه وقوة روحه كان أقل من قوة المشركين المدافعة ، فاذا كان أولئك يدفعهم الحقد والضغينة والتراث ، فان جيش الايمان يدفعه ايمان قوي راسخ كالرواسي ، وحب في الشهادة ، وارادة من عند الله ومعهم أعظم قواد الأرض ايماناً وروحاً ، وللمؤمنين فيه أسوة حسنة ، ولكن يجب أن نذكر بعض الملاحظات :

(أولاها) أن بعض الذين لم يحضروا بدراً ، ورأوا غنائمها ، ربما كان من المحرض لهم على القتال والخروج للأعداء ــ رجاء أن ينالوا من الغنائم أو الأنفال ما ناله اخوانهم من قبل ،وان كان ذلك مع الايمان والرغبة في أن يفدوا الاسلام بأنفسهم ، وجانب المال ان كان بعض الهدف ربما دفع الى طلبه ، فغلب عند ظن النصر ، ومن أجل ذلك كان المنع من الأسر قبل أن يثخن المسلمون في العدو ، واذا كان الأسر ممنوعا ، فالجري وراء الغنائم أشد منعاً قبل أن يثبت النصر ، ويستقر ٠

(الثانية) أن بعض المقاتلين من جيش المؤمنين بعد تصفيته ، وتنقيته من المنافقين كان لا يزال فيه بعض المترددين الذين لم يعقدوا العزم قوياً ثابتاً، فالطائفتان اللتان همتا ، بأن تفشلا ،لا أستطيع أن أقول ان كل آحادهما • قد عقد العزم ، وأصر على القتال وأراد النصر ، وانه لا يذهب بقوة الجيش الا التردد ، فان كان من بعض آحاده ،نقصت القوة بمقدار تردده •

(الثالثة) أن اليهود كانوا حول المدينة ، ولهم تراث ، وقد انضم اليهم المنافقون ، وهؤلاء يكونون عورة من وراء الجيش المقاتل •

ولكن قيادة رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم قد ذهبت بكل عوامل الضعف ، واختفت كل عناصر التردد ابتداء ولم يحدث النزوع الى الغنائم الذي كان مستكناً في بعض النفوس الا عندما لمع بريق الغنيمة ، وظهرت بوادر النصر ، فلم يكن التتبع للفلول المهزومة من قوات المشركين •

هذا بانصاف حال الجيشين المقاتلين وكلمة الله أعلى ، وله وحدة العزة ، وانه ناصر جنده ان استقام على الطريقة ، واتخذ الصبر في الزحف ، والصبر بضبط النفس عدة له ، فان ذلك هو القوة بعد توفيق الله تعالى •

وان النبي صلى الله تعالى عليه وسلم قد أخذ الأهبة وقوى النفوس ، وشحذ العزائم وحقق قوله تعالى :

(١) آل عمران .

المعركة

٤٣١ ـ بوأ النبي صلى الله تعالى عليه وسلم لجنده مقاعد للقتال ، وقد عني بأمرين عناية شديدة أولهما بالرماة ، فقد شدد عليهم الوصية بألا يبرحوا مكانهم ، ومما قاله لهم في ذلك «احموا لنا ظهورنا اننا نخاف أن يجيئوا من ورائنا ، والزموا أماكنكم لا تبرحوا منها ، وان رأيتمونا نقتل فلا تعينونا ولا تدفعوا عنا، وانما عليكم أن ترشقوا خيلهم بالنبل ، فان الخيل لا تقدم على النبل » •

الأمر الثاني جعل في صفوفه الأولى الأشداء من جند المؤمنين الذين أبلوا بلاء حسناً في غزوة بدر كأسد الله تعالى حمزة بن عبد المطلب ، وفارس الاسلام علي بن أبي طالب والزبير بن العوام الذين يذكرهم وجودهم بهزيمة بدر فيكون ذلك ارهاباً لهم وايقاناً بأن الليلة كالبارحة ، ولأنهم يدقون صفوف المشركين دقاً ، فيفتحون الطريق لمن وراءهم ، ويزيلون الرهبة من لقاء أهل الشرك ، ولو كثر عددهم ، ونهاهم عن أن يقدموا الا بأمره ، ويستأنوا •

وقد أخذ يتفرس الوجوه ، ويحرض الأبطال ، ويدفع الصناديد الى البأس ، فحمل سيفا ودعا المؤمنين الى أن يحملوه ، ويحموه •

روى الامام أحمد بسنده أن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم أخذ سيفاً يوم أحد ، فقال من يأخذ هذا السيف بحقه ، فجعلوا ينظرون اليه ، فقال من يأخذه بحقه •• فقال أبو دجانة سماك أنا آخذه بحقه • فأخذه ففلق به هام المشركين •

قال ابن اسحق ، وكان أبو دجانة رجلا شجاعا يختال عند الحرب ، وكانت له عصابة حمراء يعلم بها عند الحرب يعتصب بها ، فيعلم أنه سيقاتل ، فلما أخذ السيف من يد رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، ثم جعل يتبختر بين الصفين بعد أن اعتصب بعصابته ،فقال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم حين رأى أبا دجانة يتبختر : انها لمشية يبغضها الله الا في هذا الموطن •

كان لواء المشركين مع طلحة بن أبي طلحة ، ثم عثمان بن أبي طلحة ، وكان حملة اللواء جميعاً من بني عبد الدار ،والنبي صلى الله تعالى عليه وسلم أعطى لواء جيش الاسلام علي بن أبي طالب فلما رأى عليه السلام حامل لواء المشركين من بني عبد الدار طلحة بن أبي طلحة أخذ اللواء من علي كرم الله وجهه في الجنة ، وأعطاه مصعب بن عمير من بني عبد الدار .

ابتداء القتال :

٤٣٢ ـ ابتدأ القتال من قبل المشركين أبو عامر بن صيفي وهو أوسي ، كان يسمى الراهب ، وسماه النبي صلى الله تعالى عليه وسلم الفاسق عندما خرج الى قريش يحرضهم على النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، وكان قبل قدوم النبي صلى الله تعالى عليه وسلم المدينة ذا مكانة في قومه .

فدفعوه ليتقدم جيش الشرك ، وكان في نحو خمسين ، وظنوا أن ذلك يوهن من قوة الأنصار ، ويبعث على التردد ، ولذا قال عندما تقدم ونادى يامعشر الأوس ، فقالوا له : « لا أنعم الله بك عينا » فطاش سهمه ومن معه وخاب فألهم وقال لما سمع ردهم : « لقد أصاب قومي بعدي شر » .

أذن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم بالقتال ، وكانت كلمة التعارف بين المؤمنين أمت أمت ، اندفع الصناديد من جيش المسلمين يقتلون في جيش الشرك يضربون فاندفع أبو دجانة يفلق الهام بسيف رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، لأنه تعهد لرسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم أن يأخذه بحقه حتى انه ليضرب الرجل على رأسه بالسيف ، فيفرقه فرقتين .

وكان النساء قد خرجن في القتال ملثمات ، أو ظاهرات بمظهر رجال ، فلقي أبو دجانة امرأة قيل انها هند امرأة أبي سفيان بنت عتبة ، فرفع السيف عنها ، ولم يجد من كرامة سيف رسول الله أن يقتل به امرأة ، ولو كانت تقاتل .

وحمزة بن عبد المطلب يدق جيش المشركين بسيفه دقا ، وأوغل بسيفه البتار في جيش المشركين ، وهم يفرون منه فرارا ، كأنها النعاج تفر من الأسد الهصور .

وحامل لواء الشرك طلحة بن أبي طلحة يطلب المبارزة ، فلا يقدم على مبارزته الا علي بن أبي طالب ، وماهي الا جولة من جولات علي الا كانت بعدها الضربة القاصمة التي وصفها المؤرخون بأن ضربات علي كانت أبكارا، أي لا يضرب الا ضربة واحدة تكون بكرا منفردة .

الخسارة الفادحة - مقتل حمزة مع المضاء في القتال :

٤٣٣ ـ كانت الجولة للمسلمين ،حتى ان المشركين يفرون فراراً أمام سيوف الله تعالى التي سلها رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم على الشرك وأهله ، وأمام الذين اشترى الله منهم أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة يقاتلون في سبيل الله ، فيقتلون ويقتلون ، فماتقدموا حريصين على الحياة الدنيا ،انما يحرصون على ما عند الله في الآخرة .

قتل حامل اللواء الاسلامي مصعب بن عمير ، فحمل اللواء علي رضي الله عنه ، فما سقط اللواء ، ولكن الخسارة الكبرى كانت في مقتل حمزة .

لقد قتل غيلة ، وما قتل في مبارزة،ولا في مواجهة فما كان بنو هشام ليقتلوه الا غيلة خيانة وجبنا ، لقد تواصت هند ، وغيرها من قريش مع وحشي العبد الحبشي الذي يجيد القذف بالرمح ، ولا يجيد الضرب بالسيف ، وما كان يجديه لو أجاده أمام أسد الله تعالى حمزة .

كان حمزة يجندل الأبطال ، وما تقدم نحوه أحد الا جعله يعض التراب مستهزئاً به ، ساخراً منه ، وهو يتبختر، ويدل بمواقفه في القتال .

وقد كان يتربص به العبد الذي جعل سيده جبير بن مطعم قتل حمزة عم النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ثمن عتقه ، كما قتل حمزة عمه .

كان وحشي يختبىء وراء الأشجار لتسنح له فرصة يرمي فيها رميته ، وحمزة ، كما قال العبد ، يحمل سيفه كالجمل الأورق يهد به الجيش هدا ، فرماه بحربته التي لم تخطىء ، ونال حريته ٠

فقتل عم رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، وسيد الشهداء ، كما قال صلى الله تعالى عليه وسلم « سيد الشهداء حمزة بن عبد المطلب ورجل قال كلمة حق أمام سلطان جائر فقتله » ٠

واذا كان ذلك قد أرضى جبير بن مطعم ، وأرضى هند بنت عتبة ، فانه لم يرض الشرف والمروءة ، وأرضى النذالة والخيانة ، وأنى يكون هذا من فعل أبي دجانة ، وقد رأى محاربة امرأة فتركها تنزيها لسيف رسول الله أن يقتل به امرأة تقاتل ٠

ولكن ما وهن جيش الاسلام ، ولا ضعف ، وان ذهبت منه قوة ليس من السهل أن تعوض اذا استشهد منه رجل كان كألف من الرجال الأشداء ٠

بل استمر جيش الحق في تتبعه لأعداء الله تعالى ، فلم يهن ، وان حزن بل مضى في طريقه ، وكان هو الغالب الأغلب ، والمشركون يتساقط من بين أيديهم لواؤهم حاملا بعد حامل ٠

قتل حامل اللواء ابن أبي طلحة ، فحمله أخوه عثمان بن أبي طلحة ، ثم حمله من بعده أخوه أبو سعد وقد طلب المبارزة من علي متحديا ، فتصدى له علي الذي لم يفر من مبارز ، ولم يبارز أحداً الا نال منه ، فبارز حامل لواء المشركين ، ومن آل اليه لواء المؤمنين بعد مصعب بن عمير ، فاختلفا ضربتين فنبت ضربة ابن أبي طلحة ، وضربه علي فصرعه ، ثم انصرف عنه ، ولم يجهز عليه ، لعله لم يجهز عليه ، لأن فارس الاسلام لا يقتل مصروعا ، بل يقتل من يقف أمامه ، وقال علي رضي الله تعالى عنه عند ما قال له بعض أصحابه أفلا أجهزت عليه ، قال : انه استقبلني بعورته ، فعطفني عليه الرحم ، وعلمت أن الله قد قتله ٠

لا نقول قابلوا بين علي ومن حرض العبد ، فان تلك بطولة علي ، وهذه أخلاق العبيد ٠ توالى القتلى من حملة لواء المشركين ، حتى حملته امرأة ٠

وصناديد الجيش الاسلامي حتى بعدمقتل حمزة بالخيانة والغيلة والغدر مستمرون في الضرب في اهتداء ، وقدشقوا صفوفهم ، كما تشق السكين الكمثرى ، وأداروها رحى في صفوفهم، وهم يفرون تاركين أموالهم وعتادهم ومع كثير مما يغنم •

الغنائم القاتلة :

٤٣٤ ـ تفرق معسكر الشرك ، وفر من فر منهم ، ولم تغن عنهم كثرتهم شيئاً ، ولم ينالوا خيراً ، ولكنهم لميسحقوا ، ولم يثخنوا وكانوا يفرون فراراً ، والعدد لجب كبير ، وفيهم قوةالخيل قوة خالد بن الوليد ، وقوة عكرمة بن أبي جهل ، ومع كل منهم مائة فارس ، قد أعدوا العدة ،لينقضوا ان وجدوا الفرصة ، وكلاهما ذو بصرأريب يدفعه الثأر والحمية •

غر الأمر طلاب الغنائم ، وبينما علي والزبير ، وسعد بن أبي وقاص ، وصناديد الأنصار يقصمون ظهور المشركين ، حتى حملوهم على أن يتركوا متاعهم ، أخذ هؤلاء من وراء أولئك يجمعون الغنائم ، ويأخذون الأسلاب ، ويتركون أبا دجانة يفلق الهام ، ولا يحمون ظهور المؤمنين ، والطمع يغري بالطمع ، والمال يغوي ويضل •

ولقد وصف ابن اسحاق المعركة قبل التسابق على الغنائم فقال أنزل الله نصره على المسلمين وصدقهم وعده ،وحسوهم بالسيوف حتى كشفوهم عن العسكر ، وكانت الهزيمة لا شك فيها ،ويقول البطل الزبير بن العوام « ولقد رأيتني أنظر الى خدم هند وصواحبها مشمرات هوارب مادون أخذهن قليل ولا كثير » •

أخذ ناس يجمعون الغنائم ، ورأى الرماة الغنائم تكثر ، ويتسابق اليها من يريدونها ، فتركوا حماية ظهور المؤمنين ، ونضح الخيل بالنبال ، وأمر النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، بألا يتركوا أماكنهم سواء أكان القتل للمؤمنين أم كان على المؤمنين ، لأنه لايريد أن يحيط جيش المشركين الكثير بجيش المؤمنين الذي لم يصل في العددالى ربعه •

زايلوا أماكنهم ، وعين خالد وعكرمة تترقبهم، ويريدون فرصة ينتهزونها لفعل الخيل ، فانقضوا على مواطن الرماة ، وأخذوا جيش الايمان من ظهره.

والجزء الأكبر من جيش قريش يسيرفي انكسار ، ولا يتوقع الا الهـزيمة حتى أخذ ينادي خالد بن الوليد جيش قريش بأنه أخذ يضرب جيش محمد صلى الله تعالى عليه وسلم من ظهورهم ،فعادوا كلبين على جيش المسلمين يريدون أن ينالوا منالا ، وأرادوا محمداً صلى الله تعالى عليه وسلم ليقتلوه ، واذا كانوا قد أحاطوا بجيش الرسول ، فالله من ورائهم محيط .

قال ابن اسحاق :

انكشف المسلمون فأصاب فيهم العدو ، وكان يوم بلاء وتمحيص ، أكرم الله تعالى من أكرم من المسلمين بالشهادة، حتى خلص العدو الى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم فرمي رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم بالحجارة حتى وقع ، فأصيبت رباعيته وشج في وجهه ، وكلمت شفته .

وهكذا وصل جيش المشركين الى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، ودخلت حلقتان من حلق المغفر في وجنته الطاهرة ، ووقع رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم في حفرة من الحفر ، وكان أبو عامر الأوسي ، قد حفرها ليتردى فيها المسلمون عند هجومهم ، فأخذ علي بن أبي طالب بيد رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ،ورفعه طلحة بن عبيد الله حتى استوى قائما .

وأخذ عليه الصحابة يزيلون وضر الجروح عن وجهه ، ونزع أبو عبيدة عامر بن الجراح احدى الحلقتين من وجهه ، نزعها بأسنانه ، فسقطت ثنية أبي عبيدة ، ثم نزع الأخرى ، فسقطت ثنية أخرى .

كان جيش الشرك لا يريد الا رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ظانين أنهم ان قتلوه ، انتهى الأمر ، ولذلك أحاط به الصناديد من المؤمنين الذين كانوا في صدر الجبهة ، وأخذوا يذودون عن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، والسيوف تعتورهم ، ومنهم كثيرون ذهبوا فداء لرسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، وذهب من جيش الشرك من يخصه بالضربة غير مبال بشيء .

وفي ذلك الوقت اشتدت الحماسة في الدفاع عن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، وكان بجواره مصعب بن عمير حامل اللواء يذود فقتله من يريد رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ،وظن أنه قتل رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، ونادى في قريش أن محمداً قتل ، وقد أعطي اللواء لعلي ٠

وقد اتجهوا الى النبل يصوبونها على رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم واتخذ أبو دجانة من نفسه ترسا لرسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، يقع النبل في ظهره وهو منحن عليه ، حتى كثر النبل ، وبينما أبو دجانة يترس دون رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم، كان سعد يرمي المشركين بالنبل ليبعدهم عن الرسول صلوات الله تعالى وسلامه عليه ، والرسول يناوله ما يرمى به ، ويقول له : ارم فداك أبي وأمي ٠

لنترك الذين حول رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، وما أصاب الرسول ، ولنتجه الى ما جرى في جيش الايمان بعد الاحاطة بهم ٠

لقد شاع في المشركين أن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم قد قتل ، فأيأس الخبر الجميع ، ويئس الضعفاء وتحمس الكثيرون ، وصاح فيهم أنس بن النضير : « ماذا تصنعون بالحياة بعده ،قوموا وموتوا على ما مات عليه رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، واستجاب الناس لندائه ، وقاتل حتى قتل » ٠

ثم جاء البشير من بعد فترة بأن الرسول عليه الصلاة والسلام لم يقتل ، فنهضوا ، ونهض معهم النبي صلى الله تعالى عليه وسلم من الشعب الذي كان به بجوار أحد ، ومعه أبو بكر وعمر ،وعلي ، وطلحة ، والزبير ، وغيرهم ورهط من أقوياء المسلمين يستردون الموقف بعد المباغتة التي بلغ الاضطراب فيها أن قتل بعضهم بعضا وقد صارت الأمور لأهل الايمان فوضى ٠

وكان أبو سفيان قد أشرف بمن معه على المسلمين ، فقال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، وهو في هذه الشدة،لا يعلونا اللهم ان تقتل هذه العصابة لاتعبد في هذه الأرض ، وندب من أصحابه من أنزلوهم ، واستقل المسلمون فى ذلك حتى أزاحوهم عن الجبل ، وشقوا طريق قريش ، وان كان الجيش كليلا مكلوما ، ولكنها قوة الايمان المستيقظة في قلوب رجال بدر الكبرى ، وبقية سيوفها ، وبقية السيف أبقى عدداً ،كما قال علي بطل بدر وأحد ٠

نهنه ذلك من عزيمة قريش ، اذ كانت الحجارة ترمى من الجبل على فرسان خالد الذي أخرجهم من الهزيمة الساحقة ، وان لم يأخذهم الى نصر حاسم ٠

وألقي اليأس في قلوبهم من نصر حاسم حالق لقوى المسلمين ما جاء به البشير من أن محمداً صلى الله تعالى عليه وسلم حي ، يدبر لهم ، ويكيد ٠

عادت القيادة الى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم بعد أن اضطربت أمور الجيش ، وحمل الله اللواء علياً بن أبي طالب ، بعد أن سقط حامله مصعب ابن عمير ، وانه بعد أن حمل اللواء علي ، وهو الذي يهجم ويضرب ، فلا يهمه أيقع الموت عليه أم يقع على عدوه ، وبعد أن استولى المسلمون على الهضبة أخذوا يقاتلون ، ولم يغن المشركين ، اذ استمر خالد في هجومه ، فقام المسلمون ، وكانت الصفوة المختارة من أصحاب رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم من أمثال أبي دجانة والزبير ، وطلحة ، وحامل اللواء علي فقابلوه بهجوم مضاد وصدوه ، بعنف الجبال ٠

ومض برق النصر لقريش عندما اضطرب جيش المسلمين ، وكثر الفتك فيه ، وليس عدداً كثيراً بجوار عدد المشركين ، وعندما شاع بينهم أن محمداً صلى الله تعالى عليه وسلم قد قتل وحسبوا أنهم منتصرون ساحقون لجيش النبي ، جيش الايمان ، ولكن ذهب البرق الذي خطف أبصارهم عندما علا جيش المسلمين الى الهضبة ، وصد هجمات خالد ومن معه ، وحمل اللواء علي ، واللواء حامل النصر ، وان تخاذل خذل من وراءه ، وعلي لا يتخاذل ، وقد علموا سيفه في بدر وأحد ، وكما قال أبو سفيان يؤتى الجيش من حامل لوائه ٠

ولا ننسى أن جيش قريش قد أصابته جراح الحرب ابتداء ، فالأمل هو الذي داوى جرحه فهجم ، وسط اضطراب جيش الايمان ، فلما استقام له الأمر ، فغرت جراحهم ، وخافوا العقبى ، ويئسوا من النصر الساحق ، اذ رأوهم وقفوا أمامهم ، وقد ذاقوا من قبل وبال الأمر من هجومهم ، وان كانوا قليلا ٠

عندئذ رأوا أن ينهوا القتال ، وقد فرحوا بهذا النصر المؤقت ، وخشوا أن يضيع منهم وانه لا بد ضائع ، لقياسهم القابل على الماضي ، والحاضر لحظة ستصير ماضياً ٠

أحد ليست هزيمة للمسلمين :

٤٣٥ ـ هذه غزوة أحد التي يقول فيها المؤرخون ان الهزيمة فيها كانت على جيش النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، ولكني أرى أن تسمية ما أصاب المسلمين هزيمة ليست تسمية تنطبق على الواقع تمام الانطباق ، انما تكون الهزيمة اذا كان جيش الايمان قد فر فرارا ، والآخر قد تبعه في فراره ، حتى داهم المدينة ، وكان ما يكون بعد ذلك ٠

انما الذي أنهى القتال هم المهاجمون ، وكأنما اكتفوا بأن أصابوا مقتلة من المسلمين ، ورضوا بذلك لأنهم لا طاقة لهم فيما وراء ذلك ، وقد رأوا السيوف الاسلامية تبرق ، وذاقوها مرتين ، ولذا تتبعهم النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ٠

واذا كان ما في أحد لا يسمى هزيمة ، فانه لا يسمى نصرا أيضا لأحد الفريقين ، وقد يسمى جراحا للمسلمين، كما سماها القرآن ، اذ سماها قرحا ، وسماها اصابة ، فقد قال تعالى :

﴿ إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُ وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ
وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَاءَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ (١٤٠) وَلِيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ
آمَنُوا وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ (١٤١) أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ
جَاهَدُوا مِنكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ (١٤٢) وَلَقَدْ كُنتُمْ تَمَنَّوْنَ الْمَوْتَ مِن قَبْلِ أَن تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ
وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ (١٤٣) وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ
انقَلَبْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ (١٤٤) ﴾ (١)

---

(١) آل عمران

ثلاثة أمور هامة في أحد :

٤٣٦ ـ وقبل أن نترك الكلام في الموقعة التي أنهاها المشركون ، ولم ينهها النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، ولم يعترف بانتهائها بانهائهم ، بل سار وراءهم حتى فروا هم فراراً • لا بد أن نشير الى أمور ثلاثة :

أولها : أن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم قد قَتَل مشركا بيده في هذه الغزوة ، ذلك أن أبي بن خلف قد أراد أن يقتل النبي صلى الله تعالى عليه وسلم وقد اعتزم ذلك الاثم وهو في مكة ،فلما كان يوم أحد أقبل أبي مقنعاً بالحديد ، وهو يقول : لا نجوت ان نجا محمد • فاستقبله مصعب بن عمير ، فقتله ولكن قيل: مصعب بن عمير قتله غيره ، وكان على الرسول صلى الله تعالى عليه وسلم أن يرده بنفسه ، فأخذ الرمح وأبصر عليه الصلاة والسلام ترقوة أبي بن خلف من فرجة بن سابغة الدرع ، والبيضة الحديد ، فصوب رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم الى الترقوة من بين الحديد، فطعنه بالحربة، فوقع الى الأرض عن فرسه ، ولم يخرج من طعنته دم ، كما يقول الرواة ،فأتاه أصحابه ، وهو يخور خوار الثور ،فقالوا له ما أجزعك !! انما هو خدش ، فقال والذي نفسي بيده لو كان الذي بي بأهل ذي المجاز لماتوا أجمعين، فمات الى النار، فسُحقاً لأصحاب السعير •

ويقول ابن اسحاق في وصف قتل النبي صلى الله تعالى عليه وسلم له وقد جاء اليه قال : دعوه، فلما دنا منه تناول رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، الحربة من الحارث بن الصِمة ، فقال بعض القوم ، كما ذكر لي ، فلما أخذها رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم انتفض انتفاضة تطايرنا عنه تطاير الشعَر عن ظهر البعير اذا انتفض ، ثم استقبله رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم فطعنه في عنقه طعنة تدأدأ بها عن فرسه مراراً •

وان هذا يدل على قوة بأس النبي صلى الله تعالى عليه وسلم وان كان لا يقتل بيده •

الأمر الثاني: أن النساء كن يخرجن في جيش النبي صلى الله تعالى عليه وسلم يحملن الماء للمجاهدين ويداوين الجرحى ان أمكن ذلك ، وقد يضربن بالسيف ، ان كانت ضرورة لذلك ، يروى أن أم عمارة نُسيبة المازنية قد خرجت مع الجيش تحمل سقاء فيه ماء ، لتسقي الجيش ، وكانت تشد أزر المجاهدين ، فلما أحدق المشركون وأحست بأن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم يتعرض للمشركين ، وقد جعلوه هدفا مقصوداً . استلت السيف ، وأخذت تذود عنه صلى الله تعالى عليه وسلم مع الذائدين ، وترمي بالقوس ، حتى نزلت بها جراح شديدة، وأصاب عاتقها جرح أجوف له غَوْر .

ولقد كانت فاطمة بنت رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم تغسل الدم عن وجه أبيها الكريم ، وتداوى جرحه ، روى البخاري عن سهل بن سعد أنه قال : « أما والله اني لا أعرف من كان يغسل جرح النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ومن كان يسكب الماء، وبما دووي ؛ كانت فاطمة بنت رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم تغسله ، وعلي يسكب الماء بالمجن ، فلما رأت فاطمة أن الماء لا يزيد الدم الا كثرة أخذت قطعة من حصير فأحرقتها، وألصقتها »

والظاهر من هذا الخبر أن فاطمة الطاهرة بنت رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم قد خرجت مع المجاهدين ، فداوت جرح أبيها عليه الصلاة والسلام، أو أن يكون الدم استمر يسيل حتى عاد الى داره والله تعالى أعلم .

الأمر الثالث : ما فعله المشركون بالقتلى ، وخصوصا الجثمان الطاهر ، جثمان حمزة رضي الله عنه ، وأقرنه بما فعل علي رضي الله عنه عندما صرع مبارزه ابن أبي طلحة ، فقد بدت عورته ، فرفع علي سيفه وأخذته المروءة والرحم ، ولكن أنى تكون امرأة أبي سفيان وأبو سفيان ، وعلي البطل الذي يقرع الأقوام في وجوههم ، ولا يقرعهم مدبرين .

سلط المشركون النساء على القتلى يمثلن بهم بقيادة هند بنت عتبة زوج أبي سفيان ، وأم معاوية ، وذكر ابن اسحاق « أنه وقعت هند بنت عتبة ، والنسوة اللائي معها يمثلن بالقتلى من أصحاب رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم يجدعن الآذان والأنوف ، حتى اتخذت هند من آذان الرجال وأُنُفهم

خلاخل ، وقلائد ، وقد أعطت قلائدها الحقيقية وخدمها وأقراطها وحشياً الذي اغتال حمزة غدراً وخيانة وجبناً ،وبقرت بطن حمزة ، وأخذت كبده فلاكتها ولم تسغها ، فلفظتها ثم علت على صخرة مشرفة » ·

وأنشدت تقول :

نحن جزيناكم بيوم بدر ... والحرب بعد الحرب ذات سعر
ما كان عن عتبةَ لي من صبر ... ولا أخي وعمِّه وبِكري
شفيت نفسي وقضيت نذري ... شفيتَ وحشيُّ غليل صدري
فشكر وحشيٍ عليّ عمري ... حتى ترم أعظمي في قبري

مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ :

٤٣٧ ـ قال تعالى :

﴿ مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَـٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ ۖ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ ۖ وَمَا بَدَّلُوا۟ تَبْدِيلًا ﴿٢٣﴾ لِّيَجْزِىَ ٱللَّهُ ٱلصَّـٰدِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَـٰفِقِينَ إِن شَآءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٢٤﴾ ﴾ (١)

وان النص السامي الكريم ينطبق على الذين ثبتوا من رجال المؤمنين في أحد ، سواء أنزلت الآية فيهم أم كانت عامة ، تعم كل رجال الجهاد من المؤمنين·

فقد كان في هذه الغزوة رجال كانوا صادقين في حربهم ، وصادقين في ايمانهم، منهم سيد الشهداء حمزة بن عبد المطلب الذي كان يدق جيش الشرك دقا ، ومنهم أبو دجانة الذي كان يفلق الهام بسيف رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، وأعطى السيف حقه ·ومنهم مصعب بن عمير ، ومنهم بطل الأبطال علي بن أبي طالب الذي حمل اللواء في الشدة ، فكان اعطاء

---

(١) الاحزاب

اللواء له ارهابا للشرك ، ومنهم طلحة بن عبيد الله ، الذي كان له الفضل الأول في تحويل الحرب من هزيمة متوقعة للمؤمنين الى نصر متوقع للمؤمنين ، ومن بعده أنهى المشركون القتال خشية أن تكون العاقبة عليهم ، لا لهم ، وذلك عندما طلب النبي صلى الله تعالى عليه وسلم من صحابته الأبطال الذين يحوطونه أن يعلوا الى الجبل ،حتى لا يكون أبو سفيان في علو عليهم .

ولنترك البيهقي يتكلم في دلائل النبوة: انهزم الناس عن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، وبقي معه أحد عشر رجلا من الأنصار ، وطلحة بن عبيد الله وهو يصعد في الجبل فلحقهم المشركون ، فقال ألا أحد لهؤلاء ، فقال طلحة أنا يا رسول الله ، فقال عليه الصلاة والسلام ، كما أنت ، فقال رجل

من الأنصار فأنا يا رسول الله ، فقاتل عنه ، وصعد رسول الله ومن بقي معه ، ثم قتل الأنصاري فلحقوه ، فقال ألا رجل لهؤلاء ، فقال طلحة مثل قوله ، فقال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم مثل قوله ، فقال رجل من الأنصار فأنا يا رسول الله ، فقاتل ، وأصحابه يصعدون ، ثم قتل فلحقوه ، فلم يزل يقول مثل قوله الأول ، ويقول طلحة أنا يا رسول الله ، فيستأذنه رجل من الأنصار للقتال ، فيأذن له ، فيقاتل مثل من كان قبله ، حتى لم يبق معه أحد الا طلحة ، فقال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم من لهؤلاء : فقال طلحة أنا يا رسول الله ، فقاتل قتال جميع من كان قبله ، وأصيبت أنامله ، ثم صعد رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم الى أصحابه وهم مجتمعون ،وقال النبي صلى الله تعالى عليه وسلم: ذلك يومٌ كان لطلحة .

وان صعود جيش المسلمين الى الجبل بعد أن أبعدهم المشركون فَيْصَلٌ بين الاضطراب في جيش المؤمنين ، وبين اعادة الخطة ، والسير على المنهاج من غير اضطراب وحامل اللواء علي كرم الله وجهه ، ولذا أخذوا يضربون أقوى في المشركين بقيادة خالد بن الوليد ،وينتصفون منهم ، وقد زال عنهم وعث الجروح ، وانتظم جيش النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، ولذلك أنهوا القتال وشيكا ، ولم يستمروا خشية أن تدور عليهم الدائرة كما ابتدأ المسلمون يحسونهم باذنه .

فرحة أبي سفيان بالنصر القريب :

٤٣٨ ـ أنهى أبو سفيان الحرب فرِحا ، راضيا بما وصل اليه ، وان لم يكن نصراً لهم وسحقا للمسلمين ، ولكنه أدرك الثأر وكفى ، والوقائع أقنعته بأن يكتفى بذلك ، حتى لا يضيع من يده ما أخذ ، وهو أنه ثأرَ ، وأخذ ترته ، وكفاه ذلك ، ولم يقتلع المدينة، ولم يستطع أن يمنع أسباب مصادرة ماله وغيره، ولكن وقف يفاخر بما وصل اليه ، وينادى المؤمنين ، يقول :

أفي الجيش محمد ؟ أفي القوم محمد ؟ أفي القوم محمد ؟ نادى ثلاثاً ، فنهاهم رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم أن يجيبوه ، ثم قال أفي القوم ابن أبي قحافة أفي القوم ابن أبي قحافة ، ثم قال : أفي القوم ابن الخطاب،

ثم أقبل على أصحابه ، قال أما هؤلاء فقد قتلوا، وقد كفيتموهم، فما ملك عمر نفسه فقال : كذبت والله يا عدو الله ، ان هؤلاء لأحياء كلهم، وقد بقي لك ما يسوءك . فقال : يوم بيوم بدر، والحرب سجال ، انكم ستجدون في القوم مثلة، لم آمر بها ، ولم تسؤني .

ثم أخذ يرتجز فرِحاً : أعل هبل ، أعل هبل .

فقال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم : ألا تجيبونه ؟ قالوا يا رسول الله وما نقول ؟ قال قولوا الله أعلى وأجل، قال ان لنا العزى ، ولا عزى لكم . قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ألا تجيبونه ؟! قالوا يا رسول الله فما نقول ؟ قال قولوا الله مولانا ولا مولى لكم .

وصف معركة أحد في القرآن

٤٣٩ ـ وصف القرآن الكريم المعركة وصفاً دقيقاً ، ووصف نفوس جيش النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، خصوصاً الذين كانوا يطلبون المال في المعركة ، وآثارهم فيها ، فقال تعالى :

﴿ هَٰذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٨﴾ وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣٩﴾ إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُ ۚ وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَاءَ ۗ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ ﴿١٤٠﴾ وَلِيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ ﴿١٤١﴾ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ ﴿١٤٢﴾ وَلَقَدْ كُنتُمْ تَمَنَّوْنَ الْمَوْتَ مِن قَبْلِ أَن تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴿١٤٣﴾ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ ۚ أَفَإِن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ ۚ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا ۗ وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ ﴾(١)

هذه الآيات الكريمات تصور النتيجة التي انتهت اليها المعركة بالنسبة لما أصاب المسلمين من قرح ، وأنه كان اختبار للمؤمنين ليتميز المجاهدون الصابرون من الضعفاء المترددين ، وفي هذا اشارة الى أنه كان في جيش الاسلام مترددون ، كما أشرنا في وصف الجيش .

وفي النص الكريم ما يشير الى حقائق ثابتة ، منها أن الاصابة مرة لا يصح أن تحدث الوهن والحزن ، فهما يولدان اليأس من رحمة الله ، وليس اليأس من شأن أهل الايمان ، فانه لا ييئس من روح الله الا القوم الكافرون .

---

(١) آل عمران

ومنها أن القياس بالمماثلة بين ما أصابهم في الماضي ، وما أصاب المؤمنين يريح النفس ، وقانون الحياة الذي سنه الله تعالى في الوجود المداولة ، حتى يكون النصر النهائي ، وما النصر الا من عند الله العلي الحكيم ٠

ومنها بيان أن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، وان كان صاحب الرسالة لا يصح أن يكون موته أو قتله منهياً لدعوته ، بل على المؤمنين من بعده ألا ينقلبوا خاسرين، وعليهم أن يتحملوا الرسالة ويبلغوها الناس ويجاهدوا في سبيلها غير وانين ولا مقصرين ٠

هذه حال المسلمين في أعقاب المعركة ، والعبرة فيها ٠

ولقد وصف الله سبحانه وتعالى المعركة في ابتدائها ، ووسطها ، وما أصاب النفس المحاربة ، ان كانت مترددة ،والنفس ان كانت مجاهدة،وبين سبحانه وتعالى سبب العجز ، فقال تعالت كلماته :

﴿ وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُۥٓ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِۦ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَٰزَعْتُمْ فِى ٱلْأَمْرِ وَعَصَيْتُم مِّنۢ بَعْدِ مَآ أَرَىٰكُم مَّا تُحِبُّونَ ۚ مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلْءَاخِرَةَ ۚ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ ۖ وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْ ۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٥٢﴾ ۞ إِذْ تُصْعِدُونَ وَلَا تَلْوُۥنَ عَلَىٰٓ أَحَدٍ وَٱلرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِىٓ أُخْرَىٰكُمْ فَأَثَٰبَكُمْ غَمًّۢا بِغَمٍّ لِّكَيْلَا تَحْزَنُوا۟ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا مَآ أَصَٰبَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٥٣﴾ ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنۢ بَعْدِ ٱلْغَمِّ أَمَنَةً نُّعَاسًا يَغْشَىٰ طَآئِفَةً مِّنكُمْ ۖ وَطَآئِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ ظَنَّ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ۖ يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ مِن شَىْءٍ ۗ قُلْ إِنَّ ٱلْأَمْرَ كُلَّهُۥ لِلَّهِ ۗ يُخْفُونَ فِىٓ أَنفُسِهِم مَّا لَا يُبْدُونَ لَكَ ۖ يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَٰهُنَا ۗ قُل لَّوْ كُنتُمْ فِى بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ ٱلَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقَتْلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ ۖ وَلِيَبْتَلِىَ ٱللَّهُ مَا فِى صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِى قُلُوبِكُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿١٥٤﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَلَّوْا۟ مِنكُمْ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ إِنَّمَا ٱسْتَزَلَّهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا۟ ۖ وَلَقَدْ عَفَا ٱللَّهُ عَنْهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿١٥٥﴾ ﴾ (١)

(١) آل عمران

ونرى في هذه الآيات الكريمات وصفا دقيقا للمعركة ، ووصفا للنفوس بينه العالم بما في الصدور ٠

ونرى الآيات تبين ابتداء المعركة ،وقد كان فيها جيش الايمان يحس الشرك بأن يصيب حسه ، واصابةالحس قتل الأنفس ، وازالة عنصر الحياة فيها ، بازالة الحس الذي هومظهر ٠

ويجيء من بعد ذلك الاختلاف حول الغنائم ، بسبب التردد بين أخذها وبين تركها ، وفي الأولى عصيان القائدالأعظم ، وفي الثانية عصيان النفس ، وطاعة القائد هو أولى بها ، وان كل تنازع عجز ، ولذا بين القرآن أن ذلك فشل ذريع ، ثم غلب بعد ذلك العصيان ٠

وانبثق في هذا الخلاف ما تكن النفوس ، فكان منها من يريد الدنيا ، وهم الذين تبعوا الغنائم ، وأخلوا بالصفوف ، وصرف الله تعالى جيشه الذي كان موحداً في الظاهر ، لتكون تلك الجراح،والمقتلة التي أصابت المسلمين٠

وصور الله تعالى المعركة في انتصارها وكبوتها ، اذ هم يصعدون ، والرسول يدعوهم في أخراهم ٠

ثم من بعد ذلك كانت الحسرة ،فلم ينالوا مالا ، ولم يحفظوا نفساً ، وأصابهم غم شديد ، بل أصابهم غمان٠ غم بسبب ضياع الأنفس وضياع المال اذ تعجلوه قبل ميقاته ، وغم اذ نالهم ما نالهم ، وأحسوا بما كان منهم، فلا يحزنون على مال فاتهم ، ولا جروح أصابتهم ، انما هو الغم والغم انزال غمة بالنفس ، تكون منها في ظلام لا يرى ما وراءه،ويصيب النفس بالاعياء المرهق كدأ وحسرة ٠

وان ذلك كان عاما لمن كان يريد الدنيا ، ومن كان يريد ما عند الله ، وقد خص الذين يريدون ما عند الله تعالى بأنه بعد الغم المتوالي ، غما بعد غم ، كان الاطمئنان والرضا بما كان مستفيدين من العبر ، وكان مظهر هذا الاطمئنان النعاس الذي لا يكون الا من قرار نفس ، واطمئنان حاضر ، ورضا بما قدر الله تعالى ، وقد بذلوا في جهادهم كل الأسباب ، وقد فاتهم النصر الحاسم كمن كان الشيطان قد استزلهم بأن أوقعهم في الزلل ، بما كسبت قلوبهم من طلب للمال ٠

والآخرون الذين لم ينلهم الاطمئنان ، لأنهم الذين باشروا سبب الفـزع والاضطراب الذي أصاب جيش قـد أهمتهم أنفسهم ، فكانوا في هم دائم ، لأنهم فقدوا المال الذي كانوا يريدونه، وأصابتهم حسرة من الجـراح التي نزلت بهم ، وبالمؤمنين ، ولأنهـم لم يطيعوا ٠

ولقد حدث من بعضهم أنه بعد الانكسار المؤقت الذي أصاب الجيش فكر بعضهم في أن يكتب الى عبد الله بن أبي رأس المنافقين ، يؤمنون أنفسهم عنده، ويظهرون له الطاعة بعد العصيان ٠

فقد جاء في تاريخ الحافظ بن كثير أن بعض الذين كانوا قد هموا بالفشل أنهم قالوا « ليت لنا رسولا الى عبد الله بن أبي فيأخذ لنا أمنة من أبي سـفيان يا قوم ان محمداً قد قتل ، فارجعوا الى قومكم قبل أن يأتوكم فيقتلوكم ، فقال أنس بن النضر يا قوم ان كان محمد قد قتل ، فان رب محمد لم يقتـل ، فقاتلوا على ما قاتل عليه محمد ، اللهم انى أعتذر اليك مما يقول هؤلاء ،وأبرأ اليك مما جاء به هؤلاء ثم شد بسيفه فقاتل حتى قتل » ٠

وقد أشرنا الى ذلك من قبل ، ونذكره هنا بياناً لما تشير اليه ، فهؤلاء هـم الذين أهمتهم أنفسهم ، وقـد جرهـم الشيطان الى الزلل بسبب ما كسـبت نفوسهم من تردد ، ومـرض نفسي ،فكان زللهم نكبة للجيش ، وان لم تؤد الى هزيمة وان هذا يزكي ما قلنا في أول القول عندما وصفنا جيش المسلمين، بأن فيه بعض المترددين دعاة الهـزيمة اذا وجدت أسبابها ، وأنهم ما جاؤوا الا للغنائم ، وأنهم نفسوا على أهـل بدر ما نالوا من أنفال ، فلم يريدوا القتال الا لينالوا مثل ما نال الذين سبقـوا بالجهاد حقاً وصدقاً ٠

تمام المعركة

٤٤٠ ـ قلنا أن غزوة أحد لم تكن فيها هزيمة على ، المؤمنين ، وانما الذين أنهوها هم المشركون ولم تكن قدانتهت من قبل المؤمنين ٠

نعم انه كانت جراحات من المؤمنين، ولكن لم تثخنهم ، وكانت جراحات في المشركين دون جراحات في المؤمنين، ولم يكن عمل المشركين الا أن جاؤوا فأخذوا ببعض ثاراتهم ، ولم يأخذوا بهاكاملة ، فهل نالوا من علي نيلا ؟ وهل نالوا من الزبير ؟ وهل نالوا من أبي دجانة ؟ وهل نالوا من طلحة بن عبيد الله ، فان كانوا قد نالوا من حمزة ،فان الذين وتروهم كانوا لهم بالمرصاد ٠

واذا كان المشركون قد أنهوا الحرب ، بما يشبه الفرار عندما استرد المسلمون جأشهم ، واستقاموا لجهادهم ،وأخذوا يكيلون لهم ، وخافوا على أنفسهم من عودة الوثبة ، وأن يحسوهم باذن الله تعالى كما ابتدؤوا ، لم ينه النبي صلى الله تعالى عليه وسلم الحرب، ولذا تبعهم بالجند المؤمنين ، ولا يجدد الجيش ، بل يذهب اليهم بمن كانوا معه، واذا كان قد فقد من جيشه نحو السبعين ، فانه بقي له فوق ستمائة ،واذا كانوا قد أصابتهم جراحهم ، ولكنها لم تثقلهم ، وهم بقية السيف وبقية السيف كما قال بطل الجهاد علي بن أبي طالب ، بقي عدداً ٠

خروج النبيّ صلى الله تعالى عليه وسلم لأحُد ثانية

٤٤١ ـ بعد أن عاد النبي صلى الله تعالى عليه وسلم الى المدينة من المعركة التي كانت يوم السبت ١٥ من شوال سنة ثلاث ، وكان يوم الأحد في الغداة يدعو جنده للذهاب الى تتبع المشركين، ورأى صلى الله تعالى عليه وسلم ألا يخرج معه الا من كان من رجاله في أحد ، وقد عرض عليه عبد الله بن أبي ومن رجعوا أن يخرجوا معه ، فرفض رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم أن يخرجوا ، وقد فرح المؤمنون بخروجهم ، وقد قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم « لا يخرجن معي الا من شهد القتال » فاستجاب الذين أخلصوا

دينهم لله فرحين على ما أصابهم من جروح وبلاء ، وقد روي أن الله تعالى قال فيهم :

﴿ ٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ مِنۢ بَعْدِ مَآ أَصَابَهُمُ ٱلْقَرْحُ ۚ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ مِنْهُمْ وَٱتَّقَوْا۟ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿١٧٢﴾ ﴾ (١)

هذا جانب الرسول صلى الله تعالى عليه وسلم خرج ليتمم المعركة ، بطلب العدو الذي أنهى هو الحرب ، ورحاها دائرة ، ولم يتركوها رحمة ، بل لمجرد الرضا بما وصلوا اليه من ثارات غير كاملة ، فالأبطال الذين جندلوا مشايخهم ببدر كأبي دجانة وعلي والزبير ما زالت سيوفهم مشهورة عليهم .

والمشركون من بعد أن أنهوا القتال شبه فارين من نهايته ، فانه روي أنهم أخذوا يتلاومون ويقول بعضهم لبعض لم تصنعوا شيئا ، أصبتم شوكة القوم وحدهم ، ثم تركتموهم ، ولم تبتروهم بل منهم رؤوس يجمعون لكم .

ذلك قولهم بأفواههم ، والحق أن رجالات محمد ما زالت فيهم البقية المرهبة ، وما زال الايمان بنصر الله يملأ قلوبهم .

ولقد هم المشركون أن يرجعوا لولا أنهم علموا الوثبة الاسلامية بقيادة النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، وقد ابتدأت العودة اليهم عندما علا النبي عليه الصلاة والسلام بجيشه فوق الهزيمة ، وأخذ يذيقهم وبال أمرهم ، فانتهوا لما علموا ذلك ورجعوا عن عزمتهم ورضوا بما نالوا .

خرج رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم الى حمراء الأسد ، وهي تبعد عن المدينة بنحو ثمانية أميال ، وأقام على المدينة ابن أم مكتوم ، وقد لقيه بعض بني خزاعة ، وكانوا يميلون الى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم مسلمهم وكافرهم فقال قائلهم للنبي صلى الله تعالى عليه وسلم ؟! يا محمد انا والله لقد عز علينا ما أصابك في أصحابك ، ولو درينا أن الله تعالى عافاك فيهم ، وقائل هذا القول هو معبد بن أبي معبد الخزاعي .

---

(١) آل عمران

ذهب من ذلك معبد الى الروحاء وفيها أبو سفيان بن حرب ، وقيل انهم كانوا أجمعوا الرجعة الى النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، ولكن من غير اقدام ، بل على خوف ، ووجل ، ولذلك جبنوا لما علموا بخروج النبي صلى الله تعالى عليه وسلم للقائهم .

سأل أبو سفيان معبداً قائلا ما وراءك يا معبد .

قال معبد : محمد قد خرج في أصحابه يطلبكم في جمع لم أر مثله قط ، يتحرقون عليكم تحرقا ، قد اجتمع معه من كان تخلف عنه في يومكم ، وندموا على ما صنعوا ، فيهم من الحنق عليكم شيء لم أر مثله قط .

قال أبو سفيان : ويلك ما تقول ؟ والله ما أراك ترتحل ، حتى ترى نواصي الخيل ، ووالله لقد اجتمعنا للكرة عليهم ، حتى تستأصل شأفتهم .

قال سعيد ، فاني أنهاك عن ذلك .

نهنه من عزمتهم ، وقلل من شوكتهم، كلام معبد ، وقد كانوا على وجل من اللقاء ، ولكنهم أرادوا أن يمنعوا محمداً صلى الله تعالى عليه وسلم من اللحوق بهم ، فكلفوا بعض عبد القيس بأن يفزعوا النبي كما فزعوا هم فركب عبد القيس ولحق بالنبي صلى الله تعالى عليه وسلم وهو بحراء الأسد ، فأخبره بأن أبا سفيان قد أجمع على السير اليه ليستأصل بقيتهم .

فلم يفزع محمد صلى الله تعالى عليه وسلم كما فزع هو بل قال : حسبنا الله ونعم الوكيل ، وقد قال البخاري : انه نزل في هذا قوله تعالى :

﴿ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَـٰنًا وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾﴾ (١)

وأخيراً ارتد المشركون على أعقابهم خاسئين ، ورضوا بما لقوا .

والنبي صلى الله تعالى عليه وسلم كان يتبعهم ، فهل كان المسلمون بعد ذلك في واقعة أحد مهزومين ؟ لقد أصابهم قرح والجروح تصيب المقاتلين ولا تعد في قانون الحرب هزيمة ، انما الهزيمة أن يولوا الأدبار ويفروا فراراً .

---

(١) آل عمران

رحمة النبي القائد صلى الله عليه وسلم :

٤٤٢ ـ ان القائد الذي يسير وراء الجيش ، ويقدم روحه بين يديه ،ويقدم معه على مواقع الردى غير هياب ولا وجل ، هو القائد الرحيم الذي يحمي الجند من ورائه بأن يحنو عليهم كما يحنو الأب على أبنائه ، فاذا قدمهم للاستشهاد فلمقصد أسمى ، يقدم نفسه فيه أمامهم .

وليس القائد المظفر هو الذي يقدم جيشه الى الميدان ، كما يقدم أدوات الحرب ، ومعدات القتال ، من غير قلب يرحم ، وينسى أن الجيوش قلوب تقدم، وأرواح تتقدم فداء للمعنى الانساني العالي الذي تقاتل من أجله ، وتخوض له مشتجر السيوف ، وتلقى بالحتوف نصراً له ، وتأييداً لكلمة الحق ، ان هذا النوع من القواد الجامدين الذين يحسبون الحرب تخطيطا وليست رحمة ، أو تلابسها رحمة لا ينتصر ، وان انتصر مرة ، لا يعاوده النصر مرة أخرى ، لأنه لا يجد جنداً ينصرونه ، ولقد رأينا ممن يحسبون أنفسهم قواد الحرب من يرى صرعى جيشه في الصحراء ، ولحومهم تنهشها ذئابها ، ويقول غير حزين : هكذا الحرب ، ولذلك توالت هزائمه .

ولقد كان بونابرت قائداً مظفراً حتى عاد الى فرنسا ، وترك جنده في روسيا يأكلهم الثلج ، وقد أذاقهم لباس الجوع ، فكان ذلك مفتاح هزيمته ، وما انتصر من بعد ذلك انتصارا حاسما .

وان محمداً صلى الله تعالى عليه وسلم كان المثل السامي لرحمة القائد بجنده، كأنهم قطع من نفسه ، ولقد زكى الله سبحانه وتعالى هذه الرحمة المحمدية النبوية ، فقال تعالى :

﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ ۖ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ ۖ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ ﴿١٥٩﴾ ﴾ (١)

(١) آل عمران

وقد بدت رحمة النبي صلى الله تعالى عليه وسلم بجنده في أحد ، وعقب الجروح التي أصابت الجيش الاسلامي ،فما وجه لوما لأحد ، وما جال بخاطره أن يحاكم المقاتلين لأخطاء وقعت ، بل كل همه في الميدان أن يسترد الموقف لأصحابه ، وأن يقفوا ، ولا يخروا صرعى أمام أعدائهم ، بل ارتقى بهم الى الهضبة وأعطى الراية من يحملها بحقها ، وناضل ، وقاوم ، حتى أيئس المشركين من أن يستأصلوا المؤمنين ،بل خافوا منهم ، وأنهوا القتال وان لم يكونوا مدحورين، خشية أن يندحروا ،اذ رأوا جند رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم قد اشتد بأسهم في القتال مع هذه الجراح التي جرحوها .

وعفا عنهم ، ليستبقي نخوتهم ، وبأسهم لما يأتي ، وان لم يكن ما وقع لا يسر ، بل كان يضر ، ولم يكتف عليه الصلاة والسلام بالعفو ، بل استغفر لهم بأمر ربه .

ولعل شوراهم هي التي جعلتهم ، يواجهون المشركين ، وقد كانوا بمنجاة عن ذلك ، لو أخذوا برأي الرسول ، ولكن الشورى لم تكن سبب الجراح ، انما عصيان القائد ، والخروج عما رسم من نظام كان هو السبب المباشر ،ولذلك أمره الله سبحانه وتعالى أن يستمر في الشورى فخطأ الشورى دائما الى صواب، لأنه يقوي ارادة الأمة ، وصواب الاستبداد دائما الى خطأ ، لأنه يضعف ارادة الأمة ، وضعف الارادة يضعف العزيمة ويفسد النفس ، وذلك في ذاته خطأ .

ولقد أخذت الرحمة رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم بالشهداء من الصحابة ، فأمر بأن يدفنوا بدل أن يرسلوا الى أهليهم ، ومن أخذه أهله رده الى الموطن الذي استشهد فيه ،وذلك لكيلا تتبعثر أبدانهم الطاهرة ، ولكيلا تثير رؤية ذويهم ألما وحزنا ، ولكيلا يتصايح أهلوهم بالندب والنواح . فكانت رحمة الله تعالى بهم أن يدفنوا حيث هم ، ليعرف الناس فضلهم ، ولقد كان رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم من بعد يزور مصارعهم ، وسلك ذلك أبو بكر ، ثم عمر ، ثم عثمان ، رضي الله تعالى عنهم جميعا ، وعلي كان يكرم ذرية أهل بدر وأهل أحد ، فيزيد في الصلاة عليهم تكبيرات في صلاة جنازتهم .

ولقد كان رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم يدفن الشهداء ، ويجمع في القبر أكثر من واحد ، ويختار من كانوا ذوي صحبة بينهم ، فيدفنهم في قبر واحد ، وكان يقدم في الدفن الأقرأ فالأقرأ ، وكلهم شهداء ذوو فضل عظيم ومقام كريم في الاسلام .

وقد كان عليه الصلاة والسلام لايمنع أن يبكي أهل الشهيد من بكاء عليه حزنا ، وان كان قد فاز بالشهادة ،وكان يقول عليه الصلاة والسلام : « البكاء من الرحمن والصراخ من الشيطان ».

وكان يبكي بكاء شديدا على عمه حمزة أسد الله تعالى ، حتى انه رأى نساء الأنصار يبكين قتلاهم فقال صلى الله تعالى عليه وسلم حزينا باكيا ، وحمزة « لا بواكي لحمزة » .

ومن رحمته عليه الصلاة والسلام بأهل الميت أنه منع السيدة العظيمة عمته صفية من أن ترى أخاها حمزة مقتولا ،وقد عبث العابثات من نساء المشركين بجثمانه الطاهر ، ومثلوا به .

قال ابن اسحاق : قد أقبلت صفية بنت عبد المطلب لتنظر اليه (حمزة) وكان أخاها لأبيها وأمها ، فقال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم للزبير الحقها فارجعها ، لا ترى ما بأخيها ،فقال لها الزبير ، ارجعي يا أمه ، ان رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم يأمرك أن ترجعي ، قالت ، ولم وقد بلغني أنه قد مثل بأخي ، وذلك من الله فما أرضانا بما كان من ذلك ، لأحتسبن ، ولأصبرن ان شاء الله ، فلما جاء الزبير الى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم وأخبره بذلك قال خل سبيلها ، فأتته فنظرت اليه واسترجعت واستغفرت .

ولقد دفن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم عمه سيد الشهداء حمزة مع ابن اخته عبد الله بن جحش ، وقد مثل به ، كما مثل بخاله حمزة .

وهكذا كان النبي القائد الرحيم يعيش بعد الجراح مع الأسر المجروحة يواسيها ، ولكنها مواساة النبوة ، والحقيقة ، أن قتلاهم شهداء ، وأنهم أحياء يرزقون ، كما قال تعالى :

﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾ ﴾ (١)

---

(١) آل عمران

وأنهم قد نالوا خير الحسنيين ،وأنهم يتمنون لو يعودون ليقتلوا في سبيل الله شهداء كما قتلوا ، ولكن كتب الله أن الذين يموتون لا يرجعون ، ولكن يبعثون في يوم الميقات المعلوم ٠

العدد والحساب بين بدر وأحد :

٤٤٣ ـ وقف أبو سفيان بن حرب الذي كان قائد الشرك مفاخراً قائلا « يوم بيوم بدر ، والحرب سجال » زاعماً أنهما يومان متقابلان تساويا في الخسارة ، فخسارة المسلمين يوم أحد كخسارة المشركين يوم بدر ، فهل هما متساويان ٠

العدد والحساب فيهما الحكم والاجابة ، لقد كان القتلى من المشركين في بدر سبعين ، والأسرى مثلهم وفروا يومها منهزمين مدحورين ، والسيوف الاسلامية تعمل في أقفيتهم فهل كانت هذه حال المسلمين ٠ كان القتلى من المسلمين في أحد سبعين ، أربعة من المهاجرين ، وأكثر من خمسة وستين من الأنصار ، ولم يكن من المسلمين أسير قط ، وكان القتلى من المشركين في غزوة أحد اثنين وعشرين ، وأسير هو أبو عزة الجمحي الذي أسر يوم بدر ، وخان العهد الذي أعطاه النبي صلى الله تعالى عليه وسلم على ألا يظاهر عليه ، فظاهر على المسلمين وجاء مقاتلا ، فأسر ، وطلب أن يمن عليه النبي صلى الله تعالى عليه وسلم لفقره ، ولبناته ، فقال له النبي صلى الله عليه وسلم الذي يجازي الاحسان بالاحسان ، والاساءة بعقابها ٠ قال له:(لا أدعك تمسح عارضيك ، وتقول خدعت محمداً مرتين ، لا يلدغ المؤمن من جحر مرتين) وأمر به فقتل ٠

ولم يكن من المؤمنين أسير ، ولم يفروا ولم ينهزموا مدحورين ، ولم تعمل السيوف في أقفيتهم اذ لم يولوا مدبرين ، واذ كان قد أحيط بهم في الدورة الثانية من أدوار القتال ، فقد شقوا طريقهم وارتفعوا عليهم ، واختاروا لأنفسهم المكان الملائم ، وأخذوا يسلبون نتائج المعركة من أيديهم حتى حسبوها ستفلت من أيديهم ، بهذا القتال ،وتتبعهم المسلمون في اليوم التالي ،وان كانوا مجروحين لم ينهزموا لأنهم يقاتلون في سبيل الله ، فهم ليسوا مع المؤمنين على سواء ، ونتيجة الحساب بالمعادلة تنتج أن عند المسلمين زيادة في الغلب ٠

وان الجروح التي أصابت جيش الاسلام لا تعد هزيمة • وكما قال صديقنا القائد العظيم اللواء ركن محمود شيث خطاب ، ان فقد عشرة في المائة من الجيش مع بقائهم ثابتين ، ومع أنهم شقوا الطريق الى النصر ، لا يعد هزيمة بحال من الأحوال •

انما هو جرح ، كما قال الله تعالى :

﴿ إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُ ۚ وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَاءَ ۗ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ ﴿١٤٠﴾ ﴾ (١)

فما كانت المداولة بين الناس هنا في الانتصار والانهزام ، بل كان في القرح الذي مسهم مثله ، فكانت الهزيمة لهم ابتداء ، ولم يستطيعوا أن ينزلوا بالمسلمين هزيمة مثلها ، بل فروا في النتيجة فراراً •

العبرة فيما أصاب المسلمين :

٤٤٤ ـ ولكن مع ذلك دروس ففي أحد عبر وأغلاط ، هي التي جعلت المسلمين يمسهم قرح ، كما مس المشركين قرح أولا ـ وقرحهم أشد ، لأنه صحبته هزيمة •

وأن الجرح الذي أصاب المسلمين له أسباب :

أولها : أن جيش المسلمين كان فيه من يطلب الغنيمة ، لأنه حسب أن النصر مفروغ منه بالقياس على ما كان في بدر ، وقد ظهرت نيات هؤلاء قبل المعركة ، اذ همت طائفتان أن تفشلا والله وليهما ، وظهرت في أثناء المعركة ، فقال تعالى :

﴿ مِنكُم مَّن يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ الْآخِرَةَ ۚ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ ۖ وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْ ۗ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٥٢﴾ ﴾ (٢)

---

(١) آل عمران (٢) آل عمران

والذين يريدون الدنيا سارعـوا الى الغنائم ، وعصوا أمر الرسول .

وظهر الذين يريدون الدنيا بعـد المعركة ، فقد أهمتهم أنفسهـم ، وندموا على الخروج لأنهم لم يصيبوا مالا وأصابتهم جراح ، ولم يعرفوا أن شأن القتال اتباع مناهجه فان خرجوا عنها وخالفوا أمر القائد ، ينلهم الثبور ، وانهم ان أطاعوا ، وسلكوا المنهج المستقيم نصرهم الله تعالى بتوفيقه .

ولقد كان هؤلاء يثيرون التردد في الجهاد في قلوب أهل الايمان ، وقال الله تعالى فيهم :

﴿أَوَلَمَّآ أَصَـٰبَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّىٰ هَـٰذَا ۖ قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٦٥﴾ وَمَآ أَصَـٰبَكُمْ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ وَلِيَعْلَمَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٦٦﴾ وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ نَافَقُوا۟ ۚ وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا۟ قَـٰتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوِ ٱدْفَعُوا۟ ۖ قَالُوا۟ لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَّٱتَّبَعْنَـٰكُمْ ۗ هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَـٰنِ ۚ يَقُولُونَ بِأَفْوَٰهِهِم مَّا لَيْسَ فِى قُلُوبِهِمْ ۗ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ ﴿١٦٧﴾﴾ (١)

وثانيها : ان بعض الجيش الاسلامي بتأثير الذين يريدون الدنيا قد شغلوا بالغنائم ، ولم يطاردوا المشركين بعد أن اضطربت صفوفهم بضربات المـؤمنين الصادقين أولي البأس من أصحاب محمد صلى الله عليـه وسـلم ، ولم يتبعـوا المشركين حتى يثخنوهم ، ويعجـزوهم عن أن يحيطوا بهم ، ويضربوا فيهم .

وثالثها : عصيان القائد ، وذلك من الذين يريدون الدنيا ، وقد عارضهـم الذين يريدون الآخرة ، ولـكن الأولين كشفوا ظهر المسلمين .

ولقد كانت نتيجة هذا الجراح عبرة ولم تكن هزيمة ، وهي أن الله تعـالى محص الذين آمنوا بالله وطلبوا الآخرة من الذين يريدون الدنيا ، ولا يفكرون فيما عند الله تعالى في الآخرة .

---

(١) آل عمران

فانه في الوقت الذي كان يجري هؤلاء وراء الغنائم التي كانت وبالا ـ كان المخلصون الذين يريدون الآخرة قد أحاطوا بالرسول يتلقون عنه ضربات السيوف وينضحون النبل ، ويرمون ،ويأتمرون بأمر القائد الأعظم بأمر الرسول وقد باعوا أنفسهم لله تعالى يقاتلون ، فيقتلون ويقتلون ، حتى شقوا الطريق ، وعلوا الى الهضبة،وأخذوا يكيلون الضربات ،حتى أيئسوهم من نصر،وأن يلحقوا بالمسلمين هزيمة،ولقد قال تعالى وقد تبين المجاهدون الذين أشرنا اليهم ، والذين استردوا الموقف ، بعد أن خرج بعمل الذين يريدون الحياة الدنيا •

﴿وَلِيُمَحِّصَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَيَمْحَقَ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿١٤١﴾ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُواْ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَـٰهَدُواْ مِنكُمْ وَيَعْلَمَ ٱلصَّـٰبِرِينَ ﴿١٤٢﴾﴾ (١)

وقد تبين المجاهدون الصابرون ، وكان منهم من قضى نحبه ، ومنهم من ينتظر ، وما بدلوا تبديلا ، وان غزوة أحد مهما تكن نتيجتها قرر النبي صلى الله تعالى عليه وسلم أنها جرح أصيب به المسلمون من الشرك ، فقد قال صلى الله تعالى عليه وسلم : « لا يصيب المشركون منا مثلها ، حتى يفتح الله علينا » •

دعاء الرسول صلى الله عليه وسلم في أحد :

٤٤٥ ـ رأينا أن نتيمن بذكر دعاء الرسول صلى الله تعالى عليه وسلم في أعقاب المعركة في شدتها على أهل الايمان ، روى الامام أحمد رضي الله تعالى عنه في سنده ، بالسند المتصل أن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم لما كان يوم أحد ، وانكفأ المشركون ، قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم « استووا حتى أثني على ربي عز وجل ، فصاروا خلفه صفوفا ، فقال اللهم لك الحمد كله ، اللهم لا قابض لما بسطت ، ولا باسط لما قبضت ، ولا هادي لما أضللت ، ولا مضل لمن هديت ، ولا معطي لما منعت ،ولا مانع لما أعطيت ولا مقرب لما باعدت، ولا مبعد لما قربت ، اللهم ابسط علينا من بركاتك ورحمتك وفضلك ورزقك، اللهم اني أسألك النعيم المقيم الذي لا يحول ولا يزول ، اللهم اني أسألك النعيم يوم العيلة ، والأمن يوم الخوف اللهم اني عائذ بك من شر ما أعطيتنا ،

---

(١) آل عمران

وشر ما منعتنا ، اللهم حبب الينا الايمان ، وزينه في قلوبنا ، وكره الينا الكفر والفسوق والعصيان ، واجعلنا من الراشدين، اللهم توفنا مسلمين، وأحينا مسلمين ، وألحقنا بالصالحين غير خزايا ،ولا مفتونين، اللهم قاتل الكفرة الذين يكذبون رسلك ويصدون عن سبيلك، واجعل عليهم رجزك وعذابك، اللهم قاتل الكفرة الذين أوتوا الكتاب،انه الحق ٠

هذا الدعاء الذي رواه الامام أحمد، وقد رواه النسائي أيضا في سننه ٠

وهكذا دخل رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم هو وأصحابه الذين يريدون الحق متجهين الى الله تعالى لا يرضون الا رضاه في جهادهم ، واستشهادهم ورغبتهم فيما عنده ، وخرج بهم رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، واتجاههم الى الله تعالى ، واستووا وراءه صفوفا حامدين شاكرين ، غير ناكصين ، زادتهم المحنة ايمانا وتسليما ، واذعانا وتفويضا ، فما ارتابوا ، بل ازدادوا ايماناً ويقيناً ، رغبة في حمية دينية ، وقوة ربانية ، وما ضعفوا ولا استكانوا ٠

وبذلك كان التمحيص بهذه الشدة، فنفت الأخباث ، وبقي الجوهر ، وصقل ٠

وبينما المؤمنون يدعون مع النبي ذلك الدعاء كان الذين أهمتهم أنفسهم يظنون بالله غير الحق ظن الجاهلية ،« يقولون هل لنا من الأمر من شيء ٠٠ يقولون لو كان لنا من الأمر شيء ما قتلنا ههنا » ٠

ويقول لهم المنافقون الذين رأوا ضعفهم ، وضعضعة نفوسهم ٠

﴿ لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا قُلْ فَادْرَءُوا عَنْ أَنفُسِكُمُ الْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٦٨﴾ ﴾ (١)

أعقاب أحد وكشف المنافقين :

٤٤٦ ــ بينا أن الجيش الاسلامي لم يهزم في أحد ، ولم ندع أنه انتصر ، لأنهم خرجوا من القتال ، ولم يمكنوا المسلمين من أن يضربوهم الضربة القاصمة ، بل انهم خرجوا راضين بالجراح في شبه اختلاس لا لقاء ، ولما ركبوا

(١) آل عمران

ابلهم تأكد النبي صلى الله تعالى عليه وسلم أنهم عائدون ، فعاد الى المدينة ، حتى يداوي الجيش جروحه ، ثم خرج اليهم في حمراء الأسد ، عساه يدركهم لينال جيش الايمان منهم .

ولكن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما يرى أن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم نصره الله تعالى في أحد فقد أثر عنه أنه قال : ما نصر رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم في موطن نصره في يوم أحد ، فأنكر عليه ذلك ، فقال بيني وبينكم كتاب الله تعالى ، ان الله تعالى يقول :

﴿وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥٓ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِۦ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَٰزَعْتُمْ فِى ٱلْأَمْرِ وَعَصَيْتُم مِّنۢ بَعْدِ مَآ أَرَىٰكُم مَّا تُحِبُّونَ ۚ مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلْءَاخِرَةَ ۚ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ ۖ وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْ ۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٥٢﴾﴾ (١)

والحس القتل ، ولقد كان لرسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ولأصحابه أول النهار حتى قتل من أصحاب لواء المشركين سبعة أو تسعة .

واذا قتل أصحاب اللواء كان دليلا على عظم كفة المسلمين ، فان الكفة راجحة ، وكفتهم غير راجحة ، فقد قتل كل حملة لوائهم ، حتى رفعته امرأة .

أما المؤمنون ، فكان لواؤهم مع مصعب بن عمير ، وأخذ يقاتل منافحاً عن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم فقتل ، واستطاع النبي صلى الله تعالى عليه وسلم أن يشق الى الهضبة ويحمل اللواء علي بن أبي طالب ، فانحسروا دون لواء المسلمين ، ولم ينالوا خيراً .

ومع أن المسلمين لم يهزموا ، وجيش الرسول صلى الله تعالى عليه وسلم لم يسقط لواؤه ، قد تشايع بين اليهود والمنافقين أن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم هزم جيشه ، وسموا الجراح التي أصابت المسلمين هزيمة ، وانتهزوها فرصة لاظهار الشماتة والتهكم ، حتى قال قائلهم لو كان نبياً ما هزم ، وأخذوا يعيرون اخوانهم أو من ليسوا لهم اخواناً ، بأنهم لو كانوا معهم ما قتلوا وما أصيبوا ؟

---

(١) آل عمران

ولقد بلغ بهم التهكم أن كبير المنافقين عبد الله بن أبي صارح بالتهكم ، ووقف كعادته يظهر أنه يؤيد النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، وهو في قوله يسخر ، كما كان يسخر من قبل ٠

قال ابن اسحاق في سيرته بسنده « كان عبد الله بن أبي له مقام يقومه كل جمعة ، لا ينكر له شرف في نفسه وفي قومه ، وكان فيهم شريفاً ، اذا جلس رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم الجمعة وهو يخطب قام فقال : أيها الناس هذا رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم بين أظهركم ، أكرمكم الله تعالى به ، وأعزكم به ، فانصروه وعزروه واسمعوا له ، وأطيعوا ثم يجلس » ٠

وما كان ذلك منه الا نفاقا ، اذ كان يستر كفره بهذه الكلمات ، ويبث الكفر والنفاق والتردد في نفوس المؤمنين ٠

وقد رآه المؤمنون يبث روح التردد والهزيمة في جيش الايمان ، ثم ينسحب ليفت في العضد ، ويبث روح التردد ، حتى همت طائفتان أن تفشلا ٠

ولكنه كان دائباً على اظهار مالا يخفيه ، فقد وقف كذلك ، والجيش الاسلامي قد عاد جريحاً ، ولم يكن مهزوماً ، وقد وقف كما كان يقف كل جمعة ، فأدرك المؤمنون تهكمه ، وأخذوه بثيابه ، وقالوا اجلس أي عدو الله والله لست لذلك بأهل ، وقد صنعت ما صنعت ٠

فخرج يتخطى رقاب الناس وهو يقول : « والله لكأنما قلت هجرا أن قمت أشدد أمره ٠٠ فوثب الي رجال يجبذونني ٠

قال له رجال من الأنصار ارجع يستغفر لك النبي صلى الله عليه وسلم قال : والله ما أبغي أن يستغفر لي انه يقول يريد الشماتة ، وكما قال الله تعالى فيه وفي أصحابه ، ومرضى القلوب :

﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَن لَّن يُخْرِجَ ٱللَّهُ أَضْغَٰنَهُمْ ﴿٢٩﴾ وَلَوْ نَشَآءُ لَأَرَيْنَٰكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَٰهُمْ ۚ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِى لَحْنِ ٱلْقَوْلِ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَٰلَكُمْ ﴿٣٠﴾ وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ ٱلْمُجَٰهِدِينَ مِنكُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَنَبْلُوَا۟ أَخْبَارَكُمْ ﴿٣١﴾﴾ (١)

---

(١) محمد

أصابت المنافقين فرحة شديدة ، قدبدت البغضاء من أفواههم ، وكما قال تعالى :

﴿ إِن تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا ۖ وَإِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا ۗ إِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿١٢٠﴾ ﴾ (١)

هذا ما كان من أهل النفاق .

اليهود :

٤٤٧ ـ كانت فرحة اليهود شديدة ،وأوجدت فيهم طمعاً ، انهم موتورون من المسلمين بما كان لبني قينقاع جزاء ما اقترفوا ، وكانوا يتوقعون أن ينزل بهم ما نزل بهم ، فلما كانت أحد طمعوا بدل أن يستمر خوفهم ، وظنوها فرصة سنحت ، وكانوا يتربصون بالمؤمنين الدوائر .

ولا شك أن فرحتهم كانت عظيمة ،وخصوصا أنه كان منهم من قاتل مع المشركين ، وهو أبو عمار الراهب ،وحسب أن مجيئه يخذل أهل يثرب عن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم .

ولقد بدت البغضاء من أقوالهم ، وأفعالهم ، حتى ليهمون أن يقتلوا النبي صلى الله عليه وسلم غيلة بأن يرموا عليه صلى الله تعالى عليه وسلم حجرا من سطح بعض بيوتهم ، ومعه أصحابه أبو بكر وعمر ، وعلي ، رضي الله تعالى عنهم جميعا ، ولكن الله تعالى نجاه منهم .

وقد كان المسلمون يظنون بهم الظنون لفرط ما كان من عداوتهم سراً وجهراً ، وظاهراً وباطناً .

ويجب أن نقول هنا ما قاله الله تعالى فيهم :

﴿ ۞ لَيْسُوا سَوَاءً ۗ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ ﴿١١٣﴾ ﴾ (٢)

---

(١) آل عمران (٢) آل عمران

وان أولئك هم الذين أسلموا من اليهود عند حضور النبي صلى الله تعالى عليه وسلم الى المدينة كعبد الله بن سلام ، وفريقه الذين آمنوا بمحمد صلى الله تعالى عليه وسلم فله جزاء ـ الحسنيان ٠

ومعهم عدد قليل أسلموا مخلصين في شدة أحد ، ويذكر التاريخ منهم مخيرق ، قال فيه ابن اسحاق كان ممن قتل يوم أحد ، مخيرق ، وكان أحد بني ثعلبة ، فلما كان يوم أحد قال : يامعشر يهود ، والله لقد علمتم أن قصد محمد عليكم لحق ، قالوا ان اليوم يوم السبت ، قال : لا سبت لكم ٠ فأخذ سيفه وعدته ،وقال ان أصبت فمالي الى محمد صلى الله تعالى عليه وسلم يصنع به ما شاء ثم غدا فقاتل مع رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، حتى قتل ، فقال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم مخيرق خير يهود ٠

وقد روى السهيلي أن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم جعل أموال مخيرق وكانت سبع حوائط أي حدائق ـ أوقافا في المدينة ٠

ويظهر أنها كانت أول أوقاف سنها النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، وهي حجة للذين أجازوا الأحباس ولم يمنعوها ، فهي عمل نبوي ثابت الى يوم القيامة ٠

ولقد دخل بعض أهل يثرب ممن لم يكونوا دخلوا في الاسلام حرب أحد ، فأسلموا وقتها ، ومن هؤلاء أصيرم بن عبد الأشهل عمرو بن ثابت بن وقش ٠

أخذته الحمية عندما جاءت قريش ،ومعها الأحابيش وغيرهم يغيرون على المدينة في أحد ، فخرج مع المحاربين وقد دخل الايمان قلبه ، وكان من قبل يأبى الاسلام على نفسه ويستنكره من قومه ، فلما كان يوم أحد حمل سيفه ، ودخل في عرض الناس ، فقاتل ، حتى أثبتته الجراح ، وبينما رجال من بني عبد الأشهل يلتمسون قتلاهم في المعركة اذا هم به ، فقالوا ان هذا للأصيرم ، وما جاء به ولقد تركناه وانه لمنكر ،فسألوه فقالوا ما جاء بك يا عمرو أحدب على قومك أم رغبة في الاسلام ،فقال رغبة في الاسلام ، آمنت بالله ورسوله وأسلمت ، ثم أخذت سيفي ،وغزوت مع رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، فقاتلت حتى أصابني ما أصابني ، فلم يلبث أن مات ٠

وقد أسلم وهو داخل للمعركة ، وآمن بالله ورسوله ، ولم يكن وقت بين اسلامه وتقدمه ومقتله للصلاة ، وقدشهد له رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم بالجنة ٠

روى أبو هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم أنه قال: حدثوني عن رجل دخل الجنة لم يصل قط فسألوه من هو فقال أصيرم بن عبد الأشهل عمرو بن ثابت ٠

هذه أمور أحاطت أحداً ، وأعقبتها في داخل المدينة ، وما حولها ، أما أثرها في بلاد العرب ، والقبائل المصاقبة في المدينة ، وما تحمله النبي صلى الله تعالى عليه وسلم والمؤمنون في أعقابها ،فنتركه الى الكلام في سرايا النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، وغزواته من بعدها ٠

الأحكام المستفادة
مما اتبعه النبي صلى الله عليه وسلم

٤٤٨ ـ كانت غزوة بدر الكبرى ايذانا بشرعية القتال دفاعا عن النفس، ودفعاً للاعتداء ، وحماية للدعوة ، كما صرح بذلك القرآن الكريم ، في قوله تعالى :

﴿ أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَـٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا۟ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ ﴾ (١)

وفي قوله تعالى :

﴿ وَقَـٰتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَـٰتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿١٩٠﴾ ﴾ (٢)

وفي قوله تعالى :

﴿ وَقَـٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ لِلَّهِ ۖ فَإِنِ ٱنتَهَوْا۟ فَلَا عُدْوَٰنَ إِلَّا عَلَى ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿١٩٣﴾ ﴾ (٣)

---

(١) الحج (٢) البقرة (٣) البقرة

وقوله تعالى :

﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰ أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰ أَن تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ ۗ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ (١)

وهكذا نزلت آيات كثيرة في اباحة القتال ، بل وجوبه دفعاً للفساد ، كما قال تعالى :

﴿ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴾ (٢)

كان هذا لمناسبة أول قتال ، أما في أحد ، فقد شرعت أحكام تفصيلية في الجهاد من عمل النبي صلى الله تعالى عليه وسلم من تكوينه لجيشه ، ومن استقباله لعدوه :

١ ـ ومن هذه الأحكام التي ثبتت في هذه الغزوة أنه لا يخرج الى الجهاد من لم يبلغ الخامسة عشرة الا اذا كان قوي الجسم ، كقوة الشبان البالغين ، أو كانت له مهارة فنية في الحروب ، كالرمي بالنبل ، فقد أجاز اثنين ممن دون الخامسة عشرة بقليل لمهارة أحدهما في الرمي ، ولقوة الثاني في المصارعة .

وقد أجاز صلى الله تعالى عليه وسلم خروج النساء في الغزو ، يسقين الغزاة ، ويداوين الجرحى ، والقتال ان تعين القتال عليهن ، كتلك التي كانت تناضل مع المناضلين عن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم وقد أحاط به المشركون يحاولون قتله ، فردهم الله تعالى بغيظهم لم ينالوا منه عليه الصلاة والسلام شيئا .

ولذلك أجاز الفقهاء خروج المرأة مع الجيش مداوية ومقاتلة ، وقال بعضهم لا يحل لها ركوب الخيل الا أن تكون محاربة .

٢ ـ ومنها أنه اذا أخذت الأهبة للجهاد لا يجوز أن يترددوا ، فان

---

(١) البقرة (٢) البقرة

التردد يلقي بالخذلان في النفوس ، والاختلاف والتدابر ، ولذلك لما لبس النبي صلى الله تعالى عليه وسلم لأمة الحرب ، وغير المجاهدون رأيهم ، قال صلى الله تعالى عليه وسلم ، ما كان لنبي لبس لأمة الحرب أن يخلعها ، وكذلك الأمر في كل أمر ينتهي بالشورى لا يصح أن يكون موضع تردد حسما للأمور وفضا للنزاع .

٣ ـ ومنها أنه يجوز للمجاهدين مجتمعين أن يأخذوا طريقهم ، ولو في أرض مملوكة ملكا خاصا ، كما اجتاز النبي صلى الله تعالى عليه وسلم بجيشه بعض الحدائق ، ولم يلتفت الى اعتراض المعترضين ، لأن الملك الخاص له حق الصيانة ، الا اذا ترتب على الحقوق الخاصة ضرر عام ، فاذا لم يكن للجيش طريق الا الملك الخاص ، لم يمنع من سلوكه مهما يكن اعتراض صاحبه ، ولذلك لم يلتفت النبي صلى الله تعالى عليه وسلم الى اعتراض الأعمى صاحب الحديقة ، وقال انه أعمى البصر والبصيرة .

٤ ـ ومنها جواز أن يتمنى المجاهد في سبيل الله الشهادة من غير موانات ولا استسلام بل في حزم وعزة وقوة وتمني الموت منهي عنه في غير هذا المقام كما قال عبد الله بن جحش عندما تقدم للجهاد « اللهم لقني من المشركين رجلا عظيما كفره ، شديداً حرده ، فأقاتله ، فيقتلني ويسلبني ثم يجدع أنفي وأذني لقيتك فقلت يا عبد الله بن جحش ، فيم جدعت !! قلت فيك يا رب » .

ويظهر أن ذلك الدعاء بعد أن رأى المشركين يمثلون بالقتلى .

٥ ـ ومنها أن المسلم اذا قتل نفسه أثم ، ودخل النار ، ولو كان ذلك من جراح شديدة ، وذلك أن مسلما اسمه قزمان أبلى يوم أحد بلاء شديداً حتى أثخن بالجراح ، فلما اشتدت به نحر نفسه ، فأثمه النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، لأنه يئس من روح الله تعالى :

﴿ إِنَّهُۥ لَا يَا۟يْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَـٰفِرُونَ ﴿٨٧﴾ ﴾ (١)

٦ ـ ومنها أن السنة في الشهداء ألا يغسلوا ولا يكفنوا في غير ثيابهم التي كانوا يجاهدون بها ، بل يدفن فيه بدمه وكلومه الا أن يسلبها فيكفن في غيرها .

---

(١) يوسف

٧ ـ ومنها أن السنة في الشهداء أن يدفنوا في مصارعهم ، ولا ينقلوا الى مكان آخر ، وذلك لتكون زيارة قبورهم فيها عبرتان : عبرة الاستشهاد والجهاد ، وعبرة رؤية المكان الذي صارعوا فيه وجاهدوا حتى نالوا أعلى الحسنيين ٠

ولقد حصل في أحد أن بعض الصحابة نقلوا قتلاهم الى المدينة ، فنادى منادي رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم برد القتلى الى مصارعهم ، قال جابر بن عبد الله بينما أنا في النظارة،اذ جاءت عمتي بأبي وخالي ، كما دللتهما على ناضح فدخلت بهما المدينةلتدفنهما في مقابرنا ، وجاء رجل ، ينادي : ألا ان رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم يأمركم أن ترجعوا القتلى فتدفنوهم في مصارعهم حيث قتلت فرجعنا بهما ، حيث دفناهما في القتلى حيث قتلا ٠

وبعمل الرسول صلى الله تعالى عليه وسلم صارت السنة في الشهداء أن يدفنوا في مصارعهم ٠

٨ ـ ومنها جواز أن يدفن الرجلان والثلاثة في قبر واحد فان رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، كان يدفن الرجلين والثلاثة في القبر ، ويقول أيهم أكثر أخذاً في القرآن ؟ فاذا أشاروا الى رجل قدمه في اللحد واذا كان رجلان بينهما محبة في الدنيا دفنهما معاً في قبر واحد لما كان بينهما من المحبة فدفن عبد الله بن عمرو بن حزم،وعمرو بن الجموح في قبر واحد ، لما كان بينهما من المحبة ٠

٩ ـ ولقد حدث عند ما كان الاضطراب في جيش المؤمنين بسبب المفاجأة أن قتل بعض المؤمنين مؤمناً يحسبه كافراً ، فانه لا يذهب دم المقتول هدراً ، بل تكون ديته في بيت المال ،كما فعل النبي صلى الله تعالى عليه وسلم فودى الذين قتلوا خطأ من المؤمنين لأنه كان بقيادته صلى الله تعالى عليه وسلم وهو ولي أمر المؤمنين ٠

١٠ ـ ومنها أن ذوي الأعذار يرفع عنهم واجب الجهاد ، ولكنهم ان خرجوا مجاهدين كان لهم ثواب الجهاد ،وان قتلوا كانوا شهداء ، فرخصة التخلف لعذرهم رخصة ترفيه ، لاتسقط الواجب ، ولكن تسوغ التخلف،

كمن يصوم وهو صاحب رخصة كمرض أو سفر ، فان الصوم يجزي عنه اذا صام ، وان أفطر فعدة من أيام أخر .

وقد خرج عمرو بن الجموح وهو أعرج ، وليس على الأعرج حرج ، فلم يمنعه النبي من أن يجاهد ، فجاهد حتى استشهد ، وتولى دفنه النبي صلى الله تعالى عليه وسلم مع شهيد كان له معه صحبة ومحبة .

١١ ـ ومنها أن العدو اذا طرق الديار لا يجب على المؤمنين أن يخرجوا لقتاله ، ولا يجب عليهم أن ينتظروا حتى يدخل عليهم الديار ، بل ينظرون الى ما يكون المصلحة والمكيدة في الحرب، فان كان الأول أشد نكاية اتبع وان كان الآخر التزم كما فعل النبي صلى الله تعالى عليه وسلم .

١٢ ـ ومنها وجوب الشورى ،كما استشار النبي صلى الله تعالى عليه وسلم جند المؤمنين ، ليدخل الجند مطمئنين ، آمنين راضين ، غير مرهقين في نفوسهم ، ولا في تفكيرهم ، فيكون ذلك أرجى للنصر .

١٣ ـ ومنها ألا يصلى على الشهيد، فانه ثبت أن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم لم يصل على شهداء أحد ، ولم يصل على شهيد مات في المعركة في أي غزوة من الغزوات ، لأن شهادته تغنيه عن دعاء الأحياء ، وصلاة الجنازة دعاء وتضرع واستغفار .

١٤ ـ وقد قال ابن القيم انه يجوز للمجروح أن يصلي قاعداً ، ولو كان اماما ، ويقول في ذلك ان الامام اذا أصابته جراحة صلى بهم قاعدا ، وصلوا وراءه قعوداً ، كما فعل رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم في هذه الغزوة واستمرت على ذلك سنته الى حين وفاته .

ولكن هل يجوز أن يصلي المأموم واقفاً وراء الامام الذي يصلي قاعداً ! ان ذلك موضع خلاف بين الفقهاء ،ليس هذا موضعه .

هذه الأمور التي ذكرناها كلها كانت من النبي صلى الله تعالى عليه وسلم في هذه الغزوة ، وما يعمله يكون بياناً لحكم شرعي يتبع ، ولا شك أن بعض هذه الأحكام تدخل تحت أنواع ثلاثة من الأحكام التكليفية ، فمنها ما يدخل تحت حكم الجواز ، والمصلحة ترجحه أو توجبه ، كما رأينا في خروج النساء في الحرب والجهاد ، فانه جائز أو مباح ،وقد يكون مستحباً اذا كان في الرجال

كفاية وفي النساء عون ، وقد يكـون واجباً اذا كان الجرحى يحتاجون الى عدد كبير من المداوين .

وكما رأينا في الذي خـرج وعنده عذر فان النبي صلى الله تعالى عليه وسلم أجازه ، فانه يكتفي بالجواز ، ابتداء ، ولكن ان كان ذا بأس وشدة مع عذره ، فان الأولى الخروج مع رخصة القعود .

وهو في الحالين شهيد ان استشهد ، له جزاء الشهداء ، ومجاهد ان نجا ، له جزاء المجاهدين .. والله أعلم .

صـدى أحـد

وسـرايا النبيّ صلى الله عليـه وسـلم

٤٤٩ ـ تسايرت الركبان بموقعة أحد ، وقريش تدعي أنها هزمت محمداً صلى الله تعالى عليه وسلم ، وتنشد بذلك شعراً والشعر في البلاد العـربية كان أداة النشر ، وطريق الاعلام ، فان حدثا يذكر في قصيدة جدير بأن تعلم به القبائل العربية في قاصيها ودانيها ، ولما كانت النفوس مستشرقة لأن تعرف ما بين النبي صلى الله تعالى عليه وسلم وقريش الذين أخرجوه من مكة ، أو خرج بأمر ربه ، وصارت بينه وبينهم مغالبة شديدة هم يغالبون بجاهليتهم وغطرستهم ، وهو يجاهد بالحق يدفع به الباطل .

وقد رأوا الحق يدفع الباطل يوم الفرقان ، وذاع في البقاع أمر الهزيمة التي فروا فيها فراراً ، فذلت أنوفهـم أو كادت ، وزلزلت هيبتهم ، وقد كانوا شرف العرب ومحتدهم .

فكان لابد أن يشيعوا أنهم أخذوا ثاراتهم ، ونالوا مأربهـم ليستردوا هيبتهم ، ويستعيدوا شرفهم الذي مزق محمد صلى الله تعالى عليه وسلم رايته .

اذا كانت بدر قد هزت مكانة قريش في العرب ، وحركت عليهم من كانوا ينفسون عليهم مكانتهم ، فكان لابد أن يشيعوا ما زعموه هزيمة محمد صلى الله تعالى عليه وسلم في أحد ، وأن يملأوا بها الأجواء ، وأن يرددوها في كـل

مكان ، وقد صارت المعركة بين مكة والطائف وما حولهما ، ومدينة رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ·

تحركوا لمناوأة النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، والأعراب أشد كفراً ونفاقا وأجدر ألا يعلموا حدود ما أنزل الله ، طمعت قبائل في المسلمين بعد أن كبتهم الله ببدر ، وتحركت عوامل محرضة على أهل الايمان مجرئة عليهم ، ونشر الأخبار عما زعموه هزيمة يؤلب على المؤمنين ، ويثير الأضغان من عبدة الأوثان عليهم ، فكثر الغدر والخيانة من قبائل العرب ، وكثرت مداهنة قريش ·

والنبي صلى الله تعالى عليه وسلم وأصحابه يصابرون ويجاهدون ·

وبمقدار ما كانت قريش تزدهي ،كان يعتريها أمران :

أحدهما ــ أنهم لم يشتفوا من أعدائهم رجال الايمان ، فما زال من أعملوا سيوفهم في رقاب المشركين في بدر صناديد المؤمنين أحياء وسيوفهم مشهورة ينتظرون الأمر لتضرب ، فاذا كانوا قد نالوا من حمزة ، فأمامهم علي بن أبي طالب والزبير بن العوام ، وسعد بن أبي وقاص ، وأبو عبيدة عامر بن الجراح ، وأمامهم وزيرا رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم أبو بكر وعمر ، وأمامهم نور الله ورسوله يسطع فتغشى أبصارهم ·

ثانيهما ــ أنهم يتوجسون خيفة من جولة لأهل الايمان تجتالهم ، وخصوصا أنهم يتربصون بهم حتى يؤمنوا ، فماداموا على شركهم ، واعتدائهم فسيوف الحق من ورائهم ·

لذلك كانوا يتبعون أخبار المؤمنين ،ويعملون على تحريض القبائل على أهل المدينة ، ويعطون العطايا لمن يأتونهم برجل من أهل الايمان أو رجال ، ويشترون منهم من يتمكنون منهم من رجال النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، والأعراب أشد كفرا ونفاقا يسايرونهم، ويتمنون الأماني منهم ، وانك لتراهم يعملون الغدر والخيانة لينالوا مآربهم·

ولذلك ترى سرايا النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ينالونها بالغدر والخيانة عن طريق أولئك الأعراب ،والنبي صلى الله تعالى عليه وسلم

يحترس ويعلم خبايا الأمور ، ويتعرف الأخبار ، ويحاول أن يقعد لهم في كل مرصد .

ويرسل السرايا التي سماها صديقنا اللواء شيت خطاب دوريات ، تتعرف ما في البلاد والقبائل ، ومنها من يعود بالغنائم ، ومنها من يترصده الأعراب ليقدموه قربانا للمشركين ، ومنهم من يظهر الميل الى الاسلام فيبعث النبي صلى الله تعالى عليه وسلم من يهديهم ، فاذا بهم يخونون ويغدرون ، فيقتلونهم قربا للمشركين أو يبيعونهم لهم ليأخذوا منهم تراثهم .

سرية لبني أسد :

٤٥٠ ـ جمع طليحة الأسدي وأخوه سلمة ابنا خويلد عدداً كبيراً من بني أسد ليقصدوا حرب النبي صلى الله تعالى عليه وسلم رجاء أن ينالوا عند زعماء مكة منالا ، وقد ظنوا أن المدينة أصبحت ترام منهم ، وممن على شاكلتهم بعد أن أشاعت قريشا خبر هزيمة مزعومة .

فعلم النبي صلى الله تعالى عليه وسلم بما تمالؤا عليه ، وما أرادوا ، وما كان ليتركهم حتى ينفذوا مما يريدون ، وان كان فوق طاقتهم .

فأرسل أبا سلمة في خمسين ومائة من المهاجرين والأنصار وأوصاه بتقوى الله ، وبمن معه من المسلمين خيرا .

سار حتى وصل الى قطن وهو ماء لبني أسد .

ويظهر أنهم مع ما كانوا قد أزمعوه من حرب النبي صلى الله تعالى عليه وسلم فوجئوا ، فأذهلتهم المفاجأة ، فتفرقوا مذعورين ، وتركوا نعما كثيرة لهم من الابل والغنم .

غنم ذلك كله أبو سلمة ، وأسر منهم ثلاثة مماليك ، وقفل راجعا الى المدينة ومعه هذه الغنائم ، وقد أخذ النبي صلى الله تعالى عليه وسلم خمس الغنائم ، وكان فيها عبد ، وقد وزع خمسه وقسم أبو سلمة خمسه بين أصحابه ، كما

شرع الله تعالى في الغنيمة ، فقد قال تعالى :

﴿ * وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ إِن كُنتُمْ آمَنتُم بِاللَّهِ وَمَا أَنزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ ۗ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٤١) ﴾ (١)

وان أبا سلمة رضي الله تعالى عنه قد أخرجه النبي صلى الله تعالى عليه وسلم في هذه السرية في المحرم من السنة الرابعة أي بعد خمسة وثلاثين شهراً من الهجرة ٠

ولقد مكث فيها نحو بضع عشرة ليلة ومات بعدها ، لجرح أصابه في أحد، ولقد قال ابنه عمرو « كان الذي جرح أبي أبو أسامة الجشمي ، فمكث شهرا يداويه فبرأ ، فلما برأ بعثه رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم في المحرم (يعني من سنة أربع) فغاب بضع عشرة ليلة ، فلما دخل المدينة انتفض به جرحه فمات لثلاث بقين من جمادى الأولى » ٠

وهكذا أدى ذلك الشهيد واجبه مرتين احداهما في أحد ، وقد جرح جرحا قاتلا ، وكرمه الله تعالى بأن أرسله في سرية الى بني أسد ، ثم تحرك الجرح فمات شهيدا ، ولكن بين أهله ٠

ولعل النبي صلى الله تعالى عليه وسلم اختاره ليرسله الى بني أسد ، لأنه منهم ، اذ هو أبو سلمة بن عبد الأسد أبي طلحة الأسدي ، فيرسل عليه الصلاة والسلام الرجل المؤمن على رأس المقاتلين من المؤمنين ليقاتل المشركين من قومه ، فتكون الفائدة من ناحيتين احداهما ـ تأديب المشرك لحمله على الايمان الثانية التأكيد في محو العصبية الجاهلية، واحياء الوحدة الاسلامية ٠

---

(١) الأنفال

يوم الرّجيع

٤٥١ ـ الرجيع مكان على ثمانية أميـــال من عسفان ، وقد قال ابن كثير تابعاً للواقدي غزوة الرجيع ، وما ارتضينا ذلك العنوان ، الا لأنه كان الأمر فيه أمر خيانة ـ وغدر من بعض المشركين بتحريض من قريش ، لينالوا بعض ما بقي من ثأرهم ، وانه لا يزال كثيراًكما ذكرنا ، فأكثر الذين وتروهم من شجعان المسلمـــين لا يزالون يحملون السيف ، ليخوضـــوا بهـا في صفوف المشركين مرة أخرى أو مرات •

وقصة الرجيع كما روتهـــا كتب السيرة وصحاح السنة ، هي قصة غدر ، ولؤم بتحريض من المشركين :

قدم على رسول الله صلى الله عليـــه وسلم بعد غزوة أحد رهط من عضـــل والقارة ، وهما بطنان من الهون بن خزيمة بن مدركة •

قالوا يا رسول الله ان فينا اسلاماً «فابعث معنا نفراً من أصحابك يفهموننا الدين ، ويقرئوننا القرآن ، ويعلمـــوننا شرائع الاسلام ، فبعث رســـول الله صـــلى الله عليـــه وســـلم نفراً من أصحابه ، قال ابن اسحـــاق بسنده ان عدتهم ستة ، وقال البخاري بسنده فيصحيحه ان عدتهم عشرة ، وقـــال ابن اسحاق ان الذي أمره الرسول على وفدالايمان والدعوة هو مرثد بن أبي مرثد الغنـــوي الذي كـــان أخاً لحمزة بنعبد المطلب سيد الشهداء في المؤاخـاة التي آخى بها النبي صلى الله تعالى عليهوسلم بين المهاجرين والأنصار •

وفي رواية البخاري أن الذي أمرهعليهم رسول الله صـــلى الله تعالى عليـــه وسلم هو عاصم بن ثابت بن الأفلح ،وان رواة الحديث والأخبار يرجحـــون رواية البخاري •

ويؤيد رواية البخاري الواقدي •

انطلق ذلك الوفد المؤمن مغادرا المدينة متجهاً الى عضل والقارة دعاة هداية، وليسوا محاربين ، وما كانوا يعلمون أن القوم يأتمرون في غدر وخيانة وكذب لم يعرف في أشراف العرب •

حتى اذا كان في الرجيع بين عسفانومكة ، وهو بالهذيل غدروا بهم ونادوا

مستصرخين وفوجىء وفد الهداية الى الاسلام برجال بأيديهم السيوف قد غشوهم ·

وأرادوا أن يأخذوهم بالغش والخديعة كما استنفروهم بها ، فقالوا لهم انا والله ما نريد قتلكم ولكن نريد أن نصيب شيئاً من أهل مكة ، وربما كانوا صادقين ، وان ذلك من انخداع العرب بما زعمه المشركون من نصر نالوه ، ولقد قالوا في خديعتهم : « لكم علينا عهد وميثاق ألا نقتلكم » ·

فترت بذلك عزيمة بعض المؤمنين بعد أن أخذوا سيوفهم ليقاتلوا ، ويموتوا مجاهدين ، ولا يموتوا مستسلمين ·

« قال عاصم بن ثابت ، ومرثد بن أبي مرثد وخالد بن بكير من العشرة الكرام ، أو الستة على اختلاف العدد ، لا نقبل من مشرك عهداً ولا عقداً أبدا » ·

وقد كانوا على حق ، لأنهم ابتدؤوا بالغدر والخيانة أو تسليط الغادرين الخائنين ، وعلى فرض أنهم صادقون فيما يعاهدون عليه من أنهم لايقاتلونهم فانهم سيسلمونهم لأهل مكة ليصيبوا منهم شيئاً ، ولا شك أن أهل مكة سينزلون بهم أذى ، القتل أقله ·

ولذلك قاتل أولئك الثلاثة ، وقتلوا ، فاختاروا أن يقتلوا مجاهدين من أن يقتلوا مستسلمين ، أما اخوانهم فلم يرتضوا ذلك الموقف الشجاع الذي كانت نهايته شهادة في غير استسلام واستخذاء ، بل في قوة وايمان وجهاد ·

استسلم الباقون ظانين أن لهم عهوداً ، وقد ذكر منهم ابن اسحاق ثلاثة وهم : زيد بن الدثنة ، وخبيب بن عدي ، وعبد الله بن طارق ·

ولنذكر بعض ما فعلوه بعاصم بن ثابت الذي أصاب من قريش في ميدان القتال ، فقد أصاب في أحد ابني امرأة من قريش فنذرت ان تمكنت منه أن تشرب الخمر في قحفة عاصم ، فلما اقتل طلبت رأسه ، وقد قيل ، عندما أرادت ذلك ، نبه رجل أبا سفيان بن حرب كيف يصنع برأس ابن عمه فلم يستخف ولم يلم ، وماذا ينتظر من أبي سفيان زوج هند التي فعلت ما فعلت ، فلم ينكر ، ولكن الله تعالى حمى رأس المؤمن التقي من أن يمسها الأنجاس فحامت حولها الزنابير لتحميها ·

ولنتجه من بعد الى الذين رضـوا بمواثيق المشركين ، ولم يتنبهوا الى قول الله تعالى :

﴿ كَيْفَ وَإِن يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ لَا يَرْقُبُوا فِيكُمْ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً يُرْضُونَكُم بِأَفْوَاهِهِمْ وَتَأْبَىٰ قُلُوبُهُمْ وَأَكْثَرُهُمْ فَاسِقُونَ ﴿٨﴾ ﴾ (١)

لقد أسروهم ، ثم خرجوا بهم الى مكة ليبيعوهم بها،حتى اذا كانوا بالظهران، وهو واد قرب مكة ، استطاع أن يفك أحد الثلاثة عبد الله بن طارق يده من رباطها ، وأخذ سيفه ، فاستأخر عنـه القوم ، وباعدوه حينا من لقاء سيفه ، ولكن رموه بالحجارة حتى قتلوه ، فمات غير مستسلم ، وان كان قد وثق بعهدهم الذي عاهدوا عليه ٠

وأما الآخران خبيب بن عدي ، وزيد بن الدثنة فقد باعوهما من قـريش بأسيرين من هذيل كانا بمكة ٠

فابتاع خبيباً بنو الحارث بن عمار بن نوفل ، وكان خبيب هو الذي قتل أباهم الحارث يوم بدر فمكث عندهـم أسيراً ، يسومونه الخسف والهـوان ، ولكنه كان في سعة نفس من ايمانه ،ومهما يروموه من اهانة ، فنفس المؤمن لا تهون ، وكأنه وثق بعهدهم ليرى الله تعالى الناس المؤمن اذا خدع ، وصبره اذا أوذي ليرتفع الى درجات المجاهدين بالصبر ، كما هو مجاهد في ميـدان القتال،قدموه ليقتلوه صلباً ،فأستأخرهم حتى يصلي ركعتين فصلاهما ، ثم أقبل عليهم مستبشراً يقول للجـلادين : أما والله لولا أن تظنوا أني انما طـولت جزعاً من الموت ، لاستكثرت من الصلاة٠

ولقد علم النبي صلى الله تعالى عليه وسلم بصـلاته عند القتل مستشهـداً فأقره ، فكانت سنة نبوية باقراره عليه الصلاة والسلام ٠

رفعوه من بعد صـلاته الى خشبة الصلب ، فلما أوثقوه قال : اللهم انا قد بلغنا رسالة رسولك فبلغه الغـداة مايصنع بنا،اللهم أحصهم عددا ، واقتلهم بددا ، ولا تغادر منهم أحدا ٠

---

(١) التوبة

وهكذا مات خبيب بطلا في ميدان الجهاد النفسي ، كما مات أصحابه عاصم ومن معه في جهاد مستشهدين ، ولم يلقوا سيوفهم ٠

وهكذا قتلوا خبيباً صلباً وهو يقول صابرا :

ولست أبالي حين أقتل مسلماً على أي شق ، كان في الله مصرعي
وذلك في ذات الاله وان يشأ يبارك على أوصال شلو ممزع

وفي اليوم الذي صلب فيه خبيب صلب فيه أيضا زيد بن الدثنة ، وكان صابراً راضياً مطمئناً ، في سعة من الايمان ، قال له عند صلبه زعيم الشرك أبو سفيان بن حرب : أنشدك الله يا زيد أتحب أن محمدا عندنا الآن في مكانك نضرب عنقه ، وانك في أهلك ، قال والله ما أحب أن محمداً في مكانه الذي هو فيه تصيبه شوكة تؤذيه ، واني جالس في أهلي ٠

وعندئذ قال زعيم الطاغوت ٠٠ ما رأيت من الناس أحداً يحب أحداً كحب أصحاب محمد محمداً ثم قتل الشهيد الصابر ٠

وان يوم الرجيع يدل على أمور ثلاثة :

أولها : ما كان من تحريض قريش من غدر وخيانة واستخدام أخس أنواع الخيانة ٠

وثانيها : أن قريشا لم يشتفوا لثاراتهم من بدر ، وأنهم أنهوا الحرب في أحد غير مختارين ، والا لبقوا حتى يأخذوا بكل ثاراتهم ، وأنه قد جدت لهم في أحد ثارات أخرى ٠

وثالثها : أن العرب بسبب الدعاية التي قامت بها قريش من اشاعة أن جموع محمد صلى الله تعالى عليه وسلم قد هزمت ، قد وجد فيهم من يعمل لحسابها ، ويرجو رضاها ، ولم يكن شيء من ذلك بين بدر وأحد ، ولكنه كان بعد أحد لاشاعة الهزيمة الكاذبة والله أعلم ٠

سرية عمرو بن أمية ويوم بئر معونة :

٤٥٢ ـ هذا يوم آخر بعد يوم الرجيع لاحق به ، ويتجلى فيه الغدر ، كما يتجلى فيه العمل من القبائل لحساب قريش ، ويذهب في هذا اليوم نتيجة الغدر نحو أربعين من المؤمنين لا ستة ولا عشرة ٠

وان هذا الغدر كان يبيت في مكة ،ويدبر أمره في قريش ، وقبل يوم بئر معونة نذكر ما نواه أبو سفيان من غدر بالنبي صلى الله تعالى عليه وسلم ومحاربته له ٠

وهذا الخبر هو كما قال الواقدي :كان أبو سفيان بن حرب قد قال لنفر من قريش بمكة ، ما أحد يغتال محمداً، فانه يمشي في الأسواق ، فيدرك ثأرنا ، ومؤدى هذا أنهم الى الآن لم يدركوا ثأرهم ، وأني يدركونه فأتاه رجل ، وقال له ان أنت وفيتني خرجت له حتى أغتاله ، فاني هاد بالطريق خريت معي خنجر مثل خافية النسر ،قال أبو سفيان أنت صاحبنا وتفقه ، وقال له اطو أمرك ، فاني لا آمن أن يسمع أحد ، فينميه الى محمد ، فقال العربي لا يعلمه أحد ٠

سار الرجل خمس ليال حتى وصل الى المدينة فسأل عن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم فوجده في جماعة من أصحابه يحدث في مسجده ، فلما رآه رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم أدرك بفراسة المؤمن وباعلام الله أن هذا الرجل يريد غدراً ، قال الرجل أيكم ابن عبد المطلب فقال الرسول صلى الله تعالى عليه وسلم : أنا ابن عبد المطلب ٠

ذهب الرجل ينفذ ما دبر مع أبي سفيان ينحني على رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم كأنه يساره ، فتنبه بعض الصحابة،وجذبه أسيد بن حضير، وقال له : تنح عن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، وجذب داخل ازاره ، فاذا الخنجر ، فقال يا رسول الله هذا غادر ، فسقط في يد الأعرابي ، وقال دمي ، دمي يا محمد ، وأخذ أسيد بن حضير يلببه ٠

قال له النبي صلى الله تعالى عليه وسلم أصدقني ما أنت وما أقدمك ، فان صدقتني نفعك الصدق وان كذبتني فقد أطلعت على ما هممت به ٠

قال الأعرابي فأنا آمن ، قال عليه الصلاة والسلام وأنت آمن ، فأخبره بخبر أبي سفيان ، فوضعه النبي صلى الله تعالى عليه وسلم عند أسيد بن حضير فلما جاء الغد قال له قد أمنتك ، فاذهب حيث شئت ، أو خير لك من هذا قال وما هو ؟ قال أن تشهد أن لا اله الا الله،وأني رسول الله ، فشهد الرجل الشهادة٠

علم النبي صلي الله تعالى عليه وسلم ما يدبر له في مكة ، وما يريدونه منه ، وقد انتقلوا من الحرب الى الاغتيال وبدا ذلك يوم الرجيع ، ثم تبين أنه يبيت لشخصه الكريم في مكة ٠

فأرسل سرية لتعرف ما في مكة ،وتفعل مع أبي سفيان ما كان سيفعله بالنبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، « والحرمات قصاص ، فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم واتقوا الله » •

أرسل النبي صلى الله تعالى عليه وسلم عمرو بن أمية الضمري ، وكان فارساً فاتكا من فتاك العرب ، قد آمن وحسن اسلامه ، وسلمة بن أسلم ، ليتعرفا أحوال مكة ، وليصيبا من أبي سفيان •

ذهبا الى مكة وصليا وطافا بالبيت •

وقد علم أهل مكة بهما ، وكان عمرو كما ذكرنا فاتكا في الجاهلية يخشى بأسه ، فتجمعت الجموع ، لملاقاته ولكنه تركهم ، وقد عرف حالهم وما يدبرون، ولم يتمكن من أحد ، وعاد وصاحبه ،وقد تمكن هو من قتل الذين كانوا يتبعونه فرادى ، فقتل بعضهم ، وأسر بعضهم ، وأتى بمن أسر للنبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، وكان قد سبقه سلمة بن أسلم •

بئر معونة :

٤٥٣ ـ في نفس هذا الشهر وهو صفر في السنة الرابعة من الهجرة وكان من أمر هذه السرية أن أبا براء عامر بن مالك بن جعفر ملاعب الأسنة قدم المدينة ، فعرض عليه النبي صلى الله تعالى عليه وسلم الاسلام ودعاه اليه ، ويقول ابن اسحاق فلم يسلم ولم يبعد عن الاسلام ، قال لرسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم : لو بعثت رجالا من أصحابك الى أهل نجد فدعوهم الى أمرك رجوت أن يستجيبوا لك ،فقال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم اني أخشى عليهم أهل نجد • قال أبو براء : أنا لهم جار ، فابعثهم فليدعوا الناس الى أمرك •

اطمأن النبي الكريم الحريص على تبليغ رسالة ربه ، حيثما وجد موطنا من مواطن التبليغ ، وخصوصا عندما أعلن أبو البراء أنهم في جواره •

اختار النبي صلى الله تعالى عليه وسلم لامرتهم المنذر بن عمرو أخا بني ساعده ، وكانوا كما روى ابن اسحاق أربعين ، وكما روى البخاري سبعين • ولنترك الكلمة للبخاري :

قال : بعث رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم سبعين رجلا لحاجة يقال لهم القراء ، فعرض لهم حيان من بني سليم ، رعل وذكوان عند بئر يقال له بئر معونة فقالوا والله ما اياكم أردنا وانما نحن مجتازون في حاجة للنبي صلى الله تعالى عليه وسلم فقتلوهم ٠

ويقول البخاري بروايته في أوصافهم وبيان أنهم طلبوا من النبي صلى الله تعالى عليه وسلم أن يمدهم بمن يعلمهم وان رعلا وذكوان وعصية وبني سليم استمدوا رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم على عدد فأمدهم بسبعين من الأنصار ، كنا نسميهم القراء في زمانهم ، كانوا يحتطبون بالنهار ، ويصلون بالليل ، حتى اذا كانوا ببئر معونة قتلوهم وغدروا بهم ، فبلغ ذلك النبي صلى الله تعالى عليه وسلم فقنت شهرا يدعو في الصباح على أحياء العرب من رعل وذكوان وعصية ٠

ولقد روي أنهم قالوا وقد عملت السيوف فيهم « بلغوا عنا قومنا أنا لقينا ربنا فرضي عنا وأرضانا » كانوا يعلمون الناس الاسلام ، وقد بعثهم النبي لذلك ، ولذا نرجح أنهم ما كانوا مقاتلين ، ولم يستعدوا على عدو ، كما يفهم من الرواية الأولى للبخاري ٠

ولننظر من بعد ذلك الى تفصيل الرحلة التي انتهت بالغدر المقيت عند الله وعند كل كريم ٠

ذهبوا كما أمرهم الرسول هداة مرشدين كما طلب أبو البراء ، وأرسل النبي صلى الله تعالى عليه وسلم مع المنذر بن عمرو كتاباً الى عامر بن الطفيل يبين فيه أنهم مبلغون لا محاربون ولكنه ابان ذاك كان عدواً للمؤمنين ، فلم يرع جواراً ولا ذمة صاحبه في الشرك أبي براء الذي ما زال بالنبي حتى أرسل من أرسل وكان كارهاً ابتداء ، ولكنه التبليغ الذي حمله وسهل ارسال هؤلاء ، ولم يكن الغدر متوقعاً ٠

ولذلك قتل من أعطاه الكتاب ٠

وقد ذكر البخاري في أخبار عامر بن الطفيل ، أنه حسب النبوة ملكا ، فخير النبي صلى الله تعالى عليه وسلم بين ثلاث خصال بثلاث يكون للنبي صلى الله تعالى عليه وسلم أهل السهل ، وله أهل المدر ، أي يكون للنبي صلى الله تعالى عليه وسلم أهل الوبر في الصحراء ،وله هو أهل القرى ، أو أن يكون خليفة

النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، أو أن يغزو والنبي صلى الله تعالى عليه وسلم بغطفان ٠

كانت هذه حال عامر بن الطفيل ابان ذاك ، وقد علم بالجوار ٠

ولم يكتف بذلك ، بل استصرخ بني عامر على أولئك المؤمنين ، وقد علموا بجوار أبي البراء ، فامتنعوا وقالوا لن نخفر جوار أبي البراء وقد عقد لهم عقداً وجواراً ٠

فاستصرخ عليهم قبائل من بني سليم عصية وذكوان ورعل فأجابوه الى ذلك الغدر اللئيم ، فخرجوا حتى غشوا المؤمنين ، فأحاطوا بهم في رحالهم ،فلما رأوهم حملوا سيوفهم ، وقاتلوا ، ولكنهم كانوا يقاتلون من أحاطوا بهم حتى قتلوا عن آخرهم كما ذكر ٠

ولم ينج منهم الا كعب بن زيد أخو زيد بن النجار ، فانهم تركوه وبه رمق ، فحسبوا أنه مات ، وكان عمرو بن أمية الضمري في سرح القوم ورجل من الأنصار ٠

وفرغوا من القتلى ، فأخبروا النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، فقنت ثلاثين يوماً لما أصاب رسله ، صلى الله تعالى عليه وسلم ٠

قصة بئر معونة

٤٥٤ ــ تلك قصة بئر معونة في صفر ، وبئر معونة بين مكة والمدينة ٠ ونلاحظ في هذه القصة بعض أمور :

أولها ــ أن أبا براء ما كان مسلماً ،وربما كان له ميل الى الاسلام ولكنه زعيم في قومه ، ويريد أن يكون مع قومه ، فلا يكرههم حتى لا ينفروا ولكن يريد الدعوة اليهم ، حتى اذا استأنس باسلامهم أعلن اسلامه واكتفى بأن جعل الدعاة الى جواره ٠

ثانيها ــ أن الغادر عامر بن طفيل كان يعمل لحساب الشرك أو لحساب مكة ، وما كان ليفعل لولا أنه وجد في قريش قوة ، وهي ما أشاعوها من هزيمة محمد صلى الله تعالى عليه وسلم ٠

وثالثها ـ أن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم قد أرسل اليهم مبلغين حفظة عباداً يختطبون نهاراً ، ويقومون ليلا ، ولم يرسل معهم أبطال حرب كالزبير وسعد بن أبي وقاص ، وعلي بن أبي طالب ، وان كان هؤلاء في عبادتهم وزهادتهم لا يقلون عن الأولين ، لأنهم أسود فوارس بالنهار قوام بالليل .

رابعها ـ أن هذه ثاني غدرة برسل النبي صلى الله تعالى عليه وسلم مبلغين ليغدر بهم ، وكانت الأولى في يوم الرجيع ، وهذه في بئر معونة .

فهل كان خدع النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، وهو قائد الأمة سهلا بهذا الشكل ، فنقول لم يكن الخدع بعيداً عن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، وهو بشر كسائر البشر ، يحتاط ، وكفاه ، وقد فرض الله سبحانه أن يخدع ، والكريم المخلص يخدع ، والخب اللئيم الذي يفرض الشر لا يسهل خدعه كالكريم الطيب الذي يفرض في الناس الخير ، وقد قال سبحانه وتعالى في ذلك :

﴿ وَإِن يُرِيدُوٓاْ أَن يَخۡدَعُوكَ فَإِنَّ حَسۡبَكَ ٱللَّهُۚ هُوَ ٱلَّذِيٓ أَيَّدَكَ بِنَصۡرِهِۦ وَبِٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿٦٢﴾ وَأَلَّفَ بَيۡنَ قُلُوبِهِمۡۚ لَوۡ أَنفَقۡتَ مَا فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا مَّآ أَلَّفۡتَ بَيۡنَ قُلُوبِهِمۡ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ أَلَّفَ بَيۡنَهُمۡۚ إِنَّهُۥ عَزِيزٌ حَكِيمٞ ﴿٦٣﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَسۡبُكَ ٱللَّهُ وَمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿٦٤﴾ ﴾ (١)

ففرض أن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم قد يخدع من الخب الغادر اللئيم .

وان الرجل المؤمن الحكيم ، وقد أوتي محمد صلى الله تعالى عليه وسلم الحكمة وعلمها الناس ، يخدع من ناحية ، ما يريد ، وما هيء له .

وقد أحب النبي صلى الله تعالى عليه وسلم تبليغ رسالة ربه وهداية العرب الى الوحدانية ، وعبادة الله سبحانه وتعالى وحده لا شريك له وذلك عمله الذي بعثه الله تعالى له ، وما كان قتاله الا دفاعاً - فالقتال لحماية الدعوة من الاعتداء ، ولم يكن هدفاً مقصوداً لذاته ، فاذا جاء من يسهل له الدعوة استجاب ، والحر الأبي لا يفرض الغدر ابتداء ، ولكن يفرض الغدر حتما اذا كان الأمر من غادر .

---

(١) الأنفال

وفي الحق ان النبي صلى الله تعالى عليه وسلم خدع في المرة الأولى لأنه رسول يريد تبليغ أمر ربه ، قال تعالى:

﴿ * يَـٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۖ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿٦٧﴾ ﴾ (١)

فما كان له أن يتردد في اجابة من دعوه ليعلمهم الاسلام ، وليقضي الله أمراً كان مفعولا .

هذا في يوم الرجيع ، أما يوم بئر معونة ، فما كان مخدوعاً ، بل كان يقظاً ، وخشي على من أرسلهم من خشونة أهل نجد ، وجفوتهم ، وأنهم أعراب غلاظ ، وما وافق حتى عقد عهدا بالجوار ، وكان مكتوباً بدليل أنه قدمه رسول النبي صلى الله تعالى عليه وسلم الى عامر بن الطفيل فمزقه بسيفه ، وبدليل أن بني عامر رفضوا أن يصرخوا ابن الطفيل اذا استصرخهم حفظاً للجوار .

ولكن الغدر والخيانة جعله يستصرخ بغيرهم ، كما أصرخوه وكان ما كان من قتل الأطهار العباد الزهاد الذين يحتطبون بالنهار ، ويقومون بالليل .

ولقد أدرك النبي صلى الله تعالى عليه وسلم غدر الغادرين ، وربما ظن بقلبه الطاهر الرباني أنه لم يكن حريصاً في ارسالهم ، فقنت ثلاثين يوما استغفاراً لربه ، فما كان غير حريص ، ولا مخدوعا في هذا .

وانه مهما يكن الأمر في هذا ، فانه من المؤكد أن مسارعة عامر ابن الطفيل لهذا الغدر ، ما كان الا لاشاعة أن المؤمنين هزموا في أحد ، فتكشفت قلوب الغادرين والمدهنين لقريش ، الذين ظنوا فيهم القوة ، والله ولي المؤمنين .

---

(١) المائدة

غزوة بني النضير :

٤٥٥ ـ أشرنا الى أن غزوة أحد ،والظن بأن المسلمين هزموا فيها أظهر حقداً دفيناً ، في المنافقين واليهود ، وما كانوا يترددون في اعلانه رهبة وخوفا أظهروه حقداً وطمعاً ٠

ولما توالى الغدر بالمؤمنين لم يكن ليكف اليهود والمنافقين عن أن يقوموا بدورهم في الغدر ، وهم على مقربة من المؤمنين ، فهم أقدر ، وغدرهم أنكى ، لذلك أخذ النبي حذره منهم ، وكان يترصد حركاتهم ، وغدر غيرهم كان ارهاصا بغدرهم ، واظهار ما تنطوي عليه نفوسهم ، وبدا غيظهم في أفواههم وغدرهم ظهر في بعض أعمالهم ٠

قتل عمرو بن أمية الضمري اثنين قد أعطاهما الرسول جواره ، وكان القتل خطأ ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم « لأدينهما » أي لأدفعن الى أهلهما الدية ٠

وكان الاتفاق الذي تم العهد عليه عندما قدم النبي صلى الله تعالى عليه وسلم عند قدومه الى المدينة فيه يتعاونا في أداء الديات ٠

ذهب النبي صلى الله تعالى عليه وسلم الى يهود بني النضير ، ومعه أبو بكر وعمر وعلي ليستأدي ما وجب عليهم من المعاونة في دية هذين القتيلين اللذين قتلهما عمرو بن أمية الضمري خطأ ٠

فلانوا في القول ، ولكنهم استخفوا غدراً ، قالوا له : نعم يا أبا القاسم نعينك على ما أحببت مما استعنت بنا عليه ٠

ولاحظ النبي صلى الله تعالى عليه وسلم أنه خلا بعضهم الى بعض ، وتساروا في القول ، وفراسة المؤمن مدركة يقظة ، وكان الذي تناجوا به غدراً ، وقال بعضهم لبعض لن تجدوا الرجل على مثل هذه الحال ٠

وكان رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم هو ومن معه من كبار أصحابه ، قالوا فمن رجل يعلو على هذا البيت ،فيلقي عليه صخرة فيريحنا منه ،فانتدب لذلك عمرو بن جحاش بن كعب ، وقال: أنا لذلك وصعد ليلقي الصخرة ٠

رأى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم خلوتهم بعضهم ببعض وحركاتهم المريبة فأدرك أن في هذا شيئاً يبيتونه، وقد رأى الغدر في يوم الرجيع وبئر معونة ، فلابد أن يكون قد تسارع ظن الغدر اليه صلى الله تعالى عليه وسلم ، وخصوصا أن حركاتهم كثرت ، وتأخروا عن الاجابة وقد أعلم الله تعالى نبيه بما أرادوا من غدر ، والله يكتب مايبيتون.

والصحابة قد استطالوا الزمن ، وركبتهم ظنون الغدر ، وكما قال ابن اسحاق استلبثوا النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، أي اعتقدوا أنه لبث زمناً طويلا ، فسألوا عنه رجلا مقبلا من المدينة داخلا المدينة .

أقبل أصحاب رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم حتى انتهوا اليه ،فأخبرهم رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم بحركاتهم ،وبما كانوا قد أرادوا من الغدر.

إجلاؤهم :

٤٥٦ ـ لم يجيبوا داعيه الى المعاونة التي يفرضها عليهم العهد الذي عاهدوه عليه ، وأعطوه كلاماً ليناً ، ودبروا تدبيراً خبيثاً ، وكان ذلك غدراً في العهد ابتداء ، وما كان ليرضى أن يعيشوا معه ، وهم ينقضون الميثاق الذي وثقه عليهم ، ووفى به من جانبه صلى الله تعالى عليه وسلم والمواثيق عهود فيها واجبات وحقوق متبادلة تلزم كل فريق، بمقدار ما يلزم الآخر ، ولا يمكن أن يكون جوار حسن من غير عهود توفى ،ومواثيق تربط بالمودة ، أو بالوفاء ، فكان الجلاء أمرا لابد منه، وفوق ماعلمه النبي صلى الله تعالى عليه وسلم من ارادة الغدر به ، والقضاء عليه ، فلم يكن لبقاء الجوار مكان ، وكان على أخفهم حملا ، وأقلهم عدداً أن يرحل ، ويترك الأرض لأهلها ، يعيشون في أمن واستقرار فلا يعيش الثعبان بين ظهورهم .

بعث رسول الله يأمرهم بالخروج من جواره لنقضهم العهد أولا ، اذ لم يعينوا في دية الرجلين ولأنهم هموا بالغدر ثانياً ، واذا كانوا يدعون أنهم لم يفعلوا مع علم النبي صلى الله تعالى عليه وسلم اليقيني بذلك فانهم يكفيهم نقض الميثاق في المعاونة ، ولا سبيل لاقامتهم معه من غير وفاء بعهد وثقوه.

أرسل لهم محمد بن مسلمة أن يخرجوا وأرسل اليهم عبد الله بن أبي بن سلول ينهاهم عن الخروج ، وأنهم معهم ، ولئن قوتلوا ليقاتلن معهم ٠

ويقول ابن كثير في تاريخه : بعث اليهم أهل النفاق يثبتونهم ، ويحرضونهم على المقام ، ويعدونهم النصر فقويت عند ذلك نفوسهم ، وحمى حي بن أخطب ، وبعثوا الى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ونابذوه بنقض العهود ٠

أعلنوا بهذا نقض الميثاق جملة لا الجزء الخاص بالاستعانة في الديات ، فكان هذا اعلاناً للحرب من جانبهم ٠وما كان النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ليتركهم ينقضون العهد ، ويهمون بالغدر في غير اكتراث بعهد ولا حسن جوار ويهمون بالقتال ولا يقاتلهم ٠

أمر النبي صلى الله تعالى عليه وسلم بالخروج اليهم ، مهما يؤيدهم المنافقون سراً أو علناً ، فجعل على المدينة ابن أم مكتوم ، وكان ذلك في شهر ربيع الأول ٠

سار بمن معه من المهاجرين والأنصار فنزل بساحتهم فحاصرهم وتحصنوا بحصونهم ، وقد أوهمهم النبي صلى الله تعالى عليه وسلم أنه سيقطع نخيلهم ويحرقها فنادوه : أن يا محمد قد كنت تنهى عن الفساد وتعيب من صنعه ، فما بال قطع النخيل وتحريقها ٠

ويظهر أنهم توهموا ذلك ، أو أوهموا لتضعف نفوسهم ، ويهون عليهم الاستسلام ، ولم يقطع ولم يحرق كما تدل الآية الكريمة التي بينت مآلها في سورة الحشر ، وهي سورة جلائهم ٠

وقد ذكرنا أن المنافقين وعلى رأسهم عبد الله بن أبي قد بعثوا اليهم ابتداء بأنهم معهم ليثبتوا ويتمنعوا ، فثبتوا وتمنعوا ، وكان الحصار ، وقد استمروا في غيهم ، وقالوا لهم لن نسلمكم ، ان قوتلتم قاتلنا معكم ، وان أخرجتم خرجنا معكم ٠

تربص اليهود ذلك من المنافقين ، وصدقوهم ، وتوقعوا أن ينصروهم ، وهم بين المسلمين ، فما فعلوا شيئاً ،فاضطرب أمر اليهود وانزعجوا ، وقذف الله تعالى في قلوبهم الرعب ٠

عندئذ اضطروا لأن يعودوا ويقبلوا الجلاء الذي طلبه النبي صلى الله تعالى عليه وسلم من غير حرب ولا حصار ، واعنات، ولكن لم يرضوا بسبب تحريض أهل النفاق ·

عادوا وطلبوا من رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم أن يجليهم ،ويكف عن دمائهم ، على أن لهم ما حملت الابل من أموالهم ·

أجابهم رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم، فاحتملوا من أموالهم ما استقلت به الابل فكان الرجل منهم يأخذ من بيته ما يخلع به بابه ، فيضعه على ظهر بعيره فينطلق به ·

خرجوا الى خيبر ، حيث تجمعوا في حصونها مع بني قينقاع ، ومنهم ذهب الى الشام ، فكان من أشرافهم الذين ذهبوا الى خيبر بن أبي الحقيق ، وحيي بن أخطب ، فكانوا لهم سادة ،ودانوا لهم بالطاعة ·

وقد نزل في بني النضير ، ما كان من النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، وما أمر الله تعالى نزل أكثره من سورة الحشر، قال الله تعالى :

﴿ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴾

﴿ سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ (١) هُوَ ٱلَّذِىٓ أَخْرَجَ ٱلَّذِينَ
كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مِن دِيَٰرِهِمْ لِأَوَّلِ ٱلْحَشْرِ مَا ظَنَنتُمْ أَن يَخْرُجُوا۟ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ
حُصُونُهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَأَتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا۟ وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ
وَأَيْدِى ٱلْمُؤْمِنِينَ فَٱعْتَبِرُوا۟ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَبْصَٰرِ (٢) وَلَوْلَآ أَن كَتَبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمُ ٱلْجَلَآءَ لَعَذَّبَهُمْ
فِى ٱلدُّنْيَا وَلَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابُ ٱلنَّارِ (٣) ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ شَآقُّوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَمَن يُشَآقِّ ٱللَّهَ فَإِنَّ
ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ (٤) مَا قَطَعْتُم مِّن لِّينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَآئِمَةً عَلَىٰٓ أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ وَلِيُخْزِىَ
ٱلْفَٰسِقِينَ (٥) ﴾ (١)

---

(١) الحشر

وقد حاصرهم رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم وأجلاهم في ست عشرة ليلة ٠

أحكام شرعية اقترنت بغزوة بني النضير :

٤٥٧ ـ أحكام شرعية ثلاثة اقترنت بغزوة بني النضير ، أو شرعت بعدها :

أولاها : منع التخريب :

وذلك أن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم كان منه ما توهموا أنه سيقطع نخلهم بعد أن استطال حصارهم ، فاحتجوا عليه صلى الله تعالى عليه وسلم بأنه نهى عن التخريب وعيبه ، وكيف يقطع النخل مع هذا ٠

والحقيقة أن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم لم يقطعه وان هم بقطع النخل افزاعاً لهم ، وتخويفاً ليسارعوا بالاستسلام ، وقد كانوا تحصنوا بحصونهم ، ويرمون الحجارة من فوقها، وكان لابد أن ينزلهم من صياصيهم ، وهي الحصون ، والآية الكريمة صريحة في أنه أمر بقطع الثمار ، لا بقطع الأصول بل أبقى ما أبقى قائماً على أصوله كصريح الآية ، ولو كان صلى الله تعالى عليه وسلم قد قطع الأصول ما بقي نخيل تقوم عليها ثمار ٠

ولبيان الموضوع كاملا نذكر الفقه فيه ، وأساسه هذه الآيات التي تلوناها في واقعة الجلاء ، ان النهي عن قطع النخيل والتخريب بشكل عام قد جاء في وصية أبي بكر الصديق لبعض جنده ،وما كان أبو بكر الا متبعاً للنبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، وهاهي ذي ٠

روى الامام أحمد في سنده أن أبابكر بعث الجيوش ، وبعث يزيد بن أبي سفيان أميراً ، فقال وهو يمشي ويزيد راكب ، اما أن تركب ، واما أن أنزل، فقال الصديق : ما أنا براكب ، وما أنت بنازل ، اني أحتسب خطاي هذه في سبيل الله ، انك ستجد قوما زعموا أنهم حبسوا أنفسهم في الصوامع فدعهم ، وما زعموا ، وستجد قوماقد فحصوا أوساط رؤوسهم من الشعر، وتركوا منها أمثال العصائب ، فاضربوا ما فحصوا بالسيف ، واني موصيك بعشر : لا تقتلن امرأة ، ولا صبيا ،ولا كبيراً هرما ، ولا تقطعن شجراً مثمراً ولا نخلا ولا تحرقها ، ولا تخربن عامراً ، ولا تعقرن شاة أو بقرة الا لمأكلة ، ولا تجبن ولا تغل ٠

هذه وصية أبي بكر الصديق خليفة رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ولابد أن تكون بهدي من النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، ولذلك ننفي أن يكون النبي صلى الله تعالى عليه وسلم قد قطع نخيل بني النضير ، فمحال أن يكون النبي صلى الله تعالى عليه وسلم أمر في موضع ، وأبو بكر ينهى باطلاق ، ولأن القرآن الذي نزل في واقعة الجلاء لم يذكر قطع النخيل ، وهي الأصول بل الذي فيه أنه قطعت ثمار ، وبقيت أخرى على أصولها قائمة ٠

ولكن مع ذلك لما اشتدت لجاجة الحروب بين المسلمين والمشركين أو الكفار بشكل عام اختلف الفقهاء في جواز التخريب في أرض العدو من قطع أشجار ، وتهديم بنيان ، وذبح الحيوان لغير مأكله ، أو اهلاكه بشكل عام ٠

فكثيرون من الفقهاء أجازوه ، لأن الحرب لا تبقي ولا تذر ، ولأنه اذا أبيحت الأنفس ، فكيف يصان ما عداها وهو دونها ، ويستندون في ذلك الى أخبار نسبت للنبي صلى الله تعالى عليه وسلم في غزواته ٠

أولها ـ وهو في قصة بني النضير أن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم أمر بتخريب بني النضير ، وقال الله تعالى في ذلك :

﴿ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِى ٱلْمُؤْمِنِينَ فَٱعْتَبِرُوا۟ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَبْصَٰرِ ﴾ (١)

ثانيها ـ أن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم أمر بأن يحرق قصر مالك بن عوف ، وقد كان أميراً لجيش المشركين في الطائف ، ورمي بالمنجنيق حصنا للطائف ٠

ثالثها ـ أنه عليه الصلاة والسلام أمر بقطع كروم العنب لثقيف في الطائف ، وقد ذكر في المغازي أنهم عجوا عند ارادة قطعها ، وقالوا : «كيف نعيش بعد قطعها» ٠

هذه حجج الأكثرين من الفقهاء الذين قالوا ما قالوا تحت سلطان لجاجة الحروب وشدتها ، وعدم تحرجها من قبل المشركين ٠

أما الفريق الآخر من الفقهاء وان لم يكونوا الأكثر قد تمسكوا بقول الصديق الذي لا يمكن أن يخرج عن قول النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ولا عن عمله ، فمنعوا التخريب ، وعلى رأس هذا الفريق فقيه الشام الأوزاعي فقد قرر أنه

---

(١) الحشر

لا يجوز التخريب الا اذا ألجأت اليه ضرورة حربية ، كأن يتحصن المحاربون بحصن ولا يمكن الوصول اليهم الا بهدمه ، أو تكون الأشجار غابة كثيفة ، قد اتخذوها مستتراً يكمنون للمسلمين فيها ، وينقضون عليهم من مساترها .

وان الناظر الى أدلة الذين أباحوا التخريب في غير ضرورة ملجئة ، لا يجدها منتجة لاباحته باطلاق فان تخريب النبي لبيوت بني النضير ، لأنهم اتخذوها حصوناً يقذفون منها الحجارة على المؤمنين ، فكان لابد أن تزال تلك الحصون دفعاً للأذى ، فكانت الضرورة ملجئة لذلك ، وقد قرر الجميع أن الضرورة تقدر بقدرها .

وان قصر عوف بن مالك كان قد اتخذه حصناً ، وكذلك الحصون التي رميت بالمنجنيق لثقيف ، فما كان رميها الا لضرورة حربية ، لا للتخريب والافساد .

أما ما هم به النبي صلى الله تعالى عليه وسلم من قطع كروم العنب لثقيف فلأنهم كانوا يتخذون منها الخمر ، والخمر حرام ، ويظهر أن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم لم يقطع ، وانما أمر فقط بالقطع ، أو قطع قليلا لافزاعهم ، وذلك ليحملهم على التسليم بدل الاستمرار على القتال ، وبذلك تحقن الدماء ، ولذلك سلموا بمجرد أن رأوا المسلمين يعتزمون قطعها .

وانه بمراجعة الشريعة في مصادرها من كتاب وسنة وآثار للنبي صلى الله تعالى عليه وصحابته وسلم يجد انها لاتدل على جواز التخريب ، بل تمنعه .

ولنقف عند الآيات الكريمة التي تلوناها في قصة اجلاء بني النضير ، فنجد أن الآيات لا تبيح التخريب باطلاق وفي كل الأحوال ، وأن القطع الذي ذكره القرآن انما هو في قطع الثمار لا في قطع الأشجار ، وذلك في قوله تعالى :

﴿ مَا قَطَعْتُم مِّن لِّينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَائِمَةً عَلَىٰٓ أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ وَلِيُخْزِىَ ٱلْفَٰسِقِينَ ۝ ﴾ (١)

الى آخر الآيات الكريمات التي تلوناها .

وذلك لأن اللينة المراد بها الثمرة والمعاجم في اللغة تؤيد ذلك ، لأن كلمة

---

(١) الحشر

لينة جمعها لون وهو بالاتفاق نوع من ثمر النخل ، ولأن الآية تخير بين قطع اللينة أو بقائها على أصولها ، وذلك يقتضي أن تكون ثمرة قائمة على الأصول تبقى أو تقطع ، والأصول النخيل ،فلم يذكر في القرآن اباحة قطعها ولأن الآثار الواردة في غزوة بني النضير التي هي موضوع الآيات الكريمات تفيد أن الصحابة ما كانوا يقطعون النخل ، بل كانوا يقطعون الثمر .

فقد روي أن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم استعمل أبا ليلى المازني وعبد الله بن سلام على نخيل بني النضير قبل اجلائهم ، فكان أبو ليلى يقطع العجوة ، وهي تمر جيد ، وابن سلام يقطع اللون وهو تمر رديء ، فقيل لأبي ليلى لم قطعت العجوة ؟ قال لأنها أغيظ لهم ، وقيل لابن سلام لم قطعت اللون ؟ قال لأني علمت أن الله تعالى مظهر نبيه ومغنمه أموالهم، فأحببت ابقاء العجوة، وهي خيار أموالهم ، وان قطع الثمار لا يعد تخريباً ، لأنه سيكون مأكلة .

والذي ننتهي اليه بالنسبة لما يكون في الحرب من هدم وتحريق وتخريب أنه يستفاد من مصادر الشريعة وأعمال النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، في حروبه .

أولا : أن الأصل هو عدم قطع الشجر وعدم تخريب البناء ، لأن الهدف من الحرب ليس ايذاء الرعية ، ولكن دفع أذى الراعي الظالم ، وبذلك وردت الآثار .

ثانياً : أنه اذا تبين أن قطع الشجر وهدم البناء توجبه ضرورة حربية لا مناص منها ، كأن يستتر العدو به ويتخذه وسيلة لايذاء جيش المؤمنين ، فانه لا مناص من قطع الأشجار ، وهدم البناء ، على أنه ضرورة من ضرورات القتال ، كما فعل النبي صلى الله تعالى عليه وسلم في حصن ثقيف .

ثالثاً : أن كلام الفقهاء الذين أجازوا الهدم والقلع يجب أن يخرج ، على أساس هذه الضرورات ، لا على أساس ايذاء العدو والافساد المجرد ، فالعدو ليس هو الشعب انما العدو هم الذين يحملون السلاح ليقاتلوا .

٤٥٨ ـ كانت غنائم بني النضير هي أول غنائم من أهل القرى من أرض ونخيل ، وحصون ، فهي التي سنت ما يتخذ من حكم الاستيلاء على الأراضي أتوزع على المحاربين أم تكون محبوسة على مصالح المسلمين، فيكون لهم غلاتها، وتبقى تحت أيدي أصحابها ، على ألا تكون أيديهم أيدي ملاك رقبة ، بل ملاك منفعة على خراج يؤدونه ٠

ويقول الفقهاء ان ذلك الخراج هو بمثابة أجرة للأرض قد استأجروها به ، واليك النص الذي جاء في هذه الأراضي ٠

قال الله تعالى عقب اجلاء بني النضير:

﴿ مَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَـٰمَىٰ وَٱلْمَسَـٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ كَىْ لَا يَكُونَ دُولَةًۢ بَيْنَ ٱلْأَغْنِيَآءِ مِنكُمْ ۚ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٧﴾ لِلْفُقَرَآءِ ٱلْمُهَـٰجِرِينَ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَـٰرِهِمْ وَأَمْوَٰلِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا وَيَنصُرُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّـٰدِقُونَ ﴿٨﴾ وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَـٰنَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِى صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُوا۟ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ۚ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٩﴾ وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَـٰنِ وَلَا تَجْعَلْ فِى قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٠﴾ ﴾ (١)

---

(١) الحشر

ونجد هذا النص الكريم قسم ما أفاء الله تعالى به على رسوله والمؤمنين معه قسمين : أحدهما مالا يعد شيئاً ثابتا أو أرضاً ، بل هو مال غير ثابت فالأمر فيه الى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم يوزعه كما شرع الله تعالى له ،وقد أشار الى ذلك بقوله سبحانه :

﴿ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُۥ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٦﴾ ﴾ (١)

ويوزعه النبي صلى الله تعالى عليه وسلم بمقتضى أمره في قوله تعالى :

﴿ ۞ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ وَلِلرَّسُولِ ﴾ (٢)

الى آخر الآية الكريمة ٠

والقسم الثاني هو ما أفاء الله تعالى به من أهل القرى ، وهو الأموال الثابتة من نخيل قائم وأرض زراعية ٠

وهذه قد جعلها الله تعالى لله وللرسول ولذي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل ٠

وهنا يجيء البحث فيه أتقسم الأرض بين الغانمين وتخمس كما تخمس الغنائم ، فيكون لله وللرسول وذي القربى واليتامى والمساكين الخمس وأربعة للذين جاؤوا من بعدهم ٠

رأى بعض الصحابة ، وكان بلال أشدهم أن تقسم الأرض قسمة الغنائم ، ورأى عمر وعلي وجمع من الصحابة أن تكون محبوسة غلاتها على مصالح المسلمين ، وقد بدا ذلك الخلاف عند الاستيلاء على أرض سواد المراق ، وقد جمع عمر الصحابة خارج المدينة ، وأخذ يجادلهم ويجادلونه ثلاث ليال سويا ، هو يحتج بألا يكون المال دولة بين الأغنياء ، وقال ان الله سيفتح فارس ومصر والشام ، فلو قسمت فماذا يبقى لسد الثغور وماذا يبقى للذرية ٠

وهم يعارضون بأنها غنائمهم ، وأشد من يعارضه بلال وصحب له ، فكان عمر الفاروق يقول اللهم اكفني بلالا وصحبه ٠

---

(١) الحشر (٢) الأنفال

وبعد ثلاث ليال أراد أن يحكم بينه وبين مخالفيه طائفة من الأنصار خمسة من الأوس وخمسة من الخزرج ، فلما التقوا به ذكر لهم أنه ما أزعجهم الا ليحكموا بينه وبين مخالفه ، وبعد أن عرض وجهة نظره من الوجهة المصلحية الاجتماعية ، ذكر لهم أنه وجد قوله تعالى :

﴿ وَمَآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنۡهُمۡ فَمَآ أَوۡجَفۡتُمۡ عَلَيۡهِ مِنۡ خَيۡلٖ وَلَا رِكَابٖ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُۥ عَلَىٰ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ (٦) مَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنۡ أَهۡلِ ٱلۡقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ ﴾ (١)

الى آخر الآيات، وفصل القول ووزع الأقسام التى تشتمل عليها الآية، وذكر أن الغلات أولا للمهاجرين ، ثم للذين آووا ونصروا ثم للذين اتبعوهم ثم للذين جاءوا من بعدهم .

﴿ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغۡفِرۡ لَنَا وَلِإِخۡوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلۡإِيمَٰنِ وَلَا تَجۡعَلۡ فِي قُلُوبِنَا غِلّٗا لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٞ رَّحِيمٌ (١٠) ﴾ (٢)

ولما تلا عليهم الآيات انقطع الخلاف، وصار الاجماع على أن تكون الأرض محبوسة لمنافع المسلمين بحكم هذه الآية:

﴿ وَمَآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنۡهُمۡ فَمَآ أَوۡجَفۡتُمۡ عَلَيۡهِ مِنۡ خَيۡلٖ وَلَا رِكَابٖ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُۥ عَلَىٰ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ (٦) ﴾ (٣)

وان رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم أعطى ثمرات أرض بني النضير للمهاجرين ليرفع بذلك مؤونتهم عن الأنصار ، اذ كانوا قد ساهموهم في الأموال والديار، ولم يعط مع المهاجرين من الأنصار الا أبا دجانة وسهل بن حنيف لحاجتهما .

ومؤدى ذلك أنه وزع الأموال والثمرات على ذوي الحاجة وذوي القربى واليتامى والمساكين وفعل ذلك مع الذين اتبعوا من مهاجرين وأنصار ، ثم من جاؤوا بعدهم ، والله سبحانه وتعالى أعلم .

---

(١) الحشر (٢) الحشر (٣) الحشر

تحريم الخمر:

٤٥٩ ـ جاء تحريم الخمر في أعقاب غزوة بني النضير ، كما جاء في سيرة ابن اسحاق وصحاح السنة ، وظاهر القول أن ذلك التحريم هو البيان الشافي لحقيقة الخمر الذي طالما دعا ربه اليه الرجل الذي ينظر بنور الله تعالى عمر ابن الخطاب رضي الله تبارك وتعالى عنه ، وهو قوله تعالى :

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنصَابُ وَٱلْأَزْلَـٰمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَـٰنِ فَٱجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٩٠﴾ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيْطَـٰنُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ فِى ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَعَنِ ٱلصَّلَوٰةِ ۖ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ ﴿٩١﴾ ﴾ (١)

وبذلك كان التحريم القاطع .

وان القرآن الكريم والنبي الأمين لم يكن منهما ما أقر الخمر أو أباحها ، انما كانت موضع عفو قبل اعلان التحريم القاطع ، فكل أمر يسكت القرآن الكريم عنه ، وهو يتنافى مع معاني الاسلام ، فانه يكون محل عفو الله تعالى ، ويقال انه عفو ، ولا يقال انه مباح ، فمرتبة العفو تقتضي أن يكون الأمر غير مستحسن في ذاته ، ولا يرضى عنه الاسلام ، ولا الخلق الاسلامي ، ولكن لم يجيء النص بالتحريم فيكون موضع عفو حتى يجيء النص المحرم .

وتحريم الخمر قد جاء في القرآن على أربع مراتب :

أولاها : بيان أنه أمر غير حسن في ذاته ، وقد أشار سبحانه وتعالى الى ذلك في قوله :

﴿ وَمِن ثَمَرَٰتِ ٱلنَّخِيلِ وَٱلْأَعْنَـٰبِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾ ﴾ (٢)

---

(١) المائدة (٢) النحل

أي تتخــذون منه مسكرا ، وفي مقابل المسكر رزق حسن ولا يمكن أن يكون مقابل الرزق الحسن حسنا مثله ، فهذا النص يشير الى استنكار الخمــر ، وأنها ليست أمراً حسنا •

الثانية : بيان أنها إثم ضــار ، واذا كان فيها نفع فاثمها أكبر من نفعها • ولذلك جاء الاستنكار المؤيد بالسبب ، فقال تعالى :

﴿ * يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ ۖ قُلْ فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَآ أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا ۗ ﴾ (١)

ومن المقررات في الشرائع والعقول أن الأمر الذي يكــون ضرره أكبر من نفعه يكون محرماً ، اذ أن التحريم والاباحة والندب تناط بالضرر والنفع ، فما يكون نفعه أكبر يكون مطلوباً ، وما يكون ضرره أكبر ، يكون ممنوعاً ، وان الله سبحانه وتعالى خلق الأمور وقد اختلط نفعها وضررها ، فلا يوجد ماهو نافع نفعاً محضاً ، ولا يوجد ماهو ضار ضرراً محضاً ، والعبرة بالكثرة والقلة ، ويتفــاوت الطلب بتفاوت المصلحـة ، ويتفاوت النهي بتفاوت المضرة •

فكان هذا النص دالا على التحريم ، لكن بغير دلالة صريحة شافية ، ولذلك كان الفاروق رضي الله تعالى عنه يقول: « اللهم بين لنا في الخمر بياناً شافياً » •

المرتبة الثالثة ـ التربية على الامتناع من الخمر ، بأن تتعـود النفس التي مردت عليها التخلي عنهــا طــول النهار وأطراف الليل ، فاذا جاء التحريم القاطع الحاسم الشافي تكون النفس المؤمنة قد تربت على أن تنفطم عنهـــا ، فتنفطم بالأمر القاطع •

وذلك بقول الله تعالى :

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَقْرَبُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمْ سُكَـٰرَىٰ حَتَّىٰ تَعْلَمُوا۟ مَا تَقُولُونَ ﴾ (٢)

وان الصلاة ركن الدين وعمود اليقين ، ولابد أن يقيموها ، وهي مفرقة في أوقات النهار وزلفاً من الليل •

فاذا كــان الصباح لا يشربون حتى يقربوا صلاة الصبح وهم في صحــو كامل ، فيمرنون على ترك صــبوح الخمر •

---

(١) البقرة (٢) النساء

والنهار عمل لا لهو فيه ، ولا خمر ،بل أمر جد ، واذا جاء الزوال لايقربون من الخمر ، لأنهم يقربون من الصلاة ،فلا يشربون حتى لا يقربوا صلاة الظهر ، وهم سكارى لا يعلمون ، وكذلك العصر ، وكذلك صلاة العشاءين ، وبذلك يفوت عليهم شرب الخمر مساءفيفوت عليهم الغبوق كما فات عليهم الصبوح ،

ولا يكون لهم الا ما بعد العشاء ، وان بعد العشاء يكون النوم بعد الكد واللغوب ٠

المرتبة الرابعة ـ التحريم القاطع بعد أن أدركوا أنها شيء غير حسن ، وبعد أن أدركوا أن ضررها أكبر من نفعها ، وبعد أن مرنوا على الاستغناء عنها بعد أن ألفوها ، وصارت خلب أكبادهم ، ونبع نفوسهم ، ولذلك نزل قوله تعالى :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلۡخَمۡرُ وَٱلۡمَيۡسِرُ وَٱلۡأَنصَابُ وَٱلۡأَزۡلَٰمُ رِجۡسٞ مِّنۡ عَمَلِ ٱلشَّيۡطَٰنِ فَٱجۡتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ۝٩٠ ﴾ (١)

وقد كان التحريم مشدداً ذاكراً سبحانه وتعالى حكمته بأنها توقع العداوة والبغضاء ، وقد ذكرنا ما كان بين علي وعمه حمزة ، لولا أنهما من بيت النبوة وكنفها ، وأنها تصد عن ذكر الله لأنها تضعف صوت الضمير ، وتجعله في غفوة ، فلا يدرك الخير ،وهي تصد عن الصلاة ، وحسبها هذه الأمور شراً ٠

وهنا نلاحظ أنه كان ذلك الاصلاح الاجتماعي بعد الحرب ، لأن المجتمع الفاضل يجب أن يحمي نفسه من العدو المهاجم المردي ، ويحمي نفسه من المآثم الداخلية ،فكان جهاد النفس في محاربة الخمر واجلاء شيطانها بعد محاربة اليهود ، واجلائهم ، فاجتمع الجهادان ٠

---

(١) المائدة

أثر غزوة بني النضير في اليهود :

٤٦٠ ـ ذكرنا بني النضير ، وكيف أظهروا ما كمن في نفوسهم من شر ، وهموا بقتل النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، حتى اضطر النبي صلى الله تعالى عليه وسلم لاجلائهم ، لأنه لا يعيش والحيات والأفاعي بجواره ، ينقضون العهود والمواثيق ، ويريدون فرصة للانقضاض عليه ، لينتهزوها ٠

وان اليهود في ماضيهم وحاضرهم لا يؤمنون الا بالقوة، فان رأوها خضعوا وذلوا ، ونافقوا ، وربما يكون منهم من تهديه صدمة القوة الى الحق ٠

ولم يكن بالمدينة من اليهود الا بنو قريظة ، فأرعدوا في أنفسهم ، وكان منهم من يفكر في الرجوع الى الذي يعرفونه كما يعرفون أبناءهم ٠

كان منهم رجل ديان باليهودية ، وهو عمرو بن سعدى القرظي ، فأقبل على أرض بني النضير بعد جلائهم ، فلما طاف بمنازلهم ورأى خرابها ، وقد صارت يبابا ليس بها داع ولا مجيب ٠

فهداه ما رأى عليه حال اخوانه الى أن ينظر في التوراة ، وما فيها من صفة رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، ومال قلبه لأن يعلن ما كتموه ، وأن يظهر ما أخفوه ، وقد بدت العبر ٠

التقى بقومه من بني قريظة وقال لهم :

رأيت اليوم عبراً ، وقد عبرنا بها ، رأيت منازل اخواننا خالية بعد ذلك العز والمجد والشرف الفاضل ، والعقل البارع ، قد تركوا أموالهم ، وملكها غيرهم ، وخرجوا خروجا ذليلا ٠٠ وأوقع ببني قينقاع ، فأجلاهم وهم أهل عدة وسلاح ، ونجدة ، فحصرهم ، فلم يخرج انسان منهم وأسر باقوهم ، حتى سباهم ، وكلم فيهم فتركهم على أن أجلاهم من يثرب ٠

يا قوم : قد رأيتم ما رأيتم ، فأطيعوني ، وتعالوا نتبع محمداً ، والله انكم لتعلمون أنه نبي قد بشرنا به ٠٠ فأسكت القوم ، ولم يتكلم أحد الا كعب ابن أسد ٠

قال له ما يمنعك يا أبا عبد الرحمن من اتباعه ؟ قال أنت يا كعب . قال فلم وما حلت بينك وبينه قط .

وقال بعض اليهود الحاضرين . «بل أنت صاحب عهدنا وعقدنا ، فان اتبعته اتبعناه ، وان أبيت أبينا ، كان ذلك التفاؤل من اليهود بعد أن رأوا ما كان لبني النضير ، ثم ما كان من قبل لبني قينقاع ، فهز ذلك أعصابهم ، وحملهم على التفكير فيما بين أيديهم ، وما عندهم من كتاب ، أصابتهم حيرة بلا شك فأمامهم حق عرفوه ، وان لم يذعنوا له ، وما عليهم من تعصب ينأى بهم عن الحق ، وما يحسبون أو يرجون في أعدائه من أن يكون لهم غلب ، وبذلك يجزيء عنهم ، ويأمنون جانبه ، ثم ما أفزعهم مما رأوا في اخوانهم من بني قينقاع وبني النضير .

جعلهم حب الذات ، وهو ديدنهم أن يفكروا ويعتبروا بما كان ، وما من طمع بأن يكفيه أمره غيرهم فيكونوا نظارة يرون ما يسرهم من غير أن يضاروا ، وذلك شأنهم دائما ، يتقون الأذى بسيوف غيرهم ، ولا يحملون هم السيوف ما وجدوا الى ذلك سبيلا .

ولقد انتهى ترددهم بأن أصروا على كفرهم . وألقوا حبالهم مع المشركين من كفار قريش . وكانت التدبيرات معهم . وقد ظهر ذلك أشد ظهور في معركة الخندق . اذ تحالفوا مع المنافقين والمشركين ، على أن يضربوا من الأمام بأيدي المشركين ومن الخلف بأيدي اليهود ، وفي الوسط اليهودي يوهنون ويفسدون ويدلون على عورات المؤمنين ، ولنترك القصص للحوادث يتبع بعضها بعضا .

غزوة ذات الرّقاع :

٤٦١ ـ ذات الرقاع بقعة فيها ، نخل ، وقيل سميت ذات الرقاع ، لأن الألوية كان فيها رقاع ، وقيل غير ذلك ، فقيل انهم كانوا يربطون على أرجلهم الخرق والرقاع من شدة الرياح .

كانت هذه الغزوة في آخر جمادى من السنة الثالثة .

وكان الاتجاه في هذه الغزوة الى بني محارب ، وبني ثعلبة من غطفان ، وخرج رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم في أربعمائة مقاتل .

وذلك لما كان من عامر بن الطفيل ،وقتل أكثر من سبعين والفرار من المؤمنين خديعة وغدرا مما يدل على الاستهانة بالرسول وجيشه بعد غزوة أحد التي ادعى فيها بغير الحق هزيمة المؤمنين واشاعة ذلك في الصحراء ليستردوا هيبتهم ، ويحرضوا العرب على محمد صلى الله تعالى عليه وسلم ومن معه من المؤمنين ٠

وكان لابد للنبي صلى الله تعالى عليه وسلم من أن يعلن قوة الايمان ، وأن يقتص من الذين قتلوا الأبرار الأتقياء من أصحابه غدراً وخيانة ٠

خرج اليهم رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم في أربعمائة رجل كما ذكرنا ، فوجد جمعاً عظيما من غطفان،فلما تراءى الجمعان تهيب كل صاحبه ، ويقول ابن اسحاق خاف الناس بعضهم بعضاً ، ولم يكن قتال ، فلم ينل محمد صلى الله تعالى عليه وسلم منهم ، ولم يقتص لأولئك الأبرار الذين قتلوا خيانة وغدراً ٠

ولكنهم اذا كانوا لم يقتصوا منهم لكثافة عددهم وكانوا عدا كبيرا وبعد الشقة بين موضع القتال والمدينة ، فان النبي قد أرهبهم ، واسترد ما كان للجيش الاسلامي من هيبة ، وذهبت سورة ما أنشأته قريش لنفسها ٠

وفوق ذلك ، ارتاد البلاد العربية ،وتعرف مداخلها ، ثم أشار لقريش الى أنه يرصدهم ، كل مرصد ، ويتتبع متاجرهم ان أراد ، وما كان الدخول في معركة يشك في نتيجتها خيراً من أن يصل الى الأمور من غير حرب ، وأما القصاص لأولئك الأبرياء الذين ذهبوا في غدر دنيء ، وخفر للعهد لا يرضى عنه عربي ، ولا يقبله من له مروءة ، فان أمر ذلك الى الله،والمستقبل القريب ، وان ربك لبالمرصاد ، وما كان النبي صلى الله تعالى عليه وسلم لينتقم اذا استجابوا لله وآمنوا بما أنزل على الرسول ٠

صلاة الخوف :

٤٦٢ ـ كانت الأهبة للحرب من جانبهم عنيفة شديدة ، وان كان الله تعالى قد ألقى في قلوبهم الرعب ، وكان على المؤمنين أن يحذروهم ، ولقد كان المشركون يتفاهمون فيما بينهم على أن ينقضوا على المسلمين اذا حان وقت صلاتهم ، وهم يعلمون وجرى على ألسنتهم أن الصلاة أحب اليهم من كل شيء ، فكانوا يطمعون أن يصيبوا منهم غرة وقت صلاتهم ، ولكن الله تعالى قد علم جنده الحذر ، فقال عز من قائل :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ خُذُواْ حِذۡرَكُمۡ فَٱنفِرُواْ ثُبَاتٍ أَوِ ٱنفِرُواْ جَمِيعٗا ﴿٧١﴾ ﴾ (١)

ولذلك شرعت صلاة الخوف لمثل هذه الحال ، ونزلت آية شرعيتها في هـذه الغزوة ، فقال تعالت كلماته :

﴿ وَإِذَا ضَرَبۡتُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَلَيۡسَ عَلَيۡكُمۡ جُنَاحٌ أَن تَقۡصُرُواْ مِنَ ٱلصَّلَوٰةِ إِنۡ خِفۡتُمۡ أَن يَفۡتِنَكُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْۚ إِنَّ ٱلۡكَٰفِرِينَ كَانُواْ لَكُمۡ عَدُوّٗا مُّبِينٗا ﴿١٠١﴾ وَإِذَا كُنتَ فِيهِمۡ فَأَقَمۡتَ لَهُمُ ٱلصَّلَوٰةَ فَلۡتَقُمۡ طَآئِفَةٞ مِّنۡهُم مَّعَكَ وَلۡيَأۡخُذُوٓاْ أَسۡلِحَتَهُمۡۖ فَإِذَا سَجَدُواْ فَلۡيَكُونُواْ مِن وَرَآئِكُمۡ وَلۡتَأۡتِ طَآئِفَةٌ أُخۡرَىٰ لَمۡ يُصَلُّواْ فَلۡيُصَلُّواْ مَعَكَ وَلۡيَأۡخُذُواْ حِذۡرَهُمۡ وَأَسۡلِحَتَهُمۡۗ وَدَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوۡ تَغۡفُلُونَ عَنۡ أَسۡلِحَتِكُمۡ وَأَمۡتِعَتِكُمۡ فَيَمِيلُونَ عَلَيۡكُم مَّيۡلَةٗ وَٰحِدَةٗۚ وَلَا جُنَاحَ عَلَيۡكُمۡ إِن كَانَ بِكُمۡ أَذٗى مِّن مَّطَرٍ أَوۡ كُنتُم مَّرۡضَىٰٓ أَن تَضَعُوٓاْ أَسۡلِحَتَكُمۡۖ وَخُذُواْ حِذۡرَكُمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلۡكَٰفِرِينَ عَذَابٗا مُّهِينٗا ﴿١٠٢﴾ فَإِذَا قَضَيۡتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ قِيَٰمٗا وَقُعُودٗا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمۡۚ فَإِذَا ٱطۡمَأۡنَنتُمۡ فَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَۚ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ كَانَتۡ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ كِتَٰبٗا مَّوۡقُوتٗا ﴿١٠٣﴾ وَلَا تَهِنُواْ فِي ٱبۡتِغَآءِ ٱلۡقَوۡمِۖ إِن تَكُونُواْ تَأۡلَمُونَ فَإِنَّهُمۡ يَأۡلَمُونَ كَمَا تَأۡلَمُونَۖ وَتَرۡجُونَ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا يَرۡجُونَۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١٠٤﴾ ﴾ (٢)

ويظهر أن الآيات الكريمات قد نزلت في وقت ذلك اللقاء بين المـؤمنين والمشركين الذي كان فيه الحذر من الجانبين ، وهذه الآيات تدل على أحـكام شرعية .

أولها : قصر الصلاة الرباعية لأجل السفر أو الخوف ودل على ذلك قـوله تعالى :

﴿ وَإِذَا ضَرَبۡتُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَلَيۡسَ عَلَيۡكُمۡ جُنَاحٌ أَن تَقۡصُرُواْ مِنَ ٱلصَّلَوٰةِ إِنۡ خِفۡتُمۡ أَن يَفۡتِنَكُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْۚ إِنَّ ٱلۡكَٰفِرِينَ كَانُواْ لَكُمۡ عَدُوّٗا مُّبِينٗا ﴿١٠١﴾ ﴾ (٣)

---

(١) النساء (٢) النساء (٣) النساء

وثانيها : أنها ثبتت صلاة الخوف بها،وظاهرها الذي تدل عليه أنه يصلي ركعتين ، وليحرم الجميع بالصلاة معه ،ولكن تجيء طائفة منهم النبي بأسلحتها، ولتصل معهم ركعة ، والطائفة الأخرى تحرس المصلين مع تسلح المصلين أنفسهم ، فاذا أتم الركعة مع هذه الطائفة ، تأتى الطائفة الأخرى ، مع أسلحتها ، ولتأخذ حذرها ، ويصلي صلى الله تعالى عليه وسلم الركعة الثانية مع الطائفة الأخرى ، ويسلم صلى الله تعالى عليه وسلم عند كمال صلاته ٠

ومن بعد ذلك تصلي كل طائفة الركعة الباقية لها مع بقاء الأخرى حارسة، فالطائفة التي ابتدأت الصلاة مع النبي تكون ركعتها لاحقة لأنها الثانية ، والطائفة الأخرى التي جاءت الأولى تصلي مسبوقة ، لأن ما فاتها هو الركعة الأولى ٠

ونلاحظ في صلاة الخوف ــ أولا ــ أنها ركعتان ، وروي أنها كانت الأربع في حال الخوف من غير سفر ، وأن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم،وكذلك كل امام يقسم المصلين فرقتين احداهما تحرس ، وقد أحرمت للصلاة ، ويصلي بالأخرى ــ وان ذلك يقتضي الحراسة الدائمة ، مع عدم الانقطاع عن الصلاة٠

وثانياً : أن الصلاة تكون بامامة القائد ، أو من يقوم مقامه ليكون الجمع بين الصلاة والامامة أي تكون الصلاة جماعة ٠

وثالثاً : أن ينتفع الجميع بفضل الجماعة فان فضل الجماعة ينالها اللاحق، وهو الذي يقطع الصلاة بعد الدخول فيها ،ثم يتمها ،والمسبوق ، وهو يتأخر دخوله فيها ، ثم يعيد ما سبق به ٠ وله فضل الجماعة ٠

وقد روى ابن هشام عدة روايات في صلاة النبي صلى الله تعالى عليه وسلم في الخوف وقد تعددت هذه الصلاة في مواطن كثيرة ، ولبها واحد ٠

فقد روي عن جابر بن عبد الله قال:« صلى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم بطائفة ركعتين ثم سلم ، وطائفة مقبلون على العدو ، جاؤوا فصلى بهم ركعتين أخريين » ٠

والآية تنطبق على هذه الرواية ولا تخرج عما قلنا ، بيد أن الرواية تدل على أن النبي صلى بهم أربعاً ، وكل صلى ما فاته ، وروي عن جابر أيضاً قال :

صلى بنا رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، فركع بنا جميعاً ، ثم سجد رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم وسجد معه النصف الأول فلما رفعوا سجد الذين يلونهم بأنفسهم ، ثم تأخر الصف الأول ، وتقدّم الصف الثاني حتى قاموا مقامهم ، ثم ركع النبي صلى الله تعالى عليه وسلم بهم جميعاً ، ثم سجد النبي صلى الله تعالى عليه وسلم وسجد الذين يلونه معه ، فلما رفعوا رؤوسهم سجد الآخرون بأنفسهم فركع النبي صلى الله تعالى عليه وسلم بهم جميعاً ، وسجد كل واحد منهم بأنفسهم سجدتين ٠

واننا نرى في عبارة هذه الرواية اضطرابا ، ولا نرى أن الآية تنطبق عليها ، والأولى أحق بالأخذ ، وعليها الفقهاء الأربعة ٠

وتدل الآيات السابقة على أن الصلاة لا تسقط في سفر أو حضر ، ولا أمن ولا خوف ٠

وأنها في الخوف والسفر قد تقصر، أو تكون بالايماء ، ولكن لا تسقط ، لأنها ذكر الله ، ويجب أن يكون العبد قائما به في كل حال ، ولو على الجنوب ٠

وانه اذا كان الأمن والاطمئنان يجب أن تقام الصلاة كاملة مقومة على وجهها بركوعها وسجودها ٠ والائتمام الكامل والجماعة الكاملة كما قال تعالى :

﴿ فَإِذَا ٱطْمَأْنَنتُمْ فَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ ۚ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ كَانَتْ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ كِتَـٰبًا مَّوْقُوتًا ﴿١٠٣﴾ ﴾(١)

أي معينا في مواقيته ، لا يجوز التخلف عنها في أي حال ، ولا عذر في تركها ، لأنها مخاطبة العبد لربه ،وذلك هو الدين القيم ٠

في ذات الرّقاع :

٤٦٣ ـ اذا كانوا قد غدروا بالسبعين قارئا ، وقد أمنوهم ، فقتلوهم، وقد جاؤوا بأمان مكتوب فمزقوه وفجروا بقتلهم ، ولم يرعوا الا ولا ذمة ، اذا كانوا قد فعلوا ذلك ، فقد كان منهم من أراد أن يرتكب ما هو أشد من ذلك غدرا ، وأبعد أثرا ، وأفجر فعلا ٠

---

(١) النساء

فقد روى ابن اسحاق بسنده أن رجلا اسمه عورث بن الحارث من بني محارب، قال لقومه ألا أقتل لكم محمداً ، قالوا وكيف تقتله ؟ قال أفتك به ، فأقره الغادرون ، وأعادوا غدرهم جذعا ، وكانوا الغادرين في العرب ، ولم يكونوا الشجعان الأبطال ٠

أقبل الرجل الى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، وهو جالس آمن وسيفه في حجره ، فقال الرجل يا محمد انظر الى سيفك هذا ؟

فجعل الرجل يهز السيف ، ويهم به، فكبته الله ٠ ثم قال يا محمد ، أما تخافني ؟ قال النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ما أخاف منك ، قال : أما تخافني وفي يدي السيف ؟ قال النبي صلى الله تعالى عليه وسلم : لا ، يمنعني الله تعالى منك ٠

هذه رواية ابن اسحاق ، وفي الصحيحين عن جابر أنه غزا مع رسول الله غزوة نجد ، أي ذات الرقاع ،فلما قفل راجعاً أدركته القافلة في واد كثير العضاة ، فتفرق الناس يستظلون،وكان رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم تحت ظل شجرة ، فعلق بها سيفه ، قال جابر فنمنا نومة ، فاذا رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم يدعونا ، فأجبناه ، واذا عنده أعرابي، فقال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم : « ان هذا اخترط سيفي ، وأنا نائم ، فقال ما يمنعك مني ؟ قلت الله ،قال من يمنعك مني قلت الله ، فشام السيف وجلس ، ولم يعاقبه » ٠

وفي رواية مسلم زيادة ، وهي عن جابر : « أقبلنا مع رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، حتى اذا كنا بذات الرقاع ، وكنا اذا أتينا على شجرة ظليلة تركناها لرسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم فجاءه رجل من المشركين وسيف رسول الله معلق على شجرة ، فأخذه فاخترطه ، وقال لرسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم : « تخافني ؟ قال : لا،قال فما يمنعك مني ؟ قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم : الله يمنعني منك » ٠

ويروى أن السيف سقط من يد الرجل فأخذه رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، وقال من يمنعك مني فقال الرجل خاضعا : « كن خير آخذ ٠ قال تشهد أن لا اله الا الله ، قال لا ، ولكن أعاهدك على ألا أقاتلك ، ولا أقاتل مع

من يقاتلونك ، فخلى سبيله ، فأتى أصحابه ، وقال : جئتكم من عند خير الناس » ٠

وتعدد الروايات لا يمنع صدقها ،وهي يتمم بعضها بعضاً ، ولا اختلاف بينها ، وكلها يذكر أنها كانت في ذات الرقاع ٠

واذا كانت قد ذكرت في غيرها ، فان ذلك دليل على تكرارها ، ولا تنافي بين الروايات ٠

وقد ذكرنا هذه القصة لأمرين :

أولهما : ما انحدر اليه بعض المشركين من أخلاق تتنافى مع مراعاة الجوار ، والمروءة وفيها ارادة الغدر والقتل من غير مواجهة ، وكيف استباحوا ذلك بالنسبة للنبي صلى الله تعالى عليه وسلم كفرا وفسوقا وعنادا٠

ثانيها : أن ذلك بلا ريب فيه أمر خارق للعادة ، لأن السيف تنقبض عليه اليد في وقت ارادة الضرب ثم يسقط من يده على غير ارادة منه ، وقد اعتزم الشر وبيته ودبره ، فلما حانت ساعته، خانته يده ، وقد كان ذلك من النبي في أمور كثيرة ، ولكن لم يجعلها دليل نبوته ، ولم يتحد بها العرب ، بل تحدى بالقرآن وحده ، لأنه ما جاء بالخوارق الحسية ، كعصا موسى وابراء الأكمه والابرص وغير ذلك من الحوادث التي تنقضي بمجرد وقوعها ، بل كانت معجزته باقية ، لأن رسالته باقية ،لا تنقضي بزمانها ، وهي القرآن الباقي الخالد الذي يتحدى الناس في كل جيل وفي كل مكان ٠

﴿ قُل لَّئِنِ ٱجۡتَمَعَتِ ٱلۡإِنسُ وَٱلۡجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأۡتُواْ بِمِثۡلِ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ لَا يَأۡتُونَ بِمِثۡلِهِۦ وَلَوۡ كَانَ بَعۡضُهُمۡ لِبَعۡضٖ ظَهِيرٗا ۝٨٨ ﴾ (١)

النبي صلى الله عليه وسلم بين أصحابه :

٤٦٤ ـ شغلتنا أخبار الغزوات والسرايا عن النواحي الأدبية التي كانت بين النبي صلى الله تعالى عليه وسلم وصحابته والتي كانت تربط القلوب بالمودة الراحمة ، فقد كان رؤوفا رحيما، يعين المحتاج ، ويواسي الضعيف ،وما كان ليخرج بهم الى ميادين القتال ، الا وهم يشعرون برحمته ، ومودته ،

(١) الاسراء

فكان نبي المرحمة والملحمة ، ولابد قبل الملحمة من المرحمة ، فان النصر وسيلته الرحمة بالجند والرعية ، والرعاية لهم رعاية العشير لعشرائه ٠

رأى رسول الله جابر بن عبد الله قد تأخر عن الرفاق ، اذ هم يمضون وهو متخلف عنهم ، وكان سبب تخلفه عن الركب أن جمله ضعيف ، فسأله مالك : قال يا رسول الله أبطأ بي جملي هذا ، فقال له محمد رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم أنخه ، وقطع جابر عصا من شجرة بأمر رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، فأخذها ونخسه بها نخسات ثم قال لجابر اركب ، فركبه ، وقال جابر ، والذي بعثك بالحق يواهق ناقته مواهقة ، أي يسارعها ولا يبطؤ٠

هكذا كانت مراعاة القائد لجنده ،يتتبع الضعيف فيقويه ، والمتخلف فلا يتركه حتى يسير معه ببركة الله ، وما سقنا الخبر لذلك فقط ، بل سقناه لهذا ، ولأنها بركة بأمر خارق للعادة ٠

وان حديث الجمل لا ينتهي بذلك ،بل ان النبي صلى الله تعالى عليه وسلم يبتاع الجمل ، فيريد أن يهبه له جابر ،فيأبى الا الشراء ، ثم يساومه ، طلبه النبي صلى الله تعالى عليه وسلم بدرهم فأبى فزاده الى درهمين فأبى ، فما زال يزيده حتى جعل ثمنه ، أوقية من ذهب، ولكنه يهبه للرسول ، بعد أن ساوم هذه المساومة ٠

واذا كان قد تعرف حال صاحبه وهو في السفر ، فلا بد أن يؤنسه ويعينه ، ويتعرف حاله ، فسأله رسولسول الله ، قال عليه الصلاة والسلام : يا جابر ، هل تزوجت ؟ قال نعم يا رسول الله ٠ قال عليه الصلاة والسلام أثيباً أم بكراً ، قال : لا بل ثيباً ، قال عليه الصلاة والسلام أفلا جارية تلاعبها وتلاعبك ٠ قال جابر يا رسول الله ان أبي أصيب يوم أحد ، وترك بنات له سبعا ، فنكحت امرأة جامعة ، تجمع رؤوسهن وتقوم عليهن ، قال له الرسول العطوف الألوف ، أصبت ان شاء الله ٠

ولكن الرسول عليه الصلاة والسلام لا يكتفي بذلك الود الراحم ، بل انه يقيم الوليمة لزواج صاحبه ، فاذا وصل الى مكان يبعد عن المدينة بنحو ثلاثة أميال اسمه صرار ، نحر جزورا ، يأكل هو وأهله ، كان ذلك والجمل لا يزال في يد جابر ٠

فرأى ازاء تلك المحبة والمودة أن يرسل الجمل الى رسول الله ، وقد وهبه له ، فرده النبي صلى الله تعالى عليه وسلم اليه ، وأرسل معه ثمنه ، وهو الأوقية من الذهب التي ارتضاها ثمنا له ٠

ولننقل كلام رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم لنرطب به أسماعنا ، ونملأ به قلوبنا ، لما رأى الجمل قال ماهذا قالوا هذا جمل جابر ، فقال أين جابر ؟ فذهب اليه فقال الرسول الكريم: « يابن أخي ، خذ برأس جملك فهو لك ، ودعا بلالا فقال له اذهب بجابر ٠ وأعطه أوقية ذهب » ٠

ذكرنا هذه القصة لنعرف مودة رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، ورأفته بهم ، وملاحظته وادخال السرور على نفوسهم ، واذهاب العنت عنهم، لتكون منهم قوة في الأرض ، فليست القوة ، بالفظاظة والتحكم ، انما القوة بالمحبة والتراحم والتودد ٠

غزوة بدر الآخرة :

٤٦٥ ـ في نهاية غزوة أحد من قبل المشركين نادى أبو سفيان مهدداً ، أو واعداً بأن موعدكم بدر من العام المقبل، وما كان أصحاب محمد صلى الله تعالى عليه وسلم ليخافوا اللقاء ، وقد أدوه في أعقاب قفول قريش ٠

ولذلك خرج النبي صلى الله تعالى عليه وسلم الى بدر في شهر شعبان من السنة الرابعة ليلقاهم ببدر ولينتصف لجرحى أحد وشهداء المسلمين ،وخصوصا سيد الشهداء حمزة بن عبد المطلب عمه وأخاه في الرضاعة ، خرج في ذلك الميقات،وأقام على المدينة عبد الله بن عبدالله بن أبي بن سلول ، أي ابن رئيس المنافقين ولم يكن كأبيه ، بل كان برأ تقياً ، ومؤمنا صادقاً ، حتى انه لما اشتد أمر النفاق ، قال لرسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم دعني أقتل عبد الله بن أبي حتى لا يقتله مؤمن فيحنقني ٠ اختاره رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم على المدينة ، لمكانته في الايمان وأهله ، ولتبرأ نفسه من سقامها ، وفي الوقت الذي كان يقيم النبي صلى الله تعالى عليه وسلم عبد الله بن عبد الله بن أبي مقامه على المدينة،كان أبوه عبد الله بن أبي يثبط المسلمين عن الخروج للقاء قريش ، فيروي عروة بن الزبير أن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم استنفر الناس لموعد أبي سفيان ،وانبعث المنافقون يثبطونهم ، فسلم الله

تعالى أولياءه ، وخرج المسلمون وصحبه الى بدر ، وأخذوا معهم بضائع ،وقالوا ان وجدنا أبا سفيان ، والا اشترينا من بضائع موسم بدر ، خرج المسلمون كما ترى يتمنون أن يكسروا أنف الشرك.

خرج النبي صلى الله تعالى عليه وسلم الى بدر ومعه نحو خمسمائة وألف، وقد خرج على نية لقاء العدو حتى نزل وانتظر ثماني ليال ، عساه يلقى قريشا بقيادة أبي سفيان كما وعد أو توعد ،ولكنه لم يجيء في الميقات .

وأبو سفيان كان قد أراد الخروج على تردد ، فخرج في أهل مكة ، حتى نزل مجنة من ناحية الظهران ، ولكنه مع خروجه ووصوله الى ذلك المكان كان التردد لا يزال يسيطر عليه ،خشية العاقبة ، ولذا بدا له أن يعود من حيث نزح ، وقال في سبب نكوصه لقومه :

« يا معشر قريش ، انه لا يصلحكم الا عام خصيب ترعون فيه الشجر ، وتشربون اللبن ، فان عامكم هذا عام جدب واني راجع فارجعوا .. فكان أهل مكة يسمون الجيش الذي خرج بقيادة أبي سفيان ثم عاد جيش السويق يقولون انما خرجتم تشربون السويق .

ولعل هذه النظرة وذلك القول فيه لوم وتهكم ، لأنهم خرجوا للقتال وعادوا من غير لقاء أو قرب منه ، وان هذا يدل على أن أبا سفيان تخاذل عن اللقاء ، والسبب الذي استحله للعودة وهو الجدب كان قائماً وقت الخروج فكان أولى أن يمنع الخروج ، لا أن يوجبه ،ولكنه فكر وقدر الهزيمة ، وقد ذاق مرارتها في بدر ، فآثر العافية ،ورضي من الغنيمة بالاياب .

وأتى الى النبي صلى الله تعالى عليه وسلم وهو بماء بدر بعض بني ضمرة الذين كان قد وادهم النبي صلى الله تعالى عليه وسلم في غزوة ودان التي غزاها وقال للرسول صلى الله تعالى عليه وسلم : « يا محمد أجئت للقاء قريش وقد يوهم سؤاله أنه مال مع المائلين لقريش بعد أحد ، واشاعة قريش أن محمداً صلى الله تعالى عليه وسلم هزم ،وما كانت هزيمة » .

قال النبي صلى الله تعالى عليه وسلم: « نعم يا أخا بني ضمرة وان شئت رددنا أي ما كان بيننا وبينك من موادعة» وجالدناك حتى يحكم الله بيننا وبينك.

قال : لا ، والله يا محمد مالنا بذلك من حاجة .

رجع رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم الى المدينة ، ولم يلق حربا ، وكان النكوص من جانبهم وان ذلك بلا ريب يزيل ما كانوا يرجونه من اشاعة الهزيمة ليوهنوا شأن النبي والمؤمنين في بلاد العرب ، ويعلو شأنهم ، فيتهيبهم الناس دونه ٠

ولقد قال الواقدي ان جيش المؤمنين في مدة اقامته الليالي الثماني، اتجروا، اذ لم يجدوا قتالا ، وكانت سوق تعقد في ثمانية أيام ، فرجعوا في وفر مالي ، وقد ربحوا من الدرهم درهمين أي أنهم باعوا واشتروا وكسبوا فزاد رأس مالهم ضعفين ، وهذا كما قال الله تعالى :

﴿ فَانقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ وَاتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللَّهِ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ ﴿١٧٤﴾ ﴾ (١)

غزوة دومة الجندل :

٤٦٦ ـ وهي مكان يبعد عن المدينة بمسيرة نحو خمس عشرة ليلة من ناحية الشام ٠ وقد كانت سرايا النبي صلى الله تعالى عليه وسلم وغزواته ، أكثرها في ناحية مكة وما حولها ، ونجد وما يقاربها ، وفي هذه الغزوة اتجه ناحية الشام ، ليكون ذلك اعلاما لقيصر الروم الذي كان يحكم الشام ، بأمر النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، وهذا الدين الجديد فيتعرف الحال والمآل ، فيكون ذلك تنبيها له ما بعده ، كما سيجيء الأمر في الغزوات التي اتجهت الى لقاء الرومان في حياة النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ٠

لذلك اتجه صلى الله تعالى عليه وسلم الى دومة الجندل ليدنوا الى أدنى الشام من الصحراء العربية ، ولأن دومة الجندل كان بها جمع كبير ، وأنهم كانوا يشبهون قطاع الطريق ، فيسرقون من يمر بهم وينتهبونه ، ومع ذلك كان فيه سوق عظيمة ٠ فكان لابد أن يغزوها النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ليؤمن طريق جيوشه عندما يريد الشام ، خرج رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم من المدينة في شهر ربيع الأول من السنة الخامسة ، واستعمل على المدينة سباع بن عرفطة الغفاري ٠

---

(١) آل عمران

ونرى من هذا أنه ما كان يخص نوعا ، معيناً من الرجال باستعمـــاله في المدينة وهو غائب عنها وفي ذلك اشعار للمؤمنين بأن الولاية حق لكل مؤمن من غير نظــر الى قبيل أو نــوع من الرجال .

ندب رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم الناس ، وخـــرج في ألف من المسلمين ، وكان يسير بالليل ، ويكمن بالنهار ، ولعل الوقت كان صيفاً ،فكان السير ليلا أخف وأيسر ، وعلى أي حال،فهو كتمان للمسير ، والحـرب خدعة ، وكان يسير ومعه دليل من بني عذرة ،وهو هاد خريت .

لما دنا من دومة الجندل ، وقد وصل الخبر اليهم ، فتفرقوا فنزل بساحتهم ، فلم يجد أحـــداً فأقام بها أياما ، وبث سراياه ، داعية الى الاسلام بين الأقوام متعرفة فاحصة وقد أسلم على يديه من أسلم ، ثم عاد رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم بعد شهر من خروجه .

النبيّ صَلى اللّه عليه وسَلم في المَدينة :

٤٦٧ ــ كانت غزوة بدر الآخرة في شعبان من السنة الرابعة ، ثم كانت من بعد غزوة دومة الجندل في ربيع الأول من السنة الخامسة ، فمكث الرســـول صلى الله تعالى عليه وسلم من غير غزو نحو ستة أشهـــر أو تزيد ، فمـــاذا كان يعمل ؟

ونقول في ذلك كان يقـــوم بحق التبليغ للرسالة ، فما بعث محمد صـــلى الله تعالى عليه وسلم للقتال ، ولـــكن بعث لتبليغ رسالة ربه ، وما كان القتال الا دفعاً للذين يقفون في سبيل الدعوة،أو يكيدون للنبي صلى الله تعالى عليـــه وسلم ، وللمـــؤمنين ، أو يريدون أن يفتنوا الناس عن الاسلام ، فالقتال كان لحماية الدعوة ، وهي الأصل ، وبيـان أحكام الله تعالى للعباد هي تبليغ الرسالة والله تعالى يقول في كتابه العزيز :

﴿ * يَـٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۖ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿٦٧﴾ ﴾ (١)

---

(١) المائدة

كانت اقامة النبي صلى الله تعالى عليه وسلم في المدينة في الفترات التي تكون بين الغزوات لبيان حقائق الرسالة المحمدية ، والأحكام الشرعية ، وتعليم المؤمنين ما يدعو اليه ربهم ،وتحفيظهم ما يتيسر لهم من حفظ القرآن بحيث يحفظه مجموعهم ،ويحفظ بعضهم كله كزيد بن ثابت ٠ فكان عمله عليه السلام في فترات السلم تبليغ ما أمره الله تعالى به ، وبيان الطريق لتنفيذه وتطبيقه ، وتعليم الناس ما لا يمكن معرفته الا بالتدريب عليه ٠

لقد رأينا بعد غزوة بني النضير نزول القرآن بتحريم الخمر ، فالنبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، يتولى تنفيذ ذلك التحريم ، ببيان العقوبات الزاجرة المانعة من الشرب ، فقد جيء له بشارب ، فضربه بالنعال أربعين بنعلين ، فكانت ثمانين ، فاعتبر كثيرون من الصحابة حد الخمر ثمانين ، وشدد النبي صلى الله تعالى عليه وسلم في المنع، فقال في شارب الخمر : اذا شرب ، فاضربوه ، فان عاد فاجلدوه ، فان عاد فاقتلوه ٠

وجاء قوم يقولون انا بأرض برد نستدفىء بالخمر ، فنهى النبي صلى الله تعالى عليه وسلم عن شربها ، فقالوا انهم لا يمتنعون ، قال فقاتلوهم وبذلك بين لهم النبي صلى الله تعالى عليه وسلم أحكام الشرع ، ودربهم على تنفيذ ما أمر الله به ، وما نهاهم عنه ، ويقيم الحدود التي شرعها الله تعالى ، ويحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه بما أنزل الله تعالى ٠

وقد بين لهم صلى الله تعالى عليه وسلم أحكام الزواج ، وشرح لهم المحرمات ، وعلمهم الفرق بين ما هو سفاح ، وما هو نكاح ، وما للرجل على امرأته ، وما لها عليه من حقوق ، وبين أحكام الملكية الخاصة ، وبجوارها الملكية العامة ، وما على الآحاد من الناس من حقوق ، وما عليه واجبات ، ويتلقى الذين جاؤوا اليه ليتعلموا الاسلام ، ويرسل الى كل عشيرة أو قبيلة من يعلمها أمر دينها ، ويتحقق بذلك قوله تعالى :

﴿ فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا۟ فِى ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُوا۟ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓا۟ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ ﴿١٢٢﴾ ﴾ (١)

---

(١) التوبة

فهو يرشد ويهدي بنفسه من يجيئون اليه ، ومن هم قريبون منه ، ويرسل رجاله الى من يرشدونهم ويتلقى القرآن، من لدن حكيم عليم ، ويأمر من بحضرته ممن يحسنون الكتابة أن يكتبوا ما ينزل به الروح الأمين .

ويعلمهم صلى الله تعالى عليه وسلم أحكام البيوع والشروط ، والمعاملات والديون وما يتعلق بها وغير ذلك من الأحكام التي تنظم الجماعة الاسلامية ، وتكون منها المدينة الفاضلة ، وهو في هذا يبلغ رسالة ربه .

غزوة الخندق :

٤٦٨ ـ كانت غزوة دومة الجندل في ربيع الأول من السنة الخامسة ،وبعدها بستة أشهر كانت غزوة الخندق ، اذ كانت في شوال من السنة الخامسة وفي هذه الأشهر الستة كان النبي صلى الله تعالى عليه وسلم يبلغ الدعوة ، ويعلم المؤمنين مبادىء الاسلام في المجتمع والفضيلة ، والمعاملات المالية ، وغير المالية ، ويبث دعاته في البلاد العربية،وأخبارها تتجاوزها الى ما وراء تلك البلاد ، تسري فيها كما يسري النور ،وهو آمن مطمئن ، لم يزعجه غاز يغزو مدينته ، ولا غادر يغدر به في دعوته الحق ، يجيئه المؤمنون به فرادى من كل القبائل ، ينضمون الى صفوفه ، أو يعودون دعاة الى أقوامهم ان وجدوا فيهم .

وكان اليهود من بني خزاعة بجواره ، قد يكيدون له ، وان كانوا لا يظهرون ، يمالئون الأعداء ، ويتضافرون مع المشركين ممن يرسلونهم من بني النضير الذين أجلوا ، فهم جميعا أملة واحدة في الكيد للمسلمين وارادة اقتلاعهم ، والنبي صلى الله تعالى عليه وسلم يسالمهم ، ويحذرهم ، يخادعونه ، والله خادعهم .

ونوجه الأنظار الى أن الغزوات المحمدية ما كانت تتجاوز شهراً في سيرها ، وذلك قليل في عمر الدعوة الاسلامية ، وهي كأمر يعرض فيدفع ، ثم ينصرف النبي صلى الله تعالى عليه وسلم الى تبليغ رسالة ربه ، وبيان شرعه والدفاع بالحجة والبرهان عن العقيدة والرسالة أمام اليهود ، وأمام المشركين لا يألو جاهداً ، فهو يجادل ويبلغ ويعلم،ويحفظهم القرآن ويعلمهم الحكمة ، فيرددون أحاديثه ، وينقلون أعماله ، والرسالة يتكامل تبليغها .

كيف كانت غزوة الخندق وأسبابها :

٤٦٩ ـ ان السياق التاريخى للوقائع يشير الى أن القرشيين تضعضعت نفوسهم ويظهر أنهم ما كانوا ليقدموا على حرب وحدهم ، خشية من محمد صلى الله تعالى عليه وسلم ومن معه من جند أشداء فقد مكثوا لا يقاتلونه ولا يذهبون سنتين كاملتين ، وان كانوا يشجعون عليه غيرهم من غطفان وغيرهم ، ممن غدروا وخانوا ، وهم كانوا يهابون لقاء المؤمنين الأشداء الذين يطلبون الحياة من وراء الموت ،ولا يضنون بنفوسهم على الاستشهاد ٠

كل قبيلة من الأعداء كانت تخاف المؤمنين وحدها ، واذا كانوا قد اجتمعوا على الشرك والكفر فانهم أرادوا أن يجتمعوا على القتال ، فينقضون على المؤمنين مجتمعين ، ويقتلعونهم من المدينة لتعود كما كانت دار شرك ويهود كما كانت أولا ٠

واذا كانت الحاجة الى نصر الشرك تدعوهم الى الاجتماع ، فقد أخذ كبار اليهود الذين طردوا من المدينة يدبرون لهم ، ويدخلون في صفهم ، فاجتمع ناس من بني قينقاع ، وبني النضير ، بالمشركين يحرضونهم على الاجتماع ، وأن يكونوا معهم ، والمنافقون يؤيدونهم ، وبنو قريظة من ورائهم ، فكان اليهود مدبرين ، أو مشتركين في التدبير ٠

قال ابن اسحاق بسنده « انه كان من حديث الخندق أن نفراً من اليهود منهم سلام بن أبي الحقيق النضري، وحيي بن أخطب النضري ، وكنانة بن الربيع بن أبي الحقيق ، وهوذة بن قيس الوائلي ،وأبو عمار الوائلي في نفر من بني النضير ، وبني وائل ، وهم الذين حزبوا الأحزاب على رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، خرجوا حتى قدموا على قريش بمكة ، فدعوهم الى حرب رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ،وقالوا انا سنكون معكم عليه ، حتى نستأصله ٠

قالت لهم قريش يا معشر يهود : انكم أهل الكتاب الأول ، والعلم بما أصبحنا نختلف فيه نحن ومحمد ، أفديننا خير أم دينه ، قال اليهود أهل الكتاب الذين يدعون أنهم يتبعون التوراة : بل دينكم خير من دينه ، وأنتم

أولى بالحق ، وهكذا نرى حقدهم ،وعنادهم دفعهم الى الكفر في دينهم ، ولقد نزل فيهم قوله تعالى :

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَٰؤُلَاءِ أَهْدَىٰ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلًا ﴿٥١﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ ۖ وَمَن يَلْعَنِ اللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُ نَصِيرًا ﴿٥٢﴾ ﴾ (١)

لم يكتف هؤلاء اليهود بتحريض قريش الذين لم يكونوا محتاجين الى تحريض ، ولكن يحتاجون الى من يؤازرهم ، بل ان أولئك النفر من اليهود خرجوا الى غطفان من قيس بن غيلان فدعوهم الى حرب النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، وأخبروهم أنهم يكونون معهم ، وأن قريشا قد تابعوهم اجتمعت الأرض كلها ، واجتمعت قريش ،وغطفان ، اجتمع هؤلاء ومعهم اليهود وغيرهم فخرجت قريش بقيادة أبي سفيان بن حرب •

وخرجت غطفان وقائدها عيينة بن حصن ، وكان في بني فزارة •

وبنو مرة وقائدهم الحارث بن عوف المري •

وغير هؤلاء من القواد الذين كانوا يقودون جماعات •

اجتمع هؤلاء ومعهم قبائل من العرب، ليغزوا المدينة ، وقد أمر الله تعالى نبيه بأن يقاتلهم كافة ، وانه لناصرهم كما قال تعالى :

﴿ وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً ۚ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ ﴿٣٦﴾ ﴾ (٢)

سمع النبي صلى الله تعالى عليه وسلم بمسيرهم ، وجاءه الخبر بكثرة الجموع ، وما دبروا ، وما استحصدوا له •

وروي أن أبا سفيان أرسل مرعدا مهددأ بهذه الجموع التي جمعها ، وكتب الى النبي صلى الله تعالى عليه وسلم كتابا هذا نصه :

أما بعد فانك قد قتلت أبطالنا ، وأيتمت الأطفال ، وأرملت النساء والآن قد اجتمعت القبائل والعشائر يطلبون قتالك ، وقلع آثارك ، وقد جئنا اليك

---

(١) النساء (٢) التوبة

نريد نصف نخل المدينة ، فان أجبتنا الى ذلك ، والا أبشر بخراب الديار وقلع الآثار ·

تجاوبت القبائل من فزار لنصر اللات في بيت الحرام
وأقبلت الضراغم من قريش على خيل مسومة ضرام

وقد نقل هذا الكتاب في كتاب السيرة لابن جرير الطبري ·

وقد أكد هذا الكتاب ما وصل الى النبي صلى الله تعالى عليه وسلم من أخبار ولم يجد تهديده لاعتماد النبي والمؤمنين على الله ·

ورد عليه الصلاة والسلام كتابه قائلا فيه :

بسم الله الرحمن الرحيم

وصل كتاب أهل الشرك والنفاق ، والكفر والشقاق وفهمت مقالتكم فوالله ، مالكم عندي جواب الا أطراف الرماح وأشفار الصفاح ، فارجعوا ويلكم عن عبادة الأصنام ، وأبشروا بضرب الحسام وبغلق السهام وخراب الديار ، وقلع الآثار والسلام على من اتبع الهدى » ·

ونشك في نسبة هذا الكتاب الى النبي صلى الله تعالى عليه وسلم لما فيه من السجع ·

ومهما تكن قيمة الرواية ، فان النبي صلى الله تعالى عليه وسلم مضى في الاستعداد ·

فجمع النبي صلى الله تعالى عليه وسلم صحابته ، واستشارهم فيما يصنع مع هذه الجموع ، لقد كانوا أكثر من أن يخرجوا اليهم ، ولا أن يتركوهم يدخلون المدينة ، وخصوصاً أن بني قريظة على مقربة من المؤمنين يدلونهم على عورات المسلمين لا هذا ولا ذاك يصلحان للعمل ، ولا بد من عمل يكون وقاية حتى يجيء نصر الله تعالى ، وقد وعد به ، فقال تعالى :

﴿ وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾ ﴾ (١)

استشار أصحابه ، فتقدم سلمان الفارسى ، وأشار بالخندق ، لأن ذلك كان يصنعه الفرس في حروبهم ليحولوا بينهم وبين القوى المهاجمة ، وكان في زمن موسى عليه السلام ·

---

(١) الروم

اختار الرسول صلى الله تعالى عليه وسلم ذلك الرأي ، وهو جديد في العرب ، قد تروعهم فكرته ، ويفزعهم أمره ، فأخذ في تنفيذه ٠

فجمع المسلمين ليحفروه ، حتى اذا جاءت الأحزاب وجدوه حائلا بينهم وبين مأربهم ٠

حفر الخندق :

٤٧٠ ـ كان على أهل المدينة أجمعين أن يشتركوا في حفر الخندق ، والنكبة في ذلك الهجوم العام تعم أهل المدينة أجمعين ولا تخص ، فان الشر اذا طم لا يفرق ٠

ولكن المنافقين يستأذنون في التخلف، ويعتذرون بالضعف ، وما كان من ضعف الأجسام فالعذر فيه انما كان عذرهم في ضعف الايمان ٠

ومنهم من استجابوا للدعوة ، ولكنهم عندما اشتدت الشديدة ، أخذوا يتسللون لواذا ، لأنهم لا يريدون أن يشتركوا في نصرة محمد صلى الله تعالى عليه وسلم ، ولو كان في ذلك انقاذ للمدينة التي تؤويهم من أن تخرب بيد المشركين ، ولقد قال سبحانه وتعالى فيهم :

﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَإِذَا كَانُوا۟ مَعَهُۥ عَلَىٰٓ أَمْرٍ جَامِعٍ لَّمْ يَذْهَبُوا۟ حَتَّىٰ يَسْتَـْٔذِنُوهُ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَـْٔذِنُونَكَ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۚ فَإِذَا ٱسْتَـْٔذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأْذَن لِّمَن شِئْتَ مِنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمُ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٦٢﴾ لَّا تَجْعَلُوا۟ دُعَآءَ ٱلرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَآءِ بَعْضِكُم بَعْضًا ۚ قَدْ يَعْلَمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنكُمْ لِوَاذًا ۚ فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦٣﴾ ﴾ (١)

ومع ذلك تخلفت طائفة من المنافقين ابتداء ، وذهبت أخرى ، ولكنها كانت أشد نكاية من الأولى لأنها كانت تخذل وتوهن قوة العاملين ، اذ كانت تتسلل لواذا غير عاملة تثير الاحساس بالشدة، وليشجعوا من يمكن أن تخور عزائمهم، والأمر صعب شديد ٠

تقدم المؤمنون الصادقون لحفر الخندق ، والنبي صلى الله تعالى عليه

---

(١) النور

وسلم معهم ، يحفر ويشتد في الحفر ،حتى يستر التراب جلد جسمه صلى الله عليه وسلم ، وهو لا يني عن العمل بجد لاغب ، ولا يقبل أن يعفيه المؤمنون ، ولسان حاله يقول انه ليس أقل منهم في طلب الجزاء ، ولا أضعفهم •

كان حفر الخندق في ذاته عملا شاقا مجهداً ، وقد أقبل عليه المؤمنون ببشر وترحاب ، وكانوا ينشدون الرجز ، والنبي يشاركهم بأن يقول معهم آخر كلمات الرجز الذين ينشدونه ، وكان النبي صلى الله تعالى عليه وسلم يقول ما يناسبه مما يثير همة المؤمنين بالدعاء لهم • فيروى أنه كان يقول : « اللهم ان العيش عيش الآخرة فاغفر للأنصار والمهاجرة » وذلك تشجيع للعمل ، وترنم بما يرجو المؤمنون •

وهم ينشدون :

نحن الذين بايعوا محمداً ... على الاسلام ما بقينا أبدا

وينشدون أيضاً :

والله لولا أنت ما اهتدينا ... ولا تصدقنا ولا صلينا

فأنزلن سكينة علينا ... وثبت الأقدام ان لاقينا

ان الألى قد بغوا علينا ... اذا أرادوا فتنة أبينا

كانوا ينشدون هذه الأشعار ، والنبي صلى الله تعالى عليه وسلم لا ينشد الأشعار ، ولا ينبغي الشعر له ، فما كان يتابعهم في البيت من الأبيات ،ولكنه كان يجهر بالقافية معهم مشاركة في الوجدان والاحساس من غير أن يقول ما لا ينبغي له أن يقوله •

وهكذا كان شأنه صلى الله تعالى عليه وسلم في كل ما كانوا ينشدونه يشاركهم في النشيد بآخر القوافي •

اقتران حفر الخندق :

٤٧١ ـ ولقد اقترن حفر الخندق بمشقة شديدة اذ ابتدأ في غداة يوم شديد البرودة •

وقد قسم رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ما يحفر من الخندق بين الصحابة من الأنصار والمهاجرين فكان يجعل لكل عشرة من الصحابة رضوان الله عليهم أربعين ذراعا •

وقد اختلف الصحابة فيمن يكون سلمان الفارسى منهم . لأنه صاحب الفكرة التي هداه الله تعالى عليه . ولقد قال النبي صلى الله تعالى عليه وسلم : « سلمان منا آل البيت » .

ولقد كان العمل شاقا ، ولم يكن القوت كافياً ، لأن كثيرين من الصحابة قد انقطعوا عن موارد أرزاقهم، فاجتمع لديهم شدة العمل وقسوته والجوع . ولكن الايمان كان يخفف كل شدة ، والصبر يوجد قوة احتمال ، ورعاية الله تعالى فوق كل شدة .

وقد ذكر ابن اسحاق وغيره من الرواة أنه قد حدثت خوارق كثيرة على يدي النبي صلى الله تعالى عليه وسلم في تلك الشدة التي اشترك فيها كل أصحاب رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، وهو على رأسهم .

قال ابن اسحاق ، وكان في حفر الخندق أحاديث بلغتني فيها من الله عبرة في تصديق رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، وتحقيق نبوته ، عاين ذلك المسلمون .

منها ـ معجزة الكدية (وهي صخرة شديدة صلبة) فكان مما بلغني أن جابر بن عبد الله كان يحدث أنه اشتدت عليهم في بعض الخندق كدية ، فشكوها الى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم فأتى باناء من ماء فتفل فيه ثم دعا بما شاء الله تعالى أن يدعو به ، ثم نضح ذلك الماء على تلك الكدية فوالذي بعثه بالحق نبيا لانهالت حتى عادت كالكثيب .

هذا كلام ابن اسحاق : وقد رويت مسألة الكدية بروايات أخرى ، ذكر الثانية ابن اسحاق كما ذكر الأولى ، وقد ذكرت الثانية في كتب السنة الصحاح الأخرى .

قال ابن اسحاق في الرواية الأخرى ، وحدث عن سلمان الفارسى أنه قال ضربت في ناحية من الخندق ، فغلظت علي صخرة ، ورسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم قريب مني ، فلما رآني أضرب ، ورأى شدة المكان علي نزل فأخذ المعول من يدي ، فضرب ضربة لمعت تحت المعول برقة ، قال ثم ضرب به أخرى ، فلمعت تحته برقة أخرى ، ثم ضرب به الثالثة ، فلمعت تحته برقة أخرى . قلت (أي سلمان) بأبي أنت وأمي ما هذا الذي رأيت لمع تحت المعول

وأنت تضرب ؟ قال : وقد رأيت ذلك ياسلمان ، قلت نعم ، قال : أما الأولى فانه قد فتح على اليمن ، وأما الثانيةفاته قد فتح علينا الشام والمغرب ،وأما الثالثة فان الله تعالى قد فتح علي بهاالمشرق ·

هذه رواية تخالف الأخرى ، ولا مانع من أن يكون الأمران قد وقعا ، وخصوصاً أن الأولى رواها جابر والثانية رواها سلمان الفارسي ، ولكل رواية واقعة ، وفي كل واحدة منهماخارق للعادة ، ففي الأولى كانت نضحة الماء الذي فيه تفل رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم قد أذابت الصخر فجعلته ككثيب الرمال ·

والخارق في الثانية أن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم قد أجرى الله تعالى على يديه ما كشف له به أنه سيفتح الله تعالى أمة اليمن وما وراءها والشام وما وراءها الى المغرب ، والمشرق ، وهويمتد الى الهند والصين ·

ونحن لا ننكر خوارق العادات ، ولا يمكن أن ننكرها قط على نبينا محمد صلى الله تعالى عليه وسلم ، ولكن يجبأن نؤكد هنا ، ما أكدناه من قبل ،وهو أن هذه الخوارق التي أجراها الله تعالىعلى يد رسوله محمد صلى الله تعالى عليه وسلم ليست هي معجزته التي تحدىفيها الناس أن يأتوا بمثلها ، انما المعجزة الكبرى هي القرآن الذي تحدىالعالمين أن يأتوا بمثله ، ولا يمكن أن يأتوا بمثله ، ولو كان بعضهم لبعضظهيراً ·

الجوع والطعام :

٧٧٤ ـ قلنا ان حفر الخندق اقترنبمشقة شديدة في الحفر ذاته ، وبمشقة أشد في الجوع للبعد عن قلب المدينة ،ولانقطاع المؤمنين عن العمل للرزق ، بالانصراف للحفر ، غير مدخرين أىجهد لغيره ، وحتى ما يقوم به الأود ، وان الجهاد في سبيل الله غذاء النفوسيقبلون عليه ولو تعبت في سبيله الأبدان ، وأرهقت الأجساد ، لانهميريدون ما عند الله ، وعنده الفوز العظيم ·

وان النبي صلى الله تعالى عليه وسلمهو الأسوة الحسنة في الصبر وضبط

النفس ، والجلادة وتحمل الجوع ، حتى انه صلى الله تعالى عليه وسلم ليشد الحجر على بطنه حيث لا يجد ما يذوقه ٠

لقد عرض البخارى حديث جابر عن الكدية ، وجاء فيه « انا يوم الخندق نحفر حفرة ، فعرضت كدية شديدة ، فجاءوا للنبي صلى الله تعالى عليه وسلم فقالوا هذه كدية عرضت في الخندق ، فقال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ٠ أنا نازل ، ثم قام وبطنه معصوب بحجر ، ولبثنا ثلاثة أيام ، لا نذوق ذواقاً » ٠

تلك صورة للجوع الذين كانوا فيه ، وهم يجالدون ، ويبذلون ما لا يبذله الا أقوياء الرجال في دينهم ونفوسهم ، وهنا نجد الخوارق تكون في بركة الطعام القليل الذي يتغذى منه العدد الكثير ٠

ويذكر ابن اسحاق في ذلك روايتين في بركة الطعام ٠

ــ أولاهما ــ البركة في تمر ابنة بشير : ذكر ابن اسحاق بسنده « أن ابنة لبشير بن سعد أخت النعمان بن بشير حدثت فقالت : دعتني أمي عمرة بنت رواحة أخت عبد الله بن رواحة الشاعر الأنصارى فأعطتنى حفنة من تمر في ثوبى ، ثم قالت أي بنية اذهبي الى أبيك وخالك عبد الله بن رواحة بغذائهما فأخذتها ، فانطلقت بها ، فمررت برسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، وأنا ألتمس أبي وخالي ، فقال عليه الصلاة والسلام : تعالى يا بنية ما هذا الذي معك ، فقلت يا رسول الله هذا تمر بعثتنى به أمي الى أبي بشير بن سعد وخالي عبد الله بن رواحة يتغذيانه ٠

قال صلى الله تعالى عليه وسلم هاته : « فصببت في كفي رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، فما ملأهما ثم أمر بثوب فبسط له ، ثم دعا بالتمر عليه ، فتبدد فوق الثوب ، ثم قال لانسان عنده اصرخ في أهل الخندق أنه هلم الى الغذاء فاجتمع أهل الخندق ، فجعلوا يأكلون منه ، وجعل يزيد ، حتى صدر أهل الخندق عنه ، وانه ليسقط من أطراف الثوب ٠

ــ الثانية ــ وهى تشبه هذه ، وان كان قد اختلف موضوعها ، ذكر ابن اسحق عن جابر بن عبد الله أنه قال عملنا مع رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم في الخندق ، وكانت عندي شويهة ليست جد سمينة ، فقلت لو صنعناها لرسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، فأمرت امرأتي فطحنت لنا شيئاً من

الشعير ، صنعت لنا منه خبزاً ، وذبحت تلك الشاة ، فشويناها لرسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، فلما أمسينا وأراد رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم الانصراف من الخندق ، قلت يا رسول الله اني قد صنعت لك شويهة كانت عندنا ، فأحب أن تنصرف معي الى منزلي ، وانما أريد أن ينصرف معي رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم وحده ، فلما قلت له ذلك قال نعم ، ثم أمر فصرخ صارخ أن انصرفوا مع رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم الى بيت جابر بن عبد الله • قلت انا لله وانا اليه راجعون •

أقبل رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم وأقبل الناس معه ، فجلس وأخرجناها اليه فبرك وسمى ، ثم أكل ، وتواردها الناس ، وكلما فرغ قوم قاموا وجاء ناس ، حتى صدر أهل الخندق عنها ، أي أن الشاة غير السمينة كفتهم جميعاً •

ولا شك أن هذين الخبرين بهاتين المسألتين يدلان على خارق للعادة جرى على يدى النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، وكم للنبي صلى الله تعالى عليه وسلم فى ذلك من خوارق ، منه ما ذكرنا ، في لقائه عليه الصلاة والسلام ، وغذائه في بيت أم معبد وهو في طريقه الى الهجرة •

وان الخبر يدل فوق ذلك على الجهد الشديد الذي أصاب الصحابة ومعهم النبي صلى الله تعالى عليه وسلم من قلة الطعام •

ويدل على أمر سام ، وهو فضل التعاون ، وهو أنه كان لا ينفرد أحدهم بطعام عن الباقين بارادة النبي صلى الله تعالى عليه وسلم وهديه وحكمته •

اللقاء :

٤٧٣ ـ أقبلت قريش ومن معها من كنانة وتهامة والأحباش وكانوا في عدد كبير بلغ عشرة آلاف منهم وممن معهم ونزلوا في أسيال رومة بين مكانين أحدهما اسمه الجرف ، والآخر اسمه زغابة ، وأقبلت غطفان ومن تبعهم من أهل نجد ، ونزلوا عند أحد ، وكان عدد قريش أربعة آلاف ، وعدد من معهم ستة آلاف وكانت لهم قيادات مختلفة ، فكان يقود قريشا أبو سفيان بن حرب ، وكانت غطفان بقيادة عيينة بن حصن وكان ثمة قواد يقودون أعدادا

ليست بالكبيرة نسبياً ، فكانت أشجع بقيادة مسعود بن رخيلة وعددهم أربعمائة ، وكانت سليم يقودهم سفيان بن عبد شمس ، وعددهم سبعمائة .

لم تكن لهؤلاء قيادة موحدة ترسم الخطة ، ويتبعها الجميع ، وان جعل كل قيادة على قومها يتولى القوم رجل منهم، وقد يكون ذلك مفيداً في ذاته ، ولكن يجب أن تكون ثمة قيادة عامة ترسم للجميع .

ومهما يكن فهم لم يختلفوا ، لأنهم جاؤوا الى المدينة ، فلم يجدوا ما يمكنهم من الهجوم جميعاً أو متفرقين ، وما كان ذلك سبب الهزيمة التى منوا بها بنصر الله للمؤمنين بالريح والرعب .

لقد جاؤوا الى المدينة يحسبون أنهم يغيرون عليها ، وليفرقوا أو يقضوا عليهم ويسبوا نساءها ، لقد جاؤوا بعد ما تم حفر الخندق .

فوجئوا بأنهم لا قبل لهم بأن يدخلوا المدينة ، فوجئوا بالخندق يحول بينهم، وبين أن يقتحموا جند المؤمنين ، ولم يكن لهم عهد بمثله ، ورأوا كيداً لم يكن بتدبير عربي ، بل بعقل آخر ،وبذلك لم يروا أن مهمة القضاء على محمد وأصحابه سهلة ، انها تحتاج الى تدبير آخر غير ما دبروا ، وأن يدخلوا الى المدينة من غير هذا المكان ،فانه لا يمكن أن يدخل منه جند كثيف كعددهم .

عندئذ تحرك حيي بن أخطب الذي جمع متفرقهم ، وان لم يكونوا مندمجين موحدين في قيادتهم ، وانه اذ نجح في تحريضهم ، لا يمكن أن يتخاذل عن أن يضم اليهم بنو قريظة ، وقد كانوا يتمنون الغوائل للمؤمنين ، ويريدون الوبال لهم ، وربما كان لهم سعي في الحركة ، وان لم يكن ظاهراً ، تسلل اليهم حيي ، ليكونوا وراء المؤمنين ،وقد يحيط الجميع بهم ، وليجدوا منفذاً الى المدينة عن طريقهم ،ويعملوا معهم ، ويكون المشركون من فوقهم ، وبنو قريظة من أسفلهم .

لم يكن بنو قريظة ممن يغامرون ،وكانوا حريصين على الحياة ، كشأن اليهود ، كما قال تعالى فيهم :

﴿ وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ ٱلنَّاسِ عَلَىٰ حَيَوٰةٍ ﴾ (١)

---

(١) البقرة

دخل حيي بن أخطب على كبيرهم كعب بن أسد القرظي ، الذي وادع رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم وصدقه ، وبعد أن عرض بشجاعته ، عنيفاً ، وقال له انك امرؤ مشؤوم ،واني قد عاهدت محمداً ، فلست بناقض ما بيني وبينه ، ولم أر منه الا وفاء ومعهما عبد الله بن رواحة ، وقال لهم فتح له الباب ٠

ولننقل لك الحديث لتعرف ما كانت تجري به الأمور ، وما كان يسري في النفوس ٠

قال حيي : ويحك يا كعب جئتك بعز الدهر،وببحر طام ، جئتك بقريش على قادتها وسادتها حتى أنزلتهم بمجتمع الأسيال من رومة ، وبغطفان على قادتها وسادتها حتى أنزلتهم على جانب أحد ،قد عاهدوني وعاقدوني على ألا يبرحوا حتى يستأصلوا محمداً ومن معه ٠

قال له كعب : جئتني والله بذل الدهر ، وبجهام قد هراق ماء (أى بسحاب قد نزل ماؤها) فاني لم أر من محمد الا وفاء وصدقا ٠

فلم يزل حيي يتحايل بالقول ، ويفتل بالذروة والغارب حتى سمع له واستجاب لما يطلب ، وبذلك كشف طبع اليهودي ، فهو لا يفي بعهد شرفا وكرامة ولكن يفي مضطرا خوف الذل والمهانة ولذلك وافق ، عندما أقنعه بأن القوة مع قريش ، وأمنه على مستقبله،فأعطاه عهدا وأعطاه ميثاقا قائلا له : لئن رجعت قريش وغطفان ولم يصيبوا محمدا أن أدخل معك في حصنك ، حتى يصيبني ما أصابك ٠

اطمأن كعب ، فنقض العهد ، وهو من شيمته ، وما كان التمسك الا حرصا منه على نفسه ، وخوفا عليها ، فأتاه الشيطان من ناحية نفسه ، فاقتنع ، والعداوة فيه أصيلة ٠

ولذلك سرعان ما انضمت قريظة الى الأحزاب التي جاءت من المدينة ،وكان ذلك فيما بينهم وبين حيي ، وعمل على أن يبلغه لقريش ومن معهم ٠

ولكن وصل الخبر الى النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، وهو الحذر الحريص الذي لا يؤتى من غفلة صلى الله تعالى عليه وسلم ٠

أراد النبي صلى الله تعالى عليه وسلم أن يستوثق ليكون الخبر كالعيان فأرسل الى بني قريظة سيد الأوس سعد بن معاذ ، وسيد الخزرج سعد بن عبادة ومعهما عبد الله بن رواحة ، وقال لهم انطلقوا حتى تنظروا أحق ما بلغنا عن هؤلاء القوم أم لا ، فان كان حقا فالحنوا الي لحنا أعرفه ولا تفتوا في أعضاد الناس ، وان كانوا على الوفاء فيما بيننا فاجهروا به أمام الناس ٠

ذهبوا اليهم فوجدوهم على أخبث حال ، نالوا من رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، وأنكروا العهد وقالوا لا عهد بيننا وبين محمد ولا عقد ،وقالوا منكرين من رسول الله فلم يطق سعد بن معاذ صبرا فشاتمهم وشاتموه وقال لهم سعد بن عبادة : دع عنك مشاتمتهم، فما بيننا وبينهم أدنى من المشاتمة ٠

عاد السعدان الى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، وذكرا لرسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم غدرهم ،ولكن بلحن القول ، لا بصريحه حتى لا يفت ذلك في أعضاد المسلمين ٠

المنافقون :

٤٧٤ ــ جاء المشركون من أعلى واليهود من أسفل ، والمنافقون في داخل المسلمين يقولون ويوهنون العزائم ، ويضعون في النفوس روح التردد والهزيمة والنفاق ، وزلزلت قلوب ضعفاء المؤمنين ، وظنوا بالله الظنونا ، حتى قال بعض ضعفاء الايمان قول غير المؤمنين : كان محمد يعدنا أن نأكل كنوز كسرى وقيصر ، وأحدنا اليوم لا يأمن على نفسه أن يذهب الى الغائط، ووجد من يستأذن في التخلف من أولئك الضعاف في أيمانهم ، حتى قال بعضهم « يا رسول الله ، ان بيوتنا عورة من العدو » وذلك على ملأ من رجال قومه ، فأذن لنا أن نرجع الى دارنا ٠

وان أبلغ التصوير للنفوس في هذا الهول هو كلام الله تعالى عن الأحزاب وآثارهم ، فيصف ما في الأنفس العليم بذات الصدور ، يقول سبحانه :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذْكُرُواْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَآءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴿٩﴾ إِذْ جَآءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا۠ ﴿١٠﴾ هُنَالِكَ ٱبْتُلِىَ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُواْ زِلْزَالًا شَدِيدًا ﴿١١﴾ وَإِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢﴾ وَإِذْ قَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ يَٰٓأَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ

(١) الأحزاب

فَارْجِعُوا ۚ وَيَسْتَأْذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ النَّبِيَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ ۖ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا
فِرَارًا ﴿١٣﴾ وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِم مِّنْ أَقْطَارِهَا ثُمَّ سُئِلُوا الْفِتْنَةَ لَآتَوْهَا وَمَا تَلَبَّثُوا بِهَا إِلَّا يَسِيرًا
﴿١٤﴾ وَلَقَدْ كَانُوا عَاهَدُوا اللَّهَ مِن قَبْلُ لَا يُوَلُّونَ الْأَدْبَارَ ۚ وَكَانَ عَهْدُ اللَّهِ مَسْئُولًا ﴿١٥﴾ قُل لَّن
يَنفَعَكُمُ الْفِرَارُ إِن فَرَرْتُم مِّنَ الْمَوْتِ أَوِ الْقَتْلِ وَإِذًا لَّا تُمَتَّعُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٦﴾ قُلْ مَن ذَا
الَّذِي يَعْصِمُكُم مِّنَ اللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً ۚ وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ اللَّهِ
وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿١٧﴾ * قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الْمُعَوِّقِينَ مِنكُمْ وَالْقَائِلِينَ لِإِخْوَانِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا ۖ وَلَا يَأْتُونَ
الْبَأْسَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٨﴾ أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ ۚ فَإِذَا جَاءَ الْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ
كَالَّذِي يُغْشَىٰ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ ۖ فَإِذَا ذَهَبَ الْخَوْفُ سَلَقُوكُم بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ أَشِحَّةً عَلَى الْخَيْرِ ۚ
أُولَٰئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا فَأَحْبَطَ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا ﴿١٩﴾ يَحْسَبُونَ الْأَحْزَابَ
لَمْ يَذْهَبُوا ۖ وَإِن يَأْتِ الْأَحْزَابُ يَوَدُّوا لَوْ أَنَّهُم بَادُونَ فِي الْأَعْرَابِ يَسْأَلُونَ عَنْ أَنبَائِكُمْ ۖ
وَلَوْ كَانُوا فِيكُم مَّا قَاتَلُوا إِلَّا قَلِيلًا ﴿٢٠﴾ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن
كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا ﴿٢١﴾ وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الْأَحْزَابَ قَالُوا هَٰذَا
مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ ۚ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّا إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا ﴿٢٢﴾ مِّنَ
الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ ۖ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ ۖ وَمَا بَدَّلُوا
تَبْدِيلًا ﴿٢٣﴾ لِّيَجْزِيَ اللَّهُ الصَّادِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ إِن شَاءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ ۚ
إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٢٤﴾ وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْرًا ۚ وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ
الْقِتَالَ ۚ وَكَانَ اللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا ﴿٢٥﴾ وَأَنزَلَ الَّذِينَ ظَاهَرُوهُم مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِن صَيَاصِيهِمْ
وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا ﴿٢٦﴾ وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَارَهُمْ
وَأَمْوَالَهُمْ وَأَرْضًا لَّمْ تَطَئُوهَا ۚ وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا ﴿٢٧﴾ ﴾ (١)

هذا أدق وصف لحال النفوس في ذلك الهول ، فهل وهنت ارادة النبي صلى الله تعالى عليه وسلم أو ضعفت عزيمته، بل كان يؤمن بنصر الله تعالى ، ويدبر الأمر ، ويأخذ الأهبة بعزم الرسول ، وهو من أولي العزم من الرسل ، فضرب المثل لمن معه من المؤمنين •

حراسة المدينة :

٤٧٥ ـ تقدم للميدان بثلاثة آلاف من المقاتلين ، وأمر بالذراري والنساء أن تكون في أطم ، أي مبان متينة تكون كالحصون لكيلا يكونوا تحت عين بني قريظة ، ولكيلا يكون المجاهدون في فزع على نسائهم وذريتهم ولكيلا يصيبوا منهم غرة •

وان النبي صلى الله تعالى عليه وسلم وضع حراسة على المدينة خشية أن ينقضوا عليها ، فأقام سلمة بن أسلم على مائة من الرجال ، وأقام زيد بن حارثة على ثلاثمائة أخرى لحراسة المؤمنين من اليهود •

وذلك كله حذراً من المشركين ، وكان لابد من اتخاذ المكيدة ، والحرب مكيدة •

﴿ وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ ۚ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ ۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَـٰكِرِينَ ﴿٣٠﴾ ﴾ (١)

فأراد عليه الصلاة والسلام أن يخذل المشركين بعضهم عن بعض باثارة الطمع في بعضهم ، فيتخلون عن باقيهم ، فأراد أن يطمع غطفان ومن معها من نجد ، فأرسل الى عيينة بن حصن والى الحارث بن عوف بن أبي حارثة من قوادهم ، فطلب اليهما المصالحة على أن يأخذوا ثلث ثمار المدينة ، فقبلوا ذلك طمعا منهم ، وأن يعودوا ، وكتبوا الكتاب من جانبهم ولم يكن من النبي صلى الله تعالى عليه وسلم شهادة ولا عزيمة صلح لأنه لا يمكنه أن يعزم ذلك من غير مشورة أهل الثمار ، فلما عرض عليهم من بعد أن جاء الكتاب ، وكان ذلك العرض أن بعث الى سعد بن معاذ سيد الأوس وسعد بن عبادة سيد الخزرج ، فذكر لهما ذلك ، واستشارهما •

---

(١) آل عمران

قالا له يا رسول الله : أمراً تحبه فتصنعه أم شيء أمرك الله به لابد لنا من العمل به ، قال صلى الله تعالى عليه وسلم بل شيء أصنعه لكم ، والله ما أصنع ذلك ، الا لأنني رأيت العرب قد رمتكم عن قوس واحدة ، وكالبوكم من كل جانب ، فأردت أن أكسر عنكم شوكتهم الى أمر ما ٠

قال سعد بن معاذ : يا رسول الله قد كنا ونحن وهؤلاء على الشرك بالله ، وعبادة الأوثان لا نعبد الله ولا نعرفه ،وهم لا يطمعون أن يأكلوا منها ثمرة الا شراء أو بيعا ، أفحين أكرمنا الله تعالى بالاسلام ، وهدانا اليه ، وأعزنا به وبك تعطيهم أموالنا ، والله مالنا بهذا من حاجة ، والله لا نعطيهم الا السيف حتى يحكم الله بيننا وبينهم٠

قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم : فأنت وذاك ٠ فتناول سعد الصحيفة فمحا ما فيها من الكتاب ، وبذلك انتهت ارادة الصلح ، ان كانت٠

وقد أفاد عرض الصلح أمرين عظيمين ٠

أولهما : أن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم علم عزمة أصحابه ، وأنهم يريدون لقاءهم ٠

ثانيهما : أن ذلك أطمع غطفان ومن معها من القبائل ، والطمع اذا سكن حل العزيمة وقد ترتب على ذلك الاطماع ، أنهم تململوا بطول الحصار وجرى بينهم وبين القرشيين خلاف وهموا أن يعودوا من حيث جاؤوا من غير أن ينالوا شيئا ٠

إسلام نعيم بن مسعود :

٤٧٦ ــ بهذا العرض خذل النبي صلى الله تعالى عليه وسلم بين قريش ، وبين من جاؤوا بهم من الأعراب ،وبقي أن يخذل بين اليهود وبين المشركين ، وساق الله تعالى اليه من رضي بأن يكون لسان ذلك التخذيل ٠

فقد أتى رجل من غطفان هو نعيم بن مسعود وقال يا رسول الله اني قد أسلمت ، وان قومي لم يعلموا باسلامي فمرني بما شئت فقال صلى الله تعالى عليه وسلم انما أنت فينا رجل واحد فخذل عنا ان استطعت ، فان الحرب خدعة ٠

خرج نعيم بن مسعود حتى أتى بني قريظة وكان لهم نديما في الجاهلية فقال : يا بني قريظة قد عرفتم ودي اياكم وخاصة ما بيني وبينكم ، ان قريشا وغطفان ليسوا كأنتم ، البلد بلدكم فيه أموالكم وأبناؤكم ونساؤكم ، لا تقدرون على أن تجلوا منه الى غيره ،وان قريشا وغطفان قد جاؤوا لحرب محمد وأصحابه وقد ظاهرتموهم عليه ،وبلدهم وأموالهم ونساؤهم بغيره ، فان رأوا نهزة أصابوها وان كان غير ذلك لحقوا ببلادهم ، وخلوا بينكم وبين الرجل ، ولا طاقة لكم به ان خلا بكم ،فلا تقاتلوا مع القوم ، حتى تأخذوا منهم رهناء من أشرافهم يكونون بأيديكم ثقة لكم على أن تقاتلوا معهم محمداً حتى تناجزوه ، قالوا لقد أشرت بالرأي ٠

كان هذا تنبيه صدق لبني قريظة ،وان كان القصد تخذيلهم عن قريش ، ولم يكن كاذبا ٠

ذهب من بعد الى أبي سفيان بن حرب قائد قريش ، وقال قد عرفتم ودي لكم ، وفراقي محمداً ، وانه قد بلغني أمر قد رأيت علي حقاً أن أبلغكموه نصحاً لكم ، فاكتموا عني ! فقالوا نفعل قال تعلموا أن معشر يهود قد ندموا على ما صنعوا ، فيما بينهم وبين محمد ، وأرسلوا اليه ، انا قد ندمنا على ما فعلنا ، فهل يرضيك أن نأخذ لك من القبيلتين من قريش وغطفان رجالا من أشرافهم فنعطيكهم ، فتضرب أعناقهم ، ثم نكون معك على ما يبقى فنستأصلهم ، فأرسل اليهم أن نعم ، فان بعثت اليكم يهود يلتمسون منكم رهناً ، فلا تدفعوا اليهم منكم رجلا واحداً ٠

ثم خرج الى غطفان فقال لهم مثل ماقال لقريش ٠

بعد هذا التحذير من ذلك المسلم التقي المدرك ، أرسل أبو سفيان عكرمة ابن أبي جهل يستنهض قريظة للقتال وقال لهم ، انا لسنا بدار مقام ، قد هلك منا الخف والحافر ، فاغدوا للقتال حتى نناجز محمداً ونفرغ مما بيننا وبينه ، وكان اليوم يوم سبت ،فاعتذروا ، وقالوا لا نعمل فيه شيئاً ، وكان بعضنا قد احدث فيه حدثاً ،فأصابه ما لم يخف عليكم ٠٠ ولسنا مع ذلك بالذين نقاتل معكم محمداً ، حتى تعطونا رهنا من رجالكم يكونون بأيدينا ثقة لنا ، حتى نناجز محمداً ،فانا نخشى ان ضرستكم الحرب واشتد عليكم القتال أن تنشمروا الى بلادكم وتتركونا ، والرجل في بلدنا ولا طاقة لنا به ، ولا طاقة لنا بذلك منه ٠

هكذا أدركت قريش أن بني قريظة تريد أن تأخذ لنفسها أمانا من الرجعة فيما تقول ، وهي تريد قتلهم ، وأدركت قريظة أنهم لا يريدون تأمينها ، وبذلك تم ما أريد من التخذيل بينهم وأشد التخذيل ما يكون بفقد الثقة وأن يتظنن كل فريق .

ولكن الفريقين مع ذلك استمروا في غيهم ، فكانوا يبثون العيون على أطم المسلمين التي بها الذراري والنساء ، لينقضوا عليهم ، وينالوا من النبي صلى الله تعالى عليه وسلم وأصحابه .

فاذا كان للتخذيل أثر ، ففي فقد الثقة بين الفريقين ، ولكن عداوة النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ما زالت تجمع بينهما ، فلم تنخلع قريظة عن الايذاء وارادة الانقضاض على بيوت المؤمنين .

عين من اليهود حول أطم :

٤٧٧ ـ كانت صفية بنت عبد المطلب عمة النبي صلى الله تعالى عليه وسلم في أطم (حصن) لحسان بن ثابت رضي الله تعالى عنه ، ولم يكن محارباً ، فكان مع الصبيان والنساء ، ولم يكن الحجاب قد نزل ، قالت صفية ، « فمر بنا رجل من يهود ، فجعل يطيف بالحصن ، وقد حاربت قريظة ، وقطعت ما بينها وبين رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، فعلمت ابنة عبد المطلب من أنه يطيف بمساكن الذراري والنساء ، ومن أن قريظة قطعت ما بينها وبين النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، أن هذا الرجل عين على المسلمين ، ويريد عورات النبي صلى الله تعالى عليه وسلم .

قالت السيدة صفية لحسان الشاعر ، ليس بيننا وبينهم أحد يدفع عنا ، ورسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم والمسلمون في نحور عدوهم ، لا يستطيعون أن ينصرفوا عنهم الينا ، ان أتانا آت ، وأن هذا اليهودي يطيف بالحصن ، واني والله ما آمنه أن يدل على عورتنا من ورائنا من يهود ، وقد شغل عنا رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، وأصحابه ، فانزل اليه فاقتله : قال حسان : يغفر الله لك يابنة عبد المطلب ، والله عرفت ما أنا بصاحب هذا ولما لم أر عنده شيئا احتجزت (أي شدت وسطها) ثم أخذت عمودا ،

ثم نزلت من الحصن اليه فضربته بالعمود ، حتى قتلته ، فلما فرغت منه ورجعت الى الحصن ، فقلت : يا حسان انزل اليه فاسلبه ، فانه لم يمنعني من سلبه الا أنه رجل ، فقال مالي بسلبه من حاجة يابنة عبد المطلب ٠

وقد ذكرنا هذه القصة لا لنثبت شجاعة أخت حمزة أسد الله ، ولا لحال حسان رضي الله عنه ، ولكن ذكرناها ، لنعلم منها كيف كان اليهود حريصين على أن يأتوا دور النبي والصحابة في غيبتهم ٠

الجيشان :

٤٧٨ ـ تلاقي الجيشان : يعتز جيش الشرك بكثرة العدد وكثرة العدة ، وأنه من جميع العرب ، ويعتز بأنه استطاع بمحالفته لبني قريظة أن يحيط بالمدينة ، وأنه يستطيع الانقضاض عليها من طريق حلفائه ، ولكن لم يتنبه بأن فيه ضعفا ، يفرق كلمته ، اذ أن تعدد القواد ، لا يوحد كلمة قيادة موحدة تحسن الهجوم الموحد ، وبذلك لا تغني عنهم كثرتهم شيئا ، لأن الكثرة المتفرقة خير منها القلة المتحدة ، المتآلفة المتآزرة ، وهذا عيب ذاتي في أصل تكوين الجيش من أحزاب ٠

وفوق ذلك ما كان من اطماع النبي صلى الله تعالى عليه وسلم لغطفان وعدتهم ستة آلاف في صلح يأخذون فيه ثلث ثمار المدينة ، وان ذلك يثير طمعهم ، ويفت في عضدهم ، وان كان أمر الصلح لم يبت فيه ، ولكن بابه مفتوح لم يغلق ٠

ثم فوق هذا وذاك فقد الثقة بينهم وبين قريظة الذي لم يجعل ثمة فائدة في التحالف معهم ، وان كانوا قد عملوا عملا في ايجاد الذعر بين المؤمنين ، وربما كان منهم من حاول الهجوم على دور النبي صلى الله تعالى عليه وسلم وآل بيته الكرام ، وقد رأينا عيونهم تنبث في المدينة ٠

هذا جيش المشركين ومن معهم ، أما جيش أهل الايمان ، فقد خلصته الشدة من المنافقين فيه وضعفاء الايمان من الذين زلزلوا ، وكان خالصاً

صافياً ، وليس فيه الا من قال فيهم :

﴿ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا ﴿٢٣﴾ ﴾ (١)

اجتياز الخندق :

٤٧٩ - فوجيء المتجمعون من المشركين بالخندق ، اذ لم يكونوا يعرفونه فلم يكونوا أهل حروب جماعية ، فعرفوا تدبيرها ومكايدها كما أشرنا من قبل ،ورأوه سداً يحول بينهم وبين أن ينقضوا جمعاً متكاتفا على المدينة ، فيقتلعوا الاسلام منها اقتلاعاً ، وبذلك طاش أول هدف لهم ٠

ولكن بعضهم وجد ثغرة منه فقد استطاع بعض فرسانهم أن يقتحمها ومنهم عكرمة بن أبي جهل ، وبعض بني مخزوم ، وعمرو بن عبد ود العامري العربي المرهوب الذي حضر بدراً وأثخن بالجراح ، ولم يحضر يوم أحد لجراحه ، وقد خرج يوم الخندق معلماً ليرى مكانه ، ويعلم أنه جاء لشفاء غيظه ٠

وقد خرج منادياً للمبارزة ، وأراد علي أن يخرج له فرده النبي صلى الله تعالى عليه وسلم مرتين حتى عير المسلمين، فعندئذ خرج علي اليه ولم يمنعه النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ٠

فلما التقيا قال له علي داعياً الى الهدى : يا عمرو ، انك قد كنت عاهدت الله ألا يدعوك رجل من قريش الى احدى خلتين الا أخذت منه خيرهما ٠

قال عمرو : أجل ٠

قال علي : فاني أدعوك الى الله ورسوله والى الاسلام ٠ قال لا حاجة لي بذلك ٠

قال علي : فاني أدعوك الى النزال، فقال له لم يابن أخي ، فوالله ما أحب أن أقتلك ، قال له علي : لكني والله أحب أن أقتلك ، فحمي عمرو عند ذلك واقتحم عن فرسه ، وعقره ٠ ونزل للقاء علي ، ويظهر أن علياً كان راجلا ، فأبى أن يقاتل علياً الا راجلا ٠

(١) الأحزاب

ثم أقبل على علي ، فتجاولا وضرب ضربة تلقاها علي بدرقته ، ولكنها اخترقتها وجرحت رأس علي ، فضربه علي ضربة في ترقوته فقتلته ، وكانت ضربات علي أبكاراً عندئذ كبر المسلمون ، فعلم النبي صلى الله تعالى عليه وسلم أن علياً رضي الله عنه قد قتله ·

أقبل علي نحو رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، ووجهه يتهلل ، فقال له عمر بن الخطاب : هلا استلبته درعه ، فانه ليس للعرب درع خير منها ، قال علي ضربته ، فاتقاني بسوءته ، فاستحييت ابن عمي أن أسلبه ·

ويظهر أنه كان عظيماً بين المشركين يعتزونه فأرسلوا يطلبون جثمانه بمال يقدمونه ، فأعطاهم النبي صلى الله تعالى عليه وسلم اياه ، وقال هو لكم لأننا لا نأكل ثمن الموتى ·

كان أولئك الذين قد اجتازوا الخندق وفيهم عكرمة ، وغيره ، وفي بعض الروايات فيهم خالد بن الوليد ، قد رأوا ما كان بين علي وعمرو بن عبد ود الذي كان كما قيل لم يهزم في مبارزة قط ، ولم يلبثوا من بعد مقتله الا أن يجتازوا الخندق كما بدؤوا ، وما تقدم أحد منهم لعلي بعد أن قتل عمرو بن عبد ود ·

وقد ذكر ابن جرير في تاريخه ان نوفل بن عبد الله بن المغيرة تورط في الخندق ، ورماه المؤمنون بالحجارة وجعل يقول : قتلة أحسن من هذه ، فنزل اليه علي وقتله ، وروي أن الذي قتله الزبير بن العوام ، وطلبت قريش جثته بعد قتله في نظير مال ، فأعطاه النبي صلى الله تعالى عليه وسلم من غير مال · وقال لا نأكل ثمن الموتى ·

الهجوم على بيوت المؤمنين :

٤٨٠ ـ استمر الحصار قائماً بعد الهجمة التي هجمها الذين اجتازوا الخندق من مكان ضيق غير مرتفع ، وقد قتل اثنان من المشركين فيه ، وهما نوفل المخزومي ، وعمرو بن عبد ود العامري ، ثم الرهبة بعد ذلك من اجتيازه ، وكان النبل من الجيش منهمراً كالسيل ، والمسلمون ينالونهم بالرمي أيضاً ، وقد قتل منهم واحد بالنبل ، وقتل من المسلمين خمسة ، أصيبوا فقتلوا ، والسادس كان هو سعد بن معاذ الصحابي الجليل الذي كان ثاني اثنين

ذهبا الى بني قريظة ، ورأوا خيانتهم للعهد في وقت الشديدة وسعد رضي الله عنه كان قد خرج الى الميدان بدرع غير سابغة ، فذراعاه كانتا عاريتين ، وأصابه سهم في أكحله ، أثبته ، ولكنه دعا الله تعالى ألا يموت الا بعد أن يرى في بني قريظة جزاء غدرهم فعاش رضي الله تعالى عنه ، حتى كان هو الحاكم فيهم ثم قبضه الله تعالى اليه راضياً مرضياً ٠

كانت المناوشة اذاً بين النبي صلى الله تعالى عليه وسلم والمشركين ، اذ عجزوا عن أن يصلوا الى المؤمنين والخندق أمامهم ، والمؤمنون الصادقون من علي واخوانه من ورائه ، ومعهم سيوف تبرق ٠

فلم يكن لهم الا الهجوم على بيت النبي صلى الله تعالى عليه وسلم من أسفل المدينة ، وان ذلك كما يظهر من جانب قريظة ،فهو الجانب الذي يمكن أن يجيء الشرك الى المدينة من جانبه ، وان الظن أن بني قريظة هم الذين قاموا به تأييداً لحلفائهم الذين نقضوا الميثاق من أجلهم ، وليشفوا غيظهم ، ولينالوا ثأر بني النضير وبني قينقاع من اخوانهم ،وان كان ما أصابهم انما هو بالاعتداء ونقض العهد ، وغدرهم برسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ٠

يقول ابن كثير في تاريخه نقلا عن عقبة بن موسى « وجهوا نحو منزل رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم كتيبة فقاوموهم يوما الى الليل ، فلما حانت صلاة العصر رجعت الكتيبة فلم يقدر النبي ولا أحد من أصحابه الذين كانوا معه ، أن يصلوا الصلاة على نحو ما أرادوا ، فانكفأت الكتيبة مع الليل ، وروي أن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم قال شغلونا عن الصلاة ملأ الله بطونهم ، وقلوبهم وقبورهم ناراً » ٠

وان هذا الخبر يفيد أن الذين كانوا على حراسة المؤمنين من خيانة بني قريظة هم الذين قاتلوهم ، وأن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم لحق بأولئك المجاهدين الأبرار ، وردوهم فلم ينالوا شيئاً من بيوت المؤمنين ، وأن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم اذ لحق بأولئك المجاهدين ترك حراسة الخندق للمجاهدين من المؤمنين الذين صدقوا ما عاهدوا الله تعالى عليه ، وما بدلوا تبديلا ٠

واذا كانوا لم ينالوا منالهم ، فقد أزعجوا البيوت في المدينة ، وتلك هي الجريمة الكبرى التي ارتكبها القرظيون بنقضهم للميثاق كشأن أسلافهم

وأعقابهم من بعدهم ، وان ذلك أمارة اشتداد البلاء ، وأن الجمع بين صلاة العصر والمغرب في وقت المغرب قد ثبت في صحاح السنة في هذه الموقعة.

فقد رواه البخاري ومسلم والترمذي والنسائي وصيغته كما في البخاري عن جابر بن عبد الله أن عمر بن الخطاب جاء يوم الخندق بعد ما غربت الشمس فجعل يسب كفار قريش ، وقال يا رسول الله ما كدت أصلي حتى كادت الشمس أن تغرب ، قال النبي صلى الله تعالى عليه وسلم « والله ما صليتها ، فنزلنا مع رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم فتوضأ للصلاة ، وتوضأنا ، فصلى العصر بعد ما غربت الشمس . ثم صلى بعدها بالمغرب .

وان هذا يدل على جواز الجمع بين الصلاتين جمع تأخير لعذر الحرب ، وأجازه أحمد لعذر الحرب ولغيره .

دعاء النبي صلى الله عليه وسلم واستجابته :

٤٨١ ـ

﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِكُم ۖ مَّسَّتْهُمُ ٱلْبَأْسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ وَزُلْزِلُوا۟ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصْرُ ٱللَّهِ ۗ أَلَآ إِنَّ نَصْرَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ ﴿٢١٤﴾ ﴾ (١)

اشتد البلاء على الرسول والذين معه، فقد كانوا محاصرين نحو عشرين ليلة ، وكان من القرظيين تلك الخيانة، وان هموا بكتيبة غليظة أن يغزوا بيت النبي صلى الله تعالى عليه وسلم .

نعم انه لم تكن الشديدة على المؤمنين وحدهم ، بل كان جيش الشرك في ليال برد شديدة البرودة ، وقد قل الزاد ، وجف الحافر ـ وأصابهم سوء الظن بعضهم ببعض حتى قال أبو سفيان متكلمهم انكم والله ما أصبحتم بدار

---

(١) البقرة

مقام ، لقد هلك الكراع والخف ، وأخلفتنا بنو قريظة ، كانت حال المؤمنين قابلة للصبر بالايمان ، أما غيرهم فلاايمان يعزيهم ، ولا رجاء فيما عند الله يشجعهم ، وان النبي صلى الله تعالى عليه وسلم دائم الاتجاه الى ربه ، ورويت عنه في هذه الموقعة عدة أدعية نبوية مقوضة ضارعة ، تكررت فكانت الاستجابة كما قال تعالى :

﴿ ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِى سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴿٦٠﴾ ﴾ (١)

وكان من دعائه في هذه الشدة ما رواه الامام أحمد أنه قال : « اللهم استر عوراتنا ، وآمن روعاتنا » ، ومن دعائه ما رواه الصحيحان مسلم والبخاري « اللهم منزل الكتاب ، سريع الحساب اهزم الأعداء اللهم اهزمهم وزلزلهم وانصرنا عليهم » .

ومن دعائه ما رواه البخاري عن أبي هريرة أنه كان يقول : « لا اله الا الله وحده ، أعز جنده ، وأعز عبده ، وغلب الأحزاب وحده ، فلا شيء بعده » .

وقد استجاب الله تعالى لرسوله ، ومن أحق بالاستجابة من الرسول ، والدعاء عبادة ، وأي عبادة أطهر وأنقى وأخلص من عبادة الرسول .

أرسل الله عليهم ريحاً صرصراً عاتية في يوم برد شديد البرودة ، وأرواح الله الطاهرة تبث الرعب في نفوسهم وفسد ما بينهم ، وبين أنفسهم ، فتخاذلت غطفان عن قريش ، وتظننت قريظة فيهم وتظننوا فيها بل روي أنهم أرسلوا الى الرسول يطلبون اليه الصلح على أن يرد بني النضير الى أرضهم .

جاءهم الخوف وقد سكن قلوبهم ، وجاءت الريح تزعجهم ، حتى ان أبا سفيان يقول « لقينا من شدة الريح ما ترون ما تطمئن لنا قدر ، ولا تقوم لنا نار ، ولا يستمسك لنا بناء ، فارتحلوا ، فاني مرتحل » .

ارتحلوا مذؤومين مخذولين ، وتركوا من ورائهم متاعهم .

ومن نالوا من المؤمنين قتلوا بالنبال من المؤمنين ستة ، وقتل المؤمنون منهم ثلاثة فيهم عمرو بن عبد ود ، الذي كان يعد بالعدد من الرجال ، ولا يعد

---

(١) غافر

بالواحد ، قتله فارس الاسلام علي بن أبي طالب ولننقل ما ذكر الله تعالى في بيان ختام الواقعة ، ونكرر التلاوة اذ تلوناه من قبل :

﴿ وَرَدَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا۟ خَيْرًا ۚ وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلْقِتَالَ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا ﴿٢٥﴾ ﴾ (١)

قال تعالى في أثناء وصف القصة ، وبيان نتائجها :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَآءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴿٩﴾ ﴾ (٢)

وبذلك انتهت معركة الأحزاب ، التي اهتزت لها الجزيرة العربية كلها ، ونادت بالويل والثبور وأنها مقتلعة الاسلام من موطنه ، فباؤوا بخسران مبين ، منهزمين في الميدان ، ومضطربين في نفوسهم ، وقد رأوا من آيات ربهم الكبرى ما رأوا ٠

فقد جاء في كتاب مغازي الواقدي لما ملت قريش كتب أبو سفيان كتاباً وبعثه مع أبي سلمة الحشني ، جاء فيه :

باسمك اللهم ، فاني أحلف باللات و العزى وأساف ونائلة وهبل ، لقد سرت اليك في جمعنا ، وانا لا تريد ألا نعود اليك أبداً ، حتى نستأصلكم ، فرأيناك قد كرهت لقاءنا ، فجعلت مضايق وخنادق ، فليت شعري من علمك هذا ، فان نرجع عنكم ، فلكم منا يوم كيوم أحد تنتصر فيه النساء ٠

فكتب النبي صلى الله تعالى عليه وسلم :

من محمد رسول الله الى أبي سفيان بن حرب ٠ أما بعد فقد أتاني كتابك ، وقد غرك بالله الغرور ٠

وأما ما ذكرت أنك سرت الينا في جمعكم ، وأنك لا تريد أن تعود حتى تستأصلنا ، فذلك أمر الله يحول بينك وبينه ، ويجعله لنا حتى لا تذكر اللات والعزى ، وأما قولك من علمنا الذي صنعنا من ذلك ، فان الله ألهمني ذلك ، لما أراد من غيظك ، وغيظ أصحابك ، وليأتين عليك يوم أكسر فيه اللات والعزى ، وأساف ونائلة وهبل حتى أذكرك ذلك ٠

---

(١) و (٢) الأحزاب

نتائج غزوة الخندق :

٤٨٢ ـ كانت لهذه الغزوة نتائج طيبة :

(أ) اذ رد الله الذين كفروا بغيظهم لم ينالوا خيرا ، وقد بذلوا أقصى ما يستطيعون فيها ، جمعوا العرب ليغزوا المدينة فما رجعوا الا بستة من القتلى يقابلهم ثلاثة فيهم فارسهم وقد قتله فارس المسلمين علي كرم الله وجهه ٠

وان أثر هذا أن ألقي اليأس في قلوبهم من أن ينالوا من النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، وما كانوا ليستطيعوا أن يقوموا بمثل ما قاموا به ، فكان لسان حالهم يقول ، لا نستطيع لمحمد صلى الله تعالى عليه وسلم سبيلا ، ولقد قال النبي صلى الله تعالى عليه وسلم « لاتغزوكم قريش بعد عامكم هذا ٠ ولكنكم تغزونهم » ، ولقد أشار القرآن بذلك ، فقال تعالى وهو أصدق القائلين:

﴿ وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلْقِتَالَ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا ﴿٢٥﴾ وَأَنزَلَ ٱلَّذِينَ ظَٰهَرُوهُم مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مِن صَيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا ﴿٢٦﴾ وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَٰرَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُمْ وَأَرْضًا لَّمْ تَطَـُٔوهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرًا ﴿٢٧﴾ ﴾ (١)

(ب) وان العرب الذين كانوا قد طمعوا في المؤمنين بعد غزوة أحد التي أشاع المشركون فيها أن محمدا صلى الله تعالى عليه وسلم وصحبه قد هزموا ، قد استكانوا ، ولم يعودوا طامعين في نصر ، بل نأى بهم الخوف عن أن ينالوا منالا ، أو يدبروا أمرا ، فلا يفكروا في اعتداء أو غدر ، أو ممالأة ، وان ذلك اليأس قد يدفعهم الى التفكير فيما يدعو اليه محمد صلى الله تعالى عليه وسلم ، ولذلك كثر الذين يجيئون الى النبي صلى الله تعالى عليه وسلم داخلين في الاسلام أفواجا وفرادى ، اذ أن الغواشي قد زالت ، ومن ذلك كانت وفود القبائل العربية يجيئون يتعرفون الاسلام ٠

---

(١) الأحزاب

(جـ) وان الآيات المادية قد تؤثرفي أولئك الماديين الحسيين ، وخصوصا اذا كانت في موطن الفزع ، فانها اذاجاءت من غير سبب يألفونه ويعرفونه، فانها قد تأخذ عقولهم الى التفكير السليم وتخلعها من الوثنية ، اذ يدخل اليها نور الحق شيئاً فشيئاً ، والنور كلمادخل أشرق ، واذا أشرق اتجهوا الى الحق وطلبوه ، والله يهدي من يشاءالى صراط مستقيم ·

(د) وان اليهود قد ظهرت نياتهم لمرأى العين، وانكشفت وصار ما تخفيه صدورهم أمرا معروفا · فقد كانت هذه الشديدة ، التي ادلهمت مبينة ما يبيته اليهود للمؤمنين ، بل تكشفت الوجوه ولم تسترها همزة النفاق ، وصاروا وجها لوجه أمام النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ·

(هـ) وقد بينت واقعة الخندق أن أهل الباطل جمعهم متفرق ، فقد اجتمعوا ، ولكن سرعان ما اختلفت نوازعهم بين المشركين أنفسهم ، بما أبداه غطفان من الميل للصلح والعودة،وبما كان بين المغيرين والقرظيين ·

غزوة بني قريظة :

٤٨٣ ـ ان هذه الغزوة احدى نتائج الفشل الذريع الذي منيت به غزوة قريش ومن معهم للمدينة ، وحيلولة الخندق بينهم وبين أن يدخلوها ·

فان بني قريظة قد ارتضوا نكث العهد ، أو نقض الميثاق الذي كان بينهم وبين النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ،وقد حاولوا أن ينقضوا على عورات النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ·

لقد حسبوها فرصة للقضاء على النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، وأن تكون المدينة لهم بدل أن يكونوا في عهد معه وسلم وأمان ، ويكون لهم ما للمسلمين ، وعليهم ما على المسلمين·

فقد مالأوا وعاونوا ، وأقدموا على مهاجمة بيت النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، ومن معه من المؤمنين ولما رد الله الذين كفروا بغيظهم لم ينالوا خيرا وكفى الله المؤمنين القتال ، أدركوا أن الفرصة قد أفلتت من أيديهم وكانت عاقبة أمرهم خسرا ·

أولئك المشركون رجعوا الى ديارهم، ورضوا أن يثوبوا ، وعادوا الى

ديارهم لا يغير عليهم مغير ، ولا يأخذمنهم أحد جزاء ما اقترفوا ، أما بنو قريظة ، فانهم سيؤدون الحساب على ماظاهروا عليه المشركين ، وعلى نقضهم العهد الموثق ٠

لذلك كله امتلأت قلوبهم رعباً ، وكانت النتيجة كما قال الله تعالى :

﴿ وَأَنزَلَ ٱلَّذِينَ ظَٰهَرُوهُم مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مِن صَيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا ﴿٢٦﴾ وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَٰرَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُمْ وَأَرْضًا لَّمْ تَطَـُٔوهَا وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرًا ﴿٢٧﴾ ﴾ (١)

كان بين يدي الرسول صلى الله تعالى عليه وسلم أحد أمور ثلاثة : اما أن يعفو عنهم ، ويتركهم آمنين في ديارهم ، وهم بجوار المؤمنين الذين خانوهم ، وان ذلك غير ممكن ، لأن العفو لا يكون الالمن يرجى منه خير ، وكيف وان يظهروا عليكم لا يرقبوا فيكم الا ولا ذمة ٠

واما أن يخرجهم من ديارهم كما أخرج بني النضير من ديارهم ، ولكن لا تكون ثمة عدالة ، ولا مساواة بينهم وبين بني النضير ، لأن بني النضير نقضوا الميثاق بما دون ذلك ، ولأنهم لم يهاجموا بيوت النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، وقد أوتيت من فوقها ومن أسفل منها ، وأحيطت بكتائبهم ، وكتائب الشرك ، فكانوا احدى الكوارث ، أو أشدها فاعلية بعد أن حال الخندق بين النبي صلى الله تعالى عليه وسلم وبينهم ٠

هذان أمران ليس من المعقول تطبيق أحدهما أو هما ، وليس من العدل تطبيق الثاني ٠ لم يبق اذن الاالقتال ، وعندئذ تقول الحقيقة ويل للخائن المغلوب ، وانه اذا كان قتال ،فان نتيجته معروفة من قبل وقوعه ، اذ أنهم سيبادون عن آخرهم ، ويكون ذلك شقاء لقلوب المؤمنين الذين زاغت منهم الحناجر بسبب انضمامهم للمشركين ٠

أرادوا أن يخرجوا كما خرج بنو النضير ، فلم يرض النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، لعدم التساوي بين حالهم ،وحال بني النضير ، فاختار النبي صلى الله تعالى عليه وسلم القتال بأمر ربه ولكنهم استسلموا ٠

(١) الأحزاب

بني قريظة :

٤٨٤ ـ جاء أمر الله تعالى بأن يخرج النبي صلى الله تعالى عليه وسلم لقتال بني قريظة ، فروي أن جبريل أمين الوحي جاء يقول للنبي صلى الله تعالى عليه وسلم وقد وضعت السلاح يامحمد ؟ قال نعم ، فقال جبريل ، فما وضعت الملائكة السلاح ·· ان الله عزوجل يأمرك يامحمد بالمسير الى بني قريظة ·

سار النبي صلى الله تعالى عليه وسلم الى بني قريظة بأمر الله ، وان منطق الحرب يدعو الى ذلك ، والحذر الذي أمر الله به يوجب ذلك ·

أمر النبي صلى الله تعالى عليه وسلم مستجيبا لأمر ربه فأذن في الناس من كان سامعا مطيعا ، فلا يصلين الا في بني قريظة ·

استعمل النبي صلى الله تعالى عليه وسلم في المدينة ابن أم مكتوم ·

أعطى الرسول صلى الله تعالى عليه وسلم الراية لعلي بن أبي طالب ·

سار علي رضي الله تعالى عنه ،حتى اذا دنا من حصونهم سمع منهم مقالة قبيحة في رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم وكأنهم مستمرون على غيهم ·

فرجع حتى لقي رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم : وظن الرسول أنهم قالوا فيه وعلي لا يريد أن يسمع منهم أذى لرسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ·

دنا رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم من حصونهم ، وقال لهم : « هل يا اخوان القردة هل أخزاكم الله وأنزل بكم نقمته ـ قالوا يا أبا القاسم ما كنت جهولا » ·

مضى اليهم رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم بعد أن اجتمع جيشه ، والراية مع علي حتى نزل على بئر من آبارهم ؟

وكان من بين أصحابه من لم يصل العصر الا في وقت العشاء ، لأنهم انتظروه الى العشاء ، وقد قال لا يصلين أحد العصر الا في بني قريظة

فينتظرونه حتى يصلي بهم العصر ،فصلوا العصر بها في وقت العشاء فما عابهم صلى الله تعالى عليه وسلم ·

حاصرهم رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم لقتالهم ، وهو ما أمر الله به ، وهو الأمر بالمعقول في ذاته كماذكرنا من قبل ، ولكنهم لم يخرجوا لقتال ·

حاصرهم رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم خمساً وعشرين ليلة حتى جهدهم الحصار ، وكان معهم في حصن كعب بن أسد بن حيي بن أخطب الذي حرضهم على نقض العهد ووعد كعبا أن يكون في حصنه يصيبه ما يصيبه اذا لم يصب المشركون من محمد شيئاً ، فوفى بما وعد ·

لما أيقنوا أن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم غير تاركهم حتى يناجزهم القتال ، تقدم اليهم كعب ابن أسد ،وقد رأوا أنه لابد من الحرب ، خيرهم بين ثلاثة : أحدها ـ الايمان بمحمد صلى الله تعالى عليه وسلم ، وقال في ذلك : نبايع الرجل ونصدقه فوالله لقد بين لكم أنه لنبي مرسل ، وأنه الذي تجدونه في كتابكم فتأمنون على أموالكم وأبنائكم ونسائكم ، قالوا لا نفارق حكم التوراة أبدا ، ولا نستبدل به غيره ·

والثانية : أن يقاتلوا منفردين عن الأولاد والنساء بعد فشلهم ، فرفضوا·

والثالثة : أن يصيبوا غرة من محمد يوم السبت اذ ربما لا يكون مستعداً لقتالهم ، لأنه ليعلم أنهم لا يقاتلون يوم السبت ·

رضوا أخيرا بالاستسلام ، ولكنهم لا يعرفون النتيجة ، فأرسلوا الى النبي صلى الله تعالى عليه وسلم أن يرسل اليهم أبا لبابة ، فلما رأوه قام اليه الرجال وجهش اليه النساء والصبيان يشكون في وجهه ، فرق لذلك ، ولما سألوه أترى أن ننزل عن حكم محمد ،قال نعم ، وأشار بيده الى حلقه بأنه الذبح ، قال أبو لبابة ، والله فما زالت قدماي عن مكانهما ، حتى عرفت اني قد خنت الله ورسوله صلى الله تعالى عليه وسلم ، ثم انطلق أبو لبابة على وجهه ، ولم يأت رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم حتى ارتبط في المسجد الى عمود من عمده ، وقال لا أبرح مكاني هذا ، حتى يتوب الله علي بما

صنعت وذلك هو الضمير المؤمن القوي،وقد استبطأه النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، ثم علم أمره •

ولنؤجل قصة أبي لبابة وتوبة الله تعالى الى ما بعد ما آل اليه أمر بني قريظة الذي استحقوه عدلا وصدقا ،فقد غدروا ، ونقضوا الميثاق ،وحاولوا آثمين ازالة دولة الاسلام ، ولكن قضى الله أمرا كان مفعولا •

نزولهم على حُكم سَعد بن مُعاذ :

٤٨٥ ــ نزلوا على حكم سعد بن معاذ ، وقد كان من الأوس من يطمع في أن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم سيجليهم عن المدينة ، كما فعل مع بني قينقاع ، وبني النضير ، مع تفاوت الجرائم التي وقعت من هؤلاء ، وأن الأولين لم يمالئوا على من جاؤوا لاقتلاع الاسلام من المدينة كما فعل هؤلاء ، والأولون لم يكونوا مقاتلين ، بل كانوا غادرين ناقضين للميثاق فقط ، فكان المنطق الاكتفاء بجلائهم ، اذ لا يبقون من غير ميثاق محترم •

أما بنو قريظة فقد نقضوا وقاتلوا، وهاجموا بيت النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، فوجب أن يعاملوا معاملة مقاتلين ، وبمثل ما عاملوا به المؤمنين، وبمثل ما كان ينتظر أن يعاملوا به المؤمنين ، لو كان الأمر قد تم للأحزاب كما يريدون •

نزلوا على حكم سعد بن معاذ الأوسي، وقد جيء به راكبا،اذ لم يكن يستطيع المسير للجرح الذي أصابه من السهم واثبته ، بل اثخنه ، وبعض قومه من الأوس قالوا له مشفقين على بني قريظة : يا أبا عمرو أحسن في مواليك ، فان رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، انما ولاك لتحسن فيهم ، فلما أكثروا عليه قال : « لقد آن بسعد ألا تأخذه في الله لومة لائم » •

عندما قابل النبي صلى الله تعالى عليه وسلم سعداً ، التفت الى أصحابه ، وقال : قوموا الى سيدكم ، فقاموا اليه، وقال الأنصار : ان رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ولاك أمر مواليك لتحكم فيهم ، فقال سعد عليكم بذلك عهد الله وميثاقه •• ثم بعد كلام أصدر الحكم ، وهذا نصه :

اني أحكم فيكم أن تقتل الرجال ،وتقسم الأمـــوال ، وتسبى الذراري والنساء ٠

هذا هو الحكم ، وقد أيده رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم بقـوله : « ولقد حكمت بحكم الله من فوق سبع سموات نفذ فيهم رسول الله صـلى الله تعالى عليه وسلم حكم معاذ وأثبت قبل التنفيذ أنه حكم الله تعالى فيهم ، فقتل الرجال الا بعضا قليلا أعطاهـم بعض الصحابة أمانا ليد سابقة قدموها لهم ٠

وقســم أموالهم غنيمة بين المسلمين، وبها تبين تقســيم الغنـائم ، وسبي النساء ٠

نظـرة في الحـكم :

٤٨٦ ــ لا شك أن الحكم شديد ،ولكنه عادل ، والنظر لا من ناحية أنه عادل ، ولكن : أما كان موضع للتخفيف، وتقول في ذلك ٠

انهم مقاتلون ، واستمرت لهم صفة المقاتلين الى آخر لحظة ، وعلي بن أبي طالب ، عندما تقدم لهم خاطبهـم على أنهم مقاتلون ، وقال رضي الله عنه ، وهو يهاجمهم : لأذوقن ماذاق حمزة ،ولأفتحن حصنهم ، فلما رأوا العزيمة في علي ومعه الزبير ، وأنهم مغلوبون لا محالة ، وطلبوا أن ينزلوا على حكم سعد بن معاذ ، منهم ارتضوا ما ينفــذفيهم قبل أن ينزل الحكم فيهم ، فهـم الذين نفذوا الحكم فيهم اذ ارتضـــوا المحكم فيهم ، ومن المقـررات القانونية أن من ارتضى محكمين ليحكموا فيــه ،فقد فوض لهم ، ولهم بهـذا التفويض أن يحكموا بما يرونه عدلا ولقد حكم،وهو الذي ذهب اليهم ليحول بينهم وبين تنفيذ نقض الميثاق فردوه رداً نكراً ،وعرف أنهم يريدون اقتلاع الاســلام ، وقتل أهله ٠

ولقد خضع المدبرون منهم لحكمه ،وأدركوا أنه بما قـدمت أيديهم ، حتى لقد روي أن حيي بن أخطب عندما قدم للقصاص : قال لرسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، والله مالمت نفسي في عداوتك ، ولكن من يخذل الله يخذله ، ثم أقبل على الناس ، فقال : أيها الناس، انه لا بأس بأمر الله كتاب وقـدر ، وملحمة كتبها ، ثم تقدم لضرب عنقه٠

وهكذا كانوا يحسـون بأن ما نزل بهم قصاص ، وما للناس يقولون كان على النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، أن يشفق عليهم ، ومع ذلك اذا لم يقتل رجالهم ، فماذا يصنع معهم ، أيعفـوعنهـم ، ولو تمكنـوا لقتلوه وقتلوا الاسلام ،وشردوا أهـل المدينة ، انالعفو عن الجاني ظـلم في ذاته ، أم يخرجهم من أرضهـم ويجـردهم منأموالهم ، وذلك لا يخلو من عفو ، وقد قلنا انه في هذا المقام ظلم ، ثم ماذايكون اذا خرجوا ، وفيهـم أكثر من سبعمائة مقاتل ، ألا يكـونون حـرباعليه ، ويتجمعوا يؤلبون يهود الجزيرة العربية ، ويكون قـد أشفق عليهـم لينقضوا عليه ان واتتهم الفرصة ، كمن يشفق على اللصوص ليجمعـواأمرهـم ، ويستلبـوه ما يعتز به ، ويأخذوا ما عنده ·

انه لم يكن الا القتل ، كفاء ما صنعوا ، وهم الذين قتلوا أنفسهم بما دبروا وبما فعلوا ، قد يقال انهم قد صاروأسرى ، والأسرى لا يقتلون ، ونقـول في الجواب عن ذلك :

ان المسلمين والنبي صلى الله تعالىعليه وسلم لم يشدوا الوثاق ، لأنهـم منهيون عن ذلك بحكـم آية الأسرى اذيقول سبحانه وتعالى :

﴿ مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنْيَا وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلْـَٔاخِرَةَ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٦٧﴾ ﴾ (١)

فما كان للنبي صلى الله تعـالى عليهوسلم أن يشد الوثاق وهو لم يثخن فيهم جراحا ، ولم ينل منهم نيلا ، بل انهمهم الذين ارتضوا حكما معيناً ، والقتال من جانب المسلمين قائم ، لم تعد السيوف الى أجفانها ولا القلوب الى جنوبها·

بل ان قتالهم امتداد لقتال الأحزاب الذين مالؤوهم لم ينته ، واذا كـان المشركون قد ألقى الله في قلوبهـم الرعب ، ففروا ، فأولئك قد بقوا ،وكان حقاً عليهم أن يقاتلوا فما قاتلوا ·

وقد يقول قائل ان النبيين رحماء ،ونقول لهم ان العدالة رحمة والقصاص حياة ، ورحمة الاسـلام دفع الظلم ،واقلاعه من أساسه ، والنبي صلى الله

---

(١) الأنفال

تعالى عليه وسلم قال : أنا نبي المرحمة، وأنا نبي الملحمة ، والله سبحانه وتعالى عزيز حكيم •

أحكام شرعية :

٤٨٧ ـ قد كانت أحكام شرعية خاصة بالصلاة قد ثبتت عملياً في غزوة الأحزاب وبني قريظة ، كما كانت أحكام شرعية قد ثبتت في توزيع الغنائم بالنسبة لتقسيم أموال بني قريظة ، ولعلها أكبر أموال وزعت من الغنائم الى هذا الوقت من الغزوات •

وبالنسبة للصلاة في غزوة الخندق عندما هوجمت بيوت النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، والله مالمت نفسي في الى ما بعد الغروب ، فجمع صلى الله تعالى عليه وسلم بين العصر والمغرب جمع تأخير •

وقد قال الذين اتبعوا النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ان عذر الحرب مسوغ للجمع ، وكثيرون من الفقهاء الذين اتبعوا ذلك جوزوا الجمع في كل عذر ، وتكون الصلاة المؤخرة أداء لا قضاء •

وفي غزوة بني قريظة ، كان الجمع بين العصر والمغرب ، ذلك أن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم في دعوتهم الى اللحاق ببني قريظة قال ألا لا تصلوا العصر الا في بني قريظة ، فقال بعضهم عزم علينا ألا نصلى حتى نأتي بني قريظة ، فانما نحن في عزيمة رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، فليس علينا اثم ، وأخروا الى وقت المساء فجمعوا بين العصر والمغرب في وقت المغرب ، وطائفة من الناس صلوا احتسابا •

ولم يلم أحدا من الطائفتين ، وهذا يدل على جواز الجمع جمع تأخير ، ويدل أيضاً على أن الخطأ مرفوع عنه الاثم ، كما قال صلى الله تعالى عليه وسلم : رفع عن أمتى الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه ، وكان ذلك استجابة لدعاء المؤمنين الذي حكاه الله تعالى عنهم بقوله تعالى :

﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا ۚ رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَآ إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِنَا ۚ رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦ ۖ وَٱعْفُ عَنَّا وَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَآ ۚ أَنتَ مَوْلَىٰنَا فَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٨٦﴾﴾ (١)

ولا شك أن احدى الطائفتين مخطئة فيما عملت ، ولكنها اجتهدت ٠

توزيع الغنائم :

٤٨٨ ــ كان ما استولى عليه في بني النضير أموالا ثابتة ، وما غنم في الوقائع السابقة ، لم يكن كثيرا ، أما ماكان في غزوة بني قريظة فكان أموالا كثيرة بالنسبة لما سبقها ، وخصوصا في الأموال المنقولة ، ولذلك كان التوزيع فيها تطبيقاً للنص القرآني :

﴿ ۞ وَٱعْلَمُوٓا أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ ﴾ (٢)

وقد قال ابن اسحاق في ذلك ما نصه: قسم أموال بني قريظة ونساءهم ، وأبناءهم على المسلمين ، وأعلم في ذلك سهمان الخيل وسهمان الرجال ، وأخرج منها الخمس (أي خمس الله ورسوله وذي القربى) وكان (من بعد الخمس) في أربعة الأخماس ، فكان للفارس ثلاثة أسهم للفرس سهمان ، ولفارسه سهم ، وللراجل من ليس له فرس سهم ، وكانت الخيل يوم بني قريظة ستاً وثلاثين ، وكان أول فيء وقع فيه السهمان ، وأخرج منهما الخمس ،فعلى سنتها وما مضى من رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم وقعت المقاسم ،ومضت السنة في المغازي ٠

ونقول ان هذا التقسيم لم يكن أول تقسيم بالأسهم ، فقد سبق أن اخترنا ما قرره الحافظ ابن كثير في تاريخه أن آية :

---

(١) البقرة (٢) الأنفال

﴿ وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ ﴾ (١)

قد نزلت قبل تقسيم أنفال بدر ،وان علي بن أبي طالب نال من خمسه راحلتين •

ولكن يظهر أن الجديد هو ما قرره النبي صلى الله تعالى عليه وسلم من أن يكون للفارس ثلاثة أسهم اثنان للفرس، وواحد للفارس وأن لمن لا فرس له سهما ، ولم يكن ذلك التقسيم في أنفال بدر لأنه لم يكن فرسان غنمت بل كان هناك للمسلمين فرس واحد ، قيل انها للزبير بن العوام رضي الله تعالى عنه ، هذا ما يظهر لي ، والله سبحانه وتعالى أعلم •

تنبيهات :

٤٨٩ ـ أولها : أن أبا رافع سلام بن أبي الحقيق اليهودي كان من أشد اليهود تحريضا على النبي صلى الله تعالى عليه وسلم فهو ممن جمع جموع قريش وغطفان ، وكان يحرضهم ، حتى كانت غزوة الأحزاب ، وكان ما كان من بني قريظة ، ويظهر أنه لم يفعل ما فعل حيي بن أخطب من اقحام نفسه مع بني قريظة لعهد له مع كعب بن الأسد من أن يكون معه في حصنه ان انتصروا أو هزموا •

ولكن عين الحق لا تغفل عن ذلك الذي حرض العناصر المعادية للنبي صلى الله تعالى عليه وسلم في كل أرض العرب ، وانه على استعداد لمثلها ، فكان الحذر الذي أمر الله به في قوله تعالى :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا خُذُوا حِذْرَكُمْ فَانفِرُوا ثُبَاتٍ أَوِ انفِرُوا جَمِيعًا ﴿٧١﴾ ﴾ (٢)

يوجب على النبي صلى الله تعالى عليه وسلم أن يتولاه قبل أن يعيد افساده وتحريضه لما بداه ، فارسل اليه من المؤمنين من قتله في حصنه الذي يقيم فيه بخيبر •

---

(١) الأنفال ٤١ (٢) النساء

الثاني : أن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم كان يميز بين الرجال والصبيان في بني قريظة ، ليتبين من يستحق القتل ، ومن أعفى منه من الذراري تنفيذا لحكم سعد بن معاذ رضي الله تبارك وتعالى عنه ، كان يميز بخروج شعر الفرج ، فمن نبت له ذلك الشعر قتل ، ومن لم ينبت له لا يقتل، روى عن ابن عطية القرظي قال : كان رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم قد أمر أن يقتل من بني قريظة كل من أنبت منهم وكنت غلاما فوجدني لم أنبت فخلوا سبيلى ٠

وروى مثله أهل السنن الأربعة عن طريق آخر ٠

الثالث : قوة الضمير في أبي لبابة، لقد سأله القرظيون أينزلون على حكم محمد صلى الله تعالى عليه وسلم ،فأشار الى عنقه بأنه الذبح ، وما ان قالها ، حتى استيقظت النفس اللوامة ، وعلم أنه خان رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، اذ كشف أمرا لم يأذن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم بكشفه ، وما كان له ذلك ، لذلك انطلق هائما على وجهه ، ولم يأت رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، وارتبط بعمود من عمد المسجد ، وقال : لا أبرح مكاني هذا ، حتى يتوب الله علي مما صنعت، وعاهدت الله تعالى ألا أطأ أرض بني قريظة أبدا ولا أرى في بلد خنت فيه الله ورسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم أبدأ ٠

ولما استبطأه رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، وعلم أمره قال الرسول الكريم : أما والله لو جاءني لاستغفرت له ، فأما اذ قد فعل ما فعل ، فما أنا بالذي أطلقه من مكانه ، حتى يتوب الله تعالى عليه وان التوبة النصوح تجب ما قبلها ، وعلم النبي صلى الله تعالى عليه وسلم بوحي من ربه أنه تاب على أبي لبابة ، وأبلغ ذلك الى أم سلمة، اذ كان في بيتها وأذن لها أن تبشره به، اذ قالت أفلا أبشره يا رسول الله ، فقال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، بلى ان شئت ، فقامت على باب حجرتها ،ونادت أبا لبابة في المسجد : فقالت يا أبا لبابة أبشر فقد تاب الله تعالى عليك ، فثار الناس ليطلقوه ٠ فقال لا، حتى يكون رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم هو الذي يطلقني ، فلما مر عليه رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم خارجا الى صلاة الصبح أطلقه ٠

وقد أقام أبو لبابة رابطا نفسه بالجذع ست ليال تأتيه امرأته في وقت كل صلاة ، فتحله للصلاة ثم يعود فيربط بالجذع ، وقالوا انه نزل فيه قوله تعالى:

﴿ وَءَاخَرُونَ ٱعْتَرَفُوا۟ بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا۟ عَمَلًا صَٰلِحًا وَءَاخَرَ سَيِّئًا عَسَى ٱللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٠٢﴾ ﴾ (١)

وهكذا حكم الضمير ، أو النفس اللوامة تحس بذنوبها لتتوب ، وترجو المغفرة فتذل لله سبحانه وتعالى ، ولقدقال الصوفية « ان معصية ، أورثت ذلا وانكسارا خير من طاعة ، أورثت عزاوافتخارا » وكذلك كانت نفس أبي لبابة الذي ما كذب ، ولكنه ظن أنه خان رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، اذ أخبر بالحكم قبل صدوره ،وبالأمر قبل ظهوره .

رابعها : أن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم بعث بسبايا بني قريظة الى نجد فابتاع بها خيلا وسلاحا ، وذلك ليكون منها قوة للمسلمين ، واعداد للعدة لقوله تعالى :

﴿ وَأَعِدُّوا۟ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ ﴾ (٢)

وقد اختار صلى الله تعالى عليه وسلم من نسائهم ريحانة بنت عمرو احدى نساء بني قريظة لنفسه وأراد لها الاسلام فتعصت عنه ، وأبت أن تدخل في الاسلام ، زاعمة أنها تبقى على اليهودية ، ولكن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم لم يكرهها ، ولم يصنع ما قد يكون اغراء مانعا من اختيار سليم حر ، ولكنها جاءت اليه من بعد ذلك طائعة فأسلمت ، فسر النبي صلى الله تعالى عليه وسلم من اسلامها ، وقد عرض عليها صلى الله تعالى عليه وسلم أن يعتقها ، ثم يتزوج منها زواج الحرة المختارة ، فاختارت أن تستمر على رقها ، ليكون أسهل عليها ، اذ لا تتحمل واجبات الزوجية ، فلم تزل عنده الى أن توفى صلى الله تعالى عليه وسلم ، ولم تذكر بين أزواجه صلى الله تعالى عليه وسلم .

السبي :

٤٩٠ ـ وان قصة سبي نساء بني قريظة تدل على أن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم قد أنشأ الرق على أعدائه في ميدان القتال ، لتكون المعاملة بالمثل ، اذ لو أسروا من المسلمين لاسترقوا ،والله تعالى يقول :

﴿ فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱعْتَدُوا۟ عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿١٩٤﴾ ﴾ (٣)

---

(١) التوبة (٢) الأنفال ٦٠ (٣) البقرة

وان المشركين كانوا يسترقون من غير قتال ، فقد ذكرنا أنهم أخذوا بعض المسلمين غدرا ، وباعوهم في مكة ،وسامهم أهل مكة سوء العذاب ، فلا تثريب على النبي صلى الله تعالى عليه وسلم اذا أخذ من بني قريظة سبايا ، وباعهن بخيل من نجد .

وان هذا يدل على أن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم بالنسبة للرق عامل بني قريظة ، ومن وراءهم من المشركين بمثل ما كانوا يعاملون به المؤمنين ، حتى في غير حرب ، ولكن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم عاملهم بالمثل في حرب كان الاعتداء من جانبهم ، فهم اعتدوا مرتين ، الأولى بالخيانة وتتبع عورات المؤمنين ،والثانية بأنهم هم والمشركون كانوا يسترقون المؤمنين لو تمكنوا منهم ، وقد تمكن منهم القرشيون فباعوهم وعذبوهم ، كما ذكرنا في يوم الرجيع .

الإيماء بالصلاة للضرورة :

٤٩١ — أجيز الايماء بالصلاة للضرورة في حال المنازلة اذا خيف فوات الصلاة ، وقد أخرنا الكلام في هذا عن الكلام في جمع الصلاتين جمع تأخير ، لأن هذا يتعلق برجل أراد أن يجمع الناس من عرفة ليغزوا النبي صلى الله تعالى عليه وسلم في المدينة ،وهو خالد بن سفيان بن نبيح الهذلي ، وكان ذلك عقب غزوة بني قريظة ، وقد تأكد النبي صلى الله تعالى عليه وسلم أنه قد اعتزم الشر ، وأراد القتال ،والنبي صلى الله تعالى عليه وسلم كان يعمل على حسم الشر قبل وقوعه ، فاذا كان رجل يجمع ويحرض ، وأخذ ينفذ ما شرع فيه يستأصله النبي صلى الله تعالى عليه وسلم قبل أن ينفذ شره ، لأن الحذر يوجب ذلك ، ولأنه ان يتركه جمع الجموع ، وكان القتل في الجمع أكثر عدداً من قتل واحد ، ولذلك كان يؤثر النبي صلى الله تعالى عليه وسلم قتل رجل على حرب مع رجال لحماية الأنفس من المحاربين ولو كانوا مشركين ، فعسى أن يخرج الله تعالى الكفر من قلوبهم ، ويستبدل به الايمان .

أرسل النبي صلى الله تعالى عليه وسلم الى خالد بن سفيان عبد الله بن أنيس وقال له : « انه قد بلغني أن خالد بن سفيان بن نبيح الهذلي يجمع لي الناس ليغزوني ، وهو بعرفه » .

خرج بن أنيس متوشحا سيفه ، فأقبل نحوه ، وخشي أن يكون بينهما مجاوبة تشغله عن الصلاة ، والصلاة لايسقط فرضها ، فصلى وهو يمشى ، يومىء بالركوع والسجود حتى لقيه، فقال له خالد من الرجل ؟ قال رجل من العرب سمع بك وبجمعك لهذا الرجل، فجاءك لذلك ، قال أجل أنا في ذلك وسار معه قليلا ، حتى استمكن منه فقتله .

ومن هذا نرى جواز الصلاة بالايماء في الحرب للضرورة ، اذ أن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم قد أقر ما صنع في عبادته في الصلاة ، وأقر بما قام به من جهاد .

وان ذلك لا يعد القتل فيه بطريق الغدر أو الغيلة ، لأنه انتدب للقتال ، فيجب أن يتوقع أن ينزل به مثل ما يدبر ، ولأن قتله نجاة لكثيرين ، والضرر القليل يحتمل في سبيل دفع ضرر أكبر، وان هذا يدل على أنه بعد غزوة الخندق كانت نفوس تحاول التمرد على حكم الواقع تزعم أنها تستطيع القضاء على المسلمين ، وقد صارت الدولة بأيديهم يغزون ، ولا يغزوهم أحد .

مدة غزوة الخندق :

٤٩٢ ــ وقد قطع النبي صلى الله تعالى عليه وسلم في غزوة الخندق ، وبني قريظة بقية شوال ، وذي القعدة وبعضا من ذي الحجة .

وبعد الخندق وما تبعه تزوج النبي صلى الله تعالى عليه وسلم أم حبيبة بنت أبي سفيان قائد الشرك ، ثم تزوج بنت جحش .

ولقد كان من قبل تزوج سودة بنت زمعة ، وعائشة بنت الصديق ، وتزوج بعد بدر حفصة بنت صاحبه ووزيره عمر بن الخطاب ، وتزوج بعد أحد أم سلمة، ثم تزوج بعد غزوة بني المصطلق جويرية بنت الحارث ، ثم من بعد خيبر صفية بنت حيي بن أخطب .

ونترك الكلام في أزواج النبي صلى الله تعالى عليه وسلم الى الكلام في باب خاص بذلك وأسبابه وحكمته .

زواج النبي صلى الله عليه وسلم بأم المؤمنين زينب

٤٩٣ ـ نزل في السورة التي تسمت باسم غزوة الأحزاب أمران ، تحريم التبني ، وتطبيق التحريم في زواج النبي صلى الله تعالى عليه وسلم بأم المؤمنين زينب بنت جحش ، ولذلك أوجبنا على أنفسنا الكلام في زواجها في هذا المقام ، لأن هذا الزواج كان تطبيقا لحكم شرعي ، وأعقب زواجها حكم شرعي ، فحق علينا بيان الأحوال التي أحاطت بزواجها .

نزل تحريم التبني في أول سورة الأحزاب ، اذ قال الله تبارك وتعالى :

﴿ مَّا جَعَلَ ٱللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِى جَوْفِهِۦ ۚ وَمَا جَعَلَ أَزْوَٰجَكُمُ ٱلَّٰٓـِٔى تُظَٰهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَٰتِكُمْ ۚ وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَآءَكُمْ أَبْنَآءَكُمْ ۚ ذَٰلِكُمْ قَوْلُكُم بِأَفْوَٰهِكُمْ ۖ وَٱللَّهُ يَقُولُ ٱلْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِى ٱلسَّبِيلَ ﴿٤﴾ ٱدْعُوهُمْ لِءَابَآئِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ ٱللَّهِ ۚ فَإِن لَّمْ تَعْلَمُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ فَإِخْوَٰنُكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَمَوَٰلِيكُمْ ۚ ﴾ (١)

كان ذلك تحريماً قاطعاً ، لا ريب فيه ، ولذلك جاز للرجل أن يتزوج امرأة من يتبناه لأنه ليس ابنه ، ووصف زوجة الابن التي يحرم الزواج منها بأن يكون ابنه من صلبه ، لا أن يكون ابناً بالادعاء ، ولذلك قال الله تعالى في ذلك في باب المحرمات :

﴿ وَحَلَٰٓئِلُ أَبْنَآئِكُمُ ٱلَّذِينَ مِنْ أَصْلَٰبِكُمْ وَأَن تَجْمَعُوا۟ بَيْنَ ٱلْأُخْتَيْنِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٢٣﴾ ﴾ (٢)

ذلك لأن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، يقرر حكم الاسلام بأن تكون الأسرة مترابطة بالأرحام لتكون قوية ، ولا يكون فيها دخيل ليس من رحمها ، ولا من صلبها ، ولا من دمها ، لأنه يفسدها ، ويحرم ذا الحقوق من حقوقه ، وينافي القاعدة المقررة في القرآن بقوله تعالى :

﴿ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ إِلَّآ أَن تَفْعَلُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِكُم مَّعْرُوفًا ۚ كَانَ ذَٰلِكَ فِى ٱلْكِتَٰبِ مَسْطُورًا ﴿٦﴾ ﴾ (٣)

(١) (٢) (٣) الأحزاب

ولقد كان التبني شائعاً في البلاد العربية مأخوذاً من القانون الروماني ، وقد ألحق النبي صلى الله تعالى عليـه وسلم زيد بن حارثة به بناء على ذلك العرف المأخوذ من قانون الرومان ، وذلك قبل البعث المحمدي ، وقبل نزول الوحي على النبي صـلى الله تعالى عليه وسلم ٠

ذلك أن زيداً هذا كان عبدا للنبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، فعثر عليه أهله عنده صلى الله تعالى عليه وسلم ، وأرادوا أن يفتدوا رقه بثمنه ، فقال محمد صلى الله تعالى عليه وسلم هو لكم ان اختاركم ، فأرادوا أخذه ، فاختار أن يبقى مع النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، فأعتقه النبي صـلى الله تعالى عليه وسلم ، وألحقه به قبل البعثـة اكراما له ، كما كان العرف في البلاد العربية ، ولم يعد ابن حارثة فكـان ينادى زيد بن محمد ٠

وقد تزوجته القـرشية زينب بنت جحش ، وهي نسيبة بين العرب ، على أنه قرشي ، وأنه أعظم العرب وأوسطهم نسبا ، وهو من أنفسهم ، كما قـال الله تعالى :

﴿ لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٨﴾ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُلْ حَسْبِىَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ ۖ وَهُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴿١٢٩﴾ ﴾ (١)

على قراءة فتح الفاء ٠

فلما نزلت الآيات التي تلوناهـا بتحريم التبني ، ونفي الأدعياء ، تململت بحياتها مع زيد اذ أنه لم يعد ابن محمد ، بل أصبح الأمر الحقيقي فيـه أنه ابن حارثة ٠

شكا الزوج من تعالي زينب عليـه بنسبها ، فكان النبي صلى الله تعـالى عليه وسلم يقول له أمسـك عليـك زوجك ٠ واتق الله ٠

وكان الله تعالى قد أمر نبيه محمداً صلى الله تعالى عليه وسلم بالا يمنـع زيداً من طلاقها لأن الله تعـالى قـد قضى أمراً :

﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ۗ ﴾ (٢)

---

(١) التوبة (٢) الأحزاب

قضى الله سبحـــانه أن يطلق زيدزينب ، واذا انتهت العدة تزوجها النبي صلى الله تعالى عليه وسلم بأمـر الله ،ليكون ذلك تطبيقاً عملياً لمنع التبني ، وليضرب محمد بذلك الأمثال على اهمال التبني ونفيه نفياً مؤكداً بالعمل ·

تزوجها النبي صلى الله تعالى عليـهوسلم تنفيذاً لأمر ربه ولكيلا يكـــون حرج في أزواج زوجات أدعيائهم ·

ولم يكن زواجه عليـــه الســـلامشهـــوة أو رغبـــة الا أن تكـــون استجابة لأمر الله تعالى ، وكذبت الاسرائيليات التي أدخلت على كبار المؤرخين كابن جرير الطبرى الذي تولى كبر اذاعة هذا الكذب الاسرائيلي والنصراني وكذب أولئك الكتاب الأوربيون الذينراحوا يرجونها آثمين ، وان كانـــوا لا يعرفون الاثم ، وكذب الذين يقلدونهم تقليداً أعمى ، ويحتذون حذوهـم كحذوك النعل بالنعل ·

وان الآيات في هذا المقام صريحة بأمر الله تعالى بالزواج ، وصريحة في أن ذلك لكيلا يكون على المؤمنين حرج فيأزواج أوليائهم اذا قضوا منهن وطراً ، وصريحة في أن النبي صلى الله تعـالىعليه وسلم ليس أباً لأحد من رجالهم ، صريحة في كل ذلك ، ومع ذلك كـانالتقليد وترويج الكذب لهمـا الأثر ، ففسد الفهم ، وكانت الآفة في نفوسهموفهمهم ، لا في الوقائع ذاتها ·

ولنتل الآية ، وهي توضح الحقيقة،وتكذب الكذابين ، والذين ايف تفكيرهم بالكذب الرائج ، قال الله تعالى :

﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ۗ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا مُّبِينًا ﴿٣٦﴾ وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِىٓ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَٱتَّقِ ٱللَّهَ وَتُخْفِى فِى نَفْسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَىٰهُ ۖ ﴾ (١)

---

(١) الأحزاب

والذي أخفاه النبي صلى الله تعالى عليه وسلم هو أمر الله تعالى له بالزواج منها بعد طلاقها ، وأن الله تعالى قدر له أن يطلقها ، وهذا هو الذي أبداه فلا حب ولا عشق ، والذي كان يخشاه من الناس أن يصدعهم بالزواج من امرأة دعيه ، وذلك أمر غير مألوف عندهم ،وكان يجب أن يخشى الله تعالى ولا يخشى الناس ، لأن ارضاء الناس بغير الحق لا يجوز من داعية الى الحق صادع به ٠

ثم يقول سبحانه وتعالت كلماته في الأمر الذي أبداه :

﴿ فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَـٰكَهَا لِكَىْ لَا يَكُونَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِىٓ أَزْوَٰجِ أَدْعِيَآئِهِمْ إِذَا قَضَوْا۟ مِنْهُنَّ وَطَرًا ۚ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ مَفْعُولًا ﴿٣٧﴾ ﴾ (١)

ولقد بين سبحانه من بعد ذلك أن الزواج بأمره سبحانه ، وأنه ليس على النبي من حرج في تنفيذ أمر الله تعالى همس الناس ، أو صمتوا فقال تعالت كلماته :

﴿ مَّا كَانَ عَلَى ٱلنَّبِىِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ ٱللَّهُ لَهُۥ ۖ سُنَّةَ ٱللَّهِ فِى ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلُ ۚ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا ﴿٣٨﴾ ٱلَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَـٰلَـٰتِ ٱللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُۥ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا ٱللَّهَ ۗ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبًا ﴿٣٩﴾ مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَـٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا ﴿٤٠﴾ ﴾ (٢)

وبهذه النصوص ثبت تحريم التبني ، وعدم الاعتراف به في الاسلام ، وطبق ذلك على سيد الأنبياء والمرسلين والعف الكريم محمد صلى الله تعالى عليه وسلم ، فلعن الله الأفاكين في هذا الزمان الذين لا يفكرون ، ويقصدون الى الأمر المختلف ،ولا يحاولون أن يتعرفوا المعنى المؤتلف ٠

منع دخول بيوت النبي صلى الله عليه وسلم من غير استئذان :

٤٩٤ ـ كان منزل النبي صلى الله تعالى عليه وسلم بيتا للمؤمنين أجمعين ، وخصوصا أنه كان على مقربة من المسجد ، بل انه متصل به ، وكان أقرب البيوت اليه ، بيت عائشة رضي الله عنها ٠

---

(١) و (٢) الأحزاب

ويظهر أن المسلمين ما كانوا يجدون حرجا في الدخول الى منزله عليه الصلاة والسلام ، والمؤمنون الذين أشربوا آداب الاسلام ، وهذب الاسلام طباعهم يستأذنون ، ولا يدخلون لغير موجب ، ولا يتخذون فيه مجلساً ، فلما كان ناس لم يتحلوا بهذا النوع من التهذيب الاسلامي ، كان لابد من بيان ينهى ، وقد كان ، وسمى علماء الحديث أن الآيات التي بينت ذلك النهي آيات نزول الحجاب ، بأن لا يدخل أحد الا باذن ، وألا يدخل بيت النبي صلى الله تعالى عليه وسلم مستأنساً لحديث ٠

ونزل ذلك الحجاب في ليلة زفاف زينب بنت جحش الصالحة المعتصمة بدينها للنبي صلى الله تعالى عليه وسلم، فقد روي عن أنس بن مالك أنه لما تزوج النبي صلى الله تعالى عليه وسلم زينب بنت جحش ، دعا القوم فطعموا وجلسوا يتحدثون ، فاذا هو يتهيأ للقيام فلم يتهيؤوا ، فلما رأي ذلك قام فقاموا ، وقعد ثلاثة نفر ، وجاء النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ليدخل ، فاذا القوم جلوس ، ثم انهم قاموا ، فأخبرت النبي صلى الله تعالى عليه وسلم أنهم انطلقوا ٠

روى الخبر ، البخاري ومسلم ٠

وخلاصته كما ترى أن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم أولم لهم بوليمة ، فلما طعموا لم ينتشروا ، فتهيأ للقيام فلم يقوموا ثم قام فعلا ، فقام من قام ، وبقي ثلاثة لم يشعروا بما ينبغي فبقوا ، فدخل صلى الله تعالى عليه وسلم الى أهله وهم جلوس ، ثم انطلقوا بعد٠

وروى البخاري حديثا آخر فى هذا المعنى عن أنس خادم رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، ولكنه يثبت أن الدعوة كانت عامة وواسعة ، يقول أنس : بنى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم بزينب بنت جحش ، فأرسلت على الطعام داعياً ، فيجيء قوم، فيأكلون ويخرجون ويجيء القوم فيأكلون ويخرجون ، فدعوت حتى ما أجد أحداً، أدعوه ، فقلت يا نبي الله ما أجد أحداً أدعوه ، قال ارفعوا طعامكم ، وبقي ثلاثة رهط يتحدثون في البيت ، فخرج النبي صلى الله تعالى عليه وسلم فانطلق الى حجرة عائشة فقال السلام عليكم أهل البيت، ورحمة الله وبركاته، قالت وعليك السلام ورحمة الله

وبركاته ، كيف وجدت أهلك ، بارك الله لك ، فتقرى حجر نسائه كلهن ، ويقول لهن ، كما يقول لعائشة ، ويقلن له ، كما قالت عائشة ، ثم رجع فاذا رهط ثلاثة في البيت يتحدثون وكان النبي صلى الله تعالى عليه وسلم شديد الحياء ، والروايات متلاقية ، وان كان في بعضها زيادة تفصيل .

كان هذا سبباً مقارباً لنزول آية منع دخول بيت النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، فنزل قوله تعالى :

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَدْخُلُواْ بُيُوتَ ٱلنَّبِيِّ إِلَّآ أَن يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَىٰ طَعَامٍ غَيْرَ نَـٰظِرِينَ إِنَىٰهُ وَلَـٰكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَٱدْخُلُواْ فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَٱنتَشِرُواْ وَلَا مُسْتَـْٔنِسِينَ لِحَدِيثٍ ۚ إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ يُؤْذِى ٱلنَّبِىَّ فَيَسْتَحْىِۦ مِنكُمْ ۖ وَٱللَّهُ لَا يَسْتَحْىِۦ مِنَ ٱلْحَقِّ ۚ وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَـٰعًا فَسْـَٔلُوهُنَّ مِن وَرَآءِ حِجَابٍ ۚ ذَٰلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ ۚ وَمَا كَانَ لَكُمْ أَن تُؤْذُواْ رَسُولَ ٱللَّهِ وَلَآ أَن تَنكِحُوٓاْ أَزْوَٰجَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦٓ أَبَدًا ۚ إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمًا ﴿٥٣﴾ إِن تُبْدُواْ شَيْـًٔا أَوْ تُخْفُوهُ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا ﴿٥٤﴾ لَّا جُنَاحَ عَلَيْهِنَّ فِىٓ ءَابَآئِهِنَّ وَلَآ أَبْنَآئِهِنَّ وَلَآ إِخْوَٰنِهِنَّ وَلَآ أَبْنَآءِ إِخْوَٰنِهِنَّ وَلَآ أَبْنَآءِ أَخَوَٰتِهِنَّ وَلَا نِسَآئِهِنَّ وَلَا مَا مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُهُنَّ ۗ وَٱتَّقِينَ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدًا ﴿٥٥﴾ ﴾ (١)

هذا تعليم من الله تعالى لقوم يحتاجون الى هذا التعليم وهو تهذيب وتأديب، ليكون المجتمع مبنياً على مودة ورحمة ،وألا يكون ايذاء نفسى ، يكتبه الحياء عند أهل الحياء .

وجوب الاستئذان عامة :

٤٩٥ ـ أوجب الاسلام بنص القرآن ألا يدخل أحد بيتا حتى يستأنس بأهله ويسلم عليهم ويستأذن منهم ، لتربية النفوس ، ولتكون الثقة كاملة بين الناس فلا يرتاب مرتاب ، ولا يشك شاك ، وقد قال في ذلك :

(١) الأحزاب

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَدْخُلُوا۟ بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّىٰ تَسْتَأْنِسُوا۟ وَتُسَلِّمُوا۟ عَلَىٰٓ
أَهْلِهَا ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٢٧﴾ فَإِن لَّمْ تَجِدُوا۟ فِيهَآ أَحَدًا فَلَا تَدْخُلُوهَا حَتَّىٰ
يُؤْذَنَ لَكُمْ ۖ وَإِن قِيلَ لَكُمُ ٱرْجِعُوا۟ فَٱرْجِعُوا۟ ۖ هُوَ أَزْكَىٰ لَكُمْ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿٢٨﴾
لَّيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَدْخُلُوا۟ بُيُوتًا غَيْرَ مَسْكُونَةٍ فِيهَا مَتَـٰعٌ لَّكُمْ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ
وَمَا تَكْتُمُونَ ﴿٢٩﴾ ﴾ (١)

وبين سبحانه حكم من يكونون فيداخل البيت من الخدم ، ومن ملكت أيمانهم فأوجب الاستئذان في العشية،وقبل صلاة الفجر ، ومن بعد الظهرة، فقال تعالى :

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِيَسْتَـْٔذِنكُمُ ٱلَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُكُمْ وَٱلَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا۟ ٱلْحُلُمَ
مِنكُمْ ثَلَـٰثَ مَرَّٰتٍ ۚ مِّن قَبْلِ صَلَوٰةِ ٱلْفَجْرِ وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُم مِّنَ ٱلظَّهِيرَةِ وَمِنۢ بَعْدِ صَلَوٰةِ
ٱلْعِشَآءِ ۚ ثَلَـٰثُ عَوْرَٰتٍ لَّكُمْ ۚ لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَلَا عَلَيْهِمْ جُنَاحٌۢ بَعْدَهُنَّ ۚ طَوَّٰفُونَ عَلَيْكُم بَعْضُكُمْ عَلَىٰ
بَعْضٍ ۚ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْـَٔايَـٰتِ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٥٨﴾ وَإِذَا بَلَغَ ٱلْأَطْفَـٰلُ مِنكُمُ ٱلْحُلُمَ
فَلْيَسْتَـْٔذِنُوا۟ كَمَا ٱسْتَـْٔذَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَـٰتِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٥٩﴾
وَٱلْقَوَٰعِدُ مِنَ ٱلنِّسَآءِ ٱلَّـٰتِى لَا يَرْجُونَ نِكَاحًا فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُنَاحٌ أَن يَضَعْنَ ثِيَابَهُنَّ غَيْرَ
مُتَبَرِّجَـٰتٍۭ بِزِينَةٍ ۖ وَأَن يَسْتَعْفِفْنَ خَيْرٌ لَّهُنَّ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٦٠﴾ ﴾ (٢)

---

(١) (٢) النور

غـزوة بـني لحيـان

٤٩٦ ــ بنو لحيان هم الذين جاؤوا الى النبي صلى الله تعالى عليه وسلم يطلبون اليه أن يرسل اليهم من يعلمهم الاسلام ويحفظهم القرآن ، فأرسل اليهم ستة من أصحابه المؤمنين الفقهاء في الاسلام ، وتبين أنهم أرادوا أن يقدموهم لقريش أسرى يسترقونهم ، فقتلوا بعضهم ، وباعوا الباقين بمكة فعذبهم المشركون ، ثم قتلوهم أفجر قتلة ، اذ قتلوهم صلباً .

كان لابد أن يؤدبهم رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم على سوء ما فعلوا ، وليس ذلك انتقاماً كما يتوهم من لايستطيعون تمحيص الحقائق ، انما هو قصاص أولا ، ولابد أن يتولى القصاص ولي الذين قتلوا ، ووليهم الله ورسوله والمؤمنون . كما قال تعالى:

﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُمْ رَٰكِعُونَ ﴿٥٥﴾﴾ (١)

ثم لابد من تأديبهم ، بانزال أشد النكال بهم ، لأنهم خدعوا في أمر الدعوة ، فلابد أن ينزل بهم ما يكون فيه عبرة لغيرهم ، حتى لا يرتكبوا تلك الخديعة باسم الهداية .

بعد بني قريظة أقام النبي صلى الله تعالى عليه وسلم بالمدينة بقية ذي الحجة من سنة خمس ، والمحرم وصفر وشهري ربيع ، يعلم الناس أمر دينهم ، ويبلغ الدعوة ، ويتصل بالقبائل العربية داعياً مرشداً ، ويعلم شعار الاسلام ومبادئه لأصحابه الذين حملوا فقه الاسلام لمن بعده .

وفي جمادى الأولى خرج الى بني لحيان يطالب بأصحاب الرجيع خبيب ابن عدى وأصحابه ، وكان ذلك في سنة ست من الهجرة .

---

(١) المائدة

ولقد ذكر البيهقي أن ذلك كان في سنة أربع ، ولكن ابن اسحاق ذكر أنه كان في سنة ست ، ونحن نختار ما اختاره ابن اسحاق ، فهو أوثق في أخبار السيرة ، كما قال الشافعي رضى الله عنه : الناس في السيرة عيال على محمد ابن اسحاق •

خرج رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم في جمع من أصحابه ، وأراد أن يصيب من الغادرين غرة ، فخرج من المدينة الى طريق على الشام ، ليوهم أولئك أنه يقصد غيرهم ، والحرب خدعة ، وبعد أن سار أمداً عرج على اليسار متجها الى مكة ، وأغذ السير سريعاً ، ليدركهم قبل أن ينتبهوا الى مقصده •

ولكنهم حذروا خوفاً ، وقد أدركوا أن القوة قد آلت الى أهل الايمان بقيادة رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ،وتمنعوا في رؤوس الجبال ، وعندئذ علم النبي صلى الله تعالى عليه وسلم أنه أخطأ من غرتهم ما أراد • فاتجه الى عسفان في مائتى راكب من أصحابه حتى نزلها ، وأرسل اثنين من الفرسان يتعرفان النواحي •

وان رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم بعد أن سار في القبائل متعرفاً داعياً ، مبيناً شرع الله تعالى لمن يلقاه من أهل الصحراء ،قفل راجعا الى المدينة وانه في هذه الرحلة المباركة ،وان لم يتمكن من تأديب الفجرة الغادرين على غدرهم وخيانتهم فقد تعرف البلاد على حالها والصحراء وقبائلها ، وهو يدعو الى دينه ، حيثما وجد سبيلا للدعوة وأرهب مع ذلك أهل الشر والدعارة من القبائل العربية ، ونشر هيبة الاسلام فيها مما جعلهم يفكرون في أمر هذا الدين الجديد الذي جاء بالحق والقسطاس ، ومعه القوة التي تحميهما •

فالنبي لم يرجع من الغنيمة بالاياب، بل رجع بالغنيمة الكبرى ، وهي نشر الدعوة ، ومعرفة الذين يدعوهم وبسط سلطان الله في الأرض العربية ، ليعمها الاسلام ، ثم يكون من بعد ذلك لمن وراءها من أرض الشام ، وغيرها •

غزوة ذي قرد

٤٩٧ ـ خرجت غطفان بعد الخندق محنقة ، لأنها طمعت في صلح ، ولم يعزمه النبي صلى الله تعالى عليه وسلم بل كان مراوضة لتخذيلهم عن قريش ، وقد تم بعض ذلك ، عادت مع قريش مذؤومة مدحورة ، ولكن مالم تستطعه بحرب أرادت أن تأخذه بالسلب والنهب والاغارة الجزئية ، والغصب ، ثم الفرار ، فصاروا كشطار العرب ، بل كلصوصهم ، يستوي في ذلك من كان قائداً ، ومن كان مقوداً ٠

أغار عيينة بن حصن الفزاري في خيل من غطفان على نوق لقاح للنبي صلى الله تعالى عليه وسلم بالغابة ، وفيها رجل من بني غفار وامرأته ٠ فقتلوا الرجل ، وساقوا المرأة مع اللقاح ، وكانوا بهذا كقطاع الطريق الذين يقومون بالسلب والنهب ورأوا أن ذلك أنكى للمسلمين من أن يلتقوا معهم في حرب تشتجر فيها السيوف ، وان كان ذلك أبعد عن المروءة ، والخلق العربى الكريم ٠

كان بعض فرسان المؤمنين قد علم بأمرهم منهم سلمة بن الأكوع ، ومعه غلام لطلحة بن عبيد الله معه فرس ، وقد أصبح يريد الغابة ، حتى اذا كانوا بثنية الوداع نظر الى بعض خيول المعتدين ، فصرخ واصباحاه ، ثم خرج يشتد في آثار القوم ، وكان رجلا قويا مثل السبع ، حتى لحق القوم ، وأخذ يردهم بالنبل ، ويقول ، اذا رمى : « خذها وأنا ابن الأكوع اليوم يوم الرضع » (أي اللئام) وكانوا من قوة الرمي يحاولون أن ينقضوا عليه ، فاذا وجهت خيلهم نحوه انطلق هاربا من لقائهم وجها لوجه ، ولكنه يعارضهم ليتمكن من الرمى ، فاذا رمى يقول : خذها وأنا ابن الأكوع ، ولما بلغ رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ما كان من هؤلاء ، وسمع صياح ابن الأكوع ٠ دعا

الفرسان من المهاجرين والأنصار ،فكان أول فارس تقدم المقداد بن الأسود ، وتوالى من بعد ذلك الفرسان الذين يتبعونهم فارسا بعد فارس وقد رأى رجلا من زرين اسمه أبو عياش ، معه فرس ، فقال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم لو أعطيت هذا الفرس رجلا هو أفرس منك ، فقال رضى الله عنه أنا أفرس الناس ، ولكنه ما جرى به خمسين ذراعا ، حتى طرحه أرضا . فتولى الفرس غيره ، وهكذا تولى الفرسان يلاحقون الفارين السالبين .

خرج رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم مع الفرسان ، وأقام على المدينة ابن أم مكتوم ، وسار رسول الله ومن معه من أصحابه ، واستنقذوا بعض اللقاح ، ولم ينقذوها كلها ، ولكنهم قتلوا من أدركوه من القوم ، واستمر رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم في سيره حتى نزل بالجبل من ذي قرد ، وتلاحق عليه الناس ، وأقام عليه يوما وليلة .

عاد رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، وقد قسم على كل مائة رجل جزورا ، وقد نجت امرأة الغفارى على ناقة من ابل رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم عندما شغل القوم بالفرار من فرسان رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم .

وكانت قد نذرت لله تعالى ان نجاها عليها أن تنحرها ، فتبسم رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم عندما علم عزمتها ، وقال بئسما جزيتها أن حملك الله عليها ونجاك بها ، ثم تنحرينها ،انه لا نذر في معصية الله تعالى ، ولا فيما لا تملكين ، انما هي ناقة من ابلي ،فارجعي الى أهلك على بركة الله تعالى.

وقد روي حديث امرأة الغفاري عن الحسن البصري موقوفا .

وبذلك انتهت هذه الغزوة التي دفعت غارة من غارات الأعراب .

غـزوة بنى المصطلق

٤٩٨ ـ ذكر ابن اسحاق بسنده أنها كانت في شعبان من سنة ست من الهجرة ، وروي أنها كانت في شعبان سنة خمس ، وقال الواقدي في تاريخه انها كانت بعد ليلتين من شعبان سـنة خمس ·

ولقد ذكر بعض الكاتبين في عصرنا أنه يستحيل أن تكون في سـنة ست ، لأنه جاء في عقبها حديث الافك ، وذكر كانت فيه مجاوبة بين سعد بن عبـادة وسعد بن معاذ وملاحاة بينهما ، وسعد بن معاذ كان قد مات اثر جرح بعـد قريظة سنة خمس ·

وان هذه المـلاحاة لم تكن بين ابن عبادة وسعد بن معاذ ، وانما كانت بين أسيد بن حضير ، وسعد بن عبادة ، وعلى ذلك لا دليل من حديث الافك عـلى أنها كانت في الخامسة ·

وفي الحقيقة انا لا نجد في الروايات ترجيحاً بينها ، ونميل الى أنهـا كانت في الخامسة ، وقبل الخندق غير ترجيح ولكن نأخذ بترتيب ابن اسحق، ونضعها بعد الخندق ، لأننا نقبل أن نكون عيالا على ابن اسحاق ، كما قال الشافعي رضي الله تبارك وتعالى عنه :« الناس عيال في السيرة عـلى محمد بن اسحق » ·

علم النبي صلى الله تعالى عليه وسلم أن بني المصطلق يجمعون الجموع له ، وهم من خزاعة ، وعلى منهاج النبي صلى الله تعالى عليه وسلم أنه اذا تأكد أن قوماً يريدون الاغارة عليهم بادرهـم قبل أن يبادروه ، فانه ما غزي قوم في عقر دارهم الا ذلوا ·

أقام رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم على المدينة أبا ذر الغفاري وخرج اليهم كما يقول الواقدي في سبعمائة من أصحابه ، حتى التقى في ماء عندهم يسمي المريسيع .

وكان لواء المهاجرين مع أبي بكر الصديق ، ولواء الأنصار مع سعد ابن عبادة ، وقيل كان لواء المهاجرين مع عمار بن ياسر .

وأمر النبي صلى الله تعالى عليه وسلم أن ينادى فيهم فنادى أن قولوا لا اله الا الله تمنعوا وأموالكم فأبوا الا القتال .

فقاتلهم رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم بجيش المؤمنين فما أفلت منهم ، فقتل منهم عشرة ، وأسر سائرهم وسبى نساءهم .

وقد حدث في هذه الغزوة أن رجلا من المؤمنين اسمه هشام بن صبابة أصابه رجل من الأنصار وهو يظن أنه مباح الدم من الأعداء .

كان ذلك القتل خطأ فكان له دية مسلمة الى أهله ، وقد وداه النبي صلى الله تعالى عليه وسلم . فجاء أخوه مقيس بن صبابة من مكة مظهرا الاسلام ، فطالب بالدية فأعطاه الرسول الدية ، وأقام مع المؤمنين حتى تمكن من قتل قاتل أخيه ، مع أن القتل كان خطأ ، ثم عاد مرتدأ الى مكة ، وبذلك ارتكب جريمتين : أما الجريمة الأولى فهي أنه قتل بعد أن أخذ الدية ، والقتل كان خطأ فلا قصاص وأخذ الثأر معتدياً آثماً .

والجريمة الثانية أنه ارتد بعد اسلام أظهره .

ولهاتين الجريمتين كان يستحق اباحة دمه واحداهما تسوغ قتله .

ولذلك أباح النبي صلى الله تعالى عليه وسلم دمه ، ولذلك كان من الذين أهدر رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم يوم فتح مكة دماءهم ، وان تعلقوا بأستار الكعبة .

وان هذا يدل على أن الردة توجب القتل ، ويصدق عليه قول النبي صلى الله تعالى عليه وسلم : « من بدل دينه فاقتلوه » .

ودلالة اباحة دم مقيس هذا لقتله قاتل أخيه أو لردته ، ولذلك كانت الدلالة احتمالية من حيث تعيين السبب .

إثارة فتنة وإطفاؤها :

٤٩٩ ـ في هذه الغـزوة ثارت فتنة ، ولكن أطفأها النبي صـلى الله تعالى عليه وسلم بحكمته .

ذلك أن الناس كانوا يردون الماء ، وفيهم أجير لعمر بن الخطاب يقـال جهجاه بن مسعود يقود فرسه فازدحم أجـير عمر هـذا مع وسنان بن وبر الجهني حليف بني عوف من الخـزرج فاقتتلا ، فصاح الجهني يا معشر الأنصار وصاح أجير عمر يا معشر المهاجرين .

ولم يجب الأنصار صرخة حليفهم ، ولا المهاجرون صرخة أجيرهم ، ولـكن النفاق استغل ذلك لتكون تارة ثائرة .

غضب عبد الله بن أبي بن سـلول زعيم المنافقين مع رهط من رجاله ، وكان في مجلسهم زيد بن أرقم ولم يـكن منافقا بل كان مؤمنا .

قال ابن أبي سلول ، قد نافرونا ، وكاثرونا ، في بلادنا ، والله ما عـدنا وجلابيب قريش (أي المهاجـرين) الا كما قال الأول : سمن كلبك يأكلك ، أما والله لئن رجعنا الى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل ، ثم أقبـل على من حضره من قومه ، فقال لهم هذا مافعلتم بأنفسكم أحللتموهم بلادكم ، وقاسمتوهم أموالكم ، أما والله لو أمسكتم عنهـم ما بأيديكم لتحولوا الى غير دوركم .

سمع ذلك زيد بن أرقم فمشى به الى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسـلم وأبلغه الخبر بعد فراغه من غـزوة عدوه وكان عنده عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، فقال له عمر : مر به عباد بن بشر فليقتله .

قال ذلك عمر بحمية الايمـان ، ولكن قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، وهو الحليم الذي يعالج النفوس والأمور ، فكيف يا عمر اذا تحـدث الناس أن محمداً يقتل أصحابه ولـكن أذن بالرحيل ، فارتحل الناس .

فالعلاج ان لم يكن حاسما للفتنة ، فهو مانع من أن تتأجج نيرانها ، ذلك أن الفتن اذا عرضت للنفوس ، وتبادلتها الأقوال ، ورددتها الألسنة يكثر القول الذي يلهبها ، واطفاؤها أو تخفيفهـا يمنع ترديدها ، وشغل الناس بغيرها .

فكان الأمر بالرحيل شغلا للنـاس عنها .

جاء عبد الله بن أبي الى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ينفي ما نسب اليه ، لأن المنافق يستتر دائما ، ويمنع أن ينكشف فاذا بدا بعض أمره حاول اعادة ستره ·

قال ساتراً كاذبا حالفا : ما قلت ماقال ، ولا تكلمت به ·

وكان في زعم قومه شريفا عظيما، فقال بعض من حضر من الأنصار من أصحابه حدبا على ابن أبي ، أو تخفيفا لوقع الأمر ، قال عسى أن يكون الغلام قد أوهم في حديثه ، ولم يحفظ ما قال الرجل ·

ومهما يكن من الأمر فقد عالج النبي الموقف بشغل الناس بالرحيل قبل ميقاته ، حتى لقد قال أسيد بن حضير للنبي صلى الله تعالى عليه وسلم : يانبي الله لقد رحت في ساعة مبكرة ما كنت تروح في مثلها ·

قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم : أو ما بلغك ما قاله صاحبكم ؟ قال وأي صاحب يا رسول الله قال عبد الله بن أبي بن سلول · قال : وما قال قال زعم أنه ان رجع الى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل قال فأنت يا رسول الله والله تخرجه ان شئت هو وهو الذليل وأنت العزيز ·

ثم قال : يا رسول الله ، ارفق به ، فوالله لقد جاءنا الله بذلك · وان قومه لينظمون له الخرز ليتوجوه فانه ليرى أنك قد استلبت منه ملكا ·

مشى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم حتى أمسى ، وليلتهم حتى أصبح، وصار في صدر ذلك اليوم الثاني حتى آذتهم الشمس ·

ويقول في تعليل ذلك ابن اسحاق وانما فعل ذلك رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، ليشغل الناس عن الحديث الذي كان بالأمس ·

انه عندما نزل رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم بعد أن آذتهم الشمس ، ومستهم جنوبهم الأرض حتى ناموا ·

وفي النوم لم يذكروا ما كان من خلاف ، ولم يحسوا الا بالتعب ، فشغلهم التعب الجسمى عن القلق النفسى ، فانطفأت نار هذه الفتنة ، لتكون فتنة أشد ايذاء ، وأبلغ تأثيراً ، وكانت أيضاً من النفاق والمنافقين ، وشاعت نيرانها، حتى شملت بعض المؤمنين من الأنصار، وبعض المهاجرين من ذي القربى ممن أشيعت حولها الفتنة ·

ولقد قال النبي صلى الله تعالى عليه وسلم عندما بلغه التنادي يا معشر المهاجرين ، ونادى الآخر يا معشر الأنصار ، قال النبي : دعوها فانها منتنه أي دعوى خبيثة جاهلية ، حتى نتنت بقدمها ٠

وعندما علم عبد الله بن عبد الله بن أبي ، وقد كان مؤمنا قوي الايمان بما قال أبوه ، وما حرض به مشى الى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، فقال : يا رسول الله انه قد بلغني أنك تريد قتل عبد الله بن أبي فيما بلغك عنه ، فان كنت لا بد فاعلا فمرني ، فأنا أحمل اليك رأسه ، فوالله لقد علمت الخزرج ما كان بها من رجل أبر بوالده مني ، وأني أخشى أن تأمر به غيري فيقتله فلا تدعني نفسي أنظر الى قاتل أبي يمشي في الناس ، فأقتله ، فأقتل رجلا مؤمنا بكافر ، فأدخل النار ، فقال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، بل ترفق به ، ونحسن صحبته ما بقي معنا ٠

وكان لفعله أثر شديد في نفس النبي وان كان قد عالجه بما كان فيه الوقاية من تفاقمها ، فقد كان لها أثر في نفوس المؤمنين ، فكان قوم ابن أبي حريصين على منعه من أى فتنة ولومة على كل قول يكون منه بما يدل على قلبه ، فكانوا هم الذين يعاقبونه ، ويأخذونه ويعنفونه فقال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم لعمر بن الخطاب ، كيف ترى ياعمر ، أما والله لو قتلته يوم قلت لأرعدت أنوف لو أمرتها اليوم بقتله لقتلته ٠ فقال عمر رضي الله تعالى عنه ٠ مذعنا ، قد والله علمت لأمر رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم أعظم بركة من أمرى ٠

هذا وقد أنزل الله تعالى جزءاً من سورة المنافقين في هذا الأمر ، فقد قال الله تعالى :

﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ﴾

﴿ إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ (١) اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٢) ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا فَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ (٣) ۞ وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِن يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ

﴿كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُّسَنَّدَةٌ يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرْهُمْ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّى
يُؤْفَكُونَ ﴿٤﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ اللَّهِ لَوَّوْا رُءُوسَهُمْ وَرَأَيْتَهُمْ
يَصُدُّونَ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ ﴿٥﴾ سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَن
يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴿٦﴾ هُمُ الَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنفِقُوا عَلَىٰ مَنْ
عِندَ رَسُولِ اللَّهِ حَتَّىٰ يَنفَضُّوا وَلِلَّهِ خَزَائِنُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَٰكِنَّ الْمُنَافِقِينَ
لَا يَفْقَهُونَ ﴿٧﴾ يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ
وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَٰكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٨﴾﴾ (١)

هذا حكم الله تعالى على المنافقين ، وقد حكم الله تعالى بأنهم لا يفقهون ولا يجزيهم استغفار الرسول لهم ، لأنهم عنوا في كفرهم اذ الكفر من غير نفاق جهل وحمق وعناد ، ومنشؤه غالبا من عدم ادراكهم الحق ، فهم لا يذعنون ، وتوبتهم قريبة اذا زالت غواشي الضلال والجهالة . أما النفاق فهو دركتان في الكفر هو عناد وحقد من غير جهل ،ومحاولة لستر الحقائق وابعادهم ذرائع الايمان عن نفوسهم ، ومحاولتهم طمس الحقائق في قلوبهم ، فطبع على قلوبهم، فلا يمكن أن يصل نور الحق الى قلوبهم ، فأصبحوا لا ينفذ نوره اليهم ، ولذلك وصفهم الله سبحانه وتعالى بأنهم لا يفقهون ، فلا يشق نور الحق قلوبهم المعتمة .

الأسرى والسبايا من بنى المصطلق :

٥٠٠ ـ أثخن المسلمون في بني المصطلق ، اذ لم تبق فيهم قوة يستطيعون أن يغيروا بها على المؤمنين فانه قتل منهم من قتل ، وسيق الباقون أسرى وسبايا ، ولم يسترقهم رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم نهائيا فقد شد الوثاق ابتداء ، وقيل أنه وزعهم غنائم على المحاربين ، ولكنه أطلقهم في النهاية ونرى أنه تدرج في معاملة الأسرى ، ونرجح بهذا المعنى أن غزوة بني

(١) المنافقون

المصطلق كانت بعد غزوة قريظة ، ذلك أنه في غزوة قريظة قتل الرجال ،وسبى النساء ، وباعهن في نجد في خيل اشتراها في مقابلهن قوة للمسلمين ٠

أما في هذه وهي غزوة بني المصطلق فقد تصرف صلى الله تعالى عليه وسلم تصرفا حكيما أدى الى ألا يباع منهم أحد ، حتى بعد تقسيمهم بين الغانمين، وألا يسبى منهم امرأة بعد تقسيمهم ٠

فان كتب السيرة تروي ما ثبت في صحاح السنة ، وذلك أن الناس قسموا الرجال والنساء بينهم وأبقى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم جويرية بنت الحارث التي صارت من بعد من أمهات المؤمنين ، ولنترك الكلمة لابن هشام الذي روى بعض الروايات ، فهو يقول:

« يقال : لما انصرف رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم من غزوة بني المصطلق ومعه جويرية بنت الحارث ،دفعها الى رجل من الأنصار وديعة وأمره بالاحتفاظ بها ٠ وقدم رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم المدينة ، فأقبل أبوها الحارث بن ضرار لفداء ابنته ،فلما كان بالعقيق نظر الى الابل التي جاء بها للفداء ، فرغب في بعيرين منها،فغيبهما في شعب من شعاب العقيق ثم أتى الى النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ،وقال : يا محمد ، أصبتم ابنتي ، وهذا فداؤها ، فقال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم : فأين البعيران اللذان غيبتهما بالعقيق في شعب كذا وكذا ،فقال الحارث : أشهد أن لا اله الا الله وأنك يا محمد رسول الله ، فوالله ما اطلع على ذلك الا الله تعالى ٠

أسلم الحارث ، وأسلم معه ابنان له وناس من قومه ، وأرسل الى البعيرين ، فجاء بهما الرسول ، فدفع الابل الى النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، ودفعت اليه ابنته جويرية ، فأسلمت ، وحسن اسلامها ، فخطبها رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم من أبيها ، فزوجه اياها ،وأصدقها أربعمائة درهم ٠

وقد أعتق بعد ذلك كل من كان في يده واحد منهم ، وقالوا أنسترق أصهار رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ٠

هذا ما قاله ابن هشام ، ولم يذكر الرواية التي اعتمد عليها ، وان كانت الصحاح تومىء الى ذلك ، وان لم تفصله ذلك التفصيل ، وهذا الخبر يدل على أن الرق لم يكتب على أم المؤمنين جويرية ٠

ولكن ابن اسحق روى عن أم المؤمنين ما يفيد أن رقا قد كتب عليها ، واليك ما روى عن عائشة رضي الله تعالى عنها وعن أبيها ، واليك ما رواه عروة بن الزبير عن عائشة قالت : لما قسم رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم سبايا بني المصطلق ، وقعت جويرية بنت الحارث في سهم ثابت بن قيس أو لابن عم له ، فكاتبت على نفسها ، وكانت امرأة حلوة ملاحة ، لا يراها أحد الا أخذت بنفسه ، فأتت رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم مستعينة في كتابتها ٠٠ قد خافت ؟ فقالت يا رسول الله أنا جويرية بنت الحارث ، سيد قومه ، وقد أصابني من البلاء ما لم يخف عليك فوقعت في السهم لثابت ابن قيس أو لابن عم له ، فكاتبته على نفسي ، فجئتك أستعين على كتابتي قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم : هل لك في خير من ذلك ، قالت وما هو يا رسول الله ؟ قال أقضي عنك كتابتك وأتزوجك ، قالت نعم يا رسول الله ، قال قد فعلت ٠

وان الفارق بين الروايتين أن ما ذكره ابن هشام ، أن أباها هو الذي زوجها من النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، وأنه لم يجر عليها الرق اذ افتداها أبوها بالابل ، وذكر فيها الصداق ، وهو أربعمائة درهم ، أما رواية ابن اسحق فكتبت أن الرق قد كتب عليها ، وأن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم دفع عنها ما كاتبته عليه ٠

ونحن نرى أن سياق ابن هشام أكثر انسجاما ، واتساقا مع أحكام الاسلام ، اذ أن وليها هو الذي زوجها ، وذلك مبدأ مقرر في الاسلام ، ولم يجز للمرأة أن تعقد زواجها بنفسها الا أبو حنيفة رضي الله تعالى عنه ، وخالفه جمهور الفقهاء ٠

وفوق ذلك في رواية ابن اسحق ما قد يكون علة في الحديث ، ففيه أنه نسب لعائشة رضي الله تعالى عنها وقد وصفتها بأنها امرأة حلوة مليحة : فوالله ما ان رأيتها على باب حجرتي فكرهتها ، وعرفت أنه سيرى منها صلى الله تعالى عليه وسلم ما رأيت فدخلت ، وانا نرى أن هذه العبارة ، لا يليق أن تنسب لعائشة ، لمكانتها في الاسلام ، ولا أن ينسب ما تضمنته للنبي صلى الله تعالى عليه وسلم ٠

وكتب السنة لم تذكر ما ذكرته رواية ابن اسحق ٠

ومهما كلف الأمر في هذه الروايات فان زواج النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ترتب عليه عتق قومها جميعا .

وانا نقول ان زواجه صلى الله تعالى عليه وسلم منها كاف لأن يدع المسلمون ما بأيديهم من الأسرى والسبايا ، اذ عتق بزواجها رجال مائة دار من العرب ، وقد أسلم قومها ، ودخلوا في ظل الاسلام، وكانت تجمع منهم الزكاة.

٥٠١ - لما أسلموا صاروا في ظل الدولة الاسلامية وتابعين لحكم المدينة، فأرسل اليهم رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم الوليد بن عقبة بن أبي معيط ليجمع منهم الزكاة .

لما سمعوا به ركبوا اليه ، فظنهم مغيرين عليه فهابهم ، ويظهر أنهم كانوا يستقبلونه لا ليغيروا ولا ليثوروا ، ولا ليحاربوا .

عاد الى الرسول فأخبره أن القوم قد هموا بقتله ، ومنعوه ما قبلهم من صدقتهم ، فأثار بذلك ثائرة بعض المسلمين ، وكان منهم من أكثر في القول بغزوهم .

وما كان أساس الأمر الا سوء فهم للأمور ، فقد قدم وفدهم على رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم .

قالوا يا رسول الله : سمعنا رسولك حين بعثته الينا ، فخرجنا اليه لنكرمه ونؤدى اليه ما قبلنا من الصدقة ، فانشمر راجعا ، فبلغنا أنه زعم لرسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم أننا خرجنا لنقتله ، ووالله ما جئنا لذلك .

والظاهر ان اساءة الفهم كانت منه، وفرض أنهم جاءوا الى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم خوفا من غزو جرى على ألسنة بعض المؤمنين بعيد ، لأنه من الضرورى حمل حال المؤمن على الصلاح ، ولذا قيل انه نزل في هذا الموضع قوله تعالى :

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمْ فَاسِقٌۢ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوٓاْ أَن تُصِيبُواْ قَوْمًۢا بِجَهَـٰلَةٍ فَتُصْبِحُواْ عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَـٰدِمِينَ ﴿٦﴾ ﴾ (١)

والله أعلم بما تخفى الصدور .

---

(١) الحجرات

حديث الإفك

٥٠٢ ـ اختصت غزوة بني المصطلق بأن جاء في أعقابها أمور تتبعها أحكام لسياسة الجماعة ، واصلاح النفوس ومداواة مرضى القلوب ٠

فكان فيها معاملة النبي صلى الله تعالى عليه وسلم لمن وقعوا في الأسر والسبي بعد أن أثخن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم في محاربيه ، وقد كان عمله يتجه الى المن بدل الفداء وقتل الرجال وسبي النساء ، وعمل الرسول سنة متبعة ، فهو لا يفرض الرق الا اذا كان يتوقع أن تكون بينه وبين أسر منهم حرب ، وقد كان يتوقع مع اليهود حربا قد يأسرون من المسلمين فيها، فيسترقون ويسبون فعاملهم بما يتوقع أن يعاملوا بمثله ، والحرب بينه وبينهم لم تنته بعد ، ولم يثخن في قوتهم ، بل لا تزال لهم قوة مرهوبة ولم يكن يتوقع من بني المصطلق من بعد ذلك حربا وكان في أثنائها ، نفاق المنافقين الذين اتجهوا الى اشعال فتنة منتنة بين المهاجرين والأنصار وهم قوة الاسلام ، وقد عالج النبي صلى الله تعالى عليه وسلم بالترفق بالمنافقين، حتى ينكشف أمرهم ويلفظهم قومهم ، ويكون تأديبهم من أهليهم ، ثم لا يكون لنفاقهم قوة التأثير ، اذ لا يخدع بهم أحد من أهل الايمان ، وينالهم الضلال ، وبذلك بين النبي صلى الله تعالى عليه وسلم كيف يعامل المنافقون بتركهم ، حتى يذوي عودهم من ذات نفسه مع التحذير منهم ٠

والأمر الخطير في ذات نفسه ، وكان فيه ايذاء للنبي صلى الله تعالى عليه وسلم وأهله ، وهو حديث الافك ، الذي كان في ذاته اثما عظيما ، وفي آثاره خطيرا في المجتمع، اذ من شأنه أن يشيع الفاحشة في المجتمع ، ويدنسه بظهور الرذيلة فيه ، وفوق ذلك فيه هجوم على النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ،

وفيه استهانة بمقام صاحب الرسالةالذي كرمه الله تعالى في السموات وفي الأرض ، وقال الله تعالى في شأنه:

﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا ﴿٢١﴾﴾ (١)

وقد اشترك في هذا الحديث المنافقون وعلى رأسهم عبد الله بن أبي الذي قالت فيه أم المؤمنين عائشة الطهور ،ان الذي تولى كبره عبد الله بن أبي ٠

وكان مع المنافقين زلل لبعض المهاجرين والأنصار ، فلم تنزه فيه ألسنة أهل الايمان من قبيل الاستهانة بالأخبار ، وقبولها من غير تمحيص ، ولا التفات لمغزاها ومرماها بل كان تشهيا للحديث مجردا من كل اعتبار ، فكان هذا من بعد تنبها ، الى وجوب العمل على حماية المجتمع من مروجات الشر ، ومن الخرص بالظنون ، والاحتفاظ بكرامات البيوتات ، ولقد قال تعالى في ذلك :

﴿إِنَّ الَّذِينَ جَاءُو بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ ۚ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم ۖ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۚ﴾ (٢)

والخير فيما شرف الله به بيت النبوة ، وفيما أعقبه من تطهير نفوس الذين خاضوا فيه باقامة الحد عليهم بجلدهم ثمانين جلدة ، ثم ما بين الله سبحانه وتعالى ان الاثم الذي اكتسبه بعض المهاجرين لا يمنع معونتهم من خير يسدى ، فحسبهم عقوبة الحد الزاجر٠

الإفك في كتب السيرة وصحاح السنة :

٥٠٣ ـ ونذكر الآن حديث الافك ، كما جاء في كتب السيرة وصحاح السنة ٠

كان النبي صلى الله تعالى عليه وسلم يختار من نسائه للسفر معه عندما يريد السفر بالقرعة ، فكانت القرعة في غزوة بني المصطلق على أم المؤمنين عائشة الصديقة بنت الصديق ،فخرجت معه في هذه الغزوة وفي عودتها نزلت

---

(١) الاحزاب (٢) النور

لحاجتها ، فتخلفت عن الركب ، ولنترك لابنة الصديق ذكر القصة ، وقد وافق ما جاء في الصحيحين عن هذا الأمر ٠

قالت في سفره عليه الصلاة والسلام لبني المصطلق ، فلما فرغ رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم من سفره ذلك جاء قافلا حتى اذا كان قريبا من المدينة، نزل منزلا فبات فيه بعض الليل ، ثم أذن مؤذن في الناس بالرحيل ، فارتحل الناس فخرجت لبعض حاجتى ، وفي عنقي عقد ٠٠ فلما فرغت انسل من عنقي ولا أدرى ، فلما رجعت الى الرحل ألتمسه في عنقي فلم أجده ، وقد أخذ الناس في الرحيل فرجعت الى مكانى الذي ذهبت اليه ، فالتمسته ، حتى وجدته ٠

وجاء القوم خلافي الذين كانوا يرحلون الى البعير « أي أنهم ساقوا البعير الذي كان يقلها وقد كانوا قد فرغوا من رحلته فأخذوا الهودج ، وهم يظنون أنى فيه كما كنت أصنع ، فاحتملوه ،فشدوه على البعير ، ولم يشكوا أنى فيه ، ثم أخذوا برأس البعير ، فانطلقوا به ، فرجعت الى المعسكر ، وما فيه داع ولا مجيب ، قد انطلق الناس ، فتلففت بجلبابى ، ثم اضطجعت مكانى ،وعرفت أني لو افتقدت لرجع الناس الي ،فوالله اني لمضطجعة ، اذ مر بي صفوان ابن المعطل السلمي ، وكان قد تخلف عن العسكر لبعض حاجاته ، فلم يبت مع الناس ، فرأى سوادي فأقبل حتى وقف ، وكان يراني قبل أن يضرب الحجاب فلما رآني قال انا لله وانا اليه راجعون ، ظعينة رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، وأنا متلفلفة في ثيابى ، قال فما خلفك يرحمك الله فما كلمته ثم قرب الى البعير فقال اركبى ،واستأخر مني ، فركبت وأخذ برأس البعير وانطلق سريعا يطلب الناس ،فوالله ما أدركنا الناس ، وما افتقدت حتى أصبحت ونزل الناس ، فلما اطمأنوا طلع الرجل يقود بي فقال أهل الافك ما قالوا ، وارتج العسكر ،والله ما أعلم بشيء من ذلك ، ثم قدمنا المدينة » ٠

هذه عبارة أم المؤمنين الصادقة بنت الصديق تبين الواقعة ، كما هي ، وكما عاينت وشاهدت ، ولنتركها تذكر ما شاع ومن أشاع ، فهي تحكي الوقائع ، وتحكي خلجات نفسها المؤمنة الباكية وهي في غضارة الصبا ٠

« فلم ألبث أن اشتكيت شكوى شديدة لا يبلغني من ذلك شيء ، وقد انتهى الحديث الى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، والى ابوي ، لا يذكرون منه قليلا ، ولا كثيرا ، الاأني قد أنكرت من رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم بعض لطفه بي ،وكنت اذا اشتكيت رحمني ولطف بي ، فلم أزل في شكواي ، فأنكرت ذلك منه،كان اذا دخل علي وعندي أمي تمرضني قال كيف بنتكم لا يزيد على ذلك ، حتىوجدت في نفسي فقلت يا رسول الله ، حين رأيت ما رأيت من جفائه لي : لوأذنت لي ، فانتقلت الى أمي فمرضتني، قال : لا عليك فانقلبت الى أمي ، ولا علم لي بشيء ، مما كان حتى نقهت من وجعي بعد بضع وعشرين ليلة ‥فخرجت ليلة لبعض حاجتي ومعي أم مسطح ابنة أبي رهم بن عبد ، فوالله انها لتمشي اذ عثرت في مرطها ،فقالت تعس مسطح ، قلت بئس لعمر والله ما قلت لرجل من المهاجرين ، وقد شهد بدراً !! قالت أو ما بلغك الخبر ،فاخبرتني بالذي كان من قول أهل الافك ، قلت أو قد كان هذا ؟ قالت نعم والله قد كان ، فوالله ما قدرت على قضاء حاجتي ، ورجعت ، فوالله ما زلت أبكي،حتى ظننت أن البكاء سيصدع كبدي ، وقلت لأمي يغفر الله لك !! تحدث الناس بما تحدثوا به ، ولا تذكري لي من ذلك شيئاً !! قالت أي بنية خففي عليك الشأن ، فوالله لقل ما كانت امرأة حسناء عند رجل يحبها لها ضرائر ، الا كثرن وكثر الناس عليها.

قالت وقد قام رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم فخطبهم ، ولا أعلم بذلك فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال :أيها الناس ما بال رجال يؤذونني في أهلي ، ويقولون عليهم غير الحق .والله ما علمت عليهم الا خيراً ويقولون ذلك الرجل ما علمت منه الا خيراً ، ولايدخل بيتاً من بيوتي الا وهو معي .

قالت أم المؤمنين عائشة وكان كبر ذلك عند عبد الله بن أبي بن سلول في رجال من الخزرج مع الذي قال مسطح،وحمنة بنت جحش ، وذلك أن أختها زينب بنت جحش كانت عند رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، ولم تكن امرأة من نسائه يناصبني في المنزلة عنده غيرها ، فأما زينب فعصمها الله بدينها ، فلم تقل الا خيراً ، وأما حمنة فأشاعت من ذلك ما أشاعت ، تضارني لأختها فشقيت بذلك .

فلما قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم تلك المقالة قال أسيد بن حضير يا رسول الله ان يكونوا من الأوس نكفيكهم ، وان يكونوا من اخواننا الخزرج ، فمرنا أمرك ، فوالله انهم لأهل أن تضرب أعناقهم ٠

فقام سعد بن عبادة ، وكان قبل ذلك يرى رجلا صالحاً ، فقال كذبت لعمرو الله ، ما تضرب أعناقهم أما والله ما قلت هذه المقالة الا لأنك قد عرفت أنهم من الخزرج ، ولو كانوا من قومك ما قلت هذا ٠

فقال أسيد بن حضير ، كذبت لعمرو الله ، ولكنك منافق تجادل عن المنافقين ، وتساور الناس ، حتى كاد يكون بين هذين الحيين من الأوس والخزرج شر ٠

فدخل رسول الله علي ، فدعا علي بن أبي طالب ، وأسامة بن زيد ، فاستشارهما ، فأما أسامة فأثنى خيراً ثم قال يا رسول الله أهلك ، وما نعلم عنهم الا خيراً ، وهذا الكذب والباطل ٠

وأما علي فانه قال يا رسول الله ان النساء لكثير ، وانك لقادر أن تستخلف وسل الجارية فانها ستصدقك ، فدعا رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم بريرة يسألها ، فقام اليها علي فضربها ضرباً شديداً (١) ٠ ويقول اصدقي رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم فتقول (بريرة) والله ما أعلم الا خيراً ، وما كنت أعيب على عائشة الا أني كنت أعجن عجيني ٠ فآمرها أن تحفظه ، فتنام عنه ، فتأتي الشاة فتأكله ٠

ثم دخل رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، وعندي أبواي ، وعندي امرأة من الأنصار ، وأنا أبكي وهى تبكي ، فجلس ، فحمد الله تعالى ، وأثنى عليه ، ثم قال : يا عائشة ، انه قد بلغك من قول الناس فاتقي الله ، ان كنت قد قارفت سوءاً مما يقول الناس ، فتوبي الى الله ، فان الله يقبل التوبة عن عباده ، فقلص الدمع ، حتى ما أحس منه شيئاً ، وانتظرت أبوي أن يجيبا عني رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، فلم يتكلما ، وايم الله لأنا كنت أحقر في نفسي وأصغر شأنا من أن ينزل في قرآنا يقرأ ، ويصلى به الناس ، ولكنى كنت أرجو أن يرى النبي صلى الله تعالى عليه وسلم يكذب الله به عنى لما يعلم

---

(١) أكثر الروايات لم تذكر الضرب ، وما كان لعلى أن يضرب فى حضرة النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ، وفسر السهيلى الضرب بالقول الشديد ٠

من براءتي ، ويخبر خبراً ، وأما قرآنا ينزل في ، فوالله لنفسي كانت أحقر عندي من ذلك •

ولما لم أر أبوي يتكلمان قلت لهما ألا تجيبان رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، فقالا فوالله لا ندري بما نجيبه ، ووالله ما أعلم أهل بيت دخل عليهم ما دخل على آل أبي بكر في تلك الأيام فلما استعجما علي استعبرت فبكيت ، فقلت لا أتوب الى الله مما ذكرت أبداً ، والله اني لا أعلم ان أقررت بما يقول الناس ، والله تعالى يعلم أني منه بريئة لأقولن مالم يكن ، ولئن أنا أنكرت ما يقولون لاتصدقوني ، ثم التمست اسم يعقوب أذكره ، ولكن سأقول كما قال أبو يوسف : « فصبر جميل » ، والله المستعان على ما تصفون، فوالله ما برح رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم مجلسه ، حتى تغشاه من الله ما كان يتغشاه ، فسجى بثوبه ، ووضعت وسادة من أدم تحت رأسه فأما أنا حين رأيت من ذلك ما رأيت ، فوالله ما فزعت ، وما باليت ، قد عرفت أني بريئة ، وأن الله تعالى غير ظالمي ، وأما أبواي فوالذي نفس عائشة بيده ما سري عن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، حتى ظننت لتخرجن نفسهما حزنا من أن يأتي من الله تحقيق ما قال الناس ، ثم سري عن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، فجلس ، وانه ليتحدر عن وجه مثل الجمان ــ في يوم شات ــ فجعل يمسح العرق من وجهه ، ويقول أبشري يا عائشة قد أنزل الله عز وجل براءتك • قلت : الحمد لله •

ثم خرج على الناس فخطبهم « وتلا عليهم ما أنزل الله تعالى من القرآن ثم أمر بمسطح بن أثالة وحسان بن ثابت وحمنة بنت جحش ممن أفصح بالفاحشة فضربوا حدهم •

٥٠٤ ــ ذكرنا القصة مع طولها ، كما جاءت على لسان المجني عليها ، وقد اخترنا تلك الرواية لما فيها من جمع لكل معاني الروايات ، ولأنها تصور نفس تلك الصبية الكريمة التي لم تكن قد تجاوزت الرابعة عشرة من سنها •

امتحن الله تعالى تلك الصبية الطاهرة لزوج أعظم رجل في الوجود الانساني وابنة صاحبه في الغار ، وهي في سن قريب من الطفولة ، امتحنت أولا ــ بأن تخلفت عن الركب ، وصارت في أرض قفر وحدها ، فلم تصرخ ولم

تولول ، بل فوضت مؤمنة أمرها لربها،وتجلببت بجلبابها ، ونامت آمنة مطمئنة منتظرة أمر الله فيهــا عالمـة أن الله لايضيعها ، ويجيء رجل مكتمل عـرف بالتقوى ، بل قيل انه حصور ليس لهفي النساء أرب فاسترجع عندما رآها ، وعجب أن يرى في الليل ، وفي هـذاالمكان الموحش ، وهو يسترجع ويقول: ظعينة رسول الله صلى الله تعالى عليـــهوسلم ، وينيخ لها البعير ، فتركبه من غير معونة أحد ، وليس معها مــكانالرحيل بها وهو هودجها ، اذ أنه حمل على بعيرها ، زعم من رفعوه اليها أنهافيه ، لصغر ثقلها .

وانها من بعد ذلك تستقبل المدينةبصخبهــا وجلبها ، ونفاق بعضهـا ، وفضول الأكثرين الذين لا يتركــونالظن أو التظنن ، وهو من الاثم ، كما قال تعالى :

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱجْتَنِبُوا۟ كَثِيرًا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٌ ۖ وَلَا تَجَسَّسُوا۟ وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا ۚ أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢﴾ ﴾ (١)

واذا ظنوا أشاعوا غير ناظرين الىعاقبة ، ولا الى أثر القــول ، ولا الى موضــوع القول ، ومكانة صاحبته فيأهلها وبعلها ، ومكان من يناله السوء من اشاعة ، ويندفع في ترداده غير عالمله بحقيقة ، ولكنها ظن السوء المجـرد وشهوة قول الفتنة ، والفضــول الذييسود بعض الناس ، وما أصدق قــول الله تعالى في وصف الذين خاضوا ،وهمالجماعات الانســانية قلوا أو كثروا ، وهو يقدم لهم أحسن الأدب ، ومايجبالتحلي به عندما يقال القول من أحمق مأفون ، أو من منافق مفتون ، يقــولتعالت كلماته :

﴿ إِذْ تَلَقَّوْنَهُۥ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُم مَّا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُۥ هَيِّنًا وَهُوَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمٌ ﴿١٥﴾ وَلَوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُم مَّا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَـٰذَا سُبْحَـٰنَكَ هَـٰذَا بُهْتَـٰنٌ عَظِيمٌ ﴿١٦﴾ يَعِظُكُمُ ٱللَّهُ أَن تَعُودُوا۟ لِمِثْلِهِۦٓ أَبَدًا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٧﴾ ﴾ (٢)

(١) الحجرات (٢) النور

نعم انهم تلقوه بألسنتهم ، لا بعيونهم ، وأخذوه من الألسنة المرددة ، لا من مصادر العلم المتيقنة ، وأشاعوه بالأفواه لتزجية القول في المجالس ، والسمر الماجن الفاسد ، ويحسبون ذلك أمراً سهلا ، معتاداً ، وهو عند الله تعالى أعظم الفرية ، وان المؤمن لا يتلقاه بالترويج والاشاعة انما يرده ،أو يبعدوا الفضول عن أنفسهم ، وأنه لا ينبغي ترداده ، بل رده ، لأنه بهتان عظيم ٠

وهنا وقد شاعت قالة السوء ، ورددها المهاجر والأنصاري والمنافق والمخلص في غير تحر ولا احتراس عن لغو القول ، وبهتانه ، هنا نجد عظمة الرسول ، وايمانه بأن الطيبين للطيبات وحسن ظنه بأهله ٠ وقوة ايمانه النبوي وضبط نفسه ، وصبره ،فيقول شاكياً الناس الى الناس ، ما بال رجال يؤذونني في أهلي ، ويقولون عليهم غير الحق ، والله ما علمت عليهم الا خيراً ويقولون ذلك لرجل والله ما علمت منه الا خيراً ، ولا يدخل بيتاً من بيوتي الا وهو معي ٠

لام رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم الرجال الذين أشاعوا القول الكاذب ، وتضمن قوله لوم الذين استمعوا اليهم ٠

ولقد كان ذلك انهاء لترداد القول ،لأن الذي نفى الخبر وكذبه هو صاحب الشأن ، وهم من علموه لا ينطق عن الهوى ٠ فكان ذلك اطفاء للثائرة ٠

ولكن اذا كان ذلك القول من أخلاق النبوة فقد بقي حكم البشرية ، والبشرية لها سلطان لم تكذب ولم تصدق ، ولكن النفس ارتابت ، والارتياب ينساب في النفوس اذا كانت له أسباب ولو بالظن الذي لا دليل على صدقه ٠

وهنا نجد التعليم العالي من محمد صلى الله تعالى عليه وسلم لمن يختبره الله تعالى بمثل تلك القالة الآثمة فهو لا يسارع الى أهله يبادرهم بالاتهام أو الايذاء ، أو غير ذلك مما يرتكبه ابن الانسان في غضبه أو ريبه ، بل انه يتلقى ذلك بالصبر الكظيم الهادىء الذي يميل الى التبرئة ، ولا يميل الى الاتهام ٠

ولكن أمراً لا يملكه وهو ألا يبدو عنه أثر للألم المكين ، وان لم يظهر لعناً ولا سخطاً ، بل انه لا يفكر في أن يذكر لها الخبر ، حتى تتبرأ ، فتكون الزوبعة قد هدأت ، والسحابة العارضة قد تبددت ، ولكنها تعلم ، وقد كانت

لا تعلم ، وقد كانت غافلة عما يجري بين الناس من قول ، قد أطفأه النبي صلى الله تعالى عليه وسلم باعلان كذبه وبهتانه ٠

ولكن الصبية الطاهرة المؤمنة تعلم، والقول يجري بشأنها من الآثمين الذين لعنهم الله تعالى في كتابه ، اذ قال :

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ٱلْغَٰفِلَٰتِ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ لُعِنُوا۟ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٢٣﴾ ﴾ (١)

وأي ذنب أعظم اثماً من رمي هذه المؤمنة الغافلة الوفية ابنة الصديق وزوج النبي صلى الله تعالى عليه وسلم٠

كان النبي صلى الله تعالى عليه وسلم بمنطق العقل والايمان لا يصدق ، وبمنطق النفس البشرية يرتاب فاستشار خواصه ، فكلهم كذب ، وشدد في التكذيب ، وهو يقول انك طيب لا يختار الله تعالى لك الا طيبا ، ونسب ذلك لعمر بن الخطاب الفاروق ٠

وقد سأل النبي صلى الله تعالى عليه وسلم اثنين من القريبين من بيته ، وهما أسامة بن زيد ، وعلي بن أبي طالب ٠

سأل أسامة ، فأثنى خيراً ، وكلامه في أم المؤمنين عائشة يترقرق يبشر الاطمئنان ٠ وسأل علياً القاضي الذي قال فيه « أقضاكم علي » فأجاب اجابة قوية ، لم يتهم ولم يكذب ، ولم يثن ،ولم يهاجم ، بل وقف كما يقولون موقفاً محايداً ٠

وفي الحق ان ذلك هو السبيل لازالة الريب ، قال يا رسول الله ان النساء لكثير ، وانك لقادر على أن تستخلف ،وان هذا لا شك ما كانت أم المؤمنين ترضاه من علي بطبيعة المرأة المحبة المخلصة المثالية ، وهو مهما يكن أثره في قلب أم المؤمنين يؤيد حياد علي في القضية ، وهو يجعله أقرب الى الاتباع، يقول علي القاضي المحقق : سل الجارية فانها تصدقك أخذ التحقيق طريقه ، فسأل النبي صلى الله تعالى عليه وسلم بريرة ، فقالت ما أدخل الاطمئنان في قلب النبي صلى الله تعالى عليه وسلم وابتدأ يزيح غشاء الشك ٠

(١) النور

قالت والله ما أعلم الا خيراً ، وماكنت أعيب على عائشة شيئاً ، الا أني كنت أعجن عجيني ، فآمرها أن تحفظه،فتنام عنه ، فتأتي الشاة فتأكله ·

كان الاطمئنان وان لم يكن كاملا ،وخصوصاً أن الوصف الذي وصفتها به هو من أسباب اشاعة قول السوء من الأفاكين الآثمين ، فاذا كانت غلبة النوم ألا تسببت في أن تأكل الشاة عجين بريرة ، فقد كانت غلبة النوم هي التي فتحت باب الاتهام الآثم للأفاكين ·

بعد أن استأنس النبي بدليل البراءة بعد أن برأها بايمانه ، وبعد أن علمت هي ، واجهها النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، وهي حبه في الدنيا والآخرة ، وقال لها ما يدل على أنه غير خاف ، ولا تارك له ، يا عائشة ، انه قد كان ما بلغك من قول الناس فاتقي الله ، وان كنت قد قارفت سوءا مما يقول الناس ، فتوبي الى الله · فان الله يقبل التوبة عن عباده ·

لقد كانت تبكي ، فجف الدمع من قوله ، لأنها كانت ترجو فيه الرضا بعد الجفوة ، ترجوه رضا مطلقاً لا رضاً معلقاً ، وترجو ألا يكون منه ، وهو الحبيب الرسول النفي المطلق في مواجهته ، وتلفتت الصبية المؤمنة المحصنة الطاهرة أن يجيب عنها أحد ،وقد قال أحب حبيب لها في الوجود مالا يقطع بالنفي المطلق ، المثبت لبراءتها ، فلم يجب أبواها ، وكانت في حيرة البريء الذي يجري حوله الاتهام ، ويحيط بها من كل جانب ، رأت أنها ان كذبت لا تصدق ، وان أثبتت كذبت ·

فتركت أمرها لله تعالى ، لا ترجو سواه ، وما كانت تظن أنها بلغت مبلغ أن ينزل قرآن يتلى ويصلى به في براءتها ، وانها تزعم أنها أصغر من ذلك ولكن مقامها عند الله كبير لأنها صبرت مطمئنة الى حكم الله تعالى ، ورضيت بأن يكون وحده هو الذي يعلن براءتها،فنزلت الآيات الكريمات المبرئات بالدليل ، اذ قال تعالى :

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ ۚ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم ۖ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۚ لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُم مَّا ٱكْتَسَبَ مِنَ ٱلْإِثْمِ ۚ وَٱلَّذِى تَوَلَّىٰ كِبْرَهُۥ مِنْهُمْ لَهُۥ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١١﴾ لَّوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا۟ هَٰذَآ إِفْكٌ مُّبِينٌ ﴿١٢﴾ لَّوْلَا

جَآءُو عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ ۚ فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا۟ بِٱلشُّهَدَآءِ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ عِندَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْكَـٰذِبُونَ ﴿١٣﴾
وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ لَمَسَّكُمْ فِى مَآ أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ
عَظِيمٌ ﴿١٤﴾ إِذْ تَلَقَّوْنَهُۥ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُم مَّا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُۥ
هَيِّنًا وَهُوَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمٌ ﴿١٥﴾ وَلَوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُم مَّا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَـٰذَا
سُبْحَـٰنَكَ هَـٰذَا بُهْتَـٰنٌ عَظِيمٌ ﴿١٦﴾ يَعِظُكُمُ ٱللَّهُ أَن تَعُودُوا۟ لِمِثْلِهِۦٓ أَبَدًا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٧﴾
وَيُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْـَٔايَـٰتِ ۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٨﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلْفَـٰحِشَةُ فِى
ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿١٩﴾ وَلَوْلَا
فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ وَأَنَّ ٱللَّهَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٠﴾ ۞ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا
تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَـٰنِ ۚ وَمَن يَتَّبِعْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَـٰنِ فَإِنَّهُۥ يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ ۚ
وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَـٰكِنَّ ٱللَّهَ يُزَكِّى مَن يَشَآءُ ۗ
وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢١﴾ وَلَا يَأْتَلِ أُو۟لُوا۟ ٱلْفَضْلِ مِنكُمْ وَٱلسَّعَةِ أَن يُؤْتُوٓا۟ أُو۟لِى ٱلْقُرْبَىٰ
وَٱلْمَسَـٰكِينَ وَٱلْمُهَـٰجِرِينَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ وَلْيَعْفُوا۟ وَلْيَصْفَحُوٓا۟ ۗ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْ ۗ
وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٢﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَـٰتِ ٱلْغَـٰفِلَـٰتِ ٱلْمُؤْمِنَـٰتِ لُعِنُوا۟
فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٢٣﴾ يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ
وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٢٤﴾ يَوْمَئِذٍ يُوَفِّيهِمُ ٱللَّهُ دِينَهُمُ ٱلْحَقَّ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ
ٱلْحَقُّ ٱلْمُبِينُ ﴿٢٥﴾ ٱلْخَبِيثَـٰتُ لِلْخَبِيثِينَ وَٱلْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَـٰتِ ۖ وَٱلطَّيِّبَـٰتُ لِلطَّيِّبِينَ
وَٱلطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَـٰتِ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَ ۖ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٢٦﴾ (١)

(١) النور

٥٠٥ ـ هذه حادثة الافك والبهتان ، وتنظر فيما تشير اليه الآيات الكريمات التي نزلت ببراءة الطاهرة الصادقة بنت الصديق أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها .

تشير الآية الكريمة أولا الى أن أكثر الشر في الجماعة يجيء من أمور يحسبها الناس أمورا هينة وليست هينة في ذاتها . بل هي اثم كبير ، كما أنها ليست هينة في آثارها لأنها تحل المجتمع وتشيع الفاحشة فيه ، وتهون الرذائل ، ويكون فيه رأي عام غير فاضل ، بل رأي عام فاسد ولا تفرخ الرذائل الا في رأي عام فاسد ، ولذلك شدد القرآن الكريم في وجوب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، ليكون رأي عام فاضل يحث على الفضيلة ، ويدفع الرذيلة .

وتدل الآية ثانياً على أن الشهادة في الفاحشة ، لا تكون الا بأربعة شهداء والا كان القول كاذباً عند الله تعالى مهما تكن مكانة القائل الاجتماعية ، ولذلك اقترن بهذه القالة الفاسدة حد القذف .

وتدل ثالثاً على أن الظالم لا يظلم ولا يمنع من الخير ما دام قد استوفى عقابه على ما ارتكب ، لقد كان أبو بكر رضي الله تبارك وتعالى عنه يمد مسطحاً وهو ذو قرابة به ، فلما خاض في حديث الافك ، قطع عنه فنزل نهي الله تعالى عن ذلك في قوله تعالى في الآيات التي تلوناها ،ولا يأتل أولو الفضل منكم والسعة أن يؤتوا أولي القربى الى آخر الآية الكريمة .

وتدل هذه على أمرين ، أولهما ـ أن الزكاة يجوز اعطاؤها للعصاة وقد أخطأ في ذلك بعض الفقهاء ، فانها قد تمنعهم من كثير من الجرائم ، وقد تدني قلوب العصاة ، فان الجفوة تولد الجرائم ،والعطاء يرطب النفوس فلا تجفو ، وتحس بأن عيشها مؤتلفة مع الجماعة أدنى الى الراحة .

الأمر الثاني : أن الاعطاء عند الجفوة يقرب ويمنع البعد ، وأن الصدقة تطفيء المعصية وتجلب الغفران ألا ترى الى قوله تعالى :

﴿أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝٢٢﴾ (١)

---

(١) الاعراف

ولقد قال صلى الله تعالى عليه وسلم(ليس الواصل بالمكافىء ، انما الواصل من يصل رحمه عند القطيعة)٠

وتدل رابعاً على طهارة نساء النبي صلى الله تعالى عليه وسلم طهارة مطلقة لأن الخبيثات للخبيثين والطيبات للطيبين، فتلك سنة الله تعالى في خلقه ، ولم تكن مخالفتها الا في امرأة فرعون التي ذكرها القرآن بالخير ، وقد كانت مع شر خلق الله ، وكذلك في امرأة نوح ولوط اللتين خانتا هذين الرسولين الطاهرين ، وقد قال تعالى في ذلك :

﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا ٱمْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ٱبْنِ لِى عِندَكَ بَيْتًا فِى ٱلْجَنَّةِ وَنَجِّنِى مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِۦ وَنَجِّنِى مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١١﴾ وَمَرْيَمَ ٱبْنَتَ عِمْرَٰنَ ٱلَّتِىٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَٰتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِۦ وَكَانَتْ مِنَ ٱلْقَٰنِتِينَ ﴿١٢﴾﴾ (١)

ويقول تعالى قبل هاتين الآيتين :

﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَفَرُوا ٱمْرَأَتَ نُوحٍ وَٱمْرَأَتَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَٰلِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا وَقِيلَ ٱدْخُلَا ٱلنَّارَ مَعَ ٱلدَّٰخِلِينَ ﴿١٠﴾﴾ (٢)

فكان نساء النبي صلى الله تعالى عليه وسلم من الطيبات ٠

الأثر النفسي من علي كرم الله وجهه :

٥٠٦ ــ يبدو من سياق القصة كما روتها أم المؤمنين عائشة رضي الله تبارك وتعالى عنها أن كلام علي رضي الله تعالى عليه لم يقع من نفسها موقع الرضا ، كما وقع كلام أسامة ، وكما وقع كلام الصحابة الذين قالوا خيراً ٠

---

(١) ، (٢) التحريم

وذلك لأن علياً كرم الله وجهه لم يكن في كلامه ما يرضي ، ولكن كان في كلامة ما يكون سبيلا لانهاء الموضوع ، ولكيلا يُشْغَل النبي صلى الله تعالى عليه وسلم بأمر عارض ·

وما كان يرضي كلام علي عائشة ،لأنه لم يشهد بالبراءة كما شهد غيره ، ولعلها كانت ترى أنه أعلم ببراءتها أكثر من غيره من الصحابة ، ولأن له بالبيت الذي هي فيه صلة ، فشهادته تكون أقوى من شهادة غيره ·

ولأنه قال كلاماً لا يُرضي من لها مكانة عائشة في قلب النبي ، لأنه قال النساء غيرها كثيرات وله أن يستخلف غيرها ·

واذا كان ذلك لم يرض البريئة الطاهرة ، فانه كان السبيل الى صرف النبي صلى الله تعالى عليه وسلم الى التحقيق،ووراء التحقيق كان الاطمئنان الابتدائي ، ثم كان وراءه الابراء لها من النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ثم الابراء لها من الله تعالى ·

ولقد استرسل المؤرخون في ذكر ما بينها وبين علي كرم الله وجهه ، حتى جعلوه سبب الخروج عليه في واقعة الجمل ، وقالوا ما قالوا في ذلك ·

ونحن نقول انه بلا ريب لم يرض علي عاطفتها ، ولكنها في ظني ما أبغضته ، وان خالفته على كلام في ذلك ، وان الدليل على أنها لم تبغضه أنه عندما نعي اليها ذهبت الى قبر النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، وقالت جئت أنعي اليك أحب أصحابك اليك ، جئت أنعي اليك صفيك المجتبى وحبيبك المرتضى ، علي بن أبي طالب ·

وما كان من شأنها أن تبغض أحب أصحاب رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم اليه ، فرضى الله عنها وكرم الله وجهه ·

٥٠٧ ـ أحسب أن حد القذف قدشرع لهذه المناسبة التي شاعت فيها قالة السوء ، وحديث الافك ، لأن الآيات جاءت متصلا بعضها ببعض اذ أنه ذكر فيها نصاب الشهادة بالزنى ،وهوأربعة شهداء وانه اذا لم يكن الشهداء الأربعة ، فان الرامي بالزنى يكون كاذبا ، وهذا الحد هو جزاء الكذب ، وقد ذكر الله تعالى ذلك الحد في قوله تعالى :

﴿وَٱلَّذِينَ يَرۡمُونَ ٱلۡمُحۡصَنَٰتِ ثُمَّ لَمۡ يَأۡتُواْ بِأَرۡبَعَةِ شُهَدَآءَ فَٱجۡلِدُوهُمۡ ثَمَٰنِينَ جَلۡدَةٗ وَلَا تَقۡبَلُواْ لَهُمۡ شَهَٰدَةً أَبَدٗاۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ ﴿٤﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ مِنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ وَأَصۡلَحُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴿٥﴾﴾ (١)

ونلاحظ أن الآية دلت على عقوبة أصلية مادية ، وهي ضربهم ثمانين جلدة ، وذكرت عقوبتين تابعتين معنويتين .

احداهما ألا تقبل لهم شهادة أبداً ،لأنهم كذبوا في مقام يجب الاحتراس فيه ، ولأن الله تعالى وصفهم بأنهم الكاذبون ، وحصرهم في وصف الكذب فقال تعالى :

﴿لَّوۡلَا جَآءُو عَلَيۡهِ بِأَرۡبَعَةِ شُهَدَآءَۚ فَإِذۡ لَمۡ يَأۡتُواْ بِٱلشُّهَدَآءِ فَأُوْلَٰٓئِكَ عِندَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلۡكَٰذِبُونَ ﴿١٣﴾﴾ (٢)

وكيف تقبل شهادة من حصر في الكذب بحكم الله تعالى ، ولذلك منع قبول شهادتهم أبداً ، فقال تعالى :

﴿وَلَا تَقۡبَلُواْ لَهُمۡ شَهَٰدَةً أَبَدٗاۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ ﴿٤﴾﴾ (٣)

---

(١) ، (٢) ، (٣) النور

الثانية من العقوبات التبعية وصفهم بالفسق ، وهذا الوصف يستمر اذا لم يتوبوا ، فالاستثناء بالتوبة انما هو من وصف الفسق ، فلا يكون التائب توبة نصوحاً فاسقاً ، بل لا يكون مذنبا ، لأن التوبة تجب الذنوب ، كما قال تعالى :

﴿ وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا ثُمَّ ٱهْتَدَىٰ ﴿٨٢﴾ ﴾ (١)

ولقد طبق رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم حد القـــذف على مسطح ، وحسان بن ثابت ، وحمنة بنت جحش ، أخت أم المؤمنين زينب بنت جحش التي منعها دينها من أن تخوض في حـــديث الافك مع أنها الضرة التي كانت تناصي عائشة رضي الله عنهما المنزلة عند رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، وكان قد نزل حد القذف من قبل .

وهنا يرد سؤال : ان الذين تحدثوا حديث الافك كانوا أكثر من ثلاثة ، فقد تناول القول به غير الثلاثة ، بل ان أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها قالت ان الذي تولى كبره عبد الله بن أبي ، فلماذا لم يقم الحد إلا على هؤلاء الثلاثة .

ونقول في الجواب عن ذلك ان النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ذكر أن هؤلاء قد صرحوا بالرمي ، ويظهر أنه قام الدليل على أنهم تكلموا ، ولم يقـم الدليل على غيرهم .

ولكن أم المؤمنين عائشة قالت ان الذي تولى كبره رأس المنافقـــين فكيف لا يحد ، وهو الآثم الأول .

وتقول في الجواب عن ذلك أنه بلا ريب هو الذي تولى كبر هذا ، بالتنبيـه على ما يسهل على غيره الرمي ، من غير أن يصرح بالرمي ، ويدس الخبـر في الناس بلحن القول من غـير تصريح ، فيحمل الناس على أن يتكلموا ، وهـو لا يظهر الكلام الا بين خاصـته الذين يشيعون الافك بتوجيه الأذهان اليه من غير أن يصرحوا ، فهم يوعزون بالقول ، ولا يظهرون ، ويدفعـون غـيرهم ، ولا يتكلمون ، وتلك خلال المنافقـــين يستترون ولا يتكلمون ، وبذلك تتحقق في غيرهم شروط اقامة الحد ، ولا تتحقق فيهم ، والله أعلم .

والقذف هو الرمي بالزنى ، سواء أكان رمياً للرجل أو المرأة .

---

(١) طه

حد اللعان

٥٠٨ ـ واللعان نزل عقب بيان حد القذف وقبل حديث الافك ، وحد القذف سببه رمي الرجل أو المرأة بالزنى اذا لم يكن بينهما عقد زواج ، أى يكون المقذوف ليس زوجاً للمقذوفة ٠

أما اللعان فانه يكون عندما يرمي الزوج زوجته، واللعان أن يحلف الزوج الرامي أربع مرات أنه صادق فيما يرمي به زوجته من الزنى أو نفى الولد منه ، والخامسة أن لعنة الله تعالى عليه ان كان من الكاذبين ، فالحلف تضمن سلبا وايجابا ، والايجاب كان بالحلف على وقوعه ، والسلب كان بالحلف باستحقاق لعنة الله ان كان كاذباً ٠

وقد ثبت بقوله تعالى بعد آية حد القذف :

﴿ وَٱلَّذِينَ يَرۡمُونَ أَزۡوَٰجَهُمۡ وَلَمۡ يَكُن لَّهُمۡ شُهَدَآءُ إِلَّآ أَنفُسُهُمۡ فَشَهَٰدَةُ أَحَدِهِمۡ أَرۡبَعُ شَهَٰدَٰتِۭ بِٱللَّهِ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٦﴾ وَٱلۡخَٰمِسَةُ أَنَّ لَعۡنَتَ ٱللَّهِ عَلَيۡهِ إِن كَانَ مِنَ ٱلۡكَٰذِبِينَ ﴿٧﴾ وَيَدۡرَؤُاْ عَنۡهَا ٱلۡعَذَابَ أَن تَشۡهَدَ أَرۡبَعَ شَهَٰدَٰتِۭ بِٱللَّهِ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلۡكَٰذِبِينَ ﴿٨﴾ وَٱلۡخَٰمِسَةَ أَنَّ غَضَبَ ٱللَّهِ عَلَيۡهَآ إِن كَانَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٩﴾ ﴾ (١)

وكان اللعان اذا كانت الزوجية قائمة وقت الرمي بالزنى بأن تكون قائمة حقيقة ، أو حكماً بأن تكون في عدة الطلاق الرجعي ٠

واختص رمي الزوج لزوجته بألا تكون شهادة أربعة ، لأنه لا سبيل لأن يحضر أربعة يشهدون واقعة زنى زوجته ، ولأن الغيظ الذي يكون عليه الزوج لا بد أن يطفأ ولو بالقول في حضرة الحاكم ٠

ولقد جاء رجل الى النبي صلى الله تعالى عليه وسلم يقول : يا رسول الله ، ان الرجل يجد الرجل مع أهله ، وان قتله قتلتموه ، وان تكلم ضربتموه ، وان سكت ، سكت على غيظ ، اللهم بين ،فنزلت آية اللعان مبينة كاشفة ٠

---

(١) النور

وانه اذا تم اللعـان فرق بين الزوجين ، فرقة أبدية عند جمهور الفقهاء ، وأجاز أبو حنيفة العودة اليها بعقـد جديد ومهر جديد اذا كذب نفسه ·

وقد قال بعض الناس في أيامنا هذه هل يطبق حد اللعان اذا رمت المرأة زوجها بالزنى ، ولم يكن عندها شهداء أربعة ·

ونقول في الجواب عن ذلك ان اللعان ورد بالنص في حال ما اذا رمى الزوج زوجته ، وكان تفصيله في الحلف أربعة وهي ايجابية ، وواحد سلبي ، أما المرأة ، فـكان أربعة سلبية وواحـد ايجابي ·

ولا يمكن ثبوت الحدود الا بالنص ،اذ أنها تدرأ بالشبهات ، فان النبي صلى الله تعالى عليه وسلم يقول : « ادرؤوا الحدود بالشبهات ما استطعتم » ·

ولا يمكن أن نثبته بالقياس ، لأن علة القياس غير ثابتة بقدر واحـد في المقيس والمقيس عليه ، اذ أن المـرأة وعاء النسل للرجل ، فمن حقه أن ينفي نسب الولد اذا كان من غـيره ، ولأن زنى المرأة أشد خطراً على الأنساب من زنى الرجل ، فليسا مشتركين في عـلة التخفيف من القذف الى اللعـان ، ولأن المرأة في بيت الرجل ، فالحكم منـه بالزنى عليها قد يكون من غير حضـور شهداء ، يشهدون ·

أما الرجل فالزنى منه في أكثر الأحوال يكون خارج المنزل ، فعلمها به ، اما أن يكون من غير بينة ، بل بالحدس والتخمين أو باخبار الناس من غـير تعيين للمخبرين ، وذلك هو الغالب ،واما أن يكون بمخبرين معينين ، وفي هذه الحال تثبت الرمي بالزنى ، ويكون حينئذ حد القذف ، وما يترتب عليه من عقوبات مادية وتبعية والله سبحـانه وتعالى هو العليم بذات الصدور ·

حد الزنى

٥٠٩ ـ الآيات تتلى واليه آية حد الزنى ، وآية حد القذف ، وآيات الافك، وهذا التوالى الكافي ينبيء عن أن يكون النزول في وقت واحد أو متقارب ، ومناسبة واحدة ٠

ونشير في هذا المقام الى أن الزنى وردت فيه آيات يبين بعضها بعضاً ،أولها قوله تعالى :

﴿وَٱلَّـٰتِي يَأْتِينَ ٱلْفَـٰحِشَةَ مِن نِّسَآئِكُمْ فَٱسْتَشْهِدُوا۟ عَلَيْهِنَّ أَرْبَعَةً مِّنكُمْ ۖ فَإِن شَهِدُوا۟ فَأَمْسِكُوهُنَّ فِى ٱلْبُيُوتِ حَتَّىٰ يَتَوَفَّىٰهُنَّ ٱلْمَوْتُ أَوْ يَجْعَلَ ٱللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلًا (١٥) وَٱلَّذَانِ يَأْتِيَـٰنِهَا مِنكُمْ فَـَٔاذُوهُمَا ۖ فَإِن تَابَا وَأَصْلَحَا فَأَعْرِضُوا۟ عَنْهُمَآ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ تَوَّابًا رَّحِيمًا (١٦)﴾ (١)

فهاتان الآيتان تفيدان أن ثمة عقوبة تخص المرأة ، وأخرى تعم الرجل والمرأة ، فأما التي تخص المرأة ، فامساكها في البيوت حتى تموت أو يجعل الله تعالى لها سبيلا بالزواج ، كما هو الظاهر الواضح ٠

وأما التي تعم الرجل والمرأة ، فهو الايذاء ، وقد جاءت السنة بعقوبة للرجل تقابل عقوبة المرأة التي تخصها ، وهو التغريب سنة ، وهذا يقابل الامساك في البيوت ٠

والايذاء لهما تبينه آية النور ، ولم تكن ناسخة ، كما جاء على أقلام كثيرين من الكتاب ، لأن النسخ لا يصار اليه الا اذا تعذر التوفيق بين النصين، والجمع هنا ممكن ، وهو واجب ، لأن كل آية تتمم الأخرى أو تبينها ، كما في الآيات الواردة في عقوبة الزنى ٠

---

(١) النساء

والايذاء المبين في سورة النور هوقوله تعالى :

﴿ ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِي فَٱجۡلِدُواْ كُلَّ وَٰحِدٖ مِّنۡهُمَا مِاْئَةَ جَلۡدَةٖۖ وَلَا تَأۡخُذۡكُم بِهِمَا رَأۡفَةٞ فِي دِينِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمۡ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۖ وَلۡيَشۡهَدۡ عَذَابَهُمَا طَآئِفَةٞ مِّنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ۝٢ ٱلزَّانِي لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوۡ مُشۡرِكَةٗ وَٱلزَّانِيَةُ لَا يَنكِحُهَآ إِلَّا زَانٍ أَوۡ مُشۡرِكٞۚ وَحُرِّمَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ۝٣ ﴾ (١)

وجاءت بعد ذلك آيات حد القذف ،ثم آيات اللعان ثم حديث الافك والبهتان الذي يصور جريمة الرمي بالزنى ،وأنها تشيع الفاحشة في الدين ،وتفسد الجماعة ، وتجعلها تعيش في مجتمع معتم بالرذيلة ، والاستهانة بها ·

ويجب التنبيه هنا الى أمرين ــ أحدهما ــ أننا لا نقول جازمين ان هذه الآيات المتعلقة بهذه الحدود ، قد نزلت كلها عقب غزوة بني المصطلق أو في أثنائها ، أو عند حديث الافك ، والذي يغلب علينا أن حد القذف والزنى قد نزل قبلها بقليل أو بكثير كما أشرنا ،ولذلك طبق حد القذف على الذين ارتكبوا ذلك الاثم ، ولا يقال انه قد طبقت عليهم عقوبة ، لم تكن ثابتة وقت ارتكابهم ما حقت عليهم بسببها ، وان العقوبات تطبق على الحوادث اللاحقة ولا تطبق على الحوادث السابقة ، كما يقرر علماء القانون الوضعي ، وان كان في ذلك القول نظر يوجب تمحيصه ·

التنبيه الثاني : أن العقوبات في الاسلام تسير سيراً ضرورياً مع منازل المرتكبين ، فتكبر العقوبة مع كبر المجرم ، وتصغر مع صغره ، لأن الجريمة مهانة ، والمهانة تهون على الصغير ، لأن نفسه مهينة في نظره ، والمهانة من ذي المنزلة أمر كبير ·

ولذلك جعل الاسلام العقوبة المقدرة على العبد نصفها اذا وقعت الجريمة من الحر ، وقد قال تعالى في شأن الاماء :

---

(١) النور

﴿فَإِذَآ أُحْصِنَّ فَإِنْ أَتَيْنَ بِفَٰحِشَةٍ فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ مَا عَلَى ٱلْمُحْصَنَٰتِ مِنَ ٱلْعَذَابِ ۚ﴾ (١)

فاذا كانت الحرة زنت تجلد مائة ،فانه اذا زنت الأمة تجلد خمسين ·

وكذلك الأمر بالنسبة للعبد ، وكذلك الأمر بالنسبة لكل الحدود ، لا فرق بين حد وحد ، وكل ذلك في العقوبات القابلة للتنصيف ·

ولقد أجمع الفقهاء على أنه يجب ما على العبد بعد تنصيفه ، فيكون السوط الذي يجلد به العبد أخف من سوط الحر ·

---

(١) النساء

الحُدَيْبيَة

٥١٠ ـ انتشر الاسلام في الصحراء العربية ، تبعه من تبعه ، وعلم بأمره الكثيرون ، وكان من الأعراب مؤمنون كما كان منهم مسلمون ، أعلنوا اسلامهم ، وان لم تؤمن قلوبهم ، وكان منهم من استمر على شركه ، ولكن صار في المسلمين قوة ولهم هيبة تجعل الذين بقوا على شركهم ينظرون الى الدعوة للتوحيد ، والايمان بمحمد صلى الله تعالى عليه وسلم على أنها ذات مكانة جعلتهم يفكرون ويقدرون ، ولا يكتفون بالرد بادي الرأي ، والانكار المطلق من غير تفكير ولا تدبير ٠

والقول المجمل أن الريب دخل قلوبهم من ناحية عبادة الأوثان ، وهم يعلمون الله تعالى بذاته وصفاته ، ولا شك أن ريبهم في أوثانهم هو الطريق لأن يدخلوا في دين الفطرة مؤمنين آمنين ، صارت الدعوة الاسلامية تملأ الآفاق ، ولم يعد أحد من الأعراب أو من لف لفهم يفكر في غزو المدينة فهي محروسة بحراسة الله تعالى ، مصونة بكلاءة الله تعالى ٠

فاذا كان النبي صلى الله تعالى عليه وسلم قد أمن غزو الأعراب ، أو أن يدخلوا في أحلاف مع أعدائه ، فقد آن له أن يتجه الى قريش الذين يناصبونه العداوة ، لا ليقاتلهم ، فهو لا يقاتل الا دفاعا ، كما رأينا في سراياه وغزواته السابقة ٠

ولكن قريشاً تعاديه والحرم المكي الشريف تحت سلطانها ، فلا بد أن يفرّغ من عداوتها ، تمكيناً للدعوة ، وتعبيداً للسبيل الى الحج ، الذي هو نسك من نسك الاسلام ، ولأنه صلى الله تعالى عليه وسلم يريد التفرغ لليهود الذين تجمعوا في خيبر ، وهم وحدهم يريدون الانقضاض على المدينة ، زاعمين أنها ديارهم أخرجهم منها ، وقتل من قتل منهم ٠

فكان لابد أن يعرف أمر قريش ،وأن يعرف أهم يسهلون له أداء فريضة الحج ، بقية ديانة ابراهيم في أرض العرب ، أم أنهم يقفون في سبيله كما وقفوا دائما لا بد أن يقرن النية بالعمل ، فذهب ليحج ، وكانت موقعة الحديبية التي سماها الله تعالى فتحاً مبيناً ، لأنها أزالت الحواجز النفسية التي كانت تحاجز بين النبي صلى الله تعالى عليه وسلم وبين قريش ، والتقى بهم الأمين الحبيب الذي عرفوه في صباه ، وشبابه ، وزالت المحاجزات بسبب الخلاف والنفور ، والحرب ٠

الحُدَيْبِيَة وخُروج قُرَيش :

٥١١ ـ في ذي القعدة سنة ست من الهجرة النبوية كما تطابقت كل الروايات ، وهي من أشهر الحج اعتزم رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ومن معه من أصحابه الحج ، وكان معه سبعمائة ، ولكن قال جابر بن عبد الله ، كان معه أربع عشرة مائة أي نحو ١٤٠٠ وهذا معقول ، فقد كان جيشه صلى الله تعالى عليه وسلم مرهباً لقريش ، وما كان يرهبها مادون الألف ، ولقد ذكر ذلك العدد ، وهو ١٤٠٠(أربعمائة وألف) البخاري وغيره ، ورقم السبعمائة لابن اسحاق ٠

خرج رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم وهم لا يريدون حرباً ، بل يريدون حجاً جامعاً ، ولكنه ما ان وصل الى عسفان حتى لقيه بشر بن سفيان الكعبي ، ويظهر أن قريشاً قد علمت أو ظنت خروج رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم وهي الحذرة المتحفزة ٠

قال بشر بن سفيان : يا رسول الله، هذه قريش قد سمعت بمسيرك ، فخرجوا معهم العوذ المطافيل قد لبسوا جلود النمور ، وقد نزلوا بذي طوى ، يعاهدون الله لا تدخلها عليهم أبداً ،وهذا خالد بن الوليد في خيلهم قد قدموا الى كراع الغميم ٠

قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم الرحيم بقومه راجياً الاسلام فيهم ، وان حاربوه ، ياويح قريش قد أكلتهم الحرب ، ماذا عليهم لو خلوا بيني وبين سائر العرب ، فان أصابوني كان ذلك الذي أرادوا ، وان أظهرني

الله تعالى عليهم دخلوا في الاسلام وافرين ، وان لم يفعلوا قاتلوا وبهم قوة فما تظن قريش ، فوالله لا أزال أجاهد ، على هذا الذي بعثني الله به ، حتى يظهره ، أو تنفرد هذه السالفة ٠

بعد هذا لم يرد النبي صلى الله تعالى عليه وسلم أن يلقى مقاتليهم ، حتى لا يسبق السيف الرأى ، وهو يريد أن يحج ، ولا يريد أن يرغمهم ، بل يريدهم مختارين ، لأن الاختيار يؤلف ، والقتال ينفر ، والاجبار بالسيف يرمض النفس ، ويكلمها ، ولا يريد عليه الصلاة والسلام كلما ، بل يريد شفاء للقلوب من غيظها ٠

ندب رجلا يخرج بالمسلمين الى طريق غير طريقهم فسار في طريق وعث، حتى وصل ثنية المراد مهبط الحديبية من أسفل مكة ٠

ولما رأت خيل قريش كروا راجعين ليكونوا بمكة والنبي صلى الله تعالى عليه وسلم بالجيش الى ثنية المراد ٠ بركت ناقته ، وكأن الله تعالى قد اختار له هذا المكان ، فلما بركت الناقة قال الناس خلأت فقال عليه الصلاة والسلام (ما خلأت) وما هو لها بخلق ، ولكن حبسها حابس الفيل عن مكة، لاتدعوني قريش اليوم الى خطة يسألونني فيها صلة الرحم الا أعطيتهم اياها ٠ قال ذلك لأنه جاء وهو الهادي الداعي الى الحق ليقرب نفوسهم بعد الحرب التي شنوها ، ومكنه الله تعالى منهم ٠

قال لجيشه انزلوا ، فقالوا : ما بالوادي ماء ، ولم يكن به ماء ، ولكن قلب مرطومة ، فأعطى النبي صلى الله تعالى عليه وسلم سهمه رجلا من رجاله ، فنزل به في قليب من تلك القلب وغرز فيه السهم ، فجاس النبي صلى الله تعالى عليه وسلم للرواء حتى شرب الناس ٠

المراسلة بين الفريقين :

٥١٢ ـ كان مع النبي صلى الله تعالى عليه وسلم جيش قوي ، ولم تكن مكة على استعداد للحرب ، ولو أراد أن يدكها بجيشه دكا لفعل ، ولكنه أتى للحج ، وليطفىء حربا ، وليبر رحما ، ويزيل نفرة ، وليذهب بوحشة الحروب التي خلفتها ٠

ولذلك أعلن المسالمة وارادة الحجمن غير أن يقهرهم أو يذلهم •

جاء اليه بديل بن ورقاء مع رجال من خزاعة فكلموه صلى الله تعالى عليه وسلم ، وسألوه ما الذي جاء به ، فأخبرهم رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم أنه ما جاء يريد حربا ، وانما جاء زائراً للبيت ومعظما لحرمته ، وقال ما قاله من قبل لغيره •

رجعوا الى قريش ، فقالوا لهم : يامعشر قريش ، انكم تعجلون على محمد وان محمداً لم يأت لقتال ، انما جاء زائراً لهذا البيت ، فاتهموهم وجابهوهم•

وقالوا وان جاء لا يريد قتالا ، فوالله لا يدخلها علينا عنوة ولا تحدث بذلك العرب ، ولكنهم مع هذه العنجهية لم يزيلوا ما بينهم وبين النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، فأرسلوا له مكرز بن حفص بن الأخيف أخا بني عامر بن لؤي ، فقال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم لما رآه مقبلا ، هذا رجل غادر ، وقد كلمه رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم بأنه ما جاء للقتال ، ولكن لزيارة البيت •

ومع أن قريشاً لا تريد حتى زيارة البيت أرسلت بحليس بن علقمة ،وكان يومئذ سيد الأحباش الذي كانوا يعينونهم في القتال فلما رآه النبي صلى الله تعالى عليه وسلم قال عليه الصلاة والسلام : انه من قوم يتألهون أي يذعنون لظاهر العبادة فابعثوا الهدي في وجهه حتى يراه ، فلما رأى بسيل عليه من عرض الوادى من قلائد أشعرت بأنه هدي للحج ، قد أكل أوباره من طول الحبس عن محله •

اكتفى حليس بالنظر الى الهدي عن المحادثة ، فرجع الى قريش ولم يصل الى رسول اعظاما لما رأى حديثهم بما رأى ، فقالوا له اجلس ، فانما أنت أعرابي لا علم لك •

غضب الحليس عند ذلك ، وقال :

يا معشر قريش ، والله ما على هذا حالفناكم ، ولا على هذا عاقدناكم ، أتصده عن بيت الله تعالى من بعد ما جاء معظما له ، والذي نفس الحليس بيده لتخلن بيد محمد وبين ما جاء له ، أو لأنفرن بالأحابيش نفرة رجل واحد •

فقالوا لحليس مه،كف عنا يا حليس حتى نأخذ لأنفسنا ما نرضى به ٠

ما زالوا طامعين في أن يكون لهم من النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ما يرضيهم من غير أن يقاتلوه ، فأرسلوا اليه عروة بن مسعود الثقفي ، وقد ذكر لقريش أنه منهم بمنزلة الولد ، لأن آمه كانت من بنت عبد شمس ، وقد ذكر من جاء اليهم بعد لقائه النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، أنهم لقوه بالتعنيف وسوء الحظ كما قالوا لبديل الخزاعى ، وكما قالوا للحليس سيد الأحباش ، تبين أن صلتهم به وثيقة ،وأنه سيكون أميناً في رسالته مع رغبته في نصرتهم ، وقال في ذلك«قد سمعت بالذي نابكم ، فجمعت من أطاعني من قومي ثم جئتكم حتى آسيتكم ، بنفسي ، قالوا صدقت ما أنت عندنا بمتهم ٠

خرج مسعود هذا ، وقد اطمأن الى ثقتهم به ، حتى أنى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ثم قال جمعت أوشاب الناس ، ثم جئت بهم الى بيضتك لنقضها (أي يكسرها) بهم ، انها قريش قد خرجت معها العوذ المطافيل (١) قد لبسوا جلود النمور ،يعاهدون الله لا تدخلها عليهم عنوة أبدا ، والله لكأنى بهؤلاء قد انكشفوا عنك غداً ٠

وكان أبو بكر رضى الله عنه خلف النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، فقال له أنحن ننكشف عنه ٠

ثم جعل يتناول لحية رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، وهو يكلمه مما يدل على جرأته وصلفه وخشونته وعبثه ٠

وكان المغيرة بن شعبة واقفاً على رأس النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، وهو بالحديد ، فكلما مد يده الى لحية النبي صلى الله تعالى عليه وسلم يقرع يده ، ويقول : اكفف يدك عن وجه رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم قبل ألا تصل اليك أى تقطع فلا تصل اليك ٠

---

(١) العوذ المطافيل : النوق التى معها أولادها ،والعوذ جمع عائذ وهى هنا الناقة أى الناقة ذات الاطفال٠

قال عروة الغليظ الجافى للمغيرة بن شعبة ما أفظك ، وما أغلظك ؟ فتبسم رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ·

رد رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم بنحو مما كلم به من سبقوه بأنه لا يريد القتال ، ولكن يريد زيارة البيت الحرام ·

قام عروة بن مسعود الثقفي من عند رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، وقد رأى ما يصنع به أصحابه ، وعاد الى قريش يقول لهم ·

« يا معشر قريش ، اني قد جئت كسرى في ملكه ، وقيصر في ملكه ، والنجاشي في ملكه ، واني والله ما رأيت ملكا في قوم قط ، مثل محمد في أصحابه ، ولقد رأيت قوما لا يسلمونه لشيء أبداً فروا رأيكم » ·

كان كل الرسل الذين يرسلونهم يؤكدون لهم أن محمداً صلى الله تعالى عليه وسلم ما جاء لقتال ، بل جاء حاجا ، ويريد أن يصل الرحم التي قطعوها ·

غدر وعفو :

٥١٣ ـ غدر من جانب قريش ، وعفو من جانب محمد صلى الله تعالى عليه وسلم ، فانه في الوقت الذي تأكد لهم أن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ما جاء مقاتلا ، لأنه جاء محرما وساق الهدي ، ولأنه في الشهر الحرام ، لأنه جاء يطلب المودة ، ولا مودة في قتال ، في هذا الوقت فكرت قريش في الاعتداء ، فانه روي عن ابن عباس أنهم بعثوا أربعين أو خمسين رجلا منهم ، وأمروهم أن يطيفوا بعسكر رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ليصيبوا من أصحابه أحداً ·

فأخذ أولئك أخذاً ، وسيقوا الى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، وكانوا قد رموا المعسكر بالحجارة والنبل ، وكان للنبي صلى الله تعالى عليه وسلم أن يأخذهم رهائن أو نحو ذلك ، ولكن الرسول الكريم قد عفا عنهم ·

تبادل الرسل مع الرسول :

٥١٤ ـ كانت الرسل يجيئون الى النبي صلى الله تعالى عليه وسلم من قبلهم ، ومنهم من ينقل الأمر كما هو ، وربما كان منهم من يحرف في القول ، والنبي صلى الله تعالى عليه وسلم يريد أن يوجه الخطاب اليهم برسول يرسله

اليهم ، يتعرف أحوالهم وما تطويه نفوسهم ، وما يقدر عليه ويفعله من بعد ذلك يكون عن بينة .

اتجه النبي صلى الله تعالى عليه وسلم الى الفاروق عمر بن الخطاب ، وهو نعم الرسول ، وقد كان في الجاهلية يقوم ببعض أعمال السفارة بين القبائل ، وبين العرب وغيرهم ، ولكن عمر ببطشه وقوته على الشرك ، كان يعمل حساب لقائه معهم ، وقد يحبسونه ، فلا يؤدي حق السفارة التي اختاره لها النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، ولذا قال غير راد لأمر رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، ولكن يعرض الأمر عليه ، قال : يا رسول الله ، انى أخاف قريشاً على نفسي ، وليس بمكة من بني عدي بن كعب أحد يمنعني ، وقد عرفت قريش عداوتي اياها ، وغلظتي عليها ولكن أدلك على رجل أعز بها مني ، عثمان بن عفان ، فدعا رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم عثمان بن عفان ، فبعثه الى أشراف قريش ، وأبي سفيان ، يخبرهم أنه لم يأت لحرب ، وانما جاء زائراً لهذا البيت معظما لحرمته .

ذهب عثمان الى مكة للقيام بهذه السفارة ، وهو الرجل الذي لا عنف فيه ، وهو أموي له عصبة من بني أمية تمنعه وتجيره .

وقد التقى أول ما التقى بابان بن سعيد بن العاص الأموي حين دخل مكة أو قبل أن يدخلها ، وهو في طريقه اليها ، فلقيه لقاء المحبة بسبب الرحم ، ولأن عثمان رضى الله عنه كان رفيقاً ودوداً ، وحمله بين يديه ، وأجاره ، بأن جعله في جواره ، وذلك يوجب عليه حمايته ، واستمر في جواره حتى بلغ رسالة رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم .

انطلق عثمان ، حتى أتى أبا سفيان وعظماء قريش ، فبلغهم رسالة النبي صلى الله تعالى عليه وسلم وسلمها اليهم ، وأنه ما جاء للقتال ، وانما جاء زائراً للبيت معظما لحرمته .

وقد قبلوا كلامه من غير استنكار ولا رد ، ورحبوا بعثمان رضي الله عنه ، وعرضوا عليه أن يطوف بالبيت آمناً مطمئناً .

ولكن عثمان أبى أن يطوف ، ورسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم غير ممكن من الطواف ، فقال ذو النورين التقي عثمان : ما كنت لأطوف حتى يطوف رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم .

وبذلك أدى عثمان رسالة النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، ولكنهم استبقوه، لا ليؤذوه ، ولعل ذلك لاستشارته أو الاستفسار منه ، أو ودا محبة ، أو حفاوة وتكريماً .

وعندئذ راجت الأقوال بين المسلمين بأن عثمان قتل ، وتبلبلت الأفكار واضطربت النفوس ووجدت عزمة القتال ، ولم يكن مرادا ابتداء ولا مقصوداً .

بيعة الرضوان

٥١٥ ـ خرج النبي صلى الله تعالى عليه وسلم وأصحابه من المدينة يريدون الحج ولم يريدوا قتالا ، ولما غاب عثمان رضى الله عنه في مكة ، وشاعت القالة بأنه رضى الله تعالى عنه قد قتل ، ولم يكن ذلك بعيد الاحتمال ، أخذ أهبته للقتال لأن الاعتداء وقع بقتل الرسول، وهو رسول سلام ، وهذا أمر منكر وقبيح في ذاته ، وفوق ذلك يتضمن في ذاته رفض للسلام واعتداء على من أرسله ، اذ الرسول لا يقتل ، ولكن يرد الى مأمنه ، سواء أرفضوا الرسالة أم قبلوها ٠

لابد اذن من الأهبة ، وما خرجوا للقتال ، فلا بد من أخذ البيعة به ، لأن القتال برضا الجند ، وتلك سنة نبوية في كل حروبه عليه الصلاة والسلام فانه يريد جنداً مختاراً يقدم بنفسه برضا واختيار ، محتسباً النية لله تعالى٠ طالباً ما عند الله ٠

لذلك أخذ البيعة على من معه ،وكان يبايعهم على الموت ، وعلى ألا يفروا من الميدان ، لأن الرسول صلى الله تعالى عليه وسلم قرر القتال ، وقال : لانبرح حتى نناجز القوم ، لأنهم بقتلهم ذا النورين عثمان يكونون قد رفضوا السلام٠

كانت بيعة الرضوان تحت الشجرة، فبايع رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم كل من معه ، ولم يتخلف عن البيعة أحد الا واحد ، وما كان ليلتفت اليه ٠

ولقد رضى الله عن أولئك الذين قبلوا أن يغيروا ملابس الاحرام ويلبسوا ملابس القتال ، وقال الله تعالى فيهم :

﴿ لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ
فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا (١٨) وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا
حَكِيمًا (١٩) وَعَدَكُمُ اللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا فَعَجَّلَ لَكُمْ هَٰذِهِ وَكَفَّ أَيْدِيَ النَّاسِ
عَنْكُمْ وَلِتَكُونَ آيَةً لِلْمُؤْمِنِينَ وَيَهْدِيَكُمْ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا (٢٠) وَأُخْرَىٰ لَمْ تَقْدِرُوا عَلَيْهَا قَدْ
أَحَاطَ اللَّهُ بِهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا (٢١) وَلَوْ قَاتَلَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوَلَّوُا الْأَدْبَارَ ثُمَّ
لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا (٢٢) سُنَّةَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلُ وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا
(٢٣) وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُمْ بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنْ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ
وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا (٢٤) ﴾ (١)

وهكذا رضى الله تعالى عن أهل بيعة الرضوان ، ووهبهم سبحانه وتعالى من بعد ذلك مغانم كثيرة ، وبين سبحانه وتعالى أن أول هذه المغانم أن كف أيديهم عنكم ، فكانت هذه غنيمة عاجلة ،وكان هذا فتحاً مبيناً ، كما سنذكر ذلك ان شاء الله تعالى .

(١) الفتح

عقد صلح على هدنة

٥١٦ ـ اقتنعت قريش بأن محمداً صلى الله تعالى عليه وسلم ، ما جاء لقتال ، وقد عادت القضب الى أجفانها بعد أن عاد عثمان رضي الله عنه ، واطمأنت القلوب ، وعادت رغبة السلام وعزمته الى محمد صلى الله تعالى عليه وسلم ، وهو يريد خطة تمنع القتال ، وتحفظ الحرمات ٠

بعثت قريش سهيل بن عمرو من بني عامر بن لؤي ، وقالوا له ائت محمداً فصالحه ولا يكن في صلحه ، الا أن يرجع عنا عامه هذا ، فوالله لاتحدث العرب عنا أنه دخلها علينا عنوة أبداً ٠

ولا شك أن هذا شرط ، (كما يقول علماء القانون) تعسفي وتحكمي ، ولكن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم الرؤوف الرحيم ، كما وصفه رب العزة ، لم يمانع في قبول ذلك ، وانضج أصحابه بالرفض ، وهم لا يعلمون ما يعلم النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ،وما توجبه الرسالة ، وتحتمه الدعوة الى الاسلام ، فما كانت دعوة الاسلام رهباً، بل كانت رغباً ، وما كانت بالسيف بل كانت بالموعظة الحسنة ٠

اجتمع سهيل مع النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، وتم الاتفاق المبدئي على ما اشتمل عليه من التزامات ، خلاصتها :

أولا : لا يزور المسلمون البيت حاجين هذا العام ٠

ثانياً : وضع الحرب عشر سنين ٠

ثالثاً : أن من خرج من مكة الى المدينة يرده النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، ومن عاد الى مكة مرتداً لا ترده مكة الى النبي صلى الله تعالى عليه وسلم٠

رابعاً : من أراد أن يدخل في عهد محمد صلى الله تعالى عليه وسلم دخل والتزم بالتزامه ، ومن أراد أن يدخل مع قريش دخل ، والتزم بالتزامهم ٠

لما تم الاتفاق الشفوي وقف عمر رضى الله عنه غضبان أسفاً ، وقال لأبى بكر : « يا أبا بكر أليس حقا برسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم : قال أبو بكر : بلى ، قال أو لسنا بالمسلمين ،قال بلى • قال أو ليسوا بالمشركين ؟قال بلى • قال فعلام نعطي الدنية في ديننا،فقال أبو بكر رضى الله عنه : يا عمر ، الزم عزراء أي أمره فاني أشهد أنه رسول الله ، فقال عمر وأنا أشهد أنه رسول الله » •

ثم أتى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، فقال : يا رسول الله ، ألست رسول الله !! قال بلى ، قال أو لسنا بالمسلمين !! قال بلى ، قال أو ليسوا بالمشركين !! قال بلى • قال الفاروق : علام نعطى الدنية في ديننا، قال الرسول الرفيق الأمين : أنا عبد الله ورسوله ، لن أخالف أمره ، ولن يضيعنى •

عندئذ سكن عمر رضى الله عنه ، وعلم أنه أمر الله تعالى ، فسكت عنه الغضب ، وكان ذا نفس لوامة ، فندم على ما كان منه من قول ، وكان يقول : ما زلت أتصدق وأصوم وأصلى ، وأعتق من الذي صنعت يومئذ مخافة كلامي •

كتابة الصلح :

٥١٧ ــ تم الاتفاق على ما تشتمل عليه الوثيقة ، ثم دعا النبي صلى الله تعالى عليه وسلم علي بن أبي طالب رضى الله تعالى عنه ، فقال : اكتب : بسم الله الرحمن الرحيم ، فاعترض سهيل بن عمرو ممثل المشركين عند كتابة العهد ، وقال : لا أعرف هذا ولكن اكتب باسمك اللهم ، فقال النبي صلى الله تعالى عليه وسلم اكتب باسمك اللهم ، فكتبها ، ثم قال اكتب هذا ما صالح عليه مخمد رسول الله سهيل بن عمرو ، فاعترض أيضا سهيل ، وقال لو شهدت أنك رسول الله لم أقاتلك ،ولكن اكتب اسمك واسم أبيك • فقال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم اكتب هذا ما صالح عليه محمد بن عبد الله سهيل بن عمرو :

١ ــ اصطلحا على وضع الحرب عن الناس عشر سنين يأمن فيهن الناس ، ويكف بعضهم عن القتال ، على أنه من أتى محمداً من قريش بغير اذن وليه رده عليهم ، ومن جاء قريشاً ممن مع محمد لم يردوه عليه •

٢ ـ وان بيننا عيبه مكفوفة (أي لا عداوة) وأنه لا اسلال ولا اغلال (لا سرقة ولا خيانة) ٠

٣ ـ وأنه من أحب أن يدخل في عقد محمد وعهده دخل فيه ، ومن أحب أن يدخل في عقد قريش وعهدهم دخل فيه ٠

وقد شهد على العقد بعض المشركين، ومن المسلمين أبو بكر وعمر ، وعلي ابن أبي طالب ، وسعد بن أبي وقاص،وعبد الرحمن بن عوف ٠

وبعد تمام العهد تواثبت خزاعة ،فقالوا نحن في عقد محمد وعهده ، وتواثبت ، بنو بكر ، فقالوا نحن في عقد قريش وعهدهم ٠

هذا ما كتب في العقد ، وكان هناك أمر عملي توجب قريش تنفيذه ، وقد رضيه النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ٠فقد قالوا تتميما للعهد ، وانك ترجع عنا عامك هذا لا تدخل علينا مكة ،وأنه اذا كان عام قابل خرجنا عنك ، فدخلتها بأصحابك فأقمت فيها ثلاثاً ،ومعكُ سلاح الراكب : السيوف في القرب لا تدخلها بغيرها ٠

قبل رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، وآثرها ، مع ما فيها من شطط المشركين ، لأنه يريد سلاماً ، وأن معه جيشاً لا قبل لقريش به ، وكان يستطيع أن يقاتل ، والحجة قائمة عليهم ،ولكنه النبي المسالم الذي يعظ بالحكمة ويدعو بالرفق ، وليس غليظ القلب ٠

أبو جندل :

٥١٨ ـ وبينما هم في مجلس الصلح لم يفارقوه ، بل لم يتموا كتابته اذ جاء أبو جندل بن سهيل بن عمرو الذي يمثل المشركين عند كتابة العقد ، جاء وهو يرسف في الحديد ، فلما رأى سهيل أبا جندل ، قام اليه ، فضرب وجهه وأخذ بتلبيبه ، ثم قال يا محمد قد لجت القضية بيني وبينك قبل أن يأتيك هذا ، وهذا أول من أقاضيك عليه ،فقال النبي صلى الله تعالى عليه وسلم انا لم نقض الكتاب بعد ، قال سهيل فوالله اذن لم أصالحك على شيء ، وقد جاء في البخاري مع هذا الكلام أن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم قال : فأجزه

لي ، قال ما أنا بمجيزه لك ، قال بلى فافعل ، قال ما أنا بفاعل ، وقال بعض الحاضرين المشركين قد أجزناه لك ، ولكن سهيلا هو وليه ٠

قال أبو جندل أى معشر المسلمين أرد الى المشركين وقد جئت مسلما ألا ترون الى ما قد لقيت ، وقد جاء في رواية ابن اسحاق أنه وثب عمر بن الخطاب مع أبي جندل يمشى الى جانبه ، ويقول أصبر يا أبا جندل ، فانما هم المشركون ، وانما دم أحدهم دم كلب ، ويدني قائم السيف منه ، ويقول عمر رجوت أن يأخذ السيف ، فيضرب به أباه ، فضن الرجل بأبيه ، وذهبت القضية ٠

والنبي يمضي في عقده ، مع ما أثاره في نفسه ونفوس المؤمنين مجيء أبي جندل يرسف في قيوده ، وقال لأبى جندل اصبر واحتسب ، فان الله جاعل لك ، ولمن معك من المستضعفين فرجا ومخرجا ، انا قد عقدنا بيننا وبين القوم صلحا ، وأعطيناهم على ذلك وأعطونا عهد الله ، وانا لا نغدر بهم ٠

مع تلك الكلمات التي تلقى بروح الصبر والاطمئنان في قلب أبي جندل كانت الثائرة تغل في قلوب المسلمين ، ولكن لا يتكلمون احتراما لمقام العهد ، ولأن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم قال انه لا يخالف أمر ربه ، ولكن عمر الفاروق ثار بالقول مرة أخرى ، يقول: ألسنا على الحق وعدونا على الباطل ، قال : بلى قال فلم نعطى الدنية في دينناإذن ، فقال النبي صلى الله تعالى عليه وسلم : أعطيها وهو ناصري ٠

قال عمر : أو لست كنت تحدثنا أننا سنأتى البيت فنطوف به ، قال : بلى: أفأخبرتك أنا نأتيه هذا العام فانك آتيه ومطوف به ، وهذه رواية البخاري ، وقد جمعنا بينها وبين رواية ابن اسحاق ، فقدرنا أن عمر قالها مرتين وهو مظهر غضب المؤمنين مع طاعتهم ورضاهم بما حكم صلى الله تعالى عليه وسلم استجابة لأمر ربه ٠

التحلل من الإحرام :

٥١٩ ـ كان لابد أن يتحلل المسلمون من احرامهم ، على أن يؤدوا عمرة في عام آخر ، وذلك بأن يقصروا شعرهم أو يحلقوه ، وقد دعاهم النبي

صلى الله تعالى عليه وسلم أن يحلقوا رءوسهم وينحروا ، وابتدأ هو فحلق ، وحلقوا وقصروا من بعده ، وهذه رواية ابن اسحاق بسنده ٠

ولكن روي في البخارى أنه قال لأصحابه رضي الله عنهم لأنهم جميعا أهل بيعة الرضوان ، قال لهم قوموا فانحروا ثم احلقوا ، فوالله ما قام منهم رجل حتى قال ذلك ثلاث مرات ٠

فلما لم يقم منهم دخل على أم سلمة،وكانت معه في هذه الغزوة فذكر مالقى من الناس ، فقالت أم سلمة بعاطفةالمحبة لرسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، والعاطفة الشريفة تنطق بالحق أحيانا قالت أم سلمة : يا نبي الله ، أتحب ذلك ، أخرج ، ثم لا تكلم أحداًمنهم كلمة ، حتى تنحر بدنك ، وتدعو حالقك ، فيحلقك ، فخرج ، فلم يكلم أحداً منهم ، حتى فعل ذلك ، ثم نحر بدنه ، ودعا حالقه فحلقه ٠

فلما رأوا ذلك قاموا فنحروا ، وجعل بعضهم يحلق بعضا ، حتى كاد بعضهم يقتتل بعضا غما لعصيانهم ابتداء ، وهذه رواية البخاري ، وقد كان فيها خبر الحلق وخبر النحر معاً ،وقصةالنبي مع أم سلمة رضي الله عنها ،وان هذا التفصيل زاد به البخاري عن ابن اسحاق ، وزيادة الثقة مقبولة في ذاتها٠

أحكام ثبتت في الحديبية

٥٢٠ - بعد صلح الحديبية جاء نسوة الى النبي صلى الله تعالى عليه وسلم مؤمنات مهاجرات ، ولم يردهن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، لأنهن لم يشملهن العهد ، الذي يوجب رد من يجيء مسلما من غير ولي أمره ، في هذا جاء النص الذي يحرم بقاء المسلمة في عصمة كافر سواء أكان كتابيا أم كان من المشركين ، ولذا قال تعالى :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا جَآءَكُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتُ مُهَٰجِرَٰتٍ فَٱمْتَحِنُوهُنَّ ۖ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَٰنِهِنَّ ۖ فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَٰتٍ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى ٱلْكُفَّارِ ۖ لَا هُنَّ حِلٌّ لَّهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ ۖ وَءَاتُوهُم مَّآ أَنفَقُواْ ۚ وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ أَن تَنكِحُوهُنَّ إِذَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ ۚ وَلَا تُمْسِكُواْ بِعِصَمِ ٱلْكَوَافِرِ وَسْـَٔلُواْ مَآ أَنفَقْتُمْ وَلْيَسْـَٔلُواْ مَآ أَنفَقُواْ ۚ ذَٰلِكُمْ حُكْمُ ٱللَّهِ ۖ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ ۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٠﴾ وَإِن فَاتَكُمْ شَىْءٌ مِّنْ أَزْوَٰجِكُمْ إِلَى ٱلْكُفَّارِ فَعَاقَبْتُمْ فَـَٔاتُواْ ٱلَّذِينَ ذَهَبَتْ أَزْوَٰجُهُم مِّثْلَ مَآ أَنفَقُواْ ۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِىٓ أَنتُم بِهِۦ مُؤْمِنُونَ ﴿١١﴾ ﴾ (١)

وقد قال الحافظ ابن كثير ، جاءت نسوة مؤمنات ، فأنزل الله تعالى :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا جَآءَكُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتُ مُهَٰجِرَٰتٍ فَٱمْتَحِنُوهُنَّ ۖ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَٰنِهِنَّ ۖ فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَٰتٍ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى ٱلْكُفَّارِ ۖ لَا هُنَّ حِلٌّ لَّهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ ۖ وَءَاتُوهُم مَّآ أَنفَقُواْ ۚ وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ أَن تَنكِحُوهُنَّ إِذَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ ۚ وَلَا تُمْسِكُواْ بِعِصَمِ ٱلْكَوَافِرِ ﴾ (٢)

---

(١)،(٢) الممتحنة

فطلق عمر بن الخطاب امــــرأتين كانتا في الشرك ، فتزوج احــداهما معاوية ابن أبي سفيان ، والأخـــرى صفوان بن أمية ، ثم رجع النبي صلى الله تعالى عليه وسلم الى المدينة ٠

قال ذلك ابن كثير في سرد ما كان في الحديبية ، ولذلك قلنا ان تحــريم زواج المسلمة بغير المسلم ، وزواج المسلم بالمشركة جاء في الحديبية بعـد امضاء الصلح ٠

وهذه الآية تدل على ثلاثة أمور :

أولها ـ أن المسلمة لا تجوز للكافر سواء أكان كتابياً أم كـــان مشركاً ، والكتابي كافر لا كما أوهمت كتـــابة المحدثين ممن لا يمحصون الحقائــق ، ويقولون ما يقولون مجاملة ، أو موادة للنصارى الذين لا يوادون المسلمـــين فالنصراني كافر بمحمد وبما نزل على محمد ، وبالوحدانية ، واليهودي كافر بالقرآن ومحمد ، ووصف الله في القرآن اليهود والنصارى بأوصاف الـكفر فقال تعالى :

﴿ لَّقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا إِلَٰهٌ وَاحِدٌ ﴾ (١)

وقال تعالى : بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ مُنفَكِّينَ حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ ﴿١﴾ ﴾ (٢)

والذين يجيزون زواج المسلمة بغير المسلم قد خرجوا على اطار الاســلام ، لأنهم أنكروا القرآن وأنكروا أمـــراً معروفاً من الدين بالضرورة ، وأجمع عليه المسلمون ٠

وتدل ثانياً على أن المسلم لا يجوز أن يتزوج مشركة ، ومن كان عنـــده مشركة فليفارقها ، وقد فهم ذلك الامام عمر رضى الله تبارك وتعالى ففارق

---

(١) المائدة (٢) البينة

امرأتين كانتا تحته ، وهما مشركتان ،وأخذ ذلك من النهي في قوله تعالى :

﴿ وَلَا تُمْسِكُوا۟ بِعِصَمِ ٱلْكَوَافِرِ وَسْـَٔلُوا۟ مَآ أَنفَقْتُمْ وَلْيَسْـَٔلُوا۟ مَآ أَنفَقُوا۟ ۚ ذَٰلِكُمْ حُكْمُ ٱللَّهِ ۖ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ ۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٠﴾ ﴾ (١)

أي لا تتمسكوا بزواج الكافرين انكان بينكم وبينهن زواج ، لأن الكوافر جمع كافرة ، لا جمع كافر ، اذ لا يجمعوصف العاقل الذي يكون على وزن فاعل على فواعل ، ولكن تجمع فاعلةعلى فواعل ، كفاطمة وفواطم ، وقافلة وقوافل ، وأريد المشركات ، لأنه الذييتفق مع اباحة الكتابيات بقوله تعالى :

﴿ وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ ﴾ (٢)

وتدل ثالثاً ــ على أن العدالة توجبعند فسخ الزواج بهذا الحكم الشرعي، أن يرد الى الأزواج المشركين ما أنفقواعلى أزواجهن اللائي انفسخ زواجهن بالاسلام ، فيرد اليهم الصداق ، لأنالفسخ كان بحكم الاسلام يعد من قبل الزوجة ٠

وفي مقابل ذلك من ينفسخ زواجهامن المشركات بحكم اسلام أزواجهم عليهم أن يردوا الى المؤمنين ما أنفقوامن أموال ، في هذه الزيجة ، وذلك لأن امتناعهن عن الدخول في الاسلام ،وقد دخل الزوج في الاسلام يعد تفويتاً لحقه فوجب التعويض عما أنفق ، لأنسبب الفرقة من جانبها ٠

وان المسلمين يستجيبون لحكم الاسلام ، فيردون ما وجب من اعطاء ما أنفق هؤلاء ، لأنه مما يؤدى اليهعقد المسالمة وما تؤدى اليه العدالة التي هي خاصة الاسلام مع العدو والولي علىسواء ، لقوله تعالى :

﴿ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُوا۟ ۚ ٱعْدِلُوا۟ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ۖ ﴾ (٣)

---

(١) الممتحنة (٢) ، (٣) المائدة

ولكن لا يضمن أهل الايمان أن يؤدي المشركون ما يجب عليهم اذا انفسخ الزواج بين المشركة والمسلم ، ولذلك فرض القرآن الكريم أنهم لا يدفعون ، والحكم في هذه الحال أن يؤخذ مما يجب اعطاؤه للمشركين مما أنفقوا ، ويسدد للمؤمنين الذين استحقوا ما أنفقوا ، ولم يؤد اليهم حقهم .

ويفهم من أن بيت مال المؤمنين هو الذي يؤدي ما أنفق المشركون في الزيجة التي فسخت بحكم اسلام الزوج ، لأن ذلك تنفيذ لحكم شرعي عام ، ولأنه ما يوجبه روح العهد الذي عقد في الحديبية .

وان المشركين يجب عليهم مجتمعين أن يؤدى للمؤمنين ما أنفقوا في الزواج الذي فسخ للاصرار على الشرك ، فاذا لم يؤد أخذ حق المؤمن من مجموع ما كان يجب على المؤمنين ، هذا تفسير قوله تعالى :

﴿ وَإِن فَاتَكُمْ شَيْءٌ مِّنْ أَزْوَاجِكُمْ إِلَى الْكُفَّارِ فَعَاقَبْتُمْ فَآتُوا الَّذِينَ ذَهَبَتْ أَزْوَاجُهُم مِّثْلَ مَا أَنفَقُوا ﴾ (١)

وقد أخذنا المعنى في تفسير هذه الآية من تفسير الحافظ بن كثير لهذه الآيات .

وان هذا الحكم يفيد بطريق الاشارة الى أن سبب التفريق ان كان من جانب الزوجة يجب عليها أن ترد ما أنفق الزوج بالمعروف ، وتقدير المعروف للقاضي ، كما كان تقدير ذلك في عصر النبي صلى الله تعالى عليه وسلم لأمر المؤمنين ، وبمقتضى تلك الاشارة : اذا أسلم زوج من لا دين لها ، ولم ترض الدخول في دين كتابي أو الاسلام ، فانه يجب عليها أن ترد ما أنفق زوجها ، أو ما خسر بسبب امتناعها عن الدخول في دين سماوي .

تنبيهات :

٥٢١ – الأول : أن هذه الأحكام الفقهية أخذت من نص الآية ، وتفسيرها الذي يعد من التفسير بالآثار وهو تفسير الحافظ بن كثير ، ولم ترجع الى كتب الفقه التي اختلفت فيها ، ولا نقول ان هذه الأحكام منسوخة فانا لا نعلم

---

(١) الممتحنة

لها ناسخا ولأنا نقول ان القرآن ليس فيه منسوخ وخصوصا في الأحكام الفقهية ٠

الثاني : أن أكثر المحدثين ذكر أن هذه الآيات نزلت والنبي صلى الله تعالى عليه وسلم لم يغادر الحديبية ، فقد قال أبو ثور : أنزلت هذه الآية على رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ،وهو بأسفل الحديبية حين صالحهم على أنه من أتاه منهم رده اليهم ، فلما جاء النساء نزلت هذه الآية ، وأمره أن يرد الصداق الى أزواجهن ، وحكم على المشركين اذا جاءتهم امرأة من المسلمين (أي كانت تحت مسلم)وبقيت على شركها أن يردوا الصداق الى أزواجهن ٠

التنبيه الثالث : أنه لم يكن ذلك الحكم هو الوحيد الذي كان في غزوة الحديبية ، وان كان ثبوت هذا الحكم بالنفي ، بل هناك أحكام أخرى ثبتت بعمل رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، فقد كانت ثمة أحكام فقهية كثيرة ثبتت من عمل النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، قد عقد لها ابن القيم في كتابه « زاد المعاد في هدي خير العباد » فصلا قائما بذاته فلنتبعه في ذلك ٠

أحكام فقهية أخرى :

٥٢٢ ـ نشير هنا الى بعض ما ذكره ابن القيم ٠

١ ـ منها أن الاحرام بالعمرة في أشهر الحج يجوز ويصح ، ويلزم الاستمرار فيه ، وأن الاحرام بالعمرة وان كان يجوز من غير مواقيت الاحرام، وهي الأماكن التي خصها النبي صلى الله تعالى عليه وسلم بأن المسافر عليه أن يحرم بالحج قبل اجتيازها ، غير أن الاحرام من الميقات للعمرة أفضل ،فانه صلى الله تعالى عليه وسلم أحرم بها من ذي الحليفة ، كما أحرم بالحج ٠

٢ ـ ومنها أن اشعار الهدي سنة وأنه لا مثلة فيه ، وذلك بأن يحدث في حسمه عند سوقه ما يدل على أنه مخصص للذبح في مكة ، وبالتالي فان سوق الهدي للعمرة سنة في ذاته عند الاحرام ، وان النبي ساق الهدي وأشعره ، وكان في جملة ما ساق من هدي جمل لأبي جهل كان من أنفال

بدر ، وان ذلك كان مغايظة للمشركين،وهذا يدل على أن غيظ المشركين ليفل من حدة سلطانهم ، ولاثبات أن كلمة الله هي العليا ، وأن العاقبة للمتقين ، وأن الله سبحانه وتعالى . قال :

﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَطَئُونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ الْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُم بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ إِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴿١٢٠﴾ ﴾ (١)

ومنها جواز الاستعانة بالمخلص من غير المسلمين اذا كان في الاستعانة به فائدة ولا ريب فيه ، ولا مظنة لأن يترتب على الاستعانة ايذاء ، من أي نوع كان ، والا يمنع سدا للذريعة وذلك لأن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم استعان بعيينة الخزاعي ، وكان كافرا ، وجعله عينا على المشركين وكان أقرب الى أن يعرف أحوالهم ، لاختلاطه بهم ، والمصلحة في ذلك ، ولا ضرر . والحق في هذه القضية أن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم لم يستعن به ابتداء ، بل انه هو الذي قدم معلوماته وان خزاعة مسلمهم ، وكافرهم كانوا على مودة بالنبي صلى الله تعالى عليه وسلم . ولذلك عندما تم العهد بين النبي صلى الله تعالى عليه وسلم وبين قريش دخلوا في عهده ولم يدخلوا في عهد قريش كبني بكر ، ورد النبي صلى الله تعالى عليه وسلم للمشركين عهدهم عندما عاونوا بني بكر على خزاعة واستعد لفتح مكة .

وذكر ابن القيم أن من الأحكام الفقهية التي ظهرت في الحديبية استحباب مشورة الامام رعيته وجيشه استخراجا لوجه الرأي وأمنا لطاعتهم ، وتعرفا لمصلحة يختص بها بعضهم دون بعض ، واستجابة لأمر الله في قوله تعالى :

﴿ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ ﴿١٥٩﴾ ﴾ (٢)

---

(١) التوبة (٢) آل عمران

وقد مدح سبحانه وتعالى عباده المؤمنين ، بقوله تعالى :

﴿ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣٨﴾ ﴾ (١)

ونحن نرى أن النصوص توجب أن يستشير الامام الرعية في ادارة شئونهم ، وقد نرى استحباب ذلك في القتال ، لا في شئون الكافة ٠

ومنها أن المشركين والفجار والفسقة وأهل البدع اذا طلبوا أمرا يعظمون به حرمة من حرمات الله تعالى ، أو أمرا هو حق في ذاته أجيبوا اليه ، فكل من يطلب أمرا هو حق في ذاته ، أومحبوب لا اثم فيه ، أجيب الطلب ،ولو كان فاسقا مبتدعا ، أو باغيا على الحق،أو مشركا ، الا أن يكون في ذلك ما يؤدي الى التجرؤ على أهل الحق أو معاونة آثم لذات الاثم وان ذلك موقف دقيق ، اذ التعرف على حق لا يجرالى باطل أمر دقيق لا يدركه الا أهل الايمان وأهل الادراك السليم ٠

ومنها أن الحرم ليس مقصورا على المسجد الذي هو مكان الطواف ، بل الحرم يشمل ذلك ، وما حول مكة ،وأن كلمة الحرم تشمل كل ما حول مكة٠

ومنها أن المحصر بالحج أو العمرة وهو الذي يمنع من الوصول الى البيت الحرام ، وقد أحرم لزيارته معتمرا أو حاجا ينحر الهدي حيث أحصر ومنها أن المصالحة مع الكفار جائز ، ولو كان فيه ضيم ظاهر اذا ترتب على ذلك مصلحة للمسلمين ، والضيم ظاهر ،والعبرة بالنتيجة ، وان كان الضيم في ذاته ضررا ، فانه يقدم بدفع أقل الضررين ، وان الصلح بين النبي صلى الله تعالى عليه وسلم وكفار قريش في هذا الوقت كان خيرا في عواقبه ، وان لم يكن ظاهرا لكل المؤمنين أو لكثرتهم٠

وهكذا كانت أعمال النبي صلى الله تعالى عليه وسلم تفيد أحكاما شرعية ، سواء أكانت تتعلق بتدبير مصلحي ، أو عبادة مقررة ثابتة ٠

وانه اذا كان الأمر مصلحة ، وجب على كل مؤمن ومؤمنة أن يبدي ما يراه مصلحة ، أو يعين على الواجب ، لأن ذلك من قبيل النصيحة في الدين الذي

---

(١) الشورى

تجب المبادرة بها ، فقد قال صـــلى الله تعالى عليه وسلم ، الدين النصيحـة لله ولرسوله ، ولــكتاب الله ، ولخاصــةالمسلمين وعامتهم ٠

ولذلك تقدمت السيدة أم المؤمنين أم سلمة تطلب الى النبي صلى الله تعالى عليه وسلم أن يبادر هو بالعمل ، فاذاحلق ونحر تبعوه ، لأن العمل يؤثر في الاتباع أكثر من القول ، ولم يجـدالنبي صلى الله تعالى عليه وسلم غضاضة في أن يتبع ما أشارت به غير متردد ،لأن الحق أحق أن يتبع ، ولأن الحـق واجب الاتباع في ذاته ، من غير نظـرالى مكانة الداعي بالنسبة للمشير ، ولا الى مقامه بالنسبة لمقامه ، ولنتعلم أن هدي النبي صلى الله تعالى عليه وســلم أن نتبع حيثمـــا كان وممن يكـون ،ولنجعل للمرأة الكريمة الطاهرة العاقلة مكانتها وحق التقدير والاعتبار ٠

كانت الحديبية فتحاً

٥٢٣ ـ عند قفول النبي صلى الله تعالى عليه وسلم من مكة الى المدينة بعد صلح الحديبية نزلت سورة الفتح ،فقدقال تعالى في ذلك :

﴿ إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ﴿١﴾ لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿٢﴾ ﴾ (١)

فسمى الله تعالى ذلك الصلح ، وما وفق الله تعالى النبي للقيام ، فتحاً ، وليس دنية في الدين كما خطر على عقول بعض المتقين من كبار المؤمنين ،وكان فتحاً لأنه أنهى القتال بين النبي صلى الله تعالى عليه وسلم وبين قريش ، وذلك في ذاته فتح ، ولأنه فتح قلوباكانت مغلقة وعقولا كانت عليها غشاوة حتى انه أحصى عدد المؤمنين قبل الحديبية في مدى تسع عشرة سنة ،ومن أسلم في سنتين بعد الحديبية ، فكان مثل الأول أو يزيد ، لذلك كله كانت الحديبية فتحا ، ولم تكن دنية ، وفوق ذلك كانت تمهيداً لدخول مكة بالفتح الأعظم الذي لم يجر فيه دم ، ولم يكن قتال الا في بعض المتمردين ، وكانوا قليلين ، وكان فتحا ، لأن المؤمنين استطاعوا تنفيذا لأحكام الصلح أن يدخلوا معتمرين ، ثم متحللين محلقين ومقصرين ٠

وغفران ذنب الرسول صلى الله تعالى عليه وسلم ليس على حقيقته معنى الغفران ، انما هو متضمن الرضا والقبول لكل ما يفعله الرسول صلى الله تعالى عليه وسلم ، سواء أكان في الماضي أو الحاضر أو القابل ، فكل ما يفعله الرسول صلى الله تعالى عليه وسلم مغفور ، وتسميته ذنباً من قبل المجاز فهو ليس الا خطأ لأن ما يعتب به عليه، خطأ كما أخطأ في الأسرى ، وكما كان يقع منه ٠ ليكون أسوة للناس ، فيقروا بأن الانسان اذا خضع لفكره وعقله ربما

(١) الفتح

يخطيء ولو كان نبياً مرسلا ، ولو كان خاتم النبيين محمداً صلى الله تعالى عليه وسلم ، والصراط المستقيم الذي هداه الله تعالى هو طريق الدعوة فقد صار معبداً لا عوج فيه بعد هذا الفتح المبين وانه كان من الفتح المبين تضافر أهل الايمان بالبيعة ، فقد قال تعالى :

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ يَدُ ٱللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ ۚ فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَٰهَدَ عَلَيْهُ ٱللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١٠﴾ ﴾ (١)

ولقد كان من الفتح المبين أن نقيت الجماعة الاسلامية ممن لم تستقم قلوبهم وتكون خالصة للحق لا تبتغي سواه ، ولذلك لم يخرج مع النبي في الحديبية الا من أراد الله تعالى ، وأراد الحج ، لا المغانم وما وراءها ، ولذلك قال الله فيهم في سورة الفتح :

﴿ سَيَقُولُ ٱلْمُخَلَّفُونَ إِذَا ٱنطَلَقْتُمْ إِلَىٰ مَغَانِمَ لِتَأْخُذُوهَا ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ ۖ يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا۟ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ۚ قُل لَّن تَتَّبِعُونَا كَذَٰلِكُمْ قَالَ ٱللَّهُ مِن قَبْلُ ۖ فَسَيَقُولُونَ بَلْ تَحْسُدُونَنَا ۚ بَلْ كَانُوا۟ لَا يَفْقَهُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٥﴾ ﴾ (٢)

ولقد أشار سبحانه وتعالى الى الذين يستقبلهم المسلمون من أولى البأس والشدة ، ولقد كان الذين خرجوا للاعتمار تعرضوا لاحتمال الحرب فتضافروا وبايعوا رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم على أن يبيعوا أنفسهم لله تعالى ، ولا يفروا وقال سبحانه وتعالى ما تلونا من قبل :

﴿ لَّقَدْ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِى قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿١٨﴾ وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٩﴾ وَعَدَكُمُ ٱللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا فَعَجَّلَ لَكُمْ هَٰذِهِۦ وَكَفَّ أَيْدِىَ ٱلنَّاسِ عَنكُمْ وَلِتَكُونَ ءَايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ وَيَهْدِيَكُمْ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ﴾ (٣)

---

(١) ، (٢) ، (٣) الفتح

وانه كانت الحديبية التي سماها الله تعالى الفتح المبين سبيلا لأن يتجه النبي صلى الله تعالى عليه وسلم الى اليهود وينفرد لهم ، ثم بعد ذلك يكون الاتجاه الى الرومان ، كما قال تعالى :

﴿ سَتُدْعَوْنَ إِلَىٰ قَوْمٍ أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ تُقَاتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ ﴾ (١)

وأولئك هم الرومان ، والدخول الى أرض الشام .

وان الغاية توجب تحمل الوسائل ، ولو كانت قاسية على النفس ، وما كان للنبي صلى الله تعالى عليه وسلم أن يتجه الى اليهود ، وخضد شوكتهم في البلاد وقد اتخذوها للأذى والايقاع ولم ينفع عهد ولا ذمة ما كان أن يتجه الى أولئك ، وشوكة قريش تجرح من ورائه ، فلابد أن يؤمن ظهره بعهد ، ولو كان فيه ما توهمه بعض المؤمنين غبناً فاحشا ، ولكنه الطريق المستقيم لتوجيه الدعوة الاسلامية الى مواطنها .

وان ذلك تصديق رؤيا النبي التي رآها ، بأنه سيدخل المسجد الحرام ، ولكنها لا تتحقق واقعة الا في عام قابل ، وكان ذلك الصلح ، فقد قال تعالى :

﴿ لَقَدْ صَدَقَ ٱللَّهُ رَسُولَهُ ٱلرُّءْيَا بِٱلْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا۟ فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَٰلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا (٢٧) هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا (٢٨) ﴾ (٢)

وهكذا كان ذلك الصلح فتحاً وطريقاً للفتح ، ودخل به الناس في دين الله أفواجاً ، أفواجاً .

يقول ابن شهاب الزهري التابعي بحر العلم كما قال الامام مالك ، قال في الحديبية « فما فتح في الاسلام فتح قبله كان أعظم منه ، انما كان القتال

---

(١) و (٢) الفتح

حيث التقى الناس ، فلما كانت الهدنةووضعت الحرب أوزارها ، وأمن الناس بعضهم بعضاً ، والتقوا وتفاضـوا في الحديث والمنازعة ، فلم يتكلم أحـــد في الاسلام ليقول شيئاً ، الا دخل فيه ،ولقد دخل في تلك السنين (أي التي كانت قبل فتح مكة) قدر ما كان في الاسلام قبل ذلك أو أكثر » •

ونضيف ، وقضى النبي صلى الله تعالى عليه وسلم على نفوذ اليهود قضـــاء كاملا ، واتجه الى خارج الجزيرة العربية ينشر الاسلام فيها •

تنفيذ الصلح

٥٢٤ ـ كان النبي صلى الله تعالى عليه وسلم حريصاً كل الحرص على الوفاء بالعهد ، لأن الوفاء بالعهد في ذاته قوة ، ولأن الله تعالى يقول :

﴿ وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدتُّمْ وَلَا تَنقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا ۚ إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴿٩١﴾ ﴾ (١)

ولقد شك بعض المؤمنين في وفاء المشركين في عهدهم هذا ، فقال النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، وفوا لهم ، واستعينوا الله تعالى عليهم ·

ولذلك اتجه النبي صلى الله تعالى عليه وسلم الى الوفاء ·

ولقد كان بعض المؤمنين ينظر الى الأمر في هذا الاتفاق غير مطمئنين الا طاعة الله ورسوله فقد شق عليهم أمران :

أحدهما ـ ألا يتمكنوا من دخول البيت الحرام وقد أحرموا ، ومعهم القوة التي يستطيعون أن يدخلوا بها وليس عند قريش القوة الكافية لردهم ، ولذلك تباطئوا في الاستجابة للتحلل من الاحرام بالحلق أو التقصير ، على ما قصصنا من قبل ·

الأمر الثاني ـ الشطط في شروط قريش ، وفي املاء العقد ، وأشد شطط وغبن أن من خرج مسلماً لا يقبله النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، بل يرده الى وليه ، ومن عاد الى مكة مرتداً لا يردونه ، فقد كان ظاهر الشرط أن فيه غبناً على النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، اذ فيه عدم مساواة ، ولكن ان نظرنا الى الشطر الثاني وهو عدم رد من يخرج من الاسلام الى الشرك ، فانه عند التأمل لا نجد فيه ضررا على المسلمين ، فما حاجة الاسلام الى مرتد

---

(١) النحل

حائر ، فليذهب الى حيث شاء ، بدلا من أن يكون شوكة في المسلمين ، وقد يرضى أن يبقى منافقاً ، وينضم الى صفوف أهل النفاق ، فيكون عيناً على المسلمين وعلى النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ٠

وأما بالنسبة للجزء الأول من الشرط ، وهو أن من خرج من مكة مسلماً يرد الى وليه ، فقد كان بلا شك شاقا في ذاته ، وخصوصاً عندما دخل عليهم أبو جندل يرسف في قيوده ٠

وان هذا الجزء من الشرط وان كان شاقا في مظهره صعب التحمل الا لمن كان قوي الايمان ، فان تطبيقه أدى في نتائجه الى الضرر على المشركين ، ولم يضار به النبي صلى الله تعالى عليه وسلم والمؤمنون ، حتى ان المشركين الذين كان الشرط من جانبهم ولمصلحتهم هم الذين طلبوا الغاءه ٠

ولنذكر تطبيقه كما أوضحت كتب السيرة وصحاح السنة ٠

كان أول من طبق عليه الشرط أبو بصير عتبة بن شيد بن جارية وكان ممن أسلم وحبس بمكة ، وقد استطاع أن يخرج من محبسه ، وأراد الذهاب الى النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ،فكتب اليه بعض المشركين يطلبون تسليمه بمقتضى الشرط وبعثوا رسولين يتسلمانه ، وهما رجل من بني عامر بن لؤي ومولى له ، فقدما على رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، وعنده أبو بصير فقال له النبي صلى الله تعالى عليه وسلم « يا أبا بصير ، انا قد أعطينا هؤلاء القوم ما قد علمت ، ولا يصلح لنا في ديننا الغدر وان الله جاعل لك ، ولمن معك من المستضعفين فرجا ومخرجا، قال يا رسول الله أتردني الى المشركين يقتلونني في ديني ٠ قال الرسول صلى الله تعالى عليه وسلم : يا أبا بصير انطلق ، فان الله تعالى ، سيجعل لك ولمن معك من المستضعفين فرجا ومخرجا » ٠

انطلق معهما ، واندمج معهما في الحديث ، وأظهر الاستسلام ، حتى اطمأن اليه العامري ، فقال يا أخا بني عامر أصارم سيفك هذا قال نعم قال انظر ان شئت فاستله أبو بصير ،وأراد أن يختبر صرامته ثم علاه به حتى قتله ، فولى المولى مسرعا الى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، وهو جالس في المسجد ، فقال ان هذا الرجل قد رأى فزعا ، ثم قال له ويحك مالك ؟قال

ان صاحبكم قد قتل صاحبى ، وبينا هويشرح حاله ، وكيف قتل العامري طلع أبو بصير متوشحا بالسيف حتى وقف على رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم وقال يا رسول الله قد وفيت ذمتك ، وأدى الله عنك أسلمتنى ليد القوم ، وقد امتنعت بديني أن أفتن أو يعبث بي قال النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ويل أمه انه محش حرب ان كان معه رجال ، وفي رواية البخاري أنه قال : ويل أمه مسعر حرب لو كان له أحد ٠

وقع في نفسه أنه سيرد اليهم بعد أن قال النبي صلى الله تعالى عليه وسلم وانه تفيد بلحنها أن له أن يعتمد على نفسه، وهو قادر على أن يعتمد ٠

خرج من حضرة النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، وسار حتى وصل الى سيف البحر ، وقد علم المستضعفون بخبر أبي بصير ، وقول النبي صلى الله تعالى عليه وسلم بأنه محش حرب ان كان معه رجال فكل مستضعف يعمل على تخليص نفسه ويكون من رجال أبي بصير ،فانفلت أبو جندل الذي جاء الى النبي صلى الله تعالى عليه وسلم يرسف في قيوده ، ورده صلى الله تعالى عليه وسلم والتحق بأبي بصير ٠

وصار كل مستضعف لا يذهب الى النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، لأنه سيرده بل يذهب الى رجال أبي بصير على سيف البحر ٠

وكونوا منهم عصابة تقطع طريق تجارة قريش ، فما كانوا يسمعون بعير خرجت لقريش الا تعرضوا لها ،يقتلون رجالها ، ويأخذون مالها ، فلم يكن من مصلحتهم التمسك بشرطهم ٠ بل انهم تركوا الأخذ بالشرط ، وأنهم اذ كانوا لا مأوى لهم الحق بأن يفعلوا بهم جزاء ما أذوه ، ولا حلف معهم الا الأذى الذي قدموه لهم ، وخوف الفتنة دفعهم لأن يقفوا ذلك الموقف منجاه لأنفسهم ٠

أرسلت قريش الى النبي صلى الله تعالى عليه وسلم تناشده الرحمة الا آواهم ، وضمهم اليه ، ولا يردهم ،كان هذا الشرط الذي أزعج النفس المؤمنة مآله أن يكون خيراً للمؤمنين ،وهو شرط عليهم ، انها النبوة التي أدركت ما لا يدركه عمر ، ولا غيره ،وانها الهام الله الذي جرى على لسان النبي صلى الله تعالى عليه وسلم «سيجعل للمستضعفين فرجا ومخرجا » ٠

وانه لما توسلت قريش الى النبي صلى الله تعالى عليه وسلم في الغاء العمل بهذا الشرط ، أرسل الى أبي بصير أن يجيء الى المدينة هو ومن معه ، ليكونوا قوة للمؤمنين ، فكتب اليه بالمجيء الى المدينة ، ولكن الكتاب لم يصله الا وهو على فراش الموت ، فتوفى ولكن رجع أصحابه الى النبي صلى الله تعالى عليه وسلم .

هجرة المستضعفين :

٥٢٥ ــ وبعد أن فتح لمن يسلم بدار الشرك الباب للذهاب الى المسلمين وألغي ذلك الشرط كان يحث النبي صلى الله تعالى عليه وسلم الذين يسلمون ألا يبقوا مستضعفين في أرض الشرك، بل عليهم أن يهاجروا وان ذلك مبدأ الاسلام أن يتجمع المسلمون ، ولا يستمروا متفرقين في الأرض .

ومنع رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم من اقامة المسلم بين المشركين ما دامت عنده قدرة على الخروج من بين ظهرانيهم ، وقال صلى الله تعالى عليه وسلم لا تراءى ناراهما . وقال من حارب مع مشرك وسكن معه فهو مثله ، وقال صلى الله تعالى عليه وسلم لا تنقطع الهجرة حتى تنقطع التوبة ، ولا تنقطع التوبة حتى تخرج الشمس من مغربها، وقال ستكون هجرة بعد هجرة فخيار أهل الأرض ألزمهم بها .

وبذلك طلب النبي صلى الله تعالى عليه وسلم من كل مستضعف أن يهاجر الى حيث يتجمع المسلمون ما دام قادراً على ذلك ، لأنه بهجرته الى المسلمين يتحقق أمران .

أحدهما : أنه يخرج من حال استضعاف وذلك بالخروج من ولاية الكفر أو الشرك الى حيث العزة والمنعة وولاية المؤمنين فهم أهل ولاية الله وولاية الحق ، وهي القوة وهي الأمن والقرار، ولقد أوجب القرآن ذلك فقال :

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ قَالُوا۟ فِيمَ كُنتُمْ ۖ قَالُوا۟ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ قَالُوٓا۟ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةً فَتُهَاجِرُوا۟ فِيهَا ۚ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَسَآءَتْ

مَصِيرًا ﴿٩٧﴾ إِلَّا ٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا
يَهْتَدُونَ سَبِيلًا ﴿٩٨﴾ فَأُو۟لَٰٓئِكَ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَعْفُوَ عَنْهُمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَفُوًّا غَفُورًا ﴿٩٩﴾ * (١)

وان نصوص النبي صلى الله تعالى عليه وسلم عامة ، ونص القرآن الكريم ملزم لا مناص من تنفيذه ٠

الأمر الثاني : أن في الهجرة تجميع المسلمين ، وفي الجماعة قوة ليست في الفرد ٠ وان ذلك أمكن للوحدة ،وأحفظ لهيبة أهل الاسلام ٠

وانه قد يعترض على جعل الهجرة بالانتقال من أرض الاستضعاف الى حيث القوة الاسلامية مبدأ دائماً ومطلوباً مستمراً ٠ قد يعترض على ذلك بقول النبي صلى الله تعالى عليه وسلم : « لا هجرة بعد الفتح » ٠

ونقول في الجواب ان الحديث مخصوص بالهجرة من مكة الى المدينة ، أو بالهجرة من مكة الى غيرها ، وأن الهجرة مطلوبة قبل الفتح ، لأن المسلمين فيها كانوا يفتنون عن دينهم وكانوا في ذلة ، ولا يستطيعون القيام بشعائر دينهم ، فلما فتح الله تعالى على المسلمين مكة ، وصارت فيها الأحكام الاسلامية وصارت ولاية من ولايات الاسلام ، لم يعد للهجرة سبب يوجبها ، بل انها أصبحت غير مطلوبة ، وربما تضر ولا تنفع لأنها لو استمرت لخلا البيت الحرام من سكان حوله يقومون بسدانته ، وهي أحب أرض الله الى النبي صلى الله تعالى عليه وسلم والى ربه ، وهي التي جعلها أرضاً مباركة ٠

(١) النساء

سـرايا وبعوث

٥٢٦ ـ كانت سنة ست من الهجرة ، خصبة بالدعوات الاسلامية وبث السرايا والبعوث لأجل تعرف الناس ،والدعوة الاسلامية ، وبيان حقائق الاسلام ٠

وقد كان أبرز ما فيها غزوتان : غزوة بني المصطلق على الرواية التي تقرر أنها كانت في هذه السنة ، وغزوة الحديبية أو صلحها ، وكانت وحدها فتحاً مبيناً وتمهيداً للفتح الأكبر في سنة ثمان من الهجرة ٠

وكانت ثمة سرايا قبل الحديبية سنةست ، لأنها كانت عقب غزوة الأحزاب للمدينة ، وقد رأى النبي ما رأى منقوة الاسلام برهانا وعقيدة ، وقوته مادية بحيث تبين أنه لا يغلب لأنه مؤيدمن الله تعالى ، ففيها كان بعث أبي عبيدة عامر بن الجراح الى ذي القصةفي أربعين رجلا مشاة حتى أتوها فهربوا منه في رؤوس الجبال ، وأسرمنهم رجلا حضر به لرسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم وكان ذلك في ربيع من سنة ست ٠

وفيها بعث رسول الله صلى الله تعالىعليه وسلم زيد بن حارثة الى بني سليم فدلتهم امرأة من مزينة على محلة منمحال بني سليم ، فأصابوا منها نعما وشاة وأسروا رجالا كان فيهم زوجهذه المرأة التي دلتهم واسمها حليمة فوهبه رسول الله لها وأطلقهما ٠

وفي سنة ست هذه قبل صلح الحديبية أخذت أموال لقريش ، وكان فيها أموال كانت مع العاص بن الربيعالذي كان زوجا لزينب بنت رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم وأطلقه رسولالله صلى الله تعالى عليه وسلم من غير فداء على أن يعيد زينب لأبيها فبر بما وعد ٠

لما أخذ المال الذي كان معه ، وقتلمن كان معه ، وفر هو الى المدينة ، فلما جاء المدينة استجار بزينب بنت رسولالله صلى الله تعالى عليه وسلم ، فأكرمه رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ،وأجاز جوار زينب وأمر برد الناس

وان هذه الرواية التي رواها ابن اسحاق تدل على أن اسلامه كان سنة ست ، وكان قبل نزول آية :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا جَآءَكُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتُ مُهَٰجِرَٰتٍ فَٱمْتَحِنُوهُنَّ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَٰنِهِنَّ فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَٰتٍ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى ٱلْكُفَّارِ لَا هُنَّ حِلٌّ لَّهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ وَءَاتُوهُم مَّآ أَنفَقُواْ وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ أَن تَنكِحُوهُنَّ إِذَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ وَلَا تُمْسِكُواْ بِعِصَمِ ٱلْكَوَافِرِ ﴾ (١)

الآيات الكريمات .

وهذه رواية الواقدي أيضاً ، ولكن الحافظ ابن كثير يقول أن اسلامه كان سنة ثمان ، وأن اسلامه تأخر عن تحريم بقاء المسلمات أي زواج الكفار منهن ، وأنهم لا يحلون لهن ، واني أميل الى رواية الواقدي ، ورواية ابن اسحاق ، وهي أكثر اتساقا مع الآية .

في شعبان سنة ست أيضا كانت سرية عبد الرحمن بن عوف الى دومة الجندل يدعوهم الى الاسلام ، ولم يكن لقتال ، وقال له رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، ان هم أطاعوا فتزوج بنت ملكهم فأسلم القوم ، وتزوج عبدالرحمن بن عوف ، بنت ملكهم تماضر بنت الأصبغ الكلبية ، وهي أم أبي سلمة بن عبد الرحمن بن عوف وكانت هذه السرية في شعبان .

وفي هذه السنة سنة ست أيضاً أرسل النبي صلى الله تعالى عليه وسلم علي بن أبى طالب رضي الله تعالى عنه في مائة رجل الى حي من بني أسد بن بكر ، وذلك أنه بلغ رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم أنه جمع لهم جمع يريدون به أن يمدوا يهود خيبر يعاونونهم على المسلمين ، وهذا يدل على أنهم كانوا يستعدون لحرب النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، فبعث علياً اليهم ، فسار اليهم ليلا نهارا ، حتى أصاب منهم عينا لهم ، فأقر أنهم بعثوا الى خيبر ، وأنه هو الذي يعرض عليهم أن تعطي خيبر لهم تمر خيبر .

وبذلك علم النبي صلى الله تعالى عليه وسلم أنهم يجمعون الجموع له ، ولذلك لم يكن غريبا أن يتجه اليهم بعد الحديبية ، لأنه تفرغ لهم .

---

(١) الممتحنة

سرية عكل وعرينة

٥٢٧ ـ يقول ابن كثير ان هذه سرية كانت في سنة ست قبل الحديبية وقد نقلها عن الواقدي ، وقال كانت في شوال سنة ست ، أى قبل الحديبية بشهر ، اذ الحديبية كانت في ذي القعدة الذي ولي شوالا .

وقالوا ان السرية كانت بقيادة كرز بن جابر الفهري الى العرنيين الذين قتلوا راعى الرسول صلى الله تعالى عليه وسلم واستاقوا النعم ، فبعث رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم في آثارهم كرز بن جابر في عشرين فارساً فردوهم ، هذه قصة هذه السرية ، خرج ناس استولوا على ابل رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، وقتلوا راعيها ، فبعث رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم هذه السرية ، فردت الابل .

وفي القصة أخبار نجد من الواجب أن نذكرها ونبين مقدار الاطمئنان في الرواية والنسبة الى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم .

جاء في البخاري ومسلم عن أبي قلابة عن أنس بن مالك رضى الله تعالى عنه أنه قدم رهط من عكل وعرينة فأسلموا ، واجتووا المدينة فأتوا رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، فذكروا ذلك ، فقال عليه الصلاة والسلام الحقوا بالابل فاشربوا من أبوالها وألبانها ، فذهبوا وكانوا فيها ما شاء الله تعالى ثم قتلوا الراعي وساقوا الابل ، فجاء الصريخ الى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، فلم ترتفع الشمس حتى أتي بهم ، فأمر بمسامير فأحميت فكواهم بها ، وقطع أيديهم وأرجلهم وألقاهم في الحره يستقون فلا يسقون حتى ماتوا ، وفي رواية عن أنس أنه قال : فلقد رأيت أحدهم يكدم الأرض بفيه من العطش ، وفي رواية للبخاري ومسلم أن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم أمر فسمل أعينهم .

ولقد قال كمال الدين بن الهمام من كبار فقهاء الحنفية رواه جماعة لحدثين .

ما أخذوا من العير ، فرد كل واحد ما أخذ من هذه العير ، حتى لم يفقد منها شيئا ، حمل أبو العاص بن الربيع المال الى مكة ، ورده الى أهله ، ورد ما كان لهم من الودائع ، فلما تم ذلك أعلن اسلامه ، وخرج مهاجراً الى المدينة .

ولكن مهما يكن عدد المصادر التي روته ، فانه حديث آحاد ، وان أهل الخبرة في علم الحديث يقولون ان رواته ثقات ، وان سنده متصل ، وانه لا انكار في سنده ، وان كان آحاداً ، ولكنا ننظر في متنه ، فان الحديث يضعف باحدى طريقين اما بضعف سنده ، أو بضعف متنه بأن يكون مخالفا للمقررات الشرعية .

وانا نرى أن متنه يخالف المبادىء التي قررها النبي صلى الله تعالى عليه وسلم لوجوه :

أولها ـ أن فيه مثلة ، بسمل الأعين ، وأن المثلة منهي عنها ، وان قالوا ان المثلة لم يكن قد نهى عنها ، فاننا أولا نقرر أن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم لم يمثل بأحد من قتلى أحد ، ولا من قتلى الخندق ، فدل هذا على أنها كان منهيا عنها من قبل . وان قيل ان الصحابة فعلوا معهم ذلك ، لأنهم ارتكبوا ما يوجب حداً ، واذا كان الحد ، فهو حد الحرابة الذي بينه الله تعالى بقوله :

﴿إِنَّمَا جَزَٰٓؤُاْ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَسۡعَوۡنَ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُوٓاْ أَوۡ يُصَلَّبُوٓاْ أَوۡ تُقَطَّعَ أَيۡدِيهِمۡ وَأَرۡجُلُهُم مِّنۡ خِلَٰفٍ أَوۡ يُنفَوۡاْ مِنَ ٱلۡأَرۡضِۚ ذَٰلِكَ لَهُمۡ خِزۡيٞ فِي ٱلدُّنۡيَاۖ وَلَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٣٣﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ مِن قَبۡلِ أَن تَقۡدِرُواْ عَلَيۡهِمۡۖ فَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴿٣٤﴾﴾ (١)

الى آخر الآيات ، وليس فيها سمل الأعين ، ولا يقال ان النبي صلى الله تعالى عليه وسلم لم يأمر به ، لأنه علمه في الرواية ولم ينكر .

ثانيها ـ أن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم نهى عن القتل عطشا ، ولقد قالت الرواية انه تركهم يموتون عطشاً حتى انهم كانوا يكدمون الأرض من شدة العطش حتى ماتوا ، ولا يقال ان النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ما أمر بذلك ، ولكن مفهوم هذه الرواية أنه علم ، ولم ينكر .

---

(١) المائدة

ثالثها ـ أن النبي صـــلى الله تعالىعليه وسلم قال : اذا قتلتم فأحســـنوا القتلة ، وان القتل قصاصا لا يبرر ذلك ، والنبي صلى الله تعالى عليه وسلم لم يكن ليبيح ذلك في الحرب على أنهمربما يعتبرون مقاتلين ٠

والخلاصة أننا لا نرى أن ذلك الخبرتصح نسبته للنبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، لمخالفته للمقررات الاسلاميةالتي قررها النبي صلى الله تعالى عليـه وسلم ، ولذلك لا نقول انه صـحيحالنسبة لرسـول الله صـلى الله تعالى عليه وسلم ٠

حد الحرابة

٥٢٨ ـ الفقهاء يسوقون قصة العرنيين وما نسب الى رسول الله سبب في حد الحرابة أو قطع الطريق ،ويرون أن ما نسب الى النبي صلى الله تعالى عليه وسلم فعله ينطبق على ما نص الله تعالى في كتابه من حد قطاع الطريق ، ولكن ذكرنا أن ما ينسب الى النبي صلى الله تعالى عليه وسلم فعله ، لا ينطبق كله على ما في حد الحرابة فليس في نص القرآن سمل الأعين ، كما أنه ليس في نص القرآن القتل بالعطش ، حتى يكدمون الأرض من شدة العطش ، فلا يستسقون ، وقد كذبنا نسبته للنبي صلى الله تعالى عليه وسلم لذلك ٠

ومهما يكن فاننا نذكر النص القرآني في هذا المقام ، ومدى ما ينطبق من قصة العرنيين عليه ٠

يقول الله تعالى في بيان هذا الحد :

﴿إِنَّمَا جَزَٰٓؤُاْ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَسْعَوْنَ فِى ٱلْأَرْضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُوٓاْ أَوْ يُصَلَّبُوٓاْ أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم مِّنْ خِلَٰفٍ أَوْ يُنفَوْاْ مِنَ ٱلْأَرْضِ ۚ ذَٰلِكَ لَهُمْ خِزْىٌ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٣٣﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ مِن قَبْلِ أَن تَقْدِرُواْ عَلَيْهِمْ ۖ فَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٤﴾﴾ (١)

ولا شك ان وصف الحرابة ينطبق على هؤلاء العرنيين ، وقد نزلت بهم بعض عقوباتها ، وهو قطع الأرجل والأيدى ٠

وما دمنا قد تعرضنا للحرابة أو لقطع الطريق،فانه يجب أن نشير لبعض أحكامه ، على قدر ما يتسع له المقام في سيرة النبي الطاهرة ، ويترك

---

(١) المائدة

تفصيله لكتب الفقه ، ولموضعه من بحوثنا في كتاب الجريمة وكتاب العقوبة في الفقه الاسلامى •

المحاربون أو قطاع الطريق ناس يخرجون متفقين على القتل أو السرقة ، وتكون لهم قوة يقاومون بها الدولة افسادا من غير تأويل يتأولونه ، بل سعياً بالشر والافساد ، ونرى ما يراه المالكية انه لا تقتصر جرائم الحرابة على القتل والسرقة ، بل تشمل كل المعاصى ،كالزنى وشرب الخمر ، ويدخل فيها كل المخدرات سواء أكانت سائلة أم جامدة ، وسواء أكانت تتناول بالشرب أم بالتدخين •

وسواء أكانت هذه القوة التي يكونها المحاربون في مدينة أم في غير مدينة ما داموا يستطيعون أن يقوموا بجرائمهم بعيدين عن أن يجاب المستغيث اذا استغاث ، وللفقهاء كلام وخلاف في هذا المقام •

ويعد من المحاربين الجماعة التي تنفق على ارتكاب جرائمها بطريق الغيلة وذلك في رأى مالك ، والنص القرآني يحتمل ذلك كله •

والعقوبات المقررة ، هي القتل ، والقتل والصلب ، وتقطيع الأيدي والأرجل من خلاف والنفي من الأرض بالابعاد في مكان ناء لا يستطيعون فيه ارتكاب جرائمهم ، وعد الامام أبوحنيفة أن من النفي ، السجن لأن المقصود منع اجتماعهم •

وأكثر الفقهاء أن الامام العادل يضع العقوبة على قدر الجريمة : فان تولوا القتل قتلوا ولا فرق بين من باشره ، ومن لم يباشره ، لأن من لم يباشره كان معينا مع من باشره •

واذا سرقوا وقتلوا ، قتلوا وصلبوا، ويستوي في العقوبة المباشر وغير المباشر •

واذا سرقوا وانتهبوا الأموال ولم يقتلوا فانه تقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف ، فاذا قطعت اليد اليمنى ، يقطع معها الرجل اليسرى •

واذا كانوا قد اتفقوا وهموا بالشر، ولكن لم يمكنوا فان العقوبة تكــون النفي ، بتفريقهم بعيدا عن مـــكان تجمعهم ٠

هذا ما اختاره جمهـــور الفقهاء تابعين للتابعين في أقوالهم،ومن الصحابة عبد الله بن عباس رضى الله عنهما ٠

ويرى الامام مالك رضى الله عنه أن الامام مخير في هذه العقوبة أيا كانت الجريمة التي ارتكبوها ، لأن الجريمـــة الأصيلة هي الاتفاق على ارتكاب هــذه المعاصي ، ولو لم يمكنوا من تنفيـــذ احداها ، والامام ينظر الى ما هو الأنجع في ردعهم ٠

رسائل

٥٢٩ ـ وفي هذه السنة بعد الحديبية فرض الحج ، وان النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، ومن معه من جيش الايمان كانوا قد أحرموا بالحج .

وشرع الحج فريضة من بعد الحديبية مباشرة ، وقالوا انه كان قد شرع ، وفرضه الله تعالى في هذا الوقت مع أن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم لم يحج الا في السنة العاشرة .

وهذا رأى أكثر الفقهاء ، فالحج لا يجب فور القدرة عليه ، ولكن يجب أداؤه في مدى العمر ، وقال بعض الفقهاء يجب قدر الاستطاعة على أدائه ، وقالوا ان النبي صلى الله تعالى عليه وسلم أخره الى العاشرة لأنه لم يكن مستطيعا ذلك قبل العاشرة ، لأن الأصنام لم تزل قبل التاسعة ، وكان مشغولا بالدعوة ، وبيان الشرع ، حتى نزلت الآية :

﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾ (١)

وسرد النبي صلى الله تعالى عليه وسلم الفرائض الشرعية بايجاز ، وأشهد المؤمنين على التبليغ .

وانه بعد الحديبية تفرغ النبي صلى الله تعالى عليه وسلم للدعوة ، فلم يرسل سرايا للقتال ، ولكن أرسل رسلا للدعوة الى الاسلام ، وتبليغ الدعوة .

قال الواقدي في ذي الحجة من سنة ست بعث رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ستة نفر مصطحبين حاطب بن أبي بلتعة الى المقوقس صاحب الاسكندرية .

وبعث شجاع بن وهب الى الحارث بن شمر الغساني ملك عرب النصارى

ودحية بن خليفة الكلبي الى قيصر ، هرقل ملك الروم .

---

(١) المائدة

وبعث عبد الله بن حذافة السهمي الى كسرى ملك الفرس •

وبعث سليط بن عمرو العامري الى هوزة بن على الحنفي •

وعمرو بن أمية الضمرى الى النجاشى ملك النصارى بالحبشة ، وهو أصحمة بن أبجر •

وسنتكلم عن الرسائل التي كانت مع هؤلاء الرسل عند الكلام على مكاتبة النبي صلى الله تعالى عليه وسلم والذي نقوله هنا هو أن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم وقد تفرغ للتبليغ،ولم يعد مقصوراً على الجزيرة العربية وما حولها بل تجاوزها الى الأقاليم الأخرى •

إلى خيبر

٥٣٠ ـ أنهى النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ما بينه وبين قريش بصلح مدته عشر سنين ، ليكون للدعوة والتبليغ وان لم يترك ذلك التبليغ أبداً ، فلم تشغله الحرب عن التبليغ بل كان التبليغ في أثناء الحروب ، وليتجه الى اليهود أولا ، والى حرب الشام ثانياً ، لأن الروم في الشام قتلوا بعض من آمنوا من أهل الشام ، ففعلوا مثل مافعلت قريش ، فحق قتالهم حتى لا تكون فتنة ، ويكون الدين لله .

ولذلك كان سيره من الحديبية الى خيبر ، والنبي صلى الله تعالى عليه وسلم ما كان يقاتل الا في ميدان واحد ، فبعد أن انتهى من قريش انفرد لليهود الذين نقضوا معه كل العهود وكانوا البأ عليه ، يحرضون ويفسدون ويدسون وكانت خيبر في ذي الحجة على رواية عبد الرحمن بن أبي ليلى ، فقد فسر قوله تعالى :

﴿وَأَثَٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ۝١٨﴾ (١)

قال يعني خيبر فقال انها كانت في ذي الحجة من السنة السادسة بعد عشرين يوما من صلح الحديبية والواقدي يروي بسنده عن شيوخه أنها كانت في السنة السابعة من الهجرة .

وقد عين الوقت ابن اسحاق فقال أقام رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم بالمدينة حين رجع من الحديبية ذا الحجة وبعض المحرم ثم خرج في بقية المحرم الى خيبر .

وبعض الروايات قالت ان غزوة خيبر كانت في صفر سنة سبع .

ومهما يكن تعيين الزمن ، فان غزو خيبر كان أمراً لا بد منه ، لأنه اجتمع أعداؤه من اليهود ، وما كانوا يألون المؤمنين الا خبالا ، وينتهزون الفرصة لينقضوا .

---

(١) الفتح

وقد رأينا أنهم يمالئون غطفان ، ويستخدمون قوة منهم ، وقد بعث النبي صلى الله تعالى عليه وسلم علي بن أبي طالب ليتعرف أمرهم والتقى بعين لهم ، وأسر من أسر منهم ·

فكانوا بلا شك يريدون أن ينتهزوا معاونة ليغيروا عليه أو يعاونوا من يحاربونه ، وكان فيهم غلظة وشدة ·

فلما اتجه النبي صلى الله تعالى عليه وسلم لغزو بني النضير لكيلا يكون لليهود سلطان في بلاد العرب كان لابد أن تنضم اليهم غطفان ، ولشدة عداوتهم للنبي صلى الله تعالى عليه وسلم ،ولقربهم من منازلهم ، ولسبق تحالفهم مع الأحزاب لغزو المدينة ، ولكن الله ردهم بغيظهم لم ينالوا خيراً :

﴿وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلْقِتَالَ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا ۝٢٥﴾ (١)

وقد احتاط صلى الله تعالى عليه وسلم لذلك ، فنزل موقعاً يفصل بين غطفان وخيبر ، ولنسرد قصة هذه الغزوة من وقت ابتدائها ·

خرج رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم قاصداً خيبر ، فلما أشرف عليها أخذ يضرع الى الله تعالى طالباً النصر والمعونة ، فقال لأصحابه قفوا ، وأخذ يدعو ، وهم يرددون معه ·

اللهم رب السموات ، وما أظللن ،ورب الأرضين وما أقللن ، ورب الشياطين وما أضللن ، ورب الرياح وما أذرين ، فانا نسألك خير هذه القرية وخير أهلها ، وخير ما فيها ، ونعوذ بك من شر أهلها وشر ما فيها ، أقدموا باسم الله تعالى ·

خرج رسول الله الى خيبر ،سلك على عصر ، وهو جبل قريب من المدينة ، فبنى به مسجداً، ثم مر على الصهباء ، ثم أقبل بجيشه ونزل بواد يقال له الرجيع ، وهو فاصل بين خيبر وغطفان، لكيلا يمكنهم من مظاهرة اليهود عليه ،فحال بينهم ، ولكنهم كانوا قد خرجوا لليهود لينفذوا ما أرادوا من معاونتهم،والنبي صلى الله تعالى عليه وسلم أرسل

---

(١) الاحزاب

الى ديارهم جماعة من مقاتليه ، ليزعجوهم ، فلما سمعوا من ورائهم حس أولئك الذين ذهبوا خلفهم في أموالهم وأهليهم ظنوا أن المؤمنين خالفوهم اليهم ، فرجعوا على أعقابهم ، فأقاموا في أهليهم وأموالهم •

وبذلك أمن رسول الله شرهم ،وخلوا هم بينه وبين اليهود ، واختاروا لأنفسهم السلامة •

القائد حامل الراية :

٥٣١ ـ دخل رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم أرض خيبر ، وكانت أرض زرع وحرث ، وقد خرجوا يحملون أدوات من مساحي يحملونها لحرث الأرض ومكاتل يجمعون فيها الثمار ، أو ينقلون السماد الطبيعي من مكان الى مكان بها ، فلما رأوا جيش النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ذعروا، وقالوا محمد والخميس •

تقدم محمد صلى الله تعالى عليه وسلم لفتح قريتهم بحصونها ، وقد قال ابن القيم ، وصاحب معجم البلدان كانت لهم حصون ، هي حصن ناعم ، وحصن القموص ، وقلعة الزبير ،وحصن النطاة ، والكتيبة والوطيح ،والسلام، وهما حصنا أبي الحقيق ، وحصن الزبير، وحصن الصعب ابن معاذ •

كانت القيادة لرسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ومعه ستمائة وألف مقاتل ، فيهم مائتا فارس ، وكان قائد اليهود سلام بن شكم ومعه أربعمائة وألف مقاتل ، ولما قتل تولى القيادة أبوزينب بن الحارث ، وكان حامل راية المؤمنين بطل الجهاد علي بن أبي طالب،فانه ليلة أراد النبي غزو خيبر قال لأعطين الراية غداً رجلا يحب الله ورسوله ، ويحبه الله ورسوله ، واليك الرواية كما رواها البخاري •

قال البخاري بسنده « ان رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم قال لأعطين الراية غداً رجلا يفتح الله على يديه يحب الله ورسوله ، ويحبه الله ورسوله، فبات الناس يذكرون ليلتهم أيهم يعطاها ، فلما أصبح الناس غدوا على النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، كلهم يرجو أن يعطاها فقال عليه الصلاة والسلام أين علي ابن أبي طالب ،فقالوا يا رسول الله يشتكي عينيه فأرسل اليه فأتى فبصق رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم في عينيه ودعا له فبرأ

حتى كأن لم يكن به وجع فأعطاه الراية فقال يا رسول الله أقاتلهم ، حتى يكونوا مثلنا ، فقال صلى الله تعالى عليه وسلم «انفذ على رسلك ، حتى تنزل ساحتهم ثم ادعهم الى الاسلام ، وأخبرهم بما يجب عليه من حق الله تعالى فيه ، فوالله لأن يهدي الله بك رجلا واحداً خير من أن يكون لك حمر النعم » ٠

ابتدأ القتال حول الحصون ، ويقول ابن اسحاق تقدم رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم الأموال يأخذ الأقرب فالأقرب منها ، وفي هذه الأثناء خرج المرحب فارسهم فقصده علي بن أبي طالب فقتله ٠

ثم تدانى جيش المؤمنين ، يأخذ الأدنى فالأدنى ، وأول حصن فتحوه والراية في يد علي كرم الله وجهه حصن ناعم ، ثم القموص حصن أبي الحقيق ، وكلما فتح حصن فر من كانوا فيه الى الحصن الذي يليه ، فيجتمع فيه مع من آلوا اليه فارين من حر السيف وقوة الايمان ، وكانت المبارزات أحياناً ٠

ولقد فتح القموص بعد حصار دام عشرين ليلة كما جاء في سيرة ابن اسحاق ، وكان في أرض وخمة شديدة الحر ، فجهد أصحاب رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم جهداً شديداً لوخم الأرض وحرارتها ٠

ولقد تحركت اليهود من بعد ذلك كما قال الواقدي الى قلعة الزبير ، وهي حصن منيع ، فأقام رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم في حصاره ثلاثة أيام٠

وقد جاء رجل يهودي يظهر من أمره أنه مال الى الاسلام ، كما يدل قوله وعمله ، فقال للنبي صلى الله تعالى عليه وسلم : يا أبا القاسم انك لو أقمت شهراً ما بالوا ، ان لهم سردابا وعيونا تحت الأرض ، يخرجون بالليل فيشربون منها ، ثم يرجعون الى قلعتهم ، فيمتنعون منك ، فان قطعت مشربهم عليهم خرجوا لك ، فسار رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم الى مائهم ، فلما قطع عليهم خرجوا فقاتلوا أشد القتال وقتل من المسلمين يومئذ نفر وأصيب من اليهود عشرة افتتحه رسول الله وكان آخر حصون النطاة ٠

وقد أحس المسلمون بقلة الزاد ، وقالوا والله يا رسول الله قد جهدنا وما بأيدينا شيء ، فلم يجدوا عند رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم شيئاً يعطيهم اياه ، فقال صلى الله تعالى عليه وسلم ضارعاً الى ربه : « اللهم انك عرفت حالهم ، وأن ليست بهم قوة ، وأن ليس بيدي شيء ما أعطيهم اياه

فافتتح عليهم أعظم حصونها غناء ،وأكثرها طعاماً وودكاً ، فغدا الناس ، ففتح الله عز وجل حصن الصعب بن معاذ ، وما بخيبر حصن كان أكثر طعاماً وودكاً منه ٠

وانه بعد أن فتحت حصون النطاة قبل حصن الصعب بن معاذ تحول الى الشق ، وكانت به حصون ذوات عدد ،فكان أول حصن بدأ به حصن أبي ، فقام رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم على قلعة يقال لها سموان ، فقاتل عليها أشد القتال ، فخرج منهم رجل يقال له عزول ، فدعا الى البراز ، فبرز له الحباب بن المنذر ، فقطع الحباب يده اليمنى ، فاتبعه الحباب فقطع عرقوبه، وبرز رجل آخر فقام اليه رجل من المسلمين ، فقتله اليهودي ، فنهض اليه أبو دجانة فقتله وأخذ سلبه ، وأحجموا عن البراز ٠

بعد أن أحجم اليهود عن البراز كبر المسلمون وتحاملوا على الحصن فدخلوه ، وأمامهم أبو دجانة فوجدوا فيه أثاثاً ومتاعاً وغنما وطعاما ، وهرب من كان فيه من المقاتلة وتقحموا الحصن كأنهم الضبات ، ثم تحولوا الى حصن آخر من حصون الشق ، وهو حصن البزاة وامتنعوا به أشد الامتناع ، فزحف اليهم رسول الله وأصحابه ،وتراموا بالنبل ، ورمى معهم رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم بيده الكريمة ، حتى أصاب نبلهم بنانه عليه السلام ، فأخذ عليه السلام كفاً من الحصى ، فرمى حصنهم بها ، فرجف بهم حتى ساخ في الأرض ،وأخذهم المسلمون أخذاً باليد هذا ما ذكره الواقدي في تاريخه ٠

ويقول الواقدي مسترسلا في بيان فتح الحصون :

ثم تحول رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم الى أهل الأظبية والوطيح والسلالم حصني أبي الحقيق ، وتحصنوا أشد التحصين ، وجاء اليهم كل من انهزم من النطاة الى الشق ، فتحصنوا معهم في حصن وكان حصنا منيعا وفي الوطيح والسلالم ، وجعلوا لا يطلعون من حصونهم ، حتى هم رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم أن ينصب المنجنيق عليهم ، فلما أيقنوا بالهلكة ، وقد حصرهم رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم أربعة عشر يوما (أي في هذه الحصون الأخيرة) نزل الى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم حصون ابن

أبي الحقيق وطلب الصلح بعد أن تأكدأن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم نصب المنجنيق ليقضي على البنيان اذ تحصنوابها ولا سبيل الى الوصول اليهم الا بهدمها ، لأنها حصون لا مساكن •

ويتبين من هذا البيان أمران :

أحدهما ــ أن الحصون التي أحصيناها كان كل واحد منها عنواناً لمجموعة حصون ، وقد توالى سقوطها مجموعةمجموعة ، بلا تخريب ، ولكن يقاتل من فيها حتى يفروا الى حصن آخروراءها ، ولذلك يقول ابن اسحاق كان النبي صلى الله تعالى عليه وسلم يتدنى ،أي يحارب الأدنى ، فالذي يليه ، حتى اذا تجمعوا في الحصون الأخيرة ،التقتفيها جموعهم الفارة ، وتقاتلوا مستميتين ، وبذلك طال الحصار ،واشتد من خارجها ، كما اشتدوا هم في الدفاع من داخلها ، فهم النبي صلىالله تعالى عليه وسلم بعمل المنجنيق ، اذ لا يمكن الوصول الى المقاتلين الا بالهدم،ولا يلجأ اليه بمقتضى قانون الاسلام في الحرب الا عند الضرورة ، اذا تترس به العدو ولا سبيل للوصول اليه الا بهدمه •

فلما رأوا أنهم مقتولون لا محالةسلموا •

الأمر الثاني ــ ان أشد قتال لقيهالمسلمون كان في خيبر ، لأنهم قاتلوا قوماً في حصون ، ولم يكن القتال فيالعراء ، والأعداء لا يواجهون المؤمنين، بل يقاتلون من وراء حصونهم :

﴿ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَأَتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُواْ وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِى ٱلْمُؤْمِنِينَ فَٱعْتَبِرُواْ يَٰٓأُوْلِى ٱلْأَبْصَٰرِ ۝٢ ﴾ (١)

وقد انتصر المسلمون في هذه الموقعة ، فكان آخر انتصار على معقل اليهود في البلاد العربية ، ولم يستطيعوا فيهاتدبيراً من بعد ، ولكن كان خبثهم فيما وراءها ، ومكروا ومكر الله والله خيرالماكرين ، وكان قتلى المسلمين ٢١شهيداً وسبي وقتل كثيرون من اليهود •

---

(١) الحشر

الصلح والغنائم

٥٣٢ ـ لما هم رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم بنصب المنجنيق ،وأيقنوا بالهلكة نزل اليه ابن الحصين مستسلماطالبا الصلح على النجاة بأنفسهم وتسليم ما بأيديهم ، فصالحه بالاجمال على حقن دمائهم ، وسيرهم ، ويخلون بين رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ،وبين ما كان لهم من الأرض والأموال، الصفراء والبيضاء والكراع والحلقة ،وعلى أنه ليس لهم الا ما كان على ظهر الناس يعني لباسهم ، فقال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم قابلا عرضهم: « وبرئت منكم ذمة الله ، وذمة رسوله ،ان كتمتم شيئا ، فصالحوه على ذلك »٠

قال ابن كثير « ولما كذبوا على رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ،وأخفوا المسك (الجلد) الذي كان فيه أموال كثيرة لحيي بن أخطب ، فتبين أنه لا عهد لهم فقتل ابن أبي الحقيق وطائفة من أهله بسبب نقض العهود والمواثيق »٠

هذا اجمال يجب أن نذكره بشيء من التفصيل معتمدين على السنة الصحيحة خصوصا في التفرقة بين الأرض والنخيل والأموال المنقولة من صفراء وبيضاء وسبايا فان لذلك موضعا في الأحكام الشرعية ٠

انه كان الاتفاق على أن يجلوا على أن يحملوا معهم ما تحمله الركائب ويتركوا الأموال المنقولة والنخيل وان النبي صلى الله تعالى عليه وسلم أحصى أموالهم المنقولة من النقود والمتاع والجواهر ، وقسمها بين القائمين على أساس أن الفارس له سهم ولفرسه سهمان ومن لا فرس له وهو راجل في الحرب سهم واحد ، ولم يسهم للنساء بل رضخ لهن ، والعبيد ، فقد رضخ لهم بأن أعطاهم قدرا من الغنائم غير معين بتعيين ولا سهم ٠

روى أبو داود والامام أحمد عن عمير مولى أبي اللحم قال شهدت مع سادتي ، فكلموا في رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، فقلدني سيفاً ، فاذا

أنا أجره ، فأخبر أني أنا مملوك لي شيء من المتاع ، وهـــذا الخبر يـدل بظاهره على أن العبد يجوز له أن يملك، ولا يقال العبد وما ملكت يداه لسيده ، وهذا رأي الظاهرية •

وذكر محمد بن اسحق أنه حضر في غزوة خيبر بعض النساء يحملن الماء ، ويداوين الجـراح فرضخ النبي صلى الله تعالى عليه وسلم لهن ، وقـد روي عن امرأة من غفار ، قالت أتيت رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم في نسوة من بني غفار ، فقلنا يا رسول الله قد أردنا أن نخرج معك الى وجهـــك فنـداوي الجرحى ، ونعين المسلمين بما استطعنا، قال على بركة الله تعالى ، فخرجنا معه • فلما فتح الله تعـــالى خيبر رضـــخ لنا من الفيء •

وروى الامام أحمد عن بعض النساء أنها قالت : خرجنا مع رســـول الله صلى الله تعالى عليه وسلم في غزوة خيبر وأنا سادســة ست نســوة ، فبلغ رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، فأرســل الينا فدعانا ، فقال ورأينا في وجهـه الغضب ، فقال : ما أخرجكن ؟ وبأمر من خـــرجتن ؟ قلنا خرجنا ، نـنــاول السهام ، ونسقي السويق ومعنا دواء للجرحى ، ونغزل الشعر ، فنعين به في سبيل الله ، فأمرنا فانصرفنا ، فلمـــا فتح الله خيبر أخرج لنا سهاماً كسهـــام النساء ، ولعل المراد أنه أعطاهن ، كما أسهم للرجال ، لا أن سهامهن مســاوية لسهام الرجال •

هذا التقسيم كان في الأموال المنقولة ، من صفراء وبيضاء وتمر ومتـــاع وغير ذلك من الأموال التي تنقل ، أو الأموال السائلة ، كما يعبر علماء المال في عصرنا هذا •

مـــال حُيَيّ بن أخطـب :

٥٣٣ ـ وان النبي صلى الله تعالى عليه وسلم قد عاهدهم على أن يقدموا كل صفراء وبيضاء ، وكل طعام ومتاع على ألا يكثر منه ، وان العهد كان على ذلك ، فاذا كشف شيء كان مكتوما ، فان العهد ينقض ، فلما تبين أنهم كتمــوا مالا نقض العهـــد ، وقتــل ابنا أبي الحقيق بسبب هذا النقض ، وقد أشرنا الى ذلك من قبل ، والآن نفصــل كيف كان اكتشاف الاخفاء وكيف أظهر •

حدث البيهقي عن عبد الله بن عمر أنهم غيبوا مسكا فيه مال وحلي لحيي بن أخطب ، وكان احتمله معه الى خيبر حين أجليت النضير ، فقال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ما فعل مسك حيي بن أخطب الذي جاء به من النضير ؟ فقالوا أذهبته النفقات والحروب ، فقال عليه السلام : العهد قريب ، والمال أكثر من ذلك ٠٠ وكان حيي قبل ذلك دخل خربة يطوف بها ، فذهبوا فطافوا في هذه الخربة فوجدوا المسك في الخربة ٠

وبذلك كان نقض العهد ، ويظهر أن الذين كانوا يتسترون على هذا المسك هما ابنا أبي الحقيق فقتلهما رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، ولم ينقض العهد برمته ، بل نقضه بالنسبة للذين كتموه ، وكانوا يعلمون بموضعه وان الله تعالى قسم الأموال المنقولة بالأسهم ، وكان سهم لله ولرسوله ولذوي القربى واليتامى والسائلين وابن السبيل ٠

ووزع رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم سهم ذى القربى على بني هاشم ، وبني المطلب ولم يوزع على بني عبدشمس ولا بني نوفل ، فمشى عثمان بن عفان من بني عبد شمس ، وهم الأمويون ، وجبير بن مطعم من بني نوفل ، قالا للنبي صلى الله تعالى عليه وسلم أعطيت بني المطلب من خمس خيبر وتركتنا ونحن وهم بمنزلة واحدة منك ، فقال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ان بني هاشم وبني المطلب شيء واحد ، ولم يفارقونا في جاهلية ولا اسلام ٠

وانه لم يناصب أحد من بني المطلب النبي عداوة ، والمطلب هو الذي ربى عبد المطلب ، وعندما ضربت قريش حصاراً على بني هاشم في شعب أبي طالب انضم اليهم في الحصار بنو المطلب ، ورضوا أن يكون ما ينزل بالهاشميين ينزل بهم ، فكانوا قائمين بحق القربى ، بينما أبو لهب الهاشمي أخو أبي طالب لم يرض الدخول معاخوته ٠

الأرض والنخيل :

٥٣٤ ـ هذا هو الأمر في تقسيم البيضاء والصفراء والمتاع وسائر المنقولات ، أما الأرض ، فانها لم تقسم كما قسمت الأموال ، بل الأمر فيها كان على غير ذلك ٠

ذلك أن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم عندما أراد اجلاءهم بمقتضى الشرط الذي أخذه عليهم ، قالوا يامحمد دعنا نكون في هذه الأرض نصلحها ونقوم عليها ، ولم يكن لرسول الله ولا لأصحابه غلال يقومون عليها ، وكانوا لا يفرغون أن يقوموا عليها ،فأعطاهم رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم خيبر ، على أن لهم الشطر من كل زرع ونخيل وشيء ، ما بدا لرسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ٠

ويستفاد من هذا أمران ـ أحدهما ـ أن الأرض تبقى في أيدي المغلوبين ، على أنهم مالكين لرقبتها ، بل يعملون في زراعتها ومراعاة أشجارها ، ومساقاتها ، ولهم شطر ما يخرج من زرع وثمر ، والنبي صلى الله تعالى عليه وسلم يأخذ الشطر وكان يوزعه في مصارف الغنائم ٠

الأمر الثاني ـ أن ذلك غير ملزم للنبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، بل له أن ينزع الأرض من أيديهم اذا أراد ،ولا يريد الا ما يكون فيه مصلحة للمسلمين ٠

وقال في ذلك الامام مالك رضي الله عنه ، ان الامام مخير في الأراضي المفتوحة ان شاء قسمها ، وان شاء أرصدها لمصالح المسلمين وان شاء قسم بعضها ، وان شاء أرصد بعضها لماينوبه في الحاجات والمصالح ٠

وشطر الغلات الذي يتولى النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، روي أنه كان يوزعه توزيع الغنائم ، فيكون خمسه لله وللرسول ، ولذوي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل ، وأربعة الأخماس للغانمين وكانوا أهل بيعة الرضوان ، وغيرهم نحو أربعمائة وألف ، ومن انضم اليهم من مجاهدي خيبر ، فبلغ الجميع خمسمائة وألف فكان يقسم الريع مقسم الغنيمة بينهم٠

وروى أبو داود أن النصف الذي كان يخص المسلمين ما كان النبي صلى الله تعالى عليه وسلم يقسمه قسمة الغنائم ، بل كان يبقيه لمن نزل به من الوفود ، والأمور ونوائب الناس ، أي يجعله لمصالح المؤمنين من غير تخصيص أو يقول الحافظ بن كثير ، قد تفرد بهذه الرواية أبو داود ٠

ومهما يكن من الأمر بالنسبة لغلة النصف فانه يتبين من هذا أن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم جعل الأرض في أيدي أهلها على أن يكونوا زارعين حارثين مصلحين في الأرض غير مالكين لرقبتها ، بل رقبتها لجماعة المسلمين ، ولذلك كان للامام أن يخرجهم منها حيثما كان في ذلك مصلحة المسلمين .

وان ما فعله عمر رضي الله تبارك وتعالى عنه في أرض سواد العراق الذي أشرنا اليه عند الكلام في أموال بني النضير ، يشبه هذا ، وكان للامام عمر رضي الله تعالى عنه أن يحتج به عندما خالفه جمع من الصحابة كان على رأسهم بلال رضي الله عنه .

وان رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم أقام عبد الله بن رواحة على المقاسمة بينهم وبين النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، فكان يأتيهم كل عام، فيخرجها عليهم ، ويضمنهم الشطر ،وكان عادلا لا يظلمهم ، ولا يطفف شيئاً من نصيب المسلمين ، فشكوا الى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم شدة حرصه .

ولقد أرادوا أن يرشوه فقال يا أعداء الله تطعمونني السحت ، والله لقد جئتكم من عند أحب الناس الي ، ولأنتم أبغض الي من عدتكم من القردة والخنازير ، ولا يحملني بغضي اياكم،وحبي اياه على ألا أعدل أياكم .

فهو لا يظلم لعداوة ولا لمحبة ، ولذلك قالوا بهذا قامت السموات والأرض ولما قتل عبد الله بن رواحة ، في مؤتة،ولى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم بعده جبار بن صخر رضي الله تعالى عنه وكان من أهل الخبرة ، في خرس الزروع والثمار .

تقسيم الغلات من خيبر :

٥٣٥ ـ وكان رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم يوزع الزرع والثمار في النصف الذي يخص المسلمين على تقسيم الغنائم وخصص أراضي لاخراج سهم من السهمان ، فجعل ما ينتجه حصن الشق ونطاة في سهمان المسلمين ما ينتج منهما يكون نصفه قسمة على حسب سهام الفاتحين .

وكان ما ينتجه حصن الكتيبة مخصصاً لخمس الله ورسوله وذي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل وطعم رجال سواء بالصلح بين النبي صلى الله تعالى عليه وسلم في أهل فدك.

وكان لنطاة والشق ثمانية عشر سهماً ، لنطاة خمسة والباقي للشق يأخذ الفاتحون هذه الأسهم الثمانية عشرة .

وقسمت الثمانية عشرة على ١٨٠٠ سهم ، أي أن كل سهم في النطاة والشق كان مقسما على مائة .

ويقول ابن اسحاق « قسم رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم الكتيبة وهي واد خاص بين قرابته وبين نسائه ،وبين رجال مسلمين ، ونساء أعطاهم » وقد ذكر المقادير التي كان يعطيها لذوي قرابته ونسائه ، ولبعض رجال المسلمين ، فكان يقسم على الضعفاء وذوي الصلة كل على مقدار حاجته .

وهكذا كان التقسيم للغلات ، ولم يقسم الأرضين ، ولكن كان لكل طائفة سهام في حصن معين من حصون خيبر ،ولقد كان بعض المؤمنين يشرفون على الأرض من حيث انتاجها وصلاحها ،وكان يتولى مقاسمة اليهود عبد الله بن رواحة أولا ، فلما استشهد رضي الله تعالى عنه ، تولاها ، جبار بن صخر ، واستمر طول حياة رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم .

فلما انتقل رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم الى الرفيق الأعلى نفذ أبو بكر ما كان يفعله رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، ثم لما توفى الصديق نفذ عمر شطراً من امارته ماكان يفعله النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ثم بدا له أن يخرج الأرض من أيدي اليهود ، ويعطيها ذوي السهام فيها ، وذلك لأمرين : أولهما أنهما قتلوا في عهد النبي صلى الله تعالى عليه وسلم رجلا أنصارياً ، وهو عبد الله بن سهل وكان قد خرج في أصحاب له يمتارون تمراً . فانفرد عنهم ، ووجد في عين قد دقت عنقه ثم طرح فيها فأخذوه وأخفوه ، ثم قدموا على رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، وأقام رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم القسامة ، واتهمهم من بعد ذلك عمر في عهده بأنهم قتلوه .

واعتدوا ثانية في عهد عمر على عبد الله بن عمر فقد خرج هو والزبير ابن العوام والمقداد بن الأسود الى أموال المسلمين بخيبر يتعهدونها ، وتفرقوا

في الأموال فقدعوا يديه (أي خلعوا أي أزيلت عن مفاصلها ، وأصلح زملاؤه يده) ٠

فلما حضر الى أمير المؤمنين فقال هذا عمل يهود ، ثم قام في الناس خطيباً ، فقال :

أيها الناس ، ان رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، كان قد عامل يهود خيبر على أنا نخرجهم اذا شئنا ،وقد عدوا على عبد الله بن عمر فقدعوا يديه ، كما قد بلغكم مع عدوهم على الأنصاري قبله ، لا شك أنهم أصحابه ليس هناك عدو غيرهم ٠ فمن كان له مال بخيبر فليلحق به ، فاني مخرج يهود ، وهذا مؤداه أنهم أصبحوا غير أمناء على المؤمنين ، وقد ارتبطوا معهم بعلاقة المزارعة فكانوا يعاملونهم معاملة عدو ، لا معاملة معاون ٠

الأمر الثاني ــ الذي أوجب على عمر أن يخرجهم وخصوصاً بعد ما أظهروا عداوتهم وحقدهم ، أنه علم أن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم قال « لا يصبحن بجزيرة العرب دينان، فكان لابد من اجلائهم ، فدعاهم الى الجلاء ، وقال من كان عنده عهد من رسول الله صلى لله تعالى عليه وسلم فليأتني به أنفذه ، ومن لم يكن عنده عهد من رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، فليتجهز للجلاء واذا كان بقاؤهم في الأرض فقد كان بالمشيئة وليس عهداً دائماً ، وقد خصص النبي صلى الله تعالى عليه وسلم لكل ذي سهم دائم جزءا من الأرض يجمع شطر ثماره ، فلما أجلى سيدنا عمر رضي الله عنه اليهود ، قال لأصحاب النبي صلى الله تعالى عليه وسلم أيها الناس ان رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم عامل يهود خيبر على أن يخرجهم اذا شاء ، فمن كان له مال فليلحق به ٠ فاني مخرج يهود » ٠

وجعل لكل مستحق من أسهم ثمراتها ، على ما يخرجه سهمه يديره حيثما يريد ٠

وبالنسبة لازواج النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، فخيرهن رضي الله عنهن وعنه فقال لهن : من أحب منكن أن أقسم فاني أقسم مائة وسق على أن يكون لها أصلها وأرضها وماؤها ومن الزرع عشرون وسقا من شعير فعلنا ، ومن أحب أن يعزل الذي لها في الخمس، كما هو فعلنا ٠

ويستفاد من هذا أن سيدنا عمر ماأخذ من نصيب في سهم ذوي القربى ، على أنه لهن ليس بالوراثة ، بل أخذنه حقا لهن من الخمس الذي لله وللرسول، ولذي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل ، فقد جعل رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم لكل واحد مائة وسق أو مائتي وسق على اختلاف الراوية في ذلك ، وعشرين وسقاً من شعير من غير اختلاف في ذلك ، فكان هذا استحقاقا ابتداء لا وراثة عن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، فخيرهن عمر رضي الله تعالى عنه بين أن يجري عليهن ما كان يجريه رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم من أوساق ، وبين أن يعزل لهن ما ينتج ذلك ، كما فعل مع كل المستحقين في خيبر .

يهود فدك

٥٣٦ ـ لما رأى يهود فدك ما نزل بيهود خيبر ، وهم أهل الحصون الممنوعة أصابهم الرعب ، ورأوا أن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم قد أبقى الأرض في أهل خيبر يرعونها ويغرسونها ، ويصلحون شجرها على أن يكون لهم نصف ما ينتج ، أي يعاملون كما عامل النبي صلى الله تعالى عليه وسلم أهل خيبر ، وفدك أرض من أرض خيبر يسكنها يهود ، لم يكن لهم حصون ، ولم يقاتلهم النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، ولكن ألقي الرعب في قلوبهم ، فاستسلموا .

وقال رواة سيرة الرسول صلى الله تعالى عليه وسلم ، انها كانت كلها خالصة للنبي كالشأن في أموال بني النضير ، فلم تقسم سهاما كما قسم انتاج خيبر ، بل كانت كلها للنبي صلى الله تعالى عليه وسلم .

ويقول ابن كثير كان رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم يعزل منها نفقة أهله لسنة ، ثم يجعل ما بقي كمال الله تعالى يصرف في الكراع والسلاح ومصالح المسلمين .

ويجب علينا في هذا المقام أن نعيد تلاوة ما نزل في أموال بني النضير التي عدها العلماء بأنها كفدك فقد قال تعالى في أموال بني النضير :

﴿ مَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَـٰمَىٰ وَٱلْمَسَـٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ كَىْ لَا يَكُونَ دُولَةًۢ بَيْنَ ٱلْأَغْنِيَآءِ مِنكُمْ ۚ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٧﴾ لِلْفُقَرَآءِ ٱلْمُهَـٰجِرِينَ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَـٰرِهِمْ وَأَمْوَٰلِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا وَيَنصُرُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّـٰدِقُونَ ﴿٨﴾ وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَـٰنَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ

إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُوا۟ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ۚ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٩﴾ وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَـٰنِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٠﴾ ﴾ (١)

وانه اذا كانت المقايسة ثابتة بين أموال بني النضير ، وفدك ، فان التعبير بأنها خالصة للنبي صلى الله تعالى عليه وسلم مؤداه أنها لا تقسم مقسم الغنائم فلا يكون للفاتحين المجاهدين أربعة الأخماس كما هو الشأن في الغنائم ،وانما يكون مصرفها مصرف خمس الغنائم الخمس لله ولرسوله ولذوي القربى واليتامى والمساكين ، ولذلك يصرفه النبي صلى الله تعالى عليه وسلم في مصالح المسلمين ، ويبقى له ما يكفيه وأهله منه بالمعروف .

وعلى ذلك نقرر أنه لم يكن مملوك الرقبة للنبي صلى الله تعالى عليه وسلم حتى يورث ، ويجري فيه النزاع على الملكية كما توهم كتب السيرة ، وكتب التاريخ .

والذي أحسبه أن الاختلاف في ادارتها ، وتولي صرفها في مصارفها ، باعتبار أنها ليست في ظل الولاية العامة ، بل لها ولاية خاصة ، هي ولاية النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ومن يخلفه من أهله ، وبذلك انتهى أمرها في عهد عمر رضي الله تبارك وتعالى عنه ، ولنترك الكلمة بعد ذلك للحافظ ابن كثير في تاريخه .

كانت هذه الأموال لرسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم خاصة ، وكان يعزل منها نفقة أهله لسنة ، ثم يجعل ما بقي مجعل مال الله تعالى يصرفه في الكراع والسلاح ومصالح المسلمين ،فلما مات رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، اعتقدت فاطمة وأزواج النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، أو أكثرهن

---

(١) الحشر

أن هذه الأراضى تكون موروثة عنه ولم يبلغهن ما ثبت عنه من قوله صلى الله تعالى عليه وسلم نحن معشر الأنبياء لا نورث ، ما تركناه يكون صدقة .

ولما طلبت فاطمة وأزواج النبي صلى الله تعالى عليه وسلم نصيبهن من ذلك ، وسألوا الصديق أن يسلمه اليهم وذكر لهم قول رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم « لا نورث، ما تركناه صدقة » وقال أنا أعول من كان يعول رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، والله لقرابة رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم أحب الي أن أصل من قرابتي ، وصدق رضي الله عنه وأرضاه ، فانه البار الراشد ، في ذلك التابع للحق .

نحن لا نظن أن السيدة الزهراء التي هي قطعة من النبي صلى الله تعالى عليه وسلم أن يكون طلبها للميراث ، وانما طلبها أن تتولى هي الصدقة .

وقد صرح ابن كثير بأن فاطمة طلبت بلسان العباس وعلي أن ينظرا في هذه الصدقة وأن يصرفا ذلك في المصارف التي كان النبي صلى الله تعالى عليه وسلم يصرفها فيها ، فأبى عليهم الصديق ذلك ، ونحن لا نفرض أنهم طلبوا ميراثاً ، فعلي كرم الله تعالى وجهه ما كان يجهل أن الأنبياء لا يورثون ، وهو فقيه الصحابة ، وكما قال صلى الله تعالى عليه وسلم أقضى الصحابة .

ويقول الحافظ ابن كثير ان فاطمة رضي الله تبارك وتعالى عليها ، والصلاة والسلام على أبيها غضبت عليه في ذلك ووجدت في نفسها بعض الموجدة ، ولم يكن لها ذلك ، والصديق من قد عرفت هي والمسلمون محله من رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم وقيامه في نصرة النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، وتوفيت فاطمة بعد رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم « فلما كانت أيام عمر بن الخطاب سألوه أن يفوض أمر هذه الصدقة الى علي والعباس ، وثقلوا عليه بجماعات من سادات الصحابة ففعل عمر ذلك لكثرة أشغاله ، واتساع مملكته ، وامتداد رعيته » .

هذه عبارات الحافظ ابن كثير ، وله مَقامه في علم السنة ، والأخذ بمنهاج السلف ، ولكن نلاحظ أن عباراته في حق فاطمة التي تنتهي عترة النبي صلى الله تعالى عليه وسلم اليها لم تكن لائقة بمقامها من النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، فاذا كان للصديق مكانته ، فلفاطمة مكانتها من المحبة لأنها قطعة

منه صلى الله تعالى عليه وسلم ، فقوله عنها ما كان لها ذلك فيه تعد للحدود ، بدليل أن عمر بن الخطاب من بعده نفذ ما طلبت ، فلم تكن متجنية عند ما وجدت موجدة على الصديق صديق أبيها ·

وهناك عبارة لا نوافقه عليها ، لأنه يقول انهم ثقلوا على عمر رضي الله عنه بجماعة من سادات الصحابة ، فان هذه العبارة لا يصح أن تقال في علي ولا في عمر ، فمقام علي أجل من أن يعبر عنه في طلبه واحتكامه الى الصحابة بكلمة ثقلوا ، وما كان عمر بن الخطاب فاروق الاسلام من صفاته أن يخضع لاثقال أحد من الصحابة ،فهو القوي في الحق الذي لا يخشى فيه لومة لائم ، وما كنا نود أن يقع هذا من الحافظ بن كثير العالم السلفي الامام ، انما الأمر الذي يتصور أن يكون من العباس وعلي أنها احتكما الى جمع من الصحابة فنزل عمر عند رأيهم ، لأنه رآه أنه الحق ، ولنذكر بقية ما قصه الحافظ بن كثير ·

فهو يقول ان الصدقة أعطيت لعلي والعباس رضي الله عنهما ، فتغلب علي على عمه العباس فيها ، ثم تساوقا يختصمان الى عمر ، وقدما بين أيديهما جماعة من الصحابة ، وسألا عمر أن يقسمها بينهما ، فينظر كل واحد فيما لا ينظر فيه الآخر ، فامتنع عمر عن ذلك أشد الامتناع ، وخشي أن تكون هذه القسمة تشبه قسمة المواريث وقال : انظرا فيها ، وأنتما جميع ،فان عجزتما عنها ، فادفعاها الي ، والذي تقوم السماء والأرض بأمره ، لا أقضي فيها قضاء الا هذا ، فاستمرا فيه ، ومن بعد الى ولدهما الى أيام بني العباس ، تصرف في المصارف التي كان يصرف فيها أموال بني النضير وفدك ، وسهم رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم من خيبر ·

حوادث ذات مغزى في خيبر

٥٣٧ - في أثناء خيبر ، وفي أعقابها وجدت حوادث تدل على قوة ايمان بعض المؤمنين ، وصدق ما وعدوا الله ورسوله ، وحوادث فيها غدر من اليهود ، وسماحة من النبي صلى الله تعالى عليه وسلم وهو الغالب .

منها أمر الأسود الراعي :

قصته تدل كيف يدخل الاسلام الى القلوب المخلصة المتفتحة التي لم يرنقها هوى وما غلبت عليها شهوات كان مع اليهود عبد أسود أجير عندهم يرعى غنما لهم وقد سمع اليهود يقولون انه يدعي أنه نبي مرسل ، فساقه هذا لأن يذهب الى النبي صلى الله تعالى عليه وسلم يسأله عما يدعو اليه ، وكان رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم الذي نصر بالضعفاء والمساكين لا يحقر أحداً أن يدعوه الى الاسلام ، ولذا عرضه عليه رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، فأسلم ، وجمع قلبه الطيب بين الايمان والأمانة .

فدعته الأمانة بعد الايمان أن يقول لرسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم : اني كنت أجيراً لصاحب هذه الغنم ،وهي أمانة عندي ، فكيف أصنع بها ، لم يقل له النبي صلى الله تعالى عليه وسلم انها للمؤمنين بحكم أنها غنيمة للغالب ، ولكنه أجرى أمانة الرجل على رسلها ،بل قال له اضرب في وجوهها فانها سترجع الى ربها فأخذ حفنة من الحصى فرمى بها في وجوهها ، وقال : ارجعي الى صاحبك فوالله لا أصحبك أبداً ، فخرجت مجتمعة كان سائقاً يسوقها ، حتى دخلت الحصن ، ثم تقدم الى ذلك الحصن ليقاتل مع المسلمين ، فأصابه حجر قتله .

قال النبي صلى الله تعالى عليه وسلم انه شهيد وانه دخل الجنة .

أعرابي يرد المغنم ويطلب الجنة :

٥٣٨ ــ روى البيهقي بسنده ، أن رجلا من الأعراب جاء رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، فآمن به واتبعه فقال أهاجر معك ، فأوصى به بعض أصحابه ، وغزا مع رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم وغنم رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، فقسم المغنم ، وقسم لهذا الأعرابي المؤمن ، فأعطى ما قسم له ، فقال : ما هذا ؟ قالوا قسم قسمه لك رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، فقال لرسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم : « ما على هذا اتبعتك ، ولكن اتبعتك على أن أرمى هاهنا ، ــ وأشار الى حلقه ــ بسهم فأموت فأدخل الجنة » ، فقال الرسول الأمين « ان تصدق الله يصدقك » رفض المال ولو أنه حق وحلال ، ومنحة الغنيمة أخذها بحقها ، وذلك في سبيل أن يكون عمله خالصا لوجه الله تعالى ، فهو لا يرد الحلال ، ولكن لا يريد عوضا للجهاد ·

ولما نهضوا للقتال كان معهم ، فقتل بسهم أصابه حيث أشار الى حلقه ، فحمل الى النبي صلى الله تعالى عليه وسلم فقدمه لله شهيداً ، وقال : « اللهم هذا عبدك خرج مهاجراً في سبيلك ، قتل شهيداً ، وأنا عليه شهيد » ·

وقد ضرب هذا الأعرابي المؤمن أعلى مثل للايمان ، وطلب ما عند الله وحده لا شيء سواه ، فطلب رضوانه ولا يريد مغنما ، فرضي الله تبارك وتعالى عنه ·

مؤمن يتحايل لماله بمكة :

٥٣٩ ــ وان الاسلام فتح الطريق أمامه ، لا تحول بينه وبين انتشاره قوة الطغاة ، ولا صد عن سبيل الله أخذ يطوف في البلاد العربية فيعشو اليه من يريد الهداية ، ومن يصفي قلبه للحق والنور والهداية ·

وكان من ذلك اسلام الحجاج بن علاط السلمي ، فانه لما فتحت خيبر وزال كل ما كان يصد عن الاسلام جاء الحجاج هذا الى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، فقال « يا رسول الله ان لي مالا عند صاحبتي أم شيبة بنت أبي طلحة ، وكانت زوجه ، وله منها ولد وأموال متفرقة في تجارة مكة ،

والمؤمن يكون حريصا غير مستهين ولايكون بخيلا،وفرق بين البخل والحرص، لأن الحرص معناه ألا يفرط في حق اكتسبه بحله ، ولا يكون هملا فرطا لا يعطي كل ذي حق حقه ، ولا يفرط في حقه مع التسامح في موضعه أما البخيل فانه يشح بالمال ولا يضعه في مواضعه ٠

فالمؤمن حريص غير مفرط ، ولا بخيل ، أراد الحجاج أن يصل الى ماله، وهو بمكة ، ولو أعلن اسلامه منع ماله،فاستأذن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم أن يخفي أمره ، ويقول ما يسهل الوصول الى ماله من غير تعمد للكذب ، ولا خدع لمؤمن ، فأذن له رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ٠

خرج الحجاج الى مكة ، حتى اذا التقى برجال من قريش يتسمعون الأخبار ، ويسألون عن أمر الرسول صلى الله تعالى عليه وسلم ، وقد بلغهم أنه سار الى خيبر ، وهم يعلمون أنها قرية الحجاز ، ريفا ومنعة ورجالا ، فهم يتحسسون الأخبار،ويسألون الركبان٠

فلما قابلوا الحجاج ، ولم يكونوا علموا باسلامه ، ولم يظهره لهم ، فسألوه عن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم وعن أمر خيبر ، وقالوا له قد بلغنا أن القاطع (أي محمدا صلى الله تعالى عليه وسلم قد سار الى خيبر ، وهي بلد يهود وريف الحجاز) ٠

قال قد بلغني ذلك ، وعندي من الخبر ما يسركم ، هزم هزيمة لم تسمعوا بمثلها قط ، وقتل أصحابه قتلا لم نسمع أبدا بمثله قط ، وأسر محمد أسرا ، وقالوا لا نقتله ، حتى نبعث به الى أهل مكة ، فيقتلوه بين أظهرهم ٠

أعينوني على جمع مالي بمكة ، وعلى غرمائي ، فاني أريد أن أقدم خيبر ، فأصيب من فل محمد وأصحابه قبل أن يسبقني التجار الى هنالك ٠

فقاموا فجمعوا له ماله يحثون الغرماء على ذلك ٠

وكان له عند امرأته مال موضوع،وأراد أن يأخذه ، فطلب منها لعله يصيب من فرص البيع قبل أن يسبقه التجار ٠

تسامع الناس بخبر هزيمة محمدصلى الله تعالى عليه وسلم ، والنـــاس يصغون دائما الى ما يحبون ، ويذيعونهوينشرونه فرحين مستبشرين ، ويعميهم حبهم عن فحص الخبر ووزنه أو الشكفيه ، بل يطمئنون الى ما يحبـون من غير تمحيص ٠

وفي مكة محبون للنبي من ذوي قرباه ، وعلى رأسهـــم العباس عم النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، فهاله الخبر،فذهب الى الحجاج فسأله ما الخبر الذي جئت به ، فأشار الى العباس أن عنـدهأخبارا وطلب اليه أن يســـافر حتى يفرغ من جمع ماله ، ويلقاه في خلاء ٠

حتى اذا فرغ من جمع كل شيء كانله بمكة ، وأجمع الخروج لقي العباس رضي الله عنه ، وقال احفظ عني حديثي يا أبا الفضل ثلاثاً ، فاني أخشى الطلب ، ثم قل ما شئت ، قال : أفعل ،فاني والله لقد تركت ابن أخيك عروساً على بنت ملكهم صفية بنت حيي ، ولقدافتتح خيبر ، وصارت له ولأصحـابه ولقد أسلمت وما جئت الا لأخذ أمواليفرقاً من أن أغلب عليه ، فاذا مضت ثلاث ليال ، فأظهر أمرك فهو والله علىما نحب ٠

مكث العباس ثلاث ليال لا يلتقي بالناس ، حتى اذا خـــرج لبس حلة ، وتطيب ، وأخذ عصاه وخرج حتى أتىالكعبة ، فلما رآوه قالوا والله هـــذا التجلد لحر المصيبة ٠

قال : كلا والله الذي حلفتم به ،لقدافتتح محمد خيبر ، ونزل عروساً على بنت ملكهم ، وأحرز أموالهم وما فيها،فأصبحت له ، ولأصحـابه ٠ قالوا من جاءك بهذا الخبر ؟ قال الذي جاءكـم بما جاءكم به،ولقد دخل عليكم مسلما، فأخذ ماله ، وانطلق ليلحق بمحمـــدوأصحابه ، فيكــون معـه ، قالوا : يالعباد الله ، انفلت عدو الله ، أما واللهلو علمنا لكان لنا وله شأن ، ولم ينشبوا أن جاءهم الخبر ٠

ونقف وقفة قصيرة في هذا ، أيعد الرجل قد كذب ، وهل يعد هذا الكذب اثما ، ونقـــول قبل الاجابة ان النبيصلى الله تعالى عليـه وسلم لم يأذن له

بالكذب ، بل أذن بالقول ، بأن يوري ولا يكذب،وأن يحاول من غير أن يتورط في قــول غير صحيح في ذاته ولا فيموضوعه ٠

ولكن هل يعتبر كذباً أن يوهـــمبالقول ، ثم يوضح هو الحقيقة ، وهو بين قوم ظالمين ، ولا يمكن أن يصل الىحقه المشروع ألا اذا أوهمهـــم ، ثم أزال وهمهم بقول الحق الصريح ، وهوقد ترك للعباس أن يصحح القـــول ، ويبين مقصده من ايهامهم ٠

واني أحسب أنه لم يكذب ويصرعلى ما أدخله في نفوسهم ، والله سبحانه وتعالى أعلم ٠

زواج النبيّ صلى الله تعالى عليه وسلم بأم المؤمنين صفيّة

٥٤٠ ـ كان النبي صلى الله تعالى عليه وسلم شفيقاً رفيقاً رؤوفا في ذات نفسه وبالناس ، وقد رأى صفية وأختها ، يمر بهما بلال رضي الله عنه في وسط قتلى اليهود ، فناداه النبي صلى الله تعالى عليه وسلم بلالا لائماً له قائلا له : أليس في قلبك رحمة تمر بالفتاتين في وسط القتلى من أهلهما وكانت احداها مذعورة نافرة وكانت صفية ساكنة مستسلمة تاركة نفسها للمقادير .

والنبي صلى الله تعالى عليه وسلم كان يقرب القلوب ، ولا ينفرها ، وييسر ولا يعسر ، وكما كان عليه الصلاة والسلام يقول : « يسروا ولا تعسروا ، واكفوا ولا تنفروا » .

وقد كانت صفية في قسمه ، فلم يرد أن يبقيها على الرق أو أن يفرض عليها رقا تأليفا ورفقا ، وكان يمكن أن ينال ما ينال بملك اليمين ، ولم يكن حراما ، ولكنه يبغض الرق ولا يريد أن ينشيء رقا على أحد قط ، وخصوصاً اذا كانت ابنة رئيس القوم ، فهو لايحب الذلة ينزلها بانسان بعد عزة ، ولذلك أعتقها وتزوجها النبي صلى الله تعالى عليه وسلم وجعل صداقها عتقها، وكان زوجها ابن عمها في جملة القتلى.

ولقد دخل النبي صلى الله تعالى عليه وسلم بعد استبراء رحمها بحيضة تحيضها ، ولم يكن لها عدة ، لأنه لا عدة من كافر ، وخصوصاً أن عدتها تكون عدة وفاة ، وهي تكون للاحداد على الزوج السابق ، ولا احداد على كافر ، ولكن لا يصح أن يدخل بحامل ، فتركها صلى الله تعالى عليه وسلم ، حتى تستبرىء .

ولقد نظر رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم الى وجهها ، فوجد أثر كدمة في وجهها فسألها عنها فقصت خبر رؤيا لها رأتها ، بعد بضع ليال من زواجها بابن عمها ، وتلك أنها رأت في منامها كأن قمر السماء وقع في حجرها ،

فقصت رؤياها على ابن عمها ، فلطم وجهها ، وقال : أتتمنين ملك يثرب أن يصير بعلك ، وقد تحققت رؤياها وكانت صادقة ، فجاء النبي صلى الله تعالى عليه وسلم وفتح حصونها وكانت في السبايا • فكرمها بأن أعتقها رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم وتزوجها •

ولقد أقام رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم وليمة لزواجها ، وقال أنس أقام رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم وليمة بين خيبر والمدينة ثلاث ليال فدعوت المسلمين الى وليمته، وما كان فيها من خبز ولحم ، وما كان فيها الا أن أمر بلالا بالانطاع فبسطت فألقى فيها التمر والسمن ، فقال المسلمون أجدى أمهات المسلمين •

ولقد كان النبي رفيقاً في معاملته لها ، وقد اعتذر لها عن قتل أبيها وزوجها ، اذ كان أبوها يحرض عليه القبائل ، ويؤلب عليه الناس وما كان يستطيع أن يتركه ، يؤلب العرب عليه ، وقتل زوجها ، لأنه خان العهد وأخفى مال أبيه ، ونقض الذمة ،وكان يتألف قلبها بسماحته ورفقه ، حتى صار أحب الناس الى قلبها •

وان زواج النبي صلى الله تعالى عليه وسلم من السيدة صفية فيه فوائد اجتماعية ، فهو أولا يطفىء ما في قلوب المؤمنين بالنسبة لليهود ، وضرب المثل السامي في معاملة السبايا ، فهي كانت منهن ، فاختارها النبي صلى الله تعالى عليه وسلم زوجاً بدل أن يتخذمنها أمة يدخل عليها بملك اليمين ، وهو يضرب الأمثال في حسن العشرة الزوجية ، فيكون خير الناس لأهله ، كما قال صلى الله تعالى عليه وسلم :« خيركم خيركم لأهله ، وأنا خيركم لأهلي » ، وان هذا الزواج فيه مداواة للجروح المكلومة ، لقد أسرها بلال على القتلى من قومها ، فأكرمها النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، ورفعها الى أعلى درجات النساء وهو أن تكون من أمهات المؤمنين •

وان النبي صلى الله تعالى عليه وسلم يصلح بينه وبين اليهود فجعلهم شركاء للمؤمنين ، فكان من الحق أن يتألفهم ، وأن يرأف بهم ، وان ذلك الزواج تأليف وتقريب ، وابعاد للنفور ولكنهم جاحدون دائما ••

غدر وسماحة

٥٤١ ـ كان سلام بن شكم الحامل الأول للواء اليهود ، ولما قتل حمل غيره اللواء وقد بقيت امرأته من بعده بحقدها وضغنها على من قتلوا زوجها عامة ، وخاصة رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم وأرادت قتل النبي صلى الله تعالى عليه وسلم بأداة القتل عند النساء ، وهو السم ، وتظاهرت بالمودة ، واتجهت الى اهداء النبي صلى الله تعالى عليه وسلم شاة ، وضع السم في أجزائها ، وتعرفت ما يحبه النبي عليه الصلاة والسلام من أجزاء الشاة ، فقيل لها الذراع فزادتها سماً ، وأكثرته فيها.

أهدت النبي صلى الله تعالى عليه وسلم الشاة ، فجاءت بها ووضعتها بين يديه ، تناول النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ذراع الشاة التي هي أحب أجزائها اليه ، فلاك منها مضغة فلم يسغها ، لعل ذلك لأنها أسرفت في وضع السم فيها ، فكان غريب المذاق ، ولذلك رماها من يده ولم يأكلها ولفظها ، وكان معه على الطعام صاحب له هو بشر بن البراء بن معرور ، فأكل هو الآخر ، فأساغها ولعل ذلك لعدم ظهور السم ، وان كان كامناً ، ومات بشير من أكلته هذه ، ولكن ذلك لم يكن فور تناولها .

ولقد قال عليه الصلاة والسلام عندما لفظها : ان هذا العظم ليخبرني بأنه مسموم ودعا المرأة وسألها فاعترفت ، وصرحت بالعداوة قائلة : بلغت من قومي ما لم يخف عليك ، ثم أردفت ذلك بقولها ، فقلت ان كان ملكا استرحت منه ، وان كان نبياً فسيخبر.

وقد تجاوز عنها النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، ويظهر أن بشيراً لم يكن قد مات بأثر السم ، والا ما تجاوز النبي صلى الله تعالى عليه وسلم عنها ، لأنها قتلت نفساً غدراً وعامدة .

وان عمل النبي صلى الله تعالى عليه وسلم كان السماحة كلها ، والسماحة دائماً تقرب ، ولا تنفر ، وان العلماء يقولون ان هذا الفعل الذي لاك به

النبي صلى الله تعالى عليه وسلم مضغة اللحم ، ولم يسغها كـان له أثر في جسمه صلى الله تعالى عليه وسلم ،حتى يقال انه عندما ضعف جسمه الكريم بمرض الموت أحس به يسرى في بدنه•

يروى أنه قال في مرضه الذي توفي فيه ، لأم بشر بنت البراء بن البراء ابن معرور ، وقد جاءت اليه تعوده قال لها : « يا أم بشر ان هذا الأوان وجدت انقطاع ابهرى التي كانت مع أخيك بخيبر » •

ويبني العلماء على ذلك أن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم قد مات شهيداً •

وهكذا نجد غدراً واضحاً ، وسماحة غالبة لمداواة جروح النفوس ، واذا كان اليهود ابتداء قد حاولوا رمي الحجر عليه ، وهو جالس بجوار جدارهم ، فقد حاولته امرأة حقود بالسم تقتله به ، وظهر أثره عندما ضعف بالمرض فمات شهيداً وهو أعظم الشهداء •

قدوم جعفر بن أبي طالب ومَن مَعه مِن المهاجرين

٥٤٢ ـ انتصر النبي صلى الله تعالى عليه وسلم في خيبر انتصاراً مؤزراً ، أزال سلطان اليهود في جزيرة العرب فقوض قوتهم العسكرية ،وفل من شوكتهم ، وجعل العدو يسير وراءالاسلام ، ولا يواجهه ، وبقي أن يعود الغرباء الى عزة الاسلام ، وقد خرجوافراراً من اذلال المشركين ، عادوا ليتحملوا عبء الجهاد أعزاء ، بدل أن يبقوا مستضعفين ، ولو كانوا ضيوفا بين قوم كرماء وملك كريم •

عاد جعفر بن أبي طالب ، ومعه المهاجرون الذين هاجروا الى الحبشة ، ونالوا فضل الهجرتين ، لقي النبي الرفيق ابن عمه الحبيب جعفر بن أبي طالب ، فقبله بين عينيه ، والتزمه ،وقال ما أدري بأيهما أنا أسر بفتح خيبر أم بقدوم جعفر •

عندما اطمأن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم بعزة الاسلام التي أعزها الله تعالى العلي القدير بها ، بعد غزوةالأحزاب ، وقد صار الاسلام يغزو أعداءه ، ويخضد شوكته ، ويدعو الناس بدعوة الحق ، وهو في أمن ، وخصوصا بعد الحديبية عندئذ أرسل النبي صلى الله تعالى عليه وسلم الى أتباعه بعد الحديبية : يدعوهم الى أن يحضروا ليجاهدوا مع اخوانهم ، فهم في غربتهم وكان النبي صلى الله تعالى عليه وسلم حريصاً عليهم ، يشعرهم بأنهم منهم وهو معهم •

بعث الى النجاشي الكريم ـ عمرو بن أمية الضمري ، ليسهل لهم عودتهم ، بعد أن أكرم ضيافتهم ،فحملهم في سفينتين ، فقدم على النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، وهو بخيبر•

عاد المهاجرون الى الحبشة ، وكانوامن بطون مختلفة ، ومن أسر قرشية ، وغير قرشية ، مختلفة ، جمعهم الحق والايمان والهجرة ، وان فرقت البطون والأسر •

فكان من الهاشميين جعفر بن أبي طالب ، ومعه امرأته أسماء بنت عميس الخيثمية وولد له في الحبشة عبد الله بن جعفر ·

ومن بني أمية خالد بن سعيد بن العاص ، وامرأته وابنه سعيد بن خالد·

ومن بني عبد الدار بن قصي الأسود بن نوفل بن خويلد ·

ومن بني تيم بن مرة بن كعب الحارث بن صخر وامرأته ·

وهكذا من بطون قريش وقد أحصاهم ابن اسحاق عدا فكان عددهم ستة عشر رجلا ، ومعهم أولادهم الصغار الذين صحبوهم أو ولدوا في الحبشة·

وكان ممن حضر أبو موسى الأشعري ، وعدد من الأشعريين ، كانوا هم عم أبي موسى الأشعري وأخاه أبا بردة ·

وقد كان مع مهاجري الحبشة في السفينتين نساء من هلك من المسلمين هنالك ·

وقد روى البخاري أن أبا موسى الأشعري لم يكن من مهاجري الحبشة ، بل كان ممن آمن بالنبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، وهو باليمن ، ولما علم بهجرة النبي صلى الله تعالى عليه وسلم هاجر اليه ، فالتقى في الحبشة بجعفر ابن أبي طالب ، ولنترك الكلمة للبخاري عن أبي موسى الأشعري قال « بلغنا مخرج النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، فخرجنا مهاجرين اليه ، في ثلاث وخمسين رجلا من قومي ، فركبنا سفينة فألقتنا سفينتنا الى النجاشي بالحبشة ، فرافقنا جعفر بن أبي ، فأقمنا معه حتى قدمنا جميعا ، فرافقنا النبي صلى الله تعالى عليه وسلم حين افتتح خيبر ، فكان أناس من الناس يقولون لنا سبقناكم بالهجرة·

ويروي البخاري مناقشة كانت بين أسماء بنت عميس امرأة جعفر بن أبي طالب وعمر بن الخطاب رضي الله عنهما · ذلك أن أسماء زارت أم المؤمنين حفصة رضي الله عنها · فدخل عمر أبو حفصة وعندها أسماء ·

فقال عمر : الحبشية هذه البحرية هذه ·

قالت أسماء نعم ·

قال عمر رضي الله عنه : سبقناكم بالهجرة ، فنحن أحق برسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، فغضبت أسماء وقالت ، كلا والله كنتم مع رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم يطعم جائعكم، ويعظ جاهلكم وكنا في دار البيداء والبغضاء بالحبشة ، وذلك في الله ، وفي رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم، وايم الله لا أطعم طعاماً ، ولا أشرب شرابا ، حتى أذكر ما قلت للنبي صلى الله تعالى عليه وسلم وأسأله ، لا أكذب ولا أزيغ ، ولا أزيد عليه ٠

ذهبت في هذه الحماسة الى النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، وقالت : يا نبي الله : ان عمر قال كذا وكذا وقلت كذا وكذا ٠

قال النبي صلى الله تعالى عليه وسلم حاكما بين هذين المؤمنين المخلصين : « ليس بأحق منكم ، وله ولأصحابه هجرة واحدة ، ولكم أنتم أهل السفينة هجرتان » ٠

هذا حديث كان يجري بين الصحابة أيهما أسبق للهجرة أولئك الذين هاجروا من مكة اذ هاجر النبي صلى الله تعالى عليه وسلم من مكة ، أم أولئك الذين هاجروا فرارا من فتنة المشركين، وبسبب بعدهم وغربتهم لم يهاجروا مع النبي صلى الله تعالى عليه وسلم الى المدينة ، بل حبسهم البعد والغربة عن أن يهاجروا مع النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ٠

وفي ذلك الشرف والاخلاص فليتنافس المتنافسون ، وفي كل فضل ، فالذين هاجروا مع النبي صلى الله تعالى عليه وسلم نالوا نعمة الجهاد في غزوات وسرايا ، فجاهدوا في بدر وأحد ،وبني قينقاع ، وبني النضير ، ثم تحملوا البلاء في حفر الخندق ، وزلزال غزوة الأحزاب في الخندق ، ثم كان لهم فضل الصبر في الحديبية ، وليس صبر القتال ، ولكنه صبر النفس ، وضبطها، ثم بيعة الرضوان ٠

وفضل مهاجري الحبشة أنهم كانوا في غربة معزولة ، وكانوا مستضعفين في الأرض يبغون الجهاد ولا يدركونه، حتى أنقذهم النبي صلى الله تعالى عليه وسلم فجاؤوا اليه ليحملوا عبء الجهاد كاخوانهم ، ويزول عنهم بلاء الاغتراب الى بلاء الجهاد ، وعزته ٠

وادى القــرى

٥٤٣ ـ كان حول خيبر أو علىمقربة جيوب لليهود ، لم تقدعها هزائم أهـل الحصون فكانوا يعلون برؤوسهم حاسبين أنهم ينالون من المسلمين نيلا.

فكان اليهود بوادي القرى ينهـدون برؤوسهم ، ولم يعتبروا بما كان في خيبر ، وبينما النبي صلى الله تعـالى عليه وسلم بوادي القرى أصيب رجل من المؤمنين بسهم فقتل .

وأخذ يهود وادي القرى ، يجمعون أنفسهم، وانضم اليهم ناس من العرب، فلم يكن بد من القتال وهـم أهون في أنفسهم وعند الله من خيبر ومن كان وراءهم .

هيأ النبي صلى الله تعالى عليه وسلم أصحـابه للقتال وصفهـم ، وأعطى اللواء سعـد بن عبادة ، وأعطى راية الى الحباب بن المنذر ، وراية الى سهل ابن حنيف ، وراية الى عباد بن بشر ، تقدم النبي صلى الله تعالى عليه وسـلم يدعوهم الى الاسلام ، وأخبرهم أنهـم ان أسلموا أحرزوا أموالهم ، وحقنـوا دماءهم وحسابهم على الله .

فلم يجيبـوا داعي الله ، وآثروا القتال فخرج رجل منهم يطلب المبارزة، فبرز اليه الزبير بن العوام فقتله ، ثم برز آخر فبرز اليه علي فقتله ، حتى قتل منهم أحد عشر ، وكلما قتل رجل منهم كرر النبي صلى الله تعالى عليـه وسلم الدعوة الى الاسلام ، والى الله عزوجل ورسوله .

ولكنهم عموا وصموا عن دعوة الحق، فكان القتال الذي ابتدءوه بالسهـم القاتل لرجل من المؤمنين ولم تجدهـم الدعوة الى الاسلام ، وكان النبي صلى الله تعالى عليه وسلم يصلي كلما حضر وقت الصلاة ، ثم يدعوهم لم يجد ذلك كله فقاتلهم، حتى أمسى ، وعدا عليهم، فلم ترفع الشمس قيد رمح حتى أعطوا ما بأيديهم من مال وسـلاح وبذلك فتحت أرض وادي القرى عنوة ، ولم تكن بصلح كفدك ، وقد أقام رسـول الله صلى الله تعالى عليه وسلم أربعة أيام، ذهب بعدها الى تيماء .

ولقد قسم النبي صلى الله تعالى عليه وسلم أموال وادي القرى ، كما قسم خيبر ، فكانت الأموال ابتداء مخمسة أربعة أخماس للفاتحين وخمسها لله ولرسوله ولذي القربى واليتامى والمساكين ، وابن السبيل ، والأرض والنخيل بقيت في أيديهم على أن يكون لهم نصف ما تنتج ، وللنبي صلى الله تعالى عليه وسلم النصف ، وتكون الثمار والزروع موزعة توزيع الغنائم.

ولقد كان النبي صلى الله تعالى عليه وسلم يقوم بهذه القسمة على اعتبار أن كل أموال خيبر ، ومن سار مسارها ، وهم أهل وادي القرى ، غنائم تخمس ، وقد خمس الأموال المنقولة وخمس نتاج الأرض والنخيل وبقية الأموال الثابتة .

وذلك لأن الفاتحين من أهل المدينة كانوا عددا قليلا ، ولم يكونوا كثرة كبيرة وكان جميع أهل المدينة مجاهدين، وكان نصيب الفقراء والمساكين واليتامى ثابتاً ، غير موزع على غيرهم ،والكراع والسلاح وما يحتاج اليه النبي كان يؤخذ من حصة الله والرسول، اذ يستبقي لنفسه من هذا الخمس نفقة سنة ، وينفق الباقي على المصالح العامة للمسلمين .

ولما جاء عهد عمر رضي الله عنه نفذ الأمر في خيبر ، وما يشابهها كما قسم النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، وهو يتضمن المعاني التي ذكرناها ، وهو بقاء الأرض تحت أيدي أهلها ، وكان يقول رضي الله تبارك وتعالى عنه « أما والذي نفسي بيده لولا أن أترك آخر الناس ليس لهم شيء ما فتحت قرية الا قسمتها كما قسم النبي صلى الله تعالى عليه وسلم خيبر ولكني أتركها خزانة لهم يقتسمونها » .

ولذلك ترك أرض سواد العراق في أهلها ، وجعل خراجها لمصالح المسلمين مستنداً الى ما قرره القرآن الكريم بالنسبة لأرض بني النضير ، ونعتقد أنه هو ما قرره النبي صلى الله تعالى عليه وسلم في أرض خيبر ، فمعناه لا يخرج عنه ، لأن جماعة المؤمنين كانوا جميعاً مجاهدين أو يتامى أو أبناء سبيل أو مساكين ، ولكل حظ ، وكان أولئك معروفين في المدينة ، فلما اتسعت رقعة الدولة كان الخراج موزعا على مصالح المسلمين ، وسد حاجة المحتاجين بشكل عام .

صلح تيماء

٥٤٤ — بما كان في خيبر ووادي القرى انتهت قوة اليهود العسكرية في بلاد العرب ، ولكن بقي فيها ناس لم يخضعوا لحكم الاسلام وسلطانه ، ويكونون تابعين له من غير أن يضاروا في دينهم ، ولا يرهقوا في عقائدهم وهم يهود تيماء ، وكانت على مقربة من الشماء ولم يعتبر الامام عمر رضي الله عنه أرضهم من أرض العرب التي لا يجتمع فيها دينان .

وأهل تيماء من اليهود عندما علموا ما نزل بخيبر ووادي القرى ، وما سامحهم فيه النبي صلى الله تعالى عليه وسلم من معاملة عندما علموا ذلك لم يريدون قتالا ، وجاؤوا ودفعوا الجزية ، وصالحوا النبي صلى الله تعالى عليه وسلم عليها وجزيتهم كانت جزية على الأرض وهو الخراج ، وجزية على الرؤوس على ما هو مبين في كتب الفقه ، واعطاء الجزية اقرار بخضوعهم لحكم الاسلام على أن يكون لهم ما للمسلمين وعليهم ما عليهم من أحكام القصاص والحدود وسنتكلم بعد ذلك في الأحكام الشرعية التي أخذت من أقوال النبي صلى الله تعالى عليه وسلم في غزوة خيبر ، وما جاء بعدها ، فانا لا نترك ذلك ، ولكن أخرناه حتى تنتهي من القتال والحرب والتسليم وشروطه .

إجلاء عمر لليهود

٥٤٥ ـ أجلى عمر بن الخطاب اليهود ، يهود خيبر ووادي القرى الذين يسكنون في الجزيرة العربية عملا بقول النبي صلى الله تعالى عليه وسلم : « لا يجتمع في جزيرة العرب دينان ».

ولكنه لم يجل أهل تيماء ، لأن أرضهم لم تكن في داخل الجزيرة ، بل كانت في أطراف الشام ، وهم قد قبلوا أن يكونوا ذميين لهم ذمة رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ولم ينقض أحد منهم ذمة رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، وهم لم تفتح أرضهم عنوة ، بل كانت صلحا ، فلم تكن ثمة مشابهة بينهم وبين خيبر ووادي القرى والحديث النبوي لا ينطبق عليهم ، لأنهم كانوا في طرف الشام الذي يصاقب جزيرة العرب ، وبذلك جمع عمر رضي الله عنه بين المحافظة على عهد النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ومصلحة المسلمين جزاه الله تعالى عن الاسلام خيراً .

الأحكام الشرعية التي تقررت في خيبر

٥٤٦ ـ كثرت الأحكام التي شرعت في أثناء غزوة خيبر لطولها ، ولتنوع أحداثها ، وهي جزء من تبليغ النبي صلى الله تعالى عليه وسلم رسالة ربه فما كان نبياً للقتال ، بل كان نبياً مبلغاً رسالة ربه، فهي المطلوب في السلم وفي الحرب ، وهي مطلوبة بالذات والقصد الأول ، وما كانت الحرب الا دفاعا ومنعا للفتنة ، وتعبيد الطريق لكي تسير في مسارها لا يحول حائل بينها وبين القلوب ، ولا اكراه في الدين من بعد أن تصل الدعوة ، فمن اهتدى فلنفسه ومن ضل فانما يضل عليها ، وما ربك بظلام للعبيد ، فالدعوة هي لب الرسالة والحرب لدفع ما يعترض طريقها ·

ومن أظهر الأحكام الشرعية التي ثبتت في خيبر ·

إباحة المزارعة والمساقاة :

٥٤٧ ـ وأظهر الاحكام هو ماصنعه النبي صلى الله تعالى عليه وسلم مع أهل من دفع الأرض اليهم على نصف غلاتها والأرض مملوكة للمسلمين فدفعها اليهم على نصف الغلات مزارعة ومساقاة ، لأن دفع الأرض لزراعتها على سهم معلوم للمالك ، مزارعة ودفع الشجر لاصلاحه على سهم معلوم للمالك مساقاة ، والاتفاق بين النبي صلى الله تعالى عليه وسلم وبين يهود خيبر ، يتضمن الزرع واصلاح الشجر فهو يتضمن مزارعة ومساقاة معا ·

ومن قال ان عقد المزارعة فاسد ، فقد رد السنة وذلك غير جائز ·

وان المزارعة والمساقاة اجارة ابتداء ، وقد تكون اجارة فاسدة ، وهي مشاركة انتهاء وان ذلك وصف فقهي، وليس حكما شرعيا والحكم الشرعي ، قد ثبت بفعل النبي صلى الله تعالى عليه وسلم فانه صحيح فلا مشاحة فيه ، وللفقهاء أن يطبقوا أقيستهم الفقهية كما يرون ما يكون منها صالحا للتطبيق

وما لا يكون صالحا يردونه وعمل النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، وما يؤدي اليه من اباحة فوق ما يقـــررون من أقيسة قد تخطىء وقد تصيب ولا قياس مع النص ٠

وان هذه المزارعة كان النبي صـــلى الله تعالى عليه وسلم لا يقدم البذر ، بل كان البذر والعمل من العامل وعمـل النبي صلى الله تعالى عليه وسلم يجيز ذلك النوع من الزراعة كما يجيز أن يكـــون البذر والأرض من صـــاحب الأرض ، وكمـــا يجوز أن يكـــون البذر منهما ٠

ويشبه ابن القيم الأرض برأس المال في المضاربة ، وقـــد يضيف اليه المالك البذر وربما لا يضيفه كما فعل النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ٠

ومهما يكن الوصف الشرعي عند الفقهاء فان النبي صلى الله تعالى عليـه وسلم قد فتح باب الاستغـــلال لمن له أرض ولا يستطيع زراعتها بنفسه ، لمشاغل تشغله كأولئك المجـــاهدين أو المرضى ، أو لعدم خبرة أو غير ذلك من الأسباب المعوقة له عن الزراعة بنفسه ٠

وقد كان النبي صلى الله تعالى عليه وسلم يقسم الثمرات قسمـــة الغنائم ، والله سبحانه وتعالى هو الحكيم العليم ٠

تحريم أكل لحم الحمر الإنسية :

٥٤٨ ــ ثبت نهي رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم عن أكل لحم الحمر الانسية ، وأباح عليه الصلاة والسلام أكل لحم الخيل ، فقد رأى صلى الله تعالى عليه وسلم ، بعض أصحابه يأكلون لحم الحمر الانسية ، في خيبر فنهاهم عنها ، روى ابن اسحاق بسنده عن بعض من شهد خيبر قال أتانا نهي رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم عن أكل لحـــوم الحمر الانسية ، والقدور تفور بها ، فكفأناها على وجوهها ٠

وقد روى الحافظ بن كثير أنه نادى منادي رسول الله صلى الله تعالى عليـه وسلم « ان الله ورسوله ينهيانكـــم عن لحوم الحمر فانهـــا رجس فأكفؤوها ، والقدور تفور بها » ٠

وان هذه النصوص الواردة في تحريم لحوم الحمر الانسية صحيحة تضافرت رواياتها من عدة جهات ،وهنايسأل الباحث لماذا كان تحريمها ، وهي تأكل العشب ولا تأكل اللحم وليستذات ناب ، ولا تعد من السباع المنهي عنها بأي صورة من الصور ٠

يقول بعض الباحثين ، ومنهم بعض التابعين ان النبي صلى الله تعالى عليه وسلم نهى عنها في خيبر ، لأنها كانت تحمل الأمتعة ، وكانت ضرورية للناس في استعمالها ، ولذلك قال ابن عباس انها ليست حراما لذاتها ولكن كانت في خيبر ممنوعة الأكل لهذا ٠

ولكن يرد ذلك التأويل أمران :

أولهما ـ أن الخيل كانت ألزم للجهاد من الحمر ، ومع ذلك أبيحت لحومها مع أن الحاجة اليها أشد وألزم ـ الأمر الثاني ـ أن صريح الحديث الذي رواه ابن اسحاق أنها رجس فهي محرمة لذاتها أي لحمها وأن فيه ما يمنع أكلها٠

ولقد قيل في سبب تحريمها في خيبر بالذات أن الحمير في خيبر كانت قذرة لأنها جلالة وكانت تأكل العذرة٠

وقيل ان النبي صلى الله تعالى عليه وسلم منع أكلها ، لأنهم كانوا يأكلونها قبل قسمتها من الغنائم ، وقد يقال انه ينافي ذلك وصف النبي صلى الله تعالى عليه وسلم : بأنها رجس ، ولكن يجاب عن هذا بأنها كانت رجسا أي مالا خبيثا ، لأنها لم تكن قد قسمت ، فمعنى رجسها أنها لم تكن كسبا حلالا طيباً بل كانت كسباً خبيثا غير طيب ٠

ويقول الحافظ بن كثير في تاريخه:ان تحريمها هو مذهب جمهور العلماء سلفاً ، وخلفاً ، وهو مذهب الأئمة الأربعة ، ولعل من المفارقة في مذهب مالك أن يحرم لحم الحمر الانسية ،ويبيح أكل لحم الكلب ، وله في اباحة لحم الكلب اجتهاد يتصل بنص قرآني ،اذ أن القرآن الكريم أباح أكل صيده في قوله تعالى :

﴿يَسْـَٔلُونَكَ مَاذَآ أُحِلَّ لَهُمْ ۖ قُلْ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَـٰتُ ۙ وَمَا عَلَّمْتُم مِّنَ ٱلْجَوَارِحِ مُكَلِّبِينَ تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ ٱللَّهُ ۖ فَكُلُوا۟ مِمَّآ أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ وَٱذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهِ ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿٤﴾﴾ (١)

ويقول الامام مالك في ذلك ، كيف يؤكل صيده ، ويحرم لحمه •

وبعض العلماء لهذه التأويلات المختلفة ، قال ان أكل لحمها مكروه ، لأن التحريم يثبت بدليل يقبل التأويل ففيه شبهة ، ومآل ذلك الكراهة لا التحريم القاطع •

تحريم سباع البهائم :

٥٤٩ ــ ثبت في غزوة خيبر تحريم أكل سباع البهائم ، وهي الحيوانات التي تعيش على أكل اللحوم ، أو كل ذي ناب ، كما يعبر الحديث النبوي ، فقد روى ابن اسحاق بسنده أن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم نهى يومئذ أي يوم خيبر عن أربع ، عن اتيان الحبالى من السبايا ، وعن أكل الحمار الأهلي ، وعن أكل كل ذي ناب من السباع ، وعن بيع المغانم حتى تقسم •

وقد تكلمنا في النهي عن أكل لحوم الحمير الأهلية •

ونتكلم الآن عن أكل كل ذي ناب من السباع ، وهو ما يسمى في عرف الفقهاء بسباع البهائم ، وهي محرمة لذاتها ، لهذا النص ، ولحمها نجس ، ولعابها وهو تبع للحمها نجس أيضاً •

هذا وان لحم سباع البهائم ، أو كل ذي ناب كما عبر القرآن يكون حراماً بالنص ، ويحرم سباع الطير ، كالنسر والحدأة والغراب وغيرها من أكلة اللحوم بالقياس على ذي الناب من سباع البهائم •

تحريم وطء الحبالى من السبايا وغيرهن :

٥٥٠ ــ ثبت تحريم الدخول بالحبالى من السبايا ، وقد ورد ذلك في الحديث السابق المروي بسند ابن اسحاق رضي الله تبارك وتعالى عنه •

---

(١) المائدة

وقد روى أن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم قال : « لا يحل لامرىء يؤمن بالله واليوم الآخر أن يسقي ماؤه زرع غيره » (يعني الحبالى من السبايا) ولا يحل لامرىء يؤمن بالله واليوم الآخر ، أن يبيع مغنما ، حتى يقسم ، ولا يحل لامرىء يؤمن بالله واليوم الآخر أن يركب دابة من فيء المسلمين حتى اذا أعجفها ردها ، ولا يحل لامرىء يؤمن بالله واليوم الآخر أن يلبس من فيء المسلمين ، حتى اذا أخلقه رده ٠

ونرى أن الحديث منع أموراً تتعلق بالمغانم ، ومنع الدخول بالحبالى من السبايا ، ونريد أن نتكلم في هذا الجزء الأخير ، لأنه موضوع قولنا ، ونؤخر الباقي ٠

والكلام في الدخول بالحبالى ، وقد نهى عنه النبي صلى الله تعالى عليه وسلم لم ينه عن سببه فيما يتعلق بالسبايا ، ذلك أن سبب الدخول بالسبايا هو ملك اليمين ، فلم يكن ثمة نهي عنه ، بل الملكية تثبت ، ولكن لا يترتب عليها أثرها وهو الدخول ، لأنه اذا كان السبب قد وجد ، فقد كان المانع ، وهو كونه حاملا ، وأن دخوله يسقي به ماءه زرع غيره ، وهو المنهي عنه ، فلا بد قبل أن يدخل المسبية من استبراء رحمها بالولادة ان كانت حاملا ، وأن تحيض مرة اذا كانت حائلا ، لأن الحيض أمارة أنه لا حمل ، فيحل الدخول وان السبب هنا ، وهو الملكية حكم شرعي ، ثبت بحكم تقسيم الغنائم ، فهو سبب شرعي ، وليس بسبب جعلي يقوم به المكلف ٠

ونثير هنا بحثاً هل السبب الجعلي ، وهو عقد الزواج يكون كالسبب الشرعي ، بأن يحل عقد الزواج على الحامل ، كما يثبت سبب الملكية ٠

لقد فصل الفقهاء الأمر في ذلك بالاستناد الى ما قرره النبي صلى الله تعالى عليه وسلم من وجوب العدة من كل دخول كان بسبب أمر ليس حراماً عند الشارع ، أو عفا عنه ، فان العقد على الحامل حرام وذلك لأن لها عدة ، ولا عقد في حال العدة ، فاذا كان من زواج صحيح أو دخول بشبهة تسقط الحد ، وتمحو وصف الزنى ، فان العقد لا يصح ، لأنها ذات عدة ، والعقد على معتدة باطل ، ولذلك يكون السبب باطلا ، والدخول يكون زنى ٠

واذا كانت حاملا من زنى ، فهل يجوز الدخول وهل يصح العقد ، اتفق الفقهاء على أن الدخول لا يجوز ، لأنه ينطبق عليه الحديث لا يحل لامرىء يؤمن بالله واليوم الآخر أن يسقي ماءه زرع غيره ولكن أيصح انشاء العقد على الزانية •

قالوا انه اذا انتهت عدتها يصح العقد بالاجماع ، اذا تابت ، واذا كانت العدة لم تنته ، فانه من المقررات الشرعية أنه لا عدة للزانية ، ولو كانت حاملا بيد أنه يصح الزواج من غير الحامل ، أما الحامل فينعقد زواجها من صاحب الحمل ، لأنه لا يسقي ماءه زرع غيره ، وكره بعض الفقهاء أن يدخل بغير الحامل قبل استبراء الرحم •

أما اذا كان العاقد غير صاحب الحمل ، فقد قال بعض الفقهاء يصح الزواج ولا يدخل بها كما بينا ، أما صحة الزواج فلأنه لا عدة لها تمنع صحته ، لأنها ليست في عصمة أحد ، والزانى لا عصمة له •

وأما الدخول بها فممنوع بنص الحديث الذي ينص عليه في غزوة خيبر ، وهو عام في منع أن يسقي ماءه زرع غيره ، ونسب هذا القول الى أبي حنيفة والشافعي ومحمد من أصحاب أبي حنيفة •

وقالت طائفة أخرى من الفقهاء منهم مالك وأبو يوسف من أصحاب أبي حنيفة وأحمد في رواية عنه وزفر من أصحاب أبي حنيفة رضي الله عنهما ان الزواج لا يصح ، لأنه اذا كان الدخول لا يجوز وهو غاية العقد ، لأن القصد الأول المتعة ، ولا فائدة من عقد لا تترتب عليه لوازمه ، وما دام النبي صلى الله تعالى عليه وسلم قد نهى عن الدخول بالحامل ، بالنهي عن أن يسقي ماءه زرع غيره فقد نهي عن الزواج ، لأن النهي عن الأمر اللازم نهي عن الملزوم •

ولأن النهي لأجل حق الحمل ، وحق الحمل يراعى ، لأنه لا جناية منه ، واذا عقد على المرأة وتبين أنها كانت حاملا وقت الزواج فان العقد لا يكون صحيحا ، لأنه لا يفرض أنها كانت حاملا من زنى ، اذ يجب حمل حال المؤمن على الصلاح ، بل يفرض أنه كان من زواج وشبهة تسقط الحد وتمحو وصف الزنى •

قسمة الغنائم وما لا يقسم منها ووقتها:

٥٥١ ـ ثبت أن المال الذي يقسم غنيمة ، الأموال المنقولة وثمرات الأموال غير المنقولة ، ويكون : للرسول ولذي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل الخمس ، وأربعة الأخماس للغانمين ، وأنه يعطى للراجل سهم ، وللفارس ثلاثة أسهم سهمان للفرس ،وسهم لصاحبه،وذلك لأن نفقات الفرس كبيرة ، ويريد الرسول أن تكون ذات قوة دائما لأنها عدة القتال ، ولتشجيع المجاهدين على اتخاذها للجهاد ، وفي بعض الروايات أنه جعل للفرس سهما، ولصاحبها سهم ، ولكنه غير الرواية المشهورة ٠

وانه يلاحظ أمران بالنسبة للغنائم :

أولهما ـ أنها لا تملك قبل القسمة، ولذلك صرح النبي صلى الله تعالى عليه وسلم في غزوة خيبر أنه لا يجوز بيع من له فيها قبل أن يقسم له قسم ويدخل في حوزته ، ولذا قال النبي صلى الله تعالى عليه وسلم فيما روينا من قبل ولا يحل لأمرىء يؤمن بالله واليوم الآخر أن يبيع مغنما قبل أن يقسم ، ولا يحل لامرىء يؤمن بالله واليوم الآخر أن يركب دابة من فيء المسلمين، حتى اذا أعجفها ردها فيه ولا يحل لامرىء يؤمن بالله واليوم الآخر أن يلبس يوما من فيء المسلمين،حتى اذا أخلقه رده ، وهذا الحديث يدل على أنه لا يملك ، ولا يصح أن ينتفع به قبل القسمة ٠

الأمر الثاني : الذي يجب التنبيه عليه أن الطعام الذي لا يدخر،لا يخمس، لأنه لا يعد غنيمة ، ولأنه يدفع غائلة الجوع الذي يصيب المجاهدين ، وحال مغبة الجوع ، وكان الجوع يصيب المسلمين فعلا في غزوة خيبر ، وانه اذا لم يتناول قبل القسمة كان الناس في مخمصه ، والطعام بين أيديهم ،وان ذلك ابتلاء فوق الابتلاء بالجهاد والصبر على شدائده ٠

يروي ابن اسحاق بسنده عن عبد الله بن مغفل ، المدني أنه قال :« أصبت من خيبر جراب شحم فاحتملته على عنقي الى رحلي وأصحابي ، فلقيني صاحب المغانم الذي جعل عليها ، فأخذه بناحيته ، وقال هلم ، حتى تقسمه بين المسلمين ، قلت لا والله لا أعطيه وجعل يجاذبني الجراب ، فرآنا رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم فتبسم ضحكا،ثم قال لصاحب المغانم خل بينك وبينه، فأرسله ، فانطلقت الى رحلي وأصحابي فأكلناه » ٠

وهناك أمر يجب التنبيه عليه ، وهو غلول الغنيمة ، فهو محرم تحريما قاطعا ، لأنه سرقة في مال الله تعالى :

﴿ وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَغُلَّ ۚ وَمَن يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ۚ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ (١٦١) ﴾ (١)

وان النبي صلى الله تعالى عليه وسلم لا يمكن أن يغل، وليس من شأنه وكماله أن يغل هو ، أو يقر غلول أحد ، أو يسكت عنه ، والغلول الأخذ من الغنيمة خفية ، واذا كان لا ينطبق عليه حد السرقة ، لأن مال الغنائم ليس في حرز مثله ، ولأن المحارب له شبه حق فيه ، والحدود تدور بالشبهات ، فانه شدد الله تعالى في عقوبته في الآخرة ، وفي غزوة خيبر ، بين النبي صلى الله تعالى عليه وسلم شدة العقوبة في الآخرة .

وقد كان بين المحاربين رجل اسمه مدعم ، وقد أخذ من الغنائم شملة ، وفتش متاعه بعد مقتله فوجد فيه مع الشملة خزا من حرز يهودي يساوي درهمين ، وهو غلول مهما تكن قيمته .

وقد جاء سهم فقتله وهو بوادي القرى ، فقال الناس هنيئا له بالشهادة فقال النبي صلى الله تعالى عليه وسلم « كلا والذي نفسي بيده ان الشملة التي أخذها يوم خيبر ، لم يصبها المقاسم لتشتعل عليه ناراً » فأخرجه النبي صلى الله تعالى عليه وسلم من صفوف الشهداء بفعلته التي فعلها .

الأمانة واجبة مع الأعداء :

٥٥٢ ـ ان الأمانة عدالة ، بل ان العدالة ذاتها تدخل في ضمن الأمانات ولذلك قرنها سبحانه وتعالى بها في قوله تعالى :

﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ النَّاسِ أَن تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ ۚ إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِ ۗ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا (٥٨) ﴾ (٢)

---

(١) آل عمران

(٢) النساء

وفي غزوة خيبر بين النبي صلى الله تعالى عليه وسلم أن الأمانة في مال الأعداء واجبة ، لا تبرر العداوة اهمالها ، واذا كانت أموال الأعداء تغنم في القتال ويأخذها المسلمون ،ويقسمونها بينهم ، فان ذلك قانون الحروب ، وليس من قانون الاسلام خيانة الأمانة ولو لعدو يحارب .

روى موسى بن عقبة عن عروة بن الزبير أنه جاء عبد حبشي أسود من أهل خيبر ، كان في غنم لسيده ، فلما رأى أهل خيبر قد حملوا السلاح سألهم ماذا تريدون ؟ قالوا نقاتل هذا الرجل الذي يزعم أنه نبي ، فوقع في نفسه ذكر النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، فأقبل بغنمه ، حتى عمد الى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم فقال له الى من تدعو ؟ قال أدعوك الى الاسلام ، أن تشهد أن لا اله الا الله وأني رسول الله وألا تعبد الا الله ،فقال العبد :فماذا يكون لي ان شهدت بذلك،وآمنت بالله ، قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم : الجنة ان مت على ذلك ، قال الرجل المؤمن يا رسول الله ان هذه الغنم عندي أمانة ، اذ كان يرعاها وهنا أمره النبي صلى الله تعالى عليه وسلم أن يؤدي أمانته ، ولم يقل انها غنيمة للمسلمين ، ولم يضمها الى أموال الله ، لأن الأمانة يجب أن تراعى لذاتها ، لا فرق فيها بين عدو محارب ، وولي مناصر ، بل قال الرسول الأمين :أخرجها من عسكرنا ، وارمها بالحصا ، فان الله سيؤدي عنك أمانتك ففعل ،فرجعت الغنم الى سيدها فعرف اليهودي أن غلامه قد أسلم .

ولقد قتل ذلك العبد الأمين بأمانة الله تعالى في خيبر شهيداً ، فأدخل في قماط الرسول صلى الله تعالى عليه وسلم .

وان هذا درس حكيم للذين يخونون أموال الناس ، ويبررونها بعداوة لهم ، وقد يكونون ظالمين في العداوة كما هم ظالمون بالخيانة ، والله عليم بذات الصدور .

النبي تفوته الصلاة :

٥٥٣ ــ ان الأعذار تكون على الناس أجمعين ، والنبي صلى الله تعالى عليه وسلم من أصل البشرية ، فيجري عليه ما يجرى على الانسان ، ويرهقه ما يرهق الانسان .

ولقد كان في خيبر أن نام النبي صلى الله تعالى عليه وسلم حتى أشرقت الشمس ، وقد وقف حارسه ينبهه اذا نام ، ويوقظه اذا استغرق الناس ، فضرب الله تعالى على آذانه أيضاً فنام ولم يوقظ حتى أشرقت الشمس ، ومع أن الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم تنام عيونهم ولا تنام قلوبهم ، ففي خيبر استغرق صلى الله تعالى عليه وسلم في النوم بعينه ، وان كان قلبه يقظاً لم ينم ، وذلك ليعلن الله تعالى انسانيته ،وليكون عمله أسوة للناس في تدارك ما فاته ، لأن المؤمنين يتخذونه أسوة حسنة ، ولأنه صلى الله تعالى عليه وسلم قال صلوا كما رأيتموني أصلي ، فهو يبين لهم الصلاة في حال الأداء وحال القضاء معاً ٠

ولنذكر قصة ذلك ، كما جاءت في صحاح السنة وفي كتب السيرة في غزوة خيبر روى أبو داوود بسنده أن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم حين قفل راجعا من خيبر ، سار ليلا حتى أدركنا الكرى ، وقال لبلال كلأ الليل ، وبلال يحرسه ، وغلبت بلالا أيضاً عيناه ، وهو مستند الى راحلته فلم يستيقظ النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، ولا بلالا ، ولا أحد من أصحابه حتى ضربتهم الشمس ،وكان رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم أولهم استيقاظا ، ففزع رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، وقال يا بلال فقال أخذ بنفسي الذي أخذ بنفسك بأبي أنت وأمي يا رسول الله ، فاقتادوا رواحلهم شيئا ، ثم توضأ رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، فأمر بلالا ، فأقام الصلاة ، وصلى بهم الصبح ، فلما أن قضى الصلاة قال من نسى صلاة فليصلها اذا ذكرها ، فان الله تعالى يقول :

﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكۡرِيٓ ﴿١٤﴾﴾ (١)

وان هذا الحكم يستفاد منه أمران:

أولهما : وجوب قضاء الصلاة اذا فاتته بنوم أو نسيان مما لا قبل له بدفعه ، كما قال صلى الله تعالى عليه وسلم« من نام عن صلاة أو نسيها ، فليصلها اذا ذكرها » ٠

---

(١) طه

ثانيهما : أن قضاء الصلاة كما يكون بالانفراد يكون بأدائها جماعة مع اقامة الصلاة ، وذلك بلا ريب هو الأفضل ، لأن صلاة الجماعة تفضل صلاة الفذ بسبع وعشرين درجة ،فالجماعة لا تسقط عند القضاء ، كما يتوهم بعض الناس •

ويجب أن نبين هنا أن بعض الفقهاء يقرر أن القضاء يغني غناء الأداء في حال فوات الصلاة بالنوم والنسيان، ولا يغني القضاء غناء الأداء اذا كان فوات الأداء من غير هذين العذرين ،ويكون القضاء واجبا في هذين العذرين ولا يكون واجبا في غيرهما •

بل ان التوبة تكون هي الرافعة للاثم ، والقضاء لا يغني عنها ، وذلك لأن فوات الوقت وترك الصلاة من غير عذر لا يسقط وجوب أدائها ، فلا يغنيه فتيلا القضاء بعد ذلك ، لأن الصلاةليست نقدأ يكون في مقابل نقد ،انما الصلاة شرعت تهذيبا للنفوس في مواقيتها ، فهي عبادة مقصودة في أوقاتها لتجلو صدأ القلوب في الصباح ، وصدأها في الظهيرة ، وفي الأصيل وفي العشية ، كما قال تعالى :

﴿فَسُبْحَـٰنَ ٱللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ ﴿١٧﴾ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ ﴿١٨﴾﴾ (١)

فالصلاة في أوقاتها مطلوبة فيذاتها وفي الوقت تطهيرا للنفس ، وازالة لصدئها ، ولا تترك حتى يعلوهاالصدأ ويتراكم فلا يزال ، ولا يصلح ذلك الاثم الا التوبة •

ونحن نرى أنه لابد من التوبة وقديجدي القضاء مع التوبة ، والله تعالى غفار لمن تاب وآمن ، ثم اهتدى •

---

(١) الروم

تحريم المتعة في خيبر

٥٥٤ ــ جاء في تاريخ الحافظ بن كثير « وقد تكلم الناس في الحديث الوارد في الصحيحين عن طريق الزهري عن عبد الله والحسن ابني محمد ابن الحنفية عن أبيهما عن علي بن أبي طالب رضي الله تعالى عنه أن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم نهى عن نكاح المتعة يوم خيبر ، وعن لحوم الحمر الأهلية هذا لفظ الصحيحين عن طريق مالك وغيره عن الزهري ، وهو يقتضي تحريم نكاح المتعة يوم خيبر ، وهو مشكل في وجهين : أحدهما : أن يوم خيبر لم يكن ثم نساء يستمتعون بهن ، اذ قد حصل الاستغناء ، بالسبايا عن نكاح المتعة ، الثاني : أنه قد ثبت في صحيح مسلم عن الربيع بن سبرة عن معبد عن أبيه أن رسول الله أذن لهم في المتعة زمن الفتح ، ثم لم يخرج من مكة حتى نهى عنها ، وقال : « ان الله تعالى حرمها الى يوم القيامة » ، فعلى هذا يكون قد نهى عنها ، ثم أذن فيها ثم حرمت فيلزم النسخ مرتين ، وهو بعيد، ومع هذا فقد نص الشافعي على أنه لا يعلم شيئاً أبيح ثم حرم ، غير نكاح المتعة ، وما حداه الى هذا الا الاعتماد على هذين الحدثين » .

ان هذا الذي ساقه الحافظ ابن كثير يدل على أن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم نهى عن المتعة في خيبر ، وما أقامه من اشكال لا يرد الحديث الصحيح الذي أجمع عليه الشيخان .

فالاشكال الذي ساقه بتوافر السبايا في خيبر يدل على النهي ويؤكده ، ولا ينقضه ، لأنه حيث توافرت السبايا لا يكون شكوى من العزوبة ، فلا يكون للمتعة موضع ، فلا يكون اذن ، فهو موثق للتحريم وليس بناقض له .

أما الاشكال الثاني : فقد رده هو بتكرار الاذن ، ثم تكرار النهي ، وكونه بعيداً في نظره يرد كلام الشافعي رضي الله تعالى عنه ، واذا كان بعيداً ، فانا نرجح حديثاً أجمع عليه الشيخان على حديث انفرد به أحدهما .

ومهما يكن ما ارتآه الحافظ ابن كثير من مشاكل حول حديث الشيخين ، فانه من المؤكد أنه كان ثمة نهي عن المتعة في خيبر ، سواء أجاء اذن بعد ذلك ، ثم نهي أم لم يجيء .

حقيقة المتعة :

٥٥٥ ـ وجد في هذه الأيام ناس في مصر لا حريجة تدفعهم ولا دراسة تمنعهم ، يدعون الى المتعة ، فعلينا أن نذكر حقيقتها ، كما هي عند الذين يدعون اليها ، ومن حقيقتها يتبين أهي متفقة مع المبادىء الشرعية المقررة في الزواج ، أو هي مبادىء علمت من الدين بالضرورة .

وقد عرفها العلماء بأنها اتفاق بين رجل وامرأة بحضرة شهود على أن يعاشرها مدة معلومة ، على مهر ، أو أجرة معلومة ، وقال صديق خان في كتابه سبل السلام لا تتجاوز مدتها خمسة وأربعين يوماً ، ولكن المشهور أنها تصح بأكثر من هذه المدة .

واذا أخلت المرأة بتسليم نفسها جزءاً من المدة نقص من الأجرة ما يقابلها ، فهي اجارة لبضع المرأة كاجارتها للرضاعة .

وتختص بالأحكام الآتية :

١ ـ لا توارث فيها ، فاذا مات أحد الطرفين لا يرثه الآخر ، لأن الميراث ثبت بين الزوجين وهما ليسا زوجين باتفاق الفقهاء .

٢ ـ لا يقع فيها طلاق ولا ظهار ولا ايلاء ولا غير ذلك مما هو من أحكام انهاء الزواج ، ولكن ينتهي الأمر فيها بانتهاء المدة .

٣ ـ أن العدة فيها حيضتان لا تزيدان عن خمسة وأربعين يوماً ، أو بأقل الأجلين .

٤ ـ أنه ليس فيها عدة وفاة ، لأنها خاصة بالأزواج ، بل العدة هي حيضتان ، وأخيراً هي عند الذين أباحوها من الشيعة ليست من الزواج في شيء مطلقاً ، فتلك الأحكام التي ذكرناها منقولة من كتبهم ، منها أخذناها ، وفيها نردها .

وان الأحكام التي يقررها لها الشيعة الامامية التي أجازوها تنبه لا محالة الى أنها ليست زواجا ، وليس لها أحكام ، وهي من قبل اتخاذ الخلائل كما يعبر الأوربيون ، وكما هي لغة الفساق في هذا العصر ، أو بتعبير هي

من قبيل اتخاذ الأخدان المنهي عنه في القرآن نهياً أبدياً قاطعا ، اذ لا يحل في العلاقة بين الرجل والمرأة الا الزواج ، الذي يكون ما عداه امتهاناً للمرأة اذ تتخذ متاعاً ، لقضاء لبانة الرجل يذوقها ، ثم يرميها ، ويستأجرها مستمتعاً بأجر ، ولقد قال تعالى مبيناً أن الفروج لا تحل الا بالزواج ، أو بملك الايمان ، فقال تعالى في وصف المؤمنين :

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۝١ ٱلَّذِينَ هُمْ فِى صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ ۝٢ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنِ ٱللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ۝٣ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَوٰةِ فَٰعِلُونَ ۝٤ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَٰفِظُونَ ۝٥ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ۝٦ فَمَنِ ٱبْتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْعَادُونَ ۝٧ ﴾ (١)

فهذا النص قاطع في أنه لا تباح الفروج الا بالزواج ، أو ملك اليمين ، وأن من ابتغى وراء الزواج أو ملك اليمين فهو عاد أثيم ، فالذي يتخذ المتعة في الفروج عاد أثيم .

ولقد نهى القرآن الكريم نهياً قاطعاً عن اتخاذ الأخدان ، وليست المتعة الا من قبيل اتخاذ الأخدان أو اتخاذ الخلائل ، كما ذكرنا فتحريمها ثابت بنص قرآني ، اذ يقول سبحانه وتعالى:

﴿ وَأُحِلَّ لَكُم مَّا وَرَآءَ ذَٰلِكُمْ ﴾ (٢)

أي أحل لكم الزواج غير تلكم المحرمات السابقات :

﴿ أَن تَبْتَغُوا۟ بِأَمْوَٰلِكُم مُّحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَٰفِحِينَ ﴾ (٣)

﴿ وَلَا مُتَّخِذِىٓ أَخْدَانٍ ﴾ (٤)

---

(١) المؤمنون (٢) ، (٣) النساء (٤) المائدة

فاتخاذ الأخدان حرام بهذا النص ،ويقول تعالى في شأن زواج الاماء ،

﴿ وَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ مِنكُمْ طَوْلًا أَن يَنكِحَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ فَمِن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُم مِّن فَتَيَٰتِكُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ ۚ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَٰنِكُم ۚ بَعْضُكُم مِّنۢ بَعْضٍ ۚ فَٱنكِحُوهُنَّ بِإِذْنِ أَهْلِهِنَّ وَءَاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ مُحْصَنَٰتٍ غَيْرَ مُسَٰفِحَٰتٍ وَلَا مُتَّخِذَٰتِ أَخْدَانٍ ۚ ﴾ (١)

وينهى عن اتخاذ الأخدان عند بيان حل النساء الكتابيات · فيقول سبحانه:

﴿ ٱلْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَٰتُ ۖ وَطَعَامُ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ حِلٌّ لَّكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَّهُمْ ۖ وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ إِذَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَٰفِحِينَ وَلَا مُتَّخِذِىٓ أَخْدَانٍ ۗ ﴾ (٢)

واتخاذ الأخدان أو اتخاذ الخلائل، الذي هو اتفاق مع امرأة على أن يتعاشرا من غير زواج مدة معلومة بأجر ، فاذا انتهت المدة افترقا ، هو والمتعة شيء واحد ·

نهي النبي صلى الله عليه وسلم عن المتعة :

٥٥٦ ـ لم يرد عن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم اذن بالمتعة صريح قط ، انما الذي ورد فيها نهي صريح عنها وفهم الذين فهموا الاذن بها من النهي عنها ، لأن النهي يجب أن يكون له موضوع ، ولا موضوع للنهي في المتعة الا اذا كان اذن بها ·

ولقد اتفق العلماء على أن أول نهي عنها كان في خيبر ، ثم تتابع النهي

(١) النساء (٢) المائدة

بعد ذلك في خمسة مواضع أخرى فنهى عنها في عمرة القضاء ، وفي غــزوة تبوك ، وغزوة فتح مكة ، وعام الفتح،وفي حجة الوداع ، ولولا تضافر الأخبار بأن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم قدأذن بها لقلنا ان ذلك التكــرار كان لتأكيد المنع ، اذ كانت عادة عميقة في الجاهلية ، فكان التأكيد لقلع جذورها من نفوسهم ، ولــكن تكاثرت الأخبار بالفعل قبل الاذن ، فتقبل الأمــرين الاذن من غير اباحة مطلقة،بل بضرورة الفردية الشديدة في الحرب ، والأمــر الثاني النهي القاطع في تحـريمها الى يوم القيامة ، ويصح أن نقول ان النهي في أوله كان لمن أذن قبله ، والنهي من بعد ذلك كان نهياً ناسخاً الى يوم القيامة.

وفوق ذلك بيان التحريم القاطع في القرآن الذي لا اذن فيه قط ، وهــو العزيمة التي لا رخصة فيها ، ولا مظنة لرخصة قط .

٥٥٧ ــ فلننظر بعد ذلك في أمرها ، لقد أجمع فقهاء السنة جميعاً أنها محرمة تحريماً أبدياً الى يوم القيامة ،وقد روي أن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما كان يترخص فيها للضرورة في حال الحرب ، وهي التي قيــل ان النبي صلى الله تعالى عليه وسلم أذن بها لشدة العزوبة في بعض حروبه ، واذ كان لم يعرف أنه أذن بذلك في حرب معينة ، ولقد نهاه علي كرم الله وجهه عن أن يفتي بهذه الرخصة ، وبين له أن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم قد نهى عنها ، وقال مخاطباً ابن عباس :« انك امرؤ تائه ، لقد نسخهــا النبي صلى الله تعالى عليه وسلم » « والله لا أوتى بمستمتعين الا رجمتهما » .

ويروى أن عبد الله بن عباس رضي الله تعالى عنهما قد رجع عن ترخصه ، وأفتى بالمنع .

ولم يقل أحد قط من علماء الجماعة انها مباحة لضرورة الشباب الذي يتعذر عليهم الزواج ، فتلك فرية من رجــل لا يتحرج في قول ، ولا يتعمق في علم، ولا يهتم بحرام ولا حلال .

بقي أن ننظر في الشيعة الاماميــة فنقول اننا نرى المتأخرين منهم يفتون بها ، ولا نرى الأئمة أو الأوصياء قالوها ، وان وجد من ادعاها لهم .

وتنقل لك المصادر الفقهية الشيعية التي تنفي عن أئمة الشيعة المهــديين وعلى رأسهم الامام أبي عبد الله جعفر الصادق ، وأبيه العظيم أبي جعفر محمد الباقر بن علي زين العابدين .

فقد روى أن بساما الصيرفي سأل أبا عبد الله جعفر الصادق عن المتعة ، فقال رضي الله تبارك وتعالى عنه : انهاالزنى •

ولقد جاء في الكافي عن يحيى بن‌زيد فقيه العراق أنه قال أجمع آل رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم على كراهةالمتعة والنهي عنها •

ولقد روى البهقي عن ابن شهاب الزهري أنه قال ان ابن عباس رضي الله عنهما ما مات حتى رجع عن هذه الفتيا، ولقد قال سعيد بن جبير لابن العباس ما تقول في المتعة ، فقد أكثر النـاس‌فيها ، وأنه نقل عنك الفتوى بجوازها، فقال ابن عباس ، والله ما أفتيت بهذا ،والا فهي كالميتة لا تحـل الا للضرورة ونحن لا نجد أي ضرورة تبيحهـا حتى‌يكون أقرها عند الاضطرار كالميتـة ، وأن النبي صلى الله تعالى عليه وسـلم‌قد صرح بأنه لا ضرورة عند الشباب تلجئهم الى ذلك كما يدعي من لا جريحةللدين في قلبه ، فقد قال : « يا معشر الشباب من استطاع منكم الباءة فليتزوج ومن لم يستطع فمليه بالصوم ، فانه له وجاء » وما دام باب الصوم مفتوحاًفانه لا ضرورة تسـوغ المتعـة ، أو ترخص فيها •

وان فقهاء الشيعة الامامية الذين جاؤوا بعد عصر أئمة الشيعة ادعوا أنه لا نسخ فيها واستدلوا على بقـائها بمايأتي :

ـ أولا ـ انه ثبت الاذن بها بالاجماع ، فقد أجمع المسلمون عـلى أن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم قد أذن‌بها ، وان الأدلة التي ثبت فيها النسخ أخبار آحاد ، وهي لا تنقض الأمـر‌المجمع عليه وقد روي عن ابن مسعود أنه أفتى بها ، وفي الصحيحين أنه قال‌رخص رسول الله صلى الله تعـالى عليه وسلم لنا أن ننكح المرأة الى أجل بالشيء، ثم قرأ قوله تعالى :

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُحَرِّمُواْ طَيِّبَـٰتِ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓاْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿٨٧﴾ ﴾ (١).

(١) المائدة

وأن عبارات النسخ التي وردت في أقوال النبي صلى الله تعالى عليه وسلم انما هي منصبة على الميراث والطلاق .

ثانيا ـ قالوا ان قوله تعالى :

﴿ فَمَا ٱسْتَمْتَعْتُم بِهِۦ مِنْهُنَّ فَـَٔاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ فَرِيضَةً ۚ وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا تَرَٰضَيْتُم بِهِۦ مِنۢ بَعْدِ ٱلْفَرِيضَةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٢٤﴾ ﴾ (١)

تدل على اباحتها ، وقوله تعالى :

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُحَرِّمُوا۟ طَيِّبَـٰتِ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿٨٧﴾ ﴾ (٢)

وان هذا الكلام غير صحيح في جملته وتفصيله ، وهو جاء بعد عهد الأئمة والأوصياء ، وهو باطل من وجوه :

أولها ـ أن الآية التي ساقوها ، هي في بيان أحكام النكاح الصحيح المرتب لآثاره ، ولم يكن موضوعها المتعة ، انما موضوعها النكاح ، لأنها بيان لنهاية المحرمات ، اذ يقول سبحانه وتعالى :

﴿ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَـٰتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَٰتُكُمْ وَعَمَّـٰتُكُمْ وَخَـٰلَـٰتُكُمْ وَبَنَاتُ ٱلْأَخِ وَبَنَاتُ ٱلْأُخْتِ وَأُمَّهَـٰتُكُمُ ٱلَّـٰتِىٓ أَرْضَعْنَكُمْ وَأَخَوَٰتُكُم مِّنَ ٱلرَّضَـٰعَةِ وَأُمَّهَـٰتُ نِسَآئِكُمْ وَرَبَـٰٓئِبُكُمُ ٱلَّـٰتِى فِى حُجُورِكُم مِّن نِّسَآئِكُمُ ٱلَّـٰتِى دَخَلْتُم بِهِنَّ فَإِن لَّمْ تَكُونُوا۟ دَخَلْتُم بِهِنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ وَحَلَـٰٓئِلُ أَبْنَآئِكُمُ ٱلَّذِينَ مِنْ أَصْلَـٰبِكُمْ وَأَن تَجْمَعُوا۟ بَيْنَ ٱلْأُخْتَيْنِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٢٣﴾ ۞ وَٱلْمُحْصَنَـٰتُ مِنَ ٱلنِّسَآءِ إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُكُمْ ۖ كِتَـٰبَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ ۚ وَأُحِلَّ لَكُم مَّا وَرَآءَ ذَٰلِكُمْ أَن تَبْتَغُوا۟ بِأَمْوَٰلِكُم مُّحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَـٰفِحِينَ ۚ ﴾ (٣)

---

(١) النساء (٢) المائدة (٣) النساء

فالاستمتاع هو استمتاع الزوجين ،يعرف هذا المدلول من له أدنى المـــام بالعربية وفوق ذلك ، فانه سبحانه قال بعد ذلك :

﴿ وَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ مِنكُمْ طَوْلًا أَن يَنكِحَ الْمُحْصَنَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ فَمِن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُم مِّن فَتَيَاتِكُمُ الْمُؤْمِنَاتِ ﴾ (١)

وبدليل قوله تعالى في النص الكريم:

﴿ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَافِحِينَ ﴾ (٢)

ولا شك أن المتعة لا توجب احصانا يوجب الرجم ٠

وثانيها ـ أن الاجماع لم ينعقد على اباحتها ، والتعبير باباحتها خطأ ، فلم يقل المحققون بأنها كانت مباحة انما أذن فيها ، كما أذن بأكل الميتة ، فان الاباحة تكون لأمر ذاتي في الفعـــل ،أما الاذن فانه يكون لضرورة ســوغت الاذن ، واذا عبر بعض الأئمة بالاباحة فمن قبيل التسامح في التعبير ٠

وان العلماء من بعد نهي النبي صلى الله تعالى عليه وسلم قد أجمعوا عـــلى نسخها فلا موضع للقول بالاجماع ، واذا كان قد أثر عن ابن عباس أنه أذن بها في حال الضرورة الحربية فقط ،فقد روي أنه رجـــع عن رأيه ، والله سبحانه وتعالى أعلم ٠

ولقد قالوا (أي بعد عصر الأئمـة والأوصياء عندهم) ان الاجماع انعقد على اباحتها بين الشيعة والسنة وانفرد أهل السنة بالنسخ ، ونقول لهـم ان الأدلة التي أذنت بها هي التي نسختها،فلا يقال اجماع على الاذن ، وعـــدم اجماع على النســـخ ، فالأدلة ملزمـة في الأمرين ٠

وثالثها ــ أن ثبوت النسخ لم يكن بخبر آحاد ، بل لأنها في ذاتها محـرمة

---

(١)، (٢) النساء

كالميتة والخنزير والدم المسفوح ، وماأهل لغير الله به ، وذلك ثابت بالقرآن الكريم ، في قوله تعالى :

﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ ۝ إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ۝﴾ (١)

قاطعة في اثبات التحريم ، لأنه من المؤكد المتفق عليه أن علاقة المتعة ليست علاقة زوجية ، فهي لا تعد زوجة بدليل أنه لا يجري فيها طلاق ولا ميراث ، ولا عدة زوجية ، لا في حال الموت ولا في حال الانفصال ·

والنهي عن اتخاذ الأخدان المتكرر يدل على تحريمها لأنها ليست الا كذلك، والنبي صلى الله تعالى عليه وسلم عندما أذن بها كان لضرورة ، في مخالفة المحرم تحريما قاطعا كمبدأ عام ، وقد قال العلماء في ذلك قاعدة « الضرورات تبيح المحظورات » ·

وقد نسخ الاذن في حال الضرورة في حال الحرب ضرورة لما استأنس الناس بالاسلام ، وأشربوا حبه وعودوا الصبر وضبط النفس بالايمان ·

وفي الحق أن المتعة من بقايا الجاهلية وهي كما قررنا من نوع اتخاذ الأخدان فلما كان المؤمنون قريبي عهد بالجاهلية عد النبي ذلك ضرورة لهم في الحرب ، فأذن بها للذين لا يزالون في نفوسهم بعض العادات الجاهلية ، ولذلك لم يؤثر عن أحد من المؤمنين الراسخين أنه استساغها كأبي بكر وعمر وعلي وأحد من المهاجرين الأولين والأنصار والسابقين وهم كانوا يحضرون كل حروب النبي صلى الله تعالى عليه وسلم مجاهدين ، وكان فيهم شباب أقوياء في أبدانهم كعلي بن أبي طالب والجميع كانوا أقوياء ولعل الذين شكوا العزوبة من الأعراب أو ممن لا قدم لهم في الاسلام فالنهي عنها ثابت بالقرآن ونسخ الاذن للضرورة ثابت بالسنة ، ونقول متحدين أأباحها أحد في حال السلم والاقامة حتى تبيحوها معشر الشيعة في الحل والترحال والسلم والحرب في السفر والحضر ويجيء من لا حرمة للحقائق عنده لتبليغ ،كلامهم لأنه يبيح المحرمات ، ولا حول ولاقوة الا بالله ·

(١) المؤمنون .

ورابعها ـ أن ادعاء أن الحديث الناسخ خبر آحاد ، ادعاء باطل ، وذلك لأمرين :

أولهما ـ أنه قاله في جيش فتلقاه أكثر من خمسة وألف ، فمستحيل أن يكون ناقله واحداً ، بل الذي نقله يؤمن تواطؤه على الكذب ، ونقله هذا الجمع الى الأمة كلها ، ففرض الآحادية باطل لا شك في ذلك .

ثانيهما ـ أن الأمة كلها أجمعت على ذلك ورمى علي كرم الله وجهه وهو الوصي الأول عندهم ابن عباس فقال له انك امرؤ تائه ، ولقد كان ابن عباس في وقت قول هذا الاذن غلاماً ،وكان في مكة ، لم يهاجر أبوه الى المدينة ، ولذلك كان الوصف بأنه تائه،وصف صحيح من امام الهدى علي .

ونكرر القول هنا بأن أئمة الشيعة، أو الأوصياء في لغتهم لم ينقل عن أحد منهم .

ولنختم الكلام في المتعة التي هي أمر فاسد في ذاته بكلمتين :

أولاهما ـ أن المتعة بحكم القرآن حرام ، واذا لم نلتفت الى النص القرآني (ولا يصح ذلك) لا تكون مباحة ، لأن ما يكون معمولا به في الجاهلية ويحرمه الاسلام ، لا يقال انه كان مباحاً ، ثم حرم ، لأن الاباحة تقتضي أنه لم يكن ذاته قبيحاً ، وهو كذلك ، بل يقال انه قبل التحريم كان محل عفو ، وكذلك كان التعبير فيما يحرمه ، وقد كان أهل الجاهلية يستبيحونه « عفا الله عما سلف » .

الثانية ـ نذكر ما يشترطه الشيعة في شروط صحة المتعة مما ينأى بها عن معنى الزواج من كل الوجوه ،لقد ذكروا لها شروطاً وركنا .

أما الركن فهو الايجاب ، والقبول،وأما الشروط فهي ثلاثة :

أولها ـ ذكر المهر ، وهو الأجرة ،فاذا لم يذكر الأجر تفسد المتعة ، كالاجارة اذا لم تذكر الأجرة لا تنعقد الاجارة ، فهي في حقيقتها اجارة المرأة للمتعة كاجارتها للخدمة على سواء .

والشرط الثاني ـ ذكر الأجل أو المدة،وذلك لابد منه في الاجارة الخاصة بالأجير الوحد أو الأجير الخاص ، بيد أن ذلك شرط في الأجير الوحد اذا

كانت الاجارة لمدة معلومة ولم تطلق من غير زمان كأن يستأجره لغير مدة على أن تكون الأجرة كل يوم ، أو كل أسبوع كذا ، أو كل شهر ، والاجارة في المتعة أخص من ذلك ، لأن الأجرة فيها على مجموع المدة ·

ثالثها ـ ويشترط لكي تستحق المرأة الأجرة كاملة أن تمكنه منها طول المدة ، فاذا لم تقدم نفسها فترة من المدة المتفق عليها ، فانه ينقص من الأجرة بمقدارها ، ومثلها في ذلك من استأجر دارا ليسكنها ، فتعذر الانتفاع بالسكن فيها مدة ، فانه ينقص من الأجرة ما يقابل الفترة التي تعذر الانتفاع ·

وقالوا في أحكامها أن الولد الذي يجيء ثمرتها يثبت نسبه ، ولكنه يقبل النفي ، فاذا نفى النسب انتفى من غير لعان ، وبذلك يكثر الأولاد الذين لا أباء لهم ، اذ لا يوجد من يلحق نسبهم به ، ولا حاجة الى لعان في نفي نسب اذ اللعان في حال قيام الزوجية ولا زوجية ·

وقد ذكرنا أن الانفصال فيها يتم بانتهاء المدة ، كما تنتهي المدة بانتهاء مدة الاجارة تماما اذا كانت الاجارة الخاصة مقدرة بمدة معلومة ، فهي اجارة لبضع المرأة ، فحكمها كسائر الاجارات وأيضا لا توارث بينهما ، وعدتها استبراء الرحم بحيضتين بحيث لا تزيد عن خمسة وأربعين يوما ·

أيها الناس هي المتعة ، أو بعبارة أدق اجارة بضع المرأة لمدة معلومة فهل هي صالحة للتطبيق في عصرنا ان فرضنا صحتها ، وهو مستحيل ، انها لا تليق بكرامة المرأة ، بل فيها أشد الامتهان لها ، والنزول بها الى مرتبة الخادم التي تستأجر ، في شرفها وهي دون المرضع ، ثم هي تكثر الأولاد غير الشرعيين ·

فكروا أيها الناس ان كان ثمة موضع للتفكير ·

أنها الزنى كما قال الامام محمد الباقر ، وابنه أبو عبد الله جعفر الصادق·

فهل مع هذه الأضرار الاجتماعية الخطيرة ، نبيحها بغير اباحة الشرع لشبابنا ، الذين لم يتزوجوا ، ونقضي على الأسرة ، ولا نقول لشبابنا ما قاله الرسول الأمين الذي يدعو الى الفضيلة، اذ قال صلى الله تعالى عليه وسلم :

« يا معشر الشباب من استطاع منكم الباءة فليتزوج فأنه أحصن للفرج ، وأغض للبصر ومن لم يستطع فعليه بالصوم فانه له وجاء » ٠

أيها الناس أطيعوا الله ورسوله ولا تستمعوا الى المتفيهقين المتعالين في هذا الزمان ، والله سبحانه وتعالى هو الهادي الى سواء السبيل ٠

﴿ رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنتَ الْوَهَّابُ ﴿٨﴾ ﴾ (١)

(١) آل عمران

تحريم ربا البيوع

٥٥٨ ـ ثبت أن تحريم ربا البيوع كان في غزوة خيبر ، أو أن تطبيقه كان واضحاً في غزوة خيبر ، وربما كان تحريمه قبل ذلك ، ولكنا نرى أول تطبيق كان في غزوة خيبر أو مقترناً في الزمان بها ، فحق علينا أن نذكره ونحن نتكلم فيها ، كما تكلمنا فيما تنبهنا له ، من الأحكام العملية التكليفية التي ظهرت في أثناء الغزوات التي ذكرناها من قبل .

وقبل أن نخوض في بيان ما ذكر في تحريم ربا البيوع في غزوة خيبر ، نقول :

ان كلمة ربا في الأحكام الشرعية تطلق باطلاقين ، أحدهما لغوي ، والثاني عرفي اسلامي اصطلاحي فقهي والقسمان متمايزان مختلفان .

فالقسم الأول : اللغوي هو ربا الجاهلية وهو ربا الديون بأن يقرض ديناً ، ويزيد في الدين كلما زاد الأجل فالزيادة تكون في نظير الأجل ، وهذه الزيادة هي الربا ، وهو الذي نزلت الآيات القرآنية بتحريمه في مثل قوله تعالى :

﴿ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ ٱلرِّبَوٰاْ لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ ٱلَّذِى يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيْطَـٰنُ مِنَ ٱلْمَسِّ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْبَيْعُ مِثْلُ ٱلرِّبَوٰاْ ۗ وَأَحَلَّ ٱللَّهُ ٱلْبَيْعَ وَحَرَّمَ ٱلرِّبَوٰاْ ۚ﴾ (١)

الى قوله تعالى :

﴿وَإِن تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَٰلِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ ﴿٢٧٩﴾ وَإِن كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيْسَرَةٍ ۚ وَأَن تَصَدَّقُواْ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٨٠﴾﴾ (٢)

---

(١) (٢) البقرة

والتحريم في هذا النوع من الربا عام ، سواء أكان القرض للاستهلاك أو الاستغلال ، ومن يفرق بينهم يفسر الأحكام القرآنية كما يهوى ، لا كما تدل عليه .

القسم الثاني : ربا البيوع ، وهو ربا لأن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم سماه رباً ، فهو حقيقة عرفية ، وقد جاء فيه الحديث الشريف « الذهب بالذهب مثلا بمثل يداً بيد ، والفضة بالفضة مثلا بمثل يداً بيد والبر بالبر مثلا بمثل يداً بيد ، والشعير بالشعير مثلا بمثل يداً بيد ، والملح بالملح مثلا بمثل يداً بيد فمن زاد أو استزاد ،فقد أربى » .

ونرى من هذا أن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم سماه ربا فهو ربا ، وقد طبق النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ذلك النوع من الربا في غزوة خيبر ، فحق لنا أن نتكلم ببعض القول فيه .

فقد جاء في السيرة النبوية لابن هشام : قال ابن اسحاق حدثني يزيد بن عبد الله بن قسيط أنه حدثه ابن الصامت قال نهانا رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم يوم خيبر عن أن نبيع أو نبتاع تبر الذهب بالذهب العين ، وتبر الفضة بالورق العين وقال ابتاعوا تبر الذهب بالورق العين ، وتبر الفضة بالذهب العين .

وان معنى الحديث أن يباع الذهب بالذهب مثلا بمثل ، والفضة بالفضة مثلا بمثل فان تعذرت المماثلة بين التبر، والذهب العين ، فانه لا يصح البيع ، بل يجب أن يتخالف الجنس فيباع تبر الذهب بالفضة ، وتبر الفضة بالذهب لأن المماثلة في هذه الحال غير واجبة .

ولقد جاء بعد ذلك الحديث السابق وهو أعم من الذهب والفضة وجاء بعد ذلك في أحاديث أخرى التمر بالتمر مثلا بمثل يداً بيد أي اشتراط القبض في الحال ثابت ، ولا يصح التأجيل وان الرديء لا يضاعف في سبيل الجيد من هذه الأصناف ، وقد ثبت في غزوة خيبر ، فقد جاء في تاريخ الحافظ ابن كثير أن البخاري روى عن أبي سعيد الخدري وأبي هريرة أن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم استعمل رجلا على خيبر ، فجاء بتمر جنيب ، فقال عليه الصلاة والسلام ، أكل تمر خيبر هكذا؟فقال ، لا والله يا رسول الله انا لنأخذ

الصاع من هذا بالصاعين والصاعين بالثلاثة ، فقال النبي صلى الله تعالى عليه وسلم لا تفعل هذا ، بع الجمع بالدراهم ثم ابتع بالدراهم جنيبا .

وان هذا الحديث الصحيح يدل على أمور ثلاثة :

أولا : أن تطبيق ربا البيوع كان في خيبر ، ولعله كان ابتداء تحريمها .

وثانيها : أن الجنيب بلح جيد ، وأن غيره دونه ، ولذلك كانوا يلاحظون هذه التفرقة عند المبايعة ، فالجنيب يبادل بضعفه ، أو الاثنين بثلاثة ، وان النبي صلى الله تعالى عليه وسلم نهى عن البيع بغير المماثلة في التمر والبر والشعير والذهب والفضة ، والملح ،والزيت في بعض الروايات ، وغيرها من المطعومات .

ثالثها : الطريق في التعامل بهذه الأشياء التي لا يصح البيع فيها الا بالتماثل في الكيل أو الوزن عند اختلافها في الجودة ، قد بينه النبي صلى الله تعالى عليه وسلم بأن يبيع الرديء ،ويشتري بثمنه جيداً وهذا الحديث الذي جاء في خيبر روى في معناه أن رجلا جاء الى النبي صلى الله تعالى عليه وسلم وقال : عندي بسر وأريد رطباً ،فقال له النبي صلى الله تعالى عليه وسلم بع البسر ، واشتر رطباً .

وهذه الفتوى النبوية فيها فائدة لمن عنده بسر ، وفائدة لغيره ، ففائدة صاحب البسر أنه استبدل به رطباً ، وهو ما يشتهيه ، وفائدة المشتري أنه أخذ البسر ، وربما يبتغيه ، وهناك فائدة لثالث ، وهو أن يأكل من ليس عنده بسر ، ولا رطب ، فلا يحرم من البلح حرماناً كاملا .

وقبل أن نترك هذا الخبر الذي جاء تطبيقه في غزوة خيبر لابد من التعرض بالاجمال لموضوعين : أحدهما حكمة التحريم ، والثاني العلة القياسية التي يمكن أن يطبق فيه النص على غير هذه الأنواع من المبيعات .

الحكمة في تحريم البيوع فيها إلا بالمثل :

٥٥٩ ــ ان هذه الأشياء التي ذكر النبي صلى الله تعالى عليه وسلم بيعها الا بما يماثلها كيلا أو وزنا ، كالقمح والشعير ، والملح ، والذهب والفضة ،

هي من الضروريات للحياة ، ومنع بيعها الا بمثلها ، وأن تكون مقبوضة يدا بيد ، انما المنع لكيلا يكون التبادل محصوراً في المالكين لها فقط ، فانه اذا ساغ بيع البر بالبر ملاحظا فيه أن الجيد يكون في مقابل ضعف الرديء وكذلك الشعير والتمر والملح ، فان التبادل فيها يكون مقصوراً على الذين يملكونها دون غيرها ، وقد يؤدي ذلك الى أن يحرم منها من لا ينتجونها ولا يملكونها، وان ذلك قد يؤدي الى احتجازها ، عمن لا يملكون وهم مضطرون اليها ،فيكون توزيع الانتاج بين الناس بالعدل والقسطاس المستقيم ٠

وان ذلك يمنع الاحتكار أو يسد ذرائعه ، وتكون الأقوات متوافرة لدى الناس ، اذ ان ملاكها يكونون مضطرين لأن يبيعوها ، ولا يختزنوها طلبا لحاجاتهم ٠

وان النقدين الذهب والفضة ، كانا ولا يزال الذهب مقياس قيم الأشياء، وبهما تقوم المنافع في الثمرات والأثواب والأقوات ، واذا اتخذ المقياس النقدي موضعاً للاتجار اضطربت الموازين ، واختلت المقاييس ، وكانت الاضطرابات الاقتصادية ، وحسبك ما تراه الآن وقت أن تحلل الناس من الذهب ، واستبدلوا بها النقد الورقي،وقد اضطربت فيه العلاقات الاقتصادية، وصعب التعامل من ضعف بعض الأوراق وقوتها مما صعب الاتجار ، وتعذر جلب الأرزاق في أرض من أرض الله ،وتكدسها في أرض أخرى ولقد أدعى بعض الكتاب من الأوربيين أن حديث الذهب بالذهب مثلا بمثل يدأ بيد ، والفضة والبر والشعير ، وغيرها من المطعومات قد وضعه اليهود على النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ليبعدوا العرب عن الاتجار ، وتبقى التجارة في أيديهم ٠

وذلك كلام لا تبرره الحقائق ، للوجوه الآتية :

أولها ـ أن حديث بيوع الربا روته كل الصحاح ، حتى كاد يخرج عن حد أحاديث الأحاديث الى ما يقرب من المتواتر ، ومن المؤكد أنه مستفيض مشهور تلقته الأمة كلها بالقبول ، والأحاديث المكذوبة لا يمكن أن يكون لها ذلك الوصف من الاستفاضة والشهرة٠

ثانيها ـ أن هذا الحديث ثبت أنه طبق في خيبر ، وروى البخاري وغيره تطبيقه في خيبر ، وذلك في الوقت الذي دكت فيه حصون اليهود دكا ، ولم يكن لهم قوة ، ولم يكن لهم أمل الا أن يكونوا زارعين يحرثون ويغرسون ، ويصلحون النخيل ، وسائر الأشجار ولم يكن لهم قوة يستطيعون بها الاتجار بل كانوا نتيجة الحرب أذلاء مستضعفين ، وقد كانوا يريدون غير ذلك ، فحيل بينهم وبين ما يشتهون ·

ثالثها ـ أن اليهود المقيمين في ظل الدولة الاسلامية في أحكام العقود وشروط صحتها كالمسلمين ، فلا يمكن أن يخالفوها ، وهي مطبقة عليهم ، وعلى المؤمنين على سواء ، عملا بالقاعدة الاسلامية العادلة ، لهم ما لنا وعليهم ما علينا ·

علة القياس في الأموال الربوية

٥٦٠ ـ هذه هي الحكمة ، وهي المصلحة الاجتماعية والانسانية في بطلان البيع الا مثلا بمثل يدا بيد وان هذه الأموال التي ذكرت تحريم الفاضل فيها معلولة ، أي أن الحكم يشتمل على هذه الأشياء المذكورة ، وعلى غيرها مما يكون في معناها ، كالزيوت والذرة وغيرها مما يتحقق فيه معناها الذي اعتبر سببا للتحريم ، أو علة له ·

والفرق بين العلة والحكمة أن الحكمة هي المصلحة الثابتة التي تكون وصفاً مناسباً للحكم ، وغاية له يتعرفها المكلف مما احتوى عليه الأمر التكليفي·

والعلة هي الوصف المنضبط الذي يتحقق في الأمر الذي جاء به التكليف، وكانت الحكمة متحققة فيه غالبا ، فالفرق بينهما هو الانضباط ، وأن العلة تكون وعاء للمصلحة التي هي العلة ·

وقد اتفق الفقهاء الذين يقيسون الأمور غير المنصوص على حكمها على الأمور المنصوص على حكمها ، اتفقوا على الحديث الشريف الوارد في تحريم الأصناف المذكورة ، والمروية بروايات مختلفة معلل المعنى وليس نصاً تعبدياً مقصوراً على موضعه ، وكذلك كل الأمور المتعلقة بمعاملات الناس ،

فالنصوص معللة أي تثبت في كل موضع تثبت فيه العلة وقد اتفق الفقهاء على أن علة التحريم في النقدين الذهب والفضة بألا بيع فيها الا بالمثل يداً بيد هو الثمنية ، وكونها ميزانا لقياس قيم الأشياء ، ومقدار ما فيها من نفع يشبع حاجات الناس ، فكل ما يتحقق فيه الثمنية يجري فيه حكم الذهب والفضة.

وكان الاختلاف بين فقهاء القياس في علة التحريم في غيرهما ، فقال أبو حنيفة وأصحابه علة التحريم اتحاد التقدير بالكيل أو الوزن واتحاد الجنس، فالذرة بالذرة مثلا بمثل يداً بيد ،لاتحاد الكيل واتحاد الجنس ، وكذلك الزيت بالزيت ، وحينئذ يحرم التفاضل، ويحرم تأجيل أحد العوضين ، وكل ذلك في الأمور التي يقر العرف التفاوت فيه ، أما ما لا يقر العرف التفاوت كالحديد ونحوه ، فان التفاضل والتأجيل يجوز .

فأبو حنيفة رأى أن تكون العلة أمراً مادياً ظاهرياً يصلح أن يكون جامعا بين الأمرين ، والشافعي نظر في غير الأثمان الى كونه مطعوما ، فجعل العلة في منع التفاضل كونه مطعوما ، اذ التفاضل فيه يؤدي الى أن تحتكر الأطعمة في يد منتجيها أو المستولين عليها ، لأنه اذ جرى فيه التفاضل في التعامل بها ، بأن يبيع البر الرديء بضعف البر الجيد ، كان التعامل بين المالكين للبر ولا يأخذه من ليس عنده بر قط ، وانه اذا امتنع التفاضل في مبادلة الجيد بالرديء ، كان لابد أن يأكل من ليس عنده جيد من البر ولا رديء ، فانه يلزم حينئذ أن يبيع الرديء ليشتري جيداً أو العكس ، فيقع الطعام في يد المحروم .

وانه ان اتحد الجنس منع التأجيل،ومنعت الزيادة ، ويسمى التأجيل ربا النساء ، ويسمى التفاضل ربا الفضل، هذا ما قاله الشافعي ، وهو يتحد مع الحنفية في أن سبب منع التفاضل والتأجيل في النقدين الذهب والفضة هو الثمنية ، وأنها مقاييس القيم والمالية في الأموال ، فلا يصح أن تكون سلعة تباع وتشترى ويجري فيها الاتجار ،والا اضطرب الميزان ، كما نرى الآن في الأوراق النقدية ، وما يترتب على علوها وانخفاضها من اضطراب اقتصادي .

وقالت طائفة من حذاق المالكية ، ان العلة في التحريم في الأمور المنصوص على تحريم التفاضل والتأجيل فيها هي الطعم والادخار ، بأن تكون من المطعومات ، وأن تكون قابلة للادخار ،فتكون من الأطعمة التي لا يفسدها الادخار كالبر والشعير والتمر ،والملح،وما يشبهها من الأطعمة ، كالفواكه المجففة التي تدخر ، كالزبيب ونحوه.

وذلك لأن كونها من الأطعمة ، وقابلة للتخزين يؤدي للاحتكار الأثيم ، والاحتكار من أسباب الأزمات ويزيدها حدة .

تنبيهات :

قبل أن نترك الكلام في الربا الذي اقترن تحريمه بغزوة خيبر ، فننزل في ابانها ، وهو ربا البيوع ، لابد أن نذكر أموراً ثلاثة هي توجيه الأنظار الى الوقائع ، وما يقترن بها ، وما يجري حولها .

أول هذه التنبيهات ــ هو الاجابة عما يجول في النفس لماذا كان تحريم ربا البيوع في خيبر ، وتلك الاجابة أن فتح خيبر كان فتحاً جديداً بالنسبة للعلاقات المالية التي يجري في ظلها التبادل المالي ، فكانت فيها شرعية المزارعة والمساقاة ولم تكن تجري كثيراً في يثرب .

وثانيها ــ تحريم البيوع التي تؤدي الى الاحتكار في الأطعمة ، وقد حرمه النبي صلى الله تعالى عليه وسلم تحريما قاطعا ، فجعل أموالا معينة غير خاضعة للاتجار المطلق ، لأن باب التجارة انفتح بغزوة خيبر ، فكان لابد من جعله في اطار لا يؤدي الى الاحتكار .

الأمر الثاني ــ أن الربا القوي وهو ربا الديون أو ربا الجاهلية حرام لا شك فيه لا يسع مسلما أن ينكره ، أما ربا البيوع فلم يثبت الا بالأحاديث الواردة فيه ، (وهي أحاديث لا تثبت قطعيا ويقينا ، ولكن تثبت العمل .)

أمن هذا أن هذه الأحاديث مشكوك فيها ؟

ولقد كان ابن عباس رضي الله تعالى عنه ينكر ربا البيوع ، ويقول انه لم يثبت ، وكان يقول مسندا لقول النبي صلى الله تعالى عليه وسلم : « انما الربا النسيئة ، وهو ربا الجاهلية » ،ولقد سئل الامام أحمد بن حنبل :

ما الربا الذي لا يسع مسلما أن يجهله،فقال أن يعطى الرجل دينا ويزيده في الأجل في نظير الزيادة في الدين ، وانمن ينكر أمرأ علم من الدين بالضرورة يكون خارجا عن الاسلام ٠

الأمر الثالث ــ أنه مع الأسف أنكثيربن ممن كتبوا في الربا ، وحللوا وحرموا بغير ما أنزل الله ، ومنهم من بلغـــوا مناصب تجعلهم مسئولين عن أقوالهم أمام الله وأمام النـــاس ، منخلطوا بين ربا البيوع ، وربا الجاهلية الذي ثبت بالقرآن،فضل عنهم فهم الربا، وضلوا في أنفسهم ، وأضلوا الناس ضلالا بعيدا ، ولم يكن جهلهم لضرورةيعذرون فيها ، بل كانت بين أيديهـم أسباب العلم ، فتركوها ليتعلقوا بمـــايرضي الناس ولا يرضي الله ٠

شرعية الجزية

٥٦١ ـ كان أول تطبيق للجزية في تيماء التي كان فتحها بعد خيبر، فقد جاء في الصحيح أنها فرضت فيها الجزية على أهلها، فكان على أهلها جزية الرؤوس، وعلى أرضها الخراج وهي جزية الأرض، والجزية فرضت بنص القرآن اذ يقول سبحانه وتعالى :

﴿ قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلۡحَقِّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ حَتَّىٰ يُعۡطُواْ ٱلۡجِزۡيَةَ عَن يَدٖ وَهُمۡ صَٰغِرُونَ ﴿٢٩﴾ ﴾ (١)

أي خاضعون للحكم الاسلامي غير متمردين بل مندمجون، لهم ما للمسلمين، وعليهم ما على المسلمين، وان قتال خيبر ووادي القرى، واستسلام تيماء، كان من قتال أهل الكتاب، وقد بين الغاية وهي أن يسلموا أو يستسلموا، وفي الحال الأخيرة يدفعون الجزية عن يد، وهم خاضعون، طائعون وانه يظهر أول جزية فرضت كانت في تيماء .

وقبل أن نذكر ما عمله النبي صلى الله تعالى عليه وسلم في الجزية، نقول انها ليست للاذلال، كما أخذ بعض الناس من ظاهر لفظ وهم صاغرون، انما هي لأمرين :

أولهما ـ اظهار الطاعة للحاكم المسلم، وامام المسلمين غير مضارين في دينهم، ولا مغيرين لعقائدهم ومبادئهم الدينية، ولا مرهقين في أمرها .

ثانيهما ـ أنها تكون في مقابل ما يفرض على المسلمين من فرائض مالية ليسهموا بها في بناء المجتمع الاسلامي، فالمسلم يفرض عليه بحكم الاسلام أداء الزكاة، والدولة هي التي تجمعها، وتفرقها على الفقراء والمساكين والعاملين

---

(١) البقرة

عليها والمؤلفة قلوبهم ، وفي الرقاب ،والغارمين وفي سبيل الله وابن السبيل، وفي سبيل الله تعالى يشمل الجهاد ،وكل المصالح والمرافق العامة للدولة ٠

وعلى المسلم كذلك زكاة الفطر ، وكفارات النذور والايمان والقتل الخطأ ، والظهار ، وفدية الصيام وكفارته ، وكل هذه مغارم تصرف لعلاج آفات الفقر في المجتمع ٠

فكان العدل يوجب أن يفرض على غير المسلم الذي يعيش في ظل الاسلام فرائض تقابل ذلك ، فكانت الجزية ،وكان الخراج ، يصرف منها على المصارف العامة للدولة الاسلامية التي تظل المسلم والكتابي على سواء ،ولذلك كانت حاجات أهل الذمة تسد من بيت مال الجزية والخراج من أجل هذين الأمرين فرضت الجزية ، وانها أمر عادل لا اذلال فيه ، ولا شبه اذلال ، ولكن طاعة وتسليم وخضوع للدولة ونظامها مع حرية التدين ٠

تيماء :

٥٦٢ ـ ولننظر في نظام الجزية كما طبقه النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، وكان أول تطبيقه في تيماء عقب خيبر ، فنجد الحافظ ابن كثير في تاريخه الكبير يذكر أن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم حمل أهل تيماء على الجزية وقال في ذلك نقلا عن الواقدي« لما بلغ يهود تيماء ما وطىء به رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم خيبر وفدك ووادي القرى صالحوا رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم على الجزية ،وقدموا بأيديهم أموالهم » ٠

وهذا الخبر من الواقدي في تاريخه، وزكاه أن الحافظ بن كثير نقله واعتمده ، وهو يدل على أن الجزية فرضت عقب خيبر أو فورها ، ولم تطبق عليها لأنها فتحت عنوة ، ولم تفتح صلحا ، وكان المفروض أن يجلوهم النبي صلى الله تعالى عليه وسلم،ولكنه أبقاهم كما طلبوا ، واحتفظ لنفسه بحق الاجلاء في أي وقت شاء ،وأجلاهم عمر من بعد ذلك عملا بما احتفظ به النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، فلم يكن تطبيق الجزية عليهم لأنها لم تكن قد نزلت آية الجزية ،وانما كان ذلك ، لأن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم رأى تأجيل الجلاء في حقهم ، لأنهم كانوا أقوياء ، ولو أبقوا

بالجزيرة العربية لاستطاعوا بكثرتهم أن يكون لهم سلطان ، ولكيلا يجتمع في جزيرة العرب دينان ٠

أما أهل تيماء فقد انتهوا مع النبي صلى الله تعالى عليه وسلم صلحا ، ولم يقرر اجلاءهم ، وكانوا في أطراف الشام والجزيرة العربية ، ولذلك لم يخرجهم الامام عمر رضي الله تبارك وتعالى عنه ، اذ هم ليسوا في داخل الجزيرة ، ولم يحتفظ النبي صلى الله تعالى عليه وسلم بحق اخلائهم ٠

وننتهي من هذا الجزء الى أن الجزية فرضت قبل الفتح ، ولم تكن شرعيتها بعد الفتح ، ولكن الامام ابن القيم يقرر أن الجزية لم تقرر الا بعد الفتح، وأما هديه في أخذ الجزية فما أخذ من أحد من الكفار جزية الا بعد نزول براءة في السنة الثامنة من الهجرة ،فلما نزلت آية الجزية أخذها من المجوس ، وأخذها من أهل الكتاب ،كما نصت آية سورة براءة التي تلوناها من قبل ، وذكرنا معنى قوله تعالى :

﴿حَتَّىٰ يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ ﴿٢٩﴾﴾ (١)

ونميل الى المثبت ، ولا نميل الى النافي ، نميل الى رواية أبي الفداء التي ذكرت أنه عقد عقد الجزية على أهل تيماء ، وان كنا نرى أن ما ذكره ابن القيم له وجه ٠

وفي الحق ان أهل خيبر ، لم يعقدوا عقد جزية قط ، الا ما كان في تيماء وأنه أوجب الجلاء عليهم أي أهل خيبر،فلما حاولوا أن يبقوا في الأرض زارعين غارسين وكان هو ورجاله مسئولين عن زراعة الأرض تركها مزارعة على أن حق الاجلاء ثابت ، وهو الأصل،وكذلك فعل في فدك ٠

صحيفة مكذوبة :

ولكن الباعث عند ابن القيم على نفي عقد الجزية لخيبر وجيه كل الوجاهة ، ذلك أنه في عبر التاريخ الاسلامي من بعد ذلك ادعوا ـ أي يهود ـ

---

(١) التوبة

أن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم عقد معهم عقد جزية وقدموه وثيقة لهم ، وهو مكذوب من كل الوجوه ،ويحمل في نفسه دليل كذبه ٠

وقد أثبت كذبه ابن تيمية من عشرة وجوه ، ذلك أنه في عصر ابن تيمية في آخر القرن السابع ، وأول القرن الثامن أنه راجت تلك الوثيقة المكذوبة عند من جهل بالسنة والمغازي ، حتى ان بعض العلماء أو الأمراء طلب من شيخ الاسلام ابن تيمية أن يقرر ما اشتملت عليه تلك الوثيقة المكذوبة ويطلب العمل على تنفيذها لليهود والعمل بها فيسكن اليهود في الجزيرة العربية في مكانهم القديم ، ولعلهم كانوا يريدون أن يختاروا في وسط الجزيرة العربية مقاما لهم ٠

ولذلك تحرك الامام ابن تيمية لبيان كذبها بكشف ما فيها ، لأن ما فيها دليل التكذيب ٠

ومما بين كذبها أن فيها كما يدعون شهادة جمع من الصحابة ذكر منهم علي بن أبي طالب وسعد بن معاذ ،وسعد بن معاذ كان قد مات متأثراً بسهم عائر في الخندق وقريظة ، وهما كانتا قبل خيبر بسنتين ٠

ومنها أنه أسقط عنهم الكلف والسخرة ، ولم يكن للمكس والسخر موضوع في عصر النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، فالنص عليها دليل على أنها مكتوبة فيما بعد ذلك في القرون المتخلفة بعد عصر النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، وان الله تعالى قد أعاذ النبي صلى الله تعالى عليه وسلم وأصحابه من السلف الصالح والرعيل الأول من فرض المكس والسخر ، فان ذلك من وضع الملوك الظالمين الفاسقين ٠

ومنها أنه لم يذكر قط في سيرة النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، ولا سيرة أحد من أصحابه سيرة ٠

ومنها أن هذه الوثيقة لم يذكرها قط أحد من علماء الحديث ، لا في الصحاح ولا في السنن ولا غيرها ، بل لم تذكر حتى في الأخبار الموضوعة ، فمن أين جاؤوا بها الا أن يكون ذلك من افترائهم البهات ، كما لم يذكر أحد من أهل الفقه والافتاء ، فهي كلام دخيل على الاسلام والمسلمين وهو افتراء من اليهود ، في عهد الحكام الغاشمين الجاهلين ، ولم يذكروه الى القرن

الخامس ، حيث العلم الاسلامي يدون ويجمع ، ويقول في ذلك ابن تيمية رضي الله تبارك وتعالى عنه «ما أظهروه في زمن السلف لعلمهم أنهم ان زوروا مثل ذلك ظهر بطلانه ، فلما كان بعض الدول في وقت فتنة وخفاء بعض السنة زوروا ذلك وأظهروه وساعدهم على ذلك طمع بعض الخائنين لله وللرسول ، ولم يستتر لهم ذلك حتى كشف الله تعالى أمرهم » ٠

وانه بذلك يتبين أن اليهود ادعوا أن أهل خيبر لهم عقد جزية ليتخذوا منه سبيلا ليقيموا في أرض خيبر بالحجاز ، ولكن الله كشف أمرهم ، وخيب رجاءهم ٠

ومهما يكن الأمر فانه لم يكن من اليهود أهل عهد بجزية الا أهل تيماء في رواية الواقدي والله تعالى أعلم ، وقد تبين كذبهم من قولهم ، وقد أعلنوا هذه الوثيقة المكذوبة بعد ثلثمائة من الهجرة ، ثم زوروا مثلها سنة سبعمائة٠

الجزية التي كان يأخذها النبي :

٥٦٣ ــ نذكر بالاجمال الجزية التي كان يأمر بها النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، ويقول الواقدي انه أخذها من أهل تيماء بعقدها وشروطه ٠

لقد قالوا ان النبي صلى الله تعالى عليه وسلم لم يعين من تؤخذ منهم ، وان عين مقاديرها من مختلف الأجناس، وذكر بعض شروط عقدها والتزاماتها على ولي أمر المؤمنين والتزاماتها عليهم٠

ولم يظهر لدى أهل السيرة والمغازي، والآثار مقدارها الا في نصارى نجران الذين عقد معهم في مرجعه من تبوك ، وكان الاتفاق كما سنبين بالتفصيل من بعد ، عندما نتكلم في سياقنا على وفود نجران وغيرهم ٠

أولا : أنه لا يهدم لهم بيعة ، ولا يمنع منهم قس من أداء شعائرهم الدينية ، ولا يفتنون في دينهم ما لم يحدثوا أحداثا يكون من شأنها نقض التزامهم ٠

وثانيا : أن يلتزموا أحكام المعاملات المالية الاسلامية ، بحيث لو ثبت أنهم يأكلون ربا الجاهلية ترد عليهم ذمتهم لأنهم نقضوها ·

ثالثا : أن يلتزموا بأحكام الحدود والقصاص، بحيث يجري عليهم ما يجري على المسلمين فيها على سواء ، وقد آخذ من نصارى نجران الجزية من الثياب ، أخذها منهم مجتمعين على قسطين الأول في صفر ، وكان ألف حلة ، وفي رجب ألف مثلها الى آخر العام أو الى نهاية المحرم ·

وللمسلمين أن يأخذوا على وجه العارية ثلاثين درعا يدرعون بها ، وثلاثين فرسا ، يحاربون عليها ، أو بعبارة عامة ثلاثين من كل صنف من أصناف السلاح يغزو بها المسلمون ، والمسلمون ضامنون لها حتي يردوها عليهم ·

ولم تكن الجزية مقيدة بجنس ، بل تصح بالدنانير والدراهم ، كما تصح بالثياب ، على حسب ما يقدرون عليه ، وعلى حسب حاجة المسلمين اليه ·

وان النبي صلى الله تعالى عليه وسلم لما أرسل معاذ بن جبل ليجمع الجزية أمره أن يأخذ من كل رجل بلغ الحلم ديناراً ·

ولم يفرضها على النساء والعبيد والمرضى ، بل فرضها على القادرين ، دون المزمنين والعاجزين ، وان الجزية كانت تؤخذ من نصارى العرب ، الى أن أجلى عمر بن الخطاب النصارى عن الجزيرة العربية نفسها ، وان بقي بعضهم في أطرافها كاليمن ، فكانت تؤخذ منهم الجزية كما تؤخذ من اليهود المقيمين بها ، ولم يغادروها الى داخل الجزيرة ·

وتلاحظ في الجزية التى أمر بها الرسول صلى الله تعالى عليه وسلم أمور ثلاثة :

أولها : أنها لم تكن معينة في جنس ، بل كان يعين على أساس التيسير عليهم ، فان كانوا تتيسر عليهم الدنانير فهي الأصل في التقدير ، وان لم تتيسر الدنانير وتيسرت الثياب أو غيرها أخذ مما يتيسر عليهم أداؤه ·

ثانيها : أنها ليست معينة المقدار في الجماعة ، بل تنقص وتزيد على حسب حاجة المسلمين ، وقدرة من يعطونها ·

وثالثها : أنها تسقط أو تدفع جملة على حسب طاقة الدافعين من غير افراط ولا تفريط ·

سرايا بعد خيبر

٥٦٤ ــ بعد غــزوة خيبر ، وما تبعها من وادي القرى وتيماء ، ما كان للنبي صلى الله تعالى عليه وسلم من حرب غير تعرف لأخبارها ، وما يجــري فيها بعد الحديبية ، ولقــد تم كسره الشوكة اليهودية ، والقضــاء على القوة العسكرية لليهودية في البلاد العربية ،ومنعهم من أن يعملوا على بث العداوة والبغضاء بين العرب ، وتحريض أعداء النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، ولابد أن يكون بث سراياه حول مكة ، أو على مقربة منها ، ليتعرف أخبارها وأحوالها في مدة العقد ، ولكي ينبذ اليهم عهدهم ان ثبت لديه منهم خيانة ، أو استعداد لها ، فانه عليه الصلاة والسلام كان يأخذ للأمر أهبته قبــل أن يقــع عند توقعه ، ولــكنه لا يغــدر ، ولا يخيس في عهوده مبتدئا •

ولذلك أخذ يبعث السرايا في داخل الصحراء ، وعلى مقربة من مكة •

سرية أبي بكر الصديق إلى فزارة :

٥٦٥ ــ يروي الامام أحمــد في مسنده أنه بعث النبي صلى الله تعــالى عليه وسلم أبا بكر الصديق في سرية الى بني فزارة ، ولم يكن أبو بكر رضي الله تعالى عليه وسلم رجل الحرب ،وان كان من المجاهــدين في الصف الأول ، ولكنه رجل رأي وتدبير ، ومعرفة بحال العرب ، وهو المدرك عند تعرف أحوال العرب ، فما كان خروجه للحرب فقط، بل كان لتعرف أحوال الغرب ، فيمــا يحيط بما يقرب من مكة وما حولها •

وقد سار الصديق رضي الله تبارك وتعالى عنه بمن معه ، حتى كان ببني فزار ، فنزل عند الماء ، وكــان ذلك ليلا ، ليباغتهم ، فلمــا صــلى الصبح بالمؤمنين معه شن الغارة بأصحــابه ،فقتلوا من بالماء وحالوا بينهم من النساء والرجــال والذرية من فزارة ، وبين الجبل الذي يكتنفهم ، ورموا بالسهــام بينهم وبينه لكيلا يجتازوا مكانهم •

وتتبعوهم حتى ساقوهم الى أبي بكرعند الماء ، وفيهم امرأة وابنتها ، فنقل أبو بكر الابنة ، وكانت ذات جمال ،ولم ينل من هذا النقل شيئا حتى وصل الى المدينة حيث يوزع النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، فلم يكشف ثوباً للفتاة ٠

ذهب الى النبي بالجارية ، فقال له النبي صلى الله تعالى عليه وسلم : هب المرأة لي ، فقال له يا رسول الله : لقد أعجبتني ، وما كشفت لها ثوباً ،فسكت رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم وتركني ، حتى اذا كان من الغد قال له رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ما قال ، ورد هو بما كان ، وتكرر ذلك مرة أخرى من النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ومنه ، حتى انتهى الأمر بأن قال له هي لك يا رسول الله ، وماكان رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم يريدها لنفسه ، ولكن يريدها لفداء المستضعفين من المؤمنين بمكة ، ولذلك بعث بها الى مكة ليفدي بها مستضعفين بمكة ، ففداهم رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم بهذه المرأة ٠

وقد روى مثل هذا مسلم في صحيحه والبيهقي في دلائل النبوة ٠

سرية عمر بن الخطاب :

٥٦٦ ـ أورد الواقدي بأسانيده أن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم بعث عمر بن الخطاب رضي الله عنه في ثلاثين رجلا الى بعض أرض هوازن وراء مكة بأربعة أميال ، أي أنها على مقربة من مكة ، ولقد كان عمر رضي الله عنه من أعرف الناس بالعرب طبعا وخلقا ، وهو ذو الفراسة القوية ، والبصيرة النافذة المدركة ٠

ويظهر أنه كان ذاهبا الى هذه الجهة ليتعرف ويتخبر ، لا ليقاتل فقط ٠

ومهما يكن فقد سار الفاروق ومعه دليل من بني هلال ، وكان يسير ليلا ويكمن نهاراً ، وهو يتعرف ما أمامه ،وما وراءه حتى وصل الى بعض هوازن، فهربوا من لقائه ومن منعه ٠

عاد عمر أدراجه من غير قتال ، ولكنه عاد بزاد من المعرفة عن مكة وما حولها ، وقد أشار عليه أصحابه أن يذهب الى خثعم ، ولكنه أبى ، لأن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم لم يأمره بالذهاب اليهم ، وهو يصدر عن أمر النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ·

سرية عبد الله بن رواحة إلى يسير اليهودي :

٥٦٧ ــ كان اليهود وان فقدوا القوة العسكرية في أرض العرب، لاتزال فلول منها مبعثرين في أرضهم ويخشى أن يكون منهم تجمع في جزء منها ، ويكون قوة تؤلب على الاسلام ، ولذلك كان النبي صلى الله تعالى عليه وسلم يتتبع أخبارهم ومن يظهر منهم ، فيقضي عليهم أجزاء حتى يجعلهم جذاذا بدل أن يتجمعوا حوله ·

روى الواقدي بسنده عن الزهري أن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم بعث عبد الله بن رواحة في ثلاثين راكباً ، اذ بلغه أن يسير بن رزام اليهودي يجمع بني غطفان ليغزو بهم ، وبنو غطفان قد كانوا يمالئون اليهود في خيبر ، قبل أن يغزو النبي صلى الله تعالى عليه وسلم اليهود ، وأنه حال بينهم وبين نصرتهم ، حتى تمكن منذ ذلك حصون اليهود وفتحها ·

ويظهر أن يسير بن رزام هذا أراد أن يحيي ذلك التعاون القديم ، فبلغ ذلك محمداً صلى الله تعالى عليه وسلم وهو الحذر الذي يمنع الشر قبل وقوعه ·

ذهب اليه عبد الله بن رواحة ، وأوهمه أن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم بعث اليه ليستعمله على أرض خيبر ، فيظهر هو ومن معه ، فتبعهم بثلاثين رجلا من رجاله اليهود ومع كل رجل منهم رديف من المؤمنين ، ولما بلغوا مكانا معيناً ندم يسير بن رزام على مسايرته ابن رواحة فيما قال ، فأراد أن ينزع سيف عبد الله بن رواحة ، ويهوي به عليه ، ففطن له ابن رواحة ، فزجر بعيره ، وتمكن من يسير ، فضربه ضربة قطعت رجله ·

ولقد ضرب اليهودي عبد الله بن رواحة في وجهه فشجه شجة عميقة ·

وانكفأ كل رجل من المسلمين على رديفه من اليهود فقتله ، ولم ينج منهم غير رجل واحد ، ولم يصب من المسلمين أحد الا شجة ابن رواحة ٠

ولقد قالوا ان رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم تفل على شجة ابن رواحة فلم تتقيح ولم تؤذه حتى مات ٠

وترى من هذا حذر النبي صلى الله تعالى عليه وسلم من اليهود ، وتتبعهم، حتى لا تقوم لهم قائمة في أرض العرب ٠

سرية بشير بن سعد إلى بني مرة من فدك :

٥٦٨ ـ بعث رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم الى بني مرة من فدك بشير بن سعد في ثلاثين راكبا ، فاستاق نعم بني مرة ، فقاتلوه ، وقتلوا كل من معه ، واستمر هو على القتال فقاتل وحده قتالا شديداً ، ثم آوى الى فدك ، ونزل عند رجل يهودي ، وكان غريباً أنه لم يغدر به ، ثم كر راجعاً الى المدينة ٠

وقد بعث رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم لبني مرة هؤلاء غالب بن عبد الله ليقتص للذين قتلوهم من المؤمنين ، وليفلوا شوكتهم ٠

وكان معه عدد من الصحابة فيهم أسامة بن زيد رضي الله تعالى عنه وغيرهم ، وقد اقتصوا لمن قتلوا من المسلمين ، وكان مما حدث أن قتل أسامة بن زيد رجلا قال لا اله الا الله محمد رسول الله ، فقد قالوا انه قتل مرداس بن نهيك حليف بني مرة ،وقال عندما علاه بالسيف : لا اله الا الله فلامه الصحابة على ذلك ، حتى سقط في يده وندم على ما فعل ٠

ولما قدموا على رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، فقال له يا اسامة من لك بلا اله الا الله فقال يا رسول الله انما قالها تعوذ بها من القتل ، قال فمن لك يا أسامة بلا اله الا الله ، فوالذي بعثه بالحق مازال يرددها حتى أن ما مضى من اسلامي ، لم يكن ، واني قد أسلمت يومئذ ولم أقتله ، وقال اني أعطي الله عهداً ألا أقتل رجلا ، يقول لا اله الا الله أبداً ٠

مضى غالب بن عبد الله بما معه يقتص من الذين قتلوا المؤمنين ، وتتبعهم ، حتى خضد شوكتهم ، وولوا الأدبار ولم يعد لهم قوة في الأرض يستطيعون أن يعيثوا بها في الأرض فسادا .

وكان مع رحلة غالب هذا في البلاد يتتبع جيوب اليهود ، حتى صار على مقربة من مكة وقد طهر كل جيوب اليهود ، وأدب الأعراب حتى استقامت أمورهم .

سريّة أبي حدود إلى الغابة :

٥٦٩ ـ كان لا يزال في الجزيرة العربية من بقايا خيثم وغيرها من يحاول محاربة رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم بعد أن ظهر نور الاسلام في البلاد العربية ، وبدأ قويا يحملهم على التفكير السليم في العقيدة ، ان لم يكن لتطهير العقول من رجس الوثنية ، فاتقاء لسوء المغبة .

بلغه عليه الصلاة والسلام أن رجلا له مكانه في قومه من خيثم يريد أن يجمع قيساً على محاربة رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، فبعث أبا الحدود، ورجلين من المسلمين ، وقال لهم : « اخرجوا الى هذا الرجل ، حتى تأتوا منه بخبر وعلم » .

وأركبهم على ناقة عجفاء ، وقال تبلغوا على هذه .

خرج الرجال الثلاثة ومعهم سلاحهم، وتحسسوا أمر ذلك الرجل ، فوجده يجمع من يجمع من الناس ، أو على استعداد لأن يجمع ، فقتلوه بسهم أصاب فؤاده ، وانتهى أمره .

واستمر أبو الحدود في سريته حتى بعثه رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم الى أضم ، ونزلوا بطنه وقد مر رجل اسمه عامر بن الأضبط النخعي ، فألقى السلام ، فقتله رجل من المؤمنين اسمه مجشم بن جثامة لعداوة كانت بينهما مع أنه ألقى السلام ، اذ جاء غير مقاتل ، ولا مريد للقتال .

وقد حدثت أمور في هذه السرية الصغيرة دلت على مبادىء سامية في الاسلام .

أولها ــ أن أبا الحدود الذي بعثه النبي صلى الله تعالى عليه وسلم في هذه السرية كان قد ذهب لرسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم يطلب مهر زواجه، وان ذلك يدل على مدى قوة التعاون بين المؤمنين في تلك الفترة من تاريخ الاسلام التي تعد نورا لكل الأزمان ان اتبع المسلمون مباديء الاسلام ٠

فقد روي أن أبا الحدود هذا الذي بعث بهذه السرية ذهب الى النبي صلى الله تعالى عليه وسلم وقد تزوج امرأة من قومه فأصدقها مائتي درهم ، ذهب اليه عليه الصلاة والسلام يستعين به على زواجه منها ، فقال له النبي صلى الله تعالى عليه وسلم كم أصدقتها ؟ قال مائتي درهم ، فقال النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، سبحان الله ، والله لو كنتم تأخذونها من واد مازدتم ، والله ما عندي ما أعينك به ٠

وقد أرسله على رأس هذه السرية لعله يصيب ما يصدق به امرأته ٠

وثانيها ــ أنه لا يصح قتل من ألقى السلام ؟ لأن الاسلام يدافع ، ولا يقتل من يسالم فقد نزل قوله تعالى :

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا ضَرَبْتُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَتَبَيَّنُواْ وَلَا تَقُولُواْ لِمَنْ أَلْقَىٰٓ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَـٰمَ لَسْتَ مُؤْمِنًا تَبْتَغُونَ عَرَضَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فَعِندَ ٱللَّهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٌ ۚ كَذَٰلِكَ كُنتُم مِّن قَبْلُ فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ فَتَبَيَّنُوٓاْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿٩٤﴾﴾ (١)

وذلك عند قتل محلم بن جثامة عامر بن الأضبط ، وقد آسف ذلك النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، وقال عليه الصلاة والسلام : « اللهم لا يغفر لمحلم » وكان دعاء النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ذلك ، لأنه قتل نفسا بغير حق ، وان الله لا يغفر ذنوب من يعتدي على حقوق العباد ، الا بعفو ممن اعتدي عليه ٠

وقد طالب عيينه بن بدر بدم عامر بن الأضبط ، وهو سيد قومه بني عامر ٠

---

(١) النساء

وقد كان الطلب تأخر الى غزوة حنين فيما يظهر من السياق ، فطلب اليه النبي صلى الله تعالى عليه وسلم أن يقبل خمسين بعيرا ، حتى يرجع الى المدينة فيعطيه خمسين فرد ، ثم قبل من بعد •

وان النبي صلى الله تعالى عليه وسلم قد دفع الدية من بيت مال المسلمين ، وان ذلك أكمل تعاون ، وأكمل حرص على الدماء ، مع أنه ثبت أن المقتول لم يكن قد أسلم •

وقد قال علماء السنة والسيرة ان السرايا والبعوث التي جاءت بعد خيبر ووادي القرى ــ لم تكن سرايا ذات خطر في توجيه الحروب ، ولكنها كانت لحوادث صغيرة ، أو لبث روح الاجلال للاسلام ، وفل شوكة من يريدون للاسلام نكاية ، أو للتعرف بأحوال العرب ، أو هي أشبه بالدوريات التي تمر بالبلاد احتياطا ، وتأديبا لكل من تحدثه نفسه بالاعتداء على المسلمين بأي نوع من الاعتداء •

عمرة القضاء

٥٧٠ ـ كان اتفاق النبي صلى الله تعالى عليه وسلم في عقد صلح الحديبية على أن يبعد عن مكة هذا العام ، وحتى لا يتحدث الناس أنه دخلها على الرغم من أهلها ، ثم يدخلها في العام المقبل معتمراً ، من غير سلاح الا ما يحمل باليد ويمكث ثلاثة أيام يسعى ويطوف ، ثم يتحلل .

فلما جاء ذو القعدة اتجه النبي صلى الله تعالى عليه وسلم الى العمرة التي سميت عمرة القضاء ، كما سميت عمرة القصاص ، لأنها كانت قصاصاً من صد المشركين للمؤمنين عن العمرة ، وقالوا انه نزل في ذلك قوله تعالى :

﴿وَٱلْحُرُمَٰتُ قِصَاصٌ﴾ (١)

ونرى أن النص السامي « والحرمات» انما نزل في القتال في الشهر الحرام، فقد قال تعالى :

﴿ٱلشَّهْرُ ٱلْحَرَامُ بِٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ وَٱلْحُرُمَٰتُ قِصَاصٌ فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱعْتَدُوا۟ عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿١٩٤﴾﴾ (٢)

أي اذا انتهكوا حرمة البيت وصدوا عنه ، وانتهكوا حرمات الشهر الحرام ، فعليهم أن يتوقعوا مثل ما فعلوا ، فالحرمات قصاص .

اتجه النبي صلى الله تعالى عليه وسلم الى العمرة ، ودعا الذين حضروا الحديبية اليها ، ومن أراد من غيرهم الاعتمار ، فما عليه من حرج في ذلك، ولكن العمرة واجبة بالنسبة لمن أحرموا لها في الحديبية ، ولم يتموها ، كمن يشرع في صوم فعلا ، ثم يفطر بعد النية ، فانه عليه قضاء ذلك اليوم ، وقد ابتدأ فعلا بالأداء ، فلما لم يتمه صار واجباً عليه القضاء .

---

(١) و(٢) البقرة

خرج مع النبي صلى الله تعالى عليه وسلم معتمرون من المدينة ، وساقوا الهدي ، وقالوا ان الهدي في عمرة القضاء هذه كان بعضه من البقر ، ورخص لهم ذلك ٠

وقد نوى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم الاحرام من ميقاته ، وكان يلبي ، والمسلمون يلبون معه ، وكان محمد بن سلمة على الخيل والسلاح ، وسار بها الى مر الظهران ، فالتقى بنفر من قريش ويظهر أن ذلك أرهب قريشا وأفزعهم ٠

سألوا محمد بن سلمة فقال هذا رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم يصبح غدا في هذا المنزل ان شاء الله تعالى ورأوا سلاحا كثيراً مع بشير بن سعد ومحمد بن سلمة ٠

خرج النفر من قريش الى مكة فأخبروهم بالذي رأوا من السلاح ففزعت قريش ، وقالوا ما أحدثنا حدثا ، وانا على كتابنا وهو عهدنا ، ففيم يغزونا ٠

وبعثوا اليه مكرز بن حفص في نفر منهم ، حتى لقوه ورسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم في أصحابه ، والهدي والسلاح قد تلاحقوا ٠

قالوا يا محمد ، ما عرفت صغيراً ولا كبيراً بالغدر ، تدخل بالسلاح في الحرم على قومك ، وقد شرطت لهم ألا تدخل الا بسلاح المسافر ، السيوف في القرب ٠

فقال لهم النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، اني لا أدخل عليهم بالسلاح حينئذ اطمأنت قريش ٠

ساق رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، الهدي يرعى في الزرع والثمر وهو يلبي كما ذكرنا والمسلمون من ورائه يرجعون تلبيته ، وحبس الهدي بذي طوى ٠

وقد خرجت قريش من مكة الى رؤوس الجبال ، وأخلوا مكة ، وقالوا لا ننظر اليه ولا الى أصحابه ، غضباً من هذه الزيارة المباركة ، ولخشية أن يكون النبي وأصحابه يميلون قلوبهم للوحدانية واتباع الهدى ، فان النظر الى الفعال يؤثر بأكثر مما تؤثر الأقوال ٠

ومنهم من كان يذهب به الفضول الى تعرف ما يفعله رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم وأصحابه ، فقد روى ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال : صفوا اليه عند دار الندوة لينظروا اليه والى أصحابه ، ولقد طاف رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، وهرول في ثلاثة أطواف ، وسعى بين الصفا والمروة ، وأرسل في بعضها ، مظهراً أنه وأهل الايمان عندهم القوة ، والقدرة ، اذا كانت ساعة الجد ، وذلك لأن قريشاً قالوا عن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم : « انه يقدم عليكم ،وقد وهنتهم حمى يثرب » .

فلما دخل رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم اضطجع بردائه،فجعل بعضه تحت عضده اليمنى ، وجعل طرفه على منكبه الأيسر ، وقال : « رحم الله امرأ أراهم اليوم من نفسه قوة ، ثم استلم الركن ، وخرج يهرول ، ويهرول أصحابه حتى استلم الركن اليماني مشى حتى يستلم الحجر الأسود ، ثم هرول كذلك ثلاثة أطواف .

وظن كثيرون أن هذه الهرولة ، وهي المشية التي تظهر فيها القوة خاصة بالحال التي كان فيها المسلمون وهي ظن المشركين أنه قد وهنت قوتهم ، وأضعفتهم الحمى .

ولكن لما كانت حجة الوداع ، هرول النبي صلى الله تعالى عليه وسلم في الطواف ثلاث مرات ، فكانت سنة مشروعة واجبة الاتباع .

وقد روى الشيخان البخاري ومسلم من حديث ابن عباس رضي الله تعالى عنهما « قدم رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم صبيحة رابعة ذي القعدة سنة سبع ، فقال المشركون، انه يقدم عليكم ، وقد وهنتهم حمى يثرب ، فأمر رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم أن يرملوا الأشواط الثلاثة، وأن يمشوا بين الركنين » ولم يمنعه أن يرسلوا الأشواط كلها الا الابقاء عليهم » .

وهكذا نجد كل المشقات التي يكلفها الاسلام تكون في الطاقة ، ولا تكون ارهاقاً .

وقد ظنوا كما أشرنا أن هذه الهرولة لقول المشركين ما قالوا ، ولكن ثبت أنها سنة ـ كما قلنا ـ بحجة الوداع .

جاء في الواقدي : لما قضى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم نسكه ، دخل البيت ، فلم يزل فيه ، حتى أذن بلال الظهر فوق ظهر الكعبة ، وكان رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم أمره بذلك وكان من بين من حول دار الندوة بعض رجال من قريش ، كما أشرنا فكان منهم عكرمة بن أبي جهل فذكر أباه ، وقال لقد أكرم الله أباالحكم . ان لم يسمع هذا العبد يقول ما يقول وقال صفوان بن أمية فقد أكرم الله أبي قبل أن يرى هذا ، وقال خالد بن أسيد الحمد لله الذي أمات أبي ولم يشهد هذا اليوم ، حتى يقوم بلال ينهق فوق البيت ٠

ورجال غير هؤلاء من قريش لما رأوا ذلك غطوا وجوههم ، وهكذا انتصر النبي والمسلمون من بعد ما ظلموا ،وغاظوا بالايمان أهل الشرك ٠

أقام النبي صلى الله تعالى عليه وسلم في مكة ثلاثة أيام أدى شعائر العمرة ونال أجر مجاورة البيت هو وأصحابه،وقريش في غيظ وكمد لأن دعوة التوحيد وشعار التوحيد دخل مكة ،وهم يرون ، ولا يستطيعون حولا ٠

وفي اليوم الثالث ، كانت هناك رغبتان : رغبة الود ، والرحمة من النبي صلى الله تعالى عليه وسلم وأصحابه وهي اقامة وليمة يتناولون معاً طعاماً ما يكون عربون السلام الدائم من بعدذلك ، ورغبة أخرى مناقضة ، هي النفرة الشديدة وابداء العداوة والبغضاء ٠

في اليوم الثالث جاءه حويطب بن عبد العزى في نفر من قريش ليخرجوا الرسول ، قد وكلتهم قريش لاخراج الرسول ، فقالوا له قد انقضى أجلك ، فاخرج عنا ٠

فقال النبي صلى الله تعالى عليه وسلم : وما عليكم لو تركتموني فأعرست (أقمت) بين أظهركم ،وصنعنا لكم طعاماً فحضرتموه ، فقالوا لا حاجة لنا في طعامك ، فاخرج عنا ٠

لم يكن النبي محارباً ، بل داعياً الى الله ، حيثما وجد الى الدعوة سبيلا ، فهو لابد أن يقرب بالمودة داعياً هادياً مرشداً مهما تكن نفرتهم ، فهو مطالب بأدناء القاصي ، وايناس النافر ، مهماتكن الأحوال . فانتهز هذه الفرصة ليلتقي بهم ، ويدعو بالحق فيهم ٠

ولقد لقي فعلا بعضهم ، ودعاهم الى الحق ، وان لم يكن في داخل المسجد الحرام ٠

وقد تزوج صلى الله تعالى عليه وسلم ميمونة بنت الحارث ، تأليفاً للقلوب وادناء لها ، باشارة عمه العباس بن عبد المطلب ، وهي أخت امرأته ، ولذلك تولى هو صيغة الزواج مع النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، اذ جعلت أمرها الى أختها أم الفضل ، وكانت هذه مع العباس رضي الله تعالى عنه فوكلت أم الفضل زوجها العظيم الذي شارك النبي صلى الله تعالى عليه وسلم في صيغة العقد ، ولم يكتف بذلك ، بل دفع العباس صداق زواجها من ابن أخيه أربعمائة درهم ، أثابه الله تعالى على محبته لرسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، وحدبه العظيم عليه في شدته بين قريش ، وفي تصرفه ، بعد أن أدال الله من دولة الأوثان ٠

خرج رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم وفاء بالعهد ، واستجابة لقريش الذين رفضوا مودته ، ولكنه خلف مولاه أبا رافع ، ليكون مع زوجه أم المؤمنين ميمونة ، حتى أتاه بسرف قرب التنعيم فوافى فيها زوجه ، وبنى بها ، ثم عاد الى المدينة في ذى الحجة ٠

ولقد كانت هذه العمرة تأليفاً وتقريباً ، وان حاول المشركون أن يبعدوا ولا يقربوا ، وأن ينفروا ولا يتوادوا ، ولكن كان منهم من لانوا للاسلام ، واتخذوا سبيلهم للايمان ، وحسبك أن تعلم أنه كان عقب هذه العمرة اسلام خالد بن الوليد ، الذي سمي سيف الاسلام ، فكان سيفاً مشهوراً في كل الحروب في عهد النبي صلى الله تعالى عليه وسلم بعد ذلك ، وفي عهد أبي بكر ، وأكثر عهد عمر رضي الله عنهم أجمعين ٠

عمرة القضاء في القرآن

٥٧١ ــ كان رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم قد رأى رؤيا صادقة أنه سيدخل المسجد الحرام مع أصحابه محلقين رؤوسهم ومقصرين ، وقد كان بعد هذه الرؤيا صلح الحديبية ، وماكان فيه ، وتحلل النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، وقال عمر غضبان أسفا ألم تعدنا بأن نطوف ، فقال النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، ما وعدتك هذا العام ، ولقد بين الله أن صدق الرؤيا كان في عمرة القضاء ، لا في الحديبية ، وان كانت الحديبية أول الفتح ، أو التمهيد له ، فقال تعالى :

﴿ لَّقَدْ صَدَقَ ٱللَّهُ رَسُولَهُ ٱلرُّءْيَا بِٱلْحَقِّ ۖ لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ ۖ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا۟ فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَٰلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿٢٧﴾ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ﴿٢٨﴾ مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ۖ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا ۖ سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ ۚ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ ۚ وَمَثَلُهُمْ فِى ٱلْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ ﴾ (١)

(١) الفتح

حكم شرعي في عمرة القضاء

٥٧٢ ـ كانت عمارة بنت سيد الشهداء حمزة بن عبد المطلب تقيم في مكة مع أمها سلمى بنت عميس ،وذلك أن بعض القرشيين مع ارسالهم حويطبا الى النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ،يطلبون منه الخروج ، أتوا عليا ، فقالوا قل لصاحبك اخرج عنا فقد مضى الأجل .

ولما خرج النبي صلى الله تعالى عليه وسلم،ومعه علي رضي الله عنه ـ تبعته عمارة هذه ابنة سيد الشهداء تنادي ياعم ، ياعم ، فتناولها علي ، فأخذها بيده ، وقال لفاطمة الزهراء ، دونك ابنة عمك لحمايتها .

ثم قال لرسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم : « علام نترك ابنة عمنا يتيمة بين ظهراني المشركين ، فلم ينه النبي صلى الله تعالى عليه وسلم عن اخراجها معهم .

ثم تنازع فيها اليه ثلاثة ، ولكل واحد منهم صلة خاصة بها ، وكل يدعي أنه أحق بها من غيره تنازعها زيد بن حارثة ، وعلي بن أبي طالب ، وجعفر بن أبي طالب .

وحجة زيد التي يدلي بها أن حمزة كان أخاه في المؤاخاة ، فقد آخى النبي صلى الله تعالى عليه وسلم بين زيد وحمزة ، فطالب بها على أنه أولى الناس بها ، لأنه وصيها ، وابنة أخيه في الاخاء .

وطالب بها علي لأنها ابنة عمه ،فهو أولى بها ، وهو الذي أخرجها من المشركين فله ولاؤها وولايتها .

وطالب بها جعفر ، لأنها ابنة عمه ،ولأن خالتها زوجه ، وهي أسماء بنت عميس .

وتحاكم الثلاثة الى النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، فحكم لجعفر ، وقال : أما أنت يا زيد فمولى الله تعالى ومولى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، وأما أنت يا علي فتشبه خلقي وخلقي،وأنت يا جعفر أولى بها تحتك خالتها ، ولا تنكح المرأة على خالتها ، ولا على عمتها ، فقضى بها لجعفر .

فلما قضى بها لجعفر ، قام فحجل حول رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم فقال ما هذا يا جعفر ، فقال يا رسول الله كان النجاشي اذا أرضى أحداً ، قام فحجل حوله ·

قال النبي صلى الله تعالى عليه وسلم : فقال ابنة أخي من الرضاعة ·

فزوجها رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم سلمة بن أبي سلمة ، فهو صلى الله تعالى عليه وسلم لم يتركها حتى زوجها ·

وان هذه القصة أفادت أحكاماً في الحضانة وفي الولاية على النفس ، وفي ولاية التزويج في الحضانة فقد أثبت أن الحضانة لا بد في أن تمسك الحاضنة عند ذي رحم محرم ، وجعفر كان ذا رحم ، وكان محرماً لها ، لأنها ابنة أخيه رضاعاً وامرأته خالتها ، ولا يتزوجها على خالتها وأفادت أن الولي على النفس بالنسبة للزواج لا يشترط أن يكون ذا رحم محرم ، فان النبي صلى الله تعالى عليه وسلم زوجها ، وهو عاصب ليس ذا رحم محرم منها ·

وأثبت أن الأولياء اذا كانوا في مرتبة واحدة زوج أفضلهم ، فكان جعفر وعلي ، ورسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم أولاد عم ، فزوج النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ·

ودل الخبر على أن الولي العاصب الأقرب اذا غاب قام في الولاية من يليه في القرب ، والولي الأقرب هو العباس رضي الله تبارك وتعالى عنه ، وكان قد أسلم ، وهو عمها ، والباقي أولاد عمها ، فهو أقرب منهم جميعا ، ولكنه كان غائبا ، فيتولى التزويج من يليه ، فتولى أفضل من يليه ·

سريّة ابن أبي العوجاء السّلمي

٥٧٣ ـ كان النبي صلى الله تعالى عليه وسلم لا يني عن الدعوة الى الاسلام ، لأنه رسالته ، وهو يستمع دائما الى قوله تعالى :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغۡ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَۖ وَإِن لَّمۡ تَفۡعَلۡ فَمَا بَلَّغۡتَ رِسَالَتَهُۥۚ وَٱللَّهُ يَعۡصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿٦٧﴾ ﴾ (١)

فكان يدعو الى الاسلام ، ويقرب القلوب وهو في مكة ، وقد أثمرت ثمراته في أهل مكة بعد ذلك كانوا يدخلون في الاسلام طالبين الرفعة عن طريقه ٠

فلما انتهت عمرة القضاء ، في ذي الحجة في السنة السابعة أخذ يوجه الدعوات الى الجزيرة العربية فأرسل بعدها أبا العوجاء الى بعض القبائل على قرب من ثله في خمسين فارسا يدعو الى الاسلام أو العهد ، أو القتال٠

وقد كان لهم عين بالمدينة فذهب وأخبرهم بسرية الرسول صلى الله تعالى عليه وسلم وحذرهم فجمعوا جموعا كثيرة ٠

فجاء ابن أبي العوجاء وهم مستعدون ، فلما رآهم أصحاب رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم وتجمعهم دعوهم الى الاسلام ، فلم يجيبوهم بالقول الرافض ، ولكن أجابوهم بالعمل المقاوم ، فرموهم بالنبل ، وقالوا لا حاجة لنا الى ما دعوتم اليه ٠

وجعلت الامدادات تجيء اليهم ، حتى أحدقوا بالخمسين فارسا من المؤمنين من كل جانب ، وقاتل المؤمنون قتالا شديداً ، حتى قتل أكثرهم ، وأصيب ابن العوجاء بجراحات كثيرة ، فتحامل حتى رجع بمن بقي من أصحابه ٠

وهكذا كانت التضحيات في سبيل الدعوة من أهل الغدر والنفاق ٠

---

(١) المائدة

إسلام خالد بن الوليد

٥٧٤ ـ قلنا ان عمرة القضاء كانت فرصة لتقريب البعيد ، وايناس الغريب عن الاسلام بمبادئه ، والربط بالمودة ، واذا كانت نفوس جافية لم تستجب لداعي المودة والرحم ، فان العقلاء قد سرت في نفوسهم دعوة الحق، وأخذوا يرون الاسلام في علاء ، وعرفوا ذلك من منطق القوة ، ومنطق الهداية ومنطق العقل ، وقد زالت الغمة ، وانكشفت الحقائق ، وكان من هؤلاء ، وعلى رأسهم خالد بن الوليد ، الذي سمي بحق من بعد سيف الاسلام ، وان لم ينل مرتبة المجاهدين الأولين والبلاء بلاء ، والقوى كلها تكاتفت على المسلمين •

لقد كانت نفس خالد المدركة التي تحس مائلة عن الشرك الى دعوة محمد صلى الله تعالى عليه وسلم ، وكان يرى أنه يخوض في الدفاع عن الشرك الى غير غاية •

ولنترك الكلمة ، لما روي عن خالد بن الوليد في حديثه عن اسلامه •

قال : لما أراد الله تعالى بي ما أراد من الخير قذف في قلبي الاسلام ، وحضرني رشدي فقلت ، قد شهدت هذه المواطن كلها على محمد صلى الله تعالى عليه وسلم ، فليس لي موطن أشهده ، أو أنصرف وأنا أرى أني موضع في غير شيء ، وأن محمداً سيظهر ، فلما خرج رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم الى الحديبية خرجت في خيل المشركين ، فلقيت رسول الله بأصحابه بعسفان ، فقمت بازائه ، وتعرضت له، فصلى بأصحابه الظهر أمامنا فهممنا أن نغير عليهم ، ثم لم يعزم لنا ، وكانت فيه خير ، فأطلع على ما في أنفسنا مما ألهم به ، فصلى بأصحابه صلاة العصر صلاة الخوف فوقع ذلك منا موقعاً فقلت الرجل ممنوع ، فاعتز لنا ، وعدل عن سير خطنا وأخذ ذات اليمين •

فلما صالح قريشا بالحديبية ودافعته قلت في نفسي أي شيء بقي أأذهب الى النجاشي فقد اتبع محمداً ، وأصحابه عنده آمنون ، فأخرج الى هرقل ، فأخرج من ديني الى نصرانية أو يهودية ، أفأقيم في عجم ، أفأقيم في داري •

فأنا في ذلك اذ دخل رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم في عمرة القضية، فتغيبت ، ولم أشهد حضوره ٠

وكان أخي الوليد بن الوليد قد دخل مع النبي صلى الله تعالى عليه وسلم في عمرة القضية ، فطلبني ، فلم يجدني ،فكتب الي كتابا فاذا فيه :

بسم الله الرحمن الرحيم ، أما بعد فاني لم أر أعجب من ذهاب رأيك عن الاسلام،وعقلك عقلك،ومثل الاسلام ماجهله أحد ، وقد سألني رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم عنك ، وقال أين خالد ، فقلت يأتي الله تعالى به ، فقال: ما مثله يجهل الاسلام ؟! ، ولو كان جعل نكايته وحده مع المسلمين كان خيراً له ، ولقدمناه على غيره ، فاستدرك يا أخي ما قد فاتك من مواطن صالحة٠

فلما جاءني كتابه نشطت للخروج ،وزادني رغبة في الاسلام ، سؤال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم عني ،وأراني في المنام كأني في بلاد ضيقة مجدبة ، فخرجت في بلاد خضراء واسعة، فقلت ان هذه لرؤيا ، فلما أن قدمت المدينة قلت لأذكرنها لأبي بكر ، فقال مخرجك الذي هداك الله تعالى للاسلام ، والضيق الذي كنت فيه من الشرك ٠

فلما أجمعت الخروج الى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم قلت من أصاحب الى الرسول صلى الله تعالى عليه وسلم !! ، فلقيت صفوان بن أمية ، فقلت يا أبا وهب ، أما ترى ما نحن فيه ، انما نحن كأضراس ، وقد ظهر محمد على العرب والعجم ، فلو قدمنا على محمد واتبعناه ، فان شرف محمد شرف لنا ، فأبي أشد الاباء ، وقال لو لم يبق غيري ما اتبعته أبداً ، فافترقنا وقلت هذا رجل قتل أخوه وأبوه ببدر قلت فاكتم علي فلقيت عكرمة بن أبي جهل ، فقال مثل ما قال صفوان بن أمية فخرجت الى منزلي فأمرت براحلتي ، فخرجت بها الى أن لقيت عثمان بن أبي طلحة ، فقلت ان هذا لي صديق فلو ذكرت له ما أرجوه ، ثم ذكرت من قتل من آبائه فكرهت أن أذكره ، فقلت وما علي ، وأنا راحل من ساعتي ، فذكرت له ما آل الأمر اليه ، فقلت انما نحن بمنزلة ثعلب في جحر لو صب عليه ذنوب من ماء لخرج ، وقلت له نحواً مما قلت لصاحبي ، فأسرع الاجابة،وقلت له اني غدوت اليهم ، وأني أريد أن أغدو ، وهذه راحلتي ، فأدلجنا سرا ،فلم يطلع علينا الفجر ، حتى التقينا

فغدونا حتى انتهينا الى الهــدة (١) ،فوجدنا عمرو بن العاص ، بها ، فقال: مرحباً بالقوم ، فقلنا وبك ، فقال الىأين مسيركم ؟ فقلنا وما أخرجك ؟فقال وما أخرجكم ؟ قلنا الدخول في الاسلام،واتباع محمد صلى الله تعالى عليه وسلم، قال وذلك الذي أقدمني ، فاصطحبنــاجميعا حتى دخلنا المدينة ، فأنخنا بظهر الحرة ركابنا فأخبر بنا رسول الله صلىالله تعالى عليه وسلم فسر بنا فلبســت من صالح ثيابي ، ثم عمدت الى رسولالله صلى الله تعالى عليه وسلم ، فلقيني أخي فقال : أسرع ، فان رسول الله صلىالله تعالى عليه وسلم قد أخبر بك فسر لقــدومك ، وهــو ينتظركم فأسرعناالمشي ، فاطلعت عليه ، فما زال يبتسم لي حتى وقعت عليه ، فسلمت عليـــهبالنبوة ، فرد علي السلام بوجه طلق ، فقلت اني أشهد أن لا اله الا الله ،وأنكرسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، فقال تعال ، ثم قال رسول الله صلى اللهتعالى عليه وسلم ، « الحمــد لله الذي هداك ، قد كنت أرى لك عقلا ،ورجوتألا يسلمك الا الى خير ، قلت يا رسول الله ، اني قد رأيت ما كنت أشهد منتلك المواطن عليك مما أبرأ منه فادع الله أن يغفر لي ذلك ، فقال رسول اللهصلى الله تعالى عليه وسلم : « الاســلام يجب ما كان قبله » قلت يا رسول اللهعلى ذلك فقال صلى الله تعالى عليه وسلم « اللهم اغفر لخالد بن الوليد ، كل ماأوضع فيه من صد عن الله ورسوله » ·

هذا ما نقله الواقدي بالرواية عن اسلام خالد بن الوليد ·

وذكرناه بطوله ، لأنه حكاية نفسه، وبيان خواطره ، وبيان ما وجهــه الى الاسلام توجيها نفسيا ، أهو الاعتقاد الجازم الذي ينبعث من النفس ، أم هو المصلحة ، ولا يمنع أن يكون الباعثوالمصلحة،ثم يشرب قلبه حب الايمان، ويكون من الصادقين في ايمانهــم ، ثميكون من بعد ذلك من المحــاربين في الاسلام ، وربما يكون من المجاهدين ،ان صح التعبير ·

كان خالد ممن لم يدخلوا مكة منقريش غيظاً من الاسلام وأهله وكراهية عندما دخـــل النبي صـــلى الله تعـــالىعليه وسلم مكة معتمرا حاجا ، فدل هذا على النفرة الشديدة من الاسلام وأهله،ولكنه جاء بعد ذلك ، وأراد أن يكون مع المسلمين ، ولم يكن كعمر الفاروقالذي كان الباً على المسلمين ثم رق قلبه للاســـلام وقذف الله في قلبه بنوره ،فكان قوة في الاســـلام ، وفارقا بين

---

(١) اسم مكان

الضعف والاختفاء والقوة، والاستعلان،في وقت ضنت فيه الألسنة عن الحق ، والقلوب عن الايمان ، ولا كحمزةأسد الله ، فانه لم يقف قط ضد الاسلام، وأسلم ابتداء حمية لابن أخيه ، ثمصار بطل الجهاد ، لا بطل الحرب ، فقد يكون بطل الحرب غير مجاهد ، وقديكون بطل الجهاد لم تعرف له في الحرب مكيدة ، كبلال وعمار ، وغيرهما من المؤمنين الأولين الذين كانوا اللبنة الأولى في بناء الاسلام ، وعلى بلائهموأذاهم قام الاسلام ٠

كان خالد في اسلامه ليس واحداًمن هؤلاء ولا كواحد منهم ، ولكنه فكر وقدر في البقاء على وثنية مكة ،أتكون مصلحته ، أم المصلحة في أن يسير في الركب لتحفظ له مكانةالمحارب الفذ والقائد النادر المثال ٠

وجد مكة قد سدت ولم تكن مكانالعزة ، ورأى محمداً صلى الله تعالى عليه وسلم هو ومن معه يعلون ولا ينخفضون ، فهو الى علاء ، ومن في مكة الى غيره أو استسلام له ٠

ونفذ ادراكه الى سر في علو محمد،وهو أنه ممنوع بمنع الله تعالى كالذي تسرب الى نفسه وهو في خيل المشركين يرقبون صلاة محمد بأصحابه ٠

ولكن كان ومضه نفسية ، لا نقولانها انطفأت ، ولكن نقول ان سياق تاريخ نفسه بنفسه يدل على أن ذلكلم يكن هو المسير الموجه الى ايمانه ٠

بل كان الموجه أولا ــ أنه رأى أن لا مقام له بمكة حيث سدت أبواب مظاهر النبوغ ٠

ثم كان الموجه ثانياً ــ أنه لم يكنله ملجأ في الحبشة ، لأن أصحاب مخمد سبقوه ، والنجاشي يؤمن بمحمدويحبه ، وفكر في أن يلجأ الى الروم ، وينتقل من دين قومه الى اليهودية أوالنصرانية وربما كان ذلك فاتحاً له باب النور ، ليخرج من دين قومه الىدين رجل من قومه ، شرفه شرفهم ، كما عبر هو ٠

ثم كان الموجه ثالثاً ما أخبره به أخوه من أن محمداً صلى الله تعالى عليه وسلم ذكره ، وذكر عقله ، وذكر أن لهموضعاً في حروب المسلمين تعرف فيها مكانته ، تتميز فيها قيادته ٠

اتجه الى محمد صلى الله تعالى عليه وسلم لهذه الأمور ، ولم يكن منها ايمانه بالعقيدة ايماناً دافعاً مؤمناً مطمئناً مهدياً ، الا أن يكون ما لاحظه من النبي صلى الله تعالى عليه وسلم حول الصلاة القائمة الى صلاة خوفاً ، عندما حدثته نفسه ابان ذلك الى الانقضاض على المؤمنين في صلاتهم .

ولما ذهب الى النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، وتطلق البشير النذير في وجهه ، رضي بالاسلام ديناً ، وغفر الله تعالى له لدعوة النبي صلى الله تعالى عليه وسلم له بالغفران .

وانا لا ننقص من مقام خالد بن الوليد القائد المحارب ذي الدربة في القتال ، اذا قلنا انه ابتدأ دخوله في الاسلام بأنه رأى في دخوله فيه المصلحة بعد أن صارت القوة الوحيدة في البلاد العربية للاسلام ، لأنه اذا رأى في ذلك مصلحة شخصية دنيوية ، فانها كانت باب النور اليه ، ودخل الاسلام قلبه ، وصار مؤمناً بالله واليوم الآخر ، والملائكة والنبيين .

ولعل ما قلناه هو السر في أن عمر بن الخطاب فاروق الاسلام الذي لم يفر أحد فريه في الاسلام لم يكن يعامله معاملة المطمئن اليه ، وان كان يقدر مقدرته الحربية .

إسلام عمرو بن العاص

٥٧٥ ـ يتشابه اسلام عمرو بن العاص مع اسلام خالد بن الوليد ، وان كان في اسلام خالد معان تومىء الى أنه أدرك بعض معاني الوحي ، بدليل ما لاحظه في صلاة النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، وادراكه أن الله تعالى مانع النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، وأنه غير مسلمه وادراكه مكانة النبي صلى الله تعالى عليه وسلم بين العرب والعجم، وأن شرفه هو شرف قريش ، بل كانت المصلحة الدافعة أوضح في عمرو بن العاص ٠

ولنذكر كيف دخل الاسلام قلبه بما حكاه الواقدي عنه ٠

يقول عمرو بن العاص : كنت للاسلام مجانباً معادياً ، حضرت بدراً مع المشركين فنجوت ، ثم حضرت أحداً فنجوت ، ثم حضرت الخندق فنجوت ، فقلت في نفسي والله ليظهرن محمد على قريش فلحقت بمالي ، وأقللت من الناس (أي من لقائهم) ، فلما حضر الحديبية رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم وانصرف رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم في الصلح ، ورجعت قريش الى مكة ، جعلت أقول يدخل محمد قابلا مكة ، ما مكة بمنزل ولا الطائف ، ولا شيء خير من الخروج ، وأنا بعد ناء عن الاسلام ، وأرى لو أسلمت قريش كلها لم أسلم ، فقدمت مكة ، وجمعت رجالا من قومي ، وكانوا يرون رأيي ، ويسمعون مني ، ويقدمونني فيما نابهم فقلت لهم كيف أنا فيكم ، فقالوا ذو رأينا ومدركنا في يمن نفس ، وبركة أمر ، قلت تعلمون أني والله لأرى أمر محمد أمرا يعلو الأمور علوا منكرا واني قد رأيت رأياً قالوا وما هو ؟ قلت نلحق بالنجاشي فنكون معه ، فان يظهر محمد ، كنا عند النجاشي ،ونكون تحت يد النجاشي أحب الينا من أن نكون تحت يد محمد ، وان تظهر قريش فنحن من قد عرفوا،قالوا : هذا الرأي قلت فاجمعوا ما تهديه له ٠

جمعوا أحب ما يهدى إليه وهو الأدم ، وذهبوا الى النجاشي ٠

ثم يقول عمرو بن العاص في لقائه مع النجاشي ، فوالله انا لعنده اذ جاء

عمرو بن أمية الضمري وكان رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم قد بعثه بكتاب كتبه يزوجه أم حبيبة بنت أبي سفيان ، فدخل عليه ، ثم خرج من عنده ، فقلت لأصحابي هذا عمرو بن أمية الضمري ، ولو دخلت على النجاشي ، فسألته اياه ، فأعطانيه فضربت عنقه ، فاذا فعلت ذلك سرت قريش وكنت قد أجزأت عنها حتى قتلت رسول محمد ٠

فدخلت على النجاشي ، فسجدت له ، كما كنت أصنع ، فقال مرحباً بصديقي أهديت لي من بلادك شيئا !! قلت نعم أيها الملك أهديت لك أدما كثيرة ثم قدمته فأعجبه ، وفرق منه شيئاً بين بطارقته ، وأمر بسائره فأدخل في موضع وأمر أن يكتب ، ويحتفظ به فلما رأيت طيب نفسه قلت أيها الملك اني رأيت رجلا خرج من عندك ، وهو رسول عدو لنا قد وترنا ، وقتل أشرافنا وخيارنا فأعطنيه فأقتله ٠

فغضب من ذلك ورفع يده ، فضرب بها أنفي ضربة ، ظننت أنه كسره ، فجعلت أتلقى الدم بثيابي ، فأصابني من الذل ما لو انشقت بي الأرض لدخلت فيها فرقاً منه ٠

ثم قلت أيها الملك لو ظننت أنك تكره ما قلت ما سألتك ، فأستحيا وقال: « يا عمرو تسألني أن أعطيك رسول من يأتيه الناموس الأكبر الذي كان يأتي موسى ، والذي كان يأتي عيسى ـ لتقتله » ٠

قال عمرو فغير الله قلبي عما كنت عليه ، وقلت في نفسي : عرف هذا الحق العرب والعجم ، وتخالف أنت ، ثم قلت : أتشهد أيها الملك بذلك ؟ ٠

قال الملك : نعم أشهد عند الله يا عمرو ، فأطعني واتبعه ، فوالله انه لعلى الحق ، وليظهرن على من خالفه ، كما ظهر موسى على فرعون وجنوده ، قلت أتبايعني له على الاسلام ، قال نعم ، فبسط يده ، فبايعني على الاسلام ، ثم دعا بطست ، فغسل عني الدم ، وكساني ثيابا ، وكانت ثيابي قد امتلأت بالدم فألقيتها ٠

ثم خرجت على أصحابي ، فلما رأوا كسوة النجاشي سروا بذلك ، وقالوا هل أدركت من صاحبك ما أردت ؟ قلت كرهت أن أكلمه في أول مرة ، وقلت أعود اليه ، فقالوا الرأي ما رأيت ففارقتهم ، وكأني أعمد الى حاجة ، فعمدت

الى موضع السفن ، فأجد سفينة قد شحنت وتدفع فركبت معهم ، ودفعوها، حتى انتهوا الى الشعبة ٠

وخرجت من السفينة ، ومعي نفقه، وابتعت بعيراً ، وخرجت أريد المدينة مررت على الظهران ومضيت حتى اذاكنت بالهدة ، فاذا رجلان قد سبقاني بغير كثير ، يريدان منزلا ، وأحدهماداخل في الخيمة ، والآخر يمسك الراحلتين ، فنظرت فاذا خالد بن الوليد، فقلت أين تريد قال محمد ، دخل الناس في الاسلام ، فلم يبق أحد ،والله لو أقسمت لأخذ برقابنا كما يؤخذ برقبة الضبع في مغارتها ، قال عمرو وأنا والله أردت محمد أو أردت الاسلام، فخرج عثمان بن أبي طلحة فرحب بي فنزلنا جميعا في المنزل ، ثم اتفقنا حتى أتينا المدينة فما أنسى قول رجل لقيناه ببئر أبي عنبة يصيح يا رباح يا رباح فتفاءلنا ، بقوله وسرنا ، ثم نظر الينا ، فأسمعه يقول : قد أعطت مكة القادة بعد هذين فظننت أنه يعنيني ، ويعني خالد بن الوليد ،وولى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم الى المسجد سريعا ، فظننت أنه بشر بقدومنا ، فكان كما ظننت وأثخنا بالحرة ، فلبسنا من صالح ثيابنا ، ثم نودي بالعصر فانطلقنا على محمد صلى الله تعالى عليه وسلم ، وان لوجهه تهللا والمسلمون حوله قد سروا باسلامنا فتقدم خالد بن الوليد فبايع ، ثم تقدم عثمان بن طلحة فبايع ، ثم تقدمت ،فوالله ما هو الا أن جلست بين يديه فما استطعت أن أرفع طرفي حياء منه ،فبايعته على أن يغفر لي ما تقدم من ذنبي ، فقال ان الاسلام يجب ما قبله والهجرة تجب ما قبلها ، فوالله ما عدل بي رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم وبخالد بن الوليد أحداً من أصحابه في أمر حزبه منذ أسلمنا ٠

نقلنا الحديث بطوله ، وكنا نود أن نحذف الجزء الأخير ، وهو أن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم لم يعدل بهما أحدا من أصحابه ، فانا لا نحسب يمينه في هذا برة ان كانت صحيحة النسبة اليه ، لقد كانت بعد ذلك غزوة مؤتة وتبوك وفتح مكة وهوازن وحنين فلم يعدل بهما علي بن أبي طالب والزبير ابن العوام وأبو عبيدة عامر بن الجراح،وسعد بن أبي وقاص ، ان هذه اليمين غير البرة فرية عليه أو غير ذلك ،ولماذا كان اللواء لعبد الله بن رواحة ثم لزيد بن حارثة ، ثم لجعفر بن أبي طالب ،ولم يتولها خالد الا حيث لم يكن وال يحملها ٠

ومهما يكن من أمر هـذه اليمين ،فان ما جاء على لسانه يدل كما دل كلام صاحبه على أن اسلامهم ابتداء كـان لمصلحة ، وقد أشرب قلوبهم الايمـان من بعد ٠

هذا عمرو كان يقـول لو أسلمت قريش كلها ما أسلم ، ثم يخرج ببعض قومه ليحرض النجاشي على المـؤمنين ،ويحاول أن يتمكن من قتل رسـول من عند رسول الله ، فيلطمه النجاشي لطمة جدعت أنفه هـذه اللطمة وهي التي نبهته الى الحق ، أم نبهه غضب النجاشي ، وارادة ارضائه ليس في الوقائـع التي ذكـرها ما يدل على أنه رأى في النبي صلى الله تعالى عليه وسلم أن الله مانعه ، فهو لم ير شيئا من ذلك ولذلك نقول ان اسلامه كان لمصلحته الشخصية الدنيوية ولعل الاسلام قد دخل قلبـه من بعد ذلك حتى صار ايماناً ، وهذا ما رجحناه ٠

وفي قصـة عمرو بن العاص عن نفسه ما يدل على أنه رجل لا يظهر في الهيجاء ، ويبغي لنفسـه الانحياز عن مواطن الردى ، فهو يحضر بدراً ،وينجو وأحداً ، وينجو ، والخندق ، وينجو ،ويظهر أنه لم يقتل ولم يقاتل بل كان من النظارة أو المدبرين ، كـمـا كان شأنه في القتال بين امام الهدى علي بن أبي طـالب ومعـاوية يـدبر في حرب البغاة ٠

وسيأتي من الأنباء مقامه هو وخالد بجوار صحابة النبي صـلى الله تعالى عليه وسلم الذين رضي الله تعالى عنهم، ورضوا عنه في بيعة الرضوان ٠

سرايا للتعرف في البلاد

٥٧٦ ـ أخذ النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، يرسل سرايا لمعرفة البلاد وحال القبائل ، وخصوصا التي لا يأمن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم جانبها .

فقد بعث رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم شجاع بن وهب في أربعة وعشرين الى جمع من هوازن وأمرهم أن يغيروا علمهم ، وكان بعثه يسير الليل ويكمن النهار ، جاؤوهم على غرة ،وأوعز شجاع الى أصحابه الى ألا يمعنوا في الطلب ، فأصابوا نعما كثيرا ،وشاء فاستاقوا ذلك ، حتى قدموا المدينة ، فكانت سهامهم خمسة عشر بعيرا لكل رجل .

ثم قدم أهلوهم مسلمين ، فشاور النبي صلى الله تعالى عليه وسلم أميرهم في رد السبايا اليه ، فردهن ، ويقول الحافظ ابن كثير في تاريخه قد تكون هذه السرية هي المذكورة فيما رواه الشافعي عن مالك عن نافع أن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم بعث سرية قبل نجد ، فكان فيهم عبد الله بن عمر، فأصابت ابلا كثيرة ، فبلغت سهامنا اثني عشر بعيرأ ، ونقدنا رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم بعيرا بعيرا وأنا نحسب أنهما سريتان ، احداهما قبل نجد والأخرى أرسلت الى هوازن .

سرية إلى بني قضاعة

٥٧٧ ـ أخذت سرايا النبي صلى الله تعالى عليه وسلم تتجه الى أرض الشام ليرتادوا الأراضي التي تتاخم أرض الشام ، فيتعرف حالها تمهيدا ، أو كشفا للغزوة التي تتجه الى الشام من بعد ، فبعث رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم كعب بن عمير الغفاري الى بني قضاعة من أرض الشام في خمسة عشر رجلا ، فوجدوا جمعا منهم كبيرا فدعوهم الى الاسلام ، فلم يستجيبوا لهم ، ورشقوهم بالنبل فلما رأى ذلك أصحاب رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم قاتلوهم أشد قتال وكانوا قلة فكاثرهم المشركون بكثرتهم حتى قتل المؤمنون في سبيل الدعوة الى الاسلام ، وكان في القتلى جريح اشتدت جراحه ، حتى ظن أنه بين الموتى ، فما ان أقبل الليل حتى تحامل حتى وصل الى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، فهم بأن يبعث اليهم ، فبلغه أنهم انسابوا في الصحراء الى موضع آخر ·

وقد يسأل سائل لماذا يرسل النبي صلى الله تعالى عليه وسلم سرايا قليلة العدد يتغلب عليهم المشركون بالكثرة التي لا قبل لهم بها ، فيقتلون جميعا أو كثرتهم ·

ونقول في الجواب عن ذلك ، ان سرايا النبي صلى الله تعالى عليه وسلم كانت ابتداء للتبليغ والدعوة ، ولكنهم كانوا يلتقون بقوم غلاظ لا يجيبون ، وان أمكنتهم الفرصة يقتلون ، وقد رأينا في هذه السرية الأخيرة ، كيف كانت الدعوة الى الاسلام : ابتدءوا ، فردوا ثم رشقوهم بالنبال ، ثم قتلوهم ، فما ذهبوا مقاتلين ، ولكن ذهبوا داعين الى الحق مبلغين رسالة النبي الأمين ·

غـزوة مـؤتـة

٥٧٨ ـ كان الاسلام يسري سريان النور ، والشـــام لم يكن بعيداً عن البلاد العربية ، بل كانت به قبائل من العرب ، فالغساسنة منهم ، واذا كـان الاسلام يسري نوره فيعم الآفاق القـريبة فقد كان من عرب الشام من دخل في الاسلام ، أو كان من العـــرب من سافر الى الشام ٠

وأولئك المسلمون ، وان كانوا عددا قليلا ضاقت بهم صـــدور النصـارى حرجا ، فقتل والي الشام من قبـــل الرومان من أسلم من عرب الشـــام ، ولابد أن يحمي محمد وأصحابه أولئك الذين يفتنون من دينهم لتمنع الفتنـة عنهم ، ويقول في ذلك ابن تيمية في رسالة القتال ان النبي صلى الله تعـالى عليه وسلم ما بعث الى حرب الروم في مؤتة الا بعد أن قتل الوالي الروماني من أسلم في الشام ٠

هذه كانت بعض السبب في سرية مؤتة وقد كان هناك سبب مباشر قوي ، وهو أن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم بعث الحـارث بن عمـير الأزدي بكتابه الى الشـــام ، ثم الى ملك الروم فعرض له شر حبيل بن عمرو الغساني ، فأوثقه رباطاً ، ثم قدمه فضرب عنقه ، ولم يقتل من رسل رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم غيره الى ذلك الوقت ، فاشتد ذلك عليه حين بلغه الخبر ، وكان لا بد أن يقف أمام هذا الغدر بقوة ، ولو كانت مقابل قوة الرومان ٠

وذلك لأنهم فتنوا المؤمنين ، بقتـل بعضهـــم فكان ذلك ارهابا لمن يهـــم بالدخول في الاسلام ولأنهم قتلوا رسول النبي الأمين في وقت قد صـارت عند النبي صلى الله تعالى عليه وسلم القـوة الفاضلة العليا في البلاد العربية ، فكان لابد لذلك من أن يقاوم ذلك الغدر ، لأن السكوت يكون ذلة لأهـل الايمان ، وذلة للعرب أجمعين ، وهم بصـدد أن يقوموا بدعوة الحق ، وحماية الشعوب من طغاتها ٠

في جمادي الأولى من السنة الثامنة بعث رسول الله صلى الله تعالى عليـــه

وسلم الى البلقاء من الشام ، وكانت عدتها ثلاثة آلاف رجل ، ولعلها أكبر الغزوات الى الآن عدداً ٠

وجعل الأمير على هذه البعثة زيد بن حارثة ، فان قتل زيد كان الأمير جعفر ابن أبي طالب ، فان قتل جعفر كان الأمير عبد الله بن رواحة ، فان قتل ، فليرتض المسلمون رجلا يكون أميرا عليهم ، فلما فصلوا عن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم الى الشام ، ومضوا حتى أرض الشام ، فبلغ الناس أن هرقل قد نزل مآب من أرض البلقاء في مائة ألف من الروم وانضم اليهم عدد من نصارى العرب ، وبلغ عدد من انضم مائة ألف أخرى ٠

عندما رأى جيش الاسلام ذلك كان منه من راعه العدد والسلاح ، وقالوا نكتب الى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم نخبره بعدد عدونا ، فاما أن يمدنا بالرجال ، واما أن يأمرنا ، لنمضي اليه ، عندما سمع عبد الله بن رواحة ذلك الكلام المتردد وقف وقال :

يا قوم ، والله ، ان التي تكرهون للتي خرجتم تطلبون الشهادة ، وما نقاتل الناس بعدد ، ولا قوة ولا كثرة ما نقاتلهم الا بهذا الدين الذي أكرمنا الله به ، فانطلقوا ، فانما هي احدى الحسنيين ، اما ظهور واما شهادة ٠

قال الناس بعد هذا الكلام المؤمن القوي قد والله صدق ابن رواحة تقدم للرومان ، وان كانوا يبلغون مائتي ألف ، وتقدم جيش وهو يؤمن بقوله تعالى :

﴿ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ ٱللَّهِ ﴾ (١)

تقدم المؤمنون في غير وجل من كثرة عدد العدو ، وقلتهم ٠

وتقدم الصفوف زيد بن حارثة ، وهو يحمل راية رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، وكان على ميمنة الجيش رجل من بني عذرة اسمه قطبة بن قتاده ، وعلى الميسرة رجل من الأنصار اسمه عباية بن مالك وانتحى المسلمون قرية من قرى البلقاء ، فالتقوا بالرومان عندها ٠

---

(١) البقرة

واذا كان المؤمنون قد أخذتهم ابتداء رهبة العدد والسلاح ، فقد أخذت الرومان رهبة الايمان واذا كان قد استطاع المؤمنون أن يتغلبوا على ما أصاب نفوسهم من فزع العدد ، فان مائتي الألف لم يستطيعوا أن يتغلبوا على فزعهم من أنهم يلقون قوما مؤمنين أحب اللقاءاليهم لقاء ربهم ٠

وقد التقى الفريقان ، الفريق المؤمن ، وهو يهاجم دفاعا عن أهل الايمان الذين قتلهم والي الرومان ، ودفاعا عنكرامة الاسلام التي أهينت بقتل رسول الرسول ، وكرامة العرب وهم مزودون بمعان دافعة ، وكـان جيش الرومان الكثيف في عدده وعدته ، لا غاية له الاأن يرد هؤلاء المزودين بالقوة المعنوية، وبنصرهم السابق،ولذلك كان اتجاههمالى قتل حملة الراية التي هي رمـز التقدم ان تقدم حاملها ، اذ كلما تقدمزاد الهجوم قوة واحتداما وهم خائفون من هذا الهجوم ، وان النبي صـلى الله تعالى عليه وسلم ألهم ، وما كان ينطق عن الهوى ان هـو الا وحي يوحى ،ألهـم ، أن حملة الراية سيكـونون المقصودين ، فرتب الولاية بينهم فجعلهالزيد ابن حارثة لقوة ايمانه ، وليعلم الناس أنه لا شرف الا بالايمان والعملالصالح ، ثم تكون لجعفر بن أبي طالب الذي هاجر مرتين ، لكي يعلم النـاسأنه لا يضن بأهله عن مواطن الردى ، ثم لعبد الله بن رواحة ، ولم يجعلهـامن بعد لأحد ، ولم يكن خالد من بين الأمراء الذين ذكرهم النبي صـلى الله تعالى عليه وسلم واصطفاهم لأنه كان قريب عهد بالاسلام ٠

كان هم جيش الروم أن يرد المهـاجمين ، ولذلك اتجه الى القواد ،وجعلهم غايته ، فقتلهم واحدأ بعد واحد ، وكانهم جيش المؤمنين أن ينتصفوا لاخوانهم الذين فتنـوا في دينهـم فقتلوا منالرومان مقتلة عظيمة ، حتى قال خالد ابن الوليد انه أبدل في يده سـتةسيوف ، ولم يبق الا صفحة يمنية ،فسل نفسك لم كان يخشى السيف في يد خالدمن هؤلاء ، الذين سارت فيهم قـوة الايمـان ، كمـا تسير السكين فيقطعة الزبد ٠

وأولئك القواد العظام الذين عينهمالنبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، ما كان ليقتل الا بعـد أن عبروا ، ولا يلقيالراية من يده الا بعد رقاب عـدد من الكافرين من النصارى واليهود فزيدحب رسول الله صـلى الله تعالى عليـه وسـلم ، وحامل رايته قتل عـدداحتى قتل ٠

وجعفر بن أبي طالب حامي راية رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، قاتل حتى أحس بأن فرسه لا تسعفه ، فنزل عنها ، وأخذ يقاتل راجلا ، وراية رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم يحملها على يمينه ، فلما قطعوها حملها على شماله ، فلما قطعوها حملها بين يديه ، حتى قتل ، فكان في الجنة الطيار ذا الجناحين .

وهكذا كان عبد الله بن رواحة كصاحبيه أقدم عليها من غير تردد ، فكان كالصاعقة على الكافرين ، حتى استشهد ، وهو حامل الراية .

ولا يصح أن تسقط راية المؤمنين ، وانتهى أمرها الى ثابت بن أقرم بن العجلان ، ولكنه أحس بأنه دونها ، فقال يا معشر المسلمين اصطلحوا على رجل منكم ، قالوا أنت ! قال ما أنا بفاعل فاصطلحوا على خالد بن الوليد ، فلما حملها أخذ يقاتل ، وسيفه البتار يقطع الرقاب .

ولكنه وهو القائد المدرك علم أنه وان كانت الجولة الى الآن للمؤمنين ، ولو قتل حاملو الراية لابد أن يزحمهم الروم ونصارى العرب ويهودهم بكثرة العدد ، لأنها تطيل القتال ، ولا تتحمل القلة الطول مهما يكن ما عندهم من معنويات صابرة مؤمنة .

اتجه خالد الى الانحياز تمهيداً لانسحاب منظم ، وفي هذا الوقت ابتدأت قوات الروم يتخاذل بعضها من العرب ، وبعضهم انضم الى خالد عند انسحابه يحكي ابن اسحاق أنه كان من حدس كاهنة ، حين سمعت بجيش النبي صلى الله تعالى عليه وسلم مقبلا ، قالت لقومها من حدس ، قالت لهم أنذركم قوما خرزا (أي مبصرون مدركون) ينظرون شزرا ، ويقودون الخيل تترى ويهريقوا دما عكرا ، فأخذوا بقولها واعتزلوا من بني لخم ، وكان من الذين صلوا الحرب يومئذ بنو ثعلبة ، فلما انصرف خالد بالناس انصرفوا معه ، وعادوا قافلين الى أرضهم .

فالجيش الروماني ، لم يكن متماسكا ، وان كان كثير العدد ، لتعدد الأجناس فيه ، فلم تغن كثرتهم عنهم شيئاً ، ونجا المسلمون منهم ، ونجوا هم بأنفسهم ، وان جرحوا جرحاً شديداً .

عندما رأى خالد كثرة الكافرين ،كما ذكرنا ، أخذ يبدل في مواقف جيشه ، فجعل الميمنة ميسرة ، والميسرةميمنة ، والصدر خلفاً والخلف صدراً فظنوا أنه قد جاءه المدد ، فلهذا أنزل الله تعالى في قلوبهم الرعب من لقاء المسلمين فآثروا النجاة بأنفسهم ، ولم يتبعوا جيش المسلمين في تراجعهم ، ورضوا من الغنيمة بالاياب ، وأخذ خالد بجيش الايمان ، حتى عاد الى المدينة سالما به ، لم يفقد في هذه المعركة الا اثني عشر قتيلا منهم الأمراء الثلاثة زيد بن حارثة ، وجعفر ، وعبد الله بن رواحة رضي الله تعالى عنهم جميعاً ، وتسعة معهم ، فكانت عدة القتلى اثني عشر قتيلا ٠

ولكن لم يتعود أهل المدينة أن تعود اليهم جنودهم من المعركة ، حتى في أحد بقيادة النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ٠

وقد نال المشركون منهم نيلا ، وجراحا لم يعد الجنود من المعركة فارين أو شبه فارين ، بل كان الجمع الذي أصيب بالجراح قد أخذ يكر وراء المشركين كراً ، وتبعهم الى حمراء الأسد راجعين فارين من تجدد اللقاء ، ورضوا بالاياب ٠

لم يعجب أهل المدينة صنيع الجيش الذي قاده خالد القائد المدرك بالانحياز ثم الانسحاب ، لأنهم لم يتعودوه ، وسموهم الفرارين ، وأخذ الصبيان يحثون التراب على وجوههم ، وقد خرج اليهم رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم مستقبلا فأمر بتنحية الصبيان الا أولاد جعفر بن أبي طالب فضمهم اليه، وقال انهم الكرارون ، أو العكارون ،كما جاء في بعض الصحاح والسنن ، وسماهم النبي صلى الله تعالى عليه وسلم متحيزين الى فئة ، فهو فئة المسلمين ، وكان ذلك تطبيقاً لقوله تعالى :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ زَحْفًا فَلَا تُوَلُّوهُمُ ٱلْأَدْبَارَ ﴿١٥﴾ وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُۥٓ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٍ فَقَدْ بَآءَ بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَمَأْوَىٰهُ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٦﴾ ﴾ (١)

لم يولوا الأدبار ، بل كانوا منسحبين، لا مدبرين ، وتحيزوا الى فئة النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، فدخلوا في استثناء الآية ، ولم يدخلوا في موضع نهيها ٠

---

(١) الانفال

نتيجة الغزوة

٥٧٩ ـ انتهت هذه الغزوة بنجاة الجيش الاسلامي من أن يقع فريسة لجيش الكفر، المتكاثف، وحسب ذلك نصراً مبيناً، وان النبي صلى الله تعالى عليه وسلم أدرك قبلها نتيجة المعركة، فانه عندما علم أن خالداً تولى القيادة، وحمل الراية قال تولى الراية سيف من سيوف الله يفتح الله تعالى عليه، وما كانت لتسمى النتيجة فتحاً لو كانت النهاية أن يرضى الجيش من الغنيمة بالاياب .

ولقد قال بعض كتاب السيرة ان النتيجة كانت السلامة، ولم تكن نصراً.

ولكنا نقول انها كانت نصراً لأسباب :

منها أن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم سماها فتحا، وسمى الذين عادوا الى المدينة كرارا .

ومنها أن المسلمين ساقوا غنائم ولم يؤخذ منهم شيء .

ومنها أن قتلى المؤمنين كانوا اثني عشر، وقتلاهم لا تحصى عددا، فقتلى المسلمين كانوا أقل عددا، وفيها كان النصر المؤزر، وجعل كلمة الذين كفروا السفلى وكلمة الله تعالى هي العليا .

ولقد قال في ذلك الحافظ بن كثير في تاريخه : « هذا عظيم جداً، أن يتقاتل جيشان متعاديان في الدين أحدهما وهو القلة التي تقاتل في سبيل الله وعدتها ثلاثة آلاف، وأخرى كافرة، وعدتها مائتا ألف مقاتل، من الروم مائة ألف، ومن نصارى العرب مائة ألف، يتبارزون ويتصاولون. ثم مع هذا كله لا يقتل من المسلمين الا اثنا عشر، وقد قتل من المشركين خلق كثير، هذا خالد وحده يقول لقد اندقت في يدي تسعة أسياف وما بقيت في يدي الا صفحة يمانية، فماذا ترى قد قتل بهذه الأسياف كلها .

دع غيره من الأبطال الشجعان من حملة القرآن وقد تحكموا في عبدة الصلبان، عليهم لعنة الرحمن ذلك الزمان وفي كل أوان، وهذا مما يدخل

في قول الله تعالى :

﴿ قَدْ كَانَ لَكُمْ ءَايَةٌ فِي فِئَتَيْنِ ٱلْتَقَتَا فِئَةٌ تُقَٰتِلُ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَأُخْرَىٰ كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِمْ رَأْيَ ٱلْعَيْنِ وَٱللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِۦ مَن يَشَآءُ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُوْلِي ٱلْأَبْصَٰرِ ﴿١٣﴾ ﴾ (١)

واننا نرى أن هذا يشبه ما قرره الله تعالى من أن عشرين صابرين يغلبوا مائتين ، وأن مائة صابرة تغلب ألفا ،وأنه عند قوة الايمان وقوة الصبر يكون المؤمن الصابر يغلب مائة ٠

وقد كان ثلاثة آلاف قد غلبوا مائتي ألف ، وصدق قول الله تعالى :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَرِّضِ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَى ٱلْقِتَالِ إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَٰبِرُونَ يَغْلِبُواْ مِاْئَتَيْنِ وَإِن يَكُن مِّنكُم مِّاْئَةٌ يَغْلِبُوٓاْ أَلْفًا مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴿٦٥﴾ ﴾ (٢)

هذا هو الحق ٠

ان غزوة مؤتة أول غزوة تخرج عن دائرة الجزيرة العربية الى دائرة أراض تحت سلطان الرومان ، فاذا كانت النتائج تكون على هذه الشاكلة ، فان النصر سيكون لجيش الحق باذن الله تعالى ، وقد كان ، فكانت اليرموك وما بعدها في عهد الراشدين ، فكانوا يفرون كما تفر الشاه أمام الأسود ٠

واذا كانت بدر أول انتصار في الأرض العربية ، فمؤتة أول انتصار مؤزر خارج الجزيرة العربية ، وهو ابتداء ليس له انتهاء أو مبتدأ له خبر٠

(١) آل عمران (٢) الانفال

سرية ذات السلاسل

٥٨٠ ـ عندما أرسل النبي صلى الله تعالى عليه وسلم الى بلاد الشام سرية من ثلاثة آلاف لمنع فتنة الرومان للمسلمين ، ولتأديب الغساسنة الذين قتلوا رسوله صلى الله تعالى عليه وسلم ،وأقبل الرومان في جيش بلغ تعداده مائة ألف ، وانضم من أعراب الشام مثلهم عددا ، فكان أمام المؤمنين مائتا ألف نصفهم من أعراب الشمال من لخم وجذام وطيىء وغيرهم مما ضاعف البلاء على المسلمين ، ولكن كانت الغالبة ، فكانت الفئة التي تقاتل في سبيل الله هي الغالبة ، وقد ذكرنا ذلك ٠

ما كان للنبي صلى الله تعالى عليه وسلم ومن معه أن يتركوا هؤلاء الأعراب من غير تأديب ، وكما قال الله تعالى :

﴿ٱلْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا۟ حُدُودَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٩٧﴾﴾ (١)

فكان لابد أن يمنعهم من أن يسترسلوا في الشر ٠

أرسل عمرو بن العاص يستنفر العرب ليستميلهم اليه بذرابة لسانه ، وقد رأى عمر رجلا ألكن لم يستطع بياناً ، فقال رضي الله عنه : سبحان الله خالق لسان هذا هو خالق لسان عمرو بن العاص ، ولأنه كما قيل كانت له صلة ببعض هؤلاء الأعراب ، ومعه عدد قليل من المسلمين ٠

سار حتى وصل الى جذام ، ونزل ماء السلاسل ٠

ولكن لم يفلح لسانه في استمالة أحد ، ولم يكن كعبد الله بن رواحة يطلب من جيشه احدى الحسنيين ، ولذلك أرهبته كثرة عدوه ، فلم يصنع شيئا ، وأرسل الى الرسول ليبعث اليه الرجال وبقي ينتظر المدد ٠

---

(١) التوبة

عندئذ بعث النبي صلى الله تعالى عليه وسلم جيشا من المهاجرين والأنصار فيهم أبو بكر وعمر ، والقائد أبو عبيدة عامر بن الجراح أمين هذه الأمة ٠

ولقد تحرك في عمرو حب الرياسة التي ظهرت من بعد في عهد عثمان عندما عزله ، وفي عهد علي التي تفرق بها وبغيرها أمر المسلمين ٠

قال لأبي عبيدة انما جئت مدداً لي ،وهو ما أرسل في جيش من المهاجرين والأنصار ، ولكن أرسل طليعة للتعرف والاستمالة ٠

وما كان من شأن أبي عبيدة أن يعطي رياسة الجند الا بأمر الرسول لعمرو بن العاص الذي هو حديث عهد بالاسلام ، ولكن أبا عبيدة لم يجابهه بأن الأمر له بل قال اجابة له لا ،ولكني على ما أنا عليه ، وأنت على ما أنت ٠

ولكن عمرواً أصر على قوله ، وقال :أنت مددي ٠

وهنا بدت تقوى التقي المؤمن ، فقال له يا عمرو ان رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم قال لا تختلفا ، وانك ان عصيتني أطعتك ٠

هذه صورة عمرو في أول اسلامه ،وهي صورته عند تولي الامرة على مصر عندما عزله ذو النورين عثمان بن عفان ، لقد قال : كنت ألقى الراعي فأحرضه عليه ، وهي صورته عندما اجتمع مع معاوية ضد امام الهدى علي لأنه يعلم أن علياً لن يعطيه امرة في شيء ٠

أخذ الجيش الاسلامي يطارد القبائل التي ظاهرت الروم ، فتوغل الجيش الاسلامي ، وكلما انتهى الى قبيلة ولت الأدبار ، ولم يصطدم الا مرة واحدة ، وانتهت بفرارهم ٠

وبذلك كان تأديب هذه القبائل الأعرابية ، وبدت كلمة الاسلام عالية كما هي ، وبذلك انتهى المراد من هذه السرية ٠

سـرّيّة أبي عُبَيدة

٥٨١ – في رجب من السنة الثامنة أرسل رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم أبا عبيدة في ثلاثمائة رجل الى القبلية ، على ساحل البحر الأحمر ، داعياً الى الاسلام ، ومتعرفاً أمر القبائل هناك ، وكان في السرية عمر بن الخطاب ·

ولقد أصاب أولئك الصحابة جوع فى الطريق ، فلم يجدوا ما يأكلونه حتى أكلوا ورق الشجر ·

واشترى قيس بن سعد ابلا ونحرها لهم ، وانصرفوا ، ولم يلقوا حرباً وما جاءوا للحرب ، بل للدعوة الى الاسلام ، والعمل على نشره والتعريف به في وسط القبائل ·

سرية أبي قتادة

٥٨٢ ـ بعث رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم في شعبان من السنة الثامنة أبا قتادة الأنصاري الى غطفان في نحو خمسة عشر رجلا ٠

وغطفان هي القبيلة العنيفة التي عاونت قريشاً في غزوة الخندق ، وهي التي همت بأن تعاون اليهود في خيبر ،وكان منها من ناصر جيش الرومان في مؤتة فسار اليهم في هذا العدد القليل،وأمره النبي صلى الله تعالى عليه وسلم بأن يشن الغارة عليهم ، فكان يسير بالليل ويكمن بالنهار ، حتى لقيهم فهجم على جمع عظيم منهم ، وأحاط بهم ، وقاتلهم قتالا شديداً فقتلوا بعضهم ، واستاقوا النعم والشاة ،وعادوا الى المدينة بعد خمس عشرة ليلة ، ولا شك أن الغرض من هذه السرية هو تعوف أطراف الجزيرة العربية ، والدعوة الى الاسلام حيثما ساروا ، وأينما اتجهوا ٠

فما كانت هذه السرايا للقتال ، ولكن لمعرفة الأراضي الدانية والقاصية والاعلام بالاسلام للدخول فيه طوعا لا كرهاً ٠

وقد بعث النبي صلى الله تعالى عليه وسلم أبا قتادة الأنصاري أيضاً الى أختم على بعد ثلاثة برد ، من المدينة ، بعثه في رمضان وكان الغرض من ارسالها تعمية قريش عنه حتى لا تصده اذ كان بعدها فتح مكة بليال ، أو كانت في ليلة الثاني عشرة من رمضان ٠

انتشار الإسلام في البلاد العربية

٥٨٣ ـ كان الاسلام ينتشر في البلاد العربية قاصيها ودانيها ، والنبي صلى الله تعالى عليه وسلم يرسل الدعاة،والناس منهم من يستجيب مؤمنا صادقاً، فيهاجر الى المدينة ليكون قوة مع قوةالمؤمنين ، ومنهم من يسلم ، ويذعن مستسلماً من غير أن يسكن الايمان قلبه ، وان ذلك كان في الأعراب الذين لم يخالطوا أهل الايمان ولم يجاوروهم، ولم يلتقوا بالنبي صلى الله تعالى عليه وسلم ليطلبوا منه ، ولم يقرءوا القرآن مستمتعين بتلاوته ، ولذلك قال الله تعالى فيهم :

﴿ قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّا ۖ قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا۟ وَلَـٰكِن قُولُوٓا۟ أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَـٰنُ فِى قُلُوبِكُمْ ﴾ (١)

وكان من الأعراب من ينتظر أيكون الغلب للمشركين أم لمحمد وأصحابه فهم كانوا مذبذبين بين هؤلاء وهؤلاء ،ومنهم من يبلغ به العناد في الكفر أن يجيئوا الى النبي صلى الله تعالى عليه وسلم مظهرين أنهم يطلبون الهداية فيرسل اليهم النبي صلى الله تعالى عليه وسلم من يحفظهم القرآن ، ويعلمهم الاسلام فيغدرون بهم ، ويقتلونهم ،كما قتلوا طائفة من القراء بلغوا سبعين ومنهم من كانوا يأخذون المؤمنين ويبيعونهم للمشركين ، كما فعل مع خبيب وأصحابه الذين باعوهم لأهل مكة ، وقتلوهم قتلة فاجرة ، فكان الحق ويقول الله تعالى :

﴿ ٱلْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا۟ حُدُودَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (٩٧) ﴾ (٢)

(١) الحجرات (٢) التوبة

وكان هذا النوع من النفاق الأعرابي متغلغلا في الصحراء وحول مكة ، وحول المدينة المنورة ذاتها ، فقد قال تعالى :

﴿وَمِمَّنْ حَوْلَكُم مِّنَ الْأَعْرَابِ مُنَافِقُونَ ۖ وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ ۖ مَرَدُوا عَلَى النِّفَاقِ لَا تَعْلَمُهُمْ ۖ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ ۚ سَنُعَذِّبُهُم مَّرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٍ (١٠١)﴾ (١)

ولقد قسم الله تعالى الأعراب قسمين متعادلين أولهما منافق جلي النفاق يحسب الزكاة مغرما ومنهم من يؤمن بالله واليوم الآخر ، ويتخذ ما ينفق قربات ، ولقد ذكر سبحانه وتعالى القسمين فقال تعالت كلماته :

﴿وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَن يَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ مَغْرَمًا وَيَتَرَبَّصُ بِكُمُ الدَّوَائِرَ ۚ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ ۗ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (٩٨) وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَن يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ قُرُبَاتٍ عِندَ اللَّهِ وَصَلَوَاتِ الرَّسُولِ ۚ أَلَا إِنَّهَا قُرْبَةٌ لَّهُمْ ۚ سَيُدْخِلُهُمُ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ ۗ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٩٩)﴾ (٢)

هكذا كان في الأعراب المؤمن الطاهر ، والمنافق .

ومن هؤلاء المنافقين كانت الردة التي أعقبت وفاة النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، وكان انتشار الاسلام بين الأعراب على النحو الذي بينه الله تعالى في كتابه .

كان الأعراب بين منافق كافر غادر ، وبين مسلم يتربص الدوائر ، وبين مؤمن تقي طاهر ، ومهما يكن أمرهم فقد كان الاسلام ينتشر مع هذا الدخل، وان دخل الاسلام قلبأ ، ولو على ترددفانه بتوفيق الله تعالى ، من بعد ذلك يشرق اشراقاً ، ثم يكون من ذلك ايماناً .

وان الحروب التي وقعت بين المشركين ومحمد صلى الله تعالى عليه وسلم ومن معه من المؤمنين كانت قوارع تقرع النفوس العربية ، فيهتز صداها في النفوس ، اذ خلاصتها انها قتال بين التوحيد ديانة ابراهيم أبي العرب عليه السلام ، وباني البيت الحرام ، وبين الشرك فيدعوهم الى التفكير بين الوحدانية والشرك ، وبين ملة ابراهيم محطم الأوثان ، وبين عبادة الأصنام ،

---

(١) و(٢) التوبة

فان ذلك يدفع نفس العرب والأعراب الى التفكير في الأمر تفكيراً من غير ارهاق ٠

وفوق ذلك فان الحرب بين الايمان الذي ينصره الله تعالى ويؤيده ، والشرك الذي يتوالى خذلانه يدفع الى تعرف السر في النصر مع قلة العدد، والخذلان مع كثرته ، وان واقعة الخندق وحدها داعية الى التفكير في القوة الخفية التي نصرت محمداً صلى الله تعالى عليه وسلم، اذ أرسل الله تعالى ريحاً عاتية قلبت أوعيتهم ، وخلعت أخبيتهم ، وخلعت مع ذلك قلوبهم ، ففروا من اللقاء فراراً ، ان هذه وحدها قارعة تلفت العقول عن عبادة غير الله تعالى ، لأنها تدرك أن الله مؤيد دعاة التوحيد بغير ما يقدرون ، وما يقتدرون ٠

وان الغزوات الكبار كان بجانبها سرايا تنبث في أنحاء البلاد العربية داعية كاشفة هادية أو مقاتلة ان رأت غدراً وخيانة ٠

وان كل هذا يدفع الى التفكير في الدين ، والموازنة بينه وبين عبادة الأوثان ، وان الجمود على اتباع الآباء ولو كانوا لا يعقلون شيئا ولا يهتدون هو الذي يصم الآذان والقلوب عن ادراك الحق ، فقوارع الحرب تسمع الذين فى آذانهم وقر ، وعلى أبصارهم غشاوة ٠

واذا فتحت المدارك اتجهت الى الطريق المستقيم ، الذي لا عوج فيه ، ولا أمت ٠

وفي الحق ان دعوة محمد صلى الله تعالى عليه وسلم صغت اليها قلوب الضعفاء ابتداء ، ثم كانوا من بعد قوة الاسلام التي أزعجت الكفر في مكامنه ، وهدته الى مواطن الهداية ٠

لا نقول ان الحرب أكرهت أحداً على الايمان ، ولكن نقول ان قوة الحق أخذت غير المحاربين الى محراب الايمان فجاءوا اليه طائعين مختارين ، لأن الحرب العادلة تجعل المنصفين يميلون الى الحق، ولأن انتصار المؤمنين لايمانهم يجعل النفوس ترمقهم ، والقلوب تصغي اليهم ٠

ولذا كانت الوفود من بعد ذلك تجيء من القرى والقبائل تعلن ايمانها، وتتعلم الاسلام ، وتسمع تلاوة القرآن كما سنتكلم ان شاء الله تعالى على الوفود التي جاءت تترى ، التي جاءت بنور الحق لتسمع الحق من الداعي الى الحق،

وان ذلك كله جاء من تسامع العرب بمحمد صلى الله تعالى عليه وسلم ، وكانت الحروب من أسباب ذلك .

وان انتهاء القتال بصلح ابتداء ،ثم بمواجهة بين النبي وبين من يعاديه هي الأخرى دعوة الى الاسلام في هدأة النفوس ، وقرار القلوب ، وقد صار صوت الحق هو وحده الذي يتكلم ،وسكتت صلصلة الأسلحة ، وفي هذه الهدأة وقد خبت العداوة ، واطمأن الجامح ، ولم تكن العداوة التي تؤجج النفوس بل السلم العزيزة هي ترطب النفوس والأفئدة ، وحينئذ دخل بعض العرب ، ومال الذين كانوا يحاربون النبي صلى الله تعالى عليه وسلم الى الاسلام ، وبدءوا يفكرون بقلب سليم من الأضغان ، قد استلت منه الأحقاد وسخائم النفوس وما كان المشركون لينفروا من الايمان الا جحوداً وعناداً، فاذا اختفى العناد كان التفكير السليم،وهو سبيل الاسلام ، وكان كل أمر بعد ذلك يوجه الى الايمان، ولا يرنقه حقد،ولا محنة ، ولا احنة وتوالت الأمور التي تقرب الأرحام ، وتوصل من كانوا قد قطعوه من رحم متوادة رحيمة .

وان عمرة القضاء التي كانت في العام السابع دنت بها قلوب كانت متباعدة ، وأذن المؤذن تكبيراً لله تعالى وحمده على الكعبة الكريمة المشرفة زادها الله تعظيما ، عندئذ مالت قلوب أعتى الكافرين عداوة ،وان لم يتقدموا بالايمان ،حسبك أن يكون منهم عكرمة بن أبي جهل فقد مال الى الاسلام ،وأن يعمل على اعلان ايمانه كما فعل صاحبه خالد بن الوليد ، وعثمان بن طلحة ، وعمرو بن العاص .

فقد رأت قريش محمداً صلى الله تعالى عليه وسلم يعظم البيت الحرام ، ويقيم شعائره ، وينحر الهدي عند المروة ويقيم المودة بدل القطيعة ، ويحاول أن يقيم وليمة يتناولون فيها الطعام على مائدة الرحمن دخل الى مكة راضياً ، وخرج عنها وهم راضون .

وبعد أن خرج أخذت النفوس تفكر في الاسلام ، لقد وقف خالد بن الوليد يدعوهم الى التفكير في أمر محمد صلى الله تعالى عليه وسلم فقال ، لقد استبان لكل ذي عقل أن محمداً ليس بساحر ،ولا شاعر ، وان كلامه من كلام رب العالمين ، فحق على كل ذي لب أن يتبعه .

بلغ أبا سفيان ما قاله خالد ، فسأله عن صحة ما سمع ، فأكده ، فاندفـــع أبو سفيان غاضباً ، وقد باعد بينهمـــا عكرمة بن أبي جهل وكان يميل في هذه القضية الى خالد ، فقال مهلا يا أبا سفيان أتقتلون خالداً على رأي رآه ، وهذه قريش كلها عليه ، والله لقد خفت ألا يحول الحول حتى يتبعه أهل مكة ٠

وما حال الحول حتى كان فتح مكة ،وكان أهل مكة على ما كان خالد ، وكان أبو سفيان من المسلمين ، وأخذ الاسلام يدخل مدائن العرب ، وأخبيتهم ما بين مؤمن مذعن ومسلم ، وكافر يعـــرفه ويكرهه ولم يبق الا أن يخرج نـــوره من أرض العرب الى غير العرب ٠

وكان التدرج يقتضي ذلك بأن يكون في أم القرى ، وما حولها ، ثم يكون في يثرب مجتمع القوى ، ثم يكون في العرب أجمعين ، ويخـــرج من مشرق العـــرب الى حيث النـــار والصليب ،فيطفيء النار ويحطم الصليب ،وتكون الكلمة لله وحده رب المشارق والمغارب٠

بعث الرسائل للملوك

٥٨٤ ـ اتفق علماء السيرة والصحاح على أن الارسال الى الملوك والأمراء كان بعد الحديبية وقبل الفتح ، ولكن اختلفوا أكان بعد صلح الحديبية أم كان بعد عمرة القضاء أم كان بعد مؤتة ٠

وان الذي نختاره أنه كان بعد عمرة القضاء ، وقبل مؤتة ، وذلك لأن عمرو بن العاص خرج من مكة مريداً الهجرة الى الحبشة بعد عمرة القضاء وقد التقى في الحبشة بمن بعثه رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم الى النجاشي ، كما أنه التقى في أثناء ذهابه الى المدينة بخالد بن الوليد ،وقد كانت ارادة خالد بن الوليد ، الذهاب الى مكة وكلماته في الدعوة الى اتباع محمد رضي الله عنه عقب عمرة القضاء مباشرة ٠

وان السياق التاريخي يثبت أن الكتاب الى ملك الروم ، وأمير الغساسنة في الشام كان قبل مؤتة لأن غزوة مؤتة كانت بسبب قتل بعض من أسلم من الشام ، وبسبب قتل الرسول الذي بعثه النبي صلى الله تعالى عليه وسلم الى أمير الغساسنة ، والسبب مقدم على المسبب ، فكان الكتاب بلا ريب سابقا على مسببة وهو غزوة مؤتة ٠

وفوق هذا كله، فان السنة الصحيحة تصرح بأن الارسال الى الملوك قبل مؤتة ، فقد روى مسلم بسنده عن أنس بن مالك أن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم كتب قبل مؤتة الى كسرى وقيصر ، والى النجاشي ، والى كل جبار يدعوهم الى الاسلام ٠

كتابه إلى هرقل وأثره

٥٨٥ ـ بعث رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم الى هرقل دحية بن خليفة بكتاب هذا نصه :

بسم الله الرحمن الرحيم

« من محمد بن عبد الله ورسوله الى هرقل عظيم الروم ، سلام على من اتبع الهدى ٠

أما بعد ، فاني أدعوك بدعاية الاسلام ، أسلم تسلم ، يؤتك الله أجرك مرتين وان توليت ، فانما عليك اثم الأريسيين ، يأهل الكتاب تعالوا الى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد الا الله ولا نشرك به شيئا ، ولا يتخذ بعضنا بعضا أربابا من دون الله ، فان تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون » ٠

وقد كان هذا الكتاب الكريم له أثره في أوساط الرومان ، وأهل الشام ومشركي قريش ، لم يأخذ هرقل الكتاب كما يأخذ ملك من رجل يخشى على ملكه منه ، بل أخذه كما يأخذ عالم يلقى خبرأ له صلة بعلمه ، فقد كان هرقل حزاء له علم بالملاحم والنجوم وأخبار النبيين ، فكان عالما من علماء النصرانية الذين يريدون أن ينتشر الحق في ذاته ، لولا الملك وسورته ٠

عندما وصل الكتاب اليه ، أرسل يبحث عن بعض قوم محمد صلى الله تعالى عليه وسلم في البلاد الشامية فعلم بركب تجار من مكة ، على رأسهم أبو سفيان قائد الشرك ، قد دعاهم الى مجلسه ، وحول (هرقل) عظماء الروم ، ثم دعا أبا سفيان ومن معه ودعا الترجمان ، واليك الحديث كما جاء في البخاري ٠

قال هرقل بلسان الترجمان أيكم أقرب نسبا بهذا الرجل الذي يزعم أنه نبي ٠

فقال أبو سفيان أنا أقربهم نسبا ،فقال هرقل أدنوه مني وقربوا أصحابه عند ظهره ، ثم قال لترجمانه قل لهم اني سائل هذا عن هذا الرجل ، فان كذبني فكذبوه ، قال أبو سفيان ،فوالله لولا أن يؤثروا عني كذبة في العرب لكذبت عنه ، ولنترك الحكاية كلها لأبي سفيان ٠

يقول أول ما سألني عنه أن قال :كيف نسبه فيكم ، قلت هو فينا ذو نسب قال فهل قال هذا القول منكم أحد قبله؟قلت لا ٠ قال : فهل كان من آبائه من ملك ٠ قلت لا ، قال فأشراف الناس اتبعوه أم ضعفاؤهم؟قلت بل ضعفاؤهم، قال أيزيدون أم ينقصون ؟ قلت بل يزيدون ، قال : فهل يرتد أحد منهم سخطة لدينه بعد أن يدخل فيه ! قلت لا ٠ قال فهل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال قلت لا ، قال فهل يغدر ؟ قلت لا ونحن منه في مدة ، لا ندري ما هو فاعل فيها ، ولم يمكني كلمة أدخل فيها شيئا غير هذه الكلمة ، قال فهل قاتلتموه ؟ قلت نعم ، قال فكيف قتالكم اياه ؟ قلت الحرب بيننا وبينه سجال ينال منا ، وننال منه قال :ماذا يأمركم ؟ قلت : يقول اعبدوا الله وحده ، ولا تشركوا به شيئا ، واتركوا ما يقول آباؤكم ، ويأمرنا بالصلاة ، والصدق والعفاف والصلة ٠

قال للترجمان بعد ذلك قل له : سألتك عن نسبه فزعمت أنه فيكم ذو نسب وكذلك الرسل تبعث في نسب قومها ، وسألتك هل قال أحد منكم هذا القول قبله ، فذكرت أن لا ، فقلت لو كان أحد قال هذا القول لقلت رجل يتأسى بقول قيل قبله ، وسألتك هل كان من آبائه من ملك ، فذكرت أن لا ، فلو كان من آبائه من ملك قلت رجل يطلب ملك أبيه ، وسألتك ، هل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال ، فذكرت أن لا ، فقد أعرف أنه ما كان ليذر الكذب على الناس ، ويكذب على الله ،وسألتك ، أأشراف الناس اتبعوه أم ضعفاؤهم ، فذكرت أن ضعفاءهم اتبعوه ، وهم اتباع الرسل ، وسألتك أهم يزيدون أم ينقصون ؟ فقلت انهم يزيدون ، وكذلك أمر الايمان حتى يتم ، وسألتك أيرتد أحد منهم سخطة لدينه بعد أن يدخل فيه ، فذكرت أن لا ، وكذلك الايمان حين تخالط بشاشته القلوب ، وسألتك هل يغدر ؟ فذكرت أن لا وكذلك الرسل لا يغدرون،وسألتك بم يأمركم فذكرت أنه يأمركم

أن تعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً ،وينهاكم عن عبادة الأوثان ويأمركم بالصلاة والصدق والعفاف ٠

فان كان ما تقول حقاً فسيملك موضع قدمي هاتين ، وقد كنت أعلم أنه خارج ، لم أكن أظن أنه منكم ، فلوأعلم أني أخلص اليه لتجشمت لقاءه ، ولو كنت عنده لغسلت قدميه ٠

كان لهذا الكلام أثره في نفس أبي سفيان العدو المشرك ، فقال : « لقد أمر ابن أبي كبشة (زوج المرضع التي أرضعت النبي صلى الله تعالى عليه وسلم) انه يخافه ملك الأصفر ، وهذه بلاريب كلمة الشرك ، ولكن كان الكلام من هرقل له أثر أعمق من ذلك في نفس أبي سفيان ، فقد قال : ما زلت موقنا أنه سيظهر ، حتى أدخل الله تعالى علي الاسلام ولكن أن فتحت له مغاليق كانت متكافئة في نفسه ، حتى لا تكشف فيه قلب المسلم ٠

أثر الكتاب في قلب هرقل :

٥٨٦ ــ هذا أثر الكتاب في قلب هرقل ،ونراه يصدق كل ما فيه ،ويميل الى الاسلام ، وقبول ما جاء به محمد صلى الله تعالى عليه وسلم ، ولكن هل أذعن للحق ، وقبل الاسلام ديناً !!يظهر أنه حاول ذلك ولكن قومه لم يقبلوه ، وتخير بين الاسلام والاذعان ،وبين البقاء على الملك ، فاختار الملك ، وبذلك اشترى الضلالة بالهدى ، فبارت تجارته عند الله ٠

ولنذكر الأمر كما وقع ، وما كان ينبغي أن يقع ، ولكنه الابتلاء ٠

لقد كان هرقل كما قلنا عالما ، وكان حزاء أوتي علم النجوم ، وعلم الملاحم ، وكان حين قدم من أيلياء ،وهي الأرض التي التقى فيها مع أبي سفيان ومن معه من التجار ــ خبيث النفس ، فقال بعض بطارقته قد استنكرنا هيئتك ، فقال لهم أني نظرت أني رأيت حين نظرت في النجوم ملك الختان قد ظهر ، وعلم من تحريه أن العرب يختتنون فقال هرقل هذا ملك هذه الأمة قد ظهر ٠

وقد أرسل الى صاحب له برومية على مثل منزلته من العلم ٠

وسار الى حمص ، فلم يتركها حتى جاءه كتاب النبي صلى الله تعالى عليه وسلم .

ونرى من هذا أنه كانت عنده أمارات قد علم بها بعث النبي صلى الله تعالى عليه وسلم،وكانت الصور التي تتراءىله أنه ملك ، ولكن الله تعالى قد آتاه ما هو أعظم من ذلك ، وهو النبوة التيتأتي بخير الدنيا والآخرة .

وكانت هذه المعلومات سواء أكانتمنتجة في ذاتها ، أم غير منتجة فانها أثرت في نفسه ، وجعلته على استعدادلقبول الحق اذ جاء اليه ، وان المقدمات هنا ، وان كانت ظنية في ذاتها قدمهدت لقبول الحق .

اقتنع هرقل كما قلنا بأنه الحق ، وأراد أن يعرضه على الملأ من قومه داعيا اليه ، فأذن هرقل لعظماء الروم أنيحضروا في دسكرة له بحمص ،ثم أمر بأبوابها فغلقت ثم اطلع عليهم فقال :

يا معشر الروم ، هل لكم في الفلاحوالرشد،وأن يثبت لكم ملككم ،فاتبعوا هذا النبي ، فحاصوا حيصة حمرالوحش الى الأبواب فوجدوها قد غلقت .

فلما رأى هرقل نفرتهم ، وأيس منايمانهم ، قال ردوهم علي ، وغير وبدل من قوله ونيته ، وقال : « اني انما قلتمقالتي آنفا أختبر بها شدتكم على دينكم ، فقد رأيت ، فسجدوا لهورضوا عنه » .

وهكذا غلبت عليه الشقوة على الهداية ، لقد برق له نور الحق وأضاء له ، فلما هم أن يمشي فيه ، وقف الملك وسلطانه ، فكان الظلام بعد النور ، والضلالة بعد الهداية ، وأمر بقتلمن قتل من المسلمين وجيش الجيوش لحرب المسلمين في مؤتة ، وفي تبوك ،ومن بعد ذلك في اليرموك ومهما يكن من أمر نهاية الكتاب بالنسبة لهرقلوالملأ من قومه ، فان الاسلام قد عرف في وسط الرومان ، وعرف في الشام،وتذاكر به الناس ، وعرف ما كان من هرقل لعظماء ملته والنور دائما يخترقالظلام مهما تكن الحجب ، والغياهب والظلمات فالكتاب أثمر ثمراته ، وانلم يكن الايمان عاجلا ، وانه آجل والأجل قريب .

ومنهم من آمن ، وان لم يعــرف ايمانه •

يروى أن هرقل عندما جاءه كتاب رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم أعطاه لكبير الأساقفة الذي كان صاحب أمرهم يصدرون عن رأيه وعن قوله ، فلمــا قرأ الكتاب قال : هو والله الذي بشرنا به موسى وعيسى الذي كنا ننتظــره ، قال هرقل فما تأمرني ، قــال الأسقف أما أنا فمصدقه ومتبعه ، فقال قيصر انه كـــذلك ، ولكنني لا أستطيع ، ان فعلت ذهــب ملكي وقتلني الروم ، لم يذهب اذن الكتاب صرخة في واد ، بل كان له صدى ، وظهر فيما بعد •

كتابه إلى كِسرَى ملك الفُرس

٥٨٧ ـ عندما أراد النبي أن يرسل الى الملوك وقف في الصحابة خطيباً وبعد أن حمد الله وأثنى عليه بما هو أهله قال :

أما بعد فاني أريد أن أبعث بعضكم الى ملوك الأعاجم ، فلا تختلفوا علي كما اختلف بنو اسرائيل على عيسى بن مريم .

فقال المهاجرون انا لا نختلف عليك في شيء أبداً ، فمرنا وابعثنا .

فبعث رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم شجاع بن وهب الى كسرى .

وظاهر هذا الكتاب أنه أرسل الى كسرى عقب هذا البيان النبوي ، وربما يومىء الى أن الكتاب الى كسرى كان قبل الارسال الى ملك الروم ، ولكنا نرجح أن الارسال للملوك جميعا كان في وقت واحد ، وربما كان وصول الرسول الى هرقل قبل وصوله الى كسرى .

ومهما يكن الأمر من ناحية السابق واللاحق ، فانه ثبت أنه أرسل للملكين ولغيرهما من الملوك والرؤساء .

بعث رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم شجاع بن وهب الى كسرى ،فمضى بالكتاب اليه ، ووقف أمام بابه مستأذنا مع عظماء الفرس ، وقد أذن لعظماء الفرس ، ثم أذن له من بعدهم فلما دخل أراد أن يدفعه لغيره ، فأبى الا أن يدفعه اليه بشخصه ، وقال له لا حتى أدفعه أنا اليك كما أمرني رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، فقال كسرى ادن فدنا منه وناوله الكتاب ثم دعا كاتبا من أهل الحيرة فقرأه ، فاذا فيه :

بسم الله الرحمن الرحيم

من محمد بن عبد الله ورسوله الى كسرى عظيم الفرس .

سلام على من اتبع الهدى ، وشهد أن لا اله الا الله وحده ، لا شريك له وأن محمداً عبده ورسوله وأدعوك بدعاء الله تعالى ، فاني أنا رسول الله الى الناس

كافة ، لأنذر من كان حياً ، ويحق القول على الكافرين ، وان تسلم تسلم ، والا فان عليك اثم المجوس ٠

فلما قرأه مزقه فدعا عليه النبي صلى الله تعالى عليه وسلم بأن يمزق ملكه ٠

ولم يكتف بأن مزق الكتاب ، بل أراد قتل النبي صلى الله تعالى عليه وسلم فأرسل الى باذان ، وهو نائبه على اليمن ،أن ابعث الى هذا الرجل بالحجاز رجلين من عندك جلدين فليأتياني به ،وحسب أن الاتيان بمحمد صلى الله تعالى عليه وسلم مكبلا بالحديد ، أمر سهل ،ونسي أن العرب في واقعة (ذي قار) قد أذاقوه من الحرب أبؤسا ، ومحمد في جنده لا يقل عن قوة العرب في ذي قار ، ولكنه غرور السطوة الذي يدلي بصاحبه حتى يجعله عبرة للمعتبرين ٠

استجاب نائبه الى طلبه غير المعقول في غايته ، فبعث باذان قهرمانه ،وكان كاتبا حاسبا ، وبعث معه رجلا من الفرس يقال له خرخسرة ، وكتب معهما الى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم يأمره أن ينصرف معهما الى كسرى ٠

ويظهر أن نائبه باليمن لم يكن يريد ايذاء ، ولكن يريد أن يتعرف خبر النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، فكتب الكتاب اطاعة لكسرى ، وأراد أن يتصرف لنفسه ، فأراد التعرف ،وهكذا يغتر الطغاة ، فيحسبون أن الناس قلوبهم طوع أيديهم ، مع أن قلوبهم لأنفسهم ولالههم ٠

قال نائب كسرى لمن أرسله بالكتاب ايت بلاد هذا الرجل وكلمه وائتني بخبره ، وهذا يدل على أنه لن يجيب كسرى ، فغاية كسرى ليست غايته ، وانه هو يريد أن يعرف الاسلام ٠

خرجا حتى قدما الطائف فوجدا رجلا من قريش في أرض الطائف فسألاه عنه ، فقال هو بالمدينة ، واستبشر أهل الطائف بها ، وقال بعضهم لبعض أبشروا ، فقد نصب له كسرى ملك الملوك كفيتم الرجل ٠

خرج الرجلان الى المدينة حتى قدما على المدينة ، فقال : شاهنشاه ملك الملوك كسرى قد كتب الى الملك باذان(نائبه باليمن) يأمره بأن يبعث اليك من يأتيه بك ، وقد بعثنا اليك لتنطلق معنا ، فان فعلت كتب (نائب اليمن)

الى ملك الملوك يمنعك ويكفه عنك ،وان أبيت فهو من قد علمت ، فهو مهلكك ومهلك قومك ، ومخرب بلادك،وظننا أن ذلك يرهب الرسل ، اذ مثله يرهبهما ، ولكن الرسول لم يلتفت الى كلامهما ، لأن الله يعصمه بل اتجه اليهما ، وقد حلقا لحاهما ، وأعفيا شاربهما ، فكرر النظر اليهما ، وقال لهما : ويلكما من أمركما بهذا ؟ قالا أمرنا ربنا ، يعنيان كسرى فقال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، ولكن ربي أمرني باعفاء لحيتي وقص شاربي.

ثم قال لهما : ارجعا حتى تأتياني غداً ، وقد أعلم الله رسوله بأن كسرى قد قتله ابنه شيرويه ، وأن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، عنده ذلك العلم من الله تعالى ، دعاهما فأخبرهما .

فقالا هل تدري ما تقول ؟ انا قد نقمنا عليك ما هو أيسر من هذا ،فنكتب عنك بهذا ، ونخبر الملك بازام (نائب كسرى) .

قال النبي صلى الله تعالى عليه وسلم:أخبراه ذلك عني وقولا له ، ان ديني سيبلغ ما بلغ كسرى ، وينتهي الى الخف والحافر ، وقولا ان أسلمت أعطيتك ما تحت يديك ، وملكتك على قومك من الابناء ثم أعطى خرخسرة الفارسي أحد الرسولين منطقة فيها ذهب وفضة كان أهداها له بعض الملوك.

خرجا من عنده حتى قدما على باذان(نائب كسرى) في اليمن .

فقال هذا الملك النائب عن ملك الملوك كسرى : ما هذا بكلام ملك ، واني لأرى الرجل نبياً ، كما يقول :وليكونن ما قد قال ، فلئن كان هذا حقاً فهو نبي مرسل ، وان لم يكن فسنرى فيه رأياً .

علم الجميع أن كسرى قد قتل بيد ابنه ، وقد أعلمهم النبي صلى الله تعالى عليه وسلم بذلك ، والرسولان عنده ،والأخبار عنه منقطعة عن طريق البرد وغيرها .

وبينا نائب كسرى باليمن على الأمر الذي لم يصل اليه نبؤه ، وهو في تردد في قبوله ، جاءه كتاب شيرويه الابن ،وجاء في هذا الكتاب .

اما بعد : فاني قد قتلت كسرى ، ولم أقتله الا غضباً لفارس ، لما كان قد استحل دم من قتل من أشرافهم ، ونحرهم في ثغورهم ، فاذا جاءك كتابي هذا

فخذ لي الطاعة ممن قبلك وانطلق الى الرجل الذي كان كسرى قد كتب اليه ، فلا تهجه حتى يأتيك أمري فيه .

انه بلا شك لم يكن الابن على عزيمة أبيه فيما يتعلق بالنبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، بل تردد ، وكل ما أمر به ألا يهيجه فلا يطلب اليه الحضور ، حتى يكون أمر جديد .

تلك أمارات متتالية تدل على صدق النبي صلى الله تعالى عليه وسلم فيما يدعو اليه من وحدانية وصدقه في دعوى الرسالة الالهية .

وان أحد الرسولين الذي كان يتكلم باسمهما في حضرة الرسول صلى الله تعالى عليه وسلم ، قال : ما كلمت أحداً كان أهيب عندي منه .

فكر أمير اليمن وقدر ما بين يديه من علم ، وانتهى تفكيره الى الاسلام والتسليم ، وقال ان هذا الرجل لرسول ، فأسلم ، وأسلمت الأبناء من فارس الذين كانوا باليمن .

وبذلك دخل الاسلام أرض اليمن ،ووجد له فيه دعاة .

وقد روى البيهقي أن شيرويه هذا الذي قتل أباه ، قد استخلف من بعده ابنته ، فقال النبي صلى الله تعالى عليه وسلم لن يفلح قوم ولوا أنفسهم امرأة .

هذا كتاب رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم وأثره ، واذا كان لم يؤثر في كسرى الا سلباً ، فقد أثر في غيره ايجاباً واستجابة ، لقد أثر في نائبه في اليمن ، فأسلم وهو فارسي ، وأسلم من معه من الأبناء من فارس ، وهم باليمن بما وصل اليه الاسلام في شعب اليمن العربي الأصيل .

ولم يكن كتاب النبي صلى الله تعالى عليه وسلم صرخة في واد ، بل كان لها استجابة ، واذا كان العدد قليلا فانه سيكون كثيراً في اليمن وما وراءها وقد كان .

كتابُه إلى النجاشي

٥٨٨ ـ كتب النبي صلى الله تعالى عليه وسلم الى النجاشي ملك الحبشة أصحمة ، وقد رجا فيه الخير ، لأنه أكرم أصحابه عند الهجرة الى الحبشة ،فهو يدعوه في هذا الكتاب ، وقومه ،وكان قد أسلم من قبل فيما يروي الرواة ، وفيما يدل عليه ما اقترن بالكتاب من قول . وهذا نص الكتاب وما دار حوله.

بسم الله الرحمن الرحيم ، من محمد رسول الله الى النجاشي ملك الحبشة ، « فاني أحمد الله تعالى اليك الله الذي لا اله الا هو الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن ، وأشهد أن عيسى بن مريم روح من الله وكلمته ألقاها الى مريم البتول الطيبة الحصينة ، حملت بعيسى فخلقه الله تعالى من روحه ، ونفخه كما خلق آدم بيده ، واني أدعوك الى الله وحده لا شريك له ، والموالاة على طاعته ، وأن تتبعني وتؤمن بالذي جاءني ، فاني رسول الله ، واني أدعوك وجنودك الى الله عز وجل ، وقد بلغت ونصحت ، فأقبلوا نصيحتي ، والسلام على من اتبع الهدى » .

هذا كتاب رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، ورفق الدعوة ، وحكمة النبوة ظاهران فيه ، ولقد بعثه مع عمرو بن أمية الضمري الذي جاء بهذا الكتاب ، ولأنه رفيقاً وكان يميل للاسلام ، كان لرسول النبي شرح وتوضيح وتأكيد لمعنى الرسالة .

قال له عمرو : «يا أصحمة، ان علي القول ، وعليك الاستماع ، انك كأنك في الرقة علينا ، وكأنا في الثقة بك منك ، لأنا لم نظن بك خيراً قط ، الا نلناه ولم نخفك على شيء الا أمناه ،وقد أخذنا الحجة عليك من فيك ، الانجيل بيننا وبينك شاهد لا يرد ،وقاض لا يجور ، وفي ذلك الموقع الحز، واصابة المفصل ، والا فأنت في هذا النبي الأمي كاليهود في عيسى بن مريم، وقد فرق النبي صلى الله تعالى عليه وسلم رسله في الناس فرجاك لما لم يرجهم ، وأمنك على ما خافهم عليه ،بخير سالف ، وأجر ينتظر » .

أجابه النجاشي اجابة المؤمن فقال :أشهد أنه النبي الأمي الذي ينتظره أهل الكتاب ، وأن بشارة موسى براكب الحمار ، كبشارة عيسى براكب الجمل ، وأن العيان ليس أشفى من الخبر ،وأردف ذلك بأن حمل عمرو بن أمية كتاباً الى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ·

وهذا نص الكتاب : بسم الله الرحمن الرحيم ·

الى محمد رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ـ من النجاشي أصحمة ·

سلام عليك يا نبي الله من الله ، ورحمة الله وبركاته ، الله الذي لا اله الا هو ·

أما بعد فقد بلغني كتابك يا رسول الله فيما ذكرت من أمر عيسى ، فورب السماء والأرض ان عيسى لا يزيد على ما ذكرت ، انه كما ذكرت ، وقد عرفنا ما بعثت به الينا ، وقد عرفنا ابن عمك(أي جعفر بن أبي طالب) وأصحابك فأشهد أنك رسول صادقاً مصدقاً ، وقد بايعتك ، وبايعت ابن عمك وأسلمت على يديه لله رب العالمين ·

كانت اجابة النجاشي صريحة واضحة ، وقد كان الكتاب اليه ، والى جنوده والملأ من قومه ، وقد أسلم هو ،ودعا من معه ، ولم يكرههم على الايمان، ولكن اكتفى بالدعوة من غير اكراه ،لأن الله تعالى يقول :

﴿ لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّۚ فَمَن يَكۡفُرۡ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤۡمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسۡتَمۡسَكَ بِٱلۡعُرۡوَةِ ٱلۡوُثۡقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَاۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ٢٥٦ ﴾ (١)

فبين هذا الرشد ، وكان ملكا عادلاأمن الناس وآمن بالله تعالى واستجاب لكلمة الحق من غير تلكؤ ولا تردد ·

ولم يؤمن قومه ·

---

(١) البقرة

كتاب رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى المقوقس

٥٨٩ ـ استمر رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم في الارسال الى الملوك والرؤساء لينذر من كان حياً ويحق القول على الكافرين ، فكان يرسل الى الرؤساء والملوك ، كما رأيناه أرسل الى هرقل وكسرى والنجاشي ، فمنهم من اهتدى ، ومنهم من ضل ، وممن أرسل اليهم المقوقس عظيم القبط الذين كانوا يرزحون في حكم الرومان، ويضطهدون في دينهم اضطهدوا من وثنية الرومان ثم اضطهدوا من مذهبهم عندما التقوا في دين واحد .

بعث اليه النبي صلى الله تعالى عليه وسلم مع حاطب بن أبي بلتعة هذا الكتاب .

بسم الله الرحمن الرحيم من محمد بن عبد الله ورسوله الى المقوقس عظيم القبط .

سلام على من اتبع الهدى ، أما بعد فاني أدعوك بدعاية الاسلام ، أسلم تسلم ، وأسلم يؤتك الله أجرك مرتين، فان توليت فان عليك اثم أهل القبط ﴿ قُلْ يَـٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَـٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُولُوا۟ ٱشْهَدُوا۟ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴾(١)

ولقد ذكر حاطب بن أبي بلتعة أنه أكرمه ، وأنزله في منزله ، وأقام عنده .

جمع بطارقته مع حاطب ووجه اليه أسئلة تتعلق بالنبي وقومه ، وسأله حاطب عما يتعلق بعيسى مع بني اسرائيل .

قال المقوقس ، هلم أخبرني عن صاحبك ، أليس هو نبيا ، قلت بل هو رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم .

---

(١) آل عمران

قال فما له حيث كان هكذا لم يدع على قومه حيث أخرجوه من بلده الى غيرها ٠

قال حاطب : عيسى بن مريم ألست تشهد أنه رسول الله ؟ قال بلى ، قلت فما له حيث أخذه قومه ، فأرادوا أن يصلبوه ألا يكون دعا عليهم ٠

قال المقوقس : أنت حكيم قد جاء من عند حكيم ٠

أخذ بعد ذلك يتكلم حاطب بن أبي بلتعة في معنى الكتاب الذي يحمله من الرسول الكريم ، قال :

انه كان قبلك رجل يزعم أنه الرب الأعلى ، فأخذه الله تعالى نكال الآخرة فانتقم الله تعالى به ، ثم انتقم منه ،فاعتبر بغيرك ، ولا يعتبر غيرك بك ٠

قال المقوقس ان لنا دينا لن ندعه الا لما هو خير منه ٠

قال حاطب ندعوك الى الاسلام الكافي به الله عما سواه ، ان هذا النبي دعا الناس فكان أشدهم قريش وأعداهم له اليهود ، وأقربهم منه النصارى ، ولعمري ما بشارة موسى بعيسى الا كبشارة عيسى بمحمد ، وما دعاؤنا اياك الى القرآن الا كدعائك أهل التوراة الى الانجيل ، وكل نبي أدرك قوماً فهم أمته ، فالحق عليهم أن يطيعوه ،وأنت ممن أدركه هذا النبي ٠

قال المقوقس اني قد نظرت في أمر هذا النبي فوجدته لا يأمر بمزهود فيه ، ولا ينهى عن مرغوب فيه ، ولم أجده بالساحر الضال ، ولا الكاهن الكاذب ، ووجدت معه آيات النبوة باخراج الجن ، والاخبار بالنجوى ، وسأنظر ٠

وأخذ كتاب النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، فجعله في خف من عاج ، وختم عليه ، ودفعه الى جارية ومن بعد ذلك دعا كاتبا له يحسن العربية ،فكتب الى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم :

بسم الله الرحمن الرحيم ، لمحمد بن عبد الله من المقوقس عظيم القبط ٠

سلام عليك ، أما بعد فقد قرأت كتابك ، وفهمت ما ذكرت فيه ، وما تدعو اليه ، وقد علمت أن نبياً بقي ،وكنت أظن أنه يخرج من الشام ، وقد

أكرمت رسولك ، وبعثت اليك بجاريتين، لهما مكان في القبط عظيم ، وبكسوة وأهديت اليك بغلة لتركبها ، والسلام عليك •

هذا ما كتبه المقوقس : وهو يدل على أنه كصاحبه هرقل قد اقتنع بالقرآن والاسلام ، ولكن تردد في القول ، وتلطف في الرد ، وبنى تردده على أنه كان يظن أنه سيخرج من الشام •

وكانت احدى الجاريتين مارية القبطية التي كان ابراهيم بن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم منها ، وأشهر الروايات أن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم أعتقها وتزوجها •

كتابه صلى الله عليه وسلم إلى المنذر بن ساوي

٥٩٠ ـ ذكر الواقدي في تاريخه باسناده عن عكرمة مولى عبد الله بن عباس أنه وجد كتاباً في كتب عبد الله بن عباس بعد موته فنسخه ، فتبين فيه أن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم بعث العلاء الحضرمي الى المنذر بن ساوى وكتب اليه كتابا يدعوه فيه الى الاسلام، ولم يذكر أنه عثر على نص كتاب النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، ولكن وجد رد ابن ساوى ، ثم رد النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، واليك كتاب المنذر ٠

الى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم : أما بعد يا رسول الله فاني قرأت كتابك على أهل البحرين ، فمنهم من أحب الاسلام وأعجبه ، ودخل فيه ، ومنهم من كرهه ، وبأرضي يهود ومجوس فأحدث إليّ في ذلك أمرك ٠

فكتب اليه رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ٠

بسم الله الرحمن الرحيم ، من محمد رسول الله الى المنذر بن ساوى ٠

سلام عليك ، فانى أحمد اليك الله الذي لا اله الا هو ، وأشهد أن لا اله الا الله ، وأن محمداً عبده ورسوله ، أما بعد فاني أذكرك الله عز وجل ، فانه من ينصح انما ينصح لنفسه ، وأنه من يطع رسلي ، ويتبع أمرهم ، فقد أطاعني ، ومن نصح لهم فقد ينصح لي ، وان رسلي قد أثنوا عليك خيراً ، واني قد شفعتك في قومك ، فاترك للمسلمين ما أسلموا عليه ، وعفوت عن أهل الذنوب فاقبل ، وانك مهما تصلح لا نعزلك عن عملك ، ومن أقام على يهودية أو مجوسية ، فعليه الجزية ٠

وقد دل خبر هذا الكتاب على أن عبد الله بن عباس كان حريصاً على أن يكتب كتب النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ويحفظها في خزانة كتبه ، وأنه يعلن للناس ما يعلن وهو الأكثر ، وقد يبقى مالا يعلن ودل الكتاب على أنه مرسل لأهل البحرين ، وأن المنذر بن ساوى كان واليها ، ويدل على استجابة الوالي لدعوة الاسلام ، وأن الجزية تفرض على اليهود والمجوس ، وتدل على أمر آخر

هو الحكمة وهو أن أبقى الوالي الذي سارع الى الاسلام في أمرته ، ليكون أميرهم ، ولم يرسل والياً من كبار الصحابة أو غيره ، وذلك ليشعروا أنه ليس أجنبياً مسيطراً ، ولكنه من أنفسهم ، وما دام مستقيما فانه أجدر لعلمه بنفوسهم ، وخبرته بأحوالهم ، وأن يأتيهم من حيث يألفون ويعرفون .

وفي الخبر ما يدل على فرض الجزية على الذين لا يؤمنون ، اذا كانوا في ولاية مسلم وهم هنا اليهود والنصارى والمجوس ، وقد أجمع الفقهاء على فرض الجزية عليهم ، وأجاز أبو حنيفة فرض الجزية على الوثنيين غير العرب قياساً على المجوس .

الكتاب إلى مَلك عمان

٥٩١ ـ لم يكن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم يني عن الدعوة الى الاسلام في الحواضر والبوادي ، وأهل الوبر ، وأهل المدر ، كما رأيت في كتابته للملوك ٠

لقد أرسل الى عمان باليمن ، وكان عليها أميران هما جيفر ، وعبد ابنا الجلندي وقد أرسل لهما كتابا حمله عمرو بن العاص ، وهذا نص الكتاب ٠

بسم الله الرحمن الرحيم ٠

من محمد بن عبد الله الى جيفر وعبد ابني الجلندي ٠

سلام على من اتبع الهدى ، أما بعد ، فاني أدعوكم بدعاية الاسلام ، أسلما تسلما فاني رسول الله الى الناس كافة لأنذر من كان حيا ، ويحق القول على الكافرين ، فانكما ان أسلمتما ، وليتكما ، وان أبيتما أن تقرا بالاسلام ، فان ملككما زائل عنكما وخيلي تحل بساحتكم وتظهر نبوتي على ملككما ٠

كتب الكتاب أبي بن كعب ، وختم الكتاب ٠

يقول عمرو بن العاص ، خرجت حتى انتهيت الى عمان ، فلما قدمنا عمد الى عبد أحد الأخوين وكان أحلم الرجلين وأسهلهما خلقا ، فقلت اني رسول من رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم اليك ، والى أخيك ، فقال أخي المقدم علي بالسن والملك ، وأنا أوصلك اليه ، حتى يقرأ كتابك ، ثم قال وما تدعو اليه ، قلت أدعوك الى الله وحده ، لا شريك له ، وتخلع ما عبد من دونه ، وتشهد أن محمداً عبده ورسوله ٠

قال عبد : انك ابن سيد قومك ، فكيف صنع أبوك ، فان لنا فيه قدوة ، قلت مات ، ولم يؤمن بمحمد صلى الله تعالى عليه وسلم ، ووددت أنه كان أسلم ، وقد كنت أنا على مثل رأيه حتى هداني الله تعالى الى الاسلام ٠

فسألني فمتى تبعته ؟ قلت قريبا ،عند النجاشي ، وأخبرته أن النجاشي قد أسلم قال فكيف صنع بملكه ، فقلت أقروه واتبعوه ، قال والأساقفة والرهبان تبعوه ، قلت نعم ·

قال : يا عمرو انه ليس خصلة في الرجل ، أفضح له من الكذب ، قلت ما كذبت ، وما نستحله في ديننا ·

قال : هل علم هرقل باسلام النجاشي، قلت : بلى ، قال بأي شيء علمت ذلك؟ قلت كان النجاشي يخرج خرجا له ،فلما أسلم وصدق بمحمد صلى الله تعالى عليه وسلم منعه وقال : والله لو سألني درهما واحداً ما أعطيته ، فبلغ هرقل قوله ، فقال له أخوه (أي هرقل) : أتدع عبدك لا يخرج لك خرجا ويدين بدين غيرك ، دينا محدثا ·

قال هرقل : رجل رغب في دين ، فاختار لنفسه ماذا أصنع به ، والله لولا الضن بملكي لصنعت كما صنع ·

قال : انظر ما تقول يا عمرو ، قال عمرو ، والله صدقتك ·

قال عبد فأخبرني ما الذي يأمر به وينهى عنه ·

قلت : يأمر بطاعة الله عز وجل ، وينهى عن معصيته ، ويأمر بالبر ،وصلة الرحم ، وينهى عن الظلم والعدوان وعن الزنى ، وعن الخمر ، وعن عبادة الحجر والوثن والصليب ·

قال : ما أحسن هذا الذي يدعو اليه ، لو كان أخي يتابعني عليه ،ركبنا حتى نؤمن بمحمد ونصدق به ولكن أخي أضن بملكه من أن يدعه ، ويصير ذنبا ·

قلت : انه ان أسلم ملكه رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم على قومه فأخذ الصدقة من غنيهم ، فيردها على فقيرهم،فقال ان هذا لخلق حسن ، وما الصدقة، فأخبرته بما فرض رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم في الصدقات في الأموال ، حتى انتهيت الى الابل ، قال وتؤخذ من سوائم مواشينا التي ترعى الشجر ، وترد على المياه فقلت نعم فقال : والله ما أرى قومي في بعد دارهم ، وكثرة عددهم يطيعون لهذا ·

وبعد هذه المناظرة والتحريات التي قام بها الأخ الأصغر ، ودلت على ميله للدخول في الاسلام اتجه عمرو بن العاص الى مقابلة الأخ الأكبر ، وهو الأمير على هذه الديار ، ولنترك القول لعمرو فانه حسن الحكاية لما حصل ٠

مكثت ببابه أياما ، وهو يصل الى أخيه فيخبره بكل خبري ، ثم انه دعاني (أي الأمير وهو الأخ الاكبر) دعاني ،فدخلت عليه ، فأخذ أعوانه بضبعي ، فقال دعوه ، فأرسلت فذهبت ، فذهبت لأجلس ، فأبوا أن يدعوني أجلس ، فنظرت اليه فقال تكلم ، فدفعت اليه الكتاب مختوما ففض خاتمه وقرأه حتى انتهى الى آخره ، ثم دفعه الى أخيه ،فقرأه مثل قراءته ، الا أني رأيت أخاه أرق منه ٠

قال الأمير ألا تخبرني عن قريش كيف صنعت ، فقلت اتبعوه اما راغب في الدين ، واما مقهور بالسيف ، قال ومن معه ، قلت الناس قد رغبوا في الاسلام ، واختاروه على غيره ، وعرفوا بعقولهم مع هدى الله تعالى اياهم أنهم كانوا في ضلال ، فما أعلم أحداً منهم بقي غيرك في هذه الخرجة ، وانك ان لم تسلم اليوم وتتبعه توطئك الخيل وتبيد خضراءك،فأسلم تسلم ويستعملك على قومك ، ولا تدخل عليك الخيل والرجال ٠

قال الأمير دعني يومي هذا ، وارجع الي غداً ٠

فرجعت الى أخيه فقال يا عمرو اني لأرجو أن يسلم ان لم يضن بملكه ٠

حتى اذا كان الغد أتيت اليه فأبى أن يأذن لي ٠

فانصرفت الى أخيه ، فأخبرته أني لم أصل اليه ، فأوصلني اليه ٠

قال الأمير : اني فكرت فيما دعوتني اليه ، فأنا أضعف العرب ، ان ملكت رجلا ما في يدي ، وهو لا يبلغ خيله هاهنا ، وان بلغت خيله لقيت قتالا ، ليس كقتال من لاقى ٠

قلت وأنا خارج غداً ٠

فلما أيقن بمخرجي ، خلا به أخوه ،فقال ما نحن فيما ظهر عليه ، وكل من أرسل اليه قد أجابه فأصبح فأرسل الي ، فأجاب الى الاسلام هو وأخوه

جميعاً ، وصدقا النبي صلى الله تعالى عليه وسلم وخليا بيني وبين الحكم فيما بينهم ، وكانا لي عوناً .

وقد نقلنا المحاورات التي كانت بين عمرو بن العاص ، والأميرين ، اللذين مال أحدهما الى الاسلام ابتداء ، ومال الثاني اليه انتهاء ، وأسلما وحسن اسلامهما .

وان هذه المحاورة والاستجابة لما في الكتاب تدل على أن الاسلام قد تغلغل في نفس العربي ما بين مؤمن به وناظر اليه ، ومخادع فيه ، وأنه كان موضع تفكير المفكرين .

وان هذه المحاورة تدل على أنهم كانوا من النصارى ، وأن هرقل لأنه ملك أكبر دولة مسيحية كان له هيمنة على نصارى الشرق ، فمصر تابعة له ، والحبشة له خرج على النجاشي ملكها .

ويدل أيضاً على ايمان النجاشي بأنه لا ولاية لغير المسلم على المسلم ، ولذلك رفض أن يرسل الذي كان عليه أن يؤديه ، وقال له في قوة وحزم لا أدفع درهما .

ويدل أيضاً على سعة تفكير هرقل ، ورفضه أن يثير حربا لأجل الخرج الذي كان يقدمه تابع له ، لأنه اتبع دينا آخر وظهر ميله للاسلام واعتقاده بأنه صدق ، وكان يعلن ذلك لوصيه بملكه ، ومهما يكن أمر اسلامه ، فانه يظهر بمظهر رجل حر الفكر والرأي يقدر حرية التدين في غيره ، كما يقدرها في نفسه .

وفي الكلام ما يومىء الى أن هذا الكتاب كان بعد فتح مكة ، لأنه سأله عن قريش اتبعوا محمداً صلى الله تعالى عليه وسلم أم لم يتبعوه ، فأجاب عمرو بأنهم اتبعوه ، اما رغباً واما قهراً ، وان ذلك كان بعد الفتح لا ريب في ذلك .

وأنه يبدو بلا ريب أن عمرو بن العاص كان ذا فراسة قوية عندما اختار أحد الأميرين وهو الأصغر ، عندما ابتدأه في تقديم الكتاب ، فعن طريقه أقنع أخاه ذا الصلف والكبرياء .

ويلاحظ أن عمرو كان شديداً فيقوله عندما خاطب الأمير الأكبر ، ولعل ذلك من أنفة العربي اذ منعه الملك من الجلوس ، وأبى الا أن يقدم كتاب النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، وهو واقف، فلم يرد أن يكون ذليلا .

ولم يضر ذلك بقضية الاسلام لأنه كان يستعين بأخي الأمير الذي أبدى لينا غير منتظر ، وان النبي صلى الله تعالى عليه وسلم لم ين عن الدعوة ، وسط الحروب وفي تدبير الدولة .

كتابه عليه الصلاة والسلام إلى أصحاب اليمامة

٥٩٢ ـ أرسل رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم مع سليط بن عمرو العامري كتاباً الى صاحب اليمامة هوذة بن علي ، وكان نص الكتاب :

بسم الله الرحمن الرحيم ، من محمد رسول الله الى هوذة بن علي ·

سلام على من اتبع الهدى ·

اعلم أن ديني سيظهر ، الى منتهى الخف والحافر ، فأسلم تسلم ، وأجعل لك ما تحت يديك ·

فلما قدم عليه سليط حامل الكتاب وكان مختوما أنزله وحياه وبعد أن قرأ الكتاب ودعاه رد على النبي صلى الله تعالى عليه وسلم بكتاب جاء فيه ما أحسن ما تدعو اليه ، وأجمله ، والعرب تهاب مكاني ، فاجعل لي بعض الأمر أتبعك ·

وأجاز سليطاً الرسول بجائزة ، وكساه أثواباً من نسيج هجر ·

قدم الرسول على النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ومعه الكتاب والهدايا ، فلما قرأ النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، امتنع عن أن يعطيه جزءاً من الأرض ·

وبعد فتح مكة ، علم النبي صلى الله تعالى عليه وسلم بالوحي أن هوذة صاحب هذا الكتاب الطامع قد مات وقد ذم رجال اليمامة ، وقال أما انه سيخرج بها كذاب سينتهي بقتله ، قال بعض الصحابة ، ومن يقتله ؟ قال له النبي صلى الله تعالى عليه وسلم : أنت وأصحابك ·

وان نبوة النبي صلى الله تعالى عليه وسلم كانت صادقة ، فان الأعراب كانت فيهم ردة ، وكانت اليمامة ذات ضلع فيها ، وقام الصديق خليفة رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم بعزمة كان عز الاسلام بها صادقاً ثابتاً ، وقد حفظ الله تعالى بأبي بكر قوة الاسلام ، وعزته وقالها قولة حازمة جازمة :

« اما سلم مخزية ، واما حرب مجلية »·

المقصود من الرسالة المحمدية

٥٩٣ ـ وقد أرسل النبي صلى الله تعالى عليه وسلم غب الحديبية الى أمير الغساسنة بكتاب فيه هذا المعنى ،وهو الدعوة الى الاسلام ، ولم يذكر كتاب السيرة أأجاب الى الهدى أم لم يجب ·

ونحن ذكرنا كتابته الى الملوك ، والأمراء والرؤساء وردهم عليه صلى الله تعالى عليه وسلم ، ما بين مستجيبين ومترددين مجاملين في الرد وان لم يؤمنوا وجاحدين كافرين معاندين مريدين انزال الأذى بالنبي صلى الله تعالى عليه وسلم قاصدين الكيد ، فرد الله تعالى كيدهم في نحورهم ·

وتركنا مؤقتاً الكلام في المغازي لأسباب ثلاثة :

أولها ـ أن المقصود من الرسالة المحمدية هو تبليغ الدعوة الى الاسلام وما كانت الحروب الا لحماية الدعوة ولمنع الكافرين من أن يفتنوا المؤمنين في دينهم ، كما فعل مشركو مكة ونصارى الشام ، فما كانت الحرب مشروعة لذاتها ، ولكن كانت دفاعا وحماية للدعوة ، وهي المقصود أولا وبالذات ·

ثانيها ـ أن هذه المكاتبات والرد عليها تبين مدى انتشار الدعوة ،وايمان الناس واستجابتهم ، فقد رأيت بعضهم يستجيب فوراً ، وبعضهم يستجيب ويسأل حكم الشريعة في أمر من تحت يده من اليهود والمجوس كابن ساوى ، ومنهم من كان يتردد في الاتباع ، ثم ينتهي بالاذعان هو وقومه ، ورأينا صاحب اليمامة يساوم ، وكانت موضع الردة هي وبني حنيفة ، وقد تنبأ النبي صلى الله تعالى عليه وسلم بذلك ، فكان منهم رأس الفتنة في الردة ·

ثالثها ـ أننا رأينا أمراء العرب ،أو جلهم كانوا أكثر استعداداً للاجابة من غيرهم ، وأن النصارى منهم كانوا أميل الى الاجابة ، وأبعد عن التعنت ، وخصوصاً الذين كانوا يعلمون علم الكتاب ، ويدرسون المسيحية في أصلها الأول ، وان لم يكونوا غير مذكورين في التاريخ ·

وانه في الجملة قد أخذت الدعـوةالاسلامية تعم بلاد العرب كلها ، واذا كان قد أرسل النبي صلى الله تعالى عليهوسلم بعد ذلك مجاهدين ، فقـد كان عملهم تعليم الاسلام ، كما سنتكلم عنغزوات النبي صلى الله تعالى عليه وسلم في اليمن بقيادة علي بن أبي طالب ،ومعاذ بن جبل رضي الله تعالى عنهما ٠

لقد كانت الاستجابة سريعة ، والاجابة صادقة ، اذ لم يكن منهم من بعد ذلك ردة كأهل اليمامة ، وكان فيهـمعلم ٠

الـذّمّيّ

٥٩٤ ــ جاء في رد النبي صلى الله تعالى عليه وسلم على المنذر بن ساوى عند ما سأله عن اليهود والمجوس ، الذي يريدون الاقامة تحت سلطانه ، ماذا يصنع بهم ٠

فذكر له النبي صلى الله تعالى عليه وسلم أن يبقيهم مع الاحتفاظ بشعائر دينهم ، وألا يضاروا في تدينهم ، على أن يدفعوا الجزية ٠

وقد تكلمنا في الجزية بكلمات مجملة، تليق بكتاب مكتوب في سيرة الرسول صلى الله تعالى عليه وسلم ، وان الذي يبقى في ظل المسلمين مقدما للأمير المسلم حق الطاعة ، يسمى ذمياً ٠

ذلك أن العهود التي يعقدها المسلمون أقسام ثلاثة :

أولها : العهد مع دولة غير اسلامية بهدنة ، أو عدم اعتداء ، كالعهد الذي كان بين المشركين والمسلمين في صلح الحديبية ، ويمكن عقده مع أي دولة أخرى غير دولة الشرك في قريش ٠

وثانيها : عهد سلم مع المسلمين ، بأن يجيبوا النبي في دعوته الى الاسلام أو الحرب بأن يرضوا العهد بدل القتال، على أن يبقوا آمنين ، لا يعتدون على المسلمين ، ولا يظاهرون عليهم ٠

وثالثها : عهد يعطي للآحاد حق أن يقيموا مع المسلمين يكون لهم ما لهم وعليهم ما عليهم ، وتطلق لهم حرية التدين ، واقامة شعائر دينهم غير مضارين ولا محاربين ، ويكونون في الرعوية الاسلامية ، كما يعبر الكتاب في القوانين الدولية الآن ٠

وسمى هؤلاء ذميين ، لأن لهم ذمة رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم والنبي صلى الله تعالى عليه وسلم يقول« من آذى ذمياً ، فأنا خصمه يوم القيامة ومن خاصمته خصمته » ٠

ولقد كانت لهؤلاء الذميين رعاية خاصة احتفاظا بحرمات الأديان .

وقد قرر الفقهاء جواز عقد الذمة لليهود والنصارى والمجوس ، وقد عقد الذمة لأهل الكتاب من اليهود والنصارى ، بنص القرآن الكريم ، فقد قال تعالى في ذلك :

﴿ قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلْحَقِّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ حَتَّىٰ يُعْطُواْ ٱلْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَٰغِرُونَ ﴿٢٩﴾ ﴾ (١)

فثبت بهذا أن أخذ الجزية يعفيهم من القتال ، وقد شرحنا ذلك عند الكلام في أخذ الجزية .

أما أخذ الجزية من المجوس ، وغيرهم كأهل الكتاب ، في أن يكونوا ذميين وتؤخذ الجزية منهم فانه ثبت ذلك عن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم في كتابه للمنذر ابن ساوى ، وفي غيره من الأخبار والأحاديث .

ومشركو العرب يقتلون أو يسلمون حتى لا يكون في الأرض العربية دينان ، وتكون خالصة للاسلام والمؤمنين ، لأنها أرض الاسلام ، منها انبعث ، واليها يعود .

بقي حكم الوثنيين غير العرب كالهنود وعبدة النجوم وكالبوذيين الذين يعبدون بوذا وتمثال بوذا الى غير هؤلاء، فقد قرر أبو حنيفة وأصحابه أن الجزية تؤخذ منهم ، ويكونون ذميين ،وذلك بالقياس على المجوس ، لأنهم ليسوا أسوأ حالا من عبدة النار ، فليس عبدة الشمس بأسوأ حالا من عبدة النار ، وكذلك غيرهم ، والى هذا الرأي نميل .

وان الذمة عقد يثبت بالأمان والاقامة ، وهو يوجد التزاما على ولي الأمر من المؤمنين بأن يتركهم ، وما يدينون لا يضطهدون في شعائرهم بل يقيمونها ، وأن يعاملوا معاملة المؤمنين في التمكين من الحياة وحمايتهم في أنفسهم وأموالهم وحرماتهم ، وأنكحتهم، وكل شئون أسرتهم فيما بينهم ،

---

(١) التوبة

ولا يحرمون من حق وعليهم أن يلتزموا أولاً بكل الأحكام الاسلامية ، فتطبق عليهم العقوبات الاسلامية كاملة ،يطبق عليهم القصاص ، وتطبق عليهم الحدود كلها حد السرقة ، وحد الزنى ، وحدالقذف ، فيقام عليهم ان قذفوا محصنة أو محصناً من المسلمين ، ويحدون حدقطاع الطريق ·

وتطبق عليهم الأحكام الاسلامية في المعاملات من بيوع واجارة، ومداينات، ولا يأكلون الربا ، ويخضعون معاملاتهم لأحكام ربا البيوع ·

وألا يظهروا مخالفة الشريعة الاسلامية معلنين ذلك بألا يقيموا بيوتاً للأوثان أو النيران بين المسلمين ، وفي الجملة لا يظهرون بما قد يفتن المسلمين في دينهم ·

ولا يكون منهم أي خيانة للمسلمين، فلا ينتموا لدولة غير اسلامية تحارب الاسلام ، ولا يناصروها وان ذلك محادة للاسلام وأهله ، ويجب أن يكون ولاؤهم للدولة الاسلامية ، كولاء المسلمين لتحقق القاعدة الاسلامية لهم مالنا ، وعليهم ما علينا ·

ويلتزمون بألا يكون منهم سب للاسلام ، ولا للرسول ، ولا لأي أحد من صحابته ، فان كانوا فهم على عهدهم وأمنهم ، والا ينبذ اليهم ، ولا يقيموا في ظل الاسلام ، أو ينالهم العقاب ·

ويلتزمون بألا يلحقوا بدار الحرب، والا كانوا أهل حرب ، ولا يكونوا أهل ذمة ·

وفي الجملة يجب عليهم ما يجب على المسلم على سواء ، وقد قال أبو حنيفة لهم أن يشربوا الخمر ، وتكون مالامتقوماً بالنسبة لهم ، بحيث اذا أراقه مسلم وجب عليه دفع قيمته ، والخنزيرلهم أن يأكلوه ، وهو مال متقوم بالنسبة لهم ، واذا اعتدى مسلم وقتل خنزيرا عليه قيمته ، كما لو قتل شاة لمسلم ·

وقال أبو حنيفة نكاح بعض المحرمات في الاسلام صحيح اذا كانوا يعتقدون صحته ، واذا ترافعوا الى القاضي المسلم في نفقة زوجية بناء على هذا النوع من النكاح حكم بها ، واذاترافعوا بنسب كذلك حكم به ، وذلك

تطبيق للقاعدة الفقهية أمرنا بتركهم وما يدينون ، ويجوز لولي الأمر المسلم أن يعين قاضياً من بينهم يقضي بينهم .

واذا اتفقوا على أن يتحاكموا لدى القاضي المسلم حكم بينهم لقوله تعالى :

﴿فَإِن جَآءُوكَ فَٱحۡكُم بَيۡنَهُمۡ أَوۡ أَعۡرِضۡ عَنۡهُمۡۖ وَإِن تُعۡرِضۡ عَنۡهُمۡ فَلَن يَضُرُّوكَ شَيۡـٔٗاۖ﴾ (١)

واذا كانوا يخاصمون مسلماً ، لا يحكم بينهم الا القاضي المسلم ، حفظا لحق المسلم ، ولكمال الولاية عليه ، ولأنه لا ولاية لغير المسلم على المسلم .

واذا كان خصمان من الذميين وطالب أحدهما أمام القاضي المسلم ألزم الآخر عند بعض الفقهاء ، لأنه يكون كما اذا كان الخصم مسلما ، وقال آخر لا يلزم ، لأن له قاضيا يقضي بينهم .

وأحسب أن تعيين قاض لهم انما هو في شئون الأسرة ، وأمور دينهم .

وأما ما يتعلق بالعاملات العامة كالبيوع والاجارات وغيرها فان القضاء فيها لا يكون الا للقاضي المسلم لتحقق المساواة الكاملة بينهم وبين المسلمين .

ومسألة جواز أن يشربوا الخمر ويأكلوا الخنزير ، هي رأي أبي حنيفة وحده ، لأنا أمرنا بأن نتركهم وما يدينون ، ولأن عمر بن عبد العزيز الحاكم العادل سأل الحسن البصري : ما بالنا تركنا أهل الذمة يأكلون الخنزير ويشربون الخمر ، وينكحون بناتهم ؟ قال الحسن البصري ، على هذا أخذنا الجزية انما أنت متبع لا مبتدع .

ولكن الجمهور الأعظم من الفقهاء منعوا ذلك ـ وذلك لأن لهم مالنا وعليهم ما علينا . والحمد لله .

---

(١) المائدة

الفتح المبين

٥٩٥ – هو فتح مكة في شهر رمضان حيث ابتدأ السير اليها في العاشر منه ، ووصل اليها في الليلة الثالثة عشرة منه ، وهو لم يكن فتح قتال ، بل كان فتح قلوب ، وأوسع فتح للدعوة الى الاسلام فما كان قتل وقتال الا خطأ، ومن غير تدبير وتعمد من الصحابة الأولين ، بل كان أمنا وسلاما ، وتلاقي قلوب قد فرق بينها الجحود ، واستضعاف الضعفاء ، ومقاومة الايمان فلما دخل محمد مكة ، وهو يقول أنا نبي المرحمة، وأنا نبي الملحمة ألقى اليهم السلام والاكرام ، وتلاقت العشائر التي تخاصمت ، ثم تهادنت ، ثم سالمت ثم آمنت وان هذا بلا شك كان نهاية الفتح ، ولم يكن في الظاهر ابتداءه، بل كان الظاهر هو ارادة القتال ، اذ جاء النبي صلى الله تعالى عليه وسلم في عشرة آلاف من المجاهدين ، وما كانوا هازلين ، بل كانوا جادين ، ولكن عند التلاقي غمدت السيوف عن القتال ،وفتحت القلوب للدخول في دين الله أفواجا أفواجا .

ولذا كان السؤال لم كان القتال ،وقد كان عهد لا ينقض الا بسبب من التزامات هذا العقد ، وما كان لرسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم أن ينقض الا بأسباب منه لأن الله تعالى يقول :

﴿فَمَا ٱسْتَقَـٰمُواْ لَكُمْ فَٱسْتَقِيمُواْ لَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ ۝٧﴾ (١)

ولم يستقيموا ، فكان هذا خيانة ،فكان عليه أن يعمل بقول الله تعالى :

﴿وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَٱنۢبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَآءٍ ۚ﴾ (٢)

ولم يكن ثمة خوف خيانة ، بل خيانة بالفعل في جزاء من العقد .

---

(١) التوبة (٢) الأنفال

والعقد كل يكمل بعضه بعضا ، فاذا دخل الغدر جزءا منه ، فقد دخل النقض كله ، وفقد الالتزام من الجانب الآخر كل الزام به ، اذ نقض الأول جزءا منه يبطله ، ولو كان العهد يبقى ملزما مع نقض جزئه ، لتوالي النقض على كل أجزائه ، فلا يبقى للعقد معنى ولا صورة ، ويذهب هباء منثورا ، وتتبدد أوراقه في أدراج الرياح ٠

نقض قريش لصلح الحديبية :

٥٩٦ ـ هذا هو السبب الجوهري، لقد نقضوا فقرة من فقراته ، فنقضوه كله ، على النحو الذي بيناه من أن كل عهد كل لا يتجزأ ، نقض بعضه نقض لكله ٠

ذلك أنه كان في العقد أن من أراد أن يدخل في عقد قريش وعهدهم دخل ، ومن أحب أن يدخل في عقد محمد صلى الله تعالى عليه وسلم دخل ، فيكون من يدخل في عقد أحد الفريقين له حقوق العقد ، وعليه التزاماته ، فدخلت خزاعة في عهد محمد صلى الله تعالى عليه وسلم ، ودخل بنو بكر في عقد قريش ٠

وكان بهذا حقاً على قريش ألا تعتدي على خزاعة ، وكذلك على الرسول صلى الله تعالى عليه وسلم وكان ثمة بين بني بكر وخزاعة احن جاهلية ، عدت فيها خزاعة على بني بكر فقتلت ،وعدت مثلها على خزاعة فقتلت ، ثم كانت من بعد ذلك معركة ، كان الغلب فيها لخزاعة ٠

وكانت العداوة قائمة ، فلما جاء الاسلام وحاربت قريش النبي والذين آمنوا ، شغلوا بحربه ، وكانوا على ضغن ٠

فلما كانت الهدنة ، كانت خزاعة تحس من قريش نفرة ومعاونة لعدوها، فدخلت في عقد النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، وكان بهذا العهد عليه حمايتها في دائرة العقد ، وكان بنو بكر على وداد مع قريش فدخلوا في عقدها ٠

كان صلح الحديبية مغريا بالانتقام اتخذه بنو بكر فرصة انتهزوها ، ولم يعلموه عهداً عليهم يلتزمون بمبادئه ٠

اعتدى بنو بكر على خزاعة ، ورفدتهم قريش بالسلاح ، ثم قاتلوا معهم مستخفين ليلا ، منهم صفوان بن أمية ،وحويطب بن عبد العزى ، ومكرز بن حفص •

وما زالوا يقاتلون حتى انحازوا الى البيت ، وكان حقاً عليهم أن يمنعوا القتال في البيت الحرام الذي جعله الله حرماً آمناً ويتخطف الناس من حولهم ولكن قائدهم نوفل بن معاوية قاتل مع اعتراض بني بكر ، اذ قالوا له يا نوفل انا دخلنا حرم الهك •

فقال كلمة كبيرة ، بل فاجرة قال لا اله اليوم ، يا بني بكر أصيبوا ثأركم فلعمري إنكم لتشرقون في الحرم ،فلا تصيبون ثأركم فيه •

ولجأ بنو خزاعة الى داخل دار بديل بن ورقاء الخزاعي ودار مولى لهم كانت هذه مقتلة فاجرة •

وخرج رجل من بني خزاعة اسمه عمرو بن سالم الخزاعي حتى قدم على رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم •

وبذلك حدثت أمور استوجبت أن يقف النبي صلى الله تعالى عليه وسلم مع الذين في عهده ضد بني بكر ابتداء ، ومن أعانوهم •

لقد ارتكب بنو بكر خيانة العهد ،والقتال في البيت الحرام ، وعاونتهم قريش فيما ارتكبوا من خيانة عهد واصابة للحرمات •

فما كان للنبي صلى الله تعالى عليه وسلم أن يسكت على هذا الضيم الذي ينزل بأهل عهده في أعدائهم ،وبمعاونة قريش •

خرج بديل بن ورقاء الخزاعي الى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم الذي لجئوا الى داره في نفر من خزاعة بعد عمرو بن سالم ، فأخبروه كما أخبره من قبل عمرو بن سالم بما أصيبوا به من بكر ، ومظاهرة قريش لهم •

وعاد بديل ، فالتقى بأبي سفيان وقد جاء يجس النبض ، ويطلب شد العقد ، ومد المدة ، وظن أبو سفيان أنه جاء للنبي صلى الله تعالى عليه وسلم •

جاء أبو سفيان ، وقد أدرك كبر مافعلت قريش ، وما كان قد تحرك لمنع هذا ، ولكن قد وقعت الواقعة ، ولعلهلم يكن لما حدث كارها ٠

استمر أبو سفيان في مسيره حتىالتقى بابنته أم حبيب قادما للقاء رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ٠

أراد أن يجلس على فراش رسول‌الله صلى الله تعالى عليه وسلم فطوته فقال يا بنية ما أدري أرغبت بي عن‌هذا الفراش أم رغبت به عني ،فقالت: هو فراش رسول الله صلى الله تعالى عليه‌وسلم وأنت مشرك نجس ، فلم أحب أن تجلس على فراشه ، فقال يا بنية ،والله لقد أصابك بعدي شر ٠

ظن أن ابنته وهي زوج رسول الله‌صلى الله تعالى عليه وسلم قد تكون شفيعا عند رسول الله صلى الله تعالى عليه‌وسلم، ولكنها بادرته بما ألقى في نفسه اليأس ، فالتمس الشفاعة عند غيرهاذهب الى أبي بكر ، فكلمه في أن يكلم رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ،فقال : ما أنا بفاعل ، ذهب الى عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه ، فكلمه ،فقال عمر رضي الله عنه : أنا أشفع الى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم :فوالله لو لم أجد لكم الا الذر لجاهدتكم به ، ترك عمر يائسا ، كما يئس من‌أبي بكر ٠

فذهب الى علي بن أبي طالب ، وله‌به رحم ، فدخل عليه وعنده الزهراء فاطمة بنت رسول الله صلى الله تعالى‌عليه وسلم ، وعنده حسن ابنها غلام يدب بينهما ٠

قال أبو سفيان يا علي انك أمس القوم بي رحما ، وأقربهم مني قرابة ، وقد جئت في حاجة فلا أرجعن ، كماجئت خائبا فاشفع لي الى رسول الله ٠

قال علي : ويحك أبا سفيان ، والله‌لقد عزم رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم على أمر ما نستطيع أن نكلمه فيه٠

التفت أبو سفيان الى الزهراء فاطمةفقال لها : يا بنت محمد هل لك أن تأمري ابنك هذا فيجير بين الناس ،فيكون سيد العرب الى آخر الدهر ٠

قالت الزهراء فاطمة : والله ما بلغ‌بابني ذلك أن يجير بين الناس ، وما يجير أحد على النبي صلى الله تعالى عليه‌وسلم ٠

اتجه أبو سفيان مرة ثانية ، وقال له : يا أبا الحسن اني أرى الأمور قد اشتدت علي ، فانصحني فقال علي والله ما أعلم شيئا يغني عنك ، ولكنك سيد بني كنانة ، فقم فأجر بين الناس ، ثم ألحق بأرضك ٠

قال أبو سفيان أو ترى ذلك مغنياً عني شيئا قال علي ، لا والله ما أظن ، ولكن لا أجد عملا غير ذلك ٠

قام أبو سفيان في المسجد ، فقال : أيها الناس اني قد أجرت بين الناس ، ثم ركب بعيره فانطلق حتى قدم على قريش ، وقد أحسوا كبر ما فعلوا ، وحمق ما صنعوا سألوه ، فأخبرهم بأن أحدا لم يردوا عليه شيئا ، لا النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، ولا أبو بكر وعمر ، ثم ما أشار به علي من أنه أجير بين يدي الناس ، فسألوه هل أجازه النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ٠ قال : لا ٠

ذل الغدر

٥٩٧ ـ غدرت قريش في عهدها، وما كان لها ذلك ، وجاء أبو سفيان كبيرها يستغفر للخيانة التي لم يمنعها وأراد عجبا ، أن يمنع رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم من أن يحمي من دخلوا في عهده ، وأن يتركهم من غير أن يحميهم عهدهم ، وتشفع بابنته ،فما شفعت وتشفع بأبي بكر فامتنع امتناعا قاطعا ، وان كان هادئا كطبعه رضي الله تبارك وتعالى عنه الا في الشديدة ، وتشفع بعمر فرده ردآ عنيفاً ، وتشفع متوسلا بالرحم لعلي فما شفع هو ولا الزهراء فاطمة ،وقالت كلمة حاسمة لا يجار على رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ٠

وكان عجباً أن يجير على قريش كلها، ليكون لها أمان من الغزو ، لأنه شعر بالجريمة وقعت منها كلها ، واذا كانت حرب فعليها كلها ٠

ونقول انه قد جاء لتوثيق العهد وزيادة المدة ، وان ذلك يتضمن بلا ريب الغاء العهد السابق وما اشتمل عليه ،وربما توهم أن ذلك ربما يسقط الغدر الأول ، ولعله ظن أن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم لم يعلم غدرة قريش التي تعد فسخا للعقد ، فلما رأى أن الخزاعي سبقه وأخبر النبي صلى الله تعالى عليه وسلم لم يكن بد من أن يطلب الأمان لقريش ، ولكن لم يجب ٠

وروى موسى بن عقبة أن أبا سفيان دخل على النبي صلى الله تعالى عليه وسلم قبل أن يدخل على أبي بكر وعمر وعلي ٠ وقال له : يا محمد شدد العقد وزدنا في المدة ، فقال له النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ولذلك قدمت ، هل من حدث قبلكم ؟ قال معاذ الله ، نحن على عهدنا ، لا نغير ولا نبدل ٠

ثم ذهب على الصحابة أبي بكر ، ثم عمر ، ثم عثمان ، الى أن وصل الى علي، فلان معه المجاهد الأول بعض اللين ٠

وقد صرحت هذه الرواية بأنه ذهب الى النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ليأخذ منه اقرارا على ما قال في المسجد، فقال له النبي صلى الله تعالى عليه وسلم بعد أن قال أنت تقول ذلك يا أباحنظلة ردا على قوله ما أظن أن تخفرني أنت تقول ذلك يا أبا حنظلة ٠

وقد عاد الى قومه فاستخفوه اذ قص عليهم خبر الرحلة ، وقالوا له : رضيت بغير رضا ، وجئتنا بما لا يغني عنا ولا عنك شيئا ، وانما لعب بك علي لعمر والله ما جوارك بجائر ، وان اخفارك عليهم لهين وحدث امرأته بحديث الرحلة ، فقالت له : « قبحك الله من وافد قوم فما جئت بخير » ٠

الاستعداد للفتح

٥٩٨ ـ كان لابد اذن من اللقاء، وروي أن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم بعد أن صنعت ما صنعت قريش بمن في عهده اعتزم أن يذهب الى مكة بالفتح المبين ، وقال صلى الله تعالى عليه وسلم : والله لأغزون قريشا ، قالها ثلاث مرات ، على ما روي ٠

آذن أصحابه بأن يتجهزوا للذهاب الى مكة ، وأمرهم بالجد والتهيؤ ، وقال: « اللهم خذ العيون والأخبار عن قريش، حتى نبغتها في بلادها » ٠

ولقد أخطأ بعض الصحابة ممن حضروا بدراً ، وله في الجهاد مقام خطأ يعد في نظر الحرب والجهاد خيانة أو خطيئة، ولكن النبي الحكيم الواسع العقل والصدر عفا عنه ، بعد أن أبطل عمله ٠

بينما النبي صلى الله تعالى عليه وسلم يضرع الى ربه أن يأخذ العيون والأخبار عن قريش ، أراد بعض الصحابة أن يكون عينا لقريش يخبرها٠

كتب حاطب بن أبي بلتعة كتابا الى قريش يخبرهم بالذي أجمع رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم من الأمر بالسير اليهم ، وأعطى كتابه امرأة وأوصاها باخفائه ، وجعل لها جعلا حتى تبلغه قرشيا ، فجعلته في رأسها وفتلت عليه ضفائرها في قرونها ، ثم خرجت به ٠

وأوحي الى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم بما فعل حاطب ، وفعلت المرأة فبعث اثنين من أخلص حواريه شابين نشأ في اطاعة الله والجهاد في سبيله ، وهما علي بن أبي طالب ، والزبير بن العوام ٠

فخرجا حتى أدركاها بالحليفة ، فاستنزلاها من فوق البعير الذي تركبه ، فالتمسا الكتاب في رحلها فلم يجداه ، فقال علي في حزم اني أحلف بالله ما كذب رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، ولا كذبنا ، ولنخرجن هذا

الكتاب ، أو لنكشفنك ، فلما رأت منه الجد قالت لعلي أعرض فأعرض ، فحلت قرون رأسها ، فاستخرجت الكتاب منها، فدفعته اليه ٠

فذهبنا بالكتاب الى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، وهنا نجد الرسول القوي يسأل عن مسوغ لهذه الخيانة ،فيقول في رفق القوي ، ورحمة الحليم٠

يا حاطب ما حملك على هذا ـ لم يجابهه بالخيانة ، ولكن طلب اليه مسوغا، ان كان لمثل هذا مسوغ ولكن الكريم الحليم القوي أراد أن يقدم اعتذارا عما فعل من غير أن يبادره باللوم والتعنيف ٠

أجاب حاطب عن هذا السؤال وقد أحس بالضمير يؤنبه : يا رسول الله أنا والله مؤمن بالله ورسوله ما غيرت ، ولا بدلت ، ولكني كنت امرأ ليس لي في القوم من أهل ولا عشيرة ، وكان لي بين أظهرهم وفد وأهل فصانعتهم عليه ٠

لا شك أن الجواب لا يبرر العمل ، ودل على شيء غير قليل من الضعف النفسي ، فوفوده وأهله بينهم من قبل الحديبية ، ولعلهم وصلوا الى مكة في مدتها ، وفي كلتا الحالين ، ما كانت البواعث الشخصية مسوغة مخالفة النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، وهو القائد الأعلى ورسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، ولا تعريض الجيش للأذى ،والاستعداد له ومواجهته ، وقد تدول الدولة لأعدائه ٠

ولذلك لم يستسغ عمر رضي الله عنه ذلك ، بعد أن لم يستسغه النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ولذلك قال عمر رضي الله تعالى عنه : يا رسول الله دعني فلأضرب عنقه ، فان الرجل قد نافق ،ولكن الرسول الكريم الذي لم يستسغ ذلك العذر ، خالف عمر ، وقال معتذراً عن حاضره بماضيه في بدر ما يدريك يا عمر ، لعل الله قد اطلع على أصحاب يوم بدر ، فقال اعملوا ما شئتم ، فقد غفرت لكم ٠

ما يرد النبي صلى الله تعالى عليه وسلم عن فعلته التي فعلها ، ولكنه يلومه في عبارات رقيقة عاطفة أن ماضيه ينهاه عن حاضره،وأظن أن ذلك القول، أروع من قول الفاروق عمر ٠

ولقد قالوا انه نزل فيه قوله تعالى :

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ وَقَدْ
كَفَرُوا۟ بِمَا جَآءَكُم مِّنَ ٱلْحَقِّ يُخْرِجُونَ ٱلرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَن تُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ رَبِّكُمْ إِن كُنتُمْ خَرَجْتُمْ
جِهَٰدًا فِى سَبِيلِى وَٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِى ۚ تُسِرُّونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ وَأَنَا۠ أَعْلَمُ بِمَآ أَخْفَيْتُمْ وَمَآ أَعْلَنتُمْ ۚ
وَمَن يَفْعَلْهُ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴿١﴾ إِن يَثْقَفُوكُمْ يَكُونُوا۟ لَكُمْ أَعْدَآءً وَيَبْسُطُوٓا۟
إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتَهُم بِٱلسُّوٓءِ وَوَدُّوا۟ لَوْ تَكْفُرُونَ ﴿٢﴾ لَن تَنفَعَكُمْ أَرْحَامُكُمْ وَلَآ
أَوْلَٰدُكُمْ ۚ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَفْصِلُ بَيْنَكُمْ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٣﴾ قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ
فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ إِذْ قَالُوا۟ لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُا۟ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ كَفَرْنَا
بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةُ وَٱلْبَغْضَآءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥٓ إِلَّا قَوْلَ إِبْرَٰهِيمَ
لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَآ أَمْلِكُ لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ ۖ رَّبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا
وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٤﴾ (١)

واذا كان ثمة أمر يسهل أن يرتكب الصحابي البدري ذلك ، فليس هو النفاق ، ولكن المدة التي سهلت الالتقاء أحيت ما كان من مودة قديمة ، فسال سيله في طريقها حتى وقع في هذا الخطأ ، بل الخطيئة ، ورسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، قد جعل ماضي أمره مسقطا لذنب حاضره ، وهو الرسول المؤلف بين القلوب ، الجامع لها ، وهو بالمؤمنين رؤوف رحيم .

---

(١) الممتحنة

خروج الرسول صلى الله عليه وسلم لسفره

٥٩٩ ـ خرج رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ماضيا لسفره ، واستخلف على المدينة أبا رهم كلثوم بن حصين بن عتبة بن خلف الغفاري ، وذلك ليعلم الناس أنه لا تفاوت في الولاية بالنسب ، فقد ولى من الأنصار والمهاجرين من بطون قريش وغيرهم .

خرج صلى الله تعالى عليه وسلم لعشر ليال من رمضان ، وصام وصام الناس ، حتى اذا كان بالكديد أفطر ـ لأنه صار على سفر ، ولأنه رخص للمسافر أن يفطر ، وقد قال الله تعالى :

﴿ أَيَّامًا مَّعْدُودَاتٍ ۚ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ ۚ وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ ۖ فَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُ ۚ وَأَن تَصُومُوا خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٨٤﴾ ﴾ (١)

وان الله يحب أن تؤتى رخصة ، كما تؤتى عزائمه ، والسفر قطعة من العذاب في الصحراء العربية وحال الجهاد تجعل الفطر قوة فيه ، وكل ما يؤدي الى القوة فيه يكون مطلوبا على قدر هذه القوة ، ويظهر أن بعض المؤمنين تحرجوا من أن يفطروا في رمضان ، فدعا رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم باناء فشرب نهاراً ليرى الناس ، فأفطر حتى قدم مكة مفطراً .

سار رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، حتى لقيه في الجحفة عمه العباس بن عبد المطلب ، مهاجراً هو وأهله ، وقد كان اسلامه سابقاً على ذلك ، وبقي على السقاية في الكعبة .

---

(١) البقرة

ولقيه عليه الصلاة والسلام في الطريق بعض ذوي قرابته ، أبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب وعبد الله بن أبي أمية بن المغيرة ، فالتمسا الدخول عليه فكلمته أم سلمة ، وكان رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ذا مودة وخير دائما ، فقالت له ابن عمك وابن عمتك وصهرك يا رسول الله ، قال : « لا حاجة لي بهما ، أما ابن عمي ،فهتك عرضي ، وأما ابن عمتي وصهري فهو الذي قال لي بمكة ما قال بمكة ،ذلك أن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم لما دعا الى ربه قال له : « والله لا آمنت لك حتى تتخذ سلماً الى السماء فنعرج فيه وأنا أنظر ، ثم تأتي بصك وأربعة من الملائكة يشهدون بأن الله تعالى أرسلك » .

وأصر رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم على عدم الاذن لهما ، فلما خرج اليهما الخبر ، قال أبو سفيان ابن عم الرسول ومعه ابن صغير له فقال والله ليأذنن لي أو لآخذن بيد بني هذا ، ثم لنذهبن في الأرض ، ثم نموت عطشاً وجوعا ، فرق لهما رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم لرحمهما ، ولأنهما قد رقا للاسلام ، والاسلام يجب ما قبله .

قريش تتحسس الأخبار

٦٠٠ ـ مضى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم حتى نزل مر الظهران في عشرة آلاف من المسلمين ، وفي رواية في اثني عشر ألفاً ، وقد عميت الأخبار عن قريش ، ولكنهم يظنون الظنون لنقضهم العهد الذي كان بينهم وبين الرسول صلوات الله وسلامه عليه ٠

لم يحسوا بأمر ، ولكنهم يتوقعون أمراً ، فخرج في تلك الليالي أبو سفيان ابن حرب ، وحكيم بن حزام ، وبديل بن ورقاء الخزاعي ، يتحسسون الأخبار ، وينظرون هل يجدون خبراً ٠

ويلاحظ من ذلك أن الثلاثة يختلف اثنان فيهم عن الثالث ، لأن بديلا هو الذي ذهب الى النبي صلى الله تعالى عليه وسلم يستنصر بالنبي لخزاعة ، اذ عاونت قريش بني بكر في قتالهم لخزاعة ، حتى جاوزوهم الى البيت الحرام فما امتنعوا فلعل الجميع كانوا يتحسسون ، ولكن اختلفت الغاية عندهم ٠

وفي الوقت الذي كانت قريش تتحسس أخبار النبي صلى الله تعالى عليه وسلم كان العباس بن المطلب الودود المسالم يريد أن يرسل الى قريش من يعرفهم مكان النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ليجيئوا اليه مستأمنين لكيلا يكون قتال بل يكون أمن وسلام ويقول رضي الله عنه من جراء محبته لرسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم : والله لئن دخل رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم مكة عنوة قبل أن يأتوه ، فيستأمنوه ، انه لهلاك قريش الى آخر الدهر ٠

ركب بغلة رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم البيضاء وأخذ يتلمس الحطابين ، أو ذوي الحاجات الذين يسيرون في الصحراء ليجد من يخبر أهل مكة ٠

وبينا هو في سيره متحسساً سمـــع صوت أبي سفيان ، ولنترك له رضي الله عنه ، يحكي كيف كان لقاؤه مـــع صديقه المشرك أبي سفيان ، وهو المؤمن فهو يقول :

واني لأسير عليها (بغلة رسول الله)، اذ سمعت كلام أبي سفيان ، وبديل ابن ورقاء وهما يتراجعان ، وأبو سفيان يقول ما رأيت كالليلة نيرانا قط ،ولا عسكراً ، قال بديل هذه والله خـزاعة حمستها (أي ألهبتها) . قال أبو سفيان خزاعة أذل من ذلك وأقل أن تكون هذه نيرانها وعسكرها ، فعرفت صوته فقلت يا أبا حنظلة فعرف صوتي فقـــال أبو الفضل ، قلت نعم ، قال مالك فـداك أبي وأمي : قلت ويحـك يا أبا سفيان هذا رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم في الناس ، واصباح قريش ، والله قال فما الحيلة ؟ فداك أبي وأمي ، قلت والله لئن ظفر بك ليضربن عنقك : فاركب في عجز هذه البغلة ، حتى آتي بـك رسول الله فأستأمنه لك ، فركب خلفي، ورجع صاحبه ، فجئت به ، كلما مررنا بنار من نيران المسلمين ، قالوا من هذا فاذا بغلة رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، وأنا عليها ، قالوا هذا عم رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم على بغلته، حتى مررت على عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال من هذا ، وقام الي ، فلما رأى أبا سفيان على عجز الدابة ، قال :أبو سفيان عدو الله ، الحمد لله الذي أمكن منك بغير عقد ولا عهد ، ثم خرج يشتد نحو رسول الله صلى الله تعـــالى عليه وسلم ، وركضت ، فسبقته بمـــاتسبق الدابة البطيئة الرجـــل البطيء فاقتحمت عن البغلة فدخلت على رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، ودخـل عليه عمر ، فقال يا رسول الله هذا أبوسفيان ، قد أمكن الله تعالى منه بغير عقد ولا عهد ، فدعني فلأضرب عنقه ، قلت يا رسول الله ، قد أجرته ، ثم جلسـت الى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم، فأخذت برأسه فقلت والله لا يناجيـك الليلة ، دوني رجل ، فلما أكثر عمر في شأنه (أي أبي سفيان) قلت مهـــلا يا عمر ، فوالله لو كان من بني عدى بن كعب ما قلت هذا ، ولكنك قد عــرفت أنه من رجال بني عبد مناف فقال مهلا يا عباس ، فوالله لاسلامك يوم أسلمت كان أحب الي من اســـلام الخطاب لو أسلم ، وما بي الا أني قد عرفت أن اسلامك كان أحب الى رسول الله صـــلى الله تعالى عليه وسلم من اسلام الخطاب، فقال رسول الله صلى الله تعالى عليـــه وسلم ، اذهب به يا عباس الى رحلك ، فاذا أصبحت فأتني به ، فذهبت به الى رحلي ، فلما أصبح غدوت به الى رسول

الله صلى الله تعالى عليه وسلم فلما رآه، قال ويحك يا أبا سفيان ، ألم يأن لك أن تعلم أن لا اله الا الله. قال أبو سفيان بأبي أنت وأمي ما أحلمك وأكرمك وأوصلك ، والله لو قد علمت أن معه الها غيره لقد أغنى عني شيئا بعد ، قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم : ألم يأن لك أن تعلم أني رسول الله ، قال أبو سفيان ، أما هذه والله فان في النفس منها حتى الآن شيئاً ، فقال العباس ويحك أسلم واشهد أن لا اله الا الله وأن محمداً رسول الله قبل أن تضرب عنقك فشهد شهادة الحق ، فأسلم .

قلت يا رسول الله ان أبا سفيان رجل يحب الفخر فاجعل له شيئاً قال نعم :

قال محمد صلى الله تعالى عليه وسلم الذي يحب حقن الدماء .

من دخل دار أبي سفيان فهو آمن ، ومن أغلق بابه فهو آمن ، ومن دخل المسجد فهو آمن .

فلما ذهب أبو سفيان لينصرف قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم احتبسه عند خطم الجبل (أنف الجبل) حتى تمر به جنود الله تعالى فيراها .

فحبسه ، حتى مرت به الرايات كل قبيلة على رايتها ، وكلما مرت قبيلة ، قال يا عباس ما هذه القبيلة ، وأخذ يسأل عنهم قبيلة قبيلة ، حتى مرت قبيلة رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم برايته الخضراء ، فيها المهاجرون والأنصار ، لا يرى منهم الا الحدق من الحديد ، فقال سبحان الله من هؤلاء ؟ قلت رسول الله في المهاجرين والأنصار، قال أبو سفيان ما لأحد بهؤلاء ، والله يا أبا الفضل قبل ، لقد أصبح ملك ابن أخيك الغداة عظيما ، قال العباس يا أبا سفيان أنها النبوة ، فقال نعم اذن .

التحسس والعباس وإسلام أبي سفيان :

٦٠١ ــ ذكرنا هذا الحديث بطوله ، لأنه التقاء صديقين كلاهما يتحسس الأخبار لحماية مكة من الحرب ، فالعباس رضي الله عنه يتحسس ، ليرسل لقريش يحرضهم على أن يستأمنوا لأنفسهم من جيش الايمان لكيلا تكون حرب في الحرم ، ولتحمي قريش نفسها لا بالحرب ، ولكن بالايمان ، أو الأمان .

وأبو سفيان يتحسس الأخبار ، لأنه توجس خيفة بعد الغدر ، وتوقع من محمد صلى الله تعالى عليه وسلم عملا لحماية من دخلوا في عهده ، ولأنه أصبح في حل من الصلح الذي صالحوه عليه ، اذ نقضوه من جانبهم ، فهو عليهم رد ولا سبيل لأن يدفعوا بعهد نقضوه ٠

التقى الصديقان ، وكان لقاء فيه خير ، اذ انتهى باسلام أبي سفيان ، وضمه للنبي صلى الله تعالى عليه وسلم، بعد أن أرضى النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ٠

وقد بذل العباس في ذلك جهداً ،خصوصاً عندما اشتد عمر رضي الله تعالى عنه ، وما كنا لنقر العباس رضي الله عنه في قوله لعمر لو كان من عدي ما وقف في هذا ، فعمر لا يمكن أن يؤثر قرابة في قول الحق ، وهو الذي قال فيه النبي صلى الله تعالى عليه وسلم:« ان الله كتب الحق على لسان عمر وقلبه » ٠

ومهما يكن من تلك الكلمة ، فان العباس رضي الله تعالى عنه ، قد كانت سياسته حكيمة في ضم أبي سفيان ،فانه كان له أثر في حقن الدماء ، ومنع الحرب ٠

لقد قال من بعد ذلك العباس لأبي سفيان يحرضه على السرعة في الذهاب الى قريش يسكنها قال له النجاء الى قومك ، أي السرعة المنجية ٠

فلما جاءهم صرخ بأعلى صوته : يامعشر قريش قد جاءكم فيما لا قبل لكم به ، فمن دخل دار أبي سفيان فهو آمن ، قالوا له قاتلك الله ، وما تغني عنا دارك ، قال ناقلا عن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، ومن أغلق عليه بابه فهو آمن ، ومن دخل المسجد ،فهو آمن ٠

وبهذا تهيأت النفوس للاسلام الابعض الذين أكل الحقد قلوبهم ،وسيطر عليهم النزع الجاهلي ، ولم ينظروا الى ما هو أمامهم ، بل التفتوا الى ما وراءهم ، ولكنهم مع ذلك لم يجعلوها حربا ، لأن الله تعالى أراد السلام وقصد النبي صلى الله تعالى عليه وسلم أن يدخل البيت معظما مشرفا ، زاده الله شرفا وتعظيما ٠

اللقاء في مكة

٦٠٢ ـ لم نقل المعركة ـ ولكن قلنا اللقاء ، لأنه لقاء التصفية وتنقية القلوب من ضغائنها ، وتلاقي النفوس على المرحمة بعد الملاحم ، ومن يقدر على ذلك الا رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم الذي أرسله رب العالمين الذي ألف بين قلوبهم القائل تعالت كلماته :

﴿ وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ النَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا ﴾ (١)

دخل رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم لا دخول المقاتل ، ولكن دخول المسالم الذي يريد أن يفتح القلوب للايمان ، فكان على أحد جانبي الجيش الزبير بن العوام ، وعلى الجانب الآخر خالد بن الوليد ، وعلى المهاجرين أبو عبيدة عامر بن الجراح ، والجميع متجهون صوب مكة ، من شمالها الزبير بن العوام بمن يقودهم ، ومن جنوبها خالد بن الوليد بمن يقودهم ومن الشمال الغربي أبو عبيدة بالمهاجرين ٠

ومن الغرب سعد بن عبادة يقود الأنصار ٠

وكانت أوامر النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ألا يقتلوا ولا يقاتلوا ، فما دخلوا الحرب ولكن لأجل اقرار السلم ٠

ولكن علم النبي صلى الله تعالى عليه وسلم وهو في كتيبة أن اوشاب قريش أو بعضهم وليسوا من كبرائهم ، ورأى أن هؤلاء قد يشوهون وجه اللقاء ، فنادى أبا هريرة اهتف بالأنصار ، ولا يأتين الا أنصاري ، فأمر الأنصار بأن يحصدوهم حصداً اذا وجدوا منهم أمرأ يخرج المجاهدين السالمين عن سلمهم ٠

---

(١) آل عمران

ركزت راية رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم عند الحجون .

لقد كان النبي صلى الله تعالى عليه وسلم حريصا على أن يبعد كل نزعة الى الحرب ، ويبعد صاحبها ولو كان عنده من المقربين الذين أيدوه بنصرهم ، والناس عنه معرضون .

قال سعد بن عبادة حامل راية الأنصار عندما مر على أبي سفيان ، أو جعل شعاره : « اليوم يوم الملحمة ، اليوم تستحل الحرمات » فقال عمر بن الخطاب : أتسمع ، وقال عثمان بن عفان وعبد الرحمن بن عوف يا رسول الله ما نأمن أن يكون له في قريش صولة ، وقال صلى الله تعالى عليه وسلم : بل اليوم يوم تعظم فيه وتعز فيه الكعبة ، اليوم يوم أعز الله فيه قريشا ، ثم أرسل علي بن أبي طالب لينزع منه الراية ، وفي رواية أنه أعطاها عليا ، وفي رواية أعطاها الزبير بن العوام ، والرواية المشهورة أنه أعطاها قيس بن سعد بن عبادة لكيلا يكون في نفس سعد بن عبادة شيء من نزعها ، اذ أنها أعطيت لابنه فأخذت منه اليه ، ولأن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم يريد ألا يحمل راية الأنصار الا أنصاري لتكون حمية الأنصار وليكون لهم مقام الفتح برجالهم وبقيادتهم ، والرواية التي تقول انه عليه الصلاة والسلام أعطاها عليا ، قامت على أن عليا هو الذي نزعها منه ، ولعل الزبير هو الذي أعطاها قيسا ، بأمر النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، وبذلك تتلاقى الروايات الثلاث : وتكون الراية انتهت الى ابن سعد .

دخول رسول الله مكة :

٦٠٣ ــ دخل رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم مكة ، ومعه لواء أبيض ، وعليه عمامة سوداء وهو يقرأ سورة الفتح وهو راكب على ناقته ، وكان يرجع فيها ، فهو يترنم بها ، ويرجع كلماتها مستطيبا ألفاظها ومعانيها ، وقد خفض رأسه متواضعاً لله تعالى ، ولما انتهى الى ذي طوى المتجر بشقة بردة حبرة حمراء ، وان رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ليضع رأسه تواضعاً لله تعالى ، حين رأى ما أكرمه الله به من الفتح ، حتى عثنونه لتكاد يمس الرحل .

ويروى أن رجلا كلم رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم يوم الفتح فأخذته الرعدة ، فقال الرسول الذي يزيده التواضع عزاً ، أو كما قال : « هون عليك ، فانما أنا ابن امرأة من قريش تأكل القديد » .

وان العزيز الكريم ، لا تزيده القوة الا تواضعاً يقول في ذلك ابن كثير « وهذا التواضع في هذا الموطن عند دخوله مكة في مثل هذا الجيش الكثيف العرمرم بخلاف ما اعتمده سفهاء بني اسرائيل حين أمروا أن يدخلوا باب بيت المقدس ، وهم سجود أى ركع يقولون حطة ، فدخلوا يزحفون على استاههم وهم يقولون حنطة » .

وأنى يكون بنو اسرائيل الذين تطغيهم النعمة من محمد الكريم ، الذي تدفعه النعمة الى التواضع ،فيقوم بحقها وشكرها ، فشكر كل نعمة ، نعمة من نوعها ، فشكر القوة الرفق والعدل ، وشكر الرفعة التواضع ، وقد رفع الله تعالى نبيه ، بما لم يرفع به رجل في العرب ، وبما لم يرفع به نبي في أمته ، فكان هذا التواضع الكريم الذي زاده عزاً .

وقد دخل رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم من أعلى مكة من كداء ،وهو أصح الروايات ، كما جاء في البخاري .

إسلام أبي قحافة :

٦٠٤ ـ وقف رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم بذي طوى ، ولم يكن أبو بكر قد التقى بأبيه أبي قحافة منذ هاجر الا أن يكون قد زاره في عمرة القضاء .

وكان قد أصيب في عينيه ، فكف بصره ، فكان يرى الرؤية الكاملة بابنته أصغر أولاده ، فلما وقف عند ذي طوى ، وقف أبو قحافة على جبل أبي قبيس ، فقال : أي بنية ماذا ترين ؟قالت أرى سواداً مجتمعاً قال : تلك الخيل ، قالت وأرى رجلا يسعى بين ذلك السواد مقبلا مدبراً ، قال أى بنية من ذلك الوازع (الذي يأمر الخيل ويتقدم اليها) ، ثم قالت قد والله انتشر السواد ، فقال قد والله اذن دفعت الخيل ، فأسرعى بي الى بيتي ، فانحطت

به ، وتلقاه الخيل قبل أن يصـل الى بيته ، وفي عنق الجارية طوق من ورق (فضة) فيلقاها رجـل ، فيقتطعـه من عنقها .

فلما دخل رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم مكة ودخل المسجد أتى أبو بكر بأبيه (أبي قحافة) يقوده ، فلما رآه رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم قال : « هلا تركت الشيخ في بيته ، حتى أكون أنا آتيه ، قال يا رسول الله هو أحق أن يمشي اليك من أن تمشي أنت اليه » .

أجلس النبي صلى الله تعالى عليـه وسلم أبا الصديق ، ثم مسح على صدره، ثم قال : أسلم ، فأسلم ، ثم قام أبو بكر، فأخذ بيد أخته الصغـيرة يسـألها عن طوقها ، ولما علم أنه خطف منها ، أنشد المسلمين بالله والاسلام طوق أخته .

فقال الصديق معزيا أخته الصغيرة في قرطها ، ان الأمانة اليوم قليـل ، فاحتسبى طوقك هذا هـو الرفق ، ان الطوق الفضى أحب اليها في سنهـا ، فواساها الصـديق فيه رفقاً ومحبة ، ولقد هنأ النبي صلى الله تعالى عليـه وسلم أبا بكر صاحبه في الغـار باسلام أبيه .

قتال في جوانب من مكة :

٦٠٥ ــ نهى النبي صلى الله تعـالى عليه وسلم عن القتال ، ولكنه لم ينه عن الدفاع ، وقد ذكر أن أهل مـكة قد رضوا بالمسالمة والسلام ، واطمأنوا الى النبي صلى الله تعالى عليه وسـلم الا الذين بقوا على جاهليتهم ولم يذوقوا حب الايمان أو أن فيهم الحقد الدفين، والرغبة في الثأر ــ لا يريدون سلاماً، ولكن يريدون حربا وخصـاما ، ولم يؤخذوا بالقوة ، بل جحدوا بها ، كما جحدوا هم وآباؤهم بالحق اذ جاءهم .

فهؤلاء المتطرفون في عداوتهم قـد تجمعـوا مع بني بكر الذين كـانت مناصرتهم سببأ لخرق العهد ، وقـد تجمعـوا في منطقة الخندمة ، فلمـا وصلها خالد ومن معه أمطروها وابلا من النبل ، فاضطر خالد أن يقاتلهـم حتى فرق جمعهم ، وكانوا عدداً قليلا يسهل تفريقه .

وأسلست قريش القياد ، ولم تنفر ، ورضيت بالبقاء ، ولم يقتل من أصحاب خالد الا اثنان قد ضلا وشذا بالانفراد، فيظهر أنهما قد تمكن الأعداء منهم ،

وكان في الذين هاجموا خالد بن الوليدبالنبل ، صفوان بن أمية وعكرمة بن أبي جهل فانطلقا خارجين الى البحر ،ولم يقبلا أن يقيما مع محمد صلى الله تعالى عليه وسلم بمكة أو تحت سلطانه ٠

بعد أن انهزم صفوان ، اتجه الى جدة ، فقد روى ابن اسحاق خرج صفوان بن أمية يريد جدة ليركب منها الى اليمن ، فقال عمير بن وهب : يا نبي الله ، ان صفوان بن أمية سيد قومه ،وقد خرج هاربا ، ليقذف نفسه في البحر ، فأمنه صلى الله تعالى عليه وسلم،قال هو آمن ، قال يا رسول الله،فأعطنى آية يعرف بها أمانك ، فأعطاه رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم عمامته التي دخل بها مكة ، فخرج بها عمير حتى أدركه ، وهو يريد أن يركب في البحر ، فقال يا صفوان فداك أبي وأمي ، الله الله في نفسك أن تهلكها ، فهذا أمان من رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم قد جئتك به ، قال : ويلك أغرب عني فلا تكلمني : قال ٠ أي صفوان ، فداك أبي وأمي ، أفضل الناس وأبر الناس ، وأحلم الناس وخير الناس ابن عمك ، عزه عزك ، وشرفه شرفك ، وملكه ملكك قال اني أخافه على نفسي ؟ قال هو أحلم من ذلك وأكرم ، فرجع معه حتى وقف به على رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، فقال صفوان : ان هذا يزعم أنك قد أمنتني ، قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، صدق قال فاجعلني فيه بالخيار شهرين قال أربعة أشهر ، هذا هو محمد صلى الله تعالى عليه وسلم في خلقه ، الرفيق اللين في قوته المتواضع في عزته يرجو العربي العنيف ، ليستأمنه فيؤمنه ، ولكنه يشترط لقبول الأمان الخيار شهرين ٠

ولقد جاءت الى النبي صلى الله تعالى عليه وسلم أم حكيم زوج عكرمة بن أبي جهل فأسلمت ، فاستأمنت لزوجها عكرمة فأمنه ، وكان قد سبق صفوان ، الى اليمن وتخلف صفوان كما ذكرنا ،فلحقت به الى اليمن ، فجاءت به فلما أسلم عكرمة بقيت معه زوجه أم حكيم،وكذلك كانت فاطمة بنت الوليد زوجا لصفوان بن أمية ، فلما أسلم بقيت زوجه ٠

وقد بقيتا بالزواج الأول ، وذلك أن من تسلم زوجه ، وهو كافر يعرض عليه الاسلام ، فان أسلم بقيت الزوجية كما هي من غير عقد جديد ، وذلك لأن

الفرقة لا تكون بسبب الاسلام ، وانماتكون بسبب اباء الزوج الاسلام بعد العرض عليه ٠

وان النبي صلى الله تعالى عليه وسلمعندما بلغه القتال الذي كان بين خالد ابن الوليد أرسل اليه النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ينهاه عن القتال ، فانتهى ، وروي أنه لم يقتل من المشركين الا بضعة عشر من الرجال ، وان مبدأ من دخل داره فهو آمن قد طبقه النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، فلم يقتل رجلا أغلق عليه داره ، وانه يذكرفي ذلك أن اثنين من أحماء أم هانىء بنت أبي طالب أخت علي بن أبي طالبرضي الله عنهما لجأ فتبعهما علي لأنهما لم يغلقا دارهما ، عليهما ، وفرا الى أم هانىء ، ليقتلهما ، ولكنها أغلقت عليهما باب بيتها ، وعلي يريد قتلهمافي دارها ، وأمام اصرار علي رضي الله تعالى عنه ذهبت أم هانىء الى النبيصلى الله تعالى عليه وسلم بأعلى مكة فوجدته يغتسل ، وفاطمة ابنته تستره بثوبه ، فلما اغتسل أخذ ثوبه فتوشح به ، ثم صلى ثماني ركعات ، ثم انصرفالى أم هاني : فقال مرحبا وأهلا ، يا أم هاني ، ما جاء بك ، فأخبرته خبرالرجلين ، وخبر علي ، فقال صلى الله تعالى عليه وسلم : أجرنا من أجرت ٠وأمنا من أمنت ، فلا يقتلهما ٠

دخول النبيّ المسجد الحرام :

٦٠٦ ـ دخل رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم البيت الحرام بعد أن ركز رايته بالحجون ثم نهض والمهاجرون والأنصار يحيطون به بين يديه ومن خلفه وحوله ، فأقبل الى الحجر الأسود ،فاستلمه ، ثم طاف بالبيت وعليه قوس، وحول البيت ستون وثلاثمائة صنم ، وهي متماسكة ، فجعل يطعنها بالقوس، ويقول : جاء الحق وزهق الباطل انالباطل كان زهوقا ، وما يبدي الباطل وما يعيد ، والأصنام تتساقط علىوجوهها بمجرد اصابتها بقوسه ، حتى أتى عليها جميعا تنكيسا ٠

وكان صلى الله تعالى عليه وسلم يطوف على راحلته ، ولم يكن ذلك محرما ، واقتصر في دخوله على الطواف ٠

ولقد جاءه علي كرم الله وجهه ومعهمفتاح الكعبة ، وأعطاه النبي صلى الله تعالى عليه وسلم وطلب أن يعطيهم الحجابة ، والسقاية معهم في يد العباس

رضى الله تبارك وتعالى عنه فدعا عثمان بن طلحة ، فأعطاه المفتاح ، وعثمان هذا هو ثالث الثلاثة الذين أسلموا في رحلة واحدة ، هم عثمان بن طلحة هذا وخالد بن الوليد ، وعمرو بن العاص •

وأمر بالكعبة ففتحت ودخلها ، ورأى فيها جملة من الصخور منحوتة في الصخر ، ورأى فيها صورة ابراهيم،واسماعيل يستقسمان بالأزلام وهي منحوتة أيضا ، فقال قاتلهم الله ، والله ان استقسما بها قط (أي ما استقسما) ورأى في داخل الكعبة حمامة من عيدان فكسرها ، وأمر بالصور فمحيت كلها ، ثم أغلق الباب على نفسه ، وعلى أسامة وبلال فاستقبل الجدار الذي يقابل الباب ، حتى اذا كان بينه وبينه قدر ثلاثة أذرع ، وقف وصلى •

ثم دار في البيت وكبر في نواحيه ،وفتح الباب •

وقد خرج من باب الكعبة ، وكانت قريش قد ملأت المسجد ينتظرونه ، فخرج اليهم من محراب الله وكأنه مقبل عليهم من عند رب البيت ، الذي جعله حرما آمناً ، والناس يتخطفون من حولهم •

وقد دهشوا ، يتعرفون ماذا يصنع•

فأخذ بعضادتي الباب وقال : لا اله الا الله وحده ، لا شريك له صدق الله وعده ، ونصر عبده وهزم الأحزاب وحده ، ألا كل مأثرة أو مال أو دم فهي تحت قدمي هاتين الا سدانة البيت ،وسقاية الحاج ، قال وقتل العمد ، وشبه السوط والعصا ، فيه الدية مغلظة ، فانه من الابل أربعون منها في بطونها أولادها •

يا معشر قريش ان الله تعالى أذهب عنكم نخوة الجاهلية ، وتعظمها بالآباء الناس من آدم وآدم من تراب ، ثم تلا الآية :

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٞ ﴿١٣﴾﴾ (١)

---

(١) الحجرات

العفو الكريم الشامل :

﴿ ١٩٨ خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ ١٩٩ ﴾ (١)

٦٠٧ ـ بهذا الامر الرباني أخذ نبي الرحمة،وأعظم عفو رآه الوجود الانسانى هو عفو النبي صلى الله تعالى عليه وسلم عن أهل مكة ، لقد اضطهدوه منذ البعثة وهو في الأربعين واستمر أذاهم غير مقطوع ، حتى ذرف في الستين ، لاينون عن ايذائه ، ثم قتاله ، ثم الدس الخبيث له ولرجاله فلما غلب وتغلب بعد أكثر من عشرين سنة ، لم يقل ويل للمغلوب ، كما يقول ساسة هذا الزمان ، بل قال مرحباً بالاخوة :وعفوا عما مضى ، وان تنتهوا يغفر لكم ما قد سلف ٠

قال صلى الله تعالى عليه وسلم لقريش وهم صفوف ينتظرون كلمته فيهم فقال لهم : يا معشر قريش ما تظنون أني فاعل بكم ٠

قالوا أخ كريم وابن أخ كريم ٠

قال فانى أقول لكم كما قال يوسف لاخوته لا تثريب عليكم اليوم يغفر الله لكم ، اذهبوا فأنتم الطلقاء ٠

وكان عثمان بن طلحة في يده مفتاح الكعبة قبل أن يسلم ، وقد أراده علي مع السقاية ، فرده النبي صلى الله تعالى عليه وسلم لعثمان بن طلحة ، وقال له : اليوم يوم بر ووفاء ٠

وذكر ابن سعد في طبقاته عن عثمان بن طلحة ، قال كنا نفتح الكعبة في الجاهلية يوم الاثنين والخميس ، فأقبل رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم يوما (أى قبل الفتح) يريد أن يدخل الكعبة ، مع الناس ، فأغلظت له فنلت منه فحلم عني ، ثم قال يا عثمان لعلك ترى هذا المفتاح يوما بيدي أضعه حيث شئت ٠

ولعل ذلك أيام الأذى الذي كان ينزل بالمؤمنين من قريش قبل الهجرة

---

(١) الاعراف

حتى أن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم يؤذى فيما يستحقه كل الناس ، والنبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، مستبشرلا يرجو الا ما عند الله ، مطرح ما عند الناس ٠

قال النبي لعثمان ابان ذلك ان المفتاح سيكون بيده يضعه حيث يشاء ، فقال متطاولا في الأذى بالقول : لقدهلكت قريش يومئذ وذلت ٠

فقال له رسول الله صلى الله تعالىعليه وسلم : بل عمرت وعزت يومئذ ٠

يقول عثمان فوقعت كلمته مني موقعا أي أنه توقع صدقها وهم في الجاهلية الغافلة ، وظن أن الأمر سيصيرالى ما قال الرسول صلى الله تعالى عليه وسلم ٠

وقد تحقق ما توقع ، وصدق قول الرسول ، فقد آل اليه المفتاح يضعه حيث يشاء ، فوضعه في يد عثمان بن طلحة ، الذي أغلظ له في القول من قبل ، ونال منه ٠

ويقول عثمان في حكايته : قال لي النبي صلى الله تعالى عليه وسلم: يا عثمان ائتني بالمفتاح ، فأتيته فأخذ مني المفتاح ، ثم دفعه الي ، وقال : خذوها خالدة تالدة ، لا ينزعها منكم الا ظالم يا عثمان ، ان الله تعالى استأمنكم على بيته ، فكلوا مما يصل اليكم من هذا البيت بالمعروف ٠

فلما وليت ناداني ، فرجعت اليه ،فقال ألم يكن الذي قلت لك ، قال فذكرت قوله صلى الله تعالى عليه وسلم لي قبل الهجرة ، سترى هذا المفتاح بيدي أضعه حيث شئت ، قلت بلى : أشهد أنك رسول الله صلى الله تعالى عليك وسلم ٠

ومع السماحة التي تدني أشد القلوب جفاء ، ومع هذا العفو الكريم الذي يجمع الشارد ، ويدني القاصي،كانت قلوب بعض القرشيين ما زال يسكنها الضعف في الايمان والبغض الجاهلي ٠

يروي سعيد بن المسيب يقول تطاول لأخذ المفتاح رجال من بني هاشم فرده رسول الله صلى لله تعالى عليه وسلم لعثمان بن طلحة ٠

وأمر رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم بلالا أن يصعد الى الكعبة ، فيؤذن ، وأبو سفيان بن حرب ، وعتاب بن أسيد ، والحارث بن هشام وأشراف قريش جلوس بفناء الكعبة ، فقال عتاب : لقد أكرم الله أسيداً ، ألا يكون سمع هذا فيسمع ما يغيظه ، فقال الحارث أما لو أعلم أنه على حق لأتبعته ٠

وقال أبو سفيان لا أقول شيئاً ، لو تكلمت لأخبرت عني هذه الحصباء قالوا ما قالوا ، والنبي ليس بينهم ، وهم يقولونه مسرين هامسين ، فخرج عليهم رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم فقال قد علمت الذي قلتم ، ثم ذكر لهم ما قالوا ٠

فقال عتاب انك رسول الله ، والله ما اطلع على هذا أحد كان معك ، فنقول أخبرك ٠

الأمان العام :

٦٠٨ ــ كان هذا العفو الشامل لقريش أمانا لكل أهل مكة ، ودعا الى ألا يقتل الا تسعة ، أهدر رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم دمهم ، وأباح قتلهم ، ولو تعلقوا بأستار الكعبة وهم عبد الله بن أبي السرح ، وعكرمة بن أبي جهل قبل اسلامه ، وعبد الله بن خطل ، والحارث بن نفيل بن وهب ، ومقيس بن صبابة ، وهبار بن الأسود ، وقينتان لابن خطل كانتا تغنيان بهجاء رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم وسارة مولاة لبعض بني عبد المطلب ٠

وهؤلاء كادوا كيداً شديداً للاسلام ، وبعضهم مع ارتداده قتل مسلماً عامداً بعد أخذ الدية أما عبد الله بن سعد بن أبي السرح فكان قد آمن أو أسلم ، وكان يكتب للوحي ، ثم ارتد بعد اسلام ، وكذب كذبة خطيرة ، فادعى أنه كان يغير فيما يملي عليه النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، فكان النبي يأمره بكتابة عزيز حكيم ، فيكتب غفور رحيم ٠

فكانت اباحة دمه حماية للاسلام من المرتدين ، فلما أبيح دمه فر الى عثمان ابن عفان ، وكان أخاه في الرضاعة ، مع صلة النسب ، فذهب به عثمان

الى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم يستأمن له فصمت رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم عنه صمتاً طويلا ،رجاء أن يتقدم أحد الحاضرين لقتله ، ثم قال بعد الصمت الطويل نعم ـ فأخذالأمان اكراما لعثمان وان النبي صلى الله تعالى عليه وسلم قال في عثمان انه تستحي منه الملائكة ٠

وقال النبي صلى الله تعالى عليه وسلم لمن حضره بعد انصراف عثمان به « أما كان فيكم رجل رشيد ، يقوم الى هذا حين رآني قد صمت فيقتله ،فقالوا يا رسول الله هلا أومأت الينا ، فقال ان النبي لا يقتل بالاشارة ، وفي رواية أنه قال : لا ينبغي لنبي أن تكون له خائنة الأعين » ٠

ولقد كان من المقربين الى عثمان في خلافته،ولاه مصر بعد عمرو بن العاص، وكان ممن لهج به دعاة الفتنة في آخر عهد عثمان آخذين على عثمان توليته وقربه ، وأنه لم يكن عدلا ، ولعل ذلك كان من أشد ما لهجوا به وأقواه ٠

وعبد الله بن أخطل ، فقد أسلم ، وبعثه الله تعالى ليجمع الصدقات ، وبعث له رجلا من الأنصار ، وكان معه مولى له ، فغضب عليه فقتله ، ثم ارتد مشركا ، وكانت له قينتان فكانتا تغنيان بهجاء رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم فلهذا أهدر دمه ودم القينتين ،فأما هو فقد قتل متعلقا بأستار الكعبة وقتلت احدى القينتين واستؤمن للاخرى، وأما الحارث بن نفيل بن وهب فقد كان يؤذي رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم بمكة ، ولما تحمل العباس رضي الله عنه بفاطمة وأم كلثوم ليذهب بهما الى المدينة يلحقهما برسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم في المدينة أول الهجرة نخس بهما الحويرث هذا الجمل الذي هما عليه ، فسقطتا على الأرض ٠

فلما أهدر دمه قتله على بن أبي طالب زوج فاطمة الزهراء ٠

وأما مقبس بن صبابه ، فقد آمن ثم ارتد ، ثم أخذ دية ، ثم قتل قاتل أخيه غدراً ، وذلك أن أخاه كان مسلماً فقتل خطأ في أعقاب غزوة بني المصطلق فجاء هو وأعلن اسلامه ، وأخذ دية أخيه من بيت المال ، وقد بينا ذلك ، ولكنه ما ان أخذ الدية حتى عدا على قاتل أخيه خطأ ثم ارتد عائدا الى مكة ، فكان من الحق أن يقتل لردته ، ولقتله مؤمناً عمداً وقد أخذ الدية ٠

وقد قتله رجل من قومه ٠

وسارة مولاة لبني عبد المطلب ، ثم لعكرمة بن أبي جهل ، وكانت تؤذي رسول الله وهو بمكة ، وروي عن بعضهم أنها هي التي حملت الكتاب الذي أرسله حاطب بن أبي بلتعة ،وكأنها عفي عنه ، ثم هربت ثم أهدر دمها فهربت حتى استؤمن لها من رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم فأمنها فعاشت الى خلافة الامام عمر فوطنها رجل فرسا فماتت ٠

وأما عكرمة ، فكان اهدار دمه قبل أن يسلم وقد هرب الى اليمن ، فلما أسلمت امرأته استأمنت له رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم فأمنه فذهبت الى اليمن ، فتقدم للنبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، وكان النبي صلى الله تعالى عليه وسلم حريصا على ألا يؤذيه ،فعندما جاء مسلما قال لأصحابه ، لقد جاءكم عكرمة بن أبي جهل مسلما فلاتسبوا أباه ، لأن ذلك يؤذي الحي ، ولا يصيب الميت ، وهكذا يكون كرم النبي العطوف الألوف ٠

ويروى أن الايمان دخل قلبه قبل أن يجيء اليه امرأته ، وذلك أنه وهو في السفينة عصفت بها عاصفة وقال بعض أهل السفينة لبعضهم ، ان آلهتكم لا تغنى عنكم شيئا هنا ، فأثر ذلك في نفس عكرمة وعقله ، ورب لفتة تحول القلب من الكفر الى الايمان ، وقال :« والله لم ينج في البحر الا الاخلاص وانه لا ينجي في البر غيره ، اللهم ان لك علي عهداً ان أنت عافيتني مما أنا فيه آتى محمداً حتى أضع يدي في يده فلأجدنه عفواً كريماً » ٠

ثم جاءته امرأته ، وقد طاب نفساً بالاسلام ٠

وأما هبار بن الأسود فهو الذي عرض لزينب بنت رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم عندما هاجرت ومكن لها زوجها من الهجرة ، فنخس هبار هذا راحلتها حتى سقطت على صخرة ،وكانت حاملا ، فسقط جنينها ٠

الأنصار يتوهمون أن النبي لا يعود إلى المدينة :

٦٠٩ ــ كانت اقامة النبي صلى الله تعالى عليه وسلم رابطة بالود بينه وبين قوم كانوا له أعداء آذوه حتى خرج من عندهم يائساً من أن نتحقق الدعوة الى الرسالة الالهية فيهم ، وأنه لا سبيل الا أن يهاجر ، ثم كانت الحروب المفرقة ٠

ولما فتح مكة كان لابد أن يزيل الاحن من النفوس فلان ورفق ، وعفا وصفح الصفح الجميل ، كما أمره ربه اذ قال له « فاصفح الصفح الجميل » ، فظن الأنصار الذين آووا ونصروا أن مهمتهم قد انتهت ٠

لقد قالوا فتح الله مكة على رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، وهي بلده ، وموطنه ، جال ذلك في نفوسهم وتحدثوا به فيما بينهم ، ثم قالوا : أترون رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم اذا فتح الله تعالى عليه أرضه وبلده أن يقيم بها ٠

وكان رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم وهم يحدثون أنفسهم بذلك يدعو على الصفا والمروة رافعا يده ، فلما فرغ من دعائه اتجه الى أنصاره فقال لهم : ماذا قلتم ، قالوا : لا شيء يا رسول الله ، فلم يزل بهم حتى أخبروه ، فقال صلى الله تعالى عليه وسلم : معاذ الله ، المحيا محياكم ، والممات مماتكم ، أي أنه يعيش فيهم حتى يموت بينهم ، انه نصره الله تعالى بهم ، وخذله غيرهم فهو منهم ، وهو كما قال في موضع سيجيء : انه لولا الهجرة لكنت امرأ من الأنصار ، ولو سلك الناس شعباً ، وسلك الأنصار شعباً لسلكت شعب الأنصار ٠

حرمة مكة

٦١٠ ـ قال الله تعالى :

﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا ءَامِنًا وَيُتَخَطَّفُ ٱلنَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ ۚ أَفَبِٱلْبَٰطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ ٱللَّهِ يَكْفُرُونَ ﴿٦٧﴾ ﴾ (١)

والقتال في البيت الحرام على ذلك حرام ، وان الرجل كان يلقى قاتل أخيه أو أبيه ، فلا يمسه ، والمنازعات تكون خارجة لكي يتوافر للناس الأمن في أول بيت وضع للناس الذي ببكة مباركا ، وهدى للعالمين ٠

ومن أجل ذلك نهى النبي صلى الله تعالى عليه وسلم نهيا مؤكدا عن القتل والقتال ، وأمن الناس حتى لا يضطروا الى المدافعة ، فقال : من كان في البيت الحرام فهو آمن ، ومن أغلق بابه فهو آمن ، وصار يعطي الأمان لكل من يطلبه ، الا أولئك الذين كان لهم اجرام واضح ، وبعضهم ممن أسلم ثم ارتد ، ومن كان مثل هذا فيه ، وقتل عمداً مؤمناً بعد أخذ دية أخيه ٠

وذلك كله ليحفظ حرمة البيت الحرام ، وشرف مكة وحرمتها ٠

ولكن مع هذا الاحتياط الشديد في حرمة البيت ومنعها من أن تمس ، مع ذلك كان من المشركين الذين لم يدركوا معنى السلام من هاجموا قوات خالد بن الوليد ، واضطر جيشه أن ينضح عنه النبل القاتل بالقتال فقاتل ، وقتل من جيشه اثنان وقتل من المشركين بضعة عشر رجلا ٠

ولا شك أنه في هذه الحال انما أباح حرمة البيت الحرام أولئك الذين هاجموا ، وهم المشركون ، لا الذين دافعوا ، وهم من كانوا في جيش خالد ٠

ولكن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم أباح دم الذين أهدر دماءهم ، ولو تعلقوا بأستار الكعبة وقتل فعلا أحدهم ، وهو متعلق بأستار الكعبة ٠

(١) العنكبوت

وان حرمة مكة باقية خالدة ، وان امتهـان حرمتها كان لحالة استثنائية ، لا يوجد مثلها قط ، ولذلك خطب بذلك مؤكدا حرمتها ، التي اختصها الله تعالى، فخطب قائلا بعد أن حمد الله تعـالى ،وأثنى عليه ، ومجده بما هو أهله ٠

« أيها الناس ، ان الله تعالى حرم مكة يوم خلق السموات والأرض ، فهي حرام كحرمة الله تعالى الى يوم القيامة ،فلا يحل لامرىء يؤمن بالله واليوم الآخر ، أن يسفك فيها دماً ، أو يعضد بها شجرة ، فان أحد ترخص لقتـال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ،فقولوا له : ان الله أذن لرسـوله ولم يأذن لكم ، وانما حلت لي سـاعة من زمان،وقد عادت حرمتها اليوم كحرمتها بالأمس ، فليعلم الشاهد فيكم الغائب » ٠

وكلام النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، ليبين للناس حرمة مكة الدائمة، وانه ليعرف الناس فجور الأمويين ، وأتباعهم الذين رموا الكعبة بالمنجنيق ، فارتكبوا ما كان الجاهليون يتعففـون عنه ، فهم أشد جرما ولا حول ولا قوة الا بالله تعالى ٠

رسول الله صلى الله عليه وسلم يحطم الأوثان

٦١١ ـ اتجه رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم من بعد أن خضعت قريش راضية أو راهنة الى تجديد بعض أجزاء البيت ، فأمر أبا أسيد الخزاعي بذلك •

ولم ينغص على أحد نفسه ، بل أخذ منهم الظاهر ، وترك لهم ما بطن، ويروي البيهقي أن أبا سفيان كانت تحدثه نفسه أن يثير القتال بينه وبين هذا النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ،وهو حديث لم يتكلم به ولم يطلع عليه أحدا واذا النبي صلى الله تعالى عليه وسلم يقول له : « ليخزينك الله » وكان كأنه يحدث النبي صلى الله تعالى عليه وسلم في حديث بينهما ، فقال أبو سفيان :

لا يعلم هذا أحد وان النبي صلى الله تعالى عليه وسلم يمر على الأصنام، فيغمزها بقوسه،فتتساقط ،وهو يقول:

﴿ وَقُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَٰطِلُ ۚ إِنَّ ٱلْبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴿٨١﴾ ﴾(١)

وقد ذكرنا ذلك •

ولكنه لم يكتف بما صنع هو ، فقد أرسل رجاله سرايا الى أماكن الأوثان ، فحطموا ما حول الكعبة ، ثم حطموا ما هو خارجها ، فكسرت اللات والعزى ومناة الثالثة الأخرى ونادى مناديه في أهل مكة : « من كان يؤمن بالله واليوم الآخر ، فلا يدع في بيته صنما الاكسره » ، وصار الذين دخلوا في الاسلام يتسابقون في كسر ما تحت أيديهم من الأوثان ، وبعث خالد بن الوليد الى العزى لخمس بقين من شهر رمضان ليهدمها ، فخرج اليها في ثلاثين رجلا حتى لا يكون من يستطيع مقاومتهم فهدمها •

---

(١) الاسراء

ويقول الرواة انه رجع الى رسول الله فأخبره ، فقال هل رأيت شيئاً قال : لا . قال فارجع اليها ، فانك لم تهدمها ، فارجع اليها فاهدمها ، فرجع خالد وهو متغيظ ، فجرد سيفه فخرجت اليه امرأة عارية سوداء ناشرة شعر رأسها ، فجعل السادن يصيح بها ،فضربها خالد فقتلها ، وجاء الى الرسول وأخبره ، فقال له الرسول نعم تلك العزى وقد أيست أن تعبد في بلادكم ويظهر أن هذه المرأة كانت تختفي وخالد لم يكن يراها ، فلما رفع سيفه واعتقدت أنها لا محالة ظاهرة ، ظهرت،فقتلها .

وكانت بنخلة ، وكانت قريش ، وبنو كنانة ، وكانت أعظم أصنامهم ، وكان سدنتها من بني شيبان .

ثم بعث عمرو بن العاص ، الى سواع ، وهو صنم لهذيل ليهدمه ، فانتهى اليه ، وعنده السادن ، قال ما تريد ؟

قال : أمرني رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم أن أهدمه .

قال : لا تقدر على ذلك ، قال ولم ؟قال تمنع ، قال عمر وحتى الآن أنت على الباطل ويحك فهل يسمع أو يبصر،فدنا منه فكسره ، وأمر عمرو أصحابه أن يهدموه ثم قال عمرو للسادن : كيف رأيت ؟ قال أسلمت لله تعالى .

وهذا يثبت أن ايمانهم بهذه الاصنام مبني على وهم توهموه فيها ، فلما انكشف لهم كفروا بها .

وبعث سعد بن زيد الأسهلي ، الى مناة عند القديد ، وكانت صنما للأوس والخزرج وغسان وغيرهم ممن يجاورون الشام أو في طريقه .

فخرج سعد في عشرين فارساً ،حتى انتهى اليها وعندها سادن .

فقال السادن ماذا تريد ؟ قال سعد هدم مناة ، فقال أنت وذاك ، وكأنه يتحداه ، فأقبل سعد يمشي اليها ،فخرجت اليه امرأة عارية سوداء وثائرة الرأس تدعو بالويل وتضرب صدرها فضربها سعد ، فقتلها ، وأقبل الى الصنم فهدمه وكسره ، ولم يجدوا في خزائنه شيئاً .

هذه عزمة قوية من محمد صلى الله تعالى عليه وسلم ، أزال بها ما كانوا

يعبدونه من أحجار لا تضر ولا تنفع ،وفعل ما فعله جـده ابراهيم الخليل عليه السلام ، فجعلهم جذاذاً ، ولم يبقكبيراً لهم ، لأنه لا كبير يبقى أمام معول محمد صلى الله تعالى عليه وسلم ، وقدجعلها جذاذاً بعد أن فقـدت الأوهام التي كـانت تحيط بالنفس العـربيةحولها •

وبذلك انتهت دولة الأوثان في البلاد العربية ، ولقد رآها الذين كـانوا يعبدونها ، لا تدفع محطمها ، ولا تمنعه، اذ هي لا تملك لنفسها نفعاً ، ولا ضرأ ، وقد يئس الشيطان من بعدها أنيعبد في بلاد العرب •

بَعْثُهُ خالد بن الوليد إلى جذيمة

٦١٢ ـ عقب تحطيم خالد بن الوليد العزى أرسله النبي صلى الله تعالى عليه وسلم الى جذيمة من كنانه داعياالى الاسلام ، ولم يبعثه مقاتلا ، لأنه لا قتال في مكة وما حولها من القرى والبوادي بعد أن دخلت مكة في طاعة النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، ولم يكن ثمة حاجة الى القتال ولم يكن منهم غدر أو خيانة ،حتى يعاقبوا على غدرهم وخيانتهم .

أرسله صلى الله تعالى عليه وسلم ومعهم قبائل من العرب من سليم بن منصور ، ومدلج بن مرة ، ومعهم بعض المهاجرين والأنصار كعبد الله بن عمر ، وسالم مولى حذيفة .

وكانت عدة من خرج فيهم خمسين وثلاثمائة من بني سليم والمهاجرن والأنصار .

قال لهم خالد ، ما أنتم قالوا :مسلمون قد صلينا وصدقنا بمحمد ، وبنينا المساجد فى ساحتنا ، وأذنا فيها .

وكان حقاً على خالد بن الوليد أن يكف عند هذا ، لأن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ما أرسله مقاتلا ، بل أرسله داعيا وهاديا ، ولكنه تخلى عن هذه الصفة العالية ، وأبى الا أن يكون مقاتلا ، وبرر ذلك بأنهم يحملون السلاح .

قال لهم فما بال السلاح عليكم .

قالوا ان بيننا وبين قوم من العرب عداوة ، فخفنا أن تكونوا هم ، كان عليه بعد أن يكتفي بذلك ، أو أن يتحرى عن صدق كلامهم ، أو أن ينزع السلاح من أيديهم .

ولكنه لم يفعل ، بل استأسرهم ،بعد أن وضعوا السلاح كما أمر ، وما كان له ذلك ، فأوثقهم وفرقهم في أصحابه .

وكان حقاً عليه أن يأخذهم أسارى الى النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، ليفعل فيهم ما يحكم الله تعالى ، ولكنه في السحر ، نادى خالد بن الوليد ، من كان معه أسير ، فليضرب عنقه ، فأما من كان معه من بني سليم فقتلوا من في أيديهم من الأسرى المنكوبين بخالد.

وأما المهاجرون والأنصار أصحاب رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم حقا وصدقا ، فانهم أرسلوا أسراهم ، ولم يقتلوهم ، لأن الأسرى لا يجوز قتلهم ، لأنهم مسلمون .

ويلاحظ أنه كان فيهم رجل أدرك نية خالد يقال له جحدم ، ولم يعتقد أنها نية اسلامية ، قال لقومه ، لما أمرهم خالد بأن يضعوا أسلحتهم : يا بني جذيمة انه خالد ، انه خالد ، والله ما بعد وضع السلاح الا اسار ، وما بعد الاسار الا ضرب الأعناق ، انتقل رجل من القوم ، وذهب الى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم فقال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم : هل أنكر عليه أحد ؟ قال نعم : قد أنكر عليه رجل أبيض ربعة ، وأنكر عليه رجل آخر طويل مضطرب ، فاشتدت مراجعتهما فقال عمر بن الخطاب ، أما الأول فابني عبد الله يا رسول الله ، وأما الآخر ، فسالم مولى أبي حذيفة .

عندما بلغ النبي صلى الله تعالى عليه وسلم فعل خالد هذا رفع يده الى السماء ضارعا : اللهم اني أبرأ اليك مما صنع خالد بن الوليد .

ولقد رأى النبي صلى الله تعالى عليه وسلم أن فعل خالد لم يكن من الاسلام، ولعله رأى أنه بقية من بقايا الجاهلية .

أول ما فكر صلى الله تعالى عليه وسلم أن يرأب الصدع ، ويداوي القلوب بالديات يرسلها ، فدعا علي بن أبي طالب ، فقال صلى الله تعالى عليه وسلم : « يا علي اخرج الى هؤلاء القوم فانظر في أمرهم ، واجعل أمر الجاهلية تحت قدميك » ، هذا أمر في موضعه وفي وقته ، فان الجاهلية في هذا الأمر قد بدت نائبة ظاهرة .

فخرج علي ، ومعه مال كثير قد بعث به رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، فودي لهم الدماء ، وما أصيب لهم من الأموال ، حتى اذا لم يبق شيء من دم

أو مال الا وداه بقيت معه بقيــة من المال ، فقال لهم على حين فرغ منهم ، هل بقي لكم دم أو مال لم يود لـكم ؟قالوا لا ، قال أعطيتكم هذه البقيــة احتياطا لرسول مما لا يعلم ولا تعلمون •

جاء علي الى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم فقص عليه ما صـنع ، فقال أحسنت وأصبت ولكن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم لا يزال عـلى ألم وأسى ، ولذا استقبل القبلة قائماً شاهراً يديه ، حتى ليرى ما تحت منكبيه، « اللهم اني أبرأ مما صـنع خالد بن الوليد ثلاث مرات ، لقد أصـاب فعل خالد قلب النبي صلى الله تعالى عليـه وسلم ، لأنه قتل وهو مبعوثه أبرياء »•

وقد ورد ما يدل على الاعتذار عن فعل خالد الذي لا يقبل الاعتذار ،ولو كان عذر لأبداه للنبي صلى الله تعـالى عليه وسلم : قالوا انهم قالوا صبأنا ، صبأنا يريدون أسلمنا ، فظنهم قـد كفروا فقتلهم ، وهذا كلام غير مقبول في ذاته لأن سنده ضعيف ، وما كان له أن يقاتلهم على ذلك ، وقد تبين أنهم لا قدرة لهم على القتال ، فكيف يقتلهم انه ان صح ذلك لا يكون قتالا محمديا، فقد أسرهم ، فلماذا يقتلهم في السحر•

ان الأمر مهما يؤت من جـوانبه لايبرز فيه الا العمل الجاهلي ، وقـد صرح بذلك خالد بن الوليد في مجادلة له مـع عبد الرحمن بن عـوف الذي كان يلومه •

قال ابن اسحاق قد كان بين خالد بن الوليد ، وعبـد الرحمن بن عـوف (الصحابي المهاجر أحد العشرة المبشرين بالجنة) كلام في ذلك ، قـال له عبد الرحمن بن عوف عملت بأمر الجاهلية في الاسلام ، فقال خالد : « انما ثأرت بأبيك ، فقال عبد الرحمن : كذبت ، قد قتلت قاتل أبي ، ولكنك ثأرت لعمك الفاكه بن المغيرة حتى كان بينهما شر » •

عبد الرحمن بن عوف يقول قـولة الاسلام ، وخالد يقول الثارات ، وقـد بلغ النبي صلى الله تعالى عليه وسـلم ما قال خالد لعبد الرحمن بن عـوف فقال لائمـا لخالد ، مبيناً له مكانه من أصحابه •

مهلا يا خالد ، دع عنك أصحابي ،فوالله لو كان لك أحد ذهبا ، ثم أنفقته في سبيل الله ما أدركت غدوة رجل من أصحابي ولا روحته •

نعم هم الأصحاب الذين رضي اللهعنهم ورضوا عنه في بيعة الرضوان تحت الشجرة .

ومهما يكن حكم التاريخ في عمل خالد جاهلية واسلاما ، فانه سيحكم لا محالة في هذه الواقعة ، بأن فيها جاهليته ان لم يكن كلها جاهليا ،ورحم الله عمر بن الخطاب عندما عزله فقد قال : « ان في سيف خالد لرهقا »ولعل كان أشده مما كان واضحا في أمر جذيمة .

واننا اذ ننقد فعل خالد في هذا نتابع النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، ونراه ينطق بالحق ، واذا كان من الناس من كان ينقد عليا وعثمان ومن يماثلهما ، فان لنا أن ننقد عمل خالدفي هذا ، وما كنا مبتدعين في نقده ، لأن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم بريء من صنيعه ، ووضح له فعله مع المؤمن المهاجر أحد العشرة المبشرين بالجنة واستنكره .

مُدّة إقامة رسول الله بمكة

٦١٣ ــ أقام رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم بقية شهر رمضان يقصر من الصلاة ، فيصلى الأربع اثنتين، ويفطر ، لأنه كان لا يزال مسافرا ، ولم يعد نفسه في مكة في وطنه الأصلي وهو مكة ، لأنه لم يبق له دار تعد بيته الأصلي ، وقال ما أبقى لنا عقيل من دار ، وقد استمر يترخص رخصة المسافر،لأنه لم ينو نية الاقامة،فكان على سفره يترخص في الصلاة والصيام معاً ٠

وان رمضان قد انتهى وهو بمكة ،فلم يكن محل رخصة الافطار ، انما كانت رخصة القصر قائمة وكان هو يؤم المصلين المقيمين ، يقول بعد تمام الركعتين : « يأهل البلد صلوا أربعافانا سفر ، وقد اختلف في مدة اقامة رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ،فروي أنها خمس عشرة ليلة ، وروي أنها ثماني عشرة ليلة ، وروي أنها تسع عشرة ليلة ، والله أعلم بأصح الروايات ٠

أحكام فقهية شرعت في الفتح

٦١٤ ـ أول حكم يتجه الفقهاء الى الكلام فيه أمكة فتحت عنوة أم فتحت صلحا فكثيرون من العلماء يقولون انها فتحت عنوة ، فتكون أرضها خراجية ولا تكون عشرية ، لأن الجيوش الاسلامية دخلتها فاتحة ، وقتل فيها قتلى ، فقتل نحو عشرين منهم نحو اثني عشر من المشركين ، وبعض المؤمنين ، وكان يؤمن بعضهم بأمان خاص من النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، والأمان العام الذي قرره النبي صلى الله تعالى عليه وسلم كان ملاحظاً معنى خاصاً ، وهو أن من دخل بيت أبي سفيان فهو آمن ،ومن دخل المسجد فهو آمن ، ومن أغلق بيته فهو آمن وبالمفهوم أن من رؤي في غير بيته ، وفي غير واحد من هذه البيوت ، فانه مباح الدم الا بأمن خاص ، وهذا يدل على أنهم حربيون ، والحربيون حتى يصدر الأمان لا يقال انهم فتحت أرضهم صلحا ٠

ولأنه لم يكن ثمة عقد صلح كان الأمان نتيجة له ، ولأنه لم تفرض جزية على أحد من أهل مكة ، حتى يقال انهم أعطوا الجزية ، وان أرض مكة لم تكن خراجية ، هذه وجهة نظر من قالوا ان مكة فتحت عنوة ٠

ويرى الامام الشافعي مع كثيرين من الفقهاء أن مكة لم تفتح عنوة ، بل فتحت صلحا مما سبق به النبي صلى الله تعالى عليه وسلم من أنه أعطى الأمان لأهلها بقوله من دخل دار أبي سفيان فهو آمن ،ومن دخل المسجد فهو آمن ومن أغلق بابه فهو آمن ، فكان ذلك تأميناً عاماً ،ثم صرح بالتأمين عند أمن الجميع ، وأباح دم التسعة الذين ذكرهم وأجاز قتلهم ، ولو كانوا متعلقين بأستار الكعبة ، وانه لم يقسم أرض مكة بين الغانمين ، ولم يعتبر أموال أحد من أهلها غنيمة ولا نفلا من الأنفال ،والنبي صلى الله تعالى عليه وسلم نهى عن القتل والقتال ، فكيف يقال بعد ذلك انها فتحت عنوة ، ان المقياس الضابط بين العنوة والصلح هو أن يكون تسليم أهل البلدة في العنوة بقوة السيف والغزو ،

وأما الصلح فهو التسليم من غير قتال ولا أهل ، ولقد سلم أهل مكة من غير قتال ، وكان الأمن الكامل من الرسول الكريم هو في قوله اذهبوا فأنتم الطلقاء .

وانا نميل الى أن مكة لم تفتح لا عنوة ولا صلحا ، فلم يتحقق أصل الفتح ، وانما تحقق اللقاء بالمودة والرحمة من غير عقد ، بل هو أعلى من العقد ، وهو صلة الرحم بعد قطعها من قريش ، ولو أننا اخترنا الموازنة بين الرأيين ، وكان لابد أن نختار أحدهما ، لاخترنا أنها لم تفتح عنوة .

مكة وما يحرم فيها :

٦١٥ ــ قلنا ان الله تعالى حرم القتال في مكة المكرمة ، ونقلنا لك قول الرسول في ذلك ، والآن سنذكر بعض الأحكام المتعلقة بمكة فنقول .

ان الله تعالى حرم الصيد في الحرم الشريف مكة وما حولها لمن أحرم بالحج ، ولقد قال تعالى في ذلك :

﴿ أُحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ الْبَحْرِ وَطَعَامُهُ مَتَاعًا لَّكُمْ وَلِلسَّيَّارَةِ ۖ وَحُرِّمَ عَلَيْكُمْ صَيْدُ الْبَرِّ مَا دُمْتُمْ حُرُمًا ۗ وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٩٦﴾ ﴾ (١)

ولقد ذكر النبي صلى الله تعالى عليه وسلم تحريم القتل والقتال في مكة ، وذكر بعده محرمات أخرى فقال صلى الله تعالى عليه وسلم : « ان الله حرم مكة يوم خلق السموات والأرض ، فهي حرام بتحريم الله سبحانه وتعالى ، لا تحل لأحد قبلي ، ولا تحل لأحد بعدي ، ولم تحل لي الا ساعة الدهر ، لا ينفر صيدها ، ولا يعضد شوكها ، ولا يختلى خلاؤها ، ولا تحل لقطتها الا لمنشد ، فقال العباس الا الاذخر ، فانه لابد منه للدفن والبيوت ، فسكت النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، ثم قال الا الاذخر » .

هذا ما رواه البخاري ، وقد انفرد بروايته ، وحسب البخاري صدقا ، لأنه صادق في جملة ما رواه ، وان أخذت عليه بعض الأحاديث لمتنها .

---

(١) المائدة

وبذلك ننتهي من بيان هذا الحديث :

(أ) بأنه يحرم الصيد في الحرم ،كما قال النبي صلى الله تعالى عليه وسلم لا ينفر صيدها وكلها حرام آمن من كل نواحيه ٠

(ب) وبأنه لا تقطع أشجارها ، لتوجد جوا صالحا من جوها ، وان شوكها لا يعضد ، ولا يحتجز خلاء لأحد فلا اقطاع فيها لأحد ، ولا تحل لقطتها ، الا بعد التعريف بها ، وذلك حكم عام لا تختص به مكة ، فان اللقطة لا تحل الا بعد تعريف صاحبها ، ويكون حلها أن يتصدق بها فان كان اللاقط مستحقا للصدقة تصدق بها على نفسه ٠

وقد لوحظ أن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، حرم على المقيم في مكة مالا يكون ضروريا للاقامة ، فنبه العباس أن الاذخر محتاج اليه في البيوت ، ومحتاج اليه في دفن الموتى ، فذكر للنبي صلى الله تعالى عليه وسلم فتفكر عليه الصلاة والسلام ، ثم وافق ، ولعل الوحي قد نزل عليه بذلك ، فما كان كلامه اتباعا للعباس ، ولكن كان اتباعا لأمر ربه ٠

ومهما يكن من ذلك ، فان العباس بادراكه الاسلامي ، فهم أن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم أباح من زرع مكة ما لا يمكن الاستغناء عنه فقال مقاله ، فنزل الوحي بما قال ، فكان الوحي قد وافق نظره كما يذكر أنه وافق رأي عمر في بعض الأمور التي كان يؤخذ الرأي فيها ٠

فما كان النبي صلى الله تعالى عليه وسلم تابعا للعباس ، بل جاء الوحي بموافقته ، كما جاء الوحي بموافقة عمر كما ادعى في بعض المواضع ٠

لقد حرم الله تعالى القتل في مكة ،أفلا يصح القتل قصاصاً ، أو اقامة الحد أو نحو ذلك قرر العلماء أن ذلك جائز ، فيجوز فيها القصاص ، وتتبع العصاة وعقابهم ، ولذلك قال عمرو بن سعيد اجابة لأبي شريح ، قال أنا أعلم بذلك منك يا أبا شريح ، ان الحرم لا يفيد عاصياً (أي لا يحمي عاصيا ، ولا فاراً بدم ، ولا فاراً بجزية) ٠

وهكذا فالمحرم القتل بغير حكم شرعي ، أما القصاص بحكم القصاص ، فانه يجوز ، ولقد استباحت خزاعة أن تأخذ بثأرها من بعض بني بكر ،فقتلت واحداً ، فنهاها نهياً قاطعاً ، ودفع دية المقتول ٠

ولقد خاطب خزاعة عند ودي قتيلها، يا معشر خزاعة ، ارفعـــوا أيديكم عن القتل ، لقد قتلتم قتيلا فوديتـــهفمن قتل بعد مقامي هذا ، فأهله بخير النظرين ، ان شاءوا قدموا قاتله ، وانشاءوا نعقله لاي وثبه •

ولقد قال صلى الله تعالى عليه وسلم:« ان أعدى الناس من قتل في الحـــرم أو قتل غير قاتله ، أو قتل بدخـــولالجاهلية » صدق رسول الله صـــلى الله تعالى عليه وسلم ، فلا يقتل بالكبير فيزعمهم عدد من قبيل القاتل •

دية شبه العمد

٦١٦ - أعلن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم دية القتل شبه العمد ، ذلك أن القرآن الكريم بين حكم القتل العمد ، فقال تعالى :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡقِصَاصُ فِي ٱلۡقَتۡلَىۖ ٱلۡحُرُّ بِٱلۡحُرِّ وَٱلۡعَبۡدُ بِٱلۡعَبۡدِ وَٱلۡأُنثَىٰ بِٱلۡأُنثَىٰۚ فَمَنۡ عُفِيَ لَهُۥ مِنۡ أَخِيهِ شَيۡءٞ فَٱتِّبَاعُۢ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَأَدَآءٌ إِلَيۡهِ بِإِحۡسَٰنٖۗ ذَٰلِكَ تَخۡفِيفٞ مِّن رَّبِّكُمۡ وَرَحۡمَةٞۗ فَمَنِ ٱعۡتَدَىٰ بَعۡدَ ذَٰلِكَ فَلَهُۥ عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴿١٧٨﴾ وَلَكُمۡ فِي ٱلۡقِصَاصِ حَيَوٰةٞ يَٰٓأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ﴿١٧٩﴾ ﴾ (١)

بهذا النص الكريم ثبت أن عقوبة القتل العمد القصاص ، ولكن رخص لولي المقتول أن يختار الدية بعد القصاص ، ويسمى الفقهاء الدية في هذه الحال قصاصاً معنوياً ، وكان ذلك تخفيفاً من الله ورحمة لأنه قد يكون من مصلحة ولي الدم أن يرضى بالدية أو العفو كأخ يقتل أخاه ، وولي الدم ، وهو الأب ، فاذا كان القصاص من غير فرصة الدية أو العفو ، خسر المكلوم ولديه ، فكان هذا الترخيص بالدية أو العفو تخفيفاً ورحمة .

والقتل الخطأ شرع القرآن عقوبته فثبتت بالنص ، فقد قال تعالى :

﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤۡمِنٍ أَن يَقۡتُلَ مُؤۡمِنًا إِلَّا خَطَـٔٗاۚ وَمَن قَتَلَ مُؤۡمِنًا خَطَـٔٗا فَتَحۡرِيرُ رَقَبَةٖ مُّؤۡمِنَةٖ وَدِيَةٞ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰٓ أَهۡلِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَصَّدَّقُواْۚ فَإِن كَانَ مِن قَوۡمٍ عَدُوّٖ لَّكُمۡ وَهُوَ مُؤۡمِنٞ فَتَحۡرِيرُ رَقَبَةٖ مُّؤۡمِنَةٖۖ وَإِن كَانَ مِن قَوۡمِۭ بَيۡنَكُمۡ وَبَيۡنَهُم مِّيثَٰقٞ فَدِيَةٞ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰٓ أَهۡلِهِۦ وَتَحۡرِيرُ

(١) البقرة

رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ تَوْبَةً مِّنَ ٱللَّهِ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٩٢﴾
وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَٰلِدًا فِيهَا وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُۥ وَأَعَدَّ لَهُۥ
عَذَابًا عَظِيمًا ﴿٩٣﴾﴾ (١)

وهكذا ذكر الله تعالى عقـوبات القتل ، وخلاصة ما نصت عليه الآية :
أولا ــ أن تعمد القتل لا كفارة له عن عقوبة الآخرة ٠

ثانيا ــ أن الدية في القتل تكـون لأهله المسلمين أو من كان بيننا وبينهم عهد أما العدو فلا دية لأهله لأنهم يقوون بها ، ويستعينون بها في حـرب المسلمين ٠

ثالثا ــ أن تحرير الرقبة ضروري أو بدله ، وهو صيام ستين يوما ،وذلك لتكفير اثم الخطأ ، لأنه مهما يكن ففيه اثم ترك الاحتراز ، ولأن القاتل خطأ أفقد المسلمين نفساً ، فحق عليـه أن يحيي نفساً بدل من تسبب في فقـدها ، واحياؤها بحريتها ، فالحـرية لفاقدها احياء ٠

هذه اشارات الى أحكام القتل في القرآن ذكرناها ليميز ما جاء به النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، وهو القتل شبه العمد ، ولم يذكر في القرآن حكم للقتل الشبيه بالعمد ٠

وذكره النبي صلى الله تعالى عليـه وسلم في فتح مكة في المدة التي أقامها بها فقد قال صلى الله تعالى عليه وسلم :« الحمد لله الذي صدق وعده ، ونصر عبده ، وهزم الأحزاب وحده ، ألا ان قتيل العمد الخطأ بالصوت أو العصـا فيه مائة من الابل ، وفي مرة قـال :مغلظة فيها أربعون خلفة في بطـونها أولادها ، وهذا النوع من القتل يسمى في عرف الفقهاء شبه العمد ، وسمـاه النبي صلى الله تعالى عليه وسلم العمد الخطأ وهو كما عرف النبي صـلى الله تعالى عليه وسلم القتل المقصـود الذي يقع بغير آلة معدة للقتل ، كالقتـل بالسوط أو العصا ، أو الحجر ، الذي لا يقتل عـادة ، وهو الذي يسمى في عرف القانون في هـذه الأيام الضرب المفضي الى الموت ، وقد ذكر النبي صلى

(١) النساء

الله تعالى عليه وسلم أن ديته دية مغلظة،وذلك لأن الدية في القتـــل نوعان ، فالدية المغلظة التي تناسب الجريمة وهي التي ذكرها النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ،وهي مائة من الابل فيها أربعون خلفة حوامل في بطونها أولادها ، أما الدية غير المغلظة فمائة من الابل فقط من غير اشتراط أن يكون فيها هـــذه الأربعون الحوامل ٠

والقتل شبه العمد الضرب مقصود فيه ، فلم يكن خطأ جاء من غير قصد ، انما القصد ثابت لأنه أراد الضرب ، ولكن الآلة غير قاتلة في ذاتها ، فهـــو لا يعد قاصدا النتيجة ، وجاءت النتيجة غير مقصودة ، فشـابه الخطأ من حيث لم يقصد هذه النتيجة ، وشابه العمد ،لأنه قصد الضرب ، وباشره عامـدا ، ولذلك سماه النبي صلى الله تعالى عليه وسلم : « العمد الخطأ » فهو عمد في ابتدائه وليست نهايته متعمدة ٠

الميراث بين المسلم والكافر

٦١٧ ـ عندما دخل النبي صلى الله تعالى عليه وسلم مكة ، لم يجد دارا من دور بني هاشم تعد بيتا ، ولم يجدبيته الذي كان له قبل هجرته ، وقال عليه الصلاة والسلام هل أبقى لنا عقيلمن دار ، وعد نفسه مسافرا ودل هذا على أنه اذا عاد الشخص الى موطنهالأصلي لا ينقطع عنه وصف المسافر الا اذا عاد الى بيته الذي كان يقيم فيه ،فان لم يجد بيته الذي كان يقيم فيه لا يعد مقيما ، بل يعد مسافرا وذلكلأن مكة بلده ، ولكنه لم يجد فيها راحة المقيم فكان مسافراً ٠

ولذلك أفطر في رمضان برخصةالسفر ، وقصر الصلاة بهذه الرخصة٠

ولقد أخذ الخارجون على سيدناعثمان رضي الله تعالى عنه أنه لم يقصر الصلاة في مكة ، فبين أنه كان في بيتهوبين أهله ، فلم يعد نفسه مسافراً ، فلم تكن الرخصة التي تسوغ له القصر،ولعله وجد بيته الذي كان يقيم فيه قبل الهجرة ، وذلك كله على أساس أنالقصر رخصة ، وليس عزيمة ٠

وقد ذكر النبي صلى الله تعالى عليهوسلم بعد قوله ، ما ترك لنا عقيل من دار ، لا ميراث بين مسلم وكافر ،فكانهذا شرعا يمنع ميراث الكافر من المسلم ، وميراث المسلم من الكافر ،وذلك صريح قول النبي صلى الله تعالى عليه وسلم لا يتوارث أهل ملتين شتى٠

ولقد كان اجماع الفقهاء على ذلكالا الشيعة الامامية ، فقد قرروا منع ميراث الكافر من المسلم ، ولم يمنعواميراث المسلم من الكافر ٠

وكذلك كان يعمل بذلك معاوية بنأبي سفيان الذي ملك أمر المؤمنين باسم الخلافة واسم امرة المؤمنين ، ولذلك كان القاضي شريح رضي الله تعالى

عنه يصدر أحكامه ذاكراً فيها أنه قضاءالله ورسوله ، الا اذا قضى في توريث مسلم من كافر ، قال : هذا قضاء أميرالمؤمنين معاوية ٠

والحق ما قرر الفقهاء لأنه صريحقول النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، ولأن الميراث سببه النصرة بين الوارثوالموروث ، وهي لا تتحقق اذا كـــان أحدهما غير مسلم ، ولأن الميراث ولاء ،ولا ولاء بينهما ، ولأن الوارث امتداد لشخصية المورث ، ولا يمكن أن يعـدالمسلم امتداداً لشخصية الكافر ٠

الولد للفراش

٦١٨ ـ جاء هذا الحديث الصحيح في وقائع في مكة عند فتحها ، ذلك أن عتبة بن أبي وقاص عهد الى أخيه سعد أن يطالب بنسب ابن عبد بن زمعة على أنه ابن عتبة ، وابن أخي ، ولكنه جاء من فراش ، ابن زمعة فتنازعه عبد بن زمعة على أنه أخوه ولد في فراش أبيه ، وسعد على أنه ابن أخيه بوصيه عتبة أخيه ، فوجد رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم أن صفاته الجسمية تشبه صفات عتبة ، ولكنه عليه الصلاة والسلام لا يحكم بالقيافة بل يحكم بالشرع ، فحكم لعبد بن زمعة على أنه أخوه ، وأخو أم المؤمنين سودة بنت زمعة ، وبذلك تبين معنى الحديث الولد للفراش وللعاهر الحجر .

ولكن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم أمرها بأن تحتجب عنه ، ولو كان أخاها حقيقة ، ومن كل الوجوه احتجبت ، ولكن لأن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم يحتاط للتحريم ما أمكن التحريم فقد أمر أم المؤمنين سودة بأن تحتجب عنه احتياطا لما رأى من شبه بينه وبين عتبة مما يومىء الى أنه ابنه ، فاحتاط في التحريم ، وحكم بحكم الله في النسب ، والله تعالى أعلم .

قطع اليد

٦١٩ ـ روى البخاري بسنده عن عروة بن الزبير أن امرأة سرقت في عهد رسول الله في غزوة الفتح ، فأهم قريشا أن تقطع يد امرأة منهم في سرقة ، وكانت مخزومية اسمها فاطمة، ففزع قومها الى أسامة بن زيد ، وكان حب رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم يستشفعونه ، فغضب النبي صلى الله تعالى عليه وسلم وقال لأسامة أتشفع في حد من حدود الله ، فقال أسامة أستغفر الله يا رسول الله ، فلما كان العشي ، قام رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم خطيباً ، فحمد الله وأثنى عليه بما هو أهله ، ثم قال :

أما بعد ، ما بال أقوام يشفعون في حد من حدود الله ، فانما أهلك الذين من قبلكم أنهم كانوا اذا سرق فيهم الشريف تركوه ، واذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد ، والذي نفسي بيده لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها ·

وهكذا كانت الأحكام الاسلامية تطبق على القوي والضعيف ، ومن له نسب ، ومن ليس نسبه يحميه ، وان النبي صلى الله تعالى عليه وسلم أشار الى معنى اجتماعي في قيام الأمم وقوتها ،فبين عليه الصلاة والسلام أن العدالة والمساواة أمام القانون هي التي تبني الأمم ، ولا ملك يقوم من غير عدالة ، بل انه ان بدا قويا ، فان الظلم الذي يكون فيه يهدم أركانه ويقوض بنيانه فلا قوة لأمة بظلم ، ولا علو لجماعة بغير العدل ·

ولقد أمر النبي صلى الله تعالى عليه وسلم بقطع يدها ، ليعلموا أن قريشا العزيزة المتفاخرة بأنسابها هي والجميع على سواء ، وذلك ضرب في جنب العصبية الجاهلية ، ولقد حسن اسلامها بعد قطع يدها ، وعلمت أن يدها طهرتها ، وسبقتها الى الجنة ، كما قال النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ·

المتعة وتحريمها

٦٢٠ ـ يذكر البخاري وغيره أن المتعة حرمت نهائيا في غزوة الفتح ، وكان فيها التحريم قاطعا ، ناسخا للترخص فيها الى يوم القيامة ·

وقد تكلمنا عن المتعة عند الكلام في الأحكام التي ثبتت في غزوة خيبر، ونذكر هنا بأننا قلنا انها لم تبح ساعة من زمان ، وانما هي من اتخاذ الأخدان سكت عنه النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، فكانت موطن عقد حتى أعلن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم زوال العقود فيها بقوله عليه الصلاة والسلام، وبالقرآن القاطع المانع ، ولقد شرحناها في موضعها من القول ·

ولا مانع من أن نذكر ما قاله علماء الفقه والحديث هنا ، وان كنا قد أشرنا اليه فيما مضى من قولنا ·

يقول الحافظ ابن كثير في تاريخه:« من أثبت أن النهي عنها في غزوة خيبر ، قال انها أبيحت مرتين ، وحرمت مرتين وقد نص على ذلك الشافعي، وقيل انها حرمت مرة واحدة ، وهي هذه المرة في غزوة الفتح ، وقيل انها أبيحت وحرمت أكثر من مرتين ·

وقيل انها أبيحت للضرورة ، فعلى هذا اذا وجدت ضرورة أبيحت وهذه رواية عن أحمد ، وهذا قول جاف عن الشريعة ، فما هي الضرورة ، وقد نسب هذا القول الى الامام ابن عباس·

المبايعة على الإسلام

٦٢١ ـ قلنا ان الفتح لم يكن لقاء معركة ، وانما كان لقاء مودة ومحبة، ومع المحبة والمودة كانت الدعوة الى الاسلام ، وقد دخل الناس في دين الله أفواجاً أفواجاً ، اذ جاء نصر الله العزيز الحكيم •

وروى البيهقي أن الناس كانوا يبايعون على الاسلام رجالا كباراً ،وغلماناً صغاراً اذا كانوا قد بلغوا حد الادراك، وكانت تلك المبايعة على الدخول في طاعة الاسلام ، وشهادة أن لا اله الا الله وأن محمداً رسول الله ، وكانت بيعة النساء على ذلك ، وكانت على أخذالعهد ، بألا يفعلن شيئاً من المحرمات •

وقال ابن جرير الطبري :

اجتمع الناس بمكة لبيعة رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، فجلس لهم على الصفا ، وعمر بن الخطاب أسفل من مجلسه ، فأخذ على الناس السمع والطاعة لله ورسوله فيما استطاعوا ،فلما فرغ من بيعة الرجال بايع النساء وفيهن هند بنت عتبة متنقبة متنكرة ،لحدثها من صنيعها بحمزة رضي الله عنه، فهي تخاف أن يأخذها رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم بحدثها (أو تستحيي من رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم فيما صنعت بعمه الحبيب) •

فلما دنين من رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ليبايعهن ، قال : بايعنني على ألا تشركن بالله شيئاً فقالت هند ،والله ، انك لتأخذ علينا ما لا تأخذه من الرجال ، ولا تسرقن ، فقالت والله ان كنت لأصيب مال أبي سفيان الهنة بعد الهنة ، وما كنت أدرى أكان ذلك علينا حلالا أم لا ، فقال أبو سفيان وكان شاهداً لما تقول : أما ما أصبت فيما مضى ، فأنت منه في حل •

فقال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم : « وانك لهند بنت عتبة ،قالت نعم ، فاعف عما سلف ، عفا الله عنك ،ثم قال عليه الصلاة والسلام : ولا

يزنين ، قالت : يا رسول الله وهـل تزني الحرة ، ثم قال عليه الصلاة والسلام : ولا يقتلن أولادهن ، قالت: قد ربيناهم صغاراً حتى قتلتهم أنت وأصحابك ببدر كبارا فضحك عمر بن الخطاب ، حتى استغرق ، ثم قال عليه الصلاة والسلام : ولا يأتين ببهتان يفترينه بين أيديهن وأرجلهن ، فقالت، والله ان اتيان البهتان لقبيح ، ولبعض التجاوز أمثل ، ثم قال ، ولا يعصينني، قالت في معروف » ٠

فقال لعمر رضي الله عنه بايعهن ،واستغفر لهن الله ، ان الله غفور رحيم، فبايعهن عمر ، وكان النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، لا يمس الا امرأة أحلها الله تعالى له ، أو ذات محرم منه ، وماكان يبايعهن الا بالكلام ، ويقول : انما قولي لامرأة واحدة ، كقولي لمائة امرأة ٠

نفقة الزوجة

٦٢٢ ـ ان نفقة الزوجة واجبة على الرجل ، ويقسمها الفقهاء الى قسمين نفقة تمكين ، ونفقة تمليك ،والأصل نفقة التمكين ، ونفقة التمليك : وهي أن يقدر لها ما يكفيها بالمعروف ، ويملكه اياها نقداً ، أو طعاماً ، أو أنواعاً وان النبي صلى الله تعالى عليه وسلم في غزوة الفتح قرر نفقة التمكين ، فقد سألته هند قائلة : يا رسول الله ، ان أبا سفيان رجل شحيح لا يعطيني من النفقة ما يكفيني ، ويكفي بني ، فهل علي من حرج اذا أخذت من ماله بغير علمه،قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم: خذي من مال أبي سفيان ما يكفيك وولدك بالمعروف ، وروى البيهقي بسنده عن عائشة رضي الله تعالى عنها أنها قالت : ان هنداً بنت عتبة قالت يا رسول الله ما كان على وجه الأرض أخباء أو خباء أحب الي من أن يذلوا من أهل أخبائك أو خبائك،ثم ما أصبح اليوم على ظهر الأرض أخباء أو خباء أحب الي من أن يعذوا من أهل أخبائك أو خبائك ، وأيضا والذي نفسي بيده ، يا رسول الله ، ان أبا سفيان رجل شحيح ، فهل علي حرج أن أطعم من المال الذي له قال،النبي صلى الله تعالى عليه وسلم بالمعروف .

وهذا الحديث مهما تختلف صيغة رواياته يدل على ثلاثة أمور :

أولها : أن نفقة الزوجة واجبة على الزوج سواء أكانت غنية أم كانت فقيرة ، وسواء أكانت قادرة على الكسب أم عاجزة عنه ، لأنها جزاء قيامها بحقوق الزوج ورعاية بيته وأولاده وهي تقسيم في نظام الحياة الزوجية المرأة تقوم بادارة مملكة البيت ، والرجل يكدح ويعمل للحصول على الرزق ، ولذلك يقول صلى الله تعالى عليه وسلم في حجة الوداع لهن عليكم رزقهن وكسوتهن بالمعروف .

وثاني الأمور التي تدل عليه الأحاديث الواردة عن هند واجابة النبي صلى

الله تعالى عليه وسلم : أن على الزوج أن يمكنها من ماله الذي تتمكن به من أن تطعم هي وأولادها بالمعروف في أمانة من غير خيانة .

ثالثها : أن نفقة الزوجية تثبت حقاً لها ولأولادها من غير حكم من القضاء ، أو أمر من ولي الأمر ، بل تثبت بحكم الشرع على أنها حق من حقوقها بمقتضى الأحكام الشرعية لا بسبب الرضا . أو القضاء، وقد يكون تقديرها بالتراضي، ولكن أصل الوجوب يكون بحكم الشرع هذا ما اقتضى الحديث بيانه ، وربما عاودنا القول في حجة الوداع .

حكم الهجرة بعد الفتح

٦٢٣ ـ روي أن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم قام بعد تمام فتح مكة ، فقال صلى الله تعالى عليه وسلم :« لا هجرة بعد فتح مكة ولكن جهاد ونية ، واذا استنفرتم فانفروا » ، وان ذلك المعنى مستقيم بمنطق الوقائع ، فقد كانت الهجرة قبل الفتح من مكة الى الحبشة ،أو الى المدينة النبوية فكانت فراراً من الاستضعاف في مكة ، الى حيث الأمن والاطمئنان وخصوصاً الى يثرب ، حيث تتجمع القوى الاسلامية في المدينة مجاهدة داعية •

وان الهجرة بعد أن صارت مكة دار اسلام ، وبها البيت الحرام ، فان الهجرة منها لتقتضي خلوها من السكان، وهم أهل البيت الحرام •

ولكن معنى ذلك أن تمنع الهجرة من أي بلد الى أخرى ، ولكن لا يكون له ثواب المهاجر ، اذا كان الخروج لمجرد طلب الرزق ، والثواب ان كان فلا يكون ثواب هجرة ، ولكن يكون ثواب طلب الرزق استجابة لقوله تعالى :

﴿ وَمَن يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَجِدْ فِي الْأَرْضِ مُرَاغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً ﴾ (١)

ولكن يكون بعد ذلك هجرة يكون فيها ثواب الهجرة وهي مطلوبة غير منهي عنها ، بل يحاسب فيها المؤمن ان كان قادراً على الهجرة ، ولم يهاجر ، وذلك في حال أن يعيش مستضعفا بين الكفار ، يسومونه الذل والهوان ،وان خرج الى أرض الاسلام كان التجمع القوي والوحدة الشاملة الكاملة •

ومن ذلك قول الله تعالى :

﴿ إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنتُمْ ۖ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ ۚ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا ۚ فَأُولَٰئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَسَاءَتْ

---

(١) النساء

مَصِيرًا ﴿٩٧﴾ إِلَّا ٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا
يَهْتَدُونَ سَبِيلًا ﴿٩٨﴾ فَأُو۟لَٰٓئِكَ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَعْفُوَ عَنْهُمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَفُوًّا غَفُورًا ﴿٩٩﴾ (١)

فان هذه الآية توجب الهجرة على كل مستضعف في الأرض لتكون الجماعة الاسلامية له قوة ، ويكون من انضمامه لجماعة المسلمين قوة بتضام كل بعيد عنها اليها ، فان التجمع قوة في ذاته ،وقوة عامة للمسلمين ، والانفراد مع الاستضعاف ذل لبعض المسلمين ،وحرمان للمجموع من قوة التجميع ٠

ولذلك ورد أن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم قال الهجرة دائمة ، وقال عن اجتماع الكافر بالمسلم لا تتراءى من نارها ٠

فالهجرة التي انتهت هي الهجرة من مكة ٠

أما الهجرة فلم تنته باطلاق ، ويقول في ذلك الحافظ ابن كثير: انه يعرض حالة تقتضي الهجرة بسبب مجاورة أهل الحرب ، وعدم القدرة على اظهار الدين ، فتجب الهجرة الى دار الاسلام، وهذا مالا خلاف فيه بين العلماء ،ولكن هذه الهجرة ليست كالهجرة قبل الفتح،كما أن كلا من الجهاد والانفاق في سبيل الله مشروع ، ورغب فيه يوم القيامة،وليس كالانفاق ، ولا الجهاد قبل الفتح فتح مكة ، كما قال تعالى :

﴿ وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُنفِقُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلِلَّهِ مِيرَٰثُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ لَا يَسْتَوِى مِنكُم
مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ ٱلْفَتْحِ وَقَٰتَلَ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ ٱلَّذِينَ أَنفَقُوا۟ مِنۢ بَعْدُ وَقَٰتَلُوا۟ ۚ
وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١٠﴾ ﴾(٢)

وانه بلا ريب الجهاد قبل الفتح ،لانشاء قوة للمسلمين ، الجهاد بعد ذلك لبقاء الاسلام ، والابقاء أسهل من الانشاء فكانت لذلك أفضل والله سبحانه وتعالى أعلم بموضع الفضل والخير ٠

---

(١) النساء
(٢) الحديد

ملكية أرض مكة

٦٢٤ ـ ملكية أرض مكة أتجوز أم لا تجوز ؟ في هذا الأمر نظر ،السلف الصالح ، وقد اختلفوا في اتجاههم الى اتجاهين :

أولهما : أنها لا تملك ، وحجته أولاأنها دار النسـك ، ومتعبد الخلق ، وحرم الله تعالى الذي جعله للناس سواءالعاكف فيه والباد ، وان الله تعالى يقول:

﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا ءَامِنًا وَيُتَخَطَّفُ ٱلنَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ ﴾ (١)

وان أرض مكة كلها حرم آمن ، واذاكانت مكة نسكا وحرما ، فهي معبـد ، والمعابد لا تملك ، انما هي وقف عـلىالعباد لا تباع ولا توهب ولا تورث •

ثانياً : كل تعبير بالحرم أو نحو ذلكفهو تعبير عن مكة ، يقول الله تعالى :

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ٱلَّذِى جَعَلْنَـٰهُ لِلنَّاسِ سَوَآءً ٱلْعَـٰكِفُ فِيهِ وَٱلْبَادِ وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍۭ بِظُلْمٍ نُّذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢٥﴾ ﴾ (٢)

وترى أن مكة كلها بظاهر النص واشاراته هي موطن العاكف ومزار البادي فكلها نسك ، لا يورث ولا يملك وحجةهذا الرأى أيضاً : أنه قد وردت الآثار صريحة بالنهي عن بيعها ، وعن اجارتها، وعن وراثتها ولقد قال عبد الله بن عمر من أكل أجور بيوت مكة ، فانمايأكل في بطونه نار جهنم •

وثالثاً : أن عمر بن الخطاب نهىعن اتخاذ الأبواب في دور مكة ، وأمر بفتح الأبواب لمن كان لداره باب ، فلايغلقه ، ليسهل أن يبيت العاكف فيـه والباد ، كما صرح الله سبحانه وتعالى .

ورابعاً : كتب عمر بن عبد العزيزعلى مشهـد من التابعين ألا تؤجـر دور مكه •

(١) العنكبوت

(٢) الحج

هذه حجج الذين قالوا انها لا تملك أرضها ، ولا تؤجر ، ولا تباع ولا تورث .

وحجة الذين أباحوا امتلاكها - أن الله سبحانه وتعالى أضاف ملكيتها الى أصحابها فقال تعالى :

﴿ لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ ﴾ (١)

وقال تعالى :

﴿ فَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَأُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِمْ ﴾ (٢)

وقال تعالى :

﴿ إِنَّمَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَىٰ إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٩﴾ ﴾ (٣)

وفي هذه النصوص كلها أضاف الديار اضافة اختصاص الى المهاجرين .

وقد سأل سائل النبي صلى الله تعالى عليه وسلم أين تنزل غداً بدارك ،فقال النبي صلى الله تعالى عليه وسلم : « وهل ترك عقيل من دار » وفي رواية من رباع ، فلم يقل انه لم يكن له من دار ولقد آلت ديار أبي طالب عم رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم الى عقيل ابنه ، ولم يأخذ منها أخوه علي شيئاً ، لأن علياً كان مسلماً ، فلا يرث من أبي طالب ، ولا يرثه الا عقيل ، ومن بقي على الشرك .

وأخبر النبي صلى الله تعالى عليه وسلم أن عقيلا أخذها ، ولم ينزعها من يده ، فدل ذلك على سلامة ملكيته بالميراث ، بل أقرها وسكت .

وقد كانت الدور تنسب لأصحابها ،فيقال دار أم هانيء، ودار خديجة ، وغيرها ، وكانوا يتوارثونها كما يتوارث المنقول .

وقد باع صفوان بن أمية دار لعمر بن الخطاب بوصف أنه أمير المؤمنين فاتخذها سجنا ، يسجن بعض ذوي المعاصي ليمنع شرهم .

---

(١) الحشر (٢) آل عمران (٣) الممتحنة

وهكذا كان يجري البيع والشراء في الدور ، والتوارث فيها .

ولقد وفق ابن القيم وغيره بين أدلة الفريقين ، بأن الأدلة المثبتة لجواز البيع والاجارة والميراث ، موضوعها البناء ، وأما الأرض فانه لا يجري عليها البيع ولا الميراث ، وبذلك ينتهي الحكم المقرر بالنسبة لمكة أن الأرض موقوفة على مصالح المسلمين ، والبناء مملوك لمن أقاموه ، وينتقل بالوراثة ، والله سبحانه وتعالى أعلم .

حكم سب النبي صلى الله عليه وسلم

٦٢٥ ـ ثبت حكم سب النبي صلى الله تعالى عليه وسلم في هذه الغزوة ، لأن جارية سبت النبي صلى الله تعالى عليه وسلم فقتلها سيدها ، ولأن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم أباح دم جاريتين كانتا تتغنيان بسب النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، وأمر بقتلهما في ضمن من أهدر دمهم ولو وجدوا متعلقين بأستار الكعبة ، وعندما كان كعب بن الأشرف يسب النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، فأمر النبي صلى الله تعالى عليه وسلم بقتله ٠

ولذلك كان الذمي اذا سب النبي صلى الله تعالى عليه وسلم اعتبر نابذا للعهد ٠

وان سب النبي صلى الله تعالى عليه وسلم افساد في الأرض ، وخروج عن حكمه ، والمفروض في كل من يكون تحت طاعة دولة أن يطيع منشيء هذه الدولة ، ومنشيء دولة الاسلام هو سيدنا رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، فسبه خروج عليها ٠

وقد عرض سؤال غريب ، اننا قبلنا أن يبقى الذمي ، وهو يعبد النار ، ويؤمن بالتثليث ، وغير ذلك مما هو خطأ في جنب الله تعالى ، فكيف لا نقبل عهد الذمي اذا سب رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ان هذا في القياس غريب !!

ونقول في الجواب عن ذلك : ان ذلك اعتقادهم ، وقد قبلنا أن يبقوا تحت ظلنا مع استنكار ما هم عليه وأمرنا بتركهم وما يدينون ، ولم يكن في ذلك البقاء افساد للنظام ، ولا هدم للعهد ، أما سب النبي صلى الله تعالى عليه وسلم فهو متضمن أمورا أخرى عظيمة ، فهو يتضمن مهاجمة الاسلام ، وألا يترك المسلمون وما يدينون ، بينما المسلمون تركوهم وما يدينون ، وفوق ذلك يكون اعلانا للخروج على الطاعة والنظام ٠

غزوة هوازن

٦٢٦ ـ أخذت القوى العربية المشركة تتخاذل شيئاً فشيئاً ، وبعد أن فتحت أم القرى ، وتلاقت فيها القلوب على مودة ورحمة ، وعادت الأخوة بين ذوي الأرحام ، لم يبق من أهل القوة من العرب الا هوازن وثقيف بالطائف ، وكانوا ذوي بأس شديد في البلاد العربية .

ولقد قال الصديق وهو ينطق بالحكمة : « لن نغلب بعد اليوم من مكة » وقد صدق في ذلك ، فانهم قد صاروا كثيراً وقد توافر العدد ، وتوافرت العدة ، ولكن تكون الهزيمة من غرور أو ضعف في النفوس ، أو عدم التنظيم الجامع ، وقد صدقه ربه في ذلك ، فقال تعالى :

﴿ لَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ فِى مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْـًٔا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ أَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٦﴾ ثُمَّ يَتُوبُ ٱللَّهُ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٧﴾ ﴾ (١)

وان الجيش الاسلامي كان اثني عشر ألفا ، وذهب الى هوازن ، والتقى بهم في أوطاس في العاشر من شوال من السنة الثامنة من الهجرة .

ونحب هنا أن نشير الى جيش الاسلام في هذه الموقعة ، أهو جيش المؤمنين ، أم كان فيه من دخل الاسلام ، ولم يدخل الايمان في قلبه ، كما قال تعالى :

﴿ قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّا ۖ قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا۟ وَلَٰكِن قُولُوٓا۟ أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَٰنُ فِى قُلُوبِكُمْ ۖ ﴾ (٢)

(١) التوبة (٢) الحجرات

كذلك كان الجيش فيه الطلقاء ، الذين قال لهم النبي صلى الله تعالى عليه وسلم اذهبوا فأنتم الطلقاء ، وفيه ضعاف في الايمان الذين كانت تحدثهم نفوسهم بأن ينقلبوا على النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، كما قال أبو سفيان فقال له النبي صلى الله تعالى عليه وسلم « اذن ليخزينك الله » وفيهم من هم باغتيال النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، وكشف الله تعالى سره ، وفيهم ، والمعركة دائرة بين الجيشين في حنين من هم بأن يقتل النبي صلى الله تعالى عليه وسلم .

وفيه كثيرون من الأعراب الذين أسلموا ولم يؤمنوا ، فكان جيش الاسلام ولم يكن جيش الايمان ، ألم تر أن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم قد أعطى من غنائم حنين طائفة من كبار قريش أموالا كثيرة ، ليتألف قلوبهم كأبي سفيان بن حرب ، وابنه معاوية ، وان التأليف الى الاسلام دليل على ضعف الايمان ، لأنه يتألف قلوباً للايمان .

وان الهزيمة لم تكن من أهل الايمان الأولين الذين بايعوا رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم يوم الحديبية ، بل نادى النبي والمعركة عنيفة بينه وبين هوازن المهاجرين والأنصار ، فجاء منهم مائة حولوا الهزيمة الى نصر ، ولم يثبت مع النبي صلى الله تعالى عليه وسلم الا عشرة هم أبو بكر الصديق ، وعمر الفاروق ، وعلي بن أبي طالب ، والعباس الذي أسلم عقب بدر ، وأبو سفيان بن الحارث ابن عم النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، والفضل بن العباس ، وجعفر بن الحارث ، وربيعة بن الحارث ، وأسامة بن زيد ، وأيمن ابن أم أيمن ، فأين خالد وعمرو بن العاص ؟

والآية صريحة في أن الله ألقى السكينة والثبات على النبي صلى الله تعالى عليه وسلم والمؤمنين ، فهم الذين ثبتوا بعد ان اضطربت الصفوف بين الذين لم تكن لهم خبرة بلقاء أهل الايمان وأهله ، ولقد دعا الله المؤمنين من المهاجرين والأنصار ، فلبوا النداء ، وسارع منهم مائة ، فقلبوا الهزيمة لقاء ، ثم نصرا بتأييد الله تعالى .

ابتداء المعركة

٦٢٧ ـ قلنا انه لم يكن من بين القوى العربية في البلاد من له قـوة وشوكة بعد مكة وقريش الا هـوازن فاعتزم أن يعمل لاسلامهم ، بينما هوازن يفكرون في حرب النبي اتقاء لأنفسهم ، ومنعا من دخول الاسلام اليهم ، أو هجوم النبي صلى الله تعالى عليه وسلم عليهم ، وما كان النبي صلى الله تعالى عليه وسلم يهاجم الآمنين ولكن يرد كيد من يدبرون له حرباً ، أو يريدون كيداً .

ولقد جاء مالك بن عوف النضري ،فجمع الجموع ، فاجتمع اليه من هوازن ثقيف كلها ، واجتمعت نضر وجشم كلها وعدد قليل من قيس بن عيلان .

وكان في جشم شيخ له تجربة ودراية في الحروب ، وان لم تكن له قـوة على المنازلة لشيخوخته ، وهو دريد بن الصمة ، ولما أراد النفير مالك بن عوف، أخذ مع الجيش النساء والمال ليستثير حميتهم بنسائهم وأموالهم فيندفعوا مقاتلين ليحموا نساءهم وأموالهم وذراريهم .

وقد صاروا بدريد بن الصمة في شبه هودج ، فسمع أصوات الأموال من النوق والحمير والنساء والصبيان ،فقال ، مالي أسمع رغاء البعير ، ونهاق الحمير ، وبكاء الصغير ويعار الشاة ،قالوا ساق مالك بن عوف مع الناس أموالهم ونساءهم وأبناءهم ، فقال أين مالك ؟ فجيء اليه فقال له :

يا مالك انك قد أصبحت رئيس قومك ، وان هذا يوم كائن له ما بعده من الأيام ، مالي أسمع رغاء البعير ، ونهاق الحمير ، وبكاء الصغير ويعار الشاة ، قال سقت مع الناس أموالهم وأبناءهم ونساءهم ، قال ولم ذاك ؟قال أردت أن أجعل خلف كل رجل منهم أهله وماله ليقاتل عنهم ، فانقض به (أي زجره) وقال راعي ضأن ، أي لست بمقاتل ، وهل يرد المنهزم شيء ، انها ان كانت لك ، لم ينفعك الا رجل بسيفه ورمحه ، وان كانت عليك فضحت في أهلك ومالك .

ولكنه لم يطعه عوف بن مالك ، ولكن هوازن أطاعوه .

وقد ترامى الى سمع الرسول صلى الله تعالى عليه وسلم همس بما دبروا، فأرسل اليه من يأتيه بجملة أمرهم وأمره أن يدخل في الناس ليعرف حالهم ويأتيه بأخبارهم ، فأقام فيهم ، حتى سمعوا ما أجمعوا عليه من حرب رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، وسمع من مالك بن عوف وهوازن فجاء وأخبر الرسول .

فأخذ الرسول الكريم المدافع عن الحق يستعد لهم ويلقاهم ، وذكر له أن عند صفوان بن أمية دروعا وسلاحا فأرسل اليه وهو يومئذ مشرك ، ولعله كان في المدة التي جعل لنفسه الخيار فيها ، بين البقاء على ما هو عليه والاسلام ، فقال له يا أبا أمية أعرنا سلاحك نلق به عدونا غدأ ، فقال صفوان : أغصبا يا محمد قال عليه الصلاة والسلام ، بل عارية مضمونة نردها اليك ، قال ليس بهذا من بأس، فأعطاه مائة درع بما يكفيها من سلاح .

خرج رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم معه اثنا عشر ألفاً ، منهم عشرة آلاف دخل بهم ، وهو جيشه الأول ،ولم يكن كله من المهاجرين والأنصار ، وألفان من أهل مكة الذين أسلموا بعد الفتح ، أو لم يظهر اسلامهم الا في الفتح ، وفيهم أبو سفيان بن حرب ، وكثير من أمثاله وخلف في مكة عتاب بن أسيد من بني عبد شمس ، ثم مضى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم على وجهه الى هوازن ، أو حنين أو أوطاس ، وكلها أسماء لهذه المعركة .

ولا شك أن الجيش كان فيه ألفان قريبا عهد بالجاهلية ، كما أشرنا من قبل ، ولقد روى ابن اسحق بسنده عن الحارث بن مالك ، أن الحارث هذا قال خرجنا مع رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم الى حنين ونحن حديثو عهد بالجاهلية .

ولقد رأى الجيش شجرة عظيمة خضراء يقال لها ذات أنواط كانت قريش ومن حولهم يقدسونها ويأتون كل سنة يذبحون عندها تقديساً لها .

فراعهم منظرها ، ورأوها سدرة عظيمة ، ويقول الحارث بن مالك

تنادينا من جنبات الطريق : يا رسول‌الله : اجعل لنا ذات أنواط (أي شجرة عظيمة نقدسها ، وننحر عندها) .

قال لهم رسول الله صلى الله تعالى‌عليه وسلم : الله أكبر قلتم والذي نفس محمد بيده كما قال قوم موسى اجعل‌لنا الها كما لهم آلهة ، قال انكم قوم تجهلون انها السنن ، لتركبن سنن من‌كان قبلكم .

كان من الألفين الذين ضمهما النبي‌الى الجيش الذي غزا به مكة من فيهم هذه العقلية وكلهم أو جلهم حديث‌عهد بالجاهلية لما يدخل الايمان في قلوبهم .

الانهزام‌ثم الانتصار :

٦٢٨ - تقدم جيش الاسلام الى وادي حنين ، وكان ذا أودية وطرق مختلفة ، فتقدم المسلمون في واد من‌أودية تهامة ، وانحدر فيه انحدارا حتى أوغروا في باطن الوادي ، وكان‌جيش هوازن قد سبقهم الى الوادي وادي حنين ، وكمنوا في شعابه ،وأنحائه ومضايقه .

وكانوا محميين مهيئين ، وكان في المتقدمين من جيش المسلمين على رأس بني سليم خالد بن الوليد ، وما أن تقدم المسلمون وسط هذا الكمين المتعدد النواحي ، وهم في عماية الصبح ، وهو الظلام الذي يسبقه ؟

وفي هذه الحال راع جيش المسلمين‌انقضاض هوازن عليهم كتائب قد تعددت ، فشدوا شدة رجل واحد ، فكانت المفاجأة مروعة عنيفة ، وانتشر الناس راجعين لا يلوي أحد على‌أحد .

وقد انحاز رسول الله صلى الله تعالى‌عليه وسلم ذات اليمين ، ثم قال أيها الناس هلم الي أنا رسول الله محمد بن‌عبد الله .

ولكن الناس يفرون ، وحمل بعضهاعلى بعض ، وكان الفرار من غير المؤمنين الأولين قد أفسد نظام الجيش‌واضطرب الأمر ، واختلط الحابل بالنابل .

ولقد ثبت مع النبي صلى الله تعالى عليه وسلم أبو بكر وعمر ، وثمانية من بني هاشم صدقوا وآمنوا ، وعلى رأسهم علي بن أبي طالب ، والعباس بن عبد المطلب ، ولا نعد ثبات علي للقرابة ، بل لأن الثبات من شيمته أولا اذ هو فارس الاسلام كما قال النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، ولايمانه ثانياً ، وقد يكون لقرابته ثالثاً ، فهي في المرتبة الأخيرة من الأسباب ٠

وأما السبعة الباقون فانا قد نقول للرحم دخل فيها ، ولكن لا نحرمهم من الايمان ، خصوصاً العباس فقد آمن بمحمد صلى الله تعالى عليه وسلم في أعقاب بدر وخرج مكرهاً في بدر ،فرضي الله تعالى عنه ، وفي الوقت الذي كانت فيه الكفة راجحة لهوازن ، وقبل أن يلبي نداء رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم المهاجرون الأولون والأنصار جرت أمور تدل على سبب الهزيمة ٠

أولها ـ وحدتهم في الفكرة ، وان كانوا على ضلال ، فالوحدة مع الشرك تثمر في الحرب أكثر من العقيدة السليمة عند تفرق الأهواء والمنازع ، ووجود ضعاف الايمان مع أقويائه ٠

لقد كان فيهم رجل على جمل أحمر معه رمح طويل ، فان وجد هدفاً لرمحه ضرب ، وان لم يجد هدفاً رفع رمحه ، أمام جيش هوازن والناس من خلفه يتبعونه ٠

ثانيها ـ أن التردد وروح الهزيمة ظهر من رجال من الألفين ، فتكلم ناس من جفاة أهل مكة قال ابن اسحاق ،لما انهزم الناس ، ورأى من كان مع رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم من جفاة أهل مكة الهزيمة تكلم رجال بما في نفوسهم من الضغن ، فقال أبو سفيان بن حرب : « لا تنتهي هزيمتهم دون البحر » وتلك أمانيه ،وأخذ ينزل الطالع في الأزلام رجاء أن تنبئه في زعمه بأنها هزيمة ساحقة٠

ولقد صرخ كلدة بن الحنبل ، وهو مع صفوان بن أمية الذي كان لا يزال مشركا ، اذ لم تمض المدة التي أخذ الخيار لنفسه فيها ، صرخ كلدة هذا ألا بطل السحر اليوم ، فقال صفوان الذي لم يعلن بعد اسلامه لهذا الذي ظهر في

الجيش مسلماً ، وقال : ما قال ، قـال صفوان : اسكت فض الله فاك ، فوالله لأن يربني رجل من قريش أحب الي من أن يربني رجل من هوازن ·

ثالثها ـ أنه وجد من بين هذين الألفين من كـان يحـاول في زحمة الاضطراب أن يغتال رسول الله صـلى الله تعالى عليه وسلم ، فلقد قال شيبة بن عثمان بن أبي طلحة أخو بني عبدالدار قال ذلك الحاقـد ، اليوم أدرك ثأري من محمد ، وكان أبوه من حملة اللواء الذين قتلوا في أحد ، وهو غير عثمان بن طلحة الذي أسلم مع خالد ،وأعطاه النبي صلى الله تعالى عليه وسلم مفتاح الكعبة ، ولم يعطه علي بن أبي طالب مهلة ، اذ طلبه ·

بـداية النصـر

٦٢٩ ـ هذه ظواهر بدت بعد الانهزام وهي تعلن سبب الانهزام ، وهو أن الجيش الاسلامي الكبير كان فيـه دعاة التردد والهزيمة من بين الألفـين الذين كان الكثيرون حـديثي عهـد بالجاهلية ، ولما يدخل الايمان قلوبهم ٠

ونعود الى الانتصار بعد الهزيمة ،لم يزلزل قلب مؤمن ، والرسـول لم تؤثر فيه هذه الحال ، بل اشتد بأسه ،وقال : لقد حمي الوطيس ، وأخذ يدعو المهاجـرين الأولين ليعلموا مـكانه ،ويقول : منادياً لهم : أين أيها الناس ، ثم قال : يا عباس اصرخ ، وكان جهير الصوت : يا معشر أصحاب الشجـرة ، يا معشر أنصار الله وأنصار رسـوله ،يا معشر الخزرج ، فأجابوه لبيك لبيك، فكان الرجل يذهب ليعطف بعيره ، فلايقدر على ذلك ، فيقـذف درعـه في عنقه ثم يأخذ سيفه وترسـه ، ويؤم الصوت ، حتى اجتمع عند رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم نحـو مائة،ولكنهم بقية من بقايا بدر ، وكمـا قال علي بطل بدر وأحد ، والخندق :بقية السيف أبقى عدداً وأكثر ولداً ، والنبي صلى الله تعالى عليه وسلم راكب بغلته ، واخذ بزمامها العباس ، وهو يقول ومعه هذا الجمع المؤمن :

أنا النبي لا كـذب أنا ابن عبـد المطلب

اللهـم أنزل نصرك ، ثم تجمعت الجموع المؤمنة حول النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، وهـو يقـول الآن حمي الوطيس ، عادت الجولة لجيش المؤمنين ، بعـد أن مازت الهـزيمة الخبيث من الطيب ٠

رأى علي كرم الله وجهه الرجل الذي يحمل الرمح الطويل الذي يضرب به الهدف ، ان وجـده ، ووراءه جيش هوازن ، رأى علي الرجل ، وهوى اليه مع أنصاري ، فضرب علي عرقـوبي الجمل فوقع على عجزه ، ووثب الأنصاري على الرجـل ، فضربه ضربة أطن بها قدمه ٠

واذا كان كما يبدو الرجل حامل لوائهم فهذا لواؤهم قد سقط •

والنبي صلى الله تعالى عليه وسلم يحث المؤمنين على القتال ، ويقول : من قتل قتيلا فله سلبه ، وقد قتل بعض المؤمنين عشرين قتيلا من هوازن، فكانت له أسلابهم •

وكان يتناول زمام بغلة رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم العباس عمه ، وأبو سفيان بن الحارث بن عبدالمطلب ، وكان ممن صبر في تلك المعركة •

وكان في المقاتلين في جيش النبي صلى الله تعالى عليه وسلم نساء مؤمنات، ومنهن أم سليم ، وكانت حازمة وسطها ببرد لها وهي حامل ، وكانت راكبة جملا ، فكانت تخشى أن ينفر ، فكانت تأخذ حزامها من خطامه •

وكانت ترى أن الذين انهزموا كانوا من دعاة التردد والهزيمة ، رآها رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ،فقال لها أم سليم ، فقالت نعم بأبي أنت وأمي يا رسول الله ، اقتل هؤلاء الذين ينهزمون عنك ، كما تقتل الذين يقاتلونك ، فانهم لذلك أهل ، فقال لها رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم، أو يكفي الله تعالى يا أم سليم ، وكان معها خنجر ، فقال لها زوجها ما هذا الخنجر الذي معك يا أم سليم ؟ قالت خنجر أخذته ان دنا مني أحد من المشركين بعجته فقال زوجها ألا تسمع يا رسول الله ما تقول أم سليم !!

تحارب الناس ، واجتلدوا ، وكانت هوازن رماة ، ولكن رمى الله بالمؤمنين في أوساطهم وهم يسلبون القتلى ،ويكتفون الأسارى •

يروي ابن اسحاق عن جابر بن عبدالله أنه قال والله ما رجعت راجعة ، حتى وجدوا الأسارى مكتفين عند رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم •

انتهاء بالهزيمة الساحقة لهوازن :

٦٣٠ ـ انتهت المعركة بالهزيمة الساحقة في حنين ، بأن لجأ المنهزمون الى أوطاس ، وذلك بعد أن دعا رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم وجمع المؤمنين حوله ، وكان دعاؤه هكذا :« اللهم اني أنشدك ما وعدتني ، اللهم

لا ينبغي لهم أن يظهروا علينا ، ونادى أصحابه يا أصحاب البيعة ، يا أصحاب الحديبية الله الله الكرة على نبيكم ،يا أنصار الله ، وأنصار رسوله ، يا بني الخزرج يا أصحاب سورة البقرة »وأمرمن ينادي بذلك ، وقبض قبضة من الحصباء فحصب بها وجوه المشركين ،وقال شاهت الوجوه ، فهزم الله أعداءه ، وأعداء الحق من كل من حصبهم فيها ،واتبعهم المؤمنون يقتلونهم ، وغنمهم الله تعالى أموالهم ونساءهم ، وذراريهم ٠

وفر في هذه الهزيمة كبيرهم وقائدهم الذي كان يحثهم على أن يضربوا ضربة رجل واحد ، وهو مالك بن عوف،فروا فراراً حتى دخلوا حصن الطائف، وفريق آخر منهم فروا الى أوطاس ،فأرسل النبي صلى الله تعالى عليه وسلم سرية لهم ، سنذكر أمرها ان شاء الله ٠

وأخذ الرسول وأصحابه يجمعون الغنائم من السبايا والأموال ، وغيرها مما أفاء الله تعالى به عليهم ولقد حدث ابن اسحاق بسنده أن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، وهو يبحث بقايا المعركة من غنائم ، وآثار انهزام رأى امرأة مقتولة ، قالوا ان خالد بن الوليد قتلها ، ويظهر أنها ممن كن خلف المقاتلين ، ليدفعوهم للقتال ، كما دبر مالك بن عوف ، وحذره منه دريد بن الصمة لما رأى النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ذلك قال مستنكراً ، ما كانت هذه لتقاتل وقال لبعض من حوله : الحق خالداً فقل له لا تقتلن ذرية وعسيفاً ٠

ولم يذكر خالد في هذه المعركة الا في هذا الموضع منها ، ورضي الله عن عمر اذ قال عندما عزله عن قيادة الجيش في الشام : « ان في سيف خالد لرهقا » ٠

أوطاس :

٦٣١ ـ انهزمت هوازن هزيمة ساحقة ، ففروا الى الطائف ، وتجمعوا هنالك للقاء النبي صلى الله تعالى عليه وسلم هنالك متجمعين ٠

وتوجه فريق آخر نحو أوطاس ، وعسكر بها ، وتوجه بعضهم نحو نخلة ، وكانوا عدداً ، فتبعت الجميع خيل المسلمين ، وكان ممن أدركوه دريد بن الصمة صاحب رأيهم ، ومن يصدرون عنه ، ولما خالف مالك بن عوف رأيه

كانت الفضيحة التي قدرها ونبه اليهادريد بن الصمة ، اذ سبيت النساء ، ولم يكن في اخراجهن فائدة بل فضيحة، اضطرتهم صاغرين للاستماع عند محمد صلى الله تعالى عليه وسلم ٠

ولقد قال ابن اسحاق : بعث النبيصلى الله تعالى عليه وسلم في آثارهم أبا عامر الأشعري فأدرك هو ومن معه بعض من انهزم ، فناوشوه القتال ، فرمى أبو عامر الأشعري فقتل ، وقدكانوا يحسنون الرمي ، وهو الذي حمل الراية في أول يوم حنين ٠

وقد حمل الراية من بعده ابن عمه أبو موسى الأشعري فقاتلهم ، ففتح الله تعالى عليه أوطاس وانتصر عليهم ٠

وقد جاهد من قبله ابن عمه جهاداً قوياً شديداً ، اذ لقي عشرة أخوة فبرزوا واحداً بعد واحد ، حتى قتل تسعة ، وأسلم العاشر رغباً لا رهباً وحسن اسلامه والتقى برسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، فكان اذا لقيه يقول شريد أبي عامر ٠

وقد سبي في حرب أوطاس كثيرات كما سبي أكثر في حنين ٠

ويروى في ذلك أن أصحاب رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم أصابوا يوم أوطاس سبايا لهن أزواج من أهل الشرك ، فكان أناس من أصحاب النبي صلى الله تعالى عليه وسلم تأثموا من غشيانهن فنزل قوله تعالى :

﴿ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ﴾ (١)

وان في هذه الآية التي نزلت في بيان المحرمات دلالة على جواز غشيان الاماء المشركات بملك اليمين ولايمسك أحد بعصمة الكوافر ، ولكن يستبرىء أرحامهن بحيضة يحضنها ٠

هذا وسميت هذه الغزوة الكبرى بغزوة هوازن وحنين وأوطاس ، الا أنها كانت في هوازن وفي يوم حنين ، واستمرت حتى كانت أوطاس ٠

(١) النساء

ثمرات المعركة

٦٣٢ ـ جمع النبي صلى الله تعالى عليه وسلم غنائم هوازن ، وأرسلها الى الجعرانة حتى يتتبع فلولها ثم ضم اليها ما غنمه من أوطاس من أموال وسبايا ، وكان مجموع ذلك كثيراً ، لأن هوازن برأي مالك بن عوف قربت السبايا والأموال من موطن الجهاد ،فكان مؤدى هزيمته ·

أمر رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم بالسبي والغنائم أن تجمع ، فجمع ذلك كله ، ووجه الى الجعرانة ، وكان السبي ستة آلاف رأس ما بين نساء وذرية ، وعدد الابل أربعة وعشرون ألفاً ، وعدد الغنم أكثر من أربعين ألف شاة وأربعة آلاف أوقية من الفضة ·

وهذا على أن أكثر معاملتهم النقدية كانت بالفضة ، ولم يكن استعمالهم للدينار الروماني كثيراً ·

ولم يوزع هذه الغنائم بين الفاتحين بمجرد انهزامهم ، وجمعها ، بل استأنى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم رجاء أن يأتوا مسلمين ، ولو بظاهر من القول ، تقريباً للنفوس ، فما كان محمد صلى الله تعالى عليه وسلم الا هاديا يدعو الى الاسلام ، وخصوصا أن ما أخذ منهم ان لم يكن كل أموالهم ، فهو أكثرها ·

ولكن مضى بضع عشرة ليلة ، ولم يجيء أحد ·

فقسمها بين الفاتحين ، وصرف منها للمؤلفة قلوبهم ، فأعطى أبا سفيان بن حرب تأليفا لقلبه ، وليدخله الايمان أربعين أوقية من فضة ، ومائة من الابل ، ولكنه لم يكتف بما أخذ بل طلب لابنه يزيد ، فقال ابني يزيد ، فقال النبي صلى الله تعالى عليه وسلم أربعين أوقية ، ومائة من الابل ، ولكنه الطمع ، فقال ابني معاوية فقال النبي صلى الله تعالى عليه وسلم أعطوه أربعين أوقية ومائة من الابل ، فمعاوية كان من المؤلفة قلوبهم ليدخلها الايمان ، فليذكر ذلك من يضعونه أمام علي أو يناصرونه ·

وأعطى حكيم بن حزام مائة من الابل ، ثم سأله مائة أخـــرى فأعطاه ، وأعطى النضر بن الحارث ابن كلدة ،وأعطى العلاء بن حارثة الثقفي خمسين، وأعطى العباس بن مرداس أربعــين ،فقال في ذلك شعراً ، فكمل له مائة .

واختص من بعد ذلك زيد بن ثابت باحضار الغنائم والناس ، ثم فرقهـــا على الناس ، فكانت سهامهم لكل رجـل أربعا من الابل وأربعين شاة ، فان كان فارسا أخذ اثني عشر بعيراً ، وعشرين ومائة شاة وانه مما يلاحظ أن المؤلفة قلوبهم الذين كانوا في المعركة نظارة ينظـرون ، أخــذوا أكثر نسبيا من المجاهدين ، فبينما كان نصيب المجاهد في الغنيمة التي استولى عليـــه بسيفه أربع نوق كـــان نصيب أبي سفيـان المترقب مائة له ولكل واحد من أولاده بمائة ، وله أربعـون أوقية ، ولـــكل واحد مثلها .

ولكن المؤمنين الصادقين في ايمانهم ما كانوا ليعترضوا على رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، فهو الهـادي وهو المرشد ، وهو الداعي الى الحق ،والمؤلف للقلوب التي تتجه اليه ، ولكيلا تنحرف عنـــه ، وأولئك الذين ألفت قلوبهـم ماديون ، تجذبهم المادة أكثر مما يجذبهم الحق المجرد .

ولا يصح أن يفهم أحد أن ذلك شراء للايمان ، فان الايمـــان لا يشترى بالمال ، ولكن يشترى بالاذعان للحق ،ولكن أولئك أخذت منهم رياسة ، وأخذ منهم سلطان،وهم كما عرف من ماضيهم لا يذعنون للحق المجرد ، ولا للدليل ، وفي دخولهم للاسلام ، لابد من تأليف قلوبهم للاسلام ، وما يكتسبه الايمـان بدخول الايمان قلوبهم أكثر ما تخسر من مال ، ولقد قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم لامام الهـدى علي بن أبي طالب « لأن يهدي الله تعالى بـــك رجـــلا واحدا ، خـــير من حمـــر النعم » .

ويجب التنبيه هنا الى أن كثيرين من أهل مكة الذين يترددون في الدخـول في الاسلام دخلوا فيه أفواجا أفواجا لما رأوا النصر المبين ، والتأييد البين من الله سبحانه وتعالى .

موجدة الأنصار

٦٣٣ ـ روى ابن اسحاق بسنده عن أبي سعيد الخدري قال : لما أعطى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ما أعطى من العطايا الكبار في قريش ، وفي قبائل العرب ، ولم يكن في الأنصار منها شيء ، وجد هذا الحي من الأنصار في أنفسهم ، حتى قال قائلهم، لقي رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم قومه ، فدخل عليه سعد بن عبادة ، فقال يا رسول الله ، ان هذا الحي من الأنصار قد وجدوا عليك في أنفسهم ، لما صنعت في هذا الذي أصبت ، قسمت في قومك وأعطيت عطايا عظيمة في قبائل العرب ، ولم يكن في هذا الحي من الأنصار منها شيء ، قال النبي صلى الله تعالى عليه وسلم : فأين أنت من ذلك يا سعد ، قال يا رسول الله ما أنا الا من قومي ، قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، فاجمع لي قومك في هذه الحظيرة ·

فجاء رجال من المهاجرين فتركهم فدخلوا ، وجاء آخرون فردوا ، فلما اجتمعوا أتى سعد فقال قد اجتمع لك هذا الحي من الأنصار ·

فأتاهم رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، ووقف فيهم خطيباً ، فحمد الله تعالى ، وأثنى عليه بما هو أهله ثم قال: « يا معشر الأنصار ، ما قالة بلغتني ، وموجدة وجدتموها في أنفسكم ، ألم آتكم ضلالا ، فهداكم الله بي ، وعالة فأغناكم الله بي ، وأعداء فألف الله بين قلوبكم !! قالوا الله ورسوله المن الفضل، ثم قال ألا تجيبوني معشر الأنصار ، قالوا بماذا نجيبك يا رسول الله لله ولرسوله المن والفضل : قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم : أما والله لو قلتم ، لصدقتم ولصدقتم ، أتيتنا مكذباً فصدقناك ، ومخذولا فنصرناك ، وطريداً فآويناك ، وعائلا فواسيناك ، أوجدتم يا معشر الأنصار في أنفسكم من لعاعة من الدنيا ، تألفت بها قوماً ليسلموا ، ووكلتكم الى اسلامكم ، ألا ترضون يا معشر الأنصار أن يذهب الناس بالشاة والبعير ، وترجعوا برسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم الى رحالكم، فوالذي نفس محمد بيده لما تنقلبون به

خير مما ينقلبون ، ولولا الهجرة لكنت امرأ من الأنصار ، ولو سلك الناس شعباً وودياً ، وسلك الأنصار شعباً وودياً لسلكت شعب الأنصار وواديها ، الأنصار شعار ، والناس دثارلهم، اللهم ارحم الأنصار وأبناء الأنصار وأبناء أبناء الأنصار ، قال أبو سعيدالخدري ، فبكوا حتى أخضلوا لحاهم ، وقالوا رضينا برسول الله قسما وحظاً •

وان الموجدة التي وجدوها ، ربماكان من أسبابها أنهم وجدوا أبا سفيان الذي قاتلوه أخذ العطايا العظيمة هو وابناه ، وهم الذين قاتلوهم مجاهدين في سبيل الله •

ولقد دعا النبي صلى الله تعالى عليه وسلم بالرحمة لأبناء الأنصار وأبناء أبناء الأنصار فحقت عليهم الرحمة والرضا من الله ورسوله وكان من أبناء المؤلفة قلوبهم من سبوا نساء الأنصار وأبناء الأنصار في واقعة الحرة ،فلعنه الله تعالى ، ولعن من مكنه •

الشفاعة في الغنائم بعد توزيعها

٦٣٤ ـ مكث النبي صلى الله تعالى عليه وسلم بضع عشرة ليلة لا يوزع الغنائم ، رجاء أن يسلموا ، أو رجاء أن يطلبوها على عهد يتعهدونه ، ورجاء محمد صلى الله تعالى عليه وسلم ليس رجاء محارب انما هو رجاء هاد مرشد ، يريد القلوب ولا يريد الحروب لذاتها .

ولما وزعها عليه الصلاة والسلام ، جاء اليه صلى الله تعالى عليه وسلم وفد من هوازن من أربعة عشر رجلا ، وعلى رأسهم عم رضاعي لرسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم .

جاءوا اليه صلى الله تعالى عليه وسلم ، وقد فرغت أيديهم من أموالهم بسبب حمق مالك بن عوف ، وعدم طاعته لصاحب الخبرة من قومه ، ورأوا نساءهم سبايا .

جاءوا الى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، وسألوه أن يمن عليهم بالسبي والأموال ، أي يرد عليهم كل ما أخذ منهم ويظهر أن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم كان يميل الى أن يرد السبايا ، ولا يرد المال ، فقال صلى الله تعالى عليه وسلم لهم « ان معي من ترون ، وان الحديث الي أصدقه ، فأبناؤكم ونساؤكم أحب اليكم أم أموالكم ، قالوا ما كنا نعدل بالأحساب شيئاً » .

فقال لهم رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم : « اذا صليت الغداة ، فقوموا فقولوا انا نستشفع برسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم الى المؤمنين ، ونستشفع بالمؤمنين على رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم أن يرد سبينا .

فلما صلى الغداة قاموا فقالوا ذلك .

فقال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم : أما ما كان لي ولبني عبد المطلب ، فهو لكم ، وسأسأل الناس .

فقال المهاجرون والأنصار ، ما كان لنا فهو لرسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم .

فقال الأقرع بن حابس أما أنا وبنو تميم فلا .

وقال عيينة بن حصن ، أما أنا وبنو فزارة فلا .

وقال العباس بن مرداس ، أما أنا وبنو سليم فلا ، فقالت بنو سليم ، ما كان لنا فهو لرسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، فقال العباس بن مرداس لقومه: وهنتموني .

وهنا نجد الرسول الحر الكريم المحب للحرية يبين أنه يريد تحرير السبي ، فيقول صلى الله تعالى عليه وسلم« ان هؤلاء القوم ، قد جاءوا مسلمين ، وقد كنت استأنيت سبيهم ، وقد خيرتهم ، فلم يعدلوا بالأبناء والنساء شيئاً ، فمن كان منكم عنده منهن شيء فطابت نفسه ، فسبيل ذلك .

ومن أحب أن يتمسك بحقه ، فليرد عليهم ، وله بكل فريضة ست فرائض من أول ما يفيء الله علينا .

فدى بذلك كل السبايا من مال المؤمنين ، وقد طابت نفوس الناس بذلك ، وقالوا قد طيبنا رسول الله واتجه النبي من بعد ذلك الى تعرف من رضي ومن لم يرض ، وقال ارجعوا حتى يرفع الينا وفاؤكم أمركم ، فتفرقوا ، وردوا النساء والأبناء ولم يتخلف منهم أحد غير عيينة بن حصن ، فانه أبى أن يرد عجوزا صارت اليه من السبي ، ثم ردها من بعد .

وان النبي صلى الله تعالى عليه وسلم رد السبايا مكرمات ، وكساهن كسوة كريمة ، فكساهن من القباطي ، وأعطى كل واحدة منهن قبطية ، ولسان حاله يقول رحمة : مغلوبين مكرمين .

وقبل أن ننتهى من الكلام في الغنائم ومآلها ، وهي غنائم هوازن نذكر حكمة الله تعالى فيها ، ورعايته لجيش الاسلام، وحمايته من الضياع .

ذلك أن فتح مكة لم ينل فيه المسلمون شيئا من الغنائم ، فما أفاء الله تعالى على رسوله والمؤمنين بشيء منها تكريما لها ، وحماية لأموالها ، فجاءوا اليه

غير فاتحين بل جاءوا طائفين ساعين بين الصفا والمروة ، وان لم يحرموا أحرام عمرة ٠

ولكنه جيش جرار ، يضم عشرة آلاف جاءوا من المدينة الى مكة ، فلابد أن يحتاجوا ما يمون جيشاً كبيراً ، فهؤلاء قطعوا الفيافي ، والقفار ، وليسوا على مقربة من ديارهم حتى ينالوا منها ما يحتاجون اليه ٠

فساقهم الله تعالى الى هوازن ، وساق هوازن اليهم ، وقذف الله تعالى الى قلب قائدها مالك بن عوف أن يخرج بمال هوازن جميعه ونسائهم ليقوي الجيش وتجرى فيه الحماسة دفاعا عنهم، فلم يغن عنهم من ذلك شيء ، وساق الله تعالى بذلك سبيا كثيراً ، ومالهم كله، فأخذ جيش الاسلام المال كله ، ووزعه النبي صلى الله تعالى عليه وسلم بما أراه الله ٠

أحكام شرعية في غزوة حنين

العارية المضمونة :

٦٣٥ ـ جاء في أول غزوة حنين أن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم علم أن عند صفوان بن أمية دروعا وأسلحة فأعارها للجيش الاسلامي ، والنبي صلى الله تعالى عليه وسلم تعهد بضمانها ، وقال عارية مضمونة ، أفمؤدى هذا الضمان أن يردها عليه ، ولا يغتال لها الجيش الاسلامي ، أم المراد أنها واجبة الارجاع بقيمتها ان تلفت ، أو نحو ذلك .

اختلفت أنظار الفقهاء في فهم ذلك .

وخلاصتها أن الفقهاء أجمعوا على أن الاعارة في يد المستعير كالوديعة لا تضمن الا اذا تلفت بالتقصير في الحفظ ، أو استعمالها في غير ما أعيرت له ، فان ذلك يكون تعديا ، والتعدي يوجب الضمان ، ولأن الاعارة تبرع ، والتبرعات لا تضمن ان تلفت اذا كان التلف بالاستعمال الذي أعيرت له .

وان الشافعي رحمه الله قال ان الشروط الظاهرة في العقود توفى كما نص عليها ، فالعارية تقبل الضمان اذا اشترط الضمان ، وتكون مضمونة بالشرط ، ولا تكون كالغصب لأن الغصب مضمون بالتلف دائما ، لأن اليد فيه يد معتدية ، وهي توجب الضمان عند التلف .

أما العارية فالأصل أنها تكون أمانة في يد من أخذها ، اذ لا يكون اعتداء ، ولكن يجوز أن يتفق الطرفان على الضمان ، خصوصا اذا كانت الاعارة لأمر يكون مظنة التلف كأسلحة لحرب ، أو طاحونة للادارة ، فان التلف يكون مظنونا وقريبا .

وقال أبو حنيفة ومالك وبعض جمهور الفقهاء : ان العارية لا تضمن ولو بالشرط ، لأن ذلك قلب لحقيقة معناها ، اذ هي وديعة في معناها ، والوديعة

لا تضمن ، فهي لا تضمن ، ولكن يجب أن يلاحظ أن ثمة فرقا بين الوديعة والعارية ، فالعارية تستعمل باذن المالك ، والوديعة لا تستعمل ، بل استعمالها بغير اذن صاحبها ، يخرج من معنى الوديعة الى معنى آخر ، وهو العارية ، وبغير اذن المالك تتحول اليد الى يد معتدية •

وان أولئك الفقهاء الذين قالوا : ان العارية لا تكون مضمونة ، قالوا ان النبي صلى الله تعالى عليه وسلم لم يرد أصل الضمان برد العين ، أو بقيمتها ان تلفت انما أراد أنها مؤداة أي مضمون أن تعاد الى صاحبها ان سلمت ، فان تلفت ، لا يتصور ضمان قيمتها ،وذلك لأن العبارة رويت عن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم بأنه قال مؤداة في بعض الروايات ، فهذا يدل على أن المراد من كلمة مضمونة في الرواية الأولى أن تكون مؤداة ، والضمان على الأداء ، لا على التلف ، ولأن كلام النبي صلى الله تعالى عليه وسلم كان اجابة لصفوان ، اذ قال للنبي صلى الله تعالى عليه وسلم : أغصباً ــ يامحمد ،فتضمن كلام صفوان الاستفهام عن أن تغتصب عينها ، فكانت اجابة النبي صلى الله تعالى عليه وسلم عليها مؤداة ، أي أننا لا نغتصبها ، بل نأخذها على أنها عارية ترد ، فكان الأقرب أن تفسر بأنها مردودة أو مؤداة ، لأن السؤال لم يكن عن الوصف ، بل كان عن أصل الأخذ عن العين بالرضا أو بالكره ، وعن نوعه أعلى وجه الملكية أم على وجه العارية •

وفوق أن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم وصف الضمان بأنه للعين ، ولا يتصور ذلك الا بردها ذاتها فليس الكلام في ضمانها اذا تلفت بأداء قيمتها ولهذا كان الواضح هو ضمان ردها •

وفي أحكام الاتلاف في الحرب ، أنه يجوز اتلاف كل ما يكون اتلافه مضعفاً للعدو ، اذا كان موضوع ذلك أداة من أدوات الحرب يملكونها ، قتل الحيوان الذي يركب في الحرب فقد عقر علي كرم الله وجهه الجمل الذي كان يركبه من اتخذ رمحه كاللواء ، يقتل بالرمحان وجد من يقتله ، ثم يرفع الرمح من بعد ذلك كاللواء ، فجاء علي ، وضرب الجمل ، فسقط الرجل فتلقاه بعض الأنصار فقتله •

وهذا يدل على أنه يباح من اتلاف الحيوان ما يكون أداة حرب ، ولا يعد ذلك تعذيباً للحيوان بقطع طرف من أطرافه في ميدان القتال •

عطاء المؤلفة قلوبهم من غنيمة هوازن

٦٣٦ ـ للمؤلفة قلوبهم سهم في الزكاة يثبت بقوله تعالى :

﴿ * إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلْفُقَرَآءِ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱلْعَٰمِلِينَ عَلَيْهَا وَٱلْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَٱلْغَٰرِمِينَ وَفِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ ۖ فَرِيضَةً مِّنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٦٠﴾ ﴾ (١)

هذا سهم مقرر في الزكاة ، وهو ينفق في سبيل تأليف القلوب ، لتؤمن ويؤمن قومها من ورائها ، ولايواء من يسلم ، فيجرد من ماله أو يقطع من أهله ، فيعان ، ولذلك قرر بعض العلماء أن يصرف سهم المؤلفة قلوبهم في الدعوة الاسلامية .

ولذلك جعل له سهم قائم في الزكاة، ليكون لهم مورد دائم مستمر ، فلا يقتصر على أن يكون موردها الغنائم التي ليس لها صفة الدوام .

والعطاء الذي أعطيه المؤلفة قلوبهم أهو من الخمس الذي وضع تحت تصرف النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، لنفسه ولذوي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل الذي نص عليه في قوله تعالى :

﴿ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَىْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ ٱلْفُرْقَانِ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤١﴾ ﴾ (٢)

أكان عطاء المؤلفة قلوبهم من هذا الخمس ، أم كان من أربعة الأخماس العامة .

قال الشافعي ومالك رحمهما الله تعالى هو من الخمس الذي يخص النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، وأربعة الأخماس قد وزعت على المحاربين ، ولأن أربعة

---

(١) التوبة (٢) الانفال

الأخماس صارت حقاً للفاتحين ، ولايؤخذ شيء من صاحب حق الا بعد استئذانه ، ولم يستأذنهم النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، ولم تكن هذه العطايا من كل الخمس الذي كان تحت تصرف النبي صلى الله تعالى عليه وسلم، لأنه مقسم على خمسة أحدها للنبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، والنبي صلى الله تعالى عليه وسلم أخذ ذلك من نصيبه هو .

ويرى الامام أحمد أن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم عد ما أخذه هؤلاء من الأنفال وهي لله ولرسوله صلى الله تعالى عليه وسلم ، وكما قال تعالى :

﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَنفَالِ ۖ قُلِ ٱلْأَنفَالُ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ ۖ ﴾ (١)

وكأن الغنائم لا تقسم ابتداء ، وليست حقاً ثابتاً للفاتحين بمجرد الفتح، وانما هي حق لهم بعد أن ينفل النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ما يرى نفله تقوية للدعوة،وتأليفاً للقلوب وتقريب البعيد ، وأنه يجب أن يعلم أن الحروب في الاسلام ما كانت لجمع الغنائم ،وانما كانت لدفع الاعتداء وفتح الطريق أمام الدعوة ، فما يكون للدعوة بتأليف القلوب ، أجدى من غيره ، وان الأنفال يكون التصرف فيها قبل توزيع الغنائم،انما الغنائم بعد الأنفال والأنفال يكون التصرف فيها لمصلحة الدعوة الاسلامية .

وهل هذا يكون الذي أعطاه النبي صلى الله تعالى عليه وسلم من الأنفال فهل يكون لغيره من أمراء المسلمين وأئمتهم ، ونقول في الاجابة عن ذلك، ان ذلك يجوز ان كانوا كأبي بكر وعمر وعلي ، وعمر بن عبد العزيز فلهم ذلك ، لأن عدالتهم ودينهم يمنعانهم من أن يتخذوا أنفالا لغير المصلحة الحقيقية التي تعود الى مصالح الاسلام والمسلمين، والدعوة الحق الى الله ورسوله ، وغير هؤلاء الذين يكونون على غير ما هم عليه من العدل ، والايمان ، يتخذون ذلك لهواهم ، وتقريب الصديق ،وابعاد المستحق .

وما قرره أحمد وعلماء السنة من أن ذلك كان قبل التخميس ، يؤيده ما جاء على ألسنة الأنصار من الموجدة والمعتبة ، لأن هذا العطاء لأبي سفيان وولديه ، قد كان ينقص من أنصبة المستحقين في أربعة أخماس الغنيمة ، ولكن ايمانهم مكنهم من أن يعرفوا مقصد النبي صلى الله تعالى عليه وسلم .

---

(١) الانفال

تبادل الرِّفق بالحيوان

٦٣٧ ـ عندما اتجه النبي صلى الله تعالى عليه وسلم الى رد السبايا من هوازن الى أهليهم ، بعد أن دخلوا في الاسلام ، وكان العدد كثيراً ، أربعة آلاف ، أطلق النبي صلى الله تعالى عليه وسلم من في يده وبني عبد المطلب من السبايا ، وعرض على المؤمنين أن يفعل ما فعلوا ، فرضي باتباعه المهاجرون الأولون والأنصار ، وغيرهم ممن لم يرتضوا باجازة ما أجاز النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، فان النبي صلى الله تعالى عليه وسلم طلب اليهم اطلاق سراح النساء والأبناء على أن يكون لكل رقبة من السبايا ستة نوق مما يجيء في المستقبل من غنائم ، فرضوا جميعا الاعينية بن حصن فقد أبى حتى هذا وتلكأ ، ثم رضي بأن يطلق سراح عجوز كانت عنده ، ولم يكن عنده غيرها ، فهل كان هذا الذي فعله النبي صلى الله تعالى عليه وسلم معاوضة •

لقد تكلموا في هذا فبنوا عليه النظر في أمرين :

أولهما ـ جواز بيع الحيوان بالحيوان مع التفاضل في القدر ، والنسيئة كما يجوز بيع الرقيق بالحيوان ، أو شراء الرقيق بالحيوان •

وثانيهما ـ جواز التأجيل الى أجل غير معلوم ، اذ أن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم قد قرر أنه يعطيهم عن كل رقبة من السبايا الستة من النوق في الغنائم المقبلة •

أما بالنسبة للأمر الأول ، فقد قالوا انه يجوز بيع الحيوانات بعضها ببعض متفاضلا ولا يشترط التسليم ، ومنع ذلك بعض الفقهاء على أنه من ربا البيوع التي لا يجوز فيها التفاضل عند اتحاد الجنس ، ويجب القبض مع جواز التفاضل عند اختلاف الجنس لأنها مضمونات ، وقد أخذوا هذا من آثار أخرى •

وأما تأجيل أحد العوضين الى أجل غير مسمى ، ولا معين ، فقد أجازه

أحمد بن حنبل وطائفة من علماء السنةاذا تراضى عليه الطرفان ، اذ لا محذور في ذلك ، ولا عذر ، وكل منهما قـددخل على بصيرة ورضا •

وقال أبو حنيفة ان ذلك يفضي الىالمنازعة ، وان كل ما يؤدي الى المنازعة يكون باطلا •

وان تخريج عمل رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم على أنه بيــع فيه نظر ، فلم تكن مقايضة بين القـائمين وبين النبي صلى الله تعالى عليـه وسلم انما كان هناك عتق في نظـير مال ،فالنبي صلى الله تعالى عليه وسلم طلب اليهم أن يطلقـوا ما في أيديهـم من السبايا ، وأن يعوضهم عن هذا العتق بمال تكون قيمته هي قيمة من أعتقوهم في نظر النبي صـلى الله تعالى عليــه وسلم ، وقد ارتضوا ما قدر النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، فهو عتق بشرط وليس ببيع •

وان العتق هو تبرع مالك الرقبـةللرقبة نفسها ، لأنه اعطاء الحرية فهو هبة بشرط العوض والهبة (والعتـق بالذات) يتسامح فيها بما لا يتسامح في غيره ، وما كان العوض المؤجل ثمنا،حتى تكون جهالته مفضية الى المنازعة ، انما هو عوض في عتق فلا يؤدي الىالتنازع ، ولذلك نقول انه ما كان ثمة حاجة الى مناقشة كونه ربويا ، أو غيرربوي ، وكون التأجيل الى أجل مجهول جائز أو غير جائز ، فان تصرف النبيصلى الله تعالى عليه وسلم بعيد عن ذلك كل البعد •

غزوة الطائف

٦٣٨ ـ تتبع النبي هوازن حيثما سارت سار وراءها ، سار وراءها الى أوطاس ، اذ دخلتها هوازن وتحصنت بها ثم ساروا الى الطائف ، وهي ذات حصون قوية ، وهم أشداء ، ورماة ،فسار النبي صلى الله تعالى عليه وسلم فلما علموا بمسيرته تحصنوا بحصونهم، وجمعوا طعاما وزادا يكفيهم سنة ، بحيث يصبرون اذا طال الحصار عليهم، فيجهد أصحاب محمد صلى الله تعالى عليه وسلم ، ولا يجهدون وهم فيحصونهم يرمون ، ولا ينالون ، فيقتلون ولا يقتلون •

والنبي صلى الله تعالى عليه وسلمعندما اتجه الى حصونهم أشار عليه سلمان الفارسي بالمنجنيق يرمي بهاحصونهم ، فيأتيها من قواعدها ، فتنهار قوة تحصينهم •

وصنع لهم النبي صلى الله تعالىعليه وسلم دبابات من خشب تقتحم عليهم حصونهم •

مضى الرسول صلى الله تعالى عليهوسلم الى حصون الطائف ، فرموا جيش النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، وصارالنبل ينزل على المؤمنين كأنه جراد ، فقتل من المسلمين عدد كبير قيل انهبلغ اثني عشر شهيدا أو يزيد ، فآوى النبي صلى الله تعالى عليه وسلم الى مكانبعيد عن مرمى النبل ، ولكنه يريد أن يعرف حالهم في الداخل •

فنادى منادي رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، من خرج منهم ، ودخل جيش المسلمين من العبيد ، فهم أحرار •

فخرج نفر من العبيد ، ونالوا حريتهم بحكم الشرع ، وبحكم ذلك النداء المحمدي الحر الكريم ، ولقد تعرف النبي صلى الله تعالى عليه وسلم أحوالهم•

وعلم أن عندهم الزاد الذي يكفيهمسنة •

وأخذ عليه الصلاة والسلام يعمل على أن يخرجوا من الحصون مختارين ، فأمر بالنخيل أن يقطع ، وبالكرم أن تجتث ، فرأوا أن ذلك ضياع لثروتهم ، وقالوا ما يكون لنا ان قطعت كرومنا ونخلنا ، وقال مناد من بني ثقيف قد بعثوه يقول ، لا تفسدوا الأموال ، فانها لنا أو لكم .

هز ذلك نفوسهم ، وأضعف عزيمتهم، وخصوصا أن عبيدهم أخذوا يتركونهم ، وكان العبد الذي ينال الحرية يدفعه النبي صلى الله تعالى عليه وسلم الى بعض المسلمين يعولونه ،حتى ينال خيرا في حريته ، واستمروا يقاومون مع ضعضعة نفوسهم والمسلمون ينالون من حصونهم ، حتى انهم ليحمون الحديد ، يرمونه على الدبابات الخشبية ، ليحرقوها ، ويخرجوا الرجال من تحتها .

وقد كان بين الطائف وقريش رحم ومصاهرة .

ولذلك تقدم ناس من قريش لثقيف يمنعونهم من المطاولة ، فالنتيجة ليست لهم ، وان العاقبة للمتقين .

تقدم أبو سفيان بن حرب والمغيرة بن شعبة يطالبون ثقيفاً بأن تؤمنهم ليتمكنوا من كلامهم ، وقد لانت شكيمة ثقيف ، وقبلت التفاهم ، فأمنوهما ، تقدم أبو سفيان ودعوا نساء من نساء قريش وكنانة ليخرجن اليهما ،ولكنهما لم يجبن خشية السبي كما كان لنساء هوازن ، منهن آمنة بنت أبي سفيان .

فلما ابين عليهما قال لهما الأسود بن مسعود يا أبا سفيان : ويامغيرة ألا أدلكما على خير مما جئتما له ، وكان رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم نازلا بواد يقال له العقيق قال ابن مسعود هذا انه ليس بالطائف مال أبعد رشاء ، ولا أشد مؤنة ، ولا أبعد عمارة من مال بني الأسود ، وان محمداً ان قطعة لم يعمر أبداً ، فكلماه ، فليأخذه لنفسه ، أو ليدعنه لله وللرحم فان بيننا وبينه من القرابة ، ما لا يجهل .

لان القوم ، وثقيف لا يلينون الا اذا أرادوا أن يباعدوا بينهم العنف ، ويريد السلم ، ولقد وجدوا أن الحصار عضهم ، وان كانت لديهم المؤن والذخائر ، فهو حبس كيفما كانت صورته ، وأن جيش النبي صلى الله تعالى عليه وسلم أخذ أموالهم من النخيل والكروم ، ويأتي حصونهم من قواعدها

وهم لا قبل لهم ، فنادوا محمداً صلى الله تعالى عليه وسلم بالرحم والقرابة ، وما كان رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم أن يصم آذانه عن نداء الرحم والقرابة ، وهو الذي يأمر أن يوصل ما أمر الله تعالى بوصله ٠

وقد رأى الاسلام يدخل في الطائف من مكة وما حولها ، وأن بعض بني ثقيف دخلوا في الاسلام وأكثرهم مال اليه ، وما كان محمد صلى الله تعالى عليه وسلم الا هاديا داعيا الى الحق والى صراط مستقيم ، وان اللين مع من عندهم عنف كثقيف قد يكون سببا في أن تصغي قلوبهم الى الاسلام ، بينما العنف يعمي قلوبهم ويغلظ أكبادهم ويزيدهم عناداً ٠

فرأى عليه الصلاة والسلام استجابة لداعي الرحم الذي أثاروه ، والقرابة التي تنادوا بها ، والاصلاح في الأرض أن يرحل ، وقد غاب عن المدينة أكثر من شهرين ٠

وان ذلك كان في شوال ، واذا استمرفانه سيجيء ذو القعدة وهو من الأشهر الحرم ، وما كان النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ليقاتل مهاجماً في الأشهر الحرم ، التي هي ذو القعدة ، وذو الحجة ، والمحرم ، ورجب الذي بين جمادى وشعبان ٠

وموقف النبي صلى الله تعالى عليه وسلم كان موقف هجوم ، والنبي صلى الله تعالى عليه وسلم لا يخالف أمر الله تعالى باحترام الأشهر الحرم ٠

لذلك أخذ في الرحيل عائداً الى المدينة بعد أن حاصر الطائف سبع عشرة ليلة ، وفي رواية سبعاً وعشرين ليلة ، وقال ابن اسحاق : مكث بضعاً وعشرين ليلة ٠

اتخذ النبي صلى الله تعالى عليه وسلم الأهبة في الرحيل ، وذكر أن الله تعالى لم يأذن له في الطائف ، وذكر ذلك لخويلة بنت حكيم بن أمية ٠

فخرجت خويلة وذكرت ذلك لعمر بن الخطاب ، فقال لرسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم : ما حديث حدثتنيه خويلة ، زعمت أنك قلته ، أفلا أؤذن بالرحيل ، قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم : بلى ، فأذن عمر رضي الله تعالى عنه بالرحيل ٠

رحل رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم الى يثرب عائداً من تلك الرحلة المباركة غير مهزوم ولا مغلوب ولا عاجز ، ولكنه قادر ومنفذ لحدود الله ، غير مقاتل مهاجماً في الشهر الحرام ،مراعياً الرحم والقرابة ، وآخذاً القوم الى الاسلام في رفق وغير غلظة ، وخرج من بين ظهرانيهم ، ليلقى وفد هوازن وثقيف في المدينة بين ظهراني المسلمين ٠

ولما ارتحلوا وأخذوا يستقيمون على الطريق بعد هذا الفتح المبين ، والنصر المؤزر ، قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم : « آيبون عابدون لربنا ، حامدون » ٠

وقيل لرسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم : ادع على ثقيف ، فقال نبي الرحمة : « اللهم اهد ثقيفاً وآت بهم » ٠

ويروى أنه صلى الله تعالى عليه وسلم اتبعه في أثره عروة بن مسعود حتى أدركه قبل أن يدخل المدينة مسلماً ، وسأله أن يرجع الى قومه بالاسلام فقال له النبي صلى الله تعالى عليه وسلم : كما يتحدث قومك أنهم قاتلوك ، وعرف رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم أن فيهم نخوة الامتناع الذي كان فيهم ، فقال عروة يا رسول الله : أنا أحب اليهم من أبكارهم ،وكان حقيقة مجاباً مطاعاً فيهم ، فخرج يدعو قومه الى الاسلام رجاء ألا يخالفوه لمنزلته فيهم ، فلما أشرف عليهم من مكان مرتفع يدعوهم الى الاسلام رموه بسهم فقتله ، فقال رضي الله عنه :كرامة أكرمني الله تعالى بها ، وشهادة ساقها الله تعالى الي ، فليس في الا ما في الشهداء الذين قتلوا مع النبي صلى الله تعالى عليه وسلم قبل أن يرتحل عنكم ، فادفنوني معهم فدفنوه ٠

ويظهر أن قتلهم عروة ، وهو المحبب فيهم ، قد أثر في نفوسهم ، وقد رأوا أن العرب قد دخلوا في طاعة محمد صلى الله تعالى عليه وسلم ، وأنهم وحدهم الباقون على عدائه ، ولا قبل لهم به ، ولا بحرب من حولهم من العرب الذين بايعوا رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم وأسلموا ٠

لذلك أجمعوا أن يرسلوا الى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، فكلموا عبد بن ياليل ، وكان في سن عروة بن مسعود ، وعرضوا عليه ذلك ، فأبى أن يجيبهم ، وقد رأى ما صنعوه مع عروة ، وكانوا هم الذين أرسلوه ،

كما يحاولون ارسالهم ، فخشي أن يقع به ماوقع بصاحبه،فقال لهم عبد بن ياليل ابعثوا معي وفدا فبعثوا معـــه ستة ،ووصلوا الى المدينة ، فلقيهم المغيرة بن شعبة ، ولنترك الـــكلام فيمـــا صنعه الوفد ، وما قاله الرسول صلى الله تعالى عليه وسلم الى الكلام في الوفود من بعدذلك في وقتها من الزمان ٠

وان كلامنا الآن في وفد ثقيف كلام منبتر ، ذكرناه لنبين أن ترك النبي صلى الله تعالى عليه وسلم غير عاجز ،كان الحكمـــة العالية التي ألانت قلوباً بعد شماسها، حتى انه يروي أبو داوودأن العيلة الأحمسي واسمه صخر ، أخذ على نفسه عهداً وذمة أن يحمـــل ثقيفأعلى مبايعة رسول الله صـــلى الله تعالى عليه وسلم على الاسلام ، وقد استطاعأن يلين قلوبهم وأن ينزلهم على حـــكم رســـول الله صـــلى الله تعالى عليه وسلم ٠

وقد كتب صخر هذا الى رسول اللهصلى الله تعالى عليه وسلم يقـــول له : « أما بعد فان ثقيفاً قد نزلت على ذلكيا رسول الله ، وأنا مقبـــل بهـــم ، وهم في خيلي » ٠

عندما جاء ذلك الكتاب الى رســـولالله صلى الله تعالى عليه وسلم سر سروراً لا حد له ، لأنهم جاؤوه مسلمين ، ولمتكن حرب تخرب الديار ، وأمـــر بأن ينادى الصلاة جامعة ، فقرأ على المسلمينكتاب صخـــر ، ثم دعا لقبيلة أحمس التي منها صخر هذا ، وقال عشر مرات: « اللهـــم بارك لأحمس في خيلهـــا ورجالها » ٠

ولقد جاء صخر هذا ببعض ثقيف ،ولكن لم يكن هو الوفد الذي جاء النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، وقد ذكرناأننا سنتكلم في وفد ثقيف من بعد عند الكلام في الوفود في سنة الوفود ٠

عَوْدٌ إلى غنائم هوازن

٦٣٩ ـ تكلمنا في توزيع غنائم هوازن ، ولعلها كانت أكبر غنائم غنمها من العرب ، أو لعلها تماثل غنائم خيبر أو تقاربها ، وفعلنا ذلك عقب هزيمة هوازن ، ولكن لم نسر سيراً زمانياً ،لأن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم لم يوزعها الا بعد الانتهاء من حرب الطائف ، فلم ننتظر حتى يجيء الزمان الذي وزعها النبي صلى الله تعالى عليه وسلم فيه ، بل ذكرنا توزيعها فور الانتهاء منها .

والآن نبين زمان التوزيع ، وان كان متأخراً عن الغزوة لرأي النبي صلى الله تعالى عليه وسلم .

وقد ذكرنا ما أعطاه النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، المؤلفة قلوبهم ، ولم يكن في المؤلفة قلوبهم أحد من بني المطلب قط ، فلم يكن فيهم العباس ، ولا أولاد الحارث بن عبد المطلب ولا غيرهم ممن ثبتوا مع النبي هم وأبو بكر وعمر ولم يثبت أحد غيرهم ، ولم يجد أحد من المهاجرين في نفسه شيئاً ، لأنهم يريدون عز الاسلام ، ولا يريدون مالا ولا نسباً بل يريدون عزة الاسلام ، فلم يجد في نفسه أبو عبيدة ، ولا عبدالرحمن بن عوف ، ولا غير هؤلاء .

ولكن وجد الأنصار في أنفسهم موجدة لا من أجل المال ، ولكنهم حسبوا أن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ،نسيهم بقومه اذ التقى بهم ، فقد كان الأنصار الذين آووا ونصروا لا يريدون المال ، ولكن يريدون الرسول ذاته ، يريدونه هم والمهاجرون يريدون بقاء محبته لهم .

هؤلاء الأنصار كانوا أطهارا حتى في موجدتهم ، ولكن وجد ناس ليسوا مهاجرين ولا أنصارا ، وليست الدعوة الاسلامية في حسابهم ، ولا تأليف القلوب التي لم يدخلها الايمان في نفوسهم قد تكلموا في هذا ناكرين مما يدل على أنهم لم يكونوا أنصارا بل كانوا منافقين ، وعدهم القرآن الكريم منهم .

لقد أعطى النبي المؤلفة ، فقام ذو الخويصرة من بني تميم ، فقال للنبي صلى الله تعالى عليه وسلم يا محمد لقدرأيت ما صنعت في هذا اليوم ، فقال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم فمارأيت ؟ قال لم أرك عدلت ، فغضب النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ،ولكنهاغضبة الرفيق الحكيم ، فقال ويحك اذا لم يكن العدل عندي ، فعند من يكون •

فقال عمر بن الخطاب ألا نقتله ؟ فقال الهادي الأمين صلى الله تعالى عليه وسلم ، دعوه فانه سيكون له شيعة ،يتعسفون في الدين حتى يخرجوا منه كما يخرج السهم من الرمية •

وان قائل هذا القول لا يمكن أن يكون مؤمنا ، كما يبدو من لحن قوله ، فهو يقول في ندائه للنبي صلى الله تعالىعليه وسلم بقوله ، يا محمد ؟ ولم يقل يا رسول الله ، وكذلك قال قوله واحدمثله ، فقد رأى بلالا في ثوبه مال يوزعه النبي صلى الله تعالى عليه وسلم،فقال : « اعدل يا محمد فقال النبي صلى الله تعالى عليه وسلم » ويلك ومن يعدلاذا لم أكن أعدل ، لقد خبت وخسرت اذا لم أكن أعدل •

فقال عمر بن الخطاب يا رسول‌الله ، أفأقتل هذا الرجل ؟

فقال الرسول الحكيم معاذ الله أنيتحدث الناس أني أقتل أصحابي ، ان هذا وأصحابه يقرؤون القرآن لا يتجاوز حناجرهم ، يمرقون من الدين ، كما يمرق السهم من الرمية •

ولقد بلغه أن بعض الناس عندماأعطى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم المؤلفة قلوبهم قال هذه قسمةما أريد بها وجه الله تعالى ، فلما بلغ ذلك رسول الله صلى الله تعالى عليهوسلم ، قال « رحم الله تعالى موسى ، لقد أوذي بأكثر من ذلك » وهذه اشارةالى قول الله تعالى :

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ ءَاذَوْا۟ مُوسَىٰ فَبَرَّأَهُ ٱللَّهُ مِمَّا قَالُوا۟ ۚ وَكَانَ عِندَ ٱللَّهِ وَجِيهًا ﴿٦٩﴾ ﴾ (١)

(١) الأحزاب

وان هؤلاء أساس كلامهم ، وان كنت أحسب أنهم جميعا لم يدخل الايمان قلوبهم ، وهم من الأعراب الذين قال الله فيهم :

﴿ ٱلْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا۟ حُدُودَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٩٧﴾ ﴾ (١)

لقد فهموا خطأ طواعية لأهوائهم ومطامعهم ، أن كل من حضر القتال له حق فيها يساوي غيره ممن حضروا ، وظنوا أن هذه المساواة عادلة ، وأخطئوا اذ أن المساواة أحيانا قد تكون ظلما ،فالمساواة بين العامل المجاهد ، ومن وقف ينتظر النتيجة تكون لأي الفريقين تكون ظلما ٠

وفهموا خطأ أن الذين يحضرون الحرب في الغنيمة لهم حقوق ، وأن من يحول بينهم وبين ما زعموه حقا لهم يكون قد ظلمهم ، وتلك أوهام قد أوجدتها المطامع ، وهي ، باطلة ، ان النبي صلى الله تعالى عليه وسلم قد وضع الله تحت تصرفه خمس الغنيمة ، والغنائم كلها تحت تصرف النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، يقيم القسطاس والعدل والرحمة فيها ، ألم تره عندما رأى الرحمة ونظام الاسلام أن ترد السبايا الى أهلهن ، وأن يطلق سراحهن نفذ ذلك ، وقد صارت السبايا الى من هي في أيديهن ، فنزعها منهم بحكمته ، قدمها المؤمنون طوعا واختيارا واتباعا للنبي صلى الله تعالى عليه وسلم،ونفذها على بني عبد المطلب ، ولم يحاول أن يأخذ رضاً منهم ومن امتنع من المسلمين الذين لم يدخل الايمان قلوبهم حملهم على رد السبايا وعوضهم ٠

فالغنائم كلها في يده يتصرف فيها بما توجب النبوة والدعوة الاسلامية ، والرحمة والعدل الاسلامي ، لا طلب الأهواء الذي هو الظلم ذاته ٠

لقد وجد أن الدعوة الاسلامية توجب تأليف قلوب لهم في قومهم ، منزلة وليس لهم في الاسلام جهاد ولم يدخل الايمان قلوبهم ، وقد أكلتهم الضغينة وقتل الجهاد والمجاهدون من قتل منهم ،ويريد تأليفهم الى الاسلام ، ونسيان الاحن ، فأعطى أبا سفيان وأولاده، وأعطى الأقرع بن حابس وغيره ٠

لقد قال بعض أصحاب رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم أعطيت الأقرع ابن حابس ، وعيينة بن حصن ، وتركت جعيل بن سراقة الضمري ، فقال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم مبينا سبب العطاء ، وهو لم يمنع أحداً حقاً له ٠

---

(١) التوبة

أما والذي نفس محمد بيده لجعيل خير من مثل عيينة والأقرع ، ولــكن تألفتهما ليسلما ، ووكلت جعيــل بن سراقة لاسلامه ·

هذا هو أساس العطاء ، وهؤلاء نظروا الى الأموال ، ولم ينظروا الى واجب النبي صلى الله تعالى عليه وسلم في نشر الدعوة، وما يراه طريقاً لتأليف القلوب· وان قوله تعالى :

﴿ وَمِنْهُم مَّن يَلْمِزُكَ فِى ٱلصَّدَقَـٰتِ فَإِنْ أُعْطُوا۟ مِنْهَا رَضُوا۟ وَإِن لَّمْ يُعْطَوْا۟ مِنْهَآ إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ ﴿٥٨﴾ ﴾ (١)

فهذه الآية نزلت في المنافقين ، والذين اعترضوا كانوا من الأعراب الذين هم أشد كفراً ونفاقاً، وأجدر ألا يعلموا حدود ما أنزل الله ·

وما كان الرسول صلى الله تعالى عليه وسـلم ليخضـع في أمر الدعـوة ومقتضياتها لناس حديثي عهد بجاهلية وحسبه أن يكـون معه المهاجـرون والأنصار ، والذين أخلصوا دينهـم لله سبحانه وتعالى ·

(١) التوبة

عمرة الجعرانة

٦٤٠ ــ لم يدخل رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم مكة عند الفتح محرماً لعمرة ، بل دخلها فاتحاً غير محارب ، ويريد الاتصال ، ويعيد المودة ويعلن الاخوة بعد طول الافتراق ، وان المودة تجذب القلوب النافرة ، وتؤوي العقول الشاردة ٠

ولقد كان طواف في غير احرام ، ولم تكن مناسك عمرة وتعظيم للبيت ٠

ولما انتهى النبي صلى لله تعالى عليه وسلم من الفتح شغل بجذامة ، وارضاء قلوبها ، ومداواة الجراح التي جرحها خالد بن الوليد ٠

ولما أخذت هوازن تهم بالهجوم على جيش محمد صلى الله تعالى عليه وسلم كان لابد من لقائها ، فكان اللقاء المرير، ذو النتائج الباهرة ، وأتبعها بالطائف ، فلما آذن الشهر الحرام بمجيء عاد الى الجعرانة وهي ميقات من مواقيت الاحرام ، فأحرم منها بالعمرة ، ودخل بيت الله تعالى معتمراً ٠

وكانت تلك العمرة في ذي القعدة، وذهب الى المدينة لست ليال بقين من ذي القعدة ٠

ولم يحج النبي صلى الله تعالى عليه وسلم هذا العام الثامن بنفسه،ولا بأحد ناب عنه ، وترك الحج لما كان عليه العرب من قبل ٠

ولكن كان مع المسلمين الذين أرادوا الحج عتاب بن أسيد ، فحج بهم ٠

ولكن عندما عاد النبي صلى الله تعالى عليه وسلم الى المدينة ، ترك أميراً عليها عتاب بن أسيد ، وكان سن عتاب كما جاء في شرح المواهب اللدنية عشرين سنة ، فخلفه صلى الله تعالى عليه وسلم في هذه السن ، وكان مباركاً في عمله مخلصا في نيته ، قنوعا في ذات اليد ، لا يطمع ، بل يشبع بالقليل٠

أجرى عليه النبي صلى الله تعالى عليه وسلم رزقا درهما كل يوم فكان به راضيا ، غير متطلع لأكثر منه ، وكان يقول داعيا الى القناعة ·

أيها الناس أجاع الله تعالى كبد من جاع على درهم ، فقد رزقني رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم درهما كل يوم ، فليس بي حاجة الى أحد ·

وقد خلف صلى الله تعالى عليه وسلم بعد العمرة معاذ بن جبل الحافظ للقرآن الراوي للسنة بجوار عتاب بن أسيد ، وخلفه ليعلم الاسلام ، ويفقههم في الدين ، ويحفظهم القرآن ، فقد كانوا في حاجة الى ذلك ، لحداثة عهدهم بالجاهلية ، ولم يعيشوا في ظل القرآن كأهل المدينة ، بل كانوا يناوئون أهل القرآن ، وان علم بلغاؤهم مكانته ، وأنه يعلو ولا يعلى عليه ·

وقد عاد رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم الى الجعرانة بعد عمرته ،ولم يمكث بها الا قليلا ، وفيها وزع بقية الفيء والغنائم ، ومنها سافر الى المدينة حتى بلغها لليال ست بقيت من ذي القعدة ·

وقد ترك الطائف على شركها ، وان أخذت تميل نحو الاسلام على عنجهية الجاهلية ·

وكان مالك بن عوف يغير عليها آنا بعد آن ، فان النبي صلى الله تعالى عليه وسلم أدناه منه وأسلم وحسن اسلامه ،فكان من بعد ذلك يرهقها بالغارات ويجيء الى النبي صلى الله تعالى عليه وسلم بما يدل على أنها تلين الى الاسلام شيئاً فشيئا ، حتى لانوا كما سنبين في وفدهم ·

قدوم كعب بن زهير

٦٤١ ـ قدم كعب بن زهير على رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم بعد عودته من عمرته ، وما كان لنا أن نهتم بما نكتب بشاعر أو كاهن ، وما كان رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم يحتاج الى داعية يدعو بمفاخره فرسول الله مقامه عند الله عظيم ، وما كان يحتاج الى شاعر يشيد بمنصبه فرسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، وقد دان بالطاعة له كبراء العرب ، وغيرهم هو في مكانته رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم الذي كان يلقى عليه أبو جهل فرث الجزور ، فمكانته عند الله وفي نفسه ، وعند كل ذي لب واحدة •

ولكنا ذكرناه لأن قدومه يدل على بلوغ الدعوة الاسلامية كل نواحي البلاد العربية قاصيها ودانيها ، وان فتح مكة جعل القلوب تتجه اليه ، والمنكرين يصدقون ، والنافرين يدنون ، ويأوون •

لقد كان كعب هذا يشارك المنكرين وينشد شعره في ذم النبي صلى الله تعالى عليه وسلم فلما ظهر النور الذي لا ينطفىء مال الى أن يتقدم الى النبي مهديا ، بعد أن جافاه ، وهو ابن زهير بن سلمى حكيم الشعراء في الجاهلية ، فهو من بيت جاهلي فيه شعر الحكمة •

وعندما هم بأن يذهب الى النبي صلى الله تعالى عليه وسلم حذره أخوه بجير ابن زهير بن أبي سلمى ، وكتب اليه يخبره أن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم قتل رجالا بمكة ممن كان يهجوه ويؤذيه ، وأن من بين شعراء قريش بن الزبعرى وهبيرة بن أبي وهب ، قد هربوا منه في كل وجه ، فان كانت في نفسك حاجة ، فطر الى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم تائباً ، فانه لا يقتل أحداً جاء اليه تائباً ، وان أنت لم تفعل ، فانج الى نجاتك من الأرض •

وكان قد قال قصيدة فيها ذم للاسلام ، وقد أسلم أخوه ، وأرسل اليه الكتاب المذكور آنفاً •

ولما بلغ زهيراً هذا الكتاب ضاقت به الأرض ، وأشفق على نفسه من قصيدته ، ويقول ابن اسحاق أرجف به من كان في حاضره من عدوه وقالوا هو مقتول ، أي أنهم أرادوا أن يحذروه ايفاده على النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ولكنه لم يجد بدأ من أن يذهب الى النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، ولذا قال قصيدته التي يمدح فيها رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم، وذكر فيها خوفه ، وارجاف الوشاة من عدوه ٠

ولقد خرج وقدم المدينة فنزل على رجل كان يعرفه فغدا به الى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، ثم أشار به الى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم، فقال : هذا رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، فقم اليه فاستأمنه ٠

فقام الى رسول الله حتى جلس اليه، ورسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم لا يعرفه ، فقال : يارسول الله ان كعب بن زهير جاء يستأمن منك تائباً مسلماً ، فهل أنت قابل منه ، ان أنا جئتك به ، فقال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم : نعم فقال رسول الله أنا كعب بن زهير وكان في المجلس بعض الأنصار ، فوثب عليه رجل منهم ، فقال : يا رسول الله دعني وعد والله أضرب عنقه ٠

فقال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم : دعه عنك ، فانه قد جاء تائبا ، نازعا عما كان عليه ، وغضب كعب على الحي من الأنصار كما يقال ، وما يضر غضبه على هؤلاء الذين آووا ونصروا ولم يقل فيه أحد من المهاجرين الا خيرا ٠

ولقد مدح رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم بقصيدة هزت أعطاف رسول الله ، وكان كريما يقبل طيب القول ٠

ولقد روي أنه قال ان من الشعر لحكمة ، ولننشد أبياتا منها ، لكرم موضوعها ٠

يقول في مطلعها :

بانت سعاد فقلبي اليوم متبول　　　متيم اثرها لم يفد مكبول

وبعد أن يذكر سعاد وهي كما قيل زوجته ، وغربته عنها ، يقول متجها الى النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ٠

وقال كل صديق كنت آمله لا ألهينك اني عنك مشغول
فقلت خلوا سبيلي لا أبا لكم فكل ما قدر الرحمن مفعول
كل ابن أنثى وان طالت سلامته يوما على آلة حدباء محمول
نبئت أن رسول الله أوعدني والعفو عند رسول الله مأمول
مهلا هداك الذي أعطاك نافلة القرآن فيها مواعيظ وتفصيل
لا تأخذني بأقوال الوشاة ولم أذنب ولو كثرت في الأقاويل

ثم يقول في رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم :

ان الرسول لنور يستضاء به مهند من سيوف الله مسلول
في عصبة من قريش قال قائلهم ببطن مكة لما أسلموا زولوا

ويقول في وصف أصحاب الرسول :

ليسوا مفاريح ان نالت رماحهم قوماً ، وليسوا مجازيع اذا نيلوا
لا يقع الطعن الا في نحورهم وما لهم عن حياض الموت تهليل

وفي هذه القصيدة لم يذكر الأنصار ، لأن رجلا منهم أراد قتله ، فيروى أن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم بعد أن أنشد قصيدته قال : لولا ذكر الأنصار فانهم لذلك أهل ، فقال مادحا الأنصار :

من سره كرم الحياة فلا يزل في مقنب من صالح الأنصار
ورثوا المكارم كابرا عن كابر ان الخيار هم بنو الأخيار

الى آخر قصيدة ليست مهلهلة طويلة، بل هي موجزة قصيرة ·

وانا نذكر أننا ذكرنا كعب بن زهير لبيان أنه اذا كان الاسلام قد فقد عبد الله بن رواحة شاعر الدعوة الاسلامية والذود عنه وعن الرسول الكريم ، فقد جاء الشاعر كعب بن زهير ، والشعراء كانوا ألسنة الدعوة الى المكارم ونشر الفضل والفضلاء في الجزيرة العربية ·

السرايا بعد هوازن

٦٤٢ ـ أخذ النبي صلى الله تعالى عليه وسلم بعد ما كان في هوازن والطائف يرسل السرايا في القبائل العربية داعية الى الاسلام ، متعرفة لأحوالها ، وكان يشغل بذلك الذين أسلموا حديثا ليألفوا الاسلام ، ويتحملوا واجباته ، وليحملوا عبء الدعوة الى الاسلام من بعد ، وليكون منهم المجاهدون في سبيله ، وليتعودوا القيام بواجباته ، وليرضي نهمتهم من حب السلطان ، ولكي ينالوا من الغنائم بالحق ممن تأبوا على الاسلام من القبائل •

فأرسل النبي صلى الله تعالى عليه وسلم عيينة بن حصن في المحرم من السنة التاسعة الى بني تميم ، في خمسين رجلا ، ليس فيهم من المهاجرين ولا الأنصار أحد •

فسار اليهم يكمن نهاراً ، ويسير ليلا ليفاجأهم من حيث لا يشعرون ، فهجم عليهم ، وهم يسرحون مواشيهم ، فلما رأوا الجمع ولوا الأدبار ، فاستطاع أن يسبي منهم نساء عددهن احدى وعشرون ، وأخذ ثلاثين صبياً وأحد عشر رجلا •

ساق هؤلاء الى النبي صلى الله تعالى عليه وسلم فأنزل في أحد بيوت المدينة •

وجاء من بعد ذلك كبراء من تميم منهم عطارد بن حاجب ، والزبرقان بن بدر وقيس بن عاصم والأقرع بن حابس ، وقيس بن الحارث وعمرو بن الأهتم ، ورباح •

فلما رأوا نساءهم وذراريهم بكوا اليهم •

فعجلوا فجاءوا الى النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، فنادوا : يا محمد اخرج الينا فخرج رسول الله ، وأذن بلال للصلاة وهؤلاء تعلقوا برسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم يكلمونه ، فوقف معهم ، ثم مضى فصلى الظهر ، ثم جلس ، ثم قدم فتكلم ، فأمر رسول الله صلى الله تعالى عليه

وسلم ثابت بن قيس بن شماس فردعليهم أسراهم وسباياهم وأبناءهم لأنهم ما كانوا محاربين ، ويظهر أنهم كانوا غير مطيعين .

وقد قال ابن اسحق في ذلك : دخلوا المسجد ، ونادوا رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم : يا محمد اخرج الينا، فتأذى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، قالوا جئنا لنفاخرك فأذن لشاعرنا وخطيبنا ، ويظهر أن ذلك بعد استردوا الأسرى والسبايا ، ولقد قال الله تعالى في عدم استئذانهم :

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَآءِ ٱلْحُجُرَٰتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ۝ وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا۟ حَتَّىٰ تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝ ﴾ (١)

ولقد ذكر ابن اسحق المباراة البيانية ، أو المفاخرة الشعرية والخطابية فروى قول شاعرهم ورد حسان ، وذكر قول خطيبهم .

لقد قال خطيبهم حاجب بن عطارد :« الحمد لله الذي له الفضل علينا ، جعلنا ملوكاً ووهب لنا أموالا عظاما نفعل فيها المعروف ، وجعلنا أعز أهل الشرق ، وأكثره عدداً ، وأيسره عدة ، فمن مثلنا في الناس ، ألسنا رءوس الناس ، وأولي فضلهم ، فمن فاخر ، فليعد مثل عددنا ، فلو شئنا لأكثرنا من الكلام ، ولكن نستحي من الاكثار لما أعطانا أقول هذا لأن يأتوا بمثل قولنا أو أمر أفضل من أمرنا .

فقال النبي صلى الله تعالى عليه وسلم لثابت بن قيس بن الشماس قم فأجبه ، فقام فقال :

الحمد لله الذي خلق السموات والأرض ، وقضى فيهن أمره ، ووسع كرسيه علمه ، ثم ان من فضل الله أن جعلنا ملوكاً ، واصطفى من خير خلقه رسولا أكرمه نسبا وأصدقه حديثا، وأفضله حسباً ، ، فأنزل عليه كتابا ، وائتمنه على خلقه ، وكان خيرة الله تعالى من العالمين ، ثم دعا الناس الى الايمان بالله ، فآمن به المهاجرون من قومه وذوي رحمه ، أكرم الناس

---

(١) الحجرات

أحساباً وأحسنهم وجوهاً ، وخير الناس فعلا ، ثم كان أول الناس استجابة لله حين دعا رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، فنحن أنصار الله ، نقاتل الناس حتى يؤمنوا ، فمن آمن بالله ورسوله منع ماله ودمه ، ومن سكت جاهدناه في سبيل الله تعالى ، أبداً ، وكان قتله علينا يسيراً ، أقول هذا وأستغفر الله العظيم للمؤمنين والمؤمنات والسلام عليكم .

فتح النبي صلى الله تعالى عليه وسلم هذه المباراة البيانية ارضاء لرغبة القول عندهم ، وليعلمهم أن المفاخرة ليست بالأنساب ، ولكن المفاخرة بالايمان والأعمال الصالحة ، والتقوى، وليضرب المثل لهم بقومه ، وليقدم لهم الحق سائغاً ، ولقد قال الزبرقان بن بدر من بعد : ان هذا الرجل خطيبه خير من خطيبنا ، وشاعرهم أحسن من شاعرنا ، وأقوالهم أعلى من أقوالنا، وقد أعطاهم جوائز ، بشبه ما يعطي المؤلفة قلوبهم .

سَرِيّة الضّحّاك بْن سُفيان :

٦٤٣ ـ كانت هذه السرية كأخواتها لتعرف أحوال العرب في صحرائهم، ونشر الاسلام بينهم ، وجعل الحبل ممدوداً بينه وبينهم من غير أن يقطع ، أرسل في هذه السرية الضحاك بن ثابت الى بني كلاب وهو منهم في ربيع الأول من السنة التاسعة .

اتجه اليهم ابن أبي سفيان فدعاهم الى الاسلام فلم يستجيبوا فقاتلهم فهزمهم .

سريّة قطبة بن عامر إلى خثعم :

وكانت قبل هذه السرية في صفر من هذه السنة سرية قطبة بن عامر ،الى خثعم في عشرين رجلا خرجوا على عشرة ابل يتعقبونها ، فلما التقوا ببعض بني خثعم اقتتلوا قتالا شديداً ، وكثر الجرحى من الفريقين جميعاً ، وكان في القتلى قطبة بن عامر ، ولكن الجيش بقي بعده ، وساق النعم والنساء وعادوا الى المدينة بهذه الغنائم .

وقد تجمع كثيرون من بني خثعم وساروا وراءهم ، ولكن كان مطر شديد حال بينهم وبين تتبعهم .

سرية علقمة بن مجزز المدلجي إلى الحبشة

٦٤٤ ـ وكانت في ربيع الآخر من السنة التاسعة ، وذلك أن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم بلغه أن ناساً من أهل الحبشة ظهروا أمام جدة، وبدا أنهم يريدون الغارة عليهم ، فأرسل اليهم النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، فذهبوا اليهم ، وطاردوهم ،وخاضوا البحر ، وراءهم فلجئوا الى جزيرة ، وقد تعجل قوم في الأوبة فأذن لهم ، وأمر عليهم بعض المتعجلين ، وقد أراد أن يداعب من معه فأوقد لهم نارا،وأمرهم بالتواثب عليهم ، فأراد بعضهم أن ينزل فيه ، فرده ، وقال انما كنت أضحك منهم ولا شك أن هذا تعابث ما كان يجوز ، ولذلك لما عادوا الى النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، وأخبروه الخبر ، فقال : « من أمركم بمعصية فلا تطيعوه » •

وكدنا لا نصدق ذلك الخبر لولا أنه روي في الصحيحين عن علي بن أبي طالب ما يؤيده ، فعن علي أنه قال :« بعث رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم سرية ، واستعمل عليها رجلا من الأنصار وأمرهم أن يسمعوا له ويطيعوا ، فأغضبوه ، فقال اجمعوا لي حطبا ، فجمعوا ، فقال أوقدوا نارا ثم قال : ألم يأمركم رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم أن تسمعوا ، قال فادخلوها ، فنظر بعضهم الى بعض ،وقالوا انما فررنا الى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم من النار ، فسكن غضبه ، وأطفئت النار ، فلما رجعوا الى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم،ذكروا ذلك لرسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، فقالوا لو دخلوها ما خرجوا منها أبدا ! لا طاعة في معصية الله ، انما الطاعة في المعروف » •

وفي هذه الرواية أن رئيس السرية ركبه الغضب ، فعصى الله وعصى الرسول فأمر بما أمر ، واذا أطاعوه فقد أطاعوه في معصية فعصوا الله ، وفيه أن الأمر بالطاعة انما هو في المعروف المعقول ، لا المنكر عقلا وشرعا، فليعتبر أولئك الذين يقتلون ويرتكبون أشد المنكرات باسم الطاعة ، فبذلك تضييع الأمم والجماعات ، ولا حول ولا قوة الا بالله •

سرية علي بن أبي طالب لهدم صنم طيئ

٦٤٥ ـ بعث رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم عليا في خمسين ومائة رجل من الأنصار على مائة بعير ،وخمسين فرسا ومعه راية سوداء ،ولواء أبيض الى الفلس ، وهو صنم طيئ ليهدمه ، فشنوا الغارة على محلة حاتم ، وكان بعث علي في ربيع الثاني سنة تسع من الهجرة •

ذهب علي بجيشه الأنصاري فهدم الصنم ، وكان القتال مع الفجر ،وفروا أمام جيش المسلمين بقيادة المجاهد علي، وتركوا نساءهم وأموالهم •

فسبوا النساء ، وأخذوا النعم والشاء وفي السبى أخت عدي بن حاتم ، أي بنت حاتم الطائي ، وفر عدي الى الشام وكان نصرانيا ، وقد وجدوا في خزانة عدي ثلاثة أسياف ، وثلاثة أدرع •

وقد أقام علي على السبي أبا قتادة ،وعلى الماشية والفضة عبد الله بن عتيك وقسم الغنائم في الطريق ، وجعل الصفي لرسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، ولم يقسم السبايا حتى أتى بهم المدينة وليس فيهم عدي بن حاتم •

ولقد جاءت ابنة حاتم الطائي ، فقالت : يا رسول الله لقد غاب الوافد ، وانقطع الوالد ، وأنا عجوز كبيرة مابي من خدمة فمن علي من الله عليك ، ان رأيت أن تخلي عني ، ولا تشمت بنا أحياء العرب فاني ابنة سيد قومى ، وان أبي كان يحمي الذمار ، ويفك العاني ، ويشبع الجائع ، ويكسو العاري ، ويقري الضيف ، ويطعم الطعام ، ويفشي السلام ، ولم يرد طالب حاجة قط ، أنا ابنة حاتم طيء •

رق النبي صلى الله تعالى عليه وسلم لحالها ، وذكر بالخير أباها ايناسا لها ، وتخفيفا لفزعها ، فقال لها : « يا جارية هذه صفات المؤمنين ، ولو كان أبوك مسلما لترحمنا عليه ، خلوا عنها فان أباها كان يحب مكارم الأخلاق •

ويروى أنها قالت داعية للنبي اللهم لا تجعل حاجتك الا عند كريم •

ولما التقت مع أخيها عدي بن حاتم حثته على الاسلام ، فقالت عن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم لقد فعل فعلة ما كان أبوك يفعلها ، ائته راغبا أو راهبا لقد أتاه فلان فأصاب منه وأتاه فلان فأصاب منه ، وبذلك كانت هي السبيل لاسلام أخيها ، وتسليم نفسه للنبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، فأتى

النبي صلى الله تعالى عليه وسلم وليس معه كتاب أمان ولا أمان ، فقال القوم هذا عدي بن حاتم ، وقال عدي فلما دفعت اليه أخذ بيدي ، وكان قبل ذلك قد قال اني أرجو أن يجعل الله يده في يدي ٠

وظهرت أمام عدي أخلاق النبي صلى الله تعالى عليه وسلم، ورفقه بالضعفاء، لقد رأى امرأة لقيته ومعها صبي فقالت له ان لنا اليك حاجة فقام معها ، حتى قضى حاجتها ٠

ويقول عدي بن حاتم ، ثم أخذ بيدي ، حتى أتى داره ، فألقت له الوليدة وسادة فجلس عليها ، وجلست بين يديه ، فحمد الله ، وأثنى عليه ، ثم قال : ما يضرك ، أيضرك أن تقول :لا اله الا الله فهل تعلم من اله سوى الله قلت : لا ثم تكلم ساعة ، ثم قال ،أيضرك أن يقال الله أكبر وهل تعلم شيئا أكبر من الله قلت : لا ، قال فان اليهود مغضوب عليهم ، وان النصارى ضالون فقلت اني حنيف مسلم ، فرأيت وجهه ينبسط فرحا ، ثم أمرني فنزلت عند رجل من الأنصار وجعلت وجعلت آتيه طرفي النهار ، فبينما أنا عنده اذ جاء قوم في ثياب من الصوف من هذه الثمار فصلى ثم قام فقال : يأيها الناس ارضخوا من الفضل ، ولو بصاع أو بنصف صاع ، ولو بقبضة ، ولو ببعض قبضة ، يقي أحدكم وجهه حر جهنم ، فان لم تجدوا فكلمة طيبة ، فان أحدكم لاقى الله وقال له ما أقول لكم ، ألم أجعل لك مالا وولدا ، فيقول، بلى ، فيقول أين ما قدمت لنفسك ،فينظر قدامه وبعقبه ، وعن يمينه وعن شماله بقي به وجهه جهنم ، ليق أحدكم وجهه النار ، ولو بشق تمرة ، فان لم يجد فبكلمة طيبة ، فاني لا أخاف عليكم الفاقة فان الله ناصركم ومعطيكم حتى تسير الظعينة ما بين يثرب والحيرة ،وأكثر ما يخاف على مطيتها السرقة ٠

قال عدي بن حاتم فجعلت أقول لنفسي أين لصوص طيء ٠

نقلنا هذا الحديث ، لنرى أولا الرفق والتقريب النفسي في المعاملة ، والعطف وحث الناس على الأخلاق الطيبة ، وذكر مآثر ذوي الأخلاق ، حتى خرج الرجل من مجلس الرسول صلى الله تعالى عليه وسلم ، وهو أحب الناس وكان من قبل يكرهه أشد ما تكون كراهة الرجل للرجل ٠

وان هذا الخبر يري القارىء مجلسا من مجالس النبوة ، وانه لمجلس يهدي الى الرشد ، أجف الناس خلقا ، وأبعدهم عن الحق ، اذا لم يكتب الله تعالى عليهم الضلالة،ويقربهم شيطانهم من الغواية ، والله ورسوله لهم المن والفضل٠

غزوة تبوك

٦٤٦ ـ استوعبت الدعوة الاسلامية البلاد العربية ، فمنهم من آمن ومنهم من كفر ، ومنهم من أسلم ، ولما يدخل الايمان في قلبه ، ومنهم من آمن وأخلص للنبي وحمل عبء الدعوة وجاهد في سبيلها ، وليس من العرب من لم يعلم بالاسلام ، والنبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، والحق الذي يدعو اليه ، من غير مواناة ولا تقصير ، ولا هوادة .

ولابد أن يتجاوز بعد ذلك دائرة البلاد العربية الى ما يصاقبها ، من البلاد المجاورة خصوصا البلاد التي فيها العنصر العربي ، فانها بتكوينها أقرب الى الاستجابة الى ما يعم بلاد العرب التي هي مثابتهم ، وفيها الحرم الآمن الذي جعله الله آمنا ، والناس يتخطفون من حوله .

وأخص بذلك بلاد الشام ففيها الغساسنة من العرب ، وكان فيها اعتداء على من أسلم وكانت غزوة مؤتة ، بسبب قتل رسول النبي صلى الله تعالى عليه وسلم الى بصرى .

وانتهت مؤتة ، ولم تكن بنصر حاسم ، وان لم تكن بهزيمة ، فان جيش الاسلام لم يرجع مهزوما وانما تراجع منتظما بمهارة خالد بن الوليد ، وكانت هذه أول قيادة ناجحة له في الاسلام .

ولم تكن النتيجة على المسلمين ، فلم يقتل منهم أمام مائتي ألف الا نحو اثني عشر رجلا وقد قتل من الروم مقتلة عظيمة ، حتى انه في هذه المعركة يطوي في يد خالد تسعة سيوف ، وقتل الأمراء لم يؤثر بالهزيمة في الجيش الأقل في عدد .

وان شئت أن تقول ان غزوة تبوك امتداد لغزوة مؤتة فقل ، فهي سير في الخطة التي ابتدأت بها ، ولم تنل مأربها من قتل قتلة الرسول الذي بعثه رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم .

ومع أنها امتداد لغزوة مؤتة في سببها وسيرها ، والمقصد ، قد كان لها وحدها سبب قائم بذاته ، ذلك أنه باللقاء بين المسلمين وغيرهم من الأنصار، ومن معهم من العرب ، أوجد الالتحام الحربي ، بين العرب الذين عاونوا الرومان والعرب المجاهدين مع اتحاد الجنس ، من يميل الى الاسلام ، لأنه الدين الجديد في قومهم ،وقد صار رمز القوة عندهم ، وخير لهم أن يعتزوا بأنفسهم عن أن يعتزوا بالرومان ، ففرق بين من يقول أنت أخي ، ومن يقول أنت عبدي أو تابعي ، ولذلك كان اقبال الخاضعين للغزو الروماني شديدا،لأنه الدين الجديد لاخوانهم ، ولاضطراب الدولة الرومانية ، واضطراب الأحوال فيها .

ولقد أسلم من العرب الذين استعان بهم الرومان عدد كبير .

لقد أسلم فروة بن عمرو الجذامي الذي كان قائدا لاحدى الفرق الرومانية عندما اقتتل الرومان مع المسلمين في مؤتة .

فضاق الرومان ذرعا باسلامه ، واتهموه بالخيانة وقتلوه ، وما كان للنبي صلى الله تعالى عليه وسلم أن يترك دم هذا الرجل المسلم هدراً ، بل لابد من القصاص ، وان قتله فتنة تمنع غيره من أن يدخل في الاسلام ، فحق أمر الله:

﴿ وَقَـٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِ ﴾ (٣٨) (١)

ووجبت الطاعة لقوله تعالى :

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَـٰتِلُوا۟ ٱلَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ ٱلْكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا۟ فِيكُمْ غِلْظَةً ۚ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿١٢٣﴾ ﴾ (٢)

﴿ (٣٨) قَـٰتِلُوا۟ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلْحَقِّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ حَتَّىٰ يُعْطُوا۟ ٱلْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَـٰغِرُونَ ﴿٢٩﴾ ﴾ (٣)

---

(١) الانفال (٢) التوبة (٣) التوبة

وهناك أمر آخر ذكره كتاب السيرة أنه لما نزل قوله تعالى :

﴿ إِنَّمَا ٱلْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا۟ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَٰذَا ﴾ (١)

ظن التجار الذين كانوا يقيمون المتاجر في سوق عكاظ ، وذي المجاز ومجنة ، وغيرها من الأسواق في موسم الحج ، ظنوا أن متاجرهم تكسد، فكان لهذا ولغيره غزوة الشام في تبوك ، وفي ذلك فتح لأبواب التجارة .

ذلك سبب ذكره كتاب السيرة ، وماكنا لنذكره لولا أنهم ذكروه ، فما كانت غزوات النبي صلى الله تعالى عليه وسلم لتسهيل تجارة مادية ، انما كانت لتسهيل الدعوة الاسلامية ،وان هذه تجارة لن تبور ، بل فيها مكسب أغلى وأعلى ، وهو رضا الله سبحانه وتعالى .

وان الرومان بعد غزوة مؤتة قد رأوا أن الدين الجديد يغزو النفوس بأحكامه ، ويغزو البلاد برجاله ، وأنهم يجب أن يعدوا العدة للقضاء عليه قبل أن يقضي على دولتهم ، فكانوا يستعدون لغزو الاسلام ، وما كان للنبي صلى الله تعالى عليه وسلم أن يتركهم حتى يغزوه في داره ، فما غزي قوم في عقر دارهم الا ذلوا وقد رأى النبي صلى الله تعالى عليه وسلم الروم يجمعون الجموع وأن قيصر قد أعطى أرزاقهم لسنة ، وان في غزو الرومان تقوية لبأس العرب الخاضعين للرومان في الشام ، اذ يجدونهم يتحفزون لرفع النير عنهم ، واخراجهم من سيطرة من يذلهم، الى عز قومهم .

الحال عند الغزو :

٦٤٧ ـ في رجب من السنة التاسعة ، ويظهر أنه في آخره أي في آخر الشهر الحرام ، أمر رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم الناس بالتهيؤ لحرب الروم الذي قد أعدوا له عدة لحربه ، وكان ذلك في وقت حر شديد، والنبي صلى الله تعالى عليه وسلم ما كان يبين للناس اتجاهه اذا خرج لحرب الا في تبوك لبعد المشقة ، ولعظم المهمة ،وليستعد الناس لنوع من الجهاد شاق مرير ، في وقت شديد غليظ اذ كان الحر شديدا ، وكانوا يجمعون ثمار

---

(١) التوبة

حرثهم ، وغلالهم ، وفي بعض البلادجدب ، وقد طابت ثمار الأرض التي أنتجت ، والارادة المادية عندهم ربماتغالب النية المحتسبة عند بعضهم ،ولقد أخذ صلى الله تعالى عليه وسلم يختبر النفوس ، والغزوة كلها اختبار للمؤمنين ، وان النبي صلى الله تعالىعليه وسلم ما اختار الزمان ، انما اختارته له العناية الالهية ، وارادةالروم وقد خاطب النبي صلى الله تعالى عليه وسلم بعض الرجال ليعرفما في بعض النفوس ، قال للجد بن قيس يا جد ، هل لك في جلاء بنيالأصفر (يريد الروم) ٠

فأجاب اجابة المتردد ، غير المعتزم :« أو تأذن لي ولا تفتني ، فوالله لقد عرف أنه ما من رجل أشد عجبابالنساء مني ، واني أخشى ان رأيت نساء بني الأصفر لا أضرب » ٠

اعتذار بغلبة هوى النفس عنده علىالجهاد ، وأنه لا يستطيع جهاد نفسه عن الاثم ، فهو عبد هواه ، وأيفتنة أشد على الرجل من أن يكون عبد هواه ، وقد أذن له النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، لأنه لا جدوى في رجل لا ارادة له ، وانما هي حرب ضروس تحتاج الى صبر وجهاد نفسي ،فالوصول الى العدو ليس سهلا ، والحر شديد ،واللقاء مع عدو كبير ٠

وان هذه الغزوة كان فيها الناس علىأنواع شتى في نفوسهم ٠

١ ـ فمنهم من قعدت بهم همتهم ،فتخلفوا عن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، واعتذروا بالمعاذير ، وهؤلاء يقولون مع المنافقين :

﴿وَقَالُواْ لَا تَنفِرُواْ فِي ٱلۡحَرِّۗ قُلۡ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرّٗاۚ لَّوۡ كَانُواْ يَفۡقَهُونَ ﴿٨١﴾
فَلۡيَضۡحَكُواْ قَلِيلٗا وَلۡيَبۡكُواْ كَثِيرٗا جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ ﴿٨٢﴾﴾ (١)

وهؤلاء منهم ضعفاء الايمان ومنهمضعفاء العزيمة وليست لديهم قوة نفسية يتحملون بها الشدائد ولذلك كان فيهم جزع ، وخوف من الاقدام ٠

---

(١) التوبة

٢ ـ ومنهم المنافقون الذين يثبطون ، ويريدون الفتنة ويبتغون تثبيط المؤمنين عن المجاهدين ، ويقول سبحانه وتعالى فيهم :

﴿لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا وَسَفَرًا قَاصِدًا لَّاتَّبَعُوكَ وَلَٰكِن بَعُدَتْ عَلَيْهِمُ الشُّقَّةُ ۚ
وَسَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَوِ اسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ يُهْلِكُونَ أَنفُسَهُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ
(٤٢) عَفَا اللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَتَعْلَمَ الْكَاذِبِينَ (٤٣)
لَا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أَن يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ۗ وَاللَّهُ
عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ (٤٤) إِنَّمَا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَارْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ
فَهُمْ فِي رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ (٤٥) * وَلَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا لَهُ عُدَّةً وَلَٰكِن كَرِهَ اللَّهُ
انبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ اقْعُدُوا مَعَ الْقَاعِدِينَ (٤٦) لَوْ خَرَجُوا فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا
وَلَأَوْضَعُوا خِلَالَكُمْ يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّاعُونَ لَهُمْ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ (٤٧)
لَقَدِ ابْتَغَوُا الْفِتْنَةَ مِن قَبْلُ وَقَلَّبُوا لَكَ الْأُمُورَ حَتَّىٰ جَاءَ الْحَقُّ وَظَهَرَ أَمْرُ اللَّهِ وَهُمْ كَارِهُونَ
(٤٨) وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ ائْذَن لِّي وَلَا تَفْتِنِّي ۚ أَلَا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا ۗ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ
(٤٩) إِن تُصِبْكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ ۖ وَإِن تُصِبْكَ مُصِيبَةٌ يَقُولُوا قَدْ أَخَذْنَا أَمْرَنَا مِن قَبْلُ وَيَتَوَلَّوا
وَّهُمْ فَرِحُونَ (٥٠) قُل لَّن يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَانَا ۚ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ
(٥١) قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَا إِلَّا إِحْدَى الْحُسْنَيَيْنِ ۖ وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَن يُصِيبَكُمُ اللَّهُ بِعَذَابٍ
مِّنْ عِندِهِ أَوْ بِأَيْدِينَا ۖ فَتَرَبَّصُوا إِنَّا مَعَكُم مُّتَرَبِّصُونَ (٥٢) قُلْ أَنفِقُوا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا لَّن
يُتَقَبَّلَ مِنكُمْ ۖ إِنَّكُمْ كُنتُمْ قَوْمًا فَاسِقِينَ (٥٣) وَمَا مَنَعَهُمْ أَن تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَاتُهُمْ إِلَّا أَنَّهُمْ
كَفَرُوا بِاللَّهِ وَبِرَسُولِهِ وَلَا يَأْتُونَ الصَّلَاةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَىٰ وَلَا يُنفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَارِهُونَ (٥٤)﴾ (١)

(١) التوبة

الصنف الثالث أهل الايمـــان ، وكلهم مجاهد بنفسه وماله ، لا يدخرون جهدا ولا مالا ، وهم الذين قال الله تعالى فيهم وقرنهم في الذكر برسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم :

﴿لَقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ وَٱلۡمُهَٰجِرِينَ وَٱلۡأَنصَارِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ ٱلۡعُسۡرَةِ
مِنۢ بَعۡدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٖ مِّنۡهُمۡ ثُمَّ تَابَ عَلَيۡهِمۡۚ إِنَّهُۥ بِهِمۡ رَءُوفٞ رَّحِيمٞ ﴿١١٧﴾﴾ (١)

هؤلاء هم الذين حملوا الدور الأول حتى صارت الكلمة العليا لله ولرسوله في بلاد العرب ، فهم أيضا الذين حملوا اعباء الجهـــاد ، عندما أخـــذ الاسلام ينتشر في غـــير البلاد العـــربية ،وخـــرج الجهـــاد الى بني الأصـــفر (الرومان) الذين كـــان اسمهـــم يرهب العرب .

(١) التوبة

احتياط النبيّ من المنافقين

٦٤٨ ـ كان على النبي صلى الله تعالى عليه وسلم أن يحتاط من المنافقين وكان على النبي صلى الله تعالى عليه وسلم أن يحرض المؤمنين الذين كانوا معه ويجمع شملهم ، وأن يكون بعضهم عونا لبعض في هذه العسرة الشديدة .

أما بالنسبة للمنافقين فانهم كانوا دائبي الحركة ليثبطوا المؤمنين ، وهم يقولون لا تنفروا في الحر ، ليمنعوهم نفسيا من الجهاد ، بل وصلت بهم الحال الى أن يجتمعوا ببعض اليهود يأتمرون معهم .

حدث بن هشام بسنده أن ناسا من المنافقين كانوا يجتمعون في بيت سويلم اليهودي ، وكان بيته في موضع اسمه جاسوم ، يثبطون الناس عن الجهاد ، وعن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم في غزوة تبوك ، فبعث اليهم النبي صلى الله تعالى عليه وسلم طلحة بن عبيد الله في نفر من أصحابه، وأمره أن يحرق عليهم بيت سويلم هذا، ففعل طلحة ، فاقتحم الضحاك بن خلفة من ظهر البيت ، فانكسرت ساقه وأفلت أصحاب البيت .

كانت عين رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم المجاهد تترصد أولئك المثبطين الذين بلغت حالهم ـ حد التآمر ، فرد الله كيدهم في نحورهم .

والنبي صلى الله تعالى عليه وسلم يأخذ حذره ممن يثبطون العزائم ، وهذه المعركة معركة عزائم ، وقوة نفوس ، وجلد وصبر وقوة احتمال .

كان النبي صلى الله تعالى عليه وسلم في ذلك الوقت العصيب يثير عزائم أصحابه ، ولا يكتفي بأن يحثهم على الخروج ، بل يحثهم على أن يعين بعضهم بعضا ، وأن ينفقوا في الحرب ولا يلقوا بأيديهم الى التهلكة ، وانه يحتاج الى الزاد والراحلة والشقة بعيدة، ولم يكن له اختيار في الأمان كما ذكرنا بل انه اذ علم أن الروم يتجمعون لاقتلاع هذا الدين من الأرض العربية، وليستذلوا العرب ويقضوا على منبع العزة فيهم ، فما كان له أن ينتظر ، بل لابد أن يبادرهم ، ولا ينتظرهم ، لقد أراد أن يخرج لهم بأكبر غزوة يغزوها،

أن يخـــرج بثلاثين ألفا ، فلا بد أن يكون في يده ما يغـــزوهم به ، وما يحملهـــم عليـــه ، ولا يكون معه الا القوي الأمين ٠

ذكر ابن اسحاق بسنده أن رسـول الله صـــلى الله تعالى عليـــه وســـلم جد في سفره ، وأمـر الناس بالجهـاد والانكمـاش (الاسراع) وحض أهـل الغنى على النفقة ، والحملان في سبيل الله تعالى فحمل رجال من أهل الغنى ، وكان لعثمان ذي النورين الحظ الأكبر من الانفاق ، حتى كاد يحمل الجيش كله٠

روى الامام أحمد أن عثمان ابتدأ بألف دينار فصبها في حجر النبي صـــلى الله تعالى عليه وسلم ، وقال عبد الله بن أحمد في مسند أبيه بسنده قـــال : خطب النبي صلى الله تعالى عليه وســلم فحث على الانفاق على جيش العسرة ، فقال عثمان بن عفان علي مائة بعير بأحلاسها وأقتابها ، ثم نزل مرقـاة من المنبر ، ثم حث ، فقال عثمان علي مائة أخرى بأحلاسها وأقتابها ، فقال النبي صلى الله تعالى عليه وسلم : ما ضر عثمان عمل بعـد هـذا ، ولقد قـــال النبي صلى الله تعالى عليه وسلم : « من جهـز جيش العسرة غفر الله تعالى له » ٠

هؤلاء المؤمنون كان منهم من حمل نفسه وحمل معـه زاده كعبد الرحمن ابن عوف ومنهم من تبرع بزاد وحملان لغيره كأبي بكر وعمر ، وغيـرهما من ذوي اليسار من المهاجرين والأنصـــار ٠

ولكن كان من بين المؤمنين الصـادقين البكاءون ، وأولئك أرادوا الجهاد، وألا يتخلفوا عن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم في نفير كهـــذا النفير ، الفاصل بين نشر الايمان في الأرض وبين أن يقضى عليه في مهـــده أهـــل القوة فيها ٠

كان هؤلاء النفر السبعة الذين سموا البكاءين ، وقـد ذهبـــوا الى النبي صـــلى الله تعالى عليـــه وســـلم فاستحملوا رســـول الله صـــلى الله تعالى عليـــه وســـلم بأن طلبوا منـــه مايحملهم عليه ، فقـــال رسـول الله صلى الله تعالى عليه وسلم « لا أجد ما أحملكم عليه » ٠

ولقد قال الله تعالى في ذلك الجمـع الحاشد :

﴿ وَإِذَآ أُنزِلَتۡ سُورَةٌ أَنۡ ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَجَٰهِدُواْ مَعَ رَسُولِهِ ٱسۡتَـٔۡذَنَكَ أُوْلُواْ ٱلطَّوۡلِ
مِنۡهُمۡ وَقَالُواْ ذَرۡنَا نَكُن مَّعَ ٱلۡقَٰعِدِينَ ﴿٨٦﴾ رَضُواْ بِأَن يَكُونُواْ مَعَ ٱلۡخَوَالِفِ وَطُبِعَ عَلَىٰ
قُلُوبِهِمۡ فَهُمۡ لَا يَفۡقَهُونَ ﴿٨٧﴾ لَٰكِنِ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ جَٰهَدُواْ بِأَمۡوَٰلِهِمۡ وَأَنفُسِهِمۡۚ
وَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلۡخَيۡرَٰتُۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ﴿٨٨﴾ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا
ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ ذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ﴿٨٩﴾ وَجَآءَ ٱلۡمُعَذِّرُونَ مِنَ ٱلۡأَعۡرَابِ لِيُؤۡذَنَ لَهُمۡ
وَقَعَدَ ٱلَّذِينَ كَذَبُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥۚ سَيُصِيبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۡهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴿٩٠﴾ لَّيۡسَ عَلَى
ٱلضُّعَفَآءِ وَلَا عَلَى ٱلۡمَرۡضَىٰ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُواْ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦۚ
مَا عَلَى ٱلۡمُحۡسِنِينَ مِن سَبِيلٖۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴿٩١﴾ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ إِذَا مَآ أَتَوۡكَ
لِتَحۡمِلَهُمۡ قُلۡتَ لَآ أَجِدُ مَآ أَحۡمِلُكُمۡ عَلَيۡهِ تَوَلَّواْ وَّأَعۡيُنُهُمۡ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمۡعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُواْ مَا
يُنفِقُونَ ﴿٩٢﴾ ۞ إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَسۡتَـٔۡذِنُونَكَ وَهُمۡ أَغۡنِيَآءُۚ رَضُواْ بِأَن يَكُونُواْ
مَعَ ٱلۡخَوَالِفِ وَطَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ فَهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ﴿٩٣﴾ ﴾ (١)

وقبل أن يسير الجيش الكبير كان بعض البكاءين من الأنصار الذين لم يجد رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ما يحملهم عليه ، وقد وجد من يعينه، فابن يامين بن عمير بن كعب لقي اثنين منهما وهما يبكيان ، فقال ما يبكيكما، قالا جئنا رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، فلم نجد عنده ما يحملنا عليه وليس عندنا ما نتقوى به على الخروج، فأعطاهما ناضحا له فارتحلاه .

وان بعضهم ، وهو عطية بن زيد قد أخذ يعتذر الى الله تعالى عن عدم خروجه ، ويقول : « اللهم انك أمرت بالجهاد ، ورغبت فيه ، ثم لم تجعل عندي ما أتقوى به، ولم تجعل في يد رسولك ما يحملني عليه ، واني أتصدق على كل مسلم بكل مظلمة أصابني فيها في مال أو حد جسد أو عرض ،ثم أصبح مع الناس » .

---

(١) التوبة

المسير

٦٤٩ ـ أخذ رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم في السير بجيشه الذي بلغ نحو ثلاثين ألفا ، وتبعه عبدالله بن أبي مع المنافقين وأهل الريب فلما سار رسول الله صلى الله تعالى عليهوسلم تخلف ، وما كان سيره ثم تخلفه الا ليخذل المؤمنين ليثير الريب بعمله ،كما أثاره بقوله .

وقد جعل على المدينة محمد بن سلمةالأنصاري .

وخلف علي بن أبي طالب في أهله،ويظهر أن هذه تشبه ما خلفه به على الودائع يوم الهجرة ، لأن الشقة كانتبعيدة ، فاختار رجلا من أهله ليقوم على أهله وأهله ، وما كانلعلي أن يكون له بعد أمر رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم الخيرة منأمره ، بل عليه الطاعة المجردة ، ولكن المنافقين الذين من شأنهم أنيثيروا الريب ، والافساد ويسعوا بالنميم بالأحبة ، أشاعوا قالة غيرصحيحة أصلا ، قالوا ما خلف رسول الله علي بن أبي طالب الا استثقالا لهوتخففا منه .

فلما أكثروا من القول في ذلك ، أخذ علي رضي الله تعالى عنه سلاحه ، ثم خرج حتى لحق رسول الله صلىالله تعالى عليه وسلم ، وهو نازل بالجرف فأخبره بما قالوا ، فقال رسولالله صلى الله تعالى عليه وسلم :«كذبوا، ولكني خلفتك لما ورائي فارجع فاخلفنيفي أهلي وأهلك ، أفلا ترضى أن تكون مني بمنزلة هارون من موسىالا أنه لا نبي بعدي،روى هذا الحديث البخاري ومسلم وأبو داوودالطيالسي .

وروى الامام أحمد رضي الله تعالىعنه أن عليا المجاهد ، استكثر على نفسه أن يكون ميدان الجهاد متسعا ،وفي غزوة كثر فيها التخلف ، أن يبقى ولا يحمل سيفه البتار ، فقاللرسول صلى الله تعالى عليه وسلم : « يا رسول الله لا تخلفني في النساءوالصبيان ! فقال : يا علي أما ترضى أن تكون مني بمنزلة هارون من موسىالا أنه لا نبي بعدي » .

وان هذا كان المنتظر من علي هذا، فان المؤمنين المتقين كانوا يتسابقون في الخروج لأنهم لا يرضون لأنفسهم أن يبقوا في راحة بين أهليهم، والرسول يسير في الصحراء حيث الحر اللافح .

قعد أبو خيثمة وله امرأتان عربيتان قد رشتا حول عريشهما الماء لتكونا مع زوجهما في جو رطيب، فلما رأى ذلك قال : « يكون رسول الله في الضح والريح والحر ، وأبو خيثمة في ظل بارد ، ومكان مهيأ وامرأة حسناء في حالة مقيم ما هذا بالنصف ، والله لا أدخل عريش واحدة منكما ، حتى ألحق برسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، فهيئالي زادا ، وأخلف عنه ، بعض الصحابة في أهله ، وارتحل ناضحا له ، وأسرع حتى وصل الى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم .

كان رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم معتمداً على الله تعالى ، والناس معه ، وبعضهم يقول تخلف فلان ، فيقول عليه الصلاة والسلام دعوه ، فان يكن فيه خير فسيلحقه بكم ، وان يك غير ذلك فقد أراحنا الله منه ، حتى قيل تخلف أبو ذر ، وتلوم به بعيره .

ولما أبطأ بعير أبي ذر ، وهو يريد أن يلحق رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، نزل وترك البعير ، وتخفف ماشياً الى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، حتى قارب ركب النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، فنظر ناظر من المسلمين ، فقال يا رسول الله هذا رجل ماش على الطريق فقال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم : « كن أبا ذر ، فلما تأمله الناس قالوا يارسول الله هو والله أبو ذر فقال رسول الله صلى تعالى عليه وسلم : يرحم الله أبا ذر، يمشي وحده ويموت وحده ، ويبعث وحده » .

وقد مات أبو ذر ، وقد نفاه عثمان الى الربذة ، فمات وحيداً حتى عثر به في الصحراء عبد الله بن مسعود فدفنه ، وبكاه ، وقال صدق رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم .

ولقد كانت هذه الغزوة رحلة ، اسلامية الى حيث آثار عاد وثمود ، فمر بها ، ولقد مر بالحجر ، فسجى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ثوبه على وجهه واستحث راحلته ، ثم قال لا تدخلوا بيوت الذين ظلموا

أنفسهم ، الا وأنتم باكون ، خوفا من أن يصيبكم مثل ما أصابهم فهو يدعو الى الاعتبار بالآثار ، لا بمجرد التطواف بالرسوم من غير نظر الى ما تدل .

وبينا المؤمنون سائرون أصابهم عطش شديد ولا ماء يروون به غلتهم ، فشكوا الى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، فدعا عليه السلام ، واستسقى ، فأرسل الله سبحانه سحابة مملوءة ماء ، فأمطرت ، وألقت حمولتها ، وارتوى الناس ، واحتملوا معهم ماء يرويهم عند حاجتهم الى الماء .

ولقد ضلت ناقة رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، فأخبر عن مكانها وبعث بعض الناس فوجدها وقد مضى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، في لأواء الصحراء وشدتها ، والمؤمنون الذين نصحوا لله ولرسوله ، يركبون الصعاب وهم حوله يعاونونه ، ويشدون من أزره ، وكان بعض الذين تخلفوا منهم منافقون لا يكتفون بأن يكونوا مع الخوالف ، بل يتهكمون ويسخرون من النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، ومن معه من المؤمنين ، وهو في منطلقه الى تبوك يقولون : أتحسبون جلاد بني الأصفر كقتال العرب ، والله لكأننا بكم غدا مقرنين بالجبال يقولون ذلك ارجافا وترهيبا .

ولقد بلغ النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ما قالوا ، فأتوا اليه يعتذرون ، يقول قائل انما كنا نخوض ونلعب ، فقال الله تعالى :

﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ ۚ قُلْ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ ﴿٦٥﴾﴾ (١)

كان ذاك أمر الذين نصحوا لله ولرسوله ، وأخلصوا ، وهذا الذي ذكرناه شأن الذين رضوا بالقعود ، وأولئك يقطعون الفيافي والقفار ليصلوا الى الغاية التي يتحقق فيها أمر الله ورسوله صلى الله تعالى عليه وسلم ، وقد وصلوا سالمين وعادوا سالمين .

وصول رسول الله تعالى إلى تبوك وخطبته :

٦٥٠ ـ وصل رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم بجيش الايمان الى تبوك من أرض الشام ولم يلق حربا ، لأنه لم يجد جندا من جنود

---

(١) التوبة

الرومان يحاربهم ، وقد عقد عقود ذمة مع بعض النصارى ، وأرسل سرايا لمن لم يكونوا في طريقه ،وسنشير اليها ٠

والآن نذكر أنه عندما وصل الى تبوك ، وقف بجوار نخلة هناك ، وألقى خطبة فيها حكمة النبوة ، وخلق الرسول ، وهي أجمع الخطب في الأخلاق ، رواها الامام أحمد رضي الله تعالى عنه،وهذا نص الرواية :

أن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، خطب الناس ، وهو مسند ظهره الى نخلة فقال :

ألا تحبون أن أخبركم بخير الناس وشر الناس ، ان من خير الناس رجلا عمل في سبيل الله على ظهر فرسه ، أو على ظهر بعيره ، أو على قدمه حتى يأتيه الموت ، وان من شر الناس رجلا فاجرا جريئا يقرأ كتاب الله لا يرعوي الى شيء منه ٠

وروى البيهقي بسنده لما أصبح رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم فحمد لله تعالى ، وأثنى عليه بما هو أهله ثم قال :

أيها الناس ، أما بعد ، فان أصدق الحديث كتاب الله تعالى ، وأوثق العرا كلمة التقوى ، وخير الملل ملة ابراهيم، وخير السنن سنة محمد ، وأشرف الحديث ذكر الله تعالى ، وأحسن القصص هذا القرآن ، وخير الأمور عوازمها ، وشر الأمور محدثاتها ،وأحسن الهدى هدى الأنبياء ، وأشرف الموت قتل الشهداء ، وأعمى العمى الضلال بعد الهدى ، وخير الأعمال ما نفع ، وخير الهدى ما اتبع ، وشر العمى عمى القلب ، واليد العليا خير من اليد السفلى ، وما قل وكفى خير مما كثر وألهى ، وشر المعذرة حين يحضر الموت ، وشر الندامة يوم القيامة ،ومن الناس من لا يأتي الجمعة الا دبرا ،ومن الناس من لا يذكر الله تعالى الا هجرا ،ومن أعظم الخطايا اللسان الكذوب ، وخير الغنى غنى النفس وخير الزاد التقوى ، ورأس الحكمة مخافة الله عز وجل وخير ما وقر في القلوب اليقين ،والارتياب من الكفر ، والنياحة من عمل الجاهلية ، والشعر من ابليس ، والخمر جماع الاثم ، والنساء حبائل الشيطان، والشباب شعبة من الجنون،وشر المكاسب كسب الربا ، وشر المآكل أكل مال اليتيم ، والسعيد من وعظ بغيره وانما يصير أحدكم الى موضع أذرع الأمر الى

الآخرة ، وملاك العمل خواتمه ، وكلما هو آت قريب ، وسباب المؤمن فسوق، وقتال المؤمن كفر ، وأكل لحمه من معصية الله ، وحرمة ماله كحرمة دمه ، ومن يتألى على الله تعالى يكذبه ، ومن يستغفره يغفر له ، ومن يعف يعف الله عنه ، ومن يكظم يأجره الله ، ومن يصبر على الرزية يعوضه الله ، ومن يبتغ السمعة يسمع الله به ، ومن يصبر يضعف الله له ، ومن يعص الله يعذبه الله ، اللهم اغفر لي ولأمتي ، اللهم اغفر لي ولأمتي ، اللهم اغفر لي ولأمتي ، قالها ثلاثاً ، أستغفر الله لي ولكم هذا الحديث بهذه الخطبة رواه البيهقي ، ولكن قال فيه الحافظ ابن كثير : « هذا حديث غريب فيه نكارة وفي أسناده ضعف ، والله أعلم بالصواب » .

ولعل روايته مجتمعاً هكذا هو الذي كانت فيه النكارة وكان فيه الضعف في اسناده وذكرناه، لأن أجزاءه لا يمكن أن يكون فيها نكارة ، كل واحد منها بمفرده .

وكله حكم رائعات ان لم تكن حديثاً صحيحاً فهي في أجزائها من جوامع الكلم الذي اتصف بها النبي صلى الله تعالى عليه وسلم وليس لنا أن نكذب على رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم، ونقول عنه ما لم يقل ، فان النبي صلى الله تعالى عليه وسلم نقل عنه في حديث متواتر أو شبه متواتر : « من كذب علي متعمداً ،فليتبوأ مقعده من النار » .

ولكنا نقلنا هذا الكلام كما نقله الحافظ البيهقي ، وانه يسعنا ما يسعه والعلم عند الله .

نتائج تبوك

٦٥١ ـ لم نجد في تبوك معركة حربية، لأن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم قد ذهب الى الروم لما علم أنهم يجمعون جيشاً وأنفق قيصر الروم على هذا الجيش رزق عام، سبق به لتتوافر أعطيات الجند، وذلك ليفرض ارادته ونفوذه على العرب كما كان، وقد هزته مؤتة بكثرة القتل في الرومان وان انسحب جيش النبوة انسحاباً ليس فرارا، وخافوا أن يتبعوه، ولكي يقضي أولئك النصارى على هذا الدين الجديد، الذي يقوض الدولة الرومانية في الشام على الأقل ·

ولم يكن النبي لينتظر في المدينة، بل انه يجيء اليه، وقد جاء اليه في جيش يريد الاستشهاد، فلما علم ذلك هرقل وقواده، وقد ذاق جيشه الذي كان مائتي ألف أمام ثلاثة آلاف تردد في اللقاء، ويظهر أنه لم يستطع أن يستعين بمن حول الشام من الأعراب كما كان في مؤتة، ولذلك فض جمعه، ولم يلاق المسلمين فلم يلق النبي صلى الله تعالى عليه وسلم حرباً، ولم يكن من نتيجة لتبوك الا أن أرهب الله الرومان فارتدوا على أدبارهم خاسرين، واقتصر النبي من انسحاب جيشه بتخاذلهم عن لقائه ·

وكان لابد من منع الفتنة في الدين الذي تكرر منهم، ولذلك أوصى بارسال جيش أسامة اليهم، ليعلمهم أن أهل الايمان لا يسلمون مسلماً أو يخذلونه·

واذا لم تكن ثمة نتائج حربية الا هذه الصورة التي ذكرناها، فقد كانت هناك نتائج أخرى لا تقل آثارها عن النتائج الحربية بل تزيد عليها ·

أولها ـ أن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم علم أحوال القبائل العربية التي تتاخم الشام من صحراء العرب، وألقى في نفوس أهلها روح العزة الاسلامية لكيلا يكونوا من بعد ذلك للرومان تبعاً يضربون بسيوفهم العرب، ويكونوا شوكة في جنب، وليريهم أن الرومان فروا من لقائه، وبذلك

يستهينون بالرومان ، ويمزقوا نفوذهم، ويستعـدوا لينالوا من الرومان ، ويضربوهم بالسيوف الاسلامية ، كمـاكان في واقعة اليرموك من بعد ٠

ثانيها ــ ان كلمة الاسلام أخذت تتردد في الشام بين نصارى غسان ، فكثر التابع ، وقل المانع وعلم أولئك العرب أن المستقبل للاسلام في تلك الأرض ، لأنه دين الله ودين الحق الواضح الذي لا ضلال فيه ، وأنه الدين المستقيـم الذي لا التواء في معانيـه ، وبذلك لا يناصرون الرومان ، ولذلك كـانت واقعة اليرموك في الشـام بين الرومان والمسلمين ، ولم يكن للعرب دور فيهـا يعاونون الرومان به ٠

ثالثها ــ أن الفكر الاسلامي أخـذ يتلاقى مع النصارى وتميزت الحقائق الاسلامية لدى كبراء النصارى ، ومن أسلم منهم كان له اسلامه ، ومن لم يسلم كان عقد الهدنة ، وكانت بعض السرايا تذهب في الأرض القريبة من الشام ٠

ولعل أبرز الاتصال بين مباديء الاسلام ، والنصارى مكاتبة قيصر للنبي صلى الله تعالى عليه وسلم ٠

كتاب قيصر إلى النبي صلى الله عليه وسلم :

٦٥٢ ــ لما نزل النبي صلى الله تعالى عليه وسلم بتبوك بعث اليه قيصر كتابا بعد أنه لم يبعث جيشا ، روى الامام أحمد أن قيصر الروم قال : « ادع لي رجلا حافظا للحديث عربي اللسـان أبعثه الى هذا الرجل بجواب كتابه (أي الذي بعثه النبي صلى الله تعالى عليـه وسلم أيام الهدنة) فجيء بالرجل فدفع اليه الكتاب ، واسم الرجل التنوخي ، والقـول عن الكتاب يسند اليه ، فهـو يقول جاءني فدفع هرقـل الي كتابا ، فقال اذهب بكتابي هذا الى هذا الرجل، فما سمعت من حديثه ، فاحفظ لي منه ثلاثا ، فلينظر في صحيفته أكتب الي بشيء ، وانظـر اذا قـرأ كتـابي هل يذكر الليل ، وانظر في ظهره ، هل به شيء يريبك ٠

قال الرجـل فانطلقت بكتابه حتى جئت تبوكا ، فقلت أين صاحبكم ؟ قيل ها هو ذا ، فاذا هو جالس بين ظهـران أصحابه محتبياً على الماء ، فأقبلت أمشي حتى جلست بين يديه ، فناولته كتابي فوضعه في حجره ، ثم قال من أنت ؟

فقلت أنا أخو تنوخ ، قال هل لك الى الاسلام الحنيفية ملة أبيكم ابراهيم؟ قلت اني رسول قوم ، وعلى دين قوم لا أرجع عنه ، حتى أرجع اليهم ، فضحك وقال : « انك لا تهدي من أحببت ولكن الله يهدي من يشاء ، وهو أعلم بالمهتدين ، يا أخا تنوخ اني كتبت بكتابي الى كسرى والله ممزقه ،وممزق ملكه ، وكتبت الى صاحبك بصحيفة فأمسكها ، ولن يزال الناس لا يجدون منه بأسا ما دام في العيش خير ، قلت هذه احدى الثلاث التي أوصاني بها صاحبي ، فأخذت سهماً من جعبتي ،فثبته في جنب سيفي ، ثم أنه ناول الصحيفة رجلا عن يساره قلت من صاحب كتابكم الذي يقرأ لكم ؟ قالوا معاوية ، فاذا في كتاب صاحبي تدعوني الى جنة عرضها السموات والأرض ، فأين النار » فقال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم سبحان الله ، فأين الليل اذا جاء النهار ؟ قال فأخذت سهماً من جعبتي ، فألقيته في جلد سيفي فلما أن فرغ من قراءة كتابي قال ان لك حقاً ، وانك لرسول ، فلو وجدت عندنا جائزة جوزناك بها ،انا سفر مرسلون ، قال فناداه رجل من طائفة الناس : أنا أجيزه ، ففتح رحله فاذا هو بحلة صفورية ، فوضعها في حجري ، قلت من صاحب الجائزة ؟قيل لي عثمان ، ثم قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم : أيكم ينزل هذا الرجل ، فقال فتى من الأنصار : أنا فقام الأنصاري وقمت معه حتى اذا أخرجت من طائفة المجلس ناداني رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، فقال يا أخا تنوخ ، فأقبلت أهوي ، حتى كنت قائماً بمجلس في مجلسي الذي كنت بين يديه فحل حبوته عن ظهره ، فقال ها هنا أمض لما أمرت به فجلت في ظهره فاذا أنا بخاتم النبوة في موضع غضون الكتف » .

انفرد برواية هذا الحديث الامام أحمد بن حنبل في مسنده ، ولم يكتب في الضعاف التي قيل انها أحصيت في المسند ، وقال فيه الحافظ بن كثير « هذا حديث غريب ، واسناده لا بأس تفرد به الامام أحمد » .

وما دام الخبر لا مطعن فيه ، وأخبار الثقات تقبل لأن الأصل في خبر الثقة أن يكون صدقا ، واننا بهذا نقرر أن تبوك كانت موضع ذلك الاتصال الفكري الذي التقت حقائق الاسلام بما عند النصارى ، وأصلحت الأفهام وتشفت الأوهام .

مصالحته عليه السلام ملك أيلة

٦٥٣ ــ قلنا أن الوصول الى تبوك أتى بخير كثير ، فقد كان الاتصال الفكري والسياسي ، وقد ذكر خبر مكاتبة هرقل والنبي في تبوك ، وقلنا ما فيه ، وركنا الى صدقه قبولا لأخبار الثقات ٠

والآن نذكر خبراً مشهوراً ، وهو أن ملك أيلة أتى الى النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، وأسمه يحنة ابن رؤبة ، فصالح رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، وأعطاه الجزية ، وأتاه أهل خرباء وأذرح ، فأعطوه الجزية ، فكتب لهم رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم كتاباً بذلك ، وقال ابن اسحاق انه عندهم ٠

وهذا نص كتاب رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ليحنة ٠

بسم الله الرحمن الرحيم ، هذه أمنة من الله ومحمد النبي رسول الله ليحنة ابن رؤبة وأهل أيلة سفنهم ، وسيارتهم في البر والبحر ، لهم ذمة الله تعالى ، وذمة محمد النبي ، ومن كان معهم من أهل الشام ، وأهل اليمن ، واهل البحر ، فمن أحدث منهم حدثا فانه لا يحول ماله دون نفسه ، وانه طيب لمن أخذه من الناس ، وانه لا يحل أن يمنعوا ماء يريدونه ولا طريقاً يريدونه من بر أو بحر ٠

ونرى أن هذا العهد الذي أعطى صاحب أيلة عهد يعم ، ولا يخص ، فهو لا يقصر على أهل أيلة ، بل من معه من أهل الشام وأهل اليمن ، وأهل البحر ، والمعية المذكورة هي التي يجمعها النصرانية واذا كان أهل اليمن وهم في الجنوب ليسوا معه في الحكم والسياسة ، فهم معه في الملة والاتباع الديني ، فعقد الذمة يسري على هؤلاء جميعاً ، اذا التزموا شروطه ، ويكون الذي عقد هو فيه صاحب أيلة ، فمن يعلمه منهم ، ويأخذ بحكمه فهو منهم ٠
وبذلك العهد يكون قد أخذ أكثر نصارى العرب يغدون اليه ٠

وكتب مثل هذا الصلح الى جهم بن الصلت ، وشر حبيل بن حسنة ، أو أذن لهما رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم بأن يكون لهما ما اشتمل عليه من حقوق ٠

وكتب مثله لأهل جرباء وأذرح ، وهذا نصه :

بسم الله الرحمن الرحيم هذا كتاب من محمد رسول الله لأهل جرباء وأذرح أنهم آمنون بأمان الله تعالى ، وأمان محمد صلى الله تعالى عليه وسلم ، وأن عليهم مائة دينار في كل رجب ومائة أوقية ، وأن الله تعالى عليهم كفيل بالنصح ، والاحسان الى المسلمين ،ومن لجأ اليهم من المسلمين ٠

وهكذا كان النبي صلى الله تعالى عليه وسلم يعقد العقود الخاصة بالسلم بين المسلمين والنصارى ومهد السبل للمسلمين يسيرون في تلك الديار دعاة للاسلام ، ولا شك أن هذه نتيجة من أعظم النتائج التي تتفق مع الدعوة الاسلامية ، فما جاء محمد محارباً ،ولكن جاء هادياً مبشراً ونذيراً ،وداعياً الى الله باذنه وسراجاً منيراً صلى الله تعالى عليه وسلم ٠

لم يكتف النبي صلى الله تعالى عليه وسلم بالعقود يعقدها ، وهو في تبوك بل أرسل السرايا الى القبائل الشمالية القريبة من تبوك ، يسالمهم ٠

سرية خالد إلى أكيدر دومة

٦٥٤ ـ أرسل الى أكيدر بن عبد الملك ، من كنانة ، كان ملكا على دومة ، وكان نصرانيأ ، وقد كان في هـذه السرية عشرون وأربعمائة فارس ، ودومة هي دومة الجندل ، وقال البيهقي كان الجيش مكونا من المهاجرين ، وعلى رأسهم أبو بكر الصديق ، وكان خالد على رأس الأعراب ٠

وان رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم عندما أرسل هذه السرية ، قال لخالد : « انك ستجده يصيد البقر » وهذا يدل على أنه أمير لا يعنى بالجد من الأمور ٠

خرج خالد حتى دنا من حصنه ، وصار منه بمنظر العين ، وكان ذلك في ليلة مقمرة صائفة ، وهو على سطح له ومعه امرأته ، وباتت البقر تحك بقرونها باب القصر ، فقالت له امرأته: « هل رأيت مثل هذا قط ، قال ٠ لا والله ، قالت فمن يحرك هذه ؟ قال لأحد ، عندئذ نزل بفرسه ، وقيل انه ما كرهم قبل أن ينزل ٠

وكان معه نفر من أهل بيته فيهم أخ له يقال له حسان ، خرجوا ، فتلقتهم خيل رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، فأخذته وقتلوا أخاه ، لأنه أخذ يقاومهم ٠

وأكيدر هذا مرفه فاكه في نعيم ، عليه ديباج مخوص بالذهب فاستلمه خالد ليبعث به الى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ٠

وقد راع الديباج أصحاب رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، وجعلوا يلمسونه بأيديهم ، ويتعجبون وقد لفتهم رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم عن افتتانهم بهذا الثوب الذي هو من نعيم الدنيا الذي يطغى وأخذ يدعوهم الى نعيم الآخرة ، فقال عليه الصلاة والسلام ، أتعجبون من هذا ، فوالذي نفسي بيده لمناديل سعد بن معاذ في الجنة أحسن من هذا وقد

عقد النبي صلى الله تعالى عليه وسلم مع أكيدر عقده على أن يقدم اليه الجزية ٠

ولقد روى الواقدي أنه كان مع أكيدر ألفا بعير ، وأربعمائة درع وأربعمائة رمح ، ومهما يكن من صحة هذه الرواية فان النبي صلى الله تعالى عليه وسلم خلى سبيله وعاد الى قريته ويظهر أنه ما خلى سبيله الا على أساس الذمة ، فيكون هو ومن معه على الذمة ،كما ذكر الواقدي ومما يذكر للنبي صلى الله تعالى عليه وسلم أنه كان يصطاد البقر ، ففي هذه الموقعة كانت البقر هي التي اصطادته لأنها دقت بقرونها الباب ، فنزل من أعلى حصنه، فاصطاده جيش خالد ، ثم كان عفو النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ٠

وفي رواية البيهقي أن سرية خالد الى أكيدر واستسلامه هي التي حملت يحنة صاحب أيلة على المجيء الى النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، وعقده معه عقد الذمة ٠

عودة المسلمين من تبوك

٦٥٥ ـ كانت غزوة تبوك غزوةمباركة ، كانت الدعوة الى الاسلام هي لبها وغايتها ، ونهايتها ، فقد نشرالاسلام بها في شمال البلاد العربية ، واستأنس به العرب في هذه الأقاليم ،وأخذ يسري نوره في الشام ذاته ، مما كان تمهيداً لجيوش المسلمين لفتحه ،حتى تكون المواقع من مواجهة بين الاسلام والرومان ، والعرب ، ومنهم عرب الشام ، اذ غزوا باسم الاسلام ٠

وقد عاد النبي بعد ذلك الى المدينة ،ويقول ابن اسحاق أقام رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم بتبوك بضع عشرةليلة لم يجاوزها ، ثم انصرف قافلا الى المدينة ٠

ويفهم من هذا أن مدة الاقامة بتبوكبضع عشرة ليلة لا تدخل فيها مدة السفر ، ذهابا وأوبة ، وقد ألف فيهذه المدة الناس ، وعقد عقود ذمة ، وأزال سطوات ناس ما كان يهمهم الاالترف والصيد ، وأوصل دعوة الاسلام الى الأراضي المصاقبة للرومان لكيلاتكون لهم قوة منهم اذا اشتدت الشديدة، وقامت الحرب بين المسلمين والرومولتزول فتنة المسلمين في بلادهم ٠

وقد حدثت وهم في الرجوع خوارق للعادة على يد النبي صلى الله تعالى عليه وسلم وان ذلك لكثير في حياتهصلى الله تعالى عليه وسلم ، تتبعه دلائل النبوة وتسايره ، وحيثما كان في حلهوترحاله بينا رسول الله تعالى يسير ، والعطش شديد ، والماء نادر ، والأرضصحراء رملة وكان في الطريق ماء يخرج من وشل ينحدر قليلا من مرتفع،فنهى النبي صلى الله تعالى عليه وسلم عن أن يستقي منه قبل أن يصل ،فاستقى منه ناس ، فاستقوه ، اذ لا يسقي الا راكباً أو راكبين الى ثلاثة ٠

فلما جاء اليه الرسول صلى الله تعالى عليه وسلم لم يجد ماء ، فدعا على الذين استقوه ، ثم وضع يده تحت الوشل (المكان المرتفع) ودعا رسول الله

ما شاء أن يدعو الله تعالى ضارعا اليهفانخرق ، ويقول في وصفه ابن اسحاق « ما ان له حساً كحس الصواعق ،فشرب الناس واستقوا حاجتهم منه ، وقال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم: لئن بقيتم أو من بقي منكم ، لتسمعن بهذا الوادي » .

وان هذه الحال كحال موسى اذ استقى لقومه فضرب الحجر فانبثق منه اثنتا عشرة عيناً ، فقد قال الله تعالى في ذلك :

﴿ ۞ وَإِذِ ٱسْتَسْقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ فَقُلْنَا ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَ ۖ فَٱنفَجَرَتْ مِنْهُ ٱثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا ۖ قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ ۖ كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ مِن رِّزْقِ ٱللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٦٠﴾ ﴾ (١)

انها نبع النبوة وصل اليه موسى بعصاه ، ووصل اليه محمد بيده ، فقد نشز الأرض يقطر قليلا فمسه محمدفاتخرق ، وصار له حس كحس الصواعق ، كما قال ابن اسحاق .

القائد يرعى جنده أحياء وأمواتا :

٦٥٦ ــ ان القائد يجب أن يكون محباً لجنده يحنو عليهم كما تحنو الأم على ولدها ، لأنهم خرجوا مقدمين أنفسهم في سبيل الله تعالى ، غير مدخرين مالا ، تاركين الأهل والولد ، والراحة،فلا جزاء لهم الا جنة الله في الآخرة ومظاهر التكريم في الدنيا .

وقد مات أحد الغزاة في الطريق ،وكان مؤمناً صادق الايمان ، قاوم في سبيل الاسلام قومه حتى نازعوه ثوبه،ذلكم هو عبد الله ذو البجادين قد مات ، فتولى دفنه محمد رسول الله صلىالله تعالى عليه وسلم ووزيراه أبو بكر، وعمر رضي الله عنهما ، ولنترك الكلمةلابن اسحاق فهو يقول ، راوياً عن عبد الله بن مسعود قال : « قمت منجوف الليل ، وأنا مع رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم في غزوة تبوك ،فرأيت شعلة من نار في ناحية المعسكر، فاتبعتها أنظر اليها ، فاذا رسول اللهصلى الله تعالى عليه وسلم وأبو بكر

---

(١) البقرة

وعمر واذا عبد الله ذو البجادين المزني قد مات ، واذا هم قد حفروا له ،رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم في حفرته،وأبو بكر وعمر يدليانه ، وهو يقول أدنيا الي أخاكما ، فدلياه اليه ، فلماهيأه بشقه قال : « اللهم اني أمسيت راضياً عنه ، فارض عنه ، فيقول عبد الله بن مسعود : يا ليتني كنت صاحب هذه الحفرة » ٠

ويقول ابن هشام في سبب تسميته بذي البجادين أنه كان ينزع الى الاسلام فيمنعه قومه من ذلك ، ويضيقون عليه، حتى تركوه في بجاد ليس عليه غيره والبجاد الكساء الغليظ الجافي ، فهرب منهم الى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، فلما كان قريبا من الرسول شق البجاد اثنين ، فائتزر بواحد ، واشتمل بالآخر ، فقيل له ذو البجادين لذلك ٠

انظر الى تكريم النبي الأمين المجاهد للمجاهدين ،لا يتركهم للذئاب تنوشهم، بل يكرمهم في مماتهم ، كما يكرمهم في محياهم ، ليقدموا على الفداء كراماً ٠

عصمة الله لنبيه

٦٥٧ ـ قال الله تعالى :

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۖ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿٦٧﴾ ﴾ (١)

فالرسول دائب على الدعوة لا يني ،ينتقل في لأواء الصحراء من مكة الى المدينة وما بينهما ، ثم يتجاوز الفيافي والصحارى ليكون في أرض الشام شامخا بالرسالة الالهية على الزومان ، ومن يتبعهم ، ومن يخضع ، فاذا لم يكن الله تعالى عاصمه ، من الذين يريدون به السوء في كل مكان من هذه الجرداء، فمن يكون العاصم غير الله تعالى القوي الجبار ٠

لقد تسلل الى جيش الاسلام بعض المنافقين ، ورجع المدينة طائفة منهم ليخذلوا المؤمنين ، وبقيت أخرى لتخذل اذا سنحت لها الفرصة في السير ، أو في المعترك ، ففوت الله تعالى عليهم الفرصة التي ينتهزون أمثالها دائماً ٠

ولما تمت أمور تبوك ، وتحولت الى دعاية اسلامية صادقة ، ولم تكن معركة قتال ينفثون فيها سموم التردد والهزيمة ، ووجدوا النبي صلى الله تعالى عليه وسلم راجعاً بجيش العسرة ، وهو في يسر وأمن وسلام واطمئنان ائتمروا بالرسول صلى الله تعالى عليه وسلم ومكروا محاولين أن يطرحوه من عقبة عالية في الطريق ، واذا كان قد أراد الخائنون اخوانهم أن يرموا عليه حجراً ثقيلا وهو جالس بجوار جدار لهم ، فقد أراد الخائنون من المنافقين أن يطرحوه من فوق عقبة في الطريق ، ولكن الله تعالى أعلمه بما بيتوا في الثانية كما أعلمه في الأولى ٠

لما بلغوا العقبة التي كان تدبيرهم الخبيث ومكرهم السيء عندها ، فلما بلغها صلى الله تعالى عليه وسلم أمر الجند أن يسيروا في بطن الوادي ،وقال:

---

(١) المائدة

من شاء منكم أن يأخذ بطن الوادي ، فانه أوسع لكم ، وأخذ رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم العقبة ، وأخذ المسلمون وكل الجيش بطن الوادي الا الذين ائتمروا ، وبيتوا الشر فقدأخذوا العقبة التي أخذها النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، لينفذوا ما مكروا به ، ومكروا مكرا ، ومكر الله تعالى مكرا ، والله خير الماكرين ·

لقد علم النبي صلى الله تعالى عليه وسلم مكرهم الخبيث ·

ان أولئك المنافقين لما علموا ذلك ،وما اتخذه النبي صلى الله تعالى عليه وسلم لنفسه من طريق استعدوا وتلثموا ، فأخفوا وجوههم لكيلا يعرفوا ، فعرفوا بذلك التلثم الذي أرادوا أن يستتروا به ، فكشفهم المسلمون به ·

لقد هموا بأمر عظيم ، وهو أن يطرحوا رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم من فوق العقبة ، فأمر رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم أن يلازمه عمار بن ياسر ، وحذيفة بن اليمان ،وأن يمشيا أمامه ، على أن يأخذ عمار بن ياسر بزمام الناقة ، وأمر حذيفة بسوقها ·

وبينا رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم في سيره هو ومن معه ، اذ سمعوا وكز أولئك الذين تأمروا لركائبهم ، وتدفعها عليهم ، وقد أدرك النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ماذا يريدون حسا ، بعد أن علم بنياتهم من الله ، وقد ساروا وراءهم من غير أن يعلموا ، وظنوا أنهم مدركون ما يريدون ·

وأمر رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم حذيفة ، وهو الذي يسوق الدابة أن يردهم ، وأبصر حذيفة غضب رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، وبدا ما يتوقعه عليه الصلاة والسلام من شرهم في وجهه ، فرجع حذيفة ، ومعه المحجن ·

رآهم حذيفة ملثمين ، واستقبل وجوه رواحلهم ، فضربها في وجوهها بالمجن ضرباً ، وأبصر القوم وهم ملثمون ، وظن أن ذلك فعل المسافر ، يتقي باللثام حر الشمس ، أو حرور الهواء ولكن المتآمرين فزعوا واضطربوا بافزاع الله تعالى لهم ، شأن من يريد جريمة ويشرع فيها اذ أنه يضطرب عندما يظن أن أمره قد كشف ، فيفزع من تتميمها ويتراجع ·

ولذلك أسرع أولئك الملثمون المتآمرون الى الاندماج في وسط الناس في بطن الوادي وأبطل الله تعالى كيدهم ·

بعد ذلك رجع حذيفة الى رسـول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، فلما أدركه ، قال له الرسول صلى الله تعالى عليه وسلم : اضرب الراحلة ياحذيفة، وامش يا عمار ، فأسرعوا حتى استووا ، بأعلاها ، ثم من بعد ذلك خرجوا من العقبة ، وهم ينتظرون الناس ٠

قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم لحذيفة وهو الذي كان يسوق الناقة اذهب ، وأرسله النبي صلى الله تعالى عليه وسلم فذهب اليهم ومن معهم ، وتبين به أنه انكشف أمرهم قال الرسول له هل عرفت من هؤلاء الركب أحداً ؟

قال حذيفة عرفت راحلة فلان ،وفلان ، وكانت ظلمة الليل ، قد غشيتهم وهم ملثمون ٠

قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم : هل علمتم ما كان شأن الركب وما أرادوا ٠

قالوا : لا يا رسول الله ، قال فانهم مكروا ليسيروا ورائي ، حتى اذا طلعت الى العقبة طرحوني منها ٠

قالوا اذن نضرب أعناقهم ، قال أكره أن يتحدث الناس ، أن يقولوا ان محمداً قد وضع يده في أصحابه « أي بالقتل » ٠

ويقول ابن اسحاق في هذه القصة عن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم أنه قال : ان الله قد أخبرني بأسمائهم ، وأسماء آبائهم ، وسأخبر بهم ان شاء الله تعالى عند وجه الصبح ، فانطلق (والخطاب لحذيفة) حتى اذا أصبحت فاجمعهم ، وقالوا انه صلى الله تعالى عليه وسلم أخبره وفي ذلك كلام بين الرواة ٠

ومهما يكن فان النبي صلى الله تعالى عليه وسلم أوصى حذيفة بألا يذكر أسماءهم ، وهم منافقون ، وقيل كان حذيفة عنده العلم بأسماء المنافقين ، وكان هذا سر النبي صلى الله تعالى عليه وسلم أسره اليه حتى قيل انه اذا مات أحد بعد النبي صلى الله تعالى عليه وسلم تعرفوا حال حذيفة ، معه ، فان رأوا حذيفة صلى عليه علموه مؤمناً غير منافق ، وان لم يصل عليه كانوا في ريب من أمره ٠

مسجد الضرار

٦٥٨ ـ كان من أولئك الذين ائتمروا بالنبي صلى الله تعالى عليه وسلم ليطرحوه من فوق القمة أو من التقوامعهم في قلوبهم ، من أنشئوا مسجد الضرار ، وقد ذكروا انشاءه قبل سفرالنبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، وهو يجهز الجيش ، ويجمع النفقة والرواحل، ويدعو الجميع أن يخرجوا معه ٠

جاءوا الى الرسول وهو في هذه الحال ، فقالوا يا رسول الله ، انا قد بنينا مسجداً لذي العلة والحاجة ، والليلةالمطيرة الشاتية ، وانا نحب أن تأتينا فنصلي فيه ، فقال عليه الصلاة والسلام اني على جناح سفر ، وحال شغل ، ولو قدمنا ان شاء الله تعالى لصلينا لكم فيه٠

وبينما هو في عودته ، وهو (بذي أوان) موطن بينه وبين المدينة نحو ساعة جاء خبر هذا المسجد من السماء، ونزل فيه القرآن اذ يقول سبحانه وتعالى في بنائه ومن بنوه :

﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًا بَيْنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِّمَنْ
حَارَبَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ مِن قَبْلُ وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَآ إِلَّا ٱلْحُسْنَىٰ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ
﴿١٠٧﴾ لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى ٱلتَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ فِيهِ رِجَالٌ
يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُواْ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُطَّهِّرِينَ ﴿١٠٨﴾ أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَٰنَهُۥ عَلَىٰ تَقْوَىٰ مِنَ
ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٍ خَيْرٌ أَم مَّنْ أَسَّسَ بُنْيَٰنَهُۥ عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَٱنْهَارَ بِهِۦ فِى نَارِ جَهَنَّمَ
وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠٩﴾ لَا يَزَالُ بُنْيَٰنُهُمُ ٱلَّذِى بَنَوْاْ رِيبَةً فِى قُلُوبِهِمْ إِلَّآ أَن
تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١١٠﴾﴾ (١)

---

(١) التوبة

لما نزل ذلك القول الحكيم من عند علام الغيوب الذي يعلم ما تخفي الأعين وما في الصدور ·

والواضح أن الذي بناه طائفة من المنافقين وليسوا من الأنصار ، الا أن يكونوا من الأوس والخزرج الذي كان المنافقون ينتمي كثير منهم الى الخزرج، ولا يمكن أن يكونوا من أنصار الله الذين أوذوا ونصروا ، الذين يؤثرون على أنفسهم ، ولو كان بهم خصائصة ·

والآية الكريمة واضحة في البواعث التي بعثتهم لبنائه انما اتخذوه ليضاروا المؤمنين الذين يلازمون النبي صلى الله تعالى عليه وسلم في مسجده والمساجد التي بناها كقباء وغيره ، التي أسست على تقوى من الله تعالى ورضوان ،وانهم يريدون بذلك تفريق المسلمين بترويج ما يفرق جماعتهم ، وبث الفتن والسوء فيها ، وليترصدوا فيه ويترقبوا من يحارب الله ورسوله ، ومن تأتمرون معهم ·

ولقد قال لهم بعض الذين لم يدخلوا في الاسلام « ابنوا مسجدكم ، واستعدوا ما استطعتم من قوة ومن سلاح ، فاني ذاهب الى قيصر الروم ، فآتى بجنده من الروم ، فأخرج محمداً وأصحابه » ·

وأن هذا المقصد السيء واضح من أن البناء كان والنبي صلى الله تعالى عليه وسلم يتجهز ، بجمع الجموع للذهاب الى تبوك ، وقد كانوا يتوقعون ما يتمنون ، وهو انهزام النبي صلى الله تعالى عليه وسلم وجيشه أمام الرومان، ولذلك دعا النبي صلى الله تعالى عليه وسلم اثنين من صحابته ، فقال انطلقا الى هذا المسجد الظالم فاهدماه وحرقاه فخرجا مسرعين حتى أتيا بني سالم ابن عوف فقال أحدهما لصاحبه ، انظر حتى أخرج اليك بنار من أهلي ، وهم بنو سالم بن عوف وذهب الى أهله ،فأتى بسعف من النخل ، فأشعلا فيه ناراً ، ثم خرجا يشتدان حتى دخلاه وفيه أهله ، فحرقاه وهدماه ، فتفرقوا عنه ·

ولقد خيب الله ظنهم ، فقد تخاذل الرومان عن أن يلتقوا مع جيش الاسلام ، وذهب عنهم ما كانوا يتحدثون فيه من كلام منبعث من نفاقهم اذ جاء على لسانهم أن المسلمين لا يستطيعون جلاء الروم ، فقد خاف الروم ولم يخف رجال محمد الذين قدموا أنفسهم لله تعالى ·

الثلاثة الذين خلفوا

٦٥٩ ـ انقسم المؤمنون الذين دعاهم النبي صلى الله تعالى عليه وسلم عند الخروج الى تبوك الى ثلاثة أقسام :

وأول الأقسام وأظهرها ، وهم قوة الاسلام الأولى ، الذين شروا أنفسهم لله بأن لهم الجنة يقاتلون ويقتلون ، وهم الذين تقدموا للذهاب مع النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، وهم الذين قال تعالى فيهم :

﴿لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِى سَاعَةِ ٱلْعُسْرَةِ مِنۢ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُۥ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٧﴾﴾ (١)

والقسم الثاني جماعة تخلفوا عن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، ومنهم منافقون ، ومنهم ضعفاء الايمان ، ومنهم من فيه خور ، وضعف ،وفي كل أحوالهم ليسوا من أقوياء الايمان الذين يفدونه بأنفسهم وأموالهم ، وراحتهم .

وأولئك اعتذروا وقبل النبي اعتذارهم ، وبعضهم كاذب لا محالة ، وقال فيهم سبحانه وتعالى :

﴿إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَسْتَـْٔذِنُونَكَ وَهُمْ أَغْنِيَآءُ رَضُوا۟ بِأَن يَكُونُوا۟ مَعَ ٱلْخَوَالِفِ وَطَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٩٣﴾ يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ إِذَا رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْ قُل لَّا تَعْتَذِرُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ لَكُمْ قَدْ نَبَّأَنَا ٱللَّهُ مِنْ أَخْبَارِكُمْ وَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٩٤﴾ سَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَكُمْ إِذَا ٱنقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِتُعْرِضُوا۟ عَنْهُمْ فَأَعْرِضُوا۟ عَنْهُمْ إِنَّهُمْ رِجْسٌ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٩٥﴾ يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْا۟ عَنْهُمْ فَإِن تَرْضَوْا۟ عَنْهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَرْضَىٰ عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٩٦﴾﴾ (٢)

(١) التوبة (٢) التوبة

عندما دخل النبي صلى الله تعالى عليه وسلم المدينة بدأ بالمسجد ، فصلى ركعتين ، ثم جاء اليه المخلفون الذين تخلفوا لمرضهم وضعفهم ، والذين لا يجدون ما يحملهم ، فكان عذرهم باديا ، يسقط تكليفهم هذا الخروج الذي لا يكون الا على أهل القوة والسلامة ، والذين يجدون ما ينفقون ، ولا ما يحملهم ، فالله تعالى قد أسقط عنهم الحرج بقوله تعالت كلماته :

﴿ لَّيْسَ عَلَى ٱلضُّعَفَآءِ وَلَا عَلَى ٱلْمَرْضَىٰ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا۟ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۚ مَا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٩١) ﴾ (١)

والباقون القادرون الأغنياء تقدموا بالاعتذار للنبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، وطفقوا اليه يعتذرون ويحلفون له وكانوا بضعة وثمانين رجلا ،فقبل منهم رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ما أظهروه ، وكما يقول ابن اسحاق قبل علانيتهم ، وبايعهم ، ووكل سرائرهم الى الله تعالى ، وهو يعلم أنه أن رضي عنهم ، لا يرضى عنهم الله سبحانه وتعالى ، ولكنه مأمور بألا يحكم الا بالظاهر ، واذا قبل الظاهر ، فقد يسيرون في تحسين الباطن .

القسم الثالث – من أخلصوا دينهم لله تعالى ، ولكنهم تخلفوا من غير معذرة ، ولم يرتضوا الكذب على النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، وخير لهم أن يعترفوا بتقصيرهم عن أن يكذبوا على رسول الله ، وهؤلاء ثلاثة ، لم يعدهم النبي صلى الله تعالى عليه وسلم الا من أقوياء الايمان ، ولكن غلب هواهم في القعود في ساعة التجهيز أو غلب فيهم ضعف وقتي ، واحساس ببعد الشقة ، فرضوا أن يكونوا مع الخوالف ، ولكن فيهم قلوب ، لم يطبع عليها كأولئك الذين طبع الله على قلوبهم .

لذلك كان لابد من علاج نفسي لهذه القلوب التي لم ترن عليها رواني الاثم المقصود ، وان كان تقصير فقد أدركوه ، وكان ذلك العلاج الذي رآه النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، وماكان ينطق عن الهوى ، ان هو الا وحي يوحى ، وذلك بالاعراض عنهم ، ومهاجرتهم ، وذلك لايقاظ نفوسهم ، وتعويدهم الصبر ، وكانت هذه العقوبة تشبه الكفارة بالصوم ستين يوما متتابعة ، لأنها تكون تربية للنفس وتهذيبا ، لقد أعرض عنهم المؤمنون

---

(١) التوبة

خمسين يوما ضاقت عليهم الأرض بمارحبت ، وضاقت عليهم أنفسهم ،وظنوا أن لا ملجأ من الله تعالى الا اليه ٠

ولنترك الحديث عنهم وعن نفوسهم وعن معاملة المسلمين الى الذي تحدث بعوالج نفسه ، وما تلقاه وما كان فيه من صبر فريد وهو كعب بن مالك ٠

« جاء كعب بن مالك ، فلما سلم عليه صلى الله تعالى عليه وسلم ، تبسم له تبسم المغضب ، ثم قال تعال ، قال فجئت أمشي حتى جلست بين يديه ، فقال ما خلفك ! ألم تكن قد ابتعت ظهرك » ٠

فقلت بلى والله ، اني لو جلست عند غيرك من أهل الدنيا لرأيت أن سأخرج من سخطه بعذر ولقد أعطيت جدلا ،ولكني والله لقد علمت ان حدثتك اليوم حديث كذب ترضى علي ليوشكن الله تعالى أن يسخطك علي ، ولئن حدثتك حديث صدق تجد فيه علي اني لأرجو فيه عفو الله عني والله ما كان لي من عذر ، والله ما كنت قط أقوى مني ولا أيسر حين تخلفت عنك ، فقال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، أما هذا فقد صدق فقم ، حتى يقضي الله تعالى فيك ، فقمت ، وكان رجال من بني سلمة ، فاتبعوني يؤنبوني فقالوا لي، والله ما علمناك كنت أذنبت ذنبا قبل هذا ولقد عجزت ألا تكون اعتذرت لرسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم بما اعتذر اليه المخلفون ، فقد كان كافيك ذنبك استغفار رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم لك ، فوالله مازالوا يؤنبوني ، حتى أردت أن أرجع ،فأكذب نفسي ثم قلت لهم : هل لقي هذا معي أحد ؟ قالوا نعم رجلان قالا مثل ما قلت ، فقيل لهما مثل الذي قيل لك ، فقلت من هما ، قالوا مرارة بن الربيع العامري ، وهلال بن أمية ، فذكروا لي رجلين صالحين شهدا بدرا ،فهما أسوة ، فرضيت حين ذكرا لي ، ونهى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم عن كلامنا أيها الثلاثة من بين من تخلف عنه ، فاجتنبنا الناس وتغيروا لنا حتى تنكرت لي الأرض ، فما هي بالتي أعرف ، فلبثنا على ذلك خمسين ليلة ، فأما صاحباي فاستكانا وقعدا في بيوتهما يبكيان ، وأما أنا فكنت أشد القوم وأجلدهم ، فكنت أخرج وأشهد الصلاة مع المسلمين وأطوف في الأسواق ، ولا يكلمني أحد ، وآتي رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم فأسلم عليه ، وهو في مجلسه بعد الصلاة ، فأقول في نفسي هل حرك شفتيه يرد السلام علي أم لا ، ثم أجلس

قريبا منه ، فأسارقه النظر ، فاذا أقبلت على صلاتي أقبل الي واذا التفت نحوه أعرض عني ، حتى اذا طال علي ذلك من جفوة المسلمين ، مشيت حتى تسورت جدار حائط قتادة ، وهو ابن عمي وأحب الناس الي ، فسلمت عليه ، فوالله ما رد علي السلام فقلت يا أباقتادة أنشدك الله، هل تعلمني أحب الله، ورسوله ، فسكت ، فعدت له انشدته ،فقال الله ورسوله أعلم ، ففاضت عيناي وتوليت حتى تسورت الجدار ، فبينا أناأمشى بسوق المدينة واذا نبطي من أنباط الشام ممن قدم بالطعام يبيعه في المدينة يقول من يدل على كعب بن مالك فطفق الناس يشيرون اليه حتى اذا جاءني دفع الي كتابا من ملك غسان فاذا فيه :

« أما بعد فانه بلغني أن صاحبك جافاك ، ولم يجعلك الله بدار هوان ، ولا مضيعة فالحق بنا نواسك ، فقلت لما قرأتها وهذا أيضا من البلاء ، فتيممت التنور فسجرتها حتى مضت أربعون ليلة من الخمسين اذ رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم يأتيني فيقول : ان رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم يأمرك أن تعتزل النساء فقلت : أطلقها ، أم ماذا، قال : لا ، ولكن اعتزلها ولا تقربها وأرسل الى صاحبي مثل ذلك ، فقلت لامرأتي الحقي بأهلك فكوني عندهم حتى يقضي الله في هذا الأمر ، فجاءت امرأة هلال بن أمية فقالت : يا رسول الله ان هلال بن أمية شيخ ضائع ليس له خادم ، فهل تكره أن أخدمه ، قال:لا، ولكن لا يقربك ، قالت : والله انه ما به حركة الى شيء ، والله ما زال يبكي منذ كان من أمره الى يومه هذا ، قال كعب :فقال لي بعض أهلي لو استأذنت رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم في امرأتك ، كما أذن لامرأة هلال بن أمية أن تخدمه ، فقلت : والله لا أستأذن فيها رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، وما ندري ما يقول رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم اذا استأذنته فيها ، وأنا رجل شاب ، ولبثت بعد ذلك عشر ليال حتى اذا كانت لنا خمسون من حين نهى النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، فلما صليت صلاة الفجر صبح خمسين ليلة على سطح بيت من بيوتنا ،بينما أنا جالس على الحال في ذكر الله تعالى ، قد ضاقت علي نفسي وضاقت علينا الأرض بما رحبت سمعت صوت صارخ بأعلى صوته : يا كعب بن مالك أبشر ، فخررت ساجدا ، فعرفت أن قد جاء فرج الله تعالى ، وآذن له رسول الله بتوبة الله تعالى علينا ، حين صلى الفجر، فذهب الناس يبشروننا ، وذهب قبلي صاحبي مستبشرين » .

هنأه الناس فلم يقبل تهنئتهم وذهب الى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم فقال له الرسول الكريم المربي المكمل أبشر بخير يوم يمر عليك منذ ولدتك أمك قال له مالك أهو من عندك يا رسول الله أم من عند الله ، قال لا ، بل من عند الله

صفت نفس الرجل ، وتهذب ، وخرج من كل ماله صدقة لوجه الله تعالى ولرسوله ، فقال له الرسول أبق بعض مالك ، فابقى سهمه من الغنائم التي استولى عليها المسلمون في خيبر ٠

ولقد خص الله سبحانه وتعالى أولئك الذين تخلفوا في الأرض بذكر قبول توبتهم مع النبي صلى الله تعالى عليه وسلم مع المهاجرين والأنصار فقال تعالى كما تلونا :

﴿ لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِى سَاعَةِ ٱلْعُسْرَةِ مِنۢ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُۥ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٧﴾ وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُوا۟ حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوٓا۟ أَن لَّا مَلْجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١١٨﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَكُونُوا۟ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١١٩﴾ ﴾ (١)

العبرة والتربية :

٦٦٠ ــ ذكرنا حديث كعب بن مالك مع طوله ، لأنه حديث النفس التائبة النادمة التي زلت ، وحديث الندم بعد الزلل ، وكما يقول الصوفية : ان زلة أورثت ذلا خير من طاعة أورثت دلا ،لقد ذل لله ورسوله صلى الله تعالى عليه وسلم ، لأنه أحس بالنفس اللوامة تحركه الى ارضاء الله ورسوله ٠

وقد مكث خمسين ليلة بذكر الله في كل ساعاتها ، ويحس في كل آنية منها بوخز ضمير ، وما يوقظ ذلك الوخز يرى في نظرات النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، وفي نظرات الناس ، وفي الأسواق ، وهو يصابر نفسه ويجيء

---

(١) التوبة

خطاب من ملك غسان يطلب أن يلتحق،فيراها نكبة أخرى ، ويجيء الى التنور ليسجره فيه ، وهكذا وان هذه القصةتدل على أمرين :

أولهما ـ أن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم رأى في هذا الرجل وصاحبيه خيرا لم يره في غيرهما من الذين اعتذروا ومنهم منافقون ، وضعاف الايمان أما هذا فقد أبدى صفحته ، ولم يرض في موقفه بالاعتذار ، ولا يريد أن يكذب على رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، فهو موقف طاهر وقلب طاهر ، ولكن علق به درن قليل ، يمكن أن يزول ، ولا يتوب عليه الله ورسوله، وفيه هذا الدرن ، ويريد الرسول أن تكون منه توبة نصوح تليق بالمؤمن الصادق في ايمانه ويقينه ، فكانت هذه لتكون منبها يستمر خمسين ليلة ،وكأنه اعتكف خمسين ليلة ، منصرفا فيها الى الله تعالى ، حتى كانت القاطعة التي حملت الثلاثة على الاعتكاف ، فاعتكف اثنان ، وصار الثالث بين الناس ، وكأنه بينهم ، فهو الغريب بين أصحابه وأهله ، حتى أعلن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم قبول توبتهم •

الأمر الثاني ـ الذي يدل عليه ذلك الخبر أن الانسان خلق ليأتلف مع غيره يتلمس التشجيع النفسي من نظرات ، وملامح الوجوه ، ومظاهر الأقوال والأفعال والجوارح التي تصدر عن الناس ، وان الاستنكار النفسي يفعل في نفوس الأخيار مالا تفعله العقوبات بالنسبة للأشرار ، فالذين يستهينون بالاستنكار القلبي في قوله صلى الله تعالى عليه وسلم « من رأى منكم منكرا فليغيره بيده ، فان لم يستطع ،فبلسانه فان لم يستطع فبقلبه » مخطئون وما كان عقاب هؤلاء الثلاثة الا استنكارا قلبيا بدا في الوجوه والجوارح ولم يبد في القول •

وان هذا الذي سنه النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، يجب علينا اتباعه ، فلا يصح لنا ، أن نبش في وجوه الأشرار ، ولا الذين يرتكبون الآثام ، لأنه عسى أن يثير ذلك ضمائرهم فتلوم ،واذا كان النبي قد فعل ذلك مع ثلاثة لدرن يسير أصاب قلوبهم ، أفلا نفعله مع أشرار هذا الزمان ، واذا كنا نعجز عن مقاطعتهم ، فاننا لا نمالئهم ، ولا نلتف حولهم مع ظلمهم ، لأن مجرد الالتفاف حولهم يجعل الرجل من شيعتهم ، وان لم يعمل عملهم ، ويجعلنا ذلك سائرين معهم ، وان لم نعاونهم بالفعل ، فانا نعاونهم بالالف ، والنبي صلى الله تعالى عليه وسلم يقول : « من مشى مع ظالم،فقد سعى الى جهنم » •

سبعة ربطوا أنفسهم بأعمدة المسجد

٦٦١ ـ كانوا عشرة تخلفوا ، لعل منهم أولئك الثلاثة الذين ذهبوا الى النبي صلى الله تعالى عليه وسلم وهو يستمع الى الأعذار للمتخلفين يقبل علانيتها ، ويترك السرائر الى الله تعالى ، وما كان للرفيق الطاهر الذي قبل لفظ وليس لفظ القلب الا أن يقبل العلانية ، ويترك لله ما بطن ، لأنه لا يفتش عن القلوب ٠

ان أولئك الثلاثة ذهبوا الى النبي يقولون لا عذر لنا ، ولا سبيل لأن نكذب عليك فصدقهم النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، وطهر قلوبهم ، وهذب نفوسهم وأزال الضر بتلك العقوبة الهينة في ظاهرها ، القوية في تأثيرها٠

ولكن سبعة آخرون لم يذهبوا معتذرين ، لأنه لا عذر لهم ، ولم يذهبوا ينفون الاعتذار بل جاؤوا وعاقبوا أنفسهم بأنفسهم ، فأوثقوا أنفسهم بسواري المسجد النبوي ، فلما رآهم رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم قال: من هؤلاء الموثقون أنفسهم بالسواري ،قالوا هذا أبو لبابة وأصحاب له تخلفوا عنك يا رسول الله أوثقوا أنفسهم حتى يطلقهم النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ويعذرهم ، فقال الرسول صلى الله تعالى عليه وسلم ، وأنا أقسم بالله لا أطلقهم ولا أعذرهم ، حتى يكون الله تعالى هو الذي يطلقهم ، رغبوا عني ، وتخلفوا عن الغزو مع المسلمين ، فلما بلغهم ذلك قالوا ونحن لا نطلق أنفسنا حتى يكون الله هو الذي يطلقنا ، فأطلق سراحهم ، ومنع الوثاق بأمر الله تعالى ، وقيل نزل فيهم :

﴿ وَءَاخَرُونَ ٱعْتَرَفُواْ بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُواْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَءَاخَرَ سَيِّئًا عَسَى ٱللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٠٢﴾ ﴾ (١)

---

(١) التوبة

أرسل النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ففك وثاقهم ، وأطلقهم وعذرهم.

ولم يجدوا أن ما فعلوه بأنفسهم فيه تكفير لتقصيرهم الذي تخلفوا به عن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم، ورأوا أن الصدقة تطفىء الذنوب كما يطفىء الماء النار ، فتصدقوا بكل أموالهم ، وقالوا يا رسول الله هذه أموالنا فنصدق بها عنا ، واستغفر لنا قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم « ما أمرت أن آخذ أموالكم » فقيل نزل قوله تعالى فيهم :

﴿خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ ۖ إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٠٣﴾﴾ (١)

هذا قسم أخذ في تطهير نفسه ، ولم يطهرهم النبي صلى الله تعالى عليه وسلم بابعاد الناس ، وهم فريق واحد ،أبى أن ينتحل عذرا شعورا منه بالتقصير في التخلف عن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم وانهم بذلك وقعوا في خطأ جسيم يكاد يكون خطيئة .

ولقد ذكر ابن كثير رضي الله تعالى عنه أقسام المخلفين ، فذكرهم أربعة أقسام قريبا مما ذكرنا ، قال : كان المتخلفون عن غزوة تبوك أربعة أقسام.

١ ــ مأمورون مأجورون كعلي بن أبي طالب ، ومحمد بن سلمة وابن أم مكتوم .

٢ ــ ومعذورون ، وهم الضعفاء والمرضى ، والمقلون وهم البكاءون .

٣ ــ وعصاة مذنبون وهم الثلاثة،أبو لبابة ، وأصحابه المذكورون .

٤ ــ وآخرون ملومون مذمومون ،وهم المنافقون .

وقد ذكرنا هذه الأقسام في القرآن الكريم ، ونوافق الحافظ بن كثير على هذا التقسيم ولكن لا نسمى أبا لبابة وأصحابه مذنبين ، ولكن نسميهم مقصرين مخطئين .

وفي الحق ان غزوة تبوك التي كانت آخر غزوات فيها اختبار لنفوس الذين مع النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، فقد بدت فيها أحوال الذين

---

(١) التوبة

كانوا مع النبي صلى الله تعالى عليـــهوسلم ، بدأ الأقوياء الذين لا يصدرون الا عن أمره ، وبدأ المنافقـــون الذينلازموه مخذلين بخروجهم ، ومخذلين في سيرهم ومتآمرين يريدون اغتيال النبيصلى الله تعالى عليه وسلم ٠

وبدأ الذين ينقصهم الهمـــة والاستجابة في الشـــدة ، وان كـــان لا ينقصهم الايمان وقوة اليقين ، وقـــدعالجهم النبي صلى الله تعالى عليه وسلم نفسيا بأمر ربه ، وعالجوا أنفسهـــم ،والجسم القوي يقبل العلاج ، ولم يعالج النبي غيرهم ممن تخلفوا ، بل تركهـــمالى ما هم فيه يحاسبهم الله ٠

الوفود

٦٦٢ ـ في العام التاسع جاءت الوفود الى النبي صلى الله تعالى عليه وسلم بعد غزوة تبوك ، ويقول كتاب السيرة ، انها آخر غزوة غزاها النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، وقد عمت الدعوة الاسلامية البلاد العربية ، وصار العرب بين مجيبين ، وكافرين ، ومترددين يسيرون في طريق الاسلام ، ولما يدخل الايمان قلوبهم ، وقد جاءت وفود ممن أسلموا ، ووفود أخرى تقدم ذكرها وقد قال ابن اسحاق ، وانما كانت العرب تتربص باسلامها أمر هذا الحي من قريش ، كانوا أئمة الناس وهداتهم ، وأهل البيت والحرم ، وصريح ولد اسماعيل بن ابراهيم ، وقادة العرب ، لا ينكرون ذلك ، وكانت قريش هي التي نصبت الحرب لرسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم وخلافه ، فلما افتتحت مكة ، ودانت له قريش ، ودوخها الاسلام عرفت العرب أنه لا طاقة لهم بحرب رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، ولا عداوته ، فدخلوا في دين الله كما قال عز وجل « أفواجا » ، يضربون اليه من كل وجه ، يقول الله تعالى :

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ (١) وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا (٢) فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا (٣) ﴾ (١)

أي فاحمد الله على ما ظهر من دينك ، واستغفره انه كان توابا ، وقد قال كانت العرب تتلوم باسلامهم قبل الفتح ، فيقولون اتركوه وقومه ، فانه ان ظهر عليهم فهو نبي صادق ، فلما كانت واقعة الفتح بادر كل قوم باسلامهم .

ومؤدى هذا أن فتح مكة لم يكن فتحا لمدينة لها قدسيتها فقط ، بل كان فتحا لقلوب الناس نحو الاسلام ، اذ هم لقريش تبع ، ولم يكن الفتح اكراها

---

(١) النصر

لقريش على الاسلام ، بل ازالة نقمة الزعماء والكبراء، وتبين الحق الصريح الواضح ، حتى ان الكبير منهم كان يقدم على الاسلام ، لأنه علم أنه العقل وأنه الحق ، كما رأينا في اسلام عكرمة بن أبي جهل ومن كان معه من اخوان له الى آخر لحظة من مقاومته .

ولكن مع ذلك يجب التمييز بين من دخل في دين الله ، والبلاء بلاء ، وحمل عبء المصابرة على الأذى في مكة ، والتهكم والاستهزاء ، وهم الذين جاهدوا في سبيل الله ، وحملوا السيف ، وقاتلوا وقتلوا ، وهم الذين اشتروا أنفسهم وباعوها ، حتى بلغ الاسلام ما بلغ وفتحت مكة أو مهد للفتح بالحديبية ، يجب التفرقة بين الذين دخلوا وحملوا العبء مع الرسول ، وبين الذين جاؤوا من بعد ، ولذا يقول الله تبارك وتعالى:

﴿ وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُنفِقُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلِلَّهِ مِيرَٰثُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ لَا يَسْتَوِى مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ ٱلْفَتْحِ وَقَٰتَلَ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ ٱلَّذِينَ أَنفَقُوا۟ مِنۢ بَعْدُ وَقَٰتَلُوا۟ ۚ وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١٠﴾ ﴾ (١)

ويقول في ذلك ابن كثير ، فيجب التمييز بين السابق من هؤلاء الوافدين زمن الفتح ممن يعد وفوده هجرة ،وبين اللاحق لهم بعد الفتح ممن وعد الله تعالى خيرا وحسنى ، ولكن ليس في ذلك كالسابق له في الزمان والفضيلة .

ونحن نرى أن الفتح الذي جاء به القرآن كان سنة ست بصلح الحديبية ، لأن الله تعالى سمى صلح الحديبية فتحا، وقد كان كذلك ، لأنه فرق بين قوة الحرب وقوة السلام ، وقد دخل الناس بعد صلح الحديبية أفواجا في الاسلام، والذين كانوا قبل صلح الحديبية هم الذين قرر الله تعالى في كتابه الكريم ، أنهم الذين رضي عنهم ورضوا عنه في قوله تعالى :

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ يَدُ ٱللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ ۚ فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَٰهَدَ عَلَيْهُ ٱللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١٠﴾ ﴾ (٢)

(١) الحديد
(٢) الفتح

وقال سبحانه :

﴿ * لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿١٨﴾ ﴾(١)

هؤلاء هم الذين أنفقوا من قبل الفتح ، ومن جاء بعدهم ليس مثلهم ، فليس عمرو بن العاص كعلي بن أبي طالب ، وطلحة بن عبيد الله والزبير بن العوام ، وأبي عبيدة عامر بن الجراح، وغيرهم ، هؤلاء هم الذين سبقوا بالحسنى وقاموا مع النبي بالجهاد والاسلام غريب ، وكان من بعد ذلك عموم الدخول في الاسلام ، ولذلك كان الذين أسلموا بعد الحديبية والفتح أضعاف الذين أسلموا من قبل .

(١) الفتح

وفد مزينة

٦٦٣ ــ جاء هذا الوفد عند الحديبية وقبــل الفتح ، ومجيئه في ذلك الوقت يدل على أن دخول الناس في دين الله أفواجا كان بعد الحديبية ، وامتد الى ما بعد فتح مكة وتبوك .

روي أن أول وفد من مضر كان وفد مزينة بأربعمائة من مضر ، وروي أن ذلك في رجب سنة خمس ، وقــدجاؤوا مهاجرين ، وقــالوا ان أول من وفد من مزينة خزاعي بن عبد سهــم ،ومعه عشرة من قومه ، فبايع رســول الله صلى الله تعالى عليه وسلم على اسلام قومه ، ولما رجع اليهم ولم يجدهم كما ظن فيهم اذ تأخروا عنه .

ويظهر أن أولئك الأربعمائة جاؤوا بعد أن فشا الاسلام فيه ، وبعــد أن أغلق باب الهجرة الى المدينة ، وأريد أن يعمر الاسلام البلاد العربية كلها ، فقال « أنتم مهاجرون حيث كنتم فارجعوا الى أموالكم » .

وبذلك يكون تعيين الزمن بأن القدوم سنة خمس ، انما كان وفد خــزاعي الذي بايع عن اسلام قومه ، ولم يكونوا قد أسلموا ، ثم جاء بعد ذلك أربعمائة، فرأى أن يمكثوا دعاة للاسلام في بــلادهم وذلك بعــد أن تكاثر المسلمــون عندهم ، وذلك بعد الحديبية أو بعــد الفتح ، وان النبي صلى الله تعالى عليه وسلم زود هؤلاء بالطعام من التمر اذ لم يكن معهم زاد .

وفد بني تميم

٦٦٤ ـ وذكرنا من أخبار بني تميم عندما هموا بالاعتداء على خزاعة، فأرسل اليهم عيينة بن حصن في خمسين رجلا ، فأسر منهم أسرى ، وسبى سبايا ، فجاؤوا لذلك ، وقالوا من وراء الحجرات في جفوة اخرج الينا يامحمد، فقال تعالى :

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَآءِ ٱلْحُجُرَٰتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ۝ وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا۟ حَتَّىٰ تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝ ﴾ (١)

وقد رد النبي صلى الله تعالى عليه وسلم أسراهم ، وقد تكلموا بعد ذلك مفاخرين بأنفسهم ، ورد الأنصار مفاخرتهم ٠

والآن نقول ما رواه البيهقي بسنده ، قال قدم رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم الزبرقان بن بدر ، وقيس بن عاصم، وعمرو بن الأهتم التميميون فوقف الزبرقان بن بدر وقال :

أنا سيد بني تميم والمطاع فيهم ، والمجاب ، وأمنعهم من الظلم ، وآخذ لهم بحقوقهم ، وهذا يعلم ذلك ، وأشار الى عمرو بن الأهتم ٠

قال عمرو بن الأهتم انه لشديد المعارضة مانع لجاره مطاع في أدنيه ، فقال الزبرقان بن بدر ، والله يا رسول الله لقد علم مني غير ما قال ، وما منعه أن يتكلم الا الحسد ، فقال عمرو بن الأهتم ، أنا أحسدك فوالله انه للئيم الخال ، حديث المال أحمق الوالد مضيع في العشيرة والله يارسول الله لقد صدقت فيما قلت أولا ، وما كذبت فيما قلت آخرا ، ولكني اذا رضيت قلت أحسن ما علمت ، واذا غضبت قلت أقبح ماوجدت ، ولقد صدقت في الأولى ، والأخرى جميعا ٠

---

(١) الحجرات

فقال رسول الله صلى الله تعالى عليهوسلم : « ان من البيان لسحرا ، وان من الشعر لحكمة ، ولعل هذه المجاوبةكانت في قدومهم لفك أسراهم ، فهو قدوم وليس بوفد » .

وقد روى البخاري في فضل بنيتميم قول أبي هريرة ، « لا أزال أحب بني تميم بعد ثلاث سمعتهم من رسولالله صلى الله تعالى عليه وسلم يقولها فيهم : هم أشد أمتي على الدجال ،وكانت فيهم سبية عند عائشة ، فقال أعتقيها ، فانها من ولد اسماعيل ،وجاءت صدقاتهم فقال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم : هذه صدقاتقومي » .

هذا ما رواه البخاري ، ورواهمسلم كذلك .

وأقول قال علي كرم الله وجهه ، فيأيام شدائد البغي ومقاومته « ما أفل لبني تميم نجم الا بزغ لهم نجم آخر »والله أعلم .

وفد ثقيف

٦٦٥ ـ امتنع رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم عن هدم حصون ثقيف ، وحرق كرومهم ، وأنهى الحرب ، لأنها كانت في آخر شوال ، وأقبل ذو القعدة الحرام ، لأن منهم من مال الى الاسلام ، وفشا الاسلام في الطائف ، ولكن نخوة الجاهلية وغلظ قلوبهم منعتهم من التسليم ، وان كان الاسلام قد فشا فيهم .

فلما انصرف رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم عنهم ، اتبع أثره عروة ابن مسعود ، وأسلم ، وقد ذكرنا لقاءه بالنبي صلى الله تعالى عليه وسلم وعودته الى قومه ، وقتلهم له بالنبل .

بعد قتل عروة ، وكان محبوبا فيهم ، أحسوا بأنهم صاروا منفردين بين العرب ، وخصوصا أن مكة التي تقرب منهم قد أسلمت وأذعنت ، وأن القبائل تدخل في الاسلام ، وربما كان مقتل عروة المحبوب فيهم كان له أثر في نفوسهم بالندم على قتل محبوب ، فصغت قلوبهم لما كان يدعوهم اليه ، ورأوا أنه لا طاقة لهم بالعرب ، وأن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ان أعاد الكرة عليهم لم يكن لهم به طاقة ، بل انهم اليوم لا طاقة لهم بين العرب .

اتجه عمرو بن أمية من كبرائهم الى كبير آخر فيهم هو عبد ياليل ، فقال له :

« انه قد ذهب أمر ليست معه هجرة ، انه قد كان من أمر هذا الرجل ما قد رأيت ، قد أسلمت العرب كلها ، وليست لكم بحربهم طاقة فانظروا في أمركم .

عندئذ ائتمرت ثقيف بينها ، وقال بعضهم لبعض ، أفلا ترون أنه لا يؤمن لكم سرب ، ولا يخرج منكم أحد الا اقتطع ، فأجمعوا أن يرسلوا الى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم رجلا ، كما أرسلوا عروة ، فامتنع الا أن يكون معه نفر منهم خشية أن يصنعوا به مثل ما صنعوه بعروة بن مسعود .

بعثوا عبد ياليل في وفد من خمسة كانوا في جملتهم ستة .

قدموا المدينة ، فكان على رعية ابل الصحابة وكان بها المغيرة بن شعبة ، لأنها نوبته ، وكانوا يتولون عليهـا بالمناوبة ، وعندما رآهم المغيرة نهض مسرعا الى رسول الله ، فلقيه أبو بكر ،فأراد أن يسبقه هو الى اخبار الرسول صلى الله تعالى عليه وسلم فأخبره ٠

عاد المغيرة اليهم ، وهو يعلم أنهم جفاة ليعلمهم كيف يحيون النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، فلم يفعلوا الا بتحية الجاهلية ٠

ضرب عليهم رسول قبة في المسجد، والنبي يجيء اليهم فيه وكانوا يطمئنون الى خالد بن سعيد بن العاص،وكانوا اذا جاءهم الطعام من قبل النبي صلى الله تعالى عليه وسلم لا يطعمون الا اذا طعم منه خالد ٠

وبعد ذلك أعلنوا اسلامهم ، ولكن في بقية جاهلية طلبوا من رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم أن يبقي اللات ثلاث سنين ، فرفض ، طلبوا سنتين فأبى ، طلبوا سنة فأبى ، طلبوا شهرا ،فأبى ، وكيف يقرهم على الوثنية ساعة من زمان ٠

سألوه صلى الله تعالى عليه وسلم ألا يكسروا أصنامهم بأيديهم ، فأجابهم وأرسل المغيرة بن شعبة ، وأبا سفيان بن حرب ، أن يهدموها ٠

طلبوا أن يعفيهم من الصلاة ،فقال عليه الصلاة والسلام : « لا خير في دين لا صلاة فيه » ، وقد كان النبي صلى الله تعالى عليه وسلم قد أقامهم في خباء في المسجد ليروا الناس ، اذا صلوا ، فيستأنسوا بالصلاة وليعلمهم ، ولكن جفوة الجاهلية حالت بينهم وبين الأنس بالصلاة ٠

وكانوا يرون أن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم اذا خطب لا يذكر نفسه فقالوا كيف يأمرنا أن نشهد أنه رسول الله وهو لا يشهد به في خطبته ، فبلغ النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ما قالوا، قال ، فاني أول من شهد أني رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، وكان فيهم عثمان بن أبي العاص وكان أصغرهم فكانوا يخلفونه على رحالهم ،فكان القوم كلما عادوا الى رحالهم بالهاجرة ليقيلوا ، ذهب الى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم وسأله عن الدين ، واستقرأه القرآن ، وكان يختلف اليه مرارا ، حتى فقه في الدين،

وعلم ، وكان ، اذا وجد رسـول الله نائما عمد الى أبي بكر ، وكان يكتم ذلك عن أصحـابه ، فأعجب ذلك رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم وأحبه ٠

مكث الوفد يختلف الى رسـول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، وهو يدعوهم الى الاسلام ، فأسلموا ٠

قال كنانة بن عبد ياليل الذي كان على رأس الوفد ، كما نوهنا هـل أنت مقاضينا حتى نرجع الى قومنا ، قـال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، ان أنتم أقررتم بالاسلام أقاضيكم ، والا فلا قضية بيني وبينكم ٠

قال : أفرأيت الزنى ، فانا قـوم نغترب ، ولا بد لنا منه ٠

قال النبي صلى الله تعالى عليه وسلم حرام ، فان الله تعالى يقول :

﴿ وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلزِّنَىٰٓ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلًا ﴿٣٢﴾ ﴾ (١)

قالوا أفرأيت الربا ، فانه أمـوالنا كلها ٠

قال النبي صلى الله تعالى عليه وسلم :لكم رؤوس أموالكم ، قال الله تعالى :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَذَرُوا۟ مَا بَقِىَ مِنَ ٱلرِّبَوٰٓا۟ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٧٨﴾ ﴾ (٢)

قالوا أفرأيت الخمر ، فانه عصـير أرضنا لا بد لنا منها ٠

قال النبي صلى الله تعالى عليه وسلم:ان الله تعالى قد حرمها وقرأ قوله تعالى :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنصَابُ وَٱلْأَزْلَٰمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَٱجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٩٠﴾ ﴾ (٣)

أخذوا بما قرره النبي صلى الله تعالى عليه وسلم لهم ، ولكن بقية الوثنية فيهم ، فقد سألوا النبي صلى الله تعالى عليه وسلم أن يبقي الربة (اللات) ، فقال اهدموها ، فقالوا واهمين لو علمت الربة أنك تريد هدمها لقتلت أهلها ٠

فقال عمر بن الخطاب وكان حاضرا ويحك يابن ياليل انما الربة حجـر ، قالوا انا لم نأتك يابن الخطاب وقـال ابن ياليل لرسول الله صلى الله تعـالى

---

(١) الاسراء (٢) البقرة (٣) المائدة

عليه وسلم ، تول أنت هدمها فنحن لا نهدمها ، وأرسل الرسول صلى الله تعالى عليه وسلم أبا سفيان بن حرب ،والمغيرةبن شعبة فهدماها كما ذكرنا ٠

أكرمهم رسول الله صلى الله تعالىعليه وسلم بعد أن علمهم ، وطلبوا أن يؤمر عليهم أحدا ، فأمر أصغرهمعثمان بن أبي العاص ، وكان قد حفظ سورا من القرآن وأدرك معاني الاسلام ٠

ولكن كان المتحدث عن ثقيف بن عبد ياليل ، لأنهم الذين نصبوه المتحدث باسمهم ، وكان عليما بنفوس قومه ،يعلم كيف يدخل الى نفوسهم ، وأمامه تجربة عروة بن مسعود الذي كانمحبوبا أكثر من أبكارهم فلما جاءهم مسلما قتلوه ٠

ولذلك كتم قصة اسلامهم وما سلموابه للنبي صلى الله تعالى عليه وسلم من قبولهم لتحريم الزنى والربا ، والخمر،وجاؤوا اليهم مخوفين ، ولم يجيئوا اليهم مسلمين ٠

خوفوهم بالحرب ، وأن محمداً صلىالله تعالى عليه وسلم سألهم أمورا فأبوها : سألهم هدم اللات والعزى وتحريم الخمر والزنى والربا فأبوا ٠

أظهر الوفد الحزن والكرب ، وسرى ذلك الى ثقيف ، وذهب الوفد الى اللات وثن ثقيف يكرمها ، وأظهر كلمن في الوفد لخاصته ، أنه جاء من عند رجل فظ غليظ القلب يأخذ من شاءبظهر السيف ، وأدان له العرب ففرض علينا أمورا شدادا ، هدم اللات والعزىوترك الأموال ، الى آخر ما طلب ٠

قالت ثقيف لا نقبل ذلك أبداً ٠

فقال الوفد المدرك : أصلحوا السلاح ، وتهيئوا للقتال واستعدوا له ، ورمموا حصنكم ٠

فكرت ثقيف يومين أو ثلاثة يدبرون القتال ، ثم ألقى الله في قلوبهم الرعب ، وقالوا والله ما لنا به طاقة ،وقد دان له العرب كلها ، فارجعوا اليه فأعطوه ما سأل ، وصالحوه عليه ، فلمارأى الوفد أنهم قد اختاروا الأمان على الخوف والحرب ، عندئذ أظهر لهم ماأخفى ، قال لهم الوفد ، فانا قد قاضيناه ، وأعطيناه ما أحببنا ، وشرطناما أردنا ، ووجدناه أتقى الناس

وأوفاهم وأصدقهم وأرحمهم ، وقد بورك لنا ولكم في مسيرنا ، وفيما قاضيناه عليه فاقبلوا عافية الله .

قالت ثقيف ، فلم كتمتونا هذا الحديث وغممتمونا أشد الغم ! قالوا أردنا أن ينزع الله من قلوبكم نخوة الشيطان فأسلموا مكانهم ، وجاءتهم رسل النبي صلى الله تعالى عليه وسلم .

وقد أمر على هذه الرسل خالد بن الوليد ، وفيهم المغيرة .

أقدم المغيرة ليهدمها ، وثقيف كلها رجالا ونساء يزعمون أنها لا تهدم أبدا يظنون أنها ممتنعة عن الهدم ، فأخذ المغيرة يخادعهم مستهزئا بزعمهم ، وقال لأضحكنكم اليوم من ثقيف ، فأخذ المعول يضرب به ، ثم أسقط نفسه وركض ، فارتج أهل الطائف بضجة واحدة ، وقالوا أبعد الله المغيرة ، قتلته الربة ، وفرحوا حين رأوه ساقطا ، وقالوا من شاء فليقترب ، وليجتهد على هدمها ، فوالله ما استطاع .

بعد أن أثار المغيرة ثقيفا مستهزئا بهم وثب وأخذ المعول ليهدم ، وقال قبحكم الله معشر ثقيف ، انما هي حجارة ومدر ، ثم ضرب الباب فكسره ، ثم علا أعلى سورها ، وعلا الرجال معه فهدموها حجراً حجراً ، حتى سووها بالأرض .

ولكن صاحب مفتاح اللات ما زال على ضلاله فجعل يقول ليغضبن الأساس ، فليستخفن بهم فلما سمع ذلك المغيرة قال لخالد ، دعني أحفر أساسها ، فحفره ، حتى أخرجوا ترابها فبهتت ثقيف ثم انتزعوا حليها وكسوتها ،وأتى بها الوفد الى النبي صلى الله تعالى عليه وسلم .

وروي أن ثقيفا ، قد اشترط وفدها أن لا صدقة عليه ولا جهاد فقال النبي صلى الله تعالى عليه وسلم : « سيتصدقون ويجاهدون » .

ويظهر أن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم لم يظهر ذلك الشرط ، أو لم يظهر اجابته انتظارا لما يكون بعد اسلامهم ،ويروى أن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم أراد أن يبني مسجدا ، حيث كان طاغيتهم (اللات) .

٦٦٦ ـ ذكرنا أحوال وفد ثقيف مع طوله ، لأن فيه بيانا لأحوال النفوس وكيف تعالج ، انهم قوم أشداء غلاظ فانه يتبين من حديثهم كيف تسيطر

الأوهام عند نقص المدارك ، لقد هدمت كل الأوثان في مكة ، فما رأينا من قريش ما ظهر من ثقيف عندما هدمت اللات أو الطاغية كما يسمونها وكيف كانوا يعتقدون أن من يهدمها ، يسقط، وكيف تعابث بهم المغيرة ، فأسقط نفسه عند ضرب أول ضربة فصاحوا ثم كان الهادم هو خالد بن الوليد القرشي الذي كان حديث عهد بالجاهلية .

ثم في القصة كيف تستولي الأهواء والشهوات على النفوس غير المؤمنة ، حتى انهم ليطلبون منه اباحة الزنى والخمر ، والربا ، وقد ردهم النبي صلى الله تعالى عليه وسلم .

وما أشبه أجلاف ثقيف بالمسلمين العصريين المجددين الآن الذين يستبيحون الربا ، ويعاضدهم بعض الذين يتسربلون سربال العلماء ، وكانوا يحفظون القران ، ويستبيحون الزنى أحيانا باسم المتعة وأحيانا باسمه الصريح ، ويعدونه تقدما ، ويستبيحون الخمر جهارا نهارا .

وبين أيدي الذين أباحوا المتعة عندما طلبوا اباحة الزنى لأجل اغترابهم ، فكان النبي صلى الله تعالى عليه وسلم يشير اليهم بالمتعة ، لو كانت مباحة، كما يقول أولئك المتفلسفة الذين يريدونها لأغراب التلامذ ، ولا حول ولا قوة الا بالله .

وهناك أمر تربوي رائع ، وهو علاج كنانة بن عبد ياليل لشماس ثقيف اذ أنه أخفى اسلامه وصحبه وطلب اليهم الاستعداد للحرب ، ففكروا مليا ، وطلبوا هم التسليم للنبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، ولو أظهر اسلامه ، ومن معه ابتداء ، لقتلوهم كما قتلوا عروة بن مسعود ، ان الأمر اذا عرض مقررا قاطعا ، قاومته النفوس المشاكسة الشامسة ، لأن من طبيعة هذا النوع من النفوس أن ترد ما يعرض عليها على أنه أمر لابد منه اذ ليسوا من الذين يستمعون القول ، فيتبعون أحسنه، فاتبع كنانة بن عبد ياليل ، طريق التمهيد للأمر الذي قرره ، حتى يطلبوه هم ، فلا يكون مفروضا عليهم ، بل يكون استجابة لما في نفوسهم .

وننبه هنا الى أن بعض الروايات ذكرت أن ثقيفا عرضت الأمر على أبي بكر ، في حجته ، ولكن نجد السياق التاريخي لا يؤيد هذا ، ذلك أن ابن اسحاق يقول ان وفد ثقيف كان في رمضان ، فبينهما زمن ، وحج أبي بكر متأخر عن رمضان ، والله أعلم .

وفد بني عامر

٦٦٧ ـ أخذت وفود العرب التي وصل اليها الاسلام تجيء وفدا بعد آخر ، منهم من يعلن اسلامه ويتلقى تعاليمه بالمدينة ، ومنهم من كان فيه شك ، أو عنجهية جاهليته أو لا تزال الوثنية في قلوبهم فيتلقاهم النبي صلى الله تعالى عليه وسلم بالموعظة الحسنة وتأليف قلوبهم ، وبعضهم جاء اقرارا بالخضوع لمحمد صلى الله تعالى عليه وسلم ، والنبي صلى الله تعالى عليه وسلم يهديهم ويرشدهم ، وينقذهم من الضلال ٠

روى البيهقي في دلائل النبوة أن وفد بني عامر أتي الى النبي صلى الله تعالى عليه وسلم وقالوا له أنت سيدنا وذو الطول علينا فقال عليه الصلاة والسلام: لا يسخرن بكم الشيطان السيد هو الله ٠

لقد جاء ذلك الوفد مسلما ، ولكن كان فيه عامر بن الطفيل يريد غدرا ولا يريد اسلاما ، وقد نهاه قومه عما يريد ، وقالوا له يا عامر ان القوم قد أسلموا فقال والله لقد كنت آليت ألا أنتهي حتى تتبع العرب عقبي ، وأنا أتبع عقب هذا الفتى من قريش ٠

ثم قال لمن دبر أمر الغدر معه وهو أربد : اذا قدمنا على الرجل فاني شاغل عنك وجهه ، فاذا فعلت ذلك فاعله بالسيف ٠

فلما قدموا أمر عامر أن ينفذ الغدر ، فقال مواجها النبي صلى الله تعالى عليه وسلم : « يا محمد خاللني ، قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم : لا حتى تؤمن بالله وحده لا شريك له » ٠

أبى عليه رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم أن يكون له خليلا ، حتى يكون مؤمنا فلم يذعن للايمان بل انتقل الى التهديد ، وكأن المخالة تجيء بالنصر والقهر ، فقال : أما والله لأملأنها عليك خيلا ورجالا ٠

فلما ولى قال الذي يعصمه الله من الناس اللهم اكفنا عامر بن الطفيل ٠

فقد خذله صاحبه أربد ، فلم يعل النبي صلى الله تعالى عليه وسلم عليه بالسيف ، فقال له : ويحك يا أربد ،أين ما أمرتك به ؟ فقال والله ما كان وجه الأرض أخوف على نفسي منك ،وايم الله لا أخافك بعد اليوم ، ثم قال أربد ، لا أنا لك لا تعجل علي ،فوالله ما هممت بالذي أمرتني به الا دخلت بيني وبينه فأضربك بالسيف ، وهكذا وقى الله تعالى رسوله بأن كانت صورة أربد قاتله بينه وبين النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ٠

خرج القاتلان من عند رسول الله ،فأصاب ابن الطفيل الطاعون ، ومات في بيت امرأة ، وقيل مات على فرس ،وقد خرج متألما من مرضه ، قائلا ، أغدة كغدة البعير ٠

وأما أربد الذي كان يد الغادر ،فانه خرج وحمله بعد عودته الى بني عامر ، فنزلت عليهما صاعقة فقتلتهما ويروى أنه كان من حديث عامر بن الطفيل الى النبي صلى الله تعالى عليه وسلم أنه لما أتى النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، خير النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، قائلا أخيرك بين ثلاث خصال ، يكون لك أهل السهل ، ولي أهل المدر أو أكون خليفتك من بعدك، أو أغزوك بغطفان بألف أشقر وألف شقراء ، وهذه رواية البخاري ،ويقول البخاري طعن (أي أصيب بالطاعون)في بيت امرأة ، فقال أغدة كغدة البكر في بيت امرأة ائتوني بفرسي ،أركب فمات على ظهر فرسه ٠

وقد ذكرنا شيئا من ذلك من قبل ٠

وان الظن أن وفاة عامر بن الطفيل كانت قبل الفتح ولم تكن في العام التاسع ، لأن منطقها ، يومىء الى أنها كانت قبل الفتح وتبوك ، أي قبل أن يصير السلطان كله في البلاد العربية للاسلام ، سواء في ذلك من أسلم ومن لم يسلم ٠

ومهما يكن فانه لم تكن الوفود بعد الفتح وتبوك كلها مسلمة ، بل كان فيهم غيرهم ممن دانوا بالطاعة ٠

وفد عبد القيس

٦٦٨ ـ في الصحيحين البخاري ومسلم أن وفد عبد القيس قدموا على النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، فبش في وجوههم ، وقال ممن القوم ؟ قالوا من ربيعة ، فقال صلى الله تعالى عليه وسلم مرحبا بالوفد غير خزايا ولا ندامى .

وقد رحب النبي صلى الله تعالى عليه وسلم بوفد ربيعة ، لما كان من التنافس بين ربيعة ومضر ، فمجيئم دليل على ان العصبية الجاهلية خفت صوتها بجوار صوت الاسلام ، وصارت تحت قدم الاسلام وهو فوقها .

جاء هذا الوفد مريدا الاسلام مطمئنا اليه ، ويريدون أن يعلموا من النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ما يجب عليهم أن يعلموه .

قال قائلهم المتحدث عنهم : « يارسول الله ان بيننا وبينك هذا الحي من كفار مضر ، وانا لا نصل اليك الا في شهر حرام ، فمرنا بأمر نأخذ به ، ونأمر به من وراءنا ، وندخل الجنة » .

فقال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم : آمركم بأربع وأنهاكم عن أربع: آمركم بالايمان بالله وحده أتدرون ما الايمان بالله ، شهادة أن لا اله الا الله وأن محمداً رسول الله واقام الصلاة ، وايتاء الزكاة ، وصوم رمضان ، وأن تعطوا الخمس من المغنم ، وأنهاكم عن أربع ، عن الربا والخيثم والنقير والمزمت ، وهي أسماء أنواع من الخمور تختلف أسماؤها باختلاف آنيتها .

ولقد كان في وفد عبد القيس الجارود بن بشر بن المعلى ، وكان نصرانيا، فلما انتهى الى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم كلمه ودعاه الى الاسلام وعرضه عليه ورغبه فيه ، فقال يامحمد ، اني قد كنت على ديني ، واني تارك ديني لدينك ، أفتضمن لي ديني، فقال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم أنا ضامن أن هداك لله والى ما هو خير منه ، فأسلم وأسلم من معه من أصحابه.

عاد الجارود الى قومه ، وكان حسناشديدا في دينه حتى مات ·

ولما قامت الردة بعد الرسول كان منقومه من ارتد ، فوقف فيهم يقول بشهادة الحق ودعا قومه أن يتوبوا ويعودوا الى الاسلام ، وهو يقول : أيها الناس ، اني أشهد أن لا اله الا الله ،وأن محمداً رسول الله ، وأكفر من لم يشهد هذه الشهادة ·

وهكذا كانت الوفود تجيء الى النبيصلى الله تعالى عليه وسلم ، فلا تخرج من بين يديه الا وقد خالطت بشاشةالاسلام قلوبهم ، فيعودوا الى أقوامهم، ليعلموهم ما تعلموا ·

وان ذلك تطبيق واستجابة لقولهتعالى :

﴿ فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا۟ فِى ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُوا۟ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓا۟ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ ﴿١٢٢﴾ ﴾ (١)

وفد بني حنيفة :

٦٦٩ ـ كان الرسول صلى الله تعالى عليه وسلم يستقبل الوفود ، ويدعوهم الى الاسلام ، سواء منهم مناهتدى ، ومن ضل وغوى ، والناس قسمان قسم يطلب الحق ويبتغيه ، ويجانب الشر ، ولا يريد الا الحق ، ولم تدنس نفسه بدرن الهوى والباطل ،ولم تركس في مهاوي الهوى ، وما يسول به الشيطان في الأنفس ،وقسمسيطرت عليه الأهواء فلا يتجه الى الحق يبتغيه ، ولكن يتجه الى ما تهوىالأنفس ، وما تضل به الأفهام ، وتسيطر الأوهام ·

والنبي يستقبل الفريقين ، فمنطلب الحق واستقامت نفسه استجاب للحق ، وأسلم ، ومن ركبته الأهواء ،حاول النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ازالة الغشاوة التي تنسجها الأوهام ،ومن اهتدى فانما يهتدي لنفسه ومن ضل فانما يضل عليها ، والنبي صلى اللهتعالى عليه وسلم يريد الهداية للجميع، ولكن الله تعالى يقول :

﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَـٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ ۚ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴿٥٦﴾ ﴾ (٢)

---

(١) التوبة (٢) القصص

ومن هذا الصنف الثاني قوم مسيلمة الكذاب ، وهو وفد بني حنيفة ·

جاء وفد بني حنيفة ، وفيهم مسيلمة، وقد ستروه بثياب والنبي صلى الله تعالى عليه وسلم في يده عسيب من سعف النخل وقد سأله مسيلمة بعض ما تحت سلطانه ، فقال له النبي صلى الله تعالى عليه وسلم : لو سألتني هذا العسيب الذي بيدي ما أعطيتكه ، وان الشر لا يظهر الا في أشرار ، فقومه هم الذين شجعوه على ذلك ، وكذلك قال لقومه : أما انه ليس بشركم ·

وكان مسيلمة قبل أن يحضر قومه كتب للنبي صلى الله تعالى عليه وسلم كتابا قال فيه :

من مسيلمة رسول الله الى محمد رسول الله :

« أما بعد فاني أشركت في الأمر معك ، وان لنا نصف الأمر ، ولقريش نصفه وليس قريش قوما يعدلون » ·

قدم رسوله على رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم بهذا الكتاب ·

فكتب اليه رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم :

بسم الله الرحمن الرحيم : من محمد رسول الله الى مسيلمة ، سلام على من اتبع الهدى ، أما بعد فان الأرض لله يورثها من يشاء من عباده ، والعاقبة للمتقين ·

وقدم من عند مسيلمة هذا رسولان قيل أنهما قدما بالكتاب الذي ذكرناه عنه ، فقال لهما محمد رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم « تشهدان أني رسول الله ، فقالا نشهد أن مسيلمة رسول الله ، فقال محمد صلى الله تعالى عليه وسلم ، لو كنت قاتلا رسولا لقتلتكما » ·

أتى بنو حنيفة رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، وهم على هذه الحالة النفسية ، وعلى هذا الضلال العقلي ، ولكن منهم من أسلم ، ومع ذلك ارتدوا من بعد ، ولقد استهواهم ضلال مسيلمة الكذاب عن الحق ، وذلك بسبب العصبية الجاهلية ، حتى كان قائلهم يقول : كاذب ربيعة خير من صادق مضر ·

ولقد كان يزعم ذلك الكذاب المئوف العقل أنه يأتي بمثل القرآن ، فيقول زاعم أن ما يقوله يشبه القرآن في سجع سمج ، « ولقد أنعم الله على الحبلى ، أخرج منها نسخة ونفى من غير صفات وحشا » ·

وقد آخذ من قول النبي صلى الله تعالى عليه وسلم لهم وليس بشركم ،وهي ترمي الى أنهم جميعا أشرار ، وليس هو بشرهم ، أخذ من هذا أن محمداً صلى الله تعالى عليه وسلم أشركه في رسالته ، وأسقط عنهم الصلاة وهكذا يذهب الضلال في النفس ، وتفعل العصبية الجاهلية في الأدراك ٠

وقد قال أفراده ان ذلك الوفد المشئوم ، جاء في السنة العاشرة ، حتى عمت الدعوة الاسلامية ، ولم يكن لهم مناص من الأتباع ، فانحرفوا ذلك الانحراف٠

وفد طيئ

٦٧٠ ـ قدم وفد طيء ، وقد كان الاسلام ابتدأ فيهم قبل حضور هذا الوفد من وقت أن كانت السرية اليهم،وهم قوم فيهم خير ، ولم يكن فيهم عناد كثقيف والانحراف في الفكر كحنيفة واليمامة ، كان على رأس الوفد زيد الخيل ، الذي سماه النبي صلى الله تعالى عليه وسلم زيد الخير ، وروي أن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم قال فيه : « ما ذكر لي رجل من العرب بفضل ، ثم جاءني الا رأيته دون ما يقال فيه الا زيد الخيل ، فانه لم يبلغ كل ما فيه»٠

وقد عرض رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم الاسلام على الوفد ، فأسلموا وحسن اسلامهم ٠

وروي أن زيد الخير قد مات بحمى المدينة عقب مغادرة الوفد للنبي صلى الله تعالى عليه وسلم ٠

وروي أنه مات بعد ذلك في خلافة الامام عمر رضي الله تعالى عنه ٠

وكان له ولدان قد نالا صحبة للنبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، فرضي الله تبارك وتعالى عنه ٠

ولقد أقطعه النبي صلى الله تعالى عليه وسلم أرضين ، وكتب له كتابا بذلك ، وكان ذلك الاقطاع فيما يظهر اقطاع منفعة ، يستخرج المعادن والزيوت ، ويزرع ما يصلح للزراعة ،وكان النبي صلى الله تعالى عليه وسلم يفعل ذلك في الأراضي النائية عن المدينة ليمكن استغلالها ، واخراج ينابيع الثروة في باطنها ، ويقدمون في ذلك أجرا لها ، وقد يكون من غير أجر تأليفا للقلوب النافرة ٠

وفد كندة

٦٧١ ـ قدم الاشعث بن قيس على رأس وفد من كندة عدتها ستون أو ثمانون رجلا ، وقد دخلوا على رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم بسلاحهم وبزينة ، قد لبسوا جببا حبرات مكففة بالحرير .

دخلوا على رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، ولم يسلموا فنكر رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم حالهم ،فقال لهم أو لم تسلموا ، قالوا بلى ، ثم قال ما هذا الحرير في أعناقكم ،فكانوا طائفتين ، فأجابوا عن الاستنكار بأن شقوا الحرير ونزعوه من ثيابهم ،وألقوه ، فقال الأشعث بن قيس : نحن بنو آكل المرار ، وأنت بن آكل المرار ، (يظهر أن ذلك اشارة الى قوة البأس ، وأبي أن يعرب أشرفه الذي ظهر بادي الرأي) وقد ضحك رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم فقد قال هذا النسب ربيعة بن الحارث ،والعباس بن عبد المطلب ، فقد كانا تاجرين ،وكانا اذا سارا في بلاد العرب ، فسئلا من أنتما ؟ قالا نحن بنو آكل المرار ،يستعلون بذلك عند الناس ، ويعتزون، ويظهرون البأس ، والقوة ، لأن آكل المرار كان ملكا في كندة وكان أولاده ملوكا ، فكانوا يسيرون باسمه آمنين .

فلما قال الأشعث بن قيس للنبي صلى الله تعالى عليه وسلم نحن بنو آكل المرار ، وأنت ابن آكل المرار يشير الى ما كان بين الأشعث والعباس من صحبة، وما كانا يقولانه في صحبتهما وتجارتهما ، والنبي صلى الله تعالى عليه وسلم يستضحك مما كان يصنعه هو وعمه العباس الذي كان تاجرا .

ولكن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ذكر نسبه الصادق ، وأنه لا ينفيه.

روى أحمد في سنده بسند متصل الى الأشعث بن قيس قال : قدمنا على رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ،وفد كندة ، ولا يرون الا أنى أفضلهم فقلت ذلك لرسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم فقالا لا ، نحن بنو النضر بن كنانة ، لا نجفوا أمنا ، ولا ننتفي من أبينا .

وكان للأشعث بن قيس ولاية في بعض الدول الاسلامية في عهد بني أمية ، فكان يقول لا أوتى برجل نفى رجلا من قريش نسبة عن النضر بن كنانة الا جلدته .

أكرم النبي صلى الله تعالى عليه وسلم الوفد ، وأعلن اسلامه ، وعاد مرضيا آمنا مسلما •

وفد الأشعريين وأهل اليمن:

٦٧٢ ـ ان الأنصار ينتمون الى قبائل يمنية ، وكانوا هم الذين أحبوا الله ورسوله ، وهم الذين آووا ونصروا فكان لليمن محبة في قلبه •

ولقد جاء الأشعريون وأهل اليمن ، أو ناس من أهل اليمن جاؤوا الى النبي صلى الله تعالى عليه وسلم مسلمين يريدون أن يتعرفوا مبادىء الاسلام ، ويستحفظوا القرآن •

ان النبي صلى الله تعالى عليه وسلم قال عند قدومهم : قدم قوم هم أرق منكم قلوبا •

فقدم الأشعريون ، وجعلوا يرتجزون •

غداً نلقى الأحبة ... محمداً وحزبه

وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم كان يقول ، وقد وفدوا عليه ، جاء أهل اليمن هم أرق أفئدة ، وأضعف قلوبا للايمان ، والحكمة يمانية والسكينة في أهل الغنم والفخر والخيلاء في أهل الوبر •

وروى عن جبير بن مطعم أن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، قال : أتاكم أهل اليمن ، كأنهم السحاب ، وهم خيار من في الأرض ، فقال رجل من الأنصار: الا نحن يا رسول الله ، فسكت رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، ثم قال الا نحن يا رسول الله : فسكت ثم قال الا أنتم كلمة ضعيفة •

كان رسول الله لا يقبل استثناءهم من أهل اليمن ، وهم الذروة والسنام •

وان الاسلام في ذاته بشرى الخير لمن دخلوا فيه ، لقد قال صلى الله تعالى عليه وسلم لوفد بني تميم أبشروا يريد بالاسلام ، فقالوا بشرتنا ، فأعطنا ، فغضب رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم لهذه المادية الطامعة ، وقال للأشعريين اقبلوا البشرى ، فقالوا قد قبلنا ، وفهموها معنوية لا مادية ، ثم

قالوا يا رسول الله جئنا لنتفقه في الدين ، ونسألك عن أول هذا الأمر ، فقال عليه الصلاة والسلام كان الله ولم يكن شيء غيره ، وكان عرشه على الماء ، وكتب في الذكر كل شيء ٠

وهنا نجد ظاهرة تبدو غريبة ، وهي مسارعة أهل اليمن ومن حولهم الى الاسلام ، ومقاومة أهل مكة للدين الجديد مع أن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم منهم ، وكان معروفا لديهم بالصدق والأمانة والبعد عما يؤثر في الكمال الانساني ٠

ويبدو لنا أن السبب في ذلك تشير اليه أمور :

أولها ـ تمكن الوثنية عند كل أهل مكة ومن حولها ، وسيطرة الأوهام عليهم ، واعتزازهم بأنسابهم ٠

وثانيها ـ حب الرياسة فيهم التي نشأت من اقامتهم بالبيت الحرام ، والاستمساك بسيطرتهم على العرب من طريق خدمتهم للبيت الحرام ، وأنهم سدنته ، وأن ذلك الدين الجديد ينزع منهم ما بأيديهم من سلطان ، فاشتدت مقاومتهم ، لا من جهة الايمان ، ولكن من جهة السلطان ٠

وثالثها ـ أن أهل الجنوب اليمني ،كان فيهم علم بالأديان ، فكان فيهم اليهود والنصارى ، ولهم بذلك علم بالرسائل السماوية ٠

ولم يكن اليهود الذين كانوا باليمن من بني اسرائيل، بل كانوا من السامرة، وهم اليهود الذين اتبعوا موسى عليه السلام من غير بني اسرائيل ، فلم تكن عندهم العصبية الاسرائيلية الحادة التي كانت تؤمن بأنه لا نبي الا من بني اسرائيل ، ولما جاء محمد صلى الله تعالى عليه وسلم ، وكانوا يعرفونه ، كما يعرفون أبناءهم ، أنكروا « فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به » ٠

وكانوا لا يعترفون بالسامرة على أنهم من اليهود أتباع موسى ، لأن اليهودية عندهم جنسية وليست بعقيدة، فكانوا يضطهدونهم ، كما يحاولون ايذاء غيرهم من أي دين ، وربما كان مجيء نبي من العرب مثيرا لحماستهم له٠

ورابعها ـ أنهم نظروا الى الاسلام على أنه الدين الظاهر في البلاد العربية ، فسارعوا اليه ، لأنه صار الدين الغالب ، وصارت كلمة الله تعالى هي العليا ، والله أعلم ٠

وفد الأزد

٦٧٣ - وهم من اليمن تجري عليهم الأسباب التي ذكرناها في مسارعتهم الى الاسلام بعد أن امتدت كلمته في البلاد العربية ٠

قال ابن اسحاق قدم وفد من الأزد ، وكان على رأسهم صرد بن عبد الله الأزدي ، قد أسلم وحسن اسلامه فأمره رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم على من أسلم من قومه ، وأمره أن يجاهد بمن أسلم من كان يليه من أهل الشرك من قبائل اليمن ومن جاورهم ٠

أخذ صرد بن عبد الله يجاهد من حوله من المشركين ، وكان بجوارهم مدينة مغلقة يقال لها جرش ، وبها قبائل من اليمن ، وقد انضمت اليهم خثعم ، فتضافروا معهم عندما علموا أن جيش المسلمين يسير اليهم بقيادة صرد بن عبد الله ٠

حاصرهم في مدينتهم جرش نحوا من شهر ، وهم فيها ممتنعون ، فترك الحصار ، وآوى الى جبل يقال له شكر ، واعتصم به رجاء أن ينتهز فرصة ، فيأتيهم من حيث لا يشعرون ، ويفرقهم عن بلدهم ٠

ظنوا أن صرد بن عبد الله ومن معه ولى عنهم منهزما أو يائسا من أن يقتحم بلدهم ، فزين لهم أن يخرجوا في طلبه ، فكان خروجهم تمكينا له من ضربهم ، فانهم اذ أدركوه عطف عليهم ، ولم يكن لهم معتصم يعتصمون به فقتلهم قتلا شديدا ، وكانت الهزيمة الشديدة قد نزلت ، وعلم رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم بذلك النصر الذي كان من عند الله تعالى العزيز الحكيم ، ولم يكن بسرية من المدينة ، ولكن بمن أسلم من العرب ٠

وفي الوقت الذي علم النبي صلى الله تعالى عليه وسلم بهزيمة المشركين كان عنده وفد من جرش جاءه عشية أن علم ، وكان مسلما ٠

سأل رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم وفد جرش وكان مكونا من اثنين بأي بلاد الله تعالى شكر ، فقالا يا رسول الله ببلادنا جبل يقال له كشر ، ولذلك

تسميه أهل جرش ، فقال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم : انه ليس بكشر ، ولكنه شكر .

قالا له فما شأنه يا رسول الله .

فقال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم « ان بدن الله لتنحر عنده الآن » لم يفهم الرجلان مؤدى كلام النبي صلى الله تعالى عليه وسلم، فجلسا الى الشيخين الجليلين في الصحابة ، أبي بكر وعثمان ، رضي الله تبارك وتعالى عنهما ، فسألا ماذا يريد النبي صلى الله تعالى عليه وسلم فقال لهما صاحبا رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم « ويحكما، ان رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ينعى اليكما قومكما ، فاقدما اليه ، فاسألاه أن يدعو الله أن يرفع عن قومكما .

فذهب الرجلان الى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم فسألاه الدعاء لقومهما ، فقال اللهم ارفع عنهم .

خرج الرجلان الى قومهما ، فوجدا قومهما قد أصيبوا في اليوم الذي قال لهما النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ذلك ، بل في الساعة التي ذكر فيها ما ذكر .

ولقد جاء بعد ذلك وفد جرش فاسلموا وحسن اسلامهم ، وحمى لهم حمى حول قريتهم ليستغلوه ، وكان يفعل ذلك مع من يسلمون من أهل البلاد ليتمكنوا من استغلال الأرض كلها ، وذلك نظير أجرة أو خرج يخرجونه ، والله سبحانه وتعالى أعلم .

وفد بني الحارث بن كعب

٦٧٤ ـ كان النبي يستقبل الوفود الذين يجيئون اليه مسلمين ، وان لم يكونوا مسلمين دعاهم الى الاسلام اذاجاؤوا اليه ، وفي أكثر الأحيان يجيبون ، وفي بعض الأحيان يجيبون بعد تردد ، ومهما يكن فالاسلام يدخل ديارهم ، ومن شاء فليؤمن ، ومن شاء فليكفر ، ومن بقي على دينه ورضي أن يعيش في ظل الاسلام عقد النبي صلى الله تعالى عليه وسلم عقد الذمة .

والنبي صلى الله تعالى عليه وسلم يتعرف القبائل وأحوالها ، فمن يجيء منها دعاه الى الاسلام، وقبل منه ما يتقدم به ، واذا تخلفت قبيلة ولم يعرف ايمانها ، ولم يتبين حالها ، أرسل اليها سرية فدعوها الى الاسلام ، ومن هؤلاء بنو الحارث ، فأرسل خالد بن الوليد في شهر ربيع الآخر من السنة العاشرة الى بني الحارث بن كعب بنجران ، وأمره أن يدعوهم الى الاسلام ، قبل أن يقاتلهم يدعوهم ثلاثا ، فان استجابوا اقبل منهم ، وان لم يفعلوا قاتلهم .

ذهب اليهم خالد بن الوليد ، وبعث الركبان يضربون في كل وجه ، ويدعون الى الاسلام يقولون لهم أسلموا تسلموا .

أسلم الناس ، ودخلوا في الدين ،فأقام فيهم خالد يعلمهم الاسلام ، وكتب الى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم بذلك .

كتب اليه رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم أن يقبل ، ويكون معهم وفد منهم ، فأقبل وأقبل معه وفدهم فيهم قيس بن الحصين ذو العصبة ، ويزيد بن عبد المدان وغيرهما .

قال لهم رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم : « بم كنتم تغلبون من قاتلكم في الجاهلية ؟ قالوا لم نكن نغلب أحدا ؟ قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، بلى ، قالوا كنا نجتمع ولانتفرق،ولا نبدأ أحدا بظلم ،استنطقهم رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ،ليعلنوا أخلاقهم ، لأنه يقر هذه

الأخلاق ، ويريد منهم الاستمرار عليها،لأنها أخلاق اسلامية أمرهـــم واحـــد يجتمعون ولا يتفرقــون ولا يعتدون ،فهم لا يحاربون » •

وقد أمر عليهم قيس بن الحصين ،فرجعوا الى قومهم ، بعد أن مكثوا في المدينة أشهراً تعرفوا فيهـــا الدين واستحفظوا بعض القرآن •

وانا نرى أن النبي كان اذا رأى منوفودهم استجابة للاســـلام ، وشيوعه بينهم أمر عليهم أميراً ، يكون متصـــلابالنبي صلى الله تعالى عليـــه وسلم ، وبذلك يكونون جميعا في ولاية واحدة ، هي ولاية الاســـلام التي يجتمعون حول لوائها ، غير متفرقـــين ، ولا متخاصمين •

وفد همذان

٦٧٥ ـ أقبل وفد همذان مسلما ،غير متردد ، ولا متلوم ، وكان فيهم مالك بن النمط ، وغيره ، وكان هذاالوفد عقب رجوعه من تبوك ٠

وقد حضر هذا الوفد على أتم زينةومظهر ، فقد حضروا وعليهم مقطعات الحبرات والعمائم العدنية على الرواحل، ويظهر أن ملابسهم وان كانت منمقة فيها زينة وزخرف لم يكن فيها حرير ،أو ذهب ، ولذلك لم يستنكر شيئا من لبسهم ٠

وقد جاؤوا في سرور باسلامهم ، ولقائهم بالنبي صلى الله تعالى عليه وسلم، حتى ان مالك بن النمط أخذ يرتجز بين يدي النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ٠

اليك جاوزن سواد الريف   في هبوات الصيف والخريف
مخطمات بحبال الليف

وتكلموا بكلام فصيح أمام النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ٠
وقد قدم لهم النبي صلى الله تعالى عليه وسلم أمرين :

أولهما ـ أنه أمر عليهم مالك بن النمط ، واستعمله على من أسلم من قومه ، وأمره بجهاد من يقرب منهم من المشركين أو الكفار بشكل عام ٠

وقد عاونهم النبي صلى الله تعالى عليه وسلم بارسال خالد بن الوليد في سرية كما روى البيهقي ليدعو في اليمن الى الاسلام ، وقال البيهقي مكث ستة أشهر يدعوهم ٠

وقال البراء بن عازب كنت فيمن أرسلهم النبي صلى الله تعالى عليه وسلم مع خالد بن الوليد ، الى أهل اليمن ،وقد مكث يدعوهم الى الاسلام ستة أشهر ، فلم يجيبوه ، ويظهر أنه كان قائد حرب ولم يكن داعيا الى الاسلام٠

ولذلك بعث النبي صلى الله تعالى عليه وسلم من بعد ذلك بعلي بن أبي طالب فلما دنا من الجمع اليمني المسالم، وان لم يكن قد دخل كله في الاسلام ، وقد خرجوا فلم يقاتلهم ولم يدعهم الى الاسلام بالقول ، بل برسالة الرسول ، فصف من معه من المسلمين صفا واحداً ،ثم تقدم فقرأ عليهم كتاب رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ٠

بعد قراءته كتاب رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم أسلمت همذان كلها ٠

وهذا ما جاء في صحيح البخاري ٠

وفي الحق انه قد جاء في أخبار الوفود كلام لم تثبت صحته ، فقد قيل ان النبي صلى الله تعالى عليه وسلم كلف همذان بقتال ثقيف ، وهذا غير معقول في ذات نفسه ، لأن ثقيفا بالطائف وهمذان باليمن ، ولأن ثقيفا كانت قد أسلمت برسالة وفدها ، وهدمت اللات طاغيتهم ٠

وفي الحق ان تاريخ قدوم الوفود على النبي صلى الله تعالى عليه وسلم لم يدون بدقة ٠

قدوم وفد دوس

٦٧٦ ـ قدم وفد دوس على النبي صلى الله تعالى عليه وسلم وهو يجاهد في خيبر فهو لم يقدم عليه في السنة التاسعة التي توصف بأنها عام الوفود، والدعوة الى الاسلام عن طريقهم وكان على رأس هذا الوفد المسلم الطفيل بن عمرو الدوسي : وقد أسلم والنبي صلى الله تعالى عليه وسلم لم يهاجر الى المدينة ، وأمره النبي صلى الله تعالى عليه وسلم على قومه دوس يدعوهم الى الاسلام فأسلم بعض عشيرته الأقربين ،ولم يجيء الى النبي صلى الله تعالى عليه وسلم موفدا من قومه المسلمين الا بعد ذلك في السنة السابعة وهو في خيبر ، ولقد أسهم رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم لهم في الغنيمة ، لأنهم اشتركوا فيها ٠

وقصة اسلام الطفيل بن عمرو الدوسي ودعوته لقومه ، ثم امتناعهم ، ثم اسلامهم يحكيها رضي الله عنه ،فلنتركه يحدثنا بها ، اذ كان قد قدم مكة وكان رجلا شريفا لبيبا ، مستقيم النظر فأحاطت به قريش تمنعه من أن يستمع الى النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، وتقول له : ان كلامه كالسحر يفرق به بين الرجل وولده وأبيه وزوجه ٠

أصاخ الى كلامهم ، ويقول في ذلك: « فوالله ما زالوا بي ، حتى حشوت في أذني حين غدوت الى المسجد كرسفا، فرقا من أن يبلغني شيء من قوله ، فغدوت الى المسجد فاذا رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم قائم يصلى ، فقمت قريبا منه،فأبى الله تعالى الا أن يسمعني بعض قوله ، فسمعت كلاما حسنا ، فقلت في نفسي : واثكل أماه ، والله اني لرجل لبيب شاعر ، ما يخفى على الحسن من القبيح ، فما يمنعني أن أسمع من هذا الرجل ما يقول ، فان كان ما يقول حسنا قبلت ، وان كان قبيحا تركته ، فمكثت حتى انصرف رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم الى بيته ، فتتبعته ، حتى اذا دخل بيته ، دخلت عليه فقلت : ان قومك قالوا لي كذا وكذا ، فوالله ما برحوا يخوفونني أمرك ، حتى سددت أذني بكرسف لئلا أسمع قولك ، فأبى الله تعالى الا أن

يسمعنيه ، فسمعت قولا حسنا ،فاعرض علي أمرك ، فعرض علي رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم الاسلام ، وتلا علي القرآن ، فوالله ما سمعت قولا قط أحسن منه ، ولا أمرا أعدل منه،فأسلمت وشهدت شهادة الحق ، وقلت يا رسول الله ، اني امرؤ مطاع في قومي ، واني راجع اليهم ، فداعيهم الى الاسلام فادع الله لي أن يجعل لي آية تكون عونا لي فيما أدعوهم اليه ، فقال النبي صلى الله تعالى عليه وسلم : « اللهم اجعل له آية » ، وبعد أن ذكر هذه الآية ، وهي نور جاء على وجهه ، ثم على وسطه ، قال بعد ذلك : « لما نزلت أتاني أبي وكان شيخا كبيرا ، فقلت : اليك عني يا أبت ، فلست مني ، ولست منك ، قال ولم يا بني : قلت قد أسلمت وتابعت دين محمد ، قال يا بني ديني دينك ، فقلت اذهب فاغتسل وطهر ثيابك ثم تعال ، حتى أعلمك ما علمت ، ثم جاء فعرضت عليه الاسلام فأسلم ، ثم أتتني صاحبتي فقلت لها اليك عني ، فلست منك ،ولست مني:فقالت لم بأبي أنت وأمي؟ قلت فرق الاسلام بيني وبينك ، أسلمت وتابعت دين محمد صلى الله تعالى عليه وسلم ، قالت فديني دينك ، قلت فاذهبي فاغتسلي ، ثم جاءت فعرضت عليها الاسلام فأسلمت .

بعد ذلك انتقل من الدعوة الخاصة الى دعوة دوس عامة ، فدعاهم الى الاسلام ، فلم يستنكروا ولكن أبطؤوا .

عاد الى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، فقال له : يا رسول الله اني قد غلبني على دوس الزنى (أي اتباعهم لأهوائهم وشهواتهم) فادع عليهم ، ولكن الهادي الأمين رسول رب العالمين لم يدع عليهم بل دعا لهم بالهداية . فقال صلى الله تعالى عليه وسلم : « اللهم اهد دوسا ثم قال لطفيل : ارجع الى قومك فادعهم الى الله تعالى وارفق بهم » .

فرجع اليهم ، واستمر بأرضهم يدعوهم الى الاسلام ، حتى استجابوا أو أكثرهم .

بعد هذا جئت الى النبي صلى الله تعالى عليه وسلم بوفد ، فنزلت المدينة بسبعين أو ثمانين في وقت توزيع الغنائم من خيبر ، فأسهم لهم مع المسلمين .

ولقد حسن اسلام الطفيل وقوي ايمانه ، وان الابتداء يدل على قـــوة الانتهاء ، فقـــد ابتدأ طالبا للحـــق مـــع الموانع والســدود التي وضعتها قـــريش في سبيل ايمـــانه فاجتازها ، ووصـــل الايمـــان الى قلبـــه وكان الداعية في قـــومه ، حتى هداهم الى سداد ٠

وان قصة ايمان ذلك الرجـــل تدل على قوة نفسه وعقله وخلقـــه ، وأن المنع لم يجعله يمتنع بل جعله يبحث ويفكر ، فاذا كانوا قـــد زينوا اليـــه ألا يسمع من النبي صلى الله تعالى عليه وسلم فقد زين الايمـــان في قلبه أن يذهب وراء النبي صلى الله تعالى عليـــه وسلم الى داره ٠

وهو قد باعد التقليد عن قلبـــه ،والتقليد هو الذي يعمي عن الحقائق ، ويمنع الاتجاه اليها ٠

قدوم رسول ملوك حمير

٦٧٧ ـ الاسلام بعد أن علم العرب أجمعين به ، صار هو يدعو لنفسه ، لما اشتمل عليه من حقائق ولأنه دين الفطرة ، ولم تعد الحوائل تحول بينه وبين الناس ، فصار الناس يدخلون فيه طواعية من غير أي نوع من أنواع الاكراه أو التقليد ، أو الاتباع من غير علم ، بل صارت الحقائق واضحة نيرة ، لا يمنع نصرانيا ولا يهوديا من الاتباع ، فاستقامت قلوبهم ، ورضوا بالاسلام دينا ، ولم يعد الأمراء يقفون محاجزين بين الأقوام والايمان ، وخصوصا بعد أن علموا أن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، كان يبقي الأمير على امرته ما استقام أمره ، وما عدل في قومه ، ولم يرهقهم من أمرهم عسراً .

وكانت الوفود تجيء اليه معلنة الاسلام ، ومنهم من كان يرسل رسولا ، وملوك حمير وهم يمثلون الكثرة الكاثرة في اليمن لما رأوا الاسلام قد غلب في كل أرض الشمال ، وتراجعت أمامه جيوش الروم التي كدسوها لغزو الاسلام ، واقتلاعه ، واقتلاع عز العرب ، فعاد جندهم ولم يلاقوا محمداً صلى الله تعالى عليه وسلم بعد أن قتلت جنوده مع قلة عددهم منهم مقتلة عظيمة ، وعادوا بحكمة خالد بن الوليد سالمين لم يفقدوا الا بضعة عشر رجلا .

أدرك ملوك حمير قوة الاسلام منطقاً وعقلا وحقا ، وأدركوا شوكة الاسلام أمام الرومان فأرسلوا رسلا الى النبي صلى الله تعالى عليه وسلم يعلنون اسلامهم والملوك كحارث بن عبد كلال ، ونعيم بن عبد كلال ، والنعمان قيل ذي رعين ، ومعافر ، وهمذان ، وزرعة ذو يزن مالك بني مرة الرهاوي . قد أعلنوا الاسلام ، ومفارقة الشرك .

وقد كتب النبي صلى الله تعالى عليه وسلم كتابا للوفد الذي جاءه يبين فيه حقائق وما يجب على الأفراد ، ليعلموا به من وراءهم ، واليكم الكتاب ، كما رواه الواقدي :

بسم الله الرحمن الرحيم : من محمدالنبي الى الحارث بن عبد كلال ، ونعيم ابن عبد كلال والنعمان قيل ذي رعين ومعافر وهمذان ٠

أما بعد ذلكم ــ فاني أحمد اليكم الله الذي لا اله الا هو ، فانه قد وقع نبأ رسولكم منقلبا من أرض الروم ،فلقينا بالمدينة فبلغ ما أرسلتم به ، وخبرنا ما قبلكم ، وأنبأنا باسلامكم ،وقتلكم المشركين ، وأن الله تعالى قد هداكم بهداه ، ان أصلحتم وأطعتم الله ورسوله ، وأقمتم الصلاة ، وآتيتم الزكاة ، وأعطيتم من الغنائم حق الله تعالى ، وسهم النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ،وما كتب على المؤمنين في الصدقة العقار عشر ما سقت العين ، وما سقت السماء ، وعلى ما سقى الغرب نصف العشر ٠

وان في الابل في الأربعين ابنة لبون ، وفي ثلاثين من الابل ابن لبون ذكر ، وفي خمس من الابل شاة وفي كل عشر من الابل شاتان ، وفي كل أربعين من البقر بقرة ، وفي كل ثلاثين تبيع جذع أو جذعة وفي كل أربعين من الغنم سائمة وحدها ، شاة ٠

وأنها فريضة الله تعالى التي فرضها على المؤمنين في الصدقة ، فمن زاد خيرا فهو خير له ، ومن أدى ذلك ،وأشهد على اسلامه ، وظاهر المسلمين على المشركين ، فانه من المؤمنين له ما لهم ، وعليه ما عليهم ، وانه من أسلم من يهودي أو نصراني فانه من المؤمنين له ما لهم وعليه ما عليهم ٠

ومن كان على يهوديته أو نصرانيته، فانه لا يرد عنها ، وعليه الجزية على كل حالة ذكرا أو أنثى حرا ، أو عبد دينار وافرا من قيمة المعافري (ثياب وبرود منسوبة الى معافر) أو عرضه ثيابا ، فمن أدى ذلك الى رسول الله فان له ذمة الله وذمة رسوله ، ومن منعه ،فانه عدو لله ولرسوله ٠

أما بعد ، الى زرعة ذي يزن اذا أتاك رسلي ، فأوصيكم بهم خيرا معاذ بن جبل ، ومالك بن عبادة وعقبة بن عمر،ومالك بن مرة وأصحابهم ، وأن اجمعوا ، ما عندكم من الصدقة ، والجزية من مخالفيكم ، وأبلغوها رسلي ، وان أميرهم معاذ بن جبل ، فلا ينقلبن الا راضيا ٠

أما بعد فان محمداً يشهد أن لا اله الا الله ، وأنه عبده ورسوله ، ثم ان مالك بن مرة الرهاوي قد حدثني أن اسلمت من أمرك حمير ، وقتلت

المشركين ، فأبشر بخير ، وآمرك بحمير خيرا ولا تحزنوا ولا تخاذلوا فان رسول الله هو ولي غنيكم وفقيركم ، وان الصدقة لا تحل لمحمد ، ولا لأهل بيته ، انما هي زكاة مزكى بها على فقراء المسلمين ، وابن السبيل ، وأن مالك قد بلغ الخبر ، وحفظ الغيب ، وآمركم به خيرا ، واني قد أرسلت اليكم من صالحي أهلي ، وأولي دينهم وأولي علمهم فآمركم بهم خيرا ، فانهم منظور اليهم والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته ٠

هذا كتاب رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم لملوك حمير ، وقد كان يخص بعضهم بخطاب ، اذ تعدد فيه لفظ أما بعد ، مما يدل على أنه يخص بعضهم بالخطاب ، وان كان مضمونها جميعا واحدا ٠

وفي هذا الكتاب بين الله سبحانه وتعالى فرضية الزكاة في الزرع والثمار والسوائم ، ويلاحظ أنه لم يذكر الا زكاة الأموال الظاهرة ، والأموال الباطنة وهي الدراهم والدنانير ، وما يتعلق بها من عروض التجارة قد بينها صلى الله تعالى عليه وسلم فقال في كل مائتى درهم خمسة دراهم ، وروي أنه قال في كل عشرين مثقالا من ذهب نصف مثقال، ولعله لم يذكر زكاة الأموال الباطنة ، لأنه يذكر ما يجمعه الامام ، أو والي الصدقات ، أما الأموال الباطنة ، فان أصحاب المال يؤدونها ٠

ولعل هذا هو المسوغ الذي سوغ به الامام ذا النورين عثمان بأمر ولاة الصدقات ، بأن يجمعوا زكاة الأموال الظاهرة ، ويتركوا الأموال الباطنة، وكأنه أنابهم عنه في أدائه ، بحيث اذا ثبت أنهم لا يؤدونها أخذها منهم ٠

ويلاحظ في كتاب النبي صلى الله تعالى عليه وسلم أنه ذكر زكاة الزرع والثمار بأنها زكاة العقار ، وان كانت تؤخذ من غلاته ، نصف العشر ، ان سقيت بآلة ، والعشر ان سقيت بماء العيون أو ماء السماء وان هذا النص يفهم أن العقار فيه زكاة ، وقد كان العقار المثمر هو الأراضي الزراعية وثمار الأشجار ٠

وذلك لأن النصاب في الزكاة مال نام ، والزرع ثمار الأرض ، والشجر نماؤه الثمر ٠

وقد كانت البيوت والدور والحوانيت تتخذ للحاجات الأصلية ، فلم يكن لها ثمار بذاتها ، وكذلك أدوات الصناعة ٠

والآن قد صارت الدور لا تتخذ للاقامة فقط ، بل تتخذ للاستقلال ، والنماء باجارتها فكان لابد من زكاتها، لأنها مال نام بالفعل ، ولأنها عقار ، وقد ذكر النبي صلى الله تعالى عليه وسلم زكاة العقار المزروع بأنه العشر ان سقي بغير آلة ، وان سقي بآلةفنصف العشر ، وهنا نجد القياس لا يتجه الى أصل زكاة العقار ، فهوثابت بالنص ، انما يتجه الى طريقة أخذ الزكاة ، فتقاس الغلات بالاجارةعلى الزرع والثمار ٠

ولذا نرى أن يؤخذ عشر الصافي بعد النفقات التي تنفق على المباني والتحصيل ٠

كتاب آخر لليمن :

٦٧٨ــ كان الكتاب السابق فيه دعوة الى الاقرار بالاسلام والحث عليه وما يجب عليهم من جمع الزكوات ، والجزية ،أي تكوين ميزانية دولة الاسلام ، وهناك كتاب آخر كتبه لعمرو بن حزم عندما بعثه الى اليمن ، وهو خاص بالواجبات التي تجب على الآحاد ، فهويفقههم في الدين ويعلمهم السنن ، ويأخذ صدقاتهم ، وهذا نص الكتاب وقد رواه الحافظ البيهقي :

« بسم الله الرحمن الرحيم : هذاكتاب من الله ورسوله ، يأيها الذين آمنوا أوفوا بالعقود عهدا من رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم لعمرو بن حزم حين بعثه الى اليمن ، أمره بتقوى الله تعالى في أمره كله ، فان الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون ،وأمره أن يأخذ بالحق ، كما أمره الله تعالى ، وأن يبشر الناس بالخير ،ويأمرهم به ، ويعلم الناس القرآن ويفقههم في الدين ، وأن ينهى الناس،فلا يمس أحد القرآن الا وهو طاهر ، وأن يخبر الناس بالذي لهم ، والذي عليهم ، ويلين لهم في الحق ، ويشتد عليهم في الظلم ، فان الله حرم الظلم ونهى عنه ، فقال ألا لعنة الله على الظالمين الذين يصدون عن سبيل الله ،وأن يبشر الناس بالجنة وبعملها ، وينذر الناس بالنار وعملها ،ويستألف الناس حتى يتفقهوا في الدين ، ويعلم الناس معالم الحج وسننه وفرائضه ،وما أمر الله به ، والحج الأكبر الجامع ،

والحج الأصغر ، العمــرة وأن ينهى الناس أن يصلوا في ثوب واحد ، صغير الا أن يكون واسعا ، وينهى الناس انكان بينهم هيج أن يدعــو العشــائر والقبائل ، وليكن دعاؤهم الى الله وحده لا شريك له ، ويأمر الناس باســباغ الوضوء وجوههم وأيديهم الى المـرافق وأرجلهـم الى الكعبين وأن يمسحـــوا رءوسهم ، كمــا أمر الله عز وجـــل ،وأمروا بالصلاة لوقتها واتمام الركوع والسجود ، وأن يغلس بالصـــبح ثم يذكر بعـــد ذلك أحكــام الخمس في الغنائم ، وأحكام الزكوات ، ونصابها وما يؤخذ من مقاديرها » ٠

وفي هذا يتبين أن أولي الأمـــر عليهم أن يجمعوها اذا كانت ظاهـــرة ، وعلى الناس أن يؤدوها ظاهرة وباطنة،وان كـــانت الثانية الآمر فيهـــا الى الضمائر ، والله أعلم بالسرائر ٠

وفد نجران

٦٧٩ ـ أخذ المشركون يسلمون تباعا لما عم سلطان الوحدانية البلاد ، وما أسلموا رهبا من قوة في أكثر الأحوال ، بل أسلم الأكثرون رغبا في الاسلام ، وقد زالت عنهم غشاوة الوثنية وخرجوا من التقليد للآباء الى الاستنارة بنور الاسلام ، ورأوا أن آباءهم لا يعقلون شيئا ولا يهتدون هذا ما كان من المشركين ، كان الاسلام يدعو لنفسه فيهم بعد أن زالت عنهم عماية الجاهلية وغشاوة الوثنية ، أما اليهود والنصارى ، فقد علمت أمر اليهود منهم ، ومغالبتهم للنبي صلى الله تعالى عليه وسلم بالخيانة والنفاق ، وتأليب الناس عليه، بعد عهود أخذوها على أنفسهم ، ومن كان منهم في غير جوار النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، فقد أخذ عليهم ميثاق الأمان على أن يؤدوا الجزية ، كما رأينا في كتاب النبي صلى الله تعالى عليه وسلم لأمراء الجنوب عندما ذكروا للنبي صلى الله تعالى عليه وسلم أن عندهم يهودا ومجوسا ، يريدون أن يبقوا معهم من غير أن يغيروا دينهم الذي ارتضوا ، فأمر النبي صلى الله تعالى عليه وسلم أن يؤدوا الجزية ، ولا يرد عليهم دينهم .

أما النصارى فانهم لم يكونوا في حرب مع النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ولم يثيروا عليه أحدا ، الا ما كان من الروم ، أما نصارى العرب ، وخصوصا من كانوا في الجنوب ، فكانوا على مودة نسبية أو أقرب الى المودة، ولذلك قال الله تعالى في نصارى العرب الذين كانوا يوالون المسلمين :

﴿ لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ ٱلنَّاسِ عَدَٰوَةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلْيَهُودَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُواْ ۖ وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّا نَصَٰرَىٰ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٨٢﴾ ﴾ (١)

---

(١) المائدة

هذا وصف عام لوفد نجران الذي سنتحدث عنه ، وهناك سبب خاص حركهم للمجيء وهو كتاب النبي صلى الله تعالى عليه وسلم يدعوهم الى الاسلام ، أو دفع الجزية ، أو القتال ،وذلك نص كتاب النبي صلى الله تعالى عليه وسلم :

« بسم الله الرحمن الرحيم ، باسم اله ابراهيم واسحاق ويعقوب أما بعد فاني أدعوكم الى عبادة الله ، من عبادة العباد ، وأدعوكم الى ولاية الله تعالى من ولاية العباد ، فان أبيتم فالجزية ، فان أبيتم فقد آذنتكم بحرب والسلام » .

أرسل الكتاب الى أسقفهم ، فلما قرأه ذعر ذعرا شديدا فبعث الى رجل من آل همذان اسمه شرحبيل بن وداعة وكان من همذان وكان مستشار الأسقف اذا حدثت معضلة .

فلما قرأ الكتاب قال الأسقف ما رأيك يا أبا مريم ، فقال قد علمت ما وعد الله ابراهيم في ذرية اسماعيل من النبوة ، فما يؤمن بأن يكون هذا هو الرجل ، ليس لي في النبوة رأي لو كان من أمر الدنيا أشرت عليك فيه برأي وجهدت لك فيه فنحاه ، واستشار غيره وتعدد المستشارون ، وكلهم أجاب بمثل جوابه ، فلما اجتمع الرأي منهم على تلك المقالة ، أمر الأسقف بالناقوس فضرب ، ورفعت المسوح في الوادي ،أعلاه وأسفله فاجتمع حين ضرب بالناقوس بطول الوادي مسيرة الراكب السريع يوما .

وسألهم الرأي بعد أن قرأ عليهم الكتاب من رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم .

فاجتمعوا على ارسال وفد منهم يأتيهم بخبر هذا الرجل ، ولما وصلوا المدينة خلعوا ثياب السفر ، ولبسوا حللا يجرونها من الحبرة ، وخواتيم الذهب ، ثم دخلوا على النبي ، وتصدوا له ليلا ونهارا فلم يرد عليهم،وعليهم تلك الحلل وخواتيم الذهب فذهبوا الى عثمان بن عفان ، وعبد الرحمن بن عوف ، وكانوا يعرفونهما اذ كانا يتجران ويخرجان العير لهما في الجاهلية .

ولما التقوا بهما قالوا لهما : ان نبيكما كتب الينا كتابا فأقبلنا مجيبين، فسلمنا عليه ، فلم يرد سلامنا ، وتصدينا لكلامه ، فأعيانا أن يكلمنا ، فما الرأى منكما ، أنعود .

اتجه عثمان وابن عوف الى علي بن أبي طالب يسألانه : ما رأيك يا أبا الحسن في هؤلاء القوم ، فقال علي رضي الله عنه ، أرى أن يخلعوا حللهم، وخواتيمهم ، ويلبسوا ثياب سفرهم ،ففعل الوفد ذلك ، ثم جاءوا الى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، فسلموا عليه ، فرد سلامهم ٠

وظهر من هذا أن السبب في أنه لم يرد سلامهم أنهم جاؤوا مختالين مفاخرين وأنهم يلبسون لباسا محرمة على الرجال ٠

وليعلمهم أنهم ليسوا داخلين على ملك في أبهة ، بل على نبي يعيش عيشة الفقراء ، وأن شرفه ليس من مال وثياب ، ولكن من رسالة الرحمن الرحيم ، وفوق ذلك ان عدم رده يخفف من خيلائهم ، ويجعلهم يعيشون كما يعيش ٠

وبعد أن رد سلامهم ـ بش في وجوههم كشأنه عند لقاء الناس ودخلوا عليه مسجده بعد العصر ، وقد صلوا متجهين الى المشرق،فأراد بعض المسلمين منعهم ، ولكن النبي السمح الكريم قال للمانعين دعوهم ،فصلوا مطمئنين٠

كان الوفد ستين راكبا منهم أربعة وعشرون من كبرائهم ، فيهم ثلاثة لهم فضل رياسة أو شبه رياسة أولهم العاقب ، وهو أميرهم ، وذو الرأي فيهم ، وصاحب مشورتهم لا يصدرون الا عن رأيه واسمه عبد المسيح ٠

وثانيهم ـ السيد ، وهو ممثلهم ،وصاحب رحلهم ومجتمعهم ٠

وثالثهم ـ أبو حارثة بن علقمة أخو بني بكر بن وائل أسقفهم وحبرهم، وصاحب مدارسهم وان أبا حارثة هذا قد صار ذا شرف فيهم ، ودرس كتبهم وملوك الروم من النصارى قد أعلوه فيهم ، أمدوه بالمال ، وجعلوا له خدما، وبنوا له الكنائس ، وكرموه لما بلغهم من علمه واجتهاده ، ولعل ذلك ليجعلوا نجران تحت نفوذهم مع بعدهم ٠

وكان أبو حارثة يعظم النبي صلى الله تعالى عليه وسلم في جهره وغيبه ، يروى أنه عندما اتجه أبو حارثة الى الرسول صلى الله تعالى عليه وسلم كان يركب بغلة ، وبجواره أخ له يركب مثلها ، فعثرت بغلة أبي حارثة ، فقال أخوه : تعس الأبعد يريد رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، فقال له

أبو حارثة تعست أنت أنه والله النبي الأمي الذي كنا ننتظره فقال له أخوه فما يمنعك من اتباعه وأنت تعلم هذا ٠

قال أبو حارثة ما صنع بنا هؤلاء القوم (الرومان) شرفونا ومولونا وأكرمونا ، وقد أبوا الا خلافه ولوفعلت نزعوا منا كل ما ترى ، فأضمر عليها أخوه واسمه كرز بن علقمة ،حتى أسلم بعد ذلك ٠

وقد روى ابن اسحاق عن عبد الله بن عباس أنه اجتمع نصارى نجران وأحبار يهود عند رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم فقالت الأحبار ما كان ابراهيم الا يهوديا ، وقالت النصارى ما كان ابراهيم الا نصرانيا ، فأنزل الله عز وجل :

﴿ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لِمَ تُحَآجُّونَ فِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَمَآ أُنزِلَتِ ٱلتَّوۡرَىٰةُ وَٱلۡإِنجِيلُ إِلَّا مِنۢ بَعۡدِهِۦٓۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ﴿٦٥﴾ هَٰٓأَنتُمۡ هَٰٓؤُلَآءِ حَٰجَجۡتُمۡ فِيمَا لَكُم بِهِۦ عِلۡمٞ فَلِمَ تُحَآجُّونَ فِيمَا لَيۡسَ لَكُم بِهِۦ عِلۡمٞۚ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ ﴿٦٦﴾ مَا كَانَ إِبۡرَٰهِيمُ يَهُودِيّٗا وَلَا نَصۡرَانِيّٗا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفٗا مُّسۡلِمٗا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ﴿٦٧﴾ إِنَّ أَوۡلَى ٱلنَّاسِ بِإِبۡرَٰهِيمَ لَلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ وَهَٰذَا ٱلنَّبِيُّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْۗ وَٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿٦٨﴾ ﴾ (١)

وقال بعض أحبار اليهود أتريد منا يامحمد أن نعبدك ، كما تعبد النصارى عيسى بن مريم ٠

وقال رجل من نصارى نجران أو ذلك تريد يا محمد واليه تدعونا ٠

فقال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم : معاذ الله أن أعبد غير الله ، أو آمر بعبادة غير الله ، ما بذلك بعثني الله ، وأمرني ، فأنزل الله عز وجل :

﴿ مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤۡتِيَهُ ٱللَّهُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحُكۡمَ وَٱلنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُواْ عِبَادٗا لِّي مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِن كُونُواْ رَبَّٰنِيِّـۧنَ بِمَا كُنتُمۡ تُعَلِّمُونَ ٱلۡكِتَٰبَ وَبِمَا كُنتُمۡ تَدۡرُسُونَ ﴿٧٩﴾ وَلَا يَأۡمُرَكُمۡ أَن تَتَّخِذُواْ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ أَرۡبَابًاۗ أَيَأۡمُرُكُم بِٱلۡكُفۡرِ بَعۡدَ إِذۡ أَنتُم مُّسۡلِمُونَ ﴿٨٠﴾ ﴾ (٢)

---

(١) آل عمران (٢) آل عمران

ثم ذكرهم عليه الصلاة والسلام ماأخذ عليهم وآبائهم من الميثاق بتصديقه ، واقرارهم به على أنفسهم،فتلا قوله تعالى :

﴿ وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٍ وَحِكْمَةٍ ﴾ (١)

الى آخر الآيات وآخر ما سألوا عن عيسى ابن مريم وآخر مثله فأجيبوا بأنه رسول من عند الله وتلى عليهم ما جاء بالنسبة لعيسى عليه الصلاة والسلام في سورة آل عمران من أولها الى ثمانين آية من السورة ٠

بعد ذلك أخذ النصارى يسألون أسئلتهم ، قالوا ما تقول في عيسى فانا نصارى ، يسرنا ان كنت نبيا أن نعلم ما تقول فيه فتلا رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم قوله تعالى :

﴿ إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ۝٥٩ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ۝٦٠ فَمَنْ حَآجَّكَ فِيهِ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا۟ نَدْعُ أَبْنَآءَنَا وَأَبْنَآءَكُمْ وَنِسَآءَنَا وَنِسَآءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰذِبِينَ ۝٦١ ﴾ (٢)

فأبوا أن يقروا بذلك ٠

فلما أصبح الغد أقبل رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم بعد ما أخبرهم بالمباهلة ، مشتملا على الحسن والحسين رضي الله عنهما في خميل له ، وفاطمة تمشي وراءه وله يومئذ عدة نسوة ولم يختر واحدة منهن وكان الوفد غير الثلاثة الذين ذكرناهم كما أشرنا في صدر كلامنا عن نجران ، مع رئيسه شرحبيل لا تصدر نجران الا عن رأيه،وعندما طلب النبي صلى الله تعالى عليه وسلم المباهلة قال :

« ان الوادي اذا اجتمع أعلاه وأسفله لم يصدر الا عن رأيي ، واني والله أرى أمرا مقبلا وأرى والله ان كان هذا الرجل ملكا ، كنا أول العرب

---

(١) آل عمران (٢) آل عمران

طعنا في عينه ، ويرد:عليه أمر لا يذهب من صدره ، ولا من صدور قومه ، حتى يصيبونا بجانحه ·

وان كان هذا الرجل نبيا مرسلا ،فلا عناه ، فلا يبقى على وجه الأرض مناحره ، ولا ظفر الا هلك ، ثم ذكـررأيه فقال : « اني أرى رجلا لا يحكم شططا أبدا » ·

لقي شرحبيل الذي لا يصدرون الاعن رأيه رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم فقال له : « اني رأيت خيرا من ملاعنتك قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم : وما هو ، قال شر حبيل :أحكمك اليوم الى الليل وليلته الى الصباح ، فمهما حكمت فينا فهو جائز ·

فقال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم مستوثقا من نفاذ حكمه عليه وعلى من وراءه ، لعل وراءك أحدايثرب عليكم ، فقل صاحبي (صاحبان له كانا في مجلس القول) قالا : ما يردالوادي ولا يصدر الا عن رأيه حكم رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلمفكان الحكم هو هذا الكتاب الذي أعطاهم اياه ·

« بسم الله الرحمن الرحيم : هذا ماكتبه محمد النبي صلى الله تعالى عليه وسلم لنجران ، ان كان عليهم حكمه ،في كل ثمرة ، وفي كل صفراء وبيضاء وسوداء ، ورقيق ، فأفضل عليهم ،وترك ذلك كله ، على ألفي حلة ، في كل رجب ألف حلة ، وفي كل صفر ألف حلة ، وكل حلة أوقية ما زادت على الخراج أو نقصت على الأواقي فبحساب ، وما قضوا على دروع أو خيل أو ركاب أو عرض أخذ منهم ليحاسبه ،وعلى نجران مثواه رسلي بها عشرين فدونه ، ولا يحبس رسول فوق شهر ،وعليهم عارية ثلاثين درعا ، وثلاثين فرسا ، وثلاثين بعيرا ، اذا كان كيد باليمن،وما هلك مما أعاروا رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم من دروع أوخيل أو ركاب ، فهو ضمان على رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، حتى يؤديها عليهم»·

ولنجران جوار الله تعالى وذمةمحمد النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، وملتهم وأرضهم وأموالهم وغائبهم وشاهدهم ، وعشيرتهم وتبعهم ، وألا يغيروا مما كانوا عليه ، ولا يغير حقمن حقوقهم ولا ملتهم ، ولا يغير أسقف

من أسقفيته ، ولا راهب من رهبانيته،وكل ما تحت أيديهم من مال ، وليس عليهم ريبة ، ولا دم جاهليته ، ولا يحشرون ، ولا يعشرون ، ولا يطأ أرضهم جيش ، ومن سأل منهم حقا ، فبينهم النصف غير ظالمين ولا مظلومين ، ومن أكل ربا من ذي قبل فذمتي منه بريئة ،ولا يؤخذ رجل منهم بظلم آخر ، وعلى ما في هذه الصحيفة جوار الله ، وذمة محمد النبي رسول الله ، حتى يأتي الله بأمره ما نصحوا وأصلحوا فيما عليهم غير مثقلين بحرب ٠

وقد شهد هذه الوثيقة من حضر مجلس النبي صلى الله تعالى عليه وسلم: منهم أبو سفيان بن حرب وغيلان بن عمرو ، ومالك بن عوف ، والأقرع ابن حابس الحنظلي ، والمغيرة بن شعبة ٠

هذا كتاب ذمة اذا بقوا على نصرانيتهم ، أما اذا اختاروا أو بعضهم الاسلام دينا فانه من يختار الاسلام يأخذ حكم المسلمين ، ولا يكون ثمة فرق بينه وبين المسلمين ٠

وان من أساقفة نجران ورهبانهم من دخل في الاسلام معترفا بأنه النبي المنتظر من أولاد اسماعيل بن ابراهيم عليهما السلام له ذلك ٠

ومن الرهبان من مال الى الاسلام ،وأراد الذهاب الى النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، وذهب اليه وأهداه بردا ،وكانت رغبته في الحضور للنبي صلى الله تعالى عليه وسلم أن يرى كيف ينزل الوحي ، وأن يعلم الفرائض والحدود والسنن ، ومع ذلك أبى الاسلام ،واستأذن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم أن يرجع الى قومه ،وقال ان لي حاجة ومعادا ان شاء الله تعالى ، ولكنه لم يرجع حتى قبض النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، ويظهر أن ذلك كان في السنة العاشرة ٠

هذا وان السيد ، والعاقب ، وأبا الحارث الذين ذكرناهم في أول البحث في وفد نجران ، قد مكثوا عند النبي صلى الله تعالى عليه وسلم يستمعون اليه ويتعرفون حاله ، وهم غير وفد شرحبيل ، وكأن وفد نجران وفدان لتعدد أقاليم نجران ، وكنائسهم ، واختلاف أساقفتهم ٠

ومهما يكن فان وفد أبي الحارث الذي فيه السيد والعاقب قد غادر المدينة ومعهما كتاب من رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم هذا نصه :

بسم الله الرحمن الرحيم من محمدالنبي الى الأسقف أبي الحارث،وأساقفة نجران ، وكهنتهم ورهبانهم ، وأهـــل بيتهم ، ورقيقهم وملتهم ، وعـــلى كل ما تحت أيديهم من قليل وكثير جــوارالله ورسوله،لا يغير أسقف من أسقفيته، ولا راهب من رهبانيته ، ولا كاهن من كهانته ، ولا يغير حق من حقوقهــم ، ولا سلطانهم ، ولا مما كانوا عليه على ذلـــك جـــوار الله ورســـوله ، أبدا ما نصحوا وأصلحوا عليه غـــير منقلبين بظالم ولا ظالمين ·

فهذا الكتاب آخر كتاب ، وفيـــه عقد ذمة ·

مايدل عليه أمر هذا الوفد

٦٨٠ ـ كان لنجران وفدان ، كما رأيت ، وكان ذلك لأن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم دعاهم الى الاسلام ،أو العهد (عهد الذمة) على أن لهم ما للمسلمين ، وعليهم ما عليهم ، أوأن يقاتلوا ، فجاءوا اليه في وفدين ، وكتب النبي صلى الله تعالى عليه وسلم كتاب عهد لكل وفد منهما .

ولعل السبب في مجيء وفدين ، اختلاف الكنائس ، وان لم يكن ثمة اختلاف في المذهب ، وان كان فانه لايكون مفرقا بينهم فتعددوا .

وان هذا الوفد وغيره سواء تعددوا أم لم يتعددوا يدل على ان الاسلام أخذ ينشر نفسه بدعوته من غير حرب ، وماكان للنبي صلى الله تعالى عليه وسلم أن يحارب قوما اعتزلوا حربه وألقوا اليه السلم ، فما كان القتال ، كما يبدو من أخباره ، لأجل خلاف الدين ،انما كان لحماية الدعوة لتصل الى الشعوب ، فلا يحاجز بينهم وبينها أمراء أو ملوك ، أو أحبار ورهبان ، بل تكون وجوههم لله تعالى ، يختارون في الأديان ما يرونه حقا ، ولأن الدعوة الاسلامية ، لا بد أن يسمع الناس دعوة الحق من غير ارهاق أمير ، أو اغراء زعيم ديني أو غير ديني .

ولقد كان النبي صلى الله تعالى عليه وسلم يرحب بهذه الوفود ، ويبش لهم الا أن يجد فيهم أمرا من شأنه أن يكون مفرقا بين الجماعات ، بحيث يحنق الفقير ، ويرمض قلبه ، فلم يبش فيمن يدخلون عليه بزينة من الحرير محلى بالذهب ، كما كان يخرج قارون على القوم بزينته .

ولحسن لقاء النبي صلى الله تعالى عليه وسلم كان يستقبلهم في المسجد ، وان فعل النبي صلى الله تعالى عليه وسلم يدل على جواز أن يدخل الكتابي المسجد ، واني لا أرى بأسا في أن يدخل غير الكتابي لأجل سماع العلم الاسلامي ، وعقد المعاهدات كما كان يفعل عمر .

وان دخولهم المسجد حسن ، اذ يرون المسلمين يؤدون الصلوات ،ويقومون

بالفرائض ، ويحيطون بالنبي صلى الله تعالى عليه وسلم احاطة الدائرة بقطرها ان ذلك من شأنه أن يؤثر في نفوسهم فيستجيبوا لداعي الحق ٠

الإذعان والإيمان :

٦٨١ ـ هنا مسألة يثيرها ابن القيم حول وفد نجران، فقد كان منهم من يعلن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم بأنه النبي المبشر به في التوراة والانجيل ، ولكنه لا يستجيب لداعي الاسلام بالانقياد والاذعان والرضا بحكم القرآن واعلان الطاعة ، ويقول ان ذلك الاذعان لخوف أن يقتل النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، فيقرر ابن القيم أن ذلك لا يعد قد دخل في الاسلام أو وصف الايمان ، لأن الايمان ليس هو مجرد المعرفة ، بل الايمان معرفة وتصديق ، واذعان ، فاذا لم تكن هذه الأوصاف مجتمعة لا يكون ثمة ايمان ، لأن الانقياد والاذعان غير قائمين ٠

وان ذلك كلام حق ، لأنه لابد أن يدخل في ولاء المسلمين ، وينضم الى جماعته ، وتكون ولايته وللمؤمنين لله كما قال تعالى :

﴿ إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُمْ رَٰكِعُونَ ﴿٥٥﴾ ﴾ (١)

ونرى الاذعان قسمان : إذعان قلبي ، ويكتفى به اذا كان ما يمنع من اظهار خوف اتلافه كخوف من عدو قاهر ، أو اخفائه لكي يجذب الناس الى ما اعتنق من دين بتشكيكهم فيما يعتقدون من باطل ، وقد أجاز النبي ذلك لبعض وفد ثقيف ، فان الايمان الحقيقي قائم في معناه وهؤلاء يؤدون الفرائض ، ويكتفي منهم بذلك ولا يطلب خوفا من الاذعان العلني ، فالتصديق قائم والاذعان قائم ٠

والقسم الثاني يوجد فيه معرفة كمعرفة بعض المشركين ، وأثر هذه المعرفة تصديق لساني يظهرونه كأولئك الذين قالوا لمحمد صلى الله تعالى عليه وسلم نعرف أنك النبي ، ولكن لانسلم ، لأننا نخشى أن يقتلك اليهود ، فأولئك وان عرفوا لا يؤمنون ، بل يكفرون ٠

---

(١) المائدة

قدوم وفد بني سعد بن بكر

٦٨٢ ـ هذا الوفد كان رجلا واحدا جاء مسلما معلنا اسلامه عندما علم بأمر النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، ودعوته ، وانتشرت الدعوة ، وصار لكلمة الله السلطان ، وتجاوبت بها الركبان ، فجاء يستوثق من الأمر من صاحب الدعوة الحق ، ولقد قال ابن اسحاق بسنده ، بعثت بنو بكر ، ضمام بن ثعلبة وافدا على رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، وقدم على رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، فأناخ بعيره على باب المسجد وعقله ثم دخل وهو لا يعرف شخص محمد صلى الله تعالى عليه وسلم ، فقال في جفوة من لا يعرف : أيكم ابن عبد المطلب ؟ فقال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم أنا ابن عبد المطلب ، وكانت المجاوبة على الوجه الآتى :

قال ضمام : اني سائلك ومغلظ عليك المسألة ، فلا تجدن في نفسك .

فقال النبي الرفيق : لا أجد في نفسي ، فسل عما بدا لك .

فقال ضمام : أنشدك بالله الهك ، واله أهلك ، واله من كان قبلك ، واله من هو كائن بعدك الله بعثك الينا رسولا ، قال اللهم نعم .

قال ضمام فأنشدك بالله الهك واله أهلك واله من كان قبلك ، واله من هو كائن بعدك ، آلله أمرك أن نعبده لا نشرك به شيئا ، وأن نخلع هذه الأنداد التي كان آباؤنا يعبدونها ، فقال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم اللهم نعم .

ثم جعل يذكر فرائض الاسلام فريضة فريضة ، فذكر فريضة الصلاة ، والزكاة ، والصيام ، والحج ، في كلها ينشده عند كل فريضة ، بالصيغة التي ذكرها .

حتى اذا فرغ منها ، قال : « فاني أشهد أن لا اله الا الله وأن محمدا عبده ورسوله ، وسأؤدي هذه الفرائض ، وأجتنب ما نهيتني عنه ، لا أزيد ولا أنقص » .

ثم انصرف عائدا الى بعيره ·

وقد أثنى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم عليه خيرا ·

عاد الى قومه مؤمنا داعيا شاهدا بالحق ، وفاجأهم بأن أعلن كفره بالأصنام ، وقال : بئست اللات والعزى ·

فخشي عليه قومه من أن يصاب بسوء لزعمهم في الأصنام ، فقالوا مشفقين ، مه يا ضمام اتق البرص والجذام ، اذ يزعمون أن من سبها يصاب بذلك ، وثبت ذلك الزعم في أوهامهم ·

فقال لهم : « انهما ما يضران ولاينفعان ، ان الله تعالى قد بعث رسولا وأنزل عليه كتابا استنقذتم به مما كنتم فيه ، واني أشهد أن لا اله الا الله، وأن محمدا عبده ورسوله ، واني قدجئتكم من عنده ، بما أمركم به ، وما نهاكم عنه » ·

استجاب قومه لداعي الايمان ، ويقول ابن اسحاق ما أمسي في اليوم في حاضره رجل ولا امرأة الا مسلما ،فما سمعنا بوافد قوم أفضل من ضمام ابن ثعلبة ·

والقصة رويت بهذا السياق في الصحيحين ·

فهي ثابتة ، وهي تدل على مدى انتشار الاسلام في ربوع البلاد العربية ومدى الاستعداد لدعوة التوحيد ، ولدين الفطرة ، فما كانت الوثنية مع معرفتهم بالله الا غشاوة أزالتها الحقيقة النيرة الناصعة ، فكانوا مسلمين موحدين ·

وفد تجيب

٦٨٣ ـ قلنا ان البلاد العربية دخلها الاسلام عندما أعلنت للجميع حقائقه ، وعرفوا خصائصه ، وزالت غشاوة الوثنية عن نفوسهم ، اذ العرب في جاهليتهم كانوا أقرب الى التوحيد من غيرهم لأنهم يعرفون الله تعالى وفيهم بقية ملة أبيهم ابراهيم عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام .

كان وفد تجيب خير وفد جاء الى النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، كما ذكر ذلك عليه الصلاة والسلام ، فقد جاء مسلما منفذا لأوامر الاسلام ، مجتنبا نواهيه .

جاء بالصدقات ، بما فضل من فقرائهم ، ولقد قال فيهم النبي صلى الله تعالى عليه وسلم « ان الهدى بيد الله فمن أراد الله به خيرا شرح الله صدره للاسلام » وقال أبو بكر صديق هذه الأمة «يا رسول الله ، ما وفد من العرب بمثل ما وفد به هذا الحي من تجيب » .

أخذوا يسألون النبي صلى الله تعالى عليه وسلم عن القرآن وعن السنن، ويسألونه عن أحكام تفصيلية فكتب لهم بها .

ولم يطلبوا الاقامة ، فقيل لهم مايعجلكم ؟ قالوا نرجع الى من وراءنا فنخبرهم برؤيتنا رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، وكلامنا اياه ، وما رد به علينا .

ولقد أمر النبي صلى الله تعالى عليه وسلم أن يحسن ضيافتهم .

ولما هموا بالسفر ذهبوا الى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ليودعوه فأرسل بلالا ليعطيهم جوائز من مال الرسول صلى الله تعالى عليه وسلم من خمس خمسة من الغنائم ، فقد جعله عليه الصلاة والسلام للدعوة، وما كانت هذه الجوائز من قبيل اعطاء المؤلفة قلوبهم ، فأولئك قد جاءوا مؤلفين للاسلام من تلقاء أنفسهم ، انما هذه الجوائز أعطيت رمزا لمحبة رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ومرضاته .

وبعد أن أعطى الجوائز لهم واحداواحدا ، قال الرسول صلى الله تعالى عليه وسلم ألم يبق منكم أحد ؟ قالوا :غلام خلفناه على ركابنا ٠

جاء الغلام الى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، فقال يا رسول الله اني امرؤ من الرهط الذين أتوك آنفا،فقضيت حوائجهم ، فاقض حاجتي يا رسول الله ، قال عليه الصلاةوالسلام ، وما حاجتك ؟ قال الغلام حاجتي ليست كحاجة أصحابي وانكانوا قد قدموا راغبين في الاسلام ، وساقوا ما ساقوا من صدقاتهم ، وانيوالله ما أعجلني من بلادي الا أن تسأل الله عز وجل أن يغفر لي ويرحمني ،وأن يجعل غناي في قلبي ، فأقبل رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم على الغلام،وقال : « اللهم اغفر له وارحمه واجعل غناه في قلبه » ٠

ثم أمر له بمثل ما أمر به لرجل منأصحابه ٠

انطلق الوفد ، وكان مؤلفا من ثلاثة عشر رجلا راجعا الى قومه ٠

ثم وافوا رسول الله صلى الله تعالىعليه وسلم بمنى سنة عشر ، ويظهر أن ذلك كان في حجة الوداع ، بل من المؤكد ذلك ، لأن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم لم يدخل بعد عمرة الجعرانة الا في حجة الوداع ، حيث تمت رسالته ، ونزل قوله تعالى :

﴿ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا ﴾ (1)

عندما التقى النبي صلى الله تعالىعليه وسلم بوفد تجيب في منى سألهم عن الغلام القنوع الذي دعا له النبيصلى الله تعالى عليه وسلم أن يكون غناه في قلبه ، فقالوا : يا رسول الله ما رأينامثله قط ، وما حدثنا بأقنع منه بما رزقه الله تعالى : لو أن الناس اقتسمواالدنيا ما نظر نحوها ، ولا التفت اليها عاش ذلك الغلام الى أن انتقل النبيصلى الله تعالى عليه وسلم الى الرفيق الأعلى ، ورجع من رجع من أهلاليمن ، فقام في قومه ، فذكرهم الله والاسلام ، فلم يرجع منهمأحد ٠

---

(1) المائدة

وفد بني سعد من قضاعة

٦٨٤ ـ كان العرب قسمين ـ أحدهما ـ دخل في الدين راضيا مختارا ، وهـذا هو البناء الأول للجماعة الاسلامية ، ومن دخلوا في دين الله تعالى من البلاد العربية قاصيها ودانيها ، وقسم رأى محمدا صلى الله تعالى عليه وسـلم قد أخضع المعاندين والجاحـدين لأن يستمعوا هم ومن وراءهم لدين الحق.

فما كان لغير القسمين الا أن يختار مطمئنا راضيا الا أن يتقـدم للنبي طالباً منه المعرفة ، وهذا ما رواه الواقدي بسند عن كبير وفد بني سعد من قضاعة ، فقد قال : « قدمت على رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم وافدا في نفر من قومي ، وقد أوطأ رسـول الله صلى الله تعالى عليه وسلم البلاد وأداخ العرب ، والناس صنفان ، اما داخـل في الاسلام راغب فيه ، واما خائف من السيف ، فنزلنا ناحية من المدينة ، ثم خرجنا نؤم المسجد حتى انتهينا الى بابه.

ونقف هنا وقفة قصيرة عند كلمـة كبير هذا الوفد ، وهي كلمة العرب ، فاننا نرى أن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ما أداخ العرب ، ولـكن أداخ الجاحدين العاندين الذين رفعوا عليـه السلاح وآذوه ، فهم الذين أداخهـم ، لتذهب الفتنة ، ويكون الدين لله تعالى، وقد يكون من العرب الذين ينتظـرون من دخل في الاسـلام بعـد أن زالت المحاجزات بانتصار النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، ومن الأعراب من دخـل في دين القوي ، وهؤلاء هم الذين قال الله تعالى فيهم :

﴿ قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّا ۖ قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا۟ وَلَـٰكِن قُولُوٓا۟ أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَـٰنُ فِى قُلُوبِكُمْ ۖ ﴾ (١)

دخل الوفد مسجد رسول الله صـلى الله تعالى عليه وسلم ، فوجدوه يصـلى على جنازة ، فقاموا في ناحية من المسجد، ولم يشتركوا في صلاة الجنازة.

---

(١) الحجرات

التقوا برسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم فسألهم : أمسلمون أنتم ؟ قالوا نعم قال فهلا صليتم على أخيكم ،فقالوا يا رسول الله ظننا أن ذلك لا يجوز لنا حتى نبايعك ، فقال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، أينما أسلمتم فأنتم مسلمون ، يشير بذلك الى أن الدخول في الاسلام لا يحتاج الى مبايعة ، وأن الاسلام قد تم ، وأنتم في مكانكم شهدتم أن لا اله الا الله وأن محمدا عبده ورسوله ٠

بايعوا رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم على الاسلام،على أن يقوموا بحقه، فيطيعوا أوامره ، ويجتنبوا نواهيه ،ثم انصرفوا الى رحالهم قد خلفوا عليها أصغرهم ، وقد طلبهم رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، ليتقدم هذا الذي تركوه على رحلهم ، فبايعه على الاسلام كما بايعهم ، وقال:(أصغر القوم خادمهم) ، وكأنه أقره وأقرهم على خدمته لهم ، وقيامه على رحلهم ، ولقد كان ذلك الصغير أقرأهم للقرآن ،فكان يؤمهم ، وذلك لأن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم دعا له بالبركة ، ولما اعتزموا الانصراف أمر رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم لهم بجوائز ،فأعطى كل رجل أواقي من فضة وان ذلك بلا ريب من خمس الخمس المخصص للنبي وآله ، فكان ينفقه في سبيل الدعوة الاسلامية ٠

وفد فزارة

٦٨٥ ـ جاء في كتاب الاكتفاء أنه قدم على رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم بعد رجوعه من تبوك وفدبني فزاره وهو مؤلف من بضعة عشر رجلا منهم الحسن بن قيس ابن أخي عيينة بن حصن وهو أصغرهم ، جاءوا رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم مقرين بالاسلام ، وكانوا في شدة فكانوا على ركاب عجاف ، سألهم رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم عن بلادهم ، فشكوا اليه حالهم ، وقالوا :

أسنتت (أي أصابتنا شدة) بلادنا، وهلكت مواشينا ، وأجدب جنابنا ، وغرث (جاع) عيالنا ، فادع لنا ربك يغيثنا ، واشفع لنا الى ربك ، وليشفع لنا ربك اليك ، فرأى فيهم صلى الله تعالى عليه وسلم جهلا بربهم فقال هاديا مرشدا لمن خاطبه بهذا : ويلك هذا انما شفعت الى ربي عز وجل ، فمن الذي ربنا يشفع اليه ، لا اله الا هو العظيم ، وسع كرسيه السموات والأرض ، فهي تئط من عظمته وجلاله، كما يئط الرجل من الحديد ·

رق رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم لحالهم ، ودعا ربه مستسقيا ، وصعد المنبر ، ورفع يديه بالدعاء ،وكان لا يرفع يديه في الدعاء الا في الاستسقاء ·

ومما جاء في دعائه عليه الصلاة والسلام :«اللهم اسق بلادك وبهائمك، وانشر رحمتك ، وأحي بلادك الميتة ،اللهم أغثنا غيثا مغيثا مريحا مريعا واسعا عاجلا غير آجل ، نافعا غير ضار،اللهم سقيا رحمة ، لا سقيا عذاب ، ولا هدم ولا غرق ، ولا حرق ، اللهم اسقنا الغيث وانصرنا على الأعداء ، بهذا الدعاء الضارع الى الله من أحب خلق الله تعالى اليه أدرت السماء غيثا لا غيث فيه ، ونال بني فزاره ما أزال شدتهم » ·

وفــد بهــراء

٦٨٦ ـ قدم وفد بهراء من اليمن، كما ذكر الواقدي ، وكانوا ثــلاثة عشر رجلا ، فأقبلوا يقودون رواحلهمحتى انتهوا الى باب المقداد بن الأسود وكان قد أعد طعاما لأولاده جفنة حيس(ثريد) فقدمه لهم وبارك الله تعـالى فيه ، فأكل منــه الوفد ، وبقي لأولادالمقداد ما كفاهم ، وكأنه لم ينقص منه شيء ، وقد بقي بعد أكل آل المقــدادمقدار أرسلوه الى النبي صلى الله تعالى عليه وسلم في قصعة صغيرة ، وكان فيبيت أم سلمة ، فأكل منه النبي صـلى الله تعالى عليه وسلم ، ثم رد ما بقي ،فأكل منه الوفد ، وهكذا استمر الوفد يأكل منه مدة اقامته ببركة رســـولالله صلى الله تعالى عليه وسلم ·

وكانت هذه أمرا خارقا للعـادة ،ثبت اسلامهم ، وقــد جاءوا مسلمين ، وبايعهم رسول الله صلى الله تعالى عليهوسلم على الاسلام ، وجعلوا يقــولون : نشهــد أن لا اله الا الله وأن محمدا رسول الله ·

وتعلموا الفرائض ، واستحفظــوابعض القرآن ، وأقامـــوا أياما ، ثم ودعوا رسول الله صلى الله تعالى عليـــهوسلم ، وقد أجازهم ، كشأن كل وفد يجيء اليه ، وذلك من خمس الخمس الذي أفاء الله تعالى به ·

ونرى أن هــذه الوفود جاءت الى النبي صلى الله تعالى عليه وسلم بعــد أن وصلتهم الدعوة وأسلمــوا ، فجاءواليستوثقـــوا لاســلامهم ، ولينــالوه بركة السماء ·

قدوم وفد عذرة

٦٨٧ ـ في صفر سنة تسع قدم اثنا عشر رجلا هم وفد قبيلة عذرة ، ولهم بقصي جد النبي صلى الله تعالى عليه وسلم صلة ، لأنه كان أخاهم من أمه ٠

ولذلك لما سأل النبي صلى الله تعالى عليه وسلم من القوم ؟ قال متكلمهم من لا تنكره ، نحن بنو عذرة أخو قصي لأمه ، نحن الذين عضدوا قصيا ، وأزاحوا من بطن مكة خزاعة وبني بكر ، ولنا قرابات وأرحام قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، أهلا بكم ومرحبا ما أعرفني بكم ، فأسلموا ٠

وقد بشرهم النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، ونهاهم عن بعض أوهام الجاهلية ، بشرهم بفتح الشام ، وفرار هرقل حيث امتنع في ممتنع من بلاده ، وقد حدث ذلك فقد خلصت الشام من قبضة هرقل بعد واقعة اليرموك التي قال فيها وقد علا نشزا من الأرض سلام عليك يا سوريا ، سلام لا لقاء بعده ، ونهاهم عن سؤال الكهنة ، فان الله وحده هو الذي اختص بعلم الغيب ، ونهاهم عن الذبائح التي كانوا يذبحونها تقربا لله في زعمهم ، وأخبرهم أنه ليس عليهم الا الأضحية قربا لله ، وما عداها طعام يطعمونه ٠

وفد بلي

٦٨٨ ـ قدم هذا الوفد في ربيع الأول من سنة تسع ، فأنزلهم رويفع ابن ثابت البلوي عنده ، ولم يذكر عدد هذا الوفد ، ولكن يظهر أنه لم يكن عددا كبيرا ، يضيق بضيافته رويفع بن ثابت ، وقد قدم بهم على رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، وقال له هؤلاء قومي فقال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم : مرحبا بك وبقومك وقد أسلموا ، فقال لهم الرسول عليه الصلاة والسلام : « الحمد لله الذي هداكم للاسلام ، فكل من مات على غير الاسلام فهو في النار » .

وكان في الوفد رجل مضياف ، هو شيخه ، وهو أبو الضبيب فسأل الرسول عن الضيافة فقال ، يا رسول الله اني رجل لي رغبة في الضيافة فهل لي في ذلك أجر ، قال عليه السلام: نعم ، وكل معروف صنعته الى غني أو فقير فهو صدقة ، قال يا رسول الله ما وقت الضيافة ! قال : ثلاثة أيام، فما كان بعد ذلك فهو صدقة،ولا يصح للضيف أن يقيم عندك فيحرجك ، ثم سأل في أمر آخر ، وهو ما يضل من الشاه أو البعير ، فقال يا رسول الله ، رأيت الضالة من الغنم أجدها في الفلاة من الأرض ؟ قال : هي لك أو لأخيك أو للذئب قال فالبعير ، قال مالك وله ،دعه حتى يجده صاحبه .

وقد انتقلوا بعد ذلك الى منزل من استضافهم وهو رويفع بن ثابت البلوي ، فكان الرسول صلى الله تعالى عليه وسلم يأتي هذا المنزل يحمل تمرا ، ويقول : « استعن بهذا التمر ،وكانوا يأكلون منه ومن غيره » .

وان كلام النبي مع هذا الوفد اشتمل على أدب كريم من آداب الاسلام، وعلى حكم شرعي ، يتعلق باللقطة ، ومن الحق علينا أن نشير الى الأمرين .

لقد قال النبي صلى الله تعالى عليه وسلم فيما يروى عنه « انما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق ، وان من مكارم الأخلاق الضيافة ، وانها في ذاتها ترابط انساني ، وتعاون ومحبة بين الناس ،وهي ضرورة اجتماعية في البوادي

وما يشبه البوادي ، فالرجل يسير في البادية قد ينبت به الطريق ، فلا يجد مأوى يأوي اليه الا أن تكون ضيافة كريم ، ولذلك تكون فضيلة الضيافة ضرورة انسانية في البادية ، ثم تخف ضرورتها كلما ابتعدت عن البادية ، فهي في القرى شبه ضرورة ، وهي في الحواضر حيث تتوافر الحاجات من طعام ومنام تكون معروفا ، أو مروءة .

وهي تأخذ الحكم الشرعي على حسب هذه الأحوال ، فهي واجبة اذا كان الانسان لا يجد له مأوى ، وقريب من الواجب اذا كان لا يجد المأوى الا بعسر ، وهي معروف يوجد ألفة ومحبة اذا كان يجد .

هذا ما يكون شرعا بالنسبة للمضيف ، أما الضيف فان عليه ألا يطيل الاقامة ، بحيث يحرج رب البيت بل انه لا يقبل المبيت اذا كان فيه حرج لرب البيت ، ولم تكن ثمة ضرورة ملجئة ، ولا حاجة تدفعه .

وفي حديث اتفقت عليه الصحاح أن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم قال : « من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم جاره ويعطه جائزة ، قالوا وما جائزته يا رسول الله ؟ قال يوم وليلة ، والضيافة ثلاثة أيام ، فما كان وراء ذلك فهو صدقة ، ولا يحل له أن يثوي عنده حتى يحرجه » .

وفي خبر هذا الوفد أنه سأله صلى الله تعالى عليه وسلم أحدهم عن الضالة من الغنم ، وعن البعير ، فقال عن البعير مالك وله ، دعه حتى يجده صاحبه ، فلا يأخذه ، لأنه اذا غاب عن صاحبه طلبه ، وبحث عنه ، ولأن البعير يقوم بذاته أمدا طويلا ، ولأنه ان أخذه غيبة عن صاحبه ، فلا يهتدي اليه ، اذ يطلبه .

وعن الشاة الضالة التي يجدها الرجل في الصحراء ، حيث لا مرعى وحيث لا مأوى ، قال النبي صلى الله تعالى عليه وسلم : هي لك أو لأخيك أو للذئب ، وهذا النص يفيد أنها حلال له ، وهو نص فيه حكمته ، ذلك أن الشاة وجدت في الصحراء ، حيث يصعب التعريف ، وفرض أن لها صاحبا يمكن أن يعثر عليها بالتعريف بعيد ، لأنه لا يوجد من يعرف بها ، اذ هي فلاة ، وفرض أنها تخلفت من قافلة مضت هو الأقرب .

وفي هذه الحال يكون ان تركها ، ربما يجدها غيره ، فيأكلها ويذبحها ،

وذلك يكون احتمالا ، وربما لا يجدهاأحد فتموت جوعا ، أو يلتهمها الذئب ، وانه بعد هذا الترديد يكون الأولى أن يذبحها ويأكلها ، لاحتمال الضياع ، ولا تجوز اضاعة المال .

وهذا الفرض يفرض أن الشاةفي فلاة غير ممكن معرفة صاحبها ،فان كانت قريبة من خباء أو من نبع ماء ،يجيء اليه الناس ، ويمكن تعرفهم، فانه في هذه الحال يكون التعريفواجبا .

وفي الحق ان الواجد للشاة الضالةفي الصحراء تكون حاله مترددة بين أمرين : أولهما ـ أن يكون كالملتقطالذي يذهب في الصحراء يبحث عن بعض النباتات المتخلفة فيها ، ويجرياالتقاطها ، لأنه لا مالك لها ، وبين أن تكون الشاة لقطة وجدها ، ولهاصاحب غير معروف ، ولا يمكن معرفته فالنبي صلى الله تعالى عليه وسلم حكمبأنها تأخذ حكم الالتقاط ، لأنها ان تركت أكلها الذئب .

والفقهاء يرفضون أنه قد يعلم مالكها من بعد ، فقرروا أنه ان وجد أعطاه قيمتها .

وفد ذي مرّة

٦٨٩ ـ كان العرب يجيئون الى النبي صلى الله تعالى عليه وسلم مسلمين، والنبي صلى الله تعالى عليه وسلم يتعرفهم ، ويتعرف أحوالهم ، وقد جاء وفد ذي مرة وهو مؤلف من ثلاثة عشر رجلاعلى رأسهم الحارث بن عوف ، وقد ذكروا أنهم ينتمون الى نسب النبي صلىالله تعالى عليه وسلم ، فقالوا : يارسول الله انا قومك وعشيرتك نحن بنو لؤيبن غالب ، فتبسم رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، وسأله عن أهله ،وفيأي مكان تركهم ، ثم سأله عن أحوال البلاد لأنهم باسلامهم صاروا رعيته ،فقال الحارث أنهم (لمسنتون) (أي في شدة وقل) ما في المال مخ ، فادع اللهلنا ، فقال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم : « اللهم اسقهم الغيث » .

أقاموا أياما ، ولما أرادوا الانصراف الى بلادهم جاءوا رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم مودعين له ، فأمر بلالا فأجازهم ، فأعطى كل واحد عشر أواق من فضة ، وجعل للحارث اثنتي عشرةورجعوا الى بلادهم فوجدوها مطيرة ، فسألوا متى أمطرت ، فتبين أن ذلكالمطر الذي أغاثهم أنزله الله تعالى وقت دعاء النبي صلى الله تعالى عليه وسلم .

وفد خولان

٦٩٠ ــ هذا وفد خولان ، وفد قوم آمنوا بالله ورسوله ، وقد قدموا على رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم وعددهم نحو عشرة ، قدموا في شهر شعبان سنة عشر ٠

وقال قائلهم لرسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم : (يا رسول الله ، نحن على من وراءنا من قومنا ، ونحن مؤمنون بالله عز وجل ، ومصدقون برسوله ، وقد ضربنا اليك آباط الابل، وقد ركبنا حزون الأرض وسهولها ، والمنة لله ورسوله علينا ، وقد جئنا زائرين)٠

فقال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم: (أما ما ذكرتم من مسيركم الي ، فان لكم بكل خطوة خطاها بعير أحدكم حسنة ، وأما قولكم زائرين ، فانه من زارني بالمدينة كان بجواري يوم القيامة)٠

ولقد كان لهم صنم كانوا يسمونه عم أنس ، وكانوا مفتونين به، يسندون اليه بأوهامهم خوارق للعادات ، أو نعما يجريها الله تعالى ، فيحسبونها له وذلك لفرط ضلالهم ، وفتنتهم به ،فلما أعلنوا ايمانهم وتبين للنبي صلى الله تعالى عليه وسلم صدق ايمانهم ،ويقينهم الحق سألهم عما صنعوا في صنمهم ، ومن يؤمن منهم فهل لهم من بقية ٠

قال لهم رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم :(ما فعل عم أنس)٠

قالوا : أبشر بدلنا الله تعالى به ماجئت به ، وقد بقيت منا بقايا من شيخ كبير ، وعجوز كبيرة متمسكون به ،ولو قدمنا عليه لهدمناه ان شاء الله تعالى ، فقد كنا منه في غرور وفتنة ٠

يتقصى رسول الله أخبارهم ، ويتعرف ما كانوا عليه ، قبل هذا اليقين ٠

سألهم رسول الله : ما أعظم ما رأيتم من فتنة ٠

قال متكلمهم : لقد أسنتنا (أي أصابتنا سنة شديدة) ، حتى أكلنا الرمة فجمعنا ما قدر عليه ، وابتعنا مائة ثورونحرناهم ـ لعم أنس قربانا ـ في غداة واحدة ، وتركناها للسباع ، ونحن أحوج اليها من السباع فجاءنا الغيث من ساعتنا ، ولقد رأينا العشب يواري الرجال ، ويقول قائلنا : أنعم علينا عم أنس ٠

وان هذه المصادفة الغريبة قد فتنتهم ، فاعتقدوا أن الصنم هو الذي أغاثهم ، وهو لا ينفع ولا يضر ،وكثيرا ما تجيء الأمور مصادفة فيحسبها الواهمون أثرا للالتجاء لحجر أولشخص ، أو لكاهن ، أو لتعويذة ساحر ، وان ذلك فتنة ، ولعل هذه المصادفات كانت من أسباب عبادة الأصنام التي لا تملك من الأمر شيئاوكان ما ينتجونه يجعلون نصفه لهذا الصنم قربانا ، ونصفه لله،وما يجعلونه لله ، يعطونه لصنمهم شيئا ، ولا يعطون مما لصنمهم شيئا لله تعالى ، وذلك كله فيما يحبسونه للقربات ٠

وقد ذكر متكلم الوفد ذلك لرسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم من أنهم كانوا يقسمون لصنمهم هذا من أنعامهم وحروثهم ، وأنهم كانوا يجعلون ذلك جزءا له ، وجزءا لله في زعمهم، قالوا كنا نزرع الزرع ، فنجعل له وسطه (أي أحسنه) فنسميه له ،ونسمي زرعا آخر حجر الله تعالى ،فاذا مالت الريح ، فالذي سميناها لله جعلنالعم أنس ، ولم نجعله لله تعالى ، فذكر لهم رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم أن الله أنزل في كتابه عملهم مستنكرا، فقال تعالى :

﴿ وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ ٱلْحَرْثِ وَٱلْأَنْعَٰمِ نَصِيبًا فَقَالُوا۟ هَٰذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَٰذَا لِشُرَكَآئِنَا ۖ فَمَا كَانَ لِشُرَكَآئِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَىٰ شُرَكَآئِهِمْ ۗ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿١٣٦﴾ ﴾ (١)

وهكذا كانت الأوهام مسيطرة عليهم تلك السيطرة ، وقد اقتلعتها عقيدة الوحدانية اقتلاعا من نفوسهم ،وكانت دعوة النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ،

---

(١) الانعام

وما اقترن بها صاهرة لهذه الأوهـــام مبينة ما فيها من زيف وباطل ، وتبين الرشد من الغي والله يهدي من يشــاء الى صراط مستقيم .

وقد أوصى النبي صلى الله تعــالى عليه وسلم بوصايا كريمة ، أوصاهــم بالوفاء بالعهد ، وأداء الأمانة وحســن الجوار لمن جاوروا ، وألا يظلموا أحدا وقال عليه الصلاة والسلام : « ان الظلم ظلمــات يوم القيامة ، وســألوه عن فرائض الدين وأحكامه فعلمهم اياها، ثم غادروه بعد أيام ، وأجازهم العطايا ولما رجعوا الى قومهم ، لم يحلوا عقــدة رحالهم حتى هدموا عم أنس صنمهم .

وفد محارب

٦٩١ ـ أخذ النبي صلى الله تعالى عليه وسلم يعرض نفسه على القبائل في السنتين الأخيرتين من مقامه بمكة قبل الهجرة وذلك في موسم الحج ، بعد أن علم أنه لن يؤمن من قريش الا من قد آمن ، فكان أشد القبائل غلظة في الرد وعنفا في اللقاء قبيلة محارب ،ردوا دعوة رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم الى التوحيد ردا فظا غليظا منكرا ، وذلك لغلظ رقابهم ، ولذلك كانوا من آخر القبائل ايمانا ، فلم يجيء وفدهم الى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم مؤمنا الا في السنة العاشرة عام حجة الوداع ٠

ولقد كان عدد الوفد عشرة جاؤوا نائبين عمن وراءهم ، وقد أعلنوا اسلامهم ، واسلام قومهم ٠

ولقد نزلوا في ضيافة النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، فكان بلال يأتيهم بالغداء والعشاء ، حتى التقوا برسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم معلنين اسلامهم واسلام قومهم ٠

وقد جاء معهم رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم يوما من الظهر الى العصر ، وكان فيهم رجل أخذ النبي صلى الله تعالى عليه وسلم بالنظر فيه ، وأدامه فيه ٠

فقال المحاربي : كأنك يا رسول الله توهمتني ٠

فقال النبي عليه الصلاة والسلام :لقد رأيتك وكأنه الي أنه كان منه شيء ٠

قال المحاربي : أي والله لقد رأيتني وكلمتني ، وكلمتك بأقبح الكلام ، ورددتك بأقبح الرد ، بعكاظ ، وأنت تطوف على القبائل ٠

فقال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم : نعم ٠

قال المحاربي : ما كان في أصحابي أشد عليك يومئذ ولا أبعد عن الاسلام مني ، فأحمد الله الذي أبقـــاني حتى صدقت بك ، ولقد مات أولئك النفـــر الذين كانوا معي على دينهم ·

فقال النبي صلى الله تعالى عليـــه وسلم : ان هـــذه القلـــوب بيد الله عز وجل ·

قال المحاربي : يا رسول الله استغفر لي من مراجعتي اياك ·

قال رسول الله صلى الله تعالى عليـــه وسلم : ان الاسلام يجب ما كان قبله من كفر ، ثم انصرفوا من بعد ذلك عائدين الى أهلهم ·

وقد نرى في هذا الوفد ولقاء النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ظاهرتين واضحتين :

احداهما ــ أن الله تعالى قد يخـــرج من القلوب القاسية قلوبا مذعنة طيبة·

الثانية ــ ضلال العقول وسيرها في الشر ، فاذا قذف الله تعالى فيها بنور الحق اهتدت وآمنت وسبحـــان مقلب القلوب ·

وانك ترى سماحة النبي صـــلى الله تعالى عليه وسلم ، ورفقه ، واتيـــانه القلوب من حيث اقبالها ·

وفد صداء

٦٩٢ ــ جاء هذا الوفد مكونا من نحو (١٠٠) من أهل صداء باليمن ·

ويرجع أمر هذا الوفد الى سنة ثمان من الهجرة عندما اعتمر النبي صلى الله تعالى عليه وسلم عمرته الجعرانه فانه أرسل الى صداء باليمن جيشا مكونا من نحو أربعمائة مقاتل بقيادة قيس بن سعد بن عبادة ·

فقدم على رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم رجل منهم قد علم بأمر الجيش ويظهر أنه كان يعلم من قومه أنهم يميلون الى الاسلام خصوصا بعد أن فتح الله تعالى على نبيه الكريم صلى الله تعالى عليه وسلم مكة ·

فجاء رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم وقال يا رسول الله جئتك وافدا على من ورائي فاردد الجيش ، وأنا آتي لك بقومي ·

فرد رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم الجيش ، وقد ذهب الرجل الصدائي واسمه زياد بن الحارث ،كماذكر الواقدي في تاريخه الى قومه فأتى منهم بوفد عدد خمسة عشر رجلا ،وقد قال سعد بن عبادة ، دعهم يارسول الله ينزلوا علي فنزلوا عنده ، فحياهم وأكرمهم ، وكساهم ، ثم ذهب بهم الى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ،فبايعوه على الاسلام ، وقالوا نحن لك على من وراءنا من قومنا ·

رجعوا الى قومهم ففشا فيهم الاسلام ، وقد توافرت أسباب فشوه ، فهو حق في ذاته ، ولا غرابة في أن يفشو دين الفطرة ، بين قوم أرادوا الحق اذ لم يعاندوا ، أو يفرضوا خصومه ،ولأنه قد تم فتح مكة التي كانت تناوىء النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ،وتبالغ في مناوأته ، ولأن السلطان في البلاد العربية صار للاسلام وما لعربي أن ينأى بجانبه عن دين ساد البلاد العربية الا لأنه رأى أن في غيره ما هو خير منه،والاسلام خير الأديان ، وهو الحق الباقي ·

فشا الاسلام في صداء ، ويظهر أنه كانت لهم صلة بالخزرج بدليل ضيافة سعد بن عبادة •

ولذلك جاء من بعد ذلك مائة رجل منهم وافدين على الرسول صلى الله تعالى عليه وسلم في حجة الوداع ، ويظهر أنه الوفد الذي جاء في النهاية مسلما •

وعلى ذلك نقول ، انه جاء الى النبي صلى الله تعالى عليه وسلم من صداء ثلاثة وفود •

أولها : زياد بن الحارث الذي جاء الى النبي صلى الله تعالى عليه وسلم وطلب اليه أن يرد الجيش ، وقد قال له رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم يا أخا صداء أئنك مطاع في قومك ، فقال له بلى مِنْ مَنِّ الله عز وجل ومنّ رسوله •

وثانيها : الوفد الذي حضر مع زياد وعدد خمسة عشر رجلا ، قد استضافهم سعد بن عبادة ، وأولئك بايعوا النبي صلى الله تعالى عليه وسلم على الاسلام ، وأن ينشروه في قومهم •

وثالثها : وفد الجماعة الذين جاؤوا الى النبي صلى الله تعالى عليه وسلم والتقوا به في حجة الوداع، حيث يودع رسول الله أمته ، وقد أودعها أمانته ، وحملها رسالته •

ولقد صحب زياد بن الحارث الصدائي رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم في بعض غدواته وروحاته ، ورأى من الخوارق الحسية المادية التي جرت على يديه ما زاده ايمانا •

ويروى أن الرسول صلى الله تعالى عليه وسلم سأل زيادا في سيره في الصحراء أمعك ماء يا أخا صداء ؟ قال معي شيء في اداوة ، قال عليه الصلاة والسلام هاته فجاء به ، ويقول زياد :صبب ما في الأداوة ، فجعل أصحابه يتلاحقون ثم وضع كفه على الاناء ،فرأيت بين كل اصبعين من أصابعه عينا تفور ، ثم توضأ رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، وأذن للصلاة ، أذن لها زياد وأقامها ، وأراد بلال أن يقيمها ، فقال النبي صلى الله تعالى عليه وسلم (من أذن للصلاة يقيمها) •

ولقد سأل زياد بن الحارث أن يوليه عليه الصلاة والسلام امرة قومه فولاه ، لأنه وجده كفئا لذلك اذ كان مطاعا في قومه ، كما وصفه النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، ولأنه كان داعية الاسلام فيهم فكان من الخير للاسلام ولهم أن يتولى هو ولايتهم ، ولأنه لم يرد الولاية لذاتها ، ليكون له سيطرة وسلطان ، بل أراد الأمرة على قومه لغاية رأى النبي صلى الله تعالى عليه وسلم تحققها ، وذلك جائز ، ولا يعارض قول النبي صلى الله تعالى عليه وسلم وانا لن نولي على عملنا من أراده ، لأن نص الحديث يمنع الولاية ممن أرادها للسلطان والسيطرة لا للعمل ، واقامة الحق .

ولكن زيادا لم يستبق الولاية ، بل استقالها وأعطى النبي صلى الله تعالى عليه وسلم كتابي الامارة ، وولاية الصدقات .

وذلك لأن سائلا شكا الى النبي صلى الله تعالى عليه وسلم أن واليه طغى عليهم ، ويقول ان عاملنا أخذنا بدخول الجاهلية أو بثاراتها ، ويفهم من القصة أنه عزله ، وقال لا خير في الامارة لرجل مسلم ، وسأل رجل النبي صلى الله تعالى عليه وسلم أن يعطيه من الصدقة فقال عليه الصلاة والسلام : « ان الله لم يكلها الى ملك مقرب ، ولا لنبي مرسل حتى جزأها ثمانية أجزاء ، فان كنت جزءا منها أعطيتكها ، وان كنت غنيا ، فانما هي صداع في الرأس وداء في القلب » .

فهم زياد بن الحارث من هذا أن الولاية لا تأتي بخير للمسلم ، بل هي ابتلاء له ، فاستقال منهما ، وقال للنبي صلى الله تعالى عليه وسلم : يا رسول الله هذان كتابان (كتاب الامارة وولاية الصدقات) فاقبلهما ، فسأله الرسول صلى الله تعالى عليه وسلم عن السبب ، فقال : اني سمعتك تقول : « لا خير في الامارة لرجل مسلم ، وأنا مسلم ، وسمعتك تقول من سأل الصدقة وهو غني عنها ، فانما هي صداع في الرأس ، وداء في القلب ، وأنا غني » .

أقاله الرسول صلى الله تعالى عليه وسلم ، ولكن سأله أن يدله على رجل منهم فدله عليه .

وهكذا نرى أن ذلك الوفد كسب من النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ايمانا وعلما والله تعالى الهادي .

قدوم وفد سلامان

٦٩٣ ـ هذا وقد جاء من الصحراء وفد سلامان يعلن اسلامه ، ويشكو حاله ، وكان مؤلفا من سبعة رجال فيهم حبيب بن عمرو ، وقد أسلموا ، وأعلنوا اسلامهم .

وقد أخذوا يسألون النبي صلى الله تعالى عليه وسلم عن الاسلام ، وعن حقائقه ، وكان من أسئلتهم ما أفضل الأعمال ؟ فقال صلى الله تعالى عليه وسلم ـ الصلاة في وقتها ـ وكانت أفضل الأعمال لأنها تهذب النفس باستمرار اذا أديت في أوقاتها ، فهي تزيل صدأ القلب كلما اشتد في الظهيرة ، واذا أزالته وابتدأ يتراكم في الأصيل كانت صلاة العصر ، فاذا تراكم جاءت صلاة العشي حتى ينام طاهرا مطهرا ، فاذا جاء الصباح استقبل اليوم في طهارة ونقاء ، وعامل الناس بالطهر .

وقد صلى مع النبي صلى الله تعالى عليه وسلم صلاة الظهر والعصر ، فكانت صلاة العصر أخف من صلاة الظهر ، وقد استأنسوا بالنبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، فشكوا اليه جدب بلادهم ، فقال عليه الصلاة والسلام : « اللهم اسقهم الغيث في دارهم . فقال عمرو ، لاستئناسه بالرسول ورفقه : يارسول الله ارفع يديك ، فانه أكثر وأطيب ، فتبسم عليه الصلاة والسلام ، ورفع يديه ، حتى بدا بياض ابطيه » .

أقاموا ثلاثا في ضيافة النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، ثم عادوا الى ديارهم ، وقد أعطاهم عليه الصلاة والسلام جوائز ، كانت جائزة كل واحد خمس أواقي فضة .

واعتذر بلال عن قلة ما أعطى ، وقال : ليس عندنا اليوم مال ، فقالوا راضين قانعين ، ما أكثر هذا وأطيبه .

لما عادوا الى بلادهم وجدوها قد أمطرت ، وتحروا فرأوا أن ذلك المطر جاءهم في الوقت الذي دعا فيه النبي صلى الله تعالى عليه وسلم .

وكان مجيء ذلك الوفد في صفر من السنة العاشرة .

وفد غامد

٦٩٤ — جاء هذا الوفد مسلما في السنة العاشرة ، وعددهم عشرة عندما أقبلوا نزلوا ببقيع الغرقد وانفصلوا منه لمقابلة رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، وتركوا أحدثهم على ركابهم ، ليحرسها ، وقد قابلوا الرسول صلى الله تعالى عليه وسلم ، وعلمهم شرائع الاسلام ، وكتب لهم كتابا فيه هذه الشرائع ، أي موجزها ، كما جاء في خطبة الوداع ، فليس تفصيلها ، ولكن فيه جملتها خصوصا ما يكون هدما لأمر جاهلي ألفوه ، وكانوا له متبعين ٠

وحدث أن حارسهم الذي هو أحدثهم قد نام عن حراسته ، فسرقت عيبة فيها ثياب أحدهم ، وفر سارقها ،وعندما التقوا بالنبي صلى الله تعالى عليه وسلم أخبرهم بسرقتها ، قال لهم: من خلفتم في رحالكم ؟ قالوا أحدثنا سنا ، قال قد نام عن متاعكم حتى آتى آت فأخذ عيبة أحدكم فقال رجل منهم يا رسول الله ، ما لاحد من القوم عيبة غيري فقال الرسول صلى الله تعالى عليه وسلم ، فقد أخذت وردت الى موضعها ٠

خرج القوم وعادوا سراعا الى متاعهم ، فوجدوا صاحبهم فسألوه عما أخبرهم به رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، قال فزعت من نومي ففقدت العيبة فقمت في طلبها ، فاذا رجل قد كان قاعدا ، فلما رآني صار يعدو ، فعدوت وراءه وانتهيت الى حيث انتهى ، فاذا آثر حفر واذا هو يخرج العيبة فاستخرجها ، فقالوا نشهد أنه رسول الله

عادوا الى النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، وأخبروه أن الأمر كما أخبر عليه الصلاة والسلام ، وجاء الغلام وأسلم وعهد النبي صلى الله تعالى عليه وسلم بهم الى أبي بن كعب فعلمهم بعض ما تيسر من القرآن ، بعد أن كتب لهم كتابا بجملة الاسلام وحقائقه ٠

وقد أجازهم صلوات الله وسلامه عليه ، كما كان يجيز غيرهم ٠

وفد الأزد

٦٩٥ ـ ذكر خبر هذا الوفد أبونعيم في كتابه معرفة الصحابة بسنده، وأبو الحافظ بسنده ، وقالوا انه قدمهذا الوفد على رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم مؤمنا ، فدخلوا عليه ،فأعجب رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم سمتهم وزيهم ، فقال ما أنتم ؟قالوا قوم مؤمنون فتبسم عليه الصلاة والسلام ، فقال : ان لكل قول حقيقةفما حقيقة قولكم وايمانكم ؟

قالوا خمس عشرة خصلة خمس منهاجاء بها رسلك ، أن نؤمن بها ، وخمس أمرتنا آن نعمل بها ، وخمس تخلقنابها في الجاهلية ٠

قال عليه الصلاة والسلام : فما الخمس التي أمرتكم بها رسلي أن تؤمنوا بها ؟ قالوا أمرتنا أن نؤمن قال عليه الصلاة والسلام وما الخمس التي أمرتكم أن تعملوا بها ؟ قالوا قدآمرتنا ؟ آن نقول ، لا اله الا الله ، ونقيم الصلاة ،ونؤتي الزكاة ،ونصوم رمضان ، ونحج البيت الحرام لمن استطاع اليه سبيلا ، فقال عليه الصلاةوالسلام وما الخمس التي تخلقتم بها في الجاهلية ؟ فقالوا ، الشكر عندالرخاء ، والصبر عند البلاء ، والرضا بالقضاء ، والصدق في مواطن اللقاءوترك الشماتة بالأعداء ٠

فقال رسول الله صلى الله تعالى عليهوسلم : « حكماء علماء ، كادوا من فقههم آن يكونوا آنبياء ، واني أزيدكمفتتم لكم عشرون خصلة ان كنتم كما تقولون ، لا تحرموا مالا تأكلون ، ولا تبنوا مالا تسكنون ، ولا تنافسوا في شيء أنتم عنه غدا تزولون ، واتقوا الله الذي اليه ترجعون ، وعليه تعرضون ، وارغبوا فيما عليه تقدمونوفيه تخلدون » ٠

هذا وفد مؤمن حكيم ، قد انصرفوابعد أن أخذوا وصايا النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، وعملوا بها ، وتعهدوا بالأخذ بأحكام الاسلام ، وبما به امر ، وما عنه نهى وأقاموا الخلق الكريم ، والمعروف الذي تؤيده الأخلاق ٠

قدوم وائل بن حجر

٦٩٦ ـ قال ابن عبد البر : ان وائل بن ربيعة كان أحد أقيال حضرموت وقد وفد الى النبي صلى الله تعالى عليه وسلم في ضمن وفود اليمن ، والجنوب ، وقد رحب به صلى الله تعالى عليه وسلم عند قدومه ، وبشر قبل مقدمه فقد قال عليه الصلاة والسلام قبل مقدمه ، يأتيكم بقية أبناء الملوك ،فلما دخل عليه رحب به ، وأدناه من نفسه،وقرب مجلسه ، وبسط له رداءه ،وقد جاء اليه مسلما معلنا اسلام من وراءه من أتباعه في اليمن ، ورأى فيه النبي صلى الله تعالى عليه وسلم خيرا ، فدعاله بخير ، وقال في دعائه : « اللهم بارك في وائل وولده . وولد ولده » .

وعلى طريقة النبي صلى الله تعالى عليه وسلم جعله واليا على الأقيال من حضرموت . وكتب كتبا بهذه الولاية وكما يقول الحافظ بن كثير « منها كتاب الى المهاجر بن أمية ، وكتاب الى الأقيال والعباهلة » .

ولقد أقطعه رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم أرضا من أرض الجنوب وهو اقطاع منفعة ، لا اقطاع ملك ،على مال يقدمه لبيت المال .

وذلك لأن هذه أراض نائية عن أرباض المدينة . فلا يمكن أن يشرف عليها الامام بالمدينة بنفسه ، فيعطيها من يديرها ، على خرج يقدمه ،كأجرة لها . أو يكون من بعضها .

ولما انصرف من حضرة النبي صلى الله تعالى عليه وسلم أرسل معه معاوية ابن أبي سفيان ، وسارا في هذه الشقة البعيدة وهو راكب ، ومعاوية راجل . فشكا معاوية حر الرمضاء ،فقال في شكواه . انتعل ظل الناقة (أي لا ظل لها يستظل به) ويغني عني ذلك . لو جعلتني ردفا .

فقال وائل : اسكت ، فلست من أرادف الملوك .

ولعل النبي صلى الله تعالى عليه وسلم أرسله مع ذلك القيل العنيف ، ليرى

معاوية اذلال الملوك لمن معهم ، فيكــون رفيقا عندما يحول الخلافة الى مـــلك عضوض ، ويسير سير الملوك -

ومن العبر أن وائلا هذا عاش حتى آل الأمـر الى معـــاوية ، وجعله ملكا عضوضا ، يعض عليه بالنواجذ ، يروى أن وائلا قدم على معاوية ، وهو على هذه الحال ، فعرفه معـاوية وقـــربه وذكره بالرحلة التي كانت لهمـا ، ثم عرض عليه جائزة سنيـــة ، فأبى أن يأخذها ، وقال : أعطها لمن هو أحــوج اليها مني ٠

وان ذلك الرد عندي أعنف من رده عندما طلب أن يردفه ، لأن مؤدى هــذا الرد ، أنك تعطي لتقـــرب وتدني ،وتسكت الألسنة ، ولتعلي اسمـك بين الناس ، والأولى بالعطاء المحتاج ، وان ذلك شأن الذين يبنون حكمهم عـــلى شراء الألسنة ، وادناء ذوي السلطان ،وعـــدم الالتفات الى بر المحتاجـــين والضعفاء والمساكين يجعلون عطاياهـم اتجارا ، وصدقاتهم افتخارا ٠

وفد النخع

٦٩٧ ــ هذا آخر الوفود التي قدمت على النبي صلى الله تعالى عليه وسلم، قدموا عليه في مائتى رجل وقد نزلوافي دار الضيافة ، وقد جاؤوا مقرين بالاسلام ، وكانوا قد بايعوا قبل ذلكمعاذ بن جبل رضي الله تعالى عنه عندما ذهب الى اليمن داعيا الى الاسلام ٠

وجاؤوا الى النبي صلى الله تعالىعليه وسلم نائبين عن أقوامهم معلنين الطاعة مقرين خاضعين موالين مناصرين غير خارجين عن طاعة ، مع بعد الديار ٠

وحادثوا النبي صلى الله تعالى عليهوسلم وأفضوا اليه بذات نفوسهم ، وكان فيهسم رجل يقال له زرارة بنعمرو ، وكان رجلا مجلو النفس ، قويا في دينه قد رأى رؤيا فأراد أنيذكرها للنبي صلى الله تعالى عليه وسلم ليتأول هذه الرؤيا ٠

قال : رأيت في سفري عجبا ، وقص على النبي صلى الله تعالى عليه وسلم رؤياه ، وجاء فيما قص من الرؤيا أنقال : رأيت النعمان بن المنذر عليه قرطان مدملجان ، وسكتان . قال عليهالصلاة والسلام : « ذلك ملك العرب ، رجع الى أحسن زيه وبهجته » ٠

ورأيت يا رسول الله : عجوزا شمطاء قد خرجت من الأرض ٠ قال عليه الصلاة والسلام : تلك بقية الدنيا ٠

ورأيت يا رسول الله نارا خرجت منالأرض فحالت بيني وبين ابن لي يقال له عمرو ، وهي تقول لظى لظى ،بصير وأعمى . أطعموني أهلكم وأموالكم ٠

قال عليه السلام : تلك فتنة تكونفي آخر الزمان ٠

قال يا رسول الله ، وما الفتنة : قال يقتل امامهم ، ويشتجرون اشتجار

أطباق الأرض ، وخالف رسول الله صلىالله تعالى عليـــه وسلم بين أصابعه ، يحسب المسيء فيهـــا أنه محســـن ،ويكون دم المؤمن عند المؤمن أحـلى من شرب الماء ان مت آنت آدركهـــا ابنك ٠

قال : ادع لي يا رسول الله ألا أدركها ، فدعا له رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، وآدركها ابنه ، وكان ممناشترك في خلع ذي النورين عثمان ٠

هذا ما جاء في كتاب زاد المعاد فيهدي خير العباد لابن القيم ، ولم يذكر له سندا ، كما لم يذكر كتابا من كتبالصحاح آخذ عنه ذلك الخبر ٠

ولذلك نـــكل اليـــه أمـــر هذه الرواية ٠

ومهما يكن من صحـــة ما جاء بالنسبة للرؤيا وتأويلها ، فانه مما لاشك فيه أنه جاء وفد النخع الى النبي صلىالله تعـــالى عليـــه وسلم ، وأعلنـوا اسلامهم ، واسلام من وراءهم ، وآنهمقد علموا الاسلام ، وأن معاذ بن جبل علمهم أمور دينهم ، وحفظهـــم بعضالقرآن ، فجاؤوا اليه مؤمنين ٠

وان ارسال معاذ بن جبل اليهم معلماللاسلام ، ومحفظا للقرآن ، يشـير الى أن النبي صلى الله تعالى عليه وسـلم ،ما كان يرسل سرايا للحـروب فقط ، بل كان (خصوصا بعـــد الحديبية)يرسل سرايا لتعليم الاسلام ، ولمجـرد الدعوة ، ولكنهم كانوا مقـــاتلين ، لايحملون السيف الا اذا امتنعـــوا عن الاســـلام والعهـــد ، والله سبحـــانهوتعالى حامي دينه ، وحـــامي دعـوته لمن آرادها ٠

المغزى من هذه الوفود

٦٩٨ ــ اننا ذكرنا عددا من الوفود ، ولكن لم نحصها عددا ، فقد كانت أكثر من ذلك ، والنبي صلى الله تعالى عليه وسلم قد مكث في المدينة يستقبل الناس لتعليمهم الاسلام سواءفي ذلك من يجيئون زرافات في وفود عن غيرهم ، ومن يجيئون يريدون معرفة الحقائق الاسلامية ، والآحاد الذين يجيئون من قبائل مختلفة أفرادا أو غير أفراد .

مكث النبي صلى الله تعالى عليه وسلم في المدينة لذلك، ويرسل السرايا داعية الى الاسلام .

ويلاحظ في هذه أمور ثلاثة :

أولها ــ أن أكثر هذه الوفود كان من جنوب اليمن وحضرموت ، وما يدانيها من نجران والقبائل العربية التي لم تشترك في مناوأة النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ممالأة لقريش ،أو متحزبين معهم ، أو يرون مثل رأيهم في عبادة الأوثان ، أو يرونه ،ولكن لا يتشددون ، فلم تكن فيهم ممانعة نفسية من اتباع الآباء والأجداد الذين يقولون :

﴿ بَلْ نَتَّبِعُ مَآ أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴿١٧٠﴾ ﴾ (١)

ولا تقف محاجزة من إمرة أو رياسة تحول بينهم وبين الدخول في الاسلام ، وخصوصا بعد أن سن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم سنة ابقاء الأمير على امارته ، ان دخل في الاسلام مؤمنا وكان عدلا يرضى أهل امارته حكمه ، ولا يشكون منه شيئا ، فان هذه السنة جعلت الرؤساء والأمراء لا يفرضون في الدعوة المحمدية خصما يناوأ ،ويحارب ، وذلك لأن الذاتية يكون لها دخل في تحريك النفوس ، ولم يكن أمرهم ككفار قريش في أول الدعوة

---

(١) البقرة

المحمدية ، اذ فرضوا من أول الآمر ان الاستجابة تذهب بزعامتهم ورياستهم ، فكانت الذاتية أو الاثرة محركة لخصومتهم •

ثانيها ـ أن الوفود كانت تجيء الى النبي صلى الله تعالى عليه وسلم معلنة اسلامها وطالبة تعليم الفرائض وليشاهدوا النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، وليقبسوا من نور الحضرة النبوية في مجالسه عليه الصلاة والسلام ، وان ساعة في حضرة رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم تغني عن علم كثير ، بل انها هادية ملهمة كما أشار الى ذلك الامام أبو حنيفة رضي الله تبارك وتعالى عنه •

انهم اذ يعلنون اسلامهم ويخبرون عمن وراءهم بأنهم ارتضوا الاسلام دينا ومحمدا رسولا ، من غير عوجاء ولا لوجاء ، وان كان فيهم من تلكأ أو تردد ، فان كثرة المسلمين فيهم كافية لأن تجعل هؤلاء المترددين يتبعون ولا يخرجون •

ويلاحظ أن بلاد الجنوب كان للنصرانية واليهودية مكان فيها ، وخصوصا النصرانية ، وفيهم مجوس ، فكان رفق الاسلام بهؤلاء وعقد المعاهدات بينهم على أن يكون لهم ما للمسلمين وعليهم ما على المسلمين ، مقربا لهم ، وكانوا أهل علم بالديانات ، ومنهم من أسلم بناء على ما عندهم من الكتب التي تبشر بمحمد صلى الله تعالى عليه وسلم ،فيكون اسلامهم شهادة بصدق الدعوة المحمدية ، فوق أنها تشتمل في ثناياها ما يدل على كمال صدقها اذ هي التوحيد ومكارم الأخلاق ، وحسن المعاملات وتوثيق العلاقات الانسانية بين الناس أجمعين لا فرق بين عربي وأعجمي ،ولا قبيلة وقبيلة •

الأمر الثالث ـ أن هذه الوفود جاءت تترى وفدا بعد آخر في السنة التاسعة والعاشرة أي بعد فتح مكة ،وتخاذل الرومان عن لقاء الجيش الاسلامي وقد ذهب اليهم في دارهم أي عند الشام ، وقد تخلت عن نصرتهم القبائل العربية ، فلم يفعلوا ما فعلوه في مؤتة ، اذ كان منهم جيش كثيف يبلغ مائة ألف أو يزيدون •

وبذلك أخذ النفوذ الروماني ينحسر عن العرب ، ويذهب ظله كما كان الأمر بالنسبة لفارس •

وان ذلك من شأنه أن ينظر الى الدين الجديد على أنه الغالب ، المزيل للوثنية ، والمحيي للعزة العربية ، فهوالذي يجعل العربي يحس بعزته أمام بني الأصفر من الرومان ، وينفض عنهسيطرة كسرى ومن وراءه وخصوصا أن الكتب التي أرسلها النبي صلى الله تعالى عليه وسلم كان يظللها النور المحمدي وقوة الحق أمام ارهاب الباطل ، فأثار في ذلك نخوة عربية أمام الطغاة في الشمال والجنوب ، فكان من آثار ذلك أن ألقوا بكل نفوذ عربي.

وان هذا الوفد الذي لقي النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، وكان من أهل الجنوب الذي قال للنبي صلى الله تعالى عليه وسلم انا لا نبرم أمرا خارجيا الا بعد استئذان كسرى ، فأشار اليه النبي صلى الله تعالى عليه وسلم بأنهم سيرثون ملك كسرى ، فأعطوا النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، عهدا بأن يتبعوه.

ومن هذا يتبين رغبة العرب الذين امتد اليهم نفوذ الرومان والفرس في أن يخلعوا نيرهم ، ويردوا اليهم أمرهم ، وقد وجدوا في الدعوة المحمدية معينا لهم من أن يتحرروا من التبعية ،وهم الأحرار الذين فضلوا الشدة في عزة ، عن الأمن في ذل.

وقد رأى ذلك المتاخمون لفارس في كلام النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، وفي لقائه للوفود في مكة ، أولا: عندعرضه نفسه على القبائل قبيل الهجرة، وفي المدينة ثانيا: عندما أخذ يلتقي بالوفود ، من حضرموت واليمن ونجران.

وقد أدرك العزة العربية في الدعوة المحمدية أولئك الذين يتاخمون الرومان عندما التقى بهم في مؤتة وفي تبوك ، لقد عاون أولئك الرومان بحكم النفوذ الروماني في مؤتة ،ولكنهم لما أدركوا أن العزة في الأخوة المحمدية لم يعاونوهم في تبوك ، فلم يريدوا لقاء جيش الاسلام بعد أن أعدوا العدة ، وعينوا المدة ، فكان ذلك اشارة للعربي الحر ، (وكلهم أحرار) الى موطن عزته ،ومكان رفعته.

لذلك أخذ الاسلام يدخل في الصدور ، وقد فتحت له الأبواب ، في القبائل المتاخمة للرومان في الشمال وفي الجنوب كله ، وخصوصا ما تاخم الفرس ، وكان للفرس فيه نفوذ ،فوجد التخلص من هذا النفوذ المذل ، بالاسلام.

وان النبي صلى الله تعالى عليه وسلم لم يترك الأمر لتلك المنازع وحدها ، بل كان يرسل الرسل معلمين لهم والبعوث في السرايا ، فما كان رجال السرايا كما ذكرنا الا رجال تعليم ودعوة ، ولكن لأنهم يجتازون صحراء ويلقون ناسا غلاظا شدادا، كان لابد أن يكونوا من أهل الحرب ، والعلم معا ، فكانوا يحملون علم محمد صلى الله تعالى عليه وسلم ، أو بالأحرى بعض علمه ، ويحملون مع ذلك سيفه ، فهم يجاهدون بالأمرين والوقائع تعين استعمال أحدهما ·

وان الرسل كثيرون ، والسرايا أقل من الرسل ·

وقد ابتدأت الرسل الى الملوك والأمراء ، سواء في ذلك العرب وغيرهم فكتب النبي صلى الله تعالى عليه وسلم كما ذكرنا الى قيصر الروم ، وكسرى الفرس ، ومقوقس مصر ، ونجاشي الحبشة ، كما أرسلت الى أمراء اليمن وحضرموت ، ونجران وكثيرون من أولئك أجابوا بأن طلبوا من يعلمهم الاسلام ، لأنهم استجابوا له ، وأبقاهم النبي صلى الله تعالى عليه وسلم على ما تحت أيديهم وكذلك منهم من أوفدوفودا بالمبايعة على الاسلام ·

ولو وازنت بين أثر هذه الكتب في العرب ، وأثرها في غير العرب ، كهرقل وكسرى لوجدت أن أثرها في الأمراء العرب كان ايجابيا بالاستجابة وعدم المخالفة ، وأما أثرها في غيرهم ، فان استثنيت النجاشي الذي أسلم فانا نجد الباقين أجابوا بالرفض في عنف أو رفق فهو رفض في الحالين ·

وان السرايا كانت كما أشرنا دعاة الى الحق ، ولنذكر خبرين يثبتان مقدار عناية النبي صلى الله تعالى عليه وسلم بالدعوة ، وهما خبر ارسال معاذ بن جبل وعلي بن أبي طالب ،وكلاهما كان من علماء الصحابة بالاسلام ، واذا كان معاذ قد اشتهر بالعلم وفقه الاسلام فعلي المجاهد المحارب ، اشتهر بالعلم وفقه الاسلام ،حتى قيل ان النبي صلى الله تعالى عليه وسلم قال : « أنا مدينة العلم ، وعلي بابها » واشتهر من بعد وفاة الرسول عليه الصلاة والسلام بالفقه والقضاء معا ، حتى ان عمر رضي الله تعالى عنه في امارته كان اذا مسألة تعقدت قال مسألة ، ولا أبا حسن لها ، لأنه قوي العلم والفقه والادراك ·

وان الارسال تدل عباراته وما أحاط به على أنه ما كان للقتال ، وان كان على المقاتل الأول ، انما كان للتعليم ،وتفقيه الناس في دينهم الذي ارتضوه·

بعث معاذ بن جبل

٦٩٩ ـ عندما بعث النبي معاذ بن جبل الى اليمن بعث أيضا أبا موسى الأشعري قال البخاري بسنده ، بعث النبي صلى الله تعالى عليه وسلم معاذ بن جبل الى اليمن وأبو موسى الأشعري ،وبعث كل واحد على مخلاف ، واليمن مخلافان ثم قال : يسروا ولا تعسروا ،وبشروا ، ولا تنفروا •

وانطلق كل واحد منهما الى عمله ،وكان كل واحد منهما اذا سار في أرضه وكان قريبا من صاحبه فسلم عليه ، فسار معاذ في أرضه قريبا من صاحبه أبي موسى فسلم ، فجاء يسير على بغلته حتى انتهى اليه ، فاذا هو جالس ، وقد اجتمع الناس اليه ، واذا رجل عنده قد جمعت يداه الى عنقه ، فقال معاذ يا عبد الله بن قيس أثم هذا؟ قال هذا رجل كفر بعد اسلامه فقال

لا أنزل حتى يقتل ، قال أبو موسى ،انما جيء به لذلك فأنزل ؟ قال ما أنزل حتى يقتل ، فقتل •

وسقنا ذلك الخبر من البخاري للدلالة على أن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم اختار طائفة من فقهاء صحابته لتعليم الناس في اليمن وغيره أمور دينهم ، ويدعوهم الى الاسلام •

ولابد أن يذكر في هذا المقام أن معاذا رضي الله تعالى عنه قد بعث مزودا بمقاتلين ، ليبدأ بالدعوة الى الاسلام فان أسلموا علمهم الاسلام ، واقتصرت بعثته على التعليم والهداية•

وان كانت الأخرى قاتل :

وقد روى السرخسي في مبسوطه في السير الصغير وصية لرسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم أوصى بها معاذا عند قدومه على اليمن ومعه مقاتلون وهذا نص الوصية :

« لا تقاتلهم حتى تدعوهم ، فان أبوا فلا تقاتلوهم حتى يبدؤوكم ، فان بدؤوكم فلا تقاتلوهم حتى يقتلوا منكم قتيلا ، ثم أروهم ذلك القتيل ، وقولوا

لهم : هل الى خير من هذا سبيل ، فلأن يهدي الله تعالى على يديك رجلا واحدا خير لك مما طلعت عليه الشمس وغربت » (١) ·

وقد أغناه الله تعالى عن القتال ،فقد استجابوا ، فانتقل من الحرب الى الموعظة الحسنة التي علمه النبي صلى الله تعالى عليه وسلم اياها ·

واذا كان قد أوصاه الله تعالى مايجب عند الحرب ، فقد أوصاه أيضا بما يجب على المؤمن في كل الأحوال ،ولقد ذكر هو هذه الوصية عن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، فيمارواه الامام أحمد رضي الله تعالى عنه فقد جاء في هذه الوصية : « لا تشرك بالله شيئا وان قتلت وحرقت ، ولا تعقن والديك ، وان أمراك أن تخرج من مالك وأهلك ، ولا تتركن صلاة مكتوبة متعمدا فان من ترك صلاة مكتوبة متعمدا ، فقد برئت منه ذمة الله ، ولا تشربن خمرا ، فانه رأس كل فاحشة ،واياك والمعصية فانه بالمعصية يحل كل سخط ، واياك والفرار من الزحف ،وان هلك الناس واذا أصاب الناس موت وأنت فيهم فاثبت ، وأنفق على عيالك من طولك ، ولا ترفع عنهم عصاك أدبا وأحببهم في الله عز وجل » ·

ومن وصية النبي صلى الله تعالى عليه وسلم قوله له : « اياك والتنعم فان عباد الله ليسوا بالمتنعمين » ·

وبهذه الوصايا كان يعلم الناس واجبات الدين ومكارم الأخلاق ، ومما علمه النبي صلى الله تعالى عليه وسلم قوله : « مفتاح الجنة شهادة أن لا اله الا الله تعالى » ·

واذا كان النبي صلى الله تعالى عليه وسلم قد ترك معاذ بن جبل بمكة عند فتحها ليقيم فيها يعلم الناس ، فقد أرسله أيضا الى اليمن ليعلم أهله مع صاحبه أبي موسى الأشعري لتعليم الناس الاسلام ·

ومع هذا العمل الجليل ، وهو تعليم الناس ، كان رضي الله تعالى عنه يجمع الجزية دينارا من كل حالم ، ويقول في ذلك : « بعثني رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم الى اليمن وأمرني أن آخذ من كل أربعين بقرة مسنة ، ومن كل

---

(١) مبسوط السرخسي ج ١ ص ٣١ ·

ثلاثين بقرة تبيعا حوليا ، وأمرني فيماسقت السماء العشر،وما سقي بالدوالي نصف العشر وذلك في زكوات الأموالالظاهرة » ٠

ومن هذا يظهر أنه ولاه الخراج والجزية ، وولاه الصدقات فكانت الولاية العامة شاملة لـــكل ما يتعلق بادارة الحكم ٠

وقد روى الامام أحمــد في مسنده تفصيلا ، وان كان لا يخرج عما اتفق عليه الأئمة أصحاب السنن ، كما جاءفي الحديث السابق ، وهذا نص ما جاء في رواية الامام أحمد ٠

أمرني أن آخذ من كل ثلاثين تبيعا(١) ، ومن كل أربعين مسنــــة ، ومن الستين تبيعين ، ومن السبعين مسنـــةوتبيعا ، ومن الثمانين مسنتين ، ومن التسعين ثلاثة أتباع ، ومن المائة مسنةوتبيعين ، ومن العشر ومائة مســنتين وتبيعا ، ومن العشرين ومائة ثـــلاثمسنات ، أو أربعة أتباع ٠

هذه رواية أحمد ، وهي لا تخرجعن الرواية الأولى كمـــا ذكرنا ، وان كانت أكثر تفصيلا ، وان الذي يهمنافي هذه المسألة التي نترك تفصيلهـــا لكتب الفقه على نص الرســول في بابالزكاة بالنسبة للنعم والزرع والنقود٠

ان الذي يهمنا أن نذكر لماذا قصرت تعليمات النبي صــلى الله تعالى عليه وسلم للزكاة على هذين الأمرين وهمـــازكاة الزرع وزكاة البقر ، ولم يذكــر لمعاذ رضي الله تعالى عنه أمــر فيمـــايتعلق بزكاة غير البقر من النعم وهي الغنم والابل ، ونقول : ان ذلك فيمـــايظهر لنا يرجع الى أمرين :

أولهما : أن النبي صلى الله تعـــالىعليه وسلم أمر والي الصـــدقات بأن يجمع الأموال الظاهرة ، وهي النعـــموالزروع والثمار ، وترك غــيرها من الأموال التي سميت في الفقه بالأموالالباطنة لدين الناس يقدمونها من غــير تفتيش أو تكشف ، لأن النبي صلى اللهتعالى عليـــه وسلم دعا الناس الى أن يعدوا الزكاة مغنمـــا وألا يعـــدوهامغرما ٠

الأمر الثاني : وهو الخاص بالعنايةبذكر البقر دون غيرها من النعم ،وقد بين عليه الصلاة والسلام زكاة غــيرهامن النعم في مواضع أخــرى ، كـــان

---

(١) التبيع لم يبلغ السنه ويتبع أمه ،والمسنة أو المسن بالغ السنه ٠

يذكرها لمن يرسله لجمع الزكوات من القبائل التي تسكن الصحراء ، لأن السوائم فيها كان أغلبها من الغنم والابل ·

أما السبب في أنه سيجابه في أمره لمعاذ بن جبل ذكر له زكاة البقر والزرع ، ولم يذكرهما ، لأنه فيما يظهر كانت اليمن أرضا زراعية ،وفيها خصب ، وقد قال الله تعالى :

﴿ لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ ءَايَةٌ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُواْ مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُواْ لَهُۥ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ ﴿١٥﴾ ﴾ (١)

وان البقر يكثر حيث تكثر الزراعة، وحيث تكون أرض خصبة منتجة ، ولذلك ذكر النبي صلى الله تعالى عليه وسلم لمبعوثه الى اليمن زكاة ما يكثر في اليمن من زروع وثمار وأبقار ·

ويروى أن معاذا اتجر في المال الذي جمعه ، لأنه باع كل ما له في دين مستغرق كان عليه ، وجاء الى اليمن خاليا من كل عرض من أعراض الدنيا ، فتجر وكسب ، ولم ينقص من هذا المال شيئا ·

وقد كان اتجاره لأن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم قد علم خصاصته ، فأرسله اليمن ، وظن أن ذلك ليجبر فقره في حلال ، ولم يعد الى المدينة الا بعد وفاة النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، وقد صار أبو بكر خليفة رسول الله ولكنه تظنن في حل هذا المال الذي اكتسبه بالتجارة ·

جاء الى عمر رضي الله عنه وقص عليه خبر هذا المال ، وسأله ماذا يصنع به فقال الفاروق ادفعه الى أبي بكر ،فان أعطاكه فاقبله ، فقال الصحابي الجليل ، لماذا أدفعه اليه ، وانما بعثني رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ليجيزني ·

انطلق عمر به الى أبي بكر ، وطلب اليه أن يرسل الى معاذ فخذ منه ودع له ، أي فشاركه كسبه ، فقال الصديق : ما كنت لأفعل انما بعثه رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ليجبره ،فلست آخذ منه ·

ولكن معاذا التقي الذي اقتبس من نور الصحبة انطلق الى أبي بكر يدفع اليه المال كله حتى السوط الذي كان يساق به : فقال أبو بكر خذه فهو لك ·

---

(١) سبأ

هذا وقد فوض النبي صلى الله تعالى عليه وسلم اليه أمر قضـاء اليمن ، وشرح للنبي صلى الله تعالى عليه وسلم كيف يقضي اذا عرض له قضاء ، فقد روي عنه نحو سبعين من أهل حمص أن الرسول صلى الله تعالى عليه وسلم حين بعثه الى اليمن قال : كيف تصنع ان عرض قضاء : قال أقضي بكتاب الله ، قال عليه الصلاة والسلام ، فان لم يكن: قال فبسنة رسول الله ، قال عليه الصلاة والسلام ، فان لم يكن في سنة رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم : قال أجتهد رأيي ، واني لا آلو فضرب رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم على صدره ، وقال : الحمد لله الذي وفق رسول رسول الله لما يرضي رسول الله (صلى الله تعالى عليه وسلم)٠

وان ذلك الخبر كان أصلا للاجتهاد في الفقه ، أخذ به من أخذوا بالقياس وعارض فيه من عارضوا القياس ، وانهم لشرذمة قليلون ٠

وقد أثر له رأي في القضاء ، وهو أنه لا يرث الكافر من المسلم ، ولكن يرث المسلم من الكافر ، وبهذا الرأي أخذ الامامية من الشيعة ، وعمل به معاوية ، ولكن الجمهور الأعظم من الفقهاء لم يأخذ به ٠

روى الامام أحمد بسنده عن أبي الأسود الدؤلي قال : « كان معاذ باليمن فارتفعوا اليه في يهودي مات ، وترك أخا مسلما ، فورث معاذ المسلم من اليهودي ، وقال : اني سمعت رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم يقول : ان الاسلام يعلو ، ولا يعلى عليه فأخذ الحكم من القياس باعتبار أن الاسلام يعلو ، والميراث يكون ثمرة لهذا العلو، ولأن الكفر باطل والاسلام حق يوجب الميراث ، ولا يزول الحق لأجل الباطل٠

ولكن الجمهور الأعظم قالوا غير ذلك ، وحجتهم صريح السنة قولا وعملا ، فقد قال صلى الله تعالى عليه وسلم كما روي في الصحيحين : لا يرث الكافر المسلم ، ولا المسلم الكافر ، وقد ثبت عملا ، فان عقيل بن أبي طالب هو الذي ورث دور أبي طالب ، ولم يرث منها جعفر ، ولا علي ، ولا أم هانيء ، ولا غيرها من المسلمين عند وفاة أبي طالب ، وقال النبي صلى الله تعالى عليه وسلم في فتح مكة : ما ترك عقيل من دار ، ولا يرث المسلم الكافر٠

وخلاصة القول أن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم أرسل معاذا محاربا ، ومعلما ، وجامعا للصدقات والجزيةوقاضيا في الخصومات ، فكان هاديا مهديا ٠

ويقول الحافظ بن كثير في ولايته :كان قاضيا للنبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، وحاكما في الحروب ، ومصدقااليه تدفع له الصدقات ٠

وقد ذكرنا ما قاله رسول رسول الله معاذ بن جبل في اليمن هو وصاحبه عبد الله بن قيس (أبو موسى الأشعري)ليعرف القارىء أن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم كان يرسل الرسل منقبله الى الجهات النائية على أنها سرايا أحيانا ، وعلى أنها معلمون ، وان لمتذهب عنهم صفة السرايا ٠

فالدعوة الاسلامية أو تبليغ الرسالةالمحمدية هي الأصل ، وهي الغاية ، فان لم تقف في سبيلها عقبات ، اكتفى بها،وان وقفت محاجزات الأمراء والملوك كان الجيش المؤمن مزيلا لهذه المحاجزات حتى يخلو وجه الاسلام للدعوة المحمدية دعوة الله والحق ٠

ولقد كانت كل بعثة محمدية معهاقوة ، لأنه يجتاز فيافي وقفارا ، والأمن غير مستتب ، وقد حدث أن جاء ناسمن المشركين يخادعون النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، وذكروا له أن عندهم من يريد الاسلام فأرسل لهم من يعلمهم ، أرسل معهم قراء ، فأخذوهم،وباعوهم للمشركين ، وآخرون قد قتلوهم ، وقد تكرر ذلك ، فكان الحذريوجب على النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ألا يرسل قراء وحدهم ، بل لابدمن سرية حربية معهم ، والله تعالى في عون عباده المخلصين ٠

بعث علي

٧٠٠ ـ كانت اليمن عدة أقاليم ،فبعث عليه الصلاة والسلام عبد الله بن قيس (أبا موسى الأشعري) الى مخلاف، وبعث معاذ بن جبل الى مثله ، وكانا متجاورين ، فكان كل يذهب الى صاحبه، ولذا أمرهما النبي صلى الله تعالى عليه وسلم بأن يتطاوعا ولا يختلفا •

وبعث علي بن أبي طالب بعد خالدبن الوليد ، وهما محاربان ، ولكن أمرهما النبي صلى الله تعالى عليه وسلم، بألا يقاتلا الا بعد الدعوة الى الاسلام ، والامتناع عن الاجابة الىالاسلام أو الى العهد •

ولنذكر وصية النبي صلى الله تعالىعليه وسلم لعلي بن أبي طالب كما رواها السرخسي في كتابه شرح السيرالكبير للامام محمد ، وهي تشبه وصية النبي صلى الله تعالى عليه وسلم لمعاذ التي أسلفناها •

وهذه هي الوصية : « اذا نزلت بساحتهم ، فلا تقاتلهم حتى يقاتلوك ، فان قاتلوك فلا تقاتلهم حتى يقتلوامنكم قتيلا ، فان قتلوا منكم قتيلا ، فلا تقاتلهم حتى تريهم اياه ، ثم تقول‌لهم : هل لكم الى أن تقولوا : لا اله الا الله ، ولأن يهدي الله بك رجلا واحداخير مما طلعت عليه الشمس وغربت (١) •

ولكن عليا رضي الله تعالى عنه ، لميقاتل ، ولم يكن في حال يعرض عليهم ما أمره النبي صلى الله تعالى عليهوسلم أن يعرضه،لأنه جاء الى من أرسل اليهم علي من أهل اليمن قبله خالد بن‌الوليد ، ودعاهم الى الاسلام أو القتال فأسلموا ، ولم يقاتلوا ، وجمع منهم‌خالد بن الوليد فيئا وغنائم لم تخمس ، فأرسل النبي صلى الله تعالى عليه وسلم‌عليا ليقسمها ، أو ليخمسها ، كما يفهم ذلك من الروايات المتضاربة •

---

(١) شرح السير الكبير للسرخسي الجزء الاول ص٢٣٤ طبع جامعة القاهرة ولم يطبع فيها غيره •

قال البخاري بسنده « بعث النبي صلى الله تعالى عليه وسلم عليا الى خالد ليقبض الخمس » وقال أبو بريدة راوي الحديث عن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم وكنت أبغض عليا .

وانه يبدو من السياق التاريخي أن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم بعث عليا ليأخذ خمس النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، وذي القربى واليتامى والمساكين .

وان ذلك لم يكن وحده هو رسالة خالد ، بل كانت رسالته مع ذلك الدعوة الى الاسلام وتعليمهم ، وأن يؤمهم في الصلاة ، قال البراء بن عازب في رواية البيهقي : « كنت فيمن خرج مع خالد بن الوليد ، فأقمنا ستة أشهر يدعوهم الى الاسلام ، فلم يجيبوه ، ثم ان رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم بعث علي بن أبي طالب ، فلما دنونا من القوم خرجوا الينا ، ثم تقدم فصلى بنا ، فصفنا صفا واحدا ، ثم تقدم بين أيدينا ، وقرأ عليهم كتاب رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، فأسلمت همذان جميعا .

فكتب علي الى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم باسلامهم ، فلما قرأ رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم الكتاب خر ساجدا لله ، ثم رفع رأسه ، وقال السلام على همذان ، السلام على همذان .

ويظهر أن خالدا لم يعد الى المدينة بمجرد مجيء علي كرم الله وجهه ، بل مكث مدة ، ولا نريد أن نفرض أن خالدا كان في نفسه موجدة من ارسال النبي صلى الله تعالى عليه وسلم عليا ، ولكن نترك الحوادث حول علي تتحدث والأمور التي تدور حول علي تنطق .

لم يكن علي رضي الله عنه وكرم الله وجهه محبوبا في الأوساط العربية ، وخصوصا الذين ينتمون الى أقوام كانت لهم محاربة للنبي صلى الله تعالى عليه وسلم في بدر وأحد والخندق ، ثم حنين ، فقد كان سيف علي كرم الله وجهه في الجنة سريعا الى الرقاب ، كما كان سيف عمه حمزة في بدر ، وقد استطاع الشرك أن يقتل أسد الله حمزة ، فبقي لعلي الاحن .

ان عليا جاء لأخذ الخمس الذي يوضع تحت يد النبي صلى الله تعالى عليه وسلم لقرابته ، ولقد أخذ علي الخمس ، وكان فيه سبية جميلة ، فأخذها

علي ، وعاشرها بملك اليمين ، فقامت لذلك ضجة ، وأمر خالد فيما يظهر أن يبلغ ذلك للنبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، على أن عليا ملوم فيه ، ولنترك الكلمة لأبي بريدة ، حدث الامام أحمد بسنده الى أبي بريدة قال أبو بريدة أبغضت عليا بغضا لم أبغضه أحدا ،وأحببت رجلا (١) من قريش لم أحبه الا على بغضه عليا ، فبعث ذلك الرجل على خيل فصحبته ما أصحبه الا على بغضه عليا فأصبنا سبيا ، فكتب الى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، ابعث الينا من يخمسه ، فبعث الينا عليا ، وفي السبى وصيفة من أفضل السبي ، فخمس وقسم ، فخرج ،ورأسه يقطر ، فقلنا يا أبا الحسن ما هذا ؟ فقال ألم تردوا الي الوصيفة التي كانت في السبي،فاني قسمت وخمست فصارت في الخمس ، ثم صارت في أهل بيت النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، فكتب الرجل الى نبي الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، فقلت ابعثني ، فبعثني مصدقا فجعلت أقرأ الكتاب وأقول صدق فأمسك رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم يدي والكتاب ،فقال ، أتبغض عليا فقلت نعم ، قال ، فلا تبغضه وان كنت تحبه فازدد له حبا ، فو الذي نفس محمد بيده لنصيب آل علي أفضل من وصيفة ، قال أبو بريدة ، فما كان من الناس بعد قول النبي صلى الله تعالى عليه وسلم أحد أحب الي من علي .

ان هذا الخبر يدل على أن عليا رضي الله تعالى عليه كانت تتقصى هفواته،ولكنه لم يفعل حراما ،وحسبنا أن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم لم يستنكر فعله ، بل أيده ، ويدل الخبر أيضا على بغض الرجل الذي أشار اليه لعلي ، وأنه كان يريد أن يصوره أمام النبي صلى الله تعالى عليه وسلم في موقف الظنين .

والطريق لم يكن معبدا أمام علي ،لأنه حيث كان البغض ، فانه يد عثر الطريق ، ويصعب الوصول الى الحق المبين الصريح ، ولقد كان لنا أن نعلق على عمل علي كرم الله وجهه ، لولا أن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم أقره .

ومع أن الطريق لم يكن معبدا أمامه رضي الله تعالى عنه ، فانه كان شديدا فيما يعتقد أنه الحق ، لا تأخذه فيه هوادة ، بل ينفذه في صرامة ، لا رفق فيها ، أو بالأحرى لا لين فيه .

---

(١) سياق الكلام مما يدل على أنه خالد بن الوليد فكلمة الرجل تشير اليه في كل ذكر لها .

ومن ذلك أنه كان تحت يده إبل الصدقة ، وقد روى البيهقي عن أبي سعيد الخدري : كنت فيمن خرج معه(أي علي) فلما أخذ من ابل الصدقة سألناه أن نركب منها ونريح ابلنا ،وكنا قد رأينا في ابلنا خللا ، فأبى علينا وقال انما لكم فيها سهم كما للمسلمين ، فهو لا يريد أن يمكنهم منها قبل أن تقسم السهام ، وهو غير الوصيفة ، فانه جاء لتسلم خمس النبي وذوي قرابته ، فبالاستيلاء ، قداستولى على سهمه ، أما هم فهم يريدون الانتفاع بها من غير تقسيم ٠

وذهب من ذلك علي كرم الله وجهه ليلقى النبي صلى الله تعالى عليه وسلم في حجة الوداع ، واستخلف على بعض من معه على الغنائم ، فسأله الناس ما منعه علي كرم الله وجهه في الجنة ،فسألوه ما منعه علي ، فأجابهم ٠

ولما حج علي مع النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، وقفل راجعا بأمر النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، ورأى ما حدث في غيبته فرأى أثر الركوب في ابل للصدقة فجاء بحق من أنابه وقدمه ولامه على ما فعل ، وأعاد المنع كما بدأ٠

فقال أبو سعيد الخدري رضي الله تعالى عنه ، لئن قدمت المدينة لأذكرن لرسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ما لقيناه من الغلظة والتضيق ٠

بلغ ذلك للنبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، فقضى لعلي وأنصفه فيما فعل، وقال لقد علمت أنه أحسن في سبيل الله ، ومنها أنه عندما تعجل في الحج مع رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم،وخلف ذلك الرجل المتساهل ، وقد أعطى ما منع علي ، كان قد كسا الجيش كله حللا ، كل رجل حلة ، فلما عاد علي من الحج ، دنوا منه وعليهم الحلل ، فلما رأى عليهم الحلل ، قال ما هذا ؟ قالوا كسانا فلان ، فقال لمن خلفه ما دعاك الى هذا قبل أن تقدم على رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ،فاشتكوا الى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ٠

وفي الحق ان توقف علي كان في هذه المسألة سليما لأن هذه الحلل كانت من جزية موضوعة ، فما لأحد أن يوزعها ، قبل اعلان الرسول صلى الله تعالى عليه وسلم بها ، وتلقي أمره في توزيعها ٠

كانت الشكوى من علي كرم الله وجهه قد شاعت في الحجيج وكثر القول فيه،وكل من تكلم كان مغرضا لا يروم الحق ، ولعلي الحق في كل ما فعل ،

ولكن البغض له خصوصا من له في الجيوش الاسلامية مكان من قبل ومن بعد ٠

ولقد قال في ذلك الحافظ بن كثير في تاريخه : « والمقصود أن عليا كثر فيه القيل والقال من ذلك الجيش بسبب منعه اياهم استعمال ابل الصدقة ، واسترجاعه منهم الحلل التي أطلقها لهم نائبه ، وعلي معذور فيما فعل ، لكن اشتهر الكلام فيه في الحجيج، ولما رجع النبي صلى الله تعالى عليه وسلم من حجته وتفرغ من مناسكه ،ورجع الى المدينة فمر بغدير خم ، قام في الناس خطيبا فبرأ ساحة علي ،ورفع من قدره ، ونبه على فضله ، ليزيل ما في نفوس كثيرين » ٠

وننبه هنا الى أمور ثلاثة يوجب الحق التنبيه اليها :

أولها ـ أن كلمة ابن كثير بالنسبة لعلي كرم الله وجهه « انه معذور » لا نرى أنها في موضعها ، والأولى أن يقول انه كان فيها محقا ، ففرق كبير بين المعذور والمحق ، فان المعذور مخطىء له عذر ، وأما المحق فانه غير مخطىء ، وما كان علي في أمر الحلل ،والرواحل الا محقا ، منفذا ، ولو كان في شدة ٠

ثانيها ـ أن الكلام الذي قيل في غدير خم انتهى بقول النبي صلى الله تعالى عليه وسم : « اللهم وال من والاه وعاد من عاداه » ٠

ثالثها ـ أن هذا كله من بغض علي كبغض أبي بريدة الذي ذكرناه وبغض الرجل الذي كان يحبه أبو بريدة ،لأنه يبغض عليا ، وأن ذلك الرجل الذي أشار اليه أبو بريدة ، وقد نالته موجدة من ارسال علي كما أشرنا ، وقد عاد قبل عودة علي كرم الله وجهه ، فعمل على اشاعة القيل والقال على امام الهدى ، ولقد كانت عبارة النبي صلى الله تعالى عليه وسلم تومىء الى أن الذين أشاعوا ذلك معادون لعلي ،مبغضون له بغض أبي بريدة أولا ، ولكن الله تعالى هداه بهداية النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ٠

وعلي رضي الله تعالى عليه جدير بأن ينفس الناس عليه فضله ، فقد مكث الرجل ستة أشهر يدعوهم الى الاسلام ، فلم يستجيبوا ، وبمجرد لقاء علي رضي الله عنه والصلاة وراءه ،قد استجابوا لداعي الحق ، وعلي فوق

ذلك العالم الجليل ، والشجاع المحارب ،وبطل بدر وأحد ، وهو الذي حمل اللواء ، وعلا ، ورأى المشركون أنه لاسبيل لأن يبقوا أمامه فعادوا كأنهم المهزومون،وهم الذين أصابوا جراحاتفي المسلمين ٠

لقد كان علي فريسة المبغضينفي موطنين :

أحدهما - في جماعة علي ، وقدبرأه النبي صلى الله تعالى عليه وسلم، ورد كيد الكائدين وأطفأ نيران الغضبعند من ظهر غضبه ٠

الموطن الثاني - في خلافته ، وخروج البغاة عليه ، وتحرك الضغائن ، وفي هذه المرة لم يكن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم حيا ، فلم يقف بغدير خم يقول : « اللهم وال من والاهوعاد من عاداه » ٠

توليته على قضاء اليمن :

٧٠١ - كان القضاء في العادات العربية يتولاه أسن الرجال ، وأكثرهم تجارب ، ومعرفة لعادات القبائل ،فكانيقضي مثل أكثم بن صيفي الذي عاش حتى بلغ نحو التسعين من عمره ، لأنالقضاء يحتاج الى فضل تجربة ،وفضل تأثير ، لتنفذ الأحكام نفسيا ، ويذعنالمتخاصمون لها قلبيا ويكون له من الجلال في وسط قومه ما يجعل قوله فصلا ، يؤمنون بالعدل فيه ٠

ولذلك لما عهد النبي صلى الله تعالىعليه وسلم الى علي أن يقضي في اليمن في غير الحيز الذي كان فيه معاذ بنجبل وأبو موسى الأشعري ، اذ كان اختصاصه يعم اليمن كله ، لما عهدالنبي صلى الله تعالى عليه وسلم ذلك الى علي استصغر سنه وعرض على النبيأنه حدث السن ، اذ لم يكن الا في حدود الثانية أو الثالثة والثلاثين ٠

روى ابن ماجة ، والامام أحمد عنعلي كرم الله وجهه ، قال : بعثني رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم الىاليمن ، فقلت : يا رسول الله ، تبعثني الى قوم أسن مني ، وأنا حدث لا أبصرالقضاء ، فوضع يده على صدري ، وقال : اللهم ثبت لسانه ، واهد قلبه ،يا علي اذا جاءك الخصمان ، فلا تقض بينهما ، حتى تسمع من الآخرما سمعت من الأول ، فانك اذا فعلت ذلك تبين لك الحق ، فما اختلف علىعلي قضاء بعد ٠

وان هذه الدعوة النبوية قد صدقت في علي كرم الله وجهه ، فقد ثبت الله تعالى لسانه ، حتى كان أخطب الناس بعد رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، وأثبت الناس قولا بعده عليه الصلاة والسلام ، وكان مهديا ، فما لان في حق ، ولا مالأ مبطلا ، وهداه في القضاء ، حتى روي أن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم قال : « أقضاكم علي » وكان عمر كما ذكرنا يسأله اذا أعضل عليه القضاء في مسألة من مسائله، فيقول : مسألة، ولا أبا حسن لها»٠

وقد رويت عنه روايات في قضائه دالة على نفاذ بصيرته ، وانفتاق عقله الذي هو قبسة من الهدي المحمدي ، اذ رضع لبان هذه الهداية صغيرا ، وتربى عليه ، ونزح بدلو المعرفة من أعظم ينبوع لها ٠

وقد ذكرت له مسائل في القضاء هداه الله تعالى اليها ، فقد كان يحاول الوصول الى الحقيقة ، خصوصا في الأنساب ، فلا يترك ولدا من حلال من غير أب ٠

تنازع اثنان في نسب ولد ، ولم يكن لأي واحد منهما دليل ، وكان المنتظر أن يتهاتر الادعاءان ، ولا يكون للولد نسب ، فلما لم يجد سبيلا أقرع بينهما ، وحكم بالنسب لمن تحكم له القرعة ، وعليه أن يدفع الدية للآخر ، وبهذا أنصف الرجلين ولم يهدر نسب الولد ، وبهذا أخبر الامام أحمد عن علي ، وقد أفرد عن غيره بهذا الرأي ، وروى عن علي كرم الله وجهه قضاء في مسألة معقدة ، وانتهى فيها الى حكم ، لا يزال موضع اعجاب رجال القضاء الى اليوم ٠

روى الامام أحمد أن قوما كان يغير عليهم أسد ، فبنوا له زبية (مكانا يتردى فيه) فتدافع الناس فسقط رجل ، فتعلق به آخر ، ثم تعلق بالآخر ثالث ، وتعلق بالثالث رابع ، وقد جرحهم جميعا الأسد وماتوا ، فجاء أولياء المقتولين ، وهموا بأن يقتتلوا ،فقال لهم امام الهدى بعد النبي صلى الله تعالى عليه وسلم . أتريدون أن تقاتلوا ، ورسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم حي ، اني أقضي بينكم قضاء ان رضيتم به ، فهو القضاء ، والا أحجز بعضكم عن بعض ، حتى تأتوا رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، ليكون هو الذي يقضي بينكم ، فمن عدا بعد هذا فلا حق له ٠

كان قضاء علي في القضية ، يسير على مبدأين : أحدهما أنه لا يطل دم في الاسلام ، وذلك مبدأ مقرر روي بعبارته عن علي كرم الله وجهه في الجنة ·

الثاني ـ أن العجماء جبار ، أي ما تجني الدواب ، لا غرامة فيها الا أن يكون صاحبها المتسبب ، فيغرم هو الدية كلها أو بعضها ·

ونجد أن الأول تسبب في هلاك الثلاثة بعده ، وقد تمكن السبع من الجميع بترديه أولا ، ثم تعلقه بالثاني والثاني بالثالث ، والرابع ·

وكانت الدية واجبة كاملة لهم جميعا بناء على القاعدة الأولى ، ولكن يستنزل من دية كل واحد دية من تسبب في قتله ، وقد تسبب في قتل ثلاثة ، فيأخذ ربعا ، باسقاط ثلاثة أرباع لمن تسبب في قتلهم ، فهو السبب في قتل ثلاثة ·

والثاني تسبب في قتل اثنين ، فينقص من ديته الثلثان ، فيكون له الثلث ، والثالث ، تسبب في قتل الرابع ، فيخصم من ديته النصف ، والرابع ، وهو الذي سقط أخيرا لم يتسبب في قتل أحد ، فلا يخصم من ديته شيء قط ، وبذلك يكون المطلوب ديتان وسدس دية ، هذا معنى قول علي في قضائه ، فقد قال : « اجمعوا من قبائل الذين حفروا البئر ، ربع الدية ، وثلث الدية ، ونصف الدية ، والدية كاملة » ·

فللأول الربع ، لأنه هلك ، والثاني ثلث الدية والثالث نصف الدية ، والرابع الدية ، هذا قضاء علي ، وقد طلبت هذه الديات ممن حفروا البئر ، لأنهم المتسببون ابتداء ، والتسبب الآخر نسبي ، في دائرة التسبب الأصلي ·

ولا نعلم في هذه القضية المعقودة المتشابكة التي ترابطت فيها الأسباب ، وتشابكت أعدل من هذا ، واذا كان ثمة بعض الانفكاك في المقدمات ، أو يتوهم ذلك ، فان قضاء علي في هذا هو أحكم القضاء ·

ولكن أولياء المقتولين ، لم يرتضوا ذلك ، وكأن كل ولي يريد دية كاملة لمقتوله ·

وذهبوا الى النبي صلى الله تعالى عليه وسلم وهو في حجة الوداع ، وهو عند مقام ابراهيم ، فقصوا عليه القصة ، فقال أنا أحكم بينكم ، فقال رجل من القوم ، يا رسول الله ، ان عليا قضى علينا ، وقصوا على النبي صلى الله تعالى عليه وسلم قضاء علي ، فأجازه رسول الله عليه الصلاة والسلام .

وبعد فهذا علي كرم الله وجهه في اليمن ، كان الداعية المستجاب في دعوته للاسلام ، فآمنوا لفرط تقواه ،واشراق نور الايمان في قلبه ، فما يخرج من القلب يصل الى القلوب ،واخلاص الداعي هو الجاذبية التي تحوط المدعو ، فتهديه الى الايمان ان لم تعتكر القلوب ، وتفسد الضمائر وهذا علي الحاكم الحازم ، لم تأخذه في الحق هوادة ، وليس للباطل عنده ارادة ، وان شكا الناس منه غلظة ،فلفساد قلوب تستغلظ الحق،وتستطيب الباطل ، وقد أنصفه رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم منهم ، ونعم المنصف العادل .

وهذا علي في قضائه العدل الحكيم، والله ولي المؤمنين .

بعث الصدّيق ليكون أمير الحج

٧٠٢ ـ في زحمة الوفود لم نسرفي مسار التاريخ ، فلم نذكر الوقائع في مواقيتها ، ميقاتا بعد ميقات لأن الوفود لم يكن ميقات كل واحد منها محدودا بحد لا يقبل الاختلاط بغيره ،ولذا ذكرناها في مواقيتها على وجه التقريب ، لا على وجه التعيين ، ومهمايكن فان غالبها ذكر في ميقاته وفي مناسباته ، ولكن الأمر الذي لم نذكرهفي ميقاته ، بل ذكر ما بعده قبله ، هو حجة أبي بكر التي تولى فيها إمرةالحج ، وهذه أول حجة كانت بامرة من النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، أيكانت في ظل الاسلام ، بعد أن هدمت الأوثان من فوق الكعبة ، ومن حولها ،بل من حول أم القرى كلها ٠

كان حج أبي بكر عقب غزوة تبوك التي كانت آخر غزوات النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، ومن بعدها ، أخذ يستقبل الوفود ، ويرسل الدعاة الى الاسلام ، ويقتفي آثارهم في دعواتهم ، ومقدار الاستجابة لهم ، فانتهى بهذه الغزوة ، عهد تأمين الدعوة فيعصر النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ٠

وتفرغ عليه الصلاة والسلام للدعوة ذاتها ، وقد زالت كل المحاجزات المانعة ، واستمر دخول الناس في دينالله تعالى أفواجا ، وقد ابتدأ ذلك من بعد صلح الحديبية كما أشرنا الى ذلكفي موضعه من القول ٠

وعلى ذلك فالدعوة كان لها ثلاثة أدوار :

الدور الأول:دور وضع الأسسوتكوين جماعة قوية في ايمانها ،وان كان فيها ضعف في السلطان ، وقلةفي العدد ، وأولئك هم الحواريون لمحمد ، كالحواريين لعيسى عليه وعلىنبينا أفضل الصلاة والسلام ٠

والدور الثاني : دور الدعوة ، وتذليل العقبات ، وازالة الحجزات ، فالدعوة لم تكن السبيل أمامها معبدة ،بل كان لابد من عمل لتعبيدها بازالة كل العقبات التي تقف في طريقها ٠

الدور الثالث : كان بعد أن زالت العقبات في الجزيرة العربية وصار الدين لله تعالى ، وقد كانت حياة النبي صلى الله تعالى عليه وسلم وصحابته من المهاجرين والأنصار الذين حضروا بيعة الرضوان خالصة للدعوة ، وتبيين الحقائق الاسلامية ، وبذلك كان كل من يبعثهم من أهل بيعة الرضوان ، وان بعث من غيرهم أردفه بواحد من الحواريين الأولين أو أهل بيعة الرضوان ، كما فعل مع خالد وعلي رضي الله عنهما بالنسبة لليمن ، وقد أشرنا الى ذلك من قبل .

اتجه عليه الصلاة والسلام في الدور الثالث الى تطهير مكة من أن يدخل فيها رجس الجاهلية من عبدة الأوثان ولقد جرى حج السنة الثامنة على ما كان يجري عليه من قبل ، فلم يصد عنها مشرك ، فلما آلت امرة الحج الى الاسلام ، منع الله المشركين من أن يدخلوا المسجد الحرام في السنة التاسعة ، ونزل قوله تعالى في سورة براءة :

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُواْ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَـٰذَا ۚ وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦٓ إِن شَآءَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٢٨﴾ ﴾ (١)

يقول ابن اسحاق انه بعد تبوك التي انتهت في رمضان « قضى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم بقية رمضان وشوالا ، وذا القعدة ، ثم بعث أبا بكر أميرا على الحج سنة تسع ، ليقيم للمسلمين حجهم ، والناس من أهل الشرك على منازلهم من حجهم ، لم يصدوا بعد عن البيت ، ومنهم من له عهد مؤقت الى أمد » .

كان هناك اذن عهدان : عهد جاهلي ، وهو عام ، فيه اذن بألا يصدوا عن البيت ، قد كان هذا على العادة الجارية ، وقد توثق بعد الحديبية ، وعهد خاص قد عقده النبي صلى الله تعالى عليه وسلم وهذا يبقى الى أمده .

وان العهد الذي جرى على مجرى العادة الجاهلية ، قد انتهى بأن صار للاسلام الكلمة العليا ، وصار التوحيد هو الحاكم ، وجاءت ملة ابراهيم الصحيحة في الاسلام بعد أن انحرف العرب ، وعبدوا الأوثان فلم يكن منع

---

(١) التوبة

النبي صلى الله تعالى عليه وسلم بحكم القرآن ، نقضا للعهد ، ولكنه تصحيح للوضع .

أما عهد النبي صلى الله تعالى عليه وسلم فهو قائم على أسسه حتى ينتهي أمره .

وان أبا بكر ما ان فصل بركبه ،حتى لحق به علي بن أبي طالب يحمل سورة براءة ، وكانت قد نزلت بأنه لا عهد للمشركين عبدة الأوثان في أن يحجوا البيت الحرام بعد عامهم هذا .

قال ابن اسحاق : لما نزلت سورة براءة على رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، وكان قد بعث أبا بكر ليقيم للناس الحج،قيل له يا رسول الله : لو بعثت بها الى أبي بكر ، فقال عليه الصلاة والسلام : « لا يؤدي عني الا رجل من أهل بيتي » ، ثم دعا علي بن أبي طالب ، فقال له اخرج بهذه آيات من صدر براءة ، وأذن في الناس بالحج يوم النحر اذا اجتمعوا بمنى ، أنه لا يدخل الجنة كافر ، ولا يحج بعد العام مشرك ، ولا يطوف بالبيت عريان ومن كان له عند رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم عهد فهو الى مدته ، فخرج علي بن أبي طالب على ناقة رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم البيضاء ، فلما رآه أبو بكر قال : أمير أو مأمور ! فقال علي : بل مأمور ثم مضيا ، فأقام أبو بكر للناس الحج اذ ذاك في تلك السنة على منازلهم من الحج التي كانوا عليها في الجاهلية حتى اذا كان يوم النحر قام علي بن أبي طالب فأذن في الناس بالذي أمره به رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، وأجل أربعة أشهر من يوم أذن فيهم ، ليرجع كل قوم الى مأمنهم ، وبلادهم ، ثم لا عهد لمشرك ولا ذمة ، الا عهد كان له عند رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم فهو الى مدته ، فلم يحج بعد ذلك العام مشرك ، ولم يطف بالبيت عريان .

وروى الامام أحمد أن علي بن أبي طالب قال : « بعثت يوم بعثني رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم مع أبي بكر في الحجة بأربعة : لا يدخل الجنة الا نفس مؤمنة ، ولا يطوف بالبيت عريان ، ومن كان بينه وبين رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم عهد ، فهو الى مدته ، ولا يحج المشركون بعد عامهم هذا » .

وهذا الكلام يستفاد منه إبطال العادات الجاهلية في الحج كطواف غير قريش عرايا ، وقريش تمتاز بأن يطوف حجاجها لابسين .

ولقد قسم الحافظ ابن كثير الحجيج من المشركين الى قسمين من لهم عهد ، فانه يلتزم بعهده الى نهاية مدته ، ومن ليس له عهد يؤجل الى أربعة أشهر .

وهذا التأجيل ، والغاء العهد ثبت بقوله تعالى في أول سورة براءة :

﴿ بَرَآءَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١﴾ فَسِيحُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِى ٱللَّهِ ۙ وَأَنَّ ٱللَّهَ مُخْزِى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢﴾ وَأَذَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلنَّاسِ يَوْمَ ٱلْحَجِّ ٱلْأَكْبَرِ أَنَّ ٱللَّهَ بَرِىٓءٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ۙ وَرَسُولُهُۥ ۚ فَإِن تُبْتُمْ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِى ٱللَّهِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنقُصُوكُمْ شَيْـًٔا وَلَمْ يُظَٰهِرُوا۟ عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتِمُّوٓا۟ إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَىٰ مُدَّتِهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٤﴾ فَإِذَا ٱنسَلَخَ ٱلْأَشْهُرُ ٱلْحُرُمُ فَٱقْتُلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَٱحْصُرُوهُمْ وَٱقْعُدُوا۟ لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ ۚ فَإِن تَابُوا۟ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ فَخَلُّوا۟ سَبِيلَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥﴾ ﴾ (١)

وان هذا النص الكريم فيه الوفاء بالعهد للذين أوفوا بعهودهم ، وأن من يكونون غير معاهدين ينتظرون أربعة أشهر ، حتى يصلوا الى مأمنهم في بلادهم .

وليس معنى الوفاء لذوي العهد الذين عاهدوا النبي صلى الله تعالى عليه وسلم أن يمكنوا من دخول البيت الحرام الا وهم باقون على شركهم ، فان الآية الكريمة صريحة في المنع ، اذ قد تلونا قوله تعالى :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّمَا ٱلْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا۟ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَٰذَا ۚ ﴾ (٢)

---

(١) و (٢) التوبة

وان التأجيل أربعة أشهر ، انما هوخاص بقتالهم وقتلهم ، فأعطوا مهلة أربعة أشهر ليصلوا الى مأمنهم ولا يؤخذوا على غرة ، وقد جاؤوا حاجين طائفين في زعمهم ·

٧٠٣ – ونقف هنا وقفة قصيرةفي اختصاص أبي بكر وعلي في هذه الحجة المباركة ·

لقد اختص النبي صلى الله تعالىعليه وسلم أبا بكر بأن تكون له امرة الحج ، ولما لاقاه علي قال أبو بكر أميرأم مأمور ، فقال له بل مأمور ، هذا ما اختص به أبا بكر ، وان ذلك بلاريب تشريف لأبي بكر ، واكبار لامرة الحج في ذاتها ، واختص عليا بأن يكونالمبلغ لنزول سورة براءة وفي أكثر الروايات أن النبي صلى الله تعالى عليهوسلم قال في اختصاص علي بتبليغ نزول سورة براءة « لا يؤدي عني الا رجل من أهل بيتي » اذ ذلك بلا ريب اختصاص فيه تكريم ، وثقة كاملة منالنبي صلى الله تعالى عليه وسلم ·

وقد أخذ الشيعة الامامية وغيرهمممن يجعلون عليا أولى بالخلافة من الشيخين أبي بكر وعمر رضي الله تعالىعنهما ، قد أخذوا من هذا أن عليا أفضل أو أولى بالخلافة عنه عليه الصلاةوالسلام منهما ، لأن الخلافة خلافة عن الرسول صلى الله تعالى عليه وسلم يقومبما كان يقوم به الرسول في أمر أمته، ورياستها ، والقيام بحق التبليغ ،الذيهو أخص أوصاف الامامة الكبرى ، ويؤيد هذا قوله عليه الصلاة والسلام :« لا يؤدي عني الا رجل من أهل بيتي » فكون الخلافة لعلي كرم الله وجهه فيالجنة ، لأن الخلافة أداء لبعض أحكام النبوة ، أو لكلها ، وان كان لا نبي بعدالنبي صلى الله تعالى عليه وسلم ·

استدلوا بهذا ، وبقول النبي صلىالله تعالى عليه وسلم عند ما تركه في المدينة ليقوم على أهله : « أنت منيبمنزلة هارون من موسى ، غير أنه لا نبي بعدي » ·

فأخذوا من هذا الحديث أن لعليعند النبي صلى الله تعالى عليه وسلم منزلة فوق منزلة غيره من الصحابة الأكرمين فاذا كان أبو بكر رضي الله تعالى عنه ، وعمر الفاروق لهما فضلالصداقة ، فعلي بالنص له فضل الأخوة ، والمشاركة بيد أنه ليس بنبي،ولا يوحى إليه ، وان هذا يجعل عليا

في مكانة أعلى منهما ، وبنوا على ذلك أنه وصيه ، كما بنى الزيدية على هذا أنه أفضل من أبي بكر وعمر ، وان لم يكن وصيا ٠

واستدلوا ثالثا — بقول النبي صلى الله تعالى عليه وسلم في غدير خم عند رجعته من حجة الوداع ، من كنت مولاه فعلي مولاه ، اللهم وال من والاه ، وعاد من عاداه ، وان هذا يدل على أن الولاء لعلي ولاء للنبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، ومعاداته معاداة للنبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، ولم يكن ذلك لأحد من الصحابة غيره ، وهو بذلك أولى بالخلافة من غيره ، وهو أفضل من الشيخين وغيرهما ٠

ذلك ما قالوه ، وما اتفقوا عليه ، فقد اتفق الشيعة جميعا على فضل علي رضي الله عنه ، وأنه مقدم على أبي بكر وعمر ، وان اختلفوا في ذلك كثيرا ٠

ونحن نقرر أن ما ساقوه يدل بلا ريب على فضل علي أولا ، وعلى محبة النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ثانيا ، وعلى أنه عليه الصلاة والسلام كان يعهد اليه بأشد المهام وثاقة بالدين ثالثا ٠

ولكنه لا يدل على أنه أولى بالخلافة من الشيخين رضي الله تعالى عنهما ، لأنه اذا كان قد أنابه النبي صلى الله تعالى عليه وسلم في تبليغ سورة براءة ، فقد ولي أبا بكر رضي الله عنه ما هو أمس بالامرة والخلافة ، وهو اقامة الحج ، كما اختاره لاقامة الصلاة ، وهي الامامة الصغرى ، وقد يكون ذلك ايذانا له بالامامة الكبرى كما جرى على ألسنة بعض الصحابة ، « اختاره لأمر ديننا ، أفلا نختاره لأمر دنيانا » وعلى ذلك لا نجد في هذا أن يكون علي أولى بغيره من الخلافة ٠

وأما الدليل الثاني ، وهو أنه قال له في معرض توضيح السبب في تركه وعدم الذهاب معه في غزوة تبوك فهو بيان محبته له ولصحبته ، ردا على الاشاعة الكاذبة التي أشاعها المنافقون والمرجفون ، وهو أنه تركه استثقالا لصحبته ، فكان لابد أن يظهر محبته ومنزلته عنده ، وهي أخوته له ، كما أن هارون أخو موسى ، ولذلك زاد في القول بما يؤكد هذا المعنى ، اذ قال عليه الصلاة والسلام : غير أنه لا نبوة بعدي ، وان عليا كان أخا النبي صلى

الله تعالى عليه وسلم في المؤاخاة التي عقدها النبي صلى الله تعالى عليه وسلم وقد بينا ذلك ، وذكرنا صحة الخبر ،ورددنا على ابن القيم في موضعه ٠

وكونه أخاه ، وأبو بكر صديقه أبلغ ما تكون الصداقة ، فلا دليل في هذا أيضا على أنه أحق بالخلافة ،وفوق ذلك ان الخلافة تحتاج الى الشورى ، اذ يقول الله تعالى :

﴿ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣٨﴾ ﴾ (١)

فاذا كان النبي صلى الله تعالى عليه وسلم قد ذكر أخوة علي ، وصداقة أبي بكر ، وتقديره لعمر ، فليس في ذلك الزام ، ما دام أساس الأمر شورى المسلمين ٠

وأما الدليل الثالث ، وهو حديث غدير خم الذي يقول : من كنت مولاه فعلي مولاه اللهم وال من والاه وعادمن عاداه ، فقد بينا المناسبة التي قيل فيها هذا الحديث ، وهو رد الاشاعة الكاذبة ، ورد المنافقين أو من عندهم شبهة النفاق ، وبيان أنه لا يصح لمؤمن أن يبغض عليا ، لأنه اذا كان قد قتل كثيرا فهو في سبيل الله ، وبأمر من الله ورسوله ، فمن يبغضه لذلك ، انما يريد أن يحط من قدر الجهاد والمجاهدين ، واذا كانت النفس لا تحب من يكون سببا في ازهاق نفس حبيب ،فالايمان يوجب ألا يظهر ذلك في قول أو عمل ، وفوق ذلك فان النبي صلى الله تعالى عليه وسلم كان يوافقه في أحكامه التي حكم بها ٠

وان النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ولي كل مؤمن صادق الايمان ، كما قال تعالى :

﴿ إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا ﴾ (٢)

فكل مؤمن ولي للنبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، ويصح أن يقال ذلك عن المؤمنين جميعا بأنهم أولياء النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ٠

---

(١) الشورى (٢) المائدة

ومهما تكن قوة هذه الاستدلالات ،فانه من المؤكد ، أنها تدل على فضل محبة النبي صلى الله تعالى عليه وسلم لعلي كرم الله وجهه ، وأنه يجب على كل مؤمن يحب الله ورسوله أن يحبه ،لأنهما يحبانه،كما جاء في غزوة خيبر، ولقد ذكرت ذلك عائشة رضي الله تعالى عنها ، فانه عندما بلغها مقتله ، وقفت على قبر الرسول صلى الله تعالى عليه وسلم تقول : جئت أنعى حبيبك المرتضى ، وصفيك المجتبى ، وأحب أصحابك اليك ، جئت أنعى اليك علي ابن أبي طالب •

فعلي كرم الله وجهه هو الحبيب ابن الحبيب للنبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، وهذا كاف لرفع منزلته ، ومحبته ولعن كل من ينال منه ، أو يلعنه •

تنبيهان لابد منهما :

٧٠٤ ــ للتنبيه نقف هنا وقفةقصيرة ننبه فيها الى أمر جدير بالتنبيه، وهو أننا نقلنا عن الحافظ بن كثير وغيره من رواة السيرة أن الذين ليس لهم عهد مقيد محدود يؤجلون أربعة أشهرحتى يبلغوا مأمنهم ، وانه بتتبعنا

وتبصرنا للآيات الكريمة وجدنا أن هذهالأشهر الأربعة هي الاشهر الحرم ،لانه ذكر بعد ذلك في الآيات الكريمة ما يدل عليها ، فقد قال سبحانه بعد ذلك :

﴿ فَإِذَا انسَلَخَ الْأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَاحْصُرُوهُمْ وَاقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ ﴾ (١)

وان ذلك يبين أن الأشهر التي ذكرت في قوله تعالى :

﴿ فَسِيحُوا فِي الْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ ﴾ (٢)

ذكرت غير معرفة ، ثم عرفت بعد ذلك بذكر أربعة الأشهر معرفة ، ومن المقررات النحوية أنه اذا أعيدت النكرةمعرفة كان ذلك تعريفا لها •

---

(١) و (٢) التوبة

وانا نرجح ذلك ، والله أعلم بمراده ٠

التنبيه الثاني : أنه قرر أن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم كان يريد الحج عقب غزوة تبوك ، ولكنه كره أن يحج مع المشركين ، اذ كان منهم من يحج عريانا وقد زادوا أمورا جاهلية على سنة ابراهيم عليه الصلاة والسلام في الحج ، ولقد جاء ذلك في تاريخ الحافظ بن كثير ، فقد قال عن مجاهد « براءة من الله ورسوله الى أهل العهد خزاعة ومدلج ومن كان له عهد أو غيرهم ، فقفل رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم من تبوك حين فرغ ، فأراد رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم الحج ، ثم قال : «انما يحضر المشركون ، فيطوفون عراة ، فلا أحب أن أحج حتى لا يكون ذلك ، فأرسل أبا بكر وعليا رضي الله عنهما ، فطافا بالناس ، فآذنوا أصحاب العهد أن يؤمنوا أربعة أشهر متتاليات » ، وان هذا يدل على أن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم كان على نية أن يحضر الحج ، ولكن عوقه عن ذلك أنه قدر أن سيحضر الحج المشركون ، ويطوفون على جاهليتهم عراة ، ويظهر انحرافهم عن سنة ابراهيم في الحج ، فامتنع عن الحضور ، حتى لا يكون حضوره عليه الصلاة والسلام فيه نوع اقرار لعملهم ، ولم يمنعهم من الحج ، لأنه لم يعلمهم من قبل بأنه لا يجوز لهم أن يقربوا المسجد الحرام ، والحكمة الاسلامية في الأحكام ألا تنفذ الأحكام المانعة الا بعد العلم بها ٠

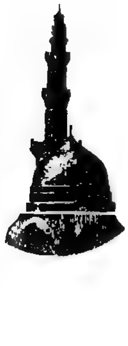

سورة براءة

٧٠٥ ـ ان المتفق عليه أن أبا بكر رضي الله عنه ، ذهب بالناس يحج بهم، وأن عليا رضي الله تعالى عنه ، ذهب حامل براءة يتلوها عليهم ٠

ويروى أن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم عندما حملها عليا رضي الله تعالى عنه قال علي : يا نبي الله تعالى :اني لست باللسن ولا بالخطيب ، فقال عليه الصلاة والسلام لابد لي أن أذهب بها أنا ، أو تذهب بها أنت ، قال علي ان كان لابد فسأذهب بها أنا ، وقال له النبي صلى الله تعالى عليه وسلم : « انطلق فان الله تعالى يثبت لسانك ،ويهدي قلبك ، ثم وضع يده على فيه ، فهذه دعوة أولى من النبي صلى الله تعالى عليه وسلم بأن يثبت لسانه ويهدي قلبه ، والثانية كانت بعد ذلك عندما بعثه الى اليمن داعيا وقاضيا » ٠

وبهذه الدعوة الطيبة الطاهرة المستجابة كان علي كرم الله وجهه أخطب الناس بعد رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ٠

حمل علي كرم الله وجهه في الجنة سورة براءة ، أهو حملها كلها ، وهي من طوال السور ، أم حمل الجزء الأول منها الخاص بعهود المشركين ، ودخولهم البيت الحرام ٠

نقول في الجواب عن ذلك ان عبارة ابن كثير في رواياته تفيد أن الذي حمله علي هو أول السورة الخاص بالمشركين ، ودخولهم البيت ، وعهودهم ، فقد جاء فيه عن محمد بن كعب القرظي وغيره قالوا بعث رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم أبا بكر أميرا على الموسم سنة تسع ، وبعث علي بن أبي طالب بثلاثين أو أربعين آية من براءة فقرأها على الناس ، يؤجل المشركين أربعة أشهر ٠

وان هذه الرواية تدل على أنها لم تكن قد نزلت كلها ، أو حملت كلها ، بل حمل منها ثلاثون آية تنتهي بقوله تعالى عن أهل الكتاب يريدون أن

يطفئوا نور الله بأفواههم ، أو أربعون آية تنتهي بقوله تعالى :

﴿ ٱنفِرُواْ خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَٰهِدُواْ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾ (١)

هذا ما رواه ابن كثير ، أما ما ذكره ابن اسحاق فان ظاهره أن السورة كلها نزلت عقب تبوك وحملها علي بن أبي طالب ليتلوها على الناس ، ويبين ما يتعلق بالحج .

ويقول في ذلك ابن اسحاق : « نزلت براءة في نقض ما بين رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم وبين المشركين من العهد الذي كانوا عليه فيما بينه وبينهم ألا يصد عن البيت أحد جاءه ، ولا يخاف أحد في الشهر الحرام ، وكان ذلك عهدا على ما بينه وبين الناس من أهل الشرك ، وكانت بين ذلك عهود بين رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم وبين قبائل العرب خصائص الى آجال مسماة فنزلت فيه ، وفيمن تخلف من المنافقين عنه في غزوة تبوك ، وفي قول من قال منهم ، فكشف الله تعالى فيها سرائر أقوام كانوا يستخفون بغير ما يظهرون ، وظاهر هذا الكلام أن سورة براءة كلها نزلت عقب غزوة تبوك ، وان نصوصها السامية كلها تؤكد هذا المعنى وتوضحه فهى كما رأينا يتبين فيها حال الناس مؤمنهم ومنافقهم في هذه الغزوة عند الدعوة اليها ، وحال المخلفين ، وأعذار المستضعفين ، وما ينبغي أن يكون بالنسبة للجهاد .

واننا اذا تركنا ظواهر هذه الرواية فانا نقول : انها نزلت كلها عقب غزوة تبوك ، ولكن لم يحمل النبي صلى الله تعالى عليه وسلم عليا ، الا ببعض من أولها ــ الذي فيه منع المشركين من البيت الحرام ، وصدهم عنه ، لأنه لا يعمر مساجد الله الا من آمن بالله واليوم الآخر ، وذلك ما صرح به ابن اسحاق امام السيرة ، فقد قال رضي الله عنه ، ولأن ذلك كان يشتمل على ماكلف عليا أن يبلغه ، وهي الأمور التي ذكرناها آنفا .

وعبارات ابن اسحاق بعد تعميمه الأول تفيد تخصيصا بأول سورة براءة .

---

(١) التوبة

فقد قال : « دعا عليه السلام علي بن أبي طالب رضوان الله تعالى عليه ، فقال له اخرج بهذه القصة من صدر براءة ، وأذن في الناس يوم النحر اذا اجتمعوا بمنى ، أنه لا يدخل الجنة كافر ولا يحج بعد هذا العام مشرك ، ولا يطوف بالبيت عريان ،ومن كان له عند رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم عهد ، فهو الى مدته ٠

وهذا النص يدل على أن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم حمله صدر سورة براءة ، ولم يحمله السورة كلها ٠

ما اشتملت عليه سورة براءة :

٧٠٦ ــ وان الروايات كلها ، قد نزلت بعد غزوة تبوك ، ولذا تعد من أواخر السور نزولا ، وظاهر الروايات أنها نزلت دفعة واحدة، وان ما اشتملت عليه يدل على أنها نزلت بعد غزوة تبوك ، ففيها أخبار المتخلفين والمعتذرين ، ومن ليس عليه حرج ،وانها اذا كانت قد ابتدأت بذكر عهود المشركين ، وتحريم دخوله على غير الذين يؤمنون بالله وأنه واحد أحد ، لا شريك له ٠

قد توسطتها أخبار المخذلين والمنافقين ، وما يجب أن يكون عليه المجاهدون ، والدعوة الى استمرار الجهاد فانه ماض الى يوم القيامة ،وتركه ذل ، أو يؤدي اليه ٠

لقد ابتدأت السورة الكريمة بذكر منع المشركين من البيت الحرام ، ووجوب قتالهم ، ونبذ عهودهم اليهم ،وأن العهد واجب الوفاء بشروط ثلاثة ألا ينقص المعاهد من التزاماته ، وألا يظاهر على المؤمنين ، وألا يكون مخالفا للقواعد العامة المقررة في القرآن الكريم ٠

وجاءت بعد ذلك ببيان جهاد المشركين في الأرض العربية ، بشرط ألا ينتهكوا حرمة من الحرمات ، كحرمة الشهر الحرام ، وأن الدماء يحميها

العهد اذا استقام المعاهد ، فما استقاموا لكم فاستقيموا لهم ، ويحميها الأمان والجوار :

﴿ وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَـٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُۥ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْلَمُونَ ﴾ (١)

وقد بين سبحانه ضلال الشرك ، وأنه لا يصح لهم أن يشفعوا لأنفسهم بأنهم تولوا عمارة البيت وتولى سدانته وسقايته ، فان الايمان بالله تعالى هو الأول ، ولا يمكن أن يكون هذا كذلك وأن لهم فضلا في العمارة ان آمنوا بالله واليوم الآخر .

﴿ إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَـٰجِدَ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ ﴾ (٢)

واذا كانت عمارة المسجد لا تعادل الايمان بالله واليوم الآخر ، وأن عمارة المساجد لا ثواب لها مع الكفر فانه لايمكن أن يكون للمشركين مآثر في أي عمارة ، لأن ما يفعله المشرك من خير يكون هباء لا أثر له ، اذ يكون كمثل وابل من المطر أصاب أرض قوم ، فنزل على أحجار لا تنبت ، ولم ينزل على ما ينبت .

ولذلك كان الواجب جهاد المشركين، ولأنهم لا يؤمنون بشيء لا عهد له ولا ذمة ، وليس لمؤمن أن يرقب فيهم الا ولا ذمة :

﴿ لَا يَرْقُبُونَ فِى مُؤْمِنٍ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً وَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُعْتَدُونَ ﴾ (٣)

ولا طريق الا الجهاد ، وان الجهاد يوجب أن يكون كله لله تعالى لا يؤثر عليه أحد من مال أو زوج أو ولد ، أو راحة ، فاذا كان الجهاد قوة بشرية ونفسية ، أو تقديما للنفس والمال ،فهو تجرد روحي ، وخصوصي لله تعالى، وصدق رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم اذ يقول : « لكل أمة رهبانية ، ورهبانية أمتي في الجهاد ، ولذلك أمر الله تعالى عند البدء في الكلام في الجهاد

(١) و (٢) و (٣) التوبة

بعد أن بين أن المشركين يصدون عن سبيل الله ويعادون المؤمنين ، وينتهزون فرصة ليقضوا ، قال تعالت كلماته :

﴿ قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٢٤﴾ ﴾ (١)

وذكرهم سبحانه وتعالى بأن الكثرة،وقوة العدة لا تغني عن الاتجاه الى الله ورسوله صلى الله تعالى عليه وسلم شيئا ، ثم ذكرهم بموقعة حنين ، اذ لم تغن شيئا ، اذ لم يكن الاتجاه الى الله من الجيش كله كاملا ، وان كان كاملا كل الكمال في بعضه كأولئك الذين ناداهم النبي صلى الله تعالى عليه وسلم، وقد اشتدت الشديدة ، وكثر الفرار ،وقل الاقدام ، حتى كان المجاهدون الأبذال الذين بدلوا بالهزيمة نصرا ،وبالفرار اقداما ٠

وكان الجهاد في هذا الموضع تتميما للكلام في البيت ، وبيان أنه لا يحميه الا الجهاد فهو الذي يمنع دخول المشركين ، ولذلك ختم آيات البيت الحرام بقوله تعالت كلماته :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّمَا ٱلْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا۟ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَٰذَا ۚ وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦٓ إِن شَآءَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ (٢)

٧٠٧ ــ وقد بين الله سبحانه وتعالى معاملة أهل الكتاب من الكفار ، بأنه لا يجوز لأهل الايمان السكوت عن دعوتهم ، وان كانوا في الجزيرة العربية أهون على أهل الايمان من المشركين الذين اذ كانوا أقل خطرا وعددا ، وان كان اليهود شرا في أنفسهم ٠

---

(١) ، (٢) التوبة

ولقد أمر سبحانه وتعالى في سورة التوبة أن يقاتلوهم ، فقال تعالى :

﴿ قَـٰتِلُوا۟ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلْحَقِّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ حَتَّىٰ يُعْطُوا۟ ٱلْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَـٰغِرُونَ ﴾ (١)

وبين سبحانه في السورة حالهم من اتخاذهم المسيح الها ، واتخاذ اليهود عزيرا الها ، وانهم بذلك يضاهئون قول المشركين في اتخاذهم الأوثان ، فان الشرك كما يكون بعبادة الأوثان يكون بعبادة الأشخاص .

وذكر سبحانه وتعالى العماد الذي قام عليه انحراف الذين قالوا انا نصارى عن الوحدانية ، وهو أن قام الأحبار والرهبان بين المسيحيين ، وبين ادراك الحقائق المسيحية ، فقد اتخذ الأحبار والرهبان أربابا ثم ذكر ما كان عليه الأحبار والرهبان ، فقال تعالى :

﴿ ٱتَّخَذُوٓا۟ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَـٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓا۟ إِلَـٰهًا وَٰحِدًا ۖ لَّآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ سُبْحَـٰنَهُۥ عَمَّا يُشْرِكُونَ يُرِيدُونَ أَن يُطْفِـُٔوا۟ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَيَأْبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَـٰفِرُونَ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْأَحْبَارِ وَٱلرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَـٰطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۗ وَٱلَّذِينَ يَكْنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا فِى نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ ۖ هَـٰذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ فَذُوقُوا۟ مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ ﴾ (٢)

---

(١) و (٢) التوبة

وان الله تعالى اذ بين وجوب الجهاد لكل من يعتدي على الحق ويعاند أهله ، وينابزهم على سواء ، بين سبحانه أن الأشهر الحرم القتال فيها حرام ، فذكر السنة في التقويم المتصل بالقمر والشمس والأشهر الحرم منها ، فقال تعالى :

﴿ إِنَّ عِدَّةَ ٱلشُّهُورِ عِندَ ٱللَّهِ ٱثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ مِنْهَآ أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ فَلَا تَظْلِمُوا۟ فِيهِنَّ أَنفُسَكُمْ وَقَٰتِلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ كَآفَّةً كَمَا يُقَٰتِلُونَكُمْ كَآفَّةً وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٣٦﴾ إِنَّمَا ٱلنَّسِىٓءُ زِيَادَةٌ فِى ٱلْكُفْرِ يُضَلُّ بِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُحِلُّونَهُۥ عَامًا وَيُحَرِّمُونَهُۥ عَامًا لِّيُوَاطِـُٔوا۟ عِدَّةَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ فَيُحِلُّوا۟ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ زُيِّنَ لَهُمْ سُوٓءُ أَعْمَٰلِهِمْ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٣٧﴾ ﴾ (١)

غزوة تبوك في سورة براءة :

٧٠٨ ـ قلنا ان سورة براءة من آخر السور نزولا ، ويبدو من سياقها كما قلنا أنها نزلت دفعة واحدة ، لمناسبة ما كان من العهود فيها ابتداء ، وما كان من عمل المنافقين ، ولمناسبة تطهير البيت من رجس الجاهلية ومنع المشركين من دخوله ، ولكن الشطر الأكبر منها كان يتعلق بغزوة تبوك التي كانت آخر غزوات النبي صلى الله تعالى عليه وسلم .

وقد امتازت هذه الغزوة أنها كانت بعد أن أوشك الاسلام أن يعم البلاد العربية أو عمها ، وأنها كانت وقد خفض العرب الذين كانوا يتاخمون الفرس والرومان من نفوذهم ، ورضوا بالاسلام دينا ، وخلصوا بذلك من ربق الفرس والرومان واعتزوا بعزة الاسلام .

وامتازت أيضا هذه الغزوة بأن ظهر التخاذل في أولها ، حتى كان التثاقل ، وبث الظنون في المسلمين من المنافقين ، وضعاف الايمان ، ثم فيها بيان حال الذين ينتحلون الأعذار ولا عذر لهم ، وحال الذين يستأذنون في التخلف ،

---

(١) التوبة

فيؤذن لهم أو لا يؤذن ، وفيها عمل التخذيل في جيوش الحق من أين تجيء ، والى أين تتجه ٠

واذا كانت غزوة تبوك آخر الغزوات المحمدية ففيها العبر التي توجب على كل جيش أن يتعرفها ، ويأخذ بعظاتها ، حتى يكون الجيش الاسلامي قويا ، قد تجنب أسباب الخور وأسباب التردد والهزيمة ، وان النبي صلى الله تعالى عليه وسلم قد قبضه الله تعالى بعد سنة من وقوع هذه الغزوة التي لم يكن فيها حرب ، ولكن كان فيها عظات تعرف كيف تتقي أسباب الهزيمة والتخاذل ، والآفات التي تعتري الجيوش من أهل التردد والنفاق ، وما يحدثه من تخاذل ٠

وقد كانت سورة براءة وعاء هذه التجارب النبوية في تلك الغزوة التي لم تشتمل على قتال ، ولكن كشفت فيها النفوس كشفا ، وابتلي فيها المؤمنون بالنفاق ، والتثاقل ودعاة الخذلان ، وكيف عالج محمد صلى الله تعالى عليه وسلم تلك الأحوال بهداية ربه ٠

واذا كان الجهاد ماضيا الى يوم القيامة ، فقد كانت سورة براءة تصويرا للآفات التي تعتري الجيوش في تكوينها ، وفي سيرها ، وفي الاتجاه الى غايتها من غير التواء ٠

ولقد بينت نفوس المترددين ، وعدم ايمانهم بالحق الذي يؤيدونه ، وفيها بيان للمجاهدين المعتز بهم وأول الآفات عدم العزيمة الموجهة المدافعة ، والتثاقل عندما يحق الجهاد ، وقد قال تعالى في ذلك :

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ ٱنفِرُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱثَّاقَلْتُمْ إِلَى
ٱلْأَرْضِ ۚ أَرَضِيتُم بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا مِنَ ٱلْـَٔاخِرَةِ ۚ فَمَا مَتَـٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ
(٣٨) إِلَّا تَنفِرُوا۟ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْـًٔا ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ
كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ (٣٩) إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ثَانِىَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا
فِى ٱلْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَـٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا ۖ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُۥ

بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلسُّفْلَىٰ ۗ وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِىَ ٱلْعُلْيَا ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٤٠﴾ ٱنفِرُوا۟ خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَٰهِدُوا۟ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ (١)

وتستمر الآيات الكريمة السامية في بث الهمم ودفع العزائم ، لأن تكوين الجيش يكون بايجاد دفعة قوية عازمة،والاستعداد لتحمل المكاره والوثوق بتأييد الله تعالى ان خلصت النيات ،واستحصدت العزائم ٠

ولقد بين سبحانه بالاشارة للسبب في تثاقل حركتهم وهو توقع المشقة ، وان توقع المشقة يجب أن يكون في تقدير المجاهد ، وعزمه الحديد ٠

وبين سبحانه وتعالى أن الخور يعتري النفوس ويخلق المعاذير للاستئذان في التخلف ، ولا يستأذنك مؤمن ٠

﴿ إِنَّمَا يَسْتَـْٔذِنُكَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَٱرْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِى رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ ﴿٤٥﴾ ﴾ (٢)

وقد بين الله سبحانه وتعالى أن المنافقين والمترددين يثيرون روح الضعف والهزيمة ٠

﴿ لَوْ خَرَجُوا۟ فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَأَوْضَعُوا۟ خِلَٰلَكُمْ يَبْغُونَكُمُ ٱلْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّٰعُونَ لَهُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٧﴾ ﴾ (٣)

وقد كشف الله نفوس أولئك المخذلين من أهل التردد وضعاف المؤمنين ، وبين ما تنطوي عليه نفوس المنافقين من أنهم يتمنون الهزيمة للمؤمنين ٠

﴿ إِن تُصِبْكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ ۖ وَإِن تُصِبْكَ مُصِيبَةٌ يَقُولُوا۟ قَدْ أَخَذْنَآ أَمْرَنَا مِن قَبْلُ وَيَتَوَلَّوا۟ وَّهُمْ فَرِحُونَ ﴿٥٠﴾ قُل لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَىٰنَا ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿٥١﴾ ﴾ (٤)

---

(١) و(٢) و(٣) و (٤) التوبة

وقد كان منهم من يؤثر أن ينفق في الجيش فرارا من أن يكون في ضمن المجاهدين ، فبين الله تعالى أنه لن تقبل نفقاتهم ، لأنهم لا يؤمنون بالله واليوم الآخر، وما منعهم أن تقبل منهم نفقاتهم الا أنهم كفروا بالله وبرسوله ، ولا يأتون الصلاة الا وهم كسالى ، ولا ينفقون الا وهم كارهون ٠

لمز المنافقين في الصدقات وغيرها :

٧٠٩ ـ النفاق هو داء الجماعات في السلم وفي الحرب ، ففي الحرب يخذلون ، ويبثون روح التردد ، والتشكيك في الدعوة ، والدعوة الى الاثرة ، والجهاد ايثار ، والى الحرص ،والجهاد فداء ، والى متع الدنيا ، والجهاد رهبانية ايجابية ، يدفع الى الحياة العاملة المكافحة ٠

أما في السلم ، فانهم يشككون في تصرفات الأبرار المخلصين ، ليوهموا الناس ، أن كل الناس مثلهم ، ليس فيهم أخيار منزهون ، وأبرار متقون ٠

فهم يلمزون كل عمل صالح ، ويوهنونه ، ويثيرون الريب ، وان اتقاءهم بعدم السماع لهم فهم أثاروا القول حول الصدقات التي يوزعها النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، ويقول سبحانه في ذلك :

﴿ وَمِنْهُم مَّن يَلْمِزُكَ فِي ٱلصَّدَقَٰتِ فَإِنْ أُعْطُواْ مِنْهَا رَضُواْ وَإِن لَّمْ يُعْطَوْاْ مِنْهَآ إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ ﴿٥٨﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُواْ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَقَالُواْ حَسْبُنَا ٱللَّهُ سَيُؤْتِينَا ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَرَسُولُهُۥٓ إِنَّآ إِلَى ٱللَّهِ رَٰغِبُونَ ﴿٥٩﴾ ﴾

وقد بين الله تعالى للأمة كلها مصارف الصدقات ، حتى لا يماري منافق وليطمئن كل مؤمن ، وقد وزعها سبحانه توزيعا فيه التكافل الاجتماعي الكامل ٠

والمنافقون يؤذون النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، ويؤذون كل داعية للخير ، لأنهم والخير نقيضان ، اذا كشف أمرهم لا يقولون كشف الله تعالى سرهم، بل يقولون ان النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، يسمع أخبارهم ،ويتعرف

---

(١) التوبة

أسرارهم ، وأن له من يسعى عليهم ،ويقول سبحانه وتعالى في ذلك :

﴿ وَمِنْهُمُ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلنَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ ۚ قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَّكُمْ يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ ۚ وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦١﴾ ﴾(١)

والمنافق دائما كثير الحلف بالله لضعفه النفسي ، اذ النفاق منشؤه ضعف النفس لا مجرد ارادة النفع ،فهو يحلف لستر موقفه ، ولأنه مهين يريد رضا من ينافق معهم ، ويخشى أن ينفضح سره ، ويعرف أمره .

وانهم مع كفرهم ، وعدم اذعانهم للحق لفرط ضعفهم ، يخشون أن تنزل سورة تكشف حالهم .

﴿ يَحْذَرُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ أَن تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُم بِمَا فِى قُلُوبِهِمْ ۚ قُلِ ٱسْتَهْزِءُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ مُخْرِجٌ مَّا تَحْذَرُونَ ﴿٦٤﴾ ﴾(٢)

ومع هذا الهلع من أن يكشف سترهم يحادون الله ورسوله ، ويستهزئون بآيات الله تعالى ، ويتخذونها في مجامعهم هزؤا وسخرية .

﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ ۚ قُلْ أَبِٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ ﴿٦٥﴾ ﴾(٣)

والمنافقون أشرار قد استمكن الشر في نفوسهم ، لأن الكتمان تفرخ فيه الرذائل ، والضوء يكشفها ، ولأن محاولتهم ستر أحوالهم ، يوقعهم في رذائل مترادفة رذيلة بعد رذيلة وكل واحدة تجر أختها ، حتى يستمرئوا الشر ، ويكون دينهم ، ويختم الله على قلوبهم فلا يصل اليه خير ، ولا ينضح منه ومن اللسان الا الشر ، ولذلك قال تعالى :

﴿ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ بَعْضُهُم مِّنۢ بَعْضٍ ۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمُنكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ ۚ نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَنَسِيَهُمْ ۗ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٦٧﴾ ﴾(٤)

---

(١) و (٢) و(٣) و (٤) التوبة

وقد بين سبحانه وتعالى عقابهم ، وأنه عقاب الذين من قبلهم ، وكانوا أشد قوة ، واستمتعوا بالشر ، ونالوامن الدنيا ، وخاضوا في أهل الايمان مثل الذين خاضوا ٠

ويضرب الله تعالى الأمثال من قوم نوح ، وعاد وثمود ، وقوم ابراهيم ، وأصحاب مدين والمؤتفكة ، فان هؤلاءكفروا برسلهم ، وكان النفاق والمنافقون من ورائهم ، والنفاق غذاءالجحود ، اذ يدفع الجاهلين الى الكفر والعناء ٠

وفي مقابل ما توعد الله به المنافقين كان وعد الله تعالى للمؤمنين ٠

جهاد النفاق والكفر :

٧١٠ ـ اذا كان النفاق يفعل في الجماعات ذلك الفعل ، فان جهاده يكون في مرتبة جهاد الكفر ، بل يكون قبل جهاد الكفر ، وذلك لأن الكفر لايستغلظ سوقة الا بالنفاق ، والمنافقين هم الذين يفسدون العقول فيصورون الحسن قبيحا ، والقبيح حسنا ، ولذا أمر الله تعالى نبيه الكريم ، وأمته فقال تعالى :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ ۚ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٧٣﴾ ﴾ (١)

ويبين سبحانه وتعالى ما يفعله المنافقون في الجماعات الاسلامية ، ووجوب جهادهم ، وذلك الجهاد يكون بألا يسمع لقولهم ، ولو كانوا يحلفون ، فذلك دأبهم يقولون وينكرون ما يقولون ، ويحلفون أنهم ما قالوا ومن جهادهم أن يكشف أمرهم ، ومن جهادهم أن يحذر منهم ، ومن جهادهم ألا يخوضوا في خوضهم ، ومن جهادهم ألا يمكنهم من الجماعات الاسلامية ٠

وقد ذكر سبحانه أمارات النفاق أو بعضها ، وأولها الكذب ، وثانيها نقض العهد ، والشح على الخير ، ويقول :

﴿ ۞ وَمِنْهُم مَّنْ عَٰهَدَ ٱللَّهَ لَئِنْ ءَاتَىٰنَا مِن فَضْلِهِۦ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُم مِّن فَضْلِهِۦ بَخِلُوا۟ بِهِۦ وَتَوَلَّوا۟ وَّهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٧٦﴾ فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِى قُلُوبِهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ يَلْقَوْنَهُۥ بِمَآ أَخْلَفُوا۟ ٱللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا۟ يَكْذِبُونَ ﴿٧٧﴾ ﴾ (٢)

---

(١) ، (٢) التوبة

أي أنهم في نفاق مستمر ، نافقوا عندما أعطوا العهد ، ولما اختلفوا زاد نفاقهم بسبب أنهم يكذبون ، ويكذبون على الله سبحانه وتعالى ، وهو يعلم سرهم وما يتجاوبون به بينهم ، وان المرء اذا سار في الشر أوغل فيه ،وكلما سار زاد فسادا .

وانهم لا يكتفون بأن يشحوا على الخير ، بل يتجاوزون ذلك الى أن يلمزوا في القول موهنين شأن الذين يتصدقون الصدقات المفروضة ، ويتطوعون بأكثر مما فرض ، وهكذا يكون أهل الخير فريسة ، أهل النفاق يصغرون أعمالهم ، ويهجنون ما يكون منهم ، ويستضحكون من أعمالهم ، ولكن :

﴿فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلًا وَلْيَبْكُوا كَثِيرًا جَزَآءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٨٢﴾﴾ (١)

والنبي الهادي الأمين يغضي عن سيئاتهم ،ويستغفر لهم رجاء أن يهديهم الله ، فيبين الله تعالى لنبيه الكريم ، أن النفاق اذا استمكن في النفس ، غلق باب الهداية ، وكان حجابا كثيفا لا يصل اليه النور قط :

﴿ٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٨٠﴾﴾ (٢)

وان من جهاد النفاق أن يحتاط النبي والمخلصون للجيش الاسلامي ، فلا يمكنوا أحدا من المنافقين من الدخول فيه ، لأنهم يلقون فيه بروح الهزيمة والفشل ، ولذلك قال سبحانه :

﴿فَإِن رَّجَعَكَ ٱللَّهُ إِلَىٰ طَآئِفَةٍ مِّنْهُمْ فَٱسْتَـْٔذَنُوكَ لِلْخُرُوجِ فَقُل لَّن تَخْرُجُوا مَعِىَ أَبَدًا وَلَن تُقَٰتِلُوا مَعِىَ عَدُوًّا ۖ إِنَّكُمْ رَضِيتُم بِٱلْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَٱقْعُدُوا مَعَ ٱلْخَٰلِفِينَ ﴿٨٣﴾﴾ (٣)

---

(١) و (٢) و (٣) التوبة

هذا أمر قاطع لخير خلق الله تعالى في هذا الوجود الانساني ، وقد أمر سبحانه كشفا لأمرهم وجزاء لهم بما ارتكبوا في الدنيا ، بمنع الصلاة عليهم ، فقال تعالى :

﴿ وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِۦٓ ۖ إِنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿٨٤﴾ ﴾ (١)

وقد بين سبحانه وتعالى أن الرضا بالشر ، اذا توالى طبع الله تعالى على قلب صاحبه ، فأصبح غير قابل : لأن ينفذ نور الايمان اليه ، ولذلك قال تعالى :

﴿ رَضُوا۟ بِأَن يَكُونُوا۟ مَعَ ٱلْخَوَالِفِ وَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ ﴿٨٧﴾ ﴾ (٢)

وقد ذكر سبحانه وتعالى من بعد ذلك جهاد النبي صلى الله تعالى عليه وسلم والذين جاهدوا معه ، فبين أن لهم الخيرات ، وأنهم الفائزون ، وأنه سبحانه أعد لهم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها .

أعذار النفاق :

٧١١ ـ أعذار النفاق دائما واهية، لأنه لا عذر لهم ، فهم ينتحلونها ، وكان النفاق ابتداء في المدينة عندما دخلها الاسلام ، ووجد نفاق في الأعراب عندما عم الاسلام ، فهو يتسع باتساع عموم الاسلام وشموله ، لأن النفاق يكون اذا كان كفر مع وجود قوة للحق، ولم يخرج الأعراب الذين كانوا يحيطون بالرومان لم يخرجوا كلهم للحرب في تبوك ، ولذلك قال تعالى :

﴿ وَجَآءَ ٱلْمُعَذِّرُونَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ لِيُؤْذَنَ لَهُمْ وَقَعَدَ ٱلَّذِينَ كَذَبُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ۚ سَيُصِيبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٩٠﴾ ﴾ (٣)

---

(١) و (٢) و (٣) التوبة

وقد بين الله سبحانه وتعالى الأعذار التي من شأنها أن تقبل ، والأعذار التي لا يمكن أن تقبل ، وبذلك يتميز العذر الحقيقي عن أعذار المنافقين التي لم يكن لها مسوغ ، فقال تعالت كلماته :

﴿ لَيْسَ عَلَى الضُّعَفَاءِ وَلَا عَلَى الْمَرْضَىٰ وَلَا عَلَى الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ ۚ مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ ۚ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٩١﴾ وَلَا عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَا أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوا وَّأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُوا مَا يُنفِقُونَ ﴿٩٢﴾ ﴾ (١)

هؤلاء هم الذين يكون لهم عذر ، ولا يؤاخذون في التخلف ، وهم الذين فيهم ضعف في القوة ، أو في المال بألا يجدوا ما ينفقون منه ، ولا يكون مع الرسول صلى الله تعالى عليه وسلم ما يعينهم به .

أما غير ذلك فلا يعد عذرا ، ولكن يعد تخلفا وقعودا في وقت يجب أن تتضافر فيه القوى كلها وتجمع الجموع دائما وقد أخرج الى التجمع من التقدم للرومان الذين تعد جيوشهم بمئات الألوف لا بالعشرات منها .

ولذلك ذكر سبحانه وتعالى أنه لا تقبل منهم أعذار ، وانما عليهم السبيل ، فهم مسؤولون عن تقاعدهم ، وهو يدل على أن الايمان لم يدخل قلوبهم .

وقد أشرنا الى أن النفاق لم يكن من الخزرج الذين كانوا بالمدينة ، بل كان منهم ، وكان من الأعراب الذين دخلوا في الاسلام ، ولما يدخل الايمان قلوبهم ، وكانوا في مجموعهم أميل الى الكفر ، وان كان في بعضهم ايمان ، وقد قسمهم الله سبحانه وتعالى الى ثلاثة أقسام :

أولها ـ قسم لم يدخلوا في الاسلام بقلوبهم ، وان خضعوا له بأبدانهم ، وأظهروا الطاعة ، وقد قال تعالى فيهم:

﴿ الْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا حُدُودَ مَا أَنزَلَ اللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٩٧﴾ ﴾ (٢)

---

(١) و (٢) التوبة

وأولئك علموا الاسلام ممن هم في باطن الصحراء وحول المدينة وخضعوا ولم يستجيبوا لداعي الايمان ، وذلك لأنهم حديثو عهد بالدخول ، ولأنهم خضعوا للقوة ، وحيثما كان الخضوع للقوة كان النفاق والكفر ٠

والقسم الثاني ـ دخلوا في الاسلام ، كما يدل ظاهر القرآن ، ولكنهم برموا بالصدقات ، وعدوها مغرما ،ولم يعدوها مغنما ، وهؤلاء ، ان كانوا مسلمين يعدون من ضعفاء الايمان ،وهذا القسم قال تعالى فيه :

﴿ وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَن يَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ مَغْرَمًا وَيَتَرَبَّصُ بِكُمُ الدَّوَائِرَ ۚ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ ۗ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٩٨﴾ ﴾ (١)

والقسم الثالث ـ المؤمن الصادق في ايمانه ،المتعرف لأحكامه، ومن الأعراب من يؤمن بالله واليوم الآخر ، ويتخذ ما ينفق قربات عند الله وصلوات الرسول ، الا أنها قربة لهم ، سيدخلهم الله في رحمته ، ان الله غفور رحيم وهؤلاء هم الذين أشربوا حب الايمان٠

وقد ذكر سبحانه وتعالى أن النفاق في داخل المدينة ، وقد علم أمر الكثيرين منهم ، وأحوالهم ، وكادوا يعرفون باستخفافهم :

﴿ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ ۚ وَاللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَالَكُمْ ﴿٣٠﴾ ﴾ (٢)

وذكر سبحانه وتعالى أن النفاق من الأعراب حول المدينة ، ولقد ذكر الاثنين ، فقال سبحانه :

﴿ وَمِمَّنْ حَوْلَكُم مِّنَ الْأَعْرَابِ مُنَافِقُونَ ۖ وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ ۖ مَرَدُوا عَلَى النِّفَاقِ لَا تَعْلَمُهُمْ ۖ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ ۚ ﴿١٠١﴾ ﴾ (٣)

مابين الإيمان والضعف والنفاق :

٧١٢ ـ ان الايمان في قوة تدفع فيعمل ، فأولئك هم المهاجرون والأنصار ومن اتبعوهم باحسان ، والضعف تردد وقد يتجه الى الله تعالى

---

(١) و (٢) و (٣) التوبة

فيعترف بتقصيره أو ذنبه ، فيكون منه الندم ، ورجاء الخير ، وقد ذكرهم سبحانه وتعالى بقوله :

﴿ وَءَاخَرُونَ ٱعْتَرَفُواْ بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُواْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَءَاخَرَ سَيِّئًا عَسَى ٱللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ ﴾ (١)

وهؤلاء تطهر بعضهم التوبة والصدقات ولذلك قال تعالى :

﴿ خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا ﴾ (٢)

وذلك لأن الصدقة تطفىء المعصية ، كما يطفىء الماء النار .

وأولئك الذين لم يعترفوا بذنبهم ، في التخلف عن القتال من غير معذرة هؤلاء مرجؤون الى رحمة الله تعالى اما أن يعترفوا ، ويتوبوا كاخوانهم ممن تخلفوا من غير معذرة صحيحة تسوغ التخلف ، واما أن يستمروا في غيهم يعمهون ، وهؤلاء يعذبهم الله بذنوبهم ، ولقد قال الله تعالى :

﴿ وَءَاخَرُونَ مُرْجَوْنَ لِأَمْرِ ٱللَّهِ إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٠٦﴾ ﴾ (٣)

ولقد ذكر سبحانه من بعد ذلك أن المنافقين في المدينة الذين مردوا على النفاق لم يكتفوا بالقعود عن الجهاد ، وتثبيط المؤمنين عنه ، بل تعدوا وأرادوا التفريق بين المؤمنين ، فأنشؤوا مسجدا لا ليقيموا فيه الصلوات ، بل ليكون وكرا لهم ، وليجروا فيه خياناتهم ، واتصالاتهم بأعداء الاسلام من الرومان ، وليفرقوا بين المؤمنين ، وسمي هذا المسجد مسجد الضرار ، ولقد قال الله تعالى في مسجدهم هذا وفيهم :

﴿ وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًا بَيْنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِّمَنْ حَارَبَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ مِن قَبْلُ وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا ٱلْحُسْنَىٰ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ

(١) و (٢) و (٣) التوبة

(١٠٧) لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ فِيهِ رِجَالٌ
يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ (١٠٨) أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَىٰ تَقْوَىٰ مِنَ
اللَّهِ وَرِضْوَانٍ خَيْرٌ أَم مَّنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَانْهَارَ بِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ
وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (١٠٩) لَا يَزَالُ بُنْيَانُهُمُ الَّذِي بَنَوْا رِيبَةً فِي قُلُوبِهِمْ إِلَّا أَن
تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (١١٠) ﴾ (١)

هذا شأن المنافقين ، وذلك شأن ضعفاء الايمان ، أما شأن المؤمنين ، فانهم قد باعوا أنفسهم لله تعالى وأموالهم ، فيقتلون ويقتلون وينفقون غير مدخرين نفسا ولا مالا في سبيل الله تعالى ولقد وصفهم الله أكرم وصف ، فقال تعالى :

﴿ التَّائِبُونَ الْعَابِدُونَ الْحَامِدُونَ السَّائِحُونَ الرَّاكِعُونَ السَّاجِدُونَ الْآمِرُونَ
بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنكَرِ وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ (١١٢) ﴾ (٢)

ووصفهم بالسائحين هنا يراد به المجاهدون الذين يضربون في الأرض جهادا في سبيل الله سبحانه ، ولقد قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم (سياحة أمتي في الجهاد) .

وبين سبحانه من بعد أن العمل الصالح هو الذي يرفع الى الله تعالى لا القرابة :

﴿ مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَن يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولِي قُرْبَىٰ مِن
بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ (١١٣) وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ
وَعَدَهَا إِيَّاهُ ﴾ (٣)

---

(١) و (٢) و (٣) التوبة

ومع ذلك لم يغفر الله تعالى لأبي ابراهيم ·

وان من المؤمنين ناسا تخلفوا ، وأحسوا أنهم ارتكبوا كبرا ، وما أبدوا معذرة ، لأنهم لا يريدون أن يكذبوا على الله ورسوله ، حتى لا يرتكبوا جريمتين : جريمة التخلف والكذب على الله ، وأولئك لابد أن يتطهروا . فقاطعهم المؤمنون تربية لنفوسهم ، وتزكية لقلوبهم ، وقد ذكرنا أمرهم في قصة غزوة تبوك ، فرضوا أن يعذبوا بالهجران عن أن يكذبوا على الله ورسوله ، حتى تاب الله تعالى عليهم ·

﴿ وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُواْ حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوٓاْ أَن لَّا مَلْجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١١٨﴾ ﴾ (١)

وبعد ذلك التقسيم الحكيم ، والخير العظيم ذكر سبحانه ما كان واجبا على المؤمنين والأعراب ، فقال تعالى :

﴿ مَا كَانَ لِأَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ أَن يَتَخَلَّفُواْ عَن رَّسُولِ ٱللَّهِ وَلَا يَرْغَبُواْ بِأَنفُسِهِمْ عَن نَّفْسِهِۦ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَطَـُٔونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ ٱلْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَّيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُم بِهِۦ عَمَلٌ صَٰلِحٌ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٢٠﴾ وَلَا يُنفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ لِيَجْزِيَهُمُ ٱللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿١٢١﴾ ﴾ (٢)

وقد أشار سبحانه وتعالى الى الوفود ، الذين يجيئون ليتعلموا من المسلمين فذكر سبحانه وتعالى أنه ليس للمؤمنين جميعا أن ينفروا الى النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، وقد جاءت الوفود ، كما أشرنا في السنة التاسعة والعاشرة،

---

(١) و (٢) التوبة

حتى قبض صلى الله تعالى عليه وسلم ،ولقي الرفيق الأعلى ، فقال تعالى :

﴿ ۞ وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا كَافَّةً ۚ فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا
فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ ﴿١٢٢﴾ ﴾ (١)

ثم ذكر سبحانه وجوب الجهاد في ختام السورة ، كما أوجبه في أولها فقال تعالى :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ الْكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً ۚ
وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ ﴿١٢٣﴾ ﴾ (٢)

---

(١) و (٢) التوبة

بعض ما في سورة براءة من حكم وعبر

٧١٣ ـ نزلت سورة براءه عندحج الصديق رضي الله تعالى عنه ، وعقب غزوة تبوك ، ويلاحظ أنه أول حج تولى امرته مؤمن من المؤمنين ، ونفذ فيه مناسك الحج على مقتضى حكم الاسلام ، وقد حطمت الأصنام ، فكان الحج اسلاميا بالنسبة للمسلمين ، ولكن المشركين كانوا يسيرون على ماكانوا عليه ، ولم يمنعوا ، لأنه لم يكن قد جاء الأمر بمنعهم ، والاسلام لا يطبق الا ما ينزل به الوحي ، ولم يكن قد نزل الوحي بهذا المنع ، ولكن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم امتنع عن أن يتولى بنفسه القيام بالحق، حتى لايكون في ذلك اقرار لما يفعلون ، فأناب أبابكر عنه .

ولما كانت هذه السورة مبينة لمنع المشركين من الحج ، لأن هذا الحج أول حج اسلامي ، وان رنق بفعل أهل الجاهلية وكانت مشتملة على أول المنع، وكانت هذه السورة بعد آخر غزوة غزاها النبي صلى الله تعالى عليه وسلم وقد اشتملت على منع المشركين أن يدخلوا المسجد بعد عامهم هذا اشتملت على ما يجب لحفظ الجيوش الاسلامية وحمايتها ، والحذر من الدخلاء فيها ، وكانت غزوة تبوك التي أخذت منها العبرة .

واشتملت السورة على ما يجب أن يتوقاه المؤمنون في بناء جماعتهم ، وما يجب أن يتحلوا به من صفات ليتكون منهم بناء اجتماعي قوي .

وأول ما يستفاد منه هو التوقي من أهل النفاق فانهم العنصر المخرب في بناء المجتمع ، ولا يمكن أن يتماسك مجتمع اذا ساده النفاق . أو تحكم فيه المنافقون ، ولذا أكثرت السورة الكريمة من ذكر النفاق وأحواله ، وأن أهله لا يلتئمون مع مجتمعهم ، ولا يندمجون في أهله ، بل يكونون بمنأى عن شعوره ، وعما يحس به ، فهم يؤذون فضلاءه ، ويستهزئون بفعل الخير ، ويخوضون في شؤون أهل الفضل والخير ، واذا قيل لهم في ذلك ، قالوا

انا نخوض ونلعب ، وان قلوبهم دائماتكون في جانب ، والمجتمع يكون في جانب آخر •

ولذلك وجب أن يكون الجيش خاليامن المنافقين ، فلا يخرجوا فيه لأنهم يخذلون المجاهدين ، ويثبطون هممهم ،ويتخذون من الضعفاء وأهل التردد والهزيمة فريسة ينفثون فيها سمومهم،وانهم يتخاذلون في وقت الشدة ، ويفرحون بما ينزل بأهل الحق منمصيبة تسوؤهم ، فان تصبهم مصيبة يفرحوا بها ، وان تصبهم حسنةتسؤهم •

وان الضعفاء ان اعترفوا بذنوبهم ،وتابوا قبل الله سبحانه ، وان كانوا قد خلطوا عملا صالحا وآخر سيئا ، فاذا كانوا قد أساءوا بالقعود ، فقد أحسنوا بالاعتراف ومع الاعتراف الندم ومع الندم التوبة ، فهم لم يصروا على الشر ، وفرق بينهم وبين الذين انتحلوا أعذارا ، وكذبوا ، وحلفوا وهم يعلمون أنهم كاذبون ، وما قصدواارضاء الله ، بل قصدوا ارضاء العباد ، فلم يتوبوا ، وارتكبوا الشر وأصرواعليه اصرارا •

وانه اذا كانت التوبة الصادقة جبتما قبلها ، وبينت السورة الكريمة أمورا ثلاثة تدخل في بناء المجتمع الصالح ، واذا لم تكن تخرب •

أولها ــ أن الجهاد تجريد النفس عنأعلاق الدنيا ، وما يتعلق بالأحباب والمحبوبات من الأشياء والمتع ، وأنالمجاهد ان لم يتجرد ذلك التجرد ، فان على الأمة أن تتربص حينها ،وتذهب قوتها ، ان الأمة التي تريد الحياة يجب أن تتسربل سربال الجهاد ،وتستشعر حياته ، ولا جهاد مع الأثرة، ولا جهاد مع التعلق بالحياة ، فان لمتفعل فانها تذل وتهون ، ويتحقق فناؤها في غيرها ، وتعيش ذليلة مهينة•

ثانيها ــ أن النفاق كما أشرنا هومقوض الجماعات يمنع توافر الثقة بين آحادها ، والثقة أساس بنيانها ، فما لمتوجد الثقة لا توجد المحبة ، والمحبة هي الرباط الذي يربط بين الآحاد ، ويربط الجماعة ، ولا يقطع حبال المودة والمحبة الا أن يظن الانسان بأخيه شراولا يمكن أن يكون التئام بين الأمة اذا كان كل واحد يتظنن بأخيه ، والنفاقهو المادة التي بها تقطع الصلات ، ولذلك وصف الله تعالى المنافقين والكافرين بأنهم يقطعون ما أمر الله به أن

يوصل وما أمر الله به أن يوصل هو المودة والمحبة والأخوة ، وان النفاق يفسد نفوس المنافقين،فيأمرون بالمنكر،وينهون عن المعروف ويفسدون الناس فتسري عدواهم الى الضعفاء ويلقون بالفرقة بين الأقوياء وما ساد النفاق في قوم الا تقطعوا فرقا ومزقوا مزقا •

ولقد بين القرآن الكريم صور النفاق في هذه السورة بما لم يبين به في سورة أخرى ، واذا كانت سورة (المنافقون الصغرى) قد بينت خلالا للمنافقين في أطواء نفوسهم وانحرافاتهم ، ومعاملتهم فسورة براءة ، وقد أسميها سورة النفاق الكبرى قد بينت حالهم عندما تشتد الشديدة وعندما تكون الحرب وعندما تكون الأزمات •

وبينت أن النفاق قد يتجاوز العلاقات الانسانية الى مظاهر العبادات ، فهم ينشئون مسجدا يكون ملتقى لاجتماعاتهم المريبة ، ويبنونه ارصادا للاتصال بينهم وبين الرومان في الشام،فهو ارصاد لمن حارب الله ورسوله ، ويتظاهرون بأنه مسجد ، فيكشف الله سترهم ، ويكون في التاريخ الاسلامي مسجد الضرار •

وانه يجب لكي تكون الجيوش مجتمعة القوى لابد أن تكون مجتمعة العزم ، وذلك بابعاد المنافقين وعدم دعوتهم فانهم يريدون الفتنة ، ويبتغونها والفتنة في الجيش طريق مؤكد لهزيمته •

الأمر الثالث ـ الذي ذكرته السورة الكريمة وأكدته ، أمر المترددين والضعفاء في ايمانهم لا في أبدانهم فان أولئك يجب أن يخلوا الجيش منهم، لأنهم يكونون العش الذي يفرخ فيه المنافقون ، ويبثون فيهم روح الفزع والخوف ، والفرار يوم الزحف •

وان أمر هؤلاء مرجواً، عساهم أن يتوبوا ، ولكنهم لا يكونون في جيش قوي يخط خطوط النصر ، وأخيرا أن سورة براءة درس حكيم للأمة المجاهدة وقد جعل سبحانه وتعالى من غزوة تبوك التي لم يحدث فيها قتال ، بل رجع المسلمون منها لم يلقوا كيدا ،قد جعلها تعالى درسا في ذلك فكان التكوين انتقاء للأقوياء ومن تسلل فيه من الضعفاء وأهل النفاق وكشف أمرهم •

وفي سورة براءة بيان حال الذين وصل اليهم الاسلام ، فاعتنقوه بحكم اتباع القوي ، لا بحكم الاقتناع كأولئك الأعراب الذين كانوا يتغلغلون في البلاد العربية ، فدخلوا في الاسلام ، ولما يدخل الايمان قلوبهم وبينت السورة الكريمة أن مظاهر الخضوع الكامل الزكاة ، فان دفعها من يدفعها مغرما ، سواء أكان الدفع طوعا أم كرها ، فهو ليس من أهل الايمان ، وان قدم الطاعة ، وان دفعها قربات الى الله تعالى فانه يكون مؤمنا مخلصا لله تعالى وللجماعة الانسانية ٠

هذه كلمات موجزة في حكمة نلتمسها في نزول سورة براءة عقب غزوة تبوك ، وعند حج الصديق رضي الله تبارك وتعالى عنه بتأمير النبي صلى الله تعالى عليه وسلم له ، والله سبحانه وتعالى هو الحكيم الخبير ، لا يسأل عما يفعل ، وكلنا نسأل عما نفعل ، واذا تلمسنا الحكمة ، فانما نقرب الى الأفهام ولا نتعرف الأسباب فنحن نقارب ، ونطلب المعرفة من الله العلي الحكيم ٠

انتشار الدعوة الإسلامية

٧١٤ ـ ابتدأ نور الاسلام في قلوب تقبلت حقيقته ، كما تتقبل الأرض الطيبة النقية البذر الصالح ، والماء الذي يسقي ويغذي ، وكما يتقبل الأحياء ضياء الشمس ، فتهتدي بها في الدجنة الحالكة ، فتقبله الضعفاء لأنهم وجدوا فيه المعاذ والملجأ والنور والبصر ، والهداية الى الحق في وسط الظلمات المتكاثفة عليهم ، والظلم المرهق ، وتبعوه طائعين ، راضين ٠

وانه اذا كان الفقر قد أرهقهم فيه ظلم الظالمين ، فقد أعطاهم قوة احتمال للعذاب والأذى الذي نزل بهم ممن أظلمت نفوسهم ، وختم على قلوبهم ، ولعل الله سبحانه وتعالى يختار المؤمنين الأولين لكل نبي من هؤلاء الفقراء والعبيد ، لأنهم هم الذين لقوا الصدمة الأولى فيما نالوا من ألم الفقر في حياتهم يتحملون ألم الأذى ، ويكونون نواة الاستجابة ، وكذلك كان الحواريون لعيسى عليه السلام ، فلم يكونوا من الأقوياء الأشراف ، بل كانوا من الصيادين والعشارين ، وغيرهم من الضعفاء ٠

ولقد كان الأقوياء الذين دخلوا في الاسلام ابتداء عددا قليلا ، كأبي بكر وعثمان وحمزة بن عبد المطلب ثم عمر بن الخطاب ، وأبي عبيدة عامر بن الجراح ، وغيرهم في عدد قليل كانوا يداوون ندوب النفوس الفقيرة لتصبر ، وتصابر وليكونوا قوة نسبية هادية ٠

والنبي صلى الله تعالى عليه وسلم يؤذى في نفسه ويتطامن ليكون الهادي الرشيد المرشد ، وليكون النذير العريان ، كما قال عن نفسه عليه الصلاة والسلام ، فلا سيطرة تفرض الدين والرأي ، كما قال تعالى :

﴿ لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ ﴿٢٢﴾ ﴾ (١)

---

(١) الغاشية

حتى اذا اشتد الطغيان ولم يعد في قوس الصبر منزع ، وسمع مقالة الله تعالى لنوح :

﴿ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ ءَامَنَ ﴾ (١)

واستيئس من ايمان أهله اتجه الى القبائل في موسم الحج ، يعرض عليها دعوة الاسلام ، وأن ينصروه وأن يحموا دعوته من قومه ، فاستعد لاجابته من استعد ونفر منه من نفر ، ولكن قد بلغت دعوته القبائل كلها أو جلها، ما بين منكر جاف ، وما بين مواتٍ مؤتلف راض غير مختلف ، والذين اختلفوا كان السبب الأكبر اختلاف قومه عليه ، فكانوا ينتظرون ولا يعادون استقلالا ، ولكن ربما يعادون تبعا وتقليدا لقريش أقوى قبائل العرب ، وأشدها نفوذا وسلطانا .

فما سوغت لغيرهم من الذين يتبعونهم أن يخالفوهم ، ولكن الله تعالى هدى أهل يثرب ، فآمنوا وبايعوا على النصرة والايواء ، وفتحوا الصدور للضعفاء وآووا ونصروا .

ولكن قريشا هي القوي ، وهي البعيدة النفوذ في البلاد العربية قاصيها ودانيها ، وهي في البيت الحرام الذي جعله الله تعالى مثابة للناس وأمنا ،وهو أول بيت للعبادة وضع للناس وهم الذين يتولون فتنة المؤمنين الذين آمنوا ، وهم الذين اضطهدوا محمدا وصحبه ، وهم الذين هموا بقتل النبي صلى الله تعالى عليه وسلم فكان حقا عليه الهجرة أن يحمي المؤمنين الذين لا يزالون في مكة ، فكان لابد أن ينازلهم بالحق كما اعتدوا عليه بالباطل ، وأن يمنعهم من الاسترسال في الشر .

﴿ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٥١﴾ ﴾ (٢)

ودفع الشر بمجازاة أهله ليس شرا بل خير كله ، وهو الخير القوي الغالب، وليس الخير المستسلم الذليل .

---

(١) هود (٢) التوبة

وان الاسلام فضائله ايجابية ، وليست سلبية ، فضائله عاملة قوية ، وليست ضعيفة مستكينة فلا بد اذن من المغالبة ٠

فكانت المقابلة وكانت الدعوة وبيان الحقائق الاسلامية والشرائع التي تبنى بها المدنية الفاضلة ، وتقوم فيها الانسانية الكاملة وتكون مثلا ساميا ٠

كان النبي صلى الله تعالى عليه وسلم في هذه الفترة المجاهدة ، يجاهد في ميدانين متكاملين غير متنافرين يحارب أعداء الحق ، ليجعل كلمة الذين كفروا السفلى ، وكلمة الله تعالى هي العليا ،ويبث السرايا داعية الى الحق ، وفي يدها السيف لقمع الشر ، ان حال دون الحق حائل ، ويرسم الخطط للجيوش الاسلامية الهادية غير الباغية ٠

وان الغزوات الكبرى كانت من المشركين ، والنبي صلى الله تعالى عليه وسلم يدافع ، ولا يهاجم ، فالمدينة كانت مقصدهم ، والوقائع كانت على مقربة منها ، فغزوة بدر كانت على مقربة من المدينة ، وقد جاءت قريش بقضها وقضيضها ، نعم ان النبي صلى الله تعالى عليه وسلم هم بأن يصادر عيرهم ، كما صادروا أموال المؤمنين ،ولكنهم هم الذين جاؤوا بالجيش ليحاربوا ، وقد ردوا خاسرين ٠

ثم كانت غزوة أحد ، وقد جاؤوا بها للثأر ، وأرادوا اقتلاع الاسلام من مأمنه ، وأصاب المسلمين جراح ، ولكنهم هم نكصوا على أعقابهم لم ينالوا خيرا ، وان جرحوا ٠

ثم لما عجزت قريش أن تنال من محمد صلى الله تعالى عليه وسلم وحدها جمعت الجموع ، وحزبت الأحزاب من البلاد العربية ، وذهبوا لازالة المدينة والاسلام ، ولكن هزموا بالريح والرعب فعادوا على أعقابهم خاسرين مذعورين٠

هذا هو الميدان الأول لجهاد النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، أما الميدان الثاني فهو تربية المؤمنين وتعليمهم أحكام الدين ، وبيان الشريعة الاسلامية ، وتنظيم المجتمع على أساس العدل والفضيلة ومكارم الأخلاق ،وهو ميدان الرسالة المحمدية ، وهو غايتها ومقصدها ، وما كان القتال الا لحماية الدعوة الاسلامية ، وتوصيلها للقلوب ،والمجتمعات ، الآحاد والجماعات ٠

وأنه في أثناء اللقاءات الحربية كانت المبادىء الاسلامية تسري الى النفوس وسط صليل السيوف ، فكانت تصل الى القلوب ، والمقاتل متأثر بالمقاتل مأخوذ به ، وخصوصا اذا رأوا من خوارق العادات ، ما لا عهد لهم به ، لقد كانت غزوة الأحزاب من قبائل متفرقة ، ورأوا عيانا أن الهزيمة لم تكن بسيف ، ولا بقوى ، ولكن بريح عاصف اقتلع أخبيتهم ، وألقى الفزع والذعر في نفوسهم ، وأمامهم رجل يقول انه رسول من عند الله سبحانه وتعالى ، فهلا يفتح ذلك قلوبا مغلقة ،وآذانا تستمع الى صوت الحق ، انهم لا بد أن يعودوا الى أقوامهم ، ويذكروا لهم ما عاينوا أو شاهدوا ، وما رأوا بعين البصر ، وان ذلك لابد أن يصل شيء منه الى البصيرة •

ولقد كانت غزوة الخندق آخر الغزوات التي غزتها قريش للمدينة ، وقد استيئسوا من بعد ذلك وعلموا أن محمدا صلى الله تعالى عليه وسلم غير مخذول ، وأن أحجارهم التي لا تسمع ولا تبصر ، ولا تضر ولا تنفع ، ولا تغني عنهم ، حتى أخذ بعض عقلائهم يدركون ما هم فيه من ضلال ، وأنه لا بد لهم من أن يسمعوا صوت العقل والضمير ، وقد بدا ذلك في بعض كبرائهم كما أشرنا •

الحُدَيْبِيَة :

٧١٥ ـ كانت الحديبية خطوة للدعاية الى الاسلام من النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، فقد ذهب الى مكة بجيش عدته نحو خمسمائة وألف أو يزيدون ، وما ذهب ليقتلع مكة ، كما كانوا يذهبون الى المدينة ، بل ذهب ليقيم شعائر الله تعالى ، ولتعظيم البيت ،وعلى ألا يسألوه خطة فيها تعظيم البيت الا سلكها •

وقد تم عقد الاتفاق على مدة عشر سنين ، لا يقاتلهم ، وعلى أن يعود من عامه هذا ، وقد سمى الله تعالى ذلك فتحا مبينا •

وانه حقا كان فتحا للاسلام ، فقد لانت قلوب كانت مستعصية ، وتفتحت آذان كان فيها وقر عن سماع الحق ،فاذا كانت لم تفتح الا آجلا ، فقد فتحت القلوب نور هذه المدنية ، وكان من قريش أنفسهم من يتجه الى الاسلام ويتعرف غاياته ، ومراميه ، وأنه الحق والعقل ، وملة ابراهيم عليه السلام

والقبائل التي كانت ترى أمارات النبوة، ولكن تنتظر قريشا ، ورأيهـا في محمد صلى الله تعالى عليه وسلم أخذت قلوبهم تصغي ، وأفئدتهم تتجه نحوه ، فأسلم الكثيرون ، وتهيأت للاسلام قلوب كثيرين ، ولما اتجه عليه السلام الى خيبر لاقتلاع اليهود من بلاد العرب ، كان العرب جميعا مناصرين .

وعندما اتجه محمد صلى الله تعالى عليه وسلم الى الرومان أحسوا بعزة العرب تغالب سلطان بني الأصفر ، وقد كان أمرهم مرهوبا مخوفا ، قد استكان بعضهم له رهبا لا رغبا ، فلما رأوا محمدا الهاشمي القرشي العربي يغزو بني الأصفر ، أحسوا بعزة عربية لابد أن يكونوا معها ، واذا كانوا مع الروم في بؤسهم فقد هداهم التفكير في عزتهم الى ألا يكونوا معهم في تبوك ، وان ذلك بلا ريب يفتح قلوبهم لأن يدركوا الاسلام ، ويتدبروا في أمره وغايته ، ورأوا أنه السبيل الوحيد لعزتهم ورفع نير الرومان ونفوذهم .

ولقد ذكر كتاب السيرة أنه دخل في الاسلام ما بين فتح مكة وغزوة الحديبية ، ناس كثيرون بلغوا أضعاف ما دخلوا من وقت البعث المحمدي الى الحديبية أي بلغ في سنتين أضعاف أضعاف من دخل فيه في مدى تسع عشرة سنة .

ولما كان فتح مكة ، ودخلت قريش في الاسلام ، دخل فيه الذين يترددون وقد لانت قلوبهم ، لأنهم رأوا أهل مكة الذين كان لهم مكان المتبوع يدخلون فدخلوا .

ولذلك جاءت الوفود تترى في العام التاسع ، بعد أن فتحت في رمضان من العام الثامن ، ولقد جاءت تلك الوفود مسلمة معلنة اسلامها ، تريد معرفة أحكام دينها ، وما يجب أن يقوم به المسلم ، وما يجوز له وما لا يجوز .

وكان النبي صلى الله تعالى عليه وسلم يرسل البعوث لتعليمهم ، ولتأديب الذين يحاولون ايذاء المؤمنين أو العبث بالمقومات الدينية ، فكان أحيانا يرسل السرايا ، وأحيانا يرسل فقهاء الصحابة ، كما أرسل أبا موسى الأشعري ومعاذ بن جبل ، ولما أرسل خالد بن الوليد ، وهو القائد المحارب كان مكلفا أن يدعو الى الاسلام ، لا أن يجرد سيف القتال ، ثم أرسل علي بن أبي طالب

عالم الصحابة ، فتولى تعليمهم ،وأخذهم بأحكام الاسلام ، ثم ولاه القضاء ، فانفتق ذهنه بدعوة النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، ونطق لسانه بالحكمة،وفك عقدا من مشكلات القضاء وأقره النبي صلى الله تعالى عليه وسلم .

وهكذا نرى أن البلاد العربية ـ أهل الوبر وأهل المدر ـ قد دخلها الاسلام ، وتقبله قلوب مؤمنة مذعنة ،وعلم أمره بعض الناس ، ولكن لم يدخل قلوبهم ، فأطاعوا وخضعوا ،ولكن لم تؤمن قلوبهم ، وان علم الاسلام ، كان الاسلام كالغيث يصيب أرضا نقية فيمدها بالزرع وتأتي بأطيب الثمرات ، وكان يصيب أرضا تحفظ الماء ولا تنتفع به ، ولكنها تكون موردا لطالبه ، وكان يصيب أرضا مجدبة لا تحفظه ليكون مصدر سقي ورعي ، ولا تنتفع به .

ولقد كان الناس بعد أن علموا الاسلام على هذه الأنواع الثلاثة ، فكان منهم الذين آمنوا وأخلصوا دينهم لله تعالى ، وأولئك الذين كانوا في المدينة، وبعض مدائن البلاد العربية ، ورجال كانوا في البادية .

ومنهم من علموا الاسلام وحفظوه،ولكن لم يعملوا به ، وأطاعوا ، ولكن لم تذعن قلوبهم ، ومنهم الذين مر عليهم الاسلام فعرفوا أن هناك دينا يحارب الوثنية ، ويدعو الى الوحدانية ، واحياء ديانة ابراهيم عليه الصلاة والسلام ، ولكن التدين لم يكن موضع اهتمامهم ، فمر عليهم علم الاسلام كما يمر الماء في الميزاب يتحدرولا يبقى منه شيء ، وأكثر هؤلاء كان في أعراب البادية ، ولهذا قال الله تعالى :

﴿ ٱلْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا۟ حُدُودَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٩٧﴾ ﴾ (١)

ومهما تكن حال الذين علموا الاسلام ، ووصلتهم الدعوة الاسلامية كاملة ، فان التبليغ قد تم ، وكمل العلم ، وما على النبي صلى الله تعالى

(١) التوبة

عليه وسلم أن يدخل الهداية في القلوب ، ولكن عليه أن يبلغ ، وينذر ويبشر كما قال تعالى :

﴿ إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرٌ ۖ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ ﴿٧﴾ ﴾ (١)

ان عليه أن يبين المورد العذب وعلى الناس أن يردوه ، فمن ورده استقى ، ومن لم يرده شقي ، وان النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، أكمل رسالته في أمرين :

أولهما ـ أن الشريعة نزلت عليه كاملة ، فأصولها كلها قد نزلت عليه ، وعلمها أصحابه ليحملوا العبء كاملا من بعده ، فبين أحكام العبادات ، والزواجر الاجتماعية والعلاقات الانسانية في معاملات بين الناس وعلاقات بين الدولة الاسلامية وغيرها ، وأحكام الحروب الفاضلة ، وغير ذلك مما يسير بالانسانية في طريق السلام والكمال .

وثانيهما ـ أبلغ الدعوة كاملة لقومه العرب ، ليكونوا المبلغين للناس كافة ، أو حماة هذا التبليغ ، ويتولى علماؤهم الدعوة ، ويتولى سائرهم حماية هذه الدعوة ، والله بكل شيء عليم ، وانه لم يبق بعد الكمال الا الوداع .

---

(١) الرعد

حجة الوداع

٧١٦ ـ كانت حجة الوداع في آخر التبليغ المحمدي ، اذ عم العلم بالدعوة الاسلامية البلاد العربية كلها، وخرج نور الاسلام الى الشام ،فدخل فيه من العرب الذين كانوا يخضعون لحكم الرومان ، وسميت حجة الوداع ، لأن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم انتقل الى الرفيق الأعلى بعدها بأمد قصير ، ولأن العبارات في خطبة الوداع كانت تفيد بأن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم لا يلقاهم بعد عامهم هذا ،وسميت حجة البلاغ ، لأن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم كان يذكر في خطبتها عبارة التبليغ ، ونحن نرى انها سميت حجة البلاغ ، لأنها خاتمة البلاغ الى البلاد العربية ، فعمهم العلم بالدعوة الاسلامية ،ودخلوا في الاسلام وأشرب حبه في قلوب بعضهم ، حتى صاروا مؤمنين ، وقدم بعضهم الطاعة له ولأحكامه ، ولما يدخل الايمان قلوبهم .

وقد حمل النبي صلى الله تعالى عليه وسلم عبء الدعوة وتبليغ ما علموا وما أدركوا من حضرة الرسول صلى الله تعالى عليه وسلم ، فحمل الأمانة الذين شاهدوا وعاينوا وقبسوا من نور الوحي الالهي ، وان كان قد ختم الوحي برسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم، وهم الذين رضي الله تعالى عنهم ورسوله في بيعة الرضوان ، كأبي بكر وعمر وعثمان وعلي ، وأبي عبيدة وغيرهم من الذين كانوا كالحواريين لعيسى عليه الصلاة والسلام ، حمل هؤلاء الأطهار الأمانة ، ورعوها حق رعايتها ، وكانت البلاد العربية كلها بعد أن ارتد من ارتد ، قد تجردت لحماية الدعوة ، حتى أشربوا حب الايمان ، فكانت القيادة الحربية أحيانا لغير أهل البيعة ، ولكن يكون بجوارهم مرؤوسون لهم من بعض أهل البيعة ،كأبي عبيدة ، كان بجوار خالد بن الوليد ، وان كنا نعتقد أن خالدا ممن دخل الايمان قلبه ، ولكن لم يكن كأهل البيعة في العلم بالاسلام ، وأحكامه وفرائضه .

وأحيانا تكون القيادة لأهل البيعة كما كان في فتح فارس ، فقد كان القائد سعد بن أبي وقاص أحد العشرة المبشرين بالجنة .

الخروج لحجة البلاغ وما قام به من مناسك :

٧١٧ ـ يقول ابن القيم ان الحج فرض في السنة التاسعة ، وما كان من حج الناس قبلها انما كان على العادة التي كانت عند العرب ، ولذلك لم يرسل النبي أميرا على الحج الا في السنة التاسعة ، ولم يحج هذا العام ، لأن المشركين كانوا يحجون على عادة الجاهلية ، فأرسل أبا بكر ولم يذهب بنفسه ، حتى لا يكون سكوته اقرارا لهذه الأمور الجاهلية ، ولما منعت بمنع المشركين من القرب من المسجد الحرام ، قام صلى الله تعالى عليه وسلم بالحج وتولى امرته بنفسه .

وقد اعتزم الخروج من المدينة ميمما وجهه شطر المسجد الحرام لست بقين من ذي القعدة ولما عزم أعلن عزمه على الحج في المدينة وما حولها فقدموا يريدون الحج مع رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، ولما شاع الخبر في البلاد العربية ، وافاه في الطريق خلق كثير ، لا يحصون فكانوا من بين يديه ، وعن يمينه وعن شماله على قدر رؤية البصر .

خرج بمن حول المدينة نهارا في التاريخ الذي أشرنا اليه ، وخطب الذين صحبوه من المدينة وعلمهم مناسك الحج ، وكان كلما وفد عليه ، وهو في طريقه وفد علمه مناسك الحج ، وأبعدهم عن بقايا الجاهلية التي كان المشركون يتخذونها في بيت الله الحرام ، كالطواف عرايا .

وبين لهم كيف يكون الاحرام ، ومواقيت الحج ، وبين لهم أنواع الاحرام ، وما يلزم في كل نوع فبين لهم أن من أحرم بالحج والعمرة فعليه أن يسوق الهدي ، ولا يتحلل الا يوم النحر بعد أداء الحج ، فيتحلل بنحر الهدي يوم النحر ، ومن نوى العمرة ولم يسق الهدي فله أن يتحلل بعد السعي بين الصفا والمروة ، والطواف بالبيت سبعا ، يجب في ثلاث منها الهرولة ، ويستلم في ابتداء كل واحدة الحجر الأسود تعرفا لكمالها .

وفي السعي سبعا بين الصفا والمروة يرمل بين الميلين الأخضرين ، وأنه يلبي بعد الاحرام بأن يقول لبيك اللهم لبيك ، لبيك لا شريك لك لبيك ، ان الحمد والنعمة لك والملك لا شريك لك لبيك ·

ثم بعد أن علم هذه المناسك قولا ،وأراهم اياها عملا من بعد أن أحرم من ذي الحليفة ميقات المدينة ، وعلمهم المواقيت كلها ، وأنه يحرم عندها أو قبلها ولا يمر عليها الا محرما ·

وأهل صلى الله تعالى عليه وسلم بعد احرامه بالحج والعمرة وأهل بعض من معه ، بالحج فقط ، لأن العمرة تدخل فيه ، وبالعمرة فقط ، وقد فهم بعض الناس من اهلاله بالحج والعمرة أنه كان قارنا أي جامعا بينهما لأنه ساق الهدي ومن أهل بالحج كان مفردا أي لم ينو العمرة في حجته ، ومن أهل بالعمرة فقط فانه متمتع ، لأنه المتمتع، يهل بالعمرة ، ويؤديها ثم يتحلل منها ، ثم ينوي الحج ، ويذبح الهدي يوم النحر ، وقد سمى القرآن القران تمتعا فجمع بينه وبين التمتع في عبارة واحدة ، وهي قول الله تعالى :

﴿ فَإِذَآ أَمِنتُمْ فَمَن تَمَتَّعَ بِٱلْعُمْرَةِ إِلَى ٱلْحَجِّ فَمَا ٱسْتَيْسَرَ مِنَ ٱلْهَدْيِ ۚ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَٰثَةِ أَيَّامٍ فِى ٱلْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ ۗ تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ ۗ ذَٰلِكَ لِمَن لَّمْ يَكُنْ أَهْلُهُۥ حَاضِرِى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿١٩٦﴾ ﴾(١)

وان الروايات تتضافر على أن حجه صلى الله تعالى عليه وسلم كان قرانا وانه عليه الصلاة والسلام يرتضي لنفسه أشدها كلفة، ولا شك أن القران يجمع كمالين الهدي يساق ويعلم من أول اهلاله والاستمساك بالتحريم في مناسك الحج ، حتى تؤدى كلها من السعي والطواف والوقوف بعرفات ثم بالمزدلفة ، ثم الذهاب الى منى بعد المشعر الحرام ، والتمتع فيه رخصة في أحد الأمرين ففيه رخصة التحلل قبل الحج ، ثم الاحرام له ، والحج بافراده من غير عمرة معه فيه رخصة من عدم الالتزام بالهدي ، فاختار الرسول صلى الله تعالى عليه وسلم القران ، لأنه لا سهولة فيه أولا ، ولأن فيه تعليم العمرة عملا .

---

(١) البقرة

ثانيا ، ولأن فيه سوق الهدي من أول الحج ، واشعاره بوضع مزادة فيه ، فقد وضع المزادة وشق جانبا من سنام زاملته ، لكان ذلك كله تعليما ، وما كان ليعلم ذلك عمليا ، لو كان قد أحرم بالحج مفردا ، أو أحرم متمتعا، فكان القران فيه كمال التعليم .

ومع أنه صلى الله تعالى عليه وسلم اختار لنفسه القران نسكا في الحج ، فقد رخص للناس ، من غير بيان أيها أفضل في أن يختاروا بين الأنساك الثلاثة : القران ، أو التمتع ، أو الافراد ، ولكنه اشترط في حال القران سوق الهدي ، وفي التمتع الهدي يوم النحر .

وقد حدث في أثناء سير ركب النبي صلى الله تعالى عليه وسلم أن أصاب الحيض أم المؤمنين عائشة ، فأمرها بالاستمرار في حجها على ألا تدخل المسجد الحرام ، وتطوف ، وولدت أسماء بنت عميس زوج أبي بكر ولده محمد بن أبي بكر ، وقد أمرها أن تغتسل لاحرامها ، كما أمر عائشة رضي الله عنها وعن أبيها .

مضى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم لحجته، والمسلمون وراءه يتعلمون من عمله ، وهو يلبي ، كلما تحول من مكان الى مكان ، وكلما علا مرتفعا ، أو انخفض في واد .

وقد منع أن يصاد حيوان من الحرم ، وأن يؤكل صيد الحرم ، لأنه حرام، فما يؤدي اليه يكون حراما ، ولكن أباح للمحرمين أن يأكلوا صيد غيرهم ممن يكونون في حل .

وفي أثناء سيره ، كان يبين العبر فيما جربه من أرض ، وبوادي عسفان، فقال لصاحبه أبي بكر ، يا أبا بكر أي واد هذا ؟ قال : وادي عسفان ، فقال صلى الله تعالى عليه وسلم : « لقد مر به هود وصالح » .

٧١٨ ـ ومن الروايات الراجحة يثبت أن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم كان قارنا جمع بين الحج والعمرة في اهلال واحد ، وقد ساق الهدي وكان ثلاثا وستين بدنة ، ولما جاء اليه علي من اليمن أشركه في بدنه ، وقد قلد البدنة وأشعرها .

ولكن لم يكن كل من معه قارنين ،بل قالت أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها كان منهم من كان قارنا كالرسول صلى الله تعالى عليه وسلم ومنهم من أفرد بالحج ، ومنهم من تمتع ، فقد روى ابن أبي شيبة أن عائشة رضي الله عنها قالت ، وخرجنا مع رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، للحج على ثلاثة أنواع ، فمنا من أهل بعمرة وحجة ، ومنا من أهل بحج مفرد ، ومنا من أهل بعمرة مفردة فمن كان أهل بحج وعمرة معا ، لم يحلل من شيء مما حرم منه ، حتى يقضي مناسك الحج ،ومن أهل بحج مفرد ، لم يحل بشيء ، مما حرم منه ، حتى يقضي مناسك الحج ، ومن أهل بعمرة مفردة فطاف بالبيت ، وبالصفا والمروة حل ما حرم منه ، حتى يستقبل حجا ، وان هذا يدل على أمرين :

أحدهما ـ أن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم كان قارنا ، ولم يدع الناس جميعا الى القران ، لأنه ربما يكون فيهم من لا يستطيع الهدي ، ومن لا يحتمل تحريم محرمات الحج مدة طويلة ، فأجاز لهم التمتع والقران والافراد ، وبين لهم ما يلزم كل نوع من هذه النسك ، ولم ينه عن واحد منها ، بل لم يبين أفضلها ، وان كان الأفضل يعرف من اختيار النبي صلى الله تعالى عليه وسلم لا من قوله ،وربما يفهم من التخيير من غير مفاضلة المساواة فيها •

وان الحق أن كلا له فضله في حاله، ففي حال الضعف ، أو عدم القدرة على الهدي يكون الأيسر ، هو الأفضل،لأن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، كان يختار الأيسر ، فما خير بين أمرين الا اختار أيسرهما ، ما لم يكن اثما •

وقد رأى عمر (وعثمان رضي الله عنه قد تبعه) أن يكون الافراد أولى ، حتى لا يخلو البيت الحرام من قاصديه طول العام ، لأنه اذا شاع اجتماع العمرة والحج في أشهر الحج، ما قصد البيت في أثناء العام ، وعمر يريد ألا يخلو البيت طول العام من قاصديه •

ولقد تبع ذلك عثمان رضي الله عنه ، لأنه قد تعهد عند مبايعته أن يعمل بكتاب الله تعالى وسنة رسوله صلى الله تعالى عليه وسلم ، وسنة الشيخين أبي بكر وعمر ، واختيار الافراد في الحج كان من سنة عمر رضي الله عنه،

ولم يقره على ذلك كثير من الصحابة كسعد بن أبي وقاص وعلي بن أبي طالب ، وعبد الله بن عباس ، وعائشة .

وقد روى أبو داود والامام أحمد أن معاوية قال وكان في ملأ من أصحاب رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم : أنشدكم بالله أتعلمون أن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم نهى عن جلود النمور أن يركب عليها ؟ قالوا اللهم نعم ، قال وتعلمون أن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم نهى عن لباس الذهب الا مقطعا قالوا اللهم نعم قال أتعلمون أنه نهى عن الشرب في أواني الذهب والفضة ؟ قالوا نعم ، قال : وتعلمون أنه نهى عن المتعة (أي الجمع بين العمرة والحج) قالوا اللهم لا «قال فوالله انها لمعهن » .

وان هذا يدل على أن معاوية اتبع ما سار عليه عثمان اتباعا لعمر ، للمقصد الاجتماعي الذي رآه ، ولعل معاوية ظن ، أو أراد أن يوهم أن عمله وعمل ذي النورين عثمان لنهي النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، والحقيقة أن لا نهي عن نوع من الأنساك الثلاثة « القران والتمتع والأفراد » وخصوصا أن التمتع بالجمع بين العمرة والحج قد نص عليه في القرآن ، وما كان لأحد مهما تكن مكانته بين المسلمين أن ينهى عن أمر أجازه القرآن وبين أحكامه .

ولكن عمر رضي الله تعالى عنه اختار الافراد لهذا المعنى الاجتماعي الذي ذكرناه ، وخالفه فيه كثيرون من الصحابة حتى ان ابنه عبد الله لم يوافقه .

وخالف علي عثمان رضي الله تعالى عنه ، ورد نهيه عن التمتع ردا شديدا وأعلن التمتع أمامه وفي حضرة جمع من الصحابة .

ولقد روي أن عبد الله بن عمر كان يرى التمتع بالقران ، أو مجرد الجمع في أشهر الحج بين العمرة والحج قارنا أو متمتعا ، فقال قائل ان أباك نهى عن العمرة « أي مع الحج » فقال الصحابي التقي : « أمر رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم أحق أن يتبع أم أمر أبي ، ولقد قال ابن عباس لمن كان يعارضه في القران والتمتع بعمل عمر يوشك أن ينزل عليكم حجارة من السماء ، أقول لكم قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، وتقولون : قال أبو بكر وعمر » .

الأماكن التي نزل بها رسول الله صلى الله عليه وسلم والأدعية التي ذكرها

٧١٩ ـ نهض رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، وسار في الطريق الى مكة بعد اهلاله من ذي الحليفة بالعمرة والحج ، أي قارنا ، وسار في طريقه حتى نزل بذي طوى وصلى بها الصبح ، ثم اغتسل ، من يومه ، ونهض الى مكة فدخلها من الثنية العليا التي تشرف على الحجون ، ثم سار حتى دخل المسجد الحرام واستقبل الكعبة ، وقال: (اللهم زد بيتك هذا تشريفا وتعظيما ومهابة) ٠

ويروى أنه كان عند رؤيته البيت يقول هذا الدعاء : (اللهم أنت السلام ومنك السلام ، حينا ربنا بالسلام ، اللهم زد هذا البيت تشريفا وتعظيما وتكريما ومهابة) ٠

ولقد طاف ، ولما حاذى الحجر الأسود استلمه ، ثم أخذ عن يمينه ، وجعل البيت عن يساره ولما فرغ من طوافه ، جاء خلف المقام ، وقال :

﴿ وَٱتَّخِذُواْ مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِـۧمَ مُصَلًّى ﴾ (١)

وصلى ركعتين ، والمقام بينه وبين البيت ، فلما فرغ من صلاته ، أقبل الى الحجر الأسود فاستلمه مرة أخرى ٠

ثم اتجه الى الصفا من الباب الذي يقابله ، وقرأ قوله تعالى :

﴿ إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلْمَرْوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِ فَمَنْ حَجَّ ٱلْبَيْتَ أَوِ ٱعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا ﴾ (٢)

---

(١) و (٢) البقرة

بعد السعي ، استمر صلى الله تعالى عليه وسلم ممسكا باحرامه ، فلم يتحلل ، وفعل مثل من أفرد بالحج ، أما من تمتع بالعمرة الى الحج ، وكان مهلا بالعمرة فقط فانه تحلل ، واستمر متحللا ، حتى نوى الحج من بعد ذلك .

استمر رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم على احرامه ، حتى تحلل يوم النحر ، والذين كانوا معه ولم يسوقوا الهدي ، وقد أهلوا بالعمرة تحللوا بعد طوافها حتى اذا كان يوم التروية وهو اليوم الثامن من ذي الحجة أهلوا بالحج ، وصاروا في احرام ،حتى تحللوا يوم النحر .

ثم اتجه صلى الله تعالى عليه وسلم الى منى ، ومعه من صحبه من المسلمين، ومنهم من كان يلبي ، ومنهم من كان يكبر ، والنبي صلى الله تعالى عليه وسلم لم ينه أحدا .

وقد صلى عليه الصلاة والسلام بالمسلمين في منى صلاة الظهر والعصر ، وجمع بينهما جمع تقديم فى وقت الظهر، وقد سار من بعد ذلك الى عرفة .

ويقول ابن القيم ، ضربت له قبة بنمرة ، وهي مكان في شرقي عرفات فنزل بها حتى اذا زالت الشمس أمر بناقته القصواء فرحلت ثم سار حتى أتى بطن الوادي ، فخطب الناس وهو على راحلته خطبة عظيمة قرر فيها قواعد الاسلام ، وهدم فيها قواعد الشرك والجاهلية ، وقرر فيها تحريم المحرمات التي اتفقت الملل على تحريمها ، وهي الدماء والأموال والأعراض ، ووضع فيها أمور الجاهلية تحت قدميه ، ووضع فيها ربا الجاهلية كله وأبطله ، وأوصاهم بالنساء خيرا،وذكر الحق الذي لهن وعليهن ، وأن الواجب لهن الرزق والكسوة بالمعروف،ولم يقدر ذلك بتقدير، وأباح للأزواج ضربهن اذا أدخلن الى بيوتهن من يكرهه أزواجهن ، وأوصى الأمة فيها بالاعتصام بكتاب الله ، وأخبر أنهم لن يضلوا ما داموا معتصمين به ، ثم أخبرهم أنهم مسئولون عنه،واستنطقهم بماذا يقولون ، وبماذا يشهدون فقالوا نشهد أنك قد بلغت وأديت ، ونصحت فرفع اصبعه الى السماء ، أن يبلغ شاهدهم غائبهم .

ذكر ابن القيم خلاصة الخطبة التيكانت بعرفة ، ولم يذكر نصهـا ، ولا ندري لماذا لم يذكر النص ، وقد ذكرالنص ابن اسحـاق في السـيرة ، فقد قال :

« مضى رسول الله صلى الله تعالى عليهوسلم على حجته،فأرى الناس مناسكهم، وأعلمهم سنن حجهم ، وخطب النـاسخطبته التي بين فيها ما بين ٠

فحمد الله تعالى وأثنى عليه ، ثم قال :

أيها الناس اسمعوا قولي ، فاني لاأدرى لعلي لا ألقاكم بعد عامي هـذا في هذا الموقف أبدا ٠

أيها الناس ان دماءكم وأموالكـمعليكم حرام الى أن تلقوا ربكم كحرمة يومكم هذا ، وكحرمة شهـركم هذا ،وانكم ستلقون ربكـم ، فيسألكـم عن أعمالكم ، وقد بلغت ، فمن كان عندهأمانة ، فليؤدها الى من ائتمنه عليها ٠

وأن كل ربا موضوع ، ولكن لكـمرؤوس أموالكـم ، لا تظلمـون ولا تظلمون ، قضى الله تعالى أنه لا ربا ،وان ربا عميّ عبـاس بن عبد المطلب موضوع كله ٠

وأن كل دم كان في الجاهلية موضوع ، وان أول دم أضعه دم ابن عمي ربيعة بن الحارث بن عبد المطلب ، وكان مسترضعـا في بني ليث فقتله هـذيل ، فهو أول ما أبدأ به من دماءالجاهلية ٠

أما بعد أيها الناس ، فان الشيطانقد يئس أن يعبد بأرضكم هذه أبدا ، ولكنه ان يطع فيما سوى ذلك فقـدرضي به مما تحقرون من أعمالكـم ، فاحذروه على دينكم ٠

أيها الناس ، انما النسيء في الكفريضل به الذين كفروا يحلونه عاما ، ويحرمونه عاما ، ليواطئوا عدة ما حرم الله ، فيحلوا ما حرم الله ، ويحـرموا ما أحل الله وان الزمان قد اسـتداركهيئته يوم خلق الله السموات والأرض، وان عدة الشهـور عند الله اثنا عشرشهرا في كتاب الله منها أربعة حرم ، ثـلاثة متواليات ورجب مضر الذي بينجمادى وشعبان ٠

أما بعد أيها الناس ، فان لكم على نسائكم حقا ، ولهن عليكم حقا ، لكم عليهن ألا يوطئن (١) فرشكم أحد تكرهونه وعليهن ألا يأتين بفاحشة مبينة فان فعلن ، فان الله قد أذن لكم أن تهجروهن في المضاجع ، وتضربوهن ضربا غير مبرح فان انتهين فلهن رزقهن وكسوتهن بالمعروف ، واستوصوا بالنساء خيرا ، فانهن عندكم عوان ،لا يملكن لأنفسهن شيئا ، وانكم انما أخذتموهن، واستحللتم فروجهن بكلمة الله ، فاعقلوا أيها الناس قولي ، فاني قد بلغت ، وقد تركت فيكم ما ان اعتصمتم به ، فلن تضلوا أبدا ، أمرا بينا ، كتاب الله وسنة نبيه .

أيها الناس ، اسمعوا قولي واعقلوه تعلمن أن المسلم أخ للمسلم ، وان المسلمين أخوة ، فلا يحل لامرىء من أخيه الا ما أعطاه عن طيب نفس منه، فلا تظلمن أنفسكم ، اللهم هل بلغت .

ويقول ابن اسحاق ذكر لي أن الناس قالوا : اللهم نعم ، فقال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم اللهم أشهد .

وهنا ننبه الى أمرين آخرين يتعلقان بالخطبة .

أولهما : أن الجمع كان حاشدا ، والخلق كانوا مزدحمين ازدحاما لم يكن له مثيل من قبل ، فقد جاء الناس من كل فج من الجزيرة العربية ليسعدوا بصحبة الرسول في حجته .

ولذلك لم يكن من الممكن أن يسمع الناس جميعا صوت النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، وهو يتكلم ، فكان بجواره صارخ يصرخ للناس بما يقول رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، قال ابن اسحاق : كان الرجل الذي يصرخ في الناس بقول رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم هو ربيعة بن أمية بن خلف، يقول له رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم : « قل يأيها الناس ، ان رسول الله يقول : هل تدرون أي شهر هذا فيقولون الشهر الحرام » .

وهكذا كان ذلك الصارخ ينطق بما قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، ليسمع القاصي والداني ، والقريب والبعيد من حضرة النبي صلى صلى الله تعالى عليه وسلم .

---

(١) معناها يدخلن بيوتكم من لا تريدون دخولهم.

ثانيهما : أنه روي عن بعض الثقات زيادة عما روينا من الخطبة الجامعة وزيادة الثقة مقبولة ومن الزيادات التي رويت قول النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، وذلك قوله صلى الله تعالى عليه وسلم :

أيها الناس ، ان الله قد أدى لكل ذي حق حقه ، وانه لا يجوز وصية لوارث ، والولد للفراش وللعاهر الحجر ، فمن ادعى الى غير أبيه ، أو تولى غير مواليه فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين لا يقبل الله منه صرفا ولا عدلا .

خطبة الوداع :

٧٢٠ ـ بعد أن وقف بعرفات ،وألقى خطبته الجامعة ، لما غربت الشمس ، واستحكم غروبها ، كما قال ابن القيم ، بحيث ذهبت الصفرة اتجه الى المزدلفة فأفاض من عرفة اليها ،وأردف اليه على ناقته أسامة بن زيد ، وهو يقول : « أيها الناس عليكم بالسكينة،فان البر ليس بالايضاع(١)، ثم جعل يسير العنق وكان في مسيره هذا لا ينقطع عن التلبية كلما علا ، أو انحدر » .

وقد صلى المغرب والعشاء في وقت العشاء فجمع بينهما جمع تأخير ، بأذان واحد ، واقامتين .

ثم صار من بعد ذلك الى منى بعد أن نام ، ولما اتجه الى منى أمر من معه ألا يرموا الجمار الا بعد طلوع الشمس .

وقد رمى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم الجمار ثم نحر ، ثم تحلل من الاحرام ، وقد كان معه بدن كثيرة ، نحر بيده منها ثلاثا وستين في النحر بمنى ، ثم نحر علي بن أبي طالب رضي الله تعالى عنه الباقي ، وأمره أن يتصدق بلحومها وجلودها في المساكين .

وقد ذكر ابن القيم أنه خطب في منى خطبة عظيمة بليغة ، وكل كلامه عليه الصلاة والسلام بليغ ، وقال ابن القيم في هذه الخطبة ، أعلمهم فيها بحرمة يوم النحر ، وفضله عند الله تعالى ، وحرمة مكة على جميع البلاد وأمر بالسمع والطاعة ، لمن قادهم بكتاب الله تعالى،وأمر الناس أن يأخذوا

---

(١) أى ليس بالاسراع ، وهو السير بين الاسراع والابطاء .

مناسكهم عنه ، وقال : لعلي لا أحج بعدعامي هذا ، وعلمهم مناسكهم ، وأنزل المهاجرين والأنصار منازلهم ، وأمر الناس ألا يرجعوا بعده كفارا يضرب بعضهم رقاب بعض ، وأمرهم بالتبليغ عنه وأخبر أنه رب مبلغ أوعى من سامع ، وقال في خطبته لا يجني جان الا على نفسه ، وأنزل المهاجرين عن يمين القبلة والأنصار عن يسارها ،والناس حولهم ، وفتح الله تعالى أسماع الناس حتى سمعها أهل منى في منازلهم .

وقال في خطبته قلت : « اعبدوا ربكم ، وصلوا خمسكم ، وصوموا شهركم ، وأطيعوا إذا أمركم تدخلوا جنة ربكم وودع حينئذ الناس » .

ويفهم من كلام ابن القيم هذا أن خطبة الوداع ليست التي ألقيت في عرفات ، انما خطبة الوداع هي هذه لأنها متأخرة عن الأولى ، والوداع للأخيرة ، ولأن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ذكر فيها الوداع ، والذي أراه أن الحجة كانت حجة الوداع ،فكل ما فيها من كلام يتضمن معنى الوداع .

وبعد أن نحر رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم حلق وفعل أصحابه ما فعل ، اتجه الى البيت الحرام ،فطاف طواف الافاضة ، وهو طواف الزيارة ، وهو الركن من الحج .

وشرب من زمزم ، ثم عاد الى منى ،وبعد الزوال رمى الجمار ، فابتدأ بالأولى التي تلي مسجد الخيف ثم الوسطى ، ثم العقبة .

وتكرر ذلك في أيام التشريق الثلاثة التي تلي يوم النحر .

وقد خطب النبي صلى الله تعالى عليه وسلم خطبة ثانية في منى ، وهي ثالثة الخطب باحتساب خطبة عرفة ،ويقول ابن القيم في هذه الخطبة :

« خطب النبي صلى الله تعالى عليه وسلم الناس بمنى خطبتين ، خطبة يوم النحر ، وقد تقدمت ، والخطبة الثانية في أواسط أيام التشريق قبل ثاني يوم النحر ، قال فيها : وهل تدرون أي شهر هذا ، قالوا الله ورسوله أعلم قال هذا الشهر الحرام ، ثم قال اني لا أدري لعلي لا ألقاكم بعد هذا ، ألا فان دماءكم وأموالكم وأعراضكم عليكم حرام ، كحرمة يومكم هذا في بلدكم

هذا حتى تلقوا ربكم فيسألكم عن أعمالكم ، ألا فليبلغ أدناكم أقصاكم ، ألا هل بلغت •

ويروى أنه نزلت بعرفة آية :

﴿ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا فَمَنِ ٱضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِّإِثْمٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣﴾ ﴾ (١)

ويروى أنه نزلت بمنى سورة :

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ ﴿١﴾ وَرَأَيْتَ ٱلنَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ ٱللَّهِ أَفْوَاجًا ﴿٢﴾ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَٱسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابًۢا ﴿٣﴾ ﴾ (٢)

لقد انتهى حج رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، وهي الحجة الأولى والأخيرة لرسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، فلم يحج قبلها في مكة ، لما كان يحوط الكعبة من أوثان ، وماكان يفعله أهل الجاهلية من ذلك ، ويلاحظ أن حج النبي صلى الله تعالى عليه وسلم كان قرانا كما ذكرنا ،ولم يلزم الناس ، ولم يذكر للناس أنه أفضل من غيره ، وان كان أفضل لأن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم قد اختاره ، وأنه مع ذلك ترك الناس أحرارا يختارون من أنواع الحج الثلاثة ما يكون أسهل عليهم ، فمن ساق هديا يختار القران ان أراد ،ومن لم يسق وأهل بالعمرة ، ولم يسق هديا ، فقد اختار التمتع ، ومن أهل بالحج ابتداء ، فلقد اختاره ، ولا يسوق هديا •

وقد كان المسلمون الذين صحبوا النبي صلى الله تعالى عليه وسلم في حجته منهم من اختار ، القران ومنهم من اختار التمتع ،ومنهم من اختار الاهلال بالحج ، ولا حرج ما دام يختار ما يستطيعه ، ولا يشق عليه •

---

(١) المائدة (٢) النصر

وما يروى من أن عمر اختار للمسلمين الافراد في خلافته ، لم يكن ذلك الزاما ، وكيف يلزم مؤمن المسلمين بغير ما ألزمهم به الله ورسوله، ولم يعرف عنه أنه وضع عقابا على من قرن أو تمتع ، وكيف ذلك وابنه عبد الله لم يوافقه ، ولكن عمل عمر كان رأيا •

وهو رأي له وجهه ، وهو ألا يخلو البيت الحرام من زواره •

دعاؤه في عرفة :

٧٢١ – لقد كان النبي صلى الله تعالى عليه وسلم كثير الدعاء في حجه ، لأنه في ضيافة الرحمن ، وفي أرض الله ، ففي كل منسك من مناسك الحج كان يدعو الله تعالى ، ولقد كان يدعو عندما أهل بالعمرة والحج ، وكان يدعو في طوافه ، وفي سعيه ، ويدعو في عرفه وفي الشهر الحرام •

ولقد روي عن علي رضي الله عنه أن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم كان دعاؤه وهو على عرفة في الموقف : اللهم لك الحمد كالذي نقول ، وخيرا مما نقول ، اللهم لك صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي ، أعوذ بك من عذاب القبر ووسوسة الصدر، وشتات الأمر، اللهم اني أعوذ بك من شر ما تهب به الريح •

وروي عن علي أن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم دعا أيضا فقال علي : « انه دعائي يوم عرفه ان اقول » لا اله الا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد، وهو على كل شيء قدير، اللهم اجعل في بصري نورا ، وفي سمعي نورا ، وفي قلبي نورا ، اللهم اشرح لي صدري ويسر لي أمري ، اللهم اني أعوذ بك من وسواس الصدر ، وشتات الأمر ، وشر فتنة القبر ، وشر ما يلج في الليل ، وشر ما يلج في النهار ، وشر ما تهب به الرياح ، وشر بوائق الدهر •

وروي عن ابن عباس أنه كان فيما دعا به النبي صلى الله تعالى عليه وسلم في حجة الوداع :

« اللهم انك تسمع كلامي ، وترى مكاني ، وتعلم سري وعلانيتي ، ولا يخفى عليك شيء من أمري ، أنا البائس الفقير المستغيث المستجير ، الوجل

المشفق ، المعترف بذنبه ، أسألك مسألةالمسكين ، وأبتهل اليك ابتهال الذليل، وأدعوك دعاء الخـائف الضرير ، من خضعت لك رقبته، وفاضت لك عبرته، وذل لك جسده ، ورغم لك أنفـــه ،اللهم لا تجعلني بدعائـك رب شقيا ، وكن بي رؤوفا رحيمـــا ، يا خـــيرالمسئولين » ٠

وروى أبو داود الطيالسي في سنده عن ابن عباس قال : رأيت أن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم دعا عشيةعرفة لأمته بالمغفرة والرحمة ، فأكثر الدعاء فأوحي اليه اني قـد فعلت الاظلم بعضهم بعضا ، وأما ذنوبهم فيما بيني وبينهم فقد غفرتها ، فقال يا ربانك قادر على أن تثيب هذا المظلوم خير من مظلمته ، وتغفر لهذا الظالم فـلميجب تلك العشية ٠

هذه أخبار عن أدعية النبي صـلىالله تعالى عليه وسلم ، وهي سامية في معناها ، وقـــد رويت ، وفي بعضرجالها ضعف عند رجال الحديث ،والله سبحانه وتعالى أعلم ٠

العودة إلى المدينة

٧٢٢ ـ عاد رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم الى المدينة بعد أن أدى مناسك الحج ، وبينها للناس ، وفي أثناء عودته عند غدير خم وهو قريب من الجحفة ، وصله شكوى الشكاة من علي كرم الله وجهه في الجنة ٠

ويقول الحافظ ابن كثير انه خطب في اليوم الثامن عشر من ذي الحجة ، خطبة عظيمة وكان بغدير خم تحت شجرة هناك فبين فيها أشياء كثيرة ، وذكر من عدل علي رضي الله تعالى عنه وأمانته وقربه اليه ما أزاح به ما كان في نفوس كثير من نفوس كثيرين من الناس عنه ٠

لقد أقبل أهل اليمن يشكون عليا من شدته في منع ركوب ابل الصدقة، وتوزيع حلل البز في غيبته ، ونزعها منه ٠

فجاء في خطبة النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ما وافق فيه على مسلك علي كرم الله وجهه في الجنة : فقال : أيها الناس ، لا تشكوا عليا ، فوالله انه لأخشى في ذات الله من أن يشكى ٠

وفي بعض الروايات الصحيحة أن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم أخذ بيد علي ، فأقامه عن يمينه ، وقال ألست أولى من كل امرىء من نفسه ، قالوا بلى ، قال فان هذا مولى أنا مولاه، اللهم وال من والاه ، وعاد من عاداه ٠

فلقي عمر بن الخطاب عليا ، فقال له : هنيئا لك أصبحت وأمسيت مولى كل مؤمن ومؤمنة ، وقد روى حديث من كنت مولاه فعلي مولاه ، اللهم وال من والاه ، وعاد من عاداه ٠

رواه أصحاب السنن الأربع ، والامام أحمد بطرق صحيحة ٠

فكان حقا أن يكون أولى أصحاب رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم وقد بينا ذلك فيما مضى ، وبينا أنه مع صحته لا يدل على أنه أولى بالخلافة من الشيخين أبي بكر وعمر ، فالخلافة تقتضي النظر الى أمور كثيرة ، يصح أن يكون بعضها محبة النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، ولكن ليست كلها ، فمحبة النبي صلى الله تعالى عليه وسلم لا تجعل غيره ليس أهلا للخلافة ، والله تعالى أعلم ٠

الوداع بعد التمام

٧٢٣ ـ نزل قوله تعالى :

﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾ (١)

وقال الرواة في الصحاح ، ان نزولها كان والمسلمون واقفون بعرفة يوم الجمعة ، فلما سمعها عمر بكى فقيل له ما يبكيك ؟ قال ما بعد الكمال الا النقصان ، والنقصان هو وداع رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم الدنيا ، وكأنه فهم رضي الله عنه بعقله المدرك وبصيرته النافذة ، أن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم بلغ رسالة ربه ، وأنه اذ بلغها ، فلم يبق الا أن يذهب الى ربه ، وقد أدى واجبه وبلغ وأنذر وبشر ، وعلم الناس علم الشريعة ، وعلم القرآن .

وأنه صلى الله تعالى عليه وسلم علم بعلم ربه أنه قد آن الوداع ، فكان في خطبه في الحج ، لعلي لا ألقاكم بعد عامي هذا .

ولقد نزل وسط أيام التشريق سورة النصر :

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ ﴿١﴾ وَرَأَيْتَ ٱلنَّاسَ يَدْخُلُونَ فِى دِينِ ٱللَّهِ أَفْوَاجًا ﴿٢﴾
فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَٱسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابًۢا ﴿٣﴾﴾ (٢)

وقالوا ان رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم قد عرف أنه الوداع ، وقد فسر ابن عباس في حضرة جمع من الصحابة بأن السورة تدل على أجل

---

(١) المائدة (٢) النصر

النبي صلى الله تعالى عليه وسلم،ووافق عليه عمر رضي الله عنه ، ولم يعترض عليه أحد ، وذلك بطريق الاشارة أوالتظنن ، لأنه اذا تم النصر ، وعم الاسلام فقد آن أوان المفارقة ٠

وان آيات القرآن تدل على أن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم مبعثه وحياته لأجل محدود ،وأنه ليس بمخلد وأن وفاته كغيره من البشر أقرب اليه من حبل الوريد لبشره ٠

١ ـ ومنها قوله تعالى :

﴿ إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ﴿٣٠﴾ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ ﴿٣١﴾ ﴾ (١)

٢ ـ ومن ذلك قوله تعالى :

﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ ۗ وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً ۖ وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴿٣٥﴾ ﴾ (٢)

﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ ۗ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ۖ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ ۗ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ ﴿١٨٥﴾ ﴾ (٣)

٣ ـ ومنها قوله تعالى :

﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ ۚ أَفَإِن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ ۚ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا ۗ وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ ﴿١٤٤﴾ وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ كِتَابًا مُّؤَجَّلًا ۗ وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ الْآخِرَةِ نُؤْتِهِ مِنْهَا ۚ وَسَنَجْزِي الشَّاكِرِينَ ﴿١٤٥﴾ ﴾ (٤)

هذه قبسة من الآيات القرآنية ،وغيرها كثير ٠

---

(١) الزمر (٢) الانبياء (٣) و (٤) آل عمران

ومن الأحاديث التي تنبأ فيها النبي صلى الله تعالى عليه وسلم بقرب أجله ولقاء ربه قوله لابنته فاطمة : « ان جبريل كان يعارضني القرآن فى كل سنة مرة ، وانه عارضني به العام مرتين وما أرى ذلك الا اقتراب أجلي .

٤ ـ وروى البخاري ، كان يعتكف رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم في رمضان عشرة أيام ، فلما كان العام الذي توفى فيه اعتكف عشرين يوما .

وهكذا تتضافر الأخبار عن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم أنه توقع وفاته في العام الذي حج فيه ، أو بعده بقليل .

بعث أسامة بن زيد

٧٢٤ ـ ومع أن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم كان يتوقع الموت القريب وقد ظهرت أماراته كان قائما بواجب التبليغ واعزاز الاسلام لآخر لحظة من لحظاته ، فالواجب مستمر ،لا يعوقه مرض ان كان قادرا على الارسال والبعث ، ولا يعوقه توقع الموت وقربه ، لأنه ما دامت الحياة ، فالواجب قائم ٠

بعث أسامة إلى أرض فلسطين :

وقد أجمع الرواة على أنه عليه الصلاة والسلام جعل في امرته الشيخين أبي بكر وعمر ، ولقد بنى الشيعة على ذلك أن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم وقد توقع الموت ، ودخل جسمه المرض وآذن بوداع ، بعثهما في جيش أسامة ليخلو الجو لعلي كرم الله وجهه ، ولا ينازعانه الخلافة ٠

ولا نحسب أن ذلك يصلح تعليلا ،أو حكمة ،لتولي أسامة امرة الشيخين، وقد كان يمكن أن يولي أحدهما الجيش، والآخر يعاونه ، فان ذلك قد يتحقق فيه ما فرضوه مقصدا للنبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، والحق أن اختيار النبي صلى الله تعالى عليه وسلم لأسامة يمكن أن نتعرف حكمته بغير ذلك ٠

فأبوه زيد بن حارثة كان القائد الأول للمسلمين الذي كان يحمل الراية، وقد قتله الرومان ، فكان من حكمة النبي صلى الله تعالى عليه وسلم أن يمكنه من قتلة أبيه ، فيكون أكثر حمية من غيره ، وأشد حماسة وأيضا فان أسامة كان شابا ، والنبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، وقد توقع الموت أن يولي الشباب ٠

وان زيدا لم يكن قرشيا ، بل كان أبوه من الموالي أعتقه النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، وتبناه ، حتى ألغي التبني بحكم القرآن من بعد الهجرة ، وان تعيينه وهو بهذه الحال ، بيان لأن السيادة لا تكون دائما للقرشيين ،

وتوكيدا لهـذا المعنى السامي جعل شيخين من شيوخ قريش والمسلمين في امرته وكانت لهما مكانتهما في قريش جاهلية واسلاما ، فكان جعله أميرا عليهما منعا للسيطرة القرشية ، ومنعا للأرستقراطية الاسلامية ٠

وان هذه الأمور تلمس لحكمة فعل النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ليست تعليلا دقيقا ، ولقد كان هـذا البعث آخر سرية أرسلها النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، وكأنها كانت اشارة الى أن يتجه المسلمون بالدعوة الاسلامية الى خارج الجزيرة العربية ، ولقد شدد عليه الصلاة والسلام في تنفيذ هـذه السرية شدد فيها وهو حي ، وشدد في التوصية بتنفيذها اذا مات ، ولكن لم تنفذ الا بعد وفاته ٠

وتخلف عنها الشيخان أبو بكر وعمر ، فأما أبو بكر ، فقد اختبره الله تعالى بالخلافة ، وارتداد الأعراب ، وكان لابد أن يبقى ليحمي المدينة ، وليحمي العقيدة ، وليحمل المرتدين على التوبة ٠

وأما عمر ، فلأنه كالوزير لأبي بكر ، استأذن أسامة في أن يبقى بجواره في هذه الشديدة لتكون قوة المسلمين المؤمنين متضافرة ، في دفع هذا البلاء ، والشديدة شديدة ، والبلاء بلاء ، فقد اجتمع أبو بكر وعمر وعلي ، والزبير وطلحة ، وعبيدة وعبد الرحمن بن عوف ليصدوا الردة ، ويتحقق قول الله تعالى :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ ذَٰلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ (٥٤) ﴾ (١)

(١) المائدة

الـــــوداع

٧٢٥ ـ عاد رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم لخمس بقين من ذي الحجة في السنة العاشرة ، وعاش أكرمه الله تعالى بقية ذي الحجة ، والمحرم كله ، واعتراه بعد ذلك وجع مرض الموت متجها الى لقاء الرفيق الأعلى في صفر من السنة الحادية عشرة ، روي أن ذلك ابتدأ في الليلة الحادية عشرة منه وروى أنه ابتدأ لليال بقين منه في آخره ، ثم كانت الوفاة بعد حياته المباركة للبشرية كلها في ربيع الأول ، وروى في أوله في ليال مضت منه ، وروي أنه في الثاني عشر منه ، ويرجح ذلك الأكثرون من الرواة ، وكان ذلك في يوم الاثنين من ذلك الشهر الذي كان فيه ميلاده ومبعثه ، وهجرته ، ثم توديعه الدنيا الى لقاء ربه الكريم ٠

وكانت أمارات الوداع ظاهرة بينة، ونذكر أمورا ثلاثة كانت في أول مرضه :

أولها : أنه روى عبد الله بن عمرو بن العاص عن أبي مويهة مولى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، قال بعثني رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم من جوف الليل ، وقال ان الله تعالى أمرني أن أستغفر لأهل هذا البقيع ، فانطلقت ٠

وفي رواية الامام أحمد عن أبي مويهة أنه قال : أمر رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم أن يصلي على أهل البقيع ، فصلى عليهم ثلاث مرات ، فلما كانت الثالثة قال يا أبا مويهة اسرج دابتي ، فركب ومشيت حتى انتهى اليهم فنزل عن دابته، وأمسكت الدابة، فوقف فقال : ليهنكم ما أنتم فيه مما فيه الناس ، أتت الفتن كقطع الليل المظلم يتبع بعضها بعضا ، الآخرة أشد من الأولى ، فليهنكم ما أنتم فيه مما فيه الناس ، ثم رجع فقال يا أبا مويهة اني خيرت بين مفاتيح ما يفتح على أمتي ،ولقاء ربي ، فاخترت لقاء ربي ٠

وان هذه الرواية تدل على أن الصلاة على أهل البقيع من موتى الصحابة كانت قبل ذهابه عليه الصلاة والسلام الى قبورهم ، وخطابه اياهم ٠

وقد روى ابن اسحاق عن ابن مسعود عن عائشة أنها قالت رجع رسول الله صلى لله تعالى عليه وسلم من البقيع،، وأنا أجد صداعا في رأسي وأقول وارأساه ، فقال : بل أنا والله يا عائشةوارأساه ، ثم قال : وما ضرك لو مت قبلي قلت : والله لكأني بك لو فعلتذلك ، لقد رجعت الى بيتي ، فأعرست فيه الى بعض نسائك ·

وفي هذا الخبر نجد أن النبي صلىالله تعالى عليه وسلم قد أعلن تقديره وتكريمه لصحابته ، وهم أموات كماكانوا أحبابه ، وهم أحياء ·

الأمر الثاني الذي يجب التنبيه اليه أن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم أوصى بالأنصار خيرا ، روى البيهقيبسنده أن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم أنه في مرض موته وقداشتد به وعكه خرج فجلس على المنبر فكان أول ما ذكر بعد حمد الله تعالىوالثناء عليه ذكر أصحاب أحد فاستغفر لهم ثم قال :

« يا معشر المهاجرين،انكم أصبحتمتزيدون ، والأنصار على هيئتها لاتزيد، وانهم عيبتي التي آويت اليها ، فأكرموا كريمهم ، وتجاوزوا عن مسيئهم ، ثم قال عليه الصلاة والسلام أيها الناس ان عبدا من عباد الله تعالى قد خيره الله تعالى بين الدنيا ، وبين ما عند الله :فاختار ما عند الله ، ففهمها أبو بكر رضي الله تعالى عنه من بين الناسفبكى ، وقال : بل نحن نفديك بأنفسنا وأبنائنا وأموالنا يا رسول الله » ·

وان هذه الرواية فيها الوصية بالأنصار ، لأنهم قوة النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، وهم الذين آووا ونصروا،وقد نفذت هذه الوصية في عهد الراشدين وعمر ين عبد العزيز أما ماكان من بني أمية نحو الأنصار فالله أعلم بهم وهو مجازيهم عليه ·

الأمر الثالث ــ ما رواه البخاريعن الفضل بن عباس أنه قال : أتاني رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ،وهو يوعك وعكا شديدا وقد عصب رأسه ، فقال خذ بيدي يا فضل ، فأخذت بيده حتى قعد على المنبر ثم قال : ناد في الناس ، فناديت الصلاة جامعةفاجتمعوا ، فقام رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم خطيبا فقال :

أما بعد أيها الناس قد دنا مني خلوف من بين أظهركم ، ولن أفي هذا

المقام فيكم ، وقد كنت أرى أن غيرهغير مغن عني حتى أقوم فيكم ، ألا فمن كنت قد جلدت له ظهرا ، فهذا ظهـري فليستقدمنه ومن كنت أخذت له مـالا فهذا مالي ، فليأخذ منه ، ومن كنت قدشتمت له عرضا ، فهـذا عـرضي فليستقدمنه ، ولا يقولن قائل اني أخاف الشحناء من رسول الله صلى الله تعالى عليـه وسلم ، ألا وان الشحناء ليست من شأني ، ولا من خلقي ، وان أحبكم الي من أخذ حقا كان له علي ،أو حللني ، فلقيت الله عز وجل ،وليس لأحد علي مظلمة ، فقام رجل ، وقال :يا رسول الله لي عندك ثلاثة دراهـم فقال عليه الصلاة والسلام ، أما أنا فلاأكذب قائلا ، ولا أستحلفه على يمين ، فيم كانت لك عندي ؟ قال أما تذكر أنهمر بك سائل فأمرتني ، فأعطيته ثلاثة، قال عليه الصـلاة والسـلام : « أعطه يا فضل » .

ثم عاد رسول الله صلى الله تعـالى عليه وسلم مستمرا في مقـالته الأولى وقال : أيها الناس من عنده من الغلول شيء فليرده ، فقام رجل فقال يا رسول الله عندي ثلاثة دراهـم غللتها في الله فقال عليه الصـلاة والسـلام ، فلم غللتها ؟ قال : كنت محتاجا اليها ،قال عليه الصـلاة والسـلام خذها منه يا فضل .

ثم عاد رسول الله صـلى الله تعالى عليه وسلم مستمرا في مقالته الأولى ، وقال : يأيها الناس من أحس من نفسه شيئا فليقم أدعو له ، فقام اليه رجل ، فقال : « اني لمنافق ، واني لكذوب ،واني لشئوم » فقال عمر بن الخطـاب ويحك لقد سترك الله لو سترت عـلى نفسك ؟ فقال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم : مه يا ابن الخطاب فضوح الدنيا أهون عند الله من فضوح الآخرة، اللهم ارزقه صدقا وايمانا وأذهب عنه الشؤم اذا شاء .

تـوديعـه لابـنـتـه :

٧٢٦ ــ اختبر الله نبيه وهو بشر بفقد أولاده ، واحدا بعد الآخر ، لقد رزقه تعالى من خديجة أحب أزواجـه اليه ستة ، ذكران وأربع بنات ، فقـد القاسم والطيب ، وهو في قوة شبابه ،وفقد بعد ذلك وهو في دار الهجـرة ثلاث بنات من بناته ، فقد رقية وهـو في غزوة بدر الكبرى ثم فقد زينب ، ثم أم كلثوم .

وأصيب وهو في كهولته بموت ابراهيم أصغر أولاده ، وكان قرة عين ، وقال بعد دفنه متحاملا على أصحابه ناظرا الى أحد ، يا جبل انك لا تحمل ما أحمل ، وقال نبي البشر ذلك ،وهو هادىء ، فبكى عليه الصلاة والسلام ، والبكاء من الرحمن ، والصراخ من الشيطان .

لم يبق له من أولاده الا فاطمة الزهراء زوج أحب أصحابه اليه ، فتجمع حب من فقدوا جميعا اذ صارت هي الوحيدة ، والمستأثرة بالأبوة المحبة العطوف .

وكان لابد أن يخصها بوداع لها بعد ذلك الوداع العام الذي ذكرناه .

وروي في الصحيحين عن عائشة رضي الله عنها ، قالت اجتمع نساء رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم عنده ، لم يغادره منهن امرأة فجاءت فاطمة رضي الله عنها تمشي ، لا تخطىء مشيتها مشية أبيها ، فقال عليه الصلاة والسلام مرحبا يا بنتي فأقعدها عن يمينه (أو شماله) اختلاف في الرواية، ثم سارها بشيء فبكت ، ثم سارها فضحكت ، فقلت لها خصك رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم بالسرار ،وأنت تبكين فقلت أخبريني ما سارك، فقالت ما كنت لأفشي سر رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم فلما توفي عليه الصلاة والسلام قلت أسألك لما لي عليك من الحق لما أخبرتني ، قالت أما الآن فنعم ، فقد سارني في الأول ، قال لي ان جبريل كان يعارضني في القرآن كل سنة مرة وقد عارضني في هذا العام مرتين ، ولا أرى ذلك الا لاقتراب أجلي ، فاتقي الله واصبري فنعم السلف أنا لك ، فبكيت ، ثم سارني فقال أما ترضين أن تكوني سيدة نساء المؤمنين أو سيدة نساء هذه الأمة ، فضحكت .

هذا وداع النبي لابنته ، ويروى أنه قال لها انها ستكون أول أهله لحاقا به .

هذا وداع الأب البار لابنته الزهراء سيدة نساء هذه الأمة .

إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ

٧٢٧ ـ روى البخاري أن عبد الله بن مسعود دخل على النبي صلى الله تعالى عليه وسلم فقال له : انك لتوعك وعكا شديدا !! فقال له النبي صلى الله تعالى عليه وسلم أجل ، اني أوعك كما يوعك الرجلان منكم ، قلت ان لك أجرين !! قال عليه الصلاة والسلام نعم : نعم ، والذي نفسي بيده ،ما على الأرض مسلم يصيبه أذى من مرض فما سواه ، الا حط الله عنه خطاياه كما تحط الشجرة ورقها ٠

وروي عن أبي سعيد الخدري ، أنه وضع يده على النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، فقال للرسول صلى الله تعالى عليه وسلم والله اني لا أستطيع أن أضع يدي عليك لشدة حماك ،فقال النبي صلى الله تعالى عليه وسلم « انا معشر الأنبياء يضاعف لنا البلاء ، كما يضاعف لنا الأجر » ٠

وروى البخاري في صحيحه أن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم قال في مرضه : « أشد الناس بلاء الأنبياء ثم الصالحون ، ثم الأمثل فالأمثل ، يبتلى الرجل على حسب دينه ، فان كان في دينه صلابة شدد عليه » ٠

أخذ المرض يدب الى جسم نور الوجود محمد صلى الله تعالى عليه وسلم حتى ضعف ، ومن قرابته من يحسب أن ما فيه من ذات الجنب ، وكان هذا رأي أقرب أهله اليه العباس ، وكان من طبهم لذلك أن يلد المريض في فمه ، وقد لدوا رسول الحق وهو في غفوة منه ، فلما صحا أحس بأثره في فمه ، فأمر بأن يلد من كان في حضرته واستثنى العباس ، ولعله لمكانته من كبر السن ، وفعل ذلك مع علمه بأن الذي أمر بلده هو عمه العباس رضي الله تعالى عنه ، وقال عليه الصلاة والسلام في اللد والتخوف من ذات الجنب : « انها من الشيطان وما كان الله تعالى ليسلطه علي » ٠

اشتد المرض برسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ولزم فراشه، فاستأذن نساءه في أن يمرض في بيت عائشة ،وقد روى البخاري خبرها في ذلك ،

قالت لما ثقل المرض على رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم واشتد ، استأذن أزواجه أن يمرض في بيتي ، فأذن له، فخرج ، وهو بين الرجلين تخط رجلاه الأرض بين عباس بن عبد المطلب وبين رجل آخر ، ولقد سئل ابن عباس عن الرجل الآخر الذي لم تذكر اسمه ولم تكن على جهل به ، قال هل تدري من الآخر الذي لم تسمه عائشة فقال السائل لا قال ابن عباس هو علي بن أبي طالب ، لم تذكر اسم علي فعفا الله عنها ، ورضي عنها ·

نقل الرسول الى بيت عائشة ، وقد اشتدت الحمى ، فكان يقول : اهريقوا الماء علي ، فأراقوا عليه صلى الله تعالى عليه وسلم ماء كثيرا ، حتى لقد روت أم المؤمنين عائشة أنه أهريق عليه سبع قرب من الماء ، لم تحل أوكيتهن ·

ولقد قالت عائشة رضي الله تعالى عنها فيما رواه البخاري كان رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم اذا اشتكى نفث على نفسه بالمعوذات ، ومسح عنه بيده ، فلما اشتكى وجعه الذي توفي فيه طفقت أنفث عليه بالمعوذات التي كان ينفث بها ·

صلاة أبي بكر :

٧٢٨ ـ اشتد المرض على رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، وشق عليه أن يؤم الناس للصلاة ، فكان لابد أن ينيب أحدا من المؤمنين الأولين الذين كانوا من أول الناس اسلاما ، وكان خليله وصديقه وصفيه أبو بكر أول الرجال اسلاما هو المختار ، فاختاره ليصلي بالمسلمين فلا تتعطل الامامة للصلاة ، ويخشى أن تتعطل الصلاة ، وهي عمود الاسلام ، ولا دين من غير صلاة ·

روى الامام أحمد أن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم لم يخرج للصلاة ، فصلى بالناس عمر رضي الله تعالى عنه، وكان ذلك استجابة لقول رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، اذ قال :مروا من يصلي بالناس ، فلم يكن من كبار الصحابة الا عمر وزير رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم الثاني ، وكان عمر رضي الله تعالى عنه رجلا مجهرا ، فقال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم وأين أبو بكر ، فبعث الى أبي بكر وهذا الخبر يدل على أن الامام عمر ما صلى الا في غيبة أبي بكر ، والاستجابة لأمر النبي صلى الله تعالى عليه وسلم

أمرا عاما ، اذ يقول : مروا من يصلي بالناس ، ثم عين من بعد صلاة عمر ، من يؤم الناس وهو أبو بكر رضي الله تعالى عنه ٠

روى البخاري عن الأعمش عن عائشة قالت لما مرض النبي صلى الله تعالى عليه وسلم مرضه الذي مات فيه ، فحضرت الصلاة ، فأذن بلال ، فقال : مروا أبا بكر فليصل بالناس ، فقيل له : ان أبا بكر رجل أسيف اذا قام مقامك لم يستطع أن يصلي بالناس ، وأعاد عليه الصلاة والسلام أمره فأعادوا كلامهم ، فقال النبي صلى الله تعالى عليه وسلم : انكن صواحب يوسف، مروا أبا بكر فليصل،فخرج أبو بكر فوجد النبي صلى الله تعالى عليه وسلم في نفسه خفة ،فخرج يهادي بين رجلين ، كأني أنظر الى رجليه تخطان من الوجع ، فأراد أبوبكر أن يتأخر فأومأ اليه النبي صلى الله تعالى عليه وسلم أن مكانك ثم أتى حتى جلس الى جانبه ، قيل للأعمش الراوي عن عائشة : فكان النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، وأبو بكر يصلي بصلاته، والناس يصلون بصلاة أبي بكر ،فأومأ برأسه ، نعم ٠

وقد استمر أبو بكر طول مدة مرض النبي صلى الله تعالى عليه وسلم يصلي بالناس ، حتى توفي النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ،وانتهى الى الرفيق الأعلى ، تاركا وراءه ذلك الميراث الانساني الخالد ، وهو شريعة الله تعالى التي بلغها ، وعلم الناس بها ما بين مشرق ومغرب في الجزيرة العربية ، ثم ترامى أمرها الى ما وراءها ٠

وقد انقطع رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم في مرضه ثلاثة أيام لم يخرج الى الناس فيها ، وكان يصلي بهم أبو بكر كما ذكرنا ، وقد كانت آخر صلاة صلى مع الناس صلاة الظهر،قبل الثلاث ٠

وروى البخاري عن أنس بن مالك رضي الله تعالى عنه ، وكان ملازما للنبي صلى الله تعالى عليه وسلم أن أبابكر كان يصلي بهم في وجع النبي صلى الله تعالى عليه وسلم الذي توفي فيه ، حتى اذا كان يوم الاثنين وهم صفوف في الصلاة ، فكشف النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ستر الحجرة ينظر الينا ، وتبسم يضحك ، فهممنا أن نفتتن من الفرح برؤيا النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ونكص أبو بكر على عقبيه ليصل الصف ، وظن أن النبي

صلى الله تعالى عليه وسلم خارج للصلاة،فأشار الينا أن أتموا صلاتكم ، وأرخى الستر ، وتوفي من يومه ٠

هكذا كان النبي صلى الله تعالى عليه وسلم قائما على تبليغ رسالة ربه ، حتى آخر ، جزء من حياته ، فهو اذ يحتضر ينظر الى مقدار استجابة الناس لدعوته الى ربه ، حتى اذا اطمأن تبسّم ضاحكا، ثم أسلم نفسه لله تعالى . الذي قبضه اليه ففاضت روحه الطاهرة ، وانتقل الى الرفيق الرحيم ، انتقل الى الملأ الأعلى ٠

لكل أجل كتاب :

٧٢٩ ـ استبشر المسلمون خيرا عندما أزاح عليه الصلاة والسلام الستر لينظر اليهم وهم يصلون وقد تبسم ضاحكا ، فظنوا البرء والسلامة ، وقد فرحوا ، حتى كادوا يخرجون من الصلاة فرحا ، ولم يظنوا أنها الوداع الأخير ، ورؤية البلاغ الكامل الذي اعتقد أنه قد أتم تبليغ الرسالة ٠

كان ذلك في يوم الاثنين اذ كانت هذه الرؤية المودعة ، الأجل المكتوب ، وكان أبو بكر الصديق الأمين قد اطمأن بهذه النظرة ، فذهب الى السنح حيث يقيم ، ولكن ما لبث الا قليلا ، حتى نعى الناعي رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم اليه ، فجاء لتكتحل عيناه برؤية الرسول الذي كان ملء السماء والأرض وكان مسجى في فراشه ،ولنترك الخبر الأليم كما وصفته أم المؤمنين عائشة حب رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، لنترك لها البيان :

بينما كان رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم على منكبي ، اذ مال رأسه نحو رأسي فظننت أنه يريد من رأسي حاجة فخرجت من فيه نقطة باردة ، فوقعت فاقشعر لها جلدي فظننت أنه غشي عليه ، فسجيته ثوبا فجاء عمر ، والمغيرة بن شعبة فاستأذنا فأذنت لهما ،وجذبت الي الحجاب،فقال عمر واغشياه ما أشد غشي رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، ثم قاما ، فلما دنوا من الباب قال المغيرة لقد مات رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم فقال عمر ، كذبت ، بل أنت رجل تحوطك فتنة ،ان رسول الله لا يموت حتى يفني

المنافقين فكأن عمر رضي الله عنه كبرعليه أن يموت رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم كما يموت الناس ، وقـــددفعه الى ذلك فرط محبته وجاء أبو بكر الصديق ، فنظر الى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، فقال ان لله ، وانا اليه راجعون ، مات رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، ثم أتاه من قبل رأسه وقبل جبينه ، وقال واصفياه ، ثم قبل جبهته ، وقال : واخليلاه ، مات رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ٠

خرج عمر رضي الله عنه الى المسجديخطب في الناس ، ويقول : ان رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم لا يموتحتى يفني المنافقين ، عندئذ تقدم أبو بكر ثم قال :

﴿ إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ﴿٣٠﴾ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ ﴿٣١﴾ ﴾ (١)

﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ ﴿١٤٤﴾ ﴾ (٢)

فمن كان يعبد الله فان الله حي لا يموت ، ومن كان يعبد محمـــدا ، فان محمدا قد مات ٠

وروي أن أبا بكر عندما قبل جبهةالنبي صلى الله تعالى عليه وسلم قـــال فداك أبي وأمي ما أطيبك حيا وميتا ٠

وروي أن عمر رضي الله عنه توعدبالقطع أو القتل من يقـول ان محمدا قد مات ٠

وروي أن خطبة أبي بكر كانت أطول ممـــا ذكرنا ، ويروى أنه رضي الله عنه ، حنا على رسول الله صـــلى الله تعالىعليه وسلم فقبله وهو يبكي ، وكل هذه أخبار ثقات ، يجمع بينها ، ولا تنافرفيها ، فكل حفظ ما سمع ، وشهد بمـــا رأى ، والناس جميعـــا كـــانوا فيفزع وجزع ٠

---

(١) الزمر (٢) آل عمران

وخطبة أبي بكر التي هي أطول مماذكرنا ابتداء ، قال فيها :

ليس ما يقوله ابن الخطاب شيئا ،توفي رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ثم قال باكيا ، والذي نفسي بيده ، رحمة الله عليك يا رسول الله ، ما أطيبك حيا وميتا ثم غشاه بالثوب ،ثم ذهب الى المسجد سريعا ، وقال : ان الله عز وجل نعى نبيه الى نفسه ، وهوحي بين أظهركم، ونعاكم الى أنفسكم، وهو الموت حتى لا يبقى منكم أحد الاالله عز وجل قال تعالى :

﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ ۚ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَـٰبِكُمْ ۚ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔا ۗ وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّـٰكِرِينَ ﴿١٤٤﴾ ﴾ (١)

وقال تعالى لمحمد :

﴿ إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ﴿٣٠﴾ ﴾ (٢)

وقال تعالى :

﴿ كُلُّ شَىْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ ۚ ﴾ (٣)

وقال تعالى :

﴿ كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴿٢٦﴾ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَـٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ ﴿٢٧﴾ ﴾ (٤)

وقال تعالي :

﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ ۗ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۖ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ ۗ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَـٰعُ ٱلْغُرُورِ ﴿١٨٥﴾ ﴾ (٥)

ان الله عمر محمدا وأبقاه حتى أقام دين الله ، وأظهر أمر الله ، وبلغ رسالة الله ، وجاهد في سبيل الله ، ثم توفاه الله على ذلك، وقد ترككم على الطريقة،

---

(١) آل عمران (٢) الزمر (٣) القصص (٤) الرحمن (٥) آل عمران

فلن يهلك هالك الا من بعد البينة والشفاء ، فمن كان يعبد الله ربه ، فان الله حي لا يموت فاتقوا الله أيها الناس، واعتصموا بدينكم ، وتوكلوا على ربكم فان دين الله تعالى قائم ، وان كلمة الله تامة ، وان الله ناصر من ينصره ، ومعز دينه ، وان كتاب الله تعالى بين أظهرنا، وهو النور والشفاء ، وبه هدى الله تعالى محمدا ، وفيه حلال الله تعالى وحرامه ، والله لا يبالي من أجلب علينا، من خلق الله ، ان سيوف الله تعالى لمسلولة ما وضعناها بعد ، ولنجاهدن من خالفنا ، كما جاهدنا مع رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، فلا يبغين أحد الا على نفسه .

هاتان خطبتان للصديق رضي الله تعالى عنه ، في يوم الفزع الأكبر ، ولعله كان يكرر قوله كلما رأى هلعا ، وجزعا ، ليرد اليها شارد لبها ، وقد طاشت أحلام ، وهلعت قلوب ، فكان يكرر التثبيت .

غسل الجُثمان الطاهر ودَفنه :

٧٣٠ ـ اتجه المؤمنون الى اقامة خليفة لرسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم قبل أن يغسل رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، ويوارى جثمانه الطاهر ، فقد اجتمع الأنصار ، وعلى رأسهم سعد بن عبادة ليفكروا في هذا، فأسرع اليهم أبو بكر وعمر رضي الله عنه خشية أن يتفرق أمر المؤمنين ، في سقيفة بني ساعدة، وأنهوا أمر الخلاف باختيار أبي بكر رضي الله عنه تعالى خليفة لرسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، ولم يحضر الاجتماع أحد من بني هاشم أو أقرباء النبي الأدنون ، العباس وعلي وغيرهما من بني هاشم ، ولعل ذلك كان لانشغالهم بأمر النبي صلى الله تعالى عليه وسلم .

وقد انتقل النبي صلى الله تعالى عليه وسلم الى الرفيق الأعلى ضحى يوم الاثنين، فمكث بقية يوم الاثنين وبعض يوم الثلاثاء ، حتى اذا تمهدت الأمور وتمت كما ذكر الحافظ بن كثير شرعوا في تجهيز النبي صلى الله تعالى عليه وسلم .

ويقول ابن اسحاق : لما بويع أبوبكر أقبل الناس على جهاز رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم وقد كانت وفاته يوم الاثنين ، وغسله ودفنه ليلة الأربعاء .

اجتمع الناس لغسل رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم وليس في البيت الا أهله ، وعمه العباس بن عبد المطلب، وعلي بن أبي طالب ، والفضل بن عباس ، وقثم بن العباس ، وأسامة بن زيد بن حارثة ، ودخل من بعد أوس ابن خولي الأنصاري البدري الخزرجي نادى عليا ، فقال : يا علي ننشدك الله، وحظنا من رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، فقال له علي ادخل فحضر الغسل •

وغسل رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، وعليه قميصه ، وتولى الغسل علي كرم الله وجهه فأسنده الى صدره ، وعليه قميصه ، وكان العباس وفضل وقثم يقلبونه مع علي ، وكان أسامة بن زيد وصالح مولاه يصبان الماء ، وجعل علي يغسله ، ولم ير منه شيئا ، وهو يقول بأبي وأمي ما أطيبك حيا وميتا ، وكانوا يغسلونه صلى الله تعالى عليه وسلم بالماء ، والسدر جففوه ، ثم صنع به مما اختلط بالماء •

وقد كفنوه صلى الله تعالى عليه وسلم في ثلاثة أثواب اثنان أبيضان وثالث حبرة •

ودفن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم في بيت عائشة حيث مات ، لخبر نسب الى النبي صلى الله تعالى عليه وسلم أن الأنبياء يدفنون حيث يموتون •

وقد تولى دفنه عليه الصلاة والسلام أربعة من أهله ومواليه العباس وعلي، والفضل بن عباس ، وصالح مولاه لحدوا له لحدا ، ونصبوا اللبن نصبا •

هكذا انتهت الحياة الدنيوية لأكرم خلق الله على الله ، وأكرم انسان للانسانية ، عاش حياته مجاهدا منذ خلقه الله تعالى الى أن قبضه سبحانه وتعالى اليه ، جاهد الرذيلة غلاما ،فكان الفاضل في صباه ، وكان الأمين في شبابه لم تكن الحياة أمامه رخاء سهلا ، بل ذاق اليتم ، وان لم يقهر ، كما يقهر اليتامى ، وذاق طعم الفقر ،وان لم يترب نفسه ، حتى اذا كلف أداء الرسالة حمل عبئها ، وذاق مرارة الأذى في سبيلها ، وهو صابر مصابر ، حتى اذا هاجر حمل السيف مجاهدا ،كما حمل القرآن هاديا معلما ، يعلي الانسانية ويكرمها ، ويسامح ، ويواد،حتى كان الانسان الكامل في هذا الوجود ، واذا كان قد دفن جسده فلن تدفن شريعته •

تركة النبي صلى الله تعالى عليه وسلم

٧٣١ - لم يترك النبي صلى الله تعالى عليه وسلم مالا ، ولم يكن لديه في آخر حياته عند وعكة الموت الا ذهبة تصدق بها في آخر حياته ، فلم يكن مالكا لمال ، ولكن اذا كان مال كان لما يقدمه للبر ، فكان يعيش على خبز الشعير ، ويمر المال بيده ، مرور الماء، ويسيل الى الضعفاء والمساكين ، وأبناء السبيل واليتامى فلا يبقى في يده شيء ، واذا بقي لا يكون ميراثا لأهله، وهو يقرر في شريعته « نحن معاشر الأنبياء لا نورث وما تركناه صدقة » ، فكأن كل ما يتركه صدقة لا يملكه ولد ولا عم ، بل في مصرف الخير والبر ، فما كان الأنبياء ليختزنوا مالا ، ولا يورثوا تراثا ، ولكن يورثون علما ، وشرعا ، وبلاغا للناس، فذلك ميراثهم، وهو خير تركة زاخرة ، وهي العلم الكامل .

ولقد كان ثمة خلاف في أرض « فدك » ذكرناه في موضعه ، ولم تكن فدك كما يصور التاريخ ملكا للنبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، بل كان على حكم ملك اليتامى والمساكين والفقراء ، وأبناء السبيل ، يصرف النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ما يفيء اليه من غلاتها في مصارفها ، وكان لأهل البيت وذوي القربى حظ مقسوم ، ولما جرى الخلاف بين سيدة نساء المؤمنين فاطمة الطاهرة بنت أطهر من أقلته الأرض ، وأظلته السماء ، لم يكن خلافا على الملكية ، كما توهم عبارات المؤرخين ، بل كان خلافا على ادارتها ، وصرفها في مصارفها ، اذ كان فيها نفقات لأمهات المؤمنين ، فيتولى ذوو القربى ما كان يتولاه هو عليه الصلاة والسلام ، فعارض في ذلك الصديق رضي الله عنه .

ثم كان من بعده أن وافق عمر رضي الله تعالى عليه ، على أن تكـــون الادارة بين العباس وعلي ، على ما ذكرنا من قبل ، وان الميراث العظيم الذي تركه النبي صلى الله تعالى عليـــه وسلمشريعته ، وهي محفوظة بحفظ القرآن اذ يقول سبحانه :

﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَـٰفِظُونَ ۝٩﴾ (١)

(١) الحجر

زوجات النبي صلى الله تعالى عليه وسلم

٧٣٢ ــ يحلو لبعض الكتاب غير المسلمين أن يقولوا ، ان محمدا صلى الله تعالى عليه وسلم كان رجلا شهوانيا، بدليل أنه تزوج نحو ثلاث عشرة ، وتوفي عن تسع وقد أسرفوا على أنفسهم في القول ، وعلى الحقيقة فطمسوها في زعمهم ، ولكن الحق أبلج ، نير يكشف دائما ما يكون من غمة يحاول أصحابها أن يعموا الحق ويدلسوا على أهله ٠

لقد زعموا أن النبي شهواني ، لزواجه ، ونحن نتخذ من زواجه دليلا على أنه لم يكن شهوانيا ، بل كان أقرب الى أن يكون سلبيا ، لا تغلبه شهوة ، ولا يسيطر عليه هوى في أي ناحية من النواحي ٠

لقد تزوج أم المؤمنين خديجة وهو شاب مكتمل قوي في الخامسة والعشرين من عمره ، وكانت هي في الأربعين من عمرها ، وعاش معها نحو ست وعشرين سنة ، أي تجاوزت نحو السادسة والستين ، وأنجب منها ستة أولاد ولم يفكر في أن يتزوج عليها ،وكان معروفا بالعفة ، والشهوات تتقزز في نفس أمثاله ممن هم في مثل سنه ، وهو بالنسبة لهم العفيف النزيه الذي لا يزن بريبة قط ، ونساء قريش يتمنين أن يكون ضجيعا لهن ، ولكنه كان في عزوف عن كل شهوة ، ونظرة الى النساء ٠

حتى اذا توفيت أم المؤمنين خديجة وقد تكاثرت مشاغله ، فكان مشغولا بالدعوة الى التوحيد ومكابدة الأذى الذي تفاقم بعد وفاة خديجة وأبي طالب ٠

ولقد كان التعدد من بعد ذلك ، ولمقاصد ليست هي الشهوة ، كما أن الشهوة ليست بعض هذه العناصر ، والدلائل تدل على أنها كانت بعيدة كل البعد ٠

وانا نذكر أن هذا التعدد كان اما لأن امرأة بعض الصحابة الذين جاهدوا معه قد قتل وهو يهاجر ، وكانت امرأته أهلها في الشرك ، فاما تعود اليهم

فتتعرض للعذاب والردة ولا أحد معها في دار الهجرة من قومها ،فيتحمل هو عبء الزواج منها حفاظا لها ورعاية ، ولا ينظر في ذلك الى أنها يرغب في الزواج منها ، أو ليس فيها ما يرغب الا رعايتها وحمايتها ، اما هذا ، واما ليربط بها مع معين له في التبليغ، فيرتبط معه برباط المصاهرة مع رباط الايمان ، واما لانقاذ امرأة من الرق ، من غير نظر الى كونها جميلة أو غير ذلك ٠

واما لبيان أحكام شرعية ، فيطبقها عملا ، ليكون أسوة للناس في محاربة أمر جاهلي قد اعتادوه ، وان لم يقره الاسلام ، فيفعله النبي صلى الله تعالى عليه وسلم لكيلا يكون حرج على الناس في أن يفعلوه ، واما ليرتبط بالقبائل العربية ، ليتخذ منها دعاة للاسلام ،واما لازالة النفرة ، وجلب المودة ٠

هذه بعض مقاصد التعدد وكلها أوجلها لحماية المرأة من الضياع ، فقد حمل نفسه عليه الصلاة والسلام بأمر ربه عبء ذلك ، فكان الزواج تكليفا ، لا للرغبة بله الشهوة ٠

وهذا اجمال ، ولنذكر تفصيله في زواج كل امرأة بعينها من أمهات المؤمنين بعينها ٠

ولقد كان رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم بعد أن يعقد زواجه ممن كتب عليه أن يتزوجها ، لا يدخل بها الا بعد أن يتأكد رضاها بهذا الزواج ، وأنها راغبة فيه راضية ، فيطلب اليها أن تهب نفسها له ٠

٧٣٣ ـ وعدد زوجات النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ثلاث عشرة ، وكانت له جاريتان مارية القبطية وريحانة بنت زينب ، وقد اعتق ريحانة فأسلمت ، ولحقت بأهل لها ، وبقيت مارية ، وروي أنه أعتقها وتزوجها ، ويقيت عنده ، حتى توفي صلى الله تعالى عليه وسلم ٠

وأول أزواجة صلى الله تعالى عليه وسلم أم المؤمنين خديجة ، وقد ذكرنا خبر هذا الزواج في موضعه من حياة النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، وقد بقي معها نحو ست وعشرين سنة كما أشرنا ، وكان له منها أولاده الستة ، القاسم والطيب ، وقد ماتا قبل الهجرة،أو قبل البعثة ، ورقية وأم كلثوم وزينب وفاطمة ، وماتا قبله ، ولم يمت بعده الا فاطمة ، وقد ماتت رضي

الله عنها بعد وفاته بستة أشهر ،وبأولادها حفظت العترة المحمدية في ولديها الحسن والحسين وهما سيدا شباب أهل الجنة ، كما ورد بذلك الأثر عن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، ولم يتزوج في حياتها غيرها ، كما ذكرنا ٠

وتزوج النبي من بعدها قبل الهجرة سودة بنت زمعة ، وكانت في نحو سن خديجة أي في نحو ست وستين من عمرها ، ولم تكن في جمال خديجة ٠

وكانت قد أسلمت مع زوجها ، وهاجرا الى الحبشة فرارا من أذى الجاهليين من قريش ، ومات بعد أن عادا ، وكان أهلها لا يزالون على الشرك ، فاذا عادت اليهم فتنوها في دينها ، فتزوجها النبي صلى الله تعالى عليه وسلم حماية لدينها من الفتنة ٠

٢ ـ وتزوج من بعدها أم المؤمنين عائشة بنت صاحبه الصديق ، وكانت في نحو التاسعة من عمرها فما كانت لتشتهى لأنها كانت ضاوية ، حتى يقال انه تزوجها للشهوة ، ولم يدخل بها الا بعد الهجرة ، وما كان الزواج اذن لشهوة يبتغيها ، ولكن لصحبة بالصديق يوثقها ، بالمصاهرة ، وهي تشبه النسب ، وقد كان أحد وزيريه ٠

ويروى أنه تزوجها قبل سودة ، ولكن الرواية الراجحة ما ذكرنا ، ولعل التقارب في الزمن بين الزواجين لم يعين السابق منهما تعيينا دقيقا في الروايات ٠

٣ ـ وبعد الهجرة تزوج عليه الصلاة والسلام حفصة بنت عمر بن الخطاب ، وكانت زوجا لخنيس بن حذافة مات عنها مؤمنا ٠

وكان الزواج لتوثيق الصحبة بأبيها رضي الله عنه ، فقد كان الوزير الثاني للنبي صلى الله تعالى عليه وسلم ،وما أحاط بزواجه يدل على أن مودته عليه الصلاة والسلام هي التي دفعت الى هذا الزواج ، ذلك أن عثمان رضي الله تعالى عليه لما ماتت زوجته رقية وغزوة بدر قائمة ، رغب عمر رضي الله عنه في أن يزوجها من عثمان رضي الله تعالى عنه ، فعرض عليه ، فسكت عثمان ، فشكا عمر ذلك للنبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، فقال سيتزوجها من هو خير من عثمان ، وسيتزوج عثمان من هي خير من حفصة ، فتزوج

النبي صلى الله تعالى عليه وسلم حفصة،وتزوج عثمان أم كلثوم بنت النبي صلى الله تعالى عليه وسلم •

وترى من هذا أن زواجه عليه الصلاة والسلام منها كان ربطا للمودة، وإرضاء للقلوب •

٤ ــ وتزوج عليه الصلاة والسلام والحرب قائمة بينه صلى الله تعالى عليه وسلم وبين المشركين بقيادة كبيرهم أبي سفيان ، تزوج أم حبيبة رملة بنت أبي سفيان هذا •

كانت قد سافرت مع زوجها عبد الله بن جحش الى الحبشة ، ولكنه تنصر ، وخرج عن الاسلام فكانت بين أن ترجع لأبيها زعيم الشرك فتفتن في دينها ، وبين أن تعود الى المدينة لا مأوى لها ،فآواها النبي صلى الله تعالى عليه وسلم بزواجه منها ، فبعث النبي صلى الله تعالى عليه وسلم عمرو بن أمية الضمري الى أرض الحبشة فخطبها عليه الصلاة والسلام ، فزوجها منه عثمان بن أبي العاص ، ودفع النجاشي صداقها ، وهو أربعمائة دينار ، وبعث بها الى النبي صلى الله تعالى عليه وسلم•

وبهذا الزواج أصاب النبي صلى الله تعالى عليه وسلم هدفين : أحدهما أنه وقاها من الشرك وأن تفتن في دينها ،وأصهر من أبي سفيان الذي سر منه ، ورحب به ، وروي أنه قال نعم الفحل محمد •

٥ ــ وتزوج النبي صلى الله تعالى عليه وسلم زينب بنت خزيمة ، وهي من بني عبد مناف بن هلال بن عامر بن صعصعة ، ويقال لها أم المساكين ، وقد قتل زوجها يوم أحد ، وكان ذلك ايواء لها ، وتشجيعا لها على اعانة المساكين ، ولكنها لم تلبث الا قليلا مع رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم، ثم توفيت في حياته عليه الصلاة والسلام •

٦ ــ وتزوج النبي عليه الصلاة والسلام زينب بنت جحش ، وكانت زوجا لزيد بن حارثة ، وقد تزوجته على أنه ابن محمد صلى الله تعالى عليه وسلم اذ أطلق النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ذلك الاسم ، لما رفض أن

يعود مع أهله ، ورضي أن يبقى مع النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، فلما أنزل الله سبحانه وتعالى على نبيه صلى الله تعالى عليه وسلم :

﴿ وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَاءَكُمْ أَبْنَاءَكُمْ ذَٰلِكُمْ قَوْلُكُم بِأَفْوَاهِكُمْ وَاللَّهُ يَقُولُ الْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ ﴿٤﴾ ادْعُوهُمْ لِآبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ اللَّهِ فَإِن لَّمْ تَعْلَمُوا آبَاءَهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَمَوَالِيكُمْ ﴾ (١)

تململت ببقائها مع زيد ، اذ تبين أنه ليس بقرشي ، وقد تململ زيد من كبريائها واستأذن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم في طلاقها ، فقال له اتق الله وأمسك عليك زوجك ، وقد أمر الله تعالى نبيه صلى الله تعالى عليه وسلم أن يتزوجها بعد أن يطلقها زيد، ولكنه أخفى ذلك ، وخشي مقالة الناس أن يقولوا تزوج محمد زوجة ابنه .

ولكن الله تعالى أمره بقوله تعالى :

﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُّبِينًا ﴿٣٦﴾ ﴾ (٢)

وان الله تعالى أمره بذلك لكيلا يكون على المؤمنين حرج في أزواج ادعيائهم اذا قضوا منهن وطرا فأمر النبي عليه الصلاة والسلام بذلك الزواج لكي تزول تلك العادة المستحكمة فيهم وهي عادة التبني التي سرت اليهم من الرومان ، وليست من طبائع القرابة ، بل هي كذب ، وافتراء وفساد للأسر ، اذ يدخل فيها ما ليس منها .

٧٣٤ ــ واقرأ الآيات التي اشتملت على ذلك :

﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُّبِينًا ﴿٣٦﴾ وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ

---

(١) و (٢) الاحزاب

اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَاهُ فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاكَهَا لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا (٣٧) مَّا كَانَ عَلَى النَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ اللَّهُ لَهُ سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلُ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا (٣٨) الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالَاتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا اللَّهَ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ حَسِيبًا (٣٩) مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا (٤٠)﴾ (١)

هذا أمر زينب بنت جحش ، وزيد بن حارثة كما ساقها القرآن الكريم ، وهي تدل :

أولا : على أنه في الجاهلية كان يعتبر الدعي – أي المتبنى – ابنا – وألغى الله تعالى حكم هذه العادة ، وقد تلونا من قبل في أول سورة الأحزاب ما يدل على ذلك ٠

ثانيا : على أن الله تعالى اقتضت حكمته أن يؤكد إبطال ذلك الحكم الجاهلي الذي يدخل في الأسرة بحكم النسب من ليس منها ، فلا تتعاطف بحكم الفطرة ، وتفسد الأسرة ،واقتضت حكمته أن يكون تأكيد الابطال بالنبي صلى الله تعالى عليه وسلم يتزوج زوجة دعيه ، وقد فسدت العلاقات بينهما بتململ القرشية من أن تكون تحت غير قرشي هو عتيق وليس ابنه ، فاستكبرت ، وتململ زيد من كبريائها فأراد تطليقها، فقال له الرسول أمسك عليك زوجك ، وهو يعلم أن الله كتب أن يطلقها ، وكتب على محمد أن يتزوجها ، ولكنه يخفي في نفسه ما لا يبديه من أن الله تعالى كتب الطلاق من زيد ، وللزواج منه صلى الله تعالى عليه وسلم لأنه يخشى أن يجابه العرب ، بمخالفة ما ألفوا ٠

---

(١) الاحزاب

ولقد أمر النبي صلى الله تعالى عليه وسلم بأن يتزوجها بعد الطلاق لكيلا يكون على المؤمنين حرج في أزواج أدعيائهم اذا قضوا منهن وطرا ٠

ودلت الآيات ثالثا: على أن محمدا صلى الله تعالى عليه وسلم لم يكن أبا لأحد من رجال العرب ، ان انتفت أبوة الأدعياء ، هذا ما تدل عليه الآيات الكريمات بظاهرها ، ومقصدها ومرماها ٠

ولكن الذين يفسدون المعاني ، ويريدون الكيد للاسلام اخترعوا هذا اختراعا في العهد الأموي ، اخترعها يوحنا الدمشقي ونشرها بين المسلمين ليقولها أتباعه ، وينشروها بين بعض التابعين ، وقد توهم صدقها بعض الذين تبهرهم الروايات من غير تمحيص . ومع الأسف كان من بين هؤلاء أبو جعفر بن جرير فنقلها مصدقا لها ، ونقلها أكثر المفسرين عنه ، حتى بين كذبها وافتراءها ابن كثير في كتابه تفسير القرآن العظيم ، رضي الله تعالى عنه ، وعفا الله عن الطبري في أن نشر ذلك الضلال وان نقل الكذب لا يحوله الى صدق ، ولو كان الطبري ناقله ٠

ومن الغريب أن حملوا الآية الفرية التي افتروها ، وكان المتعصبون من غير المسلمين هم الذين ادعوها ، لقد ادعوا أن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم رآها تغتسل ، فوقع في قلبه حبها ، فأراد من زيد أن يطلقها ليتزوجها ، وادعوا أن ذلك هو ما أخفاه ، وخشي من الناس ، وأن الله أبداها ، وان ذلك لا يمكن أن ينطبق بحال من الأحوال على معاني الآية وظواهرها ، الا أن يكون ذلك اختراعا اخترعوه ، ويدل على مناهضة الآية لهذه المعاني الفاسدة ما يأتي :

أولا ــ أن الزواج منها لم يكن كما تدل الآية برغبة من النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، حتى تكون الشهوة هي المحركة ، بل ان الزواج كان بأمر الله تعالى وذلك بنص الآية ، لأن الله تعالى صدر الآيات بقوله تعالى :

﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ۗ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا مُّبِينًا ﴿٣٦﴾ ﴾ (١)

---

(١) الاحزاب

ولأن الله تعالى نسب التزويج الى ذاته العلية ، بأن الله تعالى هو الذي قال:

﴿ فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَٰكَهَا ﴾ (١)

وذكر سبحانه وتعالى السبب في هذا الزواج الذي فرضه الله تعالى وتولى تعالى عقده ليس الشهوة ، وانما هو ألا يكون على المؤمنين حرج في أن يتزوجوا أزواج الذين يتبنونهم وليس شهوة ، ولا ما يشبهها .

والخشية التي خشيها النبي صلى الله تعالى عليه وسلم هي مجابهة ما عليه الجاهلية ، فعاتبه سبحانه وتعالى على هذه الخشية بأن الله تعالى أحق بأن يخشاه فيطيع أوامره .

وثانيا ـ أن الله تعالى قال :

﴿ وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبْدِيهِ ﴾ (٢)

فيقولون هو العشق الذي أخفاه ،والآية تناقض ذلك ، لأن الله تعالى ما أبدى عشقا ، ولكن أبدى الأمر بالزواج ، فكان هو الذي أخفاه النبي صلى الله تعالى عليه وسلم على زيد ،وقال : أمسك عليك زوجك واتق الله.

وثالثا ـ أن الآية الكريمة تدل بنصها ومغزاها على أن موضوعها منع أن يكون المتبنى ابنا ، ولذلك أمر الله تعالى النبي صلى الله تعالى عليه وسلم أن يتزوج امرأة دعيه ، ليكون ذلك بيانا للشرع عمليا ، كما بينه بالنص القرآني ، قولا مفروضا بالمنع المؤكد.

ولذلك أكد سبحانه وتعالى النفي بقوله تعالى :

﴿ مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ ﴾ (٣)

هذا هو المعنى الجلي من غير تلبيس كذاب ، ولا اتباع متوهم .

---

(١) و (٢) و (٣) الاحزاب

وكنا نود أن يدرك المفسرون ، والذين يتكلمون في معاني القرآن ، وأخبار النبي صلى الله تعالى عليه وسلم حقيقة هذه الفرية ، ومصدرها ، الذي أراد افشاءها كيدا للمسلمين بعد أن بين ابن كثير الحافظ للسنة ، كذب هذه الرواية ، ورد كلام ابن جرير ردا قويا ·

وكنا نود أن يتعرف الذين يكتبون الآن في السيرة ذلك ، وكنا نحسب أن لهم ذوقا بيانيا ، وعمقا في دلالات الألفاظ ومراميها ، كنا نود منهم أن يمحصوا القول ويدركوه ، ولكن غلبت النزعة الروائية التي نسمع أمثالها منسوبا اليهم ، فكتبوا فيما تصدوا له من كلام في السيرة عنوانا يقول : النبي العاشق ، وقد كتبوا تحت العنوان تلك الفرية المفتراة على أنها وقائع وقعت ، وكأنها قصة من الروايات التي كتبوها ·

وتبعهم من يقلدونهم من غير أن يفرقوا بين حق وباطل ، ولا أقول عفا الله عنهم ، لأن أقوالهم لا تزال تردد منسوبة اليهم ، ولهم في المجتمع الأدبي مكانة ، جزاهم الله تعالى بمقدارها ·

زواجه ببقية نسائه :

٧٣٥ ــ وتزوج رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم أم سلمة واسمها هند بنت أبي أمية بن المغيرة ، وهي مخزومية ، وقد مات عنها زوجها ، أبو سلمة ، وهو عبد الله بن عبد الأسد ·

وعند موت زوجها ، وقد توفي عنها وهي شابة طلب اليها أن تتزوج من بعده ، ودعا لها مخلصا أن يتزوجها من هو خير منه ، وقد رأى النبي صلى الله تعالى عليه وسلم أنها ذات عيال ، ويحتاجون الى من يرعاهم ، وكانت هي وزوجها مهاجرة ، فانقطعت عن ذويها ، ولابد لها هي وأولادها من يحوطهم ويرعاهم ، فكان عليه الصلاة والسلام ، وتزوجها لرعايتها ورعاية أولادها ·

٢ ــ وتزوج رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم جويرية بنت الحارث ، ويقول ابن هشام في زواجها : « لما انصرف رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم من غزوة بني المصطلق ، ومعه جويرية بنت الحارث ــ دفع بجويرية الى رجل من الأنصار وديعة عنده ــ وأمره بالاحتفاظ بها ، وقدم رسول

الله صلى الله تعالى عليه وسلم المدينة ،فأقبل أبوها الحارث بن أبي ضرار بفداء ابنته ، فلما كان بالعقيق نظر الى الابل التي جاء بها للفداء ، فرغب في بعيرين منها ، فغيبهما في شعب من العقيق ، ثم أتى النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، فقال يا محمد :أصبتم ابنتي ، وهذا فداؤها ، فقال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم :فأين البعيران اللذان غيبتهما بالعقيق في شعب كذا ، فقال الحارث : أشهد أن لا اله الا الله وأنك رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، فوالله ما اطلع على ذلك أحد فأسلم الحارث ، وأسلم معه ابنان له » ٠

وان الغزاة كانوا قد أسروا من قومها نحو مائة ، فلما تزوجها النبي صلى الله تعالى عليه وسلم من أبيها ، وكانت قد أسلمت أطلق كل من كان في يده أحد من الأسرى أسراه ، وقال : كيف نسترق أصهار رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، فعتق بزواجه عليه الصلاة والسلام أهل مائة من بيوت بني المصطلق ، وتقول أم المؤمنين عائشة في ذلك : « ما كانت امرأة أبرك على قومها من جويرية ، لقد عتق بها مائة بيت من بيوت قومها » ٠

ونرى من هذا أن زواج النبي صلى الله تعالى عليه وسلم كان بقصد سام ، وهو أن يعتق هؤلاء الناس وألا يسجل على النبي انشاء الرق ، فيكون ممنوعا الى الأبد ، ولو كان الأعداء يسترقون منا ، ومن غير أن يتركهم يسترقون ، فيكون مباحا الى الأبد ٠

فما كان الزواج للشهوة ، بل كان للعتق ٠

٣ ــ وتزوج صلى الله تعالى عليه وسلم صفية بنت حيي بن أخطب ،وقد سيقت مع أختها ، وأمرّهما بلال على قتلى خيبر ، والذين أسروا فيمن أسر منهم ، فلام النبي صلى الله تعالى عليه وسلم بلالا ، وقال له : أليس في قلبك رحمة،أتمر بالفتاتين على قتلى قومهما،وعرض الفتاتين ليتزوجهما بعض الصحابة فتزوجت أختها ، وبقيت هي فتزوجها النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ليطيب نفسها ، وليرقأ جرحها ٠

٤ ــ وتزوج النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ميمونة بنت الحارث بن حزن الهلالية وقد اختارها زوجا له العباس بن عبد المطلب ، لتوثيق ما بينه

عليه الصلاة والسلام ، وبين القبائل العربية ، وقد أصدقها العباس رضي الله عنه من ماله أربعمائة درهم ،ويروى أنها هي التي وهبت نفسها للنبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، ذلك أنها لما علمت خطبة النبي صلى الله تعالى عليه وسلم قالت للنبي صلى الله تعالى عليه وسلم : البعير وما عليه لله ولرسوله ، وكانت على بعير عند ما انتهت اليها الخطبة ، وقد قال الله تعالى :

﴿ وَامْرَأَةً مُؤْمِنَةً إِن وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ إِنْ أَرَادَ النَّبِيُّ أَن يَسْتَنكِحَهَا خَالِصَةً لَّكَ مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ قَدْ عَلِمْنَا مَا فَرَضْنَا عَلَيْهِمْ فِي أَزْوَاجِهِمْ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ لِكَيْلَا يَكُونَ عَلَيْكَ حَرَجٌ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٥٠﴾ ﴾(١)

٧٣٦ ــ هؤلاء عددهن عشر ، وهن بعد خديجة ، وبضمهن اليها يكون العدد احدى عشرة وكلهن دخل بهن ،ولذلك يعدون أمهات المؤمنين ، ولا يتزوجن أحدا من بعده ، ولذلك قال تعالى :

﴿ وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ ﴾(٢)

وقال في منع زواجهن من بعده :

﴿ وَمَا كَانَ لَكُمْ أَن تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ وَلَا أَن تَنكِحُوا أَزْوَاجَهُ مِن بَعْدِهِ أَبَدًا ﴾(٣)

ويقول الرواة ان عدد أزواج النبي ثلاث عشرة ، دخل باحدى عشرة فهن أمهات المؤمنين ومات عن تسع ، اذ ماتت في حياته خديجة ، وزينب أم المساكين ٠

وتزوج باثنتين لم يدخل بهما ،وهما ــ أسماء بنت النعمان الكندية تزوجها ، فوجد بها بياضا في ابطها ،فسرحها بمعروف ومتعها ، بعد أن طلقها ، وقد كانت كندية ، وقبائل كندة كانت بعيدة عن المدينة ، وقد أسلمت ، فكان لابد أن يربط النبي صلى الله تعالى عليه وسلم برباط بينها وبينه ليؤنسها بهذه المصاهرة في هذا البعد المترامي ٠

---

(١) و (٢) و (٣) الاحزاب

والثانية ـ امرأة من سلالة النعمان اسمها أميمة بنت النعمان بن شر حبيل، وقد أراد النبي صلى الله تعالى عليه وسلم أن يتزوجها ، لأنها من أطراف الجزيرة العربية في الجنوب ، وعليه الصلاة والسلام يريد أن يقرب البعيد، ويزيل الوحشة ، وقد كانت المصاهرة رباطا وثيقا بين كبراء القبائل تنهي حربا أو تدفع قتالا ، وما كان على النبي صلى الله تعالى عليه وسلم من غضاضة في أن يوثق ما بينه وبين القبائل بهذه المصاهرة ٠

ويروى في زواجه منها أنه عليه الصلاة والسلام عندما دخل بها ، وكان عليه الصلاة والسلام اذا تزوج امرأة طلب منها أن تهب نفسها له عليه الصلاة والسلام ، استيثاقا من رضاها به زوجا، فقد كان يعقد أولياء المرأة، وخشية ألا يكون ذلك برضا حر فيه اختيار كامل ، فلما اختلى بها قال لها هبي نفسك لي ، اعترتها نعرة جاهلية فقالت وهل تهب الملكة نفسها للسوقة، ثم قالت أعوذ بالله ، فقال عليه الصلاة والسلام لقد عذت بمعاذ عظيم ، فطلقها ، وسرحها سراحا جميلا ٠

العبرة

٧٣٧ ـ هذه زيجات النبي صلى الله تعالى عليه وسلم بلغت عدتهن ثلاث عشرة من الأزواج ماتت منهن اثنتان في حياته الكريمة الطاهرة ، وهما أم المؤمنين خديجة أفضلهن ، وأكثرهن عطفا ، وقد سمي عام موتها مع عمه الحاني الكريم عام الحزن ، والثانية زينب أم المساكين رضي الله عنها .

واثنتان لم يدخل بهما ، وطلقهما قبل الدخول لعيب جثماني في احداهما ، ولنفرة من الثانية بدت في قولها ، وقد عاشت الى ستين عاما بعد الهجرة ، وكانت تسمى نفسها الشقية لحرمانها من جوار أكرم من في الوجود من خلق الله سبحانه وتعالى .

وقد كان يعتزل بعضهن أحيانا ، ويرجىء الاتصال بهن أحيانا ، وعلى أي حال فقد انتهى الحل له صلى الله تعالى عليه وسلم بهذا العدد اذ تحققت فيه كل المقاصد الاجتماعية التي تتعلق بالدعوة ، وقال تعالى في ذلك :

﴿ تُرْجِي مَن تَشَآءُ مِنْهُنَّ وَتُـْٔوِيٓ إِلَيْكَ مَن تَشَآءُ ۖ وَمَنِ ٱبْتَغَيْتَ مِمَّنْ عَزَلْتَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكَ ۚ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن تَقَرَّ أَعْيُنُهُنَّ وَلَا يَحْزَنَّ وَيَرْضَيْنَ بِمَآ ءَاتَيْتَهُنَّ كُلُّهُنَّ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي قُلُوبِكُمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَلِيمًا ﴿٥١﴾ لَّا يَحِلُّ لَكَ ٱلنِّسَآءُ مِنۢ بَعْدُ وَلَآ أَن تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَٰجٍ وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ إِلَّا مَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ رَّقِيبًا ﴿٥٢﴾ ﴾ (١)

وإن هذا النص الكريم يدل على أمرين جليلين :

أولهما ـ منع الحل بعد هذا العدد ، اذ استوفى التعدد بالنسبة لتعدد النبي صلى الله تعالى عليه وسلم مقصده ، وان هذا العدد خاص بالنبي صلى الله تعالى

---

(١) الاحزاب

عليه وسلم فقد قال تعالى من قبل في تحليل هذا القدر من العدد :

﴿ خَالِصَةً لَّكَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ قَدْ عَلِمْنَا مَا فَرَضْنَا عَلَيْهِمْ فِىٓ أَزْوَٰجِهِمْ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ ﴾ (١)

ثانيهما ـ أن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم لم يكن يتصل بنسائه جميعا كل ليلة ـ كما توهم عبارات بعض المحدثين ـ مما أخذ منه أعداء الاسلام ادعاء أن النبي كان شهوانيا، واستندوا الى أقوال هؤلاء والى تهافت بعضهم في القول حتى انه ليقول كان عند النبي صلى الله تعالى عليه وسلم قوة أربعين رجلا ، فالآية ترد كل هذا ، فقد كان النبي صلى الله تعالى عليه وسلم يرجيء من يشاء منهن ، ويؤوي اليه من يشاء ، ويعتزل بعضهن ، ويبتغي من يعتزل من بعد ذلك ، مما ينافي ما ادعاه بعض المحدثين من أنه عليه الصلاة والسلام كان يمر عليهن ويتصل بهن واحدة ، واحدة كل ليلة ، مما فتح الباب للمغرضين والكذابين من أعداء الاسلام ، والمنحرفين ممن تسموا بأسماء المسلمين ٠

بقي أن نتكلم في بعض أسباب هذا التعدد ٠

قد أشرنا من قبل الى أن تعدد زوجات النبي صلى الله تعالى عليه وسلم كان لايواء الضعيفات من أزواج المهاجرين اللائي لا مأوى لهن في هذه الغربة التي انقطعن فيها عن أهليهن ، ولربط الصلات بينه وبين كبار أصحابه ، ولمنع تحكم الوثنيين فيمن تربطهم بهن رابطة نسب من نساء المهاجرين الذين يقتلون أو يموتون أو يرتدون ، وقد أشار الله سبحانه وتعالى الى ذلك في قوله تعالى :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ إِنَّآ أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَٰجَكَ ٱلَّٰتِىٓ ءَاتَيْتَ أُجُورَهُنَّ وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ مِمَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ وَبَنَاتِ عَمِّكَ وَبَنَاتِ عَمَّٰتِكَ وَبَنَاتِ خَالِكَ وَبَنَاتِ خَٰلَٰتِكَ ٱلَّٰتِى

(١) الاحزاب

﴿... هَاجَرْنَ مَعَكَ وَامْرَأَةً مُّؤْمِنَةً إِن وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ إِنْ أَرَادَ النَّبِيُّ أَن يَسْتَنكِحَهَا خَالِصَةً لَّكَ مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ قَدْ عَلِمْنَا مَا فَرَضْنَا عَلَيْهِمْ فِي أَزْوَاجِهِمْ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ لِكَيْلَا يَكُونَ عَلَيْكَ حَرَجٌ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾ (١)

ويستفاد من هذا النص أن زواج المهاجرات كان للرحم التي تربطه بهن من عمومة أو خئولة ، وان ذلك يشمل قرابته لقريش ، فلا يضيعهن عند موت أزواجهن شهداء ، بل لا بد أن يتولى هو ايواءهن في ظله الظليل .

وقد رأيت أن بعضهن تزوجها النبي صلى الله تعالى عليه وسلم بأمر ربه تبيينا للشرع وتنفيذا لأحكامه ، وقد تعرض النبي صلى الله تعالى عليه وسلم بأمر ربه لمجابهة العرب فيما كانوا يألفون ، ويرونه أمرا طبيعيا لا يخالف ، وقد تأثر به بعض المؤمنين ، حتى ان النبي صلى الله تعالى عليه وسلم قد حدث منه ذلك قبل الحكم بالمنع ، فبين الله تعالى أنه ضد الحقيقة ، وأن البنوة تكون من الصلب ، لا من الادعاء ، وأشار سبحانه وتعالى الى أنه ادخال في النسب ما ليس منه ، اذ قال سبحانه :

﴿ ادْعُوهُمْ لِآبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ اللَّهِ فَإِن لَّمْ تَعْلَمُوا آبَاءَهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَمَوَالِيكُمْ ﴾ (٢)

٧٣٨ - وهناك أمران آخران في حكمة تعدد زوجات النبي صلى الله تعالى عليه وسلم غير ما سبق ذكره أو أشير اليه ، من أن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم كان يتزوج لتوثيق المعاونة بمن يحب من أصحابه ، واعانة الضعيفات من النساء ، حتى انه كان يتحمل عبء من ليس له ولي من قريب أو ذي حسب ، ولكيلا ترتد بعد ايمان ، والارتباط بالمصاهرة بين من تنأى ديارهم ، وقد يلحون في العداوة وبينه صلى الله تعالى عليه وسلم .

نقول هناك أمران غير هذا الذي ذكرناه أو أشرنا اليه .

أحدهما أن يتولى نساء النبي صلى الله تعالى عليه وسلم تعليم النساء أمور

---

(١) و (٢) الاحزاب

دينهن ، فما كان النساء بعد النبي صلى الله تعالى عليه وسلم في عهد الصحابة والتابعين يغشين مجالس العلم يتعلمن أمور الدين ، بل كن يذهبن الى النبي يسألنه في حياته ، ومن بعده كن يسألن أزواجه أمهات المؤمنين ،كعائشة وأم سلمة وغيرهما ممن عمرن بعد الرسول صلى الله تعالى عليه وسلم ، ولعله من فضول القول أن نقول ان كثيرا من الأحكام الخاصة بالمرأة رويت عن أم المؤمنين عائشة رضي الله تعالى عنها وعن أبيها الصديق ٠

وان حفصة أم المؤمنين كانت الأمينة على المصحف الذي انتهت كتابته في عصر أبيها الامام العظيم الفاروق رضي الله تعالى عنه ، وجزاه عن الاسلام خيرا ٠

ولعل الأمر الالهي بألا ينكحن من بعده أبدا كما تلونا من قبل كان لهذا المعنى وليتفرغن لتعليم النساء أحكام الدين وفضائله ، وآدابه ، وروحه ومعناه ، وأخبار النبي صلى الله تعالى عليه وسلم في أهله ، وفي ذاته الطاهرة ، وانك لترى من ذلك الشيء الكثير في رواية عائشة رضي الله عنها، فقد كان لها ذكاء يندر في نساء العرب،وانه قد تزكي ما روي من أنه يؤخذ منها نصف الدين ، وهو النصف الخاص بأحكام النساء ٠

ثانيها ــ أن نساء النبي كن يتخذن قدوة حسنة للنساء في عفتهن ، واحتسابهن وآدابهن لأنهن أخذن بآداب النبوة ، والمرأة تتأثر بالمرأة أكثر مما تتأثر بالرجال، تصلح بصلاح صواحبها من النساء ، وتفسد بفساد صواحبها منهن ، فالمرأة تصلح المرأة ، أو تفسدها ، وانا لنرى ذلك واضحا اليوم ، وانه كان كذلك في الماضي ، فالانسان ابن الانسان ٠

وان الله تعالى تعهد نساء النبي بالارشاد والتأديب ، لأنهن الأسوة والقدوة قال تعالى ، وهو أصدق القائلين :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ
وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا ﴿٢٨﴾ وَإِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ فَإِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَٰتِ
مِنكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٢٩﴾ يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ مَن يَأْتِ مِنكُنَّ بِفَٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ يُضَٰعَفْ لَهَا ٱلْعَذَابُ

ضِعْفَيْنِ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا ﴿٣٠﴾ * وَمَن يَقْنُتْ مِنكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتَعْمَلْ صَٰلِحًا
نُّؤْتِهَآ أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ وَأَعْتَدْنَا لَهَا رِزْقًا كَرِيمًا ﴿٣١﴾ يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِىِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ ٱلنِّسَآءِ إِنِ
ٱتَّقَيْتُنَّ فَلَا تَخْضَعْنَ بِٱلْقَوْلِ فَيَطْمَعَ ٱلَّذِى فِى قَلْبِهِۦ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ﴿٣٢﴾ وَقَرْنَ فِى
بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ٱلْأُولَىٰ وَأَقِمْنَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتِينَ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِعْنَ ٱللَّهَ
وَرَسُولَهُۥٓ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا ﴿٣٣﴾
وَٱذْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ فِى بُيُوتِكُنَّ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱلْحِكْمَةِ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا ﴿٣٤﴾ ﴾ (١)

فنساء النبي بهذا التأديب الالهي الذي لم يخرجن عن نطاقه كن بالنسبة للنساء الصورة المثالية ، والقدوة القائمة الثابتة لنساء المؤمنين ، بل نساء العالمين ولأنهن المثل السامي عقب ذلك بما يجب أن تكون عليه المؤمنات المقتديات بنساء النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، فقال تعالى عقب ما أمر به نساء النبي صلى الله تعالى عليه وسلم بما أمر به من ارشاد ، وتهذيب ، وتوجيه للعلو :

﴿ إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَٰتِ وَٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَٱلْقَٰنِتِينَ وَٱلْقَٰنِتَٰتِ وَٱلصَّٰدِقِينَ
وَٱلصَّٰدِقَٰتِ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰبِرَٰتِ وَٱلْخَٰشِعِينَ وَٱلْخَٰشِعَٰتِ وَٱلْمُتَصَدِّقِينَ وَٱلْمُتَصَدِّقَٰتِ
وَٱلصَّٰٓئِمِينَ وَٱلصَّٰٓئِمَٰتِ وَٱلْحَٰفِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَٱلْحَٰفِظَٰتِ وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرًا
وَٱلذَّٰكِرَٰتِ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴿٣٥﴾ ﴾ (٢)

هذا وان الاقتران في التلاوة بين ارشاد نساء النبي ومنزلتهن ، وبين أوصاف المؤمنات يشير الى أن أخلاق نساء النبي مثل أعلى لنساء المؤمنين ويوعز باتباعهن، واتخاذهن مثلا ساميا غاليا ، لأنهن القدوة الصالحة الطيبة .

---

(١) و (٢) الاحزاب

واذا كان في الآيات أمر بأن يقرن في بيوتهن ، بألا يخرجن الى الطرقات متبرجـات متزينات يبدين زينتهن ما ظهر منها وما خفي ، بل يلتزمن القرار في البيت لا يخرجن الا لمصلحة تقتضي الخروج ، فلا يقـررن في البيت الا للاستعداد للخروج ، فتغص الطـرقات بهن ، هذا وان النبي صلى الله تعالى عليه وسلم بتفرق نسائه في القبائل والعشائر من بعد وفاته قـد عم تعليمه ، وعمت الآداب الاسلامية ، والأخـلاق الكريمة نساء المسلمين ، وكلما كثر العدد ، عم الهدى المحمدي وشـاع ، وسرى في الأمـة سريان النـور في الأرضين •

أمـــابعـــد

فهذه سيرة النبي صلى الله تعـــالى عليه وسلم ، خاتم النبيين ، لا ندعي أننا وصلنا الى الغاية من تصـــويرها ، أو توضيحها ، أو أزلنا غبارا عنهـــا ، ولا ندعي أننا تسامينا حتى أدركناها وعلمنا أسرارها ، وكونها ونورهـــا في هذا الوجود ، ولكنا رأيناها فـــوق طاقاتنا ، وأدركنا منهـــا ما استطعنا ادراكه ، وسددنا وقـــاربنا ، واذا لم نبلغ الشأو ، ونصل الى الغاية فاننـــا قصدنا وأردنا واحتسبنا النية ، ومثلنا كمثل من أراد أن يبلغ قمة تتصـــل بالسماء ، فعجز عن بلوغها ، فرضي بأن يقف على السطح ، ويرى النـــور فوقها ، فحسبه منها المشاهـــدة ، دون الوصول ، ولقد رأينا فيما رأينا قمة العلم النبوي ، وان لم نستوعبـــه ، واستغرقنا نور الهداية ، وان لم ندرك كل ما جرى .

اللهم اغفر لنا تقصيرنا ، فان منشأه قصورنا ، وإنا نلتمس ونقرب ، ولا نعلو ، فان ذلك فوق طاقتنا ، وتجـــاوز وسعنا ، وهو فوق تكليفنا ، فانك قلت وقولك الحق :

﴿ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ﴾ (١)

ولا تكلفنا مالا طاقة لنا به ، واعف عنا واغفر لنا وارحمنا .

اللهم صل وسلم وبارك على محمـــد عدد ما كان وعدد ما يكون ، وعـــدد ما هو كائن الى يوم القيامة ، انك نعم المعين ، ونعم النصير ، وانك المـــوفق والهادي ، وما توفيقنا الا بك ، وهو يشد العزم في محيط قدرتنا ، ويقرب البعيد يا أرحم الراحمين .

تم انجاز الكتاب بقسميه : العهـــد المكى والعهد المدنى بحمد الله وتوفيقه

محمد أبو زهـــرة

---

(١) البقرة

ما يشتمل عليه القسم الثاني (العهد المدني)
من كتاب خاتم النبيين

٦٣٣ — وصول النبي صلى الله عليه وسلم إلى قباء
٦٣٥ — دخوله المدينة صلى الله عليه وسلم
٦٣٨ — من خطب رسول الله صلى الله عليه وسلم
٦٤٢ — بناء مسجده صلى الله عليه وسلم
٦٤٥ — إنشاؤه صلى الله عليه وسلم دولة الإسلام
٦٤٧ — التشريعات الإسلامية
٦٤٩ — تكوينه لرأي عام بين المسلمين
٦٥١ — كرامة الإنسان
٦٥٢ — العدالة في الإسلام
٦٥٤ — التعاون على البر والتقوى
٦٥٦ — المعاهدة مع اليهود
٦٥٧ — الرحمة والمودة
٦٦١ — أول أعمال النبي صلى الله عليه وسلم في المدينة
٦٦٣ — الإخاء والتآلف
٦٦٨ — الألفة بين سكان المدينة من المهاجرين والأنصار
٦٧٠ — التآلف الاجتماعي والاقتصادي والسياسي والحربي
٦٧٣ — عهد النبي صلى الله عليه وسلم على اليهود
٦٧٤ — نظرة في هذه الوثيقة

٦٧٧ — كيف شرع الأذان

٦٨٠ — الإذن بالقتال

٦٨٣ — أول القتال

٦٨٥ — أول السرايا

٦٨٥ — سرية حمزة ٦٨٥ — سرية عبيدة بن الحارث بن عبد المطلب ٦٨٦ — سرية سعد بن أبي وقاص ٦٨٧ — بيان عن السرايا ٦٨٨ — مقدار استمساك قريش باعتقادها .

٦٨٩ — خروج النبي صلى الله عليه وسلم للجهاد

٦٩١ — الحرب الفاصلة أو حرب النبوة

٦٩٥ — الفضيلة في الحرب

٦٩٨ — الأهبة قبل المعركة ٦٩٩ — الرحمة في المعركة ٧٠١ — الفضيلة في حربه صلى الله عليه وسلم ٧٠٣ — احترام الكرامة الإنسانية

٧٠٤ — نهاية حرب النبي صلى الله عليه وسلم

٧٠٧ — معاملة المهزومين

٧٠٩ — معاملة الأسرى في الإسلام

٧١١ — الجهاد رهبانية الإسلام

٧١٣ — الخلاصة في حرب النبي صلى الله عليه وسلم

٧١٥ — أدوار الحرب المحمدية

٧١٧ — الدور الأول

٧١٨ — غزوة بُواط ٧١٨ — غزوة العُشيرة ٧٢٠ — بدر الأولى

٧٢١ — سرية عبد الله بن جحش ٧٢٣ — القتال في الشهر الحرام ٧٢٥ — لماذا كانت هذه الغزوات

٧٢٩ — تحويل القبلة وفرض الصوم

٧٣٠ — تحويل القبلة إلى الكعبة المشرفة

٧٣٣ – صوم رمضان

٧٣٧ – فرضية زكاة الفطـــــر

٧٣٩ – يوم الفرقان – بدر العظمى

٧٤٠ – عير قريش راجعة من الشام ٧٤٢ – خروج رسول الله صلى الله عليه وسلم لبدر وجيشه

٧٤٤ – الجيشان

٧٤٧ – جيش رسول الله صلى الله عليه وسلم ٧٥١ – التقاء الجمعين يوم الفرقان ٧٥٥ – القيادة والتنظيم ٧٥٨ – التنظيــــم ٧٦٠ – المعــــركة ٧٦١ – أمران هامان في القتال ٧٦٤ – القتل والأسر ٧٦٤ – نتائج المعركة وأعقابها ٧٦٩ – الأسرى ٧٧٠ – مقتل عُقبة بن أبي معيط والنضر بن الحارث ٧٧٤ – بيان الله تعالى لخطأ الأسر ٧٧٧ – الأنفال ٧٧٩ – آثار معركة بدر في المدينة وغيرها ٧٨٢ – النبي صلى الله عليه وسلم وحلف اليهود ٧٨٥ – إخراج المنافقين من مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم ٧٨٧ – إفساد اليهود بين المسلمين ٧٨٩ – ليسوا سواء ٧٩١ – إثارة الغيرة ٧٩٤ – وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الكِتَابِ إلا بالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ٧٩٥ – ذي القرنين ٨٠٠ – في الفترة بين بدر وأُحد ٨٠٤ – المعاقل والدِّيات ٨٠٦ – بناء علي بن أبي طالب بفاطمة رضي الله عنها ٨٠٧ – حروب في الفترة بين الغزوتين الكبيرتين ٨٠٨ – غزوة السوَيق ٨٠٩ – غزوة ذي أمر ٨١١ – غزوة الفرع من بحران

٨١٢ – تكشف الوجه اليهودي في بني قينقاع

٨١٤ – موقعة بني قينقاع

٨١٦ – سرية زيد بن حارثة

٨١٨ – كعب بن الأشرف اليهودي

٨٢٠ – النبي صلى الله عليه وسلم لا يعلن الحرب إلا على من أعلنها

٨٢٤ – غزوة أُحد

٨٢٥ – القوة بدل العير ٨٢٧ – لقاء النبي صلى الله عليه وسلم لهم ٨٢٩ – النبي صلى الله عليه وسلم يُعد المؤمنين للقتال ٨٣١ – المنافقون

٨٣٣ — مقاعد القتال

٨٣٥ — الجيشان

٨٣٦ — جيش المؤمنين

٨٣٨ — المعركة

٨٣٩ — ابتداء القتال ٨٤٠ — الخسارة الفادحة — مقتل حمزة مع المضاء في القتال
٨٤٢ — الغنائم القاتلة ٨٤٦ — أُحد ليست هزيمة للمسلمين ٨٤٧ — ثلاثة أُمور
هامة في أُحد ٨٤٩ — مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللهَ عَلَيْهِ
٨٥١ — فرحة أبي سفيان بالنصر القريب

٨٥٢ — وصف معركة أُحد في القرآن

٨٥٦ — تمام المعركة

٨٥٦ — خروج النبي صلى الله تعالى عليه وسلم لأحد ثانية ٨٥٩ — رحمة النبي
القائد صلى الله تعالى عليه وسلم ٨٦٢ — العدد والحساب بين بدر وأُحد ٨٦٣ —
العبرة فيما أصاب المسلمين ٨٦٥ — دعاء الرسول صلى الله تعالى عليه وسلم في أُحد
٨٦٦ — أعقاب أُحد وكشف المنافقين ٨٦٩ — اليهود

٨٧١ — الأحكام المستفادة مما اتبعه النبي صلى الله تعالى عليه وسلم

٨٧٦ — صدى أُحد وسرايا النبي صلى الله تعالى عليه وسلم

٨٧٨ — سرية لبني أسد

٨٨٠ — يوم الرجيع

٨٨٣ — سرية عمر بن أُمية ويوم بئر معونة ٨٨٥ — بئر معونة ٨٨٧ — قصة
بئر معونة ٨٩٠ — غزوة بني النَّضير ٨٩١ — إجلاؤهم ٨٩٤ — أحكام
شرعية اقترنت بغزوة بني النضير ٨٩٤ — أولاها : منع التخريب

٨٩٨ — غنائم بني النضير والحكم العام في الغنائم كلها

٩٠١ — تحريم الخمر

٩٠٤ — أثر غزوة بني النَّضير في اليهود

٩٠٥ — غزوة ذات الرقاع ٩٠٦ — صلاة الخوف ٩٠٩ — في ذات الرقاع

٩١١ ـ النبي صلى الله تعالى عليه وسلم بين أصحابه ٩١٣ ـ غزوة بدر الآخرة
٩١٥ ـ غزوة دُومة الجَندل ٩١٦ ـ النبي صلى الله تعالى عليه وسلم في المدينة
٩١٨ ـ غزوة الخندق ٩١٩ ـ كيف كانت غزوة الخندق وأسبابها ٩٢٢ ـ حفر الخندق ٩٢٣ ـ اقتران حفر الخندق ٩٢٥ ـ الجوع والطعام ٩٢٧ ـ اللقاء
٩٣٠ ـ المنـــافقون ٩٣٢ ـ حراسة المدينة ٩٣٣ ـ اســـلام نعيم بن مسعود
٩٣٥ ـ عين من اليهود حول أطم ٩٣٦ ـ الجيشان ٩٣٧ ـ اجتياز الخندق
٩٣٨ ـ الهجوم على بيوت المؤمنين ٩٤٠ ـ دعاء النبي صلى الله تعالى عليه وسلم واستجابته ٩٤٣ ـ نتائج غزوة الخندق ٩٤٤ ـ غزوة بني قريظة ٩٤٦ ـ بنو قريظة ٩٤٨ ـ نزولهم على حكم سعد بن مُعاذ ٩٤٩ ـ نظرة في الحكم
٩٥١ ـ أحكام شرعية ٩٥٢ ـ توزيع الغنائم ٩٥٣ ـ تنبيهـــات ٩٥٥ ـ السَّبْي ٩٥٦ ـ الايماء بالصلاة للضرورة ٩٥٧ ـ مدة غزوة الخندق

٩٥٨ ـ زواج النبي صلى الله تعالى عليه وسلم بأم المؤمنين زينب

٩٦١ ـ منع دخول بيوت النبي صلى الله تعالى عليه وسلم من غير استئذان ٩٦٣ ـ وجوب الاستئذان عامة

٩٦٥ ـ غزوة بني لحيان

٩٦٧ ـ غزوة ذي قَرد

٩٦٩ ـ غزوة بني المصطلِق

٩٧١ ـ إثارة فتنة وإطفاؤها ٩٧٤ ـ الأسرى والسبايا من بني المصطلق

٩٧٨ ـ حديث الإفك

٩٧٩ ـ الافك في كتب السيرة وصحاح السنة

٩٩٠ ـ الأثر النفسي من علي كرم الله وجهه

٩٩٢ ـ حد القذف

٩٩٤ ـ حد اللعـــان

٩٩٦ ـ حد الزنى

٩٩٩ ــ الحديبية
١٠٠٠ ــ الحديبية وخروج قريش ١٠٠١ ــ المراسلة بين الفريقين ١٠٠٤ ــ غدر وعفو ١٠٠٤ ــ تبادل الرسل مع الرسول الكريم
١٠٠٧ ــ بيعة الرضوان
١٠٠٩ ــ عقد صلح على هدنة
١٠١٠ ــ كتابة الصلح ١٠١١ ــ أبو جندل ١٠١٢ ــ التحلل من الاحرام
١٠١٤ ــ أحكام ثبتت في الحديبية
١٠١٧ ــ تنبيهات ١٠١٨ ــ أحكام فقهية أخرى
١٠٢٢ ــ كانت الحديبية فتحاً
١٠٢٦ ــ تنفيذ الصلح
١٠٢٩ ــ هجرة المستضعفين
١٠٣١ ــ سرايا وبعوث
١٠٣٣ ــ سرية عكل وعرينة
١٠٣٦ ــ حد الحرابة
١٠٣٩ ــ رسائل
١٠٤١ ــ إلى خيبر
١٠٤٣ ــ القائد حامل الراية
١٠٤٧ ــ الصلح والغنائم
١٠٤٨ ــ مال حيبى بن أخطب ١٠٤٩ ــ الأرض والنخيل ١٠٥١ ــ تقسيم الغلات من خيبر
١٠٥٥ ــ يهود فدك
١٠٥٩ ــ حوادث ذات مغزى في خيبر
١٠٥٩ ــ منها أمر الأسود الراعي ١٠٦٠ ــ إعرابي يرد المغنم ويطلب الجنة

١٠٦٠ — مؤمن يتحايل لماله بمكة

١٠٦٤ — زواج النبي صلى الله تعالى عليه وسلم بأم المؤمنين صفية

١٠٦٦ — غدر وسماحة

١٠٦٨ — قدوم جعفر بن أبي طالب ومن معه من المهاجرين

١٠٧١ — وادي القرى

١٠٧٣ — صلح تيماء

١٠٧٤ — إجلاء عمر لليهود

١٠٧٥ — الأحكام الشرعية التي تقررت في خيبر

١٠٧٥ — إباحة المزارعة والمساقاة ١٠٧٦ — تحريم أكل لحم الحُمُر الإنسية
١٠٧٨ — تحريم سباع البهائم ١٠٧٨ — تحريم وطء الحبالى من السبايا وغيرهن
١٠٨١ — قسمة الغنائم ومالا يقسم منها ودقتها ١٠٨٢ — الأمانة واجبة مع الأعداء
١٠٨٣ — النبي تفوته الصلاة

١٠٨٦ — تحريم المتعة في خيبر

١٠٨٧ — حقيقة المتعة ١٠٨٩ — نهي النبي صلى الله عليه وسلم عن المتعة

١٠٩٨ — تحريم ربا البيوع

١١٠٠ — الحكمة في تحريم البيوع فيها إلا بالمثل ١١٠٢ — علة القياس في الأموال الربوية ١١٠٤ — تنبيهات

١١٠٦ — شرعية الجزية

١١٠٧ — تيماء ١١٠٨ — صحيفة مكذوبة ١١١٠ — الجزية التي كان يأخذها النبي صلى الله عليه وسلم

١١١٢ — سرايا بعد خيبر

١١١٢ — سرية أبي بكر الصديق إلى فزارة ١١١٣ — سرية عمر بن الخطاب
١١١٤ — سرية عبد الله بن رواحةإلى يُسير اليهودي ١١١٥ — سرية بشير بن سعد إلى بني مرة من فدك ١١١٦ — سرية أبي حدود إلى الغابة

١١١٩ — عمرة القضاء

١١٢٤ — عمرة القضاء في القرآن

١١٢٥ — حكم شرعي في عمرة القضاء

١١٢٧ — سرية ابن أبي العوجاء السلمي

١١٢٨ — اسلام خالد بن الوليد

١١٣٣ — إسلام عمرو بن العاص

١١٣٧ — سرايا للتعرف في البلاد

١١٣٨ — سرية إلى بني قضاعة

١١٣٩ — غزوة مؤتة

١١٤٤ — نتيجة الغزوة

١١٤٦ — سرية ذات السلاسل

١١٤٨ — سرية أبي عبيدة

١١٤٩ — سرية أبي قتادة

١١٥٠ — انتشار الاسلام في البلاد العربية

١١٥٥ — بعث الرسائل للملوك

١١٥٦ — كتابه إلى هرقل وأثره

١١٥٨ — أثر الكتاب في قلب هرقل

١١٦١ — كتابه إلى كسرى ملك الفرس

١١٦٥ — كتابه إلى النجاشي

١١٦٧ — كتاب رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم إلى المقوقس

١١٧٠ — كتابه صلى الله تعالى عليه وسلم إلى المنذر بن ساوى

١١٧٢ — الكتاب إلى ملك عمان

١١٧٧ — كتابه عليه الصلاة والسلام إلى أصحاب اليمامة

١١٧٨ — المقصود من الرسالة المحمدية
١١٨٠ — الذمي
١١٨٤ — الفتح المبين
١١٨٥ — نقض قريش لصلح الحديبية
١١٨٩ — ذل الغـــدر
١١٩١ — الاستعداد للفتح
١١٩٤ — خروج الرسول صلى الله عليه وسلم لسفره
١١٩٦ — قريش تتحسس الأخبار
١١٩٨ — التحسس والعباس واسلام أبي سفيـــان
١٢٠٠ — اللقاء في مكة
١٢٠١ — دخول رسول الله صلى الله عليه وسلم مكة ١٢٠٢ — اسلام أبي قحافة
١٢٠٣ — قتال في جوانب من مكة ١٢٠٥ — دخول النبي صلى الله عليه وسلم المسجد الحرام ١٢٠٧ — العفـــو الكريم الشامل ١٢٠٩ — الأمـــان العـــام
١٢١١ — الأنصار يتوهمون أن النبي صلى الله عليه وسلم لا يعود إلى المدينة
١٢١٣ — حرمة مكة
١٢١٥ — رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم يحطم الأوثان
١٢١٨ — بعثة خالد بن الوليد إلى جذيمة
١٢٢٢ — مدة إقامة رسول الله بمكة
١٢٢٣ — أحكام فِقهية شُرعت في الفتح
١٢٢٤ — مكة وما يحرم فيها
١٢٢٧ — دية شبه العمد
١٢٣٠ — الميراث بين المسلم والكافر
١٢٣٢ — الولد للفراش

١٢٣٣ – قطع اليد
١٢٣٤ – المتعة وتحريمها
١٢٣٥ – المبايعة على الإسلام
١٢٣٥ – وقال ابن جرير الطبري
١٢٣٧ – نفقة الزوجة
١٢٣٩ – حكم الهجرة بعد الفتح
١٢٤١ – ملكية أرض مكة
١٢٤٤ – حكم سب النبي صلى الله عليه وسلم
١٢٤٥ – غزوة هوازن
١٢٤٧ – ابتداء المعركة
١٢٤٩ – الانهزام ثم الانتصار
١٢٥٢ – بداية النصر
١٢٥٣ – انتهاء بالهزيمة الساحقة لهوازن ١٢٥٤ – أوطاس
١٢٥٦ – ثمرات المعركة
١٢٥٨ – موجدة الأنصار
١٢٦٠ – الشفاعة في الغنائم بعد توزيعها
١٢٦٣ – أحكام شرعية في غزوة حنين
١٢٦٣ – العارية المضمونة
١٢٦٥ – عطاء المؤلفة قلوبهم من غنيمة هوازن
١٢٦٧ – تبادل الرفق بالحيوان
١٢٦٩ – غزوة الطائف
١٢٧٤ – عود إلى غنائم هوازن
١٢٧٨ – عمرة الجعرانة

١٢٨٠ — قدوم كعب بن زهير
١٢٨٣ — السرايا بعد هوازن
١٢٨٥ — سرية الضحاك بن سفيان ١٢٨٥ — سرية قطبة بن عامر إلى خثعم
١٢٨٦ — سرية علقمة بن مجزز المدلجي إلى الحبشة
١٢٨٧ — سرية علي بن أبي طالب لهدم صنم طيىء
١٢٨٩ — غزوة تبوك
١٢٩١ — الحال عند الغزو
١٢٩٥ — احتياط النبي من المنافقين
١٢٩٨ — المسير
١٣٠٠ — وصول رسول الله تعالى إلى تبوك وخطبته
١٣٠٣ — نتائج تبوك
١٣٠٤ — كتاب قيصر إلى النبي صلى الله تعالى عليه وسلم
١٣٠٦ — مصالحته عليه الصلاة والسلام ملك أيلة
١٣٠٨ — سرية خالد إلى أكيدر دومة
١٣١٠ — عودة المسلمين من تبوك
١٣١١ — القائد يرعى جنده أحياءً وأمواتاً
١٣١٣ — عصمة الله لنبيه
١٣١٦ — مسجد الضرار
١٣١٨ — الثلاثة الذين خلفوا
١٣٢٢ — العبرة والتربية
١٣٢٤ — سبعة ربطوا أنفسهم بأعمدة المسجد
١٣٢٧ — الوفود
١٣٣٠ — وفد مزينة

١٣٣١ — وفد بني تميم

١٣٣٣ — وفد ثقيف

١٣٣٩ — وفد بني عامر

١٣٤١ — وفد عبد القيس

١٣٤٢ — وفد بني حنيفة ١٣٤٤ — وفد طيىء

١٣٤٥ — وفد كِندة

١٣٤٦ — وفد الأشعريين وأهل اليمن

١٣٤٦ — غداً نلْقى الأحبة ... محمداً وحزبه

١٣٤٩ — وفد الأزد

١٣٥١ — وفد بني الحارث بن كعب

١٣٥٣ — وفد همذان

١٣٥٥ — قدوم وفد دوس

١٣٥٨ — قدوم رسول ملوك ~~حجر~~ حمير

١٣٦١ — كتاب آخر لليمن

١٣٦٣ — وفد نجران

١٣٧١ — ما يدل عليه أمر هذا الوفد

١٣٧٢ — الاذعان والايمان

١٣٧٣ — قدوم وفد بني سعد بن بكر

١٣٧٥ — وفد تجيب

١٣٧٧ — وفد بني سعد من قضاعة

١٣٧٩ — وفد فزارة

١٣٨٠ — وفد بهـــــراء

١٣٨١ — قدوم وفد عذرة

١٣٨٢ — وفد بَـلِيٍّ
١٣٨٥ — وفد ذي مرة
١٣٨٦ — وفد خولان
١٣٨٩ — وفد محارب
١٣٩١ — وفد صـداء
١٣٩٤ — قدوم وفد سلامان
١٣٩٥ — وفد غامد
١٣٩٦ — وفد الأزد
١٣٩٧ — قدوم وائل بن حجر
١٣٩٩ — وفـد النخع
١٤٠١ — المغزى من هذه الوفـود
١٤٠٥ — بعث معاذ بن جبل
١٤١١ — بعث عـلي
١٤١٦ — تولية علي قضاء اليمن
١٤٢٠ — بعث الصديق ليكون أمير الحج
١٤٢٧ — تنبيهان لابد منهما
١٤٢٩ — سورة براءة
١٤٣١ — ما اشتملت عليه سورة براءة
١٤٣٥ — غزوة تبوك في سورة براءة
١٤٣٨ — لمز المنافقين في الصدقات وغيرها
١٤٤٠ — جهاد النفاق والكفر
١٤٤٢ — أعذار النفاق
١٤٤٤ — ما بين الإيمان والضعف والنفاق
١٤٤٩ — بعض ما في سورة براءة من حكم وعبر
١٤٥٣ — انتشار الدعوة الإسلامية
١٤٥٦ — الحديبية

١٤٦٠ ـ حجة الوداع
١٤٦١ ـ الخروج لحجة البلاغ وما قام به من مناسك
١٤٦٦ ـ الأماكن التي نزلها رسول الله صلى الله عليه وسلم والأدعية التي ذكرها
١٤٧٠ ـ خطبة الوداع ١٤٧٣ ـ دعاؤه في عرفة
١٤٧٥ ـ العودة إلى المدينة
١٤٧٦ ـ الوداع بعد التمام
١٤٧٩ ـ بعث أُسامة بن زيد
١٤٧٩ ـ بعث أُسامة إلى أرض فلسطين
١٤٨١ ـ الـــوداع
١٤٨٣ ـ توديعه لابنته
١٤٨٥ ـ إنك ميت وإنهم ميتون
١٤٨٦ ـ صلاة أبي بكر ١٤٨٨ ـ لكل أجل كتاب ١٤٩١ ـ غسل الجثمان الطاهر ودفنه
١٤٩٣ ـ تركة النبي صلى الله تعالى عليه وسلم
١٤٩٥ ـ زوجات النبي صلى الله تعالى عليه وسلم
١٥٠٣ ـ زواجه ببقية نسائه
١٥٠٧ ـ العـــبرة
١٥١٣ ـ أما بعـــد

ما يشتمل عليه القسم الأول (العهد المكي)
من كتاب خـــاتم النبيين

٣ – تـــقديم

١١ – محمد رسول الله وخاتم النبيين

١٥ – تمهـــيد

١٥ – الاضطراب الفكري ١٧ – المجوسية ١٨ – المانوية ١٨ – المزدكية ١٩ – البَرْهَمَة ٢١ – هل للبَرْهَمَة أصل سماوي ٢٤ – كتبهم ٢٧ – الكونفوشيوسية ٢٨ – عقيدة الصين القديمة ٣٠ – وثنية اليونان والرومان ٣١ – مزج الفلسفة بالدين ٣٢ – التثليث في الفلسفة .

٣٧ – العرب

٣٨ – دخول الوثنية أرض العرب ٣٩ – لم ينسوا الله في وثنيتهم ٤١ – القلوب فارغة من ايمان .

٤٣ – أرض النبوة الأولى

٤٥ – إدريس عربي ٤٦ – هود نبي الله كان عربياً ٤٧ – صالح عربي ٤٨ – إبراهيم أبو العرب المستعربة وإسماعيل .

٥٠ – بناء الكعبة

٥١ – شعيب ومدين ٥٣ – موسى كُلِّف الرسالة في أرض العرب ٥٦ – أرض العرب مأوى الفارين بدينهم ٥٧ – النصرانية ٦٠ – أصحـــــاب الأخـــدود ٦١ – اختصاص الجزيرة العربية ٦٣ – الله يعلم حيث يجعل رسالته .

٦٧ – مكة المكرمة

٧١ – أول بناء في مكة وبلوغها هذه المنزلة ٧٣ – إسماعيل بن إبراهيم وأمه هاجر ٧٦ – مكة موطن تقديس لأجل الكعبة .

٧٩ – المكان والزمان

٨٢ – الجزيرة العربية موطن النبوة ٨٣ – شرف الزمان ٨٥ – هداية السماء في أرض العرب .

٨٨ ـ البشارات

٩٠ ـ محمد رحمة للعالمين ٩٣ ـ محمد في التوراة ٩٥ ـ محمد في الانجيل

١٠١ ـ محمد من أوسط قريش نسباً

١٠٨ ـ النسب الطاهر

١١٢ ـ قصي ١١٤ ـ عبد المطلب

١٢١ ـ عبد الله

١٢٢ ـ الأم ١٢٥ ـ صفات سامية في آمنة ١٢٨ ـ الجنين المبارك

١٣٠ ـ أصحاب الفيل ١٣٢ ـ رد عبد المطلب على أبرهة ١٣٤ ـ إهلاك ابرهة

١٣٥ ـ ولد الهدى

١٣٥ ـ ولادته بعد وفاة أبيه صلى الله عليه وسلم .

١٣٨ ـ ظواهر تعلن مكانته صلى الله عليه وسلم

١٤٠ ـ بشارات بمولد محمد صلى الله عليه وسلم ١٤٢ ـ تاريخ مولده صلى الله عليه وسلم

١٤٣ ـ ارهاصات النبوة يوم مولده

١٤٨ ـ أسباب رضاعته صلى الله عليه وسلم

١٤٩ ـ ارضاعه ١٥٣ ـ اخبار شق صدره ١٥٦ ـ سفر أمه به إلى يثرب

١٥٨ ـ موت الطهور آمنة .

١٦٣ ـ في حضن عبد المطلب

١٦٦ ـ في كنف أبي طالب

١٦٨ ـ عمله صلى الله عليه وسلم

١٦٩ ـ حماية الله تعالى (له) ١٧٢ ـ إلى التجارة ١٧٣ ـ شغفه بالتجارة

١٧٤ ـ ارهاص بالنبوة في رحلته الأولى ١٧٧ ـ ابتداء بشارات النبوة ١٧٩ ـ تجارته

١٨١ ـ مشاركته في الأمور الجامعة ١٨٢ ـ حرب الفجار ١٨٥ ـ حلف الفضول

١٨٨ ـ زواجه صلى الله عليه وسلم

١٨٩ ـ خديجة تشرف بسيد الخلق ١٩٠ ـ تجارة محمد في مال خديجة ١٩٢ ـ بحيرا يصف رسول الله صلى الله عليه وسلم ١٩٤ ـ الأملاك ١٩٩ ـ أغناه الله وواساه

٢٠٣ ـ إعادة بناء الكعبة

٢٠٧ ـ بناء قريش ٢١٢ ـ الحمس

٢١٩ – التكامل الإنساني في محمد صلى الله عليه وسلم
٢٢١ – وفور عقله
٢٢٦ – بلاغته صلى الله عليه وسلم
٢٣٨ – الخلق الكامل
٢٤٢ – أخلاقه خارقة للعادة ٢٤٤ – ما وصفه به الواصفون ٢٤٦ – هيبته صلى الله عليه وسلم ٢٤٩ – العفو والتسامح ٢٥٤ – حياؤه صلى الله عليه وسلم
٢٥٩ – جوده صلى الله عليه وسلم ٢٦٣ – شفقة النبي صلى الله عليه وسلم
٢٦٨ – صدقه وأمانته وعفته صلى الله عليه وسلم ٢٧٠ – وفاؤه صلى الله عليه وسلم
٢٧٣ – العابد
٢٧٣ – عبادته قبل البعثة ٢٧٧ – حبه للاعتزال ٢٨٠ – عبادته بعد البعثة
٢٨٣ – زهده صلى الله عليه وسلم قبل البعثة
٢٨٦ – زهده صلى الله عليه وسلم بعد البعثة ٢٨٩ – قوت الزاهد
٢٩٦ – الصابر المصابر
٣٠٠ – الصابر في الدعوة إلى ربه
٣٠٥ – العادل الأمين
٣٠٦ – من عدله بعد البعثة ٣٠٨ – المساواة في العدالة
٣١١ – المثل الكامل في الشجاعة
٣١٢ – شجاعته صلى الله عليه وسلم بعد البعثة ٣١٤ – شجاعته صلى الله عليه وسلم في ميدان القتـــال ٣١٧ – الشجاع في كل أحواله ٣١٩ – رجولة المرســـلين
٣٢١ – حلية رسول الله صلى الله عليه وسلم ٣٢٣ – جمال تكوينه صلى الله عليه وسلم
٣٢٤ – ما حبب إليه من الدنيا ٣٢٦ – خاتم النبوة
٣٢٧ – صفات النبي صلى الله عليه وسلم
٣٢٩ – البشارات بالنبي صلى الله عليه وسلم ٣٣٠ – آثار البشارات برسول الله صلى الله عليه وسلم ٣٣٣ – اثبات الرسالة المحمدية بالانجيل ٣٣٥ – ما جاء في الكتب السابقة ٣٣٦ – من البشائر بمحمد صلى الله عليه وسلم في الكتب السالفة ٣٣٩ – الحائر يرجع إلى الحق ٣٤٠ – علم ورقة بن نوفل عن رســـول الله صلى الله عليه وســـلم
٣٤١ – علم النبوة عند سلمان الفارسي ٣٤٦ – يهود تخبر عن النبي صلى الله عليه وسلم
٣٤٨ – تواتر الأدلة برسالة محمد صلى الله عليه وسلم ٣٤٩ – ما جاء من أخبار الكهان
٣٥١ – تحقيق البشارة برسول الاسلام صلى الله عليه وسلم ٣٥٢ – جاء الحق وزهق الباطل
٣٥٣ – موطنه صلى الله عليه وسلم مكة الأمية

٣٥٧ ـ البعثة المحمدية

٣٥٩ ـ التجلي الأعظم ٣٦٠ ـ نسكه وخلوته صلى الله عليه وسلم ٣٦٢ ـ روايات في خلوته صلى الله عليه وسلم ٣٦٤ ـ ابتداء الوحي عليه صلى الله عليه وسلم ٣٦٧ ـ تأييده صلى الله عليه وسلم بروح القدس ٣٦٩ ـ قلق الزوجة الصالحة ٣٧٠ ـ إلى ورقة بن نوفل ٣٧٢ ـ فترة غياب روح القدس ٣٧٣ ـ مدة الفترة ٣٧٥ ـ الشهر الذي نزل فيه الوحي ٣٧٧ ـ أول ما نزل من القرآن ٣٧٩ ـ مراتب الوحي وشكله .

٣٨٥ ـ دعوة الحق

٣٨٦ ـ مراتب الدعوة ٣٨٨ ـ الدعوة خفية

٣٩٠ ـ أول من أسلم

٣٩٢ ـ الإسلام في بيت النبوة ٣٩٥ ـ أول أسرة في الإسلام

٣٩٢ ـ الإسلام في بيت النبوة ٢٩٣ ـ إسلام علي كرم الله وجهه ٣٩٥ ـ أول أسرة في الإسلام .

٣٩٧ ـ النور يشرق من بيت النبوة

٣٩٨ ـ إسلام أبي بكر ٤٠٠ ـ تتابع المخلصين

٤٠٢ ـ فرضية الصلاة

٤٠٥ ـ وأنذر عشيرتك الأقربين

٤٠٧ ـ دعوته صلى الله عليه وسلم للأقربين ٤٠٨ ـ بين أبي طالب وأبي لهب ٤١٠ ـ أبو لهب وموقفه من الدعوة والدعاية ٤١٢ ـ دعوته صلى الله عليه وسلم للأقربين

٤١٣ ـ فاصدع بما تؤمر

٤١٦ ـ فضل القرآن

٤١٩ ـ استجابة محمد صلى الله عليه وسلم لأمر ربه

٤٢١ ـ السابقون السابقون

٤٢٣ ـ انتشار الإسلام ٤٢٤ ـ الإسلام يخرج إلى القبائل

٤٢٧ ـ المناوأة

٤٣٠ ـ انكار المشركين لليوم الآخر ٤٣٢ ـ أثر دعوته صلى الله عليه وسلم ٤٣٣ ـ منافسة العرب لقصي

٤٣٧ ــ تلقي الناس للدعوة
٤٣٨ ــ موقف قومه صلى الله عليه وسلم من الدعوة ٤٤٠ ــ صور اعتراضهم على الدعوة
٤٤٢ ــ الذين استجابوا لله وللرسول
٤٤٣ ــ المؤمنون والجهر بالدعوة ٤٤٤ ــ خلاصة قول
٤٤٦ ــ إسلام حمزة
٤٤٨ ــ إسلام عمر
٤٥٢ ــ بين عهدين
٤٥٤ ــ محاولة كفه عنهم لاستمالته
٤٥٥ ــ لقاء أهل مكة به صلى الله عليه وسلم لاستمالته ٤٥٧ ــ محاولاتهم مع رسول الله صلى الله عليه وسلم
٤٥٨ ــ جدلهم مع الرسول صلى الله عليه وسلم
٤٦٠ ــ خلاصة مطالبهم منه صلى الله عليه وسلم ٤٦٤ ــ بغيتهم وفشلهم
٤٦٥ ــ الاستعانة بأهل الكتاب
٤٦٦ ــ بعث قريش لاحبار اليهود
٤٧٠ ــ اسماعهم القرآن
٤٧١ ــ استماع المشركين للقرآن من رسول الله صلى الله عليه وسلم
٤٧٥ ــ الايذاء والفتنة
٤٧٦ ــ ايذاء الضعفاء ٤٧٦ ــ بلال واخوانه ٤٧٨ ــ آل ياسر وغيرهم
٤٧٩ ــ التهديد بالتشنيع ٤٨١ ــ مصابرة النبي صلى الله عليه وسلم ٤٨٢ ــ الأذى ينزل بشخص النبي صلى الله عليه وسلم ٤٨٤ ــ مهابة محمد عليه الصلاة والسلام
٤٨٦ ــ لماذا لم يرهبهم بهيبته صلى الله عليه وسلم
٤٨٩ ــ الهجرة إلى الحبشة
٤٩٢ ــ متابعة الأولياء ومتابعة الأعداء ٤٩٣ ــ رسل قريش للنجاشي في المهاجرين
٤٩٦ ــ متابعة الكيد بالمهاجرين ٤٩٨ ــ هدوء المهاجرين في الحبشة ٤٩٨ ــ خديعة
٥٠٣ ــ النبي صلى الله عليه وسلم يناضل ويصابر في مكة
٥٠٣ ــ لقاؤهم بأبي طالب ٥٠٦ ــ حماية شيخ مكة لرسول الله صلى الله عليه وسلم
٥٠٨ ــ المقاطعة
٥٠٩ ــ الأرَضة تمنع اسم الله من مواثيقهم ٥١٢ ــ نتيجة المقاطعة

٥١٤ ـ الرسول مستمر في دعوته
٥١٩ ـ سعي في نقض الصحيفة
٥٢٣ ـ نقض الصحيفة فعلا
٥٢٤ ـ انطلاق الدعوة الاسلامية
٥٢٧ ـ عام الحزن
٥٣٠ ـ أبو طالب وايمانه ٥٣٦ ـ خديجة ٥٣٨ ـ ما كان بعد موت أبي طالب
٥٤٠ ـ حماية الله للنبي صلى الله عليه وسلم ٥٤٢ ـ المهابة مع المحبة
٥٤٦ ـ محمد عليه الصلاة والسلام في الطائف
٥٤٨ ـ عداس والنبي صلى الله عليه وسلم ٥٤٩ ـ دعاء وعفو وإجازة
٥٥٠ ـ سماع الحق له
٥٥٤ ـ في جوار المطعم بن عدى
٥٥٦ ـ انشقاق القمر
٥٦١ ـ الإسراء والمعراج
٥٦٤ ـ الإسراء بالجسم ٥٦٧ ـ المعراج بالروح ٥٧٢ ـ الاسراء والمعراج في صحاح السنة
٥٧٦ ـ انتشار الاسلام في البلاد العربية
٥٧٨ ـ وفد نصارى نجران ٥٨٠ ـ عرض الرسول نفسه على القبائل
٥٨١ ـ جماعات تقبل دعوة الرسول صلى الله عليه وسلم ٥٨٥ ـ ما بين الروم والفرس
٥٨٨ ـ عرض الاسلام على القبائل ٥٨٩ ـ ابتداء الاتصال بأهل يثرب ٥٩٠ ـ يوم بعاث
٥٩٢ ـ بدء اسلام الأنصار ٥٩٤ ـ العقبة الأولى والبيعة الأولى ٥٩٥ ـ ارسال مصعب ابن عمير إلى المدينة ٥٩٧ ـ أول جمعة أقيمت بالمدينة المنورة ٦٠١ ـ العقبة الثانية
٦٠٣ ـ البيعة الثانية ٦٠٥ ـ علم قريش بالبيعة
٦٠٨ ـ ابتداء الهجرة
٦٠٩ ـ النبي صلى الله عليه وسلم يحرض المؤمنين على الهجرة ٦١٠٠ ـ الاذن للمؤمنين بالهجرة ٦١٢ ـ استخفاء المؤمنين بالهجرة ٦١٥ ـ هجرة النبي صلى الله عليه وسلم
٦١٦ ـ ما اقترن بالهجرة المحمدية ٦١٨ ـ تنفيذ المؤامرة ٦١٩ ـ اجتماع المشركين في العتمة ٦٢١ ـ النبي مع صاحبه إلى الهجرة وطريقهما ٦٢٣ ـ الرسول وصاحبه في غار ثور ٦٢٥ ـ سراقة والسير إلى المدينة ٦٢٧ ـ الركب يسير في طريق الصحراء
٦٢٨ ـ أم معبد والشاة العجاف ٦٣٠ ـ خوارق أخرى من معجزاته صلى الله عليه وسلم

استدراك

رغم المجهود الذي بذل في تصحيح هذا الكتاب إلا أنه وقعت بعض أخطاء مطبعية اخترنا منها ما دوناه بعد ــ والباقي تركناه وفطنة القارىء .

ص	س	الخطأ	الصواب	ص	س	الخطأ	الصواب
٥	١٦	٢	٣	١٩٧	٢٠	خورلد	خويلد
٥	٢٠	٣	٢	١٩٧	٢٤	استقلق	استفاق
٧	٥	ومن	من	١٩٨	١٦	المحققين	المحققون
١٢	٢٧	البقرة ١٢٠	آل عمران ٧٣	١٩٩	٢	العامل	الكامل
١٥	٢٢	المائدة	آل عمران	٢٠٩	٧	شرح	شرخ
١٨	١٥	الإنسال	الإنسان	٢١١	٢٣	المغالية	المغالبة
٣٢	١٢	ثلثه	علته	٢٢٠	٢٢	وقدمنا	وقدمها
٣٢	٢١	موجود	موجد	٢٣٠	١٣	الأرمسيين	الأريسيين
٤٦	٢٠	منه	منبه	٢٣١	٥	وأتيع	وأتبع
٦٥	٢١	أزاقهم	أذاقهم	٢٣٤	٢٠	النار	الغار
٨٧	٦	صور	صدر	٢٤٠	١٨	خيراً	خير
١١٣	٢٦	بذائه	بذاته	٢٤٠	٢١	أخواله	أحواله
١١٤	٣	وقوفل	ونوفل	٢٤٣	١١	حساً	حسناً
١٢٢	١٣	الحق	الحمد	٢٤٤	٥	تسكن	تكنْ
١٢٥	٧	إليه	إليها	٢٥٣	٣	تحول	قول
١٢٨	٥	الدين	الذين	٢٥٤	٢٣	الحياة	الحياء
١٣٨	٢٠	أوجد	أو وجد	٢٦٢	٢٥	يصقفه	يضعفه
١٦٩	١٧	يسوسهما	يسوسها	٢٨٠	١	يتحنف	يتحنث
١٧٦	٢٢	ك نوا	كانوا	٢٨٨	٢٦	التحريم	الأنفال
١٨٣	٥	هوازان	هوازن	٢٩١	٢٨	فافبضهن	فاقبضهن
١٩٧	١٨	المذهب	الذهب	٢٩٢	٣	وأفضي	وأقضي

ص	س	الخطأ	الصواب	ص	س	الخطأ	الصواب
٢٩٢	٢٣	إفلالا	إقلالا	٣٥١	٤	بخاري	نجاري
٢٩٦	١٣	اليل	الميل	٣٦٥	٣	اقتداء	افتداءٌ
٢٩٦	١٣	يقو له	يقر له	٣٧٠	٢	حالة	حاله
٢٩٦	١٥	متجائف	متجانف	٣٩٠	٢١	بيكت	بكيت
٣٠٠	٢٢	فاجرا	إلا فاجراً	٤٣٧	١٣	ووقاهم	ووفاهم
٣٠٤	٦	فبعد	فيعد	٤٨١	٢	أقضيك	لا أقضيك
٣١٩	١٦	شنودة	وشنوءه	٤٩٢	٢٦	بلكمته	بكلمته
٣٢١	١٨	الأخصمين	الأخمصين	٥٣٤	٢١	عملهم	علمهم
٣٢٣	٤	ثلجه	ثجله	٥٦٣	٢٠	طه	الإسراء
٣٢٣	٤	صلعه	صعله	٥٦٦	١٣	للفيروذبادي	للفيروزبادي
٣٣٩	١٩	نقيل	نفيل	٥٨٦	١١	محمد	من
٣٤٧	٢٢	لنبي	النبي	٦٠١	٨	بالمدينة	بمكة
٣٥٠	١٥	الوفاة	الوفاء	٦١٨	٩	يطأكم	يطأ
٣٥٠	٢٦	بن	بني				

***

استدراك

رغم المجهود الذي بذل في تصحيح هذا الكتاب إلا أنه وقعت بعض أخطاء مطبعية اخترنا منها ما دوناه بعد — والباقي تركناه وفطنة القارىء .

صفحة	السطر	الخطأ	الصواب	صفحة	السطر	الخطأ	الصواب
٦٣٣	١٩	قبلة	قيلة	٩٨٢	٢٥	يكذب	ما يكذب
٦٣٧	١	اخوانك	اخوالك	٩٨٣	١١	بتوبه	بثوبه
٦٤٨	٢٠	تفصيلها	تفضيلها	١٠٠١	٢	فجاس	فجلس
٦٦٧	٤	ومنلم	وسلم	١٠٠٢	٢٢	حديثهم	وحدثهم
٦٨٢	١	بـ »	بعد	١٠٠٦	٥	محبة	ومحبة
٦٨٢	٤	ـلام	الاسلام	١٠١٠	٥	عززاء	غرزه
٧٣٦	٢١	فكم	فلم	١٠١٦	٢٥	(٢)	المائدة ٥
٧٥٣	١٩	الغار	العريش	١٠٢٤	٢٥	(١)	الفتح ١٦
٧٧٠	٢١	فتعفف	فيتعفف	١٠٢٧	٦	شيد	أسيد
٧٩١	١٥	يعلمون	يعملون	١٠٣٧	١٨	بضع	يضع
٧٩٢	٢١	المؤمنون	المؤمنين	١٠٤٠	٣	بالحبتـــــه	بالحبشة
٨٠٣	٢٢	الشاسي	الشاشي	١١٠٥	٤	كثيربن	كثيرين
٨١٨	١	الأشرف	بن الأشرف	١١٧٠	١	ساوي	ساوى
٨٢٠	٣	الحكم	الحكيم	١٢٣٧	١٣	يعذوا	يعزوا
٨٢٥	٢٣	تعلبه	ثعلبه	١٢٤٢	٢٢	دار	داراً
٨٤٨	٢٥	وأنفهم	وأنوفهم	١٢٤٥	٦	مكة	قله
٨٧٩	٨	أخد	أحد	١٢٥٨	١٧	لله ولرسوله	الله ورسوله
٩١٠	١	عورث	غورث	١٢٦١	١٦	وفاؤكم	عرفاؤكم
٩٤٥	٢١	شقاء	شفاء	١٢٨٢	١١	مجازيع	مجازيعاً
٩٥٨	٢٤	١	١ الأحزاب	١٣٢٥	٥	متصدق	فتصدق
٩٥٨	٢٤	٢	٢ النساء	١٣٢٥	٢٧	غزوات	غزوة
٩٧١	١٢	سلول	بن سلول	١٣٤١	٧	فمجيئم	فمجيئهم